أيسر التفاسير

لكلام العلي الكبير

وبهامشه "نهر الخير على أيسر التفاسير"

تأليف
أبي بكر جابر الجزائري
الواعظ بالمسجد النبوي الشريف

دار الحديث
القاهرة

أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير

وبهامشه "نهر الخير على أيسر التفاسير"

تأليف
أبي بكر جابر الجزائري
الواعظ بالمسجد النبوي الشريف

مكتبة العلوم والحكم

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع: ٢٠٨٦/٢٠٠٦ م
الترقيم الدولي: 977-300-128-8

6 222007 704079

طبعة مزيدة مصححة ومنقحة
وبهامشها
نهر الخير على أيسر التفاسير

الناشر
مكتبة العلوم والحكم

هاتف ٨٤٥٢٢٧٣ - ٨٣٥١٩٤٢
المدينة المنورة - ص.ب: ٦٨٨
المملكة العربية السعودية

أبو بكر جابر الجزائري
المدرس بالمسجد النبوي الشريف

Abu Bakr Jaber AlJazaery
Teacher in Masjid Al-Nabawi Al-shareef

التاريخ ٦/٣/١٤٢٣هـ الموافق ١٤/٨/٢٠٠٢م

إلى من يهمه الأمر في جمهورية مصر العربية خاصة، وفي باقي العالم عامة وفقهم الله تعالى آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وبعد:

فإني أشهد وأقر وأقول بأن جميع الأوراق والعقود المنسوبة إلي ووضعها محمد زكي عبد الحليم الخولي في مقدمة مؤلفاتي أنها منفصلة عنه كلها مزورة علي، وليس له الحق في طباعة أي مؤلف من مؤلفاتي، وليس بيني وبينه أي عقد ولم أكتب له بهذا الخصوص.

وكل ما عنده وما ينسبه إلي مزور علي كما أسلفنا من الحكم.

وجميع حقوق طبع مؤلفاتي محصورة ومنحته لمكتبة العلوم والحكم في المدينة النبوية وقد سجل هذا لدى الجهات المختصة في المملكة العربية السعودية.

لذلك فليس لمحمد زكي الخولي ولا مكتبة أضواء المنار في السعودية ولا دار لينة في جمهورية مصر العربية طباعة أي من مؤلفاتي وكل ما طبع من قبل محمد زكي وأضواء المنار ودار لينة مزور علي.

لذلك أطلب وضع حد له ولما يقوم به وتحصيل قيمة ما زور علي وعدم التجاوب والتعامل معه في طبع أي من مؤلفاتي.

وبالله التوفيق.

الشاهد
٢) عبد الرحمن ... محمد
...
الجامعة الإسلامية - كلية الحديث

أبو بكر جابر الجزائري

الشاهد الثاني
طلال بن ... قسوس
...
الجامعة الإسلامية - كلية القرآن الكريم

المدينة المنورة
هاتف: ٨٣٧١٥٠٠ - ٠٤
ص ب: ٨٧١ - المملكة العربية السعودية

Madina Munawwara
Tel. 04 - 8371500
P.O. 871 - Saudi Arabia

القنصلية العامة لجمهورية مصر العربية
في جدة
صورة طبق الأصل
رقم التصديق ٤٦٧٦٩
الرسم المحصل ٨٥ ريال سعودي
التاريخ ١٦/١/١٩
القنصل العام

تصادق وزارة الخارجية (فرع منطقة مكة المكرمة) على صحة الختم والتوقيع دون مسئوليتها عن المحتويات.
١١ رمضان ١٤٢٢

مدير ادارة التصديق

القنصلية العامة لجمهورية مصر العربية
في جدة
رقم التصديق ٤٦٧٩٧ تجاري
التاريخ ١٦/١/٢٠٠١م
تصدق على صحة توقيع السيد وكيل الخارجية السعودية وخاتمها وذلك دون أدنى مسئولية على القنصلية فيما يتعلق بالمحتويات
الرسم المحصل: ٨٥ ريال سعودي
القنصل العام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا بين يدي الساعة. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصِ الله ورسوله فلا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئًا.

أمّا بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

ثم أما بعد أيضًا فهذا تفسير موجز لكتاب الله تعالى القرآن الكريم وضعته مراعيًا فيه حاجة المسلمين اليوم إلى فهم كلام الله تعالى الذي هو مصدر شريعتهم، وسبيل هدايتهم وهو عصمتهم من الأهواء وشفاؤهم من الأدواء، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾. ومراعيًا فيه أيضًا رغبة المسلمين اليوم في دراسة كتاب الله وفهمه والعمل به، وهي رغبة لم تكن لهم منذ قرون عدة حيث كان القرآن يُقرأ على الأموات دون الأحياء ويُعتبر تفسيره خطيئة من الخطايا وذنبًا من الذنوب، إذ ساد بين المسلمين القول: بأن تفسير القرآن: صوابه خطأ وخطؤه كفر، فلذا القارىء يقرأ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، والناس حول ضريح الولي المدفون في ناحية المسجد يدعونه بأعلى أصواتهم: يا سيدي يا سيدي كذا وكذا ولا يجرؤ أحد أن يقول: يا إخواننا لا تدعوا السيد فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾. ويقرأ القارىء: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ويسمعه من يسمعه، ولا يخطر على باله أن الآية تصرح بكفر من لم يحكم بما أنزل الله، وأن أكثر المسلمين مورَّطون في هذا الكفر حيث تركوا تحكيم الشريعة الإسلامية إلى تحكيم القوانين الملفقة من قوانين الشرق والغرب وهكذا كان يقرأ القرآن على أموات الأحياء وأحياء الأموات فلا يرى له أثر في الحياة.

هذا ونظرًا لليقظة الإسلامية اليوم فقد تعين وضع تفسير سهل ميسر يجمع بين المعنى المراد من كلام الله، وبين اللفظ القريب من فهم المسلم اليوم. تُبَيِّنُ فيه العقيدة السلفية المنجية، والأحكام الفقهية الضرورية. مع تربية ملكة التقوى في النفوس، بتحبيب الفضائل وتبغيض الرذائل، والحث على أداء الفرائض واتقاء المحارم. مع التجمل بالأخلاق القرآنية والتحلي بالآداب الربانية. وقد هممت بالقيام بهذا المتعين عدة مرات في ظرف سنوات، وكثيرًا ما يطلب مني مستمعو دروسي في التفسير في المسجد النبوي أن لو وضعت تفسيرًا للمسلمين سهل العبارة قريب الإشارة يساعد على فهم كلام الله تعالى، وكنت أعد أحيانًا وأتهرب أحيانًا أخرى، حتى ختمت التفسير ثلاث مرات وقاربت الرابعة، وأنا بين الخوف والرجاء وشاء الله تعالى أن أجلس في أواخر مخرم عام ١٤٠٦هـ، إلى فضيلة الدكتور عبدالله بن صالح العبيد رئيس الجامعة الإسلامية ويُلهم أن يقول لي: لو أنك وضعت تفسيرًا على غرار الجلالين يحل محله في المعاهد ودور الحديث تلتزم فيه العقيدة السلفية التي خلا منها تفسير الجلالين فضرّ كثيرًا بقدر ما نفع، وصادف في النفس رغبتها فأجبته بأن سأفعل إن شاء الله تعالى. وبهذا الوعد تعينت واستعنت الله تعالى وشرعت. وفي أوائل رجب من العام نفسه تمّ تأليف المجلد الأول الحاوي لثلث القرآن الكريم وفي أول رمضان كان المجلد الأول قد طُبع والحمد لله، وواصلت التأليف والله أسأل أن يتم في أقرب وقت، وأن يتقبله مني وهو منه وله، فينتفع به كل مسلم يقرأه بنيّة معرفة مراد الله تعالى من كلامه ليعرف ربّه معرفة تكسبه خشيته ومحبته ويعرف محابه تعالى ليتقرب بفعلها إليه، ويعرف مساخطه ليتجنبها خوفًا مما لديه.

هذا وإن مميزات هذا التفسير التي بها رجوت أن يكون تفسير كل مسلم ومسلمة لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين هي:

١ ـ الوسطيّة بين الاختصار المخل، والتطويل الممل.

٢ ـ اتباع منهج السلف في العقائد والأسماء والصفات.

٣ ـ الالتزام بعدم الخروج عن المذاهب الأربعة في الأحكام الفقهية.

٤ ـ إخلاؤه من الإسرائيليات صحيحها وسقيمها. إلا ما لا بد منه لفهم الآية الكريمة وكان مما تجوز روايته لحديث.. وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج.

٥ ـ إغفال الخلافات التفسيرية.

٦ ـ الالتزام بما رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره عند اختلاف المفسرين في معنى الآية، وقد لا آخذ برأيه في بعض التوجيهات للآية.

٧ ـ إخلاء الكتاب من المسائل النحوية والبلاغية والشواهد العربية.

٨ ـ عدم التعرض للقراءات إلا نادرًا جدًا للضرورة حيث يتوقف معنى الآية على ذلك. وبالنسبة للأحاديث فقد اقتصرت على الصحيح والحسن منها دون غيرهما، ولذا لم أعزها إلى مصادرها إلا نادرًا.

٩ - خلو هذا التفسير من ذكر الأقوال وإن كثرت والالتزام بالمعنى الراجح والذي عليه جمهور المفسرين من السلف الصالح. حتى إن القارىء لا يفهم أن هناك معنىً غير الذي فهم من كلام ربه تعالى، وهذه ميزة جليلة وذلك لحاجة جمع المسلمين على فكر إسلامي موحد صائب سليم.

١٠ - التزمت في هذا التفسير بالخطة التي مثلتها هذه المميزات رجاء أن يسهل على المسلمين تناول كتاب الله دراسة وتطبيقًا وعملاً لا هم لهم إلا مرضاة الله بفهم كلامه والعمل به، والحياة عليه عقيدة وعبادة وخلقًا وأدبًا وقضاءً وحكمًا، فلذا أخليته من كل ما من شأنه أن يشتت الذهن، أو يصرف عن العمل إلى القول والجدل. ولذا فقد جعلت الكتاب دروسًا منظمة متسقة فقد أجعل الآية الواحدة درسًا فأشرح كلماتها، ثم أبين معناها، ثم أذكر هدايتها المقصودة منها للاعتقاد والعمل. وقد أجعل الآيتين درسًا، والثلاث آيات والأربع والخمس ولا أزيد على الخمس إلا نادرًا، وذلك طلبًا لوحدة الموضوع وارتباط المعنى به.

وقد جعلت الآيات مشكولة على قراءة حفص وبخط المصحف وإني أطالب المسلم أن يقرأ أولاً الآيات حتى يحفظها، فإذا حفظها درس كلماتها حتى يفهمها، ثم يدرس معناها حتى يعيه، ثم يقرأ هداياتها للعمل بها. فيجمع بين حفظ كتاب الله تعالى وفهمه والعمل به، وبذلك يسود ويكمل ويسعد إن شاء الله تعالى. وقد جاء في الحديث: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع آخرين**»[1] فمن قرأه بحسن نيّة فحفظه وفهمه وعمل به وعلمه فقد يدعى في السماء عظيمًا، وفي الحديث الصحيح «**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**». اللهم اجعلني وسائر المؤمنين ممن يفوزون بهذه الخيرية فيتعلمون كتابك ويعملون به ويعلمونه يا حيُّ يا قيوم.

وأخيرًا أطالب كل مؤمن ومؤمنة يقرأ تفسيري هذا المسمى بـ: أيسر التفاسير لكلام الله العلي الكبير أن يستغفر لي ويترحم عليَّ هذا حقي عليه. اللهم وفقه لأدائه واغفر لي وله وارحمني وإياه وسائر المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ورسوله وصحبه أجمعين.

وكتبه الراجي عفو ربه ورضوانه
ابو بكر جابر الجزائري
المدينة المنورة ١٧ رمضان ١٤٠٦هـ

---

(١) رواه مسلم.

تنبيه:

مراجع هذا التفسير أربعة وهي: جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري، تفسير الجلالين المَحلي والسيوطي، تفسير المراغي، تيسير الكريم الرحمن لعبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمهم الله أجمعين وجمعنا معهم في جنات النعيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله ذي الفضل والإنعام، والصلاة والسلام على محمد خير الأنام، وآله الأماجد وصحبه الكرام، وبعد: فإنه نظرًا إلى حاجة طلبة العلم إلى المزيد من المعرفة وكان **«أيسر التفاسير»** قد وُضِعَ وضعًا خاصًا، إذ الباعث عليه كان تقريب معاني كتاب الله تعالى إلى أفهام عامة المسلمين، وتجلية الأحكام الشرعية لهم ليعبدوا ربهم باعتقاد الحق، وبالعمل بما شُرع دون ما ابتُدع مُزكِّين نفوسهم بذلك مكملين آدابهم مهذبين أخلاقهم بما أودع الله جلّ جلاله كتابه من مناهج التربية الروحية والأخلاقية والآداب النفسية، وهو ما صرحت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. إذ لم يقل الله تعالى ـ فيما عَلِمْنا ـ في كتاب من كتبه ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ إلاَّ في القرآن الكريم، ومرة أخرى أقول: إنه نظرًا إلى حاجة طلبة العلم إلى المزيد من المعرفة وضعتُ هذه الحاشية التي هي أشبَهُ بتعليق على **«أيسر التفاسير»** وأسميتها **(نهر الخير)** أودعت فيها مع مراعاة الاختصار بعض ما يرغب طالب العلم في معرفته والحصول عليه من **شاهد لغة، أو بيان، أو أثر جميل، أو مستند حديث جليل، أو كشف عن وجهٍ لآية ذات وجوه، أو الوقوف على سر من أسرار القرآن أو عجيبة من عجائب القرآن،** التي لا تنقضي بمرور الزمان، ولا تنتهي بتعاقب الملوان. وأهم من ذلك تصويب رأي، أو تصحيح خطأ وقعا في التفسير، مع إزالة إبهام، أو إضافة بعض الأحكام.

والله تعالى أسأل أن يكون عملي فيه صالحًا، ولوجهه تعالى خالصًا، وأن ينفع بنهر الخير كما نفع بأيسر التفاسير إنه بر رحيم وعلى كل شيء قدير.

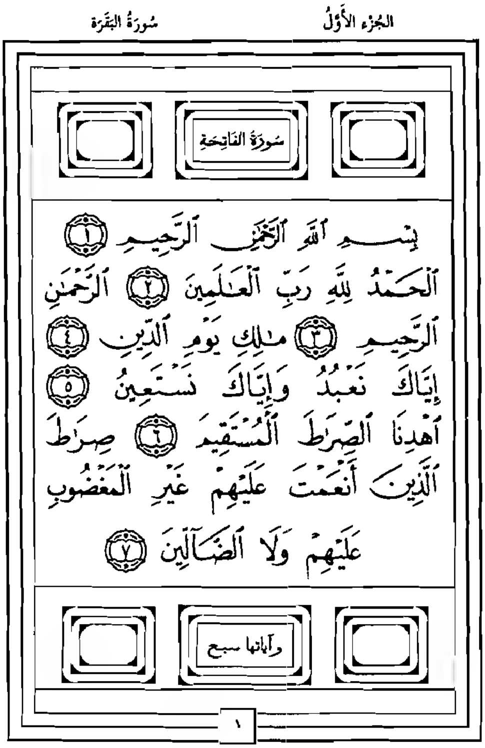
أبو بكر جابر الجزائري

الجزء الأول

سورة الفاتحة
وهي مكية وآياتها(١) سبع

شرح الكلمات: [الآية: ١ ـ ٧]

التفسير(٢): لغة الشرح والبيان. واصطلاحًا: شرح كلام الله ليُفهم مُرادُهُ تعالى منه فيطاع في أمره ونهيه، ويؤخذ بهدايته وإرشاده. ويُعتبر بقصصه، ويتعظ بمواعظه. السورة: السورة(٣) قطعة من كتاب الله تشتمل على ثلاث آيات فأكثر. وسورة القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة أطولها «البقرة»(٤) وأقصرها «الكوثر». الفاتحة: فاتحة كل شيء بدايته. وفاتحة القرآن الكريم الحمد لله رب العالمين ولذا سميت الفاتحة. ولها أسماء(٥) كثيرة منها أم القرآن. والسبع(٦) المثاني. وأم الكتاب(٧)، والصلاة(*). مكية: المكيّ من السور: ما نزل بمكة، والمدنيّ منه ما نزل بالمدينة. والسور المكية غالبها يدور على بيان العقيدة وتقريرها والاحتجاج بها وضرب المثل لبيانها وتثبيتها. وأعظم أركان العقيدة: توحيد الله تعالى في عبادته، وإثبات نبوة رسول الله ﷺ، وتقرير مبدأ المعاد والدار الآخرة. والسور المدنية يكثر فيها التشريع وبيان الأحكام من حلال وحرام.


الجزء الأوَّل سُورةُ البَقرَة

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

وآياتها سبع

١

الآيات: جمع آية وهي لغة: العلامة. وفي القرآن: جملةٌ من كلام الله تعالى تحمل الهدى للناس بدلالتها على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه، وعلى نبوة محمد ﷺ ورسالته. وآيات القرآن الكريم سِتّ آلاف ومائتا آية وزيادة(٨). وآيات الفاتحة سبع(٩) بدون البسملة.

---

(١) الآية: في اللغة العلامة. ومنه قول الشاعر:

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وإذا العام سابع

(٢) مصدر فسر تفسيرًا وفعله المجرّد فسر كنصرَ فَسْرًا إذا أبان الكلام وكشف معناه.

(٣) لفظ السورة مشتق إمّا من سور البلد لارتفاعها وعلو شأنها أو من سور الشراب وهي البقية إذ هي بقية من كتاب الله تعالى أي: قطعة منه. وكونها مشتقة من الرفعة وعلو الشأن أولى، ويشهد لذلك قول الشاعر:

ألم تر أنّ الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

(٤) أطول آية في القرآن، آية الدَّين في آخر البقرة، وأقصر آية فيه مدهامتان، من سورة الرحمٰن.

(٥) بلغ بها صاحب الإتقان، نيِّفًا وعشرين اسمًا، ولم يرد في السنة من ذلك سوى أربع: فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، وأم الكتاب.

(٦) سميت بالسبع المثاني لأنها تثنى أي: تكرّر في كل ركعة من الصلاة.

(٧) سميت بأم الكتاب لاشتمالها على أصول ما جاء في القرآن من العقائد والعبادات والشرائع والقصص.

(*) لقول النبي ﷺ عن ربه: **«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي قسمين ولعبدي ما سأل فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي. . .»** الحديث رواه النسائي وغيره.

(٨) الزيادة تتراوح ما بين أربع آيات إلى أربعين آية على خلاف بين القراء.

(٩) وقيل: البسملة هي الآية السابعة، وإليه ذهب الشافعي فأوجب قراءتها في الصلاة وعلى القول الراجح بأن البسملة ليست آية،=

الاستعاذة[١]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

شرح الكلمات:

الاستعاذة: قول العبد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أعوذ: أستجير وأتحصن. بالله: بربّ كل شيء والقادر على كل شيء والعليم بكل شيء وإله الأولين والآخرين. الشيطان: إبليس لعنه الله. الرجيم: المرجوم المبعد المطرود من كل رحمة وخير.

معنى الاستعاذة:

أستجير وأتحصن بالله ربي من الشيطان الرجيم أن يلبّس عليّ قراءتي. أوْ يضلّني فأهلك وأشقى.

حكم الاستعاذة:

يسن[٢] لكل من يريد قراءة شيء من القرآن سورة فأكثر أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يقرأ. كما يستحب لمن غضب، أو خطر بباله خاطر سوء أن يستعيذ كذلك.

البَسْمَلة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

شرح الكلمات:

البسملة: قول العبد: بسم الله الرحمٰن الرحيم. الاسم: لفظ جُعل علامة على مُسَمّى يعرف به ويتميّز عن غيره. ﴿ٱللَّهِ﴾[٣]: اسم علم على ذات الربّ تبارك وتعالى يُعرف به. ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾[*]: اسم من أسماء الله تعالى مشتق من الرحمة دال على كثرتها فيه تعالى. ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: اسم وصفة لله تعالى مشتق من الرحمة ومعناه ذو الرحمة بعباده المفيضها عليهم في الدنيا والآخرة.

معنى البسملة:

أبتدىء[٤] قراءتي متبركًا باسم الله الرحمٰن الرحيم مستعينًا به عز وجل.

حكم البسملة:

مشروع للعبد مطلوبٌ منه أن يُبَسْمِل عند قراءة كل سورة من كتاب الله تعالى إلا عند قراءة سورة التوبة فإنه لا يبسمل وإن كان في الصلاة المفروضة يبسمل سرًا إن كانت الصلاة جهرية.

ويسن للعبد أن يقول باسم الله[٥]. عند الأكل والشرب، ولبس الثوب. وعند دخول المسجد والخروج منه، وعند الركوب. وعند كل أمر[٦] ذي بال.

كما يجب عليه أن يقول بسم الله والله أكبر عند الذبح والنحر.

شرح الكلمات: [الآية: ١]

(١) ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾[٧]: الوصف بالجميل، والثناء به على المحمود ذي الفضائل والفواضل، كالمدح[٨]

= فالآية السابقة هي: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ويكون ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية السادسة.

(١) العياذ بالله تعالى يكون للاستجارة بالله من المكروه، واللّياذ بالله تعالى يكون لطلب المحبوب يشهد لهذا قول الشاعر:

يا من ألوذ فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

(٢) لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾ من سورة النحل.

(٣) اسم لم يُسمّ به غير الله تعالى، وهل هو جامد أو مشتق من ألِهَ يأله إلٰهة، وألوهة إذا عبد، فالإله بمعنى المألوه أي: المعبود، فلفظ إله اسم جنس يطلق على كل معبود بباطل كسائر الآلهة أو بحق كالله جلّ جلاله.

(*) روي أن عيسى عليه السلام قال: الرحمٰن رحمان الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة وأعم منه قول النبي ﷺ: **«رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما»**.

(٤) يقدر متعلق الجار والمجرور بحسب المقام فالقارىء يقول: أبتدىء قراءتي والكاتب يقول أبتدىء كتابتي، والآكل يقول: أبتدىء أكلي وهكذا.

(٥) لحديث: **«سمّ الله وكل بيمينك»**، وهو في الصحيح.

(٦) لحديث: **«كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر»** والحديث وإن كان ضعيفًا فإن العمل به لما في معناه من أحاديث صحاح.

(٧) الحمد لله أعظم سورة في القرآن لحديث البخاري عن أبي سعيد بن المعلى أن النبي ﷺ قال له: **«لأعلمنك أعظم سورة في القرآن»**، وقوله له: **«ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها»**.

(٨) هناك فرق بين المدح والحمد، فالحمد يكون على الجميل الاختياري كما يحمد الله تعالى على لطفه ورحمته وإحسانه وأما=

والشكر(١). ﴿لِلَّهِ﴾: اللام حرف جر ومعناها الاستحقاق أي أن الله مستحق لجميع المحامد والله علم على ذات الرب تبارك وتعالى. الرب: السيد المالك المصلح المعبود(٢) بحق جلّ جلاله. ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمع عالم وهو كل ما سوى الله تعالى، كعالم الملائكة وعالم الجن وعالم الإنس وعالم الحيوان، وعالم النبات.

معنى الآية:

يخبر تعالى أن جميع أنواع المحامد من صفات الجلال والكمال هي له وحده دون من سواه؛ إذ هو رب كل شيء وخالقه ومالكه. وأن علينا(٣) أن نحمده ونثني عليه بذلك.

(٢) ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تقدم شرح هاتين الكلمتين في البسملة. وأنهما اسمان وصف بهما اسم الجلالة «الله» في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢-٣] ثناءً على الله تعالى لاستحقاقه الحمد كلّه.

شرح الكلمات: [الآية: ٣]

(٣) ﴿مَٰلِكِ﴾(٤): المالك: صاحب الملك المتصرف كيف يشاء. ﴿مَلِكِ﴾: الملك ذو السلطان الآمر الناهي المعطي المانع بلا ممانع ولا منازع. ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: يوم الجزاء(٥) وهو يوم القيامة حيث يجزي الله كل نفس ما كسبت.

معنى الآية:

تمجيد لله تعالى بأنه المالك لكل ما في يوم القيامة حيث لا تملك نفس لنفس شيئًا والملكُ الذي لا مَلِكَ يوم القيامة سواه.

في هذه الآيات الثلاث من الهداية ما يلي:

أن الله تعالى يحب(٦) الحمد فلذا حمد تعالى نفسه وأمر عباده به. أن المدح يكون لمقتضٍ. وإلا فهو باطل وزور فالله تعالى لما حمد نفسه ذكر مقتضى الحمد وهو كونه ربّ العالمين والرحمٰن الرحيم ومالك يوم الدين.

شرح الكلمات: [الآية: ٤]

(٤) ﴿إِيَّاكَ﴾(٧): ضمير نصب يخاطب به الواحد. ﴿نَعْبُدُ﴾(٨): نطيع مع غاية الذل لك والتعظيم

= المدح فإنه يكون على الاختياري والاضطراري كما يمدح الإنسان على جمال وجهه وهو ليس فعله وعلى إحسانه الذي هو عمله الاختياري والثناء المدح وتكراره مرة بعد مرة.

(١) الشكر: الثناء باللسان على المنعم بما أولى من النعم، فهو أخص من الحمد موردًا إذ مورده النعمة فقط وأعمّ متعلقًا إذ متعلقه القلب واللّسان والجوارح لقول القائل:

أفادتك النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

والحمد يعم المدح والشكر لحديث: **«الحمد رأس الشكر»**.

(٢) مما شهد لإطلاق لفظ الرّب على المعبود قول الشاعر:

أربّ يبول الثعلبان برأسه ... لقد هان من بالت عليه الثعالب

(٣) لأن اللفظ خبر ومعناه الإنشاء أي قولوا: الحمد لله.

(٤) قرأ حفص مالك باسم الفاعل، وقرأ نافع بدون ألف وهما قراءتان سبعيتان والله حقًا هو الملك المالك.

(٥) صح تفسير يوم الدين بيوم الحساب عن السلف من أصحاب رسول الله ﷺ، ولما كان الحساب غايته الجزاء صح إطلاق لفظ الجزاء على يوم الدين، إذ يقال: دانه يدينه بكذا دينًا ودينًا إذا حاسبه وجزاه، وفي الحديث: **«الكيس: من دان نفسه** أي: حاسبها، **وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»** رواه أحمد والترمذي وغيرهما وهو صحيح.

(٦) قال رسول الله ﷺ: **«ما من أحد أحب إليه الحمد من الله تعالى حتى إنه حمد نفسه»**، ولفظ البخاري: **«لا أحد أغير من الله ولذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا شيء أحب إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه»**، وقال ﷺ: **«ما أنعم الله على عبده بنعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ»**. رواه البيهقي عن أنس بسند حسن.

(٧) العدول عن نعبدك ونستعينك إلى إيّاك نعبد وإيّاك نستعين لإفادة الاختصاص والحصر، وفي إياك نعبد وإيّاك نستعين نكتة بلاغية وهي: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وهي من المحسنات البديعية.

(٨) نعبد مضارع عبده إذا أطاعه متذلّلًا له خوفًا منه وطمعًا فيما عنده فأحبه لذلك غاية الحب وعظمه غاية التعظيم وهكذا تكون عبادة المؤمن لربّه تعالى.

والحب. ﴿نَسْتَعِينُ﴾: نطلب عونك لنا على طاعتك[١].

معنى الآية:

علّمنا الله تعالى كيف نتوسل إليه في قبول دعائنا فقال: احمدوا الله وأثنوا عليه ومجدوه، والتزموا له بأن تعبدوه وحده ولا تشركوا به وتستعينوه ولا تستعينوا بغيره.

هداية الآية:

من هداية هذه الآية ما يلي:

١ - آداب الدعاء[٢] حيث يقدم السائل بين يدي دعائه حمد الله والثناء عليه وتمجيده. وزادت السنة الصلاة على النبيّ ﷺ، ثم يسأل حاجته فإنه يستجاب[٣] له.

٢ - أن لا يعبد غير ربه. وأن لا يستعينه إلاّ هو سبحانه وتعالى.

شرح الكلمات: [الآية: ٥]

٥ ﴿اَهْدِنَا﴾[٤]: أرشدنا وأدم هدايتنا. ﴿الصِّرَاطَ﴾: الطريق الموصل إلى رضاك وجنّتك وهو الإسلام لك. ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾: الذي لا ميل فيه عن الحق ولا زيغ عن الهدى.

معنى الآية:

بتعليم من الله تعالى يقول العبد في جملة إخوانه المؤمنين سائلاً ربّه بعد أن توسل إليه بحمده والثناء عليه وتمجيده، ومعاهدته أن لا يَعْبدَ هو وإخوانه المؤمنون إلا هو، وأن لا يستعينوا إلا به. يسألونه أن يُديم هدايتهم[٥] للإسلام حتى لا ينقطعوا عنه.

من هداية الآية:

الترغيب في دعاء الله والتضرّع إليه وفي الحديث الدعاء[٦] هو العبادة.

شرح الكلمات: [الآية: ٦]

٦ ﴿صِرَاطَ﴾: تقدم بيانه. ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون[٧]، وكل من أنعم الله عليهم بالإيمان به تعالى ومعرفته، ومعرفة محابه، ومساخطه، والتوفيق لفعل المحاب وترك المكاره.

معنى الآية:

لما سأل المؤمن له ولإخوانه الهداية إلى الصراط المستقيم، وكان الصراط مجملاً بيّنه بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهو المنهج القويم المفضي بالعبد إلى رضوان الله تعالى والجنة وهو الإسلام القائم على الإيمان والعلم والعمل مع اجتناب الشرك[٨] والمعاصي.

---

(١) وعلى كل ما يهم العبد من أمور دينه ودنياه.

(٢) روى أبو داود والترمذي، والنسائي أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو في صلاته فلم يصل على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: **«عجل هذا»**، ثم دعاه فقال له أو لغيره: **«إذا صلّى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصلّ على النبي ﷺ ثم ليدع بعد مما شاء»**.

(٣) روى أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إمّا أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»** قالوا: إذا نكثر، قال: **«الله أكثر»**.

(٤) فعل الهداية يتعدى بنفسه وبحرف الجر فمن الأول قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ ومن الثاني قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

(٥) الهداية نوعان: هداية بيان وإرشاد، وهذه تطلب من ذوي العلم، فهم يبينون للسائل طرق الخير ويرشدونه إليها. هداية توفيق إلى اعتقاد الحق ولزمه في الاعتقاد والقول والعمل، وهذه لا تطلب إلا من الله تعالى ومنها هذه الدعوة: اهدنا الصراط المستقيم ويشهد للهداية الأولى وهي هداية البيان قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. ويشهد للثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾. فأثبت لنبيه ﷺ هداية البيان ونفى عنه هداية التوفيق وهي الهداية القلبية الباطنة.

(٦) رواه أصحاب السنن، وصححه الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٧) ورد هذا البيان في قوله تعالى من سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ٦٩﴾.

(٨) الشرك: عبادة غير الله مع الله تعالى أو اعتقاد ربوبية أو إلٰهية كائن من كان مع الله تعالى ولو لم يعبده إشراك المخلوق في صفات الخالق الذاتية أو الفعلية.

هداية الآية:

١ ـ الاعتراف بالنعمة.

٢ ـ طلب حسن القدوة.

شرح الكلمات: [الآية: ٧]

⑦ ﴿غَيْرِ﴾: لفظ يستثنى به[1] كـإلا. ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: من غضب الله تعالى عليهم لكفرهم وإفسادهم في الأرض كاليهود. ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: من أخطؤوا طريق الحق ف/عبدوا[2] الله بما لم يشرعه كالنصارى.

معنى الآية:

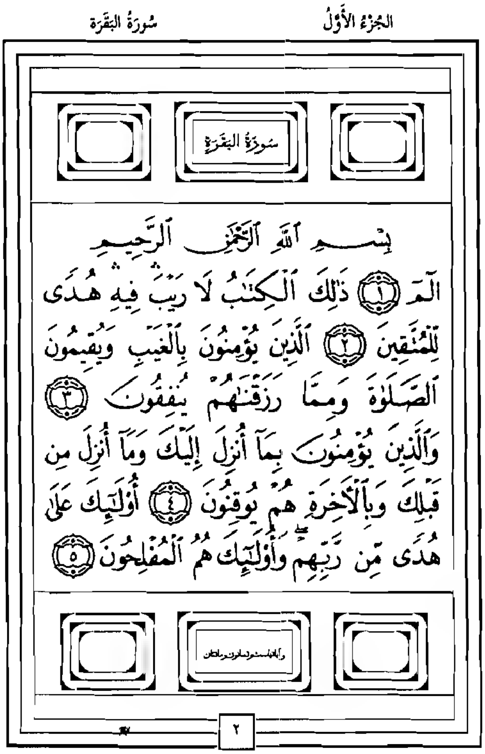
لما سأل المؤمن ربّه الصراط المستقيم وبيّنه بأنه صراط من أنعم عليهم بنعمة الإيمان[3] والعلم والعمل. ومبالغة في طلب الهداية إلى الحق، وخوفًا من الغواية استثنى كلاً من طريق المغضوب عليهم، والضالين.

هداية الآية:

الترغيب في سلوك سبيل الصالحين، والترهيب من سلوك سبيل الغاوين.

[تنبيه أول]: كلمة آمين ليست من الفاتحة. ويستحب أن يقولها الإمام إذا قرأ الفاتحة يمد بها صوته ويقولها المأموم، والمنفرد كذلك لقول الرسول ﷺ: **«إذا أمن الإمام فأمنوا»** أي قولوا آمين بمعنى اللهم استجب دعاءنا، ويستحب الجهر بها[4]؛ لحديث ابن ماجة: كان النبي ﷺ إذا قال: غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال آمين حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد.

[تنبيه ثان]: قراءة الفاتحة واجبة في كل ركعة من الصلاة، أمّا المنفرد والإمام فلا خلاف في ذلك، وأمّا المأموم فإن الجمهور من الفقهاء على أنه يسن له قراءتها في السريّة دون الجهرية لحديث: من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة ويكون مخصصًا لعموم حديث: **«لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»**.



سورة البقرة[5]
مدنية وآياتها مائتان وست أو سبع وثمانون آية

شرح الكلمة: [الآية: ١]

① ﴿الٓمٓ ۞﴾: هذه من الحروف المقطعة تكتب الم. وتقرأ هكذا: ألِفْ لام مِيمْ. والسور المفتتحة بالحروف المقطع تسع وعشرون

---

(١) لفظ غير مفرد مضاف دائمًا لفظًا أو معنى وإدخال أل عليه خطأ وأصله الوصف ويستثنى به.

(٢) الضلال الانحراف والبعد عن الهدى المطلوب وهو في الشرع نوعان: ضلال في الاعتقاد، وضلال في العمل فالضلال في الاعتقاد: هو كل اعتقاد مخالف كلاً أو بعضًا للمعتقد الإسلامي الذي بينه الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله محمد ﷺ والضلال في العمل: هو عبادة الله تعالى بغير ما شرع والتقرب إليه عزَّ وجل بما لم يشرعه قربة، ولا ينجو من هذا الضلال إلاّ من تمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

(٣) لفظ النعمة اسم جنس تحته أربعة أنواع: الأولى: نعمة الإيمان بالله وبما أوجب الإيمان به، الثانية: نعمة معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، والثالثة: نعمة معرفة محابه ومكارهه. والرابعة: نعمة التوفيق لفعل المحاب وترك المكاره.

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أمّن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنوبه»**.

(٥) ورد وصح في فضل سورة البقرة قوله ﷺ: **«اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»** أي: السحرة. وروى الترمذي وصححه أنّ النبي ﷺ بعث بعثًا وهم ذو عدد وقدّم عليهم أحدثهم سنًا لحفظه سورة البقرة وقال له: =

سورة أولها البقرة هذه وآخرها القلم «ن» ومنها الأحادية مثل ص. وق، ون، ومنها الثنائية مثل طه، ويس، وحم، ومنها الثلاثية والرباعية والخماسية ولم يثبت في تفسيرها عن النبي ﷺ شيء، وكونها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه أقرب إلى الصواب ولذا يقال فيها: الم: الله أعلم[1] بمراده بذلك.

وقد استخرج منها بعض أهل العلم فائدتين: الأولى أنه لما كان المشركون يمنعون سماع[2] القرآن مخافة أن يؤثر في نفوس السامعين كان النطق بهذه الحروف حم. طس. ق. كَهيعص وهو منطق غريب عنهم يستميلهم إلى سماع القرآن فيسمعون فيتأثرون وينجذبون فيؤمنون ويسمعون وكفى بهذه الفائدة من فائدة. والثانية لما أنكر المشركون كون القرآن كلام الله أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ كانت هذه الحروف بمثابة المتحدِّي لهم كأنها تقول لهم: إن هذا القرآن مؤلف من مثل هذه الحروف فألفوا أنتم مثله. ويشهد بهذه الفائدة ذكر لفظ القرآن بعدها غالبًا نحو ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، كأنها تقول: إنه من مثل هذه الحروف تألف القرآن فألفوا أنتم نظيره فإن عجزتم فسلموا أنه كلام الله ووحيه وآمنوا به تفلحوا.

شرح الكلمات: [الآية: ٢]

(٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾: هذا، وإنما عُدل عن لفظ هذا إلى ذلك. لما تفيده الإشارة بلام البعد[3] من علو المنزلة وارتفاع القدر والشأن. ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾[4]: القرآن الكريم الذي يقرأه رسول الله ﷺ على الناس. ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾[5]: لا شك في أنه وحي الله وكلامه أوحاه إلى رسوله ﷺ. ﴿فِيهِ هُدٗى﴾[6]: دلالةٌ على الطريق الموصل إلى السعادة والكمال في الدارين. ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[7]: المتقين أي عذاب الله بطاعته بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

معنى الآية:

يخبر تعالى أن ما أنزله على عبده ورسوله ﷺ من قرآن يمثل كتابًا فخمًا عظيمًا لا يحتمل الشك ولا يتطرق إليه احتمال كونه غير وحي الله وكتابه بحال، وذلك لإعجازه، وما يحمله من هدى ونور لأهل الإيمان والتقوى يهتدون بهما إلى سبل السلام والسعادة والكمال.

هداية الآية:

١ ـ تقوية الإيمان بالله تعالى وكتابه ورسوله ﷺ، الحث على طلب الهداية من الكتاب الكريم.

٢ ـ بيان فضيلة التقوى وأهلها.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ[8] بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ

= «اذهب فأنت أميرهم» وروي أيضًا أن النبي ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة».

(١) روي عن أبي بكر وعلي رضي الله عنهما، وعن عامر الشعبي وسفيان الثوري أنهم قالوا: الحروف المقطعة هي سرّ الله في القرآن ولله في كل كتاب من كتبه سر. فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه. فلا ينبغي أن نتكلم فيها ولكن نؤمن بها.

(٢) دليله قوله تعالى من سورة فصلت: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾.

(٣) اسم الإشارة هو (ذا) وهو للقريب ويقال: (ذاك) للمتوسط البعد و(ذلك) للبعيد.

(٤) يطلق لفظ الكتاب على الفرض نحو ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: فرض. وعلى العقد بين العبد وسيّده نحو ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وعلى القدر نحو ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: قدره وقضاؤه. ويصح في إعراب الكتاب أن يكون بدلاً من اسم الإشارة ويصح أن يكون خبرًا له.

(٥) وريب الدهر صروفه وخطوبه، وأصل الرّيب قلق النفس لحديث الصحيح: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة وإن الصدق طمأنينة».

(٦) الهدى مصدر هدى يهدي وهو مذكر نحو هذا هدىً وهو من أسماء النهار. وهو على وزن السُرى والبُكى واللُقى من لقي الشيء يلقاه لُقى.

(٧) المتقي اسم فاعل من اتقى، الذي أصله وَقى إذا حفظ. واتقى بزيادة تاء الافتعال لاتخاذ وقاية تقيه وأبدلت واو وقى في اتقى تاء وزيدت فيها همزة الوصل وتاء الافتعال فصارت اتقى أي: طلب الوقاية والحفظ مما يخاف ويكره.

(٨) قرأ نافع: ﴿يومنون﴾ بتخفيف الهمزة جمعًا وإفرادًا في كامل القرآن وقرأها حفص مهموزة في كل القرآن.

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞﴾.

شرح الجمل: [الآية: ٣ ـ ٥]

③ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾: يصدقون تصديقًا جازمًا بكل ما هو غيب(١) لا يدرك بالحواس كالربّ تبارك وتعالى ذاتًا وصفاتٍ والملائكة والبعث، والجنة ونعيمها والنار وعذابها. ﴿وَيُقِيمُونَ(٢) ٱلصَّلَوٰةَ(٣)﴾: يُديمون أداء الصلوات الخمس في أوقاتها مع مراعاة شرائطها وأركانها وسننها ونوافلها الراتبة وغيرها. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ(٤) يُنفِقُونَ﴾: من بعض ما آتاهم الله من مال ينفقون وذلك بإخراجهم لزكاة أموالهم وبإنفاقهم على أنفسهم وأزواجهم وأولادهم ووالديهم وتصدقهم على الفقراء والمساكين.

④ ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: يصدقون بالوحي الذي أنزل إليك أيها الرسول وهو الكتاب والسنّة. ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: ويصدقون بما أنزل الله تعالى من كتب على الرسل من قبلك كالتوراة والإنجيل والزبور. ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٥)﴾: وبالحياة في الدار الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب هم عالمون متيقنون لا يشكون في شيء من ذلك ولا يرتابون لكامل إيمانهم وعظم اتقائهم.

⑤ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾: الإشارة إلى أصحاب الصفات الخمس السابقة والإخبار عنهم بأنهم بما هداهم الله تعالى إليه من الإيمان وصالح الأعمال هم متمكنون(٦) من الاستقامة على منهج الله المفضي بهم إلى الفلاح. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: الإشارة إلى أصحاب الهداية(٧) الكاملة والأخبار عنهم بأنهم هم المفلحون(٨) الجديرون بالفوز الذي هو دخول الجنة بعد النجاة من النار.

معنى الآيات:

ذكر تعالى في هذه الآيات الثلاث صفات المتقين من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والإيمان بما أنزل الله من كتب والإيمان بالدار الآخرة وأخبر عنهم بأنهم لذلك هم على أتم هداية من ربهم، وأنهم هم الفائزون في الدنيا بالطهر والطمأنينة وفي الآخرة بدخول الجنة بعد النجاة من النار.

هداية الآيات:

دعوة المؤمنين وترغيبهم في الاتصاف بصفات أهل الهداية والفلاح، ليسلكوا سلوكهم فيهتدوا ويفلحوا في دنياهم وأخراهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦، ٧]

⑥ ﴿كَفَرُوا﴾: الكفر: لُغة التغطية

---

(١) الغيب مصدر غاب يغيب غيبًا وغيبة إذا لم يظهر فلم يُرى للعيان ومعناه محصّل في الصدور. والإيمان. بالغيب مفتاح كل التقوى وكل خير.

(٢) إقام الصلاة جعلها قائمة أي: مؤداة لا تسقط ولا تُهمل. نحو ﴿أَقِيمُوا ٱلدِّينَ﴾ أي: أظهروه بالعمل به والدعوة إليه، والصلاة عمود الدين فمن أقامها أقام الدين ومن أقعدها فلم يقمها فقد ترك الدين وأهمله.

(٣) الصلاة اسم جامد وزنها فعلة ولذا يجمع على صلوات بفتح الفاء والعين واللام بمعنى الدعاء يقال: صلى إذا دعا وهي في الشرع عبادة ذات ركوع وسجود وتكبير وتلاوة وتسبيح تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم.

(٤) الرزق هو: كل ما أوجده الله تعالى في الدنيا للإنسان من صنوف الأموال وضروب المأكولات والمشروبات والملبوسات والمركوبات والمساكن، والمراد بالرزق في الآية: المال صامتًا كان أو ناطقًا.

(٥) اليقين: اسم فاعل من يقن الأمر وضح وثبت والمراد به: العلم الحاصل عن نظر وتفكر الموجب لعدم الشكّ واضطراب النفس.

(٦) دلّ على التمكّن من الاستقامة حرف «على» في قولهم: على هدى من ربهم فإنها للاستعلاء إذ الراكب على الفرس متمكن منها يصرفها كيف يشاء لعلوه عليها.

(٧) وهم المتقون أصحاب الصفات الخمس التي هي الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، وإنفاق مما رزقهم الله، والإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وبما أنزل على من قبله والإيمان بالآخرة.

(٨) الفلاح: مشتق من فلح الأرض إذا شقها إذ الفلح الشق والقطع كما قال الشاعر:

إنّ الحديد بالحديد يفلح

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

٣

والجحود، وشرعًا التكذيب[1] بالله وبما جاءت به رسله عنه كلاً أو بعضًا. ﴿سَوَاءٌ﴾[2]: بمعنى مُسْتَوٍ إنذارهم وعدمه، إذ لا فائدة منه لحكم الله بعدم هدايتهم. ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: الإنذار: التخويف بعاقبة الكفر والظلم والفساد. ﴿خَتَمَ[3] اللَّهُ﴾: طبع إذ الختم والطبع واحد وهو وضع الخاتم أو الطابع على الظرف حتى لا يعلم ما فيه، ولا يتوصل إليه فيبدل أو يغير.

الغشاوة: الغطاء يغشّى به ما يراد منع وصول شيء إليه.

العذاب: الألم يزيل عذوبة الحياة ولذتها.

مناسبة الآيتين لما قبلهما ومعناهما:

لما ذكر أهل الإيمان والتقوى والهداية والفلاح ذكر بعدهم أهل الكفر والضلال والخسران فقال: [إن الذين كفروا][4] إلخ فأخبر بعدم استعدادهم للإيمان حتى استوى إنذارهم[5] وعدمه وذلك لمضي سنة الله فيهم بالطبع على قلوبهم حتى لا تفقه، وعلى آذانهم[6] حتى لا تسمع، ويَجعل الغشاوة على أعينهم حتى لا تبصر، وذلك نتيجة مكابرتهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر. وبذلك استوجبوا العذاب العظيم فحكم به عليهم. وهذا حكم الله تعالى في أهل العناد والمكابرة والإصرار في كل زمان ومكان.

هداية الآيتين:

١ ـ بيان سنة الله تعالى في أهل العناد والمكابرة والإصرار بأن يحرمهم الله تعالى الهداية وذلك بتعطيل حواسهم حتى لا ينتفعوا بها فلا يؤمنوا ولا يهتدوا.

= أي: يشق ويقطع. ومنه الفلاح وهو الرجل يشق الأرض بالمحراث وعليه فالمفلح من شق طريقه بين صفوف أهل الموقف ودخل الجنة، ويطلق الفلاح على الفوز وهو السلامة من المرهوب والظفر بالمرغوب قال الشاعر:

لو كان حي مدرك الفلاح أدركه ملاعب الرّماح...

أي: فاز به.

(١) وقد يطلق الكفر على جحود النعمة والإحسان، ومن ذلك قوله ﷺ: **«يكفُرن العشير والإحسان»** لما قال: **«رأيت النار ورأيت أكثر أهلها النساء»** فقيل له: بِمَ يا رسول الله؟ قال: **«يكفرن»**، قيل: يكفرن بالله؟ قال: **«يكفرن العشير ـ أي: الزوج ـ ويكفرن الإحسان»**.

(٢) سواء عليهم: هذا خَبَر إنّ الذين كفروا. وسواء اسم مصدر إذ فعله استوى والمصدر الاستواء واسم المصدر سواء، ولذا فهو بمعنى مستو أي: استوى إنذارهم وعدمه في أنهم لا يؤمنون، وهذا من العام الخاص، إذ ما كل الكافرين لا يؤمنون وإنّما من كتبت عليهم الشقوة أزلاً كأبي لهب وأبي جهل وعقبة والعاصي والنضر وغيرهم.

(٣) الختم حقيقته السّدّ على الإناء والغلق على الكتاب بطين ونحوه والخاتم هو ما سُدّ وأُغلق به.

(٤) قطعت جملة إن الذين كفروا ولم تعطف على السابق لكمال الانقطاع بينهما وهو التضاد إذ الأولى في ذكر الهداية والمهتدين، وهذه في ذكر الكفر والكافرين.

(٥) قد يقال: ما دام قد علم الله تعالى أن بعضًا لا يؤمنون فلِمَ ينذرون؟ إذ إنذارهم مع العلم بأنه لا ينفعهم، تكليف بالمحال. والجواب: أن دعوة النبي ﷺ لكل أحد وهو ﷺ لم يعلم مَنْ كتب الله تعالى عليه الشقاء ممن كتب له السعادة فلذا هو يدعو وينذر ومَنْ كان من أهل السعادة أجاب الدعوة ومَنْ لم يكن من أهلها رفضها ولم يجب.

(٦) تقديم السمع على البصر في عدّة آيات من القرآن يفيد أن حاسة السمع أنفع من حاسة البصر وهو كذلك والعقل أعظم من ذلك.

٢ - التحذير من الإصرار على الكفر والظلم والفساد الموجب للعذاب العظيم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ ـ ١٠]

(٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]: من بعض الناس[2]. ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾[3]: صدقنا بالله ربًا وإلهًا لا إله غيره ولا رب سواه. ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: صدّقنا بالبعث والجزاء يوم القيامة.

(٩) ﴿يُخَٰدِعُونَ[4] ٱللَّهَ﴾: بإظهارهم الإيمان وإخفائهم الكفر. ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ[5] إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾: إذ عاقبة خداعهم تعود عليهم لا على الله ولا على رسوله ﷺ ولا على المؤمنين. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: لا يعلمون أن عاقبة خداعهم عائدة عليهم.

(١٠) ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: في قلوبهم شك ونفاق وألم الخوف من افتضاح أمرهم والضرب على أيديهم. ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾: شكًا ونفاقًا وألمًا وخوفًا حسب سنة الله في أن السيئة لا تعقب إلاّ سيئة. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: موجع شديد الوقع على النفس.

مناسبة الآيات لما قبلها وبيان معناها:

لما ذكر تعالى المؤمنين الكاملين في إيمانهم وذكر مقابلهم وهم الكافرون البالغون في الكفر منتهاه ذكر المنافقين وهم المؤمنون في الظاهر الكافرون في الباطن، وهم شر من الكافرين البالغين في الكفر أشده.

أخبر تعالى أن فريقًا من الناس وهم المنافقون[6] يدعون الإيمان بألسنتهم ويضمرون الكفر في قلوبهم. يخادعون[7] الله والمؤمنين بهذا النفاق. ولما كانت عاقبة خداعهم عائدة عليهم. كانوا بذلك خادعين أنفسهم لا غيرهم ولكنهم لا يعلمون ذلك ولا يدرون به.

كما أخبر تعالى أن في قلوبهم مرضًا وهو الشك والنفاق والخوف، وأنه زادهم مرضًا عقوبة لهم في الدنيا وتوعدهم بالعذاب الأليم في الآخرة بسبب كذبهم وكفرهم.

هداية الآيات:

التحذير من الكذب والنفاق والخداع، وأن عاقبة الخداع تعود على صاحبها كما أن السيئة لا يتولد عنها إلا سيئة مثلها.

---

(١) ومن الناس خبر والمبتدأ من يقول والسر في تقديم الخبر هنا هو إخفاء المخبر عنه؛ لأنه ذو صفات ذميمة، وأفعال شنيعة نحو قول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا بما هو مؤذن بالتعجب من حالهم أيضًا.

(٢) لفظ الناس مشتق من ناس ينوس إذا تحرك كذا قيل: وهل هو من النسيان أو الأنس الكل محتمل لأن آدم نسي ولأنه حصل له الأنس بحوّاء.

(٣) أي: اعتقدنا على علم أنّ الله لا إله إلا هو ولا رب سواه، إذ الإيمان التصديق الجازم بوجود الله تعالى ربًا وإلهًا موصوفًا بالكمال منزهًا عن كل نقصان، والتصديق بكل ما أمر الله تعالى بالإيمان به من الملائكة والكتب، والرسل والبعث والقدر.

(٤) وإن قيل: ما وجه مخادعتهم لله تعالى والمؤمنين بإظهارهم الإيمان والإسلام تمويهًا في نظرهم على الله، إذ لم يعرفوا جلاله وكماله وعلى المؤمنين ظنًا منهم أنهم لا يعلمون ما يخفون في نفوسهم من الكفر والعداء. وأما مخادعة الله لهم فهي علمه تعالى بما يبطنون من الكفر والشرّ وعدم فضيحتهم بذلك فلم يكشف أسرارهم ولم يذكرهم في وحيه بأسمائهم. ومخادعة المؤمنين لهم هي علمهم بنفاقهم وعدم مؤاخذتهم به ونسبتهم إليه. هذا ولو قلنا أن صيغة المفاعلة هنا ليست على بابها فهي بمعنى خدع يخدع وذلك نحو عاقبت اللص وعالجت المريض فلم نحتج إلى ما ذكرنا والله أعلم.

(٥) قرأ نافع والجمهور: ﴿وما يخادعون﴾ بألف بعد الخاء وقرأ حفص: ﴿يخدعون﴾ بسكون الخاء.

(٦) المنافق كل من يظهر الإيمان ويبطن الكفر والمذكورون كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنهم كانوا ثلاثمائة رجل ومائة وسبعين امرأة بعضهم من الأوس والخزرج وبعضهم من اليهود. رأس منافقي المشركين عبدالله بن أبيّ ابن سلول ولم يُقبَض رسول الله ﷺ حتى أسلم مَنْ أسلم وهلك مَن هلك إلاّ ما كان من عبدالله بن سبأ اليهودي الذي أوقد نار الفتنة بالتعاون مع المجوس.

(٧) الخدع أصله الإخفاء والفساد ومنه مخدع البيت الذي تخفى فيه الأشياء، والخادع والمخادع بمعنى واحد وهو أن يظهر بقوله أو بفعله أنه يريد النفع وهو يريد الضر، وهو حرام إلا في الحرب فإنه جائز.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

٤

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ ـ ١٣]

الفساد في الأرض: الكفر وارتكاب المعاصي فيها. الإصلاح في الأرض: يكون بالإيمان الصحيح والعمل الصالح، وترك الشرك والمعاصي.

﴿١٢﴾ ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾: لا يدرون ولا يعلمون.

﴿١٣﴾ ﴿السُّفَهَاءُ﴾: جمع سفيه: خفيف العقل لا يحسن التصرف والتدبير.

معنى الآيات:

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم إذا[1] قال لهم أحد المؤمنين لا تفسدوا[2] في الأرض بالنفاق وموالاة اليهود والكافرين ردوا عليه قائلين: إنما نحن[3] مصلحون في زعمهم فأبطل الله تعالى هذا الزعم وقرر أنهم هم وحدهم المفسدون لا من عرضوا بهم من المؤمنين، إلا أنهم لا يعلمون ذلك لاستيلاء الكفر على قلوبهم. كما أخبر تعالى عنهم بأنهم إذا قال لهم أحد المؤمنين أصدقوا في إيمانكم وآمنوا إيمان فلان وفلان مثل عبدالله بن سلام ردوا قائلين: أنؤمن[4] إيمان السفهاء الذين لا رشد لهم ولا بصيرة[5] فرد الله تعالى عليهم دعواهم وأثبت السفه لهم ونفاه عن المؤمنين الصادقين ووصفهم بالجهل وعدم العلم.

هداية الآيات:

١ - ذم الادعاء الكاذب وهو لا يكون غالبًا إلا من صفات المنافقين.

٢ - الإصلاح في الأرض يكون بالعمل بطاعة الله ورسوله ﷺ، والإفساد فيها يكون بمعصية الله ورسوله ﷺ.

٣ - العاملون بالفساد في الأرض يبررون دائمًا إفسادهم بأنه إصلاح وليس بإفساد.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤ ـ ١٦]

﴿١٤﴾ ﴿لَقُوا﴾[6]: اللقاء: والملاقاة: المواجهة وجهًا لوجه. ﴿ءَامَنُوا﴾: الإيمان الشرعي: التصديق بالله وبكل ما جاء به رسول الله ﷺ عن الله، وأهله هم المؤمنون بحق. ﴿خَلَوْا﴾: الخلو بالشيء[7]: الانفراد به. ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾[8]: الشيطان كل بعيد عن الخير قريب من الشر يفسد ولا يصلح من إنسان أو جان والمراد بهم هنا رؤساؤهم في الشر والفساد.

---

(١) أصل الإفساد: جعل منفعة الشيء مضرّة كإفساد الطعام ونحوه بما يلقى فيه.

(٢) إذا: هنا ليست شرطية بل لمطلق الظرفية.

(٣) قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ لا ذمّ فيه وإنما جاءه الذمّ من كونهم مفسدين وادعوا أنهم مصلحون.

(٤) الاستفهام هنا إنكاري أي: إذا دعوا إلى الإيمان أنكروا دعوة من دعاهم طاعنين في إيمان المؤمنين إذ نسبوهم إلى السّفه، وهو خفّة العقل، وقلّة إدراك الأمور: مبادىء وعواقب.

(٥) أي: بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾، فبرأ المؤمنين من هذا العيب ووصم به المنافقين وهم أهله حقًا فإنه لا سفه أكبر من الكفر بالحق والإيمان بالباطل.

(٦) أصل لقوا: لقيوا نقلت الضمة إلى القاف، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين إذ فعله لقي كرضي.

(٧) عُدي فعل خلَوا بـ إلى ولم يعدّ بالباء، إذ يقال: خلا بكذا لأن خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا.

(٨) فسّر بعضهم الشياطين بالكهان وبشياطين الجنّ، والصحيح أنهم رؤساؤهم في الكفر والشرّ والفساد من منافقي اليهود وغيرهم.

﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾[1]: الاستهزاء: الاستخفاف والاستسخار بالمرء. الطغيان: مجاوزة الحد في الأمر والإسراف فيه. العَمَه[2]: للقلب كالعمى للبصر: عدم الرؤية وما ينتج عنه من الحيرة والضلال.

(١٦) ﴿اشْتَرَوُا﴾[3]: استبدلوا بالهدى الضلالة أي تركوا الإيمان وأخذوا الكفر. ﴿تِّجَارَتُهُمْ﴾: التجارة: دفع رأس مال لشراء ما يربح إذا باعه، والمنافقون هنا دفعوا رأس مالهم وهو الإيمان لشراء الكفر آملين أن يربحوا عزًا وغنى في الدنيا فخسروا ولم يربحوا إذ ذُلوا وعذبوا وافتقروا بكفرهم. المهتدي: السالك سبيلاً قاصدة تصل به إلى ما يريده في أقرب وقت وبلا عناء والضال خلاف المهتدي وهو السالك سبيلاً غير قاصدة فلا تصل به إلى مراده حتى يهلك قبل الوصول.

معنى الآيات:

ما زالت الآيات تخبرُ عن المنافقين وتصف أحوالهم إذ أخبر تعالى عنهم في الآية الأولى (١٤) أنهم لنفاقهم وخبثهم إذا لقوا الذين آمنوا في مكان ما أخبروهم بأنهم مؤمنون بالله والرسول ﷺ وما جاء به من الدين، وإذا انفردوا برؤسائهم في الفتنة والضلالة فلاموهم عما ادّعوه من الإيمان قالوا لهم: إنا معكم على دينكم وَمَا آمنا أبدًا. وإنما أظهرنا الإيمان استهزاءً وسخرية بمحمد ﷺ وأصحابه.

كما أخبر في الآية الثانية (١٥) أنه تعالى يستهزىء بهم معاملة لهم بالمثل جزاءً وفاقًا ويزيدهم[4] حسب سنته في أن السيئة تلد سيئة في طغيانهم لتزداد حيرتهم واضطراب نفوسهم وضلال عقولهم. كما أخبر في الآية (١٦) أن أولئك البعداء في الضلال قد استبدلوا الإيمان بالكفر والإخلاص بالنفاق فلذلك لا تربح تجارتهم[5] ولا يهتدون إلى سبيل ربح أو نُجح محال.

هداية الآيات:

١ - التنديد بالمنافقين والتحذير من سلوكهم في مُلاَقَاتِهِمْ هذا بوجه وهذا بوجه آخر وفي الحديث: شراركم ذو الوجهين[6].

٢ - إن من الناس[7] شياطين يدعون إلى الكفر والمعاصي[8]، ويأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

٣ - بيان نقم الله، وإنزالها بأعدائه عز وجل.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ - ٢٠]

(١٧) ﴿مَثَلُهُمْ﴾[9]: صفتهم[10]

---

(١) أي: مكذبون بما ندعي إليه ساخرون من أهله.

(٢) العمه: انطماس البصيرة والتحيّر في الرأي وفعله عَمِه فهو عامه وأعمه.

(٣) الاشتراء: افتعال من شرى يشري بمعنى باع. إذ فعل شرى يكون بمعنى باع وبمعنى اشترى، فاشترى كابتاع كلاهما مطاوع فعله شرى أو باع، إذ كل من البائع والمشتري أخذ شيئًا وأعطى آخر.

(٤) تفسير لقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ إذ المدّ الزيادة يقال مدّه بكذا إذا زاده وقيل: يستعمل أمدّ في الخير نحو: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾، ويستعمل مدّ في الشر كما في الآية: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

(٥) إسناد الربح إلى التجارة لكونها سببًا للربح، وإلاّ فالربح للتاجر لا للتجارة، وهذا الاستعمال معروف في اللغة نحو قول الشاعر:

نهارك هائم وليلك نائم ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

إذ أسند الهيام إلى النهار والنوم إلى الليل.

(٦) رواه البخاري، ومسلم والشاهد منه في قوله ﷺ: «وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».

(٧) شيطان الإنس كشيطان الجن، إذ كل من بَعُدَ في الشرّ وتوغل فيه وأصبح لا يروم الخير ولا يحبه فهو شيطان يستعاذ بالله منه.

(٨) المعاصي: جمع معصية وهو ترك ما أوجب الله ورسوله ﷺ القيام به أو فعل ما حرّم الله ورسوله ﷺ فعله، سواء في ذلك الاعتقاد، والقول، والعمل إذ الواجبات والمنهيات تكون في الاعتقاد والقول والعمل.

(٩) قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ الآيات تضمّن مثلين: ناريًا وهو المثل الأول ومائيًا وهو المثل الثاني والمثلان واقعان من السياق الأول موقع البيان والتقرير، والفذلكة ولذا لم تعطف جملة مَثَلُهم لكمال الاتصال بينها وبين الجمل السابقة.

(١٠) القول السائر: مثل: أحشفا وسوء كيله؟ والصيف ضيّعتِ اللبن.

ويعرّف المثل بأنه قول شبه مضربه بمورده، ومضربه هو الحال المشبه ومورده هو الحال المشبّه بها.

وحالهم. ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾: أوقد نارًا.
⑱ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾: لا يسمعون ولا ينطقون ولا يبصرون. الصيّب: المطر. الظلمات: ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر. الرعد: الصوت القاصف يُسمع[١] حال تراكم السحاب ونزول المطر. البرق: ما يلمع من نور حال تراكم السحاب ونزول المطر. الصواعق: جمع صاعقة: نار هائلة تنزل أثناء قصف الرعد ولمعان البرق يصيب الله تعالى بها من يشاء.
⑲ ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾: توقيًا للموت. ﴿مُحِيطٌۢ﴾: المحيط المكتنف للشيء من جميع جهاته.
⑳ ﴿يَكَادُ﴾: يقرب. ﴿يَخْطَفُ﴾: يأخذه بسرعة. ﴿أَبْصَٰرَهُمْ﴾: جمع بصر وهو العين المبصرة.

معنى الآيات:

مثل[٢] هؤلاء المنافقين فيما يظهرون من الإيمان مع ما هم مبطنون من الكفر كمثل[٣] من أوقد نارًا للاستضاءة بها فلما أضاءت لهم ما حولهم وانتفعوا بها أدنى انتفاع ذهب الله بنورهم[٤] وتركهم في ظلمات لا يبصرون. لأنهم بإيمانهم الظاهر صانوا دماءهم وأموالهم ونساءهم وذراريهم من القتل والسبي وبما يضمرون من الكفر إذا ماتوا عليه يدخلون النار فيخسرون كل شيء حتى أنفسهم. هذا المثل تضمنته الآية الأولى (١٧). وأما الآية الثانية (١٨) فهي إخبار عن أولئك[٥] المنافقين بأنهم قد فقدوا كل استعداد للاهتداء فلا آذانهم تسمع صوت الحق ولا ألسنتهم تنطق به ولا أعينهم تبصر آثاره وذلك لتوغلهم في الفساد فلذا هم لا يرجعون عن الكفر إلى الإيمان بحال من الأحوال. وأما الآية الثالثة والرابعة (١٩) (٢٠) فهما تتضمنان مثلًا آخر لهؤلاء المنافقين. وصورة المثل العجيبة والمنطبقة على حالهم هي مَطر[٦] غزير في ظلمات مصحوب برعد قاصف وبرق خاطف وهم في وسطه مذعورون خائفون يسدون آذانهم بأنامل أصابعهم حتى لا يسمعوا صوت الصواعق حذرًا أن تنخلع قلوبهم فيموتوا، ولم يجدوا مفرًا ولا مهربًا لأن الله تعالى محيط بهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن البرق لشدته وسرعته يكاد يخطف أبصارهم فيعمون، فإذا أضاء لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه وإذا انقطع ضوء البرق وقفوا حيارى خائفين، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم لأنه تعالى على كل شيء قدير. هذه حال أولئك المنافقين، والقرآن ينزل بذكر الكفر وهو ظلمات، وبذكر الوعيد وهو كالصواعق والرعد، وبالحجج والبينات وهي كالبرق في قوة الإضاءة، وهم خائفون أن ينزل القرآن بكشفهم وإزاحة الستار عنهم فيؤخذوا، فإذا نزل بآية لا تشير إليهم ولا تتعرض بهم مشوا في إيمانهم الظاهر. وإذا نزل بآيات فيها التنديد

---

(١) ظاهرة الرعد والبرق يفسرها علماء الطبيعة بأنها نتيجة اتحاد كهرباء السحاب الموجبة بالسالبة.
(٢) المثَل: متحرك الوسط الأصل فيه أنه النّظير والمشابه وفيه لغات وهي:
المِثْل بكسر الميم والمثيل بفتح الميم وكسر المثلثة وإشباعها. ونظير المثل الشبه والبديل ففي كل واحد ثلاث لغات ولا نظير لها في اللغة، يقال: شَبَه وشِبْه وبَدَل وبِذل وبَدِيل.
(٣) قوله: ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ مفرد وقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ جمع فهل الذي هنا بمعنى الذين على حدّ قول القائل:
وإن الذي حانت دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد
من الجائز أن يكون الذي بمعنى الذين لوروده في فصيح اللغة، وهو من باب الالتفاف لا غير.
(٤) عدل عن لفظ: ذهب الله بنارهم. إلى قوله: ﴿نُورُهُمْ﴾ إشارة إلى أن الإسلام نور يهدي لا نار تحرق.
(٥) يرى ابن كثير أن هؤلاء المنافقين كانوا قد آمنوا ثم بعد إيمانهم كفروا في الباطن مظهرين الإيمان في الظاهر، ويرى ابن جرير خلاف ذلك وهو: أنهم ما آمنوا ثم كفروا، وإنّما آمنوا في الظاهر لا غير، واحتج عليه ابن كثير بقول الله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ الآيات.
(٦) هو الصيّب في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾، وأصل صيّب صيوب قلبت فيه الواو ياء وأدغمت في الياء نظيره سيد وميّت لأن الفعل ساد يسود، ومات يموت فسيد أصلها سيود، وميّت أصلها ميوت وقلبت الواو ياء وأدغمت واو في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ هي بمعنى الواو.

بباطلهم وما هم عليه وقفوا حائرين لا يتقدمون ولا يتأخرون، ولو شاء الله أخذ أسماعهم وأبصارهم لفعل، لأنهم لذلك أهل وهو على كل شيء قدير[١].

هداية الآيات:

١ - استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.

٢ - خيبة سعي أهل الباطل وسوء عاقبة أمرهم.

٣ - القرآن تحيا به القلوب كما تحيا الأرض بماء المطر.

٤ - شر الكفار المنافقون.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١، ٢٢]

(٢١) ﴿النَّاسُ﴾: لفظ جمع لا مفرد له من لفظه، واحده إنسان.

﴿اعْبُدُوا﴾: أطيعوا بالإيمان والامتثال للأمر والنهي مع غاية الحب لله والتعظيم. ﴿رَبَّكُمُ﴾: خالقكم ومالك أمركم وإلهكم الحق. ﴿خَلَقَكُمْ﴾: أوجدكم من العدم بتقدير عظيم. ﴿تَتَّقُونَ﴾: تتخذون وقاية تحفظكم من عذاب الله، وذلك بالإيمان والعمل الصالح بعد ترك الشرك والمعاصي.

(٢٢) ﴿فِرَاشًا﴾: وطاء للجلوس عليها والنوم فوقها. ﴿بِنَاءً﴾: مَبْنيّة كقبة فوقكم. ﴿الثَّمَرَاتِ﴾: جمع ثمرة[٢] وهو ما تخرجه الأرض من حبوب وخضر وتخرجه الأشجار من فواكه. ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾: قوتًا لكم تقتاتون به فتحفظ حياتكم إلى أجلها. ﴿أَندَادًا﴾[٣]: جمع ند: النظير والمثيل تعبدونه دون الله أو مع الله تضادون به الرب تبارك وتعالى.

المناسبة ومعنى الآيتين:

وَجه المناسبة أنه تعالى لما ذكر المؤمنين المفلحين، والكافرين الخاسرين ذكر المنافقين وهم بين المؤمنين الصادقين والكافرين الخاسرين ثم على طريقة الالتفات نادى الجميع بعنوان الناس ليكون نداءً عامًا للبشرية جمعاء في كل مكان وزمان، وأمرهم بعبادته ليقوا أنفسهم من الخسران، معرفًا لهم نفسه ليعرفوه بصفات الجلال والكمال فيكون ذلك أدعى لاستجابتهم له فيعبدونه عبادة تنجيهم من عذابه وتكسبهم رضاه وجنته، وختم نداءه لهم بتنبيههم عن اتخاذ شركاء له يعبدونهم معه مع علمهم[٤] أنهم لا يستحقون العبادة لعجزهم عن نفعهم أو ضرهم.

---

(١) القدير والقادر والمقتدر بمعنى واحد إلاّ أن القدير أبلغ لأنه من أمثلة المبالغة وقدرة الله تتعلق بالممكنات القابلة للوجود والعدم، فلا يقولنّ قائل: هل يقدر الله على خلق ذات كذاته سبحانه وتعالى؟

(٢١) ﴿ياأيها﴾ يا: حرف نداء للبعيد وينادى بها القريب تعظيمًا له نحو يا الله، يا رب وهو تعالى أقرب من حبل الوريد. أي: صلة للتوصل بها لنداء ما فيه أل نحو أيها النّاس. ها: حرف تنبيه أقحمت بين (أي) والمنادى.

(٢١) ﴿اعبدوا﴾ أصل العبادة: الخضوع والتذلل، مشتق من قولهم طريق مُعبّد إذا كان موطوءًا بالأقدام وهي في الشرع: طاعة الله ورسوله ﷺ بالإيمان وفعل الأمر واجتناب النهي مع غاية الحب والتعظيم والتذلل لله وحده.

(٢١) ﴿لعلكم﴾ لعل: هنا على بابها وهو الترجي والتوقع ولكن بالنظر إلى الناس لا إلى الله تعالى فالناس هم الذين يرجون حصول النجاة لهم، ويتوقعونه بعبادتهم لربهم تعالى. وقد تكون لعلّ بمعنى كي التعليلية أي: اعبدوا ربكم كي تدفعوا عذابه ويشهد له قول الشاعر:

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا ... نكفّ ووثقتم لنا كل موثق

إذ المعنى كفوا لنكفّ.

(٢٢) ﴿جعل﴾ هنا بمعنى صَيّر لأنه ناصب لمفعولين هما الأرض فراشًا، ويكون فعل جعل بمعنى خلق نحو: ما جعل الله من بحيرة.

(٢) وتجمع الثمرة على ثمر كشجر، وثمار وثُمر كخُشُب.

(٣) أندادًا جمع ندّ بكسر النّون بمعنى الكفء والمثيل، والمراد به هنا الشريك لله في عبادته، لقول الرسول ﷺ في الصحيح وقد سأله ابن مسعود عن أعظم الذنب: **«أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»**، وقوله ﷺ للذي قال: ما شاء الله وشئت: **«أجعلتني لله ندًا، قل ما شاء الله وحده»**. رواه النسائي وغيره. والنّدّ بفتح النون عود يتطيب به ونَدّ البعير إذا هرب وفر، وندد بفلان شهره وسمّع به.

(٤) أثبت لهم العلم الخاص بهم وهو علمه بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت. إذ كانوا يعلمون ذلك ويعترفون به كما أنه لما عرّفهم بنفسه في السياق إذ قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ إلخ... فلما عرفوا نهاهم عن اتخاذهم أندادًا له يعبدونهم معه، والحال أنهم يعلمون أنه وحده المستحق للعبادة.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ۞ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾

٥

هداية الآيتين:

١ - وجوب عبادة الله تعالى، إذ هي[1] علة الحياة كلها.

٢ - وجوب معرفة[2] الله تعالى بأسمائه وصفاته.

٣ - تحريم الشرك صغيره وكبيره ظاهره وخفيه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣، ٢٤]

الريب: الشك مع اضطراب النفس وقلقها.

(٢٣) ﴿عَبْدِنَا﴾[3]: محمد ﷺ. ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾: مثل القرآن ومثل محمد ﷺ في أمّيته. ﴿شُهَدَاءَكُم﴾: أنصاركم. وآلهتكم التي تدعون أنها تشهد لكم عند الله وتشفع.

(٢٤) ﴿وَقُودُهَا﴾: ما تتقد به وتشتعل وهو الكفار والأصنام المعبودة مع الله عز وجل. ﴿أُعِدَّتْ﴾: هيئت وأحضرت.

الكافرين: الجاحدين لحق الله تعالى في العبادة له وحده المكذبين برسوله وشرعه.

مناسبة الآيتين ومعناهما:

لما قرر تعالى في الآية السابقة أصل الدين وهو التوحيد الذي هو عبادة الله تعالى وحده قرر في هذه الآية أصل الدين الثاني وهو نبوة رسوله محمد ﷺ وذلك من طريق برهاني وهو إن كنتم في شك من القرآن الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ فأتوا بسورة من مثل سوره أو من رجل أمي مثل عبدنا في أميته فإن لم تأتوا لعجزكم فقوا أنفسكم من النار بالإيمان بالوحي الإلهي وعبادة الله تعالى بما شرع فيه.

هداية الآيتين:

١ - تقرير نبوة رسول الله ﷺ بإثبات نزول القرآن عليه.

٢ - تأكد عجز البشر عن الإتيان بسورة مثل سور القرآن الكريم لمرور ألف سنة وأربعمائة وست سنين والتحدي قائم ولم يأتوا بسورة مثل سور القرآن لقوله تعالى: (٢٤) ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾.

٣ - النار تتقى بالإيمان والعمل الصالح وفي الحديث الصحيح **«اتقوا النار ولو بشق تمرة»**[4].

---

(١) لما روي عنه ﷺ أنه قال: **«يقول الله تعالى: يا ابن آدم لقد خلقت كل شيء من أجلك وخلقتك من أجلي»**، أي: لعبادته تعالى، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾.

(٢) إذ معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته يتوقف عليها خشيته ومحبته لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب عقلاً وشرعًا.

(٢٣) ﴿وادعوا﴾ أي: ادعوهم لأمرين: الأول ليعينوكم على الإتيان بالمطلوب. والثاني ليحضروا إتيانكم ويشاهدوه فيشهدون لكم بذلك.

(٣) اسم العبد مأخوذ من التعبد والتذلل: لأن المملوك يذلله مالكه بالخدمة ويعبده بكثرة استخدامه. ولمّا كانت عبادة الله أشرف الخصال كان التسمي بها أشرف الأسماء، فلذا سمى الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ عبدًا كما في هذه الآية وآية الإسراء وأنشدوا لهذا قول الشاعر:

يا قومي قلبي عند زهراء ... يعرفه السامع والرائي

لا تدعُني إلا بيا عبدها ... لأنه أشرف أسمائي

(٤) رواه البخاري.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٥]

(٢٥) ﴿وَبَشِّرِ﴾[١]: التبشير: الإخبار السَّار وذلك يكون بالمحبوب للنفس. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾: تجري الأنهار من خلال أشجارها وقصورها والأنهار هي أنهار الماء وأنهار اللبن وأنهار الخمر وأنهار العسل[٢]. ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾: أعطوا الثمار وقدم لهم يشبه بعضه بعضًا في اللون مختلف في الطعم. ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: من دم الحيض[٣] والنفاس وسائر المعائب والنقائص. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: باقون فيها لا يخرجون منها أبدًا.

المناسبة والمعنى:

لما ذكر تعالى النار وأهلها ناسب أن يذكر الجنة وأهلها ليتم الترهيب والترغيب وهما أداة الهداية والإصلاح. في هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبشر المؤمنين المستقيمين بما رزقهم من جنات تجري من تحتها[٤] الأنهار لهم فيها أزواج مطهرات نقيات من كل أذى وقذر وهم فيها خالدون. كما أخبر عنهم بأنهم إذا قدم لهم أنواع الثمار المختلفة قالوا هذا الذي رزقنا مثله في الدنيا. كما أخبر تعالى أنهم أوتوه متشابهًا في اللون غير متشابه في الطعم زيادة في حسنه وكماله. وعظيم الالتذاذ به.

هداية الآية:

١ - فضل الإيمان والعمل الصالح إذ بهما[٥] كان النعيم المذكور في الآية لأصحابهما.

٢ - تشويق المؤمنين إلى دار السلام[٦]، وما فيها من نعيم مقيم ليزدادوا رغبة فيها وعملاً لها. بفعل الخيرات وترك المنكرات.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦، ٢٧]

(٢٦) ﴿لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾[٧]: لا يمنعه الحياء[٨] من ضرب الأمثال وإن صغرت كالبعوضة أو أصغر منها كجناحها. ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾: أن يجعل شيئًا مثلاً لآخر يكشف عن صفته وحاله في القبح أو الحسن. ﴿مَّا بَعُوضَةً﴾: ما نكرة بمعنى شيء أيّ شيء كان يجعله مثلاً، أو زائدة. وبعوضة المفعول الثاني. والبعوضة واحدة البعوض وهو صغار البق. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: الواجب الثبوت الذي يحيل العقل عدم وجوده. ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: الفسق الخروج عن الطاعة، والفاسقون: هم التاركون لأمر الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح، وبترك الشرك والمعاصي.

(٢٧) ﴿يَنقُضُونَ﴾: النقض الحلّ بعد الإبرام. ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾: ما عهد به إلى الناس من الإيمان والطاعة له ولرسوله ﷺ. ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: من بعد إبرامه وتوثيقه بالحلف أو الإشهاد عليه. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: من إدامة الإيمان والتوحيد والطاعة وصلة الأرحام. ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: الإفساد في الأرض يكون بالكفر وارتكاب

---

(٢٥) ﴿وبشر﴾ هذا من باب ذكر الترغيب بعد الترهيب وعطفه عليه، فقد أنذر الكافرين وواعد المؤمنين ليكون ذلك مثبطًا عن الأعمال الفاسدة منشطًا على الأعمال الصالحة.

(١) ويطلق لفظ التبشير على الخبر المحزن غير السار تهكمًا بصاحبه نحو قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

(٢) المذكورة في آية سورة القتال.

(٣) وكذا البول والغائط.

(٤) أي: من تحت أشجارها، وإن لم يجر للأشجار ذكر لأن الجنات دالة عليها.

(٥) بعد فضل الله تعالى ورحمته.

(٦) سميت دار السلام: لسلامتها من وجود المنغصات فيها، إذ لا مرض ولا هرم ولا ألم ولا تعب بها أبدًا.

(٧) لا يستحيي: بياءين، ويستحي بياء واحدة هما قراءتان سبعيتان، والأخيرة على لغة تميم، واسم الفاعل من الأولى مستحي، ومن الثانية مستح.

(٨) الحياء: تغيّر وانكسار يعتري الإنسان عند الخوف مما يعاب به أو يذم، والله يوصف بالحياء على الوجه اللائق به فصفة الحياء عنده تعالى لا تشبه صفات المحدثين كسائر صفاته سبحانه وتعالى والاستحياء والحياء بمعنى واحد، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي يقول الرسول ﷺ: «**إن الله حيي كريم يستحي أن يرفع إليه العبد يديه فيردهما صفرا**». فقد أثبت صفة الحياء لله عز وجل وهو قطعًا حياء واستحياء لا يشبه حياء واستحياء البشر بحال من الأحوال.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧)

٦

المعاصي. ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: الكاملون في الخسران بحيث يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

سبب النزول والمعاني:

(٢٦) لما ضرب الله تعالى المثلين السابقين الناري والمائي[١] قال المنافقون: الله أعلى وأجل أن يضرب هذا المثل، فأنزل الله تعالى ردًا عليهم قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ الآية.

فأخبر تعالى أنه لا يمنعه الاستحياء أن يجعل مثلاً بعوضة[٢] فما دونها[٣] فضلاً عما هو أكبر[٤]. وأن الناس حيال ما يضرب الله من أمثال قسمان مؤمنون فيعلمون أنه الحق من ربهم. وكافرون: فينكرونها ويقولون كالمعترضين: ماذا أراد الله بهذا مثلاً!؟.

(٢٧) كما أخبر تعالى أن ما يضرب من مثل يهدي به كثيرًا من الناس ويضل به كثيرًا، وأنه لا يضل به إلا الفاسقين الذين وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وحكم عليهم بالخسران التام يوم القيامة فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

هداية الآيتين:

١ - أن الحياء لا ينبغي أن يمنع من فعل المعروف وقوله والأمر به.

٢ - يستحسن ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.

٣ - إذا أنزل الله خيرًا من هدى وغيره يزداد به المؤمنون هدى وخيرًا، ويزداد به الكافرون ضلالاً وشرًا، وذلك لاستعداد الفريقين النفسي المختلف[٥].

٤ - التحذير من الفسق[٦] وما يستتبعه من نقض العهد، وقطع الخير، ومنع المعروف.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨، ٢٩]

(٢٨) ﴿كَيْفَ[٧] تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾: الاستفهام هنا للتعجب مع التقريع والتوبيخ، لعدم وجود مقتض للكفر. ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾: هذا برهان على بطلان كفرهم، إذ كيف يكفر العبد ربه وهو الذي خلقه بعد أن لم يك شيئًا. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: إن إماتة الحي وإحياء الميت كلاهما دال على وجود الرب تعالى وقدرته. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يريد بعد الحياة الثانية وهو البعث الآخر.

---

(١) أورده ابن جرير وارتضاه.

(٢) في قوله: ﴿مَّا بَعُوضَةً﴾ إعرابات كثيرة لا طائل تحتها فنصب بعوضة على أنها بدل من ما النكرة التي هي في محل نصب بفعل يضرب بمعنى يجعل. ورفع بعوضة على أنها خبر، والمبتدأ هو ما على أنها موصولة والتقدير: الذي هو بعوضة.

(٣) كالذرّة.

(٤) كالفراشة والجرادة.

(٥) إذا المؤمنون مستعدون للخير والكافرون مستعدون للشرّ.

(٦) الفسق: الخروج عن طاعة الله ورسوله ﷺ، فإن كان الخروج على الطاعة في أصول الدين فصاحبه كافر، وإن كان في الفروع فلا يكفر صاحبه، ولا يقال: الفاسق إلاّ للذي أكثر من الفسق فأصبح الفسق وصفًا لازمًا له لا ينفك عنه لكثرته منه وتوغله فيه.

(٧) اسم استفهام مبني على الفتح يسأل به عن الحال ويضمَّن معنى التعجب كما هنا، إذ كيف يصح من العاقل أن ينكر خالقه وهو يعرف أنه مخلوق إذ كان عدمًا فأوجده.

(۲۹) ﴿خَلَقَ لَكُم[1] مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: أي أوجد ما أوجده من خيرات الأرض كل ذلك لأجلكم كي تنتفعوا به في حياتكم. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ[2] إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: علا وارتفع قهرًا لها فكونها سبع سماوات. ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾: أتمّ خلقهن سبع سماوات تامات. ﴿وَهُوَ[3] بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: إخبار بإحاطة علمه تعالى بكل شيء، وتدليل على قدرته وعلمه ووجوب عبادته.

معنى الآيتين:

(۲۸) ما زال الخطاب مع الكافرين الذين سبق وصفهم بأخسّ الصفات وأسوأ الأحوال حيث قال لهم على طريقة الالتفات موبخًا مقرعًا: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ الآية. وذكر من أدلة وُجوده وكرمه ما يصبح الكفر به من أقبح الأمور وصاحبه من أحط الخلائق وأسوأهم حالاً ومآلاً. فمن أدلة وجوده الإحياء بعد الموت والإماتة بعد الإحياء، ومن أدلة كرمه وقدرته أن خلق الناس في الأرض جميعًا لتوقف حياتهم عليه، وخلق السموات السبع، وهو مع ذلك كله علمه محيط، بكل شيء سبحانه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

هداية الآيتين:

١ - إنكار الكفر بالله تعالى.

٢ - إقامة البرهان على وجود الله وقدرته ورحمته.

٣ - حلّية كل[4] ما في الأرض من مطاعم ومشارب وملابس ومراكب إلا ما حرمه الدليل الخاص من الكتاب أو السنة لقوله: (۲۹) ﴿خَلَقَ[5] لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

شرح الكلمات: [الآية: ٣٠]

الملائكة: جمع مَلأك ويخفف فيقال مَلَك وهم خلق من عالم الغيب أخبر النبي ﷺ أن الله تعالى خلقهم من نور[6]. الخليفة[7]: من يخلف غيره، والمراد به هنا آدم عليه السلام.

(۳۰) ﴿يُفْسِدُ فِيهَا﴾: الإفساد في الأرض يكون بالكفر وارتكاب المعاصي. يسفك[8]: يسيل الدماء بالقَتْلِ والجَرْحِ. ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: نقول سبحان الله وبحمده. والتسبيح: التنزيه عما لا يليق بالله تعالى. ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: فننزهك عما لا يليق بك. والتقديس: التطهير والبعد عما لا ينبغي. واللام في لك زائدة لتقوية المعنى إذ فعل قدس يتعدى بنفسه يقال قدّسه.

معنى الآية:

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يذكر قوله للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة يخلفه في إجراء أحكامه في الأرض، وأن الملائكة تساءلت[9]

---

(١) لحديث: «**يا ابن آدم لقد خلقت كل شيء من أجلك وخلقتك من أجلي**»: أي: **من أجل** أن تذكرني وتشكرني فعلّة الحياة كلها ذكر الله تعالى وشكره.

(٢) ذهب ابن كثير إلى أن استوى هنا مضمّن معنى قصد لتعديته بإلى إذ يقال: استوى على كذا إذا كان بمعنى العلو والارتفاع، واستوى إلى كذا إذا قصده، ويكون المعنى ثم قصد إلى السماء أي: السماوات فخلقهن سبع سماوات، ولفظ السماء اسم جنس تحته أفراد لذا قال فسوّاهن بالجمع.

(٣) قرىء في السبع بفتح الهاء من فهو، وقرىء بإسكانها وهذا عام في اللفظ إذا تقدمه واو أو فاء عطف. أدخلت عليه اللام نحو: فهو كذا وهذا التسكين للتخفيف.

(٤) ذهب بعضهم إلى أن الأصل في الأشياء الحظر حتى يأتي دليل الإباحة لأن المملوكات لا تحل إلاّ بإذن مالكها فهذا مذهب ثان حسن ذكره.

(٥) أي: خلق لكم ما في الأرض جميعًا من أجل أن تتقوا به على طاعته لا على معصيته.

(۳۰) ﴿قالوا﴾ المفروض أن يقترن (قالوا) بالفاء ولكن نظرًا إلى أسلوب الحوار لم يقترن بها كما في قوله: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾.

(٦) خلق الملائكة من النور صح عن النبي ﷺ في صحيح مسلم.

(٧) استدل بهذه الآية على وجوب نصب خليفة للمسلمين يحكمهم بشريعة ربهم عز وجلّ.

(٨) السفك: الصبّ يقال: سفك الدم إذا صبّه كما يقال: سفحه، والسفاك والسفاح بمعنى إلاّ أنّ السفاح قد يراد به كثير الكلام، وسفك الدمع كذلك، والدم المسفوح، المصبوب.

(٩) إذ هو سُؤال واستكشاف عن الحكمة في ذلك وليس هو من باب الاعتراض على الله أبدًا.

متخوفة من أن يكون هذا الخليفة ممن يسفك الدماء ويفسد في الأرض بالكفر والمعاصي قياسًا على خلق من الجن حصل منهم ما تخوفوه. فأعلمهم ربهم أنه يعلم من الحِكم والمصالح ما لا يعلمون.

والمراد من هذا التذكير: المزيد من ذكر الأدلة الدالة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته الموجبة للإيمان به تعالى ولعبادته دون غيره.

هداية الآية:

١ - سؤال من لا يعلم غيره ممن يعلم.

٢ - عدم انتهار السائل وإجابته أو صرفه بلطف.

٣ - معرفة بدء الخلق.

٤ - شرف آدم وفضله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ - ٣٣]

(٣١) ﴿ءَادَمَ﴾[1]: نبيّ الله أبو البشر عليه السلام. ﴿ٱلْأَسْمَآءَ﴾: أسماء الأجناس كلها كالماء والنبات والحيوان والإنسان. ﴿عَرَضَهُمْ﴾: عرض المسميات أمامهم، ولما كان بينهم العقلاء غلب جانبهم، وإلا لقال عرضها. ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾: أخبروني. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: المعروضين عليهم من سائر المخلوقات.

(٣٢) ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾[2]: تنزيهًا لك وتقديسًا.

(٣٣) ﴿غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: ما غاب عن الأنظار في السموات والأرض. ﴿تُبْدُونَ﴾: تظهرون من قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ الآية. ﴿تَكْتُمُونَ﴾: تبطنون وتخفون، يريد ما أضمره إبليس من مخالفة أمر الله تعالى وعدم طاعته. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾[3]: الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه، ولا يفعل ولا يترك إلا لحكمة.

معنى الآيات:

(٣٣) يخبر تعالى في معرض مظاهر قدرته وعلمه وحكمته الموجبة لعبادته دون سواه أنه علّم آدم أسماء الموجودات[4] كلها، ثم عرض الموجودات على الملائكة وقال أنبؤوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين في دعوى أنكم أكرم المخلوقات وأعلمهم، فعجزوا وأَعْلَنُوا اعْتِرَافَهُم بذلك وقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ثم قال تعالى لآدم أنبئهم بأسماء تلك المخلوقات المعروضة فأنبأهم بأسمائهم واحدًا واحدًا حتى القصعة والقُصَيْعة.. وهنا ظهر شرف آدم عليهم، وعَتَبَ عليهم ربهم بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - بيان قدرة الله تعالى حيث علّم آدم أسماء المخلوقات كلها فعلمها.

٢ - شرف العلم وفضل العالم[5] على الجاهل.

٣ - فضيلة الاعتراف[6] بالعجز والقصور.

---

(١) هل آدم مشتق من الأدمة التي هي حمرة تضرب إلى بياض، أو هو اسم جامد أعجمي كآزر، وعابر ذهب إلى كل وجه قوم.

(٢) سبحان: اسم مصدر فعله سبّح مضعفًا. واختص بتنزيه الله تعالى فكان بذلك اسم تسبيح كالعلم عليه.

(٣) الحكيم: ذو الحكمة، وهو الذي لا يصدر عنه قول ولا فعل خال من حكمة اقتضته. والحكيم مشتق من أحكم الشيء إذا أتقنه وخلّصه من الخلل والفساد، ومنه حكمة الدّابة وهي حديدة تجعل في فمها تمنعها من اختلاف سيرها ويقال: أحكم فلانًا أي: منعه من فعل كذا ومنه قول الشاعر:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم ... إني أخاف عليكم أن أغضبا

(٤) ليس في المسألة ما يدعو إلى الاستغراب أو الإنكار إذ كتاب المقادير فيه أسماء الموجودات كلها، وكذا سائر صفاتها وأحوالها، والعرض التلفازي اليوم يسهل على المرء إدراك كيفية عرض الله تعالى الموجودات أمام الملائكة. وذكر آدم لأسمائها كما علمها بتعليم الله تعالى له.

(٥) يشهد لهذا حديث أبي داود إذ فيه: «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم**».

(٦) دل على هذا قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ ولذا قال العلماء: الواجب على من سئل على ما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما أبردها على الكبد!! فقيل له: وما ذاك؟ فقال: أن يسأل الرجل عمّا لا يعلم فيقول: الله أعلم.

٤ - جواز العتاب على من ادعى دعوى هو غير متأهل لها.

شرح الكلمات: [الآية: ٣٤]

(٣٤) ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾: السجود[١] هو وضع الجبهة والأنف على الأرض، وقد يكون بانحناء الرأس دون وضعه على الأرض لكن مع تذلل وخضوع. ﴿إِبْلِيسَ﴾: قيل كان اسمه الحارث ولما تكبّر عن طاعة الله أبلسه الله أي أيأسه من كل خير ومسخه شيطانًا. ﴿أَبَىٰ﴾: امتنع ورفض السجود لآدم. ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾: تعاظم في نفسه فمنعه الاستكبار[٢] والحسد من الطاعة بالسجود لآدم. ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾: جمع كافر. من كذب بالله تعالى أو كذب بشيء من آياته أو بواحد من رسله أو أنكر طاعته.

معنى الآية:

يذكّر تعالى عباده بعلمه وحكمته وإفضاله عليهم بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ...﴾ سجود تحية وإكرام فسجدوا إلا إبليس تعاظم في نفسه وامتنع عن السجود الذي هو طاعة الله، وتحية آدم. تكبرًا وحسدًا لآدم في شرفه فكان بامتناعه عن طاعة الله من الكافرين الفاسقين عن أمر الله، الأمر الذي استوجب إبلاسه[٣] وطرده.

هداية الآية:

١ - التذكير بإفضال الله الأمر الذي يوجب الشكر ويرغب فيه.

٢ - التحذير من الكبر والحسد حيث كانا سبب إبلاس الشيطان، وامتناع اليهود من قبول الإسلام.

٣ - تقرير عداوة إبليس، والتنبيه إلى أنه عدوّ تجب عداوته أبدًا.

٤ - التنبيه إلى أن من المعاصي ما يكون كفرًا[٤] أو يقود إلى الكفر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٥ - ٣٧]

(٣٥) ﴿رَغَدًا﴾: العيش الهنيّ الواسع يقال له الرَّغد. ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾: شجرة من أشجار الجنة وجائز أن تكون كرمًا أو تينًا أو غيرهما، وما دام الله تعالى لم يعين نوعها فلا ينبغي السؤال عنها. ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: لأنفسهما بارتكاب ما نهى الله تعالى عنه.

(٣٦) ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: أوقعهما في الزلل، وهو مخالفتهما لنهي الله تعالى لهما عن الأكل من الشجرة. ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: المستقر: مكان الاستقرار والإقامة. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: الحين: الوقت مطلقًا قد يقصر أو يطول والمراد به نهاية الحياة.

---

(٣٤) ﴿الكافرين﴾ ذكر القرطبي في تفسيره: أن السجود الذي أُمرت به الملائكة هو أن يسجدوا لله تعالى مستقبلين وجه آدم وعليه فهو كصلاتنا خلف المقام، الصلاة لله والاستقبال للمقام.

(١) أجمع أهل الإسلام قاطبة لا يكون إلاّ لله تعالى. وفي الحديث: «**لا ينبغي أن يسجد لأحد إلاّ لله ربّ العالمين**».

(٢) الاستكبار: طلب الكِبْر في النفس وتصوره فيها وفي صحيح مسلم: «**إنّ الله لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**».

(٣) الإبلاس: الإيئاس من كل خير، وإبلاس إبليس كان عقوبة له على تمرده وكبره وحسده، وكان قبل إبلاسه يقال له: عزازيل وبالعربية الحارث.

(٤) كترك الصلاة وقتل المؤمن لقول الرسول ﷺ: «**من ترك الصلاة فقد كفر**» وقوله: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**» وقوله: «**لا ترتدوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**». والكفر كفران: كفر مخرج من الملة وكفر نعمة لا يخرج منها ولكن صاحبه إن لم يتب منه وتقبل توبته يدخل النار به.

(٣٥) قال: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بعد طرد إبليس منها والمراد من سكن الإسكان وهو الإقامة الطويلة لا السكون النفسي، وهدوء البال وإن كان لازمًا للإقامة الطيبة ولفظ السكن مشعر بعدم الإقامة الدائمة، لأن من سكن دارًا لا بد وأن يرحل منها يومًا من الأيام.

(٣٥) ﴿وَزَوْجُكَ﴾ لفظ الزوج يطلق على كل من الرجل وامرأته، لأن كل واحد منهما صيّر الثاني زوجًا له، ويقال للمرأة زوجة بالتاء كما في قول الرسول ﷺ: «**يا فلان هذه زوجتي فلانة**» وذلك أمنًا من اللَّبس، وغُلِّط الفرزدق في قوله:

وإنّ الذي يسعى ليفسد زوجتي ... كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

ولا معنى لتغليطه وقد صح الحديث بلفظ زوجة.

(٣٦) ﴿عنها﴾ عن هنا هي كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ بمعنى بسببها أي: أوقعهما في الزلل بسبب الأكل من الشجرة التي زينها لهما فضمير عنها عائد إلى الشجرة.

الجزْءُ الأوَّلُ سُورَةُ البَقَرَة

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

٧

﴿٣٧﴾ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ[1] ءَادَمُ﴾: أخذ آدم ما ألقى الله تعالى إليه من كلمات التوبة. ﴿كَلِمَٰتٍ﴾: هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾: وفقه للتوبة فتاب[2] وقبل توبته، لأنه تعالى توّاب رحيم.

معنى الآيات:

في الآية الأولى (٣٥) يخبر تعالى عن إكرامه لآدم وزوجه حواء حيث أباح لهما جنته يسكنانها ويأكلان من نعيمها ما شاءا إلا شجرة واحدة فقد نهاهما عن قربها[3] والأكل من ثمرها حتى لا يكونا من الظالمين.

وفي الآية الثانية (٣٦) أخبر تعالى أن الشيطان أوقع آدم وزوجه في الخطيئة حيث زين لهما الأكل من الشجرة فأكلا منها فبدت لهما سَوْءَاتُهما فلم يصبحا أهلاً للبقاء في الجنة فأهبطا إلى الأرض مع عدوهما إبليس ليعيشوا بها بعضهم لبعض عدو إلى نهاية الحياة.

وفي الآية الثالثة (٣٧) يخبر تعالى أن آدم تلقى كلمات التوبة من ربه تعالى وهي: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فقالاها توبة فتاب الله عليهما وهو التواب الرحيم.

هداية الآيات:

١ - كرامة آدم وذريته على ربهم تعالى.

٢ - شؤم المعصية وآثارها في تحويل النعمة إلى نقمة.

٣ - عداوة الشيطان للإنسان ووجوب معرفة ذلك لاتقاء وسوسته.

٤ - وجوب التوبة[4] من الذنب وهي الاستغفار بعد الاعتراف بالذنب وتركه والندم على فعله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨، ٣٩]

﴿٣٨﴾ ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾: انزلوا من الجنة[5] إلى الأرض لتعيشوا فيها متعادين[6]. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم[7] مِّنِّى هُدًى﴾: إن يجئكم من ربكم هدىً:

﴿٣٦﴾ جملة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ تصح أن تكون حالاً من ضمير ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ ويصح أن تكون مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا.

(١) لفظ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ مشعر بالإكرام، والمسرة كقوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

(٢) يتساءل البعض: هل آدم ارتكب بأكله من الشجرة كبيرة، وهل يجوز في حق الأنبياء ارتكاب الكبائر؟؟
والجواب: أن آدم ما نبىء إلا بعد أن هبط إلى الأرض، إذ هي دار التكليف أما وهو في السماء فما كان قد نبىء بعد وأكله من الشجرة لم يترتب عليه عقاب أكثر من الخروج من الجنة لأنها ليست دار إقامة لمن يخالف فيها أمر الله تعالى، أما الأنبياء فلا يجوز في حقهم ارتكاب الكبائر ولا الصغائر لعصمة الله لهم لأنهم محل أسوة لغيرهم.

(٣) إذا كان الفعل قرب يقرب بالفتح فمعناه التلبّس بالفعل، وإذا كان قرُب بضمّ الرّاء فمعناه الدنوّ من الشيء. هكذا يرى بعضهم.

(٤) التوبة: هي الرجوع من المخالفة إلى المتابعة أي: من المعصية إلى الطاعة هذا حدّها لغة. أمّا شرعًا: فهي كما نُصّ في الفائدة الرابعة من هذا التفسير.

(٥) ذهب المعتزلة ـ أذهب الله ريحهم ـ إلى أن الجنة التي هبط منها آدم وحواء كانت بستانًا في الأرض في مرتفع منها، وهو قول باطل لا يسمع له ولا يلتفت إليه، إذ كل سياق القرآن دال على أنها الجنة دار النعيم لأولياء الله في الآخرة.

(٦) أي: إبليس وذريته، وآدم وذريته، وكان هذا قبل أن يوجد لكل منهما ذرية ثم أوجدت كما أخبر تعالى وكانت العداوة على أشدها.

(٧) فإمّا: أصلها فإن ما، فإن شرطية وأدخلت عليها ما الزائدة لتقوية الكلام وأدغمت فيها نون إن فصارت إمّا.

شرع ضمنه كِتابٌ وبينه رسولٌ. ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾: أخذ[1] بشرعي فلم يخالفه ولم يحد عنه. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: جواب شرط فمن اتبع هداي، ومعناه اتباع الهدى يفضي بالعبد إلى أن لا يخاف ولا يحزن لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(٣٩) ﴿كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟﴾: كفروا: جحدوا شرع الله، وكذبوا رسوله ﷺ. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: أهلها الذين لا يفارقونها بحيث لا يخرجون منها.

معنى الآيتين:

يخبر تعالى أنه أمر آدم وحواء[2] وإبليس بالهبوط إلى الأرض بعد أن وسوس الشيطان لهما فأكلا من الشجرة، وأعلمهم أنه إن أتاهم منه هدى فاتبعوه ولم يحيدوا عنه يأمنوا ويسعدوا فلن يخافوا ولن يحزنوا، وتوعد من كفر به وكذب رسوله ﷺ فلم يؤمن ولم يعمل صالحًا بالخلود[3] في النار.

هداية الآيتين:

١ - المعصية تسبب الشقاء والحرمان.

٢ - العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ يسبب الأمن والإسعاد، والإعراض عنهما يسبب الخوف والحزن والشقاء والحرمان.

٣ - الكفر والتكذيب جزاء صاحبهما الخلود في النار.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٠ ـ ٤٣]

(٤٠) بنو[4] إسرائيل: إسرائيل هو يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم عليهم السلام وبنوه هم اليهود، لأنهم يعودون في أصولهم إلى أولاد يعقوب الاثني عشر[5]. النعمة: النعمة هنا اسم جنس بمعنى النعم، ونعم الله تعالى على بني إسرائيل كثيرة[6] ستمر أفرادها في الآيات القرآنية الآتية.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾: الوفاء بالعهد إتمامه وعهد الله عليهم أن يبيّنوا أمر محمد ﷺ ويؤمنوا به. ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾: أتم لكم عهدكم بإدخالكم الجنة بعد إكرامكم في الدنيا وعزكم فيها. ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾: اخشوني ولا تخشوا غيري.

(٤١) ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾: القرآن الكريم. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟[7] بِـَٔايَٰتِى﴾: لا تعتاضوا عن بيان الحق في أمر محمد ﷺ. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: متاع الحياة الدنيا. ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾: واتقوني وحدي في كتمانكم الحق وجحدكم نبوة نبيي محمد ﷺ أن أنزل بكم نقمتي.

(٤٢) ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: أي لا تخلطوا الحق بالباطل حتى يعلم فيعمل به، وذلك قولهم: محمد ﷺ نبيّ ولكن مبعوث إلى العرب لا إلى بني إسرائيل.

(٤٣) ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: الركوع الشرعي: انحناء الظهر في امتداد واعتدال مع وضع الكفين على الركبتين والمراد به هنا: الخضوع[8] لله والإسلام له عز وجل.

---

(١) هذا عام في كل أجيال بني آدم فمن جاءه هدى الله بواسطة نبي وكتاب الله فأخذ به واتبعه نجا مما يصيب غيره من الخوف والحزن في الدنيا والآخرة معًا.

(٢) حواء: لم تذكر باسمها في القرآن وإنما ذكرت بعنوان الزوج، ولكن ذكرت في السنة الصحيحة، أنها خلقت من ضلع آدم عليه السلام، والسرّ في عدم ذكرها باسمها: أنّ المروءة تأبى على صاحبها ذكر المرأة فلذا تذكر النساء تابعات لخطاب الرجال.

(٣) روى مسلم أن النبي ﷺ قال: **«أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأصابتهم إماتة حتى إذا صاروا فحمًا أذن في الشفاعة»** ومعناه: يخرجون من النار بالشفاعة لهم.

(٤) بنو جمع ابن وقيل عن الولد ابن من البناء، لأنه مسند إليه موضوع عليه. وإسرا: عبد، وئيل: الله وقرىء: ﴿إسرائين﴾ بالنون وهي لغة مشهورة.

(٥) هم يوسف عليه السلام وإخوته يهوذا، وبن يامين وغيرهما.

(٦) منها إنجاؤهم من فرعون، وتحررهم من سلطانه، ومنها إهلاك عدوهم، وإنزال المنّ والسلوى عليهم.

(٧) الاشتراء هنا: بمعنى الاستبدال، ولذا جاز دخول الباء على غير المشترى به وهو الثمن، إذ الأصل أن تدخل الباء على المشترى به. فتقول: اشتريت الثوب بدرهم.

(٨) وجائز أن يراد به الصلاة مع المصلين وهم الرسول ﷺ وأصحابه إذ الخطاب ليهود المدينة بصورة خاصة، ولا منافاة بين ما شرحت به الآية، وبين ما ذكر هنا تعليقًا، إذ الإسلام لله يستلزم الصلاة وفي الآية دليل تأكيد صلاة الجماعة.

مناسبة الآيات ومعناها:

لما كان السياق في الآيات السابقة في شأن آدم وتكريمه، وسجود الملائكة له وامتناع إبليس لكِبْره. وحسده وكان هذا معلومًا لليهود لأنهم أهل كتاب ناسب أن يخاطب الله تعالى بني إسرائيل مذكرًا إياهم بما يجب عليهم من الإيمان والاستقامة. فناداهم بعنوان بُنوتهم لإسرائيل عليه السلام فأمرهم ونهاهم، أمرهم بذكر نعمته عليهم ليشكروه تعالى بطاعته فيؤمنوا برسوله محمد ﷺ وما جاء به من الهدى وأمرهم بالوفاء بما أخذ عليهم من عهد لينجز لهم ما وعدهم، وأمرهم أن يرهبوه[١] ولا يرهبوا غيره من خلقه وأمرهم أن يؤمنوا بالقرآن الكريم، وأن لا يكونوا أول من يكفر[٢] به. ونهاهم عن الاعتياض عن بيان الحق في أمر الإيمان برسوله محمد ﷺ ثمنًا قليلاً من متاع الحياة الدنيا وأمرهم بتقواه في ذلك وحذّرهم إن هم كتموا الحق أن ينزل بهم عذابه. ونهاهم عن خلط الحق بالباطل دفعًا للحق وبعدًا عنه حتى لا يؤمنوا برسوله محمد ﷺ وأمرهم بإقام[٣] الصلاة وإيتاء الزكاة والإذعان لله تعالى بقبول الإسلام والدخول فيه كسائر المسلمين.

هداية الآيات:

١ - وجوب ذكر النعم لشكر الله تعالى عليها.

٢ - وجوب الوفاء بالعهد لا سيما ما عاهد عليه العبد ربه تعالى.

٣ - وجوب بيان الحق وحُرمة كتمانه.

٤ - حرمة خلط[٤] الحق بالباطل تضليلاً للناس وصرفهم عنه كقول اليهود: محمد ﷺ نبيّ ولكن للعرب خاصة حتى لا يؤمن به يهود.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٤ ـ ٤٦]

﴿٤٤﴾ البر: البر لفظ جامع لكل خير. والمراد هنا: الإيمان بمحمد ﷺ والدخول في الإسلام. النسيان: مقابل الذكر، وهو هنا الترك. تلاوة الكتاب: قراءته، والكتاب هنا التوراة التي بأيدي اليهود. العقل: قوة باطنية يميز بها المرء بين النافع والضار، والصالح والفاسد. ﴿٤٥﴾ الاستعانة: طلب العون للقدرة على القول والعمل. الصبر[٥]: حبس النفس على ما تكره. الخشوع: حضور القلب وسكون الجوارح، والمراد هنا الخضوع لله والطاعة لأمره ونهيه. ﴿٤٦﴾ ﴿يَظُنُّونَ﴾: يوقنون[٦]. ﴿مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾: بالموت، راجعون إليه يوم القيامة.

معنى الآيات:

ينعي الحق تبارك وتعالى في الآية الأولى (٤٤) على علماء بني إسرائيل أمرهم بعض العرب بالإيمان بالإسلام ونبيه ﷺ، ويتركون أنفسهم فلا يأمرونها بذلك والحال أنهم يقرؤون التوراة، وفيها بعث النبي محمد ﷺ والأمر بالإيمان به واتباعه ويقرعهم موبخًا لهم بقوله: ﴿٤٤﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إذ العاقل يسبق إلى الخير ثم يدعو إليه.

وفي الآيتين الثانية والثالثة (٤٥ ـ ٤٦) يرشد الله تعالى بني إسرائيل

---

(١) الرهب، والرهبة الخوف، ويجوز في الرهب إسكان الهاء وفتحها.

(٢) هذه الجملة تأكيد لجملة ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ...﴾ أي: آمنوا بما أنزلت أي: من القرآن بمعنى لا تكونوا أول من يكفر به منكم يا بني إسرائيل، إذ العرب سبق أن كفروا بالقرآن قبلهم فأوّل كافر به أي: منهم وهو اليهود.

(٣) أمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بعد الإيمان كقوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة..»** الحديث. ومعنى الخطاب أنه أمرهم بالدخول في الإسلام والخروج من اليهودية الباطلة.

(٤) مأخوذ من قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ إذ اللّبس الخلط بين المتشابهات في الصفات يقال في الأمر لُبسَة: أي: اشتباه، فلبس الحق بالباطل ترويج الباطل في صورة الحق ليقبل ويضل به الناس.

(٥) مواطن الصبر ثلاثة: صبر على الطاعة فلا تفارق، وصبر عن المعصية فلا ترتكب، وصبر على المصائب فلا يجزع منها ولا يتسخط، ولكن يصبر، ويسترجع أي: يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٦) يطلق الظن ويراد به اليقين، لا الظن المقابل للشكّ، أفاده ابن جرير في تفسيره وأورد أنّ الظن من أسماء الأضداد فيطلق على الشك واليقين كإطلاق السدفة على الضياء والظلمة معًا.

إلى الاستعانة بالصبر والصلاة حتى يقدروا على مواجهة الحقيقة والتصريح بها وهي الإيمان بمحمد ﷺ والدخول في دينه، ثم يعلمهم أن هذه المواجهة صعبة شاقة[١] على النفس لا يقدر عليها إلا المخبتون لربهم الموقنون بلقاء الله، والرجوع إليه.

هداية الآيات:

١ - قبح[٢] سلوك من يأمر غيره بالخير ولا يفعله.

٢ - السيئة قبيحة وكونها من[٣] عالم أشد قبحًا.

٣ - مشروعية الاستعانة على صعاب الأمور وشاقها بالصبر والصلاة، إذ كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع[٤] إلى الصلاة.

٤ - فضيلة الخشوع لله والتطامن له، وذكر الموت، والرجوع إلى الله تعالى للحساب والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧، ٤٨]

(٤٧) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: تقدم شرح هذه الجملة. ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥]: آتاهم من النعم الدينية والدنيوية ما لم يؤت غيرهم من الناس وذلك على عهد موسى عليه السلام وفي أزمنة صلاحهم واستقامتهم.

(٤٨) ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾: المراد باليوم يوم القيامة بدليل ما وصف به. واتقاؤه هو اتقاء ما يقع فيه من الأهوال والعذاب. وذلك بالإيمان والعمل[٦] الصالح. ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾: لا تغني نفس عن نفس أخرى أي غنىً. ما دامت كافرة[٧]. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾[٨]: هذه النفس الكافرة إذ هي التي لا تنفعها شفاعة الشافعين. ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: على فرض أنها تقدَّمت بِعَدْلٍ وهو الفداء فإنه لا يؤخذ منها. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: بدفع العذاب عنهم.

معنى الآيتين:

ينادي الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل مطالبًا إياهم بذكر نعمه عليهم ليشكروها بالإيمان برسوله محمد ﷺ وقبول ما جاء به من الدين الحق وهو الإسلام، محذرًا إياهم من عذاب يوم القيامة، آمرًا لهم باتقائه بالإيمان وصالح الأعمال. لأنه يوم عظيم لا تقبل فيه شفاعة لِكَافِرٍ، ولا يؤخذ منه عدل أي فداء، ولا ينصره بدفع العذاب عَنْهُ أحد.

هداية الآيتين:

١ - وجوب ذكر النعم لتشكر[٩] بحمد الله وطاعته.

٢ - وجوب اتقاء عذاب يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح بعد ترك الشرك والمعاصي.

٣ - تقرير أن الشفاعة لا تكون

---

(١) الجمهور على تفسير الضمير في ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ بالصلاة وخالَفْتُهم في ذلك لوجود من قال: إنها ما أمروا به ونهوا عنه وهو أعم من الصلاة.

(٢) ورد الوعيد الشديد فيمن يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويرتكبه من ذلك قول الرسول ﷺ: **«مررت ليلة أُسري بي على أُناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل قال: هؤلاء خطباء أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم»** رواه أحمد. ومثله كثير في السنن والصحاح، إلا أن أهل العلم من السلف قالوا: «لا يمنع العالم من أن يأمر بالمعروف، وإن كان لا يأتيه ومن أن ينهى عن منكر وإن كان يأتيه، وهو حق إذ لا يسلم من الذنب إلاّ المعصوم».

(٣) لأن من يعلم ليس كمن لا يعلم.

(٤) رواه أحمد وأبو داود.

(٥) المراد بالعالمين: عالمو زمانهم.

(٦) وترك الشرك، والمعاصي.

(٧) لأن أهل الإيمان والتوحيد وإن دخلوا النار يخرجون منها بشفاعة شافع أو بإيمانهم. بخلاف من مات كافرًا أو مشركًا.

(٨) الشفاعة: ضم جاه إلى جاه ليحصل النفع للمشفوع له. والشفعة: ضمّ مِلك إلى مِلك، والشفع: الزوج مقابل الوتر. ولا تقبل شفاعة أحد يوم القيامة إلاّ بشرطين اثنين. الأول: أن يكون الشافع قد أذن الله تعالى له في الشفاعة. والثاني: أن يكون المشفوع له ممن رضي الله قوله وعمله وهو المؤمن الموحد.

(٩) شكر الله على نِعَمِهِ يكون بالاعتراف بالنعمة وحمدًا لله تعالى عليها، وصرفها فيما فيه رضاه سبحانه وتعالى.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

٨

لنفس كافرة. وأنّ الفداء يوم القيامة لا يقبل[1] أبدًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٩ ـ ٥٣]

(٤٩) النجاة: الخلاص من الهلكة، كالخلاص من الغرق. والخلاص من العذاب. ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: أتباع[2] فرعون. وفرعون[3] ملك مصر على عهد موسى عليه السلام. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: يبغونكم سوء العذاب وهو أشده وأفظعه ويذيقونكم إياه. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ[4] نِسَآءَكُمْ﴾: يتركون ذبح البنات ليكبرن للخدمة، ويذبحون الأولاد خوفًا منهم إذا كبروا. ﴿بَلَآءٌ[5] مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: ابتلاء وامتحان شديد لا يطاق.

(٥٠) ﴿فَرَقْنَا[6] بِكُمُ ٱلْبَحْرَ[7]﴾: صيرناه فرقتين، وما بَيْنَهُمَا يَبس لا ماء فيه لتسلكوه فتنجوا والبحر هو بحر القلزم (الأحمر).

(٥١) ﴿ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾: عجل من ذهب صاغه لهم السامري ودعاهم إلى عبادته فعبده أكثرهم، وذلك في غيبة موسى عنهم. (٥٢) الشكر: إظهار النعمة بالاعتراف بها وحمد الله تعالى عليها وصرفها في مرضاته.

(٥٣) ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ[8]﴾: الكتاب: التوراة، والفرقان: المعجزات التي فرق الله تعالى بها بين الحق والباطل. ﴿تَهْتَدُونَ﴾: إلى معرفة الحق في كل شؤونكم من أمور الدين والدنيا.

معنى الآيات:

تضمنت هذه الآيات الخمس أربع نعم عظمى أنعم الله تعالى بها على بني إسرائيل وهي التي أمرهم بذكرها ليشكروه عليها بالإيمان برسوله محمد ﷺ ودينه الإسلام.

فالنعمة الأولى: إنجاؤهم من فرعون وآله بتخليصهم من حكمهم الظالم وما كانوا يصبونه عليهم من ألوان العذاب، من ذلك: ذبح الذكور من أولادهم وترك البنات لاستخدامهن في المنازل كرقيقات.

والثانية: فلق البحر لهم وإغراق عدوهم بعد نجاتهم وهم ينظرون[9].

---

(١) لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

(٤٩) ﴿وَإِذْ﴾ إذ ظرفية ويقدر لها العالم وهو اذكروا إذ نجيناكم. اذكروا إذ فرقنا بكم البحر.. إلخ..

(٢) ممن هم على دين الباطل، من الأقباط المصريين وسواء كانوا أقارب له أم أباعد ويشهد له حديث: «**آل محمد كل تقي**».

(٣) قيل: أن فرعون مصر اسمه الوليد بن مصعب بن الرّيّان.

(٤) وقيل: يكشفون عن حياء المرأة أي: فرجها لينظروا هل هي حبلى أو لا؟ ليتمكنوا من قتل الذكور وإبقاء الإناث.

(٥) البلاء يكون بالخير والشر قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الآية. وهو هنا كذلك فقد ابتلى بنو إسرائيل بالشر من قتل واستعباد وبالخير من إنجائهم وإهلاك أعدائهم.

(٦) الفرق: الفصل بين الأشياء كالفصل بين الحق والباطل والفصل بين المجتمعين من كل شيء والباء في فرقنا بكم البحر للملابسة.

(٧) البحر: الماء الملح، والبلدة أيضًا، ومن الخيل الواسع الجري فقد قال ﷺ في فرس أبي طلحة: «**وإن وجدناه لبحرًا**» يعني واسع الجري.

(٨) الفرقان: لفظ عام يطلق على كل ما يفرق به بين الحق والباطل كالمعجزات والآيات والعلوم الصحيحة.

(٩) جملة: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ في الآيات حالية وإن قيل: الذين تم لهم هذا الإنعام هم من كانوا مع موسى عليه السلام فكيف يخاطب به يهود اليوم فالجواب: أنّ النعم على السلف نعم على الخلف.

والثالثة: عفوه تعالى عن أكبر زلة زلوها وجريمة اقترفوها وهي اتخاذهم عجلاً[١] صناعيًا إلـهًا وعبادتهم له. فعفا تعالى عنهم ولم يؤاخذهم بالعذاب لعلة أن يشكروه تعالى بعبادته وحده دون سواه.

والرابعة: ما أكرم به نبيهم موسى عليه السلام من التوراة التي فيها الهدى والنور والمعجزات التي أبطلت باطل فرعون، وأحقت دعوة الحق التي جاء بها موسى عليه السلام.

هذه النعم هي محتوى الآيات الخمس، ومعرفتها معرفة لمعاني الآيات في الجملة، اللهم إلا جملة [وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم] في الآية الأولى فإنها: إخبار بأن الذي حصل لبني إسرائيل من عذاب على أيدي فرعون وملإه إنما كان امتحانًا من الله واختبارًا عظيمًا لهم. كما أن الآية الثالثة فيها ذكر مواعدة الله تعالى لموسى بعد نجاة[٢] بني إسرائيل أربعين ليلة وهي القعدة وعشر الحجة ليعطيه التوراة يحكم[٣] بها بني إسرائيل فحدث في غيابه أن جمع السامري حلي نساء بني إسرائيل وصنع منه عجلاً ودعاهم إلى عبادته فعبدوه فاستوجبوا العذاب إلا أن الله منّ عليهم بالعفو ليشكروه.

هداية الآيات:

١ - ذكر النعم يحمل[٤] على شكرها، والشكر هو الغاية من ذكر النعمة.

٢ - أن الله تعالى يبتلي عباده لحكم عالية فلا يجوز الاعتراض على الله تعالى فيما يبتلي به عباده.

٣ - الشرك ظلم[٥] لأنه وضع العبادة في غير موضعها.

٤ - إرسال الرسل وإنزال الكتب الحكمة فيهما هداية الناس إلى معرفة ربهم وطريقة التقرب إليه ليعبدوه فيكملوا ويسعدوا في الحياتين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٤ - ٥٧]

ظلم النفس[٦]: تدسيتها بسيئة الجريمة.

(٥٤) ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾: بجعلكم العجل الذي صاغه السامري من حليّ نسائكم إلـهًا عبدتموه.

البارىء: الخالق عز وجل. ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[٧]: أمرهم أن يقتل من لم يعبد العجل من عبدَه[٨] منهم وجعل ذلك توبتهم ففعلوا فتاب عليهم بقبول توبتهم.

(٥٥) ﴿نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾[٩]: نراه عيانًا. ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: نار محرقة كالتي

---

(١) القوم الذين مروا بهم فوجدوهم عاكفين على أصنام لهم هم قوم من الكنعانيين وهم الفينيقيون سكان سواحل بلاد الشام إذ كانوا يعبدون عجلاً مقدّسًا لهم.

(٢) كان يوم نجاة بني إسرائيل يوم عاشوراء المحرم لما في البخاري وغيره من أنّ النبي ﷺ لما قدم المدينة مهاجرًا وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم عن ذلك فقالوا: يوم صالح أنجى الله تعالى فيه بني إسرائيل. فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه وقال: «نحن أحق بموسى منهم» أو كما قال.

(٣) ومما يؤسف ويحزن أن المسلمين لما ابتلاهم الله باستعمار النصارى لهم كانوا كلما استقل شعب أو إقليم طلب قانون الكافرين فحكم به المسلمين، وبنو إسرائيل لما استقلوا على يد موسى ذهب يأتيهم بقانون الربّ ليحكمهم به.

(٤) ولذا كان مبدأ الشكر: الاعتراف بالنعمة أوّلاً، وهو ذكره بالقلب، واللسان.

(٥) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

(٥٤) ﴿لقومه﴾ لفظ القوم يراد به الرجال دون النساء كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ وكقول زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقوم آل حصن أم نساء

وقد يطلق على الرجال والنساء نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ الآية.

(٦) أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومرتكب الذنب بدل أن يزكي نفسه بعمل صالح دسّاها بعمل سيّء فكان بذلك واضعًا شيئًا في غير موضعه، إذ المطلوب من العبد تزكية نفسه لتتأهل للكمال والإسعاد، لا تدسيتها لتخيب وتخسر.

(٧) قال بعضهم: قتل النفس هنا تذليلها بالطاعات وكفّها عن الشهوات وليس بصحيح.

(٨) قتل بعضهم بعضًا كان عقوبة لمن عبدوا العجل، ولمن لم يعبدوه، لأنهم ما غيّروا المنكر وقد رأوه.

(٩) أصل الجهر: الظهور ومنه قرأ جهرًا أي: أظهر القراءة، وجهرة مصدر جهر، وقرىء بفتح الهاء وإسكانها نحو زهَرة، وزهْرة ومعناه علانية أو عيانًا.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

٩

تكون مع السحب والأمطار والرعود.

﴿٥٦﴾ ﴿بَعَثْنَاكُم﴾: أحييناكم[1] بعد موتكم.

﴿٥٧﴾ ﴿الْغَمَامَ﴾: سحاب رقيق أبيض. ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾: المنّ: مادة لزجة حلوة كالعسل[2]، والسلوي: طائر يقال له السُّماني. ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾: الحلال.

المناسبة ومعنى الآيات:

لما ذكّر الله تعالى اليهود بما أنعم على أسلافهم مطالبًا إياهم بشكرها فيؤمنوا برسوله ﷺ. ذكّرهم هنا ببعض ذنوب أسلافهم ليتعظوا فيؤمنوا فذكّرهم بحادثة اتخاذهم العجل إلهًا وعبادتهم له. وذلك بعد نجاتهم من آل فرعون وذهاب موسى لمناجاة الله تعالى، وتركه هارون خليفة له فيهم، فصنع السامري لهم عجلاً من ذهب وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه فأطاعه أكثرهم وعبدوا العجل فكانوا مرتدين بذلك، فجعل الله توبتهم من ردتهم أن يقتل من لم يعبد العجل من عبده فقتلوا منهم سبعين ألفًا، فكان ذلك توبتهم فتاب الله عليهم إنه هو التواب الرحيم. كما ذكّرهم بحادثة أخرى وهي أنه لما عبدوا العجل وكانت ردة اختار موسى بأمر الله تعالى منهم سبعين رجلاً من خيارهم ممن لم يتورطوا في جريمة عبادة العجل، وذهب بهم إلى جبل الطور ليعتذروا إلى ربهم سبحانه وتعالى من عبادة إخوانهم العجل، فلما وصلوا قالوا لموسى اطلب لنا ربك أن يُسمعنا كلامه فأسمعهم قوله: إني أنا الله لا إله إلا أنا أخرجتكم من أرض مصر بيدٍ شديدة فاعبدوني ولا تعبدوا غيري. ولما أعلمهم موسى بأن الله تعالى جعل توبتهم بقتلهم أنفسهم، قالوا: لن نؤمن لك أي لن نتابعك على قولك فيما ذكرت من توبتنا بقتل بعضنا بعضًا حتى نرى الله جهرة، وكان هذا منهم ذنبًا عظيمًا لتكذيبهم رسولهم فغضب الله عليهم فأنزل عليهم صاعقة فأهلكتهم فماتوا واحدًا واحدًا وهم ينظرون، ثم أحياهم تعالى بعد يوم وليلة، وذلك ليشكروه بعبادته وحده دون سواه كما ذكّرهم بنعمة أخرى وهي إكرامه لهم وإنعامه عليهم بتظليل الغمام عليهم، وإنزال المنّ والسلوى[3] أيام حادثة التيه في صحراء سيناء. وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ إشارة إلى أن محنة التيه كانت عقوبة لهم على تركهم الجهاد وجرأتهم على نبيّهم إذ قالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. وما ظلمهم[4] في محنة التيه، ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم.

هداية الآيات:

١ _ عبادة المؤمن غير الله وهو يعلم أنها عبادة لغير الله تعالى تعتبر ردة منه[5] وشركًا.

٢ _ مشروعية قتال المرتدين، وفي

---

(١) إحياؤهم بعد موتهم دليل على البعث الآخر، إذ كان موتهم بإخراج أرواحهم ولم يكن مجرّد همود كما قيل.

(٢) وفي الحديث الذي رواه مسلم: «**الكمأة من المنّ الذي أنزل الله على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين**».

(٣) السلوى: اسم جنس جمعي واحده: سلواة، وقيل: لا واحد له، وهو طائر بريّ لذيذ اللّحم سهل الصيد تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء ويُسمى أيضًا: السماني كحباري.

(٤) في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تقديم المفعول وهو أنفسهم على الفاعل وهو الضمير في يظلمون لإفادة القصر، وهو قصر ظلمهم على أنفسهم حيث لم يتجاوز إلى غيرهم لا موسى ولا ربّه تعالى.

(٥) بدليل أمر الله بني إسرائيل بأن يقتل من لم يعبد العجل من عبده لأنه في حكم المرتد، والمرتد يقتل لحديث الصحيح: «**مَن بدّل دينه فاقتلوه**».

الحديث: «**من بدّل دينه فاقتلوه**»، ولكن بعد استتابته.

٣ - علة الحياة كلها شكر الله تعالى[1] بعبادته وحده.

٤ - الحلال، من المطاعم والمشارب وغيرها، ما أحلّه الله والحرام ما حرّمه الله عز وجل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٨، ٥٩]

(٥٨) ﴿الْقَرْيَةَ﴾[2]: مدينة القدس. ﴿رَغَدًا﴾: عيشًا واسعًا هنيئًا. ﴿سُجَّدًا﴾: رُكّعًا[3] متطامنين لله خاضعين شكرًا لله على نجاتهم من التيه. ﴿حِطَّةٌ﴾: حِطّة[4]: فِعْلَة مثل ردة وحدة من رددت وحددت، أمرهم أن يقولوا حِطة بمعنى احطط عنا خطايانا ورفع (حِطةٌ)[5] على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: دخولنا الباب سجدًا حِطةٌ لذنوبنا. ﴿نَّغْفِرْ﴾: نمحو ونستر. ﴿خَطَايَاكُمْ﴾: الخطايا جمع خطيئة[6]: الذنب يقترفه العبد. (٥٩) ﴿فَبَدَّلَ﴾: غيروا[7] القول الذي قيل لهم قوله وهو حِطة فقالوا: حبَّة في شَعْرة[8]. ﴿رِجْزًا﴾[9]: وباء الطاعون. ﴿يَفْسُقُونَ﴾: يخرجون عن طاعة الله ورسوله إليهم، وهو يوشع عليه السلام.

معنى الآيتين:

(٥٨) تضمنت الآية الأولى (٥٨) تذكير اليهود بحادثة عظيمة حدثت لأسلافهم تجلت فيها نعمة الله على بني إسرائيل وهي حال تستوجب الشكر، وذلك أنهم لما انتهت مدة التيه وكان قد مات كل من موسى وهارون وخلفهما في بني إسرائيل فتى موسى يوشع بن نون وغزا بهم العمالقة وفتح الله تعالى عليهم بلاد القدس أمرهم الله تعالى أمر إكرام وإنعام فقال: ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واشكروا لي هذا الإنعام بأن تدخلوا باب المدينة راكعين متطامنين قائلين: دخولنا الباب سجدًا حطةً لذنوبنا التي اقترفناها بنكولنا عن الجهاد على عهد موسى وهارون.

---

(١) دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾ أي: أحييناكم بعد موتكم لعلكم تشكرون، وأصرح منه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ والعبادة هي الشكر.

(٥٨) ﴿وإذ﴾ ذهب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور صاحب تفسير «التحرير والتنوير» إلى أن القائل لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ..﴾ الآية هو موسى عليه السلام وأن هذا الأمر كان في بداية أمرهم لمّا خرجوا من مصر، وأنّ الذين ظلموا منهم هم عشرة رجال مِنْ اثني عشر بعث بهم موسى عليه السلام جواسيس يكتشفون أمر العدو ويقدّرون قوته قبل إعلان الحرب عليهم فرجعوا وهم يهوّلون من شأن العدو وقوته وينشرون الفزع والرعب في بني إسرائيل ما عدا اثنين منهم وهما: يوشع بن نون قريب موسى، وطالب بن بقتّه الذين ذُكرا في سورة المائدة: ﴿قَالَ رَجُلَانِ..﴾ الآية وخالف في هذا جمهور المفسرين وادعى الغلط لهم، وما حمله على ذلك سوى أن السياق ما زال مع موسى وقومه مع أن الله تعالى لم يذكر موسى بل قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ والرسول ﷺ في حديث البخاري قال: «**قيل لبني إسرائيل**» ولم يقل: قال موسى لبني إسرائيل ونص الحديث: «**قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجّدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم فبدّلوا وقالوا: حطة حبّة في شعرة**» والآمر لهم حقيقة هو الله تعالى على لسان يوشع، إذ هو الذي قاد الحملة ونصره الله، ودخل بيت المقدس، وأحاديث الرسول ﷺ شاهدة.

(٢) سميت المدينة قرية: من التقري الذي هو التجمع مأخوذ من قريت الماء في الحوض إذا جمعته ومنه قرى الضيف: وهو ما يجمع له من طعام وشراب، وفراش.

(٣) لأنّ السجود الذي هو وضع الجبهة على الأرض متعذر المشي معه فلذا فُسّر السجود بانحناء الركوع في تطامن وخضوع.

(٤) يوجد باب حطّة اليوم في المسجد الأقصى.

(٥) وقرىء: ﴿حِطّةً﴾ بالنصب على تقدير احطط عنا ذنوبنا حِطّة.

(٦) المفروض أن تجمع خطيئة على خطائىء نحو حميلة وحمائل، ولكنهم استثقلوا الجمع بين همزتين فقلبوا الهمزة الأولى ياء والثانية ألفًا فصارت خطايا.

(٧) من هذا أخذ حرمة تبديل لفظ تعبّدنا الله به بلفظ آخر ولو أدّى معناه مثل: الله أكبر في افتتاح الصلاة، والسلام عليكم في الخروج منها. وما لم يتعبّدنا الله بلفظ يجوز للعالم تبديله وذلك كرواية الحديث بالمعنى للعالم دون الجاهل، وعليه جمهور الأمة.

(٨) و(في شعرة) كنّوا بهذا عن كون فتحهم البلاد، ودخولهم إياها من المحال كالذي يحاول ربط حبّة في شعرة.

(٩) والرّجس: بالسين عذاب فيه نتن وعفونة وقذر.

نبكم بمغفرة ذنوبكم ونزيد المحسنين منكم ثوابًا كما تضمنت الآية الثانية (٥٩) حادثة أخرى تجلّت فيها حقيقة سوء طباع اليهود وكثرة رعوناتهم وذلك بتغييرهم الفعل الذي أمروا به والقول الذي قيل لهم فدخلوا الباب زاحفين على أستاههم قائلين: حبة في شعيرة!! ومن ثم انتقم الله منهم فأنزل على الظالمين منهم طاعونًا أفنى منهم خلقًا كثيرًا جزاء فسقهم عن أمر الله عز وجل. وكان فيما ذكر عظة لليهود لو كانوا يتعظون.

هداية الآيتين:

١ - تذكير الأبناء بأيام[1] الآباء للعظة والاعتبار.

٢ - ترك الجهاد إذا وجب يسبب[2] للأمة الذل والخسران.

٣ - التحذير من عاقبة الظلم والفسق والتمرد على أوامر الشارع.

٤ - حرمة[3] تأويل النصوص الشرعية للخروج بها عن مراد الشارع منها.

٥ - فضيلة الإحسان[4] في القول والعمل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٠، ٦١]

(٦٠) ﴿ٱسْتَسْقَىٰ﴾: طلب لهم من الله تعالى السقيا أي الماء للشرب وغيره. ﴿بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾: عصا موسى التي كانت معه منذ خرج من بلاد مدين. وهل هي من شجر الجنة هبط بها آدم كذا قيل والله أعلم. والحجر هو حجر مربع الشكل من نوع الكذّان رخو كالمدر. وهل هو الذي فرّ بثوب موسى في حادثة[5] معروفة كذا قيل أو هو حجر من سائر الأحجار[6]؟ الله أعلم. ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾: الانفجار: الانفلاق. فانفجرت: انفلقت من العصا العيون. ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: موضع شربهم. ﴿رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾: ما رزق الله به العباد من سائر الأغذية. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾: العَثيّ والعِثِيّ: أكبر الفساد وفعله عِثي كرضي يعثي كيرضي وعثا يعثو كعدا يعدو. ﴿مُفْسِدِينَ﴾: الإفساد: العمل بغير طاعة الله ورسوله ﷺ في كل مجالات الحياة. البقل: وجمعه البقول سائر أنواع الخضر كالجزر والخردل والبطاطس ونحوها. القثاء: الخيار والقته ونحوهما. الفُوم: الحِنطة وقيل الثوم[7] لذكر البصل بعده.

(٦١) ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾: الاستبدال ترك شيء وأخذ آخر بدلاً عنه. ﴿أَدْنَىٰ﴾: أقل صلاحًا وخيرية ومنافع كاستبدال المن والسلوى بالفوم والبقل. ﴿مِصْرًا﴾[8]: مدينة من المدن قيل لهم هذا وهم في التيه كالتعجيز لهم والتحدي لأنهم نكلوا عن قتال الجبارين فأصيبوا بالتيه وحرموا خيرات مدينة القدس وفلسطين. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾: أحاطت بهم ولازمتهم الذلة وهي الصغار والاحتقار. ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾: والمسكنة وهي الفقر والمهانة. ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾ رجعوا من طول عملهم وكثرة كسبهم بغضب الله وسخطه عليهم وبئس ما رجعوا به. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾: ذلك

---

(١) المراد بالأيام: ما وقع فيها من خير وغيره ثمرة كسبهم ونتاج أعمالهم بالطاعة لله تعالى، أو المعصية له عزّ وجلّ.

(٢) يشهد له حديث أبي داود وأحمد إذ فيه وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم.

(٣) كتأويل الروافض لفظ بقرة بعائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ وكتأويل بعض المعاصرين أن ربا البنوك ليس هو ربا الجاهلية الحرام.

(٤) المحسن: من صح عقد توحيده، وأحسن سياسة نفسه، وأقبل على أداء فرضه، وكفى المسلمين شرّه. هكذا عرّفه بعضهم، وأقرب من هذا، المحسن: من راقب الله تعالى في نياته، ومعتقداته، وأقواله، وأفعاله فأحسن في ذلك كله ولم يسىء فيه وبذل المعروف للناس، ولم يسىء إليهم، وحسب الإحسان فضيلة أنّ الله يحب المحسنين، ومن أحبه الله أسعده وما أشقاه.

(٥) هذه الحادثة كما هي في الصحيح: أن موسى عليه السلام اتهمه قوم: بالأدرة: (انتفاخ في إحدى الخصيتين). فأراد الله تعالى أن يبرئه منها، فدخل موسى البحر يغتسل، ووضع ثوبه على حجر ففرَّ الحجر بالثوب فلحقه موسى فمرّ به ببني إسرائيل حتى علموا أن تهمتهم باطلة.

(٦) كون أل في الحجر لبيان الجنس وأن أي: حجر يضربه موسى يتفجر منه الماء أظهر في المعجزة وأدلّ على قدرة الله تعالى.

(٧) لأن إبدال التاء فاءً شائع.

(٨) هذا بناءً على صرف مصر إذ هو منون منصوب، ولو أريد به مصر التي خرجوا منها لقرىء مصر ممنوعًا من الصرف للعلمية والتأنيث.

إشارة إلى ما أصابهم[1] من الذلة والمسكنة والغضب وبأنهم أي بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء وعصيانهم، فالباء سببية. الاعتداء: مجاوزة الحق إلى الباطل، والمعروف إلى المنكر، والعدل إلى الظلم.

معنى الآيتين:

يُذكّر الله تعالى اليهود المعاصرين لنزول القرآن بالمدينة النبوية بأياديه في أسلافهم وأيامه عز وجل فيهم وفي الآية الأولى رقم (٦٠) ذكّرهم بأنهم لما عطشوا في التيه استسقى[2] موسى ربه فسقاهم بأمر خارق للعادة ليكون لهم ذلك آية ليلزموا الإيمان والطاعة وهو أن يضرب موسى عليه السلام بعصاه الحجر[3] فيتفجر الماء منه من اثني عشر موضعًا كل موضع يمثل عينًا يشرب منها سبط[4] من أسباطهم الاثني عشر حتى لا يتزاحموا فيتضرروا أكرمهم الله بهذه النعمة، ونهاهم عن الفساد في الأرض بارتكاب المعاصي.

(٦١) وفي الآية الثانية (٦١) ذكّرهم بسوء أخلاق كانت في سلفهم منها عدم الصبر، والتعنت وسوء التدبير والجهالة بالخير، والرعونة وغيرها. وهذا ظاهر في قولهم يا موسى بدل يا نبي الله أو رسول الله لن نصبر على طعام واحد. وقولهم ادع لنا ربك بدل ادع الله تعالى لنا أو ادع لنا ربنا عز وجل. وفي مللهم اللحم والعسل وطلبهم الفوم والبصل بدلاً عنهما، وفي قول موسى عليه السلام: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[5] ما يقرر ذلك كما ذكّرهم بالعاقبة المرة التي كانت لهم نتيجة كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، واعتدائهم وعصيانهم، وهي أن ضرب[6] الله تعالى عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم.

كل هذا وغيره مما ذكّر الله تعالى اليهود به في كتابه من أجل أن يذكروا فيتعظوا ويشكروا فيؤمنوا بنبيه محمد ﷺ ويدخلوا في دينه فيكملوا ويسعدوا بعد أن ينجوا مما حاق بهم من الذلة والمسكنة والغضب في الدنيا، ومن عذاب النار يوم القيامة.

هداية الآيتين:

١ ـ استحسان الوعظ والتذكير بنعم الله تعالى ونقمه في الناس.

٢ ـ مطالبة ذي النعمة بشكرها[7]، وذلك بطاعة الله تعالى بفعل أوامره. وترك نواهيه.

٣ ـ ذم الأخلاق السيئة والتنديد بأهلها للعظة والاعتبار.

٤ ـ التنديد بكبائر الذنوب كالكفر وقتل النفس بغير الحق لا سيما قتل الأنبياء أو خلفائهم وهم العلماء الآمرون بالعدل في الأمة.

شرح الكلمات: [الآية: ٦٢]

(٦٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[8]: هم المسلمون آمنوا بالله ووحّدوه وآمنوا برسوله ﷺ واتبعوه. ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا﴾: هم اليهود سُموا[9] يهودًا لقولهم: إنا هدنا إليك أي تبنا

---

(١) هذا عام في اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية، ومن قبلهم، ومن يأتي بعدهم، لأنّ التعليم كان بكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، والكل موافق راض بهذه الجرائم، وعصيانهم واعتداؤهم ملازم لهم ما فارقهم إلى اليوم.

(٢) في الآية مشروعية الاستسقاء وهو سنّة مؤكدة في الإسلام، فقد استسقى النبي ﷺ وسقى الله الأمة بدعائه غير مرّة.

(٣) انفجار الماء من الحجر معجزة عظيمة، وانفجار الماء من بين أصابع النبي محمد ﷺ معجزة أعظم لأن انفجار الماء من الأحجار معهود معروف ولكن من أصابع هي لحم ودم غير معهود قط.

(٤) السبط في بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب.

(٥) في قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ إلخ.. إنكار عليهم وتوبيخ لهم.

(٦) إحاطة الذل والمسكنة بهم ذكر في آية آل عمران مقيدًا بما لم يكن لهم حبل من الله وهو الدخول في الإسلام، وحبل من الناس وهو حماية دولة قوية لهم كبريطانيا أولاً وأمريكا ثانيًا.

(٧) كما قيل: من لم يشكر النعم تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها.

(٨) يرى بعض المفسرين أن المراد (بالذين آمنوا: المنافقون، والصحيح ما ذكرناه وهم المسلمون وسموا بالمؤمنين لصحة إيمانهم والفائدة من ذكرهم هي: ليعلم اليهود وغيرهم أن النسب والانتساب إلى الدين لا يؤهل للسعادة في الدار الآخرة، وإنما يؤهل الإيمان الصحيح، والعمل الصالح، إذ بهما تزكو النفس وتطهر فتتأهل لجوار الله تعالى في الملكوت الأعلى).

(٩) أو نسبة إلى يهودا وهو أكبر أولاد يعقوب عليه السلام.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

١٠

ورجعنا. ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾: الصليبيون سموا نصارى إما لأنهم يتناصرون أو لنزول مريم بولدها عيسى قرية الناصرة، والواحد نصران[1] أو نصراني وهو الشائع على الألسنة. الصابئون: أمة كانت بالموصل يقولون لا إله إلا الله. ويقرؤون الزبور. ليسوا يهودًا ولا نصارى واحدهم صابىء[2]، ولذا كانت قريش تقول لمن قال لا إله إلا الله صابىء أي مائل عن دين آبائه إلى دين جديد وحّد فيه الله تعالى.

مناسبة الآية ومعناها:

لما كانت الآية في سياق دعوة اليهود إلى الإسلام ناسب أن يعلموا أن النَّسَبَ لا قيمة لها وإنما العبرة بالإيمان الصحيح والعمل الصالح المزكي للروح البشرية والمطهر لها فلذا المسلمون واليهود والنصارى والصابئون[3] وغيرهم كالمجوس وسائر أهل الأديان من آمن منهم بالله واليوم الآخر حق الإيمان وعمل صالحًا مما شرع الله تعالى من عبادات فلا خوف عليهم بعد توبتهم ولا حزن ينتابهم عند موتهم من أجل ما تركوا من الدنيا، إذ الآخرة خير وأبقى.

والإيمان الصحيح لا يتم لأحد إلا بالإيمان بالنبي الخاتم محمد ﷺ والعمل الصالح لا يكون إلا بما جاء به النبي الخاتم ﷺ في كتابه وما أوحى إليه، إذ بشريعته نسخ الله سائر الشرائع قبله وبالنسخ بطل مفعولها فهي لا تزكي النفس ولا تطهرها. والسعادة الأخروية متوقفة على زكاة النفس[4] وطهارتها.

هداية الآية:

١ - العبرة بالحقائق لا بالألفاظ فالمنافق إذا قال هو مؤمن أو مسلم، ولم يؤمن بقلبه ولم يسلم بجوارحه لا تغني النسبة عنه شيئًا، واليهودي والنصراني والصابىء وكل ذي دين نسبته إلى دين قد نسخ وبطل العمل بما فيه فأصبح لا يزكي النفس، هذه النسبة لا تنفعه، وإنما الذي ينفع الإيمان الصحيح والعمل الصالح.

٢ - أهل الإيمان الصحيح والاستقامة على شرع الله الحق مبشرون بنفي الخوف عنهم والحزن، وإذا انتفى الخوف حصل الأمن، وإذا انتفى الحزن حصل السرور والفرح وتلك السعادة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٣ ـ ٦٦]

الميثاق: العهد المؤكد باليمين..

﴿٦٣﴾ ﴿ٱلطُّورَ﴾: جبل أو هو الجبل الذي ناجى الله تعالى عليه موسى عليه السلام. ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بجد وحزم وعزم.

---

(١) نصران على وزن سكران والجمع نصارى كسكارى.

(٢) قرىء بالتخفيف: ﴿الصابين﴾ وهي قراءة ورش عن نافع.

(٣) عامة أهل العلم على أن الصابئة ليسوا أهل كتاب فلا تُنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم لأنهم وثنيون ولا كتاب لهم على الصحيح.

(٤) لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾.

﴿٦٣﴾ ﴿ميثاقكم﴾ مأخوذ من وثق الشيء بالحبل إذا شدّه به تقوية له.

﴿٦٣﴾ ﴿واذكروا﴾ أي: اذكروا ما تضمنه الكتاب الذي هو التوراة، اذكروا حفظًا لشرائعه وأحكامه وعملاً به، واذكروا وعد الله تعالى فيه ووعيده رجاء أن تحصل لكم التقوى فتنجوا من الخسران.

﴿٦٤﴾ ﴿تَوَلَّيْتُم﴾: رجعتم عما التزمتم القيام به من العمل بما في التوراة.

﴿٦٥﴾ ﴿ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾: تجاوزوا الحدَّ فيه حيث حرم عليهم الصيد فيه فصادوا. ﴿قِرَدَةً﴾: القردة جمع قرد حيوان معروف مسخ الله تعالى المعتدين في السبت على نحوه. ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: مبعدين عن الخير ذليلين مهانين.

﴿٦٦﴾ ﴿نَكَٰلًا﴾: عقوبة شديدة تمنع من رآها أو علمها من فعل ما كانت سببًا فيه. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾: لما بين يدي العقوبة من الناس، ولمن يأتي بعدهم. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]: يتعظون[2] بها فلا يقدمون على معاصي الله عز وجل.

معنى الآيات:

يذكر الحق عز وجل اليهود بما كان لأسلافهم من أحداث لعلهم يعتبرون فيذكرهم بحادثة امتناعهم من تحمل العمل بالتوراة وإصرارهم على ذلك حتى رفع الله تعالى فوقهم جبلاً فأصبح كالظلة فوق رؤوسهم حينئذ أذعنوا غير أنهم تراجعوا بعد ذلك ولم يفوا بما التزموا به فاستوجبوا الخسران لولا رحمة الله بهم. كما يذكرهم بجريمة كانت لبعض أسلافهم وهي أنه تعالى حرّم عليهم الصيد يوم السبت فاحتالت طائفة منهم على الشرع واصطادوا فنكل الله تعالى بهم فمسخهم[3] قردة، وجعلهم عظة وعبرة للمعتبرين[4].

هداية الآيات:

١ - وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق.

٢ - يجب أخذ أحكام الشرع بحزم، وذكرها وعدم نسيانها أو تناسيها.

٣ - لا تتم التقوى لعبد إلا إذا أخذ أحكام الشرع بحزم وعزم.

٤ - حرمة[5] الاحتيال لإباحة المحرّم وسوء عاقبة المحتالين المعتدين.

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٧ - ٧١]

البقرة: واحدة البقر والذكر ثور

﴿٦٤﴾ ﴿فضل﴾ من فضل الله تعالى أنه لم يعاجلهم بالعقوبة جزاء توليهم عن الطاعة، وإعراضهم عنها بعد أخذ الميثاق عليهم ومن رحمته أنه أرسل فيهم الرسل فلم تنقطع سلسلتهم إلى عيسى بن مريم عليه السلام.

﴿٦٥﴾ ﴿كونوا﴾ الأمر هنا: كوني لا شرعي إذ لا طاقة لهم على التحول إلى قردة، وإنّما تحولوا بأمره الإرادي الكوني الذي لا يَتَخَلَّفُ فيه مراده عزّ وجل.

﴿٦٦﴾ ﴿فجعلناها﴾ الضمير في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ يعود إلى العقوبة التي هي مسخهم قردة.

(١) خص المتقين بالموعظة لأنهم أحياء القلوب وذو بصائر نيّرة، فيشاهدون آثار المعاصي في أصحابها فيتقونها ويبتعدون عنها.

(٢) يمتنعون من فعل الذنب الذي كان سببًا في العقوبة.

(٣) جرت سنة الله فيمن يمسخهم أنهم لا يعيشون ثلاثًا حتى يهلكوا ولم يبق منهم أحد، كذا صح عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) هم أهل البصائر من أهل الإيمان والتقوى إذ هم أرباب العقول، والعاقل من اعتبر بغيره.

(٥) روى أحمد بسند جيّد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**».

﴿٦٧﴾ ﴿الجاهلين﴾ استعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين، إذ الهزؤ والسخرية، من أفعال أهل الجهل فكان قول موسى هذا وصمًا لهم بالجهل وفساد العقل وسوء الأخلاق.

والأنثى بقرة. الذبح: قطع الودجين والمارن. الهزؤ: السخرية واللعب. الجاهل[١]: الذي يقول أو يفعل ما لا ينبغي قوله أو فعله. ﴿٦٨﴾ الفارض[٢]: المسنة، والبكر الصغيرة التي لم تلد بعد. والعوان النّصَفُ وسط بين المسنة والصغيرة.

﴿٦٩﴾ ﴿فَاقِعٌ﴾: يقال: أصفر فاقع شديدة الصفرة كأحمر قانيء وأبيض ناصع[٣]. ﴿٧٠﴾ الذلول: الرّيِّضة التي زالت صعوبتها فأصبحت سهلة منقادة.

﴿٧١﴾ ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾: تقلبها بالمحراث فيثور غبارها بمعنى أنها لم تستعمل في الحرث ولا في سقاية الزرع أي لم يُسن عليها، وذلك لصغرها. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: سليمة من العيوب كالعور والعرج[٤]. ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾: الشية العلامة أي لا يوجد فيها لون غير لونها[٥] من سواد أو بياض.

معنى الآيات:

واذكر يا رسولنا لهؤلاء اليهود عيبًا آخر من عيوب أسلافهم الذين يَعْتَزُّونَ بهم وهو سوء سلوكهم مع أنبيائهم فيكون توبيخًا لهم لعلهم يرجعون عن غيهم فيؤمنوا بك وبما جئت به من الهدى ودين الحق. اذكر لهم قصة الرجل الذي قتله ابن أخيه استعجالاً لإرثه ثم ألقاه تعمية في حي غير الحي الذي هو منه، ولما اختلفوا في القاتل قالوا نذهب إلى موسى يدعو لنا ربه ليبين لنا من هو القاتل فجاؤوه فقال لهم إن الله تعالى يأمركم أن تذبحوا بقرة من أجل أن يضربوا القتيل بجزء منها فينطق مبينًا من قتله فلما قال لهم ذلك قالوا أتتخذنا هزؤًا فوصفوا نبي الله بالسخرية واللعب وهذا ذنب قبيح وما زالوا يسألونه عن البقرة ويتشددون حتى شدّد الله تعالى عليهم الأمر الذي كادوا معه لا يذبحون مع أنهم لو تناولوا بقرة من عرض الشارع وذبحوها لكفتهم[٦]. ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم فعثروا على البقرة المطلوبة بعد جهد جهيد وغالى فيها صاحبها فباعها منهم بملء جلدها ذهبًا.

هداية الآيات:

١ - بيان ما كان عليه قوم موسى من بني إسرائيل من العجرفة وسوء الأخلاق ليتجنب مثلها المسلمون.

٢ - حرمة الاعتراض على الشارع ووجوب تسليم أمره أو نهيه ولو لم تعرف فائدة الأمر والنهي وعلتها.

٣ - الندب إلى الأخذ بالمتيسر وكراهة[٧] التشدد في الأمور.

٤ - بيان فائدة الاستثناء بقول إن شاء الله، إذ لو لم يقل اليهود إن شاء[٨] الله لمهتدون ما كانوا ليهتدوا إلى معرفة البقرة المطلوبة.

٥ - ينبغي تحاشي الكلمات التي قد يفهم منها انتقاص الأنبياء مثل قولهم الآن جئت بالحق، إذ مفهومه أنه ما جاءهم بالحق إلا في هذه المرة من عدة مرات سبقت!!

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٢ ـ ٧٤]

﴿٧٢﴾ ﴿نَفْسًا﴾: نفس الرجل الذي قتله وارثه استعجالاً للإرث.

---

(١) الجاهل الذي جهل الأمر فقال أو عمل فيه بدون علم فأفسد وأساء.

(٢) الفارض: المسنّة التي فرضت سنها فقطعته، لأن الفرض لغة القطيع.

(٣) هذه الألفاظ يؤتى بها لتأكيد الوصف فيقال: أخضر مدهام وأورق خطباني «الخطباني نبت».

(٤) استدل الجمهور بهذه الصفات المذكورة للبقرة على جواز بيع السلَم في الحيوان كما استدلوا بقول الرسول ﷺ في الصحيح: «**لا تنعت المرأة المرأة لزوجها، كأنه ينظر إليها**»، وخالف أبو حنيفة وقال بعدم صحة السلم في الحيوان.

(٥) لأن الشية مأخوذة من وشي الثوب إذا نسج على لونين، ولذا قيل: النمام واش لأنه لوّن الكلام بألوان من كذبه وباطله.

(٦) نقل ابن كثير عن ابن جرير الرواية التالية: إنما أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا، شدّد الله عليهم، وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الدهر.

(٧) وشاهده من السنة قوله ﷺ في الصحيحين: «**يسروا ولا تعسروا بشروا ولا تنفروا**» وقوله ﷺ لأصحابه: «**إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**» رواه الترمذي.

(٨) يشهد لصحة هذا أن نبي الله سليمان لما لم يستثنِ لم تلد له امرأة من المائة إلاّ واحدة، وجاءت به نصف ولد وقال رسول الله ﷺ: «**لو استثنى لكان دركًا لحاجته**» كما في البخاري.

﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾: تدافعتم أمر قتلها كل قبيل يقول قتلها القبيل الآخر. ﴿مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾: من أمر القاتل سترًا عليه دفعًا للعقوبة والفضيحة.

(٧٣) ﴿بِبَعْضِهَا﴾: ببعض أجزاء البقرة كلسانها أو رجلها مثلاً.

معنى الآيات:

يقول تعالى لليهود موبخًا لهم اذكروا إذ قتل أحد أسلافكم قريبه ليرثه فاختصم في شأن القتل كل جماعة تنفي أن يكون القاتل منها، والحال أن الله تعالى مظهر ما تكتمونه لا محالة إحقاقًا للحق وفضيحة للقاتلين فأمركم أن تضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة فيحيا ويخبر عن قاتله ففعلتم وأحيا الله القتيل وأخبر بقاتله[1] فقتل به فأراكم الله تعالى بهذه القصة آية من آياته الدالة على حلمه وعلمه وقدرته وكان المفروض أن تعقلوا عن الله آياته فتكملوا في إيمانكم وأخلاقكم وطاعتكم، ولكن بدل هذا قست قلوبكم وتحجرت وأصبحت أشد قساوة من الحجارة فهي لا ترق ولا تلين ولا تخشع على عكس الحجارة إذ منها ما تتفجر منه العيون، ومنها ما يلين فيهبط من خشية الله كما اندك جبل الطور لما تجلى له الرب تعالى، وكما اضطرب أُحُد تحت قدمي رسول الله ﷺ وأصحابه. ثم توعدكم الرب تعالى بأنه ليس بغافل عما تعملون من الذنوب والآثام وسيجزيكم به جزاء عادلاً إن لم تتوبوا إليه وتنيبوا.

هداية الآيات:

١ - صدق نبوة الرسول محمد ﷺ وتقريرها أمام اليهود إذ يخبرهم بأمور جرت لأسلافهم لم يكن يعلمها غيرهم وذلك إقامة للحجة عليهم.

٢ - الكشف عن نفسيات اليهود وأنهم يتوارثون الرعونات والمكر والخداع.

٣ - اليهود من أقسى البشر قلوبًا إلى اليوم، إذ كل عام يرمون البشرية بقاصمة الظهر وهم ضاحكون.

٤ - من علامات الشقاء قساوة القلوب، وفي الحديث: «من لا يرحم لا يُرحم»[2].

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

١٢

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٥ - ٧٨]

(٧٥) ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾: الهمزة للإنكار الاستبعادي، والطمع تعلق النفس بالشيء رغبة فيه. ﴿يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾:

---

(٧٣) ﴿يحيي﴾ لما كانت عقيدة البعث والجزاء ذات تأثير كبير في إصلاح الإنسان خلقًا وسلوكًا ذكرها تعالى في أثناء سياق القصة مع أن اليهود يؤمنون بالبعث الآخر.

(٧٤) ﴿أو﴾ أو: بمعنى الواو وليست لشك وقد تكون بمعنى بل وشاهد الأول قول الشاعر:

أتى الخلافة أو كانت له قدرًا

بمعنى وكانت، وشاهد الثاني: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ الآية أي: بل يزيدون لاستحالة الشك على الله تعالى.

(٧٤) ﴿قسوة﴾ القسوة في عرف اللغة: اليبس والصلابة، ووصفت قلوب اليهود بذلك لأنها خالية من اللطف والرحمة.

(١) في هذه الآية شاهد لمالك في أن الجريح إذا أخبر عن جرحه ومات أنّ إخباره يعد لَوَثًا وتجري في الحادث القسامة وخالف الجمهور وقالوا: إخبار القتيل لا يكفي في وجود اللوث المقتضي للقسامة ولرأي مالك شاهد من السنة وهي الجارية التي رضّ رأسها كما في البخاري.

(٢) متفق عليه.

يُتابعونكم على دينكم (الإسلام). ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[1]: في كتبه كالتوراة والإنجيل والقرآن. ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾[2]: التحريف الميل بالكلام على وجه لا يدل على معناه كما قالوا في نعت الرسول ﷺ في التوراة: أكحل العينين ربعة جعد الشعر حسن الوجه قالوا: طويل أزرق العينين سبط الشعر.

(٧٦) ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: إذا لقي منافقو اليهود المؤمنين قالوا آمنا بنبيكم ﷺ ودينكم. ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، وتحديثهم إخبار المؤمنين بنعوت النبي ﷺ في التوراة. ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾: إذا خلا منافقو اليهود برؤسائهم أنكروا عليهم إخبارهم المؤمنين بنعوت النبي ﷺ في التوراة، وهو مما فتح[3] الله به عليهم ولم يعلمه غيرهم. ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾: يقولون لهم لا تخبروا المؤمنين بما خصكم الله به من العلم حتى لا يحتجوا عليكم به فيغلبوكم وتقوم الحجة عليكم فيعذبكم الله[4].

(٧٨) ﴿أُمِّيُّونَ﴾: الأمي: المنسوب إلى أمه كأنه ما زال في حجر أمه لم يفارقه فلذا هو لم يتعلم الكتابة والقراءة[5]. ﴿أَمَانِيَّ﴾: الأماني جمع أمنية وهي إمّا ما يتمناه المرء في نفسه من شيء يريد الحصول عليه، وإما القراءة من تمنى الكتاب إذا قرأه[6].

معنى الآيات:

(٧٦) ينكر تعالى على المؤمنين طمعهم في إيمان اليهود لهم بنبيهم ﷺ ودينهم، ويذكر وجه استبعاده بما عرف به اليهود سلفًا وخلفًا من الغش والاحتيال بتحريف الكلام وتبديله تعمية وتضليلاً حتى لا يُهتدىٰ إلى وجه الحق فيه ومن كان هذا حاله يبعد جدًا تخلصه من النفاق والكذب وكتمان الحق ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ وهم كاذبون، وإذا خلا بعضهم ببعض أنكروا على أنفسهم ما فَاه به بعضهم للمسلمين من صدق نبوة الرسول ﷺ وصحة دينه متعللين بأن مثل هذا الاعتراف يؤدي إلى احتجاج المسلمين به عليهم وغلبهم في الحجة، وسبحان الله كيف فسد ذوق القوم وساء فهمهم حتى ظنوا أن ما يخفونه يمكن إخفاؤه على الله. قال تعالى في التنديد بهذا الموقف الشائن:

(٧٧) ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝﴾؟

(٧٨) ومن جَهْلِ بعضهم بما في التوراة وعدم العلم بما فيها من الحق والهدى والنور ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي إلاَّ مُجرَّد قراءة فقط، أما إدراك المعاني الموجبة لمعرفة الحق والإيمان به واتباعه فليس لهم فيها نصيب، وما يقولونه ويتفوهون به لم يَعْدُ الخَرْصَ والظَّنَّ الكاذِبَ.

---

(٧٥) ﴿أفتطمعون﴾ الطمع كالرجاء، وهو ترقب شيء محبوب وضدها اليأس.

(٧٥) ﴿ما عقلوه﴾ أي: فهموه فهمًا جليًا واضحًا ومع هذا يجافونه على بصيرة.

(١) ويدخل في الجملة: الذين سمعوا كلام الله مع موسى عليه السلام في جبل الطور وهم السبعون الذين اختارهم موسى وخرج بهم إلى الطور طلبًا لتوبتهم.

(٢) التحريف: مصدر حرف الشيء إذا مال به إلى الحرف الذي هو الطرف والبعد عن وسط الجادّة.

(٣) من الجائز أن يكون معنى بما فتح الله به عليهم أي: قضى وحكم من إنزال المصائب بهم والكوارث بأسلافهم وهي كثيرة لأن فتح تكون بمعنى حكم ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: احكم.

(٤) هذا الكلام جارٍ على عقيدة اليهود في تشبيههم الرب تعالى بحكام البشر في رواج الحيل عليه، وإمكان مغالطته وأنه تعالى يوجد الشيء ثم يندم ويأسف كما هو صريح في التوراة فلذا أنكروا على بعضهم إخبار المؤمنين بصدق النبوة المحمدية مخافة أن يحتجوا عليهم يوم القيامة بذلك.

(٥) وجائز أن يكون منسوبًا إلى الأمة فيكون بمعنى العامي المنسوب إلى العامة.

(٦) وشاهده قول الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أوّل ليله ... وآخره لاقى حِمام المقادر

أي: قرأ القرآن في أوّل الليل الذي قتل فيه رضي الله عنه.

هداية الآيات:

١ - أن أبعد الناس عن قبول الحق والإذعان له اليهود.

٢ - قبح إنكار الحق بعد معرفته.

٣ - قبح الجهل بالله وبصفاته العلا وأسمائه الحسنى.

٤ - ما كل من يقرأ الكتاب يفهم معانيه فضلاً عن معرفة حِكمه وأسراره وواقع أكثر المسلمين اليوم شاهد على هذا، فإن حفظة القرآن منهم من لا يعرفون معانيه فضلاً عن غير الحافظين له.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٩ - ٨١]

(٧٩) ﴿فَوَيْلٌ﴾: الويل[(١)]: كلمة تقال لمن وقع في هلكة أو عذاب. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: ما يكتبه علماء اليهود من أباطيل وينسبونه إلى الله تعالى ليتوصلوا به إلى أغراض دَنِيَّةٍ من متاع الدنيا القليل. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: ينسبون ما كتبوه بأيديهم إلى التوراة بوصفها[(٢)] كتاب الله ووحيه إلى موسى عليه السلام. ﴿يَكْسِبُونَ﴾: الكسب يكون في الخير، وهو هنا في الشر فيكون من باب التهكم بهم.

(٨٠) ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾: أربعين[(٣)] يومًا وهذا من كذبهم وتضليلهم للعوام منهم ليصرفوهم عن الإسلام. ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، والعهد: الوعد المؤكد.

(٨١) ﴿سَيِّئَةً﴾: هذه سيئة الكفر والكذب على الله تعالى. ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ﴾[(٤)]: الإحاطة بالشيء: الالتفاف به والدوران عليه. ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: الخطيئة واحدة الخطايا وهي الذنوب عامة. الخلود: البقاء الدائم الذي لا تحول معه ولا ارتحال.

معنى الآيات:

يتوعد الرب تبارك وتعالى بالعذاب الأليم أولئك المضللين من اليهود الذين يحرفون كلام الله، ويكتبون أمورًا من الباطل وينسبونها إلى الله تعالى ليتوصلوا بها إلى أغراض دنيوية سافلة.

وينكر عليهم تبجحهم الفارغ بأنهم لا يعذبون بالنار مهما كانت ذنوبهم ما داموا على ملة اليهود إلا أربعين يومًا ثم يخرجون، وجائز أن يتم هذا لو كان هناك عهد من الله تعالى قطعه لهم به ولكن أين العهد؟ إنما هو الادعاء الكاذب فقط، ثم يقرر العليم الحكيم سبحانه وتعالى حكمه في مصير الإنسان بدخول النار أو الجنة، ذلك الحكم القائم على العدل والرحمة البعيد عن التأثر بالأنساب والأحساب فيقول بلى، ليس الأمر كما تدعون، وإنما هي الخطايا والحسنات، فمن كسب سيئة وأحاطت[(٥)] به خطيئاته[(٦)] فخَبّثتْ نفسَه ولوّثتها فهذا لا يُلائم

---

(٧٩) في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ إلخ.. بيان سبب عذابهم وهو كذبهم على الله بكتابة شيء، ونسبته إلى الله تعالى كما هو أكلهم الحرام الذي كسبوه بالكتابة الباطلة.

(٧٩) قوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ هو نحو نظرته بعيني، وقلته بلساني تأكيد لا غير.

(١) الويل مصدرٌ أمات العرب فعله، ومؤنثه الويلة، والجمع الويلات وإعرابه إن أفرد ولم يضف الرفع بالابتداء وخبره المجرور بحرف الجر، وإن أضيف إلى ضمير نصب نحو: ويلك لا تفعل كذا، وإن أضيف إلى ظاهر رفع الابتداء نحو: «**ويل أمه مسعر حرب**» الحديث...

(٢) من المعلوم أن التوراة قد أخذت من اليهود في حملة بختنصر وفي حملة القائد الروماني ولذا ضاع أكثرها وزيد فيها ونقص منها بحيث ما أصبحت صالحة لهداية البشرية، ومن هنا أصبح علماؤهم يكتبون الكلمات وينسبونها إلى التوراة التي هي كتاب الله في الأصل، ويزعمون أن ما كتبوه هو من كلام الله.

(٣) ذكر ابن كثير في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أن عكرمة قال: (خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: لن ندخل النار إلاّ أربعين ليلة وسيخلفنا فيها آخرون يعنون محمدًا وأصحابه فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم: «**بل أنتم خالدون مخلّدون لا يخلفنكم فيها أحد**» فأنزل الله عز وجل ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ...﴾) الآية.

(٤) بيّن هذا رسول الله ﷺ بقوله: في رواية أحمد فقال: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**».

(٥) دلّ هذا على أنّ المعلق على شرطين لا يتم بأقلهما وهو كقوله ﷺ للذي قال له: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**» حديث حسن ذكره النووي في الأربعين.

(٦) قرأ نافع: ﴿**خطيئاته**﴾ بالجمع وقرأ حفص: ﴿**خطيئته**﴾ بالإفراد.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

١٣

خبث نفسه إلا النار، ومن آمن وعمل صالحًا فزكى بالإيمان والعمل الصالح نفسه وطهّرها فإنه لا يلائم طهارة روحه وزكاة نفسه إلا الجنة دار النعيم. أما الحسب والنسب والادعاءات الكاذبة فلا تأثير لها البتة.

هداية الآيات:

١ - التحذير الشديد من الفتاوى الباطلة التي تحرّم ما أحلّ الله أو تحلّل ما حرّم ليتوصل بها صاحبها إلى غرض دنيوي كمال، أو حظوة لدى ذي سلطان.

٢ - إبطال الانتفاع بالنسب والانتساب، وتقرير أن سعادة الإنسان كشقائه مردهما في السعادة إلى الإيمان والعمل الصالح. وفي الشقاوة إلى الشرك والمعاصي.

٣ - التنبيه على خَطَرِ الذنوب صغيرها وكبيرها، وإلى العمل على تكفيرها بالتوبة والعمل الصالح قبل أن تحوط بالنفس فتحجبها عن التوبة والعياذ بالله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٢ - ٨٦]

﴿٨٣﴾ الميثاق: العهد[1] المؤكد باليمين.

﴿حُسْنًا﴾: حسن القول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمخاطبة باللين، والكلم الطيب الخالي من البذاءة والفحش.

﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: رجعتم عما التزمتم به مصممين على أن لا تتوبوا.

﴿٨٤﴾ سفك الدماء[2]: إراقتها وصبها بالقتل والجراحات.

﴿٨٥﴾ ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾: قرىء تظّاهرون، وتظاهرون بتاء واحدة ومعناه تتعاونون. ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: الإثم: الضار الموجب للعقوبة، والعدوان الظلم. ﴿أُسَٰرَىٰ﴾: جمع أسير: من أخذ في الحرب. الخزي: الذل والمهانة.

﴿٨٢﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟..﴾ بعد ذكر النار وأهلها من باب ذكر الترغيب بعد الترهيب كما هي سنة القرآن الكريم.

﴿٨٣﴾ قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ..﴾ تفسير لمضمون الميثاق والجملة خبرية لفظًا، إنشائية معنى، إذ هي في معنى اعبدوا الله وحده، وأحسنوا بالوالدين. ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ إلخ..

﴿٨٣﴾ ﴿وبالوالدين﴾ الوالدان: الأم والأب يقال: للأم والد ووالدة فلذا ثُنيَ على الوالدين، أو هو من باب التغليب كالعمرين في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

﴿٨٣﴾ ذي: بمعنى صاحب.

﴿٨٣﴾ ﴿قليلا﴾ فيه إنصاف واحتراز حيث استثنى مَنْ لم يَتَوَلَّ عمّا التزم به من بنود العهد وإن كان قليلاً.

﴿٨٥﴾ ﴿أنتم﴾ أعرب (أنتم) خبر مقدّم وهؤلاء مبتدأ مؤخر وتقتلون حال. وأعرب أيضًا (أنتم) مبتدأ وهؤلاء منادى والخبر تقتلون: أي: ثم أنتم يا هؤلاء تقتلون. وفيه معنى التعجب من حالهم والإنكار عليهم.

﴿٨٦﴾ ﴿اشتروا﴾ أي: باعوا آخرتهم بدنياهم فخسروا خسرانًا عظيمًا لحقارة الدنيا، وعظم الآخرة، والاشتراء في الآية بمعنى الاستبدال، استبدلوا الآخرة فلم يعملوا لها بالدنيا حيث قصروا أعمالهم على تحصيلها.

(١) هذا الميثاق تضمنه الوصايا العشر المنزلة على موسى عليه السلام أو على الأقل بعضه والبعض الآخر تضمنه ما أخذ عليهم عند رفع الطور عليهم لما رفضوا الالتزام بما في التوراة.

(٢) قوله تعالى في الآية: ﴿تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ وقوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ ليس معناه أن أحدهم يقتل نفسه ويسفك أي: يسيل دمه، وإنما لا يسفك بعضكم دم بعض، ولا يقتل بعضكم بعضًا لأنكم أمة واحدة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تذكير اليهود[(١)] بما كان لأسلافهم من خير وغيره، والمراد هدايتهم لو كانوا يهتدون، فقد ذكرهم في الآية (٨٣) بما أخذ الله تعالى عليهم في التوراة من عهود ومواثيق على أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا في عبادته سواه. وأن يحسنوا للوالدين ولذي القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا للناس الحسن من القول، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وندّد بصنيعهم حيث نقض هذا العهد والميثاق أكثرهم ولم يفوا به وفي الآية الثانية (٨٤) ذكّرهم بميثاق خاص أخذه عليهم في التوراة أيضًا وهو الإسرائيلي لا يقتل الإسرائيلي ولا يخرجه من داره بغيًا وعدوانًا عليه، وإذا وقع في الأسر وجب فكاكه بكل وسيلة ولا يجوز تركه أسيرًا بحال أخذ عليهم بهذا ميثاقًا غليظًا وأقروا به وشهدوا عليه، وفي الآية الثالثة (٨٥) وبّخهم على عدم وفائهم بما التزموا به حيث صار اليهودي يقتل اليهودي[(٢)] ويخرجه من داره بغيًا وعدوانًا عليه. وفي نفس الوقت إن أتاهم يهوديّ أسيرًا[(٣)] فَدَوهُ بالغالي والرخيص، فندّد الله تعالى بصنيعهم هذا الذي هو إهمال واجب وقيامٌ بآخر تَبَعًا لأهوائهم فكانوا كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، ومن هنا توعدهم بخزي الدنيا وعذاب الآخرة. وفي الآية الرابعة (٨٦) أخبر أنهم بصنيعهم ذلك اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فكان جزاؤهم عذاب الآخرة حيث لا يخفف عنهم ولا ينصرون فيه بدفعه عنهم.

هداية الآيات:

١ ـ مشروعية تذكير الناس ووعظهم بما يكون سببًا لهدايتهم.

٢ ـ وجوب عبادة الله وتوحيده فيها.

٣ ـ وجوب الإحسان إلى الوالدين ولذوي القربى واليتامى[(٤)] والمساكين.

٤ ـ وجوب معاملة الناس بحسن[(٥)] الأدب.

٥ ـ تعرض أمة الإسلام لخزي الدنيا وعذاب الآخرة بتطبيقها بعض أحكام الشريعة وإهمالها البعض الآخر.

٦ ـ كفر من يتخير أحكام الشرع فيعمل ما يوافق مصالحه وهواه، ويهمل ما لا يوافق.

٧ ـ كفر من لا يقيم دين الله إعراضًا عنه وعدم مبالاة به.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٧ ـ ٩٠]

(٨٧) ﴿مُوسَىٰ﴾: موسى بن عمران

---

(١) هم يهود المدينة، وهم ثلاث طوائف بنو قينقاع وبنو النضير، وقريظة.

(٢) حصل لهم هذا بالمدينة النبوية وذلك أن سكان المدينة كانوا يتألفون من قبيلتين الأوس والخزرج، وقبائل اليهود الثلاث، وكانت الحروب تندلع بينهم لأتفه الأسباب وكان بنو قينقاع وبنو النضير حلفًا للخزرج وبنو قريظة حلفًا للأوس، فإذا اندلعت الحرب بين الأوس والخزرج قاتل اليهود مع حلفائهم وبذلك يقتل اليهودي أخاه ويسفك دمه وإذا انتهت الحرب فادوا أسراهم طاعة لله تعالى إذ أوجب ذلك عليهم.

(٣) الأسر: مأخوذ من الأسار وهو القِدّ الذي يشدّ به المحمل فيسمى أخيذ الحرب أسيرًا، لأنّه يشد وثاقه، وجمعه أسرى وأسارى كَسَكْرى وسُكَارَى، ثم سمي كل أخيذ في الحرب أسيرًا.

(٤) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة**» وأشار الراوي بالسبابة والوسطى أي: من أصابعه كما روي أيضًا عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**».

(٥) بأن يكون اللفظ طيبًا والوجه منبسطًا.

(٨٧) عيسى: مُعَرّب يسوع أو يشوع لأن عيسى أخف منهما.

(٨٧) قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ...﴾ إلخ.. إيحاء باللوم والعتاب بل هو تقريع وتوبيخ لليهود على تمردهم على رسلهم بتكذيب البعض وقتل البعض اتباعًا لأهوائهم وأغراضهم الدنية.

(٨٧) تهوى مضارع هوِيَ بكسر الواو إذا أحب ومنه حديث البخاري والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك أي: حبك والقائلة عائشة رضي الله عنها ويجمع الهوى على أهواء.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَاءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

١٤

نبي مرسل إلى بني إسرائيل. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة. ﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أرسلناهم يَقْفُو بعضهم بعضًا أي واحدًا بعد واحد. ﴿بِٱلرُّسُلِ﴾: جمع رسول: ذكر من بني آدم أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: المعجزات وآيات الله في الإنجيل. ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[1]: جبريل عليه السلام.

﴿٨٨﴾ ﴿غُلْفٌ﴾: عليها غلاف يمنعها من الفهم لما تدعونا إليه، أو هي أوعية للعلم فلا نحتاج معها إلى أن نتعلم عنك.

﴿٨٩﴾ ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: القرآن الكريم. ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾[2]: يطلبون الفتح أي النصر. ﴿بِئْسَمَا﴾: بئس كلمة ذم، ضدها نِعْمَ فإنها للمدح.

﴿٩٠﴾ ﴿بَغْيًا﴾[3]: حسدًا وظلمًا. ﴿وَبَاءُو بِغَضَبٍ﴾[4]: رجعوا والغضب ضد الرضا، ومن غضب الله عليه أبعده ومن رضي عنه قربه وأدناه. ﴿مُّهِينٌ﴾: عذاب فيه إهانة وصغار وذل للمعذب به.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر إنعام الله تعالى على بني إسرائيل، وذكر معايبهم وبيان مثالبهم لعل ذكر الإنعام يحملهم على الشكر فيؤمنوا، وذكر المعايب يحملهم على الإصلاح والتوبة فيتوبوا ويصلحوا. ففي الآية (٨٧) يذكر تعالى منته بإعطاء موسى التوراة وإرسال الرسل بعده بعضهم على إثر بعض، وبإعطاء عيسى البينات وتأييده بروح القدس جبريل عليه السلام. ومع هذا فإنهم لم يستقيموا بل كانوا يقتلون الأنبياء ويكذبونهم، فوبّخهم الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿٨٧﴾ ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ[5] رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾. وفي الآية الثانية (٨٨) يذكر تعالى تبجحهم بالعلم واستغناءهم به، ويبطل دعواهم ويثبت علة ذلك وهي أن الله لعنهم بكفرهم فلذا هم لا يؤمنون. وفي الآية الثالثة (٨٩) يذكر تعالى كفرهم بالقرآن ونبيّه ﷺ بعد أن كانوا قبل بعثة النبي ﷺ يقولون للعرب إن نبيًا قد أظلّ زمانه وسوف نؤمن به ونقاتلكم معه وننتصر[6] عليكم، فلما جاءهم ما

(١) الروح: جوهر نوراني لطيف لا يدرك بالحواس فيطلق على نفس الإنسان دون أنفس الحيوان، ويطلق على جبريل عليه السلام وعلى ملك عظيم من الملائكة، والقدس مصدر أو اسم مصدر بمعنى النزاهة، والطهارة، والمقدس معناه المطهّر المنزّه عما لا يليق به.

(٢) وذلك بأيمانهم واتباعهم للنبي المنتظر إلاّ أنّهم لما جاءهم كفروا به، وهذه طبيعتهم كما قيل: شنشنة أعرفها من أخزم.

(٣) مفعول لأجله علّة لكفرهم.

(٤) هل تعدد الغضب لتعدد كفرهم بما أمروا بالإيمان به إذ كفروا بعيسى فباؤوا بغضب وكفروا بمحمد ﷺ فباؤوا بغضب آخر أو هو شدّة الحال عليهم لكثرة كفرهم وفسقهم؟

(٥) الجمهور من النحاة على أن همزة الاستفهام في ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ ونحوها مقدمة من تأخير إذ موقعها بعد الفاء العاطفة ولما كان حرف الاستفهام وخاصة الهمزة له الصدارة، قدمت الهمزة على الفاء العاطفة فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ وخلاف الجمهور يرى أن الهمزة داخلة على محذوف يقدر بحسب المقام.

(٦) هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

عرفوا كفروا به فلعنة الله[1] عليهم لأنهم كافرون. وفي الآية الرابعة (٨٩) يقبّح الله تعالى سلوكهم حيث باعوا أنفسهم رخيصة، باعوها بالكفر فلم يؤمنوا بالقرآن ونبيّه حسدًا[2] أن يكون في العرب نبي يوحى إليه ورسول يطاع ويتبع، فرجعوا من طول رحلتهم في الضلال بغضب عظيم سببه كفرهم بعيسى، وبغضب عظيم سببه كفرهم بمحمد ﷺ، ومع الغضب العذاب المهين في الدنيا والآخرة.

هداية الآيات:

١ - واجب النعمة الشكر، وواجب الذنب التوبة.

٢ - قبح رد الحق لعدم موافقته لهوى النفس.

٣ - فظاعة جريمة القتل والتكذيب بالحق.

٤ - سوء عاقبة التبجح بالعلم وادعاء عدم الحاجة إلى المزيد منه.

٥ - ذم الحسد وأنه أخو البغي وعاقبتهما الحرمان والخراب.

٦ - شر ما يخاف منه سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩١ - ٩٣]

(٩١) ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: من القرآن.

﴿بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾: التوراة. ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾: القرآن الكريم مقرر لأصول الأديان الإلهية كالتوحيد والنبوات والبعث والجزاء في الدار الآخرة.

(٩٢) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: المعجزات.

﴿ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾: يريد إلهًا عبدتموه في غيبة موسى عليه السلام.

(٩٣) ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾: أي حب العجل الذي عبدوه بدعوة السامري لهم بذلك.

معنى الآيات:

(٩١) ما زال السياق الكريم في بني إسرائيل وتقريعهم على سوء أفعالهم. ففي الآية الأولى (٩١) يخبر تعالى أن اليهود إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن يدّعون أنهم في غير حاجة إلى إيمان جديد بحجة أنهم مؤمنون من قبل بما أنزل الله تعالى في التوراة، وبهذا يكفرون بغير التوراة وهو القرآن، مع أن القرآن حق، والدليل أنه مصدق لما معهم من حق في التوراة، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يبطل دعواهم موبخًا إياهم بقوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذ قتل الأنبياء يتنافى مع الإيمان تمام المنافاة. وفي الآية الثالثة (٩٣) يذكّر تعالى اليهود بما أخذه على أسلافهم من عهد وميثاق بالعمل بما جاء في التوراة عندما رفع الطور فوق رؤوسهم تهديدًا لهم غير أنهم لم يفوا بما عاهدوا عليه كأنهم قالوا سمعنا وعصينا، فعبدوا العجل وأشربوا حبه في قلوبهم بسبب كفرهم، ثم أمر رسوله ﷺ أن يقبّح ما ادّعوه من أن إيمانهم هو الذي أمرهم بقتل الأنبياء وعبادة العجل، والتمرد والعصيان.

هداية الآيات:

١ - مشروعية توبيخ أهل الجرائم

---

(١) لم يقل الله تعالى: فلعنة الله عليهم وإنما قال: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إشارة إلى سبب اللعنة وهو الكفر لا الجنس أو العِرق ولِيَعم كلّ كافر أيضًا.

(٢) سمي الحسد بغيًا وظلمًا، لأن البغي والظلم بمعنى، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، والحاسد متمنٍّ زوال النعمة عن المحسود، وهو في هذا الحال ظالم متعد لأنه لم يناله من زوالها نفع ولا من بقائها ضرر.

(٩١) ﴿وراءه﴾ أي: بما سواه وهو القرآن الكريم دلّ عليه السياق.

(٩١) جملة ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ حالية و﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة ويصح أن تكون حال مؤسسة.

(٩١) ﴿تقتلون﴾ الإتيان بالمضارع في ﴿تَقْتُلُونَ﴾ مع أن القتل قد مضى لقصد استحضار الحالة الفظيعة كما فيه إشارة إلى استعدادهم لفعل تلك الفعلة الشنيعة وهي قتل الأنبياء والعلماء.

(٩٣) ﴿آتيناكم﴾ فإن قيل: لقد سبق مثل هذا القصص فما الفائدة من إعادته هنا؟ الجواب: أنه ذكر فيه ما لم يذكر هناك وهو قوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟ . . .﴾ إلخ . .

(٩٣) قوله: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ ليس المراد السماع بالحاسة، وإنما المراد الطاعة والامتثال كقول المرء: فلان لا يسمع كلامي، فإن معناه لا يمتثل ولا يطيعني. كما أن قوله: ﴿وَعَصَيْنَا﴾ ليس معناه النّطق بلفظ عصينا وإنما معناه أنهم لم يمتثلوا الأمر الصادر إليهم.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾

١٥

على جرائمهم إذا أظهروها.

٢ - جرأة اليهود على قتل الأنبياء والمصلحين من الناس.

٣ - وجوب أخذ أمور الشرع بالحزم والعزم والقوة.

٤ - الإيمان الحق لا يأمر صاحبه إلا بالمعروف، والإيمان الباطل المزيف يأمر صاحبه بالمنكر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٤ - ٩٨]

(٩٤) ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾: المراد منها نعيمها وما أعد الله تعالى فيها لأوليائه. ﴿خَالِصَةً﴾: خاصة لا يدخلها أحد سواكم. ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾: تمنوه في نفوسكم واطلبوه بألسنتكم فإن من كانت له الدار الآخرة لا خير له في بقائه في الدنيا. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: أي في دعوى أن نعيم الآخرة خاص بكم لا يشارككم فيه غيركم.

(٩٦) ﴿حَيَاةٍ﴾: التنكير فيها لتعم كل حياة ولو كانت ذميمة. ﴿يَوَدُّ﴾: يحب. ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: هم غير أهل الكتاب من سائر الكفار. ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾: بمبعده من العذاب. ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾: تعميره ألف سنة.

(٩٧) ﴿لِّجِبْرِيلَ﴾: روح القدس الموكل بالوحي يتنزل به على رسول الله ﷺ. ﴿نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: نزل جبريل القرآن على قلب رسول الله ﷺ. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: القرآن مصدق لما في الكتب السابقة من نعت الرسول ﷺ والبشارة به ومن التوحيد ووجوب الإسلام لله تعالى.

(٩٨) ﴿وَمِيكَالَ﴾[1]: ميكال وميكائيل: ملك من أعاظم الملائكة وقيل معناه عبيدالله.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الرد على اليهود وإبطال حججهم الواهية، ففي الآية الأولى (٩٤) أمر الله تعالى الرسول ﷺ أن يقول لهم مباهلاً إياهم: إن كانت الدار الآخرة خالصة لكم لا يدخل الجنة معكم أحد فتمنوا الموت لتدخلوا الجنة وتستريحوا من عناء الدنيا ومكابدة العيش فيها فإن لم تتمنوا ظهر كذبكم وثبت كفركم وأنكم أصحاب النار، وفعلاً ما تمنوا الموت ولو تمنوه لماتوا عن آخرهم.

وفي الآية الثانية (٩٥) أخبر تعالى أن اليهود لن يتمنوا الموت أبدًا وذلك بسبب ما قدموه من الذنوب والخطايا العظام الموجبة لهم عذاب

---

(٩٤) ﴿لكم﴾ هذه الآية تحمل الرد على مزاعم أخرى لليهود وهي دعواهم أنهم أولياء الله وأن الجنة لهم دون غيرهم ولذا فهم في غير حاجة إلى دين جديد كالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ فأمر الله أن يباهلهم فطلب منهم أن يتمنوا الموت وسألوه فنكلوا ولم يباهلوا وظهر بذلك كذبهم وتمت فضيحتهم.

(٩٧) ﴿كان﴾ روى الترمذي في سبب نزول ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ...﴾ إلخ. أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنه ليس نبي من الأنبياء إلاّ يأتيه ملك من الملائكة من عند ربّه بالرسالة وبالوحي فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: «جبريل». قالوا: ذلك الذي ينزل بالحرب وبالقتال ذلك عدونا لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر والرحمة تابعناك فأنزل الله الآية إلى قوله: ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾.

(٩٨) ذكر جبريل وميكائيل بعد ذكرهم في عموم الملائكة دليل على شرفهما وعلو مقامهما.

(١) في جبريل وميكائيل لغات عدة، أشهرها جبريل وجبرائيل وجبرين - بالنون - وميكائيل، وميكال وميكئل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن جبريل: عبدالله، وميكائيل، عبيدالله.

النار بأنهم مجرمون ظلمة والله عليم بالظالمين وسيجزيهم بظلمهم إنه حكيم عليم.

وفي الآية الثالثة (٩٦) يخبر الله تعالى أن اليهود أحرص الناس على الحياة حتى من المشركين الذين يود الواحد منهم أن يعيش ألف سنة، فكيف يتمنون الموت إذًا وهم على هذا الحال من الحرص على الحياة، وذلك لعلمهم بسوء مصيرهم إن هم ماتوا. كما يخبر تعالى أن الكافر لا ينجيه من العذاب طول العمر ولو عاش أكثر من ألف سنة، ثم هدّد الله تعالى اليهود وتوعّدهم بقوله:

(٩٦) ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ من الشر والفساد وسيجزيهم به.

وفي الآية الرابعة (٩٧) يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يرد على اليهود قولهم: لو كان الملك الذي يأتيك بالوحي ميكائيل لآمنا بك، ولكن لما كان جبريل فجبريل عدونا لأنه ينزل بالعذاب، بقوله:

(٩٧) ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾ فليمت غيظًا وحنقًا، فإن جبريل هو الذي ينزل بالقرآن بإذن ربه على قلب رسوله ﷺ مصدقًا ـ القرآن ـ لما سبقه من الكتب وهدى يهتدى به وبشرى يبشر به المؤمنون الصالحون.

وفي الآية الخامسة (٩٨) يخبر تعالى أن من يعاديه عزّ وجل ويعادي أولياءه[1] من الملائكة والرسل وبخاصة جبريل فإنه كافر، والله عدو له ولسائر الكافرين.

هداية الآيات:

١ ـ صحة الإسلام، وبطلان اليهودية، وذلك لفشل اليهود في المباهلة بتمني الموت.

٢ ـ المؤمن الصالح يفضل الموت على الحياة لما يرجوه من الراحة والسعادة بعد الموت.

٣ ـ صدق القرآن فيما أخبر به عن اليهود من حرصهم على الحياة ولو كانت رخيصة ذميمة إذ هذا أمر مشاهد منهم إلى اليوم.

٤ ـ عداوة الله تعالى للكافرين. ولذا وجب على المؤمن معاداة أهل الكفر لمعاداتهم لله، ومعاداة الله تعالى لهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٩ ـ ١٠١]

(٩٩) ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾: هي آيات القرآن الكريم الواضحة فيما تدل عليه من معان. ﴿يَكۡفُرُ بِهَآ﴾: يجحد بكونها كتاب الله ووحيه إلى رسوله محمد ﷺ. ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: الخارجون عما يجب أن يكونوا عليه من الإيمان بالله والإسلام له ظاهرًا وباطنًا.

(١٠٠) ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري والواو عاطفة على تقديره أكفروا بالقرآن ونبيه ﷺ وكلما عاهدوا إلخ.. العهد: الوعد الملزم. ﴿نَّبَذَهُۥ﴾: طرحه وألقاه غير آبه به ولا ملتفت إليه.

(١٠١) ﴿رَسُولٞ﴾: التنكير للتعظيم والرسول هو محمد ﷺ، ومن قبله عيسى عليه السلام. ﴿لِّمَا مَعَهُمۡ﴾: من نعتِ الرسول ﷺ وتقرير نبوته، وسائر أصول الدين في التوراة. ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: التوراة[2] لدلالتها على نبوة النبي محمد ﷺ وصحة دينه الإسلام. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾: أي أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه لمنافاته لما هم معروفون عليه من الكفر بالنبي محمد ﷺ كأنهم لا يعلمون مع أنهم يعلمون حق العلم.

معنى الآيات:

(٩٩) ما زال السياق الكريم في تقرير نبوة رسول الله ﷺ وعموم رسالته والرد على اليهود وإظهار ما هم عليه من الفسق والكفر والظلم، ففي

---

(١) في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«يقول الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب»**.

(٩٩) ذكر الطبري أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ...﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ نزل ردًا على ابن صوريًا اليهودي حيث قال للرسول ﷺ: ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية بيّنة فنتبعك بها.

(٩٩) ﴿الفاسقون﴾ كابن صوريًا وأضرابه ممّن تعمدوا الخروج عن منهج الحق وهم يعلمون.

(١٠١) ﴿نبذه﴾ النبذ: الطرح والإلقاء، ولذا سمي اللقيط منبوذًا، وسمّي النبيذ نبيذًا لأنه طرح التمر والزبيب في الماء وعليه قول الشاعر:

نظرت إلى عنوانه فنبذته ... كنبذك نعلًا من نعالكا

(٢) وجائز أن يكون القرآن الكريم، **فقد نبذوه أيضًا بعد علمهم بأنه الحق مصدقًا لما معهم**.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (١٠٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (١٠٥)﴾

١٦

الآية الأولى (٩٩) يرد تعالى على قول ابن صوريا اليهودي للرسول ﷺ: ما جئتنا بشيء بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ كالأعور بن صوريا اليهودي.

(١٠٠) وفي الآية الثانية (١٠٠) ينكر الحق سبحانه وتعالى على اليهود كفرهم ونبذهم للعهود والمواثيق وليسجل عليهم عدم إيمان أكثرهم بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وفي الآية الثالثة (١٠١) ينعي البارىء عز وجل على علماء اليهود نبذهم للتوراة لما رأوا فيها من تقرير نبوة محمد ﷺ وإثباتها فقال: (١٠١) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ[1] فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ[2] كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - الفسق العام ينتج الكفر، إن العبد إذا فسق[3] وواصل الفسق عن أوامر الله ورسوله ﷺ سيؤدي به ذلك إلى أن ينكر ما حرم الله وما أوجب فيكفر لذلك والعياذ بالله.

٢ - اليهود لا يلتزمون بوعد ولا يفون بعهد، فيجب أن لا يوثق في عهودهم أبدًا.

٣ - التوراة أحد كتب الله عز وجل المنزلة أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران عليه السلام.

٤ - قبح جريمة من تنكّر للحق بعد معرفته، ويصبح وكأنه جاهل به.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٢، ١٠٣]

(١٠٢) ﴿مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: الذي تتبعه وتقول به الشياطين من كلمات السحر. ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾: على عهد ملك سليمان ووقت حكمه. ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: جمع شيطان وهو من خبث وتمرد ولم يبق فيه قابلية للخير. ﴿ٱلسِّحْرَ﴾[4]: هو كل ما لطف مأخذه وخفي سببه مما له تأثير

---

(١) قال السدي في تفسير هذه الآية: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت فلم توافق القرآن. فهذا معنى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ...﴾ إلخ..

(٢) الظهور: جمع ظهر ويجمع على ظهران يقال لمن أعرض عن شيء رماه وراء ظهره.

(٣) الفسق: مشتق من فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، وبه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها على أهل الدار.

(١٠٢) ﴿واتبعوا﴾ اشتهر بين علماء السلف أن ما تتلوه الشياطين على عهد ملك سليمان كان سببه أن مردة من الشياطين كتبوا كتابًا ضمنوه الكثير من ضروب السحر والشعوذة والأباطيل ونسبوه إلى كاتب سليمان وهو آصف ودفنوه تحت كرسي سليمان حين ابتلي بنزع ملكه ولما مات أخرج الكتاب شياطين الجن بالتعاون مع شياطين الإنس وأعلنوا في الناس أن سليمان كان ساحرًا وما غلب الجن والإنس إلاّ بالسحر فصدقهم أناس وكذّب آخرون ولما بُعث محمد ﷺ وكفر به اليهود وتنكروا للتوراة لاتفاقها مع القرآن أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ فبرأ سليمان وكفّر اليهود.

(١٠٢) ﴿السحر﴾ قيل: السحر مشتق من قولهم سحرت الصبي إذا خدعته أو عللته بشيء ومنه قول الشاعر:

أرانا موضعين لأمر غيب ... ونسحر بالطعام وبالشراب

يريد أن الناس مسرعون إلى الموت وهم مخدوعون بالطعام وبالشراب.

(١٠٢) ﴿وما أنزل﴾ لم يكن إنزالاً بمعنى الوحي الإلهي ولكن كان إلهامًا لهما فبرعا فيه وتفوقا على غيرهما.

(٤) حصر بعضهم أصول السحر في ثلاثة هي:

=

على أعين الناس أو نفوسهم أو أبدانهم. ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾: ملكان وجدا للفتنة. ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾: لا تتعلمْ منا السحر لتضر به فتكفرْ بذلك. ﴿بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾: بين الرجل وامرأته. ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾: اشترى السحر بتعلمه والعمل به. الخلاق: النصيب[1] والحظ. ﴿مَا شَرَوْا﴾: ما باعوا به أنفسهم.
(١٠٣) ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾: ثواب وجزاء.

معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في بيان ما عليه اليهود من الشر والفساد، ففي الآية الأولى (١٠٢) يخبر تعالى أن اليهود لما نبذوا التوراة لتقريرها بنبوة محمد ﷺ وتأكيدها لصحة دينه اتبعوا الأباطيل والترهات التي جمعها شياطين الإنس والجن في صورة رُقىً وعزائم، وكانوا يحدثون بها، ويدّعون أنها من عهد سليمان بن داود عليهما السلام، وأنها هي التي كان سليمان يحكم بها الإنس والجن، ولازم هذا أن سليمان لم يكن رسولاً ولا نبيًا وإنما كان ساحرًا كافرًا فلذا نفى الله تعالى عنه ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ وأثبته للشياطين فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾. كما يعلمونهم ما أُلهِمَهُ الملكان هاروت وماروت[2] ببابل العراق من ضروب السحر وفنونه. وهنا أخبرنا تعالى عن ملكي الفتنة أنهما يقولان لمن جاءهما يريد تعلم السحر: إنما نحن فتنة فلا تكفر بتعلمك السحر، وهذا القول منهما يفهم منه بوضوح أن أقوال الساحر وأعماله التي يؤثر بها على الناس منها ما هو كفر في حكم الله وشرعه قطعًا.

كما أخبر تعالى في هذه الآية أن ما يتعلمه الناس من الملكين إنما يتعلمونه ليفرقوا بين الرجل وامرأته، وأن ما يحدث به من ضرر هو حاصل بإذن الله تعالى حسب سنته في الأسباب والمسببات، ولو شاء الله أن يوجد مانعًا يمنع من حصول الأمر بالضرر لفعل وهو على كل شيء قدير. فبهذا متعلمو السحر بسائر أنواعه إنما هم يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم. وفي آخر الآية يقرر تعالى علم اليهود بكفر الساحر ومتعلم السحر ومتعاطيه حيث أخبر تعالى أنهم لا نصيب لهم في الآخرة من النعيم المقيم فيها فلذا هم كفار قطعًا.

وأخيرًا يقبح تعالى ما باع به اليهود أنفسهم، ويسجل عليهم الجهل بنفي العلم إذ قال تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

(١٠٣) وفي الآية الثانية (١٠٣) يفتح تعالى على اليهود باب التوبة فيعرض عليهم الإيمان والتقوى فيقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

هداية الآيتين:

١ - الإعراض عن الكتاب والسنّة

= ١ - زجر النفوس بمقدمات توهيمية وإرهابية بما اعتاده الساحر من التأثير النفساني في نفس المسحور الضعيف روحًا المستعد لقبول التأثير ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾.

٢ - استخدام مؤثرات من خصائص الأجسام من حيوان ومعادن كالزئبق وسائر العقاقير المؤثرة ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾.

٣ - الشعوذة باستخدام خفايا الحركة والسرعة حين يخيّل أنّ الجماد يتحرك. ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ الآية.

(١) الحظ والنصيب من الخير خاصة لقوله ﷺ: **«إنّما يلبس هذا من لا خلاق له»**.

(٢) الملكان وهما هاروت وماروت ذكر قصتهما علماء السلف ورواها مثل أحمد وعبدالرزاق وابن أبي حاتم وابن جرير وخلق كثير ولم يصحّ فيها حديث عن النبي ﷺ ولكنها مروية عن ابن عمر، وابن عباس وعلي رضي الله عنهم ولعلها مروية عن كعب الأحبار، وفي الآيات عبارة وإشارة ولا مانعًا شرعًا ولا عقلاً من هذه القصة، ومفادها أن الملائكة أنكروا على بني آدم ما يرتكبون من الذنوب والمعاصي ويعجبون من ذلك فأمرهم الله تعالى أن يختاروا ملكين منهم ويركب فيهم غرائز بني آدم ويكلفهم وينزلهم إلى الأرض يعبدون الله كبني آدم ثم ينظرون هل يعصون الله أو لا يعصونه فلما نزلا إلى الأرض ارتكبا كبائر الذنوب فخيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فجعلا في بابل يعلمان الناس السحر فإذا أتاهما من يريد ذلك نصحا له بأن تعلم السحر كفر فإذا أصرّ وجّهاه إلى شيطان فأتاه فعلمه كيفية السحر وما يصل إليها إلا بعد أن يكفر أفظع أنواع الكفر.

لتحريمهما الشر والفساد والظلم يفتح أمام المعرضين أبواب الباطل من القوانين الوضعية، والبدع الدينية، والضلالات العقلية قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (سبيل السّعادة والكمال) ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

٢ - كفر[1] الساحر وحرمة تعلم السحر، وحرمة استعماله.

٣ - الله تعالى خالق الخير وَالضّير ولا ضرر ولا نفع إلا بإذنه[2] فيجب الرجوع إليه في جلب النفع، ودفع الضر بدعائه والضراعة إليه.

٤ - العلم المبهم كالظن الذي لا يقين معه لا يغير من نفسية صاحبه شيئًا فلا يحمله على فعل خير ولا على ترك شر بخلاف الرسوخ في العلم فإن صاحبه يكون لديه من صادق الرغبة وعظيم الرهبة ما يدفعه إلى الإيمان والتقوى ويجنبه الشرك والمعاصي. وهذا ظاهر في نفي الله تعالى العلم عن اليهود في هاتين الآيتين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٤، ١٠٥]

(١٠٤) ﴿رَٰعِنَا﴾: أمهلنا وانظرنا حتى نعي ما تقول. ﴿ٱنظُرْنَا﴾: أمهلنا حتى نفهم ما تقول ونحفظ. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾: الجاحدين المكذبين لله ورسوله ﷺ المستهزئين بهما أو بأحدهما. ﴿أَلِيمٌ﴾: كثير الألم شديد الإيجاع.

(١٠٥) ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: اليهود والنصارى والوثنيين من العرب وغيرهم. ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: من الوحي الإلهي المشتمل على التشريع المتضمن لكل أنواع الهداية وطرق الإسعاد والإكمال في الدارين. ﴿ٱلْفَضْلِ﴾: ما كان من الخير غير محتاج إليه صاحبه، والله عز وجل هو صاحب الفضل إذ كل ما يمن به ويعطيه عباده من الخير هو في غنى عنه ولا حاجة به إليه أبدًا.

معنى الآيتين:

أما الآية الأولى (١٠٤) فقد أمر الله تعالى المؤمنين أن يُراعوا[3] الأدب في مخاطبة نبيّهم ﷺ تجنبًا للكلمات المشبوهة ككلمة راعنا، إذ قد تكون من الرعونة، ولما تدل عليه صيغة المفاعلة إذ كأنهم يقولون راعنا نُرَاعِكَ، وهذا لا يليق أن يخاطب به الرسول ﷺ.

وأرشدهم تعالى إلى كلمة سليمة من كل شبهة تنافي الأدب وهي انظرنا[4]، وأمرهم أن يسمعوا لنبيّهم ﷺ إذا خاطبهم حتى لا يضطروا إلى مراجعته؛ إذ الاسْتِهْزَاءُ بالرسول ﷺ والسخرية منه ومخاطبته بما يفهم الاستخفاف بحقه وعلوّ شأنه وعظيم منزلته كفر بواح.

وفي الآية الثانية (١٠٥) أخبر تعالى عباده المؤمنين بأن الكافرين من أهل الكتاب ومن غيرهم من المشركين الوثنيين لا يحبون أن يُنزل عليكم من خير من ربكم وسواء كان قرآنًا يحمل أسمى الآداب وأعظم الشرائع وأهدى سبل السعادة والكمال، أو كان غير ذلك من سائر أنواع الخيرات، وذلك حسدًا منهم للمؤمنين كما أخبرهم أنه تعالى يختص برحمته من يشاء من عباده

---

(١) اختلف هل للسحر حقيقة أو هو مجرد خداع لا أصل له. أهل السنة والجماعة أنّ له حقيقة وهو أنواع عديدة وحكمه أن من تعاطاه إذا أضرّ به فأفسد عقلاً أو قتل فإنه يقتل بذلك وإلاّ فإنه يعزر حتى يتوب منه، ويشهد لمذهب الجمهور أن النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم وأنزل الله تعالى سورة الفلق فرقاه بها جبريل فشفي وقال: «إن الله شفاني» والحديث في البخاري وغيره.

(٢) ذكر القرطبي أن ابن بطال قال في كتاب وهب بن منبّه أن يأخذ المسحور سبع ورقات من سدر أخضر فيُدُقّها بين حجرين ثم يخلطها بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ثم يحسو منها ثلاث حسيات ويغتسل به فإنه يذهب عنه كل ما ألم إن شاء الله تعالى.

(٣) سبب نزول هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ.. أن اليهود استغلوا كلمة راعنا وصاروا يقولونها لرسول الله ﷺ وهم ينوون بها سبّ رسول الله ﷺ لوجود كلمة في العبرية مثلها ومعناه السبّ والشتم كالرعونة فأنزل الله هذه الآية أرشد فيها المسلمين إلى ترك كلمة راعنا وإبدالها بانظرنا فانقطع الطريق عن اليهود لعنهم الله.

(٤) معنى انظرنا: هو معنى راعنا ولكن لما استعملها اليهود وصاروا ينوون بها سب النبي ﷺ لأنها عندهم من الرعونة لذلك أرشد الله المسلمين إلى كلمة انظر.

فحسد الكافرين لكم لا يمنع فضل الله عليكم ورحمته بكم متى أرادكم بذلك.

هداية الآيتين:

١- وجوب التأدب مع رسول الله ﷺ في مخاطبته بعدم استعمال أي لفظة قد تفهم غير الإجلال والإكبار له ﷺ.

٢- وجوب السماع لرسول الله ﷺ بامتثال أمره واجتناب نهيه، وعند مخاطبته لمن أكرمهم الله تعالى بمعايشته والوجود معه.

٣- التحذير(١) من الكافرين كتابيين أو مشركين لأنهم أعداء حسدة للمؤمنين فلا يحل الركون إليهم والاطمئنان إلى أقوالهم وأفعالهم، إذ الريبة لا تفارقهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٦ ـ ١٠٨]

﴿نَنسَخْ﴾: نبدّل أو نزيل. ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾: من آيات القرآن: جملة كلمات تحمل معنى صحيحًا كالتحريم أو التحليل، أو الإباحة.

﴿نُنسِهَا﴾: نمحها من قلب النبي ﷺ. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾: الاستفهام للتقرير.

﴿وَلِيٍّ﴾: حافظ يحفظكم بتولي أموركم.

﴿نَصِيرٍ﴾: ناصر يدفع عنكم المكروه.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾: بل أتريدون، إذ أم هنا للإضراب الانتقالي فهي بمعنى بل والهمزة، وما سئله موسى هو قول بني إسرائيل له: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: وسط الطريق الآمن من الخروج عن الطريق.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

١٧

معنى الآيات:

يخبر تعالى رادًا على الطاعنين في تشريعه الحكيم الذين قالوا إن(٢) محمدًا ﷺ يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غدًا، أنه تعالى ما ينسخ من آية تحمل حكمًا شاقًا على المسلمين إلى حكم أخف كنسخ الثبوت لعشرة في قتال الكافرين إلى الثبوت إلى اثنين. أو حكمًا خفيفًا إلى شاق زيادة في الأجر كنسخ يوم عاشوراء بصيام رمضان، أو حكمًا خفيفًا إلى حكم خفيف مثله كنسخ

---

(١) في هذه الآية إرشاد المسلمين إلى عدم مشابهة الكافرين في القول والعمل وحتى في الزي واللباس ويشهد لهذا رواية أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبّه بقوم فهم منهم»**.

﴿١٠٦﴾ ﴿ما ننسخ﴾ معرفة الناسخ والمنسوخ ضرورية للعالم. روي أن عليًا رضي الله عنه أرسل إلى رجل كان يخوف الناس في المسجد فجاءه فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ فقال: لا، قال: فاخرج من مسجدنا ولا تذكّر فيه. وعن ابن عباس مثله وقال له: هلكت وأهلكت.

﴿١٠٧﴾ ﴿من﴾ مِن لابتداء الغاية والثانية وهي ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ صلة.

﴿١٠٨﴾ ﴿أم﴾ أم هنا: هي المنقطعة بمعنى: بل الإضرابية.

(٢) في الكلام إشارة إلى سبب نزول هذه الآيات والمراد بالذين قالوا إن محمدًا.. إلخ.. هم اليهود، واليهود ينفون وجود النسخ في الشرائع وهم مخطئون في ذلك خطأ كبيرًا، إذ قد أباح الله تعالى لآدم أن يُنكح بناته بنيه فترة من الزمن ثم نسخ ذلك، وأباح لنوح أكل سائر الحيوان بعد نزوله من السفينة ثم نسخ ذلك. كما أوحى الله إلى إبراهيم أن يذبح ولده ثم نسخ ذلك إذ فداه بذبح عظيم قبل الذبح وهذا نسخ للأمر قبل فعله.

القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، أو حكمًا إلى غير حكم آخر كنسخ صدقة من أراد أن يناجي رسول الله ﷺ فإن الحكم رفع ولم يشرع حكم آخر بدلاً عنه، أو نسخ الآية بإزالتها من التلاوة، ويبقى حكمها كآية الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله فقد نسخ اللفظ من التلاوة وبقي الحكم. أو بنسخ الآية وحكمها. وهذا معنى قوله أو ننسها وهي قراءة نافع، فقد ثبت أن قرآنا نزل وقرأه رسول الله ﷺ وبعض أصحابه ثم نسخه الله تعالى لفظًا ومعنى فمحاه من القلوب بالمرة فلم يقدر على قراءته أحد.

(١٠٦) وهذا مظهر من مظاهر القدرة الإلهية الدال عليه قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهو أيضا مظهر من مظاهر التصرف الحكيم الدال عليه قوله:

(١٠٧) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو تعالى يتصرف فينسخ ويبقي ويأتي بخير مما نسخ أو بمثله بحسب حاجة الأمة ومتطلبات حياتها الروحية والمادية. فسبحانه من إله قدير حكيم: ينسي ما يشاء وينسخ ما يريد.

(١٠٨) أما قوله تعالى في آية (١٠٨): ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾(١)، فهو توبيخ لمن طالب الرسول ﷺ بأمور ليس في مكنته، وإعلام بأن من يجري على أسلوب التعنت وسوء الأدب مع الرسول ﷺ قد يصاب بزيغ القلب فيكفر، دلّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

هداية الآيات:

١ - ثبوت النسخ في القرآن الكريم، كما هو ثابت في السنة، وهما أصل التشريع ولا نسخ في قياس ولا إجماع.

٢ - رأفة الله تعالى بالمؤمنين في نسخ الأحكام وتبديلها بما هو نافع لهم في دنياهم وآخرتهم.

٣ - وجوب التسليم لله والرضا بأحكامه، وعدم الاعتراض عليه تعالى.

٤ - ذم التنطع في الدين وطرح الأسئلة المحرجة(٢) والتحذير من ذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٩، ١١٠]

(١٠٩) ﴿وَدَّ﴾: أحب. ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: اليهود والنصارى. ﴿حَسَدًا﴾: الحسد تمني زوال النعمة على من هي به. ﴿تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾: عرفوا أن محمدًا ﷺ رسول الله وأنَّ دينه هو الدين الحق. ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾: لا تؤاخذوهم ولا تلوموهم، إذ العفو ترك العقاب والصفح الإعراض عن المذنب. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾: أي الإذن بقتالهم والمراد بهم يهود المدينة وهم بنو قينقاع وبنو النضير، وبنو قريظة.

(١١٠) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: إقامة

---

(١) قوله تعالى: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ...﴾ معنى سؤال بني إسرائيل موسى بأن يريهم الله جهرة أي: مواجهة بعد أن سمعوا كلامه، كما سألوه غير هذا تعنتًا وجهلاً بمقام الرسول موسى عليه السلام ولذا حذّر الله المؤمنين من مثل هذه المواقف القبيحة.

(٢) روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «**هلك المتنطعون**» وفسر بالمتعنتين في السؤال عن عويص المسائل التي يندر وقوعها.

(١٠٩) ﴿ود كثير﴾ مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما ظاهرة، وهي أنه لما حذّر تعالى المؤمنين من مسلك اليهود مع أنبيائهم في الأسئلة المحرجة المتعنتة أعلمهم أن أعداءهم من اليهود يودون لهم الكفر بعد إيمانهم حسدًا لهم وعلى رأس هؤلاء كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وأبو ياسر وغيرهم كما أن ابن أبيّ وجماعة من سكان المدينة كانوا يعملون جاهدين على صرف من آمن عن إيمانه ولما لم يحن الوقت للقتال أمرهم تعالى بالصفح والعفو والإعداد حتى يأتي الأمر بالقتال.

(١٠٩) ﴿حسدا﴾ الحسد ثلاثة أنواع: وهي تمني زوال نعمة عمن هي به، وتمني زوالها ولو لم تحصل لمتمنيها وهذا شرّ وأقبح من الأول وهم محرمان لما فيهما من تسفيه المنعم عز وجل إذ الحاسد معترض على قسمة الله وعطائه عباده ما شاء. وتمني حصول نعمة كالتي حصلت لغيره وهذا مباح وليس حرامًا ويشهد له حديث الصحيح: «**لا حسد إلا في اثنتين**» الحديث ويسمى غبطة.

(١٠٩) جملة: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ تأكيد لمضمون التي قبلها. ومنه قوله تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

(١٠٩) فاعفوا: أصلها فاعفووا، حذفت الضمّة للثقل، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين فصارت فاعفوا.

الصلاة أداؤها في أوقاتها مستوفاة الشروط والأركان والسنن. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أعطوا زكاة أموالكم وافعلوا كل ما من شأنه يزكي أنفسكم من الطاعات.

معنى الآيتين:

في الآية الأولى (١٠٩) يخبر تعالى المؤمنين بنفسيّة كثير من أهل الكتاب وهي الرغبة الملحة في أن يتخلى المسلمون عن دينهم الحق ليصبحوا كافرين ومنشأ هذه الرغبة الحسد الناجم عن نفسية لا ترغب أن ترى المسلمين يعيشون في نور الإيمان بدل ظلمات الكفر، وبعد أن أعلم عباده المؤمنين بما يضمر لهم أعداؤهم، أمرهم بالعفو[١] والصفح لأن الوقت لم يحن بعد لقتالهم، فإذا حان الوقت قاتلوهم وشفوا منهم صدورهم.

(١١٠) وفي الآية الثانية (١١٠) أمر الله تعالى المؤمنين بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل[٢] الخيرات تهذيبًا لأخلاقهم وتزكية لنفوسهم، وواعدهم بحسن العاقبة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ[٣] بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

هداية الآيات:

١ - اليهود والنصارى يعلمون أن الإسلام حق وأن المسلمين على حق فحملهم ذلك على حسدهم ثم عداوتهم، والعمل على تكفيرهم.. وهذه النفسية ما زالت طابع أهل الكتاب إزاء المسلمين إلى اليوم.

٢ - في الظرف الذي لم يكن مواتيًا للجهاد على المسلمين أن يشتغلوا فيه بالإعداد للجهاد، وذلك بتهذيب الأخلاق والأرواح وتزكية النفوس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات إبقاء على طاقاتهم الروحية والبدنية إلى حين يؤذن لهم بالجهاد.

٣ - تقوية الشعور[٤] بمراقبة الله تعالى ليحسن العبد نيته وعمله.

الجزء الأول — سورة البقرة

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

١٨

شرح الكلمات:

[الآية: ١١١ ـ ١١٣]

(١١١) ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: دار النعيم وتسمى دار السلام وهي فوق السماء السابعة.

﴿هُودًا﴾[٥]: يهودًا. ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: صليبيين مسيحيين.

﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾[٦]: جمع أمنية ما يتمناه المرء بدون ما يعمل للفوز به، فيكون غرورًا. البرهان: الحجة الواضحة.

(١١٢) ﴿بَلَىٰ﴾: حرف إجابة يأتي بعد

---

(١) هذا العفو والصفح نسخ بالإذن بقتال اليهود وإجلائهم وبقي العفو على المسلم والصفح عنه إذا أساء إلى أخيه المسلم لجهالة به فإنه محمود قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾. وقال رسوله ﷺ: «من غفر غُفر له».

(٢) فعل الخيرات هنا مستفاد من قوله تعالى في الآية: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

(٣) مثل هذه الجملة المذيّل بها الكلام تكون للترغيب كما هنا وتكون للترهيب أي: تصلح للوعد والوعيد.

(٤) هذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١١١) ﴿قل هاتوا﴾ في الآية دليل على بطلان التقليد وهو قبول قول الغير بلا دليل، وفي الآية أن من ادعى شيئًا نفيًا أو إثباتًا يطالب بالدليل بطلت دعواه.

(٥) هو جمع هائد أي: متبع اليهودية ومثله عوذ جميع عائذ وهي الحديثة النتاج من الظباء والإبل والخيل.

(٦) ما تمناه اليهود وأشير إليه هنا بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ هو أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأن يردوهم كفارًا، وأن يدخلوا الجنة وحدهم دون غيرهم.

نفي مقرون باستفهام[١] غالبًا نحو قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝﴾؟ بلى أي هو أحكم الحاكمين، ولما ادعى اليهود والنصارى أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهوديًا أو نصرانيًا قال تعالى: بلى، أي ليس الأمر كما تزعمون، فلا يدخل الجنة يهودي ولا نصراني ولكن يدخلها من أسلم وجهه لله وهو محسن أي عبد آمن فصدق وعمل صالحًا فأحسن.

(١١٣) ﴿لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: أي من الدين الحق. ﴿يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي التوراة والإنجيل. ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: هذا اللفظ صادق على مشركي العرب، وعلى غيرهم من أمم جاهلة سبقت.

سبب نزول الآيات ومعناها:

لما جاء وفد نصارى نجران إلى المدينة التقى باليهود في مجلس النبي ﷺ ولعدائهم السابق تَمَارَوْا فادّعت اليهود أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهوديًا، وادّعت النصارى أن الجنة لا يدخلها إلا من كان نصرانيًا فردّ الله تعالى عليهم وأبطل دعواهم حيث طالبهم بالبرهان عليها فلم يقدروا، وأثبت تعالى دخول الجنة لمن زكى نفسه بالإيمان الصحيح والعمل الصالح فقال:

(١١٢) ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يريد قلبه وجوارحه[٢]، فآمن ووحّد وعمل صالحًا فأحسن، فهذا الذي يدخل الجنة وهي أجره على إيمانه وصالح أعماله، فلا هو يخاف ولا يحزن. هذا معنى الآيتين الأولى (١١١) والثانية (١١٢) وأما الآية الثالثة (١١٣) فقد سجلت كفر كل من اليهود والنصارى، بشهادتهم على بعضهم بعضًا فقد كفّر اليهود النصارى بقولهم: إنهم ليسوا على شيء من الدين الحق الذي يعتد به ويؤبه له، وكفّر النصارى اليهود بقولهم: ليست اليهود على شيء مع أنهم يقرؤون التوراة والإنجيل فلذا كان تكفيرهم لبعضهم البعض حقًا وصدقًا. ثم أخبر تعالى أن ما وقع فيه اليهود والنصارى وهم أهل كتاب من الكفر والضلال قد وقع فيه أمم قبلهم دون علم منهم وذلك لجهلهم، وأخبر تعالى أنه سيحكم بينهم يوم القيامة ويجزيهم بكفرهم وضلالهم.

هداية الآيات:

١ - إبطال تأثير النّسب[٣] في السعادة والشقاء، وتقرير أن السعادة بدخول الجنة مردها إلى تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح، وإن الشقاوة بدخول النار مردها إلى الشرك، وارتكاب الذنوب. فلا نسبة إلى يهودية أو نصرانية أو غيرهما تُغني عن صاحبها، وإنما المغني بعد فضل الله ورحمته الإيمان والعمل الصالح بعد التخلي عن الشرك والمعاصي.

٢ - كفر اليهود والنصارى وهو شر كفر لأنه كان على علم.

٣ - الإسلام الصحيح القائم على أسسه الثلاثة الإيمان والإسلام والإحسان هو سبيل[٤] النجاة من النار والفوز بالجنة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٤، ١١٥]

(١١٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: الاستفهام للإنكار والنفي، والظلم وضع الشيء في غير محله مطلقًا. ﴿وَسَعَىٰ[٥] فِى خَرَابِهَآ﴾:

(١) ومن غير الغالب قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ﴾ فقد أجيب بها ولم يتقدمها نفي مقرون باستفهام، ومنه هذه الآية: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾.

(٢) أي: ذاته إذ طاعة الله تعالى تكون بها قلبًا وجوارح، ومن إطلاق الوجه على الذات قول الشنفري:

إذا قطعوا رأسي وفي الرأس أكثري ... وغودر عند الملتقى ثم سائري

قوله: وفي الرأس أكثري فيه تفضيل الرأس الذي هو بمعنى الوجه على سائر الجسد لأفضليته فكذلك إطلاق الوجه في الآية وإرادة الذات، لأنّ الوجه أشرف الذات.

(٣) ويشهد لهذا قول الرسول ﷺ في صحيح مسلم: «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» الحديث.

(٤) هذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ..﴾ الآية.

(٥) أصل السعي: المشي ومنه السعي بين الصفا والمروة وهو المشي بينهما ثم أطلق على التسبب مطلقًا يقال: سعى فلان في مصلحتك وسعى فلان في الإفساد بين فلان وفلان.

عمل في هدمها وتخريبها حقيقة أو بمنع الصلاة فيها وصرف الناس عن التعبد فيها إذ هذا من خرابها أيضًا.

الخزي: الذل والهوان[١].

(١١٥) ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾: هناك الله تعالى إذ الله عز وجل محيط بخلقه فحيثما اتجه العبد شرقًا أو غربًا، شمالاً أو جنوبًا، وجد الله تعالى، إذ الكائنات كلها بين يديه وكيف لا يكون ذلك وقد أخبر عن نفسه أن الأرض قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، فليس هناك جهة تخلو من علم الله تعالى وإحاطته بها وقدرته عليها. ويقرر هذا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، إنه واسع الذات والعلم والفضل والجود والكرم عليم بكل شيء لأنه محيط بكل شيء.

شرح الآيتين:

ففي الآية الأولى (١١٤) ينفي تعالى أن يكون هناك من هو أكثر ظلمًا ممن منع مساجد[٢] الله تعالى أن يعبد الله تعالى فيها، لأن العبادة هي علة الحياة فمن منعها كان كمن أفسد الحياة كلها وعطلها، وفي نفس الوقت ينكر تعالى هذا الظلم على فاعليه، وسواء كانوا قريشًا بصدهم النبي ﷺ وأصحابه عن المسجد الحرام، أو فلطيوس ملك الروم الذي خرّب المسجد الأقصى[٣]، أو غيرهم ممن فعلوا هذا الفعل أو من سيفعلونه مستقبلاً، ولذا ضمن تعالى قوله ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين، أمر المسلمين بجهاد الكافرين وقتالهم حتى يسلموا أو تكسر شوكتهم فيذلوا ويهونوا.

وفي الآية الثانية (١١٥) يخبر تعالى رادًا على اليهود الذين انتقدوا أمر تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، مؤذنًا بجواز صلاة من جهل القبلة أو خفيت عليه إلى أي جهة كانت، فأخبر تعالى أن له المشرق والمغرب[٤] خلقًا وملكًا وتصرفًا، يوجه عباده إلى الوجهة التي يشاؤها شرقًا أو غربًا جنوبًا أو شمالاً، فلا اعتراض عليه ولا إنكار، وأنّ الله تعالى محيط بالكائنات، فحيثما توجّه العبد في صلاته فهو متوجه إلى الله تعالى، إلا أنه تعالى أمر بالتوجه في الصلاة إلى الكعبة، فمن عرف جهتها لا يجوز له أن يتجه إلا إليها.

هداية الآيات:

١ - عظم جريمة من يتعرض للمساجد بأي أذىً[٥] أو إفساد.

٢ - وجوب حماية المساجد من دخول الكافرين إلا أن يدخلوها بإذن المسلمين وهم أذلاء صاغرون.

٣ - صحة صلاة[٦] النافلة على المركوب في السفر إلى القبلة وإلى غيرها.

٤ - وجوب استقبال القبلة إلا عند العجز[٧] فيسقط هذا الواجب.

٥ - العلم بإحاطة الله تعالى بالعوالم كلها قدرة وعلمًا فلا يخفى عليه من أمر العوالم شيء ولا يعجزه آخر.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٦ - ١١٩]

(١١٦) ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزّه وتقدّس عن كل نقص ومنه أن يكون له ولد.

---

(١) وقد نال صناديد قريش حيث أذلّهم الله وأخزاهم يوم الفتح على يد رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

(٢) المساجد: جمع مسجد بكسر الجيم على غير قياس إذا فعل بالفتح يفعل بالضم، الاسم منه كالمصدر مفعل بالفتح ونظير المسجد المطلع والمشرق والمسكن والمرفق والمسجد بالفتح جبهة المرء وأعضاء سجوده السبعة.

(٣) وقد خرّب بيت المقدس أيضًا بختنصر اليهودي البابلي قبل النصارى.

(٤) بناء على كروية الأرض فإن الأرض كلها مشرق ومغرب إذ كل مكان تشرق فيه هو مكان تغرب فيه.

(٥) من عظم ذنب من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه أخذ المالكية أن المرأة الصرورة التي لم تحج الفرض لا تمنع من الحج وإن لم يكن معها محرم، وعدّوا منعها من أداء الفريضة من الصدّ عن المسجد الحرام.

(٦) إذ صحّ عن ابن عمر رضي الله عنهم أن النبي ﷺ كان يصلي النافلة على راحلته حيثما اتجهت به القبلة وإلى غيرها.

(٧) للعجز صور منها: أن يكون مريضًا لا يقدر على التحول، ومنها أن يكون خائفًا ومنها أن يكون مقاتلاً أو هاربًا ومنها أن يكون جاهلاً بها فطلبها ولم يعرف فصلى حيث ترجح القبلة وإن لم يصبها.

(١١٦) الضمير المرفوع في: ﴿قَالُوا۟﴾ عائد إلى الفِرَق الثلاث وهم أهل الكتاب ومشركو العرب.

(١١٨) ﴿لولا﴾: بمعنى لعل التحضيضية.

﴿قَٰنِتُونَ﴾: خاضعون مطيعون تجري عليهم أقداره وتنفذ فيهم أحكامه.

(١١٧) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبدعها أي موجدها على غير مثال سابق. ﴿قَضَىٰٓ أَمۡرًا﴾: حكم بإيجاده.

(١١٨) ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٌ﴾: كآيات موسى وعيسى في العصا وإحياء الموتى.

(١١٩) ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ﴾: قرىء بالتاء للمجهول، ولا نافية والفعل مرفوع وقرىء بالبناء للمعلوم ولا ناهية والفعل مجزوم. ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: دركة من دركات النار وهي أشدها عذابًا.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر أباطيل الكافرين من أهل الكتاب والمشركين والرد عليها بما يظهر زيفها ويبطلها نهائيًا، ففي الآيتين الأولى (١١٦) والثانية (١١٧) يذكر تعالى قول أهل الكتاب والمشركين في أن الله اتخذ ولدًا إذ قالت اليهود العزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقال بعض مشركي العرب الملائكة بنات الله، ذكر تعالى قولهم اتخذ الله ولدًا ثم نزّه[١] نفسه عن هذا القول الباطل والفرية[٢] الممقوتة، وذكر الأدلة المنطقية العقلية على بطلان الدعوى.

فأولاً: مِلْكِيَةُ الله تعالى لما في السموات والأرض، وخضوع[٣] كل من فيهما لحكمه وتصريفه وتدبيره يتنافى عقلاً مع اتخاذ ولد منهم.

ثانيًا: قدرة الله تعالى المتجلية في إبداعه السموات والأرض وفي قوله للشيء كن فيكون يتنافى معها احتياجه إلى الولد[٤]، وهو مالك كل شيء وربّ كل شيء.

(١١٨) وفي الآية الثالثة (١١٨) يرد تعالى على قولة المشركين الجاهلين: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٌ﴾ حيث اقترحوا ذلك ليؤمنوا ويوحدوا فأخبر تعالى أن مثل هذا الطلب طلبه مَنْ قَبْلَهُم فتشابهت قلوبهم في الظلمة والانتكاس، فقد قال اليهود لموسى أرنا الله جهرة، أما رؤية الله وتكليمه إياهم فغير ممكن في هذه الحياة حياة الامتحان والتكليف، ولذا لم يجب إليه أحدًا من قبلهم ولا من بعدهم، وأما الآيات فما أنزل الله تعالى وبَيَّنَهُ في كتابه من الآيات الدالة على الإيمان بالله ووجوب عبادته وتوحيده فيها، وعلى صدق نبيه ﷺ في رسالته ووجوب الإيمان به واتباعه كاف ومغنٍ عن أية آية مادية يريدونها، ولكن القوم لكفرهم وعنادهم لم يروا في آيات القرآن ما يهديهم وذلك لعدم إيقانهم، والآيات يراها وينتفع بها الموقنون لا الشاكون المكذبون.

وفي الآية الرابعة (١١٩) يخفف تعالى على نبيّه ﷺ هَمّ مطالبة المشركين بالآيات بأنه غير مكلف بهداية أحد ولا ملزم بإيمان آخر، ولا هو مسؤول[٥] يوم القيامة عمن يدخل النار من الناس، إذ مهمته محصورة في التبشير[٦] والإنذار تبشير من آمن وعمل صالحًا بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وإنذار من كفر وعمل سوءًا بدخول النار والعذاب الدائم فيها.

هداية الآيات:

١ - حرمة نسبة أي شيء إلى الله

---

(١) وذلك بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ مصدر معناه التبرئة والتنزيه والمحاشاة.

(٢) أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فزعم أن لا أقدر أن أعيده كما كان وأمّا شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا»**.

(٣) الخضوع هنا تفسير للقنوت، والقنوت يكون بمعنى الطاعة في ذلة وانكسار وخشوع كما هو في هذا السياق ويكون بمعنى السكوت كما في الصلاة كقوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أي: لا تتكلموا في صلاتكم ويكون بمعنى الدعاء في الصلاة.

(٤) من الأدلة العقلية على إبطال فرية اتخاذ الله تعالى الولد: أن الولدية تقتضي التجانس، والله تعالى ليس كمثله شيء، وهو لا يجانسه شيء ثم الولد يتنافى مع الرق والملك، والله له ملك السموات والأرض فكيف يكون الرقيق ولدًا؟!

(٥) قرأ نافع وحده: ﴿ولا تَسْأَلْ﴾ بفتح التاء وسكون اللام في قوله: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«يا ليت شعري ما فعل أبواي»** فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(٦) البشير كالنذير فعلهما بشر وأنذر واسم الفاعل: مبشر ومنذر، ونقل إلى بشير ونذير للمبالغة في الفعل.

تعالى بدون دليل من الوحي الإلهي إذ أنكر تعالى نسبة الولد إليه أنكره على أهل الكتاب والمشركين معًا.

٢ - تشابه قلوب أهل الباطل في كل زمان ومكان لاستجابتهم للشيطان وطاعتهم له.

٣ - لا ينتفع بالآيات إلا أهل اليقين لصحة عقولهم وسلامة قلوبهم.

٤ - على المؤمن أن يدعو إلى الله تعالى، وليس عليه أن يهدي، إذ الهداية بيد الله، وأما الدعوة فهي في قدرة الإنسان، وهو مكلّف بها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٠، ١٢١]

(١٢٠) ﴿مِلَّتَهُمْ﴾: دينهم الذي هم عليه من يهودية ونصرانية. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾: الهدى ما أنزل به كتابه وبعث به رسوله ﷺ وهو الإسلام، لا ما ابتدعه اليهود والنصارى من بدعة اليهودية والنصرانية. ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: الولي من يتولاك ويكفيك أمرك، والنصير من ينصرك ويدفع عنك الأذى.

(١٢١) ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ[1] تِلَاوَتِهِ﴾: لا يحرفون كلمه عن مواضعه ولا يكتمون الحق الذي جاء فيه من نعت الرسول محمد ﷺ وغيره. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: المشار إليهم كفار أهل الكتاب والخسران خسران الدنيا والآخرة.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في أهل الكتاب يكشف عوارهم ويدعوهم إلى الهدى لو كانوا يهتدون، ففي الآية الأولى (١٢٠) يخبر تعالى رسوله ﷺ وأمته تابعة له أن اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم الباطلة وهي اليهودية أو النصرانية، وفي هذا نهي عن اتباعهم ثم أمره أن يخبرهم أن الهدى هدى[2] الله الذي هو الإسلام وليس اليهودية ولا النصرانية إذ هما بدعتان من وضع أرباب الأهواء والأطماع المادّية.

(١٢٠) ثم يحذر الله رسوله ﷺ وأمته من اتباع اليهود والنصارى بعد الذي جاءهم من العلم والنعمة التي أتمها عليهم وهي الإسلام فيقول: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وفي الآية الثانية (١٢١) يخبر تعالى أن الذين آتاهم الله الكتاب التوراة والإنجيل فكانوا يتلونه حق تلاوته فلا يحرفون ولا يكتمون هؤلاء يؤمنون بالكتاب حق الإيمان أما الذين يحرفون كلام الله ويكتمون ما

الجزء الأول — سورة البقرة

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

١٩

---

(١٢٠) ﴿ملتهم﴾: بمعنى مللهم إذ لكل كافرٍ ملة، ومن هنا ذهب الجمهور إلى أن الكفر ملة واحدة، وذهب أحمد في رواية له ومالك إلى أن الكفر ملل، ولذا فلا يرث اليهودي النصراني ولا النصراني اليهودي ولا المجوسي إذ لكلٍّ ملّة وقال رسول الله ﷺ: «**لا يتوارث أهل ملتين**» ويبقى معنى الكفر ملة واحدة أي: إنّه ليس فيه فاضل، ومفضول.

(١٢٠) ﴿العلم﴾ روي أن أحمد استدل على كفر من قال بخلق القرآن بهذه الآية: ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ وهو القرآن فمن قال بخلق القرآن قال بخلق علم الله تعالى وهو كفر صريح.

(١) هم أصحاب رسول الله ﷺ، وتابعوهم بإحسان كان أحدهم إذا مرّ بآية رحمة سألها الله تعالى وإذا مر بآية عذاب تعوذ بالله من العذاب.

(٢) إن ما يهدي إليه الرّب تعالى عباده المؤمنين بمعنى ما يوفقهم إليه من الإسلام ظاهرًا وباطنًا، فيعملون بطاعته وطاعة رسوله ﷺ في المنشط والمكره ذلك هو هدى الله المبعد عن الضلال والموصل إلى دار السلام.

جاء فيه من نعوت النبي ﷺ فهؤلاء لا يؤمنون به وهم الخاسرون دون غيرهم، ومن آمن[1] من أهل الكتاب بكتابه وتلاه حق تلاوته سوف يؤمن بالنبي الأمي ﷺ ويدخل في دينه قطعًا.

هداية الآيتين:

١ - لا يحصل المسلم على رضا اليهود والنصارى إلا بالكفر بالإسلام واتباع دينهم الباطل وهذا ما لا يكون للمسلم أبدًا فلذا طَلَب رضا اليهود والنصارى محرم لا يحل أبدًا.

٢ - لا دين[2] حق إلا الإسلام فلا ينبغي أن يُلْتَفَتَ إلى غيره بالمرة.

٣ - من يوالي اليهود والنصارى باتباعهم على باطلهم يفقد ولاية الله تعالى ويحرم نصرته.

٤ - طريق الهداية في تلاوة كتاب الله حق تلاوته بأن يجوّده قراءة ويتدبّره هداية ويؤمن بمحكمه ومتشابهه، ويحلل حلاله ويحرم حرامه، ويقيم حدوده كما يقيم حروفه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٢، ١٢٣]

(١٢٢) ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. وبنو إسرائيل: هم اليهود.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: البشر الذين كانوا في زمانهم مطلقًا.

(١٢٣) ﴿لَّا تَجْزِى﴾: لا تقضي ولا تغني. العدل: الفداء. ﴿شَفَٰعَةٌ﴾: وساطة أحد.

معنى الآيتين:

يعظ الرحمٰن عز وجل اليهود فيناديهم[3] بأشرف ألقابهم ويأمرهم بذكر نعمه تعالى عليهم وهي كثيرة، ويأمرهم أن يذكروا تفضيله تعالى لهم على عالمي زمانهم والمراد من ذكر النعم شكرها، فهو تعالى في الحقيقة يأمرهم بشكر نعمه وذلك بالإيمان به وبرسوله ﷺ والدخول في دينه الحق (الإسلام).

كما يأمرهم باتقاء عذاب يوم القيامة حيث لا تغني نفس عن نفس شيئًا ولا يقبل منها فداء ولا تنفعها شفاعة وهذه هي نفس الكافر والمشرك حيث لا شفاعة تنال الكافر أو المشرك، ولا يوجد لهم ناصر ينصرهم فيدفع عنهم العذاب إذ اتقاء عذاب يوم القيامة يكون بالإيمان بالله ورسوله ﷺ والعمل الصالح، بعد التخلي عن الكفر والمعاصي.

هداية الآيتين:

١ - وجوب ذكر نعم الله على العبد ليجد بذلك دافعًا نفسيًا لشكرها، إذ غاية الذكر هي الشكر.

٢ - وجوب اتقاء عذاب يوم القيامة بالإيمان وصالح الأعمال بعد التخلي عن الشرك والعصيان.

٣ - استحالة الفداء يوم القيامة، وتعذر وجود شافع يشفع لمن مات على الشرك لا بإخراجه من النار، ولا بتخفيف العذاب عنه.

شرح الكلمات: [الآية: ١٢٤]

(١٢٤) ﴿ٱبْتَلَىٰٓ﴾: اخْتَبَرَه بتكليفه بأمور شاقة عليه. ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾: متضمنة أوامر ونواهي. ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: قام بهن

---

(١) كعبدالله بن سلام ومن آمن على عهد رسول الله ﷺ من أحبار أهل الكتاب.

(٢) يشهد لهذا قوله ﷺ في الصحيح: **«والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»**.

(١٢٢) ﴿يا بني﴾ هذا النداء الثالث الذي نادى الله تعالى به بني إسرائيل يأمرهم بذكر نعمه ليشكروها بالإيمان برسوله ﷺ والدخول في دين الإسلام، لكن حالهم كما قال القائل:

لقد أسمعت لو ناديت حيًا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

(١٢٣) ﴿ولا يقبل﴾ يلاحظ تقدم الشفاعة في النداء الثاني على أخذ العدل وتأخير الشفاعة في هذا النداء وتقديم العدل وما هو إلاّ تفنن في الأسلوب إذهابًا للسآمة، وهذا شأن الكلام البليغ.

(٣) بهذا النداء ختم الحجاج مع اليهود في هذه السورة، فلم يَجْرِ لَهم ذكر بعد فكان من براعة المقطع. ذَكر هذا صاحب التحرير والتنوير، وليس صحيحًا بل الصحيح أن ختم الحجاج مع اليهود انتهى عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ الآية: ١٤٩.

(١٢٤) ﴿إبراهيم﴾ أبرهم بالسريانية والعبرية أيضًا معناه أبٌ رحيم، ولرحمته جعله الله تعالى كافلاً لأطفال المؤمنين في الجنة إلى يوم القيامة إن صحّ الحديث بذلك.

(١٢٤) ﴿ربُّه﴾ ذكر الربوبية هنا تشريف لإبراهيم عليه السلام وإيذان بأن ابتلاءه كان تربية له وإعدادًا له لأمر خطير.

وأداهن على أكمل الوجوه وأتمها. ﴿إِمَامًا﴾: قدوة صالحة يقتدى به في الخير والكمال. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الكافرين والمشركين والفاسقين المعتدين على الناس.

معنى الآية الكريمة:

بعد ذلك الحجاج الطويل الذي عاشه رسول الله ﷺ مع طائفتي أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكذا المشركين في الآيات السابقة لهذه الآية أمر تعالى رسوله ﷺ أن يذكر ابتلاءه تعالى لنبيه وخليله إبراهيم عليه السلام بما كلّفه به من أوامر ونواهي فقام بها خير قيام فأنعم عليه بأكبر إنعام وهو أنه جعله إمامًا للناس، ومن أبرز تلك التكاليف وقوفه في وجه الوثنيين، وتحطيم أوثانهم، والهجرة من ديارهم والهم بذبح ولده إسماعيل قربانًا لله، وبناء البيت، وحجه والدعوة إليه مما استحق به الإمامة للناس كافة وفي هذا تبكيت للفرق الثلاثة العرب المشركين واليهود والنصارى إذ كلهم يدّعي انتماءه لإبراهيم والعيش على ملته فها هو ذا إبراهيم موحد وهم مشركون، عادل وهم ظالمون، مُتَّبِعٌ للوحي الإلهي وهم به كافرون ولصاحبه مكذبون. وفي الآية بيان رغبة إبراهيم في أن تكون الإمامة في ذريته وهي رغبة صالحة فجعلها الله تعالى في ذريته[1] كما رغب واستثنى تعالى الظالمين فإنهم لا يستحقونها فهي لا تكون إلا في أهل الخير والعدل والرحمة لا تكون في الجبابرة القساة ولا الظالمين العتاة.

هداية الآية الكريمة:

١ - الإمامة لا تنال إلا بصحة اليقين[2] والصبر على سلوك سبيل المهتدين.

٢ - مشروعية ولاية العهد، بشرط أن لا يعهد إلا إلى من كان على غاية من الإيمان والعلم والعمل والعدل والصبر.

٣ - القيام بالتكاليف الشرعية قولاً وعملاً[3] يؤهل لأن يكون صاحبه قدوة صالحة للناس.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٥، ١٢٦]

(١٢٥) ﴿ٱلْبَيْتَ﴾: الكعبة التي هي البيت الحرام بمكة المكرمة. ﴿مَثَابَةً﴾: مرجعًا يثوب إليه العُمَّارُ والحجاج. ﴿وَأَمْنًا﴾: مكانًا آمنًا يأمن فيه كل من دخله.

﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: الحجر الذي كان قد قام عليه إبراهيم أيام كان يبني البيت وذلك أنه لما ارتفع البناء احتاج إبراهيم إلى حجر عال يرقى عليه ليواصل بناء الجدران فجيء بهذا الحجر فقام عليه فسمي مقام إبراهيم.

﴿مُصَلًّى﴾: مكان يصلى فيه أو عنده أو إليه. ﴿وَعَهِدْنَآ﴾: وصينا وأمرنا. تطهير البيت: تنزيهه عن الأقذار الحسية كالدماء والأبوال ومعنوية كالشرك والبدع والمفاسد.

(١٢٦) ﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾: ألجئه مكرهًا إلى العذاب.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في تذكير المشركين وأهل الكتاب معًا بأبي الأنبياء وإمام الموحدين إبراهيم عليه السلام، ومآثره الطيبة الحميدة، ومواقفه الإيمانية العظيمة ليتجلى بذلك بطلان دعوى كل من أهل الكتاب والمشركين في انتسابهم إلى إبراهيم كذبًا وزورًا إذ هو موحد وهم

---

(١٢٤) ﴿بكلمات﴾ الكلمات: جمع كلمة، وهي اللفظ المفرد وتطلق على الكلام أيضًا والمراد بها هنا كلمات تحمل الأوامر التكليفية ومن أبرزها ما يلي: كسر الأصنام، والهجرة، وذبح إسماعيل، وبناء البيت العتيق، والختان، والصلاة، والزكاة، وخصال الفطرة، والصدق، والصبر، وبالجملة فقد نهض إبراهيم بكل ما عهد إليه ربّه بالقيام به من الشرائع فلذا أكرمه بالإمامة وشرّفه بها.

(١٢٤) ﴿ذريتي﴾ الذرية: مأخوذ من ذرأ الله الخلق ذرءًا أي: خلقهم والجمع ذراري.

(١) قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾. الآية من سورة العنكبوت.

(٢) شاهد هذا في كتاب الله تعالى إذ قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ السجدة. فلذا قيل: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

(٣) هذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

(١٢٥) ﴿مثابة﴾: أصله ثاب مصدر ثاب يثوب مثابا، وزيدت فيه التاء للمبالغة كما زيدت في كلمة علامة ونسّابة ويشهد لهذا قول الشاعر:

جعل البيت مثابًا لهم ... ليس منه الدهر يقضون الوطر

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

٢٠

مشركون وهو مؤمن وهم كافرون فقال تعالى لنبيه ﷺ: اذكر لهم كيف جعلنا البيت مثابة للناس[1] يثوبون إليه في كل زمان حجاجًا وعمارًا، وأمنًا دائمًا من دخله أمن على نفسه وماله وعرضه. وقلنا لمن حجوا البيت أو اعتمروا اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فكان من سنة مَن طاف بالبيت أن يصلي خلف المقام ركعتين، كما أوصينا[2] من قبلُ إبراهيمَ وولدَه إسماعيلَ بتطهير البيت من كل رجس معنويًا كالأصنام وعبادة غير الله تعالى أو حسيًا كالأقذار والأوساخ من دم أو بول حتى يتمكن الطائفون والعاكفون[3] والمصلون من أداء هذه العبادات بلا أي أذى يلحقهم أو يضايقهم.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٢٥) أما الآية الثانية (١٢٦) فقد تضمنت أمر الله تعالى لرسوله ﷺ أن يذكر دعوة إبراهيم ربَّه بأن يجعل مكة بلدًا آمنًا من[4] دخله يأمن فيه[5] على نفسه وماله وعرضه، وأن يرزق أهله وسكانه المؤمنين من الثمرات وأن الله قد استجاب لإبراهيم دعوته إلا أن الكافرين لا يحرمون الرزق في الدنيا ولكن يحرمون الجنة في الدار الآخرة حيث يلجئهم تعالى مضطرًا لهم إلى عذاب النار الغليظ وبئس هذا المصير الذي يصيرون إليه ـ وهو النار ـ من مصير.

هداية الآيتين:

١ - منة الله تعالى بجعل البيت مثابة للناس وأمنًا توجب حمد الله على كل مؤمن.

٢ - سنة صلاة ركعتين خلف المقام لمن[6] طاف بالبيت.

٣ - وجوب حماية البيت والمسجد الحرام من أي ضرر يلحق من يوجد فيه من طائف وعاكف وقائم وراكع وساجد.

٤ - بركة دعوة إبراهيم لأهل مكة، واستجابة الله تعالى له دعوته فللّه الحمد والمنة.

٥ - الكافر لا يحرم الرزق لكفره[7] بل له الحق في الحياة إلا أن يحارب فيقتل أو يسلم.

٦ - مصير من مات كافرًا إلى النار،

---

(١) فقد أخبر النبي ﷺ أن موسى عليه السلام حج البيت وأن هودًا حجه من قبل وكذا سائر الأنبياء والمرسلين.

(٢) الآية و﴿عَهِدْنَآ﴾: إلاّ أن الوعد المؤكد وقوعه يصير عهدًا، فإن عدي بإلى صار وصية، فلذا فسّرنا العهد هنا بالوصية.

(٣) العكوف: ملازمة المسجد للصلاة والعبادة، والعاكفون الملازمون للمسجد الحرام من ساكن مكة وغريب.

(٤) الجمهور على أن الحدود تقام على أصحابها في الحرم، وخالف أبو حنيفة في هذا، وقول الجمهور أصح وعليه العمل فقد روى البخاري أن عمرو بن سعيد قال: إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًا بدم ولا فارًا بخربة.

(٥) هل كانت مكة حرامًا قبل دعوة إبراهيم أو بعد دعوته خلاف ويشهد لكونها ما كانت حرامًا قول النبي ﷺ: «**إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها**..» الحديث في مسلم.

(٦) روى البخاري عن عمر رضي الله عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ الآية.

(٧) هذا مستفاد من قول الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا..﴾ إلخ.. إذ إبراهيم عليه السلام سأل الرزق للمؤمنين لا غير نظرًا إلى أن الله تعالى ردّ طلبه في سؤاله الإمامة لكافة ذريته إذ قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فمن هنا استثنى إبراهيم غير المؤمنين فأعلمه الله أن الغذاء حق الحيّ مؤمنًا كان أو كافرًا.

لا محالة، والموت في الحرم لا يغني عن الكافر شيئًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٧ ـ ١٢٩]

(١٢٧) ﴿وَإِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان ويعلق بمحذوف تقديره اذكر وقت كذا وكذا. ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾: جمع قاعدة ما يبنى عَلَيْه الجدار من أساس ونحوه. ﴿ٱلْبَيْتَ﴾: الكعبة حماها الله وطهرها. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: هذه الجملة وسيلة توسل بها إبراهيم وولده لقبول دعائهما.

(١٢٨) ﴿مُسْلِمَيْنِ﴾: منقادين لك خاضعين لأمرك ونهيك راضين بحكمك عابدين لك. ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: علمنا كيف نحج بيتك، تنسكًا وتعبدًا لك. ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾: وفقنا للتوبة إذا زَلَلْنا واقْبلْها منا.

(١٢٩) ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا﴾: هذا الدعاء استجابهُ الله تعالى، ومحمد ﷺ هو ما طلباه. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: السنة وأسرار الشرع والإصابة في الأمور كلها. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: يطهر أرواحهم ويكمل عقولهم، ويهذب أخلاقهم بما يعلمهم من الكتاب والحكمة، وما بيّنه لهم من ضروب الطاعات. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: العزيز الغالب الذي لا يغلب. الحكيم في صنعه وتدبيره بوضع كل شيء في موضعه.

معنى الآيات:

(١٢٧) ما زال السياق الكريم في ذكر مآثر إبراهيم عليه السلام المنبئة عن مكانته السامية في كمال الإيمان والطاعة، وعظيم الرغبة في الخير والرحمة، فقد تضمنت الآيات الثلاث ذكر إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان البيت برفع قواعده وهما يدعوان الله تعالى بأن يتقبل(١) منهما عملهما متوسلين إليه بأسمائه وصفاته ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

كما يسألانه عز وجل أن يجعلهما مسلمين له وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة(٢) له مؤمنة به موحدة له ومنقادة لأمره ونهيه مطيعة، وأن يعلمهما مناسك(٣) حج بيته العتيق ليحجاه على علم ويتوب عليهما، كما سألاه عز وجل أن يبعث في ذريتهما رسولاً منهم يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بالإيمان وصالح الأعمال، وجميل الخلال وطيب الخصال.

وقد استجاب الله تعالى دعاءهما فبعث في ذريتهما من أولاد إسماعيل إمام المسلمين وقائد الغر المحجلين نبينا محمدًا ﷺ، وقد قرر هذا ﷺ بقوله: «**أنا دعوة(٤) أبي إبراهيم وبشارة عيسى.. عليهم جميعًا السلام**».

هداية الآيات:

١ ـ فضل الإسهام بالنفس في بناء المساجد(٥).

٢ ـ المؤمن البصير في دينه يفعل

---

(١٢٧) ﴿يرفع﴾ الإتيان بالمضارع هنا مع أن السياق في أمور مضت من أجل استحضار الحالة كأنها مشاهدة وذلك إبرازًا لمواقف إمام الموحدين إبراهيم المشرقة ترغيبًا في الاقتداء به.

(١٢٧) ﴿إسماعيل﴾ هو الولد البكر لإبراهيم، وأمه هاجر الجارية المصرية ومعنى إسماعيل: (سمع الله).

(١٢٨) ﴿واجعلنا مسلمين﴾ هذا كسؤال المسلم في صلاته ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: أدم هدايتنا واحفظ سيرنا عليه حتى نفوز برضاك والجنة فكذلك سؤال إبراهيم ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: أدم لنا إسلامنا واحفظه علينا حتى لا نتركه لأنه علّة وجودنا وغاية أملنا في الحياة.

(١) هذه من كمال الحال إذ هو في حال البناء، والتعب، والعرق ويسأل أن يتقبل منه عمله. هذا شأن أهل الكمال من الرجال قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ الآية.

(٢) هي أمّة الإسلام التي أنشأها بعون الله تعالى محمد ﷺ الذي بعثه الله رسولاً في ذرية إسماعيل للعالمين.

(٣) النسك في اللغة الغسل بالماء، يقال نسك ثوبه إذا غسله، وهو في الشرع اسم للعبادة، لأن العبادة تطهّر النفس وتزكيها، يقال: رجل ناسك ومتنسك إذا لازم العبادة يغسل بها نفسه لتطهر وتزكو فيفلح بذلك ويفوز. ومناسك الحج هي العبادات المشروعة فيه من إحرام وطواف وذبح الهدي وغير ذلك.

(٤) رواه أحمد بلفظ: «**إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجندل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين**».

(٥) وفي الحديث الصحيح: «**من بنى لله مسجدًا بنى الله له قصرًا في الجنة**».

الخير وهو خائف أن لا يقبل منه فيسأل الله تعالى ويتوسل إليه بأسمائه وصفاته أن يتقبله منه.

٣ ـ مشروعية سؤال الله للنفس وللذرية الثبات على الإسلام حتى الموت عليه.

٤ ـ وجوب تعلم مناسك الحج والعمرة على من أراد أن يحج أو يعتمر.

٥ ـ وجوب طلب تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح، وتهذيب الأخلاق بالعلم والحكمة.

٦ ـ مشروعية التوسل إلى الله تعالى في قبول الدعاء وذلك بأسمائه تعالى وصفاته لا بحق فلان وجاه فلان كما هو شأن المبتدعة والضلاّل، ففي هذه الآيات الثلاث توسل إبراهيم وإسماعيل بالجمل التالية:

(١٢٧) ١ ـ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

(١٢٨) ٢ ـ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(١٢٩) ٣ ـ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٠ ـ ١٣٤]

(١٣٠) ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: الرغبة عن الشيء عدم حبه وترك طلبه، وملة إبراهيم هي عبادة الله وحده بما شرع لعباده.

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ[1] نَفْسَهُۥ﴾: لا يرغب عن ملة إبراهيم التي هي دين الإسلام إلا عبد جهل قدر نفسه فأذلها وأهانها بترك سبيل عزها وكمالها وإسعادها وهي الإسلام.

﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾: اخترناه لرسالتنا والبلاغ عنا، ومن ثم رفعنا شأنه وأعلينا مقامه.

(١٣١) ﴿أَسْلِمْ﴾: انقد لأمرنا ونهينا فاعبُدْنا وحدنا ولا تلتفتْ إلى غيرنا.

(١٣٢) ﴿ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾: اختار لكم الدين الإسلامي ورضيه لكم فلا تموتنّ[2] إلا وأنتم مسلمون.

﴿وَيَعْقُوبُ﴾: هو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم وبنوه هم يوسف وإخوته.

(١٣٤) ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾: جماعة أمرها واحد. خلت: مضت إلى الدار الآخرة. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: أجر ما كسبته من الخير. ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾: من خير[3] أو غيره.

معنى الآيات:

(١٣٠) لما ذكر تعالى في الآيات السابقة مواقف إبراهيم السليمة الصحيحة عقيدة وإخلاصًا وعملاً صالحًا وصدقًا ووفاءً فوضح بذلك ما كان عليه إبراهيم من الدين الصحيح. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ تلك الملة الحنيفية الواضحة السهلة. اللهم لا أحد يرغب عنها إلا عبد جهل قدر نفسه، ولم يعرف لها حقها في الطهارة والصفاء والإكمال والإسعاد وضمن هذا الخبر ذكر تعالى إنعامه على إبراهيم وما تفضّل به عليه من الاصطفاء في الدنيا والإسعاد في الآخرة في جملة الصالحين.

وفي الآية الثانية (١٣١) يذكر تعالى أن ذاك الاصطفاء تم لإبراهيم عند استجابته لأمر ربه بالإسلام حيث أسلم ولم يتردد. وفي الآية الثالثة (١٣٢) يذكر تعالى إقامة الحجة على المشركين وأهل الكتاب معًا إذ ملة الإسلام القائمة على

---

(١٣٠) ﴿ومن يرغب﴾ الاستفهام للنفي والإنكار، وملّة إبراهيم هي عبادة الله وحده لا شريك له بما شرع الله تعالى لعباده من أنواع العبادات في كتابه وعلى لسان رسوله محمد ﷺ.

(١٣٠) ﴿اصطفيناه﴾ الاصطفاء مأخوذ من الصفوة وهو تخير الأصفى أي: الأكثر صفاء، واصطفى: قلبت فيه التاء طاءً لتناسبها مع الصاد في الإطباق إذ الأصل: اصتفى، أي: طلب الصفوة.

(١٣٢) ﴿ووصى﴾ وصى وأوصى بمعنى عهد إليه بكذا، والموصى به هنا هو كلمة ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وذلك بعبادته وحده بما شرع بعد خلع الأنداد، وذي هي ملّة إبراهيم.

(١٣٣) ﴿أم﴾ بمعنى: بل والهمزة هي التي للاستفهام الإنكاري وتقدير الكلام: بل أكنتم شهداء حين حضر يعقوب الموت فوصّى بنيه. يوبّخهم على كذبهم وينكر عليهم.

(١) سفه نفسه: استخفّ بقدرها جهلاً بها. ولذا نَصب نفسَه لتضمُّن سفه معنى جهل.

(٢) في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ إيجاز بليغ إذ معناه الزموا الإسلام ودوموا عليه ولا تفارقوه حتى تموتوا. وجملة ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ في محل نصب على الحال، والمعنى: مطيعون خاضعون.

(٣) فيه معنى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ومعنى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾.

التوحيد وصّى بها إبراهيم بنيه، كما وصّى بها يعقوب بنيه وقال لهم: لا تموتن إلا على الإسلام، فأين الوثنية العربية واليهودية والنصرانية من ملة إبراهيم، ألا فليثب العقلاء إلى رشدهم.

(١٣٣) وفي الآية الرابعة (١٣٣) يوبخ تعالى اليهود القائلين كذبًا وزورًا للنبي ﷺ: ألست تعلم أن يعقوب وصى بنيه باليهودية فقال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي أكنتم حاضرين لما حضر يعقوب الموت فقال لبنيه مستفهمًا إياهم: ما تعبدون من بعدي؟ فأجابوه بلسان واحد: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ[1] وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا[2] وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فإن قالوا كنا حاضرين فقد كذبوا وبهتوا ولعنوا، وإن قالوا لم نحضر بطلت دعواهم أن يعقوب وصّى بنيه باليهودية، وثبت أنه وصّاهم بالإسلام لا باليهودية.

(١٣٤) وفي الآية الأخيرة (١٣٤) ينهي تعالى جدل اليهود الفارغ فيقول لهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ - يعني إبراهيم وأولاده - لها ما كسبت من الإيمان وصالح الأعمال، ولكم أنتم معشر يهود ما اكتسبتم من الكفر والمعاصي، وسوف لا تسألون يوم القيامة عن أعمال غيركم وإنما تسألون عن أعمالكم وتجزون بها، فاتركوا الجدل وأقبلوا على ما ينفعكم في آخرتكم وهو الإيمان الصحيح والعمل الصالح، ولا يتم لكم هذا إلا بالإسلام فأسلموا.

هداية الآيات:

١ - لا يرغب عن الإسلام بتركه أو طلب غيره من الأديان إلا سفيه لا يعرف قدر نفسه.

٢ - الإسلام دين البشرية[3] جمعاء، وما عداه فهي أديان مبتدعة باطلة.

٣ - استحباب الوصية للمريض يوصي فيها بنيه وسائر أفراد أسرته بالإسلام حتى الموت عليه.

٤ - كذب اليهود وبهتانهم وصدق من قال: اليهود قوم بهت.

٥ - يحسن بالمرء ترك الاعتزاز بشرف وصلاح[4] الماضين، والإقبال على نفسه بتزكيتها وتطهيرها.

٦ - سنّة الله في الخلق أن المرء يجزى بعمله، ولا يسأل عن عمل غيره.

٧ - يطلق لفظ الأب على العم تغليبًا وتعظيمًا.

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٥ - ١٣٨]

(١٣٥) ﴿تَهْتَدُوا۟﴾: تصيبوا طريق الحق. ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: دين إبراهيم الذي كان عليه. ﴿حَنِيفًا﴾[5]: مستقيمًا على دين الله تعالى موحدًا

---

(١) فيه إطلاق الأب على العمّ لأن إسماعيل عم ليعقوب وليس بأب له، وفيه إطلاق الأب على الجد أيضًا ومِنْ هنا ذهب مَنْ ذهب إلى أن الجد كالأب يحجب الإخوة عن الإرث لأنّ الأب يحجب الإخوة حجب إسقاط.

(٢) أي: نوحّده بالألوهية أي: العبادة ولا نشرك به في عبادته سواه.

(٣) الإسلام هو ملّة سائر الأنبياء، وإن تنوعت أنواع التكليف عندهم، واختلفت مناهج العمل بينهم، إذ الإسلام هو انقياد لله وخضوع ولذا قال الرسول ﷺ: **«نحن معشر الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد»**.

(٤) وفي الحديث الصحيح: **«من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»** وفي هذا المعنى قال الشاعر الحكيم:

لا تقل أصلي وفصلي يا فتى ... إنما أصل الفتى ما قد حصل

(٥) أصل الحنف: الميل ومنه قولهم: رجل أحنف أي: مائل القدمين إلى بعضهما بعضًا، قالت أم الأحنف: والله لولا الحنف برجله=

فيه لا يشرك بالله شيئًا.

(١٣٦) ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾: التوراة. ﴿وَعِيسَىٰ﴾: الإنجيل.

(١٣٧) ﴿فِي شِقَاقٍ﴾: خلاف وفراق وعداء لك وحرب عليك.

(١٣٨) ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾: دينه الذي طهرنا به ظاهرًا وباطنًا فظهرت آثاره علينا كما يظهر أثر الصبغ على الثوب المصبوغ.

معنى الآيات:

ما زال السياق في حجاج أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام، فقد قال اليهود للرسول ﷺ وأصحابه: كونوا يهودًا تهتدوا إلى الحق، وقالت النصارى من وفد نجران كذلك: كونوا نصارى تهتدوا. فحكى الله تعالى قولهم، وعلّم رسوله ﷺ أن يقول لهم: لا نتبع يهودية ولا نصرانية بل نتبع دين إبراهيم الحنيف المفضي بصاحبه إلى السعادة والكمال.

وفي الآية الثانية (١٣٦) أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين أن يعلنوا في وضوح عن عقيدتهم الحقة وهي الإيمان بالله وما أنزل من القرآن، وما أنزل على الأنبياء كافة، وما أوتي موسى وعيسى من التوراة والإنجيل خاصة، مع عدم التفرقة بين رسول ورسول والإسلام الظاهر والباطن للّه رب العالمين.

وفي الآية الثالثة (١٣٧) يقول تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين: إن آمن اليهود والنصارى إيمانًا صحيحًا كإيمانكم[1] فقد اهتدوا، وإن أبوا فتولوا وأعرضوا فأمرهم لا يعدو شقاقًا وحربًا لله ورسوله ﷺ، والله تعالى سيكفيكهم بما يشاء وهو السميع لأقوالهم الباطلة العليم بأعمالهم الفاسدة، وقد أنجز[2] تعالى وعده لرسوله ﷺ فأخرج اليهود من المدينة بل ومن الحجاز مع ما جللهم به من الخزي والعار.

وفي الآية الرابعة (١٣٨) يقول تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين ردًا على اليهود والنصارى: قولوا لهم: نتبع صبغة الله[3] التي صبغنا بها وفطرته التي فطرنا عليها وهي الإسلام، ونحن له تعالى عابدون.

هداية الآيات:

١ ـ لا هداية إلا في الإسلام ولا سعادة ولا كمال إلا بالإسلام.

٢ ـ الكفر برسول، كفر بكل الرسل فقد كفر اليهود بعيسى، وكفر

= ما كان في فتيانكم من مثله ولمّا مال إبراهيم عن أديان الشرك إلى دين التوحيد قيل فيه: حنيف وصار بمعنى: مستقيم. إذ هو على منهج الحق وغيره على الباطل.

(١٣٥) ﴿وقالوا﴾ ذكر ابن كثير عن ابن إسحاق أن عبدالله بن صوريًا الأعور اليهودي قال لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلاّ ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَـٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ الآية.

(١٣٦) ﴿أنزل إلينا﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إليكم..**».

(١٣٦) الأسباط: أولاد يعقوب عليه السلام وهم اثنا عشر ولدًا، يوسف وبنيامين وهوذا ولكل واحد منهم أُمّة من الناس. الواحد سبط والجمع أسباط والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل عليه السلام وسمُوا الأسباط من السبط وهو التتابع لأنهم متتابعون.

﴿لا نفرق﴾ أي: لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كصنيع اليهود والنصارى.

(١) الآية: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ..﴾ وكان ابن عباس يقرؤها: ﴿**فإن آمنوا بالذي آمنتم به**﴾ وهو تفسير لا قراءة، وعليه فمثل: زائدة، نظيرها ليس كمثله شيء أي: ليس كهو شيء.

(٢) نعم أنجز الله تعالى وعده لرسوله ﷺ فكفاه اليهود الذين وطّنوا العزم على قتله ﷺ فحاولوا وخابوا ولم يقدروا إذ كفاه الله تعالى إياهم.

(٣) الصّبغ: الشيء يصبغ به فالصبغ بدون تاء كالقشر فزيدت فيه التاء فقيل: صبغة كقشرة، وهي في الآية منصوبة «صبغة» إمّا أنها بدل من ملة المنصوبة بتقدير: نتبع ملّة، وإمّا أنها على المفعولية المطلقة أي: صبغنا صبغة الله نحو وعد الله حقًا، وفي هذا ردّ على اليهود والنصارى إذ اليهود نشأت فيهم الصبغة إذ كان الكاهن يغتسل كل عام ليكفّر خطايا بني إسرائيل في يوم عيد معلوم لهم، والنصارى ما زالوا يُعمّدون أطفالهم يوم السابع فيغمسونهم في الماء هذه صبغة اليهود والنصارى، أمَا صبغة المسلمين فهي اتباع ملة إبراهيم عليه السلام وشتان ما بينهما.

النصارى بمحمد ﷺ فأصبحوا بذلك كافرين، وآمن المسلمون بكل الرسل فأصبحوا بذلك مؤمنين.

٣ - لا يزال اليهود والنصارى في عداء للإسلام وحرب على المسلمين، والمسلمون يكفيهم الله تعالى شرهم إذا هم استقاموا على الإسلام عقيدة وعبادة وخلقًا وأدبًا وحكمًا.

٤ - الواجب على من دخل في الإسلام أن يغتسل غسلاً كغسل الجنابة إذ هذا من صبغة[1] الله تعالى، لا المعمودية النصرانية التي هي غمس المولود يوم السابع من ولادته في ماء يقال له المعمودي وادعاء أنه طهر بذلك ولا يحتاج إلى الختان.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٩ - ١٤١]

(١٣٩) ﴿أَتُحَآجُّونَنَا[2] فِي ٱللَّهِ﴾: أتجادلوننا في دينه والإيمان به وبرسوله، والاستفهام للإنكار. ﴿لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾[3]: مخلصون العبادة له، لا نشرك غيره فيها، وأنتم مشركون.

(١٤٠) ﴿شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾: المراد بهذه الشهادة ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان بالنبي محمد ﷺ عند ظهوره. الغافل: من لا يتفطن للأمور لعدم مبالاته بها.

معنى الآيات:

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن ينكر على أهل الكتاب جدالهم في الله تعالى إذ ادعوا أنهم أولى بالله من الرسول ﷺ والمؤمنين وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، فعلّم الله رسوله ﷺ كيف يرد عليهم منكرًا عليهم دعواهم الباطلة. كما أفحمهم وقطع حجتهم في دعواهم أن إبراهيم والأنبياء بعده كانوا هودًا أو نصارى، إذ قال له قل لهم: (١٤٠) ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾؟ فإن قالوا: نحن أعلم، كفروا وإن قالوا: الله أعلم، انقطعوا لأن الله تعالى أخبر أنهم ما كانوا أبدًا يهودًا ولا نصارى، ولكن كانوا مسلمين، ثم هدّدهم تعالى بجريمتهم الكبرى وهي كتمانهم الحق وجحودهم نعوت الرسول ﷺ والأمر بالإيمان به عند ظهوره فقال: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

ثم أعاد لهم ما أدّبهم به في الآيات السابقة مبالغة في تأديبهم وإصلاحهم لو كانوا أهلاً لذلك فأعلمهم أن التمسح بأعتاب الماضين والتشبث بالنسب الفارغة إلى الأولين غير مجد لهم ولا نافع فليقبلوا على إنقاذ أنفسهم من الجهل والكفر بالإيمان والإسلام والإحسان، أما من مضوا فهم أمة قد أفضوا إلى ما كسبوا وسيجزون به، وأنتم لكم ما كسبتم وستجزون به، ولا تجزون بعمل غيركم ولا تسألون عنه.

هداية الآيات:

١ - فضيلة الإخلاص وهو عدم الالتفات إلى غير الله تعالى عند القيام بالعبادات.

٢ - كل امرىء يجزى بعمله، وغير مسؤول عن عمل غيره، إلا إذا كان سببًا فيه.

٣ - اليهودية والنصرانية[4] بدعة

---

(١) تعميد النصارى لأطفالهم وهو صبغهم بالماء كالثوب يصبغ بلون من الألوان فهم يرون أن الولد لمّا يصبغ بالماء أصبح نصرانيًا لا يفارقه. أي: هذا الاسم الذي هو النصراني.

(١٤٠) ﴿قل أأنتم﴾ الاستفهام للتقرير والتوبيخ.

(١٤٠) ﴿شهادة﴾ قال ابن كثير عن الحسن البصري: أن أهل الكتاب كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي آتاهم: إن الدين الإسلام وإن محمدًا رسول الله وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا بُرآء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك.

(٢) والاستفهام أيضًا للتعجب من حالهم وللتوبيخ لهم على سوء سلوكهم، ومعنى في الله أي: في دينه وولايته ونسخ شرائعه السابقة بالإسلام وكفر من لم يؤمن بمحمد ﷺ ودينه الذي هو الإسلام.

(٣) الإخلاص: تخليص العبادة من الالتفات إلى غير الله تعالى. وعرفه الجنيد فقال: الإخلاص سرّ بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

(٤) قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ آل عمران.

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

٢٢

ابتدعها اليهود والنصارى.

٤ ـ تفاوت الظلم بحسب الآثار المترتبة عليه.

٥ ـ حرمة[1] كتمان الشهادة لا سيما شهادة من الله تعالى.

٦ ـ عدم الاتكال على حَسَبِ الآباء والأجداد، ووجوب الإقبال على النفس لتزكيتها وتطهيرها بالإيمان الصحيح والعمل الصالح.

الجزء الثاني

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٢، ١٤٣]

﴿١٤٢﴾ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: جمع سفيه وهو من به ضعف عقلي لتقليده وإعراضه عن النظر نجم عنه فساد خُلُقٍ وسوء سلوك. ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾: ما صرفهم عن استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة بمكة.

القبلة: الجهة التي يستقبلها المرء وتكون قبالته في صلاته.

﴿١٤٣﴾ ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾: وسط كل شيء خياره، والمراد منه أن أمة محمد ﷺ خير الأمم وأعدلها. ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: يرجع إلى الكفر بعد الإيمان. ﴿لَكَبِيرَةً﴾: شاقة على النفس صعبة لا تطاق إلا بجهد كبير وهي التحويلة من قبلة مألوفة إلى قبلة حديثة. ﴿إِيمَٰنَكُمْ﴾: صلاتكم التي صليتموها إلى بيت المقدس قبل التحول إلى الكعبة. ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: يدفع الضرر عنكم ويفيض الإحسان عليكم.

معنى الآيتين:

يخبر الله تعالى بأمر يعلمه قبل وقوعه، وحكمة الإخبار به قبل وقوعه تخفيف أثره على نفوس المؤمنين إذ يفقد نقدهُم المرير عنصر المفاجأة فيه فلا تضطرب له نفوس المؤمنين.

﴿١٤٢﴾ فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وحصل هذا لما حوّل الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين من استقبال بيت المقدس[2] في الصلاة إلى الكعبة تحقيقًا لرغبة رسول الله ﷺ في ذلك ولعلة الاختبار[3] التي تضمنتها الآية التالية فأخبر تعالى بما سيقوله السفهاء من اليهود والمنافقين والمشركين وعلّم المؤمنين كيف يردون على السفهاء، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فلا اعتراض عليه، يوجه عباده حيث

---

(١) إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ البقرة.

﴿١٤٢﴾ ﴿سيقول﴾ هذا إخبار بما سيقوله السفهاء من المنافقين واليهود والمشركين قبل أن يقولوه وفائدته أولاً: تقرير النبوة المحمدية إذ هذا إخبار بالغيب فكان كما أخبر، وثانيًا: توطين نفس الرسول ﷺ والمؤمنين به حتى لا يضرّهم عند سماعه من السفهاء، لأن مفاجأة المكروه أليمة شديدة، فإن ذهبت المفاجأة هان الأمر، وخف الألم وهذا من باب (قبل الرمي يراش السهم) ومناسبة الآيات لما قبلها استمرار الحجاج إلاّ أنه كان في الأصول وأصبح في الفروع.

﴿١٤٢﴾ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ في محل نصب على الحال وأل فيه للجنس ليدخل في اللفظ كل سفيه.

﴿١٤٢﴾ ﴿قبلتهم﴾ هي بيت المقدس، ومن جملة ما قالوه سفهًا واستهزاء التبس عليه أمره وتحير: قد اشتاق محمد إلى مولده.

(٢) إذ صلى المؤمنون قرابة سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس من قبل تحويل الله تعالى القبلة بهذه الآيات التي نزلت في شأنها. وروى مالك أن تحويل القبلة كان قبل غزوة بدر بشهرين.

(٣) الاختبار في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

يشاء، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

(١٤٣) وفي الآية الثانية (١٤٣) يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ خيارًا عدولاً[1] أي كما هديناكم إلى أفضل قبلة وهي الكعبة قبلة إبراهيم عليه السلام جعلناكم خير أمة وأعدلها فأهّلناكم بذلك للشهادة على الأمم يوم القيامة إذا أنكروا أن رسلهم قد بلغتهم رسالات ربهم، وأنتم لذلك لا تشهد عليكم الأمم ولكن يشهد عليكم رسولكم ﷺ. وفي هذا من التكريم والإنعام ما الله به عليم[2]، ثم ذكر تعالى العلة في تحويل القبلة فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ فثبت على إيمانه وطاعته وانقياده لله ولرسوله ﷺ ممن يؤثر فيه نقد السفهاء فتضطرب نفسه ويجاري السفهاء فيهلك بالردة معهم. ثم أخبر تعالى أن هذه التحويلة من بيت المقدس إلى الكعبة شاقة على النفس إلا على الذين هداهم الله إلى معرفته ومعرفة محابه ومكارهه فهم لذلك لا يجدون أي صعوبة في الانتقال من طاعة إلى طاعة ومن قبلة إلى قبلة، ما دام ربهم قد أحب ذلك وأمر به.

وأخيرًا طمأنهم تعالى على أجور صلاتهم التي صلوها إلى بيت[3] المقدس وهي صلاة قرابة سبعة عشر شهرًا بأنه لا يُضيعها لهم بل يجزيهم بها كاملة سواء من مات منهم وهو يصلي إلى بيت المقدس أو من حَييَ حَتَّى صلى إلى الكعبة وهذا مظهر من مظاهر رأفته تعالى بعباده ورحمته.

هداية الآيتين:

١ - جواز النسخ في الإسلام فهذا نسخ إلى بدل من الصلاة إلى بيت المقدس إلى الصلاة إلى الكعبة في مكة المكرمة.

٢ - الأراجيف وافتعال الأزمات وتهويل الأمور شأن الكفار إزاء المسلمين طوال الحياة، فعلى المؤمنين أن يثبتوا ولا يتزعزعوا حتى يَظْهَر الباطلُ ويَنْكَشِفَ الزيفُ وتنتهيَ الفتنة.

٣ - أفضلية أمة الإسلام على سائر الأمم لكونها أمة الوسط والوسطية شعارها.

٤ - جَوَازُ امْتِحَانِ المؤمن وجريانه عليه.

٥ - صحة صلاة من صلى إلى غير القبلة وهو لا يعلم ذلك وله أجرها

---

(١) في هذه الآية دليل على صحة الإجماع ووجوب الحكم به لعدالة الأمة بشهادة ربّها فإذا أجمعت على أمر وجب الحكم به، وفي أي عصر من العصور إلى قيام الساعة.

(٢) ومن هذا التكريم أنهم إذا شهدوا على أحدهم بالخير وجبت له الجنة لحديث الصحيح: مرّت جنازة فأثني عليها خير فقال رسول الله ﷺ: «وجبت وجبت وجبت» الحديث. فسئل فقال: «**من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شرًا وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**».

(٣) ورد في الصحيح عن البراء قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس: ما حالهم في ذلك فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ ورواه الترمذي عن ابن عباس وصححه.

(١٤٤) ﴿تقلب وجهك﴾ روى البخاري في سبب نزول هذه الآية أن البراء قال: «صلينا مع رسول الله ﷺ بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرًا نحو بيت المقدس ثمّ علم الله هوى نبيّه (أي: حبه) فنزلت: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾» الآية.

(١٤٤) ﴿فول وجهك﴾ تحويل وجهك: أي: تحويل وجهك ونظرك بعينك إلى السماء تطلعًا إلى نزول الوحي بذلك لا سيما وقد نزلت الآيات الأولى: ﴿سَيَقُولُ﴾ الآية، إذ هي موحية بذلك.

(١٤٤) ﴿وجوهكم﴾ اختلف في أوّل صلاةٍ صلاها رسول الله ﷺ والمؤمنون إلى الكعبة، فقيل: الظهر، وقيل: العصر، ولم يرجح أحد القولين، وقيل: كانت صلاة الظهر في مسجد بني سلمة المعروف بمسجد القبلتين حتى صلوا بعض الصلاة إلى بيت المقدس وبعضها إلى الكعبة فسمي لذلك مسجد القبلتين.

(١٤٤) ﴿شطره﴾ اختلف في: هل الغائب عن البيت الحرام يصلي إلى عين الكعبة أو إلى جهتها. الصواب أنه يصلى إلى جهة الكعبة ناويًا استقبال البيت، لأن استقبال عين الكعبة متعذر على غير الموجود في المسجد الحرام، أمّا مَنْ في المسجد الحرام فلا تصح صلاته إن لم يستقبل عين الكعبة.

(١٤٥) ﴿قبلتهم﴾ جمع القبلة: قبل بكسر القاف وفتح الباء وهو جمع تكسير، وتجمع جمع سلامة على قِبلات بكسر القاف والباء، ويجوز فتح الباء كما يجوز إسكانها أيضًا.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

٢٣

وليس عليه إعادتها ولو صلى شهورًا إلى غير القبلة ما دام قد اجتهد في معرفة القبلة ثم صلّى إلى حيث أدّاه اجتهاده.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٤ ـ ١٤٧]

﴿١٤٤﴾ ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: ترديده بالنظر إليها مرة بعد أخرى انتظارًا لنزول الوحي. ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾: فلنحولنك إلى القبلة التي تحبها وهي الكعبة. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾: حوّل وجهك جهة المسجد الحرام بمكة. ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: بمعنى المحرم لا يسفك فيه دم ولا يقتل فيه أحد. الشطر[1]: هنا الجهة واستقبال الجهة يحصل به استقبال بعض البيت في المسجد الحرام، لأن الشطر لغة: النصف أو الجزء مطلقًا. ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾: أي تحول القبلة جاء منصوصًا عليه في الكتب السابقة.

﴿١٤٥﴾ ﴿ءَايَةٍ﴾: حجة وبرهان.

﴿١٤٦﴾ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾: الضمير عائد إلى رسول الله ﷺ، أي يعلمون أنه نبي الله ورسوله ﷺ لما في كتبهم من صفاته الواضحة القطعية.

﴿١٤٧﴾ ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: الشاكين. والامتراء: الشك وعدم التصديق.

معنى الآيات:

﴿١٤٤﴾ يعلم الله تعالى رسوله ﷺ أنه كان يراه وهو يقلّب وجهه في السماء انتظارًا لوحي يؤمر فيه باستقبال الكعبة بدل بيت المقدس لرغبته في مخالفة اليهود ولحبه لقبلة أبيه إبراهيم إذ هي أول قبلة وأفضلها، فبناء على ذلك ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وبهذا الأمر الإلهي تحولت القبلة، وروي أنه كان يصلي الظهر في مسجد بني سلمة المعروف الآن بمسجد القبلتين، فصلّى الرسول ﷺ والمؤمنون وراءه ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة، وكيلا تكونَ القبلةُ خاصة بمن كان بالمدينة قال تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أي في نواحي البلاد وأقطار الأرض ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي شطر المسجد الحرام. كما أخبر تعالى في هذه الآية أن علماء أهل الكتاب يعرفون أن تحول القبلة حق وأنه بأمر الله تعالى وما أحدثوه من التشويش والتشويه إزاء تحول القبلة فقد علمه وسيجزيهم به إذ لم يكن تعالى بغافل عما يعملونه.

وفي الآية الثانية (١٤٥) يخبر تعالى بحقيقة ثابتة وهي أن النبي ﷺ لو أتى[2] اليهود والنصارى بكل آية تدل على صدقه وأحقية القبلة إلى الكعبة ما كانوا ليتابعوه على ذلك ويصلوا إلى قبلته، كما أن النصارى لم يكونوا ليصلوا إلى بيت المقدس قبلة اليهود، ولا اليهود ليصلوا إلى مطلع الشمس قبلة النصارى، كما أن النبي ﷺ والمؤمنين لم يكونوا أبدًا ليتابعوا أهل الكتاب على قبلتهم بعد أن هداهم الله إلى أفضل قبلة وأحبها إليهم. وأخيرًا يحذّر الله رسوله ﷺ أن يتبع أهواء اليهود فيوافقهم على بدعهم وضلالاتهم بعد الذي أعطاه من العلم وهداه إليه من الحق، وحاشاه ﷺ أن يفعل ولو فعل لكان من الظالمين.

(١) الشطر لغة: النصف ومنه الحديث: «**الطهور شطر الإيمان**» والشاطر من الناس من أخذ في نحو غير الاستواء، وهو الذي أعيا أهله خبثًا، وهو مَنْ بعد عن طاعة الله ورسوله ﷺ أيضًا.

(٢) قلت في التفسير: لو أتى اليهود إلخ: لأن لئن في الآية بمعنى لو، لأنها أجيبت بجواب لو، وهو المضي والوقوع إذ قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ فقوله: ﴿مَّا تَبِعُوا﴾ جواب لئن والمفروض فيها أن يجاب بالمضارع.

وفي الآية الثالثة (١٤٦) يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون أن الرسول ﷺ حق وأن ما جاء به هو الحق معرفةً تامةً كمعرفتهم لأبنائهم، ولكن فريقًا كبيرًا منهم يكتمون الحق وهم يعلمون أنه الحق، وفي الآية الرابعة (١٤٧) يخبر تعالى رسوله ﷺ بأن ما هو عليه من الدين الحق هو الحق الوارد إليه من ربه فلا ينبغي أن يكون من الشاكين[1] بحال من الأحوال.

هداية الآيات:

١ - وجوب استقبال القبلة في الصلاة وفي أي مكان كان المصلي عليه أن يتجه[2] إلى جهة مكة.

٢ - كفر كثير من أهل الكتاب كان على علم إيثارًا للدنيا على الآخرة.

٣ - حرمة موافقة المسلمين أهل الكتاب على بدعة من بدعهم الدينية مهما كانت.

٤ - علماء أهل الكتاب المعاصِرُون للنبي ﷺ يعرفون أنه النبي المبشر به وأنه النبي الخاتم، وأعرضوا عن الإيمان به وعن متابعته إيثارًا للدنيا على الآخرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٨ ـ ١٥٢]

(١٤٨) ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾: التنوين في (كلٍ) دال على محذوف، هو لكل أهل ملة كالإسلام، واليهودية والنصرانية قبلة يولون وجوههم لها في صلاتهم. ﴿الْخَيْرَاتِ﴾: البر والطاعة لله ورسوله ﷺ. الحجة: الدليل القوي الذي يظهر به صاحبه على من يخاصمه.

(١٥٠) ﴿نِعْمَتِي﴾: نعم الله كثيرة وأعظمها نعمة الإسلام وإتمامها بمواصلة التشريع والعمل به إلى نهاية الكمال، وكان ذلك في حجة الوداع بعرفات حيث نزلت آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

(١٥١) ﴿رَسُولًا﴾: هو محمد ﷺ والتنكير فيه للتعظيم. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾: يطهركم من الذنوب والأخلاق السيئة والملكات الرديئة. الحكمة: السنة وهي كل قول صالح لا ينتهي صلاحه ونفعه بمرور الزمن. الشكر: إظهار النعمة[3] بصرفها فيما من أجله وهبها الله تعالى لعباده. والكفر:

---

(١) هذا تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يقال: امترى فلان في كذا إذا اعتراه اليقين مرة والشك مَرة أخرى فدافع أحدهما بالآخر ومنه الامتراء، لأن كل واحد يشك في قول صاحبه والامتراء الشك.

(٢) روي عن ابن عباس أنّ النبي ﷺ قال: «**البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي**».

(١٤٨) ﴿وجهة﴾ الوجهة: من المواجهة وهي والجهة والوجه كلها بمعنى واحد، ومفعول موليها محذوف أي: وجهه، أو يكون موليها بمعنى متوليها وحينئذ فلا حذف ولا تقدير.

(١٤٩) ﴿شطر المسجد﴾ اختلف في الجهة التي كان الرسول ﷺ يستقبلها في مكة قبل الهجرة، والراجح أنّه كان يجعل الكعبة أمامه وهو متجه إلى الشام، بمعنى أنه يصلي بين الركنين اليمانيين ولما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس حتى حول إلى الكعبة، وهل كان استقباله بيت المقدس باجتهاد منه أو بوحي، الظاهر أنّه باجتهاد منه ﷺ.

(١٥٠) ﴿وجهك﴾ قال ابن كثير والقرطبي قبله استدل مالك بقول الله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أنّ المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما هو مذهب الجمهور، أبي حنيفة والشافعي وأحمد الذي أراه يحقق المطلوب من الآية هو أن ينظر المصلي أولاً أمامه امتثالاً لأمر الله تعالى ثم بعد ذلك ينظر إلى موضع سجوده.

(١٥١) ﴿كما﴾ الكاف في محل نصب على النعت لمصدر محذوف تقديره ولأتم نعمتي عليكم إتمامًا مثل ما أرسلنا وهو تشبيه نعمة استقلالكم في القبلة باستقلالكم في الرسالة.

(١٥٢) ﴿فاذكروني﴾ أصل الذكر يكون بالقلب، ولما كان القلب باطنًا جعل اللفظ باللسان دليلاً عليه، فأصبح الذكر يطلق على ذكر اللسان وإن كان المطلوب هما معًا أي: ذكر القلب واللسان والجملة أمر وجواب فاذكروني أمرٌ، وأذكركم جواب وجزاء، وذكر الله للعبد أعظم، وقد ورد في فضل الذكر الكثير من الأحاديث منها: حديث ابن ماجه ونصّه: أن رجلاً قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأنبئني منها بشيء أتشبث به، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله**».

(٣) ورد أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة أحبّ أن يرى أثرها عليه**».

جحد النعمة وإخفاؤها وصرفها في غير ما يحب الله تعالى.

معنى الآيات:

بعد تقرير تلك الحقيقة التي تضمنتها آية ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ إلخ... وهي أن النبي ﷺ لو أتى أهل الكتاب بكل آية تدل على صدقه في أمر القبلة ما تبعوا قبلته، وما هو بتابع قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض فلا اليهود يستقبلون مطلع الشمس ولا النصارى يستقبلون بيت المقدس. أخبر تعالى أن لكل أمة قبلة مولية وجهها إليها في صلاتها، فاتركوا أيها المسلمون أهل تلك الملل الضالة وسابقوا في الخيرات ونافسوا في الصالحات شكرًا لربكم على نعمة هدايته لكم لقبلة أبيكم إبراهيم، فإنه تعالى جامعكم ليوم القيامة وسائلكم ومجازيكم بأعمالكم إنه على كل شيء قدير، هذا ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام حيثما كان في الحضر كان أو في السفر وأعلمه أن تحوله إلى الكعبة حقٌّ ثابت من ربه تعالى فلا يتردد فيه.

هذا ما تضمنته الآيتان (١٤٨) و(١٤٩) وأما الآية (١٥٠) فإنه تعالى أمر رسوله ﷺ والمؤمنين بأن يولوا وجوههم شطر المسجد[1] الحرام حيثما كانوا وأينما وجدوا ويثبتوا على ذلك حتى لا يكون لأعدائهم من اليهود والمشركين حجة، إذ يقول اليهود: ينكرون ديننا ويستقبلون قبلتنا، ويقول المشركون: يدّعون أنهم على ملة إبراهيم ويخالفون قبلته. هذا بالنسبة للمعتدلين منهم، أما الظالمون والمكابرون فإنهم لا سبيل إلى إقناعهم إذ قالوا بالفعل: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين آبائه ويوشك أن يرجع إليه، فمثل هؤلاء لا يبالى بهم ولا يلتفت إليهم كما قال تعالى:

(١٥٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ[2] وَاخْشَوْنِي﴾. فاثبتوا على قبلتكم الحق لأتم نعمتي عليكم بهدايتكم إلى أحسن الشرائع وأقومها، ولأهيئكم لكل خير وكمال مثل ما أنعمت عليكم بإرسال رسولي ﷺ، يزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه من أمور الدين والدنيا معًا وفي الآية الأخيرة (١٥٢) أمر تعالى المؤمنين بذكره وشكره، ونهاهم عن نسيانه وكفره.

(١٥٢) فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي[3] أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ۝﴾ لما في ذكره بأسمائه وصفاته ووعده ووعيده من موجبات محبته ورضاه، ولما في شكره بإقامة الصلاة وأداء سائر العبادات من مقتضيات رحمته وفضله، ولما في نسيانه وكفرانه من التعرض لغضبه وشديد عقابه وأليم عذابه.

هداية الآيات:

١ - الإعراض عن جدل المعاندين، والإقبال على الطاعات تنافسًا فيها وتسابقًا إليها إذ هو أنفع وأجدى من الجدل والخصومات مع من لا يرجى رجوعه إلى الحق.

٢ - وجوب استقبال القبلة في الصلاة وسواء كان في السفر أو في الحضر إلا أن المسافر يجوز أن يصلي النافلة حيث توجهت دابته أو طيارته أو سيارته إلى القبلة وإلى غيرها.

٣ - حرمة[4] خشية الناس ووجوب خشية الله تعالى.

٤ - وجوب شكر الله تعالى على نعمه الظاهرة والباطنة.

---

(١) قد ورد في الآيات الأمر بتولية الرسول ﷺ والمؤمنين وجوههم شطر المسجد الحرام ثلاث مرات وهو تكرار تطلبه المقام فكان من مقتضيات الحال التي يوجبها الكلام البليغ الرفيع ومن مقتضيات الحال إسكات السفهاء وقطع الطريق عليهم ورفع معنويات المؤمنين حيث تأثر بعضهم بما أثاره اليهود والمنافقون والمشركون حول تحويل القبلة.

(٢) الخشية مرادفة للخوف، والخوف هو فزع في القلب تخف له الأعضاء، ولخفة الأعضاء به سمي خوفًا.

(٣) ورد في الصحيح أن الله تعالى يقول: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»، والمراد من الملأ الخير الملائكة وورد: «**أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه**». وقال معاذ بن جبل: ما عمل ابن آدم عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل.

(٤) في هذا إبطال للتقية التي جعلها الروافض من أصول دينهم.

٥ ـ وجوب[1] تعلم العلم الضروري ليتمكن العبد من عبادة الله عبادة تزكي نفسه.

٦ ـ وجوب[2] ذكر الله بالتهليل والتكبير والتسبيح، ووجوب شكره بطاعته.

٧ ـ حرمة نسيان ذكر الله، وكفران نعمه بترك شكرها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٣ ـ ١٥٧]

﴿١٥٣﴾ الاستعانة: طلب المعونة والقدرة على القول أو العمل. الصبر: حمل النفس على المكروه وتوطينها على احتمال المكاره.

﴿١٥٤﴾ الشعور: الإحساس بالشيء المفضي إلى العلم به. الابتلاء: الاختبار والامتحان لإظهار ما عليه الممتحن من قوة أو ضعف.

﴿١٥٥﴾ ﴿ٱلْأَمْوَٰلِ﴾: جمع مال وقد يكون ناطقًا وهو المواشي ويكون صامتًا وهو النقدان وغيرهما.

﴿١٥٦﴾ المصيبة: ما يصيب العبد من ضرر في نفسه أو أهله أو ماله. الصلوات: جمع صلاة وهي من الله تعالى هنا المغفرة لعطف الرحمة عليها.

﴿١٥٧﴾ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: الرحمة الإنعام وهو جلب ما يسر ودفع ما يضر، وأعظم ذلك دخول الجنة بعد النجاة من النار. ﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾: إلى طريق السعادة والكمال بإيمانهم وابتلاء الله تعالى لهم وصبرهم على ذلك.

معنى الآيات:

﴿١٥٣﴾ نادى الرب تعالى عباده المؤمنين وهم أهل ملة الإسلام المسلمون ليرشدهم إلى ما يكون عونًا لهم على الثبات على قبلتهم التي اختارها لهم، وعلى ذكر ربهم وشكره وعدم نسيانه وكفره، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟﴾ أي على ما طلب منكم من الثبات والذكر والشكر، وترك النسيان والكفر بالصبر الذي هو توطين النفس وحملها على أمر الله تعالى به وبإقام الصلاة، وأعلمهم أنه مع الصابرين يمدهم بالعون والقوة، فإذا صبروا نالهم عون الله تعالى وتقويته وهذا ما تضمنته الآية الأولى (١٥٣) أما الآية الثانية (١٥٤) فقد تضمنت نهيه تعالى لهم أن يقولوا معتقدين إن من قتل في سبيل الله ميت إذ هو حي في البرزخ وليس بميت بل هو حي يرزق في الجنة كما قال رسول الله ﷺ: «**أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش**». (رواه مسلم). فلذا لا يقال لمن قتل في سبيل الله مات[3] ولكن

الجزء الثاني — سورة البقرة

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

٢٤

---

(١) شاهده من السنة قوله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» وهو حديث صحيح الإسناد.

(٢) شاهده من القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ الأحزاب.

﴿١٥٤﴾ ﴿بشيء﴾ لفظ شيء يدل على تهوين الفاجعة الدال عليها الخوف والجوع وما بعدهما كما يدل أيضًا على أن ما يبتليهم به من ذلك هو هيّن فلا يقاس بما يصيب به أهل عداوته من أهل الشرك والكفر والفسق إذا أخذهم بذنوبهم.

﴿١٥٥﴾ ﴿وبشر﴾ أسند التبشير إلى الرسول ﷺ لأنه متأهل له بالرسالة فغيره لا يملكه، وقد لا يصدق فيه، كما أن اللفظ دال على سمو مقامه ﷺ.

(٣) لا يقال لمن قتل في سبيل الله مات، بمعنى انقطعت عنه الحياة والشهيد لم يمت وإنما انتقل من حياة ناقصة إلى حياة كاملة دائمة، كما أن لفظ الموت مفزع للإنسان فإذا دارت المعركة وسقط الشهداء، وقيل: مات فلان وفلان يؤثر ذلك في نفس من سمع كلمة الموت ولذا لا يقال: مات ولكن استشهد.

استشهد وهو شهيد وحيّ عند ربه حياة لا نحسها ولا نشعر بها لمفارقتها للحياة في هذه الدار. وأما الآية الثالثة (١٥٥) فإنه يقسم[1] تعالى لعباده المؤمنين على أنه يبتليهم بشيء من الخوف[2] بواسطة أعدائه وأعدائهم وهم الكفار عندما يشنون الحروب عليهم وبالجوع لحصار العدو ولغيره من الأسباب، وبنقص الأموال كموت الماشية للحرب والقحط، وبالأنفس كموت الرجال، وبفساد الثمار بالجوائح، كل ذلك لإظهار من يصبر على إيمانه وطاعة ربه بامتثال أمره واجتناب نهيه، ومن لا يصبر فيحرم ولاية الله وأجره، ثم أمر رسوله ﷺ بأن يبشر الصابرين، وبيّن في الآية الرابعة (١٥٦) حال الصابرين وهي أنهم إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله، فله أن يصيبنا بما شاء لأنًا ملكه وعبيده، وإنا إليه راجعون بالموت فلا جزع إذًا ولكن تسليم لحكمه[3] ورضًا بقضائه وقدره. وفي الآية الخامسة (١٥٧) أخبر تعالى مبشرًا أولئك الصابرين بمغفرة ذنوبهم وبرحمة من ربهم، وإنهم المهتدون إلى سعادتهم وكمالهم، فقال:

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (١٥٧).

هداية الآيات:

١ - فضيلة الصبر والأمر به والاستعانة بالصبر والصلاة على المصائب والتكاليف وفي الحديث كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

٢ - فضل الشهداء على غيرهم بحياتهم عند ربهم حياة أكمل من حياة غيرهم في الجنة.

٣ - قد يبتلى المؤمن بالمصائب في النفس والأهل والمال ليصبر فترتفع درجته ويعلو مقامه عند ربه.

٤ - فضيلة الاسترجاع عند المصيبة وهو قول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي الصحيح يقول ﷺ: «**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرًا منها**». (رواه مسلم).

شرح الكلمات: [الآية: ١٥٨]

(١٥٨) ﴿الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾[4]: جبل مقابل البيت في الجهة الشرقية الجنوبية، والمروة جبل آخر مقابل الصفا من الجهة الشمالية والمسافة بينهما قرابة (٧٦٠) ذراعًا.

﴿شَعَائِرِ اللَّهِ﴾: أعلام دينه جمع شعيرة وهي العلامة على عبادة الله تعالى فالسعي بين الصفا والمروة شعيرة لأنه دال على طاعة الله تعالى.

﴿الْحَجَّ﴾[5]: زيارة بيت الله تعالى لأداء عبادات معينة تسمى نسكًا.

العمرة: زيارة بيت الله تعالى للطواف به والسعي بين الصفا والمروة والتحلل بحلق شعر الرأس أو تقصيره. الجناح: الإثم وما يترتب على المخالفة بترك الواجب أو بفعل المنهي عنه.

---

(١) دلّ على القسم: اللام في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ إذ هي موطئة للقسم كأنما قال: وعزتي وجلالي لنبلونكم إلخ..

(٢) من فسّر الخوف بالخوف من الله والجوع بالصيام، ونقص من الأموال بالزكاة لم يخطىء ولكن ما فسّرت به الآية هو الصواب الحق الذي عليه أئمة التفسير.

(٣) روى أحمد والترمذي عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن علي رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعًا إلاّ جدّد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب**».

(٤) أخرج البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

(١٥٨) الصفا: لغة جمع صفاة وتجمع على صفي، وأصفاء مثل أرجاء: الحجارة الملساء الصلبة البيضاء والمروة واحدة المرو وهي الحجارة الصغار التي فيها لين.

(٥) الحج لغة: القصد، والعمرة: الزيارة، وشاهد الحج القصد قول الشاعر:

فاشهد من عوف حلولاً كثيرة — يحجون سِبَّ الزبرقان المعصفرا

الحلول: الجماعة الكثيرة ويحجون بمعنى: يقصدون.

﴿يَطَّوَّفَ﴾: يسعى بينهما ذاهبًا جائيًا. ﴿خَيْرًا﴾: الخير اسم لكل ما يجلب المسرة، ويدفع المضرة، والمراد به هنا العمل الصالح.

معنى الآية الكريمة:

(١٥٨) يخبر تعالى مقررًا فرضية[1] السعي بين الصفا والمروة، ودافعًا ما توهمه بعض المؤمنين من وجود إثم في السعي بينهما نظرًا إلى أنه كان في الجاهلية على الصفا صنم يقال له إساف، وآخر على المروة يقال له نائلة يتمسح بهما من يسعى بين الصفا والمروة. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ يعني السعي بينهما ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي عبادة من عباداته إذ تعبد بالسعي بينهما نبيه إبراهيم وولده إسماعيل والمسلمون من ذريتهما. فمن حجّ البيت لأداء فريضة الحج أو اعتمر لأداء واجب العمرة فليسع بينهما أداءً لركن الحج والعمرة ولا إثم عليه في كون المشركين كانوا يسعون بينهما لأجل الصنمين: إساف ونائلة. ثم أخبر تعالى واعدًا عباده المؤمنين أن من يتطوع منهم بفعل خير من الخيرات يجزه به ويثبه عليه، لأنه تعالى يشكر لعباده المؤمنين أعمالهم الصالحة ويثيبهم عليها لعلمه بتلك الأعمال ونيات أصحابها، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

هداية الآية الكريمة:

١ ـ وجوب السعي بين الصفا[2] والمروة لكل من طاف بالبيت حاجًا أو معتمرًا، وقد قال رسول الله ﷺ: **«اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»**[3]. (رواه الدارقطني ولم يعل) وسعى ﷺ في عمراته كلها وفي حجه كذلك.

٢ ـ لا حرج في الصلاة في كنيسةٍ حولت مسجدًا، ولا يضر كونها كانت معبدًا للكفار.

٣ ـ الترغيب في فعل الخيرات من غير الواجبات، وذلك من سائر النوافل كالطواف والصلاة والصيام والصدقات والرباط والجهاد.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٩ ـ ١٦٢]

(١٥٩) ﴿يَكْتُمُونَ﴾[4]: يخفون ويغطون حتى لا يظهر الشيء المكتوم ولا يعرف فيؤخذ به. ﴿ٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾: جمع بينة وهي ما يثبت به شيء المراد إثباته، والمراد به هنا ما يثبت نبوة محمد ﷺ من نعوت وصفات جاءت في كتاب أهل الكتاب. الهدى: ما يدل على المطلب الصحيح ويساعد على الوصول إليه، والمراد به هنا ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الصحيح المفضي بالآخذ به إلى الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة. ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾: التوراة والإنجيل. اللعنة: الطرد والبعد من كل خير ورحمة. ﴿ٱللَّـٰعِنُونَ﴾: من يصدر عنهم اللعن كالملائكة والمؤمنين.

(١٦٠) ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾: ما أفسدوه من عقائد الناس وأمور دينهم بإظهار ما كتموه والإيمان بما كذبوا به وأنكروه.

(١٦٢) ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: أي بأن يمهلوا ليعتذروا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝﴾.

معنى الآيات:

عاد السياق بعد الإجابة عن تحرج بعض المسلمين من السعي بين الصفا والمروة عاد إلى التنديد بجرائم

---

(١) السعي ركن الحج عند مالك، وأحمد والشافعي ولم يره ركنًا أبو حنيفة، وما ذهب إليه الجمهور هو الذي يؤخذ به لحديث: **«اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»** وكتب بمعنى: فرض لغة وشرعًا.

(٢) من ترك السعي وسافر، يعود إليه محرمًا فيطوف بالبيت ويسعى بحكم أنه فرض وركن، ومن قال بوجوبه دون ركنيته يجزئه ذبح شاة.

(٣) وفي الصحيح أن النبي ﷺ خرج من باب الصفا بعد أن طاف البيت وهو يقول: **«إن الصفا والمروة من شعائر الله»** ثم قال: **«أبدأ بما بدأ الله به»**: فدل على هذا وجوب البدء في السعي بالصفا قبل المروة، ودل فعله ﷺ على أن السعي سبعة أشواط لا ينقص ولا يزيد.

(١٦٠) ﴿تابوا﴾: أي: رجعوا إلى الإيمان والدخول في الإسلام، وأصلحوا: أي: ما أفسدوه من عقائد الناس، وأخلاقهم وأرواحهم، وبينوا: أي: ما كتموه من العلم الواجب بيانه والمحرّم كتمانه.

(٤) الكتمان يكون بإلغاء الحفظ المقرر، وإلغاء التدريس والتعليم للواجب بيانه وتعليمه والدعوة إليه.

علماء أهل الكتاب، ودعوتهم إلى التوبة بإظهار الحق والإيمان به، فأخبر تعالى أن الذين يكتمون ما أنزله[١] من البينات والهدى في التوراة والإنجيل من صفات الرسول محمد ﷺ والأمر بالإيمان به وبما جاء به من الدين، هؤلاء البعداء يلعنهم الله تعالى وتلعنهم الملائكة والمؤمنون[٢]. هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٥٩) وفي الآية التي بعدها (١٦٠) استثنى تعالى من المبعدين من رحمته من تاب من أولئك الكاتمين للحق بعدما عرفوه فبيّنوا وأصلحوا، فهؤلاء يتوب عليهم ويرحمهم وهو التوّاب الرحيم.

وفي الآية الثالثة (١٦١) والرابعة (١٦٢) أخبر تعالى أن الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم بنبيه ﷺ ودينه ولم يتوبوا فماتوا على كفرهم أن عليهم[٣] لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولذا فهم مطرودون مبعدون من الرحمة الإلهية وهي الجنة خالدون في جهنم لا يخفف عنهم عذابها، ولا يمهلون فيعتذرون.

هداية الآيات:

١ ـ حرمة كتمان العلم وفي الحديث الصحيح «**من كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار**». وقال أبو هريرة رضي الله عنه في ظروف معينة: (لولا آية من كتاب الله ما حدثتكم حديثًا) وتلا (١٥٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ إلخ...

٢ ـ يشترط لتوبة من أفسد في ظلمه وجهله إصلاح ما أفسد ببيان ما حرف أو بدل وغير، وإظهار ما كتم، وأداء ما أخذه بغير الحق.

٣ ـ من كفر ومات على كفره من سائر الناس يلقى في جهنم بعد موته خالدًا في العذاب مخلدًا لا يخفف عنه ولا ينظر فيعتذر، ولا يفتر عنه العذاب فيستريح.

٤ ـ جواز لعن[٤][٥] المجاهرين بالمعاصي كشراب الخمر والمرابين، والمتشبهين من الرجال بالنساء ومن النساء بالرجال.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٣، ١٦٤]

(١٦٣) الإله[٦]: المعبود بحق أو بباطل، والله سبحانه وتعالى هو الإله الحق المعبود بحق. ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾: في ذاته وصفاته، وفي ربوبيته فلا خالق ولا رازق ولا مدبر للكون والحياة إلا هو وفي ألوهيته أي في عبادته فلا معبود بحق سواه. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: بوجود أحدهما وغياب الثاني لمنافع العباد بحيث لا يكون النهار دائمًا ولا الليل دائمًا. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾: وفرق في الأرض ونشر فيها من سائر أنواع الدواب. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾: باختلاف مهابها مرة صبا ومرة دبور ومرة شمالية ومرة غربية أو مرة ملقحة ومرة عقيم.

معنى الآيتين:

(١٦٤) لما أوجب الله على العلماء بيان العلم والهدى وحرم كتمانهما أخبر أنه الإله الواحد الرحمٰن الرحيم، وأن هذا أول ما على العلماء أن يبينوه للناس وهو توحيده تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، ولما سمع بعض المشركين تقرير هذه الحقيقة: وإلٰهكم إله واحد، قالوا: هل من دليل ـ يريدون على

---

(١) الآية عامة في كل من كتم علمًا واجب البيان ويعم العلم المنصوص والمستنبط وما لم يكن واجب البيان فلا يدخل صاحبه في هذا الوعيد، إذ مِنَ العلم ما لا يجوز بيانه لحديث: «**حدّث الناس بما يفهمون، أتحبّون أن يكذَّب الله ورسوله**»، وحديث الصحيح: «**أفلا أخبر الناس؟ قال: لا إذًا فيتكلوا**».

(٢) أخرج ابن ماجه بسند حسن أنّ النبي ﷺ قال في اللاعنون: «**دواب الأرض**»، ولذا فاللفظ عام يشمل كل من يتأتى منه اللّعن، ويدخل الملائكة والمؤمنون دخولاً أوليًا.

(٣) هل يجوز لعن المؤمن العاصي المعين؟ لا يجوز لعن المؤمن العاصي المعين وذلك لحديث الصحيح: «**لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم**»، إذ لعنوا مؤمنًا حال إقامة الحد عليه حدّ شرب الخمر.

(٤) فإن قيل: ما كل الناس يلعنونهم فالجواب: إمّا أن يكون من باب تغليب الأكثر على الأقل وإمّا أن يكون يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

(٥) لكن لا على سبيل التعيين، وإنّما على العموم كلعن الله آكل الربا مثلاً.

(٦) لم يرد في القرآن لفظ الإله إلاّ لله سبحانه وتعالى وأما إله بالتنكير فكثير.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

أنه لا إله إلا الله[١] - فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ مشتملة على ستّ آيات كونية كل آية برهان ساطع ودليل قاطع على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وهي كلها موجبة لعبادته وحده دون من سواه.

الأولى: خلق السموات[٢] والأرض وهو خلق عظيم لا يتأتى إلا للقادر الذي لا يعجزه شيء.

الثانية: اختلاف الليل والنهار بتعاقبهما وطول هذا وقصر ذاك.

الثالثة: جريان[٣] الفلك - السفن - في البحر على ضخامتها وكبرها وهي تحمل مئات الأطنان من الأرزاق وما ينتفع به الناس في حياتهم.

الرابعة: إنزاله تعالى المطر من السماء لحياة الأرض بالنباتات والزروع بعد جدبها وموتها.

الخامسة: تصريف الرياح[٤] حارة وباردة ملقحة وغير ملقحة، شرقية وغربية وشمالية وجنوبية بحسب حاجة الناس وما تطلبه حياتهم.

السادسة: السحاب[٥] المسخر بين السماء والأرض تكوينه وسوقه من بلد إلى آخر ليمطر هنا ولا يمطر هناك حسب إرادة العزيز الحكيم.

ففي هذه الآيات الست أكبر برهان وأقوى دليل على وجود الله تعالى وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته وهو لذلك رب العالمين وإله الأولين والآخرين ولا رب غيره ولا إله سواه. إلا أن الذي يجد هذه الأدلة ويراها ماثلة في الآيات المذكورة هو العاقل، أما من لا عقل له لأنه عطل عقله فلم يستعمله في التفكير والفهم والإدراك، واستعمل بدل العقل الهوى فإنه أعمى لا يبصر شيئًا وأصم لا يسمع شيئًا، وأحمق لا يعقل شيئًا، والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيتين:

١ - لا إله إلا الله فلا تصح العبادة لغير الله تعالى، لأنه لا إله حق[٦] إلا هو.

٢ - الآيات الكونية في السموات والأرض تثبت وجود الله تعالى ربًا وإلهًا موصوفًا بكل كمال منزهًا عن كل نقصان.

٣ - الآيات التنزيلية القرآنية[٧] تثبت وجود الله ربًا وإلهًا وتثبت النبوة المحمدية وتقرر رسالته ﷺ.

٤ - الانتفاع بالآيات مطلقًا - آيات

(١) جملة لا إله إلا الله أوّلها كفر وآخرها إيمان، لأن أوّلها نفي لكل إله وآخرها إثبات الألوهية لله سبحانه وتعالى وحده دون سواه.

(٢) جمع لفظ السموات لأنها أجسام متباينة وأفرد لفظ الأرض لأنها نوع واحد من تراب طبقة فوق طبقة.

(٣) في الآية دليل على جواز ركوب البحر للجهاد والحج والتجارة إلا في حالة غلبة الهلاك الطارىء فإنه لا يجوز، وحديث أم حرام في الموطأ وغيره دليل على الجواز للنساء كالرجال.

(٤) نهى رسول الله ﷺ عن سبّ الريح، فقد روى ابن ماجه أن النبي ﷺ قال: **«لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تأتي بالرحمة والعذاب، ولكن سلوا الله من خيرها وتعوّذوا بالله من شرها».**

(٥) سمي السحاب سحابًا لأنه يسحب من موضع إلى آخر أي: من بلد إلى بلد آخر.

(٦) في بعض تلبية الرسول ﷺ: **«لبيك إله الحق لبيك».**

(٧) الآيات الكونية هي المنسوبة إلى الكون الذي هو الخلق الذي كونه الله تعالى فكان، وذلك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات والآيات التنزيلية هي المنسوبة إلى القرآن المنزل من الله على رسول الله ﷺ.

الكتاب أو آيات الكون ـ خاص بمن يستعملون عقولهم دون أهوائهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٥ ـ ١٦٧]

(١٦٥) ﴿أَندَادًا﴾: جمع ند وهو المثل والنظير، والمراد بالأنداد هنا الشركاء يعبدونها بحبها والتقرب إليها بأنواع العبادات كالدعاء والنذر لها والحلف بها. التبرؤ: التنصل من الشيء والتباعد عنه لكرهه.

(١٦٦) ﴿الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾: المعبودون والرؤساء المضلون. ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾: المشركون والمقلدون لرؤسائهم في الضلال. ﴿الْأَسْبَابُ﴾: جمع سبب وهي لغة الحبل، ثم استعمل في كل ما يربط بين شيئين وفي كل ما يتوصل به إلى مقصد وغرض خاص.

(١٦٧) ﴿كَرَّةً﴾: رجعة وعودة إلى الحياة الدنيا. الحسرات: جمع حسرة وهي الندم الشديد الذي يكاد يحسر صاحبه فيقعد به عن الحركة والعمل.

معنى الآيات:

لما تقرر في الآيتين السابقتين بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة أن إله الناس أي ربهم ومعبودهم واحد وهو الله جلّ جلاله وعظم سلطانه أخبر تعالى أنه مع هذا البيان والوضوح يوجد ناس يتخذون من دون[(١)] الله آلهة أصنامًا ورؤساء يحبونهم[(٢)] كحبهم[(٣)] للّه تعالى أي يسوون[(٤)] بين حبهم وحب الله تعالى، والمؤمنون أشد منهم حبًا للّه تعالى، كما أخبر تعالى أنه لو يرى المشركون عند معاينتهم العذاب يوم القيامة لرأوا أمرًا فظيعًا يعجز الوصف عنه، ولعلموا أن القوة للّه وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ المتبعون وهم الرؤساء الظلَمَة دعاة الشرك والضلالة من متبوعيهم الجهَلَة المقلّدين، وعاينوا[(٥)] العذاب أمامهم وتقطعت تلك الروابط التي كانت تربط بينهم، وتمنى التابعون العودة إلى الحياة الدنيا لينتقموا من رؤسائهم في الضلالة فيتبرؤوا منهم في الدنيا كما تبرؤوا هم منهم في الآخرة، وكما أراهم الله تعالى العذاب فعاينوه، يريهم أعمالهم القبيحة من الشرك والمعاصي فتعظم حسرتهم ويشتد كربهم ويدخلون بها النار فلا يخرجون منها أبدًا.

هداية الآيات:

١ - وجوب حب[(٦)] الله وحبّ كل ما يُحبّ الله عز وجل بحبه تعالى.

٢ - من الشرك الحب[(٧)] مع الله تعالى، ومن التوحيد الحب بحب الله عز وجل.

٣ - يوم القيامة تنحل جميع الروابط من صداقة ونسب ولم تبقَ إلا رابطة الإيمان والأخوة فيه.

٤ - تبرؤ[(٨)] رؤساء الشرك والضلال ودعاة الشر والفساد ممن أطاعوهم في الدنيا واتبعوهم على الظلم والشر والفساد، وليس بنافعهم ذلك شيئًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٨ ـ ١٧٠]

(١٦٨) الحلال: ما انحلت عقدة الحظر عنه وهو ما أذن الله تعالى

---

(١) دون: تكون بمعنى غير وسوى، ولا يطّرد، إذ أصلها أنها ظرف مكان نحو جلست دونك، وتكون بمعنى: الرديء تقول: هذا التمر دون.

(٢) فالآية الكريمة تعني المشركين عبدة الأوثان ورؤساء أهل الكتاب لقوله: يحبونهم، وهي عامة في كل من يحب غير الله تعالى من مخلوقاته كحب الله تعالى، إذ الحب إمّا أن يكون لله وإلاّ فهو شرك في حب الله تعالى.

(٣) وذلك لأنهم كانوا يدعون الله في الشدّة، ويعظمون حرمات الحرم، والأشهر الحرم فلذا هم يحبون الله تعالى ولكن يحبون آلهتهم ورؤساءهم أكثر من حب الله تعالى لجهلهم به سبحانه وتعالى.

(٤) لحديث ابن مسعود في الصحيح: قلت أي الذنب أعظم يا رسول الله؟ قال: **«أن تجعل لله نِدًا وهو خلقك»**.

(٥) معاينة العذاب تكون عند الموت وعند العرض والمساءلة يوم القيامة.

(٦) للحديث الصحيح: **«أحبوا الله لما يغذوكم من النعم، وأحبوني بحب الله»**.

(٧) الحبّ: حبان حبّ عبادة وهذا لا يكون إلا لله تعالى، وحب غريزة كحب الطعام الشراب وسائر الملاذ، فهذا يجب القصد فيه وعدم الإفراط فقط، وخير الحب ما كان لأجل الله تعالى.

(٨) وشواهد هذا في غير آية من القرآن كقوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

فيه. الطيب: ما كان ظاهرًا غير نجس، ولا مستقذر تعافه النفوس. ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: الخطوات جمع خطوة وهي المسافة بين قدمي الماشي، والمراد بها هنا مسالك الشيطان وطرقه المفضية بالعبد إلى تحريم ما أحلّ الله وتحليل ما حرّم. ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: عداوته بينة وكيف وهو الذي أخرج أبوينا آدم وحواء من الجنة وأكثر الشرور والمفاسد في الدنيا إنما هي بوسواسه وإغوائه.

(١٦٩) السوء[١]: كل ما يسوء النفس ويصيبها بالحزن والغم ويدخل فيها سائر الذنوب. الفحشاء[٢]: كل خصلة قبيحة كالزنا واللواط والبخل وسائر المعاصي ذات القبح الشديد.

(١٧٠) ﴿أَلْفَيْنَا﴾: وجدنا.

معنى الآيات:

(١٦٨) بعد ذلك العرض لأحوال أهل الشرك والمعاصي والنهاية المرة التي انتهوا إليها وهي الخلود في عذاب النار، نادى الرب ذو الرحمة الواسعة البشرية[٣] جمعاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وهو عطاؤه وإفضاله، حلالاً طيبًا[٤]، حيث أذن لهم فيه، وأما ما لم يأذن لهم فيه فإنه لا خير لهم في أكله لما فيه من الأذى لأبدانهم وأرواحهم معًا، ثم نهاهم عن اتباع آثار عدوه وعدوهم فإنهم إن اتبعوا خطواته قادهم إلى حيث شقاؤهم وهلاكهم، وأعلمهم وهو ربهم أن الشيطان لا يأمرهم إلا بما يضر أبدانهم وأرواحهم والسوء وهو كل ما يسوء النفس والفحشاء وهي أقبح الأفعال وأردى الأخلاق وأفظع من ذلك أن يأمرهم بأن يكذبوا على الله فيقولوا عليه ما لا يعلمون فيحرمون ويحللون ويشرعون باسم الله، والله في ذلك بريء، وهذه قاصمة الظهر والعياذ بالله تعالى، حتى إذا أعرضوا عن إرشاد ربهم واتّبعوا خطوات الشيطان عدوهم، ففعلوا السوء وارتكبوا الفواحش وحللوا وحرموا وشرعوا ما لم يأذن به الله ربهم، وقال لهم رسول الله ﷺ اتبعوا ما أنزل الله قالوا لا، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، يا سبحان الله يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان باطلاً، وضلالاً، أيقلدون[٥] آباءهم ولو كان

الجزء الثاني — سورة البقرة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

٢٦

---

(١٦٨) ﴿يا أيها﴾ قيل: هذه الآية نزلت في ثقيف، وخزاعة وبني مدلج إذ حرّموا من الأنعام ما حرّموا وعلى كلٍّ فهي عامة في كل من حرّم غير ما حرّم الله تعالى.

(١٦٩) ﴿والفحشاء﴾ لفظ الفحشاء لم يطلق في القرآن إلا على فاحشة الزنا واللواط اللهم إلا في آية واحدة وهي ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ فإن الفحشاء هنا بمعنى: البخل بمنع الزكاة.

(١) قيل: السوء ما لا حدّ فيه من الذنوب، والفحشاء ما فيه حدّ.

(٢) أصل الفحشاء: قبح المنظر وعليه قول الشاعر:

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش

ثم توسع فيه فأصبح يطلق على ما قبح من المعاني.

(٣) إنه وإن كان سبب نزول الآية خاصًا فإن معناها عام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٤) يصح إعراب ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ على أنهما حالان من ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويصح أن يكون طيبًا صفة لحلال كما يصح أن يكون حلالاً مفعولاً لكُلوا.

(٥) استدل بهذه الآية على حرمة التقليد في العقائد مطلقًا أما في الفروع فهو أهون، والتقليد هو قبول الحكم بلا دليل ولا حجّة.

آباؤهم لا يعقلون شيئًا من أمور الشرع والدين، ولا يهتدون إلى ما فيه الصلاح والخير.

هداية الآيات:

١ - وجوب طلب الحلال والاقتصار على العيش منه ولو كان ضيقًا قليلاً.

٢ - الحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرّمه الله تعالى، فلا يستقل العقل بشيء من ذلك.

٣ - حرمة اتباع مسالك الشيطان وهي كل معتقد أو قول أو عمل نهى الله تعالى عنه.

٤ - وجوب الابتعاد عن كل سوء وفحش لأنهما مما يأمر بهما الشيطان.

٥ - حرمة تقليد من لا علم له ولا بصيرة في الدين.

٦ - جواز اتباع أهل العلم والأخذ بأقوالهم وآرائهم المستقاة من الوحي الإلهي الكتاب والسنة.

شرح الكلمات: [الآية: ١٧١]

(١٧١) مثل: المثل الصفة والحال.

﴿يَنْعِقُ﴾: يصيح، والاسم النعيق[١] وهو الصياح ورفع الصوت. الدعاء: طلب القريب كدعاء المؤمن ربه يا رب. يا رب. النداء[٢]: طلب البعيد كأذان الصلاة. الصم: جمع أصم: فاقد حاسة السمع فهو لا يسمع. البكم: جمع أبكم: فاقد حاسة النطق فهو لا ينطق. ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾: لا يدركون معنى الكلام ولا يميزون بين الأشياء لتعطل آلة الإدراك عندهم وهي العقل.

معنى الآية الكريمة:

لما ندّدت الآية قبل هذه (١٧٠) بالتقليد والمقلدين الذي يعطلون حواسهم ومداركهم ويفعلون ما يقول لهم رؤساؤهم ويطبقون ما يأمرونهم به مسلمين به لا يعرفون لَمَ فعلوا ولَمَ تركوا، جاءت هذه الآية بصورة عجيبة، ومثل غريب للذين يعطلون قواهم العقلية ويكتفون بالتبعية في كل شيء حتى أصبحوا كالشياه من الغنم يسوقها راعيها حيث شاء فإذا نعق بها داعيًا لها أجابته ولو كان دعاؤه إياها لِذبحها، وكذا إذا ناداها بأن كانت بعيدة أجابته وهي لا تدري لَمَ نوديت إذ هي لا تسمع ولا تفهم إلا مجرد الصوت الذي ألفته بالتقليد[٣] الطويل والاتباع بدون دليل.

(١٧١) فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في جمودهم وتقليد آبائهم في الشرك والضلال كمثل غَنَم[٤] ينعق بها راعيها الأمين عليها فهو إذا صاح فيها داعيًا لها أو مناديًا لها سمعت الصوت وأجابت ولكن لا تدري لماذا دعيت ولا لماذا نوديت لفقدها العقل. وهذا المثل صالح لكل من يدعو أهل الكفر والضلال إلى الإيمان والهداية، فهو مع من يدعوهم من الكفَرَة والمقلدين والضُلاَّل الجامدين كمثل الذي ينعق إلخ....

هداية الآية الكريمة:

١ - تسلية الدعاة إلى الله تعالى عندما يواجهون المقلدة من أهل الشرك والضلال.

٢ - حرمة التقليد لأهل الأهواء والبدع.

---

(١) النعيق: دعاء الراعي، وتصويته بالغنم، وعليه قول الشاعر:

فانعق بضأنك يا جرير فإنما ... منتك نفسك في الخلاء ضلالا

(٢) وفي الحديث: «إنّ بلالاً أندى صوتًا».

(٣) وهناك معنى آخر للآية قاله الطبري وهو أن المراد مثل الكافرين في دعائهم آلهتهم كمثل الذي ينعق بشيء بعيد فهو لا يسمع من أجل البعد فليس للناعق من ذلك إلاّ النداء الذي يُتعبه وينصبه وما فسّرناه به أصحّ وأمثل.

(٤) يقال: نعق الغراب، ونغق بالغين ونعب، نعق إذا صوّت من غير أن يمد عنقه ويحركها، ونغق بمعناه فإذا مدّ عنقه وحرّكها ثم صاح قيل فيه: نعب.

(١٧٢) ﴿كلوا﴾ أخرج مسلم قول النبي ﷺ: **«يا أيها الناس إن الله طيّب لا يقبل إلاّ طيبا، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ..﴾** الآية. **ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟!»**.

٣ - وجوب طلب العلم والمعرفة حتى لا يفعل المؤمن ولا يترك إلا على علم بما فعل وبما ترك.

٤ - لا يتابع إلا أهل العلم والبصيرة في الدين، لأن اتباع الجهال يعتبر تقليدًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧٢، ١٧٣]

(١٧٢) الطيبات: جمع طيب وهو الحلال. ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾: اعترفوا بنعم الله عليكم واحمدوه عليها واصرفوها في مرضاته. ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾: إن كنتم مطيعين للّه منقادين لأمره ونهيه.

(١٧٣) ﴿حَرَّمَ﴾: حظر ومنع. ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾: ما مات من الحيوان حتف أنفه بدون تذكية. الدم: المسفوح السائل، لا المختلط باللحم. ﴿ٱلۡخِنزِيرِ﴾: حيوان خبيث معروف بأكل العذرة ولا يغار على أنثاه. ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾: الإهلال: رفع الصوت باسم من تذبح له من الآلهة. ﴿ٱضۡطُرَّ﴾: ألجىء وأكره بحكم الضرر الذي لحقه من الجوع أو الضرب. ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾: الباغي: الظالم الطالب لما لا يحل له والعادي والمعتدي المجاوز لما له إلى ما ليس له. الإثم: أثر المعصية على النفس بالظلمة والتدسية.

معنى الآيتين:

بعد أن بينت الآية السابقة (١٧١) حال الكفَرَة المقلدة لآبائهم في الشرك وتحريم ما أحلّ الله من الأنعام حيث سيّبوا للآلهة السوائب، وحموا لها الحامات، وبحروا لها البحائر، نادى الجبار عز وجل عباده المؤمنين: يا أيها الذين آمنوا بالله ربًا وإلهًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً، كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا للّه ربكم ما أنعم به عليكم من حلال اللحوم، ولا تحرّموها كما حرّمها مقلدة المشركين، فإنه تعالى لم يحرّم عليكم[1] إلا أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغيره تعالى. ومع هذا من ألجأته الضرورة فخاف على نفسه الهلاك فأكل فلا إثم عليه على شرط أن لا يكون في سفره باغيًا على المسلمين ولا عاديًا بقطع الطريق عليهم وذلك لأن الله غفور لأوليائه التائبين إليه رحيم بهم لا يتركهم في ضيق ولا حرج.

هداية الآيتين:

١ - الندب إلى أكل الطيبات من رزق الله تعالى في غير إسراف.

٢ - وجوب شكر الله تعالى بالاعتراف بالنعمة له وحمده عليها وعدم صرفها في معاصيه.

٣ - حرمة أكل الميتة[2]، والدم المسفوح، ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله تعالى.

٤ - جواز الأكل من المذكورات عند الضرورة[3] وهي خوف الهلاك مع مراعاة الاستثناء في الآية وهو «غير باغ ولا عاد».

٥ - أَذِنَ النبي ﷺ في أكل السمك[4] والجراد وهُما من الميتة،

---

(١٧٣) ﴿الميتة﴾ الميت والميتة بتسكين الياء هو ما مات قطعًا وانتهت حياته، والميّت والميّتة بتشديد الياء هو ما لم يمت بعد ولكنه آيل أمره إلى الموت، هكذا يرى أرباب اللغة واستشهدوا بقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ وهذا دليل إطلاق ميّت بالتشديد على من لم يمت بعد كما استشهدوا بقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميّت الأحياء

(١) لمّا أباح تعالى لعباده المؤمنين الحلال الطيب وهو كثير لم يعدّده لكثرته، وعدّد الحرام لقلته فذكر الميتة والدم إلخ كما فعل النبي ﷺ لما سئل عما يلبس المحرم فعدل عن بيان المباح لكثرته وذكر المحرّم لقلته فقال: «**لا يلبس القميص ولا السراويل**..» إلخ.. وهذا من الإيجاز البليغ.

(٢) هذه أصول المحرّمات الأربعة، وأما المختنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب فهي متفرّعة عن تلك الأصول وهي مذكورة في أوّل المائدة.

(٣) مَنْ وجد طعامًا لا تقطع فيه اليد يأكله ولا يأكل من الميتة لإذن النبي ﷺ للمحتاج أن يأكل من الثمر المعلق فقال: «**من أصاب منه مِن ذي حاجة بغية غير متخذ خبنة فلا شيء عليه**» وقوله منه: أي: من الثمر المعلق، إذ سئل عنه فقال.. إلخ..

(٤) للحديث الصحيح: «**أحل لنا ميتتان: الحوت والجراد، ودمان: الكبد والطحال**».

الجزء الثاني سورة البقرة

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)﴾

٢٧

وحرّم أكل كل ذي ناب[١] من السباع وذي مخلب من الطيور.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧٤ ـ ١٧٦]

(١٧٤) ﴿يَكْتُمُونَ﴾: يجحدون ويخفون. ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾: الكتاب: التوراة وما أنزل الله فيه صفة النبي محمد ﷺ والأمر بالإيمان به. ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾[٢]: لسخطه عليهم ولعنه لهم. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: لا يطهرهم من ذنوبهم لعدم رضاه عنهم.

(١٧٥) ﴿الضَّلَالَةَ﴾: العماية المانعة من الهداية إلى المطلوب. الشقاق: التنازع والعداء حتى يكون صاحبه في شق ومنازعه في آخر.

(١٧٦) ﴿بَعِيدٍ﴾: يصعب إنهاؤه والوفاق بعده.

معنى الآيات:

(١٧٤) هذه الآيات الثلاث نزلت قطعًا في أحبار[٣] أهل الكتاب تندد بصنيعهم وتريهم جزاء كتمانهم الحق وبيعهم العلم الذي أخذ عليهم أن يبينوه بعرض خسيس[٤] من الدنيا يجحدون أمر النبي ﷺ ودينه إرضاء للعوام حتى لا يقطعوا هداياهم ومساعدتهم المالية، وحتى يبقى لهم السلطان الروحي عليهم فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وأخبر تعالى أن ما يأكلونه من رشوة في بطونهم إنما هو النار إذ هو مسببها ومع النار غضب الجبار فلا يكلمهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.

كما أخبر تعالى عنهم في الآية (١٧٥) أنهم وهم البعداء اشتروا الضلالة بالهدى أي الكفر بالإيمان، والعذاب بالمغفرة أي النار بالجنة، فما أجرأ هؤلاء على معاصي الله، وعلى التقحم في النار، فلذا قال تعالى فما أصبرهم[٥] على النار. وكل هذا الذي تم مما توعّد الله به هؤلاء الكفَرة، لأن الله نزّل الكتاب بالحق مبينًا فيه سبيل الهداية وما يحقق لسالكيه من النعيم المقيم ومبينًا سبيل الغواية وما يفضي بسالكيه إلى غضب الله وأليم عذابه.

وفي الآية الأخيرة (١٧٦) أخبر تعالى أن الذين اختلفوا في الكتاب التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى[٦] لفي عداء واختلاف بينهم بعيد، وصدق الله، فما زال

---

(١) لحديث الصحيح: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطيور».

(١٧٥) ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الحكم عليهم بأنهم من أهل الخلود في النار، كما هو صالح أن يكون إشارة إلى ما تقدم من الوعيد، والمعنى متقارب.

(٢) لا يكلمهم كلام تشريف وتكريم كما يكلّم أولياءه الصالحين. أمّا ما كان من كلام إهانة وتحقير نحو: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فلا يدخل في هذا النفي. والله أعلم.

(٣) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في أحبار اليهود، كانوا يصيبون من سفلتهم هدايا، وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، فلما بعث من غيرهم غيّروا صفته وقالوا: هذا نعت النبي الذي يخرج آخر الزمان حتى لا يتبعوا محمد ﷺ.

(٤) هو الرشوة التي يأخذها القاضي والمفتي والعياذ بالله.

(٥) هذا تعجيب للمؤمنين من حالهم.

(٦) ويدخل في هذا مشركو العرب فقد اختلفوا في القرآن فقالوا: شعر، وقالوا: سحر، وقالوا: أساطير.

اليهود والنصارى مختلفين متعادين إلى اليوم، ثمرة اختلافهم في الحق الذي أنزله الله وأمرهم بالأخذ به فتركوه وأخذوا بالباطل فأثمر لهم الشقاق البعيد.

هداية الآيات:

١ - حرمة كتمان الحق[1]، لا سيما إذا كان للحصول على منافع دنيوية مالاً أو رياسة.

٢ - تحذير علماء الإسلام من سلوك مسلك علماء أهل الكتاب بكتمانهم الحق وإفتاء[2] الناس بالباطل للحصول على منافع مادية معينة.

٣ - التحذير من الاختلاف في القرآن الكريم لما يفضي إليه من العداء والشقاق البعيد بين المسلمين.

شرح الكلمات: [الآية: ١٧٧]

(١٧٧) ﴿ٱلْبِرَّ﴾: اسمٌ جامع لكل خير وطاعة لله ورسوله محمد ﷺ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: البر: الحق، برُّ من آمن بالله واليوم الآخر إلى آخر الصفات. ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: أعطى المال[3] حيث تعين إعطاؤه مع شدة حبه[4] له فآثر ما يحب الله على ما يحب. ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أصحاب القرابات، الأقرب فالأقرب. اليتامى: جمع يتيم وهو من مات والده وهو لم يبلغ الحنث. المساكين: جمع مسكين، فقير معدم أسكنته الحاجة فلم يقدر على التصرف. ابن السبيل: المسافر البعيد الدار المنقطع عن أهله وماله. السائلين: جمع سائل: الفقير المحتاج الذي أذن له في السؤال لدفع غائلة الحاجة عن نفسه. في الرقاب: الرقاب جمع رقبة والإنفاق منها معناه في عتقها. ﴿ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾: البأساء: شدة البؤس من الفقر، والضراء: شدة الضر أو المرض. ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾: عند القتال واشتداده في سبيل الله تعالى. ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾[5]: أي في دعواهم الإيمان والبر والبرور.

معنى الآية الكريمة:

(١٧٧) في الآيات الثلاث السابقة لهذه الآية ندّد الله تبارك وتعالى بأحبار أهل الكتاب وذكر ما توعدهم به من غضبه وأليم عقابه يوم القيامة كما تضمّن ذلك تخويف علماء الإسلام من أن يكتموا العلم على الناس طلبًا لحظوظ الدنيا الفانية، وفي هذه الآية ردّ الله تعالى على أهل الكتاب أيضًا تبجحهم بالقبلة وادّعاءهم الإيمان والكمال فيه لمجرد أنهم يصلُّون إلى قبلتهم بيت المقدس بالمغرب أو طلوع الشمس بالمشرق، إذ الأولى قبلة اليهود والثانية قبلة النصارى، فقال تعالى: ليس[6] البر كل البر أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب، وفي هذا تنبيه عظيم للمسلم الذي يقصر إسلامه على الصلاة ولا يبالي بعدها ما ترك من واجبات وما ارتكب من منهيات، بيّن تعالى لهم البار الحق في دعوى الإيمان والإسلام والإحسان فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾[7] أي ذا البر أو البار بحق هو ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وذكر

---

(١) يدخل فيه كتمان الشهادة الذي حرّمه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾.

(٢) يشهد له حديث: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار».

(١٧٧) ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، نصب: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على المدح إذ هو معطوف على ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾ وهو مرفوع، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والنصب على المدح شائع في كلام العرب وهو إشارة وتنبيه على فضيلة الصبر ومزيّته وقرىء: ﴿والصابرون﴾ بالرفع على الأصل.

(٣) فيه دليل على أن في المال حقًا غير الزكاة وشاهده قوله ﷺ: «إنّ في المال حقًا سوى الزكاة». رواه ابن ماجه والترمذي.

(٤) ويصح أن يكون على حب الله لا على شيء آخر، أي: أعطى المال مَنْ أعطاهم لأجل حب الله عز وجل.

(٥) ورد في فضل الصدق قوله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإنّ البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا». في الصحيح.

(٦) قرأ حفص: ﴿البرّ﴾ بالنصب على أنه خبر ليس مقدمًا والاسم: أن وما دخلت عليه والتقدير: تولية وجوهكم، وقرأ غيره: ﴿البرُّ﴾ مرفوعًا على أنه الاسم والخبر: أن وما دخلت عليه.

(٧) وقيل: هو على حذف مضاف أي: ولكن البرّ بِرّ من آمن على حد ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: أهل القرية، وما أوّلناه به أقرب وأيسر.

أركان الإيمان[1] إلا السادس منها (القضاء والقدر)، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهما من أعظم أركان الإسلام، وأنفق المال في سبيل الله مع حبه له وضنّه به ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فهو ينفق ماله على من لا يرجو منه. جزاءً ولا مدحًا ولا ثناءً كالمساكين وأبناء السبيل والسائلين من ذوي الخصاصة والمسغبة، وفي تحرير الأرقاء وفكاك الأسرى، وأقام الصلاة أدامها، وعلى الوجه الأكمل في أدائها، وآتى الزكاة المستحقين لها، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من أعظم قواعد الإسلام، وذكر من صفاتهم الوفاء بالعهود والصبر في أصعب الظروف وأشد الأحوال، فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ وهذا هو مبدأ الإحسان وهو مراقبة الله تعالى والنظر إليه وهو يزاول عبادته، ومن هنا قرّر تعالى أن هؤلاء هم الصادقون في دعوى الإيمان والإسلام وهم المتقون بحق غضب الله وأليم عذابه، جعلنا الله منهم، فقال تعالى مشيرًا لهم بلام البعد وكاف الخطاب لبُعْدِ مَكَانتِهِمِ وارتفاع درجاتهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

هداية الآية الكريمة:

١ - الاكتفاء ببعض أمور الدين دون القيام ببعض لا يعتبر صاحبه[2] مؤمنًا ولا ناجيًا.

٢ - أركان[3] الإيمان هي المذكورة في هذه الآية، والمراد بالكتاب[4] في الآية الكتب.

٣ - بيان وجوه الإنفاق المرجو ثوابه يوم القيامة وهو ذوي القربى إلخ. . .

٤ - بيان عظم شأن الصلاة والزكاة.

٥ - وجوب الوفاء بالعهود.

٦ - وجوب الصبر وخاصة عند القتال.

٧ - التقوى هي ملاك الأمر، والغاية التي ما بعدها للعاملين غاية.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧٨، ١٧٩]

(١٧٨) ﴿كُتِبَ[5] عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ[6]﴾: كتب فرض والقصاص: إذا لم يرضَ ولي الدم بالدية ولم يعف. ﴿فِى ٱلْقَتْلَى﴾: الفاء سببية، أي بسبب القتل، والقتلى جمع قتيل وهو الذي أُزهقت روحه فمات بأي آلة. ﴿ٱلْحُرُّ﴾: الحر خلاف العبد[7] والعبد هو الرقيق المملوك. ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾: فمن تنازل له ولي الدم عن القود إلى الدية أو العفو. ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: فالواجب أن تكون مطالبة الدية بالمعروف بالرفق واللين. ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾: وأن يكون أداء الدية بإحسان خاليًا من المماطلة والنقص. ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي ذلك الحكم العادل الرحيم وهو جواز أخذ الدية بدلاً من القصاص تخفيف عنكم من ربكم إذ كان في شرع من قبلكم القصاص فقط أو الدية فقط، وأنتم مخيّرون بين العفو والدية والقصاص. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: يريد من أخذ الدية ثم قَتَل فإنه يتعين قتله[8] لا غير. ﴿ٱلْقِصَاصُ﴾: المساواة في القتل

---

(١) هذه الآية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ إلخ. . آية عظيمة تضمنت قواعد الشرع وأمهات الأحكام لم تتضمن آية غيرها ما تضمنته هي، إذ تضمنت أركان الإيمان وقاعدتي الإسلام الصلاة والزكاة، والجهاد والصبر، والوفاء، والتقوى والإنفاق العام والخاص.

(٢) شاهده من القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ . . .﴾ الآية.

(٣) أركان الإيمان ستة جاءت في حديث جبريل الذي رواه مسلم وهي: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»، ولم يذكر القدر في الآية لأن الكتاب دال عليه.

(٤) إنّ أل التي في الكتاب للجنس، والجنس تحته أفراد كالإنسان أفراده كثيرون، والكتب المطلوب الإيمان بها هي كل ما أنزل من كتاب وأعظمها القرآن، والتوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم عليه السلام.

(٥) قيل كتب هنا: هو إخبار عما كتب في اللّوح المحفوظ وسبق به القضاء ولا منافاة بين ما شرع وفرض علينا في القرآن والسنة، وما كتب في كتاب المقادير إذ الكل سبق به علم الله وأراده فكان كما أراد.

(٦) القصاص: مأخوذ من قصّ الأثر إذا تتبعه ومنه القاص لأنه يتتبع الأخبار والآثار والقاتل كأنه سلك طريقًا فقص أثره فيها ومشى على سبيله في ذلك.

(٧) ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد مخالفًا للجمهور لعموم آية المائدة: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾.

(٨) اختلف فيمن قتل بعد أخذ الدية فقال مالك والشافعي وكثير من العلماء: هو كمن قتل ابتداء إن شاء الوليّ قتله وإن شاء عفا عنه وعذابه في الآخرة، وقال آخرون: عذابه أن يقتل ولا يمكن الحاكم الولي من العفو. وقال عمر بن عبدالعزيز: أمره إلى الإمام.

والجراحات وفي آلة القتل أيضًا. ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: إبقاء شامل عميم، إذ من يريد أن يقتل يذكر أنه سيقتل فيترك القتل فيحيا، ويحيا من أراد قتله، ويحيا بحياتهما خلق كثير، وعدد كبير. أولي الألباب: أصحاب العقول الراجحة، واحد الألباب: لبٌّ وهو في الإنسان العقل. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: ليعدكم بهذا التشريع الحكيم لاتقاء ما يضر ولا يسر في الدنيا والآخرة.

معنى الآيتين:

(١٧٨) هذه الآية نزلت في حَيَّيْنِ من العرب كان أحد الحيين يرى أنه أشرف من الآخر فلذا يقتل الحر بالعبد، والرجل بالمرأة تطاولاً وكبرياءً، فحدث بين الحيين قتل وهم في الإسلام فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية تبطل ذخل[1] الجاهلية وتقرر مبدأ العدل والمساواة[2] في الإسلام، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ[3] بِٱلْأُنثَىٰ﴾، فلا يقتل بالرجل رجلان، ولا بالمرأة رجل ولا امرأتان ولا بالعبد حر ولا عبدان.

فمن تنازل له أخوه[4] وهو ولي الدم عن القصاص إلى الدية أو العفو مطلقًا فليتبع ذلك ولا يقل لا أقبل إلا القصاص بل عليه أن يقبل ما عفا عنه أخوه له من قصاص أو دية أو عفو، وليطلب ولي الدم الدية بالرفق والأدب، وليؤد القاتل الدية بإحسان بحيث لا يماطل ولا ينقص منها شيئًا.

ثم ذكر تعالى منته على المسلمين حيث وسّع عليهم في هذه المسألة فجعل ولي الدم مخيرًا بين ثلاثة: العفو أو الدية أو القود (القصاص) في حين أن اليهود كان مفروضًا عليهم القصاص فقط، والنصارى الدية فقط. وأخبر تعالى بحكم أخير في هذه القضية وهو أن من أخذ الدية وعفا عن القتل ثم تراجع وقتل فقال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. واختلف في هذا العذاب الأليم هل هو عذاب الدنيا بالقتل، أو هو عذاب الآخرة، ومن هنا قال مالك والشافعي: حكم هذا المعتدي كحكم القاتل ابتداء إن عفي عنه قبل، وإن طولب بالقود أو الدية أعطى، وقال آخرون: ترد منه الدية ويترك لأمر الله، وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: يرد أمره إلى الإمام يحكم فيه بما يحقق المصلحة العامة، ثم أخبر تعالى: أن في القصاص الذي شرع لنا وكتبه علينا مع التخفيف حياةً عظيمةً لما فيه من الكف عن إزهاق الأرواح وسفك الدماء.

(١٧٩) فقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾.

هداية الآيتين:

١ - حكم القصاص في الإسلام وهو المساواة والمماثلة[5] فيقتل الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة والمرأة بالرجل والرجل بالمرأة ويقتل القاتل بما قَتَلَ به مماثلة لحديث: «**المرء مقتول بما قتل به**».

ولما كان العبد مقومًا بالمال فإنه لا يقتل به الحر بل يدفع إلى سيده مال. وبهذا حكم الصحابة والتابعون وعليه الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد وخالف أبو حنيفة فرأى القود فيقتل الحر بالعبد أخذًا بظاهر هذه الآية.

٢ - محاسن الشرع الإسلامي وما فيه من اليسر والرحمة حيث أجاز

---

(١) ذحل الجاهلية: ثأر الجاهلية وعاداتها قال رسول الله ﷺ: «**إن من أعتى الناس على الله يوم القيامة ثلاثة، رجل قتل غير قاتله، ورجل قتل في الحرم، ورجل أخذ بذحول الجاهلية**».

(٢) الجمهور على أن الجماعة تقتل بالواحد، وذلك إذا باشروا القتل فقتلوا لقول عمر رضي الله عنه في قتل غلام قتله سبعة فقتلهم وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ولم يخالفه أحد فكان إجماعًا.

(٣) ذهب بعض إلى أن الرجل لا يقتل بالمرأة وخالفهم الجمهور لآية المائدة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ الآية.

(٤) أخوه: أي: في الإسلام إذ لا يقتل المسلم بالذمي لقول الرسول ﷺ: «**لا يقتل مسلم بكافر**» وهو مذهب الجمهور وذلك لعدم تكافؤ الدمين.

(٥) اختلف في هل يقتل الرجل بولده؟ فذهب الجمهور إلى عدم قتله به وذهب مالك إلى أنه إذا أضجعه وقتله يقتل به وإذا رماه بحجر أو بعصا أو بأي سبب فيه شبهة أنه لم يرد قتله فلا يقتل به لحديث: «**ادرؤوا الحدود بالشبهات**».

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

العفو[1] والدية بدل القصاص.

٣ - بلاغة القرآن الكريم، إذ كان حكماء العرب في الجاهلية يقولون: القتل أنفى للقتل، فقال القرآن: ﴿١٧٩﴾ ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾. فلم يذكر لفظ القتل بالمرة فنفاه لفظًا وواقعًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨٠ ـ ١٨٢]

﴿١٨٠﴾ ﴿كُتِبَ﴾: فرض وأثبت. ﴿خَيْرًا﴾: مالاً نقدًا أو عرضًا أو عقارًا. ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾: الوصية ما يوصى به من مال وغيره. المعروف: ما تعارف عليه الناس كثيرًا أو قليلاً بحيث لا يزيد على الثلث.

﴿١٨١﴾ التبديل: التغيير للشيء بآخر.

﴿١٨٢﴾ ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾: الجنف: الميل عن الحق خطأ، والإثم: تعمد الخروج عن الحق والعدل.

معنى الآيات:

بمناسبة ذكر آية القصاص وفيها أن القاتل عرضة للقتل والمفروض فيه أن يوصي في ماله قبل قتله، ذكر تعالى آية الوصية هنا فقال تعالى: كتب عليكم أيها المسلمون إذا حضر أحدكم الموت إن ترك مالاً الوصية[2]، أي: الإيصاء للوالدين والأقربين بالمعروف حقًا على المتقين، ثم نسخ الله تعالى هذا الحكم بآية المواريث[3]، ويقول رسول الله ﷺ: «**فلا وصية لوارث**»[4] ونسخ الوجوب وبقي الاستحباب ولكن لغير الوالدين والأقربين الوارثين إلا أن يجيز ذلك الورثة وأن تكون الوصية ثلثًا فأقل فإن زادت وأجازها الورثة جازت لحديث ابن عباس عند الدارقطني لا تجوز الوصية لوارث إلا أن يشاء الورثة، ودليل استحباب الوصية حديث سعد في الصحيح حيث أذن له الرسول ﷺ في الوصية بالثلث، وقد تكون الوصية واجبة على المسلم وذلك إن ترك ديونًا لازمة، وحقوقًا واجبة في ذمته، فيجب أن يوصي بقضائها واقتضائها بعد موته لحديث ابن عمر في الصحيح «**ما**

---

(١) اختلف في أخذ الدية من قاتل العمد فقال الجمهور: وليّ الدم يخير بين أخذ الدية والقصاص ولا خيار للقاتل، فلو قال: اقتصّوا مني ليس له ذلك بل هو لوليّ الدم لأنه مخيّر بين ثلاثة.

﴿١٨٠﴾ ﴿كتب﴾ هذه الآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ إلخ.. تسمى آية الوصية وذكر الفعل والوصية مؤنثة لأحد أمرين الأول: الفصل بين الفعل والفاعل، والثاني: ما لا فرج له يذكر ويؤنث.

﴿١٨٠﴾ ﴿الموت﴾ المراد من الموت هنا: أسبابه، إذ العرب إذا حضر السبب كنّت به عن المسبب، قال جرير في مهاجاته الفرزدق:

أنا الموت الذي حدّثت عنه ... فليس لهارب مني نجاء

فكنّى بنفسه عن الموت، إذ هو سبب مجيئه في نظره وزعمه.

(٢) ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾: هذا شرط وجوابه الوصية إلاّ أن الشائع أنّ جواب الشرط يكون مقرونًا بالفاء وسقطت هنا جوازًا كما في قول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها ... والشر بالشر عند الله مثلان

أي: فالله يشكرها.

(٣) آية المواريث في النساء وهي: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ...﴾ إلى آخر الآيات إلى حليم.

(٤) نص الحديث: «**إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث**» رواه أصحاب السنن وغيرهم وهو صحيح الإسناد.

حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»، هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٨٠) وأما الآية الثانية[١] (١٨١) فيقول تعالى لعباده المؤمنين: فمن بدل إيصاء مؤمن أوصى به بأن زاد فيه أو نقص أو غيّره أو بدّل نوعًا بآخر فلا إثم على الموصي ولكن الإثم على من بدّل وغيّر، وختم هذا الحكم بقوله أن الله سميع عليم، تهديدًا ووعيدًا لمن يقدم على تغيير الوصايا لغرض فاسد وهوى سيء. وفي الآية الأخيرة (١٨٢) أخبر تعالى أن من خاف[٢] من موص جنفًا أو ميلًا عن الحق والعدل بأن جار في وصيته بدون تعمد الجور ولكن خطأ أو خاف إثمًا على الموصي حيث جار وتعدى على علم في وصيته فأصلح[٣] بينهم - أي بين الموصي والموصى لهم - فلا إثم عليه في إصلاح الخطأ وتصويب الخطأ والغلط، وختم هذا الحكم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعدًا بالمغفرة والرحمة لمن أخطأ غير عامد.

هداية الآيات:

١ - نسخ الوصية للوارثين مطلقًا إلا بإجازة[٤] الورثة.

٢ - استحباب[٥] الوصية بالمال لمن ترك مالاً كثيرًا يوصي به في وجوه البر والخير.

٣ - تأكد الوصيّة حضر[٦] الموت أو لم يحضر لمن له أو عليه حقوق خشية أن يموت فتضيع الحقوق فيأثم بإضاعتها.

٤ - حرمة تبديل الوصية وتغييرها إلى غير[٧] الصالح.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨٣، ١٨٤]

(١٨٣) ﴿كُتِبَ﴾: فرض وأثبت. ﴿ٱلصِّيَامُ﴾: لغة الإمساك، والمراد به هنا الامتناع عن الأكل والشرب وغشيان النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس[٨].

(١٨٤) ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾: تسعة وعشرون أو ثلاثون يومًا بحسب شهر رمضان. ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: فعلى من أفطر لعذر المرض أو السفر فعليه صيام أيام أخر بعدد الأيام التي أفطر فيها. ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾: أي يتحملونه بمشقة لكبر سن أو مرض لا يرجى برؤه. ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: فالواجب على من أفطر لعذر مما ذكر أن يطعم على كل يوم مسكينًا، ولا قضاء عليه. ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: أي زاد على المدين[٩] أو أطعم أكثر من مسكين فهو خير له. ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: الصيام على من يطيقه ولو بمشقة خير من الإفطار مع الطعام.

معنى الآيتين:

لما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وأصبحت دار إسلام، أخذ التشريع ينزل ويتوالى، ففي الآيات السابقة كان حكم القصاص والوصية ومراقبة الله في ذلك، وكان من أعظم ما يكون في المؤمن من ملكة التقوى الصيام، فأنزل الله تعالى فرض الصيام في السنة الثانية للهجرة

---

(١) هي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ إلخ.. والخطاب لسائر المسلمين، والإجماع على أنّ للموصي أن يغيّر في وصيته ويرجع فيما شاء منها إلاّ ما كان من تدبير العبد فإنه لا يرجع فيه.

(٢) الخوف هنا: بمعنى الظنّ والتوقع، وقرىء: ﴿مُوَصٍّ﴾، من وصّى المضاعف، أما موصٍ فهو مِنْ أوصى فهو موصٍ.

(٣) من أوصى بما لا يجوز الانتفاع به أو تناوله واستعماله كمن أوصى بخمر أو بناء قبّة على ميّت أو إحياء بدعة مولد ونحوه فإنه يجوز تبديله بما هو جائز ولا يصح إمضاؤه.

(٤) للحديث الصحيح: **«فلا وصية لوارث»**.

(٥) لحديث سعد في الصحيح.

(٦) لحديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيح.

(٧) يجوز تبديل الوصية إذا كان فيها جور أو محرّم لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

(٨) أي: بنيّة امتثال أمر الله تعالى به أو بنيّة التقرب إليه عزّ وجل.

(٩) هل الواجب مدّ أو مدّان خلاف، فمن الفقهاء مَنْ يرى مُدَّين ومنهم من يرى مُدًا واحدًا والمدّ الحفنة بحفنة الرجل المعتدل بين القصر والطول.

فناداهم بعنوان الإيمان: يا أيها الذين آمنوا، وأعلمهم أنه كُتب عليهم الصيام كما كتبه على الذين من قبلهم من الأمم السابقة فقال:
(١٨٣) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ...﴾ وعلّل ذلك بقوله: لعلكم تتقون، أي: ليعدكم به للتقوى التي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، لما في الصيام من مراقبة الله تعالى.
(١٨٤) وقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ ذكره ليهوّن به عليهم كلفة الصوم ومشقته، إذ لم يجعله شهورًا ولا أعوامًا. وزاد في التخفيف أن أذن للمريض والمسافر أن يفطر ويقضي بعد الصحة أو العودة من السفر فقال لهم: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ[1] فَعِدَّةٌ[2] مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ كما أن غير المريض والمسافر إذا كان يطيق الصيام بمشقة وكلفة شديدة له أن يفطر ويطعم على كل يوم مسكينًا، وأعلمهم أن الصيام في هذه الحال خير. ثم نسخ هذا الحكم الأخير بقوله في الآية الآتية: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يريد: تعلمون فوائد الصوم الدنيوية والأخروية وهي كثيرة أجلها مغفرة الذنوب وذهاب الأمراض.

هداية الآيات:

١ ـ فرضية الصيام وهو شهر رمضان.

٢ ـ الصيام يربي ملكة التقوى في المؤمن.

٣ ـ الصيام يكفِّرُ الذنوب لحديث: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**».

٤ ـ رخصة الإفطار للمريض[3] والمسافر.

٥ ـ المرأة الحامل أو المرضع دلّ قوله: وعلى الذين يطيقونه، أنه يجوز لهما الإفطار مع القضاء، وكذا الشيخ الكبير فإنه يفطر ولا يقضي، والمريض مرضًا لا يرجى برؤه كذلك. إلا أن عليهما أن يطعما عن كل يوم مسكينًا بإعطائه حفنتي طعام، كما أن المرأة الحامل والمرضع[*] إذا خافت على حملها أو طفلها أو على نفسها أن عليها أن تطعم مع كل صوم تصومه قضاء مسكينًا.

٦ ـ في الصيام فوائد دينية واجتماعية عظيمة أُشير إليها بلفظ: إن كنتم تعلمون.

من هذه الفوائد:

١ ـ يعود الصائم الخشية من الله تعالى في السر والعلن.

٢ ـ كسر حدة الشهوة ولذا أرشد العازب[4] إلى الصوم.

٣ ـ يربي الشفقة والرحمة في النفس.

٤ ـ فيه المساواة بين الأغنياء والفقراء والأشراف[5] والأوضاع.

٥ ـ تعويد الأمة النظام والوحدة والوئام.

٦ ـ يُذهب المواد المترسبة في البدن وبذلك تتحسن[6] صحة الصائم.

---

(١) أي: في حالة سفر فلذا لا ينبغي لمن عزم على السفر أن يفطر حتى يغادر بلده المقيم به شأن الصيام كشأن الصلاة فلا يقصر حتى يغادر مباني البلد.

(٢) أي: فالواجب صيام عدّة مِن أيام أُخر.

(٣) المريض له حالتان. الأولى: أن يكون مرضه شديدًا فهذا يجب عليه أن يفطر والثانية: أن يكون مرضه غير شديد فيستحب له الفطر.

(*) في الكلام إجمال وهذا تفصيله: الحامل والمرضع إذا خافتا على طفليهما فعليهما القضاء والإطعام، وإن خافتا على نفسيهما فعليهما الصيام دون الإطعام.

(٤) لحديث: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**» أي: خصاء.

(٥) الأشراف: جمع شريف، والأوضاع: جمع وضيع وهو الدنيء.

(٦) لحديث: «**صوموا تصحوا، وسافروا تغنموا**».

(١٨٥) ﴿**شهر**﴾ قرىء: ﴿**شهر**﴾ بالنصب فيكون بدلاً من قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ وقرىء بالرفع فيكون مبتدأ والخبر ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾. وقد يكون المبتدأ محذوفًا تقديره هي أي: الأيام المعدودات.

(١٨٥) ﴿**فليصمه**﴾ قوله ﷺ: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غُمّ عليكم فأكملوا عدّة شعبان ثلاثين يومًا**» أوضح طريق للصوم والإفطار وبه العمل والحمد لله.

شرح الكلمات: [الآية: ١٨٥]

(١٨٥) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾: هو الشهر التاسع من شهور السنة القمرية، ولفظ الشهر مأخوذ من الشهرة، ورمضان مأخوذ من رمض الصائم إذا حرّ جوفه من العطش[١]. ﴿الَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾: هذه آية فضله على غيره من سائر الشهور حيث أنزل فيه القرآن وذلك في ليلة القدر منه لآية ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وآية ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾، أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ثم نزل نجمًا بعد نجم، وابتدىء نزوله على رسول الله ﷺ في رمضان أيضًا. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: هاديًا للناس إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم في الدارين. ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾: البينات: جمع بينة، والهدى: الإرشاد، والمراد: أن القرآن نزل هاديًا للناس ومبينًا لهم سبيل الهدى موضحًا طريق الفوز والنجاة فارقًا لهم بين الحق والباطل في كل شؤون الحياة. ﴿شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ[٢]﴾: حضر الإعلان[٣] عن رؤيته. ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: فعليه القضاء بعدد الأيام التي أفطرها مريضًا أو مسافرًا. ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾: وجب القضاء من أجل إكمال عدة الشهر ثلاثين أو تسعة وعشرين يومًا. ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾: وذلك عند إتمام صيام رمضان من رؤية الهلال إلى العودة من صلاة العيد والتكبير مشروع وفيه أجر كبير، وصفته المشهورة الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: فرض عليكم الصوم وندبكم إلى التكبير لتكونوا بذلك من الشاكرين لله تعالى على نعمه لأن الشكر[٤] هو الطاعة.

معنى الآية الكريمة:

(١٨٥) لما ذكر تعالى أنه كتب على أمة الإسلام الصيام في الآية السابقة وأنه أيام معدودات بيّن في هذه الآية أن المراد من الأيام المعدودات أيام شهر رمضان المبارك الذي أُنزل فيه القرآن هاديًا وموضحًا طرق الهداية، وفارقًا به بين الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿شَهْرُ[٥] رَمَضَانَ الَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾ يريد شهر رمضان، ومعنى شهد: كان حاضرًا غير مسافر لما أعلن عن رؤية هلال رمضان، فليصمه على سبيل الوجوب إن كان مكلفًا. ثم ذكر عذر المرض والسفر، وأن على من أفطر بهما قضاء ما أفطر بعدده، وأخبر تعالى أنه يريد بالإذن في الإفطار للمريض والمسافر اليسر بالأمة ولا يريد بها العسر فله الحمد وله المنّة، فقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

ثم علّل تعالى للقضاء بقوله: ولتكملوا العدة، أي: عدة أيام رمضان، هذا أولاً، وثانيًا: لتكبروا الله على ما هداكم عندما تكملون الصيام برؤية هلال شوال، وأخيرًا ليعدكم بالصيام والذكر للشكر. وقال عز وجل: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) والرمضاء: شدّة الحرّ، ويشهد لذلك حديث مسلم: «**صلاة الأوّابين إذا رَمِضت الفصال**» أي: اشتد الحرّ في الأرض فلم يَقْوَ الفصيل على الوقوف على الأرض بأخفافه فيبرك.

(٢) اختلف في قبول شهادة الواحد في هلال رمضان، والذي عليه الأكثر وهو الأحوط للدين أنّ الواحد إذا كان عدلاً تقبل شهادته، هذا في الصيام أما في الإفطار وهو رؤية هلال شوّال فلا بد مِنَ شاهدين اثنين.

(٣) إذا أسلم الكافر ليلاً وبلغ الصبي وجب عليهما الصيام من الغد، أما إذا أسلم الكافر وبلغ الغلام في نهار رمضان فإنه يستحب لهما الإمساك ولا يجب.

(٤) يشهد له قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوٓا ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح وهو العمل قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجّبا

(٥) يجمع رمضان على رمضانات، وأرمضاء ويجوز أن يقال: شهر رمضان ورمضان بدون شهر لحديث: «**إذا كان رمضان فاعتمري فإن عمرة فيه تعدل حجة**».

هداية الآية الكريمة:

١ ـ فضل[١] شهر رمضان وفضل القرآن.

٢ ـ وجوب صيام رمضان على المكلفين والمكلف هو المسلم العاقل البالغ مع سلامة المرأة من دمي الحيض والنفاس.

٣ ـ الرخصة للمريض الذي يخاف تأخر برئه أو زيادة مرضه، والمسافر مسافة[٢] قصر.

٤ ـ وجوب القضاء على من أفطر لعذر[٣].

٥ ـ يسر الشريعة الإسلامية وخلوها من العسر[٤] والحرج.

٦ ـ مشروعية التكبير ليلة العيد ويومه، وهذا التكبير جزء لشكر نعمة الهداية إلى الإسلام.

٧ ـ الطاعات هي الشكر، فمن لم يطع الله ورسوله ﷺ لم يكن شاكرًا فيعد مع الشاكرين.

شرح الكلمات: [الآية: ١٨٦]

(١٨٦) ﴿ٱلدَّاعِ﴾: السائل ربه حاجته.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى﴾: أي يجيبوا ندائي إذا دعوتهم لطاعتي وطاعة رسولي ﷺ بفعل المأمور وترك المنهي والتقرب إليّ بفعل القرب وترك ما يوجب السخط.

﴿يَرْشُدُونَ﴾: بكمال القوتين العلمية والعملية إذ الرشد هو العلم بمحاب الله ومساخطه، وفعل المحاب وترك المساخط، ومن لا علم له ولا عمل فهو السفيه الغاوي والضال الهالك.

معنى الآية الكريمة:

(١٨٦) ورد أن جماعة من الصحابة سألوا النبي ﷺ قائلين: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ[٥] ٱلدَّاعِ﴾ الآية، ومعنى المناجاة المكالمة بخفض الصوت، والمناداة برفع الصوت، وإجابة الله دعوة عبده قبول طلبه وإعطاؤه مطلوبه[٦]. وما على العباد إلا أن يستجيبوا لربهم بالإيمان به وبطاعته في أمره ونهيه وبذلك يتم رشدهم ويتأهلون للكمال والإسعاد في الدارين الدنيا والآخرة.

هداية الآية الكريمة:

١ ـ قرب الله تعالى من عباده إذ العوالم كلها في قبضته وتحت سلطانه ولا يبعد عن الله شيء من خلقه إذ ما من كائن إلا والله يراه ويسمعه ويقدر عليه، وهذه حقيقة القرب.

٢ ـ كراهية رفع[٧] الصوت بالعبادات إلا ما كان في التلبية والأذان[٨] والإقامة.

٣ ـ وجوب الاستجابة لله تعالى بالإيمان وصالح الأعمال.

٤ ـ الرشد في طاعة الله والغيّ

---

(١) يكفي في بيان فضل رمضان قول النبي ﷺ: «**إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين**» رواه مسلم، وقوله ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»، في الصحيح.

(٢) أوسط ما قيل في مسافة القصر: أنها أربعة بُرُد، وهي ثمانية وأربعون ميلًا، والميل ألفا ذراع عند أهل الأندلس وهو يعادل الكيلو متر المعروف الآن.

(٣) لقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: فعليه قضاء أيام أُخر بعدد ما أفطر.

(٤) لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وقول الرسول ﷺ: «**دين الله يسر**» وقوله لأصحابه: «**يسروا ولا تعسّروا، وبشروا ولا تنفّروا**» في الصحيح.

(٥) دلّ على فضل الدعاء أن النبي ﷺ أطلق عليه العبادة فقال: «**الدعاء هو العبادة**» رواه أبو داود، ومما يحرم الإجابة: أكل الحرام، والاستعجال، بأن يقول: دعوت فلم يستجب لي، ذلك لحديث مسلم.

(٦) على الداعي أن يعزم في دعوته ولا يقل: اللهم أعطني كذا إن شئت، فقد قال رسول الله ﷺ في حديث البخاري: «**إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني فإنه لا مستكره له**».

(٧) يستحب الإسرار بالدعاء لقوله تعالى﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا (٣)﴾.

(٨) من الأوقات التي يرجى فيها استجابة الدعاء: ما بين الأذان والإقامة، والسحر، ووقت الفطر، وحال السفر، والمرض وفي السجود ودبر الصلوات، وعند اشتداد الكرب من ظلم وغيره، فقد ورد من الأحاديث والآثار ما يصدّق هذا ويؤكده.

والسفه في معصيته تعالى.

شرح الكلمات: [الآية: ١٨٧]

﴿١٨٧﴾ ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾[١]: الليلة التي يصبح العبد بعدها صائمًا. ﴿الرَّفَثُ﴾: الجماع. ﴿لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾: كناية عن اختلاط بعضكم ببعض كاختلاط الثوب بالبدن. ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: بتعريضها للعقاب، ونقصان حظها من الثواب بالجماع ليلة الصيام قبل أن يحل الله لكم ذلك. ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾: جامعوهن، أباح لهم ذلك ليلًا. ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[٢]: اطلبوا بالجماع الولد إن كان قد كتب لكم، ولا يكن الجماع لمجرد الشهوة. ﴿الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾: الفجر الكاذب وهو بياض[٣] يلوح في الأفق كذنب السرحان[٤]. ﴿الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾: سواد يأتي بعد البياض الأول فينسخه تمامًا. ﴿الْفَجْرِ﴾: انتشار الضوء أفقيًا ينسخ سواد الخيط الأسود ويعم الضياء الأفق كله. ﴿عَاكِفُونَ[٥] فِي الْمَسَاجِدِ﴾: منقطعون إلى العبادة في المساجد تقربًا إلى الله تعالى. ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾: جمع حد وهو ما شرع الله تعالى من الطاعات فعلًا أو تركًا. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾: أي كما بيّن أحكام الصيام يبيّن أحكام سائر العبادات من أفعال وتروك ليهيئهم للتقوى التي هي السبب المورث للجنة.

معنى الآية الكريمة:

﴿١٨٧﴾ كان في بداية فرض الصيام أن من نام بالليل لم يأكل ولم يشرب ولم يقرب امرأته حتى الليلة الآتية. كأن الصيام يبتدىء من النوم لا من طلوع الفجر، ثم إن ناسًا أتوا نساءهم وأخبروا بذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة تبيح لهم الأكل والشرب والجماع طوال الليل إلى طلوع الفجر، فقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ أي الاختلاط بهن إذ لا غنى للرجل عن امرأته ولا للمرأة عن زوجها ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾. يسترها وتستره كالثوب يستر الجسم، وأعلمهم أنه

الجزء الثاني — سورة البقرة

> أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
>
> ٢٩

تعالى علم منهم ما فعلوه من إتيان نسائهم ليلًا بعد النوم قبل أن ينزل حكم الله فيه بالإباحة أو المنع فكان ذلك منهم خيانة لأنفسهم فقال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾. وأعلن لهم عن الإباحة بقوله: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

يريد من الولد[٦]، لأن الجماع لا

---

(١) روي في سبب نزول هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ الآية، أن عمر رضي الله عنه بعدما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله، ثم جاء إلى النبي ﷺ وشكا إليه ما حدث له من وقاع أهله ليلًا فأنزل الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ الآية.

(٢) ويحتمل اللفظ معاني أخرى مثل: ما أبيح لكم، وليلة القدر، والرخصة، والتوسعة.

(٣) لحديث مسلم: **«لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا»** وأشار بيديه يعني معترضًا.

(٤) **السرحان**: الذئب.

(٥) الاعتكاف ملازمة المسجد للعبادة وهو من سنن الإسلام فقد اعتكف رسول الله ﷺ ويستحب أن يكون في العشر الأواخر من رمضان، وأقله يوم وليلة ولا يصح إلا في المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة ويفسده الجماع ويجب قضاؤه على من أفسده بجماع أهله.

(٦) تقدم ما يحتمله اللفظ من غير الولد في رقم (٢) من هذا التعليق.

يكون لمجرد قضاء الشهوة بل للإنجاب والولد. وحدد لهم الظرف الذي يصومون فيه وهو النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ[1] مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ وحرم على المعتكفين في المساجد مباشرة نسائهم فلا يحل للرجل وهو معتكف أن يخرج من المسجد ويغشى امرأته وإن فعل أثم وفسد اعتكافه ووجب عليه قضاؤه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ[2] وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ وأخبرهم أن ما بيّنه لهم من الواجبات والمحرمات هي حدوده تعالى فلا يحل القرب منها ولا تعديها فقال عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فامتنّ تعالى على المسلمين بهذه النعمة وهي بيان الشرائع والأحكام والحدود بما يوحيه إلى رسوله ﷺ من الكتاب والسنّة ليعد بذلك المؤمنين للتقوى، إذ لا يمكن أن تكون تقوى ما لم تكن شرائع تتبع وحدود تحترم. وقد فعل فله الحمد وله المنة.

هداية الآية الكريمة:

١ - إباحة الأكل والشرب والجماع في ليالي الصيام من غروب الشمس[3] إلى طلوع الفجر.

٢ - بيان ظرف الصيام وهو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس.

٣ - بيان ما يمسك عنه الصائم وهو الأكل والشرب والجماع.

٤ - مشروعية الاعتكاف وخاصة في رمضان، وأن المعتكف لا يحل له مخالطة امرأته وهو معتكف حتى تنتهي مدة اعتكافه التي عزم أن يعتكفها.

٥ - استعمال الكناية بدل التصريح فيما يستحى من ذكره، حيث كنى بالمباشرة عن الوطء.

٦ - حرمة انتهاك حرمات الشرع وتعدي حدوده.

٧ - بيان الغاية من إنزال الشرائع ووضع الحدود وهي تقوى الله عز وجل.

٨ - ثبت بالسنة: سنة[4] السحور واستحباب تأخيره ما لم يخش طلوع الفجر، واستحباب تعجيل[5] الفطر.

شرح الكلمات: [الآية: ١٨٨]

(١٨٨) الباطل: خلاف الحق[6].

تدلوا: الإدلاء بالشيء إلقاؤه[7]، والمراد هنا إعطاء القضاة والحكام الرشوة ليحكموا لهم بالباطل حتى يتوصلوا إلى أموال غيرهم.

﴿فَرِيقًا﴾: أي طائفة وقطعة من المال. ﴿بِالْإِثْمِ﴾: المراد به هنا بالرشوة وشهادة الزور، واليمين الفاجرة أي الحلف بالكذب ليقضي القاضي لكم بالباطل في صورة حق.

معنى الآية الكريمة:

لما أخبر تعالى في الآية السابقة أنه يبيّن للناس[8] أحكام دينه ليتقوه بفعل المأمور وترك المنهي بيّن في هذه الآية حكم أكل أموال المسلمين بالباطل، وأنه حرام فلا يحل لمسلم أن يأكل مال أخيه بغير طيب نفس

---

(١) فلذا قيل الفجر: فجران، كاذب وصادق وقد بيّنها الرسول ﷺ في حديث مسلم الآنف الذكر تحت رقم (٣).

(٢) المباشرة كناية عن الجماع إذ البشرة تمس البشرة فيه.

(٣) يحرم الوصال وهو صيام يومين فأكثر بلا إفطار لقول الرسول ﷺ: «**إياكم والوصال إياكم الوصال**» يحذّر منه أخرجه البخاري.

(٤) لحديث مسلم: «**إنّ فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور**».

(٥) لحديث: «**لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور**» رواه أحمد.

(٦) الباطل لغة: الذاهب الزّائل.

(٧) يقال: أدلى دلوه في البئر إذا ألقاها فيها ليخرج الماء، والحبل الذي يلقى بالدلو يقال له: الرشاء، ومنه أخذ اسم الرشوة، فالراشي يعطي الرشوة ليستخلص الحكم له.

(٨) إن هذه الآية وإن نزلت في سبب خاص: وهو تخاصم عبدان بن أشوع الحضرمي مع امرىء القيس الكندي، إذا ادعى الأول مالاً على الثاني، فأنكر وأراد أن يحلف، فنزلت فإنها عامة في أمة الإسلام قاطبة، فلا يحل أكل مال امرىء مسلم بغير حق، فيدخل فيه القمار، والخداع، والغصوب، وجحد الحقوق وكذا ما حرّمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه، وذلك كمهر البغي، وحلوان الكاهن، وأثمان بيع الخمر وغيرها.

منه. وذكر نوعًا هو شر أنواع أكل المال بالباطل، وهو دفع الرشوة إلى القضاة والحاكمين ليحكموا لهم بغير الحق فيورطوا القضاة في الحكم بغير الحق ويأكلوا أموال إخوانهم بشهادة الزور واليمين الغموس الفاجرة وهي التي يحلف فيها المرء كاذبًا.

(١٨٨) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ أي وأنتم تعلمون حرمة ذلك.

هداية الآية الكريمة:

١ - حرمة أكل مال المسلم بغير حق سواء كان بسرقة أو بغصب أو غش، أو احتيال ومغالطة.

٢ - حرمة الرشوة تدفع للحاكم ليحكم[١] بغير الحق.

٣ - مال الكافر غير المحارب كمال المسلم في الحرمة إلا أن مال المسلم أشد حرمة لحديث **«كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه، وماله»**[٢].

(١٨٨) ولقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾ وهو يخاطب المسلمين.

شرح الكلمات: [الآية: ١٨٩]

(١٨٩) ﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾: جمع هلال وهو القمر في بداية ظهوره في الثلاثة الأيام الأولى من الشهر لأن الناس إذا رأوه رفعوا أصواتهم الهلال الهلال. المواقيت: جمع ميقات: الوقت المحدد المعلوم للناس. إتيان البيوت من ظهورها: أن يتسور الجدار ويدخل البيت تحاشيًا أن يدخل من الباب. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: البر الموصل إلى رضوان الله برّ عبد اتقى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه فليس البر دخول البيوت من ظهورها. الفلاح: الفوز وهو النجاة من النار ودخول الجنة.

معنى الآية الكريمة:

(١٨٩) روي أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم سألوا رسول الله ﷺ قائلين: ما بال الهلال يبدو دقيقًا، ثم يزيد حتى يعظم ويصبح بدرًا، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما كان أول بدئه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: هي مواقيت للناس وعلّة بدئها صغيرة ثم تتكامل ثم تنقص حتى المحاق هي أن يعرف الناس بها مواقيتهم التي يؤقتونها لأعمالهم[٣] فبوجود القمر على هذه الأحوال تعرف عدة النساء ونعرف الشهور فنعرف رمضان[٤] ونعرف شهر الحج ووقته، كما نعرف آجال العقود في البيع والإيجار، وسداد الديون وما إلى ذلك. وكان الأنصار في الجاهلية إذا أحرم أحدهم بحج أو عمرة وخرج من بيته وأراد أن يدخل لغرض خاص لا يدخل من الباب حتى لا يظله نجف الباب فيتسوّر الجدار ويدخل من ظهر البيت لا من بابه وكانوا يرون هذا طاعة وبرًا

---

(١) حكم الحاكم لا يحل الحرام سواء كان أموالاً أو فروجًا لهذه الآية ولقول الرسول ﷺ في الصحيحين عن أم سلمة أنّ النبي ﷺ قال: **«ألا إنّما أنا بشر وإنّما يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنّما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها»**.

(٢) رواه مسلم.

(١٨٩) ﴿يسئلونك﴾ حقيقة السؤال هي: طلب أحد من آخر بذل شيء أو إخبارًا عن شيء فإن كان طلب شيء تعدى الفعل بنفسه نحو سأله مالاً أو كان إخبارًا عن شيء تعدى بعن نحو سأله عن كذا.

(١٨٩) ﴿مواقيت﴾ الوقت والميقات بمعنى واحد إلاّ أن الميقات أخص من الوقت فإنه عامّ.

(١٨٩) ﴿والحج﴾ ذكر الحج خصوصًا لأنه يفوت بفوات وقته إذا تقدّم أو تأخر، إذ الحج يوم واحد وهو تاسع الحِجة ومكان واحد وهو عرفة لحديث: **«الحج عرفة»**.

(٣) من ذلك بيوع الآجال وبيع السَّلَم فلا بد من تحديد الوقت بعام معيّن أو شهر معيّن.

(٤) لحديث عبدالرزاق والحاكم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«جعل الله الأهلّة مواقيت للناس فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمّ عليكم فعدّوا ثلاثين يومًا»**. فإن غُمّ في أول رمضان عددنا شعبان ثلاثين يومًا وإن غُمّ في آخر رمضان عددنا رمضان ثلاثين يومًا.

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

٣٠

فأبطل الله تعالى هذا التعبد الجاهلي بقوله عز وجل: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ﴾ بر أهل التقوى والصلاح. وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها فقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وأمرهم بتقواه عز وجل ليفلحوا في الدنيا والآخرة. فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

هداية الآية الكريمة:

١ - أن يسأل المرء عما ينفعه ويترك السؤال[1] عما لا يعنيه.

٢ - فائدة الشهور القمرية عظيمة إذ بها تعرف كثير من العبادات.

٣ - حرمة الابتداع في الدين[2] ولو كان برغبة في طاعة الله تعالى وحصول الأجر.

٤ - الأمر بالتقوى المفضية إلى فلاح العبد ونجاته في الدارين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩٠ - ١٩٣]

(١٩٠) ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: الطريق الموصل إلى رضوانه وهو الإسلام، والمراد إعلاء كلمة[3] الله. ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾: المشركون الذين يبدؤونكم بالقتال. ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾[4]: لا تجاوزوا الحد فتقتلوا النساء والأطفال ومن اعتزل القتال.

(١٩١) ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: تمكنتم من قتالهم. الفتنة: الشرك[5]. ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: المراد به مكة والحرم من حولها.

(١٩٣) ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾: بأن لم يبقَ من يعبد غير الله تعالى. ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾: أي لا اعتداء بالقتل والمحاربة إلا على الظالمين. أما من أسلم فلا يقاتل.

معنى الآيات:

(١٩٠) هذه الآيات الثلاث: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من أوائل ما نزل في شأن قتال المشركين وهي متضمنة الأذن لرسول الله ﷺ والمؤمنين بقتال من يقاتلهم والكف عمن يكف عنهم، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في سبيل إعلاء كلمة الله ليعبد وحده. الذين يقاتلونكم، واقتلوهم حيث تمكنتم منهم، وأخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم أيها المهاجرون من دياركم، ولا تتحرجوا من القتل، فإن فتنتهم للمؤمنين لحملهم على الكفر بالاضطهاد والتعذيب أشد من القتل.

(١٩١) ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ﴾[6] ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

---

(١) وشاهده من السنة قوله ﷺ: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**.

(٢) قال القرطبي في تفسير هذه الآية: بيان أن ما لم يشرعه الله قربة ولا ندب إليه لا يصير قربة يتقرَّب بها إلى الله تعالى واستشهد بحديث أبي إسرائيل إذ نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلَّم ويصوم فقال النبي ﷺ: **«مُروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتمّ صومه»** فأبطل ما لم يكن قربة وصحّح ما هو قربة.

(١٩١) ﴿ثقفتموهم﴾ يقال: رجل ثَقِف لَقِف إذا كان محكمًا لما يتناوله والمراد: اقتلوهم حيث تمكنتم من ذلك غالبين لهم قاهرين.

(٣) لقوله ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»** في الصحيح.

(٤) يدخل في هذا النهي كلّ محرم كالميتة وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لحديث الصحيح: **«اغزوا في سبيل الله قاتلوا مَنْ كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع»**.

(٥) ويصح تفسير الآية بأن الفتنة التي حملوكم عليها وراموا رجوعكم بها إلى الكفر أشدّ من القتل أي: من قتل المؤمن.

(٦) القول بأن هذه الآية محكمة أصح لأن دلالتها على ذلك واضحة وهو أن لا يقاتل في الحرم المكي وأن لا يبدأ به فإذا بدأ=

حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ فلا تكونوا البادئين، فإن قاتلوكم فاقتلوهم. كذلك القتل والإخراج الواقع منكم لهم يكون جزاء كل كافر يعتدي ويظلم. فإن انتهوا عن الشرك والكفر وأسلموا فإن الله يغفر لهم ويرحمهم لأن الله تعالى غفور رحيم.

(١٩٣) أما الآية الرابعة (١٩٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فهي مقررة لحكم سابقاتها إذ فيها الأمر بقتال المشركين الذين قاتلوهم قتالاً يستمر حتى لا يبقى في مكة من يضطهد في دينه ويفتن فيه ويكون الدين كله لله فلا يعبد غيره، وقوله: فإن انتهوا من الشرك، بأن أسلموا ووحّدوا فكفوا عنهم ولا تقاتلوهم، إذ لا عدوان[١] إلا على الظالمين وهم بعد إسلامهم ما أصبحوا ظالمين.

هداية الآيات:

١ - وجوب قتال من يقاتل المسلمين، والكف عمن يكف عن قتالهم وهذا قبل نسخ هذه الآية.

٢ - حرمة الاعتداء في القتال بقتل الأطفال والشيوخ والنساء إلا أن يقاتلن.

٣ - حرمة القتال عند المسجد الحرام أي مكة والحرم إلا أن يبدأ العدو بالقتال فيه فيقاتل.

٤ - الإسلام يجبّ ما قبله لقوله تعالى: (١٩٢) ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾.

٥ - وجوب الجهاد وهو فرض كفاية ما وجد مؤمن يضطهد لإسلامه أو يفتن في دينه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩٤، ١٩٥]

(١٩٤) ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾: الشهر المحرم القتال فيه والأشهر الحرم أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد فالثلاثة هي القعدة والحجة ومحرم والرابع الفرد رجب.

﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ﴾: جمع حرمة كالشهر الحرام، والبلد الحرام، والإحرام.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: المتقون هم المؤمنون الذين يتقون معاصي الله تعالى ومخالفة سننه في الحياة وكونه تعالى معهم: يسددهم ويعينهم وينصرهم.

(١٩٥) ﴿ٱلتَّهْلُكَةِ﴾: الهلكة والهلاك مثلها. الإحسان: إتقان الطاعة وتخليصها من شوائب الشرك، وفعل الخير[٢] أيضًا.

معنى الآيتين:

الآية الأولى (١٩٤) في سياق ما قبلها تشجع المؤمنين المعتدى عليهم على قتال أعدائهم وتعلمهم أن من قاتلهم في الشهر الحرام فليقاتلوه في الشهر الحرام، ومن قاتلهم في الحرم فليقاتلوه في الحرم، ومن قاتلهم وهم محرمون فليقاتلوه وهو محرم، وهكذا الحرمات قصاص بينهم ومساواة. ومن اعتدى عليهم فليعتدوا عليه بمثل اعتدائه عليهم، وأمرهم بتقواه عز وجل وأعلمهم أنه

= المشركون بقتال المؤمنين قاتلهم المؤمنون فيه ويشهد لهذا حديث ابن عباس في الصحيح: **«إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام لحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة»** الحديث.

(١) قتال من قاتل المسلمين لا يسمى عدوانًا إلا من باب المشاكلة نحو: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ إذ الأولى حقًا سيئة أما الثانية فإنها قصاص عادل وسميت سيئة مشاكلة في اللّفظ.

(١٩٤) ﴿الحرمات﴾، الحرمات جمع حرمة كظلمات جمع ظلمة، والحرمة ما مُنع العبد من انتهاكه والقصاص بمعنى المساواة. هذه الآية لا خلاف بين العلماء في أنها أصل المماثلة في القصاص، فمن جرح جرح بمثل ما جرح ومن قتل يقتل بمثل ما قتل به، اللّهم إلاّ من قتل بزنى أو لواط فهذا قطعًا لا مماثلة فيه ولكن يقتل بالسيف.

(١٩٤) ﴿بمثل﴾، لهذه الآية نظيرها وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ وهي بالنسبة إلى الأمة قد نسخت بآيات الجهاد، أمّا بالنسبة للأفراد فالجمهور على أن الفرد لا يعاقب بنفسه ولكن بواسطة الحاكم، ولكن يرى بعضهم كالإمام الشافعي: أنّ الفرد إذا لم يتوصّل إلى أخذ حقه إلاّ بالمعاقبة فلينظر إذا كان يمكنه أن يأخذ بقدر ما أخذ منه مساواة بلا زيادة فلا بأس أن يأخذ بشرط أن يأمن من نسبته إلى السرقة حتى لا يتعرض إلى إقامة الحدّ عليه.

(٢) فعل الخير يشمل مواساة الفقراء والمساكين وصلة ذوي الأرحام كما يشمل عدم الإساءة إلى المسيء بالعفو والصفح عنه فهو باب واسع.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾

٣١

معهم ما اتقوه بالتسديد والعون والنصر.

(١٩٥) وأما الآية[(١)] (١٩٥) فقد أمرهم بإنفاق المال للجهاد لإعداد العدة وتسيير السرايا والمقاتلين، ونهاهم أن يتركوا الإنفاق في سبيل الله الذي هو الجهاد، فإنهم متى تركوا الإنفاق والجهاد كانوا كمن ألقى بيده في الهلاك، وذلك أن العدو المتربص بهم إذا رآهم قعدوا عن الجهاد غزاهم وقاتلهم وانتصر عليهم فهلكوا. كما أمرهم بالإحسان في أعمالهم كافة وإحسان الأعمال إتقانها وتجويدها، وتنقيتها من الخلل والفساد، وواعدهم إن هم أحسنوا أعمالهم بتأييدهم ونصرهم فقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ومن أحبه الله أكرمه ونصره وما أهانه ولا خذله.

هداية الآيتين:

١ - احترام الشهر الحرام وسائر الحرمات.

٢ - جواز المقاصة والمجازاة لمن اعتدى بحيث يعامل بما عامل به سواء بسواء.

٣ - رد الاعتداء والنيل من المعتدي الظالم البادي[(٢)] بالظلم والاعتداء.

٤ - معيّة الله تعالى لأهل الإيمان والتقوى والإحسان.

٥ - فضيلة الإحسان لحب الله تعالى للمحسنين.

شرح الكلمات: [الآية: ١٩٦]

(١٩٦) ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾: فإتمامهما[(٣)] أن يحرم بهما من الميقات وأن يأتي بأركانهما وواجباتهما على الوجه المطلوب من الشارع، وأن يخلص فيهما لله تعالى. ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾: الحصر والإحصار[(٤)] أن يعجز الحاج أو المعتمر عن إتمام حجه أو عمرته إما بعدو يصده عن دخول مكة أو مرض شديد لا يقدر معه على مواصلة السير إلى مكة[(٥)]. ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: أي فالواجب على من

---

(١) روي أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: «هذه الآية نزلت فينا معاشر الأنصار، وذلك أنّه لما نصر الله رسوله وأظهر دينه قلنا: هلُمّ نقيم في أموالنا ونصلحها فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. والإلقاء باليد في التهلكة أن نقيم في أموالنا».

(٢) هذا ليس على بابه وإنّما هو في المعتدي الكافر أمّا المسلم فإنّ العفو عنه محمود ومطلوب أيضًا قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وقال رسوله ﷺ: **«أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك»**.

(١٩٦) ﴿وأتموا﴾ الآية دليل على مشروعية العمرة وهي كذلك سنة واجبة، أما الحج فقد فرض بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وبالسنة في حديث ابن عمر: «**بني الإسلام على خمس** إذ فيه (حج البيت)» والإجماع أيضًا.

(٣) ومن إتمامهما أن يخرج لهما لا لتجارة ولا غيرها فيخرج لهما لا لغيرهما كما قال علي رضي الله عنه: أن تحرم بهما من دويرة أهلك، والحج تمامه عرفة والعمرة السعي بعد الطواف والحلق أو التقصير.

(٤) ذهب مالك والشافعي إلى أن المحصر بمرض لا يحلّ له أن يتحلّل بل عليه أن يبقى على إحرامه حتى يطوف ولو بعد عام، وذهب غيرهما إلى أن المريض الشديد المرض حكمه حكم المحصر بالعدو ينحر ويتحلّل، وإن كان الحج فرضًا عليه القضاء، وإن كان نفلًا فلا قضاء عليه.

(٥) هذا إذا لم يشترط عند إحرامه، أمّا إذا اشترط بقوله عند إحرامه: مَحِلِّي حيث تحبسني فإنّه يتحلّل ولا شيء عليه، إلاّ ما كان من مالك فإنّه لا يرى الاشتراط وهو محجوج بحديث ضباعة: «**حجي واشترطي**».

أحصر ما تيسر له من الهدي شاة أو بقرة أو بعير. ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾: لا يتحلل المحصر من إحرامه حتى يذبح ما تيسر له من الهدي فإن ذبح تحلل بحلق رأسه. ﴿فَفِدْيَةٌ﴾: فالواجب هو فدية من صيام أو صدقة أو نسك. ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾: فمن أحرم بعمرة في أشهر الحج وتحلل وبقي في مكة ينتظر الحج وحجّ فعلاً فالواجب ما استيسر من الهدي. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾: فمن تمتع بالعمرة ولم يجد هديًا لعجزه عنه فالواجب صيام عشرة أيام ثلاثة في مكة وسبعة في بلده. ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: أي ما وجب من الهدي أو الصيام عند العجز وهو لغير أهل الحرم، أما سكان مكة والحرم[1] حولها وهم أهل الحرم فلا يجب عليهم شيء إن تمتعوا.

معنى الآية الكريمة:

(١٩٦) يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يتموا الحج والعمرة له سبحانه وتعالى فيأتوا بهما على الوجه المطلوب وأن يريدوا بهما الله تعالى، ويخبرهم أنهم إذا أحصروا فلم يتمكنوا من إتمامهما فالواجب عليهم أن يذبحوا أو ينحروا ما تيسر لهم، فإذا ذبحوا أو نحروا حلوا من إحرامهم، وذلك بحلق شعر رؤوسهم أو تقصيره، كما أعلمهم أن من كان منهم مريضًا أو به أذى من رأسه واضطر إلى حلق شعر رأسه أو لبس ثوب أو تغطية رأس فالواجب بعد أن يفعل ذلك فدية وهي واحد من ثلاثة على التخيير: صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين لكل مسكين حفنتان[2] من طعام، أو ذبح شاة. كما أعلمهم أن من تمتع بالعمرة إلى الحج ولم يكن من سكان الحرم أن عليه ما استيسر من الهدي شاة أو بقرة أو بعير فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيام في الحج من أول شهر الحجة إلى يوم التاسع منه وسبعة أيام إذا رجع إلى بلاده. وأمرهم بتقواه عز وجل وهي امتثال أوامره والأخذ بتشريعه وحذرهم من إهمال أمره والاستخفاف بشرعه فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

هداية الآية الكريمة:

١ - وجوب إتمام الحج والعمرة لمن شرع فيهما بالإحرام من الميقات، وإن كان الحج[3] تطوعًا والعمرة غير واجبة.

٢ - بيان حكم الإحصار[4] وهو ذبح شاة من مكان الإحصار ثم التحلل بالحلق أو التقصير، ثم القضاء من قابل إن تيسر ذلك للعبد، لأن الرسول ﷺ قضى هو وأصحابه العمرة التي صدوا فيها عن المسجد الحرام عام الحديبية.

٣ - بيان فدية الأذى وهي أن من ارتكب محظورًا من محظورات الإحرام بأن حلق أو لبس مخيطًا أو غطى رأسه لعذر وجب عليه فدية وهي صيام أو إطعام أو ذبح شاة.

٤ - بيان حكم التمتع[5] مفصلاً وهو أن من كان من غير سكان مكة والحرم حولها إذا أحرم بعمرة في أشهر الحج وتحلل منها وبقي في مكة وحجّ من عامه أن عليه ذبح[6]

---

(١) المكي وساكن الحرم إن حُصرا بمرض لا يحل لهما التحلّل بذبح الهدي بل عليهما أن يُحملا على نعش ويوقف بهما بعرفة ويطاف بهما وهما على النعش.

(٢) ويجزىء اليوم كيلو رز أو برّ أو تمر لكل مسكين ولا يجوز إلقاء ذلك لحَمَام الحرم كما يفعل الجهّال.

(٣) لقول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)﴾ فمن شرع في عبادة يجب أن يتمها.

(٤) الواجب على المحصر أن يذبح هديه في الحرم وإن عجز ذبحه في مكان الإحصار، وإن عجز ذبحه حيث أمكنه وإن لم يجده لفقر صام عشرة أيام بدله، والواجب أن لا يتحلّل إلا بعد نحر الهدي إن كان ذلك في مقدوره، هذا أوسط المذاهب في هذه المسألة الشائكة الكثيرة الآراء.

(٥) لا خلاف في جواز الإحرام بأي نسك من أنواع النسك الثلاثة إلاّ أنّ الإفراد لمن يعتمر في غير أشهر الحج ويحج من عامه أفضلها.

(٦) شاة الإحصار أولاً لا بد وأن تكون سليمة كشاة الأضحية في سنّها وسلامتها من العور والعرج والهزال والمرض.

شاة فإن عجز صام ثلاثة أيام في مكة وسبعة في بلاده.

٥ - الأمر بالتقوى وهي طاعة الله تعالى بامتثال أمره واجتناب نهيه، والتحذير من تركها لما يترتب عليه من العقاب الشديد.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩٧ - ١٩٩]

(١٩٧) ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾: هي شوال والقعدة وعشر[١] ليال من الحجة، هذه هي الأشهر التي يحرم فيها بالحج. ﴿فَرَضَ﴾: نوى الحج وأحرم[٢] به. ﴿فَلَا رَفَثَ﴾: الرفث الجماع ومقدماته. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾: الفسق والفسوق الخروج من طاعة الله بترك واجب أو فعل حرام. الجدال: المخاصمة والمنازعة. الجناح: الإثم.

(١٩٨) ﴿تَبْتَغُوا فَضْلًا﴾: تطلبوا ربحًا في التجارة من الحج. ﴿أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾: الإفاضة من عرفات تكون بعد الوقوف بعرفة يوم الحج وذلك بعد غروب الشمس من يوم التاسع من شهر الحجة. ﴿الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾: مزدلفة وذكرُ الله تعالى عندها هو صلاة المغرب والعشاء جمعًا بها وصلاة الصبح.

معنى الآيات:

(١٩٧) ما زال السياق في بيان أحكام الحج والعمرة، فأخبر تعالى أن الحج له أشهر[٣] معلومة وهي: شوال والقعدة وعشر ليال من الحجة فلا يحرم بالحج إلا فيها. وأن من أحرم بالحج يجب عليه أن يتجنب الرفث والفسق[٤] والجدال[٥] حتى لا يفسد حجه أو ينقص أجره، وانتدب الحاج إلى فعل الخير من صدقة وغيرها فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ ولازمه أنه يثيب عليه ويجزي به. وأمر الحجاج أن يتزودوا لسفرهم في الحج بطعام وشراب يكفون به وجوههم عن السؤال فقال: وتزوّدوا، وأرشد إلى خير الزاد وهو التقوى، ومن التقوى عدم سؤال الناس أموالهم والعبد غير محتاج وأمرهم بتقواه عز وجل، أي بالخوف منه حتى لا يعصوه في أمره ونهيه فقال: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، والله أحق أن يتقى لأنه الواحد القهّار، ثم أباح لهم الإتجار أثناء وجودهم في مكة ومنى فقال:

(١٩٨) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد رزقًا حلالاً بطريق التجارة المباحة، ثم أمرهم بذكر الله تعالى في مزدلفة بصلاة المغرب والعشاء والصبح فيها وذلك بعد إفاضتهم من عرفة بعد غروب الشمس فقال عزّ من قائل: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم[٦] مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ ثم ذكّرهم بنعمة هدايته لهم بعد الضلال الذي كانوا فيه وانتدبهم إلى شكره وذلك بالإكثار من ذكره فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾. ثم أمرهم بالمساواة في

---

(١٩٧) ﴿وتزودوا﴾ روى البخاري عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزوّدون ويقولون: نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا...﴾ الآية، والزّاد: التمر والسويق يومئذٍ وهو ما يحتاجه الحاج من سائر أنواع الزّاد.

(١) لو أحرم ليلة العاشر وهي ليلة العيد ووصل إلى عرفة ووقف بها قبل طلوع الفجر صحّ حجّه.

(٢) يكره أن يحرم المسلم بالحج قبل أشهره، ولو أحرم صحّ إحرامه وعليه المضي فيه والأفضل له أن يتحلّل بعمرة وإن بقي على إفراده كره له ذلك صحّ منه، هذا أرجح المذاهب في هذه المسألة.

(٣) لم يذكر أشهر الحج في الآية بالتعيين وذلك للعلم بها ولبيان الرسول ﷺ لها، وقال: أشهر وهي شهران وعشر ليالٍ من باب التغليب.

(٤) إنه بتجنب هذه الثلاثة يكن حجّه مبرورًا لقول الرسول ﷺ في صحيح مسلم: «**من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه، والحجّ المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة**».

قالت العلماء: الحج المبرور هو الذي لم يعص الله تعالى فيه وحُف بفعل الخيرات.

(٥) الجدال: مأخوذ من الجدل الذي هو الفتل للحبل ونحوه فالمجادل يريد أن يفتل رأي مَنْ يجادله أي: يثنيه عنه ويردّه عليه.

(٦) الإجماع على أنّ من وقف بعرفة يومها قبل الزوال وخرج منها قبل الزوال أنه ما حجّ، أمّا مَنْ وقف بعد الزوال وخرج قبل غروب الشمس فالجمهور على صحة حجه وعليه ذبح شاة وقال مالك: يبطل حجّه. والله أعلم.

الوقوف بعرفة والإفاضة منها فليقفوا كلهم بعرفات، وليفيضوا جميعًا منها.

﴿١٩٩﴾ فقال عزّ وجل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، وذلك أن الحمس[1] كانوا يفيضون من أدنى عرفات حتى ينجوا من الزحمة ويسلموا من الحطمة. وأخيرًا أمرهم باستغفار الله ـ أي طلب المغفرة منه ـ ووعدهم بالمغفرة بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

هداية الآيات:

١ - حرمة الرفث والفسوق والجدال في الإحرام.

٢ - استحباب فعل الخيرات للحاج أثناء حجه ليعظم أجره ويبر حجه.

٣ - إباحة الاتجار والعمل للحاج طلبًا للرزق على أن لا يحج لأجل ذلك.

٤ - وجوب[2] المبيت بمزدلفة لذكر الله تعالى.

٥ - وجوب شكر الله تعالى بذكره وطاعته على هدايته وإنعامه.

٦ - وجوب المساواة في أداء مناسك الحج بين سائر الحجاج فلا يتميز بعضهم عن بعض في أي شعيرة من شعائر الحج.

٧ - الترغيب في الاستغفار[3] والإكثار منه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠٠ ـ ٢٠٣]

﴿٢٠٠﴾ ﴿قَضَيْتُم﴾: أديتم وفرغتم منها. المناسك: جمع منسك وهي عبادات الحج المختلفة. الخلاق: الحظ والنصيب.

﴿٢٠١﴾ ﴿حَسَنَةً﴾: حسنة الدنيا كل ما يسر ولا يضر من زوجة صالحة وولد صالح ورزق حلال وحسنة الآخرة النجاة من النار ودخول الجنان. قنا: احفظنا ونجنا من عذاب النار.

﴿٢٠٢﴾ ﴿نَصِيبٌ﴾: حظ وقسط من أعمالهم الصالحة ودعائهم الصالح. الأيام المعدودات[4]: أيام التشريق الثلاثة بعد يوم العيد.

الجزء الثاني — سورة البقرة

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

٣٢

﴿٢٠٣﴾ ﴿تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾: رمى يوم الأول والثاني وسافر. ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾: رمى الأيام الثلاثة كلها. ﴿فَلَا إِثْمَ﴾: أي لا ذنب في التعجل ولا في التأخر. ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾: للذي اتقى ربّه بعدم ترك واجب أوجبه أو فعل حرام حرّمه. ﴿تُحْشَرُونَ﴾:

---

(١) الحمس: جمع أحمس مَنْ هو أشدّ تحمُّسًا وحماسة لحماية الحرم وهم قريش ومَنْ يَمتّ إليهم بنسب وكانوا يقولون: نحن أهل الله في بلدته، وقطان بيته.

(٢) القول بركنية المبيت بمزدلفة قول شاذ لا يلتفت إليه، وأمّا الوجوب فمتأكد للآية والحديث، والخروج منها بعد النزول بها بعد نصف الليل للعجزة والضعفة جائز بإذن الرسول ﷺ كما هو ثابت في السنن.

(٣) يسن الاستغفار ثلاثًا بعد كل صلاة فريضة لما صحّ عنه ﷺ أنه كان إذا سلم من صلاته قال: «أستغفر الله» ثلاثًا. وسيّد الاستغفار هو: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك مما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت.

﴿٢٠٠﴾ ﴿كذكركم﴾ الكاف: في محل نصب أي: ذكرًا كذكركم فيه بمعنى مثل، وأو هنا للإضراب الانتقالي أي: بل اذكروه ذكرًا أشدّ من ذكركم آباءكم.

﴿٢٠١﴾ ﴿حسنة﴾ روي عن علي رضي الله عنه أنه كان يقول: حسنة الدنيا المرأة الصالحة وحسنة الآخرة الحور العين وقد لا يصح هذا عن عليّ، وما فسّرنا به أعم وأشمل وأعظم.

(٤) روي أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الأيام المعدودات أيام التشريق، والأيام المعلومات أيام العشر من أول الحجة.

تُجمعون للحساب والجزاء يوم القيامة.

معنى الآيات:

(٢٠١) بهذه الآيات الأربع انتهى الكلام على أحكام الحج، ففي الآية الأولى: (٢٠٠) يرشد تعالى المؤمنين إذا فرغوا من مناسكهم بأن رموا جمرة العقبة ونحروا وطافوا طواف الإفاضة واستقروا بمنى للراحة والاستجمام أن يكثروا من ذكر الله تعالى عند رمي الجمرات، وعند الخروج من الصلوات ذكرًا مبالغًا في الكثرة منه على النحو الذي كانوا في الجاهلية يذكرون فيه مفاخر آبائهم[١] وأحساب أجدادهم. وبيّن تعالى حالهم وهي أن منهم من همه الدنيا فهو لا يسأل الله تعالى إلا ما يهمه منها، وهذا كان عليه أكثر الحجاج في الجاهلية، وأن منهم من يسأل الله تعالى خير الدنيا والآخرة وهم المؤمنون الموحدون فيقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى[٢] ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وهذا متضمن تعليم المؤمنين وإرشادهم إلى هذا الدعاء الجامع والقصد الصالح النافع فللّه الحمد والمنّة. وفي الآية (٢٠٢) يخبر تعالى أن لأهل الدعاء الصالح وهم المؤمنون الموحدون نصيبًا من الأجر على أعمالهم التي كسبوها في الدنيا، وهو تعالى سريع الحساب فيعجل لهم تقديم الثواب وهو الجنة. وفي الآية (٢٠٣) يأمر تعالى عباده الحجّاج المؤمنين بذكره تعالى في أيام التشريق[٣] عند رمي الجمار وبعد الصلوات الخمس قائلين: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد ثلاث مرات إلى عصر اليوم الثالث في أيام التشريق. ثم أخبرهم الله تعالى بأنه لا حرج على من تعجل السفر إلى أهله بعد رمي اليوم الثاني، كما لا حرج على من تأخر فرمى اليوم الثالث فقال تعالى:

(٢٠٣) ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ[٤] عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فالأمر على التخيير وقيد نفي الإثم بتقواه عز وجل فمن ترك واجبًا أو فعل محرمًا فإن عليه إثم معصيته ولا يطهره منها إلا التوبة. فنفي الإثم مقيد بالتعجل وعدمه فقط. فكان قوله تعالى لمن اتقى قيدًا جميلاً، ولذا أمرهم بتقواه عز وجل، ونبّههم إلى مصيرهم الحتمي وهو الوقوف بين يديه سبحانه وتعالى فليستعدوا لذلك بذكره وشكره والحرص على طاعته.

هداية الآيات:

١ - وجوب الذكر بمنى عند رمي الجمرات، إذ يكبر مع كل حصاة قائلًا: الله أكبر.

٢ - فضيلة الذكر[٥] والرغبة فيه لأنه من محاب الله تعالى.

٣ - فضيلة سؤال الله تعالى الخيرين وعدم الاقتصار على أحدهما، وشره الاقتصار على طلب الدنيا وحطامها.

(٢٠١) ٤ - فضيلة دعاء ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. فهي جامعة للخيرين معًا، فكان النبي ﷺ إذا طاف بالبيت يختم بها كل شوط.

٥ - وجوب المبيت ثلاث ليالي بمنى ووجوب رمي الجمرات إذ بها يتأتى ذكر الله في الأيام المعدودات وهي أيام التشريق.

٦ - الرخصة في التعجل لمن رمى اليوم الثاني.

٧ - الأمر بتقوى الله وذكر الحشر

---

(١) قال أهل العلم: إن عادة العرب في الجاهلية أنهم إذا قضوا حجهم وقفوا عند الجمرات يفاخرون بآبائهم حتى إنّ الرجل ليقول: اللهم إنّ أبي كان عظيم القبة عظيم الجفنة كثير المال فأعطني مثل ما أعطيته، فلا يذكر غير أبيه.

(٢) هذه الآية من جوامع الدعاء التي عمت الدنيا والآخرة وفي الصحيحين أنّ أنس بن مالك قال: كان أكثر دعوة يدعو بها النبي ﷺ يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

(٣) لقد رخص لمن لم يجد الهدي أن يصوم أيام التشريق بلا خلاف.

(٤) قيل: إن هذا التخيير ونفي الإثم على المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقي لأنه حذر متحرز من كل ما يريبه فرفع الإثم حتى لا يبقى في نفسه ما يؤلمه من التقديم والتأخير وهو وجه حسن للآية.

(٥) روى أحمد أن النبي ﷺ قال: **«أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله»** وروى مسلم أيضًا عنه ﷺ: **«لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله»**.

والحساب والجزاء إذ هذا الذكر يساعد على تقوى الله عز وجل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠٤ - ٢٠٧]

(٢٠٤) ﴿يُعْجِبُكَ﴾[1]: يروق لك وتستحسنه. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: إذا تحدث في أمور الدنيا. ﴿أَلَدُّ[2] الْخِصَامِ﴾: قوي الخصومة شديدها لذلاقة لسانه.

(٢٠٥) ﴿تَوَلَّى﴾: رجع وانصرف، أو كانت له ولاية. ﴿الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾: الحرث: الزرع، والنسل: الحيوان.

(٢٠٦) ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ[3] بِالْإِثْمِ﴾: أخذته الحميّة والأنف بذنوبه فهو لا يتقي الله.

(٢٠٧) ﴿يَشْرِي نَفْسَهُ﴾: يبيع نفسه لله تعالى بالجهاد في سبيله بنفسه وماله.

معنى الآيات:

يخبر تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين عن حال المنافقين، والمؤمنين الصادقين. فقال تعالى مخاطبًا الرسول ﷺ: ومن الناس رجل منافق يحسن القول وإذا قال يعجبك قوله لما عليه من طلاء ورونق وذلك إذا تكلم في أمور الحياة الدنيا بخلاف أمور الآخرة فإنه يجهلها وليس له دافع ليقول فيها لأنه كافر، وعندما يحدث يشهد الله أنه يعتقد ما يقول فيقول للرسول ﷺ: يعلم الله أني مؤمن وأني أحبك، ويشهد الله أني كذا... وإذا قام من مجلسك وانصرف عنك ﴿سَعَى[4] فِي الْأَرْضِ﴾ أي مشى فيها بالفساد ليهلك الحرث والنسل بارتكاب عظائم الجرائم فيمنع المطر وتيبس المحاصيل الزراعية وتمحل الأرض وتموت البهائم وينقطع النسل وعمله هذا مبغوض لله تعالى فلا يحبه ولا يحب فاعله. كما أخبر تعالى أن هذا المنافق إذا أمر بمعروف أو نهي عن منكر فقيل له: اتق الله لا تفعل كذا أو اترك كذا تأخذه الأنفة والحمية بسبب ذنوبه التي هو متلبس بها فلا يتقي الله ولا يتوب إليه فيكفيه جزاء على نفاقه وشره وفساده جهنم يمتهدها فراشًا لا يبرح منها أبدًا ولبئس المهاد جهنم.

(٢٠٧) كما يخبر تعالى عن المؤمن الصادق فيقول: من الناس رجل مؤمن صادق الإيمان باع نفسه وماله لله تعالى طلبًا لمرضاته والحياة في جواره في الجنة دار السلام، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ رحيم بهم.

قيل إن الرجل المنافق الذي تضمنت الحديث عنه الآيات الثلاثة الأولى هو الأخنس[5] بن شريق، وأن الرجل المؤمن الذي تضمنت الحديث عنه الآية الرابعة (٢٠٧) هو صهيب بن سنان الرومي أبو يحيى، إذ المشركون لما علموا به أنه سيهاجر إلى المدينة ليلحق بالرسول ﷺ وأصحابه قالوا لن تذهب بنفسك ومالك لمحمد ﷺ فلن نسمح لك بالهجرة إلا إذا أعطيتنا مالك كله فأعطاهم كل ما يملك وهاجر فلما وصل المدينة ورآه رسول الله ﷺ قال له: «**ربح البيع أبا يحيى ربح البيع**» والآيات وإن نزلت في شأن الأخنس وصهيب فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالأخنس مثل سوء لكل من يتصف بصفاته، وصهيب مثل الخير

---

(١) الإعجاب: إيجاد العجب في النفس، والعجب انفعال يعرض للنفس عند مشاهدة أمر غير مألوف خفي السبب.

(٢) الألد: لغة الأعوج والمنافق في حال خصومته يكذب ويزوّر عن الحق ولا يستقيم وفي الحديث: «**إذا خاصم فجر**».

(٣) الأخذ: أخذ الشيء باليد ويطلق ويراد به الاستيلاء على الشيء نحو: ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾ وأخذته الحمّى والعزّة: حالة نفسية يرى صاحبها أنه لا يمانع فيما يفعل ويريد، وبالإثم: الباء للمصاحبة أي: أخذته العزّة مصاحبة للإثم كائنة معه وهو احتراز من العزّة المصاحبة لما هو محمود من الفعال كالغضب لله تعالى.

(٤) السعي: المشي الحثيث ويطلق على الكسب والعمل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾.

(٥) إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فقد روى ابن كثير عن نوف البكالي قوله: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل، قوم يحتالون على الدنيا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصبر يلبسون للناس مسوك الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله تعالى: «**عَلَيَّ يجترئون وبي يغترون حلفت بنفسي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران**» وذكر: ﴿وَمِنَ النَّاسِ...﴾ الآية.

والكمال لكل من يتصف بصفاته.

هداية الآيات:

١ - التحذير من الاغترار بفصاحة[1] وبيان الرجل إذا لم يكن من أهل الإيمان والإخلاص.

٢ - شر الناس من يفسد في الأرض بارتكاب الجرائم مما يسبب فسادًا وهلاكًا للناس والمواشي.

٣ - قول الرجل يعلم الله، ويشهد الله يعتبر يمينًا فليحذر المؤمن أن يقول ذلك وهو يعلم من نفسه أنه كاذب.

٤ - إذا قيل للمؤمن اتق الله يجب عليه أن لا يغضب أو يكره من أمره بالتقوى بل عليه أن يعترف بذنبه ويستغفر الله تعالى ويقلع عن المعصية فورًا.

٥ - الترغيب في الجهاد بالنفس[2] والمال وجواز أن يخرج المسلم من كل ماله في سبيل الله تعالى ولا يعد ذلك إسرافًا ولا تبذيرًا إذ الإسراف والتبذير في الإنفاق في المعاصي والذنوب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠٨ - ٢١٠]

(٢٠٨) ﴿ٱلسِّلْمِ﴾: الإسلام[3].

﴿كَآفَّةً﴾[4]: جميعًا لا يتخلف عن الدخول في الإسلام[5] أحد، ولا يترك من شرائعه ولا من أحكامه شيء. ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: مسالكه في الدعوة إلى الباطل وتزيين الشر والقبيح.

(٢٠٩) ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾: وقعتم في الزلل[6] وهو الفسق والمعاصي.

﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: الحجج والبراهين.

(٢١٠) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: ما ينظرون: الاستفهام للنفي. الظلل: جمع ظلة ما يظلل من سحاب أو شجر ونحوهما. ﴿ٱلْغَمَامِ﴾: السحاب الرقيق الأبيض.

معنى الآيات:

(٢٠٨) ينادي الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين آمرًا إيَّاهم بالدخول في الإسلام دخولاً شموليًا بحيث لا يتخيرون بين شرائعه وأحكامه ما وافق مصالحهم وأهواءهم قبلوه وعملوا به، وما لم يوافق ردوه أو تركوه وأهملوه، وإنما عليهم أن يقبلوا شرائع الإسلام وأحكامه كافة، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان في تحسين القبيح وتزيين المنكر، إذ هو الذي زين لبعض مؤمني أهل الكتاب تعظيم السبت وتحريم أكل لحم الإبل بحجة أن هذا من دين الله الذي كان عليه صلحاء بني إسرائيل فنزلت هذه الآية فيهم تأمرهم وتأمر سائر المؤمنين بقبول كافة شرائع الإسلام وأحكامه، وتحذرهم من عاقبة اتباع الشيطان فإنها الهلاك التام وهو ما يريده الشيطان بحكم عداوته للإنسان. هذا ما تضمنته الآية (٢٠٨) أما الآية الثانية (٢٠٩) فقد تضمنت أعظم تهديد وأشد وعيد لمن أزله الشيطان فقبل بعض شرائع الإسلام ولم يقبل البعض الآخر وقد عرف أن الإسلام حق، وشرائعه أحق.

(٢٠٩) فقال تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ يحملها كتاب الله القرآن ويبينها رسول الله

---

(١) يشهد له حديث الرسول ﷺ: «إنّ من الشعر لحكمة وإنّ من البيان لسحرًا».

(٢) تأوّل عمر وعلي وابن عباس هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ فيمن يأمر أحدًا بمعروف وينهاه عن منكر فتأخذه العزّة بالإثم فيقاتل الواعظ له فيبيع لله الواعظ نفسه ويقاتله.

(٣) روي أن حذيفة بن اليمان قال في هذه الآية: الإسلام ثمانية أسهم: الصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والعمرة سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم وقد خاب من لا سهم له في الإسلام.

(٤) كافة: اسم يفيد الإحاطة بأجزاء ما وصف به فقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ أي: حتى لا يبقى مشروع ما يعمل به أو لا يبقى فرد لا يدخل فيه.

(٥) اختلف في تحديد معنى السلم في الآية، والراجح أنها بمعنى الإسلام ويكون الخطاب معنيًا به بعض مَنْ آمن مِنْ أهل الكتاب وبقي متمسكًا ببعض شرائع التوراة كتحريم يوم السبت، وتحريم شرب لبن الإبل، أُمِروا بالدخول في الإسلام كافة: أي: بقبول شرائعه كلها وترك شرائع غيره وتكون بمعنى الصلح وترك الحرب والتهارج ويكون الخطاب للمسلمين عامة بترك التهارج بينهم والتقاتل.

(٦) أصل الزلل: الزلق وهو اضطراب القدم وتحركها في الموضع المراد إثباتها فيه والمراد هنا عدم الثبات على طاعة الله ورسوله ﷺ بفعل الأمر وترك النهي بتزيين الشيطان ذلك للعبد حتى يقع في الضرر.

محمد ﷺ فإن الله سينتقم منكم لأنه تعالى غالب على أمره حكيم في تدبيره وإنجاز وعده ووعيده.

(٢١٠) وأما الآية الثالثة (٢١٠) فقد تضمنت حث المتباطئين على الدخول في الإسلام إذ لا عذر لهم في ذلك حيث قامت الحجة وظهرت ولاحت المحجة فقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينظرون[1] ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وعند ذلك يؤمنون ومثل هذا الإيمان الاضطراري لا ينفع حيث يكون العذاب لزامًا. بقضاء الله العادل، قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وانتهى الأمر إليه فحكم وانتهى كل شيء فعلى أولئك المتباطئين المترددين في الدخول في الإسلام المعبر عنه بالسّلم لأن الدخول فيه حقًا سِلم، والخروج منه أو عدم الدخول فيه حقًا حرب عليهم أن يدخلوا في الإسلام ألا إلى الإسلام يا عباد الله! فإن السلم خير من الحرب!

هداية الآيات:

١ - وجوب[2] قبول شرائع الإسلام كافة وحرمة التخير فيها.

٢ - ما من مستحل حرامًا، أو تارك واجبًا إلا وهو متبع للشيطان في ذلك.

٣ - وجوب توقع العقوبة عند ظهور المعاصي العظام لئلا يكون أمن من مكر[3] الله.

٤ - إثبات صفة المجيء للرب تعالى: لفصل القضاء يوم القيامة.

٥ - حرمة التسويف والمماطلة في التوبة.

الجُزْءُ الثَّاني — سُورَةُ البَقَرَة

سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

٣٣

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١١، ٢١٢]

(٢١١) ﴿سَلْ﴾: اسأل: سقطت منه الهمزتان للتخفيف. ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: ذريّة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وإسرائيل لقب يعقوب. ﴿ءَايَةٍ﴾: خارقة للعادة كعصا موسى تدل على أن من أعطاه الله تلك الآيات هو رسول الله حقًا. وآيات بني إسرائيل التي آتاهم الله تعالى منها فلق البحر لهم، وإنزال المن والسلوى في التيه عليهم. ﴿نِعْمَةَ[4] ٱللَّهِ﴾: ما يهبه لعبده من خير يجلب له المسرة ويدفع عنه المضرة ونعم الله كثيرة.

(٢١٢) ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾: يحتقرون ويستهزئون.

معنى الآيتين:

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يسأل بني إسرائيل عن الآيات الكثيرة التي آتاهم الله، وكيف كفروا بها فلم تنفعهم شيئًا، والمراد تسليته ﷺ من الألم النفسي الذي يحصل له من

(١) الكلام صالح لأن يعود إلى من يعجب قوله ويقبح عمله في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ...﴾، الآية وصالح لأن يعود إلى المترددين من أهل الكتاب بعدم خلوصهم في الإسلام كله، وصالح لأن يكون عائدًا إلى كل متردد في الإسلام غير صادق في الدخول فيه إلى يوم القيامة وهذا من إعجاز القرآن وكونه كتاب هداية للناس كافة وفي كل زمان ومكان.

(٢) شاهده قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ الآية.

(٣) إذ حصول الأمن لازمه الاستمرار على المعاصي وعدم التوبة والله يقول: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

(٤) فسرت نعمة الله هنا: بالإسلام وهو كذلك فإن الإسلام أكبر نعمة لما يجلبه من السعادة والكمال وما يدفعه من العذاب والعقاب في الدارين.

عدم إيمان أهل الكتاب والمشركين به وبما جاء به من الهدى وضمن ذلك تقريع اليهود وتأنيبهم على كفرهم بآيات الله وإصرارهم على عدم الدخول في الإسلام. ثم أخبر تعالى أن من يبدل نعمة الله التي هي الإسلام بالكفر به وبنبيّه محمد ﷺ فإن عقوبة الله تعالى تنزل به لا محالة في الدنيا أو في الآخرة لأن الله شديد العقاب[١].

هذا ما تضمنته الآية الأولى (٢١١) وأما الآية الثانية (٢١٢) فقد أخبر تعالى أن الشيطان زين للذين كفروا بالله ورسوله ﷺ وشرائعه الحياة الدنيا فرغبوا فيها وعملوا لها وأصبحوا لم يروا غيرها ولذلك سخروا من المؤمنين الزاهدين فيها لعلمهم بزوالها وقلة نفعها فلم يكرسوا كل جهدهم لجمعها والحصول عليها بل أقبلوا على طاعة ربهم وأنفقوا ما في أيديهم في سبيل الله طلبًا لرضاه. كما أخبر أن المؤمنين المتقين سيجازيهم يوم القيامة خير الجزاء وأوفره فيسكنهم دار السلام في عليين، ويُخزي أعداءهم الساخرين منهم ويهينهم فيسكنهم الدرك الأسفل من النار.

وهو تعالى المتفضل ذو الإحسان إذا رزق يرزق بغير حساب[٢] وذلك لواسع فضله وعظيم ما عنده.

هداية الآيتين:

١ - التحذير من كفر النعم لما يترتب على ذلك من أليم العذاب وشديد العقاب. ومن أَجَلِّ النعم نعمة الإسلام فمن كفر به وأعرض عنه فقد تعرّض لأشد العقوبات وأقساها وما حلّ ببني إسرائيل من ألوان الهون والدون دهرًا طويلاً شاهد قوي وما حلّ بالمسلمين يوم أعرضوا عن الإسلام واستبدلوا به الخرافات ثم القوانين الوضعية شاهد أكبر أيضًا.

٢ - التحذير من زينة الحياة الدنيا والرغبة فيها والجمع لها ونسيان الدار الآخرة وترك العمل لها. فإن أبناء الدنيا اليوم يسخرون من أبناء الآخرة، ولكن أبناء الآخرة أهل الإيمان والتقوى سيكونون يوم القيامة فوقهم درجات إذ هم في أعالي الجنان والآخرون في أسافل النيران.

شرح الكلمات: [الآية: ٢١٣]

(٢١٣) ﴿كَانَ النَّاسُ[٣] أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: كانوا قبل وجود الشرك فيهم أمة[٤] واحدة على الإسلام والتوحيد وذلك قبل قوم نوح. ﴿النَّبِيِّينَ﴾: جمع نبيّ[٥] والمراد بهم الرسل، إذ كل نبي رسول بدليل رسالتهم القائمة على البشارة والنذارة والمستمدة من كتب الله تعالى المنزلة عليهم. ﴿الْكِتَابَ﴾: اسم جنس يدخل فيه كل الكتب الإلهية. ﴿أُوتُوهُ﴾: أعطوه. ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾: الحجج والبراهين تحملها الرسل إليهم وتورثها فيهم شرائع وأحكامًا وهدايات عامة. ﴿بَغْيًا﴾[٦]: البغي الظلم والحسد. الصراط المستقيم:

---

(١) جملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ خبرية متضمنة الوعيد ذُيِّل بها الكلام، والعقاب من العقب كأنّ المعاقب يمشي بالمجازاة في آثار عقبه ليجزيه به.

(٢) الآية: ترغيب في طلب فضل الله تعالى وفي الحديث الصحيح: **«يا ابن آدم أنفق أنفق عليك»** وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ وفي الصحيح أيضًا: **«يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأبقيت»** وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس.

(٣) أي: الذين كانوا على الدين الحق وهم عشرة قرون من آدم إلى أن حدث فيهم الشرك فبعث الله تعالى فيهم عبده الشكور نوحًا عليه السلام.

(٤) لفظ الأمة مأخوذ من أممت كذا إذا قصدته فسميت الجماعة مقصدهم واحد أمة وقد يطلق على الواحد أمّة إذا كان مقصده واحدًا على خلاف غيره ومنه قول الرسول ﷺ في قس بن ساعدة: **«يحشر يوم القيامة أمّة وحده»**.

(٥) عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر هذا قول جمهور أهل السنة والجماعة. والرسل المذكورون بالاسم العلم في القرآن خمسة وعشرون رسولاً وأوّل الأنبياء آدم وأوّل الرسل نوح، وخاتم الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

(٦) منصوب على المفعول لأجله أي: لم يختلفوا إلا للبغي الذي هو الظلم الذي صار طبعًا لهم لكثرة ممارستهم له والحسد الذي ملأ قلوبهم فأكلها أو كاد والعياذ بالله.

الإسلام المفضي بصاحبه إلى السعادة والكمال في الحياتين.

معنى الآية الكريمة:

يخبر تعالى أن الناس[١] كانوا ما بين آدم ونوح عليهما السلام في فترة طويلة أمةً واحدة على دين الإسلام لم يعبد بينهم إلا الله تعالى حتى زيّن الشيطان لبعضهم عبادة غير الله تعالى فكان الشرك والضلال فبعث الله تعالى لهدايتهم نوحًا عليه السلام فاختلفوا إلى مؤمن وكافر وموحد ومشرك، وتوالت الرسل تحمل كتب الله تعالى المتضمنة الحكم الفصل في كل ما يختلفون فيه. ثم أخبر تعالى عن سنته في الناس وهي أن الذين يختلفون في الكتاب أي فيما يحويه من الشرائع والأحكام هم الذين سبق أن أوتوه وجاءتهم البينات فهؤلاء يحملهم الحسد وحب الرئاسة، والإبقاء على مصالحهم على عدم قبول ما جاء به الكتاب، واليهود هم المثل لهذه السنة فإنهم أوتوا التوراة فيها حكم الله تعالى وجاءتهم البينات على أيدي العديدين من أنبيائهم ورسلهم واختلفوا في كثير من الشرائع والأحكام وكان الحامل لهم على ذلك البغي والحسد والعياذ بالله.

وهدى الله تعالى أمة محمد ﷺ لما اختلف فيه أهل الكتابين اليهود والنصارى فقال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٢] لما اختلف فيه أولئك المختلفون من الحق هداهم بإذنه[٣] ولطفه وتوفيقه فله الحمد وله المنة. ومن ذلك الحق الذي اختلف فيه أهل الكتاب من قبلنا وهدانا الله تعالى إليه:

١ - الإيمان بعيسى عبدالله ورسوله حيث كفر به اليهود وكذبوه واتهموه بالسحر وحاولوا قتله؟ وألّهه النصارى، وجعلوه إلهًا مع الله، وقالوا فيه إنه ابن الله. تعالى الله عن الصاحبة والولد.

٢ - يوم الجمعة وهو أفضل الأيام أخذ اليهود السبت والنصارى الأحد وهدى الله تعالى إليه أمة الإسلام.

٣ - الكعبة قبلة أبي الأنبياء إبراهيم استقبل اليهود بيت المقدس واستقبل النصارى مطلع الشمس وهدى الله أمة الإسلام إلى استقبال البيت العتيق قبلة إبراهيم عليه السلام. والله يهدي من شاء إلى صراط مستقيم.

هداية الآية الكريمة:

١ - الأصل هو التوحيد والشرك طارىء على البشرية.

٢ - الأصل في مهمة الرسل البشارة[٤] لمن آمن واتقى والنذارة لمن كفر وفجر، وقد يشرع لهم قتال من يقاتلهم فيقاتلونه كما شرع ذلك لرسول الله ﷺ.

٣ - من علامات خذلان الأمة وتعرضها للخسار والدمار أن تختلف في كتابها ودينها فيحرفون كلام الله ويبدلون شرائعه طلبًا للرئاسة وجريًا وراء الأهواء والعصبيّات، وهذا الذي تعاني منه أمة الإسلام اليوم وقبل اليوم، وكان سبب دمار بني إسرائيل.

٤ - أمة الإسلام التي تعيش على الكتاب والسنة عقيدة وعبادة وقضاء هي المعنية بقوله تعالى: ﴿٢١٣﴾ ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ[٥] بِإِذْنِهِۦ﴾.

٥ - الهداية بيد الله فليطلب العبد دائمًا الهداية من الله تعالى بسؤاله المتكرر أن يهديه دائمًا إلى الحق[٦].

---

(١) لفظ الناس: اسم جمع ليس له مفرد من لفظه وإنّما واحده من غير لفظه وهو إنسان و«أل» فيه للاستغراق أي: جميع أفراده أي: البشر كلهم.

(٢) أي: من أمة محمد ﷺ وهم المسلمون هداهم للإيمان بكل الكتب وسائر الرسل ونجاهم مما اختلف فيه من قبلهم، والحمد لله.

(٣) الإذن: الخطاب بإباحة الشيء وهو مشتق من فعل أذن إذا أصغى أذنه يستمع إلى كلام من يكلّمه ثم أطلق على الخطاب بالإباحة مطلقًا.

(٤) البشارة: الإعلام بخير حصل أو سيحصل للمبشر به، والنذارة إعلام بشرٍّ أو ضر حصل أو سيحصل لمن أنذر به، والبشارة وعد والنذارة وعيد.

(٥) في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «**اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» والتوسل بهذا الدعاء نافع للخروج من ظلمة الاختلاف.

(٦) ومن الدعاء المأثور في ذلك: «**اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضلّ، واجعلنا للمتقين إمامًا**».

شرح الكلمات: [الآية: ٢١٤]

(٢١٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾: أظننتم - أم هي المنقطعة فتفسر ببل والهمزة، والاستفهام إنكاري ينكر عليهم ظنهم هذا لأنه غير واقع موقعه. لما: بمعنى لم النافية. ﴿مَثَلُ﴾: صفة وحال الذين من قبلكم. ﴿الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾: البأساء: الشدة، من الحاجة وغيرها. والضراء: المرض والجراحات والقتل. ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾: الاستفهام للاستبطاء.

معنى الآية الكريمة:

(٢١٤) ينكر تعالى على المؤمنين[١] وهم في أيام شدة ولأواء ظنهم أنهم يدخلون الجنة بدون امتحان وابتلاء في النفس والمال بل وأن يصيبهم ما أصاب غيرهم من البأساء[٢] والضراء والزلزال وهو الاضطراب والقلق من الأهوال حتى يقول الرسول ﷺ والمؤمنون معه - استبطاءً للنصر الذي وُعدوا به: متى نصر الله؟ فيجيبهم ربهم تعالى بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ[٣] اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

هداية الآية الكريمة:

١ - الابتلاء بالتكاليف الشرعية، ومنها الجهاد بالنفس والمال ضروريّ لدخول الجنة.

٢ - الترغيب في الائتساء بالصالحين والاقتداء بهم في العمل والصبر.

٣ - جواز الأعراض البشرية على الرسل كالقلق والاستبطاء للوعد الإلهي انتظارًا له.

٤ - بيان ما أصاب الرسول ﷺ وأصحابه من شدة وبلاء أيام الجهاد وحصار المشركين لهم.

شرح الكلمات: [الآية: ٢١٥]

(٢١٥) ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: من مال إذ المال يطلق عليه لفظ الخير. الأقربين: كالأخوة والأخوات وأولادهم، والأعمام والعمات وأولادهم والأخوال والخالات وأولادهم. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾[٤]: ما: شرطية ومن: بيانية والخير هنا لسائر أنواع البر والإحسان. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: الجملة علّة لجواب الشرط المحذوف والمقدر يثبكم عليه.

معنى الآية الكريمة:

سأل عمرو بن الجموح وكان ذا مال سأل[٥] رسول الله ﷺ ماذا ينفق وعلى من ينفق فنزلت الآية جوابًا لسؤاله فبينت أن ما ينفق هو المال وسائر الخيرات وأن الأحق بالإنفاق عليهم هم الوالدان[٦] والأقربون، واليتامى والمساكين وأبناء السبيل. وأعلمهم تعالى أن ما يفعله العبد من خير يعلمه الله تعالى ويجزي به فرغب بذلك في فعل الخير مطلقًا.

هداية الآية الكريمة:

١ - سؤال من لا يعلم حتى يعلم وهذا طريق العلم، ولذا قالوا: (السؤال نصف العلم).

٢ - أفضلية الإنفاق على

---

(٢١٤) ﴿حسبتم﴾ في الآية إشارة إلى مثل قول القائل: على قدر أهل العزم تأتي العزائم، ومن طلب العلى سهر الليالي، ومن يخطب الحسناء فلا يغله المهر.

(١) ما من شك في أن المؤمنين وعلى رأسهم قائدهم وإمامهم ورسولهم محمد ﷺ قد مستهم البأساء والضرّاء في ظروف مختلفة منها هجرتهم وحروبهم في بدر وأُحد والخندق وغيرها والآية تعني كلّ ذلك وهو من مقتضيات النزول لهذه الآية.

(٢) وعن السلف تفسير البأساء بالفقر والضرّاء بالنقم والزلازل والخوف من الأعداء إذ الخوف يحدث اضطراب النفس وحركة الأعضاء.

(٣) وفي هذا المعنى حديث أبي رزين: «**عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيثه فينظر إليهم قانطين فيظلّ يضحك يعلم أنّ فَرَجهم قريب**» وحديث الصحيح: «**والله ليتِمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون**».

(٤) الآية في نفقة التطوع قوله: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ إشارة إلى أنّ ما ينفق يجب أن يكون طيبًا لا خبيثًا إذ لفظ الخير يدل على ذلك ويرمز له: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾.

(٥) وقيل: الآية نزلت فيمن سألوا من المسلمين عن الوجوه التي ينفقون فيها فأجابهم الله تعالى مبيّنًا لهم ذلك، وما ذهبنا إليه من أنّ السائل عمرو بن الجموح وسؤاله عما ينفق مِنْ أنواع المال وفيمَ ينفق أولى وألصق.

(٦) لحديث الصحيح في بيان مَنْ أحق بالإنفاق عليه: «**أمّك وأباك وأختك وأخاك ثمّ أدناك أدناك**» أي: الأقرب إليك فالأقرب.

المذكورين[(١)] في الآية إن كان المنفق غنيًا وهم فقراء محتاجون.

٣ - الترغيب في فعل الخير والوعد من الله تعالى بالجزاء الأوفى عليه.

شرح الكلمات: [الآية: ٢١٦]

﴿كُتِبَ﴾: فرض فرضًا مؤكدًا حتى لكأنه مكتوب كتابة. ﴿ٱلْقِتَالُ﴾: قتال الكافرين بجهادهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية. ﴿كُرْهٌ﴾: مكروه في نفوسكم طبعًا. عسى: هذا الفعل معناه الترجي والتوقع أعني أن ما دخلت عليه مرجو الحصول متوقع لا على سبيل الجزم، إلاّ أنها إن كانت من الله تعالى تفيد اليقين.

معنى الآية الكريمة:

يخبر تعالى رسوله ﷺ وعباده المؤمنين بأنه فرض عليهم قتال[(٢)] المشركين والكافرين وهو يعلم أنه مكروه لهم بطبعهم لما فيه من الآلام والأتعاب وإضاعة المال والنفس، وأخبرهم أن ما يكرهونه قد يكون خيرًا، وأن ما يحبونه قد يكون شرًا[(٣)]، ومن ذلك الجهاد فإنه مكروه لهم وهو خير لهم لما فيه من عزتهم ونصرتهم ونصرة دينهم مع حسن الثواب وعظم الجزاء في الدار الآخرة كما أن ترك الجهاد محبوب لهم وهو شرّ لهم لأنه يشجع عدوهم على قتالهم واستباحة بيضتهم، وانتهاك حرمات دينهم مع سوء الجزاء في الدار الآخرة. وهذا الذي أخبرهم تعالى به من حبهم لأشياء وهي شرّ لهم وكراهيتهم لأشياء وهي خير لهم هو كما أخبر لعلم الله به قبل خلقه، والله يعلم وهم لا يعلمون فيجب التسليم لله تعالى في أمره وشرعه مع حب ما أمر به وما شرعه واعتقاد أنه خير لا شر فيه.

هداية الآية الكريمة:

١ - وجوب الجهاد على أمة الإسلام ما بقيت فتنة في الأرض وشرك فيها.

٢ - جهل الإنسان بالعواقب يجعله يحب المكروه، ويكره المحبوب.

٣ - أوامر الله كلها خير، ونواهيه[(٤)] كلها شرّ. فلذا يجب فعل أوامره واجتناب نواهيه.

الجزء الثاني — سورة البقرة

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

٣٤

---

(١) روي أنّ ميمون بن مهران تلا هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ..﴾ الآية، وقال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً ولا مزمارًا لا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان.

(٢) قرئت الآية: ﴿كتب عليكم القتلُ﴾ وقراءة القتال أشهر وأظهر والفرق بين **القتل** والقتال ظاهر، وجاء كلا اللفظين في قول عمرو بن ربيعة:

كتب القتل والقتال علينا … وعلى الغانيات جرّ الذيول

(٣) قال القرطبي: كما اتّفق في بلاد الأندلس تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار فاستولى العدو على البلاد وأسر وقتل وسبى واسترقّ فإنا لله وإنا إليه راجعون ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته، وأنشد لأبي سعيد الضرير قوله شاهدًا لمعنى الآية الكريمة:

رُبَّ أمر تتقيه … جرّ أمرًا ترتضيه

خفي المحبوب منه … وبدا المكروه فيه

(٤) المراد بالأوامر ما أمر الله تعالى به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من المعتقدات والعبادات والأحكام ومن النواهي ما نهى الله عنه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الاعتقادات الباطلة المبتدعة والأحكام الفاسدة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١٧، ٢١٨]

(٢١٧) ﴿الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾: أي المحرم. قتال بدل اشتمال من الحرام، إذ السؤال عن القتال في الشهر الحرام (رجب). ﴿كَبِيرٌ﴾: أي ذنبٌ عظيم. صد عن سبيل الله: صرف عن دين الله. ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾: كفر بالله تعالى. المسجد الحرام: مكة والمسجد الحرام فيها. ﴿أَهْلِهِ﴾: النبي ﷺ والمهاجرون. ﴿أَكْبَرُ﴾: أعظم وزرًا. الفتنة: الشرك واضطهاد المؤمنين ليكفروا. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾[(١)]: بطل أجرها فلا يثابون عليها لردتهم.

(٢١٨) ﴿هَاجَرُوا﴾: تركوا ديارهم خوف الفتنة والاضطهاد في ذات الله.

معنى الآيتين:

لما أخبر تعالى أنه كتب على المؤمنين القتال أرسل النبي ﷺ سرية بقيادة عبدالله بن جحش إلى بطن نخلة يتعرف على أحوال الكفار. فشاء الله تعالى أن يلقى عبدالله ورجاله عيرًا لقريش فقاتلوهم فقتلوا منهم رجلًا يدعى عمرو بن الحضرمي وأسروا اثنين وأخذوا العير وقفلوا راجعين وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الثانية وهي أول ليلة من رجب. فثارت ثائرة قريش وقالت: محمد ﷺ يحل الشهر الحرام بالقتال فيه، وردّد صوتها اليهود والمنافقون بالمدينة حتى أن الرسول ﷺ وقف العير والأسيرين ولم يقض فيهما بشيء، وتعرض عبدالله بن جحش ورفاقه لنقد ولوم عظيمين من أكثر الناس، وما زال الأمر كذلك حتى أنزل الله تعالى هاتين الآيتين:

(٢١٧) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ[(٢)] قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي عن القتال فيه، أجبهم يا رسولنا وقل لهم القتال فيه وزر كبير بيد أن الصد عن دين الله والكفر به تعالى وكذا الصد عن المسجد الحرام، وإخراج الرسول ﷺ منه والمؤمنين وهم أهله وولاته بحق أعظم وزرًا في حكم الله تعالى، كما أن شرك المشركين في الحرم وفتنة المؤمنين فيه لإرجاعهم عن دينهم الحق إلى الكفر بشتى أنواع التعذيب أعظم من القتل في الشهر الحرام. مضافًا إلى كل هذا عزمهم على قتال المؤمنين إلى أن يردوهم عن دينهم إن استطاعوا. ثم أخبر تعالى المؤمنين محذرًا إياهم من الارتداد مهما كان العذاب أن من يرتد عن دينه ولم يتب بأن مات كافرًا فإن أعماله الصالحة كلها[(٣)] تبطل ويصبح من أهل النار الخالدين فيها أبدًا.

(٢١٨) هذا ما تضمنته الآية الأولى أما الآية الثانية (٢١٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾[(٤)] فقد نزلت في عبدالله بن جحش وأصحابه طمأنهم الله تعالى على أنهم غير آثمين لقتالهم في الشهر الحرام كما شنع عليهم الناس بذلك، وأنهم يرجون رحمة الله أي الجنة وأنه تعالى غفور لذنوبهم رحيم بهم، وذلك لإيمانهم وهجرتهم وجهادهم في سبيل الله وقال تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ[(٥)] رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾.

هداية الآيتين:

١ -حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام.

---

(١) إن وافاهم الموت على ذلك أما إن تابوا وماتوا على الإسلام ففي إثابتهم على أعمالهم قبل الردة خلاف. انظره في رقم (٣).

(٢) هذا كان قبيل نسخ حرمة القتال في الشهر الحرام.

(٣) على هذا مالك وأبو حنيفة خلافًا للشافعي إذ يرى رحمه الله تعالى أن من ارتد ثم تاب يعود إليه كل عمل صالح عمله قبل الردة فلا يعيد الحج إذا حج، والراجح ما قرّرناه في التفسير إذ أقل ما يقال عليه: إعادة الحج طمعًا في مغفرة ذنوبه وعدم مؤاخذته أمّا مَنْ مات كافرًا فالإجماع على خلوده في النار، ودليل الجمهور قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية، وحمله الشافعي على أنه مطلق مقيّد بآية الموت على الكفر فما دام لم يمت كافرًا فإن أعماله قبل الردّة لا تبطل والله أعلم.

(٤) نقل فعل هجر الشيء إذا تركه إلى هاجر، وهي صيغة المفاعلة، إمّا أنه للمبالغة في الترك كما قيل: عافاك الله والمعافي واحد وهو الله تعالى، وإمّا لأنه ترك شيئًا من عداوة ولا تكون إلاّ بين اثنين فقيل: هاجر، والمكان المهاجر منه يقال له مهاجر.

(٥) الرجاء: ترقب الخير مع تغليب ظن حصوله.

٢ - نسخ القتال في الشهر الحرام بدليل قتال الرسول ﷺ هوازن وثقيف في شوال وأول القعدة وهما في الأشهر الحرم.

٣ - الكشف عن نفسيّة الكافرين وهي عزمهم الدائم على قتال المسلمين إلى أن يردوهم عن الإسلام ويخرجوهم منه.

٤ - الردة[1] محبطة للعمل فإن تاب المرتد[2] يستأنف العمل من جديد، وإن مات قبل التوبة فهو من أهل النار الخالدين فيها أبدًا.

٥ - بيان فضل الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١٩، ٢٢٠]

(٢١٩) ﴿الْخَمْرِ﴾[3]: كل ما خامر العقل وغطاه فأصبح شاربه لا يميز ولا يعقل، ويطلق لفظ الخمر على عصير العنب أو التمر أو الشعير وغيرها. الميسر[4]: القمار، وسمي ميسرًا لأن صاحبه ينال المال بيسر وسهولة. الإثم[5]: كل ضار فاسد يضر بالنفس أو العقل أو البدن أو المال أو العرض. المنافع[6]: جمع منفعة وهي ما يسرّ ولا يضر من سائر الأقوال والأفعال والموادّ. ﴿الْعَفْوَ﴾: العفو هنا: ما فضل وزاد عن حاجة الإنسان من المال. ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: فتعرفون ما ينفع في كل منهما فتعملون لدنياكم ما يصلحها، وتعملون لآخرتكم ما يسعدكم فيها، وينجيكم من عذابها.

(٢٢٠) ﴿تُخَالِطُوهُمْ﴾: تخلطون مالهم مع مالكم ليكون سواء. ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾: العنت المشقة الشديدة يقال أعنته إذا كلّفه مشقة شديدة.

معنى الآيتين:

كان العرب في الجاهلية يشربون الخمور ويقامرون، وجاء الإسلام فبدأ دعوتهم إلى التوحيد والإيمان بالبعث الآخر إذ هما الباعث القوي على الاستقامة في الحياة، ولما هاجر الرسول ﷺ والعديد من أصحابه وأصبحت المدينة تمثل

الجزء الثاني — سورة البقرة

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)

٣٥

---

(١) اختلف في المرتد هل يستتاب أو يقتل بالردة فورًا والجمهور على أنه يستتاب أولاً فإن أصر قُتِلَ ومالك يرى أنّ من سبّ النبي ﷺ لا يستتاب ويقتل واستشهد بالمرأة التي قتلت خادمها لسبّ النبي ﷺ وأخبرت الرسول ﷺ فلم ينكر عليها وكذلك الزنديق يقتل ولا يستتاب.

(٢) الأصل في قتل المرتد حديث الصحيح: «**من بدّل دينه فاقتلوه**» واختلف في قتل المرأة إذا ارتدّت، الجمهور أنها لا تقتل لنهي النبي ﷺ عن قتل النساء والأطفال في الحرب.

(٣) الخمر: مأخوذ من خمّر الشيء إذا ستره وغطاه، ومنه خمار المرأة الذي يغطي رأسها وفي الحديث «**خمّروا الإناء**» أي: غطوه والخمر تطلق أساسًا على ماء العنب إذا غلي أو طبخ ثمّ أطلقت على كل ما خمر العقل وغطّاه مِنْ سائر المسكرات.

(٤) الميسر مأخوذ من اليسر وهو وجوب الشيء لصاحبه يقال: يسر لي كذا إذا وجب والمضارع ييسر يَسَرًا وميسرًا وهو القمار وسواء كان بالأزلام أو النرد أو الكعاب أو الجوز أو الكيرم.

(٥) والخمر كلها إثم إذ ما فيها كلّه ضرر وقد سمّاها العرب الإثم قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي … كذاك الإثم يذهب بالعقول

(٦) والنفع الذي هو الربح إذ كانوا يشترونها من الشام بالرخص ويبيعونها بالغلاء في ديارهم كان في الجاهلية أمّا بعد ما حرّمها الله تعالى وحرّم بيعها فلم يبق فيها نفع البتة.

مجتمعًا إسلاميًا وأخذت الأحكام تنزل شيئًا فشيئًا فحدث يومًا أن صلى أحد الصحابة بجماعة وهو ثملان فخلط في القراءة فنزلت آية النساء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ فكانوا لا يشربونها إلا في أوقات معينة، وهنا كثرت التساؤلات حول شرب الخمر فنزلت هذه الآية:

(٢١٩) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ فترك الكثير[١] كلًا من شرب الخمر ولعب القمار لهذه الآية. وبقي آخرون فكان عمر يتطلع إلى منعهما منعًا باتًا ويقول: (اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا) فاستجاب الله تعالى له ونزلت آية المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقال عمر: (انتهينا ربنا) وبذلك حرمت الخمر وحرم الميسر تحريمًا قطعيًا كاملًا ووضع الرسول ﷺ حدّ الخمر وهو الجلد. وحذّر من شربها وسمّاها أم الخبائث وقال: «**مدمن الخمر لا يكلمه الله يوم القيامة ولا يزكيه في ثلاثة نفر وهم العاقّ لوالديه، ومسبل إزاره، ومدمن شرب الخمر**».

وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ[٢] وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ فهو كما قال تعالى فقد بيّن في سورة المائدة منشأ الإثم وهو أنهما يسببان العداوة والبغضاء بين المسلمين ويصدان عن ذكر الله وعن الصلاة وأي إثم أكبر في زرع العداوة والبغضاء بين أفراد المسلمين، والإعراض عن ذكر الله وتضييع الصلاة حقًا إن فيهما لإثمًا كبيرًا، وأما المنافع فهي إلى جانب هذا الإثم قليلة ومنها الربح في تجارة الخمر وصنعها، وما تكسب شاربها من النشوة والفرح والسخاء والشجاعة، وأما الميسر فمن منافعه الحصول على المال بلا كد ولا تعب وانتفاع بعض الفقراء به إذ كانوا يقامرون على الجزور من الإبل ثم يذبح ويعطى للفقراء والمساكين.

أما قوله تعالى في الآية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ فهو سؤال نشأ عن استجابتهم لقول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فأرادوا أن يعرفوا الجزء الذي ينفقونه من أموالهم في سبيل الله فأجابهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي ما زاد على حاجتكم وفضل عن نفقتكم على أنفسكم. ومن هنا قال الرسول ﷺ: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى**» رواه البخاري.

(٢١٩) - (٢٢٠) وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي مثل هذا البيان يبين الله لكم الشرائع والأحكام والحلال والحرام ليعدكم بذلك إلى التفكير الواعي البصير في أمر الدنيا والآخرة فتعملون لدنياكم على حسب حاجتكم إليها وتعملون لآخرتكم التي مردكم إليها وبقاؤكم فيها على حسب ذلك.

(٢٢٠) وهذا ما تضمنته الآية الأولى **(٢١٩)** أما الآية الثانية **(٢٢٠)** ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الآية فإنه لما نزل قوله تعالى من سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝﴾ خاف المؤمنون والمؤمنات من هذا الوعيد الشديد وفصل من كان في بيته يتيم يكفله فصل طعامه عن طعامه وشرابه عن شرابه وحصل بذلك عنت ومشقة كبيرة وتساءلوا عن المخرج فنزلت هذه الآية وبيّنت لهم أن المقصود هو إصلاح مال اليتامى وليس هو فصله أو خلطه فقال تعالى: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ ...﴾ مع الخلط خير من الفصل مع عدم الإصلاح ودفع الحرج في الخلط فقال: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ[٣] فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾

---

(١) يرى كثير من المفسرين أنّ آية البقرة هذه نزلت قبل آية النساء وما رجحته في التفسير أولى، لأنّ آية البقرة تعتبر محرّمة للخمر والميسر بخلاف آية النساء.

(٢) لما كان تحريم الخمر تدريجيًا كان من الحكمة ذكر ما كانوا يرونه من المنافع في الإتجار بها وشربها وكذا منافع الميسر إذ كانوا يعطون ما يَرْبَحُونَه للفقراء، وحسبهم وهم المؤمنونَ صرفًا لهم عن الخمر والميسر قوله: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ وإذا زادت المضرة على المنفعة بطل العمل عقلًا وشرعًا.

(٣) ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ الفاء واقعة في جواب إن الشرطية، وإخوانكم خبر والمبتدأ محذوف تقديره: فهم إخوانكم.

والأخ يخالط أخاه في ماله، وأعلمهم أنه تعالى يعلم المفسد لمال اليتيم من المصلح له ليكونوا دائمًا على حذر، وكل هذا حماية لمال اليتيم الذي فقد والده. ثم زاد الله في منّته عليهم برفع الحرج في المخالطة فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾[1] أي أبقاكم في المشقة المترتبة على فصل أموالكم عن أموال يتاماكم وقوله: إن الله عزيز، أي غالب على ما يريده حكيم فيما يفعله ويقضي به.

هداية الآيتين:

١ ـ حرمة[2] الخمر والميسر حيث نسخت هذه الآية بآية المائدة لقوله تعالى فيها: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

٢ ـ بيان أفضل صدقة التطوع وهي ما كانت عن ظهر غنىً وهو[3] العفو في هذه الآية.

٣ ـ استحباب التفكر في أمر الدنيا والآخرة لإعطاء الأولى بقدر فنائها والآخرة بحسب بقائها.

٤ ـ جواز خلط مال اليتيم بمال كافله إذا كان أربح له وأوفر وهو معنى الإصلاح في الآية.

٥ ـ حرمة مال اليتيم، والتحذير من المساس به وخلطه إذا كان يسبب نقصًا فيه أو إفسادًا.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٢١]

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾: لا تتزوجوا. الأمة: خلاف الحرة. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾: أي أعجبكم حسنها وجمالها. ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: بحالهم ومقالهم وأفعالهم. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: أحكام دينه ومسائل شرعه.

معنى الآية الكريمة:

(٢٢١) ينهى الله تعالى المؤمنين أن يتزوجوا المشركات إلا أن يؤمنّ بالله ورسوله ﷺ، فإن آمنّ جاز نكاحهن، وأعلمهم منفرًا من نكاح المشركات مرغبًا في نكاح المؤمنات فقال: ولأمة مؤمنة فضلاً عن حرة خير من حرة مشركة، ولو أعجبتكم المشركة لحسنها وجمالها، كما نهاهم محرمًا عليهم أن يزوجوا المؤمنات بالمشركين حتى يؤمنوا فإن آمنوا جاز لهم أن ينكحوهم بناتهم ونساءهم فقال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ وقال منفرًا مرغبًا: ولعبد مؤمن خير من حرٍ مشرك ولو أعجبهم المشرك لشرفه أو ماله أو سلطانه، وعلّل لذلك بقوله: أولئك، أي المشركات والمشركون يدعون إلى النار فمخالطتهم مضرة ومفسدة لا سيما بالتزوج منهم، والله عز وجل يدعو إلى الجنة بالإيمان والعمل الصالح، وإلى المغفرة بالتوبة الصادقة فاستجيبوا له وأطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه. كما أنه تعالى يبيّن آياته للناس ليعدهم للتذكر والاتعاظ فيقبلون على طاعته الموصلة إلى رضاه والجنة، ويبعدون عن معصيته المؤدية إلى سخطه والنار.

هداية الآية الكريمة:

١ ـ حرمة نكاح المشركات، أما الكتابيات فقد أباحهن الله تعالى بآية المائدة إذ قال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ[4] مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٢ ـ حرمة نكاح المؤمنة الكافر مطلقًا[5] مشركًا كان أو كتابيًا.

(٢٢١) ٣ ـ شرط الولاية في نكاح المرأة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فهو هنا يخاطب أولياء النساء المؤمنات، ولذا لا يصح نكاح

---

(١) مفعول المشيئة محذوف كما هو الغالب فيه والتقدير: ولو شاء الله عنتكم لأعنتكم أي: كلّفكم ما فيه العنت والمشقة ولكنه لم يفعل رحمة بكم ولطفًا بحالكم.

(٢) إن كل مسكر داخل في اسم الخمر وقليله ككثيره في الحرمة سواء بإجماع الأمة، وكل أنواع الميسر ولو اختلفت المسميات كاليناصيب وغيرها محرّمة.

(٣) شاهده حديث مسلم: «**ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا** أي: تصدق به على الفقراء والمساكين».

(٤) الخلاف في حرمة نكاح الكتابيات ضئيل ولا وزن له، وإن كان عدم التزوج بهن أفضل وأسلم وهذا في الذميات أما الحربيات فلا يجوز نكاحهن وعلى هذا مالك وقد سئل ابن عباس عن نكاح الحربية الكتابية فقال: لا تحل.

(٥) شاهده من القرآن قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ الممتحنة.

إلا بولي[١].

٤ - التنفير من مخالطة المشركين والترغيب في البعد عنهم لأنهم يدعون إلى الكفر بحالهم ومقالهم وأعمالهم، وبذلك هم يدعون إلى النار.

٥ - وجوب موالاة أهل الإيمان ومعاداة أهل الكفر والضلال لأن الأولين يدعون إلى الجنة والآخرين يدعون إلى النار.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٢٢، ٢٢٣]

﴿الْمَحِيضِ﴾[٢]: مكان الحيض وزمنه والحيض دم يخرج من رحم المرأة إذا خلا من الجنين. ﴿أَذًى﴾: ضرر يضر المجامع في أيامه. ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾: اتركوا جماعهن[٣] أيام الحيض. ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾: أي لا تجامعوهن حتى ينقطع دم[٤] حيضهن. ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾: أي إذا انقطع دم حيضهن واغتسلن منه. ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾: أي جامعوهن في قبلهن، وهن طاهرات متطهرات[٥].

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾: يريد مكان إنجاب الأولاد فشبّه النساء بالحرث لأن الأرض إذا حرثت أنبتت الزرع، والمرأة إذا وطئت أنبتت الولد بإذن الله تعالى. ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: إذن بجماع المرأة مقبلة أو مدبرة إذا كان ذلك في القبل الذي هو منبت الزرع، وهي طاهرة من الحيض والنفاس. ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾: يريد الأعمال الصالحة ومنها إرادة تحصين النفس والزوجة بالجماع وإرادة إنجاب الأولاد الصالحين الذين يوحدون الله ويدعون لوالديهم طوال حياتهم.

معنى الآيتين:

يخبر تعالى رسوله ﷺ بأن بعض المؤمنين سألوه[٦] عن المحيض هل تساكن المرأة معه وتؤاكل وتشارب أو تهجر بالكلية حتى تطهر إذ كان هذا من عادة أهل الجاهلية، وأمره أن يقول لهم: الحيض أذى يضر بالرجل المواقع فيه، وعليه فليعتزلوا النساء الحيض في الجماع فقط لا في المعاشرة والمآكلة والمشاربة، وإنما في الجماع فقط أيام سيلان الدم بل لا بأس بمباشرة الحائض في غير ما بين السرة والركبة للحديث الصحيح في هذا كما أكد هذا المنع بقوله

---

(١) لحديث: «**لا نكاح إلا بولي**» وحديث أبي داود: «**أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل**» وهو حديث صحيح. والولي عصبة المرأة الأقرب فالأقرب فإن لم يكونوا فالسلطان ولي مَنْ لا ولي لها. ومن أركان النكاح الإشهاد عليه بشاهدين فأكثر وعليه الجمهور.

(٢) يطلق على الحيض أيضًا لأنه مصدر حاضت المرأة حيضًا ومحاضًا ومحيضًا فهي حائض وقد يقال: حائضة وعليه قول الشاعر:

كحائضة يزني بها غير طاهر

والحيضة المرّة الواحدة والحِيضة بكسر الحاء الاسم والحِيضة أيضًا الخرقة تستثفر بها الحائض قالت عائشة: يا ليتني كنت حيضة ملقاة واشتقاق الكلمة من السيلان ومنه الحوض لأنّ الماء يسيل إليه.

(٣) الجمهور على أنّ من وطىء امرأته في الحيض لا كفارة عليه، وإنما عليه التوبة والاستغفار، وضعَّفوا حديث «**الكفارة بنصف دينار أو دينار**» لاضطرابه وبه قال أحمد وعمل به.

(٤) أجمع العلماء على أنّ للمرأة ثلاثة أحكام في رؤيتها الدم السائل من فرجها فإن كان أسودًا خاثرًا تعلوه حمرة فذلك الحيض ويحرم عليها الصوم والصلاة ويحرم وطؤها، وتقضي الصوم ولا تقضي الصلاة للأحاديث الصحيحة في ذلك، وأكثر الحيض خمسة عشر يومًا وأقله لا حدّ له على الصحيح وأقل الطهر أيضًا خمسة عشر يومًا ليكمل الشهر حيضًا وطهرًا، وإن كان الدم زائدًا على مدّة الحيض فهو الاستحاضة وتصلي معه وتصوم وتوطأ أيضًا. والحكم الثالث: دم النفاس وأكثره أربعون يومًا وأقله يوم وليلة وحكمه حكم الحيض.

(٥) هل الزوجة الكتابية يجبرها زوجها أن تغتسل من الحيض والنفاس؟ أرى أن يأمرها مرغّبًا لها في ذلك وليس عليه إجبارها لأنّه لا إكراه في الدين. وهي غير متعبدة به.

(٦) روى مسلم عن أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ الآية.

لهم: ولا تقربوهن[١]، أي لا تجامعوهن حتى يطهرن بانقطاع دمهن والاغتسال بعده لقوله: فإذا تطهرن، أي اغتسلن فأتوهن من حيث أمركم الله بإتيانهن وهو القبل لا الدبر فإنه محرم وأعلمهم تعالى أنه يحب التوابين من الذنوب المتطهرين من النجاسات والأقذار فليتوبوا وليتطهروا ليفوزوا بحب مولاهم عز وجل هذا معنى الآية الأولى: (٢٢٢).

(٢٢٣) أما الآية الثانية (٢٢٣) وهي قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ فهي تضمنت جواب سؤال وهو: هل يجوز جماع المرأة مدبرة بأن يأتيها الرجل من ورائها إذ حصل هذا السؤال من بعضهم فعلاً فأخبر تعالى أنه لا مانع من ذلك إذا كان في القبل وكانت المرأة طاهرة من دمي الحيض والنفاس، وسمّى المرأة حرثًا لأن رحمها ينبت فيه الولد كما ينبت الزرع في الأرض الطيبة، وما دام الأمر كذلك فليأت الرجل امرأته كما شاء مقبلة أو مدبرة إذ المقصود حاصل وهو الإحصان وطلب الولد.

فقوله تعالى: أنّى شئتم، يريد على أي حال من إقبال أو إدبار شئتم شرط أن يكون ذلك في القبل لا الدبر[٢]. ثم وعظ تعالى عباده بقوله: وقدّموا لأنفسكم من الخير ما ينفعكم في آخرتكم واعلموا أنكم ملاقو الله تعالى فلا تغفلوا عن ذكره وطاعته إذ هذا هو الزاد الذي ينفعكم يوم تقفون بين يدي ربكم. وأخيرًا أمر رسوله ﷺ أن يبشر المؤمنين بخير الدنيا والآخرة وسعادتهما من كان إيمانه صحيحًا مثمرًا التقوى والعمل الصالح.

الجزء الثاني — سورة البقرة

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

٣٦

هداية الآيتين:

١ - حرمة الجماع أثناء الحيض والنفاس لما فيه من الضرر، ولقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾.

٢ - حرمة وطء المرأة إذا انقطع دم حيضها أو نفاسها ولم تغتسل، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾.

٣ - حرمة[٣] نكاح المرأة في دبرها لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهو القبل.

٤ - وجوب التطهير من الذنوب بالتوبة، والتطهير من الأقذار والنجاسات بالماء.

٥ - وجوب تقديم ما أمكن من العمل الصالح ليكون زاد المسلم إلى الدار الآخرة لقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾.

٦ - وجوب تقوى الله تعالى بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه وزجر.

٧ - بشرى الله تعالى على لسان رسوله ﷺ لكل مؤمن[٤] ومؤمنة.

(١) إذا قيل: لا تقرَب بفتح الراء معناه لا تتلبّس بالشيء، وإن قيل: لا تقرُب بضم الراء فمعناه: لا تدنُ ولذا جاز للزوج أن يقرب من زوجته الحائض أو النفساء ويباشرها في غير الفرج.

(٢) وذلك لتحريم وطء المرأة في دبرها للآية الكريمة وللأحاديث الصحاح وما أكثرها ومنها قوله ﷺ: «**أيها الناس إنّ الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن**» وقوله ﷺ: «**من أتى امرأة في دبرها لم ينظر الله إليه يوم القيامة**» وورد: تلك اللّوطية الصغرى.

(٣) تقدّمت الأحاديث المحرمة لنكاح المرأة في دبرها.

(٤) أي: صادق الإيمان كما تقدم وعلامة صدقه أن يحركه للعمل الصالح ويحمله على ترك الشرك والمعاصي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٢٤ ـ ٢٢٧]

(٢٢٤) العرضة: ما يوضع مانعًا من شيء، واليمين يحلفها المؤمن أن لا يفعل خيرًا. الأيمان: جمع يمين نحو والله لا أفعل كذا أو والله لأفعلنّ كذا. البُرُور: الطاعة وفعل البر. اللغو: الباطل، وما لا خير فيه. ولغو اليمين أن يحلف العبد على الشيء يظنه كذا فيتبين خلافه، أو ما يجري على لسانه من أيمان من غير إرادة الحلف.

(٢٢٥) ﴿كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: ما تعمّد القلب وقصد اليمين لأجله لفعله حتمًا أو منعه.

(٢٢٦) ﴿يُؤْلُونَ﴾: الإيلاء[(١)]: الحلف على عدم وطء الزوجة. التربص: الانتظار والتمهل. ﴿فَآءُو﴾: رجعوا إلى وطء نسائهم بعد الامتناع عنه باليمين.

(٢٢٧) ﴿الطَّلَاقَ﴾: فك رابطة الزوجية وحلها بقوله هي طالق أو مطلقة أو طلقتك.

معنى الآيات:

ينهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يجعلوا الحلف به مانعًا من فعل الخير وذلك كأن يحلف العبد أن لا يتصدق على فلان أو أن لا يكلم فلانًا أو أن لا يصلح بين اثنين، فقال تعالى: ولا تجعلوا الله، يريد الحلف به عرضة لأيمانكم[(٢)] أي مانعًا لكم من فعل خير أو ترك إثم أو إصلاح بين الناس. وأخبرهم أنه سميع لأقوالهم عليم بنياتهم وأفعالهم فليتقوه عز وجل.

ثم أخبرهم أنه تعالى لا يؤاخذهم باللغو[(٣)] في أيمانهم وهو أن يحلف الرجل على الشيء يظنه كذا فيظهر على خلاف ما ظن، أو أن يجري على لسانه ما لا يقصده من الحلف كقوله لا والله، بلى والله فهذا مما عفا الله عنه لعباده فلا إثم فيه ولا كفارة تجب فيه. لكن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم من الإثم وذلك كأن يحلف المرء كاذبًا ليأخذ حق أخيه المسلم بيمينه الكاذبة فهذه هي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار وهذه لا تنفع فيها الكفارة الموضوعة لمن حلف على أن لا يفعل أو يفعل ثم حنث، وإنما على صاحب اليمين الغموس التوبة بتكذيب نفسه والاعتراف بذنبه ورد الحق الذي أخذه بيمينه الفاجرة إلى صاحبه وبذلك يغفر الله تعالى له ويرحمه، والله غفور رحيم.

وبمناسبة ذكر اليمين ذكر تعالى حكم من يولي من امرأته أي يحلف أن لا يطأها فأخبر تعالى أن على المولي تربص أربعة أشهر فإن فاء إلى امرأته أي رجع إلى وطئها فبها ونعمت، وعليه أن يكفر عن يمينه، وإن لم يفيء إلى وطئها وأصرّ على ذلك فإن على القاضي أن يوقفه أمامه ويطالبه بالفيء فإن أبى طلقها عليه.

(٢٢٦) قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما ارتكبوه من الذنب في حق نسائهم ويرحمهم لتوبتهم.

وإن عزموا[(٤)] الطلاق بأن أبوا أن

---

(٢٢٤) ﴿ولا تجعلوا﴾ قيل: نزلت الآية في أبي بكر الصديق لما حلف أن لا ينفق على ابن خالته مسطح لأنه خاض في الإفك وقيل: نزلت في عبدالله بن رواحة حين حلف أن لا يكلّم ختنه بشير بن النعمان.

(٢٢٤) ﴿عرضة﴾ العرضة ما ينصب في الطريق مانعًا فيعترض طريق السائرين وأصبح يطلق على كل ما يوضع أمام الناس يقال: فلان أصبح غرضة للناس أي: يقعون فيه ويقال: المرأة عرضة للنكاح أي: إذا بلغت فهي أمام أنظار الرجال.

(٢٢٤) ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ أصلها أن لا تبرّوا فحذفت لا كما حذفت في ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ أي: أن لا تضلّوا وحذفها للتخفيف ولظهور المعنى المراد.

(١) يقال: آلى يؤلي إيلاء، وائتلى يأتلي ائتلاء، وتألّى تأليًا إذا حلف على كذا، والإيلاء جائز لتأديب الأزواج ولكن لا يصل إلى أربعة أشهر فقد آلى رسول الله ﷺ من نسائه شهرًا تأديبًا لهن.

(٢) الأيمان جمع يمين وهي الحلف، وسمي الحلف يمينًا أخذًا من اليمين لأن عادة العرب إذا حلف أحدهم للآخر وضع يده اليمنى على يده اليمنى ويقال: أعطاه يمينًا إذا حلف له مؤكدًا بوضع يده اليمنى على يد صاحبه اليمنى.

(٣) اللّغو: مصدر لغا يلغو لغوًا. إذا قال كلامًا خطأً وباطلًا، ولذا المؤمنون إذا سمعوا اللغو أعرضوا ولم يلتفتوا إليه ولم يأبهوا له. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)﴾.

(٤) عزم الطلاق: هو التصميم عليه فإن لم يفيئوا فقد وجب عليهم الطلاق وعليه فالمولى بين خيري النظرين وهما الفيء أو الطلاق.

يفيئوا طلقوا، والله سميع لأقوالهم عليم بما في قلوبهم. فليحذروه بعدم فعل ما يكره، وترك فعل ما يحب.

هداية الآيات:

١ - كراهية منع الخير بسبب اليمين وعليه فمن حلف أن لا يفعل خيرًا فليكفر عن يمينه وليفعل الخير لحديث الصحيح «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير**».

٢ - لغو اليمين معفو عنها ولها صورتان: الأولى أن يجري على لسانه لفظ اليمين وهو لا يريد أن يحلف نحو لا والله، وبلى والله، والثانية: أن يحلف على شيء يظنه كذا فيتبين خلافه، مثل أن يقول: والله ما في جيبي درهم ولا دينار وهو ظان أو جازم أنه ليس في جيبه شيء من ذلك، ثم يجده فهذه صورة لغو اليمين.

٣ - اليمين المؤاخذ عليها العبد هي أن يحلف متعمدًا الكذب قاصدًا له من أجل الحصول على منفعة دنيوية وهي المقصودة بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (٢٢٥) وتسمى باليمين الغموس، واليمين الفاجرة.

٤ - اليمين التي تجب فيها الكفارة هي التي يحلف فيها العبد أن يفعل كذا ويعجز فلا يفعل أو يحلف أن لا يفعل كذا ثم يضطر ويفعل، ولم يقل أثناء حلفه إن شاء الله، والكفارة مبيّنة في آية المائدة وهي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام.

٥ - بيان حكم الإيلاء وهو أن يحلف الرجل أن لا يطأ امرأته مدة فإن كانت أقل من[(١)] أربعة أشهر فله أن لا يحنث نفسه ويستمر ممتنعًا عن الوطء، إلى أن تنتهي مدة الحلف إلا أن الأفضل أن يطأ ويكفر عن يمينه[(٢)]، وإن كانت أكثر من أربعة أشهر فإن عليه أن يفيء إلى زوجته أو تطلق عليه وإن كان ساخطًا غير راض.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٢٨]

(٢٢٨) المطلقات: جمع مطلقة وهي المرأة تسوء عشرتها فيطلقها زوجها أو القاضي. ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: ينتظرن. ﴿قُرُوٓءٍ﴾: القرء إما مدة الطهر، أو مدة الحيض. ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾: من الأجنة فلا يحل للمطلقة أن تكتم ذلك. ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾: أزواجهن، واحد البعولة: بَعْلٌ كفحل ونخل. ﴿بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: أي في مدة التربص والانتظار. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾: يريد على الزوجة حقوق لزوجها، ولها حقوق على زوجها. ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾: هي درجة القوامة[(٣)] أن الرجل شرعًا هو القيم على المرأة.

معنى الآية الكريمة:

بمناسبة طلاق المؤلي إن أصر على عدم الفيأة ذكر تعالى في هذه الآية ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾[(٤)] إلخ، أن على المطلقة التي تحيض أن تنتظر فلا تتعرض للزواج[(٥)] مدة ثلاثة أقراء، فإن انتهت المدة ولم يراجعها زوجها

---

(١) ما السرّ في الأربعة أشهر؟ يبدو أنها ثلث السنة والثلث كثير كما في حديث سعد في الوصية ويؤيد هذا ما أجراه عمر رضي الله عنه من سؤال النساء عن مدى صبر المرأة على زوجها فقلن: شهران ويقل صبرها في ثلاثة أشهر وينفد في أربعة أشهر. فأمر قُواد الأجناد أن لا يمسكوا الرجل في الغزو أكثر من أربعة أشهر.

(٢) لقول الرسول ﷺ: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفِّر عن يمينه وليفعل الذي هو خير**».

(٢٢٨) ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ الجملة خبرية ومعناها الإنشاء وهو الأمر بالتربص ثلاثة قروء وهذا خاص بالحرائر أمّا الإماء فيتربصن قرأين لا غير ثبت هذا بالسنة الصحيحة وهو قوله ﷺ: «**طلاق الأمة تطليقتان وقرئها حيضتان**».

(٣) لفظ الدرجة دال على علو المنزلة وهو كذلك، وهو ظاهر في أنه يحميها، ويصونها وينفق عليها وتجب طاعته عليها كما أن هناك فضلًا في الخلق والخلق والكسب والعمل كالجهاد وشهود الجمعة والجماعات.

(٤) المطلقات: جنس يشمل كل مطلقة ويخرج من لا تحيض لصغر سن أو كبر بدليل الكتاب من سورة الطلاق.

(٥) القرء: لفظ مشترك بين الحيض والطهر، ولذا ذهب مالك إلى أن القرء الطهر فجعل العدّة ثلاثة أطهار ورجحه قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وهو أوّل الطهر، وذهب غيره إلى أنّ القرء الحيض، والكلّ جائز وواسع والحمد لله، إلاّ أن الاعتداد بالأطهار أرفق بالمطلّقة إذ تكون المدّة أقصر لأنها تطلق في طهر لم يجامعها فيه الزوج فيبقى عليها طهران فقط.

فلها أن تتزوج وهذا الانتظار يسمى عدة وهي واجبة مفروضة عليها لحق زوجها، إذ له الحق أن يراجعها[1] فيها وهذا معنى قوله تعالى في الآية: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾.

كما أن على المطلقة أن لا تكتم الحيض بأن تقول: ما حضت إلا حيضة أو حيضتين وهي حاضت ثلاثًا تريد بذلك الرجعة لزوجها، ولا تقول حضت ثلاثًا وهي لم تحض من أجل أن لا ترجع إلى زوجها، ولا تكتم الحمل كذلك حتى إذا تزوجت من آخر تنسب إليه الولد وهو ليس بولده وهذا من كبائر الذنوب. ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ يريد من حيض وحمل إن كن يؤمنّ بالله واليوم الآخر. وقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يريد: والزوجُ أحقُّ بزوجته المطلقة ما دامت في عدَّتها وعلى شرط أن لا يريد بإرجاعها المضارة بها بل لا بد وأن يريد برجعتها الإصلاح وطيب العشرة بينهما وهذا ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾، وعلى المطلقة أن تنوي برجوعها إلى زوجها الإصلاح أيضًا.

ثم أخبر تعالى أن للزوجة من الحقوق على زوجها، مثل ما للزوج عليها من حقوق فقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وأخبر أن للرجل على المرأة درجة لم ترقها المرأة ولم تكن لها وهي القيوميّة المفهومة من قوله تعالى من سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وختمت الآية بجملة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إشعارًا بوجوب تنفيذ هذه التعاليم لعزة الله تعالى وحكمته، فإن الغالب يجب أن يطاع والحكيم يجب أن يسلم له في شرعه لأنه صالح نافع غير ضار.

هداية الآية الكريمة:

١ - بيان عدة المطلقة إذا كانت تحيض وهو التربص ثلاثة حيض أو أطهار.

٢ - حرمة كتمان المطلقة حيضًا أو حملاً خلقه الله تعالى في رحمها، ولأي غرض كان.

٣ - أحقية[2] الزوج بالرجعة من مطلقته إذا لم تنقض عدتها، حتى قيل: الرجيعة زوجة بدليل أنها لو ماتت يرثها زوجها ولو مات ترثه. وأنه لا يحل أن تخطب أو تتزوج ما دامت في عدتها.

٤ - إثبات حقوق كل من[3] الزوجين على صاحبه.

٥ - تقرير سيادة الرجل على المرأة لما وهبه الله من ميزات[4] الرجولة المفقودة في المرأة.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٢٩]

(٢٢٩) ﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾[5]: الاسم من طلّق وهو أن يقول الرجل لزوجته: أنت طالق، أو: طلقتك. ﴿مَرَّتَانِ﴾[6]:

---

(١) جعل الله تعالى مدّة العدّة رحمة بالزوجين إذ قد يحدث لهما ندامة فيتراجعان بلا كلفة قال تعالى من سورة الطلاق: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي: المراجعة، وللرجعية النفقة على الزوج لأنها محبوسة من أجله ولا يجوز له أن يستمتع بها لا بالنظر ولا غيره ولو وطئها بدون نيّة مراجعة أثم ولا حدّ عليه للشبهة.

(٢) معنى أحق في قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أن المطلقة لها حق أن لا ترجع والزوج له حق أن يراجعها متى شاء فكان هناك حقان أقواهم حق الزوج. أو يقال: اسم التفضيل هنا ليس على بابه، والأوّل أظهر لقول الرسول ﷺ: **«الأيم أحق بنفسها من وليها»**.

(٣) من الحقوق المتبادلة بين الزوجين أن يتزيّن كل منهما لصاحبه بما يكون زينة عرفية لهما مما هو مباح.

(٤) تقدم ذكر بعضها.

(٢٢٩) ﴿الطلاق﴾ كان الطلاق في الجاهلية وبرهة من الزمن في الإسلام ليس له حد فقد يطلق الرجل امرأته عشرات المرات حتى إن رجلاً قال لامرأته: لا آويك ولا أدعك تحلين قالت: وكيف؟ قال: أطلقك فإذا دنا مضي عدتك راجعتك، فشكت ذلك إلى عائشة فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ..﴾.

(٥) الطلاق شرعًا: هو حل العصمة المنعقدة بين الزوجين بألفاظ مخصوصة منها أنت طالق، والطلاق مباح لرفع الضرر عن أحد الزوجين أو عن كليهما.

(٦) روى الدارقطني عن أنس أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ قال الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ فلِمَ صار ثلاثًا؟ قال: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ هي الثالثة.

يطلقها، ثم يردها، ثم يطلقها ثم يردها. أي يملك الزوج الإرجاع في طلقتين أما إن طلق الثالثة فلا يملك ذلك ولا ترجع حتى تنكح زوجًا غيره. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾: حسن العشرة، فإن خافت المرأة أو خاف الزوج أن لا يؤدي حقوق الزوجية جاز الفداء، وهو دفع مال للزوج ليخلي سبيل المرأة تذهب حيث شاءت، ويسمى هذا خلعًا. ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾: ما يجب أن ينتهي إليه العبد من طاعة الله ولا يتجاوزه. الظالم: المتجاوز لما حدَّ الله تعالى، والظلم وضع الشيء في غير موضعه.

معنى الآية الكريمة:

(٢٢٩) ما زال السياق في بيان أحكام الطلاق، فيقرر تعالى في هذه الآية أن الطلاق الذي يملك الزوج الرجعة فيه هو طلقتان أولى، وثانية فقط، ومن هنا فمن طلّق الثانية فهو بين خيارين إما أن يمسك زوجته بمعروف، أو يطلقها بإحسان، فإن طلقها فلا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره. هذا معنى قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾: أي بحسن العشرة وهو أداء ما للزوج من حقوق، أو تسريح أي تطليق بإحسان بأن يعطيها باقي صداقها إن كان، ويمتعها بشيء من المال ولا يذكرها بسوء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ[1] أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾: حرّم تعالى على الزوج أن يأخذ من مهر زوجته شيئًا بدون رضاها، إلا في حال واحدة وهي إذا كرهت المرأة الزوج ولم تطق البقاء معه وهو[2] غير ظالم لها في هذه الحال يجوز أن تعطي الزوج مالاً ويطلقها ويسمى هذا خلعًا وهو حلال على الزوج غير الظالم، وهذا معنى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ وهي هنا المعاشرة الحسنة فلا جناح أي لا إثم فيما فدت[3] به نفسها، فلها أن تعطي المال للزوج وله أن يأخذه منها مقابل تركها وحل عصمة الزوجية بينهما.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾[4] يريد أحكام شرعه فلا يحل تجاوز الحلال إلى الحرام، ولا تجاوز الإحسان إلى الإساءة، ولا المعروف إلى المنكر، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، عرّضها للعذاب، وما ينبغي له ذلك.

هداية الآية الكريمة:

١ - حرمة الطلاق الثلاث[5] بلفظ واحد، لأن الله تعالى قال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾.

٢ - المطلقة ثلاث طلقات لا تحل لزوجها حتى تنكح زوجًا غيره[6] ويطلقها أو يموت عنها.

٣ - مشروعية الخلع وهو أن تكره المرأة البقاء مع زوجها فتخلع نفسها منه بمال تعطيه إياه عوضًا عما أنفق عليها في الزواج بها.

٤ - وجوب الوقوف عند حدود الله وحرمة تعديها.

٥ - تحريم الظلم وهو ثلاثة أنواع: ظلم الشرك وهذا لا يغفر للعبد إلا بالتوبة منه، وظلم العبد لأخيه الإنسان وهذا لا بد من التحلل منه،

---

(١) الخطاب هنا للأزواج وفي قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ للحكام وولاة الأمور.

(٢) لا خلاف في أنّ المخالع منها بائنة لا يملك الزوج رجعتها في العدّة وهل يعتبر الخلع طلاقًا أو فسخًا. الراجح أنه طلاق فتعتد المخالع منها عدة الطلاق ثلاثة قروء.

(٣) أما ما كان من الفدية مثل المهر أو أقل فلا خلاف فيه أي: في جوازه، وأما ما كان أكثر من المهر ففيه خلاف والراجح على أنه جائز ولكنه منافٍ لمكارم الأخلاق.

(٤) القصر في جملة: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قصر حقيقي إذ كل ظالم متعد لحدود الله.

(٥) وهو الطلاق البدعي والجمهور على أنه يقع ثلاثًا وخلاف الجمهور يقولون: طلاق بدعي ويقع واحدة ودليلهم الآية: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ والطلاق بلفظ الثلاث ليس فيه مرتان ولا إقراء فلذا هو بدعي ولا تبين المطلقة به بل هي طلقة واحدة لا غير.

(٦) لا يحل لامرىء أن يتزوج مطلقة ثلاثًا ليحلها لزوجها للعن الرسول ﷺ من يفعل ذلك في قوله: **«لعن الله المحلل والمحلل له»** وسماه بالتيس المستعار.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

٣٧

وظلم العبد لنفسه بتعدّي حد من حدود الله وهذا أمره إلى الله إن شاء غفره وإن شاء واخذ به.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٣٠]

(٢٣٠) ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ﴾: الطّلقة الثالثة فلا تحل له إلا بعد أن تنكح زوجًا غيره. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾: أي لا إثم ولا حرج عليهما في الزواج من جديد. ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾: أن يرجع كل منهما لصاحبه بعقد جديد وبشرط أن يظنا إقامة حدود الله فيهما، وإلا فلا يجوز نكاحهما.

معنى الآية الكريمة:

(٢٣٠) يقول تعالى مبينا حكم من طلّق امرأته الطلقة الثالثة: فإن طلّقها فلا تحلُّ له حتى تنكح زوجًا غيره، ويكون النكاح صحيحًا، ويبني بها الزوج الثاني لحديث **«حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»**، فإن طلقها الثاني بعد البناء والخلوة والوطء أو مات عنها جاز لها أن تعود إلى الأول إن رغب هو في ذلك وعلما من أنفسهما أنهما يقيمان حدود الله فيهما بإعطاء كل واحد حقوق صاحبه[١] مع حسن العشرة وإلا فلا مراجعة تحل لهما. ولذا قال تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ ثم نوّه الله تعالى بشأن تلك الحدود فقال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ وهي شرائعه، يبينها سبحانه وتعالى لقوم يعلمون[٢]، إذ العالمون بها هم الذين يقفون عندها ولا يتعدونها فيسلمون من وصمة الظلم وعقوبة الظالمين.

هداية الآية الكريمة:

١ - المطلقة ثلاثًا لا تحل لمطلقها[٣] إلا بشرطين، الأول: أن تنكح زوجًا غيره نكاحًا صحيحًا ويبني بها ويطأها، والثاني: أن يغلب على ظن كل منهما أن العشرة بينهما تطيب وأن لا يتكرر ذلك الاعتداء الذي أدى إلى الطلاق ثلاث مرات.

٢ - موت الزوج الثاني كطلاقه تصح معه الرجعة إلى الزوج الأول بشرطه.

٣ - إن تزوجت المطلقة ثلاثًا بنيّة التمرد على الزوج حتى يطلقها لتعود إلى الأول فلا يحلّها هذا النكاح لأجل التحليل، لأن الرسول ﷺ أبطله وقال: «لعن الله المحلِّل والمحلَّل له» ويسمّى بالتيس المستعار، ذاك الذي يتزوج المطلقة ثلاثًا بقصد أن يحلها للأول.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٣١]

(٢٣١) ﴿أَجَلَهُنَّ﴾: أجل المطلقة مقاربة[٤] انتهاء أيام عدتها. ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾: تسريح المطلقة تركها بلا مراجعة لها حتى تنقضي عدتها وتبين من زوجها. ﴿ضِرَارًا﴾: مضارة لها وإضرارًا بها. ﴿لِّتَعْتَدُواْ﴾: لتتجاوزوا حد الإحسان

---

(١) ذهب بعض الفقهاء إلى أنه ليس على الزوجة عمل لزوجها ولا حق له عليها إلاّ في الاستمتاع بها وهو قول واهٍ يرده ما كان عليه بنات رسول الله ﷺ وأزواجه وأزواج أصحابه، إذ كن يطحنّ ويغسلن ويطبخن ويقمن بعمل المنزل ويؤمرن بذلك بل ويضربن إن قصّرن فيه.

(٢) أي: الذين يفهمون الأحكام فهمًا يهيئهم للعمل بها وبإدراك مصالحها فلا يتحيلون في فهمها ليتركوا العمل بها.

(٣) اختلف فيمن طلقت طلقة أو طلقتين ثم تزوجت ومات زوجها وطلقها ورجعت إلى زوجها الأوّل فهل النكاح الجديد يهدم السابق أو تبقى على ما كانت عليه؟ الجمهور على أنها تبقى على ما كانت عليه من طلقة أو طلقتين.

(٤) بالإجماع أن المراد من بلوغ الأجل هنا مقاربة بلوغه لأنّه إذا بلغ الأجل لا خيار له في الإمساك.

إلى الإساءة. ﴿هُزُوًا﴾[1]: لعبًا بها بعدم التزامكم بتطبيق أحكامها. ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾: هنا هي الإسلام. الحكمة[2]: السنّة النبوية. ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾: بالذي أنزله من أحكام الحلال والحرام؛ لتشكروه تعالى بطاعته.

معنى الآية الكريمة:

﴿٢٣١﴾ ما زال السياق في بيان أحكام الطلاق والخلع والرجعة، ففي هذه الآية يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا طلّق أحدهم امرأته وقاربت نهاية عدتها أن يراجعها فيمسكها[3] بمعروف، والمعروف هو حسن عشرتها، أو يتركها حتى تنقضي عدتها ويسرحها بمعروف فيعطيها كامل حقوقها ولا يذكرها إلا بخير ويتركها تذهب حيث شاءت. وحرّم على أحدهم أن يراجع امرأته من أجل أن يضرّ بها فلا هو يحسن إليها ولا يطلقها فتستريح منه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ يريد عليهن حتى تضطر المرأة المظلومة إلى المخالعة فتفدي نفسها منه بمال. وأخبر تعالى: أن من يفعل هذا الإضرار فقد عرّض نفسه للعذاب الأخروي. كما نهى تعالى المؤمنين عن التلاعب بالأحكام الشرعية، وذلك بإهمالها وعدم تنفيذها فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ[4] اللَّهِ هُزُوًا﴾ وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم حيث منّ عليهم بالإسلام دين الرحمة والعدالة والإحسان، وذلك ليشكروه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

كما عليهم أن يذكروا نعمة الله عليهم زيادة على الإسلام وهي نعمة إنزال الكتاب. والحكمة ليعظهم بذلك فيأمرهم بما فيه سعادتهم وكمالهم، وينهاهم عما فيه شقاؤهم وخسرانهم: ثم أمرهم بتقواه عز وجل، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وأعلمهم أنه أحق أن يُتقى لأنه بكل شيء عليم لا يخفى عليه من أمرهم شيء فليحذروا أن يراهم على معصيته مجانبين لطاعته.

هداية الآية الكريمة:

١ ـ لا يحل للمطلق أن يراجع امرأته من أجل أن يضرّ بها ويظلمها حتى تخالعه بمال.

٢ ـ حرمة التلاعب بالأحكام الشرعية بعدم مراعاتها، وتنفيذها.

٣ ـ وجوب ذكر نعمة الله على العبد وذلك بذكرها باللسان، والاعتراف[5] بها في الجنان.

٤ ـ وجوب تقوى الله تعالى في السر والعلن.

٥ ـ مراقبة الله تعالى في سائر شؤون الحياة لأنه بكل شيء عليم.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٣٢]

﴿٢٣٢﴾ بلغن أجلهن: أي انتهت[6] عدتهن. ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: أي لا تمنعوهن من التزوج مرة أخرى بالعودة إلى الرجل الذي طلّقها ولم يراجعها حتى انقضت عدتها. ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾: إذا رضي الزوج المطلق أن يردها إليه ورضيت

---

(١) لا خلاف بين أهل العلم أنّ من طلق هازلاً أنّ الطلاق يلزمه لحديث أبي داود أنّ النبي ﷺ قال: **«ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة»**.

(٢) الحكمة هي السنة المبيّنة على لسان رسول الله ﷺ مراد الله فيما لا نصّ عليه من الكتاب.

(٣) قال أهل العلم: إنّ من الإمساك بالمعروف أنّ الزوج إذا لم يجد ما ينفق على زوجته يطلقها فإن لم يطلقها خرج عن حدّ المعروف.

(٤) روي عن أبي الدرداء أنه قال: كان الرجل في الجاهلية يطلّق ويقول: إنّما طلّقت وأنا لاعب وينكح ويعتق ويقول: كنت لاعبًا فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾.

(٥) وصرفها فيما يرضي المنعم عزّ وجلّ وذلك باستعمال القوى الفعلية والبدنية في طاعة الله تعالى، وإنفاق المال فيما يجب أن ينفق فيه.

﴿٢٣٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ﴾ الإشارة فيه إلى حكم العضل المحرّم والمخاطب به سائر المسلمين ولم يقل ذلكم إذ الأصل هو الإشارة إلى المذكور وهو مفرد لو قال: ذلكم جاز.

(٦) بلوغ الأجل في هذه الآية هو نهايته وليس كالآية السابقة إذ بلوغ الأجل فيها المراد قرب نهايته إذ لو بلغ الأجل نهايته ما صحّت مراجعتها.

هي بذلك. ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ﴾: أي النهي عن العضل يُكلف به أهل الإيمان إذ هم القادرون على الطاعة. ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾: أي ترك العضل خير لكم من العضل وأطهر لقلوبكم؛ إذ العضل قد يسبب ارتكاب الفاحشة.

معنى الآية الكريمة:

ينهى الله تعالى أولياء أمور النساء أن يمنعوا المطلقة طلقة أو طلقتين فقط من أن تعود إلى زوجها الذي طلّقها وبانت منه بانقضاء عدتها، إذا رضيت هي بالزواج منه مرة أخرى ورضي هو به وعزما على المعاشرة الحسنة بالمعروف، وكانت هذه الآية استجابة لأخت معقل بن يسار رضي الله عنه حيث أرادت أن ترجع إلى زوجها[1] الذي طلّقها وبانت منه بانقضاء العدة فمنعها أخوها معقل.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي هذا النهي عن العضل يوجه إلى أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، فهم الأحياء الذين يستجيبون لله ورسوله ﷺ إذا أمروا أو نهوا.

وأخيرًا أخبرهم تعالى أن عدم منع المطلقة من العودة إلى زوجها خير لهم، حالاً ومآلاً وأطهر لقلوبهم ومجتمعهم. وأعلمهم أنه يعلم عواقب الأمور وهم لا يعلمون، فيجب التسليم بقبول شرعه، والانصياع لأمره ونهيه. فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هداية الآية الكريمة:

١ - حرمة العضل، أي منع المطلقة أن ترجع إلى من طلّقها.

٢ - وجوب[2] الولاية على المرأة، لأن الخطاب في الآية كان للأولياء «ولا تعضلوهن».

٣ - المواعظ تنفع أهل الإيمان لحياة قلوبهم.

٤ - في امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه الخير كله، والطهر جميعه.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٣٣]

(٢٣٣) ﴿حَوْلَيْنِ﴾: عامين. ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾: أي على الأب. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بحسب حاله يسارًا وإعسارًا. ﴿وُسْعَهَا﴾: طاقتها وما تقدر عليه. ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾[3]: أي لا يحل أن تؤذى أم الولد بمنعها من إرضاع ولدها، أو بمنعها الأجرة على إرضاعه هذا في حال طلاقها، أو موت زوجها. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ﴾: أي ولا يضار[4] الوالد كذلك بأن يجبر على إرضاع الولد من أمه المطلقة أو يطالب بأجرة لا يطيقها. ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾: الوارث هو الرضيع[5] نفسه إن كان له مال وإلا فعلى من يكفله من عصبته.

---

(١) اسم هذا الزوج (أبو البداح) وكان قد طلق أخت معقل بن يسار ورغب في العودة إليها بنكاح جديد بعد انقضاء عدتها فأبى معقل وقال لها: وجهي من وجهك حرام إن تزوّجتيه فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ...﴾ إلخ..

(٢) دليله أن أخت معقل كانت ثيبة ومنعها أخوها من الزواج بمن طلّقها وراجعها ثم طلقها مرّة ثانية وانقضت عدتها ولمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لمعقل: «**إن كنت مؤمنًا فلا تمنع أختك من أبي البداح**» فقال: آمنت بالله وردّها إلى أبي البداح فهذا دليل على شرطية الولي في النكاح البكر والثيب سواء.

(٢٣٣) ﴿كسوتهن﴾ قوله تعالى: ﴿كِسْوَتُهُنَّ﴾ إمّا أن يكون المراد به المرضع غير المطلقة فهي التي يجب لها الكسوة أمّا المرضع بأجرة فلا كسوة لها وإنما لها ثمن الإرضاع، أو يكون ذكر الكسوة من باب مكارم الأخلاق إذ ذو الخلق الكريم يكرم مرضعة ولده بالكسوة وغيرها.

(٣) في الآية دليل على أن الأم أحق بالحضانة إذا طلقت أو مات الوالد ولا خلاف في ذلك ما لم تتزوج فإنْ حضانتها تسقط بذلك لقول الرسول ﷺ لمن شكت إليه: «**أنت أحقّ به ما لم تنكحي**» واختلف في مدّة الحضانة، فمالك يرى أنها إلى بلوغ الغلام وتزوّج الجارية، ورأى الشافعي أنها إلى ثمان سنوات ثم يخيّر الولد بين أبيه وأمه فأيهما اختار له ذلك والبنت كذلك فقد صحّ أن النبي ﷺ خيّر الولد بين أبيه وأمه.

(٤) وفي الحديث الصحيح: «**لا ضرر ولا ضرار**» ومن هنا رؤي في الحضانة جانب الولد فينظر فيمن يقدر على حفظه وتربيته، ولما كانت الأم أرحم به وأحنى عليه أعطيته ما لم تتزوج وتشغل عنه فإن تزوجت فأمها وهي جدته وأما أم أبيه فخالته أحق به منها، والعبرة بمن يكون أرحم وأحفظ بالولد.

(٥) الجمهور على أن المراد بالوارث، ورثة الرضيع إذا هلك من نساء ورجال ذكره القرطبي في تفسيره وقال غيره: إن الوارث هو الرضيع إذا مات والده وترك مالاً. أجرة المرضع من ماله فإن كان لا مال له فمن مال ورثته هو ولا تضار هي في واجب نفقتها ولا الوالد أو وارثه في أدائها وما فسرنا به الآية واضح ومستقيم والحمد لله رب العالمين.

﴿فِصَالًا﴾: فطامًا للولد قبل نهاية العامين.

معنى الآية الكريمة:

(٢٣٣) بمناسبة بيان أحكام الطلاق وقد تطلق المرأة أحيانًا وهي حامل، ذكر تعالى أحكام الرضاع. وقال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ[١] يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ أي على الأم المطلقة أن ترضع ولدها حولين كاملين إن أرادت هي وأب الرضيع إتمام الرضاعة، وأن على المولود له وهو الأب إن كان موجودًا نفقة المرضعة طعامًا وشرابًا وكسوة بالمعروف بحسب حال الوالد من الغنى والفقر، إذ لا يكلف الله نفسًا إلا ما آتاها من قدرة.

ثم نبّه تعالى على أنه لا يجوز أن تؤذى الوالدة بسبب ولدها بأن تمنع من إرضاع ولدها أو تُكره على إرضاعه وهي لا تريد ذلك، أو تُحرم النفقة مقابل الإرضاع أو يُضيق عليها فيها، كما لا يجوز أن يضار، أي يؤذى المولود له وهو الأب: بأن يجبر على إرضاع ولده من أمه وقد طلقها ولا أن يطالب بنفقة باهظة لا يقدر عليها. وعلى الوارث وهو الرضيع نفسه إن كان له مال. فإن لم يكن له مال فعلى عصبته الذكور الأقرب فالأقرب، أي عليهم أجرة الإرضاع، فإن لم يكن للولد مال وليس له عصبة وجب على الأم أن ترضعه مجانًا لأنها أقرب الناس إليه. ثم ذكر تعالى رخصتين في الإرضاع، الأولى: إن أراد الأبوان فطام الولد قبل عامين فإن لهما ذلك بعد التشاور في ذلك وتقدير مصلحة الولد من هذا الفطام المبكر. فقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي لا تضييق ولا حرج. الثانية: إن أراد المولود له أن يسترضع لولده من مرضع غير أمه فله ذلك إن طابت به نفس الأم. قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ بشرط أن يسلم الأجرة[٢] المتفق عليها بالمعروف بلا إجحاف ولا مماطلة، وأخيرًا وعظ الله كلًّا من المُرْضِع والمُرْضَع له بتقواه في هذه الحدود التي وضعها لهما، وأعلمهم أنه بما يعملون بصير، فليحذروا مخالفة أمره، وارتكاب نهيه. فسبحانه من إلهٍ عظيمٍ برٍّ رحيم.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

٣٨

هداية الآية الكريمة:

١ - وجوب إرضاع الأم ولدها الرضعة الأولى «اللِّبا» إن كانت مطلقة وسائر الرضاع إن كانت غير مطلقة.

٢ - بيان الحد الأعلى للرضاع وهو عامان[٣] تامان. ولذا فالزيادة عليهما غير معتبرة شرعًا.

٣ - جواز أخذ الأجرة على الإرضاع.

٤ - وجوب نفقة الأقارب على بعضهم في حال الفقر.

٥ - جواز إرضاع الوالد ولده من[٤] مرضع غير والدته.

---

(١) ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ مبتدأ وجملة يرضعن الخبر، فالجملة خبرية ومعناها الإنشاء إذ ما تضمنته الجملة هو إرشاد من الله تعالى للمؤمنين في طريقة إرضاع أولادهم.

(٢) المراد من الأجرة هي تلك التي وجبت للمطلقة بإرضاعها ولدها قبل أخذ الوالد له ليرضعه عند غيرها إن لم يكن قد سلمها لها أيام إرضاعها للولد.

(٣) لحديث: **«لا رضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام»** رواه أبو داود الطيالسي عن جابر ذكره ابن كثير. وحديث ابن عباس عند البخاري: **«لا يحرم من الرضاع إلاّ ما كان في الحولين»** ولذا فما كان من رضاع بعد الحولين فلا يحرم بدلالة هذا الحديث الصحيح.

(٤) إن كان في ذلك مصلحة للرضيع أو لعجز الوالدة عنه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣٤، ٢٣٥]

(٢٣٤) ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾: يوفيهم الله تعالى ما كتب لهم من العمر فيموتون. ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾: يتركون زوجات لهم. ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾: ينتظرن حتى انقضاء عدتهن وهي أربعة أشهر وعشر ليال. ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: بلغن انتهاء العدة. لا جناح عليكم: لا حرج عليكم أيها الأولياء فيما فعلن في أنفسهن من مس الطيب والتجمل والتعرض للخطاب. لا جناح عليكم: لا إثم عليكم في التعريض دون التصريح بالخطبة، كما لا إثم في إضمار الرغبة في النفس.

(٢٣٥) ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾: أي حتى تنتهي العدة.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في بيان أحكام الطلاق والعدد والنفقات. ففي هذه الآية **(٢٣٤)** أن على من مات[(١)] عليها زوجها أن تنتظر أربعة أشهر وعشر ليال إن كانت حرة، أو نصف المدة إن كانت أمة، فلا تتجمل ولا تمس طيبًا ولا تتعرض للخطاب بحال حتى تنقضي[(٢)] عدتها المذكورة في الآية إلا أن تكون حاملاً فإن عدتها تنقضي بوضع حملها، لقوله تعالى من سورة الطلاق: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فإذا بلغت أجلها أي انتهت المدة التي هي محددة فيها فلا جناح على ذوي زوجها المتوفى ولا على ذويها هي فيما تفعل بنفسها من ترك الإحداد[(٣)] والتعرض للخطاب للتزوج.

(٢٣٤) هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بما هو مباح لهن. ووعظهم في ختام الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فاحذروه فلا تعملون إلا ما أذن فيه لكم.

(٢٣٥) أما الآية الثانية **(٢٣٥)** فقد تضمنت تحريم خطبة المرأة المعتدة من طلاق أو وفاة فلا يحل خطبتها لما في ذلك من الضرر إذ قد تحمل هذه الخطبة من رجل مرغوب فيه لماله أو دينه أو نسبه أن تدّعي المرأة انقضاء عدتها وهي لم تنقض، وقد تفوت على زوجها المطلق لها فرصة المراجعة وهذا كله ضرر محرم. كما تضمنت الآية في صدرها رفع الحرج أي الإثم في التعريض بالخطبة دون اللفظ الصريح المحرم، فقال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المسلمون فيما عرضتم من خطبة النساء المعتدات نحو قوله: إني راغب في الزواج، أو إذا انقضت عدتك تشاورينني إن أردت الزواج. كما تضمنت الكشف عن نفسية الرجل إذ قال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ مبدين رغبتكم في الزواج منهن فرخص لكم في التعريض دون التصريح، ولكن لا تواعدوهن سرًا. هذا اللفظ هو الدال على تحريم خطبة المعتدة من وفاة أو من طلاق بائن، أما الطلاق الرجعي فلا يصح الخطبة فيه تعريضًا ولا تصريحًا لأنها في حكم الزوجة، وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ هو الإذن بالتعريض.

كما تضمنت هذه الآية حرمة عقد النكاح على المعتدة حتى تنتهي عدتها إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ[(٤)] النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾، والمراد من الكتاب المدة التي كتب الله على المعتدة أن تتربص فيها. وختمت الآية

---

(١) من مات زوجها أو طلقها في غيبته عنها هل تعتد من يوم الطلاق أو الوفاة أو من يوم يأتيها الخبر بذلك؟ الجمهور وهو الراجح أنها تعتد من يوم الوفاة أو الطلاق وعليه فلو مات زوجها أو طلقها ولم يلقها حتى انتهت مدة العدة فلا عدّة عليها بعد.

(٢) يرى بعض السلف أن تعتد المتوفى عنها زوجها بأقصى الأجلين أي: بأطولهما فإن كانت مدّة الحمل أكثر من أربعة أشهر وعشرًا اعتدت به وإلاّ اعتدت بوضع الحمل وما عليه الجمهور أولى وهو وضع الحمل.

(٣) الإحداد واجب على المتوفى عنها زوجها فقط لحديث الصحيح: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلاّ على زوج أربعة أشهر وعشرًا**» والإحداد: هو ترك أنواع الزينة حتى الكحل والخضاب وعليها لزوم البيت ليلاً وعدم التعرض للخطّاب.

(٤) أي: لا تعقدوا على المعتدة حتى تنقضي عدتها يقال: عزم كذا وعزم على كذا بمعنى واحد.

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

٣٩

بوعظ الله تعالى المؤمنين حيث أمرهم أن يعلموا أن الله يعلم ما في أنفسهم ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم وتصرفاتهم فليحذروه غاية الحذر فلا يخالفوه في أمره ولا في نهيه. كما أعلمهم أنه تعالى غفور لمن تاب منهم بعد الذنب حليم عليهم لا يعاجلهم بالعقوبة ليتمكنوا من التوبة.

هداية الآيتين:

١ - بيان عدة الوفاة وهي أربعة أشهر[١] وعشر ليال. وبينت السنّة أن عدة الأمة على النصف.

٢ - وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها وهو عدم التزيّن ومس الطيب وعدم التعرض للخطاب وملازمة المنزل الذي توفي عنها زوجها وهي فيه فلا تخرج منه إلا لضرورة قصوى.

٣ - حرمة خطبة المعتدة، وجواز التعريض لها بلفظ غير صريح.

٤ - حرمة عقد النكاح على معتدة قبل انقضاء عدتها وهذا من باب أولى ما دام الخطبة محرمة. ومن عقد على امرأة قبل انقضاء عدتها يفرق بينهما ولا تحل له بعد عقوبة لهما[٢].

٥ - وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن واتقاء الأسباب المفضية بالعبد إلى فعل محرم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣٦ ـ ٢٣٩]

﴿٢٣٦﴾ الجناح: الإثم المترتب على المعصية.

﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾: ما لم تجامعوهنّ. ﴿أَوْ تَفْرِضُوا﴾: تقدّروا لهن[٣] مهرًا. ﴿الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾: ذو الوسع في المال، وقَدَرُه: ما يقدر عليه ويستطيعه. ﴿الْمُقْتِرِ﴾: الضيّق العيش.

(١) قيل: الحكمة في العشر ليال بعد الأربعة أشهر أنها التي ينفخ فيها الروح في الجنين لحديث: «**إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة**» الحديث. فثلاثة أربعينات بأربعة أشهر وفي العشر بعد ينفخ فيه الروح. والحديث هو حديث ابن مسعود في مسلم.

(٢) هذا مذهب مالك، أما الجمهور فإنه يفارقها فإذا انتهت عدتها له أن يخطبها ويتزوجها، ولا فرق في هذا بين عدّة الوفاة أو الطلاق غير الرجعي.

﴿٢٣٦﴾ ﴿لا جناح﴾ هذا استئناف بياني كأنّ سائلاً سأل عن جواز الطلاق قبل البناء وعدمه فأجاب تعالى بقوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية مبيّنًا الجواز وحكم المهر للمطلقة قبل البناء.

﴿٢٣٦﴾ ﴿طلقتم﴾ المطلقات أربع: مطلقة قبل البناء ولم يسم لها مهر فلها المتعة ولا عدّة عليها، ومطلقة قبل البناء وسمي لها مهر فلها نصفه إلاّ أن يعفو، ومطلقة بعد البناء لها ما سمي من المهر، وعليها العدّة، ومطلقة بعد البناء ولم يسم لها مهر فلها مهر مثيلاتها.

﴿٢٣٧﴾ ﴿أو فرضتم﴾ أو هنا بمعنى الواو أي: ولم تفرضوا.

﴿٢٣٧﴾ ﴿فنصف﴾ النصف: فيه لغات، كسر النون، وضمّها. ونصيف بفتح النون وإشباع الصاد والنصيف أيضًا قناع المرأة.

(٣) اختلف فيمن مات زوجها قبل البناء بها ولم يسمّ لها صداق هل لها مثل صداق مثيلاتها أو لا صداق لها؟ ولكن لها الميراث وعليها العدّة فمن قال: بالقياس قال: لا صداق لها ومن أخذ بحديث بروع الذي رواه الترمذي وصححه قال: لها مهر المثل وترث وتعتد، وبروع امرأة مات زوجها قبل البناء بها ولم يسم لها مهرًا فقضى رسول الله ﷺ لها بمهر المثل والميراث والعدّة.

(٢٣٧) ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾: هو الزوج. ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾: أي المودة والإحسان.

(٢٣٨) ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾: بأدائها في أوقاتها في جماعة مع استيفاء شروطها وأركانها وسننها. ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾: صلاة العصر، أو الصبح، فتجب المحافظة على كل الصلوات وخاصة العصر والصبح لقول الرسول ﷺ: «**من صلّى البردين - العصر والصبح - دخل الجنة**». ﴿قَـٰنِتِينَ﴾: خاشعين ساكنين[1].

(٢٣٩) ﴿فَرِجَالًا﴾: مشاة على أرجلكم أو ركبانًا على الدواب وغيرها مما يركب.

معنى الآيات:

(٢٣٦) ما زال السياق الكريم في بيان أحكام الطلاق وما يتعلق به. ففي هذه الآية (٢٣٦): يخبر تعالى عباده المؤمنين أنه لا إثم ولا حرج عليهم إن هم طلّقوا أزواجهم قبل البناء بهن، وقبل أن يسمّوا لهن مهورًا أيضًا. وفي هذين الحالين يجب عليهم أن يمتعوهن[2] بأن يعطوا المطلقة قبل البناء ولم تكن قد أعطيت مهرًا ولا سمي لها فيعرف مقداره في هذه الحال، وقد تكون نادرة يجب على الزوج المطلق جبرًا لخاطرها أن يعطيها مالاً على قدر غناه وفقره تتمتع به أيامًا عوضًا عما فاتها من التمتع بالزواج، فقال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾.

(٢٣٧) وأما الآية الثانية (٢٣٧) فإنه تعالى يُخبر أن من طلّق امرأته قبل البناء بها وقد سمى لها صداقًا قلّ أو كثر فإنَّ عليه أن يعطيها وجوبًا نصفه إلا أن تعفو عنه المطلقة فلا تأخذه تكرمًا، أو يعفو المطلّق تكرمًا فلا يأخذ منه شيئًا فيعطيها إياه كاملاً. فقال عز وجل: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ - أي فالواجب نصف ما فرضتم - إلا أن يعفون - المطلقات - أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وهو الزوج. ثم بعد تقرير هذا الحكم العادل الرحيم دعا تعالى الطرفين[3] إلى العفو، وأن من عفا منهما كان أقرب إلى التقوى فقال عز وجل: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ونهاهم مع هذا عن عدم نسيان المودة والإحسان بينهما فقال: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٢٣٨) وأما الآية الثالثة (٢٣٨) فإنه تعالى يرشد عباده المؤمنين إلى ما يساعدهم على الالتزام بهذه الواجبات الشرعية والآداب الإسلامية الرفيعة وهو المحافظة على إقامة الصلوات الخمس عامة والصلاة الوسطى خاصة. فقال تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، وكانوا قبلها يتكلمون في الصلاة فمنعهم من ذلك بقوله: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ أي ساكنين خاشعين. وإن حصل خوف لا يتمكنون معه من أداء الصلاة على الوجه المطلوب من السكون والخشوع فليؤدوها وهم مشاة على أرجلهم أو راكبون على خيولهم، حتى إذا زال الخوف وحصل الأمن فليصلوا على الهيئة التي كانوا يصلون عليها من سكون وسكوت وخشوع.

(٢٣٩) فقال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ[4] كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟

---

(١) الخشوع في الصلاة مستلزم لترك الكلام فيها وكيف وقد سلّم ابن مسعود على رسول الله ﷺ وهو في صلاته فلم يرد عليه ثمّ اعتذر له بقوله: «**إنّ في الصلاة لشغلاً**» أي: عن الكلام.

(٢) المتعة واجبة للمطلقة قبل البناء ولم يكن سمي لها مهر، ومستحبة لغيرها هذا أشهر المذاهب وأقربها من الحق، ومقدار المتعة موكول إلى المطلق فليمتع بحسب حاله غنىً وفقرًا هذا في غير المطلقة قبل البناء ولم يسم لها مهر لأنّ متعتها واجبة إذ ليس لها غيرها فقد يتولى القاضي بيان مقدارها.

(٣) وإن كان الخطاب صالحًا لكل من الزوج والزوجة إلاّ أن العفو من الزوج أولى لأن الطلاق كان منه ولو كانت هي سببه لكان عفوها هي أولى ولعلّ هذا سرّ قوله: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

(٤) ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أقيموا الصلاة كما أمركم فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وجلوسها كما تفعلون ذلك في حال الأمن وعدم الخوف.

تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ يريد الله تعالى بالذكر هنا إقام الصلاة أولاً، ثم الذكر العام مذكرًا إياهم بنعمة العلم مطالبًا إياهم بشكرها وهو أن يؤدوا الصلاة على أكمل وجوهها وأتمها لأنها المساعد على سائر الطاعات وحسبها أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. هذا ما تضمنته الآية الرابعة (٢٣٩).

هداية الآيات:

١ - بيان حكم المطلقة قبل البناء وقبل تسمية المهر، وأن لها المتعة فقط بحسب حال المطلق من غنى وفقر.

٢ - بيان حكم المطلقة قبل البناء وقد سمي لها صداق فإن لها نصفه وجوبًا إلا أن تتنازل عنه برضاها فلها ذلك كما أن الزوج المطلق إذا تنازل عن النصف وأعطاها المسمّى كاملاً فله ذلك.

٣ - الدعوة إلى إبقاء المودة والفضل والإحسان بين الأسرتين أسرة المرأة المطلقة وأسرة الزوج المطلق، حتى لا يكون الطلاق سببًا في العداوات والتقاطع.

٤ - وجوب المحافظة على الصلوات الخمس وبخاصة صلاة العصر[1] وصلاة الصبح «الصلاة الوسطى»[2].

٥ - منع الكلام في الصلاة لغير إصلاحها.

٦ - وجوب الخشوع في الصلاة.

٧ - بيان صلاة الخائف من عدو وغيره وأنه يجوز له أن يصلي وهو ماش أو راكب.

٨ - الأمر بملازمة ذكر الله، والشكر على نعمه وبخاصة نعمة العلم بالإسلام.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤٠ ـ ٢٤٢]

(٢٤٠) ﴿ٱلۡحَوۡلِ﴾: العام. ﴿فَإِنۡ خَرَجۡنَ﴾: من بيت الزوج المتوفى قبل نهاية السنة.

(٢٤١) ﴿مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾: أي متعة لا مبالغة فيها، ولا تقصير. ﴿حَقًّا﴾: متعينًا على المطلقين الأتقياء.

معنى الآيات:

(٢٤٠) ما زال السياق في بيان حقوق النساء المطلقات والمتوفى عنهن، ففي هذه الآية (٢٤٠) يخبر تعالى أن الذين يتوفون من المؤمنين ويتركون أزواجًا فإن لهنّ من الله تعالى وصيّة على ورثة الزوج المتوفى أن ينفذوها وهي أن يسمحوا لزوجة المتوفى عنها أن تبقى معهم في البيت تأكل وتشرب إلى نهاية السنة بما فيها مدة العدة وهي أربعة أشهر وعشر ليال إلا إذا رغبت في الخروج بعد انقضاء العدة فلها ذلك، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ[3] يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾﴾ وقوله: فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن تقدم معناه، وهو أن للمعتدة إذا انقضت عدتها أن تتزين وتمس الطيب

(١) اختلف في بيان الصلاة الوسطى بلغ الخلاف عشرة أقوال حتى عدت كل صلاة الصلاة الوسطى حتى يتم المحافظة على الصلوات الخمس كلها، وأقوى الأقوال أنها الصبح أو العصر، ورجّح مالك الصبح ورجّح غيره العصر، والسنة الصحيحة شاهدة لمن قال: إنها العصر وذلك لحديث الصحيح: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر**».

(٢) الوسطى مؤنث الأوسط ووسط الشيء خيره وأعدله وفي هذا المعنى قال الشاعر يمدح رسول الله ﷺ:

يا أوسط الناس طرًا في مفاخرهم ... وأكرم الناس أمًا برّة وأبا

وأفردت الصلاة الوسطى بالذكر تشريفًا لها.

(٢٤٠) ﴿متاعا﴾ المراد بالمتاع هنا هو السكنى في بيت زوجها المتوفى عنها إن كان له سكنى يملكها.

(٢٤٠) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ إشارة إلى وجوب تنفيذ وصية الله تعالى لأنّه غالب على أمره قاهر لعباده فكيف يخرجون عن طاعته؟ وحكيم والحكيم لا يعترض عليه بل يسلّم الأمر إليه رزقنا الله طاعته بالإسلام إليه ظاهرًا وباطنًا.

(٣) اختلف في توجيه هذه الآية فمن قائل بنسخها وأن الناسخ لها الآية التي قبلها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾، ومن قائل نسختها آية المواريث، إذ للمتوفى عنها إن لم يكن للزوج ولد الربع من التركة، ومن قائل وهو مجاهد ورجّحه ابن جرير الطبري بعدم النسخ وأنّه رحمة بالمؤمنة المتوفى عنها زوجها إذا أتمت عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرًا يسمح لها بالبقاء في بيت زوجها الهالك إلى نهاية السنة وهذا حسب اختيارها ورغبتها فكانت هذه الوصية وصية رحمة مندوبًا إليها وهذا الذي رجّحته في تفسير الآية فَلْيُتَأمل.

وتتعرض للخطاب لتتزوج. وما ختمت به الآية والله عزيز حكيم إشارة إلى أن هذه الوصية قد شرعها عزيز حكيم فهي متعيّنة التحقيق والتنفيذ.

(٢٤١) وأما الآية الثانية (٢٤١) ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝﴾ ففيها حكم آخر وهو أن المطلقة المبني بها على مطلقها أن يمتعها بشيء من المال كثياب أو دابة أو خادمة، وعليه فالمطلقة قبل البناء وقبل تسمية المهر لها المتعة واجبة لها إذ ليس لها سواها، والمطلقة قبل البناء وقد سمي لها المهر فإن لها نصف المهر لا غير، والمطلقة بعد البناء وهي هذه المقصودة في هذه الآية لها متعة بالمعروف سواء قيل بالوجوب أو الاستحباب[1] لأنها لها المهر كاملاً.

(٢٤٢) وقوله تعالى في الآية الثالثة (٢٤٢): ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾ معناه كهذا التبين لأحكام الطلاق والخُلع والرضاع والعدد والمتع يبين تعالى لنا آياته المتضمنة أحكام شرعه لنعقلها ونعمل بها فنكمل عليها ونسعد في الحياتين الدنيا والآخرة.

هداية الآيات:

١ - الإبقاء على المعتدة عدة وفاة في بيت الهالك سنة إن طابت نفسها بذلك وذلك بعد انقضاء العدة الواجبة فالزائد وهو سبعة أشهر وعشرون يومًا جاء في هذه الوصية إلا أن جمهور أهل العلم يقولون بنسخ هذه الوصيّة، وعدم القول بالنسخ أولى، لاختلافهم في الناسخ لها[2].

٢ - حق[3] المطلقة المدخول بها في المتعة بالمعروف.

٣ - منّة الله على هذه الأمة ببيان الأحكام لها لتسعد بها وتكمل عليها، فللّه الحمد والشكر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤٣ ـ ٢٤٥]

(٢٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم ينته إلى علمك... فالرؤية قلبية والاستفهام للتعجيب. ﴿أُلُوفٌ﴾: جَمْع ألف، وهي صيغة كثرة فهم إذًا عشرات الألوف.

(٢٤٤) ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: الطريق الموصل إلى مرضاته وهو طاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه ومن ذلك جهاد الكفار والظالمين حتى لا تكون فتنة.

(٢٤٥) ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ﴾: يقتطع شيئًا من ماله وينفقه في الجهاد لشراء السلاح وتسيير المجاهدين. ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾: يضيق ويبسط يوسع، يقبض ابتلاءً، ويبسُط امتحانًا.

معنى الآيات:

يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ فيقول: ألم ينته إلى علمك قصة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم ألوف وهم أهل مدينة من مدن[4] بني إسرائيل أصابها الله تعالى بمرض[5] الطاعون ففروا هاربين من الموت فأماتهم الله عن آخرهم ثم أحياهم بدعوة نبيهم حِزقيل عليه السلام، فهل أنجاهم فرارهم من الموت، فكذلك من يفر من القتال هل ينجيه فراره من الموت؟ والجواب لا، وإذًا فلمَ الفرار من الجهاد إذا تعيّن؟ وفي تأديب تلك الجماعة بإماتتها ثم بإحيائها فضل من الله عليها عظيم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون. وإذًا فقاتلوا أيها المسلمون في سبيل[6] الله ولا تتأخروا متى دعيتم إلى الجهاد بالنفس والمال، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بنياتكم وأعمالكم فاحذروه، ثم فتح تعالى باب الاكتتاب المالي للجهاد فقال:

---

(١) تقدّم مثل هذا البيان في الآيات السابقة تحت رقم صفحة ١٢٦ من نهر الخير.

(٢) رجّح هذا القول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ومال إليه تلميذه ابن القيّم ولم يفصح عنه.

(٣) أي: تقرير حق المتعة للمدخول بها على سبيل السنيّة والاستحباب كما تقدم في النهر.

(٢٤٣) ﴿موتوا﴾ هذا الأمر أمر تكويني لا شرعي تعبدي.

(٤) ذكر القرطبي أن اسم هذه القرية «داوردان» وهي من نواحي شرق واسط بينهما فرسخ (معجم ياقوت).

(٥) روى الترمذي وصححه أنّ النبي ﷺ ذكر الطاعون فقال: **«بقية رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بني إسرائيل فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبطوا عليها»** قلت: هذا ما يعرف الآن بالحجر الصحي.

(٦) القتال في سبيل الله هو ما كان لإعلاء كلمة الله تعالى.

(٢٤٥) ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى[1] يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ لا شائبة شرك فيه لأحد والنفس طيبة به فإن الله تعالى يضاعفه له أضعافًا كثيرة الدرهم بسبعمائة درهم فأنفقوا أيها المؤمنون في سبيل إعلاء كلمة الله، ولا تخافوا الفقر فإن ربكم يقبض ويبسط: يضيق على العبد ابتلاء ويوسع امتحانًا، فمنعكم الإنفاق في سبيل الله لا يغير من تدبير الله شيئًا.

هداية الآيات:

١ - إذا نزل الوباء ببلد لا يجوز الخروج فرارًا منه، بهذا ثبتت السنة.

٢ - وجوب ذكر النعم وشكرها.

٣ - وجوب القتال في سبيل الله إذا تعين.

٤ - فضل الإنفاق في سبيل الله.

٥ - بيان الحكمة في تضييق الله على العبد رزقه، وتوسيعه، وهو الابتلاء لأجل الصبر والامتحان لأجل الشكر، فيا لخيبة من لم يصبر، عند التضييق عليه، ولم يشكر عند التوسعة له.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤٦، ٢٤٧]

(٢٤٦) ﴿ٱلْمَلَإِ﴾: أشراف الناس من أهل الحل والعقد بينهم إذا نظر المرء إليهم ملؤوا عينه رواء وقلبه هيبة. عسى: كلمة توقع وترجّ. ﴿كُتِبَ﴾: فرض ولزم. ﴿مَلِكًا﴾: يسوسهم في السلم والحرب.

(٢٤٧) ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾: الاستفهام للإنكار بمعنى كيف يكون له الملك. ﴿ٱصْطَفَىٰهُ﴾: فضله عليكم واختاره لكم. بسطة في الجسم: أي طولاً زائدًا يعلو به من عداه.

معنى الآيات:

لقد فرض الله تعالى على المؤمنين القتال، ودارت رحى المعارك بداية من معركة بدر، وكان لا بد من المال والرجال الأبطال الشجعان، فاقتضى هذا الموقف شحذ الهمم وإلهاب المشاعر لتقوى الجماعة المسلمة بالمدينة على مواجهة حرب العرب والعجم معًا، ومن هنا لمطاردة الجبن والبخل وهما من شر الصفات في الرجال. ذكر تعالى حادثة الفارين من الموت التاركين ديارهم لغيرهم كيف أماتهم الله ولم ينجيهم فرارهم، ثم أحياهم ليكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم، فالفرار من الموت لا يجدي وإنما يجدي الصبر والصمود حتى النصر، ثم أمر تعالى المؤمنين بعد أن أخذ ذلك المنظر من نفوسهم مأخذه فقال: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولما كان المال المقدم في القتال فتح الله لهم اكتتابًا ماليًا وضاعف لهم الربح في القرض بشرط خلوصه وطيب النفس به، ثم قدّم لهم هذا العرض التفصيلي لحادثة أخرى تحمل في ثناياها العظات والعبر لمن هو في موقف المسلمين الذين يحاربهم الأبيض والأحمر وبلا هوادة وعلى طول الزمن فقال تعالى وهو يخاطبهم في شخص نبيهم ﷺ:

(٢٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ[2] لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد: ألم ينته إلى علمك بإخبارنا إيّاك قول أشراف بني إسرائيل - بعد وفاة موسى - لنبي

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)

٤٠

---

(١) الاستفهام هنا للتخصيص والتهييج على الإنفاق في سبيل الله.

(٢) هو شمويل بن بال بن علقمة هكذا ذكره القرطبي في تفسيره، ويقال فيه: شمعون أيضًا ويعرف بابن العجوز لأنّ أمّه كانت عجوزًا فسألت الله الولد فوهبها إياه بعد عقم وكبر سنّ.

لهم: ابعث لنا[1] ملكًا نقاتل في سبيل الله فنطرد أعداءنا من بلادنا ونسترد سيادتنا ونحكم شريعة ربّنا. ونظرًا إلى ضعفهم الروحي والبدني والمالي تخوّف النبي أن لا يكونوا صادقين فيما طالبوه به فقال: ﴿هَلْ[2] عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ بتعيين الملك القائد أن لا تقاتلوا!؟ فدفعتهم الحمية فقالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله والحال أنّا قد أُخرجنا من[3] ديارنا وأبنائنا، وذلك أن العدوّ وهم البابليون لما غزوا فلسطين بعد أن فسق بنو إسرائيل فتبرجت نساؤهم واستباحوا الزنى والربا وعطلوا الكتاب وأعرضوا عن هدى أنبيائهم فسلّط الله عليهم هذا العدو الجبار فشردهم فأصبحوا لاجئين. وما كان من نبي الله شمويل إلا أن بعث من تلك الجماعات الميتة موتًا معنويًا رجلًا منهم هو طالوت وقادهم فلما دنوا من المعركة جبنوا وتولى أكثرهم[4] منهزمين قبل القتال، وصدق نبيهم في فراسته إذ قال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾. هذا ما تضمنته الآية الأولى (٢٤٦) من هذا القصص. أمّا الآية الثانية (٢٤٧) فقد تضمنت اعتراض ملإ بني إسرائيل على تعيين طالوت ملكًا عليهم بحجة أنه فقير من أسرة غير شريفة، وأنهم أحق بهذا المنصب منه، وردّ عليهم نبيهم حجتهم الباطلة بقوله:

(٢٤٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ[5] وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. كان هذا رد شمويل على قول الملإ: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ[6] وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾. وكأنهم لما دمغتهم الحجة وهي أن الله تعالى قد اختار طالوت وفضله عليهم بهذا الاختيار وأهّله للولاية بما أعطاه وزاده من العلم وقوة الجسم، والقيادات القتالية تعتمد على غزارة العلم وقوة البدن بسلامة الحواس وشجاعة العقل والقلب أقول كأنهم لما بطل اعتراضهم ورضوا بطالوت طالبوا على عادة بني إسرائيل في التعنت طالبوا بآية تدل على أن الله حقًا اختاره لقيادتهم فقال لهم إلخ وهي الآية (٢٤٨) الآتية.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٤٨]

(٢٤٨) ﴿نَبِيُّهُمْ﴾: شمويل. ﴿ءَايَةَ مُلْكِهِ﴾: علامة أن الله تعالى ملّكه عليكم. ﴿التَّابُوتُ﴾: صندوق خشبي فيه بقية من آثار آل موسى وآل هارون. ﴿سَكِينَةٌ﴾: طمأنينة القلب وهدوء نفسي. بقية: بقية الشيء ما تبقى منه بعد ذهاب أكثره وهي هنا رضاض من الألواح التي تكسرت، وعصا موسى وشيء من آثار أنبيائهم. ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: من أرض العمالقة فتضعه بين يدي بني إسرائيل في مخيماتهم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾: أي في إتيان التابوت الذي أخذه العدو بالقوة منكم في رده إليكم علامة قوية على اختيار الله تعالى لطالوت ملكًا عليكم.

معنى الآية الكريمة:

قد أصبح بشرح الكلمات معنى الآية واضحًا وخلاصته أن شمويل

---

(١) ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ..﴾ فيه دليل على أنّ الجهاد لإعلاء كلمة الله لا بد له من إمام تجتمع عليه كلمة الأمّة، وأيّما جهاد يخلو من إمامة شرعية يقاتل تحت رايتها فعاقبته خسر، وشاهد هذا حال المسلمين اليوم فقد قاتلوا الاستعمار تحت شعار الأحزاب فلما انتصروا خسروا كل شيء حتى دينهم.

(٢) ﴿عسِيتم﴾: بكسر السين و: ﴿عَسَيتم﴾ بفتح السين وهما قراءتان سبعيتان الأولى لنافع والثانية لحفص.

(٣) إن الخروج من الوطن صعب على النفوس البشرية وهذا رسول الله ﷺ عند خروجه من مكة قال: «**إني أعلم أنك أحب البلاد إلى الله ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت**» ويقول: «**اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أكثر**».

(٤) ولذا نهى رسول الله ﷺ أمّته عن تمني لقاء العدو فقال: «**لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا**».

(٥) في تقديم العلم على الجسم إشارة إلى أنّ إمامة الجاهل وقيادته لا خير فيها، والمراد من العلم علم الشرائع وهي تتناول السلم والحرب فلذا هو كامل الأهلية وحسبه اصطفاء الله تعالى واختياره له.

(٦) لأن الملك في سبط يهوذا والنبوة في بني لاوي، وطالوت من سبط بنيامين فما هو من سبط الملك ولا في بني لاوي أهل النبوة.

النبي أعلمهم أن آية تمليك الله تعالى لطالوت عليهم أن يأتيهم التابوت المغصوب منهم وهو رمز تجمعهم واتحادهم ومصدر استمداد قوة معنوياتهم لما حواه من آثار آل موسى وآل هارون كرضاض الألواح وعصا موسى ونعله وعمامة هارون وشيء من المن الذي كان ينزل عليهم في التيه. فكان هذا التابوت بمثابة الراية يقاتلون تحتها فإنهم إذا خرجوا لقتال حملوه معهم إلى داخل المعركة ولا يزالون يقاتلون ما بقي التابوت بأيديهم لم يغلبهم عليه عدوهم، ومن هنا وهم يتحفزون للقتال جعل الله تعالى لهم إتيان[1] التابوت آية على تمليك طالوت عليهم وفي نفس الوقت يحملونه معهم في قتالهم فتسكن[2] به قلوبهم وتهدأ نفوسهم فيقاتلون وينتصرون بإذن الله تعالى، (أما كيفية حمل الملائكة للتابوت فإن الأخبار تقول إن العمالقة تشاءموا بالتابوت عندهم إذ ابتلوا بمرض البواسير وبآفات زراعية وغيرها ففكروا في أن يردوا هذا التابوت لبني إسرائيل وساق الله أقدارًا لأقدار، فجعلوه في عربة يجرها بقرتان أو فرسان ووجهوها إلى جهة منازل بني إسرائيل فمشت العربة فساقتها[3] الملائكة حتى وصلت بها إلى منازل بني إسرائيل) فكانت آية وأعظم آية، وقبل بنو إسرائيل بقيادة طالوت، وبسم الله تعالى قادهم. وفي الآية التالية (٢٤٩) بيان السير إلى ساحات القتال.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٤٩]

(٢٤٩) ﴿فَصَلَ طَالُوتُ﴾[4]: انفصل من الديار وخرج يريد العدو.

﴿بِالْجُنُودِ﴾[5]: العسكر وتعداده - كما قيل: سبعون ألف مقاتل.

﴿مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾: مختبركم بنهر جار لعله هو نهر الأردن الآن. ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾: لم يشرب منه.

﴿غُرْفَةً﴾[6]: الغرفة بالفتح المرة وبالضم الاسم من الاغتراف. الذين آمنوا معه: هم الذين لم يشربوا من النهر، أما من شرب فقد كفر وأشرك. ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾: أي يوم القيامة فهم يؤمنون بالبعث الآخر. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾: كم للتكثير. والفئة: الجماعة يفيء بعضها إلى بعض. ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: يسددهم ويعينهم وينصرهم.

معنى الآية الكريمة:

(٢٤٩) إنه لما خرج طالوت بالجيش أخبرهم أن الله تعالى مختبرهم في

---

(١) نسبة الإتيان إلى التابوت أسلوب عربي نحو (عزم الأمر) و(جدار يريد أن ينقضّ) وأل في التابوت للعهد فهو معروف لهم معهود عندهم، وقيل: طوله ثلاثة أذرع وعرضه ذراعان وهو من خشب تعمل منه الأمشاط يقال له: الشمشار وعليه صفائح الذهب.

(٢) السكينة قال فيها مجاهد: إنها حيوان كالهرّ له جناحان وذنب ولعينيه شعاع إلى آخر ما قال والصحيح ما في التفسير ويؤيده قول ابن عطية إذ قال: والصحيح أنّ التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى إلا أنه صحّ عن نبينا ﷺ أنّ السكينة تكون مَلَكًا كما في حديث مسلم إذ كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط فغشيته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل الفرس ينفر منها فلما أصبح أخبر الرسول ﷺ بذلك فقال: **«تلك السكينة نزلت للقرآن»** وتكون السكينة بمعناها وهو السكون كما في حديث مسلم: **«إلاّ نزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة..»** الحديث.

(٣) هكذا تقول الروايات على أن حمل الملائكة كان يدفع العربة والسير بها إلى ديار بني إسرائيل ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أن الملائكة أخذت التابوت وحملته إلى بني إسرائيل وهو الظاهر.

(٢٤٩) ﴿أي﴾: ليس من أصحابي في هذه الحرب ولا من جندي الذين أقاتل بهم ولم يرد خروجه من الإيمان وهو كقول الرسول ﷺ: **«من غشّ فليس منا» «ومن رغب عن سنتي فليس مني»** فإنه لا يعني كفره.

(٢٤٩) ﴿يظنون﴾ الظنّ هنا بمعنى اليقين أو يكون الظن على بابه وليس هو في لقاء الله تعالى وإنّما هو في الموت في هذه الحرب هل يقتلون فيلاقون الله أو لم يقتلوا؟

(٤) هل كان طالوت نبيًا؟ يستدل على نبوته بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ وبقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ والله أعلم وعلى كلٍّ فهو عبد صالح.

(٥) لفظ الجند وجمعه جنود وأجناد مشتق من الجند الذي هو غليظ الأرض، إذ الجنود يعتصم بعضهم ببعض فيقوون ويغلظون على عدوهم.

(٦) الغرفة بالضمة اسم لما يغرف كالأكلة اسم لما يؤكل، والغرفة أيضًا البناء العالي والجمع غرف.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥٠ ـ ٢٥٢]

﴿٢٥٠﴾ ﴿بَرَزُوا لِجَالُوتَ﴾: ظهروا في ميدان المعركة وجالوت قائد قوات العمالقة. ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: أصبب الصبر في قلوبنا صبًّا حتى تمتلىء فلم يبقَ للخوف والجزع موضع. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: في أرض المعركة حتى لا ننهزم وذلك بتقوية قلوبنا والشد من عزائمنا.

﴿٢٥١﴾ ﴿دَاوُودُ﴾: هو نبي الله ورسوله داود، وكان يومئذ غير نبي[1] ولا رسول في جيش طالوت. ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾: كان ذلك بعد موت شمويل النبي وموت طالوت الملك. ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾: فعلمه صنعة الدروع، وفهم منطق الطير هو وولده سليمان عليهما السلام.

﴿٢٥٢﴾ ﴿لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾: وذلك بغلبة أهل الشرك على أهل التوحيد، وأهل الكفر على أهل الإيمان.

معنى الآيات:

﴿٢٥٠﴾-﴿٢٥١﴾ لما التقى الجيشان جيش الإيمان وجيش الكفر طالب جالوت بالمبارزة فخرج[2] له داود من جيش طالوت فقتله والتحم الجيشان فنصر الله جيش طالوت وكان عدد

سيرهم هذا إلى قتال عدوهم بنهر ينتهون إليه وهم في حرّ شديد وعطش شديد، ولم يأذن لهم في الشرب منه إلا ما كان من غرفة واحدة، فمن أطاع ولم يشرب فهو المؤمن، ومن عصى وشرب غير المأذون به فهو الكافر. ولما وصلوا إلى النهر شربوا منه يكرعون كالبهائم إلا قليلاً منهم. وواصل طالوت السير فجاوز النهر هو ومن معه، ولما كانوا على مقربة من جيش العدو وكان قرابة مائة ألف قال الكافرون والمنافقون: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ فأعلنوا انهزامهم، وانصرفوا فارين، وقال المؤمنون الصادقون وهم الذين قال الله فيهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ كانت هذه الآية في بيان سير طالوت إلى العدو. وفي الآيتين التاليتين (٢٥٠) و(٢٥١) بيان المعركة وما انتهت إليه من نصر حاسم للمؤمنين الصادقين.

قال تعالى:

﴿٢٥٠﴾ ﴿برزو﴾ البراز: المكان الفسيح في الأرض المتسع منها والمتبرّز الذاهب في البراز وكانوا يخرجون لقضاء الحاجة في البراز فأطلق لفظ البراز على ما يحل فيه وهو العذرة.

﴿ربنا﴾ فيه مشروعية الدعاء في مثل هذا الموقف وقد دعا رسول الله ﷺ في بدر حتى سقط رداؤه وكان إذا لاقى العدو قال: **«اللهم بك أصول وبك أجول»** ويقول: **«اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم»** وعلم أصحابه ذلك.

﴿٢٥١﴾ ﴿فهزموهم﴾ الهزم: الكسر ومنه قولهم: سقاء متهزم إذا انثنى بعضه على بعض مع الجفاف وقيل في زمزم: هزمة جبريل أي: هزمها جبريل برجله فتكسرت الأرض وخرج الماء.

(١) أي: لم ينبأ بعد ولم يرسل إذ الرسل ينبؤون ويرسلون غالبًا في سن الأربعين.

(٢) لم يقصّ الله تعالى علينا شيئًا عن كيفية قتل داود لجالوت لعدم الفائدة الكبيرة منها وخلاصتها كما يلي: كان والد داود في جيش طالوت وله ستة أبناء معه واسمه إيشا وكان داود صغيرهم وكان يرعى الغنم وكان لنبيهم درع وأوحى الله أنّ من استوت عليه درعك هو الذي يقاتل جالوت فاستوت على داود وقبل البراز قال طالوت: مَنْ قتل جالوت أشاطره ملكي وأزوجه ابنتي وكان=

أفراده ثلثمائة وأربعة عشر مقاتلاً لا غير لقول الرسول ﷺ لأهل بدر: **«إنكم على عدة أصحاب طالوت»** وكانوا ثلثمائة وأربعة عشر رجلاً فهزم الله جيش الباطل على كثرته ونصر جيش الحق على قلته. وهنا ظهر كوكب داود في الأفق بقتله رأس الشر جالوت فمنّ الله عليه بالنبوة والملك بعد موت كل من النبي شمويل والملك طالوت. قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ[1] وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

(٢٥٢) وختم الله القصة ذات العبر والعظات العظيمة بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد[2] والقتال، لاستولى أهل الكفر وأفسدوا الأرض بالظلم والشرك والمعاصي، ولكن الله تعالى بتدبيره الحكيم يسلط بعضًا على بعض، ويدفع بعضًا ببعض منّة منه وفضلاً. كما قال عزّ وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثم التفت إلى رسوله محمد ﷺ وقال له: تقريرًا لنبوته وعلو مكانته تلك آيات الله التي تقدمت في هذا السياق نتلوها عليك بالحق، وإنك لمن المرسلين ﷺ.

هداية الآيات:

١ - الجهاد الشرعي يشترط له الإمام المبايع بيعة شرعية.

٢ - يشترط للولاية الكفاءة وأهم خصائصها العلم، وسلامة العقل والبدن.

٣ - جواز التبرك بآثار الأنبياء كعمامة النبي أو ثوبه أو نعله مثلاً.

٤ - جواز اختبار أفراد الجيش لمعرفة مدى استعدادهم للقتال والصبر عليه.

٥ - فضيلة الإيمان بلقاء الله، وفضيلة الصبر على طاعة الله خاصة في معارك الجهاد في سبيل الله.

٦ - بيان الحكمة في مشروعية الجهاد، وهي دفع أهل الكفر والظلم بأهل الإيمان والعدل، لتنتظم الحياة ويعمر الكون.

الجزء الثالث — سورة البقرة

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٥٤) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٢٥٥) لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾

٤٢

الجزء الثالث

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥٣، ٢٥٤]

(٢٥٣) ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾: أولئك الرسل الذين قصّ الله تعالى على رسوله بعضًا منهم وأخبره أنه منهم في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في الآية قبل هذه. ﴿مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾: كموسى عليه السلام. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ

= داود قد مرّ بحجر فناداه أن خذني يا داود وقاتل بي فجعله في مخلاته واحتفظ به فلما برز لجالوت جعل الحجر في مقلاعه وكان راميًا فرمى جالوت فقتله. وهذه بداية أمره عليه السلام.

(١) فسّر ابن كثير الحكمة بالنبوّة لقرينة الملك، إذ جعله الله تعالى ملكًا نبيًا كولده سليمان عليهما السلام.

(٢) وفي صحيح الحديث: **«وهل تنصرون وترزقون إلاّ بضعفائكم»** وفيه معنى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الآية، وأورد ابن كثير أحاديث في هذا المعنى وضعّفها.

(*) في قول طالوت في رقم (١) من قتل جالوت أشركه في ملكي وأزوجه ابنتي موجود نظيره في الإسلام إذ للإمام أن يقول: مَنْ جاءني برأس فلان فله كذا وكذا ومَنْ دخل حصن كذا فله كذا وكذا.

(٢٥٣) ﴿الرسل﴾ روى أحمد عن أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ قائلاً: أي الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم» قلت: رسول ونبي كان؟ قال: **«نعم نبيّ مكلّم»** قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: **«ثلاثمائة وبضعة عشر جمّا غفيرًا»**.

﴿دَرَجَٰتٖۚ﴾: وهو محمد ﷺ حيث فضّله[1] تفضيلاً على سائر الرسل. ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: المعجزات الدالة على صدق عيسى في نبوته ورسالته. روح القدس: جبريل عليه السلام كان يقف دائمًا إلى جانب عيسى يسدده ويقويه إلى أن رفعه الله تعالى إليه. اقتتلوا: قتل بعضهم بعضًا.

(٢٥٤) ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾: النفقة الواجبة وهي الزكاة، ونفقة التطوع المستحبة. ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾[2]: لا يشتري أحد نفسه بمال يدفعه فداءً لنفسه من العذاب. ﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾: أي صداقة تنفع صاحبها. ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾: تقبل إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾: بمنع الزكاة والحقوق الواجبة لله تعالى ولعباده هم الظالمون.

معنى الآيتين:

بعد أن قصّ الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ قصة ملإ بني إسرائيل في طلبهم من نبيهم شمويل بأن يعيّن لهم ملكًا يقودهم إلى الجهاد، وكانت القصة تحمل في ثناياها أحداثًا من غير الممكن أن يعلمها أميّ مثل محمد ﷺ بدون ما يتلقّاها وحيًا يوحيه الله تعالى إليه، وختم القصة بتقرير نبوته ورسالته بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أخبر تعالى أن أولئك الرسل فضل بعضهم على بعض، منهم من فضله بتكليمه كموسى عليه السلام، ومنهم من فضله بالخلّة كإبراهيم عليه السلام، ومنهم من رفعه إليه وأدناه وناجاه وهو محمد ﷺ، ومنهم من آتاه الملك[3] والحكمة وعلّمه صنعة الدروع كداود عليه السلام، ومنهم من آتاه الملك والحكمة وسخّر له الجن وعلّمه منطق الطير كسليمان عليه السلام، ومنهم من آتاه البينات وأيّده بروح القدس وهو عيسى عليه السلام.

(٢٥٣) فقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ[4] بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ كنبينا محمد ﷺ إذ فضله بعموم رسالته وبختم النبوات بنبوته، وبتفضيل أمته، وبإدخاله الجنة في حياته قبل مماته وبتكليمه ومناجاته مع ما خصه من الشفاعة يوم القيامة. ثم أخبر تعالى أنه لو يشاء هداية الناس لهداهم فلم يختلفوا بعد رسلهم ولم يقتتلوا من بعد ما جاءتهم البينات وذلك لعظيم قدرته، وحريّة إرادته فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. هذا بعض ما أفادته الآية الأولى **(٢٥٣) أما الآية الثانية (٢٥٤)** فقد نادى الله تعالى عباده المؤمنين وأمرهم بالإنفاق في سبيل الله تقربًا إليه وتزودًا للقائه قبل يوم القيامة حيث لا فداء ببيع وشراء، ولا صداقة تجدي ولا شفاعة تنفع، والكافرون بنعم الله وشرائعه هم الظالمون المستوجبون[5] للعذاب والحرمان والخسران.

هداية الآيتين:

١ - تفاضل الرسل فيما بينهم بحسب جهادهم وصبرهم وما أهّلهم الله تعالى له من الكمال.

٢ - صفة الكلام لله تعالى حيث كلّم موسى في الطور، وكلّم محمدًا ﷺ في الملكوت الأعلى.

٣ - الكفر والإيمان والهداية

---

(١) شاهده قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» ومع هذا زيادة في كماله قال: «**لا تفضلوني على موسى**». وقال على يونس بن متى: «**فصلى الله عليه ما أرفع مقامه**».

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿**لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة**﴾ بالنصب من غير تنوين. وأنشد حسان وهو شاهد هذه القراءة:

ألا طعان ولا فرسان عادية ... إلا تجشؤكم عند التنانير

يهجو ناسًا فيصفهم بالقعود عن القتال وملازمة التنور للطعام.

(٣) الحكمة هنا هي النبوة كما تقدم عن ابن كثير في «نهر الخير».

(٤) هل يجوز للمسلم أن يقول مثلاً: موسى أفضل من هارون أو إبراهيم أفضل من عيسى مثلاً؟ الجواب: لا لقوله ﷺ: «**لا تخيروا بين الأنبياء ولا تفضلوا بين أنبياء الله**» أي: لا تقولوا: فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان إذ نحن لا نقدر على التفضيل وإنما يقدر عليه الله وحده إذ هو الذي يهب ما يشاء لمن يشاء.

(٥) قال القرطبي عند هذه الآية: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق المال قال: وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: الظالمون هم الكافرون.

والضلال، والحرب والسلم كل ذلك تبع لمشيئته تعالى وحكمته.

٤ ـ ذم الاختلاف في الدين وأنه مصدر شقاء وعذاب.

٥ ـ وجوب الإنفاق في سبيل الله مما رزق الله تعالى عبده.

٦ ـ التحذير من الغفلة والأخذ بأسباب النجاة يوم القيامة حيث لا فداء ولا خلّة تنفع ولا شفاعة. ومن أقوى الأسباب الإيمان والعمل الصالح وإنفاق المال تقربًا إلى الله تعالى في الجهاد وغيره.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٥٥]

(٢٥٥)﴿ٱللَّهُ﴾: علَمٌ على ذات الرب تبارك وتعالى. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: الإله المعبود، ولا معبود بحق إلا الله، إذ هو الخالق الرزاق المدبر بيده كل شيء وإليه مصير كل شيء، وما عداه من الآلهة فعبادتها بدون حق فهي باطلة. ﴿ٱلْحَىُّ﴾(١): ذو الحياة العظيمة التي لا تكون لغيره تعالى وهي مستلزمة للقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام. ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾(٢): القائم بتدبير الملكوت كله علويه وسفليّه، القائم على كل نفس بما كسبت. السنة: النعاس يسبق النوم. ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: الكرسي: موضع القدمين، ولا يعلم كنهه إلا الله تعالى. ﴿يَـُٔودُهُۥ﴾: يثقله ويشق عليه.

معنى الآية الكريمة:

(٢٥٥)لما أخبر تعالى عن يوم القيامة وأنه يوم لا بيع فيه ولا شفاعة وأن الكافرين هم الظالمون، أخبر عن جلاله وكماله وعظيم سلطانه وأنه هو المعبود بحق وأن عبادته هي التي تنجي من أهوال يوم القيامة فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ(٣) إِلَّا هُوَ﴾: أي أنه الله المعبود بحق ولا معبود بحق سواه. ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الدائم الحياة التي لم تسبق بموت ولم يطرأ عليها موت. القيوم: العظيم القيّوميّة على كل شيء، لولا قيّوميّته على الخلائق ما استقام من أمر العوالم شيء: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ(٤)﴾: إذ النعاس والنوم من صفات النقص وهو تعالى ذو الكمال المطلق. وهذه الجملة برهان على الجملة قبلها، إذ من ينعس وينام لا يتأتى له القيومية على الخلائق ولا يسعها حفظًا ورزقًا وتدبيرًا. ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: خلقًا وملكًا وتصرفًا، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: ينفي تعالى وهو الذي له ما في السموات وما في الأرض ينفي أن يشفع عنده في الدنيا أو في الآخرة أحد كائن من كان بدون أن يأذن له في الشفاعة. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ(٥)﴾: لكمال عجزهم. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ(٦) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: لكمال

---

(٢٥٥) ﴿الله لا إله إلا هو﴾ صحّ أن النبي ﷺ قال: «**يا أبا المنذر ـ أبي بن كعب ـ أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. فضرب في صدري وقال: «**ليهنك العلم يا أبا المنذر**» وروى أحمد أن آية الكرسي تعدل ربع القرآن وأن الزلزلة والكافرون والنصر كل واحدة تعدل ربع القرآن وأنّ الصمد تعدل ثلث القرآن.

(١) الحي: أصلها الحيي كالحِذر فحذفت كسرة الياء الأولى فسكنت وأدغمت في الثانية فصارت الحي والقيوم أصلها القيووم فقلبت الواو الأولى ياءً وأدغمت في الياء فصارت القيوم.

(٢) روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح: «إن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ و ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ **إن فيهما اسم الله الأعظم**». ورواه أبو داود أيضًا.

(٣) هذه آية الكرسي قال فيها رسول الله ﷺ: «**من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلاّ أن يموت**» رواه النسائي وغيره.

(٤) ورد في الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «**إنّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

(٥) هذا كناية عن إحاطة علم الله بكل شيء إذ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وهو بكل شيء عليم وأما الخلق فإنهم لا يعلمون إلاّ ما شاء أن يعلمهم إيّاه.

(٦) أورد ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره» رواه الحاكم موقوفًا وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٥٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾

٤٣

ذاته. ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾: ولا يثقله أو يشق عليه حفظ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: العلي الذي ليس فوقه شيء والقاهر الذي لا يغلبه شيء، العظيم الذي كل شيء أمام عظمته صغير حقير.

هداية الآية الكريمة:

١ - أنها أعظم آية في كتاب الله تعالى اشتملت على ثمانية عشر اسمًا لله تعالى ما بين ظاهر ومضمر، وكلماتها خمسون كلمة وجملها عشر جمل كلها ناطقة بربوبيته تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته الدالة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه.

٢ - تستحب قراءتها بعد الصلاة المكتوبة، وعند النوم، وفي البيوت لطرد الشيطان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥٦، ٢٥٧]

(٢٥٦) ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾: لا يكره المرء على الدخول في الدين[1]، وإنما يعتنقه بإرادته واختياره.

﴿ٱلرُّشْدُ﴾[2]: الهدى الموصل إلى الإسعاد والإكمال.

﴿ٱلْغَىِّ﴾: الضلال المفضي بالعبد إلى الشقاء والخسران.

﴿بِٱلطَّٰغُوتِ﴾[3]: كل ما صرف عن عبادة الله تعالى من إنسان أو شيطان أو غيرهما.

﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[4]: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾: لا تنفك ولا تنحل بحال من الأحوال.

(٢٥٧) ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: مُتوليهم بحفظه ونصره وتوفيقه.

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظلمات الجهل والكفر.

﴿ٱلنُّورِ﴾: نور الإيمان والعلم.

﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾: المتولون لهم الشياطين الذين زينوا لهم عبادة الأوثان فأخرجوهم من الإيمان إلى الكفر ومن العلم إلى الجهل.

معنى الآيتين:

يخبر الله تعالى بعد ذكر صفات جلاله وكماله في آية الكرسي أنه لا إكراه في دينه، وذلك حين أراد بعض الأنصار إكراه من تهوّد أو تنصّر من أولادهم على الدخول في دين الإسلام، ولذا فإن أهل الكتابين ومن شابههم تؤخذ منهم الجزية ويقرون على دينهم فلا يخرجون منه إلا باختيارهم وإرادتهم الحرة، أما الوثنيّون والذين لا دين لهم سوى الشرك والكفر فيقاتلون حتى يدخلوا في الإسلام إنقاذًا لهم من الجهل والكفر وما لازمهم من الضلال والشقاء.

ثم أخبر تعالى أنه بإنزال كتابه وبعثه رسوله ﷺ ونصر أوليائه قد تبين الهدى من الضلال والحق من الباطل، وعليه فمن يكفر بالطاغوت وهو الشيطان الذين زين عبادة الأصنام ويؤمن بالله فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فقد استمسك[5] من الدين بأمتن عروة وأوثقها، ومن يصرّ على الكفر بالله

---

(١) الإكراه: الحمل على فعل المكروه، والدين هنا: الإسلام وجملة (لا إكراه) خبر بمعنى الإنشاء.

(٢) يقال: رَشد يَرشُد رُشدًا، ورشد يرشِد رَشَدًا، إذا اهتدى واستقام، وغوى ضدّه، والغي: مصدر من غوى يغوي إذ ضلّ في معتقد أو رأي.

(٣) كان العرب في الجاهلية يسمون الصنم المعبود الطاغية، وفي الحديث: **«كانوا يهلون لمناة الطاغية»**.

(٤) الوثقى: مؤنث الأوثق وجمع الوثقى الوُثق مثل: الفضلى والفضل.

(٥) السين والتاء في (استمسك) للتأكيد كما في استجاب بمعنى: أجاب.

والإيمان بالطاغوت فقد تمسك بأوهى من خيط العنكبوت. والله سميع لأقوال عباده عليم بنياتهم وخفيات أعمالهم وسيجزي كلاً بكسبه. ثم أخبر تعالى أنه ولي عباده المؤمنين فهو يخرجهم من ظلمات[1] الكفر والجهل إلى نور العلم والإيمان فيَكْمَلون ويَسْعَدُون، وأن الكافرين أولياؤهم الطاغوت من شياطين الجن والإنس الذين حسنوا لهم الباطل والشرور وزيّنوا لهم الكفر والفسوق والعصيان، فأخرجوهم بذلك من النور إلى الظلمات فأهّلوهم لدخول النار فكانوا أصحابها الخالدين فيها.

هداية الآيتين:

١ - لا يُكره أهل الكتابين ومن في حُكمهم كالمجوس والصابئة على الدخول[2] في الإسلام إلا باختيارهم وتقبل منهم الجزية فيقرون على دينهم.

٢ - الإسلام[3] كلّه رشد، وما عداه ضلال وباطل.

٣ - التخلي عن الرّذائل مقدَّم على التحلي بالفضائل.

٤ - معنى لا إله إلا الله، وهي الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

٥ - ولاية الله تعالى تُنَال بالإيمان والتقوى.

٦ - نُصْرة الله تعالى ورعايته لأوليائه دون أعدائه.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٥٨]

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم ينته إلى علمك يا رسولنا، والاستفهام يفيد التعجب من الطاغية المحاج لإبراهيم.

﴿حَآجَّ﴾: جادل وماري وخاصم.

﴿فِي رَبِّهِۦٓ﴾: في شأن ربه من وجوده تعالى وربوبيته وألوهيته للخلق كلهم. ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾[4]: أعطاه الحكم والسيادة على أهل بلاده وديار قومه. ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: هو أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان هذا الحِجاج قبل هجرة إبراهيم إلى أرض الشام.

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾: انقطع عن الحجَّة متحيِّرًا مدهوشًا ذاك الطاغية الكافر وهو النمرود البابلي.

معنى الآية الكريمة:

(٢٥٨) لما ذكر الله تعالى ولايته لأوليائه وأنه مؤيدهم وناصرهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور ذكر مثالاً لذلك وهو محاجة النمرود[5] البابلي لإبراهيم عليه السلام، فقال تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ أي: ألم ينته إلى علمك حجاج ذاك الطاغية الذي بطرته نعمة الملك الذي آتيناه امتحانًا له فكفر وادعى الربوبية وحاج خليلنا فبينا إنه لأمر عجب. إذ قال له إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، وأنت لا تحيي ولا تميت فقال: أنا أحيي[6] وأميت، فردّ عليه إبراهيم حجته قائلاً: ربي يأتي

---

(١) وحّد تعالى لفظ النور وجمع لفظ الظلمة، لأنّ الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة.

(٢) هل هذه الآية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ منسوخة بآية السيف؟ الراجح أنها محكمة غير منسوخة. هل تؤخذ الجزية من غير أهل الكتاب ومن لهم شبهة كتاب؟ أما كفار قريش، الإجماع على أن لا تؤخذ منهم الجزية. ومن عداهم مذهب مالك يرى أخذ الجزية منهم والإبقاء عليهم ولعلّ هذا إن دعت الضرورة إلى ذلك، وما ذكرته في التفسير أصح المذاهب وأعدلها.

(٣) جاء في صحيح البخاري ما ملخصه: أن عبدالله بن سلام رأى رؤيا كأنه في دوحة خضراء وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء في أعلاه عروة.. الحديث وفسر له النبي ﷺ: «**الروضة بالإسلام، والعمود عمود الإسلام، والعروة هي العروة الوثقى أي: أنت على الإسلام حتى تموت**». فكان مبشرًا بالجنة رضي الله عنه.

(٤) إذ هو ملك بابل وقيل: إنّه أحد الأربعة الذين ملكوا المعمورة وهم مسلمان، وكافران، فالمسلمان سليمان، وذو القرنين عليهما السلام والكافران: النمرود، وبختنصر عليهما لعائن الرحمن.

(٥) يقال له: النمرود بن كوئثن بن كنعان بن سام بن نوح عليه السلام، وفي الآية دليل على جواز إطلاق اسم الملك على الحاكم الكافر ولمّا حارب الله تعالى أهلكه مع جيشه بالبعوض إذ فتح الله عليهم بابًا من البعوض فأكلت الجيش فلم تتركه إلاّ عظامًا وأمّا النمرود فقد دخلت بعوضة في دماغه فصار يضرب على دماغه حتى هلك بذلك.

(٦) يريد أنّه يحيي من أراد حياته ويميت من أراد موته وهذا مجرّد تمويه وسفسطة فلذا عدل إبراهيم عنها وألزمه الحجة إن كان صادقًا في دعواه بالإتيان بالشمس من المغرب كما يأتي بها الله من المشرق.

بالشمس من المشرق فأت بها أنت من المغرب فاندهش وتحيّر وانقطع وأيّد الله وليه إبراهيم فانتصر[١]، فهذا مثال لإخراج الله تعالى أولياءه من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

هداية الآية الكريمة:

١ - النعم تبطر صاحبها إذا حرم ولاية الله تعالى.

٢ - نصرة الله لأوليائه وإلهامهم الحجة لخصم أعدائهم.

٣ - إذا ظلم العبد ووالى الظلم حتى أصبح وصفًا له يحرم هداية الله تعالى فلا يهتدي أبدًا.

٤ - جواز المجادلة والمناظرة في إثبات العقيدة الصحيحة السليمة.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٥٩]

(٢٥٩) ﴿قَرْيَةٍ﴾[٢]: مدينة لم يذكر الله تعالى اسمها فلا يبحث عنها لعدم جدوى معرفتها. ﴿خَاوِيَةٌ﴾: فارغة من سكانها ساقطة[٣] عروشها على مبانيها وجدرانها. ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ﴾: كيف يحيي[٤]. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: بعد خوائها وسقوطها على عروشها.

﴿لَبِثْتَ﴾: مكثت وأقمت. ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[٥]: لم يتغير بمر السنين عليه. ﴿ءَايَةً﴾: علامة على قدرة الله على بعث الناس أحياء يوم القيامة. ﴿نُنشِزُهَا﴾: في قراءة ورش ننشرها بمعنى نحييها بعد موتها. وننشزها نرفعها ونجمعها لتكون حمارًا كما كانت.

معنى الآية الكريمة:

(٢٥٩) هذا مثل آخر معطوف على الأول الذي تجلّت فيه على حقيقتها ولاية الله لإبراهيم حيث أيّده بالحجة القاطعة ونصره على عدوه النمرود. قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ فارغة من سكانها ساقطة سقوفها على مبانيها فقال المارّ بها مُستبعدًا حياتها مرة ثانية: كيف يحيي الله هذه القرية بعد خرابها؟ فأماته الله مائة عام ثم أحياه، وسأله: كم لبثت؟ قال: حسب عادة من نام في يوم واستيقظ فيه فإنه يرى أنه نام يومًا أو بعض يوم. فأجابه مُصَوِّبًا له فهمه: بل لبثت مائة عام، ولكي تقتنع بما أخبرت به فانظر إلى طعامك وكان سلّة من تين، وشرابك وكان عصيرًا من عنب فإنه لم يتغير طعمه ولا لونه وقد مرّ عليه قرن من الزمن، وانظر إلى حمارك فإنه هلك بمرور الزمن ولم يبقَ منه إلا عظامه تلوح بيضاء فهذا دليل قاطع على موته وفنائه لمرور مائة سنة عليه، وانظر إلى العظام كيف نجمعها ونكسوها لحمًا فإذا هي حمارك الذي كنت تركبه من مائة سنة ونمت وتركته إلى جانبك يرتع، وتجلّت قدرة الله تعالى في عدم تغير الذي جرت العادة أنه يتغير في ظرف يوم واحد وهو سلة التين وشراب العصير. وفي تغير الذي جرت العادة أنه لا يتغير إلا في عشرات الأعوام، وهو الحمار. كما هي ظاهرة في موت صاحبهما وحياته بعد لبثه على وجه الأرض ميتًا لم يعثر عليه أحد طيلة مائة عام. وقال له الرب تبارك وتعالى بعد أن وقفه على مظاهر قدرته فعلنا هذا بك لنريك[٦] قدرتنا على إحياء القرية متى أردنا إحياءها ولنجعلك في قصتك هذه آية للناس،

---

(١) يذكر أهل التفسير هنا أن إبراهيم ذهب يمتار من عند الملك كغيره فجادله الملك ومنعه الميرة فعاد بلا شيء وفي أثناء طريقه وجد رملًا أحمر فملأ منه غرارتين حتى لا يفاجىء أهله بالخيبة ولمّا وصل ونام قامت زوجته سارة ففتحت الغرارة فوجدتها دقيقًا من أجود الدقيق الحُوّاري.

(٢) سميت القرية قرية: لاجتماع الناس فيها، مأخوذ من قريت الماء إذا جمعته، وهي في القرآن، المدينة الكبيرة، والمراد بها هنا بيت المقدس، وقد خرّبها الطاغية بختنصر ثمّ بعد سبعين سنة أعيد بناؤها كما كانت.

(٣) العريش: سقف البيت وجمعه عروش وهو كل ما يهيأ ليظل أو يكنّ من ينزل تحته، ومنه عريش الدالية أي: شجرة العنب إذ يعرش لها عريش تمد عليه أغصانها لتتدلى منه عناقيدها.

(٤) اختلف فيمن هو المار على القرية هل هو عزير أو إرميا أو الخضر؟ وأرجح الأقوال: أنه عزير، وما دام الله ورسوله ﷺ لم يذكرا اسمه فلا داعي إلى ذكره، والتعرف إليه ولذا لم أذكره في التفسير.

(٥) مشتق من السنة لأنّ مرّ السنين يوجب التغيّر فتسنّه تغير بمر السنين عليه مثل تحجر الطين صار حجرًا بمرور الأيام أو الساعات عليه.

(٦) قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ قيل: الواو مقحمة، والأصل لنجعلك، وعلى أصالة الواو وعدم إقحامها يكون المعنى، أريناك ذلك لتعلم قدرتنا ولنجعلك آية للناس فالواو عاطفة إذًا وهو وظيفتها أي: العطف.

تهديهم إلى الإيمان بنا وتوحيدنا في عبادتنا وقدرتنا على البعث الآخر الذي لا ريب فيه لتجزى كل نفس بما كسبت. وأخيرًا لما لاحت أنوار ولاية الله في قلب هذا العبد المؤمن الذي أثار تعجبه خراب القرية فاستبعد حياتها قال: أعلم[1] أن الله على كل شيء قدير، فهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ[2] إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

هداية الآية الكريمة:

١ - جواز طروء استبعاد ما يؤمن به العبد أنه حق وكائن، كما استبعد هذا المؤمن المار بالقرية حياة القرية مرة أخرى بعد ما شاهد من خرابها وخوائها.

٢ - عظيم قدرة الله تعالى بحيث لا يعجزه تعالى شيء وهو على كل شيء قدير.

٣ - ثبوت البعث الآخر وتقريره.

٤ - ولاية الله تعالى للعبد المؤمن التقي تجلت في إذهاب الظلمة التي ظهرت على قلب المؤمن باستبعاده قدرة الله على إحياء القرية، فأراه الله تعالى من مظاهر قدرته ما صرح به في قوله: (٢٥٩) ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الجزء الثالث — سورة البقرة

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٦٤)

٤٤

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦٠]

(٢٦٠) ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: هو خليل الرحمٰن أبو الأنبياء عليه السلام. ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾: يسكن ويهدأ من التطلع والتشوق إلى الكيفية. ﴿فَصُرْهُنَّ[3] إِلَيْكَ﴾: أملهن واضممهن إليك وقطعهن أجزاء. ﴿سَعْيًا﴾: مشيًا سريعًا وطيرانًا. ﴿عَزِيزٌ﴾: غالب لا يمتنع عنه ولا منه شيء أراده بحال من الأحوال. ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يُخلق عبثًا ولا يوجد لغيره حكمة، ولا يضع شيئًا في غير موضعه اللائق به.

معنى الآية الكريمة:

هذا مثل ثالث يوجه إلى الرسول ﷺ والمؤمنين حيث تتجلى لهم ولايته تعالى لعباده المؤمنين بإخراجهم من الظلمات إلى النور حتى مجرّد ظلمة باستبعاد شيء عن قدرة الله تعالى، أو تطلع إلى كيفية إيجاد شيء ومعرفة صورته.

(٢٦٠) فقال تعالى: اذكروا ﴿إِذْ قَالَ

---

(١) وقرىء: ﴿إِعْلَمْ﴾، والقائل له حينئذ الله تبارك وتعالى أو مَلَك من ملائكته، أو هو خاطب نفسه قائلاً لها: اعلمي يا نفسي هذا العلم اليقيني الذي ما كنت تعلمينه.

(٢) لمّا قرّر تعالى ولايته الذين آمنوا وأنّه يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم ذكر لذلك ثلاثة أحداث تجلى في كل واحد منها مصداق ما أخبر به، فالأول: محاجة النمرود لإبراهيم وإعطاؤه تعالى نور العلم الذي أسكت به المجادل الكافر النمرود. والثاني: استبعاد عزير إحياء الله مدينة القدس بعد تدميرها وتخريبها فأراه الله من آياته ما أذهب عنه ما وجده في نفسه من استبعاد حياة تلك المدينة، والثالث: طلب إبراهيم ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى وقد أراه ذلك فأذهب به ما وجده إبراهيم من التطلع إلى معرفة ذلك.

(٣) فسّر (صرهن) بأملهن وقطعهن كما في التفسير، الكل صحيح إذا إمالتهن أوّلاً ثم تقطيعهنّ وشاهد أملهن في قول العرب رجل أصور إذا كان مائل العنق وامرأة صوراء والجمع صور كسوداء وسود عليه قول الشاعر:

الله يعلم أنا في تلفتنا ... يوم الفراق إلى جيراننا صور

وشاهد قطعهن قوله: صار الشيء يصوره إذا قطعه ومنه قول الشاعر:

بنهضي وقد كاد ارتقائي يصورها

﴿إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1]. سأل إبراهيم ربّه أن يريه طريقة الإحياء كيف تتم هل هي جارية على نواميس معيّنة أم هي مجرد قدرة يقول صاحبها للشيء كن فيكون، فسأله ربه وهو عليم به أتقول الذي تقول ولم تؤمن؟ قال إبراهيم: بل أنا مؤمن بأنك على كل شيء قدير، ولكن أريد أن أرى صورة لذلك يطمئن لها قلبي ويسكن من التطلع والتشوق إلى معرفة المجهول لدي. فأمره تعالى إجابة له لأنه وليّه فلم يشأ أن يتركه يتطلع إلى كيفيّة إحياء ربه الموتى، أمره بأخذ أربعة طيور[2] وذبحها وتقطيعها أجزاء وخلطها مع بعضها بعضًا ثم وضعها على أربعة جبال[3] على كل جبل ربع الأجزاء المخلوطة، ففعل، ثم أخذ برأس كل طير على حِدَةٍ ودعاه فاجتمعت أجزاؤه المفرقة المختلطة بأجزاء غيره وجاءه يسعى فقدم له رأسه فالتصق به وطار في السماء وإبراهيم ينظر ويشاهد مظاهر قدرة ربّه العزيز الحكيم. سبحانه لا إله غيره ولا رب سواه.

هداية الآية الكريمة:

١ - غريزة[4] الإنسان في حب معرفة المجهول والتطلع إليه.

٢ - ولاية الله تعالى لإبراهيم حيث أراه من آياته ما اطمأن به قلبه وسكنت له نفسه.

٣ - ثبوت[5] عقيدة الحياة الثانية ببعث الخلائق أحياء للحساب والجزاء.

٤ - زيادة الإيمان واليقين كلما نظر العبد إلى آيات الله الكونية، أو قرأ وتدبّر آيات الله القرآنية.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦١ - ٢٦٣]

(٢٦١) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾[6]: صفتهم المستحسنة العجيبة. ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: كل ما يوصل إلى مرضاة الله تعالى من الإيمان وصالح الأعمال. ﴿يُضَٰعِفُ﴾: يزيد ويكثر حتى يكون الشيء أضعاف ما كان.

(٢٦٢) ﴿مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾: المنّ[7]: ذكر الصدقة وتعدادها على من تُصُدّق بها عليه على وجه التفضل عليه. والأذى: التطاول على المتصدق عليه وإذلاله بالكلمة النابية أو التي تمس كرامته وتحط من شرفه.

(٢٦٣) ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: كلام طيب يقال للسائل المحتاج نحو: الله يرزقنا وإياكم، الله كريم. الله يفتح علينا

---

(١) هذا السؤال والله ما كان عن شك من إبراهيم أبدًا وكيف وقد قال رسول الله ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»، أي: لو شك إبراهيم لكنّا نحن أحرى بذلك لضعفنا ولكن ما شكّ إبراهيم، وكل ما طلبه زيادة اليقين برؤية كيفية الإحياء كيف تتم، فسلام على إبراهيم الخليل وعلى محمد في العالمين.

(٢) يروى عن ابن عباس وبعض علماء السلف أنها كانت حمامة وديكًا وغرابًا وطاووسًا وليس في معرفتها كبير فائدة فلذا لم أذكرها في التفسير.

(٣) الجبل قطعة عظيمة من الأرض أرسى الله تعالى بها الأرض حتى لا تضطرب وتتحرك ومنافعها كثيرة منها أنّ بعض الناس يتخذونها حصونًا مانعة من وصول العدو إليهم قال السموأل:

لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل

وهو أحد جبال طيء شمال الحجاز.

(٤) قالت العلماء: من غرائز الإنسان التي جبل عليها حبه معرفة المجهول والآية أكبر شاهد إذ الخليل أحب أن يعرف كيفية إحياء الموتى.

(٥) إذ رؤية إبراهيم لكيفية إحياء الله تعالى الموتى من الطير أكبر دليل على قدرة الله تعالى على إحياء العباد يوم القيامة، ومن هداية هذه الآية إراءه المشركين المنكرين للبعث الآخر هذه الحادثة العجيبة كأنهم يشاهدونها فتقوم بذلك الحجة عليهم وعلى كل منكر للبعث والحياة الآخرة.

(٦) ذكر القرطبي أنه روي أن هذه الآية ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ نزلت في شأن عثمان بن عفان وعبدالرحمٰن بن عوف، إذ عثمان جهّز جيش العسرة في غزوة تبوك وعبدالرحمٰن خرج بنصف ماله وهو أربعة آلاف فدعا له الرسول ﷺ بقوله: «**بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت**».

(٧) المنّ من كبائر الذنوب إذ صاحبه أحد ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (في صحيح مسلم) والمنّان: هو الذي لا يعطي شيئًا إلاّ منّه.

وعليك. ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾: ستر على الفقير بعدم إظهار فقره، والعفو عن سوء خلقه إن كان كذلك. ﴿غَنِيٌّ﴾: غنيّ ذاتي لا يفتقر معه إلى شيء أبدًا. ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يعاجل بالعقوبة بل يعفو ويصفح.

معنى الآيات:

(٢٦١) يخبر تعالى مرغبًا في الجهاد بالمال لتقدمه على الجهاد بالنفس لأن العدة أولاً والرجال ثانيًا، أن مثل ما ينفقه المؤمن في سبيل الله وهو هنا الجهاد، في نمائه وبركته وتضاعفه، كمثل حبة[1] برّ بذرت في أرض طيبة فأنبتت سبع[2] سنابل في كل سنبلة مائة حبة فأثمرت الحبة الواحدة سبعمائة حبة، وهكذا الدرهم الواحد ينفقه المؤمن في سبيل الله يضاعف إلى سبعمائة ضعف، وقد يضاعف إلى أكثر لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (٢٦١) وأما الآية الثانية (٢٦٢) فهي تحمل بشرى الله تعالى للمنفقين في سبيله الذين لا يتبعون ما أنفقوه منًّا به ولا أذى لمن أنفقوه عليه بأن لا خوف عليهم فيما يستقبلونه من حياتهم ولا هم يحزنون على ما يتركون وراءهم ويخلفون. وهذه هي السعادة حيث خلت حياتهم من الخوف والحزن وحلّ محلها الأمن والسرور.

(٢٦٣) وأخيرًا الآية الثالثة (٢٦٣) وهي ﴿قَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ . . .﴾ فإن الله تعالى يخبر بأن الكلمة الطيبة تقال للفقير ينشرح لها صدره وتطيب لها نفسه خير من مال يعطاه صدقة عليه يهان به ويذل فيشعر بمرارة الفقر أكثر، وألم الحاجة أشد، ومغفرة وستر لحالته وعدم فضيحته أو عفو عن سوء خلقه كإلحاحه في المسألة، خير أيضًا من صدقة يفضح[3] بها ويعاتب ويشنع عليه بها. وقوله في آخر الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ أي مستغن عن الخلق حليم لا يعاجل بالعقوبة من يخالف أمره.

هداية الآيات:

١ - فضل النفقة في الجهاد وأنها أفضل النفقات.

٢ - فضل الصدقات وعواقبها الحميدة.

٣ - حرمة المن بالصدقة وفي الحديث: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة** . . .» وذكر من بينهم المنّان.

٤ - الرد الجميل على الفقير إذا لم يوجد ما يعطاه، وكذا العفو عن سوء القول منه ومن غيره خير من الصدقة يتبعها أذى، وفي الحديث: «**الكلمة الطيبة صدقة**».

شرح الكلمات: [الآية: ٢٦٤]

(٢٦٤) إبطال الصدقة[4]: الحرمان من ثوابها. المن[5] والأذى: تقدم معناهما.

﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: مراءاة لهم ليكسب محمدتهم، أو يدفع مذمتهم.

﴿صَفۡوَانٍ﴾[6]: حجر أملس.

---

(١) الحب: اسم جنس لكل ما يزرعه الإنسان ويقتاته وأكثر ما يراد بالحب البرّ ومنه قول المتلمس:

آليت حبّ العراق الدهر أطعمه ... والحب يأكله في القرية السوس

والحِبّة بكسر الحاء بذور البقول مما ليس بقوت وفي حديث الشفاعة: «**فينبتون كما تنبت الحِبّة في حميل السيل**» وحبّة القلب سويداؤه والحُبُّ معروف ضدّ الكره.

(٢) في الآية: دليل على مشروعية الزراعة، وهي واجب كفائي وورد فيها: «**التمسوا الرزق في خبايا الأرض**» رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) وصحّ عنه ﷺ قوله: «**الكلمة الطيبة صدقة**» وقوله: «**ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» قال: «**لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاقّ لوالديه ولا منان**».

(٤) قالت العلماء: إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمنّ أو يؤذي بها فإنها لا تقبل، وهو كما قالوا: لأنّ الله تعالى قال: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ وإبطالها هو عدم قبولها وإذا لم تقبل فلا يعطى صاحبها ثوابًا عليها وهو معنى: لا تقبل.

(٥) يقال: طعم الآلاء أحلى من المنّ، وهو أمرّ من الآلاء عند المَن. الآلاء الأوّل: النعم. والثاني شجر مُرّ الورق. والمنّ الأول شيء يشبه العسل، والثاني تذكير المنعم عليه بالنعمة.

(٦) الصفوان: واحده صفوانة.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

٤٥

﴿وَابِلٌ﴾[1]: مطر شديد. ﴿صَلْدًا﴾: أملس ليس عليه شيء من التراب. ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾: يعجزون عن الانتفاع بشيء من صدقاتهم الباطلة.

معنى الآية الكريمة:

بعد أن رغّب تعالى في الصدقات ونبّه إلى ما يبطل أجرها وهو المنّ والأذى، نادى عباده المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . .﴾ ناهيًا عن إفساد صدقاتهم وإبطال ثوابها فقال: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ مشبهًا حال إبطال الصدقات بحال صدقات المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر في بطلانها فقال: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ[2] مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ[3] الْآخِرِ﴾ وضرب مثلًا لبطلان صدقات من يتبع صدقاته منًا أو أذى أو يرائي بها الناس أو هو كافر لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر فقال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ أي حجر أملس عليه تراب[4]، ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي نزل عليه مطر شديد فأزال التراب عنه فتركه أملس عاريًا ليس عليه شيء، فكذلك تذهب الصدقات الباطلة ولم يبقَ منها لصاحبها شيء ينتفع به يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي مما تصدقوا به، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ[5] الْكَافِرِينَ﴾ إلى ما يسعدهم ويكملهم لأجل كفرانهم به تعالى.

هداية الآية الكريمة:

١ ـ حرمة المن والأذى في الصدقات وفسادها بها.

٢ ـ بطلان صدقة المان والمؤذي والمرائي بهما.

٣ ـ حرمة الرياء وهي من الشرك لحديث: «**إياكم والرياء فإنه الشرك الأصغر**».

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦٥، ٢٦٦]

﴿٢٦٥﴾ المثل: الصفة المستملحة المستغربة. ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾: طلبًا لرضا الله تعالى. تثبيتًا[6]: تحقيقًا وتَيقنًا بمثوبة الله تعالى لهم على إنفاقهم في سبيله. ﴿جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ[7]﴾: بستان كثير الأشجار بمكان مرتفع. ﴿ضِعْفَيْنِ﴾: مضاعفًا مرتين، أو ضعفي ما يثمر غيرها. الوابل: المطر الغزير الشديد. الطل: المطر الخفيف.

﴿٢٦٦﴾ ﴿إِعْصَارٌ﴾: ريح عاصف فيها سموم.

---

(١) يقال: وبلت السماء تَبلُ والأرض موبولة ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: شديدًا.

(٢) إن الكافر قد يعطي المال ولكن ليراه الناس فيمدحوه ويشكروه وهذا عمل أهل الجاهلية الماضية والحاضرة أيضًا.

(٣) أي: إنفاقًا كإنفاق الذي ينفق ماله رئاء الناس طَلبًا لمحمدتهم أو خوفًا من مَذَمَّتهم.

(٤) التراب على الصفوان عندما يراه الفلاح يعجبه لنعومة التربة وصفائها فيبذر فيه رجاء أن يحصد ولكن إذا نزل عليه المطر الشديد مسحه وذهب به وبالبذر معه فيصاب صاحبه بخيبة الأمل فكذلك المنفق رئاء الناس.

(٥) هذه الجملة ذيّل بها الكلام لتحمل تحذيرًا شديدًا للمؤمنين أن يسلكوا مسالك الكافرين في إنفاقهم وأعمالهم فإنها باطلة خاسرة.

(٦) لقد اختلف في معنى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ورجح ما فسّرناه به في التفسير وهناك معنى آخر لطيف وهو: وتثبيتًا لأنفسهم على الإيمان وأفعال البرّ لأن الحسنة تلد الحسنة فهم ينفقون أموالهم طلبًا لرضوان الله وترويضًا منهم لأنفسهم على فعل الخير والإحسان.

(٧) الرَّبوة: مثلثة الراء: المكان المرتفع.

معنى الآيتين:

(٢٦٥) لما ذكر الله تعالى خيبة المنفقين أموالهم رياء الناس محذرًا المؤمنين من ذلك ذكر تعالى مرغبًا في النفقة التي يريد بها العبد رضا الله وما عنده من الثواب الأخروي فقال ضاربًا لذلك مثلاً: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي طلبًا لمرضاته ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي تحققًا وتيقنًا منهم بأن الله تعالى سيثيبهم عليها مثلهم في الحصول على ما أمّلوا من رضا الله وعظيم الأجر كمثل جنّة بمكان مرتفع عالٍ أصابها مطر غزير فأعطت ثمرها ضعفي ما يعطيه غيرها من البساتين ولما كانت هذه الجنة بمكان عال مرتفع فإنها إن لم يصبها المطر الغزير فإن الندى والمطر اللين الخفيف كافٍ في سقيها وريها حتى تؤتي ثمارها مضاعفًا مرتين، وختم تعالى هذا الكلام الشريف بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فواعد به المنفقين ابتغاء مرضاته وتثبيتًا من أنفسهم بعظم الأجر وحسن المثوبة، وأوعد به المنفقين الذين يتبعون ما أنفقوا بالمن والأذى والمنفقين رياء الناس بالخيبة والخسران.

(٢٦٦) كان هذا معنى الآية الأولى (٢٦٥) وأما الآية الثانية (٢٦٦) فإنه تعالى يسائل عباده تربية لهم وتهذيبًا لأخلاقهم وسموًا بهم إلى مدارج الكمال الروحي فيقول: ﴿أَيَوَدُّ[1] أَحَدُكُمْ﴾ أي أيحب أحدكم أيها المنفقون في غير مرضاة الله تعالى أن يكون له جنّة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار وله فيها من كل الثمرات والحال أنه قد تقدمت به السن وأصبح شيخًا كبيرًا، ومع هذا العجز فإن له ذريّة صغارًا لا يقدرون على الكسب وجلب عيشهم بأنفسهم، وأصاب ذلك البستان الذي هو مصدر عيش الوالد وأولاده أصابه ريح عاتية تحمل حرارة السموم[2] فأتت على ذلك البستان فأحرقته، كيف يكون حال الرجل[3] الكبير وأولاده؟ هكذا الذي ينفق أمواله رئاء الناس يخسرها كلها في وقت هو أحوج إليها من الرجل العجوز وأطفاله الصغار، وذلك[4] يوم القيامة، وأخيرًا يمتن تعالى على عباده بما يبين لهم من الآيات في العقائد والعبادات والمعاملات والآداب ليتفكروا فيها فيهتدوا على ضوئها إلى كمالهم وسعادتهم، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

هداية الآيتين:

١ - استحسان ضرب الأمثال تقريبًا للمعاني إلى الأذهان لينتفع بها.

٢ - مضاعفة أجر الصدقة الخالية من المن والأذى ومراءاة الناس.

٣ - بطلان صدقات المان والمؤذي والمرائي وعدم الانتفاع بشيء منها.

٤ - وجوب التفكر في آيات الله لا سيما تلك التي تحمل بيان العقائد والأحكام والآداب والأخلاق.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦٧ - ٢٦٩]

(٢٦٧) ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾: من جيّد أموالكم وأصلحها. ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾: من الحبوب وأنواع الثمار. ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾: لا تقصدوا الرديء تنفقون منه. ﴿إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾[6]: إلا أن تغضوا أبصاركم عن النظر في رداءته فتأخذونه بتساهل منكم وتسامح. ﴿حَمِيدٌ﴾: محمود في الأرض والسماء في الأولى والأخرى لما أفاض ويفيض من النعم على خلقه.

---

(١) الودّ: حبّ الشيء مع تمنيه.

(٢) ولذا قال ﷺ: «**أبردوا بصلاتكم في الحرّ فإن شدة الحر من فيح جهنم**» رواه البخاري وغيره.

(٣) روى الحاكم وذكره ابن كثير أن النبي ﷺ كان يدعو فيقول: «**اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سنّي وانقضاء عمري**».

(٤) روى البخاري أن عمر رضي الله عنه سأل يومًا أصحاب رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ فقالوا: الله أعلم فقال: قولوا: «نعلم ولا نعلم» فقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين فقال عمر: يا ابن أخي قل: ولا تحقر نفسك فقال: ضربت مثلاً لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله.

(٥) أي: في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها، وهذا لا يتنافى مع ما فسّرنا به الآية في التفسير.

(٦) يقال: أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه ورضي ببعض حقه وتجاوز، وما في التفسير فهو مأخوذ من تغميض العين لعدم رؤية العيب والرداءة، وقراءة الجمهور تشهد للمعنيين التجاوز، وتغميض العين.

الجزءُ الثالثُ سُورةُ البقرة

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

٤٦

(٢٦٨) ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾: يخوفكم من الفقر ليمنعكم من الإنفاق في سبيل الله. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: يدعوكم إلى ارتكاب الفواحش ومنها البخل والشح.

(٢٦٩) ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: فهم أسرار الشرع، وحفظ الكتاب والسنّة. ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أصحاب العقول الراجحة المفكرة فيما ينفع أصحابها.

معنى الآيات:

(٢٦٧) بعدما رغب تعالى عباده المؤمنين في الإنفاق في سبيله في الآية السّابقة ناداهم هنا بعنوان الإيمان وأمرهم بإخراج زكاة أموالهم من جيد ما يكسبون فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ[1] ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ[2] وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يريد الحبوب والثمار كما أن ما يكسبونه يشمل النقدين والماشية من إبل وبقر وغنم، ونهاهم عن التصدق بالرّديء من أموالهم فقال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟[3] ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ[4] تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ يريد لا ينبغي لكم أن تنفقوا الرديء وأنتم لو أعطيتموه في حق لكم ما كنتم لتقبلوه لولا أنكم تغمضون وتتساهلون في قبوله، وهذا منه تعالى تأديب لهم وتربية. وأعلمهم أخيرًا أنه تعالى غنيٌّ عن خلقه ونفقاتهم فلم يأمرهم بالزكاة والصدقات لحاجة به، وإنما أمرهم بذلك لإكمالهم وإسعادهم، وأنه تعالى حميد محمود بما له من إنعام على سائر خلقه كان هذا معنى الآية (٢٦٧).

(٢٦٨) أما الآية (٢٦٨) فإنه تعالى يحذّر عباده من الشيطان ووساوسه فأخبرهم أن الشيطان يعدهم الفقر[5] أي يخوفهم منه حتى لا يزكوا ولا يتصدقوا ويأمرهم بالفحشاء فينفقون أموالهم في الشر والفساد ويبخلون بها في الخير، والصالح العام أما هو تعالى فإنه بأمره إياهم بالإنفاق يعدهم مغفرة ذنوبهم لأن الصدقة تكفر الخطيئة، وفضلاً منه وهو الرزق الواسع الحسن، وهو الواسع الفضل العليم بالخلق. فاستجيبوا أيها المؤمنون لنداء الله تعالى، وأعرضوا عن نداء الشيطان فإنه عدوكم لا يعدكم إلا بالشر، ولا يأمركم إلا بالسوء والباطل، كان هذا ما تضمنته الآية الثانية.

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ..﴾ إلخ.. اثنتان من الله تعالى واثنتان من الشيطان. ويفسِّره حديث الترمذي إذ فيه قوله ﷺ: **«إن للشيطان لمّة بابن آدم وللملك لمة، فأمّا لمة الشيطان فإيعاد بالشرّ وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان»** ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ..﴾ الآية.

(٢) الآية في الزكاة قطعًا، والنهي عن الإنفاق من الرديء يشمل الزكاة والتطوع معًا.

(٣) روى الحاكم وصححه على شرط الشيخين في سبب نزول هذه الآية عن البراء قال: هذه الآية نزلت فينا، كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته فيأتي الرجل بالقنوِ فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه فيسقط منه البسر والتمر فيأكل وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالقنو الحشف والشيص فيعلقه فنزلت: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ الآية.

(٤) أي: من الخبيث الذي هو الرديء.

(٥) تفتح فاء الفقر، وتضم كالضعف والضُعف.

(٢٦٩) أما الآية الثالثة (٢٦٩) فإن الله تعالى يرغب في تعلُّم العلم النافع، العلم الذي يحمل على العمل الصالح، ولا يكون ذلك إلا علم الكتاب والسنة حفظًا وفهمًا وفقهًا فيهما فقال تعالى:

﴿يُؤْتِي﴾ أي هو تعالى ﴿الْحِكْمَةَ مَن[1] يَشَاءُ﴾ ممن طلبها وتعرّض لها راغبًا فيها سائلاً الله تعالى أن يعلمه، وأخبر أخيرًا أن من يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا[2] فليطلب العاقل الحكمة قبل طلب الدنيا هذه تذكرة ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

هداية الآيات:

١ - وجوب الزكاة في المال الصامت من ذهب وفضة وما يقوم مقامهما من العمل وفي الناطق من الإبل والبقر والغنم إذ الكل داخل في قوله:

(٢٦٧) ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ وهذا بشرط الحول[3] وبلوغ النصاب.

٢ - وجوب الزكاة في الحرث: الحبوب والثمار وذلك فيما بلغ نصابًا، وكذا في المعادن إذ يشملها لفظ الخارج من الأرض.

٣ - قبح الإنفاق من الرديء وترك الجيد.

٤ - التحذير من الشيطان ووجوب مجاهدته بالإعراض عن وساوسه ومخالفة أوامره.

٥ - إجابة نداء الله والعمل بإرشاده.

٦ - فضل العلم على المال.

شرح الكلمات:
[الآية: ٢٧٠، ٢٧١]

(٢٧٠) ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾: يريد قليلة أو كثيرة من الجيد أو الرديء. ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾: النذر[4] التزام المؤمن بما لم يلزمه به الشارع، كأن يقول: للّه عليّ أن أتصدق بألف؛ أو أصوم شهرًا أو أصلي كذا ركعة، أو يقول: إن حصل[5] لي كذا من الخير أفعل كذا من الطاعات.

(٢٧١) ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾: أي تظهروها. ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾: فنعم تلك الصدقة التي أظهرتموها ليُقتدى بكم فيها. ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾: يكفر بمعنى يسترها ولا يطالب بها، ومن للتبعيض إذ حقوق العباد لا تكفرها الصدقة.

معنى الآيتين:

(٢٧٠) بعدما دعا تعالى عباده إلى الإنفاق في الآية السابقة أخبر تعالى أنه يعلم ما ينفقه عباده فإن كان المُنْفَق جيدًا صالحًا يعلمه ويجزي به وإن كان خبيثًا رديئًا يعلمه ويجزي

---

(١) الحكمة: النبوة والقرآن والإصابة في الأمور بوضع كل شيء في موضعه فأعلى الحكمة النبوة ثم القرآن والسنة. وفي الصحيح: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها»** واللفظ يشمل القرآن والسنة.

(٢) أصل الحكمة: إحكام الشيء وإتقانه وعليه فحفظ القرآن والسنة وفهمهما والعمل بهما هو الحكمة وفي الصحيح: **«من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»** وورد: رأس الحكمة مخافة الله.

(٣) الحول: هو مرور سنة كاملة على زكاة النقدين والأنعام وعَروض التجارة، والنصاب في الحبوب والثمار خمسة أوسق لحديث الصحيح: **«ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة والوسق ستون صاعًا»**، والصاع: أربعة أمداد. وفي النقدين: الذهب عشرون دينارًا ما يعادل: ٧٠ غرامًا وفي الفضة مائتا درهم: ما يعادل: ٤٦٠ غرامًا، وفي الغنم أربعون شاة، وفي البقر ثلاثون بقرة، وفي الإبل خمس منها.

(٢٧١) ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ قوله تعالى: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ ثناء على إبداء الصدقة وقوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ حكم على أنّ الإخفاء خير من الإبداء، قال أحد الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطنع إليك فانشره. قال دعبل الخزاعي:

إذا انتقموا أعلنوا أمرهم   وإن أنعموا أنعموا باكتتام

(٤) مما يجب علمه أنه شاع في العامة بين المسلمين النذر للأولياء والصالحين وهو محرّم قطعًا إذ هو من شرك العبادة فبعضهم يقول: يا سيدي فلان إن قضى الله حاجتي فعلت لك كذا، وآخر يقول: إن حصل لي كذا ذبحت لك أو جدّدت بناء قبّتك أو أنرت ضريحك، فيجب أن يُنهىٰ عن هذا كله ويعلم من يفعله أنه أشرك بعبادة ربه.

(٥) النذر المشروط مكروه لقول الرسول ﷺ: **«النذر لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من مال البخيل»**. أو كما قال ﷺ: **«أمّا النذر المطلق فهو قربة من أفضل القرب»**، وفي التفسير بيان لكلٍّ من المطلق والمشروط فانظره.

به. وقال تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ[1] يَعْلَمُهُۥ﴾ فما كان مبتغىً به وجه الله ومن جيد المال فسوف يكفر به السيئات ويرفع به الدرجات، وما كان رديئًا ونذرًا لغير الله تعالى فإن أهله ظالمون وسَيُغْرمون أجر نفقاتهم ونذورهم لغير الله ولا يجدون من يثيبهم على شيء منها لأنهم ظالمون فيها حيث وضعوها في غير موضعها ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾. هذا ما تضمنته الآية الأولى (٢٧٠).

(٢٧١) أما الآية الثانية (٢٧١) فقد أعلم تعالى عباده المؤمنين أن ما ينفقونه لوجهه ومن طيب أموالهم علنًا وجهرة هو مال رابح، ونفقة مقبولة، يثاب عليها صاحبها، إلا أنّ ما يكون من تلك النفقات سرًا ويوضع في أيدي الفقراء يكون خيرًا لصاحبه لبعده من شائبة الرياء، ولإكرام الفقراء، وعدم تعريضهم لمذلة التصدق عليهم وأنه تعالى يكفِّر عن المنفقين سيئاتهم بصدقاتهم، وأخبر أنه عليم بأعمالهم فكان هذا تطمينًا لهم على الحصول على أجور صدقاتهم، وسائر أعمالهم الصالحة.

هداية الآيتين:

١ - الترغيب في الصدقات ولو قلّت والتحذير من الرياء فيها وإخراجها من رديء الأموال.

٢ - جواز إظهار الصدقة[2] عند سلامتها من الرياء.

٣ - فضل صدقة السرّ وعظم أجرها، وفي الحديث الصحيح: «**ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**». ذكر من السبعة الذين يظلهم الله بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧٢ ـ ٢٧٤]

(٢٧٢) ﴿هُدَىٰهُمْ﴾: هدايتهم إلى الإيمان وصالح الأعمال. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: من مال. ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾: ثوابه العاجل بالبركة وحسن الذكر والآجل يوم القيامة عائد على أنفسكم. ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾: يرد أجره كاملًا لا ينقص منه شيء.

(٢٧٣) ﴿أُحْصِرُوا﴾: حبسوا ومنعوا من التصرف لأنهم هاجروا من بلادهم. ﴿ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي سيرًا فيها لطلب الرزق بالتجارة وغيرها لحصار العدو لهم. ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: علامات حاجتهم من رثاثة الثياب وصفرة الوجه. ﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾: ترك سؤال الناس، والكف عنه. ﴿إِلْحَافًا﴾[3]: إلحاحًا وهو ملازمة السائل من يسأله حتى يعطيه.

معنى الآيات:

(٢٧٢) لما أمر تعالى بالصدقات ورغب فيها وسألها غير المؤمنين من الكفار واليهود فتحرّج الرسول ﷺ والمؤمنون من التصدق على الكافرين فأذهب الله تعالى عنهم هذا الحرج وأذن لهم بالتصدق على غير المؤمنين. والمراد من الصدقة صدقة

---

(١) في الآية إيجاز بليغ إذ التقدير وما أنفقتم من نفقة فإن الله يعلمها أو نذرتم من نذر فإنَّ الله يعلمه فحذف من الأول لدلالة الأخير عليه تجنبًا للتكرار المنافي لبلاغة الكلام.

(٢) صدقة التطوع الإسرار بها أفضل ففي الحديث: «**صدقة السرّ تطفىء غضب الرّبّ عزّ وجلّ**» وفي الصحيح: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل قلبه معلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ربّ العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**» والصدقة الواجبة وهي الزكاة إعلانها أفضل من إسرارها. هذا ومرد القضية إلى حال المتصدق والمتصدق عليه فإن كان المتصدق بإعلانه يتبعه غيره ويكون كمن سنّ سنة حسنة فالإعلان أفضل وإن كان المتصدق عليه يخجل ويستحي من الصدقة عليه فالإسرار له أفضل من غيره.

(٢٧٣) ﴿للفقراء﴾ من قال بوجوب صدقة الفطر منع إعطاءها لفقراء أهل الذمّة ومن قال: بسنيتها دون وجوبها قال يجوز، والصحيح أنها حق لفقراء المسلمين لانشغالهم بصلاة العيد وبالعبادة في رمضان، وأهل الذمة يعملون الليل والنهار.

(٢٧٤) ﴿الذين﴾ قيل: نزلت في علي إذ كان له أربعة دارهم فأنفقها على ما ذكر في الآية، والآية عامة في المنفقين من غير تبذير ولا تقتير وفي كل حالة تتطلب الإنفاق سواء بالليل أو بالنهار سرًا أو علانيّة.

(٣) الإلحاح والإلحاف، والإحفاء مصادر ألحّ في السؤال وألحف وأحفى والإلحاف مشتق من اللحاف لأنّه يشتمل على الملتحف به كذلك الإلحاف في السؤال لأن الملحف يأتي أمام المسؤول ويأتي عن يمينه وعن شماله يسأله لا يفارقُه حتى يعطيه أو يمنعه.

التطوع لا الواجبة وهي الزكاة، فقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ وأمته تابعة له: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ لم يوكل إليك أمر هدايتهم لعجزك عن ذلك وإنما الموكل إليك بيان الطريق لا غير، وقد فعلت فلا عليك أن لا يهتدوا، ولو شاء الله هدايتهم لهداهم، وما تنفقوا من مال تثابوا عليه، سواء كان على مؤمن أو كافر إذا أردتم به وجه الله وابتغاء مرضاته، وأكّد تعالى هذا الوعد الكريم بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ والحال أنكم لا تظلمون بنقص ما أنفقتم ولو كان النقص قليلاً. كان هذا معنى الآية الأولى (٢٧٢).

(٢٧٣) أما الآية الثانية وهي: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ فقد بيّن تعالى فيها أفضل جهة ينفق فيها المال ويتصدق به عليها وهي فقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم وأُحصروا في المدينة بجوار رسول الله ﷺ لا يستطيعون ضربًا في الأرض للتجارة ولا للعمل، ووصفهم تعالى بصفات يعرفهم بها رسوله ﷺ والمؤمنون ولولا تلك الصفات لحسبهم لعفتهم وشرف نفوسهم الجاهلُ بهم أغنياء غَيْرَ محتاجين فقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ لا[1] يسألون الناس مجرد[2] سؤال فضلاً عن أن يُلِحُّوا ويُلْحِفُوا. ثم في نهاية الآية أعاد تعالى وعده الكريم بالمجازاة على ما يُنْفَقُ في سبيله فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ولازمه أن يثيبكم عليه أحسن ثواب فأبشروا واطمئنوا.

(٢٧٤) أما الآية الثالثة (٢٧٤) فهي آخر آيات الدعوة إلى الإنفاق جاءت تحمل أعظم بشرى للمنفقين في كل أحوالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية بأن أجر نفقاتهم مدخر لهم عند ربهم يتسلمونه يوم يلقونه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الدنيا والبرزخ والآخرة.

هداية الآيات:

١ - جواز التصدق على الكافر المحتاج بصدقة التطوع لا الزكاة فإنها حق[3] المؤمنين.

٢ - ثواب الصدقة عائد على المتصدق لا على المتصدَّق عليه فلذا لا يضر إن كان كافرًا.

٣ - وجوب الإخلاص في الصدقة أي يجب أن يراد بها وجه الله تعالى لا غير.

٤ - تفاضل أجر الصدقة بحسب فضل وحاجة المتصدق عليه.

٥ - فضيلة التعفف وهو ترك السؤال مع الاحتياج[4]، وذم الإلحاح في الطلب من غير الله تعالى أما الله عز وجل فإنه يحب الملحين في دعائه.

٦ - جواز التصدق بالليل والنهار وفي السر والعلن إذ الكل يثيب الله تعالى عليه ما دام قد أُريد به وجهه لا وجه سواه.

٧ - بشرى الله تعالى للمؤمنين المنفقين بادخار أجرهم عنده تعالى ونفي الخوف والحزن عنهم مطلقًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧٥ ـ ٢٧٧]

(٢٧٥) ﴿يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾[5]: يأخذونه ويتصرفون فيه بالأكل في بطونهم، وبغير الأكل والربا هنا ربا النسيئة وحقيقته أن يكون لك على المرء دين فإذا حلّ أجله ولم يقدر على

---

(١) متى تحل المسألة؟ قال أحمد: إذا لم يكن للمرء ما يغديه ويعشيه جاز له السؤال، وقال: لا يسأل الرجل لغيره، ولكن يقول لغيره: تصدقوا لقوله ﷺ: **«اشفعوا تؤجروا»**.

(٢) أي: لا يسألون بإلحاح ولا بدونه فهم لا يسألون غيرهم البتة.

(٣) شاهده قوله ﷺ: **«أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم»** وشاهده في الصحيح: **«خذ الصدقة من أغنيائهم وردها على فقرائهم»**.

(٤) من أعطي شيئًا من غير طلب ولا تشوف جاز له أخذه لحديث الصحيح: أنّ النبي ﷺ أعطى عمر مالاً فقال عمر: أعطه أفقر إليه مني فقال ﷺ: **«خذه وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك»**.

(٥) الربا: لغة الزيادة وشاهده الحديث: **«والله ما أخذنا من لقمة إلاّ ربا مَنْ تحتها»** أي: الطعام وعبّر عن الأخذ بالأكل لأن الأخذ يراد للأكل غالبًا، وكل حرام قد يطلق عليه الربا تجوّزًا.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

٤٧

تسديده تقول له: أخر وزد فتؤخره أجلًا وتزيد في رأس المال قدرًا معينًا، هذا هو ربا الجاهلية والعمل به اليوم في البنوك الربوية فيسلفون المرء مبلغًا إلى أجل ويزيدون قدرًا آخر نحو العشر أو أكثر أو أقل والربا حرام بالكتاب والسنّة والإجماع وسواء كان ربا فضل[١] أو ربا نسيئة. ﴿لَا يَقُومُونَ﴾: من قبورهم يوم القيامة. ﴿يَتَخَبَّطُهُ[٢] الشَّيْطَٰنُ﴾: يضربه الشيطان ضربًا غير منتظم. ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾[٣]: المس الجنون، يقال: بفلان مسّ من جنون. ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾: أمر أو نهي بترك الربا. ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾: ليس عليه أن يرد الأموال التي سبقت توبته.

﴿٢٧٦﴾ ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا﴾: أي يذهبه شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى منه شيء كمحاق القمر آخر الشهر. ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ﴾: يبارك في المال الذي أُخرجت منه، ويزيد فيه، ويضاعف أجرها أضعافًا كثيرة. ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾: الكفار: شديد الكفر، يكفر بكل حق وعدل وخير، أثيم: منغمس في الذنوب لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا ارتكبها.

معنى الآيات:

لما حثّ الله على الصدقات وواعد عليها بعظيم الأجر ومضاعفة الثواب ذكر المرابين الذين يضاعفون مكاسبهم المالية بالربا وهم بذلك يسدُّون طرق البر، ويصدون عن سبيل المعروف فبدل أن ينموا أموالهم بالصدقات نموها بالربويات، فذكر تعالى حالهم عند القيام من قبورهم وهم يقومون، ويقعدون، ويغفون[٤] ويُصرعون، حالهم حال من يصرع في الدنيا بمس الجنون، علامة يعرفون بها يوم القيامة كما يعرفون بانتفاخ بطونهم وكأنها خيمة مضروبة بين أيديهم.

﴿٢٧٥﴾ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ﴾، وذكر تعالى سبب هذه النقمة عليهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي أصابهم ذلك الخزي والعذاب بأنهم ردّوا علينا حكمنا بتحريم الربا وقالوا إنما البيع مثل الربا، إذ الربا الزيادة في نهاية الأجل، والبيع في أوله، وردّ تعالى عليهم فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾[٥]

---

(١) ربا الفضل بيانه في حديث مسلم: **«الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبرّ بالبرّ والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلًا بمثل يدًا بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطي سواء»** وقال ﷺ في حديث آخر: **«فإذا اختلفت الأجناس فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد»**.

(٢) يقال: خبطه وتخبطه كملكه وتملّكه، وعبده وتعبّده، والتخبط: الضرب في غير استواء ومنه قولهم: خبط عشواء.

(٣) أصل المسّ: اللّمس باليد، ومَنْ مسّه الشيطان اختلط عقله وأصبح يصيح بسبب مس الشيطان له فيقال: فلان يصرَع من الجنّ أي: من مسّ الجنّ له، والشيطان من الجنّ، فالمرابي يقوم يوم القيامة مِنْ قَبره كالمجنون أي: الذي به مسّ الجن يصرع صرعه.

(٤) قال ابن عطية: وأمّا ألفاظ الآية فيحتمل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون لأن الطمع والرغبة تستفزّه حتى تضطرب أعضاؤه كما يقوم المسرع في مشيه يخلط في هيئة حركاته حتى يقال: قد جنّ هذا، ولكن ما جاءت به قراءة ابن مسعود إذ كان يقرأ: **﴿لا يقومون يوم القيامة﴾** مع تظافر أقوال المفسرين يضعف هذا التأويل.

(٥) في هذا دليل على أنه لا قياس مع النص، فالمشركون قاسوا الربا على البيع فأبطل الله قياسهم لأنّ الربا حرام فلا يقاس على البيع الحلال.

﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ فما دام قد حرم الربا فلا معنى للاعتراض، ونسوا أن الزيادة في البيع هي في قيمة سلعة تغلو وترخص، وهي جارية على قانون الإذن في التجارة، وأما الزيادة في آخر البيع فهي زيادة في الوقت فقط. ثم قال تعالى مبيّنًا لعباده سبيل النجاة محذرًا من طريق الهلاك: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهي تحريمه تعالى للربا ونهيه عنه فانتهى عنه فله ما سلف قبل معرفته للتحريم، أو قبل توبته منه، وأمرُه بعد ذلك إلى الله إن شاء ثبّته على التوبة فنجّاه، وإن شاء خذله لسوء عمله، وفساد نيّته فأهلكه وأرداه وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

(٢٧٦) أخبر تعالى أنه بعدله يمحق[1] الربا، وبفضله يربي الصدقات، وأنه لا يحب كل كفار لشرع الله وحدوده، أثيم بغشيانه الذنوب وارتكابه المعاصي. كان هذا معنى الآية الأولى (٢٧٥).

(٢٧٧) أما الآية الثانية (٢٧٧) فهي وعد رباني صادق وبشرى إلهية سارة لكل من آمن وعمل صالحًا وأقام الصلاة على الوجه الذي تقام به، وآتى الزكاة بأنّ له أجره وافٍ عند ربّه يتسلمه يوم الحاجة إليه في عرصات القيامة وأنه لا يخاف مما يستقبله في الحياة الدنيا والآخرة ولا يحزن أيضًا في الدنيا ولا في الآخرة.

هداية الآيات:

١ - بيان عقوبة آكل الربا يوم القيامة لاستباحتهم الربا وأكلهم له وعدم التوبة منه.

٢ - تحريم الربا وكل مال حرام لما جاء في الآية من الوعيد الشديد.

٣ - صفة الحب لله تعالى وأنه تعالى يحب أولياءه وهم أهل الإيمان به وطاعته ويكره أعداءه وهم أهل الكفر به ومعاصيه من أكل الربا وغيره من كبائر الذنوب.

٤ - حلية البيع إن تم على شروطه المبيّنة في كتب الفقه.

٥ - من تاب من الربا تقبل توبته، ويحل له ما أفاده منه قبل التوبة بشرط سيأتي في الآيات بعد هذه.

٦ - وعيد الله تعالى بمحق الربا ووعده بإرباء[2] الصدقة.

٧ - بشرى الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح مع إقامتهم للصلاة وإيتائهم للزكاة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧٨ - ٢٨١]

(٢٧٨) ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: خافوا عقابه بطاعته بأن تجعلوا طاعته وقاية تقيكم غضبه وعقابه. ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: اتركوا ما بقي عندكم من المعاملات الربويّة.

(٢٧٩) ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ﴾: اعلموا بحرب من الله ورسوله ﷺ واحملوا سلاحكم ولا ينفعكم[3] سلاح فإنكم المهزومون الهالكون. ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾: بعد التوبة ما لكم إلا رأس المال الذي عند المدين لكم فخذوه واتركوا زيادة الربا. العسرة: الشدة والضائقة المالية.

(٢٨٠) ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾: أي انتظار للمدين إلى أن ييسر الله عليه فيعطيكم رأس مالكم الذي أخذه منكم. ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾: وأن تتصدقوا على المعسر بترك ما لكم عليه فذلك خير لكم.

معنى الآيات:

(٢٧٨) بمناسبة ذكر عقوبة آكلي الربا في الآيات السابقة نادى الله تعالى عباده المؤمنين آمرًا إياهم بتقواه تعالى، وذلك بطاعته وترك معصيته، وبالتخلي عما بقي عند بعضهم من المعاملات الربويّة مذكرًا إياهم بإيمانهم إذ من شأن المؤمن الاستجابة لنداء ربه وفعل ما يأمره به وترك ما ينهاه عنه فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰاْ إن

---

(١) روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**إنّ الربا وإن كثر فعاقبته إلى قل**» أي: إلى قلة ونقصان.

(٢) شاهده من الكتاب: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ومن السنة قوله ﷺ: «**إن الرّبا وإن كثر فعاقبته إلى قلّ**» وقوله: «**إن العبد إذا تصدّق من طيّب يقبلها الله منه فيأخذها بيمينه ويربيها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله، وإنّ الرجل ليتصدق باللّقمة فتربو في يد الله أو قال: في كفّ الله حتى تكون مثل أُحُد فتصدّقوا**».

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: من كان مقيمًا على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه فإن نزع وإلاّ ضرب عنقه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾.

(٢٧٩) ثم هدّد المتباطئين بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ فاعلموا بحرب[1] قاسية ضروس من الله ورسوله ﷺ، ثم بيّن لهم طريق التوبة وسبيل الخلاص من محنة الربا وفتنته بقوله: ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ بترك الربا ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ[2] أَمْوَالِكُمْ﴾ لا غير ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ زيادة، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنقص من رأس مالكم.

(٢٨٠) وإن وجد مدين لكم في حالة إعسار فالواجب انتظاره إلى ميسرته[3]، وشيء آخر وهو خير لكم أن تتصدقوا بالتنازل عن ديونكم كلها تطهيرًا لأموالكم التي لامسها الربا وتزكية لأنفسكم من آثاره السيئة. ثم ذكر تعالى سائر عباده بيوم القيامة وما فيه من أهوال ومواقف صعبة حيث يتم الحساب الدقيق وتجزى فيه كل نفس مؤمنة أو كافرة بارة أو فاجرة ما كسبته من خير وشر وهم لا يظلمون بنقص حسناتهم أو زيادة سيئاتهم فقال تعالى:

(٢٨١) ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ وهذا التوجيه الذي حملته هذه الآية ذات الرقم (٢٨١) آخر توجيه تلقته البشرية من ربها تعالى إذ هذه آخر ما نزل من السماء على رسول الله ﷺ.

هداية الآيات:

١ - وجوب التوبة من الربا ومن كل المعاصي.

٢ - المصر على المعاملات الربوية يجب على الحاكم أن يحاربه[4] بالضرب على يديه حتى يترك الربا.

٣ - من تاب من الربا لا يظلم بالأخذ من رأس ماله بل يعطاه وافيًا كاملًا إلا أن يتصدق بالتنازل عن ديونه الربوية فذلك خير له حالاً ومآلاً.

٤ - وجوب ذكر الدار الآخرة والاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح وترك الربا والمعاصي.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٨٢]

(٢٨٢) ﴿تَدَايَنتُم﴾[5]: داين بعضكم بعضًا في شراء أو بيع أو سلم أو

---

(١) حرمة الربا مجمع عليها، والأحاديث الواردة في تحريمه كثيرة جدًا، أذكر منها حديث مسلم: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، وذكر منها «**أكل الربا**» وحديث أبي داود: «**لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه**».

(٢) استدل بعض الفقهاء بهذه الآية على أن كلّ ما طرأ على البيع قبل القبض مما يوجب تحريم العقد أبطل العقد.

(٣) ورد في فضل إنظار المعسر أحاديث منها: «**مَنْ أنظر معسرًا كان له بكل يوم صدقة**» وقوله: «**مَنْ سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه**».

(٤) قال ابن خويز منداد: ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالاً له كانوا مرتدين والحكم فيهم كالحكم في أهل الردّة، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالاً، للإمام محاربتهم، ألا ترى أنّ الله تعالى قد أذن في ذلك فقال ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

(٢٨٢) ﴿الذين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في السلم خاصة يعني أن سلم أهل المدينة كان سبب نزولها وهي عامة في كل الديون بلا خلاف.

(٢٨٢) ﴿بدين﴾ رفع بلفظ (بدَين) الاشتراك إذ التداين معناه: دان بعضهم بعضًا إذا جزاه بعمله ومنه قولهم: دناهم كما دانوا فلمّا قال: بدين رفع المعنى العام وأصبح خاصًا بالتداين المالي.

(٥) تداين: تفاعل من الدَّين يقال: داينت الرجل، عاملته بدين معطيًا أو آخذًا كما بايعته إذا بعته أو باعك.

قرض. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[(١)]: وقت محدد بالأيام أو الشهور أو الأعوام. ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: بلا زيادة ولا نقصان ولا غش أو احتيال بل بالحق والإنصاف. ﴿وَلَا يَأْبَ﴾: لا يمتنع الذي يحسن الكتابة أن يكتب. ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾: لأن إملاءه اعتراف منه وإقرار بالذي عليه من الحق. ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾: لا ينقص من الدين الذي عليه شيء ولو قلّ كفلس وليذكره كله. ﴿سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾: السفيه: الذي لا يحسن التصرفات المالية، والضعيف: العاجز عن الإملاء كالأخرس، أو الشيخ الهرم. ﴿وَلِيُّهُۥ﴾: من يلي أمره ويتولى شؤونه لعجزه وقصوره. ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾: أي المسلمين الأحرار دون العبيد والكفار. ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾: تنسى أو تخطىء لقصر إدراكها. ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾: لا تضجروا أو تملّوا من الكتابة ولو كان الدين صغيرًا مبلغه. ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أعدل في حكم الله وشرعه. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾: أثبت لها وأكثر تقريرًا لأن الكتابة لا تنسى والشهادة تنسى أو يموت الشاهد أو يغيب. ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾[(٢)]: أقرب أن لا تشكّوا بخلاف الشهادة بدون كتابة. ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾: أي تتعاطونها، البائع يعطي البضاعة والمشتري يعطي النقود فلا حاجة إلى كتابتها ولا حرج أو إثم يترتب عليها. ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾: إذا باع أحدٌ أحدًا دارًا أو بستانًا أو حيوانًا يشهد على ذلك البيع. ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: بأن يكلف ما لا يقدر عليه بأن يُدْعى ليشهد في مكان بعيد يشق عليه أو يطلب إليه أن يكتب زورًا أو يشهد به. ﴿فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾: أي خروج عن طاعة ربكم لاحق بكم إثمه وعليكم تبعته يوم القيامة. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: في أوامره فافعلوها، وفي نواهيه فاتركوها، وكما علّمكم هذا يعلّمكم كل ما تحتاجون فاحمدوه بألسنتكم واشكروه بأعمالكم، وسيجزيكم بها وهو بكل شيء عليم.

معنى الآية الكريمة:

(٢٨٢) لما حث تعالى على الصدقات، وحرّم الربا، ودعا إلى العفو على المعسر، والتصدّق عليه بإسقاط الدين الأمر الذي قد يتبادر إلى الذهن أنّ المال لا شأن له ولا قيمة في الحياة فجاءت هذه الآية، آية الدين الكريمة لتعطي للمال حقَّه، وترفع من شأنه فإنه قوام الحياة فقررت واجب الحفاظ عليه، وذلك بكتابة الديون، والإشهاد عليها بمن ترضى عدالتهم، وكون الشهود رجلين مسلمين حرّين، فإن انعدم رجل من الاثنين قامت امرأتان[(٣)] مقامه، واستحثّ[(٤)] الله تعالى من يحسن الكتابة أن يكتب إذا كان في سعة من أمره، وحرم على الشهود إذا ما دُعوا لأداء الشهادة أن يتخلّوا عنها، وحرّم على المتداينين أن لا يكتبوا ديونهم ولو كانت صغيرة قليلة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ ورخّص تعالى رحمةً منه في عدم كتابة التجارة الحاضرة التي يدفع فيها السلعة في المجلس، ويقبض الثمن فيه فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ

---

(١) ذكر الأجل المسمى يجعل الآية في بيع السلم لحديث الصحيح: «**من أسلف في تمر فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم**» والسلم والسلف واحد. ويقال له: بيع المحاويج.

(٢) روى أبو داود والترمذي أنّ أوّل من جحد آدم، إذ أراه الله تعالى ذريته فرأى رجلاً أزهر ساطع النور فسأل الله تعالى فقال: إنّه داود، فقال: ربِّ كم عُمره، قال: ستّون، قال: فزده من عمري أربعين ليكمل له مائة فزاده، وكان عمر آدم ألف سنة وكتب الله ذلك في كتاب ولمّا عاش آدم وحضرته الوفاة قال: ربِّ بقي من عمري أربعون سنة فقال الله تعالى: ألم تكن قد وهبتها لولدك داود فجحد آدم فأخرج الكتاب وقد شهد عليه الملائكة إلاّ أن الله تعالى وفى لآدم ألف سنة ولداود مائة. (نقلناه بالمعنى).

(٣) الجمهور على أن اليمين تقوم مقام شاهد أي: إن انعدم الشاهد الثاني قضى القاضي بالشاهد واليمين التي يحلفها المطالب بالبيّنة ومن هنا إن وجد من الشهود امرأتان فقط اعتبرتا شاهدًا وزيدت اليمين وقضى القاضي بذلك، وهذا في الأموال خاصة.

(٤) نعم إذا كان في سعة من أمره فليكتب على سبيل الندب، وإن لم يوجد غيره وجب عليه أن يكتب وفي قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أمر له أن يكتب الوثائق على طريقتها فلا يبدّل ولا يغيّر وفيه تذكير له بالنعمة إذ كان لا يعرف الكتابة فعلمه الله إذًا فليشكر لله هذه النعمة بالكتابة لمن طلبها منه.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾

﴿تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ...﴾ وأمر بالإشهاد على البيع فقال: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ...﴾ ونهى عن الإضرار بالكاتب، أو الشهيد، بأن يلزم الكاتب أن يكتب إذا كان في شغله، أو الشاهد بأن يطلب منه أن يشهد وهو كذلك في شغله، أو أن يُدعى إلى مسافات بعيدة تشقّ عليه إذ أمره تطوع، وفعل خير لا غير فليطلب كاتب وشاهد غيرهما إذا تعذر ذلك منهما لانشغالهما. وحذَّر من كتمان الشهادة أو الحيف والجَوْر في الكتابة، والإضرار بالكاتب والشهيد فقال: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ...﴾ وأكّد ذلك بأمره بتقواه فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ...﴾ بامتثال أمره، ونهيه لتَكمُلوا وتسعدوا، وكما علمكم هذا العلم النافع ما زال يعلمكم وهو بكل شيء عليم. هذا معنى الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ...﴾.

هداية الآية الكريمة:

١ - وجوب كتابة الديون سواءٌ كانت بيعًا، أو شراءً، أو سلفًا، أو قرضًا، هذا ما قرره ابن جرير، وردّ القول بالإرشاد والندب[1].

٢ - رعاية النعمة بشكرها لقوله تعالى للكاتب: كما علمه الله فليكتب إذ علمه الكتابة وحرم غيره منها.

٣ - جواز النيابة في الإملاء لعجز عنه، وعدم قدرة عليه.

٤ - وجوب العدل والإنصاف في كل شيء لا سيما في كتابة الديون المستحقة المؤجلة.

٥ - وجوب الإشهاد على الكتابة لتأكّدها به، وعدم نسيان قدْر الدّين وأجله.

٦ - شهود[2] المال لا يَقِلّون عن رجلين عدلين من الأحرار[3] المسلمين لا غير، والمرأتان المسلمتان اللتان فرض شهادتهما تقومان مقام الرجل الواحد.

٧ - الحرص على كتابة الديون والعزم على ذلك ولو كان الدين صغيرًا تافهًا.

٨ - الرخصة في عدم كتابة التجارة الحاضرة السلعة والثمن المدارة بين البائع والمشتري.

٩ - وجوب الإشهاد على بيع العقارات والمزارع والمصانع مما هو ذو بال.

١٠ - حرمة الإضرار بالكاتب[4] والشهيد.

١١ - تقوى الله تعالى تسبب العلم، وتُكسِب المعرفة[5] بإذن الله تعالى.

(١) الأقرب إلى الصواب أن بعض الأمور تجب فيها الكتابة كبيع الدور والمزارع وغيرها وبعضها لا تجب وإنما تندب الكتابة لا غير.

(٢) كون الشهود لا يقلّون عن اثنين هذا عام في كل شهادة إلاّ شهادة الزنى فإنهم لا يقلون عن أربعة أبدًا.

(٣) اختلف في شهادة العبيد والصبيان والجمهور على عدم جواز شهادتهم إلاّ في الأمور التافهة فلا بأس بذلك.

(٤) قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا دُعُوا﴾ دلّ على أنّ الشهود يأتون الحاكم ليشهدوا، ودلّ على أن مَنْ لم يُدْعَ ليس عليه أن يشهد، ولكن ورد في السنة الترغيب في أداء الشهادة ولو لم يُدع إليها المسلم لا سيما إذا توقف على شهادته إثبات حق من الحقوق فقد قال رسول الله ﷺ: «**خير الشهود الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها**» رواه الأئمة.

(٥) قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ هو وعد منه تعالى بأن يجعل للمتقي نورًا في قلبه يفهم به ما يلقى إليه ويفرّق بين الحق والباطل، يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ الأنفال.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨٣، ٢٨٤]

(٢٨٣) السفر: الخروج من الدار والبلد ظاهرًا بعيدًا بمسافة أربعة برد فأكثر.

﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾: من يكتب لكم، أو لم تجدوا أدوات الكتابة من دواة وقلم. ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾: فاعتاضوا عن الكتابة الرهن فليضع المدين رهنًا لدى الدائن. ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: فلا حاجة إلى الرهن. ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾: أي فليعط الدين الذي اؤتمن عليه حيث تعذَّرت الكتابة ولم يأخذ دائنه منه رهنًا على دينه. ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُ﴾: لأن الكتمان من عمل القلب فنسب الإثم إلى القلب.

(٢٨٤) ﴿وَإِن تُبْدُوا﴾: تظهروا.

معنى الآيتين:

(٢٨٣) لما أمر تعالى بالإشهاد والكتابة في البيوع والسَّلَم والقروض في الآيات السابقة أمر هنا ـ عند تعذّر الكتابة لعدم وجود كاتب أو أدوات الكتابة وذلك في السفر ـ أمر بالاستعاضة عن الكتابة بالرهن وذلك بأن يضع المدين رهنًا لدى دائنه عوضًا عن الكتابة يستوثق به دينه هذا في حال عدم ائتمانه، والخوف منه، وأمّا إن أمن بعضهم بعضًا فلا بأس بعدم الارتهان فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ[1] عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ[2]...﴾ والرهان جمع رهن[3]. وقال: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فلم تأخذوا رهانًا ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في ذلك. ثم نهى تعالى نهيًا جازمًا الشهودَ عن كِتمان شهادتهم فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ...﴾ وبيّن تعالى عِظَم هذا الذنب فقال: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ[4]...﴾ وأعلم أنه عليم بما يعملونه فيجازيهم بعلمه، وهو تهديد ووعيد منه سبحانه وتعالى لكاتمي الشهادة والقائلين بالزور فيها. هذا معنى الآية الأولى (٢٨٣) أما الآية الثانية (٢٨٤) فإنه تعالى قد أخبر بأن له جميع ما في السموات، وجميع ما في الأرض خَلقًا وملكًا وتصرفًا، وبناءً على ذلك فإنّ من يبدي ما في نفسه من خير أو شر أو يخفه يحاسب به، ثم هو تعالى بعد الحساب يغفر لمن يشاء من أهل الإيمان والتقوى، ويعذب من يشاء من أهل الشرك والمعاصي، له كامل التصرف، لأنّ الجميع خلقه وملكه وعبيده.

هداية الآيتين:

١ -جواز أخذ الرهن في السفر والحضر توثيقًا من الدائن لدينه.

٢ -جواز ترك أخذ الرهن[5] إن حصل الأمن من سداد الدين وعدم الخوف منه.

٣ -حرمة كتمان الشهادة والقول بالزور فيها وأن ذلك من أكبر الكبائر كما في الصحيح.

٤ -محاسبة العبد بما يخفي في نفسه من الشك والشرك والنفاق وغير ذلك من بغض أولياء الله وحب لأعدائه، ومؤاخذته بذلك، والعفو عن الهمّ بالخطيئة والذنب دون الشك والشرك والحب والبغض من المؤمن الصادق الإيمان للحديث الصحيح الذي أخرجه الستة: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل**».

---

(١) الرهن جائز بالكتاب وهذه الآية نصّ في الرهن في السفر وأمّا في الحضر فهو جائز بالسنة وإجماع الأمّة فقد ثبت في الصحيحين أنّ النبي ﷺ اشترى من يهودي طعامًا فطلب اليهودي رهنًا فرهنه درعه ﷺ فمات ودرعه مرهونة في ثلاثين صاعًا من شعير.

(٢) قوله: ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ دلّ على اشتراط القبض ولو بالوكالة ولو أن عدلاً من الناس وضع الرهن تحت يده جاز إذ هو معنى القبض، ويجوز رهن ما في الذمّة كأن يرهن المدين دينًا له ثابتًا في ذمة مالي معترف غير منكر لأن الاستيثاق يحصل بذلك.

(٣) أصل الرهن الدوام، وشرعًا: حبس عين في دَين لاستيفاء الدَين من العين أو من منافعها إذا عجز المدين عن التسديد، ويجمع الرهن على رهان، ورُهُن.

(٤) القول محذوف أي يقولون: لا نفرّق، وهذا الحذف للقول شائع نحو ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣)﴾ أي: يقولون: سلام عليكم، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: يقولون: ربّنا إلخ..

(٥) إذا كان الرهن دابةً تركب أو شاة تحلب أو دارًا تسكن أو نخلاً بتمر فعلى المرتهن نفقة علف الدّابة والشاة، مقابل الركوب واللبن، وإن سكن الدار فدفع أجرتها، وإن جزّ التمر أخذه بثمنه لحديث: «**لا تغلق الرهن لصاحبه غنمه وعليه غرمه**».

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨٥، ٢٨٦]

(٢٨٥) ﴿ءَامَنَ﴾: صدق جازمًا بصحة الخبر ولم يتردد أو يشك فيه قط.

﴿ٱلرَّسُولُ﴾: نبينا محمد ﷺ.

﴿كُلٌّ﴾: كل من الرسول ﷺ والمؤمنين. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[1]: نؤمن بهم جميعًا ولا نكون كاليهود والنصارى نؤمن ببعض، ونكفر ببعض. ﴿سَمِعْنَا﴾: سماع فهم واستجابة وطاعة.

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المرجع أي رجوعنا إليك يا ربنا فاغفر لنا.

(٢٨٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾[2]: التكليف الإلزام مما فيه كلفة ومشقة تحتمل. ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3]: إلا ما تتسع لها طاقتها ويكون في قدرتها.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: من الخير.

﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾: من الشر. ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾: لا تعاقبنا. ﴿إِن نَّسِينَآ﴾: فتركنا ما أمرتنا به أو فعلنا ما نهيتنا عنه نسيانًا منا غير عمد.

﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: فعلنا غير ما أمرتنا خطأ منا بدون إرادة فعل منا له ولا عزيمة. ﴿إِصْرًا﴾[4]: تكليفًا شاقًا يثقل علينا ويأسرنا فيحبسنا عن العمل. ﴿مَوْلَىٰنَا﴾: مالكنا وسيدنا ومتولي أمرنا لا مولى لنا سواك.

معنى الآيتين:

ورد أنه لما نزلت الآية (٢٨٤) ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ وفيها ﴿... وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ...﴾ اضطربت لها نفوس المؤمنين، وقالوا: من ينجو منا إذا كنا نؤاخذ بما يُخفى في أنفسنا من الهم والوسواس وحديث النفس، فأمرهم الرسول ﷺ بالرضا بحكم الله تعالى والتسليم به فقال لهم: قولوا سمعنا وأطعنا ولا تكونوا كاليهود: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا...﴾ فلما قالوها صادقين أنزل الله تعالى هاتين الآيتين:

(٢٨٥) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ[5]...﴾ فأخبر عن إيمانهم مقرونًا بإيمان نبيهم ﷺ تكريمًا لهم وتطمينًا فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ...﴾ وأخبر عنهم بقولهم الذي كان سبب استجابة الله تعالى لهم فقال عنهم: ﴿... وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وأخبرهم تعالى أنه لرحمته بهم وحكمته في تصرفه في خلقه لا يكلف نفسًا إلا ما تتسع له طاقتُها وتقدر على فعله، وإن لها ما كسبت من الخير فتجزى به خيرًا وعليها ما اكتسبت من الشر فتجزى به شرًا إلا أن يعفو عنها ويغفر لها فقال:

(٢٨٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ[6] ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ...﴾ وعلمهم كيف يدعونه ليقول لهم قد فعلت، كما صحّ به الخبر فقال قولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(٢٨٥) ﴿لا نفرق﴾ قال العلماء: إثم القلب: سبب مسخه.

(١) قرىء: ﴿ورُسْله﴾ بإسكان السين تخفيفًا، وهو شائع في تخفيف المتحرّك بالسكون نحو عُنْق.

(٢) روى القرطبي عن أبي هريرة أنه قال: ما وددت أن أحدًا ولدتني أمّه إلا جعفر بن أبي طالب، فإني تبعته يومًا وأنا جائع فلما بلغ منزله فلم يجد فيه سوى نحي سمنٍ قد بقي فيه أثارة فشقه بين أيدينا فجعلنا نلعق ما فيه من السمن والرُّب وهو يقول: ما كلّف الله نفسًا فوق طاقتها: ولا تجود يد إلاّ بما تجد، الرُّب بضم الراء ما يطبخ من التمر.

(٣) وسواس الصدر مما لا طاقة للعبد بدفعه بحال وقد سئل عنه النبي ﷺ فقال ما رواه مسلم عن علقمة بن عبدالله قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة قال: **«تلك صريح الإيمان»**.

(٤) الإصر: الأمر الغليظ الصعب أو هو الذنب الذي ليس فيه توبة ولا كفّارة ويطلق الإصر على العهد ومنه: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: عهدي وميثاقي، لأنّ الإصر يطلق على الحبل الذي تربط الأحمال ونحوها.

(٥) روى مسلم عن ابن عباس لما نزلت: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ..﴾ الآية، قال: دخل قلوبهم منها شيء فقال النبي ﷺ: **«قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا»** قال: فألقى الله في قلوبهم الإيمان فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الآية.

(٦) ورد في فضل خاتمة البقرة أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: **«أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهن نبي قبلي»**.

مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وفعلاً قد عفا عنهم في النسيان والخطأ وخفّف عنهم في التشريع فما جعل عليهم في الدين من حرج، وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم ونصرهم على الكافرين بالحجة والبيان وفي المعارك بالسيف والسنان فله الحمد والمنة وهو الكبير المتعال.

هداية الآيتين:

١ - تقرير أركان الإيمان وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله.

٢ - وجوب الإيمان بكافة الرسل وحرمة الإيمان ببعض وترك البعض وهو كفر والعياذ بالله تعالى.

٣ - وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ والتسليم والرضا بما شرع الله ورسوله ﷺ وحرمة رد شيء من ذلك.

٤ - رفع الحرج[(١)] عن هذه الأمة رحمة بها.

٥ - عدم المؤاخذة بالنسيان[(٢)] أو الخطأ فمن نسي وأكل أو شرب وهو صائم فلا إثم عليه أو أخطأ فقتل فلا إثم عليه.

٦ - العفو عن حديث النفس[(٣)] لنزول الآية فيه ما لم يتكلم المؤمن أو يعمل.

٧ - تعليم هذا الدعاء واستحباب الدعاء به ائتساءً بالرسول ﷺ وأصحابه، وقد ورد من قرأ هاتين الآيتين[(٤)] عند النوم كفتاه ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ...﴾ السورة.

❀ ❀ ❀

الجزء الثالث — سورة آل عمران

الربع ٣ — سورة آل عمران — آياتها ٢٠٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾

٥٠

سورة آل عمران[(٥)]
مدنية
وآياتها مائتا آية بلا خلاف

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٦]

﴿١﴾ ﴿الٓمٓ﴾: تقدم الكلام على مثله من سورة البقرة فليرجع إليه هناك.

﴿٢﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾[(٦)]: المعبود بحق. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا معبود بحق سواه. ﴿ٱلۡحَيُّ﴾: ذو الحياة المستلزمة للإرادة والعلم والسمع والبصر والقدرة. ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: القيِّم على كل مخلوقاته بالتربية والرعاية والحفظ.

﴿٣﴾ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: القرآن. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: متلبِّسًا به إذ كل ما فيه حق وصدق لا باطل فيه بأي وجه من الوجوه.

---

(١) شاهده قوله تعالى من سورة الحج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾.

(٢) حديث: **«رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»** أي: رفع إثمه. أما أحكامه ففيها تفصيل: فالغرامات لا تسقط فمن كسر آنية خطأ أو نسيانًا يغرمها لصاحبها، ومن نسي صلاة مفروضة قضاها، ومن قتل خطأ دفع الدية ويسقط القصاص بالخطأ كما يسقط الكفر بالنطق خطأ وسهوًا.

(٣) شاهده حديث: **«إنّ الله تجاوز عن أُمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل»** رواه الجماعة.

(٤) لحديث مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»** أي: من قيام الليل لحديث: **«من قرأها بعد العشاء مرتين أجزأتاه من قيام الليل، وكفتاه من شرّ الشيطان فلا يكون له عليه سلطان»**.

(٥) صدر هذه السورة إلى ثلاث وثمانين آية نزلت في وفد نجران سنة تسع من الهجرة.

(٦) الله: اسم علم على ذات الربّ تبارك وتعالى ومعناه: الإله الحق الذي لا يستحق العبادة سواه ولذا فسَّرناه في التفسير بأنه المعبود الحق لكونه الإله الحق الذي لا يعبد بحق غيره.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1]: من الكتب السابقة لا يخالفها ولا يبطلها لأن مصدر الجميع واحد هو الله تعالى.
﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾[2]: كتاب موسى عليه السلام ومعناه بالعبرية الشريعة[3].
﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾[4]: كتاب عيسى عليه السلام ومعناه باليونانية: التعليم الجديد[5].
(٤) ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾[6]: ما فرق الله به بين الحق والباطل من الحجج القرآنية والمعجزات الإلهية والعقول النيّرة البشرية التي لم يغلب عليها التقليد والجمود والهوى.
(٦) ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾: التصوير إيجاد الصورة للشيء لم تكن له من قبل، والأرحام جمع رحم: مستودع الجنين.

معنى الآيات:

أخرج ابن جرير الطبري بأسانيد صحيحة أن وفد[7] نجران والمكون من ستين راكبًا فيهم أشرافهم وأهل الحلّ والعَقْد منهم، وفدوا على رسول الله ﷺ يحاجّونه في أمر المسيح عليه السلام ويريدون أن يثبتوا إلهيّته بالادعاء الباطل، فأنزل الله تعالى نيّفًا وثمانين آية من فاتحة السورة ألم إلى ما يقارب الثمانين. وذلك ردًا لباطلهم، وإقامة للحجة عليهم، وسيلاحظ هذا المتدبر للآيات ويراه واضحًا جليًا في السياق القرآني في هذه الآيات.

فقد قال تعالى ألم، الله لا[8] إله إلا هو، فأخبر أنه تعالى لا معبود بحق إلا هو، فأبطل عبادة المسيح عليه السلام وعبادة كل معبود سوى الله تعالى من سائر المعبودات، وقال الحيّ القيوم، فذكر برهان استحقاقه للعبادة دون غيره وهو كونه تعالى حيًا أزلاً وأبدًا وكل حيّ غيره مسبوق بالعدم ويلحقه الفناء، فلذا لا يستحق الألوهية إلا هو عز وجل والمسيح عليه السلام مسبوق بالعدم ويلحقه الفناء فكيف يكون إلهًا؟ وقال تعالى: القيوم، أي القائم على كل الخلق بالتربية والرعاية والحفظ والتدبير والرزق، وما عداه فليس له ذلك بل هو مربوب مرزوق فكيف يكون إلهًا مع الله؟ ودليل ذلك أنه نزل عليك الكتاب: القرآن بالحق مصحوبًا به ليس فيه من الباطل شيء، فآياته كلها مثبتة للألوهية للّه نافية لها عما سواه، فكيف يكون المسيح إلهًا مع الله أو يكون هو الله، أو ابن الله كما يزعم نصارى نجران وغيرهم من نصارى اليونان والرومان وغيرهم نزله مصدقًا لما بين يديه من الكتب التي سبقته لا يخالفها ولا يتناقض معها فدل ذلك أنه وحي الله، وأنزل من قبله التوراة والإنجيل هدىً للناس وأنزل الفرقان[9] ففرق به بين الحق والباطل في كل ما يلبس أمره على الناس فتبين أن الرب الخالق الرازق المدبر للحياة المحيي المميت الحي الذي لا يموت هو الإله الحق وما

(١) معنى بين يديه أنها تقدمته في النزول فكانت كأنها أمامه وهو وراءها وهو معنى بين يديه.
(٢) اختلف في لفظ التوراة هل هو مشتق من ورى الزند إذا أوقد به النار فهي لنور الهداية فيها سميت التوراة أو هي معربّة عن كلمة (طورا) العبرية ومعنى طورا: الهدى، وعلى كل حال فهذا علم لا ينفع وجهالة لا تضر.
(٣) وهي عند اليهود: خمسة أسفار: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاّويين، وسفر العدد، وسفر تثنية الاشتراع.
(٤) الإنجيل قيل: معناه الأصل إذ هو أصل العلوم والحكم وجمعه أناجيل وجمع التوراة: توارٍ.
(٥) ويطلق الإنجيل على أربعة كتب: إنجيل يوحنا، ومرقس، ولوقا، وبرنابا.
(٦) وفسّر الفرقان بالقرآن وهو حق لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ وسمي فرقانًا لأنه فرّق بين الحق والباطل.
(٧) كان مجيء هذا الوفد في السنة التاسعة من الهجرة التي هي عام الوفود ولذا كان آخر السورة متقدمًا في النزول عن أولها إذ آخرها كان في غزوة أحد، وكانت السنة الثالثة.
(٨) قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هذه الجملة مع جملة: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ قيل: إن فيهما اسم الله الأعظم.
(٩) الفرقان وإن أطلق على القرآن لكونه فرّق بين الحق والباطل والهدى والضلال والغي والرشاد فإنه يطلق على كل ما يفرق بين الهدى والضلال كالمعجزات، وما يحصل للمؤمن المتقي من نور يفرّق بين الضار والنافع، والخطأ والصواب.

عداه مربوب مخلوق لا حق له في الألوهية والعبادة وإن شفى مريضًا أو أنطق أبكم أو أحيا ميتًا بإذن الله تعالى فإن ذلك لا يؤهله لأن يكون إلهًا مع الله كعيسى بن مريم عليه السلام فإن ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء بعض الموتى كان بقدرة الله وإذنه بذلك لعيسى وإلا لما قدر على شيء من ذلك شأنه شأن عباد الله تعالى، ولما ردّ الوفد ما حاجهم به الرسول ﷺ وأقام به الحجة عليهم تأكد بذلك كفرهم فتوعدهم الرب تعالى بقوله:

(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ[1] شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ وهذا وعيد شديد لكل من كذب بآيات الله وجحد بالحق الذي تحمّله من توحيد الله تعالى ووجوب طاعته وطاعة رسوله ﷺ.

(٥) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝﴾ فلو كان هناك من يستحق الألوهية معه لعلمه وأخبر عنه، كما قرر بهذه الجملة أن عزته تعالى لا ترام وأنه على الانتقام من أهل الكفر به لقدير.

(٦) وذكر دليلًا آخر على بطلان ألوهية المسيح فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[2] وعيسى عليه السلام قد صُوِّر في رحم مريم فهو قطعًا ممن صور الله تعالى فكيف يكون إذًا إلهًا مع الله أو ابنًا للّه كما يزعم النصارى؟ وهنا قرر الحقيقة فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالعزّة التي لا ترام والحكمة التي لا تخطىء هما مقتضيات ألوهيته الحقة التي لا يجادل فيها إلا مكابر ولا يجاحد فيها إلا معاند كوفد نصارى نجران ومَنْ على شاكلتهم من أهل الكفر والعناد.

هداية الآيات:

١ - تقرير ألوهية الله تعالى بالبراهين ونفي الألوهية[3] عن غيره من سائر خلقه.

٢ - ثبوت رسالة النبي محمد ﷺ بإنزال الله تعالى الكتاب عليه.

٣ - إقامة الله تعالى الحجة على عباده بإنزال كتبه والفرقان فيها ببيان الحق والباطل في كل شؤون الحياة.

٤ - بطلان ألوهية المسيح لأنه مخلوق مصور في الأرحام كغيره صوره الله تعالى على ما شاء فكيف يكون بعد ذلك إلهًا مع الله[4] أو ابنًا له تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ - ٩]

(٧) ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾[5]: الظاهرة الدلالة البيّنة المعنى التي لا تحتمل إلا معنى واحدًا، وذلك كآيات الأحكام من حلال وحرام وحدود، وعبادات، وعبر وعظات. ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: غير ظاهرة الدلالة محتملة لمعان يصعب على غير الراسخين في العلم القول فيها وهي كفواتح السور، وكأمور الغيب[6]. ومثل قول الله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿... وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ[7] وَرُوحٌ مِّنْهُ ...﴾ وكقوله تعالى: ﴿... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ...﴾[8]. ﴿فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: الزيغ: الميل عن الحق بسبب شبهة

---

(١) التنوين في عذاب: للتفخيم، والشديد هو الذي لا يقادر قدره.

(٢) أي: من حسن وقبح وسواد وبياض وطول وقصر، وعاهة وسلامة وسعادة وشقاء.

(٣) أي: بالبراهين كذلك.

(٤) ضلال النصارى أعظم ضلال وأسوؤه، إذ كيف يعقل أن يكون عيسى إلهًا وقد قتل وصلب في اعتقادهم؟ وكيف يكون إلهًا وهو ابن امرأة اسمها مريم؟ وهم يعترفون بذلك فسبحان الله أين تذهب عقول العقلاء؟

(٧) ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾، أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ تلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ﴾ إلى ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ثم قال: **«إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم»**.

(٥) قال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: المحكمات، أي: في القرآن ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه.

(٦) قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة وخروج يأجوج ومأجوج والدجال ونزول عيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

(٧) النساء: ١٧١.

(٨) الأنعام: ٥٧.

أو شهوة أو فتنة. ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾: أي طلبًا لفتنة المؤمنين في دينهم ومعتقداتهم. ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾: طلبًا لتأويله ليوافق معتقداتهم الفاسدة. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: وما يعلم ما يؤول إليه أمر المتشابه إلا الله منزله. الراسخون في العلم[1]: هم أهل العلم اليقيني في نفوسهم الذين رسخت أقدامهم في معرفة الحق فلا يزلّون ولا يَشْتَطّون في شبهة أو باطل. ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: أي المحكم والمتشابه فنؤمن به جميعًا. ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أصحاب العقول الراجحة والفهوم السليمة.

(٨) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾[2]: أي لا تُمل قلوبنا عن الحق بعدما هديتنا إليه وعرّفتنا به فعرفناه. ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾: أعطنا من عندك رحمة.

معنى الآيات:

(٧) ما زال تعالى يقرر ربوبيته وألوهيته ونبوّة رسوله ﷺ ويبطل دعوى نصارى نجران في ألوهية المسيح عليه السلام فيقول: هو أي الله الحي القيوم الذي أنزل عليك الكتاب، أي القرآن، منه آيات محكمات، لا نسخ فيها ولا خفاء في معناها ولا غموض في دلالتها على ما نزلت فيه وهذه معظم آي الكتاب وهي أمّه وأصله، ومنه آيات أخر متشابهات وهي قليلة والحكمة من إنزالها كذلك الامتحان والاختبار كالامتحان بالحلال والحرام، وبأمور الغيب ليثبت على الهداية والإيمان من شاء الله هدايته، ويزيغ في إيمانه ويضل عن سبيله من شاء الله تعالى ضلاله وعدم هدايته. فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ...﴾ أي ميل عن الحق ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ للخروج به عن طريق الحق وهداية الخلق كما فعل النصارى حيث ادّعوا أن الله ثالث ثلاثة لأنه يقول نخلق ونحيي، ونميت وهذا كلام جماعة فأكثر، وكما قالوا في قوله تعالى في شأن عيسى: ﴿.. وَرُوحٌ مِّنْهُ[3] ..﴾ أنه جزء منه متحد به، وكما قال الخوارج في قوله تعالى: ﴿.. إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ[4] ..﴾ فلا يجوز لأحد أن يحكم في شيء وكفروا عليًا وخرجوا[5] عنه لتحكيمه أبا موسى الأشعري في حقيقة الخلاف بين علي ومعاوية وهكذا يقع أهل الزيغ في الضلال حيث يتبعون المتشابه ولا يردونه إلى المحكم فيظهر لهم معناه ويفهمون مراد الله تعالى منه. وأخبر تعالى أنه لا يعلم تأويله إلا هو سبحانه وتعالى. وأن الراسخين[6] في العلم يُفَوِّضُون أمره إلى الله منزله فيقولون:

(٨) ﴿.. ءَامَنَّا بِهِۦ[7] كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[8]، ويسألون ربهم الثبات على الحق

---

(١) روي أن النبي ﷺ سئل عن الراسخين في العلم فقال: «هو مَن برّت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه».

(٢) سُئلت أم سلمة رضي الله عنها في حديث حسن رواه الترمذي عن ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ عندها فقالت: «كان أكثر دعائه: يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك».

(٣) النساء: ١٧١.

(٤) الأنعام: ٥٧.

(٥) روي أن أبا أُمامة رضي الله عنه مرّ برؤوس منصوبة عند باب مسجد دمشق فسأل عنها فقيل: إنها رؤوس خوارج جيىء بها من العراق فقال: أولئك كلاب النار ثلاثًا شر قتلى تحت ظل السماء طوبى لمن قتلهم ثلاثًا ثم بكى، فقيل: ما يبكيك فقال: رحمة بهم، إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا منه ثم قرأ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

(٦) روي أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: التفسير على أربعة أنحاء: تفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلاّ الله. كما يروى هذا عن عائشة وغيرها.

(٧) الجمهور على أنّ الوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ومن هنا قالوا: لا يعلم المتشابه إلاّ الله، وهو مما استأثر به دون عباده، ومن قال: إنّ قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قالوا: إنّ الراسخين في العلم قد يعلمون بعض المتشابه دون البعض ويدل عليه قولهم: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي: ما علمناه وما لم نعلمه، وروَوا أنّ ابن عباس قال: أنا ممن يعلم تأويله.

(٨) هذه الجملة ليست من كلام الراسخين ولكنها من كلام الله تعالى فهي تذييل للكلام السابق للثناء عليهم.

فيقولون: ﴿.. رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ..﴾ ترحمنا بها في دنيانا وأخرانا إنك أنت وحدك الوهّاب، لا إله غيرك ولا ربّ سواك، ويقررون مبدأ المعاد والدار الآخرة فيقولون سائلين ضارعين:

(٩) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ لمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم فاغفر لنا وارحمنا يومئذ حيث آمنا بك وبرسولك ﷺ وبكتابك محكم آيه ومتشابهه، إنك لا تخلف الميعاد.

هداية الآيات:

١ ـ في كتاب الله المحكم والمتشابه، فالمحكم يجب الإيمان به والعمل بمقتضاه، والمتشابه يجب الإيمان به ويفوض أمر تأويله إلى الله منزله ويقال:

(٧) ﴿.. ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ..﴾.

٢ ـ أهل الزيغ الذين يتبعون ما تشابه[1] يجب هجرانهم والإعراض عنهم لأنهم مبتدعة وأهل أهواء.

٣ ـ استحباب الدعاء بطلب النجاة عند ظهور الزّيغ ورؤية الفتن[2] والضلال.

٤ ـ تقرير مبدأ المعاد والدار الآخرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ (١٠) كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ (١٣) زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ (١٤) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (١٥)

٥١

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ ـ ١٣]

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: هم وفد نجران ويهود المدينة والمشركون والمنافقون. ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾: لن تجزىء عنهم ولن تقيهم عذاب الله إذا حلّ بهم. ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: الوقود ما توقد به النار من حطب أو فحم حجري أو غاز.

(١١) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: كعادتهم وسنتهم في كفرهم وتكذيبهم وما حل بهم من عذاب في الدنيا والآخرة.

(١٢) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ[3]﴾: هم يهود المدينة بنو قَيْنُقَاع.

(١٣) ﴿ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ[4]﴾: علامة واضحة والفئتان: المسلمون وقريش التقتا في بدر. ﴿يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ﴾: يُقوّي. ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾: العبرة العظة وما يَعْبُر به ذو البصيرة مواضع الخطر فينجو.

معنى الآيات:

(١٠) لما أصرَّ وفد نجران على الكفر

(١) قال أهل العلم: التشابه يكون حقيقيًا وإضافيًا فالحقيقي لا سبيل إلى فهم معناه وهو المراد من الآية ﴿يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ والإضافي: ما اشتبه معناه لاحتياجه إلى طلب دليل آخر، فإذا طلبه العالم وجده وهو كثير. منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فهذا يبين معناه: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾.

(٢) روي أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أيام حروب الردّة كان يصلي المغرب فيقرأ: بالفاتحة وسورة من قصار المفصل وفي الركعة الثالثة يقرأ: بأم الكتاب ويقرأ قوله تعالى سرًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٨)﴾ يقنت بها. كما روي عن عائشة أنها قالت: إنّ رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: **«لا إله إلاّ أنت سبحانك استغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علمًا، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»**.

(١٣) الضمير عائد على المسلمين على أسلوب الالتفات، والأصل: ترونهم مثليكم، ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا على المشركين، ولكن الصواب أنّه عائد على المؤمنين، لأنّ الله تعالى قلّل المشركين في أعين المؤمنين ليقدموا على قتالهم.

(٣) استئناف ابتدائي للانتقال من النذارة إلى التهديد حيث تطلب المقام ذلك إذ تبجح اليهود وتطاولوا على رسول الله ﷺ مخوفين له بكلامهم السخيف.

(٤) الفئة: الجماعة من الناس وسميت فئة لأنه يفاء إليها أي: يرجع إليها في وقت اشتداد الحرب.

والتكذيب واتباع المتشابه من آي الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل من الحق والخروج عنه. توعّد الرب تعالى جنس الكافرين من نصارى ويهود وعرب وعجم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . .﴾ بالحق لما جاءهم وعرفوه معرفة لا لبس فيها ولا غموض ولكن منعهم من قبوله الحفاظ على المناصب والمنافع هؤلاء جميعهم سيعذبهم الله تعالى في نار جهنم ولن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئًا، واعلم أنهم وقود النار، التي مهّدوا لها بكفرهم وبئس المهاد مهدوه لأنفسهم. ثم أخبر تعالى أنهم في كفرهم وعنادهم حتى يأتيهم العذاب كدأب وعادة آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم التي كذبت رسلها كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح حتى أخذهم الله بالعذاب في الدنيا بالهلاك والدمار، وفي الآخرة بعذاب النار وبئس المهاد، وكان ذلك بذنوبهم لا بظلم الله تعالى. ثم أمر الله تعالى رسوله محمد ﷺ أن يقول ليهود المدينة الذين قالوا للرسول ﷺ لا يغرنك أنك قاتلت من لا يحسن الحرب فانتصرت عليهم يريدون قريشًا في موقعة بدر، إنك إن قابلتنا ستعلم أنا نحن الناس، لما قالوا قولتهم هذه يهددون بها رسول الله ﷺ والمسلمين أمره أن يقول لهم[1]:

(١٢) ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ يريد في المعركة وتنهزمون وتموتون، وبعد موتكم تحشرون إلى جهنم وبئس المهاد جهنم مهدتموها لأنفسكم بكفركم وعنادكم وجحودكم للحق بعد معرفته. وفَتَح أعينهم على حقيقة لو تأملوها لما تورطوا في حرب الرسول ﷺ حتى هزمهم وقتل من قتل منهم وأجلى من أجلاهم. وهي أن المسلمين الذين قاتلوا المشركين في بدر وانتصروا عليهم كانوا أقلّ عدد وأنقص عدة، ومع ذلك انتصروا لأنهم يقاتلون في سبيل الله والكافرون يقاتلون في سبيل الطاغوت والشرك والظلم والطغيان ونصر الله الفئة القليلة المسلمة[2] وهزم الفئة الكافرة الكثيرة فلو اعتبر اليهود بهذه الحقيقة لما تورطوا في حرب مع الرسول ﷺ أبدًا. ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وهي البصائر.

(١٣) فقال تعالى لهم: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ - في بدر - فئة - جماعة - تقاتل في سبيل الله - إعلاء لكلمته - وأخرى فئة كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت ﴿يَرَوْنَهُم[3] مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ لقربهم منهم. ومع هذا نصر الله الأقلية المسلمة وهزم الأكثرية الكافرة، وذلك لأن الله تعالى يؤيد بنصره من يشاء، فأيد أولياءه وهزم أعداءه، وإن في هذه الحادثة لعبرة وعظة ومتفكر ولكن لمن كان ذا بصيرة، أما من لا بصيرة له فإنه لا يرى شيئًا حتى يقع في الهاوية. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور لهم: ﴿. . لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

هداية الآيات:

١ - الكفر مورِّث لعذاب يوم القيامة والكافر معذَّب قطعًا.

٢ - الأموال والأولاد والرجال والعتاد مهما كثروا لن يغنوا من بأس الله شيئًا إذا أراده بالكافرين في الدنيا والآخرة.

٣ - الذنوب بريد العذاب[4] العاجل والآجل.

٤ - ذم الفخر والتعالي وسوء عاقبتهما.

٥ - العاقل من اعتبر بغيره، ولا عبرة لغير أولي الأبصار أي البصائر.

٦ - صدق خبر القرآن في ما أخبر به اليهود من هزيمتهم، فكان هذا دليل صدق على أن القرآن وحي الله، وأن محمدًا ﷺ رسول الله، وأن الإسلام دين الله الحق.

---

(١) فعلاً فقد جمعهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم وقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم».

(٢) إذ كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان عدد المشركين رابيًا على التسعمائة مقاتل.

(٣) رأى المسلمون الكافرين مثليهم أي: مثلي عدد المسلمين وهذا معنى التقليل إذ الكافرون تسعمائة فرأوهم ستمائة وهو التقليل المذكور.

(٤) شاهده من كتاب الله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

شرح الكلمات: [الآية: ١٤]

(١٤) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ[١] حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: جعل حبها مستحسنًا في نفوسهم لا يرون فيه قبحًا ولا دمامة. ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[٢]: جمع شهوة بمعنى المشتهى طبعًا وغريزة كالطعام والشراب اللذيذين. ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾: القنطار ألف ومائة أوقية فضة والمقنطرة الكثيرة بعضها فوق بعض. ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾[٣]: ذات السمات الحسان والمعدة للركوب عليها للغزو والجهاد. ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: الإبل والبقر والغنم وهي الماشية. ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾[٤]: الزروع والحقول وسائر النباتات النافعة. ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي ذلك المذكور من النساء والبنين إلخ متاع الحياة الدنيا يريد يستمتع به فيها ويموت صاحبها ويتركها.

معنى الآية الكريمة:

لما ذكر تعالى عناد من كفر من النصارى، واليهود، والمشركين، وجحودهم، وكفرهم، ذكر علة الكفر وبيّن سببه ألا وهو ما زينه تعالى لبني البشر عامة ليفتنهم فيه ويمتحنهم به وهو حب الشهوات أي المشتهيات بالطبع البشري من النساء[٥] والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث وهو كل ما يحرث من سائر الحبوب والنباتات الغذائية والعطرية وغيرها. هذا الذي جعل تلك الجماعات ترفض الحق وتدفعه لأنه يحول بينهم وبين هذه المشتهيات غالبًا فلا يحصلون عليها، ولم يعلموا أنها مجرد متاع زائل فلا يبيعوا بها الجنة دار الخلد والسلام ولذا قال تعالى ذلك أي ما ذكر من أصناف المحبوبات متاع الحياة الدنيا لا غير. أما الآخرة فلا ينفع فيها شيء من ذلك بل لا ينفع فيها إلا الزهد فيه والإعراض عنه إلا ما لا بد منه لِلْبُلْغَةِ بهِ إلى عمل الدار الآخرة وهو الإيمان وصالح الأعمال، والتخلي عن الكفر والشرك وسائر الذنوب والمعاصي.

وختم تعالى الآية بقوله مرغبًا في العمل للدار الآخرة داعيًا عباده إلى الزهد في المتاع الفاني لتتعلق قلوبهم بالنعيم الباقي فقال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾، أي المرجع الحسن، والنزل الكريم والجوار الطيب السعيد.

هداية الآية الكريمة:

١ - يزين الله تعالى بمعنى يجعل الشيء زَيْنًا محبوبًا للناس للابتلاء والاختبار. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٦] ويزين الشيطان للإضلال والإغواء، فالله يزين الزين ويقبح القبيح، والشيطان يزين القبيح، ويقبح الزين. فانظر الفرق وتأمل.

٢ - المزينات في هذه الآية من تزيين الله تعالى للابتلاء، وكلها زينة في الواقع وليس فيها قبيح إلا إذا طلبت من غير حلّها وأخذت بِشَره ونهم فأفسدت أخلاق آخذها أو طغت عليه محبتها فأنسته لقاء الله وما عنده فهلك بها كاليهود والنصارى والمشركين.

٣ - كل ما في الدنيا مجرد متاع والمتاع دائمًا قليل وزائل فعلى العاقل أن ينظر إليه كما هو فلا يطلبه بما يَحْرِمُه حسن[٧] المآب عند الله.

---

(١) روى البخاري أن عمر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ..﴾ إلخ.. قال: الآن يا رب حين زينتها لنا فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ..﴾ الآية.

(٢) في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**» ومعناه: أن الجنة لا تنال إلا بقطع مغاور المكاره والصبر عليها، وأنّ النار لا ينجي منها إلاّ ترك الشهوات وفطام النفس عنها.

(٣) ما ذكرناه مأخوذ من السومة وهي السمة أي: العلامة وقد تكون المسومة مأخوذ من السموم وهي الرعي في المرعى يقال: أسام الماشية إذا رعى بها في المرعى. والخيل مؤنثة.

(٤) الحرث مصدر أطلق على المحروثات نفسها من المزارع والحدائق.

(٥) روى الشيخان عنه ﷺ أنه قال: «**ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء**» وفي حديث آخر: «**اتقوا الدنيا واتقوا النساء فإنّ أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**» رواه مسلم.

(٦) الكهف: ٧.

(٧) المآب: المرجع يقال: آب يؤوب أوبًا، وإيابًا إذا رجع ومنه قول امرىء القيس:

وقد طوفت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

٥٢

اللهم لا تحرمنا حسن مآبك يا الله يا رحمٰن يا رحيم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ ـ ١٧]

﴿١٥﴾ ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾[١]: أخبركم بنبأ عظيم لأن النبأ لا يكون إلا بالأمر العظيم. ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾: أي المذكور في الآية السابقة من النساء والبنين إلخ. ﴿ٱتَّقَوْا﴾: خافوا ربهم فتركوا الشرك به ومعصيته ومعصية رسوله ﷺ. ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: من خلال قصورها وأشجارها أنهار[٢] الماء، وأنهار اللبن وأنهار العسل وأنهار الخمر. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: مقيمين فيها إقامة لا يرحلون بعدها أبدًا. أزواج مطهرة: زوجات هي الحور العين نقيات من دم الحيض والبول وكلِّ أذى وقذر.

﴿١٧﴾ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: على الطاعات لا يفارقونها وعلى المكروه لا يتسخطون، وعن المعاصي لا يقارفونها. الصادقين: في إيمانهم وأقوالهم وأعمالهم. القانتين: العابدين المحسنين الداعين الضارعين. ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾: المؤدين الزكاة والمتصدقين بفضول أموالهم. ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ[٣] بِٱلْأَسْحَارِ﴾: السائلين ربهم المغفرة في آخر الليل وقت السحور.

معنى الآيات:

﴿١٥﴾ لما بيّن تعالى ما زينه للناس من حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة إلى آخر ما ذكر تعالى، وبيّن أن حسن المآب عنده سبحانه وتعالى فليُطلَبْ منه بالإيمان والصالحات أمر رسوله ﷺ أن يقول للناس كافة أؤنبئكم بخير من ذلكم المذكور لكم. وبيّنه بقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ...﴾ وهو رضاه[٤] عز وجل عنهم وهو أكبر من النعيم المذكور قبله. قال تعالى في آية أخرى[٥]: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ...﴾.

﴿١٦﴾ ثم أخبر تعالى أنه بصير بعباده

= والمراد بالمآب: ما أعده الله تعالى لأوليائه من النعيم المقيم في دار السلام.

(١) يصح أن يكون منتهى الاستفهام قوله تعالى: ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ و﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ خبر مقدم، وجنات: المبتدأ، ويصح أن يكون منتهى الاستفهام ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وجنات: خبر، والمبتدأ محذوف.

(٢) شاهد هذا في قوله تعالى من سورة محمد ﷺ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

(٣) المختار من ألفاظ الاستغفار ما رواه البخاري: **«اللهم أنت ربي لا إله إلا أنتَ خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت»** وقول العبد: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك عملت سوءًا وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

(٤) هي قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

(٥) أخرج مسلم عنه ﷺ: **«إنّ أهل الجنة إذا دخلوها يقول الله تعالى لهم: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: يا ربنا وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبدًا».**

يعلم المؤمن الصادق والمنافق الكاذب، والعامل المحسن والعامل المسيء وسيجزي كلًا بعدله وفضله، ثم ذكر صفات المتقين التي ورثوا بها ما وصف من النعيم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فذكر صفة الإيمان والخشية والضراعة والدعاء لهم، ثم ذكر باقي الصفات الكمالية فقال:

(١٧) ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، يتهجدون آخر الليل وقبيل طلوع الفجر يكثرون من الاستغفار وهو طلب المغفرة.

هداية الآيات:

١ - نعيم الآخرة خير من نعيم الدنيا مهما كان.

٢ - نعيم الآخرة خاصّ بالمتقين الأبرار، ونعيم الدنيا غالبًا ما يكون للفجّار.

٣ - التقوى وهي ترك الشرك والمعاصي هي العامل الوراثي لدار السلام.

٤ - استحباب الضراعة والدعاء والاستغفار[١] في آخر الليل.

٥ - الصفات المذكورة لأهل التقوى هنا كلها واجبة في الجملة لا يحل أن لا يتصف بها مؤمن ولا مؤمنة في الحياة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨ - ٢٠]

(١٨) ﴿شَهِدَ﴾: أخبر عن علم بحضوره الأمر المشهود به. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا معبود بحق في الأرض ولا في السماء إلا الله تبارك وتعالى. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾: أصحاب العلم الصحيح المطابق للواقع وهم الأنبياء والعلماء. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: العدل في الحكم والقول والعمل. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: الغالب ذو العزة التي لا تغلب، الحكيم في كل خلقه وفعله وسائر تصرفاته.

(١٩) ﴿ٱلدِّينَ﴾: ما يدان الله تعالى به أي يطاع فيه ويخضع له به من الشرائع والعبادات. ﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٢]: الانقياد لله بالطاعة والخلوص من الشرك والمراد به هنا ملة الإسلام. ﴿بَغْيًا﴾: ظلمًا وحسدًا.

(٢٠) ﴿حَآجُّوكَ﴾: جادلوك وخاصموك بحجج باطلة واهية. ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾: أخلصت كل أعمالي القلبية والبدنية لله وحده لا شريك له. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾: كذلك أخلصوا لله كل أعمالهم له وحده لا شريك له. ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾: اليهود والنصارى. ﴿وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾: العرب المشركين سُمُّوا بالأميين لِقلة مَنْ يقرأ ويكتب فيهم. ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾: الهمزة الأولى للاستفهام والمراد به الأمر أي أسلموا خيرًا لكم لظهور الحق وانبلاج نوره بينكم بواسطة كتاب الله ورسوله ﷺ. ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ﴾: فإن أجابوك وأسلموا فقد اهتدوا إلى سبيل النجاة. ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أدبروا عن الحق بعد رؤيته وأعرضوا عنه

---

(١) شاهده ما رواه الأئمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**ينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأوّل فيقول: أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر**» رواه مسلم.

(١٨) روى الكلبي ونقل ذلك القرطبي فقال: «لما ظهر رسول الله ﷺ قدم عليه حبران من أحبار الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان فلّما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم» قالا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم». قالا: نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدّقناك فقال لهما رسول الله ﷺ: «**اسألاني**» فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية.

(١٨) في عطف شهادة أولي العلم على شهادة الله تعالى شرف كبير لأولي العلم، وفي الحديث: «**إنّ العلماء ورثة الأنبياء**»، «**العلماء أمناء الله على خلقه**».

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ صيغة حصر أي: حصر المسند إليه الذي هو الدين في المسند الذي هو الإسلام أي: لا دين إلاّ الإسلام وقد أكّد هذا الحصر أيضًا بحرف التوكيد إنّ، والمعنى: إنّ الدين الصحيح وهو الإسلام لا غيره.

(٢) حقيقة الإسلام الشرعية: أنه اعتقاد الحق والنطق به، والعمل بموجبه عبادة وخلقًا وحكمًا حتى تكون حياة المسلم كلها وفق مراد الله تعالى منه وما دعاه إليه وخلقه من أجله.

بعد معرفته فلا يضرك أمرهم إذ ما عليك إلا البلاغ وقد بلّغت.

معنى الآيات:

(١٨) يخبر الجبار عز وجل أنه[١] شهد أنه لا إله إلا هو وأن الملائكة وأولي العلم يشهدون كذلك شهادة علم وحق قامت على مبدأ الحضور الذاتي والفعلي وأنه تعالى قائم في الملكوت كله، علويّه وسفليّه، بالعدل، فلا رب غيره ولا إله سواه، العزيز في ملكه وخلقه الحكيم في تدبيره وتصريفه فلا يضع شيئًا في غير موضعه اللائق به. فردّ بهذه الشهادة على باطل نصارى نجران، ومكر اليهود، وشرك العرب، وأبطل كلّ باطلهم سبحانه وتعالى.

(١٩) ثم أخبر أيضًا أن الدين الحق الذي لا يقبل تعالى دينًا سواه، هو الإسلام، القائم على مبدأ الانقياد الكامل لله تعالى بالطاعة، والخلوص التامّ من سائر أنواع الشرك فقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه وقضائه الإسلام، وما عداه فلا يقبله[٢] ولا يرضاه. ثم أخبر تعالى عن حال نصارى نجران، المجادلين لرسوله ﷺ في شأن تأليه عيسى بالباطل فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ يريد أن خلاف أهل الكتاب لم يكن عن جهل منهم بالحق ومعرفته[٣] ولكن كان عن علم حقيقي وإنما حملهم على الخلاف المسبب للفتن والحروب وضياع الدين البغي والحسد، إذ كل فرقة تريد الرئاسة والسلطة الدينية والدنيوية لها دون غيرها، وبذلك يفسد أمر الدين والدنيا، وهذه سنة بشرية تورط فيها المسلمون[٤] بعد القرون المفضلة أيضًا، والتاريخ شاهد. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يتوعد تعالى ويهدد كل من يكفر بآياته الحاملة لشرائعه فيجحدها ويعرض عنها، فإنه تعالى يحصي عليه ذنوب كفره وسيئات عصيانه ويحاسبه بها ويجزيه وإنه لسريع الحساب لأنه لا يشغله شيء عن آخر ولا يعييه إحصاء ولا عدد، ثم يلتفت بالخطاب إلى رسوله ﷺ قائلًا له: فإن حاجوك، يريد وفد نجران النصراني فاختصر الحجاج معهم بإظهار موقفك المؤيس لهم داعيًا إياهم إلى الإسلام الذي عرفوه وأنكروه حفاظًا على الرئاسة والمنافع بينهم فقل لهم:

(٢٠) ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أيضًا أسلم وجهه لله فليس فينا شيء لغير الله وقلوبنا وأعمالنا وحياتنا كلها لله فأسلموا[٥] أنتم يا أهل الكتاب ويا أميون ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ وإن تولوا وأعرضوا فلا يضرك إعراضهم، إذ ما كلفت إلا البلاغ وقد بلغت، أما الحساب والجزاء فهو إلى الله تعالى البصير بأعمال عباده العليم بنياتهم وسوف يجزيهم بعلمه ويقضي بينهم بحكمه وهو العزيز الحكيم.

هداية الآيات:

١ - اعتبار الشهادة والأخذ بها إن

---

(١) ورد أن من قال عند تلاوة هذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ إلخ.. وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة ـ يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول عزّ وجل: «عبدي عهد إليّ وأنا أحق من وفّى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة».

(٢) روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بما أرسلت به إلاّ كان من أهل النار**».

(٣) يشهد لهذه الحقيقة ما رواه البخاري: «إن غلامًا يهوديًا كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعله فمرض فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قائم عند رأسه فقال له النبي ﷺ: «**يا فلان قل: لا إله إلاّ الله**» فنظر إلى أبيه فسكت أبوه فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه: أطع أبا القاسم فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أخرجه بي من النار**».

(٤) وما زال المسلمون متفرّقين إلى اليوم بل تفرقهم اليوم أسوأ من الأوّل ودولهم دويلات وشريعتهم التي يسوسون بها الأمة المسلمة شرائع.

(٥) روى محمد بن إسحق أن وفد نجران لما دخلوا مسجد رسول الله ﷺ تكلم منهم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله ﷺ: «**أسلما**» قالا: قد أسلمنا قبلك فرد عليهم رسول الله ﷺ قائلًا: «**كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدًا وعبادتكم الصليب**».

كانت قائمة على العلم وكان الشاهد أهلاً لذلك بأن كان مسلمًا عدلاً.

٢ - شهادة الله أعظم شهادة تثبت بها الشرائع والأحكام وتليها شهادة الملائكة وأولي العلم.

٣ - بطلان كل دين بعد الإسلام وكل ملة غير ملته لشهادة الله تعالى بذلك وقوله: ﴿... وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝﴾ الآية (٨٥) من هذه السورة والآتي تفسيرها إن شاء الله تعالى.

٤ - الخلاف بين أهل العلم والدين يتم عندما يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة فيتورطون في المطاعم والمشارب، ويتشوقون إلى الكراسي والمناصب، ويرغبون في الشرف يومئذ يختلفون بغيًا بينهم وحسدًا لبعضهم بعضًا.

٥ - من أسلم قلبه لله وجوارحه وأصبح وقفًا في حياته على الله فقد اهتدى إلى سبيل النجاة والسلام.

٦ - من علق قلبه بالحياة الدنيا وأعرض عما يصرفه عنها من العبادات ضلّ في حياته وسعيه وحسابه على الله وسيلقى جزاءه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١، ٢٢]

(٢١) ﴿يَكْفُرُونَ﴾: يجحدون ويكذبون. ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: جمع نبي وهو ذكر من بني آدم أوحى إليه الله تعالى. القسط: العدل والحق والخير والمعروف. بشرهم بعذاب أليم: أخبرهم إخبارًا يظهر أثره على بشرة وجوههم ألمًا وحسرة.

(٢٢) ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾: بطلت وذهبت، لم يجنوا منها شيئًا ينفعهم، ويهلكون بذلك ويعدمون الناصر لهم لأن الله خذلهم وأراد إهلاكهم وعذابهم في جهنم.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في هَتْك أستار الكفَرَة من أهل الكتابين اليهود والنصارى، فذكر تعالى هنا أن الذين يكفرون[١] بآيات الله وهي حججه وأعلام دينه، وما بعث بها رسله، ويقتلون مع ذلك النبيين بغير حق[٢] ولا موجب للقتل، ويقتلون الذين يأمرونهم[٣] بالعدل من أتباع الأنبياء المؤمنين الصالحين، هذه جرائم بعض أهل الكتاب فبشرهم بعذاب أليم، ثم أخبر أن أولئك البعداء في مهاوي الشر والفساد والظلم والعناد حبطت أعمالهم في الدنيا فلا يجنون منها عاقبة حسنة ولا مدحًا ولا ثناءً بل سُجلت لهم بها عليهم لعنات في الحياة والممات، والآخرة كذلك وليس لهم فيها من ناصرين ينصرونهم فيخلصونهم من عذاب الله وهيهات هيهات أن يوجد من دون الله ولي أو نصير.

هداية الآيتين:

١ - الكفر والظلم من موجبات هلاك الدنيا ولزوم عذاب الآخرة.

٢ - قتل الآمرين بالمعروف[٤] والناهين عن المنكر كقتل الأنبياء في عِظَم الجُرْم.

٣ - الشرك محبط للأعمال مفسد لها في الدنيا والآخرة.

---

(١) جيىء بالأفعال المضارعة في صلات الذين يكفرون: يقتلون النبيين ويقتلون إلخ.. لأجل استحضار الحالة الفظيعة من جهة، ومن جهة أخرى كشف عن نيات اليهود فإنهم ما زالوا مصرّين على قتل الأنبياء، وكيف؟ وقد حاولوا قتل النبي ﷺ غير مرّة.

(٢) بغير حق: حال مؤكدة إذ لا يقع قتل نبي إلاّ بغير حق فقتلهم الأنبياء متأكد وهو قبيح وكونه بغير حق هو أشد قبحًا، والآية تشنيع لأفعالهم القبيحة.

(٣) روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي عبيدة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أيُّ الناس أشد عذابًا يوم القيامة؟ قال: **«رجل قتل نبيًا أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر»** ثم قرأ الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ إلخ.. ثم قال: **«يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًا أوّل النهار في ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلاً من عبّاد بني إسرائيل فأمروا مَنْ قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعًا من آخر النهار من ذلك اليوم فهم الذين ذكر الله تعالى»**.

(٤) ذكر القرطبي في تفسيره الرواية التالية: كل بلدة يكون فيها أربعة فأهلها معصومون من البلاء إمام عادل لا يظلم، وعالم على سبيل الهدى، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحرصون على طلب العلم والقرآن ونساؤهم مستورات لا يتبرّجن تبرج الجاهلية الأولى وأخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قيل يا رسول الله: متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: **«إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم من قبلكم»** قلنا: يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: **«الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رُذالتكم»** الرذالة: كالحثالة ومعناه: فيمن لا خير فيهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)﴾

٤ ـ من خذله الله تعالى لا ينصره أحد، ومن ينصره الله لا يغلبه أحد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣ ـ ٢٥]

(٢٣) ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾: أعطوا حظًا وقسطًا من التوراة.

﴿يُدْعَوْنَ﴾: يُطلب[1] إليهم أن يتحاكموا فيما اختلفوا فيه من الحق إلى كتابهم الذي يؤمنون به وهو التوراة فيأبون ويعرضون. ﴿يَتَوَلَّى﴾: يرجع وهو مصمم على عدم العودة إلى الحق.

(٢٤) ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾: هذا قول اليهود ويعنون بالأيام الأربعين يومًا تلك التي عبدوا فيها العجل بعد غياب موسى عليه السلام عنهم.

﴿يَفْتَرُونَ﴾: يكذبون.

(٢٥) ﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: هو يوم القيامة.

﴿مَا كَسَبَتْ﴾: ما عملت من خير أو شر.

﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: بأن يعذبوا بدون المقتضي لعذابهم من الشرك والكفر والمعاصي.

معنى الآيات:

ما زال السياق في فضح أهل الكتاب بذكر ذنوبهم وجرائمهم فيقول تعالى لرسوله ﷺ حاملاً له على التعجب من حال اليهود ألم تر يا رسولنا إلى الذين أوتوا نصيبًا[2] من الكتاب أي ألم ينته إلى علمك أمرهم حيث يدعون إلى التحاكم[3] إلى كتاب الله تعالى فيما أنكروه[4] واختلفوا فيه من صفاتك وشأن نبُوّتك ورسالتك، ثم يتولى عدد منهم وهم مصممون على عدم العودة وطلب الحق والإقرار به. إنها حال تدعو إلى التعجب حقًا، وصارفهم عن قبول الحق ومراجعته هو اعتقادهم الفاسد بأن النار لا تمسهم إذا ألقوا فيها إلا مدة أربعين يومًا وهي المدة التي عبد فيها أسلافهم العجل يوم غاب موسى عنهم لمناجاته ربه تعالى في جبل الطور. وهذه الدعوى باطلة لا أساس لها من الصحة بل يُخلدون في النار لا بعبادة أسلافهم العجل أربعين يومًا بل بكفرهم وظلمهم وجحودهم وعنادهم، ويبين تعالى الحقيقة لرسوله ﷺ والمؤمنين وهي أن هذه الدعوى اليهودية ما هي إلا فرية[5] افتراها علماؤهم ليهوّنوا عليهم ارتكاب الجرائم وغشيان عظائم الذنوب. كما حصل للمسلمين في القرون المظلمة من تاريخ الإسلام حيث أصبح مشايخ التصوف يُدَجّلون على المريدين بأنهم سيستغفرون لهم ويغفر لهم. ثم قال تعالى مستعظمًا حالهم مهوّلاً موقفهم: فكيف[6] أي

---

(١) قال ابن عباس: هذه الآية نزلت بسبب أنّ رسول الله ﷺ دخل على يهود في بيت المدراس فدعاهم إلى الإسلام فقالوا له: على أيّ دين أنت؟ فقال: «**على ملّة إبراهيم**»، فقالوا: إنّ إبراهيم كان يهوديًا فقال النبي ﷺ: «**هلمّوا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم**» فأبوا عليه فنزلت الآية.

(٢) التنكير للتقليل وليس للتعظيم لأنّ السياق في ذمّهم وتقبيح سلوكهم.

(٣) الآية دليل على وجوب من دعي إلى التحاكم إلى شرع الله أن يجيب إلى ذلك ولا يمتنع وإلاّ يقدح في إيمانه.

(٤) أي: من كون إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديًا، حيث زعموا أنه كان يهوديًا كما تقدّم في بيان سبب نزول الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ ..﴾.

(٥) ومن جملة افتراءاتهم قولهم: إنّ الله وعد يعقوب أن لا يعذب أبناءه.

(٦) هذا خطاب للنبي ﷺ وأمته على جهة التوقيف والتعجب.

حالهم. إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه وهو يوم القيامة كيف تكون حالهم إنها حال يعجز الوصف عنها.

(٢٥) ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر وهم لا يظلمون بنقص حسناتهم إن كانت لهم حسنات، ولا بالزيادة في سيئاتهم وما لهم إلا السيئات.

هداية الآيات:

١ - من الإعراض عن الدين والكفر به رفض التحاكم إليه، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء ٦٥].

٢ - أفسد شيء للأديان بعقائدها وشرائعها وعباداتها الافتراء فيها والابتداع عليها والقول فيها بغير علم.

٣ - مضرّة الاغترار بما يقوله بعض المفسرين والمحشين على الكتب الدينية من الحكايات والأباطيل بحجة الترغيب أو الترهيب فيغتر بها الناس فيضلوا ويهلكوا.

٤ - فضيلة ذكر أهوال يوم القيامة وما يلاقي فيها أهل الظلم والشر والفساد، وفي القرآن ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [سورة ص ٤٦].

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦، ٢٧]

(٢٦) ﴿اللَّهُمَّ﴾: يا الله حذف حرف النداء «يا» وعوِّض عنه الميم المشدَّدة وهو خاص بنداء الله تعالى. ﴿مَالِكَ﴾: المالك: الحاكم المتصرِّف يفعل في الملك ما يشاء ويحكم ما يريد لعظم سلطانه وقوة إرادته. ﴿الْمُلْكِ﴾: المملوك: والمقصود به ما سوى المالك عز وجل، من سائر الكائنات. ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾: السلطان والتصرف في بعض الملكوت.

(٢٧) ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾: تدخل الليل في النهار فلا يبقى ليل، وتولج النهار في الليل فلا يبقى نهار. تخرج الحي من الميت: أي تخرج جسمًا حيًا من جسم ميت في المحسوسات كالدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، ومن المعنويات تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]: بغير عدد ولا حد لواسع فضله وغناه عما سواه.

معنى الآيتين:

من المناسبات التي قيلت في نزول هاتين الآيتين: أن الرسول ﷺ لما أخبر أصحابه أن ملك أمته سيبلغ كذا وكذا في أحاديث صحاح سخر اليهود والمنافقون من إخبار الرسول ﷺ بذلك مستبعدين له غاية البعد لجهلهم وكفرهم فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين ضمن الرد على نصارى نجران فأمره أن يقول: ﴿اللَّهُمَّ[2] مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ..﴾ إلخ.. أمره أن يقول ذلك ليعطيه ما وعده به من اتساع ملك أمته حتى يشمل ملك فارس والروم، وليرد على ضلاّل النصارى في تأليه عيسى عليه السلام، إذ المعبود بحق المستحق للعبادة والتأليه دون سواه مَنْ هو مالك الملك كله، ويتصرف فيه وحده يؤتي منه ما يشاء لمن يشاء، وينزع ممن أعطاهم ما شاء ومتى شاء لا يحول دون تصرفه حائل، ولا يقف دون إعطائه أو نزعه واقف. يعز الذليل متى شاء ويذل العزيز متى شاء، بيده الخير[3] لا بيد غيره يُفيضه على من يشاء، ويمنعه عمّن يشاء وهو على كل شيء قدير. يولج النهار في الليل فلا يبقى نهار، ويولج الليل في النهار فلا يبقى ليل، مظهر من مظاهر القدرة الموجبة لألوهيته وطاعته ومحبته، ويدخل ساعات من الليل في النهار فيقصر الليل ويطول النهار، ويدخل

---

(١) الرزق: هو كل ما ينتفع به الإنسان فيطلق على الطعام على اختلافه من حبّ وتمر ولحم وعلى كل ما يحتاج إليه الإنسان في حفظ بنيته صالحة للعبادة.

(٢) ذكر القرطبي أن النضر بن شميل قال: من قال: اللّهم فقد دعا الله تعالى بجميع أسمائه كلها، وقال الحسن البصري: اللهم: تجمع الدعاء.

(٣) والشرّ بيده أيضًا وحذف لتطلب المقام ذلك نحو: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي: والبرد.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

٥٤

ساعات من النهار في الليل فيطول، مظهر من مظاهر الحكمة والقدرة والرحمة، يخرج الحي من الميت الإنسان من النطفة والنبتة من الحبة ويخرج الميت من الحي النطفة من الإنسان الحي، والبيضة من الدجاجة، والكافر الميت من المؤمن الحي، والعكس كذلك، هذه مظاهر ربوبيته المستلزمة لألوهيته فتقرر أنه الإله الحق، لا رب غيره ولا إله سواه، وبذلك تأكد أمران: الأول: أن الله قادر على إعطاء رسوله ﷺ ما وعده لأمته، وقد فعل، والثاني: أن عيسى لم يكن إلا عبدًا مربوبًا لله بالعبودية وشرّفه بالرسالة وأيده بالمعجزات.

هداية الآيتين:

١ - فضل الدعاء[1] بهاتين الآيتين بأن يقرأهما العبد ثم يقول: (رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منهما من تشاء، وتمنع من تشاء، اقض عني ديني) فإنه يقضى بإذن الله تعالى ويعطى إن سأل حاجة له من حوائج الدنيا والآخرة.

٢ - استجابة الله تعالى لرسوله ﷺ وإنجازه[2] ما وعده في أمته.

٣ - بطلان ألوهية عيسى عليه السلام وثبوت عبوديته ورسالته وكرامته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨ - ٣٠]

﴿٢٨﴾ ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾: لا يجعل.

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: جمع وليّ يتولونهم بالنصر والمحبة والتأييد. ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾[3]: أي بريء الله تعالى منه، ومن بريء الله منه هلك.

﴿تُقَىٰةً﴾[4]: وقاية باللسان وهي الكلمة الملينة للجانب، المبعدة للبغضاء.

﴿٣٠﴾ ﴿مُّحْضَرًا﴾: حاضرًا يوم القيامة. ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾: مدىً وغاية بعيدة. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾: أي يخوفكم عقابه إن عصيتم.

معنى الآيات:

﴿٢٨﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين أي أعوانًا وأنصارًا يبادلونهم المحبة والمناصرة على إخوانهم المؤمنين، وأعلمهم تعالى أن من يفعل ذلك فقد بريء الله تعالى منه

---

(١) أخرج أبو نعيم في الحلية أن معاذًا حبس يومًا عن صلاة الجمعة مع رسول الله ﷺ فسأله عما حبسه فقال: كان عليّ دين يوحنّا اليهودي فوقف عند بابي يرصدني فقال له النبي ﷺ: «**أتحبّ أن يقضي عنك ربّك؟**» قال: قلت: نعم، قال: «**اقرأ كل يوم** ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ **ثم قل رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منها من تشاء وتمنع من تشاء اقض عني ديني. فلو كان عليك ملء الأرض ذهبًا لأداه عنك**».

(٢) إذ لم يقبض الرسول ﷺ حتى دانت الجزيرة كلها بالإسلام ولم يمض ربع قرن حتى بلغ ملك أمته من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، ومن جملة ذلك دولة فارس والروم.

(٣) هذا نحو: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي: أهل القرية على حذف مضاف كذلك: ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: ليس في ولاية الله وحزبه في شيء.

(٤) قال ابن عباس: التقاة هي أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يقتل ولا يأتي مأثمًا، وقرىء: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ وقالوا في التقية: أن يكون المؤمن في دار الكفار قائمًا بينهم فله أن يداريهم بلسانه إذا كان خائفًا على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان. وأصل تقاة: وقية على وزن فعلة كتؤدة فقلبت الواو تاء وقلبت الياء ألفًا فصارت تقاة.

وذلك لكفره وردّته حيث والى أعداء الله وعادى أولياءه، فقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ[1] الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي بريء الله تعالى منه وانقطعت صلته وانبتّ حبل الولاية بينه وبين الله تعالى، ويا هلاكه، ثم رخص تعالى للمؤمنين المستضعفين الذين يعيشون تحت سلطان الكافرين في أن يعطوهم حلاوة لسانهم دون قلوبهم وأعمالهم[2] فيتقون بذلك شرهم وأذاهم، وذلك بكلمة المصانعة والمجاملة. قال تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ...﴾ ولما كان أمر البراء والولاء ذا خطر عظيم. قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي في أن تتخذوا أعداءه أولياء ضد أوليائه، وأخبرهم أن المصير إليه لا إلى غيره فليحذر العصاة من وقوفهم بين يدي الله فقال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

(٢٩) هذا ما تضمنته الآية الأولى (٢٨) وأما الآية الثانية (٢٩) فقد أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول للناس مؤمنهم وكافرهم ﴿..إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ ..﴾ من حب أو بغض، من رضىً أو سخط فلا تنطقوا به ولا تظهروه بحال من الأحوال، أو أن تظهروه بقول أو عمل أو حال، فإنه تعالى يعلمه ويعلم ما في السموات وما في الأرض، ويحاسب به ويجزيء عليه وهو على كل شيء قدير. ألا فليراقب الله العاقل وليتقه، فلا يقدم على معاصيه، وخاصة موالاة أعدائه على أوليائه.

(٣٠) وأما الآية الثالثة (٣٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ..﴾ ففيها يذكر تعالى عباده بيوم القيامة ليقصروا عن الشر ويرعَوُوا من الظلم والفساد فيقول اذكروا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا أي حاضرًا تجزى به، وما عملت من سوء وشر حاضرًا أيضًا ويسوؤها مرآه فتود بكل قلبها لو أن بينها وبينه غاية من المسافة لا تدرك وينهي تعالى تذكيره وإرشاده سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ مؤكدًا التحذير الأول به، ويختم الآية بقوله: والله رؤوف بالعباد، ونعم ما ختم به إذ لولاه لطارت قلوب العالمين فزعًا وخوفًا فذو الرأفة بعباده لا يُوأس من رحمته.

هداية الآيات:

١ - حرمة موالاة الكافرين[3] مطلقًا.

٢ - موالاة الكافرين على المؤمنين ردة وكفر وبراءة من الله تعالى.

٣ - جواز التقيّة في حال ضعف المؤمنين وقوة الكافرين.

٤ - وجوب الحذر من عذاب الله تعالى وذلك بطاعته تعالى.

٥ - خطورة الموقف يوم القيامة ووجوب الاستعداد له بالإيمان والتقوى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ ـ ٣٢]

(٣١) ﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾: لكمال ذاته وإنعامه عليكم. ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾: لطاعتكم إيّاه وطهارة أرواحكم بتقواه. يغفر لكم ذنوبكم: يسترها عليكم ولا يؤاخذكم بها.

(٣٢) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا عن الإيمان والطاعة.

معنى الآيتين:

لما ادعى وفد نصارى نجران أن تعظيمهم المسيح وتقديسهم له ولأمه إنما هو من باب طلب حب[4] الله تعالى بحب ما يحب وتعظيم ما يعظم، أمر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ في هذه الآية أن يقول لهم: إن كنتم تحبون الله تعالى ليحبكم فاتبعوني على ما جئت به من التوحيد والعبادة يحببكم الله تعالى،

---

(١) ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حرف الجر ﴿مِن﴾ لتأكيد الظرفية وهو تقييد للنهي في الظاهر فيكون المنهي عنه اتخاذ الكافرين أولياء دون المؤمنين، وهو المراد من الآية ولذلك صور منها: أن يتخذ المسلم أو المسلمون جماعة الكفر أولياء لهم ميلاً إلى كفرهم ومناوأة للمسلمين وهذه كفر بلا خلاف، ومنها أن يُوالي الكفار لأجل الإضرار بالمسلمين وهذه كالأولى، ومنها ما أذن فيها وهي التقية.

(٢) روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «إنا لنكشر في أقوام وقلوبنا تلعنهم» يريد المنافقين. والتكشير كالابتسام إلاّ أنه متكلف فيه.

(٣) أي: وإن لم يكن فيها ضرر للمسلمين، وما أذن فيه للتقية فإنه مؤقت ولا يجوز الاستمرار فيه إلاّ حال العجز عن الهجرة خشية أن يولد للمسلم أولاد فيوالون الكافرين وهم لا يعلمون أنّ ما كان عليه آباؤهم كان تقية لا غير.

(٤) الحُبُّ: المحبة، والحِبّ بالكسر كالحُبّ، والحِبُّ أيضًا المحبوب، ومنه الأثر: أسامة حِبّ رسول الله ﷺ وابن حبه: أي زيد مولى رسول الله ﷺ وورد حبه يحب ولم يأت اسم الفاعل منه حابّ كما لم يأت اسم المفعول مِن أحبّ محِبّ وإنما أتى محبوب.

ويغفر لكم ذنوبكم أيضًا وهو الغفور الرحيم. وبهذا أبطل دعواهم في أنهم ما ألّهوا المسيح عليه السلام إلا طلبًا لحب الله تعالى والحصول عليه. وأرشدهم إلى أمثل طريق للحصول على حب[1] الله تعالى وهو متابعة الرسول ﷺ على ما جاء به من الإيمان والتوحيد والعبادة المزكية للروح المورثة لحب الله تعالى وهذا ما تضمنته الآية الأولى (٣١). وأما الآية الثانية (٣٢) فقد أمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر وفد نصارى نجران وغيرهم من أهل الكتاب والمشركين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ إذ هما طريق الكمال والإسعاد في الدنيا والآخرة. فإن أبوا وأعرضوا أو تولوا فقد باؤوا بغضب الله وسخطه عليهم لأنهم كافرون والله لا يحب الكافرين، هذا معنى قوله تعالى: (٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝﴾.

هداية الآيتين:

١ - محبة العبد للرب تعالى واجب وإيمان لقول الرسول ﷺ: **«أحبوا الله تعالى لما يغذوكم به من النعم وأحبوني بحب[2] الله تعالى»**. وقوله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**.

٢ - محبة الله تعالى للعبد هي غاية ما يسعى إليه أولو العلم في الحياة.

(٣١) ٣ - طريق الحصول على محبّة الله تعالى للعبد هو اتباع النبي محمد ﷺ بالإيمان بما جاء به واتباع شرعه وطاعته في المَنْشَط والمكره، للآية ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ إذ ليس الشأن أن يُحِبَّ العبد، وإنما الشأن أن يُحبّ!

٤ - دعوى محبة الله ورسوله ﷺ مع مخالفة أمرهما ونهيهما دعوى باطلة وصاحبها خاسر لا محالة.

شرح الكلمات:
[الآية: ٣٣ ـ ٣٧]

(٣٣) ﴿اصْطَفَى آدَمَ﴾: اختار، وآدم هو أبو البشر عليه السلام. آل إبراهيم: آل الرجل أهله وأتباعه على دينه الحق. ﴿عِمْرَانَ﴾: رجل صالح من صلحاء بني إسرائيل في عهدهم الأخير هو زوج حنّة وأبو مريم عليهم السلام. ﴿الْعَالَمِينَ﴾: هم الناس المعاصرون لهم.

(٣٥) ﴿امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾: حَنَّة[3]. ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾: ألزمت نفسها أن تجعله لله يعبده ويخدم بيته الذي هو بيت المقدس. ﴿مُحَرَّرًا﴾[4]: خالصًا لا شركة فيه لأحد غير الله بحيث لا تنتفع به أبدًا.

(٣٦) ﴿مَرْيَمَ﴾: خادمة الرب تعالى. ﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾: أحصّنها وأحفظها بجنابك من الشيطان.

(٣٧) ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾: زكريا أبو يحيى عليهما السلام وكانت امرأته أختًا لحنّة. ﴿الْمِحْرَابَ﴾: مقصورة ملاصقة للمسجد. ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾: من أين لك هذا، أي من أين جاءك.

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: «**إنّ الله إذا أحبّ عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه قال: فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه قال: فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إنّ الله يبغض فلانًا فأبغضوه قال: فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض**».

(٢) الحبّ: الميل إلى ما في إدراكه لذة روحية كحب الله ورسوله ﷺ وحب ما يحب الله ورسوله ﷺ ويستلزم الحب طاعة المحبوب قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه — هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته — إنّ المحب لمن يحب مطيع

(٣٣) ﴿اصْطَفَى آدَمَ﴾، اصطفاء آدم كان بالوحي إليه وبإكرامه له بأن خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته واصطفاء نوح بإرساله وجعله أبًا للبشر بعد الطوفان وبإطالة عمره وإهلاك الظالمين بدعوته وآل إبراهيم بأن جعل النبوة بعد إبراهيم فيهم وختمهم بمحمد ﷺ فخرهم وسيد أوّلهم وآخرهم. واصطفى آل عمران ومنهم: حنّة ومريم، وعيسى، اصطفاهم بكمالات لم تكن لأحد في أيامهم سواهم.

(٣) هي حنّة بنت ماقودا مات زوجها وهي حبلى.

(٤) أي: خالصًا لعبادة الله لا تبقي به أنسالها ولا خدمة.

معنى الآيات:

(٣٣) لما ادّعى نصارى وفد نجران ما ادّعوه في المسيح عليه السلام من تأليهه وتأليه أمّه أنزل الله تعالى هذه الآيات يبيّن فيها مبدأ أمر عيسى وأمه وحقيقة أمرهما، فأخبر تعالى أنه اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران اصطفاهم لدينه واختارهم لعبادته ففضلهم بذلك على الناس.

(٣٤) وأخبر أنهم ذريّة[١] بعضهم من بعض لم تختلف عقائدهم، ولم تتباين فضائلهم وكمالاتهم الروحيّة وذلك لحفظ الله تعالى لهم وعنايته بهم.

(٣٥) وأخبر تعالى أنه سميع عليم أي سميع لقول امرأة عمران عليم بحالها لما قالت: ﴿.. رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ..﴾، وذلك أنها كانت لا تلد فرأت في حديقة منزلها طائرًا يطعم أفراخه فحنّت إلى الولد وسألت ربها أن يرزقها ولدًا وتجعله له يعبده ويخدم بيته فاستجاب الله تعالى لها فحملت ومات زوجها وهي حبلى وقالت ما قصّ الله تعالى عنها في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ[٢] لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥)﴾ وحان وقت الولادة فولدت ولكن أنثى لا ذكرًا فتحسّرت لذلك، وقالت:

(٣٦) ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ وكيف لا يعلم وهو الخلاّق العليم. وقالت: ﴿.. وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ..﴾ في باب الخدمة في بيت المقدس فلذا هي آسفة جدًا، وأسمت مولودتها مريم أي خادمة الله، وسألت ربها أن يحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم واستجاب الله تعالى لها فحفظها وحفظ[٣] ولدها عيسى عليه السلام فلم يقربه شيطان قط.

(٣٧) وتقبّل[٤] الله تعالى ما نذرته له وهو مريم فأنبتها نباتًا حسنًا فكانت تنمو نماءً عجيبًا على خلاف المواليد، وكفّلها زكريا فتربّت في بيت خالتها وذلك أن حنة لما وضعتها أرضعتها ولفّتها في قِمَاطها وبعثت بها إلى صلحاء بني إسرائيل يسندونها إلى من يرون تربيتها في بيته، لأن أمها نذرتها لله تعالى فلا يصح منها أن تبقيها في بيتها ووالدها مات أيضًا، فأحب كل واحد أن يكفلها فكفلها زكريا وأصبحت في بيت خالتها[٥] بتدبير الله تعالى لها، ولما كبرت أدخلها المحراب لتتعبد فيه، وكان يأتيها بطعامها، فيجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف فيعجب لذلك ويسألها قائلاً: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ فتجيبه قائلة: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ[٦] ٱللَّهِ﴾ وتعلل لذلك فتقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هداية الآيات:

١ - بيان إفضال الله تعالى وإنعامه على من يشاء.

٢ - بيان أن عيسى عليه السلام ليس بابن الله ولا هو الله، ولا ثالث ثلاثة بل هو عبدالله ورسوله، أمه مريم، وجدته حنّة، وجدّه عمران من بيت شرف وصلاح في بني إسرائيل.

٣ - استجابة الله تعالى لدعاء أوليائه كما استجاب لحنّة ورزقها الولد وأعاذ ابنتها وولدها من الشيطان الرجيم.

٤ - مشروعية[٧] النذر لله تعالى وهو التزام المؤمن الطاعة تقربًا إلى الله تعالى.

٥ - بيان فضل الذّكر على الأنثى

---

(١) ذرية: منصوب على الحال في الآية الكريمة، ولفظ الذرية يطلق على الواحد وعلى الجمع ويطلق على الولد والوالد، وهو مشتق من الذرء الذي هو الخلق فذرأ بمعنى خلق.

(٢) جريًا على سنتهم في نذر أولادهم الذكور لخدمة بيت المقدس.

(٣) أخرج مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**ما من مولود يولد إلاّ نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلاّ ابن مريم وأمّه**» ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

(٤) أي: رضيها منها وقبلها كالشيء يهدى للكريم فيقبله ويثيب عليه.

(٥) روي عن ابن عباس أن زكريا استأجر لها ظِئرًا فأرضعتها حولين كاملين.

(٦) تريد أنه يحصل لها بغير طريقة الأسباب المعروفة وإنّما يوضع بين يديها كرامة لها والله هو الرزاق لها سبحانه وتعالى.

(٧) ذكر القرطبي أن ولدًا قال لأمه: يا أمّه ذريني لله أتعبد له وأتعلم العلم له، فقالت: نعم فسار يتعبد ويطلب العلم فلما كمل في علمه وحاله أتاها فطرق الباب فقالت مَنْ؟ فقال: ابنك فلان، فقالت: قد تركتك لله فلا نعود فيك.

الجُزْءُ الثَّالِثُ — سُورَةُ آلِ عِمْرَان

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

٥٥

في باب النهوض بالأعمال والواجبات.

٦ ـ جواز التحسّر والتأسف لما يفوت العبد من الخير الذي كان يأمله.

٧ ـ ثبوت كرامات الأولياء كما تمّ لمريم في محرابها.

٨ ـ تقرير نبوة محمد ﷺ إذ مثل هذه القصص لا يتأتّى لأميّ أن يقصه إلا أن يكون رسولاً يوحى إليه. ولهذا ختمه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ ـ ٤١]

(٣٨) ﴿هُنَالِكَ﴾: ثَمّ عندما[1] رأى كرامة الله لمريم عليها السلام.

﴿زَكَرِيَّا﴾: أحد أنبياء بني إسرائيل ورسلهم.

﴿هَبْ لِي﴾: أعطني.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾: من عندك.

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾: أولادًا أطهارًا صالحين.

(٣٩) ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: هي عيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله تعالى «كُن». ﴿وَسَيِّدًا﴾[2] ﴿وَحَصُورًا﴾[3]: شريفًا ذا عِلْم وحلم، ولا رغبة له في النساء لقلة مائه.

(٤٠) ﴿غُلَٰمٌ﴾: ولد ذكر.

﴿عَاقِرٌ﴾[4]: عقيم لا تلد لعُقمها وعُقرها.

(٤١) ﴿ءَايَةً﴾: علامة أستدل بها على بداية الحمل لأشكر نعمتك.

﴿إِلَّا رَمْزًا﴾: إلا إشارة بالرأس أو باليد يفهم منها ما يفهم من الكلام.

الإبكار: أول النهار، والعشي آخره.

معنى الآيات:

(٣٨) لما شاهد زكريا من كرامات الله لمريم أنها تُؤتَى بفاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ذكر أن الله تعالى قد يعطي ما شاء لمن يشاء على غير نظام السنن الكونيّة فكبر سِنّه وعُقم امرأته لا يمنعان أن يعطيه الله تعالى ولدًا.

(٣٩) فسأل ربّه الولد فاستجاب[5] له ربّه فبشرته الملائكة بالولد وهو قائم يصلي في محرابه قائلة إن الله يبشرك بولد اسمه يحيى[6] مصدّقًا بكلمة من الله يريد أنه يصدق بعيسى ابن مريم ويكون على نهجه، لأن عيسى هو الكلمة إذ كان بقول الله تعالى له

---

(١) أي: في ذلك المكان وهو المحراب تنبّه إلى الدعاء لما شاهد من خوارق العادات فدعا طالبًا الولد فاستجاب الله تعالى له، ولا يقال: كيف يأخذ الرسول على مَنْ دونه ومن امرأة بالذات؟ فإن الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها، وأهل الكمال من الناس يعتبرون دائمًا بما يرون ويسمعون.

(٢) السيد في عرف الشرع: من يقوم بإصلاح حال الناس في دنياهم وأخراهم معًا وشاهده قوله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»** وقوله في الحسن: **«إن ابني هذا سيد»**.

(٣) قال المفسرون في الحصور أقوالاً كثيرة أمثلها أنه كان معصومًا من الفواحش والقاذورات وغير مانعه ذلك من تزويج النساء الحلال وغشيانهم وإيلادهن، إذ يفهم من دعاء زكريا المتقدم أنه يكون له أولاد طيبون صالحون.

(٤) مأخوذ من عقرت المرأة رحمها أي: قطعتها فلم تحبل ولم تلد وهو وصف خاص بالنساء فلذا يقال: عاقر ولا يلبس، إذ لا يوجد في الرجال عاقر حتى يفرق بينهما بالتاء.

(٥) الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هي للترتيب أي: فور دعائه استجاب الله تعالى له وفيها معنى السببية أيضًا: أي: بسبب دعائه أعطاه، والله على ما يشاء قدير.

(٦) يحيى: معرب يوحنا بالعبرانية نطق بها العرب على صيغة المضارع.

«كُن» فكان، ووصفه بأنّه سيد ذو علم وحِلم وتقىً وحصور لا يأتي[1] النساء، ونبيٌّ من الصالحين.

﴿٤٠﴾ فلما سمع البشارة من الملائكة جاءه الشيطان وقال له: إن الذي سمعته من البشرى هو من الشيطان ولو كان من الرحمٰن لأوحاه إليك وحيًا، وهنا أراد زكريا أن يتثبت من الخبر فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؟ فأوحى إليه: أن هذا فعل الله والله يفعل ما يشاء.

﴿٤١﴾ وهنا قال زكريا: رب اجعل لي آية، يريد علامة يستدل بها على وجود الحمل ليستقبل النعمة بالشكر فأجابه ربه قائلًا: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ يريد أنك تصبح وأنت عاجز عن الكلام لمدة ثلاثة أيام، فلا تقدر أن تخاطب أحدًا إلا بالإشارة وهي الرمز فيفهم عنك، وأمره تعالى أن يقابل هذا الإنعام بالشكر التام فقال له: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ[2] كَثِيرًا وَسَبِّحْ﴾ يريد صلِّ بالعشي آخر النهار والإبكار أوله.

هداية الآيات:

١ - الاعتبار بالغير، إذ زكريا دعا بالولد لما رأى كرامة الله تعالى لمريم.

٢ - مشروعية الدعاء وكونه سرًا أقرب إلى الإجابة، وكونه في الصلاة كذلك.

٣ - جواز تلبيس إبليس على المؤمن، ولكن الله تعالى يذهب كيده ووسوسته.

٤ - جواز سؤال الولد الصالح.

٥ - كرامات الله تعالى لأوليائه - باستجابة دعاءهم.

٦ - فضل الإكثار من الذكر، وفضيلة صلاتي الصبح والعصر. وفي الحديث: **«من صلى البردين دخل الجنة»**.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٢ ـ ٤٤]

﴿٤٢﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أذكر لوفد نصارى نجران ما قالت الملائكة فإن ذلك دليل على صحة نبوّتك، وصدقك في أمر التوحيد، وعدم ألوهية عيسى. ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾: اختارك لعبادته وحسن طاعته. ﴿وَطَهَّرَكِ﴾: من الذنوب وسائر النقائص المخلة بالولاية لله تعالى. ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]: أي فضّلك على نساء العالمين بما أهّلك له من كرامة ولادة عيسى من غير أب.

﴿٤٣﴾ ﴿ٱقْنُتِى﴾[4]: أطيعي ربك واقنتي له واخشعي. ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾: اشهدي صلاة الجماعة في بيت المقدس.

﴿٤٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾: أي ما ذكرت من قصة مريم وزكريا من أخبار الغيب. ﴿لَدَيْهِمْ﴾: عندهم وبينهم. ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾[5]: جمع قلم وهو ما يكتب به وإلقاؤها لأجل الاقتراع بها على كفالة مريم. ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾: في شأن كفالة مريم عليها وعليهم السلام.

معنى الآيات:

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٣﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ اذكر لوفد نجران الذين يحاجونك في ألوهية المسيح إذ قالت الملائكة مخاطبة مريم أم المسيح بما أهّلها الله تعالى له وأكرمها به من

---

(١) هذا قول الجمهور وقد تقدّم في النهر ما هو أمثل ما قيل في الحصور: مراعاةً لكمال الأنبياء وعلو مقاماتهم.

(٢) روي عن كعب القرظي قوله: لو رُخّص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا إذ جعل له آية الولد له ألاّ يكلم الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزًا ولم يعفه من الذكر بل أمره بقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ ولرخص للرجل في الحرب إذ قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

(٣) قيل في سبب لقبها بالصدّيقة: أنها لم تسأل الآية عندما بشرت بالولد كما سألها زكريا عليه السلام، وأثنى عليها بقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

(٤) روي عن الأوزاعي أنه قال: لمّا أمر تعالى مريم بالقنوت قامت في الصلاة حتى ورمت قدماها، وسالت دَمًا وقيحًا.

(٥) ألقوها في نهر الأردن وهو نهر جارٍ وأفادت هذه الآية مشروعية القرعة وأنها وإن كانت في شرع مَنْ قبلنا إلاّ أنها شرعت لنا على لسان رسول الله ﷺ إذ كان ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها وكذا حديث: **«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»**.

اصطفاء[1] الله تعالى لها لتكون من صالحي عباده، وتطهيره إياها من سائر الذنوب والنقائص والعيوب مفضلًا لها على نساء عالمها حيث برأها وأكرمها وأظهر آية قدرته فيها فولدت عيسى بكلمة الله وليس على سنته تعالى في تناسل البشر من ذكر وأنثى، وأمرها بمواصلة الطاعة والإخبات والخشوع لله تعالى فقال: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى[2] وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ[3] ﴿٤٣﴾﴾، وخص الصلاة بالذكر لأهميتها وذكرها بأعظم أركانها وهو السجود والركوع وفي بيت المقدس مع الراكعين.

(٤٤) هذا معنى الآيتين الأولى (٤٢) والثانية (٤٣). أما الآية الثالثة (٤٤) فقد خاطب الرب تبارك وتعالى رسوله محمدًا ﷺ مُشيرًا إلى ما سبق في هذا القصص المتعلق بآل عمران حنة ومريم وزكريا ويحيى ومريم أخيرًا بأنه كله من أنباء الغيب وأخباره يوحيه تعالى إليه فهو بذلك نبيّه ورسوله ﷺ، وما جاء به من الدين هو الحق، وما عداه فهو باطل، وبذلك تقرّر مبدأ التوحيد، وأنه لا إله إلا الله، وبطل باطل أهل الكتاب فلا عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا هو إله إلا الله، وإنما هو عبدالله ورسول الله. ثم تقريرًا لمبدأ الوحي وتأكيدًا له. قال تعالى لرسوله ﷺ أيضًا: وما كنت لديهم، أي عند علماء بني إسرائيل وصلحائهم وفي حضرتهم، وهم يقترعون على النذيرة «مريم» من يكفلها فرموا بأقلامهم في النهر فمن وقف قلمه في الماء كان كافلها بإذن الله فألقوا أقلامهم، تلك الأقلام التي كانت تكتب الحق والهدى لا الباطل والضلال كما هي أغلب أقلام أرباب الصحف والمجلات اليوم، فوقف قلم زكريا ففاز بكفالتها[4] بإذن الله تعالى. وقد تقدم قول الله تعالى فكفلها زكريا، بهذا قامت الحجة على أهل الكتاب وغيرهم بأنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا ﷺ رسول الله، وأن الدين الحق هو الإسلام. وما عداه فباطل وضلال!

هداية الآيات:

١ - فضل مريم عليها السلام وأنها وليّة صديقة وقد أخبر النبي ﷺ أنها من كمّل النساء ففي الصحيح «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء[5] إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**».

٢ - أهل القرب من الله هم أهل طاعته القانتون له.

٣ - الصلاة سلم العروج إلى الملكوت الأعلى.

٤ - ثبوت الوحي المحمدي وتقريره.

٥ - مشروعية الاقتراع عند الاختلاف وهذه وإن كانت في شرع من قبلنا إلا أنها مقررة في شرعنا والحمد لله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٥ ـ ٤٧]

(٤٥) ﴿يُبَشِّرُكِ﴾: يخبرك بخبر سار مفرح لك. ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾[6]: هو المسيح عليه السلام وسمي كلمة لأنه كان بكلمة الله تعالى.

---

(١) اختلف في نبوة النساء ورجح كثيرون نبوة مريم لخطاب الملائكة لها وإخبارهم باصطفاء الله تعالى لها وهذا يرجح نبوتها. أما الرسالة فلا لأن الرسالة تتطلب الاتصال بالرجال وهذا يتنافى مع كمال النساء وما خلقن له من الستر والحجاب.

(٢) قدم السجود على الركوع في الذكر وإن كان مؤخرًا في الفعل لأنه ألصق بالشكر والمقام مقام شكر.

(٣) فيه دليل على صلاة المرأة في الجماعة وقد سن ذلك رسول الله ﷺ في مثل قوله: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**» وإن كان قوله: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ لا يستلزم الصلاة في جماعة إذ هو أمر بالركوع فقد تركع وحدها أو مع غيرها.

(٤) قال القرطبي دلت هذه الآية: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ على أنّ الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدة. وقد قضى رسول الله ﷺ في ابنة حمزة «أمة الله» لجعفر لأنّ خالتها كانت تحته. وقال ﷺ: «**إنّما الخالة بمنزلة الأم**».

(٥) وفي رواية أخرى: «**خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ**».

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ ذهب القرطبي إلى أنّ كلمة ربّ تعني سيدي أي: جبريل، وهو خطأ واضح بل المراد به الربّ تبارك وتعالى فهي تخاطب ربّها طالبة معرفة سبب الولد إذ الأسباب المعتادة لم تكن فكيف يكون الولد؟

(٦) المراد بكلمة هو كلمة التكوين ووصف عيسى بكلمة: مرادٌ به كلمة خاصة وهي كلمة ﴿كُن﴾.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

٥٦

﴿٤٧﴾ ﴿كُن﴾. ﴿الْمَسِيحُ﴾[(١)]: لقب عيسى عليه السلام ومن معانيه الصديق. الوجيه: ذو الجاه والقدر والشرف بين الناس.

﴿٤٦﴾ ﴿فِي الْمَهْدِ﴾: المهد مضجع الصبي وهو رضيع. ﴿وَكَهْلًا﴾: الكهولة سنّ ما بين الشباب والشيخوخة.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾: تريد لم يقربها ذكر لا للوقاع ولا لغيره، وذلك لعقمها وبعدها عن الرجال الأجانب. ﴿قَضَىٰ أَمْرًا﴾: أراده وحكم بوجوده.

معنى الآيات:

﴿٤٥﴾ ما زال السياق الكريم في حِجَاج وفد نصارى نجران إذ قال الله تعالى لرسوله ﷺ واذكر[(٢)] لهم إذ قالت الملائكة يا مريم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ الآية، حيث أخبرتها الملائكة أي جبريل عليه السلام بأن الله تعالى يبشرها بولد يكون بكلمة الله تعالى اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وأنه ذو جاه وشرف في الدنيا وفي الآخرة ومن المقربين.

﴿٤٦﴾ وأنه يكلم الناس وهو في مهده وقت رضاعه، كما يكلمهم في شبابه وكهولته[(٣)]، وأنه من الصالحين الذين يؤدون حقوق الله تعالى وحقوق عباده وافية غير منقوصة فردت مريم قائلة:

﴿٤٧﴾ ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ أي كيف يكون لي ولد ولم يَغْشَني بشر بجماع، وسنة الله في خلق الولد الغشيان، فأجابها جبريل قائلًا: الأمر هكذا سيخلق الله تعالى منك ولدًا من غير أب، وهو سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء، وإذا حكم بوجود شيء من غير ذوات الأسباب فإنما يقول له كن فهو يكون كما قضى الله تعالى وأراد.

هداية الآيات:

١ - بيان شرف مريم وكرامتها على ربها إذ كلمها جبريل وبشّرها بعد أن تمثّل لها بشرًا.

٢ - بيان شرف عيسى عليه السلام ووجاهته في الدنيا والآخرة وأنه من المقربين والصالحين.

٣ - تكلم عيسى في المهد[(٤)] آية من آيات الله تعالى حيث لم تجر العادة أن الرضيع يتكلم في زمان رضاعه.

٤ - جواز طلب الاستفسار[(٥)] عما يكون مخالفًا للعادة لمعرفة سرّ ذلك أو علته أو حكمته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٨ ـ ٥١]

﴿٤٨﴾ ﴿الْكِتَابَ﴾: الخط والكتابة. الحكمة: العلم الصحيح والإصابة في الأمور وفهم أسرار التشريع الإلهي.

﴿٤٩﴾ ﴿وَرَسُولًا﴾: أي وابعثه رسولاً. آية: علامة دالة على رسالته وصدق

---

(١) اختلف في سبب تلقيب عيسى بالمسيح، والمشهور أنه لقب تشريف كالفاروق مثلًا أو الملك أو الصديق، وأمّا عيسى فهو معرب أيشوع ومعناه: السيد، وهل المسيح مشتق من المسح؟ وهل هو بمعنى الماسح أو الممسوح؟ خلاف.

(٢) إذ الظرفية هنا بدل مِن نظيراتها السابقة وهي معمولة لفعل محذوف أي: اذكر.

(٣) ذكر الكهولة هنا تطمين لأمه أنّه لا يموت صغيرًا وتكليمه في الكهولة يكون بعد نزوله من السماء لأنه عليه السلام رفع مع نهاية سنّ الشباب وهو ثلاثة وثلاثون سنة لا غير.

(٤) لقد تكلم في المهد غير واحد، منهم شاهد يوسف، وصاحب جريج وكلام عيسى في المهد هو قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ الآية في سورة مريم.

(٥) هذا من قولها: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ الآية.

نبوته. ﴿أَخْلُقُ لَكُم﴾: أي أصور لكم، لا الخلق الذي هو الإنشاء والاختراع إذ ذاك لله تعالى. ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾[1]: كصورة الطير. ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: الذي ولد أعمى. الأبرص: ذو البرص وهو مرض عَياء عجز عنه الطب القديم والحديث، والبرص بياض يصيب الجلد البشري. ﴿تَدَّخِرُونَ﴾: تحبسونه وتخفونه عن أطفالكم من الطعام وغيره.

(٥٠) ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾: من قبلي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾: إلهي وإلهكم فاعبدوه.

معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان حقيقة عيسى عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله وليس بابن الله ولا بإله مع الله، فأخبر تعالى أنه يخلقه بكلمة كن ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وقد فعل، وأنه يبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل وقد فعل فأخبرهم عيسى أنه قد جاءهم بآية من ربهم تدل على صدق رسالته وهذه الآية[2] هي أنه يخلق لهم من الطين على صورة الطير وينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وأنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وفعلاً كان يمسح على ذي العاهة المستعصاة كالبرص فيبرأ صاحبها فورًا، وطلبوا منه أن يحيي لهم سام بن نوح[3] فأحياه بإذن الله، وأنه يخبرهم بما يأكلون في بيوتهم وما يدّخرون فما يخطىء أبدًا، ثم قال لهم: إن في ذلك المذكور لآية لكم دالة على صدقي إن كنتم مؤمنين فآمنوا بي ولا تكذبوني وقد جئتكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة، ولأحل لكم بعض الذي حرم[4] عليكم، وفي ذلكم خير لكم ورحمة فآمنوا بي، فكذبوه فقال لهم: اتقوا الله وأطيعوني تنجوا وتسعدوا وأعلمهم أخيرًا أن الله تعالى هو ربّه وربهم وأن عليهم أن يعبدوه ليكملوا ويسعدوا وأن عبادة الله تعالى وحده وبما شرع هي الصراط المستقيم المفضي بالسالكين إلى الكمال والإسعاد في الحياتين.

هداية الآيات:

١ - شرف الكتابة وفضلها.

٢ - فضل الحكمة[5] وهي الفقه في أسرار الشرع والإصابة في الأمور.

٣ - الغيب للّه، ويعلم أنبياءه منه ما يشاء.

٤ - ثبوت معجزات عيسى عليه السلام.

٥ - لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله، وعيسى كلمة الله وروح منه ورسول إلى بني إسرائيل.

٦ - الأمر بالتقوى وطاعة الرسول ﷺ لتوقف السعادة والكمال عليهما.

شرح الكلمات: [الآية: ٥٢ - ٥٨]

(٥٢) ﴿أَحَسَّ[6] عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾: علم منهم الكفر به وبما جاء به، وهمهم بأذيته. ﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾[7]:

---

(١) قيل: اليهود هم الذين طلبوا أن يخلق لهم خفاشًا لأنه أعجب من سائر الخلق ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور وله لبن يرضع به أولاده ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض كما تحيض المرأة ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل وإنّما يبصر في ساعتين بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وحّد آية وهي آيات لأنها جنس كنعمة بمعنى جنس النعم والمراد من الآية ما تقدم في قوله: ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ إلخ..

(٣) روي أنه أحيا لهم أربعة وهم سام بن نوح، والعاذر وكان صديقًا له، وابن العجوز وابنة العاشر.

(٤) هو ما حرّمه الله عليهم على عهد موسى من أكل الشحوم ونحوها، أمّا ما كان محرّمًا أصلاً لضرورة فلا يحله لهم وذلك كالسرقة والقتل والزنا والربا فإنه لا يحله لهم أبدًا.

(٥) يكفي الحكمة شرفًا وفضلاً قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وقول الرسول ﷺ: **«ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»**.

(٦) أحس بالشيء: عرفه وعلمه بواسطة الحاسة والحواس: السمع والبصر واللّسان واليدان والشم، والإحساس: العلم بالشيء، والحسّ: القتل يقال حسه إذا قتله.

(٧) كانوا اثني عشر رجلاً، وسمي الناصر للنبي حواريًا لبياض قلبه وصفاء روحه، وفي الحديث: **«لكلّ نبي حواري وحواريّ الزبير»** والحَور لغة البياض، والحوُاري الخبز الأبيض.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

٥٧

جمع حواري، والمراد بهم أصفياؤه وأصحابه. ﴿مُسْلِمُونَ﴾: منقادون لأمر الله ورسوله ﷺ مطيعون.

﴿٥٣﴾ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: الذين يشهدون أن لا إله إلا الله، ويعبدونه بما يجب أن يعبد به.

﴿٥٤﴾ ﴿وَمَكَرُوا۟﴾: دبروا القتل للمسيح عليه السلام. ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: دبّر تعالى لإنجائه وخيَّبهم فيما عزموا عليه. ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: أحسن المدبرين لإنقاذ أوليائه وإهلاك أعدائه.

﴿٥٥﴾ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: متمم لك ما كتبت لك من أيام بقائك مع قومك. ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾: إلى جواري في الملكوت الأعلى. ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾: منزهك ومبعدك من رجسهم وكفرهم.

﴿٥٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾: ذلك المذكور من أمر عيسى نقرؤه عليك من جملة آيات القرآن الحكيم.

معنى الآيات:

﴿٥٢﴾ ما زال السياق الكريم في الحِجاج مع وفد نصارى نجران فذكر تعالى من شأنه أنه لما علم عيسى بكفر قومه وهمِّهم بقتله غيلة استصرخ المؤمنين قائلاً: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ[(١)] إِلَى ٱللَّهِ﴾ فأجابه الحواريون وهم أصفياؤه وأحباؤه قائلين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ آمنا بالله واشهد يا روح الله بأنا مسلمون

﴿٥٣﴾ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا[(٢)] ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لك بالوحدانية ولرسلك بالرسالة.

﴿٥٤﴾ قال تعالى: ونفذ اليهود مكرهم في محاصرتهم منزل عيسى ليأخذوه ويصلبوه، ومكر الله تعالى وهو خير الماكرين إذ قال لعبده ورسوله عيسى إني متوفيك أي قابضك ورافعك إلى جواري، فقبضه تعالى فأخرجه من رَوزنَة[(٣)] المنزل ورفعه[(٤)] إليه وألقى الشبه على رئيس شرطة المهاجمين فظنوه هو المسيح فقتلوه وصلبوه فسبحان المدبر الحكيم، وهكذا ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ[(٥)]﴾

﴿٥٥﴾ - ﴿٥٦﴾ وقوله له: ومطهرك من الذين كفروا يريد منزهه من تهم اليهود الباطلة إذ قالوا ساحر وابن زنى، ومبعده من ساحة مجتمعهم الذي تعفن بكفرهم والخبث والشر والفساد، وواعده بأنه سيجعل الذين اتبعوه فيما جاء به من الإيمان والإسلام والإحسان فوق الذين كفروا بذلك إلى يوم القيامة وقد أنجز الله تعالى وعده فأعزّ أهل

---

(١) هل (إلى) هنا بمعنى مع، أي: مَنْ أنصاري مع الله؟ ونظيره ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: مع أموالكم أو هي على بابها، ويكون الكلام: «مَنْ أنصاري» في الطريق إلى الله؟

(٢) أي: عيسى عليه السلام.

(٣) الروزنة: الكوة في السقف أو الجدار.

(٤) لم أر داعيًا إلى استشكال الكثيرين رفع عيسى حيًا إلى الملكوت الأعلى وإبقائه هناك إلى أن ينزله في آخر أيام هذه الدنيا حيث صرّح رسول الله ﷺ بنزول عيسى بما لا مجال للشكّ فيه، إنّ السنن الكونية خلقها الله تعالى فهو قدير على تبديل ما شاء منها أليس الله على كل شيء قدير؟ بلى فلِمَ إذًا يرتبك المؤمنون في شأن رفع عيسى حيًا وإبقائه في دار السلام حيًا حتى ينزل في آخر الدنيا؟

(٥) ورد أنّ النبي ﷺ كان يقول في دعائه: **«اللهم امكر لي ولا تمكر علي»** ومما يجب أن يُعلم أنّ أفعال الله لا تشبه أفعال العباد لأنّ ذاته لا تشبه ذواتهم.

الإسلام ونصرهم، وأذلّ اليهود والكفار وأخزاهم. كما واعده أيضًا أن يرد الجميع إليه يوم القيامة ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه في الدنيا من الإيمان والكفر، والصلاح والفساد ويجزي كل فريق بما كسب من خير أو شر فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا بالقتل والسباء والذلة والمسكنة، وفي الآخرة بعذاب النار، وما لهم من ناصرين يخلصونهم من عذابنا.

(٥٧) ـ (٥٨) وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجور إيمانهم وصالح أعمالهم في الدنيا نصرًا وتمكينًا وفي الآخرة جنّات ونعيمًا، والله عز وجل لا يحب الظالمين فكيف يظلم عباده إذ جازاهم بأعمالهم؟ إنه لا يظلم أحدًا من عباده مؤمنهم وكافرهم مثقال ذرة بل يجزي بعدله ويرحم بفضله.

هداية الآيات:

١ - قيام الحجّة على نصارى نجران إذ أخبرهم الرسول ﷺ بالوحي فقرّر به بطلان ألوهية عيسى عليه السلام بذكر أوصافه وأحواله مع قومه، وكرامة الله تعالى له، ولأتباعه معه ومن بعده في الدنيا والآخرة.

٢ - الإسلام دين الأنبياء وسائر الأمم البشرية ولا دين[١] حق غيره فكل دين غيره باطل.

٣ - تقرير حديث الرسول ﷺ في أن لكل نبيّ حواريين[٢] وأنصارًا.

٤ - فضل أهل لا إله إلا الله إذ هم الشاهدون بالحق والناطقون به.

٥ - تقرير قبض الله تعالى لعيسى ورفعه إليه حيًا. ونزوله في آخر الدنيا ليحكم زمنًا ثم يموت الموتة التي كتب الله على كل إنسان، فلم يجمع الله تعالى له بين موتتين. هذا دليل أنه رفع إلى السماء حيًّا لا ميّتًا.

٦ - صادق وعد الله تعالى بعزة أهل الإسلام، وذلة اليهود على مدى الحياة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٩ ـ ٦٣]

(٥٩) المثل[٣]: الصفة المستغربة البديعة.

(٦٠) ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: أي ما قصصناه عليك في شأن عيسى[٤] هو الحق الثابت من ربك. ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾: الشاكين، إذ الامتراء: الشك.

(٦١) ﴿حَاجَّكَ﴾: جادلك بالحجج. ﴿نَبْتَهِلْ﴾: نلتعن أي نلعن الكاذب منا.

(٦٢) ﴿الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾: ما قصه الله تعالى هو القصص الحق الثابت الذي لا شك فيه.

(٦٣) ﴿بِالْمُفْسِدِينَ﴾: الذين يعملون بمعاصي الله تعالى في الأرض من الشرك وكبائر الذنوب.

معنى الآيات:

(٥٩) ما زال السياق الكريم في تقرير عبوديّة عيسى ورسالته دون ربوبيّته وألوهيته، فقد روي أن وفد نجران قالوا للرسول ﷺ فيما قالوا: كل آدمي له أبٌ فما شأن عيسى لا أب له؟ فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن﴾ فإذا هو كائن فأيّ داع لاتخاذ عيسى إلهًا، ألكونه خلقه الله من غير أب فآدم كذلك خُلق بدون أب ولا أم، وإنما كان بكلمة الله، فكذلك عيسى خُلق بكلمة الله التي هي «كُنْ» فكان.

(٦٠) هذا هو الحق الثابت من الله تعالى في شأن عيسى عليه السلام فلا تكونن من الشاكين فيه، وحاشاه ﷺ أن يشك[٥].

(٦١) ولما أكثروا عليه ﷺ من التردد

---

(١) تقدم شاهده في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

(٢) تقدّم الحديث آنفًا وهو حديث صحيح.

(٣) المماثلة الحاصلة بين آدم وعيسى عليهما السلام في شيء واحد وهو: أن كُلًا منهما خلق من غير أب وخلق بكلمة التكوين وهي كُنْ.

(٤) وهو أن الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام فنفخ في كُم درع مريم فسرت النفخة فيها فحملت بعيسى وولدته في ساعة من نهار وتكلم بعد وضعها له وطمأن والدته وأرشدها إلى ما تقوله لمن يتصدى لها يعيبها. وحاصله أنه كان بكلمة التكوين وهي كن كما كان آدم بها فلا أب له ولا أمّ.

(٥) إنّ الخطاب وإن كان موجهًا إلى النبي ﷺ فإن المراد غيره من سائر الناس الذين يتأتّى لهم الشك أمّا هو فإنه المعصوم مما هو أقل من الشك الذي هو كفر.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

٥٨

والمجادلة أرشده ربه تعالى إلى طريق التخلص منهم وهو المباهلة بأن يجتمعوا ويقول كل فريق: اللهم العن الكاذب منا، ومن كان كاذبًا منهم يهلك على الفور فقال له ربّه تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ . .﴾ (هلموا) ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا﴾[١] وخرج في الغد رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين وفاطمة رضي الله عنهم[٢] أجمعين إلا أن النصارى عرفوا الحق وخافوا إن لاعنوا هلكوا فهربوا[٣] من الملاعنة، ودعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام فأبوا ورضوا بالكفر إبقاء على زعامتهم ودنياهم ورضوا بالمصالحة فالتزموا بأداء الجزية للمسلمين والبقاء على دينهم الباطل. ﴿٦٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ[٤] ٱلْحَقُّ﴾ بالذي قصصناه عليك في شأن عيسى عليه السلام، وإنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنه لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا هو تعالى، وإن الله لهو العزيز الغالب الذي لا يمانع في شيء أراده، الحكيم في خلقه وتدبيره. ﴿٦٣﴾ ثم توعد نصارى نجران وغيرهم من أهل الفساد في الأرض بأنه عليم بهم وسوف يحل نقمته بهم، وينزل لعنته عليهم وهو على كل شيء قدير.

هداية الآيات:

١ - ولاية الله تعالى لرسوله ﷺ بإرشاده إلى الطريقة التي أنهى بها جدال النصارى الذي آلمه وأتعبه.

٢ - مشروعية المباهلة غير أنها تكون في الصالحين الذين يستجاب لهم.

٣ - تقرير ألوهية الله تعالى دون سواه وبطلان دعوى النصارى في تأليه عيسى عليه السلام.

٤ - تهديد الله تعالى لأهل الفساد في الأرض وهم الذين يعملون بالشرك والمعاصي.

شرح الكلمات:
[الآية: ٦٤ ـ ٦٨]

﴿٦٤﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارى، لأن اليهود عندهم التوراة والنصارى عندهم الإنجيل. ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾[٥]: الكلمة السَّواء هي العادلة وهي أن نعبد الله وحده لا شريك له ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله. ﴿أَرْبَابًا﴾[٦]: الأرباب جمع ربّ وهو المألوه المطاع بغير طاعة الله تعالى. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾: أعرضوا عن التوحيد. ﴿ٱشْهَدُوا۟﴾: اعلموا علم رؤية ومشاهدة بأنا مسلمون.

(١) في هذا دليل على أن أبناء البنات يطلق عليهم أبناء ويسمون بذلك.

(٢) أنه قال لهم: أي: لعليّ وفاطمة والحسن والحسين **«إن أنا دعوت فأمّنوا»** أي: قولوا بعدي: آمين.

(٣) في هروب نصارى نجران (وهم علماء) من الملاعنة دليل قاطع على أنّ محمدًا ﷺ رسول الله وأنّ دينه هو الدين الحق وما عداه باطل.

(٤) القصص اسم لما يقصّ وهو الإخبار بما فيه طول وتفصيل، مشتق من قص الأثر إذا تتبعه.

(٥) كلمة سُوىً، وسوى، وسواء، بمعنى واحد إلاّ أنّ السين إذا فتحت مدّت.

(٦) نظيرها قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معناه: أنهم أنزلوهم منزلة ربهم في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمه الله ولم يحلله، وسجدوا لهم أيضًا.

(٦٥) ﴿تُحَاجُّونَ﴾: تجادلون بحجج[١] باطلة.
(٦٧) ﴿يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾: لم يكن إبراهيم على ملة اليهود، ولا على ملة النصارى. ﴿كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾: مائلاً عن الملل الباطلة إلى ملة الحق وهي الإسلام.
(٦٨) ﴿أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾: أحق بالنسبة إلى إبراهيم وموالاته الذين اتبعوه على التوحيد. ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متولي أمرهم وناصرهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في إبطال باطل أهل الكتابين إذ قال تعالى لرسوله ﷺ: قل لهم يا أهل الكتاب من يهود ونصارى تعالوا ارتفعوا من وهدة الباطل التي أنتم واقعون فيها إلى كلمة سواء كلمة عدل نصف بيننا وهي أن نعبد الله وحده لا نشرك به سواه وأن لا يتخذ بعضنا[٢] بعضًا أربابًا من دون الله فيفرض طاعته على غيره[٣] ويلزمه بالسجود له تعظيمًا وتقديسًا، فإن أبوا عليك ذلك وتولوا عنه فقولوا أيها المؤمنون: اشهدوا أيها المتولون عن الحق بأنا مسلمون. وفي هذا تعريض بل تصريح بأن غيرهم ليسوا مسلمين.

هذا معنى الآية الأولى (٦٤) أما الآية الثانية (٦٥) فيأمر تعالى رسوله ﷺ أيضًا أن يقول للمتولين عن الحق: يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في شأن إبراهيم وتدّعي كل طائفة منكم أن إبراهيم كان على دينها مع أن اليهودية ما كانت إلا بعد نزول التوراة، والنصرانية ما كانت إلا بعد نزول الإنجيل، وإبراهيم كان قبل نزول الكتابين بمئات السنين، ما لكم تقولون بما لا يقبل ولا يعقل أفلا تعقلون؟ ثم وبّخهم بما هم أهله قائلاً لهم: اسمعوا يا هؤلاء أنتم جادلتم فيما لكم به علم في شأن دينكم وكتابكم فلمَ تجادلون فيما ليس لكم به علم في شأن إبراهيم وملته الحنيفية التي قامت على مَبْدءِ التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، والله يعلم من شأن إبراهيم ودينه ما لا تعلمون أنتم فليس من حقكم القول فيما لا تعلمونه. ثم أكْذبهم بعد أن وبخهم فقال: ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا وإنما كان حنيفًا موحّدًا مطيعًا لربه مسلمًا له ولم يكن من المشركين. وبعد أن وبّخ تعالى المجادلين لرسوله ﷺ وكذّبهم في دعواهم أن إبراهيم على دينهم قرر حقيقة كبرى ينبغي أن يعلموها ويقرّوا بها وهي أن أحق[٤] الناس بالنسبة إلى إبراهيم والانتماء إليه هم الذين اتبعوه على ملة التوحيد وعبادة الله تعالى بما شرع، وهذا النبي الكريم العظيم محمد ﷺ والذين آمنوا معه واتبعوا الهدى الذي جاء به، والله تعالى وليّ المؤمنين، وعدو الكافرين والمشركين.

هداية الآيات:

١ - لا يَصْلُح حال البشرية ولا يستقيم أمرها إلا إذا أخذت بمبدأ: الكلمة السواء وهي أن تعبد ربها وحده لا تشرك به سواه، وأن لا يعلو بعضها على بعض تحت أيّ قانون أو شعار.

٢ - حجيّة التاريخ وبيان الحاجة إليه، إذ ردّ الله تعالى على أهل الكتاب في دعواهم أن إبراهيم كان

---

(١) المجادلة بالتي هي أحسن والقائمة على أساس العلم الصحيح ممدوحة غير مذمومة وهذه صورة لها: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إنّ امرأتي ولدت غلامًا أسود، فقال رسول الله ﷺ: «**هل لك من إبل؟**» قال: نعم، قال: «**ما لونها؟**» قال: حمر، قال: «**هل فيها من أورق؟**» قال: نعم، قال: «**فمن أين ذلك؟**» قال: لعَلّ عِرقًا نزعه. فقال رسول الله ﷺ: «**لعلّ عرقًا نزعه**».

(٢) وقد راسل النبي ﷺ ملوك الروم بمضمون هذه الآية إذ كتب إلى هرقل قائلاً: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم من محمد** رسول الله **إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أمّا بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين** (الأكّارين) (وهم الفلاحون) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مُسْلِمُونَ﴾» رواه مسلم.

(٣) وذلك بأن يحرم عليه ما أحلّ الله ويحل له ما حرّم الله ويلزمه بقبول ذلك والإذعان له.

(٤) روي أنّ ابن عباس قال: قال رؤساء اليهود والله يا محمد لقد علمت أنّا أولى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك فإنّه كان يهوديًا وما بك إلاّ الحسد فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

على دينهم بأن التوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعد وفاته فكيف يكون يهوديًا أو نصرانيًا.

٣ - ذم من[1] يجادل فيما لا علم له به، ولا شأن له فيه.

٤ - اليهودية كالنصرانية لم تكن دين الله تعالى، وإنما هما بدعتان لا غير.

٥ - المؤمنون بعضهم أولياء بعض وإن تناءت ديارهم وتباعدت أقطارهم والله وليّ المؤمنين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٩ - ٧١]

(٦٩) ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾[2]: أحبَّت فرقةٌ وهم الأحبار والرؤساء فيهم. ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾[3]: أي تمنَّوا إيقاعكم في الضلال لتشقوا وتهلكوا مثلهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: أي وما يدرُون ولا يعلمون بأنهم بمحاولة إضلال المؤمنين إنما هم يضلون أنفسهم حيث يتوغلون في الشر فيضاعف لهم العذاب.

(٧١) لبس الحق بالباطل: خلطه به كأنما كسا الباطل ثوب الحق وكسا الحق ثوب الباطل حتى لا يُعرف فيؤخذ به، ويهتدى عليه.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٧٤) ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

معنى الآيات:

(٦٩) يخبر تعالى عباده المؤمنين أن فرقة من أهل الكتاب تمنّت لو توقعكم في الضلال لتهلكوا، والغالب أن هذه الطائفة تكون في رؤسائهم من أحبار وقسس وإن كان أغلب اليهود والنصارى يودون إضلال المسلمين حسدًا لهم على الحق الذي هم عليه، وأخبر تعالى أنهم بتمنيهم هلاك المسلمين إنما يهلكون أنفسهم وما يدرون ذلك ولا يعلمون به. وقال عز وجل: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

(٧٠) هذا معنى الآية (٦٩) أما الآية (٧٠) فقد نادى الرب تعالى أهل الكتاب ليوبخهم وينعي عليهم ضلالهم فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ[4] بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لـم تجحدون الآيات التي بها نعت الرسول ﷺ وصفته لله تعالى في التوراة والإنجيل والحال أنكم تشهدون أنها صفات الرسول ﷺ ونعوته وأنها منطبقة عليه؟ أليس هذا قبحًا منكم وشرًا تعود عاقبته عليكم؟

(٧١) وفي الآية (٧١) وبخهم أيضًا على خلطهم الحق بالباطل حتى لا يعرف ويؤخذ به ويهتدى عليه فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ[5] لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وشنع عليهم بكتمانهم الحق الذي هو نبوة الرسول

---

(١) قال القرطبي: نزلت هذه الآية في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم يهود من بني النضير وقريظة وبني قينقاع إلى دينهم. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٢) الإضلال: يكون بمعنى الهلاك كما هو هنا وعليه قول الشاعر:

كنت القذى في موج أكدر مزبدِ ... قذف الأتيُّ به فضلّ ضلالاً

أي: هلك هلاكًا. والأتيُّ: السيل يأتي من حيث لا يعلم.

(٣) تقدّم أنهم من يهود المدينة وأنّ العبرة بعموم اللفظ لذا فإن هذا النوع ما زال إلى اليوم يود إضلال المسلمين.

(٤) الاستفهام إنكاري والآيات هي المشتملة على صفات الرسول محمد ﷺ ونعوته ومن الآيات المعجزات التي تجلت على يد النبي محمد ﷺ.

(٥) إعادة النداء مرة ثانية ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأجل توبيخهم وتسجيل باطلهم عليهم.

محمد ﷺ المبيّنة في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم فقال: ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق من الله.

هداية الآيات:

١ - بيان رغبة كثير من اليهود والنصارى في إضلال المسلمين وإهلاكهم.

٢ - عاقبة الشر والفساد تعود على صاحبها في نهاية الأمر.

٣ - قبح من يكتم الحق وهو يعرفه.

٤ - حرمة التدليس والتلبيس في كل شيء لا سيما في دين الله تعالى لإبعاد الناس عنه.

٥ - حرمة كتمان الحق في الشهادة وغيرها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٢ ـ ٧٤]

(٧٢) ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ[١] وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾: أوله وهو الصباح وآخره وهو المساء.

(٧٣) ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟[٢] إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: أي لا تصدقوا إلا من كان على ملتكم. ﴿ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾: البيان الحق والتوفيق الكامل بيان الله وهداه لا ما يخلط اليهود ويلبسون تضليلاً للناس. ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾: أن يعطى أحد نبوة ودينًا وفضلاً. ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾: يخاصموكم يوم القيامة عند ربكم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾: قل إن التوفيق للإيمان والهداية للإسلام بيد الله لا بيد غيره. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: ذو سعة بفضله، عليم بمن يستحق فضله فيمُن عليه.

معنى الآيات:

(٧٢) يخبر تعالى عن كيد اليهود ومكرهم بالمسلمين فيقول: ﴿وَقَالَت[٣] طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝﴾ وذلك أن كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف عليهما لعائن الله قالا لبعض إخوانهم: صلوا مع المسلمين صلاة الصبح إلى الكعبة، وصلوا العصر إلى الصخرة بيت المقدس فإن قيل لكم لمَ عدلتم عن الكعبة بعدما صليتم إليها؟ قولوا لهم: قد تبيّن لنا أن الحق هو استقبال الصخرة لا الكعبة. هذا معنى قوله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ[٤] مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟[٥] بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني في شأن القبلة، ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي صباحًا، ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي واجحدوا به مساءً، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إلى استقبال الصخرة بدلاً عن الكعبة، والغرض هو بلبلة أفكار المسلمين وإدخال الشك عليهم[٦].

(٧٣) وقوله تعالى عنهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ يريد أنهم قالوا لبعضهم بعضًا لا تصدقوا أحدًا إلا من تبع دينكم من أهل ملتكم وهذا صرف من رؤسائهم لليهود عن الإسلام وقبوله، أي لا تصدقوا المسلمين فيما يقولون لكم، وهنا ردّ تعالى عليهم بقوله: قل يا رسولنا إن الهدى هدى الله، لا ما يحتكره اليهود من الضلال ويزعمون أنه الحق والهدى وهو البدعة اليهودية، وقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾. هو قول

---

(١) سمي أول النهار وجهًا: لأنه أحسنه وأوّل ما يواجه ومنه قال الشاعر:

وتضيىء في وجه النهار منيرة ... كجمانة البحرية سل نظامها

(٢) هذا نهي من يهود خيبر إلى إخوانهم من يهود المدينة.

(٣) عطف على ودّت طائفة فالطائفة الأولى ودّت إضلال المسلمين جهرًا وعلنًا وهذه حاولته بالخداع والتضليل بأساليب المكر والاحتيال.

(٤) الطائفة: الجماعة وسميت بها لأنها يسوى بها حلقة يطاف حولها.

(٥) ولا مانع أن يكون مرادًا من الآية أنهم قالوا: لسفلتهم أظهروا الإيمان بمحمد ودينه في أوّل النهار ثم اكفروا به آخره فإنكم إن فعلتم ذلك ارتاب من يتبعه في دينه فيرجع عن دينه إلى دينكم. إلاّ أنّ ما فسرنا به الآية أظهر.

(٦) وهذا لا يمنع أن يكون قولهم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ إظهارًا منهم للدخول في الإسلام، والاعتراف به في أول النهار، مكرًا وخديعة، فإذا ولى النهار أظهروا رجوعهم عنه ليظن من رآهم أنهم يريدون الحق ولذلك أسلموا، فلما تبين لهم بطلان الإسلام، وعدم صحته رجعوا عنه.

اليهود معطوف على قولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أما قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ . . .﴾ فهو كلام معترض بين كلام اليهود الذي قُدّم تعجيلاً للردّ عليهم، ومعنى قولهم: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ . .﴾ إلخ. أي كراهة أن يعترف من قبلكم بأن محمدًا ﷺ نبيّ حق وأن دينه حق فيتابعه اليهود والمشركون عليه فيسلمون، أو على الأقل يثبت المسلمون عليه، ونحن نريد زلزلتهم وتشكيكهم حتى يعودوا إلى دين آبائهم، أو يحاجوكم عند ربكم يوم القيامة وتكون لهم الحجة عليكم إن أنتم اعترفتم لهم اليوم بأن نبيهم ﷺ حق ودينهم حق، فلذا واصلوا الإصرار أنه لا دين حق إلا اليهودية وأن ما عداها باطل. وهنا أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم مبكتًا لهم: ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، لا بيد اليهود ﴿يُؤْتِيهِ﴾ أي الفضل الذي هو النبوة والهدى والتوفيق وما يتبع ذلك من خير الدنيا والآخرة، ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ويحرمه من يشاء، وهو الواسع الفضل العليم بمن يستأهله ويحق له (٧٤) ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

هداية الآيات:

١ ـ تسجيل المكر والخداع على اليهود وأنه صفة من صفاتهم اللازمة لهم إلى يوم القيامة.

٢ ـ الكشف عن التعصب اليهودي وأساليب التمويه والتضليل، والإعلام العالمي اليوم مظهر من مظاهر التضليل اليهودي.

٣ ـ سذاجة اليهود المتناهية في فهم مسائل الدين والاعتقاد توارثوها إلى اليوم، وإلا فأي مؤمن بالله واليوم الآخر يقول: لا تعترفوا للمسلمين بأنهم على حق حتى لا يحتجوا عليكم باعترافكم يوم القيامة؟ إن الله تعالى يعلم أن اليهود يجحدون الإسلام وهو الحق ويكفرون به وهو الحق من ربهم وسيعذبهم في نار جهنم يخلدون فيها، فكونهم لا يصرحون للمسلمين بأنهم على حق وهم يعلمون أنهم على الحق في دينهم ينجيهم هذا من عذاب الله على كفرهم بالإسلام؟ اللهم لا. فما معنى قولهم لا تعترفوا بالإسلام حتى لا يحتج عليكم المسلمون باعترافكم يوم القيامة؟؟ إنه الجهل والسذاجة في الفهم. وسبحان الله ماذا في الخلق من عجائب!!

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٥ ـ ٧٧]

(٧٥) ﴿إِن تَأْمَنْهُ﴾: ائتمنه على كذا وضعه عنده أمانة وأمنه عليه فلم يخفه. ﴿بِقِنطَارٍ﴾: وزن معروف والمراد هنا أنه من ذهب بدليل الدينار. ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾: أي ملازمًا له تطالبه[(١)] به ليل نهار. ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: العرب المشركين. ﴿سَبِيلٌ﴾: أي لا يؤاخذنا الله إن نحن أكلنا أموالهم لأنهم مشركون.

(٧٦) ﴿بَلَىٰ﴾: أي ليس الأمر كما يقول يهود من أنه ليس عليهم حرج ولا إثم في أكل أموال العرب المشركين بل عليهم الإثم والمؤاخذة[(٢)].

(٧٧) ﴿لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ﴾: أي لا حظ ولا نصيب لهم في خيرات الآخرة ونعيم الجنان. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: لا يطهرهم من ذنوبهم ولا يكفرها عنهم.

معنى الآيات:

(٧٥) ما زال السياق الكريم في هتك أستار أهل الكتاب وبيان نفسيّاتهم المريضة وصفاتهم الذميمة، ففي هذه الآية (٧٥) يخبر تعالى أن في اليهود من إن أمنته على أكبر مال أداه إليك وافيًا كاملاً، ومنهم من إذا أمنته على دينار فأقل خانك فيه وأنكره عليك فلا يؤديه إليك إلا بمقاضاتك له وملازمتك إياه.. فقال تعالى في خطاب رسوله ﷺ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ[(٣)] إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ ويعلل

(١) استدل أبو حنيفة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ على جواز ملازمة الغريم، ولَمْ يرضَهُ العلماء واستدل بعض العلماء على حبس المدين بهذه الآية.

(٢) قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إنا نصيب في العمد من أموال أهل الذمّة الدجاجة والشاة ونقول: ليس علينا في ذلك بأس فقال له: هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل إنهم إذا أدوا الجزية لا تحل لكم أموالهم إلاّ عن طيب أنفسهم.

(٣) ما دام في أهل الكتاب الأمين والخائن والتمييز بينهم متعذر إذًا تعيّن اجتنابهم جميعًا.

الرب تعالى سلوكهم هذا بأنهم يقولون ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ أي لا حرج علينا ولا إثم في أكل أموال العرب لأنهم مشركون فلا نؤاخذ بأكل أموالهم، وكذّبهم الله تعالى في هذه الدعوة الباطلة، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي أنه كذب على الله ولكن يكذبون ليسوّغوا كذبهم وخيانتهم.

(٧٦) وفي الآية الثانية (٧٦) يقول تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي ليس الأمر كما يدّعون بل عليهم الإثم والحرج والمؤاخذة، وإنما لا إثم ولا حرج ولا مؤاخذة على من أوفى بعهد الله تعالى فآمن برسوله ﷺ وبما جاء به، واتقى الشرك والمعاصي فهذا الذي يحبه الله فلا يعذبه لأنه عز وجل يحب المتقين. وأما الآية الأخيرة (٧٧) فيتوعد الرب تعالى بأشد أنواع العقوبات أولئك الذين يعاهدون ويخونون ويحلفون ويكذبون من أجل حطام الدنيا ومتاعها القليل فيقول:

(٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ[1] ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي لا حظ ولا نصيب لهم في نعيم الدار الآخرة ولا يكلمهم تشريفًا لهم وإكرامًا، ولا يزكيهم بالثناء عليهم ولا بتطهيرهم من ذنوبهم، ولهم عذاب مؤلم في دار الشقاء وهو عذاب دائم مقيم.

هداية الآيات:

١ - يجب أن لا يُغترَّ باليهود ولا يوثق فيهم لما عرفوا به من الخيانة.

٢ - من كذب على الله أحرى به أن يكذب على الناس.

٣ - بيان اعتقاد اليهود في أن البشرية غير اليهود نجس وأن أموالهم وأعراضهم مباحة لليهود حلال لهم؛ لأنهم المؤمنون في نظرهم وغيرهم الكفار.

٤ - عظم ذنب من يخون عهده من أجل المال، وكذا من يحلف كاذبًا لأجل المال. قال رسول الله ﷺ: **«من حلف على يمين يستحق بها مالاً وهو فيها فاجر لقي[2] الله وهو عليه غضبان»**.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٨]

(٧٨) ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا﴾: طائفة من اليهود المعاصرين للنبي ﷺ بالمدينة النبوية. ﴿يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم﴾[3]: يحرفون ألسنتهم بالكلام كأنهم يقرؤون الكتاب. ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: وليس هو من الكتاب. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾: أي يكذبون على الله لأغراض ماديّة.

معنى الآية الكريمة:

ما زال السياق في اليهود وبيان فضائحهم فأخبر تعالى أن طائفة منهم يلوون ألسنتهم بمعنى يحرفون نطقهم بالكلام تمويهًا على السامعين كأنهم يقرؤون التوراة وما أنزل الله فيها، وليس هو من الكتاب المنزل في شيء بل هو الكذب البَحْت، ويقولون لكم إنه من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب لأجل الحفاظ على الحطام الخسيس والرئاسة الكاذبة.

هداية الآية الكريمة:

١ - بيان مكر اليهود وتضليلهم للناس وخداعهم لهم باسم الدين والعلم.

٢ - جرأة اليهود على الكذب على الناس وعلى الله مع علمهم بأنهم يكذبون وهو قبح أشدّ وظلم أعظم.

٣ - التحذير للمسلم من سلوك اليهود في التضليل والقول على الله والرسول ﷺ لأجل الأغراض الدنيويّة الفاسدة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٩، ٨٠]

(٧٩) ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾[4]: لم يكن

---

(١) أخرج أهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع حق امرء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»**.

(٢) رواه أحمد وله شواهد في الصحاح، وروى الأئمة عنه ﷺ قوله: **«مَنْ اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة»** فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: **«وإن كان قضيبًا من أراك»**.

(٣) قرىء: **﴿يلوّون﴾** على التكثير، والمعنى: يحرفون الكلم عن القصد، وأصل اللّي الميل، يقال: لوى رأسه إذا أماله ومنه قوله تعالى: **﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾** أي: ميلاً عن الحق، واللّي: المطل أيضًا لحديث: **«ليّ الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته»** في الصحيح.

(٤) لفظ البشر: يطلق على الواحد والجمع لأنه كالمصدر والمراد به هنا عيسى عليه السلام.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

٦٠

من شأن الإنسان[1] الذي يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة. ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: الكتاب: وحي الله المكتوب والحكم: بمعنى الحكمة وهي الفقه في أسرار الشرع، والنبوة: ما يشرّف الله تعالى به عبده من إنبائه بالغيب وتكليمه بالوحي. ﴿رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾[2]: جمع ربّاني: من ينسب إلى الربّ لكثرة عبادته وغزارة علمه، أو إلى الربان وهو الذي يربّ الناس فيصلح أمورهم ويقوم عليها.

﴿٨٠﴾ ﴿أَرْبَابًا﴾: جمع رب بمعنى السيد المعبود. ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾: الاستفهام للإنكار، والكفر هنا الردة عن الإسلام.

معنى الآيتين:

﴿٧٩﴾ ما زال السياق في الرد على أهل الكتاب. وفي هذه الآية (٧٩) الرد على وفد نصارى نجران خاصة وهم الذين يؤلهون المسيح عليه السلام. قال تعالى: ليس من شأن أي إنسان يعطيه الله الكتاب أي ينزل عليه كتابًا ويعطيه الحكم فيه وهو الفهم والفقه في أسراره ويشرفه بالنبوة فيوحي إليه، ويجعله في زمرة أنبيائه، ثم هو[3] يدعو الناس إلى عبادة نفسه فيقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله. إن هذا ما كان ولن يكون أبدًا. ولا مما هو متصور الوقوع أيضًا فما لكم أنتم يا معشر النصارى تعتقدون هذا في المسيح عليه السلام؟ إن مَنْ أوتي مثل هذا الكمال لا يقول للناس كونوا عبادًا لي ولكن يقول لهم كونوا ربانيين تصلحون الناس وتهدونهم إلى ربهم ليكملوا بطاعته ويسعدوا عليها، وذلك بتعليمهم الكتاب وتدريسه ودراسته.

﴿٨٠﴾ هذا معنى الآية (٧٩) أما الآية (٨٠) فإن الله تعالى يخبر عن رسوله محمد ﷺ أنه لا يأمر الناس بعبادة غير ربّه تعالى سواء كان ذلك الغير ملكًا مكرمًا أو نبيًّا مرسلاً، وينكر على من نسبوا ذلك إليه ﷺ فيقول: ﴿أَيَأْمُرُكُم[4] بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهذا لا يصح منه ولا يصدر عنه بحال.

هداية الآيتين:

١ - لم يكن من الممكن لمن آتاه الله الكتاب والحكمة وشرّفه بالنبوة أن يدعو الناس لعبادة نفسه فضلاً عن عبادة غيره.

٢ - سادات الناس هم الربانيون الذين يربون الناس بالعلم والحكمة فيصلحونهم ويهدونهم.

٣ - عظماء الناس[5] من يعلّمون

---

(١) أي: لا يجتمع لنبي إتيان النبوة مع قوله: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وإنّما الذي يجتمع له مع إتيان النبوة هو قوله: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ إلخ.

(٢) الرباني والجمع ربّانيين مشتق من رَبَّهُ يربّه فهو ربان له إذا دبره وأصلحه.

(٣) قالت اليهود يومًا لرسول الله ﷺ: أتريد أن نتخذك يا محمد ربًا؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

(٤) الاستفهام إنكاري وفيه معنى التعجب، إذ ليس من شأن النبي ﷺ أن يتخذ الناس عبادًا يتأله لهم، ومن هنا قال ﷺ: **«لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي وليقل: فتاي وفتاتي، ولا يقل أحدكم: ربي وليقل: سيّدي»**.

(٥) روى ابن عبدالبر رضي الله عنه قوله: من علم وعمل وعلّم دُعي في ملكوت السموات عظيمًا، وهو مروي عن عيسى عليه السلام.

الناس الخير ويهدونهم إليه.

(٨٠) ٤ ـ السجود لغير الله تعالى كفر لما ورد أن الآية نزلت ردًا على من أرادوا أن يسجدوا لرسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟!

شرح الكلمات:

[الآية: ٨١ ـ ٨٣]

(٨١) الميثاق: العهد المؤكد باليمين. ﴿لَمَآ[1] ءَاتَيْتُكُم﴾[2]: مهما آتيتكم. ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾[3]: لتصدقن برسالته. ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾: الهمزة الأولى للاستفهام التقريري وأقررتم بمعنى اعترفتم. ﴿إِصْرِى﴾: عهدي وميثاقي.

(٨٢) ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾: رجع عما اعترف به وأقر. ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: الخارجون عن طاعة الله ورسوله ﷺ.

(٨٣) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾: الاستفهام للإنكار، ويبغون بمعنى يطلبون. ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾: انقاد وخضع لمجاري أقدار الله وأحكامه عليه.

معنى الآيات:

(٨١) ما زال السياق في الرد على نصارى نجران فيقول تعالى لرسوله ﷺ: اذكر لهم ما أخذ الله على النبيين وأممهم من ميثاق أنه مهما آتاهم من كتاب وحكمة ثم جاءهم رسول مصدق لما معهم من النور والهدى ليؤمنن به ولينصرنه على أعدائه ومناوئيه من أهل الكفر، وأنه تعالى قررهم فأقروا واعترفوا ثم استشهدهم على ذلك فشهدوا وشهد تعالى فقال: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ثم أكد تعالى ذلك مرة أخرى بأن من يعرض عن هذا الميثاق ولم يفِ به يعتبر فاسقًا ويلقى جزاء الفاسقين، فقال تعالى:

(٨٢) ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ[4] بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝﴾.

وقد نقض هذا الميثاق كلٌّ من اليهود والنصارى، إذ لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به وقد أخذ عليهم الميثاق بالإيمان به، وبنصره، فكفروا به، وخذلوه، فكانوا بذلك الفاسقين المستوجبين لعذاب الله.

(٨٣) ثم وبّخ تعالى أهل الكتاب قائلًا: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾[5] ـ يريد الإسلام ـ ﴿يَبْغُونَ﴾ أي يطلبون، ولله أسلم، أي انقاد وخضع من في السموات من الملائكة والأرض من سائر المخلوقات الأرضية طوعًا أو كرهًا[6]: طائعين أو مكرهين وفوق هذا أنكم ترجعون إليه فيحاسبكم، ويجزيكم بأعمالكم.

هذا ما تضمنته الآية الأخيرة (٨٣) إذ قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝﴾.

هداية الآيات:

١ ـ بيان سنّة الله تعالى في الأنبياء السابقين وهي أن يؤمن بعضهم ببعض وينصر بعضهم بعضًا.

٢ ـ كفر أهل الكتاب وفسقهم بنقضهم الميثاق وتوليهم عن الإسلام وإعراضهم عنه بعد كفرهم بالنبيّ

---

(١) قرأ نافع: ﴿لما آتيناكم﴾ بنون العظمة، وقرأ حفص: ﴿لما آتيتكم﴾ بتاء المتكلم، وصيغة الميثاق هي ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

(٢) قرأ أهل الكوفة: ﴿لما آتيتكم﴾ بكسر لام لِما أي: لأجل ما آتيتكم من كتاب إلخ.. وتكون ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذي، أي: للذي أتيتكم إلخ..

(٣) روى ابن كثير عن علي وابن عباس رضي الله عنهم أنهما قالا: ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلاّ أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدًا ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أُمته لئن بُعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنّه، وهذا غير مناف لما قال قتادة وغيره أنّ الله أخذ من النبيين ميثاقهم أن يصدّق بعضهم بعضًا.

(٤) التولي والفسق مستحيل في حق أنبياء الله ورسله، ولذا فالمأخوذ عليهم العهد والميثاق هم أتباع الأنبياء والرسل، وإنما قال: ميثاق النبيين لأنهم هم المبلغون أممهم بما أخذ عليهم ويوضح هذا قوله: ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾ أي: على أممكم.

(٥) الاستفهام للتقريع والتوبيخ، روي عن الكلبي أنّ كعب بن الأشرف اليهودي وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبي ﷺ فقالوا: أيّنا أحق بدين إبراهيم؟ فقال ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دينه» فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فنزل قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ الآية.

(٦) طوعًا وكرهًا: مصدران في موضع الحال أي: طائعين ومكرهين، إذ كل مخلوق منقاد مستسلم لما جبله الله عليه وقضاه وقدره له لا يخرج عنه بحال.

محمد ﷺ وقد أخذ عليهم الميثاق بأن يؤمنوا به ويتبعوه.

٣ - بيان عظم شأن العهود والمواثيق عند الله تعالى.

٤ - الإنكار على مَنْ يُعْرِض عن دين الله الإسلام. مع أن الكون كلّه خاضع منقاد لأمر الله ومجاري أقداره مسلم له.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

٦١

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٤، ٨٥]

﴿٨٤﴾ الأسباط: جمع سِبْط والسِّبط الحفيد، والمراد بالأسباط هنا أولاد يعقوب الاثنا عشر والأسباط في اليهود كالقبائل في العرب.

﴿٨٥﴾ ﴿يَبْتَغِ﴾: يطلب ويريد دينًا غير الدين الإسلامي. ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: الهالكين بالخلد في نار جهنم والذين خسروا كل شيء حتى أنفسهم.

معنى الآيتين:

﴿٨٤﴾ ما زال السياق في حجاج أهل الكتاب، فبعد أن وبّخهم تعالى بقوله في الآيات السابقة أفغير دين الله تبتغون يا معشر اليهود والنصارى؟ فإن قالوا: نعم فقل أنت[1] يا رسولنا آمنا بالله وما أنزل علينا من وحي وشرع وآمنا بما أنزل على إبراهيم خليل الرحمٰن وما أنزل على ولديه إسماعيل وإسحق، وما أنزل على يعقوب وأولاده الأسباط، وآمنا بما أوتي موسى من التوراة وعيسى من الإنجيل، وما أوتي النبيّون من ربهم لا نفرق بين أحد من أنبيائه بل نؤمن بهم وبما جاؤوا به فلا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما هي حالكم يا معشر اليهود والنصارى. ونحن لله تعالى مسلمون أي منقادون مطيعون لا نعبده بغير ما شرع ولا نعبد معه سواه. هذا معنى الآية الأولى (٨٤).

﴿٨٥﴾ أما الآية الثانية (٨٥) فإن الله تعالى يقرر أن كل دين غير الإسلام باطل، وأن من يطلب دينًا غير الإسلام لن يقبل منه بحال ويخسر في الآخرة خسرانًا كبيرًا، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ[2] غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك هو الخسران المبين.

هداية الآيتين:

١ - لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض ما أنزل الله تعالى على رسله ويكفر ببعض.

٢ - الإسلام: هو الانقياد والخضوع لله تعالى وهو يتنافى مع التخيير بين رسل الله ووحيه إليهم.

٣ - بطلان سائر الأديان والملل سوى الدين الإسلامي وملة محمد ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٦ - ٨٩]

﴿٨٦﴾ ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا﴾:

---

(١) في الآية تعليم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين عقيدة الإيمان الصحيحة التي أحبها الله لهم ليكملوا بها ويسعدوا عليها بإذن الله تعالى.

(٢) روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**تجيىء الأعمال يوم القيامة فتجيىء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير وتجيىء الصدقة، فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير. ثم يجيىء الصيام فيقول: يا رب أنا الصيام، فيقول: إنك على خير ثم تجيىء الأعمال كل ذلك ويقول الله تعالى: إنك على خير ثم يجيىء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك على خير اليوم بك آخذ وبك أعطي**»، قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ تفرّد به أحمد.

الاستفهام هنا للاستبعاد[١]، والهداية الخروج من الضلال. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: الحجج من معجزات الرسل وآيات القرآن المبيّنة للحق في المعتقد والعمل. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: المتجاوزين الحد في الظلم المسرفين فيه حتى أصبح الظلم وصفًا لازمًا لهم.

(٨٧) ﴿لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾: طرد الله لهم من كل خير، ولعنة الملائكة والناس دعاؤهم عليهم بذلك.

(٨٨) ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: ولا هم يمهلون من أنظره إذا أمهله ولم يعجّل بعذابه. أصلحوا: أصلحوا ما أفسدوه من أنفسهم ومن غيرهم.

معنى الآيات:

(٨٦) ما زال السياق في أهل الكتاب[٢] وإن تناولت غيرهم ممن ارتد عن الإسلام من بعض الأنصار ثم عاد إلى الإسلام فأسلم وحسن إسلامه، ففي كل هؤلاء يقول تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ فقد كفر اليهود بعيسى عليه السلام، وشهدوا أن الرسول محمدًا ﷺ حق وجاءتهم الحجج والبراهين على صدق نبوته وصحة ما جاء به من الدين الحق، والله حسب سنته في خلقه لا يهدي من أسرف في الظلم وتجاوز الحد فيه فأصبح الظلم طبعًا من طباعه فلهذا كانت هداية من هذه حاله مستبعدة للغاية، وإن لم تكن مستحيلة، ثم أخبر تعالى عنهم متوعدًا لهم فقال:

(٨٧) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝﴾.

(٨٨) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في تلك اللعنة الموجبة لهم عذاب النار ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ولا يمهلون ليعتذروا، أو لا يخفف عنهم العذاب. ثم لما لم تكن توبتهم مستحيلة ولأن الله تعالى يحب توبة عباده ويقبلها منهم قال تعالى فاتحًا باب رحمته لعباده مهما كانت ذنوبهم:

(٨٩) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟[٣] مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الكفر والظلم، ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ نفوسهم بالإيمان وصالح الأعمال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فكان هذا كالوعد منه سبحانه وتعالى بأن يغفر لهم ذنوبهم ويرحمهم بدخول الجنة.

هداية الآيات:

١ - التوغل في الشر والفساد أو الظلم والكفر قد يمنع[٤] العبد من التوبة. ولذا وجب على العبد إذا أذنب ذنبًا أن يتوب منه فورًا، ولا يواصله مصرًا عليه خشية أن يحال بينه وبين التوبة.

٢ - التوبة مقبولة متى قامت على أسسها واستوفت شروطها ومن ذلك الإقلاع عن الذنب فورًا، والندم على ارتكابه، والاستغفار والعزم على عدم العودة إلى الذنب الذي تاب منه، وإصلاح ما أفسده مما يمكن إصلاحه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٠، ٩١]

(٩٠) الكفر: الجحود لله تعالى والتكذيب لرسوله ﷺ وما جاء به من الدين والشرع. ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾: أي ارتدوا عن الإسلام إلى الكفر. ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: المخطئون طريق الهدى.

(٩١) ﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾: ما يملأها من الذهب. ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾: ولو قدمه فداء لنفسه من النار ما قبل منه.

---

(١) الاستفهام للنفي والاستبعاد إذ هو بمعنى لا يهدي الله قومًا... إلخ.. ومنه قول الشاعر:

كيف نومي على الفراش ولما ... يشمل القوم غارة شعواء

(٢) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية نزلت في رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم راسل قومه ليسألوا له رسول الله ﷺ هل له توبة؟ فجاء قومه وسألوا له فأنزل الله هذه الآية ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا﴾ إلى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والآية تتناول اليهود من باب أولى وتنطبق عليهم تمامًا فتشمل من تاب منهم ومن لم يتب على حدٍّ سواء.

(٣) روى ابن كثير والقرطبي أن الحارث بن سويد أخا الجلاس بن سويد الأنصاري قد ارتد بعد إسلامه مع اثني عشر رجلاً والتحقوا بمكة ثم تاب الحارث فأسلم وحسن إسلامه.

(٤) أورد هنا القرطبي سؤالاً وهو: أن ظاهر الآية ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دال على أنّ من كفر بعد إسلامه لا يهده الله وكثيرًا من الظالمين تابوا من الظلم؟ وأجاب بقوله: إنّ معنى لا يهديهم ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يقبلون على الإسلام فأمّا إن أسلموا وتابوا فقد وفقهم الله لذلك والله أعلم. اهـ كلامه.

معنى الآيتين:

(٩٠) ما زال السياق في أهل الكتاب وهو هنا في اليهود خاصة إذ أخبر تعالى عنهم أنهم كفروا بعد إيمانهم كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة. ثم ازدادوا[1] كفرًا بمحمد ﷺ والقرآن فلن تقبل توبتهم إلا إذا تابوا بالإيمان بمحمد ﷺ والقرآن لكنهم مصرون على الكفر بهما فكيف تقبل توبتهم إذًا مع إصرارهم على الكفر، ولذا أخبر تعالى أنهم هم الضالون البالغون أبعد الحدود في الضلال، ومن كانت هذه حاله فلا يتوب ولا تقبل توبته.

(٩١) ثم قرر مصيرهم بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ يريد يوم القيامة مع أنه لا مال يومئذ ولكن من باب الفرض والتقدير لا غير. فلو أن لأحدهم ملء الأرض ذهبًا وقبل منه فداء لنفسه من عذاب الله لافتدى، ولكن هيهات هيهات[2] إنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولكن من جاء ربّه بقلب سليم من الشرك والشك وسائر أمراض القلوب نجا من النار ودخل الجنة بإذن الله تعالى.

هداية الآيتين:

١ - سنة الله فيمن توغل في الكفر أو الظلم أو الفسق وبلغ حدًا بعيدًا أنه لا يتوب.

٢ - اليأس من نجاة من مات كافرًا يوم القيامة.

٣ - لا فدية تقبل يوم القيامة من أحد ولا فداء لأحد فيه.

لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) ۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٢]

(٩٢) ﴿لَن تَنَالُوا﴾: لن تحصلوا عليه وتظفروا به. ﴿الْبِرَّ﴾: كلمة جامعة لكل خير، والمراد به هنا ثوابه وهو الجنة. ﴿تُنفِقُوا﴾: تتصدقوا. ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾: من المال الذي تحبونه لأنفسكم وهو أفضل أموالكم عندكم. ﴿مِن شَيْءٍ﴾: يريد قلّ أو كثر. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: لازمه أنه يجزيكم به بحسب كثرته أو قلته.

معنى الآية الكريمة:

(٩٢) يخبر تعالى عباده المؤمنين الراغبين في بره[3] تعالى وإفضاله بأن ينجيهم من النار ويدخلهم الجنة بأنهم لن يظفروا بمطلوبهم من برّ ربهم حتى ينفقوا من أطيب أموالهم وأنفسها عندهم وأحبّها إليهم. ثم أخبرهم مطمئنًا لهم على إنفاقهم أفضل أموالهم بأن ما ينفقونه من

---

(١) أورد القرطبي إشكالاً عن قوله تعالى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ مع العلم أن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر كما صح في الخبر وكيف وهو القائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ وذكر ثلاثة أجوبة الأوّل: أنه لا يقبل توبتهم عند الموت كما هو نصّ الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ..﴾ الثاني: أنها لا تقبل توبتهم التي كانت قبل كفرهم لأن الكفر محبط للعمل. والثالث: أنها لا تقبل وهم مصرون على الكفر. قلت: وهذا أمثلها وهو ما ذكرته في تفسير الآية. والله أعلم.

(٢) روى البخاري ومسلم عن أبي قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال: «**يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: كذبت قد سئلت ما هو أيسر من ذلك فلم تفعل**».

(٣) يطلق لفظ البرّ على العمل الصالح أو هو جماعهُ وثوابه وفي الصحيح يقول الرسول ﷺ: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البرّ وإنّ البرّ يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإنّ الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**».

قليل أو كثير نفيس أو خسيس هو به عليم وسيجزيهم به، وبهذا حبّب إليهم الإنفاق ورغبهم فيه فجاء أبو طلحة رضي الله عنه يقول: يا رسول الله إن الله تعالى يقول: ﴿لَن[1] تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن من أحب أموالي إليّ بيرحاء (حديقة) فاجعلها حيث أراك الله يا رسول الله، فقال له ﷺ مال رابح أو رائج اجعلها في أقربائك فجعلها في أقربائه حسان بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهم أجمعين.

هداية الآية الكريمة:

١ - البر وهو فعل الخير يهدي إلى الجنة.

٢ - لن يبلغ العبد برّ الله وما عنده من نعيم الآخرة حتى ينفق من أحب أمواله إليه.

٣ - لا يضيع المعروف عند الله تعالى قلّ أو كثر طالما أريد به وجهه تعالى.

❁ ❁ ❁

الجزء الرابع

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٣ - ٩٧]

﴿٩٣﴾ ﴿ٱلطَّعَامِ﴾[2]: اسم لكل ما يطعم من أنواع المأكولات. ﴿حِلًّا﴾: الحِل: الحلال، وسمي حلالاً لانحلال عقدة الحظر عنه. بني إسرائيل: أولاد يعقوب الملقب بإسرائيل المنحدرون من أبنائه الاثني عشر إلى يومنا هذا. ﴿حَرَّمَ﴾: حظر ومنع. ﴿ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾: كتاب أنزل على موسى عليه السلام وهو من ذريّة إسرائيل. ﴿فَٱتْلُوهَآ﴾: اقرؤوها على رؤوس الملأ لنتبين صحة دعواكم من بطلانها.

﴿٩٤﴾ ﴿ٱفْتَرَىٰ[3] عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: اختلقه وزوره وقاله.

﴿٩٥﴾ ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: دينه وهي عبادة الله تعالى بما شرع، ونبذ الشرك والبدع. ﴿حَنِيفًا﴾[4]: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد.

﴿٩٦﴾ ﴿بِبَكَّةَ﴾: مكة. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: للناس أجمعين.

﴿٩٧﴾ ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾[5]: آية من الآيات وهو الحجر الذي قام عليه أثناء بناء البيت فارتسمت قدماه وهو صخر فكان هذا آية. ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ﴾: الحرم الذي حول البيت بحدوده المعروفة. ﴿ءَامِنًا﴾: لا يخاف على نفس ولا مال ولا عرض. ﴿حِجُّ﴾: قصد البيت للطواف به وأداء بقية المناسك. ﴿سَبِيلًا﴾: طريقًا والمراد القدرة على السير إلى البيت والقيام بالمناسك.

معنى الآيات:

﴿٩٣﴾ ما زال السياق في الحجاج مع أهل الكتاب فقد قال يهود للنبي ﷺ كيف تدعي أنك على دين إبراهيم، وتأكل ما هو محرم في دينه من لحوم الإبل وألبانها، فردّ الله تعالى على هذا الزعم الكاذب بقوله: كل الطعام كان حلّاً أي حلالاً لبني إسرائيل وهم ذرية يعقوب الملقب بإسرائيل، ولم يكن هناك شيء محرم عليهم في دين إبراهيم اللهم إلا ما حرم إسرائيل «يعقوب» على نفسه خاصة وهو لحوم الإبل وألبانها لنذر نذره وهو أنه مرض[6] مرضًا آلمه

---

(١) لما نزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ بادر الأصحاب رضوان الله عليهم بالتصدق بأحب أموالهم إليها فأعتق عمر جارية له من أحب الجواري إليه، وأعتق ولده مولاه نافعًا وتصدق زيد بن حارثة بفرس له كانت أحب ما يملك وتصدق أبو طلحة ببستانه (بيرحا) فدل هذا على فقه الصحابة ومدى استجابتهم لما هو خير عند الله وأعظم أجرًا فرضي الله عنهم وأرضاهم ولا حرمنا حبّهم وجوارهم.

(٢) الطعام (أل) للجنس ولفظ كلّ للتنصيص على العموم.

(٣) الافتراء كالاختلاق سواء والافتراء مأخوذ من الفري وهو قطع الجلد قطعًا ليصلح به قربة وحذاء ونحوهما.

(٤) حنيفًا: منصوب على الحال وصاحبها إبراهيم المجرور بالإضافة.

(٥) مقام إبراهيم: من جملة الآيات إذ أثر قدمي إبراهيم باقية على المقام الذي هو صخرة وفيه قال أبو طالب:

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

وأمر تعالى بالصلاة خلفه في قوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فمن طاف بالبيت يختم طوافه بصلاة ركعتين خلفه.

(٦) أكثر الروايات على أن مرض يعقوب كان بعرق النساء، وأنّ ما نذره من ترك أحب الطعام والشراب إليه كان باجتهاد منه وليس شرعًا عنده إذ هو من المباح وللعبد أن يترك مباحًا متى شاء لا سيما إن تركه لله تقربًا إليه وتوسلاً لقضاء حاجته كشفاء من مرض مثلاً.

فنذر[١] لله تعالى إن شفاه تَرَكَ أحب الطعام والشراب إليه، وكانت لحوم الإبل وألبانها من أحب الأطعمة والأشربة إليه فتركها لله تعالى، هذا معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ من قبل أن تنزل التوراة، إذ التوراة نزلت على موسى بعد إبراهيم ويعقوب بقرون عدة، فكيف تدّعون أن إبراهيم كان لا يأكل لحوم الإبل ولا يشرب ألبانها فأتوا بالتوراة فاقرؤوها فسوف تجدون أن ما حرّم الله تعالى على اليهود إنما كان لظلمهم واعتدائهم فحرم عليهم أنواعًا من الأطعمة، وذلك بعد إبراهيم ويعقوب بقرون طويلة. قال تعالى في سورة النساء: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ (اليهود) حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ[٢] وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الآية.

ولما طُولبوا بالإتيان بالتوراة وقراءتها بهتوا ولم يفعلوا فقامت الحجة لرسول الله ﷺ عليهم.

(٩٤) وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بعد قيام الحجة بأن الله تعالى لم يحرّم على إبراهيم ولا على بني إسرائيل شيئًا من الطعام والشراب إلا بعد نزول التوراة باستثناء ما حرّم إسرائيل على نفسه من لحمان الإبل وألبانها، فأولئك هم الظالمون بكذبهم على الله تعالى وعلى الناس.

(٩٥) ومن هنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ فيما أخبر به رسوله ﷺ ويخبره به وهو الحق من الله، إذًا فاتبعوا يا معشر اليهود ملة إبراهيم الحنيف الذي لم يكن أبدًا من المشركين.

(٩٦) هذا ما تضمنته الآيات الثلاث: ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ[٣] وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ (٩٦)﴾ فإنه متضمن الرد[٤] على اليهود الذين قالوا: إن بيت المقدس هو أول قبلة شرع للناس استقبالها فلِمَ يعدل محمد ﷺ وأصحابه عنها إلى استقبال الكعبة؟ وهي متأخرة الوجود فأخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس هو الكعبة لا بيت المقدس وأنه جعله مباركًا يدوم بدوام الدنيا والبركة لا تفارقه فكل من يلتمسها بزيارته وحجه والطواف به يجدها ويحظى بها، كما جعله هدى للعالمين، فالمؤمنون يأتون حجاجًا وعمارًا فتحصل لهم بذلك أنواع من الهداية، والمصلون في مشارق الأرض ومغاربها يستقبلونه في صلاتهم، وفي ذلك من الهداية للحصول على الثواب، وذكر الله والتقرب إليه أكبر هداية.

(٩٧) وقوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ يريد: في المسجد الحرام دلائل واضحات منها مقام إبراهيم وهو الحجر الذي كان يقوم عليه أثناء بناء البيت حيث بقي أثر قدميه عليه مع أنه صخرة من الصخور ومنها زمزم والحِجْر والصفا والمروة وسائر المشاعر كلها آيات ومنها الأمن التام لمن دخله فلا يخاف غير الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ[٥] كَانَ ءَامِنًا﴾ ثم هذا الأمن له والعرب يعيشون في جاهلية جهلاء وفوضى

---

(١) روى ابن ماجه في سننه أن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**شفاء عرق النساء إلية شاة (عربية) تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء ثم يشرب على الرّيق في كل يوم جزء**»، قال أنس: فوصفته لأكثر من مائة فبرىء بإذن الله تعالى.

(٢) راجع تفسير هذه الآية في موضعها من سورة الأنعام.

(٣) أخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال: «**المسجد الحرام**» قلت: ثم أيّ، قال: «**المسجد الأقصى**» قلت: كم بينهما قال: «**أربعون عامًا ثم جعلت الأرض لك مسجدًا فحيثما أدركتك الصلاة فصل**».

(٤) ذكر القرطبي عن مجاهد قوله: تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنها مهاجر الأنبياء في الأرض المقدسة، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية.

(٥) صورة اللفظ خبر ومعناه: الإنشاء أي: الأمر بمعنى: فمن دخله فأمنوه هكذا قال بعضهم. ولا منافاة بين القولين فإن الحرم كان آمنًا في عهد الجاهلية قرونًا بما ألقى الله في قلوب العرب من حرمة الحرم، إنّ بيت المقدس تسلط عليه الجبابرة فخرّبوه غير مرّة ومكة ردّ الله الطغاة عنها.

لا حد لها، ولكن الله جعل في قلوبهم حرمة الحرم وقدسيته ووجوب أمن كل من يدخله ليحجه أو يعتمره، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[١]، لمّا ذكر تعالى البيت الحرام وما فيه من بركات وهدايات وآيات ألزم عباده المؤمنين به وبرسوله ﷺ بحجه ليحصل لهم الخير والبركة والهداية، ففرضه بصيغة ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهي أبلغ صيغ الإيجاب، واستثنى العاجزين عن حجه واعتماره بسبب مرض أو خوف أو قلة نفقة للركوب والإنفاق على النفس والأهل أيام السفر.

وقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه خبر منه تعالى بأن من كفر بالله ورسوله ﷺ وحجّ بيته بعد ما ذكر من الآيات والدلائل الواضحات فإنه لا يضر إلا نفسه، أما الله تعالى فلا يضره شيء، وكيف وهو القاهر فوق عباده والغني عنهم أجمعين.

هداية الآيات:

١ - ثبوت النسخ في الشرائع الإلهية، إذ حرّم الله تعالى على اليهود بعض ما كان حِلًا لهم.

٢ - إبطال دعوى اليهود أن إبراهيم كان محرمًا عليه لحوم الإبل وألبانها.

٣ - تقرير النبوة المحمدية بتحدي اليهود وعجزهم عن دفع الحق الذي جاء به محمد ﷺ.

٤ - البيت الحرام كان قبل بيت المقدس وأن البيت الحرام أول بيت وضع للتعبد بالطواف به.

٥ - مشروعية طلب البركة بزيارة البيت وحجه والطواف به والتعبد حوله.

٦ - وجوب الحج على الفور[٢] لمن لم يكن له مانع يمنعه من ذلك.

٧ - الإشارة إلى كفر من يترك الحج وهو قادر عليه، ولا مانع يمنعه منه غير[٣] عدم المبالاة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٨، ٩٩]

(٩٨) الكفر: الجحود. آيات الله: ما أنزل تعالى من الحجج والبينات في القرآن المقررة لنبوّة محمد ﷺ وما أنزله تعالى في التوراة والإنجيل من صفات النبي ﷺ ونعوته الموجبة للإيمان به واتباعه على دين الحق الذي جاء به وهو الإسلام.

﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾[٤]: عليم به مطلع عليه، وما يعملونه هو الكفر والشر والفساد.

(٩٩) ﴿تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٥]: تصرفون الناس ممن آمن منكم ومن العرب عن الإسلام الذي هو سبيل الله تعالى المفضي بأهله إلى سعادة الدارين. ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[٦]: تطلبون لها العِوج حتى تخرجوا بها عن الحق والهدى فيضل سالكها وذلك بالتحريف والتضليل. ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾: بعلمكم بأن الإسلام حق، وأن ما تبغونه له من الإضلال لأهله والتضليل هو كفر وباطل.

معنى الآيتين:

بعد أن دحض الله تعالى شبه أهل الكتاب وأبطلها في الآيات السابقة أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم موبخًا مسجلًا عليهم الكفر: يا أهل الكتاب لمَ تكفرون بحجج الله تعالى وبراهينه المثبتة لنبوة نبيّه محمد ﷺ ودينه الإسلام تلك الحجج والبراهين التي جاء بها القرآن والتوراة والإنجيل معًا؟ والله جلّ جلاله مطلع

---

(١) تواردت طرق حديث أن النبي ﷺ سُئل عن السبيل في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فقال: **«الزاد والراحلة»** وهو كذلك.

(٢) مما يدل على فورية الحج إذا توفرت النفقة وأمن الطريق وزالت الموانع قوله ﷺ: **«تعجلوا إلى الحج فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له»** رواه أحمد، ، فما دمنا مأمورين بالتعجل كان الفور ألزم والتراخي أبعد، والله أعلم وأعزّ وأحكم.

(٣) الإجماع على أنّ الحج مرّة واحدة في العمر لقوله ﷺ: **«لا، ولو قلت: نعم لوجبت»** إذ سأل سائل قائلًا: أفي كل عام يا رسول الله؟ وذلك لمّا نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ..﴾ ومما يؤكد فرضيته وهي مؤكدة بخطاب الله تعالى: أن عمر رضي الله عنه قال: مَنْ أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهوديًا أو نصرانيًا. قال ابن كثير: إسناده صحيح.

(٤) هذا دال على أن أهل الكتاب يؤمنون بعموم علم الله وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلهذا كان توبيخهم أشدّ.

(٥) قرىء: ﴿تصدون﴾ من صد إذ يقال صدّه، وأصده عن كذا صرفه عنه.

(٦) أصلها تبغون لها فحذفت اللام نحو (كالوهم) أي: كالوا لهم.

على كفركم عليم به، أما تخافون عقابه أما تخشون عذابه؟.

كما أمر تعالى رسوله ﷺ أيضًا أن يقول لهم مؤنّبًا موبخًا لهم على صرفهم المؤمنين عن الإسلام بأنواع الحيل والتضليل: يا أهل الكتاب[1] أي يا أهل العلم الأول لَم تصرفون المؤمنين عن الإسلام الذي هو سبيل الله بما تثيرونه بينهم من الشكوك والأوهام تطلبون للإسلام العوج لينصرف المؤمنون عنه، مع علمكم التام بصحة الإسلام وصدق نبيّه محمد عليه الصلاة والسلام، أما تخافون الله، أما تخشونه تعالى وهو مطلع على سوء تدبيركم غير غافل عن مكركم وغشكم وخداعكم.

هداية الآيتين:

١ - شدة قبح كفر وظلم من كان عالمًا من أهل الكتاب بالحق ثم كفره وجحده بغيًا وحسدًا.

٢ - حرمة صرف الناس عن الحق والمعروف بأنواع الحيل وضروب الكذب والخداع.

٣ - علم الله تعالى بكل أعمال عباده من خير وشر وسيجزيهم بها فضلاً منه وعدلاً.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

٦٣

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٠، ١٠٣]

﴿١٠٠﴾ ﴿فَرِيقًا﴾: طائفة[2] من الحاقدين على الإسلام العاملين على الكيد له والمكر به وبأهله. ﴿يَرُدُّوكُم﴾: يرجعوكم إلى الكفر بعد إيمانكم.

﴿١٠١﴾ ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتعجب من كفرهم بعد إيمانهم. آيات الله: آيات القرآن الكريم. ﴿يَعْتَصِم﴾: يتمسك بشدة.

﴿١٠٢﴾ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: باستفراغ الوسع في امتثال أمره، واجتناب نهيه، وتقاته[3] هي تقواه.

﴿١٠٣﴾ ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾: كتابه القرآن ودينه الإسلام، لأن الكتاب والدين هما الصلة التي تربط المسلم بربه، وكل ما يربط ويشد شيئًا بآخر هو سبب وحبل. ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾: جمعها على أخوة الإيمان ووحد بينها بعد الاختلاف والنفرة. ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾: شفا الحفرة حافتها وطرفها بحيث لو غفل الواقف عليها وقع فيها. ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾: بهدايتكم إلى الإسلام وبذلك أنجاكم من النار.

معنى الآيات:

﴿١٠٠﴾ بعد أن وبّخ تعالى اليهود على خداعهم ومكرهم وتضليلهم للمؤمنين وتوعدهم على ذلك، نادى المؤمنين محذرًا إياهم من الوقوع في شباك المضللين من اليهود فقال:

---

(١) أخرج ابن إسحق في سبب نزول هذه الآية: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ..﴾ أن شماس بن قيس اليهودي رأى جماعة من المسلمين من الأوس والخزرج باديًا عليهم الوئام (المحبة) فغاظه ذلك فأمر أحد اليهود أن يجلس بينهم ويذكرهم بحرب بعاث وفَعَل فحدث نزاع بينهم أدى بهم إلى الخروج إلى الحَرَّة للتقاتل وفعلاً خرجوا وسمع بذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم وهدأهم بقوله: «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم**» وما زال يعظهم حتى ألقوا السلاح وتعانقوا وهم يبكون، وعرفوا أنها مكرة يهود وخدعتهم عليهم لعائن الله، وأنزل تعالى هذه الآية والتي قبلها.

(٢) قالوا: هما شماس اليهودي وأصحابه الذين أثاروا الفتنة بين الأوس والخزرج ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فطاعة أعداء الإسلام من اليهود والنصارى كانت وما زالت سبب دمار أمة الإسلام.

(٣) التقاة اسم مصدر اتقى يتقي اتقاءً وأصلها وقية فتحرك حرف العلّة فانفتح ما قبله فقلب واوًا فصارت وقاة، وأبدلت الواو تاء فصارت تقاة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ وذلك أن نفرًا من الأوس والخزرج كانوا جالسين في مجلس يسودهم الود والتصافي ببركة الإسلام الذي هداهم الله تعالى إليه فمرّ بهم شاس بن قيس اليهودي فآلمه ذلك التصافي والتحابب وأحزنه بعد أن كان اليهود يعيشون في منجاة من الخوف من جيرانهم الأوس والخزرج لما كان بينهم من الدمار والخراب فأمر شاس شابًا أن يذكرهم بيوم بعاث فذكروه وتناشدوا الشعر فثارت الحميّة القبلية بينهم فتسابُّوا وتشاتموا حتى همُّوا بالقتال فأتاهم الرسول ﷺ وذكّرهم بالله تعالى وبمقامه بينهم فهدؤوا، وذهب الشر ونزلت هذه الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾. (١٠١) فحذّرهم من مكر أهل المكر من اليهود والنصارى، وأنكر عليهم ما حدث منهم حاملاً لهم على التعجب من حالهم لو كفروا بعد إيمانهم فقال عز وجل: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ صباح مساء في الصلوات وغيرها، وفيكم رسوله[(١)] ﷺ هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وأرشدهم إلى الاعتصام بدين الله وبشّر المعتصمين بالهداية إلى طريق السعادة والكمال فقال: ومن يعتصم بالله أي بكتابه وسنة نبيّه ﷺ فقد هدي إلى صراط مستقيم، ثم كرّر تعالى نداءه[(٢)] لهم بعنوان الإيمان تذكيرًا لهم به وأمرهم بأن يبذلوا وسعهم في تقوى الله عز وجل وذلك بطاعته كامل الطاعة بامتثال أمره واجتناب نهيه حاضًا لهم على الثبات على دين الله حتى يموتوا عليه فلا يبدلوا ولا يغيروا فقال: (١٠٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ[(٣)] وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وأمرهم بالتمسك بالإسلام عقيدة وشريعة ونهاهم عن التفرق والاختلاف وأرشدهم إلى ذكر نعمته تعالى عليهم بالألفة والمحبة التي كانت ثمرة هدايتهم للإيمان والإسلام، بعد أن كانوا أعداء متناحرين مختلفين فألّف بين قلوبهم فأصبحوا بها إخوانًا متحابين متعاونين، كما كانوا قبل نعمة الهداية إلى الإيمان على شفا جهنم لو مات أحدهم يومئذ لوقع فيها خالدًا أبدًا، وكما أنعم عليهم وأنقذهم من النار ما زال يبين لهم الآيات الدالة على طريق الهداية الداعية إليه ليثبتهم على الهداية ويكملهم فيها فقال تعالى: (١٠٣) ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ[(٤)] وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ[(٥)] لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - طاعة كثير من علماء اليهود والنصارى بالأخذ بنصائحهم وتوجيهاتهم وما يشيرون به على المسلم تؤدي بالمسلم إلى الكفر شعر بذلك أم لم يشعر فلذا وجب الحذر كل الحذر منهم.

٢ - العصمة في التمسك بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، فمن تمسك بهما لم يضل.

٣ - الأخذ بالإسلام جملة والتمسك به عقيدة وشريعة أمان من الزيغ

---

(١) عصمة هذه الأمة من الذنوب والسقوط في هذين الأمرين: الكتاب والسنة فمهما تمسكت أمة الإسلام بهما فإنها لا تضل ولا تسقط ولو كادها أهل الأرض أجمعون ومهما أعرضت عنهما سقطت وهانت ولو دَعَمَها أهل الأرض أجمعون.

(٢) من مظاهر إكرام الله تعالى للمؤمنين أن ناداهم مباشرة بيا أيها الذين آمنوا بخلاف أهل الكتاب فإنه أمر رسوله ﷺ أن يناديهم إشعارًا لهم بعدم رضاه عنهم وغضبه عليهم.

(٣) روي أن تقوى الله حق تقاته: تتمثّل في أن يُطاع تعالى ولا يُعصى ويُشكر ولا يُكفر ويُذكر ولا يُنسى، وخصصتها آية التغابن ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ إذ لا تكليف مع العجز عن القيام به.

(٤) في الآية حرمة التفرق في الدين ومنه التفرق في الحكم، فكلاهما محرّم لما يفضي بالمتفرقين إلى الهلاك والخسران. عَرَف هذا أعداء الإسلام فعملوا على تفرقة أمّة الإسلام، وفرقوها مذاهب وطوائف ثمّ دويلات وحكومات ثم أذلوها وأهانوها.

(٥) وهذه نعمة أخرى: مواصلة إنزال القرآن بالأحكام والشرائع والآداب والمواعظ والعبر ليتم لهم كمالهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة فللّه الحمد والمنّة.

والضلال وأخيرًا من الهلاك والخسران.

٤ - وجوب التمسك بشدة بالدين الإسلامي وحرمة[1] الفرقة والاختلاف فيه.

٥ - وجوب ذكر النعم لأجل شكر الله تعالى عليها بطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

٦ - القيام على الشرك والمعاصي وقوف على شفير جهنم فمن مات على ذلك وقع في جهنم حتمًا بقضاء الله وحكمه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٤ - ١٠٩]

(١٠٤) الأمة: أفراد من البشر أو غيرهم تربطهم رابطة جنس أو لغة أو دين ويكون أمرهم واحدًا والمراد بالأمة هنا المجاهدون وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿الْخَيْرِ﴾: الإسلام وكل ما ينفع الإنسان في حياته الأولى والآخرة من الإيمان والعمل الصالح. المعروف: المعروف كل ما عرفه الشرع فأمر به لنفعه وصلاحه للفرد أو الجماعة.

﴿الْمُنكَرِ﴾: ضد المعروف، وهو ما نهى عنه الشرع لضرر وإفساد، للفرد أو الجماعة.

(١٠٥) الذين تفرقوا: هم أهل الكتاب من اليهود[2] والنصارى.

(١٠٦) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾[3]: هذا يوم القيامة.

(١٠٧) ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾: رحمة الله هنا: الجنّة جعلنا الله تعالى من أهلها، آمين.

(١٠٨) ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾: هذه آياتنا نقرؤها عليك متلبسة بالحق، لا باطل فيها أبدًا.

(١٠٩) ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾: إلى الله تصير الأمور فيقضي فيها بما يشاء ويحكم ما يريد فضلاً وعدلاً.

معنى الآيات:

(١٠٤) بعدما أمر الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين بتقواه والتمسك بدينه ونهاهم عن الفرقة والاختلاف وحضهم على ذكر نعمه ليشكروها بطاعته أمرهم في هذه الآية (١٠٤) بأن يوجدوا من أنفسهم جماعة تدعو إلى الإسلام وذلك بعرضه على الأمم والشعوب ودعوتهم إلى الدخول فيه، كما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر في ديار الإسلام وبين أهله فقال تعالى مخاطبًا إياهم: ولتكن منكم[4] أي يجب أن تكون منكم طائفة يدعون إلى الخير أي الإسلام، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وبشّرهم بأن الأمة التي تنهض بهذا الواجب هي الفائزة بسعادة الدنيا والآخرة فقال: فأولئك هم المفلحون الفائزون بالنجاة من العار والنار، وبدخول الجنة مع الأبرار.

(١٠٥) وفي الآيات (١٠٥) (١٠٦) (١٠٧) نهاهم أن يسلكوا طريق أهل الكتاب في التفرق في السياسة والاختلاف في الدين فيهلكوا هلاكهم، فقال تعالى مخاطبًا إياهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ فلا ينبغي أن يكون العلم والمعرفة بشرائع الله سببًا في الفرقة والخلاف[5]، وهما أداة الوحدة والائتلاف، وأعلمهم بجزاء المختلفين من أهل الكتاب ليعتبروا فلا يختلفوا ولا يتفرقوا فقال تعالى: وأولئك لهم عذاب عظيم لا يقادر قدره ولا يعرف مداه، وأخبرهم عن

---

(١) في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: «**إنّ الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا مَنْ ولاّه الله أمركم، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال**».

(٢) وقيل: هم الحرورية وقيل: المبتدعة من هذه الأمة وكونهم اليهود والنصارى هذا الراجح والحق وعليه جمهور المفسرين.

(٣) تبيض وجوه المؤمنين المتقين، وتسود وجوه الكافرين والمبتدعين من أصحاب الأهواء.

(٤) مِنْ للتبعيض وعليه فسرنا الآية وقلنا: بوجود طائفة لا كل الأمّة إذ لا بد من العلم لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والعلم لا يتوفر لكل فرد أبدًا ولذا فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية.

(٥) نهاهم تعالى عن التفرق والاختلاف وقد وقع ما نهاهم عنه وثبت ما أخبر به رسول الله ﷺ فقد قال: «**تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتي عشرة فرقة فصارت اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**» رواه الترمذي وقال: هذا حديث صحيح وفعلاً فقد وجدت ست فرق وهي: الحرورية - والقدرية - والجهمية - والمرجئة - والرافضة - والجبرية. انقسمت كل فرقة من هذه إلى اثنتي عشرة فرقة فصارت اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلاّ أهل السنة والجماعة.

الجزء الرابع سورة آل عمران

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

٦٤

موعد حلول هذا العذاب العظيم بهم وأنه يوم القيامة حينما تبيض وجوه المؤمنين المؤتلفين القائمين على الكتاب والسنة، وتسود وجوه الكافرين المختلفين القائمين على البدع والأهواء، فقال تعالى: ﴿١٠٦﴾ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ[1] وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وبيّن جزاء الفريقين فقال: فأما الذين اسودت وجوههم من سوء ما عاينوه من أهوال الموقف وما أيقنوا أنهم صائرون إليه من عذاب النار فيقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: أكفرتم بعد إيمانكم؟ إذ هذه وجوه من تلك حالهم، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون بالله وشرائعه.

﴿١٠٧﴾ وأما الذين ابيضت وجوههم فلم يطل في الهول موقفهم حتى يدخلوا جنة ربهم قال تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿١٠٨﴾ وفي الآية (١٠٨) شرّف الله تعالى نبيّه محمدًا ﷺ بخطابه والوحي إليه فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا[2] عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي هذه الآيات المتضمنة للهدى والخير نقرؤها عليك بالحق الثابت الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه فبلغها عنا وادع بها إلينا فمن استجاب لك نجا ومن أعرض هلك، وما الله يريد ظلمًا للعالمين. فلا يعذب إلا بعد الإعلام والإنذار.

﴿١٠٩﴾ وفي الآية الأخيرة (١٠٩) يخبر تعالى أنه له ملك السموات والأرض خلقًا وتصرفًا وتدبيرًا، وأن مصير الأمور إليه وسيجزي المحسن بالحسنى والمسيء بالسُّوأى.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب وجود طائفة من أمة الإسلام تدعو الأمم والشعوب إلى الإسلام وتعرضه عليهم وتقاتلهم إن قاتلوها عليه، ووجوب وجود هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل مدن وقرى المسلمين.

٢ ـ حرمة الفرقة بين المسلمين والاختلاف في دين الله.

٣ ـ أهل البدع والأهواء يعرفون في عرصات القيامة باسوداد وجوههم.

٤ ـ أهل السنة والجماعة وهم الذين يعيشون عقيدة وعبادة على ما كان عليه رسول[3] الله ﷺ وأصحابه يعرفون يوم العرض بابيضاض وجوههم.

٥ ـ كرامة الرسول ﷺ على ربّه وتقرير نبوّته. وشرف من آمن به واتبع ما جاء به.

٦ ـ مرد الأمور إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة فيجب على عقلاء العباد أن يتخذوا لهم عند الله عهدًا بالإيمان به وتوحيده في عبادته بتحقيق لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٠ ـ ١١٢]

﴿١١٠﴾ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾: وُجدتم أفضل وأبرك أمة وُجدت على الأرض. ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: أظهرت وأبرزت لهداية الناس ونفعهم.

﴿١١١﴾ ﴿أَذًى﴾: الأذى الضرر اليسير. ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾: ينهزمون

(١) روى ابن القاسم عن مالك في العتبية أنه قال: ما آية في كتاب الله أشدّ على أهل الاختلاف من أهل الأهواء من هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ..﴾ قال مالك: إنما هذه الآية لأهل القبلة بدليل قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ..﴾.

(٢) التلاوة: كالقراءة إلا أن القراءة عادة تكون لكلام مكتوب وأما التلاوة فهي مجرد حكاية كلام لإرادة تبليغه بلفظه.

(٣) افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الملة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة في الجنة وقيل: من هم يا رسول الله فقال: «**هم الذين يكونون على ما أنا عليه وأصحابي**».

فيفرون من المعركة مولينكم أدبارهم أي ظهورهم.

(١١٢) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾: أحاطت بهم المذلة ولصقت بهم حتى لا تفارقهم. ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾: رجعوا من رحلتهم الطويلة في الكفر وعمل الشر بغضب الله. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ...﴾: ذلك: إشارة إلى ما لصق بهم من الذلة والمسكنة وما عادوا به من غضب الله تعالى وما تبعه من عذاب. (فالباء) في بأنهم سببية أي بسبب فعلهم كذا وكذا والمسكنة هي ذلة الفاقة والفقر. ﴿يَعْتَدُونَ﴾: الاعتداء مجاوزة الحد في الظلم والشر والفساد.

معنى الآيات:

(١١٠) لما أمر الله تعالى المؤمنين بتقواه والاعتصام بحبله فامتثلوا، وأمرهم بتكوين جماعة منهم يدعون إلى الإسلام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فامتثلوا ذكرهم بخير عظيم فقال لهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ كما قال لهم رسول الله ﷺ: «**كنتم خير الناس للناس...**» ووصفهم بما كانوا به خير أمة فقال تأمرون بالمعروف وهو الإسلام وشرائع الهدى التي جاء بها نبيّه ﷺ وتنهون عن المنكر وهو الكفر والشرك وكبائر الإثم والفواحش، وتؤمنون بالله. وبما يتضمنه الإيمان بالله من الإيمان بكل ما أمر تعالى بالإيمان به من الملائكة والكتب والرسل والبعث الآخر والقدر. ثم دعا تعالى أهل الكتاب إلى الإيمان الصحيح المنجي من عذاب الله فقال عز وجل: ولو آمن أهل الكتاب بالنبي محمد ﷺ وما جاء به من الإسلام لكان خيرًا لهم من دعوى الإيمان الكاذبة التي يدعونها. وأخبر تعالى عنهم بأن منهم المؤمنين الصادقين في إيمانهم كعبد الله بن سلام وأخيه، وثعلبة بن سعيد وأخيه، وأكثرهم الفاسقون الذين لم يعملوا بما جاء في كتابهم من العقائد والشرائع من ذلك أمر الله تعالى بالإيمان بالنبي الأميّ ﷺ واتباعه على ما يجيء به من الإسلام

(١١١) ثم أخبر المسلمين أن فسّاق أهل الكتاب لن يضروهم إلا أذىً يسيرًا كإسماعهم الباطل وقولهم الكذب. وأنهم لو قاتلوهم ينهزمون أمامهم مولينهم ظهورهم فارّين من القتال ثم لا ينصرون على المسلمين في أي قتال يقع بين الجانبين.

(١١٢) كما أخبر تعالى في الآية (١١٢) أنه تعالى ضرب عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا وفي أيّ البلاد وجدوا لن تفارقهم الذلة والمسكنة في حال من الأحوال إلا في حال دخولهم في الإسلام وهو حبل الله[١]، أو معاهدة وارتباط بدولة قوية وذلك هو حبل[٢] الناس. كما أخبر تعالى عنهم أنهم رجعوا من عنادهم وكفرهم بغضب من الله، وما يستتبعه من عذاب في الدنيا بحالة الفاقة والفقر المعبر عنها بالمسكنة، وفي الآخرة بعذاب جهنم كما ذكر تعالى علة عقوبتهم وأنها الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم المستمر واعتداؤهم الذي لا ينقطع فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ ـ إثبات خيرية أمة الإسلام وفي الحديث: «**أنتم تتمون[٣] سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**».

٢ ـ بيان علة خيرية أمة[٤] الإسلام وهي الإيمان بالله والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ وعد الله تعالى لأمة الإسلام ـ ما تمسكت به ـ بالنصر على اليهود

---

(١) هذه الآية مخصصة لعموم آية الأعراف ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ إلا في حال إسلامهم أو ارتباطهم بمعاهدة دولة قوية كما هي الحال اليوم.

(٢) الحبل مستعار هنا للعهد، أي: المعاهدة التي تربطهم بدولة قوية كبريطانيا وأمريكا الآن.

(٣) ومن هنا فعصر الصحابة أفضل ممن بعدهم وذلك لتحقق الصفات التي كانت بها الخيرية ويشهد لهذا الحديث الصحيح: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» فالخيرية العامة لهذه الأمة لا جدال فيها والخيرية الخاصة فهي تتوفر لأهل الصفات الثلاث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان التام في كل زمان ومكان.

(٤) يوضح هذا قول عمر في حجه وقد رأى في الناس دعة فقال بعد أن قرأ هذه الآية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: من سره أن يكون في هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها.

في أي قتال يقع بينهم.

٤ - صدق القرآن في إخباره عن اليهود بلزوم الذلة والمسكنة لهم أينما كانوا.

٥ - بيان جرائم اليهود التي كانت سببًا في ذلتهم ومسكنتهم وهي الكفر المستمر، وقتل الأنبياء بغير حق والعصيان والاعتداء على حدود الشرع.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٣ ـ ١١٥]

(١١٣) ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾: غير متساوين. ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾: جماعة قائمة ثابتة على الإيمان والعمل الصالح. ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: يقرؤون القرآن. ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾: ساعات الليل جمع إني وإني. ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: يصلون.

(١١٤) ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: يبتدرونها خشية الفوات.

(١١٥) ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾: فلن يجحدوه بل يعترف لهم به ويجزون به وافيًا.

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى حال أهل الكتاب وأنهم فريقان مؤمن صالح، وكافر فاسد. ذكر هنا في هذه الآيات الثلاث: (١١٣، ١١٤، ١١٥) أن أهل الكتاب ليسوا سواء[1] أي غير متساوين في الحال، وأثنى على أهل الصلاح منهم.

(١١٣) فقال جلّ ذكره: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾[2] أي على الإيمان الحق والدين الصحيح وهم الذين أسلموا. يتلون آيات الله يقرؤونها في صلاتهم آناء الليل أي ساعات الليل في صلاة العشاء وقيام الليل وهم يسجدون وهذا ثناء عليهم بالسجود إذ هو أعظم مظاهر الخضوع لله تعالى.

(١١٤) كما أثنى تعالى عليهم بالإيمان الصادق والأمر بالمعروف وهو الدعوة إلى عبادة الله تعالى بعد الإيمان به والإسلام الظاهر والباطن له. وينهون عن المنكر وهو الشرك بعبادة الله تعالى والكفر به وبرسوله ﷺ فقال عز وجل: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي يبادرون إليها قبل فواتها والخيرات هي كل قول وعمل صالح من سائر القربات. وشهد تعالى لهم بالصلاح فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

(١١٥) وأخيرًا في الآية الأخيرة (١١٥) أن ما يفعلونه من الصالحات وما يأتونه من الخيرات لن يجحدوه بل يعترف لهم به ويجزون عليه أتم الجزاء، لأنهم متقون والله عليم بالمتقين فلن يضيع أجرهم.

هداية الآيات:

١ - فضل الثبات على الحق والقيام على الطاعات.

٢ - فضل تلاوة القرآن الكريم في صلاة الليل.

٣ - فضل الإيمان والدعوة إلى الإسلام.

٤ - فضل المسابقة في الخيرات والمبادرة إلى الصالحات.

٥ - فضيلة الكتابي إذا أسلم وحسن إسلامه، وفي الصحيحين يقول الرسول ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران**» الحديث..

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٦، ١١٧]

(١١٦) ﴿كَفَرُوا﴾: كذبوا بالله ورسوله ﷺ وشرعه ودينه. ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ﴾: لن تجزي عنهم يوم القيامة أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئًا، إذ لا مال يومئذ ينفع، ولا بنون.

(١١٧) ﴿مَثَلُ﴾: أي صفة وحال ما ينفقونه لإبطال دعوة الإسلام، أو للتصدق به. الصرّ[3]: الريح الباردة الشديدة البرد التي تقتل الزرع وتفسده. الحرث: ما تحرث له الأرض وهو الزرع. ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: حيث دنسوها بالشرك والمعاصي فعرضوها للهلاك والخسار.

---

(١) يرى بعضهم أن الكلام تم عند قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ أي: ليس المسلمون وأهل الكتاب سواء ثم استأنف فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلخ.. وما ذكرته في التفسير أصح وأوضح.

(٢) المراد بهم: عبدالله بن سلام، وأخوه وعمته وَسَعْية أو سنعة بن غريض، وثعلبة بن سعية وأسد القرظي، وغيرهم ممن أسلموا وحسن إسلامهم، في دنيا الإسلام والمسلمين إلى اليوم.

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اسم إنّ والخبر: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

(٣) الصر: مأخوذ من الصرير الذي هو الصوت وفي الحديث: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل الجراد الذي قتله الصرّ» أي: البرد الشديد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

٦٥

معنى الآيتين:

لما ذكر تعالى حال مؤمني أهل الكتاب وأثنى عليهم بما وهبهم من صفات الكمال ذكر هنا في هاتين الآيتين ما توعد به أهل الكفر من الكتابيين وغيرهم من المشركين على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ليهتدي من هيأه الله تعالى للهداية فقال: إن الذين كفروا أي كذبوا الله ورسوله ﷺ فلم يؤمنوا ولم يوحّدوا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم[1] أي في الدنيا والآخرة مما أراد الله تعالى بهم شيئًا من الإغناء، لأن الله تعالى غالب على أمره عزيز ذو انتقام.

(١١٦) وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. فيه بيان حكم الله تعالى فيهم وهو أن أولئك البعداء في الكفر والضلال المتوغلين في الشر والفساد هم أصحاب النار الذين يعيشون فيها لا يفارقونها أبدًا ولن تغني عنهم أموالهم التي كانوا يفاخرون بها، ولا أولادهم الذين كانوا يعتزون بهم ويستنصرون، إذ يوم القيامة لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم: سليم من الشك والشرك والكبر والعجب والنفاق.

(١١٧) هذا ما تضمنته الآية: (١١٦) أما الآية (١١٧) فقد ضرب تعالى فيها مثلًا لبطلان نفقات الكفار والمشركين وأعمالهم التي يرون أنها نافعة لهم في الدنيا والآخرة ضرب لها مثلًا: ريحًا باردة شديدة البرودة أصابت زرع أناس كاد يُحصد وهم به فرحون وفيه مؤملون فأفسدته تلك الريح وقضت عليه نهائيًا فلم ينتفعوا بشيء منه، قال تعالى في هذا المثل: مثل ما ينفقون ـ أي أولئك الكفار في هذه الحياة الدنيا أي مما يرونه نافعًا لهم من بعض أنواع البر. كمثل ريح فيها صرّ[2] أي برد شديد أصابت ـ أي تلك الريح الباردة ـ حرث قوم أي زرعهم النابت فأهلكته أي أفسدته. فحرموا من حرثهم ما كانوا يؤملون، وما ظلمهم[3] حيث أرسل عليهم الريح فأهلكت زرعهم، إذ لم يفعل الله تعالى هذا بهم إلا لأنهم ظلموا بالكفر والشرك والفساد فجزاهم الله بالحرمان وبذلك كانوا هم الظالمين لأنفسهم.

(١١٧) قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هداية الآيتين:

١ - لن يغني عن المرء مال ولا ولد متى ظلم وتعرض لنقمة الله تعالى.

٢ - أهل الكفر هم أهل النار وخلودهم فيها محكوم به مقدّر عليهم لا نجاة منه.

٣ - بطلان العمل الصالح بالشرك والموت على الكفر.

٤ - استحسان ضرب الأمثال في الكلام لتقريب المعاني إلى الأذهان.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٨ ـ ١٢٠]

(١١٨) ﴿بِطَانَةً﴾: بطانة[4] الرجل

---

(١) كرّر حرف النفي ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ لتأكيد عدم إغناء الأولاد عنهم شيئًا مع أن العرف أن الأولاد يذبون عن آبائهم ويدفعون عنهم.

(٢) ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ هذا التعبير أفاد شدّة برد هذه الريح إذ جعل الصرّ مظروفًا فيها.

(٣) نفى تعالى عن نفسه ظلم هؤلاء المنفقين في الباطل والشر والفساد، فلم يجنوا خيرًا من إنفاقهم وأثبت الظلم منهم لأنفسهم لسوء إنفاقهم وفساده.

(٤) أصل البطانة: بطانة الثوب شبه بها بطانة الرجل ووليجته وهم مَنْ يطلعهم على أسراره ثقة فيهم، ومثل البطانة: الشعار وهو الثوب الذي يلي الجسد وفي الحديث: **«الأنصار شعار والناس دثار»**.

الذين يطلعهم على باطن[1] أمره الذي يخفيه على الناس للمصلحة. ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: من غيركم أي من غير المسلمين كالكفار وأهل الكتاب. ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾: لا يقصرون في إفساد الأمور عليكم. ﴿خَبَالًا﴾[2]: فسادًا في أمور دينكم ودنياكم. ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: أحبّوا عنتكم أي مشقتكم. ﴿بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾: ظهرت شدة بغضهم لكم.

﴿١١٩﴾ ﴿أُولَاءِ﴾: هؤلاء حذفت منه هاء التنبيه لوجودها في ها أنتم قبلها. ﴿بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾: أي بالكتب الإلهية كلها. ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾: من شدة الغيظ عليكم، لأن المغتاظ إذا اشتد به الغيظ يعض أصبعه على عادة البشر، والغيظ: شدة الغضب.

﴿١٢٠﴾ ﴿حَسَنَةٌ﴾: ما يحسن من أنواع الخير كالنصر والتأييد والقوة والخير. ﴿سَيِّئَةٌ﴾: ما يسوؤكم كالهزيمة أو الموت أو المجاعة. ﴿كَيْدُهُمْ﴾: مكرهم بكم وتبييت الشر لكم. ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: علمًا به وقدرة عليه، إذ هم واقعون تحت قهره وعظيم سلطانه.

معنى الآيات:

﴿١١٨﴾ لما أخبر تعالى عن مصير الكافرين في الآخرة، وأن ذلك المصير المظلم كان نتيجة كفرهم وظلمهم حذر المؤمنين من موالاتهم دون المؤمنين وخاصة أولئك الذين يحملون في صدورهم الغيظ والبغضاء للمسلمين الذين لا يقصرون في العمل على إفساد أحوال المسلمين والذين يسوؤهم أن يروا المسلمين متآلفين متحابين أقوياء ظاهرين منصورين على أهل الشرك والكفر، ويسرهم أيضًا أن يروا المسلمين مختلفين أو ضعفاء منكسرين مغلوبين. فقال تعالى ـ وقوله الحق ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً. ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ أي أفرادًا من دونكم[3] أي من غير أهل دينكم، كاليهود والنصارى والمنافقين والمشركين تستشيرونهم وتطلعونهم على أسراركم وبواطن أموركم، ووصفهم تعالى تعريفًا بهم فقال: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ[4] خَبَالًا﴾ يعني لا يقصرون في إفساد أموركم الدينية والدنيوية.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: أي أحبوا عنتكم ومشقتكم، فلذا هم لا يشيرون عليكم إلا بما يفسد عليكم أموركم ويسبب لكم الكوارث والمصائب في حياتكم وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ وصف آخر مشخص لهؤلاء الأعداء المحرم اتخاذهم بطانة، ألا وهو ظهور البغضاء من أفواههم[5] بما تنطق به ألسنتهم من كلمات الكفر والعداء للإسلام وأهله، وما يخفونه من ذلك في صدورهم[6] هو أكبر مما يتفلت من ألسنتهم. ويؤكد عز وجل تحذيره للمؤمنين فيقول: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ المتضمنة لبيان أعدائكم وأحوالهم وصفاتهم لتعتبروا ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي الخطاب وما يتلى عليكم ويقال لكم. ثم يقول تعالى معلمًا محذرًا ها أنتم أيها المسلمون تحبونهم ولا يحبونكم. قد علم الله أن من بين المؤمنين من يحب بعض

(١) روى البخاري تعليقًا أنّ النبي ﷺ قال: **«ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلاّ كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله»**.

(٢) الخبال: الخبل وهو الفساد وفي الحديث: **«من أصيب بدم أو خبل»** أي: جرح يفسد العضو ويقال: رجل خبل، وخبله الحبّ: أفسده.

(٣) قيل لعمر رضي الله عنه: إنّ ها هنا رجلاً من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم أفلا يكتب عنك؟ فقال: لا آخذ بطانة من دون المؤمنين. وجاء أبو موسى الأشعري بحسّاب نصراني لعمر فانتهره وقال: لا تدنهم، وقد أقصاهم الله، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تأمنهم وقد خونهم الله.

(٤) هذه الجملة وإن كانت صفة لكلمة بطانة، فهي في معنى العلّة للنهي السابق.

(٥) خصت الأفواه بالذكر دون الألسن: إشارة إلى أنهم يتشدّقون بالكلام إيهامًا وتضليلاً.

(٦) استدل أهل العلم بهذه الآية على أنّ شهادة العدو لا تصح على عدوه وكيف به إذا كان كافرًا؟

الكافرين لعلاقة الإحسان الظاهرة بينهم فأخبر تعالى عن هؤلاء كما أن رحمة المؤمن وشفقته قد تتعدى حتى لأعدائه فلذا ذكر تعالى هذا وأخبر به وهو الحق، وقال: (١١٩) ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي وهم لا يؤمنون بكتابكم فانظروا إلى الفرق بينكم وبينهم فكيف إذًا تتخذونهم بطانة تفضون إليهم بأسراركم. وأخبر تعالى عن المنافقين أنهم إذا لقوا المؤمنين قالوا إنا مؤمنون وإذا انفردوا عنهم وخلوا بأنفسهم ذكروهم وتغيظوا عليهم حتى يعضوا أطراف أصابعهم[١] من شدة الغيظ. فقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ[٢] مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ وهنا أمر رسوله ﷺ أن يدعو عليهم بالهلاك فقال له: قل يا رسولنا لهم: ﴿مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلذا أخبر عنهم كاشفًا الغطاء عما تكنه نفوسهم ويخفونه في صدورهم. هذا ما تضمنته الآيتان الأولى (١١٨) والثانية (١١٩) وأما الآية الثالثة (١٢٠) فقد تضمنت أيضًا بيان صفة نفسيّة للكافرين المنهي عن اتخاذهم بطانة وهو استياؤهم وتألمهم لما يرونه من حسن حال المسلمين كائتلافهم واجتماع كلمتهم ونصرهم وعزتهم وقوتهم وسعة رزقهم، كما هو أيضًا فرحهم وسرورهم بما قد يشاهدونه من خلاف بين المسلمين أو وقوع هزيمة لجيش من جيوشهم، أو تغير حال عليهم بما يضر ولا يسر وهذه نهاية العداوة وشدة البغضاء فهل مثل هؤلاء يتخذون أولياء؟ اللهم لا.

(١٢٠) فقال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ[٣] تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾. ولما وصف تعالى هؤلاء الكفرة بصفات مهيلة مخيفة قال لعباده المؤمنين مبعدًا الخوف عنهم: وإن تصبروا على ما يصيبكم وتتقوا الله تعالى في أمره ونهيه وفي سننه في خلقه لا يضركم[٤] كيدهم شيئًا، لأن الله تعالى وليكم مطلع على تحركاتهم وسائر تصرفاتهم وسَيُحْبِطُهَا كلها، دلّ على هذا المعنى قوله في الجملة التذييلية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

هداية الآيات:

١ - حرمة اتخاذ مستشارين وأصدقاء من أهل الكفر عامّة وحرمة إطلاعهم على أسرار الدولة الإسلامية، والأمور التي يخفيها المسلمون على أعدائهم لما في ذلك من الضرر الكبير.

٢ - بيان رحمة المؤمنين وفضلهم على الكافرين.

٣ - بيان نفسيات الكافرين وما يحملونه من إرادة الشر والفساد للمسلمين.

٤ - الوقاية من كيد الكفار ومكرهم تكمن في الصبر والتجلد وعدم إظهار الخوف للكافرين ثم تقوى الله تعالى بإقامة دينه ولزوم شرعه والتوكل عليه، والأخذ بسننه في القوة والنصر.

الجزء الرابع — سُورَةُ آلِ عِمْرَان

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

٦٦

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢١ ـ ١٢٣]

(١٢١) ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾: أي واذكر إذ

(١) العض: مصدر عضّ يعضّ عضًا وعضيضًا إذا أخذ الشيء بأسنانه والعُض بضم العين علف الدواب.

(٢) الأنامل: جمع أنملة وهي طرف الأصبع الأعلى.

(٣) هذا من شدة حسدهم للمسلمين ولقد أحسن من قال: كل العداوة قد تُرجى إفاقتها إلاّ عداوة من عاداك من حَسَد.

(٤) قرىء: ﴿لا يضرْكُم﴾ مِن ضاره يضيره ضيرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ والضير والضرر بمعنى واحد.

غدوت، والغدوّ: الذهاب أول النهار. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: أهل الرجل زوجه وأولاده. ومن لابتداء الغاية إذ خرج ﷺ صباح السبت من بيته إلى أحد حيث نزل المشركون به[1] يوم الأربعاء. ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: تنزل المجاهدين الأماكن التي رأيتها صالحة للنزول فيها من ساحة المعركة.

(١٢٢) ﴿هَمَّت﴾: حدّثت نفسها بالرجوع إلى المدينة وتوجّهت إرادتها إلى ذلك. ﴿طَّآئِفَتَانِ﴾: هما بنو سلمة، وبنو حارثة من الأنصار. ﴿تَفْشَلَا﴾: تضعفا وتعودا إلى ديارهما تاركين الرسول ﷺ ومن معه يخوضون المعركة وحدهم. ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: متولي أمرهما وناصرهما ولذا عصمهما من ترك السير إلى المعركة.

(١٢٣) ﴿بِبَدْرٍ﴾: بدر اسم رجل وسمي المكان به لأنه كان له فيه ماء وهو الآن قرية تبعد عن المدينة النبوية بنحو من مائة وخمسين ميلًا «كيلومتر». ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: لقلة عددكم وعُددكم وتفوّق العدو عليكم.

معنى الآيات:

(١٢١) لما حذّر الله تعالى المؤمنين من اتخاذ بطانة من أهل الكفر والنفاق، وأخبرهم أنهم متى صبروا واتقوا لا يضرهم كيد أعدائهم شيئًا ذكّرهم بموقفين أحدهما لم يصبروا فيه ولم يتقوا فأصابتهم الهزيمة وهو غزوة أحد، والثاني صبروا فيه واتقوا فانتصروا وهزموا عدوهم وهو غزوة بدر، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي اذكر يا رسولنا لهم غدوّك صباحًا من بيتك إلى ساحة المعركة بأحد، تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال أي تنزلهم الأماكن الصالحة للقتال الملائمة لخوض المعركة، والله سميع لكل الأقوال التي دارت بينكم في شأن الخروج إلى العدو، أو عدمه وقتاله[2] داخل المدينة عليم بنياتكم وأعمالكم ومن ذلك هَمُّ بني سلمة وبني حارثة بالرجوع من الطريق لولا أن الله سلم فعصمهما من الرجوع لأنه وليهما.

(١٢٢) هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ أي تجبنا وتُحْجما عن ملاقاة العدو، والله وليهما فعصمهما من ذنب[3] الرجوع وترك الرسول ﷺ يخوض المعركة بدون جناحيها وهما بنو حارثة وبنو سلمة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فتوكلت الطائفتان على الله وواصلتا سيرهما مع رسول الله ﷺ فسلّمهما الله من شر ذنب وأقبحه. والحمد لله.

هذا موقف والمقصود منه التذكير بعدم الصبر وترك التقوى فيه حيث أصاب المؤمنين فيه شر هزيمة واستشهد من الأنصار سبعون ومن المهاجرين أربعة، وشج[4] رأس النبي ﷺ وكُسرت رباعيته واستشهد عمه حمزة[5] رضي الله عنه.

والموقف الثاني هو غزوة بدر حيث صبر فيها المؤمنون واتقوا أسباب الهزيمة فنصرهم الله وأنجز لهم ما وعدهم لأنهم صبروا واتقوا، فقتلوا سبعين رجلًا وأسروا سبعين وغنموا غنائم طائلة.

(١٢٣) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ

---

(١) الموافق للثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة «وقد رأى النبي ﷺ رؤيا فرأى أنّ في سيفه ثلمة، وأن بقرًا له تذبح وأنه أدخل يده في درع حصينة، فتأولها أنّ نفرًا من أصحابه يُقتلون وأنّ رجلًا من أهل بيته يصاب، وأنّ الدرع الحصينة المدينة». أخرجه مسلم.

(٢) خرج الرسول ﷺ بألف رجل من المدينة وفي أثناء مسيره رجع ابن أُبيّ بثلثمائة رجل غاضبًا إذ كان يرى عدم قتال العدو خارج المدينة فلم يُطع في ذلك فغضب، ورجوعه هو الذي سبَّبَ الهمّ بالرجوع لبني حارثة وبني سلمة.

(٣) روى البخاري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما أحبّ أنها لم تنزل لقول الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

(٤) الذي رمى رسول الله ﷺ فشج وجهه هو ابن قميئة أقماه الله ولعنه، والذي أدمى شفة رسول الله ﷺ وكسر رباعيته هو عتبة بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص.

(٥) وقتل حمزة وحشيّ، كانت تحرّضه على قتل حمزة هند بنت عتبة وتقول له: إيهًا أبا دسمة اشف واستشف. (والدّسمة: غبرة في سواد).

﴿بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ[1] أَذِلَّةٌ﴾ فاتقوا الله بالعمل بطاعته، ومن ذلك ترك اتخاذ بطانة من أعدائكم لتكونوا بذلك شاكرين نعم الله عليكم فيزيدكم، فذكر تعالى في هذا الموقف النصر لأنه خير، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ولم يقل في الموقف الأول ولقد هزمكم الله بأحد وأنتم أعزة، لأنه تعالى حَيِي كريم فاكتفى بتذكيرهم بالغزوة فقط وهم يذكرون هزيمتهم فيها ويعلمون أسبابها وهي عدم الطاعة وقلة الصبر.

هداية الآيات:

١ - فضيلة الصبر والتقوى وأنهما عدة الجهاد في الحياة.

٢ - استحسان التذكير بالنعم والنقم للعبرة والاتعاظ.

٣ - ولاية الله تعالى للعبد تقيه مصارع السوء، وتجنبه الأخطار.

٤ - تقوى الله تعالى بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه هي الشكر الواجب على العبد.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٤ ـ ١٢٧]

(١٢٤) ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾: الاستفهام إنكاري[2] أي ينكر عدم الكفاية. ومعنى يكفيكم يسد حاجتكم. ﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾: أي بالملائكة عونًا لكم على قتال أعدائكم المتفوقين عليكم بالعدد والعتاد. ﴿الْمَلَائِكَةِ﴾: واحدهم ملاك وهم عباد لله مكرمون مخلوقون من نور لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

(١٢٥) ﴿بَلَىٰ﴾: حرف إجابة أي يكفيكم. ﴿مِّن فَوْرِهِمْ[3] هَٰذَا﴾: أي من وَجهِهم في وقتهم هذا. ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: معلمين بعلامات تعرفونهم بها.

(١٢٦) ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾: البشرى: الخبر السار الذي يتهلل له الوجه بالبشر والطلاقة. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾: اطمئنان القلوب سكونها وذهاب الخوف والقلق عنها.

(١٢٧) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾: الطرف الطائفة، يريد ليهلك من جيش العدو طائفة. ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾: أي يخزيهم ويذلهم. ﴿فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾: يرجعوا إلى ديارهم خائبين لم يحرزوا النصر الذي أمّلوه.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تذكير الرسول ﷺ والمؤمنين بما تم لهم من النصر في موقف الصبر والتقوى في بدر فقال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4] عندما بلغهم وهم حول المعركة أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين برجاله يقاتلون معهم فشق ذلك على أصحابك فقلت: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ بلى: أي يكفيكم.

(١٢٥) ﴿إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم[5] مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي من وجههم ووقتهم هذا ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ بعلامات وإشارات خاصة بهم، ولما انهزم كرز قبل تحركه وقعد عن إمداد قريش بالمقاتلين لم يمد الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بما ذكر من الملائكة فلم يزدهم على الألف الأولى التي أمدهم بها لما استغاثوه في أول المعركة جاء ذلك في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ فهذه الألف هي التي نزلت فعلًا وقاتلت مع المؤمنين وشوهد ذلك وعلم به يقينًا، أما الوعد بالإمداد الأخير فلم

---

(١) كانت غزوة بدر في السابع عشر من رمضان يوم جمعة وكان جيش العدو بها ما بين التسعمائة إلى الألف، وجيش المسلمين ثلاثمائة وأربعة عشر رجلًا، وغزوة بدر أوّل غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

(٢) ذهب بعض إلى أنّ الاستفهام هنا تقريري لأنّه مجاب بـ بَلَى، وجائز أن يكون للاستفهام معنيان في آن واحد لدلالة اللفظ عليهما معًا فتأمّل!!

(٣) الفور: مصدر فارت القدر فورًا واستعير للأولية مع السرعة في الحال بدون بطء أو تأخر أو تراخ.

(٤) ذهب بعض المفسرين كمجاهد وعكرمة وغيرهما أن قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلخ.. كان يوم أحد فهو وعد لهم بالمدد المذكور من الملائكة على شرط الصبر والتقوى فلما لم يصبروا ولم يتقوا كما هو معلوم لم يمدهم بالعدد المذكور من الملائكة، وما ذهبنا إليه في التفسير أقرب إلى الواقع والله أعلم.

(٥) أي: المشركون من أصحاب كرز.

يتم لأنه كان مشروطًا بإمداد كرز لقريش فلما لم يمدهم، لم يمد الله تعالى المؤمنين، فقال تعالى:
(١٢٦) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي الإمداد المذكور ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ تطمئن به قلوبهم وتسكن له نفوسهم فيزول القلق والاضطراب الناتج عن الخوف من إمداد كرز المشركين بالمقاتلين، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[1]﴾ العزيز أي الغالب، الحكيم الذي يضع النصر في موضعه فيعطيه مستحقه من أهل الصبر والتقوى.
(١٢٧) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد فعل فأهلك من المشركين سبعين، أو يكبتهم أي يخزيهم ويذلهم إذ أُسِرَ منهم سبعون ﴿فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ لم يحققوا النصر الذي أرادوه.

هداية الآيات:

١ - بيان سبب هزيمة المسلمين في أحد وهو عدم صبرهم وإخلالهم بمبدأ التقوى إذ عصى الرماة أمر رسول الله ﷺ ونزلوا من الجبل يجرون وراء الغنيمة هذا على تفسير أن الوعد بالثلاثة آلاف وبالخمسة كان بأحد[2]، وكان الوعد مشروطًا بالصبر والتقوى فلما لم يصبروا ولم يتقوا لم يمدهم بالملائكة الذين ذكر لهم.

٢ - النصر وإن كانت له عوامله من كثرة العدد وقوة العدة فإنه بيد الله تعالى فقد ينصر الضعيف ويخذل القوي، فلذا وجب تحقيق ولاية الله تعالى أولاً قبل إعداد العدد. وتحقيق الولاية يكون بالإيمان والصبر والطاعة التامة لله ولرسوله ﷺ ثم التوكل على الله عز وجل.

٣ - ثبوت قتال الملائكة مع أصحاب رسول الله ﷺ في بدر قتالاً حقيقيًا، لأنهم نزلوا في صورة بشر يقاتلون على خيول، وعليهم شاراتهم وعلاماتهم. ولا يقولنّ قائل[3]: الملك الواحد يقدر على أن يهزم ملايين البشر، فكيف يعقل اشتراك ألف ملك في قتال المشركين وهم لا يزيدون عن الألف رجل، وذلك أن الله تعالى أنزلهم في صورة بشر[4] فأصبحت صورتهم وقوتهم قوة البشر، ويدل على ذلك ويشهد له أنّ ملك الموت لما جاء موسى في صورة رجل يريد أن يقبض روحه ضربه موسى عليه السلام ففقأ عينه، وعاد إلى ربّه تعالى ولم يقبض روح موسى عليهما معًا السلام. من رواية البخاري.

شرح الكلمات:
[الآية: ١٢٨ - ١٣٢]

(١٢٨) ﴿الْأَمْرِ﴾: الشأن والمراد هنا توبة الله على الكافرين أو تعذيبهم. ﴿شَيْءٌ﴾: شيء نكرة متوغلة في الإيهام. وأصل الشيء: ما يعلم ويخبر به. ﴿أَوْ﴾: هنا بمعنى حتى أي فاصْبِرْ حتى يتوب عليهم أو يعذبهم.
(١٢٩) لله ما في السماوات...: أي ملكًا وخلقًا وعبيدًا يتصرف كيف يشاء ويحكم كما يريد.
(١٣٠) ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾: لا مفهوم للأكل بل كل تصرف بالربا حرام سواء كان أكلًا أو شربًا أو لباسًا. ﴿الرِّبَا﴾[5]: لغة: الزيادة، وفي الشرع نوعان: ربا فضل وربا نسيئة ربا الفضل: يكون في الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح فإذا بيع الجنس بمثله يحرم الفضل أي الزيادة ويحرم التأخير، وربا النسيئة: هو أن يكون على المرء دين إلى أجل فيحل الأجل ولم يجد سدادًا لدينه فيقول له أخرني وزد في الدين. ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾: لا

---

(١) الحكيم: الذي يضع الأشياء في مواضعها ويفعل دائمًا على ما تقتضيه الحكمة في سائر أفعاله.
(٢) وهو الراجح من قولي المفسرين كابن جرير وغيره.
(٣) قاله: الأصمّ كأنّه فعلاً أصم فلم يسمع كلام الله تعالى، واسم هذا الأصمّ أبو بكر وهو من أهل الاعتزال، وإذًا فلا غرابة في إنكاره.
(٤) يدل لذلك قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ فالمسوّم ذو السمة أي: العلامة، وذلك أنّ البطل المقاتل يجعل على رأسه أو على رأس فرسه ريشًا ملوّنًا يرمز به إلى أنه لا يخاف أن يعرفه عدوّه حتى لا يسدّد إليه سهامه.
(٥) ربا البنوك اليوم شرّ من ربا الجاهلية هو أن يبيع الرجل أخاه شيئًا إلى أجل فإذا حلّ الأجل ولم يجد سدادًا قال له آخّر وزد، أمّا ربا البنوك فإنه يبيعه نقدًا بنقد إلى أجل بزيادة فورية يسجلها عليه.

مفهوم لهذا لأنه خرج مخرج الغالب، إذ الدرهم الواحد حرام كالألف، وإنما كانوا في الجاهلية يؤخرون الدين ويزيدون مقابل التأخير حتى يتضاعف الدين فيصبح أضعافًا كثيرة. ﴿تُفۡلِحُونَ﴾: تنجون من العذاب وتظفرون بالنعيم المقيم في الجنة.

(١٣١) ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾: هيئت وأحضرت للمكذبين لله ورسوله ﷺ.

(١٣٢) ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾: لترحموا فلا تُعذَّبوا بما صدر منكم من ذنب المعصية.

معنى الآيات:

(١٢٨) ـ (١٢٩) صح[1] أن النبي ﷺ كان قد دعا على أفراد من المشركين بالعذاب، وقال يوم أحد لما شج رأسه وكسرت رباعيته: «**كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم؟**» فأنزل الله تعالى عليه قوله: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ أي فاصبر حتى يتوب[2] الله تعالى عليهم ﴿أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾ بظلمهم ﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ملكًا وخلقًا يتصرف كيف يشاء ويحكم ما يريد فإن عذب فبعدله وإن رحم فبفضله، وهو الغفور لمن تاب الرحيم بمن أناب.

(١٣٠) هذا ما تضمنته الآيتان الأولى (١٢٨) والثانية (١٢٩) وأما الآية الثالثة (١٣٠) فإن الله تعالى نادى عباده المؤمنين بعد أن خرجوا من الجاهلية ودخلوا في الإسلام بأن يتركوا أكل الربا وكل تعامل به فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ إذ كان الرجل يكون عليه دين ويحل أجله ولم يجد ما يسدد به فيأتي إلى دائنه ويقول أخِر ديني[3] وزد عليّ وهكذا للمرة الثانية والثالثة حتى يصبح الدين بعدما كان عشرًا عشرين وثلاثين. وهذا معنى قوله أضعافًا مضاعفة، ثم أمرهم بتقواه عز وجل وواعدهم بالفلاح فقال عز وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي كي تفلحوا بالنجاة من العذاب والحصول على الثواب وهو الجنة.

(١٣١) وفي الآية الرابعة (١٣١) أمرهم تعالى باتقاء النار التي أعدها للكافرين فهي مهيئة محضرة لهم، واتقاؤها يكون بطاعته تعالى وطاعة رسوله ﷺ فقال عز وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝﴾[4]، أي المكذبين بالله ورسوله ﷺ فلذا لم يعملوا بطاعتهما لأن التكذيب مانع من الطاعة.

(١٣٢) وفي الآية الأخيرة (١٣٢) أمرهم تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ووعدهم على ذلك بالرحمة في الدنيا والآخرة وكأنه يشير[5] إلى الذين عصوا رسول الله ﷺ في أحد وهم الرماة الذين تخلوا عن مراكزهم الدفاعية فتسبب عن ذلك هزيمة المؤمنين أسوأ هزيمة فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝﴾ أي كي يرحمكم فيتوب عليكم ويغفر لكم ويدخلكم دار السلام والنعيم المقيم.

هداية الآيات:

١ - استقلال الرب تعالى بالأمر كله فليس لأحد من خلقه تصرف في شيء إلا ما أذن فيه للعبد.

٢ - الظلم مستوجب للعذاب ما لم يتدارك الرب العبد بتوبة فيتوب ويغفر له ويعفو عنه.

٣ - حرمة أكل الربا مطلقًا مضاعفًا كان أو غير مضاعف.

---

(١) رواه مسلم وهذا نص الحديث: لما كسرت رباعية الرسول ﷺ وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته** (سنه الأمامية) **وهو يدعوهم إلى الله تعالى**» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ الآية.

(٢) لما نزلت الآية وفيها ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهي تحمل إطماعه ﷺ في إسلامهم قال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» روى مسلم عن ابن مسعود قوله: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

(٣) هذا إن كان الطالب التاجر المدين أمّا إن كان المطالب هو الدائن فإنه يقول له: أتقضي أم تُربي؟

(٤) في الآية إشارة واضحة إلى أنّ مستحل الربا يكفر به ويستحق عذاب النار.

(٥) وعليه فآية تحريم الربا هي معترضة في سياق الحديث عن غزوة بدر وأُحد، وفي هذا الاعتراض جماله وحسن وقعه في النفوس ومن فوائده دفع السآمة عن السامع إذا استمر الكلام في موضوع واحد.

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

٤ - بيان ربا الجاهلية إذ هو هذا الذي نهى الله تعالى عنه بقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾.

٥ - وجوب التقوى لمن أراد الفلاح في الدنيا والآخرة.

٦ - وجوب اتقاء النار ولو بشق تمرة[(١)].

٧ - وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ للحصول على الرحمة الإلهية وهي العفو والمغفرة ودخول الجنة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٣ - ١٣٦]

﴿١٣٣﴾ ﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾[(٢)]: المسارعة إلى الشيء المبادرة إليه بدون توانٍ ولا تراخ. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾: المغفرة: ستر الذنوب وعدم المؤاخذة بها. والمراد هنا: المسارعة إلى التوبة بترك الذنوب، وكثرة الاستغفار. وفي الحديث: «**ما من رجل يذنب ذنبًا ثم يتوضأ ثم يصلي ويستغفر الله إلا غفر له**»[(٣)]. ﴿وَجَنَّةٍ﴾: الجنة دار النعيم فوق السموات، والمسارعة إليها تكون بالإكثار من الصالحات. ﴿أُعِدَّتْ﴾: هُيِّئت وأُحضرت فهي موجودة الآن مهيّأة. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: المتقون هم الذين اتقوا الله تعالى فلم يعصوه بترك واجب ولا بفعل محرم، وإن حدث منهم ذنب تابوا منه فورًا.

﴿١٣٤﴾ ﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ[(٤)] وَٱلضَّرَّآءِ﴾: السراء الحال المسرة وهي اليسر والغنى والضراء الحال المضرة وهي الفقر. ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ[(٥)] ٱلْغَيْظَ﴾: كظم الغيظ: حبسه، والغيظ ألم نفسي يحدث إذا أوذي المرء في بدنه أو عرضه أو ماله، وحبس الغيظ: عدم إظهاره على الجوارح بسبب أو ضرب ونحوهما للتشفي والانتقام. ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾: العفو عدم المؤاخذة للمسيء مع القدرة على ذلك. ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: المحسنون هم الذين يبرّون ولا يسيئون في قول أو عمل.

﴿١٣٥﴾ ﴿فَٰحِشَةً﴾: الفاحشة: الفعلة القبيحة الشديدة القبح كالزنى وكبائر الذنوب. ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: بترك واجب أو فعل محرم فدنسوها بذلك فكان هذا ظلمًا لها. ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟﴾[(٦)]: أي يسارعون إلى التوبة، لأن الإصرار هو الشد على الشيء والربط عليه مأخوذ من الصر، والصرة معروفة. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أي أنهم مخالفون للشرع بتركهم ما أوجب، أو بفعلهم ما حرم.

﴿١٣٦﴾ ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾: الذي هو الجنة.

---

(١) حديث: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» رواه البخاري في صحيحه ورواه غيره.

(٢) قُرِيء في السبع: ﴿**سارعوا**﴾ بدون واو وهي قراءة ورش عن نافع.

(٣) أخرجه الطبراني عن علي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

(٤) قيل في السراء والضرّاء: الرخاء والشدة، وقيل في السرّاء: العرس والولائم، والضرّاء النوائب والمآتم وما فسرنا به الآية أعمّ وأحسن.

(٥) يقول: كضمت السقاء: أي: ملأته وسددت عليه والكضامة: ما يسدّ به السقاء.

(٦) ذكر القرطبي هنا مسألة وهي مَنْ وطَّن نفسه على فعل ذنب فإنه يؤاخذ به ولو لم يفعله لعجز قام به وهو مصر على فعله واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني: أصحاب الجنة الذين عزموا على قطع ثمارها دون إعطاء المساكين منها كما استشهد بحديث: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» وكلامه في الجملة صحيح ولكن مَن ترك ما أصرّ عليه خوفًا من الله تعالى سيكتب له حسنة لحديث: «من همّ **بسيئة فلم يعملها كتبت له عند الله حسنة**».

معنى الآيات:

لما نادى الله تعالى المؤمنين ناهيًا لهم عن أكل الربا آمرًا لهم بتقواه عز وجل، وباتقاء النار وذلك بترك الربا وترك سائر المعاصي الموجبة لعذاب الله تعالى ودعاهم إلى طاعته وطاعة رسوله ﷺ كي يرحموا في دنياهم وأخراهم. أمرهم في الآية الأولى (١٣٣) بالمسارعة إلى شيئين الأول مغفرة ذنوبهم وذلك بالتوبة النصوح، والثاني دخول الجنة التي وصفها لهم.

(١٣٣) وقال تعالى: ﴿إِذَا وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا[1] ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ أي أُحضرت وهُيئت للمتقين والمسارعة إلى الجنة هي المسارعة إلى موجبات دخولها وهي الإيمان والعمل الصالح إذ بهما تزكو الروح وتطيب فتكون أهلاً لدخول الجنة.

(١٣٤) هذا ما تضمنته الآية الأولى وأما الآيتان الثانية (١٣٤) والثالثة (١٣٥) فقد تضمنتا صفات المتقين الذين أعدت لهم الجنة دار السلام فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ هذا وصف لهم بكثرة الإنفاق في سبيل الله، وفي كل أحايينهم من غنىً وفقر وعسر ويسر، وقوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ[2] ٱلۡغَيۡظَ﴾ وصف لهم بالحلم والكرم النفسي، وقوله: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ[3] ٱلنَّاسِۗ﴾ وصف لهم بالصفح والتجاوز عن زلات الآخرين تكرمًا، وفعلهم هذا إحسان ظاهر ومن هنا بشروا بحب الله تعالى لهم فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ كما هو تشجيع على الإحسان وملازمته في القول والعمل وقوله:

(١٣٥) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ وصف لهم بملازمة ذكر الله وعدم الغفلة، ولذا إذا فعلوا فاحشة ذنبًا كبيرًا أو ظلموا أنفسهم بذنب[4] دون الفاحش ذكروا وعيد الله تعالى ونهيه عما فعلوا فبادروا إلى التوبة وهي الإقلاع عن الذنب والندم عن الفعل والعزم على عدم العودة إليه، واستغفار الله تعالى منه. وقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[5] وصف لهم بعدم الإصرار أي المواظبة على الذنب وعدم تركه وهم يعلمون أنه ذنب ناتج عن تركهم لواجب، أو فعلهم لحرام، وأما الآية الرابعة (١٣٦) فقد تضمنت بيان جزائهم على إيمانهم وتقواهم وما اتصفوا به من كمالات نفسية، وطهارة روحية ألا وهو مغفرة ذنوبهم كل ذنوبهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. ومدح المنّان عز وجل ما جازاهم به من المغفرة والخلود في الجنة ذات النعيم المقيم فقال:

(١٣٦) ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

هداية الآيات:

١ - وجوب تعجيل التوبة وعدم التسويف فيها لقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾.

٢ - سعة[6] الجنة، وأنها مخلوقة

---

(١) ذكر العرض ولم يذكر الطول لأنّ الطول لا يدل على العرض أمّا العرض فإنه يدل على الطول، فطول كل شيء بحسب عرضه، وعرض السماوات معناه: كعرض السماوات فلو أخذت السماوات، سماء بعد سماء، والأرضون وألصقت ببعضها كان عرض الجنّة كذلك هذا الذي عليه أهل التفسير من السلف، قال الزهري: أمّا طولها فلا يعلمه إلاّ الله.

(٢) ورد في كظم الغيظ أحاديث منها: «**ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

(٣) ورد في فضل العفو أحاديث كثيرة منها: «**من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ويعط من حرمه ويصل من قطعه**» رواه الحاكم وصححه.. ومنها قوله ﷺ: «**ثلاث أُقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدًا بعفو إلاّ عزًا ومن تواضع لله رفعه الله**».

(٤) في الصحيحين: قال عثمان أنّه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ ثم قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه**».

(٥) أي: أنّ مَن تاب تاب الله عليه هكذا روي عن مجاهد ولا يتنافى مع ما فسرنا به الآية وورد «**ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرّة**».

(٦) روي أن النبي ﷺ سُئل: ما دامت الجنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فأجاب قائلاً: «**سبحان الله، فأين اللّيل إذا جاء النهار؟**» قال: حيث شاء الله تعالى، قال: «**وكذلك النار تكون حيث شاء الله تعالى**». رواه البزار مرفوعًا، وما دل عليه الكتاب والسنة أنّ الجنة فوق السماء السابعة وسقفها عرش الرحمٰن، وأن النار في أسفل سافلين، ولا منافاة بينهما أبدًا.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

٦٨

الآن لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ﴾.

٣ - المتقون هم أهل الجنة وورثتها بحق.

٤ - فضل استمرار الإنفاق في سبيل الله، ولو بالقليل.

٥ - فضيلة خلة كظم الغيظ بترك المبادرة إلى التشفي والانتقام.

٦ - فضل العفو عن الناس مطلقًا مؤمنهم وكافرهم بارهم وفاجرهم.

٧ - فضيلة الاستغفار وترك الإصرار على المعصية للآية ولحديث: «**ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة**». رواه الترمذي وأبو داود. وحسنه ابن كثير.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٧ - ١٤١]

(١٣٧) ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾: خلت: مضت. ﴿سُنَنٞ﴾[1]: جمع سنة وهي السيرة والطريقة التي يكون عليها الفرد أو الجماعة، وسنن الله تعالى في خلقه قانونه الماضي في الخلق. ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: الأمر للإرشاد، للوقوف على ديار الهالكين الغابرين لتعتبروا. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾: عاقبة أمرهم وهي ما حل بهم من الدمار والخسار كعاد وثمود.

(١٣٨) ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾: أي ما ذكر في الآيات بيان للناس به يتبينون الهدى من الضلال وما لازمهما من الفلاح، والخسران. ﴿وَمَوۡعِظَةٞ﴾: الموعظة الحال التي يتعظ بها المؤمن فيسلك سبيل النجاة.

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾: لا تضعفوا.

(١٤٠) ﴿قَرۡحٞ﴾: القرح: أثر السلاح في الجسم كالجرح، وتضم القاف فيكون بمعنى الألم. ﴿ٱلۡأَيَّامُ﴾[2]: جمع يوم والليالي معها والمراد بها ما يجريه الله من تصاريف الحياة من خير وغيره وإعزاز وإذلال. ﴿شُهَدَآءَ﴾[3]: جمع شهيد وهو المقتول في سبيل الله وشاهد وهو من يشهد على غيره.

(١٤١) ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: ليخلص المؤمنين من أدران المخالفات وأوضار الذنوب. ﴿وَيَمۡحَقَ﴾: يمحو[4] ويذهب آثار الكفر والكافرين.

معنى الآيات:

(١٣٧) لما حدث ما حدث من انكسار المؤمنين بسبب عدم الصبر، والطاعة اللازمة للقيادة ذكر تعالى تلك الأحداث مقرونة بفقهها لتبقى هدى وموعظة للمتقين من المؤمنين وبدأها بقوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ[5] فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝﴾ فأخبر تعالى المؤمنين بأن سننه قد مضت فيمن قبلهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فقد أرسل الله تعالى إليهم رسله فكذبوهم فأمضى تعالى

---

(١) السُّنَّة: الطريق المستقيم يقال: فلان على السنة أي: على طريق الاستواء لا يميل إلى شيء من الأهواء وكل من يعمل بسنة رسول الله ﷺ فهو على الطريق المستقيم الذي لا يميل بصاحبه إلى الأهواء والمبتدعات.

(٢) تداولها بين الناس: فرحٌ وغمٌ وصحةٌ وسقمٌ وفقرٌ وانتصارٌ وانكسارٌ والدولة: الكرة ومنه قول الشاعر:

فيوم لنا ويوم علينا ويومًا نُساء ويومًا نُسر

(٣) سمي القتيل في سبيل الله شهيدًا لأنه الحاضر للجنة ومشهود له بها، ومن فضل الشهيد أن لا يجد من ألم القتل إلا كما يجده الإنسان في القرصة لا غير.

(٤) قال ابن كثير في ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: أي: فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا ويكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم، ومحقهم وفنائهم.

(٥) أي: بأقدامكم أو بأفهامكم وعقولكم.

سننه فيهم فأهلك المكذبين وأنجى المؤمنين بعد ما نالهم من أذى أقوامهم المكذبين، وستمضي سنته اليوم كذلك، فينجيكم وينصركم ويهلك المكذبين أعداءكم. وإن ارتبتم فسيروا في الأرض وقفوا على آثار الهالكين، وانظروا كيف كانت عاقبتهم.

(١٣٨) ثم قال تعالى: هذا الذي ذكرت في هذه الآيات بيان للناس يتبينون به الحق من الباطل والهدى من الضلال، وهدى يهتدون به إلى سبيل السلام وموعظة يتعظ بها المتقون لاستعدادهم بإيمانهم وتقواهم للاتعاظ فيطيعون الله ورسوله ﷺ فينجون ويفلحون هذا ما تضمّنته الآيتان الأولى (١٣٧) والثانية (١٣٨) وأما الآيتان الثالثة (١٣٩) والرابعة (١٤٠) فقد تضمنتا تعزية الرب تعالى للمؤمنين فيما أصابهم يوم أحد إذ قال تعالى مخاطبًا لهم:

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي لا تضعفوا فتقعدوا عن الجهاد والعمل، ولا تحزنوا على ما فاتكم من رجالكم، وأنتم الأعلون أي الغالبون لأعدائكم المنتصرون عليهم، وذلك فيما مضى وفيما هو آتٍ مستقبلاً بشرط إيمانكم وتقواكم واعلموا أنه إن يمسسكم قَرْح بموت أو جراحات لا ينبغي أن يكون ذلك موهنًا لكم قاعدًا بكم عن مواصلة الجهاد فإن عدوكم قد مسّه قَرْح مثله وذلك في معركة بدر، والحرب سِجَال يومٌ لكم ويومٌ عليكم وهي سنة من سنن ربكم في الحياة.

(١٤٠) هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم بعد هذا العزاء الكريم الحكيم ذكر تعالى لهم علّة هذا الحدث الجَلَل، والسر فيه وقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي ليظهر بهذا الحادث المؤلم إيمان المؤمنين وفعلاً فالمنافقون رجعوا من الطريق بزعامة رئيسهم المنافق الأكبر عبدالله بن أبي ابن سلول، والمؤمنون واصلوا سيرهم وخاضوا معركتهم فظهر إيمانهم واتخذ الله منهم شهداء وكانوا نحوًا من سبعين شهيدًا منهم أربعة من المهاجرين وعلى رأسهم حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله ﷺ ومصعب بن عمير[1]، والباقون من الأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

(١٤١) وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ[2] ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي أوجد هذا الذي أوجده في أحد من جهاد وانكسار تخليصًا للمؤمنين من ذنوبهم وتطهيرًا لهم ليصفوا الصفاء الكامل، ويمحق الكافرين بإذهابهم وإنهاء وجودهم.

إن هذا الدرس نفع المؤمنين فيما بعد فلم يخرجوا عن طاعة نبيهم ﷺ، وبذلك توالت انتصاراتهم حتى أذهبوا ريح الكفر والكافرين من كل أرض[3] الجزيرة.

هداية الآيات:

١ - عاقبة المكذبين بدعوة الحق الخسار والوبال.

٢ - في آي القرآن الهدي والبيان والمواعظ لمن كان من أهل الإيمان والتقوى.

٣ - أهل الإيمان هم الأعلون في الدنيا والآخرة.

٤ - الحياة دول وتارات فليقابلها المؤمن بالشكر والصبر.

٥ - الفتن تمحص الرجال، وتودي بحياة العاجزين الجزعين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٢ - ١٤٥]

(١٤٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾: بل أظننتم فلا ينبغي أن تظنوا هذا الظن فالاستفهام إنكاري. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾: ولم يبتليكم بالجهاد حتى يعلم علم ظهور[4] من يجاهد منكم ممن لا يجاهد كما هو عالم به في باطن الأمر وخفيّه.

(١٤٤) ﴿خَلَتْ مِن قَبْلِهِ﴾: أي مضت من قبله الرسل بلغوا رسالتهم وماتوا. ﴿أَفَإِين مَّاتَ[5] أَوْ قُتِلَ﴾:

---

(١) وعبدالله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ وعثمان بن شمّاس.

(٢) أصل التمحيص: تخليص الشيء من كل عيب، يقال: محّصت الذهب إذا أزلت خبثه.

(٣) وخارج الجزيرة فالفتوحات التي فتحها أصحاب رسول الله ﷺ في الغرب والشرق لم يفتحها غيرهم ممن جاء بعدهم من التابعين ولا من غيرهم وهو إنجاز وعد الله تعالى في قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: الغالبون القاهرون.

(٤) أي: علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء بحسب الظاهر المشاهد للناس.

(٥) مات رسول الله ﷺ يوم الاثنين في وقت دخوله المدينة مهاجرًا وذلك ضُحى حين اشتدّ الضحاء، ودفن يوم الثلاثاء أول ليلة=

ينكر تعالى على من قال عندما أشيع أن النبي ﷺ قُتل (هيا بنا نرجع إلى دين قومنا)، فالاستفهام منصبّ على قوله: ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ . . .﴾ لا على فإن مات أو قتل، وإن دخل عليها. ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾: رجعتم عن الإسلام إلى الكفر.

(١٤٥) ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾[1]: كتب تعالى آجال الناس مؤقتة بمواقيتها فلا تتقدم ولا تتأخر. ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾: الثواب: الجزاء على النية والعمل معًا، وثواب الدنيا الرزق وثواب الآخرة الجنة. ﴿الشَّاكِرِينَ﴾: الذين ثبتوا على إسلامهم فاعتبر ثباتهم شكرًا لله، وما يجزيهم به هو الجنة ذات النعيم المقيم، وذلك بعد موتهم.

معنى الآيات:

(١٤٢) ما زال السياق متعلقًا بغزوة أحد فأنكر تعالى على المؤمنين ظنهم أنهم بمجرد إيمانهم يدخلون الجنة بدون أن يبتلوا بالجهاد والشدائد تمحيصًا لهم وإظهارًا للصادقين منهم في دعوى الإيمان والكاذبين فيها، كما يظهر الصابرين الثابتين والجزعين المرتدين فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۝﴾ ثم عابهم تعالى على قلة صبرهم وانهزامهم في المعركة مذكرًا إياهم بتمنيات الذين لم يحضروا وقعة بدر، وفاتهم فيها ما حازه من حضرها من الأجر والغنيمة بأنهم إذا قُدّر لهم قتال في يوم ما من الأيام يبلون فيه البلاء الحسن، فلما قدر تعالى ذلك لهم في وقعة أحد جزعوا وما صبروا وفروا منهزمين فقال تعالى:

(١٤٣) ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ[2] مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝﴾ أي فلِمَ انهزمتم وما وفيتم ما واعدتم أنفسكم به؟ هذا ما تضمنته الآيتان الأولى (١٤٢) والثانية (١٤٣)

(١٤٤) وأما الآية الثالثة (١٤٤) فقد تضمنت عتابًا شديدًا لأصحاب رسول الله ﷺ عندما اشتدت المعركة وحمي وطيسها واستحرّ القتل في المؤمنين نتيجة خلو ظهورهم من الرماة الذين كانوا يحمونهم من ورائهم وضرب ابن قميئة - أقمأه الله - رسول الله ﷺ بحجر في وجهه فشجه وكسر رباعيته، وأعلن أنه قتل محمدًا ﷺ فانكشف المسلمون وانهزموا، وقال من قال منهم لِمَ نقاتل وقد مات رسول الله ﷺ، وقال بعض المنافقين نبعث إلى ابن أبي رئيس المنافقين يأتي يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان، ونعود إلى دين قومنا!! فقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ[3] إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ وما دام رسولاً كغيره من الرسل، وقد مات الرسل قبله فلم ينكر موته، أو يندهش له إذًا؟ بعد تقرير هذه الحقيقة العلمية الثابتة أنكر تعالى بشدة على أولئك الذين سمعوا صرخة إبليس في المعركة (قتل محمد ﷺ) ففروا هاربين إلى المدينة، ومنهم من أعلن ردته في صراحة وهم المنافقون فقال تعالى: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ فعاتبهم منكرًا على المنهزمين والمرتدين من المنافقين

= الأربعاء. قال أنس: لمّا كان اليوم الذي دخل فيه الرسول ﷺ المدينة أضاء منها كلّ شيء، ولمّا كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلّ شيء وما نفضنا أيدينا من دفن الرسول ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا.

(١) ﴿كِتَابًا﴾ منصوب على المصدر، أي: كتب ذلك كتابًا، ومؤجلاً نعت.

(٢) وكان منهم من وفى بما وعد وقاتل حتى استشهد وهو أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك فإنه لما رأى المسلمين قد انكشفوا قال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء وباشر القتال وهو يقول: إني لأجد ريح الجنة ولما قتل وجد به أكثر من ثمانين ضربة وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

(٣) لمّا قُبض ﷺ قام عمر في الناس وقال: إنّ الرسول لم يمت ولن يموت حتى يقطع أيدي وأرجل أقوام، وكان في دهشة عظيمة حتى جاء أبو بكر من العوالي فدخل على رسول الله ﷺ وهو مسجىً فكشف الغطاء عن وجهه وقبّله بين عينيه ثمّ خرج فسمع ما قال عمر فرقي المنبر وقال: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإنّ الله حي لا يموت وقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية، فرجع عمر إلى رشده واعترف بموت نبيه ﷺ وبكاه.

ردتهم، وأعلمهم أن ارتداد من ارتد أو يرتد لن يضر الله تعالى شيئًا فالله غنيّ عن إيمانهم ونصرهم، وأنه تعالى سيجزي الثابتين على إيمانهم وطاعة ربهم ورسوله ﷺ وسيجزيهم دنيا وآخرة بأعظم الأجور وأحسن المثوبات.

هذا ما تضمنته الآية الثالثة أما الآية الرابعة (١٤٥) فقد تضمنت حقيقتين علميتين:

(١٤٥) الأولى: أن موت الإنسان متوقف حصوله على إذن الله خالقه ومالكه فلا يموت أحد بدون علم الله تعالى بذلك فلم يكن لملك الموت أن يقبض روح إنسان قبل إذن الله تعالى له بذلك، وشيء آخر وهو أن موت كل إنسان قد ضبط تاريخ وفاته باللحظة فضلاً عن اليوم والساعة، وذلك في كتاب[١] خاص فليس من الممكن أن يتقدم أجل إنسان أو يتأخر بحال من الأحوال، هذه حقيقة يجب أن تعلم، من قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾.

والثانية: أن من دخل المعركة يقاتل باسم الله فإن كان يريد بقتاله ثواب الدنيا فالله عز وجل يؤتيه من الدنيا ما قدره له، وليس له من ثواب الآخرة شيء، وإن كان يريد ثواب الآخرة لا غير فالله عز وجل يعطيه في الدنيا ما كتب له ويعطيه ثواب الآخرة وهو الجنة وما فيها من نعيم مقيم وأن الله تعالى سيجزي الشاكرين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. هذه الحقيقة التي تضمنها قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

هداية الآيات:

١ - الابتلاء بالتكاليف الشرعية الصعبة منها والسهلة من ضروريات الإيمان.

٢ - تقرير رسالة النبي محمد ﷺ وبشريته المفضّلة، ومَوْتَه المؤلمة[٢] لكل مؤمن[٣].

٣ - الجهاد وخوض المعارك لا يقدم أجل العبد، والفرار من الجهاد لا يؤخره أيضًا.

٤ - ثواب الأعمال موقوف على نية العاملين وحسن قصدهم.

٥ - فضيلة الشكر بالثبات على الإيمان والطاعة للّه ورسوله ﷺ في الأمر والنهي.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٦ - ١٤٨]

(١٤٦) ﴿وَكَأَيِّن[٤] مِّن نَّبِيٍّ﴾: كثير من الأنبياء. وتفسر كأين بكم وتكون حينئذ للتكثير. ﴿رِبِّيُّونَ﴾[٥]: ربانيون علماء وصلحاء وأتقياء عابدون. ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾: ما ضعفوا عن القتال ولا انهزموا لأجل ما أصابهم من قتل وجراحات. ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾: ما خضعوا ولا ذلوا لعدوهم.

(١٤٧) الإسراف: مجاوزة الحد في الأمور ذات الحدود التي ينبغي أن يوقف عندها.

---

(١) هو كتاب المقادير: اللّوح المحفوظ.

(٢) رثت صفية عمّة رسول الله ﷺ نبي الله بأبيات دلت على مدى ما أصاب المؤمنين من حزن وألم بفراق نبيهم ﷺ نذكر منها ثلاثة أبيات وهي:

أفاطم صلى الله ربّ محمد ... على حَدَثٍ أمسى بيثرب ثاويا

فدىً لرسول الله أمّي وخالتي ... وعمي وآبائي ونفسي وماليا

فلو أنّ ربّ الناس أبقى نبيّنا ... سعدنا ولكن أمره كان ماضيا

(٣) إن قيل: لِمَ تأخر دفن النبي ﷺ يومين وهو القائل: «**عجلوا دفن جيفتكم ولا تؤخروها**» والجواب: كان ذلك لأمور: أولاً: اختلافهم في المكان الذي يدفنونه فيه حتى أخبرهم الصديق بأنه ﷺ قال: «**ما دفن نبي إلاّ حيث يموت**» ثانيًا: اختلافهم في تعيين الخليفة للأهمية.

(٤) قال الخليل: (وكأين) أصلها أي: دخلت عليها كاف التشبيه وبنيت معها فصارت مثل كم للدلالة على التكثير وفيها لغات منها: ﴿**كائن**﴾ وقرأ بها ابن كثير، و: ﴿**كئن**﴾ وقرأ بها ابن محيصن و: ﴿وَكَأَيِّن﴾ وبها قرأ الجمهور.

(٥) في الرّبيين ثلاث لغات: كسر الراء، وضمها، وفتحها وهم الجماعة الكثيرة، والواحد ربّي بكسر الراء وضمها أيضًا وما ذكرناه في التفسير هو الحق.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

﴿١٤٨﴾ ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾: أعطاهم الله تعالى ثواب الدنيا النصر والغنيمة. ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: الذين يحسنون نياتهم فيخلصون أعمالهم لله، ويحسنون أعمالهم فيأتون بها موافقة لما شرعت عليه في كيفياتها وأعدادها وأوقاتها.

معنى الآيات:

﴿١٤٦﴾ ما زال السياق في الحديث عن أحداث غزوة أحد، فذكر تعالى هنا ما هو في تمام عتابه للمؤمنين في الآيات السابقة عن عدم صبرهم وانهزامهم وتخليهم عن نبيهم ﷺ في وسط المعركة وحده حتى ناداهم: إليّ عباد الله إليّ عباد الله فثاب إليه رجال. فقال تعالى مخبرًا بما يكون عظة للمؤمنين وعبرة لهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي وكم من نبي من الأنبياء السابقين قاتل معه جموع كثيرة من العلماء والأتقياء والصالحين فما وهنوا أي ما ضعفوا ولا ذلوا لعدوهم ولا خضعوا له كما هم بعضكم أن يفعل أيها المؤمنون، فصبروا على القتال مع أنبيائهم متحملين آلام القتل والجرح فأحبهم ربهم تعالى لذلك لأنه يحب الصابرين.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٤٦) ونصها: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ[1] وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وأما الآية الثانية فأخبر تعالى فيها عن موقف أولئك الربيين وحالهم أثناء الجهاد في سبيله تعالى فقال:

﴿١٤٧﴾ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا[2] فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ولازم هذا كأنه تعالى يقول للمؤمنين لمَ لا تكونوا أنتم مثلهم وتقولوا قولتهم الحسنة الكريمة وهي الضراعة لله تعالى بدعائه واستغفاره لذنوبهم الصغيرة والكبيرة والتي كثيرًا ما تكون سببًا للهزائم والانتكاسات كما حصل لكم أيها المؤمنون فلم يكن لأولئك الربانيين من قول سوى قولهم ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فسألوا الله مغفرة ذنوبهم وتثبيت أقدامهم في أرض المعركة حتى لا يتزلزلوا فينهزموا والنصرة على القوم الكافرين أعداء الله وأعدائهم فاستجاب لهم ربهم فأعطاهم ما سألوا وهو ثواب الدنيا بالنصر والتمكين وحسن ثواب الآخرة وهي رضوانه الذي أحلّه عليهم وهم في الجنة دار المتقين والأبرار، هذا ما دلت عليه الآية الأخيرة (١٤٨)

﴿١٤٨﴾ ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ[3] ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) استكان: مشتق من السكون لأنّ الذليل العاجز يسكن لمن خضع له ولا يتحرك ليدفع عنه الأذى وما ناله من عدّوه الغالب له.

(٢) أخرج مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني**» وهو دعاء تواضع منه عظيم.

(٣) في حسن الثواب والمحسنين جناس تام والجملة تذيلية تحمل البشرى للقوم المحسنين في قتالهم ولقاء أعدائهم مع إحسانهم في عبادة ربهم وسواء منها القلبية والبدنية.

هداية الآيات:

١ - الترغيب في الائتساء[1] بالصالحين في إيمانهم وجهادهم وصبرهم وحسن أقوالهم.

٢ - فضيلة الصبر والإحسان، لحب الله تعالى الصابرين والمحسنين.

٣ - فضيلة الاشتغال بالذكر[2] والدعاء عند المصائب والشدائد بدل التأوهات وإبداء التحسّرات والتمنيات، وشر من ذلك التسخط والتضجر والبكاء والعويل.

٤ - كرم الله تعالى المتجلي في استجابة دعاء عباده الصابرين المحسنين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٩ ـ ١٥١]

(١٤٩) ﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: المراد من طاعة الكافرين قبول قولهم والأخذ بإرشاداتهم. ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾: يرجعوكم إلى الكفر بعد الإيمان. ﴿خَاسِرِينَ﴾: فاقدين لكل خير في الدنيا، ولأنفسكم وأهليكم يوم القيامة.

(١٥٠) ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾: بل أطيعوا الله ربكم ووليكم ومولاكم فإنه خير من يطاع وأحق من يطاع.

(١٥١) ﴿الرُّعْبَ﴾: شدة الخوف من توقع الهزيمة والمكروه. ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾: مقر إيوائهم ونزولهم. ﴿مَثْوَى﴾: المثوى مكان الثوى وهو الإقامة والاستقرار. ﴿الظَّالِمِينَ﴾: المشركين الذين أطاعوا غير الله تعالى وعبدوا سواه.

معنى الآيات:

(١٤٩) ما زال السياق في أحداث[3] غزوة أحد فقد روي أن بعض المنافقين لما رأى هزيمة المؤمنين في أحد قال في المؤمنين ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد ﷺ نبيًا لما قتل إلى آخر ما من شأنه أن يقال في تلك الساعة الصعبة من الاقتراحات التي قد كشف عنها هذا النداء الإلهي للمؤمنين وهو يحذرهم من طاعة الكافرين بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ[4] عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ فلا شك أن الكافرين قد طالبوا المؤمنين بطاعتهم بتنفيذ بعض الاقتراحات التي ظاهرها النصح وباطنها الغش والخديعة، فنهاهم الله تعالى عن طاعتهم في ذلك وهذا النهي وإن نزل في حالة خاصة فإنه عام في المسلمين على مدى الحياة فلا يحل طاعة الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم وفي كل ما يأمرون به أو يقترحونه، ومن أطاعهم ردّوه عن دينه إلى دينهم فينقلب: يرجع خاسرًا في دنياه وآخرته، والعياذ بالله هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٤٩) وأما الآية الثانية (١٥٠) فقد تضمنت الأمر بطاعته تعالى، إذ هو أولى بذلك لأنه ربهم ووليهم ومولاهم فهو أحق بطاعتهم من الكافرين فقال تعالى: (١٥٠) ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾[5]: فأطيعوه، ولا تطيعوا أعداءه وإن أردتم أن تطلبوا النصر بطاعة الكافرين فإن الله تعالى خير الناصرين فاطلبوا النصر منه بطاعته فإنه ينصركم.

(١٥١) وفي الآية الثالثة (١٥١) لما امتثل المؤمنون أمر ربهم فلم يطيعوا الكافرين وعدهم ربهم سبحانه وتعالى بأنه سيلقي في قلوب الكافرين الرعب[6] وهو الخوف

---

(١) شاهده أنّ الله تعالى جعل لنا رسوله ﷺ بعد أن كمّله وعصمه جعله لنا أسوة يأتسي بفعاله وأخلاقه وأحواله المؤمنون المتقون والعالمون الصابرون.

(٢) شاهده ما صح عنه ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، والصلاة أكبر مظهر لذكر الله تعالى، ومن الذكر المشروع عند المصائب قول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(٣) لفظ الكافرين شامل لكل ما أولت الآية به من المشركين والمنافقين واليهود، وهذا أمر لا ينكر فإنّ طاعة الكافرين لا تفضي بمن أطاعهم إلا إلى الخيبة والخسران في الدّارين.

(٤) وجه المناسبة هو أنه لمّا أمر تعالى المؤمنين بالاقتداء بالصالحين من أتباع الأنبياء، وذلك بالصبر والاحتساب، حذّرهم في هذه الآيات من اتباع الكافرين وقبول ما يطلبون ويقترحونه عليهم فإنه مفضٍ بهم إلى الكفر أولاً ثم إلى الإثم والخسران ثانيًا.

(٥) قرىء بنصب اسم الجلالة ويكون معمولاً لفعل مقدّر وتقديره: بل أطيعوا الله مولاكم فهو أحق بطاعتكم من الكافرين والمنافقين وفي هذا ردّ على مَنْ قال ساعة الهزيمة: لو كلمنا ابن أبيّ يأخذ لنا أمنًا من أبي سفيان.

(٦) الرعب بإسكان العين وطمسها: الخوف الذي يملأ النفس خوفًا، لأنّ مادة الرّعب مأخوذة من الماء، يقال: سيل راعب يملأ=

والفزع والهلع حتى تتمكنوا من قتالهم والتغلب عليهم وذلك هو النصر المنشود منكم، وعلل تعالى فعله ذلك بالكافرين بأنهم أشركوا به تعالى آلهة عبدوها معه لم ينزل بعبادتها حجة ولا سلطانًا. وقال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ وأخيرًا مأواهم النار أي محل إقامتهم النار، وذمّ تعالى الإقامة في النار فقال: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ يريد النار بئس المقام للظالمين وهم المشركون[١].

هداية الآيات:

١ - تحرم طاعة الكافرين في حال الاختيار[٢].

٢ - بيان السر في تحريم طاعة الكافرين وهو أنه يترتب عليها الردة والعياذ بالله.

٣ - بيان قاعدة من طلب النصر من غير الله أذله الله.

٤ - وعد الله المؤمنين بنصرهم بعد إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم، إذ همّ أبو سفيان بالعودة إلى المدينة بعد انصرافه من أحد ليقضي عمن بقي في المدينة من الرجال كذا سولت له نفسه، ثم ألقى الله تعالى في قلبه الرعب فعدل عن الموضوع بتدبير الله تعالى. بطلان كل دعوى ما لم يكن لأصحابها حجة وهي المعبر عنها بالسلطان[٣] في الآية إذ الحجة يثبت بها الحق وينال صاحبه بواسطتها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٢، ١٥٣]

(١٥٢) ﴿صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾[٤]: أنجزكم ما وعدكم على لسان رسوله ﷺ بقوله للرماة اثبتوا أماكنكم فإنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم. ﴿تَحُسُّونَهُم﴾: تقتلونهم إذ الحس القتل يقال حسه إذا قتله فأبطل حسّه. ﴿بِإِذْنِهِ﴾: بإذنه لكم في قتالهم وبإعانته لكم على ذلك.

﴿فَشِلْتُمْ﴾: ضعفتم وجبنتم عن القتال.

(١٥٣) ﴿تُصْعِدُونَ﴾[٥]: تذهبون في الأرض فارين من المعركة يقال أصعد إذا ذهب في صعيد الأرض. ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾: لا تلوون رؤوسكم على أحد تلتفتون إليه. ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾: أي يناديكم من خلفكم إليّ عباد الله ارجعوا إليّ عباد الله ارجعوا. ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾[٦]: جزاكم على معصيتكم وفراركم غمًا على غم. والغم ألم النفس وضيق الصدر. ﴿مَا فَاتَكُمْ﴾: من الغنائم. ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾: من الموت والجراحات والآلام والأتعاب.

معنى الآيتين:

(١٥٢) ما زال السياق في أحداث أحد فقد تقدم في السياق قريبًا نهي الله تعالى المؤمنين عن طاعة الكافرين في كل ما يقترحون، ويشيرون به عليهم. ووعدهم بأنه

= الوادي، وكانت هذه الآية ردًا على أبي سفيان لمّا فكر في العودة إلى المدينة بعد انصرافه من أحد إلاّ أنّ الله تعالى هزمه بما ألقى في نفسه من الرّعب فعاد إلى مكة، كما هي بشرى للمؤمنين متى أطاعوا ربهم وثبتهم فإنه يلقي الرعب في قلوب أعدائهم قال رسول الله ﷺ: «**نُصرتُ بالرّعب مسيرة شهر**».

(١) لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ والكافرون مشركون بلا شك.

(٢) أمّا في حال الإكراه فإنّ مَنْ لم يطق العذاب يرخص له في إعطائهم ما طلبوا منه على شرط أن يكون كارهًا بقلبه ساخطًا في نفسه غير راضٍ عنهم ولا عن صنيعهم وذلك للآية: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

(٣) السلطان: الحجة لأن الحق يؤخذ بالحجة ويؤخذ بالسلطان، وهل السلطان مأخوذ من السليط وهو ما يضاء به السراج، وهو دهن السمسم، وسمي الحاكم سلطانًا للاستضاءة به في إظهار الحق وقمع الباطل؟ نعم وجائز.

(٤) صدق الوعد: تحقيقه والوفاء به لأنّ الصدق هو مطابقة الخبر للواقع، وهذا الوعد كان لهم على لسان رسول الله ﷺ إذ أخبرهم به وهو يهيء صفوفهم للقتال.

(٥) صعد يصعد إذا طلع المنبر أو سطحًا وأصعد يصعد إصعادًا إذا سار في بطن الأرض أو الوادي جريًا على صعيد الأرض فكان الإصعاد إبعادًا في الأرض.

(٦) الباء قد تكون هنا للمصاحبة أي: أصابكم غمٌ مصحوبًا بغم، والغم الأوّل: القتل والجراح، والثاني الإرجاف بقتل الرسول ﷺ، ولا بأس أن يكون الغمّ الأول هو الذي أغموا به الرسول ﷺ بمخالفتهم إيّاه وأصابهم غم الهزيمة.

سيلقي الرعب في قلوب الكافرين وقد فعل فله الحمد حيث عزم أبو سفيان على أن يرجع إلى المدينة ليقتل من بها ويستأصل شأفتهم فأنزل الله تعالى في قلبه وقلوب أتباعه الرعب فعدلوا عن غزو المدينة مرة ثانية وذهبوا إلى مكة. ورجع الرسول ﷺ والمؤمنون من حمراء الأسد ولم يلقوا أبا سفيان وجيشه. وفي هاتين الآيتين يخبرهم تعالى بمنته عليهم حيث أنجزهم ما وعدهم من النصر فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ[١] ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، وذلك أن الرسول ﷺ لما بوأ الرماة مقاعدهم. وكانوا ثلاثين راميًا وجعل عليهم عبدالله بن جبير أمرهم بأن لا يبرحوا أماكنهم كيفما كانت الحال وقال لهم: إنا لا نزال غالبين ما بقيتم في أماكنكم ترمون العدو فتحمون ظهورنا بذلك، وفعلًا دارت المعركة وأنجز الله تعالى لهم وعده ففرّ المشركون أمامهم تاركين كل شيء هاربين بأنفسهم والمؤمنون يحسونهم حسًا أي يقتلونهم قتلًا بإذن الله وتأييده لهم، ولما رأى الرماة هزيمة المشركين والمؤمنون يجمعون الغنائم قالوا: ما قيمة بقائنا هنا والناس يغنمون فهيًا بنا ننزل إلى ساحة المعركة لنغنم، فذكرهم عبدالله بن جبير قائدهم بأمر رسول الله ﷺ فتأولوه ونزلوا إلى ساحة المعركة يطلبون الغنائم، وكان على خيل المشركين خالد بن الوليد فلما رأى الرماة أخلَوْا مراكزهم إلا قليلًا منهم كرَّ بخيله عليهم فاحتل أماكنهم وقتل من بقي فيها، ورمى المسلمين من ظهورهم فتضعضعوا لذلك فعاد المشركون إليهم ووقعوا بين الرماة الناقمين والمقاتلين الهائجين فوقعت الكارثة فقتل سبعون من المؤمنين ومن بينهم حمزة عم الرسول ﷺ وجرح رسول الله ﷺ في وجهه وكسرت رباعيته وصاح الشيطان قائلًا إن محمدًا ﷺ قد مات، وفر المؤمنون من ميدان المعركة إلا قليلًا منهم وفي هذا يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[٢]، يريد تنازع الرماة مع قائدهم عبدالله بن جبير حيث نهاهم عن ترك مقاعدهم وذكّرهم بأمر رسول الله ﷺ فنازعوه في فهمه وخالفوا الأمر ونزلوا، وكان ذلك بعد أن رأوا إخوانهم قد انتصروا وأعداءهم قد انهزموا[٣]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من النصر. ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ[٤] ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الذين نزلوا إلى الميدان يجمعون الغنائم، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم عبدالله بن جبير والذين صبروا معه في مراكزهم حتى استشهدوا فيها، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وذلك إخبار عن ترك القتال لما أصابهم من الضعف حينما رأوا أنفسهم محصورين بين رماة المشركين ومقاتليهم فأصعدوا في الوادي هاربين بأنفسهم، وحصل هذا بعلم الله تعالى وتدبيره، والحكمة فيه أشار إليها تعالى بقوله: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي يختبركم فيرى المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، والصابر من الجزع، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ يريد أنه لو شاء يؤاخذهم بمعصيتهم أمر رسولهم ﷺ فسلّط عليهم المشركين فقتلوهم أجمعين ولم يُبقوا منهم أحدًا إذ تمكنوا منهم تمامًا ولكن الله سلّم. هذا معنى ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٥٢).

(١٥٣) أما الآية الثانية (١٥٣) فهي

---

(١) في هذه الآية عود إلى التسلية على ما أصابهم، وإظهار لاستمرار عناية الله تعالى بهم.

(٢) أل في الأمر: نائبة عن المضاف، إذ التقدير: في أمركم وشأنكم.

(٣) نعم انهزم المشركون في أوّل المعركة حتى شوهدت نساؤهم مشمرات عن سوقهن هاربات في أعلى الجبل خوفًا من الأسر ومن بينهن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان.

(٤) إرادة الدنيا وحدها غير معصية، ولكن ما ترتب عنها من ترك طاعة رسول الله ﷺ، فطالب الدنيا اليوم إذا طلبها من حلّها ولم يخل طلبه بواجب، ولم يحمله على فعل حرام، لا يأثم ولا يلام.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

٧٠

تصور الحال التي كان عليها المؤمنون بعد حصول الانكسار والهزيمة[1] فيقول تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي عفا عنكم في الوقت الذي فررتم مصعدين في الأودية هاربين من المعركة والرسول ﷺ يدعوكم من ورائكم إليّ عباد الله ارجعوا، وأنتم فارون لا تلوون على أحد، أي لا تلتفتوا إليه. وقوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ يريد جزاكم على معصيتكم غمًا والغم ألم النفس لضيق الصدر وصعوبة الحال. وقوله بغم أي على غم، وسبب الغم الأول فوات النصر والغنيمة والثاني القتل والجراحات وخاصة جراحات نبيّهم، وإذاعة قتله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ أي ما أصابكم بالغم الثاني الذي هو خبر قتل الرسول ﷺ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة، ولا على ما أصابكم من القتل والجراحات فأنساكم الغم الثاني ما غمكم به الغم الأول الذي هو فوات النصر والغنيمة. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يخبرهم تعالى أنه بكل ما حصل منهم من معصية وتنازع وفرار، وترك للنبي ﷺ في المعركة وحده وانهزامهم وحزنهم خبير مطلع عليه عليم به وسيجزي به المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أو يعفو عنه، والله عفو كريم.

هداية الآيتين:

١ - مخالفة القيادة الرشيدة والتنازع في حال الحرب يسبب الهزيمة[2] المنكرة.

٢ - معصية الله ورسوله ﷺ والاختلافات بين أفراد الأمة تعقب آثارًا سيئة أخفها عقوبة الدنيا بالهزائم وذهاب الدولة والسلطان[3].

٣ - ما من مصيبة تصيب العبد إلاّ وعند الله ما هو أعظم منها فلذا يجب حمد الله تعالى على أنها لم تكن أعظم.

٤ - ظاهر هزيمة أحد النقمة وباطنها النعمة، وبيان ذلك أنْ عَلِمَ المؤمنون أن النصر والهزيمة يتمان حسب سنن إلهية فما أصبحوا بعد هذه الحادثة المؤلمة يغفلون تلك السنن أو يهملونها.

٥ - بيان حقيقة كبرى وهي أن معصية الرسول ﷺ مرة واحدة وفي شيء واحد ترتب عليها آلام وجراحات وقتل وهزائم وفوات خير كبير وكثير فكيف بالذين يعصون رسول الله ﷺ طوال حياتهم وفي كل أوامره ونواهيه

(١) لما تمت الهزيمة جلس رسول الله ﷺ مع بعض أصحابه على صخرة من سفح أحد، فجاء أبو سفيان فارتفع على نشز من الأرض وقال: أفي القوم محمد؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «**لا تجيبوه**» ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال النبي ﷺ: «**لا تجيبوه**» ثم قال: أفي القوم عمر؟ فقال النبي ﷺ: «**لا تجيبوه**»، ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فقال له عمر: كذبت يا عدو الله فقد أبقى لك الله من يخزيك به، فقال: أعل هبل مرّتين، فأجابوه بأمر رسول الله ﷺ قائلين: الله أعلى وأجل، فقال: لنا العزى ولا عزى لكم، فقالوا بأمر رسول الله ﷺ الله مولانا ولا مولى لكم.

(٢) الخلاف كلّه شر ولكنه في ساحة الحرب أشد ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الآية من سورة الأنفال.

(٣) شاهد هذا حال المسلمين اليوم وقبل اليوم إنهم بعد أن عصوا الله ورسوله ﷺ بالإعراض عن شرع الله وإهمال أحكامه، والتعصب للمذاهب والرضا بالانقسام والخلاف، حل بهم ما حَلّ من الذل والهون والدّون.

وهم يضحكون ولا يبكون، وآمنون غير خائفين[1].

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٤، ١٥٥]

(١٥٤) ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾[2]: الأمنة: الأمن، والنعاس: استرخاء يصيب الجسم قبل النوم. ﴿يَغْشَىٰ[3] طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾: يُصيب المؤمنين ليستريحوا ولا يصيب المنافقين. ﴿أَهَمَّتْهُمْ[4] أَنفُسُهُمْ﴾: أي لا يفكرون إلا في نجاة أنفسهم غير مكترثين بما أصاب رسول الله ﷺ وأصحابه. ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: هو اعتقادهم[5] أن النبيّ ﷺ قتل أو أنه لا ينصر. ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾: أي ما لنا من الأمر من شيء. ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: أي ما لا يظهرون لك. ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ﴾: لخرجوا من المدينة ظاهرين ليلقوا مصارعهم هناك. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾: يريد كتب في كتاب المقادير أي اللوح المحفوظ. ﴿مَضَاجِعِهِمْ﴾: جمع مضجع وهو مكان النوم والاضطجاع والمراد المكان الذي صرعوا فيه قتلى. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾[6]: ليختبر. ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: التمحيص: التمييز وهو إظهار شيء من شيء كإظهار الإيمان من النفاق، والحب من الكره.

(١٥٥) ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: أوقعهم في الزلل وهو الخطيئة والتي كانت الفرار من الجهاد.

معنى الآيتين:

(١٥٤) ما زال السياق في الحديث عن غزوة أحد فأخبر تعالى في الآية الأولى (١٥٣) عن أمور عظام الأول: أنه تعالى بعد الغم الذي أصاب به المؤمنين أنزل على أهل اليقين خاصة أمنًا كاملاً فذهب الخوف عنهم حتى أن أحدهم[7] لينام والسيف في يده فيسقط من يده ثم يتناوله. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ والثاني: أن أهل الشك والنفاق حرمهم الله تعالى من تلك الأمنة فما زال الخوف يقطع قلوبهم والغم يُسَيْطر على نفوسهم وهم لا يفكرون إلا في أنفسهم كيف ينجون من الموت وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ[8] أَنفُسُهُمْ﴾ والثالث: أن الله تعالى قد كشف عن سرائرهم فقال: يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، والمراد من ظنهم بالله غير الحق ظن المشركين أنهم يعتقدون أن الإسلام باطل وأن محمدًا ﷺ ليس رسولاً، وأن المؤمنين سينهزمون ويموتون وينتهي الإسلام ومن يدعو إليه. والرابع: أن الله تعالى قد كشف سرهم فقال عنهم: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن[9] شَيْءٍ﴾ هذا القول قالوه سرًا فيما بينهم، ومعناه ليس لنا من الأمر من شيء ولو كان لنا ما خرجنا ولا قاتلنا ولا أصابنا الذي أصابنا فأطلعه الله تعالى على سرهم وقال له: رد عليهم بقولك: إن الأمر كله لله. ثم هتك تعالى مرة أخرى سترهم وكشف سرهم فقال: يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، أي يخفون في أنفسهم من الكفر والبغض والعداء لك ولأصحابك ما

---

(١) هذه حال أكثر المسلمين اليوم ومنذ قرون عدّة ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، وكذا لم يبرحوا أذلاّء تابعين للكافرين لا يستقلون في عمل أو تدبير.

(٢) الأمنة: هي الأمن وقيل: إنّ الأمنة تكون عند الخوف، والأمن يكون مع الخوف وعدمه، وقرىء: ﴿الأمْنة﴾ بإسكان الميم.

(٣) قرىء: ﴿يغشى﴾ بالياء وهو عائد إلى النعاس، وقرىء: ﴿تغشى﴾ بالتاء ويعود على الأمنة.

(٤) من أفراد هذه الطائفة معتب بن قشير، وأصحابه خرجوا طمعًا للغنيمة لا غير.

(٥) قال ابن عباس: هو تكذيبهم للقدر.

(٦) أي: ليعاملهم معاملة المختبر لهم وليصبح ما كان غيبًا لله مشاهدة لهم.

(٧) قال أبو طلحة والزبير وأنس: غشينا النعاس حتى إن السيف ليسقط من يد أحدنا فيتناوله من الأرض.

(٨) حدثتهم أنفسهم بما يدخل الهمّ عليهم وهو تكذيبهم بالقدر، والحرص على نجاتهم وحزنهم على ما فاتهم من الغنيمة وهذه كلها موجبات الهمّ والغمّ.

(٩) هذه الجملة بدل اشتمال من جملة: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لأنّ ظنهم مشتمل على قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: ليس لنا من الأمر من شيء. وهذا القول قاله ابن أبيّ لما سمع باستشهاد من استشهد من الخزرج.

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

٧١

لا يظهرونه لك. والرابع: لما تحدث المنافقون[1] في سرهم وقالوا لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا هاهنا: يريدون لو كان الأمر بأيديهم ما خرجوا لقتال المشركين لأنهم إخوانهم في الشرك والكفر، ولا قتلوا مع من قتل في أحد فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم بقوله: قل لو كنتم في بيوتكم بالمدينة لَبَرَزَ أي ظهر الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وصرعوا فيها وماتوا، لأن ما قدره الله نافذ على كل حال، ولا حذر[2] مع القدر. ولا بد أن يتم خروجكم إلى أحد بتدبير الله تعالى ليبتلي الله أي يمتحن ما في صدوركم ويميز ما في قلوبكم فيظهر ما كان غيبًا لا يعلمه إلا هو إلى عالم المشاهدة ليعلمه ويراه على حقيقته رسوله ﷺ والمؤمنون، وهذا لعلم الله تعالى بذات الصدور.

هذا معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿١٥٥﴾ هذا ما تضمنته الآية الأولى أما الآية الثانية (١٥٤) فقد تضمنت إخبار الله تعالى عن حقيقة واحدة ينبغي أن تعلم وهي أن الذين فرّوا من المعركة لما اشتد القتال وعظم الكرب الشيطان هو الذي أوقعهم في هذه الزلة وهي تولّيهم عن القتال بسبب[3] بعض الذنوب كانت لهم، ولذا عفا الله عنهم ولم يؤاخذهم بهذه الزلة، وذلك لأن الله غفور حليم فلذا يمهل عبده حتى يتوب فيتوب عليه ويغفر له ولو لم يكن حليمًا لكان يؤاخذ لأول الذنب والزلة فلا يمكن أحدًا من التوبة والنجاة. هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ﴾ أي عن القتال، يوم التقى الجمعان أي جمع المؤمنين وجمع الكافرين بأحد. إنما استزلهم[4] الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم فلم يؤاخذهم إن الله غفور حليم.

هداية الآيتين:

١ - إكرام الله تعالى لأوليائه بالأمان الذي أنزله في قلوبهم.

٢ - إهانة الله تعالى لأعدائه بحرمانهم مما أكرم به أولياءه وهم في مكان واحد.

٣ - تقرير مبدأ القضاء والقدر، وأن من كتب موته في مكان لا بد وأن يموت فيه.

٤ - أفعال الله تعالى لا تخلو أبدًا

---

(١) تقدم آنفًا أنّ هذا قاله رئيس المنافقين ابن أبيّ وقد عاد من الطريق مع ثلثمائة رجل ممن استجابوا لدعوته المثبطة عن القتال، ولا مانع أن يقوله غير واحد من المنافقين وهو كذلك.

(٢) أي: بنافع ولكن طلب الحذر من جملة الأسباب المطلوب اتخاذها طاعة لله تعالى والله يقول: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ وإنما لما يقع ما قدره الله تعالى ولم ينفع في رده حذر وجب الرضا به والتسليم لله في إجرائه على مقتضى مراده، وعليه فلا أسف ولا حزن ولا سخط إذ ما قضاه الله هو الخير والخير كلّه.

(٣) في هذه الآية بيان لسبب الهزيمة الخفي، وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ حيث تركوا مواقعهم ونزلوا لطلب الغنيمة والمراد إلقاء تبعة الهزيمة عليهم إذ هم السبب فيها.

(٤) استزلهم: أي: أزلهم بمعنى: جعلهم زالين، والزلل، وإن كان معناه: انزلاق القدم، وسقوط صاحبها فإنّ معناها هنا الوقوع في الزلة التي هي الخطيئة والسين والتاء في استزلهم للتأكيد مثل استفاد كذا، واستنشق الماء أو الهواء، ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾.

من حكم عالية فيجب التسليم لله تعالى والرضا بأفعاله في خلقه.

٥ - الذنب يولد الذنب، والسيئة تتولد عنها سيئة أخرى فلذا وجبت التوبة من الذنب فورًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٦ - ١٥٨]

(١٥٦) ﴿ءَامَنُوا﴾: صدقوا الله ورسوله ﷺ فيما أخبرا به من وعد ووعيد. ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: هذه أخوة العقيدة لا أخوة النسب وهي هنا أخوة النفاق. ﴿ضَرَبُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ضربوا في الأرض بأقدامهم مسافرين[1] للتجارة غالبًا. ﴿غُزًّى﴾[2]: جمع غازٍ وهو من يخرج لقتال ونحوه من شؤون الحرب. ﴿حَسْرَةً﴾[3]: ألم يأخذ بخناق النفس بسبب فوت مرغوب أو فقد محبوب.

معنى الآيات:

(١٥٦) ما زال السياق في أحداث غزوة أحد ونتائجها المختلفة ففي هذه الآية (١٥٦) ينادي الله المؤمنين الصادقين في إيمانهم بالله ورسوله ﷺ ووعد الله تعالى ووعيده يناديهم[4] لينهاهم عن الاتصاف بصفات الكافرين النفسية ومن ذلك قول الكافرين لإخوانهم في الكفر إذا هم ضربوا في الأرض لتجارة أو لغزو فمات من مات منهم أو قتل من قتل بقضاء الله وقدره، لو كانوا عندنا أي ما فارقونا وبقوا في ديارنا ما ماتوا وما قتلوا وهذا دال على نفسية الجهل ومرض الكفر، وحسب سنة الله تعالى فإن هذا القول منهم يتولد، لهم عنه بإذنه تعالى غم نفسي وحسرات قلبية تمزقهم وقد تودي بحياتهم، وما درى أولئك الكفرة الجهال أن الله يحيي ويميت، فلا السفر ولا القتال يميتان، ولا القعود في البيت جبنًا وخورًا يحيي هذا معنى قوله تعالى في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وقوله تعالى في ختام هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه وعد للمؤمنين إن انتهوا عما نهاهم عنه في الآية ووعيد إن لم ينتهوا فيجزيهم بالخير خيرًا، وبالشر إن لم يعف شرًا. أما الآية الثانية (١٥٧) فإن الله تعالى يبشر عباده المؤمنين مخبرًا إياهم بأنهم إن قتلوا في سبيل الله أو ماتوا فيه يغفر لهم ويرحمهم وذلك خير مما يجمع الكفار من حطام الدنيا ذلك الجمع للحطام الذي جعلهم يجبنون عن القتال والخروج في سبيل الله فقال تعالى:

(١٥٧) ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ[5] فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ[6] لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[7] وفي الآية الثالثة (١٥٨) يؤكد تلك الخيرية التي تضمنتها الآية السابقة فيقول:

(١٥٨) ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ في سبيلنا ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾[8] حتمًا، وثم يتم لكم جزاؤنا على استشهادكم وموتكم في سبيلنا، ولنعم ما تجزون به في جوارنا الكريم.

هداية الآيات:

١ - حرمة التشبه بالكفار ظاهرًا وباطنًا.

٢ - الندم يولد الحسرات والحسرة غم وكرب عظيمان، والمؤمن يدفع

---

(١) وقد يكون السفر لمصالح المسلمين.

(٢) الغزو: قصد الشيء، والمغزى: المقصد، والمغزية: المرأة التي غزا زوجها، والنسبة إلى الغزو غزويّ.

(٣) والحسرة: شدة الأسف أي: الحزن.

(٤) في نداء الله المؤمنين بعنوان الإيمان وهي صفة جامعة لهم فيه تلطف لهم بعد تقريع فريق منهم وهم الذين تولوا عن القتال يوم التقى الجمعان.

(٥) اللام موطئة للقسم أي: مؤذنة بأن قبلها قسمًا مقدرًا، واللام في ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ هي في جواب القسم الذي هو المغفرة.

(٦) أهل الحجاز يقولون: مِتم بكسر الميم نحو نمتم من نام ومات وغيرهم يقولون: مُتم بضم الميم في متم ونمتم نحو كنتم وقلتم.

(٧) قرىء: ﴿تجمعون﴾ بالتاء أي: أنتم أيها المؤمنون ﴿ويجمعون﴾ بالياء أي: الكافرون والمنافقون.

(٨) فيه وعظ وعظهم الله به حيث أعلمهم أنهم سواء ماتوا حتف أنوفهم أو قتلوا فإنّ رجوعهم إلى الله وسيجزيهم على قتالهم وموتهم في سبيل الله.

ذلك بذكره القضاء والقدر فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما آتاه من حطام الدنيا.

٣ ـ موتة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٩، ١٦٠]

(١٥٩) ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾: كنت رفيقًا بهم تعاملهم بالرفق واللطف. ﴿فَظًّا﴾: خشنًا في معاملتك شرسًا في أخلاقك وحاشاه[١] ﷺ. ﴿لَانفَضُّواْ﴾: تفرقوا وذهبوا تاركينك وشأنك. ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾: يريد إن زلوا أو أساؤوا. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: اطلب مشورتهم في الأمر ذي الأهمية كمسائل الحرب والسلم.

معنى الآيتين:

(١٥٩) ما زال السياق في الآداب والنتائج المترتبة على غزوة أحد ففي هذه الآية (١٥٩) يخبر تعالى عما وهب رسوله ﷺ من الكمال الخلقي الذي هو قوام الأمر فيقول: ﴿فَبِمَا[٢] رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي فبرحمة من عندنا رحمناهم بها لنت[٣] لهم، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي قاسيًا جافًا جافيًا قاسي القلب غليظه ﴿لَانفَضُّواْ مِنْ[٤] حَوْلِكَ﴾ أي تفرقوا عنك، وحرموا بذلك سعادة الدارين. وبناء على هذا فاعف[٥] عن مسيئهم، واستغفر لمذنبهم، وشاور ذوي الرأي منهم، وإذا بدا لك رأي راجح المصلحة فاعزم على تنفيذه متوكلًا على ربك فإنه يحب المتوكلين، والتوكل الإقدام على فعل ما أمر الله تعالى به أو أذن فيه بعد إحضار الأسباب الضرورية له. وعدم التفكير فيما يترتب عليه بل يفوض أمر النتائج إليه تعالى.

(١٦٠) هذا ما تضمنته الآية الأولى أما الآية الثانية (١٦٠) فقد تضمنت حقيقة كبرى يجب العلم بها والعمل دائمًا بمقتضاها وهي أن النصر بيد الله، والخذلان كذلك فلا يطلب نصر إلا منه تعالى، ولا يرهب خذلان إلا منه عز وجل، وطلب نصره هو إنفاذ أمره بعد إعداد الأسباب اللازمة له، وتحاشي خذلانه تعالى يكون بطاعته والتوكل عليه هذا ما دلّ عليه قوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾.

هداية الآيتين:

١ ـ كمال رسول الله ﷺ الخلقي.

٢ ـ فضل الصحابة رضوان الله عليهم وكرامتهم على ربهم سبحانه وتعالى.

٣ ـ تقرير مبدأ المشورة[٦] بين الحاكم وأهل الحل والعقد في الأمة.

٤ ـ فضل العزيمة[٧] الصادقة مقرونة بالتوكل على الله تعالى.

---

(١) ومن صفاته ﷺ في التوراة كما في رواية البخاري أنه ﷺ ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، والغليظ القلب: من قلت شفقته وعزت رحمته كما قال الشاعر:

يُبكى علينا ولا نبكي على أحد ... لنحن أغلظ أكبادًا من الإبل

(٢) الميم صلة أي: مزيدة لتوكيد الكلام وتقويته نحو قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾.

(٣) وذلك لأنه ﷺ لم يعنف الذين تولوا يوم أحد بل رفق بهم، فأخبر تعالى أنّ ذلك كان بتوفيق منه عزّ وجلّ لرسوله ﷺ.

(٤) قيل: يمنعهم الحياء والاحتشام والهيبة من القرب منك بعد ما كان من توليهم وهذا شأن أصحاب رسول الله ﷺ.

(٥) هذا الترتيب مقصود فأوّلاً: يعفو عنهم لما كان بينه وبينهم، وثانيًا: يستغفر الله لهم لما كان بينهم وبين ربهم من تبعات، وبعد هذا الإعداد يصبحون أهلًا للمشورة فيشاورهم.

(٦) الاستشارة مأخوذة من شرت الدابة إذا علمت خبرها كجري ونحوه، ويقال للموضع الذي تركض فيه: المشوار. قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب. وقد قيل: «ما ندم من استشار، ومن أعجب برأيه ضلّ»، وقال رسول الله ﷺ: **«ما ندم من استشار ولا خاب من استخار ولا عال من اقتصد»**.

(٧) من الحزم المشورة، والحزم: جودة النظر في الأمر وتنقيحه، والحذر من الخطأ فيه والعزم: قصد الإمضاء فيما حزم فيه، ومن مظاهر الحزم والعزم للرسول ﷺ أنه استشار أصحابه في الخروج إلى قتال المشركين خارج المدينة أو البقاء فيها والقتال داخلها=

٥ ـ طلب النصر من غير الله خذلان، والمنصور من نصره الله، والمخذول من خذله الله عز وجل.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦١ ـ ١٦٤]

(١٦١) ﴿أَن يَغُلَّ﴾: أي يأخذ من الغنيمة خفية، إذ الغلُّ والغلول بمعنى السرقة من الغنائم قبل قسمتها. ﴿تُوَفَّىٰ﴾: تجزى ما كسبته في الدنيا وافيًا تامًا يوم القيامة.

(١٦٢) ﴿رِضْوَانَ اللَّهِ﴾: المراد به ما يوجب رضوانه من الإيمان والصدق والجهاد. وسخط الله: غضبه الشديد على الفاسقين عن أمره المؤذين لرسوله ﷺ.

(١٦٤) ﴿مَنَّ﴾: أنعم وتفضل. ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: هو محمد ﷺ. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: بما يرشدهم إليه من الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والآداب العالية. الحكمة: كل قول صالح نافع أبدًا ومنه السنة النبوية.

معنى الآيات:

الغل والغلول[١] والأغلال بمعنى واحد وهو أخذ المرء شيئًا من الغنائم قبل قسمتها وما دام السياق في غزوة أحد فالمناسبة قائمة بين الآيات السابقة وهذه.

(١٦١) ففي الآية الأولى (١٦١) ينفي تعالى أن يكون من شأن الأنبياء أو مما يتأتى صدوره عنهم الإغلال وضمن تلك أن أتباع الأنبياء يحرم عليهم أن يغلوا، ولذا قرىء في السبع أن يُغَل بضم[٢] الياء وفتح الغين أي يفعله أتباعه بأخذهم من الغنائم بدون إذنه. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ ثم ذكر تعالى جزاء وعقوبة من يفعل وقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فأخبرهم تعالى أن من أغل شيئًا يأت به يوم القيامة يحمله حتى البقرة والشاة كما يُبين ذلك في الحديث[٣]، ثم يحاسب عليه كغيره ويجزي به، كما تجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ولا تظلم نفس شيئًا لغنى الرب تعالى عن الظلم وعدله. هذا مضمون الآية الأولى.

(١٦٢) أما الثانية (١٦٢) ينفي تعالى أن تكون حال المتبع لرضوان الله تعالى بالإيمان به ورسوله ﷺ وطاعتهما بفعل الأمر واجتناب النهي، كحال المتبع لسخط الله تعالى بتكذيبه تعالى وتكذيب رسوله ﷺ ومعصيتهما بترك الواجبات وفعل المحرمات فكانت جهنم مأواه، وبئس المصير جهنم. هذا معنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾.

(١٦٣) ثم ذكر تعالى أن كلًا من أهل الرضوان، وأصحاب السخط متفاوتون في درجاتهم[٤] عند الله، بحسب أثر أعمالهم في نفوسهم قوة وضعفًا فقال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝﴾، فدلّ ذلك على عدالة العليم الحكيم. هذا ما دلت عليه الآية (١٦٣).

(١٦٤) أما الآية الأخيرة (١٦٤) فقد تضمنت امتنان الله تعالى على المؤمنين من العرب ببعثه ﷺ رسوله فيهم، يتلو عليهم آيات الله فيؤمنون ويكملون في إيمانهم ويزكيهم من

= ورأى عدم الخروج أصلح ورأى أكثر الأصحاب الخروج فوافقهم فدخل بيته فلبس آلات حربه وخرج فلما رأوه كذلك تراجعوا واعتذروا، ولكنه أبى أن يتراجع فتجلّى حزمه وعزمه، وقال: «**لا ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه**».

(١) سمي الغلول غلولاً: لأنّ الأيدي فيه مغلولة أي: ممنوعة كأنّ فيها غلاً وهو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه.

(٢) فتح الياء قراءة حفص وهي ردّ على من تصور أنّ النبي ﷺ في إمكانه أن يأخذ شيئًا من الغنيمة قبل قسمتها فأخبر تعالى أنه من غير الممكن أن يغل النبي ﷺ لعصمة الله تعالى لأنبيائه، وقراءة الضمّ قراءة نافع وهي تحرّم على أتباع النبي ﷺ الغلول بصيغة بليغة إذ تجعل غلولهم من قبيل المتعذّر الذي لا يحدث.

(٣) في صحيح مسلم أنّ أبا هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره ثم قال: «**لا أُلفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك..**» ثم ذكر الفرس والشاة والنفس والرقاع، والرِّقاع: جمع رُقعة، وهي ما يكتب عليها.

(٤) المشهور أنّ أهل النار في دركات متفاوتة كما أنّ أهل الجنة في درجات متفاوتة فالدرجة ما أريد بها الارتفاع والدركة ما أريد بها السفول والهبوط.

وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

٧٢

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٥ ـ ١٦٨]

﴿١٦٥﴾ المصيبة: إحدى المصائب: ما يصيب الإنسان من سوء وأسوأها مصيبة الموت. ﴿مِّثْلَيْهَا﴾: ضعفيها إذ قتلوا في بدر سبعين من المشركين وأسروا(٥) سبعين. ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟: أي من أين أتانا هذا الذي أتانا من القتل والهزيمة.

﴿١٦٦﴾ ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أي بإرادته تعالى وتقديره بربط المسببات بأسبابها.

﴿١٦٧﴾ ﴿نَافَقُوا۟﴾: أظهروا من الإيمان ما لا يبطنون من الكفر. ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾: أي ادفعوا العدو عن دياركم وأهليكم وأولادكم، إن لم تريدوا ثواب الآخرة. ﴿فَٱدْرَءُوا۟﴾: أي ادفعوا.

﴿١٦٨﴾ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: في دفع المكروه بالحذر.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في أحداث غزوة أحد، ففي الآية الأولى: ينكر الله تعالى على المؤمنين قولهم

عليهم. هذا معنى قوله تعالى في الآية الأخيرة: ﴿لَقَدْ مَنَّ(١) ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ(٢) يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

هداية الآيات:

١ - تحريم(٣) الغلول وأنه من كبائر الذنوب(٤).

٢ - طلب رضوان الله واجب، وتجنب سخطه واجب كذلك، والأول يكون بالإيمان وصالح الأعمال والثاني يكون بترك الشرك والمعاصي.

٣ - الإسلام أكبر نعمة وأجلها على المسلمين فيجب شكرها بالعمل به والتقيد بشرائعه وأحكامه.

٤ - فضل العلم بالكتاب والسنة.

أوضار الشرك وظلمة الكفر بما يهديهم به، ويدعوهم إليه من الإيمان وصالح الأعمال وفاضل الأخلاق وسامي الآداب، ويعلمهم الكتاب المتضمن للشرائع والهدايات والحكمة التي هي فهم أسرار الكتاب، والسنة، وتتجلى هذه النعمة أكثر لمن يذكر حال العرب في جاهليتهم قبل هذه النعمة العظيمة

---

(١) مَنّ هنا بمعنى: أسدى النعمة للمؤمنين ببعثة الرسول ﷺ فيهم وليس هو من المنّ المذموم الذي هو تعداد النعمة إلاّ أن الله تعالى له أن يمنّ وهو أمنّ مِن كل مَنّ وأعطى.

(٢) قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذه للعرب خاصة: إذ فهمت من كلمة ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أنها تعني من جنسهم العربي، وبعضهم يرى العموم فيها لكل مؤمن ومؤمنة، وهو كذلك إذ هو بشر مثلهم.

(٣) شاهده قوله ﷺ في الذي غلّ الشملة يوم خيبر: **«والذي نفسي بيده إنّ الشملة التي أخذ يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا»** ولمّا سمع هذا الوعيد أحد الأصحاب جاء بشراك أو شراكين إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **«شراك أو شراكين من نار»** رواه مالك في الموطأ.

(٤) الإجماع على أنّ الغالّ لا تقطع يده ولكن يعزّر، والغلول لا يكون إلاّ في الغنائم وسمى الرسول ﷺ هدايا العمال غلولاً ويفضحون بها يوم القيامة لحديث مسلم في قصة ابن اللتبية.

(٥) اعتبر الأسير قتيلاً لأن الآسر له يملك قتله متى شاء، فلذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾.

بعد أن أصابتهم مصيبة القتل والجراحات والهزيمة:

(١٦٥) ﴿أَنَّىٰ[1] هَٰذَا﴾ أي من أي وجه جاءت هذه المصيبة ونحن مسلمون ونقاتل في سبيل الله ومع رسوله؟ فقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا[2] أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ بأحد قد أصبتم مثليها ببدر لأن ما قتل من المؤمنين بأحد كان سبعين، وما قتل من المشركين ببدر كان سبعين قتيلاً وسبعين أسيرًا، وأمر رسوله ﷺ أن يُجيبهم: قل هو من عند أنفسكم، وذلك بمعصيتكم لرسول الله ﷺ حيث خالف الرماة أمره، وبعدم صبركم إذ فررتم من المعركة تاركين القتال. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إشعار بأن الله تعالى أصابهم بما أصابهم به عقوبة لهم حيث لم يطيعوا رسوله ﷺ ولم يصبروا على قتال أعدائه. هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٦٥) أما الآيات الثلاث بعدها فقوله تعالى:

(١٦٦) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يخبر تعالى المؤمنين أن ما أصابهم يوم أحد عند التقاء جمع المؤمنين وجمع المشركين في ساحة المعركة كان بقضاء الله وتدبيره، وعلته إظهار المؤمنين على صورتهم الباطنية الحقة وأنهم صادقون في إيمانهم، ولذا قال تعالى: وليعلم المؤمنين علم انكشاف وظهور كما هو معلوم له في الغيب وباطن الأمور هذا أولاً.

(١٦٧) ـ (١٦٨) وثانيًا ليعلم الذين نافقوا فأظهروا الإيمان والولاء للّه ولرسوله ﷺ والمؤمنين ثم أبطنوا الكفر والعداء للّه ورسوله ﷺ والمؤمنين فقال عنهم في الآيتين الثالثة (١٦٧). والرابعة (١٦٨) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وهم عبدالله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين وعصابته الذين رجعوا من الطريق قبل الوصول إلى ساحة المعركة، وقد قال لهم عبدالله بن حرام والد جابر تعالوا قاتلوا في سبيل الله رجاء ثواب الآخرة، وإن لم تريدوا ثواب الآخرة فادفعوا عن أنفسكم وأهليكم معرة جيش غاز يريد قتلكم إذ وقوفكم معنا يكثر سوادنا ويدفع عنا خطر العدو الداهم فأجابوا قائلين: لو نعلم قتالاً سيتم لاتبعناكم، فأخبر تعالى عنهم بأنهم في هذه الحال ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ إذ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ حتى من أنفسهم يعلم أنهم يكتمون عداوة الله ورسوله ﷺ والمؤمنين وإرادة السوء بالمؤمنين، وأن قلوبهم مع الكافرين الغازين. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم قعدوا عن الجهاد في أحد وقالوا لإخوانهم في النفاق ـ وهم في مجالسهم الخاصة ـ: لو أنهم قعدوا فلم يخرجوا كما لم نخرج نحن ما قتلوا. فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم قائلا: ﴿فَادْرَءُوا﴾ أي ادفعوا[3] عن أنفسكم الموت إذا حضر أجلكم إن كنتم صادقين في دعواكم أنهم لو قعدوا ما قتلوا.

هداية الآيات:

١ ـ المصائب[4] ثمرة الذنوب.

٢ ـ كل الأحداث التي تتم في العالم سبق بها علم الله، ولا تحدث إلا بإذنه.

٣ ـ قد يقول المرء قولاً أو يظن ظنًا يصبح به على حافة هاوية الكفر.

٤ ـ الحذر لا يدفع[5] القدر.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٩ ـ ١٧١]

(١٦٩) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: ولا تظنن. ﴿قُتِلُوا﴾: استشهدوا. ﴿أَحْيَاءٌ﴾: يُحسون ويتنعمون في نعيم الجنة بالطعام والشراب.

(١٧٠) ﴿فَرِحِينَ﴾: مسرورين. ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: لما وجدوا من الأمن التام عند ربهم. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: على ما خلفوا وراءهم

---

(١) أنّى هذا: جملة اسمية فأنّى بمعنى: أين وهو الخبر مقدم، وهذا مبتدأ مؤخر.

(٢) الاستفهام هنا للإنكار والتعجب لأنّ قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مما ينكر ويتعجب منه وذلك أن سبب المصيبة غير خاف ولا غامض فهو ظاهر مكشوف، وهو عصيانهم للقيادة بمخالفة أمرها، ولما: اسم زمان مضمن معنى الشرط وقلتم: هو الجزاء.

(٣) هذا ردّ على ابن أبيّ كبير المنافقين وسيدهم الذي قال: لو أطاعونا ما قُتلوا.

(٤) قال تعالى من سورة الشورى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: من الذنوب والمعاصي.

(٥) ومع أنّه لا يدفع القدر فإنّ استعماله واجب لقوله تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

في الدنيا لما نالهم من كرامة في الجنة.

(١٧١) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يفرحون. وفضل: وزيادة.

معنى الآيات:

(١٦٩) ما زال السياق في الحديث عن غزوة أحد فقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾[1] أي لا تظنن الذين استشهدوا من المؤمنين في أحد وغيرها أمواتًا لا يحسون ولا يتنعمون بطيب الرزق ولذيذ العيش بل هم أحياء عند ربهم يرزقون أرواحهم في حواصل طير خضر يأكلون من ثمار الجنة ويأوون إلى قناديل معلقة بالعرش. إنهم فرحون بما أكرمهم[2] الله تعالى به، ويستبشرون بإخوانهم المؤمنين الذين خلفوهم في الدنيا على الإيمان والجهاد بأنهم إذا لحقوا بهم لم يخافوا ولم يحزنوا لأجل ما يصيرون إليه من نعيم الجنة وكرامة الله تعالى لهم فيها. إن الشهداء جميعًا مستبشرون فرحون بما ينعم[3] الله عليهم ويزيدهم وبأنه تعالى لا يضيع أجر المؤمنين شهداء وغير شهداء بل يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

هداية الآيات:

١ - الشهداء أحياء والمؤمنون أحياء في الجنة غير أن حياة الشهداء أكمل.

٢ - الشهداء[4] يستبشرون بالمؤمنين الذين خلفوهم على الإيمان والجهاد بأنهم إذا لحقوا بهم نالهم من الكرامة والنعيم ما نالهم هم قبلهم.

٣ - لا خوف ينال المؤمن الصالح إذا مات ولا حزن يصيبه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧٢ - ١٧٥]

(١٧٢) ﴿ٱسْتَجَابُوا﴾[5]: أجابوا الدعوة وقبلوا الأمر. ﴿ٱلْقَرْحُ﴾[6]: ألم الجراحات. ﴿أَحْسَنُوا﴾: أعمالهم وأقوالهم أتوا بها وفق الشرع وأحسنوا إلى غيرهم. ﴿ٱتَّقَوْا﴾: ربهم فلم يشركوا به ولم يعصوه فيما أمرهم به أو نهاهم عنه.

(١٧٣) ﴿جَمَعُوا لَكُمْ﴾: جمعوا الجيوش لقتالكم. ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾: يكفينا الله ما أرادونا به من الأذى. ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: نعم الوكيل الله نوكل إليه أمورنا ونفوضها إليه.

(١٧٤) ﴿فَٱنقَلَبُوا﴾: رجعوا من حمْرَاء الأسد إلى المدينة. أولياء الشيطان: أهل طاعته والاستجابة إليه فيما يدعوهم إليه من الشر والفساد.

معنى الآيات:

ما زال السياق في أحداث غزوة أحد وما لابسها من أمور وأحوال والآيات الأربع كلها في المؤمنين الذين حضروا غزوة أحد يوم السبت وخرجوا في طلب أبي سفيان يوم الأحد وعلى رأسهم نبيهم محمد ﷺ، وذلك أن النبي ﷺ رأى

---

(١) روى أبو داود بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظلّ العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقامهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنّا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم»** فأنزل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ الآية.

(٢) مما ورد في فضل الشهيد أنّ الله تعالى يغفر له كل ذنب أذنبه إلاّ الدَّين لقوله ﷺ: **«القتيل في سبيل الله يكفر عنه كل شيء إلاّ الدين كذلك قال لي جبريل عليه السلام آنفًا»**. قال العلماء: الدَّين يشمل كل الحقوق المتعلقة بالذمة.

(٣) روى الترمذي وصححه أن النبي ﷺ قال: **«للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»**.

(٤) الإجماع على أن شهيد المعركة بين الكفار والمسلمين أنه لا يغسل ولا يُصلى عليه لحديث البخاري: **«وادفنوهم بدمائهم»** يعني: شهداء أحد ولم يغسلهم والعلة في عدم غسلهم أن دماءهم تأتي يوم القيامة كريح المسك.

(٥) قيل إن هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا..﴾ إلخ.. نزلت في رجلين من بني الأشهل كانا مثخنين بالجراح وخرجا إلى حمراء الأسد مع رسول الله ﷺ يتوكأ أحدهما على صاحبه.

(٦) أخرج أصحاب الصحاح عن عروة بن الزبير أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت له: كان أبواك من الذين استجابوا لله وللرسول ﷺ من بعد ما أصابهم القرح، وتعني بأبويه: الزبير، وأبا بكر الصديق رضي الله عنهما.

أن يرفع معنويات أصحابه الذين كُلِموا وهزموا يوم السبت بأحد، وأن يرهب أعداءهُ فأمر مؤذنًا يؤذن بالخروج في طلب أبي سفيان وجيشه، فاستجاب المؤمنون وخرجوا وإن منهم للمكلوم المجروح، وإن أخوين جريحين كان أحدهما يحمل أخاه على ظهره فإذا تعب وضعه فمشى قليلاً، ثم حمله حتى انتهى رسول الله ﷺ وأصحابه إلى حمراء الأسد، وألقى الله تعالى الرعب في قلب أبي سفيان فارتحل هاربًا إلى مكة، وقد حدث هنا أن معبدًا الخزاعي[1] مر بمعسكر أبي سفيان فسأله عن الرسول ﷺ فأخبره أنه خرج في طلبكم وخرج معه جيش كبير وكلهم تغيظ عليكم، أنصح لك أن ترحل فهرب برجاله خوفًا من رسول الله ﷺ وأصحابه، فأقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد برجاله كذا ليلة ثم عادوا لم يمسسهم سوء وفيهم نزلت هذه الآيات الأربع وهذا نصها:

﴿١٧٢﴾ الآية (١٧٢) ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ يريد في أحد واستجابوا: لبوا نداء الرسول ﷺ وخرجوا معه في ملاحقة أبي سفيان، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ولكل من أحسن واتقى أجر عظيم، ألا وهو الجنة.

﴿١٧٣﴾ الآية الثانية (١٧٣) ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ[2] إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾. المراد من الناس القائلين هم نفر من عبد القيس مروا بأبي سفيان وهو عازم على العودة إلى المدينة لتصفية المؤمنين بها في نظره فقال له أبو سفيان أخبر محمدًا ﷺ وأصحابه أني ندمت على تركهم أحياء بعدما انتصرت عليهم وإني جامع جيوشي وقادم عليهم، والمراد من الناس الذين جمعوا هم أبو سفيان فلما بلغ هذا الخبر الرسول ﷺ وأصحابه زادهم[3] إيمانًا فوق إيمانهم بنصر الله تعالى وولايته لهم، وقالوا: حسبنا الله أي يكفينا الله شرهم، ونعم الوكيل الذي يكفينا ما أهمنا ونفوض أمرنا إلى الله.

﴿١٧٤﴾ الآية الثالثة (١٧٤) ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ أي رجعوا من حمراء الأسد لأن أبا سفيان ألقى الله الرُّعب في قلبه فانهزم وهرب، رجعوا مع نبيهم ﷺ سالمين في نعمة الإيمان والإسلام والنصر، ﴿وَفَضْلٍ﴾ حيث أصابوا تجارة في طريق عودتهم ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي أذى، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بالاستجابة لما دعاهم الله ورسوله ﷺ وهو الخروج في سبيل الله لملاحقة أبي سفيان وجيشه. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ وما أفاضه على رسوله ﷺ كاف في التدليل عليه.

الجزء الرابع — سورة آل عمران

فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

٧٣

(١) لأنّ خزاعة كانت حلفاء لرسول الله ﷺ وعيبة نصحه، أي: موضع سرِّه.

(٢) روى البخاري عن ابن عباس أنّه قال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ إلى ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: إنّ الناس قد جمعوا لكم.

(٣) الذي زادهم إيمانًا هو قول الناس: إنّ الناس قد جمعوا لكم، وهل الإيمان يزيد وينقص؟ الخلاف قديم في هذه القضية. والقول الذي تشهد له نصوص الكتاب والسنة هو أنّ الإيمان يقوى ويضعف فإذا قوي زاد عمل المؤمن في الطاعات بفعل الحسنات وترك السيئات وإذا ضعف قلّ عمله الصالح وزاد عمله الطالح فيستدل على الإيمان قوة وضعفًا بمتعلّقه وهو الطاعة والمعصية.

(١٧٥) الآية الرابعة (١٧٥) ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ[1] فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾، وذلك أن وفد عبد القيس آجره أبو سفيان بكذا حمل من زبيب إن هو خوف المؤمنين منه فبعثه كأنه (طابور) يخذل له المؤمنين إلا أن المؤمنين عرفوا أنها مكيدة وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فنزلت الآية: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الناطق على لسان النفر من عبد القيس يخوف المؤمنين من أوليائه أبي سفيان وجمعه، فلا تخافوهم فنهاهم عن الخوف منهم وأمرهم أن يخافوه[2] تعالى فلا يجبنُوا ويخرجوا إلى قتال أبي سفيان وكذلك فعلوا لأنهم المؤمنون بحق رضي الله عنهم أجمعين.

هداية الآيات:

١ - فضل الإحسان والتقوى وأنهما مفتاح كل خير.

٢ - فضل أصحاب رسول الله ﷺ على غيرهم، وكرامتهم على ربهم.

٣ - فضل كلمة «حسبنا الله ونعم الوكيل[3]» قالها رسول الله ﷺ وقالها إبراهيم من قبل فصلى الله عليهما وسلم.

٤ - بيان أن الشيطان يخوف[4] المؤمنين من أوليائه، فعلى المؤمنين أن لا يخافوا غير ربهم تعالى في الحياة، فيطيعونه ويعبدونه ويتوكلون عليه، وهو حسبهم ونعم الوكيل لهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧٦ ـ ١٧٨]

(١٧٦) الحزن: غمّ يصيب النفس لرؤية أو سماع ما يسوؤه ويكرهه.

﴿ٱلْكُفْرِ﴾: الكفر تكذيب الله تعالى ورسوله ﷺ فيما جاء به الرسول ﷺ وأخبر به. ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: يبادرون. ﴿حَظًّا﴾: نصيبًا.

(١٧٧) ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ﴾: اعتاضوا الكفر عن الإيمان.

(١٧٨) ﴿نُمْلِى لَهُمْ﴾: الإملاء: الإمهال والإرخاء بعدم البطش بهم وترك الضرب على أيديهم بكفرهم. ﴿إِثْمًا﴾: الإثم: كل ضار قبيح ورأسه: الكفر والشرك.

معنى الآيات:

(١٧٦) ما زال السياق في أحداث غزوة أحد ففي هذه الآيات الثلاث ـ وقد كشفت الأحداث عن أمور خطيرة حيث ظهر النفاق مكشوفًا لا ستار عليه، وحصل من ذلك ألم شديد لرسول الله ﷺ والمؤمنين ـ يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ قائلاً له: لا يحزنك[5] مسارعة هؤلاء المنافقين[6] في الكفر، وقال في الكفر ولم يقل إلى الكفر إشارة إلى أنهم ما خرجوا منه لأن إسلامهم كان نفاقًا فقط، ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، والله يريد أن لا يجعل لهم نصيبًا من نعيم الآخرة فلذا تركهم في كفرهم كلما خرجوا منه عادوا إليه، وحكم عليهم بالعذاب العظيم فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٧٦).

(١٧٧) أما الآية الثانية (١٧٧) فقد تضمنت حكم الله تعالى على الذين يرتدون بعد إيمانهم فيبيعون الإيمان بالكفر، ويشترون الضلالة بالهدى حكم عليهم بأنهم لن يضروا[7] الله

---

(١) معنى يخوف أولياءه أنه يخوف المؤمنين بأوليائه وهم المشركون وذلك على لسان نعيم بن مسعود الذي آجره أبو سفيان ليخوف المؤمنين بعزم أبي سفيان على الكرّة عليهم لاستئصالهم وإبادتهم.

(٢) الخوف من الله تعالى أمر الله به وهو واجب على كل مؤمن وحقيقته: أن يترك العبد ما يخاف أن يعذب عليه وقيل: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه وإنما مَنْ يترك ما يخاف أن يعذّب به.

(٣) الوكيل: فعيل بمعنى: مفعول، أي: الموكول إليه الأمر.

(٤) الشيطان يكون من الجنّ ومن الإنس فإن كان من الجنّ فتخويفه يكون بواسطة الوساوس، وإن كان من شياطين الإنس فتخويفه يكون بالكلام الشفوي الذي ظاهره النصح وباطنه الخداع والغشّ.

(٥) قرأ نافع: ﴿يُحزِنك﴾ بضم الياء وكسر الزاي من أحزن يحزن في كل القرآن، إلاّ قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وقرأ الجمهور: ﴿يَحزُنك﴾ بفتح الياء وضم الزاي.

(٦) قيل في هؤلاء المسارعين في الكفر: إنهم المنافقون وقيل: هم كفار قريش، وقيل: هم اليهود، واللفظ يشمل كل ذلك إذ الفئات الثلاث كلها كانت تسارع في الكفر بنصرته والعمل فيه وبه.

(٧) ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ من الضرر لا في ذاته ولا في دينه ولا في ملكه وسلطانه ولا رسوله ﷺ، وفي الحديث القدسي الذي=

شيئًا من الضرر، ولهم عذاب أليم فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا[1] وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ والعذاب الأليم هو عذاب النار إذ لا آلم ولا أشد إيجاعًا منه.

(١٧٨) وأما الآية الثالثة (١٧٨) فقد تضمنت بطلان حسبان الكافرين أن الله تعالى عندما يمهلهم ويَمُدُّ في أعمارهم ولم يعاجلهم بالعذاب أن ذلك خيرٌ لهم، لا، بل هو شر لهم، إذ كلما تأخروا يومًا اكتسبوا فيه إثمًا فبقدر ما تطول حياتهم يعظم ذنبهم وتكثر آثامهم، وحينئذ يوبقون ويهلكون هلاكًا لا نظير له. قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ[2] ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي ذو إهانة، لأنهم كانوا ذوي كبر وعلو في الأرض وفساد، فلذا ناسب أن يكون في عذابهم إهاناتٌ لهم.

هداية الآيات:

١ - لا ينبغي للمؤمن أن يُحزنه كفر كافرٍ ولا فسق فاسق، لأن ذلك لا يضر الله تعالى شيئًا، وسيجزي الله الكافر والفاسق بعدله.

٢ - لا ينبغي للعبد أن يغره إمهال الله له، وعليه أن يبادر بالتوبة من كل ذنب إذ ليس هناك إهمال وإنما هو إمهال.

٣ - الموت للعبد[3] خير من الحياة، لأنه إذا كان صالحًا فالآخرة خير له من الدنيا وإن كان غير ذلك حتى لا يزداد إثمًا فيوبق بكثرة ذنوبه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧٩، ١٨٠]

(١٧٩) ﴿لِيَذَرَ﴾: ليترك. ﴿يَمِيزَ﴾: يميّز ويبيّن. ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾: من خبثت نفسه بالشرك والمعاصي. ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾: من طهرت نفسه بالإيمان والعمل الصالح. ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: ما غاب فلم يدرك بالحواس. ﴿يَجۡتَبِي﴾: يختار ويصطفي.

(١٨٠) ﴿يَبۡخَلُونَ﴾[4]: يمنعون ويضنون. ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ﴾: يجعل طوقًا في عنق أحدهم.

معنى الآيتين:

(١٧٩) ما زال السياق في أحداث وقعة أحد، وما لازمها من ظروف وأحوال، فأخبر تعالى في هذه الآية (١٧٩) أنه ليس من شأنه تعالى أن يترك المؤمنين على ما هم عليه فيهم المؤمن الصادق في إيمانه، والكاذب فيه وهو المنافق. بل لا بد من الابتلاء بالتكاليف الشاقة منها كالجهاد والهجرة والصلاة والزكاة، وغير الشاقة من سائر العبادات حتى يميز المؤمن الصادق وهو الطيب الروح، من المؤمن الكاذب وهو المنافق الخبيث الروح، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ[5] ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ وذلك أن الله لم يكن من سنته في خلقه أن يطلعهم على الغيب فيميزُ المؤمن من المنافق، والبار من الفاجر، وإنما يبتلي بالتكاليف ويظهر بها المؤمن من الكافر والصالح من الفاسد. إلا أنه تعالى قد يجتبي من رسله من يشاء فيطلعه على الغيب، ويظهره على مواطن الأمور وبناء على[6] هذا فآمنوا بالله

= رواه مسلم: **«يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»**.

(١) كرّر لفظ ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ لأجل التأكيد والتقرير حتى ييأس المنافقون والكافرون من إلحاق أي ضرر برسول الله ﷺ وبدعوته. شيئًا: منصوب على المصدرية أي: لن يضروا الله ضررًا قليلاً ولا كثيرًا.

(٢) فُسر الإملاء بطول العمر ورغد العيش، وهو كذلك مع إضافة عدم معاجلتهم بالعقوبة إنظارًا لهم لا إهمالاً.

(٣) شاهده قول ابن مسعود رضي الله عنه ما مِنْ أحد برّ ولا فاجر إلاّ والموت خير له لأنّه إن كان برًا فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ وإن كان فاجرًا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ وروي مثله عن ابن عباس أخرجه رزين.

(٤) البُخل بضم الباء وإسكان الخاء، والبَخَل بفتح الباء والخاء معًا هو أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه من زكاة أو ضيافة أو إطعام جائع، وستر عارٍ ولم يوجد من يقوم به سواه، وإلاّ فلا يقال فيه: بخيل شرعًا.

(٥) روي أن الآية نزلت إجابة لمن طالبوا بعلامة يفرقون بها بين المؤمن والمنافق، فأجابهم الله تعالى بأنه ليس من شأنه أن يترك المؤمنين على ما هم عليه في اختلاطهم مع المنافقين حتى ينزل من الشرائع والتكاليف ما يميز بفعله وتركه المؤمن من المنافق.

(٦) إذ العبرة ليست بمعرفة الغيب وإنما العبرة بالنجاة من النار والفوز بالجنة وعليه فأعرضوا عن المطالبة بمعرفة الغيب وأقبلوا على ما يحقق لكم نجاتكم وسعادتكم.

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

٧٤

ورسوله ﷺ حق الإيمان، فإنكم إن آمنتم صادق الإيمان واتقيتم معاصي الرحمان كان لكم بذلك أعظم الأجور وهو الجنة دار الحبور والسرور هذا ما دلت عليه الآية (١٧٩).

﴿١٨٠﴾ أما الآية الثانية (١٨٠) فإن الله تعالى يخبر عن خطا البخلاء الذين يملكون المال ويبخلون به فيقول: ولا يحسبنَّ أي ولا يظنن الذين يبخلون بما آتاهم الله من المال الذي تفضّل الله به عليهم أن بخلهم به خيرٌ لأنفسهم كما يظنون بل هو أي البخل شرٌ لهم، وذلك لسببين الأول ما يلحقهم في الدنيا من معرة البخل وآثاره السيئة على النفس، والثاني أن الله تعالى سيعذبهم به بحيث يجعله طوقًا من نار في أعناقهم، أو بصورة ثعبان فيطوقهم[1]، ويقول لصاحبه: «أنا مالك أنا كنزك» كما جاء في الحديث. فعلى من يظن هذا الظن الباطل أن يعدل عنه، ويعلم أن الخير في الإنفاق لا في البخل. وأن ما يبخل به هو مال الله، وسيرثه، ولم يجن البخلاء إلا المعرة في الدنيا والعذاب في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فاتقوه فيما آتاكم فآتوا زكاته وتطوعوا بالفضل فإن ذلك خير لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

هداية الآيتين:

١ - من حِكم التكليف إظهار المؤمن الصادق من المؤمن الكاذب.

٢ - استئثار الرب تعالى بعلم الغيب دون خلقه إلا ما يطلع عليه رسله لحكمة اقتضت ذلك.

٣ - ثمن الجنة الإيمان والتقوى.

٤ - البخل بالمال شر لصاحبه، وليس بخير له كما يظن البخلاء.

٥ - من أوتي مالاً ومنع حق الله فيه عذب به يوم القيامة دلت على ذلك هذه الآية وآية[2] التوبة وحديث البخاري: «**من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه - أي شدقيه - يقول أنا مالك أنا كنزك**». ثم تلا الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ ...﴾ الآية.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨١ - ١٨٤]

﴿١٨١﴾ ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[3]: هو عذاب النار المحرقة تحرق أجسادهم.

﴿١٨٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: أي ذلك العذاب بسبب ما قدمته أيديكم من الجرائم.

﴿١٨٣﴾ ﴿عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾: أمرنا ووصانا في كتابنا (التوراة). ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾: أي لا نتابعه، على ما جاء به ولا نصدقه في نبوته. ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾: القربان: ما يتقرب به إلى الله تعالى من حيوان وغيره يوضع في مكان فتنزل عليه نار بيضاء من السماء فتحرقه.

﴿١٨٤﴾ البينات: الآيات والمعجزات.

---

(١) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه** - يعني: شدقيه - **ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك**» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ..﴾ الآية.

(٢) هي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

(٣) الحريق: اسم للملتهبة من النار، إذ النار تشمل الملتهبة وغير الملتهبة.

﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾: أي من القربان. ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: الاستفهام للتوبيخ، وممن قتلوا من الأنبياء زكريا ويحيى عليهما السلام.

(١٨٤) الزبر: جمع زبور وهو الكتاب كصحف إبراهيم. الكتاب المنير: الواضح البين كالتوراة والزبور والإنجيل.

معنى الآيات:

لما نزل قول الله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ ودخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت (المدراس)[1] واليهود به وهم يستمعون لأكبر علمائهم وأجل أحبارهم فنحاص فدعاه أبو بكر إلى الإسلام، فقال فنحاص: إن ربًا يستقرض نحن أغنى منه! ينهانا صاحبك عن الربا ويقبله فغضب أبو بكر رضي الله عنه وضرب اليهودي فجاء إلى رسول الله ﷺ فشكا أبا بكر فسأل الرسول ﷺ أبا بكر قائلًا: **«ما حملك على ما صنعت»**؟ فقال إنه قال: إن الله فقير ونحن أغنياء، فأنكر اليهودي فأنزل[2] الله تعالى الآية:

(١٨١) ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أي نكتبه أيضًا، ونقول لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، وقولنا ذلك بسبب ما قدمته أيديكم من الشر والفساد، وأن الله ليس بظلام للعبيد، فلم يكن جزاؤكم مجافيًا للعدل ولا مباعدًا له أبدًا لتنزه الرب تعالى عن الظلم لعباده، هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٨١) ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝﴾.

(١٨٢) والآية الثانية (١٨٢) ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝﴾.

(١٨٣) وأما الآية الثالثة (١٨٣) وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾؟ فقد تضمنت دعوى يهودية كاذبة باطلة لا صحة لها البتة، والرد عليها، فالدعوى هي قولهم إنّ الله[3] قد أمرنا موصيًا لنا أن لا نؤمن لرسول فنصدقه ونتابعه على ما جاء به، حتى يأتينا بقربان تأكله النار، يريدون صدقة من حيوان أو غيره توضع أمامهم فتنزل عليها نار من السماء فتحرقها فذلك آية نبوته، وأنت يا محمد ما أتيتنا بذلك فلا نؤمن بك ولا نتابعك على دينك، وأما الرد فهو قول الله تعالى لرسوله ﷺ قل يا رسولنا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي المعجزات، ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ وهو قربان تأكله النار فلمَ قتلتموهم، إذ قتلوا زكريا ويحيى وحاولوا قتل عيسى، إن كنتم صادقين في دعواكم؟ وأما الآية الرابعة (١٨٤) فإنها تحمل العزاء لرسول الله ﷺ إذ يقول له ربه تعالى:

(١٨٤) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فلم يؤمنوا بك، فلا تحزن ولا تأسى لأنك لست وحدك الذي كُذِّبت، فقد كُذبت رسل كثر كرام، جاؤوا أقوامهم بالبينات - أي المعجزات - وبالزبر، والكتاب المنير كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وكذبتهم أممهم كما كذبك هؤلاء اليهود والمشركون معهم فاصبر ولا تحزن.

هداية الآيات:

١ - كفر اليهود وسوء أدبهم مع الله تعالى ومع أنبيائهم ومع الناس أجمعين.

---

(١) بيت المعلم من بني إسرائيل.

(٢) إنّ من نزلت فيهم الآية لم يقتلوا الأنبياء، وإنما قتلهم سلفهم، ولكن برضاهم عن أسلافهم وما صنعوا كان حكمهم حكم مَنْ قتل لأنّ الرضا بالمعصية معصيةٌ. روي أن رجلًا حسَّن قتل عثمان عند الشعبي فقال له الشعبي: شركت في دمه فجعل الرضا بالقتلِ قتلًا.

(٣) روى القرطبي عن الكلبي أنّ هذه الآية نزلت ردًا على كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وفنحاص بن عزريا أتوا النبي ﷺ فقالوا له: أتزعم أنّ الله أرسلك إلينا وأنه أنزل علينا كتابًا عهد إلينا فيه أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فإن جئتنا به صدّقناك. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

٢ ـ تقرير جريمة قتل اليهود للأنبياء وهي من أبشع الجرائم.

٣ ـ بيان كذب اليهود في دعواهم أن الله عهد إليهم أن لا يؤمنوا بالرسول ﷺ حتى[١] يأتيهم بقربان تأكله النار.

٤ ـ تعزية الرسول ﷺ وحمله على الصبر والثبات أمام ترهات اليهود وأباطيلهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨٥، ١٨٦]

﴿١٨٥﴾ ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٢]: أي ذائقة موت جسدها أما هي فإنها لا تموت. ﴿تُوَفَّوْنَ﴾: تعطون جزاء أعمالكم خيرًا أو شرًا وافية لا نقص فيها. ﴿زُحْزِحَ﴾: نجي وأبعد. ﴿فَازَ﴾: نجا من مرهوبه وهو النار، وظفر بمرغوبه وهو الجنة. ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٣]: المتاع كل ما يستمتع به، والغرور: الخداع، فشُبهت الدنيا بمتاع خادع غارّ صاحبه، لا يلبث أن يضمحل ويذهب.

﴿١٨٦﴾ ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾: لَتُختبَرُنَّ في أموالكم بأداء الحقوق الواجبة فيها، أو بذهابها وأنفسكم بالتكاليف الشاقة كالجهاد والحج، أو المرض والموت. ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: اليهود والنصارى. ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: العرب. ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: يريد أن الصبر والتقوى من الأمور الواجبة التي هي عزائم وليس فيها رخص ولا ترخيص بحال من الأحوال.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في تعزية الرسول ﷺ وأصحابه، لقد جاء في الآية السابقة تسلية الرسول ﷺ عما آلمه من تكذيب اليهود والمشركين له، وفي هذه الآية أعظم تسلية وعزاء، إذ أخبر تعالى فيها بأن كل نفس مهما علت أو سفلت ذائقة الموت[٤] لا محالة، وإن الدنيا ليست دار جزاء وإنما هي دار كسب وعمل، ولذا قد يجرم فيها

---

(١) وإن صحت دعواهم في التوراة فإن فيها استثناء عيسى ومحمد ﷺ أو هي منسوخة في الإنجيل، ولكن ما ردّ الله تعالى به عليهم لا يتطلب مزيد حجج فإنه قاطع مفحم مسكت ونصّ التوراة تمامه: «حتى يأتيكما المسيح ومحمد فإذا أتياكما فآمنوا بهما من غير قربان».

(٢) قرىء: **﴿ذائقةٌ الموتَ﴾** بالإضافة، و**﴿ذائقةُ الموتِ﴾** بدونها، والأولى قراءة العامة، وهذا مما لا محيص للإنسان عنه، قال أميّة بن الصلت:

مـن لـم يـمـت عـبـطـة يـمـت هـرمًـا ... لـلـمـوت كـأس والـمـرء ذائـقـهـا

ومعنى عبطة: شابًا وللموت علامات من أبرزها عرق الجبين، وفي الحديث: «**المؤمن يموت بعرق الجبين**» فإذا شوهدت لقن الميت لقوله ﷺ: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**».

(٣) يوضح معنى متاع الغرور: قوله ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليمّ فلينظر بمَ ترجع إليه**» والغرور مصدر أضيف إليه المتاع، فالمتاع ما يتمتع به ثم يضمحل وكونه للغرور زاد في التحذير منه فلذا قال فيها قتادة: الدنيا متاع متروك يوشك أن تضمحل بأهلها.

(٤) من أحكام الاحتضار تلقين لا إله إلا الله وقراءة يّس لتخفيف سكرات الموت لقوله ﷺ: «**ما من ميت يقرأ عنده يّس إلاّ هوّن عليه**» وحديث أبي داود: «**اقرؤوا يّس على موتاكم**» ومن أحكام الموت تغميض العينين وغسله وكفنه والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين وتعجيل دفنه والإسراع في المشي به لحديث: «**أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه وإن تك غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم**».

المجرمون ويظلم الظالمون، ولا ينالهم مكروه، وقد يحسن فيها المحسنون ويصلح المصلحون ولا ينالهم محبوب، وفي هذا تسلية عظيمة وأخرى: العلم بأن الحياة الدنيا بكل ما فيها لا تعدو كونها متاع الغرور، أي متاع زائل غار ببهرجه، وجمال منظره، ثم لا يلبث أن يذهب ويزول. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٨٥).

(١٨٦) أما الآية الثانية (١٨٦) ففيها يخبر تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بأنهم لا محالة مختبرون في أموالهم وفي أنفسهم. في أموالهم بالجوائح، وبالواجبات، وفي أنفسهم بالمرض والموت والتكاليف الشاقة كالجهاد والحج والصيام، وأنهم لا بد وأن يسمعوا من أهل الكتاب والمشركين أذىً كبيرًا كما قال فنحاص: الله فقير[١] ونحن أغنياء، أو كما قال النصارى: المسيح ابن الله، وكما قال المشركون: اللات والعزى ومناة آلهة مع الله. ثم حثهم تعالى على الصبر والتقوى فقال: وإن تصبروا وتتقوا فإن صبركم وتقواكم مما أوجب الله تعالى عليكم وليس هو من باب الندب والاستحباب بل هو من باب الفرض والوجوب.

هداية الآيتين:

١ - ليست الدار الدنيا بدار جزاء وإنما هي دار عمل.

٢ - تعريف الفوز الحق وهو الزحزحة عن النار ودخول الجنة.

٣ - بيان حقيقة هذه الحياة وأنها كمتاع خادع لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل.

٤ - الابتلاء ضروري فيجب الصبر والتقوى فإنهما من عزائم الأمور لا من رخصها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨٧ ـ ١٨٩]

(١٨٧) الميثاق: العهد المؤكد باليمين. ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: اليهود والنصارى. الكتمان: إخفاء الشيء وجحوده حتى لا يرى ولا يعلم. ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: ألقوه وطرحوه ولم يلتفتوا إليه وهو ما أخذ عليهم العهد والميثاق فيه من الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به مِنَ الإسلام. ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: اعتاضوا عنه حطام الدنيا ومتاعها الزائل إذ كتموه، إبقاء على منافعهم الدنيوية.

(١٨٨) ﴿أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾: أي يُثنى عليهم ويُذكروا بخير وهم لم يفعلوا ما يوجب لهم ذلك. ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾: بمنجاة من العذاب في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم.

معنى الآيات:

(١٨٧) ما زال السياق في اليهود فيقول تعالى لنبيه ﷺ، واذكر لهم إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى أخذ على علمائهم العهد المؤكد بأن يبينوا للناس نعوت النبي ﷺ في كتابهم، وأن يؤمنوا به ويتابعوه على ما جاء به من الهدى ودين الحق وهو الإسلام، ولكنهم كتموه ونبذوه وراء ظهورهم فلم يلتفتوا إليه واستبدلوا بذلك ثمنًا قليلًا وهو الجاه والمنصب والمال. قال تعالى: ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وذمّ الله تعالى ذلك الثمن القليل فقال: فبئس ما يشترون، هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٨٧).

(١٨٨) وأما الآية الثانية (١٨٨) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟[٢] بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا

---

(١) قال ابن أبيّ لرسول الله ﷺ: ارجع إلى رحلك لا تؤذنا في مجالسنا، وكان كعب بن الأشرف ينظم القصائد يسب فيها المسلمين ويؤلب فيها عليهم الكافرين، بل كان يتشبب بنساء المؤمنين، ولذا أذن الرسول ﷺ في اغتياله فقتله غيلة محمد بن مسلمة وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

(١٨٧) الضمير عائد إلى الكتاب، أي: أقسم عليكم بجلالي وكمالي لَتُظهِرنَّ جميع ما في الكتاب من الأحكام والأخبار ومنها نعوت النبي محمد ﷺ وصفاته.

(٢) روى البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري: أن رجالاً من المنافقين كانوا إذا خرج الرسول ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا وحلفوا وأحبّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت هذه الآية، وروي في سبب نزولها الخبر الآتي: إن مروان بعث بأحد رجاله إلى ابن عباس يسأله قائلًا: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أتى وأحبّ أن يحمد بما لم يفعل معذّبًا لنعذبَنّ أجمعين؟ فقال ابن عباس: مالكم وهذه إنّما نزلت هذه في أهل الكتاب ثم تلا الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

ترتيبها ٤ — سُورَةُ النِّسَاءِ — آياتها ١٧٦

﴿تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾. فإن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: لا تحسبن يا رسولنا الذين يفرحون بما أتوا من الشر والفساد بتحريف كلامنا وتبديل أوامرنا وتغيير شرائعنا وهم مع ذلك يحبون أن يحمدهم الناس أي يشكروهم ويثنوا عليهم، ما لم يفعلوا من الخير والإصلاح إذ عملهم كان العكس وهو الشر والفساد فهؤلاء من اليهود ولا تحسبنهم بمفازة أي بمنجاة من العذاب، ولهم عذاب أليم يوم القيامة.

﴿١٨٩﴾ وأما الآية الثالثة (١٨٩) فقد أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأنه على كل شيء قدير، فدلل بذلك على قدرته على البطش بالقوم والانتقام منهم، وأنه منجز وعيده لهم وهو عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

هداية الآيات:

١ - أخذ الله الميثاق على علماء أهل الكتاب ببيان الحق يتناول علماء[١] الإسلام فإن عليهم أن يبثوا الحق ويجهروا به، ويحرم عليهم كتمانه[٢] أو تأويله إرضاء للناس ليحوزوا على مكسب دنيوي مالاً أو جاهًا أو سلطانًا.

٢ - لا يجوز للمسلم أن يحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والمعروف، بل من الكمال أن لا يرغب المسلم في مدح الناس وثنائهم وهو فاعل لما يستوجب ذلك فكيف بمن لم يفعل ثم يحب أن يحمد. بل بمن يفعل الشر والفساد ويحب أن يحمد عليه بالتصفيق[٣] له وكلمة يحيى فلان. . .

٣ - ملك الله تعالى لكل شيء وقدرته على كل شيء توجب الخوف منه والرغبة إليه وأكثر الناس عن هذا غافلون، وبه جاهلون.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩٠ ـ ١٩٥]

﴿١٩٠﴾ ﴿فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي في وجودهما من العدم.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: تعاقبهما هذا يجيء وذاك يذهب، هذا مظلم وذاك مضيء. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: دلائل واضحة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته. ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أصحاب العقول التي تُدرك بها الأشياء وتفهم بها الأدلة.

﴿١٩١﴾ ﴿رَبَّنَا﴾: يقولون: ربنا إلخ. . .

﴿بَٰطِلًا﴾: لا لشيء مقصود منه، وإنما هو من باب اللعب.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾[٤]: تنزيهًا لك عن العبث واللعب، وعن الشريك

---

(١) قال محمد بن كعب: لا يحل لعالم أن يسكت على علمه ولا لجاهل أن يسكت على جهله قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية. وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقال علي رضي الله عنه: ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلّموا.

(٢) شاهده ما جاء من طرق متعددة عنه ﷺ أنه قال: «**من سُئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار**» وشاهده أيضًا: حديث البخاري: «**من كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**».

(٣) هذه حال الكثير من زعماء أمّة الإسلام في عصور انحطاطها وفساد عقائدها وأخلاقها وانحراف سلوكها نتيجة كيد المجوس لها واليهود والنصارى كذلك.

(٤) روي أنّ النبي ﷺ سُئل عن معنى سبحان الله فقال: «**تنزيه الله عن السوء**».

والولد. ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: أجرنا واحفظنا من عذاب النار بتوفيقك لنا للأعمال الصالحة وتجنيبنا الأعمال الفاسدة الموجبة لعذاب النار.

(١٩٢) ﴿أَخْزَيْتَهُۥ﴾: أذللته وأشقيته.

(١٩٣) ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا﴾: استر وامح. ﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾: جمع برّ أو بار وهم المتمسكون بالشريعة.

(١٩٤) ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾: على ألسنة رسلك من النصر والتأييد. ﴿ٱلْمِيعَادَ﴾: الوعد.

(١٩٥) ﴿هَاجَرُوا۟﴾: تركوا بلادهم وديارهم وأموالهم وأهليهم فرارًا بدينهم. ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾: آذاهم المشركون من أجل الإيمان بي ورسولي ﷺ وطاعتنا. ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: أي أجرًا جزاء كائنًا من عند الله، وهو الجنات بعد تكفير السيئات.

معنى الآيات:

(١٩٠) لما قال اليهود تلك المقالة السيئة: إن الله تعالى فقير ونحن أغنياء؛ وحرّفوا الكتاب وبدّلوا وغيّروا ويحبون أن يُحمدوا على باطلهم كانت مواقفهم هذه دالة على عمى في بصائرهم، وضلال في عقولهم، فذكر تعالى من الآيات الكونيّة ما يدل على غناه، وافتقار عباده إليه، كما يدل على ربوبيته على خلقه، وتدبيره لحياتهم وتصرفه في أمورهم، وأنه ربهم لا رب لهم غيره وإلههم الذي لا إله لهم سواه إلا أن هذا لا يدركه إلا أرباب العقول الحصيفة والبصائر النيرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[(١)] وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ نعم إن في إيجاد السماوات والأرض من العدم وفي اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والظلام والضياء، والتعاقب بذهاب هذا ومجيء ذاك دلائل واضحات على غنى الله وافتقار عباده وبراهين ساطعة على ربوبيته لخلقه وألوهيته لهم. هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٩٠) وأما الآيات الأربع بعدها فقد تضمنت وصفًا لأولي الألباب الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض فيهتدون إلى معرفة الربّ تعالى فيذكرونه ويشكرونه.

(١٩١) فقال تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا[(٢)] وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وهذا شامل لحالهم في الصلاة[(٣)] وخارج الصلاة. وقال عنهم: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ[(٤)] فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي في إيجادهما وتكوينهما وإبداعهما، وعظيم خلقهما، وما أودع فيهما من مخلوقات. فلا يلبثون أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي لا لحكمة مقصودة ولا لهدف مطلوب، بل خلقته بالحق وحاشاك أن تكون من اللاعبين العابثين سبحانك تنزيهًا لك عن العبث واللعب بل خلقت ما خلقت لحكم عالية، خلقته لأجل أن تذكر وتشكر، فتكرم الشاكرين الذاكرين، في دار كرامتك وتهين الكافرين في دار عذابك، ولذا قالوا: في الآية (١٩٢):

(١٩٢) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾. والظالمون هم الكافرون، ولذا يعدمون النصير ويخزون بالعذاب المهين.

(١٩٣) وقال عنهم في الآية (١٩٣) ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾، والمنادي هو القرآن الكريم

---

(١) صح أنّ النبي ﷺ كان إذا قام من الليل قرأ هذه الآيات العشر فلذا استحب لمن قام من ليله ليتهجد أن يقرأها ويتفكر فيها وورد عن عثمان: من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة.

(٢) شاهد هذا قول عائشة في الصحيح: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه» ومن الأدب أن يستثني من هذا العموم حالة التبول وقضاء الحاجة في الكُنُف.

(٣) لحديث عمران بن حصين رضي الله عنهما إذ قال: كان بي البواسير، فسألت رسول الله ﷺعن الصلاة فقال: «**صلِّ قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب**» رواه الأئمة وفي مسلم: «أن النبي ﷺ صلى النافلة قاعدًا وذلك قبل موته بعام».

(٤) الفكرة: تردد القلب في الشيء، والتفكر ممدوح ما كان في خلق السماوات والأرض في أحوال القيامة والمعاد والجزاء والدار الآخرة وورد النهي عن التفكر في ذات الله، إذ قال ﷺ: «**تفكّروا في الخلق ولا تفكّروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره**».

والرسول[1] ﷺ، وتوسّلوا بإيمانهم لربهم طالبين أشرف المطالب وأسماها مغفرة ذنوبهم ووفاتهم مع الأبرار فقالوا: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾[2] وهو ما جاء في الآية (١٩٣).

(١٩٤) وأما الآية الخامسة (١٩٤) فقد سألوا ربهم أن يعطيهم ما وعدهم على ألسنة رسله من النصر والتمكين في الأرض، هذا في الدنيا، وأن لا يخزيهم يوم القيامة بتعذيبهم في النار، فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝﴾، أي وعدك الحق.

(١٩٥) وفي الآية السادسة (١٩٥) ذكر تعالى استجابته لهم فقال لهم: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ بل أجازي الكل بعمله لا أنقصه له ذكرًا كان أو أنثى لأن بعضكم من بعض الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر فلا معنى للتفرقة بينكم، وذكر تعالى بعض أعمالهم الصالحة التي استوجبوا بها هذا الإنعام فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾، وواعدهم قائلاً: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وكان ذلك ثوابًا منه تعالى على أعمالهم الصالحة، والله عنده حسن الثواب، فليرغَب إليه، وليطمع فيه، فإنه البر الرحيم.

هداية الآيات:

١ - وجوب التفكر في خلق السموات والأرض للحصول على المزيد من الإيمان والإيقان.

٢ - استحباب تلاوة هذه الآيات: إن في خلق السموات إلى آخر السورة وذلك عند القيام للتهجد آخر الليل لثبوت ذلك في الصحيح[3] عنه ﷺ.

٣ - استحباب ذكر الله في كل[4] حال من قيام أو قعود أو اضطجاع.

٤ - استحباب التعوذ من النار بل وجوبه ولو مرة في العمر.

٥ - مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالإيمان وصالح الأعمال.

٦ - فضل الهجرة والجهاد في سبيل الله.

٧ - المساواة بين المؤمنين والمؤمنات في العمل والجزاء.

٨ - استحباب الوفاة بين الأبرار وهم أهل الطاعة لله ولرسوله ﷺ والصدق فيها وذلك بالحياة معهم والعيش بينهم لتكون الوفاة بإذن الله معهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩٦ - ٢٠٠]

(١٩٦) ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾: لا يكن منك اغترار، المخاطَب الرسول ﷺ والمراد أصحابه وأتباعه. ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾: تصرفهم فيها بالتجارة والزراعة والأموال والمآكل والمشارب.

(١٩٧) ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾: تصرفهم ذلك هو متاع قليل يتمتعون به أعوامًا وينتهي. ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ﴾: مآلهم بعد التمتع القليل إلى جهنم يأوون إليها فيخلدون فيها أبدًا.

(١٩٨) ﴿نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾: النُّزُل: ما يعد للضيف من قرى: طعام وشراب وفراش. الأبرار: جمع بار وهو المطيع لله ولرسوله ﷺ الصادق في طاعته.

(١٩٩) ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾: القرآن والسنة، وما أنزل إليهم التوراة والإنجيل. ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾: مطيعين مخبتين له عز وجل. ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾: لا يجحدون أحكام الله وما أمر ببيانه للناس مقابل منافع تحصل لهم.

---

(١) أي: محمد ﷺ قاله ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين، وقال قتادة وغيره: هو القرآن، والكلّ صحيح، والرسول ﷺ نادى والقرآن نادى إلى اليوم.

(٢) لِمَ ما قالوا: وتوفنا مع الأبرار؟ إنهم هضمًا لأنفسهم وتواضعًا لربهم وإعلانًا عن رغبتهم في الالتحاق بربهم حبًا في لقائه والحياة إلى جواره في الملكوت الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

(٣) روى الشيخان عن ابن عباس: أنه نام ليلة عند خالته ميمونة، قال: فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر في السماء فقال: «﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾» الآيات، ثم قام فتوضأ واستنّ ثمّ صلى إحدى عشرة ركعة ثم أذّن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح.

(٤) شاهده حديث عائشة الصحيح: «أن النبي ﷺ كان يذكر الله على كل أحيانه».

(٢٠٠) ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾[1]: الصبر: حبس النفس على طاعة الله ورسوله ﷺ، والمصابرة: الثبات والصمود أمام العدو. ﴿وَرَابِطُواْ﴾: المرابطة: لزوم الثغور منعًا للعدو من التسرب إلى ديار المسلمين. ﴿تُفۡلِحُونَ﴾: تفوزون بالظفر المرغوب، والسلامة من المرهوب في الدنيا والآخرة.

معنى الآيات:

(١٩٦) - (١٩٧) ينهى الله تبارك وتعالى دعاة الحق من هذه الأمة في شخصية نبيهم ﷺ أن يَغُرَّهُمْ[2] - أي يخدعهم - ما يتصرف فيه أهل الكفر والشرك والفساد من مكاسب وأرباح وما يتمتعون به من مطاعم ومشارب ومراكب، فيظنوا أنهم على هدىً أو أن الله تعالى راضٍ عنهم غير ساخط عليهم، لا لا، إنما هو متاع في الدنيا قليل، ثم يردون إلى أسوأ مأوى وشر قرار إنه جهنم التي طالما مهدوا لدخولها بالشرك والمعاصي، وبئس المهاد مهدوه لأنفسهم الخلود في جهنم. هذا معنى الآيتين الأولى والثانية وهما قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ[3] ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝﴾.

(١٩٨) أما الآية الثالثة (١٩٨)، وهي قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ[4] لِّلۡأَبۡرَارِ ۝﴾ فإنها قد تضمنت استدراكًا حسنًا وهو لما ذكر في الآية قبلها مآل الكافرين وهو شر مآل جهنم وبئس المهاد، ذكر في هذه الآية مآلُ المؤمنين وهو خير مآل: ﴿جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾، وما عند الله تعالى من النعيم المقيم في دار السلام خير لأهل الإيمان والتقوى من الدنيا وما فيها، فلا يضرهم أن يكونوا فقراء، معسرين، وأهل الكفر أغنياء موسرين.

(١٩٩) أما الآية الرابعة (١٩٩) وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ[5] لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية، فإنها تضمنت الرد الإلهي على بعض المنافقين الذين أنكروا على رسول الله ﷺ والمؤمنين صلاتهم على النجاشي بعد موته، إذ قال بعضهم: انظروا إلى محمد ﷺ وأصحابه يصلُّون على علج مات في غير ديارهم وعلى غير ملتهم، وهم يريدون بهذا الطعن على رسول الله ﷺ والمؤمنين، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: وإن من أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى، لمن يؤمن بالله، وما أنزل إليكم أيها المؤمنون، وما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل خاشعين للّه، أي خاضعين له عابدين، لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا كسائر اليهود والنصارى حيث يحرفون كلام الله ويبدلونه ويخفون منه ما يجب أن يظهروه ويبينوه حفاظًا على منصب أو سمعة أو منفعة مادية، أما هؤلاء وهم عبدالله بن سلام من اليهود وأصحمة النجاشي من النصارى، وكل من أسلم من أهل الكتاب فإنهم المؤمنون حقًا المستحقون للتكريم والإنعام. قال تعالى فيهم: أولئك لهم أجرهم عند ربهم يوفيهم إياه يوم القيامة إن الله سريع الحساب، إذ يتم حساب الخلائق

---

(١) الصبر المأمور به له مواطن ثلاثة: وهي صبر على الطاعات وصبر دون المعاصي وصبر على البلاء فلا جزع ولا تسخط ولكن رضًا وتسليم.

(٢) أي: خبر مما يتقلب فيه الكفار من متاع الدنيا في الدنيا.

(٣) روي في سبب نزول هذه الآية أنّ بعضًا من المسلمين قالوا: هؤلاء الكفار لهم تجائر وأموال واضطراب في البلاد، وقد هلكنا نحن من الجوع فنزلت الآية.

(٤) الغرّ والغرور هو الإطماع في أمر محبوب على نية عدم وقوعه لمن يطمع به ويغرر، وهو أيضًا إظهار الأمر المضرّ في صورة النافع، وهو مشتق من الغرّة وهي الغفلة يقال: رجل غِرّ إذا كان ينخدع لمن يخدعه، وفي الحديث: **«المؤمن غِرّ كريم»**.

(٥) ثبت في الصحيحين أنّ النجاشي لما مات نعاه ﷺ إلى أصحابه، وقال إنّ إخًا لكم بالحبشة قد مات فصلّوا عليه فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه. وروى غير واحد عن أنس بن مالك أنه قال لما توفي النجاشي: قال رسول الله ﷺ: **«استغفروا لأخيكم»**. فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ..﴾ الآية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

٧٧

كلهم في مثل نصف يوم من أيام الدنيا.

﴿٢٠٠﴾ هذا ما تضمنته الآية الرابعة (١٩٩) أما الآية الخامسة والأخيرة (٢٠٠) وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا[1] وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ فإنها تضمنت دعوة كريمة ونصيحة غالية ثمينة للأمة الرحيمة بأن تصبر على الطاعات وعلى الشدائد والملمات فتصابر أعداءها حتى يُسْلِموا أو يُسَلِّموا القياد لها. وترابط بخيولها وآلات حربها في حدودها وثغورها مرهبة عدوها حتى لا يطمع في غزوها ودخول ديارها. ولتتق الله تقوى تكون سببًا في فوزها وفلاحها. بهذه الرحمة الربانية ختمت سورة آل عمران المباركة ذات الحكم والأحكام وتليها سورة النساء.

هداية الآيات:

١ - تنبيه المؤمنين وتحذيرهم من الاغترار بما يكون عليه الكافرون من سعة الرزق وهناءة العيش فإن ذلك لم يكن عن رضى الله تعالى عنهم، وإنما هو متاع في الدنيا حصل لهم بحسب سنّة الله تعالى في الكسب والعمل ينتج لصاحبه بحسب كده وحسن تصرفه.

٢ - ما أعد لأهل الإيمان والتقوى وهم الأبرار من نعيم مقيم في جوار ربهم خير من الدنيا وما فيها.

٣ - شرف مؤمني أهل الكتاب وبشارة القرآن لهم بالجنة وعلى رأسهم عبدالله بن سلام وأصحمة النجاشي.

٤ - وجوب الصبر والمصابرة والتقوى والمرابطة[2] للحصول على الفلاح الذي هو الفوز المرغوب والسلامة من المرهوب في الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

سورة النساء
مدنية[3]
وآياتها ١٧٦ آية

شرح الكلمات: [الآية: ١]

﴿١﴾ ﴿النَّاسُ﴾: البشر، واحد الناس من غير لفظه وهو إنسان. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾: خافوه أن يعذبكم فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه. ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[4]: هي آدم عليه السلام. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: خلق حواء من آدم من ضلعه[5]. ﴿وَبَثَّ﴾: نشر وفرق في الأرض من آدم وزوجه رجالاً ونساءً كثيرًا. ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾: كقول الرجل لأخيه أسألك بالله أن تفعل لي كذا. ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾: الأرحام

---

(١) المصابرة: هي الصبر في وجه العدو الصابر، ومن هنا كانت المصابرة أشد من الصبر لأنها صبر في وجه عدو صابر فأيهما لم يثبت على صبره هلك، وأصبح النجاح لأطولهما صبرًا قال زفر بن الحارث في اعتذاره عن الانهزام:

سقيناهم كأسًا سقونا بمثلها ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

(٢) المرابطة مصدر رابط رباطًا إذا حبس نفسه في ثغر من ثغور المسلمين يحرسها من مداهمة العدو الكافر لها، وفضل الرباط عظيم ووردت فيه أحاديث كثيرة نكتفي منها بما يلي حديث البخاري: **«رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»** وحديث مسلم: **«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه»** وإن مات مرابطًا جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتّان.

(٣) الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فإنها مكية فإنها نزلت يوم الفتح بمكة في شأن عثمان بن طلحة الحجبي.

(٤) لفظ النفس مؤنث قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾ أي: النفس ولذا وصفت هنا بواحدة لا بواحد.

(٥) قال قتادة: خُلقت حواء من قصيراء آدم وفي الحديث: **«خلقت المرأة من ضلع...»**.

جمع رحم، والمراد من اتقاء الأرحام صلتها وعدم قطعها. ﴿رَقِيبًا﴾: الرقيب: الحفيظ العليم.

معنى الآية الكريمة:

ينادي الرب تبارك وتعالى عباده بلفظ عام يشمل مؤمنهم وكافرهم: يا أيها الناس ويأمرهم بتقواه عز وجل وهي اتقاء عذابه في الدنيا والآخرة بالإسلام التام إليه ظاهرًا وباطنًا. واصفًا نفسه تعالى بأنه ربهم الذي خلقهم من نفس واحدة وهي آدم الذي خلقه من طين، وخلق من تلك النفس زوجها[1] وهي حواء، وأنه تعالى بثّ منهما أي نشر منهما في الأرض رجالاً كثيرًا ونساءً كذلك، ثم كرر الأمر بالتقوى إذ هي ملاك الأمر فلا كمال ولا سعادة بدون الالتزام بها قائلاً: واتقوا الله[2] الذي تساءلون به والأرحام[3]، أي اتقوا الله ربكم الذي آمنت به قلوبكم فكنتم إذا أراد أحدكم من أخيه شيئًا قال له: أسألك بالله إلا أعطيتني كذا.. واتقوا الأرحام[4] أن تقطعوها فإن في قطعها فسادًا كبيرًا وخللاً عظيمًا يصيب حياتكم فيفسدها عليكم، وتوعّدهم تعالى إن لم يمتثلوا أمره بتقواه ولم يصلوا أرحامهم بقوله إن الله كان عليكم رقيبًا مراعيًا لأعمالكم محصيًا لها حافظًا يجزيكم بها ألا أيها الناس فاتقوه.

هداية الآية الكريمة:

١ - فضل هذه الآية إذ كان النبي ﷺ إذا خطب في حاجة تلا آية آل عمران ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. وتلا هذه الآية، ثم آية الأحزاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝﴾ ثم يقول أما بعد ويذكر حاجته.

٢ - أهمية الأمر بتقوى الله تعالى إذ كررت في آية واحدة مرتين في أولها وفي آخرها.

٣ - وجوب صلة الأرحام وحرمة قطعها.

٤ - مراعاة الأخوة البشرية بين الناس واعتبارها في المعاملات.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢ - ٤]

(٢) ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾: جمع يتيم ذكرًا كان أو أنثى وهو من مات والده وهو غير بالغ الحلم. ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾: الخبيث الحرام والطيب الحلال والمراد بها هنا الرديء والجيد. ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾: الحوب الإثم الكبير العظيم.

(٣) ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾[5]: أن لا تعدلوا. ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: أي اثنتين أو ثلاث، أو أربع إذ لا تحل الزيادة على الأربع[6]. ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾: أقرب أن لا تجوروا

---

(١) الفصيح هو لفظ زوج ولذا لم يرد في القرآن بالتاء قط، وتساهل فيه الفقهاء لأجل التفرقة بين الرجل والمرأة ولهذا يقولون: للزوج كذا وللزوجة كذا.

(٢) الإتيان باسم الجلالة هنا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بدل اتقوا ربكم من أجل تربية المهابة في نفس السامعين لأنّ المقام مقام تشريع فلا بد من إعداد النفوس لقبوله والنهوض به.

(٣) الأرحام: معطوف على اسم الجلالة منصوب أي: اتقوا الله أن تعصوه والأرحام أن تقطعوها، وقرىء: ﴿الأرحامِ﴾ بالجر عطفًا على الضمير في به وهو قبيح إذ لا يعطف على الضمير المجرور إلاّ إذا أعيد حرف الجرّ إلا ما كان من ضرورة الشعر كقول القائل:

فاليوم قرّبت تهجونا وتشتمنا ... فاذهب فما بك والأيام من عجب

وعظم القبح لأنّ في ذلك حلف بالرحم والحلف بغير الله حرام.

(٤) الأرحام: اسم لكل الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره، وصلة الرحم واجبة إجماعًا وفي الحديث: **«صلي أمك»** أمرٌ لأسماء وأمها كانت يومئذ كافرة وقال ﷺ: **«من ملك ذا رحم محرم فقد عتق عليه»**.

(٥) روى مسلم عن عائشة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ إلى ﴿وَرُبَٰعَ﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا ويبلغوا بهن سنتهن من الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم الحديث.

(٦) استنبط من إباحة أربع أن الزوج عليه أن يبيت مع زوجته ليلة من أربع ولا يجوز التقصير في ذلك إلاّ برضاها.

بترك العدل بين الزوجات.

﴿صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[1]: جمع صدقة وهي الصداق والمهر، ونحلة بمعنى فريضة واجبة. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾: الهنيء: ما يستلذ به عند أكله. ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾: المريء: ما تحسن عاقبته بأن لا يعقب آثارًا سيئة.

معنى الآيات:

(٢) لما أمر تعالى بصلة الأرحام وحرم قطعها في الآية السابقة أمر في هذه الآية أوصياء اليتامى أن يعطوا اليتامى[2] أموالهم إذا هم بلغوا سن الرشد وآنسوا منهم الرشد، فقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾. ونهاهم محرمًا عليهم أن يستبدلوا أموال اليتامى الجيدة بأموالهم الرديئة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ أي الرديء من أموالكم بالطيب من أموالهم، لما في ذلك من أذية اليتيم في ماله، ونهاهم أيضًا أن يأكلوا أموال يتاماهم مخلوطة مع أموالهم لما في ذلك من أكل مال اليتيم بغير حق فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ[3] إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ وعلل ذلك بأنه إثم عظيم فقال عز وجل: إنه ـ أي الأكل ـ كان حوبًا كبيرًا. والحوب الإثم. هذا معنى الآية الأولى (٢) ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ[4] أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا[5] كَبِيرًا﴾

(٣) وأما الآية الثانية (٣) فقد أرشد الله تعالى أولياء اليتيمات إن هم خافوا أن لا يعدلوا معهن إذا تزوج أحدهم وليته أرشدهم إلى أن يتزوجوا ما طاب لهم من النساء غير ولياتهم مثنى، وثلاث ورباع[6]. يريد اثنتين اثنتين أو ثلاث ثلاث أو أربع أربع كل بحسب قدرته، فهذا خير من الزواج بالولية فيهضم حقها وحقها آكد لقرابتها.

هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ يريد تعالى وإن خاف المؤمن ألا يعدل بين زوجاته لضعفه فليكتف بواحدة ولا يزد عليها غيرها أو يتسرّى بمملوكته إن كان له مملوكة فإن هذا أقرب إلى أن لا يجور المؤمن ويظلم نساءه. هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾.

(٤) وفي الآية الثالثة والأخيرة يأمر تعالى المؤمنين بأن يعطوا النساء مهورهن فريضة منه تعالى فرضها على الرجل لامرأته، فلا يحل له ولا لغيره أن يأخذ منها شيئًا إلا برضى الزوجة فإن هي رضيت فلا حرج في الأكل من الصداق لقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

هداية الآيات:

١ - كل مال حرام فهو خبيث وكل حلال فهو طيب.

٢ - لا يحل للرجل أن يستبدل جيدًا من مال يتيمه بمال رديء من ماله كأن يأخذ شاة سمينة ويعطيه هزيلة أو يأخذ تمرًا جيدًا ويعطيه رديئًا خسيسًا.

---

(١) وبنو تميم يقولون: صدقة بضمّ الصاد والجمع صُدقات، والنحلة بكسر النون وضمها أصلها العطاء يقال: نحلَه كذا أعطاه، فالصداق عطية من الله للمرأة، وما دام عطية الله فهي إذًا فريضة واجبة.

(٢) هذا باعتبار ما كانوا عليه أمّا اليوم فليسوا يتامى إذ لا يُتم مع البلوغ.

(٣) قيل: إلى هنا بمعنى مع وهو سائغ إلاّ أنها على بابها أولى والتقدير: ولا تأكلوا أموالهم مضافة إلى أموالكم.

(٤) أي: أعطوا يقال: آتاه كذا أعطاه إياه والإيتاء مصدر الإعطاء، ويقال لفلان: أتو، أي: عطاء، ويقال: أتوت الرجل آتوه إتاوة وهي الرشوة، ولإيتاء اليتامى أموالهم صورتان الأولى: غذاؤهم وكساؤهم ما داموا تحت الولاية، والثانية: دفع أموالهم إليهم وذلك عند البلوغ والرشد.

(٥) الحوب: الإثم وفيه لغات: الحُوب بضم الحاء، والحوب بفتحها، والحيابة والحاب أيضًا وهو مصدر كالقال من قال قولاً وقالاً، ويكون الحُوب بالضم بمعنى الوحشة ومنه قوله ﷺ لأبي أيوب: «إنّ طلاق أم أيوب لحوب» والحوبة الإثم ومنه: اللهم اغفر حوبتي والحوبة الحاجة ومنه: إليك أرفع حوبتي، أي: حاجتي هذا في الدعاء.

(٦) الإجماع على أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أن ينكح الرجل اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا على التخيير وليس معناه: الجمع بين تسع نساء ومَنْ فعل وهو عالم يُحدّ بالرجم، وإن كان جاهلاً يحد بالجلد.

٣ -لا يحل خلط مال اليتيم مع مال الوصي ويؤكلان جميعًا لما في ذلك من أكل مال اليتيم ظلمًا.

٤ -جواز نكاح أكثر من واحدة إلى أربع مع الأمن من الحيف والجور.

٥ -وجوب مهور النساء وحرمة الأكل منها بغير طيب نفس صاحبة المهر وسواء في ذلك الزوج وهو المقصود في الآية أو الأب والأقارب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥، ٦]

(٥) لا تؤتوا[1]: لا تعطوا.

﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾: جمع سفيه وهو من لا يحسن التصرف في المال.

﴿قِيَٰمًا﴾[2]: القيام: ما يقوم به الشيء فالأموال جعلها الله تعالى قيامًا أي تقوم عليها معايش الناس ومصالحهم الدنيوية والدينية أيضًا. ﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾: أي قولاً تطيب[3] به نفسه فلا يغضب ولا يحزن.

(٦) ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: أي اختبروهم كي تعرفوا هل أصبحوا يحسنون التصرف في المال. ﴿بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾: أي سن الزواج وهي البلوغ. ﴿ءَانَسۡتُم﴾: أبصرتم الرشد في تصرفاتهم[4]. ﴿إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا﴾: الإسراف الإنفاق في غير الحاجة الضرورية، والبدار: المبادرة والمسارعة إلى الأكل منه قبل أن ينقل إلى اليتيم بعد رشده. ﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾: أي يعف بمعنى يكف عن الأكل من مال يتيمه. ﴿فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: أي بقدر الحاجة الضرورية. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾: شاهدًا لقرينه فأشهدوا عليهم.

معنى الآيتين:

(٥) ما زال السياق الكريم في إرشاد الله تعالى عباده المؤمنين إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا، ونجاتهم وفلاحهم في الآخرة فقال تعالى في الآية الأولى (٥) ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ[5] فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥﴾، فنهاهم تعالى أن يعطوا أموالهم التي هي قوام معاشهم السفهاء من امرأة وولد أو رجل قام به وصف السفه وهو قلة البصيرة بالأمور المالية، والجهل بطرق التصرف الناجحة مخافة أن ينفقوها في غير وجوهها أو يفسدوها بأي نوع من الإفساد، كالإسراف ونحوه، وأمرهم أن يرزقوهم فيها ويكسوهم، وقال فيها ولم يقل منها إشارة إلى أن المال ينبغي أن ينمى في تجارة أو صناعة أو زراعة فيبقى رأس المال والأكل يكون من الربح فقط كما أمرهم أن يقولوا لسفهائهم الذين منعوهم المال أن يقولوا لهم قولاً معروفًا كالعدة الحسنة والكلمة الطيبة، هذا ما تضمنته الآية الأولى.

(٦) أما الثانية (٦) فقد أمرهم تعالى باختبار[6] اليتامى إذا بلغوا سن الرشد أو ناهزوا البلوغ[7] بأن يعطوهم شيئًا من المال ويطلبوا منهم أن يبيعوا أو يشتروا فإذا وجدوا منهم حسن تصرف دفعوا إليهم أموالهم وأشهدوا عليهم، حتى لا يقول أحدهم في يوم من الأيام ما أعطيتني مالي، وكفى بالله حسيبًا، أي شاهدًا ورقيبًا حفيظًا. ونهاهم عز وجل أن يأكلوا أموال اليتامى إسرافًا وبدارًا أن يكبروا ويريد لا تأكلوا أموال يتاماكم أيها

---

(١) في الآية دليل على مشروعية الحجر في السفيه، وسواء كان السفه لصغر أو لخفة عقل أو عدم رشد.

(٢) قيامًا: أصلها قوامًا فكسر ما قبل الواو فقلبت ألفًا قيامًا وقوامًا بمعنى واحد، والقيام والقوام ما يقيم غيره، فالأموال بها يتقوم المعاش، ولذا قيل: الأموال قوام الأعمال.

(٣) كقوله لولد: مالي إليك صائر، وكأن يدعو لهم: (بارك الله فيكم) أو يقول: هذا مالكم أحفظه لكم لتأخذوه يوم ترشدون.

(٤) دفع مال اليتيم إليه يتمّ بشرطين: الرشد والبلوغ فإن وجد أحدهما دون الآخر فلا يتم تسليم المال.

(٥) في هذه الآية دليل على مشروعية الوصاية والولاية والكفالة على الأيتام وبها دليل على وجوب النفقة على الزوجة والأولاد، وفي الصحيح: «**أفضل الصدقة ما ترك غنىً، واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول**» وهم الزوجة والولد والعبد.

(٦) هذه الآية نزلت في ثابت بن رفاعة وفي عمه، وذلك أنّ رفاعة توفي وترك ابنه وهو صغير فأتى عم ثابت إلى النبي ﷺ فقال: إنّ ابن أخي في حجري فما يحل لي من ماله ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(٧) يعرف البلوغ بالاحتلام وإنبات شعر العانة أو بلوغ ثماني عشرة سنة. هذا للغلام، أما الجارية فتزيد بعلامة أخرى هي الحيض والحمل.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

الولاة والأوصياء[١] بطريق الإسراف وهو الإنفاق الزائد على قدر الحاجة، والمبادرة هي المسارعة قبل أن يرشد السفيه وينقل إليه المال. ثم أرشدهم إلى أقوم الطرق وأسدها في ذلك فقال: ومن كان منكم غنيًا فليكفّ عن مال اليتيم ولا يأكل منه شيئًا، ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف وذلك بأن يستقرض منه ثم يرده إليه بعد الميسرة، إن كان الولي فقيرًا جاز له أن يعمل بأجر كسائر العمال، وإن كان غنيًا فليعمل مجانًا احتسابًا وأجره على الله والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

هداية الآيتين:

١ - مشروعية الحجر على السفيه لمصلحته.

﴿٥﴾ ٢ - استحباب تنمية الأموال في الأوجه الحلال لقرينة ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾.

٣ - وجوب اختبار السفيه قبل دفع ماله إليه، إذ لا يدفع إليه المال إلا بعد وجود الرشد.

٤ - وجوب الإشهاد على دفع المال إلى اليتيم بعد بلوغه ورشده.

٥ - حرمة أكل مال اليتيم والسفيه مطلقًا.

٦ - الوالي على اليتيم إن كان غنيًا فلا يأكل من مال اليتيم شيئًا، وإن كان فقيرًا استقرض ورد عند الوجد واليسار، وإن كان مال اليتيم يحتاج إلى أجير للعمل فيه جاز للولي أن يعمل بأجرة المثل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ - ١٠]

﴿٧﴾ ﴿نَصِيبٌ﴾: الحظ المقدر[٢] في كتاب الله. ﴿الْوَالِدَانِ﴾: الأب والأم. الأقربون: جمع قريب وهو هنا الوارث بنسب أو مصاهرة أو ولاء. ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾: قدرًا واجبًا لازمًا.

﴿٨﴾ ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾: أصحاب القرابات الذين لا يرثون لبعدهم عن عمودي النسب. ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾: أعطوهم شيئًا يرزقونه. ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: لا إهانة فيه ولا عتاب، ولا تأفيف. الخشية: الخوف في موضع الأمن.

﴿٩﴾ ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾: عدلاً[٣] صائبًا.

﴿١٠﴾ ﴿ظُلْمًا﴾: بغير حق يخول لهم أكل مال اليتيم. ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾: سيدخلون سعيرًا نارًا مستعرة يشوون فيها ويحرقون بها.

معنى الآيات:

﴿٧﴾ لقد كان أهل الجاهلية لا يُورثون النساء ولا الأطفال بحجة أن الطفل كالمرأة لا تركب فرسًا ولا تحمل كلاً ولا تنكي عدوًا، يكسِب[٤] ولا تكسب، وحدث أن امرأة يقال لها أم كُجّة مات زوجها وترك لها بنتين فمنعهما أخو الهالك من الإرث

---

(١) العاجز عن الوصاية لجهل أو عدم قدرته أو ضعف إرادته ينبغي له أن لا يلي مال يتيم أو قاصر لقول الرسول ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرَنّ على اثنين ولا تلينَّ مال يتيم» رواه مسلم.

(٢) هذا النصيب الذي أوجبه الله للورثة مجمل وسيأتي تفصيله في آية: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية.

(٣) القول السديد: هو كقول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص، وقد مرض مرضًا شديدًا فعاده رسول الله ﷺ فيه فقال سعد يا رسول الله: إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة أفأتصدّق بثلثي مالي؟ قال: «لا». قال: فشطره؟ قال: «لا». قال: فالثلث؟ قال: «الثلث والثلث كثير» ثم قال رسول الله ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس».

(٤) يكسب أي: الرجل ولا تكسب أي: المرأة.

فشكت أم كحة إلى[1] رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ ومن ثم أصبحت المرأة كالطفل الصغير يرثان كالرجال، وقوله تعالى: مما قل منه، أي من المال المتروك أوكثر حال كون ذلك نصيبًا مفروضًا لا بد من إعطائه الوارث ذكرًا كان أو أنثى صغيرًا أو كبيرًا. والمراد من الوالدين الأب والأم، والأقربون[2] كالأبناء والإخوان والبنات والأخوات، والزوج والزوجات، هذا ما تضمنته[3] الآية الأولى (٧).

⑧ وأما الآية الثانية (٨) فقد تضمنت فضيلة جميلة غفل عنها المؤمنون وهي أن من البر والصلة والمعروف إذا هلك هالك، وقدمت تركته للقسمة بين الورثة، وحضر قريب غير وارث لحجبه أو بعده أو حضر يتيم أو مسكين من المعروف أن يعطوا شيئًا من تلك التركة قبل قسمتها وإن تعذر العطاء لأن الورثة يتامى أو غير عقلاء يصرف أولئك الراغبون من قريب ويتيم ومسكين بكلمةٍ طيبة كاعتذار جميل تطيب به نفوسهم، هذا ما تضمنته الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ[4] ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي من المال المتروك وقولوا لهم قولاً معروفًا إن تعذر إعطاؤهم لمانع يتم أو عقل.

⑨ أما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ فقد تضمنت إرشاد الله تعالى للمؤمن الذي يحضر مريضًا على فراش الموت بأن لا يسمح له أن يحيف في الوصية بأن يوصي لوارث أو يوصي بأكثر من الثلث أو يذكر دينًا ليس عليه وإنما يريد حرمان الورثة. فقال تعالى آمرًا عباده المؤمنين: وليخشَ الذين لو تركوا من خلفهم، أيْ من بعد موتهم، ذرية ضعافًا خافوا عليهم. أي فليخشوا هذه الحال على أولاد غيرهم ممن حضروا وفاته. كما يخشونها على أولادهم. إذًا فعليهم أن يتقوا الله في أولاد غيرهم. وليقولوا لمن حضروا وفاته ووصيته قولاً سديدًا: صائبًا لا حيف فيه ولا جور معه. هذا ما تضمنته الآية الثالثة (٩).

⑩ أما الآية الرابعة (١٠) فقد تضمنت وعيدًا شديدًا لمن يأكل مال اليتيم ظلمًا إذ قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ[5] ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[6]﴾. والمراد من الظلم

---

(١) فقال ﷺ: «**انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن**» فأنزل الله تعالى هذه الآية ردًا عليهم وإبطالاً لقولهم وتصرّفهم الجاهلي، إذ المفروض أن الصغير والمرأة أولى بالإرث لحاجتهما وخوفهما.

(٢) لفظ الأقربون مجمل ومن هنا أرسل النبي ﷺ إلى سويد وعرفجة «**ألاّ يفرقا من مال أوس شيئًا فإن الله جعل لبناته نصيبًا ولم يبين كم هو حتى أنظر ما ينزل ربّنا**» فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية فأرسل إليهما: «**أن أعطيا أم محة الثُمن مما ترك أوس ولبناته الثلثين ولكما بقية المال**».

(٣) قوله تعالى: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ اختلف أهل العلم في الشيء يتركه المورث وهو لا يقبل القسمة كالدّار الصغيرة، والجوهرة الواحدة، وما إلى ذلك. فذهب بعض إلى أنه لا بد من القسمة، وذهب آخرون ـ وهو الحق إن شاء الله تعالى ـ أنّ ما لا يقبل القسمة لفساده يباع ويقسم ثمنه على الورثة ولا شفعة فيه لأنه لا تتأتىٰ فيه الحدود والشفعة فيما يقسم وتوقع فيه الحدود، وهذا ليس كذلك لتعذّر قسمته، ويشهد لهذا الرأي حديث الدارقطني ونصه: لا تعضية (أي: لا تفرقة) على أهل الميراث إلاّ ما حمل القسم فقرر ﷺ أن ما لا يقبل القسمة لا يجوز تعضيته أي: تفريقه على الورثة لأنه يفسد بالقسمة فتعيّن أن يباع ويقسم ثمنه.

(٤) الجمهور على أن هذه الآية منسوخة بآية ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآية، وقال ابن عباس: «إنها محكمة»، وعلى أنها غير منسوخة شرحناها في التفسير فليتأمّل.

(٥) الآية دليل على أن أكل مال اليتيم بدون حق من كبائر الذنوب بل هو من الموبقات السبع لحديث الصحيح: «**اجتنبوا السبع الموبقات**..» وذكر الشرك وعقوق الوالدين والربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

(٦) قرأ أبو حيوة: ﴿**وسيُصلّون**﴾ بضم الياء وتشديد اللام من التصلية التي هي كثرة الفعل مرّة بعد أخرى ومنه: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: مرة بعد مرة وعليه قول الشاعر:

وقد تصليت حرّ حربهم ... كما تصلى المقرور من قرتين

أنهم أكلوها بغير حق أباح لهم ذلك كأجرة عمل ونحوه، ومعنى يأكلون في بطونهم نارًا أنهم يأكلون النار يوم القيامة فقوله: إنما يأكلون في بطونهم نارًا، هو باعتبار ما يؤول إليه أمر أكلهم اليوم، والعياذ بالله من نار السعير.

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ التوارث في الإسلام.

٢ - استحباب إعطاء من حضر قسمة التركة من قريب أو يتيم ومسكين وإن تعذر إعطاؤهم صُرفوا بالكلمة الطيبة، وفي الحديث «**الكلمة الطيبة صدقة**».

٣ - وجوب النصح والإرشاد للمحتضرحتى لا يجور في وصيته عند موته.

٤ - على من يخاف على أطفاله بعد موته أن يحسن إلى أطفال غيره فإن الله تعالى يكفيه فيهم.

٥ - حرمة أكل مال اليتامى ظلمًا، والوعيد الشديد فيه.

شرح الكلمات: [الآية: ١١]

(١١) ﴿يُوصِيكُمُ﴾: يعهد إليكم. ﴿فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾: في شأن أولادكم والولد يطلق على الذكر والأنثى. ﴿حَظِّ﴾: الحظ الحصة أو النصيب. ﴿نِسَآءً﴾: بنات كبيرات أو صغيرات. ﴿ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾: الثلث واحد من ثلاثة، والثلثان اثنان من ثلاثة. ﴿ٱلسُّدُسُ﴾: واحد من ستة. ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾: ذكرًا كان أو أنثى، أو كان له وَلَدُ وَلَدٍ أيضًا ذكرًا أو أنثى فالحكم واحد. ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾: اثنان فأكثر. ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾: أي يُخرَجُ الدين[1] ثم الوصية ويقسم الباقي على الورثة. ﴿لَا تَدْرُونَ﴾: لا تعلمون. ﴿فَرِيضَةً﴾[2]: فرض الله ذلك عليكم فريضة. ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: عليمًا بخلقه وما يصلح لهم، حكيمًا في تصرفه في شؤون خلقه وتدبيره لهم.

معنى الآية الكريمة:

(١١) هذه الآية الكريمة (١١) ﴿يُوصِيكُمُ[3] ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ[4] لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ إلخ والتي بعدها (١٢) وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ إلخ نزلت لتفصيل حكم الآية (٧) والتي تضمنت شرعية التوارث بين الأقارب المسلمين، فالآية الأولى (١١) يسن تعالى فيها توارث الأبناء مع الآباء فقال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ أي في شأن أولادكم ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يريد إذا مات الرجل وترك أولادًا ذكورًا وإناثًا فإن التركة تقسم على أساس أن للذكر مثلَ نصيب الأنثيين فلو ترك ولدًا وبنتًا وثلاثة دنانير فإن الولد يأخذ دينارين والبنت تأخذ دينارًا، وإن ترك بنات اثنين أو أكثر ولم يترك معهن ذكرًا فإن للبنتين فأكثر الثلثين والباقي للعصبة، إذ قال تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾. وإن ترك بنتًا واحدة فإن لها النصف والباقي للعصبة وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾، وإن كان الميت قد ترك أبويه أي أمه وأباه وترك أولادًا ذكورًا أو إناثًا فإن لكل واحد من أبويه السدس والباقي للأولاد، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، يريد ذكرًا كان أو أنثى[5].

= يريد أنه اكتوى بنار حربهم مرّة بعد مرّة كما يفعل من به البرد الشديد فإنه يستدفىء مرّة بعد مرّة.

(١) يرى الإمام الشافعي أن من مات وعليه زكاة أو حج الفرض أن يُخرَج ذلك من ماله قبل قسمة التركة وقال مالك: إن أوصى به تنفذ وصيته، وإن لم يوص فالمال للورثة وهو أمره إلى الله تعالى.

(٢) الفرائض: ست وهي النصف، والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس.

(٣) هذه الآية مبينة لما أجمل في آية: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ..﴾ وتسمى آية المورايث وهي من أعظم الآيات قدرًا لأن علم الفرائض يعتبر ثلث العلم لقوله ﷺ في رواية أبي داود وغيره: «**العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة**». ومعنى محكمة: غير منسوخة، ومعنى قائمة: ثابتة صحيحة، ومعنى عادلة: لم يخرج بها عن مراد الله تعالى منها، وذلك بإعطاء الوارث ما كتب الله له.

(٤) خرج من لفظ الأولاد: الكافر لأنه لا حق له في الإرث لأنّ الكفر مانع وذلك لقوله ﷺ: «**لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم**» كما خرج ميراث النبي ﷺ يقول: «**إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة**».

(٥) إن كان الولد خنثى فإنه يُورَّث من حيث يبول، إن بال من حيث يبول الرجال يُورَّث إرث الذكر وإن بال من حيث تبول النساء=

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)﴾

٧٩

فإن لم يكن للهالك وَلدٌ ولا وَلَدُ وَلَدٍ فلأمه الثلث[1] وإن كان له إخوة اثنان فأكثر فلأمه السدس[2]، هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾. أي تسقط من الثلث[3] إلى السدس وهذا يسمى بالحجب فحجبها إخوة ابنها الميت من الثلث إلى السدس. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ يريد أن قسمة التركة على النحو الذي بيّن تعالى يكون بعد قضاء دين الميت وإخراج ما أوصى به إن كان الثلث فأقل وهو معنى قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ معناه: نفذوا هذه الوصية المفروضة كما علّمكم الله ولا تحاولوا أن تفضلوا أحدًا على أحد فإن هؤلاء الوارثين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا في الدنيا والآخرة، ولذا فاقسموا التركة كما علّمكم بلا محاباة فإن الله تعالى هو القاسم والمعطي عليم بخلقه وبما ينفعهم أو يضرهم حكيم في تدبيره لشؤونهم فليفوض الأمر إليه، وليرضَ بقسمته فإنها قسمة عليم حكيم.

هداية الآية الكريمة:

١ - إن الله تعالى تولى قسمة التركات بنفسه فلا يحل لأحد أن يغير منها شيئًا.

٢ - الاثنان يعتبران جمعًا.

٣ - ولد الولد[4] حكمه حكم الولد نفسه في الحجب.

٤ - الأب عاصب فقد يأخذ فرضه مع أصحاب الفرائض وما بقي يرثه بالتعصيب لقوله ﷺ: **«ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فالأولى رجل ذكر»**.

شرح الكلمات: [الآية: ١٢]

(١٢) ﴿أَزْوَٰجُكُمْ﴾: الأزواج هنا الزوجات. ﴿وَلَدٌ﴾: المراد هنا بالولد ابن الصلب ذكرًا كان أو أنثى وولد الولد مثله. ﴿ٱلرُّبُعُ﴾: واحد من أربعة. ﴿كَلَٰلَةً﴾[5]: الكلالة أن يهلك هالك ولا يترك ولدًا ولا والدًا ويرثه إخوته لأمه. ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾[6]: أي من الأم. ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾: بهما أي الوصية والدين أحدًا من الورثة. ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يعاجل بالعقوبة على المعصية.

معنى الآية الكريمة:

(١٢) كانت الآية قبل هذه في بيان

= يورّث إرث النساء، وإن أشكل ذلك يعطى نصف ميراث ذكر ونصف ميراث أنثى على هذا الجمهور.

(١) هناك ما يُعرف بالثلث الباقي وهو أن تهلك هالكة وتترك زوجها وأبويها. فللزوج النصف والباقي ثلثه للأم والثلثان للأب، قرر هذا ابن عباس وزيد بن ثابت، وقرره كافة الأصحاب وعليه الأئمة، وحتى لا تأخذ المرأة أكثر من الرجل.

(٢) قيل في سرّ حجب الإخوة لأمهم من الثلث إلى السدس: أنّ والدهم هو الذي يلي نكاحهم وهو الذي ينفق عليهم دون أمهم وهو رأي حسن.

(٣) الجدّة ترث السدس ولا ترث كما ترثه الأمّ إجماعًا.

(٤) لفظ الولد يشمل المولود فعلًا والجنين في بطن أمه دنيًا أو بعيدًا، من الذكور أو الإناث على حدٍّ سواء.

(٥) من يكلّله النسب إذا أحاط به وبه سمي الإكليل لإحاطته بالرأس وسمي القرابة كلالة لإحاطتهم بالميت من جوانبه وليسوا منه ولا هو منهم.

(٦) أخ: أصله أخو بدليل تثنيته على أخوين نصبًا وجرًا وأخوان رفعًا.

الوراثة بالنسب وجاءت هذه في بيان الوراثة بالمصاهرة والوارثون بالمصاهرة الزوج والزوجات. قال تعالى: ولكم نصف ما ترك أزواجكم فمن ماتت وتركت مالاً ولم تترك وَلَدًا ولا وَلَدَ ولدٍ ذكرًا كان أو أنثى فإن لزوجها من تركتها النصف، وإن تركت ولدًا أو ولد ولد ذكرًا كان أو أنثى فإن لزوجها من تركتها الربع لا غير لقول الله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ وهذا من بعد سداد الدين إن كان على الهالكة دين، وبعد إخراج الوصية إن أوصت الهالكة بشيء، لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾. هذا ميراث الزوج، أما ميراث الزوجة من زوجها فهو الربع إن لم يترك الزوج ولدًا ولا ولد ولد ذكرًا كان أو أنثى فإن ترك ولدًا أو ولد ولد فللزوجة الثمن، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ هذا وإن كان للزوج الهالك زوجتان أو أكثر فإنهن يشتركن في الربع بالتساوي إن لم يكن للهالك ولد، وإن كان له ولد فلهن الثمن يشتركن فيه بالتساوي، وقوله تعالى: وإن كان رجلٌ يورث كلالة أو امرأة، أي تورث كلالة أيضًا، والموروث كلالة وهو من ليس له والد ولا ولد، وإنما يرثه إخوته لأمه كما في هذه الآية أو إخوته لأبيه وأمه كما في آية الكلالة في آخر هذه السورة، فإن كان له أخ من أمه فله السدس وكذا إن كانت له أخت فلها السدس، وإن كانوا اثنين فأكثر فلهم الثلث[1] لقوله تعالى: وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة، وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد[2] وصيّة يُوصي بها أو دين غير مضار[3]، بأن يوصي بأكثر من الثلث، أو يقر بدين وليس عليه دين وإنما حسدًا للورثة أو بغضًا لهم لا غير، فإن تبين ذلك فلا تنفذ الوصية ولا يسدد الدين وتقسم التركة كلها على الورثة، وقوله تعالى: وصيّة من الله، أي وصاكم أيها المؤمنون بهذا وصيّة فهي جديرة بالاحترام والامتثال. والله عليم بنياتكم وأحوالكم وما يضركم وما ينفعكم فسلموا له قسمته وأطيعوه فيها وهو حليم لا يعاجل بالعقوبة فلا يغركم حلمه إن بطشه شديد وعذابه أليم.

هداية الآية الكريمة:

١ - بيان ميراث الزوج من زوجته، والزوجة والزوجات من زوجهن.

٢ - بيان ميراث الكلالة وهو من لا يترك والدًا ولا ولدًا فيرثه إخوته فقط[4] يحوطون به إحاطة الإكليل بالرأس فلذا سُمِّيت الكلالة.

٣ - إهمال الوصيّة أو الدين إن علم أن الغرض منها الإضرار بالورثة فقط.

٤ - عظم شأن المواريث فيجب معرفة ذلك وتنفيذه كما وصّى الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣، ١٤]

(١٣) ﴿تِلْكَ حُدُودُ[5] ٱللَّهِ﴾: تلك اسم إشارة أشير به إلى سائر ما تقدم من أحكام النكاح وكفالة اليتامى

---

(١) وهنا ما يعرف بالحجرية أو الحمارية أو المشتركة وهي أن تموت امرأة وتترك زوجها وأمها وإخوة لأمها وأخًا لأبيها وأمها، فللزوج النصف وللأم السدس والباقي للإخوة لأم، ولا شيء للأخ لأب أو لهما معًا. وسميت بالحمارية، لأنهم لمّا منعوا قالوا للقاضي بينهم: هب أبانا حمارًا أليست أمنا واحدة، وقالوا: هب أبانا حجرًا أليست أمنا واحدة وطالبوا بتشريكهم في الإرث فسميت المشتركة.

(٢) ذكرت الوصية قبل الدّين والإجماع على تقديم الدَّين على الوصية لحكم رسول الله ﷺ بذلك وقيل في السرّ في ذلك: أن تقديم الوصية في اللفظ كان بسبب أنه لا يوجد من يطالب بها فقد تُنسى، وأمّا الدَّين فأهله يطالبون به فلا ينسى ولا يترك.

(٣) مضارّ: اسم فاعل أي: مضارر فأدغمت الراء فصارت مضارّ. أي: حال كون الموصي غير مريد الإضرار بالورثة.

(٤) أي: لأمّه ولهذا خالف إخوة الأم الورثة في ثلاث مسائل: الأولى: أنهم يرثون مع من يدلون به وهو أمهم والثانية: إن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء والثالثة: أنهم لا يرثون إلاّ إذا كان ميتهم يورث كلالة.

(٥) الحدود جمع حد وهو ظرف مكان يميز عن مكان آخر يمنع تجاوزه هذا هو الحد لغة وشرعًا: ما منع الله تجاوزه مما أحل إلى ما حرّم، فأحكام الشرع هي حدوده.

وتحريم أكل مال اليتيم، وقسمة التركات. وحدود الله هي ما حدّه لنا وبيّنه من طاعته وحرم علينا الخروج عنه والتعدي له. ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾: هو النجاة من النار ودخول الجنة.

(١٤) العذاب المهين: ما كان فيه إهانة للمعذب بالتقريع والتوبيخ ونحو ذلك.

معنى الآيتين:

لما بيّن تعالى ما شاء من أحكام الشرع وحدود الدين أشار إلى ذلك بقوله: تلك[1] حدود الله قد بينتها لكم وأمرتكم بالتزامها، ومن يطع الله ورسوله ﷺ فيها وفي غيرها من الشرائع والأحكام فجزاؤه أنه يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، أنهار العسل واللبن والخمر والماء، وهذا هو الفوز العظيم حيث نجاه من النار وأدخله الجنة يخلد فيها أبدًا. ومن يعص الله تعالى ورسوله ﷺ بتعد تلك الحدود وغيرها من الشرائع والأحكام ومات على ذلك فجزاؤه أن يُدخله نارًا يخلد فيها[2] وله عذاب مهين. والعياذ بالله من عذابه وشر عقابه.

هداية الآيتين:

١ - بيان حرمة تعدي حدود الله تعالى.

٢ - بيان ثواب طاعة الله ورسوله ﷺ وهو الخلود في الجنة.

٣ - بيان جزاء معصية الله ورسوله ﷺ وهو الخلود[3] في النار والعذاب المهين فيها.

الجزء الرابع — سورة النساء

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

٨٠

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ ـ ١٨]

(١٥) ﴿وَٱلَّٰتِي﴾[4]: جمع التي، اسم موصول للمؤنث المفرد، واللاتي للجمع المؤنث. ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾[5]: المراد بها هنا الزنى. ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾: المحصنات[6]. ﴿سَبِيلٗا﴾: طريقًا للخروج من سجن البيوت.

(١٦) ﴿يَأۡتِيَٰنِهَا﴾: الضمير عائد إلى الفاحشة المتقدم ذكرها. ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾: اتركوا أذيتهما بعد أن ظهرت توبتهما. التوبة: أصل التوبة الرجوع وحقيقتها الندم على فعل القبيح مع تركه، والعزم على عدم العودة إليه. السوء: كل ما أساء إلى النفس والمراد به هنا السيئات.

(١٧) ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾: لا مع العمد والإصرار وعدم المبالاة.

(١٨) ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: أعددنا وهيأنا. ﴿أَلِيمٗا﴾: موجعًا شديد الإيجاع.

معنى الآيات:

(١٥) لما ذكر تعالى بحدوده وذكر

---

(١) يرى بعضهم أنّ الإِشارة لأقرب مذكور وهو قسمة المواريث، وما فسرنا به أولى لأنّه أعم يشمل كل ما تقدّم من أحكام الشريعة.

(٢) إن أريد بالعصيان هنا: فالخلود على بابه، وإن أريد به الكبائر فالخلود مستعار لمدّة ما كقولنا: خلد الله ملكك، وكقول زهير: ولا أرى خالدًا إلاّ الجبال الرّواسيا.

(٣) هذا الخلود لمن كانت معصيته مكفرة له أمّا من لم يكفر بمعصيته فإنه لا يخلد في النار بل يخرج منها بإيمانه كما بيّنت ذلك السنة الصحيحة.

(٤) ومثل اللاتي: اللائي وجمع اللاتي: اللواتي وجمع اللائي اللوائي.

(٥) سمي الزنا فاحشة: لأنه تجاوز الحد في الفساد، إذ به يفسد الخلق والعِرض والنسب والدين والمجتمع وكفى بهذا فسادًا عظيمًا.

(٦) النساء: اسم جمع واحده من غير لفظه «امرأة» والمحصنات جمع محصنة وهي التي تزوجت زواجًا شرعيًا، وسواء بقيت عليه أو تأيمت بموت أو طلاق.

جزاء متعديها، ذكر هنا معصية من معاصيه وهي فاحشة الزنى، ووضع لها حدًا وهي الحبس في البيوت حتى الموت أو إلى أن ينزل حكمًا آخر يخرجهن من الحبس وهذا بالنسبة إلى المحصنات. فقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾[1] أي من المسلمين يشهدون بأن فلانة زنت بفلان فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن[2] الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً. أما غير المحصنات وهن الأبكار فقد قال تعالى في شأنهن: واللذان يأتيانها منكم فآذوهما، أي بالضرب الخفيف والتقريع والعتاب، مع الحبس للنساء أما الرجال فلا يحبسون وإنما يُكتفى بأذاهم إلى أن يتوبوا ويصلحوا فحينئذ يعفى عنهم ويكف عن أذيتهم.

(١٦) هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ[3] يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

ولم يمض على هذين الحدين إلا القليل من الزمن حتى أنجز الرحمٰن ما وعد وجعل لهن سبيلاً فقد صحّ أنه ﷺ كان جالسًا بين أصحابه حتى أنزل الله تعالى عليه الحكم النهائي في جريمة الزنى فقال ﷺ: «**خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة، والبكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام**» والمراد من الثيب بالثيب أي إذا زنى ثيب بثيب وكذا البكر بالبكر. وبهذا أوقف الحد الأول في النساء والرجال معًا ومضى الثاني أما جلد البكرين فقد نزل فيه آية النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾، وأما رجم المحصنين فقد مضت فيه السنة فقد رجم ماعز، والغامدية بأمر رسول الله ﷺ وهو حد قائم إلى يوم القيامة. هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (١٥) والثانية (١٦) وأما الآيتان بعدهما وهما (١٧) (١٨) فقد أخبر تعالى أن الذين يستحقون التوبة وثبتت لهم من الله تعالى هم المذنبون الذين يرتكبون المعصية بسبب جهالة منهم، ثم يتوبون من قريب لا يسوفون التوبة ولا يؤخرونها أما الذين يجترحون السيئات مع علم منهم وإصرار، ولا يتوبون إثر غشيان الذنب فلا توبة تضمن لهم فقد يموتون بلا توبة شأنهم شأن الذين يعملون السيئات ولا يتوبون حتى إذا مرض أحدهم وظهرت عليه علامات الموت وأيقن أنه ميت لا محالة قال إنه تائب كشأن الكافرين إذا تابوا عند[4] معاينة الموت فلا تقبل منهم توبة أبدًا.

(١٧) هذا معنى الآيتين الكريمتين الأولى ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ أي يقبل توبتهم لأنه عليم بضعف عباده

---

(١) منكم: أي: من المسلمين إذ لا بد من أربعة شهود من المسلمين يشهدون بأنهم رأوا الفرج في الفرج مثل الميل في المكحلة لحديث أبي داود عن جابر قال: «جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا فقال رسول الله ﷺ: **«ائتوني بأعلم رجل منكم»** فأتوه بابني صوريا فنشدهما: **«كيف تجدان أمر هذين في التوراة؟»**، قالا: نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة رجمًا، قال: **«فما يمنعكما أن ترجموهما؟»** قالا: ذهب سلطاننا فكرهنا القتل، فدعا الرسول ﷺ الشهود فحضروا وشهدوا فأمر برجمهما فرجما».

(٢) يتوفاهن: يتقاضاهن، يقال: توفي فلان حقه من فلان بمعنى: استوفاه، أي: أخذه كاملاً لم يبق منه شيئًا ولمّا كان العمر أيامًا تمر يومًا بعد يوم حتى ينقضي العمر ويموت الإنسان قيل في الموت: الوفاة، ويقال: توفى فلان لأنّ أيامه أخذت يومًا فيومًا حتى انقضت على طريقة تسديد الدين جزءًا فجزءًا حتى كمل، قال الشاعر:

إذ ما تقاضى المرء يوم وليلة ... تقاضاه شيء لا يملّ التقاضيا

(٣) المراد من هذا: أنّ الإمساك للمرأة الزانية دون الرجل، لأن الرجل يعمل فلا يحبس فلذا غلب جانب النساء في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾. وغلّب الرجل على المرأة في قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ لأن الأذى صالح للمرأة والرجل معًا وهو عبارة عن السبّ والجفاء والتوبيخ باللّسان لا غير.

(٤) وعليه فقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾ ليس على ظاهره، وإنّما معناه: يشرفون على الموت ومن أشرف على الموت، وحضره فحكمه حكم من مات وهو سائغ في اللّغة.

حكيم يضع كل شيء في موضعه اللائق به ومن ذلك قبول توبة من عصوه بجهالة لا بعناد ومكابرة وتحد، ثم تابوا من قريب ولم يطيلوا[1] مدة المعاصي.

(١٨) والثانية: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾، كما هي ليست للذين يعيشون على الكفر فإذا جاء أحدهم الموت قال: تبت، كفرعون فإنه لما عاين الموت بالغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، فردّ الله تعالى عليه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إشارة إلى كل من مات على غير توبة بارتكابه كبائر الذنوب، أو بكفر وشرك، إلا أن المؤمن الموحد يخرج من النار بإيمانه، والكافر يخلد فيها. نعوذ بالله من النار وحال أهلها.

هداية الآيات:

١ - عظم قبح فاحشة الزنى.

٢ - بيان حد الزنى قبل نسخه بآية سورة النور، وحكم الرسول ﷺ في رجم المحصن والمحصنة.

٣ - التوبة التي تفضّل الله بها هي ما كان صاحبها أتى ما أتى من الذنوب بجهالة لا بعلم وإصرار ثم تاب من قريب زمن.

٤ - الذين يسوّفون التوبة ويؤخرونها يخشى عليهم أن لا يتوبوا حتى يدركهم الموت وهم على ذلك فيكونون من أهل النار، وقد يتوب أحدهم، لكن بندرة وقلة وتقبل توبته إذا لم يعاين إمارات الموت لقول الرسول ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» رواه الترمذي وأحمد وغيرهما وإسناده حسن.

٥ - لا تقبل توبة من حشرجت نفسه وظهرت عليه علامات الموت، وكذا الكافر من باب أولى لا تقبل له توبة بالإيمان إذا عاين علامات الموت كما لم تقبل توبة فرعون.

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا (٢١) وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣)

٨١

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ ـ ٢١]

(١٩) ﴿كَرْهًا﴾: بدون رضاهن. العضل: المنع بشدة كأنه إمساك بالعضلات أو من العضلات.

﴿بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾: أي من المهور. الفاحشة: الخصلة القبيحة الشديدة القبح كالزنى. ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾[2]: ظاهرة واضحة ليست مجرد تهمة أو مقالة سوء. المعروف[3]: ما عرفه الشرع واجبًا أو مندوبًا أو مباحًا. ﴿قِنطَارًا﴾: أي من الذهب أو الفضة مهرًا وصداقًا.

(٢٠) ﴿بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا﴾: أي كذبًا وافتراء، وإثمًا حرامًا لا شك في حرمته لأنه ظلم.

(٢١) ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

---

(١) لأنّ سنة الله تعالى أنّ المرء إذا أدمن على معصية بطول فعلها يشربها قلبه فتحسن في نظره وتجمل في طبعه، فلا يقوى على تركها، وليس أدلّ على ذلك من فاحشة اللواط، فهي من أقبح الفواحش ومع هذا مَنْ زينت له لا يقدر على تركها.

(٢) قرئت: ﴿مبيَّنة﴾ بفتح الياء، وقرئت بكسرها: ﴿مبيِّنة﴾ وقرأ ابن عباس: ﴿مبِينة﴾ بكسر الباء اسم فاعل من أبان يبين فهو مبين وهي مبينة والمعنى واحد.

(٣) من المعاشرة بالمعروف: أن لا يعبّس في وجهها بغير ذنب وأن يكون منطلقًا في القول، لا فظًا ولا غليظًا، ولا مظهرًا ميلاً إلى غيرها.

أي خلص الزوج إلى عورة زوجته والزوجة كذلك. ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾: هو العقد وقول الزوج: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

معنى الآيات:

(١٩) تضمنت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ[1] ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ إبطال ما كان شائعًا بين الناس قبل الإسلام من الظلم اللاحق بالنساء فقد كان الرجل إذا مات والده على زوجته ورثها أكبر أولاده من غيرها فإن شاء زوّجها وأخذ مهرها وإن شاء استبقاها حتى تعطيه ما يطلب منها من مال، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾، فبطل ذلك الحكم الجاهلي بهذه الآية الكريمة وأصبحت المرأة إذا مات زوجها اعتدت في بيت زوجها فإذا انقضت عدتها ذهبت حيث شاءت ولها مالها وما ورثته من زوجها أيضًا. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ[2] لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾. فهذا حكم آخر وهو أنه يحرم على الزوج إذا كره[3] زوجته أن يضايقها ويضارها حتى تفتدي منه ببعض مهرها، إذ من معاني العضل المضايقة والمضارة، هذا ما لم ترتكب الزوجة فاحشة الزنى، أو تترفع عن الزوج وتتمرد عليه وتبخسه حقه في الطاعة والمعاشرة بالمعروف، أما إن أتت بفاحشة مبينة لا شك فيها أو نشزت نشوزًا بينًا فحينئذ للزوج أن يضايقها حتى تفتدي منه بمهرها أو بأكثر حتى يطلقها وذلك لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بمعاشرة الزوجات بالمعروف وهو العدل والإحسان، فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وإن فرض أن أحدًا منكم كره زوجته وهي لم تأت بفاحشة مبينة فليصبر عليها ولا يطلقها فلعل الله تعالى يجعل في بقائها في عصمته خيرًا كثيرًا له نتيجة الصبر عليها وتقوى الله تعالى فيها وفي غيرها، فقد يرزق منها ولدًا ينفعه، وقد يذهب من نفسه ذلك الكره ويحل محله الحب والمودة. والمراد أن الله تعالى أرشد المؤمن إن كره زوجته أن يصبر ولا يطلق لما في ذلك من العاقبة الحسنة، لأن الطلاق بغير موجب غير صالح ولا مرغوب للشارع وكم من أمر يكرهه العبد ويصبر عليه فيجعل الله تعالى فيه الخير الكثير. هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٩).

(٢٠) أما الآيتان بعدها فقد تضمنتا: تحريم أخذ شيء من مهر المرأة إذا طلقها الزوج لا لإتيانها بفاحشة ولا لنشوزها، ولكن لرغبة منه في طلاقها ليتزوج غيرها في هذه الحال لا يحل له أن يضارها لتفتدي منه بشيء ولو قل، ولو كان قد أمهرها قنطارًا فلا يحل أن يأخذ منه فلسًا فضلًا عن دينار أو درهم هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا[4] فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾، أتأخذونه بهتانًا، أي ظلمًا بغير حق وكذبًا وافتراء وإثمًا مبينًا أي ذنبًا عظيمًا، ثم قال تعالى منكرًا على من يفعل

---

(١) روى البخاري في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاء زوّجوها وإن لم يشاؤوا لم يزوّجوها فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ..﴾ إلخ..

(٢) جائز أن يكون فعل ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ في محل نصب على تقدير ولا أن تعضلوهن، كما هي قراءة ابن مسعود وجائز أن يكون في محل جزم على أنّ لا: ناهية.

(٣) كرهًا لدمامة أو سوء خلق أو سلاطة لسان فليصبر على ذلك فإنّ الرسول ﷺ قال: **«لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر»** رواه مسلم.

(٤) روى أصحاب السنن وصححه الترمذي أن عمر بن الخطاب كان يخطب، فقال: ألا لا تغالوا في صدقات النساء فإنها لو كانت مكرُمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله، ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتي عشرة أوقية، فقامت إليه امرأة فقالت يا عمر: أيعطينا الله وتحرمنا، أليس الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾؟ قال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

ذلك: وكيف تأخذونه، أي بأي وجه يحل لكم ذلك، والحال أنه قد أفضى[(١)] بعضهم إلى بعض أي بالجماع، إذ ما استحل الزوج فرجها إلا بذلك المهر فكيف إذا يسترده أو شيئًا منه بهتانًا وإثمًا مبينًا، فقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؟ وقوله تعالى: وأخذن منكم ميثاقا غليظًا، يعني عقد النكاح فهو عهد مؤكد يقول الزوج نكحتها على مبدأ: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، فأين التسريح بإحسان إذا كان يضايقها حتى تتنازل عن مهرها أو عن شيء منه، هذا ما أنكره تعالى بقوله: وكيف تأخذونه، إذ هو استفهام إنكاري[(٢)].

هداية الآيات:

١ - إبطال قانون الجاهلية القائم على أن ابن الزوج يرث امرأة أبيه.

٢ - حرمة العضل من أجل الافتداء بالمهر وغيره.

٣ - الترغيب في الصبر.

٤ - جواز أخذ الفدية من الزوجة بالمهر أو أكثر أو أقل إن هي أتت بفاحشة ظاهرة لا شك فيها كالزنى أو النشوز.

٥ - جواز غلاء المهر فقد يبلغ القنطار[(٣)] غير أن التيسير فيه أكثر بركة.

٦ - وجوب مراعاة العهود والوفاء بها.

شرح الكلمات:
[الآية: ٢٢، ٢٣]

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم﴾: لا تتزوجوا امرأة الأب أو الجد. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: إلا ما قد مضى قبل هذا التحريم. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾: أي زواج نساء الآباء فاحشة شديدة القبح. مقتًا[(٤)]: ممقوتًا مبغوضًا للشارع ولكل ذي فطرة سليمة. ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾: أي قبح نكاح أزواج الآباء طريقًا يسلك.

﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾: جمع[(٥)] أم فالأم محرمة ومثلها الجدة وإن علت.

﴿وَرَبَائِبُكُمُ﴾: الربائب جمع ربيبة هي بنت الزوجة. ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾: الحلائل[(٦)] جمع حليلة وهي امرأة الابن من الصلب.

معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بالإرث والنكاح وعشرة النساء. وفي هاتين الآيتين ذكر تعالى محرمات النكاح من النسب، والرضاع والمصاهرة فبدأ بتحريم امرأة الأب وإن علا فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا[(٧)] مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم﴾، ولم يقل من ليشمل التحريم منكوحة الأب والطريقة التي كانت متبعة عندهم في الجاهلية. ولذا قال إلا ما قد سلف في الجاهلية فإنه معفو عنه بالإسلام بعد التخلي عنه وعدم المقام عليه، وبهذا اللفظ حرمت امرأة الأب والجد على الابن وابن الابن ولو لم يدخل بها الأب ثم ذكر محرمات النسب فذكر الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ، وبنات الأخت فهؤلاء سبع محرمات

(١) اختلف في الإفضاء الذي يجب به المهر قال عمر: إن أغلق بابًا وأرخى سترًا ورأى عورة فقد وجب الصداق وعليها العدّة ولها الميراث وهو قول فصل، أمّا الإفضاء الذي تحل به المطلقة ثلاثًا فلا بد من الوطء لحديث: «**حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك**» والإفضاء في هذه الآية: الجماع أيضًا قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) نعم إنكاري وفيه معنى التعجب أيضًا لأنه أمر مستنكر ومتعجب منه لفظاعته وخروجه عن اللّياقة والأدب.

(٣) لا خلاف في أنّ أكثر الصداق لا حدّ له وإنما الخلاف في أقله، والذي عليه أكثر أهل العلم أنّه لا يقل عن ربع دينار أو ما يعادله دراهم قياسًا على ما تقطع فيه يد السارق، لأنّ الفرج محرّم كاليد.

(٤) سُئل ابن الأعرابي عن نكاح المقت فقال: هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه، إذا طلقها أو مات عنها، ويقال لمن تزوّج امرأة أبيه: الضيزن.

(٥) الصواب جمع أمّهة، إذ الأم تجمع على أمات وقلّ من يقول به، والآية نصّ في تحريم كل أنثى لها على الرجل ولادة فتدخل الأم فيه وأمّها وجدّاتها.

(٦) سميت امرأة الابن حليلة لأنها تحلّ معه حيث حلّ فهي فعيلة بمعنى: فاعلة، وقيل: سميت حليلة لأنها محلّلة له.

(٧) روي أن أبا قيس توفي وكان من صالحي الأنصار فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت له: إني أَعُدّكَ ولدًا ولكني آتي رسول الله ﷺ فأستأمره فأتته فأخبرته فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ..﴾.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦)﴾

٨٢

من النسب[١].

(٢٣) قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ ثم ذكر المحرمات بالرضاع فقال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ فمن رضع من امرأة خمس[٢] رضعات وهو في سن الحولين تحرم عليه ويحرم عليه أمهاتها وبناتها وأخواتها وكذا بنات زوجها وأخواته وأمهاته حتى قيل يحرم[٣] من الرضاعة ما يحرم من النسب، ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة فقال: وأمهات نسائكم فأم امرأة الرجل محرمة عليه بمجرد أن يعقد على بنتها تصبح أمها حرامًا. وقال: وربائبكم اللاتي في حجوركم فالربيبة هي بنت الزوجة إذا نكح الرجل امرأة وبنى بها لا يحل له الزواج من ابنتها أما إذا عقد فقط ولم يبن فإن البنت تحل له لقوله: من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم، أي لا إثم ولا حرج[٤]. ومن المحرمات بالمصاهرة امرأة الابن بنى بها أم لم يبن لقوله تعالى: وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم، أي ليس ابنًا بالتبني، أما الابن من الرضاع فزوجته كزوجة الابن من الصلب، لأن اللبن الذي تغذى به هو السبب فكان إذًا كالولد للصلب، ومن المحرمات بالمصاهرة أيضًا أخت الزوجة فمن تزوج امرأة لا يحل له أن يتزوج أختها حتى تموت أو يفارقها وتنتهي عدتها لقوله تعالى: وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف، في الجاهلية فإنه عفو بشرط عدم الإقامة عليه.

هداية الآيتين:

١ - تحريم مناكح الجاهلية إلا ما وافق الإسلام منها، وخاصة أزواج الآباء فزوجة الأب محرمة على الابن ولو لم يدخل بها الأب وطلقها أو مات عنها.

٢ - بيان المحرمات من النسب وهن سبع: الأمهات والبنات والأخوات، والعمات والخالات وبنات الأخ وبنت الأخت.

٣ - بيان المحرمات من الرضاع وهن المحرمات من النسب فالرضيع يحرم عليه[٥] أمه المرضع له وبناتها وأخواتها وعماته وخالاته، وبنات أخيه وبنات أخته.

٤ - بيان المحرمات من المصاهرة وهن سبع أيضًا: زوجة الأب بنى بها أو لم يبن، أم امرأته بنى بابنتها أو لم يبن، وبنت امرأته وهي الربيبة إذا دخل بأمها، وامرأة الولد من الصلب بنى بها الولد أو لم يبن[٦]، وكذا ابنه[٧] من

(١) وحرّم بالسنة المتواترة الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها.

(٢) خالف مالك رحمه الله تعالى ومَنْ وافقه فقالوا: لا فرق بين قليل الرضاع وكثيره، إذا وصل اللّبن إلى الأمعاء ولو مصّة واحدة مع أنّ الرسول الله ﷺ قال: **«لا تحرم المصة ولا المصتان»** رواه مسلم.

(٣) القائل هو الرسول ﷺ والحديث متفق عليه.

(٤) ولحديث الصحيحين: **«إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالبنت أو لم يدخل، وإذا تزوّج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج البنت»**.

(٥) هذا إذا كان الرضاع في الحولين أمّا بعدهما فلا يحرم إجماعًا.

(٦) حكى القرطبي الإجماع على أنّ الرجل إذا وطىء امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه وعلى ابنه وعلى أجداده وأحفاده.

(٧) في عد المحصنات من المحرمات بالصهر تجوزًا.

الرضاع، وأخت امرأته ما دامت أختها تحته لم يفارقها بطلاق أو وفاة. والمحصنات[1] من النساء أي المتزوجات قبل طلاقهن أو وفاة أزواجهن وانقضاء عددهن.

الجزء الخامس

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤، ٢٥]

(٢٤) ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾: جمع محصنة[2] والمراد بها هنا المتزوجة. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: المملوكة بالسبي والشراء ونحوهما. ﴿مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾: أي ما عداه أي ما عدا ما حرم عليكم. ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾: المسافح: الزاني، لأن السفاح هو الزنى. ﴿أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: مهورهن نحلة.

(٢٥) ﴿طَوْلًا﴾[3]: سعة وقدرة على المهر. ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾: العفيفات. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مهورهن. ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾: الخدين الخليل الذي يفجر بالمرأة سرًا تحت شعار الصداقة. ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾: بأن أسلمن أو تزوجن إذ الإحصان يكون بهما. ﴿الْعَنَتَ﴾: العنت الضرر في الدين والبدن.

معنى الآيتين:

(٢٤) ما زال السياق في بيان ما يحرم من النكاح وما يجوز ففي الآية الأولى (٢٤) عطف تعالى على المحرمات في المصاهرة المرأة المتزوجة فقال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ أي ذوات الأزواج فلا يحل نكاحهن إلا بعد مفارقة الزوج بطلاق أو وفاة، وبعد انقضاء العدة أيضًا واستثنى تعالى من المتزوجات المملوكة باليمين وهي المرأة تسبى في الحرب الشرعية وهي الجهاد في سبيل الله فهذه من الجائز أن يكون زوجها لم يمت في الحرب وبما أن صلتها قد انقطعت بدار الحرب وبزوجها وأهلها وأصبحت مملوكة أذن الله تعالى رحمة بها في نكاحها ممن ملكها من المؤمنين. ولذا ورد أن الآية نزلت في سبايا أوطاس وهي وقعة كانت بعد موقعة حنين فسبى فيها المسلمون النساء والذراري، فتحرّج المؤمنون في غشيان أولئك النسوة ومنهن المتزوجات فأذن لهم في غشيانهنّ بعد أن تسلم إحداهن وتستبرأ بحيضة، أما قبل إسلامها فلا تحل لأنها مشركة، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وقوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يريد ما حرمه تعالى من المناكح قد كتبه على المسلمين كتابًا وفرضه فرضًا لا يجوز إهماله أو التهاون به. فكتابَ الله منصوب على المصدرية[4].

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ[5] لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ[6]﴾ أي ما بعد الذي حرمه من المحرمات بالنسب وبالرضاع وبالمصاهرة على شرط أن لا يزيد المرء على أربع كما هو ظاهر قوله تعالى في أول السورة: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي لا حرج عليكم أن تطلبوا بأموالكم من النساء غير ما حرّم عليكم فتتزوجوا ما طاب لكم حال كونكم محصنين غير مسافحين، وذلك بأن يتم النكاح بشروطه من الولي والصداق والصيغة والشهود، إذ أن نكاحًا يتم بغير هذه الشروط فهو السفاح أي الزنى وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ[7] بِهِ مِنْهُنَّ

---

(١) لحديث: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» وهو دليل الجمهور على أنّ امرأة الابن من الرضاع تحرم كما تحرم امرأة الابن من الصلب.

(٢) وسميت المتزوجة محصنة: لأن الرجل أي: الزوج قد أحصنها، أي: حفظها باستقلاله بها عن غيره.

(٣) الطَّول: مصدر طال يطول طولاً بمعنى: قدر على التناول من بُعدٍ ولذا فُسّر بالقدرة على المهر.

(٤) ويجوز الرفع نحو هذا كتاب الله وفرضه.

(٥) قرىء: ﴿أحل﴾ بالبناء للمفعول و: ﴿أحلَّ﴾ للبناء للفاعل.

(٦) لا بد من مراعاة ما حرّم بالسنة وهو الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها، ولا التفات إلى مذهب الخوارج إذ يبيحون ذلك كما يبيحون الجمع بين الأختين، وعلّة المنع هي: أنّ الجمع يسبب قطيعة الرحم.

(٧) استدل الروافض بهذه الآية: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ إلخ.. على جواز نكاح المتعة وهو استدلال فاسد وباطل ويكفي في بطلانه إجماع أهل السنة والجماعة على بطلانه وأنه زنىً إلاّ أنه لا يقام على صاحبه حدّ الرجم للشبهة والرسول ﷺ يقول: =

﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ يريد تعالى: أيما رجل تزوج امرأة فأفضى إليها أي وطئها إلا وجب لها المهر كاملاً، أما التي لم يتم الاستمتاع بها بأن طلقها قبل البناء فليس لها إلا نصف المهر المسمى، وإن لم يكن قد سمى لها فليس لها إلا المتعة، فالمراد من قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم[1] بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ أي بنيتم بهن ودخلتم عليهن. وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ يريد إذا أعطى الرجل زوجته ما استحل به فرجها وهو المهر كاملاً فليس عليهما بعد ذلك من حرج في أن تسقط المرأة من مهرها لزوجها، أو تؤجله أو تهبه كله أو بعضه إذ ذاك لها وهي صاحبته كما تقدم ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [الآية: النساء ٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ المراد منه إفهام المؤمنين بأن الله تعالى عليم بأحوالهم حكيم في تشريعه لهم فليأخذوا بشرعه ورخصه وعزائمه فإنه مراعي فيه الرحمة والعدل، ولنعم تشريع يقوم على أساس الرحمة والعدل.

(٢٥) هذا ما تضمنته الآية الأولى (٢٤) أما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا[2]. .﴾ فقد تضمنت بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين إذ رخص لمن لم يستطع نكاح الحرائر لقلة ذات يده، مع خوفه العنت الذي هو الضرر في دينه بالزنى، أو في بدنه بإقامة الحد عليه رخص له أن يتزوج المملوكة بشرط أن تكون مؤمنة، وأن يتزوجها بإذن[3] مالكها وأن يؤتيها صداقها وأن يتم ذلك على مبدأ الإحصان الذي هو الزواج بشروطه لا السفاح، الذي هو الزنى العلني المشار إليه بكلمة ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾، ولا الخفيّ المشار إليه بكلمة ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أي أخلاء هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ أي قدرة مالية أن ينكح المحصنات أي العفائف من ﴿فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي من إمائكم المؤمنات لا الكافرات بحسب الظاهر أما الباطن فعلمه إلى الله ولذا قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ وقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ فيه تطييب لنفس المؤمن إذا تزوج للضرورة الأمة فإن الإيمان أذهب الفوارق بين المؤمنين وقوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ فيه بيان للشروط التي لا بد منها وقد ذكرناها آنفًا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ أي الإماء بالزواج وبالإسلام ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ أي زنين فعليهن حد هو نصف ما على المحصنات من العذاب وهو جلد خمسين جلدة وتغريب ستة أشهر، لأن الحرة إن زنت[4] وهي بكر تجلد مائة وتغرب سنة. أما الرجم والذي هو الموت فإنه لا ينصف فلذا فهم المؤمنون في تنصيف العذاب أنه الجلد لا الرجم وهو إجماع لا خلاف فيه وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ يريد أبحت لكم ذلك لمن خاف على نفسه الزنى إذا لم يقدر على الزواج من الحرة لفقره واحتياجه. وقوله

= «**ادرؤوا الحدود بالشبهات**» ونكاح المتعة رخص فيه الرسول ﷺ مرّة ثم أعلن عن حرمته، أعلن ذلك في حجة الوداع ليعلم كل إنسان ذلك، ومن الأدلة على حرمة المتعة، أنّ المتمتع بها لا ترث والزوجة الشرعية ترث الربع والثمن.

(١) الاستمتاع: التلذذ والأجور: هي المهور، وسمي المهر أجرًا لأنه أجر الاستمتاع وهذا دليل على أنه في مقابلة البُضع، إذ كل ما يقابل المنفعة يسمى أجرًا.

(٢) اختلف في تحديد معنى الطَّول، وأرجح الأقوال: أنه سعة المال، وعليه فلا يباح نكاح الأمة إلاّ بشرطين: عدم السعة في المال، وخوف العنت، فلا يصح نكاح الأمة إلاّ باجتماعهما، ومن كانت تحته حرّة لا يجوز أن ينكح عليها أمة، لأنّ الحرّة تدفع العنت عنه، وحكي الإجماع على أن من كانت له أمة لا يحل له أن يتزوجها بل يطأها بملك اليمين وذلك لتعارض حق الملك مع حق الزوجية. وإذا أعتقها فأصبحت حرّة فله حينئذٍ أن يتزوجها.

(٣) وأجمعوا على أنّه لا يجوز للمملوك أن يتزوج بغير إذن سيده، وإن تزوّج فسخ زواجه وهل عليه الحدّ؟ خلاف.

(٤) دليل حد الأمة إن زنت قوله ﷺ: «**إذا زنت أمة أحدكم فليحدها الحد**».
وقال علي في خطبته: «أيها الناس، أقيموا على أرقائكم الحد من أحصن منهن ومن لم يحصن» الحديث رواه مسلم.

تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا . . .﴾ أي على العزوبيَّة خير لكم من نكاح الإماء. وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور للتائبين رحيم بالمؤمنين ولذا رخَّص لهم في نكاح الإماء عند خوف العنت، وأرشدهم إلى ما هو خير منه وهو الصبر[١] فللّه الحمد وله المِنَّة.

هداية الآيتين:

١ - تحريم المرأة المتزوجة حتى يفارقها زوجها بطلاق أو موت وحتى تنقضي عدتها.

٢ - جواز نكاح المملوكة باليمين وإن كان زوجها حيًا في دار الحرب إذا أسلمت، لأن الإسلام فصل بينهما.

٣ - وجوب المهور، وجواز إعطاء المرأة من مهرها لزوجها شيئًا.

٤ - جواز التزوج من المملوكات لمن خاف العنت وهو عادم للقدرة على الزواج من الحرائر.

٥ - وجوب إقامة الحد على من زنت من الإماء إن أُحْصِنَّ بالزواج والإسلام.

٦ - الصبر على العزوبة خير من[٢] الزواج بالإماء لإرشاد الله تعالى إلى ذلك.

الجزء الخامس — سورة النساء

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

٨٣

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ ـ ٢٨]

﴿٢٦﴾ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[٣]: يريد الله أن يبيِّن لكم بما حرم عليكم وأحل لكم ما يكملكم ويسعدكم في دنياكم وأخراكم. ﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[٤]: طرائق الذين من قبلكم من الأنبياء والصالحين لتنهجوا نهجهم فتطهروا وتكملوا وتفلحوا مثلهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: يرجع بكم عما كنتم عليه من ضلال الجاهلية إلى هداية الإسلام. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾[٥]: من اليهود والنصارى والمجوس والزناة. ﴿أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾: تحيدوا عن طريق الطهر والصفاء إلى طريق الخبث والكدر بارتكاب المحرمات من المناكح وغيرها فتبتعدوا عن الرشد بعدًا عظيمًا. ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾: لا يصبر عن النساء، فلذا رخّص تعالى لهم في الزواج من الفتيات المؤمنات.

معنى الآيات:

﴿٢٦﴾ لما حرم تعالى ما حرم من المناكح وأباح ما أباح منها علل لذلك بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾[٦] أي بما شرع ليبين ما هو نافع لكم مما هو

---

(١) قال أبو هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الحرائر صلاح البيت والإماء هلاك البيت أو قال: فساد البيت»**.

(٢) يشهد لذلك قول عمر رضي الله عنه: أيما رجل تزوج أمة فقد أرق نصفه يعني: يصير ولده رقيقًا فالصبر على عدم التزوج بالإماء أفضل لكي لا يرق الولد.

(٣) الأصل: يريد أن يُبيِّن لكم فحذفت أن ودخلت اللام على الفعل والتقدير: يريد الله البيان لكم والهدى والتوبة فاللام إذن لتوكيد معنى الفعل ومثلها في قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ في آية وفي آية ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ قال النحاس: سمى بعضهم هذه اللام لام (أن).

(٤) فيكون معنى هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾.

(٥) أي: تغلبهم شهواتهم على مخالفة شرع الله لعباده من أمور الدين التي عليها مدار سعادة الإنسان وكماله.

(٦) سيقت هذه الآية تذييلًا لما سبقها لغرض استئناس المسلمين واستنزال نفوسهم إلى امتثال أوامر الله تعالى المتقدمة في أوّل السورة وهي أحكام النكاح والإرث والمعاشرة.

ضار بكم فتأخذوا النافع وتتركوا الضار، كما يريد أن يهديكم طرائق الصالحين من قبلكم من أنبياء ومؤمنين صالحين لتسلكوها فتكملوا وتسعدوا في الحياتين، كما يريد بما بين لكم أن ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يرجع بكم من ضلال الجاهلية إلى هداية الإسلام فتعيشوا على الطهر والصلاح، وهو تعالى عليم بما ينفعكم ويضركم حكيم في تدبيره لكم فاشكروه بلزوم طاعته، والبعد عن معصيته.

(٢٧) هذا ما تضمنته الآية الأولى (٢٦) أما الآية الثانية (٢٧) فقد تضمنت الإخبار بأن الله تعالى يريد بما بيّنه من الحلال والحرام في المناكح وغيرها أن يرجع بالمؤمنين من حياة الخبث والفساد التي كانوا يعيشونها قبل الإسلام إلى حياة الطهر والصلاح في ظل تشريع عادل رحيم. وأنَّ الذين يتَّبعون الشهوات من الزناة واليهود والنصارى وسائر المنحرفين عن سنن الهدى فإنهم يريدون من المؤمنين أن ينحرفوا مثلهم فينغمسوا في الملاذ والشهوات البهيمية حتى يصبحوا مثلهم لا فضل لهم عليهم، وحينئذ لا حق لهم في قيادتهم أو هدايتهم.

(٢٨) هذا معنى الآية الثانية أما الثالثة (٢٨) فقد أخبر تعالى أنه بإباحته للمؤمنين العاجزين عن نكاح الحرائر نكاح الفتيات المؤمنات يريد بذلك التخفيف والتيسير[1] عن المؤمنين رحمة بهم وشفقة عليهم لما يعلم تعالى من ضعف الإنسان وعدم صبره عن النساء بما غرز فيه من غريزة الميل إلى أنثاه لحفظ النوع ولحكم عالية. وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ[2] عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا[3] ۝﴾.

هداية الآيات:

١ ـ منّة الله تعالى علينا في تعليله الأحكام لنا لتطمئن نفوسنا ويأتي العمل بانشراح صدر وطيب خاطر.

٢ ـ منة الله تعالى على المؤمنين بهدايتهم إلى طرق الصالحين وسبيل المفلحين ممن كانوا قبلهم.

٣ ـ منته تعالى في تطهير المؤمنين من الأخباث وضلال الجاهليات.

٤ ـ الكشف عن نفسية الإنسان، إذ الزناة يرغبون في كون الناس كلهم زناة والمنحرفون يودون أن ينحرف الناس مثلهم، وهكذا كل منغمس في خبث أو شر أو فساد يود أن يكون كل الناس مثله، كما أن الطاهر الصالح يود أن يطهر ويصلح كل الناس.

٥ ـ ضعف الإنسان أمام غرائزه لا سيما غريزة الجنس.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٩، ٣٠]

(٢٩) ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صدقوا الله والرسول ﷺ. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: بغير حق يبيح أكلها. ﴿تِجَٰرَةً﴾[4]: بيعًا وشراءً فيحل لصاحب البضاعة أن يأخذ النقود ويحل لصاحب النقود أخذ البضاعة، إذًا لا باطل. ﴿تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْۚ﴾: أي تزهقوا أرواح بعضكم بعضًا.

(٣٠) ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾: اعتداء يكون فيه ظالمًا. ﴿نُصْلِيهِ نَارًاۚ﴾: ندخله نار جهنم يحترق فيها.

معنى الآيتين:

(٢٩) ما زال السياق في بيان ما يحل وما يحرم من الأموال والأعراض والأنفس ففي هذه الآية (٢٩) ينادي الله تعالى عباده المؤمنين بعنوان الإيمان فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وينهاهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل بالسرقة أو الغش أو القمار أو الربا وما إلى ذلك

---

(١) شاهده الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ ومن السنة قوله ﷺ: **«إن هذا الدين يسر ولن يشادّ هذا الدين أحد إلاّ غلبه»** وقوله لمعاذ وأبي موسى: **«يسّرا ولا تعسّرا»** وبذا كان التيسير من أصول الشريعة الإسلامية، ويشهد لهذا وجود الرخص في مسائل الدين.

(٢) أي: في جميع الأحكام وبخاصة في نكاح الإماء لما علم من ضعف الإنسان في أمر النساء.

(٣) معنى ضعيفًا: أنّ هواه يستميله وشهوته وغضبه يستخفانه، وهذا أشد الضعف ولذا احتاج إلى التخفيف فخفف الله عنه. والحمد لله.

(٤) كل معاوضة في مباح فهي تجارة حتى أنّ الله تعالى سمى ثمن طاعته وطاعة رسوله ﷺ تجارة في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ..﴾ الآية.

من وجوه التحريم[1] العديدة فيقول: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾، أي بغير عوض مباح، أو طيب نفس، ثم يستثني ما كان حاصلاً عن تجارة قائمة على مبدأ التراضي بين البيعين لحديث «**إنما البيع عن تراض**» و«**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا**» فقال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ[2] مِّنكُمْ﴾ فلا بأس بأكله فإنه حلال لكم. هذا ما تضمنته هذه الآية كما قد تضمنت حرمة قتل المؤمنين لبعضهم بعضًا فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ والنهي شامل لقتل الإنسان نفسه وقتله أخاه المسلم لأن المسلمين كجسم واحد فالذي يقتل مسلمًا منهم كأنما قتل نفسه. وعلل تعالى هذا التحريم لنا فقال إن الله كان بكم رحيمًا، فلذا حرّم عليكم قتل بعضكم بعضًا.

(٣٠) هذا ما تضمنته الآية الأولى (**٢٩**) أما الآية الثانية (**٣٠**) فقد تضمنت وعيدًا شديدًا بالإصلاء بالنار والإحراق فيها كل من يقتل مؤمنًا عدوانًا وظلمًا أي بالعمد[3] والإصرار والظلم المحض، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي القتل ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي الإصلاء والإحراق في النار ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لكمال قدرته تعالى فالمتوعد بهذا العذاب إذًا لا يستطيع أن يدفع ذلك عن نفسه بحال من الأحوال.

هداية الآيتين:

١ - حرمة مال المسلم، وكل مال حرام وسواء حازه بسرقة أو غش أو قمار أو ربا.

٢ - إباحة التجارة والترغيب[4] فيها والرد على جهلة المتصوفة الذين يمنعون الكسب بحجة التوكل.

٣ - تقرير مبدأ «**إنما البيع عن تراض، والبيعان بالخيار ما لم يتفرقا**».

٤ - حرمة قتل المسلم نفسه أو غيره من المسلمين لأنهم أمة واحدة.

٥ - الوعيد الشديد لقاتل النفس[5] عدوانًا وظلمًا بالإصلاء بالنار.

٦ - إن كان القتل غير عدوان بأن كان خطأً، أو كان غير ظلم بأن كان عمدًا ولكن بحق كقتل من قتل والده أو ابنه أو أخاه فلا يستوجب هذا الوعيد الشديد.

شرح الكلمات: [الآية: ٣١]

(٣١) ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾: تبتعدوا لأن الاجتناب ترك الشيء عن جنب بعيدًا عنه لا يقبل عليه ولا يقربه.

﴿كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: الكبائر: ضد الصغائر، والكبيرة تعرف بالحد لا بالعد فالكبيرة ما توعد الله ورسوله ﷺ عليها، أو لعن الله ورسوله فاعلها أو شرع لها حدّ يقام على صاحبها، وقد جاء في الحديث الصحيح بيان العديد من الكبائر، وعلى المؤمن أن يعلم ذلك ليجتنبه.

﴿نُكَفِّرْ﴾: نغطي ونستر فلا نطالب بها ولا نؤاخذ عليها. ﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾: المدخل الكريم هنا: الجنة دار المتقين.

معنى الآية الكريمة:

(٣١) يتفضل الجبار جلّ جلاله وعظم

---

(١) كبيع العربون بأن يقول لأخيه: خذ هذه العشرة دنانير إن أخذتُ السلعة وإلاّ فهي لك، هذا بيع باطل لأنه لا حق له في أخذ العربون، إن عجز أخوه عن أخذ السلعة له.

(٢) لم يختلف في بيع الخيار وذلك بأن يقول المسلم لأخيه: بعني كذا أو بعتك كذا أو أعطني مهلة يوم أو يومين أفكر فيها، فهذا البيع جائز إن تم وإن لم يتم واختلف في معنى قول الرسول ﷺ: «**المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا**» هل التفرق بالأبدان أو بالكلام والصحيح أنه بالأبدان فلكلٍّ منهما الفسخ والإمضاء ما داما في المجلس فإن تفرقا مضى البيع.

(٣) أي: لم يكن سهوًا ولا خطأ وهو معنى ﴿عُدْوَٰنًا﴾ ولا بحق كقصاص وهو معنى ﴿ظُلْمًا﴾.

(٤) يكفي في الرد عليهم ثناء الرسول ﷺ على التاجر الأمين في قوله: «**التاجر الصدوق الأمين المسلم مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة**» إلاّ أنّه يحرم على التاجر أن يروّج سلعته بالأيمان الكاذبة، كما يكره له أن يصلي على النبي ﷺ عند عرض سلعته كقوله: صلى الله على محمد ما أجود هذا كما يكره له أن تشغله التجارة عن صلاة الجماعة.

(٥) ورد الوعيد الشديد في قاتل نفسه من ذلك قوله ﷺ: «**من قتل نفسه بشيء عذّب به يوم القيامة**» رواه الجماعة. وقوله ﷺ: «**من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجؤ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالدًا مخلّدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بسم، فسمه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالدًا مخلدًا أبدًا، ومن تردّى من جبل فقتل نفسه فهو متردٍ في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا**».

إنعامه وسلطانه فيمن على المؤمنين من هذه الأمة المسلمة بأن وعدها وعد الصدق بأن من اجتنب منها كبائر الذنوب كفر عنه صغائرها وأدخله الجنة دار السلام وخلع عليه حلل الرضوان فقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ[1] عَنْهُ﴾ ما أنهاكم عنه أنا ورسولي ﷺ ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ التي هي دون الكبائر[2] وهي الصغائر، ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ الذي هو الجنة ولله الحمد والمنة. لهذا كانت هذه الآية من مبشرات القرآن لهذه الأمة.

هداية الآية الكريمة:

١ - وجوب الابتعاد عن سائر الكبائر، والصبر على ذلك حتى الموت.

٢ - الذنوب قسمان كبائر وصغائر ولذا وجب العلم بها لاجتناب كبائرها وصغائرها ما أمكن ذلك، ومن زلّ فليتب فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له[3].

٣ - الجنة لا يدخلها إلا ذوو النفوس الزكية الطاهرة باجتنابهم المدنسات لها من كبائر الذنوب والآثام والفواحش[4].

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٢، ٣٣]

(٣٢) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾: التمني: التشهي والرغبة في حصول الشيء، وأداته: ليت، ولو، فإن كان مع زوال المرغوب فيه عن شخص ليحصل للمتمني فهو الحسد. ﴿مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ﴾: أي ما فضل الله به أحدًا منكم فأعطاه علمًا أو مالاً أو جاهًا أو سلطانًا. ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾: أي حصة وحظ من الثواب والعقاب بحسب الطاعة والمعصية.

(٣٣) ﴿مَوَالِيَ﴾: الموالي من يلون التركة ويرثون الميت من أقارب. ﴿عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: أي حالفتموهم وتآخيتم معهم مؤكدين ذلك بالمصافحة واليمين. ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾: من الرفادة والوصيّة والنصرة لأنهم ليسوا ورثة.

معنى الآيتين:

صح أو لم يصح أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ليتنا كنا رجالاً فجاهدنا وكان لنا مثل أجر الرجال فإن الله سميع عليم، والذين يتمنون[5] حسدًا وغير حسد ما أكثرهم (٣٢) ومن هنا نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة (٣٢) عباده المؤمنين عن تمني ما فضّل الله تعالى به بعضهم على بعض فأعطى هذا وحرم

---

(١) اجتناب الكبائر إن كان المراد به كبائر الذنوب فلا بد من ضميمة أداء الفرائض فإن اجتناب الكبائر مع تضييع الفرائض غير مجدٍ، وإن أريد باجتناب الكبائر تحاشي ترك الفرائض والاحتماء من فعل الكبائر فذاك، ويشهد لهذا حديث الصحيح: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**».

(٢) اختلف في تحديد الكبيرة وفي عددها أمّا العدد فقد قيل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع وقد ورد النص في بعضها كحديث مسلم: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» فعد منها ستًا وفي أحاديث صحاح أخرى ذكر عددًا آخر، والذي عليه أهل العلم أنها لا تُعد ولكن تحدّ كما في التفسير، وأمّا الصغيرة فهي نسبية فالنظرة إلى اللّمسة صغيرة، واللّمسة إلى القبلة صغيرة وهكذا.

(٣) شاهده في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «غير أنّه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار» بعد قوله: هي إلى السبعمائة أقرب.

(٤) أهل الكبائر الذين ماتوا يزاولونها ولم يغفر لهم ويشفع لهم فإنهم يطهّرون وتزكو نفوسهم بعذاب النار ثمّ يغسلون أيضًا في نهر عند باب الجنة، يقال له: نهر الحيوان، فيدخلون الجنة بنفوس زكية، وأرواح طاهرة نقيّة.

(٥) التمني: نوع إرادة يتعلق بالمستقبل، وعلى خلافه التهلف لأنه يتعلق بالماضي، وسرّ النهي عنه أنّ فيه تعلق البال بالمتمنى ونسيان الأجل، ولذا حرم التمني الذي هو الحسد، وهو نوعان: تمني زوال النعمة عن غيره لتحصل له، وتمني زوال النعمة عن غيره ولو لم تحصل له وهو شرّ الحسد، وهل الغبطة من الحسد؟ والجواب: لا والغبطة هي أن يرى العبد نعمة علم أو مال لأحد فيغتبط ويسأل الله تعالى أن يكون له ذلك العلم ليعلمه ويعمل به، أو يكون له ذلك المال ليتصدق به فهذه الغبطة محمودة لحديث البخاري: «**لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق فيقول الرجل: لو أنّ لي مثل ما لفلان لعملت مثله فهما في الأجر سواء**».

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾

٨٤

ذاك لحكم اقتضت ذلك، ومن أظهرها الابتلاء بالشكر والصبر، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ﴾ ـ من علم أو مال. أو صحة أو جاه أو سلطان ـ ﴿بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وأخبر تعالى أن سنته في الثواب والعقاب الكسب والعمل فليعمل من أراد الأجر والمثوبة بموجبات ذلك من الإيمان والعمل الصالح، ولا يتمنى ذلك تمنيًا، وليكف عن الشرك والمعاصي من خاف العذاب والحرمان ولا يتمنى النجاة تمنيًا كما على من أراد المال والجاه فليعمل له بسننه المنوطة به ولا يتمنى فقط فإن التمني كما قيل بضائع النَّوكىٰ أي الحمقى، فلذا قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾، فرد القضية إلى سنته فيها وهي كسب الإنسان. كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۞﴾ ثم بيّن تعالى سنة أخرى في الحصول على المرغوب وهي دعاء الله تعالى فقال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[(١)] فمن سأل ربّه وألح عليه موقنًا بالإجابة أعطاه فيوفقه للإتيان بالأسباب، ويصرف عنه الموانع، ويعطيه بغير سبب إن شاء، وهو على كل شيء قدير، بل ومن الأسباب المشروعة الدعاء والإخلاص فيه.

﴿٣٣﴾ هذا ما تضمنته الآية الأولى أما الآية الثانية (٣٣) فإن الله تعالى يخبر مقررًا حكمًا شرعيًا قد تقدم في السياق وهو أن لكل من الرجال والنساء ورثة يرثونه إذا مات فقال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا[(٢)] مَوَالِيَ﴾ أي أقارب يرثونه إذا مات، وذلك من النساء والرجال أما الذين هم موالي بالحلف أو الإخاء فقط أي ليسوا من أولي الأرحام فالواجب إعطاؤهم نصيبهم من النصرة والرفادة. والوصية لهم بشيء إذ لا حظ لهم في الإرث لقوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، ولما كان توزيع المال وقسمته تتشوق له النفوس وقد يقع فيه حيف أو ظلم أخبر تعالى أنه على كل شيء شهيد فلا يخفى عليه من أمر الناس شيء فليتق ولا يُعص. فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفى عليه من أمركم شيء فاتقوه وأطيعوه ولا تعصوه.

هداية الآيتين:

١ - قبح التمني وترك العمل.

٢ - حرمة الحسد.

٣ - فضل الدعاء وأنه من الأسباب التي يحصل بها المراد.

٤ - تقرير مبدأ التوارث في الإسلام.

٥ - من عاقد أحدًا على حلف أو آخى أحدًا وجب عليه أن يعطيه حق النصرة والمساعدة وله أن يوصي له

---

(١) لحديث الترمذي وغيره قال ﷺ: **«سلو الله من فضله فإنه يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج»** أي: من الله تعالى وهو تعلق القلب بالربّ تعالى.

(٢) هذه الآية ناسخة لكل من الإرث بالتحالف والمؤاخاة وهي كقوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وأمّا التحالف وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فقد كان الرجل في الجاهلية يقول: لمن أراد محالفته: دمي دمك، وهدمي هدمك وثأري ثأرك وحربي حربك، وسلمي سلمك وترثني وأرثك، وأمّا المؤاخاة فقد كانت بين المهاجرين والأنصار بأمر رسول الله ﷺ فتوارثوا بها حتى نسخت بهذه الآية وآية الأنفال: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

بما دون الثلث[1]، أما الإرث فلا حق له لنسخ ذلك.

٦ - وجوب مراقبة الله تعالى، لأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء شهيد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤، ٣٥]

(٣٤) ﴿قَوَّٰمُونَ﴾: جمع قوام[2]: وهو من يقوم على الشيء رعاية وحماية وإصلاحا. ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ﴾: بأن جعل الرجل أكمل في عقله ودينه وبدنه فصلح للقوامة. ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾[3]: وهذا عامل آخر مما ثبتت به القوامة للرجال على النساء فإن الرجل بدفعه المهر وبقيامه بالنفقة على المرأة كان أحق بالقوامة التي هي الرئاسة. الصالحات[4]: جمع صالحة: وهي المؤدية لحقوق الله تعالى وحقوق زوجها. ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾: مطيعات لله ولأزواجهن. ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾: حافظات لفروجهن وأموال أزواجهن. ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: النشوز: الترفع عن الزوج وعدم طاعته. ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾: بالترغيب في الطاعة والتنفير من المعصية. ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾: أي لا تطلبوا لهن طريقًا تتوصلون به إلى ضربهن بعد أن أطعنكم.

(٣٥) ﴿شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾: الشقاق: المنازعة والخصومة حتى يصبح كل واحد في شق مقابل. ﴿حَكَمًا﴾: الحكم: الحاكم، والمحكم في القضايا للنظر والحكم فيها.

معنى الآيتين:

(٣٤) يروى في سبب نزول هذه الآية أن سعد[5] بن الربيع رضي الله عنه أغضبته امرأته فلطمها فشكاه وليها إلى رسول الله ﷺ كأنه يريد القصاص فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾. فقال وليّ المرأة أردنا أمرًا وأراد الله غيره، وما أراده الله خير. ورضي بحكم الله تعالى وهو أن الرجل ما دام قوّامًا على المرأة يرعاها ويربيها ويصلحها بما أوتي من عقل أكمل من عقلها، وعلم أغزر من علمها غالبًا وبُعد نظر في مبادىء الأمور ونهاياتها أبعد من نظرها يضاف إلى ذلك أنه دفع مهرًا لم تدفعه، والتزم بنفقات لم تلتزم هي بشيء منها فلما وجبت له الرئاسة عليها وهي رئاسة شرعية كان له الحق أن يضربها بما لا يشين جارحة أو يكسر عضوًا فيكون ضربه لها كضرب المؤدب لمن يؤدبه ويربيه، وبعد تقرير هذا السلطان للزوج على زوجته أمر الله تعالى بإكرام المرأة والإحسان إليها والرفق بها لضعفها وأثنى عليها فقال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، وهن: اللائي يؤدين حقوق الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وحقوق أزواجهن من الطاعة والتقدير والاحترام ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾: أي مطيعات لله تعالى، وللزوج، ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ أي حافظاتٌ مالَ الزوج وعرضه لحديث: «**وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله**»[6]، ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي بحفظ الله تعالى لها وإعانته لها إذ لو وكلت إلى نفسها لا تستطيع حفظ شيء وإنْ قَل. وفي سياق الكلام ما يشير إلى محذوف يفهم ضمنًا وذلك أن الثناء عليهن من قبل الله تعالى يستوجب من الرجل إكرام المرأة الصالحة والإحسان إليها والرفق بها لضعفها، وهذا ما ذكرته أولاً نبهت عليه هنا ليعلم أنه من دلالة الآية الكريمة، وقد ذكره غير واحد من السلف.

---

(١) يدخل في هذا المتبنى فإن لمن تبنّاه بمعنى ربّاه أن يوصي له بما دون الثلث أمّا أن ينسبه إليه فلا لأنه محرّم بالكتاب والسنة.

(٢) قوّام ومثله قيّام وقيّوم وقيّم كلها بمعنى واحد مشتقة من القيام، لأن من شأن مَنْ يهتم بالشيء وتدبيره أن يقف عليه ويقوم.

(٣) أخذ من هذه الجملة الفقهاء أنّ من عجز عن النفقة كان للزوجة فسخ النكاح لانعدام القوامة لها التي بها استحق الرجل العصمة، وخالف أبو حنيفة فلم يَرَ الطلاق بالإعسار.

(٤) أثنى رسول الله ﷺ على هؤلاء الصالحات بقوله: «**خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك**» وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ..﴾.

(٥) ذكر في سبب نزولها عدّة أسباب، وما ذكرناه أولى بالصحة والقبول.

(٦) رواه أبو داود الطيالسي، وقد تقدم في النهر آنفًا وهو حديث صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾. فإنه تعالى يرشد الأزواج إلى كيفية علاج الزوجة إذا نشزت أي ترفعت على زوجها ولم تؤدِّ إليه حقوقه الواجبة له بمقتضى العقد بينهما، فيقول: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي ترفعهن بما ظهر لكم من علامات ودلائل كأن يأمرها فلا تطيع ويدعوها فلا تجيب وينهاها فلا تنتهي، فاسلكوا معهن السبيل الآتي: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أولاً، والوعظ تذكيرها بما للزوج عليها من حق يجب أداؤه، وما يترتب على إضاعته من سخط الله تعالى وعذابه، وبما قد ينجم من إهمالها في ضربها أو طلاقها فالوعظ ترغيب بأجر الصالحات القانتات، وترهيب من عقوبة المفسدات العاصيات فإن نفع الوعظ فيها وإلا فالثانية وهي أن يهجرها[1] الزوج في الفراش فلا يكلمها وهو نائم معها على فراش واحد وقد أعطاها ظهره فلا يكلمها ولا يجامعها وليصبر على ذلك حتى تؤوب إلى طاعته وطاعة الله ربهما معًا وإن أصرت ولم يجدِ معها الهجران في الفراش، فالثالثة وهي أن يضربها[2] ضربًا غير مبرح لا يشين جارحة ولا يكسر[3] عضوًا. وأخيرًا فإن هي أطاعت زوجها فلا يحل بعد ذلك أن يطلب الزوج طريقًا إلى أذيّتها لا بضرب ولا بهجران لقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾ أي الأزواج ﴿فَلَا تَبۡغُواْ﴾ أي تطلبوا ﴿عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ لأذيتهنّ باختلاق الأسباب وإيجاد العلل والمبررات لأذيتهنّ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ تذييل للكلام بما يشعر من أراد أن يعلو[4] على غيره بما أوتي من قدرة بأن الله أعلى منه وأكبر فليخشَ الله وليترك من علوه وكبريائه.

(٣٥) هذا ما تضمنته هذه الآية العظيمة (٣٤) أما الآية الثانية (٣٥) فقد تضمنت حكمًا اجتماعيًا آخر وهو إن حصل شقاق بين زوج وامرأته فأصبح الرجل في شق والمرأة في شق آخر فلا تلاقي بينهما ولا وفاق ولا وئام وذلك لصعوبة الحال فالطريق إلى حل هذا المشكل ما أرشد الله تعالى إليه، وهو أن يبعث ولي الزوجة حكمًا من قبله، ويبعث ولي الزوج حكمًا من قبله، أو يبعث الزوج نفسه حكمًا وتبعث الزوجة أيضًا حكمًا من قبلها، أو يبعث القاضي كذلك الكل جائز لقوله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ﴾ وهو يخاطب المسلمين على شرط أن يكون الحكم عدلاً عالمًا بصيرًا حتى يمكنه الحكم والقضاء بالعدل. فيدرس الحكمان القضية أولاً مع طرفي النزاع ويتعارفان إلى أسباب الشقاق وبما في نفس الزوجين من رضى وحب، وكراهية وسخط ثم يجتمعان على إصلاح ذات البين فإن أمكن ذلك فيها وإلا فرقا بينهما برضا الزوجين. مع العلم أنهما إذا ثبت لهما ظلم أحدهما فإن عليهما أن يطالبا برفع الظلم فإن كان الزوج هو الظالم فليرفع ظلمه وليؤد ما وجب عليه، وإن كانت المرأة هي الظالمة فإنها ترفع ظلمها أو تفدي نفسها بمال فيخالعها به زوجها. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ

---

(١) هذا الهجر في الفراش شهر فلا يزيد عليه كما فعل النبي ﷺ حين أسرَّ إلى حفصة فأفشته لعائشة، ولا يكون كالإيلاء أربعة أشهر.

(٢) لم يصرح الله تعالى بالضرب في كتابه إلاّ في الحدود وهنا في ضرب الناشز، وهذا دليل في الآية على أنّ عصيان الزوجة لزوجها حرام ويشهد لهذا حديث: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح**» رواه مسلم.

(٣) لحديث مسلم في خطبة حجة الوداع إذ فيه: «**واتقوا الله في النساء فإنهنّ عندكم عوان ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهم ضربًا غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف**».

(٤) روى أبو داود والنسائي وابن ماجه أنه لمّا قال الرسول ﷺ: «**لا تضربوا إماء الله**» فجاء عمر، وقال يا رسول الله: ذئرت النساء على أزواجهن فرخص ﷺ في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن فقال رسول الله ﷺ: «**لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن ليس أولئك بخياركم**» ومعنى ذئرت النساء: أي: نشزت وتغير خلقهن، أو نشزن واجترأن والاجتراء هنا أولى بالمعنى.

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

٨٥

﴿بَيْنِهِمَا﴾، والخوف هنا بمعنى التوقع الأكيد بما ظهر من علامات ولاح من دلائل فيعالج الموقف قبل التأزم الشديد ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾، لأنهما أعرف بحال الزوجين من غيرهما، وقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ فإنه يعني الحكمين، ﴿يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي إن كان قصدهما الإصلاح والجمع بين الزوجين وإزالة الشقاق والخلاف بينهما فإن الله تعالى يعينهما على مهمتهما ويبارك في مسعاهما ويكللهما بالنجاح. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾. ذكر تعليلاً لما واعد به تعالى من التوفيق بين الحكمين، إذ لو لم يكن عليمًا خبيرًا ما عرف نيات الحكمين وما يجري في صدورهما من إرادة الإصلاح أو الإفساد.

هداية الآيتين:

١ - تقرير مبدأ القيومية للرجال على النساء وبخاصة الزوج على زوجته.

٢ - وجوب إكرام الصالحات والإحسان إليهن.

٣ - بيان علاج مشكلة نشوز[1] الزوجة وذلك بوعظها أولاً ثم هجرانها في الفراش ثانيًا، ثم بضربها ثالثًا.

٤ - لا يحل اختلاق الأسباب وإيجاد مبررات لأذية المرأة بضرب وبغيره.

٥ - مشروعية التحكيم في الشقاق بين الزوجين وبيان ذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ - ٣٩]

﴿٣٦﴾ اعبدوا الله[2]: الخطاب للمؤمنين ومعنى اعبدوا: أطيعوه في أمره ونهيه مع غاية الذل والحب والتعظيم له عز وجل. لا تشركوا به[3] شيئًا: أي لا تعبدوا معه غيره بأي نوع من أنواع العبادات التي تعبد الله تعالى بها عباده من دعاء وخشية وذبح ونذر وركوع وسجود وغيرها. ذوي القربى: أصحاب القرابات. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: المسافر استضيف أو لم يستضف. ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾[4]: أي القريب لنسب أو مصاهرة. الجار الجنب: أي الأجنبي مؤمنًا كان أو كافرًا. الصاحب بالجنب: الزوجة، والصديق الملازم كالتلميذ والرفيق في السفر. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: من الأرقاء العبيد فتيان وفتيات. مختال فخور: الاختيال: الزهو في المشي، والفخر والافتخار بالحسب

---

(١) النشوز: العصيان، مأخوذ من النشز وهو ما ارتفع من الأرض، ويقال: نشز الرجل ينشز إذا كان قاعدًا فنهض قائمًا ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ أي: ارتفعوا وقوموا، فنشوز المرأة ترفعها عن طاعة الزوج.

(٢) هذه الآية محكمة إجماعًا لا نسخ فيها البتة وتسمى آية الحقوق العشرة.

(٣) الشرك ثلاثة أنواع: شرك في ربوبية الله تعالى للعالمين، وشرك في أسمائه تعالى وشرك في عبادته تعالى، والشرك بأنواعه الثلاثة من الذنب الذي لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة الصادقة منه، ومن شرك العبادة: الرياء.

(٤) قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إنّ لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ فقال: «**إلى أقربهما منك بابًا**» والجيران ثلاثة: جار له ثلاثة حقوق، وجار له حقان وجار له حق واحد، فالجار الذي له ثلاثة حقوق: فالجار المسلم القريب له حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام، والجار الذي له حقان: فالجوار المسلم له حق الجار وحق الإسلام، والجار الذي له حق واحد: هو الكافر له حق الجوار.

والنسب والمال بتعداد ذلك وذكره.

(٣٧) يبخلون: يمنعون الواجب بذله من المعروف مطلقًا. ﴿وَيَكْتُمُونَ﴾: يجحدون ما أعطاهم الله من علم ومال تفضلًا منه عليهم.

(٣٨) ﴿قَرِينًا﴾: القرين: الملازم الذي لا يفارق صاحبه كأنه مشدود معه بقرن أي بحبل.

(٣٩) ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾[1]: أي أي شيء يضرهم أو ينالهم بمكروه إذا هُمْ آمنوا؟

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في هداية المؤمنين، وبيان الأحكام الشرعية لهم ليعملوا بها فيكملوا ويسعدوا ففي الآية الأولى (٣٦) يأمر تعالى المؤمنين بعبادته وتوحيده[2] فيها وبالإحسان[3] إلى الوالدين وذلك بطاعتهم في المعروف وإسداء الجميل لهم، ودفع الأذى عنهم، وكذا الأقرباء، واليتامى، والمساكين، والجيران[4] مطلقًا أقرباء أو أجانب، والصاحب الملازم الذي لا يفارق كالزوجة والمرافق في السفر والعمل والتلمذة والطلب ونحو ذلك من الملازمة التي لا تفارق إلا نادرًا إذ الكل يصدق عليه لفظ الصاحب بالجنب. وكذا ابن السبيل وما ملكت اليمين من أمة أو عبد والمذكورون الإحسان إليهم آكد وإلا فالإحسان معروف يبذل لكل الناس كما قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، وقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(٣٦) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ دال على أن منع الإحسان الذي هو كف الأذى وبذل المعروف ناتج عن خلق البخل والكبر وهما من شر الأخلاق، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣٦).

(٣٧) وأما الآية الثانية (٣٧) وقد تضمنت بمناسبة ذم البخل والكبر التنديد ببخل بعض أهل الكتاب وكتمانهم الحق وهو ناتج عن بخلهم أيضًا. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ[5] يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي من مال وعلم وقد كتموا نعوت النبي ﷺ وصفاته الدالة عليه في التوراة والإنجيل، وبخلوا بأموالهم وأمروا بالبخل بها، إذ كانوا يقولون للأنصار لا تنفقوا أموالكم على محمد فإنا نخشى عليكم الفقر، وخبر الموصول الذين محذوف تقديره هم الكافرون حقًا دلّ عليه قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا[6] لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾. هذا ما جاء في هذه الآية الثانية.

(٣٨) أما الآيتان الثالثة (٣٨) والرابعة (٣٩) فإن الأولى منهما قد تضمنت بيان حال أناسٍ آخرين غير اليهود وهم المنافقون فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي مراءاة لهم ليتقوا بذلك المذمة ويحصلوا على المحمدة. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. لأنهم كفار مشركون وإنما أظهروا الإسلام تقية فقط ولذا كان إنفاقهم رياء لا غير. وقوله: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي بئس القرين له الشيطان وهذه الجملة: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ . . .﴾ دالة على خبر الموصول المحذوف اكتفى بها عن ذكره كما في الموصول الأول

---

(١) الاستفهام هنا إنكاري توبيخي.

(٢) التوحيد: ضد الشرك وقد ورد في الشرك ـ تحذيرًا منه ـ أحاديث صحاح منها حديث مسلم: يقول الرسول ﷺ: **«قال الله تبارك وتعالى، أنا أغنى الشركاء عن الشرك مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»**.

(٣) قرن تعالى في غير آية عبادته بالإحسان إلى الوالدين نظرًا إلى أنّ الله تعالى خلق ورزق فهو أحق بالطاعة، وأنّ الوالدين تكوّن الولد منهما ورباه في صغره فكانت المنّة لهما بعد الله تعالى.

(٤) صحّ في الإحسان إلى الجار العديد من الأحاديث منها: **«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»** ومنها: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»** ومنها: **«والله لا يؤمن»** فقيل: مَنْ؟ قال: **«من لا يأمن جاره بوائقه»**.

(٥) البخل المذموم شرعًا: هو الامتناع من أداء الحقوق الواجبة، والشح: بخل مع حرص وهو شرّ من مجرّد البخل.

(٦) أصل ﴿أَعْتَدْنَا﴾. أعددنا، أبدلت الدال الأولى تاء لثقل الدالين عند فك الإدغام، أمّا مع الإدغام فلا إبدال نحو: أعدّ، ومنه العتاد الحربي: وهو عدّة السّلاح.

وقد يقدر بمثل: الشيطان[١] قرينهم هو الذي زين لهم الكفر بالله واليوم الآخر.

﴿٣٩﴾ هذا ما تضمنته الآية الثانية (٣٩) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ[٢] لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ فقد تضمنت الإنكار والتوبيخ لأولئك المنافقين الذين ينفقون رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر بسبب فتنة الشيطان لهم وملازمته إياهم، فقال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أي شيء يضرهم أو أي أذى يلحقهم في العاجل أو الآجل، لو صدقوا الله ورسوله ﷺ وأنفقوا في سبيل الله مما رزقهم الله، وفي الخطاب دعوة ربانية لهم لتصحيح إيمانهم واستقامتهم بالخروج من دائرة النفاق التي أوقعهم فيها القرين عليه لعائن الله، فلذا لم يذكر تعالى وعيدًا لهم، وإنما قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وفي هذه تخويف لهم من سوء حالهم إذا استمروا على نفاقهم فإن علم الله بهم يستوجب الضرب على أيديهم إن لم يتوبوا.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير عشرة حقوق والأمر بأدائها فورًا وهي عبادة الله وحده والإحسان بالوالدين، وإلى كل المذكورين[٣] في الآية الأولى.

٢ ـ ذم الاختيال[٤] الناجم عن الكبر وذم الفخر وبيان كره الله تعالى لهما.

٣ ـ حرمة البخل[٥] والأمر به وحرمة كتمان العلم وخاصة الشرعي منه.

٤ ـ حرمة الرياء وذم صاحبها.

٥ ـ ذم قرناء السوء لما يأمرون به ويدعون إليه قرناءهم حتى قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٠ ـ ٤٢]

﴿٤٠﴾ الظلم: وضع شيء في غير موضعه. ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: المثقال: الوزن مأخوذ من الثقل فكل ما يوزن فيه ثقل، والذرة أصغر حجم في الكون حتى قيل إنه الهباء أو رأس النملة. الحسنة: الفعلة الجميلة من المعروف. ﴿يُضَاعِفْهَا﴾: يريد فيها ضعفها. ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾: من عنده. ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾: جزاءً كبيرًا وثوابًا عظيمًا. الشهيد: الشاهد على الشيء لعلمه به.

﴿٤٢﴾ ﴿يَوَدُّ﴾: يحب. ﴿تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾: يكونون ترابًا مثلها. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾: أي لا يخفون كلامًا.

معنى الآيات:

﴿٤٠﴾ لما أمر تعالى في الآيات السابقة بعبادته والإحسان إلى من ذكر من عباده. وأمر بالإنفاق في سبيله، وندّد بالبخل والكبر والفخر، وكتمان العلم، وكان هذا يتطلب الجزاء بحسبه خيرًا أو شرًا ذكر في هذه الآية (٤٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ[٦] مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ذكر عدله في المجازاة ورحمته، فأخبر أنه عند الحساب لا يظلم عبده وزن

---

(١) أو فقرينهم الشيطان.

(٢) ماذا: اسم استفهام بمعنى: أي شيء، ويجوز أن تكون ما: مبتدأ، وذا: خبره، وهو بمعنى: الذي.

(٣) أخص المملوك بذكر ما ورد فيه ففي مسلم يقول ﷺ: **«للمملوك طعامه وشرابه وكسوته، ولا يكلّف من العمل ما لا يطيق»** وقال: **«لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي بل ليقل: فتاتي وفتاي»** وفي هذا مراعاة لجانب التوحيد، ومراعاة لشعور المملوك حتى لا يرى أنه مهان مستضعف. وقال ﷺ في فضل العبد الصالح: **«للعبد المملوك المصلح أجران»**.

(٤) الاختيال من أكبر الذنوب، وفي الحديث الصحيح: **«إن الله لا ينظر إلى من جرّ ثوبه خيلاء»**.

(٥) شاهده قوله ﷺ: **«وأيّ داء أدوأ من البخل»** وقال: **«إيّاكم والشحّ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا»** وفي رواية: **«حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم»**.

﴿٤٠﴾ نصب ﴿مِثْقَالَ﴾ على المفعولية المطلقة إذ التقدير: لا يظلمون ظلمًا مقدرًا بمثقال ذرة والمثقال: **ما يظهر به الثقل** فهو كاسم الآلة (مفعال) والمراد به: المقدار، والذرّة: بيضة النملة.

(٦) روي عن ابن مسعود وابن عباس أنّ هذه الآية إحدى آيات هي خير مما طلعت عليه الشمس، ووجه ذلك في حديث الشفاعة في صحيح مسلم إذ فيه: **«ثم يقول لهم: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ـ أي: النار ـ خيرًا»**.

ذرة وهي أصغر شيء وذلك بأن لا ينقص من حسناته حسنة، ولا يزيد في سيئاته سيئة، وإن توجد لدى مؤمن حسنة واحدة يضاعفها بأضعاف يعلمها هو ويعط من عنده بدون مقابل أجرًا عظيمًا لا يقادر قدره فللّه الحمد والمنة هذا ما تضمنته الآية الأولى (٤٠) أما الآية الثانية (٤١) فإنه تعالى لما ذكر الجزاء والحساب الدال عليه السياق ذكر ما يدل على هول يوم الحساب وفظاعة الأمر فيه، فخاطب رسوله ﷺ قائلاً:

(٤١) ﴿فَكَيْفَ[1] إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾؟ ومعنى الآية الكريمة فكيف تكون حال أهل الكفر والشر والفساد إذا جاء الله تعالى بشهيد من كل أمة ليشهد[2] عليها فيما أطاعت وفيما عصت ليتم الحساب بحسب البينات والشهود والجزاء بحسب الكفر والإيمان والمعاصي والطاعات، وجئنا بك أيها الرسول الخليل شهيدًا على هؤلاء أي على أمته ﷺ من آمن به ومن كفر إذ يشهد أنه بلّغ رسالته وأدّى أمانته ﷺ.

هذا ما تضمنته الآية الثانية أما الآية الثالثة (٤٢) فإنه تعالى لما ذكر ما يدل على هول يوم القيامة في الآية (٤١) ذكر مثلاً لذلك الهول وهو أن الذين كفروا يودون وقد عصوا الرسول ﷺ لو يسوون بالأرض فيكونون ترابًا حتى لا يحاسبوا ولا يجزوا بجهنم. وأنهم في ذلك اليوم لا يكتمون الله كلامًا؛ إذ جوارحهم تنطق فتشهد عليهم.

(٤٢) قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم يؤتى من كل أمة بشهيد ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ[3] بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ فيكونون ترابًا مثلها[4]. مرادهم أن يسووا هم بالأرض فيكونون ترابًا وخرج الكلام على معنى أدخلت رأسي في القلنسوة والأصل أدخلت القلنسوة في رأسي وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ إخبار عن عجزهم عن كتمان شيء عن الله تعالى لأن جوارحهم تشهد عليهم بعد أن يختم على أفواههم، كما قال تعالى من سورة يس: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ ـ بيان عدالة الله تعالى ورحمته ومزيد فضله.

٢ ـ بيان هول يوم القيامة حتى إن الكافر ليود أن لو سويت به الأرض فكان ترابًا.

٣ ـ معرفة رسول الله ﷺ بآثار الشهادة على العبد يوم القيامة إذ أخبر عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال له رسول الله ﷺ يومًا: «**اقرأ عليَّ القرآن**» فقلت: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ فقال: «**أحب أن أسمعه من غيري**» قال: فقرأت ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ حتى وصلت هذه الآية (٤١) ﴿فَكَيْفَ[5] إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية، وإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان الدموع[6] وهو يقول: «**حسبك**» أي كفاك ما قرأت عليّ.

شرح الكلمات: [الآية: ٤٣]

(٤٣) ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾: لا تدنوا كناية عن الدخول فيها، أو لا تدنوا من مساجدها. ﴿سُكَارَىٰ﴾: جمع سكران وهو من شرب مسكرًا فستر عقله وغطاه. ﴿تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾:

---

(١) كيف: فتحت فاؤها لالتقاء الساكنين إذ المفروض فيها أنها ساكنة وهي هنا في محل نصب إذ التقدير: تكون حالهم كيف؟

(٢) هو رسولها الذي أرسل إليها.

(٣) قرئت: ﴿تسوّى﴾ بتشديد كل من السين والواو مع فتح التاء في السبع، وقرئت أيضًا: ﴿تسوى﴾ بفتح التاء وتخفيف السين، وتشديد الواو، وبضمّ التاء وتشديد الواو.

(٤) أي: تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها، فتكون الباء بمعنى على، أي: لو تسوى عليهم أي: تنشق فتسوى عليهم.

(٥) الاستفهام للتعجب من حال الناس في عرصات القيامة وقد جيء بالشهود، وأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين.

(٦) إن بكاء الرسول ﷺ هنا لسببين: الأول: المسرة التي نالته بتشريف الله تعالى له في هذا المشهد العظيم حيث يؤتى به شهيدًا على أمته، لا يعرف عدد أفرادها إلاّ الله خالقها، ويدخل الجنة بشهادته عدد لا يحصى، والثاني: الأسى والأسف الذي يلحقه من رؤيته أعدادًا هائلة من أمته يدخلون النار بشهادته عليهم، والبكاء يكون للمسرة والحزن معًا.

لزوال السكر عنكم ببعد شربه عن وقت الصلاة وهذا كان قبل تحريم الخمر وسائر المسكرات. ﴿وَلَا جُنُبًا﴾[(١)]: الجنب: من به جنابة وللجنابة سببان جماع، أو احتلام. ﴿عَابِرِي[(٢)] سَبِيلٍ﴾: مارين بالمسجد مرورًا بدون جلوس فيه. ﴿الْغَائِطِ﴾: المكان المنخفض للتغوط: أي التبرز فيه. ﴿لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾: جامعتموهن. ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾: اقصدوا ترابًا طاهرًا. ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾: عفوًا: لا يؤاخذ على كل ذنب، غفورًا: كثير المغفرة لذنوب عباده التائبين إليه.

معنى الآية الكريمة:

(٤٣) لا شك أن لهذه الآية سببًا نزلت بمقتضاه وهو أن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله عنه حسب رواية الترمذي أقام مأدبة لبعض الأصحاب فأكلوا وشربوا وحضرت الصلاة فقاموا لها وتقدم أحدهم يصلي بهم فقرأ بسورة الكافرون وكان ثملان فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، وهذا باطل، وواصل قراءته بحذف حروف النفي فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ[(٣)] آمَنُوا . . .﴾ أي يا من صدّقتم بالله ورسوله ﷺ، ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ أي لا تدخلوا فيها، والحال أنكم سكارى من الخمر إذ كانت يومئذ حلالاً غير حرام، حتى تكون عقولكم تامة تميزون بها الخطأ من الصواب فتعلموا ما تقولون في صلاتكم. ولا تقربوا مساجد الصلاة للجلوس فيها وأنتم جنب حتى تغتسلوا اللهم إلا من كان منكم عابر سبيل، إذ كانت طرق بعضهم إلى منازلهم على المسجد النبوي. ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ بجراحات يضرها الماء أو مرضى مرضًا لا تقدرون معه على استعمال الماء للوضوء أو الغسل، أو كنتم ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ[(٤)] أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ بمضاجعتهن أو مسستموهن بقصد الشهوة ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ تغتسلون به إن كنتم جنبًا أو توضؤون به إن كنتم محدثين حدثًا أصغر ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي اقصدوا ترابًا طاهرًا ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ مرة واحدة فإن ذلك مجزىء لكم عن الغسل والوضوء فإن صح المريض أو وُجد الماء فاغتسلوا أو توضؤوا ولا تيمموا لانتفاء الرخصة بزوال المرض أو وجود الماء. وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ يخبر تعالى عن كماله المطلق فيصف نفسه بالعفو عن عباده المؤمنين إذا خالفوا أمره، وبالمغفرة لذنوبهم إذا هم تابوا إليه، ولذا هو عز وجل لم يؤاخذهم لما صلّوا وهم سكارى لم يعرفوا ما يقولون، وغفر لهم وأنزل هذا القرآن تعليمًا لهم وهداية لهم.

هداية الآية الكريمة:

١ - تقرير مبدأ النسخ للأحكام الشرعية في القرآن والسنة.

٢ - حرمة مكث[(٥)] الجنب في المسجد، وجواز العبور والاجتياز بدون مكث.

٣ - وجوب الغسل على الجنب وهو من قامت به جنابة بأن احتلم فرأى الماء أو جامع أهله فأولج

---

(١) ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ هذا معطوف على محل جملة ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا﴾ أي: لا تصلوا وقد أجنبتم، لفظ الجنب لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع لأنه على وزن المصدر كالقرب والبعد يقال: هو جنب وهي جنب، وهم جنب وهن جنب بلا فرق.

(٢) يقال: عبرت الطريق: إذا قطعته من جانب إلى جانب آخر، وعبرت النهر كذلك، والمعبر: ما يعبر عليه من سفينة ونحوها، وناقة عبر أسفار: لا يزال يسافر عليها ويقطع بها الفلاة والهاجرة لسرعة مشيها.

(٣) روى أبو داود في سننه أنه لما نزلت آية البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ قال عمر: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، ولما نزلت هذه الآية من النساء قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، ولما نزلت آية المائدة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال: انتهينا يا ربّنا.

(٤) هل السفر مبيح للتيمم وإن وجد الماء؟ الجواب: لا، وإنما ذكر السفر لأن الغالب فيه أن لا يوجد ماء، أمّا الحضر فالماء فيه قلّما ينقطع ولا يوجد.

(٥) يحرم قراءة القرآن على الجنب لحديث ابن ماجه وغيره: «**لا يقرأ الجنب والحائض شيئًا من القرآن**» وحديث الدارقطني: «كان رسول الله ﷺ لا يحجبه عن قراءة القرآن شيء إلا أن يكون جنبًا».

ذكره[1] في فرج امرأته ولو لم ينزل ماءً.

وكيفية الغسل: أن يغسل كفيه قائلاً: بسم الله ناويًا رفع الحدث الأكبر ثم يستنجي فيغسل فرجَيْهِ وما حولهما، ثم يتوضأ فيغسل كفيه ثلاثًا، ثم يتمضمض ويستنشق الماء، ويستنثره ثلاثًا، ثم يغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه وأذنيه مرة واحدة ثم يغسل رجليه إلى الكعبين ثم يغمس كفيه في الماء ثم يخلل أصول شعر رأسه، ثم يحثو الماء على رأسه يغسله بكل حثوة، ثم يفيض الماء على شقه الأيمن يَغْسِله، ثم على شقه الأيسر يَغْسِله من أعلاه إلى أسفله، ويتعهد بالماء إبطيه وكل مكان من جسمه ينبو عنه الماء كالسرة وتحت الركبتين[2].

٤ - إذا لم يجد المرء التراب لمطر ونحوه تيمم بكل أجزاء الأرض[3] من رمل وسبخة وحجارة والتيمم هو أن يضرب بكفه الأرض ثم يمسح وجهه وكفيه بهما لحديث عمار رضي الله عنه في الصحيح.

٥ - بيان عفو الله وغفرانه لعدم مؤاخذة من صلوا وهم سكارى.

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٤ - ٤٦]

﴿٤٤﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تبصر أي بقلبك أي تعلم. ﴿نَصِيبًا﴾: حظًا وقسطًا. ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: أي الكفر بالإيمان. الأعداء: جمع عدو وهو من يقف بعيدًا عنك يود ضرك ويكره نفعك.

﴿٤٦﴾ ﴿هَادُواْ﴾: أي اليهود قيل لهم ذلك لقولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا. ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: التحريف: الميل بالكلام عن معناه إلى معنى باطل للتضليل. ﴿ٱلْكَلِمَ﴾: الكلام وهو كلام الله تعالى في التوراة. ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: أي اسمع ما تقول لا أسمعك الله. وهذا كفر منهم صريح. ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾: سبهم للرسول ﷺ هو الطعن الأعظم في الدين. ﴿وَٱنظُرْنَا﴾: وأمهلنا حتى نسمع فنفهم. أقوم: أعدل وأصوب. ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾: طردهم من رحمته وأبعدهم من هداه بسبب كفرهم برسول الله ﷺ.

معنى الآيات:

﴿٤٤﴾ روي أن هذه الآيات نزلت في رفاعة بن زيد بن التابوت أحد عظماء اليهود بالمدينة، كان إذا كلم رسول الله ﷺ لَوَى لسانه وقال: راعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام وعابه فأنزل الله تعالى هذه الآيات الثلاث إلى قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا شرحها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ[4] ٱلضَّلَٰلَةَ

---

(١) لحديث مسلم: «**إذا جلس بين شعبها الأربع، ومسّ الختان الختان فقد وجب الغسل**» أمّا حديث مسلم: «**إنما الماء من الماء**» فمنسوخ بالحديث المذكور أعلاه، وعلى هذا جماهير الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة.

(٢) لحديث: «**تحت كل شعرة جنابة اغسلوا الشعر وأنقوا البشرة**» قال ابن عيينة: المراد وأنقوا البشرة: غسل الفرجين وتنظيفهما.

(٣) الإجماع على جواز التيمم بالتراب المنبت الطاهر، غير المنقول ولا المغصوب، والإجماع على عدم الجواز على الذهب، والفضة والياقوت، والأطعمة كالخبز واللحم وغيرهما وكذا النجاسات واختلف في غير ما ذكر كالحجارة والسبخة، والرمل وما إلى ذلك.

(٤) جملة: ﴿يَشْتَرُونَ﴾ في محل نصب حالية، وهي بضميمة جملة: ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فيكون مثار العجب في نفس السامع، لأنّ اشتراء العالم الضلالة أمر عجب بلا شك.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۝﴾ أي ألم ينته إلى علمك وإلى علم أصحابك ما يحملكم على التعجب: العلم بالذين أوتوا نصيبًا من الكتاب وهم رفاعة بن زيد وإخوانه من اليهود، أعطوا حظًا من التوراة فعرفوا صحة الدين الإسلامي، وصدق نبيه ﷺ ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ وهو الكفر يشترونها بالإيمان، حيث جحدوا نعوت النبي ﷺ وصفاته في التوراة للإبقاء على مركزهم بين قومهم يسودون ويتفضلون، ويريدون مع ذلك أن تضلوا أيها المؤمنون السبيل سبيل الحق والرشد وهو الإيمان بالله ورسوله ﷺ والعمل بطاعتهما للإسعاد والإكمال.

(٤٥) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ[١] بِأَعْدَائِكُمْ﴾ الذين يودون ضركم ولا يودون نفعكم، ولذا أخبركم بهم لتعرفوهم وتجتنبوهم فتنجوا من مكرهم وتضليلهم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ لكم تعتمدون عليه وتفوضون أموركم إليه ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينصركم عليهم وعلى غيرهم فاعبدوه وتوكلوا عليه.

(٤٦) ﴿مِّنَ[٢] الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ أي هم من اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، والكلام هو كلام الله تعالى في التوراة وتحريفه بالميل به عن القصد، أو بتبديله وتغييره تضليلًا للناس وإبعادًا لهم عن الحق المطلوب منهم الإيمانُ به والنطقُ والعمل به. ويقولون للنبي ﷺ كفرًا وعنادًا ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا[٣] وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ[٤]﴾ أي لا أسمعك الله ﴿وَرَاعِنَا﴾ وهي كلمة ظاهرها أنها من المراعاة وباطنها الطعن في رسول الله ﷺ إذ اليهود يعدونها من الرعونة يقولونها لرسول الله ﷺ سبًا وشتمًا له قبّحهم الله ولعنهم وقطع دابرهم.

وقوله تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ أي يلوون ألسنتهم بالكلمة التي يسبون بها حتى لا تظهر عليهم، ويطعنون بها رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا﴾ أي انتظرنا بدل راعنا لكان خيرًا لهم وأقوم أي أعدل وأكثر لياقة وأدبًا ولكن لا يقولون هذا لأن الله تعالى لعنهم وحرمهم من كل توفيق بسبب كفرهم ومكرهم فهم لا يؤمنون إلا قليلًا. أي إيمانًا لا ينفعهم لقلته فهو لا يصلح أخلاقهم ولا يطهر نفوسهم ولا يهيئهم للكمال في الدنيا ولا في الآخرة.

هداية الآيات:

١ - بيان مكر اليهود بالمؤمنين بالعمل على إضلالهم في عهد النبوة وإلى اليوم.

٢ - في كفاية الله للمؤمنين ونصرته ما يغنيهم أن يطلبوا ذلك من أحد غير ربهم عز وجل.

٣ - الكشف عن سوء نيات وأعمال اليهود إزاء رسول الله ﷺ.

٤ - الإيمان[٥] القليل لا يجدي صاحبه ولا ينفعه بحال.

شرح الكلمات: [الآية: ٤٧]

(٤٧) ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: اليهود والنصارى، والمراد بهم هنا اليهود لا غير. ﴿بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا﴾: القرآن. ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ نذهب آثارها بطمس الأعين وإذهاب أحداقها. ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾: نجعل الوجه قفا، والقفا وجهًا. ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ لعنهم مسخهم قردة خزيًا لهم وعذابًا مهينًا. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أمر الله: مأموره كائن لا محالة لأنه تعالى لا يعجزه شيء.

معنى الآية الكريمة:

(٤٧) ما زال السياق في اليهود المجاورين للرسول ﷺ بالمدينة ففي هذه الآية ناداهم[٦] الله تبارك وتعالى

---

(١) جملة اعتراضية وهي تحمل التعريض بأنّ إرادة اليهود تضليل المسلمين ناجمة عن عداوة وحسد للمسلمين.

(٢) ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: من الذين هادوا جماعة يحرفون الكلم عن مواضعه، ومِنْ: تبعيضية.

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما إنّهم كانوا يقولون: سمعنا قولك، وعصينا أمرك.

(٤) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ مرادهم من قولهم: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ اسمع لا سمعت.

(٥) شاهده قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا يصح إن كانت الجملة دالّة على شيء من الإيمان أمّا على رأي من يرى أنّ الكلام دالّ على نفي الإيمان بالكليّة فلا دليل على أنّ قليل الإيمان لا ينفع.

(٦) قال القرطبي قال ابن إسحق: كلّم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود منهم عبدالله بن صوريا وكعب بن أسد وقال لهم: «**يا معشر اليهود: اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أنّ الذي جئتكم به الحق**». قالوا: ما نعرف ذلك يا محمد وجحدوا=

بعنوان العلم والمعرفة وهو نسبتهم إلى الكتاب الذي هو التوراة آمرًا إياهم بالإيمان بكتابه أي بالقرآن الكريم وبمن أنزله عليه محمد ﷺ إذ الإيمان بالمنزّل إيمان بالمنزّل عليه ضمنًا. فقال: ﴿ءَامِنُوا﴾ بالفرقان المصدق لما معكم من أصول الدين ونعوت الرسول ﷺ والأمر بالإيمان به ونصرته خفّوا إلى الإيمان واتركوا التردد من قبل أن يحل بكم ما حلّ ببعض أسلافكم حيث مسخوا قردة وخنازير. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾[1] فنذهب حدقة أعينها وشاخص أنوفها ونُغلق أفواهها فتصبح الوجوه أقفاء، والأقفاء وجوهًا يمشون القهقراء وهو معنى قوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أي الذين اعتدوا منكم في السبت حيث صادوا فيه وهو محرم عليهم فمسخهم قردة خاسئين. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي مأموره ﴿مَفْعُولًا﴾ ناجزًا، لا يتخلف ولا يتأخر لأن الله تعالى لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير.

هداية الآية الكريمة:

١ - المفروض أن ذا العلم يكون أقرب إلى الهداية، ولكن من سبقت شقوته لما يعلم الله تعالى من اختياره الشر والإصرار عليه لا ينفعه العلم، ولا يهتدي به هؤلاء اليهود الذين دعاهم الله تعالى إلى الإيمان فلم يؤمنوا.

٢ - وجوب تعجيل التوبة قبل نزول العذاب وحلول ما لا يحب الإنسان من عذاب ونكال.

٣ - قد يكون المسخ في الوجوه بمسخ الأفكار والعقول فتفسد حياة المرء وتسوء وهذا الذي حصل ليهود المدينة. فنقضوا عهودهم فهلك من هلك منهم وأجلي من أجلي نتيجة إصرارهم على الكفر وعداء الرسول ﷺ والمؤمنين.

شرح الكلمات: [الآية: ٤٨]

(٤٨) ﴿لَا يَغْفِرُ﴾: لا يمحو ولا يترك المؤاخذة. ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾: أي يعبد معه غيره تأليهًا له بحبه وتعظيمه وتقديم القرابين له، وصرف العبادات له كدعائه والاستعانة به والذبح والنذر له. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: أي ما دون الشرك والكفر من سائر الذنوب والمعاصي التي ليست شركًا ولا كفرًا. ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾: أي لمن يشاء المغفرة له من سائر المذنبين بغير الشرك والكفر. ﴿ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾: افترى: اختلق وكذب كذبًا بنسبته العبادة إلى غير الرب تعالى، والإثم: الذنب العظيم الكبير.

معنى الآية الكريمة:

يروى أنه لما نزل قول الله تعالى من سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ قام رجل فقال: والشرك يا نبي الله؟ فكره ذلك رسول الله ﷺ وأنزل الله تعالى:

(٤٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ[2] بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فأخبر تعالى عن نفسه بأنه لا يغفر الذنب المعروف بالشرك والكفر، وأما سائر الذنوب كبيرها وصغيرها فتحت المشيئة إن شاء غفرها لمرتكبها فلم يعذبه بها، وإن شاء آخذه بها وعذبه، وأن من يشرك به تعالى فقد اختلق الكذب العظيم إذ عبد من لا يستحق العبادة وألّه من لا حق له في التأليه فلذا هو قائل بالزور وعامل بالباطل، ومن هنا كان ذنبه عظيمًا.

هداية الآية الكريمة:

١ - عظم ذنب[3] الشرك والكفر

= ما عرفوا وأصرّوا على الكفر فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾.

(١) قال مالك رحمه الله تعالى: كان أول إسلام كعب الأحبار أنه مر برجل من الليل وهو يقرأ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ..﴾ إلخ.. فوضع كفيه على وجهه ورجع القهقرى إلى بيته، فأسلم مكانه، وقال: والله لقد خفت ألا أبلغ بيتي حتى يطمس وجهي.

(٤٨) ﴿يشرك به﴾ روى الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما في القرآن آية أحبّ إليّ من هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ قال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) ومع ظهور سبب النزول فإنّ الآية تحمل تهديدًا ووعيدًا للناس شديدين، يفهم ذلك من حرف التعليل، وهو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ كأنه يقول: يا أيها الناس ادخلوا في الإسلام: إنّ الله لا يغفر أن يشرك به.

(٣) وجه عظم ذنب الشرك يدرك بما يلي: أوّلاً: أنّه ذنب لا يغفر إلاّ لمن تاب منه، ثانيًا: أنه محبط للعمل مهما كثر وعظم لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وأن كل الذنوب دونهما.

٢ - الشرك ذنب[١] لا يغفر لمن مات بدون توبة منه.

٣ - سائر الذنوب دون الشرك والكفر لا ييأس فاعلها من مغفرة الله تعالى له وإنما يخاف.

٤ - الشرك زور وفاعله قائل بالزور فاعلٌ به.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٩، ٥٠]

(٤٩) تزكية النفس: تبرئتها من الذنوب والآثام. ﴿يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾: يطهر من الذنوب من يشاء من عباده بتوفيقه للعمل بما يزكي النفس، وإعانته عليه. الفتيل: الخيط الأبيض يكون في وسط النواة، أو ما يفتله المرء بأصبعيه من الوسخ في كفه أو جسمه وهو أقل الأشياء وأتفهها.

(٥٠) ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: عدم مطابقة الخبر للواقع.

معنى الآيتين:

عاد السياق إلى الحديث عن أهل الكتاب فقال تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين: (٤٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ وهو أمر يحمل على العجب والاستغراب إذ المفروض أن المرء لا يزكي نفسه حتى يزكيه غيره فاليهود والنصارى قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾. وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ وقالت اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ[٢] إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ إلى غير ذلك من الدعاوي الباطلة ولما أنكر تعالى عليهم هذا الباطل الذي يعيشون عليه فعاقهم عن الإيمان والدخول في الإسلام وأخبر تعالى أنه عز وجل هو الذي يزكي من يشاء من عباده وذلك بتوفيقه إلى الإيمان وصالح الأعمال التي تزكو عليها النفس البشرية فقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي أقل قليل فلا يزاد في ذنوب العبد ولا ينقص من حسناته. ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتعجب من حال هؤلاء اليهود والنصارى وهم يكذبون على الله تعالى، ويختلقون الكذب بتلك الدعاوي التي تقدمت آنفًا. وكفى بالكذب إثمًا مبينًا يغمس صاحبه في النار.

هداية الآيتين:

١ - حرمة تزكية المرء[٣] نفسه بلسانه والتفاخر بذلك إما طلبًا للرئاسة، وإما تخليًا عن العبادة والطاعة بحجة أنه في غير حاجة إلى ذلك لطهارته ورضي الله تعالى عنه.

٢ - الله يزكي عبده بالثناء عليه في الملإ الأعلى، ويزكيه بتوفيقه وإيمانه للعمل بما يزكي من صلاة وصدقات وسائر الطاعات المشروعة لتزكية النفس البشرية وتطهيرها.

٣ - عدالة الحساب والجزاء يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥١ ـ ٥٥]

(٥١) الجبت والطاغوت: الجبت[٤]: اسم لكل ما عبد من دون الله وكذا

---

(١) يعرف الشرك: بأنه عبادة غير الله مع الله، ومن أنواع العبادة: التعظيم، والرغبة والرهبة، والدعاء، والذبح والنذر، والركوع والسجود، والصيام والحلف، وهو من التعظيم.

(٤٩) ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾: لا خلاف في أنّ المراد بالذين يزكّون أنفسهم في هذه الآية هم اليهود.

(٢) ومن جملة أقوالهم في تزكية نفوسهم بأفواههم قولهم: (لا ذنب لنا، وما فعلناه نهارًا يغفر لنا ليلاً، وما فعلناه ليلاً يغفر لنا نهارًا)، وقولهم: (نحن كالأطفال في عدم الذنوب)، وثناء بعضهم على بعض.

(٣) روى مسلم عن عمر بن عطاء قال: سميت ابنتي برّة فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إنّ رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم وسميت برّة فقال رسول الله ﷺ: «أتزكون أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم» فقالوا: بم نسميها؟ فقال: «سمّوها زينب» قال الدارقطني: فدل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه ويجري هذا المجرى ما قد كثر في هذه الديار المصرية من نعت أنفسهم بالنعوت التي تقتضي التزكية، كزكي الدين ومحيي الدين، وما أشبه ذلك. لكن لمّا كثرت قبائح المسلمين بهذه الأسماء ظهر تخلف هذه النعوت عن أصلها فصارت لا تفيد شيئًا.

(٥٤) ﴿آل إبراهيم﴾: هم ذريته من أولاد وأحفاد وما تناسل منهم كداود وسليمان ومَن بعدهم.

(٤) وقيل الجبت: الساحر بلغة الحبشة، والطاغوت الكاهن عن ابن عباس، وأبي جبير وأبي العالية، وقال عمر رضي الله عنه: =

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

٨٧

الطاغوت سواء كانا صنمين أو رجلين. أهدى سبيلًا: أكثر هداية في حياتهما وسلوكهما.

﴿٥٣﴾ ﴿نَقِيرًا﴾: النقير: نُقْرَةٌ في ظهر النواة يضرب بها المثل في صغرها. الحسد: تمني زوال النعمة عن الغير والحرص على ذلك. الحكمة: السداد في القول والعمل مع الفقه في أسرار التشريع الإلهي.

معنى الآيات:

روي أن جماعة من اليهود منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ذهبوا إلى مكة يحزبون الأحزاب لحرب رسول الله ﷺ فلما نزلوا مكة قالت قريش: نسألهم فإنهم أهل كتاب عن ديننا ودين محمد أيهما خير؟ فسألوهم فقالوا لهم: دينكم خير من دين محمد وأنتم أهدى منه وممن اتبعه فأنزل الله تعالى هذه الآيات إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾.

﴿٥١﴾ وهذا شرحها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ[1] وَالطَّاغُوتِ﴾ ألم ينته إلى علمك أيها الرسول أن الذين أوتوا حظا من العلم بالتوراة يصدقون بصحة عبادة الجبت والطاغوت ويقرون عليها ويحكمون بأفضلية عبادتها على عبادة الله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم مشركو قريش: دينكم خير من دين محمد وأنتم أهدى طريقًا في حياتكم الدينية والاجتماعية ألم يك موقف هؤلاء اليهود مثار الدهشة والاستغراب والتعجب لأهل العِلْم والمعرفة بالدين الحق إذ يُقِرُّون الباطل ويصدقون به؟

﴿٥٢﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أولئك الهابطون في حمأة الرذيلة البعيدون في أغوار الكفر والشر والفساد لعنهم الله فأبعدهم عن ساحة الخير والهدى، ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ﴾ يا رسولنا ﴿نَصِيرًا﴾ ينصره من الخذلان الذي وقع فيه والهزيمة الروحية التي حلّت به فأصبح وهو العالم يبارك الشرك ويفضله على التوحيد.

﴿٥٣﴾ ثم قال تعالى في الآية (٥٣): ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا[2] يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾. أي ليس لهم نصيب من الملك كما يدعون فالاستفهام للإنكار عليهم دعوة أن الملك يؤول إليهم، وهم لشدة بخلهم لو آل الملك لهم لما أعطوا أحدًا أحقر الأشياء وأتفهها ولو مقدار نقرة نواة وهذا ذم لهم بالبخل بعد ذمهم بلازم الجهل وهو تفضيلهم الشرك على التوحيد.

﴿٥٤﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ[3] النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ

= الجبت السحر، والطاغوت الشيطان، وقال مالك: الطاغوت ما عبد من دون الله وقيل: هم كل ما عبد من دون الله أو مطاع في معصية الله وهذا حسن وهو ما ذكرناه في التفسير.

(١) أخرج أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: **«الطرق، والطيرة، والعيافة من الجبت»** والمراد من الطرق: الخط بخطّ في الأرض للبحث عن معرفة ما يحدث للإنسان، والعيافة: زجر الطير للتشاؤم والتيمّن، والطيرة: التطيّر، وأصل الجبت: الجبس وهو ما لا خير فيه.

(٢) إذًا: هنا ملغاة فلم تنصب المضارع بعدها وذلك لدخول فاء العطف عليها ولو نصب وكان في غير القرآن بها لجاز النصب، قال سيبويه: (إذًا) في عوامل الأفعال بمنزلة ظنّ في عوامل الأسماء، أي: تلغي ولا تعمل إذا لم يكن الكلام معتمدًا عليها.

(٣) الحسد: كبيرة من كبائر الذنوب لأنه اعتراض على الله فيما قسمه بين عباده وورد فيه أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب قيل فيه: إنه أول ذنب عصي الله به في السماء وأول ذنب عصي الله به في الأرض، إذ حسد إبليس آدم في السماء وحسد قابيل هابيل في الأرض.

﴿ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أم بمعنى بل كسابقتها للإضراب الانتقالي من حال سيئة إلى أخرى، والهمزة للإنكار ينكر تعالى عليهم حسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين على النبوة والدولة، وهو المراد من الناس. وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كصحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل «والحكمة» التي هي السنة التي كانت لأولئك الأنبياء يتلقونها وحيًا من الله تعالى وكلها علم نافع وحكم صائب سديد والملك العظيم هو ما كان لداود وسليمان عليهما السلام كل هذا يعرفه اليهود فلمَ لا يحسدون من كان لهم ويحسدون محمدًا ﷺ والمسلمين والمراد من السياق ذم اليهود بالحسد كما سبق ذمهم بالبخل والجهل مع العلم.

(٥٥) وقوله تعالى في الآية (٥٥): ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ يريد أن من اليهود المعاهدين للنبي ﷺ مَنْ آمن بالنبي[١] محمد ﷺ ورسالته، وهم القليل، ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أي انصرف وصرف الناس عنه ﷺ وهم الأكثرون ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ لمن كفر حسدًا وصدّ عن سبيل الله بخلًا ومكرًا، أي حسبه جهنم ذات السعير جزاءً له على الكفر والحسد والبخل. والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب الكفر بالجبت والطاغوت.

٢ ـ بيان مكر اليهود وغشهم وأنهم لا يتورعون عن الغش والكذب والتضليل.

٣ ـ ذم الحسد والبخل.

٤ ـ إيمان بعض اليهود بالإسلام، وكفر أكثرهم مع علمهم بصحة الإسلام ووجوب الإيمان به والدخول فيه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٦، ٥٧]

(٥٦) ﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾[٢]: ندخلهم نارًا يحترقون بها. ﴿نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾[٣]: اشتوت فتهرت وتساقطت. ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: ليستمر لهم العذاب مؤلمًا. ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: غالبًا، يعذب من يستحق العذاب.

(٥٧) ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: تجري من خلال أشجارها وقصورها الأنهار. ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: من الأذى والقذى مطلقًا. ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[٤]: الظل الظليل: الوارف الدائم لا حر فيه ولا برد به.

معنى الآيتين:

(٥٦) على ذكر الإيمان والكفر في الآية السابقة ذكر تعالى في هاتين الآيتين الوعيد والوعد، الوعيد لأهل الكفر والوعد لأهل الإيمان فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ يريد يدخلهم نار جهنم يحترقون فيها ويصطلون بها ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ تهرت وسقطت بدّلهم[٥] الله تعالى فورًا جلودًا غيرها ليتجدد ذوقهم للعذاب وإحساسهم به، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ تذييل المقصود منه إنفاذ الوعيد فيهم، لأن العزيز الغالب لا يعجز عن إنفاذ ما توعّد به أعداءه، كما أن الحكيم في تدبيره يعذب أهل الكفر به والخروج عن طاعته. هذا ما تضمنته الآية الأولى (٥٦) من وعيد لأهل الكفر.

(٥٧) وأما الآية الثانية (٥٧) فقد تضمنت البشرى السارة لأهل الإيمان وصالح الأعمال، مع اجتناب الشرك والمعاصي فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي بعد تركهم الشرك والمعاصي ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ﴾[٦]

---

(١) وجائز أن يكون الضمير عائدًا إلى إبراهيم عليه السلام أو إلى الكتاب وما ذكرناه في التفسير هو الحق.

(٢) يقال: صلاه يصليه صليًا، وأصلاه إصلاء: أي: اللحم إذا شواه على النار، ويقال: فلان نضج الرأي أي: محكمه.

(٣) يقال: نضج الشواء إذا بلغ حدّ الشي.

(٤) صفة مؤكدة، كيوم أيوَم، وليل ألْيَل، والظليل: هو السَّجْسَج الذي لا حرّ فيه ولا قرّ.

(٥) روي أنّ جلودهم تبدّل في الساعة مائة مرة، وروي أن هذه الآية تليت عند عمر رضي الله عنه فقال عمر للقارىء: أعدها، فأعادها عليه وعنده كعب فقال: يا أمير المؤمنين أنا عندي تفسير لها فذكر له أنّه تبدّل في الساعة الواحدة مائة وعشرين مرّة.

(٦) ذكر هذا الخلود إعظامًا للمنة و﴿خَٰلِدِينَ﴾ منصوب على الحال المقدرة أي: حال كونِ خلودهم مقدرًا فيها قبل دخولهم إيّاها.

﴿فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾ يريد نساء من الحور العين مطهرات من كل ما يؤذي أو يُخل بحسنهن وجمالهن نقيات من البول والغائط ودم الحيض. وقوله تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ وارفًا كنينًا يقيهم الحر والبرد. وحدّث يومًا رسول الله ﷺ عن الجنة فقال: «**في الجنة شجرة تسمى**[1] **شجرة الخلد يسير الراكب في ظلها مائة سنة ما يقطع ظلها**».

هداية الآيتين:

١ - الكفر والمعاصي موجبات[2] للعذاب الأخروي.

٢ - بيان الحكمة في تبديل الجلود لأهل النار وهي أن يدوم إحساسهم بالعذاب.

٣ - الإيمان والعمل الصالح مع ترك الشرك والمعاصي موجبات للنعيم الأخروي.

٤ - الجنة دار النعيم خالية من كدرات الصفو والسعادة فيها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٨، ٥٩]

(٥٨) ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾[3]: أداء الأمانة: تسليمها إلى المؤتمن، والأمانات جمع أمانة وهي ما يؤتمن عليه المرء من قول أو عمل أو متاع. العدل[4]: ضد الجور والانحراف بنقص أو زيادة. ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم﴾: نعم شيء يعظكم أي يأمركم به أداء الأمانات والحكم بالعدل.

(٥٩) ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾: أولو الأمر: هم الأمراء والعلماء من المسلمين. ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾: اختلفتم فيه كل فريق يريد أن ينتزع الشيء من يد الفريق الآخر. ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾: أي إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾: أحسن عاقبة، لأن تأويل الشيء ما يؤول إليه في آخر الأمر.

معنى الآيتين:

(٥٨) روي أن الآية الأولى: ﴿إِنَّ[5] ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ[6] ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾ نزلت في شأن عثمان بن طلحة الحجبي[7] حيث كان مفتاح الكعبة عنده بوصفه سادنًا[8] فطلبه رسول الله ﷺ منه صبيحة يوم الفتح فصلى في البيت ركعتين وخرج فقال العباس رضي الله عنه أعطينيه يا رسول الله ليجمع بين السقاية والسدانة فأنزل الله تعالى هذه الآية والتي بعدها فقرأ رسول الله ﷺ الآية على الناس ودعا عثمان بن طلحة وأعطاه المفتاح. غير أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولذا فالآية في كل أمانة فعلى كل مؤتمن[9] على شيء أن يحفظه ويرعاه حتى يؤديه إلى صاحبه. والآية تتناول حكام المسلمين أولاً بقرينة ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ الذي هو القسط وضد الجور ومعناه إيصال الحقوق إلى مستحقيها من أفراد الرعايا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم[10] بِهِۦٓۗ﴾ يريد أن أمره تعالى

---

(١) ذكره ابن كثير عن تفسير هذه الآية.

(٢) وذلك لأنّ الكفر والشرك والمعاصي التي هي ترك الواجبات وفعل المحرّمات تدنس النفس فلا تصبح أهلاً لدخول الجنة لقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا (٩) وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا (١٠)﴾.

(٣) الإجماع على وجوب رد الأمانات لأصحابها كفّارًا أو مؤمنين فجّارًا أو أبرارًا!.

(٤) العدل: وسط بين طرفين فإن مال لأحد الجانبين فقد جار وظلم ولم يعدل.

(٥) إنّ هنا لمجرد الاهتمام بالخبر، إذ مثل هذا الخبر لا يتطرق إليه الشك حتى يؤكّد لإزالته لأنه إخبار عن إيجاد شيء لا عن وجوده، فهو خبر كالإنشاء.

(٦) الأداء: مصدر أدّى المخفف المستغنى عنه بالمضعّف، أدّى يؤدي تأدية، إذا أوصل الشيء إلى طلبه ويتجوّز فيه فيطلق على الاعتراف بالشيء والوفاء به وذلك كقول الحق، وتبليغ العلم الشرعي، والمراد به هنا إيصال الشيء إلى صاحبه.

(٧) الحجبي نسبة إلى حجابة البيت على غير قياس.

(٨) السادن: الخادم للبيت وتسمى هذه المهنة: السدانة.

(٩) المؤتمن إذا لم يفرّط وضاعت الأمانة منه فلا ضمان عليه إجماعًا لقوله ﷺ: «**لا ضمان على مؤتمن**» رواه الدارقطني، والعارية مؤداة أيضًا لحديث خطبة الوداع: «**العارية مؤداة، والمنحة مردودة والدين مقضي، والزعيم غارم**» أي: ضامن.

(١٠) أصل نعمّا: نعم، وكتبت معها ما بعد كسر عين نعم وتسكين ميمها وإدغامها في ما هي إما موصولة أو نكرة موصوفة أو=

أمة الإسلام حكامًا ومحكومين بأداء الأمانات والحكم بالعدل هو شيء حسن، وهو كذلك إذ قوام الحياة الكريمة هو النهوض بأداء الأمانات والحكم بالعدل. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فيه الحث على المأمور به بإيجاد ملكة مراقبة الله تعالى في النفس، فإن من ذكر أن الله تعالى يسمع أقواله ويبصر أعماله استقام في قوله فلم يكذب وفي عمله فلم يفرط. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٨).

(٥٩) أما الآية الثانية (٥٩)، فإن الله تعالى لما أمر ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانات التي هي حقوق الرعية، وبالحكم بينهم بالعدل أمر المؤمنين المولي عليهم بطاعته وطاعة رسوله ﷺ أولاً ثم بطاعة ولاة الأمور ثانيًا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، والطاعة لأولي الأمر مُقيدة بما كان معروفًا للشرع أما في غير المعروف فلا طاعة في الاختيار لحديث: «**إنما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**». وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فهو خطاب عام للولاة والرعية فمتى حصل خلاف في أمر من أمور الدين والدنيا وجب رد ذلك إلى كتاب الله[1] وسنة رسول الله ﷺ فيمَا حكما فيه وجب قبوله حلوًا كان أو مرًا، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيه أن الإيمان يستلزم الإذعان لقضاء الله ورسوله ﷺ، وهو يفيد أن رد الأمور المتنازع فيها إلى غير الشرع قادح في إيمان المؤمن وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، يريد ذلك الرد والرجوع بالمسائل والقضايا المختلف فيها إلى الكتاب والسنة هو خير حالاً ومآلاً، لما فيه من قطع النزاع والسير بالأمة متحدة متحابة متعاونة.

هداية الآيتين:

١ - وجوب رد الأمانات بعد المحافظة عليها.

٢ - وجوب العدل في الحكم وحرمة الحيف والجور فيه.

٣ - وجوب طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وولاة المسلمين من حكام وعلماء[2] فقهاء، لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، وطاعة الوالي من طاعة الرسول ﷺ لحديث: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني**»[3][4].

٤ - وجوب رد المتنازع فيه عقيدة أو عبادة أو قضاء إلى الكتاب والسنة ووجوب الرضا بقضائهما.

٥ - العاقبة الحميدة والحال الحسنة السعيدة في رد أمة الإسلام ما تتنازع فيه إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٠ - ٦٣]

(٦٠) ﴿يَزْعُمُونَ﴾: يقولون كاذبين. ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: القرآن، وما أنزل من قبلك: التوراة. ﴿الطَّاغُوتِ﴾: كل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة والمراد به هنا كعب بن الأشرف اليهودي أو كاهن من كهان العرب.

= نكرة تامة، وأما الجملة بعد نعمّا فهي تجري بحسب ما يناسب معنى (ما).

(١) وذلك يستلزم الرد إلى العلماء الفقهاء، إذ هم الذين يعرفون الأحكام ويحسنون استنباطها من الكتاب والسنة.

(٢) قال سهل بن عبدالله: لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء فإن عظّموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم وإن استخفوا بهذين فسدت دنياهم وأخراهم.

(٣) رواه الشيخان وكذا حديث: «**إنما الطاعة في المعروف**» إلخ..

(٤) روي في الصحيح أنّ عبدالله بن حذافة الأنصاري البدري وكان به دعابة بعثه رسول الله ﷺ على سريّة فأمرهم يومًا أن يجمعوا حطبًا ويوقدوا نارًا ففعلوا ثم أمرهم أن يدخلوها محتجًا عليهم بقوله ﷺ: «**من أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني**» فلم يستجيبوا له وقالوا له: إنّما آمنا وأسلمنا لننجو من النار فكيف، نعذب أنفسنا بها وذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها إنّما الطاعة في المعروف**».

(٦٢) ﴿فكيف﴾: خبر مبتدأ محذوف تقديره: حالهم كيف تكون حين تصيبهم أي: تكون عجبًا لفرط حزنهم وبكائهم، وندمهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

﴿٦١﴾ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: جمع منافق: وهو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان خوفًا من المسلمين. ﴿يَصُدُّونَ﴾: يعرضون عنك ويصرفون غيرهم كذلك.

﴿٦٢﴾ ﴿مُّصِيبَةٌۢ﴾: عقوبة بسبب كفرهم ونفاقهم. إن يريدون: أي ما يريدون. ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾: أي صلحًا بين المتخاصمين. ﴿وَتَوْفِيقًا﴾: جمعًا وتأليفًا بين المختلفين.

﴿٦٣﴾ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[1]: أي اصفح عنهم فلا تؤاخذهم. ﴿وَعِظْهُمْ﴾: مرهم بما ينبغي لهم ويجب عليهم. ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾: كلامًا قويًا يبلغ شغاف قلوبهم لبلاغته وفصاحته.

معنى الآيات:

﴿٦٠﴾ روي أن منافقًا ويهوديًا[2] اختلفا في شيء فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد لعلمه أنه يحكم بالعدل ولا يأخذ رشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي فتحاكما إلى رسول الله ﷺ فقضى لليهودي فنزلت[3] فيهما هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ والمراد بهذا المنافق، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ والمراد به اليهودي والاستفهام للتعجب ألم ينته إلى علمك موقف هذين الرجلين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ «كعب[4] بن الأشرف»، أو الكاهن الجهني، وقد أمرهم الله أن يكفروا به ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ حيث زين لهم التحاكم عند الكاهن أو كعب اليهودي.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ليحكم بينكم رأيت يا للعجب المنافقين يعرضون عنك إعراضًا هاربين من حكمك غير راضين بالتحاكم إليك لكفرهم بك وتكذيبهم لك

﴿٦٢﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ وحلت بهم قارعة بسبب ذنوبهم أيبقون معرضين عنك؟ أم ماذا؟ ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ قائلين[5]، ما أردنا إلا الإحسان في عملنا ذلك والتوفيق بين المتخاصمين. هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث.

﴿٦٣﴾ وأما الرابعة وهي قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى

---

(١) الإعراض: عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه مشتق من العُرض بضم العين وهو الجانب، ولعلّه مأخوذ من أعرض في الشيء إذا دخل فيه كأصبح في الصباح، فأعرض فلان عن فلان أي: تنحى عنه جانبًا أو أعطاه عرضه مدبرًا عنه.

(٢) صيغ الجمع الواردة في الآية مثل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟﴾ تشير إلى كثرة المنافقين، ومن أمثال اليهودي والمنافق صاحبي القصة التي نزلت الآية فيها.

(٣) روي أنّ المنافق لم يرض بحكم رسول الله ﷺ وذهب باليهودي إلى أبي بكر فحكم بحكم رسول الله ﷺ فلم يرض المنافق فذهب بخصمه اليهودي إلى عمر فذكر له اليهودي القصة فقال عمر للمنافق وهو يشير: أكذا هو؟ قال: نعم. قال: رويدكما حتى أخرج إليكما، فدخل وأخذ السيف ثم ضرب به المنافق حتى برد وقال هكذا أقضي على من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله، وهرب اليهودي، ونزلت هذه الآية وقال رسول الله ﷺ لعمر: «**أنت الفاروق**».

(٤) قيل فيه: طاغوت لأنّه ذو طغيان زائد في الظلم والشرّ والفساد.

(٥) هؤلاء هم قوم القتيل المنافق جاؤوا يطالبون بدية أخيهم في النفاق، وقالوا الكثير أكثر مما ذكر في الآية وكل أقوالهم باطلة أملاها النفاق ولذا أمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم.

﴿قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ فإن الله تعالى يشير إليهم بأولئك لبعدهم في الخسة والانحطاط فيقول: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من النفاق والزيغ فهم عرضة للنقمة وسوء العذاب، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تؤاخذهم[1]، ﴿وَعِظْهُمْ﴾ آمرًا إياهم بتقوى الله والإسلام له ظاهرًا وباطنًا مخوفًا إياهم من عاقبة سوء أفعالهم بترك التحاكم إليك وتحاكمهم إلى الطاغوت، وقل لهم في خاصة أنفسهم قولاً بليغًا ينفذ إلى قلوبهم فيحركها ويذهب عنها غفلتها علهم يرجعون.

هداية الآيات:

١ - حرمة التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إذا وُجد عالم بهما.

٢ - وجوب الكفر بالطاغوت أيًا كان نوعه.

٣ - وجوب الدعوة إلى التحاكم إلى الكتاب والسنة ووجوب قبولها.

٤ - استحباب الإعراض عن ذوي الجهالات، ووعظهم بالقول البليغ الذي يصل إلى قلوبهم فيهزها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٤، ٦٥]

(٦٤) ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: إذن الله: إعلامه بالشيء وأمره به. ﴿ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾: بالتحاكم إلى الطاغوت وتركهم التحاكم إلى رسول الله ﷺ.

استغفروا الله: طلبوا منه أن يغفر لهم بلفظ اللهم اغفر لنا، أو استغفروا الله.

(٦٥) ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾: يجعلونك حكمًا بينهم ويفوضون الأمر إليك. ﴿فِيمَا شَجَرَ[2] بَيْنَهُمْ﴾: أي اختلفوا فيه لاختلاط وجه الحق والصواب فيه بالخطأ والباطل. ﴿حَرَجًا﴾: ضيقًا وتحرجًا. ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾: حكمت فيه. ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾: أي يذعنوا لقبول حكمك ويسلمون به تسليمًا تامًا.

معنى الآيتين:

(٦٤) بعد تقرير خطأ وضلال من أرادا أن يتحاكما إلى الطاغوت كعب بن الأشرف اليهودي وهما اليهودي والمنافق في الآيات السابقة أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما أرسل رسولاً من رسله[3] المئات إلا وأمر المرسل إليهم بطاعته واتباعه والتحاكم إليه وتحكيمه في كل ما يختلفون فيه وذلك أمره وقضاؤه وتقديره فما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن، كما أخبر تعالى أن أولئك الظالمين لأنفسهم بتحاكمهم[4] إلى الطاغوت وصدودهم عن التحاكم إليك أيها الرسول لو جاؤوك متنصلين من خطيئتهم مستغفرين الله من ذنوبهم واستغفرت لهم أنت أيها الرسول أي سألت الله تعالى لهم المغفرة لو حصل منهم هذا لدل ذلك على توبتهم وتاب الله تعالى عليهم فوجدوه عز وجل ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾. هذا معنى الآية (٦٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

(٦٥) وأما الآية الثانية (٦٥) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ[5] حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا﴾ أي ليس الأمر كما يزعمون، ثم يقسم تعالى فيقول: ﴿وَرَبِّكَ لَا

---

(١) أي: لا تؤاخذهم فيما يبطنونه من الكفر ما داموا لم يظهروه علنًا.

(٢) شجر: اختلط واختلف، ومنه سمي الشجر شجرًا لاختلاط أغصانه قال طرفة:

وهم الحكام أرباب الهدى ... وسعاة الناس في الأمر الشجر

(٣) مِنْ في الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ مزيدة لتقوية الكلام وإفادة العموم.

(٤) تقدم أن الخطاب بصيغة الجمع وإن كان المتحاكمان اثنين فقط فإنّ الحكم عام فيهم وفي غيرهم فكل من يصدر عنه هذا النوع من الذنب فتوبته هي ما ذكر تعالى في هذه الآية.

(٥) قيل إن هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ نزلت في الزبير والأنصاري في قضية سقي البستان إذ اختلفا وأتيا رسول الله ﷺ فقال ﷺ للزبير: «اسق يا زبير أرضك ثم أرسل الماء إلى أرض جارك» أي: الأوّل فقال الأنصاري: أراك تحابي ابن عمتك، فتلوّن وجه رسول الله ﷺ وقال للزبير: «اسق ثمّ احبس الماء حتى يبلغ الجدر» فنزلت الآية. والحديث في صحيح البخاري.

يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أيها الرسول أي يطلبون حكمك فيما اختلفوا فيه واختلط عليه من أمورهم ثم بعد حكمك لا يجدون في صدورهم أدنى شك في صحة حكمك وعدالته، وفي التسليم له والرضا به وهو معنى الحرج المتبقي في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

هداية الآيتين:

١ - وجوب طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر به وينهى عنه.

٢ - بطلان من يزعم أن في الآية دليلًا على جواز طلب الاستغفار[1] من الرسول ﷺ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ الآية نزلت في الرجلين اللذين أرادا التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي وإعراضهما عن رسول الله ﷺ فاشترط توبتهما إتيانهما لرسول الله ﷺ واستغفارهما الله تعالى، واستغفار الرسول ﷺ لهما، وبذلك تُقبل توبتهما، وإلا فلا توبة لهما، أما من عداهما فتوبته لا تتوقف على إتيانه لرسول الله ﷺ ولا لاستغفاره له وهذا محل إجماع بين المسلمين.

٣ - كل ذنب كبر أو صغر يعتبر ظلمًا للنفس وتجب التوبة منه بالاستغفار والندم والعزم على عدم مراجعته بحال من الأحوال.

٤ - وجوب التحاكم إلى الكتاب والسنة وحرمة التحاكم إلى غيرهما.

٥ - وجوب الرضا[2] بحكم الله ورسوله ﷺ والتسليم به.

الجزء الخامس سورة النساء

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

٨٩

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٦ - ٧٠]

﴿٦٦﴾ ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فرضنا عليهم وأوجبنا. ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾: أي قتل أنفسهم. ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾: أي ما فعل القتل إلا قليل[3] منهم. ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾: أي ما يؤمرون به وينهون عنه. ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾: أي للإيمان في قلوبهم.

﴿٦٩﴾ الصديقين: جمع صدّيق: وهو من غلب عليه الصدق في أقواله وأحواله لكثرة ما يصدق ويتحرى الصدق. ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾: جمع شهيد: من مات في المعركة ومثله من شهد بصحة الإسلام بالحجة والبرهان. ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾: جمع صالح: من أدى حقوق الله تعالى وأدى حقوق العباد، وصلحت نفسه وصلح عمله

(١) وذلك أنه لو كان كل مذنب لا يغفر له إلاّ إذا أتى الرسول الله ﷺ واستغفر له لما تاب أحد وللزم أن يبقى الرسول ﷺ حيًا ليستغفر للمذنبين بمثل هذا الذنب، ولا قائل بها ولا يعقل ولم يشرع أبدًا وكل حكاية ذكرت في هذه المسألة فهي باطلة.

(٢) قضى أهل العلم أنّ السيل إذا كان بسبب مطر فإنّ الأعلى يقدّم على الأسفل، فيسقي مَنْ وصل إليه السيل حتى يبلغ الماء الكعبين في أرضه ثم يرسل السيل كلّه إلى من تحته فيسقي ثم يرسل إلى من تحته وهكذا وهو قول المالكية مأخوذ من حكم رسول الله ﷺ في قضية الزبير والأنصاري وهو الحق.

﴿٦٦﴾ ﴿لو﴾: حرف امتناع لامتناع، أي: امتناع شيء لامتناع غيره، إذ امتنع القتل لامتناع الكتب به.

﴿٦٦﴾ ﴿كتبنا﴾ روي أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا..﴾ قال أبو بكر الصديق: لو أمرنا لفعلنا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**إنّ من أمتي رجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرّواسي**».

﴿٦٩﴾ ﴿حسُن﴾ مضمّن معنى التعجب فهو كنعم للمدح، أي: مدح الحسن فيهم، وأولئك: فاعله، ورفيقًا: منصوب على التمييز.

(٣) قرىء: ﴿إلا قليلًا﴾ بالنصب، ﴿وإلاّ قليل﴾ بالرفع، وقراءة الرفع مراعى فيها اللّفظ وهو أولى، لذا هي أكثر وأشهر.

وغلب صلاحه على فساده.

معنى الآيات:

(٦٦) ما زال السياق في الحديث عن أولئك النفر الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي بقتل بعضكم بعضًا كما حصل ذلك لبني إسرائيل لما فعلوا كما أنا لو كتبنا عليهم أن يخرجوا من ديارهم مهاجرين في سبيلنا ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ منهم. ثم قال تعالى داعيًا لهم مرغبًا لهم في الهداية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي ما يذكرون به ترغيبًا وترهيبًا من أوامر الله تعالى لهم بالطاعة والتسليم لكان ذلك خيرًا في الحال والمآل، ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ للإيمان في قلوبهم وللطاعة على جوارحهم، لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والحسنة تنتج حسنة، والسيئة تتولد عنها سيئة.

(٦٧) ويقول تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يريد لو أنهم استجابوا لنا وفعلوا ما أمرناهم به من الطاعات، وتركوا ما نهيناهم عنه من المعاصي لأعطيناهم من لدنا أجرًا عظيمًا يوم يلقوننا ولهديناهم في الدنيا.

(٦٨) ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ألا وهو الإسلام الذي هو طريق الكمال والإسعاد في الحياتين وهدايتهم إليه هي توفيقهم للسير فيه وعدم الخروج عنه. هذا ما دلت عليه الآيات (٦٦ - ٦٧ - ٦٨).

(٦٩) أما الآية (٦٩) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ[١] وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ فقد روى ابن جرير في تفسيره أنها نزلت حين قال بعض[٢] الصحابة: يا رسول الله ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا فلم نرك فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ﴾ الآية. وما أنعم الله تعالى عليهم هو الإيمان بالله تعالى ومعرفته عز وجل ومعرفة محابه ومساخطه والتوفيق لفعل المحاب وترك المساخط هذا في الدنيا، وأما ما أنعم به عليهم في الآخرة فهو الجوار الكريم في دار النعيم. والصديقين هم الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ وصدقوا بكل ما جاء به رسول الله ﷺ وأخبر به والشهداء جمع شهيد وهو من قُتل في سبيل الله والصالحون جمع صالح وهو من أدى حقوق الله تعالى وحقوق عباده كاملة غير منقوصة، وقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[٣] يريد وحسن أولئك رفقاء في الجنة يستمتعون برؤيتهم والحضور في مجالسهم، لأنهم ينزلون إليهم، ثم يعودون إلى منازلهم العالية ودرجاتهم الرفيعة.

(٧٠) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ[٤] الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ يريد أن ذلك الالتقاء مع مَنْ ذكرتم لهم بفضل الله تعالى، لا بطاعتهم. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي بأهل طاعته وأهل معصيته وبطاعة المطيعين ومعصية العاصين، ولذلك يتم الجزاء عادلاً رحيمًا.

هداية الآيات:

١ - قد يكلف الله تعالى بالشاق للامتحان والابتلاء كقتل النفس والهجرة من البلد ولكن لا يكلف بما لا يطاق.

---

(١) في هذه الآية إشارة أصرح من عبارة على خلافة أبي بكر لرسول الله ﷺ، إذ ذكر تعالى الأنبياء ثم ثنى بالصديقين، وقد أجمع المسلمون على تسمية أبي بكر الصديق كما أجمعوا على تسمية محمد ﷺ بالنبي، فدلّ على تعيين خلافة أبي بكر إذا لم يقدّم عليه أحد في الذكر سوى الأنبياء.

(٢) من بين القائلين ثوبان مولى رسول الله ﷺ وعبدالله بن زيد بن عبد ربّه أُري الأذان في المنام.

(٣) روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من نبيّ يمرض إلاّ خُيّر بين الدنيا والآخرة»** ولما كان في مرضه الذي قبض فيه أخذته بحة شديدة فسمعته يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ الآية، فعلمت أنّه خير وكان يقول: **«اللهم الرفيق الأعلى»** وهو يعاني سكرات الموت فصلى الله عليه وسلم.

(٤) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ ردّ على المعتزلة إذ قالوا: إنما ينال العبد ما يناله بعمله، والله قد ردّ ذلك الإكرام والإنعام لفضله وهو كذلك عقلاً وشرعًا ويلزم اعتقادًا.

٢ - الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعصيات.

٣ - الطاعات تثمر قوة الإيمان وتؤهل لدخول الجنان.

٤ - مواكبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة ثمرة من ثمار طاعة الله والرسول ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧١ - ٧٣]

(٧١) ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾: الحِذْر والحَذَر: الاحتراس والاستعداد لدفع المكروه بحسبه. ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾[١]: النفور: الخروج في اندفاع وانزعاج، والثبات: جمع ثبة وهي الجماعة.

(٧٢) ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾[٢]: أي يتباطأ في الخروج فلا يخرج. ﴿مُّصِيبَةٌ﴾: قتل أو جراحات وهزيمة. ﴿شَهِيدًا﴾: أي حاضرًا الغزوة معهم.

(٧٣) ﴿فَضْلٌ﴾: نصر وغنيمة. ﴿مَوَدَّةٌ﴾: صحبة ومعرفة مستلزمة للمودة[٣]. ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾: نجاة من معرة التخلف عن الجهاد، والظفر بالسلامة والغنيمة.

معنى الآيات:

(٧١) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ[٤] فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا[٥] جَمِيعًا﴾ ينادي الله تعالى عباده المؤمنين وهم في فترة يستعدون فيها لفتح مكة وإدخالها في حضيرة الإسلام خذوا الأهبة والاستعداد حتى لا تلاقوا عدوكم وأنتم ضعفاء، قوته أشد من قوتكم ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ عصابة بعد عصابة وجماعة بعد أخرى ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ بقيادتكم المحمدية وذلك بحسب ما يتطلبه الموقف وتراه[٦] القيادة، ثم أخبرهم وهو العليم أن منهم أي من عدادهم وأفراد مواطنيهم لمن والله ليبطئن عن الخروج إلى الجهاد نفسه وغيره معًا لأنه لا يريد لكم نصرًا لأنه منافق كافر الباطن وإن كان مسلم الظاهر ويكشف عن حال هذا النوع من الرجال الرخيص فيقول:

(٧٢) ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم﴾ أيها المؤمنون الصادقون ﴿مُّصِيبَةٌ﴾ قتل أو جراح أو هزيمة قال في فرح بما أصابكم وما نجا منه: لقد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم حاضرًا فيصبني ما أصابهم.

(٧٣) ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي نصر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي معرفة ولا صلة يا ليتني - متمنيًا حاسدًا - كنت معهم في الغزاة ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ بالنجاة من معرة التخلف والظفر بالغنائم والعودة سالمًا.

هداية الآيات:

١ - وجوب أخذ الأهبة والاستعداد التام على أمة الإسلام في السلم والحرب سواء.

٢ - وجوب وجود خبرة عسكرية كاملة وقيادة رشيدة مؤمنة حكيمة عليمة.

٣ - وجود منهزمين روحيًا مبطئين حسدة بين المسلمين وهم ضعاف الإيمان فلا يؤبه لهم ولا يلتفت إليهم.

---

(١) أصل ثبة: ثُبية أو ثبوة بالياء والواو، وقد تصغر على ثبيَّة، وهل اشتقاقها من ثبة الحوض؟ أي: محل اجتماع الماء فيه، لأن الثبة: الجماعة، وثاب الماء يثوب إذا اجتمع.

(٢) حمل مجاهد وقتادة وابن جريج الآية على المنافقين وحملها بعضهم على ضعفة الإيمان، وحملها على الجميع أقرب إلى الصحة والصواب، والله أعلم.

(٣) إن كان الصاحب من ضعفة الإيمان فهو كذلك، وإن كان منافقًا فإنّ المودّة هنا بمعنى مجرّد الصحبة لا غير، لأنّ المنافق لا يحب المؤمن إلاّ نادرًا.

(٤) أخذ الحذر: هو توقي المكروه بالأسباب الممكنة المشروعة وجملة: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ إلخ.. تفريع بذكر بعض أسباب توقي المحذور.

(٥) أخذ الحذر لأنه سبب شرعه الله تعالى لتوقي المكروه ولكنه لا يمنع المقدور، وأخطأت القدرية إذ قالوا: الحذر يردّ القدر، ولولا أنه كذلك ما أمروا به، وهو خطأ اعتقادي فالأسباب تؤتى طاعة لله تعالى وأمّا دفع المقدور أي: ما قدره الله على الإنسان فلا بد من وقوعه، وفائدة الأخذ بالأسباب إبعاد الخوف عن النفس وحصول شعور بالفوز والنجاة.

(٦) هل هذه الآية، وهي متقدمة في النزول على آية التوبة: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ منسوخة بها؟ والجواب: أن فرض الجهاد على الكفاية ولذا فلا نسخ، وإنّما هذه في حال وتلك في أخرى وهي: أن يرى الإمام النفير العام لا غير.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

٩٠

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٤ ـ ٧٦]

﴿٧٤﴾ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الطريق الموصلة إلى إعلاء كلمة الله تعالى بأن يعبد وحده، ولا يضطهد مسلم في دينه، ولا من أجل دينه.

﴿يَشْرُونَ﴾: يبيعون، إذ يطلق الشراء على البيع أيضًا.

﴿٧٥﴾ ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: المستضعف الذي قام به عجز فاستضعفه غيره فآذاه لضعفه. ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾: القرية في عرف القرآن المدينة الكبيرة والجامعة والمراد بها هنا مكة المكرمة.

﴿٧٦﴾ ﴿فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾: أي في نصرة الشرك ومساندة الظلم والعدوان، ونشر الفساد.

معنى الآيات:

﴿٧٤﴾ بعدما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم وهو الأهبة للقتال أمرهم أن يقاتلوا فقال: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي يبيعون الدنيا ليفوزوا بالآخرة وهم المؤمنون حقًا فيقدمون أموالهم وأرواحهم طلبًا للفوز بالدار الآخرة يقاتلون من لا يؤمن بالله ولا بلقائه بعد أن يدعوه إلى الإيمان بربه والتوبة إليه، ثم أخبرهم أن من يقاتل استجابة لأمره تعالى فيُقتل أي يستشهد أو يغلب العدو وينتصر على كلا الحالين فسوف يؤتيه[١] الله تعالى أجرًا عظيمًا وهو النجاة من النار ودخول الجنة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٧٤).

﴿٧٥﴾ أما الآية الثانية (٧٥) فإن الله تعالى بعدما أمر عباده بالجهاد استحثهم على المبادرة وخوض المعركة بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ[٢] فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليعبد وحده ويعز أولياؤه ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ[٣] مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ الذين يضطهدون من قبل المشركين ويعذبون من أجل دينهم حتى صرخوا وجأروا بالدعاء إلى ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يلي أمرنا ويكفينا ما أهمنا، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا على أعدائنا أي شيء يمنعكم أيها المؤمنون من قتال في سبيل الله، ليُعبد وحده، وليتخلص[٤] المستضعفون من فتنة

---

(١) ظاهر الآية التسوية بين مَنْ قُتل شهيدًا وبين مَنْ انتصر ورجع بنفسه وهناك حديثان أحدهما يقتضي التسوية وآخر ينفيها فالأول حديث أبي هريرة: «**تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلاّ جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسولي فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلًا من أجر وغنيمة**» رواه مسلم. والثاني: «**ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلاّ تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم**» والجمع بينهما أنّ من غزى ناويًا الأجر والغنيمة ثم غنم وسلم نقص أجره في الآخرة، فلم تكن درجته كالذي استشهد ولم يغنم ولا كالذي نوى الأجر دون الغنيمة أيضًا، والسبب الفارق هو اشتراك النية وعدم خلوصها.

(٢) الاستفهام إنكاري أي: ينكر عليهم قعودهم عن القتال في سبيل الله أي: لإنقاذ المؤمنين من فتنة المشركين وإنقاذ أولادهم من أن يشبوا ويكبروا على أحوال الكفر جاهلين بالإيمان والإسلام.

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما كنت أنا وأمي من المستضعفين، وفي رواية البخاري قال: كنت أنا وأمي ممن عذر الله أنا من الولدان وأمي من النساء وكان النبي ﷺ يقنت لهم فيقول: «**اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين**».

(٤) الإجماع على وجوب تخليص الأسرى من المؤمنين بالقتال أو بالمال، ولا يحل تركهم تحت الكافر يضطهدهم ويعذبهم من أجل=

المشركين لهم من أجل دينهم؟

(٧٦) ثم في الآية الثالثة (٧٦) أخبر تعالى عباده المؤمنين حاضًا لهم على جهاد أعدائه وأعدائهم بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأنهم يؤمنون به وبوعده ووعيده ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ﴾ وهو الكفر[1] والظلم لأنهم لا يؤمنون بالله تعالى ولا بما عنده من نعيم، ولا بما لديه من عذاب ونكال ﴿فَقَٰتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَٰنِ﴾ وهم الكفار، ولا ترهبوهم ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كَانَ﴾ وما زال ﴿ضَعِيفًا﴾، فلا يثبت هو وأولياؤه من الكفرة، أمام جيش الإيمان أولياء الرحمٰن.

هداية الآيات:

١ - فرضية القتال في سبيل الله ولأجل إنقاذ المستضعفين من المؤمنين نصرة للحق وإبطالاً للباطل.

٢ - المقاتل في سبيل الله باع دنياه واعتاض عنها الآخرة، ولنعم البيع.

٣ - المجاهد يؤوب بأعظم صفقة سواء قتل، أو انتصر وغلب وهي الجنة.

٤ - لا يمنع المؤمنين من الجهاد خوف أعدائهم، لأن قوتهم من قوة الشيطان وكيد الشيطان ضعيف.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٧ - ٧٩]

(٧٧) ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾: أي عن القتال وذلك قبل أن يفرض. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾: فرض عليهم. ﴿يَخْشَوْنَ﴾: يخافون. ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا﴾: هلاّ أخرتنا[2]. ﴿فَتِيلًا﴾: الفتيل خيط يكون في وسط النواة.

(٧٨) ﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾: حصون مشيدة بالشيد وهو الجص.

(٧٩) ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾: الحسنة ما سرّ، والسيئة ما ضرّ.

معنى الآيات:

(٧٧) روي أن بعضًا من أصحاب الرسول ﷺ طالبوا بالإذن لهم بالقتال ولم يؤذن لهم لعدم توفر أسباب القتال فكانوا يؤمرون بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ريثما يأذن الله تعالى لرسوله ﷺ بقتال المشركين ولما شرع القتال جبن فريق منهم عن القتال وقالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ متعللين[3] بعلل واهية فأنزل الله تعالى فيهم هاتين الآيتين (٧٧) و(٧٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أي عن القتال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ ريثما يأذن الله بالقتال عندما تتوفر إمكانياته، فلما فرض القتال ونزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ جبنوا ولم يخرجوا للقتال، وقالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يريدون أن يدافعوا الأيام حتى يموتوا ولم يلقوا عدوًا خورًا وجبنًا فأمر تعالى الرسول ﷺ أن يقول لهم: ﴿مَتَٰعُ الدُّنْيَا[4] قَلِيلٌ وَالْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ فعيشكم في الدنيا مهما طابت لكم الحياة هو قليل ﴿وَالْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الله بفعل أمره وترك نهيه بعد الإيمان به وبرسوله ﷺ، وسوف تحاسبون على أعمالكم وتجزون بها ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ لا بنقص حسنة ولا بزيادة سيئة. هذا ما تضمنته الآية الأولى.

= دينهم، وفي الحديث الصحيح: **«فكوا العاني»** وهو الأسير، وسمي العاني: لما يعانيه من آلام وأتعاب، والمسلمون اليوم أسرى تحت اليهود في فلسطين والمسلمون تاركون لهم غير مهتمين بهم وهو ذنب عظيم.

(١) يطلق الطاغوت على ما عبد من دون الله، ويطلق على من دعا إلى غير عبادة الله كالشيطان وغيره من الجنّ والإنس الذين يدعون إلى عبادة الأصنام والأشخاص وغيرها، وفي هذه الآية يناسب أن يكون الطاغوت هو الشيطان لقوله بعد أولياء ﴿الشَّيْطَٰنِ..﴾ وإطلاقنا الطاغوت على الكفر والظلم مراعاة لحال الناس فإنّ أكثرهم يقاتل نصرة للكفر الذي هو عليه أو لإبقاء ظلمه واستعلائه في الأرض.

(٢) المراد من التأخير إلى أجل قريب هو أن يتم استعدادهم للقتال بتوفر المال والرجال والعتاد، لا إلى أجل الموت فإنّه غير وارد في قولهم هذا ولا معنى له، وهل قولهم كان في أنفسهم أو صرحوا به؟ كلاهما وارد وجائز الوقوع.

(٣) اختلف هل هذه الآية نزلت في المؤمنين أو المنافقين؛ والصواب أنها نزلت في بعض المؤمنين ممن ضعف إيمانهم، أما كونها نزلت في اليهود فلا معنى له، وكونها شملت المنافقين فهذا حق بدليل سياق الآيات.

(٤) يبيّن قلة متاع الدنيا قوله ﷺ: **«مثلي ومثل الدنيا كراكب قال قيلولة تحت شجرة ثم راح وتركها»**.

(٧٨) أما الثانية فقد قال تعالى لهم ولغيرهم ممن يخشون القتال ويجبنون عن الخروج للجهاد: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ إذ الموت طالبكم ولا بد أن يدرككم كما قال تعالى لأمثالهم ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾، ولو دخلتم حصونًا[1] ما فيها كوة ولا نافذة فإن الموت يدخلها عليكم ويقبض أرواحكم. ولما ذكر تعالى جبنهم وخوفهم ذكر تعالى سوء فهمهم وفساد ذوقهم فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ يعني أنه إذا أصابهم خير من غنيمة أو خصب ورخاء قالوا ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لا شكرًا لله وإنما لا يريدون أن ينسبوا إلى رسول الله ﷺ شيئًا من خير كان ببركته وحسن قيادته، وإن تصبهم سيئة فقر أو مرض أو هزيمة يقولون هذه من عندك[2] أي أنت السبب فيها. قال تعالى لرسوله ﷺ قل لهم: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الحسنة والسيئة هو الخالق والواضع السنن لوجودها وحصولها. ثم عابهم في نفسياتهم الهابطة فقال: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ هذا ما دلت عليه الآية الثانية.

(٧٩) أما الثالثة والأخيرة في هذا السياق وهي قوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ[3] مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[4] الآية، فإن الله تعالى يخاطب رسوله ﷺ فيخبره بأن الحسنة من الله تعالى إذ هو الآمر بقولها أو فعلها وموجد أسبابها والموفق للحصول عليها، أما السيئة فمن النفس إذ هي التي تأمر بها، وتباشرها مخالفة فيها أمر الله أو نهيه، فلذا لا يصح نسبتها إلى الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ يُسلي به رسوله ﷺ عما يلاقيه من أذى الناس وما يصادفه من سوء أخلاق بعضهم كالذين ينسبون إليه السيئة تطيرًا به فيخبره بأن مهمته أداء الرسالة وقد أداها والله شاهد على ذلك ويجزيك عليه بما أنت أهله وسيجزي من رد رسالتك وخرج عن طاعتك وكفى بالله شهيدًا.

هداية الآيات:

١ ـ قبح الاستعجال والجبن وسوء عاقبتهما.

٢ ـ الآخرة خير لمن اتقى من الدنيا[5].

٣ ـ لا مفر من الموت ولا مهرب منه بحال[6] من الأحوال.

٤ ـ الخير والشر كلاهما بتقدير الله تعالى.

٥ ـ الحسنة من الله والسيئة من النفس إذ الحسنة أمر الله بأسبابها بعد أن أوجدها وأعان عليها، وأبعد الموانع عنها والسيئة من النفس لأن الله نهى عنها وتوعد على فعلها، ولم يوفق إليها ولم يعن

---

(١) تفسير لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ إذ البرج: البناء المرتفع، والقصر العظيم، قال طرفة يصف ناقة:

كأنها برج رومي يكفها ... بانٍ بشيد وآجرٍ وأحجار

وفي الآية ردّ على القدرية القائلين المقتول لو لم يقتله القاتل عاش.

(٢) لقد شارك يهود في هذا القول فقد روي أنهم لما نزل الرسول ﷺ المدينة مهاجرًا قالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه!!

(٣) إنّ الخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو عام في كل إنسان لا سيما المؤمن أو هو من باب إيَّاك أعني، واسمعي يا جارة، وكون لفظه خاصًا بالرسول ﷺ ومعناه عام هو الصحيح.

(٤) زاد بعضهم جملة: وأنا كتبتها عليك وهي ليست قرآنًا إجماعًا، وإنما هي تفسير من بعض الصحابة ولا التفات لمن طعن في القرآن بمثل هذه الزيادة التفسيرية.

(٥) وما أحسن ما قيل في معنى الآية شعرًا:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له ... من الله في دار المقام نصيب

فإن تعجب الدنيا رجالاً فإنها ... متاع قليل والزوال قريب

(٦) قال زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلّم

عليها فهي من النفس[1] لا من الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٠ - ٨٣]

﴿٨٠﴾ ﴿حَفِيظًا﴾: تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها.

﴿٨١﴾ ﴿طَاعَةٌ﴾: أي أمرنا طاعة لك.

﴿بَرَزُوا۟﴾: خرجوا.

﴿٨٢﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾: تدبر القرآن قراءة الآية أو الآيات وإعادتها المرة بعد المرة ليفقه مراد الله تعالى منها.

﴿٨٣﴾ ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾: أفشوه معلنينه للناس. ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: يستخرجون معناه الصحيح.

معنى الآيات:

﴿٨٠﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾[2] إنذار إلى الناس كافة في أن من لم يطع الرسول محمدًا ﷺ ما أطاع الله تعالى، إن أمر الرسول ﷺ من أمر الله ونهيه من نهي الله تعالى فلا عذر لأحد في عدم طاعة الرسول ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي عن طاعتك فيما تأمر به وتنهى عنه فدعه ولا تلتفت إليه إذ لم نرسلك لتحصي عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتجزيهم بها إن عليك إلا البلاغ وقد بلغت فأعذرت.

﴿٨١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي ويقول أولئك المنافقون المتطيرون بك السّيئو الفهم لما تقول: طاعة أي أمرنا طاعة لك أي ليس لنا ما نقول إذا قلت ولا ما نأمر به إذا أمرت فنحن مطيعون لك ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟﴾ أي خرجوا من مجلسك بدّل طائفة منهم غير الذي تقول واعتزموه دون الذي وافقوا عليه أمامك وفي مجلسك والله تعالى يكتب بواسطة ملائكته الكرام الكاتبين ما يبيتونه[3] من الشر والباطل. وعليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تبال بهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فهو حسبك وكافيك ما يبيتونه من الشر لك.

﴿٨٢﴾ وقوله تعالى في الآية الثانية

الجزء الخامس — سورة النساء

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

٩١

(٨٢) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ[4] ٱلْقُرْءَانَ﴾ يؤنبهم بإعراضهم وجهلهم وسوء فهمهم إذ لو تدبروا القرآن وهو يُتلى عليهم وسمعوه صباح مساء لعرفوا أن الرسول ﷺ حق وأن ما جاء به حق فآمنوا وأسلموا وحسن إسلامهم، وانتهى نفاقهم الذي أفسد قلوبهم وعفن آراءهم، إن تدبر القرآن بالتأمل فيه وتكرار آياته مرة بعد أخرى يهدي

---

(١) قال قتادة رواية: لا يصيب رجلاً خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلاّ بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. وفي الحديث الصحيح: **«والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن همّ ولا حزن ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلاّ كفر الله عنه بها من خطاياه»** فهو دال على حديث قتادة الضعيف.

(٢) مصداقه في صحيح مسلم قوله ﷺ: **«من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»**.

(٣) بيّتوا: زوروا وبدلوا إذ التبييت هو تدبر الأمر بالليل حيث اتساع الوقت والفراغ من العمل وقلة العيون وبيتوا العدو: آتوه ليلاً قال الشاعر:

أجمعوا أمرهم بليل فلما — أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

(٤) في هذه الآية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ مع آية سورة القتال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ دليل على وجوب تدبر القرآن لفهم معانيه، لاعتقاد الحق والعمل به، وفيه ردّ على مَن زعم أنه لا يأخذ من القرآن إلاّ ما ثبت عن النبي ﷺ تفسيره، ودليل على وجوب النظر والاستدلال وإبطال التقليد.

إلى معرفة الحق من الباطل وأقرب ما يفهمونه لو تدبروا أن القرآن كلام الله تعالى وليس كلام بشر، إذ لو كان كلام بشر لوجد فيه التناقض والاختلاف والتضاد، ولكنه كلام خالق البشر، فلذا هو متسق الكلم متآلف الألفاظ والمعاني محكم الآي هادٍ إلى الإسعاد والكمال، فهو بذلك كلام الله حقًا ومن شرف بإنزاله عليه رسول حق ولا معنى أبدًا للكفر بعد هذا والإصرار عليه، ومنافقة المسلمين فيه. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

(٨٣) وقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ وهي الآية الرابعة (٨٣) فإن الله تعالى يخبر عن أولئك المرضى بمرض النفاق ناعيًا عليهم إرجافهم وهزائمهم المعنوية فيقول: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ أي إذا وصل من سرايا الجهاد خبر بنصر أو هزيمة سارعوا بإفشائه وإذاعته، وذلك عائد إلى مرض قلوبهم لأن الخبر وأطلق عليه لفظ الأمر لأن حالة الحرب غير حالة السلم إذا كان بالنصر المعبر عنه بالأمن فهم يعلنونه حسدًا أو طمعًا، وإذا كان بالهزيمة المعبر عنها بالخوف يعلنونه فزعًا وخوفًا لأنهم جبناء كما تقدم وصفهم، قال تعالى في تعليمهم وتعليم غيرهم ما ينبغي أن يكون عليه المجاهدون في حال الحرب. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ القائد الأعلى ﷺ، ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وهم أمراء السرايا المجاهدة ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ[١] مِنْهُمْ﴾ أي لاستخرجوا سر الخبر وعرفوا ما يترتب عليه فإن كان نافعًا أذاعوه، وإن كان ضارًا أخفوه. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أيها المؤمنون ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾[٢] في قبول تلك الإشاعات المغرضة والإذاعات المثبطة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم من ذوي الآراء الصائبة والحصافة العقلية إذ مثلهم لا تثيرهم الدعاوي، ولا تغيرهم الأراجيف، ككبار الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

هداية الآيات:

١ - وجوب طاعة الرسول ﷺ فإنه لا يطاع لذاته وإنما يطاع لذات الله عز وجل.

٢ - وجوب تدبر القرآن لتقوية الإيمان[٣].

٣ - آية أن القرآن وحي الله وكلامه سلامته من التناقض والتضاد في الألفاظ والمعاني.

٤ - تقرير مبدأ أن أخبار الحرب لا تذاع إلا من قبل القيادة العليا حتى لا يقع الاضطراب في صفوف المجاهدين والأمة كذلك.

٥ - أكثر الناس يتأثرون بما يسمعون إلا القليل من ذوي الحصافة العقلية والوعي السياسي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٤ - ٨٦]

(٨٤) حرض المؤمنين: حثهم على الجهاد وحرضهم على القتال.

﴿بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: قوتهم الحربية. ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾: أقوى تنكيلاً، والتنكيل: ضرب الظالم بقوة حتى يكون عبرة لمثله فينكل عن الظلم.

الشفاعة[٤]: الوساطة في الخير أو في الشر فإن كانت في الخير فهي الحسنة وإن كانت في الشر فهي السيئة.

(٨٥) ﴿كِفْلٌ مِّنْهَا﴾: نصيب منها. ﴿مُّقِيتًا﴾[٥]: مقتدرًا عليه وشاهدًا عليه حافظًا له.

---

(١) الاستنباط مأخوذ من استنبط الماء: إذا استخرجه من الأرض، والنبط: الماء المستنبط أوّل ما يخرج من ماء البئر أول ما يحفر، وسمي النبط نبطًا لأنهم يستخرجون ما في الأرض، والاستنباط لغة: الاستخراج، وفي هذه الآية دليل على الاجتهاد.

(٢) ما فسرنا به الآية أصح مما فسرت به ولا التفات إلى ما أورد القرطبي من آراء عدّة لا طائل تحتها.

(٣) واستنباط الأحكام واستخراج أنواع الهدايات فيه إذ هو كتاب هداية للمؤمنين به يهتدون إلى ما يكملهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة.

(٤) الشفاعة من الشفع وهو الزوج ضد الفرد، وسميت شفاعة لأنّ الشفيع يصير مع المشفوع له شفعًا أي: زوجًا، والشفعة ضم ملك إلى ملك.

(٥) شاهده قول الزبير بن عبدالمطلب:

وذي ضغن كففت النفس عنه ... وكنت على مساءته مُقيتا

أي: مقتدرًا.

(٨٦) ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾: تحية الإسلام هي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾: أي يقول وعليكم السلام. ﴿حَسِيبًا﴾: محاسبًا على العمل مجازيًا به خيرًا كان أو شرًا.

معنى الآيات:

(٨٤) ما زال السياق في السياسة الحربية ففي هذه الآية ﴿فَقَٰتِلْ[١] فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ يأمر تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يقاتل المشركين لأجل إعلاء كلمة الله تعالى بأن يعبد وحده وينتهي اضطهاد المشركين للمؤمنين وهو المراد من قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ﴾[٢] أي لا يكلفك ربك إلا نفسك وحدها، أما من عداك فليس عليك تكليفه بالقتال، ولكن حرض المؤمنين على القتال معك فحثهم على ذلك ورغبهم فيه. وقول: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ وهذا وعد من الله تعالى بأن يكف بأس الذين كفروا فيسلط عليهم رسوله ﷺ والمؤمنين فيبددوا قوتهم ويهزموهم فلا يبقى لهم بأس ولا قوة وقد فعل[٣] وله الحمد والمنة وهو تعالى ﴿أَشَدُّ بَأْسًا﴾: من كل ذي بأس ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ من غيره بالظالمين من أعدائه.

(٨٥) هذا ما دلت عليه الآية (٨٤) أما الآية (٨٥) وهي قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَاۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ۝﴾ فهو إخبار منه تعالى بأن من يشفع شفاعة حسنة بأن يضم صوته مع مطالب بحق أو يضم نفسه إلى سريّة تقاتل في سبيل الله، أو يتوسط لأحد في قضاء حاجته فإن للشافع قسطًا من الأجر والمثوبة كما أن ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ بأن يؤيد باطلاً أو يتوسط في فعل شر أو ترك معروف يكون عليه نصيب من الوزر، لأن الله تعالى على كل شيء مقتدر وحفيظ عليهم. هذا ما دلت عليه الآية المذكورة.

(٨٦) أما الآية الأخيرة (٨٦) فإن الله تعالى يأمر عباده المؤمنين بأن يردوا تحية من يحييهم بأحسن منها فإن لم يكن بأحسن فبالمثل، فمن قال: السلام عليكم فليقل الراد وعليكم السلام ورحمة الله، ومن قال السلام عليكم ورحمة الله فليرد عليه وعليكم السلامة ورحمة الله وبركاته، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾[٤] فيه تطمين للمؤمنين على أن الله تعالى يثيبهم على إحسانهم ويجزيهم به.

هداية الآيات:

١ - بيان شجاعة النبي ﷺ بدليل أنه كلف بالقتال وحده وفعل.

٢ - ليس من حق الحاكم أن يجند المواطنين تجنيدًا إجباريًا، وإنما عليه أن يحضهم على التجنيد ويرغبهم فيه بوسائل الترغيب.

٣ - فضل الشفاعة في الخير، وقبح الشفاعة في الشر[٥].

٤ - تأكيد سنة التحية، ووجوب ردّها بأحسن أو بمثل[٦].

٥ - تقرير ما جاء في السنة بأن

---

(١) هذه الفاء هي الفصيحة، والتقدير: إذا كان الأمر كما علمت من وجود المثبطين والخائفين والمرجفين، فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلاّ نفسك.

(٢) في الآية دليل على شجاعة الرسول ﷺ الخارقة للعادة إذ كلّفه الله به على انفراد وأمره بتحريض المؤمنين على القتال، ومعنى هذا أنّه أمره بالجهاد ولو كان وحده ولذا قال ﷺ: «والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي» أي: حتى أموت، وتحريض المؤمنين هو أمرهم بالقتال وحثهم عليه ولا على سبيل الإلزام كما ألزم به هو ﷺ.

(٣) فلم يقبض رسول الله ﷺ حتى دانت الجزيرة كلها بالإسلام، ولم يمض أكثر من ربع قرن حتى دخلت دولتا الفرس والروم في الإسلام لأنّ (عسى) من الله تعالى تفيد وجوب الوقوع.

(٤) حسيب هنا: بمعنى محاسب وحفيظ فلا يضيع حسنات العبد.

(٥) شاهده من السنة قوله ﷺ: «اشفعوا تؤجروا» وليقض الله على لسان نبيه ﷺ ما أحب.

(٦) في الآية سنية إلقاء السلام ووجوب ردّه وقد بينت السنة أنّ القليل يسلم على الكثير، والقائم على القاعد، والراكب على الماشي، وأنّ الردّ يكون بزيادة ورحمة الله وبركاته، وأنه لا يسلم على المرأة الصغيرة خشية الفتنة، وأنّ المصلي إن سُلّم عليه رد السلام بالإشارة إن شاء.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

السلام عليكم: يعطى عليها المسلم عشر حسنات ورحمة الله: عشر حسنات. وبركاته: عشر كذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٧ ـ ٩١]

﴿٨٧﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]: لا معبود بحق إلا هو.

﴿٨٨﴾ ﴿فِئَتَيْنِ﴾[2]: جماعتين الواحدة فئة أي جماعة.

﴿أَرْكَسَهُم﴾: الارتكاس: التحول من حال حسنة إلى حال سيئة كالكفر بعد الإيمان أو الغدر بعد الأمان وهو المراد هنا.

﴿سَبِيلًا﴾: أي طريقًا إلى هدايتهم.

﴿٨٩﴾ ﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: الولي: من يلي أمرك، والنصير: من ينصرك على عدوك.

﴿٩٠﴾ ﴿يَصِلُونَ﴾: أي يتصلون بهم بموجب عقد معاهدة بينهم. ﴿مِّيثَٰقٌ﴾: عهد. ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾: ضاقت.

﴿ٱلسَّلَمَ﴾: الاستسلام والانقياد.

﴿٩١﴾ ﴿ٱلْفِتْنَةِ﴾: الشرك. ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: وجدتموهم متمكنين منهم. ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾: حجة بينة على جواز قتالهم.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى الآيات قبل هذه أنه تعالى المقيت والحسيب أي القادر على الحساب والجزاء أخبر عز وجل أنه الله الذي لا إله إلا هو أي المعبود دون سواه لربوبيته على خلقه إذ الإله الحق ما كان ربًا خالقًا رازقًا مدبرًا بيده كل شيء وإليه مصير كل شيء وأنه جامع[3] الناس ليوم لا ريب في إتيانه وهو يوم القيامة.

﴿٨٧﴾ هذا ما دلت عليه الآية الكريمة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولما كان هذا خبرًا يتضمن وعدًا ووعيدًا أكد تعالى إنجازه فقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ اللهم إنه لا أحد أصدق منك.

﴿٨٨﴾ أما الآيات الأربع الباقية وهي (٨٨) و(٨٩) و(٩٠) و(٩١) فقد نزلت لسبب معين وتعالج مسائل حربية معنية أما السبب الذي نزلت فيه فهو اختلاف المؤمنين من أصحاب الرسول ﷺ في طائفة من المنافقين أظهروا الإسلام وهم ضليعون في موالاة الكافرين، وقد يكونون في مكة[4]، وقد يكونون في المدينة فرأى بعض الأصحاب أن من الحزم الضرب على أيديهم وإنهاء نفاقهم، ورأى آخرون تركهم والصبر عليهم ما

---

(١) اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة معترضة، وجملة القسم واقعة موقع الخبر.

(٢) الفئة: الطائفة، اشتق لفظها من الفيء الذي هو الرجوع، إذ أفرادها يرجع بعضهم إلى بعض وأصلها فيء فحذفت الياء من وسطها لكثرة الاستعمال فصارت: فئة بعد زيادة هاء التأنيث عوضًا عن الياء المحذوفة.

(٣) قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ جواب قسم، وهذا الجمع دلالة اللفظ أنه في القبور تحت الأرض ليبعثهم يوم القيامة وقد تكون (إلى) صلة ويكون الجمع هو جمع يوم القيامة.

(٤) السياق الكريم صالح لأن تكون الفئتان المختلف فيهما من مكة أو من المدينة وقد ورد في الصحيح اختلاف المؤمنين في ابن أبيّ ومن وافقه ورجع من أحد دون قتال حتى قال الرسول ﷺ: **«إنها طيبة وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد»** كما ورد في غير الصحيح أنّ جماعة في مكة تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين وأبوا أن يهاجروا، فاختلف في شأنهم المؤمنون، ولا مانع من أن تعني الآيات منافقي المدينة، ومنافقي مكة، إذ الخلاف وقع في كلّ من منافقي مكة ومنافقي المدينة، ويرجح هذا الرأي صحة الخبر الأول وذكر الهجرة في الثاني.

داموا يدعون الإيمان لعلهم بمرور الأيام يتوبون، فلما اختلفوا واشتد الخلاف في شأنهم أنزل الله تعالى هذه الآيات فقال: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم[١] بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ[٢] أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ ومعنى الآية أي شيء صيركم في شأن المنافقين فئتين؟ والله تعالى قد أركسهم في الكفر بسبب ما كسبوه من الذنوب العظام. أتريدون أيها المسلمون أن تهدوا من أضل الله، وهل يقدر أحد على هداية من أضله الله؟ وكيف، ومن يضلل الله حسب سنته في إضلال البشر لا يوجد له هادٍ، ولا سبيل لهدايته بحال من الأحوال.

(٨٩) ثم أخبر تعالى عن نفسية أولئك المنافقين المختلف فيهم فقال وهي الآية الثالثة (٨٩) ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ أي أحبوا من قلوبهم كفركم لتكونوا مثلهم وفيه لازم وهو انتهاء الإسلام، وظهور الكفر وانتصاره.

ومن هنا قال تعالى محرمًا موالاتهم إلى أن يهاجروا فقال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ تعولون عليهم في نصرتكم على إخوانهم في الكفر. وظاهر هذا السياق أن هؤلاء المنافقين هم بمكة وهو كذلك. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ[٣] فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، لأن الهجرة إلى المدينة تقطع صلاتهم بدار الكفر فيفتر عزمهم ويراجعوا الصدق في إيمانهم فيؤمنوا فإن هاجروا ثم تولوا عن الإيمان الصحيح إلى النفاق والكفر فأعلنوا الحرب عليهم ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لأنهم بارتكاسهم لا خير فيهم ولا يعول عليهم.

(٩٠) ثم في الآية (٩٠) استثنى لهم الرب تعالى صنفين من المنافقين المذكورين فلا يأخذونهم أسرى ولا يقاتلونهم، الصنف الأول الذين ذكرهم تعالى بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ أي يلجؤون ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾[٤] فبحكم استجارتهم بهم طالبين الأمان منهم فأمنوهم أنتم حتى لا تنقضوا عهدكم. والصنف الثاني قوم ضاقت صدورهم بقتالكم، وقتال قومهم فهؤلاء الذين لم يستسيغوا قتالكم ولا قتال قومهم إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم فلا تأخذوهم ولا تقتلوهم واصبروا عليهم، إذ لو شاء الله تعالى لسلطهم عليكم فلقاتلوكم، هذا الصنف هو المعني بقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ فما دام الله تعالى قد كفهم عنكم فكفوا أنتم عنهم. هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾. أي المسالمة والمهادنة ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا[٥]﴾ لأخذهم وقتالهم.

(٩١) هذا وهناك صنف آخر ذكر تعالى حكم معاملته في الآية الخامسة والأخيرة وهي قوله تعالى: (٩١) ﴿سَتَجِدُونَ[٦] ءَاخَرِينَ﴾ غير الصنفين السابقين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾[٧] فهم إذًا يلعبون على الحبلين كما يقال ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ

---

(١) جملة: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ حالية.

(٢) الاستفهام إنكاري وهو دال على جملة محذوفة تقديرها: إنهم قد أضلهم الله.

(٣) الهجرة: هجرتان هي لمنافقي المدينة: الخروج إلى الغزو مع رسول الله ﷺ، وهجرة لمنافقي مكة: وهي إلى المدينة للإقامة بها، والهجرة أنواع: منها ترك المعاصي لحديث: «**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ورسوله**» ومنها هجرة الفساق وأهل البدع ليتوبوا من ذنوبهم.

(٤) قد اختلف في هؤلاء الذين بينهم وبين المؤمنين ميثاق، وما دامت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فلا طائل تحت معرفتهم الآن، إذ العبرة أنّ في الآية دليل على جواز الموادعة بين أهل الحرب والمسلمين للضرورة.

(٥) ﴿سَبِيلًا﴾: أي: إذنا بقتالهم بعد أن أمركم بقتال غيرهم حيث وجدتموهم ممكّنين منهم.

(٦) ﴿سَتَجِدُونَ﴾ الوجدان هنا بمعنى الاطلاع والعثور أي: ستطلعون على قوم آخرين وصفهم كذا أو كذا.

(٧) أي: لا همَّ لهم إلاّ حظوظ أنفسهم، ولا سعي لهم إلاّ في خويصيتهم فهم يظهرون المودة للمسلمين ليأمنوهم ويظهروها لقومهم ليأمنوا أيضًا، قيل: هم غطفان، وبنو أسد قبل أن يحسن إسلامهم وبنو عبد الدار بمكة أيضًا إذ كانوا يأتون المدينة مظهرين الإسلام ثم إذا عادوا إلى مكة عبدوا الأصنام.

﴿إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي إلى الشرك ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ أي وقعوا فيها منتكسين إذ هم منافقون إذا كانوا معكم عبدوا الله وحده وإذا كانوا مع قومهم عبدوا الأوثان لمجرد دعوة يدعونها يلبون فيرتدون إلى الشرك، وهو معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي إن لم يعتزلوا قتالكم ويلقوا إليكم السلام وهو الإذعان والانقياد لكم، ويكفوا أيديهم فعلاً عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي حجة واضحة على جواز أخذهم وقتلهم حيثما تمكنتم منهم وعلى أي حال. هذا ما دلت عليه الآيات الخمس مع العلم أن الكف عن قتال المشركين قد نسخ بآيات براءة إلا أن لإمام المسلمين أن يأخذ بهذا النظام عند الحاجة إليه فإنه نظام رباني ما أخذ به أحد وخاب أو خسر، ولكن خارج جزيرة العرب إذ لا ينبغي أن يجتمع فيها دينان.

هداية الآيات:

١ - وجوب توحيد الله تعالى في عبادته.

٢ - الإيمان بالبعث والجزاء.

٣ - خطة حكيمة لمعاملة المنافقين بحسب الظروف والأحوال.

٤ - تقرير النسخ في القرآن.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٢، ٩٣]

(٩٢) ﴿إِلَّا خَطَـًٔاۚ﴾: أي إلا قتلاً خطأ وهو أن لا يتعمد قتله كأن يرمي صيدًا فيصيب إنسانًا. ﴿رَقَبَةٍ﴾: أي مملوك عبدًا كان أو أمة[(١)]. ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾: مؤداة وافية[(٢)]. ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾: أي يتصدقوا بها على القاتل فلا يطالبوا بها ولا يأخذوها منه. ﴿مِّيثَٰقٌ﴾: عهد مؤكد بالأيمان.

(٩٣) ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾: مريدًا قتله وهو ظالم له.

معنى الآيتين:

(٩٢) لما ذكر تعالى في الآيات السابقة قتال المنافقين متى يجوز ومتى لا يجوز ناسب ذكر قتل المؤمن الصادق في إيمانه خطأ وعمدًا وبيان حكم ذلك فذكر تعالى في الآية الأولى (٩٢) أنه لا ينبغي[(٣)] لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا في حال الخطأ أما في حال العمد فلا يكون ذلك منه ولا يتأتى له وهو مؤمن لأن الإيمان نور يكشف عن مدى قبح جريمة قتل المؤمن وما وراءها من غضب الله تعالى وعذابه فلا يقدم على ذلك اللهم إلا في حال الخطأ فهذا وارد وواقع، وحكم من قتل خطأ أن يعتق رقبة ذكرًا كانت أو أنثى مؤمنة وأن يدفع الدية لأولياء القتيل إلا أن يتصدقوا بها فلا يطالبوا بها ولا يقبلونها والدية مائة من الإبل[(٤)]، أو ألف دينار ذهب، أو اثنا عشر ألف درهم فضة. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ[(٥)] مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ[(٦)] إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن

---

(١) لا بد أن تكون الرقبة مؤمنة، وهل يجب أن تكون بالغة؟ إذ الإيمان يتم بالبلوغ، والذي عليه مالك أنها تجزىء إذا كانت سليمة الأعضاء ولو لم تكن بالغة وهو الراجح.

(٢) لقد بيّنت السنة أن دية الخطأ على العاقلة، ولا خلاف فيها.

(٣) فالنفي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا..﴾ ليس نفي الفعل حتى يقال: ما نفاه الله لا يجوز وجوده، وإنّما هو نفي الحال والشأن لا الفعل فليتأمل.

(٤) ومن الغنم ألف شاة، وهل الإبل تخمّس؟ خلاف، ومذهب الشافعي ومالك أنها تخمس، فعشرون حقة، وعشرون جذعة، وعشرون بنات مخاض، وعشرون بنات لبون، وعشرون بنو لبون ذكور، وتغلّظ دية شبه العمد، بأن يكون أربعون منها في بطونها أولادها، وشبه العمد ما كان بأداة لا تقتل عادة كالعصا ونحوها لحديث: **«ألا إنّ دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل منها أربعون في بطونها أولادها»**.

(٥) قيل: نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة إذ قتل الحارث بن زيد العامري لإحنة كانت بينهما، وكان الحارث قد أسلم ولم يعلم عياش بإسلامه فكان قتله خطأ وقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فعليه تحرير رقبة.

(٦) أكثر أهل العلم أنّ دية المرأة على نصف دية الرجل وأنّ دية الجنين إذا سقط حيًا دية كاملة وإذا سقط ميتًا فديته غرّة عبد أو أمة، ومعنى غرّة أي: أن يكون أبيض لا أسود، فيقوم العبد وتعطى قيمته دية.

﴿يَصَّدَّقُوا﴾ فإن كان القتيل مؤمنًا ولكن من قوم هم عدو للمسلمين محاربين فالواجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير، إذ لا تعطى الدية لعدو يستعين بها على حرب المسلمين وإن كان القتيل من قوم كافرين وهو مؤمن أو كافر ولكن بيننا وبين قومه معاهدة، على القاتل تحرير رقبة ودية مسلمة إلى أهله، فمن لم يجد الرقبة صام شهرين متتابعين فذلك توبته لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً[1] مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليمًا بما يحقق المصلحة لعباده حكيمًا في تشريعه فلا يشرع إلا ما كان نافعًا غير ضار، ومحققًا للخير في الحال والمآل.

(٩٣) هذا ما دلت عليه الآية الأولى أما الثانية (٩٣) فإنها بينت حكم من قتل مؤمنًا عمدًا عدوانًا، وهو أن الكفارة لا تغني عنه شيئًا لما قضى الله تعالى له باللعن والخلود في جهنم إذ قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾ إلا أن الدية أو القصاص لازمان ما لم يعف أولياء الدم فإن عفوا عن القصاص ورضوا بالدية أعطوها وإن طالبوا بالقصاص اقتصوا إذ هذا حقهم وأما حق الله تعالى فإن القتيل عبده خلقه ليعبده فمن قتله فالله تعالى رب العبد خصمه وقد توعده بأشد العقوبات وأفظعها، والعياذ بالله تعالى وذلك حقه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾.

الجزء الخامس — سورة النساء

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

٩٣

هداية الآيتين:

١ ـ بيان أن المؤمن الحق لا يقع منه القتل العمد للمؤمن.

٢ ـ بيان جزاء القتل الخطأ وهو تحرير رقبة ودية مسلمة إلى أهله.

٣ ـ إذا كان القتيل مؤمنًا وكان من قوم كافرين محاربين فالجزاء تحرير رقبة ولا دية.

٤ ـ إذا كان القتيل من قوم بين المسلمين وبينهم ميثاق فالواجب الدية وتحرير رقبة.

٥ ـ من لم يجد الرقبة صام شهرين متتابعين[2].

٦ ـ القتل العمد العدواني يجب له أحد شيئين القصاص أو الدية حسب رغبة أولياء الدم وإن عفوا فلهم ذلك وأجرهم على الله تعالى، وعذاب الآخرة وعيد إن شاء الله أنجزه وإن شاء عفا عنه.

شرح الكلمات: [الآية: ٩٤]

(٩٤) ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾: خرجتم تضربون الأرض بأرجلكم غزاة ومسافرين.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: فتثبتوا حتى لا تقتلوا مسلمًا تحسبونه كافرًا.

﴿السَّلَمَ﴾[3]: الاستسلام والانقياد.

---

(١) ﴿تَوْبَةً﴾: منصوب على المصدر أي: تاب الله عليه توبة، أي: مشروعية الكفارة في قتل الخطأ كانت توبة من الله على العبد القاتل خطأ، وعلّة الكفارة أنه لم يتحرّز ولم يتحفظ فلذا وقع منه القتل فكان لا بد من مكفّر لما لحقه من الإثم بالتفريط، أمّا القاتل عمدًا فلا كفارة تجزئه، وهل له من توبة؟ عليه أن يتوب، ومن توبته أن يعتق أو يتصدق ويصوم رجاء أن يتوب الله عليه.

(٢) يسقط التتابع بالمرض والحيض لا بالسفر، ومعنى التتابع: أن لا يستأنف مَن أفطر لمرض، وإنّما يبني على ما صامه، ويواصل حتى يكمل الشهرين.

(٣) السِلم: بكسر السين، والسَلَم بفتح السين واللام، والسلام: واحد والسلم بالكسر هنا أولى لأنّه بمعنى الانقياد والطاعة.

لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

٩٤

﴿تَبْتَغُونَ﴾: تطلبون. ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: بالهداية فاهتديتم وأصبحتم مسلمين.

معنى الآية الكريمة:

﴿٩٤﴾ روي أن نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا فلقوا رجلاً يسوق غنمًا[1] من بني سليم فلما رآهم سلّم عليهم قائلاً: السلام عليكم فقالوا له: ما قلتها إلا تقيّة لتحفظ نفسك ومالك وقتلوه فنزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد خرجتم مسافرين للغزو والجهاد ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ممن تلقونهم في طريقكم هل هم مسلمون فتكفوا عنهم أو كافرين فتقاتلوهم، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ أعلن إسلامه لكم بالشهادة أو بالسلام ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ فتكذبونه في دعواه الإسلام لتنالوا منه ﴿تَبْتَغُونَ﴾ بذلك ﴿عَرَضَ[2] الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي متاعها الزائل فإن كان قصدكم الغنيمة فإن عند الله مغانم كثيرة فأطيعوه وأخلصوا له النية والعمل يرزقكم ويغنمكم خير ما تأملون وترجون وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي مثل هذا الرجل الذي قتلتموه رغبة في غنمه كنتم تستخفون بإيمانكم خوفًا من قومكم ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن أظهر دينه ونصركم فلم تعودوا تخفون دينكم. وعليه فتبينوا مستقبلاً، ولا تقتلوا أحدًا حتى تتأكدوا من كفره[3] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تذييل يحمل الوعد والوعيد، الوعد لمن أطاع والوعيد لمن عصى إذ لازم كونه تعالى خبيرًا بالأعمال أنه يحاسب عليها ويجزي بها، وهو على كلِّ شيء قدير.

هداية الآية الكريمة:

١ - مشروعية السير في سبيل الله غزوًا وجهادًا[4].

٢ - وجوب التثبت والتبين في الأمور التي يترتب على الخطأ فيها ضرر بالغ.

٣ - ذم الرغبة في الدنيا لا سيما إذا كانت تتعارض مع التقوى.

٤ - الاتعاظ بحال الغير والاعتبار بالأحداث المماثلة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٥، ٩٦]

﴿٩٥﴾ أولوا الضرر: هم العميان والعرج والمرضى. ﴿دَرَجَةً﴾: منزلة عالية في الجنة. ﴿الْحُسْنَىٰ﴾: الجنة.

---

(١) روي أنّ النبي ﷺ حمل ديته إلى أهله وردّ غنمه، وهو كذلك.

(٢) سمي متاع الدنيا عَرَضًا: لأنه عارض زائل، ويطلق العرض بفتح الراء على الدراهم والدنانير وبإسكان الراء على المتاع من أثاث وغيره فلذا كل عرض بإسكان الراء عرَض بفتحها ولا ينعكس وفي الحديث الصحيح: **«ليس الغنى عن كثرة العرض إنّما الغنى غنى النفس»** رواه مسلم.

(٣) لأن قتل النفس عظيم، ولذا لمّا أخبر الرسول ﷺ بمن قتل مَن قال: لا إله إلا الله ظانًا أنه قالها تقية قال: **«هلاً شققت عن قلبه»** قالها ثلاثًا، ولذا لو أنّ كافرًا صلى معنا ولم يقل: لا إله إلا الله لم نقتله حتى نطلب إليه قولها فإن قالها وإلا قتل حينئذ، هذا الكافر المحارب لا المعاهد والمستأمن.

(٤) بل فضيلة السير في سبيل الله سواء للجهاد أو لطلب علم أو صلة أو حج أو عمرة أو إبلاغ دعوة وتعليم علم أو زيارة مؤمن لما ورد في ذلك من الأجر العظيم.

معنى الآيتين:

روي أن ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه لما نزلت هذه الآية بهذه الصيغة ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ الآية. أتى النبي ﷺ فقال: كيف وأنا أعمى يا رسول الله فما برح حتى نزلت:

(٩٥) ﴿غَيْرُ أُو۟لِى[1] ٱلضَّرَرِ﴾ فأدخلت بين جملتي ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ ومعنى الآية: إن الله تعالى ينفي أن يستوي في الأجر والمنزلة عنده تعالى من يجاهد بماله ونفسه ومن لا يجاهد بخلًا بماله، وضنًا بنفسه. واستثنى تعالى أولي الأعذار من مرض ونحوه فإن لهم أجر المجاهدين وإن لم يجاهدوا لحسن نياتهم، وعدم استطاعتهم فلذا قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي هي الجنة، وقوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ أي فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين لعذر درجة، وإن كان الجميع لهم الجنة وهي الحسنى. وقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ لغير عذر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الدرجات[2] العالية مع المغفرة والرحمة، وذلك لأن الله تعالى كان أزلاً وأبدًا غفورًا رحيمًا، ولذا غفر لهم ورحمهم، اللهم اغفر لنا وارحمنا معهم.

هداية الآيتين:

١ ـ بيان فضل المجاهدين على غيرهم من المؤمنين الذين لا يجاهدون.

٢ ـ أصحاب الأعذار الشرعية ينالون أجر المجاهدين إن كانت لهم رغبة في الجهاد ولم يقدروا عليه لما قام بهم[3] من أعذار وللمجاهدين فعلًا درجة تخصهم دون ذوي الأعذار.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٧ ـ ١٠٠]

(٩٧) ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾: تقبض أرواحهم عند نهاية آجالهم. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[4]: بتركهم الهجرة وقد وجبت عليهم. ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾: في أي شيء كنتم من دينكم؟. ﴿مَصِيرًا﴾: مأوى ومسكنًا.

(٩٨) ﴿حِيلَةً﴾: قدرة على التحول.

(١٠٠) ﴿مُرَٰغَمًا﴾: مكانًا ودارًا لهجرته يرغم ويذل به من كان يؤذيه في داره. ﴿وَسَعَةً﴾: في رزقه. ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾: وجب أجره في هجرته على الله تعالى.

معنى الآيات:

(٩٧) لما كانت الهجرة من آثار الجهاد ناسب ذكر القاعدين عنها لضرورة ولغير ضرورة فذكر تعالى في هذه الآيات الهجرة وأحكامها فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ[5] ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حيث تركوا الهجرة ومكثوا في دار الهوان يضطهدهم العدو ويمنعهم من دينهم ويحول بينهم وبين عبادة ربهم. هؤلاء الظالمون لأنفسهم تقول لهم الملائكة عند قبض أرواحهم ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾[6]؟ تسألهم هذا السؤال لأن أرواحهم مدساة مظلمة لأنها لم تزك على الصالحات، فيقولون معتذرين:

---

(١) قرىء: ﴿غيرُ﴾ بالرفع على أنه نعت لـ ﴿قاعدون﴾ وقرىء بالنصب على الاستثناء ويصح أيضًا على الحال.

(٢) روي في الصحاح أن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وقال ﷺ: **«من رمى بسهم فله أجره درجة»** فقال رجل يا رسول الله: وما الدرجة؟ قال: **«أما إنها ليست بعتبة بابك، ما بين الدرجتين مائة عام»**.

(٣) روى البخاري تعليقًا وغير واحد أنّ النبي ﷺ وقد قفل عائدًا من إحدى غزواته قال: **«إنّ بالمدينة رجالاً ما قطعتم واديًا، ولا سرتم مسيرًا إلاّ كانوا معكم أولئك قوم حبسهم العذر»**.

(٤) ظلم النفس: أن يفعل العبد فعلاً يؤول إلى مضرته فهو بذلك ظالم لنفسه، والمراد به هنا ترك الهجرة إذ يترتب عليها ترك العبادة فتخبث النفس وذلك ظلم لها.

(٥) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سواد المشركين على محمد رسول الله ﷺ يأتي السهم فيرمي به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ..﴾ الآية.

(٦) الاستفهام للتوبيخ والتقريع.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

٩٥

﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلم نتمكن من تطهير أرواحنا بالإيمان وصالح الأعمال، فترد عليهم الملائكة قولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ وتعبدوا ربكم؟ ثم يعلن الله تعالى عن الحكم فيهم بقوله: فأولئك البعداء ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وساءت جهنم مصيرًا يصيرون إليه ومأوى ينزلون فيه. ثم استثنى تعالى أصحاب الأعذار كما استثناهم في القعود عن الجهاد في الآيات قبل هذه فقال عز من قائل: ﴿٩٨﴾ ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ[١] مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾، واستضعاف الرجال يكون بالعلل[٢] والنساء والولدان بالضعف الملازم لهم، هؤلاء الذين لا يستطيعون حيلة أي لا قدرة لهم على التحول والانتقال لضعفهم، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ إلى دار الهجرة لعدم خبرتهم بالدروب والمسالك فطمعهم تعالى ورجاهم بقوله:

﴿٩٩﴾ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المذكورون ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ فلا يؤاخذهم ويغفر لهم بعض ما قصروا فيه ويرحمهم لضعفهم وكان الله غفورًا رحيمًا. هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث.

﴿١٠٠﴾ أما الآية الرابعة (١٠٠) فقد أخبر تعالى فيها أن من يهاجر في سبيله تعالى لا في سبيل دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها يجد بإذن الله تعالى في الأرض مذهبًا يذهب إليه ودارًا ينزل بها ورزقًا واسعًا يراغم به عدوه الذي اضطهده حتى هاجر من بلاده، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ ثم أخبر تعالى أن من خرج مهاجرًا في سبيل الله أي لأجل عبادته ونصرة دينه ثم مات في طريق هجرته وإن لم يصل إلى دار الهجرة فقد وجب أجره على الله تعالى وسيوفاه كاملاً غير منقوص، ويغفر الله تعالى له ما كان من تقصير سابق ويرحمه فيدخله جنته. إذ قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ[٣] مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

هداية الآيات:

١ - وجوب الهجرة[٤] عندما يحال بين المؤمن وعبادة ربه تعالى إذ لم يخلق إلا لها.

٢ - ترك الهجرة كبيرة من كبائر الذنوب يستوجب صاحبها دخول النار.

٣ - أصحاب الأعذار كما سقط عنهم واجب الجهاد يسقط عنهم واجب الهجرة.

---

(١) قال ابن عباس: كنت أنا وأمي من عنى الله بهذه الآية وأم ابن عباس هي: لبابة وتكنى: أم الفضل وهي أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنهما.

(٢) وهي الزمانة، وتكون بالعرج والعمى والشلل ونحوهما.

(٣) روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنّ ضمرة بن جندب خرج إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ..﴾ إلخ..

(٤) الهجرة: هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام وهي فريضة من فرائض الإسلام، وهي هجر متعددة منها الهجرة من بلاد البدعة، قال مالك: لا يحل لمؤمن أن يقيم بأرض يسب فيها السلف الصالح. ومنها الخروج من أرض غلب عليها الحرام، إذ طلب الحلال فريضة، ومنها أن يؤذى المسلم في دينه أو عرضه أو ماله، ومنها الخوف من المرض ما لم يكن طاعونًا، فإنّه يحرم الفرار منه، ومنها أن يكون في بلده من لا يعرف أحكام الشريعة فيهاجر لطلب ذلك.

٤ - فضل الهجرة في سبيل الله تعالى.

٥ - من مات في طريق هجرته أعطي أجر المهاجر كاملاً غير منقوص وهو الجنة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠١ ـ ١٠٤]

(١٠١) ﴿ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي مسافرين مسافة قصر وهي أربعة برد أي ثمانية وأربعون ميلاً. ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾: بأن تصلوا الظهرين ركعتين ركعتين، والعشاء ركعتين لطولها. ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ﴾: هذا خرج مخرج الغالب، فليس الخوف بشرط في القصر وإنما الشرط السفر[١].

(١٠٢) ﴿حِذْرَهُمْ﴾: الحيطة والأهبة لما عسى أن يحدث من العدو. وأسلحتكم: جمع سلاح ما يقاتل به من أنواع الأسلحة. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: أي لا تضييق عليكم ولا حرج في وضع الأسلحة للضرورة.

(١٠٣) ﴿قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾: أديتموها وفرغتم منها. ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾: أي ذهب الخوف فحصلت الطمأنينة بالأمن. ﴿كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾: فرضاً ذات وقت معين تؤدى فيه لا تتقدمه ولا تتأخر عنه.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: أي لا تضعفوا. ﴿تَأْلَمُونَ﴾: تتألمون.

معنى الآيات:

(١٠١) بمناسبة الهجرة والسفر من لوازمها ذكر تعالى رخصة قصر الصلاة في السفر وذلك بتقصير الرباعية إلى ركعتين فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سرتم فيها مسافرين[٢] ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي حرج وإثم في ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبينت السنة أن المسافر يقصر ولو أمن فهذا القيد غالبي فقط، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ تذييل أريد به تقرير عداوة الكفار للمؤمنين فلذا شرع لهم هذه الرخصة.

(١٠٢) هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٠١) أما الآيتان بعدها فقد بيّنت صلاة الخوف وصورتها: أن ينقسم الجيش قسمين قسم يقف تجاه العدو وقسم يصلي مع القائد ركعة، ويقف الإمام مكانه فيتمون لأنفسهم ركعة، ويسلمون ويقفون وجاه العدو، ويأتي القسم الذي كان واقفاً تجاه العدو فيصلي بهم الإمام القائد ركعة ويسلم ويتمون لأنفسهم ركعة ويسلمون، وفي كلا الحالين هم آخذون أسلحتهم لا يضعونها على الأرض خشية أن يميل عليهم العدو وهم عزل فيكبدهم خسائر فادحة، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ[٣] فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾ يريد الطائفة الواقعة تجاه العدو لتحميهم منه ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ[٤] أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ[٥] فَيَمِيلُونَ

---

(١) من أحكام صلاة السفر: أنّ المسافر لا يشرع في التقصير حتى يتجاوز مباني المدينة التي يسكنها وأنّ المسافر إذا صلى وراء مقيم يتمّ معه، وأنّ المسافر إذا أمّ غيره قصر والمقيم يتم، وأنّه يشرع له الجمع بين الظهرين والعشائين تقديمًا أو تأخيرًا.

(٢) اختلف في المسافة التي تقصر فيها الصلاة، والجمهور على أنّها أربعة برد، واختلفوا في مسافة الميل الذي هو جزء البريد، فالذي رجّحه علماء المالكية هو: أنّ الميل: ألفا ذراع وعليه فمسافة القصر ثمانية وأربعون ميلاً أي: كيلومتر وهذا قول وسط بين قول من قال: لا يقصر في أقل من سبعين ميلاً، وبين من قال: كل سفر تقصر فيه الصلاة طال أو قصر ولو كان ثلاثة أميال.

(٣) شذ أبو يوسف الحنفي فقال: صلاة الخوف لا تصلى إلاّ مع رسول الله ﷺ ناظرًا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ وعليه ما لم يكن فيهم رسول الله ﷺ فلا تصلى صلاة الخوف، وردّ هذا علماء السلف والخلف وقالوا بمشروعية صلاة الخوف، ما وجد خوف.

(٤) قد اختلفت الروايات في صلاة الخوف، واختلف لذلك العلماء، إذ صلى النبي ﷺ صلاة الخوف أربعًا وعشرين مرّة، قال الإمام أحمد، وهو إمام أهل الحديث: لا أعلم أنه روي في صلاة الخوف إلاّ حديث صحيح ثابت وهي صحاح ثابتة، فعلى أيّ حديث صلى منها المصلي صلاة الخوف أجزأه إن شاء الله، وذهب مالك إلى حديث سهل بن أبي حثمة، وهو الذي ذكرته في التفسير فهو واضح سهل.

(٥) الأمتعة: جمع متاع كالأثاث، والعروض وماله علاقة بالسلاح في حالة الحرب.

عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ سيق هذا الكلام لبيان علة الصلاة طائفة بعد أخرى والأمر بالأخذ بالحذر وحمل الأسلحة في الصلاة، ومن هنا رخص تعالى لهم إن كانوا مرضى وبهم جراحات أو كان هناك مطر فيشق عليهم حمل السلاح أن يضعوا أسلحتهم فقال عز وجل: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ تذييل لكلام محذوف دل عليه السياق قد يكون تقديره فإن الكفار فجرة لا يؤمن جانبهم ولذا أعد الله لهم عذابًا مهينًا، وإنما وضع الظاهر مكان المضمر إشارة إلى علة الشر والفساد التي هي الكفر.

(١٠٣) وقوله تعالى في آية (١٠٣) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟[2] ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ﴾ فإنه تعالى يأمر المؤمنين بذكره في كل الأحيان لا سيما في وقت لقاء العدو لما في ذلك من القوة الروحية التي تقهر القوى المادية وتهزمها فلا يكتفي المجاهدون بذكر الله في الصلاة فقط بل إذا قضوا الصلاة لا يتركون ذكر الله في كل حال. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ﴾ يريد إذا ذهب الخوف وحل الأمن واطمأنت النفوس أقيموا الصلاة بحدودها وشرائطها وأركانها تامة كاملة، لا تخفيف فيها كما كانت في حال الخوف إذ قد تصلي ركعة واحدة وقد تصلي إيماءً وإشارة فقط وذلك إذا التحم المجاهدون بأعدائهم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ تعليل للأمر بإقام الصلاة فأخبر أن الصلاة مفروضة على المؤمنين وأنها موقوتة بأوقات لا تؤدى إلا فيها.

(١٠٤) وقوله تعالى في آية (١٠٤) ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ﴾ أي لا تضعفوا في طلب العدو لإنزال الهزيمة به. ولا تتعللوا في عدم طلبهم بأنكم تألمون لجراحاتكم ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من النصر والمثوبة العظيمة ﴿مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ فأنتم أحق بالصبر والجلد والمطالبة بقتالهم حتى النصر عليهم. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فيه تشجيع للمؤمنين على مواصلة الجهاد، لأن علمهم بأن الله تعالى عليم بأحوالهم والظروف الملابسة لهم وحكيم في شرعه بالأمر والنهي لهم يطمئنهم على حسن العافية لهم بالنصر على أعدائهم.

هداية الآيات:

١ - مشروعية صلاة القصر وهي رخصة[3] أكدها رسول الله ﷺ بقوله وعمله فأصبحت سنة مؤكدة لا ينبغي تركها.

٢ - مشروعية صلاة الخوف وبيان كيفيتها.

٣ - تأكد صلاة الجماعة بحيث لا تترك حتى في ساعة الخوف والقتال.

٤ - استحباب ذكر الله تعالى بعد الصلاة وعلى كل حال من قيام وقعود واضطجاع.

٥ - تقرير فرضية الصلاة ووجوب أدائها في أوقاتها الموقوتة لها.

٦ - حرمة الوهن والضعف إزاء حرب العدو والاستعانة على قتاله بذكر الله ورجائه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٥ - ١٠٩]

(١٠٥) ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ﴾: أي بما علمكه بواسطة الوحي.

---

(١) في طلب الحذر تشريع للأمّة بأن تأخذ بأسباب النصر ولا تهملها بحال، فإنّ الله تعالى ربط المسبّبات بأسبابها فمن طلب النصر عليه بإعداد ما يمكنه من العدد والعتاد.

(٢) يرى جمهور المفسرين أنّ هذا الذكر المطلوب يكون بعد صلاة الخوف كقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ تقوية للقلوب وتوسلًا لحصول النصر على العدو المرهوب.

(٣) كونها رخصة دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ كما دلّ عليه قوله ﷺ لعمر رضي الله عنه: «**تلك صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**» هذا، وقد اختلف العلماء، اختلافًا كبيرًا هل القصر واجب أم سنة؟ فمن قال: بالوجوب. استدل بحديث عائشة: «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين» ومن قال: بالسنية وهم الجمهور، ووهنوا حديثها لمخالفتها له حيث كانت تتم في السفر، وذهب بعضهم إلى أنّ المسافر مخير بين القصر والإتمام والراجح أنها سنة مؤكدة وذلك لكون النبي ﷺ ما ترك القصر في أسفاره أبدًا.

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

٩٦

﴿خَصِيمًا﴾: أي مخاصمًا بالغًا في الخصومة مبلغًا عظيمًا.

﴿١٠٧﴾ ﴿تُجَٰدِلْ﴾: تخاصم. ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: يحاولون خيانة أنفسهم.

﴿١٠٨﴾ ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾: يطلبون إخفاء أنفسهم عن الناس. ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾: بعلمه تعالى وقدرته. ﴿يُبَيِّتُونَ﴾: يدبرون الأمر في خفاء ومكر وخديعة.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَكِيلًا﴾: الوكيل من ينوب عن آخر في تحقيق غرض من الأغراض.

معنى الآيات:

﴿١٠٥﴾ روي أن هذه الآيات نزلت في طعمة بن أبيرق وإخوته[1] وكان قد سرق درعًا من دار جارٍ له يقال له قتادة وودعها عند يهودي يقال له يزيد بن السمين، ولما اتهم طعمة وخاف هو وإخوته المعرة رموا بها اليهودي وقالوا هو السارق، وأتوا رسول الله ﷺ وحلفوا على براءة أخيهم فصدّقهم رسول الله ﷺ وهم بقطع يد اليهودي لشهادة بني أبيرق عليه وإذا بالآيات تنزل ببراءة اليهودي وإدانة طعمة، ولما افتضح طعمة وكان منافقًا أعلن عن ردته وهرب إلى مكة المكرمة ونقب جدار منزل ليسرق فسقط عليه الجدار فمات تحته كافرًا..

وهذا تفسير لآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن، أيها الرسول ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ[2] ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ[3] ٱللَّهُ﴾ أي بما أعلمك وعرفك به لا بمجرد رأي رآه غيرك من الخائنين وعاتبه ربه تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي مجادلاً عنهم، فوصم تعالى بني أبيرق بالخيانة، لأنهم خانوا أنفسهم بدفعهم التهمة عنهم بأيمانهم الكاذبة.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَٱسْتَغْفِرِ[4] ٱللَّهَ﴾ من أجل ما هممت به من عقوبة اليهودي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيغفر لك ما هممت به ويرحمك

﴿١٠٧﴾ ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث اتهموا اليهودي كذبًا وزورًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ كطعمة بن أبيرق.

﴿١٠٨﴾ ﴿يَسْتَخْفُونَ[5] مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ حياء منهم، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه، وهو تعالى معهم في الوقت الذي كانوا يدبرون كيف يخرجون من التهمة بإلصاقها باليهودي البريء، وعزموا أن يحلفوا على براءة أخيهم واتهام اليهودي هذا القول مما لا يرضاه الله تعالى.. وقوله عز وجل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ فما قام به طعمة من سرقة الدرع ووضعها لدى اليهودي ثم اتهامهم اليهودي، وحلفهم على براءة أخيهم كل ذلك جرى تحت علم الله تعالى والله به محيط،

---

(١) هم ثلاثة أنفار بشر وبشير، ومبشر يقال لهم: بنو أبيرق.

(٢) يشهد لهذا قوله ﷺ في الصحيح: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذه فإنما أقتطع له قطعة من نار**».

(٣) ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ معناه: على قوانين الشرع إمّا بوحي ونص أو بنظر جار على سنن الوحي.

(٤) فيه إرشاد للأمة وتعليم لها إذ الرسول ﷺ لم يقارف ذنبًا وكل ما في الأمر أنّه همّ على ظنّ منه ودفع الله عنه ما همّ به بنزول الآية، أو استغفار لما همّ به هو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

(٥) أي: يستترون.

فسبحانه من إله عليم عظيم.

(١٠٩) وقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي يا هؤلاء ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ هذا الخطاب موجه إلى الذين وقفوا إلى جنب بني أبيرق يدفعون عنهم التهمة فعاتبهم الله تعالى بقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾، اليوم في هذه الحياة الدنيا لتدفعوا عنهم تهمة السرقة ﴿فَمَن[1] يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ يتولى الدفاع عنهم في يوم لا تملك فيه نفس لنفس شيئًا والأمر كله لله فتضمنت الآية تقريعًا شديدًا حتى لا يقف أحد بعد موقفًا مخزيًا كهذا.

هداية الآيات:

١ - لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

٢ - لا يجوز الوقوف إلى جنب الخونة الظالمين نصرة لهم.

٣ - وجوب الاستغفار من الذنب كبيرًا كان أو صغيرًا.

٤ - وجوب بغض الخوّان الأثيم أيًا كان.

٥ - استحباب الوعظ والتذكير بأحوال يوم القيامة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٠ - ١١٣]

(١١٠) ﴿سُوٓءًا﴾: السوء: ما يسيء إلى النفس أو إلى الغير. ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾: ظلم النفس: بغشيان الذنوب وارتكاب الخطايا.

(١١١) ﴿إِثْمًا﴾: الإثم: ما كان ضارًا بالنفس فاسدًا.

(١١٢) ﴿بَرِيٓـًٔا﴾: البريء: من لم يجنِ جناية قد اتهم بها. ﴿ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾: تحمل بهتانًا: وهو الكذب المحير لمن رمي به.

(١١٣) ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الكتاب: القرآن والحكمة السنة.

معنى الآيات:

هذا السياق معطوف على سابقه في حادثة طعمة بن أبيرق وهو يحمل الرحمة الإلهية لأولئك الذين تورطوا في الوقوف إلى جنب الخائن ابن أبيرق فأخبرهم تعالى أن من يعمل سوءًا يؤذي به غيره أو يظلم نفسه بارتكاب ذنب من الذنوب ثم يتوب إلى الله تعالى باستغفاره والإنابة إليه يتب الله تعالى عليه ويقبل توبته وهو معنى قوله تعالى في الآية (١١٠) (١١٠) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ[2] ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر له ويرحمه. (١١١) قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ أي ذنبًا من الذنوب صغيرها وكبيرها ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ إذ هي التي تتدسّى به وتؤاخذ بمقتضاه إن لم يغفر لها. ولا يؤاخذ به غيرها وكان الله عليمًا أي بذنوب عباده حكيمًا أي في مجازاتهم بذنوبهم فلا يؤاخذ نفسًا بغير ما اكتسبت ويترك نفسًا قد اكتسبت (١١٢) يخبر تعالى أن من يرتكب خطيئة ضد أحد، أو يكسب إثمًا ويرمي به أحدًا بريئًا منه قد تحمل تبعة عظيمة قد تصليه نار جهنم وهو معنى قوله:

(١١٢) ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ[3] بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

(١١٣) وفي الآية (١١٣) يواجه الله تعالى رسوله ﷺ بالخطاب ممتنًا عليه بما حباه به من الفضل والرحمة فيقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾، والمراد بالطائفة التي ذكر الله تعالى هم بنو أبيرق أخوة طعمة وقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾[4]، فهو كما قال عز وجل ضلالهم عائد عليهم أما الرسول ﷺ فلن يضره ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ امتنان من الله تعالى على رسوله ﷺ بأنه أنزل عليه القرآن أعظم الكتب وأهداها وعلّمه الحكمة وهي ما

---

(١) الاستفهام هنا للإنكار، والتوبيخ، والتقريع.

(٢) المراد بالاستغفار: التوبة وطلب العفو من الله تعالى عمّا مضى من الذنوب قبل التوبة.

(٣) أي: ينسبه إليه.

(٤) إذ نتائج الضلال وعوائده وهي الخسران عائدة عليهم لا على الرسول ﷺ.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)﴾

كشف له من أسرار الكتاب الكريم، وما أوحي إليه من العلوم والمعارف التي كلها نور وهدى مبين، وعلّمه من المعارف الربانية ما لم يكن يعلم قبل ذلك وبهذا كان فضله على رسوله ﷺ عظيمًا فللّه الحمد والمنّة.

هداية الآيات:

١- تقرير مبدأ التوبة تجبُّ ما قبلها، ومن تاب تاب الله عليه.

٢- عظم ذنب من يكذب على البرءاء، ويتهم الأمناء بالخيانة.

٣- تأثير الكلام على النفوس حتى أن الرسول ﷺ كاد يضلله بنو أبيرق فيبرىء الخائن ويدين البريء إلا أن الله عصمه.

٤- عاقبة الظلم عائدة على الظالم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٤، ١١٥]

(١١٤) ﴿نَّجْوَاهُمْ﴾[١]: النجوى: المسارة بالكلام، ونجواهم: أحاديثهم التي يسرها بعضهم إلى بعض. ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾[٢]: المعروف: ما عرفه الشرع فأباحه، أو استحبه أو أوجبه.

﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾: أي طلبًا لمرضاة الله أي للحصول على رضا الله عز وجل. ﴿نُؤْتِيهِ﴾: نعطيه والأجر العظيم: الجنة وما فيها من نعيم مقيم.

(١١٥) ﴿يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾: يحاده ويقاطعه ويعاديه. كمن يقف في شق، والآخر في شق. ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي يخرج عن إجماع المسلمين. ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾: نخذله فنتركه وما تولاه من الباطل والشر والضلال حتى يهلك فيه. ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾: أي ندخله النار ونحرقه فيها.

معنى الآيتين:

(١١٤) ما زال السياق في بني أبيرق ففي الآية الأولى (١١٤) يخبر تعالى أنه لا خير في كثير من أولئك المتناجين ولا في نجواهم لنفاقهم وسوء طواياهم اللهم إلا في نجوى أمر أصحابها بصدقة تعطى لمحتاج إليها من المسلمين، أو معروف[٣] استحبه الشارع أو أوجبه من البر والإحسان أو إصلاح بين الناس للإبقاء على الألفة والمودة بين المسلمين. ثم أخبر تعالى أن من يفعل ذلك المذكور من الصدقة والمعروف والإصلاح[٤] بين الناس طلبًا لمرضاة الله تعالى فسوف يثيبه بأحسن الثواب ألا وهو الجنة دار

---

(١) النجوى: مشتقة من نجوت الشيء أنجوه إذا خلّصته وأفردته، والنجوى من الأرض: ما ارتفع منها دون ما حواليه، ومن ناجى أحدًا فقد خلصه وأفرده له، وتسمى الجماعة نجوى نحو عَدْلٌ قال تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾.

(٢) المعروف: لفظ يعمّ جميع ألفاظ البرّ أمر الله تعالى به في كتابه فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: المعروف: قال الحطيئة:

مَنْ يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

(٣) قيل لحكيم: ما أعظم المصائب؟ قال: أن تقدر على المعروف فلا تصنعه حتى يفوت، وقال في هذا المعنى الشاعر:

إذا هبّت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل خافقة سكون

ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدري السكون متى يكون

(٤) ورد في إصلاح ذات البين الكثير من الأحاديث منها قوله ﷺ: **«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟»** قالوا: بلى يا رسول الله قال: **«إصلاح ذات البين»** رواه الترمذي وصححه وقال: **«ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرًا أو يقول خيرًا»**.

السلام إذ لا أجر أعظم من أجر يكون الجنة.

﴿١١٥﴾ هذا ما دلت عليه الآية الأولى أما الثانية (١١٥) فإن الله تعالى يتوعد أمثال طعمة بن أبيرق فيقول جلّ ذكره: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ أي يخالفه ويعاديه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي من بعد ما عرف أنه رسول الله ﷺ حقًا جاء بالهدى ودين الحق، ثم هو مع معاداته للرسول ﷺ يخرج من جماعة المسلمين ويتبع غير سبيلهم[١] هذا الشقي الخاسر ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي نتركه لكفره وضلاله خذلانًا له في الدنيا ثم نصله نار جهنم يحترق فيها، وبئس المصير جهنم يصير إليها المرء ويخلد فيها.

هداية الآيتين:

١ - حرمة تناجي اثنين دون الثالث لثبوت ذلك في السنة.

٢ - الاجتماعات السرية لا خير فيها إلا اجتماعًا كان لجمع صدقة، أو لأمر بمعروف أو إصلاح بين متنازعين من المسلمين مختلفين.

٣ - حرمة الخروج عن أهل السنة والجماعة، واتباع الفرق الضالة التي لا تمثل الإسلام إلا في دوائر ضيقة كالروافض ونحوهم..

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٦ - ١٢١]

﴿١١٦﴾ ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾: أن يعبد معه غيره من مخلوقاته بأي عبادة كانت.

﴿١١٧﴾ ﴿إِن يَدْعُونَ﴾: أي ما يدعون. ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾: جمع أنثى لأن الآلهة مؤنثة، أو أمواتًا لأن الميت يطلق عليه لفظ أنثى بجامع عدم النفع. ﴿مَّرِيدًا﴾: بمعنى مارد على الشر والإغواء للفساد.

﴿١١٨﴾ ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾: حظًا معينًا. أو حصة معلومة.

﴿١١٩﴾ ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾[٢]: فليقطعن. ﴿خَلْقَ ٱللَّهِ﴾: مخلوق الله أي ما خلقه الله تعالى. ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾: الخبيث الماكر الداعي إلى الشر سواء كان جنيًا أو إنسيًا.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾: يجعلهم يتمنون كذا وكذا ليلهيهم عن العمل الصالح.

معنى الآيات:

﴿١١٦﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ[٣] بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ إخبار منه تعالى عن طعمة بن أبيرق بأنه لا يغفر له وذلك لموته على الشرك، أما إخوته الذين لم يموتوا مشركين فإن أمرهم إلى الله تعالى إن شاء غفر لهم وإن شاء آخذهم كسائر مرتكبي الذنوب غير الشرك والكفر. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي ضلّ عن طريق النجاة والسعادة ببعده عن الحق بعدًا كبيرًا وذلك بإشراكه بربه تعالى غيره من مخلوقاته.

﴿١١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾. هذا بيان لقبح الشرك وسوء حال أهله فأخبر تعالى أن المشركين ما يعبدون إلا أمواتًا لا يسمعون ولا يبصرون ولا ينطقون ولا يعقلون. إذ أوثانهم ميتة وكل ميت فهو مؤنث زيادة على أن أسماءها مؤنثة كاللات والعزى ومناة ونائلة، كما هم في واقع الأمر يدعون شيطانًا مريدًا إذ هو الذي دعاهم إلى عبادة الأصنام فعبدوها فهم إذًا عابدون للشيطان في باطن الأمر لا الأوثان، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾[٤] لعنه الله وأبلسه عند إبائه السجود لآدم.

﴿١١٨﴾ ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا[٥]﴾ أي عددًا كبيرًا منهم

---

(١) هذه الآية هي دليل حرمة الخروج على جماعة المسلمين، روي أنّ الشافعي طلب دليلاً على صحة الإجماع فقرأ القرآن مرّات حتى عثر على هذه الآية وقرّر أنها دليل الإجماع. وهو كذلك.

(٢) البتك: القطع، يقال: سيف باتك.

(٣) في هذه الآية ردّ على الخوارج الذين يكفرون بالذنب دون الشرك ويوجبون الخلود في النار لمن مات على كبيرة قال علي رضي الله عنه: ما في القرآن آية أحبّ إلي من هذه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ رواه الترمذي.

(٤) أطلق الدعاء وأريد به العبادة، وهو إطلاق شائع في القرآن الكريم لأن الدعاء هو العبادة إذ طاعتهم للشيطان عبادة في حدّ ذاتها إذ المطاع في معصية الله معبود قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: آلهة وذلك لمّا أطاعوهم في معصية الله تعالى.

(٥) قيل: كان نصيبه من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين لحديث مسلم: «**ابعث بعث النار فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين**» المخاطب آدم عليه السلام.

يعبدونني ولا يعبدونك وهم معلومون معروفون بمعصيتهم إياك، وطاعتهم لي. وواصل العدو تبجحه قائلاً:

﴿١١٩﴾ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ يريد عن طريق الهدى ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ يريد أعوقهم عن طاعتك بالأماني الكاذبة بأنهم لا يلقون عذابًا أو أنه سيغفر لهم. ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ فيطيعوني ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ﴾[1] أي ليجعلون لآلهتهم نصيبًا مما رزقتهم ويعلمونها بقطع آذانها لتعرف أنها للآلهة كالبحائر والسوائب التي يجعلونها للآلهة، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ أيضًا فيطيعونني فيغيرون خلق الله بالبدع والشرك، والمعاصي كالوشم والخصي. هذا ما قاله الشيطان ذكره تعالى لنا فله الحمد. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ لأن من والى الشيطان عادى الرحمن ومن عادى الرحمن تم له والله أعظم الخسران يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿١٢٠﴾ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ فيعوقهم عن طلب النجاة والسعادة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ إذ هو لا يملك من الأمر شيئًا فكيف يحقق لهم نجاة أو سعادة إذًا؟

﴿١٢١﴾ وهذا حكم الله تعالى يعلن في صراحة ووضوح فليسمعوه: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي معدلاً أو مهربًا.

هداية الآيات:

١ - سائر الذنوب كبائرها وصغائرها قد يغفرها الله تعالى لمن شاء إلا الشرك فلا يغفر لصاحبه.

٢ - عبدة الأصنام والأوهام والشهوات والأهواء هم في الباطن عبدة الشيطان إذ هو الذي أمرهم فأطاعوه.

٣ - من مظاهر طاعة الشيطان المعاصي كبيرها وصغيرها إذ هو الذي أمر بها وأطيع فيها.

٤ - حرمة الوشم والوسم والخصاء إلا ما أذن فيه الشارع[2].

٥ - سلاح الشيطان العدة الكاذبة والأمنية الباطلة، والزينة الخادعة.

الجزء الخامس — سورة النساء

> وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

٩٨

شرح الكلمات: [الآية: ١٢٢]

﴿١٢٢﴾ ﴿ءَامَنُوا﴾: صدقوا بالله[3] ورسوله ﷺ. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: الطاعات إذ كل طاعة لله ورسوله ﷺ هي عمل صالح.

﴿قِيلًا﴾[4]: أي قولاً.

معنى الآية الكريمة:

لما بين تعالى جزاء الشرك والمشركين عبدة الشيطان بيّن في[5] هذه الآية جزاء التوحيد والموحدين عبيد الرحمٰن عز وجل، وأنه تعالى سيدخلهم بعد موتهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار وأن خلودهم مقدر فيها بإذن الله ربهم فلا يخرجون منها أبدًا وعدهم ربهم بهذا وعد الصدق، وليس هناك من هو

---

(١) أجاز الجمهور خصاء الغنم لفائدة اللحم، وحرّموا خصاء غيرها، وخاصة الآدمي، وأجازوا الوسم في غير الوجه للحيوان ليعرف به وهو كذلك، أمّا الوشم فحرام للأحاديث الصحاح فيه.

(٢) أذن الشارع في وسم الماشية ولكن في غير الوجه كما أذن بخصي الغنم ضأنًا أو ماعزًا لمصلحة إصلاح لحومها.

(٣) وصدّقوا بكل ما أخبر الله به ورسوله ﷺ في شأن الغيب كالملائكة والبعث والجزاء في الدار الآخرة.

(٤) القيل، والقول، والقال: بمعنى واحد.

(٥) هذا من منهج القرآن الخاصّ به وهو الجمع بين الترهيب والترغيب لأنه كتاب هداية وتربية فلذا يجمع بين الوعد والوعيد وذكر الشيء وضدّه.

أصدق وعدًا ولا قولاً من الله تعالى.

هداية الآية الكريمة:

١ - الإيمان الصادق والعمل الصحيح الصالح هما مفتاح الجنة وسبب[١] دخولها.

٢ - صِدْق وعدِ الله تعالى، وصِدق قوله عز وجل.

٣ - وجوب صِدق الوعد من العبد لأن خلف الوعد من النفاق لحديث[٢] «**وإذا واعد أخلف**».

٤ - وجوب صدق القول والحديث لأن الكذب من النفاق لحديث «**وإذا حدث كذب**».

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٣ - ١٢٦]

(١٢٣) ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: جمع أمنية: وهي ما يقدره المرء في نفسه ويشتهيه مما يتعذر غالبًا تحقيقه. ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: اليهود والنصارى. ﴿سُوءًا﴾: كل ما يسيء من الذنوب والخطايا. ﴿وَلِيًّا﴾: يتولى أمره فيدفع عنه المكروه.

(١٢٤) ﴿نَقِيرًا﴾: النقير: نقرة في ظهر النواة.

(١٢٥) ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾: عبادة الله وحده لا شريك له بما شرعه الله تعالى. ﴿خَلِيلًا﴾: الخليل: المحب الذي تخلل حبه مسالك النفس فهو أكبر من الحبيب.

(١٢٦) ﴿مُحِيطًا﴾: علمًا وقدرة إذ الكون كله تحت قهره ومدار بقدرته وعلمه.

معنى الآيات:

(١٢٣) روي أن هذه الآية نزلت[٣] لما تلاحى مسلم ويهودي وتفاخرا فزعم اليهودي أن نبيهم وكتابهم ودينهم وجد قبل كتاب ونبي المسلمين ﷺ ودينهم فهم أفضل، ورد عليه المسلم بما هو الحق فحكم الله تعالى بينهما بقوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من يهود ونصارى أي ليس الأمر والشأن بالأماني العِذاب، وإنما الأمر والشأن في هذه القضية أنه سنة الله تعالى في تأثير الكسب الإرادي على النفس بالتزكية أو التدسية فمن عمل[٤] سوءًا من الشرك والمعاصي، كمن عمل صالحًا من التوحيد والطاعات يجز بحسبه فالسوء يخبث النفس فيحرمها من مجاورة الأبرار والتوحيد والعمل الصالح يزكيها فيؤهلها لمجاورة الأبرار، ويبعدها عن مجاورة الفجار. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لأن سنن الله كأحكامه لا يقدر أحد على تغييرها أو تبديلها بل تمضي كما هي فلا ينفع صاحب السوء أحد، ولا يضر صاحب الحسنات آخر.

(١٢٤) وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝﴾ فإنه تقرير لسنته تعالى في تأثير الكسب على النفس والجزاء بحسب حال النفس زكاة وطهرًا وتدسية وخبثًا، فإنه من يعمل الصالحات وهو مؤمن تطهر نفسه ذكرًا كان أو أنثى ويتأهل بذلك لدخول الجنة، ولا يظلم مقدار نقير فضلاً عما هو أكثر وأكبر.

(١٢٥) وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ[٥] أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ۝﴾ إشادة منه تعالى

---

(١) لأنّه بالإيمان والعمل الصالح تزكو النفس البشرية وتطهر، وإذا زكت وطهرت تأهلت لدخول الجنة، إذ هي دار الأبرار ودار المتقين.

(٢) رواه البخاري وغيره: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**».

(٣) روي أيضًا عن قتادة أنه قال: تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نبيّنا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أحق بالله منكم، وقال المؤمنون: نبيّنا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على سائر الكتب فنزلت.. ولا تعارض بين الرأيين.

(٤) هذه الآية عامة في الكافر والمؤمن ويؤكد عمومها رواية مسلم: أن النبي ﷺ لمّا نزلت وبلغت من المسلمين مبلغًا قال: «**قاربوا وسدّدوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها**» ويفسرها لنا أيضًا قوله ﷺ في رواية أحمد لأبي بكر وقد قال لمّا نزلت: كيف الفلاح يا رسول الله بعد هذه الآية؟ فكل سوء عملناه جزينا به: «**غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟**» قال: بلى، قال: «**فهو مما تجزون**».

(٥) الاستفهام إنكاري أي: ينكر أن يوجد من هو أحسن دينًا منه.

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

٩٩

وتفضيل للدين الإسلامي على سائر الأديان إذ هو قائم على أساس إسلام الوجه[1] لله وكل الجوارح تابعة له تدور في فلك طاعة الله تعالى مع الإحسان الكامل وهو إتقان العبادة وأداؤها على نحو ما شرعها الله تعالى واتباع ملة إبراهيم بعبادة الله تعالى وحده والكفر بما سواه من سائر الآلهة. وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ فيه زيادة تقرير فضل الإسلام الذي هو دين إبراهيم الذي اتخذه ربه خليلًا.

﴿١٢٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ زيادة على أنه إخبار بسعة ملك الله تعالى وسعة علمه وقدرته وفضله فإنه رفع لما قد يتوهم من خلة إبراهيم أن الله تعالى مفتقر إلى إبراهيم أو له حاجة إليه، فأخبر تعالى أن له ما في السموات والأرض خلقًا وملكًا وإبراهيم في جملة ذلك فكيف يفتقر إليه أو يحتاج إلى مثله وهو رب كل شيء ومليكه.

هداية الآيات:

١ - ما عند الله لا ينال بالتمني ولكن بالإيمان والعمل الصالح أو التقوى والصبر والإحسان.

٢ - الجزاء أثر طبيعي للعمل وهو معنى ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة.

٣ - فضل الإسلام على سائر الأديان.

٤ - شرف إبراهيم عليه السلام باتخاذه ربه[2] خليلًا.

٥ - غنى الله تعالى عن سائر مخلوقاته، وافتقار سائر مخلوقاته إليه عز وجل.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٧ ـ ١٣٠]

﴿١٢٧﴾ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾[3]: يطلبون منك الفتيا في شأن النساء وميراثهن. ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: يقرأ عليكم في القرآن. ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾: ما فرض لهن من المهور والميراث. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدل.

﴿١٢٨﴾ ﴿نُشُوزًا﴾: ترفعًا وعدم طاعة. ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾: جبلت النفوس على الشح فلا يفارقها أبدًا.

﴿١٢٩﴾ ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾: فتتركوها كالمعلقة ما هي بالمزوجة ولا المطلقة.

﴿١٣٠﴾ ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾: من رزقه الواسع. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾: واسع الفضل حكيمًا يعطي فضله حسب علمه وحكمته.

معنى الآيات:

﴿١٢٧﴾ هذه الآيات الأربع كل آية منها تحمل حكمًا شرعيًا خاصًا فالأولى (١٢٧) نزلت إجابة لتساؤلات من بعض الأصحاب حول حقوق النساء ما لهن وما عليهن لأن العرف الذي كان سائدًا في الجاهلية كان يمنع النساء والأطفال من الميراث بالمرة وكان اليتامى لا يراعى لهم جانب ولا يحفظ لهم حق كامل فلذا نزلت الآيات الأولى من هذه السورة

(١) أفادت هذه الآية حكمًا عظيمًا، وهو أنه لا يصح عمل بدونه أبدًا، وهو الإخلاص والمتابعة، وهو أن يكون العمل خالصًا لله، وأن يكون صوابًا، أي: وفق ما شرع الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله محمد ﷺ.

(٢) وقد شرف بالخلّة محمد ﷺ ففي الصحيحين أنه ﷺ خطبهم آخر خطبة فقال: «**أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلًا ولكن صاحبكم خليل الله**».

(٣) روى أشهب عن مالك أنّ النبي ﷺ: كان يُسأل فلا يجيب حتى ينزل عليه الوحي.

وقررت حق المرأة والطفل في الإرث وحضت على المحافظة على مال اليتامى وكثرت التساؤلات لعل قرآنًا ينزل إجابة لهم حيث اضطربت نفوسهم لما نزل فنزلت هذه الآية الكريمة تردهم إلى ما في أول السورة وأنه الحكم النهائي في القضية فلا مراجعة بعد هذه، فقال تعالى وهو يخاطب نبيه ﷺ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ أي وما زالوا يستفتونك في النساء، أي في شأن ما لهن وما عليهن من حقوق كالإرث والمهر وما إلى ذلك. قل لهم أيها الرسول ﴿ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ وقد أفتاكم فيهن وبين لكم ما لهن وما عليهن. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي وما يتلى عليكم في يتامى النساء في أول السورة كافٍ لكم لا تحتاجون معه إلى من يفتيكم أيضًا إذ بين لكم أن من كانت تحته يتيمة دميمة لا يرغب في نكاحها فليعطها مالها وليزوجها غيره وليتزوج هو من شاء، ولا يحل له أن يحبسها في بيته لأجل مالها، وإن كانت جميلة وأراد أن يتزوجها فليعطها مهر مثيلاتها ولا يبخسها من مهرها شيئًا. وقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أي وقد أفتاكم بما يتلى عليكم من الآيات في أول السورة في المستضعفين من الولدان حيث قد أعطاهم حقهم وافيًا في آية ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الآية.

فلمَ هذه المراجعات والاستفتاءات؟؟ وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي وما تلي عليكم في أول السورة كان آمرًا إياكم بالقسط لليتامى والعدل في أموالهم فارجعوا إليه في قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ حث لهم على فعل الخير بالإحسان إلى الضعيفين المرأة واليتيم زيادة على توفيتهما حقوقهما وعدم المساس بها. هذا ما دلت عليه الآية الكريمة ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ . . .﴾ إلخ.

(١٢٨) أما الآية الثانية (١٢٨) ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ[1] خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ[2] إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ فقد تضمنت حكمًا عادلاً رحيمًا وإرشادًا ربانيًا سديدًا وهو أن الزوجة إذا توقعت من زوجها نشوزًا أي ترفعًا عليها أو إعراضًا عنها، وذلك لكبر سنها أو لقلة جمالها وقد تزوج عليها غيرها في هذا الحال في الإمكان أن تجري مع زوجها صلحًا يحفظ لها بقاءها في بيتها عزيزة محترمة فتتنازل له عن بعض حقها في الفراش وعن بعض ما كان واجبًا لها وهذا خير لها من الفراق. ولذا قال تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ[3]﴾ يريد أن الشح ملازم للنفس البشرية لا يفارقها والمرأة كالرجل في هذا إلا أن المرأة أضن وأشح بنصيبها في الفراش وبباقي حقوقها من زوجها. إذًا فليراع الزوج هذا ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ أيها الأزواج إلى نسائكم ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الله تعالى فيهن فلا تحرموهن ما لهن من حق في الفراش وغيره فإن الله تعالى يجزيكم بالإحسان إحسانًا وبالخير خيرًا فإنه تعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

(١٢٩) هذا ما دلت عليه الآية (١٢٨) وأما الآية الثالثة (١٢٩) وهي قوله

---

(١) خافت: أي: توقعت وليس بمعنى: تيقنت.

(٢) روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول له: أجعلك من شأني في حل فنزلت هذه الآية.
كما روي أنّ الآية نزلت في سودة أم المؤمنين لما أسنت أراد رسول الله ﷺ أن يطلقها فآثرت الكون معه فقالت له: «أمسكني واجعل يومي لعائشة ففعل ﷺ وماتت وهي من أزواجه» رواه الترمذي. قالوا في الفرق بين النشوز والإعراض: أنّ النشوز هو التباعد عنها، وأن الإعراض ألاّ يكلمها ولا يأنس بها.

(٣) الشح: هو البخل ومنه الحديث: «**أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى**» غير أن الشح يطلق على حرص النفس على الحقوق وقلة التسامح فيها.

تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ[(١)] فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾ فقد تضمنت حقيقة كبرى وهي عجز الزوج عن العدل بين زوجاته اللائي في عصمته فمهما حرص على العدل وتوخاه فإنه لن يصل إلى منتهاه أبدًا والمراد بالعدل هنا في الحب والجماع. أما في القسمة والكساء والغذاء والعشرة بالمعروف فهذا مستطاع له، ولما علم تعالى هذا من عبده رخص له في ذلك ولم يؤاخذه بميلة النفس كما قال رسول الله ﷺ: «**اللهم هذا قسمي**[(٢)] **فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**» والمحرم على الزوج هو الميل[(٣)] الكامل إلى إحدى زوجاته عن باقيهن، لأن ذلك يؤدي أن تبقى المؤمنة في وضع لا هي متزوجة تتمتع بالحقوق الزوجية ولا هي مطلقة يمكنها أن تتزوج من رجل آخر تسعد بحقوقها معه وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ أي أيها الأزواج في أعمالكم وفي القسم بين زوجاتكم وتتقوا الله تعالى في ذلك فلا تميلوا كل الميل، ولا تجوروا فيما تطيقون العدل فيه فإنه تعالى يغفر لكم ما عجزتم عن القيام به لضعفكم ويرحمكم في دنياكم وأخراكم لأن الله تعالى كان وما زال غفورًا للتائبين رحيمًا بالمؤمنين.

(١٣٠) هذا ما دلت عليه الآية الثالثة أما الآية الرابعة (١٣٠) وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ[(٤)] ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ۝﴾ فإن الله تعالى يعد الزوجين الذين لم يوفقا للإصلاح بينهما لشح كل منهما بماله وعدم التنازل عن شيء من ذلك يعدهما ربهما إن هم تفرقا بالمعروف أن يغني كلًا منهما من سعته وهو الواسع الحكيم فالمرأة يرزقها زوجًا خيرًا من زوجها الذي فارقته، والرجل يرزقه كذلك امرأة خيرًا ممن فارقها لتعذر الصلح بينهما.

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ إرث النساء والأطفال، والمحافظة على مال اليتامى وحرمة أكلها.

٢ - استحباب الصلح بين الزوجين عند تعذر البقاء مع بعضهما إلا به.

٣ - تعذر العدل بين الزوجين في الحب والوطء استلزم عدم المؤاخذة به واكتفى الشارع بالعدل في الفراش والطعام والشراب والكسوة والمعاشرة بالمعروف.

٤ - الترغيب في الإصلاح والتقوى وفعل الخيرات.

٥ - الفرقة بين الزوجين إن كانت على مبدأ الإصلاح والتقوى أعقبت خيرًا عاجلًا أو آجلًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣١ - ١٣٤]

(١٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي خلقًا وملكًا وتصرفًا وتدبيرًا. ﴿وَصَّيْنَا﴾: عهدنا إليهم

---

(١) هذا دال على أنّ المحبة أمر قهري يعجز الإنسان عن جلبها كما يعجز عن دفعها وإن كانت لها أسباب لا يملك الإنسان توفيرها فلذا عفي عن هذا الحب القهري وجودًا وعدمًا.

(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح، ورواه غيره، والمراد بقوله ﷺ: «**فيما تملك ولا أملك**» القلب لأنّ القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء.

(٣) ورد في ذنب الميل إلى إحدى الزوجات وعيد شديد وذلك فيما رواه أحمد وأصحاب السنن عن النبي ﷺ: «**من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط**».

(٤) هناك إشارة إلى أنّ هذا الوعد الإلهي مشروط بمحاولة الصلح أوّلاً فإن لم يتم وتفرقا على طاعة الله تعالى أنجز الله تعالى لهما ما وعد.

(١٣١) إن قيل: ما وجه تكرار جملة: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثلاث مرات فالجواب: أنه تعالى لما ذكر أن الزوجين إذا تفرّقا بعد مصالحة وعلى تقوى، يغنيهما الله، برهن على ذلك بأن له ما في السموات وما في الأرض، ومن كان كذلك فهو قادر على إغنائهما، ولما وصى عباده بتقواه، وهي طاعته بفعل الأمر وترك النهي أعلم أنه قادر على عقوبة من عصاه، وأنّه لم يوص بالتقوى لحاجة به، إنّه يملك ما في السماوات وما في الأرض ومن كان كذلك فلا حاجة به إلى أحد، ولما ذكر غناه وحمده دلّل عليهما بأن له ما في السماوات وما في الأرض وأنه الحفيظ لعباده المدبر لهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾

بذلك أي بالتقوى. ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: اليهود والنصارى.
الوكيل: من يفوض إليه الأمر كله ويقوم بتدبيره على أحسن الوجوه.
(١٣٤) ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾: جزاء العمل لها. ثواب الآخرة: جزاء العمل لها، وهو الجنة. ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾: سميعًا: لأقوال العباد بصيرًا: بأعمالهم وسيجزيهم بها خيرًا أو شرًا.

معنى الآيات:

(١٣١) لما وعد تبارك وتعالى كلًا من الزوجين المتفرقين بالإغناء عن صاحبه ذكر أنه يملك ما في السموات وما في الأرض ولذا فهو قادر على إغنائهما لسعة ملكه وعظيم فضله، ثم واجه بالخطاب الكريم الأمة جمعاء ومن بينها بني أبيرق فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يريد من اليهود والنصارى وغيرهم أوصاهم بتقواه عز وجل فلا يقدموا على مشاقته ولا يخرجوا عن طاعته بترك ما أوجب أو بفعل ما حرم، ثم أعلمهم أنهم وإن كفروا كما كفر طعمة وارتد فإن ذلك غير ضائره شيئًا، لأنه ذو الغنى والحمد، وكيف وله جميع ما في السموات وما في الأرض من كائنات ومخلوقات وهو ربها ومالكها والمتصرف فيها.

(١٣٢) هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٣١) أما الآية الثانية (١٣٢) فقد كرر تعالى فيها الإعلان عن استحقاقه الحمد والغنى وذلك لملكه جميع ما في السموات وما في الأرض ولقيوميته عليهما وكفى به تعالى حافظًا ووكيلًا.

(١٣٣) وفي الآية الثالثة (١٣٣) يخبر تعالى أنه قادر على إذهاب كافة الجنس البشري واستبداله بغيره وهو على كل ذلك قدير، فقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ[١] وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وذلك لعظيم قدرته وكفاية وكالته.

(١٣٤) وفي الآية الرابعة والأخيرة في هذا السياق (١٣٤) يقول تعالى مرغبًا عباده فيما عنده من خير الدنيا والآخرة من كان يريد بعمله ثواب[٢] الدنيا ﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فلم يقصر العبد عمله على ثواب الدنيا، وهو يعلم أن ثواب الآخرة عند الله أيضًا فليطلب الثوابين معًا من الله تعالى، وذلك بالإيمان والتقوى والإحسان، وسيجزيه تعالى بعمله ولا ينقصه له وذلك لعلمه تعالى وقدرته ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا[٣] بَصِيرًا﴾، ومن كان كذلك فلا يخاف معه ضياع الأعمال.

هداية الآيات:

١ - الوصية بالتقوى، وذلك بترك الشرك والمعاصي بعد الإيمان وعمل الصالحات.

٢ - غنى الله تعالى عن سائر خلقه.

٣ - قدرة الله تعالى على إذهاب

---

(١) الآية تحمل تخويفًا أيما تخويف لكل من يقصّر في واجبه من أمير ومأمور وعالم، وجاهل، وغني، وفقير، إذ لكل واجبات يجب أن يقوم بها كل بحسب ما طولب به وفرض عليه فالأمير عليه العدل والعالم أن يعلّم والجاهل أن يتعلم وهكذا.

(٢) في هذه الآية إرشاد عظيم للعباد، لقد علم تعالى أنّ الإنسان بحكم وجوده في هذه الحياة ورغبته في السعادة فيها هو يعمل لها جهده غافلًا عن الحياة الآخرة التي هي أعظم لبقائها وكبر شأنها فلفت نظره إليها معلمًا إياه أنه لديه تعالى ثواب كل من الحياتين فليطلب ذلك منه بالإيمان به وطاعته كما طلب الدنيا بالأعمال الموصلة إلى تحقيق السعادة فيها، وفوق ذلك أنّ ثواب العملين بيده تعالى لا بيد غيره.

(٣) هذا التذليل يربي ملكة مراقبة الله تعالى إذ مَنْ علم أنّ الله سميع لأقواله عليم بأعماله راقبه واتقاه.

الناس كلهم والإتيان بغيرهم.
٤ - وجوب الإخلاص في العمل لله تعالى وحرمة طلب الآخرة بطلب الدنيا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٥ - ١٣٧]

(١٣٥) ﴿قَوَّٰمِينَ﴾: جمع قوام: وهو كثير القيام بالعدل. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدل وهو الاستقامة والتسوية بين الخصوم. ﴿شُهَدَآءَ﴾: جمع شهيد: بمعنى شاهد. ﴿ٱلْهَوَىٰٓ﴾: ميل النفس إلى الشيء ورغبتها فيه. ﴿تَلْوُۥٓا۟﴾: أي ألسنتكم باللفظ تحريفًا له حتى لا تتم الشهادة على وجهها. ﴿تُعْرِضُوا۟﴾: تتركوا الشهادة أو بعض كلماتها ليبطل الحكم.

معنى الآيات:

(١٣٥) قوله تعالى في هذه الآية (١٣٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ إذ بشهادتكم ينتقل الحق من شخص إلى آخر حيث أقامكم الله ربكم شهداء له في الأرض تؤدى بواسطتكم الحقوق إلى أهلها، وبناء على هذا فأقيموا الشهادة لله ولو شهادتكم على أنفسكم[1] أو والديكم أو أقرب الناس إليكم وسواء كان المشهود عليه غنيًا أو فقيرًا فلا يحملنكم غنى الغني ولا فقر الفقير على تحريف الشهادة أو كتمانها، فالله تعالى ربهما أولى بهما وهو يعطي ويمنع بشهادتكم فأقيموها وحسبكم ذلك واعلموا أنكم إن تلووا[2] ألسنتكم بالشهادة تحريفًا لها وخروجًا بها عن أداء ما يترتب عليها أو تعرضوا عنها فتتركوها أو تتركوا بعض كلماتها فيفسد معناها ويبطل مفعولها فإن الله بعملكم ذلك وبغيره خبير وسوف يجزيكم به فيعاقبكم في الدنيا أو في الآخرة ألا فاحذروا.

هذه الآية الكريمة يدخل فيها دخولاً أوليًا من شهدوا لأبناء أبيرق بالإسلام والصلاح كما هي خطاب للمؤمنين إلى يوم القيامة وهي أعظم آية في هذا الباب فليتق الله المؤمنون في شهاداتهم.

(١٣٦) أما الآية الثانية (١٣٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ فهي في خطاب أهل الكتاب خاصة وفي سائر المؤمنين عامة فالمؤمنون تدعوهم إلى تقوية إيمانهم ليبلغوا فيه مستوى اليقين، أما أهل الكتاب فهي دعوة لهم للإيمان الصحيح، لأن إيمانهم الذي هم عليه غير سليم فلذا دعوا إلى الإيمان الصحيح فقيل لهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وهو القرآن الكريم، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ وهو التوراة والإنجيل، لأن اليهود لا يؤمنون بالإنجيل، ثم أخبرهم محذرًا لهم أن ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ﴾ طريق الهدى والسعادة ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ لا ترجى هدايته، وعليه فسوف يهلك ويخسر خسرانًا أبديًا.

(١٣٧) ثم أخبرهم تعالى في الآية بعد هذه (١٣٧) مقررًا الحكم بالخسران الذي تضمنته الآية قبلها فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟[3]﴾ بمحمد ﷺ وكتابه وبما جاء به ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ﴾ أي لم يكن في سنة الله أن يغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ينجون به ويسعدون فيه ألا فليحذر اليهود والنصارى هذا وليذكروه، وإلا فالخلود في نار جهنم لازم لهم ولا يهلك على الله إلا هالك.

---

(١) القاعدة العامة منذ عهد بعيد أنّ القريب لا يشهد لقريبه ولكن يشهد عليه فلا يشهد الأب لابنه ولا ابن لأبيه، لوجود تهمة المحاباة للقرابة وكذا لا يجوز شهادة عدو على عدُوه وهذا مذهب عامة الفقهاء، وحتى الخادم في البيت لا يجوز شهادته لأهل البيت إذ قد يحابيهم لمنفعته.

(٢) وفسّر ابن عباس ﴿تَلْوُۥٓا۟﴾ بقوله: هو في الخصمين يجلسان بين يدي القاضي فيكون ليّ القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر، فالليّ على هذا هو مطل الكلام وجره حتى يفوّت فصل القضاء وإنفاذه للذي يميل القاضي عليه. ويشهد لهذا الحديث: **«ليّ الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته»** ولا تنافي بين تفسير ابن عباس وما ذكرناه في التفسير.

(٣) في هذه الآية أنّ الكافر إذا آمن غفر له كفره وإذا ارتد يؤاخذ بكفره الأوّل والأخير سواء، وشاهده حديث مسلم: إذ قال أناس يا رسولَ الله: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: **«أمّا مَنْ أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذ بها، ومن أساء - كفر - أخذ بعمله في الجاهلية والإسلام»**. وفي رواية: **«ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر»**.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

١٠١

هداية الآيات:

١ - وجوب العدل في القضاء والشهادة.

٢ - حرمة شهادة الزور وحرمة التخلي[1] عن الشهادة لمن تعينت عليه.

٣ - وجوب الاستمرار على الإيمان وتقويته حتى الموت عليه.

٤ - بيان أركان الإيمان وهي الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر[2].

٥ - المرتد يستتاب ثلاثة أيام وإلا قتل كفرًا أخذًا من قوله: ﴿ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٨ - ١٤١]

﴿١٣٨﴾ ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾: البشارة: الخبر الذي تتأثر به بشرة من يلقى عليه خيرًا كان أو شرًا. والمنافق: من يبطن الكفر ويظهر الإيمان تقيّة ليحفظ دمه وماله.

﴿١٣٩﴾ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: يوالونهم محبة ونصرة لهم على المؤمنين. ﴿الْعِزَّةَ﴾: الغلبة والمنعة.

﴿١٤٠﴾ ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾: يذكونها استخفافًا بها وإنكارًا وجحودًا لها. ﴿يَخُوضُوا﴾: يتكلموا في موضوع آخر من موضوعات الكلام. ﴿مِّثْلُهُمْ﴾: أي في الكفر والإثم.

﴿١٤١﴾ ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾: ينتظرون متى يحصل لكم انهزام أو انكسار: فيعلنون عن كفرهم. ﴿نَصِيبٌ﴾: أي من النصر وعبر عنه بالنصيب القليل لأن انتصارهم على المؤمنين نادر. ﴿نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾: أي نستول عليكم ونمنعكم من المؤمنين إن قاتلوكم. ﴿سَبِيلًا﴾: أي طريقًا إلى إذلالهم واستعبادهم والتسلط عليهم.

معنى الآيات:

﴿١٣٨﴾ قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يخبر المنافقين بلفظ البشارة لأن المخبر به يسوء وجوههم وهو العذاب الأليم وقد يكون في الدنيا بالذل والمهانة والقتل، وأما في الآخرة فهو أسوأ العذاب وأشده وهو لازم لهم لخبث نفوسهم وظلمة أرواحهم، ثم وصفهم تعالى بأخس صفاتهم وشرها فقال:

﴿١٣٩﴾ ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ[3] مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيعطون محبتهم ونصرتهم وولاءهم للكافرين، ويمنعون ذلك المؤمنين وذلك لأن قلوبهم كافرة آثمة لم يدخلها إيمان ولم ينرها عمل الإسلام، ثم وبخهم تعالى ناعيًا عليهم جهلهم فقال: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ أي يطلبون العزة أي المنعة والغلبة من الكافرين أجهلوا أم عموا فلم يعرفوا ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فمن أعزه الله عز ومن أذله ذل والعزة تطلب بالإيمان وصالح الأعمال لا بالكفر والشر والفساد. هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (١٣٨) والثانية (١٣٩).

﴿١٤٠﴾ أما الآية الرابعة (١٤٠) فإن الله

---

(١) شاهده من السنة قوله ﷺ في الصحيح: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الشرك بالله وعقوق الوالدين**»، وكان متكئًا فجلس وقال: «**ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور**» وما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت أو كما قال.

(٢) وبقي ركن وهو القضاء والقدر جاء ذكره في قوله تعالى من سورة القمر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

(٣) في الآية دليل على حرمة موالاة الكافرين، وأنها من صفات المنافقين، ومن مظاهر الموالاة المحرّمة الاستعانة بهم على أمور الدين، وعلى أذيّة المسلمين، وفي الحديث أنّ النبي ﷺ لحق به مشرك ليقاتل معه فقال له: «**ارجع فإنا لا نستعين بمشرك**» في الصحيح.

تعالى يؤدب المؤمنين فيذكرهم بما أنزل عليهم في سورة الأنعام حيث نهاهم عن مجالسة أهل الباطل إذا خاضوا في الطعن في آيات الله ودينه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هذا الأدب أخذ الله تعالى به رسوله ﷺ والمؤمنين، وهم في مكة قبل الهجرة، لأن سورة الأنعام مكية ولما هاجروا إلى المدينة، وبدأ النفاق وأصبح للمنافقين مجالس خاصة ينتقدون فيها المؤمنين ويخوضون فيها في آيات الله تعالى استهزاء وسخرية ذكر الله تعالى المؤمنين بما أنزل عليهم في مكة فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ[1] اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ[2] حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا﴾ أي إذا رضيتم بالجلوس معهم وهم يخوضون في آيات الله ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ في الإثم والجريمة[3] والجزاء أيضًا، ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ فهل ترضون أن تكونوا معهم في جهنم، وإن قلتم لا إذًا فلا تجالسوهم. ثم ذكر تعالى وصفًا آخر للمنافقين يحمل التنفير منهم والكراهية والبغض لهم فقال:

(١٤١) ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي ينتظرون بكم الدوائر ويتحينون الفرص ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي نصر وغنيمة قالوا: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ فأشركونا في الغنيمة، ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ في النصر قالوا لهم ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ[4] عَلَيْكُمْ﴾ أي نستول عليكم ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن يقاتلوكم، فأعطونا مما غنمتم، وهكذا المنافقون يمسكون العصا من الوسط فأي جانب غلب كانوا معه. ألا لعنة الله على المنافقين وما على المؤمنين إلا الصبر لأن مشكلة المنافقين عويصة الحل فالله يحكم بينهم يوم القيامة. أما الكافرون الظاهرون فلن يجعل الله تعالى لهم على المؤمنين سبيلًا لا لاستئصالهم وإبادتهم، ولا لإذلالهم والتسلط عليهم ما داموا مؤمنين صادقين في إيمانهم[5]. وهذا ما ختم الله تعالى به الآية الكريمة إذ قال: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

هداية الآيات:

١ ـ حرمة اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

٢ ـ الباعث للناس على اتخاذ الكافرين أولياء هو الرغبة في العزة ورفع المذلة وهذا باطل فالعزة لله ولا تطلب إلا منه تعالى بالإيمان واتباع منهجه.

٣ ـ حرمة مجالسة أهل الباطل إذا كانوا يخوضون في آيات الله نقدًا واستهزاء وسخرية.

٤ ـ الرضا بالكفر كفر، والرضا بالإثم إثم.

٥ ـ تكفل الله تعالى بعزة المؤمنين الصادقين ومنعتهم فلا يسلط عليهم أعداءه فيستأصلونهم، أو يذلونهم ويتحكمون فيهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٢، ١٤٣]

(١٤٢) ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾: بإظهارهم ما يحب وهو الإيمان والطاعات، وإخفائهم الكفر والمعاصي. ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾: بالستر عليهم وعدم فضيحتهم، وبعدم إنزال العقوبة بهم. ﴿يُرَاءُونَ﴾: أي يظهرون الطاعات للمؤمنين كأنهم مؤمنون وما هم بمؤمنين.

---

(١) أوقع السماع على الآيات، والمراد: سماع الكفر، والاستهزاء بها كما يقال: سمعت فلانًا يلام، أي: سمعت اللوم فيه.

(٢) قوله: «في حديث غير» أي: في غيره الكفر والاستهزاء بالآيات.

(٣) في الآية دليل على حرمة الجلوس في مجالس المعاصي، وغشيان الذنوب إلاّ أن ينكر ذلك على أصحابها، لأنّ الرضا بالمعصية معصية بل الرضا بالكفر كفر بالإجماع ويدخل في هذا مجالس أرباب الأهواء، وأصحاب البدع، والآية محكمة لا نسخ فيها.

(٤) أصل الاستحواذ: الحوط، يقال: حاذه يحوذه حوذًا إذا أحاطه بمعنى استحوذ أحاط واستولى وغلب.

(٥) يشهد لهذا حديث مسلم قوله ﷺ: **«إني سألت ربي ألاّ يهلكها ـ أي: أمته ـ بسنة عامة وألاّ يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا»** وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

(١٤٣) ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾: أي يترددون بين المؤمنين والكافرين فأي جانبٍ عز كانوا معه.

معنى الآيتين:

يخبر تعالى أن المنافقين في سلوكهم الخاص يخادعون الله تعالى بإظهارهم الإيمان به وبرسوله ﷺ وهم غير مؤمنين إذ الخداع أن تري من تخادعه ما يحبه منك وتستر عليه ما يكرهه والله تعالى عاملهم بالمثل فهو تعالى أراهم ما يحبونه وستر عليهم ما يكرهونه منه وهو العذاب[1] المعد لهم عاجلاً أو آجلاً، كما أخبر عنهم أنهم إذا قاموا إلى أداء الصلاة قاموا كسالى[2] متباطئين لأنهم لا يؤمنون بالثواب الأخروي فلذا هم يراؤون بالأعمال الصالحة المؤمنين حتى لا يتهمونهم بالكفر، كما أنهم لا يذكرون الله تعالى إلا ذكرًا قليلاً في الصلاة[3] وخارج الصلاة، وذلك لعدم إيمانهم بالله تعالى وعدم حبهم له كما أخبر عنهم بأنهم مذبذبون بين الكفر والإيمان والمؤمنين والكافرين فلا إلى الإيمان والمؤمنين يسكنون، ولا إلى الكفر والمنافقين يسكنون فهم في تردد وحسرة دائمون، وهذه حال من يضلله الله فإن من يضلل الله لا يوجد لهدايته سبيلٌ.

هداية الآيتين:

١ - بيان صفات المنافقين[4].

٢ - قبح الرياء وذم المرائين.

٣ - ذم ترك الذكر والتقليل منه لأمر الله تعالى بالإكثار منه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝﴾.

٤ - ذم الحيرة والتردد في الأمور كلها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٤ - ١٤٧]

(١٤٤) ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾: حجة واضحة لتعذيبكم.

(١٤٥) ﴿ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾: الدرك: كالطابق، والدركة كالدرجة.

(١٤٦) ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾: ما كانوا قد أفسدوه من العقائد والأعمال.

﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾: تمسكوا بدينه وتوكلوا عليه. ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾: تخلوا عن النفاق والشرك.

معنى الآيات:

(١٤٤) ما زال السياق في إرشاد الله تعالى المؤمنين إلى ما يعزهم ويكملهم ويسعدهم ففي هذه الآية (١٤٤) يناديهم تعالى بعنوان الإيمان وهو الروح الذي به الحياة وينهاهم عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومعنى اتخاذهم أولياء موادتهم ومناصرتهم والثقة فيهم والركون إليهم والتعاون معهم، ولما كان الأمر ذا خطورة كاملة عليهم هددهم تعالى بقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا[5] مُّبِينًا﴾ فيتخلى عنكم ويسلط عليكم أعداءه الكافرين فيستأصلوكم، أو يقهروكم ويستذلوكم ويتحكموا فيكم. ثم حذرهم من النفاق أن يتسرب إلى قلوبهم فأسمعهم حكمه العادل في

---

(١) قال الحسن البصري في الآية: يعطى كل إنسان من مؤمن ومنافق نورًا يوم القيامة فيفرح المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا فإذا جاؤوا إلى الصراط طفىء نور كل منافق، فسرّ به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وما ذكرناه في التفسير أولى وإن كان هذا حاصل لقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

(٢) شاهده من السنة قوله ﷺ في الصحيح: «**إن أثقل صلاة على المنافقين العتمة** - العشاء - **والصبح لأنّ الصلاتين تقعان في الظلام**»، ولأنّ العتمة يكون المرء فيها تعبًا مرهقًا من أعمال النهار، وأمّا الصبح فإنّ غلبة النوم أشد على العبد، ولولا الخوف من السيف ما شهدوا الصلاتين.

(٣) روى مالك في الموطأ أنّ النبي ﷺ قال: «**تلك صلاة المنافقين** - ثلاثًا - **يجلس أحدهم يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان أو على قرني شيطان قام فنقر أربعًا لا يذكر الله فيها إلاّ قليلاً**» وقال ﷺ: «**لا تجزىء صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه في الركوع والسجود**» صححه الترمذي.

(٤) في صحيح مسلم وصف لحال المنافقين في تذبذبهم وحيرتهم إذ قال ﷺ: «**مثل المنافق كمثل الشاة العائرة** - المترددة بين قطيعين من الغنم - **بين الغنمين تعير إلى هذه مرّة وإلى هذه أخرى**».

(٥) قال القرطبي في تفسيره: ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: في تعذيبه إياكم بإقامة الحجة عليكم إذ قد نهاكم.

المنافقين الذين هم رؤوس الفتنة بينهم فقال: ﴿١٤٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ[1] ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، فأسفل طبقة في جهنم هي مأوى المنافقين يوم[2] القيامة، ولن يوجد لهم ولي ولا نصير أبدًا ثم رحمة بعباده تبارك وتعالى يفتح باب التوبة للمنافقين على مصراعيه ويقول لهم: ﴿١٤٦﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ إلى ربهم فآمنوا به وبرسوله ﷺ حق الإيمان ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ أعمالهم ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ ونفضوا أيديهم من أيدي الكافرين، ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ فلم يبقوا يراؤون أحدًا بأعمالهم. فأولئك الذين ارتفعوا إلى هذا المستوى من الكمال هم مع المؤمنين جزاؤهم واحد، وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرًا عظيمًا وهو كرامة الدنيا وسعادة الآخرة.

وأخيرًا في الآية (١٤٧) يقرر تعالى غناه عن خلقه وتنزهه عن الرغبة في حب الانتقام فإن عبده مهما جنى وأساء، وكفر وظلم إذا تاب وأصلح فآمن وشكر. لا يعذبه أدنى عذاب إذ لا حاجة إلى تعذيب عباده فقال عز وجل وهو يخاطب عباده ﴿١٤٧﴾ ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ لا يضيع المعروف عنده. لقد شكر لبغي[3] سقيها كلبًا عطشان فغفر لها وأدخلها الجنة.

هداية الآيات:

١ - حرمة اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

٢ - إذا عصى المؤمنون ربهم فاتخذوا الكافرين أولياء سلط الله عليهم أعداءهم فساموهم الخسف.

٣ - التوبة تجبُّ ما قبلها حتى إن التائب من ذنبه كمن لا ذنب له ومهما كان الذنب الذي غشيه.

٤ - لا يعذب الله تعالى المؤمن الشاكر لا في الدنيا ولا في الآخرة فالإيمان والشكر أمان الإنسان.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾﴾

الجزء السادس

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٨، ١٤٩]

﴿١٤٨﴾ السوء[4]: ما يسوء إلى من قيل فيه أو فعل به.

﴿سَمِيعًا عَلِيمًا﴾: سميعًا للأقوال عليمًا بالأعمال.

﴿١٤٩﴾ ﴿إِن تُبۡدُواْ﴾: تظهروا ولا تخفوا. ﴿تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾: أي لا تؤاخذوا به.

معنى الآيتين:

﴿١٤٨﴾ يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء، ولازم هذا أن عباده المؤمنين يجب أن يكرهوا ما يكره

---

(١) الدرك بالإسكان والفتح، والنار سبع دركات، يقال فيما تعالى وارتفع: درجة، وفيما سفل ونزل: دركة والدركات هي كالتالي: جهنّم ثمّ لظى ثمّ الحطمة ثمّ السعير ثمّ سقر ثمّ الجحيم ثمّ الهاوية، وقد تسمى جميعها باسم الطبقة الأولى: جهنّم.

(٢) روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إنّ أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة المنافقون، ومَنْ كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون، تصديق ذلك في كتاب الله تعالى. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وقال في أصحاب المائدة: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وقال في آل فرعون: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾.

(٣) هذا مقتبس من حديث الصحيحين ونصه: روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئرًا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال: لقد بلغ بهذا مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له»** والشاهد في فضل الشكر والإيمان.

(٤) كالسَّبِّ، والشتم، والغيبة، والنميمة، والدعاء بالشرّ وألفاظ البذاءة وكلمات الفحش.

ربهم ويحبوا ما يحب وهذا شرط الولاية وهي الموافقة وعدم المخالفة، ولما حرّم تعالى على عباده الجهر بالسوء بأبلغ عبارة وأجمل أسلوب، استثنى المظلوم فإن له أن يجهر[١] بمظلمته لدى الحاكم ليرفع عنه الظلم فقال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ[٢] إِلَّا مَن ظُلِمَ[٣] وَكَانَ اللَّهُ﴾ ـ (ومـــا زال) ـ ﴿سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ألا فليتق فلا يعصى بفعل السوء ولا بقوله. ثم انتدب عباده المؤمنين إلى فعل الخير في السر أو العلن، وإلى العفو عن صاحب السوء فقال: (١٤٩) ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا[٤] عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ فسيكسب فاعل الخير خيرًا أبداه أو أخفاه وسيعفو عن صاحب العفو حينما تزل قدمه فيجني بيده أو بلسانه ما يستوجب به المؤاخذة فيشكر الله تعالى له عفوه السابق فيعفو عنه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

هداية الآيتين:

١ - حرمة الجهر بالسوء والسر به كذلك فلا يحل لمؤمن ولا مؤمنة أن ينطق بما يسوء إلى القلوب والنفوس إلا في حالة الشكوى وإظهار الظلم لا غير.

٢ - استحباب فعل الخير وسره كجهره لا ينقص أجره بالجهر ولا يزيد بالسر.

٣ - استحباب العفو عن المؤمن إذا بدا منه سوء، ومن يعف يعف الله عنه[٥].

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٠ ـ ١٥٢]

(١٥٠) ﴿وَرُسُلِهِ﴾: الرسل جمع رسول وهم جَم غفير قيل عددهم ثلثمائة وأربعة عشر رسولاً[٦].

﴿سَبِيلًا﴾: أي طريقًا بين الكفر والإيمان، وليس ثم إلا طريق واحد وهو الإيمان أو الكفر فمن آمن بكل الرسل فهو المؤمن، ومن آمن بالبعض وكفر بالبعض فهو الكافر كمن لم يؤمن بأحد منهم. ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا﴾: كما فرق اليهود فآمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد ﷺ وكما فرق النصارى آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد ﷺ فهم لذلك كفار.

(١٥٢) ﴿أُجُورَهُمْ﴾: أجر إيمانهم برسل الله وعملهم الصالح وهو الجنة دار النعيم.

معنى الآيات:

يخبر تعالى مقررًا حكمه على اليهود والنصارى بالكفر الحق الذي لا مرية فيه فيقول: إن الذين يكفرون بالله[٧] ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا

---

(١) روى ابن جرير عن مجاهد أنّ رجلاً استضاف قومًا فلم يضيفوه ـ أي: طلب منهم أن يطعموه ـ فاشتكاهم فعوتب عليه فنزلت هذه الآية: ﴿لَّا يُحِبُّ...﴾ إلخ.. ودلّت على أنّ إطعام الضيف وإيوائه ليلة واجب لقوله ﷺ: **«ليلة الضيف واجبة»** رواه أحمد.

(٢) ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾: في محل نصب على الحال.

(٣) في الآية دليل على جواز الدعاء على الظالم ممن ظلمه وجواز ردّ الشتم والسبّ بمثله إلاّ أنّ ترك ذلك أفضل.

(٤) شاهده من السنة قوله ﷺ في الحديث الصحيح: **«ما نقص مال من صدقة ولا زاد الله عبدًا بعفوٍ إلاّ عزًا، ومن تواضع لله رفعه»**.

(٥) المناسبة بين هذه الآيات، وما سبقها ينظر إليها من حيث أنّ القرآن كتاب هداية للبشرية فلذا لمّا ذكر حال المنافقين مبيّنًا لهم طريق توبتهم إن أرادوا ذلك ذكر بعد بيان حكم حرمة النطق بالسوء سِرًا وجهرًا إلاّ ما رخص فيه، ذكر حال اليهود والنصارى مبيّنًا كفرهم وما أعدّ لهم من العذاب إن أصرّوا على كفرهم وضلالهم.

(٦) جاء ذكر هذا العدد في حديث أبي ذر الغفاري إذ قال فيه: قلت يا رسول الله: كم كانت الأنبياء وكم كان المرسلون؟ قال: **«كانت الأنبياء مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر»** والحديث ضعيف، ولمّا لم يوجد غيره قال به أهل العلم قديمًا وحديثًا.

(٧) نسبهم تعالى إلى الكفر به لأنّ إيمانهم بالله تعالى باطل وذلك أنّ اليهود يصفون الله تعالىٰ بصفات المحدثين ونسبوا إليه الولد وكثير من صفات تنزه الله عنها، وأنّ النصارى يكفيهم كفرًا قولهم: إنّ الله ثالث ثلاثة وهو الكفر بعينه، وحسبهم بعد ذلك كفرهم بمحمد ﷺ وبما جاء به.

بين ذلك أي بين الكفر بالبعض والإيمان بالبعض سبيلاً أي طريقًا يتوصلون به إلى مذهب باطل فاسد وهو التخيّر بين رسل الله فمن شاؤوا الإيمان به آمنوا، ومن لم يشاؤوا الإيمان به كفروا به ولم يؤمنوا وبهذا كفروا كفرًا لا ريب فيه، ولهم بذلك العذاب المهين الذي يهانون به ويذلون جزاء كبريائهم وسوء فعالهم.

(١٥٠) قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[1] فسجل عليهم الكفر ثلاث مرات فالمرة الأولى بقوله: (١٥١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ والثانية بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ والثالثة بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ حيث لم يقل وأعتدنا لهم فأظهر في موضع الإضمار لتسجيل الكفر عليهم وللإشارة إلى علة الحكم وهي الكفر.

(١٥٢) هذا ما تضمنته الآية الثانية (١٥١) أما الآية الثالثة وهي قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا[2] بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فإنها مقابلة في ألفاظها ومدلولها للآية قبلها فالأولى تضمنت الحكم بالكفر على اليهود والنصارى، وبالعذاب المهين لهم، والثانية تضمنت الحكم بإيمان المسلمين وبالنعيم المقيم لهم وهو ما وعدهم به ربهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. فغفر لهم ذنوبهم ورحمهم بأن أدخلهم دار كرامته في جملة أوليائه.

هداية الآية الكريمة:

١ - تقرير كفر اليهود والنصارى لفساد عقائدهم وبطلان أعمالهم.

٢ - كفر من كذب بالله ورسوله ﷺ ولو في شيء واحد مما وجب الإيمان به.

٣ - بطلان إيمان من يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض.

٤ - صحة الدين الإسلامي وبطلان اليهودية[3] والنصرانية حيث أوعد تعالى اليهود والنصارى بالعذاب المهين، ووعد المؤمنين بتوفية أجورهم والمغفرة والرحمة لهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٣، ١٥٤]

(١٥٣) ﴿جَهْرَةً﴾: عيانًا نشاهده ونراه بأبصارنا. ﴿الصَّاعِقَةُ﴾: صوت حاد ورجفة عنيفة صعقوا بها. ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾: بسبب ظلمهم بطلبهم ما لا ينبغي. ﴿اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾: أي إلهًا فعبدوه. ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾: أي لم يؤاخذهم به. ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾: حجة واضحة وقدرة كاملة قهر بها أعداءه.

(١٥٤) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾: أي جبل الطور بسيناء. ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: أي راكعين متواضعين خاشعين لله شكرًا لنعمه عليهم. ﴿لَا تَعْدُوا﴾[4]: لا تعتدوا أي لا تتجاوزوا ما حد لكم فيه من ترك العمل إلى العمل فيه. ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾: عهدًا مؤكدًا بالأيمان.

معنى الآيتين:

(١٥٣) لما نعى الربّ تعالى على أهل الكتاب قولهم نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض حيث آمن اليهود بموسى وكفروا بعيسى وآمن النصارى بعيسى وكفروا بمحمد ﷺ كما كفر به اليهود أيضًا ذكر تعالى لرسوله ﷺ أن اليهود إذا سألوك أن تنزل عليهم[5]

---

(١) تُوعّدوا بالعذاب المهين مقابل ما كانوا يرتكبونه من إهانة المؤمنين وإذلالهم، والجزاء من جنس العمل و﴿حَقًّا﴾ في الآية منصوب على المصدرية، أي: حقه لهم أيها السامع حقًا.

(٢) هذا أسلوب القرآن الكريم فإنّه بعد أن ذكر الكافرين حقًا وبيّن جزاءهم، ذكر المؤمنين حقًا وبيّن جزاءهم، وهذا أسلوب الترغيب والترهيب الذي عليه مدار الهداية والإصلاح بإذن الله تعالى.

(٣) وسائر الأديان كالمجوسية والصابئة، وغيرهما من سائر الملل والنحل إذ لا دين حق إلاّ الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

(٤) قرأ ورش: ﴿لا تعدّوا﴾ بتشديد الدّال وهو من إدغام التاء في الدّال لتقاربهما في المخرج والأصل لا تعتدوا من الاعتداء الذي هو العدوان.

(٥) ذكر القرطبي بغير إسناد أن اليهود سألت النبي ﷺ أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتابًا مكتوبًا فيما يدّعيه على صدقه دفعة واحدة، كما أتى موسى بالألواح تعنّتًا منهم فأنزل الله تعالى الآية.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

كتابًا من السماء فلا تعجب من قولهم ولا تحفل به إذ هذه سنتهم وهذا دأبهم، فإنهم قد سألوا موسى قبلك أعظم من هذا فقالوا له أرنا الله جهرة فأغضبوا الله تعالى فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، واتخذوا العجل إلهًا يعبدونه في غياب موسى عليهم، وكان ذلك منهم بعد مشاهداتهم البيّنات حيث فلق الله لهم البحر وأنجاهم وأغرق عدوهم ومع هذا فقد عفا الله عنهم، وآتى نبيهم سلطانًا مبينًا، ولم يؤثر ذلك في طباعهم. هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٥٣) وهي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً[1] فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ[2] ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟[3] ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿١٥٤﴾ أما الآية الثانية (١٥٤) فقد أخبر تعالى أنه رفع فوقهم الطور تهديدًا لهم ووعيدًا وذلك لما امتنعوا أن يتعهدوا بالعمل بما في التوراة، فلما رفع الجبل فوقهم خافوا فتعهدوا معطين بذلك ميثاقًا غير أنهم نقضوه كما سيأتي الإخبار بذلك. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ..﴾ كان هذا عندما دخل يوشع بن نون فتى موسى مدينة القدس فاتحًا أوحى الله تعالى إليه أن يأمر بني إسرائيل أن يدخلوا باب المدينة خاضعين متطامنين شكرًا لله تعالى على نعمة الفتح فبدل أن يطيعوا ويدخلوا الباب راكعين متطامنين دخلوه زحفًا على أستاههم مكرًا وعنادًا والعياذ بالله. وقوله: ﴿.. وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي ونهيناهم عن الصيد في السبت فتعدوا نهينا وصادوا عصيانًا وتمردًا، وقوله تعالى: ﴿.. وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي على أن يعملوا بما شرعنا لهم تحليلاً وتحريمًا في التوراة، ومع هذا فقد عصوا وتمردوا وفسقوا، إذًا فلا غرابة في سؤالهم إياك على رسالتك وليؤمنوا بك أن تنزل عليهم كتابًا من السماء. هذا معنى قوله تعالى في الآية (١٥٤) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ ...﴾ أي لا تتجاوزوا ما أحللنا لكم إلى ما حرمنا عليكم ﴿... وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ...﴾[4].

هداية الآيتين:

١ - تعنت أهل الكتاب إزاء الدعوة الإسلامية وكفرهم بها على علم أنها دعوة حق.

٢ - بيان قبائح اليهود وخبثهم الملازم لهم طوال حياتهم.

---

(١) ﴿جَهْرَةً﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: رؤية جهرة، ويصح أن يكون حالاً أي: مجاهرة بلا حجاب ساتر.

(٢) ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ الباء سببية أي: سبب ظلمهم، وليس المراد من ظلمهم طلب رؤية الله تعالى إذ هذا طلبه موسى أيضًا، ولكن ظلمهم: كونهم اشترطوا لإيمانهم بموسى حتى يريهم الله جهرة.

(٣) العطف بثم هنا للتراخي الرتبي لا لإفادة الترتيب الزمني، إذ اتخاذهم العجل كان قبل طلبهم رؤية الله جهرة، إذ المراد من البينات التي جاءتهم: انفلاق البحر، وقبله آية العصا وغيرها من التسع آيات التي آتى الله موسى عليه السلام.

(٤) كل ما ذكر في هذه الآيات هو تسلية للنبي ﷺ وتخفيفًا على نفسه مما يلاقي من تعنت اليهود، وصلفهم، وقساوة قلوبهم ومعاملتهم.

٣ - نقض اليهود للعهود والمواثيق أصبح طبعًا لهم لا يفارقهم أبدًا ولذا وجب عدم الثقة في عهودهم ومواثيقهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٥ ـ ١٥٩]

(١٥٥) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾: الباء سببية أي فبسبب نقضهم ميثاقهم، والنقض: الحل بعد الإبرام. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: أي بدون موجب لقتلهم، ولا موجب لقتل الأنبياء قط. ﴿غُلْفٌ﴾[١]: جمع أغلف وهو ما عليه غلاف يمنعه من وصول المعرفة والعلم إليه.

(١٥٦) ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾: البهتان الكذب الذي يحير من قيل فيه والمراد هنا رميهم لها بالزنى.

(١٥٧) ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾: أي لم يصلبوه، والصلب شده على خشبة وقتله عليها.

(١٥٩) ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: أي وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمن عند حضور الموت أن عيسى عبدالله ورسوله فما هو ابن زنى ولا ساحر كما يقول اليهود، ولا هو الله ولا ابن الله كما يقول النصارى.

معنى الآيات:

(١٥٥) ـ (١٥٧) ما زال السياق في الحديث عن اليهود وبيان الجرائم التي كانت سببًا في لعنهم وذلهم، وغضب الله تعالى عليهم، وهذا تعداد تلك الجرائم الواردة في الآيات الثلاث الأولى في هذا السياق وهي (١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ١٥٧).

١ - نقضهم العهود والمواثيق وخاصة عهدهم بالعمل بما في التوراة.

٢ - كفرهم بآيات الله المنزلة على عبدالله عيسى ورسوله والمنزلة على محمد ﷺ.

٣ - قتلهم الأنبياء كزكريا ويحيى وغيرهم وهو كثير في عهود متباينة.

٤ - قولهم قلوبنا غلف حتى لا يقبلوا دعوة الإسلام، وما أراد الرسول ﷺ إعلامهم به وكذبهم الله تعالى في هذه الدعوى، وأخبر أن لا أغطية على قلوبهم، ولكن طبع الله تعالى عليها بسبب ذنوبهم فران عليها الران فمنعها من قبول الحق اعتقادًا وقولاً وعملاً هذا ما تضمنته الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ . .﴾ (والباء سببية والميم صلة) والأصل فبنقضهم أي بسبب نقضهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إيمانًا قليلاً كإيمانهم بموسى وهارون والتوراة والزبور مثلاً.

٥ - كفرهم أي بعيسى ومحمد ﷺ أيضًا.

٦ - قولهم على مريم بهتانًا عظيمًا[٢] حيث رموها بالفاحشة وقالوا عيسى ابن زنى لعنهم الله.

٧ - قولهم متبجحين متفاخرين أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وهو رسول الله، وأكذبهم الله تعالى في ذلك بقوله: ﴿. . وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ . .﴾ أي برجل آخر ظنوه أنه هو فصلبوه وقتلوه، وأما المسيح فقد رفعه الله تعالى إليه وهو عنده في السماء.

(١٥٨) كما قال تعالى في الآية (١٥٨): ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي غالبًا على أمره حكيمًا في فعله وتدبيره.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، هذا إخبار من الله تعالى بحقيقة أخرى وهي أن الذين طوقوا منزل المسيح وهجموا عليه ليلقوا عليه القبض من أجل أن يقتلوه هؤلاء اختلفوا[٣] في هل الرجل الذي ألقي عليه شبه عيسى هو عيسى أو غيره إنهم لم يجزموا أبدًا بأن من ألقوا عليه القبض وأخرجوه فصلبوه وقتلوه هو المسيح عليه السلام، ولذا قال تعالى:

---

(١) ﴿غُلْفٌ﴾ قد يكون جمع غلاف ومعناه حينئذ: أن قلوبهم أوعية للعلم فلا حاجة بهم إلى علم سوى ما عندهم، ولا منافاة بين المعنيين في النهر، وأيسر التفاسير.

(٢) البهتان العظيم الذي قالوه على مريم هو رميهم لها بالزنى مع يوسف بن النجار وهو عبد صالح.

(٣) ذكر القرطبي للاختلاف عدّة وجوه كلها سائغة وما ذكرناه في التفسير أولى. ومن بين الوجوه قولهم: إن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟

﴿..وَمَا قَتَلُوهُ[1] يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾[2].

(١٥٩) أما الآية الأخيرة في هذا السياق (١٥٩) فإن الله تعالى أخبر أنه ما من يهودي ولا نصراني يحضره الموت ويكون في انقطاع عن الدنيا إلا آمن بأن عيسى عبدالله ورسوله، وليس هو ابن زنى ولا ساحر كما يعتقد اليهود، ولا هو الله ولا ابن الله كما يعتقد النصارى، ولكن هذا الإيمان لا ينفع صاحبه لأنه حصل عند معاينة الموت. قال تعالى: ﴿.. وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ ..﴾. هذا ما دلت عليه الآية الكريمة: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ۝﴾ أي يشهد على كفرهم به وبما جاءهم به، ووصاهم عليه من الإيمان بمحمد ﷺ ودين الحق الذي جاء به.

هداية الآيات:

١ ـ بيان جرائم اليهود.

٢ ـ بطلان اعتقاد النصارى في أن عيسى صُلب وقُتل، أما اليهود فإنهم وإن لم يقتلوا عيسى فهم مؤاخذون على قصدهم حيث صلبوا وقتلوا من ظنوه أنه عيسى عليه السلام.

٣ ـ تقرير رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ونزوله في آخر أيام الدنيا.

٤ ـ الإيمان كالتوبة عند معاينة ملك الموت لا تنفع ولا تقبل وجودها كعدمها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٠ ـ ١٦٢]

(١٦٠) ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾: الباء سببية أي فبسبب ظلمهم. ﴿هَادُواْ﴾: اليهود إذ قالوا: إنا هدنا إليك. ﴿طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾: هي كل ذي ظفر وشحوم البقر والغنم. أخذهم الربا: قبوله والتعامل به وأكله.

(١٦٢) ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾: أصحاب القدم الثابتة في معرفة الله وشرائعه ممن علومهم راسخة في نفوسهم ليست ظنيات بل هي يقينيات.

معنى الآيات:

(١٦٠) ما زال السياق في اليهود من أهل الكتاب يبين جرائمهم ويكشف الستار عن عظائم ذنوبهم ففي الآية الأولى (١٦٠) سجل عليهم الظلم العظيم والذي به استوجبوا عقاب الله تعالى حيث حرم عليهم طيبات كثيرة كانت حلالاً لهم، كما سجل عليهم أقبح الجرائم وهي صدهم أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله تعالى، وذلك بجحودهم الحق وتحريفهم كلام الله، وقبولهم الرشوة في إبطال الأحكام الشرعية. هذا ما تضمنته الآية الأولى.

(١٦١) أما الثانية (١٦١) فقد تضمنت تسجيل جرائم أخرى على اليهود وهي أولاً استباحتهم للربا[3] وهو حرام وقد نهوا عنه، وثانيًا أكلهم أموال الناس بالباطل كالرشوة والفتاوى الباطلة التي كانوا يأكلون بها. وأما قوله تعالى في ختام الآية: ﴿.. وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ فهو زيادة على ما عاقبهم به في الدنيا أعد لمن كفر منهم ومات على كفره عذابًا أليمًا موجعًا يعذبون به يوم القيامة.

(١٦٢) وأما الآية الثالثة (١٦٢) فقد نزلت في عبدالله بن سلام وبعض العلماء من يهود المدينة فذكر تعالى كالاستثناء من أولئك الموصوفين بأقبح الصفات وهي صفات جرائم اكتسبوها، وعظائم من الذنوب اقترفوها لجهلهم وعمى بصائرهم. إن الراسخين[4] في العلم الثابتين فيه

---

(١) ما زال الخلاف قائمًا إلى اليوم، فالجمهور منهم يقولون: صُلب عيسى وقُتل وبعد ثلاثة أيام رفع، وخلاف الجمهور يقولون: لم يصلب عيسى ولم يقتل.

(٢) عزّة الله يتنافى معها تسلط اليهود على عبده ورسوله عيسى وقتلهم له، وحكمته تتجلّى في رفعه إليه وإنزاله آخر أيام الدنيا.

(٣) أورد القرطبي هنا سؤالاً وهو مع علمنا أن اليهود يأكلون الربا والسحت وجميع ما حرّم الله تعالى فهل يجوز لنا التعامل معهم؟ وأجاب بالجواز استدلالاً بقول الله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ وبتعامل الرسول ﷺ معهم فقد رهن درعه عند يهودي.

(٤) روي أنه لما نزلت آية: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا..﴾ الآية، قالت يهود منكرة ما أخبر به تعالى عنهم: إن هذه الأشياء كانت حرامًا في الأصل وأنت تحلها ولم تكن حرمت بظلمنا، فنزل: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ وهم عبدالله بن سلام وأحبار اليهود المسلمون.

الذين علومهم الشرعية يقينية لا ظنية هؤلاء شأنهم في النجاة من العذاب والفوز بالنعيم في دار السلام شأن المؤمنين من هذه الأمة يؤمنون بما أُنزل إليك أيها الرسول وما أُنزل من قبلك وخاصة المقيمين[(١)] الصلاة وكذا المؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر هؤلاء جميعًا وعدهم الله تعالى بالأجر العظيم الذي لا يقادر قدره ولا يعرف كنهه فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

هداية الآيات:

١ - المعاصي تورث الحرمان من خير الدنيا والآخرة.

٢ - حرمة الصد عن الإسلام ولو بالسلوك الشائن والمعاملة الباطلة.

٣ - حرمة الربا وأنه موجب للعقوبة في الدنيا والآخرة.

٤ - حرمة أكل أموال الناس بالباطل كالسرقة والغش والرشوة.

٥ - من أهل الكتاب صلحاء ربانيون وذلك كعبدالله بن سلام وآخرين.

٦ - الرسوخ في العلم يأمن صاحبه الزلات والوقوع في المهلكات.

٧ - فضل إقام الصلاة لِنَصْبِ والمقيمي الصلاة في الآية على المدح والتخصيص.

الجُزْءُ السَّادِسُ — سُورَةُ النِّسَاء

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

١٠٤

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٣ - ١٦٦]

﴿١٦٣﴾ ﴿إِنَّآ[(٢)] أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: الوحي[(٣)]: الإعلام السريع الخفي، ووحي الله تعالى إلى أنبيائه إعلامهم بما يريد أن يعلمهم به من أمور الدين وغيره. الأسباط: أولاد يعقوب عليهم السلام.

﴿زَبُورًا﴾[(٤)]: الزبور أحد الكتب الإلهية أنزله على نبيه داود عليه السلام.

﴿١٦٤﴾ ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ﴾: ورد منهم في سورة الأنعام ثمانية عشر رسولاً وسبعة ذكروا في سور أخرى وهم: محمد ﷺ وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وإدريس وآدم.

﴿١٦٥﴾ ﴿حُجَّةٌۢ﴾: عذر يعتذرون به إلى ربهم عز وجل.

معنى الآيات:

﴿١٦٣﴾ روي أن اليهود لما سمعوا ما أنزل الله تعالى فيهم في الآية السابقة أنكروا أن يكون هذا وحيًا وقالوا: لم يوحِ الله تعالى إلى غير موسى فردَ الله تعالى قولهم بقوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ[(٥)] وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ...﴾ فذكر عددًا من الأنبياء.

﴿١٦٤﴾ ثم قال ورسلاً: أي وأرسلنا رسلاً ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ﴾ من قبل

---

(١) قرأه الجمهور بنصب المقيمين على المدح أي: وأمدح المقيمين أو أعني المقيمين، والنصب على المدح جائز في كلام فصحاء العرب، وبُلغائهم ومن ذلك قول شاعرهم:

وكل قوم أطاعوا أمر سيّدهم ... إلاّ نُميرًا أطاعت أمر غاويها

(٢) هذا التوكيد بإنَّ تطلبه إنكار اليهود الوحي إلى نبينا ﷺ كما تطلبه الاهتمام بهذا الخبر العظيم.

(٣) الوحي: مصدر وحى يحي وحيًا، كرمى يرمي رميًا، إليه بكذا أعلمه. وأوحى يوحي إيحاءً إليه بكذا أعلمه به بطريق خفي.

(٤) في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وهي جملة معطوفة على جملة: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ إشارة إلى أنّ الزبور كتاب، وهو كذلك، إذ هو أحد الكتب الأربعة، ولو لم يَرِد ذلك، لعطف اسمه على مَنْ سبقه فقط كأن يقول: وهارون وسليمان وداود.

(٥) قدّم نوح في الذكر باعتباره أوّل رسول حَارب الشرك، إذ لم يظهر الشرك على عهد من سبقه كإدريس وشيث من قبله، فلما ظهر الشرك أرسل الله تعالى نوحًا عليه السلام، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ.

أي قصّ عليه أسماءهم وبعض[1] ما جرى لهم مع أممهم وهم يبلغون دعوة ربهم، وأرسل رسلاً لم يقصصهم عليه، وفوق ذلك أنه كلّم موسى تكليمًا فأسمعه كلامًا بلا واسطة، فكيف ينكر اليهود ذلك ويزعمون أنه ما أنزل الله على بشر من شيء وقد أرسلهم تعالى رسلاً مبشرين من آمن وعمل صالحًا بالجنة، ومنذرين من كفر وأشرك وعمل سوءًا بالنار وما فعل ذلك إلا لقطع حجة الناس يوم القيامة حتى لا يقولوا ربنا ما أرسلت إلينا رسولاً.

(١٦٥) هذا معنى قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ . .﴾ أي بعد إرسالهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالبًا لا يمانع في شيء أراده ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله وتدبيره، وهذا بعض ما تضمنته الآيات الثلاث (١٦٣ ـ ١٦٤ ـ ١٦٥).

(١٦٦) أما الآية الرابعة (١٦٦) وهي قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ[2] اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

فقد روي أن يهودًا جمعهم النبي ﷺ وأبلغهم أنه رسول الله صدقًا وحقًا ودعاهم إلى الإيمان به وبما جاء به من الدين الحق فقالوا: من يشهد لك بالرسالة إذ كانت الأنبياء توجد في وقت واحد فيشهد بعضهم لبعض، وأنت من يشهد لك فأنزل الله تعالى قوله: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ . .﴾ يريد إنزال الكتاب إليك شهادة منه لك بالنبوة والرسالة، أنزله بعلمه بأنك أهل للاصطفاء والإرسال، وبكل ما تحتاج إليه البشرية في إكمالها وإسعادها إذ حوى أعظم تشريع تعجز البشرية لو اجتمعت أن تأتي بمثله، أليس هذا كافيًا في الشهادة لك بالنبوة والرسالة، بلى، والملائكة أيضًا يشهدون ﴿. . وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ فلا تطلب شهادة بعد شهادته تعالى لو كانوا يعقلون.

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ الوحي الإلهي.

٢ - أول الرسل[3] نوح عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ.

٣ - إثبات صفة الكلام لله تعالى.

٤ - بيان الحكمة في إرسال الرسل وهي قطع الحجة على الناس يوم القيامة.

٥ - شهادة الرب تبارك وتعالى والملائكة بنبوة خاتم الأنبياء ورسالته ﷺ.

٦ - ما حواه القرآن من تشريع وما ضمه بين دفتيه من معارف وعلوم أكبر شهادة للنبي محمد ﷺ بالنبوة والرسالة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٧ ـ ١٧٠]

(١٦٧) ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾: كفروا: جحدوا بنبوة محمد ﷺ وصدوا: صرفوا الناس عن الإيمان به ﷺ بما يبذرون من بذور الشك.

(١٦٨) ﴿كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾: جحدوا نبوة محمد ﷺ وظلموا ببقائهم على جحودهم بغيًا منهم وحسدًا للعرب أن يكون فيهم رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور.

(١٧٠) ﴿الرَّسُولُ﴾: هو محمد ﷺ الكامل في رسالته الصادق في دعوته. ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾: أي يكون إيمانكم خيرًا لكم.

---

(١) قوله: ﴿قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ يعني في القرآن وهم هود وصالح، وشعيب ويحيى وإلياس، واليسع ولوط.

(٢) توضيح هذا الاستدراك الذي هو رفع ما يتوهم ثبوته أو نفيه هو إذا رفض اليهود الشهادة لك بالرسالة وطالبوا بمن يشهد لك فالله يشهد لك بما أنزله إليك والملائكة يشهدون كذلك.

(٣) ذكر صاحب تفسير التحرير والتنوير الإمام محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية تاريخ المذكورين من الرسل نقلاً عن أهل الكتاب قطعًا فللاطلاع لا غير نذكر ذلك كما ذكره وأمّا علم صحته فهو إلى الله تعالى لا غير: نوح عليه السلام ولد سنة ٣٩٧٤ قبل الهجرة النبوية، وإبراهيم توفي ببلدة الخليل سنة ٢٧١٩ قبل الهجرة، وإسماعيل توفي بمكة سنة ٢٦٨٦ قبل الهجرة تقريبًا، وإسحاق بن إبراهيم توفي سنة ٢٦١٣ قبل الهجرة، ويعقوب إسرائيل توفي سنة ٢٥٨٦ قبل الهجرة، وعيسى بن مريم ولد سنة ٦٢٢ قبل الهجرة ورفع إلى السماء قبلها سنة ٥٨٩، وأيوب كان بعد إبراهيم وقبل موسى، في القرن الخامس عشر قبل المسيح، وهارون توفي سنة ١٩٧٢ قبل الهجرة وداود توفي سنة ١٦٢٦ قبل الهجرة وسليمان توفي سنة ١٥٩٧ قبل الهجرة.

معنى الآيات:

(١٦٧) بعد أن أقام الله تعالى الحجة على رسالة نبيه محمد ﷺ بشهادته له بالرسالة وشهادة ملائكته، وشهادة القرآن لما فيه من العلوم والمعارف الإلهية بعد هذا أخبر تعالى أن الذين كفروا وصدوا عن سبيل[1] الله وهم اليهود[2] قد ضلوا ضلالاً بعيدًا قد يتعذر معه الرجوع إلى الحق، وهذا ما تضمنته الآية الأولى (١٦٧).

(١٦٨) ـ (١٦٩) كما أخبر في الآية الثانية (١٦٨) أن الذين كفروا وظلموا وهم أيضًا اليهود لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقًا اللهم إلا طريق جهنم وهذا قائم على سنته في خلقه وهي أن المرء إذا كفر كفر عناد وجحود وأضاف إلى الكفر الظلم لم يبق له أي استعداد لقبول الهداية الإلهية، لم يبق له من طريق يرجى له سلوكه إلا طريق جهنم يخلد فيها خلودًا أبديًا، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ في ختام الآية يقرر فيه أن دخول أصحاب هذه الصفات من اليهود جهنم وخلودهم فيها ليس بالأمر الصعب على الله المتعذر عليه فعله بل هو من السهل اليسير.

(١٧٠) أما الآية الأخيرة (١٧٠) فهي تتضمن إعلانًا إلهيًا موجهًا إلى الناس كافة مشركين وأهل كتاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ[3] . . .﴾ الكامل الخاتم ﷺ جاءكم بالدين الحق من ربكم فآمنوا به خيرًا لكم، وإن أبيتم وأعرضتم إيثارًا للشر على الخير والضلال على الهدى فاعلموا أن لله ما في السموات[4] والأرض خلقًا وملكًا وتصرفًا وسيجزيكم بما اخترتم من الكفر والضلال جهنم وساءت مصيرًا فإنه عليم بمن استجاب لندائه فآمن وأطاع، وبمن أعرض فكفر وعصى حكيم في وضع الجزاء في موضعه اللائق به. فلا يجزي المحسن بالسوء، ولا المسيء بالإحسان.

هداية الآيات:

١ ـ شر الكفر ما كان مع الصد عن سبيل الله والظلم وهذا كفر اليهود والعياذ بالله تعالى.

٢ ـ سنة الله تعالى في العبد أن العبد إذا أبعد في الضلال، وتوغل في الشر والفساد يتعذر عليه التوبة فيموت على ذلك فيهلك.

٣ ـ الرسالة المحمدية عامة لسائر الناس أبيضهم وأصفرهم.

٤ ـ إثبات صفتي العلم والحكمة لله تعالى. وبموجبهما يتم الجزاء العادل الرحيم.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥)

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧١ ـ ١٧٣]

(١٧١) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: المراد

---

(١) صدّوا عن سبيل الله بقولهم: إنّا لا نجد صفة محمد في كتابنا وإنما النبوة في ولد هارون، وداود، وإنّ في التوراة أن شرع موسى لا ينسخ.

(٢) اللفظ يتناول اليهود أولاً، ويعم كل من كفر بالله ورسوله ﷺ وصد عن سبيله الذي هو الإسلام.

(٣) التعريف في الرسول للعهد إذ هو معهود بين المخاطبين معروف لهم وكونه للعهد لا ينافي ما ذكر في التفسير من أنّه الكامل في رسالته كأنه فرد فيها لا نظير له.

(٤) إنه لم يدعكم إلى الإيمان لحاجة به، إنّه عزيز، وإنّه سبحانه وتعالى يملك الكائنات كلها حيها وميتها ظاهرها وباطنها ويتصرّف فيها كما يشاء وهو الغني الحميد.

بهم[١] هنا النصارى. ﴿لَا تَغْلُوا[٢] فِي دِينِكُمْ﴾: الغلو: تجاوز الحد للشيء فعيسى عليه السلام عبدالله ورسوله فغلوا فيه فقالوا هو الله.
﴿الْمَسِيحُ﴾: هو عيسى عليه السلام ولقب بالمسيح لأنه ممسوح من الذنوب أي لا ذنب له قط. كلمته ألقاها: أي قول الله تعالى له ﴿كُن﴾ فكان ألقاها إلى مريم: أوصلها لها وأبلغها إياها وهي قول الملائكة لها إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم. ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: أي عيسى كان بنفخة جبريل روح الله في كم درعها. ﴿وَكِيلًا﴾: حفيظًا وشاهدًا عليمًا.

(١٧٢) ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾: لا يرفض عبوديته لله تعالى أنفة وكبرًا. ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾: يرى نفسه كبيرة فوق ما طلب منه أن يقوله أو يفعله إعجابًا وغرورًا.

(١٧٣) ﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: أي لا يجدون يوم القيامة وليًا يتولى الدفاع عنهم ولا نصيرًا ينصرهم حتى لا يدخلوا النار ويعذبوا فيها.

معنى الآيات:

(١٧١) ما زال السياق مع أهل الكتاب ففي الآية الأولى (١٧١) نادى الرب تبارك وتعالى النصارى بلقب الكتاب الذي هو الإنجيل ونهاهم عن الغلوّ في دينهم من التنطع والتكلف كالترهب واعتزال النساء وما إلى ذلك من البدع التي حمل عليها الغلوّ، كما نهاهم عن قولهم على الله تبارك وتعالى غير الحق، وذلك بنسبة الولد إليه تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وأخبرهم بأن عيسى لم يكن[٣] أبدًا غير رسول الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم[٤] حيث بعث إليها جبريل فبشرها بأن الله تعالى قد يهبها غلامًا زكيًا، ونفخ وهو روح الله في كم درعها فكان عيسى بكلمة التكوين وهي ﴿كُن﴾ وبسبب تلك النفخة من روح الله جبريل عليه السلام فلم يكن عيسى الله ولا ابن الله فارجعوا إلى الحق وآمنوا بالله ورسله جبريل وعيسى ومحمد ﷺ، ولا تقولوا زورًا وباطلًا: الله ثالث ثلاثة آلهة[٥]. انتهوا عن هذا القول الكذب يكن انتهاؤكم خيرًا لكم حالاً ومآلاً، إنما الله سبحانه وتعالى إله واحد لا شريك له ولا ند ولا ولد. سبحانه تنزه وعلا وجل وعظم أن يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة، ولم يكن ذا حاجة وله ما في السموات وما في الأرض خلقًا وملكًا وحكمًا وتدبيرًا، وكفى به سبحانه وتعالى وكيلاً شاهدًا عليمًا فحسبكم الله تعالى ربًا وإلهًا فإنه يكفيكم كل ما يهمكم فلا تلتفتون إلى غيره ولا تطلبون سواه.

(١٧٢) - (١٧٣) هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٧١) وأما الآيتان الثانية (١٧٢) والثالثة (١٧٣) فقد أخبر تعالى أن عبده ورسوله المسيح عليه السلام لن يستنكف أبدًا أن يعبد الله وينسب إليه بعنوان العبودية فيقال عبدالله ورسوله، حتى الملائكة المقربون منهم فضلاً عن غيرهم لا يستنكفون عن عبادة الله تعالى وعن لقب العبودية فهم عباد الله وملائكته، ثم توعد تعالى كل من يستنكف عن عبادته ويستكبر عنها

(١) النصارى غلوا في عيسى فتجاوزوا حد الإفراط حيث ألّهوه أي: جعلوه إلهًا وعبدوه، واليهود غلوا في التفريط في عيسى إذ قالوا: ساحر، وابن زنى والعياذ بالله.

(٢) الغلو: مشتق من غلوة السهم وهي منتهى اندفاعه، ويطلق الغلو في الشرع على الزيادة على المطلوب في الاعتقاد والقول والعمل.

(٣) لأنّ إنّما أداة قصر، فمن هنا قصر عيسى عليه السلام على ثلاث صفات، وهي الرسالة، والكلمة، والروح، أي: هو لم يكن غير رسول الله، وكلمته وروح منه، والقصر إضافي كما هو ظاهر.

(٤) لم يذكر الله تعالى امرأة في القرآن باسمها العَلَم سوى مريم إذ ذكرها في القرآن في نحو من ثلاثين موضعًا، وسر هذا أنّ العرب يتحاشون أن يذكروا أسماء نسائهم، إنّما يكنون عنهن بالعرس والأهل والعائلة وأمّا الإماء فيذكرونهن بأسمائهن لذا ذكر تعالى مريم وهي أمته باسمها العلم ثلاثين مرّة.

(٥) قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد من التثليث: الله تعالى وصاحبته وابنه، والأقانيم عند بعضهم هي: الأب، والابن، وروح القدس، وعند بعضهم هو: الوجود، والحياة، والعلم.

من سائر الناس بأنه سيحشرهم جميعًا ويحاسبهم على أعمالهم فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات آمنوا بألوهيّته تعالى وحده وعبدوه وحده بما شرع لهم من أنواع العبادات وهي الأعمال الصالحة فهؤلاء يوفيهم أجورهم كاملة ويزيدهم من فضله الحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعف إلى سبعمائة ضعف. وأما الذين استنكفوا واستكبروا أي حملتهم الأنفة والكبر على عدم قبول الحق والرجوع إليه فأصروا على الاعتقاد الباطل والعمل الفاسد فيعذبهم تعالى عذابًا أليمًا أي موجعًا ولا يجدون لهم من دونه وليًا ولا ناصرًا فينتهي أمرهم إلى عذاب الخلد جزاء بما كانوا يعملون.

هداية الآيات:

١ - حرمة الغلو في الدين إذ هي من الأسباب الموجبة للابتداع[١] والضلال.

٢ - حرمة القول على الله تعالى بدون علم مطلقًا والقول عليه بغير الحق بصورة خاصة.

٣ - بيان المعتقد الحق في عيسى[٢] عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله كان بكلمة الله ونفخة جبريل[٣] عليه السلام.

٤ - حرمة الاستنكاف عن الحق والاستكبار عن قبوله.

٥ - بيان الجزاء الأخروي وهو إما نعيم وإما جحيم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧٤، ١٧٥]

(١٧٤) ﴿بُرْهَٰنٌ﴾: البرهان: الحجة والمراد به هنا محمد[٤] ﷺ. ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾: هو القرآن الكريم.

(١٧٥) ﴿وَٱعْتَصَمُوا﴾: أي تمسكوا بالقرآن وبما يحمله من الشرائع. ﴿فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾: الجنة. ﴿صِرَٰطًا﴾: طريقًا يفضي بهم إلى جوار ربهم في دار الكرامة.

معنى الآيتين:

ينادي[٥] الرب تبارك وتعالى سائر الناس مشركين ويهود ونصارى مخبرًا إياهم قاطعًا للحجة عليهم بأنه أرسل إليهم رسوله محمدًا ﷺ وهو البرهان الساطع والدليل القاطع على وجود الله تعالى وعلمه وقدرته ووجوب الإيمان به وبرسله ولزوم عبادته بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وأنه أنزل عليه كتابه شافيًا كافيًا هاديًا نورًا مبيّنًا يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجه من الظلمات إلى النور. بهذا قد أعذر الله تعالى إلى الناس كافة وقطع عليهم كل معذرة وحجة، ثم هم صنفان: مؤمن وكافر فالذين آمنوا بالله ربًا وإلهًا وبرسوله ﷺ نبيًا ورسولاً واعتصموا بالقرآن فأحلُّوا حلاله وحرّموا حرامه وصدقوا أنباءه والتزموا آدابه فهؤلاء سيدخلهم في رحمة[٦] منه وفضل وذلك بأن ينجيهم من النار ويدخلهم

---

(١) قال مطرف بن عبيد الله: والعدل حسنة بين سيئتين، الأولى: الإفراط، والثانية: التفريط، فالغلو: إفراط، والتقصير: تفريط، وكلاهما مذموم قال الشاعر:

وأوف ولا تستوف حقك كله ... وسامح فلم يستوف قط كريم
ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

(٢) ذكر القرطبي عند تفسير هذه الآية قصة طويلة في سبب فساد دين المسيح عليه السلام، وأنّ الذي أفسده هو بولس اليهودي ولعلنا نذكرها في تفسير آية المائدة: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ إن شاء الله تعالى.

(٣) قال أُبي بن كعب رضي الله عنه: خلق الله أرواح بني آدم لمّا أخذ عليهم الميثاق ثمّ ردها إلى صلب آدم، وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام، فلما أراد خلقه أرسل ملك الروح إلى مريم فكان منه عيسى فلذا قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ هذا الأثر أحسن ما يقال في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

(٤) هذا الذي قرّره ابن جرير، وأنّ البرهان في هذه الآية هو النبي محمد ﷺ.

(٥) هذا النداء وما بعده كالفذلكة لما تقدم من دعوة أهل الكتابين إلى الدخول في الإسلام لإقامة الحجة على الجميع إذ وجه تعالى نداءه العام لكل البشر وهو يتناول أهل الكتابين والمشركين وغيرهم لإقامة الحجة على الجميع.

(٦) الرحمة: الجنة بعد النجاة من النار، والفضل: ما ينعم به عليهم في دار السلام، وأعظمه النظر إلى وجهه الكريم وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يهديهم إلى ما يصل بهم إلى رضاه، وجواره، وهو الإسلام، وذلك بأن يثبتهم عليه حتى الموت.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

ترتيبها ٥ — سورة المائدة — آياتها ١٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

١٠٦

الجنان وذلك هو الفوز العظيم، كما قال تعالى: فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وأما الذين كفروا به وبرسوله ﷺ وكتابه فمصيرهم معروف وجزاؤهم معلوم فلا حاجة إلى ذكره: إنه الحرمان والخسران.

هداية الآيتين:

١ - الدعوة الإسلامية دعوة عامة فهي للأبيض والأصفر على حد سواء.

٢ - إطلاق لفظ البرهان على النبيّ محمد ﷺ لأنه بأميته وكماله الذي لا مطمع لبشري أن يساميه فيه برهان على وجود الله وعلمه ورحمته.

٣ - القرآن نور لما يحصل به من الاهتداء إلى سبيل النجاة وطرق السعادة والكمال.

٤ - ثمن السعادة ودخول الجنة الإيمان بالله ورسوله ﷺ ولقائه والعمل الصالح وهو التمسك بالكتاب والسنة المعبر عنه بالاعتصام.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧٦]

﴿١٧٦﴾ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾[1]: يطلبون فتياك في كذا. ﴿يُفْتِيكُمْ﴾: يبيّن لكم ما أشكل عليكم من أمر الكلالة. ﴿الْكَلَالَةِ﴾: أن يهلك الرجل ولا يترك ولدًا ولا ولد ولد وإنما يترك أخًا أو أختًا. الحظ: النصيب. ﴿أَن تَضِلُّوا﴾: كيلا تضلوا أي تخطئوا في قسمة التركة.

معنى الآية الكريمة:

هذه الآية تسمى آية الكلالة[2]، وآيات المواريث أربع: الأولى: في شأن الولد والوالد ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ[3]﴾ والثانية: في شأن الزوج والزوجة ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ إلخ.. وفي شأن الإخوة لأم ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ إلخ.. وهاتان الآيتان تقدمتا في أول سورة النساء.

﴿١٧٦﴾ والثالثة: هي هذه ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ إلخ. وهي في شأن ميراث الإخوة والأخوات عند موت أحدهم ولم يترك ولدًا ولا ولد ولد.. وهو معنى الكلالة، والرابعة: في آخر سورة الأنفال وهي في شأن ذوي الأرحام وهي قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

وهذه الآية نزلت عند سؤال بعض الصحابة رضي الله عنهم عن الكلالة فقال تعالى: يسألونك أيها الرسول عن الكلالة قل للسائلين: الله يفتيكم في الكلالة وهذه فتواه: إن هلك امرؤ ذكرًا كان أو أنثى وليس له ولد ولا ولد ولد وله أخت شقيقة أو لأب فلها نصف ما ترك، وهو يرثها أيضًا إن لم يكن لها ولد ولا ولد ولد. فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً أي ذكورًا وإناثًا فللذكر مثل حظ

---

(١) روي أن هذه الآية وتسمى آية الكلالة نزلت في آخر ما نزل، وسبب نزولها أن جابر بن عبدالله مرض فعاده رسول الله ﷺ مع أبي بكر فأغمي على عبدالله فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صب عليه من فضل وضوئه فأفاق، فقال يا رسول الله: كيف أقضي في مالي؟ وكان له تسع أخوات فلم يرد عليه شيئًا حتى نزلت هذه الآية.

(٢) وتسمى آية الصيف لأنها نزلت في زمن الصيف، وقال عمر رضي الله عنه: إني والله لا أدع شيئًا أهمّ إليّ من أمر الكلالة وقد سألت رسول الله عنها فما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيها حتى طعن في جنبي أو صدري وقال: «**يا عمر ألا تكفيك آية الصيف**».

(٣) الجمهور ما عدا ابن عباس والظاهرية على أنّ الأخوات عصبة مع البنات فلو هلك هالك وترك أختًا له وبنتًا، فإنّ المال بينهما

الأنثيين، وبعد أن بيّن تعالى كيف يورث من مات كلالة قال مبيّنًا حكمة هذا البيان: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ أي كيلا[1] تضلوا في قسمة التركات فتخطئوا الحق وتجوروا في قسمة أموالكم. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ[2] عَلِيمٌۢ﴾ فلا يجهل شيئًا ولا يخفى عليه آخر وكيف وقد أحاط بكل شيء علمًا سبحانه لا إله غيره ولا رب سواه.

هداية الآية الكريمة:

١ - جواز سؤال[3] من لا يعلم من يعلم للحصول على العلم المطلوب له.

٢ - إثبات وجود الله تعالى عليمًا قديرًا سميعًا بصيرًا وتقرير نبوة محمد ﷺ إذ سؤال الأصحاب وإجابة الرب تعالى بواسطة وحيه المنزل على رسوله ﷺ يقرر ذلك ويثبته.

٣ - بيان قسمة تركة من يورث كلالة من رجل أو امرأة فالأخت الواحدة لها من أخيها نصف ما ترك، والأختان لهما الثلثان، والإخوة مع الأخوات للذكر مثل حظ الأنثيين والأخ يرث أخته إن لم يكن لها ولد ولا ولد ولد، والإخوة والأخوات يرثون أختهم للذكر مثل حظ الأنثيين إذا لم تترك ولدًا ولا ولد ولد.

❁ ❁ ❁

سورة[4] المائدة
مدنيّة
وآياتها مائة وعشرون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١، ٢]

(١) ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾: العقود: هي العهود التي بين العبد والرب تعالى وبين العبد وأخيه. والوفاء بها: عدم نكثها والإخلال بمقتضاها. ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[5]: هي الإبل والبقر والغنم. ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾: أي محرمون بحج أو عمرة.

(٢) ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: جمع شعيرة وهي هنا مناسك الحج والعمرة، وسائر أعلام دين الله تعالى. ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾: رجب وهو شهر مضر الذي كانت تعظمه. ﴿ٱلْهَدْىَ﴾: ما يُهدى للبيت والحرم من بهيمة الأنعام. ﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾: جمع قلادة ما يقلد الهدي، وما يتقلده الرجل من لحاء شجر الحرم ليأمن. ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾: قاصديه يطلبون ربح تجارة أو رضوان الله تعالى. ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾[6]: أي من إحرامكم. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾: أي لا يحملنكم بغض قوم أن تعتدوا عليهم. ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾: أي لأجل أن صدوكم. ﴿ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾: البر: كل طاعة لله ورسوله ﷺ، والتقوى: فعل ما أمر الله به ورسوله ﷺ وترك ما نهى عنه الله ورسوله ﷺ. ﴿ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: الإثم: سائر الذنوب، والعدوان: الظلم وتجاوز الحدود. ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: أي عقابه شديد لا يطاق ولا يحتمل.

معنى الآيتين:

(١) ينادي الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين بعنوان الإيمان فيقول: يا

= نصفين وإن ترك ثلاثًا فالمال بينهن أثلاثًا وهكذا الأخوات عصبة مع البنات قضى بهذا معاذ رضي الله عنه.

(١) بعضهم يقدّر كراهة أن تضلوا، ولمّا كان الحذف لازمًا للتخفيف فتقدير كيلا أفضل من لفظ الكراهة، وهو ما ذكرته في التفسير ولم أذكر غيره.

(٢) من جملة الأشياء العليم بها: أحوالكم وما تتطلبه حياتكم في الدنيا والآخرة، وهذا يقتضي الثقة والطمأنينة فيما شرع لكم وتنفيذه في إخلاص وحسن أداء.

(٣) بل الواجب أن يسأل كل من لا يعلم حتى يعلم لقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٤) سورة المائدة من آخر ما نزل من السور في القرآن، وأحكامها كلها محكمة ما عدا قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ..﴾ الآية، وهو قول الشعبي رحمه الله تعالى، وفيها أحكام لم توجد في غيرها من السور، من ذلك حكم المنخنقة وما بعدها، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب، والوضوء وحكم السرقة.

(٥) سميت البهيمة بهيمة: لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تمييزها وعقلها ومنه باب مبهم أي: مغلق، وليل بهيم لا يميّز ما فيه من الظلام، وقولهم في الشجاع من الرجال: بهمة لأنّه لا يدري من أين يؤتى.

(٦) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ الإجماع على أن الأمر هنا للإباحة وليس للوجوب، وهذه قاعدة أصولية: كل أمر بعد حظر فهو للإباحة.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾

أيها الذين آمنوا أي يا من آمنتم بي وبرسولي ﷺ ووعدي ووعيدي أوفوا بالعقود[(١)] فلا تحلوها وبالعهود فلا تنكثوها، فلا تتركوا واجبًا ولا ترتكبوا منهيًا، ولا تحرموا حلالاً ولا تحلو حرامًا أحللت لكم بهيمة الأنعام هي الإبل والبقر والغنم إلا ما يتلى عليكم وهي الآتية في آية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ[(٢)] ...﴾ فلا تحرموها وحرمت عليكم الصيد وأنتم حرم[(٣)] فلا تحلوه. وسلموا الأمر لي فلا تنازعوا فيما أحل وأحرم فإني أحكم ما أريد. هذا ما تضمنته الآية الأولى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ[(٤)] ﴿١﴾﴾.

(٢) أما الآية الثانية فقد تضمنت أحكامًا بعضها نُسخ العمل به وبعضها محكم يعمل به إلى يوم الدين فمن المحكم والواجب العمل به تحريم شعائر الله وهي أعلام دينه من سائر ما فرض وأوجب، ونهى وحرم. فلا تستحل بترك واجب، ولا بفعل محرم، ومن ذلك مناسك الحج والعمرة. ومن المنسوخ الشهر الحرام فإن القتال كان محرمًا في الأشهر الحرم ثم نسخ بقول الله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم الآية، ومن المنسوخ أيضًا هدي المشركين وقلائدهم والمشركون أنفسهم فلا يسمح لهم بدخول الحرم ولا يقبل منهم هدي، ولا يجيرهم من القتل تقليد أنفسهم بلحاء شجر الحرم ولو تقلدوا شجر الحرم كله. هذا معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ[(٥)] وَلَا الْقَلَائِدَ[(٦)] وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾. والمراد بالفضل الرزق بالتجارة في الحج، والمراد بالرضوان ما كان المشركون يطلبونه بحجهم من رضى الله ليبارك لهم في أرزاقهم ويحفظهم في حياتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ..﴾ خطاب للمؤمنين أذن لهم في الاصطياد الذي كان محرمًا وهم محرمون أذن لهم فيه بعد تحللهم من إحرامهم. وقوله تعالى: ﴿.. وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ ينهى عباده المؤمنين أن

(١) قال الحسن: يعني عقود الدين، وهي ما عقده المرء على نفسه من بيع وشراء وإجارة وكراء ومناكحة وطلاق، ومزارعة ومصالحة، وتمليك وتخيير، وعتق وتدبير، وكذلك ما عاهد عليه الله تعالى من نذر وسائر التكاليف الشرعية وما خرج من عقد على شريعة الله رد وحل ولا وفاء فيه.

(٢) وما حرّم بالسنة وهو كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطيور لثبوت ذلك في الصحاح.

(٣) أمّا إذا حلّوا من إحرامهم فالصيد حلال كما هو في غير الإحرام إلاّ ما كان من صيد الحرم فإنّه حرام في الإحرام والإحلال.

(٤) هذه الجملة تقتضي تسليم الأمر لله فلا اعتراض عليه فيما يحل ويحرّم وهو كذلك.

(٥) الهدي: ما يهدى إلى الحرم ومن خصائصه أنه يشعر وذلك بجرح سنامه من الجهة اليمنى حتى يسيل الدم، وبذلك يعلم أنه هدي، وقال بالإشعار كافة الفقهاء إلاّ أبا حنفية ولاموه وعنّفوا عليه لتركه السنة الصحيحة في الإشعار.

(٦) يحرم بيع الهدي إذا أشعر وقلد لأنه أصبح كالوقف لله تعالى، ومعنى التقليد أن يوضع في عنقه قلادة يعلم بها أنه هدي وهذا يكون في الغنم لأنها لا تشعر.

يحملهم بغض قوم صدوهم يوم الحديبية عن دخول المسجد الحرام أن يعتدوا عليهم بغير ما أذن الله تعالى لهم فيه وهو قتالهم إن قاتلوا وتركهم إن تركوا. ثم أمرهم تعالى بالتعاون على البر والتقوى، أي على أداء الواجبات والفضائل، وترك المحرمات والرذائل، ونهاهم عن التعاون على ضدها فقال عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ[1] وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ[2] وَالْعُدْوَانِ﴾. ولما كانت التقوى تعم الدين كله فعلًا وتركًا أمرهم بها، فقال: واتقوا الله بالإيمان به ورسوله ﷺ وبطاعتهما في الفعل والترك، وحذرهم من إهمال أمره بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فاحذروه بلزوم التقوى.

هداية الآيتين:

١ ـ وجوب الوفاء بالعهود التي بين الله تعالى وبين العبد والمحافظة على العقود التي بين العبد وأخيه العبد لشمول الآية ذلك.

٢ ـ إباحة أكل لحوم الإبل والبقر والغنم إلا الميتة منها.

٣ ـ تحريم الصيد في حال الإحرام وحليته بعد التحلل من الإحرام وهو صيد البر لا البحر[3].

٤ ـ وجوب احترام شعائر الدين كلها أداء لما وجب أداؤه، وتركًا لما وجب تركه.

٥ ـ حرمة الاعتداء مطلقًا حتى على الكافر.

٦ ـ وجوب التعاون بين المؤمنين على إقامة الدين، وحرمة تعاونهم على المساس به.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣]

﴿٣﴾ ﴿الْمَيْتَةُ﴾: ما مات من بهيمة الأنعام حتف أنفه أي بدون تذكية[4]. ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾: أي ما ذكر عليه اسم غير اسم الله تعالى مثل المسيح، أو الولي، أو صنم. المنخنقة: أي بحبل ونحوه فماتت. الموقوذة[5]: أي المضروبة بعصا أو حجر فماتت به. المتردية: الساقطة من عال إلى أسفل مثل السطح والجدار والجبل فماتت.

النطيحة[6]: ما ماتت بسبب نطح أختها لها بقرونها أو رأسها. ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾: أي ما أكلها الذئب وغيره من الحيوانات المفترسة. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[7]: أي أدركتم فيه الروح مستقرة فذكيتموه[8] بذبحه أو نحره. ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾: أي ما ذبح على الأصنام المنصوبة التي تمثل إلهًا أو زعيمًا أو عظيمًا، ومثلها ما ذبح على أضرحة الأولياء وقبورهم وعلى الجان. ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا﴾: أي وحرم عليكم ما تحصلون عليه بالاستقسام بالأزلام ومثله ما يأخذه صاحب الكهانة والشواقة وقرعة الأنبياء، والحروز الباطلة التي فيها طلاسم وأسماء الجن والعفاريت. ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾: أي ما ذكر من أكل الميتة إلى الاستقسام بالأزلام خروج عن طاعة الله تعالى ومعصية له سبحانه وتعالى. ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾: أي من ألجأته ضرورة الجوع فخاف على نفسه الموت فلا بأس أن يأكل مما ذكر. ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾: المخمصة شدة الجوع حتى يضمر البطن لقلة الغذاء

---

(١) في البر وهو فعل الخير رضا الناس، وفي التقوى رضا الله، ومَنْ جمع بين رضا الناس ورضا الله فقد جمع الخير كله وتمت سعادته في دنياه وآخرته.

(٢) أي: ولا تعاونوا على فعل الإثم من سائر كبائر الذنوب والفواحش ولا على الظلم والاعتداء إذ كلاهما مما حرّم الله تعالى.

(٣) لأنّ صيد البحر حلال في الإحرام وغيره لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ الآية من آخر هذه السورة.

(٤) ومن غيرها من مأكول اللحم كالضباء والأرانب، وأنواع الصيد باستثناء ما ذكر عليه اسم الله حال صيده فإنّ ما مات منه يؤكل ولو لم يذكّ ولا يقال فيه ميتة.

(٥) يقال: وقذه يقذه وقذًا: إذا ضربه بحجر ونحوها، والوقذ: شدة الضرب.

(٦) فهي فعيلة بمعنى مفعولة، فالنطيحة هي المنطوحة.

(٧) الاستثناء متصل وهو راجع على كل ما أدرك ذكاته من المذكورات وفيه حياة ولا التفات إلى الخلاف في هذه المسألة.

(٨) ما ذبح من قفاه لا يؤكل إجماعًا واختلف فيما إذا رفع المذكي يده قبل إنهاء الذكاة ثمّ ردّها فورًا، الصحيح أنها تؤكل، ولا خلاف في جواز أكل البعير إذا ند أو وقع في بئر فإنه كيفما ذكي جاز أكله للحديث الصحيح.

به. ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾: غير مائل لإثم يريد غير راغب في المعصية بأكل ما أكل من الميتة وذلك بأن يأكل أكثر مما يسد به رمقه ويدفع به غائلة الجوع المهلك.

معنى الآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة هي تفسير وتفصيل لقوله تعالى في الآية الأولى من هذه السورة وهو قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ حيث ذكر في هذه الآية سائر المحرمات من اللحوم وهي عشر كما يلي:

الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، وما ذبح على النصب[١].

(٣) وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[٢] يريد ما أدركتم فيه الروح مستقرة. بحيث إذا ذبحتموه اضطرب للذبح وركض برجليه فإن هذا علامة أنه كان حيًا وأنه مات بالذبح[٣].

وقوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ يريد ولا يحل لكم الاستقسام بالأزلام، ولا أكل ما يعطى عليها وحقيقتها أنهم كانوا في الجاهلية يضعون القداح المعبر عنها بالأزلام جمع زلم وهو رمح صغير لا زج له ولا ريش فيه، يضعونها في خريطة كالكيس، وقد كتب على واحد أمرني ربي وآخر نهاني ثم يجيلها المستقسم بها في الخريطة ويخرج زلمًا منها فإن وجده مكتوبًا عليه أمرني ربي مضى في عمله سفرًا أو زواجًا، أو بيعًا أو شراء، وإن وجده مكتوبًا عليه نهاني ربي ترك ما عزم على فعله فجاء[٤] الإسلام فحرّم الاستقسام بالأزلام، وسنَّ الاستخارة وهي أن يصلي المؤمن ركعتين من غير الفريضة ويقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علاّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وعاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به، ويسمي حاجته. ويفعل أو يترك ما عزم عليه، والذي يأتيه هو الخير بإذن الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ يريد ما ذكرت لكم مما حرمت عليكم إتيانه هو الفسق فاتركوه.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ يخبر تعالى عباده المؤمنين أن الكافرين من المشركين وغيرهم قد يئسوا مِنْ أن يردوكم عن دينكم كما كان ذلك قبل فتح مكة ودخول ثقيف وهوازن في الإسلام، وظهوركم عليهم في كل معركة دارت بينكم وبينهم إذًا فلا تخشوهم بعد الآن أن يتمكنوا من قهركم وردكم إلى الكفر واخشوني أنا بدلهم وذلك بطاعتي وطاعة رسولي ﷺ ولزوم حدودي والأخذ بسنتي في كوني حتى لا تتعرضوا لنقمتي بسلب عطائي فإن نصرتي لأهل طاعتي وإذلالي لأهل معصيتي.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٥] فهو إخبار منه تعالى لعباده المؤمنين بما هو إنعام عليهم منه وامتنان فأولاً: إكمال الدين[٦]

---

(١) ما ذبح على النصب وما أهل لغير الله به هما كشيء واحد إلا أن ما أهلّ لغير الله به غالبًا يكون مذبوحًا لغير الأصنام كالأنبياء، والأولياء.

(٢) الذكاة في لغة العرب: الذبح، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي: ذبحتم مع ذكر اسم الله عليها، وفي الحديث: **«ذكاة الجنين ذكاة أمه»**، والذكاء: سرعة الفطنة، والتذكية مأخوذة من التطيّب، فذكّاها: بمعنى طيّبها بالذبح، ومنه: رائحة ذكية أي: طيبة.

(٣) والذكاة تقع بكل حاد ينهر الدم ويفري الأوداج، ما عدا العظم والسن لقوله ﷺ: **«ليس السّن والظفر»** لأنّ السنّ عظم، والظفر مدِيّ الحبشة.

(٤) هي ثلاثة أزلام كتب على أحدها: أمرني ربي وعلى الثاني: نهاني ربي والثالث: مهمل لم يكتب عليه شيء ويجعلها في خريطته فإذا خرج أمرني مَضى في عمله وإذا خرج نهاني ترك ما أراد فعله، وإذا خرج المهمل أعاد الضرب في الخريطة، وهناك نوعان من الاستقسام غير ما ذكرنا.

(٥) هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ..﴾ نزلت بعرفة يوم الجمعة في حجّة الوداع بعد العصر والرسول ﷺ على ناقته العضباء كما هو واضح في رواية مسلم في صحيحه.

بجميع عقائده وعباداته وأحكامه وآدابه حتى قيل أن هذه الآية نزلت عشية يوم عرفة عام حجة الوداع، ولم يعش بعدها رسول الله ﷺ إلا إحدى وثمانين ليلة ثم توفاه الله تعالى، وثانيًا: إتمام نعمته تعالى عليهم فآمنهم بعد الخوف وقوّاهم بعد ضعف، ونصرهم وأعزّهم بعد قهر وذل وسوّدهم وفتح البلاد لهم وأظهر دينهم وأبعد الكفر والكفار عنهم، فعلّمهم بعد جهل وهداهم بعد ضلال، فهذه من النعمة التي أتمها عليهم. وثالثًا رضاه بالإسلام دينًا لهم حيث بعث رسوله ﷺ به وأنزل كتابه فيه فبيّن عقائده وشرائعه فأبعدهم عن الأديان الباطلة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وأغناهم عنها بما رضيه لهم ألا وهو الإسلام القائم على الاستسلام لله تعالى ظاهرًا وباطنًا وذلك سلم العروج إلى الكمالات ومرقى كل الفواضل والفضائل والسعادات فلله الحمد وله المنّة.

(٣) وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يريد تعالى من اضطر أي ألجأته الضرورة وهي شدة الجوع وهي المخمصة[1] والمسغبة إلى أكل ما حرمت عليكم من الميتة وأنواعها فأكل فلا إثم عليه فإني غفور لعبادي المؤمنين رحيم بهم إلا أن يكون قد أكل من الميتة وأنواعها متعمدًا المعصية مائلاً إليها غير مبال بتحريمي لها فذاك الذي عصاني وتعرّض لنقمتي وعذابي فإن تاب فإني غفور رحيم، وإن أصرّ فإن عذابي أليم شديد.

هداية الآية الكريمة:

١ - حرمة الميتة وما ذكر معها وهي عشر من المحرمات.

٢ - حرمة الاستقسام بالأزلام ومثلها قرعة الأنبياء وخط الرمل والكهانة وما أشبه ذلك.

٣ - حرمة الذبح على القبور والقباب والنصب التذكارية وهي من الشرك.

٤ - جواز أكل ما أدركه المسلم حيًا من الحيوان المأكول فذكّاه وإن كان قد جرح أو كسر أو أشرف على الموت بأي سبب مميت[2].

٥ - وجوب خشية الله تعالى وحرمة خشية الكفار.

٦ - حرمة الابتداع في الدين وحرمة التشريع المنافي للشرع الإسلامي.

٧ - جواز أكل الميتة للمضطر وهو من لحقه ضرر من شدة الجوع فخاف على نفسه الهلاك على شرط أن لا يكون قاصدًا المعصية مائلاً إلى الإثم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤، ٥]

(٤) ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: ما أذن الله تعالى في أكله وأباحه لعباده المؤمنين.

﴿ٱلۡجَوَارِحِ﴾: جمع جارحة بمعنى كاسبة تجرح بمعنى تكسب.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾[3]: أي مرسلين الجارحة على الصيد سواء كانت الجارحة كلبًا أو طيرًا[4].

طعام الذين أوتوا الكتاب: ذبائح اليهود والنصارى.

المحصنات: جمع محصنة وهي العفيفة الحرة من النساء.

(٥) ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مهورهن وصدقاتهن. ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾: غير

---

(١) ووجه إكمال الدين أنه كان قبل الهجرة مقصورًا على الشهادتين، والصلاة، ولمّا هاجر ﷺ إلى المدينة أخذ التشريع ينزل يومًا بعد يوم حتى كمل وأعلن عنه الربّ تعالى في حجّة الوداع بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ..﴾ إلخ..

(٢) المخمصة لغة: الجوع، وخلاء البطن من الطعام، والخمص: ضمور البطن، ومنه الحديث: **«إنّ الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا»** وفي الحديث أيضًا: **«خماص البطون خفاف الظهور»** والخميصة: ثوب، وجمعها خمائص: ثياب خز وصوف: وفي الحديث: **«تعس عبد الخميصة»**.

(٣) من آداب التذكية: الرّفق بالحيوان، إحداد الشفرة، أن يوجهها إلى القبلة، تركها حتى تبرد قبل أن يشرع في سلخها، إحضار نيّة الإباحة قبل الشروع في الذبح بأن يقول: باسم الله والله أكبر. والاعتراف بالمنة لله حيث سخر لنا هذا الحيوان ولو شاء لسلطه علينا، وأباح لنا ما لو شاء لحرمه علينا، وكل هذه الآداب جاءت في قوله ﷺ: **«إنّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتل وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح»** الحديث.

(٤) المكلّب: هو معلم الكلب، ومدربها على الصيد، ويقال للصائد: مكلب، وعليه فقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يكون بمعنى: صائدين.

(٥) يكتفى في الطير بأن تطيع إذا أمرت، إذ هي دون الكلاب في الاستعداد للفهم والاستجابة ومثلها سباع الوحوش فإنها دون الكلاب أيضًا إلاّ أنّ الجمهور يشترط فيها ما يشترط في الكلاب.

مجاهرين بالزنى. ﴿أَخْدَانٍ﴾: جمع خدن وهو الخليل والصاحب السريّ. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: أي يرتد عن الإيمان فالباء بمعنى عن إذ يقال ارتد عن كذا... ﴿حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾: بطل كل ما قدمه من الصالحات فلا يثاب عليه.

معنى الآيتين:

(٤) ورد أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فاستأذن فأذن له النبي ﷺ فأبى أن يدخل لوجود كلب صغير في البيت فقال: (إنا لا ندخل بيتًا فيه كلب) فأمر النبي ﷺ بعدها بقتل الكلاب فقُتلت ثم جاء بعضهم يسأل عما يحل لهم من أمة الكلاب فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ[١] مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ وهي كل ما لذ وطاب مما أباحه الله تعالى ولم ينه عنه، وأحل لكم كذلك صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكلاب الخاصة بالاصطياد والفهود والنمور والطيور كالصقور ونحوها. مكلبين أي مرسلين لها على الصيد لتمسكه لكم، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي تؤدبون تلك الجوارح بالأدب الذي أدبكم الله تعالى به، وحد الجارحة المؤدبة أنها إذا أُشليت أي أُرسلت على الصيد ذهبت إليه وإذا زُجرت انزجرت وإذا دُعيت أجابت. وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ[٢] وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يفيد شرطين لحلية الصيد زيادة على كون الجارحة معلمة وهما أولاً أن يذكر اسم الله عند إرسال الجارحة بأن يقول: بسم الله هاته مثلاً، والثاني[٣] أن لا تأكل الجارحة منه فإن أكلت منه فقد أمسكت لنفسها ولم تمسك لمن أرسلها، اللهم إلا إذا أدركت حية لم تمت ثم ذُكيت فعند ذلك تحل بالتذكية لا بالاصطياد[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وعيد لمن لم يتق الله في أكل ما حرم أكله من الميتة وأنواعها، ومن صيد صاده غير معلّم من الجوارح، أو صاده معلم ولكنه أكل منه فمات قبل التذكية. فلتتق عقوبة الله في ذلك فإن الله سريع الحساب.

(٥) هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٤) أما الآية الثانية (٥) وهي قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي في هذا اليوم الذي أكمل الله تعالى لكم فيه الدين أحل لكم ما سألتم عنه وهو سائر الطيبات وكذا طعام الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وهم اليهود والنصارى خاصة فطعامهم أي ذبائحهم حل لكم، وطعامكم حل لهم أي لا بأس أن تطعموهم من طعامكم فإن ذلك جائز لكم ولهم. وأحل لكم أيضًا نكاح المحصنات أي العفائف من المؤمنات، والمحصنات من نساء الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وهنَّ العفائف من اليهوديات والنصرانيات، على شرط إتيانهن أجورهن أي مهورهن حال كونكم محصنين أي عاقدين عليهن عقدة النكاح المتوقفة على المهر والولي والشهود وصيغة الإيجاب والقبول، لا مسافحين بإعطاء المرأة أجرة وطئها فقط بدون عقد مستوف

---

(١) ذكر القرطبي أنّ الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ..﴾ نزلت بسبب عدي بن حاتم وزيد الخيل الذي سماه الرسول ﷺ: زيد الخير، إذ قالا: يا رسول الله إنّا قوم نصيد بالكلاب، والبزاة، وإنّ الكلاب تأخذ البقر والحمر، والظباء، فمنه ما ندرك ذكاته ومنه ما تقتله فلا ندرك ذكاته، وقد حرّم الله الميتة فماذا يحل لنا؟ فنزلت الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ..﴾ إلخ.. ولا منافاة بين ما ذكر في التفسير وبين هذا، إذ يسأل السائل فيقرأ عليه الرسول ﷺ الآية فيرى أنها نزلت فيه.

(٢) ﴿مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ على هنا بمعنى اللام، أي: مما أمسكن لكم ولأجلكم كقولهم: سجن على كذا، وضرب الصبي على قوله كذا.

(٣) ذكر القرطبي الإجماع على أنّ الكلب إذا لم يكن أسود، وعلّمه مسلم فيشلي إذا أشلى، ويجيب إذا دعي وينزجر بعد ظفره بالصيد إذا زجر وأن يكون لا يأكل من صيده الذي صاده وأثر فيه بجرح أو تنييب وصاد به مسلم وذكر اسم الله عند إرساله أنّ صيده صحيح. هذه الشروط داخلة في الشرطين اللذين ذكرتهما الآية كما في التفسير إلاّ اشتراط أن لا يكون الكلب أسود. وهذا الشرط فيه خلاف.

(٤) قوله ﷺ: «**إذا أرسلت كلبك وذكرت الله عليه فكل**» دالّ على أنّ الصائد يتعيّن عليه أن يقصد عند إرسال الكلب والطير، التذكية والإباحة، إذ الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى.

لشروطه، ولا متخذي أخدان أيضًا بأن تنكحوهن سرًا بحكم الصحبة والصداقة والمحبة إذ ذاك هو الزنى فلا يحل بأجرةٍ ولا بغير أجرةٍ. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ[1] بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن استباحة المحرمات والجرأة على ذلك قد تؤدي إلى الكفر، ومن يكفر بعد إيمانه فقد حبط عمله أي بطل ثواب ما عمله في إسلامه، حتى ولو راجع الإسلام فليس له إلا ما عمله بعد رجوعه إلى الإسلام، وإن مات قبل العودة إلى الإسلام فهو قطعًا في الآخرة من الخاسرين بإلقائهم في نار جهنم خالدين فيها أبدًا.

هداية الآيتين:

١ - مشروعية سؤال من لا يعلم عما ينبغي له أن يعلمه.

٢ - حلية الصيد إن توفرت شروطه وهي أن يكون الجارح معلمًا وأن يذكر اسم الله تعالى عند إرساله وأن لا يأكل منه الجارح، ويجوز أكل ما صيد برصاص أو بآلة حادة[2] بشرط ذكر اسم الله عند رميه ولو وجد ميتًا فلم يذك.

٣ - إباحة طعام وذبائح أهل الكتاب.

٤ - إباحة نكاح الكتابيات بشرط أن تكون حرة[3] عفيفة وأن يعقد عليها العقد الشرعي وهو القائم على الولي والشهود والمهر والصيغة بأن يقول الخاطب لمن يخطبه من ولي ووكيل زوجني فلانة فيقول له قد زوجتكها.

٥ - حرمة نكاح المتعة ونكاح الخلة والصحبة الخاصة.

٦ - المعاصي قد تقود إلى الكفر.

٧ - المرتد عن الإسلام يحبط عمله فلو راجع الإسلام لا يثاب على ما فعله قبل الردة وإن مات قبل العودة إلى الإسلام خسر نفسه وأهله يوم القيامة وذلك هو الخسران المبين.

الجزء السادس — سورة المائدة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

١٠٨

شرح الكلمات:

[الآية: ٦، ٧]

﴿٦﴾ ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾: أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون[4] أي على غير وضوء.

﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾: أي بعد غسل الكفين ثلاثًا والمضمضة والاستنشاق

---

(١) لفظ الإيمان: مصدر آمن يؤمن إيمانًا، أطلق وأريد به الإسلام، لأنّ الإسلام والإيمان متلازمان، ما أسلم مَنْ لم يؤمن وما آمن مَنْ لم يسلم ومعنى الآية: ومن يرتد عن الإسلام إلخ.

(٢) لفظ حادّة: احتراز من غير الحادة كالعصا وعرض المعراض والحجر ونحوها لحديث: «**إذا ضربت بالمعراض فخرق فكله وإن أصابه بعرض فإنه وقيذ فلا تأكله**»، إذ المعراض سهم بلا ريش غليظ الوسط يصيب بحدّه وعرضه معًا، فإن أصاب بحدّه جاز أكل ما أصابه، وإن أصاب بعرضه فهو كالموقوذة فلا يؤكل.

(٣) لأنّ الأمة الكافرة لا تحل للمؤمن لقول الله تعالى: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: لا الكافرات، الآية من سورة النساء.

(٤) إنّ خلافًا طويلاً عريضًا في تأويل هذه الآية وهو يدور على هل الوضوء واجب لكل صلاة أو هو مستحب أو واجب على المحدث لا غير ومتسحب لغيره، وهل في الآية تقديم وتأخير؟ والذي عليه جمهور الأمّة أن الوضوء واجب على المحدث لا غير ومستحب لغيره وأنّ تأويل الآية هو كما في التفسير، ومما تنبغي الإشارة إليه الوضوء والغسل والتيمم كلها كانت مشروعة قبل نزول هذه الآية، إذ ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بغير وضوء، ومشروعية التيمم نزلت في غزوة المريسيع، وكانت سنة خمس أو ست من الهجرة، وعليه فالآية شملت الطهارة بأنواعها مؤكدة لها لتبقى خالدة تتلى في كتاب الله يتعبّد بتلاوتها ويعمل بمضمونها علمًا وعملاً إذ سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن كما تقدّم.

والاستنشار ثلاثًا ثلاثًا لبيان[١] رسول الله ﷺ ذلك. ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾: أي واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين إلا أن يكون عليها خف ساتر فإنه يجوز المسح عليه دون حاجة إلى نزعه وغسل الرجلين، وذلك إن لبسه بعد وضوء ولم يمضِ على لبسه أكثر من يوم وليلة إن كان مقيمًا، أو ثلاثة أيام إن كان مسافرًا بهذا جاءت السنة[٢]. ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾: الجنب من قامت به جنابة وهي شيئان: غياب رأس الذكر في الفرج، وخروج المني بلذة في نوم أو يقظة. ﴿فَٱطَّهَّرُوا۟﴾: يعني فاغتسلوا، والغسل هو غسل سائر الجسد بالماء. ﴿ٱلْغَآئِطِ﴾: كناية عن الخارج من أحد السبيلين من عذرة أو فساء أو ضراط، أو بول أو مذي. ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: ملامسة النساء كناية عن الجماع، كما أن من لامس امرأة ليتلذذ بها أو لامسها لغير قصد اللذة ووجد اللذة فقد انتقض وضوءه ومن هذا مس الفرج باليد لأنه مظنة اللذة لذا قال الرسول ﷺ: **«من أفضى منكم بيده إلى فرجه فليتوضأ»**. **فتيمموا صعيدًا**: اقصدوا ترابًا أو حجرًا أو رملًا أو سبخة مما صعد على وجه الأرض. الحرج: المشقة والعسر والضيق.

(٧) ﴿وَمِيثَٰقَهُ﴾: أي ميثاق الله تعالى وهو عهده المؤكد والمراد به هنا: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، إذ بها وجب الالتزام بسائر التكاليف الشرعية.

معنى الآيتين:

(٦) نادى الرب تعالى عباده المؤمنين به وبرسوله ﷺ ووعده ووعيده ليأمرهم بالطهارة إذا هم أرادوا الصلاة وهي مناجاة العبد لربه لحديث «**المصلي يناجي**[٣] ربه» وبيّن لهم الطهارة الصغرى منها وهي الوضوء، والكبرى وهي الغسل، وبيّن لهم ما ينوب عنهما إذا تعذر وجود الماء الذي به الطهارة أو عجزوا عن استعماله وهو التيمم فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾[٤] وحدُّ الوجه طولاً من منبت الشعر أعلى الجبهة إلى منتهى الذقن أسفل الوجه وحده عرضًا من وتد الأذن اليمنى إلى وتد الأذن اليسرى ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ فيشمل الغسل الكفين والذراعين إلى بداية العضدين فيدخل في الغسل المرفقان ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ واللفظ محتمل للكل والبعض والسنة بينت أن الماسح يقبل بيديه ويدبر بهما فيمسح جميع رأسه وهو أكمل وذلك ببلل يكون في كفيه، كما بينت السنة مسح الأذنين ظاهرًا وباطنًا بعد مسح الرأس ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ أي واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين وهما العظمان الناتئان عند بداية الساق، وبينت السنة رخصة المسح[٥] على الخفين بدلاً من غسل الرجلين، كما بينت غسل الكفين والمضمضة والاستنشاق والاستنثار، وكون الغسل ثلاثًا ثلاثًا على وجه الاستحباب، وقول بسم الله عند الشروع أي البدء في الوضوء[٦].

كما بينت السنة وجوب الترتيب بين

---

(١) ورد هذا في حديث عثمان في الصحيح إذ فيه: **«ثم تمضمض، واستنشق، واستنثر»**.

(٢) لحديث مسلم عن علي رضي الله عنه أنه قال: «جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويومًا وليلة للمقيم» يعني في المسح على الخفين.

(٣) نص الحديث: **«إذا كان أحدكم في الصلاة فإنه يناجي ربّه»** وفي رواية البخاري: **«إذا كان أحدكم في الصلاة فإنّ ربّه بينه وبين القبلة»**.

(٤) وكل ما ذكر في التفسير من صفة الوضوء والغسل، والتيمم هو ثابت في الصحاح والسنن، وليس فيه ما هو ضعيف قط.

(٥) وضلت الرافضة فأخذوا بقراءة: ﴿**وأرجلِكم**﴾، بالكسر، فمسحوا أرجلهم في كل وضوء وتركوا غسل الرجلين أبدًا، والحامل لهم على ذلك أن رؤساءهم زينوا لهم ذلك وأوجبوه عليهم لعلّة أن يبقوا بعيدين عن الإسلام والمسلمين ليستغلوهم ماديًا، وليعدّوهم لقتال المسلمين لإعادة دولة المجوس التي يحلمون بها، وأمّا أهل السنة والجماعة فإنهم عملوا بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ فغسلوا أرجلهم، لأن نبيهم ﷺ لم يمسح رجليه بدون خف قط، ومسحوا على الخفين كما مسح نبيهم ﷺ فأخذوا بالقراءتين معًا.

(٦) بعض الفقهاء يعدون النيّة فرضًا من فروض الوضوء، وبعضهم يعدها شرطًا، وما دام المشروط يتوقف على شرطه صحة وبطلانًا، والفرض إذا ترك بطل الوضوء فإنّه خلاف لفظي لا غير.

الأعضاء المغسولة الأول فالأول، ووجوب الفور بحيث لا يفصل بزمن بين أعضاء الوضوء حال غسلها بل يفعلها في وقت واحد إن أمكن ذلك، وأكدت وجوب النية حتى لكأنه شرط في صحة الوضوء[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ[2]﴾ أي وإن أصابت أحدكم جنابة وهي الجماع والاحتلام فمن جامع زوجته فأولج ذكره في فرجها ولو لم ينزل أي لم يخرج منه المنيّ فقد أجنب كما أن من احتلم فخرج منه منيّ فقد أجنب بل كلّ من خرج منه منيّ بلذة في نوم أو يقظة فقد أجنب وانقطاع دم حيض المرأة ودم نفاسها كالجنابة يجب منه الغسل، وقوله: ﴿فَاطَّهَّرُواْ﴾ يريد فاغتسلوا، وقد بينت السنة كيفية الغسل وهي أن ينوي المرء رفع الحدث الأكبر بقلبه ويغسل كفيه قائلاً بسم الله ويغسل فرجيه وما حولهما، ثم يتوضأ الوضوء الأصغر المعروف، ثم يخلل أصول شعر رأسه ببلل يديه، ثم يغسل رأسه[3] ثلاث مرات، ثم يقبض الماء على شق جسده الأيمن كله من أعلاه إلى أسفله، ثم الأيسر، ويتعاهد الأماكن التي قد ينبو عنها الماء فلا يمسها كالسرة وتحت الإبطين، والرفقين وهما أصل الفخذين، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ ذكر تعالى في هذه الجملة الكريمة نواقض الوضوء وموجب الانتقال منه إلى التيمم فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ فالمريض قد يعجز عن الوضوء لضعف جسمه بعدم القدرة على التحرك، وقد تكون به جراحات أو دماميل يتعذر معها استعمال الماء حيث يزداد المرض بمس الماء، وقوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ إذ السفر مظنة عدم وجود الماء هذه موجبات الانتقال من الوضوء إلى التيمم، وقوله عز وجل: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ﴾.

ذكر في الجملة الأولى نواقض الوضوء إجمالاً وهو الخارج من السبيلين من عذرة وفساء وضراط وبول ومذي كنى عنه بقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ﴾ وهو مكان التغوط والتبول، وذكر موجب الغسل وهو الجماع وكنّى عنه بالملامسة تعليمًا لعباده المؤمنين الآداب الرفيعة في مخاطباتهم، وقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ للوضوء أو الغسل بعد أن طلبتموه فلم تجدوه فتيمموا، اقصدوا من أم الشيء إذا قصده صعيدًا طيبًا يريد ما صعد على وجه الأرض من أجزائها كالتراب والرمل والسبخة والحجارة. وقوله: ﴿طَيِّبًا﴾ يريد به طاهرًا من النجاسة والقذر، وقوله: ﴿فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ بيّن فيه كيفية التيمم، وهي أن يقصد المرء التراب الطاهر وإن تعذر ذلك فما تيسر له من أجزاء الأرض فيضرب بكفيه الأرض فيمسح بهما وجهه وكفيه ظاهرًا وباطنًا مرة واحدة. وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُ﴾ أي من ذلك الصعيد. وبهذا بيّن تعالى كيفية التيمم وهي التي علّمها رسول الله ﷺ عمار بن ياسر[4] رضي الله عنه. وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ يخبر تعالى أنه يأمرنا بالطهارة بقسميها الصغرى وهي الوضوء والكبرى وهي الغسل، وما ينوب عنهما عند العجز وهو التيمم، ما يريد بذلك إيقاعنا في الضيق والعنت، ولكنه تعالى يريد بذلك تطهيرنا من الأحداث

---

(١) ﴿فَاطَّهَّرُواْ﴾ أصلها فتطهروا فأدغمت التاء في الطاء لاتحاد مخرجيهما، ومعنى اطهروا: اغتسلوا، وفي الحديث الصحيح: «**لا يقبل الله صلاة بغير طهور..**».

(٢) مع أذنيه ظاهرًا وباطنًا.

(٣) أصل الغائط أنه المكان المنخفض، ولمّا كان من يريد قضاء حاجته يأتي المكان المنخفض ليستتر عن أعين الناس، أطلق لفظ الغائط على ما يحل فيه من بول وعذرة.

(٤) إذ قال له: «**إنما يكفيك أن تقول هكذا**» ثمّ ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه» متفق عليه، وورد أنه يضرب الأرض فيمسح وجهه ثمّ يكررها مرة أخرى فيمسح كفيه. وورد عن ابن عمر مسحهما إلى المرفقين.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

١٠٩

والذنوب، لأن الوضوء كفارة لذنب المتوضىء كما جاء بيانه في السنة[1]، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي بهدايتكم إلى الإسلام وتعليمكم شرائعه فيعدكم بذلك لشكره وهو طاعته بالعمل بما جاء به الإسلام من الأعمال الباطنة والظاهرة وهو معنى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿٧﴾ هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦) أما الآية الأخيرة (٧) وهي قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فإنه تعالى يأمر عباده المؤمنين أن يذكروا نعمته عليهم بهدايتهم إلى الإيمان ليشكروه بالإسلام، كما يذكروا ميثاقه الذي واثقهم به وهو العهد الذي قطعه المؤمن على نفسه لربه تعالى بالتزامه بطاعته وطاعة رسوله محمد ﷺ عندما تعهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وأما قوله: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قد قالها الصحابة بلسان القال عندما بايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وقد قالها كل مسلم بلسان الحال لما شهد لله بالوحدانية وللنبي ﷺ بالرسالة. وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر بالتقوى التي هي لزوم الشريعة والقيام بها عقيدة وعبادة وقضاءً وأدبًا وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يذكرهم بعلم الله تعالى بخفايا أمورهم حتى يراقبوه ويخشوه في السر والعلن وهذا من باب تربية الله تعالى لعباده المؤمنين لإكمالهم وإسعادهم فله الحمد وله المنة.

هداية الآيتين:

١ - الأمر بالطهارة[2] وبيان كيفية الوضوء وكيفية الغسل، وكيفية التيمم[3].

٢ - بيان الأعذار الناقلة للمؤمن من الوضوء إلى التيمم.

٣ - بيان موجبات الوضوء والغسل.

٤ - الشكر هو علة الإنعام.

٥ - ذكر العهود يساعد على التزامها والمحافظة عليها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ - ١١]

﴿٨﴾ ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾: جمع قوام وهو كثير القيام لله تعالى بحقوقه وما وجب له تعالى، وبحقوق الغير أيضًا لا يفرط في شيء من ذلك. ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾: جمع شهيد بمعنى شاهد والقسط العدل. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: أي لا يحملنكم. ﴿شَنَآنُ﴾: بغض وعداوة. العدل: خلاف الجور، وهو المساواة بلا حيف ولا جور. ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: أي العدل أقرب للتقوى من الجور.

---

(١) ورد في فضل الوضوء أحاديث صحيحة كثيرة منها: **«من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه»** ومنها: **«ما من مسلم يتوضأ فيحسن الوضوء ثم يرفع طرفه إلى السماء ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين إلاّ فتحت له أبواب الجنة الثمانية»**.

(٢) في الحديث الصحيح: **«الطهور شطر الإيمان»** رواه مسلم.

(٣) وكيفية المسح على الخفين هي أن يبلّ يده بالماء ثمّ يمسح ظاهر رجله اليمنى ثمّ يمسح ظاهر اليسرى، دون باطنها لحديث علي: «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه» ويشترط في المسح أن يلبس خفيه على طهارة.

(١١) ﴿هَمَّ قَوْمٌ﴾: أرادوا وعزموا على إنفاذ إرادتهم والقوم هم يهود بني النضير. ﴿يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾: أي ليقتلوا نبيكم ﷺ. ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾: لم يمكنهم مما أرادوه من قتل النبي ﷺ.

معنى الآيات:

(٨) ما زال السياق الكريم في توجيه المؤمنين وإرشادهم إلى ما يكملهم ويسعدهم[١] ففي الآية (٨) أمر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا قوّامين لله تعالى بسائر حقوقه عليهم من الطاعات، وأن يكونوا شهداء بالعدل لا يحيفون ولا يجورون في شيء سواء كان المشهود عليه وليًا أو عدوًا، ونهاهم أن يحملهم بغض قوم أو عداوتهم على ترك العدل وقد أمروا به، ثم أمرهم بالعدل وأعلمهم أن أهل العدل هم أقرب الناس إلى التقوى[٢]، لأن من كانت ملكة العدل صفة له كان أقدر على أداء الحقوق والواجبات، وعلى ترك الظلم واجتناب المنهيات ثم أمرهم بالتقوى مؤكدًا شأنها لأنها ملاك الأمر، وأعلمهم بأنه خبير بما يعملون لتزداد ملكة مراقبة الله تعالى في نفوسهم فيفوزون بالعدل والتقوى معًا هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٨).

(٩) أما الآية (٩) فقد تضمنت بشرى سارة[٣] لهم وهي أن ربهم قد وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة لذنوبهم والأجر العظيم لهم وهو الجنة، وقلت بشرى سارة لهم، لأنهم هم أهل الإيمان وصالح الأعمال رضي الله عنهم وأرضاهم.

(١٠) أما الآية الثالثة (١٠) فقد تضمنت وعيدًا شديدًا للكافرين المكذبين بآيات الله وحججه التي أرسل بها رسله وأيدهم بها، ولازم لكذبهم وكفرهم خبث أرواحهم ولذا فهم لا يلائمهم إلا عذاب النار فكانوا بذلك أصحاب الجحيم[٤] الذين لا يفارقونها أبدًا.

(١١) وأما الآية الرابعة (١١) فقد ذكّرهم تعالى بنعمة عظيمة من نعمه، هي نجاة نبيهم محمد ﷺ من قتل أعدائه وأعدائهم وهم اليهود إذ ورد في سبب نزول هذه الآية ما خلاصته: إن أولياء العامريين الذين قتلا خطأ من قبل مسلم حيث ظنهما كافرين فقتلهما جاؤوا يطالبون بدية قتيليهم فخرج رسول الله ﷺ ومعه الخلفاء الراشدون الأربعة وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين خرجوا إلى بني النضير يطالبونهم بتحمل شيء من هذه الدية بموجب عقد المعاهدة إذ من جملة موادها تحمل أحد الطرفين معونة الطرف الآخر في مثل هذه الحالة المالية فلما وصلوا إلى ديارهم شرق المدينة استقبلوا رسول الله ﷺ بالحفاوة والتكريم وأجلسوه مكانًا لائقًا تحت جدار منزل من منازلهم وأفهموه أنهم يعدون الطعام والنقود، وقد خلوا ببعضهم وتآمروا على قتله ﷺ وقالوا فرصة متاحة فلا نفوتها أبدًا وأمروا أحدهم أن يطلق من سطح المنزل حجر رحى كبيرة على رأس النبي ﷺ فتقتله، وما زالوا يدبرون مكيدتهم حتى أوحى الله إلى رسوله ﷺ بالمؤامرة الدنيئة فقام ﷺ وتبعه أصحابه ودخلوا إلى المدينة وفاتت فرصة اليهود واستوجبوا بذلك اللعن وإلغاء المعاهدة وإجلاءهم من المدينة، وقصتهم في سورة الحشر، والمقصود من هذا بيان المراد من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ[٥] إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾

---

(١) لمّا ذكّرهم تعالى في الآيات السابقة بنعمه العظيمة طلب إليهم في هذه الآية أن يشكروا تلك النعم وذلك بالوفاء له بالعهد فقال لهم: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

(٢) المراد من التقوى: التقوى الكاملة التامة التي هي ملاك الأمر إذ بها تتحقق لهم ولاية ربّهم ما داموا مؤمنين متقين.

(٣) لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

(٤) في الآية قصر ادعائي وهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: لا غيرهم كأنهم المتأهلون للعذاب والخلود فيه، دون غيرهم، وذلك لعظم جرمهم بالكفر والتكذيب.

(٥) ولهذه الحادثة نظيراتها فقد تعددت مؤامرات اليهود، والمشركين على النبي ﷺ والمؤمنين ففي الحديبية حصل مثل هذا وحادثة غورث ودعثور كذلك إذ الكل همّوا فيها ببسط أيديهم بالأذى ولكنّ الله كفّ أيديهم فله الحمد وله المنّة.

أي بالقتل للنبي ﷺ ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ حيث أوحى إلى رسوله ﷺ ما دبره اليهود فانصرف وتركهم لم يظفروا بما أرادوا وهو معنى ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ[1] عَنكُمْ﴾.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بتقواه إذ هي سلم كمالهم وسبيل نجاحهم وهي عبارة عن امتثال أمره وأمر رسوله ﷺ واجتناب نهيهما وأرشدهم إلى التوكل عليه تعالى في جميع أمورهم بقوله: ﴿وَعَلَى[2] اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - وجوب القيام بحق الله تعالى على العبد وهو ذكره وشكره بطاعته.

٢ - وجوب العدل في الحكم والقول والشهادة والفعل ومع الولي والعدو سواء.

٣ - تأكيد الأمر بتقوى الله عز وجل.

٤ - الترغيب والترهيب بذكر الوعد والوعيد كما في الآيتين (٩) و(١٠).

٥ - وجوب ذكر النعمة حتى يؤدى شكرها.

٦ - وجوب التوكل على الله تعالى والمضي في أداء ما أوجب الله تعالى.

شرح الكلمات: [الآية: ١٢]

الميثاق: العهد المؤكد بالأيمان.

(١٢) ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: اليهود.

﴿نَقِيبًا﴾[3]: نقيب القوم: من ينقب عنهم ويبحث عن شؤونهم ويتولى أمورهم. ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾[4]: أي نصرتموهم ودافعتم عنهم معظمين لهم. ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ﴾: أي أنفقتم في سبيله ترجون الجزاء منه تعالى على نفقاتكم في سبيله. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾: أسترها ولم أؤاخذكم بها. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: أخطأ طريق الهدى الذي يفلح سالكه بالفوز بالمحبوب والنجاة من المرهوب.

معنى الآية الكريمة:

(١٢) لما طالب تعالى المؤمنين بالوفاء بعهودهم والالتزام بمواثيقهم ذكرهم في هذه الآية بما أخذ على بني إسرائيل من ميثاق فنقضوه فاستوجبوا خزي الدنيا وعذاب الآخرة ليكون هذا عبرة للمؤمنين حتى لا ينكثوا عهدهم ولا ينقضوا ميثاقهم كما هو إبطال لاستعظام من استعظم غدر اليهود وهمهم بقتل النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهو قوله إني معكم الآتي، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا[5]..﴾ أي من كل قبيلة من قبائلهم الاثني عشرة قبيلة نقيبًا يرعاهم ويفتش على أحوالهم كرئيس فيهم، وهم الذين بعثهم موسى عليه السلام إلى فلسطين ليتعرفوا على أحوال الكنعانيين[6] قبل قتالهم. وقال الله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ وهذا بند الميثاق ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي وعزتي وجلالي ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ صدقتموهم فيما جاؤوكم به ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ بنصرتهم وتعظيمهم، ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي زيادة على الزكاة الواجبة والعامة في الإنفاق وفي تزكية النفس بالإيمان وصالح الأعمال ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ[7] سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بإذهاب آثارها من نفوسكم حتى تطيب وتطهر ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ بعد ذلك التطهير

---

(١) كف اليد: كناية عن عدم القتل، والقتال، وبسطها كناية عن السوء والأذى الحاصل بها.

(٢) في الآية قصر حقيقي، وهو أنّ التوكل لا يكون إلاّ على الله إذ لا كافي إلا هو سبحانه وتعالى.

(٣) النقب والنُّقب بفتح القاف وضمها: الطريق في الجبل، والنقيب: الأمين على القوم، وجمعه نقباء، وهو من ينقب عن أمور القوم ومصالحهم ليرعاها لهم، وقالوا: النقيب أكبر من العريف، وفي البخاري: «**ارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم**».

(٤) التعزير: التعظيم، والتوقير والنصرة والدفاع عن المعزّر. والتعزير في الشرع: الضرب دون الحدّ لردّ المخالف إلى الحق وسبيل الرشاد.

(٥) من بين النقباء الاثني عشر: يوشع، وكالب، وهما رجلان صالحان، والباقون هلكوا فلا خير فيهم.

(٦) في الآية دليل على قبول خبر الواحد فيما يحتاج إليه من الاطلاع على حاجة من الحاجات الدينية والدنيوية، وفيها دليل على اتخاذ العَين: أي: الجاسوس، وقد بعث رسول الله ﷺ بسبسة عينًا في غزوة بدر بعثه لتقصي أخبار أبي سفيان. رواه مسلم.

(٧) هذا جواب القسم في قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ.. الصَّلَاةَ﴾ إلخ.. وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ فهو إخبار بوعد الله تعالى لبني إسرائيل، وهي معيّة نصرة، وتأييد إن هم وفوا الله بما أخذ عليهم من عهد وميثاق وجملة: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ﴾ جملة مستأنفة، ولا علاقة لها بجملة الوعد: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ أي من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ هذا جزاء الوفاء بالميثاق ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ فنقض وأهمل ما فيه فكفر بعده ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي أخطأ طريق الفلاح في الدنيا والآخرة، أي خرج عن الطريق المفضي بسالكه إلى النجاة والسعادة.

هداية الآية الكريمة:

١ - الحث على الوفاء بالالتزامات الشرعية.

٢ - إبطال استغراب واستعظام من يستغرب من اليهود مكرهم ونقضهم وخبثهم ويستعظم ذلك منهم.

٣ - إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق في سبيل الله تعبد الله[1] بها من قبل هذه الأمة.

٤ - وجوب تعظيم[2] الرسول ﷺ ونصرته في أمته ودينه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣، ١٤]

نقض الميثاق: حله بعدم الالتزام بما تضمنه من أمر ونهي. ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾: طردناهم من موجبات الرحمة ومقتضيات العز والكمال. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾: يبدلون الكلام ويؤولون معانيه لأغراض فاسدة، والكلم من الكلام. ﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ﴾: تركوا قسطًا كبيرًا مما ذكرهم الله تعالى به أي أمرهم به في كتابهم. ﴿خَآئِنَةٖ﴾: خيانة أو طائفة خائنة منهم. ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ﴾: أي لا تؤاخذهم واصرف وجهك عنهم محسنًا إليهم بذلك.

(١٤) ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾: أي ابتدعوا بدعة النصرانية فقالوا إنا نصارى. ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ﴾: الإغراء: التحريش والمراد أوجدنا لهم أسباب الفرقة والخلاف إلى يوم القيامة بتدبيرنا الخاص فهم أعداء لبعضهم البعض أبدًا.

الجزء السادس — سورة المائدة

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ (١٤) يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ (١٥) يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (١٦) لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (١٧)

١١٠

معنى الآيتين:

(١٣) ما زال السياق الكريم في بيان خبث اليهود وغدرهم فقد أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة (١٣) أن اليهود الذين أخذ الله ميثاقهم على عهد موسى عليه السلام بأن يعملوا بما في التوراة وأن يقابلوا الكنعانيين ويخرجوهم من أرض القدس وبعث منهم اثني عشر نقيبًا قد نكثوا عهدهم ونقضوا ميثاقهم، وإنه لذلك لعنهم وجعل قلوبهم قاسية فهم يحرفون الكلم عن مواضعه فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾[3] أي فبنقضهم ميثاقهم الذي أخذ عليهم بأن يعملوا بما في التوراة ويطيعوا رسولهم ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾ أي أبعدناهم من دائرة الرحمة وأفناء الخير والسلام ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾[4] شديدة غليظة لا ترق لموعظة، ولا تلين لقبول هدى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ فيقدمون ويؤخرون ويحذفون بعض الكلام ويؤولون معانيه لتوافق أهواءهم،

---

(١) ليس هذا من خصائص أمة الإسلام لأنّ هذه العبادات شرعت لإسعاد وإكمال الإنسان فلذا هي مشروعة لكل الأمم، لتوقف الكمال والسعادة على مثلها من مزكيات النفوس ومهذبات الأخلاق.

(٢) لأنّ مقام الرسل شريف، وكيف وهم رسل الله تعالى، ثمّ لولا وجوب ذلك لهم مع وجوب محبّتهم لما أطاعهم مَنْ بُعثوا فيهم، وأرسلوا إليهم.

(٣) الميم في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾ زائدة لتقوية الكلام وتأكيده، ولفت النظر إليه ليتأمل وتفهم معانيه.

(٤) قرئت: ﴿قسية﴾ يقال: عام قسيٌّ، أي: شديد لا مطر فيه، فالمادة مأخوذة من الشدة والقساوة.

ومن ذلك تأويلهم الآيات الدالة على نبوة كل من عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم في التوراة ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وتركوا كثيرًا مما أمروا به من الشرائع والأحكام معرضين عنها متناسين لها كأنهم لم يؤمروا بها، فهل يستغرب ممن كان هذا حالهم الغدر والنقض والخيانة، ولا تزال يا رسولنا ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ[(١)] مِّنْهُمْ﴾ أي على طائفة خائنة منهم كخيانة بني النضير ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فإنهم لا يخونون كعبدالله بن سلام وغيره، وبناء على هذا ﴿فَاعْفُ[(٢)] عَنْهُمْ﴾ فلا تؤاخذهم بالقتل، ﴿وَاصْفَحْ﴾ عنهم فلا تتعرض لمكروههم فأحسن إليهم بذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٤) هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٣) أما الآية الثانية (١٤) في هذا السياق فقد أخبر تعالى عن النصارى[(٣)] وأن حالهم كحال اليهود لا تختلف كثيرًا عنهم فقد أخذنا ميثاقهم على الإيمان بي وبرسلي وبالعمل بشرعي فتركوا متناسين كثيرًا مما أخذ عليهم العهد والميثاق فيه، فكان أن أغرينا بينهم[(٤)] العداوة والبغضاء كثمرة لنقضهم الميثاق فتعصبت كل طائفة لرأيها فثارت بينهم الخصومات وكثر الجدل فنشأ عن ذلك العداوات والبغضاء وستستمر إلى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله تعالى بما كانوا يصنعون من الباطل والشر والفساد ويجازيهم به الجزاء الموافق لخبث أرواحهم سوء أعمالهم فإن ربك عزيز حكيم.

هداية الآيتين:

١ - حرمة نقض المواثيق ونكث العهود ولا سيما ما كان بين العبد وربه.

٢ - الخيانة وصف لازم لأكثر اليهود فقل من سلم منهم من هذا الوصف.

٣ - استحباب العفو عند القدرة، وهو من خلال الصالحين.

٤ - حال النصارى[(٥)] لا تختلف كثيرًا عن حال اليهود كأنهم شربوا من ماء واحد. وعليه فلا يستغرب منهم الشر ولا يؤمنون على سرفهم في عداوة الإسلام والحرب عليه متعاونون متواصون.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥، ١٦]

(١٥) أهل الكتاب[(٦)]: هنا هم اليهود والنصارى معًا. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾: محمد ﷺ. ﴿تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾: الكتاب التوراة والإنجيل، وما يخفونه صفات النبي محمد ﷺ وبعض الأحكام، المخالفين لها يجحدونها خوف المعرة كالرجم مثلاً. ﴿وَيَعْفُوا[(٧)] عَن كَثِيرٍ﴾: لا يذكرها لكم لعدم الفائدة من ذكرها. ﴿نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾: النور محمد ﷺ، والكتاب القرآن الكريم.

---

(١) لفظ خائنة: صالح لأن يكون صفة لطائفة محذوفة، كما في التفسير، وجائز أن تكون خائنة بمعنى: خيانة كقولهم في القيلولة: قائلة، والخيانة: هي المعصية يحدثونها كالكذب، والفجور، وأصل الخيانة: عدم الوفاء بالعهد.

(٢) هذا حمل له ﷺ على مكارم الأخلاق لأنّ أذاهم كان منصبًا عليه ﷺ فأمره بعدم مقابلة الأذى بالأذى بل بالعفو والصفح ليعظم مقامه أمامهم ويكبر في أعينهم.

(٣) التعبير بلفظ النصارى فيه إشارتان مهمتان: الأولى: أنّ النصرانية بدعة ابتدعوها وليست مما شرع الله تعالى فهو ينفي عنهم ذلك، والثانية: بما أنهم راعوا في هذه البدعة نصرة الدين والحق وأهله أخذًا من قول عيسى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ فقال الحواريون: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ إذًا لِمَ لا تنصرون الحق وهو الإسلام وأهله وهم المسلمون؟

(٤) من الجائز أن يقال: أغرينا بينهم العداوة والبغضاء هو عائد على اليهود والنصارى لأنّ العداوة بينهم ثابتة إلاّ أنّ السياق هو في النصارى فطوائفهم متعددة ومتعادية متباغضة كما أخبر تعالى. والفرق بين العداوة والبغضاء أنّ العداوة من العدوان فقد ينتج عنها أذى بالضرب أو القتل. وأمّا البغضاء: فهي من البغض القلبي فلا يتوقع من صاحبها أذىً.

(٥) جائز أن يكون النصارى: جمع نصراني منسوب إلى النصر كما قالوا: شعراني، ولحياني منسوبٌ إلى الشعر، واللّحية.

(٦) الكتاب اسم جنس يصدق على الواحد والاثنين والأكثر، والمراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، ونداؤه لهم بعنوان الكتاب فيه معنى العيب عليهم سلوكهم الشائن وانحرافهم الخطير حيث بعدوا عن كلّ خير.

(٧) ﴿يَعْفُو﴾ معناه: يعرض ولا يظهر، يقال: عفا الرسم إذا لم يظهر فعفا عن كذا: أعرض عنه ولم يظهره.

﴿١٦﴾ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: الإسلام وهو الدين الحق الذي لا نجاة إلا به. والمستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

معنى الآيتين:

﴿١٥﴾ ما زال السياق في أهل الكتاب فبعد أن بيّن تعالى باطلهم وما هم عليه من شر وسوء دعاهم وهو ربهم وأرحم بهم من أنفسهم إلى سبيل نجاتهم وكمالهم دعاهم إلى الإيمان برسوله ﷺ وكتابه ذلك الرسول الذي ما اتبعه أحد وندم وخزي والكتاب الذي ما ائتم به أحد وضلّ أو شقي، فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ أي محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ بوحينا ﴿كَثِيرًا﴾ من مسائل الشرع والدين التي تخفونها خشية الفضيحة لأنها حق جحدتموه وذلك كنعوت النبي الأمي ﷺ وصفاته حتى لا يؤمن به الناس، وكحكم الرجم في التوراة وما إلى ذلك. ﴿وَيَعْفُوا۟﴾ يترك كثيرًا لم يذكر لعدم الداعي إلى ذكره يا أهل الكتاب ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ربكم ﴿نُورٌ﴾ هو رسولنا محمد ﷺ[1] ﴿وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ وهو القرآن إذ بيّن كل شيء من أمور الدين والدنيا وكل ما تتوقف سعادة الإنسان وكماله عليه دنيا وآخرى ﴿١٦﴾ ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ وذلك بالرغبة الصادقة في الحصول على رضا الله عز وجل بواسطة فعل محابه وترك مساخطه عن كل معتقد وقول وعمل يهديه به ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي طرق السعادة والكمال، ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ أي المتبعين رضوان الله ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهي ظلمات الكفر والشرك والشك، إلى نور الإيمان الصحيح والعبادة الصحيحة المزكية للنفس المهذبة للشعور بتوفيقه وعونه تعالى ويهديهم، أي أولئك الراغبين حقًا في رضا الله ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا يضلون معه ولا يشقون أبدًا وهو دينه الحق الإسلام الذي لا يقبل دينًا غيره[2]، والذي ما اهتدى من جانبه ولا سعد ولا كمل من تركه.

هداية الآيتين:

١ - نصح الله تعالى لأهل الكتاب بدعوتهم إلى سبل السلام بالدخول في الإسلام.

٢ - بيان جحود اليهود والنصارى لكثير من الأحكام الشرعية ودلائل النبوة المحمدية مكرًا وحسدًا حتى لا يؤمن الناس بالإسلام ويدخلوا فيه.

٣ - اتباع السنة المحمدية يهدي صاحبه إلى سعادته وكماله.

٤ - القرآن حجة على الناس كافة لبيانه الحق في كل شيء.

٥ - طالب[3] رضا الله بصدق يفوز بكل خير وينجو من كل ضير.

الجزء السادس — سورة المائدة

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

١١١

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ ـ ١٩]

﴿١٧﴾ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ﴾: لأنهم جحدوا الحق وقالوا كذبًا الله هو المسيح ابن مريم. ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: لقب لعيسى ابن مريم عبدالله ورسوله عليه السلام. ﴿مَرْيَمَ﴾: بنت عمران من صلحاء بني إسرائيل والدة عيسى

---

(١) واللفظ صالح لأن يكون المراد بالنور الإسلام، فالنبي ﷺ نور والإسلام نور إذ كل منهما يهدي إلى دار السلام في الآخرة وإلى الطهر والصفاء والسعادة والكمال في دار الدنيا.

(٢) شاهده قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

(٣) لأنه يطلبه من طريق الإسلام، والإسلام قائد أهله إلى النجاة من كلّ مرهوب وإلى الفوز بكلّ محبوب ومرغوب.

عليه السلام. ﴿يُهْلِكَ﴾: يميت ويبيد. ﴿قَدِيرٌ﴾: قادر على إيجاد وإعدام كل شيء أراد إيجاده أو إعدامه.

(١٨) الأحباء: واحده حبيب كما أن الأبناء واحده ابن.

(١٩) ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾: الفترة زمن انقطاع الوحي لعدم إرسال الله تعالى رسولاً. ﴿بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾: البشير: المبشر بالخير، والنذير: المنذر من الشر وهو رسول الله ﷺ يبشر المؤمنين وينذر الكافرين.

معنى الآيات:

(١٧) ما زال السياق الكريم في الحديث عن أهل الكتاب ففي الآية الأولى (١٧) أخبر تعالى مؤكدًا الخبر بالقسم المحذوف الدالة عليه اللام الواقعة في جواب القسم فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ[1] الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ[2] ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ووجه كفرهم أنهم جعلوا المخلوق المربوب هو الله الخالق الرب لكل شيء وهو كفر من أقبح أنواع الكفر، وهذا وإن لم يكن قول أكثر النصارى فإنهم بانتمائهم إلى النصرانية وقولهم بها وانخراطهم في سلك مبادئها وتعاليمها يؤاخذون به، لأن الرضا بالكفر كفر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن[3] يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يعلم رسوله ﷺ كيف يحتج على أهل هذا الباطل فيقول له: قل لهم فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه عليهما السلام ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ والجواب قطعًا لا أحد، إذًا فكيف يكون عبدالله هو الله أو إلهًا مع الله؟ أليس هذا هو الضلال بعينه وذهاب العقول بكماله؟ ثم أخبر تعالى أنه له ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خلقًا وتصرفًا، وأنه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ خلقه بلا حجر عليه ولا حظر وهو على كل شيء قدير خلق آدم من تراب بلا أب ولا أم، وخلق حواء من آدم، وخلق عيسى من مريم بلا أب، ويخلق ما يشاء وهو على كل شيء قدير، فكون المسيح عليه السلام خلقه بكلمة كن بلا أب لا تستلزم عقلاً ولا شرعًا أن يكون هو الله، ولا ابن الله، ولا ثالث ثلاثة مع الله كما هي عقيدة أكثر النصارى، والعجب من إصرارهم على هذا الباطل، هذا ما دلت عليه الآية الأولى.

(١٨) أما الآية الثانية (١٨) فقد تضمنت بيان ضلال اليهود والنصارى معًا وهو دعواهم أنهم ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ[4] وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ إذ قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ[5] أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وهو تبجح وسفه وضلال فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم بقوله: قل لهم يا رسولنا ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فهل الأب يعذب أبناءه والحبيب يعذب محبيه، وأنتم تقولون نعذب في النار أربعين يومًا بسبب خطيئة عبادة أسلافهم العجل أربعين يومًا كما جاء ذلك في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ والحقيقة أن هذ القول منكم من حملة الترهات والأباطيل التي تعيشون عليها، وأما أنتم فإنكم بشر ممن خلق الله فنسبتكم إليه تعالى نسبة مخلوق إلى خالق وعبد إلى مالك من آمن منكم وعمل صالحًا غفر له وأكرمه، ومن كفر

---

(١) المراد من ذكر هذا الخبر: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هو بيان كفرهم بهذه المقالة، لا أنه تقرير لضلالهم ونقضهم الميثاق.

(٢) هذا عائد إلى قول بعضهم: إن المسيح لاهوت ناسوت، أي: إله وإنسان، وهو خلط وخبط لا نظير لهما، وأشهر طوائفهم وهم اليعقوبية والملكانية، والنسطورية ينكرون أن يكون الله هو المسيح، ولكن يقولون: إنَّ عيسى ابن الله، وإنّه إله وهو كذب صراح وكفر بواح.

(٣) الفاء: للعطف على جملة محذوفة متضمنة كذبهم في قولهم، والتقدير: قل كذبتم فمن يملك.. إلخ..

(٤) التعبير بالأبوة والبنوة المنسوبة إلى الله تعالى تفيض بها التوراة والإنجيل وهو من التحريف الذي حصل لكتابيهم، وأمّا قول من قال: هذه الأبوة والبنوة كانت تعني التشريف فاغتر بها المتأخرون واعتقدوا حقيقتها، هذا القول فيه مجازفة لا تقبل.

(٥) قال ابن عباس رضي الله عنهما خوّف رسول الله ﷺ قومًا من اليهود بالعقاب فقالوا: لا نخاف فإننا أبناء الله وأحبّاؤه فنزلت هذه الآية.

منكم وعمل سوءًا عذبه كما هي سنته في سائر عباده، ولا اعتراض عليه فإن له ملك السموات والأرض وما بينهما وأنتم من جملة مملوكيه، وإليه المصير فسوف ترجعون إليه ويجزيكم بوصفكم إنه حكيم عليم.

هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الآية الثالثة (١٩) فقد تضمنت إقامة الحجة على أهل الكتاب فقد ناداهم الرب تبارك وتعالى بقوله: يا أهل الكتاب وأعلمهم أنه قد جاءهم رسوله محمد ﷺ يبين لهم الطريق المنجي والمسعد في وقت واحد على حين فترة[١] من الرسل إذ انقطع الوحي منذ رفع عيسى إلى السماء وقد مضى على ذلك قرابة خمسمائة وسبعين سنة أرسلنا رسولنا إليكم حتى لا تقولوا معتذرين عن شرككم وكفركم وشركم وفسادكم: (١٩) ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[٢] فها هو ذا البشير محمد[٣] ﷺ قد جاءكم[٤] فآمنوا به واتبعوه تنجوا وتسعدوا، وإلا فالعذاب لازم لكم والله على تعذيبكم قدير كما هو على كل شيء قدير.

هداية الآيات:

١ ـ كفر من ينسب إلى الله تعالى ما هو منزه عنه من سائر النقائص.

٢ ـ بطلان دعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه بالدليل العقلي.

٣ ـ نسبة المخلوقات للّه تعالى لا تتجاوز كونها مخلوقة له مملوكة يتصرف فيها كما شاء ويحكم فيها بما يريد.

٤ ـ قطع عذر أهل الكتاب بإرسال الرسول محمد ﷺ على حين فترة من الرسل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ ـ ٢٣]

(٢٠) ﴿نِعْمَةَ[٥] ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: منها نجاتهم من فرعون وملإه. ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ[٦]﴾: منهم موسى وهارون عليهما السلام. ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾: أي مالكين أمر أنفسكم بعد الاستعباد الفرعوني لكم. ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: المعاصرين لهم والسابقين لهم.

(٢١) ﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ﴾: المطهرة التي فرض الله عليكم دخولها والسكن فيها بعد طرد الكفار منها. ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾: أي ترجعوا منهزمين إلى الوراء.

(٢٢) ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾: عظام الأجسام أقوياء الأبدان يجبرون على طاعتهم من شاؤوا.

(٢٣) ﴿يَخَافُونَ﴾: مخالفة أمر الله تعالى ومعصية رسوله ﷺ. ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾: أي بنعمة العصمة حيث لم يفشوا سر ما شاهدوه لما دخلوا أرض الجبارين لكشف أحوال العدو بها، وهما يوشع وكالب من النقباء الاثني عشر.

معنى الآيات:

(٢٠) ما زال السياق مع أهل الكتاب وهو هنا في اليهود خاصة إذ قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: واذكر[٧]

---

(١) الفترة مشتقة من فتر عن عمله يفتر فتورًا إذا سكن، والأصل فيها الانقطاع عمّا كان عليه من الجد في العمل، والمراد بها في الشرع: هي انقطاع ما بين الرسولين.

(٢) ﴿مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ من زائدة، وزيادتها لغرض المبالغة في نفي المجيء، وتنكير بشير ونذير للتقليل، أي: ما جاءنا أقل بشير وأقلّ نذير.

(٣) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب قالوا لليهود: يا معشر يهود اتقوا الله فإنكم والله لتعلمون أن محمدًا رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه بصفته فقالوا: ما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بعد من بشير ولا نذير فنزلت هذه الآية.

(٤) قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ..﴾ الآية، الفاء هي الفاء الفصيحة، فقد أفصحت عن محذوف ما بعدها يكون علّة له، وتقديره هنا: لا تعتذروا فقد جاءكم.. إلخ..

(٥) النعمة: اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ فهو دال على العدد الذي لا يحصى.

(٦) أنبياء: جمع نبي ولم يصرف لأنّ فيه ألف التأنيث الممدودة.

(٧) في هذه الآيات تسلية لرسول الله ﷺ عما يلاقي من عنت وعناد يهود المدينة لذا أعلمه بما لاقى موسى منهم من غلظة وجفاء وتعنت وعناد.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

١١٢

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ﴾ كموسى وهارون عليهما السلام ﴿وَجَعَلَكُم[1] مُّلُوكٗا﴾ تملكون أنفسكم لا سلطان لأمة عليكم إلا سلطان ربكم عز وجل[2].

(٢١) ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ للسكن فيها والاستقرار بها فافتحوا باب المدينة وباغتوا العدو فإنكم تغلبون ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ﴾ أي ولا ترجعوا إلى الوراء منهزمين فتنقلبوا بذلك خاسرين، لا أمر الله بالجهاد أطعتم، ولا المدينة المقدسة دخلتم وسكنتم، واسمع يا رسولنا جواب القوم ليزول استعظامك بكفرهم بك وهمهم بقتلك، ولتعلم أنهم قوم بهت سفلة لا خير فيهم، إذ قالوا في جوابهم لنبيهم موسى عليه السلام:

(٢٢) ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ[3] وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾!! وكان سبب هذه الهزيمة الروحية ما أذاعه النقباء من أخبار مهيلة مخيفة تصف العمالقة الكنعانيين بصفات لا تكاد تتصور في العقول اللهم إلا اثنين منهم وهما يوشع بن نون، وكالب بن يوحنا وهما اللذان قال تعالى عنهما:

(٢٣) ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي أمر الله تعالى ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ فعصمهما من إفشاء سر ما رأوا من قوة الكنعانيين إلا لموسى عليه السلام قالا للقوم: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ أي باب المدينة ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ وذلك لعنصر المباغتة وهو عنصر مهم في الحروب، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ وهاجموا القوم واقتحموا عليهم المدينة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بما أوجب الله عليكم من جهاد وكتب لكم من الاستقرار بهذه البلاد والعيش بها، لأنها أرض[4] القدس والطهر. هذا ما تضمنته الآيات الأربع، وسنسمع رد اليهود على الرجلين في الآيات التالية.

هداية الآيات:

١ - تسلية الرسول ﷺ بإعلامه تعالى بخبث اليهود وشدة ضعفهم ومرض قلوبهم.

٢ - فضح اليهود بكشف الآيات عن مخازيهم مع أنبيائهم.

٣ - بيان الأثر السيء الذي تركه إذاعة النقباء للأخبار الكاذبة المهولة، وقد استعملت ألمانيا النازية هذا الأسلوب ونجحت نجاحًا كبيرًا حيث

---

(١) روي عن الحسن وزيد بن أسلم: أن من كانت له دار وزوجة وخادم فهو ملك، وهو قول عبدالله بن عمرو بن العاص كما في صحيح مسلم: إذ سأله رجل قائلاً: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبدالله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال ألك منزل تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإنّ لي خادمًا، قال: فأنت ملك.

(٢) سقطت هذه الآية من التفسير: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهو قول موسى لقومه، وما آتاهم منه: المنّ والسلوى والغمام وكون الأنبياء في بني إسرائيل في هذا المذكور تبدو الخصوصية المذكورة في قوله: ﴿مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

(٣) ﴿جَبَّارِينَ﴾: أي: عظام الأجسام طوالها والجبّار من الناس: المتعظم الممتنع من الذل والفقر أو هو من يجبر الناس على مراده لقوته عليهم وقهره لهم، وذكر القرطبي هنا حديثًا مسهبًا عن عوج بن عناق وهو حديث خرافة لما فيه من التهاويل الباطلة.

(٤) هي أرض فلسطين الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط وبين نهر الأردن والبحر الميت، فتنتهي إلى حماة شمالاً وغزة وحرون جنوبًا (نقلاً عن التنوير).

اجتاحت نصف أوربا في مدة قصيرة جدًا.

٤ ـ بيان سنة الله تعالى من أنه لا يخلو زمان ولا مكان من عبد صالح تقوم به الحجة على الناس.

٥ ـ فائدة عنصر المباغتة في الحرب وأنه عنصر فعال في كسب الانتصار.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤ ـ ٢٦]

(٢٤) ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ﴾: أي المدينة[1] التي أمروا بمهاجمة أهلها والدخول عليهم فيها.

(٢٥) ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾: أي عن أمر الله ورسوله ﷺ بتركهم الجهاد جبنًا وخوفًا.

(٢٦) ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾: أي تحريمًا كونيًا قضائيًا لا شرعيًا تعبديًا. ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي في أرض سينا متحيرين فيها لا يدرون أين يذهبون مدة أربعين سنة. ﴿فَلَا تَأْسَ﴾: أي لا تحزن ولا تأسف.

معنى الآيات:

(٢٤) هذا هو جواب القوم على طلب الرجلين الصالحين باقتحام المدينة على العدو، إذ قالوا بكل وقاحة ودناءة وخسة: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ . .﴾ أي المدينة ﴿. . أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا . .﴾ أي ما دام أهلها فيها يدافعون عنها ولو لم[2] يدافعوا، ﴿. . فَٱذْهَبْ أَنتَ[3] وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ . .﴾ أهل المدينة أما نحن فهاهنا قاعدون. أي تمرد وعصيان أكثر من هذا؟ وأي جبن وخور أعظم من هذا؟ وأي سوء أدب أحط من هذا؟

(٢٥) وهنا قال موسى متبرئًا من القوم الفاسقين: رب أي يا رب ﴿إِنِّى لَآ أَمْلِكُ[4] إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى . .﴾ يريد هارون ﴿. . فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فطلب بهذا البراءة منهم[5] ومن صنيعهم، إذ قد استوجبوا العذاب قطعًا، فأجابه ربه تعالى بقوله في الآية الثالثة (٢٦):

(٢٦) ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ . .﴾ أي الأرض المقدسة أربعين سنة لا يدخلونها وفعلاً ما دخلوها إلا بعد مضي الفترة المذكورة (أربعين سنة) وكيف كانوا فيها؟ يتيهون[6] في أرض سينا متحيرين في سيرهم لا يدرون أين يذهبون ولا من أين يأتون، وعليه فلا تحزن يا رسولنا ولا تأسف على القوم الفاسقين إذ هذا جزاؤهم من العذاب عُجّل لهم فليذوقوه!!.

هداية الآيات:

١ ـ بيان جبن اليهود، وسوء أدبهم مع ربهم وأنبيائهم.

٢ ـ وجوب البراءة من أهل الفسق ببغض عملهم وتركهم لنقمة الله تعالى تنزل بهم.

٣ ـ حرمة الحزن والتأسف على الفاسقين والظالمين إذا حلت بهم العقوبة الإلهية جزاء فسقهم وظلمهم لأنفسهم ولغيرهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ ـ ٣١]

(٢٧) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾: واقرأ على اليهود الذين هموا بقتلك وقتل أصحابك. ﴿نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾: خبر ابني آدم هابيل وقابيل. ﴿قُرْبَانًا﴾: القربان ما يتقرب[7] به إلى الله

---

(١) إليا أو أريحا لا تعدو واحدة منهما عند أكثر المفسرين والمؤرخين.

(٢) هذا الجبن والخور الذي أصاب القوم سببه: ما أذاعه النقباء فيهم ما عدا يوشع وكالب من أنّ العمالقة قوم جبّارون أجسامهم كذا وكذا في طولها وعرضها وقوتهم كذا وكذا...

(٣) هذه العبارة تدلّ على جهل القوم بالله تعالى وبما يجب له من التعظيم والوقار وهي كلمة كفر إن لم يُعذر صاحبها بجهل بالله تعالى وصفاته.

(٤) ليس معنى الملك أنّه يملكه كعبد لا! إنه أخوه فكيف يملكه وإنّما مراده: إني لا أملك إلاّ نفسي وأخي لا يملك إلاّ نفسه أيضًا لا قدرة لي ولا له على بني إسرائيل.

(٥) أراد مفاصلتهم لما ظهر منهم التمرّد، والعصيان والبعد عنهم حتى لا يصيبهما ما يصيبهم من العقاب.

(٦) التيه في اللغة: الحيرة يقال: تاه يتيه تيهًا: إذا تحيّر، والأرض التيهاء: التي لا يهتدي فيها وتاه المرء في الأرض ذهب فيها متحيّرًا لا يدري أين يذهب أو يجيء؟

(٧) قيل: كان قربان قابيل حزمة من سنبل لأنه صاحب زرع واختارها من أردأ زرعه حيث إنّه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها، وأمّا قربان هابيل فكان كبشًا لأنه صاحب غنم واختاره من أجود غنمه.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ۝٣٢ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٣٦﴾

تعالى كالصلاة والصدقات.

(٢٨) ﴿بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾: مددت إليّ يدك.

(٢٩) ﴿أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾: ترجع إلى الله يوم القيامة بإثم قتلك إياي، وإثمك في معاصيك.

(٣٠) ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ﴾: شجعته على القتل وزينته له حتى فعله.

(٣١) ﴿غُرَابٗا﴾: طائرًا أسود معروف يضرب به المثل في السواد[1]. ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾: يستر بالتراب جسد أخيه، وقيل فيه سوءة، لأن النظر إلى الميت تكرهه النفوس، والسوءة: ما يكره النظر إليها.

معنى الآيات:

(٢٧) ما زال السياق القرآني الكريم في الحديث عن يهود بني النضير الذين هموا بقتل النبي ﷺ وأصحابه فالله تعالى يقول لرسوله ﷺ: واقرأ عليهم قصة ابني آدم هابيل وقابيل ليعلموا بذلك عاقبة جريمة القتل الذي هموا به، توبيخًا لهم، وإظهارًا لموقفك الشريف منهم حيث عفوت عنهم فلم تقتلهم بعد تمكنك منهم، وكنت معهم كخير ابني آدم، ﴿.. إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا[2] ..﴾، أي قرب كل منهما قربانًا لله تعالى فتقبل الله قربان[3] أحدهما لأنه كان من أحسن ماله وكانت نفسه به طيبة، ﴿وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ وهو قابيل لأنه كان من أردأ ماله، ونفسه به متعلقة، فقال لأخيه هابيل لأقتلنك حسدًا له ـ كما حسدتك اليهود وحسدوا قومك في نبوتك ورسالتك ـ فقال له أخوه إن عدم قبول قربانك عائدٌ إلى نفسك لا إلى غيرك إنما يتقبل الله من المتقين[4] للشرك فلو اتقيت الشرك لتقبل منك قربانك لأن الله تعالى لا يتقبل إلا ما كان خالصًا له، وأنت أشركت نفسك وهواك في قربانك، فلم يتقبل منك.

(٢٨) ووالله قسمًا به ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾، وعلل ذلك بقوله: ﴿.. إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي أن ألقاه بدم أرقته ظلمًا. وإن أبيت إلا قتلي فإني لا أقتلك لأني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك أي ترجع إلى ربنا يوم القيامة بإثم قتلك إياي، وإثمك الذي قارفته في حياتك كلها، فتكون بسبب ذلك من أصحاب النار الخالدين فيها الذين لا يفارقونها أبدًا.

(٢٩) قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(٣٠) ـ (٣١) ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ

---

(١) يقال: أسود غريب وقال الشاعر:

حتى إذا شاب الغراب أتيت أهلي

(٢) القربان: اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد، إذ لكلٍّ منهما قربان وليس قربانًا واحدًا اشتركا فيه.

(٣) إن قيل: كيف عرف القبول من عدمه؟ فالجواب: إنّ سنة الله تعالى فيمن سبق أنّ من قرّب لله تعالى قربانًا فقبله أرسل عليه نارًا من السماء فأحرقته ومن لم يتقبله لم يفعل به ذلك، ويشهد له حديث الصحيح في غنائم بني إسرائيل إذ كانت محرّمة عليهم ولم تحل إلاّ لأمة الإسلام، إذ أخبر النبي ﷺ أنّ نارًا تنزل من السماء على الغنائم فتحرقها.

(٤) فيه دلالة على أن قابيل لم يكن تقيًا، وقابيل في لغة بني إسرائيل بالنون: قابين وكذا هابيل وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ..﴾ إلخ.. مسبوق بكلام دلّ عليه السياق وهو مثل قوله: لمَ تقتلني وأنا لم أجن شيئًا ولا ذنب لي في قبول الله قرباني وكونه تقبل مني لا يستوجب قتلي إنّما يتقبل الله من المتقين.

﴿أَخِيهِ﴾ أي شجعته عليه وزينته له فـقـتـلـه ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[١] النادمين لأنه لم يدر ما يصنع به، فكان يحمله على عاتقه ويمشي به حتى عفن، وعندئذ بعث الله غرابًا يبحث في الأرض أي ينبش الأرض برجليه ومنقاره وينشر التراب على ميت معه حتى واراه: أي بعث الله الغراب ليريه كيف يواري أي يستر سوءة أخيه أي جيفته، فلما رأى قابيل ما صنع الغراب بأخيه الغراب الميت قال متندمًا متحسرًا يا ويلتا أي يـا ويـلـتـي احـضـري فـهـذا أوان حضورك، ثم وبّخ نفسه قائلاً: ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ﴾ كما وارى الغراب سوءة أخيه، وأصبح من النادمين على حمله أو على قتله وعدم دفنه ومجرد الندم لا يكون توبة مع أن توبة القاتل عمدًا لا تنجيه من النار.

هداية الآيات:

١ - مشروعية التقرب إلى الله تعالى بما يحب أن يتقرب به إليه تعالى.

٢ - عظم جريمة الحسد وما يترتب عليها من الآثار السيئة.

٣ - قبول الأعمال الصالحة يتوقف على الإخلاص فيها لله تعالى.

٤ - بيان أول من سنّ جريمة القتل وهو قابيل ولذا ورد: ما من نفس تقتل نفسًا ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل «نصيب» ذلك بأنه أول من سنّ القتل.

٥ - مشروعية الدفن[٢] وبيان زمنه.

٦ - خير ابني آدم المقتول ظلمًا وشرهما القاتل ظلمًا[٣].

شرح الكلمات: [الآية: ٣٢]

(٣٢) ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾[٤]: أي بسبب ذلك القتل. ﴿كَتَبْنَا﴾: أوحينا. ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بحربه لله ورسوله ﷺ والمؤمنين. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾: قدر على قتلها وهي مستوجبة له فتركها. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الآيات الواضحات حاملة للشرائع والدلائل. ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾: مكثرون من المعاصي والذنوب.

معنى الآية الكريمة:

(٣٢) يقول تعالى: إنه من أجل قبح جريمة القتل وما يترتب عليها من مفاسد ومضار لا يقادر قدرها أوجبنا على بني إسرائيل لكثرة ما شاع بينهم من القتل وسفك الدماء فقد قتلوا الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس لأجل هذه الضراوة على القتل فقد قتلوا رسولين زكريا ويحيى وهموا بقتل كل من المرسلين العظيمين عيسى ومحمد ﷺ من أجل ذلك شددنا[٥] عليهم في العقوبة إذ من قتل منهم نفسًا بغير نفس أي ظلمًا وعدوانًا، أو قتلها بغير فساد قامت به في الأرض وهو حرب الله ورسوله ﷺ والمؤمنين فكأنما قتل الناس جميعًا بمعنى يعذب عذاب قتل الناس جميعًا يوم القيامة ومن أحياها بأن استوجبت القتل فعفا عنها وتركها لله إبقاء عليها فكأنما أحيا

---

(١) لما كان أول من سن القتل فإنه لا تقتل نفس ظلمًا إلاّ وعليه كفل منها لقوله ﷺ: **«لا تقتل نفس ظُلمًا إلاّ كان على ابن آدم كفل من دمها لأنه أول** من سن **القتل»** وفي الحديث الآخر: **«من سنة سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»**.

(٢) يستحب توسعة القبر لقوله: **«احفروا وأوسعوا وأحسنوا اللحد»** واللّحد أفضل من الشق لقوله ﷺ: **«اللحد لنا والشق لغيرنا»** ويستحب لمن يضع الميت في قبره أن يقول: بسم الله وعلى ملة رسول الله ولمن حضر الدفن: أن يحثو على القبر من قبل رأسه ثلاثًا.

(٣) وإن قيل ما تصنع بحديث الصحيح: **«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»** قلت: هذا الحديث فيمن يقاتل في غير حق استوجب القتل والقتال، أمّا من ظُلم فدافع عن نفسه فقُتل فهو شهيد بنص الحديث الصحيح، وكذا من بغى على المسلمين فقتاله واجب ومن قاتله فهو مجاهد ومن قتل فهو شهيد.

(٤) قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ تعليل لقوله: ﴿كَتَبْنَا﴾ ومن ابتدائية، والأجل: الجراء والسبب هو مصدر أجل يأجل ويأجل بمعنى: جنى واكتسب فلذا هو يقال في الخير كما يقال في الشرّ تقول: أكرمته لأجل علمه، كما تقول: أهنته لأجل فسقه.
أمّا الجراء في قولك فعلت كذا من جراء كذا فهو مأخوذ من جرّ إذا سبب، تقول: فعلي كذا جرّ لي كذا أي: سببه.

(٥) خصّ بني إسرائيل بهذا دون من سبقهم من الأمم تغليظًا عليهم لجرئتهم على القتل علّهم يكفّون من سفك الدماء، إذ قتلوا حتى الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس.

الناس[١] جميعًا يعني يُعطى أجر من أحيا الناس[٢] جميعًا كل هذا شرعه الله تعالى لهم تنفيرًا لهم من القتل الذي أصروا عليه، وترغيبًا لهم في العفو الذي جافوه وبعدوا عنه فلم يعرفوه. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ[٣] رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يخبر تعالى عن حالهم مسليًا رسوله محمدًا ﷺ عما يحمله من همّ منهم وهم الذين تآمروا على قتله أن الشر الذي لازم اليهود والفساد الذي أصبح وصفًا لازمًا لهم وخاصة المؤامرات بالقتل وإيقاد نار الحروب لم يكن عن جهل وعدم معرفة منهم لا أبدًا بل جاءتهم رسلهم بالآيات البينات والشرائع القويمة والآداب الرفيعة ولكنهم قوم بهت متمردون على الشرائع مسرفون في الشر والفساد ولذا فإن كثيرًا منهم والله لمسرفون في الشر والفساد، وبنهاية هذه الآية ومن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ ..﴾ وهي الآية (١١) انتهى الحديث عن اليهود المتعلق بحادثة همهم بقتل الرسول ﷺ وأصحابه وقد ذكر تسلية لرسول الله ﷺ وأصحابه، كما هو تسلية لكل مؤمن يتعرض لمكر اليهود عليهم لعائن الله.

هداية الآية الكريمة:

١ - تأديب الرب تعالى لبني إسرائيل ومع الأسف لم ينتفعوا به.

٢ - فساد بني إسرائيل لم ينشأ عن الجهل وقلة العلم بل كان اتباعًا للأهواء وجريًا وراء عارض الدنيا. فلذا غضب[٤] الله عليهم ولعنهم لأنهم عالمون.

٣ - بالرغم من تضعيف جزاء الجريمة على اليهود، ومضاعفة أجر الحسنة لهم فإنهم أكثر الناس إسرافًا في الشر والفساد في الأرض.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣، ٣٤]

(٣٣) ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: بالخروج عن طاعتهما وحمل السلاح على المؤمنين وقتلهم وسلب أموالهم والاعتداء على حرماتهم. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾: بإخافة الناس وقطع طرقهم وسلب أموالهم والاعتداء على أعراضهم. ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾: يشدون على أعواد الخشب ويقتلون، أو بعد أن يقتلوا. ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: بأن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، والعكس. ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي من أرض الإسلام. ﴿خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾: ذل ومهانة. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: عذاب جهنم.

(٣٤) ﴿أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾: أي تتمكنوا منهم بأن فروا بعيدًا ثم جاؤوا مسلمين.

معنى الآيتين:

(٣٣) لما ذكر تعالى ما أوجبه على اليهود من شدة العقوبة وعلى جريمة القتل والفساد في الأرض كسرًا لحدة جرأتهم على القتل والفساد ذكر هنا حكم وجزاء من يحارب المسلمين ويسعى بالفساد في ديارهم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ[٥] يُحَارِبُونَ

---

(١) كأن: للتشبيه ومن هنا يكون معنى الكلام كتبنا مشابهة قتل نفس بغير نفس.. إلخ.. بقتل الناس أجمعين أي: في عظم الجرم، ومشابهة من أحيى الناس جميعًا في عظم الأجر.

(٢) من أحياها: معناه من استنقذها من الموت بأن عفا عنها بعد تعيّن القصاص عليها أو دافع عنها حتى أنقذها ممن أراد قتلها لأنّ الإحياء بعد الموت ليس في مقدور الإنسان وإنّما قد يهمّ المرء بالقتل ويعفو فيكون كمن أحياها.

(٣) هذه الجملة تذييل لما سبق من حكم الله تعالى فيهم حيث شرع لهم وأعلمهم بأنّ من يقتل نفسًا ظلمًا وعدوانًا يعتبر شرعًا كأنما قتل الناس جميعًا ذكر فيه أنّه لا عذر لهم فيما عوقبوا به إذ لم يكونوا جاهلين لمجيئهم رسلهم بالآيات البيّنات تحمل الشرائع والهدايات ومع هذا فإنّ كثيرًا منهم مسرفون في المعاصي والجرائم العظام كالقتل في الأرض.

(٤) شاهده من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ من الممتحنة. و﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ من الفاتحة.

(٥) الجمهور على أنّ سبب نزول هذه الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ..﴾ إلخ.. هو: العرنيون الذين نزلوا المدينة وادعوا أنهم اجتووها.. أي: أمرضهم مُناخها - فأمر لهم الرسول ﷺ بلقاح وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها فخرجوا خارج المدينة، ولما شفوا وصحوا قتلوا الراعي ومثّلوا به وذهبوا بالإبل فلحقتهم خيل المسلمين فردّتهم ونزلت هذه الآية ببيان حكم الله فيهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فبقي هذا تشريعًا يطبّق على مثلهم إلى يوم القيامة.

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالكفر[1] بعد الإيمان والقتل والسلب بعد الأمان، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بتخويف المسلمين، وقطع طرقهم وأخذ أموالهم، والاعتداء على حرماتهم وأعراضهم، هو ما أذكره لكم لا غيره فاعلموه أنه ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ومعنى يقتلوا: يقتلون واحدًا بعد واحد نكاية لهم وإرهابًا وتعزيرًا لغيرهم، ومعنى يصلبوا بعدما يقتل الواحد منهم يشد على خشبة مدة ثلاثة أيام ومعنى ينفوا من الأرض يخرجوا من دار الإسلام، أو إلى مكان ناءٍ كجزيرة في بحر أو يحبسوا حتى ينجو المسلمون من شرهم وأذاهم، ويكون ذلك الجزاء المذكور خزيًا وذلاً لهم[2] في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار.

﴿٣٤﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ فهذا استثناء متصل من أولئك المحاربين بأن من عجزنا عنه فلم نتمكن من القبض عليه، وبعد فترة جاءنا تائبًا فإن حكمه يختلف عمن قبله، وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يحمل إشارة واضحة إلى تخفيف الحكم عليه، وذلك فإن كان كافرًا وأسلم فإن الإسلام يجب ما قبله فيسقط عنه كل ما ذكر في الآية من عقوبات.. وإن كان مسلمًا فيسقط الصلب ويجب عليه رد المال الذي أخذه إن بقي في يده، وإن قتل أو فجر وطالب بإقامة الحد عليه أقيم عليه الحد، وإلا ترك لله والله غفور رحيم.

هداية الآيتين:

١ - بيان حكم الحرابة[3] وحقيقتها: خروج جماعة اثنان فأكثر ويكون بأيديها سلاح ولهم شوكة، خروجهم إلى الصحراء بعيدًا عن المدن والقرى، يشنون هجمات على المسلمين فيقتلون ويسلبون ويعتدون على الأعراض، هذه هي الحرابة وأهلها يقال لهم المحاربون وحكمهم ما ذكر تعالى في الآية الأولى (٣٣).

٢ - الإمام مخير في إنزال العقوبة

---

(١) لأن العرنيين وكانوا سبعة، ثلاثة من عُكل وأربعة من عرينة كفروا بعد إيمانهم الذي أظهروا بالمدينة ثمّ ادعوا أنهم استوخموا المدينة فساعدهم الرسول ﷺ رحمة منه بما يشفيهم فلمّا شفوا وصحوا كفروا وقتلوا الراعي وساقوا الإبل، والآية عامة في المرتد وغيره والحكم ما بيّن الله تعالى في هذه الآية لا غيره وصيغة الحصر في إنّما ظاهرة.

(٢) إن كان المحاربون مسلمين فالخزي لهم هو نزول العقوبة بهم في الدنيا من القتل والصلب والنفي وفي الآخرة ينجون من عذابها إن تابوا قبل موتهم، وإن كان المحاربون كافرين فالخزي عذاب الدنيا والعذاب العظيم لهم في الآخرة، وفرّقنا بين المسلمين والكافرين لأنّ المسلمين إقامة الحد عليهم يكفّر ذنب الجريمة للحديث الصحيح في البيعة: **«فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا نعوقب به فهو كفّارة له ومن أصاب منها شيئًا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له»** فقوله: ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ دليل على سقوط عذاب الآخرة بالحدّ.

(٣) الجمهور على أن اللّص كالمحارب يناشد بالله تعالى أن يكفّ وينصرف وإن أبى يقاتل ويقتل ومن قتله اللّصّ فهو في الجنة وإن قتل اللّصّ فهو في النار لحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ قال: أرأيت يا رسول الله إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: **«فلا تعطه مالك»** قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: **«قاتله»**. قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: **«فأنت شهيد»**. قال: فإن قتلته؟ قال: **«هو في النار»**.

التي يرى أنها مناسبة[١] لاستتباب الأمن، إن قلنا أو في الآية للتخيير، وإلا فمن قتل وأخذ المال وأخاف الناس قتل وصلب، ومن قتل ولم يأخذ مالاً قتل، ومن قتل وأخذ مالاً قطعت[٢] يده ورجله من خلاف فتقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، ومن لم يقتل ولم يأخذ مالاً ينفى[٣].

٣ - من تاب من المحاربين قبل التمكن منه يعفى عنه إلا أن يكون بيده مال سلبه فإنه يرده على ذويه أو يطلب بنفسه إقامة الحد عليه فيجاب لذلك.

٤ - عظم عفو الله ورحمته بعباده لمغفرته لمن تاب ورحمته له.

شرح الكلمات:
[الآية: ٣٥ - ٣٧]

(٣٥) ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: خافوا عذابه فامتثلوا أمره وأمر رسوله ﷺ واجتنبوا نهيهما. ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ﴾: اطلبوا. ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾[٤]: تقربوا إليه بفعل محابه وترك مساخطه تظفروا بالقرب[٥] منه. ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾: أنفسكم بحملها على أن تتعلم وتعمل وتعلم، وأعداءه بدعوتهم إلى الإسلام وقتالهم على ذلك. ﴿تُفْلِحُونَ﴾: تنجون من النار وتدخلون الجنة.

(٣٧) ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: دائم لا يبرح ولا يزول.

معنى الآيات:

(٣٥) ينادي الرب تبارك وتعالى عباده المؤمنين به وبرسوله ﷺ ووعده ووعيده ليرشدهم إلى ما ينجيهم من العذاب فيجتنبوه، وإلى ما يدنيهم من الرحمة فيعملوه فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ[٦] ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ ومعنى اتقوا الله خافوا عذابه فأطيعوه بفعل أوامره وأوامر رسوله ﷺ واجتناب نواهيهما فإن عذاب الله لا يتقى إلا بالتقوى. ومعنى ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ اطلبوا إليه القربة، أي تقربوا إليه بفعل ما يحب وترك ما يكره تفوزوا بالقرب منه. ومعنى ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ جاهدوا أنفسكم في طاعته والشيطان في معصيته، والكفار في الإسلام إليه والدخول في دينه باذلين كل ما في وسعكم من جهد وطاقة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣٥).

(٣٦) أما الآية الثانية (٣٦) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ..﴾ إلخ فإنها علة لما دعت إليه الآية الأولى من الأمر بالتقوى وطلب القرب من الله تعالى وذلك بالإيمان وصالح الأعمال، لأن العذاب الذي أمروا باتقائه بالتقوى عذاب لا يطاق أبدًا ناهيكم أن الذين كفروا ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٧]

---

(١) هذا مذهب الجمهور من الأئمة، وهو أرفق وأصلح وأكثر تمثيلاً للآية وانسجامًا معها.

(٢) مذهب الجمهور وهو الحق: لا تقطع يد المحارب إلاّ في مال تقطع فيه يد السارق وهو زنة ربع دينار ذهب فأكثر.

(٣) إن تعذّر النفي فالسجن يقوم مقامه إذ هو نفي من ظاهر الأرض إلى باطنها كما قال الشاعر:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيا
إذا جاءنا السجّان يومًا لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

(٤) الوسيلة لغة: القربة والجمع قُرَب، وهي: فعيلة بمعنى مفعولة، أي: متقرَّب بها، من توسل إلى فلان: تقرّب إليه بكذا، وشاهده من قول العرب قول عنترة:

إنّ الرجال لهم إليك وسيلة ... أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

والوسيلة تجمع على وسائل، ومنه قول القائل:

إذا غفل الواشون عُدنا لوصلنا ... وعاد التصافي بيننا والوسائل

(٥) فكلّ قربة هي وسيلة تقرّب من رضا الله والزلفى إليه، وعليه فكلّ الأعمال الصالحة هي وسيلة، وفي الحديث الصحيح: «**ما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه**».

(٦) تقديم الجار والمجرور على المفعول المطلوب في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ مؤذن بتوحيد الله تعالى بالعبادات التي يتقرّب بها إليه فلا يصح صرف شيء منها إلى غيره مهما كان.

(٧) أي: لو ثبت لهم ما في الأرض ومثله معه أيضًا لأجل الافتداء به لا لأجل أن يكنزوه أو ينفقوه في وجوه الإنفاق المحبوبة لهم، لافتدوا به، ولكن أنى يكون لهم ذلك.

﴿جَمِيعًا﴾ من مال صامت وناطق ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ وقبل منهم فداء لأنفسهم من ذلك العذاب لقدموه سخية به نفوسهم، إنه عذاب أليم موجع أشد الوجع ومؤلم أشد الألم إنهم يتمنون بكل قلوبهم أن يخرجوا من النار

(٣٧) ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ[1] مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم لا يبرح ولا يزول.

هداية الآيات:

١ - وجوب تقوى الله عز وجل وطلب القربة إليه والجهاد في سبيله.

٢ - مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالإيمان[2] وصالح الأعمال.

٣ - عظم عذاب يوم القيامة وشدته غير المتناهية.

٤ - لا فدية يوم القيامة ولا شفاعة تنفع الكافر فيخرج بها من النار.

٥ - حسن التعليل للأمر والنهي بما يشجع على الامتثال والترك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ - ٤٠]

(٣٨) السارق: الذي أخذ مالاً من حرز خفية يقدر بربع دينار فأكثر.

السارقة: التي أخذت مالاً من حرز خفية يقدر بربع دينار فأكثر.

﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾: أي اقطعوا من سرق منهما يده من الكوع.

﴿نَكَالًا﴾: عقوبة[3] من الله تجعل غيره ينكل أن يسرق. ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: عزيز: غالب لا يحال بينه وبين مراده، حكيم: في تدبيره وقضائه.

(٣٩) ﴿بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾: بعد ظلمه لنفسه بمعصية الله تعالى بأخذ أموال الناس. ﴿وَأَصْلَحَ﴾: أي نفسه بتزكيتها بالتوبة والعمل الصالح. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾: أي يقبل توبته، ويغفر له ويرحمه إن شاء.

(٤٠) ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: خلقًا وملكًا وتدبيرًا. ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾: أي تعذيبه لأنه مات عاصيًا لأمره كافرًا بحقه. ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾: ممن تاب من ذنبه وأناب إليه سبحانه وتعالى.

معنى الآيات:

(٣٨) يخبر تعالى مقررًا حكمًا[4] من أحكام شرعه وهو أن الذي يسرق مالاً يقدر بربع دينار فأكثر من حرز[5] مثله خفية وهو عاقل بالغ، ورفع إلى الحاكم، والسارقة كذلك فالحكم أن تقطع يد السارق اليمنى من الكوع وكذا يد السارقة مجازاة لهما على ظلمهما بالاعتداء على أموال غيرهما، ﴿نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي عقوبة من الله تعالى لهما تجعل غيرهما لا يقدم على أخذ أموال الناس بطريق السرقة المحرمة، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ غالب على أمره حكيم في قضائه وحكمه. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ[6] وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾[7] من الإثم ﴿نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(١) ذكر القرطبي أن يزيد الفقير قال: قيل لجابر بن عبدالله رضي الله عنهما: إنكم يا أصحاب محمد تقولون: إن قومًا يخرجون من النار، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ فقال جابر: إنكم تجعلون العامّ خاصًا والخاص عامًا إنما هذه في الكفار خاصة فقرأت الآية كلها من أولها إلى آخرها فإذا هي في الكفار خاصة.

(٢) لذا وجب معرفة محابّ الله تعالى ومكارهه من الاعتقادات، والأقوال، والأعمال والصفات ليتوسل بها إلى الله تعالى فعلًا وتركًا للحصول على رضاه والفوز بالجنة والنجاة من النار.

(٣) هل يكون غرم مع القطع؟ مالك يرى إن وجد المال عنده أخذ وإن كان موسورًا أخذ من ماله وإن معسرًا يكتفى بالقطع وهذا أرحم وأحكم، وتعلّق يد السارق في عنقه لحديث الترمذي وأبي داود والنسائي.

(٤) لمّا ذكر تعالى حكم المحاربين ذكر حكم السارق والسارقة وما ذكر بينهما من دعوة المؤمنين إلى التقوى والتقرّب إلى الله تعالى للحصول على رضاه هو من باب تنويع الأسلوب وتلوين الكلام إذهابًا للسآمة والملل عن القارىء والسامع.

(٥) السارق عند العرب: هو من جاء مستترًا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من ظاهر فهو مختلس ومستلب ومنتهب فإن تمنّع بما أخذ فهو غاصب.

(٦) قرىء: ﴿والسارقَ﴾ بالنصب على تقدير: اقطعوا السارق والسارقة وقرىء بالرفع وهو أشهر والإعراب فيما فرض لكم السارق والسارقة فاقطعوا وأحسن من أن يكون السارق والسارقة مبتدأ وجملة فاقطعوا الخبر.

(٧) أوّل سارق قطعت يده في الإسلام هو الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وأوّل سارقة في الإسلام هي مرّة بنت سفيان المخزومية.

الجُزْءُ السَّادِس سُورَةُ المَائِدَةِ

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

١١٥

(٣٩) وقوله تعالى في الآية الثانية (٣٩): ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ أي تاب من السرقة بعد أن ظلم نفسه بذلك ﴿وَأَصْلَحَ﴾ نفسه بالتوبة. ومن ذلك رد المال المسروق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ لأنه تعالى غفور للتائبين رحيم بالمؤمنين.

(٤٠) وقوله تعالى في الآية الثالثة (٤٠): ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يخاطب تعالى رسوله ﷺ وكل من هو أهل للتلقي والفهم من الله تعالى فيقول مقررًا المخاطب: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والجواب بلى، وإذًا فالحكم له تعالى لا ينازع فيه فلذا هو يعذب ويقطع يد السارق والسارقة ويغفر لمن تاب من السرقة وأصلح. وهو على كل شيء قدير.

هداية الآيات:

١ - بيان حكم حد السرقة وهو قطع يد السارق[1] والسارقة.

٢ - بيان أن التائب من السراق إذا أصلح يتوب الله عليه أي يقبل توبته.

٣ - إذا لم يرفع السارق إلى الحاكم تصح توبته ولو لم تقطع يده، وإن رفع فلا توبة له إلا بالقطع فإذا قطعت يده خرج من ذنبه كأن لم يذنب.

٤ - وجوب التسليم لقضاء الله تعالى والرضا بحكمه لأنه عزيز حكيم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ - ٤٣]

(٤١) ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾: الحزن ألم نفس يسببه خوف فوات محبوب. ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾: بمعنى يسرعون فيه إذ ما خرجوا منه كلما سنحت فرصة للكفر أظهروه. ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: هؤلاء هم المنافقون. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: أي اليهود. ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾: أي كثيرو الاستماع للكذب. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾: يبدلون الكلام ويغيرونه ليوافق أهواءهم. ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾: أي أعطيتم. ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾: أي ضلاله لما سبق له من موجبات الضلال. ﴿أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾: من الكفر والنفاق. ﴿خِزْىٌ﴾: ذل.

(٤٢) ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾: كثيرو الأكل للحرام كالرشوة والربا. ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: أي لا تحكم بينهم. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: أي بالعدل.

(٤٣) ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي صدقًا وحقًا وإن ادعوه نطقًا.

معنى الآيات:

(٤١) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾[2]

---

(١) الإجماع على أنّ الوالد لا تقطع يده إذا سرق مال ولده لقوله ﷺ: **«أنت ومالك لأبيك»** واختلف في العكس، والراجح أنه لا قطع عليه، وهل تقطع اليد في السفر، وفي دار الحرب؟ خلاف، مالك يرى إقامة الحدود في دار الحرب، واليد تقطع من الرسغ، والرجل من المفصل ولا قطع على الصبي والمجنون، والعبد إن سرق من مال سيّده، ولا السيّد من مال عبده.

(٢) هو النبي محمد ﷺ خاطبه ربّه بعنوان الرسالة تشريفًا له وتعظيمًا وإشعارًا له بعدم داعي الحزن إذ مَنْ كان في مقامه لا يحزن مهما كانت المصائب، والآية نزلت في حادثة زنى اليهوديين إذ روي في الصحيحين أن جابرًا قال: زنى رجل من أهل فدك، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمدًا عن ذلك فإن أمركم بالجلد فخذوه وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه فسألوه فدعا ابن صوريا وكان عالمهم وكان أعور فقال له رسول الله ﷺ: **«أنشدك الله كيف تجدون حدّ الزنى في كتابكم؟»** فقال ابن صوريا: فأمّا إذا ناشدتني الله فإنا نجد في التوراة أنّ النظرة زنية، والاعتناق زنية، والقبلة زنية، فإن شهد أربعة بأنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة فقد وجب الرجم فقال النبي ﷺ: **«هو ذاك»**.

﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ..﴾ إلى قوله ﴿.. عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في نهاية الآية نزل تسلية لرسول الله ﷺ وتخفيفًا مما كان يجده ﷺ من ألم نفسي من جراء ما يسمع ويرى من المنافقين واليهود فناداه ربه تعالى بعنوان الرسالة التي كذب بها المنافقون واليهود معًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ الحق، لينهاه عن الحزن الذي يضاعف ألمه: ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ حال الذين ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ بتكذيبك فإنهم ما خرجوا من الكفر بل هم فيه منغمسون فإذا سمعت منهم قول الكفر لا تحفل به حتى لا يسبب لك حزنًا في نفسك. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ[1] قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي لا يحزنك كذلك حال اليهود الذين يكذبون بنبوءتك ويجحدون رسالتك، ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ سماعون ليهود آخرين لم يأتوك كيهود خيبر وفدك أي كثيرو السمع للكذب الذي يقوله أحبارهم لما فيه من الإساءة إليك سماعون لأهل قوم آخرين ينقلون إليهم أخبارك كوسائط وهم لم يأتوك وهم يهود خيبر إذ أوعزوا إليهم أن يسألوا لهم النبي ﷺ عن حد الزنى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾، أي يغيرون حكم الله الذي تضمنه الكلام، يقولون لهم إن أفتاكم في الزانين المحصنين بالجلد والتحميم بالفحم فاقبلوا ذلك وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك. هذا معنى قوله تعالى في هذه الآية: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ أي إضلاله عن الحق لما اقترف من عظائم الذنوب وكبائر الآثام ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إذا أراد الله إضلاله إذًا فلا يحزنك مسارعتهم في الكفر، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من الحسد والشرك والنفاق لسوابق الشر التي كانت لهم فحالت دون قبول الإيمان والحق، ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي ذل وعار، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ جزاء كفرهم وبغيهم. هذا ما دلت عليه الآية (٤١).

(٤٢) أما الآية الثانية (٤٢) فقد تضمنت وصف أولئك اليهود بصفة كثرة استماع الكذب مضافًا إليه كثرة أكلهم للسحت وهو المال الحرام أشد حرمة كالرشوة والربا[2]، فقال تعالى عنهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ[3] ۚ فَإِن جَآءُوكَ ..﴾ أي للتحاكم عندك فأنت مخير بين أن تحكم بينهم بحكم الله[4]. أو تعرض عنهم وتتركهم لأحبارهم يحكمون بينهم كما شاؤوا وإن تعرض عنهم فلم تحكم بينهم لن يضروك شيئًا أي من الضرر ولو قل، لأن الله تعالى وليك وناصرك، وإن حكمت بينهم فاحكم بينهم بالقسط، أي بالعدل، لأن الله تبارك وتعالى يحب ذلك فافعله لأجله إنه يحب القسط والمقسطين.

(٤٣) وقوله تعالى في الآية الثالثة (٤٣): ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي إنه مما يتعجب منه أن يحكموك فتحكم بينهم برجم الزناة، وعندهم التوراة

---

(١) مِنْ: بيانية، أي: بيّنت أن المسارعين في الكفر هم من المنافقين واليهود.

(٢) الرشوة مشتقة من الرشا الذي هو الحبل الذي يستخرج به الماء من البئر بضميمة الدلو وعليه فكل مال أعطي لحاكم ليأخذ به الراشي حق امرىء فهو رشوة وسحت محرّمان بلا خلاف، وكذا ما يدفعه الواسطة لحاكم ليسقط عنه حقًا وجب عليه فهو رشوة. أمّا ما كان ليدفع به عن نفسه أو ماله أو عرضه أو دينه فلا يحرم وليس هو من الرشوة، قال السمرقندي الفقيه: وبهذا نأخذ.

(٣) أصل السحت: الهلاك والشدّة قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ وقال الفرزدق:

وعضّ زمانٍ يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحتًا أو مجلّف

وسمي المال الحرام كالربا، والرشوة سحتًا لأنه يسحت الطاعات ويبطل ثوابها ويسحت البركة ويزيلها.

(٤) يرى مالك والشافعي أن اليهود إذا رفعوا للإمام قضية دم أو مال أو عرض حكم بينهم بما أنزل الله، وإن كان ما رفعوه لا يتعلق بالمال أو الدم أو العرض تركهم معرضًا عنهم، وأبو حنيفة يرى الحكم بينهم مطلقًا.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

فيها نفس الحكم فرفضوه معرضين عنه اتباعًا لأهوائهم، ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا بك ولا بحكمك ولا بحكم التوراة.

هداية الآيات:

١ - استحباب ترك الحزن باجتناب أسبابه ومثيراته.

٢ - حرمة سماع الكذب لغير حاجة تدعو إلى ذلك.

٣ - حرمة تحريف الكلام وتشويهه للإفساد.

٤ - الحاكم المسلم مخير في الحكم بين أهل الكتاب إن شاء حكم بينهم وإن شاء أحالهم على علمائهم.

٥ - وجوب العدل في الحكم ولو كان المحكوم عليه غير مسلم.

٦ - تقرير كفر[1] اليهود وعدم إيمانهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٤ - ٤٧]

﴿٤٤﴾ ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: كتاب موسى عليه السلام. ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾: الهدى: ما يوصل إلى المقصود، والنور: ما يهدي السائر إلى غرضه. ﴿هَادُوا۟﴾: اليهود. الربانيون: جمع رباني: العالم المربي الحكيم. الأحبار[2]: جمع حبر: العالم من أهل الكتاب.

﴿٤٥﴾ ﴿وَكَتَبْنَا﴾: فرضنا عليهم وأوجبنا. ﴿قِصَاصٌ﴾: مساواة.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أتبعناهم بعيسى بن مريم.

﴿٤٧﴾ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: الخارجون عن طاعة الله ورسله.

معنى الآيات:

﴿٤٤﴾ ما زال السياق الكريم في الحديث على بني إسرائيل إذ قال تعالى مخبرًا عما آتى بني إسرائيل ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ هدى من كل ضلالة ونور مبين للأحكام مُخرج من ظلمات الجهل ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ من بني إسرائيل ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ لله قلوبهم ووجوههم فانقادوا لله ظاهرًا وباطنًا، ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾[3]، ويحكم بها الربانيون من أهل العلم والحكمة من بني إسرائيل ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ بسبب استحفاظ الله تعالى إياهم كتابه التوراة فلا يبدلونه ولا يغيرون فيه، ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ بأحقيته وسلامته من النقص والزيادة بخلافكم أيها اليهود فقد حرفتم الكلم عن مواضعه وتركتم الحكم به فما لكم؟ فأظهروا الحق من نعت محمد ﷺ والأمر بالإيمان به، ومن ثبوت الرجم وإنفاذه في الزناة ولا تخشوا الناس في ذلك واخشوا الله تعالى فهو أحق أن يخشى، ولا تشتروا بآيات الله التي هي أحكامه فتعطلوها مقابل ثمن قليل تأخذونه ممن تجاملونهم وتداهنونهم على حساب دين الله وكتابه. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[4] فكيف

---

(١) قالت العلماء: إنّ مَنْ طلب غير حكم الله تعالى من حيث لم يرضَ به فهو كافر وهذه حالة اليهود، وحال أكثر المسلمين اليوم حيث لم يرضوا بحكم الله تعالى وحكّموا شرائع الباطل، وقوانين الكفر.

(٢) قالوا: الحَبر بالفتح العالم لتحبير الكلام والعلم وتحسينه.

(٣) قد تكون اللام هنا بمعنى على أي: على الذين هادوا، وقد تكون على بابها ويكون لفظ عليهم محذوفًا أي: يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا وعليهم فحذف (عليهم).

(٤) القول الذي لا خلاف فيه هو أنّ المسلم لا يكفر لمجرّد عدم حكمه بما أنزل الله تعالى. وإنّما يفسق ويصبح في عداد الفاسقين من أمّة الإسلام أمّا الكفر فلا يكفر ولا يكفر إلاّ بشرط أن ينكر هداية القرآن وصلاحيته ويعرض عنه مستخفًا به مفضلاً عليه غيره.

ترضون بالكفر بدل الإيمان.

(٤٥) هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٤٤) أما الآية الثانية (٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ[1]..﴾ فقد أخبر تعالى أنه فرض على بني إسرائيل في التوراة القود في النفس والقصاص في الجراحات فالنفس تُقتل بالنفس، العين تُفقأ بالعين[2] والأنف يُجدع بالأنف، والأذن تُقطع[3] بالأذن والسن تُكسر إن كُسرت[4] بالسن، وتُقلع به إن قلع، والجروح[5] بمثلها قصاص ومساواة. وأخبر تعالى أن من تصدق على الجاني بالعفو عنه وعدم المؤاخذة فإن ذلك يكون كفارة لذنوبه[6]، وإن لم يتصدق عليه واقتص منه يكون ذلك كفارة لجنايته بشرط وذلك بأن يقدم نفسه للقصاص تائبًا أي نادمًا على فعله مستغفرًا ربه. وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وذلك بأن قتل غير القاتل أو قتل بالواحد اثنين أو فقأ بالعين عينين كما كان بنو النضير يعاملون به قريظة بدعوى الشرف عليهم. هذا ما دلت عليه الآية الثانية.

(٤٦) أما الثالثة (٤٦) وهي قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فقد أخبر تعالى أنه أتبع أولئك الأنبياء السابقين من بني إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام أي أرسله بعدهم مباشرة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ لم ينكرها أو يتجاهلها، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾، أي وأعطيناه الإنجيل وحيًا أوحيناه إليه وهو كتاب مقدس أنزله الله تعالى عليه، فيه أي في الإنجيل هدى من الضلال ونور لبيان الأحكام من الحلال والحرام، ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ أي الإنجيل لما قبله من التوراة أي مقررًا أحكامها مثبتًا لها إلا ما نسخه الله تعالى منها بالإنجيل، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي يجد فيه أهل التقوى الهداية الكافية للسير في طريقهم إلى الله تعالى والموعظة التامة للاتعاظ بها في الحياة. هذا ما دلت عليه الآية الثالثة.

(٤٧) أما الآية (٤٧) وهي قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ أي وقلنا ليحكم أهل الإنجيل يريد وأمرنا أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه من الأحكام، وأخبرناهم أن من ﴿لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ عن أمره الخارجون عن طاعته وقد يكون الفسق ظلمًا وكفرًا.

هداية الآيات:

١ - وجوب خشية الله بأداء ما أوجب وترك ما حرم.

٢ - كفر من جحد أحكام الله فعطلها أو تلاعب بها فحكم بالبعض دون البعض.

٣ - وجوب[7] القود في النفس والقصاص في الجراحات لأن ما كتب على بني إسرائيل كتب على هذه الأمة.

٤ - من الظلم أن يعتدى في القصاص بأن يقتل بالواحد اثنان أو يقتل غير القاتل أو يفقأ بالعين الواحدة عينان مثلًا وهو كفر مع الاستحلال وظلم في نفس الوقت.

٥ - مشروعية القصاص في الإنجيل وإلزام أهله بتطبيقه وتقرير فسقهم إن عطلوا تلك الأحكام وهم مؤمنون بها.

---

(١) الذي عليه أكثر الفقهاء أنّ المسلم لا يقتل بالذميّ لقول الرسول ﷺ: **«المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يدٌ على من سواهم ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده»** رواه أبو داود والترمذي.

(٢) لا خلاف أنّ في العينين دية وفي العين الواحدة نصف دية، وفي عين الأعور دية كاملة وفي الأنف إذا جدع الدية كاملة.

(٣) الدية في ذهاب السمع أمّا مع بقاء السمع ففيه حكومة.

(٤) في السنّ خمس من الإبل للحديث الصحيح في ذلك.

(٥) وفي الشفتين الدية وفي الواحدة نصف الدية وفي اللسان إذا قطع الدية.

(٦) اختلف في دية المرأة الأكثرون على أنّ أصبعها كأصبع الرجل وسنّها كسنّه وموضحتها كموضحته ومنقلتها كمنقلته، فإذا بلغت ثلث الدية كانت على النصف من دية الرجل، وقالت طائفة: دية المرأة فيما ذكر على النصف من دية الرجل.

(٧) إلاّ أن يرضى المظلوم بالدية فإنّه يعطاها على نحو ما تقدم آنفًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٨ ـ ٥٠]

(٤٨) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن الكريم. ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اسم جنس بمعنى الكتب السابقة قبله كالتوراة والإنجيل. ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: حاكمًا عليه أي محققًا للحق الذي فيه، مبطلاً للباطل الذي التصق به. ﴿شِرْعَةً[1] وَمِنْهَاجًا﴾: شريعة تعملون بها وسبيلاً تسلكونه لسعادتكم وكمالكم من سنن الهدى. ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: لا اختلاف بينكم في عقيدة ولا في عبادة ولا قضاء. ﴿فَٱسْتَبِقُوا﴾: أي بادروا فعل الخيرات ليفوز السابقون.

(٤٩) ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾: يضلوك عن الحق. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا عن قبول الحق الذي دعوتهم إليه وأردت حكمهم به.

(٥٠) ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: هو ما عليه أهل الجاهلية من الأحكام القبلية التي لا تقوم على وحي الله تعالى وإنما على الآراء والأهواء.

معنى الآيات:

(٤٨) لما ذكر تعالى إنزاله التوراة وأن فيها الهدى والنور وذكر الإنجيل وأنه أيضًا فيه الهدى والنور، ناسب ذكر القرآن الكريم فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متلبسًا به لا يفارقه الحق والصدق لخلوه من الزيادة والنقصان حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة، ومهيمنًا[2] عليها حفيظًا حاكمًا فالحق ما أحقه منها والباطل ما أبطله منها. وعليه ﴿فَٱحْكُم﴾ يا رسولنا بين اليهود والمتحاكمين إليك ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إليك بقتل القاتل ورجم الزاني لا كما يريد اليهود ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ في ذلك وتترك ما جاءك من الحق، واعلم أنا جعلنا لكل أمة شرعة ومنهاجًا، أي شرعًا وسبيلاً خاصًا يسلكونه في إسعادهم وإكمالهم، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على شريعة واحدة لا تختلف في قضاياها وأحكامها لفعل، ولكن نوّع الشرائع فأوجب وأحل ونهى وحرم في شريعة ولم يفعل ذلك في شريعة أخرى من أجل أن يبتليكم فيما أعطاكم وأنزل عليكم ليتبين المطيع من العاصي والمهتدي من الضال، وعليه فهلم ﴿فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[3] أي بادروا الأعمال الصالحة وليجتهد كل واحد أن يكون سابقًا، فإن مرجعكم إليه تعالى ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، ثم يجزيكم الخير بمثله والشر إن شاء كذلك. هذا ما دلت عليه الآية الأولى أما الآية الثانية (٤٩) فقد أمر الله تعالى فيها رسوله ﷺ ونهاه وحذّره وأعلمه وندّد بأعدائه أمره أن يحكم بين من يتحاكمون إليه بما أنزل عليه من القرآن فقال:

(٤٩) ﴿وَأَنِ ٱحْكُم[4] بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ونهاه أن يتبع أهواء اليهود فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وحذّره من أن يتبع بعض آرائهم فيترك بعض ما أنزل عليه ولا يعمل به ويعمل بما اقترحوه عليه فقال: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ[5] أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وأعلمه أن اليهود إن تولوا أي أعرضوا عن قبول حكمه وهو الحكم الحق العادل فإنما يريد الله تعالى أن ينزل بهم عقوبة نتيجة ما قارفوا من الذنوب وما ارتكبوا من الخطايا فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم[6] بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

---

(١) أصل الشريعة في اللغة: الطريقة التي يتوصل بها إلى الماء وهي هنا: ما شرع الله لعباده من الدين الشامل للعقائد، والعبادات والأحكام القضائية يُتوصَّل بها إلى سعادة الدارين.

(٢) فسر مهيمنًا: بعال مرتفع عليه وبمؤتمن عليه ويعود اللّفظان إلى ما فسرناه به لأنّ المرتفع العالي هو الحاكم، والمؤتمن هو الحافظ.

(٣) فيه دليل على تقديم الواجبات وعدم تأخيرها لا سيّما الصلوات الخمس وخالف أبو حنيفة في الصلاة والآية حجة عليه.

(٤) هل هذه الآية ناسخة للتخيير السابق؟ أو لا نسخ؟ ويقدر بعدها جملة ـ إن شئت ـ لتقدم ذكر التخيير وما تقدم من توجيه في آية ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يحدد معنى هذه الآية.

(٥) روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن قومًا من الأحبار اجتمعوا منهم ابن صوريا الأعور وكعب وشاس وقالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلّنا نفتنه عن دينه فإنّما هو بشر فأتوه وقالوا: قد عرفت يا محمد أنّا أحبار اليهود وإن اتبعناك لم يحالفنا أحد من اليهود وإنّ بيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم إليك فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك فأبى رسول الله ﷺ ونزلت هذه الآية.

(٦) وقد أصابهم فأجلوا من الحجاز وقُتل بنو قريظة وضربت عليهم الجزية في ديار الإسلام.

ونذّد بأعدائه حيث أخبر أن أكثرهم فاسقون أي عصاة خارجون عن طاعة الله تعالى ورسله فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَسِقُونَ﴾. فسلاه بذلك وهوّن عليه ما قد يجده من ألم تمرد اليهود والمنافقين وإعراضهم عن الحق الذي جاءهم به ودعاهم إليه. هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الآية الثالثة (٥٠) فقد أنكر تعالى فيها على اليهود طلبهم حكم أهل الجاهلية حيث لا وحي ولا تشريع إلهي وإنما العادات والأهواء والشهوات معرضين عن حكم الكتاب والسنة حيث العدل والرحمة فقال تعالى:

(٥٠) ﴿أَفَحُكْمَ[1] الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾. ثم أخبر تعالى نافيًا أن يكون هناك حكم أعدل أو أرحم من حكم الله تعالى للمؤمنين به الموقنين بعدله تعالى ورحمته فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ[2] مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟

هداية الآيات:

١ - وجوب الحكم وفي كل القضايا بالكتاب والسنة.

٢ - لا يجوز تحكيم أية شريعة أو قانون غير الوحي الإلهي الكتاب والسنة.

٣ - التحذير من اتباع أهواء الناس خشية الإضلال عن الحق.

٤ - بيان الحكمة من اختلاف الشرائع وهو الابتلاء.

٥ - أكثر المصائب في الدنيا ناتجة عن بعض الذنوب.

٦ - حكم الشريعة الإسلامية أحسن الأحكام عدلاً ورحمة.

الجُزْءُ السَّادِسُ — سُورَةُ المَائِدَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧)﴾

١١٧

شرح الكلمات:

[الآية: ٥١ ـ ٥٣]

(٥١) ﴿آمَنُوا﴾: صدقوا بالله ورسوله ﷺ ووعد الله ووعيده.

﴿أَوْلِيَاءَ﴾: لكم توالونهم بالنصرة والمحبة. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: أي اليهودي ولي أخيه اليهودي، والنصراني ولي أخيه النصراني. ﴿الظَّالِمِينَ﴾: الذين يوالون أعداء الله ورسوله ﷺ ويتركون موالاة الله ورسوله ﷺ والمؤمنين.

(٥٢) ﴿مَّرَضٌ﴾: نفاق وشك وشرك. ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾: أي في البقاء على موالاتهم أي موالاة اليهود والنصارى. ﴿دَائِرَةٌ﴾[3]: تدور علينا من جدب، أو انتهاء أمر الإسلام. ﴿بِالْفَتْحِ﴾: نصر المؤمنين على الكافرين والقضاء لهم بذلك كفتح مكة.

(٥٣) ﴿جَهْدَ[4] أَيْمَانِهِمْ﴾: أقصاها وأبلغها. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: بطلت وفسدت فلم ينتفعوا منها بشيء لأنها ما كانت لله تعالى.

معنى الآيات:

(٥١) ورد في سبب نزول هذه الآية أن عبادة بن الصامت الأنصاري، وعبدالله بن أبي كان لكل منهما حلفاء من يهود المدينة، ولما انتصر

---

(١) ﴿أَفَحُكْمَ﴾ منصوب بيبغون، أي: أيبغون حكم الجاهلية، إذ أهل الجاهلية من العرب يجعلون حكم الشريف خلاف حكم الوضيع، واليهود يقيمون الحدود على الضعفاء والفقراء دون الأقوياء والأغنياء.

(٢) الاستفهام إنكاري أي: ينكر أن يكون هناك حكم أحسن من حكم الله تعالى.

(٣) الدائرة: اسم فاعل من دار يدور فهو دائر إذا عكس سيره فالدائرة: تغيّر الحال، وغلبت في الخير والشرّ، أي: من خير إلى شر، ودوائر الدهر: نوَبه ودُوله.

(٤) حقيقة الجهد: التعب والمشقة، ومنتهى الطاقة، والمراد به في الآية آكد الأيمان وأغلظها، وفعل الجهد: جَهَد كمنع يجهد كيمنع جهدًا كمنعًا.

رسول الله ﷺ والمؤمنون في بدر اغتاظ اليهود وأعلنوا سوء نياتهم فتبرأ عبادة بن الصامت من حلفائه ورضي بموالاة الله ورسوله ﷺ والمؤمنين وأبى ابن أبي ذلك وقال بعض ما جاء في هذه الآيات فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي لكم من دون المؤمنين. وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ تعليل لتحريم موالاتهم[1] - لأن اليهودي ولي لليهودي والنصراني ولي للنصراني - على المسلمين فكيف تجوز إذًا موالاتهم، وكيف يصدقون أيضًا فيها فهل من المعقول أن يحبك النصراني ويكره أخاه، وهل ينصرك على أخيه؟ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ أي أيها المؤمنون ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[2]، لأنه بحكم موالاتهم سيكون حربًا على الله ورسوله ﷺ والمؤمنين وبذلك يصبح منهم قطعًا. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جملة تعليلية تفيد أن من والى اليهود والنصارى من المؤمنين أصبح مثلهم فيحرم هداية الله تعالى لأن الله لا يهدي القوم الظالمين، والظلم وضع الشيء في غير محله وهذا الموالي لليهود والنصارى قد ظلم بوضع الموالاة في غير محلها حيث عادى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين ووالى اليهود والنصارى أعداء الله ورسوله والمؤمنين. هذا ما دلت عليه الآية الأولى. أما الآية الثانية (٥٢) فقد تضمنت بعض ما قال ابن أبي مبررًا به موقفه المخزي وهو الإبقاء على موالاته لليهود إذ قال تعالى لرسوله ﷺ وهو يخبره بحالهم:

(٥٢) ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كابن أبي والمرض مرض النفاق ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في موالاتهم ولم يقل يسارعون إليهم لأنهم ما خرجوا من دائرة موالاتهم حتى يعودوا إليها بل هم في داخلها يسارعون، يقولون كالمعتذرين ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ من تقلب الأحوال فنجد أنفسنا مع أحلافنا ننتفع بهم. وقوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ وعسى من الله تفيد تحقيق الوقوع فهي بشرى لرسول الله ﷺ والمؤمنين بقرب النصر[3] والفتح ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾[4] ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ أي أولئك الموالون لليهود ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من النفاق وبغض المؤمنين وحب الكافرين ﴿نَٰدِمِينَ﴾ حيث لا ينفعهم ندم. هذا ما تضمنته الآية الثانية.

(٥٣) أما الآية الثالثة (٥٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ عندما يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده فيه نصرة المؤمنين وهزيمة الكافرين، ويصبح المنافقون نادمين يقول المؤمنون مشيرين إلى المنافقين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أغلظ الأيمان ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لأنها لم تكن لله ﴿فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

هداية الآيات:

١ - حرمة موالاة اليهود والنصارى[5] وسائر الكافرين.

٢ - موالاة الكافر على المؤمن تعتبر ردة عن الإسلام.

٣ - موالاة الكافرين ناجمة عن ضعف الإيمان فلذا تؤدي إلى الكفر.

٤ - عاقبة النفاق سيئة ونهاية الكفر مريرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٤ - ٥٦]

(٥٤) ﴿مَن يَرْتَدَّ﴾[6]: أي يرجع إلى

---

(١) الموالاة حقيقتها: المودة والنصرة، فمن والى اليهود والنصارى فأحبّهم ونصرهم على المسلمين لازمه أنّه أبغض المؤمنين وخذلهم وبهذا يصبح كافرًا.

(٢) هذا الحكم باقٍ إلى يوم القيامة وهو: حرمة موالاة الكافرين ومَنْ والاهم تُحرم موالاته كما تحرم موالاتهم ووجبت له النار كما وجبت لهم.

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: أتى الله بالفتح فقتلت مقاتلة بني قريظة وسبيت ذراريهم وأجلي بنو النضير.

(٤) فسّر الحسنُ قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بأنه إظهار أمر المنافقين والإخبار بأسمائهم والأمر بقتلهم، وهو تفسير عظيم عليه نور.

(٥) لا يُعدُّ موالاة استعمال اليهودي أو النصراني في عمل تجاري أو عمراني أو مهني إذا دعت الحاجة إليه، ولا يصح استبطانهم ولا الاستعانة بهم في الجهاد.

(٦) قرىء: ﴿يرتدد﴾ بالفكّ وهي قراءة أهل المدينة والشام.

الكفر بعد إيمانه. ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: أرقاء عليهم رحماء بهم. ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1]: أشداء غلاظ عليهم. ﴿لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾: عذل عاذل. ﴿٥٦﴾ ﴿حِزْبَ اللَّهِ﴾: أنصار الله تعالى.

معنى الآيات:

﴿٥٤﴾ هذه الآية الكريمة (٥٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ تضمنت خبرًا من أخبار الغيب التي يخبر بها القرآن فتتم طبق ما أخبر به فتكون آية أنه كلام الله حقًا وأن المنزل على رسوله ﷺ صدقًا فقد أخبر تعالى أن من يرتد من المؤمنين سوف يأتي الله عز وجل بخير منه ممن يحبون الله ويحبهم الله تعالى رحماء بالمؤمنين أشداء على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لوم من يلوم، ولا عتاب من يعتب عليهم. وما إن مات الرسول ﷺ حتى ارتد فئات[2] من أجلاف الأعراب ومنعوا الزكاة وقاتلهم أبو بكر الصديق مع الصحابة رضوان الله عليهم حتى أخضعوهم للإسلام وحسن إسلامهم، فكان أبو بكر وأصحابه ممن وصف الله تعالى يحبون الله ويحبهم الله يجاهدون في سبيله ولا يخافون لومة لائم، وقد روي بل وصح أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية وتلاها ﷺ وأبو موسى الأشعري أمامه فأشار إليه وقال: «**قوم هذا**» وفعلاً بعد وفاة الرسول جاء الأشعريون وظهرت الآية وتمت المعجزة وصدق الله العظيم. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ الإشارة إلى ما أولى[3] أولئك المؤمنين من أبي بكر الصديق والصحابة والأشعريين من تلك الصفات الجليلة من حب الله والرقة على المؤمنين والشدة على الكافرين، والجهاد في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل عليم بمن يستحقه. هذا ما دلت عليه الآية الأولى. أما الثانية[4] (٥٥) فقد تضمنت طمأنة الرب تعالى لعبادة بن الصامت وعبدالله بن سلام ومن تبرأ من حلف اليهود ووالى الله ورسوله ﷺ فأخبرهم تعالى أنه هو وليهم ورسوله ﷺ والذين آمنوا ﴿٥٥﴾ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ[5]﴾ أي خاشعون متطامنون، وأما ولاية اليهود والنصارى فلا خير لهم فيها وهم منها براء فقصرهم تعالى على ولايته وولاية رسوله ﷺ والمؤمنين الصادقين. وفي الآية الثالثة أخبرهم تعالى أن من يتول الله ورسوله ﷺ والذين آمنوا ينصره الله ويكفه ما يهمه، لأنه أصبح من حزب الله، وحزب الله أي أولياؤه وأنصاره هم الغالبون.

﴿٥٦﴾ هذا ما دلت عليه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ[6] اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

هداية الآيات:

١ - إخبار القرآن الكريم بالغيب وصدقه في ذلك فكان آية أنه كلام الله.

٢ - فضيلة أبي بكر والصحابة والأشعريين قوم أبي موسى الأشعري وهم من أهل اليمن.

٣ - فضل حب الله والتواضع للمؤمنين وإظهار العزة على الكافرين، وفضل الجهاد في سبيل الله وقول الحق والثبات عليه وعدم المبالاة بمن يلوم ويعذل في ذلك.

---

(١) قال ابن عباس: هم للمؤمنين كالوالد للولد والسيّد للعبد وهم في الغلظة على الكفار كالسبع على فريسته.

(٢) قال ابن إسحاق لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب إلاّ ثلاثة مساجد مسجد المدينة ومسجد مكة ومسجد جؤاثي، جؤاثي: اسم حصن بالبحرين وكان المرتدون على قسمين: قسم منعوا الزكاة واعترفوا بباقي الشريعة وقسم نبذوا الشريعة.

(٣) أي: ما وهبهم وأعطاهم من الصفات الحميدة الجليلة.

(٤) هي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ إلخ..

(٥) يروى أنّ عليًا رضي الله عنه كان يصلي نافلة في المسجد فسأله أحد فرمى إليه بالخاتم وهو يصلي فاستدل الفقهاء بهذا أنّ العمل اليسير لا يبطل الصلاة.

(٦) الحزب: الصنف من الناس وأصله من النائبة مأخوذ من قولهم: حَزَبَهُ كذا، أي: نابه كأنّ المتحزّبين مجتمعون اجتماع أهل النائبة عليها.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

٤ ـ فضيلة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والخشوع والتواضع.

٥ ـ ولاية الله ورسوله ﷺ والمؤمنين الصادقين توجب لصاحبها النصر والغلبة على أعدائه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٧ ـ ٦٠]

﴿٥٧﴾ ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾: الهزء: ما يُهزأ به ويُسخر منه. واللعب: ما يلعب به.

﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: هم اليهود في هذا السياق.

﴿وَالْكُفَّارَ﴾: المشركون.

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾: أذنتم لها.

﴿٥٩﴾ ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾: أي ما تنقمون منا، ومعنى تنقمون هنا تنكرون منا وتعيبون علينا. ﴿فَاسِقُونَ﴾: خارجون عن طاعة الله تعالى بالكفر والمعاصي.

﴿٦٠﴾ ﴿مَثُوبَةً﴾: جزاء.

﴿الْقِرَدَةَ﴾: جمع قرد حيوان معروف مجبول على التقليد والمحاكاة. ﴿وَالْخَنَازِيرَ﴾: جمع خنزير حيوان خبيث معروف محرم الأكل. ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾: أي منزلة يوم القيامة في نار جهنم.

معنى الآيات:

﴿٥٧﴾ ما زال السياق في تحذير المؤمنين من موالاة اليهود وأعداء الله ورسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ربًا وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام دينًا ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ﴾ الإسلامي ﴿هُزُوًا﴾ شيئًا يهزؤون به، ولعبًا أي شيئًا يلعبون به ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني اليهود، والكفار[1] وهم المنافقون والمشركون ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أنصارًا وأحباء وأحلافًا[2]. واتقوا الله في ذلك أي في اتخاذهم أولياء إن كنتم مؤمنين صادقين في إيمانكم فإن حب الله ورسوله ﷺ والمؤمنين يتنافى معه حب أعداء الله ورسوله ﷺ والمؤمنين. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٧) أما الآية الثانية (٥٨) فقد تضمنت إخبار الله تعالى بما يؤكد وجوب معاداة من يتخذ دين المؤمنين هزوًا ولعبًا وهم أولئك الذين إذا سمعوا الأذان ينادي[3] للصلاة اتخذوه هزوًا ولعبًا فهذا يقول ما هذا الصوت وآخر يقول هذا نهيق حمار قبّح الله قولهم وأقمأهم. فقال تعالى عنهم:

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ[4] إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا

﴿٦٠﴾ روي أنه لما نزلت آية: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ..﴾ إلخ قال المسلمون لهم: يا إخوة القردة والخنازير، نكسوا رؤوسهم افتضاحًا وفيهم يقول الشاعر:

فلعنة الله على اليهود ... إنّ اليهود إخوة القردة

(١) قرىء: ﴿الكفار﴾ بالجرّ، وقرىء بالنصب، قال مكي: لولا اتفاق الجماعة على قراءة النصب لاخترت قراءة الجرّ لقوته في الإعراب، وفي التفسير، والقرب من المعطوف عليه.

(٢) هذه الآية فيها دليل على عدم جواز التأييد والاستنصار بالمشركين، وقد روي عن جابر أن النبي ﷺ لمّا أراد الخروج إلى أُحد جاء قوم من اليهود فقالوا: نسير معك، فقال ﷺ: **«إنا لا نستعين على أمرنا بالمشركين»**.

(٣) لم يكن بمكة الأذان، وإنّما كان يُنادى للصلاة بلفظ «الصلاة جامعة» ولمّا هاجر ﷺ وصرفت القبلة إلى الكعبة أمر بالأذان وبقيت «الصلاة جامعة» للأمر بعرض ولمّا همّهم أمر الأذان رأى عبدالله بن زيد الأنصاري الأذان في المنام وكذا رآه عمر.

(٤) الأذان فرض في المدن والقرى وسنة لجماعة تطلب غيرها، ومستحب لمن لا يطلب غيره، والسفر، والحضر سواء إلاّ أنه في السفر أعظم أجرًا لحديث الموطأ: **«لا يسمع مدى صوت المؤذن جنّ ولا إنس، ولا شيء إلاّ شهد له يوم القيامة»** وهذا الثواب

﴿هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾. حقًا إنهم لا يعقلون فلو كانوا يعقلون الكلام لكان النداء إلى الصلاة من أطيب ما يسمع العقلاء لأنه نداء إلى الطهر والصفاء وإلى الخير والمحبة والألفة نداء إلى ذكر الله وعبادته، ولكن القوم كما أخبر تعالى عنهم: ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾ شأنهم شأن البهائم والبهائم أفضل منهم. هذا ما دلت عليه الآية الثانية.

(٥٩) أما الآية الثالثة (٥٩) فقد تضمنت تعليم الله تعالى لرسوله ﷺ أن يقول لأولئك اليهود والكفرة الفجرة: يا أهل الكتاب إنكم بمعاداتكم لنا وحربكم علينا ما تنقمون منا أي ما تكرهون منا ولا تعيبون علينا إلا إيماننا بالله وما أنزل علينا من هذا القرآن الكريم وما أنزل من قبل من التوراة والإنجيل، وكون أكثركم فاسقين فهل مثل هذا ينكر من صاحبه ويعاب عليه؟ اللهم لا، ولكنكم قوم لا تعقلون. هذا معنى قوله تعالى في هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أما الآية الرابعة في هذا السياق (٦٠) فقد تضمنت تعليم الله لرسوله ﷺ كيف يرد على أولئك اليهود إخوان القردة والخنازير قولهم: لا نعلم دينًا شرًا من دينكم، وذلك أنهم سألوا النبي ﷺ: بمن تؤمن؟ فقال: أؤمن بالله وبما أنزل إلينا وما أنزل على موسى وما أنزل على عيسى، فلما قال هذا، قالوا: لا نعلم دينًا شرًا من دينكم بغضًا لعيسى عليه السلام وكرهًا له.

(٦٠) فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً﴾ أي ثوابًا وجزاء ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؟ أنه ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ إذ مسخ طائفة منهم قردة، وأخرى خنازير على عهد داود عليه السلام، وقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1] أي وجعل منهم من عبد الطاغوت وهو الشيطان وذلك بطاعته والانقياد لما يجلبه عليه ويزينه له من الشر والفساد، إنه أنتم يا معشر يهود، إنكم لشر مكانًا يوم القيامة وأضل سبيلًا اليوم في هذه الحياة الدنيا.

هداية الآيات:

١ - حرمة اتخاذ اليهود والنصارى والمشركين أولياء لا سيما أهل الظلم منهم.
٢ - سوء أخلاق اليهود وفساد عقولهم.
٣ - شعور اليهود بفسقهم وبعد ضلالهم جعلهم يعملون على إضلال المسلمين.
٤ - تقرير وجود مسخ في اليهود قردة وخنازير.
٥ - اليهود شر الناس مكانًا يوم القيامة، وأضل الناس في هذه الدنيا.

شرح الكلمات:
[الآية: ٦١ ـ ٦٣]

(٦١) ﴿يَكْتُمُونَ﴾: أي يضمرون في نفوسهم ويخفونه فيها.

(٦٢) ﴿فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: الإثم كل ضار وفاسد وهو ما حرمه الله تعالى من اعتقاد أو قول أو عمل، والعدوان: الظلم. ﴿ٱلسُّحْتَ﴾: المال الحرام كالرشوة والربا، وما يأخذونه من مال مقابل تحريف الكلم وتأويله.

(٦٣) ﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾: الربانيون هنا العباد المربون كمشايخ[2] التصوف عندنا. والأحبار: العلماء.

معنى الآيات:

(٦١) ما زال السياق الكريم في فضح اليهود وبيان خبثهم زيادة في التنفير من موالاتهم فأخبر تعالى في الآية الأولى عن منافقيهم فقال: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾[3] يريد: غشوكم في مجالسكم، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ وما آمنوا

= عام لمن أذن في السفر والحضر، والإقامة سنّة مؤكدة لكل صلاة ومن أذن أقام ولو أقام غير المؤذن جازت.

(١) قرىء هذا اللفظ: ﴿عَبَد الطاغوت﴾ بعدة قراءات منها عَبَدَ اسمًا كفَضُلَ، وعبدوا الطاغوت، وعُبُد الطاغوت، أي: جمع عبد، وعُبَّد الطاغوت جمع عابد كشاهد وشُهَّد.

(٢) مشايخ الطرق ـ والحق يقال ـ لقد ربّوْا كثيرًا من الجهال على الإيمان والتقوى ولكن لعدم علمهم بالكتاب والسنّة ضلوا وأضلّوا في مجالات كثيرة وخاصة في العقيدة لذا لا يجوز إقرارهم، ولا التربيّ على أيديهم.

(٣) هذه الآيات معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ السابقة وخصّ بهذه الصفات منافقو اليهود وهم من جملة من اتخذوا الدين هزوًا ولعبًا.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

١١٩

ولكنهم ينافقون لا غير فقد دخلوا بالكفر[1] في قلوبهم وخرجوا به، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ من الكفر والكيد لكم. هذا معنى قوله تعالى في الآية الأولى (٦١) ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦٢﴾ وأما الآية الثانية (٦٢) فقد أخبر تعالى رسوله ﷺ أنهم لكثرة ما يرتكبون من الذنوب ويغشون من المعاصي ترى[2] كثيرًا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت علنًا لا يستترون به ولا يخفونه، ثم ذمّهم الله تعالى على ذلك وقبّح فعلهم فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وفي الآية الأخيرة: أنكر على عبادهم وعلمائهم سكوتهم عن جرائم عوامهم ورضاهم بها مصانعة لهم ومداهنة فقال تعالى:

﴿٦٣﴾ ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾[3] أي لمَ لا ينهونهم عن قولهم الإثم أي الكذب وأكلهم السحت الرشوة والربا، ثم ذمّ تعالى سكوت العلماء عنهم بقوله: ﴿لَبِئْسَ[4] مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أي وعزتي وجلالي لبئس صنيع هؤلاء من صنيع حيث أصبح السكوت المتعمد لمنافع خاصة يحصلون عليها صنعة لهم أتقنوها وحذقوها. والعياذ بالله.

هداية الآيات:

١ ـ وجود منافقين من اليهود على عهد الرسول ﷺ بالمدينة.

٢ ـ بيان استهتار اليهود وعدم مبالاتهم بارتكابهم الجرائم علانية.

٣ ـ قبح سكوت العلماء على المنكر وإغضائهم على فاعليه، ولذا قال كثير من السلف في هذه الآية أشد آية وأخطرها على العلماء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٤ ـ ٦٦]

﴿٦٤﴾ ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[5]: يريدون أنه تعالى ضيّق عليهم الرزق ولم يوسع عليهم. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾: دعاء عليهم بأن يُحرموا الإنفاق في الخير وفيما ينفعهم. ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾: طردوا من رحمة الله بسبب وصفهم الرب تعالى بالبخل. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾: لا كما قالوا لعنهم الله: يد الله مغلولة أي ممسكة عن الإنفاق. ﴿طُغْيَٰنًا﴾: تجاوزًا لحد الاعتدال في قولهم

---

(١) أي: أنهم ما آمنوا قط ولم يخالط الإيمان قلوبهم طرفة عين فهم دخلوا كافرين وخرجوا كافرين.

(٢) الرؤية هنا بصرية والخطاب عام لكلّ من يسمع ويرى والمعنى: أنّ حالهم لا تخفى على أحد ذي بصر.

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنه: ما في القرآن آية أشد توبيخًا من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ والآية وإن نزلت في يهود المدينة فقد ذكرت النصارى لأنّ حالهم سواء. والآية تنطبق اليوم على علماء المسلمين حيث تركوا الأمر والنهي والعياذ بالله تعالى من عاقبة ذلك فقد قال ﷺ: «**إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**» الترمذي وصححه. ولولا هنا أداة تحظيظ، والمراد توبيخ علمائهم، وعابديهم على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٤) قال الزّجاج: اللام في قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ﴾ للقسم، والتأكيد.

(٥) القائل: فنحاص اليهودي عليه لعائن الله وهو يعني بمغلولة: بخيلة لا تنفق وهو كاذب بل يمين الله ملأى لا يغيضها نفقةٌ سحّاء الليل والنهار «**أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه**» حديث الشيخين.

الكاذب وعملهم الفاسد. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾: أي بين اليهود والنصارى. ﴿أَوْقَدُوا نَارًا﴾: أي نار الفتنة والتحريش والإغراء والعداوات للحرب.

(٦٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: اليهود والنصارى.

(٦٦) ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾: كناية عن بسط الرزق عليهم. ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾: معتدلة لا غالية مفرطة، ولا جافية مفرطة.

معنى الآيات:

(٦٤) يخبر تعالى عن كفر اليهود وجرأتهم على الله تعالى بباطل القول وسيء العمل فيقول: ﴿وَقَالَتِ[1] الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ يريدون أنه تعالى أمسك عنهم الرزق وضيّقه عليهم، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو دعاء عليهم بأن لا يوفقوا للإنفاق فيما ينفعهم ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾. ولعنهم تعالى ولعنهم كل صالح في الأرض والسماء بسبب قولهم الخبيث الفاسد. وأكذبهم تعالى في قولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ كما قال عنه رسوله ﷺ في الصحيح «**يمين الله سحّاء[2] تنفق الليل والنهار**» ثم أخبر تعالى نبيه محمدًا ﷺ ليسليه ويخفف عنه ما يجد في نفسه من جراء كفر اليهود وخبثهم فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ أي من اليهود ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من الآيات التي تبين خبثهم وتكشف النقاب عن سوء أفعالهم المخزية لهم. ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي إبعادًا في الظلم والشر وكفرًا بتكذيبك وتكذيب ما أنزل إليك وذلك دفعًا للحق ليبرروا باطلهم وما هم عليه من الاعتقاد الفاسد والعمل السيء، ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ بتدبيره فيهم انتقامًا منهم فقال عز من قائل: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ[3] وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي أن العداوة بين اليهود والنصارى لا تنتهي إلى يوم القيامة، ثم أخبر عن اليهود أنهم ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ وذلك بالتحريش بين الأفراد والجماعات وحتى الشعوب والأمم، وبالإغراء، وقالة السوء، ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ تعالى فلم يفلحوا فيما أرادوه وقد أذلهم الله على يد رسوله ﷺ والمؤمنين وأخزاهم وعن دار الإيمان أجلاهم. وأخبر تعالى أنهم يسعون دائمًا وأبدًا في الأرض بالفساد فلذا أبغضهم الله وغضب عليهم، لأنه تعالى لا يحب المفسدين، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦٤).

(٦٥) أما الآية الثانية (٦٥) وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من يهود ونصارى ﴿آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﷺ وبما جاء من الدين الحق وعملوا به، ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الكفر والشرك وكبائر الذنوب الفواحش، لكفَّر الله عنهم سيئاتهم فلم يؤاخذهم ولم يفضحهم بها ولأدخلهم جنات النعيم. وهذا وعد الله تعالى لليهود والنصارى، فلو أنهم آمنوا واتقوا لأنجزه لهم قطعًا. وهو لا يخلف الميعاد.

(٦٦) أما الآية الأخيرة (٦٦) في هذا السياق فهي تتضمن وعدًا إلهيًا آخر وهو أن اليهود والنصارى لو أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ومن ذلك القرآن الكريم، ومعنى أقاموا ذلك آمنوا بالعقائد الصحيحة الواردة في تلك الكتب وعملوا بالشرائع السليمة والآداب الرفيعة والأخلاق الفاضلة التي تضمنتها تلك الكتب لو فعلوا ذلك لبسط الله تعالى عليهم الرزق وأسبغ عليهم النعم ولأصبحوا في خيرات وبركات تحوطهم من كل جانب هذا ما وعدهم الله به. ثم أخبر تعالى عن واقعهم المرير فقال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ لم تغل ولم تجف فلم تقل في عيسى أنه ابن الله ولا هو ابن زنى، ولكن قالت عبدالله ورسوله ولذا لما جاء النبي الأمي ﷺ بشارة عيسى[4] عليه السلام آمنوا به

---

(١) إنّه وإن كان القائل فنحاص بن عازوراء فإن رضى اليهود بمقالته سلكهم في سلكه واعتبروا كلهم قائلون، إذ الرضا بالكفر كفر.

(٢) هذا اللفظ معنى للحديث لا لفظه، وقد تقدّم قريبًا لفظه كما في الصحيحين.

(٣) الكلام صالح لأن يكون (بينهم) المراد بهم اليهود أنفسهم كقوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ وأن يكون المراد بين اليهود والنصارى لتقدم ذكرهم معًا في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ والواقع شاهد.

(٤) بشارة عيسى بدلٌ من النبي الأمي ﷺ وقلنا: بشارة عيسى لأنّ النبي ﷺ قال: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى عليهم السلام**».

وصدقوا بما جاء به من الهدى والدين الحق وهم عبدالله بن سلام وبعض اليهود، والنجاشي من النصارى وخلق كثير لا يحصون عدًا. وكثير من أهل الكتاب ساء[١] أي قبح ما يعملون من أعمال الكفر والشرك والشر والفساد.

هداية الآيات:

١ - قبح وصف الله تعالى بما لا يليق بجلاله وكماله.

٢ - ثبوت صفة اليدين لله تعالى ووجوب الإيمان بها على مراد الله تعالى، وعلى ما يليق بجلاله وكماله.

٣ - تقرير ما هو موجود بين اليهود والنصارى من عداوة وبغضاء[٢] وهو من تدبير الله تعالى.

٤ - سعي اليهود الدائم في الفساد في الأرض فقد ضربوا البشرية بالمذهب المادي الإلحادي الشيوعي، وضربوها أيضًا بالإباحية ومكائد الماسونية.

٥ - وعد الله لأهل الكتاب على ما كانوا عليه لو آمنوا واتقوا لأدخلهم الجنة.

٦ - وعده تعالى لأهل الكتاب ببسط الرزق وسعته لو أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم أي لو أنهم أخذوا بما في التوراة والإنجيل من دعوتهم إلى الإيمان بالنبي الأمي ﷺ والدخول في الإسلام لحصل لهم ذلك كما حصل للمسلمين طيلة ثلاثة قرون وزيادة. وما زال العرض كما هو[٣] لكل الأمم والشعوب أيضًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٧ - ٦٩]

(٦٧) ﴿الرَّسُولُ﴾: ذكر من بني آدم أوحي إليه شرع وأمر بتبليغه وهو هنا محمد ﷺ. ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[٤]: من التوحيد والشرائع والأحكام. ﴿يَعْصِمُكَ﴾: يحفظك حفظًا لا يصل إليك معه أحد بسوء.

(٦٨) ﴿فَلَا تَأْسَ﴾: لا تأسف ولا تحزن.

(٦٩) ﴿هَادُواْ﴾: اليهود. ﴿وَالصَّـٰبِـُٔونَ﴾: جمع صابىء وهم فرقة من أهل الكتاب.

معنى الآيات:

(٦٧) في الآية الأولى (٦٧) ينادي الرب تبارك وتعالى رسوله ﷺ معظمًا له بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ المبجل ليأمره بإبلاغ ما أوحاه إليه من العقائد والشرائع والأحكام فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾. ويقول له: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أي إن قصرت في شيء لم تبلغه لأي إعتبار من الاعتبارات ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي فكأنك لم تبلغ[٥] شيئًا، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ[٦] مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يمنعك من أن يمسوك بشيء من الأذى، ولذا فلا عذر لك في ترك إبلاغ أي شيء سواء كان مما يتعلق بأهل الكتاب أو بغيرهم ولذا فلم يكتم رسول الله ﷺ شيئًا مما أمر بإبلاغه البتة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ تقرير لوعده تعالى بعصمة رسوله ﷺ إذ هو تعالى لا يوفق الكافرين لما يريدون ويرغبون فيه من أذية رسوله ﷺ، ولما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «**لا تحرسوني فإن الله قد عصمني**» هذا

---

(١) أي: بئس شيء عملوه إذا كذّبوا الرسل وحرّفوا الكتب وأكلوا السحت.

(٢) وإن قيل: إنّ التعاون القائم اليوم بين اليهود والنصارى يرد ما في الآية قلنا: إنّ اليهود احتالوا على النصارى فضربوهم بالإلحاد فلمّا قضي على العقيدة الدينية فهم أصبحوا سخرة لهم يتحكمون فيهم وبذلك فرضوا عليهم حبّهم وعدم عداوتهم.

(٣) العرض: هو ما عرضه الله تعالى عليهم وهو في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ..﴾ إلخ.

(٤) روى مسلم عن مسروق عن عائشة أنها قالت: من حدّثك أنّ محمدًا ﷺ كتم شيئًا من الوحي فقد كذب، والله تعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ..﴾ الآية.

(٥) في الآية ردّ على الرافضة القائلين بأنّ النبي ﷺ كتم شيئًا مما أمر بإبلاغه تقية وكذبوا وربِّ الكعبة قالت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لو كان في إمكان الرسول أن يكتم شيئًا لكتم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ①﴾ إذ هي عتاب له ﷺ.

(٦) روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: «**ليت رجلًا صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة**» قالت: فبينما كذلك سمعنا خشخشة سلاح فقال: «**من هذا؟**» قال: سعد بن أبي وقاص. فقال له: «**ما جاء بك؟**» فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم انصرف ونزلت هذه الآية.

ما دلت عليه الآية الأولى.

(٦٨) أما الثانية (٦٨) وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ[1] حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لقد تقدم هذا السياق وأعيد هنا تقريرًا له وتأكيدًا وهو إعلام من الله تعالى أن اليهود والنصارى ليسوا على شيء من الدين الحق ولا من ولاية الله تعالى حتى يقيموا ما أمروا به وما نُهوا عنه وما انتدبوا إليه من الخيرات والصالحات مما جاء في التوراة والإنجيل والقرآن أيضًا. وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ هذا إخبار من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن كثيرًا من اليهود والنصارى يزيدهم ما يوحي الله تعالى إلى رسوله ﷺ وما ينزله عليه في كتابه من أخبار أهل الكتاب مما هو بيان لذنوبهم وضلالهم. ومما هو أمر لهم بالإيمان بالنبي الأمي ﷺ واتباعه على الدين الحق الذي أرسل به يزيدهم ذلك طغيانًا أي علوا وعتوًا وكفرًا فوق كفرهم. ولذا فلا تأس أي لا تحزن[2] على عدم إيمانهم بك وبما جئت به لأنهم قوم كافرون.

(٦٩) أما الآية الثالثة (٦٩) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ[3] هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ[4] وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ فالذين آمنوا هم المسلمون واليهود والنصارى والصابئون وهم فرقة منهم هم أهل الكتاب فجميع هذه الطوائف من آمن منهم الإيمان الحق بالله وباليوم الآخر وأتى بلازم الإيمان وهو التقوى وهي ترك الشرك والمعاصي أفعالاً وتروكًا فلا خوف عليه في الدنيا ولا في البرزخ ولا يوم القيامة ولا حزن يلحقه في الحيوات الثلاث وعد الله حقًا ومن أصدق من الله حديثًا!

هداية الآيات:

١ ـ وجوب البلاغ على الرسل ونهوض رسولنا محمد ﷺ بهذا الواجب على أكمل وجه وأتمه.

٢ ـ عصمة الرسول ﷺ المطلقة.

٣ ـ كفر أهل الكتاب إلا من آمن

وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

١٢٠

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء جماعة من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: ألست تقرّ أنّ التوراة حق من عند الله؟ قال: «بلى»، فقالوا: إنّا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها فنزلت الآية ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ إلخ..

(٢) في هذا الإرشاد الإلهي تسلية للرسول ﷺ وليس بنهي عن الحزن إذ لا يقدر المرء على دفع الحزن وإنّما يقدر على ترك مثيراته فإنّه متى ترك التعرّض لها لم يوجد في نفسه حزن.

(٣) في ذكر المؤمنين وهم المسلمون مع اليهود والصابئين والنصارى إشارة أبلغ من عبارة وهي أنّ العبرة ليست بالأنساب ولا الانتساب ولا بزمان أو مكان وإنما النجاة من النار ودخول الجنّة متوقفان على الإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر، والعمل الصالح الذي جاء به كتاب الله ورسوله محمد ﷺ.

(٤) اختلف في إعراب: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ على أقوال نكتفي بقول منها وهو: أن تكون مبتدأ وخبرها محذوف تقديره: والصابئون كذلك على حدّ قول الشاعر:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيار بها لغريب

أي: كذلك، وتقدير الكلام: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى مَنْ آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون كذلك.

منهم بالنبي محمد ﷺ واتبع ما جاء به من الدين الحق.

٤ - أهل العناد والمكابرة لا تزيدهم الأدلة والبراهين إلا عتوًا ونفورًا وطغيانًا وكفرًا.

٥ - العبرة بالإيمان والعمل الصالح وترك الشرك والمعاصي لا بالانتساب إلى دين من الأديان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٠ - ٧٢]

الميثاق: العهد المؤكد باليمين.

(٧٠) ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾: بما لا يحبونه ولا تميل إليه أنفسهم المريضة.

﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟﴾: أي كذبوا طائفة من الرسل وقتلوا طائفة أخرى.

(٧١) ﴿أَلَّا[1] تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: أي أن لا يبتلوا بذنوبهم بالشدائد والمحن.

﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾: عموا عن العبر وصموا عن سماع المواعظ.

(٧٢) ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾: أي يشرك بالله غيره تعالى من سائر الكائنات فيعبده مع الله بأي نوع من أنواع العبادات. ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾: حكم بمنعه من دخولها أبدًا إلا أن يتوب من الشرك.

معنى الآيات:

(٧٠) - (٧١) ما زال السياق الكريم في الحديث عن أهل الكتاب فقد أقسم تعالى على أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل وذلك في التوراة بأن يعبدوا الله وحده بما شرع لهم فيطيعوه في أمره ونهيه وأرسل إليهم رسله[2] تترا كلما جاءهم[3] رسول بما لا يوافق أهواءهم[4] كذبوه فيما جاءهم به ودعاهم إليه. أو قتلوه. وحسبوا أن لا يؤاخذوا بذنوبهم فعموا عن الحق وصموا عن سماع المواعظ فابتلاهم ربم وسلّط عليهم من سامهم سوء العذاب، ثم تاب الله عليهم فتابوا واستقام أمرهم وصلحت أحوالهم ثم عموا وصموا مرة أخرى إلا قليلاً منهم فسلّط عليهم من سامهم[5] سوء العذاب أيضًا وها هم أولاء في عمى وصمم والله بصير بما يعملون وسوف ينزل بهم بأساءه إن لم يتوبوا فيؤمنوا بالله ورسوله ﷺ ويدينوا بالدين الحق الذي هو الإسلام.

(٧٢) هذا ما تضمنته الآيتان الأولى والثانية (٧٠ - ٧١) أما الآية الثالثة (٧٢) وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ[6] ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ[7] ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فقد أخبر تعالى مقررًا حكمه بالكفر على من افترى عليه وعلى رسوله فادعى أن الله جلّ جلاله وعظم سلطانه هو المسيح بن مريم تعالى الله أن يكون عبدًا من عباده، وحاشا عيسى عبدالله ورسوله أن يرضى أن يقال له أنت الله. وكيف وهو القائل: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ فهل مثل هذا القول يصدر عمن يدعي أنه الله أو ابن الله؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم.

هداية الآيات:

١ - بيان تاريخ بني إسرائيل، والكشف عن مختبئات جرائمهم من الكفر والقتل.

٢ - إكرام الله تعالى لبني إسرائيل ولطفه بهم مع تمردهم عليه ورفض ميثاقه وقتل أنبيائه وتكذيبهم، والمكر بهم.

٣ - تقرير كفر النصارى بقولهم المسيح هو الله.

٤ - تقرير عبودية عيسى عليه السلام لربه تعالى.

---

(١) أن: هي المخففة من الثقيلة وحسبانهم ذلك هو الذي جعلهم يواصلون جرائمهم ولم يرتدعوا عنها.

(٢) كموسى وهارون ومَن جاء بعدهما وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام.

(٣) كلّما: نصبت على الظرفية وهي لاستغراق الزمان الذي أتت فيه الرسل وأشربت معنى الشرطية فكان العامل فيها بمنزلة الجواب.

(٤) ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ جمع هوى وهو المحبوب، وفعله: هَوِي يَهوى كرَضي يَرضَى إذا أحبّ ومالت نفسه إلى ملابسة شيء.

(٥) إشارة إلى تاريخ بني إسرائيل فقد استقام أمرهم وقامت دولتهم في فلسطين على عهد يوشع بن نون فتى موسى ثمّ دالت دولتهم بجرائمهم على عهد البابليين ثمّ اجتمعت كلمتهم وقامت دولتهم على عهد داود وسليمان ثمّ دالت دولتهم بجرائمهم التي نعاها الله تعالى عليهم في هذه الآية على يد الرومان.

(٦) هذا استئناف ابتدائي لإبطال باطل النصارى بعد إبطال باطل اليهود فالمناسبة جِدُّ قوية لأنهما خصم الإسلام والمسلمين.

(٧) هذا قول اليعقوبية وهم فرقة من النصارى لأنهم قالوا باتحاد الابن والأب فكأن المسيح هو الله في اعتقادهم الباطل الفاسد.

٥ ـ تحريم الجنة على من لقي ربه وهو يشرك به سواه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٣ ـ ٧٦]

(٧٣) ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[١]: الثلاثة هي الأب والابن وروح القدس: وكلها إله واحد.

(٧٥) ﴿خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾: مضت قبله رسل كثيرون. ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾: أي مريم كانت صديقة كثيرة الصدق في قولها وعملها. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: أي كيف يصرفون عن الحق وقد ظهر واضحًا.

معنى الآيات:

(٧٣) ما زال السياق في بيان كفر النصارى ففي السياق الأول ورد كفر من قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وفي هذا السياق كفر من قالوا إن الله ثالث ثلاثة إذ قال تعالى في هذه الآية (٧٣) لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة يعنون الأب والابن وروح القدس، وبعضهم يقول الأب والابن والأم، والثلاثة إله واحد فأكذبهم تعالى في قيلهم هذا فقال رادًا باطلهم: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي وليس الأمر كما يكذبون، وإنما الله إله واحد، وأما جبريل فأحد ملائكته وعيسى عبده ورسوله ومريم أمته فالكل عبد لله وحده الذي لا إله غيره ولا رب سواه. ثم قال تعالى متوعدًا هؤلاء الكفرة الكذبة: ولئن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا[٢] منهم عذاب أليم. فأقسم تعالى أنهم إن لم ينتهوا عن قولهم الباطل وهو كفر ليمسنهم عذاب أليم موجع غاية الإيجاع.

(٧٤) ثم لكمال رحمته عز وجل دعاهم في الآية الثانية (٧٤) إلى التوبة ليتوب عليهم ويغفر لهم وهو الغفور الرحيم فقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بترك هذا الكفر والباطل ويستغفرون الله منه والله غفور للتائبين رحيم بالمؤمنين، وفي الآية الثالثة (٧٥) أخبر تعالى معلمًا رسوله ﷺ الاحتجاج على باطل النصارى فقال:

(٧٥) ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ[٣]﴾، فلم يكن ربًا ولا إلهًا وإنما هو رسول مفضل قد خلت من قبله رسل مفضلون كثيرون وأمه مريم لم تكن أيضًا إلهًا كما يزعمون، وإنما هي امرأة من نساء بني إسرائيل صدّيقة[٤] كثيرة الصدق في حياتها لا تعرف الكذب ولا الباطل وأنها وولدها عيسى عليهما السلام بشران كسائر البشر يدل على ذلك أنهما يأكلان الطعام[٥] احتياجًا إليه لأن بنيتهما لا تقوم إلا عليه فهل آكل الطعام افتقارًا إليه، ثم يفرز فضلاته يصلح إن يكون إلهًا. اللهم لا. وهنا قال لرسوله ﷺ: انظر يا رسولنا كيف نبين لهم الآيات الدالة بوضوح على بطلان كفرهم، ثم انظر كيف يؤفكون[٦] عن الحق أي كيف يُصرفون عنه وهو واضح بيّن. وفي الآية الأخيرة (٧٦) أمر رسوله ﷺ أن يقول لأولئك المأفوكين عن الحق المصروفين عن دلائله لا ينظرون فيها أمره أن يقول لهم موبخًا لهم:

(٧٦) ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وهو عيسى وأمه، وتتركون عبادة من يملك ذلك، وهو الله السميع العليم.

---

(١) أي: أحد ثلاثة وهو قول الملكانية والنسطورية واليعقوبية ولا يقولون: ثلاثة آلهة ويتمنعون من ذلك وهو لازمهم.

(٢) الآية نص في أنّ من يقول بقول النصارى كافر مستوجب للعذاب الأليم.

(٣) فيه قصر موصوف على صفة، أي: قصر عيسى على الرسالة لا يتجاوزها إلى الألوهية ولذا فهو قصر قلب لرد اعتقاد النصارى في أنه الله.

(٤) صدّيقة: كثيرة الصدق في قولها وعملها وفي تصديقها بآيات ربّها، وفي تصديقها لابنها وقد ناداها ساعة ولادته وفي رضاعه، وهل هي مع الصديقية نبيّة؟ في نداء الملائكة لها ما يرجح نبوتها. والله أعلم.

(٥) إنّ مَنْ يأكل الطعام وولدته امرأة كيف لا يكون مخلوقًا مربوبًا محدثًا كسائر المخلوقين لم يستطع دفع هذا نصراني مهما أوتي من العلم إلاّ أنهم يهربون من مواجهة الحق فيقولون تضليلاً لعقولهم وخداعًا لنفوسهم: إنه يأكل الطعام بناسوته لا بلاهوته، ومعناه: أنّ الإنسان اختلط بالإله وهذه هي الحلولية الباطلة الفاسدة عقلاً وشرعًا وواقعًا.

(٦) يقال: أفَكَه يأفِكه أفكًا إذا صرفه صرفًا وهو من باب ضرب.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

١٢١

هداية الآيات:

١ - إبطال التثليث في عقيدة النصارى وتقرير التوحيد.

٢ - إبراء عيسى ووالدته عليهما السلام من دعوى الألوهية للناس.

٣ - فتح باب التوبة في وجه النصارى لو أنهم يتوبون.

٤ - تقرير بشرية عيسى ومريم عليهما السلام بدليل احتياجهما إلى الطعام لقوام بنيتهما، ومن كان مفتقرًا لا تصح ألوهيته عقلاً وشرعًا.

٥ - ذم كل من يعبد غير الله إذ كل الخلائق مفتقرة لا تملك لنفسها ولا لعابدها ضرًا ولا نفعًا، ولا تسمع دعاء من يدعوها، ولا تعلم عن حاله شيئًا، والله وحده السميع لأقوال كل عباده العليم بسائر أحوالهم وأعمالهم، فهو المعبود بحق وما عداه باطل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٧ - ٨١]

﴿٧٧﴾ ﴿لَا تَغْلُوا۟[1] فِى دِينِكُمْ﴾: الغلو: الإفراط في الشيء ومجاوزة الحد فيه فمثلاً أمرنا بغسل اليدين في الوضوء إلى المرفقين فغسلهما إلى الكتفين غلو أمرنا بتعظيم الرسول ﷺ فدعاؤه غلو في الدين.

﴿أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟﴾: جمع هوى، وصاحب الهوى هو الذي يعتقد ويقول ويعمل بما يهواه لا بما قامت به الحجة وأقره الدليل من دين الله تعالى. ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾: أي أضلوا عددًا كثيرًا من الناس بأهوائهم وأباطيلهم. ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2]: سواء السبيل: وسط الطريق العدل لا ميل فيه إلى يمين ولا إلى يسار.

﴿٧٨﴾ ﴿لُعِنَ﴾: دعي عليهم باللعنة التي هي الإبعاد من الخير والرحمة وموجباتها. ﴿بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾: أي بسبب عصيانهم لرسلهم، واعتدائهم في دينهم.

﴿٧٩﴾ ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾: أي لا ينهي بعضهم بعضًا عن ترك المنكر. ﴿لَبِئْسَ[3] مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: قبح عملهم من عمل وهو تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿٨٠﴾ ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: يوادونهم ويتعاونون معهم دون المؤمنين.

﴿٨١﴾ ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾: أي لو كانوا صادقين في إيمانهم بالله والنبي محمد ﷺ ما اتخذوا المشركين في مكة والمدينة من المنافقين أولياء.

معنى الآيات:

﴿٧٧﴾ ما زال السياق في الحديث عن أهل الكتاب يهودًا ونصارى فقال تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والمراد بهم هنا النصارى ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، أي لا تتشددوا في غير ما هو حق شرعه الله تعالى لكم، فتبتدعون البدع وتتغالوا في التمسك بها والدفاع عنها، التشدد محمود في الحق الذي أمر الله به اعتقادًا وقولاً وعملاً لا في المحدثات الباطلة، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وهم اليهود إذ قالوا في عيسى وأمه بأهوائهم فقالوا في عيسى ساحر، وقالوا في أمه بغي وأضلوا كثيرًا من الناس بأهوائهم المتولدة عن شهواتهم، وضلوا أي وهم اليوم ضالون بعيدون عن جادة الحق

(١) الغلو: مصدر غلا يغلو غلوًا في الأمر إذا جاوز حدّه المعروف.

(٢) سواء السبيل هنا المراد به: الإسلام، لأنهم ضلّوا في دينهم قبل مجيىء الإسلام ثمّ ضلّوا عن الإسلام بعد مجيئه.

(٣) اللام: لام القسم جيىء بها لتدلّ عليه وتؤكد الذمّ بصورة فظيعة.

والعدل في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم. هذا ما تضمنته الآية الأولى (٧٧) أما الآيات بعد فقد أخبر تعالى في الآية الثانية أن بني إسرائيل لعن منهم الذين كفروا على لسان كل من داود في الزبور، وعلى لسان عيسى بن مريم في الإنجيل وعلى لسان محمد ﷺ في القرآن فقال تعالى:

(٧٨) ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟[1] مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾ فقد مسخ منهم طائفة قردة ﴿وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ حيث مسخ منهم نفر خنازير كما لعنوا على لسان محمد ﷺ في غير آية من القرآن الكريم، وهذا اللعن الذي هو إبعاد من كل خير ورحمة ومن موجبات ذلك في الدنيا والآخرة سببه ما ذكر تعالى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾. أي بسبب عصيانهم لله تعالى ورسله بترك الواجبات وفعل المحرمات، واعتدائهم في الدين بالغلو والابتداع، وبقتل الأنبياء والصالحين منهم: وأخبر تعالى في الآية الثالثة بذكر نوع عصيانهم واعتدائهم الذي لُعنوا بسببه فقال:

(٧٩) ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ[2] فَعَلُوهُ﴾. أي كانوا عندما استوجبوا اللعن يفعلون المنكر العظيم ولا ينهى بعضهم بعضًا كما أخبر النبي ﷺ في قوله: «**إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده**» فلما فعلوا ذلك ضرب الله على قلوب بعضهم ببعض ثم قال ﷺ: «**لعن الذين كفروا ـ إلى قوله ـ فاسقون**» ثم قال: «**كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه** (تعطفنه) **على الحق أطرًا ولتقسرنه على الحق قسرًا أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم**»[3] وفي آخر الآية قبّح الله تعالى عملهم فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ثم قال لرسوله ﷺ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من اليهود في المدينة يتولون الذين كفروا يعني من المشركين والمنافقين في مكة والمدينة يصاحبونهم ويوادونهم وينصرونهم وهم يعلمون أنهم كفار تحرم موالاتهم في دينهم وكتابهم، ثم قبّح تعالى عملهم فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ نتيجة ما حملتهم عليه من الشر والكفر والفساد، وهو سخط الله تعالى عليهم وخلودهم في العذاب من موتهم إلى ما لا نهاية له فقال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن[4] سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منه أبدًا. ثم زاد تعالى تقرير كفرهم وباطلهم وشرهم وفسادهم فقال:

(٨١) ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ كما يجب الإيمان به وبالنبي محمد ﷺ وبما جاء به من الهدى ودين الحق وما أنزل إليه من القرآن والآيات البينات ما اتخذوا الكفار المشركين والمنافقين أولياء، ولكن علة ذلك أنهم فاسقون إلا قليلاً منهم، والفاسق عن أمر الله الخارج عن طاعته لا يقف في الفساد عند حد أبدًا، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ[5] أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ[6] (٨١)﴾.

هداية الآيات:

١ - حرمة الغلو والابتداع في

(١) في الآية دليل على جواز لعن الكافر وإن كان من أولاد الأنبياء وأن شرف النسب لا يمنع إطلاق اللعنة في حقه (قرطبي).

(٢) نقل القرطبي عن ابن عطية رحمهما الله تعالى أنّ الإجماع منعقد على أنّ النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى غيره من المسلمين فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر صاحب المنكر ولا يخالطه.

(٣) أخرجه أبو داود عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أنّ: في موضع رفع على الابتداء، والتقدير: لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم هو لسخط الله عليهم.

(٥) في الآية دليل واضح على أنّ من اتخذ الكافر وليًا ولا يكون مؤمنًا إذ يجرّه ذلك الولاء إلى قول ما يقول وفعل ما يفعل وحتى اعتقاد ما يعتقد وبذلك يكفر مثله وشاهده من الحديث: «**من تشبّه بقوم فهو منهم**».

(٦) أي: كافرون إذ فسقوا عن دين الله وخرجوا عنه باليهودية الباطلة وخرجوا عن الإسلام بالنفاق فهم كفرة منافقون يهود ملعونون.

الدين، واتباع أهل الأهواء.

٢ - العصيان والاعتداء ينتجان لصاحبهما الحرمان والخسران.

٣ - حرمة السكوت عن المنكر ووخامة عاقبته على المجتمع.

٤ - حرمة موالاة أهل الكفر والشر والفساد.

٥ - موالاة أهل الكفر بالمودة والنصرة دون المؤمنين آية الكفر وعلامته في صاحبه.

الجزء السابع

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٢ - ٨٦]

(٨٢) ﴿عَدَاوَةً﴾[1]: العداوة: بغض نفسي تجعل صاحبها بعيدًا ممن يعاديه فلا يصله بخير، ولا يقربه بمودة، وقد تحمله على إرادة الشر بالعدو. ﴿مَّوَدَّةً﴾: المودة: حب نفسي يجعل صاحبه يتقرب إلى من يوده بالخير ودفع الشر. ﴿قِسِّيسِينَ﴾: جمع قسيس: وهو الرئيس الديني لعلمه عند النصارى. ﴿وَرُهْبَانًا﴾: الرهبان: جمع راهب: مشتق من الرهبة وهو الرجل في النصارى يتبتل وينقطع للعبادة في دير أو صومعة.

(٨٣) ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: الرسول محمد ﷺ وما أنزل إليه آيات القرآن الكريم الدالة على تشريف عيسى ووالدته مريم عليهما السلام، وأن عيسى عبد الله. ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: جمع شاهد: من شهد لله بالوحدانية وللنبي محمد ﷺ بالرسالة واستقام على ذلك.

(٨٤) ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جمع صالح: وهو من أدى حقوق الله تعالى كاملة من الإيمان به وشكره على نعمه بطاعته، وأدى حقوق الناس كاملة من الإحسان إليهم، وكف الأذى عنهم.

(٨٥) ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ﴾: جزاهم بما قالوا من الإيمان ووُفِّقوا له من العمل جنات تجري من تحتها الأنهار.

معنى الآيات:

(٨٢) يخبر تعالى رسوله محمدًا ﷺ بعداوة كل من اليهود والمشركين للمؤمنين وأنهم أشد عداوة من غيرهم، فيقول: ﴿لَتَجِدَنَّ[2] أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أما اليهود فلما توارثوه خَلَفًا عن سلف من إنكار الحق. والوقوف في وجه دعاته، إضافة إلى أن أملهم في إعادة مجدهم ودولتهم يتعارض مع الدعوة الإسلامية، وأما المشركون فلجهلهم وإسرافهم في المحرمات وما ألفوه لطول العهد من الخرافات والشرك والضلالات. كما أخبر تعالى أن النصارى هم أقرب مودة للذين آمنوا فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم[3] مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ وعلّل تعالى لهذا القرب من المودة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ...﴾ أي كان ذلك بسبب أن منهم قسّيسين[4] ورهبانًا فالقسيسون علماء بالكتاب رؤساء دينيّون غالبًا ما يؤثرون العدل والرحمة والخير على الظلم والقسوة والشر، والرهبان لانقطاعهم عن الدنيا وعدم رغبتهم فيها، ويدل عليه قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الحق وقبوله والقول به ولذا لما عمت المادية المجتمعات النصرانيّة، وانتشر فيها الإلحاد والإباحية قلّت تلك المودة للمؤمنين إن لم تكن قد انقطعت.

(٨٣) أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ[5]

---

(١) ﴿عَدَاوَةً﴾ منصوب على التمييز مبيِّنًا لنسبة أشد وكذا مودّة.

(٢) اللام في ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لام القسم. وهذه الآيات الأربع كالفذلكة لما سبق من الآيات في أهل الكتاب.

(٣) هذه الآية نزلت في النجاشي وأصحابه إذ هاجر إليه المؤمنون الهجرة الأولى والثانية هروبًا من اضطهاد المشركين وأذاهم، ولمّا بعثت قريش عمرو بن العاص وعبدالله بن ربيعة بهدايا تطالب برد المهاجرين إليها دعا النجاشي الرهبان والقسس وأسمعهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم فبكوا حتى فاضت أعينهم من الدمع فنزلت هذه الآية.

(٤) جمع قسّ ويجمع على قساوسة، والرهبان جمع راهب كراكب وركبان وفعله رهِب يرهب رهبًا ورهَبًا رهبة إذا خاف، والرهبانية والترهب التعبّد في صومعة أو دير.

(٥) تفيض أعينهم من الدمع أي: بالدمع وحروف الجرّ تتناوب، قال امرؤ القيس:

ففاضت دموع العين مني صبابة ... على النحر حتى بَلَّ دمعي مِحملي

أي: غلاف السيف.

مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ[1] ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فالمعنيُّ بها من أسلم من النصارى بمجرد أن تُلي عليهم القرآن وسمعوه كأصحمة النجاشي وجماعة كثيرة، ومعنى قولهم: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أنهم بعدما سمعوا القرآن تأثروا به فبكوا من أجل ما عرفوا من الحق وسألوا الله تعالى أن يكتبهم مع الشاهدين ليكونوا معهم في الجنة، والشاهدون هم الذين شهدوا لله تعالى بالوحدانية ولنبيه ﷺ بالرسالة، وأطاعوا الله ورسوله ﷺ من هذه الأمة، وقولهم:

(٨٤) ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فإن معناه: أي شيء يمنعنا من الإيمان بالله ربًا وإلهًا واحدًا لا شريك له ولا ولد ولا والد. وبما جاء من الحق في توحيده تعالى ونبوّة رسوله محمد ﷺ، ومن الطمع في أن يدخلنا ربنا الجنة مع الصالحين من هذه الأمة.

(٨٥) ولما قالوا هذا أخبرهم تعالى أنه أثابهم به ﴿جَنَّٰتٍ[2] تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وأخبر تعالى أن ذلك الجزاء الذي جزاهم به هو ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهم الذين أحسنوا القول والعمل مع سلامة عقائدهم، وطهارة أرواحهم حيث لم يتلوثوا بالشرك والمعاصي.

(٨٦) ثم أخبر تعالى بأن الذين كفروا[3] بالله إلهًا واحدًا وبرسوله ﷺ نبيًا ورسولاً، وكذبوا بآياته القرآنية أولئك البعداء هم أصحاب[4] الجحيم الذين لا يفارقونها أبدًا.

هداية الآيات:

١ - عظم عداوة اليهود والمشركين للإسلام والمسلمين.

٢ - قرب النصارى الصادقين في نصرانيتهم من المسلمين.

٣ - فضيلة التواضع، وقبح الكِبْر.

٤ - فضل هذه الأمة وكرامتها على الأمم قبلها.

٥ - فضل الكتابي إذا أسلم. وحسن إسلامه.

٦ - بيان مصير الكافرين والمكذبين وهو خلودهم في نار جهنم.

٧ - استعمال القرآن أسلوب الترغيب والترهيب بذكره الوعيد بعد الوعد.

وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ (٨٤) فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (٨٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٧ - ٨٩]

(٨٧) ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟﴾: التحريم: المنع، أي لا تمتنعوا. ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: أي ما أباحه لكم وأذن لكم فيه من نكاح وطعام وشراب.

(٨٨) ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾: مباحًا غير مستقذر ولا مستخبث.

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾: لا يعاقبكم الله باللغو الذي هو ما كان بغير قصد اليمين. ﴿عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾:

---

(١) في الكلام إضمار أي: ونطمع أن يدخلنا ربنا الجنة مع القوم الصالحين، وهم أمّة محمد ﷺ الصادقين الصالحين.

(٢) دلّ هذا الجزاء الحسن على إخلاص إيمانهم وصدق مقالهم إذ به أجاب الله سؤالهم وحقق طمعهم ورجاءهم وهكذا كلّ من خلص إيمانه وصدق يقينه يكون ثوابه الجنة.

(٣) في هذا احتراس إذ ما كلّ النصارى آمنوا لما سمعوا القرآن وبكوا وسألوا الله في صدق وآمنوا وعملوا الصالحات فأثابهم الله الجنة، لا بل منهم الذين كفروا وكذبوا وهم الأكثرون فجزاؤهم الجحيم يلازمونها أبدًا لظلمة قلوبهم وخبث نفوسهم.

(٤) يقال: نار جحمة على وزن نجمة أي: شديدة اللهب قال شاعر الحماسة الطائي:

نحن حبسنا بني جديلة في ... نارٍ من الحرب جحمةِ الضرَم

عزمتم عليها بقلوبكم بأن تفعلوا أو لا تفعلوا. ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ﴾: أغلبه ولا هو من أعلاه، ولا هو من أدناه. ﴿أَهۡلِيكُمۡ﴾: من زوجة وولد. ﴿تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾: عتقها من الرق القائم بها. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾: المتضمنة لأحكام دينه من واجب وحلال وحرام.

معنى الآيات:

(٨٧) الآيتان الأولى (٨٧) والثانية (٨٨) نزلتا في بعض[١] الصحابة منهم عبدالله بن مسعود وعثمان بن مظعون وغيرهما، كانوا قد حضروا موعظة وعظم إياها رسول الله ﷺ فزهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة. وعزموا على التبتل والانقطاع عن الدنيا فأتوا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وسألوها عن صلاة رسول الله ﷺ وقيامه فكأنهم تقالّوا ذلك فقال أحدهم: أنا لا آتي النساء، وقال آخر: أنا أصوم لا أفطر الدهر كله وقال آخر: أنا أقوم فلا أنام، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخطب الناس، وقال: «**ما بال أقوام يقولون كذا وكذا وإني أنا رسول الله لآكل اللحم، وأصوم وأفطر وأصلي وأنام وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**» ونزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ[٢] مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ من طعام وشراب ونساء، ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ بمجاوزة ما[٣] أحل لكم إلى ما حرم عليكم فإن الله تعالى ربكم ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

(٨٨) ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ أما الحرام فلا يكون رزقًا لكم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي خافوه بترك الغلوّ والتنطع المفضي بكم إلى الترهب ولا رهبانية في الإسلام. ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي ربًّا يشرع فيحلل ويحرم، وإلهًا يطاع ويعبد، هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية.

(٨٩) أما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ فقد نزلت لما قال أولئك الرهط من أصحاب الرسول ﷺ: (لقد حلفنا على ما عزمنا عليه من التبتل فماذا نصنع بأيماننا) فبيّن لهم تعالى ما يجب عليهم في أيمانهم لما حنثوا فيها بعدولهم عما حلفوا عليه فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ وهو ما لا قصد للحلف فيه وإنما جرى لفظ اليمين على اللسان فقط نحو: لا والله أو بلى والله، ومثله أن يحلف على الشيء يظنه كذا فيظهر على خلاف ما ظن، ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ أي قصدتموها عازمين[٤] عليها، فمن حنث بعد الحلف فالواجب في حقه خروجًا من الإثم كفّارة وهي ﴿إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ لكل مسكين نصف صاع أي مدّان[٥] من أعدل ﴿مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾ ما هو بالأجود الغالي، ولا بالأردأ الرخيص، ﴿أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ﴾ كقميص وعمامة، أو إزار ورداء، ﴿أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾ أي عتق رقبة مؤمنة ذكرًا كان أو أنثى صغيرة أو كبيرة فهذه الثلاثة المؤمن مخيّر في التكفير بأيها شاء، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام مفرقة أو متتابعة كما شاء، هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أي هذا الذي بيّن لكم هو ما تكفّرون به ما علق

---

(١) أخرج البخاري عن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته فلمّا أخبروا كأنّما تقالّوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له من ذنبه ما تقدّم وما تأخر، فقال أحدهم: أمّا أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أمّا أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أمّا أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج أبدًا فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

(٢) قالت العلماء: هذه الآية وما شابهها والأحاديث الواردة في معناها تردّ على غلاة المترهبين وأهل البطالة من المتصوفين، وقال الطبري: لا يجوز لمسلم تحريم شيء مما أحلّ الله لعباده المؤمنين على نفسه من الطيبات.

(٣) إذا حرّم العبد على نفسه شيئًا لا يحرم عليه، إلاّ امرأته فإنها تحرم عليه بالطلاق.

(٤) هذا إذا لم يستثن بأن يقول: إلاّ أن يشاء الله أمّا من استثنى فلا كفارة عليه إذ لا إثم مع الاستثناء ولا بد للاستثناء من النطق يقول: إلاّ أن يشاء الله ولا يتم إلاّ بتحريك لسانه وشفتيه.

(٥) وفي الآية وجه آخر ذكره القرطبي وهو أن يبادر إلى إخراج الكفارة إذا حنث وهذا حفظها من النسيان ظاهر.

بنفوسكم من إثم الحنث. وقوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[1] أي لا تكثروا الحلف فتحنثوا فتأثموا فتجب عليكم الكفارة لذلك. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ معناه مثل هذا التبيين الذي بيّنه لكم في مسألة الحنث في اليمين والكفارة له يبين لكم آياته المتضمنة لشرائعه وأعلام دينه ليعدكم بذلك لشكره بطاعته بفعل ما يأمركم به وترك ما ينهاكم عنه، فله الحمد والمنة.

هداية الآيات:

١ - حرمة تحريم ما أباح الله، كحرمة تحليل ما حرم الله عز وجل.

٢ - بيان مدى حرص الصحابة على طاعة الله خوفًا من عقابه وطمعًا في إنعامه.

٣ - حرمة الغلو في الدين والتنطع فيه.

٤ - بيان كفارة اليمين بالتفصيل.

٥ - كراهة الإكثار من الحلف.

وحرمة الحلف[2] بغير الله تعالى مطلقًا.

٦ - استحباب حنث من[3] حلف على ترك مندوب أو فعل مكروه، وتكفيره على ذلك، أما إذا حلف أن يترك واجبًا أو يأتي محرمًا فإن حنثه واجب وعليه الكفارة.

٧- الأيمان ثلاثة[4]: لغو: يمين لا كفارة لها إذ لا إثم فيها، الغموس[5]: وهي أن يحلف متعمدًا الكذب ولا كفارة لها إلا التوبة، اليمين المكفَّرة: وهي التي يتعمد فيها المؤمن الحلف ويقصده ليفعل أو لا يفعل ثم يحنث فهذه التي ذكر تعالى كفارتها وبينها.

الجزء السابع — سورة المائدة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

١٢٣

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٠ - ٩٣]

﴿٩٠﴾ ﴿الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾: الخمر[6]: كل مسكر كيفما كانت مادته قلّت أو كثرت، والميسر: القمار[7].

﴿وَالْأَنصَابُ﴾: الأنصاب: جمع نصب، ما ينصب للتقرب به إلى الله أو التبرك به، أو لتعظيمه كتماثيل الرؤساء والزعماء في العهد

---

(١) قال العلماء: الأيمان أربعة: يمينان يكفّر فيهما إذا حنث ويمينان لا كفارة فيهما فالأوّلان أن يقول: والله لأفعلن كذا ثمّ يحنث، والثاني أن يقول: والله لا أفعل كذا ويحنث، واللّذان لا كفارة فيهما: الأولى: لغو اليمين وهو أن يحلف على الشيء يظنه كذا فيظهر خلافه، والثانية: أن يجري على لسانه الحلف وهو غير قاصد نحو: لا والله، بلى والله، والخامسة: اليمين الغموس، وهو أن يحلف متعمّدًا الكذب وكفّارتها التوبة لا غير وإن كفّر مع التوبة فحسن.

(٢) لحديث الترمذي: «**من حلف بغير الله فقد أشرك أو كفر**» وحديث الصحيح: «**ألا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**».

(٣) لقوله ﷺ: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه**».

(٤) هذا العدد مجمل وقد تقدم تفصيله وأنّ الأيمان خمسة.

(٥) أخرج البخاري أن النبي ﷺ سأله أعرابي قائلًا يا رسول الله: ما الكبائر؟ قال: «**الإشراك بالله**» قال: ثمّ ماذا؟ قال: «**عقوق الوالدين**». قال: ثمّ ماذا؟ قال: «**اليمين الغموس**». قال: وما اليمين الغموس؟ قال: «**التي يقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها كاذب**».

(٦) صحّ عن عمر رضي الله عنه أنه خطب يومًا فقال: «أيها الناس ألا إنّه قد نزل تحريم الخمر يوم نزل وهي من خمسة: من العنب والتمر، والعسل والحنطة والشعير» والخمر ما خامر العقل أي: ستره وغطّاه فأصبح المرء يهذي ويقول الخطأ والصواب.

(٧) ما دامت علّة التحريم في الخمر والميسر هي إثارة العداوة بين إخوة الإيمان، والصدّ هو الإلهاء عن ذكر الله وعن الصلاة فإن كل ما ينشأ عنه إثارة العداوة والصدّ عن الذكر والصلاة فهو حرام.

الحديث. ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾: جمع زلم: وهي عيدان يستقسمون بها في الجاهلية لمعرفة الخير من الشر والربح من الخسارة، ومثلها قرعة الأنبياء، وخط الرمل، والحساب بالمسبحة. ﴿رِجْسٌ﴾: الرجس: المستقذر حسًا كان أو معنى، إذ المحرمات كلها خبيثة وإن لم تكن مستقذرة. ﴿مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾: أي مما يزيّنه للناس ويحببه إليهم ويرغبهم فيه ليضلهم. ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾: اتركوه جانبًا فلا تُقبلوا عليه بقلوبكم وابتعدوا عنه بأبدانكم. ﴿تُفْلِحُونَ﴾: تكملون وتسعدون في دنياكم وآخرتكم.

(٩١) ﴿وَيَصُدَّكُمْ﴾: أي يصرفكم. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾: أي انتهوا فالاستفهام للأمر لا للاستخبار.

(٩٣) ﴿جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾: أي إثم فيما شربوا من الخمر وأكلوا من الميسر قبل تحريم ذلك.

معنى الآيات:

(٩٠) لمّا نهى الله تعالى المؤمنين عن تحريم ما أحلّ الله تعالى لهم بَيّنَ لَهم ما حرّمه عليهم ودعاهم إلى تركه واجتنابه لضرره بهم، وإفساده لقلوبهم وأرواحهم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا[١]﴾ أي يا من صدقتم بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً اعلموا ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ[٢] وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ﴾ أي سخط وقذر مما يدعو إليه الشيطان ويزيّنه للنفوس ويحسنه لها لترغب فيه، وهو يهدف من وراء ذلك إلى إثارة العداوة والبغضاء بين المسلمين الذين هم كالجسم الواحد. وإلى صدهم عن ذكر الله الذي هو عصمتهم وعن الصلاة التي هي معراجهم إلى الله ربهم، وآمرتهم بالمعروف وناهيتهم عن المنكر، ثم أمرهم بأبلغ أمر وأنفذه إلى قلوبهم لخطورة هذه المحرمات الأربع وعظيم أثرها في الفرد والمجتمع بالشر والفساد فقال: (٩١) ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[٣]؟! وأمرهم بطاعته وطاعة رسوله وحذّرهم من مغبة المعصية وآثارها السيئة فقال: (٩٢) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ مغبة ذلك، ثم أعلمهم أنهم إن تولوا عن الحق بعدما عرفوه فالرسول ﷺ لا يضيره توليهم إذ ما عليه إلا البلاغ المبين وقد بلّغ، وأما هم فإن جزاءهم على توليهم سيكون جزاء الكافرين وهو الخلود في العذاب المهين. هذا معنى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا[٤] أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)﴾.

(٩٣) وقوله تعالى في الآية الأخيرة (٩٣): ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ[٥] اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾ فقد نزلت لقول بعض الأصحاب[٦] لرسول الله ﷺ: (يا رسول الله ما بال الذين ماتوا من إخواننا وهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر؟) أي كيف حالهم فهل يؤاخذون أو يعفى عنهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأعلم أنهم ليس عليهم جناح أي إثم أو مؤاخذة فيما شربوا وأكلوا قبل نزول التحريم بشرط أن يكونوا قد اتقوا الله في

---

(١) هذه الآية نزلت بعد وقعة أُحد وكانت في السنة الثالثة من الهجرة أي: في آخرها ولكنها وقعت هنا في سورة المائدة بعد نزولها وهذه الآية هي الناسخة لإباحة الخمر ويروى في سبب نزولها أن ملاحاة كانت بين سعد بن أبي وقاص ورجل من الأنصار سببها شرب خمر في ضيافة لهم.

(٢) ذكر الأنصاب والأزلام مع الخمر والميسر المقصود منه تأكيد التحريم وتقويته نظرًا لما ألِفته النفوس منهما، والمراد من تحريم الأنصاب تحريم عبادتها وصنعها، وبيعها.

(٣) هذه الصيغة تستعمل للحث على الفعل إذا المأمور بدا عليه التراخي أو عدم الاهتمام مما أمر بفعله أو تركه. والفاء في ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ تفريع عن قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ..﴾ الآية، والمأمور بالانتهاء عنه هو الخمر والميسر فلذا يقدّر عنهما بعد ﴿مُّنتَهُونَ﴾.

(٤) ﴿فَاعْلَمُوا﴾ جواب الشرط أي: فإن توليتم عن طاعة الله والرسول ﷺ فاعلموا أن تولّيكم لا يضر الرسول ﷺ شيئًا إنما على الرسول ﷺ البلاغ وقد بلّغكم.

(٥) جملة: ﴿ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا﴾ تأكيد لفظي لجملة: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

(٦) يروى أن القائل: أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو سؤال إشفاق ورحمة على من مات وهو يشرب هذا المحرم.

محارمه وآمنوا به وبشرائعه، وعملوا الصالحات استجابة لأمره وتقربًا إليه. فكان رفع الحرج عليهم مقيدًا بما ذكر. وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّقَوا ...﴾ كما لا جناح[1] على الأحياء فيما طعموا وشربوا قبل التحريم وبشرط الإيمان، والعمل الصالح والتقوى لسائر المحارم، ودوام الإيمان والتقوى والإحسان في ذلك بالإخلاص فيه لله تعالى.

هداية الآيات:

١ - حرمة الخمر والقمار، وتعظيم الأنصاب والاستقسام بالأزلام.

٢ - وجوب الانتهاء من تعاطي هذه المحرمات فورًا وقول انتهينا يا ربنا كما قال عمر رضي الله عنه.

٣ - بيان علة تحريم شرب الخمر ولعب الميسر وهي إثارة العداوة والبغضاء بين الشاربين واللاعبين والصد عن ذكر الله وعن الصلاة وهما قوام حياة المسلم الروحية.

٤ - وجوب طاعة الله والرسول ﷺ والحذر من معصيتهما.

٥ - وجوب التقوى حتى الموت ووجوب الإحسان في المعتقد والقول والعمل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٤ - ٩٦]

(٩٤) ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾: ليختبرنكم.

﴿الصَّيْدِ﴾[2]: ما يصاد[3]. ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾[4]: كبيض الطير وفراخه. ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾: جمع رمح، وما ينال به هو الحيوان على اختلافه. ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾: ليظهر[5] الله تعالى بذلك الاختبار من يخافه بالغيب فلا يصيد. ﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ (بعد التحريم): بأن صاد بعدما بلغه التحريم.

(٩٥) ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾: جمع حرام والحرام: المُحرم لحج أو عمرة ويقال رجل حرام وامرأة حرام. ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾: النعم: الإبل والبقر والغنم. ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾: أي صاحبا عدالة من أهل العلم. ﴿وَبَالَ أَمْرِهِ﴾: ثقل جزاء ذنبه حيث صاد والصيد حرام.

(٩٦) ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾: المسافرين يتزوّدون به في سفرهم. وطعام البحر ما يقذف به إلى الساحل.

معنى الآيات:

(٩٤) ينادي الرب تبارك وتعالى عباده المؤمنين ليعلمهم مؤكدًا خبره بأنه يبلوهم اختبارًا لهم ليظهر المطيع من العاصي فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ فحرم عليهم تعالى الصيد وهم حرم ثم ابتلاهم بوجوده بين أيديهم بحيث تناله أيديهم ورماحهم بكل يسر وسهولة على نحو ما ابتلى به بني إسرائيل في تحريم الصيد يوم السبت فكان السمك يأتيهم يوم سبتهم شُرّعًا ويوم لا يسبتون لا يأتيهم كذلك بلاهم ربهم بما كانوا يفسقون، بيد أن المسلمين استجابوا لربهم وامتثلوا أمره، على خلاف بني

الجزء السابع — سورة المائدة

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)

١٢٤

---

(١) الجُناح، الإثم المترتب عن الجنح الذي هو الميل إلى المعصية وعدم الطاعة.

(٢) أذن للمحرم ولمن في الحرم في قتل ما يؤذي كالحية والعقرب، والغراب والفارة وكل ما يؤذي كالأسد والنمر والذئب والفهد لقوله ﷺ: «**خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والغراب الأبقع والفارة والكلب العقور والحداة**».

(٣) الصيد مصدر صاد يصيد صيدًا وأطلق المصدر على اسم المفعول: المصيد فقالوا: صيدٌ.

(٤) قوله: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يريد صغار الصيد، وفراخه وبيضه. ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ هو كبائر الصيد الذي لا يؤخذ باليد ولكن بآلة الصيد.

(٥) أي: ليظهر ذلك لهم إقامة للحجة عليهم أما هو سبحانه وتعالى فعلمه بذلك أزلي سابق.

إسرائيل فإنهم عصوا وصادوا فمسخهم قردة خاسئين. وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي فمن صاد بعد هذا التحريم فله عذاب أليم، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٩٤).

(٩٥) أما الآية الثانية (٩٥) وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا[1] ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ[2] وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ فأكد لهم تحريم الصيد وبيّن لهم ما يترتب على ذلك من جزاء فقال: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ فالحكم الواجب على من قتله جزاءٌ ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فالعدلان ينظران إلى الصيد وما يشبهه من النعم، فالنعامة تشبه الجمل وبقرة الوحش تشبه البقرة، والغزال يشبه التيس وهكذا فإن شاء[3] من وجب عليه بعير أو بقرة أو تيس أن يسوقه إلى مكة لفقراء الحرم فليفعل، وإن شاء اشترى بثمنه طعامًا وتصدق به، وإن شاء صام بدل كل نصف صاع يومًا لقوله تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ وقوله تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي ثقل جزاء مخالفته، وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي ترك مؤاخذتكم على ما مضى، وأما مستقبلاً فإنه تعالى يقول: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ[4] ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ومعناه أنه يعاقبه على معصيته ولا يحول دون مراده تعالى حائل ألا فاتقوه واحذروا الصيد وأنتم حرم، هذا ما دلت عليه الآية الثانية.

(٩٦) أما الثالثة (٩٦) فقد أخبر تعالى بعد أن حرم على المؤمنين الصيد وهم حرم وواجب الجزاء على من صاد. أخبر أنه امتنانًا منه عليهم أحلّ لهم صيد البحر أي ما يصيدونه من البحر وهم حرم كما أحلّ لهم طعامه وهو ما يقذفه البحر من حيوانات[5] ميتة على ساحله ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ وهم المسافرون يتزودون به في سفرهم ويحرم عليهم صيد البر ما داموا حرمًا، وأمرهم بتقواه أي بالخوف من عقوبته فيلزموا طاعته بفعل ما أوجب وترك ما حرم، وذكرهم بحشرهم جميعًا إليه يوم القيامة للحساب والجزاء فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - ابتلاء الله تعالى لأصحاب رسول الله ﷺ بالحديبية بكثرة الصيد بين أيديهم. وحرّم عليهم صيده فامتثلوا أمر الله تعالى ولم يصيدوا فكانوا خيرًا من بني إسرائيل وأفضل منهم على عهد أنبيائهم.

٢ - تحريم الصيد على المحرم إلا صيد البحر فإنه مباح له.

٣ - بيان جزاء من صاد وهو محرم وأنه جزاء مثل ما قتل من النعم.

٤ - وجوب التحكيم فيما صاده المحرم، ولا يصح أن يكفّر الصائد بنفسه.

٥ - صيد الحرم حرام على الحرام من الناس والحلال.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٧ - ١٠٠]

(٩٧) ﴿ٱلْكَعْبَةَ﴾: الكعبة كل بناء مربع والمراد بها هنا بيت الله الحرام. ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾: يقوم به أمر دينهم بالحج إليه والاعتمار ودنياهم بأمن داخله وجَبْي ثمرات كل شيء إليه. ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾: أي المحرم والمراد به الأشهر الحرم الأربعة رجب والقعدة والحجة ومحرم. ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾: ما يهدى إلى البيت من أنواع الهدايا. ﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾: جمع قلادة ما يقلده البعير أو البقرة المهدى إلى الحرم.

(٩٩) ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: بلاغ ما أمره

---

(١) روي أن أبا اليسر عمرو بن مالك الأنصاري قتل حمار وحش وهو محرم بعمرة عام الحديبية فنزلت هذه الآية.

(٢) القتل لغة: إفاتة الروح وهو أنواع منها: النحر، والذبح، والخنق، والرضخ وشبهه.

(٣) قالت العلماء: ما يجزىء من الصيد شيئان دواب وطير فيجزىء ما كان من الدواب بنظيره في الخلقة والصورة ففي النعامة بدنة والطير: القيمة إلا الحمام ففيه شاة.

(٤) الجمهور أنّ مَنْ صاد ودفع الجزاء ثمّ صاد كلما صاد لزمه الفداء، وبعض أهل العلم يرى أنه لا يحكم عليه بشيء ويترك لله تعالى ويقال له: ينتقم الله منك.

(٥) مذهب مالك حلية ميتة البحر مطلقًا لحديث: «**هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته**» وحديث العنبر.

بإبلاغه. ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: أي ما تظهرون وما تخفون.

(١٠٠) ﴿الْخَبِيثُ﴾: مقابل الطيب وهو الحرام وهو عام في المحسوسات والمعقولات. ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أصحاب العقول.

معنى الآيات:

(٩٧) - (٩٨) قوله تعالى: ﴿جَعَلَ[١] اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا[٢] لِلنَّاسِ﴾ المراد من الناس العرب في جاهليتهم قبل الإسلام، ومعنى قيامًا: أن مصالحهم قائمة على وجود البيت يحج ويعتمر يأمن الآتي إليه والداخل في حرمه، وكذا الشهر[٣] الحرام وهي أربعة أشهر: القعدة والحجة ومحرم ورجب[٤]، وكذا الهدي وهو ما يهدى إلى الحرم من الأنعام، وكذا القلائد جمع قلادة وهي ما يقلده الهدي إشعارًا بأنه مهدى إلى الحرم، وكذا ما يقلده الذاهب إلى الحرم نفسه من لِحَاء[٥] شجر الحرم إعلامًا بأنه آت من الحرم أو ذاهب إليه فهذه الأربعة: البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد كانت تقوم مقام السلطان بين العرب فتحقق الأمن والرخاء في ديارهم وخاصة سكان الحرم من قبائل قريش فهذا من تدبير الله تعالى لعباده وهو دال على علمه وقدرته وحكمته ورحمته ولذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي حقق ذلك الأمن والرخاء في وقت لا دولة لكم فيه ولا نظام ليعلمكم أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض من سائر الكائنات وشتى المخلوقات لا يخفى عليه من أمرها شيء، وأنه بكل شيء عليم فهو الإله الحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه فاعبدوه، وتوكلوا عليه واتركوا عبادة غيره والنظر إلى سواه، وإن لم تفعلوا فسوف يعاقبكم بذلك أشد العقوبة وأقساها فإنه عز وجل شديد العقاب فاعلموا ذلك واتقوه.

هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (٩٧) والثانية (٩٨) أما الآية الثالثة (٩٩) فقد أكدت مضمون قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهو وعيد شديد فقال تعالى:

(٩٩) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[٦] وقد بلّغ، فأنذر وأعذر، وبقي الأمر إليكم إن أنبتم إلى ربكم وأطعتموه فإنه يغفر لكم ويرحمكم لأنه غفور رحيم، وإن أعرضتم وعصيتم فإنه يعلم ذلك منكم ويؤاخذكم به ويعاقبكم عليه وهو شديد العقاب، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعد ووعيد لأن علمه تعالى بالظواهر والبواطن يترتب عليه الجزاء فإن كان العمل خيرًا كان الجزاء خيرًا وإن كان العمل شرًا كان الجزاء كذلك.

(١٠٠) هذا مضمون الآية الثالثة أما الرابعة (١٠٠) فإنه تعالى يقول لرسوله ﷺ قل للناس أيها الناس أنه ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ[٧]﴾ من المعتقدات والأقوال والأعمال

---

(١) الله الذي أوجد الكعبة إذ أمر خليله ببنائها فبناها هذا الإيجاد الأخير أمّا الأوّل فكان على عهد آدم عليه السلام، وجعل هنا بمعنى صيّرها كذلك أي: قيامًا للناس الذين هم العرب.

(٢) قيامًا وقيمًا، وهما من ذوات الواو فقلبت الواو ياء لأن أصل الفعل قام يقوم قوامًا وقيامًا.

(٣) الشهر: اسم جنس ولذا أريد به هنا الأشهر الحرم الأربعة.

(٤) يقال له رجب الأصم لأنه لا يسمع فيه قعقعة السلاح ويقال: رجب مضر لأن مضر كانت تعظّمه أكثر من غيره، والأصب حيث يصب فيه الخير صبًا.

(٥) لِحاء ككِساء: قشر الشجر.

(٦) أي: ليس عليه هداية الناس ولا التوفيق ولا الثواب. وأصل البلاغ: البلوغ وهو الوصول، بلغ المكان يبلغه وصل إليه، وأبلغه الشيء أوصله إليه فعلى الرسول ﷺ إبلاغ أمر الله ونهيه وإخباره إلى عباده بأسلوب بلاغي يصل به إلى نفوسهم في أطيب لفظ وأحسنه.

(٧) الخبيث لا يساوي الطيب مقدارًا ولا إنفاقًا ومكانًا ولا ذهابًا فالطيب يأخذ جهة اليمين، والخبيث يأخذ ذات الشمال، والطيّب والطيّبون في الجنة، والخبيث والخبثاء في النار.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

١٢٥

والرجال والأموال[1]، ﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾ منها، ولو أعجبتكم[2] أي سرتكم كثرة الخبيث فإن العبرة ليست بالكثرة والقلة وإنما هي بالطيّب النافع غير الضار ولو كان قليلاً، وعليه ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي خافوه فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه رجاء حصول الفلاح لكم بالنجاة من المرهوب والحصول على المرغوب المحبوب.

هداية الآيات:

١ - بيان عظيم تدبير الله تعالى لخلقه، إذ أمّن مصالح قريش والعرب فأوجد لهم أمنًا واستقرارًا وتبع ذلك هناءة عيش وطيب حياة بما ألقى في قلوب عباده من احترام وتعظيم للبيت الحرام والشهر الحرام، والهدي والقلائد، الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله.

٢ - بيان مسؤولية الرسول ﷺ إزاء الناس وأنها البلاغ لا غير وقد بلغ ﷺ.

٣ - تقرير الحكمة القائلة: العبرة بالكيف لا بالكم، فمؤمن واحد أنفع من عشرة كفرة ودرهم حلال خير من عشرة حرام وركعتان متقبلتان خير من عشرة لا تُقبل.

٤ - الأمر بالتقوى رجاء فلاح المتقين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠١ ـ ١٠٤]

﴿١٠١﴾ ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾: تظهر لكم تضركم. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾: سكت عنها فلم يذكرها أو لم يؤاخذكم بها.

﴿١٠٢﴾ ﴿سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾: طلبها غيركم من الأمم السابقة.

﴿١٠٣﴾ ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: أي ما شرع. ﴿بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾: البحيرة: الناقة تبحر أذنها أي تشق، والسائبة: الناقة تسيّب. ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾: الوصيلة: الناقة يكون أول إنتاجها أنثى، والحام: الجمل يحمى ظهره للآلهة.

﴿١٠٤﴾ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: من الحق والخير. ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾: من الباطل والضلال.

معنى الآيات:

لقد أكثر بعض الصحابة من سؤال رسول الله ﷺ حتى تضايق منهم فقام خطيبًا فيهم وقال: **«لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم»**. فقام رجل يدعى عبدالله بن حذافة كان إذا تلامى مع رجل دعاه إلى غير أبيه فقال: من أبي يا رسول الله؟ فقال: **أبوك حذافة**، وقال أبو هريرة: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: **«أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»** فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟

---

(١) قالت العلماء: في قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ﴾ الآية، دليل على أنّ البيع الفاسد يفسخ ويرد الثمن على المبتاع وشاهده من السنة قوله ﷺ: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»**.

(٢) الخطاب في قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ الخطاب صالح لكل من هو أهل للخطاب والانتفاع به من عقلاء هذه الأمة ولذا قلت في التفسير: ولو أعجبتكم ولم أقل: أعجبتك.

﴿١٠٣﴾ من الأحناف من يمنع الحبس، والوقف تعلّقًا واستدلالاً بهذه الآية وهو محجوج بإجماع الصحابة لحديث عمر في الصحيح إذ قال له الرسول ﷺ: **«احبس الأصل وسبّل الثمرة»**.

﴿١٠٣﴾ وذلك إذا نتجت خمسة أبطن فإن كان الخامس ذكرًا نحروه فأكله الرجال والنساء وإن كان أنثى بحروا أذنها أي: شقوها وكانت حرامًا على النساء لحمها ولبنها، والسائبة: بعير يسيب بنذر ينذره أحدهم للآلهة إن حصل له كذا سيّب كذا وتترك فلا تمنع من رعي ولا ماء ولا يركبها أحد.

فسكت حتى قالها ثلاثًا فقال رسول الله ﷺ: «**لا ولو قلت نعم، لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم**» ثم قال: «**ذروني ما تركتكم**» فنزلت: (١٠١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ[(١)] إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ أي تظهر لكم جوابًا لسؤالكم يحصل لكم بها ما يسؤكم ويضركم، ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا[(٢)] حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي يبينها رسولنا ﷺ لكم. أما أن تسألوا عنها قبل نزول القرآن بها فذلك ما لا ينبغي لكم لأنه من باب إحفاء رسول الله ﷺ وأذيته. ثم قال تعالى لهم: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ أي لم يؤاخذكم بما سألتم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، فتوبوا إليه يتب عليكم[(٣)] واستغفروه يغفر لكم ويرحمكم فإنه غفور رحيم.

(١٠٢) وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ۝﴾ أي قد سأل أسئلتكم التنطعية المحرجة هذه قوم من قبلكم ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾[(٤)]، لأنهم كلفوا ما لم يطيقوا وشق عليهم جزاء تعنتهم في أسئلتهم لأنبيائهم فتركوا العمل بها فكفروا. هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (١٠١) والثانية (١٠٢)

وأما الثالثة (١٠٣) فقد قال تعالى: (١٠٣) ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ومن الجائز أن يكون هناك من يسأل الرسول ﷺ عن البحيرة وما بعدها فأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ أي ما بحر الله بحيرة ولا سيب سائبة ولا وصل وصيلة ولا حمى حاميًا، ولكن الذين كفروا هم الذين فعلوا ذلك افتراء على الله وكذبًا عليه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ولو عقلوا ما افتروا على الله وابتدعوا وشرعوا من أنفسهم ونسبوا ذلك إلى الله تعالى، وأول من سيب السوائب وغير دين إسماعيل عليه السلام عمرو بن لحي الذي رآه رسول الله ﷺ يجرُّ قَصَبه في النار أي أمعاءه في جهنم. هذا ما تضمنته الآية الثالثة.

(١٠٤) أما الرابعة (١٠٤) فقد أخبر تعالى أن المشركين المفترين على الله الكذب بما ابتدعوه من الشرك إذ قيل لهم: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ليبين لكم كذبكم وباطلكم في بحر البحائر وتسييب السوائب، يرفضون الرجوع إلى الحق ويقولون: ﴿حَسْبُنَا﴾ أي يكفينا ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فلسنا في حاجة إلى غيره فردّ تعالى عليهم منكرًا عليهم قولهم الفاسد ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي يتبعونهم ويحتجون بباطلهم ولو كان أولئك الآباء جهالاً حمقًا لا يعقلون شيئًا من الحق، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى خير أو معروف.

هداية الآيات:

١ - كراهية الإلحاف في السؤال والتقعر في الأسئلة والتنطع فيها.

٢ - حرمة الابتداع في الدين وأنه سبب وجود الشرك في الناس.

٣ - وجوب رد المختلف فيه إلى الكتاب والسنة والرضا بحكمهما.

٤ - حرمة تقليد الجهال واتباعهم في أباطيلهم.

شرح الكلمات: [الآية: ١٠٥]

(١٠٥) ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صدقوا الله ورسوله ﷺ واستجابوا لهما بفعل المأمور وترك المنهي. ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[(٥)]: ألزموا أنفسكم هدايتها وإصلاحها. ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾: إلى معرفة الحق ولزوم طريقه. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: ضلالاً ومهتدين.

---

(١) ممنوع من الصرف لأنه مشبه بحمراء. في الآية دليل على كراهة السؤال لغير حاجة وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعًا وهات، وكره لكم ثلاثًا: قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال**».

(٢) إن قيل: ما وجه أنه تعالى نهاهم عن السؤال ثم أذن لهم بقوله: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا..﴾ إلخ؟ الجواب: إن تسألوا عن غيرها مما دعت الحاجة إليه، ففي الكلام حذف مضاف كما قدّمناه فتأمله.

(٣) بعد انقطاع الوحي أمن الناس من نزول ما قد يسوء ومع هذا فإن سؤال التنطع والتعنت مكروه دائمًا وفي الحديث الصحيح: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**».

(٤) من أمثلة ذلك: سؤال قوم صالح الناقة، وقوم عيسى المائدة، وفي الآية تحذير للمؤمنين أن يقعوا فيما وقع فيه غيرهم فيهلكوا كما هلكوا. وفي صحيح مسلم يقول الرسول ﷺ: «**إنّ أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرّم عن المسلمين فحرم من أجل مسألته**».

(٥) وإن قيل في معنى احفظوا أنفسكم من الوقوع في المعاصي لكان وجيهًا لأنّ عليكم اسم فعل بمعنى احفظ كذا.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)﴾

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: يخبركم بأعمالكم ويجازيكم بها.

معنى الآية الكريمة:

(١٠٥) ينادي الله تعالى عباده المؤمنين فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدقوا بالله ورسوله ﷺ ووعد الله ووعيده ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[١] ألزموها الهداية والطهارة بالإيمان والعمل الصالح وإبعادها عن الشرك والمعاصي، ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي أن ضلال غيركم غير ضار بكم إن كنتم مهتدين إذ لا تزر وازرة وزر أخرى، كل نفس تجزى بما كسبت لا بما كسب غيرها ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضل عليها إلا أن من الاهتداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن ترك المؤمنون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يعتبرون مهتدين إذ بالسكوت عن المنكر يكثر وينتشر ويؤدّي حتمًا إلى أن يضلّ المؤمنون فيفقدون هدايتهم ولذا قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه خطيبًا يومًا فقال: (يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ[٢] آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ[٣]..﴾ إلخ، وإنكم تضعونها[٤] على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب**») وقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه وعد ووعيد، وعد لمن أطاع الله ورسوله ﷺ، ووعيد لمن عصاهما.

هداية الآية الكريمة:

١ - وجوب إصلاح المؤمن نفسه وتطهيرها من آثار الشرك والمعاصي وذلك بالإيمان والعمل الصالح.

٢ - ضلال الناس لا يضر المؤمن إذا أمرهم بالمعروف[٥] ونهاهم عن المنكر.

٣ - تقرير مبدأ البعث الآخر.

٤ - للعمل أكبر الأثر في سعادة الإنسان أو شقائه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٦ - ١٠٨]

(١٠٦) ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾: الشهادة: قول صادر عن علم حاصل بالبصر أو

---

(١) في الآية التحذير مما وقع فيه تقدّم ذكرهم من التقليد الأعمى والابتداع المضر المهلك وهو وجه المناسبة بين هذه الآية وما سبقها من الآيات.

(٢) قيل: هذه الآية هي الوحيدة التي جمعت بين الناسخ والمنسوخ، فالناسخ فيها قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ والمنسوخ هو ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ إذ من اهتدى لا يضره من ضل ولا تتم الهداية إلا بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٣) أنفسكم منصوب على الإغراء الدال عليه اسم الفعل عليكم.

(٤) ورد بدل تضعونها.. إلخ: وتتأولونها على غير تأويلها.

(٥) قالت العلماء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتعيّن متى رُجي القبول والتغيير فإن كان هناك عدم رجاء فلا يجب الأمر والنهي. وكذا يسقط إذا خاف ضررًا يلحقه لا يقوى عليه أو يلحق غيره من المسلمين.

(١٠٨) هذه الآية نزلت فيما ذهب إليه أكثر المفسرين: في تميم الداري وعدي بن بداء إذ روى البخاري وغيره أن تميم الداري وابن بداء كانا يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من بني سهم فتوفي بأرض ليس فيها مسلم فأوحى إليهما فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جامًا (إناء) من فضة مخوصًا بالذهب فاستحلفهما رسول الله ﷺ: «**ما كتمتما ولا أطلعتما**» ثم وجد الجام بمكة فقالوا: اشتريناه

البصيرة، وبينكم: أي شهادة بعضكم على بعض. ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي بأن كنتم مسافرين. ﴿مِن بَعْدِ الصَّلَوٰةِ﴾: صلاة العصر. ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾: شككتم في سلامة قولهما وعدالتهما.

(١٠٧) ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾: أي وقف على خيانة منهما فيما عهد به إليهما حفظه.

(١٠٨) ﴿أَدْنَىٰ﴾: أقرب. ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾[1]: أي صحيحة كما هي لا نقص فيها ولا زيادة. ﴿الْفَاسِقِينَ﴾: الذين لم يلتزموا بطاعة الله ورسوله ﷺ في الأمر والنهي.

معنى الآيات:

(١٠٦) ما زال السياق في إرشاد المؤمنين وتعليمهم وهدايتهم إلى ما يكملهم ويسعدهم ففي هذه الآيات الثلاث (١٠٦)، (١٠٧)، (١٠٨) ينادي الله تعالى عباده المؤمنين فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي ليشهد اثنان ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي من المسلمين على وصية أحدكم إذا حضرته الوفاة، أو ليشهد اثنان من غيركم أي من غير المسلمين ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي كنتم مسافرين ولم يوجد مع من حضره الموت في السفر إلا كافر، فإن ارتبتم في صدق خبرهما وصحة شهادتهما فاحبسوهما أي أوقفوهما بعد صلاة العصر في المسجد ليحلفا لكم فيقسمان بالله فيقولان والله لا نشتري بأيماننا ثمنًا قليلًا، ولو كان المقسم عليه أو المشهود عليه ذا قربى أي قرابة، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا﴾ أي إذا كتمنا شهادة الله ﴿لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾.

(١٠٧) ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي وإن وجد أن الذين حضرا الوصية وحلفا على صدقهما فيما وصاهما به من حضره الموت إن وُجد عندهما خيانةٌ أو كذب فيما حلفا عليه، ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾[2] فيقسمان بالله قائلين: والله لشهادتنا أحق من شهادتهما أي لأيماننا أصدق وأصح من أيمانهما، ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي عليهما باتهام باطل، إذ لو فعلنا ذلك لكنا من الظالمين، فإذا حلفا هذه اليمين استحقا ما حلفا عليه ورد إلى ورثة الميت ما كان قد أخفاه وجحده شاهدا الوصية عند الموت.

(١٠٨) قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ أي أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة عادلة لا حيف فيها ولا جور، وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، أي وأقرب إلى أن يخافوا أن ترد أيمانهم فلا يكذبوا خوف الفضيحة، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوه أيها المؤمنون فلا تخرجوا عن طاعته، ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به واستجيبوا لله فيه، فإن الله لا يهدي إلى سبيل الخير والكمال الفاسقين الخارجين عن طاعته، فاحذروا الفسق واجتنبوه.

هداية الآيات:

١ ـ مشروعية الوصية في الحضر والسفر معًا، والحث عليها والترغيب فيها.

٢ ـ وجوب الإشهاد على الوصية.

٣ ـ يجوز شهادة غير المسلم[3]

= من عدي وتميم فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أنّ هذا الجام للسهمي ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا قال: فأخذوا الجام وفيهم نزلت هذه الآية.

«لفظ الدارقطني» والظاهر أن استحلاف الرسول ﷺ لهما: كان بعد نزول الآية مبيّنة طريق الحكم في هذه القضية فاتبعها الرسول ﷺ وحكم بينهم بما في الآية نصًا وروحًا والله أعلم.

(١) أي: غير مشوّه بالتغيير والتبديل والنقص والزيادة، والتعبير بالوجه شائع يقال: جاء بالشيء الفلاني على وجهه أي: من كمال أحواله.

(٢) واحد الأوليان: الأولى بمعنى الأجدر والأحق، وعرفا باللاّم العهدية لأنه معهود للمخاطب ذهنًا، والأوليان: الأحقّان بالشهادة لقرابتهما من الميت، قال أهل العلم: إنّ هذه الآية في غاية الصعوبة إعرابًا ونظمًا وحكمًا.

(٣) هذا بناء على أن الآية غير منسوخة وهو قول الأقلية كأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وهو الراجح والآية دلالتها قوية عليه، وأما التخويف من قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فلا داعي إليه مع وجود ضرورة السفر وانعدام وجود المسلم، كما لا محذور من تحليف الشاهد إذا حامت حوله ريبة أو شك في عدالته لا سيما في ظروف تقل فيها العدالة لفساد أحوال الناس. ولهذا ذهبت في تفسير الآية على أنها محكمة والعمل بها جائز.

على الوصية إذا تعذر وجود مسلم[1].

٤ ـ استحباب الحلف بعد صلاة العصر تغليظًا في شأن اليمين.

٥ ـ مشروعية تحليف الشهود إذا ارتاب القاضي فيهم أو شك في صدقهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٩ ـ ١١١]

(١٠٩) ﴿يَوْمَ[2] يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾[3]: أي اذكر يوم يجمع الله الرسل وذلك ليوم القيامة. ﴿الْغُيُوبِ﴾: جمع غيب: وهو ما غاب عن العيون فلا يدرك بالحواس.

(١١٠) ﴿أَيَّدتُّكَ﴾: قويتك ونصرتك. ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: جبريل عليه السلام. ﴿الْمَهْدِ﴾: سرير الطفل الرضيع. الكهل: من تجاوز سن الشباب أي ثلاثين سنة. ﴿الْكِتَابَ﴾: الخط والكتابة. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: فهم أسرار الشرع، والإصابة في الأمور كلها. ﴿تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾: أي توجد وتقدر هيئة كصورة الطير. ﴿الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾: الأكمه: من ولد أعمى، والأبرص: من به مرض البرص. ﴿تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾: أي أحياء من قبورهم. ﴿كَفَفْتُ﴾: أي منعت.

(١١١) ﴿الْحَوَارِيِّينَ﴾: جمع حواري: وهو صادق الحب في السر والعلن.

معنى الآيات:

(١٠٩) يحذر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين من أهوال البعث الآخر يوم يجمع الرسل عليهم السلام ويسألهم وهو أعلم بهم: ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾؟ أطاعتكم أممكم أم عصتكم؟ فيرتج عليهم ويذهلون ويفوضون الأمر إليه تعالى ويقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا[4] إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، إذا كان هذا حال الرسل فكيف بمن دونهم من الناس، ويخص عيسى عليه السلام من بين الرسل بالكلام في هذا الموقف العظيم، لأن أمتين كبيرتين غوت فيه وضلت اليهود ادعوا أنه ساحر وابن زنى، والنصارى ادَّعوا أنه الله وابن الله، فخاطبه الله تعالى وهم يسمعون:

(١١٠) ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ فأنت عبدي ورسولي وأمك أمتي، وذكر له أنواع نعمه عليه فقال: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ[5] بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، جبريل عليه السلام ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ وأنت طفل. إذ قال وهو في مهده: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وقوله: ﴿وَكَهْلًا﴾ أي وتكلمهم وأنت كهل أيضًا، وفيه بشرى لمريم أن ولدها يكبر ولا يموت صغيرًا، وقد كلم الناس وهو شاب وسيعود إلى الأرض ويكلم الناس وهو كهل ويعدد نعمه عليه فيقول: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، فكنت تكتب الخط وتقول وتعمل بالحكمة، وعلمتك التوراة كتاب موسى عليه السلام والإنجيل الذي أوحاه إليه ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ فيكون طيرًا بإذني أي اذكر لما طالبك بنو إسرائيل بآية على نبوتك فقالوا لك اخلق لنا طيرًا فأخذت طينًا وجعلته على صورة طائر وذلك بإذني لك ونفخت فيه بإذني فكان طائرًا، واذكر أيضًا ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ وهو الأعمى الذي لا عينين له، ﴿وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ أي بعوني لك وإقداري لك على ذلك ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ

---

(١) وممن قال بعدم نسخ هذه الآية وأنها محكمة والعمل بها: من الصحابة: أبو موسى الأشعري وقضى بها، وعبدالله بن قيس، وعبدالله بن عباس، ومن التابعين سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي وغيرهم، ومن الأئمة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحم الله الجميع.

(٢) ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية معمول لـ اسمعوا لفعل محذوف يقدّر بـ اذكروا، أو اسمعوا، أو احذروا.

(٣) وجه اتصال هذه الآية بسابقتها ظاهر، إذ أمرهم تعالى في الآية الأولى بالتقوى والسمع والطاعة لأوامره ونواهيه، وذكّرهم في هذه الآية بأهوال يوم القيامة ليكون ذلك حافزًا على التقوى مقوّيًا لهم على السمع والطاعة.

(٤) أي: لا علم لنا بباطن ما أجاب به أممنا، ويشهد له حديث الصحيح: **«يرد عليّ أقوام الحوض فيختلجون فأقول: أمتي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»**.

(٥) أي: قويتك مأخوذ من الأيد الذي هو القوة ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾.

﴿الْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم أحياءً فقد أحيا عليه السلام عددًا من الأموات بإذن الله تعالى ثم قال بنو إسرائيل أحيي لنا سام بن نوح فوقف على قبره وناداه فقام حيًا من قبره وهم ينظرون، واذكر ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[(١)] فكذبوك وهموا بقتلك وصلبك، ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

(١١١) واذكر ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ[(٢)] إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ على لسانك ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ أي بك يا عيسى ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي منقادون مطيعون لما تأمرنا به من طاعة ربنا وطاعتك.

هداية الآيات:

١ - شدة هول يوم القيامة وصعوبة الموقف حتى إن الرسل ليذهلون.

٢ - وجوب الاستعداد لذلك اليوم بتقوى الله تعالى.

٣ - توبيخ اليهود والنصارى بتفريط اليهود في عيسى وغلو النصارى فيه.

٤ - بيان إكرام الله تعالى لعيسى وما حباه به من الفضل والإنعام.

٥ - ثبوت معجزات عيسى عليه السلام وتقريرها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٢ - ١١٥]

(١١٢) ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾: هل يطيع ويرضى.

﴿مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾: المائدة: الخوان وما يوضع عليه أو الطعام والمراد بها هنا الطعام.

(١١٣) ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾: أي تسكن بزيادة اليقين فيها. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾: أي نشهد أنها نزلت من السماء.

(١١٤) ﴿عِيدًا﴾: أي يومًا يعود علينا كل عام نذكر الله تعالى فيه ونشكره. ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾: علامة منك على قدرتك ورحمتك، ونبوة نبيك.

(١١٥) ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾: فمن يكفر بعد نزول المائدة منكم أيها السائلون للمائدة. ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾: أي من الناس أجمعين.

معنى الآيات:

(١١١) يقول تعالى لعبده ورسوله عيسى واذكر ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾.

(١١٢) ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ[(٣)] رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾؟ ولما كان قولهم هذا دالاً على شك في نفوسهم وعدم يقين في قدرة ربهم قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا تقولوا مثل هذا القول.

الجزء السابع — سورة المائدة

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)

١٢٧

---

(١) أي: الدلالات والمعجزات وهي المذكورة في هذه الآيات من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى.

(٢) الوحي يكون بمعنى الإلهام لغير الرسل أمّا الرسل فطرق الوحي إليهم جاءت في آخر سورة الشورى.

(٣) اضطربت نفوس المؤمنين في توجيه هذه العبارة: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ..﴾ كيف يقول هذا أنصار الله الحواريون؟ وهو دالّ دلالة واضحة على جهل بالله تعالى وعدم معرفة الأدب مع نبيّه عيسى عليه السلام، فمن قائل: أن يستطيع بمعنى: يطيع أي: هل يطيع ربّك في هذا؟ ومن قائل: إن قراءة: ﴿هل يستطيع﴾ بالتاء، وربك معمول أي: هل تقدر على سؤال ربّك أن ينزل إلخ.. ومن قائل: إنّ هذا كان منهم أوّل أمرهم قبل أن يتعلموا، ومن قائل: أنّ هذا صدر ممن كان مع الحواريين ولم يكن من الحواريين، وما ذكرته في التفسير أولى لانسجامه مع السياق إذ قول عيسى لهم: اتقوا الله، وقولهم: ونعلم أن قد صدقتنا دال على جهلهم بالله ومقام عيسى عليه السلام، وقد يكون أصحاب هذا القول ليسوا من فضلاء الحواريين ولكن كالذين قالوا لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط وكالذين قالوا لموسى عليه السلام: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة والله أعلم.

﴿١١٣﴾ فاعتذروا عن قيلهم الباطل ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أنها نزلت من السماء بسؤالك ربك ذلك.

﴿١١٤﴾ وهنا قال عيسى عليه السلام داعيًا ربه ضارعًا إليه ﴿اللَّهُمَّ﴾ أي يا الله ﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا﴾ أي للموجودين الآن منا ﴿وَآخِرِنَا﴾ أي ولمن يأتون بعدنا، ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾، أي وتكون آية منك أي علامة على وحدانيتك وعظيم قدرتك، وعلى صدقي في إرسالك لي رسولاً إلى بني إسرائيل، ﴿وَارْزُقْنَا﴾ وأدم علينا رزقك وفضلك ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، فأجابه تعالى قائلاً:

﴿١١٥﴾ ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وحقًا قد أنزلها(١)، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ يا بني إسرائيل السائلين المائدة بأن ينكر توحيدي أو رسالة رسولي، أو عظيم قدرتي ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، ولذا مسخ من كفروا منهم قردة وخنازير.

هداية الآيات:

﴿١١٢﴾ ١ - جفاء اليهود وغطرستهم وسوء أدبهم مع أنبيائهم إذ قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وقالوا لعيسى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

﴿١١٣﴾ ٢ - في قول عيسى لهم: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ دال على أنهم قالوا الباطل كما أن قولهم: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ دال على شكهم وارتيابهم.

٣- مشروعية الأعياد الدينية لعبادة الله بالصلاة والذكر شكرًا لله تعالى وفي الإسلام عيدان: الأضحى والفطر.

٤ - من أشد الناس عذابًا يوم القيامة آل فرعون والمنافقون ومن كفر من أهل المائدة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٦ - ١٢٠]

﴿١١٦﴾ ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾: معبودين يُعبدان من دوني. ﴿سُبْحَانَكَ﴾: تنزيهًا لك وتقديسًا. ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾: ما ينبغي لي ولا يتأتى لي ذلك.

﴿١١٧﴾ ﴿شَهِيدًا﴾: رقيبًا. ﴿الرَّقِيبَ﴾: الحفيظ.

﴿١١٨﴾ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾: أي بنارك فإنهم عبادك تفعل بهم ما تشاء. ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾: أي تستر عليهم وترحمهم بأن تدخلهم جنتك. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: العزيز: الغالب الذي لا يحال بينه وبين مراده، الحكيم: الذي يضع كل شيء في موضعه فيدخل المشرك النار، والموحد الجنة.

﴿١١٩﴾ ﴿الصَّادِقِينَ﴾: جمع صادق: وهو من صدق ربه في عبادته وحده. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾: لأنه أثابهم بأعمالهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

﴿١٢٠﴾ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: أي على فعل أي شيء تعلقت به إرادته وأراد فعله فإنه يفعله ولا يعجزه بحال من الأحوال.

معنى الآيات:

﴿١١٦﴾ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ واذكر لقومك ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ(٢)﴾ تعالى يوم يجمع الرسل ويسألهم ماذا أجبتم، ويسأل عيسى بمفرده توبيخًا للنصارى على شركهم ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ أي معبودين يقرره بذلك فينفي عيسى ذلك على الفور ويقول منزهًا ربه تعالى مقدسًا ﴿سُبْحَانَكَ(٣) مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، ويؤكد نفيه مما وجه إليه توبيخًا لقومه: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ يا ربي، إنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ فكيف بقولي وعملي، وأنا ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ إلا أن تعلمني شيئًا، لأنك ﴿أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

﴿١١٧﴾ ما ﴿قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ أن أقوله لهم وهو ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي رقيبًا ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ برفعي إليك ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ترقب أعمالهم وتحفظها لهم لتجزيهم بها. ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٤)﴾ رقيب وحفيظ.

---

(١) روى الترمذي عن عمار بن ياسر أن رسول الله ﷺ قال: **«أنزلت المائدة من السماء خبزًا ولحمًا»**.

(٢) هذا مثل: أتى أمر الله أتى: بصيغة الماضي لتحقق الوقوع وكذلك هناك (إذ قال) فهو بمعنى يقول: اذكر إذ يقول الله يا عيسى.. إلخ..

(٣) أخرج الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: تلقى عيسى حجته ولقّاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو هريرة عن النبي ﷺ فلقّاه الله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ الآية.

(٤) شهيدًا: أي رقيبًا أراعي أحوالهم وأدعوهم إلى العمل بطاعتك وأنهاهم عن مخالفتك.

(١١٨) ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي من مات منهم على الشرك بأن تصليه نارك فأنت على ذلك قدير، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي لمن مات على التوحيد فتدخله جنتك فإنه لذلك أهل فإنك أنت العزيز الغالب على أمره الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه فلا ينعم من أشرك به ولا يعذب من أطاعه ووحّده.

(١١٩) فأجابه الرب تبارك وتعالى قائلاً: ﴿هَٰذَا يَوْمُ[1] يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾: صدقوا الله تعالى في إيمانهم به فعبدوه وحده لا شريك له ولم يشركوا سواه. ونفعه لهم أن أُدْخِلُوا به جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يخرجون منها أبدًا، مع رضى الله تعالى عنهم ورضاهم عنه بما أنعم به عليهم من نعيم لا يفنى ولا يبيد، ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إنه النّجاة من النار ودخول الجنات.

(١٢٠) وفي الآية الأخيرة (١٢٠) يخبر تعالى أن له ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾[2] من سائر المخلوقات والكائنات خلقًا وملكًا وتصرفًا يفعل فيها ما يشاء فيرحم ويعذب ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

هداية الآيات:

١ - توبيخ النصارى في عرصات القيامة على تأليه عيسى ووالدته عليهما السلام.

٢ - براءة عيسى عليه السلام مِنْ مشركي النصارى وأهل الكتاب.

٣ - تعذيب المشركين وتنعيم الموحدين قائم على مبدأ الحكمة الإلهية.

٤ - فضيلة الصدق وأنه نافع في الدنيا والآخرة، وفي الحديث: **«عليكم بالصدق[4] فإنه يدعو إلى البر وأن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقًا».**

٥ - سؤال غير الله شيئًا ضرب من الباطل والشرك، لأن غير الله لا يملك شيئًا، ومن لا يملك كيف يعطي ومن أين يعطي؟.

❀ ❀ ❀

الجزءُ السّابع — سُورَةُ الأنعَام

ترتيبها ٦ — سُورَةُ الأنعَامِ — آياتها ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

١٢٨

سورة الأنعام[5]
مكية
وآياتها خمس وستون ومائة

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٣]

(١) ﴿الْحَمْدُ﴾[6]: الثناء باللسان على المحمود بصفات الجمال والجلال. ﴿خَلَقَ﴾: أنشأ وأوجد. ﴿يَعْدِلُونَ﴾: يسوون به غيره

---

(١) قال الله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ..﴾ إلخ.. كلام مستأنف ختم به الحديث عما يقع يوم يجمع الله الرسل فذكر ثواب الصادقين وهو الجنة ورضوان الله وهو الفوز العظيم.

(٢) في هذه الآية البرهنة الصحيحة على ألوهية الله تعالى وربوبيته للعالمين وإبطال دعوى النصارى في تأليه عيسى وأمه عليهما السلام.

(٣) فما تعلقت إرادته بشيء فأراده إلاّ كان كما أراد من سائر الممكنات.

(٤) أخرجه غير واحد من أصحاب الصحاح والسنن.

(٥) روى الطبراني عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة وشيّعها سبعون ألفًا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد»**، وسميت بالأنعام لذكر لفظ الأنعام فيها ست مرّات. نزلت بمكة ليلاً.

(٦) الحمد لله: تفيد استغراق المحامد لله تعالى إذ أل للاستغراق واللام للاستحقاق فجميع المحامد مستحقة لله تعالى، والقصر في الحمد لله قصر إضافي دال على إبطال حمد المشركين لآلهتهم الباطلة.

فيعبدونه معه. الأجل: الوقت المحدد لعمل ما من الأعمال يتم فيه أو ينتهي فيه، والأجل الأول أجل كل إنسان، والثاني أجل الدنيا.

(٢) ﴿تَمْتَرُونَ﴾: تشكُون في البعث الآخر والجزاء: كما تشكون في وجوب توحيده بعبادته وحده دون غيره.

(٣) ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾: أي معبود في السموات وفي الأرض. ﴿مَا تَكْسِبُونَ﴾: أي من خير وشر، وصلاح وفساد.

معنى الآيات:

(١) يخبر تعالى بأنه المستحق للحمد كله وهو الوصف بالجلال والجمال والثناء بهما عليه وضمن ذلك يأمر عباده أن يحمدوه كأنما قال قولوا الحمد لله، ثم ذكر تعالى موجبات حمده دون غيره فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ[1] وَالْأَرْضَ[2] وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، فالذي أوجد السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات وجعل الظلمات[3] والنور وهما من أقوى عناصر الحياة هو المستحق للحمد والثناء لا غيره ومع هذا فالذين كفروا من الناس يعدلون به أصنامًا وأوثانًا ومخلوقات فيعبدونها معه يا للعجب!!

(٢) هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١) أما الآية الثانية (٢) فإنه تعالى يخاطب المشركين موبخًا لهم على جهلهم منددًا بباطلهم فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾[4] لأن آدم أباهم خلقه من طين ثم تناسلوا منه، فباعتبار أصلهم هم مخلوقون من طين ثم الغذاء الذي هو عنصر حياتهم من طين، ثم قضى لكلٍ أجلًا وهو عمره المحدد له وقضى أجل الحياة كلها الذي تنتهي فيه وهو مسمى عنده معروف له لا يعرفه غيره ولا يطلع عليه سواه ولحكم عالية أخفاه، ثم أنتم أيها المشركون الجهلة تشكون في وجوب توحيده، وقدرته على إحيائكم بعد موتكم[5] لحسابكم ومجازاتكم على كسبكم خيره وشره، حسنه وسيئه.

(٣) وفي الآية الثالثة (٣) يخبر تعالى أنه هو الله المعبود بحق في السموات[6] وفي الأرض لا إله غيره ولا رب سواه ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير وشر، فهو تعالى فوق عرشه بائن من خلقه ويعلم سر عباده وجهرهم ويعلم أعمالهم وما يكتسبون بجوارحهم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لذا وجبت الرغبة فيما عنده من خير، والرهبة مما لديه من عذاب، ويحصل ذلك لهم بالإنابة إليه وعبادته والتوكل عليه.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله.

٢ ـ لا يصح حمد أحد بدون ما يوجد لديه من صفات الكمال ما يحمد عليه.

٣ ـ التعجب من حال من يسوون المخلوقات بالخالق عز وجل في العبادة.

٤ ـ التعجب من حال من يرى

---

(١) ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ هاتان الجملتان هما مقتضيات الحمد لله وموجباته له تعالى، إذ مَنْ أوجد الكون كلّه ـ وهو جواهر وأعراض، فالجواهر السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، والأعراض الظلمة والنور هو المستحق للعبادة دون غيره فأبطل بهذا عبادة الأجسام كالأصنام والملائكة والأنبياء، وعبادة الأعراض كالظلمة والنور ـ إلها المانوية.

(٢) الأرض: اسم جنس، فالمراد بالأرض: الأرضون السبع كالنور اسم جنس والمراد به كل نور.

(٣) من رشاقة الكلم جعل خلق للأجسام وجعل للأعراض في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.

(٤) قال القرطبي: هل في هذه الآية دليل على أنّ الجواهر من جنس واحد؟ الجواب: نعم لأنه إذا جاز أن ينقلب الطين إنسانًا حيًا قادرًا عليمًا جاز أن ينقلب إلى كل حال من أحوال الجواهر إذ صح انقلاب الجماد إلى حيوان بدلالة هذه الآية.

(٥) ذكره تعالى أصل خلق الناس من طين فيه إشارة إلى الردّ على منكري البعث المحتجين على عدم إمكان الحياة الآخرة بكونهم بعد الموت يصيرون ترابًا، وجهلوا أنّ صيرورتهم إلى تراب هو دليل إعادتهم إلى خلقهم من جديد إذ عادوا إلى أصل خلقهم ليعودوا إلى حياة أكمل من حياتهم الأولى.

(٦) قال القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي: وهو الله المعظّم والمعبود في السموات وفي الأرض كما تقول: زيد الخليفة في الشرق والغرب أي: حكمه.

عجائب صنع الله ومظاهر قدرته ثم ينكر البعث والحياة الآخرة.

٥ - صفة العلم للّه تعالى وأنه تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يعلم السر وأخفى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤ ـ ٦]

(٤) ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾: المراد بالآية هنا آيات القرآن الكريم الدالة على توحيد الله تعالى والإيمان برسوله ﷺ ولقائه يوم القيامة. ﴿مُعْرِضِينَ﴾: غير ملتفتين إليها ولا مفكرين فيها.

(٥) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الحق هنا هو النبي ﷺ وما جاء به من الدين الحق. ﴿أَنبَٰٓؤُا۟﴾: أخبار ما كانوا به يستهزئون وهو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

(٦) ﴿مِّن قَرْنٍ﴾: أي أهل قرن من الأمم السابقة، والقرن مائة سنة. ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أعطيناهم من القوة المادية ما لم نعط هؤلاء المشركين. ﴿مِّدْرَارًا﴾: مطرًا متواصلاً غزيرًا. ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي بسبب ذنوبهم وهي معصية الله ورسله. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾: خلقنا بعد إهلاك الأولين أهل قرن آخرين.

معنى الآيات:

(٤) ما زال السياق في الحديث عن أولئك الذين يعدلون بربهم غيره من مخلوقاته فيقول تعالى عنهم: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم[1] مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ التي[2] يوحيها إلى رسوله ﷺ ويضمها كتابه القرآن الكريم، إلا قابلوها بالإعراض التام، وعدم الالتفات إلى ما تحمله من هدى ونور، وسبب ذلك أنهم قد كذبوا بالحق لما جاءهم وهو الرسول ﷺ وما معه من الهدى.

(٥) وبناء على ذلك ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وقد استهزؤوا بالوعيد وسينزل بهم العذاب الذي كذبوا به واستهزؤوا، وأول عذاب نزل بهم هزيمتهم يوم بدر، ثم القحط سبع سنين، ومن مات منهم على الشرك فسوف يعذب في نار جهنم أبدًا، ويقال لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تستهزئون.

(٦) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ[3]﴾ أي كثيرًا من أهل القرون الماضية مكن الله تعالى لهم في الأرض من الدولة والسلطان والمال والرجال ما لم يمكن لهؤلاء المشركين من كفار قريش، وأرسل على أولئك الذين مكن لهم السماء[4] مدرارًا[5] بغزير المطر وجعل لهم في أرضهم الأنهار تجري من تحت أشجارهم وقصورهم، فلما أنكروا توحيدي وكذبوا رسولي ﷺ، وعصوا أمري ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، لا ظلمًا منا ولكن بظلمهم هم لأنفسهم، وأوجدنا بعدهم قومًا آخرين، وكان ذلك علينا يسيرًا.

هداية الآيات:

١ - التكذيب بالحق هو سبب الإعراض عنه فلو آمنوا به لأقبلوا عليه.

٢ - الاستهزاء والسخرية بالدين من موجبات العذاب وقرب وقوعه.

٣ - العبرة بهلاك الماضين، ومصارع الظالمين.

٤ - هلاك الأمم كان بسبب ذنوبهم،

---

(١) ﴿مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ مِنْ الأولى: لاستغراق الجنس، ومِنْ الثانية: للتبعيض.

(٢) وجائز أن يراد بالآية أيضًا المعجزة كانشقاق القمر ونحوها.

(٣) القرن: الأمة من الناس، والجمع: قرون قال الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم ... وخُلِّفتَ في قرن فأنت غريب

فالقرن: كل عالم في عصره مأخوذ من الاقتران أي: عالم مقترن بعضهم ببعض وفي الحديث: «**خير الناس قرني**...» ويطلق القرن على المائة سنة، إذ قال النبي ﷺ لعبد بن بشر: «**تعيش قرنًا**» فعاش مائة سنة وقرن الشاة معروف.

(٤) ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ عبر عن المطر بالسماء لأنّه منها ينزل قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم ... رعيناها وإن كانوا غضابا

(٥) مدرارًا: بناء دال على الكثرة نحو امرأة مذكار إذ كثر أولادها الذكور وهو مشتق من درّت الشاة تدر إذا أقبل لبنها على الحالب لها بكثرة.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

فما من مصيبة إلا بذنب[(١)].

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ ـ ١١]

(٧) ﴿قِرْطَاسٍ﴾: القرطاس: ما يكتب عليه جلدًا أو كاغدًا. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾: مسوه بأصابعهم ليتأكدوا منه.

(٨) ﴿مَلَكٌ﴾: الملك أحد الملائكة. ﴿لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: أي أهلكوا وانتهت حياتهم. ﴿لَا يُنظَرُونَ﴾: لا يمهلون.

(٩) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾: ولو جعلنا الرسول إليهم ملكًا لإنكارهم البشر. ﴿وَلَلَبَسْنَا﴾: خلطنا عليهم.

(١٠) ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾: سخر وتهكم واستخف. ﴿فَحَاقَ﴾: نزل بهم العذاب وأحاط بهم فأهلكوا.

معنى الآيات:

(٧) ما زال السياق في شأن العادلين بربهم أصنامهم التي يعبدونها ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ أيها الرسول ﴿كِتَٰبًا﴾ أي مكتوبًا في ورق جلد أو كاغد ورأوه منزلاً من السماء[(٢)] ولمسوه بأيديهم وحسوه بأصابعهم ما آمنوا ولقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. أي سحر واضح سحركم به محمد ﷺ وإلا كيف ينزل الكتاب من السماء.

(٨) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾[(٣)] أي هلا أنزل عليه، لمَ لا ينزل عليه ملك يساعده ويصدقه بأنه نبي الله ورسوله ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾، وليس من شأن الله أن ينزل الملائكة ولو أنزل ملكًا فكذبوه لأهلكهم، إذ الملائكة لا تنزل إلا لإحقاق الحق وعليه فلو نزل ملك لقضي أمرهم بإهلاكهم وقطع دابرهم وهذا ما لا يريده الله تعالى لهم. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون ولو ساعة ليتوبوا أو يعتذروا مثلاً.

(٩) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ أي الرسول ملكًا لقالوا كيف نفهم عن الملك ونحن بشر[(٤)] فيطالبون بأن يكون بشرًا وهكذا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ خلطنا وشبهنا ما يخلطون على أنفسهم ويشبهون. ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ مسليًا له قائلاً:

(١٠) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[(٥)] كما استهزىء بك فاصبر، فقد حاق بالمستهزئين ما كانوا به يستهزئون، كانوا إذا خوفهم الرسل عذاب الله سخروا منهم واستخفوا بهم وبالعذاب الذي خوفوهم به، ثم أمر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يقول لأولئك المستهزئين بما يعدهم من عذاب ربهم وهم أكابر مجرمي قريش:

(١١) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(٦)] جنوبًا لتقفوا على ديار عاد أو شمالاً لتقفوا

---

(١) شاهده من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

(٢) قال ابن عباس: كتابًا معلقًا بين السماء والأرض يشاهدونه. أمّا إنزال الوحي فهو حاصل وأبوا أن يؤمنوا به.

(٣) هذا اقتراح منهم حملهم عليه الكبر والعناد.

(٤) لأنّ سنة الله تعالى في التفاهم أن تكون بين متجانسين كإنسان مع إنسان أو حيوان مع حيوان أمّا ملك مع إنسان أو إنسان مع حيوان فلا، لا.

(٥) في هذه الآية تعزية للرسول ﷺ وتسلية له ليصبر على ما يلاقيه من قومه من سخرية واستهزاء وعناد ومكابرة.

(٦) قال القرطبي: هذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم وأهل الديار، وأقول: على شرط أن يدخلوا تلك الديار باكين أو متباكين لا ضاحكين غافلين لاهين بأنواع الطعام والشراب.

على ديار ثمود، أو غربًا لتقفوا على بحيرة لوط فتعرفوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ من أمثالكم لعلكم تحققون من طغيانكم وتكذيبكم فيسهل عليكم الرجوع.

هداية الآيات:

١ - الآيات بمعنى المعجزات والخوارق لا تستلزم الإيمان بل قد تكون سببًا للكفر والعناد، ولذا لم يستجب الله لقريش ولم يعط رسوله ﷺ ما طالبوه به من الآيات.

٢ - إنكار رسالة البشر عام في كل الأمم وقالوا ما هذا إلا بشر مثلكم في آيات كثيرة في حين أن إرسال الملائكة لا يتم معه هدف لعدم قدرة الإنسان على التلقي عن الملائكة والتفاهم معهم، ولو أنزل الله ملكًا رسولاً لقالوا نريده بشرًا مثلنا ولحصل الخلط واللبس بذلك.

٣ - الاستهزاء بالرسل والدعاة سنة بشرية لا تكاد تتخلف ولذا وجب على الرسل والدعاة الصبر على ذلك.

٤ - عاقبة التكذيب والاستهزاء هلاك المكذبين المستهزئين.

٥ - مشروعية زيارة القبور للوقوف[١] على مصير الإنسان ومآل أمره فإن في ذلك ما يخفف شهوة الدنيا والنهم فيها والتكالب عليها وهو سبب الظلم والفساد.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ - ١٦]

(١٢) ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾: أي أوجب على نفسه رحمة خلقه.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك في مجيئه وحصوله في أجله المحدد له.

﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: حيث لوّثوها بأوضار الشرك والمعاصي فلم ينتفعوا بها.

(١٣) ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: أي ما استقر فيها من ساكن ومتحرك أي له كل شيء.

(١٤) ﴿وَلِيًّا﴾: أحبه وأنصره وأطلب نصرته ومحبته وولايته.

(١٦) ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾: أي من العذاب بمعنى يبعد عنه. ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾: أي الواضح إذ النجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم.

معنى الآيات:

(١٢) ما زال السياق في الحديث مع العادلين بربهم غيره من أهل الشرك فيقول تعالى لرسوله ﷺ سلهم قائلاً: ﴿لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢] خلقًا وإيجادًا أو ملكًا وتصرفًا وتدبيرًا، واسبقهم إلى الجواب فقل لله، إذ ليس لهم من جواب إلا هذا: ﴿لِّلَّهِ﴾، أي هو الله الذي ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٣] قضى بها وأوجبها على نفسه، ومظاهرها متجلية في الناس: إنهم يكفرونه ويعصونه وهو يطعمهم ويسقيهم ويكلؤهم ويحفظهم، وما حمدوه قط. ومن مظاهر رحمته جمعه الناس ليوم القيامة ليحاسبهم ويجزيهم بعملهم الحسنة بعشر أمثالها أما السيئة فبسيئة مثلها فقط وهو ما دل عليه قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ[٤] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي الكائن الآتي بلا ريب ولا شك، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى أنَّ الذين كتب خسرانهم أزلاً في كتاب المقادير فهم لذلك لا يؤمنون وما كتب أزلاً لعلم تام بموقفهم هذا الذي هم واقفوه من الكفر والعناد والشرك والشر والفساد، بذلك استوجبوا الخسران، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٢).

(١٣) أما الآية الثانية (١٣) ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهذا تقرير بأنه رب كل شيء والمالك لكل شيء إذ ما هناك إلا ساكن ومتحرك وهو رب الجميع، وهو السميع لأحوال عباده وسائر مخلوقاته العليم بأفعالهم الظاهرة والباطنة ولذا لا يسأل عما

---

(١) أخذًا من قوله تعالى في الآية: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وشاهده من السنة قوله ﷺ في السنة الصحيحة: «**كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة**».

(٢) هذا حجاج مع المشركين آخر: قل لهم لمن ما في السموات والأرض؟ فإن قالوا: لمن هو؟ قل: لله، ولكن لا يقولون إلاّ الله، لمعرفتهم أنّ غير الله لا يخلق ولا يرزق ولا يملك.

(٣) ولذا لم يعاجلهم بالعقوبة التي يقتضيها كفرهم وعنادهم، روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله لمّا خلق الخلق كتب كتابًا عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي**».

(٤) اللاّم: للقسم أي: وعزتي وجلالي ليجمعنكم في يوم القيامة الذي كذّبتم به وهو لا شك فيه.

يفعل ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ومن هنا وجب اللجأ إليه والتوكل عليه، والانقياد لأمره ونهيه.

(١٤) وقوله تعالى في الآية الثالثة (١٤) ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ[١] أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يرد على المشركين المطالبين منه أن يوافقهم على شركهم ويعبد معهم آلهتهم فيقول: أفغير الله فاطر السموات والأرض الذي يطعم غيره لافتقاره إليه، ولا يطعم[٢] لغناه المطلق أغيره تعالى أتخذ وليًا أعبده كما اتخذتم أنتم أيها المشركون أولياء تعبدونهم. إن هذا لن يكون أبدًا كما أمره ربه تعالى أن يقول في صراحة ووضوح، ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي وجهه لله، وأقبل عليه يعبده بما شرع له، ونهاني أن أكون من المشركين بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يعبدون مع الله غيره من مخلوقاته وأمره في الآية (١٥) أن يقول للمشركين الراغبين في تركه التوحيد:

(١٥) ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي[٣] عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذاب يوم القيامة. إنه عذاب أليم لا يطاق من يصرف عنه[٤] يومئذ فقد رحمه أي أدخله الجنة والنجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ نعم فاز وأي فوز أكبر من الخلوص من العذاب ودخول في دار السلام.

هداية الآيات:

١ - عموم رحمة الله تعالى.
٢ - تقرير مبدأ الشقاوة والسعادة في الأزل قبل خلق الخلق.
٣ - الله رب كل شيء ومليكه.
٤ - تحريم ولاية غير الله، وتحريم الشرك به تعالى.
٥ - بيان الفوز الأخروي وهو النجاة من العذاب ودخول الجنة.

شرح الكلمات:
[الآية: ١٧ - ١٩]

(١٧) ﴿يَمْسَسْكَ﴾: يصبك.
﴿بِضُرٍّ﴾: الضر: ما يؤلم الجسم أو النفس كالمرض والحزن. ﴿بِخَيْرٍ﴾: الخير: كل ما يسعد الجسم أو الروح.

(١٨) ﴿الْقَاهِرُ﴾: الغالب المذل المعز.

(١٩) ﴿شَهَادَةً﴾: الشهادة: إخبار العالم بالشيء عنه بما لا يخالفه. ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾: لأخوفكم بما فيه من وعيد الله لأهل عداوته. ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾: معبود واحد لأنه رب واحد، إذ لا يعبد إلا الرب الخالق الرازق المدبر.

معنى الآيات:

(١٧) ما زال السياق في توجيه الرسول ﷺ وتقوية موقفه من أولئك العادلين بربهم المشركين به فيقول له ربه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ[٥] فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ أي إن أصابك الله بما يضرك في بدنك فلا كاشف له عنك بإنجائك منه إلا هو. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ أي وإن يردك بخير فلا راد له[٦] ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والخطاب وإن كان موجهًا للرسول ﷺ فإنه عام في كل أحد فلا كاشف للضر إلا هو، ولا راد لفضله أحد، ومع كل أحد.

(١٨) وقوله تعالى في الآية الثانية

---

(١) الاستفهام إنكاري وقدم المفعول الأوّل: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ لأنه هو المقصود بالإنكار.
(٢) أي: يرزِق ولا يُرزق كقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧)﴾ وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير: **﴿وهو يُطعم ولا يطعم﴾** بفتح العين أي: إنّه يُطعِم عباده بالرزق وهو لا يُطعَم لاستحالة احتياجه إلى الغذاء كما يحتاجه المخلوقون من عباده.
(٣) قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ عوضًا عن اسم الجلالة (الله) فيه إيماء وإشارة إلى أن عصيان الرب قبيح قبحًا أشد من عصيان المعبود، لأنّ الربّ هو المليك المربي المتولي الحافظ الولي فعصيان من يربّي ويرزق قبيح جدًا.
(٤) أي: من يصرف الله عنه العذاب يوم القيامة فقد رحمه فأدخله جنته بعد أن نجّاه من النار.
(٥) الضرّ: هو ما يؤلم الإنسان وهو من الشر المنافي للإنسان ويقابله النفع وهو من الخير الملائم للإنسان ولذا فالضرّ هنا أعم من المرض إذ يتناوله وغيره من سائر ما يضر الإنسان.
(٦) شاهده حديث ابن عباس عند الترمذي وهو صحيح إذ قال له رسول الله ﷺ: **«يا غلام إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أنّ الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفّت الصحف»**.

(١٨) ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ تقرير لربوبيته المستلزمة لألوهيته فقهره لكل أحد، وسلطانه على كل أحد مع علو كلمته وعلمه بكل شيء موجب لألوهيته وطاعته وطلب ولايته، وبطلان ولاية غيره وعبادة سواه.

﴿١٩﴾ وقوله تعالى في الآية الثالثة (١٩) ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ نزلت لما قال المشركون بمكة للرسول ﷺ ائتنا بمن يشهد لك بالنبوة فإن أهل الكتاب أنكروها فأمره ربه تعالى أن يقول لهم ردًا عليهم: أي شيء أكبر شهادة؟ ولما كان لا جواب لهم إلا أن يقولوا الله أمره أن يجيب به: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾. فشهادة الله تعالى لي بالنبوّة إيحاؤه إليّ بهذا القرآن الذي أنذركم به، وأنذر كل من بلغه وسمع به بأن من بلغه[١] ولم يؤمن به ويعمل بما جاء فيه من العقائد والعبادات والشرائع فإنه خاسر لنفسه يوم القيامة. ثم أمره أن ينكر عليهم الشرك بقوله: أئنكم[٢] لتشهدون مع الله آلهة أخرى، وذلك بإيمانكم بها وعبادتكم لها أما أنا فلا أعترف بها بل أنكرها فضلاً عن أن أشهد بها. ثم أمره بعد إنكار آلهة المشركين أن يقرر ألوهية الله وحده وأن يتبرأ من آلهتهم المدعاة فقال له قل: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[٣].

هداية الآيات:

١ - وجوب اللجأ إلى الله تعالى دون غيره من سائر خلقه إذ لا يكشف الضر إلا هو[٤].

٢ - شهادة الله تعالى لرسوله ﷺ بالنبوة وما أنزل عليه من القرآن وما أعطاه من المعجزات.

٣ - نذارة الرسول ﷺ بلغت كل من بلغه القرآن الكريم إلى يوم الدين.

٤ - تقرير مبدأ التوحيد لا إله إلا الله، ووجوب البراءة من الشرك.

الجزءُ السّابع — سُورةُ الأنعَام

قُلْ أَيُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

١٣٠

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ - ٢٤]

﴿٢٠﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: علماء اليهود والنصارى. ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾: يعرفون محمدًا ﷺ نبيًا لله ورسولاً له.

﴿٢١﴾ ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: اختلق الكذب وزوّره في نفسه وقال. ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: لا ينجون من عذاب الله يوم القيامة.

﴿٢٢﴾ ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾: استفهام توبيخي لهم. ﴿تَزْعُمُونَ﴾: تدعون أنهم شركاء يشفعون لكم عند الله.

﴿٢٤﴾ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: غاب عنهم ولم يحضرهم ما كانوا يكذبونه.

معنى الآيات:

﴿٢٠﴾ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي علماء اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي النبي محمدًا ﷺ أنه نبي الله ورسوله وأن القرآن كتاب الله

---

(١) في البخاري: «**بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» وقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له، وقال القرطبي: من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمدًا ﷺ وسمع منه.

(٢) الاستفهام للتوبيخ والتقريع مع الإنكار لشهادتهم الباطلة وذلك بتأليههم الأصنام والأحجار جهلاً وعنادًا.

(٣) أي: من الشرك والشركاء معًا.

(٤) آية (يونس) في هذا الباب عظيمة إذ قال مخاطبًا لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

أوحاه إليه يعرفونه بما ثبت من أخباره ونعوته معرفة كمعرفة أبنائهم، رد الله تعالى بهذا على العرب الذين قالوا: لو كنت نبيًا لشهد لك بذلك أهل الكتاب ثم أخبر تعالى أن الذين خسروا أنفسهم[1] في قضاء الله وحكمه الأزلي لا يؤمنون، وإن علموا ذلك في كتبهم وفهموه واقتنعوا به، فهذا سر عدم إيمانهم، فلن يكون إذًا عدم إيمانهم حجة ودليلًا على النبي محمد ﷺ بأنه غير نبي ولا رسول.

﴿٢١﴾ هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٢٠) وفي الآية الثانية نداء الله تعالى لكلٍّ من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ[2] مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وهم المشركون بزعمهم أن الأصنام تشفع لهم عند الله ولذا عبدوها، أو كذبوا بآياته وهم أهل الكتاب، وأخبر أن الجميع في موقفهم المعادي للتوحيد والإسلام ظالمون، وإن الظالمين لا يفلحون فحكم بخسران الجميع إلا من آمن منهم وعبد الله ووحده وكان من المسلمين.

﴿٢٢﴾ وقوله تعالى في الآية الثالثة (٢٢): ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾[3] مشركين وأهل كتاب أي لا يفلحون في الدنيا ولا يوم نحشرهم وهو يوم القيامة لأنهم ظالمون، ثم أخبر تعالى بمناسبة ذكر يوم القيامة أنه يسأل المشركين منهم فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم يشفعون لكم في هذا اليوم؟ ثم لم تكن نتيجة هذه الفتنة أي الاختبار إلا قولهم:

﴿٢٣﴾ ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا[4] مُشْرِكِينَ﴾، يكذبون هذا الكذب لأنهم رأوا أن المشركين لا يغفر لهم ولا ينجون من النار. ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يتعجب من موقفهم هذا المخزي لهم فقال له:

﴿٢٤﴾ ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا[5] عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أما ربهم فهو عليم بهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي غاب فلم يروه ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يكذبون.

هداية الآيات:

١ - لم يمنع أهل الكتاب من الدخول في الإسلام إلا إيثار الدنيا على الآخرة.

٢ - سبحان في عظم الجريمة الكاذب على الله المفتري والمكذب الجاحد به وبكتابه وبنبيه ﷺ.

٣ - تقرير عدم فلاح الظالمين في الحياتين.

---

(١) ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ في موضع النعت أو البدلية من قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾.

(٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الاستفهام للنفي والتقريع أي: لا أحد أعظم ظلمًا ممن افترى على الله الكذب أو كذّب بآياته التي هي الآيات القرآنية والمعجزات النبوية.

(٣) الظرف معمول لفعل محذوف تقديره: واذكر لقومك الوقت الذي يجري فيه الاستنطاق والاستجواب وكيف يكون موقف هؤلاء المشركين الظالمين.

(٤) تبرّؤوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوز الله ومغفرته للموحدين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: إنّ ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول: والله ربّنا ما كنا مشركين.

(٥) وجه كذبهم: أنهم كانوا يقولون في الأصنام: تشفع لنا عند الله وتقرّبنا إليه زلفى. ففي هذا الموقف غاب عنهم الكذب والافتراء وواجهوا الحقيقة المرّة كما هي.

٤ ـ الشرك لا يغفر لصاحبه إذا لم يتب منه قبل موته.

شرح الكلمات:
[الآية: ٢٥ ـ ٢٩]

(٢٥) ﴿أَكِنَّةً﴾: جمع كنان ما يكن فيه الشيء كالغطاء. ﴿وَقْرًا﴾: ثقلاً وصممًا فهم لا يسمعون. ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: يخاصمونك. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: جمع أسطورة: ما يكتب ويحكى من أخبار السابقين.

(٢٦) ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾: أي ويبعدون عنه.

(٢٨) ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾: بل ظهر لهم.

(٢٩) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾: ما هي إلا حياتنا. ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾: بعد الموت أحياء كما كنا قبل أن نموت.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن أولئك العادلين بربهم المشركين به سواه فيخبر تعالى عن بعضهم فيقول:

(٢٥) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حال قراءتك القرآن ولكنه لا يعيه قلبه ولا يفقه ما فيه من أسرار وحكم تجعله يعرف الحق ويؤمن به، وذلك لما جعلنا حسب سنتنا في خلقنا من أكنة[١] على قلوبهم أي أغطية، ومن وقر[٢] أي ثقل وصمم في آذانهم، فلذا هم يستمعون ولا يسمعون، ولا يفقهون وتلك الأغطية وذلك الصمم هما نتيجة ما يحملونه من بغض للنبي ﷺ وكره لما جاء به من التوحيد، ولذا فهم لو يرون كل آية مما يطالبون به من المعجزات كإحياء الموتى ونزول الملائكة عيانًا لا يؤمنون بها لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي في شأن التوحيد وآلهتهم ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا[٣] إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أمليت عليك أو طلبت كتابتها فأنت تقصها، وليس لك من نبوة ولا وحي ولا رسالة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٢٥).

(٢٦) أما باقي الآيات فإن الثانية (٢٦) تضمنت إخبار الله تعالى عنهم بأنهم ينهون الناس عن الإيمان بالنبي ﷺ وبما جاء به وعن متابعته والدخول في دينه، وينأون هم بأنفسهم أي يبعدون عنه فلا إيمان ولا متابعة. وهذه شر الصفات يصفهم الله تعالى بها وهي البعد عن الحق والخير، وأمر الناس بالبعد عنهما ونهيهم عن قربهما ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ[٤] إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بهذا الموقف الشائن المعادي للرسول ﷺ والتوحيد، وما يشعرون بذلك إذ لو شعروا لكفوا، والذي أفقدهم الشعور هو حب الباطل والشر الذي حملهم على عداوة الرسول ﷺ وما جاء به من عبادة الله وتوحيده وها هم أولاً قد حشروا في جهنم.

(٢٧) والله تعالى يقول للرسول ﷺ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا[٥] عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ولا بد لهم من دخولها والاصطلاء بحرها والاحتراق بلهبها، فقالوا وهم في وسطها: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الحياة الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وما هم والله بصادقين وإنما هي تمنيات حمل عليها الإشفاق من العذاب والخوف من نار جهنم، والفضيحة حين ظهر لهم[٦] ما كانوا يخفون في الدنيا من جرائم

---

(١) الأكنة: جمع كنان كأسنة جمع سنان، والأعنة جمع عنان، والكنة: امرأة الأب لأنها في كنه، وكذا امرأة الابن والأخ.

(٢) يقال: وقرت أذنه توقر وقرًا، إذا صمّت، والنخلة مُوقِر وموقورة إذا كانت ذات ثمر كبير.

(٣) قال ابن عباس: قالوا للنضر بن الحارث: ما يقول محمد؟ قال: أرى تحريك شفتيه وما يقول إلاّ أساطير الأوّلين مثل ما أحدّثكم أنا عن القرون الماضية إذ كان النضر صاحب قصص سمعها من ديار العجم إذ كان سافر إليها للتجارة، والأساطير: جمع أسطار وأسطورة نحو: أحاديث وأحدوثة ومعنى الأساطير: ما كتب وسطّر من أخبار الأولين وهو ترّهاتهم وأباطيلهم.

(٤) ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ أي: ما يهلكون فإن بمعنى: ما النافية.

(٥) أي: وهم على الصراط وهي تحتهم أو وقفوا بقربها وهم يعاينونها، وجواب لو محذوف تقديره: لرأيت منظرًا هائلاً ونحوه.

(٦) قوله تعالى: ﴿بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: في دار الدنيا من الكفر والتكذيب والعناد وجائز أن يكون ظهر لهم صدق ما كانوا يعلمون أنه حق من أمر الدين والتوحيد ولكن يخفونه في أنفسهم حتى لا يعلم ذلك إخوانهم في الكفر وأتباعهم في الشرك.

وفواحش وهم يغشونها الليل والنهار.

(٢٨) قال تعالى وهو العليم الخبير: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وصدق الله لو ردوا لعادوا. وفي الآية الأخيرة (٢٩) يسجل الله تعالى عليهم سبب بلائهم ومحنتهم، وإقدامهم في تلك الجرأة الغريبة على الشرك ومحاربة التوحيد، ومحاربة الموحدين بالضرب والقتل والتعذيب إنه كفرهم بالبعث والجزاء إذ قالوا ما أخبر تعالى به عنهم:

(٢٩) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا[١] وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

هداية الآيات:

١ ـ بيان سنّة الله تعالى في أن العبد إذا كره أحدًا وأبغضه وتغالى في ذلك يصبح لا يسمع ما يقول له، ولا يفهم معنى ما يسمع منه.

٢ ـ شر دعاة الشر من يعرض عن الهدى ويأمر بالإعراض عنه، وينهى من يقبل عليه.

٣ ـ سبب الشر في الأرض الكفر بالله، وإنكار البعث والجزاء الآخر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠ ـ ٣٢]

(٣٠) ﴿وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾: جيء بهم ووقفوا على قضائه وحكمه تعالى فيهم. ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾: أي إنه لَلحقُّ والله.

(٣١) ﴿خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾: أي خسروا أنفسهم في جهنم. ﴿السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: ساعة: البعث ليوم القيامة وبغتة: أي فجأة. ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾: الحسرة: التندم والتحسر على ما فات ينادون حسرتهم زيادة في التألم والتحزن. ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾: أحمال ذنوبهم إذ الوزر الحمل الثقيل.

(٣٢) ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: اللعب: العمل الذي لا يجلب درهمًا للمعاش، ولا حسنة للمعاد. واللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه مما يكسبه خيرًا أو يدفع عنه ضيرًا.

معنى الآيات:

(٢٩) يقول تعالى لرسوله ﷺ: ولو ترى[٢] إذ وقف أولئك المنكرون للبعث القائلون ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، لو تراهم وقد حبسوا لقضاء الله وحكمه فيهم وقيل لهم وهم يشاهدون أهوال القيامة وما فيها من حساب وجزاء وعذاب:

(٣٠) ﴿أَلَيْسَ[٣] هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي الذي كنتم تكذبون فيسارعون بالإجابة قائلين: ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾، فيحلفون بالله تعالى تأكيدًا لصحة جوابهم فيقال لهم[٤]: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لا ظلمًا منا ولكن بسبب كفركم إذ الكفر منع من طاعة الله ورسوله ﷺ، والنفس لا تطهُر إلا على تلك الطاعة، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣٠).

(٣١) أما الآية الثانية (٣١) فقد أعلن تعالى عن خسارة صفقة الكافرين الذين باعوا الإيمان بالكفر والتوحيد بالشرك، والطاعة بالمعاصي فقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾[٥] أي بالحياة بعد الموت وهذا هو سبب المحنة والكارثة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ ساعة فناء هذه الحياة وإقبال الحياة الآخرة ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة لم يكونوا يفكرون فيها لكفرهم بها، وعندئذ صاحوا بأعلى أصواتهم معلنين عن تندمهم ﴿يَا حَسْرَتَنَا[٦] عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ أي في صفقتنا حيث اشترينا الكفر بالإيمان والشرك بالتوحيد. قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ

---

(١) هذا سبب شقائهم هو إنكارهم للبعث والجزاء ومغالطة أنفسهم بأنه لا حياة إلاّ الحياة الدنيا.

(٢) جواب لو محذوف تقديره: لعَظم شأن الوقوف.

(٣) الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي: أليس هذا البعث كائنًا موجودًا؟

(٤) جائز أن يكون القائل: الله تعالى، وجائز أن تكون الملائكة وهو أولى لأنهم ليسوا أهلاً لأن يكلّمهم الربّ تبارك وتعالى.

(٥) أي: بالبعث بعد الموت والجزاء على العمل في الدنيا هذا كقوله ﷺ: **«من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»** في الصحيح، إلاّ أنه لا مانع من حمل اللفظ على ظاهره لأنّ لقاء الله كائن حقًا وكيف وهو الذي يفصل بينهم في ساحة فصل القضاء.

(٦) أي: يا حسرتنا احضري فهذا أوان حضورك، والحسرة: الندم الشديد، والتلهف والنداء للتندّم والتعجب من حالهم وما حلّ بهم.

﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾ من الجائز أن تصور لهم أعمالهم من الكفر والشرك والظلم والشر والفساد في صورة رجل قبيح أشوه فيحملونه على ظهورهم في عرصات القيامة وقد ورد به خبر. ولذا قال تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي قبح ما يحملونه!

(٣٢) وفي الآية (٣٢) الأخيرة يخبر تعالى مذكرًا واعظًا ناصحًا فيقول يا عباد الله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهۡوٌ﴾ فانتبهوا فلا تغتروا بما فيها من ملذات فإن نعيمها إلى زوال ما شأنها إلا شأن من يلعب أو يلهو، ثم لا يحصل على طائل من لعبه[١] ولهوه، أما الدار الآخرة فإنها خير ولكن للذين يتقون الشرك والشر والمعاصي، فما لكم مقبلين على الفاني معرضين عن الباقي ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؟!

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ البعث والجزاء بذكر صور ومشاهد له.

٢ - قبح الذنوب وأنها أسوأ حمل يحمله صاحبها يوم القيامة.

٣ - حكم الله تعالى بالخسران على من كذب بلقائه فلم يؤمن ولم يعمل صالحًا.

٤ - الساعة لا تأتي إلا بغتة، ولا ينافي ذلك ظهور علاماتها، لأن الزمن ما بين العلامة والعلامة لا يعرف مقداره.

٥ - نصيحة القرآن للعقلاء بأن لا يغتروا بالحياة الدنيا. ويهملوا شأن الآخرة وهي خير للمتقين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ ـ ٣٥]

(٣٣) ﴿لَيَحۡزُنُكَ﴾: أي ليوقعك في الحزن الذي هو ألم النفس من جراء فقد ما تحب من هدايتهم أو من أجل ما تسمع منهم من كلم الباطل كتكذيبك وأذيتك. ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾: أي لا ينسبونك إلى الكذب في بواطنهم ومجالسهم السرية لعلمهم اليقيني أنك صادق.

(٣٤) ﴿كُذِّبَتۡ رُسُلٌ﴾: أي كذبتهم أقوامهم وأممهم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: التي تحمل وعده بنصر أوليائه وإهلاك أعدائه. ﴿مِن نَّبَإِي ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: أي أخبارهم في دعواتهم مع أممهم.

(٣٥) ﴿تَبۡتَغِيَ نَفَقًا﴾: تطلب سربًا تحت الأرض. ﴿أَوۡ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: أي مصعدًا تصعد به إلى السماء. ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: أي خارقة من خوارق العادات وهي المعجزات. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: أي فلا تقف موقف الجاهلين بتدبير الله في خلقه.

معنى الآيات:

(٣٣) هذه الآيات من تربية الله تعالى لرسوله ﷺ وإرشاده لما يشد من عزمه ويزيد في ثباته على دعوة الحق التي أناط به بلاغها وبيانها فقال له تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ﴾[٢] أي الحال والشأن، ﴿لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي الكلام الذي يقولون لك وهو تكذيبك واتهامك بالسحر، والتقول على الله، وما إلى ذلك مما هو إساءة لك وفي الحقيقة إنهم لا يكذبونك[٣] لما يعلمون من صدقك وهم يلقبونك قبل إنبائك لهم وإرسالك بالأمين ولكن الظالمين هذا شأنهم فهم يرمون الرجل بالكذب وهم يعلمون أنه صادق ويقرون هذا في مجالسهم الخاصة، ولكن كي يتوصلوا إلى تحقيق أهدافهم في الإبقاء على عاداتهم وما ألفوا من عبادة أوثانهم يقولون بألسنتهم من نسبتك إلى الكذب وهم يعلمون أنك صادق[٤] غير كاذب فإذا عرفت هذا

---

(١) هي كما قال الحكيم:

ألا إنّما الدنيا كأحلام نائم ... وما خير عيش لا يكون بدائم

تأمل إذا ما نلت بالأمس لذة ... فأفنيتها هل أنت إلا كحالم

(٢) قد نعلم إنه: كسرت إن في إنه لدخول اللام في ﴿لَيَحۡزُنُكَ﴾ ولولاها لفتحت نحو أنه يحزنك.

(٣) روي أنّ أبا جهل وجماعة معه من رجالات قريش مرّوا بالنبي ﷺ فقالوا: يا محمد ما نكذّبك وإنّك عندنا لصادق ولكن نكذّب ما جئت به. وهذه الآية شاهد لصحة هذه الرواية، ومعنى يكذّبونك: ينسبونك إلى الكذب ويردون قولك.

(٤) روى ابن إسحق وغيره أنّ الأخنس بن شريق أتى أبا جهل فقال له: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ إذ كانوا يأتون دار محمد ﷺ وهو يصلي بالليل يستمعون القرآن فإذا طلع النهار تفرّقوا قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف=

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

فلا تحزن لقولهم. هذا أولاً.

﴿٣٤﴾ وثانيًا فقد كذبت رسل من قبلك وأوذوا كما كُذبت أنت وأوذيت، وصبروا حتى أتاهم نصرنا فاصبر أنت حتى يأتيك النصر فإنه لا مبدل لكلمات الله التي تحمل وعده لأوليائه ووعيده لأعدائه، ولقد جاءك في هذا الكتاب الذي أوحينا إليك من نبأ المرسلين وأخبارهم ما يكون عونًا لك على الصبر حتى النصر فاصبر.

﴿٣٥﴾ وثالثًا ﴿وَإِن كَانَ[1] كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن دعوتك وعدم إيمانهم بها حتى تأتيهم بآية تلجئهم إلى الإيمان بك وبرسالتك كما يطلبون منك ويُلِحُّون عليك وهم كاذبون فإن استطعت أن تطلب لهم آية من تحت الأرض أو من السماء فافعل، وهذا ما لا تطيقه ولا تستطيعه لأنه فوق طاقتك فلا تكلف به وإذًا فما عليك إلا بالصبر، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي سربًا[2]، ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي مصعدًا ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي فافعل، وما أنت بقادر فاصبر إذًا. ورابعًا إن الله قادر على أن يجمعهم كلهم على الإيمان بك وبرسالتك والدخول في دينك، ولكنه لم يشأ ذلك لحكم عالية فلا تطلب أنت ما لا يريده ربك، فإنك إن فعلت كنت من الجاهلين[3]، ولا نريد لك ذلك[4].

هداية الآيات:

١ ـ ثبوت بشرية الرسول ﷺ ولذا هو يحزن لفوت محبوب كما يحزن البشر لذلك.

٢ ـ تسلية الرسول ﷺ وحمله على الصبر حتى يأتيه موعود ربه بالنصر.

٣ ـ بيان سنّة الله في الأمم السابقة.

٤ ـ إرشاد الرب تعالى رسوله ﷺ إلى خير المقامات وأكمل الحالات بإبعاده عن ساحة الجاهلين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ ـ ٣٩]

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾: أي لدعوة الحق التي دعا بها رسول الله ﷺ فيؤمن ويهتدي. ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾: أي يوم القيامة.

﴿٣٧﴾ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾: لولا أداة تحضيض لا لولا الشرطية. ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: آية: خارقة تكون علامة على صدقه. ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي ما يترتب على إيتائها مع عدم الإيمان بعدها من هلاك ودمار.

﴿٣٨﴾ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: الدابة كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان. ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: كتاب المقادير أم الكتاب اللوح المحفوظ.

﴿٣٩﴾ ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

= أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الرُكب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك نحن هذه؟ والله لا نؤمن أبدًا ولا نصدقه فقام الأخنس وتركه.

(١) ﴿كَبُرَ﴾ ثقل فشق عليه تحمله لثقله.

(٢) أي: نفقًا كالأنفاق المعروفة اليوم تحت الأرض، والسلّم: الدرج وهو ما يرقى عليه وسمي السلم من السلامة.

(٣) ولا يليق بمثلك مثله وهذا كلّه تسلية للرسول الله ﷺ وتعزية وحمل له على الصبر وهو لكلّ داعٍ إلى الله تعالى يواجه التكذيب والتعذيب إلى يوم الدين.

(٤) جائز أن يكون المعنى: من الجهل الذي هو ضد العلم، والجهل الذي هو ضد الحلم ويناسب الأول قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ والثاني قوله: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ..﴾ الآية.

صم: لا يسمعون وبكم: لا ينطقون في الظلمات لا يبصرون. ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: هو الدين الإسلامي المفضي بالآخذ به إلى سعادة الدارين.

معنى الآيات:

(٣٦) بعدما سلى الرب تعالى رسوله ﷺ في الآيات السابقة وحمله على الصبر أعلمه هنا بحقيقة علمية تساعده على الثبات والصبر فأعلمه أن الذين يستجيبون لدعوته ﷺ هم الذين يسمعون لأن حاسة السمع عندهم سليمة ما أصابها ما يخل بأداء وظيفتها من كره الحق وبغض أهله والداعين إليه فهؤلاء هم الذين يستجيبون لأنهم أحياء أما الأموات فإنهم لا يسمعون ولذا فهم لا يستجيبون ولكن سيبعثهم الله يوم القيامة أحياء ثم يرجع الجميع إليه من استجاب، لحياة قلبه، ومن لم يستجب لموت قلبه ويجزيهم بما عملوا الجزاء الأوفى وهو على كل شيء قدير، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣٦).

(٣٧) أما الآية الثانية (٣٧) فقد أخبر تعالى رسوله ﷺ بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾، وعلمه أن يقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ وهي الخارقة كإحياء الموتى أو تسيير الجبال أو إنزال الملائكة يشاهدونهم عيانًا، ولكن لم ينزلها لحكم عالية وتدبير حكيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة في ذلك[(١)]، ولو علموا أنها إذا نزلت كانت نهاية حياتهم لما سألوها. هذا ما تضمنته الآية الثانية.

(٣٨) أما الآية الثالثة (٣٨) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ[(٢)] إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ سبقت هذه الآية لبيان كمال الله تعالى وشمول علمه وعظيم قدرته، وسعة تدبيره تدليلاً على أنه تعالى قادر على إنزال الآيات، ولكن منع ذلك حكمته تعالى في تدبير خلقه فما من دابة تدب في الأرض ولا طائر يطير في السماء إلا أمم مثل الأمة[(٣)] الإنسانية مفتقرة إلى الله تعالى في خلقها ورزقها وتدبير حياتها، والله وحده القائم عليها، وفوق ذلك إحصاء عملها عليها ثم بعثها يوم القيامة ومحاسبتها ومجازاتها، وكل ذلك حواه كتاب المقادير وهو يقع في كل ساعة ولا يخرج شيء عما كتب في كتاب المقادير، اللوح المحفوظ ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ فهل يعقل مع هذا أن يعجز الله تعالى عن إنزال آية، وكل مخلوقاته دالة على قدرته وعلمه ووحدانيته، ووجوب عبادته وفق مرضاته، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[(٤)] كل دابة وكل طائر يموت أحب أم كره، ويبعث[(٥)] أحب أم كره، والله وحده مميته ومحييه ومحاسبه ومجازيه، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

(٣٩) ومن هنا كان المكذبون بآيات الله ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ[(٦)]﴾ أموات غير أحياء إذ الأحياء يسمعون وينطقون ويبصرون وهؤلاء صم بكم في الظلمات فهم أموات غير أحياء وما يشعرون. وأخيرًا أعلم تعالى عباده أن هدايتهم

---

(١) قال القرطبي: القول بحشر البهائم هو الصحيح، والبهائم وإن كان القلم لا يجري عليها في الأحكام ولكن فيما بينها تؤاخذ به، وروي عن أبي ذرّ قال: انتطحت شاتان عند رسول الله ﷺ فقال: **«يا أبا ذر أتدري فيما انتطحتا؟»**. قلت: لا، قال: **«لكن الله تعالى يدري وسيقضي بينهما»**.

(٢) من الحكمة في عدم إنزال الآية أنه لو أنزلها ما آمنوا بها، فاستوجبوا الهلاك فأهلكهم، ولكنه يريد الإبقاء عليهم ليخرج من أصلابهم مؤمنين يعبدونه ويوحدونه.

(٣) ذكر الجناحين للتأكيد من جهة، وإزالة الإبهام من جهة أخرى لأنّ العرب تطلق لفظ الطيران على غير الطائر فتقول للرجل: طِر في حاجتي أي: أسرع في قضائها وطائر الإنسان ما قسم الله له أزلاً قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

(٤) وهذه المثلية بين الإنسان وبين دواب الأرض وطائر السماء تقتضي ألا يظلم الإنسان الحيوان ولا يؤذيه ولا يتجاوز ما أمر به نحوه، ووجه المثلية في كون كلّ من الإنسان والحيوان يسبّح الله تعالى ويدل على قدرته وعلمه وحكمته.

(٥) قيل في ﴿يُحْشَرُونَ﴾: أنّ حشرها الموت وهو مروي عن ابن عباس قال: موت البهائم: حشرها وروي عن مجاهد والضحاك أيضًا، وقيل حشرها: هو بعثها يوم القيامة حيّة وهذا أصح الحديث: **«إن الجمَّاء لتقتص من القرناء يوم القيامة»**.

(٦) إنها ظلمات الكفر والشرك والمعاصي وما ينتج عن ذلك من القلق والحيرة واضطراب النفس، والخوف، والهمّ.

كإضلالهم بيده فمن شاء هداه ومن شاء أضله، وعليه فمن أراد الهداية فليطلبها في صدق من الله جلّ جلاله وعظم سلطانه ومن رغب عنها فلن يعطاها.

هداية الآيات:

١ - الإيمان بالله ورسوله ﷺ ولقائه حياة، والكفر بذلك موت فالمؤمن حي والكافر ميت.

٢ - سبب تأخر الآيات علم الله تعالى بأنهم لو أعطاهم الآيات ما آمنوا وبذلك يستوجبون العذاب.

٣ - تعدد الأمم[١] في الأرض وتعدد أجناسها والكل خاضع لتدبير الله تعالى مربوب له.

٤ - تقرير ركن القضاء والقدر وإثباته في أم الكتاب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٠ ـ ٤٥]

(٤٠) ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾: أخبروني. ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: يوم القيامة.

(٤١) ﴿فَيَكْشِفُ﴾: يزيل ويبعد وينجي.

(٤٢) ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾: البأساء: الشدائد من الحروب والأمراض، والضراء: الضر. ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: يتذللون في الدعاء خاضعون.

(٤٤) ﴿بَغْتَةً﴾: فجأة وعلى حين غفلة. ﴿مُّبْلِسُونَ﴾: آيسون قنطون متحسرون حزنون.

(٤٥) ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾: آخرهم أي أهلكوا من أولهم إلى آخرهم. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الثناء بالجميل والشكر لله دون سواه.

معنى الآيات:

(٤٠) ـ (٤١) ما زال السياق في طلب هداية أولئك المشركين العادلين بربهم أصنامًا وأحجارًا، فيقول الله تعالى لرسوله ﷺ قل يا رسولنا لأولئك الذين يعدلون بنا الأصنام ﴿أَرَءَيْتَكُمْ[٢]﴾ أي أخبروني، ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ اليوم انتقامًا منكم، ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وفيها عذاب يوم القيامة، ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ ليقيكم العذاب ويصرفه عنكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أن آلهتكم تنفع وتضر، تقي السوء وتجلب الخير؟ والجواب معلوم أنكم لا تدعونها ليأسكم من إجابتها بل الله وحده[٣] هو الذي تدعونه فيكشف ما تدعونه له إن شاء، وتنسون عندها ما تشركون به من الأصنام فلا تدعونها ليأسكم من إجابتها لضعفها وحقارتها. هذا ما تضمنته الآيتان الأولى (٤٠) والثانية (٤١).

(٤٢) وأما الآيات الأربع بعدهما فإن الله تعالى يخبر رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ[٤] مِّن قَبْلِكَ﴾ أي أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أممهم فأمروهم بالإيمان والتوحيد والعبادة فكفروا وعصوا فأخذناهم بالشدائد من حروب ومجاعات وأمراض لعلهم يتضرعون إلينا فيرجعون إلى الإيمان بعد الكفر والتوحيد بعد الشرك والطاعة بعد العصيان ولما لم يفعلوا وبخهم تعالى بقوله:

(٤٣) ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟[٥]﴾ أي فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا إلينا ﴿وَلَٰكِن﴾ حصل العكس حيث ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي حسن لهم ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك والمعاصي. وهنا لما نسوا ما ذكرتهم به رسلهم فتركوا العمل به معرضين

---

(١) روى ابن كثير بسنده عن الحافظ أبي يعلى عن جابر بن عبدالله أن الجراد لم يُرَ في سنة من سِني عمر رضي الله عنه التي ولي فيها فسأل عنه لم يخبر بشيء فاغتمّ لذلك فأرسل راكبًا إلى كذا وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق يسأل: هل رؤي من الجراد شيء أو لا؟ قال: فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه فلما رآها كبّر ثلاثًا ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«خلق الله عز وجل ألف أمّة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البرّ وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه»**. هذه الرواية ذكر بعض أهل العلم بطلانها.

(٢) قال القرطبي: هذه الآية في محاجة المشركين ممن اعترف أنّ له صانعًا أي: أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله تعالى وسترجعون إليه يوم القيامة أيضًا، فلم تصرّون على الشرك في حال الرفاهية؟! وكانوا يعبدون الأصنام ويدعون الله في صرف العذاب.

(٣) ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل: للإضراب، إضراب عن الأوّل وهو دعاء غير الله تعالى وإيجاب للثاني وهو دعاء الله عز وجل.

(٤) أي: أرسلنا رسلاً. فرسلاً مضمر وهناك إضمار آخر تقديره: فكذّبوهم فأهلكناهم.

(٥) يتضرعون: يدعون الله ويتذلّلون له، إذ التضرع مأخوذ من الضراعة التي هي الذلة، يقال: ضرع إليه فهو ضارع أي: متذلل.

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

١٣٣

عنه غير ملتفتين إليه فتح الله تعالى عليهم أبواب كل شيء[(١)] من الخيرات حتى إذا فرحوا بذلك[(٢)] وسكنوا إليه واطمأنوا ولم يبقَ بينهم من هو أهل للنجاة.

﴿٤٤﴾ قال تعالى: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة بعذاب من أنواع العذاب الشديدة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ[(٣)]﴾ آيسون من الخلاص متحسرون.

﴿٤٥﴾ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ[(٤)] ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي استؤصلوا بالعذاب عن آخرهم. وانتهى أمرهم ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ناصر أوليائه ومهلك أعدائه فاذكر هذا لقومك يا رسولنا لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويعودون إلى الحق الذي تدعوهم إليه وهم معرضون.

هداية الآيات:

١ - من غريب أحوال الإنسان المشرك أنه في حال الشدة الحقيقية يدعو الله وحده ولا يدعو معه الآلهة الباطلة التي كان في حال الرخاء والعافية يدعوها.

٢ - بيان سنة الله تعالى في إهلاك الأمم.

٣ - إذا رأيت الأمة قد فسقت عن أمر ربها ورسوله ﷺ فعوقبت فلم تتعظ بالعقوبة واستمرت على فسقها وبسط الله تعالى لها في الرزق وأغدق عليها الخيرات فاعلم أنها قد استدرجت للهلاك وأنها هالكة لا محالة.

٤ - شؤم الظلم هلاك الظالمين.

٥ - الإرشاد إلى حمد الله تعالى عند نهاية كل عمل، وعاقبة كل أمر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٦ - ٤٩]

﴿٤٦﴾ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أخبروني وفي هذه الصيغة نوع من التعجب. ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾: أي أصمكم وأعماكم. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾: جعلها لا تعي ولا تفهم. ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: ننوع الأساليب لزيادة البيان والإيضاح. ﴿يَصْدِفُونَ﴾: يعرضون.

﴿٤٧﴾ ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾: بغتة: بدون إعلام ولا علامة سابقة، والجهرة: ما كان بإعلام وعلامة تدل عليه. ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾: أي ما يهلك.

معنى الآيات:

﴿٤٦﴾ ما زال السياق في دعوة العادلين بربهم الأصنام والأوثان إلى التوحيد فقال تعالى لنبيه ﷺ يلقنه الحجج التي تبطل باطل المشركين ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني يا قوم ﴿إِنْ أَخَذَ[(٥)] ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ وجعلكم

---

(١) أبواب كل شيء كان مغلقًا عنهم وهو استدراج لهم وقد تطول مدّة الاستدراج والإمهال عشرين سنة فأكثر.

(٢) روى أحمد عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

(٣) قالوا: المبلس: هو الباهت الحزين الآيس من الخير لشدة ما نزل به من سوء الحال قال العجاج:

يا صاح هل تعرف رسمًا مكرسًا ... قال نعم أعرفه وأبلسا

المكرّس: الذي به الكرس وهو أبوال الإبل وأبعارها.

(٤) الدابر: الآخر يقال: دبر القوم يدبرهم دبرًا إذا كان آخرهم. ومعناه أخذهم أجمعين إذ آخر من يؤخذ هو من كان خلف القوم وآخرهم.

(٥) الأخذ: انتزاع الشيء، وتناوله من مقره وهو هنا بمعنى السلب والإعدام.

صمّا لا تسمعون وأخذ ﴿وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ فكنتم عميًا لا تبصرون ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ أي طبع عليها فأصبحتم لا تعقلون ولا تفهمون. أي إله غير الله يأتيكم بالذي أخذ الله منكم؟ والجواب لا أحد، إذًا فكيف تتركون عبادة من يملك سمعكم وأبصاركم وقلوبكم ويملك كل شيء فيكم وعندكم، وتعبدون ما لا يملك من ذلكم من شيء؟ أي ضلال أبعد من هذا الضلال! ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ٱنظُرْ﴾ يا رسولنا ﴿كَيْفَ[1] نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي ننوع أساليبها زيادة في بيانها وإظهار الحجة بها ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون عادلين بربهم ما لا يملك نفعًا ولا ضرًا.

(٤٧) ثم أمره في الآية الثانية (٤٧) أن يقول لهم وقد أقام الحجة عليهم في الآية الأولى (٤٦) قل لهم ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أي أخبروني[2] ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ وقد استوجبتموه بصدوفكم عن الحق وإعراضكم عنه ﴿بَغْتَةً﴾[3] أي فجأة بدون سابق علامة، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بعلامة تقدمته تنذركم به أخبروني من يهلك منا ومنكم؟ ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[4] بصرف العبادة إلى من لا يستحقها وترك من وجبت له وهو الله الذي لا إله إلا هو ثم عزى الرحمٰن جل جلاله رسوله ﷺ بقوله:

(٤٨) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[5] أي ما نكلفهم بغير حمل البشارة بالنجاة ودخول الجنة لمن آمن وعمل صالحًا والنذارة لمن كفر وعمل سوءًا، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(٤٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي نرسل بها المرسلين فلم يؤمنوا ولم يعملوا صالحًا ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[6] عذاب النار ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم عن طاعتنا وطاعة رسلنا الفسق الذي أثمره لهم التكذيب بالآيات، إذ لو آمنوا بآيات الله لما فسقوا عن طاعته وطاعة رسوله ﷺ فشؤمهم في تكذيبهم، وذلك جزاؤهم.

هداية الآيات:

١ ـ افتقار العبد إلى الله في سمعه وبصره وقلبه وفي كل حياته موجب عليه عبادة الله وحده دون سواه.

٢ ـ هلاك الظالمين لا مناص منه عاجلًا أو آجلًا.

٣ ـ بيان مهمة الرسل وهي البشارة لمن أطاع والنذارة لمن عصى والهداية والجزاء على الله تعالى.

٤ ـ الفسق عن طاعة الله ورسوله ﷺ ثمرة التكذيب، والطاعة ثمرة الإيمان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٠ ـ ٥٣]

(٥٠) ﴿خَزَآئِنُ﴾: جمع خزانة أو خزينة ما يخزن فيه الشيء ويحفظ.

﴿ٱلْغَيْبَ﴾: ما غاب عن العيون وكان محصلًا في الصدور وهو نوعان غيب حقيقي وغيب إضافي فالحقيقي ما لا يعلمه إلا الله تعالى، والإضافي ما يعلمه أحد ويجهله آخر.

(٥١) ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾: خوّف به أي بالقرآن.

(٥٢) الغداة: من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والعشي من صلاة العصر إلى غروب الشمس. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾: أي تبعدهم من مجلسك.

---

(١) هذا التعجيب لرسول الله ﷺ من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة، أي: انظر كيف نكررها ونلونها من أسلوب إلى آخر، تارة نوردها بمقدمات عقلية وأخرى بأسلوب الترغيب والترهيب، والتنبيه والتذكير.

(٢) وهذا تبكيت آخر غير الأول لهم.

(٣) وفُسّر بغتة: جهرة بليل ونهار والكل صالح وصحيح.

(٤) الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يُهْلَكُ..﴾ إلخ.. للتقرير وحصر الهلاك في أهل الظلم تسجيلًا عليهم الظلم وإيذانًا بأن هلاكهم كان سبب ظلمهم الذي هو وضعهم الشرك موضع التوحيد، والكفر موضع الإيمان.

(٥) ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حالان مقدرتان من المرسلين أي: ما نرسلهم إلاّ مقدرين تبشيرهم وإنذارهم وفيهما معنى التعليل للإرسال والتبشير: الأصل فيه الإخبار بالأمر السار، والإنذار: الإخبار بالخبر الضار دنيويًا أو أخرويًا. والمراد هنا بكل من البشارة والنذارة نعيم الآخرة وعذابها.

(٦) أي: العذاب الذي أنذروا به وهو عاجل كعذاب الدنيا أو آجل وهو عذاب الآخرة.

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

١٣٤

(٥٣) ﴿فَتَنَّا﴾: ابتلينا بعضهم ببعض الغني بالفقير، والشريف بالوضيع.

﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾: أي أعطاهم الفضل فهداهم إلى الإسلام دوننا.

﴿بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾: المستوجبين لفضل الله ومنته بسبب إيمانهم وصالح أعمالهم.

معنى الآيات:

(٥٠) ما زال السياق مع العادلين بربهم الأصنام المنكرين للنبوة المحمدية فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾[1] أي خزائن الأرزاق ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي ولا أقول لكم إني أعلم الغيب، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ من الملائكة ما أنا إلا عبد رسول أتبع ما يوحي[2] إليّ ربي فأقول وأعمل بموجب وحيه إليّ. ثم قال له اسألهم قائلاً: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾[3]؟ والجواب لا، فكذلك لا يستوي المؤمن والكافر، والمهدي والضال ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ما لكم لا تتفكرون فتهتدوا للحق وتعرفوا سبيل النجاة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٠).

(٥١) أما الآية الثانية (٥١) فإن الله تعالى يأمر رسوله ﷺ أن ينذر بالقرآن المؤمنين العاصين فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ[4] ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة وهم مذنبون، وليس لهم من دون الله وليّ ولا شفيع[5] فهؤلاء ينفعهم إنذارك بالقرآن، أما الكفرة المكذبون فهم كالأموات لا يستجيبون وهذا كقوله تعالى من سورة ق. ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فهؤلاء إن أنذرتهم يرجى لهم أن يتقوا معاصي الله ومعاصيك أيها الرسول وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

(٥٢) هذا ما تضمنته الآية الثانية (٥١) أما الآية الثالثة (٥٢) وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ[6] ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فإن بعض المشركين في مكة اقترحوا على الرسول ﷺ أن يبعد من مجلسه فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب حتى يجلسوا إليه ويسمعوا عنه فهمّ الرسول ﷺ أن يفعل رجاء هداية أولئك المشركين فنهاه الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(١) هذا ردّ على المشركين في اقتراحاتهم المتعددة المتنوعة فأمر تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم بأنه لا يملك خزائن الله التي فيها الأرزاق حتى يعطيهم ما يطلبون ويقترحون، ولا هو يعلم الغيب حتى يخبرهم بموعد العذاب الذي ينتظرهم، ولا هو ملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر، وإنما هو بشر يوحى إليه الخبر من ربّه فيخبر به ويعمل به ليس غير.

(٢) هذا غير ناف لاجتهاد الرسول ﷺ وكثيرًا ما يجتهد وقد يقيس على المنصوص عنه، ولكنه لا يقرّ على غير الحق وما يرضي الرب عز وجل.

(٣) في هذا الخطاب الاستفهامي إيماء إلى المفارقة التامة الحاصلة من المؤمنين والكافرين، وأن الكافرين عمي والمؤمنين بصراء، والمؤمنون مهتدون، والكافرون ضالّون، فمالهم لا يتفكرّون لعلهم يخرجون من ظلمة كفرهم؟

(٤) وأنذر به أي: بالقرآن وقيل: بيوم القيامة، وكونه القرآن أولى وأصح لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

(٥) في الآية دليل على إبطال شفاعة الأصنام لعابديها، والأولياء للمشركين ممن يذبحون لهم وينذرون كما فيها إبطال لزعم أهل الكتاب القائلين: نحن أبناء الله وأحباؤه فسوف يشفع لنا الأب، إذ شرط صحة الشفاعة يوم القيامة أن يأذن الله لمن يشفع وأن يرضى بنجاة المشفوع له.

(٦) روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون=

﴿رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ في صلاة الصبح، وصلاة العصر، يريدون وجه الله ليرضى عنهم ويقربهم ويجعلهم من أهل ولايته وكرامته، ومبالغة في الزجر عن هذا الهم قال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي ما أنت بمسؤول عن خطاياهم إن كانت لهم خطايا، ولا هم بمسؤولين عنك فلمَ تطردهم إذًا؟ ﴿فَتَطْرُدَهُمْ[1] فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فلا تفعل، ولم يفعل ﷺ وصبر عليهم وحبس نفسه معهم.

(٥٣) وفي الآية الأخيرة (٥٣) يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾[2] أي هكذا ابتلينا بعضهم ببعض هذا غني وذاك فقير، وهذا وضيع وذاك شريف، وهذا قوي وذاك ضعيف ليؤول الأمر ويقول الأغنياء الشرفاء للفقراء الضعفاء من المؤمنين استخفافًا بهم واحتقارًا لهم: أهؤلاء الذين منّ الله عليهم بيننا بالهداية والرشد. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾. بلى فالشاكرون هم المستحقون لإنعام الله بكل خير وأما الكافرون فلا يعطون ولا يزادون لكفرهم النعم، وعدم شكرهم لها.

هداية الآيات:

١ - تقرير بشرية الرسول ﷺ.

٢ - تقرير مبدأ أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، وأنه لا يتصرف في شيء من الكون.

٣ - نفي مساواة المؤمن والكافر إذ المؤمن مبصر والكافر أعمى.

٤ - استحباب مجالسة أهل الفاقة وأهل التقوى والإيمان.

٥ - بيان الحكمة في وجود أغنياء وفقراء وأشراف ووضعاء، وأقوياء وضعفاء وهي الاختبار.

٦ - الشاكرون مستوجبون لزيادة النعم، والكافرون مستوجبون لنقصانها وذهابها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٤ ـ ٥٨]

(٥٤) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: دعاء بالسلامة من كل مكروه، وهي تحية المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة في الجنة.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾: أي أوجب الرحمة على نفسه فلذا لا يعذب إلا بعد الإنذار، ويقبل توبة من تاب. ﴿سُوٓءًۢا﴾: أي ذنبًا أساء به إلى نفسه. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: الجهالة أنواع منها: عدم تقدير عاقبة الذنب، ونسيان عظمة الرب.

(٥٥) ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾: تتضح وتظهر.

(٥٦) ﴿نُهِيتُ﴾: أي نهاني ربي أي زجرني عن عبادة أصنامكم. ﴿تَدْعُونَ﴾: تعبدون.

(٥٧) ﴿بَيِّنَةٍ﴾: البينة: الحجة الواضحة العقلية الموجبة للحكم بالفعل أو الترك. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾: أي ما الحكم إلا لله. ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾: أي يخبر بالحق. ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾: الفصل في الشيء: القضاء والحكم فيه، والفاصل في القضية: الحاكم فيها ومنهيها.

معنى الآيات:

يرشد الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ إلى الطريقة المثلى في الدعوة إليه، بعد أن نهاه عن الطريقة التي همّ بها وهي طرد المؤمنين من مجلسه ليجلس الكافرون رجاء هدايتهم فقال تعالى: (٥٤) ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[3] أي يصدقون بنبوتك

= علينا وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم..﴾ الآية.

(١) في الآية دليل على عدم جواز تعظيم الرجل لجاهه وثوبه وعدم احتقار الرجل لخموله ورثاثة ثوبه.

(٢) الفتنة: الاختبار أي: عاملناهم معاملة المختبر لهم فأغنينا بعضا وأفقرنا بعضا واللاّم في قوله تعالى: ﴿ليقولوا﴾ هي لام العاقبة أي: ليقول أغنياء وأشراف المشركين مشيرين إلى فقراء المؤمنين: أهؤلاء من الله عليهم بأن وفقهم لإصابة الحق دوننا، ونحن الرؤساء وهم العبيد.

(٥٤) قرىء: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ بالفتح أنّه وقرىء بكسرها على الاستئناف، أمّا على الفتح ففي توجيهه رأيان، الأوّل أن يكون في موضع رفع على الابتداء كأنّه قال: فله أنه غفور رحيم أي: فله غفران الله، والثاني: أن يضمر مبتدأ تكون أنّ وما، وعملت فيه خبره، تقديره: فأمره غفران الله له، وهذا الأخير أولى من الأول.

(٣) روي عن الفضل بن عباس قوله: جاء قوم من المسلمين إلى النبي ﷺ فقالوا: إنّا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فأعرض عنهم فنزلت الآية، وروي عن أنس بن مالك مثله.

وكتابك وما جئت به من الدين الحق فهؤلاء رحّب بهم وقل سلام عليكم[١] ومهما كانت ذنوبهم التي ارتكبوها، وأخبرهم أن ربهم تعالى قد كتب[٢] على نفسه الرحمة فلا يخافون ذنوبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى ربهم بالإيمان به وتوطين النفس على طاعته، ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا[٣] بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي أقلع عن الذنب نادمًا مستغفرًا، وأصلح نفسه بالصالحات فإن ربه غفور رحيم فسيغفر له ويرحمه. هكذا يستقبل كل عبد جاء مؤمنًا مستفتيًا يسأل عن طريق النجاة يستقبل بالبشر والطلاقة والتحية والسلام لا بالعنف والتقريع والتوبيخ. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٤).

(٥٥) أما الآية الثانية (٥٥) فإنه تعالى بعد أن نهى رسوله ﷺ عن الاستجابة لاقتراح المشركين المتكبرين، وعن طرد المؤمنين وعن حكمته في وجود أغنياء وفقراء وأقوياء وضعفاء في الناس وعن الطريقة المثلى في استقبال التائبين المستفتين بعد هذا كله قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي مثل هذا التفصيل نفصل الآيات مستقبلًا لبيان الهداية الإلهية ليهتدي من أراد الله له الهداية وقد طلبها ورغب فيها، ولتستبين[٤] وتتضح سبيل المجرمين، فلا تُتبع ويُنْهى عن اتباعها، لأنها طريق الهلاك والدمار. هذا ما أفادته الآية الثانية أما الآيات الثالثة والرابعة والخامسة في هذا السياق فهي تحمل الهداية الإلهية للرسول ﷺ في طريق دعوته إلى ربه فكل آية من تلك الآيات مفتتحة بكلمة (قل) أي قل أيها الرسول لأولئك المشركين الذين يدعونك إلى موافقتهم على شركهم وعبادة غيري معهم:

(٥٦) ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي نهاني ربي أن أعبد ما تدعون[٥] من الأصنام والأوثان، وقل لهم: لا أتبع أهواءكم في عبادة غير الله تعالى الموروثة لكم عن آبائكم الضلال مثلكم إني إن فعلت أكون قد ضللت[٦] إذًا وما أنا من المهتدين إلى سبل الفوز والفلاح.

(٥٧) وقل: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي على علم يقيني من وجوب الإيمان بالله ووجوب توحيده وطاعته ووجوب الدعوة إلى ذلك، وكذبتم أنتم بهذا كله وبالعذاب إذ أنذرتكم به وأنا ما عندي ما تستعجلون به من العذاب، ولو كان عندي لحل بكم وانتهى أمركم، ولكن الحكم لله ليس لأحد غيره وقد قصّ عليكم أخبار السابقين المطالبين[٧] رسلهم بالعذاب ورأيتم كيف حلّ بهم العذاب، ﴿يَقُصُّ[٨] ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ فإذا أراد أن يحكم بيني وبينكم فإنه نعم الحكم والعدل وهو خير الحاكمين.

(٥٨) وقل لهم يا رسولنا ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ

---

(١) أي: سلمكم الله في دينكم وأنفسكم، كان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «**الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام**».

(٢) كتب: بمعنى أوجب ذلك على نفسه بفضله ورحمته، وكتبه في اللوح المحفوظ فالكتابة على بابها إذًا.

(٣) ﴿سُوٓءًۢا﴾ أي: خطيئة من غير إرادة تحدي شرع الله وانتهاك حرماته وإنما ضعفًا منه وعدم قدرة على التغلب على طبعه وشهوته وميل هواه.

(٤) قرىء: ﴿ليستبين﴾ بالياء والتاء فقراءة التاء يكون الخطاب فيها لرسول الله ﷺ أي: ولتستبين يا رسولنا سبيل المجرمين، وخطاب النبي ﷺ خطاب لأمته، وإذا بان سبيل المجرمين فقد بان سبيل المؤمنين وقراءة الياء ليستبين سبيل المجرمين، فسبيل مرفوع على الفاعلية.

(٥) أطلق لفظ الدعاء وأريد به العبادة، لأنّ الدعاء هو العبادة ومخها أيضًا لما في الدعاء من مظاهر العبودية لله تعالى ومظاهر أسمائه وصفاته عز وجل.

(٦) قرىء: ﴿ضَلَلت﴾ بفتح اللام وكسرها، وهما لغتان، فضلِلت: بكسر اللام لغة تميم، والفتح لغة الحجاز، وهي أفصح.

(٧) إذ أكثر أمم الرسل قالوا لرسلهم: فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قالتها عاد لنبيها هود وقالها قوم نوح لنوح عليه السلام.

(٨) أي: يقص القصص الحق، قال القرطبي: بهذا استدل من منع المجاز في القرآن، وقرىء: ﴿نقض﴾ بالضاد من القضاء ويدل عليه قوله بعد: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ الفصل: القضاء والحكم.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

١٣٥

﴿ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بتدمير الظالم منا، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولا يهلك غيرهم لأنهم المستوجبون للعذاب بظلمهم.

هداية الآيات:

١ - وجوب الرفق والتلطف بالمستفتين وعدم الشدة والغلظة عليهم.

٢ - اتباع أهواء أهل الأهواء والباطل يضل ويهلك.

٣ - على المسلم الداعي إلى ربه أن يكون على علم كاف بالله تعالى وبتوحيده ووعده ووعيده وأحكام شرعه.

٤ - وجوب الصبر والتحمل مما يلقاه الداعي من أهل الزيغ والضلال من الاقتراحات الفاسدة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٩ - ٦٢]

﴿٥٩﴾ ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾: المفاتح: جمع مفتح بفتح[1] الميم أي المخزن. ﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: البر ضد البحر، وهو اليابس من الأرض، والبحر ما يغمره الماء منها. ﴿وَرَقَةٍ﴾: واحدة الورق والورق للشجر كالسعف للنخل. ﴿حَبَّةٍ﴾: واحدة الحب من ذرة أو بُرّ أو شعير أو غيرها. ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾: الرطب ضد اليابس من كل شيء. ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: أي في اللوح المحفوظ كتاب المقادير.

﴿٦٠﴾ ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾: أي ينيمكم باستتار الأرواح وحجبها عن الحياة كالموت. ﴿جَرَحْتُم﴾: أي كسبتم بجوارحكم من خير وشر. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: أي يوقظكم لتواصلوا العمل إلى نهاية الأجل المسمى لكم.

﴿٦١﴾ ﴿حَفَظَةً﴾: الكرام الكاتبين. ﴿رُسُلُنَا﴾: ملك الموت وأعوانه.

معنى الآيات:

﴿٥٩﴾ لما ذكر تعالى في نهاية الآية السابقة أنه أعلم بالظالمين المستحقين للعقوبة أخبر عز وجل أن الأمر كما قال ودليل ذلك أنه عالم الغيب والشهادة، إذ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾[2] أي خزائن الغيب وهو الغيب الذي استأثر بعلمه فلا يعلمه سواه[3] ويعلم ما في البر والبحر وهذا من عالم الشهادة، إضافة إلى ذلك أن كل شيء كان أو يكون من أحداث العالم قد حواه كتاب له اسمه اللوح المحفوظ، وهو ما دل عليه قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن

---

(١) المفتاح والجمع مفاتيح، والمفتاح: عبارة عن كل ما يحل مغلقًا محسوسًا كالقفل للباب، أو معقولاً كالنظر. وفي الحديث: «إنّ من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر».

(٢) روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلاّ الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**» ولذا قال ﷺ: «**من أتى عرّافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**» والعرّاف الحازي والمنجم الذي يدعي علم الغيب، والمهنة: العرافة، وصاحبها عَرّاف. وفي مسلم عن عائشة أنها قالت: سأل رسول الله ﷺ أناس عن الكهانة فقال: «**ليست بشيء**». فقالوا يا رسول الله: إنهم يحدّثون أحيانًا بشيء فيكون حقًا فقال رسول الله ﷺ: «**تلك الكلمة الحق يخطفها الجني فيقرّها في أذن وليّه قرّ الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة**».

(٣) روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: من زعم أنّ رسول الله ﷺ يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ[1] وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وما كتبه قبل وجوده فقد علمه إذًا فهو عالم الغيب والشهادة أحصى كل شيء عددًا وأحاط بكل شيء علمًا، فكيف إذًا لا يعبد ولا يرغب فيه ولا يرهب منه وأين هو في كماله وجلاله من أولئك الأموات من أصنام وأوثان؟؟ هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٩) وأما الآية الثانية (٦٠) فقد قررت ما دلت عليه الآية قبلها من قدرة الله وعلمه وحكمته فقال تعالى مخبرًا عن نفسه:

(٦٠) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم[2] بِٱلَّيْلِ﴾ حال نومكم إذ روح النائم تقبض ما دام نائمًا ثم ترسل إليه عند إرادة الله بعثه من نومه أي يقظته، وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي في النهار المقابل لليل، وعلة هذا أن يقضى ويتم الأجل الذي حدده تعالى للإنسان يعيشه وهو مدة عمره طالت أو قصرت، وهو معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لا محالة وذلك بعد نهاية الأجل، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ بعلمه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ويجازيكم بذلك وهو خير الفاصلين. وفي الآية الثالثة يخبر تعالى عن نفسه أيضًا تقريرًا لعظيم سلطانه الموجب له بالعبادة والرغبة والرهبة إذ قال مخبرًا عن نفسه:

(٦١) ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، ذو القهر التام والسلطان الكامل على الخلق أجمعين ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿حَفَظَةً﴾[3] بالليل والنهار يكتبون أعمالكم وتحفظ لكم لتجزوا بها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ لانقضاء أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه، ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يضيعون ولا يقصرون. وأخيرًا يقول تعالى مخبرًا بالأمر العظيم إنه الوقوف بين يدي الرب تعالى المولى الحق الذي يجب أن يعبد دون سواه، وقد كفره أكثر الناس وعصوه، وفسقوا عن أمره وتركوا طاعته وأدهى من ذلك عبدوا غيره من مخلوقاته فكيف يكون حسابهم والحكم عليهم؟ والله يقول:

(٦٢) ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ[4] ﴿٦٢﴾﴾.

هداية الآيات:

١ ـ بيان مظاهر القدرة والعلم والحكمة لله تعالى.

٢ ـ استئثار الله تعالى بعلم الغيب.

٣ ـ كتاب المقادير حوى كل شيء حتى سقوط الورقة من الشجرة وعلم الله بذلك.

٤ ـ صحة إطلاق الوفاة على النوم، وبهذا فسر قوله تعالى لعيسى إني متوفيك.

٥ ـ تقرير مبدأ المعاد والحساب والجزاء.

شرح الكلمات:
[الآية: ٦٣ ـ ٦٧]

(٦٣) ﴿يُنَجِّيكُم﴾: يخلصكم مما تخافون. ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: التضرع: الدعاء بتذلل وخفية بدون جهر بالدعاء. ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾: أي الهلكة. ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: المعترفين بفضلك الحامدين لك على فعلك.

(٦٤) ﴿كَرْبٍ﴾: الكرب: الشدّة الموجبة للحزن وألم الجسم والنفس. ﴿تُشْرِكُونَ﴾: أي به تعالى بدعائهم أصنامهم وتقربهم إليها بالذبائح.

(٦٥) ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: كالصواعق ونحوها. ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: كالزلزال والخسف ونحوهما. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾: أي يخلط عليكم أمركم فتختلفون شيعًا وأحزابًا. ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: أي يقتل بعضكم بعضًا فتذيق كل طائفة

---

(١) يطلق لفظ الرطب على الماء وما ينبت والحيّ، ولسان المؤمن، واليابس على ضد ذلك كاليابس والتراب وما لا ينبت، ولسان الكافر لأنه لا يذكر الله تعالى.

(٢) التوفي: استيفاء الشيء، وتوفي الميت: استوفى عدد أيام عمره، والنائم كأنه استوفى حركاته في اليقظة، والوفاة: الموت، واستوفى دينه: أخذه كاملاً.

(٣) الحفظة: جمع حافظ كالكتبة جمع كاتب، والمراد هنا: الملائكة الكرام الكاتبون وهم أربعة: ملكان بالليل، وملكان بالنهار، وخامس لا يفارق أبدًا.

(٤) ﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ أي: لا يحتاج إلى فكرة وروية ولا عقد يد.

الأخرى ألم الحرب. ﴿يَفْقَهُونَ﴾: معاني ما نقول لهم.
(٦٦) ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾: أي قريش.
الوكيل: من يوكل إليه الشيء أو الأمر يدبره.
(٦٧) ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾: المستقر: موضع الاستقرار والنبأ: الخبر العظيم.

معنى الآيات:

(٦٣) ما زال السياق مع المشركين العادلين بربهم فيقول الله تعالى لرسوله ﷺ قل لهم: ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ[1]﴾ إذا ضل أحدكم طريقه في الصحراء ودخل عليه ظلام الليل، أو ركب البحر فغشيته ظلمة السحاب والليل والبحر واضطربت نفسه من الخوف يدعو مَنْ؟ إنه يدعو الله وحده لعلمه أنه لا ينجيه إلا هو يدعوه ويتضرع إليه جهرًا وسرًا قائلاً وعزتك لئن أنجيتنا من هذه الهلكة التي حاقت بنا لنكونن من الشاكرين لك. ثم إذا نجاكم استجابة لدعائكم وأمنتم المخاوف عدتم فجأة إلى الشرك به بدعاء غيره. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦٣) ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝﴾.

(٦٤) وفي الآية الثانية (٦٤) يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم جوابًا لقوله من ينجيكم: ﴿اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا[2]﴾ أي من تلك الحالة التي اضطربت لها نفوسكم وخشيتم فيها الهلاك وينجيكم أيضًا من كل كرب[3]، ثم مع هذا يا للعجب أنتم تشركون به[4] تعالى أصنامكم. قل لهم يا رسولنا أن الله الذي ينجيكم من كل كرب هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من السماء فوقكم[5]، أو من الأرض تحتكم، أو يخلط عليكم أمركم فتتنازعوا فتختلفوا فتصبحوا شيعًا وطوائف وفرقًا متعادية يقتل بعضكم بعضًا، فيذيق بعضكم بأس بعض، ثم قال الله تعالى لرسوله ﷺ: انظر يا رسولنا كيف نفصل الآيات بتنويع الكلام وتوضيح معانيه رجاء أن يفقهوا معنى ما نقول لهم فيهتدوا إلى الحق فيؤمنوا بالله وحده ويؤمنوا بلقائه وبرسوله ﷺ وما جاء به فيكملوا ويسعدوا.

(٦٥) وفي الآية (٦٥) يخبر تعالى بواقع القوم: أنهم كذبوا بهذا القرآن وما أخبرهم به من الوعيد الشديد وهو الحق الذي ليس بباطل ولا يأتيه الباطل، ويأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم بعد تكذيبهم له:
(٦٦) ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ فأخاف من تبعة عدم إيمانكم وتوحيدكم.
(٦٧) ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾[6] وقد أنبأتكم بالعذاب على تكذيبكم وشرككم ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك يوم يحل بكم وقد استقر نبأه يوم بدر والحمد لله.

هداية الآيات:

١ - لا برهان أعظم على بطلان الشرك من أن المشركين يخلصون الدعاء لله تعالى في الشدة.
٢ - لا منجى من الشدائد ولا منقذ من الكروب إلا الله سبحانه وتعالى.
٣ - التحذير من الاختلاف المفضي[7] إلى الانقسام والتكتل.

---

(١) ظلمات البر والبحر: كناية عن شدائدهما، يقال: يوم مظلم أي: شديد، وتقول العرب: يوم ذو كواكب وأنشد سيبويه:
بني أسد هل تعلمون بلادنا ... إذا كان يوم ذو كواكب أشنعا
وجمع الظلمات لتعددها إذ هي ظلمة البر وظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة الغيم.
(٢) قرىء: ﴿يُنَجِّيكم﴾ بالتشديد، و﴿ينجيكم﴾ بالتخفيف، والمعنى واحد والفعل: يقال نجّاه من كذا وأنجاه من كذا.
(٣) الكرب: الغمّ يأخذ النفس ويقال فيه: رجل مكروب، والكربة مأخوذة منه.
(٤) هذه الجملة تحمل لهم التقريع والتوبيخ أي: ومع هذا الإنجاء الذي يحصل لكم من ربكم إذا أنتم مشركون يا للوقاحة والدناءة، وإلاّ فهم مشركون من قبل.
(٥) من فوقكم كالحجارة، والطوفان والصواعق ومن تحتكم كالخسف والرجفة.
(٦) ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ أي: خبر مستقر أي: وقت يقع فيه مضمونه فلا يتقدّم ولا يتأخر.
(٧) يحسن ذكر شاهد عظيم على معنى هذه الآية: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ روى مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله زوى لي الأرض (أي: جمعها) فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها وأعطيت=**

٤ - ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أجري مجرى المثل، وكذا ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٨ - ٧٠]

(٦٨) ﴿يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾: يتكلمون في القرآن طعنًا فيه ونقدًا له ولما جاء فيه. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: قم محتجًا على صنيعهم الباطل، غير ملتفت إليهم. ﴿بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: أي بعد التذكر.

(٦٩) ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾: أي موعظة لهم.

(٧٠) ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ﴾: أي اترك الكافرين. ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾: كونه لعبًا لأنه لا يجنون منه فائدة قط، وكونه لهوًا لأنهم يتلهون به وشغلهم عن الدين الحق الذي يكملهم ويسعدهم. ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾: أي تسلم فتؤخذ فتحبس في جهنم. ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾: العدل هنا: الفداء. ﴿أُبْسِلُوا۟﴾: حبسوا في جهنم بما كسبوا من الشرك والمعاصي. ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾: الحميم: الماء الشديد الحرارة الذي لا يطاق. ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾: أي شديد الألم والإيجاع وهو عذاب النار.

معنى الآيات:

(٦٨) ما زال السياق في الحديث مع أولئك العادلين المكذبين فيقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ[1] ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يستهزئون بالآيات القرآنية ويسخرون مما دلت عليه من التوحيد والعذاب للكافرين ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي فصدّ عنهم وانصرف ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ وإن أنساك الشيطان نهينا هذا فجلست ثم ذكرت فقم ولا تقعد مع القوم الظالمين.

(٦٩) وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي وليس على المؤمنين المتقين أنت وأصحابك يا رسولنا من تبعة ولا مسؤولية ولكن إذا خاضوا في الباطل فقوموا ليكون ذلك ذكرى لهم فيكفون عن الخوض في آيات الله تعالى. وهذا كان بمكة قبل قوة الإسلام، ونزل بالمدينة النهي عن الجلوس مع الكافرين والمنافقين إذا خاضوا في آيات الله ومن جلس معهم يكون مثلهم وهو أمر عظيم. قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية. أما الثالثة (٧٠) فإن الله تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يترك الذين اتخذوا دينهم الحق الذي جاءهم به

الجزء السابع — سورة الأنعام

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

١٣٦

= **الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي ألاّ يهلكهم بسنة عامة وألا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإنّ ربي قال لي: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا».**

(١) الخطاب للرسول ﷺ وأصحابه وأمته داخلة معه في هذا فمتى حصل لمؤمن أو مؤمنة مثل هذا تعيّن عليه أن يقوم احتجاجًا وعدم رضًا، وفي الآية دليل على أنّ مجالسة أهل الكبائر لا تجوز لا سيما في حال تلبسهم بالكبيرة، وهذه أقوال السلف في هذه المسألة قال ابن خويز منداد: من خاض في آيات الله تُركت مجالسته وهجر مؤمنًا كان أو كافرًا قال القرطبي: منع أصحابنا الدخول على أرض العدو ودخول كنائسهم ومجالسة الكفار وأهل البدع وألاّ تعتقد مودّتهم ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم. قال الفضيل بن عياض: من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإيمان من قلبه.

رسول الحق ﷺ لعبًا ولهوًا يلعبون به أو يسخرون منه ويستهزئون به وغرتهم الحياة الدنيا.

(٧٠) قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا[1] وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ اتركهم فلا يهمك أمرهم، وفي هذا تهديد لهم على ما هم عليه من الكفر والسخرية والاستهزاء، وقد أخبر تعالى في سورة الحجر أنه كفاه أمرهم إذ قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝﴾، وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أي كي لا تبسل[2] ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي كي لا تسلم نفس للعذاب بما كسبت من الشرك والمعاصي، ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ يوم تسلم للعذاب ﴿مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ﴾ يتولى خلاصها، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لها فينجيها من عذاب النار ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ[3] لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ أي وإن تقدم ما أمكنها حتى ولو كان ملء الأرض ذهبًا فداء لها لما نفعها ذلك ولما نجت من النار، ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أُبسِلوا: أُسلِموا وأخذوا إلى جهنم بما كسبوا من الذنوب والآثام لهم في جهنم شراب من ماء حميم حار وعذاب موجع أليم. وذلك بسبب كفرهم بالله وآياته ورسوله ﷺ. حيث نتج عن ذلك خبث أرواحهم فما أصبح يلائم وصفهم إلا عذاب النار. قال تعالى من هذه السورة سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم.

هداية الآيات:

١ - حرمة الجلوس في مجالس يسخر فيها من الإسلام وشرائعه وأحكامه وأهله.

٢ - وجوب القيام احتجاجًا من أي مجلس يعصى فيه الله ورسوله ﷺ.

٣ - مشروعية الإعراض في حال الضعف عن المستهزئين بالإسلام الذين غرتهم الحياة الدنيا من أهل القوة والسلطان وحسب المؤمن أن يعرض عنهم فلا يفرح بهم ولا يضحك لهم.

٤ - وجوب التذكير بالقرآن وخاصة المؤمنين الذين يرجى توبتهم.

٥ - من مات على كفره لم ينج من النار إذ لا يجد فداء ولا شفيعًا يخلصه من النار بحال.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧١ - ٧٣]

(٧١) ﴿أَنَدْعُوا﴾: أي نعبد. ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾: أي ما لا يقدر على نفعنا ولا على ضرنا لو أراد ذلك لنا. ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾: أي نرجع كفارًا بعد أن كنا مؤمنين. ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾: أي أضلته في الأرض فهوى فيها تائه حيران لا يدري أين يذهب.

(٧٢) ﴿وَاتَّقُوهُ﴾: أي اتقوا الله بتوحيده في عبادته وترك معصيته.

(٧٣) ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾: أي في يوم القيامة. ﴿الصُّورِ﴾: بوق كالقرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام. ﴿الْحَكِيمُ﴾: في أفعاله الخبير بأحوال عباده.

معنى الآيات:

(٧١) يدل السياق على أن عرضًا من المشركين كان لبعض المؤمنين لأن يعبدوا معهم آلهتهم فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم عرضهم الرخيص منكرًا عليهم ذلك أشد الإنكار ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾، الاستفهام للإنكار، ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ إن عبدناه، ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركنا عبادته وبذلك نصبح وقد رددنا على أعقابنا من التوحيد إلى الشرك[4] بعد إذ هدانا الله إلى الإيمان به ومعرفته ومعرفة دينه، فيكون حالنا كحال من

---

(١) اختلف في الدين الذي اتخذه المشركون لهوًا ولعبًا، والظاهر أنه الإسلام الذي جاءهم الرسول ﷺ به إذ لا دين لله سواه وبعث الله تعالى إليهم رسوله به ﷺ فهو دينهم ومع الأسف رفضوه واتخذوه لهوًا ولعبًا يسخرون ويستهزئوا به.

(٢) قال القرطبي: تبسل أي: ترتهن وتسلم للهلكة عن مجاهد وقتادة والحسن وعكرمة والإبسال تسليم المرء للهلاك. قال الشاعر:

وإبسالي بنيَّ بغير جرم ... بعوناه ولا بدم مراق

ومعنى بعوناه: جنيناه. والشاهد في قوله: وإبسالي بني حيث أسلم بنيه للهلاك.

(٣) العدل الفداء أو الفدية.

(٤) أي: نرجع من الهدي إلى الضلال. والأعقاب جمع عقب وهي مؤنثة فتصغر على عُقَيْب. ويقال: رجع على عقبيه إذا أدبر وأصابه من العاقبة والعقبى من ذلك عقب الرجل ومنه العقوبة لأنها تالية للترتيب وتكون نسبية.

أضلته الشياطين في الصحراء فتاه فيها فلا يدري أين يذهب ولا أين يجيء، ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾ وهو لا يقدر على إجابتهم ولا الإتيان إليهم لشدة ما فعل استهواء الشياطين[1] في عقله.

(٧٢) ثم أمره أن يقول أيضًا قل إن الهدى الحق الذي لا ضلال ولا خسران فيه هدى الله الذي هدانا إليه ألا إنه الإسلام، وقد أمرنا ربنا أن نسلم له[2] قلوبنا ووجوهنا لأنه رب العالمين فأسلمنا، كما أمرنا أن نقيم الصلاة فأقمناها وأن نتقيه فاتقيناه وأعلمنا أنا سنحشر إليه يوم القيامة فصدقناه في ذلك ثم هدانا فلن نرجع بعد إلى الضلالة. هذا ما تضمنته الآيتان الأولى والثانية.

(٧٣) أما الثالثة (٧٣) فقد تضمنت تمجيد الرب بذكر مظاهر قدرته وعلمه وعدله فقال تعالى: ﴿وَهُوَ﴾ أي الله رب العالمين الذي أمرنا أن نسلم له فأسلمنا ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ[3]﴾ فلم يخلقهما عبثًا وباطلاً بل خلقهما ليذكر فيهما ويشكر، ويوم يقول لما أراد إيجاده أو إعدامه أو تبديله كن فهو يكون كما أراد في قوله الحق دائمًا ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ[4] فِي ٱلصُّورِۚ[5]﴾ نفخة الفناء فلا يبقى شيء إلا هو الواحد القهار فيقول جلّ ذكره: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه بنفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ أي يعلم ما غاب في خزائن الغيب عن كل أحد، ويعلم الشهادة والحضور لا يخفى عليه أحد وهو الحكيم في تصرّفاته وسائر أفعاله وتدابيره لمخلوقاته الخبير ببواطن الأمور وظواهرها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. بهذا كان المعبود الحق الذي لا يجوز أن يعبد سواه بأي عبادة من العبادات التي شرعها سبحانه وتعالى ليُعْبَد بها.

هداية الآيات:

١ - قبح الردة وسوء عاقبتها.

٢ - حرمة إجابة أهل الباطل لما يدعون إليه من الباطل.

٣ - لا هدى إلا هدى الله تعالى أي لا دين إلا الإسلام.

٤ - وجوب الإسلام لله تعالى وإقامة الصلاة واتقاء الله تعالى بفعل المأمور وترك المنهي.

٥ - تقرير المعاد والحساب والجزاء.

الجزء السابع — سورة الأنعام

۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (٧٩) وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٨١)

١٣٧

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٤ ـ ٧٩]

(٧٤) ﴿إِبۡرَٰهِيمُ﴾: هو إبراهيم خليل

---

(١) استهوته بمعنى استغوته وزينت له هواه ودعته إليه فهو إذًا من هوى يهوى من هوى النفس وليس هو يهوي إلى الشيء إذا أسرع إليه والحيران هو الذي لا يهتدي لجهله.

(٢) الآية ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾ ومعناها أمرنا بأن نسلم، تقول العرب: أمرتك لتذهب وبأن تذهب بمعنى واحد واللامات أربع: لام الجر، لام الابتداء، لام التوكيد، ولام الأمر.

(٣) قال القرطبي: ومعنى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بكلمة الحق يعني قوله: ﴿كُن﴾ وهو كما قال، إلا أن القول أن بالحق بمعنى بحِكْمَةٍ أي: لم يخلقها لهوًا أو لعبًا هذا أوضح وأهم كما هو في التفسير.

(٤) من أخطاء الناس قول من قال الصور جمع صورة ومعناه ينفخ في الصور فتتم الحياة وهذا يتنافى مع الأحاديث الصحاح ومع سياق الآية. إذ قال: ثم نفخ فيه أخرى أي: مرة أخرى ولم يقل فيها أي: في الصور فأين معنى الصورة هنا؟

(٥) الصور القرن والنافخ فيه إسرافيل عليه السلام والمراد بالنفخة هنا نفخة الفناء والنفخة التالية لها نفخة البعث وهناك نفخة الصعقة وهم في ساحة القضاء ونفخة رابعة وهي التي يقومون فيها لفصل القضاء.

الرحمٰن بن آزر من أولاد سام بن نوح عليه السلام. ﴿أَصْنَامًا﴾: جمع صنم تمثال من حجر. ﴿ءَالِهَةً﴾: جمع إله بمعنى المعبود. ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: عدول عن طريق الحق.
﴿٧٥﴾ ﴿مَلَكُوتَ﴾: مُلك.
﴿٧٦﴾ ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾: أظلم. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾: أي غاب.
﴿٧٧﴾ ﴿بَازِغًا﴾: طالعًا والبزوغ الطلوع. ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: العادلين عن طريق الحق إلى طريق الباطل.
﴿٧٩﴾ ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾: أقبلت بقلبي على ربي وأعرضت عما سواه. ﴿حَنِيفًا﴾: مائلًا عن الضلال إلى الهدى.

معنى الآيات:

﴿٧٤﴾ ما زال السياق في بيان الهدى للعادلين بربهم أصنامًا يعبدونها لعلهم يهتدون فقال تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ[1]﴾، أي واذكر لهم قول إبراهيم لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً[2]﴾ أي أتجعل تماثيل من حجارة آلهة. أربابًا تعبدها أنت وقومك ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ﴾ يا أبت ﴿وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ[3]﴾ عن طريق الحق الذي ينجو ويفلح سالكه هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٧٤).

﴿٧٥﴾ أما الآية الثانية (٧٥) فإن الله تعالى يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ[4] مَلَكُوتَ[5] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كما أريناه الحق في بطلان عبادة أبيه للأصنام نريه أيضًا مظاهر قدرتنا وعلمنا وحكمنا الموجبة لألوهيتنا في ملك السموات والأرض، ليكون بذلك من جملة الموقنين، واليقين من أعلى مراتب الإيمان. هذا ما دلت عليه الآية الثانية وفي الثالثة (٧٦) فصّل الله تعالى ما أجمله في قوله: ﴿نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿٧٦﴾ فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي أظلم ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ قد يكون الزهرة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى[6] فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي غاب الكوكب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾.

﴿٧٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ[7] بَازِغًا﴾ أي طالعًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى[8] فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي غاب ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، في معرفة ربهم الحق.

﴿٧٨﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ أي طالعة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ يعني من الكوكب والقمر ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ[9]﴾ أي غابت بدخول الليل ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿٧٩﴾ هكذا واجه إبراهيم قومه عبدة الكواكب التي تمثلها أصنام منحوتة واجههم بالحقيقة التي أراد أن يصل

---

(١) قيل: لآزر اسم آخر هو تارح فيكون كيعقوب له اسم يعقوب وإسرائيل أما من قال: آزر عمه فخلطٌ وخبطٌ حملهم عليه عدم إطاقتهم أن يكون والد رسول في النار وهي غاية الجهل بأسرار الشرع وحكمه وآزر بالرفع على تقدير النداء أي: يا آزر.

(٢) الاستفهام للإنكار وأصنامًا مفعول أول وآلهة مفعول ثان لأن اتخذ تنصب مفعولين كعلم.

(٣) كان قوم إبراهيم صابئين يعبدون الكواكب ويصورون لها أصنامًا وهي ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم وكانوا يعبدونها توسلاً وتقربًا بها إلى الله تعالى ولذا فهم مشركون وليسوا ملاحدة.

(٤) نري وهو بمعنى أرينا الماضي.

(٥) الملكوت: الملك زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة في الصفة، ومثله الرغبوت والرهبوت والجبروت والرهبة والجبر قيل: كشف له تعالى عن السموات والأرض حتى رأى العرش وأسفل الأرضين.

(٦) قوله: هذا ربي في المواضع كلها في السياق ليس هو على ظاهره أبدًا. بل هو تدرج بهم إلى الوصول إلى الحقيقة وهو إنه لا إله إلا الله فقوله: هذا ربي أي: على قولكم أو زعمكم وهو كقوله تعالى: أين شركائي كما زعمتم أو على قولكم وإلا فالله تعالى يعلم أنه لا شريك له أبدًا أو هو على حذف حرف الاستفهام أي أهو ربي؟ نحو: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي: أفهم الخالدون؟

(٧) بزغ القمر إذا بدأ في الطلوع وأصل البزغ الشق فالقمر يشق الظلام بنوره ومن بزغ البيطار الدابة إذا أسال دمها. ومنه البزاغ وهو ما يسيل من الفم.

(٨) هذا ربي أي: هذا الطالع ربي وإلاّ فالشمس مؤنثة وقد قال فيها: بازغة.

(٩) أفل يأفل أفولاً إذا غاب.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

إليها معهم وهي إبطال عبادة غير الله تعالى فقال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ لا كما توجهون أنتم وجوهكم لأصنام نحتموها بأيديكم وعبدتموها بأهوائكم لا بأمر ربكم، وأعلن براءته في وضوح وصراحة: فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠[١] مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

هداية الآيات:

١ - إنكار الشرك على أهله، وعدم إقرارهم ولو كانوا أقرب الناس إلى المرء.

٢ - فضل الله تعالى وتفضله على من يشاء بالهداية الموصلة إلى أعلى درجاتها.

٣ - مطلب اليقين وأنه من أشرف المطالب وأعزها، ويتم بالتفكر والنظر في الآيات.

٤ - الاستدلال بالحدوث على وجود الصانع الحكيم وهو الله عز وجل.

٥ - سنة التدرج في التربية والتعليم.

٦ - وجوب البراءة من الشرك وأهله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٠ - ٨٣]

﴿٨٠﴾ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾: جادلوه وحاولوا غلبه بالحجة، والحجة: البينة والدليل القوي. ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾: أتجادلونني في توحيد الله وقد هداني إليه، فكيف أتركه وأنا منه على بينة.

﴿٨١﴾ ﴿سُلْطَٰنًا﴾: حجة وبرهانًا. ﴿بِٱلْأَمْنِ﴾[٢]: خلاف الخوف.

﴿٨٢﴾ ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾: أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك.

معنى الآيات:

﴿٨٠﴾ لما أقام إبراهيم الدليل على بطلان عبادة غير الله تعالى وتبرأ من الشرك والمشركين حاجه قومه في ذلك فقال منكرًا عليهم ذلك: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى[٣] فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ أي كيف يصح منكم جدال لي في توحيد الله وعبادته، وترك عبادة ما سواه من الآلهة المدعاة وهي لم تخلق شيئًا ولم تنفع ولم تضر، ومع هذا فقد هداني إلى معرفته وتوحيده وأصبحت على بينة منه سبحانه وتعالى، هذا ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾. ولا شك أنهم لما تبرأ من آلهتهم خوفوه بها وذكروا له أنها قد تصيبه بمكروه[٤] فردّ ذلك عليهم قائلًا: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ من آلهة أن تصيبني بأذى، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى[٥] شَيْـًٔا﴾ فإنه يكون قطعًا فقد ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، ثم وبخهم قائلًا: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتذكروا ما أنتم عليه هو الباطل، وأن ما أدعوكم إليه هو الحق.

﴿٨١﴾ ثم ردّ القول عليهم قائلًا:

---

(١) في أنا ثلاث لغات أنَ وأنَه، وأنا وهي متعينة في الوقف (أنا).

(٢) روي أنهم قالوا له: أما تخاف أن تخبلك آلهتنا لسبك إياها؟

(٣) قرأ نافع بتخفيف نون ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾ وثقلها غيره، وتخفيفها مبني على حذف النون الثانية تخفيفًا، ومن ثقلها فقد أدغمها في نون الرفع.

(٤) أخرج ابن كثير عن ابن مردويه أن رسول الله ﷺ قال: «من أُعطي فشكر، ومُنع فصبر، وأذنب فاستغفر، وظُلم فغفر» وسكت فقلنا يا رسول الله: ماله؟ قال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون».

(٥) قال هذا احتياطًا منه للتوحيد إذ من الجائز أن يعثر في حجر أو تشوكه شوكة أو يمرض بسبب وآخر فيقولون: هذه آلهتنا قد أصابتك لأنك تسبها فهذا وجه الاستثناء هنا.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ وهي أصنام جامدة لا تنفع ولا تضر لعجزها وحقارتها وضعفها، ولا تخافون أنتم الرب الحق الله الذي لا إله إلا هو المحيي المميت الفعال لما يريد، وقد أشركتم به أصنامًا ما أنزل عليكم في عبادتها حجة ولا برهانًا تحتجون به على عبادتها معه سبحانه وتعالى. ثم قال لهم استخلاصًا للحجة وانتزاعًا لها منهم فأي الفريقين أحق بالأمن من الخوف: أنا الموحد للرب، أم أنتم المشركون به؟ والجواب معروف وهو من يعبد ربًا واحدًا أحق بالأمن ممن يعبد آلهة شتى جمادات لا تسمع ولا تبصر.

(٨٢) وحكم الله تعالى بينهم وفصل فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم[(١)] بِظُلْمٍ﴾ أي ولم يخلطوا إيمانهم بشرك، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في حياتهم إلى طريق سعادتهم وكمالهم وهو الإسلام الصحيح.

(٨٣) ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ[(٢)] ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ إشارة إلى ما سبق من محاجة إبراهيم قومه ودحض باطلهم وإقامة الحجة عليهم. وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ تقرير لما فضَّل به إبراهيم على غيره من الإيمان واليقين والعلم المبين. ثم علّل تعالى لذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حكيم في تدبيره عليم بخلقه.

هداية الآيات:

١ - مشروعية جدال المبطلين والمشركين لإقامة الحجة عليهم علهم يهتدون.

٢ - بيان ضلال عقول أهل الشرك في كل زمان ومكان.

٣ - التعجب من حال مذنب لا يخاف عاقبة ذنوبه.

٤ - أحق العباد بالأمن من الخوف من آمن بالله ولم يشرك به شيئًا.

٥ - تقرير معنى ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

شرح الكلمات:
[الآية: ٨٤ - ٨٧]

(٨٤) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾: أعطيناه تكرمًا منا وإفضالاً. ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾: إسحاق بن إبراهيم الخليل ويعقوب ولد إسحاق ويلقب بإسرائيل. ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾: أي كل واحد منهما هداه إلى صراطه المستقيم. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾: أي ذرية إبراهيم. ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾: داود الوالد وسليمان الولد وكل منهما ملك ورسول.

(٨٥) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾: زكريا الوالد ويحيى الولد وكل منهما كان نبيًا رسولاً.

(٨٦) ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي عالمي زمانهم لا على الإطلاق، لأن محمدًا ﷺ أفضل الأنبياء.

(٨٧) ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾: أي من بعض الآباء والذرية والإخوة لا الجميع. ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾: اخترناهم للنبوة والرسالة وهديناهم إلى الإسلام.

معنى الآيات:

(٨٤) بعد أن ذكر تعالى ما آتى إبراهيم خليله من قوة الحجة والغلبة على أعدائه ذكر منّة أخرى منَّ بها عليه وهي أنه وهبه[(٣)] إسحق ويعقوب بعد كبر سنه، إسحق الولد ويعقوب الحفيد وأنه تعالى هدى كلاً منهم الوالد والولد والحفيد، كما أخبر تعالى أنه هدى من قبلهم نوحًا، وهدى من ذريته[(٤)] أي

---

(١) روي في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

(٢) ما هي تلك الحجة؟ هل هي جميع احتجاجاته التي حاجهم بها فغلبهم وهذا هو الظاهر، وقيل: هي قوله لهم: أما تخاف أن تخبلك آلهتنا لسبك إياها؟ قال لهم: أفلا تخافون أنتم منها إذا سويتم بين الصغير والكبير في العبادة والتعظيم فيغضب الكبير فيخبلكم؟

(٣) أي: جزاء صبره وحجاجه وبذله نفسه في سبيل نصرة دين ربه كافأه الله عز وجل بأن وهبه من الذرية الصالحة.

(٤) يصح عود الضمير على نوح كما يصح عوده على إبراهيم قاله غير واحد من أهل التفسير لأن ذكرهما قد مرّ معًا.

إبراهيم، وإن كان الكل من ذرية نوح، أي هدى من ذرية إبراهيم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون[1]، وأشار تعالى إلى أنهم كانوا محسنين، فجزاهم جزاء المحسنين والإحسان هو الإخلاص في العمل وأداؤه على الوجه الذي يرضي الرب تبارك وتعالى مع الإحسان العام لسائر المخلوقات بما يخالف الإساءة إليهم في القول والعمل. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٨٤).

(٨٥) وأما الآية الثانية (٨٥) فقد ذكر تعالى أنه هدى كذلك إلى حمل رسالته والدعوة إليه والقيام بواجباته وتكاليف شرعه كلًا من زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وأخبر أن كل واحد منهم كان من الصالحين الذين يؤدون حقوق الله كاملة وحقوق عباده كذلك كاملة غير ناقصة، وكانت المجموعة الأولى داود وسليمان ومن ذكر بعدهما الصفة الغالبة عليهم الإحسان لأنه كان فيهم ملك وسلطان ودولة، والمجموعة الثانية وهي زكريا ويحيى وعيسى وإلياس الصفة الغالبة عليهم الصلاح لأنهم كانوا أهل زهد في الدنيا وأعراضها.

(٨٦) والمجموعة الثالثة والأخيرة في الآية الثالثة (٨٦) وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط لم يغلب عليهم وصف مما وُصِف به المجموعتان الأولى والثانية، لأنهم وسط بين المجموعتين، فذكر تعالى أن كل واحد منهم فضله على عالمي زمانه، وكفى بذلك شرفًا وكرمًا وخيرًا.

(٨٧) وأما الآية الأخيرة (٨٧) فإن الله تعالى يقول فيها، ومن آباء المذكورين من الأنبياء ومن ذرياتهم[2] وإخوانهم هديناهم أيضًا وإن لم نذكر أسماءهم فهم كثير هديناهم إلى ما هدينا إليه آباءهم من الحقِّ والدين الخالص الذي لا شائبة شرك فيه، واجتبينا[3] الجميع اخترناهم للنبوة والرسالة[4]. ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الدين الإسلامي.

هداية الآيات:

١ - سعة فضل الله.

٢ - خير ما يعطى المرء في هذه الحياة الهداية إلى صراط مستقيم.

٣ - فضيلة كل من الإحسان والصلاح.

٤ - لا منافاة بين الملك والنبوة أو الإمارة والصلاح.

٥ - فضيلة الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٨ ـ ٩٠]

(٨٨) ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾: الهدى ضد الضلال، وهدى الله ما يهدي إليه من أحب من عباده وهو الإيمان والاستقامة. ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: أي بطلت أعمالهم فلم يثابوا عليها بقليل ولا كثير.

(٨٩) ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾: الفهم للكتاب مع الإصابة في الأمور والسداد فيها. ﴿يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾: يجحد بها أي بدعوتك الإسلامية هؤلاء: أي أهل مكة. ﴿قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾: هم المهاجرون والأنصار بالمدينة النبوية.

(٩٠) ﴿ٱقْتَدِهْ﴾: اقتد: أي اتبع

---

(١) قال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء جميعًا مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان منهم من لم تلحقه ولادة من جهته لا من جهة الأب ولا الأم لأن لوطًا ابن أخ إبراهيم وعُدَّ عيسى من ذريته وهو ابن البنت من هنا ذهب الشافعي وأبو حنيفة إلى أن من وقف وقفًا على ولده وولد ولده دخل فيه ولد بناته لأن لفظ الولد يشمل الذكر والأنثى كما يشمل عيسى عليه السلام وهو ولد البنت لا غير.

(٢) من للتبعيض أي: هدى بعض آبائهم وبعض ذرياتهم ولم يهد كل أب وكل ولد.

(٣) الاجتباء مشتق من جبيت الماء في الحوض جمعته فالاجتباء اختيار الشخص وضمه إلى خاصتك من الناس، والجبا مقصور مصدر جبيت الماء والجابية الحوض.

(٤) ذكر تعالى في هذه الآيات ثمانية عشر رسولاً وبقي سبعة ذكروا في سورٍ أخرى وهم إدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل وآدم عليهم السلام وقد نظمهم البعض في ثلاثة أبيات من الشعر هي:

حتم على كل ذي التكليف معرفة ... بأنبياء على التفصيل قد عرفوا
في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وزيدت الهاء للسكت. ﴿عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾: أي على إبلاغ دعوة الإسلام ثمنًا مقابل الإبلاغ. ﴿ذِكۡرَىٰ﴾: الذكرى: ما يذكر به الغافل والناسي فيتعظ.

معنى الآيات:

﴿٨٨﴾ ما زال السياق في ذكر ما وهب الله تعالى لمن شاء من عباده من هدايات وكمالات لا يقدر على عطائها إلا هو فقال ذلك في الآية الأولى (٨٨) ذلك المشار إليه ما وهبه أولئك الرسل الثمانية عشر رسولاً وهداهم إليه من النبوة والدين الحق هو هدى الله يهدي به من يشاء من عباده. وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ[١] عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يقرر به حقيقة علمية، وهي أن الشرك محبط للعمل فإن أولئك الرسل على كمالهم وعلو درجاتهم لو أشركوا بربهم سواه فعبدوا معه غيره لبطل كل عمل عملوه، وهذا من باب الافتراض، وإلا فالرسل معصومون ولكن ليكون هذا عظة وعبرة للناس. هذا ما دلت عليه الآية الأولى.

﴿٨٩﴾ أما الثانية (٨٩) فقد أشاد الله تعالى بأولئك الرسل السابقي الذكر مخبرًا أنهم هم الذين آتاهم الكتاب وهي صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داوود وإنجيل عيسى والحكم[٢] وهو الفهم والإصابة والسداد في الأمور كلها. ثم قال تعالى فإن يكفر بهذه الآيات القرآنية وما تحمله من شرائع وأحكام وهداية الإسلام ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من أهل مكة ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا﴾ من قبل وهم الرسل المذكورون في هذا السياق وقومًا هم موجودون وهم المهاجرون والأنصار من أهل المدينة، ومن يأتي بعد من سائر البلاد والأقطار.

﴿٩٠﴾ وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ[٣] ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، يأمر رسوله ﷺ أن يقتدي بأولئك الأنبياء المرسلين[٤] في كمالاتهم كلها حتى يجمع ﷺ كل كمال فيهم فيصبح بذلك أكملهم على الإطلاق. وكذلك كان، وقوله تعالى في ختام الآية الكريمة: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ[٥] أَجۡرًاۖ﴾ يأمره تعالى أن يقول لأولئك العادلين بربهم الأصنام والأوثان المكذبين بنبوته وكتابه: ما أسألكم على القرآن الذي أمرت أن أقرأه عليكم لهدايتكم أجرًا أي مالاً مقابل تبليغه إياكم ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ما القرآن إلا موعظة للعالمين يتعظون بها إن هم ألقوا أسماعهم وتجردوا من أهوائهم وأرادوا الهداية ورغبوا فيها.

هداية الآيات:

١ - الشرك محبط للعمل كالردة والعياذ بالله تعالى.

٢ - فضل الكتاب الكريم والسنة النبوية.

٣ - وجوب الاقتداء بالرسول ﷺ وأهل العلم والصلاح من هذه الأمة.

٤ - حرمة أخذ الأجرة على تبليغ الدعوة الإسلامية.

٥ - القرآن الكريم ذكرى لكل من يقرأه أو يستمع إليه وهو شهيد حاضر القلب.

---

(١) حبوط العمل بطلانه وقد عصم الله تعالى أنبياءه من الشرك فلذا لم تحبط ولم تبطل أعمالهم.

(٢) قال القرطبي: والحكم العلم والفقه وهو كذلك إلا أن ما في التفسير أوسع وأولى بالاعتماد عليه.

(٣) قال القرطبي: الاقتداء طلب موافقة الغير في فعله. وقال: قد احتج بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص واستدلوا بحديث مسلم في حادثة الرُبيع إذ أمر الرسول ﷺ بكسر سنها محتجًا بآية ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ وهو من أحكام بني إسرائيل ولم يوجد في القرآن غيره.

(٤) روى البخاري عن العوام قال: سألت مجاهدًا عن سجدة ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ①﴾ فقال: سألت ابن عباس من أين سجدت فقال: أوما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ فكان داود ممن أُمِرَ نَبِيُّكُم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ.

(٥) أي: جعلا على القرآن.

﴿٩١﴾ ﴿تجعلونه﴾ فسرت الآية على قراءة: ﴿يجعلونه﴾ بالياء وكذلك يبدون ويخفون أما على قراءة: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ﴾ بالتاء فإن الخطاب يكون لليهود والسورة مكية فلذا رجح ابن جرير قراءة الياء.

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٩١، ٩٢]

﴿٩١﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾: ما عظموه التعظيم اللائق به ولا عرفوه حق معرفته. ﴿عَلَىٰ بَشَرٍ﴾: أي إنسان من بني آدم. ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾: التوراة. ﴿قَرَاطِيسَ﴾: جمع قرطاس: وهو ما يكتب عليه من ورق وغيره. ﴿تُبْدُونَهَا﴾: تظهرونها. ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾: هذا جواب: من أنزل الكتاب؟ ﴿ذَرْهُمْ﴾: اتركهم. ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾: أي ما يخوضون فيه من الباطل.

﴿٩٢﴾ ﴿مُبَارَكٌ﴾: أي مبارك فيه فخبره لا ينقطع، وبركته لا تزول. ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: مكة المكرمة. ﴿يُحَافِظُونَ﴾: يؤدونها بطهارة في أوقاتها المحددة لها في جماعة المؤمنين.

معنى الآيتين:

﴿٩١﴾ ما زال السياق مع العادلين بربهم أصنامهم وأوثانهم فقد أنكر تعالى عليهم إنكارهم للوحي الإلهي وتكذيبهم بالقرآن الكريم إذ قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، ومن هنا قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عظموه كما ينبغي تعظيمه لما قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[١]، ولقن رسوله ﷺ الحجة فقال له قل لهم: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾ يستضاء به في معرفة الطريق إلى الله تعالى وهدى يهتدى به إلى ذلك وهو التوراة جعلها اليهود قراطيس يبدون بعضها ويخفون بعضها حسب أهوائهم وأطماعهم، وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي وعلمكم الله بهذا القرآن من الحقائق العلمية كتوحيد الله تعالى وأسمائه وصفاته، والدار الآخرة وما فيها من نعيم مقيم، وعذاب أليم، ثم أمر الرسول ﷺ أن يجيب عن السؤال الذي وجهه إليهم تبكيتًا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي الذي أنزل التوراة على موسى هو الله. ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ أي اتركهم ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ أي في الباطل ﴿يَلْعَبُونَ﴾[٢] حيث لا يحصلون من ذلك الخوض في الباطل على أي فائدة تعود عليهم فهم كاللاعبين من الأطفال. هذا ما تضمنته الآية الأولى (٩١).

﴿٩٢﴾ أما الآية الثانية (٩٢) فقد تضمنت أولاً الرد على قول من قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ أي كيف يقال ما أنزل الله على بشر من شيء وهذا القرآن بين أيديهم يتلى عليهم أنزله الله مباركًا لا ينتهي خيره ولا يقل نفعه، مصدقًا لما سبقه من الكتب كالتوراة والإنجيل أنزلناه ليؤمنوا به. ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾[٣] أي أهلها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من المدن والقرى القريبة والبعيدة لينذرهم عاقبة الكفر والضلال فإنها الخسران التام والهلاك الكامل، وثانيًا الإخبار بأن الذين يؤمنون بالآخرة أي بالحياة في الدار الآخرة يؤمنون[٤] بهذا القرآن، وهم على صلاتهم يحافظون وذلك مصداق إيمانهم وثمرته التي يجنيها المؤمنون الصادقون.

---

(١) بيان ذلك أنهم لما قالوا: ما أنزل الله من شيء كانوا قد نسبوا إلى الله تعالى أنه لا يقيم الحجة على عباده ولا يأمرهم بما فيه صلاحهم ولا ينهاهم عما فيه خسرانهم وبهذا ما قدروا الله حق قدره وما آمنوا أنه على كل شيء قدير.

(٢) أي: لاعبين لأنها حال من قوله ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ إذ لو لم يكن حالاً لجزم في وجوب الطلب الذي هو ذرهم.

(٣) أم القرى مكة المكرمة.

(٤) يريد اتباع محمد ﷺ.

هداية الآيتين:

١ - كل من كذب الله تعالى أو أشرك به أو وصفه بوصف لا يليق بجلاله فإنه لم يقدر الله حق قدره[(١)].

٢ - بيان تلاعب اليهود بكتاب الله في إبداء بعض أخباره وأحكامه وإخفاء بعض آخر وهو تصرف ناتج من الهوى واتباع الشهوات وإيثار الدنيا على الآخرة.

٣ - بيان فضل الله على العرب بإنزال هذا الكتاب العظيم عليهم بلغتهم لهدايتهم.

٤ - تعليم الرسول ﷺ كيفية الحجاج والرد على المجادلين والكاذبين.

٥ - بيان علة ونزول الكتاب وهي الإيمان به وإنذار المكذبين والمشركين.

٦ - الإيمان بالآخرة سبب لكل خير، والكفر بها سبب لكل باطل وشر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٣، ٩٤]

(٩٣) ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: اختلق على الله كذبًا قال عليه ما لم يقل، أو نسب له ما هو منه براء. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾: الوحي: الإعلام السريع الخفي بواسطة الملك وبغيره. ﴿غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾: شدائده عند نزع الروح. ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾: للضرب وإخراج الروح. ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾: أي عذاب الذل والمهانة.

(٩٤) ﴿فُرَادَىٰ﴾: واحدًا واحدًا ليس مع أحدكم مال ولا رجال. ﴿مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾: ما أعطيناكم من مال ومتاع. ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾: أي في دار الدنيا. ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾: أي غاب. ﴿تَزْعُمُونَ﴾: تدعون كاذبين.

معنى الآيات:

(٩٣) ما زال السياق مع المشركين والمفترين الكاذبين على الله تعالى باتخاذ الأنداد والشركاء فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن ادَّعى[(٢)] أن الله نبأه وأنه نبيه ورسوله كما ادعى[(٣)] سعد بن أبي سرح بمكة ومسيلمة[(٤)] في بني حنيفة بنجد والعنسي باليمن: اللهم لا أحد هو أظلم منه، وممن قال أوحي إليّ شيء من عند الله، ولم يوح إليه شيء وممن قال: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الوحي والقرآن، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا رسولنا ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي في شدائد سكرات الموت، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ملك الموت وأعوانه ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ بالضرب وإخراج الروح، وهم يقولون لأولئك المحتضرين تعجيزًا وتعذيبًا لهم: ﴿أَخْرِجُوا[(٥)] أَنفُسَكُمُ[(٦)] الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ بسبب استكباركم[(٧)]

(١) أي: لم يعرفه حق معرفته ولم يعرف جلاله وعظمته ولا رحمته وحكمته فلهذا قال ما قال من الباطل وهو نفيه إنزال الوحي الإلهي على رسوله محمد ﷺ.

(٢) قال القرطبي: ومن هذا النمط أي: المدعي للوحي ولم يوح إليه من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن فيقول: وقع في خاطري كذا أو أخبرني قلبي بكذا أو أخبرني قلبي عن ربي فيحكمون بما وقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوها عن الأغيار فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيستغنون بذلك عن أحكام الشرع ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة وهي زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب.

(٣) ادّعى عبدالله بن سعد الوحي لما كتب لرسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ فأعجبه تفصيل خلق الله تعالى للإنسان قال فتبارك الله أحسن الخالقين. فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت» فشك عبدالله بن سعد حينئذ وارتد ولحق بالمشركين وأسلم عام الفتح وحسن إسلامه بشفاعة عثمان له إذ كان أخًا له من الرضاعة وهو فاتح أفريقيا ودعا ربه أن يموت وهو يصلي فمات في صلاة الصبح.

(٤) كانوا يسمونه رحمان اليمامة والعنسي هو الأسود العنسي ومنهم سجاح امرأة مسيلمة قال ابن عباس وقتادة: نزلت هذه الآية في مسيلمة.

(٥) الغمرة: الشدة وأصلها من غمر الشيء إذا غطاه ومنه غمر الماء.

(٦) يقال لهم هذا توبيخًا لهم وتقريعًا أي: خلصوها من هذا العذاب إن أمكنكم.

(٧) تستكبرون أي: تتعظمون وتأنفون من قول الحق الذي هو توحيد الله تعالى وعبادته بما شرع لعباده المؤمنين.

في الأرض بغير الحق إذ الحامل للعذرة وأصله نطفة قذرة، ونهايته جيفة قذرة، استكباره في الأرض حقًا إنه استكبارٌ باطلٌ لا يصح من فاعله بحال من الأحوال. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٩٣).

(٩٤) أما الآية الثانية (٩٤) فإن الله تعالى يخبر عن حال المشركين المستكبرين يوم القيامة حيث يقول لهم: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ[١]﴾ أي واحدًا واحدًا ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ حفاة عراة غُرْلاً[٢] ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أي ما وهبناكم من مال وولد ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي في دار الدنيا[٣]، ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ وأنتم كاذبون في زعمكم مبطلون في اعتقادكم ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي انحل حبل الولاء بينكم، ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي ما كنتم تكذبون به في الدنيا.

هداية الآيتين:

١ - قبح الكذب على الله تعالى في أي شكل، وأن صاحبه لا أظلم منه قط.

٢ - تقرير عذاب القبر، وسكرات الموت وشدتها، وفي الحديث: أن للموت سكرات.

٣ - قبح الاستكبار وعظم جرمه.

٤ - تقرير عقيدة البعث الآخر والجزاء على الكسب في الدنيا.

٥ - انعدام الشفعاء يوم القيامة إلا ما قضت السنة الصحيحة من شفاعة النبي ﷺ والعلماء والشهداء بشروط هي: أن يأذن الله للشافع أن يشفع وأن يرضى عن المشفوع له.

الجزء السابع — سورة الأنعام

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)﴾

١٤٠

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٥ ـ ٩٩]

(٩٥) ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾: شاق الحب كحب البرّ ليخرج منه الزرع، والنوى واحده نواة وشقها ليخرج منها الفسيلة (النخلة الصغيرة). ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: الدجاجة من البيضة. ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ[٤] مِنَ الْحَيِّ﴾: البيضة من الدجاجة. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: كيف تصرفون عن توحيد الله الذي هذه قدرته إلى عبادة الجمادات.

(٩٦) ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾: الإصباح: بمعنى الصبح وفلقه: شقه ليتفجر منه النور والضياء. ﴿سَكَنًا﴾: يسكن فيه الناس ويخلدون للراحة. ﴿حُسْبَانًا﴾: أي حسابًا بهما تعرف الأوقات: الأيام والليالي والشهور والسنون. ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾: إيجاد وتنظيم العزيز الغالب على أمره العليم بأحوال وأفعال عباده.

(٩٧) ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾: أي ليهتدي بها المسافرون في معرفة طرقهم في البر والبحر.

(٩٨) ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: هي آدم أبو

---

(١) هذا يوم القيامة يوم يحشرون إلى ربهم، وفرادى في موضع نصب على الحال.

(٢) روي أن عائشة رضي الله عنها قرأت قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ..﴾ إلخ. فقالت: يا رسول الله واسوأتاه الرجال والنساء يحشرون جميعًا ينظر بعضهم إلى سوءة بعض؟ فقال رسول الله ﷺ: **«لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شُغل بعضهم عن بعض»**.

(٣) ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: **«يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»**.

(٤) أي: يخرج النطفة الميتة من الحي وهو الإنسان ويخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة.

البشر عليه السلام. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾: أي في الأرحام. ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: أي في أصلاب الرجال. ﴿يَفْقَهُونَ﴾: أسرار الأشياء وعلل الأفعال فيهتدوا لما هو حق وخير.

(٩٩) ﴿خَضِرًا﴾: هو أول ما يخرج من الزرع ويقال له القصيل الأخضر. ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾: أي بعضه فوق بعض وهو ظاهر في السنبلة. طلع النخل: زهرها. ﴿قِنْوَانٌ﴾: واحدة قنو وهو العِذْق وهو العُرجون بلغة أهل المغرب. ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾: في اللون وغير مشتبه في الطعم. ﴿وَيَنْعِهِ﴾: أي نضجه واستوائه.

معنى الآيات:

(٩٥) ما زال السياق في بيان الدليل على وجوب توحيد الله تعالى وبطلان عبادة غيره فقال تعالى واصفًا نفسه بأفعاله العظيمة الحكيمة التي تثبت ربوبيته وتقرر ألوهيته وتبطل ربوبية وألوهية غيره مما زعم المشركون أنها أرباب لهم وآلهة: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ أي هو الذي يفلق الحب ويخرج منه الزرع لا غيره وهو الذي يفلق النوى، ويخرج منه الشجر والنخل لا غيره فهو الإله الحق إذًا وما عداه باطل، وقال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فيخرج الزرع الحيّ من الحب الميت ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ فيخرج الحب من الزرع الحيّ، والنخلة والشجرة من النواة الميتة ثم يقول: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي المستحق للإلهية أي العبادة وحده ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف يا للعجب تصرفون عن عبادته وتأليهه إلى تأليه وعبادة غيره.

(٩٦) ويقول: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ[1]﴾ أي هو الله الذي يفلق ظلام الليل فيخرج منه ضياء النهار ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي ظرف سكن وسكون وراحة تسكن فيه الأحياء من تعب النهار والعمل فيه ليستريحوا، وقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا[2]﴾ أي وجعل الشمس والقمر يدوران في فلكيهما بحساب تقدير لا يقدر عليه إلا هو، وبذلك يعرف الناس الأوقات وما يتوقف عليها من عبادات وأعمال وآجال وحقوق ثم يشير إلى فعله ذلك فيقول: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب على أمره ﴿الْعَلِيمِ﴾ بسائر خلقه وأحوالهم وحاجاتهم، وقد فعل ذلك لأجلهم فكيف إذًا لا يستحق عبادتهم وتأليههم؟ عجبًا لحال بني آدم ما أضلهم؟!

(٩٧) ويقول تعالى في الآية الثالثة (٩٧): ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هذه منة أخرى من منته على الناس ومظهر آخر من مظاهر قدرته حيث جعل لنا النجوم ليهتدي به مسافرونا في البر والبحر حتى لا يضلوا طريقهم فيهلكوا فهي نعمة لا يقدر على الإنعام بها إلا الله، فلمَ إذًا يكفر به ويعبد سواه؟ وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يخبر به تعالى على نعمة أخرى وهي تفصيله تعالى للآيات وإظهارها لينتفع بها العلماء الذين يميزون بنور العلم بين الحق والباطل والضار والنافع.

(٩٨) ويقول في الآية الرابعة (٩٨): ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم﴾ - أي خلقكم - ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي آدم عليه السلام، فبعضكم مستقر في الأرحام[3] وبعضكم مستودع في الأصلاب وهو مظهر من مظاهر إتمامه وقدرته ولطفه وإحسانه، ويختم الآية بقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ لتقوم لهم الحجة على ألوهيته تعالى دون ألوهية ما عداه من سائر المخلوقات لفهمهم أسرار الكلام وعلل الحديث ومغزاه.

(٩٩) ويقول في الآية (٩٩): ﴿وَهُوَ

---

(١) الإِصباح مصدر أصبح يصبح إصباحًا أي: يخرج النور من الظلام إذ نور الفجر يشق ظلمة الليل ويخرج عنها الصبح، والإِصباح أول النهار ويجمع الإِصباح على أصباح بفتح الهمزة وقرىء به.

(٢) حسبانًا أي: بحساب يتعلق به مصالح العباد، والحسبان جمع حساب مثل شهاب وشهبان أي: جعل الله سير الشمس والقمر بحساب ولا يزيد ولا ينقص ويطلق الحسبان على النار كما في قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: نارًا.

(٣) قال عبدالله بن مسعود: لها مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها وهذا على قراءة مستقر بفتح القاف بمعنى لها مستقر وأكثر المفسرين على ما جاء في التفسير أن المستقر ما كان في الرحم والمستودع ما كان في الصلب قال سعيد بن جبير قال لي ابن عباس: هل تزوجت؟ فقلت: لا. قال: فإن الله عز وجل يستخرج من ظهرك ما استودعه فيه. أما قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فالمستقر هو القبر مودع فيه الإنسان إلى يوم القيامة.

ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو ماء المطر، ويقول: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي ينبت أي قابل للإنبات من سائر الزروع والنباتات، ويقول فأخرجنا من ذلك النبات خضرًا[(١)] وهو القصيل للقمح والشعير، ومن الخضر[(٢)] يخرج حبًا متراكبًا في سنابله، ويقول عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي ويخرج بإذن الله تعالى من طلع النخل قنوان جمع قنو العذق دانية متدلية وقريبة لا يتكلّف مشقة كبيرة من أراد جنيها والحصول عليها[(٣)]، وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ يقول: وأخرجنا به بساتين من نخيل وأعناب، وأخرجنا به كذلك الزيتون والرمان حال كونه مشتبهًا في اللون وغير متشابه في الطعم، كلوا من ثمره إذا أثمر وينعه ينبت لديكم ذلك التشابه وعدمه، وختم الآية بقوله: إن في ذلكم المذكور كله ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ علامات ظاهرات تدل على وجوب ألوهية الله تعالى وبطلان ألوهية غيره ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم أحياء يفعلون ويفكرون ويفهمون أما غيرهم من أهل الكفر فهم أموات القلوب لما ران عليها من أوضار الشرك والمعاصي فهم لا يعقلون ولا يفقهون فأنى لهم أن يجدوا في تلك الآيات ما يدلهم على توحيد الله عز وجل؟

هداية الآيات:

١ - الله خالق كل شيء فهو رب كل شيء ولذا وجب أن يؤله وحده دون ما سواه.

٢ - تقرير قدرة الله على كل شيء وعلمه بكل شيء وحكمته في كل شيء.

٣ - فائدة خلق النجوم وهي الاهتداء بها في السير في الليل في البر والبحر.

٤ - يتم إدراك ظواهر الأمور وبواطنها بالعقل.

٥ - يتم إدراك أسرار الأشياء بالفقه.

٦ - الإيمان بمثابة الحياة، والكفر بمثابة الموت في إدراك الأمور.

الجزءُ السابع — سورةُ الأنعام

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

١٤١

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٠ - ١٠٣]

(١٠٠) ﴿شُرَكَآءَ﴾: جمع شريك في عبادته تعالى. ﴿ٱلْجِنَّ﴾: عالم كعالم الإنس إلا أنهم أجسام خفية لا ترى لنا إلا إذا تشكلت بما يُرى. ﴿وَخَرَقُوا۟﴾: اختلقوا وافتاتوا. ﴿يَصِفُونَ﴾: من صفات العجز بنسبة الولد والشريك إليه.

(١٠١) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مبدع خلقهما حيث أوجدهما على غير مثال سابق. ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾: أي كيف يكون له ولد؟ كما يقول المبطلون. ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾: أي زوجة.

(١٠٣) ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: لا تراه في الدنيا، ولا تحيط به في الآخرة. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾: أي محيط علمه بها. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾: الذي ينفذ علمه إلى بواطن الأمور وخفايا الأسرار فلا يحجبه شيء.

معنى الآيات:

(١٠٠) لقد جاء في الآيات السابقة من الأدلة والبراهين العقلية ما يبهر العقول ويذللها لقبول التوحيد، وأنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه، ولكن مع هذا فقد جعل الجاهلون لله من

(١) خضر بمعنى أخضر كمطرة بمعنى ماطرة ومنه قولهم: أرنها نمرة أركها مطرة أي: أرني سحابة كأنها نمرة في شكلها أركها ماطرة يتصبب منها الماء الغزير.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنه يريد القمح والشعير والسلت والذرة والأرز وسائر الحبوب.

(٣) هذا قصار النخل إذ يجنى ثمارها لمدة عشر سنوات والمرء يتناول منها بيديه وهو واقف عندها وبعد ذلك ترتفع وتطول فيرقى إليها.

الجن شركاء فأطاعوهم فيما زينوا لهم من عبادة الأصنام والأوثان، وهذا ما أخبر به تعالى في هذه الآية الكريمة (١٠٠) إذ قال ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ[١] وَخَلَقَهُمْ[٢] وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ومعنى الآية وجعل العادلون بربهم الأصنام والجن شركاء لله في عبادته، وذلك بطاعتهم فيما زينوا لهم من عبادة الأصنام، والحال أنه قد خلقهم فالكل مخلوق له العابد والمعبود من الجن والأصنام، وزادوا في ضلالهم شوطًا آخر حيث اختلقوا له البنين والبنات وهذا كله من تزيين الشياطين لهم وإلا فأي معنى في أن يكون لخالق العالم كله بما فيه الإنس والجن والملائكة أبناء وبنات. هذا ما عناه تعالى بقوله: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فنزه الرب تبارك وتعالى نفسه عما وصفوه به كذبًا بحتًا وتخرصًا كاملاً من أن له بنين وبنات وليس لهم على ذلك أي دليل علمي لا عقلي ولا نقلي، وقد شارك في هذا الباطل العرب المشركون حيث قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود حيث قالوا عزير ابن الله، والنصارى إذ قالوا المسيح ابن الله، تعالى الله عما يقول المبطلون. هذا ما تضمنته الآية الأولى.

(١٠١) أما الآية الثانية (١٠١) فقد تضمنت إقامة الدليل الذي لا يرد على بطلان هذه الفرية المنكرة فرية نسبة الولد لله سبحانه وتعالى، فقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما على غير مثال سابق ﴿أَنَّى[٣] يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ أي يا للعجب كيف يكون لله ولد ولم تكن له زوجة إذ التوالد يكون بين ذكر وأنثى لحاجة إليه لحفظ النوع وكثرة النسل لعمارة الأرض بل ولعبادة الرب تعالى بذكره وشكره، أما الرب تعالى فهو خالق كل شيء ورب كل شيء فأي معنى لاتخاذ ولد له، لولا تزيين الشياطين للباطل حتى يقبله أولياؤهم من الإنس، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ دليل آخر على بطلان ما خرق أولئك الحمقى لله من ولد، إذ لو كان لله ولد لعلمه وكيف لا، وهو بكل شيء عليم. هذا ما دلت عليه الآية الثانية.

(١٠٢) أما الثالثة (١٠٢) وهي قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ[٤]﴾ أي ذلكم الله الذي هو بديع السموات والأرض والخالق لكل شيء والعليم بكل شيء هو ربكم الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ولا تشركوا به سواه. وإنه لكفيل برزقكم وحفظكم ومجازاتكم على أعمالكم وهو على كل شيء قدير.

(١٠٣) والآية الأخيرة في السياق الكريم (١٠٣) يقرر تعالى حقيقة كبرى وهي أن الله تعالى مباين لخلقه في ذاته وصفاته ليس كمثله شيء فكيف يشرك به وكيف يكون له ولد، وهو لا تدركه الأبصار[٥] وهو يدركها وهو اللطيف[٦] الذي ينفذ علمه وقدرته في كل ذرات الكون

---

(١) صور اتخاذهم الجن شركاء ثلاث: الأولى: أنهم أطاعوا الجن فجعلوهم بطاعتهم لهم شركاء لله إذ المطاع الحق هو الله تعالى. والثانية: قولهم: الملائكة بنات الله مع عبادتهم لهم فذلك معنى جعلوا لله شركاء الجن لأن الملائكة لا يرون كالجن قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ فسمى الملائكة جنًا لاجتنابهم واستتارهم عن عيون الناس والثالثة: أن الزنادقة قالوا: الله خالق الماء والنور والدواب والأنعام وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ يصح عود الضمير فيه على العادلين كما في التفسير ويصح عوده على الجن الذين اتخذوهم شركاء لله يعبدونهم معه.

(٣) أي: من أين يكون له ولد والولد لا يكون إلاّ من صاحبة أي: زوجة.

(٤) هذا أكبر برهان على بطلان نسبة الولد له تعالى إذ كل شيء خلقه فهل من خلق شيئًا يقال لمن خلقه ولده؟ لو صح هذا لقالوا: لكل من صنع شيئًا هو أبوه والمصنوع ولده ولا قائل بهذا البتة.

(٥) لا تدركه الأبصار بمعنى لا تحيط به ولذا يراه أولياؤه في الجنة رؤية بصرية فينظرون إلى وجهه الكريم وأما رؤيته تعالى فمتعذرة في الحياة الدنيا إذ طلبها موسى ولم ينلها لعجز الإنسان عن رؤية الله تعالى بهذه الأبصار المحدودة القدرة والطاقة.

(٦) روي في الصحيحين ما يفيد تعذر رؤية الله في الدنيا لضعف الإنسان فقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**=

علويِّه وسفليِّه الخبير بكل خلقه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وهو العزيز الحكيم.

هداية الآيات:

١ - أن من الإنس من عبد الجن بطاعتهم وقبول ما يأمرونهم به ويزينونه لهم.

٢ - تنزه الرب تعالى عن الشريك والصاحبة والولد.

٣ - مباينة الرب تبارك وتعالى لخلقه.

٤ - استحالة رؤية الرب في الدنيا[1]، وجوازها في الآخرة لأوليائه في دار كرامته.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٤ - ١٠٧]

(١٠٤) ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾: البصائر جمع بصيرة: والمراد بها هنا الآيات المعرفة بالحق المثبتة له بطريق الحجج العقلية فهي في قوة العين المبصرة لصاحبها. ﴿بِحَفِيظٖ﴾: وكيل مسؤول.

(١٠٥) ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾: نجريها في مجارٍ مختلفة تبيانًا للحق وتوضيحًا للهدى المطلوب. ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾: أي تعلمت وقرأت لا وحيًا أوحي إليك.

(١٠٦) ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: أي لا تلتفت إليهم وامضِ في طريق دعوتك.

(١٠٧) ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾: أي لو شاء أن يحول بينهم وبين الشرك حتى لا يشركوا لَفَعَلَ وما أشركوا.

معنى الآيات:

(١٠٤) ما زال السياق في طلب هداية المشركين وبيان الطريق لهم ففي هذه الآية يقول: ﴿قَدۡ جَآءَكُم﴾ أي أيها الناس ﴿بَصَآئِرُ[2] مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ وهي آيات القرآن الموضحة لطريق النجاة ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ﴾ بها وهي كالعين المبصرة ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ إبصاره إذ هو الذي ينجو ويسعد ﴿وَمَنۡ عَمِيَ﴾ فلم يبصر فعلى نفسه عماه إذ هي التي تهلك وتشقى وقل لهم يا رسولنا ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ أي بوكيل مسؤول عن هدايتكم.

(١٠٥) وفي الآية الثانية (١٠٥) يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ[3] نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي بنحو ما صرفناها من قبل في هذا القرآن نصرفها كذلك لهداية مريدي الهداية والراغبين[4] فيها أما غيرهم فسيقولون درست[5] وتعلمت من غيرك حتى يحرموا الإيمان بك وبرسالتك والعياذ بالله تعالى.

(١٠٦) وفي الآية الثالثة (١٠٦) يأمر الله تعالى رسوله ﷺ باتباع ما يوحى إليه من الحق والهدى، والإعراض عن المشركين المعاندين الذين يقولون درست حتى لا يأخذوا بما أتيتهم به ودعوتهم إليه من آيات القرآن الكريم إذ قال تعالى له: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝﴾[6].

(١٠٧) وفي الآية الرابعة (١٠٧) يسلي الرب تعالى رسوله ﷺ ويخفف عنه آلام إعراض المشركين عن دعوته ومحاربته فيها فيقول له: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾[7] أي لو يشاء الله عدم إشراكهم لما قدروا على أن يشركوا إذًا فلا تحزن عليهم، هذا

= يخفض السقط ويرفعه، يرفع الله عمل النهار قبل الليل، وعمل الليل قبل النهار حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

(١) وفسر اللطيف بالرفيق بعباده واللطيف من أسماء الله تعالى. ولذا هو يلطف بعباده، كما هو للطفه لا يدرك بالكيفية، واللطيف في الأجسام الذي يدخل في كل شيء.

(٢) قد جاءكم بصائر أي: حجج وبينات ووصفها بالمجيء لتضخيم شأنها وإكباره.

(٣) كذلك الكاف في محل نصب أي: مثل أي: نصرف الآيات مثل ذلك التصريف.

(٤) وهم المذكورون في الآية ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

(٥) قرىء: ﴿دارست﴾ أي: ذاكرت أهل الكتاب وتعلمت عنهم ولم يوح إليك شيء واللام في قوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ هي لام العاقبة كما يقال: كتب فلان هذا الكتاب لحتفه، وفي القرآن ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾.

(٦) هذا منسوخ بآية الجهاد.

(٧) في الآية دليل على إبطال مذهب القدرية وهم نفاة القدر والزاعمون أن أفعال العباد لم تقدر عليهم وإنما هم الخالقون لَها بدون إذن الله وإرادته.

أولاً، وثانياً ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تراقبهم وتحصي عليهم أعمالهم وتجازيهم بها، وما أرسلناك عليهم وكيلاً تتولى هدايتهم بما فوق طاقتك ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد بلغت إذًا فلا أسى ولا أسف!!

هداية الآيات:

١ - آيات القرآن بصائر من يأخذ بها يبصر طريق الرشاد وينجو ويسعد.

٢ - ينتفع بتصريف الآيات وما تحمله من هدايات العالمون لا الجاهلون وذلك لقوله تعالى في الآية الثانية (١٠٥): ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

٣ - بيان الحكمة في تصريف الآيات وهي هداية من شاء الله هدايته.

٤ - وجوب اتباع الوحي المتمثل في الكتاب والسنة النبوية.

٥ - بيان بطلان مذهب القدرية «نفاة القدر».

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٨ ـ ١١٠]

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟﴾: ولا تشتموا آلهة المشركين حتى لا يسبوا الله تعالى.
﴿عَدْوًۢا﴾: ظلماً. ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾: حسناه لهم خيرًا كان أو شرًا حتى فعلوه.

(١٠٩) ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي غاية اجتهادهم في حلفهم بالله. ﴿ءَايَةٌ﴾: معجزة كإحياء الموتى ونحوها. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾: وما يدريكم.

(١١٠) ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾: نتركهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾: حيارى يترددون.

معنى الآيات:

(١٠٨) عندما ظهر رسول الله ﷺ وأصبح يصدع بالدعوة جهرًا بعدما كانت سرًا أخذ بعض أصحابه يسبون أوثان المشركين، فغضب لذلك المشركون وأخذوا يسبون الله تعالى إله المؤمنين وربهم فنهاهم تعالى عن ذلك أي عن سب آلهة المشركين بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تسبوا آلهتهم ﴿فَيَسُبُّوا۟[1] ٱللَّهَ عَدْوًۢا[2]﴾ أي ظلماً واعتداء بغير علم، إذ لو علموا جلال الله وكماله لما سبوه، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ بيان منه تعالى لسنته في خلقه وهي أن المرء إذا أحب شيئًا ورغب فيه وواصل ذلك الحب وتلك الرغبة يصبح زينًا له ولو كان في الواقع شينًا. ويراه حسنًا وإن كان في حقيقة الأمر قبيحًا، ومن هنا كان دفاع المشركين عن آلهتهم الباطلة من هذا الباب فلذا لم يرضوا أن تسب لهم وهددوا الرسول ﷺ والمؤمنين بأنهم لو سبوا آلهتهم لسبوا لهم إلههم وهو الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يخبر تعالى أن مرجع الناس المزين لهم أعمالهم خيرها وشرها ورجوعهم بعد نهاية حياتهم إلى الله ربهم فيخبرهم بأعمالهم ويطلعهم عليها ويجزيهم بها الخير بالخير والشر بالشر. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٠٨) وأما الآيتان الثانية (١٠٩) والثالثة (١١٠) فقد أخبر تعالى أن المشركين أقسموا[3] بالله أبلغ أيمانهم وأقصاها أنهم إذا جاءتهم آية كتحويل جبل الصفا إلى ذهب آمنوا عن آخرهم بنبوة محمد ﷺ ورسالته واتبعوه على دينه الذي جاء به، قال هذا رؤساء المشركين، والله يعلم أنهم إذا جاءتهم الآية لا يؤمنون، فأمر رسوله ﷺ أن يرد عليهم قائلاً:

(١٠٩) ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو الذي يأتي بها إن شاء أما أنا فلا أملك ذلك. إلا أن المؤمنين من أصحاب الرسول ﷺ رغبوا في مجيء الآية حتى يؤمن المشركون وينتهي الصراع الدائر بين الفريقين فقال تعالى لهم: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾[4]

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت كفار قريش لأبي طالب: إما أن تنهى محمدًا وأصحابه عن سب آلهتنا والغضّ عنها وإما أن نسب إلٰهه ونهجوه. فنزلت الآية وهذا الحكم باق إلى نهاية الحياة فإن كان سب المؤمن الكافر يؤدي إلى سب الله تعالى أو رسوله فلا يحل للمؤمن أن يسب الكافر أو دينه.

(٢) وقرىء: ﴿عُدوا﴾ بضم العين والدال ومعنى القراءتين واحد وهو الجهل والاعتداء الذي هو الظلم.

(٣) كان المشركون يحلفون بآلهتهم، وإذا حلفوا بالله كان ذلك أقصى أيمانهم وأشدها. وهنا مسألة لو قال المرء الأيمان تلزمه ثم حنث فإن عليه إطعام ثلاثين مسكينًا لأن أقل الجمع ثلاثة، وإن لم يكن له مال صام تسعة أيام.

(٤) الإشعار مصدر أشعره إذا أعلمه بأمر من شأنه أن يخفى ويدق.

أيها المؤمنون ﴿أَنَّهَآ[١] إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وما يدريكم أن الآية لو جاءت لا يؤمن بها المشركون؟ وبين علة عدم إيمانهم فقال:

(١١٠) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ فلا تعي ولا تفهم ﴿وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ فلا ترى ولا تبصر. فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة لما دعوا إلى الإيمان به ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ونتركهم في شركهم وظلمهم حيارى يترددون لا يعرفون الحق من الباطل ولا الهداية من الضلال.

هداية الآيات:

١ - حرمة قول أو فعل ما يتسبب[٢] عنه سب الله ورسوله ﷺ.

٢ - بيان سنة الله في تزيين الأعمال لأصحابها خيرًا كانت أو شرًا.

٣ - بيان أن الهداية بيد الله تعالى وأن المعجزات قد لا يؤمن عليها من شاهدها.

الجزء الثامن

الجزء الثامن — سورة الأنعام

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾

١٤٢

شرح الكلمات:

[الآية: ١١١ - ١١٣]

(١١١) ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾: أجسام نورانية يعمرون السموات عباد مكرمون لا يعصون الله تعالى ويفعلون ما يؤمرون لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: جمع ميت: من فارقته الحياة أي خرجت منه روحه.

﴿وَحَشَرْنَا﴾: جمعنا.

﴿قُبُلًا﴾: معاينة.

﴿يَجْهَلُونَ﴾: عظمة الله وقدرته وتدبيره وحكمته.

(١١٢) ﴿شَيَـٰطِينَ﴾: جمع شيطان: وهو من خبث وتمرد من الجن والإنس. ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ﴾: يعلم بطريق سريع خفي بعضهم بعضًا. ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾: الكذب المحسن والمزين. ﴿غُرُورًا﴾: للتغرير بالإنسان.

﴿يَفْتَرُونَ﴾: يكذبون.

(١١٣) ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾: تميل إليه.

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾: وليرتكبوا الذنوب والمعاصي.

معنى الآيات:

(١١١) ما زال السياق في أولئك العادلين بربهم المطالبين بالآيات الكونية ليؤمنوا إذا شاهدوها فأخبر تعالى في هذه الآيات أنه لو نزل إليهم الملائكة من السماء[٣]، وأحيى لهم الموتى فكلموهم وقالوا لهم لا إله إلا الله محمد رسول الله، وحشر عليهم كل شيء[٤] أمامهم يعاينونه معاينة أو تأتيهم لمخلوقات قبيلًا بعد قبيل وهم يشاهدونهم ويقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، ما كانوا ليؤمنوا بك ويصدقوك ويؤمنوا بما جئت به إلا أن يشاء الله[٥] ذلك منهم. ولكن أكثر أولئك العادلين بربهم الأصنام والأوثان يجهلون أن الهداية بيد الله تعالى وليست بأيديهم كما يزعمون وأنهم لو رأوا الآيات آمنوا.

(١١٢) هذا ما دلت عليه الآية (١١١) أما الآية الثانية (١١٢) فإن الله تعالى يقول وكما كان لك يا رسولنا من

---

(١) قرئت: ﴿إنها﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف فيكون الكلام قد انتهى عند قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ويكون المعنى وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت ثم قال: إنها إذا جاءت لا يؤمنون. فذكر علة عدم إيمانهم بقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾.

(٢) في هذا دليل الموادعة والأخذ بمبدأ سد الذرائع.

(٣) فرأوهم عيانًا.

(٤) أي: شيئًا سألوه وطلبوه.

(٥) الاستثناء منفصل فهو بمعنى لكن إن شاء الله إيمانهم آمنوا والآية تحمل التسلية والعزاء له ﷺ.

هؤلاء العادلين أعداء يجادلونك ويحاربونك جعلنا لكل نبي أرسلناه أعداء يجادلونه ويحاربونه ﴿شَيَٰطِينَ[1] ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى[2] بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي القول المزين بالباطل المحسن بالكذب ﴿غُرُورًا﴾ أي للتغرير والتضليل، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ أيها الرسول عدم فعل ذلك الإيحاء والوسواس ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ إذًا ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي اتركهم ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ من الكفر والكذب والباطل.

(١١٣) هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الآية الثالثة (١١٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ هذه الآية بجملها الأربع معطوفة على قوله: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ إذ إيحاء شياطين الجن والإنس[3] كان للغرور أي ليغتر به المشركون، ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي تميل ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وهم المشركون العادلون بربهم ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ ويقتنعوا به لأنه مموه لهم مزين، ونتيجة لذلك التغرير والميل إليه وهو باطل والرضا به والإقناع بفائدته فهم يقترفون من أنواع الكفر وضروب الشرك والمعاصي والإجرام ما يقترفون!.

هداية الآيات:

١ - ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أبدًا، وبهذا تقررت ربوبيته وألوهيته للأولين والآخرين.

٢ - تسلية الرسول ﷺ وكل داع إلى الله تعالى بإعلامه أنه ما من نبي ولا داع إلا وله أعداء من الجن والإنس يحاربونه حتى ينصره الله عليهم.

٣ - التحذير من التمويه والتغرير فإن أمضى سلاح للشياطين هو التزيين والتغرير.

٤ - القلوب الفارغة من الإيمان بالله ووعده ووعيده في الدار الآخرة أكثر القلوب ميلًا إلى الباطل والشر والفساد.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٤ ـ ١١٧]

(١١٤) ﴿أَبْتَغِى﴾: أطلب. ﴿حَكَمًا﴾: الحكم: الحاكم ومن يتحاكم إليه الناس. ﴿أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي أنزله لأجلكم لتهتدوا به فتكملوا عليه وتسعدوا. ﴿مُفَصَّلًا﴾: مبينا لا خفاء فيه ولا غموض. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي علماء اليهود والنصارى. ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: الشاكين، إذ الامتراء الشك.

(١١٥) ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: صدقًا في الأخبار فكل ما أخبر به القرآن هو صدق، وعدلاً في الأحكام فليس في القرآن حكم جور وظلم أبدًا بل كل أحكامه عادلة. ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: أي لا مغير لها لا بالزيادة والنقصان، ولا بالتقديم والتأخير. ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: السميع لأقوال العباد العليم بأعمالهم ونياتهم وسيجزيهم بذلك.

(١١٦) ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الإسلام إذ هو المفضي بالمسلم إلى رضوان الله تعالى والكرامة في جواره. ﴿يَخْرُصُونَ﴾: يكذبون الكذب الناتج عن الحزر والتخمين.

(١١٧) ﴿مَن يَضِلُّ﴾: بمن يضل. ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾: في سيرهم إلى رضوان الله باتباع الإسلام الذي هو سبيل الله.

معنى الآيات:

(١١٤) ما زال السياق مع العادلين بربهم الأصنام والأوثان لقد كان المراد في طلبهم الآية الحكم بها

---

(١) شياطين الإنس والجن بدل من قوله: عدوًا ويصح أن يكون نعتًا أيضًا.

(٢) يوحي بمعنى يلقي إليه الباطل المزين بطريق الوسواس فيفهم عنه، إذ الإيحاء: الإعلام السريع الخفي وشاهده من السنة قوله ﷺ: **«ما منكم من أحد إلاّ قد وكل به قرينه من الجن»**، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلاّ أن الله أعانني عليه فأسلم»**.

(٣) روي عن مالك بن دينار أنه قال: شياطين الإنس أشد من شياطين الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن وشيطان الإنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عيانًا. ويشهد لهذا ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع امرأة تنشد:

إن النساء رياحين خلقن لكم ... وكلكم يشتهي شم الرياحين

فأجابها عمر رضي الله عنه قائلاً:

إن النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

١٤٣

على صحة دعوة النبي ﷺ أنه نبي الله وأن القرآن كلام الله وأنه لا إله إلا الله، ولم يكن هذا منهم إلا من قبيل ما توسوس به الشياطين لهم وتزينه لهم تغريرًا بهم وليواصلوا ذنوبهم فلا يؤمنون ولا يتوبون، ومن هنا أنزل تعالى قوله: ﴿أَفَغَيْرَ[1] ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾. وهو تعليم لرسول الله ﷺ أن يقوله للمشركين أأميل إلى باطلكم وأقتنع به فغير الله أطلب حكمًا بيني وبينكم في دعواكم أني غير رسول وأن ما جئت به ليس وحيًا من الله؟ ينكر ﷺ تحكيم غير ربه تعالى وعلى ماذا يكون الحكم والله هو الذي أنزل إليهم الكتاب مفصلاً فأي آية تغلب القرآن وهو آلاف الآيات هذا أولاً.

﴿١١٥﴾ وثانيًا أهل الكتاب من قبلهم وهم علماء اليهود والنصارى مقرون ومعترفون بأن ما ينفيه المشركون هو حق لا مرية فيه إذًا فامض أيها الرسول في طريق دعوتك ولا تكونن من الممترين فإنك عما قريب تظهر على المشركين، لقد تمت كلمة[2] ربك أي في هذا القرآن الذي أوحي إليك صدقًا في كل ما تحمله من أخبار ومن ذلك نصرك وهزيمة أعدائك، وعدلاً في أحكامها التي تحملها، ولا يستطيع أحد تبديلها[3] بتغيير لها بإخلاف وعدٍ ولا بإبطال حكم، وربك هو السميع لأقوال عباده العليم بمقاصدهم وأفعالهم فما أقدره وأضعفهم فلذا لن يكون إلا مراده ويبطل جميع إراداتهم.

﴿١١٧﴾ واعلم يا رسولنا أنك ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لو أنك تسمع لهم وتأخذ بآرائهم وتستجيب لاقتراحاتهم لأضلوك قطعًا عن سبيل الله، والعلة أن أكثرهم لا بصيرة له ولا علم حق لديه وكل ما يقولونه هو هوى نفس، ووسواس شيطان. إنهم ما يتبعون إلا أقوال الظن وما هم فيما يقولون إلا خارصون[4] كاذبون. وحسبك علم ربك بهم فإنه تعالى هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.

هداية الآيات:

١ ـ حرمة وبطلان التحاكم إلى غير الوحي الإلهي.

٢ ـ تقرير صحة الدعوة الإسلامية بأمرين الأول: القرآن الكريم، الثاني: شهادة أهل الكتاب ممن أسلموا كعبدالله بن سلام القرظي وأصحمة النجاشي وغيرهم.

٣ ـ ميزة القرآن الكريم: أن أخباره كلها صدق وأحكامه كلها عدل.

٤ ـ وعود الله تعالى لا تتخلف أبدًا، ولا تتبدل بتقديم ولا تأخير.

٥ ـ اتباع أكثر الناس يؤدي إلى الضلال فلذا لا يتبع إلا أهل العلم الراسخون فيه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٨ ـ ١٢١]

﴿١١٨﴾ ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾: أي قيل عند ذبحه أو نحره بسم الله والله أكبر.

---

(١) أفغير منصوب بأبتغي أي: أبتغي غير الله؟ وكلما منصوب على الحال أو التمييز المبين لمبهم الابتغاء.

(٢) قرأ أهل الكوفة: كلمة بالإفراد وقرأها الباقون بالجمع: كلمات، قال ابن عباس رضي الله عنه في كلمات ربك: هي مواعيده تعالى.

(٣) كما لا يستطيع أحد تبديل كلماتها وحروفها في القرآن الكريم كما بدلت التوراة والإنجيل بتحريف الكلمات وتغييرها.

(٤) من هذا قيل لمن يقدر كميه التمر في النخل خرّاص لأنه يقول بدون علم يقيني ـ وإنما بالحدس والتخمين وإجازة الشارع للضرورة إليه.

(١١٩) ﴿فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾: أي بيّن لكم ما حرّم عليكم مما أحلّ لكم وذلك في سورة النحل. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾: أي ألجأتكم الضرورة وهي خوف الضرر من الجوع. ﴿بِالْمُعْتَدِينَ﴾: المتجاوزين الحلال إلى الحرام، والحق إلى الباطل.

(١٢٠) ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾: اتركوا: الإثم الظاهر والباطن وهو كل ضار فاسد قبيح. ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾: يكسبون الآثام والذنوب.

(١٢١) ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾: أي الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه. فسق عن طاعة الله تعالى. ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾: أي من الإنس ليخاصموكم في ترك الأكل من الميتة. ﴿لَمُشْرِكُونَ﴾: حيث أحلوا لكم ما حرم عليكم فاعتقدتم حله فكنتم بذلك عابديهم وعبادة غير الله تعالى شرك.

معنى الآيات:

(١١٨) مما أوحى به شياطين الجن إلى إخوانهم من شياطين الإنس أن قالوا للرسول ﷺ والمؤمنين: كيف تأكلون ما تقتلونه أنتم وتمتنعون عن أكل ما يقتله الله؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

(١١٩) فأمر المؤمنين بعدم الاستجابة لما يقوله المشركون، وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ[2] أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: أي شيء يمنعكم من الأكل مما ذكر اسم الله عليه؟ ﴿وَقَدْ فَصَّلَ[3] لَكُم﴾ أي بيّن لكم غاية التبيين ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ من المطاعم ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي ألجأتكم الضرورة إليه كمن خاف على نفسه الهلاك من شدة الجوع فإنه يأكل مما حرم في حال الاختيار. ثم أعلمهم أن كثيرًا من الناس يضلون غيرهم بأهوائهم[4] بغير علم فيُحِلُّون ويحرمون بدون علم وهم في ذلك ظلمة معتدون لأن التحريم والتحليل من حق الرب تعالى لا من حق أي أحد من الناس وتوعدهم بما دل عليه قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ ولازمه أنه سيجازيهم باعتدائهم وظلمهم بما يستحقون من العذاب على اعتدائهم على حق الله تعالى في التشريع بالتحليل والتحريم.

(١٢٠) وقوله تعالى في الآية الثالثة: (١٢٠): ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ يأمر تعالى عباده بترك ظاهر الإثم كالزنى العلني وسائر المعاصي، وباطن الإثم كالزنى السري وسائر الذنوب الخفية وهو شامل لأعمال القلوب وهي باطنة وأعمال الجوارح وهي ظاهرة، لأن الإثم كل ضار فاسد قبيح كالشرك، والزنى وغيرهما من سائر المحرمات.

(١٢١) ثم توعد الذين لا يمتثلون أمره تعالى بترك ظاهر الإثم وباطنه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي سيجزيهم يوم القيامة بما اكتسبوه من الذنوب والآثام ولا ينجو إلا من تاب منهم وصحّت توبته، وفي الآية الأخيرة في هذا السياق (١٢١) يقول تعالى ناهيًا عباده عن الأكل مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه من ذبائح المشركين والمجوس فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا[5] مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ[6]﴾ وأخبر أن الأكل مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه وهو ذبائح المشركين والمجوس فسق خروج عن طاعة الرب تعالى وهو مقتضٍ للكفر لما فيه من الرضا بذكر اسم الآلهة التي تعبد من دون الله تعالى، ثم أخبرهم تعالى بأن الشياطين وهم

---

(١) هذه الآية نص في مشروعية التسمية عند الذبح وعند الأكل والشرب.

(٢) أي: ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه ربكم وإن قتلتموه بأيديكم؟

(٣) بيّن تعالى ذلك في آخر سورة النحل المكية وأما البيان التام فهو في سورة المائدة المتأخرة في النزول عن النحل والأنعام معًا.

(٤) إذ قال المشركون للرسول ﷺ والمؤمنين: ما ذبح الله بسكينه خير مما ذبحتم أنتم بسكاكينكم.

(٥) روى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: خاصمهم المشركون فقالوا: ما ذبح الله فلا تأكلوه، وما ذبحتم أنتم أكلتموه فقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

(٦) إن هذا اللفظ الوارد على سبب معين لا يمنع العموم إذ القاعدة الأصولية أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن هنا تعين معرفة ما يلي: أولاً: وجوب التسمية عند الذبح والنحر. ثانيًا: إن ترك المسلم التسمية سهوًا أكلت ذبيحته، ثالثًا: إن تركها عمدًا لم تأكل ذبيحته، رابعًا: قال بعض الفقهاء ترك المسلم التسمية عمدًا لا يحرم ذبيحته إلاّ أن يكون تركها مستخفًا بها.

المردة من الجن يوحون إلى الأخباث من الإنس من أوليائهم الذين استجابوا لهم في عبادة الأوثان يوحون إليهم بمثل قولهم: كيف تحرمون ما قتل الله وتحلون ما قتلتم أنتم؟ ليجادلوكم بذلك، ويحذر تعالى المؤمنين من طاعتهم وقبول وسواسهم فيقول: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فأكلتم ذبائحهم أو تركتم أكل ما ذبحتم أنتم وقد ذكرتم عليه اسم الله، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ[1]﴾ لأنكم استجبتم لما تأمر به الشياطين تاركين ما يأمر به رب العالمين.

هداية الآيات:

١ - حِلُّ الأكل من ذبائح المسلمين.

٢ - وجوب ذكر اسم الله على بهيمة الأنعام عند تذكيتها.

٣ - حرمة اتباع الأهواء ووجوب اتباع العلماء.

٤ - وجوب ترك الإثم ظاهرًا كان أو باطنًا وسواء كان من أعمال القلوب أو أعمال الجوارح.

٥ - حرمة الأكل من ذبائح المشركين والمجوس والملاحدة البلاشفة الشيوعيين.

٦ - اعتقاد حل طاعة الشياطين شرك والعياذ بالله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٢ - ١٢٤]

(١٢٢) ﴿مَيْتًا﴾: الميت فاقد الروح، والمراد روح الإيمان. ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾: جعلناه حيًا بروح الإيمان. ﴿مَّثَلُهُ﴾: صفته ونعته امرؤ في الظلمات ليس بخارج منها.

(١٢٣) ﴿قَرْيَةٍ﴾: مدينة كبيرة. ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾: بفعل المنكرات والدعوة إلى ارتكابها بأسلوب الخديعة والاحتيال. ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾: لأن عاقبة المكر تعود على الماكر نفسه لآية ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾: أي من القرآن الكريم تدعوهم إلى الحق. ﴿صَغَارٌ﴾: الصغار: الذل والهوان.

معنى الآيات:

(١٢٢) ما زال السياق الكريم في حرب العادلين بربهم الأصنام الذين يزين لهم الشيطان تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم فقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي إطاعة هذا العبد الذي كان ميتًا بالشرك والكفر فأحييناه بالإيمان والتوحيد وهو عمر بن الخطاب أو عمار بن ياسر كطاعة من مثله رجل في الظلمات ظلمات الشرك والكفر والمعاصي ليس بخارج من تلك الظلمات وهو أبو جهل[2] والجواب لا، إذًا كيف أطاع المشركون أبا جهل وعصوا عمر رضي الله عنه والجواب: أن الكافرين لظلمة نفوسهم واتباع أهوائهم لا عقول لهم زُين لهم عملهم الباطل حسب سنة الله تعالى في أن من أحب شيئًا وغالى في حبه على غير هدى ولا بصيرة يصبح في نظره زينًا وهو شين وحسنًا وهو قبيح، فلذا قال تعالى:

(١٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا[3] لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ فيهلكوا أيضًا. وقوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ هو كما قال: قوله الحق وله الملك، فالماكر من أكابر المجرمين حيث أفسدوا عقائد الناس وأخلاقهم وصرفوهم عن الهدى بزخرف القول والاحتيال والخداع، هم في الواقع يمكرون بأنفسهم إذ سوف تحل بهم العقوبة في الدنيا وفي الآخرة، إذ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ولكنهم

---

(١) الآية دليل على أن من استحل شيئًا مما حرم الله تعالى صار به مشركًا وقد حرَّم الله سبحانه الميتة نصًا فإذا قبل تحليلها من غيره فقد أشرك. وقال ابن العربي إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركًا - إذا أطاعه في الاعتقاد. أما إن أطاعه في الفعل وعقيدته سليمة مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص غير كافر.

(٢) الآية عامة في كل كافر ومؤمن والموت قد يطلق أيضًا على الجهل. فالجاهل ميت وحياته بالعلم كما قال الشاعر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرؤ لم يحيى بالعلم ميت ... فليس له حتى النشور نشور

(٣) في الآية تقديم وتأخير. الأصل: جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها والأكابر جمع أكبر وهم الرؤساء والعظماء وخصوا بالذكر لأنهم أقدر على الفساد والإفساد من عامة الناس.

فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

١٤٤

لا يشعرون أي لا يدرون[1] ولا يعلمون أنهم يمكرون بأنفسهم.

(١٢٤) وقوله تعالى في الآية الثالثة (١٢٤): ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ..﴾[2] أي حجة عقلية مما تحمله آيات القرآن تدعوهم إلى تصديق الرسول ﷺ والإيمان بما جاء به ويدعو إليه من التوحيد بدل أن يؤمنوا ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ[3] مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي من المعجزات كعصا موسى وطير عيسى الذي نفخ فيه فكان طائرًا بإذن الله فردّ الله تعالى عليهم هذا العلو والتكبر قائلاً: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فإنه يجعلها في القلوب المشرقة والنفوس الزكية، لا في القلوب المظلمة والنفوس الخبيثة، وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ على أنفسهم بالشرك والمعاصي وعلى غيرهم حيث أفسدوا قلوبهم وعقولهم، ﴿صَغَارٌ﴾[4]: أي ذل وهوان ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ يوم يلقونه ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ قاس لا يطاق ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾: أي بالناس بتضليلهم وإفساد قلوبهم وعقولهم بالشرك والمعاصي التي كانوا يجرئونهم عليها ويغرونهم بها.

هداية الآيات:

١ ـ الإيمان حياة، والكفر موت، المؤمن يعيش في نور والكافر في ظلمات.

٢ ـ بيان سنة الله تعالى في تزيين الأعمال القبيحة.

٣ ـ قل ما تخلو مدينة من مجرمين يمكرون فيها.

٤ ـ عاقبة المكر عائدة على الماكر نفسه.

٥ ـ بيان تعنت المشركين في مكة على عهد نزول القرآن.

٦ ـ الرسالة توهب لا تكتسب.

٧ ـ بيان عقوبة أهل الإجرام في الأرض.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٥ ـ ١٢٨]

(١٢٥) ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾: شرح الصدر توسعته لقبول الحق وتحمل الوارد عليه من أنوار الإيمان وعلامة ذلك: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله. ﴿حَرَجًا﴾: ضيقًا لا يتسع لقبول الحق، ولا لنور الإيمان. ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾: يصعب عليه قبول الإيمان حتى كأنه يتكلف الصعود إلى السماء. ﴿الرِّجْسَ﴾: النَّجس وما لا خير فيه كالشيطان.

(١٢٦) ﴿فَصَّلْنَا الْءَايَٰتِ﴾: بيناها وأوضحناها غاية البيان والتوضيح. ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: يذكرون فيتعظون.

(١٢٧) ﴿دَارُ السَّلَٰمِ﴾: الجنة، والسلام اسم من أسماء الله تعالى فهي مضافة إلى الله تعالى.

(١٢٨) ﴿اسْتَكْثَرْتُم﴾: أي من إضلال الإنس وإغوائهم. ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾: انتفع كل منّا بصاحبه أي تبادلنا المنافع بيننا حتى الموت. ﴿أَجَلَنَا الَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾: أي الوقت الذي وقت لنا وهو أجل موتنا فمتنا.

---

(١) وذلك لفرط جهلهم لا يعلمون أن وبال مكرهم عائد عليهم.

(٢) في الآية شيء من بيان جهلهم وعملهم.

(٣) هذه مقالة بعضهم قال الوليد بن المغيرة لرسول الله ﷺ: لو كانت النبوة حقًا لكنت أولى بها منك لأني أكبر سنًا وأكثر منك مالاً. وقال أبو جهل: والله لا نرضى به أبدًا ولا نتبعه إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه.

(٤) الصغار من الصغر ضد الكبر كأن الذل يُصغر إلى المرء نفسه والفعل صغر يصغر من باب نَصر ينصر، وصغِر يصغر من باب علم يعلم. والمصدر الصغر بفتح الصاد والغين معًا والصغار الاسم واسم الفاعل صاغر وهو الراضي بالضيم.

﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾: مأواكم ومقر بقائكم وإقامتكم. ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: حكيم في وضع كل شيء في موضعه فلا يخلد أهل الإيمان في النار، ولا يخرج أهل الكفر منها، عليم بأهل الإيمان وأهل الكفران.

معنى الآيات:

بعد ذلك البيان والتفصيل لطريق الهداية في الآيات من أول السورة إلى قوله تعالى حكاية عن المدعوين إلى الحق العادلين به الأصنام إذ قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾.

أعلم تعالى عباده أن الهداية بيده وأن الإضلال كذلك يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بعدله، وأن لكل من الهداية والإضلال سننًا تتبع في ذلك فمن طلب الهداية ورغب فيها صادقًا علم تعالى ذلك منه وسهّل له طرقها وهيأ له أسبابها، ومن ذلك أنه يشرح صدره[1] لقبول الإيمان وأنواره فيؤمن ويسلم ويحسن فيكمل ويسعد، ومن طلب الغواية ورغب فيها صادقًا علم الله تعالى ذلك منه فهيأ له أسبابها وفتح له بابها فجعل صدره ضيقًا[2] حرجًا لا يتسع لقبول الإيمان وحلول أنواره فيه حتى لكأنه يتكلف الصعود إلى السماء وما هو بقادر هذه سنته في الهداية والإضلال.

(١٢٥) وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كذلك الفعل في الهداية والإضلال يجعل الله الرجس[3] أي يلقي بكل ما لا خير فيه على قلوبهم من الكبر والحسد والشرك والكفر والشيطان لقبول المحل لكل ذلك نتيجة خلوه من الإيمان بالله ولقائه.

(١٢٦) وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مشيرًا إلى ما بيّنه من الهدى وهذا طريق ربك مستقيمًا فاسلكه والزمه فإنه يفضي بك إلى كرامة ربك وجواره في جنات النعيم. وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يمتن تعالى وله الحمد والمنة بما أنعم به على هذه الأمة من تفصيل الآيات حججًا وبراهين وشرائع ليهتدي طالبو الهدى المشار إليهم بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيذكرون فيؤمنون ويعملون فيكملون ويسعدون في دار السلام إذ قال تعالى:

(١٢٧) ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ[4] عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي متوليهم بالنصر والتأييد في الدنيا والإنعام والتكريم في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الصالحات.

(١٢٨) هذا ما دلت عليه الآيات الأولى والثانية والثالثة أما الآية الرابعة (١٢٨) فقد تضمنت عرضًا سريعًا ليوم القيامة الذي هو ظرف للجزاء على العمل في دار الدنيا فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾[5] إنسهم وجنهم ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم[6] مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي في إغوائهم وإضلالهم، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي الذين كانوا يوالونهم على الفساد والشر والشرك والكفر ﴿رَبَّنَا﴾ أي يا ربنا ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي كل منا تمتع بخدمة الآخر له وانتفع بها، يريدون أن الشياطين زينت لهم الشهوات وحسنت لهم القبائح وأغرتهم

---

(١) الشرح أصله التوسعة وشرح الأمر بيّنه وأوضحه ومنه تشريح اللحم والشريحة منه القطعة. وشرح الصدر لقبول الحق توسعته لتقبُّل ما يلقى إليه من الهدى وفي الحديث الصحيح: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**».

(٢) الحرَج والحرِج بالفتح والكسر قراءتان وهو الضيق وكل ضيق حرج والحرجة الغيضة والجمع حروج وحرجات وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الحرج موضع الشجر الملتف فقلب الكافر لضيقه لا تصل إليه المعرفة كما لا تصل الشاة إلى الشجر الملتف أو تدخل رأسها بين الشجر فيصعب عليها إخراجه فتقع في حرج، والحرج الإثم.

(٣) أصل الرجس في اللغة: النتن وقال مجاهد: الرجس ما لا خير فيه فكما يجعل صدر الكافر ضيقًا لا يقبل الهدى يجعل عليه الرجس فيقبل كل خبيث نتن من الأقوال والاعتقادات.

(٤) دار السلام الجنة والسلام هو الله فدار السلام كبيت الله وهناك معنى آخر وهو أنها دار السلامة من كل أذى ومكروه وآفة.

(٥) نُصب الظرف بفعل محذوف تقديره: يقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ إلخ..

(٦) حذف لفظ الاستمتاع إيجازًا لدلالة السياق وحرف الجر عليه أي: قد استكثرتم من الاستمتاع من الإنس.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

١٤٥

بالمفاسد فهذا انتفاعهم منهم وأما الجن فقد انتفعوا من الإنس بطاعتهم والاستجابة لهم حيث خبثوا خبثهم وضلوا ضلالهم. وقولهم: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي واستمر ذلك منا إلى أن انتهينا إلى أجلنا الذي أجلته لنا وهو نهاية الحياة الدنيا وها نحن بين يديك، كأنهم يعتذرون بقولهم هذا فردّ الله تبارك وتعالى عليهم بإصدار حكمه فيهم قائلاً: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ[1] خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ومعنى مثواكم: مقامكم الذي تقيمون فيه أبدًا.

ومعنى قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هو استثناء[2] لبيان إرادة الله المطلقة التي لا يقيدها شيء، إذ لو شاء أن يخرجهم من النار لأخرجهم أي ليس هو بعاجز عن ذلك، ومن الجائز أن يكون هذا الاستثناء المراد به من كان منهم من أهل التوحيد ودخل النار بالفسق والفجور وكبير الذنوب بإغواء الشياطين له فإنه يخرج من النار بإيمانه، ويكون معنى (ما) (من) أي إلا من شاء الله. والله أعلم بمراده، وقوله في ختام الآية، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، ومن مظاهر حكمته وعلمه إدخال أهل الكفر والمعاصي النار أجمعين الإنس والجن سواء.

هداية الآيات:

١ ـ بيان سنّة الله تعالى في الهداية والإضلال.

٢ ـ بيان صعوبة وشدة ما يعاني الكافر إذا عرض عليه الإيمان.

٣ ـ القلوب الكافرة يلقى فيها كل ما لا خير فيه من الشهوات والشبهات وتكون مقرًا للشيطان.

٤ ـ فضيلة الذكر المنتج للتذكر الذي هو الاتعاظ فالعمل.

٥ ـ ثبوت التعاون بين أخباث الإنس والجن على الشر والفساد.

٦ ـ إرادة الله مطلقة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فلا يؤثر فيها شيء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٩ ـ ١٣٢]

﴿١٢٩﴾ ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾: أي نجعل بعضهم أولياء بعض بجامع كسبهم الشر والفساد. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: أي من الظلم والشر والفساد.

﴿١٣٠﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾: الاستفهام للتوبيخ والرسل جمع رسول من أوحى الله تعالى إليه شرعه وأمره بإبلاغه للناس، هذا من الإنس، أما من الجن فهم من يتلقون عن الرسل من الإنس ويبلغون ذلك إخوانهم من الجن، ويقال لهم النُّذُر. ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾: يخبرونكم بما فيها من الحجج متتبعين ذلك حتى لا يتركوا شيئًا إلا بلغوكم إياه وعرفوكم به. ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾: أي يخوفونكم بما في يومكم هذا وهو يوم القيامة من العذاب والشقاء.

﴿١٣١﴾ ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾: لم تبلغهم دعوة تعرفهم بربهم وطاعته، وما لهم عليها من جزاء.

معنى الآيات:

﴿١٢٩﴾ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ إخبار منه تعالى بسنته في أهل الظلم وهي أن يجعل بعضهم أولياء بعض بمعنى يتولاه بالنصرة والمودة بسبب

---

(١) المثوى: المقام أي: النار موضع مقامكم.

(٢) ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة في هذا الاستثناء وما ذكرته في التفسير أحسن ما يؤول به هذا الاستثناء الإلهي في هذه الآية وفي آية هود.

الكسب السيء الذي يكسبونه على نحو موالاة شياطين الإنس للجن فالجامع بينهم الخبث والشر وهؤلاء الجامع بينهم الظلم والعدوان، ولا مانع من حمل هذا اللفظ على تسليط الظالمين بعضهم على بعض على حد: ولا ظالم إلا سيبتلى بأظلم[1]. كما أنه تعالى سيوالي يوم القيامة إدخالهم النار فريقًا بعد فريق وكل هذا حق وصالح لدلالة اللفظ عليه.

(١٣٠) وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ إخبار منه تعالى بأنه يوم القيامة ينادي الجن والإنس موبخًا لهم فيقول: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ[2] يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ أي ألم يأتكم رسل من جنسكم تفهمون عنهم ويفهمون عنكم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ أي يتلونها عليكم ويخبرونكم بما تحمله آياتي من حجج وبراهين لتؤمنوا بي وتعبدوني وحدي دون سائر مخلوقاتي، وينذرونكم أي يخوفونكم، لقاء يومكم هذا الذي أنتم الآن فيه وهو يوم القيامة والعرض على الله تعالى. وما يتم فيه من جزاء على الأعمال خيرها وشرها، وأن الكافرين هم أصحاب النار. فأجابوا قائلين: شهدنا على أنفسنا ـ وقد سبق أن غرتهم[3] الحياة الدنيا فواصلوا الكفر والفسق والظلم ـ ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ[4] أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

(١٣١) هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية أما الثالثة (١٣١) فقد تضمنت الإشارة إلى علة إرسال الرسل إلى الإنس والجن إذ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ[5] أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ[6] وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي ذلك الإرسال كان لأجل أنه تعالى لم يكن من شأنه ولا مقتضى حكمته أنه يهلك أهل القرى بظلم منه وما ربك بظلام للعبيد ولا بظلم منهم وهو الشرك والمعاصي وأهلها غافلون لم يؤمروا ولم ينهوا، ولم يعلموا بعاقبة الظلم وما يحل بأهله من عذاب.

(١٣٢) وفي الآية الأخيرة (١٣٢) أخبر تعالى أن لكل عامل[7] من خير أو شر درجات من عمله إن كان العمل صالحًا فهي درجات في الجنة، وإن كان العمل سيئًا فاسدًا فهي دركات في النار، وهذا يتم حسب علم الله تعالى بعمل كل عامل وهو ما دل عليه قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله تعالى في أن الأعمال هي سبب الموالاة بين الإنس والجن فذو العمل الصالح يوالي أهل الصلاح، وذو العمل الفاسد يوالي أهل الفساد.

٢ - التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا.

٣ - بيان العلة في إرسال الرسل وهي إقامة الحجة على الناس، وعدم إهلاكهم قبل الإرسال إليهم.

٤ - الأعمال بحسبها يتم الجزاء فالصالحات تكسب الدرجات، والظلمات تكسب الدركات.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٣ ـ ١٣٥]

(١٣٣) ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾: عن كل ما سواه، فغناه تعالى ذاتي ليس بمكتسب كغنى

---

(١) في هذا المعنى قول الشاعر:
وما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلاّ سيبلى بظالم

(٢) قوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ فيه تغليب الإنس على الجن في الخطاب كما يغلب المذكر على المؤنث إذ الرسل من الإنس لا غير ومن الجن نذر ينذرونهم بما يتلقونه عن الرسل من الإنس كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ وشاهد آخر في قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ والمراد البحر الملح فقط وفي وصف الرسل بلفظ منكم زيادة في إقامة الحجة عليهم.

(٣) غرتهم إذ عجلت لهم طيباتهم فيها فانفردوا بزخارفها وزينتها وطول العمر فيها.

(٤) قال مقاتل هذا معنى شهدت عليهم الجوارح بالشرك.

(٥) ذلك في موضع رفع أي: الأمر ذلك وإن مخففة من الثقيلة أي: المشددة واسمها ضمير الشأن محذوف وذلك لأن هذا الخبر له شأن يجدر أن يعرف والتقدير: الأمر ذلك لأنه ـ أي: الشأن ـ لم يكن ربك مهلك القرى بظلم إلخ.

(٦) الباء في ﴿بِظُلۡمٖ﴾ سببية أي: بسبب ظلمهم وجملة ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ حالية.

(٧) لكل عامل أي: من الإنس والجن.

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾

١٤٦

غيره. ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾: صاحب الرحمة العامة التي تشمل سائر مخلوقاته والخاصة بالمؤمنين من عباده. ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ﴾: أي ينشىء خلقًا آخر يخلفون الناس في الدنيا.

﴿١٣٤﴾ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖ﴾: إن ما وعد الله تعالى به عباده من نعيم أو جحيم لآت لا محالة.

﴿١٣٥﴾ ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾: أي على ما أنتم متمكنين منه من حال صالحة أو فاسدة. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾: أي الدار الدنيا وهي سعادة الآخرة القائمة على الإيمان والعمل الصالح. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: أي لا يفوز الظالمون بالنجاة من النار ودخول الجنان لأن ظلمهم يوبقهم في النار.

معنى الآيات:

بعد تلك الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده فيها وبيان جزاء من أقام بها، ومن ضيعها في الدار الآخرة.

﴿١٣٣﴾ - ﴿١٣٤﴾ خاطب الرب تبارك وتعالى رسوله ﷺ قائلًا: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ[1] ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ أي ربك الذي أمر عباده بطاعته ونهاهم عن معصيته هو الغني عنهم وليس في حاجة إليهم، بل هم الفقراء إليه المحتاجون إلى فضله، ورحمته قد شملتهم أولهم وآخرهم ولم تضق عن أحد منهم، ليعلم أولئك العادلون بربهم الأصنام والأوثان أنه تعالى قادر على إذهابهم بإهلاكهم بالمرة، والإتيان بقوم آخرين أطوع لله تعالى منهم، وأكثر استجابة له منهم: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ وليعلموا أن ما يوعدونه من البعث والحساب والجزاء لآت لا محالة وما أنتم بمعجزين الله تعالى ولا فائتينه بحال، ولذا سوف يجزي كلًا بعمله خيرًا كان أو شرًا وهو على ذلك قدير.

﴿١٣٥﴾ هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية أما الآية الثالثة (١٣٥) فقد تضمنت أمر الله تعالى للرسول ﷺ أن يقول للمشركين من قومه وهم كفار قريش بمكة: ﴿ٱعۡمَلُواْ[2] عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ ما دمتم مصرين على الكفر والشرك ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ على مكانتي[3] فسوف تعلمون من تكون له عاقبة دار الدنيا[4] وهي الجنة دار السلام أنا أم أنتم مع العلم أن الظالمين لا يفلحون بالنجاة من النار ودخول الجنان، ولا شك أنكم أنتم الظالمون بكفركم بالله تعالى وشرككم به.

هداية الآيات:

١ - تقرير غنى الله تعالى المطلق عن سائر خلقه.

٢ - بيان قدرة الله تعالى على إذهاب الخلق كلهم والإتيان بآخرين غيرهم.

---

(١) الغني هو الذي لا يحتاج إلى غيره وكل غني من الخلق غناه إضافي غير حقيقي أما غنى الله تعالى فهو حقيقي فقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ أي: الغنى المطلق الذي لا يشاركه فيه غيره ولذا كان في الصيغة قصر الغنى الحق عليه تعالى.

(٢) هذا الأمر للتهديد، والمكانة هي المكان كالدارة والدار والمراد بها الحال التي عليها الإنسان من قوة أو ضعف أو خير أو شر أو إصلاح أو إفساد.

(٣) الجملة تحمل التهديد الشديد وهي تشير إلى أن الرسول ﷺ واثق من نصره وحسن عاقبته وهو كذلك إذ الله تعالى الذي بيده الأمر هو الذي أمره أن يعلن عن هذا التهديد.

(٤) العاقبة لغة: آخر الأمر وأثر عمل العامل، فعاقبة كل شيء هي ما ينجلي عنه الشيء من نتيجة وأثر، وتأنيث العاقبة بالنظر إلى تأويلها بالحالة، والحالة مؤنثة.

٣ - صدق وعد الله تعالى وعدم تخلفه.

٤ - تهديد المشركين بالعذاب إن هم أصروا على الشرك والكفر والذي دل عليه قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ الدنيا ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٦ - ١٤٠]

(١٣٦) ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾: مما خلق. ﴿مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: الحرث كل ما يحرث له الأرض من الزروع، والأنعام: الإبل والبقر والغنم. ﴿نَصِيبٗا﴾: حظًا وقدرًا معينًا. ﴿لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾: شركاؤهم أوثانهم التي أشركوها في عبادة الخالق عز وجل. ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾: قبح حكمهم في ذلك إذ آثروا أوثانهم على الله.

(١٣٧) ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾: اللام لام العاقبة ومعنى يردوهم: يهلكوهم. ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ﴾: ليخلطوا عليهم دينهم.

(١٣٨) ﴿حِجۡرٞ﴾: أي ممنوعة على غير من لم يأذنوا له في أكلها. ﴿حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾: أي لا يركبونها ولا يحملون عليها. ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾: أي كذبًا على الله عز وجل. ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾: أي إناثنا. ﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ﴾: أي إن ولد ما في بطن الحيوان ميتًا فهم فيه شركاء الذكور والإناث سواء.

(١٤٠) ﴿سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾: حمقًا وطيشًا وعدم رشد وذلك لجهلهم.

معنى الآيات:

(١٣٦) ما زال السياق في التنديد بأفعال العادلين بربهم أصنامهم وأوثانهم فأخبر تعالى عما كانوا يبتدعونه من البدع ويشرعون من الشرائع بدون علم ولا هدى ولا كتاب مبين فقال تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا[1]﴾ أي جعل أولئك العادلون بربهم لله تعالى مما خلق من الزرع والأنعام نصيبًا أي قسمًا كما جعلوا للآلهة التي يؤلهونها مع الله سبحانه وتعالى نصيبًا، ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ[2] وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾. وقوله تعالى: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ لأنه سبحانه وتعالى ما طلب منهم ذلك ولا شرعه لهم وإنما هم يكذبون على الله تعالى ثم إذا أنبت أو أنتج ما جعلوه لله، ولم ينبت أو ينتج ما جعلوه للشركاء حولوه إلى الشركاء بدعوى أنها فقيرة وأن الله غني، وإذا حصل العكس لم يحولوا ما جعلوه للآلهة لله بنفس الحجة وهي أن الشركاء فقراء، والله غني.

هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾ وهو تحيز ممقوت وتحكم فاسد فلذا قبح تعالى ذلك عليهم فقال: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي بئس الحكم حكمهم هذا وقبح صنيعًا، صنيعهم هذا، وما جعلوه لله ينفقونه على الضيفان والفقراء، وما جعلوه للشركاء ينفقونه على السدنة والمقيمين على الأصنام والأوثان.

(١٣٧) هذا ما دلت عليه الآية الأولى. أما الثانية (١٣٧) وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ يريد: وكذلك التحكم الباطل والادعاء الكاذب في جعل لله شيئًا مما ذرأ من الحرث والأنعام، ثم عدم العدل بين الله تعالى وبين شركائهم زين لكثير من المشركين شركاؤهم وهم شياطينهم من الجن والإنس قتل أولادهم كالموؤدة من البنات خوف العار، وكقتل الأولاد الصغار خوف الفقر، أو لنذرها للآلهة[3]، وفعل الشياطين ذلك من أجل أن يردوهم أي يهلكوهم، ويلبسوا عليهم دينهم الحق[4] أن

---

(١) في الكلام إيجاز إذ حذف منه المقابل وهو وجعلوا لآلهتهم نصيبًا وحذفه كان لدلالة ما بعده عليه.

(٢) الزعم بفتح الزاي وقد تضم وتكسر أيضًا لغات والفتح أشهر والزعم: الكذب قال شريح القاضي رحمه الله تعالى: إن لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا وقد كذب المشركون فيما جعلوه لله تعالى حيث لم يشرع ذلك لهم وإنما هم مفتاتون.

(٣) كما نذر عبدالمطلب ولده عبدالله للآلهة، ثم فداه بمائة من الإبل.

(٤) فإن قيل: وهل كان لهم دين الحق؟ الجواب: نعم كان لهم دين حق وهو ما جاءهم به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وبطول الزمان وفتنة الشيطان فسد عليهم.

يخلطوه لهم بالشرك، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُمْ[١] وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ هو كما قال إذ لو أراد تعالى منعهم من ذلك لمنعهم[٢] وهو على كل شيء قدير، إذًا فذرهم أيها الرسول وما يفترون من الكذب في هذا التشريع الجاهلي الباطل القبيح.

(١٣٨) هذا ما دلت عليه الآية الثانية.

أما الثالثة (١٣٨) وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ[٣] لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾.

فقد تضمنت هذه الآية ثلاثة ضروب من تشريع الجاهلية وأباطيلهم:

الأول: تحريمهم بعض الأنعام والحرث وجعلها لله وللآلهة التي يعبدونها مع الله.

الثاني: أنعام أي إبل حرموا ركوبها كالسائبة والحام.

الثالثة: إبلٌ لا يذكرون اسم الله عليها فلا يحجون عليها ولا يذكرون اسم الله عليها إن ركبوها بحال ولا إن حملوا عليها.

وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ أي كذبًا على الله تعالى لأنه تعالى ما حرم ذلك عليهم وإنما حرموه هم بأنفسهم وقالوا حرمه الله علينا، ولذا توعدهم الله تعالى على كذبهم هذا بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي سيثيبهم الثواب الملائم لكذبهم وهو العذاب الأخروي.

(١٣٩) هذا ما دلت عليه الآية الثالثة أما الآية الرابعة (١٣٩) ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ فقد تضمنت تشريعًا آخر باطلًا اختلقوه بأنفسهم وزعموا أن الله شرعه لهم وهو أنهم حرموا ما في بطون بعض الأنعام على الإناث، وجعلوها حلالًا للذكور خالصة لهم دون النساء فلا يشرب النساء من ألبانها ولا يأكلن لحوم أجنتها إن ذبحوها ولا ينتفعن بها بحال، اللهم إلا أن ولد الجنين ميتًا فإنهم لا يحرمونه على النساء ولا يخصون به الذكور فيحل أكله للنساء والرجال معًا، ولذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ[٤] إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي سيثيبهم على هذا الكذب بما يستحقون من العذاب إنه حكيم في قضائه عليم[٥] بعباده.

(١٤٠) هذا ما دلت عليه الآية الرابعة أما الخامسة (١٤٠) فقد أخبر تعالى بخسران أولئك المشرعين وضلالهم وعدم هدايتهم بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا﴾ أي جهلًا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ[٦]﴾ ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ مما سبق ذكره ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ كذبًا ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

هداية الآيات:

١ ـ حرمة الابتداع في الدين والتشريع المنافي لشرع الله تعالى وإن لم ينسب إلى الله تعالى.

٢ ـ ما ينذره الجهال اليوم من نذور للأولياء وإعطائهم شيئًا من الأنعام والحرث والشجر هو من عمل المشركين زينه الشيطان لجهال المسلمين.

٣ ـ حرمة قتل النفس لأي سبب كان وتحديد النسل اليوم وإلزام الأمة

---

(١) اللام هنا لام العاقبة والصيرورة.

(٢) في هذا رد على القدرية وفيه تسلية للرسول ﷺ وتخفيف عليه.

(٣) في لفظ حجر الفتح والضم والكسر ومعناه: وسمى العقل حجرًا لأنه يمنع من قول وفعل القبيح وحجر القاضي على المفلس: منعه من التصرف في المال وهو مشتق من الحرج بالكسر وهي لغة في الحرج الذي هو الضيق والإثم.

(٤) أي: كذبهم وقيل في الوصف: كذب لأنهم وصفوا بعض الأجنة بالحرمة وبعضًا آخر بالحلية وهو كقوله تعالى من سورة النحل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾.

(٥) وقال القرطبي: في الآية: دليل على أن العالم ينبغي له أن يتعلم قول مخالفه وإن لم يأخذ به حتى يعرف فساد قوله ويعلم كيف يرد عليه لأن الله تعالى علّم نبيه ﷺ وأصحابه قول من خالفهم في زمانهم ليعرفوا فساد قولهم.

(٦) في الآية دليل واضح على حرمة القول بدون علم وكذا الاعتقاد والعمل فلا يحل لأحد أن يعتقد أو يقول أو يعمل بدون علم شرعي قد تمكن من معرفته.

به من بعض الحكام من عمل أهل الجاهلية الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم كقتل البنات خشية العار والأولاد خشية الفقر.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤١ ـ ١٤٤]

(١٤١) ﴿أَنشَأَ جَنَّٰتٍ﴾: خلق جنات جمع جنة وهي البستان. ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ﴾: ما يعمل له العريش من العنب، وما لا يعرش له من سائر الأشجار. ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾: أي ثمره الذي يؤكل منه. ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾: في الورق وغير متشابه في الحب والطعم. ﴿حَقَّهُۥ﴾: ما وجب فيه من الزكاة. ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾: يوم حصاده إن كان حبًا وجذاذه إن كان نخلًا. ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ في إخراجه: أي بأن لا تبقوا لعيالكم منه شيئًا.

(١٤٢) ﴿حَمُولَةً﴾: الحمولة ما يحمل عليها من الإبل. ﴿وَفَرْشًا﴾: الفرش الصغار من الحيوان. ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: مسالكه في التحريم والتحليل للإضلال والغواية.

(١٤٣) ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: أنثى الضأن وأنثى الماعز ذكرًا كان أو أنثى. ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾: خبروني بأيهما حرم بعلم صحيح لا بوسواس الشياطين.

(١٤٤) ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾: أي حاضرين وقت تحريمه تعالى ذلك عليكم إن كان قد حرمه كما تزعمون.

الجزء الثامن — سورة الأنعام

> ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤) قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦)
>
> ١٤٧

معنى الآيات:

(١٤١) لما توعد الحق تبارك وتعالى المفترين عليه حيث حرّموا وحلّلوا ما شاؤوا ونسبوا ذلك إليه افتراء عليه تعالى، وما فعلوا ذلك إلا لجهلهم بالله تعالى وعدم معرفتهم بعلمه وقدرته وإلا لما اتخذوا له أندادًا من الأحجار وقالوا: شركاؤنا، وشفعاؤنا عند الله. ذكر تعالى في هذه الآيات الأربع مظاهر قدرته وعلمه وحكمته وأمره ونهيه وحجاجه في إبطال تحريم المشركين ما أحل الله لعباده فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ﴾[1] أي بساتين وحدائق من العنب معروشات[2] أي محمول شجرها على العروش التي توضع للعنب ليرتفع فوقها وغير معروشات أي غير معرش لها، وأنشأ النخل والزرع مختلفًا ثمره وطعمه، وأنشأ الزيتون والرمان متشابهًا في الورق، وغير متشابه في الحب والطعم أيضًا. وأذن تعالى في أكله وأباحه وهو مالكه وخالقه فقال: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أي نضج بعض النضج، وأمر بإخراج الواجب فيه وهو الزكاة فقال: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ[3] حَصَادِهِۦ﴾ أي بعد درسه وتصفيته إذ لا يعطى السنبل، ونهى عن الإسراف وهو تجاوز الحد في إخراج الزكاة غلوًا حتى لا يبقوا لمن يعولون ما يكفيهم، فقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا

---

(١) الجنات: جمع جنة وهي البستان وسمي البستان جنة لأنه لكثرة أشجاره يجن أي: يستر الكائن فيه، وسمي الجنين في البطن جنينًا لاجتنانه واستتاره ببطن أمه.

(٢) وقيل المعروشات: ما يعني به من الشجر على اختلافه، وغير المعروشات: وهو شجر البوادي والجبال وما في التفسير أولى لقوته ودلالة اللفظ عليه.

(٣) كان قبل فريضة الزكاة يتعين على من حصد أو جد ثمره وأتاه المساكين أن يعطيهم شيئًا مما بين يديه قل أو كثر ولما فرضت الزكاة وحددت مقاديرها خصص هذا بها حيث بُين الحق المجمل هنا.

يُحِبُّ[1] ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وأنشأ من الأنعام: الإبل والبقر والغنم ﴿١٤٢﴾ ﴿حَمُولَةً﴾ وهي ما يحمل عليها لكبرها ﴿وَفَرْشًا﴾ وهي الصغار التي لا يحمل عليها، وأذن مرة أخرى في الأكل مما رزقهم سبحانه وتعالى من الحبوب والثمار واللحوم وشرب الألبان، فقال: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ونهى عن اتباع مسالك الشيطان في تحريم ما أحلّ الله وتحليل ما حرّم فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وعلل للنهي فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ومَن عرف عدوه اتقاه ولو بالبعد عنه.

﴿١٤٣﴾ وأنشأ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ وهما الكبش والنعجة، ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ وهما التيس والعنزة، وأمر رسوله ﷺ أن يحاج المفترين في التحريم والتحليل فقال له: ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا لهم ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾[2] الله عليكم ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي النعجة والعنزة ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فإن قلتم حرّم الذكرين فلازم ذلك جميع الذكور حرام، وإن قلتم حرّم الأنثيين فلازمه أن جميع الإناث حرام وإن قلتم حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين فكل ما ولد منهما حرام ذكرًا كان أو أنثى فكيف إذا حرّمت البعض وحللتم البعض فبأي علم أخذتم نبؤوني به إن كنتم صادقين.

﴿١٤٤﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ وهما الناقة والجمل، ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ وهما الثور والبقرة ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ[3] حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ[4] ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، فهل حرم الذكرين أو الأنثيين هذه الأزواج الأربعة فإن حرم الذكرين فسائر الذكور محرمة، وإن حرم الأنثيين فسائر الإناث محرمة، أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين وحينئذ يكون كل مولود منهما محرمًا ذكرًا كان أو أنثى، وبهذا تبين أنكم كاذبون على الله مفترون فالله تعالى لم يحرم من هذه الأزواج الثمانية شيئًا، وإنما حرم الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ بهذا التحريم فهو تبكيت لهم وتقريع، إذ لم يحرم الله تعالى هذا الذي حرموه، ولم يوصهم بذلك ولم يكونوا حال الوصية حضورًا، وإنما هو الافتراء والكذب على الله تعالى.

وأخيرًا سجل عليهم أنهم كذبة ظالمون مضلون لغيرهم بغير علم، وأنهم لا يستحقون الهداية فقال عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ[5] بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هداية الآيات:

١ - إباحة أكل التمر والعنب والرمان والزيتون.

٢ - وجوب الزكاة في الزيتون والتمر والحبوب إذا بلغت النصاب وهو خمسة أوسق والوسق ستون صاعًا، والصاع أربع حفنات.

٣ - جواز الأكل من الثمر قبل جذاذه وإخراج الزكاة منه[6].

٤ - حرمة الإسراف في المال بأن ينفقه فيما لا يعني، أو ينفقه كله ولم يترك لأهله شيئًا.

٥ - إباحة أكل بهيمة الأنعام وهي ثمانية أزواج، ضأن وماعز[7]، وإبل

---

(١) في الآية دليل حرمة الإسراف وهو محرم في كل شيء وهو الخروج عن حد الاعتدال والقصد.

(٢) الاستفهام للإنكار أي: ينكر عليهم أن يكون الله حرم ذلك.

(٣) إبطال لما حرّموا من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

(٤) إبطال لقولهم: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا.

(٥) يدخل في هذا الخطاب دخولاً أوليًا عمرو بن لحيّ إذ هو أول من جلب الأصنام ويدخل فيه كذلك أول من سيّب السوائب إلخ. .

(٦) اختلف في زكاة التين والراجح أنه إذا بلغ خمسة أوسق بعد يبسه يزكى لأنه يدخل ويقتات واختلف في الخرص للثمر والعنب والجمهور على جوازه للحديث الوارد في ذلك وهو: «وإنما كان أمر رسول الله ﷺ بالرخص لكي تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتفرق». رواه الدارقطني.

(٧) الضأن من ذوات الصوف والمعز من ذوات الشعر.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

١٤٨

وبقر وكلها ذكر وأنثى.

٦ - إبطال تشريع الجاهلية في التحريم والتحليل، فالحلال ما أحله الله ورسوله ﷺ والحرام ما حرمه الله ورسوله ﷺ.

٧ - جواز الجدال والحجاج لإحقاق الحق أو إبطال الباطل.

٨ - لا أظلم ممن يكذب على الله تعالى، فيشرع لعباده ما لم يشرع لهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٥ ـ ١٤٧]

﴿١٤٥﴾ ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾: محظورًا ممنوعًا على آكل يأكله.

﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾: الميتة: ما مات دون تذكية، والدم المسفوح: المصبوب صبًا لا المختلط باللحم والعظام.

﴿فَإِنَّهُۥ﴾: نجس وقذر قبيح محرم.

﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: الفسق الخروج عن طاعة الله والمراد ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه وإنما ذكر عليه اسم الأصنام أو غيرها، والإهلال رفع الصوت باسم المذبوح له.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾: اضطر: ألجأته الضرورة وهي خوف الهلاك، والباغ الظالم، والعادي: المعتدي المجاوز للحد.

﴿١٤٦﴾ ﴿هَادُوا۟﴾: اليهود. ﴿ذِى ظُفُرٍ﴾: صاحب ظفر وهو الحيوان الذي لا يفرق[1] أصابعه كالإبل والنعام.

﴿مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾: أي الشحم العالق بالظهر، والحوايا[2]: المباعر والمصارين والأمعاء.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾: أي عفي لهم عن الشحم المختلط بالعظم كما عفي عن الحوايا والعالق بالظهر. ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾: أي بسبب ظلمهم.

﴿١٤٧﴾ ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾: بطشه وعذابه.

معنى الآيات:

﴿١٤٥﴾ ما زال السياق في الحجاج مع أولئك المحرمين ما لم يحرم الله ففي أولى هذه الآيات يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للذين يحرمون افتراء على الله ما لم يحرم ﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ ـ وأنا رسول الله ـ ﴿مُحَرَّمًا﴾ أي شيئًا محرمًا ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي آكلٍ يأكله اللهم ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ وهي ما مات من الحيوان حتف أنفه أي لم يذك الذكاة الشرعية، ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أي مصبوبًا صبًا لا الدم المختلط بالعظم واللحم كالكبد والطحال، ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ﴾ أي لحم الخنزير ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي نجس قذر حرام، ﴿أَوْ فِسْقًا﴾[3] ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه أو ذكر اسم الأصنام عليه فهو فسق أي خروج عن طاعة الرب الذي أمر من أراد ذبح بهيمة أن يذكر عليها اسمه ليحل له أكلها.

هذا معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ[4] إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ

---

(١) في ذي الظفر تفاسير أرجحها ما في التفسير وهو ما ليس بمنفرج الأصابع وقيل الإبل خاصة، وقيل: كل ذي حافر من الدواب.

(٢) واحد الحوايا حاوية وحويّة، والمراد بها ما تحوّى من الأمعاء واستدار منها.

(٣) تقدير الكلام: أو أن يكون المراد أكل ما أهل لغير الله به فصار فسقًا لذلك إذ الذبح لغير الله شرك وخروج من الدين، والفسق يطلق على التفصي من طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

(٤) هل هذه الآية منسوخة بآية المائدة؟ اختلف في ذلك والراجح أنها غير منسوخة إذ هي خبر والأخبار لا تنسخ وآية المائدة ذكرت المنخنقة وما بعدها وهي داخلة في حكم الميتة، وما ذبح على النصب داخل في ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ إذًا فالآية محكمة.

يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي غير ظالم بأكل الميتة وما ذكر معها وذلك بأن يأكلها تلذذًا بها لا دفعًا لغائلة الموت وهو كاره لأكلها ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي غير متجاوز القدر الذي أبيح له وهو ما يدفع به غائلة الموت عن نفسه ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن مظاهر مغفرته ورحمته أنه أذن للمضطر بالأكل مما هو حرام في الضرورة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٤٥).

(١٤٦) أما الآية الثانية فبعد أن بيّن تعالى أنه لم يحرم على المؤمنين غير ما ذكر من الميتة وما ذكر بعدها أخبر أنه حرم على اليهود أكل كل ذي ظفر وهو ما ليس له أصابع مفرقة مثل الإبل والنعام والبط والإوز ومن البقر والغنم حرم عليهم شحومهما وهو الشحم اللاصق بالكرش والكلى، وأباح لهم من الشحوم ما حملته البقرة أو الشاة على ظهرها، وما كان لاصقًا بالمباعر وهي الحوايا جمع حاوية وكذا الشحم المختلط بالعظام كشحم اللية، وشحم الجانب والأذن والعين وما إلى ذلك. هذا ما تضمنه قوله تعالى من الآية الثانية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ ثم أخبر تعالى بأن هذا التحريم عليهم كان عقوبة لهم بسبب ظلمهم وإجرامهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ[(١)]﴾ أي ذلك التحريم منا عليهم كان جزاء ظلمهم، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرنا به عنهم، وهم الكاذبون إذ قالوا إنما حرم هذا على إسرائيل ونحن أتباع له أما نحن فلم يحرم علينا شيء وإنهم لكاذبون.

(١٤٧) وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ[(٢)]﴾ أي اليهود فيما أخبرت به عنهم ﴿فَقُل﴾ لهم ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ[(٣)]﴾ ولذا لم يعاجلكم بالعقوبة وقد كذبتموه وكذبتم رسوله ﷺ وافتريتم على رسله، ولكن ليس معنى ذلك أنكم نجوتم من العذاب فإن بأس الله لا يرد عن القوم المجرمين[(٤)] من أمثالكم.

هداية الآيات:

١ - حرمة الميتة وأنواعها في سورة المائدة وهي المنخنقة والموقوذة، والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، وحرمة الدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهلّ لغير الله به، وما ذبح على النصب وحرم بالسنة الحمر[(٥)] الأهلية والبغال، وكل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطيور.

٢ - قد يُحرم العبد بالذنوب من كثير من الطيبات كما حصل لليهود.

٣ - إمهال الله تعالى المجرمين لا يدل على عدم عقوبتهم فإن بأس الله لا يرد عن القوم المجرمين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٨ - ١٥٠]

(١٤٨) ﴿أَشْرَكُوا۟﴾: أي جعلوا لله شركاء له يعبدونهم معه. ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾: أي مما حرموه من البحائر والسوائب والوصائل والحامات.

﴿ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾: أي عذابنا.

﴿تَخْرُصُونَ﴾: تكذبون.

(١٤٩) ﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾: الدليل القاطع للدعاوي الباطلة.

(١٥٠) ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾: أي أحضروهم. ﴿يَعْدِلُونَ﴾: أي به غيره من الأصنام وسائر المعبودات الباطلة.

---

(١) من بغيهم قتلهم الأنبياء وأكل الربا وتبرج النساء واستحلال المحرمات بالحيل والفتاوى الفاسدة.

(٢) قيل: إن المراد بالمكذبين المشركون، وقيل: اليهود وكلاهما مكذب وكافر واللفظ يصدق عليهما معًا.

(٣) من مظاهر رحمته أنه يحلم على العصاة وينظرهم ويمهلهم لعلهم يتوبون فعدم تعجيله العقوبة هو دليل رحمته الواسعة.

(٤) في الآية وعيد وتهديد وهو صالح لأن يتنزل في الدنيا وفي الآخرة إذ العلة هي الإجرام وهو قائم فهم متوغلون فيه ولذا لا بد من العقوبة ما لم تحصل توبة صادقة.

(٥) ذكر القرطبي أن علة تحريم الحمار قد تكون حاجة الناس للحمل عليه والركوب وذكر علة أخرى وهي كونه نجسًا وذكر عن الترمذي في نوادر الأصول أن الحمار أظهر جوهره الخبيث حيث نزا على ذكره وتلوّط فسمّي لذلك رجسًا وليس في الدواب من يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار والخنزير.

معنى الآيات:

(١٤٨) ما زال السياق في رد ترهات وأباطيل العادلين بربهم المشركين في ألوهيته سواه فذكر تعالى في الآيتين (١٤٨) و(١٤٩) شبهة للمشركين يتخذونها مبررًا لشركهم وباطلهم وهي قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا[١] وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ[٢]﴾[٣] يريدون أن عدم مؤاخذة الله تعالى لنا ونحن نشرك به ونحرم ما نحرمه دليل على رضا الله بذلك[٤] وإلا لمنعنا منه وحال دون فعلنا له، فردّ الله تعالى هذه الشبهة وأبطلها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ أي مثل هذا التكذيب الصادر من هؤلاء العادلين بربهم من كفار قريش ومشركيها كذب الذين من قبلهم من الأمم، وما زالوا على تكذيبهم حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلو كان تعالى راضيًا بشركهم وشرهم وباطلهم لما أخذهم فإمهال الله تعالى للناس لعلهم يتوبون ليس دليلاً على رضاه بالشرك والشر، والحجة أنه متى انتهت فترة الإمهال نزل بالمكذبين العذاب.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمذنبين العادلين بربهم: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ﴾ أي ليس لديكم علم على ما تدعونه فتخرجوه لنا، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ[٥] إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما تتبعون في دعاويكم الباطلة إلا الظن، ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي وما أنتم إلا تخرصون أي تقولون بالحزر والخرص فتكذبون.

(١٤٩) وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ[٦] ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أي يعلم رسوله ﷺ أن يقول لهم بعد أن دحض شبهتهم وأبطلها إن لم تكن لكم حجة فللّه الحجة البالغة، ومع هذا ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهو على ذلك قدير، وإنما حكمه في عباده وسنته فيهم أن يكلفهم اختبارًا لهم ويوضح الطريق لهم ويقيم الحجة عليهم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فعليها.

(١٥٠) هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية، وأما الآية الثالثة (١٥٠) وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ[٧] ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي الذي حرمتموه فإنهم لا يستطيعون أن يأتوا بهم ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ وإن فرضنا أنهم يأتون بشهداء باطل يشهدون[٨] فلا تقرهم أنت أيها الرسول على باطلهم بل بيّن لهم بطلان ما ادّعوه، فإنهم لا يتبعون في دعاويهم إلا الأهواء، وعليه ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، وقد جمع هؤلاء المشركون كل هذه العظائم من الذنوب التكذيب بآيات الله، وعدم الإيمان بالآخرة، والشرك بربهم فكيف يجوز اتباعهم وهم مجرمون ضالون.

---

(١) إلى اليوم والغافلون من المسلمين يحتجون بما احتج به المشركون الأولون ويقولون: لو شاء الله أن نصلي لصلينا ولو شاء الله أن نترك المحرم لتركناه وهو احتجاج باطل لا وزن له.

(٢) أي: من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

(٣) قولهم هذا: دال على جهل مركب منهم بالله تعالى وحكمته وتدبيره وهذا ناتج عن كفرهم وعدم إيمانهم بالله وكتابه ورسوله ﷺ، فالله أوجد العبادة في هذه الحياة ليبتليهم ثم يجزيهم لا أن يجبرهم على ما يحب منهم.

(٤) في قوله: كذلك كذب الذين من قبلهم دلالة على أن المشركين لم يريدوا من قولهم: لو شاء الله ما أشركنا إلا رد قول الرسول ﷺ وتكذيبه فيما جاء به ويدعوهم إليه حتى لكأن كلامهم هذا من باب كلمة حق أريد بها باطل.

(٥) إن في الموضعين نافية بمعنى (ما) كما هي في التفسير.

(٦) فالله: الفاء هنا هي الفاء الفصيحة إذ هي مفصحة عن كلام سابق ترتب عليه ما بعدها ترتب الجزاء على الشرط تقديره هنا: فإن كان قولكم لمجرد اتباع الظن والخرص والحزر ولا علم لكم فللّه تعالى الحجة البالغة التي تصل إلى الحقيقة وتؤكدها وتبطل ما عداها.

(٧) الأمر هنا للتعجيز والشهداء جمع شهيد بمعنى شاهد.

(٨) أي: كذبهم واعلم بأنهم شهداء زور فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ معناه كذّبهم ولا تقرهم فإنهم شهداء زور لا غير.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

هداية الآيات:

١ - بطلان الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي والاستمرار فيها.

٢ - لا حجة إلا فيما قام على أساس العلم الصحيح.

٣ - الحكمة في عدم هداية الخلق كلهم مع قدرة الله تعالى على ذلك هو التكليف والابتلاء.

٤ - مشروعية الشهادة وحضور الشهود.

٥ - عدم إقرار شهادة الباطل وحرمة السكوت عنها.

٦ - حرمة اتباع أصحاب الأهواء الذين كذبوا بآيات الله.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥١ - ١٥٣]

﴿١٥١﴾ ﴿أَتْلُ﴾: اقرأ.

﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾: من فقر.

﴿الْفَوَاحِشَ﴾: جمع فاحشة كل ما قبح واشتد قبحه كالزنى والبخل.

﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾: أي حرم قتلها وهي كل نفس إلا نفس الكافر المحارب.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: وهو النفس بالنفس وزنى المحصن، والردة.

﴿١٥٢﴾ ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: أي بالخصلة التي هي أحسن.

﴿أَشُدَّهُ﴾: الاحتلام مع سلامة العقل. ﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي بالعدل.

﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾: طاقتها وما تتسع له.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: تذكرون فتتعظون.

﴿١٥٣﴾ ﴿السُّبُلَ﴾: جمع سبيل وهي الطريق.

معنى الآيات:

﴿١٥١﴾ ما زال السياق في إبطال باطل العادلين بربهم المتخذين له شركاء الذين يحرمون بأهوائهم ما لم يحرمه الله تعالى عليهم فقد أمر تعالى رسوله ﷺ في هذه الآيات الثلاث أن يقول لهم: ﴿تَعَالَوْا[1] أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ لا ما حرمتموه أنتم بأهوائكم وزينه لكم شركاؤكم. ففي الآية الأولى جاء تحريم خمسة أمور وهي: الشرك، وعقوق الوالدين، وقتل الأولاد، وارتكاب الفواحش، وقتل النفس فقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ[2] رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فأن تفسيرية[3]، ولا ناهية وهذا أول محرم وهو الشرك بالله تعالى، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وهذا أمر إذ التقدير وأحسنوا بالوالدين إحسانًا، والأمر بالشيء نهي عن ضده فالأمر بالإحسان يقتضي تحريم الإساءة والإساءة إلى الوالدين هي عقوقهما، فكان عقوق الوالدين محرمًا داخلًا ضمن المحرمات المذكورة في هذه الآيات الثلاث. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ[4] مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فهذا المحرم الثالث وهو قتل الأولاد من الإملاق الذي هو الفقر وهذا السبب غير معتبر إذ لا يجوز قتل الأولاد بحال من الأحوال وإنما ذكر لأن المشركين كانوا يقتلون أطفالهم لأجله وقوله

---

(١) أي: أقبلوا وتقدموا وما موصولة بمعنى الذي حرم ربكم عليكم وفي الآية دليل على وجوب بيان المحرمات للأمة حتى تتجنبها، والعلماء منوط بهم ذلك.

(٢) هذه الآيات الثلاث: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ إلى قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ تضمنت عشرًا من الوصايا قال ابن عباس: هي محكمات وأجمعت الشرائع الإلهية على تقريرها والعمل بها.

(٣) أي: فسرت المحرم وهو الشرك بالله تعالى، وهو أول المحرمات وقدم لأنه أخطرها وأضرها بالإنسان.

(٤) استدل بهذه الآية من قال بتحريم العزل ومثله اليوم استعمال الحبوب لمنع الحمل والجمهور على الجواز للضرورة فقط لقول الرسول ﷺ في العزل: «ذلك الوأد الخفي» فإنه إن لم يدل على التحريم دل على الكراهية.

تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ تعليل للنهي عن قتل الأولاد من الفقر إذ ما دام الله تعالى يرزقكم أنتم أيها الآباء ويرزق أبناءكم فلم تقتلونهم؟ وفي الجملة بشارة للأب الفقير بأن الله تعالى سيرزقه هو وأطفاله فليصبر ولْيَرْجُ، ولا يقتل أطفاله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. هذا الأمر الرابع مما حرم الله تعالى، وهو فعل الفاحشة التي هي الزنى وسواء ما كان منه ظاهرًا أو باطنًا والتحريم شامل لكل خصلة قبيحة قد اشتد قبحها وفحش فأصبح فاحشة قولاً كانت أو فعلاً أو اعتقادًا، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ[1]﴾ هذا هو المحرم الخامس وهو قتل النفس التي حرم الله قتلها وهي كل نفس ما عدا نفس المحارب فإنها مباحة للقتل، والحق الذي تقتل به النفس المحرمة واحد من ثلاثة وهي القود والقصاص فمن قتل نفسًا متعمدًا جاز قتله بها قصاصًا. والزنى بعد الإحصان فمن زنى وهو محصن وجب قتله رجمًا بالحجارة كفارة له، والردة عن الإسلام، وقد بينت هذه الحقوق السنة فقد قال ﷺ في الصحيح: «**لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**» وقوله تعالى في ختام الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ليعدكم بترك هذه المحرمات الخمس لأن تكونوا في عداد العقلاء لأن من يشرك بربه صنمًا أو يسيء إلى أبويه أو يقتل أولاده أو يفجر بنساء الناس أو يقتلهم، لا يعتبر عاقلاً أبدًا إذ لو كان له عقل ما أقدم على هذه العظائم من الذنوب والآثام.

﴿١٥٢﴾ وفي الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ[2] وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ ففي هذه الآية جاء تحريم أربعة أمور هي: أكل مال اليتيم، والتطفيف في الوزن، والجور في الأقوال والأحكام، ونكث العهد. فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ أي بما ينقصه أو يفسده إلا بالحالة التي هي أحسن له نماءً وحفظًا، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ بيان لزمن اليتم وهو من ولادته وموت والده إلى أن يبلغ زمن الأشد وهو البلوغ، والبلوغ يعرف بالاحتلام أو نبات شعر العانة، وفي الجارية بالحيض أو الحمل، وببلوغ الثامنة عشرة من العمر وعلى شرط أن يبلغ اليتيم[3] عاقلاً فإن كان غير عاقل يبقى في كفالة كافله، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ[4] وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أمر بتوفية الكيل والوزن، والأمر بالشيء نهي عن ضده، وبذا حرم بخس الكيل والوزن والتطفيف فيهما وقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل بحيث لا يزيد ولا ينقص، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي طاقتها رفعًا للحرج عن المسلم في الكيل والوزن إذا هو نقص أو زاد بغير عمد ولا تساهل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا[5] وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ هذا المحرم

---

(١) قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يخرج به نفس الكافر المحارب فقط فهي التي تقتل بحق الحرب والكفر، وما عداها فكل نفس محرمة القتل ولذا حرم رسول الله ﷺ نفس الكافر المعاهد والذمّي بقوله: «**من قتل معاهدًا في غير كنهه** (أي: في غير الحقيقة التي توجب قتله كنقضه المعاهدة مثلاً). حرم الله **عليه الجنة**»، والحق الذي تقتل به النفس المحرمة القتل هو قتل النفس، وزنى المحصن والردة والخروج عن إمام المسلمين والمفارقة للجماعة.

(٢) قيل: الأشد مفرد لا جمع له بمنزلة الآنك أي: الرصاص. وقيل: واحده شدّ نحو فلس وأفلس، وهو مأخوذ من شد النهار إذا ارتفع.

(٣) لأن الرشد لا يكون إلا مع العقل والله يقول: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ والرشد مقابل السفه وهو إساءة التصرف فيما أُسند إليه من مال وغيره.

(٤) ورد في التطفيف وعيد شديد قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾، وقال الرسول ﷺ: «**ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق**».

(٥) الأمر بالعدل في القول يتناول الأحكام والشهادات.

الثالث وهو قول الزور وشهادة الزور، إذ الأمر بالعدل في القول ولو كان المقول له أو فيه قريبًا نهى عن ضده وهو الجور في القول.

وقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ[1] أَوْفُواْ﴾ متضمن للمحرم الرابع وهو نكث العهد وخلف الوعد، إذ الأمر بالوفاء بالعهود نَهْيٌ عن نكثها وعدم الوفاء بها، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته هذه الآية الثانية مما حرم تعالى على عباده، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي ليعدكم بذلك لأن تذكروا فتتعظوا فتجتنبوا ما حرم عليكم.

(١٥٣) وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾ هذه هي الآية الثالثة من آيات الوصايا العشر[2] وقد تضمنت الأمر بالتزام الإسلام عقائدًا وعبادات وأحكامًا وأخلاقًا وآدابًا، كما تضمنت النهي عن اتباع غيره من سائر الملل والنحل المعبر عنها بالسبل، وما دام الأمر بالتزام الإسلام يتضمن النهي عن ترك الإسلام فقد تضمنت الآية تحريمًا ألا وهو ترك الإسلام واتباع غيره هذا الذي حرم الله تعالى على عباده لا ما حرمه المشركون بأهوائهم وتزيين شركائهم. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إشارة إلى التزام الإسلام وترك ما عداه ليعدكم بذلك للتقوى وهي اتقاء غضب الرب تعالى وعذابه.

هداية الآيات:

١ ـ هذه الوصايا العشر عليها مدار الإسلام وسعادة الإنسان في الدارين، كان عبدالله بن مسعود يقول فيها «من سره أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ الآيات الثلاث من آخر سورة الأنعام: (١٥١) ـ (١٥٢) ـ (١٥٣) ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾.

٢ ـ حرمة الشرك وعقوق الوالدين وقتل الأولاد والزنى واللواط وكل قبيح من قول أو عمل أو اعتقاد وقتل النفس إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وبخس الكيل والوزن، وقول الزور وشهادة الزور، ونكث العهد وخلف الوعد، والردة عن الإسلام، واتباع المذاهب الباطلة والطرق الضالة.

٣ ـ كمال العقل باجتناب المحرمات الخمس الأولى.

٤ ـ الحصول على ملكة المراقبة باجتناب المحرمات الأربع الثانية.

٥ ـ النجاة من النار والخزي والعار في الدارين بالتزام الإسلام حتى الموت والبراءة من غيره من سائر المذاهب[3] والملل والطرق.

---

(١) هذا الوفاء عام في كل ما عهد الله تعالى به إلى عباده من سائر الفرائض والواجبات وسائر التكاليف كما يتضمن العهود التي تكون بين الإنسان وأخيه الإنسان.

(٢) هذه الوصايا العشر موجودة في أول التوراة ومع الأسف أضاعها اليهود لشقائهم.

(٣) روى الدارمي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط لنا رسول الله ﷺ يومًا خطًا ثم قال: **«هذا سبيل الله»** ثم خط خطوطًا عن يمينه وخطوطًا عن يساره ثم قال: **«هذه سبلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها»**. ثم قرأ هذه الآية: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾. وهذه صورة تقريبية:

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٤ ـ ١٥٧]

(١٥٤) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: التوراة. ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾: تحتاج إليه أمة بني إسرائيل في عقائدها وعباداتها وفضائلها وأحكامها.

(١٥٥) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾: القرآن الكريم. ﴿مُبَارَكٞ﴾: خيريته ونفعه وبركته دائمة.

(١٥٦) ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾: اليهود والنصارى. ﴿عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾: أي قراءتهم لكتبهم لأنها بلسانهم ونحن لا نفهم ذلك.

(١٥٧) ﴿وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾: أعرض عنها ولم يلتفت إليها. ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾: أي سيء العذاب وهو أشده.

معنى الآيات:

(١٥٤) هذا الكلام متصل بما قبله، فثم[١] حرف عطف والمعطوف عليه هو قل تعالوا أتل الآيات أي ثم قل يا رسولنا آتى ربي موسى الكتاب تمامًا لنِعَمِه ﴿عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ طاعة ربه وهو موسى عليه السلام، ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ مما تحتاج إليه أمة بني إسرائيل في عقائدها، وعباداتها وأحكامها العامة والخاصة ﴿وَهُدٗى﴾ يتبينون به الحق والصواب، ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ لهم في دنياهم لما يحمله من الدعوة إلى العدل والخير رجاء أن يوقنوا بلقاء ربهم.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ[٢]﴾ أي بني إسرائيل ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ فيعملون الصالحات ويتخلون عن المفاسد والشرور لما تجلبه لهم من غضب الله تعالى وعذابه.

(١٥٥) أما الآية الثانية (١٥٥) فقد أشاد الله تعالى بالقرآن الكريم ممتنًا بإنزاله وما أودع فيه من البركة التي ينالها كل من يؤمن به ويعمل به ويتلوه تعبدًا وتقربًا وتعلمًا. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ وقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ...﴾[٣] أمر للعباد باتباع ما جاء في القرآن الكريم من عقائد وعبادات وشرائع وأحكام فإن من اتبعه قاده إلى السعادة والكمال في الحياتين، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ[٤] لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أي اتقوا ترك العمل به ليعدكم ذلك الذي هو متابعة القرآن والتقوى للرحمة فترحمون في الدنيا والآخرة.

(١٥٦) وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ۝﴾ فمعناها: إن الله تعالى أنزل الكتاب على رسوله محمد ﷺ وأمره بتلاوته وإبلاغه الناس لئلا يقول الكافرون من العرب إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا اليهود والنصارى والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل، ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ إذ لم نعرف لغتهم، ولم نعرف ما يقرؤونه في كتابهم، فتقوم الحجة لكم علينا فقطعًا لهذه الحجة أنزلنا الكتاب.

(١٥٧) وقوله تعالى في الآية الرابعة: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ كما قطع تعالى عذرهم بإنزال كتابه الكريم لو قالوا يوم القيامة إنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى ونحن لم ينزل إلينا شيء فلذا ما عرفنا ربنا ولا عرفنا محابه ومكارهه فنطيعه بفعل محابه وترك مكارهه، قطع كذلك عذرهم لو قالوا لو أنا أنزل علينا الكتاب الهادي إلى الحق المعرف بالهدى لكنا أهدى من اليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب قبلنا، فقال تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وهو القرآن الكريم ورسوله ﷺ المبلغ له ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ أي وجاءكم الهدى والرحمة يحملهما القرآن الكريم، فأي حجة بقيت لكم تحتجون بها

---

(١) قال الزجاج: ثم ها هنا للعطف على معنى التلاوة، فالمعنى أتلو ما حرم ربكم عليكم. ثم أتلو عليكم ما آتى الله موسى إلخ.. فهي إذًا لعطف الجُمل وما كان لعطف الجمل فلا يراعى فيه تراخي الزمان.

(٢) أي: رجاء أن يؤمنوا بلقاء ربهم.

(٣) أي: اعملوا بما فيه متتبعين ما فيه من أوامر ونواهٍ تفعلون الأمر وتتركون النهي.

(٤) أي: اتقوا تحريفه وتبديله كما فعلت اليهود.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

١٥٠

عند الله يوم القيامة إنكم إن لم تقبلوا هذه البينة وما تحمله من هدى ورحمة فقد كذبتم بآيات الله وصدفتم عنها ولا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها، وسيجزيكم بما يجزي به المكذبين بآيات الله الصادفين عنها.

هذا ما دلت عليه الآية الرابعة (١٥٧) ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي كراهية أن تقولوا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ[1] مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى[2] وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - بيان منة الله تعالى على موسى عليه السلام والثناء عليه لإحسانه.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء يوم القيامة.

٣ - الإشادة بالقرآن الكريم، وما أودع الله فيه من البركة والهدى والرحمة والخير.

٤ - قطع حجة المشركين بإنزال الله تعالى كتابه وإرسال رسوله محمد ﷺ.

٥ - التنديد[3] بالظلم، وبيان جزاء الظالمين المكذبين بآيات الله المعرضين عنها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٨ ـ ١٦٠]

(١٥٨) ﴿بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾: أي علامات الساعة منها طلوع الشمس من مغيبها.

﴿كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾: من الطاعات والقربات.

(١٥٩) ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾: جعلوه طرائق ومذاهب تتعادى. ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾: طوائف وأحزابا.

(١٦٠) ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾: أي أتى يوم القيامة بالحسنة التي هي الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته والعمل بطاعته وطاعة رسوله ﷺ. ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾: أي بالشرك بالله ومعاصيه.

معنى الآيات:

(١٥٨) بعد ذكر الحجج وإنزال الآيات التي هي أكبر بينة على صحة التوحيد وبطلان الشرك، والعادلون بربهم الأصنام ما زالوا في موقفهم المعادي للحق ودعوته ورسوله ﷺ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ . . .﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة لفصل القضاء، ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ[4] رَبِّكَ﴾ الدالة على قرب الساعة كطلوع الشمس من مغربها، إن موقف الإصرار على التكذيب هو موقف المنتظر لما ذكر تعالى من

---

(١) أي: بطل عذركم بمجيء النبي الأمي ﷺ لكم وهو البيّنة وسمي بينة لكماله الخلقي والخلقي ولما معه من العلوم والمعارف الإلهية وهو أميّ لا يقرأ ولا يكتب.

(٢) الهدى والرحمة المراد بهما ما في القرآن الكريم من هدى ورحمة للمؤمنين بقرينة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

(٣) وفي الحديث الصحيح: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**». وفي آخر الظلم يذر الديار بلاقع أي: قفرًا خالية.

(٤) الآيات بمعنى العلامات الدالة على قرب الساعة الكبرى منها عشر جاءت في حديث مسلم إذ روى عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى ابن مريم، وخروج الدجال وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا**».

الملائكة ومجيء الرب تعالى أو مجيء علامات الساعة للفناء. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على قرب الساعة وهي طلوع الشمس من مغربها إيذانًا بقرب ساعة الفناء. في هذه الحال يخبر تعالى أن نفسًا لم تكن آمنت قبل ظهور هذه الآية لو آمنت بعد ظهورها لا يقبل منها إيمانها ولا تنتفع به لأنه أصبح إيمانًا اضطراريًا لا اختياريًا، كما أن نفسًا آمنت به قبل الآية، ولكن لم تكسب في إيمانها خيرًا وأرادت أن تكسب الخير فإن ذلك لا ينفعها فلا تثاب عليه، لأن باب التوبة مفتوح إلى هذا اليوم وهو يوم[1] طلوع الشمس من مغربها فإنه يغلق.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ يأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لأولئك العادلين بربهم المصرين على الشرك والتكذيب: ما دمتم منتظرين انتظروا إنا منتظرون ساعة هلاككم فإنها آتية لا محالة.

(١٥٩) هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٥٨) أما الآيتان بعدها فإن الله تعالى أخبر رسوله ﷺ بأن الذين فرقوا دينهم[2] وكانوا شيعًا أي طوائف وأحزابًا وفرقًا مختلفة كاليهود والنصارى، ومن يبتدع من هذه الأمة بدعًا فيتابع عليها فيصبحون فرقًا وجماعات ومذاهب مختلفة متطاحنة متحاربة هؤلاء ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي أنت بريء منهم، وهم منك بريئون، وإنما أمرهم إلى الله تعالى هو الذي يتولى جزاءهم فإنه سيجمعهم يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون من الشر والخير.

(١٦٠) ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ من قبلنا فلا ننقص المحسن منهم حسنة من حسناته، ولا نضيف إلى سيئاته سيئة ما عملها، هذا حكم الله فيهم.

هداية الآيات:

١ - إثبات صفة الإتيان في عرصات القيامة للرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.

٢ - تقرير أشراط الساعة وإن طلوع الشمس منها وأنها متى ظهرت أغلق باب التوبة.

٣ - حرمة الفرقة في الدين وأن اليهود والنصارى فرقوا دينهم وأن أمة الإسلام أصابتها الفرقة كذلك بل وهي أكثر لحديث **«وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة»**.

٤ - براءة الرسول ﷺ ممن فرقوا دينهم وترك الأمر لله يحكم بينهم بحكمه العادل.

٥ - مضاعفة الحسنات، وعدم مضاعفة السيئات عدل من الله ورحمة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦١ - ١٦٥]

(١٦١) ﴿قِيَمًا﴾[3]: أي مستقيمًا. ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: أي دين إبراهيم وهو الإسلام. ﴿حَنِيفًا﴾: مائلاً عن الضلالة إلى الهدى.

(١٦٢) ﴿وَنُسُكِي﴾: ذبحي تقربًا إلى الله تعالى. ﴿وَمَحْيَاىَ﴾: حياتي.

(١٦٤) ﴿أَبْغِي رَبًّا﴾: أطلب ربًا: إلهًا معبودًا أعبده. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾: أي لا تحمل نفس وازرة أي آثمة. ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي إثم نفس أخرى.

(١٦٥) ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي يخلف بعضكم بعضًا جيل يموت وآخر يحيا إلى نهاية الحياة. ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾: أي ليختبركم فيما أعطاكم من الصحة والمرض والمال والفقر والعلم والجهل.

معنى الآيات:

(١٦٢) في هذه الآيات وهي خاتمة هذه السورة التي بلغت آياتها بضعًا وستين ومائة آية وكانت كلها في الحجاج مع العادلين بربهم وبيان طريق الهدى لهم لعلهم يؤمنون فيوحدون ويسلمون. في هذه الآيات أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن عن مفاصلته لأولئك المشركين فقال له:

---

(١) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها**» فذلك ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾.

(٢) قرىء: ﴿**فارقوا دينهم**﴾ أي: تركوه وتخلوا عنه. وقراءة الجمهور: ﴿**فَرَّقُواْ**﴾ بالتضعيف حيث أصبح لكل فرقة اعتقاد وعمل خاص بها ومن فرّق فقد فارق أحب أم كره.

(٣) قيمًا مصدر على وزن شِبَع وصف به المنصوب وهو دينًا ومعناه مستقيمًا لا عوج فيه وهو الإسلام.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾[1] أي ما أذبحه تقربًا إلى ربي، ﴿وَمَحْيَايَ﴾ أي ما آتيه في حياتي ﴿وَمَمَاتِي﴾ أي ما أموت عليه من[2] الطاعات والصالحات ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وحده (١٦٣) ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي أمرني ربي سبحانه وتعالى، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ لا يسبقني أحد أبدًا. كما أمره أن ينكر على المشركين دعوتهم إليه ﷺ لأن يعبد معهم آلهتهم، ليعبدوا معه إلهه وقال:

(١٦٤) ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ أي أطلب إلهًا، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ما من كائن في هذه الحياة إلا والله ربه أي خالقه ورازقه، وحافظه، وأعلمه أنه لا تكسب نفس من خير إلا وهو لها، ولا تكسب من شر إلا عليها، وأنه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي لا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس مذنبة أخرى، وأن مرد الجميع إلى الله تعالى ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي ويقضي بينكم فينجو من ينجو ويهلك من يهلك.

(١٦٥) كما أخبره أن يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي يخلف بعضكم بعضًا هذا يموت فيورث، وهذا الوارث يموت فيورث، وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي هذا غني وهذا فقير، هذا صحيح وهذا ضرير، هذا عالم وذاك جاهل، ثم علّل تعالى لتدبيره فينا بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي يختبركم فيما آتاكم ليرى الشاكر ويرى الكافر، ولازم الابتلاء النجاح أو الخيبة فلذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيعذب الكافر ويغفر ويرحم الشاكر.

هداية الآيات:

١ - ملة إبراهيم عليه السلام هي الإسلام.

٢ - مشروعية قول: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في القيام للصلاة[3].

٣ - لا يصح طلب رب غير الله تعالى لأنه رب كل شيء.

٤ - عدالة الله تعالى تتجلى يوم القيامة.

٥ - عدالة الجزاء يوم القيامة.

٦ - تفاوت الناس في الغنى والفقر والصحة والمرض، والبر والفجور وفي كل شيء مظهر من مظاهر تدبير الله تعالى في خلقه. ينتفع به الذاكرون من غير أصحاب الغفلة والنسيان.

❁ ❁ ❁

سورة الأعراف
مكية[4]
وآياتها ست ومائتا آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٥]

(١) ﴿المص﴾: هذه أحد الحروف المقطعة ويقرأ هكذا: ألف لام ميم صَاذ. والله أعلم بمراده بها.

(٢) ﴿كِتَابٌ﴾: أي هذا كتاب. ﴿حَرَجٌ﴾: ضيق. ﴿وَذِكْرَى﴾: تذكرة بها يذكرون الله وما عنده وما لديه فيقبلون على طاعته.

(٣) ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: رؤساؤهم في الشرك. ﴿مَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي تتعظون فترجعون إلى الحق.

(٤) ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾: أي كثيرًا من القرى. ﴿بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾: عذابنا ليلاً وهم نائمون. ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾: أي نائمون بالقيلولة وهم مستريحون.

(٥) ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾: أي دعاؤهم إلا قولهم إنا كنا ظالمين.

معنى الآيات:

(١) ﴿المص﴾ في هذه الحروف إشارة إلى أن هذا القرآن تألف من مثل هذه الحروف المقطعة وقد عجزتم عن تأليف مثله فظهر بذلك أنه كلام الله ووحيه إلى رسوله ﷺ فآمنوا به.

---

(١) قيل: المراد من الصلاة هنا صلاة العيد لمناسبة النسك وهو الذبح تقربًا وقيل: صلاة نافلة والعموم أولى. وكذا النسك يطلق على الذبح تقربًا وهو مراد هنا ويطلق على سائر العبادات من الفرائض والنوافل لأن النسك هو التعبد.

(٢) قال القرطبي: في الآية وما أُوصي به بعد وفاتي وهو حسن ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

(٣) لحديث مسلم عن عليّ بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أقام الصلاة قال: «**وجهت وجهي لله فاطر السموات..**» إلخ.. الآية، وفيه دعاء طويل ذكره القرطبي عند تفسير هذه الآية.

(٤) إلاّ قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾، فإنها مدنيات.

ترتيبها ٧ سُورَةُ الأَعْرَافِ آياتها ٢٠٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

١٥١

﴿٢﴾ وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي هذا كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[(١)] يا رسولنا ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي ضيق منه ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ قومك عواقب شركهم وضلالهم، وتذكر به المؤمنين منهم ذكرى وقل لهم:

﴿٣﴾ ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ من الهدى والنور، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦ﴾ أي من غيره ﴿أَوْلِيَآءَ﴾[(٢)] لا يأمرونكم إلا بالشرك والشر والفساد، وهم رؤساء الضلال في قريش ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتعظون فترجعون إلى الحق الذي جانبتموه.

﴿٤﴾ ﴿وَكَم[(٣)] مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكثيرًا من القرى أهلكنا أهلها لما جانبوا الحق ولازموا الباطل ﴿فَجَآءَهَا[(٤)] بَأْسُنَا[(٥)]﴾ أي عذابنا الشديد ﴿بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي ليلًا أو نهارًا.

﴿٥﴾ فما كان دعاءهم[(٦)] يومئذ إلا قولهم: يا ويلنا إنا كنا ظالمين فاعترفوا بذنبهم، ولكن هيهات أن ينفعهم الاعتراف بعد معاينة العذاب.

هداية الآيات:

١ - القرآن الكريم هو مصدر نذارة الرسول ﷺ وبشارته بما حواه من الوعد والوعيد، والذكرى والبشرى.

٢ - وجوب اتباع الوحي، وحرمة اتباع ما يدعو إليه أصحاب الأهواء والمبتدعة.

٣ - الاعتبار بما حل بالأمم الظالمة من خراب ودمار.

٤ - لا تنفع التوبة عند معاينة الموت أو العذاب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ ـ ١٠]

﴿٦﴾ ﴿أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾: هم الأمم والأقوام.

﴿٧﴾ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾: فلنخبرنهم بأعمالهم متتبعين لها فلا نترك منها شيئًا. ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾: أي عنهم أيام كانوا يعملون.

﴿٨﴾ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾: أي العدل. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: أي بالحسنات فأولئك هم المفلحون بدخول الجنة.

﴿٩﴾ ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾: بدخولهم النار والاصطلاء بها أبدًا.

﴿١٠﴾ ﴿مَعَٰيِشَ﴾: جمع معيشة بمعنى العيش الذي يعيشه الإنسان. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: أي شكرًا قليلًا والشكر ذكر النعمة للمنعم[(٧)] وطاعته بفعل محابه وترك مكارهه.

معنى الآيات:

﴿٦﴾ ـ ﴿٧﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ

(١) جملة: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يصح إعرابها في محل نعت لكتاب ويصح إعرابها في محل نصب حالاً من هذا كتاب نحو: (هذا بعلي شيخًا) وإن لم يقدر لفظ هذا تعرب جملة حينئذٍ في محل رفع خبر كتاب، ويكون التنكير في كتاب للتعظيم وهو كالوصف فيسوغ الابتداء به وإن كان نكرة نحو قولهم: شرٌ أهر ذا ناب.

(٢) قالت العلماء: كلّ من رضي مذهبًا فأهل ذلك المذهب أولياؤه، ومنع أولياء من الصرف لأنّ فيه ألف التأنيث.

(٣) كم: للتكثير كما أنّ ربّ للتقليل وهي في موضع رفع على الابتداء، والخبر جملة أهلكناها، والتقدير: وكثير من القرى أهلكناها.

(٤) ﴿فَجَآءَهَا﴾ في حرف الفاء هنا إشكال لأنّ الإهلاك قد تمّ فما معنى مجيء البأس حينئذ؟ وعليه فليكن تقدير الكلام: وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا.

(٥) البأس: العذاب الآتي على النفس.

(٦) الدعاء والدعوى بمعنى واحد ومنه: وآخر دعواهم أي: دعائهم.

(٧) وحده والثناء بها عليه.

ﵟٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ[(١)] وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ[(٢)] ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝ﵞ يخبر تعالى أنه إذا جمع الخلائق لفصل القضاء مؤكدًا الخبر بالقسم أنه يسأل كل أمة أو جماعة أو فرد أرسل إليهم رسله يسألهم عن مدى إجابتهم دعوة رسله إليهم، فهل آمنوا بما جاءتهم به الرسل، وأطاعوهم فيما بلغوهم من التوحيد والعبادة والطاعة والانقياد، كما يسأل الرسل أيضًا هل بلغوا ما ائتمنهم عليه من رسالته المتضمنة أمر عباده بالإيمان به وتوحيده وطاعته في أمره ونهيه، ثم يقصُّ تعالى على الجميع بعلمه كل ما كان منهم من ظاهر الأعمال وباطنها، ولا يستطيعون إخفاء شيء أبدًا، ولم يكن سؤاله لهم أولاً، إلا من باب إقامة الحجة وإظهار عدالته سبحانه وتعالى فيهم، ولتوبيخ من يستحق التوبيخ منهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﵟفَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝ﵞ عنهم حينما كانوا في الدنيا يعملون فكل أعمالهم كانت مكشوفة ظاهرة له تعالى ولا يخفى عليه منها شيء وهو السميع البصير.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦) والثانية (٧).

(٨) - (٩) أما الآيتان الثالثة والرابعة فقد أخبر تعالى أنه بعد سؤالهم وتعريفهم بأعمالهم ينصب الميزان وتوزن[(٣)] لهم أعمالهم فمن ثقلت موازين حسناته أفلح بالنجاة من النار ودخول الجنة دار السلام ومن خفَّت لقلة حسناته وكثرة سيئاته[(٤)] خسر نفسه بإلقائه في جهنم ليخلد في عذاب أبدي، وعلل تعالى لهذا الخسران في جهنم بقوله: ﵟبِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَﵞ أي يكذبون ويجحدون، وأطلق الظلم وأريد به التكذيب والجحود لأمرين هما:

أولاً: اكتفاء بحرف الجر الباء إذ لا تدخل على ظلم ولكن على كذب أو جحد يقال كذب به وجحد به ولا يقال ظلم به ولكن ظلمه وهذا من باب التضمين وهو سائغ في لغة العرب التي نزل بها القرآن.

وثانيًا: أنهم بدل أن يؤمنوا بالآيات وهي واضحات كذبوا بها فكانوا كأنهم ظلموا الآيات ظلمًا حيث لم يؤمنوا بها وهي بينات.

(١٠) هذا ما دلت عليه الآيتان أما الآية الخامسة (١٠) فقد تضمنت امتنان الله تعالى على عباده، وكان المفروض أن يشكروا نعمه عليهم بالإيمان به وتوحيده وطاعته، ولكن الذي حصل هو عدم الشكر من أكثرهم قال تعالى: ﵟوَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِﵞ حيث جعلهم متمكنين في الحياة عليها يتصرفون فيها ويمشون في مناكبها، وقوله: ﵟوَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ[(٥)]ﵞ هذه نعمة أخرى وهي أن جعل لهم فيها معايش وأرزاقًا يطلبونها فيها ويحصلون عليها وعليها قامت حياتهم، وقوله: ﵟقَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَﵞ أي لا تشكرون إلا شكرًا يسيرًا لا يكاد يذكر.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والسؤال والحساب ووزن الأعمال يوم القيامة.

٢ - صعوبة الموقف حيث تسأل الأمم والرسل عليهم السلام كذلك.

---

(١) في الآية دليل على أنّ الكفار يحاسبون وإن لم توزن أعمالهم لقوله تعالى: ﵟفَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗاﵞ فمحاسبتهم لإظهار العدالة الإلهية لا لأن لهم أعمالاً صالحة يجزون بها والله أعلم.

(٢) ويشهد لهذه المسألة قوله ﷺ في الصحيح: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته، والرجل يسأل عن أهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده**».

(٣) هنا زلت أقدام المعتزلة فأوّلوا الوزن للأعمال والميزان وقالوا: الأعراض لا توزن ولو اتبعوا لأوّلوا الميزان بالصراط والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطين والجنّ على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة وهكذا حتى لا يبقى للدين حقيقة والعياذ بالله من فساد القلوب والعقول ومن الجري وراء فلسفة الإغريق واليونان.

(٤) ورد في السنة الصحيحة أنّ الأعراض تحوّل إلى أجسام وتوزن كما في حديث: «**أنّ البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة وكأنهما غمامتان**». الحديث، كما توزن صحائف الأعمال لحديث: «**فطاشت السجلات وثقلت البطاقة**» وحديث: «**يؤتى بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة**» وبهذا تقرر أنّ الأعمال توزن وتوزن محالها وفاعلوها والله على ذلك قدير.

(٥) المعايش: جمع معيشة، والمعيشة: ما يتوصل به إلى العيش الذي هو الحياة من المطاعم والمشارب. والتمكين في الأرض: معناه جعلها قارة ممهدة لا تضطرب ولا تتحرك فيفسد ما عليها.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

٣ - الفلاح والخسران مبنيان على الكسب في الدنيا فمن كسب خيرًا نجا، ومن كسب شرًا هلك.

٤ - وجوب شكر النعم بالإيمان والطاعة لله ورسوله ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ ـ ١٨]

﴿١١﴾ ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾: أي خلقنا أباكم آدم أي قدرناه من الطين ثم صورناه على الصورة البشرية الكريمة التي ورثها بنوه من بعده إلى نهاية الوجود الإنساني. ﴿فَسَجَدُوا﴾: أي سجود تحية لآدم عليه السلام.

﴿إِبْلِيسَ﴾: أبو الشياطين من الجن وكنيته أبو مرة، وهو الشيطان الرجيم.

﴿١٣﴾ ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾: أي من الجنة.

﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾: جمع صاغر الذليل المهان.

﴿١٦﴾ ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: أي فبسبب إضلالك لي.

﴿١٨﴾ ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾: ممقوتًا مذمومًا مطرودًا.

معنى الآيات:

﴿١١﴾ ما زال السياق في تعداد أنعم الله تعالى على عباده تلك النعم الموجبة لشكره تعالى بالإيمان به وطاعته فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ[1]﴾ أي خلقنا أباكم آدم من طين ثم صورناه بالصورة البشرية التي ورثها بنوه عنه، ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وفي هذا إنعام آخر وهو تكريم أبيكم آدم بأمر الملائكة بالسجود له تحية له وتعظيمًا ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ[2] لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي أبى وامتنع أن يسجد، فسأله ربه تعالى قائلاً:

﴿١٢﴾ ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ[3] إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي أي شيء جعلك لا تسجد فأجاب إبليس قائلاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فأنا أشرف منه فكيف أسجد له، ولم يكن إبليس مصيبًا في هذا القياس الفاسد[4] أولاً: ليست النار أشرف من الطين بل الطين أكثر نفعًا وأقل ضررًا، والنار كلها ضرر، وما فيها من نفع ليس بشيء إلى جانب الضرر.

﴿١٣﴾ وثانيًا: إن الذي أمره بالسجود هو الرب الذي تجب طاعته سواء كان المسجود له فاضلاً أو مفضولاً، وهنا أمره الرب تعالى أن يهبط من الجنة فقال: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي الذليلين الحقيرين، ولما وقع إبليس في ورطته، وعرف سبب هلكته وهو عدم سجوده لآدم قال للرب تبارك وتعالى:

﴿١٤﴾ ﴿أَنظِرْنِي﴾ أي أمهلني لا تمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فأجابه الرب بقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو فناء هذه الدنيا فقط وذلك قبل البعث، جاء هذا الجواب في سورة الحجر وهنا قال:

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ ومراد إبليس في الإمهال التمكن من إفساد أكبر

---

(١) ويصح أن يقال: خلقناكم نطفًا ثم صورناكم، وما في التفسير أولى بالآية وأصح بدليل قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾.

(٢) استثناء من غير الجنس إذ إبليس من الجنّ ولم يكن من الملائكة.

(٣) ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ ما: في موضع رفع بالابتداء فهي اسم استفهام والتقدير: أي شيء منعك من السجود؟ وأن المصدرية مدغمة في لا الزائدة بدليل عام زيادتها في [صۤ] إذ قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ أي: من السجود لآدم.

(٤) قال ابن عباس والحسن: أوّل من قاس إبليس فأخطأ القياس، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله تعالى مع إبليس. قال العلماء: من جوهر الطين الرزانة والسكون والوقار والأناة ولهذا تاب آدم، ومن جوهر النار الخفة والحدة والطيش والارتفاع ولذا لم يتب إبليس.

عدد من بني آدم انتقامًا منهم إذ كان آدم هو السبب في طرده من الرحمة، ولما أجابه الرب إلى طلبه قال: ﴿١٦﴾ ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي أضللتني ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يريد آدم وذريته، والمراد من الصراط الإسلام إذ هو الطريق المستقيم والموصل بالسالك له إلى رضوان الله تعالى. ﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ[1] وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ يريد يحيط بهم فيمنعهم سلوك الصراط المستقيم حتى لا ينجوا ويهلكوا كما هلك هو زاده الله هلاكًا، وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ هذا قول إبليس للرب تعالى، ولا تجد أكثر أولاد آدم الذي أضللتني بسببه شاكرين لك بالإيمان والتوحيد والطاعات.

﴿١٨﴾ وهنا أعاد الله أمره بطرد اللعين فقال: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي ممقوتًا مطرودًا ﴿لَّمَن[2] تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي فبعزتي لأملأن جهنم منك وممن اتبعك منهم أجمعين.

هداية الآيات:

١ - خطر الكبر على الإنسان.

٢ - ضرر القياس[3] الفاسد.

٣ - خطر إبليس وذريته على بني آدم، والنجاة منهم بذكر الله تعالى وشكره.

٤ - الشكر هو الإيمان والطاعة لله ورسوله ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ - ٢٢]

﴿١٩﴾ ﴿وَزَوْجُكَ﴾: هي حواء التي خلقها الله تعالى من ضلع آدم الأيسر. ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: دار السلام التي دخلها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج. ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي لأنفسهم.

﴿٢٠﴾ ﴿فَوَسْوَسَ﴾: الوسوسة: الصوت الخفي، ووسوسة الشيطان[4] لابن آدم إلقاء معانٍ فاسدة ضارة في صدره مزينة ليعتقدها أو يقول بها أو يعمل. ﴿لِيُبْدِيَ[5] لَهُمَا مَا وُۥرِىَ﴾: ليظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما.

﴿٢١﴾ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾: حلف لكل واحد منهما.

﴿٢٢﴾ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾: أي أدناهما شيئًا فشيئًا بخداعه وتغريره حتى أكلا من الشجرة. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾: وجعلا يشدان عليهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما.

معنى الآيات:

﴿١٩﴾ ولما طرد الرحمن إبليس من الجنة نادى آدم قائلاً له: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ أي حواء ﴿ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ يعني من ثمارها وخيراتها، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أشار لهما إلى شجرة من أشجار الجنة معينة، ونهاهما عن الأكل منها، وعلمهما أنهما إذا أكلا منها كانا من الظالمين المستوجبين للعقاب، واستغل إبليس هذه الفرصة التي أتيحت له فوسوس لهما[6] مزينًا لهما الأكل من الشجرة قائلاً لهما:

﴿٢٠﴾ ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

---

(١) معناه: لأصدنهم عن الحق، وأرغبهم في الدنيا وأشككهم في الآخرة وهذا غاية الضلال، وقال بعضهم: المراد من قوله: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من دنياهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من آخرتهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ يعني: حسناتهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ يعني: سيئاتهم.

(٢) اللام في ﴿لَّمَن﴾ موطئة للقسم، واللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ في جواب القسم والتقدير: وعزتي من تبعك منهم لأملأن جهنم منك ومنهم أجمعين.

(٣) القياس من الكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة مشروع محمود لأنه اعتصام بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وإنّما المذموم المحرّم: القياس على غير أصل من هذه الأصول الثلاثة: الكتاب، السنة، الإجماع، وهذا علي بن أبي طالب لما قال له أبو بكر رضي الله عنهما: أقيلوني بيعتي فقال عليّ: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، رضيك رسول الله ﷺ على ديننا أفلا نرضاك لدنيانا فقاس الإمامة على الصلاة لله، وقاس أبو بكر الزكاة على الصلاة.

(٤) الوسواس اسم للشيطان أيضًا قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾.

(٥) اللام: لام العاقبة والصيرورة.

(٦) ذهب الأولون مذاهب في تحديد كيفية اتصال إبليس بآدم وحوارهما في الجنة وهو خارج منها حتى وسوس لهما فأكلا من الشجرة التي لم يأذن الله تعالى لهما في الأكل منها إلاّ أن المخترعات الحديثة بيّنت لنا كيفية ذلك الاتصال وبيانه: أن الإنسان في نفسه قابلية لتلقي الوسواس أشبه ما تكون بجهاز اللاسلكي بواسطتها يتم الاتصال بين الإنسان وعدّوه إبليس وذريته.

﴿٢١﴾ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي حلف لهما أنه ناصح لهما[1] وليس بغاش لهما.

﴿٢٢﴾ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ وخداع حتى أكلا ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ . .﴾ أي ظهرت لهما سوءاتهما[2] حيث انحسر النور[3] الذي كان يغطيهما، فجعلا يشدان من ورق الجنة على أنفسهما ليسترا عوراتهما، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ وعندئذ ناداهما ربهما سبحانه وتعالى قائلاً: ألم أنهكما عن هذه الشجرة وهو استفهام تأديب وتأنيب. ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فكيف قبلتما نصحه وهو عدوكما.

هداية الآيات:

١ - سلاح إبليس الذي يحارب به ابن آدم هو الوسوسة والتزيين لا غير.

٢ - تقرير عداوة الشيطان للإنسان.

٣ - النهي يقتضي التحريم إلا أن توجد قرينة تصرف عنه إلى الكراهة.

٤ - وجوب ستر العورة من الرجال والنساء سواء.

٥ - جواز الإقسام بالله تعالى، ولكن لا يحلف إلا صادقًا.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

١٥٣

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣ - ٢٥]

﴿٢٣﴾ ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾: أي بأكلهما من الشجرة.

﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: الذين خسروا دخول الجنة والعيش فيها.

﴿٢٤﴾ ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: مكان استقرار وإقامة. متاع إلى حين: تمتع بالحياة إلى حين انقضاء آجالكم.

معنى الآيات:

﴿٢٣﴾ ما زال السياق في الحديث عن آدم عليه السلام، أنه لما ذاق آدم وحواء الشجرة وبدت لهما سوءاتهما وعاتبهما ربهما على ذلك قالا معلنين عن توبتهما: ﴿رَبَّنَا[4] ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ أي بذوق الشجرة ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ أي خطيئتنا هذه ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي الهالكين، وتابا فتاب الله تعالى عليهما وقال لهم اهبطوا إلى الأرض[5] إذ لم تعد الجنة في السماء دارًا لهما بعد ارتكاب المعصية، إن إبليس عصا بامتناعه عن السجود لآدم، وآدم وحواء بأكلهما من الشجرة.

﴿٢٤﴾ وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي اهبطوا إلى الأرض حال كون بعضكم لبعض عدوًا، إبليس وذريته عدو لآدم وبنيه، وآدم وبنوه عدو لإبليس وذريته، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي مقام استقرار، ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي تمتع بالحياة إلى حين انقضاء الآجال.

﴿٢٥﴾ وقوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[6] يريد من

---

(١) قال قتادة: حلف لهما بالله أنه خلق قبلهما وأنه أعلم منهما وحلف أنه ناصح لهما فانغرا به، على حد قول العلماء: مَنْ خدعنا بالله انخدعنا له.

(٢) سُمي الفرجان سوأتين وعورة لأن السوءة مشتقة مما يسيء إلى النفس بالألم والعورة هي كل ما استحيي من كشفه.

(٣) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: تقلّص النور الذي كان لباسهما فصار أظفارًا في الأيدي والأرجل. والله أعلم.

(٤) أي: يا ربنا. حذف حرف النداء لقربه منهما سبحانه وتعالى إذ يُنادى بحرف النداء البعيد.

(٥) قال ابن كثير: لو كان في تعيين الأماكن التي هبط فيها آدمَ وحواء وإبليس فائدة تعود على المكلّفين في دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى.

(٦) أي: للحساب والجزاء على الكسب في الدنيا من خير وشرّ.

الأرض التي أهبطهم إليها وهي هذه الأرض التي يعيش عليها بنو آدم، والمراد من الخروج الخروج من القبور إلى البعث والنشور.

هداية الآيات:

١ ـ قول آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا . .﴾ الآية هو الكلمة التي ألقاها تعالى إلى آدم فتلقاها عنه فتاب عليه بها.

٢ ـ شرط التوبة الاعتراف بالذنب وذلك بالاستغفار أي طلب المغفرة.

٣ ـ شؤم الخطيئة كان سبب طرد إبليس من الرحمة، وإخراج آدم من الجنة.

٤ ـ لا تَتِمُّ حياةٌ للإنسان على غير الأرض، ولا يدفن بعد موته في غيرها لدلالة آية ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ ـ ٢٨]

(٢٦) ﴿وَرِيشًا﴾[1]: لباس الزينة والحاجة. ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾: يستر عوراتكم. ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: خير في حفظ العورات والأجسام والعقول والأخلاق. ﴿مِنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ﴾: دلائل قدرته.

(٢٧) ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾: أي لا يصرفنكم عن طاعة الله الموجبة لرضاه ومجاورته في الملكوت الأعلى. ﴿أَبَوَيْكُم﴾: آدم وحواء. قبيله: جنوده من الجن.

(٢٨) ﴿فَٰحِشَةً﴾: خصلة قبيحة شديدة القبح كالطواف بالبيت عراة.

معنى الآيات:

(٢٦) قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ[2] ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا[3] عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ هذا النداء الكريم المقصود منه تذكير للمشركين من قريش بنعم الله وقدرته عليهم لعلهم يذكرون فيؤمنون ويسلمون بترك الشرك والمعاصي، من نعمه عليهم أن أنزل عليهم لباسًا يوارون به سوءاتهم، ﴿وَرِيشًا﴾ لباسًا يتجملون به، في أعيادهم ومناسباتهم، ثم أخبر تعالى أن لباس التقوى خير لصاحبه من لباس الثياب، لأن المتقي عبد ملتزم بطاعة الله ورسوله ﷺ، والله ورسوله ﷺ يأمران بستر العورات، ودفع الغائلات، والمحافظة على الكرامات، ويأمران بالحياء، والعفة وحسن السمت ونظافة الجسم والثياب فأين لباس الثياب مجردة عن التقوى[4] من هذه؟؟.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ﴾ أي من دلائل قدرته الموجبة للإيمان به وطاعته، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي رجاء أن يذكروا هذه النعم فيشكروا بالإيمان والطاعة.

(٢٧) هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٢٦) وفي الآية الثانية (٢٧) ناداهم مرة ثانية فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا[5] سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ يحذرهم من إغواء الشيطان لهم مذكرًا إياهم بما صنع مع أبويهما من إخراجهما[6] من الجنة بعد نزعه لباسهما عنهما فانكشفت سوءاتهما الأمر الذي سبب

---

(١) الريش للطائر ما يستر جسمه، وللإنسان اللّباس وجمعه رياش وهو ما كان فاخرًا من أنواع الألبسة.

(٢) ابتداء الخطاب بالنداء الحكمة منه ليقع إقبال المنادين على ما بعد النداء بكل قلوبهم.

(٣) إنزال اللّباس من السماء يعود لأمور منها: أن آدم أوّل من ستر عورته بورق التين من شجر الجنة ومنها أنّ آدم نزل مكسوًّا وورث عنه أولاده ذلك، ومنها أن الماء الذي به النبات ومنه يتخذ اللّباس كالقطن مثلاً نزل من السماء وحتى ذوات الصوف والوبر حياتها متوقفة على ماء السماء.

(٤) قال الشاعر في لباس التقوى ما يلي:

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى ... تقلب عريانًا وإن كان كاسيا

وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيا

(٥) في هذه الآية دليل على حرص الشيطان على أن يكشف الآدمي عورته لما يسبب ذلك من الفسق والفجور الذين يرغب الشيطان في إيقاع الآدمي فيهما.

(٦) تكاد تكون هذه سنة بشرية لا تتخلّف إذ ما من أمّة تبرج نساؤها فكشفن محاسنهن وأبدين عوارتهنّ إلاّ أسرع إليها الهلاك بزوال الملك وذهاب السلطان.

إخراجهما من دار السلام، منبهًا لهم على خطورة العدو من حيث أنه يراهم هو وجنوده، وهم لا يرونهم. ثم أخبر تعالى أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، وذلك حسب سنته في خلقه، فالشياطين يمثلون قمة الشر والخبث، فالذين لا يؤمنون قلوبهم مظلمة لانعدام نور الإيمان فيها فهي متهيئة لقبول الشياطين وقبول ما يوسوسون به ويوحونه من أنواع المفاسد والشرور كالشرك والمعاصي على اختلافها، وبذلك تتم الولاية بين الشياطين والكافرين.

(٢٨) وكبرهان على هذا الولاء بينهم أن المشركين إذا فعلوا فاحشة خصلة ذميمة قبيحة شديدة القبح ونهوا عنها احتجوا على فعلهم بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، وأن الله تعالى أمرهم بها وهي حجة باطلة لما يلي:

أولاً: فعل آبائهم ليس دينًا ولا شرعًا.

ثانيًا: حاشا لله تعالى الحكيم العليم أن يأمر بالفواحش إنما يأمر بالفواحش الذين يأتونها وهم الشياطين وأولياؤهم من الإنس ولهذا ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ ووبخهم معنفًا إياهم بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - التذكير بنعم الله تعالى المقتضي للشكر على ذلك بالإيمان والتقوى[(١)].

٢ - التحذير من الشيطان وفتنته لا سيما وأنه يرى الإنسان والإنسان لا يراه.

٣- القلوب الكافرة هي الآثمة، وبذلك تتم الولاية بين الشياطين والكافرين.

٤ - قبح الفواحش وحرمتها.

٥ - بطلان الاحتجاج بفعل الناس إذ لا حجة إلا في الوحي الإلهي.

٦ - تنزه الرب تعالى عن الرضا بالفواحش فضلًا عن الأمر بها.

الجزء الثامن — سورة الأعراف

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (٣١) قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (٣٢) قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (٣٤) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٣٥) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٦) فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (٣٧)﴾

١٥٤

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٩ ـ ٣١]

(٢٩) القسط[(٢)]: العدل في القول والحكمة والعمل. ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾: أي أخلصوا العبادة لله واستقبلوا بيته. ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾: كما بدأ خلقكم أول مرة يعيدكم بعد الموت أحياء.

(٣٠) ﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يوالونهم محبة ونصرة وطاعة، من غير الله تعالى.

(٣١) ﴿زِينَتَكُمۡ﴾: أي البسوا ثيابكم عند الدخول في الصلاة. ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾: في أكل ولا شرب، والإسراف مجاوزة الحد المطلوب في كل شيء.

معنى الآيات:

(٢٩) ما زال السياق في بيان أخطاء مشركي قريش فقد قالوا في الآيات السابقة محتجين على فعلهم الفواحش بأنهم وجدوا آباءهم على ذلك وأن الله تعالى أمرهم بها وأكذبهم الله تعالى في ذلك وقال في هذه الآية (٢٩): ﴿قُلۡ﴾ يا رسولنا ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ الذي هو العدل وهو الإيمان بالله ورسوله ﷺ وتوحيد الله تعالى في عبادته، وليس هو الشرك بالله وفعل الفواحش، والكذب على الله تعالى بأنه حلل كذا وهو لم يحلل، وحرّم كذا وهو لم يحرّم، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ

(١) الإيمان والتقوى بهما تحصل ولاية الرب للعبد، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٦٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٦٣)﴾.

(٢) القسط: العدل، وهو وسط بين الشرك والإلحاد. ولذا قال ابن عباس: القسط: لا إله إلاّ الله أي: بأن يعبد الله وحده.

﴿وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي وقل لهم يا رسولنا أقيموا وجوهكم عند كل مسجد[1] أي أخلصوا لله العبادة، واستقبلوا بيته الحرام، ﴿وَادْعُوهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي ادعوه وحده ولا تدعوا معه أحدًا قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ يذكرهم بالدار الآخرة والحياة الثانية، فإن من آمن بالحياة بعد الموت والجزاء على كسبه خيرًا أو شرًا أمكنه أن يستقيم على العدل والخير طوال الحياة.

(٣٠) وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ[2] وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ[3]﴾ بيان لعدله وحكمته ومظاهر قدرته فهو المبدىء والمعيد والهادي والمضل، له الملك المطلق والحكم الأوحد، فكيف يعدل به أصنام وأوثان هدى فريقًا من عباده فاهتدوا، وأضل آخرين فضلوا ولكن بسبب رغبتهم عن الهداية وموالاتهم لأهل الغواية، ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فضلوا ضلالاً بعيدًا ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ لتوغلهم في الظلام والضلال ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

(٣١) وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي البسوا ثيابكم عند الطواف[4] بالبيت فلا تطوفوا عراة، وعند الصلاة فلا تصلوا وأنتم مكشوفو العورات كما يفعل المشركون المتخذون الشياطين أولياء فأضلتهم حتى زينت لهم الفواحش قولاً وفعلاً واعتقادًا. وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا[5]﴾ أي كلوا مما أحلّ الله لكم واشربوا، ولا تسرفوا بتحريم ما أحلّ الله، وشرع ما لم يشرع لكم فالزموا العدل، فإنه تعالى لا يحب المسرفين فاطلبوا حبه بالعدل، واجتنبوا بغضه بطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب العدل في القول وفي الحكم.

٢ ـ وجوب إخلاص العبادة صلاةً كانت أو دعاءً لله تعالى.

٣ ـ ثبوت القدر.

٤ ـ وجوب ستر العورة في الصلاة.

٥ ـ حرمة الإسراف في الأكل والشرب وفي كل شيء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٢ ـ ٣٤]

(٣٢) ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾: التحريم: المنع، والزينة: ما يتزين به من ثياب وغيرها. ﴿وَالطَّيِّبَاتِ﴾: جمع طيب وهو الحلال غير المستخبث. ﴿خَالِصَةً﴾: لا يشاركهم فيها الكفار لأنهم في النار.

(٣٣) ﴿الْفَوَاحِشَ﴾: جمع فاحشة والمراد بها هنا الزنى واللواط السري

---

(١) أي: في كل موضع للصلاة من سائر بقاع الأرض إذ موضع السجود هو المسجد، وإقامة الوجوه بالذات: معناه أن لا يلتفت بقلبه ولا بوجهه إلى غير الله تعالى وهو إخلاص العبادة لله عزّ وجلّ.

(٢) ﴿فَرِيقًا﴾ نصب على الحال من الضمير في تعودون أي: حال كونكم فريقين فريقًا مهديًا سعيدًا، وفريقًا وجبت عليه الضلالة فجاء الموقف ضالاً شقيًا، وقال القرطبي: مَن ابتدأ الله خلقه للضلالة صيّره للضلالة ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى، وشاهد قوله هذا آدم وإبليس فآدم مخلوق للهداية وإبليس للضلالة.

(٣) أخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كانت المرأة في الجاهلية تطوف بالبيت وهي عريانة وتقول: من يعيرني تطوافًا تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

(٤) هذه الآية الكريمة أصل من أصول الدواء، إذ أمرت بالأكل والشرب وهما قوام الحياة وحرّمت الإسراف فيهما وهو سبب كافة الأمراض إذ قال رسول الله ﷺ: **«ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»** وشاهد آخر أنه كان لهارون الرشيد طبيب نصراني قال لعلي بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان علم أديان وعلم أبدان فقال له علي: قد جمع الله الطب كلّه في نصف آية من كتابنا فقال له: ما هي؟ قال: قوله عز وجل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

(٥) روي أن سمرة بن جندب رضي الله عنه سأل عن ابنه فقيل له: بشم البارحة؟ قال: بشم؟ قالوا: نعم، قال: أما إنه لو مات ما صليت عليه، وقال العلماء: من الإسراف: الأكل بعد الشبع، وقال لقمان لابنه: يا بني لا تأكل شبعًا فوق شبع فإنك إن تنبذه للكلب خير من أن تأكله.

كالعلني. ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾: كل ضار قبيح من الخمر وغيرها من سائر الذنوب. ﴿وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾: الظلم بغير قصاص ومعاقبة بالمثل. ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ﴾: أي الشرك بالله وهو عبادة غير الله تعالى. السلطان: الحجة التي تثبت بها الحقوق المختلف فيها أو المتنازع عليها.

(٣٤) ﴿أَجَلٌ﴾: وقت محدد تنتهي إليه.

معنى الآيات:

(٣٢) لما حرّم المشركون الطواف بالبيت بالثياب وطافوا بالبيت عراة بدعوى أنهم لا يطوفون بثياب عصوا الله تعالى فيها، أنكر تعالى ذلك عليهم بقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ[1] ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ[2]﴾ كلحوم ما حرموه من السوائب، فالاستفهام في قوله: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ للإنكار. ومعنى أخرجها: أنه أخرج النبات من الأرض كالقطن والكتان ومعادن الحديد لأن الدروع من الحديد، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[3] بالأصالة، لأن المؤمنين علماء فيحسنون العمل والإنتاج والصناعة، والكفار تبع لهم في ذلك لجهلهم وكسلهم وعدم بصيرتهم، ﴿خَالِصَةً[4] يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي هي خالصة للمؤمنين يوم القيامة لا يشاركهم فيها الكفار ولأنهم في دار الشقاء النار والعياذ بالله تعالى. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي كهذا التفصيل والبيان الذي بيناه وفصلناه في هذه الآيات وما زلنا نفصل ونبين ما ننزل من آيات القرآن الكريم لقوم يعلمون، أما غيرهم من أهل الجهل والضلال فإنهم لا ينتفعون بذلك لأنهم محجوبون بظلمة الكفر والشرك ودخان الأهواء والشهوات والشبهات.

(٣٣) هذا ما دلت عليه الآية الأولى **(٣٢)** أما الآية الثانية **(٣٣)** فقد تضمنت بيان أصول المحرمات وأمهات الذنوب وهي: الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم: وهو سائر المعاصي بترك الواجب أو فعل الحرام، والبغي: وهو الاستطالة على الناس والاعتداء عليهم بهضم حقوقهم وأخذ أموالهم وضرب أجسامهم وذلك بغير حق أوجب ذلك الاعتداء وسوّغه كأن يعتدي الشخص فيقتص منه ويعاقب بمثل ما جنى وظلم، والشرك بالله تعالى بعبادة غيره، والقول على الله تعالى بدون علم منه وذلك كشرع ما لم يشرع بتحريم ما لم يحرم، وإيجاب ما لم يوجب.

(٣٤) هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الثالثة والأخيرة في هذا السياق **(٣٤)** فقد أخبر تعالى فيها أن لكل أمة أجلًا محددًا أي وقتًا معينًا يتم هلاكها فيه لا تتقدمه بساعة ولا تتأخر عنه بأخرى. وفي هذا إشارة أفصح من عبارة وهي أن هلاك الأمم والجماعات والأفراد يتم بسبب انحرافهم عن منهج الحياة، كالمرء يهلك بشرب السم، وبإلقاء نفسه من شاهق، أو إشعال النار في جسمه كذلك ارتكاب أمهات الذنوب وأصول المفاسد التي ذكر تعالى في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ ...﴾ من شأنها أن تودي بحياة مرتكبيها لا محالة ما لم يتوبوا منها وتصلح حالهم بالعودة إلى منهج الحياة الذي وضع الله في الإيمان

---

(١) الزينة: هنا الملبس الحسن من غير ما حرّم كالذهب والحرير على الرجال ويطلق لفظ الزينة أيضًا على مطلق اللباس ولو لم يكن حسنًا.

(٢) الطيبات: اسم عام لكل ما طاب كسبًا وطعمًا وقد أكل الرسول ﷺ اللحم والعسل والحلوى والبطيخ والرطب، وإنما الذي يكره الإكثار منها والتكلف في شرائها وإعدادها، وعمر لم ينكر الطيبات وإنما أنكر الكثرة منها، فكان يرى عدم الجمع بين الطيبات ويكتفي بنوع واحد.

(٣) في الآية دليل على التجمل بأحسن الثياب وخاصة في الأعياد والجمع وزيارة الإخوان ومقابلة الوفود، وليس من السنة لبس المرقعات والفوط وليس معنى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾: أنه لباس الخشن والمرقعات أبدًا وإنما هو تقوى الله بامتثال الأمر واجتناب النهي، وقد تقدم معناها، وفي الحديث الصحيح: «**إن الله جميل يحب الجمال**».

(٤) قرىء: ﴿**خالصةٌ**﴾ بالرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي خالصةٌ، وقرىء: ﴿**خالصةً**﴾ بالنصب على الحال أي: ثابتة لهم في الدنيا حال كونها خالصةً لهم يوم القيامة.

والتوحيد والطاعة لله ورسوله ﷺ بفعل كل أمر وترك كل نهي.

هداية الآيات:

١ - الإنكار الشديد على من يحرم ما أحل الله من الطيبات كبعض المتنطعين(١).

٢ - المستلذات من الطعام والشراب والمزينات من الثياب وغيرها المؤمنون أولى بها من غيرهم لأنهم يحسنون العمل، ويبذلون الجهد لاستخراجها والانتفاع بها. بخلاف أهل الجهالات فإنهم عمي لا يبصرون ومقعدون لا يتحركون. وإن قيل العكس هو الصحيح فإن أمم الكفر وأوروبا وأمريكا هي التي تقدمت صناعيًا وتمتعت بما لم يتمتع به المؤمنون؟ فالجواب: أن المؤمنين صُرفوا عن العلم والعمل وأُقعدوا عن الإنتاج والاختراع بإفساد أعدائهم لهم عقولهم وعقائدهم، فعوقوهم عن العمل مكرًا بهم وخداعًا لهم. والدليل أن المؤمنين لما كانوا كاملين في إيمانهم كانوا أرقى الأمم وأكملها حضارة وطهارة وقوة وإنتاجًا مع أن الآية تقول: ﴿... لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فإذا حل الجهل محل العلم فلا إنتاج ولا اختراع ولا حضارة.

٣ - بيان أصول المفاسد وهي الفواحش وما ذكر بعدها إلى ﴿... وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

٤ - ذكرت هذه المفاسد بطريق التدلي آخرها أخطرها وهكذا أخفها أولها.

٥ - أجل(٢) الأمم كأجل الأفراد يتم الهلاك عند انتظام المرض كامل الأمة أو أكثر أفرادها كما يهلك الفرد عندما يستشري المرض في كامل جسمه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٥، ٣٦]

(٣٥) ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾: أصل إما إن - الشرطية - وما زائدة لتقوية الكلام أدغمت فيها (إن) فصارت إما. ﴿يَقُصُّونَ(٣) عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾: يتلونها عليكم آية بعد آية مبينين لكم ما دلت عليه من أحكام الله وشرائعه، ووعده ووعيده. ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: أي الشرك فلم يشرك وأصلح نفسه بالأعمال الصالحة. ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾: على ما تركوا وراءهم أو فاتهم الحصول عليه من أمور الدنيا.

معنى الآيتين:

(٣٥) هذا النداء جائز أن يكون نداءً عامًا لكل بني آدم كما هو ظاهر اللفظ وأن البشرية كلها نوديت به على ألسنة رسلها، وجائز أن يكون خاصًا بمشركي العرب وأن يكون المراد من الرسل محمدًا ﷺ ذكر بصيغة الجمع تعظيمًا وتكريمًا له، وما نوديت إليه البشرية أو مشركو العرب هو إخبار الله تعالى لهم بأن من جاءه رسول من جنسه يتلو عليه آيات ربه وهي تحمل العلم بالله وصفاته وبيان محابه ومساخطه، فمن اتقى الله فترك الشرك به، وأصلح ما أفسده قبل العلم من نفسه وخلقه وعقله وذلك بالإيمان والعمل الصالح فهؤلاء في حكم الله أنه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ في الحياتين(٤) معًا.

(٣٦) أما الذين كذبوا بآيات الله التي جاءت الرسل بها وقصتها عليهم واستكبروا(٥) عن العمل بها كما استكبروا عن الإيمان بها، فأولئك البعداء من كل خير. ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي أهلها ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها بحال من الأحوال.

هداية الآيتين:

١ - قطع حجة بني آدم بإرسال الرسل إليهم.

---

(١) روى النسائي بسند صحيح قوله ﷺ: **«كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيَلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»** وقال البخاري عن ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان، سرف، ومخيلة.

(٢) الأجل: هو الوقت الموقت، فأجل الموت هو: وقت الموت وأجل الدَّين هو وقت حلوله وكل شيء وقِّت به شيء فهو أجل له.

(٣) القصص: هو اتباع الحديث بعضه بعضًا.

(٤) أمّا في البرزخ وفي يوم القيامة فالأمر ظاهر لا خلاف في أنهم لا يخافون ولا يحزنون ولكن في الحياة الدنيا يصيبهم الخوف والحزن، ولكن خوفهم وحزنهم لا يكاد يذكر مع خوف وحزن أهل الكفر والشرك.

(٥) الاستكبار: المبالغة في التكبّر وضمن مع الاستكبار الإِعراض، والمعنى: واستكبروا فأعرضوا عنها.

٢ - أول ما يبدأ به في باب التقوى الشرك بأن يتخلى عنه الإنسان المؤمن أولاً.

٣ - الإصلاح يكون بالأعمال الصالحة التي شرعها الله مزكية للنفوس مطهرة لها.

٤ - التكذيب كالاستكبار كلاهما مانع من التقوى والعمل الصالح. ولذا أصحابهما هم أصحاب النار.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٧ - ٤١]

﴿٣٧﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ولذا المشرك ظالم لأنه وضع العبادة في غير موضعها حيث عبد بها من لا يستحقها. ﴿نَصِيبُهُم﴾: ما قدر لهم في كتاب المقادير. ﴿رُسُلُنَا﴾: المراد بهم ملك الموت وأعوانه. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾: غابوا عنا فلم نرهم ولم نجدهم.

﴿٣٨﴾ ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾: أي في جملة أمم. ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: أي تداركوا ولحق بعضهم بعضًا حتى دخلوها كلهم. ﴿أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾: الأتباع قالوا للرؤساء في الضلالة وهم المتبوعون.

﴿٣٩﴾ ﴿تَكْسِبُونَ﴾: من الظلم والشر والفساد.

﴿٤٠﴾ ﴿يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾: أي يدخل الجمل في ثقب الإبرة.

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: الذين أجرموا على أنفسهم فأفسدوها بالشرك والمعاصي.

﴿٤١﴾ ﴿مِهَادٌ﴾: فراش يمتهدونه من النار.

﴿غَوَاشٍ﴾: أغطية يتغطون بها من النار كذلك.

معنى الآيات:

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿٣٧﴾ يُخبر تعالى بأنه لا أظلم ولا أجهل ولا أضل ممن يفتري على الله الكذب فيقول اتخذ ولدًا أو أمر بالفواحش، أو حرم كذا وهو لم يحرم، أو كذب بآياته التي جاءت بها رسله فجحدها وعاند في ذلك وكابر، فهؤلاء المفترون المكذبون يخبر تعالى أنه ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ما كُتب لهم في اللوح المحفوظ من خير وشر وسعادة أو شقاء[1] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي ملك الموت وأعوانه ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾. يقولون لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تعبدون من أولياء؟ فيجيبون قائلين: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي غابوا فلم نرهم. قال تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ ويوم القيامة يقال لهم: ﴿٣٨﴾ ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ في النار، فيدخلون. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ فلعن المشركون بعضهم بعضًا، واليهود والنصارى كذلك، ﴿حَتَّىٰٓ[2] إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي تلاحقوا وتم دخولهم النار أخذوا يشتكون ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا﴾ أي يا ربنا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ عن صراطك فلم نعبدك ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفا ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ لكل واحدة منكم ضعف من العذاب ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾، إذ الدار دار عذاب فهو يتضاعف على كل من فيها، وحينئذ:

---

(١) أي: في الدنيا أمّا في الآخرة فهم أصحاب النار هم فيها خالدون ولا سعادة مع دخول النار.

(٢) حتى هنا: ابتدائية وليست غائية إذ هي بداية خبر المكذبين المستكبرين المعرضين. قال سيبويه: حتى، وإمّا، وألا، لا يُملن لأنهن حروف وكتبت حتى بالياء لأنها أشبهت سكرى وحبلى.

(٣٩) ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ[(١)] فَذُوقُوا[(٢)] الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝﴾ أي من الشرك والافتراء على الله والتكذيب بآياته، ومجانبة طاعته وطاعة رسوله ﷺ.

(٤٠) هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث أما الآيتان الرابعة والخامسة فإن الرابعة قررت حكمًا عظيمًا وهو أن الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا[(٣)] عنها فلم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات وعاشوا على الشرك والشر والفساد هؤلاء إذا مات أحدهم وعرجت الملائكة بروحه إلى السماء لا تفتح له أبواب السماء[(٤)]، ويكون مآلهم النار كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فعلق دخولهم الجنة على مستحيل وهو دخول الجمل في ثقب الإبرة، والمعلق على مستحيل مستحيل. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ على أنفسهم حيث أفسدوها بالشرك والمعاصي. هذا ما تضمنته الآية الرابعة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ[(٥)] الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ[(٦)] ۝﴾.

(٤١) أما الخامسة فقد تضمنت الخبر التالي: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي أغطية من النار، وكما جزى تعالى هؤلاء المكذبين المستكبرين والمجرمين يجزي بعدله الظالمين لأنفسهم حيث لوثوها وخبثوها بأوضار الذنوب والآثام.

هداية الآيات:

١ - شر الظلم ما كان كذبًا على الله وتكذيبًا بشرائعه.

٢ - تقرير فتنة القبر[(٧)] وعذابه.

٣ - لعن أهل النار بعضهم بعضًا حنقًا على بعضهم بعضًا إذ كان كل واحد سببًا في عذاب الآخر.

٤ - بيان جزاء المكذبين بآيات الله والمستكبرين عنها وهو الحرمان من دخول الجنة، وكذلك المجرمون والظالمون.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٢، ٤٣]

(٤٢) ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾: طاقتها وما تتحمله وتقدر عليه من العمل.

(٤٣) ﴿وَنَزَعْنَا﴾: أي أقلعنا وأخرجنا.

﴿مِّنْ غِلٍّ﴾: أي من حقد وعداوة.

﴿هَدَانَا لِهَٰذَا﴾: أي للعمل الصالح في الدنيا الذي هذا جزاؤه وهو الجنة. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي بسبب أعمالكم الصالحة من صلاة وصيام وصدقات وجهاد.

معنى الآيتين:

(٤٢) لما ذكر تعالى جزاء أهل التكذيب والاستكبار عن الإيمان والعمل الصالح وكان شقاءً وحرمانًا ذكر جزاء أهل الإيمان والعمل الصالح فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ولما كان العمل منه الشاق الذي لا يطاق ومنه السهل الذي يقدر عليه قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي ما تقدر عليه من العمل ويكون في استطاعتها، ثم أخبر عن المؤمنين العاملين للصالحات فقال:

---

(١) ﴿من﴾ زائدة لتأكيد نفي الفضل.

(٢) الذوق هنا: مستعمل للإهانة والتشفي والباء في ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ سببية.

(٣) جملة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ إلخ.. مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا سيقت لتحقيق خلود الفريقين في النار معًا والفريقان هما أولاهما وأخراهما في الآية، إذ كلا الفرقين كان مكذبًا مستكبرًا.

(٤) القول بأنّ قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾: كلمة جامعة لمعنى الحرمان من الجزاءات الإلهية قول باطل لأنّه تأويل يبطل به ما أخبر تعالى به من أنّ للسماء أبوابًا إذ أيّ مانع أن يكون للسماء أبواب لا يدخل معها ملك ولا جني ولا إنسان إلاّ بإذن ولكل بناء أبواب بحسبه.

(٥) الخياط: أي المخيط.

(٦) الإجرام: فعل الجرم، وأجرم إذا فعل الجرم وهو: الذنب، والذنب: هو ما يفسد الروح وينجسها، فأجرم معناه: أفسد.

(٧) أخرج ابن كثير في تفسيره عن أبي داود حديثًا طويلاً اشتمل على بيان قبض روح العبد والعروج بها إلى السماء ثم العودة بها إلى القبر وما يجري في القبر من فتنة وما يتم للعبد الصالح من سعادة وللكافر من شقاوة فليُرجع إليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

(٤٣) كما أخبر في الآية الثانية أنه طهرهم باطنًا فنزع ما في صدورهم من غل[1] على بعضهم بعضًا، وأن الأنهار تجري من تحت قصورهم، وأنهم قالوا شاكرين نعم الله عليهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي لعمل صالح هذا جزاؤه أي الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وقرروا حقيقة وهي أن هدايتهم التي كان جزاؤها الجنة لم يكونوا ليحصلوا عليها لولا أن الله تعالى هو الذي هداهم فقالوا: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾[2]، ثم قالوا والله ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ فها هم أهل الكفر والمعاصي في النار، وها نحن أهل الإيمان والطاعات في نعيم الجنة فصدقت الرسل فيما أخبرت به من وعد ووعيد، وناداهم ربهم سبحانه وتعالى: ﴿أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا[3] بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيزداد بذلك نعيمهم وتعظم سعادتهم.

هداية الآيتين:

١ - الإيمان والعمل الصالح موجبان لدخول الجنة مقتض للكرامة في الدارين.

٢ - لا مشقة لا تحتمل في الدين الصحيح الذي جاءت به الرسل إلا ما كان عقوبة.

٣ - لا عداوة ولا حسد في الجنة.

٤ - الهداية هبة من الله فلا تطلب إلا منه، ولا يحصل عليها إلا بطلبها منه تعالى.

٥ - صدقت الرسل فيما أَخْبَرَتْ به من شأن الغيب وغيره.

الجزءُ الثَّامن — سُورَةُ الأَعْرَاف

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥) وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ (٤٦) ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ (٤٨) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ (٤٩) وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٥٠) ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ (٥١)

١٥٦

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٤ ـ ٤٧]

(٤٤) ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ﴾: أي أعلن بأعلى صوته أن لعنة الله على الظالمين. ﴿لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾: أي أمره بطرد الظالمين من الرحمة إلى العذاب.

(٤٥) ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: سبيل الله هي الإسلام والصد: الصرف فهم صرفوا أنفسهم وصرفوا غيرهم.

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾: يطلبون الشريعة أن تميل مع ميولهم وشهواتهم فتخدم أغراضهم.

(٤٦) ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾: أي بين أهل الجنة وأهل النار حاجز فاصل وهو سور الأعراف. ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ﴾: سور بين الجنة والنار. قال تعالى في سورة الحديد: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾. ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾: أي كل من أهل الجنة وأهل النار بعلاماتهم.

(٤٧) ﴿صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾: أي نظروا إلى الجهة التي فيها أصحاب النار.

معنى الآيات:

(٤٤) ما زال السياق في الحديث عن

---

(١) الغلّ: الحقد الكامن في الصدر أي: أذهبنا ـ في الجنة ـ ما كان في قلوبهم من الغلّ في الدنيا ولذا فلا يكون بينهم من تحاسد في الجنة على تفاوت درجاتهم في العلو والارتفاع. وقال علي رضي الله عنه: فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾.

(٢) روى النسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني فيكون له شكرًا، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني فيكون له حسرة**».

(٣) روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «**لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة**»، قالوا: ولا أنت **يا** رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**» وعليه فالباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ سببية وليست باء العوض إذ أعمال العبد لا تعادل موضع سوط في الجنة فالعمل مورث بفضل الله تعالى ورحمته.

أصحاب الجنة وأصحاب النار فيخبر تعالى أن أصحاب الجنة نادوا أصحاب النار قائلين لهم إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا به من الجنة ونعيمها حقًا، فهل[1] وجدتم أنتم ما وعدكم ربكم من النار وعذابها حقًا؟ فأجابوهم: نعم[2] إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، وهنا أذن مؤذن قائلاً: لعنة الله على الظالمين[3].

(٤٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي هي الإسلام الموصل إلى رضا الله تعالى والجنة، ويبغونها عوجًا أي يريدون سبيل الله معوجة تدور معهم حيث داروا في شرورهم ومفاسدهم، وشهواتهم وأهوائهم، وهم بالآخرة كافرون أيضًا فهؤلاء يلعنونهم: لعنة الله على الظالمين الذين تلك صفاتهم.

(٤٦) قال تعالى في الآية الثالثة: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي بين أهل الجنة وأهل النار ﴿حِجَابٌ﴾ فاصل أي حاجز وهو مكان على مرتفع، وعليه رجال من بني آدم استوت سيئاتهم وحسناتهم فحبسوا هناك حتى يقضى بين أهل الموقف فيحكم فيهم بدخولهم الجنة إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي يعرفون أهل الجنة بسيماهم وهي بياض الوجوه ونضرة النعيم، ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وزرقة العيون.

(٤٦) - (٤٧) ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة قائلين: سلام عليكم يتطمعون بذلك كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ[4] أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي نظروا إلى جهة أهل النار فرأوا أهلها مسودة وجوههم زرق أعينهم يكتنفهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، رفعوا أصواتهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي أهل النار لأنهم دخلوها بظلمهم والعياذ بالله.

هداية الآيات:

١ - وجود اتصال كامل بين أهل الجنة وأهل النار متى أراد أحدهم ذلك بحيث إذا أراد من في الجنة أن ينظر إلى من في النار ويخاطبه تم له ذلك.

٢ - يجوز إطلاق لفظ الوعد على الوعيد للمشاكلة أو التهكم كما في هذه الآيات.

٣ - التنديد بالصد عن سبيل الله، والظلم والكفر بالآخرة وهي أسباب الشقاء في الدار الآخرة.

٤ - تقرير مبدأ ثقل الحسنات ينجي وخفتها تردي، ومن استوت حسناته وسيئاته ينجو آخر من ينجو من دخول النار.

٥ - مشروعية الطمع إذا كان مقتضاه موجودًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٨ - ٥١]

(٤٨) ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: السيما العلامة الدالة على من هي فيه. ﴿جَمْعُكُمْ﴾: أي للمال وللرجال كالجيوش.

(٤٩) ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾: إشارة إلى ضعفاء المسلمين وهم في الجنة.

(٥٠) ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي من الطعام والشراب. ﴿حَرَّمَهُمَا﴾: منعهما.

معنى الآيات:

(٤٨) ما زال السياق في الحديث عن أصحاب الجنة وأصحاب النار. قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ أي من أهل النار يعرفونهم بسيماهم التي هي سيما أصحاب النار من سواد الوجوه وزرقة العيون نادوهم قائلين: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي للأموال والرجال للحروب والقتال، كما لم يغن عنكم استكباركم على

---

(١) هذا سؤال توبيخ وتعيير لا استفهام واستخبار.

(٢) في نعم لغات: فتح النون والعين نعم وكسر العين للفرق بينها وبين النعم التي هي الإبل والبقر والغنم، وهي حرف إجابة وتكون للعدة والتصديق فمثال العدة نحو: أيقوم زيد؟ فتقول: نعم أي: تعده بقيامه ومثال التصديق قولك: هل جاء زيد؟ فتقول: نعم فتصدقه في مجيئه.

(٣) يروى أن طاووسًا دخل على هشام بن عبدالملك فقال له: اتق الله واحذر يوم الأذان فقال: وما يوم الأذان؟ قال: قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فصعق هشام فقال طاوس: هذا ذلّ الصفة فكيف ذل المعاينة.

(٤) قال أهل اللغة: لم يأت مصدر على تِفعال سوى حرفين: تِلقاء وتِبيان. وما عداهما فبالفتح نحو تَسيار وتَذكار وتَهمام، أما الأسماء فكثيرة نحو تِمثال ومِفتاح ومِصباح ومِعراج.

الحق وترفعكم عن قبوله وها أنتم في أشد ألوان العذاب، ثم يشيرون لهم إلى ضعفة المسلمين الذين يسخرون منهم في الدنيا ويضربونهم ويهينونهم[(١)]

(٤٩) ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ أي حلفتم ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾[(٢)] ثم يقال لأصحاب الأعراف ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ[(٣)] لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

(٥٠) وفي الآية الثالثة يقول تعالى مخبرًا عن أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ[(٤)] أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ[(٥)]﴾ وذلك لشدة عطشهم ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي من الطعام وذلك لشدة جوعهم فيقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أي شراب الجنة وطعامها ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلا ينالوهما بحال من الأحوال.

ثم وصف الكافرين ليعرض جرائمهم التي اقتضت حرمانهم وعذابهم ليكون ذلك عظة وعبرة للكفار من قريش ومن سائر الناس فقال وهو ما تضمنته الآية الرابعة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أي نتركهم في عذابهم كما تركوا يومهم هذا فلم يعملوا له من الإيمان والصالحات، وبسبب جحودهم لآياتنا الداعية إلى الإيمان وصالح الأعمال.

هداية الآيات:

١ - عدم إغناء المال والرجال أيَّ إغناء لمن مات كافرًا مشركًا من أهل الظلم والفساد.

٢ - بشرى الضعفة من المسلمين بدخول الجنة وسعادتهم فيها.

٣ - تحريم اتخاذ شيء من الدين لهوًا ولعبًا.

٤ - التحذير من الاغترار بالدنيا حتى ينسى العبد آخرته فلم يعد لها ما ينفعه فيها من الإيمان وصالح الأعمال.

الجزء الثامن — سورة الأعراف

وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٥٢) هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (٥٣) إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٥٤) ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٥٧)

١٥٧

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٢ - ٥٤]

(٥٢) ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم﴾: أي أهل مكة أولاً ثم سائر الناس. ﴿بِكِتَٰبٖ﴾: القرآن العظيم. ﴿فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾: بيناه على علم منَّا فبينا حلاله وحرامه ووعده ووعيده وقصصه ومواعظه وأمثاله.

(٥٣) ﴿تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾: تأويل ما جاء في الكتاب من وعد ووعيد أي عاقبة ما

---

(١) كبلال وعمار وصهيب وخباب وغيرهم من سائر ضعفة المؤمنين في كل أمّة من الأمم التي وجد فيها مؤمنون مستضعفون.

(٢) جعل إيواء الله تعالى إياهم بدار رحمته التي هي الجنة بمنزلة النيل الذي هو حصول الأمر المحبوب المطلوب.

(٣) اختلف في القائل، والراجح أنه الله تعالى، وذلك بعد استقرار أهل الجنة فيها وأهل النار في النار ولم يبق إلاّ أصحاب الأعراف فيقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

(٤) روي عن ابن عباس أنه قال: لمّا صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج بعد اليأس فقالوا: يا رب إنّ لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم، فنظروا إليهم وإلى ما هم فيه من النعيم فعرفوهم.. فينادي الرجل أخيه أو قريبه قد احترقتُ فأغثني فيقول له: إن الله حرّمهما على الكافرين.

(٥) في الآية دليل على أفضلية صدقة الماء، وفي الحديث: «**أي الصدقة أعجب إليك؟ قال: الماء**» وليس أدل من حديث الذي سقى كلبًا عطشانًا فشكر الله له فغفر له.

أنذروا به. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: أي ذهب ولم يعثروا عليه.

(٥٤) ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: هي الأحد إلى الجمعة. ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾: يغطي كل واحد منهما الآخر عند مجيئه. ﴿حَثِيثًا﴾: سريعًا بلا انقطاع. ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾: مذللات. ﴿أَلَا﴾: أداة استفتاح وتنبيه (بمنزلة ألو للهاتف). ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾: أي له المخلوقات والتصرف فيها وحده لا شريك له. ﴿تَبَارَكَ﴾: أي عظمت قدرته، وجلت عن الحصر خيراته وبركاته. ﴿الْعَالَمِينَ﴾: كل ما سوى الله تعالى فهو عالم أي علامة على خالقه وإلهه الحق.

معنى الآيات:

بعد ذلك العرض لأحوال الناس يوم القيامة ومشاهد النعيم والجحيم أخبر تعالى أنه جاء قريشًا لأجل هدايتهم بكتاب عظيم هو القرآن الكريم وفصّله تفصيلاً فبيّن التوحيد ودلائله، والشرك وعوامله، والطاعة وآثارها الحسنة والمعصية وآثارها السيئة في الحال والمآل، وجعل الكتاب هدى أي هاديًا ورحمة يهتدي به المؤمنون وبه يرحمون.

(٥٢) هذا ما تضمنته الآية الأولى (٥٢) وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ[1] هُدًى[2] وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وأما الآية الثانية (٥٣) فقد استبطأ الحق تعالى فيها إيمان أهل مكة الذين جاءهم بالكتاب المفصّل المبيَّن فقال:

(٥٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينظرون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي عاقبة ما أخبر به القرآن من القيامة وأهوالها، والنّار وعذابها، وعندئذ يؤمنون، وهل ينفع يومئذ الإيمان؟ وها هم أولاء يقولون: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ وينكشف الغطاء عما وعد به، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل وقوعه، وذلك في الحياة الدنيا، نسوه فلم يعملوا بما ينجيهم فيه من العذاب يقولون: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ اعترفوا بما كانوا به يجحدون ويكذبون ثم يتمنون ما لا يتحقَّق لهم أبدًا فيقولون: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ[3] فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من الشرك والشر والفساد. وتذهب تمنياتهم أدراج الرياح، ولم يرُعْهُمْ إلا الإعلان التالي: ﴿قَدْ خَسِرُوا[4] أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ خسروا أنفسهم في جهنم، وضاع منهم كلُّ أمل وغاب عنهم ما كانوا يفترون من أنَّ آلهتهم وأولياءهم يشفعون لهم فينجونهم من النار ويدخلونهم الجنة.

(٥٤) وفي الآية الأخيرة يقول تعالى لأولئك المتباطئين في إيمانهم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ الذي يُحبُّ أن تعبدوه وتدعوه وتتقربوا إليه وتطيعوه ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا[5] وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ هذا هو ربكم الحق وإلهكم الذي لا إله لكم غيره، ولا ربَّ لكم سواه، أمّا الأصنام والأوثان فلن تكون ربًا ولا إلهًا لأحد أبدًا لأنها مخلوقة غير خالقة وعاجزة عن نفع نفسها، ودفع الضرّ عنها فكيف بغيرها؟ إنّ ربّكم ومعبودكم الحقّ الذي له الخلق كلّه[6] ملكًا وتصرفًا وله الأمر وحده يتصرف كيف يشاء في الملكوت

---

(١) أي: منّا به فلم يقع فيه سهو ولا غلط وحاشاه تعالى أن يسهو أو يغلط.

(٢) ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ منصوبان على الحال، ويصح فيهما الرفع والخفض فالرفع على الابتداء أي: هو هدى ورحمة، والخفض على النعت لكتاب أي: ذي هداية ورحمة، وخُص المؤمنون بالهدى والرحمة لأنهم أحياء، وأمّا الكافرون فهم أموات.

(٣) ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ﴾؟ الاستفهام مشوب بالتمني.

(٤) خسران النفس أكبر خسران إذ هو آخر ما يخسر، فإنَ مَنْ خسر نفسه فقد خسر كل شيء قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ومعنى: خسران النفس: عدم الانتفاع بها.

(٥) أي: يطلبه طلبًا حثيثًا أي: سريعًا، إذ الحث: الإعجال والسرعة.

(٦) قال رسول الله ﷺ: «**من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط عمله**» أخرجه ابن كثير نقلاً عن ابن جرير. وقال ابن عيينة: فرّق الله بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فقد كفر إذ قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فالخلق غير الأمر فمن قال: الأمر مخلوق فقد كفر.

كله. علويّه وسفليّه فتبارك الله رب العالمين.

هداية الآيات:

١ - لا ينفع الإيمان عند معاينة الموت والعذاب كما لا ينفع يوم القيامة.

٢ - يحسن التثبت في الأمر والتأني عند العمل وترك العجلة، فالله قادرٌ على خلق السموات والأرض في ساعة ولكن خلقها في ستّة أيام[1] بمقدار أيام الدّنيا تعليمًا وإرشادًا إلى التثبت في الأمور والتأني فيها.

٣ - صفة من صفات الرب تعالى التي يجب الإيمان بها ويحرم تأويلها أو تكييفها وهي استواؤه تعالى على عرشه[2].

٤ - انحصار الخلق كلّ الخلق فيه تعالى فلا خالق إلا هو، والأمر كذلك فلا آمر ولا ناهي غيره. هنا قال عمر: من بقي له شيء فليطلبه إذ لم يبقَ شيء ما دام الخلق والأمر كلاهما لله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٥، ٥٦]

(٥٥) ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾: سلوه حوائجكم الدنيوية والأخروية فإنّه ربّكم فلا تستحيوا من سؤاله. ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾: أي حال كونكم ضارعين متذللين مخفي الدعاء غير رافعين أصواتكم به. ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾: أي في الدعاء وغيره والاعتداء في الدعاء أن يسأل الله ما لم تجرِ سنته بإعطائه أو إيجاده أو تغييره كأن يسأل أن يكون نبيًا أو أن يرد طفلاً أو صغيرًا، أو يرفع صوته بالدعاء.

(٥٦) ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي بالشرك والمعاصي بعد إصلاحها بالتوحيد والطاعات. ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الذين يحسنون أعمالهم ونياتهم، بمراقبتهم الله تعالى في كل أحوالهم.

معنى الآيتين:

(٥٥) لما عرّف تعالى عباده بنفسه وأنه ربهم الحق وإلههم، وأنه الخالق الآمر المتصرف بيده كل شيء أمرهم إرشادًا لهم أن يدعوه، وبيّن لهم الحال التي يدعونه عليها، ليستجيب لهم فقال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا﴾[3] أي تذللاً وخشوعًا ﴿وَخُفۡيَةًۚ﴾[4] أي سرًا لا جهرًا، ونهاهم عن الاعتداء في الدعاء حيث أعلمهم أنه لا يحب المعتدين، والاعتداء في الدعاء أن يُدْعَىٰ غير الله تعالى أو يدعى معه غيره، ومنه طلب ذوات الأسباب بدون إعداد أسبابها، أو سؤال ما لم تجرِ سنة الله به كسؤال المرء أن يكون نبيًا أو يرد من كهولته إلى شبابه أو من شبابه إلى طفولته.

(٥٦) ثم بعد هذا الإرشاد والتوجيه إلى ما يكملهم ويسعدهم نهاهم عن الفساد في الأرض بعد أن أصلحها تعالى والفساد في الأرض يكون بالشرك والمعاصي، والمعاصي تشمل سائر المحرمات كقتل الناس وغصب أموالهم وإفساد زروعهم وإفساد عقولهم بالسحر والمخدرات وأعراضهم بالزنى والموبقات. ومرة أخرى يحضهم على دعائه لأن الدعاء هو العبادة وفي الحديث الصحيح «**الدعاء هو العبادة**» فقال: ادعوا ربكم أي سلوه حاجاتكم حال كونكم في دعائكم خائفين من عقابه طامعين راجين رحمته وبيّن لهم أن رحمته قريب من المحسنين[5] الذين

---

(١) أصل ستة: سدسة فأرادوا إدغام الدال في السين فالتقيا عند مخرج التاء فغلبت عليها فصارت ستة ولذا تصغر على سديسة وتجمع على أسداس، والجمع والتصغير يردّان الأسماء إلى أصولها، ويقال: جاء فلان سادس ستة.

(٢) من أحسن ما يؤثر في مسألة الاستواء قول مالك رحمه الله تعالى إذ قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عن هذا بدعة، ويروى مثله عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٣) اختلف في رفع اليدين في الدعاء والأكثرون على استحبابه لفعله ﷺ.

(٤) روي أنه ﷺ قال: «**خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي**».

(٥) عدم تأنيث قريب مع أنه خبر عن مؤنث، تكلم فيه كثيرًا وأحسن ما قيل في مثله أن لفظ قريب وبعيد إذا أطلق على النسب تعيّن التذكير والتأنيث بحسب المخبر عنه نحو: زيد قريب عمرو، وعائشة قريبة بكر مثلاً، وما كان لغير النسب جاز تذكيره وتأنيثه قال تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ وقال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ فذكّر في الموضعين مع أنّ الوصف عائد على مؤنث.

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

يحسنون نياتهم وأعمالهم ومن ذلك الدعاء فمن أحسن الدعاء ظفر بالإجابة، فثواب المحسنين قريب الحصول بخلاف المسيئين فإنه لا يستجاب لهم.

هداية الآيتين:

١ - وجوب دعاء الله تعالى فإن الدعاء هو العبادة.

٢ - بيان آداب الدعاء وهو: أن يكون الداعي ضارعًا متذللاً، وأن يخفي دعاءه فلا يجهر به، وأن يكون حال الدعاء خائفًا طامعًا[1]، وأن لا يعتدي في الدعاء بدعاء غير الله تعالى أو سؤال ما لم تجرِ سنة الله بإعطائه.

٣ - حرمة الإفساد في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله تعالى بالإسلام.

٤ - الترغيب في الإحسان مطلقًا خاصًا وعامًا حيث إن الله تعالى يحب أهله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٧، ٥٨]

﴿٥٧﴾ ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾: جمع ريح وهو الهواء المتحرك. ﴿بُشْرًا﴾[2]: جمع بشير أي مبشرات بقرب نزول المطر، قرىء نشرًا أي تنشر السحاب للأمطار. ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾: أي رحمة الله تعالى وهي المطر. ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾: أي حملت سحابًا ثقالاً مشبعًا ببخار الماء. ﴿مَّيِّتٍ﴾: لا نبات به ولا عشب ولا كلأ. ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: أي كذلك نحيي الموتى ونخرجهم من قبورهم أحياء. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: تذكرون فتؤمنون بالبعث والجزاء.

﴿٥٨﴾ ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾: أي الطيب التربة. ﴿خَبُثَ﴾: أي خبثت تربته بأن كانت سبخة. ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾: أي إلا عسرًا. ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: أي ننوعها ونخالف بين أساليبها ونذكر في بعضها ما لم نذكره في بعضها للهداية والتعليم. ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾: لأنهم هم الذين ينتفعون بالنعم بشكرها بصرفها في محاب الله تعالى.

معنى الآيتين:

﴿٥٧﴾ ما زال السياق الكريم في بيان مظاهر القدرة الربانية والرحمة الإلهية الموجبة لعبادته تعالى وحده دون سواه. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا﴾ وهو أي ربكم الحق الذي لا إله إلا هو وبشرًا أي مبشرات ونشرًا[3] أي تنشر الرياح تحمل السحب الثقال ليسقي الأرض الميتة فتحيا بالزروع والنباتات لتأكلوا وترعوا أنعامكم، وبمثل هذا التدبير في إنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها يحييكم بعد موتكم فيخرجكم من قبوركم أحياء ليحاسبكم على كسبكم في هذه الدار ويجزيكم به الخير بالخير والشر بمثله جزاءً عادلاً لا ظلم فيه وهذا الفعل الدال على القدرة والرحمة ولطف التدبير يُريكموه فترونه بأبصاركم لعلكم به تذكرون أن القادر على إحياء موات الأرض قادر على إحياء موات الأجسام فتؤمنوا بلقاء ربكم وتوقنوا به فتعملوا بمقتضى ما يسعدكم ولا يشقيكم فيه.

---

(١) ويصح نصب خوفًا وطمعًا مفعولين لأجله أي: ادعوه لأجل الخوف منه والطمع فيه، ونصبهما على الحال كما في التفسير حسن أيضًا.

(٢) كرُسُل جمع رسول، وسكّن بشرًا للتخفيف كما تسكن السين في رُسُل فيقال: رُسْل على وزن فُعْل.

(٣) قرىء: ﴿بُشْرًا﴾ بضم الباء، وقرىء: ﴿نُشْرًا﴾ بالنون المضمومة، وهما قراءتان سبعيتان وفسرت الكلمتان بحسب ما تدلان عليه فتأمل، وفيهما قراءات أخرى من حيث الحركات كضم الباء مع الشين، وبشرى بالألف المقصورة.

هذا ما تضمنته الآية الأولى (٥٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي المطر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ أي حملت ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي ببخار الماء ﴿سُقْنَٰهُ﴾ بقدرتنا ولطف تدبيرنا ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾[(١)] لا حياة به لا نبات ولا زرع، ولا عشب ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي بالسحاب ﴿ٱلْمَآءَ﴾ العذب الفرات، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المختلفة الألوان والروائح والطعوم ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كهذا الإخراج للنبات من الأرض الميتة نخرج الموتى[(٢)] من قبورهم وعملنا هذا نسمعكم إياه ونريكموه بأبصاركم رجاء أن تذكروا فتذكروا أن القادر على إحياء الأرض قادر على إحياء الموتى رحمة منا بكم وإحسانًا منا إليكم.

(٥٨) أما الآية الثانية (٥٨) فقد تضمنت مثلاً ضربه الله تعالى للعبد المؤمن والكافر إثر بيان قدرته على إحياء الناس بعد موتهم فقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي طيب التربة ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ وذلك بعد إنزال المطر به، وهذا مثل العبد المؤمن ذي القلب الحي الطيب إذا سمع ما ينزل من الآيات يزداد إيمانه وتكثر أعماله الصالحة ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ أي والبلد الذي تربته خبيثة سبخة أو حمأة عندما ينزل به المطر لا يخرج نباته إلا نكدًا عسرًا قليلاً[(٣)] غير صالح وهذا مثل الكافر عندما يسمع الآيات القرآنية لا يقبل عليها ولا ينتفع بها في خُلقه ولا سلوكه فلا يعمل خيرًا ولا يترك شرًا.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي ببيان مظاهر قدرته تعالى وعلمه وحكمته ورحمته وضرب الأمثال وسوق الشواهد والعبر ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ إذ هم المنتفعون بها أما الكافرون الجاحدون فأنى لهم الانتفاع بها وهم لا يعرفون الخير ولا ينكرون الشر.

هداية الآيتين:

١ - تقرير عقيدة البعث والحياة بعد الموت للحساب والجزاء إذ هي من أهم أركان الإيمان.

٢ - الاستدلال بالحاضر على الغائب وهو من العلوم النافعة.

٣ - حسن ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.

٤ - فضيلة الشكر وهو صرف النعمة فيما من أجله وهبها الله تعالى للعبد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٩ - ٦٤]

(٥٩) ﴿نُوحًا﴾: هذا أول الرسل هذا العبد الشكور هو نوح بن لَمْك بن متوشلخ بن أخنوخ أي إدريس عليهما السلام[(٤)]، أحد أولي العزم الخمسة من الرسل عاش داعيًا وهاديًا ومعلمًا ألفًا ومائتين وأربعين سنة، ومدة الدعوة ألف سنة إلا خمسين عامًا، وما بعدها عاشها هاديًا ومعلمًا للمؤمنين. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: هو عذاب يوم القيامة.

(٦٠) ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: أشراف القوم ورؤساؤهم الذين يملؤون العين والمجلس.

(٦٢) ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾: أريد لكم الخير لا غير.

(٦٣) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾: الاستفهام للإنكار، وعجبتم الواو عاطفة والمعطوف عليه جملة هي كذبتم أي أكذبتم وعجبتم. ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾: أي العذاب المترتب على الكفر والمعاصي. ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾: أي الله تعالى بالإيمان به وتوحيده وطاعته فترحمون فلا تعذبون.

(٦٤) ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: هم المؤمنون من قومه والفلك هي السفينة التي صنعها بأمر الله تعالى وعونه. ﴿عَمِينَ﴾: جمع عم[(٥)] وهو أعمى البصيرة أما أعمى العينين يقال فيه أعمى.

معنى الآيات:

هذا شروع في ذكر قصص ستة من

---

(١) البلد والبلدة بمعنى، ويجمع على بلاد وبلدان.

(٢) روى مسلم قوله ﷺ: «ثم يرسل الله أو قال: ينزل الله مطرًا كأنه الطلّ فتنبت منه أجساد الناس، ثم قال: أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسؤولون» الحديث.

(٣) النكد: العسر الممتنع من إعطاء الخير من الناس، وشبه به البلد الخبيث التربة كذات الحجارة أو السبخة.

(٤) الظاهر أن إدريس هنا ليس هو إدريس النبي الرسول عليه السلام - والله أعلم.

(٥) يقال: رجل عمٍ أي: جاهل بكذا.

الرسل وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام والمراد من ذكر هذا القصص هو تنويع أسلوب الدعوة ليشاهد المدعون من كفار قريش صورًا ناطقة ومشاهد حية لأمم سبقت وكيف كانت بدايتها وبِمَ ختمت نهايتها، وهي لا تختلف إلا يسيرًا عما هم يعيشونه من أحداث الدعوة والصراع الدائر بينهم وبين نبيهم لعلهم يتعظون، ومع هذا فالقصص يقرر نبوة محمد ﷺ إذ لو لم يكن رسولاً يوحى إليه لما تأتى له أن يقص من أخبار الماضين ما بهر العقول كما أن المؤمنين مع نبيهم ﷺ يكتسبون من العبر ما يحملهم على الثبات والصبر، ويجنبهم القنوط واليأس من حسن العافية والظفر والنصر.

(٥٩) وهذا أول قصص يقوله تعالى فيه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا[١] إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي وعزتنا لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه كما أرسلناك أنت يا رسولنا إلى قومك من العرب والعجم، فقال: أي نوح في دعوته: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ[٢]﴾ أي ليس لكم على الحقيقة إله غيره، إذ الإله الحق من يخلق ويرزق ويدبر فيحيي ويميت ويعطي ويمنع، ويضر وينفع، ويسمع ويبصر فأين هذا من آلهة نحتموها بأيديكم، ووضعتموها في بيوتكم عمياء لا تبصر صماء لا تسمع بكماء لا تنطق فكيف يصح أن يطلق عليها اسم الإله وتعبد ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾ أنذرهم عذاب يوم القيامة إن هم أصروا على الشرك والعصيان فأجابه الملأ منهم[٣] وهم أهل الحل والعقد في البلاد قائلين:

(٦٠) ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بسبب موقفك العدائي هذا لآلهتنا، ولعبادتنا إياها فأجاب عليه السلام قائلاً:

(٦١) ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ مجرد ضلالة فكيف بالضلال كله كما تقولون، ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي إليكم.

(٦٢) ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ[٤] لَكُمْ﴾ أي بما هو خير لكم في حالكم ومآلكم، واعلموا أني ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأنا على علم بما عليه ربي من عظمة وسلطان، وجلال، وجمال، وما عنده من رحمة وإحسان، وما لديه من نكال وعذاب، وأنتم لا تعلمون فاتقوا الله إذًا وأطيعوني يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى آجالكم، ولا يعجل بفنائكم.

(٦٣) وواصل حديثه معهم وقد دام ألف سنة إلا خمسين عامًا قائلاً: أكذبتم بما دعوتكم إليه وجئتكم به ﴿أَوَعَجِبْتُمْ[٥] أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟﴾ الله بتوحيده وعبادته وطاعته رجاء أن ترحموا فلا تعذبوا أمن هذا يتعجب العقلاء؟ وكانت النتيجة لهذه الدعوة المباركة الخيّرة أن كذبوه فأنجاه ربه والمؤمنين معه، وأغرق الظالمين المكذبين، لأنهم كانوا قومًا عمين فلا يستحقون البقاء والنجاة.

(٦٤) قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ[٦] وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ[٧] ۝﴾ لا يبصرون الآيات ولا يرون النذر والشواهد.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة محمد ﷺ كنبوة نوح عليه السلام.

٢ - تقرير وتأكيد التوحيد، وبيان معنى لا إله إلا الله.

٣ - التحذير من عذاب يوم القيامة بالتذكير به.

---

(١) نوح: هو أوّل الرسل من حيث أنه حارب الشرك ودعا إلى التوحيد، وهل إدريس من ذريته أو من آبائه خلاف، أمّا شيت بن آدم فقطعًا هو من آبائه.

(٢) غيره: مرفوع على النعت لإله المرفوع تقديرًا، إذ الأصل رفعه، وجُرَّ بحرف الجرّ الزائد الذي هو مِنْ.

(٣) الملأ: هم أشراف القوم ورؤساؤهم الذين إذا نظر إليهم ملؤوا العين وإذا جلسوا ملؤوا المجلس، هذا أصل الكلمة.

(٤) النصح: إخلاص القول والعمل من شوائب الفساد، بمعنى تخليص القول أو العمل مما هو ضار أو غير نافع للمنصوح له، ويقال: نصحه ونصح له والمعنى واحد، والاسم النصيحة، والناصح الخالص من العسل مثل الناصح الذي لا شائبة فيه.

(٥) قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للاستفهام، والواو عاطفة على جملة محذوفة كما هي في التفسير.

(٦) الفلك يكون واحدًا وجمعًا ويذكر ويؤنث.

(٧) ﴿عَمِينَ﴾ أي: عن الحق وعن معرفة الله وقدرته ولطفه، وإحسانه يقال: رجلٌ عَمٍ بكذا أي: جاهل به لا يعرفه.

٤ - أصحاب المنافع من مراكز وغيرها هم الذين يردون دعوة الحق لمنافاتها للباطل.

٥ - تقرير مبدأ العاقبة للمتقين.

٦ - عمى القلوب أخطر من عمى العيون على صاحبه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٥ - ٦٩]

(٦٥) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾: أي ولقد أرسلنا إلى عاد وهم قبيلة عاد، وعاد أبو القبيلة وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾: أخاهم في النسب لا في الدين. وهود هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أي أتصرّون على الشرك فلا تتقون عذاب الله بالإيمان به وتوحيده، والاستفهام إنكاري أي ينكر عليهم عدم تقواهم لله عز وجل.

(٦٦) ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾: السفاهة كالسّفه وهو خِفّة العقل، وقلّة الإدراك والحلم.

(٦٨) ﴿أَمِينٌ﴾: لا أخونكم ولا أغشكم ولا أكْذِبُكم، كما أني مأمون على رسالتي لا أفرط في إبلاغها.

(٦٩) ﴿بَصْطَةً﴾: أي طولاً في الأجسام، إذ كانوا عمالق من عظم أجسادهم وطولها. ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: نعمه واحدها ألَيٌ وإلَيٌ وإلْيٌ وإلْوٌ والجمع آلاء. ﴿تُفْلِحُونَ﴾: بالنجاة من النار في الآخرة، والهلاك في الدنيا.

الجزء الثامن — سورة الأعراف

أَبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٧٢) وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)

١٥٩

معنى الآيات:

(٦٥) هذا هو القصص الثاني، قَصَصُ هود عليه السلام مع قومه عاد الأولى التي أهلكها الله تعالى بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام. قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾[1] أي وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم من النسب هودًا فماذا قال لهم ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي وحدوه في العبادة ولا تعبدوا معه آلهة أخرى. وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي ليس لكم أي إله غير الله، إذ الله هو الإله الحق وما عداه فآلهة باطلة، لأنه تعالى يخلق وهم لا يخلقون ويرزق وهم لا يرزقون ويدبر الحياة بكل ما فيها وهم مدبَّرون لا يملكون نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا فكيف يكونون آلهة. ثم حضّهم على التقوى وأنكر عليهم تركهم لها فقال عليه السلام لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي الله ربّكم فتتركوا الشرك وتوحدوه؟ فأجاب الملأ الذين كفروا من قومه، بأسوأ إجابة وذلك لكبريائهم واغترارهم فقالوا: (٦٦) ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ أي حمق وطيش وعدم بصيرة بالحياة وإلا كيف تخرج عن إجماع قومك، وتواجههم بعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما جئت به أي من الرسالة، ودعوت إليه من التوحيد ونبذ الآلهة غير الله تعالى، فأجاب هود عليه السلام ردًا لشبهتهم فقال: (٦٧) - (٦٨) ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أني لست كما تزعمون أن بي سفاهة ولكني أحمل رسالة أبلغكموها، وأنا في ذلك ناصح لكم مريد لكم الخير أمين[2] على وحي الله تعالى إليّ، أمين لا أغشكم ولا أخونكم فما أريد لكم إلا الخير.

---

(١) عاد: أمّة عظيمة كانوا أكثر من عشر قبائل، ومنازلهم كانت ببلاد العرب من حضرموت والشّحر إلى عُمان، وعاد اسم القبيلة وصرف لأنه ثلاثي ساكن الوسط كهند ودعد.

(٢) الأمين: هو الموصوف بالأمانة، والأمانة أعز أوصاف البشر وفي الحديث: «لا إيمان لمن لا أمانة له» ويروى: «لمن لا أمان له».

(٦٩) ثم واصل دعوته فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي أكذبتم برسالاتي وعجبتم من مجيئكم ذكرًا من ربكم ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي عواقب كفركم وشرككم، أمن مثل هذا يتعجب العقلاء أم أنتم لا تعقلون؟.

ثم ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم لعلّها تُحدثُ لهم ذكرًا في نفوسهم فيتراجعون بعد عنادهم وإصرارهم فقال: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ[١] مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي بعد أن أهلكهم بالطوفان لإصرارهم على الشرك ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً[٢]﴾ أي جعل أجسامكم قوية وقاماتكم طويلة هذه نعم الله عليكم ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ[٣] لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لأنكم إن ذكرتموها بقلوبكم شكرتموها بأقوالكم وأعمالكم، وبذلك يتم الفلاح لكم، وهو نجاتكم من المرهوب وظفركم بالمحبوب وذلك هو الفوز المطلوب.

هداية الآيات:

١ - الدعوة إلى عبادة الله وترك عبادة ما سواه وهو معنى لا إله إلا الله.

٢ -مشروعية دفع الاتهام، وتبرئة الإنسان نفسه مما يتهم به من الباطل.

٣ - من وظائف الرسل عليهم السلام البلاغ لما أمروا بإبلاغه.

٤ - فضيلة النصح وخُلُق الأمانة.

٥ - استحسان التذكير بالنعم فإن ذلك موجب للشكر والطاعة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٠ ـ ٧٢]

(٧٠) ﴿وَنَذَرَ﴾: أي نترك. ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾: أي من العذاب.

(٧١) ﴿رِجْسٌ﴾: سخطٌ موجبٌ للعذاب. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى﴾: أي أتخاصمونني. ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾: أي من حجّة ولا برهان يثبت أنها تستحق العبادة.

(٧٢) ﴿دَابِرَ﴾: دابر القوم آخرهم، لأنه إذا هلك آخر القوم هلك أولهم بلا ريب.

معنى الآيات:

(٧٠) ما زال السياق في قصص هود عليه السلام، فها هم أولاء يردُّون على دعوة هود بقول الملأ منهم: ﴿أَجِئْتَنَا[٤] لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وتهددنا إن نحن لم نترك عبادة آلهتنا، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من العذاب[٥] ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك فردّ هود عليه السلام على قولهم هذا قائلاً قد وقع[٦] عليكم رجس[٧] أي سخط وغضب من الله تعالى وأن عذابكم لذلك أصبح متوقعًا في كل يوم فانتظروا ما سَيَحِلُّ بكم.

(٧١) ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

(٧٢) قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ[٨] وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي بعد إنزال العذاب، ومن معه من المؤمنين برحمة منا خاصة لا تتم إلا لمثلهم، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

---

(١) الخلفاء: جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شيء أي: يتولى العمل الذي كان يقوم به الآخر، كما يجمع خليفة على خلائف.

(٢) ويجوز بصطة: بالصاد أي: طولاً في الأجسام قيل: كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعًا، فالزيادة كانت على خلق من قبلهم، وذكر القرطبي أمورًا عجبًا لا يحسن ذكرها.

(٣) الآلاء: مفرده إلَيٌ ويعرف فيقال الإلي وهو: النعمة وهو على وزن عِنَب وأعناب ونظيره إنيٌ أي: الوقت والجمع آناء قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ إلخ..

(٧١) ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ﴾ أي: في الأصنام التي أطلقوا عليها أسماء كاللّات، والعزّى ومناة عند قريش ومشركي العرب، فأطلق الاسم وأريد به المسمّى.

(٤) الاستفهام هنا إنكاري، أنكروا على نبي الله هود دعوته إيّاهم إلى التوحيد وكان جوابهم هذا أقل جفوة من السابق الذي اتهموه فيه بالسفاهة والكذب.

(٥) ذكر العذاب في سورة الأحقاف إذ قال تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)﴾.

(٦) ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ بمعنى: وجب، يقال: وقع الحكم أو القول إذا وجب.

(٧) وفسّر الرجس بالعذاب أو الرّين على القلوب بزيادة الكفر.

(٨) روي أنّ هودًا ومن معه من المؤمنين نزحوا إلى مكة وأقاموا بها بعد هلاك قومهم.

بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أهلكناهم بخارقة ريح تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وكذلك جزاء الظالمين.

هداية الآيات:

١ ـ احتجاج المشركين على صحّة باطلهم بفعل آبائهم وأجدادهم يكاد يكون سنّة مطّردة في الأمم والشعوب، وهو التقليد المذموم.

٢ ـ من حمق الكافرين استعجالهم بالعذاب، ومطالبتهم به.

٣ ـ آلهة الوثنيين مجرّد أسماء لا حقائق لها إذ إطلاق المرء اسم إله على حجر لا يجعله إلهًا ينفع ويضر، ويحيي ويميت.

٤ ـ قدرة الله تعالى ولطفه تتجلّى في إهلاك عاد وإنجاء هود والمؤمنين.

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٣ ـ ٧٦]

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾: أي أرسلنا إلى ثمود، وثمود قبيلة سميت باسم جدها وهو ثمود(١) بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾: أي في النسب وصالح هو صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. ﴿ءَايَةً﴾: علامة على صدقي في أني رسول الله إليكم.

﴿٧٤﴾ ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أنزلكم فيها منازل تحبون فيها. ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: تنجرون الحجارة في الجبال لتتخذوا منازل لكم لتسكنوها. ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: نعم الله تعالى وهي كثيرة. ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾: أي لا تفسدوا في الأرض مفسدين.

﴿٧٥﴾ ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾: عتوا وطغوا وتكبروا فلم يقبلوا الحق ولم يعترفوا به.

معنى الآيات:

﴿٧٣﴾ هذا القصص الثالث قصص نبي الله صالح عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي وأرسلنا إلى قبيلة ثمود(٢) أخاهم صالحًا نبيًا أرسلناه بما أرسلنا به رسلنا من قبله ومن بعده بكلمة التوحيد ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ وهذا مدلول كلمة الإخلاص التي جاء بها خاتم الأنبياء «لا إله إلا الله» ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تشهد بأنه لا إله إلا هو، وأني رسوله إليكم، هذه البينة(٣) ناقة تخرج من صخرة في جبل، ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ(٤) لَكُمْ ءَايَةً﴾ علامة وآية علامة على صدقي في إرسال الله تعالى لي رسولاً إليكم لتعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا، فذروا هذه الناقة تأكل في أرض الله(٥) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فكانت الناقة ترعى في المرج، وتأتي إلى ماء القوم فتشربه كله، ويتحول في بطنها إلى لبن خالص فيَحْلِبون ما شاؤوا، وقال لهم يومًا: هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم، ووعظهم عليه السلام بقوله: ﴿٧٤﴾ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ

(١) ثمود: هو أخو جديس.

(٢) ثمود: يصرف ولا يصرف فمن صرفه: على أنه اسم للحي، ومن منعه: على أنه علم على القبيلة.

(٣) هذه الناقة هم الذين طالبوا بها لتكون آية على صدق نبوّة صالح، ولمّا جاءتهم كفروا بها.

(٤) إضافة الناقة إلى الله تعالى للتشريف والتخصيص إذ كل ما في الكون هو لله عزّ وجلّ.

(٥) أي: ليس عليكم رزقها ومؤونتها.

﴿بَعْدِ عَادٍ﴾ أي بعد هلاكهم، وكانت ديار عاد بحضرموت جنوب الجزيرة العربية وديار ثمود بالحجر شمال الجزيرة بين الحجاز والشام. وقوله: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض الحِجْر تتخذون من سهولها قصورًا[1] تسكنونها في الصيف، وتنحتون من الجبال بيوتًا تسكنونها في الشتاء، ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي نعمه العظيمة لتشكروها بعبادته وحده دون ما اتخذتم من أصنام، وحذَّرهم من عاقبة الفساد فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تنشروا الفساد في الأرض بالشرك وارتكاب المعاصي وإزاء هذه الدعوة الصادقة الهادفة إلى هداية القوم وإصلاحهم لينجوا من عاقبة الشرك والشر والفساد.

(٧٥) ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي قوم صالح، قالوا: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ[2] مِنْهُمْ﴾ أي لمن آمن من ضعفاء القوم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، وهو استفهام سخرية واستهزاء دال على صلف القوم وكبريائهم، فأجاب المؤمنون من ضعفة القوم قائلين: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قالوها واضحةً صريحةً مُعْلَنةً عن إيمانهم بما جاء به رسول الله صالح غير خائفين، وهنا ردّ المستكبرون قائلين:

(٧٦) ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ وإمعانًا منهم في الجحود والتكبّر، لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون حتى لا يعترفوا بالرسالة ولو في جواب رد الكلام فقالوا: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - اتحاد دعوة الرسل في الإيمان بالله والكفر بالطاغوت أي في عبادة الله وحده.

٢ - تقرير إرسال الرسل بالآيات وهي المعجزات وآية صالح أعجب آية وهي الناقة.

٣ - وجوب التذكير بنعم الله إذ هو الباعث على الشكر، والشكر هو الطاعة.

٤ - النهي عن الفساد في الأرض والشرك وارتكاب المعاصي.

٥ - الضعفة هم غالبًا أتباع الأنبياء: وذلك لخلوهم من الموانع كالمحافظة على المنصب أو الجاه أو المال، وعدم انغماسهم في الملاذ والشهوات.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٧ - ٧٩]

(٧٧) ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾: نحروها بعد أن عقروا قوائمها أي قطعوها، والناقة هي الآية. ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: تمردوا عن الأمر وعصوا فلم يطيعوا.

(٧٨) ﴿الرَّجْفَةُ﴾: المرة من رجف إذا اضطرب، وذلك لما سمعوا الصيحة أخذتهم الرجفة. ﴿جَاثِمِينَ﴾[3]: باركين على الركب كما يجثم الطير أي هلكى على ركبهم.

(٧٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: بعد أن هلكوا نظر إليهم صالح وهم جاثمون وقال راثيًا لحالهم: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ ثم أعرض عنهم وانصرف.

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص صالح عليه السلام فإنه بعد تلك الدعوة الطويلة العريضة والمستكبرون يردونها بصلف وكبرياء، وطالبوا بالآية لتدل على صدقه وأنه من المرسلين وأوتوا الناقة آية مبصرة ولجوا في الجدال والعناد وأخيرًا تمالؤوا على قتل الناقة وعقروها ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.

(٧٧) قوله تعالى في الآية الأولى (٧٧) ﴿فَعَقَرُوا[4] النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ

---

(١) استدل بعضهم على جواز بناء القصور للسكن بهذه الآية وبحديث: «**إنّ الله إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر النعمة عليه**» وكره ذلك بعض، لحديث: «**وما أنفق المؤمن من نفقة فإنّ خلفها على الله عز وجلّ إلا ما كان في بنيان أو معصية**» رواه الدارقطني.

(٢) ﴿لِمَنْ آمَنَ﴾ بدل من (الذين استضعفوا) بدل بعضٍ من كلّ.

(٣) أصل الجثوم للأرانب وما شابهها وموضع الجثوم يقال لهم: مجثم. قال زهير:

بها العين والآرام يمشين خلفه ... وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

(٤) العقر: الجرح أو قطع عضو يؤثر في النفس، يقال: عقر الفرس إذا ضرب قوائمه بالسيف، وقيل للنحر عقر: لأنه بسبب النحر غالبًا.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

١٦١

﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يخبر تعالى أن قوم صالح عقروا الناقة قطعوا أرجلها ثم نحروها وهو العقر، وعتوا بذلك وتكبروا متمردين عن أمر الله تعالى حيث أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء فإذا بهم يعقرونها تحديًا وعنادًا، ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ﴾ بدل أن يقولوا يا رسول الله أو يا نبي الله ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي من العذاب إن مسسنا الناقة بسوء فقد نحرناها فأتنا بالعذاب إن كنت كما تزعم من المرسلين.

﴿٧٨﴾ قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ وهي هزة عنيفة اضطربت لها القلوب والنفوس نتيجة صيحة لملك عظيم صاح فيهم صباح السبت[1] كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ولما هلكوا وقف عليهم صالح كالمودع كما وقف رسول الله ﷺ على أهل القليب ببدرٍ فناداهم يا فلان يا فلان كذلك صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وقف عليهم وهم خامدون وقال كالرائي المتحسر:

﴿٧٩﴾ ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ[2] رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وتولى عنهم وانصرف.

هداية الآيات:

١ - حلول نقمة الله تعالى بكل من عتا عن أمره سبحانه وتعالى.

٢ - مشروعية الرثاء لمن مات أو أصيب بمصاب عظيم.

٣ - علامة قرب ساعة الهلاك إذا أصبح الناس يكرهون النصح ولا يحبون الناصحين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٠ - ٨٤]

﴿٨٠﴾ ﴿وَلُوطًا﴾: أي وأرسلنا لوطًا ولوط هو لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم عليه السلام. ولد في بابل العراق.

﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: هي الخصلة القبيحة وهي إتيان الرجال في أدبارهم.

﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي من الناس.

﴿٨٣﴾ ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: الباقين في العذاب.

﴿٨٤﴾ ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر فأهلكتهم.

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أي المفسدين للعقائد والأخلاق والأعراض.

معنى الآيات:

﴿٨٠﴾ هذا هو القصص الرابع قصص نبي الله تعالى لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم عليه السلام فقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ...﴾[3] أي وأرسلنا لوطًا إلى قومه من أهل سدوم، ولم يكن لوط منهم لأنه من أرض بابل العراق هاجر مع عمه إبراهيم وأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم[4] وعمورة قرب بُحيرة لُوطٍ[5] بالأردن.

﴿٨١﴾ وقوله إذ قال لقومه الذين أُرسل إليهم منكرًا عليهم فعلتهم

---

(١) هو بداية اليوم الرابع، إذ قال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فكانت الأربعاء والخميس والجمعة والسبت أهلكهم الله تعالى.

(٢) من الجائز أن يكون قد قال هذا وهم أحياء قبل موتهم كالآيس منهم وكونه قاله بعد موتهم أقرب كما في التفسير.

(٣) هذا العطف على إرسال نوح كما هو مع هود وصالح من قبل لوط، ولوط: اسم عجمي وليس مشتقًا من لطت الحوض أو من قولهم: هذا أليط بقلبي من هذا.

(٤) هذه الأرض هي أرض الكنعانيين وسكانها خليط جلّهم كنعانيون.

(٥) هو المعروف بالبحر الميت ويقال له: بحيرة لوط.

المنكرة: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ وهي إتيان الرجال في أدبارهم ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي لم يسبقكم إليها أحد من الناس قاطبة، وواصل إنكاره هذا المنكر موبخًا هؤلاء الذين هبطت أخلاقهم إلى درك لم يهبط إليه أحد غيرهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً[1] مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وإلا فالشهوة من النساء هي المفطور عليها الإنسان، لا أدبار الرجال، ولكنه الإجرام والتوغل في الشر والفساد والإسراف في ذلك، والإسراف صاحبه لا يقف عند حد.

(٨٢) وبعد هذا الوعظ والإرشاد إلى سبيل النجاة، والخروج من هذه الورطة التي وقع فيها هؤلاء القوم المسرفون ما كان ردهم ﴿إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم﴾ أي لوطًا والمؤمنين معه ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي مدينتكم سدوم، معللين الأمر بإخراجهم من البلاد بأنهم أناس يتطهرون من الخبث الذي هم منغمسون فيه.

(٨٣) قال تعالى بعد أن بلغ الوضع هذا الحد: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ من بناته وبعض نسائه ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ حيث أمرهم بالخروج من البلاد ليلاً قبل حلول العذاب بالقوم فخرجوا، وما إن غادروا المنطقة حتى جعل الله تعالى عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجين فأهلكوا أجمعين.

(٨٤) وقوله تعالى في ختام هذا القصص: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه خطاب عام لكل من يسمع هذا القصص ليعتبر به حيث شاهد عاقبة المجرمين دمارًا كاملاً وعذابًا أليمًا.

هداية الآيات:

١ ـ شدة قبح جريمة اللواط.

٢ ـ أول من عرف هذه الجريمة القذرة هم قوم لوط[2] عليه السلام.

٣ ـ الإسراف وعدم الاعتدال في الأقوال والأفعال يتولد عنه كل شر وفساد.

٤ ـ الكفر والإجرام يحل رابطة الأخوة والقرابة بين أصحابه والبُرءاء منه.

٥ ـ من أتى هذه الفاحشة من المحصنين يرجم[3] بالحجارة حتى الموت.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٥ ـ ٨٧]

(٨٥) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا[4]﴾: مدين أبو القبيلة وهو مدين بن إبراهيم الخليل وشُعيب من أبناء القبيلة فهو أخوهم في النسب حقيقة إذ هو شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾: أي لا تنقصوا الناس قيم سلعهم وبضائعهم، إذ كانوا يفعلون ذلك.

(٨٦) ﴿صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾: طريق وتوعدون تخيفون المارة وتأخذون عليهم المكوس أو تسلبونهم أمتعتهم. ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: أي تريدون سبيل الله ـ وهي شريعته ـ معوجةً حتى توافق ميولكم. ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾: هم الذين يعملون بالمعاصي في البلاد.

(٨٧) ﴿يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾: يفصل بيننا فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين.

معنى الآيات:

هذا هو القصص الخامس في سورة الأعراف وهو قصص نبي الله شعيب مع قومه أهل مدين.

(٨٥) فقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ

---

(١) ﴿شَهْوَةً﴾ منصوب على أنّه مفعول لأجله.

(٢) روي أنّ إبليس هو الذي علّمهم إيّاها في نفسه بعد أن تشكّل بشكل إنسان.

(٣) الجمهور على أن من أتى هذه الفاحشة من الذكران البالغين أنه يقتل وغير البالغ يضرب، وخالف أبو حنيفة الجمهور وقال بعدم القتل واكتفى بالتعزير وهو محجوج بعمل الصحابة فقد أحرقوا مَنْ عَمِل عَمَل قوم لوط على عهد أبي بكر بإجماع رأي الصحابة على ذلك لحديث أبي داود والنسائي وابن ماجه والترمذي أنّ: رسول الله ﷺ قال: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**» وعند الترمذي: «**أحصنا أو لم يحصنا**» واختلف في الفاعل في البهيمة هل يقتل أو يعزّر؟ فالراجح: القتل لحديث: «**من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة معه**».

(٤) شعيب: تصغير شعب أو شِعب ويقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه.

﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبًا. فماذا قال لهم لما أُرسل إليهم؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي قولوا لا إله إلا الله، ولازم ذلك أن يصدقوا برسول الله شعيب حتى يمكنهم أن يعبدوا الله بما يحب أن يعبد به وبما من شأنه أن يكملهم ويسعدهم في الدارين، وقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم[1] بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي آية واضحة تشهد لي بالرسالة وبما أن ما آمركم به وأنهاكم عنه هو من عند الله تعالى إذًا ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي بالقسط الذي هو العدل ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ بل أعطوهم ما تستحقه بضائعهم من الثمن بحسب جودتها ورداءتها ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي في البلاد بعد إصلاحها، وذلك بترك الشرك والذنوب ومن ذلك ترك التلصص وقطع الطرق، وترك التطفيف في الكيل والوزن وعدم بخس سلع الناس وبضائعهم ذلكم الذي دعوتكم إليه من الطاعة وترك المعصية خير لكم حالاً ومآلاً إن كنتم مؤمنين.

(٨٦) وقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ[2] تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا[3]﴾ ينهاهم عليه السلام عن أبشع الإجرام وهو أنهم يجلسون في مداخل البلاد، وعلى أفواه السكك، ويتوعدون[4] المارة بالعذاب إن هم اتصلوا بالنبي شعيب وجلسوا إليه صرفًا للناس عن الإيمان والاستقامة، كما أنهم يقطعون الطرق ويسلبون الناس ثيابهم وأمتعتهم أو يدفعون إليهم ضريبة خاصة.

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ يذكرهم عليه السلام بنعمة الله تعالى عليهم وهي أنهم أصبحوا شعبًا كبيرًا بعدما كانوا شعبًا صغيرًا لا قيمة له ولا وزن بين الشعوب وقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يعظهم ببيان مصير الظلمة المفسدين من الأمم المجاورة والشعوب حيث حلت بهم نقمة الله ونزل بهم عذابه فهلكوا يعظهم لعلهم يذكرون فيتركوا الشرك والمعاصي، ويعملوا بالتوحيد والطاعة.

(٨٧) وأخيرًا يخوفهم بالله تعالى ويهددهم بأن حكمًا عدلاً هو الله سيحكم بينهم وعندها يعلمون من هو المحق ومن هو المبطل فقال: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي جماعة ﴿ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ من التوحيد والطاعة وترك الشرك والمعاصي، ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ أخرى ﴿لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ وبهذا كنا متخاصمين نحتاج إلى من يحكم بيننا إذًا ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

هداية الآيات:

١ ـ دعوة الرسل واحدة في باب العقيدة إذ كلها تقوم على أساس التوحيد والطاعة.

٢ ـ حرمة التطفيف في الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم، ويدخل في ذلك الصناعات وحرف المهن وما إلى ذلك.

٣ ـ حرمة الفساد في الأرض بالمعاصي لا سيما البلاد التي طهرها الله بالإسلام وأصلحها بشرائعه.

٤ ـ حرمة التلصص وقطع الطرق[5] وتخويف المارة.

٥ ـ حرمة الصد عن سبيل الله بمنع الناس من التدين والالتزام بالشريعة ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) من الجائز أن يكون الله تعالى قد أعطى نبيّه شعيبًا آية ولم تذكر في القرآن، والراجح أنها حجة قوية قهرهم بها ولم يتمكنوا من ردها.

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعّدون من أراد المجيء إليه ويصدّونه عنه ويقولون: إنّه كذّاب فلا تذهب إليه، كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ.

(٣) قال أبو عبيدة والزجاج: كسر العين عِوجًا: في المعاني، والفتح عَوَجًا: في الأجرام والذوات.

(٤) قال أبو هريرة رضي الله عنه هذا نهي عن قطع الطريق وأخذ السلب وكان ذلك من فعلهم.

(٥) ومثله الضرائب الفادحة التي تضرب على المسلمين في بلادهم والمكوس التي في الأسواق وغيرها مما اقتدى به المسلمون بالكافرين.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

الجزء التاسع

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٨، ٨٩]

(٨٨) ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: أشراف القوم الذين يملؤون المجلس إذا جلسوا، والعين إذا نظر إليهم. ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: تكلفوا الكبر وهم حقيرون، حتى لا يقبلوا الحق. ﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾: مدينتنا.

(٨٩) ﴿فِى مِلَّتِكُم﴾: في دينكم. ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: أي فوضنا أمرنا واعتمدنا في حمايتنا عليه. ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾: أي يا ربنا احكم بيننا. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾: أي وأنت خير الحاكمين.

معنى الآيتين:

(٨٨) ما زال السياق الكريم في قصص شعيب مع قومه أهل مدين فبعد أن أمرهم ونهاهم وذكرهم ووعظهم ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ مهددين موعدين مقسمين ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾. هكذا سنة الطغاة الظلمة إذا غلبوا بالحجج والبراهين يفزعون إلى القوة فلما أفحمهم شعيب خطيب الأنبياء عليهم السلام، وقطع الطريق عليهم شهروا السلاح في وجهه، وهو النفي والإخراج من البلاد أو العودة إلى دينهم الباطل: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ[1] فِى مِلَّتِنَا﴾ ورد شعيب على هذا التهديد بقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ[2]﴾ أي أنعود في ملتكم ولو كنا كارهين لها.

(٨٩) ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا[3]﴾ ووجه الكذب على الله إن عادوا إلى ملة الباطل هو أن شعيبًا أخبرهم أن الله تعالى أمرهم بعبادته وحده وترك عبادة غيره، وأنه تعالى أرسل إليهم رسولاً وأمرهم بطاعته إنقاذًا لهم من الباطل الذي هم فيه فإذا ارتد وعاد هو ومن معه من المؤمنين إلى ملة الشرك كان موقفهم موقف من كذب على الله تعالى بأنه قال كذا وكذا والله عز وجل لم يقل. هذا ثم قال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ ليس من الممكن ولا من المتهيء لنا العودة في ملتكم أبدًا، اللهم إلا أن يشاء[4] ربنا شيئًا فإن مشيئته نافذة في خلقه، وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فإذا كان قد علم أنا نرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، فسوف يكون ما علمه كما علمه وهو الغالب على أمره. ثم قال عليه السلام بعد أن أعلمهم أن العودة إلى دينهم غير واردة ولا ممكنة بحال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله ذلك، وهذا مما لا يشاؤه الله تعالى قال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾: إمّا أن يراد به أتباع شعيب المؤمنون إذ كانوا قبل إيمانهم على دين قومهم وإمّا أن يراد بكلمة ﴿لَتَعُودُنَّ﴾: لتصيرن إذ تكون عاد بمعنى: صار.

(٢) الاستفهام للتعجب والاستبعاد.

(٣) هذا أسلوب الإياس لهم من العودة إلى دينهم الباطل.

(٨٩) ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ هذا الاستثناء منقطع بمعنى لكن أي: ما يقع منّا العودة إلى الكفر لكن إن شاء الله ذلك كان، والله لا يشاء ذلك فهو إذًا كقولك: لا أكلمك حتى يبيض الغراب أو ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾.

(٤) هذا الاستثناء كان من شعيب تأدبًا مع الله تعالى بتفويض الأمر إلى مشيئته وعودة غيره من أمته ممكنة ولكن عودته هو مستحيلة.

﴿تَوَكَّلۡنَاۚ﴾ في الثبات على دينه الحق، والبراءة من الباطل ثم سأل ربه قائلاً: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي احكم بيننا وبينهم بالحق ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾[1] أي الحاكمين، وذلك بإحقاق الحق وإبطال الباطل.

هداية الآيتين:

١ - بيان سنة بشرية وهي أن الظلمة والمتكبرين يجادلون بالباطل حتى إذا أعياهم الجدال وأفحموا بالحجج بدل أن يسلموا بالحق ويعترفوا به ويقبلوه، فيستريحوا ويريحوا يفزعون إلى القوة بطرد أهل الحق ونفيهم أو إكراههم على قبول الباطل بالعذاب والنكال.

٢ - لا يصح من أهل الحق بعد أن عرفوه ودعوا إليه أن يتنكروا ويقبلوا الباطل بدله.

٣ - يستحب الاستثناء في كل ما عزم عليه المؤمن مستقبلاً وإن لم يرده أو حتى يفكّر فيه.

٤ - وجوب التوكل على الله عند تهديد العدو وتخويفه، والمضي في سبيل الحق.

٥ - مشروعية الدعاء وسؤال الله تعالى الحكم بين أهل الحق وأهل الباطل، لأن الله تعالى يحكم بالحق وهو خير الحاكمين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٠ - ٩٣]

(٩٠) ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا﴾: أي على ما جاء به من الدين والهدى.

(٩١) ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾: الحركة العنيفة كالزلزلة. ﴿جَٰثِمِينَ﴾: باركين على ركبهم ميتين.

(٩٢) ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾: أي كأن لم يعمروها ويقيموا فيها زمنًا طويلاً. ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: إذ هلكوا في الدنيا وأدخلوا النار في الآخرة.

(٩٣) ﴿ءَاسَىٰ﴾[2]: أي أحزن أو آسف شديد الأسف.

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص شعيب مع أهل مدين فإنه بعد أن هدد الظالمون شعيبًا بالإبعاد من مدينتهم هو والمؤمنين معه أو أن يعودوا إلى ملتهم فردّ شعيب على التهديد بما أيأسهم من العودة إلى دينهم، وفزع إلى الله يعلن توكله عليه ويطلب حكمه العادل بينه وبين قومه المشركين الظالمين كأن الناس اضطربوا وأن بعضًا قال اتركوا الرجل وما هو عليه، ولا تتعرضوا لما لا تطيقونه من البلاء. هنا قال الملأ الذين استكبروا من قومه مقسمين بآلهة الباطل:

(٩٠) ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا﴾ أي على دينه وما جاء به وما يدعو إليه من التوحيد والعدل ورفع الظلم ﴿إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

(٩١) قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾[3] استجابة لدعوة شعيب فأصبحوا هلكى جاثمين على الركب.

(٩٢) قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبًا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾[4] أي كأن لم يعمروا تلك الديار ويقيموا بها زمنًا طويلاً، وأكد هذا الخبر وهو حكمه في المكذبين الظالمين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبًا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أما الذين صدقوا شعيبًا فهم المفلحون الفائزون، وودعهم شعيب كما ودّع صالح قومه.

(٩٣) قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ وهم جاثمون هلكى فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾ فأبيتم إلا تكذيبي ورد قولي

---

(١) الفتح بمعنى القضاء والحكم وهو لغة أزد عمان من اليمن أي: احكم بيننا وبينهم وهي مأخوذة من الفتح بمعنى النصر إذ كانوا لا يتحاكمون لغير السيف ويرون أن النصر حكم الله للغالب على المغلوب.

(٢) أسِيَ كرضي يأسى كيرضى يقال: أسيت على كذا أسىً فأنا آسٍ و﴿ءَاسَىٰ﴾ في الآية مضارع أسى دخلت عليه همزة المتكلم فصارت آسى بهمزتين.

(٣) في سورة هود: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ وفي سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ وطريقة الجمع أنهم لمّا اجتمعوا تحت الظلة وهي سحابة أظلتهم، فَزِعُوا إليها من شدّة الحرّ الذي أصابهم يومئذٍ فلمّا استقروا تحتها زُلزلوا من تحتهم وإلا فأصحاب الأيكة أُخذوا بعذاب الظلة وأصحاب مدين أخذوا بالرجفة من تحتهم، والصيحة من فوقهم.

(٤) وفسّر القرطبي الغنى: بالمقام يقال: غنى القوم في دارهم أي: طال مقامهم، والمغني: المنزل والجمع المغاني، قال لبيد:

وغنيت ستًّا قبل مجرى داحسٍ … لو كان للنفس اللجوج خلود

ومعنى غنيت: أقمت وهو الشاهد.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

والإصرار على الشرك والفساد حتى هلكتم ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾[(١)] أي لا معنى للحزن والأسف على مثلكم.

هداية الآيات:

١ - ثمرة الصبر والثبات النصر العاجل أو الآجل.

٢ - نهاية الظلم والطغيان والدمار والخسران.

٣ - لا أسىً ولا حزنًا على من أهلكه الله تعالى بظلمه وفساده في الأرض.

٤ - مشروعية توبيخ الظالمين بعد هلاكهم كما فعل رسول الله ﷺ بأهل القليب وكما فعل صالح وشعيب عليهما السلام.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٤، ٩٥]

﴿٩٤﴾ ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾: القرية: المدينة الجامعة لأعيان البلاد ورؤسائها وهي المدينة. ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾: بالشدة كالقحط والجوع والحروب. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: الحالة المضرة كالأمراض والغلاء وشدة المؤونة. ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾: يدعون الله تعالى ويتضرعون إليه ليكشف عنهم السوء.

﴿٩٥﴾ ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾: أي بدل الغلاء الرخاء، وبدل الخوف الأمن، وبدل المرض الصحة. ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾: كثرت خيراتهم ونمت أموالهم، وأصبحت حالهم كلها حسنة. ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً﴾: أنزل بهم العقوبة فجأة.

معنى الآيتين:

﴿٩٤﴾ على إثر بيان قصص خمسة أنبياء ذكر تعالى سنته في الأمم السابقة ليكون ذلك عظة لكفار قريش، وذكرى للمؤمنين فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾[(٢)] أي في أهل قرية والمراد بالقرية الحاضرة والعاصمة من كبريات المدن حيث الكبراء والرؤساء من نبي من الأنبياء والمرسلين فكذبوه قومه وردوا دعوته مصرين على الشرك والضلال إلا أخذ الله تعالى أهل تلك المدينة بألوان من العذاب التأديبي كالقحط والجوع وشظف العيش، والأمراض والحروب المعبر عنه بالبأساء والضراء. رجاء أن يرجعوا إلى الحق بعد النفور منه، وقبوله بعد الإعراض عنه، ثم يغير تعالى ما بهم من بأساء وضراء إلى يسر ورخاء، وعافية وهناء فتكثر أموالهم وأولادهم ويعظم سلطانهم، ويقولون عندما يوعظون ويذكرون ليتوبوا فيؤمنوا ويتقوا:

﴿٩٥﴾ ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾[(٣)] أي الخير والشر وما هناك ما تخوفوننا به إنما هي الأيام هكذا دول يوم عسر وآخر يسر وبذلك يحق عليهم العذاب فيأخذهم الجبار عز وجل فجأة[(٤)] ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيتم هلاكهم ويمسون حديث عبرة لمن بعدهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

---

(١) الاستفهام إنكاري وهو موجه في الظاهر إلى نفس شعيب، والمقصود نهي من معه من المؤمنين الناجين من العذاب برحمة الله تعالى نهيهم عن الحزن على قومهم وأقاربهم كأنه لاحظ ذلك فيهم.

(٢) في الجملة إضمار تقديره: وما أرسلنا في قرية من نبي فكذب أهلُها إلاّ أخذناهم وهو مبسوط في التفسير مبيّن غاية البيان والجملة معطوفة على جملة: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

(٣) أي: فنحن مثلهم.

(٤) أي: بغتة ليكون أكثر حسرة.

هداية الآيتين:

١ - بيان سنة الله تعالى في الأمم السابقة.

٢ - تخويف كفار قريش بما دلت عليه هذه السنة من أخذ الله تعالى المصرين على الكفر المتمردين على الحق.

٣ - التذكير والوعظ بتاريخ الأمم السابقة المنبىء عن أسباب هلاكهم وخسرانهم ليتجنبها العقلاء، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٦ - ١٠٠]

(٩٦) ﴿آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾: أي آمنوا بالله ورسوله ﷺ ووعد الله ووعيده واتقوه تعالى بطاعته وعدم معصيته.

﴿بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: جمع بركة وهي دوام الخير وبقاؤه والعلم والإلهام والمطر من بركات السماء والنبات والخصب والرخاء والأمن والعافية من بركات الأرض.

﴿يَكْسِبُونَ﴾: من الشرك والمعاصي.

(٩٧) ﴿بَيَاتًا﴾: أي ليلاً وهم نائمون.

(٩٩) ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾: استدراجه تعالى لهم بإغداق النعم عليهم من صحة الأبدان ورخاء العيش حتى إذا أمنوا مكره تعالى بهم أخذهم بغتة.

(١٠٠) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: أي أولم يبين لهم بمعنى يتبين لهم. ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي بسبب ذنوبهم.

معنى الآيات:

(٩٦) بعدما بيّن تعالى سنته في الأمم السابقة، وهي أخذ الأمة بعد تكذيبها وعصيانها بالبأساء والضراء، ثم إذا هي لم تتب واستمرت على كفرها وعصيانها أغدق عليها الخيرات حتى عفت بكثرة مالها وصلاح حالها أخذها بغتة فأهلكها، وتم خسرانها في الدارين، فتح تعالى باب التوبة والرجاء لعباده فقال: ﴿وَلَوْ[1] أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى[2]﴾ المكذبين ككفار مكة والطائف وغيرهما من المدن ﴿آمَنُوا﴾ أي بالله ورسوله ﷺ وبلقاء الله ووعده ووعيده، ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الله تعالى في الشرك وفي معصيته ومعصية رسوله ﷺ لفتح عليهم أبواب السماء بالرحمات والبركات، وفتح عليهم كنوز الأرض ورزقهم من الطيبات ولكن أهل القرى الأولين كذبوا فأخذهم بالعذاب بما كانوا يكسبون، وأهل القرى اليوم وهم مكذبون فإما أن يعتبروا بما أصاب أهل القرى الأولين فيؤمنوا ويوحدوا ويطيعوا، وإما أن يصروا على الشرك والتكذيب فينزل بهم ما نزل بمن قبلهم من عذاب الإبادة والاستئصال، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٩٦) وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ[3] مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

(٩٧) أما الآيات الثلاث بعدها فإن الله تعالى ينكر على أهل القرى غفلتهم موبخًا لهم على تماديهم وإصرارهم على الباطل معجبًا من حالهم فيقول: ﴿أَفَأَمِنَ[4] أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾؟ أي أجهلوا ما نزل بمن قبلهم فأمنوا أن يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون؟

(٩٨) ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؟ أي أَوَ غَفِلَ أهل القرى وأمنوا أن يأتيهم عذابنا ضحى وهم في أعمالهم التي لا تعود عليهم بخير كأنها لعب أطفال يلعبون بها.

(٩٩) ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾؟ أي أغرّهم إمهالنا لهم واستدراجنا إياهم فأمنوا مكر الله؟ إنهم في ذلك

---

(١) لو: حرف امتناع لامتناع، امتنع شرطها فامتنع جوابها، وشرطها هنا: الإيمان والتقوى وجوابها فتح البركات على أهل القرى.

(٢) يقال للمدينة: قرية لاجتماع الناس فيها مأخوذ من التقرّي الذي هو التجمع يقال: قريت الماء في الحوض: إذا جمعته، وسمي القرآن قرآنًا لاجتماع الحروف والكلمات والجمل والآيات فيه.

(٣) البركات: جمع بركة، وهي الخير الدائم الصالح الذي لا تبعة فيه في الدنيا ولا في الآخرة. وتكون في العمر والمال وفي كل ما هو خير ونافع غير ضار للإنسان.

(٤) الاستفهام للإنكار والتعجب معًا، ومكر الله تعالى: إمهالهم وإغداق الخير عليهم مع شركهم وكفرهم، إذ المكر: أن يظهر المرء الإحسان لمن يمكر به ليأخذه فجأة. والأمن من مكر الله تعالى زيادة على أنه كبيرة من كبائر الذنوب فإنه يؤدي بالآمن إلى هلاكه دنيا وأخرى.

خاسرون إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

(١٠٠) وقوله تعالى في الآية الخامسة (١٠٠) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝﴾ أي عمي الذين يرثون الأرض من بعد أهلها ولم يتبين لهم بعد ولم يعلموا أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا الذين ورثوا ديارهم بذنوبهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي ونجعل على قلوبهم غشاوة حتى لا يعوا ما يقال لهم ولا يفهموا ما يراد بهم حتى يهلكوا كما هلك الذين من قبلهم.

هداية الآيات:

١ - عرض الرحمٰن تبارك وتعالى رحمته على عباده ولم يطلب منهم أكثر من الإيمان والتقوى.

٢ - حرمة الغفلة ووجوب الذكر واليقظة.

٣ - حرمة الأمن من مكر الله تعالى.

٤ - إذا أمنت الأمة مكر الله تهيأت للخسران وحل بها لا محالة.

٥ - وجوب الاعتبار بما أصاب الأولين، وذلك بترك ما كان سببًا لهلاكهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠١، ١٠٢]

(١٠١) ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾: الإشارة إلى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب. ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾: أي من أخبارها. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالحجج والبراهين الدالة على توحيد الله وصدق رسله. ﴿مِن قَبْلُ﴾: أي من قبل خلقهم ووجودهم، إذ علم الله تعالى تكذيبهم فكتبه عليهم في كتاب المقادير.

(١٠٢) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾: أي لم نجد لأكثرهم وفاء بعهودهم التي أخذت عليهم يوم أخذ الميثاق.

معنى الآيتين:

(١٠١) يخاطب الرب تعالى[1] رسوله محمدًا ﷺ قائلاً: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي من أخبارها مع أنبيائها كيف دعتهم رسلهم إلى الإيمان والتوحيد والطاعة، وكيف ردت تلك الأمم دعوة الله واستكبرت على عبادته، وكيف كان حكمنا فيهم لعل قومك يذكرون فيؤمنوا ويوحدوا. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالحجج الواضحات على صدق دعوتهم، وما جاءتهم به رسلهم من أمر ونهي من ربهم. وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾[2] أي لم يكن أولئك الهالكون من أهل القرى ليؤمنوا بما كذبوا به في علم الله وقدره إذ علم الله أنهم لا يؤمنون فكتب ذلك عليهم فلذا هم لا يؤمنون. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي كما كتب على الهالكين من أهل القرى أنهم لا يؤمنون ولم يؤمنوا فعلاً فأهلكهم، يطبع كذلك على قلوب الكافرين فلا يؤمنون حتى يأخذهم العذاب وهم ظالمون بكفرهم. وهذا الحكم الإلهي قائم على مبدأ أن الله علم من كل إنسان قبل خلقه ما يرغب فيه وما يؤثره على غيره ويعمله باختياره وإرادته فكتب ذلك عليه فهو عند خروجه إلى الدنيا لا يعمل إلا به. ليصل إلى ما كتب عليه، وقدر له أزلاً قبل خلق السموات والأرض.

(١٠٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾[3] أي لم نجد لتلك الأمم التي أهلكنا وهم قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب. لم نجد

---

(١) سرّ هذا الخطاب زيادة على التعليم لكمال الهداية فإنه تسلية للرسول ﷺ مما يلاقي من صلف المشركين وعنادهم وجحودهم، وهو تسلية لكل مؤمن ومؤمنة يعاني من صلف المشركين وأذاهم.

(٢) اختلف في المضاف إليه المحذوف في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ هل المراد: من قبل خروجهم للحياة الدنيا وهم في عالم الأرواح حيث أمروا بالإيمان فكذّبوا فكتب الله عليهم ذلك فلن يكون إلا هو؟ أو لو أحييناهم بعد إهلاكهم بذنوبهم لمَا آمنوا بما كذّبوا به فكان سبب هلاكهم؟ أو سألوا المعجزات ليؤمنوا فلمّا رأوها لم يؤمنوا بما كذّبوا من قبل رؤيتهم المعجزات؟ والراجح من هذه المقولات ما هو في التفسير إذ هو قول ابن جرير إمام المفسرين.

(٣) ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ من زائدة لتقوية النفي والدلالة على الجنس أي: جنس العهد، والعهد من الجائز أن يكون ما أخذ عليهم في عالم الذرّ وهو صحيح قاله ابن عباس وأن يكون ما أخذ عليهم من قِبل الأنبياء أن يعبدوا الله وحده ويطيعوه ولا يعصوه.

لأكثرهم وفاء بعهدهم الذي أخذناه عليهم قبل خلقهم من الإيمان بنا وعبادتنا وطاعتنا وطاعة رسلنا، وما وجدنا[1] أكثرهم إلا فاسقين عن أمرنا خارجين عن طاعتنا وطاعة رسلنا، وكذلك أحللنا بهم نقمتنا وأنزلنا بهم عذابنا فأهلكناهم أجمعين.

هداية الآيتين:

١ - تقرير الوحي الإلهي وإثبات نبوة محمد ﷺ، لأنه ما قُصَّ من أنباء الأولين لا يُتَلَقّى إلا بوحي إلهي ولا يتلقى عن الله تعالى إلا رسول أُعِدَّ لذلك.

٢ - وجود البينات مهما كانت قوية واضحة غير كاف في إيمان من لم يشأ الله هدايته.

٣ - المؤمن من آمن في الأزل، والكافر من كفر فيه.

٤ - الطبع على قلوب الكافرين سببه اختيارهم للكفر والشر والفساد وإصرارهم على ذلك كيفما كانت الحال.

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

١٦٤

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٣ - ١٠٨]

(١٠٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾: أي من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب. ﴿مُّوسَىٰ﴾: هو موسى بن عمران من ذرية يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: هي تسع آيات: العصا، واليد، والسنون المجدبة، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والطمس على أموال فرعون. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: أي بعث موسى الرسول إلى فرعون وهو الوليد بن مصعب بن الريان، ملك مصر. ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾: أي أشراف قومه وأعيانهم من رؤساء وكبراء. ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾: أي ظلموا أنفسهم بالآيات وما تحمله من هدى حيث كفروا بها.

(١٠٥) ﴿بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: حجة قاطعة وبرهان ساطع على أني رسول الله إليكم.

(١٠٨) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾: أخرجها بسرعة من جيبه.

معنى الآيات:

(١٠٣) قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ هذا شروع في ذكر القصص السادس مما اشتملت عليه سورة الأعراف، وهي قصص موسى عليه السلام مع فرعون وملإه. قال تعالى وهو يقص على نبيه ﷺ ليثبت به فؤاده، ويقرر به نبوته، ويعظ أمته، ويذكر به قومه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب موسى بن عمران إلى فرعون وملإه من رجالات ملكه ودولته، وقوله بآياتنا. هي تسع آيات لتكون حجة على صدق رسالته وأحقية دعوته. وقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾[2] أي جحدوا ولم يعترفوا بها فكفروا بها وبذلك ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم بها، واستمروا على كفرهم وفسادهم حتى أهلكهم الله تعالى بإغراقهم، ثم قال لرسوله ﷺ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي دمارًا وهلاكًا وهي عاقبة كل مفسد في الأرض بالشرك والكفر والمعاصي. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٠٣) وأما الآيات بعدها فإنها في فصيل أحداث هذا القصص العجيب.

---

(١) الآية: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ﴾ وإن: بمعنى ما النافية فلذا اكتفينا في التفسير بما ولم نذكر إن اختصارًا وتقريبًا للفهم.

(١٠٥) قرأ نافع: ﴿حَقِيقٌ عَلَىَّ﴾ بياء الضمير المشدّدة وهي بمعنى: واجب عليّ خبر ثانٍ لأنّ في قوله: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقرأ غيره: ﴿على﴾ حرف جرّ أي: محقوق بأن لا أقول على الله إلا الحق، فحقيق: فعيل بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول.

(٢) ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: ظلموا أنفسهم بالتكذيب بالآيات، وجائز أن يكون ظلموا بسببها غيرهم ممن منعوهم من الإيمان بها إذ

١٠٤ - ١٠٥ وأتى موسى فرعون وقال: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ[1] إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ حَقِيقٌ﴾ أي جدير وخليق بي ﴿أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دالة على صدقي شاهدة بصحة ما أقول ﴿فَأَرْسِلْ[2] مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لأذهب بهم إلى أرض الشام التي كتب الله لهم وقد كانت دار آبائهم.

١٠٦ وهنا تكلم فرعون وطالب موسى بالآية التي ذكر أنه جاء بها فقال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فيما تدعيه وتقول به وتدعو إليه.

١٠٧ وهنا ألقى موسى عصاه أي أمام فرعون المطالب بالآية ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي حية عظيمة تهتز أمام فرعون وملإه كأنها جان[3]، هذه آية وزاده أخرى فأدخل يده في جيبه كما علّمه ربه ونزعها

١٠٨ ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ بيضاء بياضًا غير معهود مثله في أيدي الناس. هذا ما تضمنته هذه الآيات الخمس في هذا السياق.

هداية الآيات:

١ - بيان سوء عاقبة المفسدين بالشرك والمعاصي.

٢ - تذكير موسى فرعون بأسلوب لطيف بأنه ليس ربًا بل هناك رب العالمين وهو الله رب موسى وهارون والناس أجمعين.

٣ - تقرير مبدأ الصدق لدى الرسل عليهم السلام.

٤ - ظهور آيتين لموسى العصا واليد.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٩ - ١١٢]

١٠٩ ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾: أي ذو علم بالسحر خبير به ليس مجرد مدّع.

١١٠ ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾: أي من بلادكم ليستولي عليها ويحكمكم. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: أي أشيروا بما ترون الصواب في حل هذا المشكل.

١١١ ﴿أَرْجِهْ﴾: أي أمهله وأخاه لا تعجل عليهما قبل اتخاذ ما يلزم من الاحتياطات. ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾: مدن المملكة الفرعونية. ﴿حَٰشِرِينَ﴾: رجالاً يجمعون السحرة الخبراء في فن السحر للمناظرة.

معنى الآيات:

١٠٩ ما زال السياق في تفصيل قصص موسى مع فرعون فبعد أن تقدم موسى بما طلب فرعون منه من الآية فأراه آية العصا، واليد، وشاهد الملأ من قوم فرعون الآيتين العظيمتين قالوا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وذلك لما بهرتهم الآيتان تحول العصا إلى حية عظيمة واليد بيضاء من غير سوء كالبرص بل بياضها عجب[4] حتى لكأنها فلقة قمر أي قطعة منه، واتهموا موسى فورًا بالسياسة وأنه يريد بهذا إخراجكم من بلادكم ليستولي عليها هو وقومه من بني إسرائيل.

١١٠ وهنا تكلم فرعون وقال: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[5] أي بِمَ تشيرون عليّ أيها الملأ والحال كما ذكرتم؟

١١١ - ١١٢ فأجابوه قائلين: ﴿أَرْجِهْ[6] وَأَخَاهُ﴾ أي أوقفهما عندك ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ[7] حَٰشِرِينَ﴾ أي رجالاً من الشرط يحشرون أي يجمعون أهل الفن من السحرة من كافة أنحاء الإيالة أي الإقليم المصري، وأجر معه مناظرة فإذا انهزم انتهى أمره وأمنا من خطره على بلادنا وأوضاعنا. هذا ما دلت عليه الآيات الأربع في هذا السياق.

هداية الآيات:

١ - جهل الملإ بالآيات أدى بهم إلى أن قالوا إن موسى ساحر عليم.

٢ - مكر الملإ وخبثهم إذ اتهموا موسى سياسيًا بأنه يريد الملك وهو

= هدّدوهم بالقتل وجائز أن يضمّن الظلم هنا معنى الكفر أي: كفروا بها وهو صحيح المعنى.

(١) فرعون: علم جنس لمن يملك مصر في القديم ككسرى: لكل من يملك فارسًا وقيصر: لكل من يملك الروم ونمرود: لمن ملك الكنعانيين، والنجاشي: للأحباش، وتبّع: لحمير ونداء موسى له بقوله يا فرعون: فيه نوع احترام، إذ ناداه بعنوان الملك والسلطان.

(٢) الفاء تفريعية أي: ما بعدها متفرّع عمّا قبلها.

(٣) الجانّ: هنا حية كحلاء العينين تسكن البيوت لا تؤذي كثيرة التقلّب والاهتزاز.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ليد موسى نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض.

(٥) يرى بعضهم أن المستفهم غير فرعون، الصحيح أنه فرعون لانهزامه معنويًا.

(٦) قرأ ورش: ﴿أرجهِ﴾ بإشباع كسرة الهاء، وقرأ الجمهور: ﴿أَرْجِهْ﴾ بإسكان الهاء، وقرأ بعضّ بكسر الهاء بدون مدّ.

(٧) قيل: هي صعيد مصر إذ هو مقر العلماء بالسحر، والمدائن جمع مدينة وتجمع على مدن وأصل اشتقاقها من مدن بالمكان إذا أقام به.

كذب بحت وإنما يريد إخراج بني إسرائيل من مصر حيث طال استعبادهم وامتهانهم من قبل الأقباط وهم أبناء الأنبياء وأحفاد إسرائيل وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام.

٣ - فضيحة فرعون حيث نسي دعواه الربوبية، فاستشار الملأ في شأنه، إذ الربُّ الحق لا يستشير عباده فيما يريد فعله لأنه لا يجهل ما يحدث مستقبلاً.

٤ - السحر صناعة من الصناعات يتعلم ويبرع فيها المرء، ويتقدم حتى يتفوق على غيره.

٥ - حرمة السحر وحرمة تعلمه، ووجوب إقامة الحد على من ظهر عليه وعرف به.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٣ - ١١٦]

﴿١١٣﴾ ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾: جمع ساحر وهو من يتقن فن السحر ويؤثر في أعين الناس بسحره. ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾: أي ثوابًا من عندك أي أجرًا تعطيناه إن نحن غلبنا.

﴿١١٥﴾ ﴿نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾: لعصيّنا.

﴿١١٦﴾ ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾: حيث صار النظارة في الميدان يشاهدون عصي السحرة وحبالهم يشاهدونها حيات وثعابين تملأ الساحة. ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: أي أدخلوا الرهب والرعب في قلوب الناس من قوة أثر السحر في عيونهم.

معنى الآيات:

﴿١١٣﴾ ما زال السياق في الحوار الدائر بين موسى عليه السلام من جهة وبين فرعون وملإه من جهة أخرى، فقد جاء في الآيات السابقة أن الملأ أشاروا على فرعون بأن يحبس موسى وأخاه هارون ويرسل شرطة في المدن يأتون بالخبراء في فن السحر لمناظرة موسى عسى أن يغلبوه، وفعلاً أرسل فرعون في مدنه حاشرين يجمعون خبراء السحر، وها هم أولاء قد وصلوا، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ[1]﴾ وعرفوا أن الموقف جد صعب على فرعون فطالبوه بالأجر العظيم إن هم غلبوا موسى وأخاه فوافق فرعون على طلبهم، وهو معنى قوله تعالى:

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٤﴾ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا[2] إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمْ﴾ وزادهم أيضًا أن يجعلهم من خواصه ورجال قصره فقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي لدينا. وهنا تقدموا لموسى وكأنهم على ثقة في قوتهم السحرية وأن الجولة ستكون لهم، تقدموا بإلقاء آلاتهم السحرية أو تقدم موسى عليهم فقالوا:

﴿١١٥﴾ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ[3] إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ أي ألق عصاك أو نلقي نحن عصينا فقال لهم موسى:

﴿١١٦﴾ ﴿أَلْقُوا۟﴾[4] فألقوا فعلاً فسحروا أعين[5] الناس وجاؤوا بسحر عظيم كما أخبر تعالى الأمر الذي استرهب النظارة حتى إن موسى عليه السلام أوجس في نفسه خيفة فنهاه ربه تعالى عن ذلك وأعلمه أنه الغالب بإذن الله تعالى. جاء هذا الخبر في سورة طه.

هداية الآيات:

١ - مشروعية طلب الأجرة على العمل الذي يقوم به الإنسان خارجًا عن نطاق العبادة.

٢ - مشروعية الترقيات الحكومية لذي الخدمة الجُلى للدولة.

٣ - تأثير السحر على أعين الناس حقيقة بحيث يرون الشيء على خلاف ما هو عليه إذ العصي والحبال استحالت في أعين الناس إلى حيات وثعابين.

---

(١) لقد ذكر القرطبي في عدد السحرة أخبارًا مثلها لا يصح، إذ جاء في بعضهم أنّ عددهم كان سبعين ألف ساحر، والأقرب إلى أن يكونوا سبعين رجلاً.

(٢) قرىء في السبع بهمزة الاستفهام: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ وقرىء بدونها: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾.

(٣) قال القرطبي: تأدبوا مع موسى إذ استشاروه فيمن يبدأ بالإلقاء فنفعهم الله بأدبهم مع نبيّه فأسلموا وسعدوا برضوان الله تعالى.

(٤) في إذنه لهم بالإلقاء توفيق ربّاني عظيم إذ معناه أنه احتفظ بالضربة الأخيرة وصاحبها يغلب بإذن الله دائمًا.

(٥) أي: خيّلوا لهم وقلبوها عن صحة إدراكها بما يتخيل من التمويه الذي جرى مجرى الشعوذة وخفة اليد.

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٧ ـ ١٢٢]

﴿١١٧﴾ ﴿تَلْقَفُ﴾: تأخذ بسرعة فائقة وحذق عجيب. ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾: ما يقلبون بسحرهم وتمويههم.

﴿١١٨﴾ ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾: ثبت وظهر.

﴿١١٩﴾ ﴿صَٰغِرِينَ﴾: ذليلين.

﴿١٢٠﴾ ﴿سَٰجِدِينَ﴾: ساقطين على وجوههم سجدًا لربهم رب العالمين.

معنى الآيات:

﴿١١٧﴾ ما زال السياق في المناظرة أو المباراة بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون، فبعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم في الساحة وانقلبت بالتمويه السحري حيات وثعابين ورهب الناس من الموقف وظن فرعون وملأه أنهم غالبون أوحى الله تعالى إلى موسى أن يلقي عصاه فألقاها ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ[1] مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي تأخذه وتبتلعه وبذلك وقع الحق أي ظهر وثبت واستقر.

﴿١١٨﴾ ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي السحر والتمويه.

﴿١١٩﴾ وقوله تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ﴾ أي فرعون وملأه وقومه ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ساحة المباراة والمناظرة ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ إلى ديارهم ﴿صَٰغِرِينَ﴾ أي ذليلين مهزومين.

﴿١٢٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ أي إنهم بعد أن شاهدوا الآية الكبرى بهرتهم فخروا ساجدين كأنما ألقاهم[2] أحد على وجه الأرض لا حراك لهم وهم يقولون[3]:

﴿١٢١﴾ ـ ﴿١٢٢﴾ ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ وضمن ذلك فقد كفروا بربوبية فرعون الباطلة، لأن الإيمان بالله سيلزم الكفر بما عداه، ولذا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ تلويحًا بكفرهم بفرعون الطاغية وبكل إله غير الله.

هداية الآيات:

١ - بيان سنته تعالى في أن الحق والباطل إذا التقيا في أي ميدان فالغلبة للحق دائمًا.

٢ - بطلان السحر وعدم فلاح أهله ولقوله تعالى من سوره طه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

٣ - فضل العلم وأنه سبب الهداية فإيمان السحرة كان ثمرة العلم، إذ عرفوا أن ما جاء به موسى ليس سحرًا وإنما هو آية له من الله فآمنوا.

٤ - مظهر من مظاهر القضاء والقدر فالسحرة أصبحوا كافرين وأمسوا مسلمين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٣ ـ ١٢٦]

﴿١٢٣﴾ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾: أي صدقتموه فيما جاء به ودعا إليه. ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾: أي حيلة احتلتموها وتواطأتم مع موسى على ذلك.

﴿١٢٤﴾ ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: بأن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس. ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾: التصليب: الشد على خشبة حتى الموت.

---

(١) قرىء: ﴿تَلَقَّفُ﴾ و﴿تلقَّف﴾ بتضعيف القاف، والأصل: تتلقف فحذف إحدى التاءين تخفيفًا، وقرىء في الشاذ: ﴿تلقم﴾ بالميم بدل الفاء، ومعنى الكلّ تبتلع بسرعة وتزدرده، وصيغة المضارع في الفعلين لاستحضار الماضي كأنه حاضر ليكون أوقع في النفس.

(٢) أي: ألقوا أنفسهم على الأرض، وبني الفعل للمجهول لظهور الفاعل وهو أنفسهم.

(٣) قالوا: آمنا بربّ العالمين حال هو يهم للسجود إعلامًا منهم أنهم ما سجدوا لفرعون كما يفعل الأقباط، وإنّما سجدوا لله رب العالمين ربّ موسى وهارون.

(١٢٥) ﴿مُنقَلِبُونَ﴾: أي راجعون.
(١٢٦) ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾: أي وما تكره منا وتنكر علينا إلا إيماننا بآيات ربنا لما جاءتنا. ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: أي أفض علينا صبرًا قويًا حتى نثبت على ما توعدنا فرعون من العذاب ولا نرتد بعد إيماننا.

معنى الآيات:

(١٢٣) ما زال السياق في أحداث قصص موسى وفرعون ففي الآيات قبل هذه تمت المناظرة بين موسى والسحرة بنصر موسى عليه السلام وهزيمة فرعون النكراء حيث سحرته بعد ظهور الحق لهم واضحًا مكشوفًا آمنوا وأسلموا وسجدوا للّه رب العالمين. وفي هذه الآيات يخبر تعالى عن محاكمة فرعون للسحرة فقال عز من قائل: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أي للسحرة ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾[1] أي بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي في الإيمان به، وهي عبارة فيها رائحة الهزيمة والحمق، وإلا فهل الإيمان يتأتى فيه الإذن وعدمه، الإيمان إذعان باطني لا علاقة له بالإذن إلا من الله تعالى، ثم قال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي إن هذا الذي قمتم به من ادعاء الغلب لموسى بعدما أظهرتم الحماس في بداية المباراة ما هو إلا مكر وتدبير خفي تم بينكم وبين موسى في المدينة قبل الخروج إلى ساحة المباراة، والهدف منه إخراجكم الناس[2] من المدينة واستيلاؤكم عليها. ثم تهددهم وتوعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أنا صانع بكم.
(١٢٤) وذكر ما عزم عليه فقال مقسمًا: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يريد بقطع من كل واحد منهم يده اليمنى ورجله اليسرى، ثم يربطهم على أخشاب في ساحة معينة ليموتوا كذلك نكالاً وعبرة لغيرهم.
(١٢٥) هذا ما أعلنه فرعون وصرح به للسحرة المؤمنين فما كان جواب السحرة ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝﴾ أي راجعون فقتلك إيانا لم يزد على أن قربنا من ربنا وردنا إليه ونحن في شوق إلى لقاء ربنا، وعليه فحكمك بقتلنا ما هو بضائرنا.
(١٢٦) وشيء آخر هو أنك ﴿وَمَا تَنقِمُ[3] مِنَّآ﴾ يا فرعون أي ما تكره منا ولا تنكر علينا إجرامًا أجرمناه أو فسادًا في الأرض أشعناه إنما تنقم منا إيماننا بآيات ربنا لما جاءتنا وهذا شيء لا مذمة فيه علينا، ولا عارًا يلحقنا، فلذا ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ ثم أقبلوا على الله ورفعوا أيديهم إليه وقالوا ضارعين سائلين: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ حتى نتحمل العذاب في ذاتك ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ[4]﴾[5]، ونفذ فرعون جريمته ولكن أحدث ذلك اضطرابًا في البلاد ولم يكن فرعون ولا ملأه يتوقعون، دل عليه الآيات التالية.

هداية الآيات:

١ - القلوب المظلمة بالكفر والجرائم أصحابها لا يتورعون عن الكذب واتهام الأبرياء.

٢ -فضيلة الاسترجاع أن يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ حيث فزع إليها السحرة لما هددهم فرعون إذ قالوا: (١٢٥) ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي راجعون فهان عليهم ما تهددوا به.

٣ - مشروعية سؤال الصبر على البلاء للثبات على الإيمان.

٤ - فضل الوفاة على الإسلام وأنه مطلب عال لأهل الإيمان.

---

(١) الاستفهام هنا للإنكار والتهديد أي: ينكر على السحرة إيمانهم ويهددهم بالبطش بهم والتنكيل.
(٢) قد يكون المراد بعض الناس وهم بنو إسرائيل إذ موسى جاء يطالب بهم ليخرج بهم إلى أرض القدس.
(٣) يقال: نقم ينقم من باب ضرب يضرب، نقْمًا ونقَمًا على أنه من باب تعِب تعبًا إذا أنكر الفعل وكره صدوره وحقد على فاعله، ويكون بالقول والفعل.
(٤) كلمة الإسلام معروفة في كل زمان ومكان بين المؤمنين ويعبر عنها كل قوم بلغتهم إذ معناها الانقياد لله مع حبّه تعالى وتعظيمه والشوق إليه.
(٥) لم يرد في القرآن ما يدل على أنّ فرعون نفّذ وعيده في السحرة أو لم ينفذه، وعدم ذكر القرآن له لأنه خالٍ من الفائدة، وذكر القرطبي بصيغة التمريض فقال: قيل: إنّ فرعون أخذ السحرة وقطّعهم على شاطىء النهر وأنّه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف والله أعلم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٧ - ١٢٩]

(١٢٧) ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾: أي لفرعون. ﴿أَتَذَرُ﴾: أي أتترك. ﴿وَقَوْمَهُ﴾: أي بني إسرائيل. ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾: أي في البلاد بالدعوة إلى مخالفتك، وترك طاعتك. ﴿وَآلِهَتَكَ﴾: أصنامًا صغارًا وضعها ليعبدها الناس وقال أنا ربكم الأعلى وربها. ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾: نبقي على نسائهم لا تذبحهن كما تذبح الأطفال الذكور.

(١٢٩) ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي يجعلكم خلفاء فيها تخلفون الظالمين بعد هلاكهم.

معنى الآيات:

(١٢٧) ما زال السياق في أحداث قصص موسى وفرعون أنه بعد انتصار موسى في المباراة وإيمان السحرة ظهر أمر موسى واتبعه ستمائة ألف من بني إسرائيل، وخاف قوم فرعون من إيمان الناس بموسى وبما جاء به من الحق قالوا لفرعون على وجه التحريض والتحريك له ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ﴾ يريدون بني إسرائيل ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر بإفساد خدمك[1] وعبيدك ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ[2]﴾ أي ويتركك فلا يخدمك ولا يطيعك ويترك آلهتك فلا يعبدها إذ كان لفرعون أصنام يدعو الناس لعبادتها لتقربهم إليه وهو الرب الأعلى للكل. وبعد هذا التحريش والإغراء من رجال فرعون ليبطش بموسى وقومه قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ[3] أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ كما كان يفعل قبل عندما أخبر بأن سقوط ملكه سيكون على يد بني إسرائيل ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ هذه الكلمة من فرعون في هذا الظرف بالذات لا تعدو أن تكون تعويضًا عما فقد من جبروت ورهبوت كان له قبل هزيمته في المباراة وإيمان السحرة برب العالمين رب موسى وهارون. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٢٧) وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ۝﴾.

(١٢٨) وكان رد موسى عليه السلام على هذا التهديد والوعيد الذي أرعب بني إسرائيل وأخافهم ما جاء في الآية الثانية (١٢٨) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ على ما قد ينالكم من ظلم فرعون، وما قد يصيبكم من أذى انتقامًا لما فقد من علوه وكبريائه ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على ذلك، واعلموا ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فمتى صبرتم على ما يصيبكم فلم تجزعوا فترتدوا، واتقيتم الله ربكم فلم تتركوا طاعته وطاعة رسوله أهلك عدوكم وأورثكم أرضه ودياره، وسبحان الله هذا الذي ذكره موسى لبني إسرائيل قد تم حرفيًا بعد فترة صبر فيها بنو إسرائيل واتقوا كما سيأتي في هذا السياق بعد كذا آية.

(١٢٩) وهنا قال بنو إسرائيل ما تضمنته الآية الأخيرة (١٢٩) ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بما أتيتنا به من الدين والآيات، وذلك عندما كان فرعون يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم للخدمة ﴿وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ وهذه منهم كلمة الآيس المهزوم نفسيًا لطول ما عانوا من الاضطهاد والعذاب من فرعون وقومه الأقباط. فأجابهم موسى عليه السلام قائلًا: محييًا الأمل في نفوسهم وإيصالهم بقوة الله التي لا تقهر ﴿عَسَىٰ[4] رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ[5] تَعْمَلُونَ﴾ وهذا الذي رجاه موسى ورجاه بني إسرائيل قد تم كاملًا بلا

---

(١) وإيقاع الفرقة وتشتيت الشمل أيضًا.

(٢) وقرىء: ﴿وإلهتك﴾ أي: عبادتك وعلى هذا فإنه كان يَعْبُد ولا يُعبد والوجه الأوّل أظهر.

(٣) آنس قومه بهذه الجملة من الكلام وأذهب عنهم روح الهزيمة، ولم يقل: سنقتل موسى لعلمه أنه لا يقدر عليه ولما أصابه من الرّعب منه حتى قيل: إنه كان إذا رآه يبول من شدّة الخوف منه هي آية موسى عليه السلام.

(٤) عسى من الله واجب أي: ليست للرجاء فقط بل ما يذكر معها يقع لا بدّ ولا يتخلّف، ولذا قد تحقق ما ذكر معها هنا كاملًا لا نقص فيه.

(٥) كيف: ليست للاستفهام هنا وإنّما هي دالة على مجرّد كيفية أعمالهم هل هي أعمال صالحة أو فاسدة أي: هل يشكرون؟

نقصان والحمد لله الكريم المنّان.

هداية الآيات:

١ ـ خطر بطانة السوء على الملوك والرؤساء تجلت في إثارة فرعون ودفعه إلى البطش بقولهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ إلخ.

٢ ـ بيان فضيلة الصبر والتقوى وأنها مفتاح النصر وإكسير الكمال البشري.

٣ ـ النفوس المريضة علاجها عسير ولكن بالصبر والمثابرة تشفى إن شاء الله تعالى.

٤ ـ بيان صدق ما رجاه موسى من ربه حيث تحقق بحذافيره.

٥ ـ استحسان رفع معنويات المؤمنين بذكر حسن العاقبة والتبشير بوعد الله لأوليائه أهل الإيمان والتقوى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٠ ـ ١٣٣]

(١٣٠) ﴿أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ[1]﴾: أي عاقبناهم بسني الجدب والقحط.

﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: بالجوائح تصيبها، وبعدم صلاحيتها.

(١٣١) ﴿الْحَسَنَةُ﴾: ما يحسن من خصب ورخاء وكثرة رزق وعافية.

﴿سَيِّئَةٌ﴾: ضد الحسنة وهي الجدب والغلاء والمرض. ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ﴾[2]: أي يتشاءمون بموسى وقومه.

(١٣٣) ﴿الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾: الطوفان الفيضانات المغرقة، والجراد معروف بأكل الزرع والثمار، والقمل جائز أن يكون القمل المعروف وجائز أن يكون السوس في الحبوب، والضفادع جمع ضفدعة. حيوان يوجد في المياه والمستنقعات.

﴿وَالدَّمَ﴾: والدم معروف قد يكون دم رعاف أو نزيف، أو تحول الماء ماء الشرب إلى دم عبيط في أوانيهم وأفواههم آية لموسى عليه السلام. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾: حيث لم يؤمنوا بهذه الآيات. أي مفسدين حيث حكم بإهلاكهم.

معنى الآيات:

(١٣٠) ما زال السياق في قصص موسى مع آل فرعون أنه لما شاهد فرعون وآله آية العصا وانهزام السحر أمامهم وإيمان السحرة حملهم الكبر على مواصلة الكفر والعناد فأصابهم الرب تعالى بجفاف وقحط سنوات لعلهم يذكرون، ولم يذكروا فحوّل الله تعالى جدبهم إلى خصب، وبلاءهم إلى عافية فلم يرجعوا وقالوا في الرخاء هذه لنا نحن مستحقوها وجديرون بها، وقالوا في القحط والبلاء قالوا هذه من شؤم موسى وبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وذلك لأنه مدبر الأمر وخالق كل شيء وجاعل للحسنة أسبابها وللسيئة أسبابها ولكن أكثرهم لا يعلمون فلذلك قالوا اطيرنا بموسى ومن معه وأصروا على الكفر ولجوا في المكابرة والعناد حتى قالوا لموسى:

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ۖ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

(١) يقال: أصابتهم سنة أي: جدب وتقديره: جدب سنة وفي الحديث: «**اللّهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**» دعاء على قريش.

(٢) أصل الكلمة: يتطيّروا فأدغمت التاء في الطاء لأنّ مخرجهما واحد، والطير والتطير مأخوذ من زجر الطير. إذ كانوا إذا أرادوا عملاً ما سفرًا ونحوه يزجرون الطير فإن تيامن في طيرانه أقدموا على العمل، وإن تشاءم تركوا، فهذا أصل اليمن والشؤم كان في الجاهلية وأبطله الإسلام. قال رسول الله ﷺ: «**الطيرة شرك**» ـ ثلاثًا ـ **وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**» وعلمهم أن يقولوا: «اللهم لا طير إلاّ طيرك ولا خير إلاّ خيرك ولا إله غيرك».

(١٣٢) ﴿مَهْمَا[1] تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولو علموا ما أصروا على الكفر ولما قالوا ما قالوا فأسباب الحسنة الإيمان والتقوى، وأسباب السيئة الكفر والمعاصي، إذ المراد بالحسنة والسيئة هنا: الخير والشر.

(١٣٣) وهنا وبعد هذا الإصرار والعناد والمكابرة رفع موسى يديه إلى ربه يدعوه فقال: يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغا وعتا، وأن قومه قد نقضوا العهد فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدهم آية، فاستجاب الله تعالى دعاءه فأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع[2] والدم فأخذهم الطوفان أولاً فكادوا يهلكون بالغرق فجاؤوا موسى وطلبوا منه أن يدعو ربه ليرفع عنهم هذا العذاب فإن رفعه عنهم آمنوا وأرسلوا معه بني إسرائيل فدعا ربه واستجاب الله تعالى فأخذوا شهرًا في عافية فطلب منهم موسى ما وعدوه به فتنكروا لوعدهم وأصروا على كفرهم فأرسل الله تعالى عليهم الجراد[3] فأكل زروعهم وأشجارهم وثمارهم حتى ضجوا وصاحوا وأتوا موسى وأعطوه وعودهم إن رفع الله عنهم هذا العذاب آمنوا وأرسلوا معه بني إسرائيل فرفع الله عنهم ذلك فلبثوا مدة آمنين من هذه العاهة وطالبهم موسى بوعدهم فتنكروا له، وهكذا حتى تمت الآيات الخمس مفصلات ما بين كل آية وأخرى مدة تقصر وتطول فاستكبروا عن الإيمان والطاعة وكانوا قومًا مجرمين مفسدين لا خير فيهم ولا عهد لهم.

هداية الآيات:

١ ـ من تدبير الله تعالى أخذه عباده بالشدائد لعلهم يذكرون فيتعظون ويتوبون.

٢ ـ بطلان التطير مطلقًا، وإنما الشؤم في المعاصي بمخالفة شرع الله فيترتب على الفسق والعصيان البلاء والعذاب.

٣ ـ الجهل سبب الكفر والمعاصي وسوء الأخلاق وفساد الأحوال.

٤ ـ عدم إيمان آل فرعون مع توارد الآيات عليهم دال على أن إيمانهم لم يسبق به القدر. كما هو دال على أن الآيات المعجزات لا تستلزم الإيمان بالضرورة.

٥ ـ التنديد بالإجرام وهو إفساد النفس بالشرك والمعاصي.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٤ ـ ١٣٧]

(١٣٤) ﴿الرِّجْزُ﴾: العذاب وهو الخمسة المذكورة في آية (١٣٣) الآنفة الذكر.

(١٣٥) ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾: المراد من الأجل أنهم كانوا إذا سألوا موسى أن يدعو ربه ليرفع عنهم العذاب ويعدونه بالإيمان وإرسال بني إسرائيل معه فيرفع الله عنهم العذاب فيمكثون زمنًا ثم يطالبهم موسى بالإيمان وإرسال بني إسرائيل فيأبون عليه ذلك وينكثون عهدهم.

(١٣٦) ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: أي أنزلنا بهم نقمتنا فأغرقناهم في اليم الذي هو البحر.

(١٣٧) ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾: هم بنو إسرائيل. ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾: هي أرض مصر والشام. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: هي وعده تعالى لهم في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ـ من سورة القصص ـ. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[4]: أي يرفعون من مباني الدور والقصور العالية.

معنى الآيات:

(١٣٤) ما زال السياق في قصص موسى مع فرعون وقومه، وهذه هي الآيات الأخيرة في هذا القصص. إنه

(١) أصل مهما: ما. ما الأولى شرطية والثانية زائدة توكيدًا للجزاء فكرهوا حرفين من جنس واحد متجاورين فأبدلوا الألف هاء ففصلت بين الميمين.

(٢) صح النهي عن النبي ﷺ (عن قتل الصُرد والضفدع والنملة والهدهد) من رواية أبي داود وأحمد وابن ماجه.

(٣) اختلف في قتل الجراد، وأجمعوا أنه إذا أفسد جاز قتله. وأجمعوا على جواز أكله بأكل الرسول ﷺ منه هو وأصحابه في بعض الغزوات.

(٤) شبّه البناء العالي الرفيع بالعرش يقال: عرش يعرش عرشًا: إذا رفع البناء أو السرير والعنب والدوالي يعرش لها بناء من خشب ليرفعها عليه.

لما وقع عليهم الرجز[١] وهو العذاب المفصل[٢] الطوفان فالجراد، فالقمل، فالضفادع، فالدم ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾[٣] أي من كشف العذاب عنا إن نحن آمنا بك وبما جئت به وبما تطالب به من إرسال بني إسرائيل معك وحلفوا وقالوا: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

(١٣٥) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ أي العذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ إلى وقت ينتهون إليه ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[٤] عهودهم ولم يؤمنوا ولم يرسلوا بني إسرائيل وكان هذا ما بين كل آية وآية حتى كانت الخمس آيات، ودقت ساعة هلاكهم.

(١٣٦) قال تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وهو البحر الملح أي أغرق فرعون وجنده ورجال دولته وأشراف بلاده، ثم ذكر تعالى علة هذا الهلاك الذي حاق بهم ليكون عبرة لغيرهم وخاصة قريش التي ما زالت مصرة على الشرك والتكذيب، فقال تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ كما هي الحال في قريش ومشركي العرب وكفارهم.

(١٣٧) وختم تعالى هذا القصص قصص موسى مع فرعون بقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ وهم بنو إسرائيل حيث استعبدهم فرعون الظالم وآله زمنًا غير قصير ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾[٥] وهي أرض مصر والشام إذ الكل مما بارك الله تعالى فيه إلا أن أرض الشام أولاً ثم أرض مصر ثانيًا، إذ دخل بنو إسرائيل أرض فلسطين بعد وفاة موسى وهارون حيث غزا بهم يوشع بن نون العمالقة في أرض فلسطين وفتح البلاد وسكنها بنو إسرائيل، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ والمراد من كلمة الله قوله في سورة القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝﴾ وقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من سلاح وعتاد ومبان شداد، وقصور رفيعة البنيان، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ ويرفعون ويعلون من صروح عالية، وحدائق أعناب زاهية زاهرة وأورث أرضهم وديارهم وأموالهم قومًا آخرين غيرهم، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. إلى هنا انتهى قصص موسى عليه السلام مع فرعون وملإه وكانت العاقبة له والحمد لله.

هداية الآيات:

١ - ضعف الإنسان يظهر عند نزول البلاء به حيث يفزع إلى الله تعالى يدعوه ويضرع إليه وعند رفعه حيث ينسى ما نزل به ويعود إلى عاداته وما كان عليه من الشرك والمعاصي إلا من آمن وعمل صالحًا فإنه يخرج من دائرة الضعف حيث يصبر عند البلاء ويشكر عند النعماء.

٢ - سبب العذاب في الدنيا والآخرة التكذيب بآيات الله بعدم الإيمان والعمل بها، والغفلة عنها حيث لا يتدبّر ولا يفكر فيها وفي ما نزلت لأجله.

٣ - مظاهر قدرة الله، وصادق وعده، وعظيم منته على خلقه، وحسن تدبيره فيهم فسبحانه من إله عليم حكيم. رؤوف رحيم.

---

(١) وقيل: إنه طاعون قتل منهم سبعين ألف نسمة إذ لفظ الرجز دالّ على مرض الطاعون لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

(٢) ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ الباء لتعدية فعل الدعاء، وما موصولة مبهم أي: ادعه بما علمك ربك من وسائل إجابة دعائك عنده ليكشف عنا الرّجز.

(٣) أصل النكث: هو نقض المفتول من حبل وغزل واستعير لعدم الوفاء بالعهد.

(٤) كما يصدق هذا على أرض الشام إذ لها مشارق ومغارب، ومن بينها الأرض المقدّسة أرض فلسطين يصدق أيضًا على أرض مصر وغيرها إذ مملكة بني إسرائيل على عهد سليمان كانت قد انتظمت المعمورة كلّها.

الجزء التاسع — سورة الأعراف

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

١٦٧

شرح الكلمات :

[الآية : ١٣٨ ـ ١٤١]

(١٣٨) ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ : أي قطعنا بهم فاجتازوه إلى ساحله.

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ : يجلسون إلى تماثيل بقر منحوتة من حجر. ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ : أي معبودًا يريدون تمثالاً كالذي شاهدوا. ﴿تَجْهَلُونَ﴾ : أي أنَّ العبادة لا تكون إلا لله تعالى.

(١٣٩) ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ : هالك خاسر لا يكسبهم خيرًا ولا يدفع عنهم شرًا.

(١٤١) ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ : أي واذكروا نعم الله عليكم بإنجائه إياكم من آل فرعون. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ : يوردونكم موارد الردى والهلاك بما يصيبونكم به من عذاب. ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ : أي اختبار وامتحان قاسٍ شديد.

معنى الآيات :

(١٣٨) هذا بداية قصص جديد لنبي الله تعالى موسى مع قومه من بني إسرائيل إنه بعد هلاك فرعون وجنوده في اليم، انتهى الكلام على دعوة موسى لفرعون وملإه، وبذلك استقبل موسى وأخوه هارون مشاكل جديدة مع قومهما أنه بعد أن جاوز تعالى ببني إسرائيل البحر ونزلوا على شاطئه سالمين مرّوا بأناس يعكفون[1] على تماثيل لهم وهي عبارة عن أبقار حجرية منحوتة نحتًا يعبدونها وهم عاكفون عليها وما إن رأى بنو إسرائيل هؤلاء العاكفين على الأصنام حتى قالوا لموسى يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهؤلاء آلهة، وهي كلمة دالة على جهلٍ بالله تعالى وآياته، فما كان من موسى عليه السلام حتى جابههم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وواصل تأنيبه لهم وإنكاره الشديد عليهم فقال:

(١٣٩) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي العاكفين على الأصنام والذين غرتكم حالهم ﴿مُتَبَّرٌ﴾[2] ﴿مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي إنهم وما هم عليه من حال في هلاك وخسار.

(١٤٠) ثم قال لهم منكرًا متعجبًا ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي غير ربي عز وجل أطلب لكم إلهًا تعبدونه دون الله ما لكم أين يذهب بعقولكم، وهو سبحانه وتعالى فضلكم على العالمين وشرفكم على سائر سكان المعمورة[3]، أهكذا يكون شكركم له بطلب إله غيره، وهل هناك من يستحق العبادة غيره؟

(١٤١) وقوله تعالى في الآية الأخيرة (١٤١) ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾[4] ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي واذكروا يا من قلتم اجعل لنا إلهًا كما للمشركين آلهة اذكروا فضل الله عليكم بإنجائه إياكم من فرعون وآله وهم الذين كانوا على منهجه في الظلم والكفر من رجال حكمه وأفراد شرطه وجيوشه ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ حتى لا تكثروا، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾

---

(١) قرىء: ﴿يعكفون﴾ بكسر الكاف وضمها سبعيتان، والعكوف: الإقامة على الشيء وملازمته، ومنه العكوف في المساجد وهو الإقامة بها وملازمتها مدّة للعبادة.

(٢) متبّر: مهلك، والتبار: الهلاك، وكل إناء منكسر فهو متبّر.

(٣) هذا التفضيل خاص بزمانهم الذي كانوا فيه مع أنبيائهم وهم صالحون.

(٤) بعد أن أنكر عليهم طلبهم إلهًا غير الله في قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ ذكرهم بنعمة الله عليهم وهي: إنجاؤهم من آل فرعون فهل يليق بمن ينعم الله عليه بنعمة عظيمة أن ينساه ويطلب إلهًا غيره يعبده بدله أو معه؟

للامتهان والخدمة، وفي هذا التعذيب والإنجاء منه ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ يتطلب شكركم لا كفركم، فكيف تريدون أن تعبدوا غيره، وتشركوا به أصنامًا لا تنفع ولا تضر، إن أمركم لجد مستغرب وعجب فاتقوا الله وتوبوا إليه.

هداية الآيات:

١ - طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه دال على جهل تام في بني إسرائيل ولذا قال لهم موسى: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ فالعلة في هذا الطلب العجيب هي الجهل بالله تعالى وأسمائه وصفاته، يشهد لهذا أن مسلمة الفتح لما خرج بهم رسول الله ﷺ إلى حنين مروا بسدرة قالوا للنبي ﷺ اجعلها لنا ذات أنواط ننيط بها أسلحتنا، كما للمشركين نظيرها ينيطون بها أسلحتهم لينتصروا في القتال على أعدائهم فعجب الرسول ﷺ من قولهم وقال: «**سبحان الله ما زدتم أن قلتم كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة**» فجهل القائلين هو الذي سهّل عليهم أن يقولوا مثل هذا القول، ويشهد لذلك أن آلاف الأشجار والمزارات في بلاد المسلمين تزار ويتبرك بها وتقدم لها القرابين ولا علة لذلك سوى جهل المسلمين بربهم عز وجل.

٢ - إنكار المنكر عند وجوده والعثور عليه بالأسلوب الذي يغيره.

٣ - استحباب التذكير بأيام الله خيرها وشرها لاستجلاب الموعظة للناس لعلهم يتوبون.

٤ - الرب تعالى يبتلي بالخير والغير، وفي كل ذلك خير لمن صبر وشكر.

الجزء التاسع — سورة الأعراف

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

١٦٨

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٢ - ١٤٥]

﴿١٤٢﴾ ﴿مِيقَٰتُ﴾: الميقات: الوقت المعين. ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾: أي كن خليفتي فيهم. ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: الذين يعملون بالمعاصي.

﴿١٤٣﴾ ﴿ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾: ثبت ولم يتحول. ﴿وَخَرَّ﴾: سقط على الأرض. ﴿أَفَاقَ﴾: ذهب عنه الإغماء وعاد إليه وعيه[(١)].

﴿١٤٤﴾ ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾: اخترتك.

معنى الآيات:

﴿١٤٢﴾ ما زال السياق في ذكر أحداث موسى مع بني إسرائيل أنه لما نجى الله تعالى بني إسرائيل من فرعون وملإه، وحدثت حادثة طلب بني إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهًا كما للمشركين إلهًا وقد أنبأهم موسى وأدّبهم عن قولهم الباطل واعد الله تعالى موسى أن يناجيه بجبل الطور وجعل له الموعد الذي يلقاه فيه شهرًا ثلاثين يومًا وكانت شهر القعدة وزادها عشرًا من أول الحجة فتم الميقات أربعين ليلة[(٢)]. وعند خروجه عليه السلام استخلف في بني إسرائيل أخاه هارون[(٣)]

---

(١) في الحديث الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: «**لا تخيروا بين الأنبياء فإنّ الناس يصعقون يوم القيامة فأرفع رأسي فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أصعق فيمن صعق فأفاق قبلي أو جوزيَ بصعقة الطور**».

(٢) ذكر ابن عباس ومجاهد ومسروق في سبب زيادة العشرة أيام: أنّ موسى لمّا أكمل صيام الثلاثين يومًا أنكر خلوف فمه فاستاك. فقالت له الملائكة: إنّا كنّا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فزيد فيه عشر ليال فتم له بذلك أربعون يومًا. في الحديث الصحيح: «**خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**».

(٣) في الآية دليل على استخلاف المرء أخاه لينوب عنه في حفظ ورعاية ما كلّفه به، ومن العجب أن الروافض استدلوا بقول

وأوصاه بالإصلاح، ونهاه عن اتباع آراء المفسدين هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وكان ذلك من أجل أن يأتي بني إسرائيل بكتاب من ربهم يتضمن شريعة كاملة يساسون بها وتحكمهم ليكملوا ويسعدوا عليها.

(١٤٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا[١]﴾ أي في الموعد الذي واعدنا والوقت الذي حددنا وكلمه ربه بلا واسطة بينهما بل كان يسمع كلامه ولا يرى ذاته، تاقت نفس موسى لرؤية ربه تعالى، فطلب ذلك فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ فأجابه ربه تعالى بقوله إنك لن تراني أي رؤيتك لي غير ممكنة لك، ولكن إذا أردت أن تتأكد من أن رؤيتك لي في هذه الحياة غير ممكنة فانظر إلى الجبل «جبل الطور» فإن استقر مكانه بعد أن أتجلى له، فسوف تراني ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ[٢] رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ عند رؤية الجبل ﴿صَعِقًا﴾ أي مغشيًا عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ مما اعتراه من الصعق ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهًا لك وتقديسًا ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ[٣]﴾ فلم أسألك بعد مثل هذا السؤال ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك وبجلالك وعظيم سلطانك وأنا عبدك عاجز عن رؤيتك في هذه الدار دار التكليف والعمل.

(١٤٤) وهنا أجابه ربه تعالى قائلا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ من هذا الكمال[٤] والخير العظيم ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لي على إنعامي لأزيدك وذلك بطاعتي والتقرب إلي بفعل محابي وترك مكارهي.

(١٤٥) وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ[٥] مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي كتبنا له في ألواحه من كل شيء من أمور الدين والدنيا موعظة لقومه من أمر ونهي وترغيب وترهيب، وتفصيلاً لكل شيء يحتاجون إلى بيانه وتفصيله. وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي وقلنا له خذها بقوة أي بعزم وجد وذلك بالعمل بحلالها وحرامها فعلاً وتركًا، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ أيضًا ﴿يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بما هو عزائم فيها وليس برخص تربية لهم وتعويدًا لهم على تحمل العظائم لما لازمهم من الضعف والخور دهرًا طويلاً. وقوله تعالى: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ[٦]﴾ يتضمن النهي لبني إسرائيل عن ترك ما جاء في الألواح من الشرائع والأحكام فإنهم متى تركوا ذلك أو شيئًا منه يعتبرون فاسقين، وللفاسقين نار جهنم هي جزاؤهم يوم يلقون ربهم، وسيريهم إياها، فهذه الجملة تحمل غاية الوعيد والتهديد للذين يفسقون عن شرائع الله تعالى بإهمالها وعدم العمل بها، فليحذر المؤمنون هذا فإنه أمر عظيم.

= الرسول ﷺ لعلي وقد استخلفه في إحدى غزواته: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي»** أنّ الأصحاب كفروا لتركهم النّص في خلافة علي واجتهدوا واستخلفوا أبا بكر، ومنهم من كفّر عليًا لأنه لم يطالب بالخلافة وما دروا أنّ الرسول ﷺ استخلف غير واحد ومنهم: ابن أمّ مكتوم فهل دلّ ذلك على استخلافه على أمته بعد موته؟ فما أضلّ القوم وأعظم جهلهم!

(١) في الآية دليل على مشروعية الموادعة والتوقيت وأن التاريخ يكون باللّيالي لا بالأيام، قال ابن العربي: حساب الشمس للمنافع وحساب القمر للمناسك.

(٢) تجلّى: معناه ظهر، واندكاك الجبل على قوة بنيته وعظيم جسمه كان لعجزه عن رؤية الربّ تبارك وتعالى وهذا كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

(٣) الإجماع على أنّ توبة موسى هذه لم تكن من ذنب وإنما هي بمعنى الإنابة إلى الله تعالى وعدم طلب مثل هذا الذي طلب.

(٤) فيه الدعوة إلى القناعة وهي خير ما يؤتى المرء في الحياة.

(٥) اختلف في أيهما كان أوّلاً الألواح أو التوراة، والظاهر أنّ الألواح كانت أوّلاً ثم أوحيت التوراة عليها فصارت كتابًا واحدًا هو التوراة.

(٦) وجائز أن يُراد بدار الفاسقين: بلاد القدس والشام إذ سكانها كانوا فاسقين فواعد الله بني إسرائيل بدخول تلك البلاد والانتصار على أهلها الفاسقين.

هداية الآيات:

١ ـ المحافظة على المواعيد أمر محبوب للشارع مرغب فيه وهو من سمات الصادقين.

٢ ـ جواز الاستخلاف في الأرض في مهام الأمور فضلاً عما هو دون ذلك.

٣ ـ مشروعية الوصية للخلفاء بما هو خير.

٤ ـ إمكان رؤية الله تعالى وهي ثابتة في الآخرة لأهل الجنة.

٥ ـ استحالة رؤية الله تعالى في الدنيا لضعف الإنسان على ذلك.

٦ ـ وجود الأمة القابلة لأحكام الله قبل وجود الشرع الذي يحكمها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٦، ١٤٧]

(١٤٦) ﴿سَأَصْرِفُ﴾: سأبعد. ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾: يعلون ويترفعون فيمنعون الحقوق ويحتقرون الناس. ﴿سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾: طريق الحق القائم على الإيمان والتقوى. ﴿سَبِيلَ الْغَيِّ﴾: طريق الضلال القائم على الشرك والمعاصي. ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾: لا يلتفتون إليها ولا ينظرون فيها ولا يتفكرون فيما تدل عليه وتهدي إليه.

(١٤٧) ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: فسدت فلا ينتفعون بها لأنها أعمال مشرك والشرك محبط للعمل.

معنى الآيتين:

(١٤٦) هاتان الآيتان تحملان تعليلاً صحيحًا صائبًا لكل انحراف وفساد وظلم وشر وقع في الأرض ويقع إلى نهاية هذه الحياة وهذا التعليل الصحيح هو التكذيب بآيات الله والغفلة عنها، وسواء كان الحامل على التكذيب الكبر أو الظلم، أو التقليد أو العناد، إلا أن الكبر أقوى عوامل الصرف عن آيات الله تعالى لقوله عز وجل في مطلع الآية الأولى (١٤٦): ﴿سَأَصْرِفُ[1] عَنْ ءَايَٰتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ومن صرفه الله حسب سنته في صرف العباد لا يقبل ولا يرجع أبدًا، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ[2] لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ هذا بيان لعامل من عوامل الصرف عن آيات الله. وهو أن يعرض على العبد سبيل الرشد فيرفضه، ويرى سبيل الغي فيتبعه ويتخذه سبيلاً، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي جاءت بها رسلنا ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ غير مبالين بها ولا ملتفتين[3] إليها، هذا هو التعليل الصحيح الذي نبهنا إليه فليتأمل.

(١٤٧) وقوله تعالى في الآية الثانية (١٤٧): ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا[4] وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ تقرير المراد به تأكيد خسران أولئك المصروفين عن آيات الله تعالى، إذ أعمالهم لم تقم على أساس العدل والحق بل قامت على أساس الظلم والباطل فلذا هي باطلة من جهة فلا تكسبهم خيرًا، ومن جهة أخرى فهي أعمال سوء سوف يجزون بها سوءًا في دار الجزاء وهو عذاب الجحيم، ولذا قال تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما يجزون إلا ما كانوا يعملون من السوء، وعدالة الله تعالى أن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون.

هداية الآيتين:

١ ـ بيان سنة الله تعالى في صرف العباد عن آيات الله حتى يهلكوا كما هلك فرعون وآله.

٢ ـ من أقوى عوامل الصرف عن آيات الله الكبر.

٣ ـ التكذيب بآيات الله والغفلة عنها هما سبب كل ضلال وشر وظلم وفساد.

٤ ـ بطلان كل عمل لم يسلك فيه صاحبه سبيل الرشد التي هي

---

(١) قال قتادة: سأمنعهم فهم كتابي وقال سفيان: سأصرفهم عن الإيمان بها وذلك مجازاة لهم على تكبّرهم، وما ذكرناه في التفسير لا يتنافى مع هذا.

(٢) الرشد: ضد السفه والخيبة وقرىء بالضم وقرىء بفتح الراء والشين الرَّشَد، وقرىء: ﴿يُروا﴾ بضم الياء.

(٣) مع ما تحمله من الوعد والوعيد، وبيان الهدى والضلال، والخير والشر والحق والباطل فغفلتهم الناشئة عن مرض قلوبهم بسبب الكبر والتكذيب هي التي حالت دون تذكرهم وتدبّرهم.

(٤) الآيات في الآية السابقة عامة في المعجزات الكونية في الأنفس والآفاق، والتنزيلة القرآنية، وفي هذه الآية المراد بها: القرآنية بقرينة التكذيب بها وبيوم القيامة.

سبيل الله التي تحدد الآيات القرآنية وتبين معالمها، وترفع أعلامها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٨، ١٤٩]

(١٤٨) ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾: جمع حلى[١] وهو ما تتحلى به المرأة لزوجها من أساور ونحوها من ذهب. ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾: العجل ولد البقرة والجسد أي ذاتًا لا مجرد صورة على ورق أو جدار. ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾: الخوار صوت البقر كالرغاء[٢] صوت الإبل.

(١٤٩) ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾: أي ندموا على عبادته لأنها عبادة باطلة.

معنى الآيتين:

(١٤٨) هذا عود إلى قصص موسى عليه السلام مع قومه من بني إسرائيل، فقد كان السياق مع موسى في جبل الطور وطلبه الرؤية وتوبته من ذلك ثم اعترض السياق ببيان القاعدة العظيمة في تعليل هلاك العباد وبيان سببه وهو التكذيب بآيات الله المنزلة والغفلة عنها، ثم عاد السياق لقصص موسى مع بني إسرائيل فقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد غيبته في جبل الطور لمناجاة ربه وليأتي بالكتاب الحاوي للشريعة التي سيسوسهم بها موسى ويحكمهم بموجبها ومقتضى قوانينها اتخذوا ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ أي حلي نسائهم ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ[٣]﴾ وذلك أن السامري[٤] طلب من نسائهم حليهم بحجة واهية: أن هذا الحلي مستعار من نساء الأقباط ولا يحل تملكه فاحتال عليهم وكان صائغًا فصهره وأخرج لهم منه ﴿عِجْلًا[٥] جَسَدًا﴾ أي ذاتًا ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ أي صوت كصوت البقر، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه ولم يقل وإله هارون لأن هارون كان معهم خليفة فخاف أن يكذبه هارون فلم ينسبه إليه، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ[٦] وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ توبيخ لهم وتقريع على غباوتهم وجهلهم، وإلا كيف يعتقدون إلهًا وهو لا يتكلم فيكلمهم ولا يعقل فيهديهم سبيل الرشد إن ضلوا وقد ضلوا بالفعل، ثم قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ أي إلهًا ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ في ذلك، لأن الله رب موسى وهارون والعالمين لم يكن عجلًا ولا مخلوقًا كائنًا من كان فما أجهل القوم وما أسوأ فهمهم وحالهم. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٤٨).

(١٤٩) وأما الآية الثانية (١٤٩) فقد أخبر تعالى عن حالهم بعد انكشاف الأمر لهم، وبيان خطئهم فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ[٧] فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي ندموا ندمًا شديدًا ورأوا أنهم بشركهم هذا قد ضلوا الطريق الحق والرشد، صاحوا معلنين توبتهم ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا[٨]﴾ أي هذا الذنب العظيم ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ في الدار الآخرة فنكون من أصحاب الجحيم.

هداية الآيتين:

١ - بيان سنة من سنن الكون وهي أن المرء يتأثر بما يرى ويسمع، والرؤية أكثر تأثيرًا في النفس من السماع فإن بني إسرائيل رؤيتهم للأبقار الآلهة التي مروا بأهل قرية يعكفون عليها وطلبوا من موسى أن

---

(١) الحلي: يجمع على حُليّ وَحِليّ كثدي يجمع على ثُدي بضم الثاء وثِدي بكسرها.

(٢) والثغاء: صوت الشاة، والمواء: صوت القط، والعواء: صوت الذئب، واليعار: صوت المعز.

(٣) الخوار: صوت العجل، والجؤار: مثله وفعل الخوار خار يخور خوارًا، وفعل الجؤار جأر يجأر جؤرًا، وأما خور يخور خورًا فمعناه: جبن وضعف.

(٤) نسبة إلى قرية تسمى: سامرة، واسمه: موسى بن ظفر، وولد عام قتل الأبناء كموسى عليه السلام.

(٥) العجل ولد البقرة كالحوار: ولدُ الناقة والمهر: ولدُ الفرس، والجحش: ولدُ الأتان والحمل: ولدُ الشاة، والجسد: الجثة.

(٦) إذ الربّ وهو المربي والمصلح والمعبود المشرّع للعبادات يجب أن يكون متكلّمًا يهديهم سبل كمالهم وسعادتهم.

(٧) سُقط بضم السين، وأسقط بضم الهمزة بالبناء للمفعول، يقال للنادم المتحيّر: سقط في يده وأسقط في يده، وقرىء: ﴿سقط﴾ بالبناء للفاعل، أي: سقط الندم في يده، والندم يكون في القلب، وإنما ذكروا اليد هنا تشبيهًا بمن سقط شيء في يده وهو مثل: عضّ يده من الندم.

(٨) أي: عادوا إلى الحق فتضرعوا إلى الله تعالى ودعوه معترفين بخطئهم مستغفرين ربّهم رجاء أن ينجيهم من الخسران.

يجعل لهم إلهًا مثلها هو الذي جعلهم يقبلون عجل السامري الذي صنعه لهم، ومن هذا كان منظر الأشياء في التلفاز وشاشات الفيديو مؤثرًا جدًا وكم أفسد من عقول ولوّث من نفوس، وأفسد من أخلاق.

٢ ـ تقبيح الغباء والجمود في الفكر، وذلك لقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾.

٣ ـ إذا أراد الله بعبده خيرًا ألهمه التوبة بعد المعصية فندم واستغفر.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

١٦٩

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٠ ـ ١٥٤]

﴿١٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾: أي من جبل الطور بعد مرور أكثر من أربعين يومًا. ﴿أَسِفًا﴾: أي حزينًا شديد الحزن والغضب. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾: أي استعجلتم. ﴿بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾: أي هارون شقيقه. ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾: أصلها يا ابن أمي فقلبت الياء ألفًا نحو يا غلامًا، ثم حذفت، وهارون شقيق موسى وإنما ناداه بأمه لأنه أكثر عطفًا وحنانًا. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾: أي لا تجعل الأعداء يفرحون بإهانتك أو ضربك لي.

﴿١٥٢﴾ ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾: أي إلهًا عبدوه. ﴿ٱلْمُفْتَرِينَ﴾: الكاذبين على الله تعالى بالشرك به أي بجعل شريك له.

﴿١٥٤﴾ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾: زال غضبه وسكنت نفسه من القلق والاضطراب. ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾: أي من الأرض بعد أن طرحها فتكسرت. ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾: أي وفي ما نسخه منها بعد تكسرها نسخة فيها هدى ورحمة. ﴿يَرْهَبُونَ﴾: يخافون ربهم ويخشون عقابه فلا يعصونه.

معنى الآيات:

﴿١٥٠﴾ ما زال السياق في أحداث قصص موسى مع بني إسرائيل، ففي هذا السياق الكريم يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاته وقد أخبره ربه تعالى أنه قد فتن قومه من بعده وأن السامري قد أضلهم فلذا رجع ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾[1] أي شديد الغضب[2] والحزن، وما إن واجههم حتى قال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟ أي استعجلتم فلم تتموا ميعاد ربكم أربعين يومًا فقلتم مات موسى وبدلتم دينه فعبدتم العجل ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي طرحها فتكسرت وأخذ بلحية هارون ورأسه يؤنبه على تفريطه في مهام الخلافة فاعتذر هارون فقال: يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي، هذا وارد في سورة طه وأما السياق هنا فقد قال: يا ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾[3] ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الذين ظلموا بعبادة العجل، ومعنى ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ لا تؤذني بضرب ولا بغيره إذ ذاك يُفرح أعداءنا من هؤلاء الجهلة الظالمين، وهنا رقّ له موسى وعطف عليه فقال:

---

(١) غضبان: شديد الغضب ومؤنثه غضبى غير مصروف لزيادة الألف والنون، وأسفًا: معناه شديد الغضب قال أبو الدرداء: الأسف منزلة وراء الغضب أشدّ منه والأسيف: الحزين.

(٢) الغضب من طباع البشر وقد أرشد الرسول ﷺ من غضب وهو قائم أن يجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلاّ اضطجع فقد روى أبو داود أنه ﷺ قال: «**إنّ الغضب من الشيطان، وإنّ الشيطان خلق من نار وإنّما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**».

(٣) في الآية دليل على أن من خاف على نفسه القتل أن يسكت عن المنكر ولا يغيره بيده ولا بلسانه ولكن بقلبه.

﴿۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾

١٧٠

(١٥١) ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ توسل إلى الله تعالى في قبول دعائه بقوله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ هذا ما تضمنته الآيتان الأولى (١٥٠) والثانية (١٥١).

(١٥٢) أما الآية الثالثة فقد أخبر تعالى بأن الذين اتخذوا العجل أي إلهًا ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وكما جزاهم بالغضب المستوجب للعذاب والذلة المستلزمة للإهانة يجزي تعالى المفترين عليه الكاذبين باتخاذ الشريك له وهو بريء من الشركاء والمشركين، هذا ما دلت عليه الآية الثالثة (١٥٢) أما الآية الرابعة فقد تضمنت فتح باب الله تعالى لمن أراد أن يتوب إليه إذ قال تعالى:

(١٥٣) ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ جمع سيئة وهي هنا سيئة الشرك ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي تركوا عبادة غير الله تعالى وآمنوا إيمانًا صادقًا فإن الله تعالى يقبل توبتهم ويغفر لهم ذنوبهم ويرحمهم فيدخلهم جنته مع الصالحين من عباده، هذا ما دلت عليه الآية الرابعة (١٥٣) أما الآية الخامسة (١٥٤) فقد تضمنت الإخبار عن موسى عليه السلام وأنه لما سكت عنه الغضب أي ذهب أخذ الألواح التي ألقاها من شدة الغضب وأخبر تعالى أن في نسخة تلك الألواح: (١٥٤) ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ وهم المؤمنون المتقون وخصوا بالذكر لأنهم الذين يجدون الهدى والرحمة في نسخة[1] الألواح، لأنهم يقرؤون ويفهمون ويعلمون وذلك لإيمانهم وتقواهم.

هداية الآيات:

١ - الغضب من طباع البشر فلا يلام عليه المرء ومهما بلغ من الكمال كالأنبياء، ولكن أهل الكمال لا يخرج بهم الغضب إلى حد أن يقولوا أو يعملوا ما ليس بخير وصلاح.

٢ - مشروعية الاعتذار وقبول العذر من أهل المروءات.

٣ - مشروعية التوسل بأسماء الله وصفاته.

٤ - كل وعد لله تعالى توعد به عبدًا من عباده مقيد بعدم توبة المتوعد.

٥ - كل رحمة وهدى ونور في كتاب الله لا ينتفع به إلا أهل الإيمان والتقوى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٥ ـ ١٥٧]

(١٥٥) ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾: أي أخذ خيار قومه وهم سبعون رجلًا. ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾: أي للوقت الذي حددناه له ليأتينا مع سبعين رجلًا. ﴿أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾: الصاعقة التي رجفت لها القلوب. ﴿السُّفَهَاءُ﴾: جمع سفيه: وهو الذي لا رشد له في سائر تصرفاته. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾: أي ما هي إلا فتنتك أي اختبارك لأهل الطاعة من عبادك. ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾: أي المتولي أمرنا وليس لنا من ولي سواك.

(١٥٦) ﴿هُدْنَا إِلَيْكَ﴾: أي رجعنا إليك وتبنا.

(١٥٧) ﴿الْأُمِّيَّ﴾: الذي لا يقرأ ولا يكتب. ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ المعروف: ما عرفه الشرع والمنكر: ما أنكره الشرع. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾: أي بإذن الله والخبائث جمع خبيثة: كالميتة مثلًا. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾: الإصر: العهد

---

(١) النسخة: بمعنى المنوسخ، والنسخ: النقل للمكتوب في لوح أو غيره، ويسمى المنوسخ نسخة.

والأغلال: الشدائد في الدين. ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: أي وقروه وعظموه. ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾: القرآن الكريم. ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزون أي الناجون من النار الداخلون الجنة.

معنى الآيات:

(١٥٥) ما زال السياق في أحداث موسى مع بني إسرائيل فإنه بعد الحدث الجلل الذي حصل في غيبة موسى وذلك هو عبادة جل بني إسرائيل العجل واتخاذهم له إلهًا فإن الله تعالى وقت لموسى وقتًا يأتيه فيه مع خيار بني إسرائيل يطلب لهم التوبة من الله سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ[١] مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ ولما انتهى بهم إلى جبل الطور وغشيت الجبل غمامة وأخذ موسى يناجي ربه تعالى وهم يسمعون قالوا لموسى لن نؤمن لك بأن الذي كان يكلمك الرب تعالى حتى نرى الله جهرة أي عِيانًا وهنا غضب الله تعالى عليهم فأخذتهم صيحة رجفت لها قلوبهم والأرض من تحتهم فماتوا كلهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وهنا أسف موسى عليه السلام لموت السبعين رجلًا وقد اختارهم الخير فالخير فإذا بهم يموتون أجمعون فخاطب ربه قائلًا: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ أي من قبل مجيئنا إليك ﴿وَإِيَّايَ﴾ وذلك في منزل بني إسرائيل حيث عبدوا العجل ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾[٢] أي بسبب فعل السفهاء الذين لا رشد لهم، وهم من عبدوا العجل كمن سألوا رؤية الله تعالى، وقوله عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي إلا اختبارك وبليتك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ فليس لنا سواك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي ذنوبنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ برفع العذاب عنا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾

(١٥٦) ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بأن توفقنا لعمل الصالحات وتتقبلها منا، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ تغفر ذنوبنا وتدخلنا جنتك مع سائر عبادك الصالحين، وقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي إنا قد تبنا إليك فأجابه الرب تعالى بقوله: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ أي من عبادي وهم الذين يفسقون عن أمري ويخرجون عن طاعتي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ[٣] كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ وبهذا القيد الوصفي، وبما بعده خرج إبليس واليهود وسائر أهل الملل ودخلت أمة الإسلام وحدها إلا من آمن من أهل الكتاب واستقام على دين الله وهو الإسلام.

(١٥٧) وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ هو محمد ﷺ ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ[٤] مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ وذلك بذكر صفاته والثناء عليه وعلى أمته، وقوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي التي كانت قد حرمت عليهم بظلمهم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ الخمر ولحم الخنزير والربا وسائر المحرمات في الإسلام، وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي ويحط عنهم تبعة العهد الذي أخذ عليهم بالعمل فيما في التوراة والإنجيل بأن يعملوا بكل ما

---

(١) اختار: مزيد من خار: إذا طلب ما هو خير من غيره، وقومه منصوب على نزع الخافض إذ الأصل من قومه، ومنه قول الشاعر:

اخترتك الناس إذ رثت خلائقهم ... واختل من كان يُرجى عنده السُّول

السُّول بمعنى السؤل أي: الطلب.

(٢) الاستفهام هنا للتحجج والجحد أي: إنك لا تفعل ذلك، وهو كما قال الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

(٣) أي: لم تضق عن مخلوق من المخلوقات التي أراد الله رحمتها. يحكى أنّ إبليس عليه لعائن الله لمّا سمع هذه الآية قال: أنا شيء فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فقالت اليهود والنصارى: نحن متقون فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ النبي الأمي فخرجوا وبقيت لهذه الأمّة وحدها.

(٤) قال كعب في ذكر صفاته ﷺ في التوراة: مولده مكة وهجرته بطابة وملكه بالشام، وأمته الحمّادون يحمدون الله على كل حال.. إلى أن قال: يصلّون حيثما أدركتهم الصلاة، صفهم في الصلاة كصفهم في القتال.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (١٦٣)﴾

١٧١

جاء في التوراة والإنجيل، وقوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ[1] ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ أي الشدائد المفروض عليهم القيام بها وذلك كقتل النفس بالنفس إذ لا عفو ولا دية وكقطع الثوب للنجاسة تصيبه وغير ذلك من التكاليف الشاقة كل هذا يوضع عليهم إذا أسلموا بدخولهم في الإسلام وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بمحمد ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾[2] أي وقروه وعظموه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه من المشركين والكافرين والمنافقين ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي وحدهم دون سواهم الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة.

هداية الآيات:

١ - وجوب التوبة من كل ذنب، ومشروعية صلاة ركعتين وسؤال الله تعالى عقبها أن يقبل توبة التائب ويغفر ذنبه.

٢ - كل سلوك ينافي الشرع فهو من السفه المذموم، وصاحبه قد يوصف بأنه سفيه.

٣ - الهداية والإضلال كلاهما بيد الله تعالى فعلى العبد أن يطلب الهداية من الله تعالى ويسأله أن لا يضله.

٤ - رحمة الله تعالى بأمة محمد ﷺ فلا تنال اليهود ولا النصارى ولا غيرهم.

٥ - بيان شرف النبي محمد ﷺ وأمته.

٦ - بيان فضل تزكية النفس بعمل الصالحات وإبعادها عن المدسيات من الذنوب.

٧ - بيان فضل التقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٨ - وجوب توقير النبي ﷺ وتعظيمه ونصرته واتباع الكتاب الذي جاء به والسنن التي سنها لأمته.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٨ - ١٦٢]

(١٥٨) ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي لا معبود بحق إلا الله. ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾: المنبيء عن الله والمنبأ من قبل الله تعالى، والأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب. نسبة إلى الأم كأنه ما زال لم يفارق أمه فلم يتعلم بعد. ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾: الذي يؤمن بالله ربًا وإلهًا، وبكلماته التشريعية والكونية القدرية. ﴿تَهْتَدُونَ﴾: ترشدون إلى طريق كمالكم وسعادتكم في الحياتين.

(١٥٩) ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي جماعة يهدون أنفسهم وغيرهم بالدين الحق وبه يعدلون في قضائهم وحكمهم على أنفسهم وعلى غيرهم إنصافًا وعدلاً لا جور ولا ظلم.

(١٦٠) ﴿أَسْبَاطًا﴾: جمع سبط: وهو بمعنى القبيلة عند العرب. ﴿ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾: أي طلبوا منه الماء لعطشهم. ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾: فانفجرت. ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: المن: حلوى كالعسل تنزل على أوراق الأشجار، والسلوى: طائر لذيذ لحمه.

(١٦١) ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: هي حاضرة فلسطين. وقوله:

---

(١) تقدّم لفظ الإصر وهو دال على جمع لأنه مصدر يقع على الواحد والجمع ولذا عطف عليه الأغلال، وجمع الإصر: آصار، ومعناه الثقل الذي يصعب معه التحرّك والأغلال جمع غلّ، وهو إطار من حديد يجعل في عنق الأسير، والمراد من الآصار والأغلال التكاليف الشرعية الشاقة التي اشتملت عليها التوراة منها: ترك العمل يوم السبت قيل: ومن أشدّها عدم مشروعية التوبة من الذنوب، وعدم استتابة المجرم.

(٢) عزّروه: أيّدوه مع توقيره وتعظيمه.

﴿حِطَّةٌ﴾: أي احطط عنا خطايانا بمعنى الإعلان عن توبتهم.

(١٦٢) ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ﴾: أي عذابًا من عند الله تعالى.

معنى الآيات:

(١٥٨) بعد الإشادة بالنبي الأمي ﷺ وبأمته، وقصر الفلاح في الدارين على الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه قد يظن ظان أن هذا النبي شأنه شأن سائر الأنبياء قبله هو نبي قومه خاصة وما ذكر من الكمال لا يتعدى قومه فرفع هذا الوهم بهذه الآية (١٥٨) حيث أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعلن عن عموم رسالته بما لا مجال للشك فيه فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وصف للّه تعالى وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير لألوهية الله تعالى بعد ذكر قدرته وسلطانه وملكه وتدبيره لذا وجب أن لا يكون معبود إلا هو وهو كذلك إذ كل معبود غيره هو معبود عن جهل وعناد وظلم. وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أمر الإله الحق إلى الناس كافة بالإيمان به تعالى ربًا وإلهًا، وبرسوله النبي الأمي ﷺ نبيًا ورسولاً، وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ صفة للنبي الأمي ﷺ إذ من صفات النبي الأمي محمد ﷺ أنه يؤمن بالله حق الإيمان وأوفاه ويؤمن بكلماته أي بكلمات الرب التشريعية[1] وهي آيات القرآن الكريم، والكونية التي يُكوِّن اللّهُ بها ما شاء من الأكوان إذ بها يقول للشيء كن فيكون كما قال لعيسى بتلك الكلمة كن فكان عيسى عليه السلام وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هذا أمر الله إلى الناس كافة بعد الأمر بالإيمان به وبرسوله النبي الأمي ﷺ أمر باتباع نبيه محمد ﷺ رجاء[2] هداية من يتبعه فيما جاء به فيهتدي إلى سبيل الفوز في الدارين، هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٥٨).

(١٥٩) أما الآية الثانية (١٥٩) فقد تضمنت الإخبار الإلهي بأن قوم موسى وإن ضلوا أو أجرموا وفسقوا ليس معنى ذلك أنه لم يكن فيهم أو بينهم من هم على هدى الله فهذه الآية كانت كالاحتراس من مثل هذا الفهم، إذ أخبر تعالى أن ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ أي جماعة تكثر أو تقل ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾[3] أي يعملون بالحق في عقائدهم وعباداتهم ويدعون إلى ذلك وبالحق يعدلون فيما بينهم وبين غيرهم فهم يعيشون على الإنصاف والعدل، ولم يذكر تعالى أين هم ولا متى كانوا هم؟ فلا يبحث ذلك، إذ لا فائدة فيه، ثم عاد السياق إلى قوم موسى يذكر أحداثهم للعظة والاعتبار وتقرير الحق في توحيد الله تعالى وإثبات نبوة رسوله ﷺ وتقرير عقيدة البعث والجزاء أو اليوم الآخر.

(١٦٠) فقال تعالى في الآية الثالثة (١٦٠): ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾[4] أي بني إسرائيل ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[5] أصل السبط ابن البنت وأريد به هنا أولاد كل سبط من أولاد يعقوب عليه السلام. فالأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب كل قبيلة تنتسب إلى أبيها الأول، وأتت لفظ اثنتي عشرة لأن معنى الأسباط الفرق والفرقة مؤنثة.

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ أعلمناه بطريق الوحي وهو الإعلام الخفي السريع، ومعنى ﴿ٱسْتَسْقَىٰهُ﴾ طلبوا منه السقيا لأنهم عطشوا لقلة الماء في صحراء سينا ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ هذا الموحى به، فضرب

---

(١) وبكلماته التنزيلية كالتوراة والإنجيل والزبور.

(٢) هذا الرجاء بالنسبة إلى المأمورين بالاتباع لا إلى الله تعالى، لأنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير.

(٣) يهدون إلى الله تعالى عباده بواسطة ما شرع لهم وهداهم به من الوحي الذي أنزل على رسله وأنزل به كتبه.

(٤) التقطيع: الشدة في القطع والمراد به التقسيم إلى اثنتي عشرة فرقة كل فرقة بمنزلة القبيلة العربية حيث تنتسب إلى أبيها الأعلى أي: الأول.

(٥) ﴿أُمَمًا﴾ بدل من ﴿أَسْبَاطًا﴾ وفائدته: الإخبار بأنهم باركهم الله تعالى فأصبح أهل كل سبط أمة كاملة والسبط أصله شجر يقال له: السبط تعلفه الإبل.

﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾[1] أي انفجرت ﴿مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾ ليشرب كل سبط من عينه الخاصة حتى لا يقع اصطدام أو تدافع فينجم عنه الأذى، وقوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡ﴾ يريد عرف كل جماعة ماءهم الخاص بهم وقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ هذا ذكر لإنعامه تعالى على بني إسرائيل وهم في معية موسى وهارون في حادثة التيه، حيث أرسل تعالى الغمام وهو سحاب أبيض بارد يظلهم من الشمس حتى لا تلفحهم، وأنزل عليهم المن[2] وهي حلوى كالعسل سقط ليلاً كالطل على الأشجار، وسخر لهم طائرًا لذيذ اللحم يقال له السلوى وهو طائر السُّماني المعروف وقلنا لهم ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بتمردهم على أنبيائهم وعدم طاعتهم[3] لربهم حتى نزل بهم ما نزل من البلاء، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[4]. هذا ما دلت عليه الآية الثانية.

(١٦١) أما الآية الرابعة (١٦١) فقد تضمنت حادثة بعد أحداث التيه في صحراء سيناء وذلك أن يوشع بن نون بعد أن تولى قيادة بني إسرائيل بعد وفاة موسى وهارون وانقضاء مدة التيه وكانت أربعين سنة غزا يوشع ببني إسرائيل العمالقة في أرض القدس وفتح الله تعالى عليه فقال لبني إسرائيل ادخلوا باب المدينة ساجدين أي منحنين خضوعًا لله وشكرًا على نعمة الفتح بعد النصر والنجاة من التيه، وقوله أثناء دخولكم الباب كلمة «حطة» الدالة على توبتكم واستغفاركم ربكم لذنوبكم فإن الله تعالى يغفر لكم خطيئاتكم، وسيزيد الله المحسنين منكم الإنعام والخير الكثير مع رضاه عنكم وإدخالكم الجنة، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ أي مدينة فلسطين[5] ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾ لما فيها من الخيرات ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

(١٦٢) أما الآية الخامسة (١٦٢) فهي قد تضمنت الإخبار عن الذين ظلموا من بني إسرائيل الذين أمروا بدخول القرية ودخول الباب سجدًا. حيث بدلوا ﴿قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ فبدل حطة قالوا حنطة، وبدل الدخول منحنين ساجدين دخلوا يزحفون على أستاههم، فلما رأى تعالى ذلك التمرد والعصيان وعدم الشكران أنزل عليهم وباء من السماء كاد يقضي على آخرهم هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ۝﴾.

هداية الآيات:

١ - عموم رسالة النبي محمد ﷺ لكافة الناس عربهم وعجمهم أبيضهم وأصفرهم[6].

٢ - هداية الإنسان فردًا أو جماعة أو أمة إلى الكمال والإسعاد متوقفة على اتباع النبي محمد ﷺ.

٣ - إنصاف القرآن للأمم والجماعات فقد صرح أن في بني إسرائيل أمة قائمة على الحق، وذلك بعد فساد بني إسرائيل، وقبل مبعث النبي الخاتم ﷺ أما بعد البعثة

---

(١) أصل الفعل بجس يقال: بجسته أي: شققته فانبجس مطاوع الشيء إذا شقّه.

(٢) المنّ: مادّة بيضاء تنزل من السماء كالطّل حلوة الطعم تشبه العسل، وإذا جفّت كانت الصمغ، والسلوى: طائر معروف يقال له: السُّمّاني بضم السين وفتح النون على وزن حُبَارىٰ.

(٣) وبعدم شكرهم لهذه النعم أيضًا إذ كفران النعم يسبب زوالها بعقوبة تنزل بمن لم يشكر نعم الله تعالى عليه.

(٤) أي: ظلموا أنفسهم فعرضوها للبلاء، أمّا الله تعالى فمحال أن يبلغ العبد ظلمه أو ضرّه. روى مسلم عن النبي ﷺ قوله: «**إنّ الله تعالى قال: يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظالموا.. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**».

(٥) اسم القرية: أريحا، وكلمة فلسطين عامة في القطر كلّه.

(٦) عموم الرسالة المحمدية يستوجب القيام بها ودعوة الناس إليها، والمسلمون هم المطالبون بذلك وإلاّ فهم آثمون بتفريطهم وتقصيرهم.

المحمدية فلم يبقَ أحد على الحق، إلا من آمن به واتبعه لنسخ سائر الشرائع بشريعته.

٤ - إذا أنعم الله على عبد أو أمة نعمة ثم لم يشكرها تسلب منه أحب أم كره وكائنًا من كان.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٣ - ١٦٦]

(١٦٣) ﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾: أي على شاطئه وهي مدينة من مدن أرض القدس. ﴿يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾: أي يعتدون وذلك بالصيد المحرم عليهم فيه. ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾: أي يوم راحتهم من أعمال الدنيا وهو يوم السبت. ﴿شُرَّعًا﴾: جمع شارع أي ظاهرة بارزة تغريهم بنفسها. ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾: أي نمتحنهم ونختبرهم. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: أي بسبب ما أعلنوه من الفسق وهو العصيان.

(١٦٤) ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: أي ننهاهم فإن انتهوا فذاك وإلا فنهينا يكون عذرًا لنا عند ربنا.

(١٦٥) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾: أي أهملوه وتركوه فلم يمتثلوا ما أمروا به ولا ما نهوا عنه. ﴿عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾: السوء هو كل ما يسيء إلى النفس من سائر الذنوب والآثام. ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾: أي ذا بأس شديد.

(١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا﴾: أي ترفعوا وطغوا فلم يبالوا بالنهي. ﴿قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾: القردة جمع قرد معروف وخاسئين ذليلين حقيرين أخساء.

الجزء التاسع — سورة الأعراف

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٧٠)

١٧٢

معنى الآيات:

(١٦٣) ما زال السياق في بني إسرائيل إلا أنه هنا مع رسول الله محمد ﷺ ويهود المدينة فالله تعالى يقول لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام اسألهم[1] أي اليهود ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ[2] ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي قريبة منه على شاطئه وهي مدينة من مدن أرض القدس والشام[3]، أي اسألهم عن أهلها كيف كان عاقبة أمرهم، إنهم مسخوا قردة وخنازير جزاء فسقهم عن أمر ربهم، وفصل له الحادث تفصيلاً للعبرة والاتعاظ فقال: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ[4]﴾ أي يعتدون ما أذن لهم فيه إلى ما حرم عليهم، أذن لهم أن يصيدوا ما شاؤوا إلا يوم السبت فإنه يوم عبادة ليس يوم لهو وصيد وطرب، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ أي أسماكهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ ظاهرة على سطح الماء تغريهم بنفسها ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي في باقي أيام الأسبوع ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ إذًا هم مبتلون، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كهذا الابتلاء والاختبار ﴿نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم عن طاعة ربهم ورسله، إذ ما من معصية إلا بذنب هكذا سنة الله تعالى في الناس. هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٦٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ

---

(١) هذا سؤال توبيخ وتقرير، إذ كانوا يتبجحون بأنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم من سبط خليل الرحمن إبراهيم، ومن سبط إسرائيل، فالسؤال عن القرية السؤال عن أهلها.

(٢) هذه القرية هي أيلة، والمسماة اليوم بالعقبة وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر.

(٣) وهي مبدأ أرض الشام من جهة مصر.

(٤) السبت: اليوم الذي بين الجمعة والأحد، ويجمع السبت على أسبت وسبوت وأسبات.

فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ[(١)] حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم[(٢)] بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾.

(١٦٤) وأما الآية الثانية (١٦٤) فالله تعالى يقول لرسوله ﷺ اذكر لهم أيضًا إذ قالت طائفة منهم أي من أهل القرية لطائفة أخرى كانت تعظ المعتدين في السبت أي تنهاهم عنه لأنه معصية وتحذرهم من مغبة الاعتداء على شرع الله تعالى قالت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وهذا القول من هذه الطائفة دال على يأسهم من رجوع إخوانهم عن فسقهم وباطلهم، فأجابتهم الطائفة الواعظة ﴿مَعْذِرَةً[(٣)] إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي وعظنا لهم هو معذرة لنا عند الله تعالى من جهة ومن جهة أخرى ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيتوبوا ويتركوا هذا الاعتداء.

(١٦٥) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وخوفوا منه وهو تحريم الله تعالى عليهم الصيد يوم السبت، ومعنى نسوا تركوا ولم يلتفتوا إلى وعظ إخوانهم لهم وواصلوا اعتداءهم وفسقهم، قال تعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ﴾ وهم الواعظون لهم ممن ملّوا ويئسوا فتركوا وعظهم، وممن واصلوا نهيهم ووعظهم ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا[(٤)] بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي شديد البأس ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ عن طاعة الله ربهم.

(١٦٦) إذ قال تعالى لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ[(٥)]﴾ فكانوا قردة خاسئين ذليلين صاغرين حقيرين، ثم لم يلبثوا (مسخًا)[(٦)] إلا ثلاثة أيام وماتوا.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير الوحي والنبوة لرسول الله محمد ﷺ إذ مثل هذا القصص الذي يذكر لبني إسرائيل لن يتم إلا عن طريق الوحي، وإلا فكيف علمه وذكر به اليهود أصحابه وأهله، وقد مضى عليه زمن طويل.

٢ ـ إذا أنعم الله على أمة نعمة ثم أعرضت عن شكرها تعرضت للبلاء أولاً ثم العذاب ثانيًا.

٣ ـ جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد نجى الله تعالى الناهين عن المنكر وأهلك الذين باشروه ولم ينتهوا منه دون غيرهم.

٤ ـ إطلاق لفظ السوء على المعصية مؤذن بأن المعصية مهما كانت صغيرة تحدث السوء في نفس فاعلها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٧ ـ ١٧٠]

(١٦٧) ﴿تَأَذَّنَ﴾[(٧)]: أعلم وأعلن. ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾: أي ليسلطن. ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: أي يذيقهم ويوليهم سوء العذاب كالذلة والمسكنة.

(١٦٨) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾: أي فرقناهم جماعات جماعات. ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: اختبرناهم بالخير والشر أو النعم والنقم.

(١٦٩) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: الخلف بإسكان اللام خلف سوء وبالتحريك خلف خير. ﴿وَرِثُوا ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي التوراة. ﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾: أي حطام الدنيا الفاني وهو المال.

(١٧٠) ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾: أي يتمسكون بما في التوراة فيحلون ما

---

(١) قيل للحسين بن الفضل: هل تجد في كتاب الله تعالى أنّ الحلال لا يأتيك إلاّ قوتًا وإن الحرام يأتيك جزفًا جزفًا يعني: بكثرة كاثرة قال: نعم في قصة داود وأيلة ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ..﴾ الآية.

(٢) ﴿نَبْلُوهُم﴾: أي: بالتشديد عليهم فيما يشرع لهم عقوبة لهم.

(٣) المعذرة: مصدر ميمي فعله اعتذر على غير قياس، والعذر: السبب الذي تبطل به المؤاخذة بسبب ذنب أو تقصير.

(٤) اختلف في هل الفرقة القائلة: لم تعظون قومًا.. إلخ.. نجت من العذاب أو لا؟ وقد روي أن ابن عباس كان يرى أنها لم تنج حتى أقنعه تلميذه عكرمة فقال بنجاتها مع الفرقة الناهية، لأنّ ترك النهي من الفرقة التي لم تنه كان ليأسهم من استجابة الظالمين.

(٥) يقال: خسأته فخسأ أي: باعدته وطردته، وفي هذا دليل على أنّ المعاصي سبب النقم كما أن الطاعات سبب النعم.

(٦) أي: لم يلبثوا ممسوخين حتى هلكوا والعياذ بالله.

(٧) آذن وأذن بمعنى واحد، وهو أعلم ومنه قول الشاعر:

فقلت تعلّم إنّ للصيد غرّة ... فإلاّ تضيّعها فإنك قاتله

أحل الله فيها ويحرمون ما حرم.

معنى الآيات:

(١٦٧) ما زال السياق في شأن اليهود فقد أمر تعالى رسوله ﷺ أن يذكر إعلامه تعالى بأنه سيبعث بكل تأكيد على اليهود إلى يوم القيامة من يذلهم ويضطهدهم عقوبة منه تعالى لهم على خبث طواياهم وسوء أفعالهم، وهذا الإطلاق في هذا الوعيد الشديد يقيد بأحد أمرين الأول بتوبة من تاب منهم ويدل على هذا القيد قوله تعالى في آخر هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لمن تاب والثاني بجوار دولة قوية لهم وحمايتها وهذا مفهوم قوله تعالى من سورة آل عمران ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهو الإسلام ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾، وهو ما ذكرناه آنفًا. هذا ما دلت عليه الآية الأولى في هذا السياق (١٦٧) وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ[1] سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وأما الآية الثانية (١٦٨) فقد تضمنت بيان فضل الله تعالى على اليهود وهو أن الله تعالى قد فرقهم في الأرض جماعات جماعات، وأن منهم الصالحين، وأن منهم دون ذلك وأنه اختبرهم بالحسنات وهي النعم، والسيئات وهي النقم تهيئة لهم وإعدادًا للتوبة إن آثروا التوبة على الاستمرار في الإجرام والشر والفساد.

(١٦٨) هذا ما تضمنته الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ[2] وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(١٦٩) وأما الآية الثالثة (١٦٩) فقد أخبر تعالى أنه قد خلف[3] من بعد تلك الأمة خلف سوء ورثوا الكتاب الذي هو التوراة ورثوه عن أسلافهم ولم يلتزموا بما أخذ عليهم فيه من عهود على الرغم من قراءتهم له فقد آثروا الدنيا على الآخرة فاستباحوا الربا والرشا وسائر المحرمات، ويدعون أنهم سيغفر لهم، وكلما أتاهم مال حرام أخذوه ومنوا أنفسهم بالمغفرة[4] كذبًا على الله تعالى قال تعالى موبخًا لهم: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وقد قرؤوا هذا في الكتاب وفهموه ومع هذا يجترئون على الله ويكذبون عليه بأنه سيغفر لهم، ثم يواجههم تعالى بالخطاب مذكرًا لهم واعظًا فيقول: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

(١٧٠) ويفتح الله تعالى باب الرجاء لهم في الآية الرابعة في هذا السياق فيقول: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ[5] بِالْكِتَابِ﴾ أي يعملون بحرص وشدة بما فيه من الأحكام والشرائع ولا يفرطون في شيء من ذلك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾، ومعنى هذا أنهم مصلحون إن تمسكوا بالكتاب وأقاموا الصلاة، وأن الله تعالى سيجزيهم على إصلاحهم لأنفسهم ولغيرهم أعظم الجزاء وأوفره، لأنه تعالى لا يضيع أجر المصلحين.

---

(١) يسومهم سوء العذاب: يجعل أسوأ العذاب وأشدّه كالقيمة لهم إذ هو حظهم المفروض عليهم، أوّل من تسلط عليهم فسامهم سوء العذاب بختنصر البابلي.

(٢) أي: شتتناهم في البلاد بعد تسلط البابليين عليهم وتمزيق ملكهم فعاشوا مشتتين فلم ينتظم ملكهم مدّة طويلة وهم إذ ذاك ما بين صالح وفاسد وانتظم أمرهم مرّة أخرى ثمّ فسقوا فسلّط عليهم أطيطوس الروماني فتفرّقوا مرّة أخرى وما زالوا مفرقين إلى هذه الأيام، باجتماعهم في فلسطين وتكوينهم دولة إسرائيل وعمّا قريب تزول.

(٣) الخلْف بسكون اللاّم: الأولاد، الواحد والجمع فيه سواء والخلَف: بفتح اللام الْبَدَل ولدًا كان أو غيره، وقيل: الخلَف بالفتح: الصالح وبالجزم: الطالح قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب

(٤) روى الدارمي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه الرواية التالية وهي منطبقة على واقعنا اليوم ومن قبل اليوم قال: سيبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصّروا قالوا: سنبلغ وإن أساؤوا قالوا: سيغفر لنا إنّا لا نشرك بالله شيئًا.

(٥) مسك وتمسّك بمعنى واحد.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾

هداية الآيات:

١ - بيان موجز لتاريخ اليهود في هذه الآيات الأربع.

٢ - من أهل الكتاب الصالحون، ومنهم دون ذلك.

٣ - التنديد بإيثار الدنيا على الآخرة، وبتمني المغفرة مع الإصرار على الإجرام.

٤ - تفضيل الآخرة على الدنيا بالنسبة للمتقين.

٥ - الحث على التمسك بالكتاب قراءة وتعلمًا وعملًا بإحلال حلاله وتحريم حرامه.

٦ - فضل إقام الصلاة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧١ - ١٧٤]

(١٧١) ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾: أي رفعناه من أصله فوق رؤوسهم. ﴿وَاقِعٌ بِهِمْ﴾: أي ساقط عليهم. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: أي التزموا بالقيام بما عهد إليكم من أحكام التوراة بقوة. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: أي لا تنسوا ما التزمتم به من النهوض بأحكام التوراة.

(١٧٢) ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أي أخذهم من ظهر آدم عليه السلام بأرض نعمان[١] من عرفات. ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾: أي بأنه تعالى ربهم وإلههم ولا رب لهم غيره ولا إله لهم سواه.

(١٧٣) ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾: العاملون بالشرك والمعاصي إذ كلها باطل لا حق فيه.

(١٧٤) ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: نبينها ونوضحها بتنويع الأساليب وتكرار الحجج وضرب الأمثال وذكر القصص.

معنى الآيات:

(١٧١) الآية الأولى في هذا السياق هي خاتمة الحديث على اليهود إذ قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ[٢]﴾ أي اذكر لهم أيها الرسول إذ نتقنا أي رفعنا فوقهم جبل الطور من أصله وصار فوقهم كأنه ظلة ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي ساقط عليهم وقلنا لهم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ[٣]﴾ والمراد مما آتاهم أحكام التوراة وما تحمل من الشرائع وأخذها العمل بها والالتزام بكل ما أمرت به ونهت عنه. وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي في الذي آتيناكم من الأوامر والنواهي، ولا تنسوه فإن ذكره من شأنه أن يعدكم للعمل به فتحصل لكم بذلك تقوى الله عز وجل، هذا ما دلت عليه الآية الأولى وهي خاتمة سياق الحديث عن اليهود.

(١٧٢) أما الآية الثانية (١٧٢) وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ[٤] مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٥] فإنها حادثة جديرة بالذكر والاهتمام لما فيها من الاعتبار، إن الله تعالى

---

(١) قال ابن عباس: ببطن نعمان وادٍ إلى جنب عرفة.

(٢) أي: كأنه لارتفاعه سحابة تظلّ.

(٣) أي: بجدّ وعزم.

(٤) الآثار والأحاديث المثبتة لاستخراج الرب تعالى الذريّة من ظهر آدم كثيرة منها في الموطأ والسنن ونكتفي برواية الشيخين الآتية: قال ﷺ: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفديًا؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردتُ منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئًا فأبيت الاّ أن تشرك**».

(٥) وُجّه نظم الآية هكذا: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريّتهم ولم يذكر ظهر آدم عليه السلام لأنه من المعلوم أن كل بني آدم منه وأخرجوا يوم الميثاق من ظهره. وقوله: ظهورهم: بدل اشتمال من بني آدم.

أخرج من صلب آدم ذريته فأنطقها بقدرته التي لا يعجزها شيء فنطقت وعقلت الخطاب واستشهدها فشهدت، وخاطبها ففهمت وأمرها فالتزمت وهذا العهد العام الذي أخذ على بني آدم، وسوف يطالبون به يوم القيامة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ أي أنك ربنا ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ يوم القيامة.

(١٧٢) - (١٧٣) ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ[1] أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝﴾ والعبرة من هذا أن الإنسان سرعان ما ينسى، ويعاهد ولا يفي، وما وجد من بني إسرائيل من عدم الوفاء هو عائد إلى أصل الإنسان، وهناك عبرة أعظم وهي أن التوحيد أخذ به العهد على كل آدمي، ومع الأسف أكثر بني آدم ينكرونه، ويشركون بربهم.

(١٧٤) وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝﴾ وكهذا التفصيل الوارد في هذه السورة وهذا السياق وهو تفصيل عجيب نفصل الآيات تذكيرًا للناس وتعليمًا ولعلهم يرجعون إلى الحق بعد إعراضهم عنه، وإلى الإيمان والتوحيد بعد انصرافهم عنهما تقليدًا واتباعًا لشياطين الجن والإنس.

هداية الآيات:

١ - بيان نفسيات اليهود وأنها نفسية غريبة وإلا كيف وهم بين يدي الله يتمردون عليه ويعصونه برفضهم الالتزام بما عهد إليهم من أحكام حتى يرفع فوقهم الطور تهديدًا لهم، وعندئذ التزموا ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى نقضوا عهدهم وعصوا ربهم.

٢ - عجيب تدبير الله تعالى في خلقه.

٣ - الكافر كفر مرتين كفر بالعهد الذي أخذ عليه وهو في عالم الذر[2]، وكفر بالله وهو في عالم الشهادة، والمؤمن آمن مرتين، فلذا يضاعف للأول العذاب ويضاعف للثاني الثواب.

٤ - تقرير مبدأ الخليقة، ومبدأ المعاد الآخر.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧٥ ـ ١٧٨]

(١٧٥) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ﴾: اقرأ عليهم. ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: كفر بها وتركها وراء ظهره مبتعدًا عنها. ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: لحقه وأدركه. ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾: من الضالين غير المهتدين الهالكين غير الناجين.

(١٧٦) ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: مال إلى الدنيا وركن إليها وأصبح لا هم له إلا الدنيا. ﴿يَلْهَث﴾: اللهث: التنفس الشديد مع إخراج اللسان من التعب والإعياء.

(١٧٧) ﴿سَآءَ﴾: قبح. ﴿مَثَلًا﴾: أي صفة.

معنى الآيات:

(١٧٥) يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي اقرأ على قومك وعلى كل من يبلغه هذا الكتاب من سائر الناس ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي خبر الرجل[3] الذي أعطيناه آيتنا تحمل الأدلة والحجج والشرائع والأحكام والآداب فتركها وابتعد عنها فلم يَتْلُهَا ولم يفكر فيها ولم يعمل بها لا استدلالاً ولا تطبيقًا ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي لحقه وأدركه وتمكن منه إبليس، لأنه بتخليه عن الآيات وجد الشيطان له

---

(١) في الآية دليل على أنه لا عذر لأحد في تقليده آبائه وأجداده وأهل بلاده في الشرك والمعاصي كما لا عذر بالجهل أيضًا.

(٢) لقد حاول كثيرون التخلص من قضية أخذ الرب تعالى من ظهر آدم ذريته وإشهادهم على أنفسهم، ونطق الأرواح وشهادتها، ولا داعي لهذا أبدًا ما دامت الأحاديث والآثار كثيرة وقدرة الله صالحة لكل شيء ولا يعجزها شيء ـ ما هي النملة؟ وقد أنطقها الله فنطقت وأفصحت. إن الحيوان المنوي الذي منه تكون الذرية قال العلماء: لو جمعت الحيوانات المنوية كلها من آدم إلى اليوم ووضعت في فنجان ما ملأته. أمع هذا يحاول إبطال الأحاديث وتأويل الآية على غير ظاهرها رجل من أهل العلم؟

(٣) ذكر أهل التفسير ثلاثة رجال قيل: إنها نزلت في واحد منهم وهم: بلعم بن باعوراء الكنعاني وكان على زمن موسى، وقيل: إنها نزلت في أميّة بن أبي الصلت الثقفي، وقيل: في أبي عامر بن صيفي، وأقرب الأقوال: أنها نزلت في أميّة بن أبي الصلت إذ هو الذي قال فيه الرسول ﷺ: «**آمن شِعْرُهُ وكفر قلبه**» إذ شعره كان يفيض بالإيمانيات من عقيدة البعث والجزاء، والتوحيد، والعدل والرحمة ومن شعره قوله:

كل دين يوم القيامة عند الله ... إلا دين الحنيفية زور

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

طريقًا إليه ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي الضالين الفاسدين الهالكين.

(١٧٦) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾[1] أي بالآيات إلى قمم المجد والكمال، وإلى الدرجات العلا في الدار الآخرة، ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي مال إليها وركن فأكب على الشهوات والسرف في الملذات، وأصبح لا هم له إلا تحصيل ذلك ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وترك عقله ووحي ربه عنده، فصار مثله أي صفته الملائمة له ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أي في اللهث والإعياء، والتبعية وعدم الاستقلال الذاتي ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ فحيرته وتعبه لا ينقطعان أبدًا. وقوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي هذا المثل الذي ضربناه لذلك الرجل الذي آتيناه آيتنا فانسلخ منها وكان من أمره ما قصصنا عليك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا في كل زمان ومكان، وعليه ﴿فَاقْصُصِ﴾ يا رسولنا ﴿الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لعل قريشًا تتفكر فتعتبر وترجع إلى الحق فتكمل وتسعد.

(١٧٧) وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي قبح مثلًا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فجحدوا بها حتى لا يوحدوا الله تعالى ولا يسلموا إليه، ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ بتدنيسها بآثار الشرك والمعاصي.

(١٧٨) وقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ أي من وفقه الله تعالى للهداية[2] فآمن وأسلم واستقام على منهاج الحق فهو المهتدي بحق ومن خذله الله لشدة إعراضه عن الحق وتكبره عنه فضلّ بإضلال الله تعالى له فأولئك هم الخاسرون الخسران الحق المبين.

هداية الآيات:

١ - خطر شأن هذا الخبر الذي أمر تعالى رسوله ﷺ أن يتلوه على الناس.

٢ - ترك القرآن الكريم بعدم تلاوته والتدبر فيه، وترك العمل به مفض بالعبد إلى أن يكون هو صاحب المثل في هذه الآية، فأولاً يتمكن منه الشيطان فيصبح من الغواة، وثانيًا يخلد إلى الأرض كما هو حال الكثيرين فلا يكون لأحدهم هم إلا الدنيا. ثم يتبع هواه لا عقله ولا شرع الله، فإذا به صورة لكلب يلهث لا تنقطع حيرته واتباعه لغيره كالكلب سواء بسواء وهذه حال من أعرضوا عن كتاب الله تعالى في هذه الآية فليتأملها العاقل.

٣ - لا رفعةَ ولا سيادة ولا كمال إلا بالعمل بالقرآن فهي الآية الرافعة لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي بالآيات[3] التي انسلخ منها والعياذ بالله.

٤ - الهداية بيد الله ألا فليطلبها من

---

(١) أي: أن تلك الآيات التي أعطاه الله إياها من شأنها أن تكون سببًا للهداية، وهذا شأن آيات الله فإنها ترفع كل من يؤمن بها ويعمل بما فيها ترفعه في الدنيا والآخرة فهي آلة الرفع الحقيقية لا المذاهب والنظريات المادية.

(٢) الهداية: هي إبانة الطريق الموصل إلى السعادة والكمال.

(٣) لقد جرب أتباع أتاتورك العثماني العلمانية وجرّب العرب القومية ثم جربوا الاشتراكية حتى قال قائلهم: اشتراكيتنا نوالي من يواليها ونعادي من يعاديها، وجرّب بعضهم الشيوعية فهل غنوا؟ هل عزّوا؟ هل كملوا؟ هل شبعوا؟ اللهم لا، لا، لا فلم إذن لا يعملون بالقرآن؟

أرادها من الله بصدق القلب وإخلاص النية فإن الله تعالى لا يحرمه منها، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧٩ ـ ١٨١]

(١٧٩) ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾: خلقنا لجهنم أي للتعذيب بها والاستقرار فيها.

﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾: كلام الله ولا كلام رسوله ﷺ. ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾: آيات الله في الكون. ﴿لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾: الحق والمعروف.

﴿كَالْأَنْعَٰمِ﴾: البهائم في عدم الانتفاع بقلوبهم وأبصارهم وأسماعهم.

﴿الْغَٰفِلُونَ﴾: أي عن آيات الله، وما خُلقوا له وما يراد لهم وبهم.

(١٨٠) ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾: الأسماء جمع اسم والحسنى مؤنث الأحسن، والأسماء الحسنى لله خاصة دون غيره فلا يشاركه فيها أحد من مخلوقاته. ﴿وَذَرُوا﴾: اتركوا.

﴿يُلْحِدُونَ﴾: يميلون بها إلى الباطل.

(١٨١) ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾: أي من الناس.

معنى الآيات:

على إثر ذكر الهدى والضلال وإن المهتدي من هداه الله، والضال من أضله الله أخبر تعالى أنه قد خلق لجهنم كثيرًا من الجن والإنس، علمًا منه تعالى بأنهم يرفضون هدايته ويتكبرون عن عبادته، ويحاربون أنبياءه ورسله، وإن رفضهم للهداية وتكبرهم عن العبادة عطل حواسهم فلا القلب يفقه ما يقال له، ولا العين تبصر ما تراه، ولا الأذن تسمع ما تخبر به وتحدث عنه فأصبحوا كالأنعام[(١)] بل هم أضل لأن الأنعام ما خرجت عن الطريق الذي سيقت له وخلقت لأجله[(٢)]، وأما أولئك فقد خرجوا عن الطريق الذي أمروا بسلوكه، وخلقوا له ألا وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له لينجوا من العذاب ويسعدوا في دار النعيم.

(١٧٩) وقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ﴾ تقرير لحقيقة وهي أن استمرارهم في الضلال كان نتيجة غفلتهم عن آيات الله الكونية فلا يتأملوها فيعرفوا أن المعبود الحق هو الله وحده ويعبدوه، وعن آيات الله التنزيلية فلا يتدبروها فيعلموا أن الله هو الحق المبين فيعبدوه وحده بما شرع لهم في كتابه وسنّة نبيه ﷺ. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٧٩).

(١٨٠) وأما الآية الثانية في هذا السياق (١٨٠) وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا[(٣)] وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فقد أخبر تعالى فيها بأن الأسماء الحسنى له تعالى خاصة لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وقد أخبر النبي ﷺ أنها مائة[(٤)] اسم إلا اسمًا أي تسعة وتسعون اسمًا ووردت مفرقة في القرآن الكريم، وأمر تعالى عباده أن يدعوه[(٥)] بها يا الله، يا رحمٰن يا رحيم يا رب، يا حي يا قيوم، وذلك عند سؤالهم إياه وطلبهم منه ما لا يقدرون عليه[(٦)]،

---

(١) قال عطاء: الأنعام تعرف الله والكافر لا يعرفه، وقيل: الأنعام مطيعة لله، والكافر غير مطيع.

(٢) أي: لا همّة لهم إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح، وهم أضل من الأنعام لأنّ الأنعام تبصر مضارها ومنافعها وتتبع مالكها وهم على خلاف ذلك.

(٣) روى أحمد رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أصاب أحدًا قط همّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همّي، إلاّ أذهب الله حزنه وهمّه وأبدل مكانه فرحًا**».

(٤) روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحبّ الوتر**».

(٥) ذكر أهل العلم كيفية الدعاء بها وهي: أن يسأل باسم الله ما يناسب حاجته فيقول مثلًا: يا رحمن ارحمني، يا رزاق ارزقني، يا حكيم احكم لي، يا قوي يا قدير قوّني واقدرني على كذا.. يا لطيف ألطف بي، يا عليم علّمني وانفعني بما تعلمني وهكذا..

(٦) قال مقاتل وغيره في سبب نزول هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾ إلخ: أنّ مشركًا سمع مسلمًا يدعو: يا رحمن يا رحيم فقال: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًا واحدًا؟ فما بال هذا يدعو ربّين اثنين، فأنزل الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾ إلخ..

كما أمرهم أن يتركوا أهل الزيغ والضلال الذين يلحدون في أسماء الله فيؤلونها، أو يعطلونها، أو يشبهونها، أمر عباده المؤمنين به أن يتركوا هؤلاء له ليجزيهم الجزاء العادل على ما كانوا يقولون ويعملون. لأن جدالهم غير نافع فيهم ولا مجد للمؤمنين ولا لهم.

(١٨١) هذا ما دلت عليه الآية الثانية أما الثالثة (١٨١) وهي قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝﴾ إنه لما ذكر أنه خلق لجهنم كثيرًا من الجن والإنس ذكر هنا أنه خلق للجنة خلقًا آخر من الإنس والجن فذكر صفاتهم التي يستوجبون بها الجنة كما ذكر صفات أهل جهنم التي استوجبوا بها جهنم، فقال: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ من الناس ﴿أُمَّةٌ﴾ كبيرة ﴿يَهْدُونَ﴾ أنفسهم وغيرهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو هدى الله ورسوله ﷺ وبالحق يعدلون في قضائهم وأحكامهم فينصفون ويعدلون ولا يجورون، ومن هذه الأمة كل صالح في أمة الإسلام يعيش على الكتاب والسنة اعتقادًا وقولاً وعملاً وحكمًا وقضاء وأدبًا وخلقًا جعلنا الله منهم وحشرنا في زمرتهم.

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ أن السعادة والشقاء سبق بها قلم القضاء والقدر فكل ميسر لما خلق له.

٢ - هبوط الآدمي إلى درك أهبط من درك الحيوان، وذلك عندما يكفر بربه ويعطل حواسه عن الانتفاع بها، ويقصر همه على الحياة الدنيا.

٣ - بيان أن البلاء كامن في الغفلة عن آيات الله والإعراض عنها.

٤ - الأمر بدعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى نحو يا رب يا رحمٰن، يا عزيز يا جبار.

٥ - حرمة تأويل أسماء الله وصفاته وتحريفها كما قال المشركون في الله اللات، وفي العزيز العزى سموا بها آلهتهم الباطلة، وهو الإلحاد[١] الذي توعّد الله أهله بالجزاء عليه.

٦ - أهل الجنة الذين خلقوا لها هم الذين يهدون بالكتاب والسنة ويقضون بهما.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨٢ ـ ١٨٦]

(١٨٢) ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي بآيات القرآن الكريم. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾[٢]: أي نستميلهم وهم هابطون إلى هوة العذاب درجة بعد درجة حتى ينتهوا إلى العذاب، وذلك بإدرار النعم عليهم مع تماديهم في التكذيب والعصيان حتى يبلغوا الأجل المحدد لهم ثم يؤخذوا أخذة واحدة.

(١٨٣) ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝﴾: أي أمهلهم فلا أعجل بعقوبتهم حتى ينتهوا إليها بأعمالهم الباطلة وهذا هو الكيد لهم وهو كيد متين شديد.

(١٨٤) ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾: صاحبهم هو محمد ﷺ، والجنة الجنون والمتحدَّث عنهم كفار قريش.

(١٨٥) ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي ملك السموات إلا أن لفظ الملكوت أعظم من لفظة الملك. ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾: أي بعد القرآن العظيم.

(١٨٦) ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: أي يتركهم في كفرهم وظلمهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾: حيارى يترددون لا يعرفون مخرجًا ولا سبيلاً للنجاة.

معنى الآيات:

(١٨٣) يخبر تعالى أن الذين كذبوا بآياته التي أرسل بها رسوله محمدًا ﷺ فلم يؤمنوا بها وأصروا على الشرك والضلال معرضين عن التوحيد والهدى يخبر تعالى أنه سيستدرجهم بالأخذ شيئًا فشيئًا ودرجة بعد درجة حتى يحق عليهم

---

(١) الإلحاد لغة: الميل عن وسط الشيء إلى جانبه والإلحاد للميت دفنه في جانب القبر وكان من إلحاد العرب في أسماء الله تعالى أن اشتقوا العزى من العزيز واللات من الله، ومناة من المنان فألحدوا في أسماء الله تعالى، ومن الإلحاد في أسماء الله تعالى ما يفعله جهال المتصوّفة من وضع أسماء لله تعالى لا توجد في كتاب ولا سنة.

(٢) الاستدراج: هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة، والدّرج: لف الشيء ومنه إدراج الميت في كفنه أي: لفه فيه. واستدراج الله تعالى لأهل الغواية كلّما جددوا لله معصية جدد لهم نعمة حتى يأخذهم بذنوبهم وهم لا يشعرون وأحسن من أنشد:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حَسُنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

العذاب فينزله بهم فيهلكون ويخبر أنه يملي لهم أيضًا كيدًا بهم ومكرًا، أي يزيدهم في الوقت ويطول لهم زمن كفرهم وضلالهم فلا يعاجلهم بالعقوبة بل إنه يزيد في أرزاقهم وأموالهم حتى يفقدوا الاستعداد للتوبة ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولذا قال: ﴿وَأُمْلِي[1] لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ[2]﴾ أي قوي شديد. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٨٣).

(١٨٤) أما الثانية فإنه تعالى يوبخهم على إعراضهم عن التفكير والتعقل فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ في سلوك الرسول ﷺ[3] وتصرفاته الرشيدة الحكيمة فيعلموا أنه ما به من جنة وجنون كما يزعمون، وإنما هو نذير لهم من عذاب يوم أليم إن هم استمروا على سلوك درب الباطل والشر من الشرك والمعاصي، ونذارته بينه لا لبس فيها ولا غموض لو كانوا يتفكرون.

(١٨٥) وفي الآية الثالثة (١٨٥) يوبخهم على عدم نظرهم[4] في ملكوت السماوات والأرض وفي ما خلق الله من شيء وفي أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، إذ لو نظروا في ملكوت السموات والأرض وما في ذلك من مظاهر القدرة والعلم والحكمة لعلموا أن المستحق للعبادة هو خالق هذا الملكوت، لا الأصنام والتماثيل، كما أنهم لو نظروا فيما خلق الله من شيء من النملة إلى النخلة ومن الحبة إلى القبة لأدركوا أن الله هو الحق وأن ما يدعون هو الباطل كما أنه حري بهم أن ينظروا في ما مضى من أعمارهم فيدركوا أنه من الجائز أن يكون قد اقترب أجلهم، وقد اقترب فعلًا فليعجلوا بالتوبة حتى لا يؤخذوا وهم كفار أشرار فيهلكون ويخسرون خسرانًا كاملًا. ثم قال تعالى في ختام الآية ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾[5] بعد القرآن يؤمنون فالذي لا يؤمن بالقرآن وكله حجج وشواهد وبراهين وأدلة واضحة على وجوب توحيد الله والإيمان بكتابه ورسوله ﷺ ولقائه ووعده ووعيده فبأي كلام يؤمن، اللهم لا شيء.

(١٨٦) فالقوم إذًا أضلهم الله، ومن أضله الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون حيارى يترددون لا يدرون ما يقولون، ولا أين يتجهون حتى يهلكوا كما هلك من قبلهم. وما ربك بظلام للعبيد.

هداية الآيات:

١ - عظم خطر التكذيب بالقرآن الكريم حتى إن المكذِّب لَيُستدرج حتى يهلك وهو لا يعلم.

٢ - أكبر موعظة وهي أن على الإنسان أن يذكر دائمًا أن أجله قد يكون قريبًا وهو لا يدري فيأخذ بالحذر والحيطة حتى لا يؤخذ على غير توبة فيخسر.

٣ - من لا يتعظ بالقرآن وبما فيه من الزواجر، والعظات والعبر، لا يتعظ بغيره.

٤ - من أعرض عن كتاب الله مكذبًا بما فيه من الهدى فضل، لا ترجى له هداية أبدًا.

---

(١) قيل: نزلت هذه الآية: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ إلى قوله: ﴿مَتِينٌ﴾ نزلت في المستهزئين من قريش وقد أخذوا بعد الإملاء لهم زمنًا زاد على العشر سنين، أخذهم في بدر وألقوا في القليب ووبخهم ﷺ بما هم أهله من الخزي والهوان.

(٢) المتين: مأخوذ من المتن وهو اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب أي: الظهر.

(٣) هو المراد بالصاحب في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ وهي الجنون، دعا الله تعالى قريشًا للتفكر.

(٤) استدل العلماء بهذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ونظائر هذه الآية وهي كثيرة على وجوب النظر في الآيات والاعتبار بالمخلوقات وهو كذلك، واختلف العلماء في: هل الإيمان يثبت بالتقليد أو لا بد من النظر حتى يؤمن؟ والصحيح: أنّ الإيمان يصح بالتقليد المفيد لليقين كإيمان عوام المسلمين، وأفضل منه ما كان عن نظر واستدلال وهو إيمان العالمين.

(٥) قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ إلخ: الاستفهام لتوقيفهم على ما يجب أن يفكروا فيه وينظروا إليه وتوبيخهم على ترك ذلك.

(١٨٧) ﴿يسألونك﴾: السائلون النبي ﷺ عن الساعة كثيرون بعضهم مشركون يسألون للتعجيز وبعضهم يهود يسألون اختبارًا وامتحانًا.

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨٧، ١٨٨]

(١٨٧) ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: أي الساعة بمعنى الوقت الذي تنتهي فيه الحياة الدنيا بالفناء التام. ﴿أَيَّانَ(١) مُرۡسَىٰهَاۖ﴾: أي متى وقت قيامها. ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ﴾: أي لا يظهرها في وقتها المحدد لها إلا هو سبحانه وتعالى. ﴿بَغۡتَةٗۗ﴾: أي فجأة بدون توقع أو انتظار. ﴿حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾: أي ملحف مبالغ في السؤال عنها حتى أصبحت تعرف وقت مجيئها.

(١٨٨) ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾: الغيب ما غاب عن حواسنا وعن عقولنا فلم يدرك بحاسة ولا بعقل. والمراد به هنا ما سيحدث في المستقبل القريب أو البعيد. ﴿ٱلسُّوٓءُۚ﴾: كل ما يسوء العبد في روحه أو بدنه. ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾: أي ما أنا إلا نذير وبشير فلست بإله يدبر الأمر ويعلم الغيب.

معنى الآيتين:

(١٨٧) لا شك أن أفرادًا من قريش أو من غيرهم سألوا النبي ﷺ عن الساعة متى قيامها فأخبره تعالى بسؤالهم وعلّمه الجواب فقال عز وجل وهو يخاطب رسوله ﷺ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ(٢)﴾ أي متى وقت وقوعها وقيامها؟ قل لهم: ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا(٣) عِندَ رَبِّيۖ﴾ أي علم وقت قيامها عند ربي خاصة ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ﴾ أي لا يظهرها لأول وقتها إلا هو ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي ثقل أمر علمها عند أهل السموات والأرض ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ أي فجأة، ثم قال له يسألونك هؤلاء الجهال عن الساعة ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ أي كأنك ملحف في السؤال مبالغ في طلب معرفتها حتى عرفتها، قل لهم ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ خاصة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ولذا هم يسألونه، إذ إخفاؤه لحكم عالية لو عرفها الناس ما سألوا ولن يسألوا ولكن الجهل هو الذي ورطهم في مثل هذه الأسئلة وهذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٨٧).

(١٨٨) أما الآية الثانية (١٨٨) فقد أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول لأولئك السائلين عن الساعة متى وقت مجيئها ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ خيرًا ولا شرًا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ شيئًا من ذلك فإنه يُعينُني على جلبه أو على دفعه فكيف إذًا أعلم وقت مجيء الساعة حتى تسألوني عنها ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ(٤)﴾ كما تظنون لاستكثرت من الخيرات وما مسني السوء. وذلك أني إذا عرفت متى الخصب ومتى الجدب، ومتى الغلاء ومتى الرخاء يمكنني بسهولة أن أستكثر من الخير عند وجوده، وأتوقى الشر وأدفعه قبل حصوله، يا قوم إنما أنا نذير بعواقب الشرك والمعاصي بشير بنتائج الإيمان

---

(١) اسمٌ يسأل به عن الزمان لا غير، قال الراجز:

أيّان تقضي حاجتي أيّان ... أما ترى لنجحها أوانا

(٢) ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ مرساها مبتدأ، والخبر أيّان، وقدّم لأنه اسم استفهام له الصدارة ومعنى مرساها: مثبتها، من قولهم: أرسى كذا إذا أثبته، أي: متى وقوعها.

(٣) أي: علم الساعة إذ إخفاء علم الساعة كان لحكم عالية لو عرفها السائلون عن الساعة ما سألوا ولكنهم لجهلهم يسألون.

(٤) الغيب: قسمان، حقيقي: وهو ما استأثر الله تعالى به ومن علّمه تعالى منه شيئًا علمه. وإضافي: يعلّمه بعض ويخفي عن بعض، ومن ادعى علم الغيب فقد كذّب الله ونازعه فيما استأثر به فهو بذلك كافر.

والتوحيد والعمل الصالح فلست بإله أعلم الغيب، ووظيفتي هذه صراحة هي البشارة والنذارة ينتفع بها المؤمنون خاصة وهو معنى قوله تعالى ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

هداية الآيتين:

١ - مرد علم الساعة إلى الله وحده فكل مسؤول عنها غير الله ليس أعلم من السائل[١].

٢ - للساعة أشراط بعضها في الكتاب وبعضها في السنة وليس معنى ذلك أنه تحديد لوقتها وإنما هي مقدمات تدل على قربها فقط.

٣ - استأثر الله بعلم الغيب فلا يعلم الغيب إلا الله، ومَنْ علَّمه الله شيئًا منه علم كما علم نبيه ﷺ بعض المغيبات، والمعلم بالشيء لا يقال فيه يعلم الغيب وإنما يقال علَّمه ربه غيب كذا وكذا فعلمه.

٤ - إذا كان الرسول ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فكيف يطلب منه ذلك وإذا كان الرسول ﷺ لا يملك فهل من دونه من العباد يملك؟ إذا عرفت هذا ظهر لك ضلال أقوام يدعون الموتى سائلين ضارعين عند قبورهم ويقولون إنهم لا يدعونهم ولكن يتوسلون بهم فقط.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨٩ - ١٩٣]

(١٨٩) ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: هي نفس آدم عليه السلام. ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: أي خلق منها زوجها وهي حواء خلقها من ضلع آدم الأيسر. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: أي ليألفها ويأنس بها لكونها من جنسه. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾: أي وطئها. ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: أي ذاهبة جائية تقضي حوائجها لخفة الحمل في الأشهر الأولى. ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾[٢]: أي أصبح الحمل ثقيلًا في بطنها. ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾: أي ولدًا صالحًا ليس حيوانًا بل إنسانًا.

(١٩٠) ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾: أي سموه عبد الحارث وهو عبد الله جلّ جلاله. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي أهل مكة حيث أشركوا في عبادة الله أصنامًا.

(١٩٣) ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: أي الأصنام لا يتبعوكم.

معنى الآيات:

(١٨٩) يقول تعالى لأولئك السائلين عن الساعة عنادًا ومكابرة من أهل الشرك هو أي الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الإله المستحق للعبادة لا الأصنام والأوثان، فالخالق لكم من نفس واحدة وهي آدم وخلق منها زوجها حواء هو المستحق للتأليه والعبادة. دون غيره من سائر خلقه. وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ علة لخلقه زوجها منها، إذ لو كانت من جنس آخر لما حصلت الألفة والأنس بينهما، وقوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي للوطء ووطئها ﴿حَمَلَتْ[٣] حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ[٤]﴾ لخفته ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي أثقلها الحمل ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾[٥] أي آدم وحواء ربهما تعالى أي سألاه قائلين: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي غلامًا صالحًا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي لك. واستجاب الرب تعالى لهما وآتاهما صالحًا.

(١٩٠) وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا

(١) لحديث مسلم: فقد سأله جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان فبيّن له ذلك فصدقه جبريل وسأله عن الساعة فقال له: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

(٢) قال الفقهاء كمالك: إذا بلغ الحمل ستة أشهر أصبحت الحامل مريضة فلا يصح لها أن تهب من مالها أكثر من الثلث، ومثلها من دخل معركة القتال، وكذا المريض الشديد المرض، والمحبوس للقتل، ليس لهم من هبة إلاّ ما كان الثلث فأقل.

(٣) كل ما كان في البطن أو على رأس النخلة أو الشجرة فهو حمل بفتح الحاء وكل ما كان على رأس أو ظهر إنسان أو حيوان فهو حمل بكسر الحاء.

(٤) فمرت به لخفّته فلم تتفطّن له ولم تفكر في شأنه ومعنى أثقلت أي: صارت ذات ثقل من أثقل المريض فهو مثقل فأثقلت صارت مثقلة.

(٥) ما ذهبت إليه في التفسير هو ما ذهب إليه إمام المفسرين ابن جرير الطبري وهو مؤيد بقراءة تشركون بالتاء وبحديث خدعهما مرتين خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض وذهب آخرون إلى أن الكلام على جنس الآدميين تبينًا لحال المشركين من ذرية آدم ودل على قولهم قراءة يشركون بالياء والله أعلم.

إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

١٧٦

صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ حيث سمّته حواء عبد الحارث بتغرير من إبليس، إذ اقترح عليهما هذه التسمية، وهي من الشرك الخفي المعفو عنه نحو لولا الطبيب هلك فلان، وقوله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عائد إلى كفار قريش الذين يشركون في عبادة الله أصنامهم وأوثانهم، بدليل قوله بعد ﴿١٩١﴾ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ أي من المخلوقات ﴿وَهُمْ﴾ أي الأوثان وعبادها.

﴿١٩١﴾ ـ ﴿١٩٢﴾ ﴿يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ إذا طلبوا منهم ذلك. ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ لأنهم جمادات لا حياة بها ولا قدرة لها.

﴿١٩٣﴾ وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي وإن تدعوا أولئك الأصنام ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ وقد ضلوا الطريق ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾[1] لأنهم لا يعقلون الرشد من الضلال ولذا فسواء عليكم ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ﴾ أي لم تدعوهم فإنهم لا يتبعونكم ومن هذه حاله وهذا واقعه فهل يصح أن يعبد فتقرب له القرابين ويحلف به، ويعكف عنده، وينادى ويستغاث به؟؟ اللهم لا، ولكن المشركين لا يعقلون.

هداية الآيات:

١ ـ بيان أصل خلق البشر وهو آدم وحواء عليهما السلام.

٢ ـ بيان السر في كون الزوج من جنس الزوج وهو الألفة والأنس والتعاون.

٣ ـ بيان خداع إبليس وتضليله للإنسان حيث زين لحواء تسمية ولدها بعبدالحارث وهو عبدالله.

٤ ـ الشرك في التسمية[2] شرك خفي معفو عنه وتركه أولى.

٥ ـ التنديد بالشرك والمشركين، وبيان جهل المشركين وسفههم إذ يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يجيب ولا يتبع.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩٤ ـ ١٩٨]

﴿١٩٤﴾ ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾: أي مملوكون مخلوقون أمثالكم لمالك واحد هو الله رب العالمين.

﴿١٩٥﴾ ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾: أصنامكم التي تشركون بها. ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾: بما استطعتم من أنواع الكيد. ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾: أي فلا تمهلون لأني لا أبالي بكم.

﴿١٩٦﴾ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾: أي المتولي أموري وحمايتي ونصرتي الله الذي نزل القرآن.

﴿١٩٨﴾ ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ﴾: أي وترى الأصنام المنحوتة على شكل رجال ينظرون إليك وهم لا يبصرون.

معنى الآيات:

﴿١٩٤﴾ هذه الآيات الخمس في سياق ما قبلها جاءت مقررة لمبدأ التوحيد مؤكدة له منددة بالشرك مقبحة له، ولأهله فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾[3] أي دعاء عبادة أيها

---

(١) يقول بعضهم: أتبعه: إذا مشى وراءه ولم يدركه، واتّبعه مشددًا إذا مشى وراءه وأدركه.

(٢) نحو: عبد النبي، وعبد الرسول، وعبد الضيف كما قال حاتم الطائي:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاويا   وما فيّ إلاّ تيك من شيمة العبد

(٣) تدعون: بمعنى تعبدون لأن الدعاء هو العبادة أو تدعون: بمعنى تدعونها عبادة فحذف المفعول ليشمل التعبير المعنيين وهو من بلاغة القرآن.

المشركون ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1] أي مملوكون للّه، الله مالكهم كما أنتم مملوكون للّه مربوبون. فكيف يصح منكم عبادتهم وهم مملوكون مثلكم لا يملكون لكم ولا لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، وإن شككتم في صحة هذا فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم آلهة يستحقون العبادة. إنكم لو دعوتموهم ما استجابوا، وكيف يستجيبون وهم جماد ولا حياة لهم.

(١٩٥) ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا[2] أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ إنه لا شيء لهم من ذلك فكيف إذًا يستجيبون، وبأي حق يعبدون فيدعون ويرجون وهم فاقدو آثار القدرة والحياة بالمرة.

(١٩٦) ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعلن لهم أنه لا يخافهم ولا يعدهم شيئًا إذا كانوا هم يعبدونهم ويخافونهم فقال له قل لهؤلاء المشركين ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ[3]﴾ أنتم وإياهم ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تمهلوني ساعة، وذلك لأن ﴿وَلِيِّيَ[4] اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ فهو ينصرني منكم ويحميني من كيدكم إنه وليي وولي المؤمنين.

(١٩٧) أما أنتم ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي من دون الله من هذه الأوثان ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

(١٩٨) وشيء آخر وهو أنكم ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ فضلًا عن أن تدعوهم إلى الضلال فكيف تصح عبادة من لا يجيب داعيه في الرخاء ولا في الشدة. وأخيرًا يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ أي ترى أولئك الآلهة وهي تماثيل من حجارة ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ[5]﴾ إذا قابلتهم لأن أعينهم مفتوحة دائمًا، والحال أنهم لا يبصرون، وهل تبصر الصور والتماثيل؟.

هداية الآيات:

١ - إقامة الحجة على المشركين بالكشف عن حقيقة ما يدعون أنها آلهة فإذا بها أصنام لا تسمع ولا تجيب لا أيد لها ولا أرجل ولا آذان ولا أعين.

٢ - وجوب التوكل على الله تعالى، وطرد الخوف من النفس والوقوف أمام الباطل وأهله في شجاعة وصبر وثبات اعتمادًا على الله تعالى وولايته إذ هو يتولى الصالحين.

٣ - جواز المبالغة في التنفير من الباطل والشر بذكر العيوب والنقائص.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩٩ - ٢٠٢]

(١٩٩) ﴿الْعَفْوَ﴾: ما كان سهلًا لا كلفة فيه وهو ما يأتي بدون تكلف. ﴿بِالْعُرْفِ﴾: أي المعروف في الشرع بالأمر به أو الندب إليه. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾: الجاهلون: هم الذين لم تستنر قلوبهم بنور العلم والتقوى، والإعراض عنهم بعدم مؤاخذتهم على سوء قولهم أو فعلهم.

(٢٠٠) ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾: أي وسوسته بالشر. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾: أي قل أعوذ بالله يدفعه عنك إنه أي الله سميع عليم.

(٢٠١) ﴿اتَّقَوْا﴾: أي الشرك والمعاصي. ﴿طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾: أي ألم بهم شيء من وسوسته.

(٢٠٢) ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾:

---

(١) أطلق لفظ عباد على الأوثان لأنها مملوكة لله تعالى كعابديها مخلوقة كما هم مخلوقون، ولما اعتقد المشركون أنّ أصنامهم تنفع وتضر عاملها معاملة العقلاء فقال: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ وقال: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ بدل فادعوهن.

(٢) اليد والرجل والأذن مؤنثات ولذا يصغرن بالهاء ويقال: يُدية ورُجيلة وأذينة وشدّدت الهاء من: يدية لأنّ الياء المحذوفة من يد، ردّت في التصغير.

(٣) أصل كيدون: كيدوني بالياء فحذفت تخفيفًا، والكيد: المكر، والحرب أيضًا يقال: غزا فلم يلق كيدًا أي: حربًا.

(٤) وليّ الشيء: هو الذي يحفظه ويمنع الضرر عنه وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ألا إن آل فلان ليسوا لي بأولياء إنّما وليي الله وصالح المؤمنين»**.

(٥) النظر: فتح العينين إلى المنظور إليه، وجملة تراهم مستأنفة وينظرون في محل نصب على الحال، وجائز أن يكون المراد بـ تراهم ينظرون إليك المشركون أنفسهم وكونهم لا يبصرون لأنهم لم ينتفعوا بأبصارهم.

أي إخوان الشياطين من أهل الشرك والمعاصي يمدونهم في الغي. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾: أي لا يكفون عن الغي الذي هو الضلال والشر والفساد.

معنى الآيات:

(١٩٩) لما علّم تعالى رسوله ﷺ كيف يحاج المشركين لإبطال باطلهم في عبادة غير الله تعالى والإشراك به عز وجل علمه في هذه الآية أسمى الآداب وأرفعها، وأفضل الأخلاق وأكملها فقال له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ[1] وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ[2] وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي خذ من أخلاق الناس ما سهل عليهم قوله وتيسر لهم فعله، ولا تطالبهم بما لا يملكون أو بما لا يعلمون وأمرهم بالمعروف، وأعرض[3] عن الجاهلين منهم فلا تعنفهم ولا تغلظ القول لهم فقد سأل ﷺ عن معنى هذه الآية جبريل عليه السلام فقال له: (تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك)[4].

(٢٠٠) وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ[5]﴾ أي أثار غضبك حتى لا تلتزم بهذا الأدب الذي أُمرت به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ بدفعه عنك إنه سميع لأقوالك عليم بأحوالك. ثم قال تعالى مقررًا حكم الاستعاذة مبينًا جدواها ونفعها لمن يأخذ بها.

(٢٠١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي ربهم فلم يشركوا به أحدًا ولم يفرطوا في الواجبات ولم يغشوا المحرمات هؤلاء ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ[6] مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ بأن نزغهم بإثارة الغضب أو الشهوة فيهم تذكروا أمر الله ونهيه ووعده ووعيده ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ يرون قبح المعصية وسوء عاقبة فاعلها فكفوا عنها ولم يرتكبوها.

(٢٠٢) وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أي إخوان الشياطين من أهل الشرك والمعاصي ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي الشياطين ﴿فِي الْغَيِّ﴾ أي في المعاصي والضلالات ويزيدونهم في تزيينها لهم وحملهم عليها، ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عن فعلها ويكفون عن ارتكابها.

هداية الآيات:

١ - الأمر بالتزام الآداب والتحلي بأكمل الأخلاق[7] ومن أرقاها العفو عمن ظلم وإعطاء من حرم، وصلة من قطع.

٢ - وجوب الاستعاذة بالله[8] عند الشعور بالوسوسة أو الغضب أو تزيين الباطل[9].

٣ - فضيلة التقوى وهي فعل الفرائض وترك المحرمات.

٤ - شؤم أخوة الشياطين حيث لا يقصر صاحبها بمد الشياطين له عن الغي الذي هو الشر والفساد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠٣ - ٢٠٦]

(٢٠٣) ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾: أي

---

(١) قال ابن الزبير هذه الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ..﴾ إلخ.. ما أنزلها الله تعالى إلاّ في أخلاق الناس، وقال جعفر الصادق: أمر الله رسوله بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

(٢) العرف: المعروف، وقرىء: ﴿العُرُف﴾ بضم العين والراء مثل: الحُلُم. والعرف: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس: قال الشاعر:

من يفعل الخير لايعدم جوازيه ... لا يذهب العُرف بين الله والناس

(٣) الإعراض عن الجاهلين يكون بعد دعوتهم إلى الحق وإقامة الحجة عليهم فإن لم يستجيبوا يعرض عنهم آذوه أو لم يؤذوه.

(٤) من أحاديث مكارم الأخلاق قوله ﷺ: «**إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق**».

(٥) النزغ، والنغز والهمز والوسوسة بمعنى واحد، والنزغ: الإفساد والإغواء والإغراء. وعلاج الوسوسة، الاستعاذة بالله تعالى.

(٦) الطيف، والطائف، بمعنى، وقيل: الطيف: الخيال، والطائف: الشيطان. وهو صحيح أيضًا.

(٧) روي أنّ النبي ﷺ قال: «**أمرني ربي بتسع: الإخلاص في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمّن ظلمني وأصل من قطعني، وأعطي من حرمني وأن يكون نطقي ذكرًا وصمتي فكرًا ونظري عبرة**».

(٨) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول له: من خلق كذا وكذا حتى يقول له: من خلق ربّك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته**» فقوله: فليستعذ: الأمر للوجوب إذ لا يدفع الشيطان إلا الله تعالى فهو الذي ينجي منه ويجير.

(٩) روي أن النبي ﷺ لما أنزلت آية ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ الآية قال ﷺ: «**كيف يا رب والغضب**» فنزلت: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ..﴾ إلخ..

اخترعتها واختلقتها من نفسك وأتيتنا بها. ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾: أي هذا القرآن حجج وبراهين وأدلة على ما جئت به وأدعوكم إليه فهو أقوى حجة من الآية التي تطالبون بها.

(٢٠٤) ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾: أي اطلبوا سماعه وتكلفوا له، وانصتوا عند ذلك أي اسكتوا حتى تسمعوا سماعًا ينفعكم.

(٢٠٥) ﴿وَخِيفَةً﴾: أي خوفًا. ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾: الغدو: أول النهار، والآصال: أواخره. ﴿مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾: أي عن ذكر الله تعالى.

(٢٠٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾: أي الملائكة. ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: ينزهونه بألسنتهم بنحو سبحان الله وبحمده.

معنى الآيات:

(٢٠٣) ما زال السياق في توجيه الرسول ﷺ وتعليمه الرد على المشركين خصومه فقال تعالى عن المشركين من أهل مكة ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم﴾ يا رسولنا ﴿بِـَٔايَةٍ﴾[١] كما طلبوا ﴿قَالُواْ﴾ لك ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ أي اخترعتها وأنشأتها من نفسك ما دام ربك لم يعطها قل لهم إنما أنا عبد الله ورسوله لا أفتات عليه ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ وهذا القرآن الذي يوحى إلي بصائر[٢] من حجج وبراهين على صدق دعواي وإثبات رسالتي، وصحة ما أدعوكم إليه من الإيمان والتوحيد وترك الشرك والمعاصي، فهلا آمنتم واتبعتم أم الآية الواحدة تؤمنون عليها والآيات الكثيرة لا تؤمنون عليها أين يذهب بعقولكم؟ وعلى ذكر بيان حجج القرآن وأنواره أمر الله تعالى عباده المؤمنين إذا قرىء عليهم القرآن أن يستمعوا وينصتوا وسواء كان يوم الجمعة على المنبر أو كان في غير ذلك[٣] فقال تعالى:

(٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ أي تكلفوا السماع وتعمدوه ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ بترك الكلام ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي رجاء أن ينالكم من هدى القرآن رحمته فتهتدوا وترحموا لأن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين.

(٢٠٥) ثم أمر تعالى رسوله ﷺ وأمته تابعة له في هذا الكمال فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أي سرًا ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي تذللاً وخشوعًا، ﴿وَخِيفَةً﴾[٤] أي وخوفًا وخشية ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو السر بأن يسمع نفسه فقط أو من يليه لا غير وقوله ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي أوائل النهار وأواخره، ونهاه عن ترك الذكر وهو الغفلة فقال: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ وذكر له تسبيح الملائكة[٥] وعبادتهم ليتأسى بهم، فيواصل العبادة والذكر ليل نهار فقال:

(٢٠٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة في الملكوت الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي طاعته بما كلفهم به ووظفهم فيه ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[٦] فتأس بهم ولا تكن من الغافلين.

هداية الآيات:

١ - القرآن أكبر آية بل هو أعظم من كل الآيات التي أعطيها الرسل عليهم السلام.

٢ - وجوب الإنصات عند تلاوة القرآن وخاصة في خطبة الجمعة على المنبر وعند قراءة الإمام في الصلاة الجهرية.

---

(١) وجائز أن يكون المراد من الآي: آية قرآنية يمدحهم فيها ويمدح أصنامهم ولولا هنا أداة تحضيض مثل هلاّ ولا يليها إلا الفعل ظاهرًا أو مضمرًا.

(٢) البصائر: جمع بصيرة وهي ما به يتضح الحق، وفي هذا تنويه بشأن القرآن العظيم وأنه: أعظم من الآيات أي: الخوارق التي يطالبون بها في الدلالة على الحق الذي ضلّوا عنه.

(٣) أي: كيومي العيدين مثلاً، وهذا الأمر بالاستماع والإنصات للقرآن عام يشمل المشركين إذ كانوا يأمرون بعدم الاستماع إليه كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ..﴾ كما يشمل المؤمنين، إذ سماع القرآن سبيل الهداية، والإنصات: سماع مع عدم التكلم حال الاستماع.

(٤) الخيفة: أصلها خوفة فقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها، وهي مصدر خاف المرء يخاف خوفًا وخيفة ومخافة فهو خائف.

(٥) تسبيح الملائكة معناه: تعظيمهم لله تعالى وتنزيههم له عزّ وجلّ عن الشريك والولد.

(٦) صيغة المضارع في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ و ﴿يَسْجُدُونَ﴾ لحصر السجود في الله تعالى وعدم جوازه لغيره عز وجل.

٣ ـ وجوب ذكر الله بالغدو والآصال.

٤ ـ بيان آداب الذكر وهي:

١ ـ السرية.

٢ ـ التضرع والتذلل.

٣ ـ الخوف والخشية.

٤ ـ الإسرار به وعدم رفع الصوت به، لا كما يفعل المتصوفة.

٥ ـ مشروعية الائتساء بالصالحين والاقتداء بهم في فعل الخيرات وترك المنكرات.

(٢٠٦) ٦ ـ عزيمة السجود عند قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[1] وهذه أول سجدات القرآن ويسجد القارىء والمستمع له، أما السامع فليس عليه سجود، ويستقبل بها القبلة ويكبر عند السجود وعند الرفع منه ولا يسلم وكونه متوضئًا أفضل.

❁ ❁ ❁

سورة الأنفال

مدنية

وآياتها خمس وسبعون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٤]

(١) ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾: جمع نفل[2] بتحريك الفاء: ما يعطيه الإمام لأفراد الجيش تشجيعًا لهم. ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: أي حقيقة بينكم، والبين الوصلة والرابطة التي تربط بعضكم ببعض من المودة والإخاء.

(٢) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: أي الكاملون في إيمانهم. ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[3]: أي خافت إذ الوجل: هو الخوف لا سيما عند ذكر وعيده ووعده. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: على الله وحده يعتمدون وله أمرهم يفوّضون.

(٣) ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾: أي أعطيناهم.

(٤) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي الموصوفون بالصفات الخمس السابقة. ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾: منازل عالية في الجنة. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: أي عطاء عظيم من سائر وجوه النعيم في الجنة.

معنى الآيات:

(١) هذه الآيات نزلت في غزوة بدر وكان النبي ﷺ قد نفل[4] بعض المجاهدين لبلائهم وتخلف آخرون فحصلت تساؤلات بين المجاهدين لمَ يعطي هذا ولمَ لا يعطي ذاك فسألوا الرسول ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ[5] عَنِ ٱلْأَنفَالِ[6]﴾ فأخبرهم أنها ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فالله يحكم فيها بما يشاء والرسول ﷺ يقسمها بينكم كما يأمره ربه[7] وعليه فاتقوا الله تعالى بترك النزاع والشقاق، ﴿وَأَصْلِحُواْ﴾ ذات بينكم بتوثيق عرى المحبة بينكم وتصفية قلوبكم من كل

---

(١) ولو سلم منها في غير الصلاة جاز فقد روي عن بعض السلف، ويستحب لمن سجد أن يقول: «**اللهم احطط عني بها وزرًا واكتب لي بها أجرًا واجعلها لي عندك ذخرًا**» رواه ابن ماجه عن ابن عباس عن النبي ﷺ.

(٢) النفل: بسكون الفاء: اليمين وفي الحديث: «**فتبرئكم يهود بنفل خمسين منهم**» وهو أيضًا الانتفاء من الشيء وفي الحديث: «**فانتفل من ولدها**» والنفل: نبت معروف، والنفل: الزيادة على الفرائض في الصلاة.

(٣) قيل لبعضهم: متى تعرف أنه استجيب دعاؤك؟ قال: إذا اقشعرّ جلدي ووجل قلبي، وفاضت عيناي بالدموع، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما الوجل في القلب إلا كضَرَمَة السَعفَة، فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك.

(٤) هذا ما ذهب إليه ابن جرير ورجحه محتجًا عليه بشواهد اللغة والتاريخ والجمهور على أن المراد بالأنفال هنا غنائم بدر، والكل محتمل إذ حصل النفل، وحصلت الغنيمة، ولما اختلفوا ردت إلى الله ورسوله ﷺ ثم حكم الله تعالى فيها بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ ..﴾ الآية.

(٥) السؤال معناه: الطلب فإن عدي بعن: كان لطلب معرفة شيء نحو: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وإن عدي بنفسه نحو: (سأله مالاً فهو: لطلب إعطاء الشيء المطلوب).

(٦) الأنفال: جمع نفلٌ بفتح النون والفاء معًا كَعَملٌ وهو مشتق من النافلة التي هي الزيادة في العطاء، وقد أطلق العرب لفظ النفل على الغنائم في الحرب اعتبارًا منهم لها على أنها زيادة عن المقصود الأهم الذي هو إبادة العدو، ولذا كان بعض صناديدهم لا يأخذونها وهذا عنترة يقول:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم

(٧) اختلف في النفل هل يكون من الخمس أو هو خمس الخمس من الغنيمة؟ والصحيح أنه ما يعطيه الإمام من شاء من المقاتلين لبلائه من الخمس.

ضغن أو حقد نشأ من جراء هذه الأنفال واختلافكم في قسمتها، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كل ما يأمرانكم به وينهيانكم عنه ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ حقًا فامتثلوا الأمر واجتنبوا النهي.

(٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي الكاملون في إيمانهم الذين يستحقون هذا الوصف وصف المؤمنين هم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ أي اسمه أو وعده أو وعيده ﴿وَجِلَتۡ[1] قُلُوبُهُمۡ﴾ أي خافت فأقلعت عن المعصية، وأسرعت إلى الطاعة، ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ أي قوي إيمنهم وعظم يقينهم، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ لا على غيره ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ وفيه تعالى يثقون. وإليه تعالى أمورهم يفوضون.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأدائها بكامل شروطها وكافة أركانها وسائر سننها وآدابها ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أي أعطيناهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ من مال وعلم، وجاه وصحة بدن من كل هذا ينفقون في سبيل الله.

(٤) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الخمس ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ وصدقًا، ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي منازل عالية متفاوتة العلو والارتفاع في الجنة، ولهم قبل ذلك ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ كاملة لذنوبهم، ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ[2]﴾ طيب واسع لا تنقيص فيه ولا تكدير، وذلك في الجنة دار المتقين.

هداية الآيات:

١ - الأمر بتقوى الله عز وجل وإصلاح ذات البين.

٢ - الإيمان يزيد[3] بالطاعة وينقص بالعصيان.

٣-من المؤمنين من هو كامل الإيمان، ومنهم من هو ناقصه.

٤ - من صفات أهل الإيمان الكامل ما ورد في الآية الثانية من هذه السورة[4] وما بعدها.

الجزءُ التّاسع — سُورَةُ الأنفال

ترتيبها ٨	سُورَةُ الأَنفَالِ	آياتها ٧٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ① إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ② ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ③ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ④ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ⑤ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ⑥ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ⑦ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ⑧

١٧٧

شرح الكلمات:

[الآية: ٥ ـ ٨]

(٥) ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾: أي المدينة المنورة.

﴿لَكَٰرِهُونَ﴾: أي الخروج للقتال.

(٧) ﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾: العير «القافلة» أو النفير: نفير قريش وجيشها. ﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾[5]: السلاح في الحرب.

(٨) ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾: أي يظهر بطلانه بقمع أهله وكسر شوكتهم وهزيمتهم. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: كفار قريش المشركون.

معنى الآيات:

(٥) قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ أيها الرسول ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ بالمدينة

---

(١) وجل: كضرب، يوجل كيضرب ويجل كيلد بإسقاط فاء الكلمة والمصدر: الوجل كالعسل، وموجل كموعد.

(٢) لفظ (الكريم) يصف به العرب كل شيء حسن في بابه لا قبح فيه ولا شكوى منه.

(٣) سئل الحسن البصري فقيل له: يا أبا سعيد أمؤمن أنت؟ فقال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر فأنا به مؤمن، وإن كنت تسألني عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ فوالله ما أدري أنا منهم أم لا؟

(٤) وهما الآية الثالثة والرابعة.

(٥) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: الباء للمصاحبة أي: أخرجه إخراجًا مصاحبًا للحق ليس فيه من الباطل شيء قط.

(٥) وكل نبت له حد يقال له: شوك واحده: شوكة.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ متلبسًا به حيث خرجت بإذن الله ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا[1] مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ لما علموا بخروج قريش لقتالهم، وكانت العاقبة خيرًا عظيمًا، هذه الحال مثل حالهم لما كرهوا نزع الغنائم من أيديهم وتوليك قسمتها بإذننا، على أعدل قسمة وأصحها وأنفعها فهذا الكلام في هذه الآية (٥) تضمنت تشبيه حال حاضرة بحال ماضية حصلت في كل واحدة كراهة بعض المؤمنين، وكانت العاقبة في كل منهما خيرًا والحمد لله.

(٦) وقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ أي يجادلونك في القتال بعدما اتضح لهم أن العير[2] نجت وأنه لم يبقَ إلا النفير[3] ولا بد من قتالها. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ أي إلى الموت عيانًا يشاهدونه أمامهم وذلك من شدة كراهيتهم لقتال لم يستعدوا له ولم يوطنوا أنفسهم لخوض معاركه.

(٧) وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ أي اذكر يا رسولنا لهم الوقت الذي يعدكم الله تعالى فيه إحدى الطائفتين العير والنفير، وهذا في المدينة وعند السير أيضًا ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ أي تظفرون بها، ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ أي تحبون أن تكون ﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ وهي عير أبي سفيان ﴿تَكُونُ لَكُمۡ﴾، وذلك لأنها مغنم بلا مغرم لقلة عَددها وعِددها، والله يريد ﴿أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ أي يظهره بنصر أوليائه وهزيمة أعدائه، وقوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي التي تتضمن أمره تعالى إياكم بقتال الكافرين، وأمره الملائكة بالقتال معكم، وقوله: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي بتسليطكم عليهم فتقتلوهم حتى لا تبقوا منهم غير من فر وهرب.

(٨) وقوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ أي لينصره ويقرره وهو الإسلام ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ وهو الشرك ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾ ذلك ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي المشركون الذين أجرموا على أنفسهم فأفسدوها بالشرك، وعلى غيرهم أيضًا حيث منعوهم من قبول الإسلام وصرفوهم عنه بشتى الوسائل.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير قاعدة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ وذكر نبذة عن غزوة بدر الكبرى وبيان ذلك أن النبي ﷺ بلغه أن عيرًا لقريش تحمل تجارة قادمة من الشام في طريقها إلى مكة وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب فانتدب النبي ﷺ بعض أصحابه للخروج إليها عسى الله تعالى أن يغنمهم إياها، لأن قريشًا صادرت أموال بعضهم وبعضهم ترك ماله بمكة وهاجر. فلما خرج النبي ﷺ وأثناء مسيره أخبرهم أن الله تعالى وعدهم إحدى الطائفتين، لا على التعيين جائز أن تكون العير، وجائز أن تكون النفير الذي خرج من مكة للذب عن العير ودفع الرسول ﷺ وأصحابه عنها حتى لا يستولوا عليها، فلما بلغ الرسول ﷺ نبأ نجاة العير[4] وقدوم النفير استشار أصحابه فوافقوا على قتال المشركين ببدر وكره بعضهم ذلك، وقالوا: إنا لم نستعد للقتال فأنزل الله تعالى هذه الآيات:

(٦) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾.

---

(١) هذه الجملة حالية: والعامل فيها: أخرجك ربّك.

(٢) هي قافلة أبي سفيان التجارية التي يصحبها زهاء ثلاثين رجلًا من قريش.

(٣) النفير: جيش قريش الذي استنفرت فيه قرابة ألف مقاتل.

(٤) لأنّ أبا سفيان لما بلغه بواسطة بعض الركبان أنّ محمدًا ﷺ قد خرج برجاله يطلب عيره استأجر ضمضم الغفاري فبعثه إلى أهل مكة يخبرهم بخروج الرسول ﷺ، وأمرهم أن ينفروا لإنقاذ قافلتهم، وأما الرسول ﷺ وأصحابه فإنهم لما بلغوا في مسيرهم وادي ذفران وخرجوا منه أتاهم نبأ خروج قريش ليمنعوا قافلتهم فاستشار النبي ﷺ أصحابه فقام أبو بكر وقال فأحسن ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله: امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه فقال له الرسول ﷺ خيرًا ودعا له بخير ثم قال: «**أشيروا عليّ أيها الناس**»، وهو يريد الأنصار فقال له سعد بن معاذ: كأنك تعنينا يا رسول الله قال: أجل، فقال سعد كلمة سرّت النبي ﷺ وعندها قال: «**سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين**».

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

١٧٨

﴿٨﴾ إلى قوله: ﴿. . .وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

٢ - بيان ضعف الإنسان في رغبته في كل ما لا كلفة فيه ولا مشقة.

٣ - إنجاز الله تعالى وعده للمؤمنين إذ أغنمهم طائفة النفير وأعزهم بنصر لم يكونوا مستعدين له.

٤ - ذكر نبذة عن وقعة بدر وهي من أشهر الوقائع وأفضلها وأهلها من أفضل الصحابة وخيارهم إذ كانت في حال ضعف المسلمين حيث وقعت في السنة الثانية من الهجرة وهم أقلية والعرب كلهم أعداء لهم وخصوم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ - ١٤]

﴿٩﴾ ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾(١): أي تطلبون الغوث من الله تعالى وهو النصر على أعدائكم. ﴿مُرْدِفِينَ﴾: أي متتابعين بعضهم ردف بعض أي متلاحقين.

﴿١٠﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾: أي الإمداد بالملائكة إلا بشرى لكم بالنصر.

﴿١١﴾ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾: أي يغطيكم به والنعاس: نوم خفيف جدًا. ﴿أَمَنَةً﴾: أي أمنًا من الخوف الذي أصابكم لقلتكم وكثرة عدوكم. ﴿مِّنْهُ﴾: أي من الله تعالى. ﴿رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾: وسواسه لكم بما يؤلمكم ويحزنكم. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾: أي يشد عليها بالصبر واليقين. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾: أي بالمطر أقدامكم حتى لا تسوخ في الرمال.

﴿١٢﴾ ﴿الرُّعْبَ﴾: الخوف والفزع. ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾: أي أطراف اليدين والرجلين حتى يعوقهم عن الضرب والمشي.

﴿١٣﴾ ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي خالفوه في مراده منهم فلم يطيعوه وخالفوا رسوله ﷺ.

﴿١٤﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾: أي العذاب فذوقوه. ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾: أي في الآخرة.

معنى الآيات:

﴿٩﴾ ما زال السياق في أحداث غزوة بدر، وبيان منن الله تعالى على رسوله ﷺ والمؤمنين إذ يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي اذكر يا رسولنا حالكم لما كنتم خائفين لقلتكم وكثرة عدوكم فاستغثتم ربكم قائلين: اللهم نصرك، اللهم أنجز لي ما وعدتني ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي متتالين يتبع بعضهم بعضًا.

﴿١٠﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي لم يجعل ذلك الإمداد إلا مجرد بشرى لكم بالنصر على عدوكم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ أي تسكن ويذهب منها القلق والاضطراب، أما النصر فمن عند الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز غالب لا يحال بينه وبين ما يريده، حكيم بنصر من هو أهل للنصر، هذه نعمة.

﴿١١﴾ وثانية: اذكروا ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ ربكم ﴿النُّعَاسَ أَمَنَةً﴾(٢) ﴿مِّنْهُ﴾ أي أمانًا منه تعالى لكم فإن العبد إذا خامره النعاس هدأ وسكن وذهب

(١) روى مسلم عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يوم بدر نظر إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر، فاستقبل القبلة ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربّه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم ائتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**» فما زال يهتف بربّه مادًّا يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ . .﴾ الآية.

(٢) أمنة: مصدر أمن أمنة وأمنًا وأمانًا وهو منصوب على الحال، أو المصدرية.

الخوف عنه، وثبت في ميدان المعركة لا يفر ولا يرهب ولا يهرب، ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ وهذه نعمة أخرى، فقد كانت الأرض رملية تسوح فيها أقدامهم لا يستطيعون عليها كرًا ولا فرًا، وقل ماؤهم فصاروا ظماء عطاشًا، محدثين، لا يجدون ما يشربون ولا ما يتطهرون به من أحداثهم ووسوس الشيطان لبعضهم بمثل قوله: تقاتلون محدثين كيف تنصرون، تقاتلون وأنتم عطاش وعدوكم ريان إلى أمثال هذه الوسوسة، فأنزل الله تعالى على معسكرهم خاصة مطرًا غزيرًا شربوا وتطهروا وتلبدت به التربة فأصبحت صالحة للقتال عليها، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي وسواسه ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي يشد عليها بما أفرغ عليها من الصبر وما جعل فيها من اليقين لها ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ[1] الْأَقْدَامَ﴾ ونعمة أخرى واذكر

(١٢) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بتأييدي ونصري ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي قولوا لهم من الكلام تشجيعًا لهم ما يجعلهم يثبتون في المعركة ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي الخوف أيها المؤمنون ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾[2] أي اضربوا المذابح ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ[3]﴾ أي أطراف اليدين والرجلين حتى لا يستطيعوا ضربًا بالسيف، ولا فرارًا بالأرجل.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ[4] بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي عادوهما وحاربوهما ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ينتقم منه ويبطش به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ أي ذلكم العذاب القتل والهزيمة فذوقوه في الدنيا وأما الآخرة فلكم فيها عذاب النار.

هداية الآيات:

١ - مشروعية الاستغاثة بالله تعالى وهي عبادة فلا يصح أن يستغاث بغير الله تعالى.

٢ - تقرير عقيدة أن الملائكة عباد الله يسخرهم في فعل ما يشاء، وقد سخرهم للقتال مع المؤمنين فقاتلوا، ونصروا وثبتوا وذلك بأمر الله تعالى لهم بذلك.

٣ - تعداد نعم الله تعالى على المؤمنين في غزوة بدر وهي كثيرة.

٤ - مشاقة[5] الله ورسوله ﷺ كفر يستوجب صاحبها عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

٥ - تعليم الله تعالى عباده كيف يقاتلون ويضربون أعداءهم، وهذا شرف كبير للمؤمنين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ - ١٩]

(١٥) ﴿زَحْفًا﴾[6]: أي زاحفين لكثرتهم ولبطء سيرهم كأنهم يزحفون على الأرض. ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾: أي لا تنهزموا فتفروا أمامهم فتولونهم أدباركم.

(١٦) ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾: أي مائلًا من جهة إلى أخرى ليتمكن من ضرب العدو وقتاله. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾: أي يريد الانحياز إلى جماعة من المؤمنين تقاتل. ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ﴾: أي رجع من المعركة مصحوبًا بغضب من الله تعالى لمعصيته إياه.

(١٧) ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾: أي لينعم عليهم

---

(١) هذا عائد على الماء الذي شدّ دهس أرض الوادي، ويصح أن يكون عائدًا إلى ربط القلوب، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في الحرب.

(٢) هذا الأمر إرشادي للملائكة وللمؤمنين معًا.

(٣) واحد البنان: بناية، والمراد بها هنا الأصابع الممسكة بالسيف والرمح حتى تعجز عن قتال المسلمين وضربهم.

(٤) ذلك: مبتدأ والخبر محذوف تقدير الكلام: الأمر ذلك، والجملة تعليلية لأنّ الباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ سببية.

(٥) أصل المشاقة: العداوة بعصيان وعناد، مشتقة من الشق بكسر السين الذي هو الجانب، فالمشاق يقف عن مشاقه موقف العداء والعصيان، والتمرّد في جانب لا يلتقي معه.

(٦) الزّحف: الدنوّ قليلًا قليلًا، وأصله: الاندفاع على الإلية، ثم سمي كل ماشٍ إلى حرب آخر زاحفًا، وازدحف القوم: إذا مشى بعضهم إلى بعض والزحاف: من علل الشعر وهو: أن يسقط من الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

١٧٩

بنعمة النصر والظفر على قلة عددهم فيشكروا.

﴿١٩﴾ ﴿فِئَتُكُمْ﴾: مقاتلتكم من رجالكم الكثيرين.

معنى الآيات:

﴿١٥﴾ ما زال السياق في الحديث عن غزوة بدر وما فيها من جلائل النعم وخفي الحكم ففي أولى هذه الآيات ينادي الرب تبارك وتعالى عباده المؤمنين فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا[1] لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ أي وأنتم وإياهم زاحفون إلى بعضكم البعض ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾[2] أي لا تنهزموا أمامهم فتعطوهم أدباركم فتمكنوهم من قتلكم، إنكم أحق بالنصر منهم، وأولى بالظفر والغلب إنكم مؤمنون وهم كافرون فلا يصح منكم انهزام أبدًا.

﴿١٦﴾ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ اللهم ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي مائلاً من جهة إلى أخرى ليكون ذلك أمكن له في القتال ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي منحازًا إلى جماعة من المؤمنين تقاتل فيقاتل معها ليقويها أو يقوى بها، من ولى الكافرين دبره في غير هاتين الحالتين ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي رجع من جهاده مصحوبًا بغضب من الله ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3] وذلك بعد موته وانتقاله إلى الآخرة.

﴿١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ يخبر تعالى عباده المؤمنين الذين حرم عليهم التولي ساعة الزحف وتوعدهم بالغضب وعذاب النار يوم القيامة أنهم لم يقتلوا المشركين على الحقيقة وإنما الذي قتلهم هو الله فهو الذي أمرهم وأقدرهم وأعانهم، ولولاه ما قتل أحد ولا مات فليعرفوا هذا حتى لا يخطر ببالهم أنهم هم المقاتلون وحدهم. وحتى رمى رسوله ﷺ المشركين بتلك الحثية التي وصلت إلى جل أعين المشركين في المعركة فأذهلتهم وحيرتهم بل وعوقتهم عن القتال وسببت هزيمتهم كان الله تعالى هو الرامي الذي أوصل التراب إلى أعين المشركين، إذ لو ترك الرسول ﷺ لقوته لما وصلت حثية التراب إلى أعين الصف الأول من المقاتلين المشركين، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي فعل تعالى ذلك القتل بالمشركين والرمي بإيصال التراب إلى أعينهم

---

(١) هذه الجملة اعتراضية بين قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ﴾ وبين قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ ومن فوائدها تدريب المؤمنين على الشجاعة، والإقدام والثبات عند اللقاء، وهي خطة محمودة عند العرب فزادها الإسلام تقوية، قال شاعرهم وهو الحصين بن الحمام:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما

(٢) ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ فيه استبشاع الهزيمة بذكر لفظ الدبر، وهو كذلك.

(٣) الحمد لله لم يقل: خالدًا فيها بل قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ ولذا ورد أنه ﷺ قال: «**من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان قد فرّ من الزحف**».

(٤) حصل الرمي من الرسول ﷺ عدّة مرات منها يوم حنين ومنها يوم أحد ومنها يوم خيبر إذ رمى سهمًا في حصن فسقط السهم على ابن أبي الحقيق فقتله وهو نائم في فراشه، ومنها يوم بدر، وهو المراد هنا إذ السورة مدنية ولم يسبق هذا الرمي إلاّ الذي رمى به الواقفين على بابه في مكة يريدون إنفاذ القتل الذي حكمت به قريش عليه ﷺ فقد روي أنه رماهم بحثية من تراب، فاشتغلوا بمسح أعينهم من التراب حتى نجا منهم ﷺ.

ليذل الكافرين ويكسر شوكتهم ﴿وَلِيُبْلِيَ[1] ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولينعم عليهم الإنعام الحسن بنصرهم وتأييدهم في الدنيا وإدخالهم الجنة في الآخرة.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بمقتضى هاتين الصفتين كان الإبلاء الحسن، فقد سمع تعالى أقوال المؤمنين واستغاثتهم به، وعلم ضعفهم وحاجتهم فأيدهم ونصرهم فكان ذلك منه إبلاءً حسنًا، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ذلكم القتل والرمي والإبلاء كله حق واقع بقدرة الله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ﴾ أي مضعف ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فكلما كادوا كيدًا بأوليائه وأهل طاعته أضعفه وأبطل مفعوله، وله الحمد والمنة.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ هذا خطاب للمشركين حيث قال أبو جهل وغيره من رؤساء المشركين[2]: «اللهم أينا كان أفجر لك وأقطع للرحم فأحنه اليوم، اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة» أي أهلكه الغداة يوم بدر فأنزل الله تعالى ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ أي تطلبوا الفتح وهو القضاء بينكم وبين نبينا محمد ﷺ ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ وهي هزيمتهم في بدر ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ تكفوا عن الحرب والقتال وتنقادوا لحكم الله تعالى فتسلموا ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟﴾ للحرب والكفر ﴿نَعُدْ﴾ فنسلط عليكم رسولنا ﷺ والمؤمنين لنذيقكم على أيديهم الذل والهزيمة ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ وبلغ تعداد المقاتلين منكم عشرات الآلاف، هذا وأن الله دومًا مع المؤمنين فلن يتخلى عن تأييدهم ونصرتهم ما استقاموا على طاعة ربهم ظاهرًا وباطنًا.

هداية الآيات:

١ ـ حرمة الفرار من العدو الكافر عند[3] اللقاء لما توعد الله تعالى عليه من الغضب والعذاب ولعد الرسول ﷺ له من الموبقات السبع في حديث مسلم «**والتولي يوم الزحف**».

٢ ـ تقرير مبدأ أن الله تعالى خالق كل شيء وأنه خلق العبد وخلق فعله، إذ لما كان العبد مخلوقًا وقدرته مخلوقة، ومأمورًا ومنهيًا ولا يصدر منه فعل ولا قول إلا بإقدار الله تعالى له كان الفاعل الحقيقي هو الله، وما للعبد إلا الكسب بجوارحه[4] وبذلك يجزى الخير بالخير والشر بمثله. عدل الله ورحمته.

٣ ـ آية وصول حثية التراب من كف الرسول ﷺ إلى أغلب عيون المشركين في المعركة.

٤ ـ إكرام الله تعالى إبلاؤه لأوليائه البلاء الحسن فله الحمد وله المنة.

٥ ـ ولاية الله للمؤمنين الصادقين هي أسباب نصرهم وكمالهم وإسعادهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ ـ ٢٣]

(٢٠) ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾: أي لا تعرضوا عن طاعته إذا أمركم أو نهاكم كأنكم لا تسمعون.

(٢٢) ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾: أي شر ما يدب على الأرض الكافرون.

(٢٣) ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾: لجعلهم يسمعون أو لرفع المانع عنهم فسمعوا واستجابوا.

معنى الآيات:

(٢٠) ينادي الله تعالى عباده المؤمنين[5] الذين آمنوا به وبرسوله ﷺ وصدقوا بوعده ووعيده يوم لقائه فيأمرهم بطاعته وطاعة

---

(١) ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ الجملة متعلقة بمحذوف تقديره: فعل ذلك أي: النصر، والهزيمة للكفار ليبلي المؤمنين.. إلخ..

(٢) قالوا هذا وهم يتجهّزون للقتال في مكة، وقالوه في ساحة بدر قبل القتال.

(٣) هذا التحريم مقيد بما في آخر السورة من أنّ ما زاد على المثلين يجوز الفرار معه كالواحد مع أكثر من اثنين، والمائة مع أكثر من مائتين، والفين مع أكثر من أربعة آلاف.

(٤) مع ما وهبه الله من حرية الإرادة والقدرة على الاختيار ومع هذا فإنه لا يريد إلا ما أراده الله ولا يقع اختياره إلا على ما كتبه الله له أو عليه وقضى به أزلاً وهنا تتجلى عظمة الرب تبارك وتعالى.

(٥) لا يجب الالتفات لمن قال: هذا الخطاب هو للمنافقين كأنما قال: يا من آمنتم بألسنتكم ولم تؤمن قلوبكم، إذ الآية في المؤمنين الصادقين بلا شك ولا ريب.

رسوله ﷺ، وينهاهم عن الإعراض عنه وهم يسمعون الآيات تتلى والعظات تتوالى في كتاب الله وعلى لسان رسول الله ﷺ لأن نصركم وتأييدكم كان ثمرة لإيمانكم وطاعتكم فإن أنتم أعرضتم وعصيتم فتركتم كل ولاية لله تعالى لكم أصبحتم كغيركم من أهل الكفر والعصيان، هذا معنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

(٢١) وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ينهاهم عز وجل أن يسلكوا مسلك الكافرين المشركين[١] في التصامم عن سماع الآيات الحاملة للحق والداعية إليه، والتعامي عن رؤية آيات الله الدالة على توحيده الذين قالوا إنا عما يقوله محمد في صمم، وفيما يذكر ويشير إليه في عمى، فهم يقولون سمعنا بآذاننا وهم لا يسمعون بقلوبهم لأنهم لا يتدبرون ولا يفكرون فلذا هم في سماعهم كمن لم يسمع إذ العبرة بالسماع الانتفاع به[٢] لا مجرد سماع صوت.

(٢٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ[٣] ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني بهم المشركين وكانوا شر الدواب لأنهم كفروا بربهم وأشركوا به فعبدوا غيره، وضلوا عن سبيله ففسقوا وظلموا وأجرموا الأمر الذي جعلهم حقًا شر الدواب في الأرض فهذا تنديد بالمشركين، وفي نفس الوقت هو تحذير للمؤمنين من معصية الله ورسوله ﷺ والإعراض عن كتابه وهدي نبيه ﷺ.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لجعلهم يسمعون آيات الله وما تحمله من بشارة ونذارة وهذا من باب الفرض لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ هؤلاء طائفة من المشركين[٤] توغلوا في الشر والفساد والظلم والكبر والعناد فحرموا لذلك هداية الله تعالى فقد هلك بعضهم في بدر وبعض في أحد ولم يؤمنوا لعلم الله تعالى أنه لا خير فيهم وكيف لا وهو خالقهم وخالق طباعهم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

هداية الآيات:

١ - وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ في أمرهما ونهيهما، وحرمة معصيتهما.

٢ - حرمة التشبه بالمشركين والكافرين وسائر أهل الضلال وفي كل شيء من سلوكهم.

٣ - بيان أن من الناس من هو شر من الكلاب والخنازير فضلاً عن الإبل والبقر والغنم، أولئك البعض كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤ - ٢٦]

(٢٤) ﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾[٥]: اسمعوا

الجزء التاسع — سورة الأنفال

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

١٨٠

---

(١) واليهود والمنافقين أيضًا، إذ الكل كان هذا موقفهم مما يدعوهم إليه الرسول ﷺ.

(٢) في الآية دليل على أن المؤمن إذا أُمر أو نُهي فقال سمعًا وطاعة أي: سمعت وأطعت ولم يفعل ولم يترك لا وزن ولا عبرة بقوله بل لا بد من الفعل والترك.

(٣) شرّ أصلها: أشر اسم تفضيل، ولكثرة الاستعمال اكتفوا بلفظ شرّ لأنه أخف على اللسان بنقص حرف الهمزة.

(٤) في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قال: هم نفر من بني عبد الدار، والآية عامة في كل مَنْ تلك حالهم.

(٥) هذا بمعنى أجيبوا: الإجابة معناها: إعطاء المطلوب، وإن كان أمرًا ونهيًا فهو الطاعة بفعل الأمر وترك النهي، ويعبر عنهما

وأطيعوا. ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: أي لما فيه حياتكم ولما هو سبب في حياتكم كالإيمان والعمل الصالح والجهاد.

(٢٥) ﴿فِتْنَةً﴾: أي عذابًا تفتنون به كالقحط أو المرض أو تسلط عدو.

(٢٦) ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾: أي ضعفاء أمام أعدائكم يرونكم ضعفاء فينالون منكم. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: جمع طيب من سائر المحللات من المطاعم والمشارب وغيرها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: رجاء أن تشكروه تعالى بصرف النعمة في مرضاته.

معنى الآيات:

(٢٤) هذا هو النداء الثالث بالكرامة للمؤمنين الرب تعالى يشرفهم بندائه ليكرمهم بما يأمرهم به أو ينهاهم عنه تربية لهم وإعدادًا لهم لسعادة الدارين وكرامتهما فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وهو بمعنى النداء الأول أطيعوا الله ورسوله ﷺ. وقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١] إشعار بأن أوامر الله تعالى ورسوله ﷺ كنواهيهما لا تخلو أبدًا مما يحيي المؤمنين[٢] أو يزيد في حياتهم أو يحفظها عليهم، ولذا وجب أن يطاع الله ورسوله ﷺ ما أمكنت طاعتهما. وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تنبيه عظيم للمؤمنين إذا سنحت لهم فرصة للخير ينبغي أن يفترصوها قبل الفوات لا سيما إذا كانت دعوة من الله أو رسوله ﷺ، لأن الله تعالى قادر على أن يحول بين المرء وما يشتهي وبين المرء وقلبه[٣] فيقلب القلب ويوجهه إلى وجهة أخرى فيكره فيها الخير ويرغب في الشر، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فالذي يعلم أنه سيحشر رغم أنفه إلى الله تعالى كيف يسوغ له عقله أن يسمع نداءه يأمره فيه أو ينهاه فيعرض عنه.

(٢٥) وقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً[٤] لَّا تُصِيبَنَّ[٥] الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ تحذير آخر عظيم للمؤمنين من أن يتركوا طاعة الله ورسوله ﷺ، ويتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فينتشر الشر ويعم الفساد، وينزل البلاء فيعم الصالح والطالح، والبار والفاجر[٦]، والظالم والعادل، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. وهو تأكيد للتحذير بكونه تعالى إذا عاقب بالذنب والمعصية فعقابه قاس شديد لا يطاق فليحذر المؤمنون ذلك بلزوم طاعة الله ورسوله ﷺ.

= بالسمع والطاعة، وفعل استجاب: يُعدّى باللاّم يقال: استجاب له، وفعل أجاب: يتعدى بنفسه، يقال: أجابه، إلاّ أنّ استجاب قد يتعدى بنفسه ولكن بقلة ومنه قول الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب

(١) ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ أصلها يحييُكم بضم الياء الثانية إلاّ أن حركتها حذفت فسكنت تخفيفًا.

(٢) في الآية دليل على أن الكفر والجهل موت معنوي للإنسان، إذ بالإيمان والعلم تكون الحياة وبضدهما يكون الممات.

(٣) روى غير واحد عنه ﷺ قوله: **«اللهم يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»** وروى مسلم عنه ﷺ قوله: **«اللهم مصرف القلوب صرّف قلوبنا إلى طاعتك»**.

(٤) قال ابن عباس في هذه الآية: أمر الله تعالى المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم العذاب، وفي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم إذا كثر الخبث»**.

(٥) إعراب هذه الجملة مشكل نكتفي بعرض صورتين: الأولى إنها كقوله: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي: إن تدخلوا لا يحطمنّكم فيكون معنى الآية: إن تتقوا... لا تصيبنّ فدخلت نون التوكيد لما في التركيب من معنى الجزاء، والثانية: تكون على حذف القول أي: اتقوا فتنة مقول فيها: لا تصيبنّ الذين ظلموا... كقول الشاعر:

حتى إذا جنّ الظلام واختلط ... جاؤوا بمذق هل رأيت الذئب قط

أي مقول فيه: هل رأيت.. إلخ.. فقوله: ﴿فِتْنَةً﴾ موصوف بجملة مقول فيها: لا تصيبنّ.

(٦) روى أحمد عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده»** قالت: قلت: يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون؟ قال: **«بلى»**. قالت: كيف يصنع أولئك؟ قال: **«يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»**.

(٢٦) وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝﴾ هذه موعظة ربانية لأولئك المؤمنين الذين عايشوا الدعوة الإسلامية من أيامها الأولى يذكرهم ربهم بما كانوا عليه من قلة وضعف يخافون أن يتخطفهم الناس لقلتهم وضعفهم، فآواهم عز وجل إلى مدينة نبيه ﷺ المنورة ونصرهم بجنده فعزوا بعد ذلة واستغنوا بعد عيلة وفاقة، ورزقهم من الطيبات من مطعم ومشرب وملبس ومركب، ورزقهم من الطيبات إكرامًا لهم، ليعدهم بذلك للشكر إذ يشكر النعمة من عاشها ولابسها، والشكر حمد المنعم والثناء عليه وطاعته ومحبّته وصرف النعمة في سبيل مرضاته، والله يعلم أنهم قد شكروا فرضي الله عنهم وأرضاهم وألحقنا بهم صابرين شاكرين.

هداية الآيات:

١ - وجوب الاستجابة لنداء الله ورسوله ﷺ[1] بفعل الأمر وترك النهي لما في ذلك من حياة الفرد المسلم.

٢ - تعين اغتنام فرصة الخير قبل فواتها فمتى سنحت للمؤمن تعين عليه اغتنامها.

٣ - وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقاء للفتن العامة التي يهلك فيها العادل والظالم.

٤ - وجوب ذكر النعم لشكرها بطاعة الله ورسوله ﷺ.

٥ - وجوب شكر النعم بحمد الله تعالى والثناء عليه والاعتراف بالنعمة له والتصرف فيها حسب مرضاته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ ـ ٢٩]

(٢٧) ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾: أي بإظهار الإيمان والطاعة ومخالفتهما في الباطن. ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾: أي ولا تخونوا أماناتكم التي يأتمن عليها بعضكم بعضًا.

(٢٨) ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾: أي الاشتغال بذلك يفتنكم عن طاعة الله ورسوله ﷺ.

(٢٩) ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أي بامتثال أمره واجتناب نهيه في المعتقد والقول والعمل. ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾: نورًا في بصائركم تفرقون به بين النافع والضار والصالح والفاسد. ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾: أي يمحوا عنكم ما سلف من ذنوبكم التي بينكم وبينه. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾: أي يغطيها فيسترها عليكم فلا يفضحكم بها ولا يؤاخذكم عليها.

معنى الآيات:

(٢٧) هذا نداء رباني آخر يوجه إلى المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يا من آمنتم بالله ربًا وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام دينًا ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بأن يظهر أحدكم الطاعة لله ورسوله ﷺ، ويستسر المعصية، ولا تخونوا أماناتكم التي يأتمن بعضكم بعضًا عليها ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ عظيم جريمة الخيانة وآثارها السيئة على النفس والمجتمع، هذا ما دلت عليه الآية الأولى في هذا السياق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ[2] وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝﴾.

(٢٨) وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ[3] وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝﴾ فيه إشارة إلى السبب الحامل على الخيانة غالبًا وهو المال والأولاد فأخبرهم تعالى أن أموالهم وأولادهم فتنة تصرفهم عن الأمانة والطاعة، وأن ما يرجوه من مال أو ولد ليس بشيء بالنسبة إلى ما عند الله تعالى إن الله تعالى عنده أجر عظيم لمن أطاعه واتقاه وحافظ على أمانته مع الله ورسوله ﷺ ومع عباد الله.

(٢٩) وقوله تعالى في الآية الثالثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ

---

(١) روى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه ثم أتيته فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي فقال: «**ألم يقل الله عز وجل:** ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾؟» وذكر الحديث.
قال العلماء: في هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أتى به في الصلاة لا تبطل.

(٢) لفظ الآية عام في كل ذنب صغير وكبير، وما روي أنها نزلت في أبي لبابة حيث بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقه أي: إنه الذبح، لا ينافيه.

(٣) وهذه الآية عامّة أيضًا وإن قيل: إنها نزلت في أبي لبابة إذ كان له مال وولد في بني قريظة فلا يتّهم لأجل ذلك.

اللَّهَ[1] يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ هـذا حض على التقوى وترغيب فيها بذكر أعظم النتائج لها وهي أولاً إعطاء الفرقان وهو النصر والفصل بين كل مشتبه، والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع، والصحيح والفاسد، وثانيًا تكفير السيئات، وثالثًا مغفرة الذنوب، ورابعًا الأجر العظيم الذي هو الجنة ونعيمها إذ قال تعالى في ختام الآية: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ إشارة إلى ما يعطيه الله تعالى أهل التقوى في الآخرة وهو الجنة ورضوانه على أهلها، ولنعم الأجر الذي من أجله يعمل العاملون.

هداية الآيات:

١ ـ تحريم الخيانة مطلقًا وأسوأها ما كان خيانة لله ورسوله ﷺ.

٢ ـ في المال والأولاد فتنة قد تحمل على خيانة الله ورسوله ﷺ، فليحذرها المؤمن.

٣ ـ من ثمرات التقوى تكفير السيئات وغفران الذنوب، والفرقان وهو نور في القلب يفرق به المتقي بين الأمور المتشابهات والتي خفي فيها وجه الحق والخير.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠، ٣١]

(٣٠) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾: أي يبيتون لك ما يضرك. ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: أي ليحبسوك مثبتًا بوثاق حتى لا تفر من الحبس. ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾: أي ينفوك بعيدًا عن ديارهم. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾: أي يدبرون لك السوء ويبيتون لك المكروه، والله تعالى يدبر لهم ما يضرهم أيضًا ويبيت لهم ما يسوؤهم.

(٣١) ﴿ءَايَاتُنَا﴾: آيات القرآن الكريم. ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: الأساطير جمع أسطورة ما يدون ويسطر من أخبار الأولين.

معنى الآيتين:

(٣٠) يذكر تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بنعمة من نعمه تعالى عليهم فيقول لرسوله ﷺ: واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ إذ اجتمعت قريش في دار الندوة وائتمرت في شأن النبي ﷺ وفكرت ومكرت فأصدروا[2] حكمًا بقتله ﷺ وبعثوا من ينفذ جريمة القتل فطوقوا منزله فخرج النبي[3] ﷺ بعد أن رماهم بحثية من تراب قائلاً شاهت الوجوه، فلم يره أحد ونفذ وهاجر إلى المدينة وهذا معنى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ فكان في نجاته ﷺ من يد قريش نعمة عظمى على رسول الله ﷺ وعلى سائر المؤمنين والحمد لله رب العالمين.

(٣١) وقوله تعالى في الآية الثانية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا[4] مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ هذا الخبر تنديد بموقف المشركين ذكر بعد ذكر مؤامراتهم الدنية ومكرهم الخبيث حيث قرروا قتله ﷺ يخبر تعالى أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ آيات الله المبينة للحق والمقررة للإيمان به وبرسالته بذكر قصص الأولين قالوا: ﴿سَمِعْنَا﴾ ما تقرأ علينا، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ أي الذي تقول ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أخبار السابقين من الأمم سطرت وكتبت فهي تملى عليك فتحفظها وتقرأها علينا وكان قائل هذه المقالة الكاذبة النضر بن الحارث عليه لعائن الله، إذ مات كافرًا.

هداية الآيتين:

١ ـ التذكير بنعم الله تعالى على

---

(١) قال بعضهم واصفًا للتقوى المورثة للفرقان فقال: هي امتثال الأوامر واجتناب المناهي، وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات وشحن القلب بالنية الخالصة، والجوارح بالأعمال الصالحة، والتحفظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر.

(٢) كان حكم القتل باقتراح إبليس إذ جاءهم وهم يتشاورون في أمر النبي ﷺ فأشار عليهم وهو في صورة شيخ نجدي فقبلوا ما أشار به عليهم من القتل فأخذوا برأيه وتركوا ما أشار به بعضهم من النفي والحبس.

(٣) بعد أن ترك عليًا نائمًا على فراشه مسجىً ببرد أخضر للنبي ﷺ.

(٤) من بين القائلين: النضر بن الحارث إذ كان قد خرج إلى الحيرة في تجارة فاشترى أحاديث كليلة ودمنة وكسرى، وقيصر، وأخذ يقصّ تلك الأخبار ويقول: هذه مثل الذي يقصّ محمد من أخبار الماضين. وكذب فأين ما يقصه القرآن وما يوسوس به الشيطان؟

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

١٨١

العبد ليجد العبد في نفسه داعية الشكر فيشكر.

٢ ـ بيان مدى ما قاومت به قريش دعوة الإسلام حتى إنها أصدرت حكمها بقتل الرسول ﷺ.

٣ ـ بيان موقف المشركين من الدعوة الإسلامية، وأنهم بذلوا كل جهد في سبيل إنهائها والقضاء عليها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٢ ـ ٣٥]

﴿٣٢﴾ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: أي يا الله حذفت ياء النداء من أوله وعوض عنها الميم من آخره. ﴿إِن كَانَ هَٰذَا﴾: أي الذي جاء به محمد ويخبر به.

﴿فَأَمْطِرْ﴾: أنزل علينا حجارة.

﴿٣٤﴾ ﴿يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: يمنعون الناس من الدخول إليه للاعتمار.

﴿٣٥﴾ ﴿مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾: المكاء: التصفير، والتصدية: التصفيق.

معنى الآيات:

﴿٣٢﴾ ما زال السياق في التنديد ببعض أقوال المشركين وأفعالهم فهذا النضر بن الحارث[1] القائل في الآيات السابقة ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يخبر تعالى عنه أنه قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فنهلك بها، ولا نرى محمدًا ينتصر دينه[2] بيننا ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ حتى نتخلص من وجودنا.

﴿٣٣﴾ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ[3] وَأَنتَ فِيهِمْ[4]﴾ فوجودك بينهم أمان لهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إذ كانوا إذا طافوا يقول بعضهم غفرانك ربنا غفرانك.

﴿٣٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي أيُّ شيء يصرف العذاب عنهم وهم يرتكبون أبشع جريمة وهي صدهم الناس عن دخول المسجد الحرام للطواف بالبيت الحرام، فقد كانوا يمنعون المؤمنين من الطواف بالبيت والصلاة في المسجد الحرام[5]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ رد على مزاعمهم بأنهم ولاة الحرم والقائمون عليه فلذا لهم أن يمنعوا من شاؤوا ويأذنوا لمن شاؤوا فقال تعالى ردًا عليهم: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي أولياء المسجد الحرام، كما لم يكونوا أيضًا أولياء الله إنّما أولياء الله والمسجد الحرام المتقون الذين يتقون الشرك والمعاصي

---

(١) وقاله أيضًا أبو جهل وهو دال على مدى عناد المشركين في مكة ومكابرتهم وحسدهم أيضًا.

(٢) ذكر القرطبي الحكاية التالية قال: حكي أن ابن عباس لقيه يهودي فقال له: من أنت؟ قال: من قريش. فقال: أنت من القوم الذين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ..﴾ الآية، فهلاً عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له إنّ هؤلاء قوم يجهلون قال ابن عباس: وأنت يا إسرائيلي من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه حتى قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فأطرق اليهودي ملجمًا.

(٣) روى مسلم أنه لما قال أبو جهل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ...﴾ الآية، نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

(٤) دليله أنهم لما خرج من بينهم ﷺ عذبهم الله بالقتل في بدر وسني القحط الجدب.

(٥) أي: أنهم مستحقون العذاب ولكن لكل أجل كتاب فإذا حان أوانه عذّبوا.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا لجهل بعضهم وعناد آخرين.

(٣٥) وقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ إذ كان بعضهم إذا طافوا يصفقون ويصفرون كما يفعل بعض دعاة التصوف حيث يرقصون وهم يصفقون ويصفرون ويعدون هذا حضرة أولياء الله، والعياذ بالله من الجهل والضلال، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أذاقهموه يوم بدر إذ أذلهم فيه وأخزاهم وقتل رؤساءهم.

هداية الآيات:

١ - بيان ما كان عليه المشركون في مكة من بغض للحق وكراهية له حتى سألوا العذاب العام ولا يرون راية الحق تظهر ودين الله ينتصر.

٢ - النبي ﷺ أمان أمته من العذاب فلم تُصب هذه الأمة بعذاب الاستئصال والإبادة الشاملة.

٣ - فضيلة الاستغفار وأنه ينجي من عذاب الدنيا والآخرة.

٤ - بيان عظم جرم من يصد عن المسجد الحرام للعبادة الشرعية فيه.

٥ - بيان أولياء الله تعالى والذين يحق لهم أن يلوا المسجد الحرام وهو المتقون.

٦ - كراهية الصفير[1] والتصفيق، وبطلان الرقص في التعبد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦، ٣٧]

(٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي كذبوا بآيات الله ورسالة رسوله محمد ﷺ من قريش. ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾: أي شدة ندامة. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾: أي يهزمون.

(٣٧) ﴿لِيَمِيزَ﴾: أي ليميز كل صنف من الصنف الآخر. ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: هم أهل الشرك والمعاصي. ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾: هم أهل التوحيد والأعمال الصالحة. ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾: أي يجعل بعضه فوق بعض في جهنم.

معنى الآيتين:

(٣٦) ما زال السياق في التنديد بالمشركين وأعمالهم الخاسرة يخبر تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم أهل مكة من زعماء قريش ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾[2] في حرب رسول الله ﷺ والمؤمنين للصد عن الإسلام المعبر عنه بسبيل الله، يقول تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾[3] أي ندامة شديدة لسوء العاقبة التي كانت لهم في بدر وأحد والخندق إذ أنفقوا على هذه الحملات الثلاث من الأموال ما الله به عليم، ثم خابوا فيها وخسروا وبالتالي غلبوا وانتهى سلطانهم الكافر وفتح الله على رسوله ﷺ والمؤمنين مكة، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي من مات منهم على الكفر ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي يجمعون، وعلة هذا الجمع أن يميز الله تعالى الخبيث من الطيب فالطيبون وهم المؤمنون الصالحون يعبرون الصراط إلى الجنة دار النعيم، وأما الخبيثون وهم فريق المشركين فيجعل بعضه إلى بعض فيركمه جميعًا كومًا واحدًا فيجعله في جهنم.

(٣٧) وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ إشارة إلى الذين أنفقوا أموالهم للصد عن سبيل الله وماتوا على الكفر فحشروا إلى جهنم وجعل بعضهم إلى بعض ثم صيروا كومًا واحدًا ثم جعلوا في نار جهنم، هم الخاسرون بحق حيث خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم وكل شيء وأمسوا في قعر جهنم مبلسين والعياذ بالله من الخسران المبين.

هداية الآيتين:

١ - كل نفقة ينفقها العبد للصد عن سبيل الله بأي وجه من الوجوه تكون عليه حسرة عظيمة يوم القيامة.

---

(١) الصفير: تفسير للمكاء في الآية وهو مأخوذ من صوت طائر يسمى المكّاء قال الشاعر:

إذا غرّد المكاء في غير روضة ... فويل لأهل الشاء والحُمُرات

(٢) لمّا هزمت قريش في بدر قام أبو سفيان بحملة جمع فيها الأموال لحرب رسول الله ﷺ والانتقام لمن مات من صناديد قريش فجمع المال وشنّ حرب أحد إلاّ أنه خاب وخسر كما أخبر تعالى: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

(٣) والآية يدخل فيها المطعمون ببدر إذ كانوا اثني عشر رجلاً فكان الواحد منهم يطعم جيش قريش عشرة من الإبل يوميًا طيلة ما هم في بدر، فخابوا في نفقاتهم وهلكوا.

٢ - كل كافر خبيث وكل مؤمن طيب.

٣ - صدق وعد الله تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين بهزيمة المشركين وغلبتهم وحسرتهم على ما أنفقوا في حرب الإسلام وضياع ذلك كله وخيبتهم فيه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ ـ ٤٠]

(٣٨) ﴿إِن يَنتَهُوا﴾: عن الكفر بالله ورسوله ﷺ وحرب الرسول ﷺ والمؤمنين. ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾: أي مضى من ذنوبهم من الشرك وحرب الرسول ﷺ والمؤمنين. ﴿مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: في إهلاك الظالمين.

(٣٩) ﴿لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: أي شرك بالله واضطهاد وتعذيب في سبيل الله. ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾: أي حتى لا يعبد غير الله.

(٤٠) ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: متولي أمركم بالنصر والتأييد.

معنى الآيات:

(٣٨) ما زال السياق الكريم في بيان الإجراءات الواجب اتخاذها إزاء الكافرين فيقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾[١] مبلغًا عنا ﴿إِن يَنتَهُوا﴾ أي عن الشرك والكفر والعصيان وترك حرب الإسلام وأهله ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ يغفر الله لهم ما قد مضى[٢] من ذنوبهم العظام وهي الشرك والظلم، وهذا وعد صدق ممن لا يخلف الوعد سبحانه وتعالى. ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ إلى الظلم والاضطهاد والحرب فسوف يحل بهم ما حل بالأمم السابقة قبلهم لما ظلموا فكذبوا الرسل وآذوا المؤمنين وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله والطريقة المتبعة فيهم وهي أخذهم[٣] بعد الإنذار والإعذار.

(٣٩) ثم في الآية الثانية من هذا السياق يأمر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بقتال المشركين قتالاً يتواصل بلا انقطاع إلى غاية هي: أن لا تبقى فتنة أي شرك ولا اضطهاد لمؤمن[٤] أو مؤمنة من أجل دينه، وحتى يكون الدين كله لله فلا يعبد مع الله[٥] أحد سواه ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ أي عن الشرك والظلم فكفوا عنهم وإن انتهوا في الظاهر ولم ينتهوا في الباطن فلا يضركم ذلك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وسيظهرهم لكم ويسلطكم عليهم. وقوله في ختام السياق:

(٤٠) ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي نكثوا العهد وعادوا إلى حربكم بعد الكف عنهم فقاتلوهم ينصركم الله عليهم واعلموا أن الله مولاكم فلا يسلطهم عليكم، بل ينصركم عليهم إنه ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لمن يتولى ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لمن ينصر.

هداية الآيات:

١ - بيان سعة فضل الله ورحمته.

٢ - الإسلام يجبّ أي يقطع ما قبله، فيغفر لمن أسلم كل ذنب قارفه من الكفر وغيره.

٣ - بيان سنة الله في الظالمين وهي إهلاكهم وإن طالت مدة الإملاء والإنظار.

٤ - وجوب قتال المشركين على المسلمين ما بقي في الأرض مشرك.

٥ - نعم المولى الله جلّ جلاله لمن تولاه، ونعم النصير لمن نصره.

❁ ❁ ❁

---

(١) نزلت في أبي سفيان ورجاله المشركين في مكة قبل الفتح.

(٢) في الصحيح: **«الإسلام يجبّ ما قبله، والتوبة تجبّ ما قبلها»**.

(٣) أخذهم: أي: بالعذاب العاجل والعقوبة الشديدة.

(٤) الاضطهاد: هو فتنة قريش للمؤمنين حيث فتنوهم حتى هاجروا إلى الحبشة وفتنوهم حتى هاجروا إلى المدينة ومعنى: فتنوهم: عذبوهم ليردّوهم إلى الشرك والكفر.

(٥) يشهد له قوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها، وحسابهم على الله عز وجل»** في الصحيحين.

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

١٨٢

الجزء العاشر

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ ـ ٤٤]

(٤١) ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾: أي ما أخذتموه من مال الكفار قهرًا لهم وغلبة قليلاً كان أو كثيرًا. ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾: أي خمس الخمسة أقسام، يكون لله والرسول ﷺ ومن ذكر بعدهما.

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: هم قرابة الرسول ﷺ من بني هاشم وبني المطلب. ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: أي من الملائكة والآيات. ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾: أي يوم بدر وهو السابع عشر من رمضان، إذ فرق الله فيه بين الحق والباطل. ﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾: جمع المؤمنين وجمع الكافرين ببدر.

(٤٢) ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾: العدوة حافة الوادي وجانبه، والدنيا أي القريبة إلى المدينة. ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾: أي البعيدة من المدينة إذ هي حافة الوادي من الجهة الأخرى. ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: أي ركب أبي سفيان وهي العير التي خرجوا من أجلها. أسفل منكم مما يلي البحر. ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾: أي حجة ظاهرة.

(٤٣) ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾: أي اختلفتم.

(٤٤) ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾: هذا قبل الالتحام أما بعد فقد رأوهم مثليهم حتى تتم الهزيمة لهم.

معنى الآيات:

هذه الآيات لا شك أنها نزلت في بيان قسمة الغنائم بعدما حصل فيها من نزاع فافتكَّها الله تعالى منهم ثم قسمها عليهم فقال: الأنفال لله وللرسول ﷺ في أول الآية ثم قال هنا:

(٤١) ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المسلمون ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم[(١)] مِّن شَىْءٍ[(٢)]﴾ حتى الخيط والمخيط، ومعنى غنمتم أخذتموه من المال من أيدي الكفار المحاربين لكم غلبة وقهرًا لهم فقسمته هي أن ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ[(٣)] وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، والأربعة أخماس[(٤)] الباقية هي لكم أيها المجاهدون للراجل قسمة وللفارس قسمتان لما له من تأثير في الحرب، ولأن فرسه يحتاج إلى نفقة علف. والمراد من قسمة الله أنها تنفق في المصالح العامة ولو أنفقت على بيوته لكان أولى وهي الكعبة وسائر المساجد، وما للرسول ﷺ فإنه ينفقه على عائلته، وما لذي القربى فإنه ينفق

---

(١) الغنيمة: ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي وهو قتال الكافرين لغرض هدايتهم إلى الإسلام ليكملوا ويسعدوا، قال الشاعر:

وقد طوّفت في الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

(٢) الإجماع على أن هذا الحكم ليس على عمومه بل هو مخصص بقول الإمام: مَن قتل قتيلاً فله سَلَبه، وكذا الرقاب، فالإمام مخيّر فيها بين القتل والفداء والمنّ وليس هذا للغانمين، وكذا السلب فإن من سلب مقاتلاً شيئًا كسلاحه وفرسه فهو له أيضًا.

(٣) المراد بذي القربى: قرابة رسول الله ﷺ، وهم بنو هاشم، وهو مذهب مالك، وزاد الشافعي وأحمد: بني المطلب لأن بني هاشم وبني المطلب شيء واحد، ولأن الرسول ﷺ لما قسم سهم ذي القربى بين بني هاشم وبين عبدالمطلب قال: «**إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام**»، إنّما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبّك بين أصابعه، رواه البخاري.

(٤) من باب الاطلاع لا غير أذكر أنّ بعضًا قال: الغنيمة خمسها لله والأربعة أخماس للإمام إن شاء حبسها وإن شاء قسمها على الغانمين وهو قول مخالف لما عليه جمهور الفقهاء.

على قرابة الرسول ﷺ الذين يحرم عليهم أخذ الزكاة لشرفهم وهم بنو هاشم وبنو المطلب، وما لليتامى ينفق على فقراء المسلمين، وما لابن السبيل ينفق على المسافرين المنقطعين عن بلادهم إذا كانوا محتاجين إلى ذلك في سفرهم وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي ربًا ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي محمد رسول الله ﷺ ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وهو يوم بدر حيث التقى المسلمون بالمشركين، والمراد بما أنزل تعالى على عبده ورسوله ﷺ الملائكة والآيات منها الرمية التي رمى بها المشركين فوصلت إلى أكثرهم فسببت هزيمتهم. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي كما قدر على نصركم على قلتكم وقدر على هزيمة عدوكم على كثرتهم هو قادر على كل شيء يريده.

(٤٢) وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ[١] أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ تذكير لهم بساحة المعركة التي تجلت فيها آيات الله وظهر فيها إنعامه عليهم ليتهيّؤوا للشكر. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أي لو تواعدتم أنتم والمشركون على اللقاء في بدر للقتال لاختلفتم لأسباب تقتضي ذلك منها أنكم قلة وهم كثرة ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي محكومًا به في قضاء الله وقدره، وهو نصركم وهزيمة عدوكم وجمعكم من غير تواعد ولا اتفاق سابق. وقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ هذا تعليل لفعل الله تعالى يجمعكم في وادي بدر للقتال وهو فعل ذلك ليحيا بالإيمان من حيي على بينة وعلم أن الله حق والإسلام حق والرسول ﷺ حق والدار الآخرة حق حيث أراهم الله الآيات الدالة على ذلك، ويهلك من هلك بالكفر على بينة إذ اتضح له أن ما عليه المشركون كفر وباطل وضلال ثم رضي به واستمر عليه. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تقرير لما سبق وتأكيد له حيث أخبر تعالى أنه سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم فما أخبر به وقرره هو كما أخبر وقرر.

(٤٣) وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ﴾ أي فأخبرت أصحابك ففرحوا بذلك وسرُّوا ووطنوا أنفسهم للقتال، وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا﴾ أي في منامك وأخبرت به أصحابك لفشلتم أي جبنتم عن قتالهم، ولتنازعتم في أمر قتالهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ من ذلك فلم يريكهم كثيرًا إنه تعالى عليم بذات الصدور ففعل ذلك لعلمه بما يترتب عليه من خير وشر.

(٤٤) وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ أي اذكروا أيها المؤمنون إذ يريكم الله الكافرين عند التقائكم بهم قليلاً في أعينكم كأنهم سبعون رجلاً أو مائة مثلاً ويقللكم سبحانه وتعالى في أعينهم حتى[٢] لا يهابوكم. وهذا كان عند المواجهة وقبل الالتحام أما بعد الالتحام فقد أرى الله تعالى الكافرين أراهم المؤمنين ضعفيهم في الكثرة وبذلك انهزموا كما جاء ذلك في سورة آل عمران في قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ تعليل لتلك التدابير الإلهية لأوليائه لنصرتهم وإعزازهم وهزيمة أعدائهم وإذلالهم وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ إخبار منه تعالى بأن الأمور كلها تصير إليه فما شاء منها كان وما لم يشأ لم يكن خيرًا كان أو غيرًا.

هداية الآيات:

١ ـ بيان قسمة الغنائم على الوجه الذي رضيه الله تعالى.

٢ ـ التذكير بالإيمان، إذ هو الطاقة الموجهة باعتبار أن المؤمن حي بإيمانه يقدر على الفعل والترك، والكافر ميت فلا يكلف.

٣ ـ فضيلة غزوة بدر وفضل أهلها.

٤ ـ بيان تدبير الله تعالى في نصر أوليائه وهزيمة أعدائه.

٥ ـ بيان أن مرد الأمور نجاحًا وخيبة للّه تعالى ليس لأحد فيها تأثير إلا بإذنه.

---

(١) ركب أبي سفيان، ولفظ الركب لا يطلق إلاّ على الراكبين، والركب مبتدأ، والخبر متعلّق أسفل الظرف أي: كائن أسفل منكم.

(٢) قال أبو جهل: إنهم أكلة جزور خذوهم أخذًا واربطوهم بالحبال فلمّا أخذوا في القتال عظم المسلمون في أعين الكفار وكثروا حتى أنهم يرونهم مثليهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٥ ـ ٤٩]

(٤٥) ﴿فِئَةً﴾: طائفة مقاتلة.

﴿فَٱثْبُتُواْ﴾: لقتالها واصمدوا.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾: مهللين مكبرين راجين النصر طامعين فيه سائلين الله تعالى ذلك.

﴿تُفْلِحُونَ﴾: تفوزون بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة بعد النجاة من الهزيمة في الدنيا والنار في الآخرة.

(٤٦) ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾: أي لا تختلفوا وأنتم في مواجهة العدو أبدًا.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[١]: أي قوتكم بسبب الخلاف.

(٤٧) ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا﴾: أي للبطر الذي هو دفع الحق ومنعه.

(٤٨) ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾: أي مجير لكم ومعين على عدوكم.

﴿تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾: أي التقتا ورأت كل منهما عدوها. ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: أي رجع إلى الوراء هاربًا، لأنه جاءهم في صورة سراقة بن مالك. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾: من الملائكة.

(٤٩) ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي ضعف في إيمانهم وخلل في اعتقادهم.

معنى الآيات:

هذا النداء الكريم موجه إلى المؤمنين وقد أذن لهم في قتال الكافرين، وبدأ بسرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه وثنى بهذه الغزوة غزوة بدر الكبرى فلذا هم في حاجة إلى تعليم رباني وهداية إلهية يعرفون بموجبها كيف يخوضون المعارك وينتصرون فيها وفي هذه الآيات الأربع تعليم عال جدًا لخوض المعارك والانتصار فيها وهذا بيانها:

(٤٥) ١ ـ الثبات في وجه العدو والصمود في القتال حتى لكأن المجاهدين جبل شامخ لا يتحرك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي جماعة مقاتلة ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾.

٢ ـ ذكر الله تعالى تهليلاً وتكبيرًا وتسبيحًا ودعاءً[٢] وضراعة ووعدًا ووعيدًا ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي تفوزون بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة بعد النجاة من الهزيمة والمذلة في الدنيا، والنار والعذاب في الآخرة.

(٤٦) ٣ ـ طاعة الله ورسوله ﷺ في أمرهما ونهيهما ومنه طاعة قائد المعركة ومديرها وهذا من أكبر عوامل النصر حسب سنة الله تعالى في الكون ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٤ ـ عدم التنازع والخلاف عند التدبير للمعركة وعند دخولها وأثناء خوضها.

٥ ـ بيان نتائج التنازع والخلاف وأنها: الفشل الذريع، وذهاب القوة المعبر عنها بالريح ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٣].

٦ ـ الصبر على مواصلة القتال والإعداد له وتوطين النفس وإعدادها لذلك ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

(٤٧) ٧ ـ الإخلاص في القتال والخروج له للّه تعالى فلا ينبغي أن يكون لأي اعتبار سوى مرضاة الله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ[٤] خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝﴾.

(٤٨) هذه عوامل النصر وشروط الجهاد في سبيل الله. تضمنتها ثلاث آيات من هذه الآيات الخمس

---

(١) يرى بعضهم أن الريح ريح الصبا التي قال فيها الرسول ﷺ: **«نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»** يريد أنهم بعدم طاعتهم يحرمون الريح التي بها نصرهم وهو معنى لا بأس به.

(٢) الذكر المطلوب هو: ما كان باللسان والقلب معًا، في الآية دليل على أنّ ذكر الله تعالى لا يترك في حال إلاّ في حال التغوّط، قال محمد القرطبي: لو رخّص لأحد في ترك الذكر لرخّص لزكريا إذ قال له تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ ولرخّص لرجل في الحرب لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وحكم هذا الذكر أن يكون خفيًا إلا أن يكون في بداية الحملة بصوت واحد: الله أكبر فإن ذلك محمود لأنه يرعب العدو ويفت في أعضاده.

(٣) المراد بالذبح هنا: القوة والنصر، كما يقال: الريح لفلان إذا كان غالبًا في أمره ومنه قول الشاعر:

إذا هبّت رياحك فاغتنمها ... فإنّ لكل خافقة سكون

جملة: لكل خافقة سكون: خبر إن واسمها: ضمير شأن.

(٤) هم أبو جهل وأصحابه الخارجون يوم بدر لنصرة العير حيث خرجوا بالقينات والمغنيات والمعازف.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

وقوله تعالى في الآية الرابعة (٤٨) ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يذكّر تعالى المؤمنين بحادثة حدثت يوم بدر من أغرب الحوادث لتكون عبرة وموعظة للمؤمنين فيقول عز وجل واذكروا إذ زين الشيطان للمشركين الذين نهيتكم أن تتشبهوا بهم في سيرهم وقتالهم وفي كل حياتهم، فقال لهم: أقدموا على قتال محمد والمؤمنين، ولا ترهبوا ولا تخافوا إنه لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم أي مجير لكم وناصر ومعين. وكان الشيطان في هذه الساعة في صورة رجل من أشراف قبيلته يقال له سراقة بن مالك[1]. فلما تراءت الفئتان لبعضهما البعض وتقدموا للقتال رأى الشيطان جبريل في صفوف الملائكة، فنكص على عقبيه، وكان آخذًا بيد الحارث بن هشام يحدثه يعده ويمنيه بعدما زين لهم خوض المعركة وشجعهم على ذلك، وولى هاربًا فقال له الحارث: ما بك ما أصابك تعال فقال وهو هارب ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يعني الملائكة ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ[2] وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وصدق وهو كذوب.

﴿٤٩﴾ وقوله تعالى في نهاية الآية (٤٩) ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أي واذكروا أيها المؤمنون للعبرة والاتعاظ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض[3] أي ضعف في الإيمان وتخلخل في العقيدة: غر هؤلاء دينهم وإلا لما خرجوا لقتال قريش وهي تفوقهم عددًا وعدة، ومثل هذا الكلام يعتبر عاديًا من ضعاف الإيمان والمنافقين المستترين بزيف إيمانهم، فاذكروا هذا، ولا يفت في أعضادكم مثل هذا الكلام، وتوكلوا على الله واثقين في نصره فإنه ينصركم لأنه عزيز لا يغالب ولا يمانع في ما يريده أبدًا. حكيم يضع النصر في المتأهلين له بالإيمان والصبر والطاعة له ولرسوله ﷺ، والإخلاص له في العمل والطاعة.

هداية الآيات:

١ - بيان أسباب النصر وعوامله ووجوب الأخذ بها في كل معركة وهي: الثبات وذكر الله تعالى، وطاعة الله ورسوله ﷺ وطاعة القيادة وترك النزاع والخلاف والصبر والإخلاص.

٢ - بيان عوامل الفشل والخيبة وهي النزاع والاختلاف والبطر والرياء والاغترار.

٣ - بيان عمل الشيطان في نفوس الكافرين بتزيينه لهم الحرب ووعده وتمنيته لهم.

---

(١) هو سراقة بن مالك بن جعشم من بني بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم لأنهم قتلوا رجلًا منهم فلمّا تمثّل لهم الشيطان في صورة سراقة سكنوا لذلك.

(٢) قيل: إن الشيطان خاف أن يكون يوم بدر هو اليوم الذي أنظر إليه، وقيل: كذب وهو كذوب.

(٣) لقد اختلف في المراد بالمنافقين هنا، وكذا الذين في قلوبهم مرض إذ يبعد أن يكون في المشركين منافقون، كما يبعد أن يكون في أهل بدر منافقون، والذي يبدو أنّه الراجح: أنّ القائلين هذه المقالة هم منافقون وضعفة إيمان بالمدينة لما رأوا خروج الرسول ﷺ وأصحابه إلى بدر قالوا هذه القولة القبيحة ويكون الظرف «إذ» متعلّق بشديد العقاب لا بزيّن.

٤ - بيان حال المنافقين وضعفة الإيمان عند وجود القتال[١] ونشوب الحروب.

٥ - وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه مهما كانت دعاوى المبطلين والمثبطين والمنهزمين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٠ ـ ٥٤]

(٥٠) ﴿إِذْ يَتَوَفَّى﴾: أي يقبض أرواحهم لإماتتهم. ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾: أي يضربونهم من أمامهم ومن خلفهم.

(٥١) ﴿بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾: أي ليس بذي ظلم للعبيد كقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

(٥٢) ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: أي دأب كفار قريش كدأب آل فرعون في الكفر والتكذيب والدأب العادة.

(٥٣) ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً﴾: تغيير النعمة تبديلها بنقمة بالسلب لها أو تعذيب أهلها.

(٥٤) ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾: هم كل من كان على دينه من الأقباط مشاركًا له في ظلمه وكفره.

معنى الآيات:

(٥٠) ما زال السياق مع كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس فيقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ[٢] كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ[٣]﴾ وهم يقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ[٤] الْحَرِيقِ﴾ وجواب لولا محذوف تقديره (لرأيت أمرًا فظيعًا).

(٥١) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ هو قول الملائكة لمن يتوفونهم من الذين كفروا. أي ذلكم الضرب والتعذيب بسبب ما قدمت أيديكم من الكفر والظلم والشر والفساد وأن الله تعالى ليس بظالم لكم فإنه تعالى لا يظلم أحدًا.

(٥٢) وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ[٥] وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي دأب هؤلاء المشركين من كفار قريش في كفرهم وتكذيبهم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وكفر هؤلاء فأخذهم الله بذنوبهم، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يشهد له فعله بآل فرعون والذين من قبلهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات وأخيرًا أخذه تعالى كفار قريش في بدر أخذ العزيز المقتدر.

(٥٣) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ[٦] لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا[٧] نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ إشارة إلى ما أنزله من عذاب على الأمم المكذبة الكافرة الظالمة، وإلى بيان سنته في عباده وهي أنه تعالى لم يكن من شأنه أن يغير نعمة أنعمها على قوم كالأمن والرخاء، أو الطهر والصفاء حتى يغيروا هم ما بأنفسهم بأن يكفروا ويكذبوا، ويظلموا أو يفسقوا ويفجروا، وعندئذ يغير تلك النعم بنقم فيحل محل الأمن والرخاء الخوف والغلاء ومحل الطهر والصفاء الخبث والشر والفساد. هذا إن لم يأخذهم بالإبادة الشاملة والاستئصال التام. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي لأقوال عباده وأفعالهم فلذا يتم الجزاء عادلاً لا ظلم فيه.

(٥٤) وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ[٨] وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا[٩]

---

(١) لا يتعارض هذا القول مع ما رجحناه من أن القائلين هذه المقولة هم منافقون وضعاف إيمان بالمدينة، إذ هذه الحال تنطبق عليهم.

(٢) جائز أن يكون المراد من هؤلاء قتلى بدر المشركين وجائز أن يكونوا ممن لم يقتلوا ببدر، وماتوا بمكة وغيرها.

(٣) قال الحسن البصري: المراد من أدبارهم: ظهورهم وقال: (إن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله: إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك «أي: سير النعل»؟ قال: «**ذلك ضرب الملائكة**»).

(٤) يقال لهم عند قبض أرواحهم، إذ بمجرد أن تقبض الروح يلقى بها في جهنم، كما يقال لهم يوم القيامة ذلك من قِبل الملائكة.

(٥) الباء في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ سببية والجملة مسوقة للتعليل.

(٦) ﴿لَمْ يَكُ﴾ أي: لم ينبغ له، ولم يصحّ منه لبالغ حكمته وعدله ورحمته.

(٧) ﴿كَدَأْبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: دأب هؤلاء كدأب آل فرعون، والدأب: العادة المستمرة.

(٨) ﴿كَذَّبُوا﴾ إلخ.. تفسير دأبهم الذي فعلوه من تغييرهم لحالهم.

(٩) وجائز أن يكون المراد: كدأب آل فرعون أي: في تعذيبهم عند قبض أرواحهم، وفي قبورهم ويوم القيامة.

بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ هذه الآية تشبه الآية السابقة إلا أنها تخالفها فيما يلي: في الأولى الذنب الذي أخذ به الهالكون كان الكفر، وفي هذه: كان التكذيب، في الأولى: لم يذكر نوع العذاب، وفي الثانية أنه الإغراق، في الأولى لم يسجل عليهم سوى الكفر فهو ذنبهم لا غير. وفي الثانية سجل على الكل ذنبًا آخر وهو الظلم إذ قال: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ أي بكفرهم وتكذيبهم، وصدهم عن سبيل الله وفسقهم عن طاعة الله ورسوله ﷺ مع زيادة التأكيد والتقرير.

هداية الآيات:

١ - تقرير عذاب القبر بتقرير العذاب عند النزع.

٢ - هذه الآية نظيرها آية الأنعام ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بالضرب.

٣ - تنزه الخالق عز وجل عن الظلم لأحد[1].

٤ - سنة الله تعالى في أخذ الظالمين وإبدال النعم بالنقم.

٥ - لم يكن من سنة الله تعالى في الخلق تغيير ما عليه الناس من خير أو شر حتى يكونوا هم البادئين.

٦ - التنديد بالظلم وأهله، وأنه الذنب الذي يطلق على سائر الذنوب.

الجزءُ العاشر — سُورَةُ الأنفال

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

١٨٤

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٥ ـ ٥٩]

(٥٥) ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾[2]: من إنسان أو حيوان الذين ذكر الله وصفهم وهم بنو قريظة. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: لما علم الله تعالى من حالهم أخبر أنهم يموتون على الكفر.

(٥٦) ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾: أي يحلونه ويخرجون منه فلا يلتزموا بما فيه. ﴿فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾: أي عاهدوا فيها.

(٥٧) ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾: أي إن تجدنهم، وما مزيدة أدغمت في إن الشرطية. ﴿فَشَرِّدْ﴾: أي فرق وشتت. ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: أي يتعظون.

(٥٨) ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾: أي اطرح عهدهم. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[3]: أي على حال من العلم تكون أنت وإياهم فيها سواء، أي كل منكم عالم بنقض المعاهدة. ﴿ٱلْخَآئِنِينَ﴾: الغادرين بعهودهم.

(٥٩) ﴿سَبَقُوٓا۟﴾: أي فاتوا الله ولم يتمكن منهم.

معنى الآيات:

(٥٥) بمناسبة ذكر خصوم الدعوة الإسلامية والقائم عليها وهو النبي ﷺ ذكر تعالى خصومًا لها آخرين غير المشركين من كفار قريش وهم بنو قريظة[4] من اليهود. فأخبر تعالى عنهم أنهم شر الدواب من الإنسان والحيوان ووصفهم محددًا لهم ليعرفوا، وأخبر أنهم لا يؤمنون

---

(١) شاهده حديث مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول: يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**».

(٢) الدواب: كل ما يدب على وجه الأرض من حيوان، و ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في علمه وحكمه.

(٣) أي: جهرًا لا سرًا حتى يكونوا وأنتم بالعلم بنبذ المعاهدة على حد سواء.

(٤) وبنو النضير كذلك إذ أعانوا قريشًا بالسلاح ثم لمّا انكشف أمرهم اعتذروا، وأما قريظة، فقد نقضوا عهدهم مرتين إذ انضموا إلى الأحزاب في حربهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين.

لتوغلهم في الشر والفساد، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وعلمه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(٥٦) وخصصهم بوصف آخر خاص بهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ وذلك أن النبي ﷺ عاهدهم أول مرة على أن لا يحاربوه ولا يعينوا أحدًا على حربه فإذا بهم يعينون قريشًا بالسلاح، ولما انكشف أمرهم اعتذروا معترفين بخطإهم، وعاهدوا مرة أخرى على أن لا يحاربوا الرسول ولا يعينوا من يحاربه فإذا بهم ينقضون عهدهم مرة أخرى ويدخلون في حرب ضده حيث انضموا إلى الأحزاب في غزوة الخندق هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ[١]﴾ أي يعاهدون فيها ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي لا يخافون عاقبة نقض المعاهدات والتلاعب بها حسب أهوائهم.

(٥٧) وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم[٢] مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يرشد رسوله ﷺ آمرًا إياه بما يجب أن يتخذه إزاء هؤلاء الناكثين للعهود المنغمسين في الكفر. بحيث لا يخرجون منه بحال من الأحوال. ويشهد لهذه الحقيقة أنهم لما حوصروا في حصونهم ونزلوا منها مستسلمين كان يعرض على أحدهم الإسلام حتى لا يقتل فيؤثر باختياره القتل على الإسلام وماتوا كافرين وصدق الله إذ قال ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهؤلاء إن ثقفتهم في حرب أي وجدتهم متمكنًا منهم فاضربهم بعنف وشدة وبلا هوادة حتى تشرد أي تفرق بهم من خلفهم من أعداء الإسلام المتربصين بك الدوائر من كفار قريش وغيرهم لعلهم يذكرون أي يتعظون فلا يفكروا في حربك وقتالك بعد.

(٥٨) وقوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً[٣] فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ هذا إرشاد آخر للرسول ﷺ يتعلق بالخطط الحربية الناجحة وهو أنه ﷺ إن خاف من قوم معاهدين له خيانة ظهرت أماراتها وتأكد لديك علاماتها فاطرح تلك المعاهدة ملغيًا لها معلنًا ذلك لتكون وإياهم على علم تام بإلغائها، وذلك حتى لا يتهموك بالغدر والخيانة، والله لا يحب الخائنين. وقاتلهم مستعينًا بالله عليهم وستكون الدائرة على الناكث الخائن، وهذا ضرب من الحزم وصحة العزم إذ ما دام قد عزم العدو على النقض فقد نقص فليبادر لافتكاك عنصر المباغتة من يده، وهو عنصر مهم في الحروب.

(٥٩) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم من هرب من بدر من كفار قريش ﴿سَبَقُوٓاْ﴾[٤] أي فاتوا فلم يقدر الله تعالى عليهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي إنهم لا يعجزون الله بحال فإنه تعالى لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب.

هداية الآيات:

١ ـ بيان أن شر الدواب هم الكفار من أهل الكتاب والمشركين بل هم شر البرية.

٢ ـ سنة الله فيمن توغل في الظلم والشر والفساد يُحرم التوبة فلا يموت إلا كافرًا.

٣ ـ من السياسة الحربية النافعة أن يضرب القائد عدوه بعنف وشدة ليكون نكالاً لغيره من الأعداء.

٤ ـ حرمة الغدر والخيانة.

٥ ـ جواز إعلان إلغاء المعاهدة

---

(١) سبحان الله، هذا الوصف الخسيس ما زال ملازمًا لليهود إلى اليوم فلا يوفون بعهد ولا ذمّة أبدًا، وصدق الله العظيم إذ قال عنهم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾.

(٢) يقال: شرد البعير أو الدابة إن فارقت صاحبها، وشرّده إذا عمل على تشريده بسبب، وشردت بني فلان: إذا حملتهم على مفارقة منازلهم قال الشاعر:

أطوّف في الأباطح كل يوم … مخافة أن يُشرّد بي حكيم

(٣) غشًا ونقضًا للعهد والآية عامة، فهي مبدأ حربي يأخذ به المسلمون إلى يوم القيامة، ولا وجه لذكر الخلاف هل هي في بني قريظة أو بني النضير؟ وخوف الخيانة هنا معناه: الظن الغالب وذلك بظهور علامات خيانة العدو واضحة.

(٤) أي: من أفلت من وقعة بدر سبق إلى الحياة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي: في الدنيا حتى يظفرك الله بهم.

وضرب العدو فورًا إن بدرت منه بوادر واضحة بأنه عازم على نقض المعاهدة[1] وذلك لتفويت عنصر المباغتة عليه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٠ ـ ٦٣]

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّوا﴾: هيئوا وأحضروا.

﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾: ما قدرتم عليه.

﴿مِّن قُوَّةٍ﴾: أي حربية من سلاح على اختلاف أنواعه. ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾: أي أجره وثوابه.

(٦١) ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾: أي مالوا إلى عدم الحرب ورغبوا في ذلك.

(٦٢) ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾: أي يكفيك شرهم، وينصرك عليهم.

(٦٣) ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: أي جمع بين قلوب الأنصار بعدما كانت متنافرة مختلفة. ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: أي غالب على أمره، حكيم في فعله وتدبير أمور خلقه.

معنى الآيات:

(٦٠) بمناسبة انتهاء معركة بدر وهزيمة المشركين فيها، وعودتهم إلى مكة وكلهم تغيظ على المؤمنين وفعلاً أخذ أبو سفيان يعد العدة للانتقام. وما كانت غزوة أحد إلا نتيجة لذلك هنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بإعداد القوة وبذل ما في الوسع والطاقة لذلك فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم[2] مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي بقوله: **«ألا إن القوة الرمي»**[3] قالها ثلاثًا، وقوله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ يخبر تعالى عباده المؤمنين بعد أن أمرهم بإعداد القوة على اختلافها بأن رباطهم للخيل وحبسها أمام دورهم معدة للغزو والجهاد عليها يرهب أعداء الله من الكافرين والمنافقين أي يخوفهم حتى لا يفكروا في غزو المسلمين وقتالهم، وهذا ما يعرف بالسلم المسلح، وهو أن الأمة إذا كانت مسلحة قادرة على القتال يرهبها أعداؤها فلا يحاربونها، وإن رأوها لا عدة لها ولا عتاد ولا قدرة على رد أعدائها أغراهم ذلك بقتالها فقاتلوها. وقوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي من دون كفار قريش، وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ من الجائز أن يكونوا اليهود أو المجوس أو المنافقين، وأن يكونوا الجن أيضًا، وما دام الله عز وجل لم يُسمهم فلا يجوز أن يقال هم كذا.. بصيغة

الجزءُ العاشِر — سُورةُ الأنفال

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩)﴾

١٨٥

---

(١) روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدرته ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة»** وروى أبو داود والترمذي أن معاوية رضي الله عنه كان بينه وبين الروم عهد، فلما قارب تاريخ العهد الانقضاء سار إليهم بجيشه فجاء عمرو بن عنبسة فقال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء»** فرجع معاوية بالناس.

(٢) روى مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: **«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي»** وعن عقبة أيضًا قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجزه أحدكم أن يلهو بأسهمه»** وقال: **«كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنه من الحق»**.

(٣) ومما يدل على فضل الرمي في سبيل الله قوله ﷺ في حديث أبي داود والترمذي والنسائي: **«إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي ومُنبِّلُه»**.

الجزم، غير أنا نعلم أن أعداء المسلمين كل أهل الأرض من أهل الشرك والكفر من الإنس والجن، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ إخبار منه تعالى أن ما ينفقه المسلمون من نفقة قلّت أو كثرت في سبيل الله التي هي الجهاد يوفّيهم الله تعالى إياها كاملة ولا ينقصهم منها شيئًا فجملة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ جملة حالية ومعناها لا يظلمكم الله تعالى بنقص ثواب نفقاتكم في سبيله هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦٠).

(٦١) أما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا[1] لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فإن الله تعالى يأمر رسوله ﷺ وهو قائد الجهاد يومئذ بقبول السلم متى طلبها[2] أعداؤه ومالوا إليها ورغبوا بصدق فيها، لأنه ﷺ رسول رحمة لا رسول عذاب، وأمره أن يتوكل على الله في ذلك أي يطيعه في قبول السلم ويفوض أمره إليه ويعتمد عليه فإنه تعالى يكفيه شرّ أعدائه لأنه سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم وأحوالهم لا يخفى عليه من أمرهم شيء فلذا سوف يكفي رسوله ﷺ شر خداعهم إن أرادوا خداعه بطلب السلم والمسالمة.

(٦٢) وهذا معنى قوله تعالى في الآيتين (٦٢) و(٦٣): ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ أي بالميل إلى السلم والجنوح إليها[3] ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي كافيك إنه ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ أي في بدر.

(٦٢) ـ (٦٣) ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي جمع بين تلك القلوب المتنافرة المنطوية على الإحن والعداوات ولأقل الأسباب وأتفهها، لقد كان الأنصار يعيشون على عداوة عظيمة فيما بينهم حتى إن حربًا وقعت بينهم مائة وعشرين سنة فلما دخلوا في الإسلام اصطلحوا وزالت كل آثار العداوة والبغضاء وأصبحوا جسمًا واحدًا مَنْ فعل هذا سوى الله تعالى؟ اللهم لا أحد، ولذا قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي من مال صامت وناطق ﴿مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب إعداد القوة وهي في كل زمان بحسبه إن كانت في الماضي الرمح والسيف ورباط الخيل فهي اليوم النفاثة المقاتلة والصاروخ، والهدروجين والدبابة والغواصة، والبارجة.

٢ ـ تقرير مبدأ: السلم المسلح، ارجع إلى شرح الآيات.

٣ ـ لا يخلو المسلمون من أعداء ما داموا بحق مسلمين، لأن قوى الشر من إنس وجن كلها عدو لهم.

٤ ـ نفقة الجهاد خير نفقة وهي مضمونة التضعيف.

٥ ـ جواز قبول السلم[4] في ظروف معينة، وعدم قبوله في أخرى وذلك بحسب حال المسلمين قوة وضعفًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٤ ـ ٦٦]

(٦٤) ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾[5]: أي كافيك الله كل ما يهمك من شأن

---

(١) ﴿جَنَحُوا﴾: مالوا، والجنوح: الميل أي: إذا مالوا إلى المسالمة التي هي الصلح فمِل إليها. اختلف هل هذه الآية منسوخة بآية: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ والصحيح، والذي به العمل أن الآية محكمة غير منسوخة، وأنّ المسلمين إذا كانوا في حالة ضعف يحتاجون فيها إلى تقوية بعقد هدنة أو مصالحة لدفع ضرر أو تحصيل نفع ظاهر وهم في حاجة إلى ذلك فإن لهم أن يجنحوا للسلم وإن كانوا أقوياء قادرين فلا يحلّ لهم إلاّ إنفاذ أمر الله تعالى بقتال العدو حتى يسلم أو يستسلم لحكم الإسلام.

(٢) السلم: مؤنثة ولذا عاد الضمير إليها مؤنثًا في قوله: ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾.

(٣) وهم يضمرون في نفوسهم نية الغدر بك والمكر ليخدعوك بذلك فامض في صلحك والله حسبك.

(٤) المراد بالسلم: المهادنة، والموادعة، والصلح المؤقت، وقد تقدم بيانه، والإمام الشافعي يرى أن لا تزيد مدّة المسالمة على عشر سنين قياسًا على صلح الحديبية إذ كانت المدة عشر سنين لا غير.

(٥) ﴿حَسْبَكَ﴾ خبر مقدم ولفظ الجلالة مبتدأ أي: الله حسبك بمعنى كافيك: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ يصح أن يكون في موضع نصب عطفًا على الكاف في (حسبك)، والصواب أنها في موضع رفع على الابتداء والخبر محذوف والتقدير: ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله أيضًا.

أعدائك وغيرهم. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي الله حسبهم كذلك أي كافيهم ما يهمهم من أمر أعدائهم.

﴿٦٥﴾ ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾: أي حثهم على القتال مرغبًا لهم مرهبًا. ﴿صَٰبِرُونَ﴾: أي على القتال فلا يضعفون ولا ينهزمون بل يثبتون ويقاتلون. ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾: أي لا يعرفون أسرار القتال ونتائجه بعد فنونه وحذق أساليبه.

معنى الآيات:

﴿٦٤﴾ ينادي الرب تبارك وتعالى رسوله ﷺ بعنوان النبوة التي شرفه الله بها على سائر الناس فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ويخبره بنعم الخبر مطمئنًا إياه وأتباعه من المؤمنين بأنه كافيهم أمر أعدائهم فما عليهم إلا أن يقاتلوهم ما دام الله تعالى ناصرهم ومؤيدهم عليهم، فيقول: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿٦٥﴾ ثم يُناديه ثانية قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ليأمره بالأخذ بالأسباب الموجبة للنصر بإذن الله تعالى وهي تحريض المؤمنين على القتال وحثهم عليه وترغيبهم فيه فيقول: ﴿حَرِّضِ[1] ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ ويخبره آمرًا له ولأتباعه المؤمنين بأنه ﴿إِن يَكُن﴾ أي يوجد منهم في المعركة ﴿عِشْرُونَ[2] صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾، وإن يكن منهم مائة صابرة يغلبوا ألفًا من الكافرين، ويعلل لذلك فيقول: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفقهون أسرار القتال وهي أن يعبد الله تعالى ويرفع الظلم من الأرض ويتخذ الله من المؤمنين شهداء فينزلهم منازل الشهداء عنده، فالكافرون لا يفقهون هذا فلذا هم لا يصبرون على القتال لأنهم يقاتلون لأجل حياتهم فقط فإذا خافوا عنها تركوا القتال طلبًا للحياة زيادة على ذلك أنهم جهال لا يعرفون أساليب الحرب ولا وسائلها الناجعة بخلاف المؤمنين فإنهم علماء، علماء بكل شيء هذا هو المفروض، وإن ضَعُف الإيمان ضعف تبعًا له الفقه والعلم وحل الجهل والضعف كما هو مشاهد اليوم في المسلمين.

﴿٦٦﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ[3] ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا[4] فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الآن بعد علمه تعالى بضعفكم حيث لا يقوى الواحد على قتال عشرة، ولا العشرة على قتال مائة ولا المائة على قتال الألف خفف تعالى رحمة بكم ومنة عليكم، فنسخ[5] الحكم الأول بالثاني الذي هو قتال الواحد للاثنين، والعشرة للعشرين والمائة للمائتين، والألف للألفين، ومفاده أن المؤمن لا يجوز له أن يفر من وجه اثنين ولكن يجوز له أن يفر إذا كانوا أكثر من اثنين وهكذا سائر النِسب فالعشرة يحرم عليهم أن يفروا من عشرين ولكن يجوز لهم أن يفروا من ثلاثين أو أربعين مثلاً. وهذا من باب رفع الحرج فقط وإلا فإنه يجوز للمؤمن أن يقاتل عشرة أو أكثر، فقد قاتل ثلاثة آلاف صحابي يوم مؤتة مائة وخمسين ألفًا من الروم والعرب المتنصرة وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بمعونته وتأييده إذ لا نصر بدون عون من الله تعالى وإذن، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي بالتأييد والنصر، والصبر شرط في تأييد الله وعونه فمن لم يصبر على القتال فليس له على الله وعد في نصره وتأييده.

---

(١) يقال: حرّضه على كذا: حثه وحضه وحارض على الأمر وواظب وأكب بمعنى، والحارض: الذي أشرف على الهلاك ومنه: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: تذوب غمًّا فتقارب الهلاك فتكون من الهالكين.

(٢) ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ..﴾ إلخ.. لفظ مضمّن وعدًا إلهيًا مشروط بشرط الصبر، إذ تقدير الكلام: إن يصبر منكم عشرون صابرون إلخ..

(٣) لما شق على المؤمنين ثبات العشرة للمائة والعشرين للمائتين وثبات المائة للألف، خفّف الله تعالى عنهم وأنزل قوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ..﴾ فرخّص للواحد أن يفر من أكثر من اثنين وهكذا إن شاء فإنه لا حرج.

(٤) قرىء: ﴿ضعفا﴾ بفتح الضاد وضمها، وقيل: إن الفتح في ضعف العقول والضم في ضعف الأجسام، والصحيح أنهما لغتان فصيحتان.

(٥) لا بأس أن يسمى هذا نسخًا لأنه حكم جديد غاير الأوّل ويسمى تخفيفًا وهو حسن أيضًا.

هداية الآيات:

١ - لا كافي إلا الله تعالى، ومن زعم أن هناك من يكفي سوى الله تعالى فقد أشرك.

٢ - وجوب تحريض المؤمنين على الجهاد وحثهم عليه في كل زمان ومكان.

٣ - حرمة هزيمة الواحد من الواحد والواحد من الاثنين، ويجوز ما فوق ذلك.

٤ - وجوب تثقيف المجاهدين عقلاً وروحًا وصناعة.

٥ - وجوب الصبر في ساحة المعارك ويحرم الهزيمة إذا كان عدد المؤمنين اثني عشر ألف مقاتل أو أكثر إذ هذا العدد لا يغلب[(١)] من قلة بإذن الله تعالى.

٦ - معية الله بالعلم والتأييد والنصر للصابرين دون الجزعين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٧ ـ ٦٩]

(٦٧) ﴿أَسْرَىٰ﴾: جمع أسير وهو من أُخذ في الحرب يشد عادة بإسار وهو قيد من جلد فأطلق لفظ الأسير[(٢)] على كل من أخذ في الحرب. ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي تكون له قوة وشدة يرهب بها العدو. ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾: أي المال لأنه عارض ويزول فلا يبقى.

(٦٨) ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾: وهو كتاب المقادير بأن الله تعالى أحل لنبيّ هذه الأمة ﷺ الغنائم. ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾: أي بسبب ما أخذتم من فداء أسرى بدر.

(٦٩) ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾: الحلال هو الطيب فكلمة طيبًا تأكيد لحليّة اقتضاها المقام. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أي بطاعته وطاعة رسوله ﷺ في الأمر والنهي.

معنى الآيات:

(٦٧) ما زال السياق في أحداث غزوة بدر من ذلك أن أصحاب الرسول ﷺ إلا عمر وسعد بن معاذ رضي الله عنهما رغبوا في مفاداة الأسرى بالمال للظروف المعاشية القاسية التي كانوا يعيشونها، وكانت رغبتهم في الفداء بدون علم من الله تعالى بإحلالها أو تحريمها أما عمر فكان لا يعثر على أسير إلا قتله وأما سعد فقد قال: (الإثخان في القتال أولى من استبقاء الرجال) ولما تم الفداء نزلت هذه الآية الكريمة تعاتبهم أشد العتاب فيقول تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾[(٣)] أي ما صح منه ولا كان ينبغي له أن يكون له أسرى حرب يبقيهم ليفاديهم أو يمن عليهم مجانًا ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ[(٤)] فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرض العدو قتلاً وتشريدًا فإذا عرف بالبأس والشدة وهابه الأعداء جاز له الأسر أي الإبقاء على الأسرى أحياء ليمن عليهم بلا مقابل أو ليفاديهم بالمال، وقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا من عتابه[(٥)] تعالى لهم، إذ ما فادوا الأسرى إلا لأنهم يريدون حطام الدنيا وهو المال، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ فشتان

---

(١) روى أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يُغلب اثنا عشر ألفًا من قلة**» والمراد أن الغلب إن حصل لن يكون سببه قلة العدد وإنما يكون لأمر آخر كعدم الصبر أو عدم الأخذ بأسباب النصر التي يتم بها النصر حسب سنّة الله.

(٢) أسير: كقتيل وجريح، ويجمع على أسرى كقتلى وجرحى، وعلى أُسارى بضم الهمزة وفتحها، والضم أشهر.

(٣) هذه الآية نزلت يوم بدر عتابًا من الله تعالى لأصحاب نبيّه محمد ﷺ إذ لم يثخنوا في قتل المشركين حتى يوجد منهم أسرى رغبوا في مفاداتهم منًّا بالمال.

(٤) الإثخان في الشيء: المبالغة فيه والإكثار منه والمراد به هنا: المبالغة في قتل المشركين حتى لا يبقى منهم أسير في ساحة المعركة.

(٥) روى مسلم أنّ النبي ﷺ قال لبعض أصحابه ومن بينهم أبوبكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسرى؟**» فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن يؤخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب؟**» قال: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكّن عليًا من عقيل فيضرب عنقه وتمكني من فلان فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت وإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان.. إلى أن قال: وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ إلى قوله: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

ما بين مرادكم ومراد ربكم لكم تريدون العرض الفاني والله يريد لكم النعيم الباقي، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب على أمره ينصر من توكل عليه وفوّض أمره إليه، حكيم في تصرفاته فلا يخذل أولياءه وينصر أعداءه فعليكم أيها المؤمنون بطلب مرضاته بترك ما تريدون لما يريد هو سبحانه وتعالى.

(٦٨) وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ[1] مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لولا أنه مضى علم الله تعالى بحلية الغنائم لهذه الأمة وكتب ذلك في اللوح المحفوظ لكان ينالكم جزاء رضاكم بالمفاداة وأخذ الفدية عذاب عظيم.

(٦٩) وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ[2] حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ إذن منه تعالى لأهل بدر أن يأكلوا مما غنموا، وحتى ما فادوا به الأسرى وهي منة منه سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أمر منه عز وجل لهم بتقواه بفعل أوامره وأوامر رسوله ﷺ وترك نواهيهما، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إخبار منه تعالى أنه غفور لمن تاب من عباده رحيم بالمؤمنين منهم، وتجلى ذلك في رفع العذاب عنهم حيث غفر لهم وأباح لهم ما رغبوا فيه وأرادوه. وفي الحديث: «**لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم**».

هداية الآيات:

١ - إرشاد الله تعالى لقادة الأمة الإسلامية في الجهاد أن لا يفادوا الأسرى وأن لا يمنوا عليهم بإطلاقهم إلا بعد أن يثخنوا في أرض العدو قتلاً وتشريدًا فإذا خافهم العدو ورهبهم عندئذ يمكنهم أن يفادوا الأسرى أو يمنوا عليهم.

٢ - التزهيد في الرغبة في الدنيا لحقارتها، والترغيب في الآخرة لعظم أجرها.

٣ - إباحة الغنائم.

٤ - وجوب تقوى الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ في الأمر والنهي.

الجزء العاشر — سورة الأنفال

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (٧٥)

١٨٦

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٠، ٧١]

(٧٠) ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾: أسرى بدر الذين أخذ منهم الفداء كالعباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه. ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾: أي إيمانًا صادقًا وإخلاصًا تامًا. ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾: من مال الفداء.

(٧١) ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾: أي الأسرى. ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾: أي من قبل وقوعهم في الأسر وذلك بكفرهم في مكة. ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾: أي أمكنكم أنتم أيها المؤمنون منهم فقتلتموهم وأسرتموهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: عليم بخلقه حكيم في صنعه وتدبيره.

معنى الآيتين:

(٧٠) هذه الآية الكريمة نزلت في العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه إذ كان يقول هذه الآية نزلت فيّ وذلك أنه بعد أن وقع في الأسر[3] أسلم وأظهر إسلامه وطلب من الرسول ﷺ أن يرد عليه ما أخذ منه من فدية فأبى عليه رسول الله ﷺ ذلك فأنزل الله تعالى

(١) من ذلك أن الله تعالى لا يعذب قومًا حتى يبيّن لهم ما يتقون.

(٢) هذا الإذن واقع بعد تخميس الغنيمة لا على إطلاقه.

(٣) أسره رضي الله عنه أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بني سلمة، وكان رجلاً قصيرًا والعباس رضي الله عنه ضخمًا طويلاً لما جاء به إلى رسول الله ﷺ قال له: «**لقد أعانك عليه ملك**» وقال الرسول ﷺ للعباس: «**افد نفسك**» فقال: لقد كنت مسلمًا يا رسول الله

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ أي إسلامًا حقيقيًا ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ أي مالاً خيرًا ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾[1] ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ذنوبكم التي كانت كفرًا بالله ورسوله ﷺ، ثم حربًا على الله ورسوله ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ يغفر ذنوب عباده التائبين ﴿رَّحِيمٞ﴾ بعباده المؤمنين فلا يؤاخذهم بعد التوبة عليها بل يرحمهم برحمته في الدنيا والآخرة. (٧١) وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ[2] خِيَانَتَكَ﴾ أي وإن يُرد هؤلاء الأسرى الذين أخذ منهم الفداء ونطقوا بالشهادتين مظهرين إسلامهم خيانتك والغدر بك بإظهار إسلامهم ثم إذا عادوا إلى ديارهم عادوا إلى كفرهم، فلا تبال بهم[3] ولا ترهب جانبهم فإنهم قد خانوا الله من قبل بكفرهم وشركهم ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ المؤمنين وجعلهم في قبضتهم وتحت إمْرتهم، ولو عادوا لعاد الله تعالى فسلطكم عليهم وأمكنكم منهم. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بنيات القوم وتحركاتهم حكيم فيما يحكم به عليهم ألا فليتقوه عز وجل وليحسنوا إسلامهم ويصدقوا في إيمانهم فذلك خير لهم.

هداية الآيتين:

١ - فضل العباس عم رسول الله ﷺ لنزول الآية في حقه وشأنه.

٢ - فضل إضمار الخير والنيات الصالحة.

٣ - إطلاق لفظ الخير على الإسلام والقرآن وحقًا هما الخير والخير كله.

٤ - ما ترك عبدٌ شيئًا لله إلا عوّضه خيرًا منه.

٥ - الله جل جلاله: لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ألا فليتق وليتوكل عليه.

شرح الكلمات:
[الآية: ٧٢ ـ ٧٥]

(٧٢) ﴿ءَامَنُواْ﴾: صدقوا الله ورسوله ﷺ وآمنوا بلقاء الله وصدقوا بوعده ووعيده. ﴿وَهَاجَرُواْ﴾: أي تركوا ديارهم والتحقوا برسول الله ﷺ بالمدينة المنورة. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي من أجل أن يعبد الله ولا يعبد معه غيره وهو الإسلام. ﴿ءَاوَواْ﴾: أي آووا المهاجرين فضموهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم. ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾: أي طلبوا منكم نصرتهم على أعدائهم. ﴿مِّيثَٰقٌۗ﴾: عهد أي معاهدة سلم وعدم اعتداء. (٧٣) ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾: أي إن لم توالوا المسلمين، وتقاطعوا الكافرين تكن فتنة[4]. (٧٥) ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾: أي الأقارب من ذوي النسب. ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾: في التوارث أي يرث بعضهم بعضًا.

معنى الآيات:

(٧٢) بمناسبة انتهاء الحديث عن أحداث غزوة بدر الكبرى ذكر تعالى حال المؤمنين في تلك الفترة من الزمن وأنهم مختلفون في الكمال، فقال وقوله الحق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ فهذا صنف: جمع أهله بين الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس، والصنف الثاني في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾[5] أي آووا الرسول ﷺ والمهاجرين في ديارهم ونصروهم. فهذان صنفا المهاجرين والأنصار وهما أكمل المؤمنين وأعلاهم درجة، وسيذكرون في آخر السياق

= فقال له الرسول ﷺ: «**والله أعلم بإسلامك فإن تكن كما تقول فالله يجزيك بذلك، فأما ظاهر أمرك فكان علينا فافد نفسك وابن أخويك نوفل وعقيل**» ففعل وفيه نزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل ...﴾ إلخ.

(١) روى مسلم أنه لما قدم على النبي ﷺ مال من البحرين قال له العباس: إني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً فقال له الرسول ﷺ: «خذ» فبسط ثوبه وأخذ ما استطاع أن يحمله، وقال: هذا خير مما أخذ مني وأنا أرجو أن يغفر الله لي.

(٢) في هذه الآية تطمين لنفس الرسول ﷺ وليبلغ مضمونه إلى الأسرى فيعلموا أنهم لا يغلبون الله ورسوله ﷺ. والخيانة: نقض العهد، وما في معنى العهد كالأمانة ونحوها.

(٣) هذا هو جواب إن الشرطية المحذوف، وقد دلّ عليه: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾.

(٤) محنة الحرب وما يتبع ذلك من الغارات والجلاء والأسر، وما إلى ذلك من ويلات الحروب، والفساد الكبير: هو ظهور الشرك.

(٥) قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ معطوف على اسم إنّ والخبر: جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾.

مرة أخرى ليذكر لهم جزاؤهم عند ربهم، وقوله تعالى فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ أي في النصرة والموالاة والتوارث إلا أن التوارث نسخ بقوله تعالى في آخر آية من هذا السياق: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ والصنف الثالث من أصناف المؤمنين المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ أي آمنوا بالله ورسوله ﷺ والدار الآخرة ثم رضوا بالبقاء بين ظهراني الكافرين فلم يهجروا ديارهم وأموالهم ويلتحقوا بدار الهجرة بالمدينة النبوية، فهؤلاء الناقصون في إيمانهم بتركهم الهجرة، يقول تعالى فيهم لرسوله ﷺ والمؤمنين: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾[1] فلا توارث ولا موالاة تقتضي النصرة والمحبة حتى يهاجروا إليكم ويلتحقوا بكم، ويستثني تعالى حالة خاصة لهم وهي أنهم إذا طلبوا نصرة المؤمنين في دينهم فإن على المؤمنين أن ينصروهم وبشرط أن لا يكون الذي اعتدى عليهم وآذاهم فطلبوا النصرة لأجله أن لا يكون بينه وبين المؤمنين معاهدة سلم وترك الحرب ففي هذه الحال على المؤمنين أن يوفوا بعهدهم ولا يغدروا فينصروا أولئك القاعدين عن الهجرة، هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ ذيّل الكلام بهذه الجملة لإعلام المؤمنين الكاملين كالناقصين بأن الله مطلع على سلوكهم خبير بأعمالهم وأحوالهم فليراقبوه في ذلك حتى لا يخرجوا عن طاعته.

(٧٣) وقوله تعالى في الآية (٧٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾[2] يتناصرون ويتوارثون. وبناء على هذا يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ أي إن لا تفعلوا ما أمرتم به من موالاة المؤمنين محبة ونصرة وولاء، ومن معاداة الكافرين بغضًا وخذلانًا لهم وحربًا عليهم تكن فتنة عظيمة لا يقادر قدرها وفساد كبير لا يعرف مداه، والفتنة الشرك والفساد المعاصي.

(٧٤) وقوله تعالى في الآية (٧٤): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ هذا هو الصنف الأول أعيدَ ذكره ليذكر له جزاؤه عند ربه بعد تقرير إيمانهم وتأكيده فقال تعالى فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ أي لذنوبهم بسترها وعدم المؤاخذة عليها ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ ألا وهو نعيم الجنة في جوار ربهم سبحانه وتعالى.

(٧٥) والصنف الرابع من أصناف المؤمنين ذكره تعالى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ فهذا الصنف أكمل من الصنف الثالث ودون الأول والثاني، إذ الأول والثاني فازوا بالسبق، وهؤلاء جاؤوا من بعدهم ولكن لإيمانهم وهجرتهم وجهادهم ألحقهم الله تعالى بالسابقين فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ[3] ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ أي في الإرث وبها نسخ التوارث بالهجرة والمعاقدة، واستقر الإرث بالمصاهرة والولاء، والنسب إلى يوم

---

(١) الولاية: بكسر الواو وفتحها لغتان، وقرىء بهما معًا وهي هنا بمعنى النسب والنصرة، وتكون الولاية بالكسرة والفتح أيضًا بمعنى الإمارة وفي الآية دليل على أن المسلم لا يلي عقد نكاح أخته الكافرة لانعدام الموالاة بينهما، والكافر لا يلي عقد نكاح أخته المسلمة.

(٢) روى الترمذي أنّ النبي ﷺ قال: **«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»** قالها ثلاثًا وقال الترمذي: هو حديث غريب.

(٣) أولوا: واحدها ذو، والرحم مؤنثة والجمع أرحام وهي مقر الولد في البطن والمراد بأولي الأرحام هنا: العصبات كالآباء والأبناء والإخوة والأعمام وأصحاب الفروض وهم الجد والأب والأم والبنت والأخت والزوجة يشهد لهذا قوله ﷺ: **«ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولي رجل ذكر»** أما أولوا الأرحام المختلف في إرثهم فهم: أولاد البنات وأولاد الأخوات وبنات الأخ، والعمة والخالة والعم أخو الأب لأم والجد أبو الأم والجدة أم الأم. هذا ومن أهل العلم كابن كثير وغيره من أبقى اللفظ على ظاهره فجعل المراد من أولي الأرحام: القرابة الناشئة عن الأمومة على خلاف ما قدّمناه عن القرطبي من أنّ المراد بأولي الأرحام العصبات دون المولودين بالرحم، وعلى رأي ابن كثير أن الآية ليست واردة في التوارث كما هو رأي مالك وإنما هي في الموالاة والنصرة.

القيامة، وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه المدون في اللوح المحفوظ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الجملة تحمل الوعد والوعيد، الوعد لأهل الإيمان والطاعة، والوعيد لأهل الشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

١ - بيان تفاوت المؤمنين في كمالاتهم وعلو درجاتهم عند ربهم.

٢ - أكمل المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والهجرة والجهاد وسبقوا لذلك وهم المهاجرون الأولون والذين جمعوا بين الإيمان والإيواء والنصرة والجهاد وهم الأنصار.

٣ - دون ذلك من آمنوا وهاجروا وجاهدوا ولكن بعد صلح الحديبية.

٤ - وأدنى أصناف المؤمنين من آمنوا ولم يهاجروا وهؤلاء على خطر عظيم.

٥ - وجوب نصرة المؤمنين بموالاتهم ومحبتهم ووجوب معاداة الكافرين وخذلانهم وبغضهم.

٦ - نسخ التوارث بغير المصاهرة والنسب والولاء.

❁ ❁ ❁

سورة التوبة
مدنية
وآياتها مائة وتسع وعشرون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٤]

(١) ﴿بَرَآءَةٌ﴾[(١)]: أي هذه براءة بمعنى تبرؤ وتباعد وتخلص.

﴿عَٰهَدتُّم﴾: أي جعلتم بينكم وبينهم عهدًا وميثاقا.

(٢) ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(٢)]: أي سيروا في الأرض طالبين لكم الخلاص. ﴿مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مذل الكافرين ومهينهم.

(٣) ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: إعلام منه تعالى. ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾: أي يوم عيد النحر.

(٤) ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾: أي من شروط المعاهدة وبنود الاتفاقية. ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾: أي لم يعينوا عليكم أحدًا.

معنى الآيات:

هذه السورة القرآنية الوحيدة التي خلت[(٣)] من البسملة لأنها مفتتحة بآيات عذاب فتنافى معها ذكر الرحمة، وهذه السورة من آخر ما نزل من سور القرآن الكريم وقد بعث رسول الله ﷺ عليًا وبعض الصحابة في حج سنة تسع يقرؤون هذه الآيات في الموسم، وهي تعلم المشركين أن من كان له عهد مطلق بلا حد شهر أو سنة مثلاً أو كان له عهد دون أربعة أشهر، أو كان له عهد فوق أربعة أشهر ونقضه تُعْلِمُهُم بأن عليهم أن يسيحوا في الأرض بأمان كامل مدة أربعة أشهر فإن أسلموا فهو خير لهم وإن خرجوا من الجزيرة فإن لهم ذلك وإن بقوا كافرين فسوف يؤخذون ويقتلون حيثما وجدوا في ديار الجزيرة التي أصبحت دار إسلام بفتح مكة ودخول أهل الطائف في الإسلام.

(١) هذا معنى قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي واصلة.

(١) - (٢) ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم[(٤)] مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ تبدأ من يوم الإعلان عن ذلك وهو يوم العيد عيد الأضحى. وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾ أي غير فائتيه ولا هاربين من قهره وسلطانه عليكم هذا أولاً، وثانيًا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي مذلهم.

---

(١) يقال: برئت من الشيء أبرأ براءة فأنا بريء منه إذا أزلته عن نفسي وقطعت سبب ما بيني وبينه. وبراءة هنا: مبتدأ، وجوّز الابتداء به وهو نكرة: الوصف. والخبر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ ويصح أن تكون براءة خبر، والمبتدأ محذوف تقديره: هذه براءة.

(٢) أي قل لهم: سيحوا في الأرض أي: سيروا في الأرض آمنين غير خائفين، يقال: ساح يسيح سياحة، وسيوحًا وسيحانًا ومنه السّيح في الماء الجاري المنبسط.

(٣) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سألت عليًا رضي الله عنه: لِمَ لَمْ يكتب في براءة بسم الله الرحمٰن الرحيم قال: لأنّ بسم الله الرحمٰن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان. هذا أحد خمسة أوجه في عدم كتابة البسملة في براءة وهو أوجهها، وهو ما ذكرناه في التفسير.

(٤) نسبت المعاهدة إلى المؤمنين كافة، والمعاهد هو الرسول ﷺ لأنه المتولي لها ولسائر العقود، وكان رضاهم بها واجبًا عليهم فلذا نسبت إليهم.

ترتيبها ٩ — سُورَةُ التَّوْبَة — آياتها ١٢٩

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

١٨٧

(٣) وقوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي محمد ﷺ والأذان الإعلان والإعلام، ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهم المشركون ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ[1] ٱلْأَكْبَرِ[2]﴾ أي يوم عيد الأضحى حيث تفرّغ الحجاج للإقامة بمنى للراحة والاستجمام قبل العودة إلى ديارهم، وصورة الإعلان عن تلك البراءة هي قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ[3] مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي كذلك بريء من المشركين وعليه ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أيها المشركون إلى الله تعالى بتوحيده والإيمان برسوله ﷺ وطاعته وطاعة رسوله ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإصرار على الشرك والكفر والعصيان، ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن الإيمان والطاعة ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ بحال من الأحوال فلن تفوتوه ولن تهربوا من سلطانه فإن الله تعالى لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب. ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أخبرهم به فإنه واقع بهم لا محالة إلا أن يتوبوا. وقوله تعالى في الآية الرابعة (٤):

(٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾ من شروط المعاهدة ﴿شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ﴾ أي لم يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ لا برجال ولا بسلاح ولا حتى بمشورة ورأي فهؤلاء لم يبرأ الله تعالى منهم ولا رسوله ﷺ، وعليه ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ[4] إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي مدة أجلهم المحدد بزمن معين فوفوا لهم ولا تنقضوا لهم عهدًا إلى أن ينقضوه هم بأنفسهم، أو تنتهي مدتهم وحينئذ إما الإسلام وإما السيف إذ لم يبقَ مجال لبقاء الشرك في دار الإسلام وقبته.

هداية الآيات:

١ - جواز عقد المعاهدات بين المسلمين والكافرين إذا كان ذلك لدفع ضرر محقق عن المسلمين، أو جلب نفع للإسلام والمسلمين محققًا كذلك.

٢ - تحريم الغدر والخيانة، ولذا كان إلغاء المعاهدات علنيًا وإمداد أصحابها بمدة ثلث سنة يفكرون في أمرهم ويطلبون الأصلح لهم.

٣ - وجوب الوفاء بالمعاهدات ذات الآجال إلى أجلها إلا أن ينقضها المعاهدون.

٤ - فضل التقوى وأهلها وهو اتقاء سخط الله بفعل المحبوب له تعالى وترك المكروه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥ ـ ٨]

(٥) ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ[5] ٱلْحُرُمُ﴾:

---

(١) وقيل: إنه يوم عرفة، والصحيح ما ذكرناه في التفسير أنه يوم النحر لحديث ابن عمر عن أبي داود إذ قال: (وقف النبي ﷺ يوم النحر في الحجة التي حجّ فيها فقال: «أي يوم هذا؟» فقالوا: يوم النحر فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»).

(٢) اختلف في العلة في تسمية الحج بالأكبر، وأحسن الأقوال: أنه قيل فيه الأكبر: لأنه حج حضره الرسول ﷺ وحضرت فيه أمة الإسلام التي وجدت في تلك السنة فحجّ أكبر عدد في ذلك العام.

(٣) قالت العلماء: في الآية بيان جواز قطع المعاهدة بين المسلمين والكافرين لأحد أمرين: الأول: أن تنقضي المدة المعاهد عليها فنعلمهم بانقضائها وبالحرب عليهم. والثاني: أن نخاف غدرهم لظهور علامات تدلّ عليه.

(٤) في الآية إشارة إلى أن هناك من خاس بعهده أي: نقضه، ومنهم من ثبت عليه.

(٥) انسلخ: مطاوع سلخ، وهو مأخوذ من سلخ الجلد: إذا أزاله عن لحم الحيوان.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣﴾

١٨٨

انقضت وخرجت الأشهر الأربعة التي أمنتم فيها المشركين. ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾: أي في أي مكان لقيتموهم في الحل أو الحرم. ﴿وَخُذُوهُمْ﴾: أي أسرى. ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾: أي حاصروهم حتى يسلموا أنفسهم. ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ[(١)]﴾: أي اقعدوا لهم في طرقاتهم وارصدوا تحركاتهم. ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾: أي آمنوا بالله ورسوله ﷺ. ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾: أي اتركوهم فلا حصار ولا مطاردة ولا قتال.

(٦) ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾: أي طلب جوارك أي حمايتك. ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾: أي المكان الذي يأمن فيه.

(٧) ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾: أي لم ينقضوا عهدهم ولم يخلوا بالاتفاقية.

(٨) ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾: أي يغلبوكم. ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾: أي لا يراعوا فيكم ولا يحترموا. ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾: أي لا قرابة، ولا عهدًا فالإلّ: القرابة والذمة: العهد.

معنى الآيات:

(٥) ما زال السياق في إعلان الحرب العامة على المشركين تطهيرًا لأرض الجزيرة التي هي دار الإسلام وحوزته من بقايا الشرك والمشركين، فقال تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ[(٢)]﴾ أي إذا انقضت وخرجت الأشهر الحرم التي أمنتم فيها المشركين الذين لا عهد لهم أو لهم عهد ولكن دون أربعة أشهر أو فوقها وبدون حد محدود ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ[(٣)] حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في الحل والحرم سواء ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرى ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ حتى يستسلموا، ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي سدوا عليهم الطرق حتى يقدموا أنفسهم مسلمين أو مستسلمين. وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ أي من الشرك وحربكم ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ[(٤)] وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ[(٥)]﴾ إذ أصبحوا مسلمين مثلكم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أن الله سيغفر لهم ويرحمهم بعد إسلامهم، لأنه تعالى غفور رحيم، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥).

(٦) أما الآية الثانية (٦) فقد أمر تعالى رسوله ﷺ أن يجير من طلب جواره من المشركين حتى يسمع

---

(١) المرصد: مكان الرصد والرصد: المراقبة وتتبع النظر، قال الشاعر:

ولقد علمت وما إخالك ناسيا — أنّ المنيّة للفتى بالمرصد

(٢) ليس المراد بالأشهر الحرم الثلاثة السرد، والواحد الفرد التي هي: القعدة والحجة، المحرم ورجب بل المراد منها ما هو مبين في التفسير ومعنى كونها حُرمًا أنه يحرم قتال المشركين فيها والتعرض لهم بالسوء والأذى.

(٣) لفظ المشركين عام في كل مشرك وهو مخصوص بالسنة إذ نهى رسول الله ﷺ عن قتل المرأة والصبي والراهب.

(٤) شاهده حديث الصحاح: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله**» قال أبو بكر: **والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة** فإن الزكاة حق المال.

(٥) مالك والشافعي وأحمد على أن تارك الصلاة استحلالاً لها أو غير استحلال يؤخر إلى أن يبقى من الوقت الضروري قدر ما يصلي ركعة قبل خروج الوقت ويقتل، وأبو حنيفة والظاهرية يقولون: يسجن ويضرب حتى يصلي ولا يقتل.

كلام الله منه ﷺ ويتفهم دعوة الإسلام ثم هو بالخيار إن شاء أسلم وذلك خير له وإن لم يسلم رده رسول الله ﷺ[1] إلى مكان يأمن فيه من المسلمين أن يقتلوه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ[2] مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ[3] كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝﴾ فلذا قبل منهم ما طلبوه من الجوار حتى يسمعوا كلام الله تعالى إذ لو علموا ما رغبوا عن التوحيد إلى الشرك.

(٧) وقوله تعالى في الآية الثالثة (٧): ﴿كَيْفَ يَكُونُ[4] لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ هذا الاستفهام للنفي مع التعجب أي ليس لهم عهد أبدًا وهم كافرون غادرون، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ هؤلاء بعض بني بكر بن كنانة عاهدهم رسول الله ﷺ عام صلح الحديبية وهم عند الحرم فهؤلاء لهم عهد وذمة ما استقاموا على عهدهم فلم ينقضوه. فإن استقاموا استقام لهم المسلمون ولم يقتلوهم وفاء بعهدهم وتقوى لله تعالى لأنه تعالى يكره الغدر ويحب المتقين لذلك.

(٨) وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ الاستفهام للتعجب أي كيف يكون للمشركين عهد يفُون به لكم وهم إن يظهروا عليكم يغلبوكم في معركة، ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ أي لا يراعوا الله تعالى ولا القرابة ولا الذمة بل يقتلوكم قتلاً ذريعًا، وقوله تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ إخبار من الله تعالى عن أولئك المشركين الناكثين للعهد الغادرين بأنهم يحاولون إرضاء المؤمنين بالكذب بأفواههم، وقلوبهم الكافرة تأبى ذلك الذي يقولون بألسنتهم أي فلا تعتقده ولا تقره، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ لا يعرفون الطاعة ولا الالتزام لا بعهد ولا دين، والجملة فيها تهييج للمسلمين على قتال المشركين ومحاصرتهم وأخذهم تطهيرًا لأرض الجزيرة منهم قبل وفاة الرسول ﷺ.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب الوفاء بالعهود ما لم ينقضها المعاهدون.

٢ ـ تقرير مبدأ الحزم في القتال والضرب بشدة.

٣ ـ وجوب تطهير الجزيرة من كل شرك وكفر لأنها دار الإسلام.

٤ ـ إقام الصلاة شرط في صحة الإيمان فمن تركها فهو كافر غير مؤمن.

٥ ـ احترام الجوار، والإقرار به، وتأمين السفراء والممثلين لدولة كافرة.

٦ ـ قبول طلب كل من طلب من الكافرين الإذن له بدخول بلاد الإسلام ليتعلم الدين الإسلامي.

٧ ـ القرآن كلام الله تعالى حقًا بحروفه ومعانيه لقوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ الذي يتلوه عليه ﷺ.

٨ ـ وجوب مراقبة الله تعالى ومراعاة القرابة واحترام العهود.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ ـ ١٢]

(٩) ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾[5]: أي باعوا آيات الله وأخذوا بدلها الكفر.

﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾: أي أعرضوا عن سبيل الله التي هي الإسلام كما صدوا غيرهم أيضًا. ﴿سَاءَ﴾: أي قبح.

(١٠) ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾: أي لا يراعون.

﴿إِلًّا﴾: الإل: الله، والقرابة والعهد وكلها صالحة هنا.

(١١) ﴿فَإِن تَابُوا﴾: أي من الشرك والمحاربة.

---

(١) إمام المسلمين هو الذي يتولى أمر التأمين لمن طلب ذلك من المشركين إذ هو نائب عن سائر المسلمين، ويجوز للمسلم ذكرًا كان أو أنثى أن يؤمن شخصًا ما لما له من حرمة لقول الرسول ﷺ: «**المسلمون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد واحدة على من سواهم**». وخالف بعضهم في المرأة فقالوا: لا بد من موافقة الإمام لها على تأمينها وخالف أبو حنيفة في العبد.

(٢) أحد، مرفوع بفعل محذوف يفسره ما بعده والتقدير: وإن استجارك أحد من المشركين فأجره.

(٣) الآية دليل على أن ما يسمع من صوت القارىء للقرآن هو كلام الله تعالى فيقول العبد: سمعت كلام الله حقًا وصدقًا.

(٤) ﴿كَيْفَ يَكُونُ﴾ إلخ.. كيف: للتعجب نحو قولك: كيف يسبقني فلان؟! في الآية إضمار كلمة غدر أي: كيف يكون لهم عهد مع إضمارهم الغدر بكم.

(٥) روي أنهم نقضوا عهدهم من أجل أكلة أطعمهم إيّاها أبو سفيان ومالٍ صرفه لهم ليقفوا معه ضد الرسول ﷺ والمسلمين.

(١٢) ﴿نَكَثُوٓا۟﴾: أي نقضوا وغدروا. ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾[(١)]: أي انتقدوا الإسلام في عقائده أو عباداته ومعاملاته. ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾: أي رؤساء الكفر المتبعين والمقلدين في الشرك والشر والفساد.

معنى الآيات:

(٩) ما زال السياق في الحديث عن المشركين، وبيان ما يلزم اتخاذه حيالهم فأخبر تعالى عنهم بقوله في الآيـة (٩): ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي باعوا الإيمان بالكفر فصدوا أنفسهم كما صدوا غيرهم من أتباعهم عن الإسلام الذي هو منهج حياتهم وطريق سعادتهم وكمالهم. فلذا قال تعالى مُقبحًا سلوكهم ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كما أخبر تعالى عنهم بأنهم لا يراعون في أي مؤمن يتمكنون منه الله عز وجل ولا قرابة بينه وبينهم، ولا معاهدة تربطهم مع قومه.

(١٠) فقال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝﴾ ووصفه تعالى إياهم بالاعتداء دال على أنهم لا يحترمون عهودًا ولا يتقون الله تعالى في شيء، وذلك لظلمة نفوسهم من جراء الكفر والعصيان، فلذا على المسلمين قتلهم حيث وجدوهم وأخذهم أسرى وحصارهم وسد الطرق عنهم حتى يلقوا السلاح ويسلموا لله، أو يستسلموا للمؤمنين اللهم إلا أن يتوبوا بالإيمان والدخول في الإسلام كما قال تعالى:

(١١) ﴿فَإِن تَابُوا۟[(٢)] وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي نبين الآيات القرآنية المشتملة على الحجج والبراهين على توحيد الله تعالى وتقرير نبوة رسول الله ﷺ، وعلى الأحكام الشرعية في الحرب والسلم كما في هذا السياق وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأن الذين لا يعلمون من أهل الجهالات لا ينتفعون بها لظلمة نفوسهم وفساد عقولهم بضلال الشرك والأهواء.

(١٢) وقوله تعالى في الآية الرابعة (١٢): ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم[(٣)] مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ يريد تعالى أولئك المعاهدين من المشركين إذ هم نكثوا أيمانهم التي أكدوا بها عهودهم فحلوا ما أبرموا ونقضوا ما أحكموا من عهد وميثاق وعابوا الإسلام وطعنوا فيه فهم إذًا أئمة الكفر ورؤساء الكافرين فقاتلوهم بلا هوادة، ولا تراعوا لهم أيمانًا حلفوها لكم فإنهم لا أيمان لهم. قاتلوهم رجاء أن ينتهوا من الكفر والخيانة والغدر فيوحدوا ويسلموا ويصبحوا[(٤)] مثلكم أولياء الله لا أعداءه.

هداية الآيات:

١ - ذم سلوك الكافرين وتصرفاتهم

---

(١) الطعن في الدين هو: استنقاصه، وأصل الطعن: الضرب في الجسم بالرمح لإفساده، واستعمل في الانتقاص للشخص والدين لإفساده. قال رسول الله ﷺ لما طُعن في إمارة أسامة لصغر سنه: «**إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقًا للإمارة**» في الصحيح. والطاعنون: المنافقون، واستدل بهذه الآية على كفر من طعن في الدين، ووجوب قتله وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد، وأنّ الذمي إذ طعن في الدين انتقض عهده ووجب قتله هذا مذهب الجمهور، وأبو حنيفة يرى استتابته فإن تاب وإلاّ قُتل.

(٢) من فرّق بين ثلاثة فرّق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة. من قال أطيع الله ولا أطيع الرسول فإن الله تعالى قال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ ومن قال: أقيم الصلاة ولا أوتي الزكاة والله يقول: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ومن قال: أشكر الله ولا أشكر لوالدي فإن الله قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

(٣) النكث: النقض وأصله في كل ما فتل أو أبرم ثم حل، واستعملت في الأيمان والعهود، قال الشاعر:

وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

(٤) نعم ما مات رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلاّ ثلاثة، ولم يبق من المنافقين إلا أربعة: روى البخاري عن زيد بن وهب قال: كنا عند حذيفة فقال: **ما بقي من أصحاب هذه الآية** يعني: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ..﴾ إلا ثلاثة ولا يبقى من المنافقين إلا أربعة فقال أعرابي: إنكم أصحاب محمد تخبرون أخبارًا لا ندري ما هي؟ تزعمون ألاّ منافق إلا أربعة، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا ـ نفائس أموالنا ـ قال حذيفة رضي الله عنه: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده، أي: لذهاب شهوته وفساد معدته.

في الحياة وحسبهم أن باعوا الحق بالباطل، واشتروا الضلالة بالهدى.

٢ - من كان الاعتداء وصفًا له لا يُؤمن على شيء، ولا يوثق فيه في شيء، لفساد ملكته النفسية.

٣ - أخوة الإسلام تثبت بثلاثة أمور: التوحيد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة[١].

٤ - الطعن في الدين ردة وكفر موجب للقتل والقتال.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣ - ١٦]

(١٣) ﴿أَلَا﴾: أداة تحضيض. ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾: نقضوها وحلوها فلم يلتزموا بها. ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾: من دار الندوة إذ عزموا على واحدة من ثلاث الحبس أو النفي أو القتل. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾: أي في بدر أو في ماء الهجير[٢] حيث أعانت قريش بني بكر على خزاعة.

(١٤) ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾: أي يذلهم ويهينهم. ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ﴾: أي يذهب الغيظ الذي كان بها على المشركين الظالمين.

(١٦) ﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾: أي بدون امتحان بالتكاليف كالجهاد. ﴿وَلِيجَةًۚ﴾: أي دخيلة وهي الرجل يدخل في القوم وهو ليس منهم ويطلعونه على أسرارهم وبواطن أمورهم.

معنى الآيات:

(١٣) ما زال السياق في الحديث عن المشركين وما يلزم إزاءهم من إجراءات فإنه بعد أن أعطاهم المدة المذكورة وأمنهم فيها وهي أربعة أشهر، وقد انسلخت فلم يبقَ إلا قتالهم وأخذهم وإنهاء عصبة المشركين وآثارها في ديار الله فقال تعالى حاضًا المؤمنين مهيجًا لهم: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ وهذه خطيئة كافية في وجوب قتالهم، وثانية همهم بإخراج الرسول ﷺ من بين أظهرهم من مكة وثالثة بدؤهم إياكم بالقتال في بدر، إذ عيرهم نجت وأبوا إلا أن يقاتلوكم، إذًا فلمَ لا تقاتلونهم؟ أتتركون قتالهم خشية منهم وخوفًا إن كان هذا ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، لأن ما لدى الله تعالى من العذاب ليس لدى المشركين فالله أحق أن يخشى، هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٣) وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ[٣] بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝﴾.

(١٤) وفي الآية الثانية (١٤) يقول تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ وهو أمر صريح بالقتال، وبذكر الجزاء المترتب على قتالهم فيقول: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ

الجزء العاشر — سورة التوبة

قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

١٨٩

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية حرّمت دماء أهل القبلة يعني قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾.

(٢) حوض من ماء واسع كبير يسقون منه تقاتلت عنده خزاعة حلفاء النبي ﷺ، وبنو بكر حلفاء قريش وأعانت قريش حلفاءها بني بكر وبذلك نقضت عهدها مع رسول الله ﷺ، وفي هذا يقول الخزاعي وافد الرسول ﷺ:

إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيّتونا بالهجير هجّدا ... وقتلونا ركعًا وسجدا

(٣) إذ كانوا السبب في خروجه من مكة مهاجرًا كما أخرجوه من المدينة لقتالهم في بدر ولفتح مكة كما همّوا بإخراجه من المدينة هو وأصحابه في أحد والخندق وغير ذلك.

بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وهم خزاعة تشفى صدورهم من الغيظ على بني بكر الذين قاتلوهم وأعانتهم قريش عليهم بعد صلح الحديبية(١).

(١٥) وقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ هذه وإن لم تكن جزاء للأمر بالقتال كالأربعة التي قبلها. ولكن سنة الله تعالى أن الناس إذا رأوا انتصار أعدائهم عليهم في كل معركة يميلون إليهم ويقبلون دينهم وما هم عليه من صفات فقتال المؤمنين للكافرين وانتصارهم عليهم يتيح الفرصة لكثير من الكافرين فيسلمون وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تقرير للأمر بالقتال والنتائج الطيبة المترتبة عليه آخرها أن يتوب الله على من يشاء.

(١٦) وقوله تعالى في الآية (١٦) الأخيرة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ(٢) أَن تُتْرَكُوا﴾ أي بدون امتحان وأنتم خليط منكم المؤمن الصادق ومنكم المنافق الكاذب، من جملة ما كان يوحي به المنافقون التثبيط عن القتال بحجة أن مكة فتحت وأن الإسلام عز فما هناك حاجة إلى مطاردة فلول المشركين، وهم يعلمون أن تكتلات يقودها الساخطون على الإسلام حتى من رجالات قريش يريدون الانقضاض على المسلمين وإهدار كل نصر تحقق لهم، وهذا المعنى ظاهر من سياق الآية ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً(٣)﴾ إذ هناك من اتخذوا من دون الله ورسوله ﷺ والمؤمنين وليجة يطلعونها على أمور المسلمين، ويسترون عليهم وهي بينهم دخيلة، ويقرر هذه الجملة التي ختمت بها الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ ـ مشروعية استعمال أسلوب التهييج والإثارة للجهاد.

٢ ـ وجوب خشية الله تعالى بطاعته وترك معصيته.

٣ ـ لازم الإيمان الشجاعة فمن ضعفت شجاعته ضعف إيمانه.

٤ ـ من ثمرات القتال دخول الناس في دين الله تعالى.

٥ ـ الجهاد عملية تصفية وتطهير لصفوف المؤمنين وقلوبهم أيضًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧، ١٨]

(١٧) ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾: أي ليس من شأنهم أو مما يتأتى لهم.
﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: أي بطلت فلا يثابون عليها ولا ينجحون فيها.
﴿يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾: أي بالعبادة فيها، وصيانتها وتطهيرها.

(١٨) ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾: أي لم يخف أحدًا غير الله تعالى.
﴿فَعَسَىٰ﴾: عسى من الله تعالى كما هي هنا تفيد التحقيق أي هدايتهم محققة. ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾: أي إلى سبيل النجاة من الخسران والظفر بالجنان.

معنى الآيتين:

(١٧) لا شك أن هناك من المشركين من ادعى أنه يعمر المسجد الحرام بالسدانة والحجابة والسقاية وسواء كان المدعي هذا العباس يوم بدر أو كان غيره فإن الله تعالى أبطل هذا الادعاء وقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾(٤) أي لا ينبغي لهم ذلك ولا يصح منهم، وكيف

---

(١) إذ قريش أعانت بني بكر على خزاعة التي هي حلفاء رسول الله ﷺ وذلك أنّ رجلاً من بني بكر أنشد شعرًا في هجاء الرسول ﷺ فقال له بعض رجال خزاعة: لئن أعدته لأكسرنّ فمك فأعاده فكسر فمه، واندلعت الحرب بينهم فأعانت قريش بني بكر فجاء عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبي ﷺ يطلب النصرة فخرج رسول الله ﷺ برجاله وكان فتح مكة.

(٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أم: هي المنقطعة بمعنى بل إضرابًا عما سبق من الكلام وانتقالاً إلى آخر، والاستفهام للإنكار، والحسبان بمعنى الظن والمعنى كيف تظنون أنكم تتركون بعد فتح مكة دون جهاد لأعداء الله ورسوله ﷺ وهم ما زالوا يتآمرون ويتجمعون لقتالكم.

(٣) الوليجة: البطانة من الولوج في الشيء وهو الدخول فيه، والمراد من هذا: الرجل يتخذ من أعداء الإسلام صديقًا يدخل عليه ويدخله عليه فيطلعه على أسرار المسلمين للنكاية بهم والتسلط عليهم لإضرارهم وإفسادهم وهلاكهم.

(٤) قيل: إنّ العباس لما أسر في بدر عُيّر بالكفر وقطيعة الرحم، قال لمن عيّره: تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا! فقال علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحاج ونفك العاني فنزلت هذه الآية ردًا عليه. فوجب على المسلمين تولي أحكام المساجد.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

١٩٠

وهم كفار شاهدون[١] على أنفسهم[٢] بالكفر، وهل الكافر بالله يعمر بيته وبماذا يعمره؟ وإذا سألت اليهودي ما أنت؟ يقول يهودي، وإذا سألت النصراني، ما أنت؟ يقول نصراني، وإذا سألت الوثني ما أنت؟ يقول مشرك، فهذه شهادتهم على أنفسهم بالكفر، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي البعداء في الكفر والضلال ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي بطلت وضاعت لفقدها الإخلاص فيها لله تعالى ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها متى دخلوها أبدًا، إذ ليس لهم من العمل ما يشفع لهم بالخروج منها.

﴿١٨﴾ ثم قرر تعالى الحقيقة وهي أن الذين يعمرون[٣] مساجد الله حقًا وصدقًا هم المؤمنون الموحدون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويخشون الله تعالى ولا يخشون سواه هؤلاء هم الجديرون بعمارة المساجد بالصلاة والذكر والتعلم للعلم الشرعي فيها زيادة على بنائها وتطهيرها وصيانتها هؤلاء جديرون بالهداية لكل كمال وخير يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ[٤] أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى ما هو الحق والصواب، وإلى سبيل النجاة من النار والفوز بالجنة.

هداية الآيتين:

١ ـ حرمة دخول الكافر المساجد إلا لحاجة وبإذن من المسلمين.

٢ ـ فضيلة عمارة المساجد بالعبادة فيها وتطهيرها وصيانتها.

٣ ـ فضيلة المسلم وشرفه، إذ كل من يسأل عن دينه يجيب بجواب هو الكفر إلا المسلم فإنه يقول: مسلم أي لله تعالى فهو إذًا المؤمن وغيره الكافر.

٤ ـ وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والخشية[٥] من الله تعالى.

٥ ـ أهل الأمن والنجاة من النار هم أصحاب الصفات الأربع المذكورة في الآية.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ ـ ٢٢]

﴿١٩﴾ ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾: مكان يوضع فيه الماء في المسجد الحرام ويسقى منه الحجاج مجانًا. ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: هنا عبارة عن بنائه وصيانته وسدانة البيت فيه. ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾: إذ عمارة المسجد الحرام مع

(١) قيل الأصل: وهم شاهدون فحذف (وهم) ونصب ﴿شَٰهِدِينَ﴾ على الحال.

(٢) قال ابن عباس: شهادتهم بالكفر هي: سجودهم للأصنام مع إقرارهم بأنها مخلوقة والله خالقها.

(٣) وردت أحاديث في فضل عمارة المساجد منها القوي ومنها الضعيف مجموعها يدل على المراد منها وهو حسن الظن بمن يعمر مساجد الله وأظهر حديث: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان**».

(٤) قالت العلماء: «عسى من الله واجبة أي: ما يرجى بها واجب الوقوع، وقيل: هي هنا بمعنى: خليق أي: فخليق أن يكونوا من المهتدين.

(٥) تساءل البعض وقالوا: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ دال على أن المؤمن الكامل الإيمان لا يخشى إلا الله وإذا بالواقع أن الأنبياء يخشون الأعداء فضلاً عن غيرهم فقال بعضهم معناه: أنهم لا يخشون إلا الله مما يُعبد، وقال بعضهم: أي لم يخف إلا الله في باب الدين. والجواب الصحيح: أنّ الإنسان نبيًا كان أو غيره من المؤمنين العاملين لا يخشون إلا الله تعالى فإذا خافوا عدوًا، ليس معناه: أنهم خافوه لذاته وإنما خافوا من الله أن يكون سلطة عليهم فخوفهم عائد في الحقيقة إلى الله تعالى فهو الذي بيده الأمر، والخوف منه لا من غيره.

الشرك والكفر لا تساوي شيئًا. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي المشركين لا يهديهم لما فيه كمالهم وسعادتهم.

(٢١) ﴿وَرِضۡوَٰنٖ﴾: أي رضا الله عز وجل عنهم. ﴿نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾: أي دائم لا يزول ولا ينقطع.

معنى الآيات:

(١٩) ما زال السياق في الرد على من رأى تفضيل عمارة المسجد الحرام[1] بالسقاية والحجابة والسدانة على الإيمان والهجرة والجهاد فقال تعالى موبخًا لهم: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ[2] سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ[3] وَعِمَارَةَ[4] ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ﴾ في حكم الله وقضائه بحال من الأحوال، والمشركون ظالمون كيف يكون لعمارتهم للمسجد الحرام وزن أو قيمة تذكر ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(٢٠) بعد هذا التوبيخ والبيان للحال أخبر تعالى أن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ هم ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً﴾ ممن آمنوا ولم يستكملوا هذه الصفات الأربع، وأخبر تعالى أنهم هم الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة.

(٢١) وأعظم من هذا ما جاء في قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ وهي الجنة ﴿وَرِضۡوَٰنٖ﴾ منه تعالى وهو أكبر نعيم ﴿وَجَنَّٰتٖ﴾ أي بساتين في الملكوت الأعلى ﴿لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ لا يحول ولا يزول وأنهم خالدون فيها لا يخرجون منها أبدًا.

(٢٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لا يقادر قدره جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا في زمرتهم.

هداية الآيات:

١ - أكمل المؤمنين وأعلاهم درجة، وأقربهم من الله منزلة من جمع الصفات الثلاث المذكورة في الآية (٢٠) وهي الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.

٢ - فضل الهجرة والجهاد.

٣ - تفاوت أهل الجنة في علو درجاتهم.

٤ - حرمان الظالمين المتوغلين في الظلم من هداية الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣، ٢٤]

(٢٣) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: جمع وليّ وهو من تتولاه بالمحبة والنصرة ويتولاك بمثل ذلك. ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾: أي أحبوا الكفر على الإيمان. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومن أحب من لا تجوز محبته فقد وضع شيئًا في غير موضعه فهو ظالم.

(٢٤) ﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾: أي قرابتكم من النسب كالأعمام الأباعد وأبنائهم. ﴿ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾: أي اكتسبتموها. ﴿كَسَادَهَا﴾: بوارها وعدم رواجها. ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: أي انتظروا. ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾: أي بعقوبة هذه المعصية يوم فتح مكة.

معنى الآيتين:

(٢٣) هذا إنذار الله تعالى للمؤمنين ينهاهم فيه عن اتخاذ من كفر من آبائهم وإخوانهم أولياء لهم يوادونهم ويناصرونهم ويطلعونهم على أسرار

---

(١) روي عن السدي أنه قال: افتخر العباس بالسقاية وشيبة بالعمارة وعلي بالإسلام والجهاد فصدَّق الله عليًا وكذبهما أي بهذه الآية: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ..﴾ إلخ.. فأخبر أن العمارة لا تكون بالكفر وإنما تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة.
وقيل أيضًا: إن المشركين سألوا اليهود وقالوا: نحن سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت لهم اليهود مكرًا وعنادًا: أنتم أفضل وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي ألا أعمل بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي ألا أعمل بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ولكن إذا صليت الجمعة دخلت واستفتيته عما اختلفتم فيه. فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ..﴾ الآية. وحل الإشكال في هذه الأخبار: أن الآية تذكر دليلاً لا أنها نزلت في ذلك الوقت.

(٢) أي: أجعلتم أهل سقاية الحاج، أو أصحاب سقاية الحاج، إذ حذف المضاف وهو: أهل أو أصحاب وبقي المضاف إليه وهو: سقاية فنصب انتصابه.

(٣) الحاج: اسم جنس ناب مناب الحجاج جمع حاج.

(٤) وقرىء: ﴿سُقاة﴾ بضم السين جمع ساقٍ وعمرة: جمع عامر ككتبة جمع كاتب.

المسلمين وبواطن أمورهم. فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي بالله ورسوله ﷺ ولقاء الله ووعده ووعيده ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ[1] وَإِخْوَٰنَكُمْ[2] أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ[3] عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي آثروا الكفر والإصرار عليه على الإيمان بالله ورسوله ﷺ ثم يهددهم إن لم يمتثلوا أمره ويفاصلوا آباءهم وإخوانهم المستحبين للكفر على الإيمان فيقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ[4]﴾ ووجه الظلم ظاهر وهو أنهم وضعوا المحبة موضع البغضاء، والنصرة موضع الخذلان. والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه.

(٢٤) ثم أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم، وفي هذا العدول عن خطابهم مباشرة إلى الواسطة ما يشعر بالغضب وعدم الرضى، والتهديد والوعيد ﴿قُلْ إِن كَانَ[5] ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ فتركتم الهجرة والجهاد لذلك ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي انتظروا أمر الله وهو فتح مكة عليكم وإنزال العقوبة بكم، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يوفقهم لسبل نجاتهم وسعادتهم.

هداية الآيتين:

١ - حرمة اتخاذ الكافرين أولياء يُوادون ولو كانوا من أقرب الأقرباء كالأب والابن والأخ.

٢ - من الظلم الفظيع موالاة من عادى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين.

٣ - فرضية محبة الله ورسوله ﷺ والجهاد في سبيله، ومحبة سائر محاب الله تعالى وكره سائر مكاره الله تعالى من العقائد والأحوال والأعمال والذوات والصفات.

٤ - حرمان أهل الفسق المتوغلين فيه من هداية الله تعالى إلى ما يكملهم ويسعدهم.

سورة التوبة — الجزء العاشر

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)

١٩١

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥ ـ ٢٨]

(٢٥) ﴿فِى مَوَاطِنَ﴾: المواطن جمع موطن بمعنى الوطن وهو محل إقامة الإنسان. ﴿حُنَيْنٍ﴾: وادٍ على بعد أميال يسيرة من الطائف. ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾: أي كثرة عددكم حتى قال من قال: لن نغلب اليوم من قلة. ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾: أي لم تجز عنكم شيئًا من الإجزاء إذ انهزمتم في أول اللقاء. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾: أي لم تعرفوا أين تذهبون، وكيف

---

(١) هذه الآية ما تضمنته من حكم حرمة موالاة الكافرين ولو كانوا من أقرب الأقرباء وهو عام في الأمة إلى يوم القيامة، وإن فهم منها بعضهم أنها للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها يدعوهم إلى الهجرة والتخلي عن بلاد الكفر.

(٢) لم يذكر الأبناء لأنّ العادة أنّ الأبناء تبع لآبائهم وذكر الآباء والإخوان ذكر لأقوى القرابة.

(٣) استحبوا: بمعنى أحبوا نحو: استجاب بمعنى: أجاب.

(٤) قال ابن عباس: من تولاهم هو مشرك مثلهم لأنّ الرضا بالشرك شرك ويستثنى من هذه المقاطعة الإحسان والهبة للأقارب الكفرة لحديث أسماء إذ قالت: يا رسول الله إنّ أمي قدمت عليّ راغبة وهي مشركة أفأصلها؟ قال: «**صلي أمك**». رواه البخاري.

(٥) هذه الآية نزلت في الذين تخلفوا عن الهجرة إلى المدينة إيثارًا لما ذكر تعالى على حب الله ورسوله ﷺ والجهاد في سبيل الله تعالى إذ توعدهم تعالى بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: انتظروا ما سيحل بكم إن لم تتوبوا فتهاجروا وتجاهدوا.

تتصرفون كأنكم محصورون في مكان ضيق. ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾: أي على رحابتها وسعتها.

(٢٦) ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾: أي الطمأنينة في نفوسهم، فذهب القلق والاضطراب. ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا﴾: أي من الملائكة.

(٢٨) ﴿نَجَسٌ﴾: أي ذوو نجس وذلك لخبث أرواحهم بالشرك. ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾: عام تسعة من الهجرة. ﴿عَيْلَةً﴾: أي فقرًا وفاقة وحاجة.

معنى الآيات:

(٢٥) لما حرم الله على المؤمنين موالاة الكافرين ولو كانوا أقرباءهم وحذرهم من القعود عن الهجرة والجهاد، وكان الغالب فيمن يقعد عن ذلك إنما كان لجبنه وخوفه أخبرهم تعالى في هذه الآيات الثلاث أنه ناصرهم ومؤيدهم فلا يقعد بهم الجبن والخوف عن أداء الواجب من الهجرة والجهاد فقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ[١] كَثِيرَةٍ﴾ كبَدْر والنضير وقريظة والفتح وغيرها ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾[٢] حين قاتلوا قبيلة هوازن مذكرًا إياهم بهزيمة أصابت المؤمنين نتيجة خطأ من بعضهم وهو الاغترار بكثرة العدد إذ قال من قال منهم: لن نغلب اليوم من قلة إذ كانوا اثني عشر ألفًا[٣] وكان عدوهم أربعة آلاف فقط، إنهم ما إن توغلوا بين جنبتي الوادي حتى رماهم العدو بوابل من النبل والسهام فلم يعرفوا كيف يتصرفون حتى ضاقت عليهم الأرض على سعتها وولوا مدبرين هاربين ولم يثبت إلا رسول الله ﷺ وكان على بغلته البيضاء المسماة بـ(الدُلْدُل) والعباس إلى جنبه وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عمه، ثم نادى منادي رسول الله ﷺ: أن يا أصحاب سورة البقرة هلموا أصحاب السمرة (شجرة بيعة الرضوان) هلموا.

(٢٦) فتراجعوا إلى المعركة ودارت رحاها و﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا﴾ تلامس القلوب وتنفخ فيها روح الشجاعة والصبر والثبات، فصبروا وقاتلوا وما هي إلا ساعة وإذا بالعدو سبي بين أيديهم ولم يحصل لهم أن غنموا يومًا مثل ما غنموا هذا اليوم إذ بلغ عدد الإبل اثني عشر ألف بعير، ومن الغنم ما لا يحصى ولا يُعدّ. بهذا جاء قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[٤] أي هاربين من العدو ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا﴾ أي من الملائكة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي هوازن ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي القتل والسبي ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله ورسوله ﷺ.

(٢٧) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾[٥] أي بعد قتالكم للكافرين وقتلكم من تقتلون يتوب الله على من يشاء ممن بقوا أحياء بعد الحرب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لمن يتوب عليه من المشركين ماضي ذنوبه من الشرك وسائر الذنوب ويرحمه بأن يدخله الجنة مع من يشاء من المؤمنين الصادقين في إيمانهم هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث.

(٢٨) أما الآية الرابعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ[٦] فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ

---

(١) المواطن: جمع موطن وهو مكان التوطّن أي: الإقامة ويطلق على موضع الحرب وموقعها.

(٢) خص يوم حنين بالذكر لما وقع فيه من الهزيمة في أوّل المعركة.

(٣) عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفان من مسلمة الفتح وهم الطلقاء وهزموا من أجل قول بعضهم: لن نغلب اليوم عن قلة وهو ما يسمى بالعجب وهو محبط للعمل.

(٤) روى مسلم عن ابن إسحق قال: جاء رجل إلى البراء فقال: أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة؟ فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى ولكنه انطلق أخفّاء من الناس وحسّر إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول: «**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب اللهم نزل نصرك**» قال البراء: كنا والله إذا احمّر البأس نتقي به.

(٥) كمالك بن عوف النصري رئيس حنين ومن أسلم معه من قومه.

(٦) قيل: وصف المشرك بالنجس: لأنه جنب لا يغتسل من جنابة غسلاً شرعيًا فهو لذلك نجس، وقيل: الشرك هو الذي جعله نجسًا إذ لو أسلم زال عنه الوصف.

هَـٰذَا[١]﴾ فإنه تعالى أمر المؤمنين بأن يمنعوا من دخول المسجد الحرام كل مشرك ومشركة لأن المشرك نجس الظاهر والباطن فلا يحل دخولهم إلى المسجد الحرام وهو مكة والحرم حولها، ومن يومئذ لم يدخل مكة مشرك، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾[٢] أي فقرًا لأجل انقطاع[٣] المشركين عن الموسم حيث كانوا يجلبون التجارة يبيعون ويشترون فيحصل نفع للمسلمين ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فامنعوا المشركين ولا تخافوا الفقر. وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ استثناء منه تعالى حتى تبقى قلوب المؤمنين متعلقة به سبحانه وتعالى راجية خائفة غير مطمئنة غافلة، وكونه تعالى عليمًا حكيمًا يرشح المعنى المذكور فإن ذا العلم والحكمة لا يضع شيئًا إلا في موضعه فلا بد لمن أراد رحمة الله أو فضل الله أن يجتهد أن يكون أهلاً لذلك، بالإيمان والطاعة العامة والخاصة.

هداية الآيات:

١ - حرمة العجب بالنفس والعمل إذ هو أي العجب من العوائق الكبيرة عن النجاح.

٢ - بيان إفضال الله تعالى وإكرامه لعباده المؤمنين.

٣ - بيان الحكمة من القتال في سبيل الله تعالى.

٤ - تقرير نجاسة الكافر المعنوية.

٥ - منع دخول المشرك الحرم المكي كائنًا من كان بخلاف باقي المساجد فقد يؤذن للكافر لمصلحة أن يدخل بإذن المسلمين.

٦ - لا يمنع المؤمن من امتثال أمر ربه الخوف من الفاقة والفقر فإن الله تعالى تعهد بالإغناء إن شاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٩]

(٢٩) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾: أي إيمانًا صحيحًا يرضاه الله تعالى لموافقة الحق والواقع. ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾: أي كالخمر والربا وسائر المحرمات. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾: أي الإسلام إذ هو الدين الذي لا يقبل دينًا سواه. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: أي اليهود والنصارى. ﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾: أي الخراج المعلوم الذي يدفعه الذمي كل سنة. ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾[٤]: أي يقدمونه بأيديهم لا ينيبون فيه غيرهم، وهم صاغرون: أي أذلاء منقادون لحكم الإسلام هذا.

معنى الآية الكريمة:

لما أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بقتال المشركين حتى يتوبوا من الشرك ويوحدوا ويعبدوا الله تعالى بما شرع أمر رسوله ﷺ في هذه الآية والمؤمنين بقتال أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وجعل إعطاء الجزية غايةً لنهاية القتال، لا الإسلام، لأن الإسلام يعرض أولاً على أهل الكتاب فإن قبلوه فذاك وإن رفضوه يطلب منهم الدخول في ذمة المسلمين وحمايتهم تحت شعار الجزية وهي رمز دال على قبولهم حماية المسلمين وحكمهم بشرع الله تعالى فإذا أعطوها حقنوا دماءهم وحفظوا أموالهم، وأمنوا في حياتهم المادية والروحية، هذا ما تضمنته الآية الكريمة ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ[٥] بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ

---

(١) هو عام حجة الوداع وليس عام تسعة كما قال بعضهم.

(٢) قال الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الغني متى يعيل

يقال: عال يعيل عيلة: إذا افتقر.

(٣) في الآية دليل على مشروعية الأخذ بالأسباب إذ قال ﷺ: «**اعقلها وتوكل**» قال بعضهم: الأسباب التي يطلب بها الرزق هي الجهاد وأكل الرجل من عمل يده: التجارة، الحرث، والغرس، التعليم للعلوم بالأجرة، الاستدانة بنيّة رد الدين.

(٤) وفسّر قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ بالقوة على دفع الجزية بأن يكون المطالب بها قادرًا على أدائها لغناه وعدم فقره. وهو تفسير حق لأنّ الفقير منهم لا يطالب بالجزية في حال فقره، وما في التفسير أصحّ.

(٥) الآية صريحة في عدم اعتبار إيمان اليهود والنصارى بالله واليوم الآخر إيمانًا صحيحًا يزكي النفس ويؤهل لدخول الجنة، وهذا

يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

١٩٢

دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ[1] حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ۞﴾ وإن قيل اليهود والنصارى يؤمنون بالله وباليوم الآخر فكيف نفت الآية عنهم ذلك؟ والجواب أن اليهود في إيمانهم بالله مشبهة مجسمة يصفون الله تعالى بصفات تعالى الله عنها علوًا كبيرًا، والنصارى يعتقدون أن الله حلّ في المسيح، وأن الله ثالث ثلاثة والله ليس كذلك فهم إذًا لا يؤمنون بالله تعالى كما هو الله الإله الحق، فلذا إيمانهم باطل وليس بإيمان يضاف إلى ذلك أنهم لو آمنوا بالله لآمنوا برسوله محمد ﷺ ولو آمنوا باليوم الآخر لأطاعوا الله ورسوله ﷺ لينجوا من عذاب اليوم الآخر وليسعدوا فيه بدخول الجنة فلما لم يؤمنوا ولم يعملوا كانوا حقًا كافرين غير مؤمنين، وصدق الله العظيم حيث نفى عنهم الإيمان به وباليوم الآخر، والله أعلم بخلقه من أنفسهم.

هداية الآية الكريمة:

١ - وجوب قتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يدخلوا في حكم الإسلام وذلك من أجل إعدادهم للإسلام ليكملوا عليه ويسعدوا به.

٢ - الإيمان غير الصحيح لا يعتبر إيمانًا منجيًا ولا مسعدًا.

٣ - استباحة ما حرم الله من المطاعم والمشارب والمناكح كفر صريح.

٤ - مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب وهي مقدّرة[2] في كتب الفقه مبينة وهي بحسب غنى المرء وفقره وسعته وضيقه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠ - ٣٣]

﴿٣٠﴾ ﴿عُزَيۡرٌ﴾: هو الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، واليهود يسمونه: عِزْرا. ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: هو عيسى ابن مريم عليهما السلام. ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾: أي يشابهون. ﴿قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي من آبائهم وأجدادهم الماضين. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾: أي لعنهم الله لأجل كفرهم. ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾: أي كيف يصرفون عن الحق.

﴿٣١﴾ ﴿أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾: الأحبار جمع حبر: علماء اليهود، والرهبان جمع راهب عابد النصارى. ﴿أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي آلهة يشرعون لهم فيعملون بشرائعهم من حلال وحرام.

﴿٣٢﴾ ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾: أي الإسلام لأنه هاد إلى الإسعاد والكمال في الدارين. ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: أي بالكذب عليه والطعن فيه وصرف الناس عنه.

﴿٣٣﴾ ﴿رَسُولَهُۥ﴾: محمدًا ﷺ.

معنى الآيات:

﴿٣٠﴾ لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب لكفرهم وعدم إيمانهم الإيمان الحق المنجي من النار ذكر في هذه الآيات الثلاث ما هو مقرر

= لأمرين: الأول: لما داخل إيمانهم من التحريف والتغيير فلم يكن إيمانهم بركني الإيمان العظيمين الإيمان بالله واليوم الآخر إيمانًا صحيحًا مقبولاً شرعًا فلذا عُد كلا إيمان. والثاني: لأنهم لو آمنوا بالله ولقائه حق الإيمان لآمنوا برسوله محمد ﷺ وبما جاء به من الهدى، ولاستقاموا على شرع الله فأحلوا ما أحل وحرموا ما حرم.

(١) المجوس والصابئة لم يذكرا في الآية، والذي به العمل عند عامة الفقهاء أنهم يسنّ بهم سنة أهل الكتاب في قبول الجزية منهم وإدخالهم في ذمة المسلمين.

(٢) تقدَّر بدينار من الذهب، وإن صالحهم الإمام عن أكثر فهم على ما صالحهم عليه.

لكفرهم ومؤكد له فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ[1] ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ ونسبة الولد إلى الله تعالى كفر بجلاله وكماله ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[2] ونسبة الولد إليه تعالى كفر به عز وجل وبما له من جلال وكمال، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ليس له من الواقع شيء إذ ليس لله تعالى ولد، وكيف يكون له ولد ولم تكن له زوجة، وإنما ذلك قولهم بأفواههم فقط: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾[3] أي يشابهون به ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾[4] وهم اليهود الأولون وغيرهم. وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ دعاء عليهم باللعن والطرد من رحمة الله تعالى، وقوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق ويبعدون عنه بهذه الصورة العجيبة.

(٣١) وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ[5] وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[6] هذا دليل آخر على كفرهم وشركهم إذ قبولهم قول علمائهم وعبادهم والإذعان له والتسليم به حتى أنهم ليحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه، شرك وكفر والعياذ بالله. وقوله: ﴿وَٱلْمَسِيحَ[7] ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي اتخذه النصارى ربًا وإلهًا، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي لم يأمرهم أنبياؤهم كموسى وعيسى وغيرهما إلا بعبادة الله تعالى وحده لا إله إلا هو ولا رب سواه وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزه تعالى نفسه عن شركهم.

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يريد اليهود والنصارى أن يطفئوا نور الله الذي هو الإسلام بأفواههم بالكذب والافتراء، والعيب والانتقاص، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ[8]﴾، وقد فعل فله الحمد وله المنة، وأصبح الإسلام الظاهر على الأديان كلها، هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث.

(٣٣) أما الآية الرابعة **(٣٣)** فقد أخبر تعالى أنه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ أي محمدًا ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ وهو القرآن ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو الإسلام. وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي الدين الحق الذي هو الإسلام ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[9]. وقد فعل فالإسلام ظاهر في الأرض كلها سمع به أهل الشرق والغرب ودان به

---

(١) قرأ عاصم: ﴿**عزيرٌ**﴾ بالتنوين، وقرأ نافع بغير تنوين، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ..﴾ فهو لفظ عام، والمراد به الخصوص إذ ما كلّ اليهود قالوا بهذه القولة ولا كل الناس وإنما بعضهم.

(٢) في الآية دليل على أن حاكي الكفر، وهو منكر له بقلبه ولسانه لا يكفر.

(٣) يقال: امرأة ضهيأ: للتي لا تحيض ولا ثدي لها كأنها أشبهت الرجل.

(٤) أي: شابه قولهم قول الكافرين من قبلهم وهم أسلافهم الذين قلدوهم أو قول العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله. تعالى الله عن البنت والولد علوًا كبيرًا.

(٥) الحِبر بكسر الحاء: المداد، وبفتحها العالم، والرهبان: جمع راهب مأخوذ من الرهبة، والراهب الحق هو من حمله خوف الله على أن يخلص له النية في القول والعمل ويجعل زمانه له وعمله له وأنسه به.

(٦) روى الترمذي عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «**ما هذا يا عديّ؟ اطرح عنك هذا الوثن**» وسمعته يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ وسئل حذيفة رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هل عبدوهم؟ قال: لا ولكن أحلّوا لهم الحرام فاستحلوه وحرموا عليهم الحلال فحرموه.

(٧) يطلق لفظ المسيح على العرق لأنه إذا سال يُمسح من الجبين قال أحدهم شعرًا:

افرح فسوف تألف الأحزانا ... إذا شهدت الحشر والميزانا
وسال من جبينك المسيح ... كأنه جداول تسيح

(٨) صحّ دخول «إلاّ» على الإثبات هنا لأنّ أبى يحذف معها الكلام فيقال: يأبى فلان كل شيء إلا أن يطاع مثلاً. فمعنى الآية: يأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره.

(٩) شاهده: رواية أحمد: عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر**

أهل الشرق والغرب وسيأتي يوم يسود فيه المسلمون أهل الدنيا قاطبة بإذن الله تعالى.

هداية الآيات:

١ - تقرير كفر اليهود والنصارى بذكر عقائدهم الكفرية.

٢ - طاعة العلماء ورجال الدين طاعة عمياء حتى يحلوا ويحرموا فيتبعوا شرك.

٣ - بيان عداء اليهود والنصارى للإسلام وتعاونهم على إفساده وإفساد أهله.

٤ - بشرى المسلمين بأنهم سيسودون العالم في يوم من الأيام ويصبح الإسلام هو الدين الذي يعبد الله به في الأرض لا غيره، ويشهد لهذا آية ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فلو لم يعلم الله أن ذلك كائن لم يجعله غاية وطالب بالوصول إليها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤، ٣٥]

(٣٤) ﴿بِالْبَاطِلِ﴾: أي بدون حق أباح لهم أكلها. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي يصرفون أنفسهم وغيرهم عن الإسلام الذي هو السبيل المفضي بالعبد إلى رضوان الله تعالى. ﴿يَكْنِزُونَ﴾: يجمعون المال ويدفنونه حفاظًا عليه ولا يؤدون حقه. ﴿الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾: هما النقدان المعروفان. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي حيث رضا الله كالجهاد وإطعام الفقراء والمساكين. ﴿فَبَشِّرْهُم﴾: أي أخبرهم بعذاب أليم: أي موجع.

(٣٥) ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾: لأنها تحول إلى صفائح ويحمى عليها ثم تكوى بها جباههم. ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾: أي يقال لهم عند كيهم بها: هذا ما كنزتم لأنفسكم توبيخًا لهم وتقريعًا.

معنى الآيتين:

(٣٤) بمناسبة ذكر عداء اليهود والنصارى للإسلام والمسلمين، وأنهم يريدون دومًا وأبدًا إطفاء نور الله بأفواههم، ذكر تعالى ما هو إشارة واضحة إلى أنهم ماديون لا همّ لهم إلا المال والرئاسة فأخبر المسلمين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ﴾[(١)] وهم علماء اليهود ﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ وهم رجال الكنائس من النصارى ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ كالرشوة، وكتابة صكوك الغفران يبيعونها للسفلة منهم، إلى غير ذلك من الحيل باسم الدين[(٢)]، وقوله تعالى عنهم: ﴿وَيَصُدُّونَ[(٣)] عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دليل واضح على أنهم يحاربون الإسلام باستمرار للإبقاء على مناصبهم الدينية يعيشون عليها يترأسون بها على السفلة والعوام من اليهود والنصارى، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾[(٤)(٥)] لفظ عام يشمل الأحبار والرهبان وغيرهم من سائر الناس من المسلمين ومن أهل

= ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل إمّا يعزّهم الله فيجعلهم من أهلها وإمّا يذلهم فيدينون لها».

(١) الآية نزلت في أهل الكتاب كشفًا عن عوراتهم المادية، وأما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ..﴾ إلخ.. فهو حكم عام يشمل المسلمين وأهل الكتاب.

(٢) قيل: كانوا يأخذون من غلات أتباعهم ومن أموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع، وقلدهم الروافض، فإن أئمتهم يأخذون منهم ضرائب هي خمس دخل كل فرد من أي جهة كان هذا الدخل أخبرني بهذا أحد رجالهم في الكويت.

(٣) من صدّهم عن سبيل الله أنهم كانوا يمنعون أتباعهم من الدخول في الإسلام ومن اتباع محمد ﷺ.

(٤) دلت الآية على زكاة العين: الذهب والفضة وهي تجب بأربعة شروط: الحرية، والإسلام، والحول، والنصاب السليم من الدين، والنصاب مائتا درهم فضة أو عشرون دينارًا من الذهب، ويكمل أحدهما من الآخر، ومن السنة قوله ﷺ: **«ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول»** رواه أبو داود. قوله ﷺ: **«ليس في أقل من مائتي درهم زكاة، وليس في أقل من عشرين دينارًا زكاة»** في الصحيح.

(٥) روى أبو داود عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ قال: كبر ذلك على المسلمين فقال عمر: أنا أفرج عنكم فانطلق فقال: يا نبي الله إنه كبُر على أصحابك هذه الآية، فقال: **«إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقي من أموالكم وإنما فرض المواريث في أموالكم لتكون لمن بعدكم»** فكبّر عمر فقال له رسول الله ﷺ: **«ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء: المرأة الصالحة: إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته»**.

الكتاب إلا أن الرهبان والأحبار يتناولهم اللفظ أولاً، لأن من يأكل أموال الناس بالباطل ويصد عن سبيل الله أقرب إلى أن يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله، وقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أخبرهم معجلاً لهم الخبر في صورة بشارة، وبين نوع العذاب الأليم بقوله:

(٣٥) ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي صفائح الذهب والفضة بعد تحويلها إلى صفائح ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ أي من كل الجهات الأربع من أمام ومن خلف وعن يمين وعن شمال ويقال لهم تهكمًا بهم وازدراء لهم وهو نوع عذاب أشد على النفس من عذاب الجسم ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

هداية الآيتين:

١ ـ بيان حقيقة علماء اليهود والنصارى، وهي أنهم ماديون باعوا آخرتهم بدنياهم يحاربون الإسلام ويصدون عنه للمحافظة على الرئاسة وللأكل على حساب الإسلام.

٢ ـ حرمة أكل أموال الناس بالباطل.

٣ ـ حرمة جمع المال وكنزه وعدم الإنفاق منه.

٤ ـ المال الذي تؤدى زكاته كل حول لا يقال له كنز ولو دفن تحت الأرض.

٥ ـ بيان عقوبة من يكنز المال ولا ينفق منه في سبيل الله وهي عقوبة شديدة.

الجزء العاشر — سورة التوبة

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

١٩٣

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦، ٣٧]

(٣٦) ﴿عِدَّةَ﴾: أي عدد. ﴿الشُّهُورِ﴾[1]: جمع شهر والشهر تسعة وعشرون يومًا، أو ثلاثون يومًا. ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: أي كتاب المقادير: اللوح المحفوظ. ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾: هي رجب، والقعدة، والحجة، ومحرم، الواحد منها حرام والجمع حرم. ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[2]: أي الشرع المستقيم الذي لا اعوجاج فيه. ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾: أي لا ترتكبوا في الأشهر الحرم المعاصي فإنها أشد حرمة. ﴿كَافَّةً﴾: أي جميعًا وفي كل الشهور حلالها وحرامها. ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: أي بالتأييد والنصر، والمتقون هم الذين لا يعصون الله تعالى.

(٣٧) ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾: أي تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر. ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾: أي النسيء عامًا يحلونه وعامًا يحرمونه.

﴿لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾: أي ليوافقوا عدد الشهور المحرمة وهي أربعة. ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾: أي زين لهم الشيطان هذا التأخير للشهر الحرام وهو عمل سيء لأنه افتيات على الشارع واحتيال على تحليل الحرام.

معنى الآيتين:

(٣٦) عاد السياق للحديث على المشركين بعد ذلك الاعتراض الذي كان للحديث عن أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ لا تزيد ولا تنقص، وأنها هكذا في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ

(١) المراد بالشهور: ما تتألف منه السنة القمرية، واحدها: شهر، مشتق من الشهرة سميت به الأيام من أوّل ظهور الهلال إلى سراره.

(٢) أي: الصحيح، والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ إلى عدة الشهور، وتقسيمها إلى حُرم وغيرها وإلى عدم ارتكاب الذنوب فيها.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[(١)] وأن منها أربعة أشهر حرم أي محرمات وهي رجب، والقعدة والحجة ومحرم، وحرمها الله تعالى أي حرم القتال فيها لتكون هدنة يتمكن العرب معها من السفر للتجارة وللحج والعمرة ولا يخافون أحدًا، ولما جاء الإسلام وأعز الله أهله، نسخ حرمة القتال فيها. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي تحريم هذه الأشهر واحترامها بعدم القتال فيها هو الشرع المستقيم وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا ترتكبوا الذنوب والمعاصي في الأشهر الحرم فإن ذلك يوجب غضب الله تعالى وسخطه عليكم فلا تعرضوا أنفسكم له، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا خطاب للمؤمنين يأمرهم تعالى بقتال المشركين بعد انتهاء المدة التي جعلت لهم وهي أربعة أشهر، وقوله: ﴿كَآفَّةً﴾[(٢)] أي جميعًا لا يتأخر منكم أحد كما هم يقاتلونكم مجتمعين على قتالكم فاجتمعوا أنتم على قتالهم، وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين اتقوا الشرك والمعاصي ومعناه أن الله معكم بنصره وتأييده على المشركين العصاة.

(٣٧) وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ[(٣)] زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي إنما تأخير حرمة محرم إلى صفر كما يفعل أهل الجاهلية ليستبيحوا القتال في الشهر الحرام بهذه الفُتيا الشيطانية هذا التأخير زيادة في كفر الكافرين[(٤)]، لأنه محاربة لشرع الله وهي كفر قطعًا لقوله تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي بالنسيء يزدادون ضلالاً فوق ضلالهم. وقوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ يعني النسيء وهو الشهر الذي أخروه أي أخروا حرمته إلى الشهر الذي بعده ليتمكنوا من القتال في الشهر الحرام، فعامًا يحلون وعامًا يحرمون حتى يوافقوا عدة الأشهر الحُرُم بلا زيادة ولا نقصان، ظنًا منهم أنهم ما عصوا مستترين بهذه الفتيا الإبليسية كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ والمزين للباطل قطعًا هو الشيطان. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يخبر تعالى أنه عز وجل لا يهدي القوم الكافرين لما هو الحق والخير وذلك عقوبة لهم على كفرهم به وبرسوله ﷺ، وإصرارهم على ذلك.

هداية الآيتين:

١ - بيان أن شهور السنة الهجرية اثنا عشر شهرًا[(٥)] وأيامها[(٦)] ثلثمائة

---

(١) قوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ..﴾ قاله ليبيِّن أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك وأنه سبحانه وتعالى وضع هذه الشهور وسمّاها بأسمائها يوم خلق السماوات والأرض.

(٢) كافة: معناه جميعًا، وهو مصدر في موضع الحال أي: محيطين بهم ومجتمعين. قالوا: نظير كافة: في كونه لا يثنى ولا يجمع: عاقبة وعامة وخاصة.

(٣) قرأ الجمهور: ﴿**النسيء**﴾ مهموزًا وقرأ ورش: ﴿**النسيّ**﴾ بالياء المشددة، وهو فعيل بمعنى مفعول في قولك: نسأت الشيء أنسأه إذا أخّرته، فنقل من منسوء إلى نسيء كما نقل مقتول إلى قتيل لأنّه أخف، وأصل هذا التشريع الجاهلي: أنّ العرب قبل الإسلام كانوا أهل حروب فإذا احتاجوا إلى القتال في الشهر الحرام طلبوا من زعيمهم أن ينسيء المحرّم أي: يؤخره إلى صفر حتى يمكنهم الحرب في المحرم بعد الحج وما زالوا يؤخرون ويقدمون حتى اختلطت الشهور وأصبح رجب جمادى ورمضان شوال وهكذا، ودارت الشهور دورتها، وفي عام حجة الوداع أعلن الرسول ﷺ عن ذلك بقوله: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض**» يريد أن الشهور قد رجعت إلى مواضعها، وأصبح كل شهر في موضعه فوقع حجّ النبي ﷺ في موضعه.

(٤) إذ كفروا بالشرك وإنكار المعاد وتكذيب الرسل، ونسبة الولد لله تعالى. ثم بالنسيء ازدادوا كفرًا.

(٥) وهي: محرّم ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم، وصفر يجمع على أصفار وربيع الأول ويجمع على أربعاء وأربعة وربيع الثاني وجمادى الأولى ويجمع على جُماديات وتذكّر وتؤنث فيقال: الأولى والأول، وجمادى الآخرة والآخر، ورجب ويجمع على أرجاب ورجاب، وشعبان ويجمع على شعابين وشعبانات، ورمضان ويجمع على رمضانات، ورماضين وأرمضة وشوال ويجمع على شواول وشواويل وشوالات، ذو القعدة ويجمع على ذوات القعدة وذو الحِجة بكسر الحاء وفتحها ويجمع على ذوات الحجة.

(٦) وهي: الأحد ويجمع على آحاد وأوحاد ووحود، والاثنين ويجمع على أثانين، والثلاثاء يذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات

وخمسة وخمسون يومًا.

٢ - بيان أن الأشهر الحرم أربعة وقد بيّنها الرسول ﷺ وهي رجب، والقعدة والحجة ومحرم.

٣ - حرمة الأشهر الحرم، ومضاعفة السيئات فيها أي قبح الذنوب فيها.

٤ - صفة المعية للّه تعالى وهي معية خاصة بالنصر والتأييد لأهل تقواه.

٥ - حرمة الاحتيال[1] على الشرع بالفتاوى الباطلة لإحلال الحرام، وأن هذا الاحتيال ما هو إلا زيادة في الإثم.

٦ - تزيين الباطل وتحسين المنكر من الشيطان.

٧ - حرمان أهل الكفر والفسق من هداية الله تعالى وتوفيقه لما هو حق وخير حالاً ومآلاً.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ - ٤٠]

(٣٨) ﴿مَا لَكُمْ﴾[2]: أي أي شيء ثبت لكم من الأعذار. ﴿ٱنفِرُواْ﴾: أي اخرجوا مستعجلين مندفعين. ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾: أي تباطأتم كأنكم تحملون أثقالاً.

(٤٠) ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾: أي الرسول محمد ﷺ. ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾: أي هو وأبو بكر رضي الله عنه. ﴿فِى ٱلْغَارِ﴾: غار ثور أي في جبل يقال له ثور بمكة. ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه. ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾: أي طمأنينته. ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: هي الدعوة إلى الشرك. ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾: أي مغلوبة هابطة لا يسمع لها صوت. ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾: أي دعوة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هي العليا الغالبة الظاهرة.

معنى الآيات:

(٣٨) هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك فقد بلغ النبي ﷺ أن هرقل ملك الروم قد جمع جموعه لحرب الرسول ﷺ، فأعلن النبي ﷺ التعبئة العامة، وكان الزمن صيفًا حارًا وبالبلاد جدب ومجاعة، وكان ذلك في شوال من سنة تسع، وسميت هذه الغزوة بغزوة العسرة فاستحثَّ الرب تبارك وتعالى المؤمنين ليخرجوا مع نبيهم ﷺ لقتال أعدائه الذين عزموا على غزوه في عقر داره فأنزل تعالى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والقائل هو رسول الله ﷺ ﴿ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي اخرجوا للجهاد ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لأجل رضاه سبحانه وتعالى وما عنده من نعيم مقيم. وقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ أي أي شيء يجعلكم لا تنفرون؟ وأنتم المؤمنون طلاب الكمال والإسعاد في الدارين. وقوله: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ[3] إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تباطأتم عن الخروج راضين ببقائكم في دوركم وبلادكم ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾[4]؟ ينكر تعالى على من هذه حاله منهم، ثم يقول لهم: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما كل ما يوجد فيها من متع على اختلافها بالنسبة إلى ما في الآخرة من نعيم مقيم في جوار رب العالمين ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ تافه لا قيمة له، فكيف تؤثرون القليل على الكثير والفاني على الباقي.

(٣٩) ثم قال لهم: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ أي إن تخليتم عن نصرته ﷺ وتركتموه

= وأثالث والأربعاء ويجمع على أربعاوات وأرابيع، والخميس ويجمع على أخمسة وأخامس، والجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها ويجمع على جمع وجمعات، والسبت ويجمع على سبوت كفتح وفتوح وأسبات كقمع وأقماع.

(١) اختلف فيمن كان أوّل من نسأ فقيل: عمرو بن لحي، وقيل: رجل من كنانة يقال له القلمّس قال شاعرهم:

ومنا ناسىء الشهر القلمّس

وقال الكميت:

ألسنا الناسئين على معد ... شهور الحل نجعلها حراما

(٢) (ما): حرف استفهام ومعناه التقرير والتوبيخ.

(٣) أصل ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾: تثاقلتم فأدغمت التاء في الثاء لقرب مخرجهما وزيدت همزة الوصل للتوصل إلى النطق بالساكن ومثله: ادّاركوا وادارأتم، واطّيرنا، وازّينت.

(٤) أي: أرضيتم بنعيم الدنيا وراحتها بدلاً من نعيم الآخرة وسعادتها.

يخرج إلى قتال الروم وحده ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ[(١)] وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي هذا الخبر وعيد شديد اهتزت له قلوب المؤمنين.

(٤٠) وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾[(٢)] أي إن خذلتموه ولم تخرجوا معه في هذا الظرف الصعب فقد نصره الله تعالى في ظرف أصعب منه نصره في الوقت الذي أخرجه الذين كفروا ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾[(٣)] أي هو وأبو بكر لا غير، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي غار ثور، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾: لما قال لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا يا رسول الله، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ فسكنت نفسه واطمأن وذهب الخوف من قلبه[(٤)]، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي دعوتهم إلى الشرك جعلها ﴿السُّفْلَىٰ﴾ مغلوبة هابطة ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ الغالبة الظاهرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب[(٥)] لا يغالب ﴿حَكِيمٌ﴾ في تصرفه وتدبيره، ينصر من أراد نصره بلا ممانع ويهزم من أراد هزيمته بلا مغالب.

هداية الآيات:

١ - وجوب الخروج إلى الجهاد إذا دعا الإمام بالدعوة العامة وهو ما يعرف بالتعبئة العامة أو النفير العام.

٢ - يجب أن يكون النفير في سبيل الله لا في سبيلٍ غير سبيله تعالى.

٣ - بيان حقارة الدنيا وضآلتها أمام الآخرة.

٤ - وجوب نصرة رسول الله ﷺ، في دينه، في أمته، في سنته.

٥ - شرف أبي بكر الصديق وبيان فضله.

٦ - الإسلام يعلو ولا يعلى عليه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ - ٤٣]

(٤١) ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: الخفاف جمع خفيف: وهو الشاب القوي البدن ذو الجدة من زاد ومركوب. والثقال جمع ثقيل: وهو الشيخ الكبير والمريض والفقير الذي لا جدة عنده. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: أي الجهاد بالمال والنفس خير من التثاقل إلى الأرض وترك الجهاد حالاً ومآلاً.

(٤٢) ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾: غنيمة في مكان قريب غير بعيد. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾: أي معتدلاً لا مشقة فيه. ﴿الشُّقَّةُ﴾: الطريق الطويل الذي لا يقطع إلا بمشقة وعناء.

(٤٣) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾: لم يؤاخذك.

معنى الآيات:

(٤١) ما زال السياق في الحث على الخروج إلى قتال الروم بالشام ففي هذه الآيات يأمر تعالى المؤمنين بالخروج إلى الجهاد على أي حال كان الخروج من قوة وضعف فليخرج الشاب القوي كالكبير العاجز الضعيف والغني كالفقير. فقال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا[(٦)] بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أعداء الله الكافرين به وبرسوله ﷺ حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية ويقبلوا أحكام الإسلام ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي نفوركم للجهاد وقتالكم الكافرين إلى الانتهاء بهم إلى إحدى الغايتين خير لكم من الخلود إلى الأرض والرضا بالحياة

---

(١) أي: لا يقعدون عن استنفارهم للجهاد والخروج معه، وأنتم بتخلفكم لا تضرونه شيئًا، في الآية دليل على حرمة التثاقل عن الجهاد إذا كان مع كراهته ولا حرمة مع عدم الكراهة إلاّ أن يعينه الإمام فيجب.

(٢) أصلها إن الشرطية أدغمت فيها لا النافية، والآية تحمل عتابًا شديدًا، ومعنى الآية: إن تركتم نصرته فقد تكفّل الله بها.

(٣) أي: أحد اثنين كثالث ثلاثة ورابع أربعة.

(٤) أي: قلب أبي بكر رضي الله عنه.

(٥) إذ أحبط تعالى أعمال قريش في طلبها الرسول ﷺ لتقتله حيث جعلت مائة ناقة لمن يأتيها برأسه وأنجى الله رسوله ﷺ منهم وانتهى إلى المدينة ونصره عليهم.

(٦) الآية محكمة ولم تنسخ، والمراد منها: أن الإمام إذا أعلن عن النفير العام، وجب الإسراع إلى الخروج معه على أي حال من كبر وصغر وغنى وفقر.

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

١٩٤

الدنيا وهي متاع قليل، إن كنتم تعلمون ذلك.

﴿٤٢﴾ وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا[1] قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ[2]﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: لو كان أولئك المتخلفون عن الجهاد من المنافقين وضعفة الإيمان قد دعوتهم إلى عرض قريب أي غنيمة حاضرة أو إلى سفر سهل قاصد معتدل لاتبعوك وخرجوا معك، ولكن دعوتهم إلى تبوك وفي زمن الحر والحاجة فبعدت عليهم الشقة فانتحلوا الأعذار إليك وتخلفوا. وقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي لكم قائلين: لو استطعنا أي الخروج لخرجنا معكم. قال تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث يجلبون لها سخط الله وعقابه[3] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في كل ما اعتذروا به. هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية (٤١ ـ ٤٢) وأما الآية الثالثة فقد تضمنت عتاب الله تعالى لنبيه ﷺ حيث أذن لمن طلب منه التخلف عن النفور والنهوض إلى تبوك وكان من السياسة الرشيدة عدم الإذن لأحد حتى يتميز بذلك الصادق من الكاذب.

﴿٤٣﴾ قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾[4] أي تجاوز عنك ولم يؤاخذك وقدم هذا اللفظ على العتاب الذي تضمنه الاستفهام ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ تعجيلاً للمسرة للنبي ﷺ إذ لو أخر عن جملة العتاب لأوجد خوفًا وحزنًا، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ علة للعتاب على الإذن للمنافقين[5] بالتخلف عن الخروج إلى تبوك.

هداية الآيات:

١ ـ إذا أعلن الإمام التعبئة العامة يحرم التخلف عن الجهاد ولا يقعد أحد، إلا بإذن لأجل علة قامت به فاستأذن فأذن له.

٢ ـ الجهاد كما يكون بالنفس يكون بالمال وهو خيرٌ من تركه حالاً ومآلاً.

٣ ـ الأيمان الكاذبة لإبطال حق أو إحقاق باطل توجب سخط الله تعالى وعذابه.

٤ ـ مشروعية العتاب للمحب.

٥ ـ جواز مخالفة الأولى على النبي ﷺ لعدم علمه ما لم يعلّمه الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٤ ـ ٤٦]

﴿٤٤﴾ ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾: أي لا يطلبون منك إذنًا بالتخلف عن الجهاد.

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: أي شكت في صحة ما تدعو إليه من الدين الحق. ﴿فِي رَيْبِهِمْ﴾: أي في

---

(١) العَرَض: ما يعرض من منافع الدنيا، والمراد به هنا: الغنيمة أي: لو كان الذي دَعوا إليه عرضًا قريبًا أو كان الذي دعوا إليه سفرًا قاصدًا أي: سهلاً معلوم الطرق لاتبعوك.

(٢) الشقة: بالضم: السفر إلى أرض بعيدة وهي هنا تبوك، نظير هذه الآية من السنة قوله ﷺ: «**لو يعلم أحدهم أنه يجد عظمًا سمينًا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء**...» المرماة: ظلف الشاة.

(٣) بسبب كذبهم ونفاقهم وأيمانهم الكاذبة.

(٤) أخبره بالعفو قبل العتاب رحمة به وإكرامًا له، إذ لو قال له: لِمَ أذنت لهم أوّلاً لكان يطير قلبه ﷺ من الفرَق أي: الخوف.

(٥) هؤلاء قوم منافقون قالوا: نستأذنه في القعود فإن أذن لنا قعدنا، وإن لم يأذن لنا قعدنا. أمّا غير هؤلاء فقد رخّص له في الإذن لمن شاء في قوله: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ من سورة النور.

شكهم. ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾: حيارى لا يثبتون على شيء.

(٤٦) ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾: لهيؤوا له ما يلزم من سلاح وزاد ومركوب. ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾: أي خروجهم معكم. ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: ألقى في نفوسهم الرغبة في التخلف وحببه إليهم فكسلوا ولم يخرجوا.

معنى الآيات:

(٤٤) - (٤٥) ما زال السياق في الحديث عن غزوة تبوك وأحوال المأمورين بالنفير فيها فبعد أن عاتب الله تعالى رسوله ﷺ في إذنه للمتخلفين أخبره أنه لا يستأذنه[1] المؤمنون الصادقون في أن يتخلفوا عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم وإنما يستأذنه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الإيمان بالله ورسوله ﷺ ووعده ووعيده، فهم حيارى مترددون لا يدرون أين يتجهون وهي حالة المزعزع العقيدة كسائر المنافقين.

(٤٦) وأخبره تعالى أنهم كاذبون في اعتذاراتهم إذ لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته أي أحضروا له أهبته من سلاح وزاد وراحلة ولكنهم كانوا عازمين على عدم الخروج بحال من الأحوال، ولو لم تأذن لهم بالتخلف لتخلفوا مخالفين قصدك متحدِّين أمرك. وهذا عائد إلى أن الله تعالى كره خروجهم لما فيه من الضرر والخطر فثبطهم بما ألقى في قلوبهم من الفشل وفي أجسامهم من الكسل كأنما قيل لهم اقعدوا مع القاعدين. هذا ما دلت عليه الآية (٤٦) ﴿وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ[2] فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ[3]﴾ وقوله تعالى في ختام الآية الأولى (٤٤): ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾[4] فيه تقرير لعلمه تعالى بأحوال ونفوس عباده فما أخبر به هو الحق والواقع، فالمؤمنون الصادقون لا يطلبون التخلف عن الجهاد لإيمانهم وتقواهم، والمنافقون هم الذين يطلبون التخلف لشكهم وفجورهم والله أعلم بهم، ولا ينبئك مثل خبير.

هداية الآيات:

١ - فضيلة الإيمان والتقوى إذ صاحبهما لا يمكنه أن يتخلف عن الجهاد بالنفس والمال.

٢ - خطر الشك في العقيدة وأنه سبب الحيرة والتردد، وصاحبه لا يقدر على أن يجاهد بمال ولا نفس.

٣ - سوابق الشر تحول بين صاحبها وبين فعل الخير.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧، ٤٨]

(٤٧) ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم﴾: أي مندسين بين رجالكم. ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾: الفساد في الرأي والتدبير. ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ﴾: أي لأسرعوا بينكم بالنميمة والتحريش والإثارة لإبقائكم في الفتنة. ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾: أي بينكم من يكثر السماع لهم والتأثر بأقوالهم المثيرة الفاسدة.

(٤٨) ﴿مِن قَبْلُ﴾: أي عند مجيئك المدينة مهاجرًا. ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾: بالكيد والمكر والاتصال باليهود والمشركين والتعاون معهم. ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: بأن فتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجًا. ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾: أي لمجيء الحق وظهور أمر الله بانتصار دينه.

معنى الآيتين:

(٤٧) ما زال السياق الكريم في فضح نوايا المنافقين وكشف الستار عنهم فقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا

---

(١) لا يستأذنه المؤمنون لا في القعود ولا في الخروج وإنما هم مع مراده ﷺ فإذا أمر بأمر ابتدروه طاعة ومحبة ورغبة في رضا الله ورسوله ﷺ.

(٢) ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي: خروجهم معك، ومعنى ثبّطهم: حبسهم عنك وخذلهم لأنهم قالوا: إن لم يأذن لنا في القعود أفسدنا بين صفوف المؤمنين.

(٣) القاعدون: هم أولوا الضرر، والعميان والزمنى، والنساء والأطفال. والقائل لهم: اقعدوا هو الرسول ﷺ لما طلبوا منه الإذن بالقعود وجائز أن يكون قاله بعضهم لبعض أو قاله الرسول ﷺ حال غضبه عليهم، أو هو تمثيل لخلق الله تعالى داعية القعود في قلوبهم حتى لا يخرجوا فيفسدوا.

(٤) فيه شهادة للمؤمنين الصادقين بالتقوى وهي دعامة الولاية الحقة لله تعالى، فالإيمان والتقوى بهما تثبت ولاية الله للعبد ومن والاه الله فلا خوف عليه ولا حزن.

فِيكُمْ﴾[١] أيها الرسول والمؤمنون أي إلى غزوة تبوك ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[٢] أي ضررًا وفسادًا وبلبلة لأفكار المؤمنين بما ينفثونه من سموم القول للتخذيل والتفشيل، ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾[٣] أي أسرعوا ركائبهم ﴿خِلَالَكُمْ﴾ أي بين صفوفكم بكلمات التخذيل والتثبيط ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ بذلك ﴿الْفِتْنَةَ﴾ وهي تفريق جمعكم وإثارة العداوة بينكم بما يحسنه المنافقون في كل زمان ومكان من خبيث القول وفاسده. وقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي وبينكم أيها المؤمنون ضعاف الإيمان يسمعون منكم وينقلون لهم أخبار أسراركم كما أن منكم من يسمع لهم ويطيعهم ولذا وغيره كره الله انبعاثهم وثبطهم فقعدوا مع القاعدين من النساء والأطفال والعجز والمرضى، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الذين يعملون على إبطال دينه وهزيمة أوليائه. فلذا صرفهم عن الخروج معكم إلى قتال أعدائكم من الروم والعرب المتنصرة بالشام.

وقوله تعالى في الآية الثانية (٤٨): ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ بل من يوم هاجرت إلى المدينة ووجد بها الإسلام وهم يثيرون الفتن بين أصحابك للإيقاع بهم، وفي أُحُدٍ رجع ابنُ أُبيّ بثُلث الجيش وهم بنو سلمة وبنو حارثة بالرجوع عن القتال لولا أن الله سلم ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾[٤] وصرفوها في وجوه شتى بقصد القضاء على دعوتك فظاهروا المشركين واليهود في مواطن كثيرة وكان هذا دأبهم ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ بفتح مكة ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بدخول أكثر العرب في دين الله ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لذلك بل أسفون حزنون، ولذا فلا تأسفوا على عدم خروجهم معكم، ولا تحفلوا به أو تهتموا له، فإن الله رحمة بكم ونصرًا لكم صرفهم عن الخروج معكم. فاحمدوا الله وأثنوا عليه بما هو أهله، ولله الحمد والمنة.

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

هداية الآيتين:

١ - وجود منافقين في صفوف المؤمنين خطر عليهم وضرر كبير لهم فلذا ينبغي أن لا يُشركوا في أمر، وأن لا يعول عليهم في مهمة.

٢ - وجوب الأخذ بالحيطة في الأمور ذات البال والأثر على حياة الإسلام والمسلمين.

٣ - المنافق يسوؤه عزة الإسلام والمسلمين ويحزن لذلك.

٤ - تدبير الله تعالى لأوليائه خير

---

(١) في هذا الإخبار الإلهي تسلية للرسول ﷺ والمؤمنين من أجل تخلف المنافقين عنهم.

(٢) الاستثناء منقطع أي: ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال لكم. والعادة: أنّ الاستثناء المنقطع يكون بمعنى: لكن إذ ليس هو جزء من المستثنى منه.

(٣) الإيضاع: سرعة السير، يقال: أوضع يوضع إيضاعًا إذا أسرع في سيره. قال دريد بن الصمة:

يا ليتني فيها جذع أخبّ فيها وأضع

(٤) الأمور: جمع أمر وهو اسم مبهم كشيء، قال الشاعر:

ولكن مقادير جرت وأمور

والألف واللام للجنس أي: أمور تعرفونها وأمور تنكرونها، وحتى: غائية لتقليبهم الأمور.

تدبير فلذا وجب الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم به.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٩ ـ ٥٢]

(٤٩) ﴿وَمِنْهُم﴾: أي من المنافقين وهو الجد بن قيس. ﴿ٱئْذَن لِّي﴾: أي في التخلف عن الجهاد. ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾: أي لا توقعني في الفتنة بدعوى أنه إذا رأى نساء الروم لا يملك نفسه.

(٥٠) ﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾: الحسنة كل ما يحسن من نصر وغنيمة وعافية ومعنى تسؤهم أي يكربون لها ويحزنون. ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾: أي احتطنا للأمر ولذا لم نخرج معهم.

(٥٢) ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾: الأولى الظفر بالعدو والانتصار عليه والثانية الشهادة المورثة للجنة. ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾: أي انتظروا فإنا معكم من المنتظرين.

معنى الآيات:

(٤٩) ما زال السياق في الحديث عن المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك فيقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ أي في التخلف عن الجهاد، ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ بإلزامك لي بالخروج أي لا توقعني في الفتنة، فقد روي أن النبي ﷺ قال له: هل لك في بلاد بني الأصفر[١]؟ فقال إني مغرم بالنساء وأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر[٢] (وهم الروم) لا أصبر عنهم فأفتن، والقائل هذا هو الجد بن قيس أحد زعماء المنافقين في المدينة فقال تعالى دعاء عليه وردًا لباطله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ وأي فتنة أعظم من الشرك والنفاق؟ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ به وبأمثاله من أهل الكفر والنفاق، هذا ما دلت عليه الآية الأولى.

(٥٠) أما الآية الثانية (٥٠) فقد تضمنت الكشف عما يقوله المنافقون في أنفسهم أنه إن تصب الرسول ﷺ والمؤمنين حسنة من نصر أو غنيمة وكل حال حسنة يسوؤهم ذلك أي يكربهم ويحزنهم، وإن تصبهم سيئة من هزيمة أو قتل وموت يقولوا فيما بينهم ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ أي احتطنا للأمر فلم نخرج معهم ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ راجعين إلى بيوتهم وأهليهم ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾. هذا ما تضمنته الآية التي هي قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ[٣] وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ[٤] ۝﴾.

(٥١) أما الآيتان الثالثة والرابعة (٥١ ـ ٥٢) فقد علّم الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ ما يقوله إغاظة لأولئك المنافقين وإخبارًا لهم بما يسؤهم فقال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ﴾ أي من حسن أو سيئة إلا ما كتب الله لنا[٥] وما يكتبه ربنا لنا لن يكون إلا خيرًا لأنه مولانا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ونحن مؤمنون وعلى ربنا متوكلون.

(٥٢) وقال له: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ[٦] بِنَآ﴾ أي هل تنتظرون بنا إلا إحدى الحسنيين[٧]: النصر والظهور على أهل الشرك والكفر والنفاق أو الاستشهاد في سبيل الله، ثم النعيم المقيم في جوار رب العالمين وعليه ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[٨]، وسوف لا نشاهد إلا ما يسرنا ويسؤكم.

---

(١) في رواية: يا جَدُّ هل لك في جلاد بني الأصفر لتتخذ منهم سراري ووصفاء؟ فقال الجد... إلخ..

(٢) قيل: سمي الروم بني الأصفر: لأن الحبشة غزتهم وسبتهم فنشأ جيل أصفر اللون بين البياض والسواد، وهو اللون الأصفر.

(٣) ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ جملة شرطية وجملة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ جواب وجزاء لها كما أن الجملة ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ شرط، والجزاء ﴿يَقُولُواْ﴾ إلخ..

(٤) ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ أي: راجعين إلى بيوتهم وهم كافرون، فهم متولون في الحقيقة عن الإيمان ﴿فَرِحُونَ﴾ أي: معجبون بنجاحهم المؤقت.

(٥) أي: في اللوح المحفوظ الذي هو كتاب المقادير، أو هو ما أخبرنا به كتابه القرآن الكريم مِن أنّا إمّا نظفر فيكون الظفر حسنى لنا وإمّا أن نقتل فتكون الشهادة حسنى لنا.

(٦) التربص: الانتظار، والاستفهام للتوبيخ.

(٧) الحسنيان: هما الغنيمة والشهادة.

(٨) ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ هذا الأمر للتهديد والوعيد، كأنما يقول لهم: انتظروا مواعد الشيطان فإنا مُنتظرون مواعد الرحمن، شتان بين ما ننتظر وما تنتظرون!!

هداية الآيات:

١ ـ فضيحة الجد بن قيس وتسجيل اللعنة عليه وتبشيره بجهنم.

٢ ـ بيان فرح المنافقين والكافرين بما يسوء المسلمين، وبيان استيائهم لما يفرح المسلمين وهي علامة النفاق البارزة في كل منافق.

٣ ـ وجوب التوكل على الله وعدم الاهتمام بأقوال المنافقين.

٤ ـ بيان أن المؤمنين بين خيارين في جهادهم: النصر أو الشهادة.

٥ ـ مشروعية القول الذي يغيظ العدو ويحزنه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٣ ـ ٥٥]

(٥٣) ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: أي وأنتم طائعون أو أنتم مكرهون على الإنفاق.

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾: الجملة علة لعدم قبول نفقاتهم.

(٥٤) ﴿كُسَالَىٰ﴾: متثاقلون لعدم إيمانهم في الباطن بفائدة الصلاة.

(٥٥) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾: أي لا تستحسنوا أيها المسلمون ما عند المنافقين من مال وولد. ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾: أي تفيض وتخرج من أجسامهم.

معنى الآيات:

(٥٣) ما زال السياق في تعليم الله تعالى رسوله ﷺ كيف يرد على المنافقين فقال له: قل لهم أيها الرسول: ﴿أَنفِقُوا﴾(١) حال كونكم طائعين أو مكرهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾، أي أخبرهم أن ما ينفقونه في هذا الخروج إلى تبوك وفي غيره سواء أنفقوه باختيارهم أو كانوا مكرهين عليه لن يتقبله الله منهم لأنهم(٢) كانوا قومًا فاسقين بكفرهم بالله وبرسوله ﷺ وخروجهم عن طاعتهما. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٣) أما الآية الثانية (٥٤) فقد أخبر تعالى عن الأسباب الرئيسية التي حالت دون قبول نفقاتهم وهي أولاً الكفر بالله وبرسوله ﷺ، وثانيًا إتيانهم الصلاة وهم كسالى كارهون، وثالثًا كراهيتهم الشديدة لما ينفقونه.

(٥٤) قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾(٣) أن تُقبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ(٤) وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾(٥) هذا ما تضمنته الآية الثانية.

(٥٥) أما الآية الثالثة (٥٥) فإن الله تعالى ينهى رسوله ﷺ والمؤمنين عن أن تعجبهم أموالهم وأولادهم مهما بلغت في الكثرة والحسن فيقول: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا

الجزء العاشر — سورة التوبة

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)

١٩٦

---

(١) روي أن هذه الآية نزلت في الجد بن قيس إذ هو الذي قال للرسول ﷺ: ائذن لي في القعود عن الخروج إلى قتال الروم وهذا مالي أعينك به والأمر في قوله: ﴿أَنفِقُوا﴾ للتسوية أي: أنفقوا أو لا تنفقوا فكلا الأمرين سواء، في عدم قبول ما تنفقون.

(٢) الجملة تعليلية أي: قوله: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ إلخ.. ذكرت تعليلاً لعدم قبول ما ينفقون.

(٣) هذا بيان للتعليل السابق في عدم قبول نفقاتهم مع ذكر أسباب أخرى حالت دون قبول ما ينفقون.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا كان في جماعة صلى وإذا انفرد لم يصل. أي: المنافق لأنه لا يرجو على الصلاة ثوابًا، ولا يخشى على تركها عقابًا وهذا منشأ الكسل في الصلاة وغيرها من سائر العبادات.

(٥) هنا مسألتان: الأولى: أنّ من مات على الكفر لا ينفعه ما عمله في الدنيا من خير إلاّ أنه يخفف عنه العذاب لحديث أبي طالب، وأنه في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه. كما أنه قد يكن سببًا في سعة رزقه في الدنيا للحديث، وأما الكافر فيطعم. الثانية: أن من أسلم منهم يثاب على ما عمله من الخير أيام كفره.

أَوْلَٰدُهُمْ﴾ أي لا تستحسنوها ولا تخبروهم بذلك. وبيّن تعالى لرسوله ﷺ علة إعطائهم ذلك وتكثيرهم لهم فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم[1] بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ووجه تعذيبهم بها في الحياة الدنيا أن ما ينفقونه من المال في الزكاة والجهاد يشعرون معه بألم لا نظير له لأنه إنفاق يعتبرونه ضدهم وليس في صالحهم، إذ لا يريدون نصر الإسلام ولا ظهوره، وأما أولادهم فالتعذيب بهم هو أنهم يشاهدونهم يدخلون في الإسلام ويعملون به ولا يستطيعون أن يردوهم عن ذلك، أي ألم نفسي أكبر من أن يكفر ولد الرجل بدينه ويدين بآخر من شروطه أن يبغض الكافر به ولو كان أبًا أو أمًا أو أخًا أو أختًا أو أقرب قريب؟ وزيادة على هذا يموتون وهم كافرون فينتقلون من عذاب إلى عذاب أشد، وبهذا سلى الرب تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين ببيان علة ما أعطى المنافقين من مال وولد ليعذبهم بذلك لا ليسعدهم.

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ أن الرياء مبطلة للعمل كالشرك محبط للعمل[2].

٢ - إطلاق الفسق على الكفر فكل كافر فاسق على الإطلاق.

٣ - حرمة التكاسل في الصلاة وأن ذلك من صفات المنافقين.

٤ - وجوب رضا النفس بما ينفق العبد في سبيل الله زكاة أو غيرها.

٥ - كراهية استحسان المسلم لِمَا عند أهل الفسق والنفاق من مال ومتاع.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٦ ـ ٥٩]

(٥٦) ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾: أي في باطن الأمر لأنهم كافرون ووجوههم وقلوبهم مع الكافرين.

﴿يَفْرَقُونَ﴾: أي يخافون خوفًا شديدًا منكم.

(٥٧) ﴿مَلْجَـًٔا﴾: أي مكانًا حصينًا يلجؤون إليه. ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾: جمع مغارة وهي الغار في الجبل. ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾: أي سربًا في الأرض يستتر فيه الخائف الهارب. ﴿يَجْمَحُونَ﴾: يسرعون سرعة تتعذر مقاومتها وإيقافها.

(٥٨) ﴿يَلْمِزُكَ﴾: أي يعيبك في شأن توزيعها ويطعن فيك. ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾: أي غير راضين.

(٥٩) ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾: أي كافينا الله كل ما يهمنا. ﴿إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾: إلى الله وحده راغبون أي طامعون راجون.

معنى الآيات:

(٥٦) ما زال السياق الكريم في هتك أستار المنافقين وإظهار عيوبهم وكشف عوراتهم ليتوب منهم من أكرمه الله بالتوبة فقال تعالى عنهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾[3] أي من أهل ملتكم ودينكم، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي في واقع الأمر إذ هم كفار منافقون ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي يخافون منكم خوفًا شديدًا فلذا يحلفون لكم إنهم منكم لتؤمنوهم على أرواحهم وأموالهم، ولبيان شدة فرقهم منكم وخوفهم من سيوفكم.

(٥٧) قال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا[4]﴾ أي حصنًا ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أي غيرانًا في جبال ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾[5] أي سربًا في الأرض ﴿لَّوَلَّوْا﴾ أي

---

(١) فعل الإرادة يعدي بنفسه تقول: أردت خيرًا، وعدي هنا باللام لأجل التعليل كقول الشاعر:

أريد لأنسى حبها فكأنما ... تمثل لي ليلى بكل مكان

(٢) لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية، وقول الرسول ﷺ في عبدالله بن جدعان وقد قالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه؟ قال: **«لا ينفعه لأنه لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»** رواه مسلم.

(٣) لأنهم يتخذون أيمانهم الكاذبة وقاية يتقون بها ما يخافونه من بطش المؤمنين بهم إذا عرفوا أنهم كافرون كما قال تعالى من سورتهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾.

(٤) الملجأ مكان اللجأ يقال: **لجأت** إلى كذا: إذا أويت إليه واعتصمت به **وألجأت** أمري إليه أي: أسندته.

(٥) المدخل: مفتعل اسم كان للادّخال الذي هو افتعال من الدخول قلبت فيه تاء الافتعال دالاً لوقوعها بعد الدال فصارت مدخلاً بدل متدخل، ونظيره: إدّان أصلها إتدان، وقرأها يعقوب وحده: **﴿أو مَدخلا﴾** بفتح الميم وإسكان الدال اسم مكان من دخل.

أدبروا إليها ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ[١]﴾ أي مسرعين ليتمنعوا منكم. هذا ما دلت عليه الآية الأولى والثانية.

(٥٨) أما الآية الثالثة والرابعة (٥٨ ـ ٥٩) فقد أخبر تعالى أن من المنافقين من يلمز الرسول ﷺ أي يطعن فيه ويعيبه في شأن قسمة الصدقات وتوزيعها فيتهم الرسول ﷺ بأنه لا يعدل في القسمة فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ[٢] فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ أي عن الرسول ﷺ وقسمته ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ هذا ما تضمنته الآية (٥٨).

(٥٩) وأما الآية الأخيرة (٥٩) فقد أرشدهم الله تعالى إلى ما كان ينبغي أن يكونوا عليه فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا[٣] مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، أي من الصدقات ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي كافينا الله ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ الواسع العظيم ورسوله ﷺ بما يقسم علينا ويوزعه بيننا ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿رَاغِبُونَ﴾ طامعون راجعون أي لكان خيرًا لهم وأدرك لحاجتهم.

هداية الآيات:

١ ـ الأيمان الكاذبة شعار المنافقين وفي الحديث آية المنافق ثلاث: (إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان).

٢ ـ الجبن والخور والضعف والخوف من لوازم الكفر والنفاق.

٣ ـ عيب الصالحين والطعن فيهم ظاهرة دالة على فساد قلوب ونيات من يفعل ذلك.

٤ ـ مظاهر الرحمة الإلهية تتجلى في إرشاد المنافقين إلى أحسن ما يكونوا عليه ليكملوا ويسعدوا في الدارين.

٥ ـ لا كافي إلا الله، ووجوب انحصار الرغبة فيه تعالى وحده دون سواه.

شرح الكلمات

[الآية: ٦٠]

(٦٠) ﴿الصَّدَقَاتُ﴾: جمع صدقة وهي هنا الزكاة المفروضة في الأموال. ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾: جمع فقير وهو من ليس له ما يكفيه من القوت ولا يسأل الناس. ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: جمع مسكين وهو فقير ليس له ما يكفيه ويسأل الناس ويذل نفسه بالسؤال. ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾: أي على جمعها وجبايتها وهم الموظفون لها. ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: هم أناس يرجى إسلامهم أو بقاؤهم عليه إن كانوا قد أسلموا وهم ذوو شأن وخطر ينفع الله بهم إن أسلموا وحسن إسلامهم. ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: أي في فك الرقاب أي تحريرها من الرق، فيعطى المكاتبون ما يسددون به نجوم أو أقساط كتابتهم. ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي الجهاد لإعداد العدة وتزويد المجاهدين بما يلزمهم من نفقة. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: أي المسافر المنقطع عن بلاده ولو كان غنيًا ببلاده. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾: أي فرضها الله تعالى فريضة على عباده المؤمنين.

معنى الآية الكريمة:

(٦٠) بمناسبة لمز المنافقين الرسول ﷺ والطعن في قسمته الصدقات بين تعالى في هذه الآية الكريمة أهل الصدقات المختصين بها. والمراد بالصدقات الزكوات وصدقة التطوع فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ محصورة في الأصناف الثمانية التي تذكر وهم:

(١) الفقراء[٤] وهم المؤمنون الذين لا يجدون ما يسد حاجتهم الضرورية

---

(١) الجموح: نفور في إسراع.

(٢) روي أن النبي ﷺ أعطى بعض رعاة الغنم شيئًا لفقرهم فطعن أبو الحواظ المنافق فقال: ما هذا بالعدل كيف يضع صدقاتكم في رعاء الغنم إعانة لهم. كما أنّ ذا الخويصرة التميمي واسمه حرقوص بن زهير وهو أصل الخوارج قال للرسول ﷺ: اعدل يا رسول الله فقال له: «**ويلك ومَن يعدل إذا لم أعدل**» فنزلت الآية وقال عمر: دعني أضرب عنقه يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي**».

(٣) جواب لو محذوف تقديره: لكان خيرًا لهم، وهو مذكور في التفسير في آخر الحديث.

(٤) قيل: الفقير هو صفة مشبهة من الفقر أي: المتصف بالفقر وهو: عدم امتلاك ما به الكفافة لحاجته المعاشية وضده الغنى، والمسكين: ذو المسكنة وهي المذلة التي تحصل بسبب الفقر، والفقير والمسكين يغني ذكر أحدهما عن الآخر، أمّا إذا ذكرا معًا فلكلّ واحد حقيقة كما تقدم، وفي أيّهما أشدّ فقرًا خلاف، وأحسن ما قيل: هو أنّ الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين: الذي لا شيء له.

من طعام وشراب وكساء ومأوى.

(٢) المساكين[١] وهم الفقراء الذين لا يجدون ما يسد حاجتهم ولم يتعففوا[٢] فكانوا يسألون الناس ويظهرون المسكنة[٣] لهم والحاجة.

(٣) الموظفين فيها من سعاة جباة وأمناء وكتّاب وموزعين يعطون على عملهم فيها أجرة أمثالهم في العمل الحكومي.

(٤) المؤلفة قلوبهم وهم من يرجى نفعهم للإسلام والمسلمين لمناصبهم وشوكتهم في أقوامهم، فيعطون من الزكاة تأليفًا أي جمعًا لقلوبهم على الإسلام ومحبته ونصرته ونصرة أهله، وقد يكون أحدهم لم يسلم بعد فيعطى ترغيبًا له في الإسلام، وقد يكون مسلمًا لكنه ضعيف الإسلام فيعطى تثبيتًا له وتقوية على الإسلام.

(٥) في الرقاب وهو مساعدة المكاتبين على تسديد أقساطهم ليتحرروا أما شراء عبد بالزكاة وتحريره فلا يجوز لأنه يعود بالنفع على دافع الزكاة لأن ولاء المعتوق له.

(٦) الغارمين جمع غارم وهو من ترتبت عليه ديون بسبب ما أنفقه في طاعة الله تعالى على نفسه وعائلته، ولم يكن لديه مال لا نقد ولا عرض يسدد به ديونه.

(٧) في سبيل الله وهو تجهيز الغزاة والإنفاق عليهم تسليحًا وإركابًا وطعامًا ولباسًا.

(٨) ابن السبيل وهم المسافرون ينزلون ببلد وتنتهي نفقتهم فيحتاجون فيعطون من الزكاة ولو كانوا أغنياء ببلادهم.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٤] أي هذه الصدقات وقسمتها على هذا النحو جعله الله تعالى فريضة لازمة على عباده المؤمنين. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بخلقه وأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وقسمته، فلذا لا يجوز أبدًا مخالفة هذه القسمة فلا يدخل أحد فيعطى من الزكاة وهو غير مذكور في هذه الآية وليس شرطًا أن يعطى كل الأصناف فقد يعطي المرء زكاته كلها في الجهاد أو في الفقراء والمساكين، أو في الغارمين أو المكاتبين وتجزئه وإن كان الأولى أن يقسمها بين الأصناف المذكورة من وجد منها، إذ قد لا توجد كلها في وقت واحد.

هداية الآية الكريمة:

١ - تقرير فرضية الزكاة.

٢ - بيان مصارف الزكاة.

٣ - وجوب التسليم للّه تعالى في قسمته بعدم محاولة الخروج عنها.

٤ - إثبات صفات الله تعالى وهي هنا: العلم والحكمة، ومتى كان الله تعالى عليمًا بخلقه وحاجاتهم حكيمًا في تصرفه وشرعه وجب التسليم لأمره والخضوع له بالطاعة والانقياد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦١ ـ ٦٣]

(٦١) ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾: أي الرسول محمدًا ﷺ، والأذى المكروه يصيب الإنسان كثيرًا أو يسيرًا. ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: أي يسمع من كل من يقول له ويحدثه وهذا من الأذى. ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾: أي هو يسمع من كل من يقول له لا يتكبر ولكن لا يقر إلا الحق ولا يقبل إلا الخير والمعروف فهو أُذن خيرٍ لكم لا أذن

---

(١) قال القرطبي: فائدة الخلاف في الفقراء والمساكين تظهر فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين فمن قال: هما صنف واحد يكن الثلث الموصى به نصفه لفلان ونصفه الآخر للفقراء، ومن قال: هما صنفان يقسم الثلث الموصى به بينهم أثلاثًا.

(٢) اختلف في حالة الفقر التي يصح للفقير أن يأخذ معها الزكاة، فمن قائل إن لم يكن له مائتا درهم جاز له أخذ الزكاة، ومن قائل: خمسون درهمًا ومن قائل: أربعون درهمًا ومن قائل: من كان قويًا على الكسب لقوة بدنه فلا يعطى الزكاة لحديث: **«لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرّة سوي»**.

(٣) ورد الوعيد الشديد فيمن يطلب الصدقة وهو غني عنها من ذلك قوله ﷺ: **«من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار»** رواه أبو داود. قالت العلماء: إنّ الذي شبع يوم وليلة لا يحل له أن يسأل. اختلف في نقل الزكاة من بلد إلى بلد، والراجح: الجواز لضرورة الفقر وشدته.

(٤) ﴿فَرِيضَةً﴾ منصوب على المصدر المؤكد إذ تقدير الكلام: إنما فرض الله الصدقات للفقراء والمساكين إلخ.. فريضة منه تعالى وهو العليم بخلقه الحكيم في تدبيره وصنعه.

شر مثلكم أيها المنافقون. ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي يصدق المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار أما غيرهم فإنه وإن يسمع منهم لا يصدقهم لأنهم كذبة فجرة.

(٦٢) ﴿وَاللَّهُ﴾: أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه.

(٦٣) ﴿مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي يعاديهما، ويقف دائمًا في حدّ وهما في حد فلا ولاء ولا موالاة أي لا محبة ولا نصرة.

معنى الآيات:

(٦١) ما زال السياق الكريم في هتك أستار المنافقين وبيان فضائحهم قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ[1] الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ أي من المنافقين أفراد يؤذون النبي ﷺ بالطعن فيه وعيبه بما هو براء منه، ويبين تعالى بعض ذلك الأذى فقال: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يسمع كل ما يقال له، وحاشاه ﷺ أن يقر سماع الباطل أو الشر أو الفساد، وإنما يسمع ما كان خيرًا ولو كان من منافق يكذب ويحسن القول. وأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[2] يسمع ما فيه خير لكم، ولا يسمع ما هو شر لكم. إنه لما كان لا يواجههم بسوء صنيعهم، وقبح أعمالهم حملهم هذا الجميل والإحسان على أن قالوا: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ طعنًا فيه ﷺ وعيبًا له. وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا من جملة ما أمر الرسول ﷺ أن يقول للمنافقين ردًا على باطلهم. أنه ﷺ يؤمن بالله ربًا وإلهًا، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدقهم فيما يقولون وهذا من خيريته ﷺ وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ[3] لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أيضًا من خيريّته فهو ﷺ رحمة لمن آمن به واتبع النور الذي جاء به فكمل عليه وسعد به في حياتيه. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي بأي نوع من الأذى قلّ أو كثر توعدهم الله تعالى بقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو لا محالة نازل بهم وهم ذائقوه حتمًا هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦١).

الجزء العاشر — سورة التوبة

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

١٩٧

(٦٢) أما الآية الثانية (٦٢) فقد أخبر تعالى عن المنافقين أنهم يحلفون للمؤمنين بأنهم ما طعنوا في الرسول ﷺ ولا قالوا فيه شيئًا يريدون بذلك إرضاء المؤمنين حتى لا يبطشوا بهم انتقامًا لكرامة نبيهم ﷺ. قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ[4] لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ[5] أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا

---

(١) قيل: هذه الآية نزلت في عتّاب بن قشير إذ قال: إنما محمد أُذن يقبل كل ما قيل له. وقيل: نزلت في نبتل بن الحارث الذي قال فيه الرسول ﷺ: «**من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث**» وكان ماكرًا خبيثًا مشوّه الخلقة.

(٢) قرىء بالرفع والتنوين: ﴿**أذنٌ خيرٌ لكم**﴾ وقرأ الجمهور بالإضافة: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾.

(٣) أي: وهو رحمة. على أنّ رحمة: خبر لمبتدأ محذوف وقرىء: ﴿**ورحمةٍ**﴾ بالجر عطفًا على ﴿خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ وفيه بُعدٌ كبير.

(٤) روي أنّ نفرًا من المنافقين منهم الجلاس بين سويد ووديعة بن ثابت فقالوا: إن كان ما يقول محمد حقًا لنحن شرّ من الحمير وبينهم غلام فغضب لقولهم هذا وأخبر به الرسول ﷺ فكذبوه في قوله فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ . .﴾ إلخ . .

(٥) قال سيبويه: تقدير الكلام، والله أحق أن يرضوه ورسوله ﷺ أحق أن يرضوه ثم حذف طلبًا للإيجاز كما قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأي مختلف

والحامل على هذا التقدير لأن الرسول ﷺ لم يرض بقول الرجل: ما شاء الله وشئت فقال له: «**قل: ما شاء الله وحده**» لأنّ العطف بالواو لا يقتضي الترتيب.

مُّؤْمِنِينَ ۝﴾ أي فبدل أن يرضوا المؤمنين كان الواجب أن يرضوا الله تعالى بالتوبة إليه ويرضوا الرسول ﷺ بالإيمان ومتابعته إن كانوا كما يزعمون أنهم مؤمنون.

(٦٣) وقوله في الآية الثالثة (٦٣): ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟(١) أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يشاقهما ويعاديهما فإن له جزاء عدائه ومحاربته نار جهنم خالدًا فيها ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي كونه في نار جهنم خالدًا فيها لا يخرج منها هو الخزي العظيم.

هداية الآيات:

١ ـ حرمة أذية رسول الله ﷺ بأي وجه من الوجوه.

٢ ـ كون النبي ﷺ رحمة للمؤمنين دعوة للإيمان والإسلام.

٣ ـ توعد الله تعالى من يؤذي رسوله ﷺ بالعذاب الأليم دليل على كفر من يؤذي رسول الله ﷺ.

٤ ـ بيان كذب المنافقين وجبنهم حيث يحلفون(٢) للمؤمنين أنهم ما طعنوا في الرسول ﷺ وقد طعنوا بالفعل، وإنما حلفهم الكاذب يدفعون به غضب المؤمنين والانتقام منهم.

٥ ـ وجوب طلب رضا الله تعالى بفعل محابه وترك مساخطه.

٦ ـ توعد من يحادد الله ورسوله ﷺ بالعذاب الأليم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٤ ـ ٦٦]

(٦٤) ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: أي يخافون ويحترسون. ﴿تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾: أي في شأنهم فتفضحهم بإظهار عيبهم. ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾: أي تخبرهم بما يضمرونه في نفوسهم. ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾: الأمر هنا للتهديد. ﴿مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾: أي مخرجه من نفوسكم مظهره للناس أجمعين.

(٦٥) ﴿نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: أي نخوض في الحديث على عادتنا ونلعب لا نريد سبًا ولا طعنًا. ﴿تَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي تسخرون وتحتقرون.

معنى الآيات:

(٦٤) ما زال السياق في الحديث عن المنافقين لكشف الستار عنهم وإظهارهم على حقيقتهم ليتوب منهم من تاب الله عليه قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿يَحْذَرُ(٣) ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ(٤) سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي يخشى المنافقون أن تنزل في شأنهم على رسول الله ﷺ ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم﴾ أي تخبرهم بما في قلوبهم فتفضحهم، ولذا سميت هذه السورة بالفاضحة(٥) وقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ يهددهم تعالى بأن الله مخرج ما يحذرون إخراجه وظهوره مما يقولونه في خلواتهم من الطعن في الإسلام وأهله.

(٦٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ أي عما قالوا من الباطل. لقالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾(٦) لا غير. قل لهم يا رسولنا ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ وذلك أن نفرًا من المنافقين في غزوة تبوك قالوا في مجلس لهم: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا،

---

(١) الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى: ألم يعلموا شأنًا عظيمًا هو من يجادل الله ورسوله له نار جهنم، والمحادة: المعاداة والمشاقة كأنّ كلٍ واحد واقف في حدّ لا يتصل بالآخر، والفاء في ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾ لربط جواب شرط ﴿مَن﴾ وأعيدت أنّ في الجواب لتوكيد أنّ المذكورة قبل الشرط توكيدًا لفظيًا.

(٢) في الآية دليل جواز الحلف بالله وعدم جواز الحلف بغيره لقول الرسول ﷺ: **«من حلف فليحلف بالله أو ليصمت ومن حلف له فليصدّق»**.

(٣) يروى أن أحد المنافقين قال: والله وددت لو أني قُدّمت فجُلدت مائة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا فنزلت الآية: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ..﴾ وهي خبر وإن قال بعضهم: هي إنشاء بمعنى: ليحذر المنافقون.

(٤) معلوم أن القرآن ينزل على الرسول ﷺ وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بمعنى المؤمنين لأنهم والرسول ﷺ في جانب والمنافقون في آخر، فصحّ أن يقال: تنزل على المؤمنين، والرسول ﷺ معهم، وهو المختص بالوحي.

(٥) وسميت أيضًا: المثيرة، والمبعثرة والحفارة لأنها أثارت كامن المنافقين وبعثرته وحفرت ما في قلوبهم وأخرجته.

(٦) ذكر الطبري أنّ قائل هذه المقالة: وديعة بن ثابت قال ابن عمر: رأيته معلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ يماشيها والحجارة تنكبه وهو يقول: إنّما كنّا نخوض ونلعب والرسول ﷺ يقول: **«أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟!»**.

ولا أجبن عند اللقاء! فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزلت هذه الآيات.

﴿٦٦﴾ وجاؤوا يعتذرون لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟(١) قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: أي الذي كنتم تدعونه، لأن الاستهزاء بالله والرسول ﷺ والكتاب كفر مخرج من الملة، وقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لأنهم يتوبون كمخشي بن حمير(٢)، ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ أخرى لأنهم لا يتوبون. وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ علة للحكم بعذابهم وهو إجرامهم بالكفر والاستهزاء بالمؤمنين إذ من جملة ما قالوه: قولهم في الرسول ﷺ يظن هذا يشيرون إلى النبي ﷺ وهم سائرون ـ يفتح قصور الشام وحصونها فأطلع الله نبيه ﷺ عليهم فدعاهم فجاؤوا واعتذروا بقولهم إنا كنا نخوض(٣) أي في الحديث ونلعب تقصيرًا للوقت، ودفعًا للملل عنا والسآمة فأنزل تعالى ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ﴾ الآية.

هداية الآيات:

١ - الكشف عن مدى ما كان يعيش عليه المنافقون من الحذر والخوف.

٢ - كفر من استهزأ بالله أو آياته أو رسوله ﷺ.

٣ - لا يقبل اعتذار(٤) من كفر بأي وجه وإنما التوبة أو السيف فيقتل كفرًا.

٤ - مصداق ما أخبر به تعالى من أنه سيعذب طائفة فقد هلك عشرة بداء الدبيلة «خراج يخرج من الظهر وينفذ ألمه إلى الصدر فيهلك صاحبه حتمًا».

الجزءُ العاشِر — سُورَةُ التَّوْبَة

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

١٩٨

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٧ ـ ٧٠]

﴿٦٧﴾ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: أي الذين يظهرون للمؤمنين الإيمان بألسنتهم ويسترون الكفر في قلوبهم. ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾(٥): أي متشابهون في اعتقادهم وقولهم وعملهم فأمرهم واحد. ﴿بِٱلْمُنكَرِ﴾: أي ما ينكره الشرع لضرره أو قبحه وهو الكفر بالله ورسوله ﷺ. ﴿عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾: أي ما عرفه الشرع نافعًا فأمر به من الإيمان والعمل الصالح. ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: أي يمسكونها عن الإنفاق في سبيل الله. ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تركوا الله فلم يؤمنوا به وبرسوله ﷺ فتركهم وحرمهم من توفيقه وهدايته.

﴿٦٨﴾ ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: أي دائم لا يزول ولا يبيد.

﴿٦٩﴾ ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾: أي بنصيبهم وحظهم من الدنيا. ﴿وَخُضْتُمْ﴾: أي في الكذب والباطل.

---

(١) ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ نهاهم عن الاعتذار لأنه غير نافع لهم ولا مجدٍ واعتذر بمعنى: أعذر أي: صار ذا عذر، والاعتذار محو أثر الموجدة أو هو القطع، أي: قطع ما في القلب من الموجدة، ومنه قيل: عذرة الغلام: وهو ما يقطع منه عند الختان.

(٢) هو مخشي بن حمير الأشجعي وقد تاب عند سماعه هذه الآية وحسن إسلامه.

(٣) الخوض: الدخول في الماء، ثم استعمل في كل دخول فيه تلويث وأذى.

(٤) اختلف العلماء في الهزل في سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال: لا يلزم مطلقًا، يلزم مطلقًا، التفرقة بين البيع وغيره، وهذا الراجح، لأنّ النكاح والطلاق والعتاق ورد فيها النص من السنة لحديث الترمذي وحسنه مع وصفه بالغرابة وبه العمل عند جماهير الصحابة والتابعين والفقهاء وهو: **«ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة»** وحديث الموطأ: **«ثلاث ليس فيهن لعب: النكاح والطلاق والعتق»**.

(٥) ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدين، أو هم متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

٧٠ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾[١]: أي المنقلبات حيث صار عاليها سافلها وهي ثلاث مدن. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: الآيات الدالة على صدقهم في رسالاتهم إليهم.

معنى الآيات:

٦٧ ما زال السياق في هتك أستار المنافقين وبيان فضائحهم لعلهم يتوبون. قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي كأبعاض الشيء الواحد وذلك لأن أمرهم واحد لا يختلف بعضهم عن بعض في المعتقد والقول والعمل بيّن تعالى حالهم بقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهذا دليل على انتكاسهم وفساد قلوبهم وعقولهم، إذ هذا عكس ما يأمر به العقلاء، والمراد من المنكر الذي يأمرون به هو الكفر والعصيان، والمعروف الذي ينهون عنه هو الإيمان بالله ورسوله ﷺ وطاعتهما. وقوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ كناية عن الإمساك وعدم البذل في الإنفاق في سبيل الله[٢]. وقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ فلم يؤمنوا به ولم يؤمنوا برسوله ﷺ ولم يطيعوا الله ورسوله ﷺ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ الله بأن تركهم محرومين من كل هداية ورحمة ولطف. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ تقرير لمعنى ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، إذ كفرهم بالله وبرسوله ﷺ هو الذي حرمهم هداية الله تعالى ففسقوا سائر أنواع الفسق فكانوا هم الفاسقين الجديرين بهذا الوصف وهو الفسق والتوغل فيه.

٦٨ وقوله تعالى في الآية (٦٨): ﴿وَعَدَ[٣] اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ[٤]﴾ أي كافيهم ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم لا يزول ولا يبيد ولا يفنى فقد حملت هذه الآية أشد وعيد لأهل النفاق والكفر إذ توعدهم الرب تعالى بنار جهنم خالدين فيها وبالعذاب المقيم الذي لا يبارحهم ولا يتركهم لحظة أبد الأبد وذلك بعد أن لعنهم الله فأبعدهم وأسحقهم من كل رحمة وخير.

٦٩ وفي الآية الثالثة (٦٩) يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمنافقين المستهزئين بالله وآياته ورسوله ﷺ: أنتم أيها المنافقون كأولئك الذين كانوا من قبلكم في الاغترار بالمال والولد والكفر بالله والتكذيب لرسله حتى نزل بهم عذاب الله ومضت فيهم سنته في إهلاكهم، هذا ما تضمنته الآية الكريمة إذ قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ[٥] كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي بنصيبهم الذي كتب لهم في الدنيا ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ﴾ أي بما كتب لكم في هذه الحياة الدنيا ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ أي سواء بسواء ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل والشر وبالكفر والتكذيب ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾[٦] أي كخوضهم سواء بسواء أولئك الهالكون ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي تلاشت وذهبت ولم ينتفعوا منها بشيء، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وبما أنكم أيها المنافقون تسيرون على منهجهم في الكفر والتكذيب والاغترار بالمال والولد فسوف يكون مصيركم كمصيرهم وهو الخسران المبين.

٧٠ وقوله تعالى في الآية الرابعة (٧٠): ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ[٧] نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ

---

(١) هي: سدوم، وعمورة، وأرمة، وكانت مدنًا متاخمة بعضها قريب من بعض.

(٢) أي: وصفهم بالبخل والشح كما قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ كما أن امتناعهم عن الخروج إلى الجهاد يعتبر قبضًا لأيديهم.

(٣) الأصل أن الوعد يكون في الخير والإيعاد يكون في الشر، وإطلاق الوعد على الوعيد كما هو هنا تهكم بهم.

(٤) ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر ومعناه: أنها كافية ووفاء لجزاء أعمالهم.

(٥) الكاف: في محل نصب أي: وعدكم الله أيها المنافقون والمنافقات كما وعد الذين من قبلكم نار جهنم تخلدون فيها.

(٦) الكاف: في محل نصب نعت لمصدر محذوف أي: وخضتم خوضًا كالذي خاضوا أي: في الباطل والشر والفساد. والذي: بمعنى الجمع، ويجوز أن يكون الذين محذوف النون على لغةِ هذيل قال شاعرهم:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد

(٧) الاستفهام للتقرير، والتحذير بمعنى: ألم يسمعوا بإهلاكنا الكفار من قبلهم؟

﴿إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ[1] رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي الآيات الدالة على توحيد الله وصدق رسوله ﷺ وسلامة دعوتهم كما جاءكم أيها المنافقون رسولنا محمد ﷺ بالبينات فكذبتم كما كذب الذين من قبلكم فنزل بهم عذاب الله فهلك قوم نوح بالطوفان وعاد بالريح العاتية، وثمود بالصاعقة، وقوم إبراهيم[2] بسلب النعم وحلول النقم، وأصحاب مدين بالرجفة وعذاب الظلمة، والمؤتفكات[3] بالمطر والائتفاك أي القلب بأن أصبح أعالي مدنهم الثلاث[4] أسافلها، وأسافلها أعاليها، وما ظلمهم الله تعالى بما أنزل عليهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وأنتم أيها المنافقون إن لم تتوبوا إلى ربكم سيحل بكم ما حلّ بمن قبلكم أو أشد لأنكم لم تعتبروا بما سبق.

هداية الآيات:

١ - إن المنافقين لما كان مرضهم واحد وهو الكفر الباطني كان سلوكهم متشابهًا.

٢ - الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف علامة النفاق وظاهرة الكفر وانتكاس الفطرة.

٣ - الاغترار بالمال والولد من عوامل عدم قبول الحق والإذعان له والتسليم به.

٤ - تشابه حال البشر واتباع بعضهم لبعض في الباطل والفساد والشر.

٥ - حبوط الأعمال بالباطل وهلاك أهلها أمر مقضي به لا يتخلف.

٦ - وجوب الاعتبار بأحوال السابقين والاتعاظ بما لاقاه أهل الكفر منهم من عذاب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧١، ٧٢]

(٧١) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾: أي الصادقون في إيمانهم بالله ورسوله ﷺ ووعد الله ووعيده. ﴿أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: أي يتولّى بعضهم بعضًا في النّصرة والحماية والمحبة والتأييد. ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: أي يؤدونها في خشوع وافية الشروط والأركان والسنن والآداب. ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: أي يخرجون زكاة أموالهم الصامتة كالدراهم والدنانير والمعشرات، والناطقة كالأنعام: الإبل والبقر والغنم.

(٧٢) ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾[5]: أي إقامة دائمة لا يخرجون منها ولا يتحولون عنها. ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: أي رضوان الله الذي يحله عليهم أكبر من كل نعيم في الجنة.

معنى الآيتين:

(٧١) بمناسبة ذكر المنافقين وبيان سلوكهم ونهاية أمرهم ذكر تعالى المؤمنين وسلوكهم الحسن ومصيرهم السعيد فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ أي المؤمنون بالله ورسوله ﷺ ووعده ووعيده والمؤمنات بذلك ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي يوالي بعضهم بعضًا محبة ونصرة[6] وتعاونًا وتأييدًا ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما عرفه الشرع حقًا وخيرًا من الإيمان وصالح الأعمال، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهو ما عرفه الشرع باطلاً ضارًا فاسدًا من الشرك وسائر الجرائم فالمؤمنون والمؤمنات على عكس المنافقين والمنافقات في هذا الأمر، وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ[7] الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ والمنافقون لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى فهم مضيعون لها غير مقيمين لها، ويقبضون أيديهم فلا ينفقون، والمؤمنون يطيعون الله

---

(١) أي: بدلائل الحق والصدق، والجملة تعليلية.

(٢) هم نمرود بن كنعان وقومه.

(٣) قوم لوط عليه السلام.

(٤) تقدمت أسماء هذه المدن قريبًا.

(٥) قال تعالى من سورة الكهف: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: تحولاً لأنّ نعيمها لا يُمل ولا تتشوق النفس لغيره أبدًا.

(٦) شاهده من السنة قوله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»** وشبّك بين أصابعه. وقوله ﷺ في الصحيح: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»**.

(٧) يشمل اللفظ: الصلوات الخمس والنوافل كما شمل الزكوات المفروضة والصدقات إذ المدح يحصل بهما معًا فرضًا ونفلاً.

ورسوله ﷺ[1]، والمنافقون يعصون الله ورسوله ﷺ، المؤمنون سيرحمهم الله[2]، والمنافقون سيعذبهم الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب سينجز وعده ووعيده ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع كل شيء في موضعه اللائق به فلا يعذب المؤمنين وينعّم المنافقين بل ينعّم المؤمنين ويعذب المنافقين.

(٧٢) وقوله تعالى في الآية الثانية (٧٢): ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من خلال قصورها وأشجارها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ﴾ أي قصورًا طيبة في غاية النظافة وطيب الرائحة ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[3] أي إقامة، وقوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي يحله عليهم أكبر من الجنات والقصور وسائر أنواع النعيم. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ذلك المذكور من الجنة ونعيمها ورضوان الله فيها هو الفوز العظيم. والفوز هو السلامة من المرهوب والظفر بالمرغوب. هذا الوعد الإلهي الصادق للمؤمنين والمؤمنات يقابله وعيد الله تعالى للمنافقين والكفار في الآيات السابقة، ونصه ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝﴾.

هداية الآيتين:

١ - بيان صفات المؤمنين والمؤمنات والتي هي مظاهر إيمانهم وأدلته.

٢ - أهمية صفات أهل الإيمان وهي الولاء لبعضهم بعضًا، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، طاعة الله ورسوله ﷺ.

٣ - بيان جزاء أهل الإيمان في الدار الآخرة وهو النعيم المقيم في دار الإسلام.

٤ - أفضلية رضا الله تعالى[4] على سائر النعيم.

٥ - بيان معنى الفوز وهو النجاة من النار، ودخول الجنة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٣، ٧٤]

(٧٣) ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾: ابذل غاية جهدك في قتال الكفار والمنافقين.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: أي في القول والفعل أي شدد عليهم ولا تلن لهم.

(٧٤) ﴿كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾: أي كلمة يكفر بها من قالها وهي قول الجلاس بن سويد: إن كان ما جاء به محمد حقًا لنحن شرّ من الحمير.

﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾[5]: أي هموا بقتل النبي ﷺ في مؤامرة دنيئة وهم عائدون من تبوك. ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ﴾: أي ما أنكروا أو كرهوا من الإسلام ورسوله ﷺ إلا أن أغناهم الله بعد فقر أعلى مثل هذا يهمون بقتل رسول الله ﷺ؟

معنى الآيتين:

(٧٣) يأمر تعالى رسوله محمدًا ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ[6] جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وجهاد الكفار يكون

---

(١) أي: يؤدون الفرائض والسنن فعلاً ويجتنبون المنهيات والمكروهات تركًا.

(٢) السين في ﴿سَيَرْحَمُهُمُ﴾ للتأكيد وتحمل معنى الخوف والرجاء وهما جناحا المؤمنين لا يطيرون في سماء الكمالات إلا بهما.

(٣) شاهدُه في الصحيح قوله ﷺ: **«جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبر على وجهه في جنة عدن»** وقوله أيضًا في الصحيح: **«إنّ للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهن لا يرى بعضهم بعضًا»**.

(٤) أخرج الشيخان البخاري ومسلم، ومالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ الله عزّ وجلّ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير بين يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»**.

(٥) اقرأ نصها في التفسير فإنها واضحة ومختصرة.

(٦) يدخل في هذا الخطاب أمته ﷺ.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

١٩٩

بالسلاح وجهاد المنافقين يكون باللسان[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[2] أي شدد عملك وقولك، فلا هوادة مع من كفر بالله ورسوله ﷺ، ومع من نافق الرسول ﷺ والمؤمنين فأظهر الإيمان وأسر الكفر. وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي جهنم يريد ابذل ما في وسعك في جهادهم قتلًا وتأديبًا هذا لهم في الدنيا، وفي الآخرة مأواهم جهنم وبئس المصير.

﴿٧٤﴾ وقوله تعالى في الآية الثانية (٧٤): ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ هذا الكلام علّة للأمر بجهادهم والإغلاظ عليهم لقول الجلاس بن سويد المنافق: لئن كان ما جاء به محمد حقًا لنحن شر من الحمير سمعه منه أحد المؤمنين فبلغه رسول الله ﷺ فجاء الجلاس يعتذر ويحلف بالله ما قال الذي قال فأكذبه الله تعالى في قوله في هذه الآية ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾ والسياق دال على تكرر مثل هذا القول الخبيث وهو كذلك. وقوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾[3] يعني المنافقين الذين تآمروا على قتل النبي ﷺ عند عودته من تبوك في عقبة في الطريق إلا أن الله فضحهم وخيّب مسعاهم ونجى رسوله ﷺ منهم حيث بعث عمار بن ياسر يضرب وجوه الرواحل لما غشوه فردوا وتفرقوا بعد أن عزموا على أن يزاحموا رسول الله ﷺ وهو على ناقته بنوقهم حتى يسقط منها فيهلك، أهلكهم الله. وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾[4] أي وما كرهوا من رسول الله ﷺ ولا من الإسلام شيئًا إلا أن أغناهم الله ورسوله ﷺ من فضله وهل الغنى بعد الفقر مما ينقم منه، والجواب لا ولكنه الكفر والنفاق يفسد الذوق والفطرة والعقل أيضًا.

ومع هذا الذي قاموا به من الكفر والشر والفساد يفتح الرب الرحيم تبارك وتعالى باب التوبة في وجوههم ويقول: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟﴾[5] من هذا الكفر والنفاق والشر والفساد ﴿يَكُ﴾[6] ذلك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ حالاً ومآلاً أي في الدنيا والآخرة، ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ عن هذا العرض ويرفضوه فيصرون على الكفر والنفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي موجعًا في الدنيا بالقتل

---

(١) بأن يقول لهم: الكلمة الغليظة الشديدة ويكفهر في وجوههم أي: يعبس ولا يبسط وجهه فيهم.

(٢) هذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصفح اللذين كان الرسول ﷺ يؤمر بهما إزاء المشركين والمنافقين.

(٣) أخرج مسلم عن حذيفة: (أن اثني عشر رجلًا سمّاهم رسول الله ﷺ فعدهم حذيفة واحدًا واحدًا قال: قلت: يا رسول الله ألا تبعث إليه فتقتلهم؟ فقال: «**أكره أن يقول العرب: لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيهم الله بالدّبلة**») وهي خراج يظهر في الظهر وينصب على الصدر يقتل صاحبه فورًا.

(٤) أي: ليس ينقمون شيئًا إلا أنهم كانوا فقراء فأغناهم الله بما كان الرسول ﷺ يعطيهم من الغنائم، قيل لأحدهم: هل تجد في القرآن نظير قولهم: اتق شر من أحسنت إليه، قال: نعم وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

(٥) هذه الجملة متفرعة عن الكلام السابق وهي من باب ذكر الوعد بعد الوعيد والترغيب بعد الترهيب، وهو أسلوب القرآن الكريم.

(٦) حذفت نون ﴿يَكُ﴾ تخفيفًا إذ الأصل يكن.

والخزي، وفي الآخرة بعذاب النار، ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ﴾[١] يتولاهم ولا ناصر ينصرهم، أي وليس لهم في الدنيا من ولي يدفع عنهم ما أراد الله أن ينزله بهم من الخزي والعذاب وما لهم من ناصر ينصرهم بعد أن يخذلهم الله سبحانه وتعالى.

هداية الآيتين:

١ - بيان آية السيف[٢] وهي ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾.

٢ - تقرير مبدأ الردة وهي أن يقول المسلم كلمة الكفر فيكفر بها وذلك كالطعن في الإسلام أو سب الله أو رسوله ﷺ أو التكذيب بما أمر الله تعالى بالإيمان به والتصديق بضده أي بما أمر الله بتكذيبه.

٣ - تقرير مبدأ التوبة من كل الذنوب، وأن من تاب تقبل توبته.

٤ - الوعيد الشديد لمن يصر على الكفر ويموت عليه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٥ - ٧٨]

(٧٥) ﴿وَمِنْهُم﴾: أي من المنافقين.

﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي مالاً كثيرًا.

(٧٦) ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾: أي منعوه فلم يؤدوا حقه من زكاة وغيرها.

(٧٧) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾: أي فأورثهم البخل نفاقًا ملازمًا لقلوبهم لا يفارقها إلى يوم يلقون الله تعالى. ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي بسبب إخلافهم ما وعدوا الله تعالى به.

(٧٨) ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾: أي ما يسرونه في نفوسهم ويخفونه، وما يتناجون به فيما بينهم. ﴿عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾: يعلم كل غيب في الأرض أو في السماء.

معنى الآيات:

(٧٧) ما زال السياق في المنافقين وهم أصناف وهذا[٣] صنف آخر منهم قد عاهد الله تعالى لئن أغناهم من فضله وأصبحوا ذوي ثروة ومال كثير ليصدقن منه ولينفقنه في طريق البر والخير، فلما أعطاهم الله ما سألوا وكثر مالهم شحوا به وبخلوا، وتولوا عما تعهدوا به وما كانوا عليه من تقوى وصلاح، وهم معرضون. فأورثهم هذا البخل وخلف الوعد والكذب ﴿نِفَاقًا[٤] فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لا يفارقهم حتى يلقوا ربهم.

(٧٥) - (٧٧) هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ[٥] ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم[٦] مِّن فَضْلِهِۦ

---

(١) هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهي وإن كانت اسمية لا يمتنع أن تكون جوابًا ثانيًا معطوفًا على جملة الجزاء، لأنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع، فالجزاء جزاءان، الأول: تعذيبهم والثاني: انعدام الولي والنصير لهم في الأرض كلها.

(٢) يروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: سيوف الله أربعة: واحد على المشركين: قال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ..﴾ وثانٍ على الكافرين قال تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ..﴾ وثالث على المنافقين: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ..﴾ ورابع على البغاة: قال تعالى: ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

(٣) قال قتادة: هذا رجل من الأنصار قال: لئن رزقني الله شيئًا لؤدّين فيه حقه ولأتصدقن فلما آتاه الله ذلك فعل ما قُصّ عليكم فاحذروا الكذب فإنه يؤدي إلى الفجور.

(٤) ﴿نِفَاقًا﴾ نكرة أي: نفاقًا ما من نوع من أنواع النفاق وليس هو نفاق الكفر وإنّما هو نفاق العمل.

(٥) الآية صريحة ودلالتها واضحة في أنّ أحد أفراد المؤمنين سأل الله المال سواء بواسطة الرسول ﷺ كأن قال له: ادع الله لي، أو سأل بنفسه وقطع عهدًا لربه بما ذكر في الآية، ولما أخلف ما عاهد الله عليه أصيب بمرض النفاق في قلبه - والعياذ بالله تعالى - وهل هو ثعلبة بن حاطب أو غيره؟ أما ثعلبة فقد شهد بدرًا، وأهل بدر ذُكر لهم وعد عظيم، فلا يصح أن يكون أحدهم وقع في هذه الفتنة وإن كان غيره فهو حق، وجائز أن يكون هذا الغير اسمه ثعلبة فتشابه الاسم بالاسم فظن أنه البدري وليس هو والله أعلم. هذا والله إني لخائف من هذه الآية أن تنطبق عليّ فاللهم عفوك وغفرانك لي.

(٦) صيغة الجمع تدل على أن من عاهد الله لم يكن فردًا واحدًا بل كان جماعة ولذا قال الضحاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين: نبتل بن الحارث والجد بن قيس ومعتب بن قشير إلاّ أن قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ يتنافى مع كونهم منافقين، إلاّ أن يقال: زادهم نفاقًا خُلفهم هذا على نفاقهم الأول. والله أعلم.

بَخِلُوا بِهِۦ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝﴾.

(٧٨) أما الآية الأخيرة (٧٨) وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝﴾؟؟ فإنها تضمنت توبيخ الله تعالى للمنافقين الذين عاهدوا الله وأخلفوه بموقفهم الشائن كأنهم لا يعلمون أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأنه تعالى علاّم الغيوب، وإلا كيف يعدونه ويحلفون له أم يحسبون أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم فموقفهم هذا موقف مخز لهم شائن، وويل لهم حيث لازمهم ثمرته وهو النفاق حتى الموت وبهذا أغلق باب التوبة في وجوههم وهلكوا مع الهالكين.

هداية الآيات:

١ - وجوب الوفاء بالعهود وخاصة عهود[1] الله تعالى.

٢ - ذم البخل وأهله.

٣ - تقرير مبدأ أن السيئة يتولد عنها سيئة.

٤ - جواز تقريع وتأنيب أهل الباطل.

٥ - وجوب مراقبة الله تعالى إذ لو راقب هؤلاء المنافقون[2] الله تعالى لما خرجوا عن طاعته.

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (٨٥) وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٨٦)

٢٠٠

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٩، ٨٠]

(٧٩) ﴿يَلْمِزُونَ﴾: أي يعيبون ويطعنون. ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾: أي المتصدقين بأموالهم زيادة على الفريضة. ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾: إلا طاقتهم وما يقدرون عليه فيأتون به. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾: أي يستهزئون بهم احتقارًا لهم.

(٨٠) ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: أي اطلب لهم المغفرة أو لا تطلب. ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: أي إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وذلك لتوغلهم في العصيان.

معنى الآيتين:

(٧٩) ما زال السياق في التنديد بالمنافقين وكشف عوارهم فقد أخبر تعالى أن ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾[3]

---

(١) اختلف في نية الطلاق أو الصدقة بدون أن يلفظ هل يلزمه ما نواه بقلبه أو لا يلزمه؟ الراجح: أنه لا يلزمه ما لم يتلفظ به والدليل في قوله ﷺ: «**إنّ الله تجاوز لأمتي عمّا حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به**» رواه الترمذي وقال فيه: حسن صحيح، والشاهد في قوله: «**أو تتكلم به**» والعمل بهذا عند أهل العلم.

(٢) جاء في الصحيح قوله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان**» وفي حديث آخر: «**أربع من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر**» واختلف العلماء في تأويل هذين الحديثين، وقسموا النفاق إلى اعتقادي وعملي، فالاعتقادي: ما كان صاحبه كافرًا بالله ورسوله ﷺ مكذبًا لهما، والعملي: ما كان صاحبه مؤمنًا مصدقًا ولكن يأتي هذه المحظورات جهلاً وفسقًا. وهذا صحيح. ولكن لا يتأتى لعبد يؤمن بالله ورسوله ﷺ أن يتعمد الكذب على المسلمين وإخلاف الوعد لهم، والغدر بهم، وخيانتهم في أماناتهم والفجور في التخاصم معهم، ومن هنا كان المطلوب إجراء الخبر على ظاهره ما دام العبد يتعمد هذه المحظورات نكاية بالمسلمين وبغضًا لهم وعدم اعتراف بحقوقهم وظلمًا واعتداء عليهم، إذ مثل هذا لا يكون معه إيمان بالله ورسوله ﷺ.

(٣) أخرج مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أمرنا بالصدقة فكنا نحامل على ظهورنا فتصدق أبو عقيل بنصف صاع، قال: وجاء إنسان بشيء أكبر منه فقال المنافقون: إنّ الله لغني عن صدقة هؤلاء، وما فعل هذا الآخر إلاّ رياء فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ..﴾ الآية.

﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ[١] مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ[٢] فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾. أخبر تعالى أنه سخر منهم جزاء سخريتهم بالمتصدقين وتوعدهم بالعذاب الأليم. وكيفية لمزهم المتطوعين أن النبي ﷺ دعا إلى الصدقة فإذا جاء الرجل بمال كثير لمزوه وقالوا مراء، وإذا جاء الرجل بالقليل لمزوه وقالوا: الله غني عن صاعك هذا فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ففضحهم وسخر منهم وتوعدهم بأليم العذاب وأخبر نبيه ﷺ أن استغفاره لهم وعدمه سواء فقال: (٨٠) ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ[٣] أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وبين علة ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وهذه العلة كافية في عدم المغفرة لهم لأنها الكفر والكافر مخلد في النار. وأخبر تعالى أنه حرمهم الهداية فلا يتوبوا فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لأن الفسق قد أصبح وصفًا لازمًا لهم فلذا هم لا يتوبون، وبذلك حرموا هداية الله تعالى.

هداية الآيتين:

١ ـ حرمة لمز المؤمن والطعن فيه.

٢ ـ حرمة السخرية بالمؤمن.

٣ ـ غيرة الله على أوليائه حيث سخر الله ممن سخر من المطوعين.

٤ ـ من مات على الكفر لا ينفعه الاستغفار له، بل ولا يجوز الاستغفار له.

٥ ـ التوغل في الفسق أو الكفر أو الظلم يحرم صاحبه الهداية.

شرح الكلمات:
[الآية: ٨١ ـ ٨٣]

(٨١) ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾: أي سر الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ. ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾: أي قال المنافقون لبعضهم بعضًا لا تخرجوا للغزو في الحر. ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾: أي لو كانوا يفقهون أسرار الأمور وعواقبها ونتائجها لما قالوا: لا تنفروا في الحر ولكنهم لا يفقهون.

(٨٢) ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟﴾: أي في الدنيا، وليبكوا كثيرًا في الدار الآخرة.

(٨٣) ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾: أي من المنافقين. ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾: أي المتخلفين عن تبوك من النساء والأطفال وأصحاب الأعذار.

معنى الآيات:

(٨١) ما زال السياق في الحديث عن المنافقين فقال تعالى مخبرًا عنهم ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ[٤]﴾ أي سر المتخلفون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ[٥] رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي بقعودهم بعد رسول الله ﷺ في المدينة ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ في سبيله، وكرههم هذا للجهاد هو ثمرة نفاقهم وكفرهم وقولهم: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ لأن غزوة تبوك كانت في شدة الحر، قالوا هذا لبعضهم بعضًا وهنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم قولهم هذا فقال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ فلماذا لا يتّقونها بالخروج في سبيل الله كما يتقون الحر بعدم الخروج، وقوله تعالى: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ أي لما تخلفوا عن الجهاد لأن نار جهنم أشد حرًا، ولكنهم لا يفقهون.

(٨٢) وقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟

---

(١) أصل المطوّعين: المتطوعين أدغمت التاء في الطاء لقرب مخرجيهما وهم: الذين يفعلون الشيء تبرعًا من غير أن يجب عليهم.

(٢) الجهد: شيء قليل يعيش به المقِل والجهد والجهد بالفتح أيضًا: الطاقة، والسخرية: الاستهزاء، وعاملهم الله تعالى بالمثل فسخر منهم وهم لا يشعرون.

(٣) بيد أنه لما نزلت الآيات الفاضحة للمنافقين جاء بعضهم يعتذرون ويطلبون من الرسول ﷺ أن يستغفر لهم فاستغفر لهم رحمة بهم فأعلمه ربّه تعالى أنّ استغفاره لهؤلاء المنافقين مهما بلغ من الكثرة لا ينفعهم وذلك لكفرهم ونفاقهم وفسقهم.

(٤) ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ هم المتروكون في المدينة تركهم رسول الله ﷺ والمؤمنون لأنهم غير أهل لصحبة رسول الله ﷺ فلذا كره الله انبعاثهم فثبطهم، أما هم فإنهم فرحوا بتخلفهم عن رسول الله ﷺ لنفاقهم وفسقهم.

(٥) ﴿خِلَٰفَ﴾ لغة في خلف، واختير لفظ خلاف إشارة إلى أنّ المنافقين يحبّون مخالفة رسول الله ﷺ والمؤمنين، وقعودهم وإن كان بإذن فإنه مخالف لإرادة رسول الله ﷺ إذ الرسول ﷺ أمر بالنفير العام وجاؤوا هم يستأذنون في القعود.

قَلِيلًا﴾[1] أي في هذه الحياة الدنيا بما يحصل لهم من المسرات ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أي يوم القيامة لما ينالهم من الحرمان والعذاب، وذلك كان ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الشر والفساد.

(٨٣) وقوله تعالى لرسوله ﷺ ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ[2] مِّنْهُمْ﴾ أي فإن ردك الله سالمًا من تبوك إلى المدينة إلى طائفة من المنافقين ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك لغزو وجهاد ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ وعلة ذلك ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ[3]﴾ أي من النساء والأطفال فإن هذا يزيد في همهم ويعظم حسرتهم جزاء تخلفهم عن رسول الله ﷺ وكراهيتهم الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.

هداية الآيات:

١ - من علامات النفاق الفرح بترك طاعة الله ورسوله ﷺ.

٢ - من علامات النفاق كراهية طاعة الله ورسوله ﷺ.

٣ - كراهية الضحك والإكثار منه[4].

٤ - تعمد ترك الطاعة قد يسبب الحرمان منها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٤، ٨٥]

(٨٤) ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾: أي صلاة الجنازة. ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾: أي لا تتول دفنه والدعاء له كما تفعل مع المؤمنين. ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾: أي خارجون عن طاعة الله ورسوله ﷺ.

(٨٥) ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾: أي تخرج أرواحهم بالموت وهم كافرون.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في شأن المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك، وإن كانت هذه الآية نزلت[5] في شأن عبدالله بن أبي ابن سلول كبير المنافقين وذلك أنه لما مات طلب ولده الحباب الذي سماه رسول الله ﷺ عبدالله وقال له الحباب اسم الشيطان وسماه عبدالله جاءه فقال يا رسول الله إن أبي قد مات فأعطني قميصك[6] أكفنه فيه «رجاء بركته» وصل عليه واستغفر له يا رسول الله فأعطاه رسول الله ﷺ القميص وقال له: إذا فرغتم فآذنوني، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر وقال له: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين؟ فقال: بل خيرني فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم. فصلى عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية:

(٨٤) ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ[7]

---

(١) ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟﴾ أمر، ومعناه التهديد أي: فليضحكوا في الدنيا قليلاً وليبكوا في الآخرة كثيرًا، أو هو أمر بمعنى الخبر وهو صحيح إذ هذا هو حالهم ومنتهى أمرهم.

(٢) قوله: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ﴾ دليل على أن من المتخلفين ما كانوا منافقين ككعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع العامري.

(٣) ﴿ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين في ديارهم، واختيار لفظ الخالفين يحمل سبًا لهم وعيبًا، إذ الخالفون النساء، وخلف الشيء إذا فسد، ومنه خلوف فم الصائم، ومنه خلف اللبن: إذا فسد بطول المكث في الإناء، وفي هذا دليل على أن استصحاب المخذل الفاسد في الغزوات لا يليق.

(٤) صح عنه ﷺ أنه قال: «**والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا ولخرجتم إلى الصُعُدات تجأرون إلى الله تعالى**» ورد أن كثرة الضحك تميت القلب وكان النبي ﷺ جل ضحكه الابتسام.

(٥) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف لم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ وما في التفسير من خبر ابن أبيّ رواه مسلم.

(٦) فإن قيل: كيف يعطي الرسول ﷺ قميصه ليكفن فيه رئيس المنافقين وكيف صلى عليه واستغفر له وهو يعلم أنه منافق؟ والجواب: أما إعطاؤه ثوبه ليكفن فيه فقد سبق أن أعطى عبدالله بن أبي ثوبا للعباس عم الرسول ﷺ فحفظ له هذه اليد فأعطاه ثوبه وأما الصلاة عليه فقد كانت قبل نهي الله تعالى عنه، وأما الاستغفار فقد خير فيه بقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فرأى ﷺ في استغفاره استئلافًا للقلوب ففعل.

(٧) في الآية دليل على فرضية الصلاة على أموات المسلمين، ولا خلاف في هذا بين أهل العلم، وفي الآية إحدى موافقات عمر رضي الله عنه إذ أنزل الله تعالى هذا الحكم وهو ترك الصلاة على المنافقين بعد أن قال عمر: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين، فالصلاة هنا هي الدعاء والاستغفار فلما صلى عليه نزلت الآية ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ . .﴾ إلخ . . فترك الصلاة على المنافقين.

رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

٢٠١

﴿أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ أي لا تتول دفنه والدعاء له بالتثبيت عند المسألة. وعلل تعالى لهذا الحكم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

﴿٨٥﴾ وقوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ أي لا تصل[1] على أحد منهم مات يا رسول الله ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ فتصلي عليهم إني إنما أعطيتهم ذلك لا كرامة لهم وإنما لأعذبهم بها في الدنيا بالغموم والهموم ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أي ويموتوا ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فسينقلون إلى عذاب أبدي لا يخرجون منه، وذلك جزاء من كفر بالله ورسوله ﷺ.

هداية الآيتين:

١ - حرمة الصلاة على الكافر مطلقًا.

٢ - حرمة غسل الكافر والقيام على دفنه والدعاء له.

٣ - كراهة الصلاة على أهل الفسق دون الكفر.

٤ - حرمة الإعجاب بأحوال الكافرين المادية.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٦ - ٩٠]

﴿٨٦﴾ ﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾: أي طلبوا إذنك لهم بالتخلف. ﴿أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾: أي أولو الثروة والغنى. ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾: أي اتركنا مع المتخلفين من العجزة والمرضى والأطفال والنساء.

﴿٨٧﴾ ﴿مَعَ الْخَوَالِفِ﴾: أي مع النساء جمع خالفة المرأة تخلف الرجل في البيت إذا غاب. ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي توالت ذنوبهم على قلوبهم فأصبحت طابعًا عليها فحجبتها المعرفة.

﴿٨٨﴾ ﴿لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾: أي في الدنيا بالنصر والغنيمة. وفي الآخرة بالجنة والكرامة فيها. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أي الفائزون بالسلامة من المخوف والظفر بالمحبوب.

﴿٩٠﴾ ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾: أي المعتذرون. ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ﴾: أي ولم يأت إلى طلب الإذن بالقعود عن الجهاد منافقو الأعراب.

معنى الآيات:

﴿٨٦﴾ ما زال السياق في كشف عورات المنافقين وبيان أحوالهم فقال تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ[2]﴾ أي قطعة من القرآن آية أو آيات ﴿أَنْ آمِنُوا[3] بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي تأمر بالإيمان بالله والجهاد مع رسوله ﷺ ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ[4]﴾ أي من المنافقين ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي المتخلفين عن الجهاد للعجز كالمرضى والنساء والأطفال.

﴿٨٧﴾ قال تعالى في عيبهم وتأنيبهم: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي مع النساء وذلك لجبنهم وهزيمتهم

---

(١) صلاة الجنازة هي: أن يكبر ثم يقرأ الفاتحة ثم يكبر ويصلي على النبي ﷺ ثم يكبر ويدعو للميت، ثم يكبر الرابعة ويسلم لفعل الرسول ﷺ هذا وقوله: «**إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء**» رواه أبو داود، ويستحب أن يقف الإمام عند رأس الرجل، وعجيزة المرأة، لورود الحديث بذلك في مسلم وأبي داود.

(٢) السورة: طائفة من آيات القرآن لها مبدأ ومختتم، والمراد بالسورة هنا: هذه السورة (التوبة) أو بعض آياتها الآمرة بالجهاد والإيمان.

(٣) ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أن: تفسيرية فسرت مضمون السورة وهو الإيمان والجهاد.

(٤) أي: في القعود والتخلف عن الجهاد وهم أصحاب القدرة على الجهاد لصحة أجسامهم وكثرة أموالهم أما العجزة فإنهم غير مأمورين بالجهاد، والطَّول معناه: الغنى والقدرة المالية.

النفسية. وقوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي طبع الله على قلوبهم بآثار ذنوبهم التي رانت على قلوبهم فلذا هم لا يفقهون معنى الكلام وإلا لما رضوا بوصمة العار وهي أن يكونوا في البيوت مع النساء هذه حال المنافقين وتلك فضائحهم إذا أُنزلت سورة تأمر بالإيمان والجهاد يأتون في غير حياء ولا كرامة يستأذنون في البقاء مع النساء

(٨٨) ﴿لَٰكِنِ[1] ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ ولم يستأذنوا ففازوا بكرامة الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ[2]﴾ أي في الدنيا بالانتصارات والغنائم وفي الآخرة بالجنة ونعيمها ورضوان الله فيها. وقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بالسلامة من كل مرهوب وبالظفر بكل مرغوب.

(٨٩) وفسر تعالى تلك الخيرات وذلك الفلاح بقوله في الآية (٨٩) فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وأخبر عما أعد لهم من ذلك النعيم المقيم بأنه الفوز فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. هذا ما دلت عليه الآيات الأربع أما الآية الخامسة (٩٠) فقد تضمنت إخبار الله تعالى عن منافقي الأعراب أي البادية.

(٩٠) فقال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ[3]﴾ أي المعتذرون، أدغمت التاء في الذال فصارت المعذرون من الأعراب أي من سكان البادية كأسد وغطفان ورهط عامر بن الطفيل جاؤوا يطلبون الإذن من رسول الله ﷺ بالتخلف بدعوى الجهد والمخمصة، وقد يكونون معذورين حقًا وقد لا يكونون كذلك. وقوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في دعوى الإيمان بالله ورسوله ﷺ وما هم بمؤمنين بل هم كافرون منافقون، فلذا قال تعالى فيهم: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا وفي الآخرة، إن ماتوا على كفرهم.

هداية الآيات:

١ - القرآن هو مصدر التشريع الإلهي الأول والسنة الثاني.

٢ - مشروعية الاستئذان للحاجة الملحة.

٣ - حرمة الاستئذان للتخلف عن الجهاد مع القدرة عليه.

٤ - حرمة التخلف عن الجهاد بدون إذن من الإمام.

٥ - فضل الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.

٦ - بيان عظم الأجر وعظيم الجزاء لأهل الإيمان والجهاد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩١، ٩٢]

(٩١) ﴿عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾: أي كالشيوخ. ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾: كالعمي والزَّمْنَى. ﴿حَرَجٌ﴾: أي إثم على التخلف. ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: أي لا حرج عليهم في التخلف إذا نصحوا لله ورسوله ﷺ وذلك بطاعتهم لله ورسوله ﷺ مع تركهم الإرجاف والتثبيط. ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾: أي من طريق إلى مؤاخذتهم.

(٩٢) ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾: أي على رواحل يركبونها. ﴿تَوَلَّواْ﴾: أي رجعوا إلى بيوتهم. ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾: أي تسيل بالدموع الغزيرة حزنًا على عدم الخروج.

معنى الآيتين:

(٩١) لما ندد تعالى بالمتخلفين وتوعد بالعذاب الأليم الذين لم يعتذروا منهم ذكر في هذه الآيات أنه لا حرج على أصحاب الأعذار وهم

---

(١) قوله: ﴿لَٰكِنِ﴾ إلخ.. استدراك بيّن فيه تعالى حال الرسول ﷺ والمؤمنين وأنها أكمل الأحوال بعد ذكر حال المنافقين وما هم عليه من صفات النقص إذ أخبر أنهم لجبنهم يطلبون القعود عن الجهاد وأنهم لما ران على قلوبهم من أوضار الكفر والفسق لا يفقهون الكلام ولا يعرفون ما يضرهم ولا ما ينفعهم بخلاف الرسول ﷺ والمؤمنين فقد ذكر صفاتهم الكمالية، وهي الجهاد بالمال والنفس وما فازوا به من عظيم الخيرات، وما آلوا إليه من الفلاح وهو النجاة من المرهوب والظفر بالمحبوب.

(٢) الخيرات: جمع خير على غير قياس كسرادقات، وحمامات جمع سرداق وحمام.

(٣) ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ هذا اللفظ صالح لأن يكون المراد به المعتذرون لعلل قامت بهم وصالح لأن يكون المراد به المعذرون وهم الذين لا عذر لهم ويعتذرون بغير حق موجب للعذر يقال: عذر فلان: إذا قصّر في الواجب واعتذر بدون عذر قام به. وهذا من بلاغة القرآن، اللفظ الواحد منه يحتمل وجهين وكلاهما حق ومراد.

الضعفاء، كالشيوخ والمرضى والعميان وذوو العرج(١) والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ولكن بشرط نصحهم لله ورسوله ﷺ فقال عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ أي إثم ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٢) ومعنى النصح لله ورسوله ﷺ طاعتهما في الأمر والنهي وترك الإرجاف والتثبيط والدعاية المضادة لله ورسوله ﷺ والمؤمنين والجهاد في سبيل الله وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي ليس على من أحسنوا في تخلفهم لأنه أولاً بعذر شرعي(٣) وثانيًا هم مطيعون لله ورسوله ﷺ وثالثًا قلوبهم ووجوههم مع الله ورسوله ﷺ وإن تخلفوا بأجسادهم للعذر فهؤلاء ما عليهم من طريق إلى انتقاصهم أو أذيتهم بحال من الأحوال، كما ليس من سبيل.

(٩٢) ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ إلى الجهاد معك في سيرك ﴿قُلْتَ﴾ معتذرًا إليهم ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟﴾ أي رجعوا إلى منازلهم وهم يبكون والدموع تفيض من أعينهم(٤) حزنا ﴿أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ في سيرهم معكم وهم نفر منهم العرباض بن سارية وبنو مقرن وهم بطن من مزينة. رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

هداية الآيتين:

١ ـ لا حرج على أصحاب الأعذار الذين ذكر الله تعالى في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ وفي هذه الآية (٩١) ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ حرج وبشرط طاعة الله والرسول ﷺ فيما يستطيعون والنصح(٥) لله والرسول ﷺ بالقول والعمل وترك التثبيط والتخذيل والإرجاف من الإشاعات المضادة للإسلام والمسلمين.

٢ ـ مظاهر الكمال المحمدي في تواضعه ورحمته وبره وإحسانه إلى المؤمنين.

٣ ـ بيان ما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار من الإيمان واليقين والسمع والطاعة والمحبة والولاء ورقة القلوب وصفاء الأرواح.

اللهم إنا نحبهم بحبك فأحببنا كما أحببتهم واجمعنا معهم في دار كرامتك.

الجزء الحادي عشر

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٣ ـ ٩٦]

(٩٣) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾: أي الطريق إلى المعاقبة. ﴿أَغْنِيَآءُ﴾: واجدون لأهبة الجهاد مع سلامة أبدانهم. ﴿ٱلْخَوَالِفِ﴾: أي النساء والأطفال والعجزة.

(٩٤) ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾: أي إذا عدتم إليهم من تبوك، وكانوا بضعًا وثمانين رجلاً. ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾: أي لن نصدقكم فيما تقولون. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾: أي يوم القيامة.

(٩٥) ﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾: أي رجعتم من تبوك. ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾: أي لا تعاقبوهم. ﴿رِجْسٌ﴾: أي نجس لخُبْث بواطنهم.

---

(١) شاهده من سورة الفتح: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

(٢) قال القرطبي: ﴿نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إذا عرفوا الحق وأحبّوا أولياءه وأبغضوا أعداءه، ومع قبول أعذار أصحاب الأعذار فقد خرج ابن أم مكتوم إلى أحد وهو رجل أعمى، وطلب أن يُعطى الراية ليحملها، وخرج عمرو بن الجموح وهو أعرج خرج إلى أحد فقال له رسول الله ﷺ: «إنّ الله قد عذرك» فقال: والله لأحفرنّ بعرجتي هذه في الجنة.

(٣) روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لقد تركتم بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلاّ وهم معكم فيه**»، قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «**حبسهم العذر**».

(٤) ﴿حَزَنًا﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله، وجملة: ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ﴾: حال من ﴿تَوَلَّوا۟﴾.

(٥) النصح: إخلاص العمل من الغش يقال: نصح الشيء: إذا خلص، ونصح له القول: أي: أخلصه له. وفي صحيح مسلم عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» ـ ثلاثًا ـ قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» ذكر القرطبي معاني هذه النصائح بالتفصيل عند تفسير هذه الآية فليرجع إليها من طلب ذلك.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٢٠٢

معنى الآيات:

﴿٩٣﴾ ما زال السياق الكريم في المُخلَّفين من المنافقين وغير المنافقين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا[1] السَّبِيلُ﴾: أي الطريق إلى عقاب المخلَّفين على الذين يستأذنونك في التخلُّف عن الغزو وهم أغنياء أي ذوو قُدرة[2] على النفقة والسير ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي النساء ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: بسبب ذنوبهم فهم لذلك لا يعلمون أن تخلفهم عن رسول الله ﷺ لا يُجديهم نفعًا وأنه يجرُّ عليهم البلاء الذي لا يطيقونه. هؤلاء هُم الذين لكم سبيل على عقابهم ومؤاخذتهم، لا على الذين لا يجدون ما ينفقون، وطلبوا منك حملانًا فلم تجد ما تحملهم عليه فرجعوا إلى منازلهم وهم يبكون حزنًا. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٩٣).

﴿٩٤﴾ أما الآيات الثلاث بعدها فهي في المخلَّفين من المنافقين يخبر تعالى عنهم فيقول: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ يطلبون العذر منكم إذا رجعتم إلى المدينة من غزوكم. قل لهم يا رسولنا لا تعتذروا لأننا لا نؤمن لكم أي لا نصدقكم فيما تقولونه، لأن الله تعالى قد نبّأنا من أخباركم[3] وسيرى الله عملكم[4] ورسوله ﷺ. إن أنتم تبتم فأخلصتم دينكم لله، أو أصررتم على كفركم ونفاقكم، وستُردُّون بعد موتكم إلى عالم الغيب والشهادة وهو الله تعالى فينبئكم يوم القيامة بعد بعثكم بما كنتم تعملون من حسنات أو سيئات ويجزيكم بذلك الجزاء العادل.

﴿٩٥﴾ وقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ[5] بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يخبر تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين فيقول: سيحلف لكم هؤلاء المخلَّفون إذا رجعتم إليهم إلى المدينة من أجل أن تعرضوا عنهم فأعرضوا[6] عنهم أي لا تؤاخذوهم ولا تلتفتوا إليهم إنهم رِجْس أي نَجَس، ومأواهم جهنم جزاء لهم بما كانوا يكسبونه من الكفر والنفاق والمعاصي.

﴿٩٦﴾ وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾[7] معتذرين بأنواع من المعاذير لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فلن ينفعهم رضاكم شيئًا لأنهم فاسقون والله لا يرضى عن القوم الفاسقين وما دام لا يرضى عنهم فهو ساخط عليهم، ومن سخط الله عليه أهلكه وعذبه فلذا رضاكم عنهم وعدمه سواء.

هداية الآيات:

١ - لا سبيل إلى أذيَّة المؤمنين

---

(١) أي: العقوبة والإثم.

(٢) هؤلاء هم المنافقون تردد ذكرهم تنديدًا بهم وكشفًا لحالهم وتحذيرًا من سلوكهم.

(٣) أي: اطلعنا على سرائركم وما تخفي نفوسكم.

(٤) أي: ما تستأنفونه من أعمال بعد اليوم صالحة أو طالحة.

(٥) أي: بأنهم ما قدروا على الخروج لأعذار لهم يدّعونها كذبًا لتصفحوا عنهم، وتتركوا لومهم وعتابهم.

(٦) الفاء تفريعية أي: إذا كانوا يريدون الإعراض عنكم فأعرضوا عنهم وجملة: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾: تعليلية أي: علة للإذن لهم بالإعراض عنهم يريد: إنهم ذوو رجس.

(٧) المراد به: عبدالله بن أبيّ إذ حلف أن لا يتخلّف بعد اليوم عن رسول الله ﷺ وطلب أن يرضى عنه.

الصادقين إذا تخلَّفوا فإنهم ما تخلفوا إلا لعذر. وإنما السبيل على الأغنياء القادرين على السير إلى الجهاد وقعدوا عنه لنفاقهم.

٢ ـ مشروعية الاعتذار على شرط أن يكون المرء صادقًا في اعتذاره.

٣ ـ المنافقون كالمشركين رجْس أي نَجَس لأن بواطنهم خبيثة بالشرك والكفر وأعمالهم الباطنة خبيثة أيضًا إذ كلها تآمر على المسلمين ومكر بهم وكيد لهم.

٤ ـ حرمة الرضا على الفاسق المجاهر بفسقه، إذ يجب بُغضه فكيف يُرضى عنه ويُحب؟

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٧ ـ ٩٩]

(٩٧) ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾[(١)]: جمع أعرابي وهو من سكن البادية. ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾: أي من كفار ومنافقي الحاضرة. ﴿وَأَجْدَرُ﴾[(٢)]: أي أحق وأولى. ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: أي بشرائع الإسلام.

(٩٨) ﴿مَغْرَمًا﴾: أي غرامة وخسرانًا. ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾: أي ينتظر.

﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾: جمع دائرة: ما يحيط بالإنسان من مصيبة أو نكبة. ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: أي المصيبة التي تسوؤهم ولا تسرهم وهي الهلاك.

(٩٩) ﴿قُرُبَٰتٍ﴾: جمع قربة وهي المنزلة المحمودة. ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾: أي دعاؤه لهم بالخير.

معنى الآيات:

(٩٧) ما زال السياق الكريم في الكشف عن المنافقين وإعدادهم للتوبة أو للقضاء عليهم ففي الآية الأولى (٩٧) يخبر تعالى أن الأعراب[(٣)] وهم سكان البادية من العرب أشد كفرًا ونفاقًا من كفار الحَضَر ومنافقيهم. وإنهم أجدر أي أخلق وأحق أي بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ أي من الأحكام[(٤)] والسنن وذلك لبعدهم عن الاتصال بأهل الحاضرة. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بخلقه حكيم في شرعه فما أخبر به هو الحق الواقع، وما قضى به هو العدل الواجب.

(٩٨) وقوله تعالى في الآية الثانية (٩٨): ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا[(٥)]﴾ أي من بعض الأعراب من يجعل ما ينفقه في الجهاد غرامة لزمَتْه وخسارة لحقَتْه في ماله وذلك لأنه لا يؤمن بالثواب والعقاب الأخروي لأنه كافر بالله ولقاء الله تعالى. وقوله عز وجل: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي وينتظر بكم أيها المسلمون الدوائر متى تنزل بكم فيتخلص منكم ومن الإنفاق لكم والدوائر جمع دائرة المصيبة والنازلة من الأحداث، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ[(٦)]﴾ هذه الجملة دعاء عليهم. جزاء ما يتربصون بالمؤمنين. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بنياتهم فلذا دعا عليهم بما يستحقون.

(٩٩) وقوله تعالى في الآية الثالثة (٩٩): ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ[(٧)] وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ[(٨)]﴾ إخبار منه تعالى بأن الأعراب ليسوا سواء بل منهم من

---

(١) والعرب: جيل من الناس واحدهم عربي وهم أهل الأمصار، والعرب العاربة: هم الخلّص، والمستعربة هم الذين ليسوا بخلّص كأولاد إسماعيل عليه السلام، ويعرب بن قحطان هو أوّل من تكلّم بالعربية وهو أبو اليمن كلها.

(٢) ﴿وَأَجْدَرُ﴾ مأخوذ من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء.

(٣) لمّا ذكر تعالى حال منافقي الحضر ذكر هنا حال منافقي البادية ليُعرف الجميع.

(٤) وكذلك لا يعلمون حجج الله تعالى في ألوهيته وبعثة رسوله ﷺ لقلّة نظرهم وسوء فهمهم، ولذا لا حق لهم في الفيء والغنيمة إلا أن يجاهدوا أو يتحولوا إلى الحواضر ويتركوا البادية لحديث مسلم. واختلف في صحة شهادة البادي على الحاضر، والراجح أنها تصح إذا كان عدلاً. وتكره إمامتهم لأهل الحضر عند مالك، وذلك لجهلهم بالشريعة وتركهم الجمعة.

(٥) أي: غرمًا وخسرانًا، وأصله لزوم الشيء، ومنه ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: لازمًا.

(٦) قرىء: ﴿السُّوء﴾ بالفتح والضم إلا قوله: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ فإنه بالفتح لا غير، إذ السُّوء بالضم: المكروه، والسوء بالفتح: الفساد. امرؤ سوء: أي: فاسد.

(٧) قيل: هم بنو مُقَرِّن من مزينة.

(٨) صلوات الرسول ﷺ هي استغفاره ودعاؤه لهم بالخير والبركة.

يؤمن بالله واليوم الآخر، فلذا هو يتخذ ما ينفق من نفقة في الجهاد قربات عند الله أي قربًا يتقرب بها إلى الله تعالى، ووسيلة للحصول على دعاء الرسول ﷺ له، لأن الرسول ﷺ كان إذا أتاه المؤمن بزكاته أو صدقته يدعو له بخير، كقوله لعبدالله بن أبي أوفى: اللهم صل على آل أبي أوفي، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ إخبار منه تعالى بأنه تقبلها منهم وصارت قربة[(١)] لهم عنده تعالى، وقوله تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ بشرى لهم بدخول الجنة، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يؤكد وعد الله تعالى لهم بإدخالهم في رحمته التي هي الجنة فإنه يغفر ذنوبهم أولاً، ويدخلهم الجنة ثانيًا، هذه سنته تعالى في أوليائه، يطهرهم ثم ينعم عليهم بجواره.

هداية الآيات:

١ - بيان أن سكان البادية يُحرمون من كثير من الآداب والمعارف فلذا سكن البادية غير محمود إلا إذا كان فرارًا من الفتن.

٢ - من الأعراب المؤمن والكافر والبر والتقي والعاصي والفاجر كسكان المدن إلا أن كفار البادية ومنافقيها أشد كفرًا ونفاقًا لتأثير البيئة.

٣ - فضل النفقة في سبيل الله والإخلاص فيها لله تعالى.

الجزء الحادي عشر — سورة التوبة

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

٢٠٣

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٠ ـ ١٠٢]

﴿١٠٠﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾: أي إلى الإيمان والهجرة والنصرة والجهاد.

﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾: أي في أعمالهم الصالحة.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾: بسبب طاعتهم له وإنابتهم إليه وخشيتهم منه ورغبتهم فيما لديه.

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: بما أنعم عليهم من جلائل النعم وعظائم المِنَن.

﴿١٠١﴾ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾: أي حول المدينة من قبائل العرب. ﴿مَرَدُوا۟﴾: مرقوا وحذقوه وعتوْا فيه. ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: الأولى قد تكون فضيحتهم بين المسلمين والثانية عذاب القبر.

معنى الآيات:

﴿١٠٠﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ[(٢)] ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ[(٣)]﴾ وهم الذين سبقوا غيرهم إلى الإيمان والهجرة والنصرة والجهاد، والذين اتبعوهم[(٤)] في ذلك وأحسنوا أعمالهم فكانت موافقة لما شرع الله وبيّن رسوله محمد ﷺ؛ الجميع رضي الله عنهم بإيمانهم وصالح أعمالهم، ورضوا عنه بما أنالهم من إنعام وتكريم، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا أي وبشرهم بما أعد لهم من

(١) أي: تقربهم من الله تعالى.

(٢) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هم الذين صلّوا إلى القبلتين وأفضلهم الخلفاء الأربعة ثم الستة الباقون من المبشرين بالجنة ثم أهل بدر ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية، وأفضلهم أبو بكر على الإطلاق.

(٣) ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾: هم من أسلم من الأوس والخزرج بالمدينة ولم يعرفوا في الجاهلية بهذا الاسم وإنما سماهم الله تعالى به في الإسلام.

(٤) التابعون: جمع تابع أو تابعي، وهم الذين صحبوا الصحابة، وأكبر التابعين: الفقهاء السبعة وهم: سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد وعروة بن الزبير، وخارجة بن زيد، وأبو سلمة بن عبدالرحمن، وعبدالله بن عتبة بن مسعود، وسليمان بن يسار. وكلهم من المدينة النبوية. وأفضل نساء التابعين حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبدالرحمن وأم الدرداء.

جنات، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي ذلك المذكور من رضاه تعالى عنهم ورضاهم عنه وإعداد الجنة لهم هو الفوز العظيم، والفوز السلامة من المرهوب والظفر بالمرغوب فالنجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٠٠) وأما الآية الثانية فقد تضمنت الإخبار بوجود منافقين في الأعراب[١] حول المدينة، ومنافقين في داخل المدينة، إلا أنهم لتمرسهم وتمردهم في النفاق أصبحوا لا يُعرفون.

(١٠١) لكن الله تعالى يعلمهم هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ[٢] عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وعيد لهم نافذ فيهم لا محالة وهو أنه تعالى سيعذبهم في الدنيا مرتين مرة بفضحهم أو بما شاء من عذاب ومرة في قبورهم، ثم بعد البعث يردهم إلى عذاب النار وهو العذاب العظيم.

(١٠٢) وقوله تعالى في الآية الثالثة (١٠٢): ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ[٣] عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ هؤلاء أناس آخرون تخلفوا عن الجهاد بغير عذر وهم أبو لبابة ونفر معه ستة أو سبعة أنفار ربطوا أنفسهم في سواري المسجد لما سمعوا ما نزل في المتخلفين وقالوا لن نحل أنفسنا حتى يحلنا رسول الله ﷺ خلطوا عملاً صالحًا وهو إيمانهم وجهادهم وإسلامهم وعملاً سيئًا وهو تخلفهم عن غزوة تبوك بغير عذر، فقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ إعلامهم بتوبة الله تعالى عليهم فجاء رسول الله ﷺ فحل رباطهم وقالوا لرسول الله ﷺ هذه أموالنا التي خلفتنا عنك خذها فتصدق بها واستغفر لنا، فقال: ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا.

هداية الآيات:

١ ـ فضل السبق للخير والفوز بالأولية فيه.

٢ ـ فضل أصحاب رسول الله ﷺ على غيرهم ممن جاء بعدهم.

٣ ـ فضل التابعين لأصحاب رسول الله ﷺ إن أحسنوا المتابعة.

٤ ـ علم ما في القلوب إلى الله تعالى فلا يعلم أحد من الغيب إلا ما علّمه الله عز وجل.

٥ ـ الرجاء لأهل التوحيد الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا بأن يغفر الله لهم ويرحمهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٣ ـ ١٠٦]

(١٠٣) ﴿صَدَقَةً﴾: مالاً يتقرب به إلى الله تعالى. ﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾: أي تطهرهم من ذنوبهم، وتزكيهم أنت أيها الرسول بها بدعائك لهم وثنائك عليهم. ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾: أي ادع لهم بالخير. ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾: أي دعاءك رحمة.

(١٠٤) ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: يتقبلها.

(١٠٦) ﴿مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾: مؤخرون لحكم الله وقضائه. ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾: أي بخلقه نيات وأموالاً وأعمالاً حكيم في قضائه وشرعه.

معنى الآيات:

(١٠٣) لقد تقدم في الآية قبل هذه أن المتخلفين التائبين قالوا للرسول ﷺ: هذه أموالنا[٤] التي تخلفنا بسببها صدقة فخذها يا رسول الله فقال لهم: إني لم أُؤمر بذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿خُذۡ[٥] مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ

---

(١) الأحياء الذين كانوا حول المدينة هم: مزينة وجهينة وأسلم، وغفار وأشجع ولحيان وعصيّة وكان منهم منافقون.

(٢) يقال: مرد على الأمر: إذا مرن عليه ودرب به، ومنه الشيطان المارد، سئل حذيفة عن المنافقين فأخبر أنهم اثني عشر ستة ماتوا بالدبيلة وأربعة ماتوا موتًا عاديًا.

(٣) ﴿خَلَطُواْ﴾ يريد خلطوا حسنات أعمالهم الصالحة بسيئات التخلف عن الغزو والإنفاق في الجهاد والسير مع رسول الله ﷺ إلى تبوك. وعسى: فعل رجاء وهي في كلام الله تعالى كناية عن وقوع المرجو لا محالة.

(٤) المال في فصيح اللغة: هو كل ما تمول وتملك فهو مال. والمراد من قولهم: هذه أموالنا يعنون ما لديهم من سائر أنواع المال. وأما في الزكوات فإنها خاصة بالعين والمواشي والثمار والحبوب بشروطها التي هي النصاب والحول في العين والحصاد في الحبوب والتمر بلوغ خمسة أوسق، والوسق ستون صاعًا والصاع أربعة أمداد.

(٥) هذه الآية وإن نزلت في الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا فإنها عامة في الأمة فعلى ولاة أمور المسلمين أن يجبوا الزكوات

﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأخذ صدقة هؤلاء التائبين لأنها تطهرهم من ذنوبهم ومن أوضار الشُّح في نفوسهم وتزكيهم أيها الرسول بها بقبولك لها وصل عليهم أي ادع لهم بخير، إن صلاتك سكن[1] لهم أي رحمة وطمأنينة في نفوسهم والله سميع لأقوالهم لمَّا قدموا صدقتهم وقالوا: خذها يا رسول الله، عليم بنياتهم وبواعث نفوسهم فهم تائبون توبة صدق وحق.

(١٠٤) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ الاستفهام للتقرير أي هم يعلمون ذلك قطعًا، ويأخذ الصدقات[2] أي يقبلها، وأن الله هو التوّاب أي كثير قبول التوبة من التائبين الرحيم بعباده المؤمنين.

(١٠٥) ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم حاضًا لهم على العمل الصالح تطهيرًا لهم وتزكية لنفوسهم: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[3] فيشكر لكم ويثني به عليكم ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وهو الله عز وجل ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويجزيكم به الحسن بالحسن والسيء بمثله.

(١٠٦) وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا هو الصنف الثالث من أصناف المتخلفين فالأول هم المنافقون والثاني هم التائبون والثالث هم المقصود بهذه الآية وهم ثلاثة أنفار: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فهؤلاء لم يأتوا الرسول ﷺ ليعتذروا إليه كما فعل التائبون المتصدقون بأموالهم منهم أبو لبابة حيث ربطوا أنفسهم في سواري المسجد فأمر الرسول ﷺ بمقاطعتهم[4] حتى يحكم الله فيهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فإن عذبهم أو تاب عليهم فذلك لعلمه وحكمته. وبقوا كذلك حتى ضاقت بهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ثم تاب الله تعالى عليهم كما جاء ذلك بعد كذا آية من آخر هذه السورة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

الجزءُ الحادِي عَشَر — سُورةُ التَّوبَة

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١١)

٢٠٤

هداية الآيات:

١ - الصدقة تكفر الذنوب وتطهر الأرواح من رذيلة الشُّح والبخل.

٢ - يستحب لمن يأخذ صدقة امرىء مسلم أن يدعو له بمثل: آجرك الله[5] على ما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت.

= ويأخذوها من الأمة فريضة الله تعالى على المسلمين للقيام بمصالح المسلمين، والذين قدّموا أموالهم كلها أخذ منها الرسول ﷺ الثلث، وردّ عليهم الباقي. فقال مالك من تصدق بجميع ماله يجزئه منه الثلث أخذًا من هذه الحادثة.

(١) معناه أنه إذا دعا لهم سكنت قلوبهم وفرحوا، واختلف هل هذه الصلاة على المتصدق باقية أو انتهت بوفاة رسول الله ﷺ؟ والصحيح أنها باقية. فمن أخذ صدقة متصدق يصلي عليه اقتداء برسول الله ﷺ.

(٢) أخرج مسلم: **«لا يتصدق أحد بصدقة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فتربو في كفّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل»**.

(٣) روى أبو داود وأحمد أن النبي ﷺ قال: **«إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيرًا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»**.

(٤) هؤلاء هم: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع.

(٥) هو معنى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ إذ الصلاة الدعاء لغة.

٣ - ينبغي للتائب من الذنب الكبير أن يكثر بعده من الصالحات كالصدقات والصلوات ونحوها.

٤ - فضيلة الخوف والرجاء فالخوف يحمل على ترك المعاصي والرجاء يحمل على الإكثار من الصالحات.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٧ - ١١٠]

(١٠٧) ﴿ضِرَارًا﴾: أي لأجل الإضرار. ﴿وَإِرْصَادًا﴾: انتظارًا وترقبًا. ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي إلا الخير والحال الأحسن.

(١٠٨) ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾: أي لا تَقُمْ فيه للصلاة أبدًا. ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾: أي بُني على التقوى وهو مسجد قباء. ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾: هم بنو عَمرو بن عوف.

(١٠٩) ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾: أي على خوف. ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾: أي رجاء رضوان الله تعالى. ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾: أي على طرف جرف مشرف على السقوط، وهو مسجد الضرار.

(١١٠) ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾: أي شكا في نفوسهم. ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: أي تُفْصَل من صدورهم فيموتوا.

معنى الآيات:

(١٠٧) ما زال السياق في فضح المنافقين وإغلاق أبواب النفاق في وجوههم حتى يتوبوا إلى الله تعالى أو يهلكوا وهم كافرون، فقال تعالى ذاكرًا فريقًا منهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا[١] ضِرَارًا وَكُفْرًا[٢] وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ[٣] حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ إن المراد من هؤلاء الذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة كانوا قد أتوا النبي ﷺ وهو شاخص إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدًا للعاجز منا والمريض وللّيلة المطيرة فَصَلِّ لنا فيه، فقال لهم ﷺ: **«أنا الآن على جناح سفر وإن عدنا نصلي لكم فيه إن شاء الله»** أو كما قال. فلما عاد ﷺ من تبوك ووصل إلى مكان قريب من المدينة يقال له ذواوان وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار نزل عليه الوحي بشأن مسجد الضرار فبعث مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عاصمًا أخا بني العجلان فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه فخرجا مسرعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال لمعن: انظرني حتى أخرج إليك بنار، فخرج بسعف نخل قد أضرم فيه النار وأتيا المسجد وأهله فيه فأضرما فيه النار وهدماه وتفرق أهله ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي لأجل الإضرار بالمسجد النبوي ومسجد قباء حتى يأتيهما أهل الحي، وقوله: ﴿وَكُفْرًا﴾ أي لأجل الكفر بالله ورسوله ﷺ، وقوله: ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ علة ثالثة لبناء مسجد الضرار إذ كان أهل الحي مجتمعين في مسجد قباء فأرادوا تفرقتهم في مسجدين حتى يجد هؤلاء المنافقون مجالاً للتشكيك والطعن وتفريق صفوف المؤمنين على قاعدة: (فرق تسد) ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وهو أبو عامر الراهب الفاسق لأنه عليه لعائن الله هو الذي أمرهم أن يبنوه ليكون وكرًا للتآمر والكيد وهذا الفاسق قال للنبي ﷺ: ما وجدت قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فكان مع المشركين في حروبهم كلها إلى أن انهزم المشركون في هوازن وأيس اللعين ذهب إلى بلاد الروم يستعديهم على رسول الله ﷺ، ومن هنا أمر المنافقين ببناء مسجد الضرار ليكون كما ذكر تعالى حتى ينزل به مع جيوش الروم التي قد خرج يستعديها ويؤلبها إلا أنه خاب في مسعاه وهلك بالشام إلى جهنم وبئس المصير فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل بناء مسجد الضرار الذي هُدم وحُرق وأصبح موضع

---

(١) روي أن رأس الفتنة كان أبا عامر الراهب الذي ذهب يستعدي الروم على رسول الله ﷺ وأصحابه.

(٢) ﴿ضِرَارًا﴾ مفعول لأجله أي: لأجل مضارة أهل الإسلام بتفرقة المسلمين وإيجاد عداوات بينهم.

(٣) هو أبو عامر الراهب، وسمي الراهب: لأنه تنصّر وتعبد على دين النصارى ولما انهزمت ثقيف التحق بالروم ومات كافرًا. نالته دعوة النبي ﷺ.

قمامة تلقى فيه الجِيَفُ والقمائم. وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذا قولهم لما حرق عليهم المسجد وهدم وانفضح أمرهم حلفوا ما أرادوا ببنائه إلا الحالة التي هي حسنى لا سوء فيها إذ قالوا بنيناه لأجل ذي العلة ولليلة المطيرة. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ تفنيد لقولهم وتقرير لكذبهم.

(١٠٨) وقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[١] نهي للرسول ﷺ أن يصلي لهم فيه كما واعدهم وهو ذاهب إلى تبوك. وقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ[٢] عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ وهو مسجده ﷺ ومسجد قباء إذ كل منهما أسس من أول يوم على تقوى من الله ورضوان أي على خوف من الله وطلب رضاه، وقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ ثناء على أهل قباء بخير وإخبار أنهم يحبون أن يتطهروا[٣] من الخبث الحسّي والمعنوي فكانوا يجمعون في الاستنجاء بين الحجارة والماء فأثنى الله تعالى عليهم بذلك.

(١٠٩) وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ أي على مخافة من الله وطلب لرضاه خير أمن أسس بنيانه على شفا أي طرف جرف هار أي مشرف على السقوط، والجرف[٤] ما يكون في حافة الوادي من أرض يجرف السيل من تحتها التراب وتبقى قائمة ولكنها مشرفة على السقوط، وقوله تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي سقط به ذلك الجرف في نار جهنم والعياذ بالله تعالى، هذا حال أولئك المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى ما يكمُلون به ويسعدون أي يحرمهم هدايته فيخسرون دنيا وأُخرى.

(١١٠) وقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾[٥] أي شكًا واضطرابًا في نفوسهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ[٦] قُلُوبُهُمْ﴾ فيهلكوا والشك في قلوبهم أي فكان هذا البناء الظالم سببًا في تأصل النفاق والكفر في قلوبهم حتى يموتوا كافرين، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييل للكلام بما يقرر مضمونه ويثبته فكونه تعالى عليمًا حكيمًا يستلزم حرمان أولئك الظلمة المنافقين من الهداية حتى يموتوا وهم كافرون إلى جهنم وذلك لتوغلهم في الظلم والشر والفساد.

هداية الآيات:

١ - بيان أكبر مؤامرة ضد الإسلام قام بها المنافقون بإرشاد الفاسق أبي عامر الراهب.

٢ - بيان أن تنازع الشرف هو سبب البلاء كل البلاء فابن أُبَيّ حاربَ الإسلام لأنه كان يُؤمِّلُ في السُّلطة على أهل المدينة فحُرِمَها بالإسلام. وأبو عامر الراهب ترهَّب لأجل الشرف على أهل المدينة والسلطان الروحي فلذا لما فقدها حارب من كان سبب حرمانه وهو الرسول ﷺ حتى قال له مواجهة: ما قاتلك قوم إلا قاتلتك معهم. بل ذهب إلى الروم يؤلِّبهم على رسول الله ﷺ واليهود ما حاربوا الإسلام إلا من أجل المحافظة على أملهم في مملكة إسرائيل.

---

(١) أي: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾ للصلاة. يقال: فلان قائم يصلي. و ﴿أَبَدًا﴾ معناه في أي وقت من الأوقات مطلقًا. فأبدًا: لفظ يفيد التأبيد المطلق.

(٢) ﴿أُسِّسَ﴾ أي: وضعت أسسه وبنيت جدره ورفعت قواعده إذ الأس: أصل البناء، وكذلك الأساس، والجمع أسس وأساس جمع إساس. قال الشاعر:

أصبح الملك ثابت الأساس ... في البهاليل من بني العباس

(٣) لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «**أهل قباء: إن الله سبحانه قد أحسن الثناء عليكم في التطهر فما تصنعون؟**» قالوا: إنّا نغسل أثر الغائط والبول بالماء. رواه أبو داود. فكانوا يجمعون بين الاستجمار والاستنجاء مبالغة في التطهر، وإن كان الاستجمار مجزئًا تخفيفًا على الأمة المسلمة.

(٤) الجرف: بالضم والإسكان كالرسُل والرسْل، وأصله من الجرب والاجتراف وهو اقتلاع الشيء من أصله.

(٥) وقيل: الريبة هنا: الحسرة والندامة، وحزازة وغيظًا والكل صالح لدلالة اللفظ عليه.

(٦) أي: إلى أن تقطع قلوبهم بالموت أي: إلا أن يموتوا.

٣ - لا يصح الاغترار بأقوال أهل النفاق فإنها كذب كلها.

٤ - أيما مسجد بُني للإضرار والتفرقة بين المسلمين إلا ويجب هدمه وتحرم الصلاة فيه.

٥ - فضل التطهر والمبالغة في الطهارتين الروحية والبدنية.

٦ - التحذير من الظلم والإسراف فيه فإنه يحرم صاحبه هداية الله فيهلك وهو ظالم فيخسر دنيا وأخرى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١١، ١١٢]

(١١١) ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾: هي دار السلام التي أعدها الله تعالى للمتقين. ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾: أي الكفار والمشركين. ﴿وَعۡدًا﴾: أي وعدهم وعدًا حقًا. ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾: أي مذكورًا في التوراة والإنجيل والقرآن. ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾: أي لا أحد أوفى بعهده من الله تعالى. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾: أي ذلك البيع هو الفوز العظيم.

(١١٢) ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾: أي من الشرك والنفاق والمعاصي. ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾: أي المطيعون لله في تذلل وخشوع مع حبهم لله وتعظيمهم له. ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: أي الصائمون والخارجون في سبيل الله لطلب علم أو تعليمه أو جهاد لأعدائه. ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: أي بعبادة الله تعالى وتوحيده فيها. ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾: أي عن الشرك والمعاصي. ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾: أي القائمون عليها العاملون بها. ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أي بالجنة دار السلام.

معنى الآيتين:

(١١١) لما ذكر تعالى حال المتخلفين عن الجهاد ذكر فضل الجهاد ترغيبًا فيه وفيما أعد لأهله فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ[(١)] مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ[(٢)] لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ وهذا هو المُثمَّن الذي أعطى الله تعالى فيه الثمن وهو الجنة، وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ﴾ أي أعداء الله المشركين ﴿وَيُقۡتَلُونَۖ﴾[(٣)] أي يستشهدون في معارك القتال وقوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا﴾[(٤)] ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ أي وعدهم بذلك وعدًا وأحقه حقًا أي أثبته في الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن تقريرًا له وتثبيتًا، وقوله: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا أحد مطلقًا أوفى بعهده إذا عاهد من الله تعالى وقوله: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ فبناء على ذلك فاستبشروا[(٥)] أيها المؤمنون ببيعكم الذي بايعتم الله تعالى به أي فسروا[(٦)] بذلك وافرحوا وذلك البيع والاستبشار هو الفوز العظيم الذي لا فوز خير ولا أعظم منه.

(١١٢) وقوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾[(٧)] إلى قوله: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ هو ذكر لأوصاف أهل البيع وتحديد لهم فهم الموصوفون بتسع صفات: الأولى التائبون أي من الشرك والمعاصي، والثانية العابدون وهم المطيعون لله طاعة ملؤها المحبة لله تعالى والتعظيم له والرهبة منه، والثالثة الحامدون لله تعالى في السراء والضراء وعلى كل حال، والرابعة السائحون وهم الصائمون

---

(١) حصل هذا البيع لبعض أصحاب رسول الله ﷺ في بيعة العقبة، إذ قال عبدالله بن رواحة للنبي ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال النبي ﷺ: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**» قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «**الجنة**». قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل.

(٢) الباء في الشراء تدخل على الثمن تقول: بعتك الدار بكذا ألفٍ، ولذا قال هنا: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ فالجنة هي الثمن المشترى به الأنفس والأموال.

(٣) قوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ بيّن فيه مكان تسليم البضاعة المشتراة وهي الأنفس.

(٤) ﴿وَعۡدًا﴾ و ﴿حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان.

(٥) أي: أظهروا السرور على بشرة وجوهكم.

(٦) فسُرُّوا: أي: أظهروا السرور.

(٧) ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ هم الراجعون من الحالة المذمومة إلى الحالة المحمودة، والتائب: الراجع، والراجع إلى الطاعة أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين.

كما في الحديث[(١)] والذين يخرجون في سبيل الله لطلب علم أو غزو أو تعليم أو دعوة إلى الله تعالى ليُعْبد ويوحَّد ويُطاع في أمره ونهيه، والخامسة والسادسة الراكعون الساجدون أي المقيمون الصلاة المكثرون من نوافلها كأنهم دائمًا في ركوع وسجود، والسابعة والثامنة الآمرون بالمعروف وهو الإيمان بالله وتوحيده وطاعته وطاعة رسوله ﷺ والناهون عن المنكر وهو الكفر به تعالى والشرك في عبادته ومعصية رسوله محمد ﷺ والتاسعة الحافظون لحدود الله بالقيام عليها[(٢)] وعملها بعد العلم بها، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم أهل الإيمان الصادق الكامل المستحقون لبشرى الرسول ﷺ بالنصر والتأييد في الدنيا والنجاة من النار ودخول الجنة يوم القيامة اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

هداية الآيتين:

١ - بيان فضل الله تعالى ومنته على عباده المؤمنين حيث وهبهم أرواحهم وأموالهم واشتراها منهم.

٢ - فضل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.

٣ - على المؤمن أن يشعر نفسه أن بدنه وماله لله تعالى وأن عليه رعايتهما وحفظهما حتى ترفع راية الجهاد ويطالب إمام المسلمين بالنفس والمال فيقدم نفسه وماله إذ هما وديعة الله تعالى عنده.

٤ - على المؤمن أن لا يدخل الضرر على نفسه ولا على ماله بحكم أنهما لله تعالى.

٥ - على المؤمن أن يتعاهد نفسه ليرى هل هو متصف بهذه الصفات التسع أولاً فإن رأى نقصًا كمله وإن رأى كمالاً حمد الله تعالى عليه وحفظه وحافظ عليه.

الجزْءُ الحَادِي عَشَر — سُورَةُ التَّوْبَة

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

٢٠٥

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٣ - ١١٦]

﴿١١٣﴾ ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾: أي يسألون الله تعالى لهم المغفرة.

﴿أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾: أصحاب قرابة كالأبوّة والبُنوّة والأخوة.

﴿١١٤﴾ ﴿مَّوْعِدَةٍ﴾: أي وعدٌ وعده به. ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾: أي قال: إني بريء منك. ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾: الأواه: كثير الدعاء والشكوى إلى الله تعالى والحليم الذي لا يغضب ولا يؤاخذ بالذنب.

﴿١١٥﴾ ﴿مَّا يَتَّقُونَ﴾: أي ما يتقون الله تعالى فيه فلا يفعلوه أو لا يتركوه.

﴿١١٦﴾ ﴿مِن وَلِىٍّ﴾: الولي من يتولى أمرك فيحفظك ويعينك.

معنى الآيات:

﴿١١٣﴾ لما مات أبوطالب[(٣)] على الشرك بعد أن عرض عليه الرسول ﷺ كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فأبى أن يقولها وقال هو

(١) روى الطبراني عن عائشة رضي الله عنه أنها قالت: سياحة هذه الأمة الصيام، ورواه أبو هريرة مرفوعًا إلى النبي ﷺ: **«سياحة أمتي الصيام»** وروي أيضًا عنه ﷺ: **«إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»**.

(٢) أي: القائمون بما أمر الله به، والمنتهون عمّا نهى عنه فحدود الله شرعه وهو فعل وترك، ففعل الأمر وترك النهي هو الحفظ.

(٣) روى مسلم أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية فقال الرسول ﷺ: **«يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»** فقال أبو جهل وعبدالله بن أمية يا أبا طالب: أترغب عن ملة عبدالمطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما تكلم به: هو على ملّة عبدالمطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: **«أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»**.

على ملة عبدالمطلب قال له النبي ﷺ: «**لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عن ذلك**» واستغفر بعض المؤمنين أيضًا لأقربائهم الذين ماتوا على الشرك، أنزل الله تعالى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ إذ ماتوا على الشرك ومن مات على الشرك قضى الله تعالى بأنه في النار أي ما صح ولا انبغى[1] للنبي ﷺ والذين آمنوا أن يستغفروا أي ما صح ولا انبغى استغفارهم. ولما قال بعضٌ إن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك. ﴿١١٤﴾ قال تعالى جوابًا: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ وهي قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ لكنه عليه السلام لما تبين له أن أباه عدو لله أي مات على الشرك تبرأ منه ولم يستغفر له، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[2] تعليل لمواعدة إبراهيم أباه بالاستغفار له لأن إبراهيم كان كثير الدعاء والتضرع والتأسف والتحسر فلذا واعد أباه بالاستغفار له.

﴿١١٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ هذه الآية نزلت ردًا على تساؤلات الذين قالوا متندمين لقد كنا استغفرنا لأقاربنا المشركين فخافوا فأخبرهم تعالى أنه ليس من شأنه تعالى أن يضل قومًا بعد إذ هداهم إلى الصراط المستقيم حتى يبين لهم ما يتقون وأنتم استغفرتم لأقربائكم قبل أن يبين لكم أنه حرام. ولكن إذا أراد الله أن يضل قومًا بين[3] لهم ما يجب أن يتقوه فيه فإذا لم يتقوه أضلهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يضل إلا من يستحق الضلال كما أنه يهدي من يستحق الهداية وذلك لعلمه بكل شيء.

﴿١١٦﴾ وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خلقًا وملكًا وتصرفًا فهو يضل من يشاء ويهدي من يشاء يحيي ويميت يحيي بالإيمان ويميت بالكفر ويحيي الأموات ويميت الأحياء لكامل قدرته وعظيم سلطانه، وقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لكم من يتولاكم إذا تخلى عنكم وليس لكم من ينصركم إذا خذلكم فلذا وجبت طاعته والاتكال عليه، وحرم الالتفات إلى غيره من سائر خلقه.

هداية الآيات:

١ - حرمة الاستغفار لمن مات على الشرك لأن الله لا يغفر أن يشرك به فلذا لا يطلب منه شيء أخبر أنه لا يفعله.

٢ - وجوب الوفاء بالوعود والعهود.

٣ - ليس من سنة الله تعالى في الناس أن يضل عباده قبل أن يبين لهم ما يجب عليهم عمله أو اتقاؤه.

٤ - ليس للعبد من دون الله من ولي يتولاه ولا نصير ينصره ولذا وجبت ولاية الله بطاعته واللجوء إليه بالتوكل عليه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٧ - ١١٩]

﴿١١٧﴾ ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: الذين هجروا ديارهم من مكة وغيرها ولحقوا برسول الله ﷺ بالمدينة.

﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾: هم سكان المدينة من الأوس والخزرج آمنوا ونصروا رسول الله ﷺ.

﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[4]: هي أيام الخروج إلى تبوك لشدة الحر والجوع والعطش.

---

(١) فإن قيل: إن النبي ﷺ قال يوم أحد: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» وهو طلب المغفرة، وطلب المغفرة هو الاستغفار. فالجواب: أن النبي ﷺ قال ما قاله على سبيل الحكاية لا غير. إذ ذكر البخاري أنّ النبي ﷺ ذكر نبيًا قبله شجه قومه فجعل النبي ﷺ يخبر عنه بأنه قال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

(٢) ذكروا لكلمة أواه عشرة تأويلات وما ذُكر في التفسير أولى بها كلها ولو قلنا: إن الأواه كثير قول: أوّه تأسفًا وتحسرًا وشفقة ورحمة لكان أولى بدلالة اللفظ عليه.

(٣) شاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾: فإنه يأمرهم أولاً وينهاهم فإن لم يمتثلوا استحقوا العذاب.

(٤) لفظ الساعة يطلق على ظرف الزمان يطول ويقصر فقد أطلق على يوم القيامة وأطلق على ستين دقيقة، والمراد بالساعة: أيام غزوة تبوك.

﴿يَزِيغُ قُلُوبُ﴾: أي تميل عن الحق لشدة الحال وصعوبة الموقف.

(١١٨) ﴿الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾: هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية. ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾: أي على اتساعها ورحابتها. ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ﴾: أي إذ لا مكان للُجوء فيه والهرب إليه.

(١١٩) ﴿الصَّادِقِينَ﴾: في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم، والصدق ضد الكذب.

معنى الآيات:

(١١٧) ما زال السياق الكريم في أحداث غزوة تبوك وفي هذه الآيات الثلاث إعلان عن شرف وكرامة الرسول ﷺ وأصحابه البررة من الأنصار والمهاجرة إذ قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ[١] عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ أي أدامها (التوبة) وقبلها، وقوله: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ[٢]﴾ أي عند خروجه إلى تبوك في الحر الشديد والفاقة الشديدة، وقوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ[٣] فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ وذلك لصعوبة الحال وشدة الموقف لقد عطشوا يومًا كما قال عمر رضي الله عنه: كان أحدنا يذبح بعيره ويعصر فرثه فيشرب ماءه ويضع بعضه على كبده فخطر ببعض القوم خواطر كادت القلوب تزيغ أي تميل عن الحق ولكن الله تعالى ثبتهم فلم يقولوا سوءًا ولم يعملوه لأجل هذا أعلن الله تعالى في هذه الآيات عن كرامتهم وعلو مقامهم ثم تاب عليهم إنَّهُ هو التواب الرحيم.

(١١٨) وقوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، ومعنى خلفوا أرجئوا في البت في توبتهم إذ تقدم قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ فقد تخلفت توبتهم خمسين يومًا ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ[٤] وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ[٥] وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ فصبروا على شدة ألم النفس من جراء المقاطعة التي أعلنها رسول الله ﷺ لهم انتظارًا لحكم الله لأنهم تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى تبوك ولم يكن لهم عذر، فلذا لما قدم النبي ﷺ تقدم المخلفون فاعتذروا فقبل منهم رسول الله ﷺ وتاب الله على المؤمنين منهم ولم يتقدم هؤلاء الثلاثة ليعتذروا خوفًا من الكذب فآثروا جانب الصدق فأذاقهم الله ألم المقاطعة ثم تاب عليهم وجعلهم مثلًا للصدق فدعا المؤمنين أن يكونوا معهم فقال:

(١١٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي اتقوا الله

الجزء الحادي عشر — سورة التوبة

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

٢٠٦

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت التوبة على النبي ﷺ لأجل إذنه للمنافقين في القعود دليله قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه.

(٢) (العسرة): صعوبة الأمر، قال جابر: اجتمع عليهم عسرة الظهر أي: (المركوب) وعسرة الزاد وعسرة الماء قال ابن عرفة: سمي جيش غزوة تبوك جيش العسرة: لأنّ النبي ﷺ ندب الناس إلى الغزو في حمارة الغيظ فغلظ عليهم وعسر.

(٣) تدارك قلوبهم حتى لم تزغ، وتلك سنته مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب أمطر عليهم سحائب رحمته فأحيا قلوبهم.

(٤) ﴿رَحُبَتْ﴾ بمعنى: اتسعت، وما: مصدرية، أي: ضاقت عليهم الأرض برحبها: أي: على رحبها لأنهم كانوا مهجورين لا يكلمون ولا يعاملون حتى من أقرب الناس إليهم، وفي هذا دليل على مشروعية هجران أهل المعاصي حتى يتوبوا.

(٥) أي: ضاقت صدورهم بالهمّ.

باتباع أوامره واجتناب نواهيه وكونوا من الصادقين[١] في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم تكونوا مع الصادقين في الآخرة مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وسائر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

هداية الآيات:

١ ـ بيان فضل أصحاب رسول الله ﷺ.

٢ ـ بيان فضل غزوة العسرة على غيرها من الغزوات «وهي غزوة تبوك».

٣ ـ بيان فضل الله على المؤمنين بعصمة قلوبهم من الزيغ في حال الشدة.

٤ ـ بيان فضل كعب بن مالك وصاحبيه في صبرهم وصدقهم ولجوئهم إلى الله تعالى حتى فرج عليهم وتاب عليهم وكانوا مثالاً للصدق.

٥ ـ وجوب التقوى والصدق في النيات والأقوال والأحوال والأعمال.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٠ ـ ١٢٢]

(١٢٠) ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: وهم مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾: أي يطلبون لأنفسهم الراحة ولنفس رسول الله ﷺ التعب والمشقة. ﴿ظَمَأٌ﴾: أي عطش. ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾: أي ولا تعب. ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾: أي مجاعة شديدة. ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾: أي يصيبهم بغيظ في نفوسهم يحزنهم. ﴿نَّيْلًا﴾: أي منالاً من أسر أو قتل أو هزيمة للعدو.

(١٢١) ﴿وَادِيًا﴾: الوادي: مسيل الماء بين جبلين أو مرتفعين.

(١٢٢) ﴿لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾: أي يخرجوا للغزو والجهاد جميعًا. ﴿طَآئِفَةٌ﴾: أي جماعة معدودة. ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾: أي ليعلموا أحكام الدين وأسرار شرائعه. ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾: أي ليخوفوهم عذاب النار بترك العمل بشرع الله. ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾: أي عذاب الله تعالى بالعلم والعمل.

معنى الآيات:

(١٢٠) ما زال السياق الكريم في آثار أحداث غزوة تبوك فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾[٢] أي سكانها من المهاجرين والأنصار ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي ومن النازلين حول المدينة من الأعراب كمزينة وجهينة وغفار وأشجع وأسلم ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ إذا خرج إلى جهاد ودعا بالنفير العام وفي هذا عتاب ولوم شديد لمن تخلفوا عن غزوة تبوك وقوله: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي بأن يطلبوا لأنفسهم الراحة دون نفس رسول الله ﷺ وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي النهي الدال عليه بصيغة ما كان لأهل المدينة وهي أبلغ من النهي بأداته (لا) لأنه نفي للشأن أي هذا مما لا ينبغي أن يكون أبدًا. وقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ بسبب أنهم لا يصيبهم ﴿ظَمَأٌ﴾ أي عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾[٣] أي جوع شديد في سبيل الله أي في جهاد أهل الكفر لإعلاء كلمة الإسلام التي هي كلمة الله ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي ولا يطؤون أرضًا من أرض العدو يغتاظ لها العدو الكافر ويحزن ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾[٤] ﴿مِنْ عَدُوٍّ﴾ أي لله تعالى ﴿نَّيْلًا﴾ أي منالاً أي أسرى أو قتلى أو غنيمة منه أو هزيمة له ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ فلهذا لا ينبغي لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ حتى لا يفوتهم هذا الأجر العظيم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لتقرير الأجر وإثباته لهم إن هُم خرجوا مع رسول الله ﷺ وأحسنوا الصحبة والعمل.

(١٢١) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ أي في سبيل الله الذي هو

(١) فسّر (الصادقين): بأنهم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم قال ابن العربي: هذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى.

(٢) هذه الآية نزلت تحمل العتاب للمؤمنين من أهل المدينة والأحياء المجاورة لها كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم، على التخلف، عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

(٣) أصل المخمصة: ضمور البطن يقال: رجل خمص الباطن أي: ضامره وامرأة خمصانة.

(٤) يقال: نال الشيء يناله: إذا أصابه، فينالون: بمعنى يصيبون.

هنا الجهاد ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي قليلة ولا كثيرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ ذاهبين إلى العدو أو راجعين ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾[1] أي ذلك المذكور من النفقة والسير[2] في سبيل الله.

﴿١٢١﴾ وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء أحسن عمل كانوا يعملونه قبل خروجهم في سبيل الله. وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾[3] أي قبيلة منهم طائفة أي جماعة ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ بما يسمعون من رسول الله ﷺ ويتعلمونه منه ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ عواقب الشرك والشر والفساد ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ذلك فينجون من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، هذه الآية نزلت لما سمع المسلمون ورأوا نتائج التخلف عن رسول الله ﷺ فقالوا: لن نتخلف بعد اليوم عن رسول الله ﷺ أبدًا ولا نتخلف عن غزو ما حيينا، فأنزل الله تعالى هذه الآية يرشدهم إلى ما هو خير وأمثل فقال: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلا نفر من كل فرقة منهم أي قبيلة أو حيّ من أحيائهم طائفة فقط وتبقى طائفة منهم بدل أن يخرجوا كلهم ويتركون رسول الله ﷺ وحده فإن خروجهم على هذا النظام أنفع لهم فالذين يبقون مع رسول الله ﷺ أو يخرجون معه إذا خرج يتفقهون في الدين لصحبتهم لرسول الله ﷺ والباقون هم في مهام دينهم أيضًا ودنياهم فإذا رجع أولئك المتفقهون علّموا إخوانهم ما فاتهم من العلم وأسرار الشرع كما أن الذين ينفرون إلى الجهاد قد يشاهدون من نصر الله لأوليائه وهزيمته لأعدائه ويشاهدون أيضًا ضعف الكفار وفساد قلوبهم وأخلاقهم وسوء حياتهم فيعودون إلى إخوانهم فينذرونهم ما عليه أهل الكفر والفساد فيحذرون منه ويتجنبونه وفي هذا خير للجميع وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

سُورَةُ التَّوْبَة — الجُزْءُ الحَادِي عَشَر

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

ترتيبها ١٠ — سُورَةُ يُونُس — آياتها ١٠٩

٢٠٧

هداية الآيات:

١ - وجوب إيثار رسول الله ﷺ على النفس بكل خير بل بالحياة كلها.

٢ - بيان فضل السير في سبيل الله، وما فيه من الأجر العظيم.

٣ - فضل الإحسان وأهله.

٤ - تساوي فضل طلب العلم والجهاد على شرط النية الصالحة في الكل وطالب العلم لا ينال هذا الأجر إلا إذا كان يتعلم ليعلم فيعمل فيعلِّم مجانًا في سبيل الله والمجاهد لا ينال هذا الأجر إلا إذا كان لإعلاء كلمة الله خاصة.

٥ - حاجة الأمة إلى الجهاد والمجاهدين كحاجتها إلى العلم والعلماء سواء بسواء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٣]

﴿١٢٣﴾ ﴿ءَامَنُوا۟﴾: أي بالله ورسوله ﷺ

---

(١) قال ابن عباس: بكل روعة تنالهم في سبيل الله سبعون ألف حسنة. وجاء في الصحيح في شأن الخيل وفيه: «**وأمّا التي هي له أجر فرجلٌ ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج أو روضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة إلا كتب عدد ما أكلت حسنات، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات**».

(٢) روى مسلم وأبو داود أنّ النبي ﷺ قال: «**لقد تركتم بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديًا إلا وهم معكم فيه**» قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم في المدينة؟ قال: «**حبسهم العذر**».

(٣) هذه الآية دليل على أن الجهاد فرض كفاية ولا يتعين إلا إذا عيّنه الإمام أو هاجم العدو دار قوم مؤمنين فيجب عليهم قتاله كافة

ووعد الله ووعيده. ﴿الَّذِينَ يَلُونَكُم﴾: أي يلون بلادكم وحدودها. ﴿مِّنَ الْكُفَّارِ﴾: من: بيانِيَّة، أي الكافرين. ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾: أي قوة بأس وشدة مراس ليرهبوكم وينهزموا أمامكم. ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: أي بنصره وتأييده والمتقون هم الذين اتقوا الشرك والمعاصي والخروج عن السنن الإلهية في النصر والهزيمة.

معنى الآية الكريمة:

لما طهرت الجزيرة من الشرك وأصبحت دار إسلام وهذا في أخريات حياة الرسول ﷺ وذلك بعد غزوة تبوك أمر الله تعالى المؤمنين بأن يواصلوا الجهاد في سبيله بعد وفاة نبيه ﷺ وأرشدهم إلى الطريقة التي يجب أن يتبعوها في ذلك وهي: أن يبدؤوا بدعوة وقتال أقرب كافر منهم والمراد به الكافر المتاخم لحدودهم كالأردن أو الشام أو العراق مثلاً فيعسكروا على مقربة منهم ويدعونهم إلى خصلة من ثلاث: الدخول في دين الله الإسلام أو قبول حماية المسلمين لهم بدخولهم البلاد وضرب الجزية على القادرين منهم مقابل حمايتهم وتعليمهم وحكمهم بالعدل والرحمة الإسلامية أو القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم فإذا ضمت أرض هذا العدو إلى بلادهم وأصبحت لهم حدود أخرى فعلوا كما فعلوا أولاً وهكذا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فتسعد البشرية في دنياها وآخرتها.

(١٢٣) وأمرهم أن يعلموا أن الله ما كلفهم بالجهاد إلا وهو معهم وناصرهم ولكن على شرط أن يتقوه في أمره ونهيه فهذا ما دلت عليه الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا[1] قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً[2]﴾ أي قوة بأس وشدة مراس في الحرب ﴿وَاعْلَمُوا[3] أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي بنصره وتأييده.

هداية الآية الكريمة:

١ - وجوب الجهاد واستمراريته إلى أن لا تبقى فتنة أو شرك أو اضطهاد لمؤمن ويكون الدين والحكم كلاهما لله تعالى.

٢ - مشروعية البداءة في الجهاد بأقرب الكفار إلى بلاد المسلمين من باب (الأقربون أولى بالمعروف).

٣ - إذا اتسعت بلاد الإسلام تعين على أهل كل ناحية قتال من يليهم الأقرب فالأقرب.

٤ - وعد الله بالنصر والتأييد لأهل التقوى العامة والخاصة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٤ - ١٢٧]

(١٢٤) ﴿سُورَةٌ﴾: أي قطعة من القرآن وسواء كانت آيات من سورة أو سورة بكاملها وحدها. ﴿زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾: أي السورة قوّت إيمانه وزادت فيه لأنها كالغيث النافع. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: فرحين بفضل الله تعالى عليهم.

(١٢٥) ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي شك ونفاق وشرك. ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾: أي نجسًا إلى نجس قلوبهم ونفوسهم.

(١٢٦) ﴿يُفْتَنُونَ﴾: أي يمتحنون. ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي لا يتعظون لموات قلوبهم.

(١٢٧) ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾: دعاء عليهم بأن لا يرجعوا إلى الحق بعد انصرافهم عنه. ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾: أي لا يفهمون أسرار الخطاب لظلمة قلوبهم وخبث نفوسهم.

معنى الآيات:

(١٢٤) هذا آخر حديث عن المنافقين في

= كما هي نص في وجوب طلب العلم وهو بالرحلة الطويلة إليه. وفي الحديث: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» وهذا الحديث دليل على أن طلب العلم يكون فرض عين ويكون فرض كفاية.

(١) توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبي ﷺ فيه إيماء إلى أن النبي ﷺ لا يغزو لله بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب، وفعلاً فإنه ﷺ ما غزا بعد تبوك وإنّما حجّ حجة الوداع وبعدها بواحد وثمانين يومًا استأثر الله تعالى بروحه الطاهرة الشريفة.

(٢) ﴿غِلْظَةً﴾ مثلثة الغين غُلظة، الكسر لغة الحجاز، والضم لغة بني تميم، والمراد الجرأة على القتال والصبر عليه مع العنف والشدة في القتل والقصد من هذا إلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يخشوا قتال المسلمين.

(٣) افتتاح الجملة بـ اعلموا: للاهتمام بما يراد العلم به، وفي الجملة تسلية للمؤمنين بعد فقد نبيهم ﷺ، وأن الله معهم بالنصر والتأييد فاتقوه بلزوم طاعته وطاعة رسوله ﷺ في أمرهما ونهيهما في السلم والحرب.

سورة براءة الفاضحة للمنافقين، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا[1] مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أي من سور القرآن التي بلغت ١١٤ سورة نزلت وتليت وهم غائبون عن المجلس الذي تليت فيه، فمنهم أي من المنافقين من يقول: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا[2]﴾ وقولهم هذا تهكم منهم وازدراء. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بحق وصدق ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لأنها نزلت بأحكام أو أخبار لم تكن عندهم فآمنوا بها لما نزلت فزاد بذلك إيمانهم وكثر كما كان أن إيمانهم يقوى حتى يكون يقينًا بما يتنزل من الآيات وقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي فرحون مسرورون بالخبر الذي نزل والقرآن كله خير كما هم أيضًا فرحون بإيمانهم وزيادة يقينهم.

(١٢٥) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾[3] أي شكًا ونفاقًا ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

(١٢٦) وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾[4] أي أيستمر هؤلاء المرضى بالنفاق على نفاقهم ولا يرون أنهم يفتنون أي من أجل نفاقهم مرة أو مرتين أي يختبرون بالتكاليف والفضائح وغيرها ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيتعظون فيتوبون، هذا ما دلت عليه الآيات الأولى (١٢٤) والثانية (١٢٥) والثالثة (١٢٦).

(١٢٧) أما الآية الرابعة (١٢٧) فقد تضمنت سوء حال هؤلاء المنافقين وقبح سلوكهم فسجِّلَت عليهم وصمة عار وخزي إلى يوم القيامة إذ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ[5] أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أي وهم في المجلس وقرئت على الجالسين وهم من بينهم. ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقال في سرية ومُخافَتَة هيا نقوم من هذا المجلس الذي نعير فيه ونشتم ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي من أصحاب محمد ﷺ فإن كان الجواب: لا يرانا أحد انصرفوا متسللين لواذًا. قال تعالى في دعاء عليهم: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[6] أي عن الهدى ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفقهون أسرار الآيات وما تهدي إليه، فعلتهم سوء فهمهم وعلة سوء فهمهم ظلمة قلوبهم وعلة تلك الظلمة الشك والشرك والنفاق والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ زيادة الإيمان ونقصانه، زيادته بالطاعة، ونقصانه بالعصيان.

٢ - جواز الفرح بالإيمان وصالح الأعمال.

٣ - مريض القلب يزداد مرضًا وصحيحه يزداد صحة سنة من سنن الله في العباد.

٤ - كشف أغوار المنافقين وفضيحتهم في آخر آية من سورة التوبة تتحدث عنهم.

٥ - يستحب أن لا يقال انصرفنا[7] من الصلاة أو الدرس ولكن يقال انقضت الصلاة أو انقضى الدرس ونحو ذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٨، ١٢٩]

(١٢٨) ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي محمد بن عبدالله ﷺ من جنسكم عربي. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾: أي شاق صعب. ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: أي ما يشق عليكم ويصعب تحمله. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾: أي حريص على هدايتكم وما فيه خيركم وسعادتكم. ﴿رَءُوفٌ﴾: شفيق. ﴿رَّحِيمٌ﴾: يرق ويعطف ويرحم.

---

(١) ﴿مَآ﴾ صلة لتقوية الكلام حسب الأسلوب العربي البليغ.

(٢) الإيمان لغة: التصديق. وشرعًا: تصديق الله ورسوله ﷺ في كل ما أخبرا به وأركانه ستة ويزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

(٣) شكًا إلى شكّهم، وكفرًا إلى كفرهم، وإثمًا إلى إثمهم إذ الشك والكفر من أعظم الآثام.

(٤) قال قتادة والحسن ومجاهد: بالغزو والجهاد مع النبي ﷺ ويرون ما وعد الله من النصر يُريد يتحقق أمامهم وكأنهم لا يعقلون.

(٥) ﴿مَآ﴾ صلة لتقوية الكلام.

(٦) هذه الجملة خبرية أخبر تعالى أنه جزاهم على انصرافهم من مجلس الرسول ﷺ بصرف قلوبهم عن الهدى فهم لا يهتدون إذًا أبدًا وضمّن الخبر الدعاء عليهم، وقد تحقق معناه وهو صرف قلوبهم.

(٧) لأن الله ذمّ المنافقين ودعا عليهم بصرف قلوبهم وصرفها ولو قيل: انقلبنا من الصلاة أو من الجنازة لكان خيرًا لقوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ الآية من سورة آل عمران.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أي أعرضوا عن دين الله وما جئت به من الهدى. ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾: أي كافيّ الله. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي لا معبود بحق إلا هو. ﴿تَوَكَّلْتُ﴾: أي فوضت أمري إليه واعتمدت عليه. ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾: عرش الله تعالى لا أعظم منه إلا خالقه عز وجل إذ كرسيه تعالى وسع السموات والأرض ونسبة الكرسي إلى العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة.

معنى الآيتين:

(١٢٨) في ختام سورة التوبة يقول الله تعالى لكافة العرب: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾[1] أي كريم عظيم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[2] عدناني قرشي هاشمي مُطّلِبي تعرفون نسبه وصدقه وأمانته. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا[3] عَنِتُّمْ﴾ أي يشق عليه ما يشق عليكم ويؤلمه ما يؤلمكم لأنه منكم ينصح لكم نصح القوميّ لقومه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على هدايتكم وإكمالكم وإسعادكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم من سائر الناس ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي شفوق عطوف يحب رحمتهم وإيصال الخير لهم. إذًا فآمنوا به واتبعوا النور الذي جاء به تهتدوا وتسعدوا ولا تكفروا فتضلوا وتشقوا.

(١٢٩) وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي أعرضوا عن دعوتك فلا تأسَ وقل حسبي الله أي يكفيني ربي كل ما يهمني ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق سواه لذا فإني أعبده وأدعو إلى عبادته، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾[4] أي في شأني كله ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير.

هداية الآيتين:

١ ـ بيان مِنَّة الله تعالى على العرب خاصة وعلى البشرية عامة ببعثه خاتم أنبيائه محمد ﷺ.

٢ ـ بيان كمال أخلاقه ﷺ.

٣ ـ وجوب التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه في كل شيء يقوم به العبد.

٤ ـ عظمة عرش الرحمٰن عز وجل.

❁ ❁ ❁

سورة يونس
مكية[5]
وآياتها مائة وتسع آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٢]

(١) ﴿الٓر﴾ هذه السورة الرابعة من السور المفتتحة بالحروف المقطعة تكتب الر وتقرأ ألفْ لام را. ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي القرآن العظيم. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: القائل بالحكمة والقرآن مشتمل على الحِكَم فهو حكيم ومحكم أيضًا.

(٢) ﴿عَجَبًا﴾: العجب ما يتعجب منه. ﴿رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾: هو محمد ﷺ. ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾: أي أجرًا حسنًا بما قدموا في حياتهم من الإيمان وصالح الأعمال. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: أي القرآن. ﴿لَسَٰحِرٌ[6] مُّبِينٌ﴾: أي بين ظاهر لا خفاء فيه في كذبهم وادعائهم الباطل.

---

(١) روي عن أبي أنه قال: هاتان الآيتان أقرب القرآن بالسماء عهدًا وهذا لا ينافي أنّ آخر ما نزل من القرآن: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

(٢) قرىء: ﴿من أنفَسكم﴾ أي: أشرفكم وأفضلكم إذ هو من النفاسة وهي تعلّق نفوس البشر بما هو أجمل وأكمل. وقراءة الجمهور أولى وهي الضم أي: من أنفسكم إذ ما من قبيلة من قبائل العرب إلا وولدت النبي ﷺ قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وشاهده قوله ﷺ في رواية مسلم: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريش من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم**» وفي لفظ: «**فأنا خيار من خيار**» وهو ﷺ كذلك.

(٣) ﴿مَا﴾ مصدرية تُسبكُ مع الفعل بمصدر فيكون الكلام عزيز عليه عنتكم والعنت: التعب، وهو مصدر عنت يعنت عنتًا. كأنه يشير إلى أنّ ما لاقاه أصحابه من عنت أيام كانوا يحاربون أهليهم وذويهم، وما نالهم من الغربة والفاقة والحرب، كل ذلك كان يعزّ عليه ﷺ ويألم له فصلى الله وسلم عليه ما أرحمه وأوفاه!!

(٤) عن أبي الدرداء أن (من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم: سبع مرات كفاه الله ما أهمّه صادقًا كان أو كاذبًا).

(٥) ذكر بعضهم أن منها آيات قليلة مدنية، والظاهر أنها كلها مكية ومن تدبر آياتها من أوله إلى آخره لم ير ما يدعو إلى خلافه.

(٦) هذه قراءة نافع.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

معنى الآيتين:

﴿١﴾ مما تعالجه السور المكية قضايا التوحيد والوحي والبعث الآخر وسورة يونس افتتحت بقضية الوحي أي إثباته وتقريره من الله لرسوله محمد ﷺ قال تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ[1] ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ[2]﴾ أي هذه آيات القرآن الكريم المحكم آياته المشتمل على الحكم الكثيرة حتى لكأنه الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه.

﴿٢﴾ وقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ[3] عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي أكان إيحاؤنا إلى محمد ﷺ عبدنا ورسولنا وهو رجل من قريش عجبًا لأهل مكة يتعجبون منه؟ والموحى به هو: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾، أي خوفهم عاقبة الشرك والكفر والعصيان ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي بأن لهم قدم[4] صدق عند ربهم وهو الجزاء الحسن لما قدموا من الإيمان وصالح الأعمال يتلقونه يوم يلقون ربهم في الدار الآخرة فلما أنذر وبشّر ﷺ قال الكافرون: هذا سحر مبين، ومرة قالوا: ساحر مبين، وقولهم هذا لمجرد دفع الحق وعدم قبوله لا أن ما أنذر به وبشر هو سحر، ولا المنذر المبشر هو ساحر وإنما هو المجاحدة والعناد والمكابرة من أهل الشرك والكفر والباطل والشر والفساد.

هداية الآيتين:

١ - تقرير عقيدة الوحي بشهادة الكتاب الموحى به.

٢ - إثبات نبوة محمد ﷺ وتقريرها بالوحي إليه.

٣ - بيان مهمة الرسول ﷺ وهي النذارة والبشارة.

٤ - بشرى أهل الإيمان والعمل الصالح بما أعد لهم عند ربهم.

٥ - عدم تورع أهل الكفر عن الكذب والتضليل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣ ـ ٦]

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي معبودكم الحق الذي يجب أن تعبدوه وحده هو الله. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أي أوجدها من العدم حيث كانت عدمًا فأصبحت عوالم. ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: أي استوى استواء يليق به عز وجل فلا يقال كيف؟. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾: أي لا يشفع أحد يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي أتستمرون في

---

(١) يذكر المفسرون عن السلف توجيهات عدة لهذه الحروف منها: ما رووه عن ابن عباس: أن ألَر: معناها: أنا الله. وكل ما ذكروه قول بالظن وإنّ الظن أكذب الحديث، ومن الخير تفويض أمر معناها إلى من أنزلها وقد ذكرنا في التفسير فائدتين عظيمتين فلنكتف بهما.

(٢) قال مقاتل: الحكيم بمعنى: المحكم من الباطل لا يدخل، ففعيل بمعنى مُفعل واستشهد بقول الأعشى بذكر قصيدته التي قالها:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها

(٣) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾: الاستفهام للتقريع والتوبيخ، وعجبًا: خبر كان والاسم: أن أوحينا، والتقدير: أكان عجبًا للناس إيحاؤنا.

(٤) ذكر القرطبي في تفسير ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أقوالاً متعددة منها: سبق السعادة في الأزل، ومنها: أجر حسن، ومنها: منزل صدق، ومنها: ولد صالح قدّموه ومنها: يؤثر ذلك عن السلف، وما في التفسير هو الراجح إذ رجّحه إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى.

جحودكم وعنادكم فلا تذكرون.

٤ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: أي بعد الفناء والبلى وذلك يوم القيامة. ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾: أي من ماء أُحمي عليه وغلى[1] حتى أصبح حميمًا يشوي الوجوه.

٥ ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً[2]﴾: أي جعلها تضيء على الأرض. ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾: أي جعل القمر بنور الأرض وهو الذي خلق ضوء الشمس ونور القمر. ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾: أي قدر القمر منازل والشمس كذلك. ﴿لِتَعْلَمُوا﴾: أي قدرهما منازل ليعلم الناس عدد السنين والحساب.

٦ ﴿يَتَّقُونَ﴾: أي مساخط الله وعذابه وذلك بطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

معنى الآيات:

٣ هذه الآيات في تقرير الألوهية بعد تقرير الوحي وإثباته في الآيتين السابقتين فقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ إخبار منه تعالى أنه عز وجل هو رب أي معبود أولئك المشركين به آلهة أصنامًا يعبدونها معه وهي لم تخلق شيئًا أما الله فإنه الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام بمقدار أيامنا هذه إذ لم تكن يومئذ أيامًا كأيام الدنيا هذه، ثم استوى على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله يدبر[3] أمر السماء والأرض. هذا هو الإله الحق الذي يجب أن يُعبد ويُتقرب إليه. وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ[4] إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ أي وإنه لعظمته وعزة سلطانه لا يقدر أحد أن يشفع لآخر إلا بعد إذنه له فكيف إذًا تعبد هذه الأصنام رجاء شفاعتها لعابديها، والله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؟ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي هذا الموصوف بهذه الصفات المُعرَّف بهذه النعوت من الجلال والكمال هو ربكم الحق فاعبدوه بما شرع لكم من أنواع العبادات تكملوا وتسعدوا وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هو توبيخ للمشركين لهم لِمَ لا تتعظون بعد سماع الحق.

٤ وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بعد موتكم ﴿جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾[5] تقرير لمبدأ البعث الآخر أي إلى الله تعالى ربكم الحق مُرجعكم بعد موتكم جميعًا إذ وعدكم وعد الحق بالرجوع إليه والوقوف بين يديه وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾[6] أي بالعدل: بيان لعلة الحياة بعد الموت إذ هذه الدار دار عمل والآخرة دار جزاء على هذا العمل فلذا كان البعث واجبًا حتمًا لا بد منه ولا معنى لإنكاره لأن القادر على البدء قادر على الإعادة من باب أولى وأحرى. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي ماء حار قد بلغ المنتهى في حرارته وعذاب أليم أي موجع إخبار منه تعالى بجزاء أهل الكفر يوم القيامة وهو علة أيضًا للحياة بعد الموت والبعث بعد الفناء وبهذا تقرر مبدأ البعث كما تقرر قبله مبدأ التوحيد ومن قبل مبدأ الوحي إذ على هذه القضايا تدور السور المكية.

٥ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ أي ذات ضياء والقمر نورًا ذا نور وقدر القمر منازل[7] وهي ثمانية وعشرون منزلة يتنقل فيها القمر، فعل ذلك ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[8] فتعرفون

---

(١) غلى الماء يغلي غليانًا إذا اشتدت حرارته ففار دخانًا.

(٢) الضياء: نور ساطع يضيء للرائي الأشياء وهو اسم مشتق من الضوء فالضياء أقوى من الضوء.

(٣) قال مجاهد: يقضيه ويقدره وحده، وقيل: يأمر به ويمضيه. قال القرطبي: والمعنى متقارب.

(٤) ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ أي: لا شفيع يشفع إلا بعد إذنه له بالشفاعة.

(٥) ﴿وَعْدَ﴾ و ﴿حَقًّا﴾: مصدران بمعنى وعدكم وأحقه حقًا. أي: صدقًا لا خلف فيه.

(٦) الجملة: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾: واقعة موقع الدليل على إنجاز وعده تعالى لأنّ الذي خلق من تراب وماء قادر على البعث والجزاء.

(٧) المنازل: جمع منزل، وهو مكان النزول والمراد بها سُمُوتُ بلوغ القمر فيها للناس كل ليلة في سمت منها كأنه ينزل بها، وللشمس منازل تسمى بروجًا وهي اثنا عشر برجًا تحل فيها الشمس في فصول السنة لكل برج منزلتان وثلث.

(٨) ﴿وَالْحِسَابَ﴾ مصدر حسُب يحسُب بضم السين حسابًا بمعنى عدَّ أما حسِب بكسر السين فهو بمعنى ظن ومضارعه يحسب

عدد السنوات والشهور والأيام والساعات إذ حياتكم تحتاج إلى ذلك فهذا الرب القادر على هذا الخلق والتدبير هو المعبود الحق الذي يجب أن تعبدوه ولا تعبدوا سواه فهذا تقرير للتوحيد وتأكيد له. وقوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي لم يخلق هذه الحياة الدنيا وهذه العوالم فيها عبثًا فتفنى وتبلى بعد حين ولا شيء وراء ذلك بل ما خلق ذلك إلا بالحق أي من أجل أن يأمر وينهى ثم يجزي المطيع بطاعته والعاصي بعصيانه وفي هذا تأكيد لقضية البعث والجزاء أيضًا، وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي هذا التفصيل المشاهد في هذا السياق ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إذ هم الذين ينتفعون به أما الجهلة فلا ينتفعون بهذا التفصيل والبيان.

(٦) وقوله تعالى في الآية الأخيرة ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي بالطول والقصر والضياء والظلام ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١) من أفلاك وكواكب ورياح وأمطار وما خلق في الأرض من إنسان وحيوان وبر وبحر وأنهار وأشجار وجبال ووهاد ﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي علامات واضحة دالة على الخالق المعبود بحق وعلى جلاله وجماله وكماله وعظيم قدرته وقوة سلطانه فيُعبد لذلك بحبه غاية الحب وبتعظيمه غاية التعظيم وبرهبته والخشية منه غاية الرهبة والخشية ويذكر فلا يُنسى ويشكر فلا يُكفر ويطاع فلا يُعصى، وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾(٢) خص أهل التقوى بالآيات فيما ذكر من مظاهر خلقه وقدرته لأنهم هم الذين حقًا يبصرون ذلك ويشاهدونه لصفاء أرواحهم وطهارة قلوبهم ونفوسهم أما أهل الشرك والمعاصي فهم في ظلمة لا يشاهدون معها شيئًا والعياذ بالله.

هداية الآيات:

١ - تقرير ألوهية الله تعالى وأنه الإله الحق.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء في الدار الآخرة.

٣ - بيان الحكمة في خلق الشمس والقمر وتقدير منازلهما.

٤ - مشروعية تعلم الحساب وعلم الفلك لما هو نافع للمسلمين.

٥ - فضل العلم والتقوى وأهلهما من المؤمنين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

٢٠٩

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ ـ ١٠]

(٧) ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: أي لا ينتظرون ولا يؤملون في لقاء الله تعالى يوم القيامة. ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي بدلاً عن الآخرة فلم يفكروا في الدار الآخرة. ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾: أي سكنوا إليها وركنوا فلم يروا غيرها حياة يُعمل لها. ﴿غَٰفِلُونَ﴾: لا ينظرون إليها ولا يفكرون فيها.

(٨) ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي النار هي المأوى الذي يأوون إليه وليس لهم سواها.

= بفتح السين وكسرها لغتان فصيحتان. وبهما قرىء: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وكل يحسب بمعنى: يظن.

(١) قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ شمل الأجسام والأحوال معًا أي: الذوات والصفات، والأقوال والأعمال أيضًا إذ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

(٢) خصهم بالآيات لأنهم هم الذين ينتفعون بها أما أهل الشرك والفجور والمعاصي فلا ينتفعون بها فهي إذًا ليست لهم بل هي لغيرهم ممن ينتفعون بها.

(٩) ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم[١] بِإِيمَٰنِهِمْ﴾: أي بأن يجعل لهم بإيمانهم نورًا يهتدون به إلى الجنة.

(١٠) ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ[٢]﴾: أي يطلبون ما شاؤوا بكلمة سبحانك اللهم. ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي آخر دعائهم: الحمد لله رب العالمين.

معنى الآيات:

(٧) بعد تقرير الوحي والألوهية في الآيات السابقة ذكر تعالى في هذه الآيات الثلاث الكريمة بيان جزاء كل ممن كذب بلقاء الله فلم يرجُ ثوابًا ولم يخشَ عقابًا ورضيَ بالحياة الدنيا واطمأن بها، وممن آمن بالله ولقائه ووعده ووعيده فآمن بذلك وعمل صالحًا فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ[٣] لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا[٤]﴾ أي سكنت نفوسهم إليها وركنوا فعلاً إليها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ أي آياته الكونية في الآفاق والقرآنية وهي حُجج الله تعالى وأدلته الدالة على وجوده وتوحيده ووحيه وشرعه غافلون عنها لا ينظرون فيها ولا يفكرون فيما تدل لانهماكهم في الدنيا حيث أقبلوا عليها وأعطوها قلوبهم ووجوههم وكل جوارحهم.

(٨) هؤلاء يقول تعالى في جزائهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝﴾ أي من الظلم والشر والفساد.

(٩) ويقول تعالى في جزاء من آمن بلقائه ورجا ما عنده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ أي إلى طريق الجنة ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي بنور إيمانهم فيدخلونها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ[٥] ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. ونعيم الجنة روحاني وجسماني فالجسماني يحصلون عليه بقولهم: سبحانك اللهم، فإذا قال أحدهم هذه الجملة «سبحانك اللهم»[٦] حضر لديه كل مُشتهى له.

(١٠) والروحاني يحصلون عليه بسلام الله تعالى عليهم وملائكته ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾. وإذا فرغوا من المآكل والمشارب قالوا: الحمد لله رب العالمين. وهذا معنى قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي دعاؤهم أي صيغة طلبهم ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي دعائهم ﴿أَنِ﴾ أي أنه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٧].

هداية الآيات:

١ ـ التحذير من نسيان الآخرة والإقبال على الدنيا والجري وراء زخارفها.

٢ ـ التحذير من الغفلة بعدم التفكر بالآيات الكونية والقرآنية إذ هذا التفكير هو سبيل الهداية والنجاة من الغواية.

٣ ـ الإيمان والعمل الصالح مفتاح الجنة والطريق الهادي إليها.

٤ ـ نعيم الجنة روحاني وجسماني وهو حاصل ثلاث كلمات هي: سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام. وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ ـ ١٤]

(١١) ﴿ٱلشَّرَّ﴾: كل ما فيه ضرر في

---

(١) قال مجاهد: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ بالنور على الصراط إلى الجنة بأن يجعل لهم نورًا يمشون به، وشاهده قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ إلخ..

(٢) الدعوى هنا: بمعنى الدعاء يقال: دعوة بالهاء ودعوى بألف التأنيث وسبحان: مصدر بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه.

(٣) ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ معناه: أنهم لا يطلبونه ولا يتوقعونه، ولازم ذلك أنهم لا يخافون عقابًا أخرويًا ولا ثوابًا.

(٤) أي: سكنت نفوسهم إليها وصرفوا كل همهم لها طلبًا لتحصيل منافعها فلم يسعوا لتحصيل ما ينفع في الآخرة لأنهم سكنوا إلى الدنيا، والساكن لا يتحرّك ووصف بأنه لها يرضى ولها يغضب ولها يفرح ولها يهتم ويحزن.

(٥) ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ من تحت بساتينهم ومن تحت أسرّتهم كذلك وهو أحسن في النزهة والفرجة.

(٦) إنه ثناء مسوق للتعرض إلى إفاضة النعيم من طعام وشراب وهو كما قال ابن أبي الصلت:

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرّضه لثناء

(٧) في الآية دليل على إطلاق لفظ التسبيح على الدعاء وشاهده: دعوة ذي النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفيها دليل على مشروعية بل سنية بدء الطعام والشراب ببسم الله وإنهائه بحمد الله تعالى كما هي السنة في ذلك.

العقل أو الجسم أو المال والولد، والخير عكسه: ما فيه نفع يعود على الجسم أو المال أو الولد. ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: لهلكوا وماتوا. ﴿فَنَذَرُ﴾: أي نترك. ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: أي في ظلمهم وكفرهم يترددون لا يخرجون منه كالعميان.

(١٢) ﴿الضُّرُّ﴾: المرض وكل ما يضر في جسمه، أو ماله أو ولده. ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾: مضى في كفره وباطله كأن لم يكن ذاك الذي دعا بكشف ضره. ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾[1]: مثل ذلك النسيان بسرعة لما كان يدعو لكشفه، زين للمسرفين إسرافهم في الظلم والشر.

(١٣) ﴿الْقُرُونَ﴾: أي أهل القرون. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالحجج والآيات على صدقهم في دعوتهم.

(١٤) ﴿خَلَائِفَ﴾: أي لهم، تخلفونهم بعد هلاكهم.

معنى الآيات:

(١١) هذه الفترة التي كانت تنزل فيها هذه السورة المكية كان المشركون في مكة في هيجان واضطراب كبيرين حتى إنهم كانوا يطالبون بنزول العذاب عليهم إذ ذكر تعالى ذلك عنهم في غير آية من كتابه منها ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ومنها ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وفي هذا الشأن نزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾[2] أي عند سؤالهم إياه[3]، أو فعلهم ما يقتضيه كاستعجاله الخير لهم ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي لهلكوا الهلاك العام وانتهى أجلهم في هذه الحياة، وقوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي لم نعجل لهم العذاب فنذر الذين لا يرجون لقاءنا أي لا يؤمنون بلقائنا وما عندنا من نعيم وجحيم نتركهم في طغيانهم في الكفر والظلم والشر والفساد يعمهون حيارى يترددون لا يعرفون مُتجهًا ولا مخرجًا لما هم فيه من الضلال والعمى.

(١٢) هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١١) أما الآية الثانية (١٢) فقد تضمنت بيان حقيقة وهي أن الإنسان الذي يعيش في ظلمة الكفر ولم يستنر بنور الإيمان إذا مسه الضر وهو المرض والفقر وكل ما يضر دعا ربه على الفور لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا يا رباه يا رباه فإذا استجاب الله له وكشف ما به من ضر مرَّ كأن لم يكن مرض ولا دعا واستجيب له واستمر في كفره وظلمه وغيِّه. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي كما أن الإنسان الكافر سرعان ما ينسى ربه الذي دعاه ففرج ما به كذلك حال المسرفين في الظلم والشر فإنهم يرون ما هم عليه هو العدل والخير ولذا يستمرون في ظلمهم وشرهم وفسادهم. هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١٣) وقوله تعالى في الآية الثالثة: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ هذا خطاب لأهل مكة يخبرهم تعالى مهددًا إياهم بإمضاء سنته فيهم بأنه أهلك أهل القرون من قبلهم لَمَّا ظلموا أي أشركوا وجاءتهم رسلهم بالبينات[4] أي بالآيات والحجج، وأبوْا أن يؤمنوا لِما ألفوا من الشرك والمعاصي فأهلكهم كعاد وثمود وأصحاب مدين، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء بالإهلاك العام نجزي القوم المجرمين في كل زمان ومكان إن لم يؤمنوا ويستقيموا.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ

---

(١) قال القرطبي وهو صادق: كما زيّن لهذا الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء، زيّن للمسرفين في الشرك والمعاصي أعمالهم في ذلك.

(٢) فسّر الشرّ بالعقوبة إذ الشر كل ما يلحق الضرر بالإنسان عاجلاً أو آجلاً، والعقوبة كلها شر إذ هي عذاب انتقام ينزل بصاحبه.

(٣) قال مجاهد: هذه الآية نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب: اللهم أهلكه اللهم لا تبارك فيه اللهم العنه، فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لقضي إليهم أجلهم. ولا أحسب أنّ الآية نزلت في هذا وإنما هي شاهد لما قال فقط، وشاهد آخر رواه البزار وأبو داود وهو قول ﷺ: «**لا تدعوا على أنفسكم لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم**».

(٤) أي: بالمعجزات الواضحات كالتي آتى بها موسى وعيسى عليهما السلام.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

٢١٠

﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝﴾ أي يقول لمشركي العرب من أهل مكة وغيرها، ثم جعلناكم خلائف(١) في الأرض بعد إهلاك من قبلكم لننظر(٢) كيف تعملون فإن كان عملكم خيرًا جزيناكم به وإن كان سوءًا جزيناكم به وتلك سنتنا في عبادنا وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

هداية الآيات:

١ - مظاهر رحمة الله بعباده إذ لو عجل لهم ما يطلبون من العذاب كما يعجل لهم الخير عندما يطلبونه لأهلكهم وقضى إليهم أجلهم فماتوا.

٢ - يعصي الله العصاةُ ويكفر به الكافرون ويتركهم في باطلهم وشرهم فلا يعجل لهم العذاب لعلهم يرجعون.

٣ - بيان أن الإنسان الكافر يعرف الله عند الشدة ويدعوه ويضرع إليه فإذا نجاه عاد إلى الكفر به كأن لم يكن يعرفه.

٤ - استمرار المشركين على إسرافهم في الكفر والشر والفساد مُزين لهم(٣) حسب سنة الله تعالى. فمثلهم مثل الكافر يدعو عند الشدة وينسى عند الفرج.

٥ - وعيد الله لأهل الإجرام بالعذاب العاجل أو الآجل إن لم يتوبوا.

٦ - كل الناس أفرادًا وأممًا مُمهَلُون مُراقَبُون في أعمالهم وسلوكهم ومَجزيون بأعمالهم خيرها وشرها لا محالة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ - ١٨]

﴿١٥﴾ ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: أي لا يؤمنون بالبعث والدار الآخرة. ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾: أي من جهة نفسي.

﴿١٦﴾ ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾: أي لا أعلمكم به. ﴿عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾: أي أربعين سنة قبل أن يوحى إليّ.

﴿١٧﴾ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: المفسدون لأنفسهم بالشرك والمعاصي.

﴿١٨﴾ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾: أي إن لم يعبدوه. ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾: أي إن عبدوه. ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾: أي أتعلمون وتخبرون الله. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: أي تنزيهًا له. ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي به معه من الأصنام.

معنى الآيات:

﴿١٥﴾ ما زال السياق في تقرير قضايا أصول الدين الثلاث: التوحيد والوحي والبعث فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ أي إذا قرئت عليهم آيات الله عز وجل ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾(٤) وهم المنكرون للبعث إذ به يتم اللقاء مع الله تعالى للحساب والجزاء. ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أي بأن يكون خاليًا من عيب آلهتنا

---

(١) الخلائف: جمع خليفة، وحرف ثم: مُؤذن ببعد ما بين الزمانين، والأرض: هي أرض العرب إذ هم الذين خلفوا عادًا وثمودًا وقبلهما طمسًا وجديسًا.

(٢) هذا التعليل كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ إذ علّة الوجود هي أن يذكر الله ويشكر، فمن ذكره وشكره أكرمه وأسعده ومن كفره ونساه عذّبه وأشقاه.

(٣) شاهده قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ من سورة الأنعام.

(٤) عن مجاهد: أن المطالبين بهذا هم خمسة أنفار: عبدالله بن أميّة، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبدالله بن أبي قيس والعاصي بن عامر، قالوا للنبي ﷺ: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة الأصنام واللاّت والعزّى ومناة وهبل وليس فيه عيبها.

وانتقاصها. أو أبقه ولكن بدل كلماته بما لا يسوءنا فاجعل مكان آية فيها ما يسوءنا آية أخرى لا إساءة فيها لنا وقولهم هذا إما أن يكون من باب التحدي أو الاستهزاء والسخرية(١) ولكن الله تعالى علَّم رسوله ﷺ طريقة الرد عليهم بناء على ظاهر قولهم فقال له: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ﴾ أي إنه لا يتأتَّى لي بحال أن أبدله من جهة نفسي لأني عبدالله ورسوله ما أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿إِنِّيٓ(٢) أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بتبديل كلامه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي عذاب يوم القيامة.

(١٦) وقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ أي قل لهم ردًا على طلبهم: لو شاء الله أن لا أتلوه عليكم ما تلوته عليكم، ولا أدراكم هو به أي ولا أعلمكم فالأمر أمره وأنا لا أعصيه ويدل لكم على صحة ما أقول: إني لبثت فيكم عمرًا(٣) أي أربعين سنة قبل أن آتيكم به ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: معنى ما أقول لكم من الكلام وما أذكر لكم من الحجج؟

(١٧) هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى والثانية (١٥ ـ ١٦) أما الآية الثالثة فقد تضمنت التنديد بالمجرمين الذين يكْذِبون على الله تعالى بنسبة الشريك إليه ويكذِّبون بآياته ويجحدونها فقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾(٤) أي لا أحد أظلم منه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بعدما جاءته أي لا أحد أظلم من الاثنين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ دل أولاً على أن المذكورين مجرمون وأنهم لا يفلحون شأنهم شأن كل المجرمين. وإذا لم يفلحوا فقد خابوا وخسروا.

(١٨) وقوله تعالى في الآية الرابعة ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي من الأصنام ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا(٥) عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وهم في ذلك كاذبون مفترون فلذا أمر الله أن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ إذ لو كان هناك من يشفع عنده لعلمَهُم وأخبر عنهم فلم الكذب على الله والافتراء عليه ثم نزه الله تعالى نفسه عن الشرك به والشركاء له فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ ـ من الدعوة إلى الله تعالى تلاوة آياته القرآنية على الناس تذكيرًا وتعليمًا.

٢ ـ بيان ما كان عليه المشركون من تعنت وجحود ومكابرة.

٣ ـ كون النبي ﷺ عاش أربعين سنة لم يعرف فيها علمًا ولا معرفة ثم برز في شيء من العلوم والمعارف فتفوق وفاق كل أحد دليل على أنه نبي يوحى إليه قطعًا.

٤ ـ لا أحد أظلم من أحد رجلين رجل يكذب على الله تعالى وآخر يكذِّب الله تعالى.

٥ ـ إبطال دعوى المشركين أن آلهتهم تشفع لهم عند الله يوم القيامة.

٦ ـ بيان سبب عبادة المشركين لآلهتهم وهو رجاؤهم شفاعتها لهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩، ٢٠]

(١٩) ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: أي على دين واحد هو الإسلام. ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾: أي تفرقوا بأن بقي بعض على التوحيد وبعض على الشرك. ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾: بإبقائهم إلى آجالهم ومجازاتهم يوم القيامة.

(٢٠) ﴿ءَايَةٌ﴾: خارقة كناقة صالح عليه السلام. ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾: أي

---

(١) وإمّا أن يكون من باب توهمهم أن الرسول ﷺ يأتي به من تلقاء نفسه إلاّ أنّ هذا الاحتمال ضعيف.

(٢) جملة: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ جملة تعليلية لجملة: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ﴾.

(٣) العمر: الحياة مشتق من العمران، لأنّ مدة الحياة يعمر بها الحي العالم الأرضي، ويطلق العمر على المدة الطويلة التي لو عاش الإنسان مقدارها لكان أخذ حظه من البقاء. والمراد من قوله: ﴿عُمُرًا﴾ أي: لبثت بينكم مدة عمر كامل. إذ هي أربعون سنة.

(٤) في هذه الآية زيادة ردّ على المطالبين بتبديل القرآن إذ تبديله ظلم والزيادة فيه كذب على الله تعالى ولا أحد أظلم ممن يفتري على الله الكذب، فكيف يسوغ لي أن أفتري على الله الكذب أو أبدل كلامه؟

(٥) إن قولهم: هؤلاء ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ لأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر هو غاية الجهل، ومرادهم من شفاعتها أنها تشفع لهم عند الله في إصلاح معاشهم في الدنيا.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

٢١١

إن علم الآية متى تأتي من الغيب والغيب لله وحده فلا أنا ولا أنتم تعلمون إذًا فانتظروا إنا معكم من المنتظرين.

معنى الآيتين:

(١٩) يخبر تعالى رسوله ﷺ بحقيقة علمية تاريخية من شأن العلم بها المساعدة على الصبر والتحمل فيقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي في زمن سابق أمة واحدة على دين التوحيد دين الفطرة ثم حدث أن أحدثت لهم شياطين الجن والإنس البدع والأهواء والشرك فاختلفوا فمنهم من ثبت على الإيمان والتوحيد ومنهم من كفر بالشرك والضلال. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾[١] وهي أنه لا يعجل العذاب للأمم والأفراد بكفرهم وإنما يؤخرهم إلى آجالهم ليجزيهم في دار الجزاء بعذاب النار يوم القيامة لولا كلمته والتي هي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لعجل لهم العذاب فحكم بينهم بأن أهلك الكافر وأنجى المؤمن.

(٢٠) هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٩) أما الآية الثانية (٢٠) فيخبر تعالى عن المشركين أنهم قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[٢] أي هلاَّ أُنزل على محمد آية خارقة من ربه لنعلم ونستدل بها على أنه رسول الله وقد يريدون بالآية عذابًا فلذا أمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فهو وحده يعلم متى يأتيكم العذاب وعليه ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم[٣] مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ولم تطل مدة الانتظار ونزل بهم العذاب ببدر فهلك رؤساؤهم وأكابر المستهزئين.

هداية الآيتين:

١ - الأصل هو التوحيد والشرك طارىء.

٢ - الشر والشرك هما اللذان يحدثان الخلاف في الأمة والتفرق فيها أما التوحيد والخير فلا يترتب عليهما خلاف ولا حرب ولا فرقة.

٣ - بيان علة بقاء أهل الظلم والشرك يظلمون ويفسدون إلى آجالهم.

٤ - الغيب كله لله فلا أحد يعلم الغيب إلا الله ومن علَّمه الله شيئًا منه وهذا خاص بالرسل لإقامة الحجة على أممهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ ـ ٢٣]

(٢١) ﴿رَحْمَةً﴾: أي مطر بعد قحط أو صحة بعد مرض أو غنى بعد فاقة.

﴿ضَرَّآءَ﴾: حالة من الضر بالمرض والجدب والفقر. ﴿مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾: أي استهزاء بها وتكذيب.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾: أي الحفظة من الملائكة.

(٢٢) ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾[٤]: أي يجعلكم تسيرون بما حولكم من مراكب وما يسر لكم من أسباب. ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: أي مناسبة لسير السفن موافقة لغرضهم. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: أي شديدة تعصف بالشجر فتقتلعه والبناء فتهدمه. ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أي أحدق بهم الهلاك من كل جهة.

---

(١) في الآية إشارة إلى القضاء والقدر أي: لولا ما سبق في حكمه أنه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب قبل يوم القيامة.

(٢) يريدون معجزة كمعجزات صالح وموسى وعيسى عليهم السلام أو آية غير القرآن كأن يحيي لهم الموتى أو يجعل الجبل ذهبًا أو يكون له بيت من زخرف.

(٣) في الجملة تعريض بتهديدهم على جراءتهم على الله ومطالبتهم بالآيات، والآيات القرآنية معرضون عنها وهي أعظم مما يطلبون.

(٤) قرأ ابن عباس: ﴿ينشركم﴾ بالنون والشين أي: يبثكم ويفرقكم والفلك: يطلق على الواحد والجمع يذكر ويؤنث.

(٢٣) ﴿يَبْغُونَ[١] فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: أي يظلمون مجانبين للحق والاعتدال.

معنى الآيات:

(٢١) ما زال السياق في دعوة أهل مكة إلى توحيد الله والإيمان برسوله ﷺ والدار الآخرة فيقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ أي كفار مكة ﴿رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ أي أذقناهم طعم الرحمة التي هي المطر بعد الجفاف والغنى بعد الفاقة والصّحة بعد المرض وهي الضراء التي مستهم فترة من الزمن. يفاجئونك[٢] بالمكر بآيات الله وهو استهزاؤهم بها والتكذيب بها وبمن أُنزلت عليه. وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي قل يا رسولنا لهؤلاء الماكرين من المشركين الله عز وجل أسرع مكرًا منكم فسوف يريكم عاقبة مكره بكم وهي إذلالكم وخزيكم في الدنيا وعذابكم في الآخرة إن متم على كفركم، وقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تقرير لما أعلمهم به من مكر الله تعالى بهم إذ كتابة الملائكة ما يمكرون دليل على تبييت الله تعالى لهم المكروه الذي يريد أن يجازيهم به على مكرهم.

(٢٢) هذا ما تضمنته الآية الأولى **(٢١)** أما الآية الثانية **(٢٢)** فهي تُري المشركين ضعفهم وعجزهم وحاجتهم إلى الله تعالى، ومن كان كذلك فكيف يستهزىء بربه ويسخر من آياته ويكذب رسوله ﷺ إن أمرهم لعجب فيقول تعالى هو أي الله الذي تمكرون بآياته الذي يسيركم في البر بما خلق لكم من الظهر الإبل والخيل والحمير، وفي البحر بما سخر لكم من الفلك تجري في البحر بأمره. حتى إذا كنتم في البحر وجرين[٣] أي السفن بهم أي بالمشركين بريح طيبة مناسبة لسير السفن وفرحوا بها على عادة ركاب[٤] البحر يفرحون بالريح المناسبة لسلامتهم من المَيَدَان[٥] والقلق والاضطراب. جاءتها أي السفن ريح عاصف أي شديدة الهبوب تضطرب لها السفن ويخاف ركابها الغرق، وجاءهم أي الكفار الراكبين عليها الموج من كل مكان من جهات البحر والموج هو ارتفاع ماء البحر وتموجه كزوابع الغُبور في البر. وظنوا أي أيقنوا أو كادوا أنهم أحيط بهم أي هلكوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي الدعاء يا رب[٦] يا رب نجنا ويَعِدُونَه قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي الهلكة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ﴾ لك أي المطيعين المعترفين بنعمتك علينا الموحدين لك بترك الآلهة لعبادتك وحدك لا شريك لك. فلما أنجاهم من تلك الشدة يفاجئونك ببغيهم في الأرض بغير الحق شركًا وكفرًا وظلمًا وفسادًا فعادوا لما كانوا وإنهم لكاذبون.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ يخبرهم تعالى بقوله يا أيها الناس الباغون في الأرض بغير الحق في أي زمان كنتم وفي أي مكان وجدتم إنما بغيكم[٧] أي عوائده عائدة على أنفسكم إذ هي التي تتأثم وتخبث في الدنيا وتفسد وتصبح

---

(١) البغي: الاعتداء والظلم مأخوذ من بغا الجرح إذا فسد فهو من الفساد.

(٢) قيل: إنّ أبا سفيان قال: قحطنا بدعائك فإن سقيتنا صدّقناك فسُقوا باستسقائه ﷺ فلم يؤمنوا وهذا من مكرهم.

(٣) وجرين بهم: فيه خروج من الخطاب إلى الغيبة وهو ضرب من الأساليب البلاغية وهو في القرآن كثير، وكذا في أشعار العرب قال النابغة:

يا دار ميّة بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأمد

ويقال له: التفات من كذا إلى كذا.

(٤) في الآية دليل على جواز ركوب البحر مطلقًا، وشاهده من السنة حديث: إنّا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فقال ﷺ: **«هو الطهور ماؤه الحل ميتته»** وحديث أم حرام يدلّ على جواز ركوبه في الغزو.

(٥) المَيدان: دوّار أو غثيان يصيب راكب البحر.

(٦) روي أنهم قالوا في دعائهم: هذا يا حي يا قيوم.

(٧) مصداقه من الحديث الشريف: **«ما من ذنب أحق أن يعجّل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»**.

أهلاً لعذاب الله يوم القيامة، وقوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ذلك متاع[1] الحياة الدنيا شقاء كان أو سعادة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي لا إلى غيرنا وذلك بعد الموت يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ونجزيكم به الجزاء العادل في دار الجزاء.

هداية الآيات:

١ - من مكر مكر الله به والله أسرع مكرًا وأكبر أثرًا وضررًا.

٢ - بيان ضعف الإنسان وفقره إلى الله وحاجته إليه عز وجل في حفظ حياته وبقائه إلى أجله.

٣ - إخلاص العبد الدعاء في حال الشدة آية أن التوحيد أصل والشرك طارىء.

٤ - المشركون الأولون أحسن حالاً من جهلة هذه الأمة إذ يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة أما جهال المسلمين اليوم فشركهم دائم في الرخاء والشدة على السواء.

٥ - بَغْيُ الإنسان عائد على نفسه كمكره ونكثه وفي الحديث «ثلاث على أصحابها رواجع: البغي والمكر والنكث».

٦ - تقرير مبدأ البعث والجزاء يوم القيامة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤، ٢٥]

(٢٤) ﴿مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي صفتها المنطبقة عليها المُتَّفقة معها. ﴿كَمَآءٍ﴾: أي مطر. ﴿فَٱخْتَلَطَ[2] بِهِۦ﴾: أي بسببه نبات الأرض أي اشتبك بعضه ببعض. ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾: كالبر وسائر الحبوب والفواكه والخضر. ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾: أي من الكلإ والعشب عادة وإلا قد يعلف الحيوان الشعير. ﴿زُخْرُفَهَا﴾[3]: أي نضرتها وبهجتها. ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾[4]: أي تجملت بالزهور. ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾: أي متمكنون من تحصيل حاصلاتها الزراعية. ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾: أي قضاؤنا بإهلاكها وتدميرها عقوبة لأصحابها. ﴿حَصِيدًا﴾: أي كأنها محصودة بالمنجل ليس فيها شيء قائم. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾[5]: أي كأن لم تكن موجودة غانية بالأمس. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: أي نبينها.

(٢٥) ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[6]: دار السلام: الجنة والله يدعو إليها عباده ليأخذوا بالأهبة لدخولها وهي الإيمان والعمل الصالح وترك الشرك والمعاصي.

معنى الآيتين:

(٢٤) ما زال السياق الكريم يعرض الهدايات الإلهية على الناس لعلهم يهتدون ففي هذه الآية يضرب تعالى[7] مثلاً للحياة الدنيا التي يتكالب الغافلون عليها ويبيعون آخرتهم بها فيكذبون ويظلمون من أجلها إنما مثلها في نضارتها الغارة بها وجمالها الخادعة به كمثل ماء نزل من السماء فاختلط بالماء نبات الأرض فسقى به ونما وازدهر وأورق وأثمر وفرح به أهله وغلب على ظنهم أنهم منتفعون به فائزون به وإذا بقضاء الله فيه تأتيه فجأة في ساعة من ليل أو نهار فإذا هو حصيد ليس فيه ما هو قائم على ساق، هشيم تذروه الرياح كأن لم يغْن بالأمس أي كأن لم يكن موجودًا أمس قائمًا يعمُر مكانه أتاه

---

(١) المتاع: ما يتمتع به انتفاعًا غير دائم.

(٢) أي: اختلط النبات بالمطر أي: شرب منه فتندى وحسن واخضر والاختلاط هو: تداخل الشيء في الشيء.

(٣) الزخرف: اسم للذهب، ويطلق على كل ما يزيّن به مما فيه ذهب وتلوين من الثياب والحلي وأنواع الزينة.

(٤) ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أصلها: تزينت فقلبت التاء زايًا وأدغمت في الزاي لقرب مخرجيهما وجلبت همزة الوصل لأجل النطق بالساكن.

(٥) كأن لم تكن عامرة يقال: غني بالمكان إذا قام به وعمره والمغاني المنازل التي يعمرها الناس قال لبيد:

وغنيت سبتًا قبل مجرى داحس ... لو كان للنفس اللجوج خلود

(٦) وقيل: المعنى: والله يدعو إلى دار السلام إذ والسلامة بمعنى كالرضاعة والرضاع قال الشاعر:

تحيي بالسلام أم بكر ... وهل لك بعد قومك من سلام

(٧) المثل: الصفة وعليه فصفة الحياة الدنيا المنطبقة عليها أنها في سرعة انقضائها وزوال نعيمها بعد البهجة والنضرة الحسنة كنبات أخضر وازدهر ثم يبس فصار هشيمًا تذروه الرياح.

أمر الله لأن أهله ظلموا فعاقبهم بجائحة أفسدت عليهم زرعهم فأمسوا يائسين حزينين. هذه الصورة المثالية للحياة الدنيا فهلا يتنبه الغافلون أمثالي!! أو هلا يستيقظ النائمون من حالهم كحالي؟؟

(٢٥) وقوله تعالى في الآية الثانية (٢٥): ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾[1] أي بترك الشرك والمعاصي والإقبال على الطاعات والصالحات ودار السلام الجنة إذ هي الخالية من الكدر والتنغيص فلا مرض ولا هرم، ولا موت ولا حزن. ودعاة الضلالة يدعون إلى الدنيا والتي صورتها ومآلها أنها دار الكدر والتنغيص. والهم والحزن فأي الدعوتين تجاب؟ ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فلتطلب هدايته بصدق فإنه لا يهدي إلا هو والصراط المستقيم هو الإسلام طريق الجنة وسُلّم الوصول إليها رزقنا الله تعالى السير فيه والثبات عليه.

هداية الآيتين:

١ - بيان الصورة الحقيقية للحياة الدنيا في نضرتها وسرعة زوالها.

٢ - التحذير من الاغترار بالدنيا والركون إليها.

٣ - التحذير من الذنوب فإنها سبب الشقاء وسلب النعم.

٤ - فضيلة التفكر وأهله.

٥ - فضل الله على عباده ورحمته بهم إذ يدعوهم إلى داره لإكرامهم والإنعام عليهم.

الجزءُ الحادِي عَشَر — سُورةُ يُونُس

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾

٢١٢

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ - ٣٠]

(٢٦) ﴿الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم. ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾: أي لا يغشى وجوههم. ﴿قَتَرٌ﴾: غبرة من الكآبة والحزن.

(٢٧) ﴿السَّيِّئَاتِ﴾: جمع سيئة ما يُسيء إلى النفس من ذنوب الشرك والمعاصي.

(٢٨) ﴿مَكَانَكُمْ﴾: أي الزموا مكانكم لا تفارقوه. ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: فرقنا بينهم.

(٣٠) ﴿هُنَالِكَ﴾: أي ثَمَّ. ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ﴾: أي تختبر. ﴿مَّا أَسْلَفَتْ﴾: أي ما قدمت. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أي غاب عنهم ما كانوا يكذبون.

معنى الآيات:

(٢٦) بعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة أنه يدعو إلى دار السلام ذكر جزاء من أجاب الدعوة ومن لم يجبها فقال للذين أحسنوا فآمنوا

---

(١) روي أن النبي ﷺ خرج يومًا على أصحابه فقال: **«رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً فقال له: اسمع سمعت أذناك واعقل عقل عقلك إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارًا ثم بنى فيها بيتًا ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فالله الملك والدار الإسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل في الإسلام ومن دخل في الإسلام دخل الجنة»** ثم تلا: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ إلى قوله: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(٢٦) ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ القول بأن الزيادة هما النظر إلى وجه الله الكريم هو قول أنس بن مالك وأبي بكر الصديق وعليّ بن أبي طالب وحذيفة وابن عباس وعامة الصحابة وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»**.

وعبدوا الله بما شرع ووحدوه تعالى في عبادته وربوبيته وأسمائه وصفاته فهؤلاء جزاؤهم الحسنى وهي الجنة وزيادة وهي النظر إلى وجهه الكريم في دار السلام، وأنهم إذا بعثوا لا يرهق[(١)] وجوههم قتر ولا ذلة كما يكون ذلك لمن لم يجب دعوة الله تعالى، وقرر جزاءهم ووضحه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ[(٢)] هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(٢٧) وذكر جزاء من أعرض عن الدعوة ورفضها فأصر على الكفر والشرك والعصيان فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ فالذين كسبوا سيئات الشرك[(٣)] والمعاصي فأساء ذلك إلى نفوسهم فدساها وخبثها جزاؤهم جهنم وترهقهم ذلة في عرصات القيامة وليس لهم من الله من عاصم يعصمهم من عذاب الله. كأنما وجوههم لسوادها قد أغشيت قطعًا[(٤)] من الليل مظلمًا وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ تقرير لمصيرهم والعياذ بالله وهو ملازمة النار وعدم الخروج منها بخلودهم فيها.

(٢٨) هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (٢٦) والثانية (٢٧) أما الآيات الثالثة والرابعة والخامسة فإنها تضمنت عرضًا سريعًا لحشر الناس يوم القيامة، والمراد بذلك تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾[(٥)] أي في عرصات القيامة ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي بنا آلهة عبدوها دوننا ﴿مَكَانَكُمْ﴾ أي قفوا لا تبرحوا مكانكم ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾، ثم يزايل الله تعالى أي يفرق بينهم وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ولا شك أنهم يقولون ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين ندعو من دونك فلذا ذكر تعالى ردهم عليهم في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم[(٦)] مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي لأننا ما كنا نسمعكم ولا نبصركم ولا أمرناكم بعبادتنا وهذا قول كل من عُبد من دون الله من سائر الأجناس.

(٢٩) ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا﴾ أي والله ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ غير شاعرين بحال من الأحوال بعبادتكم.

(٣٠) قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك الموقف الرهيب ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي تختبر ما قدمت في دنياها وتعرفه هل هو ضارٌّ بها أو نافع لها ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ[(٧)] الْحَقِّ[(٨)] وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ هكذا يجدون أنفسهم أمام مولاهم ومالك أمرهم ومعبودهم الحق والذي طالما كفروا به وتنكروا له وجحدوا آياته ورسله وضل[(٩)] أي غاب عنهم ما كانوا يفترونه من الأكاذيب والترهات والأباطيل من تلك الأصنام التي سموها آلهة وعبدوها وندموا يوم لا

---

(١) الرهق: الغشيان، يقال: رهقه يرهقه رهقًا: إذا غشيه من باب خرج.

(٢) اسم الإشارة عائد إلى الذين أحسنوا.

(٣) ذكرنا في التفسير: كسبوا الشرك والمعاصي لأنّ الشرك هو الموجب للخلود في النار لا المعاصي، بدليل الحكم عليهم بالخلود في النار في آخر السياق.

(٤) جمع قطعة، وهي الجزء من الشيء فهي فعلة بمعنى مفعولة إذ هي مقطوعة من شيء كامل. والمظلم: الإظلام لا كواكب فيه ولا قمر.

(٥) أي: سعداء وأشقياء أهل الحسن وأهل الذلة، إذ الحشر يكون لسائر الخلائق لا يتخلف أحد من الخلق.

(٦) الشركاء: يكونون من الأصنام والأوثان والملائكة والإنس والجنّ والتبرؤ حاصل إذ ليس هناك من يقوى على الاعتراف بجريمة الشرك، أمّا الملائكة والأنبياء والصالحون فإنهم لم يكونوا راضين بعبادة المشركين لهم فتبرّؤهم صحيح، وأمّا الأصنام والأوثان فإنها لم تأمر بعبادتها وإنما الذي أمر بعبادتها الشياطين فتبرؤها صحيح.

(٧) مولاهم: الخالق، الرازق، المدبر لأمورهم وشؤون حياتهم والمستوجب لعبادتهم هو الله جل جلاله، فهو مولاهم الحق، لا الذي اختلقوه كذبًا وعبدوه من دون الله فذاك مولىً باطل وإلٰه مكذوب.

(٨) الحق: هو الموافق للواقع والصدق، فالمولوية الحقة لله تعالى لا لمخلوقاته، وكلها مخلوقة له مربوبة.

(٩) ضلّ: بمعنى ضاع وغاب ولم يجدوه ولم ينتفعوا به، فما كانوا يختلقونه من الآلهة الباطلة وما كانوا يقدّمونه لها من أنواع العبادات قد ضاع وغاب عنهم فلم يروه.

ينفع الندم وجزاهم بما لم يكونوا يحتسبون.

هداية الآيات:

١ - بيان فضل الحسنة وما تعقبه من نيل الحسنى.

٢ - بيان سوء السيئة وما تورثه من حسرة وندامة وما توجبه من خسران.

٣ - تقرير معتقد البعث والجزاء بعرض صادق واضح له.

٤ - تبرؤ ما عُبد من دون الله من عابديه وسواء كان المعبود ملكًا أو إنسانًا أو جانًا أو شجرًا أو حجرًا الكل يتبرأ من عابديه ويستشهد الله تعالى عليه.

٥ - في عرصات القيامة تعلم كل نفس ما أحضرت، وما قدمت وأخرت وتبلو ما أسلفت فتعرف وأنى لها أن تنتفع بما تعرف؟.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ - ٣٣]

(٣١) ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي بالغيث والمطر. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: أي بالنبات والحبوب والثمار. ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾: أي يملك أسماعكم وأبصاركم إن شاء أبقاها لكم وإن شاء سلبها منكم. ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: أي الجسم الحي من جسم ميت والعكس كذلك. ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: أي أمر الخلائق كلها بالحياة والموت والصحة والمرض والعطاء والمنع. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أي الله فلا تشركوا به شيئًا ولا تعصوه في أمره ونهيه.

(٣٢) ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾: أي كيف تصرفون عن الحق بعد معرفته والحق هو أنه لا إله إلا الله.

(٣٣) ﴿حَقَّتْ﴾: أي وجبت. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: وذلك لبلوغهم حدًا لا يتمكنون معه من التوبة البتة.

معنى الآيات:

(٣١) ما زال السياق في تقرير عقيدة التوحيد فيقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا لأولئك المشركين مستفهمًا إياهم ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بإنزال المطر وبإنبات الحبوب والثمار والفواكه والخضر التي ترزقونها، وقل لهم ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي أسماعكم وأبصاركم بحيث إن شاء أبقاها لكم وأمتعكم بها، وإن شاء أخذها منكم وسلبكم إياها فأنتم عمي لا تبصرون وصم لا تسمعون ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالفرخ من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالبيضة من الدجاجة، والنخلة من النواة، والنواة[1] من النخلة. ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في السماء والأرض كتعاقب الليل والنهار ونزول الأمطار، وكالحياة والموت والغنى والفقر والحرب والسلم والصحة والمرض إلى غير ذلك مما هو من مظاهر التدبير الإلهي في الكون. ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، إذ لا جواب لهم إلا هذا إذًا فما دام الله هو الذي يفعل هذا ويقدر عليه دون غيره كيف لا يُتَّقى عز وجل بتوحيده وعدم الإشراك به، فلمَ لا تتقونه؟[2].

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾[3] أي فذلكم الذي يرزقكم من السماء والأرض ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر هو ربكم[4] الحق الذي لا رب لكم سواه إذًا ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[5] ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق بعد معرفته إلى الضلال؟ إنه أمر يدعو إلى الاستغراب والتعجب!

(٣٣) وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا

---

(١) وكالنطفة من الإنسان، والإنسان من النطفة، ومثلها نطفة الحيوان مخرجها من حيوان حي، ومن الحيوان الحي تخرج نطفة ميتة.

(٢) أي: فقل لهم يا رسولنا: أفلا تتقون، أي: أفلا تخافون عقابه ونقمه في الدنيا والآخرة.

(٣) في الصحيح من دعاء الرسول ﷺ إذا قام من جوف الليل يقول: «**اللهم أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق**..» في حديث طويل هذا من وسطه، والشاهد في قوله: «**أنت الحق**».

(٤) أي: إلهكم ومعبودكم الحق لا ما تعبدون من أصنام وأوثان فإذا عرفتم إلهكم الحق فإنّ ما بعده من آلهة هو الضلال.

(٥) روي عن مالك في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ قال: اللعب بالشطرنج والنرد: هو الضلال، وسئل عن الغناء فقال: هل هو حق؟ قالوا: لا. قال: فما بعد الحق إلاّ الضلال. وفي صحيح مسلم: «**من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه**».

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ أي مثل ذلك الصرف الذي يصرفه المشركون عن الحق بعد معرفته إلى الضلال أي كما حق ذلك حقت كلمة ربك وهي أن الله لا يهدي القوم الفاسقين فهم لا يهتدون، وذلك أن العبد إذا توغل في الشر والفساد بالإدمان والاستمرار عليه يبلغ حدًا لا يتأتّى له الرجوع منه والخروج بحال فهلك على فسقه لتحق عليه كلمة العذاب وهي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤ ـ ٣٦]

﴿٣٤﴾ ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾[2]: جمع شريك وهو من أشركوه في عبادة الله تعالى. ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: أي ينشىء الإنسان والحيوان أول ما ينشئه فذلك بدء خلقه. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: أي كيف تصرفون عن الحق بعد معرفته.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾: أي لا يهتدي. ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾: أي هذا الحكم الفاسد وهو اتباع من لا يصح اتباعه لأنه لا يهدي.

معنى الآيات:

﴿٣٤﴾ ما زال السياق في حجاج المشركين لبيان الحق لهم ودعوتهم إلى اتباعه فيقول تعالى لرسوله ﷺ قل لهؤلاء المشركين ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم[3] مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؟ أي هل يوجد من بين آلهتكم التي تعبدونها من يبدأ خلق إنسان من العدم ثم يميته، ثم يعيده؟ وجوابهم معروف وهو لا يوجد إذًا فكيف تؤفكون أي تصرفون عن الحق بعد معرفته والإقرار به؟

﴿٣٥﴾ وقل لهم أيضًا ﴿قُلْ هَلْ[4] مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي يوجد من آلهتكم من يهدي إلى الحق؟ والجواب لا يوجد لأنها لا تتكلم ولا تعلم إذًا فقل لهم الله يهدي إلى الحق أي بواسطة نبيه ﷺ ووحيه وآياته.

وقل لهم ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ[5] إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾[6] والجواب معروف الذي يهدي إلى الحق أحق بأن يتبع ممن لا يهتدي إلا أن يُهدى، إذًا لم لا تتقون الله فتوحدوه وتؤمنوا برسوله ﷺ وكتابه فتهتدوا، وتتركوا آلهتكم التي لا تهدي إلى الحق؟ ﴿فَمَا

هداية الآيات:

١ ـ مشركو العرب كانوا يشركون في الألوهية ويوحدون في الربوبية.

٢ ـ وليس بنافع أن يوحد العبد في الربوبية ويشرك في الألوهية.

٣ ـ ليس بعد الحق[1] إلا الضلال فلا واسطة بينهما فمن لم يكن على حق فهو على ضلال.

٤ ـ التوغل في الشر والفساد يصبح طبعًا لصاحبه فلا يخرج منه حتى يهلك به.

---

(١) روي عن عمر رضي الله عنه أنه رخّص فيما كان فيه دربة على الحرب من أنواع اللعب، إذ الغرض صحيح، وهو تعلم فنون الحرب، وحذق أساليبها.

(٢) أي: آلهتكم ومعبوداتكم من الأصنام والأوثان.

(٣) يقول لهم: (هل) على جهة التوبيخ والتقرير، فإن أجابوك فذاك وإلاّ فقل: الله يبدأ الخلق.

(٤) هذا الاستفهام كالأول للتوبيخ والتقرير فإن أجابوك فذاك المطلوب وإن لم يجيبوا فأجب أنت بقولك: الله يبدأ الخلق.

(٥) هذا الاستفهام كسابقيه للتوبيخ والتقرير ثم إقامة الحجة.

(٦) في: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ قراءات منها: ﴿لا يهدي﴾ بالتخفيف. ﴿لا يَهَدّي﴾ بتشديد الدال، وفتح الهاء وهي قراءة ورش، و ﴿لَّا يَهِدِّىٓ﴾ بكسر الهاء، وتشديد الدال وهي قراءة حفص.

﴿لَكُمْ﴾ أي أيُّ شيء ثبت لديكم في ترك عبادة الله لعبادة غيره من هذه الأوثان، ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي حكم هذا تحكمون به وهو اتباع من لا يهدي وترك عبادة من يهدي إلى الحق.

(٣٦) وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾[(١)] أي أن أكثر هؤلاء المشركين لا يتبعون في عبادة أصنامهم إلا الظن فلا يقين عندهم في أنها حقًا آلهة تستحق العبادة، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي إن الظن لا يكفي عن العلم ولا يغني عنه أي شيء من الإغناء، والمطلوب في العقيدة العلم لا الظن[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ هذه الجملة تحمل الوعيد الشديد لهم على إصرارهم على الباطل وعنادهم على الحق فسيجزيهم بذلك الجزاء المناسب لظلمهم وعنادهم.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد بإبطال الآلهة المزعومة حيث اعترف عابدوها بأنها لا تبدأ خلقًا ولا تعيده بعد موته، ولا تهدي إلى الحق، والله يبدأ الخلق ثم يعيده ويهدي إلى الحق.

٢ - إبطال الأحكام الفاسدة وعدم إقرارها ووجوب تصحيحها.

٣ - لا يقبل الظن في العقائد بل لا بد من العلم اليقيني فيها.

٤ - كراهية القول بالظن والعمل به وفي الحديث «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**».

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٧ ـ ٣٩]

(٣٧) ﴿أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: أي افتراءً أي لم يكن هذا القرآن افتراء.

﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾: أي بيان ما فرض الله تعالى على هذه الأمة وما أحل لها وما حرم.

(٣٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: أي اختلقه من نفسه وَتَقَوَّلَهُ من عنده.

(٣٩) ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾: أي بما توعدهم الله تعالى به من العذاب.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾: أي ولما يأتهم بعدما يؤول إليه ذلك الوعيد من العذاب. ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي كتكذيب هؤلاء بوعد الله لهم كذب الذين من قبلهم.

معنى الآيات:

(٣٧) هذه الآيات في تقرير عقيدة الوحي وإثبات نبوة الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا[(٣)] الْقُرْآنُ﴾ أي لم يكن من شأن هذا القرآن العظيم ﴿أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي يُختلق من غير الله تعالى من سائر خلقه، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[(٤)] أي ولكنه كلام الله ووحيه أوحاه إلى رسوله ﷺ وأنزله تصديق الذي بين يديه أي من الكتب التي سبقت نزوله وهي التوراة والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ الذي كتبه الله تعالى على أمة الإسلام من الفرائض والشرائع والأحكام. وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في أنه وحي الله وكلامه نزل من رب العالمين، وهو الله مربي الخلائق أجسامًا وعقولاً وأخلاقًا وأرواحًا ومن مقتضى ربوبيته إنزال كتاب فيه تبيان كل شيء يحتاج إليه العبد في تربيته وكماله البدني والروحي والعقلي والخلقي.

(٣٨) وقوله تعالى في الآية الثانية (٣٨): ﴿أَمْ يَقُولُونَ[(٥)] افْتَرَاهُ﴾ أي بل يقول هؤلاء المشركون المجاحدون

---

(١) في الآية دليل على أن عابدي غير الله ليسوا سواء في الاعتقاد الباعث لهم على عبادتها بل أكثرهم لا يتبعون في عبادتها إلا مجرّد الظن، والبعض الآخر القليل لا اعتقاد لهم إلا اتباع غيرهم وتقليد سواهم من رؤسائهم، وأهل الكلمة فيهم، فكلا الفريقين هالك.

(٢) الظن يطلق على مراتب الإدراك، فيطلق على الاعتقاد الجازم الذي لا شك فيه كقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠)﴾ ويطلق على الاعتقاد المشكوك فيه كقول قوم نوح لنوح: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ويطلق على الاعتقاد المخطىء كآية: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وحديث: «**فإن الظن أكذب الحديث**».

(٣) علم الله تعالى أنّ غيره تعالى لا يتأتى له الإتيان بمثل هذا القرآن كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾.

(٤) أي: أنزله مصدقًا لما بين يديه أي: لما تقدمه من الكتب الإلٰهية. هذا كقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. ونصب (تصديق) على أنه اسم كان، والتقدير: ولكن كان تصديق الذي.

(٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم هنا: هي المنقطعة التي تفسَّر ببل، والهمزة أي: بل أيقول افتراه؟ والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ.

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

وهو قول في غاية السُّخف والقباحة يقولون القرآن افتراه محمد ولم يكن بوحي أُنزل عليه، قل يا رسولنا متحديًا إياهم أن يأتوا بسورة مثله[١]. فإنهم لا يستطيعون وبذلك تبطل دعواهم، وقل لهم ادعوا لمعونتكم على الإتيان بسورة مثل سور القرآن من استطعتم الحصول على معونتهم إن كنتم صادقين في دعواكم أن القرآن لم يكن وحيًا من الله، وإنما هو اختلاق اختلقه محمد رسول الله ﷺ.

﴿٣٩﴾ وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ[٢] وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي إن القضية ليست قضية أنهم ما استطاعوا أن يدركوا أن القرآن كلام الله، وإنما القضية هي أنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه من وعيد الله تعالى لهم بالعذاب، ولما يأتهم بعدما يؤول إليه الوعيد إذ لو رأوا العذاب ما كذبوا، ولذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ كما في آية الأنعام. وهنا قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فقد أهلك تعالى الظلمة من قوم نوح بالغرق ومن قوم هود بريح صرصر ومن قوم صالح بالصيحة ومن قوم شعيب بالرجفة ومن أمم أخرى بما شاء من أنواع العذاب فهؤلاء إن لم يتوبوا واستمروا في تكذيبهم فسوف يحل بهم ما حل بغيرهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة الوحي وإثبات نبوة محمد ﷺ.

٢ - من أدلة أن القرآن كلام الله تصديقه للكتب السالفة وعدم التناقض معها إذ هما من مصدر واحد وهو الله رب العالمين.

٣ - من أدلة القرآن على أنه وحي الله تحدى الله العرب بالإتيان بسورة واحدة في فصاحته وبلاغته وإعجازه وعجزهم عن ذلك.

٤ - استمرار المشركين في العناد والمجاحدة علته أنهم لم يذوقوا ما توعدهم الله به من العذاب إذ لو ذاقوا لآمنوا ولكن لا ينفعهم حينئذ الإيمان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٠ ـ ٤٤]

﴿٤٠﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾: أي من أهل مكة المكذبين بالقرآن من يؤمن به مستقبلاً. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾: وهم دعاة الضلالة الذين يفسدون العقول والقلوب والجملة تهديد لهم.

﴿٤١﴾ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾: أي استمروا على تكذيبك.

﴿٤٢﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾: أي إذا قرأت القرآن.

﴿٤٣﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾: أي يبصر ويشاهد آيات النبوة وأعلام صدقك، ولا يهتدي إلى معرفة أنك رسول الله لأن الله تعالى حرمه ذلك.

معنى الآيات:

﴿٤٠﴾ ما زال السياق في تقرير نبوة

(١) هذا دليل على أن القرآن الكريم معجز، وهو كذلك معجز بألفاظه ومعانيه معًا.

(٢) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾. هذا الكلام الإلهي يحتمل معنيين صحيحين. الأول: هو ما في التفسير، والثاني: المراد بما لم يحيطوا بعلمه: القرآن الكريم، فهم لم يتدبروه، ولم يفهموا ما يدعو إليه وكذبوا به عن جهل مع العناد والمكابرة فما في قوله: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ اسم موصول المراد به: القرآن الكريم أمّا على المعنى الأول فإن المراد به العذاب الذي كذّبوا به، ولم يحل بهم بعد.

النبي ﷺ قال تعالى في خطاب رسوله ﷺ ليُسلّيه ويصبّره على عدم إيمان قومه مع ظهور الأدلة وقوة البراهين ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن وبالنبي ﷺ أيضًا إذ الإيمان بواحد يستلزم الإيمان بالثاني، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾[1]، وهذا إخبار غيب فتم كما أخبر تعالى فقد آمن من المشركين عدد كبير ولم يؤمن عدد آخر. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي الذين لا يؤمنون وفي الجملة تهديد لأولئك الذين يصرفون الناس ويصدونهم عن الإيمان والتوحيد.

(٤١) وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي استمروا في تكذيبهم لك فلا تحفل بهم وقل ﴿لِّى عَمَلِى[2] وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فإذا كان هناك عقاب دنيوي فإنك تسلم منه ويهلكون هم به.

(٤٢) وقوله تعالى في الآية (٤٢): ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[3] إلى قراءتك القرآن وإلى قولك إذا قلت داعيًا أو آمرًا أو ناهيًا، ومع هذا فلا يفهم ولا ينتفع بما يسمع، ولا لوم عليك في ذلك لأنك لا تسمع الصم، وهؤلاء صم لا يسمعون،

(٤٣) ومنهم من ينظر إليك بأعين مفتحة ويرى علامات النبوة وآيات الرسالة ظاهرةً في حالك ومقالك ومع هذا لا يهتدي ولا لوم عليك فإنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون[4].

(٤٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝﴾ بيان لسنة الله تعالى في أولئك الذين يسمعون ولا ينتفعون بسماعهم، ويبصرون ولا ينتفعون بما يبصرون، وهي أن من توغل في البغض والكراهية لشيء يصبح غير قادر على الانتفاع بما يسمع منه ولا بما يبصر فيه. ولذا قيل حبك الشيء يُعمي ويُصم، والبغض كذلك كما أن الاسترسال في الشر والفساد مدة من الزمن يحرم صاحبه التوبة إلى الخير والصلاح، ومن هنا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ[5] ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝﴾.

هداية الآيات:

١ - إخبار القرآن بالغيب وصدقه في ذلك.

٢ - تقرير معنى آية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

٣ - تعليم رسول الله ﷺ طريق الحجاج والرد على الخصوم المشركين.

٤ - انتفاء الظلم عن الله تعالى، وإثباته للإنسان لنفسه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٥ - ٤٨]

(٤٥) ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾: أي نبعثهم من قبورهم ونجمعهم لساحة فصل القضاء. ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾: أي في الدنيا أحياء في دورهم وأمواتًا في قبورهم.

(٤٦) ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: أي نميتك قبل ذلك.

(٤٧) ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾: أي في عرصات القيامة. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: أي بالعدل.

(٤٨) ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: أي بالعذاب يوم القيامة.

معنى الآيات:

(٤٥) ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي اذكر لهم يوم نحشرهم من قبورهم بعد بعثهم أحياء ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾[6] في الدنيا أحياء في دورهم وأمواتًا في قبورهم. ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ

---

(١) كأبي طالب وأبي لهب وأبي جهل وغيرهم.

(٢) أي: لي ثواب عملي على التبليغ والطاعة لله تعالى ولكم جزاء عملكم الذي هو الشرك والكفر والتكذيب.

(٣) أي: في ظواهرهم أمّا قلوبهم فلا تعي شيئًا مما تقول من الحق وتتلوه من القرآن.

(٤) أي: ولو انضمّ إلى عدم البصر عدم البصيرة.

(٥) في هذا إشارة إلى أنّ عدم هدايتهم لم يكن خارجًا عن إرادتهم ولكن كان باستحبابهم العمى على الهدى وإيثارهم للدنيا على الآخرة.

(٦) أصلها: كأنهم ثم خففت: أي كأنهم لم يلبثوا في قبورهم.

﴿ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾[1] أي ليرى بعضهم بعضًا ساعة ثم يحول بينهم هول الموقف، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ[2] وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ يخبر تعالى أن الذين كذبوا بالبعث الآخر والحساب والجزاء الأخروي فلم يرجوا لقاء الله فيعملوا بمحابه وترك مساخطه قد خسروا في ذلك اليوم أنفسهم وأهليهم في جهنم، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ أي في حياتهم حيث انتهوا إلى خسران وعذاب أليم.

(٤٦) وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[3] أي إن أريناك بعض الذي نعدهم من العذاب في الدنيا فذاك، أو نتوفينك قبل ذلك فعلى كل حال مرجعهم إلينا جميعًا بعد موتهم، فنحاسبهم ونجازيهم بحسب سلوكهم في الدنيا الخير بالخير والشر بمثله، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾[4] تقرير وتأكيد لمجازاتهم يوم القيامة لأن علم الله تعالى بأعمالهم وشهادته عليها كافٍ في وجوب تعذيبهم.

(٤٧) وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝﴾ أي ولكل أمة من الأمم رسول أرسل إليها وبلغها فأطاع من أطاع وعصى من عصى فإذا جاء رسولها في عرصات القيامة قضي بينهم أي حوسبوا أو جوزوا بالقسط أي بالعدل وهم لا يظلمون بنقص حسنات المحسنين ولا بزيادة سيئات المسيئين.

(٤٨) وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي المشركون للرسول ﷺ وأصحابه، ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾[5] أي بالعذاب يوم القيامة. ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ يقولون هذا استعجالاً للعذاب لأنهم لا يؤمنون به. والجواب في الآية التالية.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير مبدأ المعاد والدار الآخرة.

٢ ـ الإعلان عن خسران منكري البعث يوم القيامة.

٣ ـ تسلية الرسول ﷺ وحمله على الصبر حتى يؤدي رسالته بإعلامه بأنه سيعذب أعداءه.

٤ ـ بيان كيفية الحساب يوم القيامة بأن يأتي الرسول وأمته ثم يجري الحساب بينهم فينجي الله المؤمنين ويعذب الكافرين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٩ ـ ٥٣]

(٤٩) ﴿لِنَفْسِى ضَرًّا﴾: أي لا أقدر على دفع الضر إذا لم يُعِنِّي الله تعالى. ﴿وَلَا نَفْعًا﴾: أي لا أقدر على أن أجلب لنفسي نفعًا إذا لم يُرده الله تعالى لي. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: أي وقت معين لهلاكها. ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً﴾: أي عن ذلك الأجل. ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: أي عليه ساعة.

(٥٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾: أي قل لهم أخبروني.

(٥١) ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾: أي حل العذاب.

(٥٢) ﴿عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾: أي الذي يخلدون فيه فلا يخرجون منه.

(٥٣) ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾: أي ويستخبرونك. ﴿قُلْ إِى﴾: أي نعم. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: أي بفائتين العذاب ولا ناجين منه.

معنى الآيات:

(٤٩) ما زال السياق الكريم في الرد على المشركين فقد طالبوا في الآيات السابقة بالعذاب فقالوا: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي بالعذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فأمر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه الآيات أن يقول لهم إني ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا﴾ أي لا أملك دفع الضر عني، ولا جلب النفع لي إذا لم يشأ الله تعالى ذلك، فكيف أعلم الغيب وأعرف متى يأتيكم العذاب كما لا أقدر على تعجيله إن

---

(١) الجملة في موضع نصب على الحال. وتعارفهم هذا في عرصات القيامة إنما هو تعارف توبيخ وافتضاح فيقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وحملتني على الكفر، ثم تنقطع المعرفة عن معاينتهم العذاب يوم القيامة.

(٢) أي: يوم العرض عليه بين الخلائق.

(٣) وإما أصلها إن الشرطية وما الزائدة لتقوية الكلام و ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ هو عذاب الدنيا كما هو إظهار الدين ونصرته ﷺ.

(٤) أي: بعد وفاتك، فالله عزّ وجل خليفتك فيهم وسوف يجزيهم بحسب كسبهم خيرًا وشرًا.

(٥) أي: متى العذاب؟ أو متى القيامة التي يعدنا بها محمد ﷺ؟

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

٢١٥

كان الله يريد تأجيله، واعلموا أنه لكل أمة من الأمم أجل أي وقت محدد لهلاكها وموتها فيه، فلا يتأخرون عنه ساعة ولا يتقدمون عليه بأخرى فلذا لا معنى لمطالبتكم بالعذاب. وشيء آخر أرأيتم أي أخبروني إن أتاكم العذاب الذي تستعجلونه بياتًا[1] أي ليلاً أو نهارًا أتطيقونه وتقدرون على تحمله إذًا فماذا تستعجلون منه أيها المجرمون[2] إنكم تستعجلون أمرًا عظيمًا.

﴿٥١﴾ وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ[3] إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ[4]﴾؟ أي أتستمرون على التكذيب والعناد، ثم إذا وقع آمنتم به، وهل ينفعكم إيمانكم يومئذ؟ فقد يقال لكم توبيخًا وتقريعًا: آلآن تؤمنون به، وقد كنتم به تستعجلون.

﴿٥٢﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾؟ يخبر تعالى أنه إذا دخل المجرمون النار وهم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ذوقوا ـ تهكمًا بهم ـ عذاب الخلد أي العذاب الخالد الذي لا يفنى ولا يبيد إنكم ما تجزون أي ما تثابون إلا بما كنتم تكسبونه من الشرك والمعاصي.

﴿٥٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ أي ويستخبرك المشركون المعاندون قائلين لك أحق ما تعدنا به من العذاب يوم القيامة؟ أجبهم بقولك: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي[5] إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله ولا فائتينه بل لا بد وأن يلجئكم إلى العذاب إلجاء، ويذيقكموه عذابًا أليمًا دائمًا وأنتم صاغرون.

هداية الآيات:

١ - لا يملك أحد من الخلق لنفسه فضلاً عن غيره ضرًا يدفعه ولا نفعًا يجلبه إلا بإذن الله تعالى ومشيئته، وخاب الذين يُعولون على الأولياء في جلب النفع لهم ودفع الشر عنهم.

٢ - الآجال محدودة لا تتقدم ولا تتأخر فلذا لا معنى للجبن من العبد.

٣ - لا ينفع الإيمان ولا التوبة عند معاينة العذاب أو مَلَك الموت.

٤ - جواز الحلف بالله إذا أريد تأكيد الخبر.

٥ - إي حرف إجابة وتقترن دائمًا بالقسم نحو إي والله، إي وربي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٤ ـ ٥٨]

﴿٥٤﴾ ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾: لقدمته فداء لها.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾: أخفوها في أنفسهم على ترك الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾: أي

---

(١) البيات: اسم مصدر، ليلاً: كالسلام للتسليم.

(٢) المجرمون: أصحاب الجرم الذي هو الشرك والقائلون: متى هذا الوعد من كفار مكة.

(٣) ﴿أَثُمَّ﴾ الهمزة للاستفهام وقدمت على ثم العاطفة، لأنّ لها حق الصدارة والتقدير: ثم إذا وقع، والمستفهم عنه هو حصول الإيمان في وقت وقوع العذاب، وهو غير نافع لصاحبه فكيف ترضونه أنتم لأنفسكم.

(٤) ثم: حرف عطف، وهي هنا للتراخي الرتبي فهذا يقال للمشركين عند دخولهم النار وهو من باب التهكم بهم والتقريع لهم، وإعلامه بما لا يستطيعون دفعه بحال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والقائلون هم خزنة جهنم.

(٥) ﴿إِي﴾: كلمة تحقيق وإيجاب، وتأكيد، هي بمعنى نعم، ﴿وَرَبِّي﴾ قسم جوابه: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أي: هو كائن لا شك فيه ولا محالة من وقوعه.

حكم الله بينهم بالعدل.

(٥٥) ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: أي ما يعدهم الله به هو كائن حقًا.

(٥٧) ﴿مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي وصية من ربكم بالحق والخير، وباجتناب الشرك والشر. ﴿وَهُدًى﴾: أي بيان لطريق الحق والخير من طريق الباطل والشر.

(٥٨) ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾: ما هداهم إليه من الإيمان والعمل الصالح، واجتناب الشرك والمعاصي. ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾: أي فبالإيمان والعمل الصالح بعد العلم والتقوى فليسروا وليستبشروا. ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: أي من المال والحطام الفاني.

معنى الآيات:

(٥٤) ما زال السياق في بيان أن ما وعد الله تعالى به المشركين من العذاب هو آت لا محالة إن لم يؤمنوا وإنه عذاب لا يطاق فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ أي نفسها بالشرك والمعاصي، لو أن لها ما في الأرض من مال صامت وناطق وقبل منها لقدمته فداء[1] لها من العذاب، وذلك لشدة العذاب. وقال تعالى عن الكافرين وهم في عرصات القيامة وقد رأوا النار: ﴿وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ﴾[2] أي أخفوها في صدورهم ولم ينطقوا بها وهي ندمهم الشديد على عدم إيمانهم واتباعهم للرسول ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي وقضى الله تعالى أي حكم بين الموحدين والمشركين والظالمين والمظلومين[3] بالقسط الذي هو العدل الإلهي والحال أنهم لا يظلمون بأن يؤاخذوا بما لم يكتسبوا.

(٥٥) وقوله تعالى: ﴿أَلَآ[4] إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي انتبهوا واسمعوا أيها المشركون إن لله ما في السموات والأرض من سائر المخلوقات ملكًا حقيقيًا لا يملك معه أحد شيئًا من ذلك فهو يتصرف في ملكه كما يشاء يعذب ويرحم يشقي ويسعد لا اعتراض عليه، ألا إن وعد الله حق، أي تنبهوا مرة أخرى واسمعوا إن وعد الله، أي ما وعدكم به من العذاب، حق ثابت لا يتخلف. وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذ لو علموا أن العذاب كائن لا محالة وعلموا مقدار هذا العذاب ما كفروا به.

(٥٦) وقوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ يخبر تعالى عن نفسه أنه يحيي ويميت ومن كان قادرًا على الإحياء والإماتة فهو قادر على كل شيء، ومن ذلك إحياء الكافرين بعد موتهم وحشرهم إليه ومجازاتهم على ما كسبوا من شر وفساد، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تقرير مبدأ المعاد الآخر.

(٥٧) بعد هذه التقريرات لقضايا العقيدة الثلاث: التوحيد، والنبوة، والبعث، والجزاء، نادى الله تعالى العرب والعجم سواء قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ[5] مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ وكل من الموعظة التي هي الأمر والنهي بأسلوب الترغيب والترهيب والشفاء والهدى والرحمة قد حواها القرآن الكريم كأنه قال: يا أيها الناس وفيكم الجاهل والفاسق والمريض بالشرك والكفر والضال عن الحق، والمعذب في جسمه ونفسه قد جاءكم القرآن يحمل كل ذلك لكم فآمنوا به واتبعوا النور الذي يحمله وتداووا به واهتدوا بنوره تشفوا وتكملوا عقلاً وخلقًا وروحًا، وتسعدوا في الحياتين معًا.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ

---

(١) ولكن لا يقبل منها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

(٢) إسرارهم الندامة كان عند معاينة العذاب، وقبل الدخول فيه، والندامة: الحسرة على وقوع مكروه أو فوات محبوب.

(٣) وبين الرؤساء والمرؤوسين، أي: بين المتبوعين والتابعين لهم.

(٤) ﴿أَلَآ﴾: كلمة استفتاح وتنبيه يؤتى بها في أوّل الكلام، معناها: انتبهوا لما أقول لكم.

(٥) المراد بالموعظة وما بعدها من الصفات: القرآن الكريم إذ هو الجامع لكل ما ذكر، وإنّما عطفت المذكورات لتأكيد المدح. كقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ[1] فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي بلّغهم يا رسولنا آمرًا إياهم بأن يفرحوا[2] بالإسلام وشرائعه والقرآن وعلومه فإن ذلك خير مما يجمعون من حطام الدنيا الفاني، وما يعقب من آثار سيئة لا تحتمل ولا تطاق.

هداية الآيات:

١ - عظم عذاب يوم القيامة حتى إن الكافر ليود أن يفتدي منه بما في الأرض جميعًا.

٢ - تقرير ربوبية الله تعالى لسائر المخلوقات في العالمين العلوي والسفلي.

٣ - الإشادة بفضل القرآن وعظمته لما يحمله من المواعظ والهدى والرحمة والشفاء.

٤ - يستحب الفرح بالدين ويكره الفرح بالدنيا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٩ - ٦١]

(٥٩) ﴿أَرَءَيْتُم﴾: أي أخبروني. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾: أي الذي خلق لكم من رزق كلحوم الأنعام. ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾: أي في التحريم حيث حرمتم البحيرة والسائبة وفي التحليل حيث أحللتم الميتة.

(٦٠) ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: أي يختلقون الكذب تزويرًا له وتقديرًا في أنفسهم.

(٦١) ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾: أي في أمر عظيم. ﴿شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: أي تأخذون في القول أو العمل فيه. ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾: أي يغيب. ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: أي وزن ذرة والذرة أصغر نملة. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: أي اللوح المحفوظ، ومبين أي واضح.

معنى الآيات:

(٥٩) سياق الآيات في تقرير الوحي وإلزام المنكرين له من المشركين بالدليل العقلي، قال تعالى لرسوله ﷺ قل لهؤلاء المشركين[3] ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي أخبروني عما خلق الله لكم من نبات وطعام وحرث فجعلتم منه حرامًا كالبحيرة والسائبة والثياب التي تحرِّمون الطواف بها والحرث الذي جعلتموه لآلهتكم، وحلال كالميتة التي تستبيحونها ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾[4] (في هذا التشريع بوحي منه) ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فإن قلتم الله أذن لنا بوحي فلمَ تنكرون الوحي وتكذبون به، وإن قلتم لا وحي ولكننا نكذب على الله فموقفكم إذًا شر موقف إذ تفترون على الله الكذب والله تعالى يقول: (٦٠) ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي إذا هم وقفوا بين يديه سبحانه وتعالى ما ظنهم أيغفر لهم ويُعفى عنهم لا بل يلعنون وفي النار هم خالدون، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في كونه لا يعجل لهم العقوبة وهم يكذبون عليه ويشركون به ويعصونه ويعصون رسوله ﷺ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[5] وذلك لجهلهم وسوء التربية الفاسدة فيهم، وإلا العهد بالإنسان أن يشكر لأقل معروف وأتفه فضل.

(٦١) وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ[6] وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي وما تكون يا رسولنا في أمر من

---

(١) قال أبو سعيد الخدري وابن عباس: فضل الله: القرآن، ورحمته: الإسلام، وصحت الإشارة بذلك إلى الاثنين لأن العرب تشير بذلك إلى المفرد والمثنى والجمع.

(٢) روي أن من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة (الفقر) كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه ثم تلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

(٣) من كفّار قريش.

(٤) الاستفهام تقريري مشوب بالإنكار عليهم أيضًا. وعبر عن إعطائهم الرزق بإنزاله لهم، لأنّ أرزاقهم من حبوب وثمار وأنعام كلها متوقفة على المطر النازل من السماء حتى سمي العرب ببني ماء السماء، وشاهده قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ..﴾ الآية.

(٥) بذكره وعبادته وحده بما شرع أن يعبد به، وعلّة عدم الشكر انظرها في التفسير.

(٦) الشأن والجمع شؤون: الخطب والأمر الهام، والخطاب للرسول ﷺ والأمّة معه وقدم ﷺ لعلو شأنه وسمو مقامه ﷺ.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٤ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٥ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝٦٦ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ۝٦٧ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٨ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٧٠﴾

أمورك الهامة وما تتلو من القرآن من آية أو آيات في شأن ذلك الأمر ﴿إِلَّا كُنَّا﴾ أي نحن رب العزة والجلال ﴿عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ أي حضورًا ﴿إِذۡ تُفِيضُونَ[1] فِيهِۚ﴾ أي في الوقت الذي تأخذون فيه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ[2] فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه تعالى وإحاطته بسائر مخلوقاته بحيث لا يعزب أي لا يغيب عن علمه تعالى مثقال ذرة أي وزن ذرة وهي النملة الصغيرة، وسواء كانت في الأرض أو في السماء، وسواء كانت أصغر من النملة أو أكبر منها. بالإضافة إلى أن ذلك كله في كتاب مبين، أي في اللوح المحفوظ. لهذا العلم والقدرة والرحمة استوجب التأليه والعبادة دون سائر خلقه.

هداية الآيات:

١ - تقرير الوحي وإثباته للنبي ﷺ.

٢ - التحريم والتحليل من حق الله تعالى دون سائر خلقه.

٣ - حرمة الكذب على الله، وإن صاحبه مستوجب للعذاب.

٤ - ما أعظم نعم الله تعالى على العباد ومع هذا فهم لا يشكرون إلا القليل منهم.

٥ - وجوب مراقبة الله تعالى، وحرمة الغفلة في ذلك.

٦ - إثبات اللوح المحفوظ وتقريره كما صرحت به الآيات والأحاديث.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٢ - ٦٤]

(٦٢) ﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاح وتنبيه.

﴿إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: جمع وليّ وهو المؤمن التقي بشرط أن يكون إيمانه وتقواه على نور من الله. ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي لا يخافون عند الموت ولا بعده، ولا هم يحزنون على ما تركوا بعد موتهم.

(٦٣) ﴿ءَامَنُواْ﴾: أي صدقوا بالله وبما جاء عن الله وبرسول الله ﷺ وبما أخبر به رسول الله ﷺ.

﴿يَتَّقُونَ﴾: أي ما يسخط الله تعالى من ترك واجب أو فعل حرام.

(٦٤) ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: أي بالجنة في القرآن الكريم وعند الموت وبالرؤيا الصالحة يراها أو ترى له. ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي لوعده الذي يعده عباده الصالحين، لأن الوعد بالكلمة وكلمة الله لا تبدل. ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: النجاة من النار ودخول الجنة.

معنى الآيات:

(٦٢) يخبر تعالى مؤكدًا الخبر بأداة التنبيه ﴿أَلَآ﴾ وأداة التوكيد ﴿إِنَّ﴾ فيقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ[3] ٱللَّهِ لَا

---

(١) الإفاضة في العمل: الشروع والدخول فيه.

(٢) الذرة: النملة الصغيرة، أو الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس.

(٣) الولي: مشتق من الولي بسكون اللام الذي هو القرب، ومتى زكت نفس المؤمن بالإيمان والعمل الصالح، وتخليها عن الشرك، والمعاصي قرُب من الله تعالى فوالاه، ومن آيات الولاية: استجابة الدعاء وهو من الكرامات التي يكرم الله تعالى بها أولياءه وفي الحديث: «**الذين يُذكَرُ الله برؤيتهم**» وفي لفظ: «**الذين إذا رُؤوا ذُكر الله**» وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من عباد الله عبادًا يغبطهم الأنبياء، والشهداء**». قيل: من هم يا رسول الله؟ لعلنا نحبهم؟ قال: «**هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس**» ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يخافون عند الموت ولا في البرزخ ولا يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما يتركون وراءهم بعد موتهم ولا في الدار الآخرة وبيّن تعالى أولياءه وعرّف بهم فقال:

(٦٣) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[١] أي آمنوا به وبرسوله ﷺ وبكل ما جاء به رسوله ﷺ عن ربه، وكانوا يتقون طوال حياتهم وسائر ساعاتهم سخط الله تعالى فلا يتركون واجبًا هم قادرون على القيام به، ولا يغشوْن محرمًا لم يُكرهوا عليه.

(٦٤) وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ في الحياة الدنيا وفي الآخرة[٢]: أي لهم بشرى ربهم في كتابه برضوانه ودخول الجنة ولهم البشرى بذلك عند الاحتضار تبشرهم الملائكة برضوان الله وجنته وفي الآخرة عند قيامهم من قبورهم تتلقاهم الملائكة بالبشرى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾[٣] وهو تأكيد لما بشرهم، إذ تلك البشرى كانت بكلمات الله وكلمات الله لا تتبدل فوعد الله إذًا لا يتخلف.

هداية الآيات:

١ ـ ولاية الله تعالى بطاعته وموافقته في محابه ومكارهه فمن آمن إيمانًا يرضاه الله، واتقى الله في أداء الفرائض واجتناب المناهي فقد صار ولي الله والله وليه.

٢ ـ البشرى هي ما يكرم الله به برؤيا صالحة يراها الولي أو تُرى له.

٣ ـ الأولياء هم أهل الإيمان والتقوى فالكافر والفاجر لا يكون وليًا أبدًا، إلا إذا آمن الكافر، وبَرَّ الفاجر بفعل الصالحات وترك المنهيات.

٤ ـ صدْق إخبار الله تعالى وعدالة أحكامه، وسر ولايته إذ هي تدور على موافقة الرب تعالى فيما يجب من الاعتقادات والأعمال والأقوال والذوات والصفات وفيما يكره من ذلك فمن وافق ربه فقد والاه ومن خالفه فقد عاداه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٥ ـ ٦٧]

(٦٥) ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾: أي لا يجعلك قولهم تحزن. ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾: العزة الغلبة والقهر.

(٦٦) ﴿شُرَكَاءَ﴾: أي شركاء بحق يملكون مع الله لعابديهم خيرًا أو يدفعون عنهم ضرًا. ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾: الظن أضعف الشك. ﴿يَخْرُصُونَ﴾: أي يحزرون ويكذبون.

(٦٧) ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾: أي تخلدوا فيه إلى الراحة والسكون عن الحركة. ﴿مُبْصِرًا﴾: أي مضيئًا ترى فيه الأشياء كلها. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: أي من جَعْلِهِ تعالى الليل سكنًا والنهار مبصرًا لآيات. ﴿يَسْمَعُونَ﴾: أي سماع إجابة وقبول.

معنى الآيات:

(٦٥) ما زال السياق في تقرير قضايا التوحيد الثلاث: التوحيد والنبوة والبعث، قال تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا يجعلك قول المشركين المفترين ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ وأنك شاعرٌ تحزن فإن قولهم هذا لا ينتج لهم إلا سوء العاقبة والهزيمة المحتمة، ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٤] فربك القوي القادر سيهزمهم وينصرك عليهم. إذًا فاصبر على ما يقولون ولا تأس ولا تحزن. إنه تعالى هو السميع لأقوال عباده العليم بأعمالهم وأحوالهم ولا يخفى عليه شيء من أمرهم.

(٦٦) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ خلقًا وملكًا وتصرفًا، كل شيء في قبضته وتحت سلطانه وقهره فكيف تبالي بهم يا رسولنا فتحزن لأقوالهم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

---

(١) الجملة مستأنفة بيانيًا أي: كأنما سائل قال: مَنْ هم أولياء الله؟ فأجيب: الذين آمنوا وكانوا يتقون.

(٢) لحديث: «**انقطع الوحي ولم يبق إلاّ المبشرات**» قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «**الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن أو تُرى له**».

(٣) كلمات الله هي: التي بها مواعيده ولذا فما يباشر الله تعالى به أولياءه هو كائن لا محالة إذ مواعيده لا تتبدل ووعوده لا تخلف.

(٤) أي: القوة الكاملة، والغلبة الشاملة، والقدرة التامة لله وحده، والعزيز هو الغالب الذي لا يُغلب، والقوي الذي لا يُحال بينه وبين مراده. و﴿جَمِيعًا﴾ منصوب على الحال، وعزّة المؤمنين هي بعزّة الله فلا منافاة إذًا.

شُرَكَآءَ﴾ أي آلهة حقًا بحيث تستحق العبادة لكونها تملك نفعًا أو ضرًا، موتًا أو حياة لا بل ما هم في عبادتها متبعين إلا الظن ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يتقولون ويكذبون.

(٦٧) وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى[1] جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي الإله الحق الذي يجب أن يدعى ويعبد الله الذي جعل لكم أيها الناس ليلًا مظلمًا لتسكنوا فيه فتستريحوا من عناء العمل في النهار. وجعل لكم النهار مبصرًا[2] أي مضيئًا لتتمكنوا من العمل فيه فتوفروا لأنفسكم ما تحتاجون إليه في حياتكم من غذاء وكساء. وليست تلك الآلهة من أصنام وأوثان بالتي تستحق الألوهية فتُدْعى وتُعبد. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[3] أي إن فيما ذكر تعالى من كماله وعزته وقدرته وتدبيره لأمور خلقه آيات علامات واضحة على أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره، ولكن يرى تلك الآيات من يسمع سماع قبول واستجابة لا من يسمع الصوت ولا يفكر فيه ولا يتدبر معانيه فإن مثله أعمى لا يبصر وأصم لا يسمع.

هداية الآيات:

١ ـ على المؤمن الداعي إلى الله تعالى أن لا يحزنه أقوال أهل الباطل وأكاذيبهم حتى لا ينقطع عن دعوته، وليعلم أن العزة لله جميعًا وسوف يعزه بها، ويذل أعداءه.

٢ ـ ما يُعبد من دون الله لم يقم عليه عابدوه أي دليل ولا يملكون له حجة وإنما هم مقلدون يتبعون الظنون والأوهام.

٣ ـ مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق والتدبير كافية في إثبات العبادة له ونفيها عما سواه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٨ ـ ٧٠]

(٦٨) ﴿سُبْحَانَهُ﴾: أي تنزه عن النقص وتعالى أن يكون له ولد. ﴿الْغَنِيُّ﴾: أي الغِنَى المطلق بحيث لا يفتقر إلى شيء.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾: أي ما عندكم من حجة ولا برهان. ﴿بِهَذَا﴾: أي الذي تقولونه وهو نسبة الولد إليه تعالى.

(٧٠) ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾: أي ما هم فيه اليوم هو متاع لا غير وسوف يموتون ويخسرون كل شيء. ﴿يَكْفُرُونَ﴾: أي بنسبة الولد إلى الله تعالى، وبعبادتهم غير الله سبحانه وتعالى.

معنى الآيات:

(٦٨) ما زال السياق في تحقيق التوحيد وتقريره بإبطال الشرك وشبهه فقال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ أي قال المشركون أن الملائكة بنات الله[4] وهو قول مؤسف محزن للرسول ﷺ كقولهم له: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، وقد نهي ﷺ عن الحزن من جراء أقوال المشركين الفاسدة الباطلة. ونزه الله تعالى نفسه عن هذا الكذب فقال سبحانه، وأقام الحجة على بطلان قول المشركين بأنه هو الغَنيُّ الغِنَى الذاتي الذي لا يفتقر معه إلى غيره فكيف إذًا يحتاج إلى ولد أو بنت فيستغني به وهو الغني الحميد، وبرهان آخر على غناه أن له ما في السموات وما في الأرض الجميع خلقه وملكه فهل يعقل أن يتخذ السيد المالك عبدًا من عبيده ولدًا له. وحجة أخرى هل لدى الزاعمين بأن للّه ولدًا حجة تثبت ذلك والجواب لا، لا. قال تعالى مكذبًا إياهم: ﴿إِنْ[5] عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي ما عندكم من حجة ولا برهان بهذا الذي تقولون

(١) في الآية استدلال على عزته تعالى وملكه لكل شيء وقدرته وتصرفه في كل شيء وهو ما أوجب له العبادة دون ما سواه.

(٢) يقال: أبصر النهار، إذا صار ضياء، وأظلم الليل إذا صار ذا ظلام.

(٣) الجملة مستأنفة، والآيات: الدلائل الدالة على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، والدلالة تكون مرئية ومسموعة ومعقولة. وعليه فالأعمى والأصم وغير العاقل لا يستفيدون منها فهذه علّة عدم استفادة المشركين من الآيات لفقدهم آلات العقل والسمع والبصر، إذ فسدت بالجهل والتقليد والعناد والمكابرة والجحود.

(٤) وقال اليهود: عزير ابن الله وقالت النصارى: عيسى ابن الله، والكل مفتر كذاب، ولا شك أن الشيطان هو الذي زيّن لهم هذا الباطل ليغويهم فيضلهم ويهلكهم.

(٥) إن نافية بمعنى: (ما) كما هي في التفسير أي: ما عندكم من حجة تثبت ما ادعيتموه وتُلزم به لقوتها كقوة ذي السلطان.

ثم وبخهم وقرعهم بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى[1] اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟

(٦٩) وأمر رسوله ﷺ أن يقول معلنًا عن خيبة الكاذبين وخسرانهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ[2]﴾ وإن قيل كيف لا يفلحون وهم يتمتعون بالأموال والأولاد والجاه والسلطة أحيانًا فالجواب في قوله تعالى: (٧٠) ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾[3] أي ذلك متاع في الدنيا، يتمتعون به إلى نهاية أعمارهم، ثم إلى الله تعالى مرجعهم جميعًا، ثم يذيقهم العذاب الشديد الذي ينسون معه كل ما تمتعوا به في الحياة الدنيا، وعلل تعالى ذلك العذاب الشديد الذي أذاقهم بكفرهم فقال: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[4] أي يجحدون كمال الله وغناه فنسبوا إليه الولد والشريك.

هداية الآيات:

١ - كفر من ينسب إلى الله تعالى أي نقص كالولد والشريك أو العجز مطلقًا.

٢ - كل دعوى لا يقيم لها صاحبها برهانًا قاطعًا وحجة واضحة فلا قيمة لها ولا يحفل بها.

٣ - أهل الكذب على الله كالدجالين والسحرة وأهل البدع والخرافات لا يفلحون ونهايتهم الخسران.

٤ - لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بما يرى عليه أهل الباطل والشر من المتع وسعة الرزق وصحة البدن فإن ذلك متاع الحياة الدنيا، ثم يؤول أمرهم إلى خسران دائم.

الجزءُ الحادِي عَشَر — سُورَةُ يُونُس

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)﴾

٢١٧

شرح الكلمات:

[الآية: ٧١ - ٧٣]

(٧١) ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾: أي اقرأ على المشركين نبأ نوح أي خبره العظيم الخطير.

﴿كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾: أي عظم عليكم مقامي بينكم أدعو إلى ربي.

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾: أي اعزموا عزمًا أكيدًا.

﴿غُمَّةً﴾: أي خفاء ولبسًا لا تهتدون منه إلى ما تريدون.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾: أي انفذوا أمركم.

﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾: أي ولا تمهلون رحمة بي أو شفقة علي.

(٧٢) ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾: أي أعرضتم عما أدعوكم إليه من التوحيد.

(٧٣) ﴿فِي الْفُلْكِ﴾: أي في السفينة.

﴿خَلَائِفَ﴾: أي يخلف الآخر الأول جيلًا بعد جيل.

معنى الآيات:

(٧١) ما زال السياق الكريم في طلب هداية المشركين بالرد على دعاويهم وبيان الحق لهم وفي هذه الآيات يأمر الله تعالى الرسول ﷺ أن يقرأ عليهم طرفًا من قصة نوح مع قومه المشركين الذين كانت حالهم كحال مشركي العرب سواء بسواء وفي قراءة هذا القصص فائدتان الأولى تسلية الرسول ﷺ وحمله على الصبر، والثانية تنبيه المشركين إلى

---

(١) الاستفهام للتوبيخ والتقريع بجهلهم وكذبهم إذ الولد يتطلب المجانسة والمشابهة بينه وبين ما ينسب إليه وأين ذلك؟ والله ليس كمثله شيء إذ هو خالق كل شيء.

(٢) الفلاح: الفوز، والفوز هو السلامة من المرهوب والظفر بالمحبوب المرغوب، والمفترون على الله الكذب لا ينجون من النار ولا يدخلون الجنة فهم إذًا خاسرون غير مفلحين.

(٣) هذه الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا لأنها جواب سؤال هو: كيف لا يفلحون وهم في عزّة وقدرة وسلطان؟ فيجاب السائل: بأن هذا متاع في الدنيا زائل لا قيمة له، بالمقابلة بالفلاح المنتفي عنهم وهو فلاح الآخرة.

(٤) الباء في ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ للتعليل الذي هو السببيّة أي: بسبب كفرهم، إذ الكفر خبث نفوسهم فاستوجبوا النار وعذابها.

خطإهم، وتحذيرهم من الاستمرار على الشرك والعصيان فيحل بهم من العذاب ما حل بغيرهم. قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ[(١)] عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي خبره العظيم الشأن وهو قوله لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى[(٢)]﴾ أي عظم وشق عليكم وجودي بينكم أدعوكم إلى الله، وتذكيري إياكم بآيات الله، فإني[(٣)] توكلت على الله فأجمعوا أمركم أي اعزموا عزمًا أكيدًا وادعوا أيضًا شركاءكم للاستعانة بهم، ثم أحذركم أن يكون أمركم عليكم غمة[(٤)]، أي خفيًا ملتبسًا عليكم فيجعلكم تترددون في إنفاذ ما عزمتم عليه، ثم اقضوا[(٥)] إليَّ ما تريدون من قتلي أو نفيي ولا تنظرون أي لا تؤخروني أي تأخير.

(٧٢) وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن دعوتي وتذكيري ولم تقبلوا ما أدعوكم إليه من عبادة الله تعالى وحده، فما سألتكم عليه من أجر أي ثواب، حتى تتولوا. إن أجري إلا على ربي الذي أرسلني وكلفني. وقد أمرني أن أكون من المسلمين له قلوبهم ووجوههم وكل أعمالهم فأنا كذلك كل عملي له فلا أطلب أجرًا من غيره.

(٧٣) قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي دعاهم واستمر في دعائهم إلى الله زمنًا غير قصير وكانت النهاية: أن كذبوه، ودعانا لنصرته فنجيناه ومن معه من المؤمنين في السفينة وجعلناهم خلائف[(٦)] لبعضهم بعضًا أي يخلف الآخر الأول، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا التي أرسلنا بها عبدنا نوحًا فانظر يا رسولنا كيف كان عاقبة المنذرين الذين لم يقبلوا النصح ولم يستجيبوا للحق إنها عاقبة وخيمة إذ كانت إغراقًا في طوفان ونارًا في جهنم وخسرانًا، قال تعالى في سورة نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝﴾.

هداية الآيات:

١ - تسلية الدعاة بمثل موقف نوح العظيم إذ قال لقومه: أجمعوا أمركم ونفذوا ما تريدون إني توكلت على الله.

٢ - ثمرة التوكل شجاعة واطمئنان نفس وصبر وتحمل مع مضاء عزيمة.

٣ - دعوة الله لا ينبغي أن يأخذ الداعي عليها أجرًا إلا للضرورة.

٤ - بيان سوء عاقبة المكذبين بعد إنذارهم وتحذيرهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٤ - ٧٨]

(٧٤) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي بالحجج الواضحات على صدق دعوتهم، وما يدعون إليه من توحيد الله تعالى.

﴿نَطْبَعُ﴾: الطبع على القلب عبارة عن تراكم الذنوب على القلب حتى لا يجد الإيمان إليه طريقًا.

﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: الذين تجاوزوا الحد في الظلم والاعتداء على حدود الشرع.

(٧٦) ﴿ٱلْحَقُّ﴾: الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام وهي تسع.

(٧٨) ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾: لتصرفنا وتحول وجوهنا عما وجدنا عليه آباءنا.

﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾: أي العلو والسيادة والملك على الناس.

معنى الآيات:

(٧٤) لما ذكر تعالى طرفًا من قصة نوح عليه السلام وأبرز فيها مظهر التوكل على الله تعالى من نوح

---

(١) اتل: فعل أمر حذفت منه الواو لبنائه على حذفها إذ ماضيه تلا ومضارعه يتلو، والأمر: اتل بمعنى اقرأ، والتلاوة: موالاة الكلمات والقراءة جمعها.

(٢) المقام: بفتح القاف، موضع القيام، والمُقام بالضمّ الإقامة، ومعنى كبُر: ثقل وعظم.

(٣) هذه الجملة ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ هي جواب الشرط الذي هو: فإن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله التي هي دلائل فضله ودلائل وحدانيته تعالى.

(٤) الغمّة والغمّ بمعنى واحد، ومعناه التغطية والستر منه: غم الهلال إذا استتر، قال الشاعر:

لعمرك ما أمري عليَّ بغمّة ... نهاري ولا ليلي عليَّ بسرمد

وأصل الغمّ: مشتق من الغمامة، وكل أمر مبهم ملتبس فهو غمّة.

(٥) أي: أنفذوا ما حكمتم به عليَّ من قتلي إن أردتم ذلك.

(٦) جمع خليفة وهو اسم لمن يخلف غيره.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

٢١٨

لِيُقتَدَى به، ومظهر نصرة الله تعالى لأوليائه وهزيمته أعدائه ذكر هنا سنة من سننه في خلقه وهي أنه بعث من بعد نوح رسلًا كثيرين[1] إلى أممهم فجاؤوهم بالبينات أي بالحجج والبراهين على صدقهم وصحة ما جاؤوا به ودعوا إليه من توحيد الله، فما كان أولئك الأقوام ليؤمنوا بما كذب به من سبقهم من أمة نوح. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ[2] عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ هذا بيان سنة الله تعالى في البشر وهي أن العبد إذا أذنب وواصل الذنب بدون توبة يصبح الذنب طبعًا من طباعه لا يمكنه أن يتخلى عنه، وما الذنب إلا اعتداء على حدود الشارع فمن اعتدى واعتدى وواصل الاعتداء حصل له الطبع وكان الختم على القلب فيصبح لا يقبل الإيمان ولا يعرف المعروف ولا ينكر المنكر.

﴿٧٥﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[3] أي من بعد الأمم الهالكة بعثنا رسولينا موسى وهارون ابني عمران إلى فرعون وملإه بآياتنا المتضمنة الدليل على صحة مطلب رسولينا وهو توحيد الله وإرسال بني إسرائيل معهما، ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أي فرعون وملؤه ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ حيث أفسدوا القلوب[4] والعقول وسفكوا الدماء وعذبوا الضعفاء.

﴿٧٦﴾ يقول تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝﴾ أي لما بهرتهم المعجزات وهي آيات موسى وأبطلت إفكهم قالوا إن هذا لسحر مبين تخلصًا من الهزيمة التي لحقتهم.

﴿٧٧﴾ فردّ موسى عليهم بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ هذا سحر[5] ثم بعد توبيخهم استدل على بطلان قولهم بكونه انتصر عليهم فأفلح بينهم وفاز عليهم فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ فلو كان ما جئت به سحرًا فكيف أفلحت في إبطال سحركم وهزيمة سحرتكم.

﴿٧٨﴾ فلما أفحمهم بالحجة قالوا مراوغين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي تصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وتكون لكما السيادة والملك في أرض مصر فسلكوا مسلك الاتهام السياسي. وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقين ولا متبعين.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله في البشر وهي أن التوغل في الشر والفساد والظلم يوجب الختم على القلوب فيحرم العبد الإيمان والهداية.

٢ - ذم الاستكبار وأنه سبب كثير من الإجرام.

---

(١) كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم.

(٢) ﴿نَطْبَعُ﴾ نختم، إذ الختم والطبع واحد، والطبع يكون بالخاتم.

(٣) أي: من بعد الرسول والأمم إذ لكل أمّة رسول.

(٤) أفسدوا القلوب بالشرك والكفر، والعقول بالسحر والأباطيل وسفكوا الدماء بقتل ذكران بني إسرائيل الصغار (المواليد).

(٥) مفعول ﴿أَتَقُولُونَ﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه وهو: إن هذا لسحر مبين وتقدير الكلام: أنهم لما قالوا في الآيات لسحر مبين رد عليهم موسى بقوله: أتقولون للحق لما جاءكم هذا، أسحر هذا؟ أي كيف يكون هذا الذي جئتكم به من الآيات سحرًا؟ والساحر لا يفلح وقد أفلحت فبطل أن يكون ما جئتكم به من الآيات سحرًا. للحق: اللام يسميها بعضهم لام المجاوزة فهي بمعنى عن، أي: تقولون عن الحق كذا. والظاهر أنها لام التعليل.

٣ ـ تقرير أن السحر صاحبه لا يفلح أبدًا ولا يفوز بمطلوب ولا ينجو من مرهوب.

٤ ـ الاتهامات الكاذبة من شأن أهل الباطل والظلم والفساد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٩ ـ ٨٢]

(٧٩) ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾: أي ذو سحر حقيقي له تأثير عليم بالفن.

(٨٠) ﴿أَلْقُوا﴾: أي ارموا في الميدان ما تريدون إلقاءه من ضروب السحر.

(٨١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾: أي يظهر بطلانه أمام النظارة من الناس.

(٨٢) ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾: أي يقرر الحق ويثبته. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: أي بأمره إذ يقول للشيء كن فيكون. ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أهل الإجرام على أنفسهم وعلى غيرهم وهم الظلمة المفسدون.

معنى الآيات:

(٧٩) ـ (٨٠) ما زال السياق في ذكر قصة موسى بعد قصة نوح عليهما السلام في الآيات السابقة لما غلب موسى فرعون وملأه بالحجة اتهم فرعون موسى وأخاه هارون بأنهما سياسيان يريدان الملك والسيادة على البلاد لا همَّ لهما إلا ذاك وكذب فرعون وهو من الكاذبين وهنا أمر رجال دولته أن يحضروا له علماء السحر[1] ليباري موسى في السحر فجمع سحرته فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ[2]﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون.

(٨١) ـ (٨٢) فنظر إليهم موسى وقال: ﴿مَا جِئْتُم[3] بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ[4] إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ[5] ۝﴾ وألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون.

هداية الآيات:

١ ـ للسحر طرق يتعلم بها وله علماء به وتعلمه حرام واستعماله حرام.

٢ ـ حد الساحر القتل لأنه إفساد في الأرض.

٣ ـ جواز المبارزة للعدو والمباراة له إظهارًا للحق وإبطالاً للباطل.

٤ ـ عاقبة الفساد وعمل أصحابه الخراب والدمار.

٥ ـ متى قاوم الحق الباطل انهزم الباطل وانتصر الحق بأمر الله تعالى ووعده الصادق.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٣ ـ ٨٧]

(٨٣) ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾: أي لم ينقد له ويتبعه. ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾: أي طائفة قليلة من أولاد بني إسرائيل. ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾: أي أشرافهم ورؤسائهم. ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: أن يضطهدهم ويعذبهم. ﴿لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: قاهر مُستبدّ.

(٨٤) ﴿مُّسْلِمِينَ﴾: مذعنين منقادين لأمره ونهيه.

(٨٥) ﴿فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي لا تفتنهم بنا بأن تنصرهم علينا فيروا أنهم خير منا فيزدادوا كفرًا.

(٨٧) ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾: اتخذا لقومكما بمصر بيوتًا تبوّؤون إليها وترجعون. ﴿قِبْلَةً﴾: أي مساجد تصلّون فيها.

معنى الآيات:

(٨٣) بعد ذلك الانتصار الباهر الذي تمّ لموسى على السحرة، والهزيمة المرة التي لحقت فرعون ولم يؤمن لموسى ويتابعه إلا ذرّية من بني إسرائيل، وعدد قليل من آل فرعون

---

(١) طلب فرعون بإتيانه بالسحرة إذ قال: ائتوني بكل ساحر عليم قال هذا لما شاهد العصا واليد البيضاء فاعتقد أنها سحر فأراد أن يقابله بسحر قومه.

(٢) أي: اطرحوا ما معكم من حبالكم وعصيّكم.

(٣) أي: ما أظهرتموه لنا من هذه الحبال والعصي، وقد تراءت وكأنها حيّات وثعابين هو السحر وعلّل لذلك بقوله: إنّ الله سيبطله وعلة أخرى وهو أن الله لا يصلح عمل المفسدين، وإظهار اسم الجلالة في التعليلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لإلقاء الروع وتربية المهابة في النفوس.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: مَن أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآية ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لم يضرّه كيد ساحر.

(٥) أراد بالمجرمين: فرعون وملأه، وفي الكلام تعريض بهم، وعدل عن وصفهم بالإجرام لأنه مأمور أن يقول قولاً ليّنًا فاستغنى بالتعريض بدل التصريح.

كامرأته ومؤمن آل فرعون والماشطة قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ[(١)] مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ أي مع خوف من فرعون أن يفتنهم وقوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ عائد إلى مؤمني آل فرعون أي مع خوف من ملإهم أي رؤسائهم وأشرافهم أن يفتنوهم أيضًا، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إنه قاهر متسلط مستبد ظالم، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ[(٢)]﴾ في الظلم فلذا خافوه لما آمنوا.

(٨٤) ولما ظهر الخوف على بني إسرائيل قال لهم موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ[(٣)]﴾ ففوضوا أمركم إليه إن كنتم حقًا مسلمين لله منقادين لأمره ونهيه.

(٨٥) فأجابوا قائلين: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

(٨٥) - (٨٦) وسألوا الله تعالى أن لا يفتن قوم فرعون بهم بأن ينصرهم عليهم فيزدادوا كفرًا وظلمًا، وضمن ذلك أن لا تسلط الظالمين علينا فيفتنونا في ديننا بصرفنا عنه بقوة التعذيب ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذا حسن توسل منهم إذ قالوا برحمتك فتوسلوا إلى الله برحمته ليستجيب دعاءهم، والمراد من القوم الكافرين هنا فرعون وملأه.

(٨٧) وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ أي هارون ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا[(٤)]﴾ أي من بني إسرائيل ﴿بِمِصْرَ﴾ أي بأرض مصر[(٥)] ﴿بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً[(٦)]﴾ أي متقابلة ومساجد[(٧)] تصلون فيها ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على الوجه الذي شرع لكم. وهذا بناء على أن بني إسرائيل بعد الانتصار على فرعون أخذوا ينحازون من مجتمع فرعون فأمروا أن يكونوا حيًا مستقلاً استعدادًا للخروج من أرض مصر فأمرهم الرب تبارك وتعالى أن يجعلوا بيوتهم قبلة أي متقابلة ليعرفوا من يدخل عليهم ومن يخرج منهم وليصلوا فيها كالمساجد حيث منعوا من المساجد إما بتخريبها وإما بمنعهم منها ظلمًا وعدوانًا، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وبشر يا رسولنا[(٨)] المؤمنين الصادقين في إيمانهم الكاملين فيه بحسن العاقبة بكرامة الدنيا وسعادة الآخرة بدخول دار السلام.

هداية الآيات:

١ - تسلية الرسول ﷺ حيث أراه كيف انتصر موسى بالمعجزات ومع ذلك لم يتابعه إلا القليل من قومه.

٢ - التنديد بالعلو في الأرض والإسراف في الشر والفساد وبأهلهما.

٣ - وجوب التوكل على الله تعالى لتحمل عبء الدعوة إلى الله تعالى والقيام بطاعته.

٤ - مشروعية الدعاء والتوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته.

٥ - اتخاذ المساجد في المنازل للصلاة فيها عند الخوف.

٦ - وجوب إقام الصلاة.

٧ - بشرى الله تعالى للمؤمنين والمقيمين للصلاة بحسن العاقبة في الدارين.

---

(١) المراد بالذرية أولاد بني إسرائيل الشبان الذين آمنوا عند مشاهدة المباراة وانتصار موسى فيها.

(٢) ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: أي: المجاوزين الحد في الكفر لأنه كان عبدًا فادعى الربوبية.

(٣) كرر جملة الشرط تأكيدًا، مبيّنًا أنّ كمال الإيمان يقتضي التوكل على الله تعالى.

(٤) أي: اتخذا، يقال: بوّأه الدار: أنزله إيّاها وأسكنه فيها. وفي الحديث: «**من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» أي: فلينزله ملازمًا له.

(٥) قيل: المراد بمصر: الإسكندرية.

(٦) في الآية دليل على جواز صلاة الخلائف المكتوبة في بيته، أمّا النافلة فهي في البيوت أفضل لقول الرسول ﷺ: «**فعليكم بالصلاة في بيوتكم فإنّ خير صلاة المرء في بيته إلاّ المكتوبة**».

(٧) في هذا جمع بين رأيين، الأول: أن المراد من كلمة قبلة: أنها مساجد والثاني: أنها متقابلة ليتم لهم بذلك حمايتهم من عدوهم بعد أن استقلوا عنه.

(٨) هو موسى عليه السلام، بدليل السياق الكريم.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) ۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَٰسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

٢١٩

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٨، ٨٩]

(٨٨) ﴿زِينَةً﴾: أي حليًا وحللًا ورياشًا ومتاعًا. أموالا: أي كثيرة من الذهب والفضة والأنعام والحرث.

﴿اطْمِسْ﴾: أي أزل أثرها من بينهم بإذهابها. ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: اربط عليها حتى لا يدخلها إيمان ليهلكوا وهم كافرون.

(٨٩) ﴿أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾: أي استجابها الله تعالى.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾: على طاعة الله بأداء رسالته والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه. ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي طريق الجهلة الذين لا يعرفون محاب الله ومساخطه ولا يعلمون شرائع الله التي أنزل لعباده.

معنى الآيتين:

(٨٨) ما زال السياق في قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل فبعد أن لجّ فرعون في العناد والمكابرة بعد هزيمته سأل موسى ربه قائلًا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ أي أعطيتهم ﴿زِينَةً﴾ أي ما يتزين به من الملابس والفرش والأثاث وأنواع الحلي والحلل وقوله: ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾[1] أي الذهب والفضة والأنعام والحرث ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي في هذه الحياة الدنيا، وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ﴾[2] عَن سَبِيلِكَ﴾ أي فيسبب ذلك لهم الضلال إذًا ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ﴾[3] عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي أذهب أثرها بمسحها وجعلها غير صالحة للانتفاع بها، ﴿وَاشْدُدْ﴾[4] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اطبع على قلوبهم واستوثق منها فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الموجع أشد الإيجاع.

(٨٩) قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾[5] على طاعتنا بالدعوة إلينا وأداء عبادتنا والنصح لعبادنا والعمل على إنقاذ عبادنا من ظلم الظالمين، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فتستعجلا وقوع العذاب فإن الذين لا يعلمون ما لله من حكم وتدابير وقضاء وقدر يستعجلون الله تعالى في وعده لهم فلا تكونوا مثلهم بل انتظروا وعدنا واصبروا حتى يأتي وعد الله. وما الله بمخلف وعده.

هداية الآيتين:

١ - مشروعية الدعاء بالهلاك على أهل الظلم.

٢ - كثرة المال وأنواع الزينة، والانغماس في ذلك والتلهي به يسبب الضلال لصاحبه.

٣ - الذين بلغوا حدًا من الشر والفساد فطبع على قلوبهم لا يموتون

---

(١) قيل: إنه كان لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزبرجد والزمرد، والياقوت.

(٢) في هذه اللاّم أقوال: أصحها: أنها لام العاقبة، والصيرورة. أي: يا رب إنك آتيت فرعون وقومه أموالاً ليؤول أمرهم بسبب تلك الأموال إلى ضلالهم.

(٣) أي: عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم. وفعلاً أصبحت حجارة لا ينتفع بها كان ذلك عقوبة منه تعالى لهم على كفرهم وعنادهم.

(٤) قد استشكل العلماء وجه دعاء موسى على فرعون وقومه بالهلاك إذ المفروض أن يدعو لهم بالهداية. وأجيب بأنه قد علم بإعلام الله تعالى له أنهم لا يؤمنون فلذا دعا عليهم، كما أعلم الله تعالى نوحًا بعد إيمان قومه فلذا دعا عليهم، إذ قال له ربّه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وهنا دعا عليهم قائلاً: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

(٥) كان موسى يدعو، وهارون يؤمن أي: يقول: آمين فاعتبر داعيًا مع أخيه. لأنّ قول: آمين معناه: اللهم استجب دعاءنا.

إلا على الكفر فيخسرون.

٤ - المؤمِّن داع فهو شريك في الدعاء[1] فلذا أهل المسجد يؤمِّنون على دعاء الإمام في الخطبة فتحصل الإجابة للجميع، ومن هنا يخطىء الذين يطوفون أو يزورون إذ يدعون بدعاء المطوف ولا يؤمِّنون.

٥ - حرمة اتباع طرق أهل الضلال، وتقليد الجهال والسير وراءهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٠ - ٩٢]

(٩٠) ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي قطعنا بهم البحر حتى تجاوزوه. ﴿ٱلْبَحْرَ﴾: بحر القلزم. ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾[2]: أي بغيًا على موسى وهارون واعتداء عليهما.

(٩١) ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾: أي أفي هذا الوقت تقر بالوحدانية وتعترف له بالذلة؟!.

(٩٢) ﴿بِبَدَنِكَ﴾: أي بجسدك لا روح فيه. ﴿ءَايَةً﴾: علامة على أنك عبد وليس برب فيعتبروا بذلك.

معنى الآيات:

(٩٠) ما زال السياق في قصة موسى وهارون مع فرعون وبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا[3] بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ وذلك بداية استجابة الله تعالى دعوة موسى وهارون، ومعنى: ﴿وَجَٰوَزْنَا﴾ أي قطعنا بهم البحر حتى تجاوزوه، وذلك بأن أمر موسى أن يضرب بعصاه البحر فضرب فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم ويَبِسَت الأرض ودخل موسى مع بني إسرائيل يتقدمهم جبريل عليه السلام على فرس حتى تجاوزوا البحر إلى الشاطىء، وجاء فرعون على فرسه ومعه ألوف[4] الجنود فتبعوا[5] موسى وبني إسرائيل فدخلوا البحر فلما توسطوه أطبق[6] الله تعالى عليهم البحر فغرقوا أجمعين إلا ما كان من فرعون فإنه لما أدركه الغرق أي لحقه ووصل الماء إلى عنقه أعلن عن توبته فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولكبريائه لم يقل لا إله إلا الله ولو قالها لتاب الله عليه فأنجاه بل قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهو يعرف أنه الله. وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ مبالغة في طلب النجاة من الغرق بالتوبة حيث أعلن أنه من المسلمين أي المستسلمين المنقادين لأمره.

(٩١) فردّ الله تعالى بقوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أي وقت التوبة[7] والإسلام بعد الإيمان، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ وتمردت على الله وشرعه وكفرت به وبرسوله ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ للبلاد والعباد بالظلم والشر والفساد.

(٩٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي نجعلك على نجوة من الأرض أي مرتفع منها ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أي بجسمك دون روحك، وبذلك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أو بعدك من الناس ﴿ءَايَةً﴾ أي علامة على أنك عبد مربوب وليس كما زعمت أنك رب وإله معبود، وتكون عبرة لغيرك فلا يطغى طغيانك ولا يكفر كفرانك فيهلك كما هلكت، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ إخبار منه بواقع الناس ومن أولئك الغافلين عن آيات الله وهي تتلى عليهم أهل مكة من كفار قريش وما سيق هذا القصص إلا لأجل هدايتهم. لو كانوا يهتدون.

---

(١) روى الترمذي الحكيم عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله قد أعطى أمتي ثلاثًا لم تعط أحدًا قبلهم: السلام، وهي تحية أهل الجنة، وصفوف الملائكة وآمين إلاّ ما كان من موسى وهارون**» وعلى هذا فموسى كان يدعو وهارون يؤمن فاعتبر داعيًا.

(٢) ﴿بَغْيًا﴾ منصوب على الحال. و﴿وَعَدْوًا﴾ معطوف عليه، وكان اتباع فرعون بني إسرائيل بغيًا وعدوًا لأنه ليس له شائبة حق في منعهم من الخروج من بلاده إلى بلادهم.

(٣) جاوزنا وجوّزنا: بمعنى واحد.

(٤) قال القرطبي: كان بنو إسرائيل ستمائة وعشرين ألفًا، وكان جيش فرعون ألفي ألف وستمائة ألف. أي: مليونين ونصفًا وزيادة.

(٥) تبع وأتبع بمعنى واحد إذ لحقه وأدركه، وأمّا اتبع بالتشديد فإن معناه: سار خلفه.

(٦) روى الترمذي وحسّنه أن النبي ﷺ قال: «**لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من وحل البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة**» وحل البحر: الطين الأسود الذي يكون في أسفله، ومعنى تدركه الرحمة: أي يقول: لا إله إلا الله.

(٧) لأنّ التوبة تقبل من العبد ما لم يرَ علامات الموت بمشاهدة الملائكة، وفي الحديث الصحيح: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر**».

هداية الآيات:

١ - لا تقبل التوبة عند معاينة العذاب وفي الحديث «**تقبل توبة العبد ما لم يغرغر**».

٢ - أكمل الأديان وأفضلها الإسلام ولهذا أهل اليقين يسألون الله تعالى أن يتوفاهم مسلمين ولما أيقن فرعون بالهلاك زعم أنه من المسلمين.

٣ - فضل لا إله إلا الله فقد ورد أن جبريل كان يحول بين فرعون وبين أن يقول: لا إله إلا الله فينجو فلم يقلها فغرق وكان من الهالكين.

٤ - تقرير حقيقة وهي أن أكثر الناس في هذه الحياة غافلون عما يراد بهم ولهم ولم ينتبهوا حتى يهلكوا.

شرح الكلمات: [الآية: ٩٣]

(٩٣) ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: أي أنزلناهم منزلاً صالحًا طيبًا مرضيًا. ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: أي من أنواع الأرزاق الطيبة الحلال. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: وهو معرفتهم أن محمدًا ﷺ هو النبي المنتظر وأنه المنجي. ﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾: يحكم بينهم. ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: أي في الذي اختلفوا من الحق فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار.

معنى الآية الكريمة:

(٩٣) هذه خاتمة الحديث عن موسى وبني إسرائيل بعد أن نجاهم الله من عدوهم بإهلاكه في اليم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي أنزلناهم مبوأ صالحًا طيبًا وهو بلاد فلسطين من أرض الشام المباركة[١]، وذلك بعد نجاتهم من التيه ودخولهم فلسطين بصحبة نبي الله يوشع بن نون عليه السلام، وقوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ إذ أرض الشام أرض العسل والسمن والحبوب والثمار واللحم والفحم وذكر هذا إظهار لنعم الله تعالى ليشكروها. وقوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ يريد أن بني إسرائيل الذين أكرمهم ذلك الإكرام العظيم كانوا قبل مبعث النبي ﷺ متفقين على دين واحد منتظرين النبي المنتظر المبشر به في التوراة الذي سينقذ بني إسرائيل مما حل بهم من العذاب والاضطهاد على أيدي أعدائهم الروم، فلما جاءهم وهو العلم وهو القرآن والمنزل عليه محمد ﷺ اختلفوا فمنهم من آمن به[٢]، ومنهم من كفر. وقوله تعالى في خطاب النبي ﷺ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى[٣] بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الإيمان لك واتباعك واتباع ما جئت به من الهدى ودين الحق، فيدخل المؤمنين الجنة ويدخل الكفار النار.

هداية الآية الكريمة:

١ - بيان إكرام الله تعالى لبني إسرائيل.

٢ - الرزق الطيب هو ما كان حلالاً لا ما كان حرامًا.

٣ - إذا أراد الله هلاك أمة اختلفت بسبب العلم الذي هو في الأصل سبب الوحدة والوئام.

٤ - حرمة الاختلاف في الدين إذا كان يؤدي إلى[٤] الانقسام والتعادي والتحارب.

٥ - يوم القيامة هو يوم الفصل الذي يقضي الله تعالى فيه بين المختلفين بحكمه العادل.

شرح الكلمات:
[الآية: ٩٤ - ٩٧]

(٩٤) ﴿شَكٍّ﴾: ما قابل التصديق فالشاك غير المصدق. ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي في أن بني إسرائيل لم يختلفوا إلا من[٥] بعد ما جاءهم العلم. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي التوراة والإنجيل. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

(١) وروي أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: في المبوأ الصدق: هو بنو قريظة وبنو النضير، وأهل عصر النبي ﷺ بقرينة: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ الذي هو القرآن يحمله محمد ﷺ وقرينة ما في التفسير هي أنّ الحديث كان في إنجاء بني إسرائيل وإهلاك فرعون وهو يناسبه أن يكون المبوأ: أرض فلسطين والشام.

(٢) كعبدالله بن سلام وأمثاله.

(٣) يقضي: معناه يحكم، فيحكم لأهل الإيمان والاستقامة بدخول الجنة ويحكم لأهل الكفر والضلال بالنار.

(٤) مثال الاختلاف الذي لا يؤدي إلى الانقسام والتعادي والتحارب: الخلاف الفقهي بين الأئمة الأربعة، ومثال الخلاف المفضي إلى التعادي والتحارب الخلاف بين أهل السنة والفرق الضالة كالخوارج والروافض وأمثالهما.

(٥) هذا وجه من جملة أوجه فسّرت بها الآية.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: أي لا تكونن من الشاكين.

(٩٦) ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾: أي وجبت لهم النار بحكم الله بذلك في اللوح المحفوظ.

(٩٧) ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾: أي يستمرون على تكذيبهم حتى يروا العذاب فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان[(١)].

معنى الآيات:

(٩٤) يقرر تعالى نبوة رسوله ﷺ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ[(٢)] ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ أحبار اليهود ورهبان النصارى فإنهم يعرفون نعوتك وصفاتك في التوراة والإنجيل وإنك النبي الخاتم والمنقذ وأن من آمن بك نجا ومن كفر هلك وهذا من باب الفرض وليكون تهييجًا للغير ليؤمن وإلا فهو ﷺ قد قال: «**لا أشك ولا أسأل**» وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، يقسم تعالى لرسوله ﷺ بأنه قد جاءه الحق من ربه وهو الحديث الثابت بالوحي الحق وينهاه أن يكون من الممترين أي الشاكين في صحة الإسلام، وأنه الدين الحق الذي يأبى الله إلا أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

(٩٥) وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي وينهاه أيضًا أن يكون من الذين كذبوا بوحي الله وشرعه ورسوله ﷺ المعبر عنها بالآيات لأنها حاملة لها داعية إليها، فتكون من الخاسرين يوم القيامة. وهذا كله من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة» وإلا فمن غير الجائز أن يشك الرسول ﷺ أو يكذب بما أُنزل عليه من الآيات الحاملة من الشرائع والأحكام.

(٩٦) ـ (٩٧) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ هو كما أخبر عز وجل فالذين قضى[(٣)] الله بعذابهم يوم القيامة فكتب ذلك في كتاب المقادير عنده هؤلاء لا يؤمنون أبدًا مهما بذل في سبيل إيمانهم من جهد في تبيين الحق وإقامة الأدلة وإظهار الحجج عليهم وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ من جراء ما يألم له ويحزن من إعراض كفار قريش وعدم استجابتهم. وقوله: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ تأكيد للحكم السابق وهو أن الذي حكم الله بدخولهم النار لا يؤمنون ولا يموتون إلا كافرين لينجز الله ما وعد ويمضي ما قضى وحكم. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي يستمرون على

---

(١) لا خلاف في أن الإيمان كالتوبة لا يقبلان عند معاينة الموت ففي سورة النساء قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. وقال ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**».

(٢) لا حاجة إلى طلب حلول بعيدة لحلّ ما في ظاهر الآية من إشكال، إذ لهذه الآية نظير وهو قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ معنى الآية: أنّ الله تعالى يوجه الخطاب إلى رسوله ﷺ، وأحبّ الخلق إليه ليكون غيره من باب أولى ألف مرة ومرّة وإلاّ فالرسول ﷺ لا يشك ولا يسأل وكيف يشك ويسأل وهو يتلقى الوحي من ربّه؟ وقد قال وقت ما نزلت الآية: «**لا أشك ولا أسأل**»، وتوجيهنا للآية في التفسير في غاية الوضوح، والحمد لله.

(٣) إن قيل: كيف يعذبهم لمجرد أن كتب ذلك عليهم؟ قلنا في الجواب: إنه ما كتب شقوة نفس أو سعادة أخرى حتى علم ما ستفعله باختيارها من كفر أو إيمان أو خير أو شر.

كفرهم بك وبما جئت به حتى يشاهدوا العذاب الأليم وحينئذ يؤمنون كما آمن فرعون عندما أدركه الغرق ولكن لم ينفعه إيمانه فكذلك هؤلاء المشركون من قومك الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم وعندئذ لا ينفعهم إيمانهم.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير نبوة الرسول ﷺ.

٢ ـ سؤال من لا يعلم من يعلم.

٣ ـ التكذيب بآيات الله كفر وصاحبه من الخاسرين.

٤ ـ الشك والافتراء في أصول الدين وفروعه كفر.

٥ ـ تقرير عقيدة القضاء والقدر، وإن الشقي من شقي في كتاب المقادير[1] والسعيد من سعد فيه.

٦ ـ عدم قبول توبة من عاين العذاب في الدنيا بأن رأى ملك الموت وفي الآخرة بعد أن يبعث ويشاهد أهوال القيامة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٨ ـ ١٠٠]

(٩٨) ﴿فَلَوْلَا﴾: أداة تحضيض هنا بمعنى هلا وفيها معنى التوبيخ والنفي. ﴿قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾: أي أهل قرية آمنوا. ﴿يُونُسَ﴾: هو يونس بن مَتَّى نبي الله ورسوله[2]. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي إلى وقت انقضاء آجالهم.

(٩٩) ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾: أي إنك لا تستطيع ذلك.

(١٠٠) ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أي بإرادته وقضائه. ﴿ٱلرِّجْسَ﴾: أي العذاب.

معنى الآيات:

(٩٨) بعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة أن الخسران لازم لمن كذب بآيات الله، وأن الذين وجب لهم العذاب لإحاطة ذنوبهم بهم لا يؤمنون لفقدهم الاستعداد للإيمان ذكر هنا ما يحض به أهل مكة على الإيمان وعدم الإصرار على الكفر والتكذيب فقال: ﴿فَلَوْلَا[3] كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي فهلا أهل قرية آمنوا فانتفعوا بإيمانهم فنجوا من العذاب اللازم لمن لم يؤمن أي لِمَ لا يؤمنون وما المانع من إيمانهم وهذا توبيخ لهم. وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ[4] يُونُسَ[5] لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلم نهلكهم بعذاب استئصال وإبادة شاملة لأنهم لما رأوا أمارات العذاب بادروا إلى التوبة قبل نزوله بهم فكشف الله تعالى عنهم العذاب، ومتعهم بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم فما لأهل أم القرى لا يتوبون كما تاب أهل نِيْنَوى من أرض الموصل وهم قوم يونس عليه السلام.

(٩٩) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ يحمل دلالتين الأولى: أن عرض الله تعالى الإيمان على أهل مكة وحضهم عليه وتوبيخهم على تركه لا ينبغي أن يفهم منه أن الله تعالى عاجز عن جعلهم يؤمنون بل لو شاء إيمانهم لآمنوا كما لو شاء إيمان أهل الأرض جميعًا لآمنوا، والثانية: تسلية الرسول ﷺ والتخفيف عنه من

---

(١) طالع النهر، فقد أوردنا سؤالاً عن هذه المسألة وأجبنا عنه تحت رقم (٣) بما يكفي ويغني بإذن الله تعالى.

(٢) أحد أنبياء بني إسرائيل.

(٣) لولا: حرف، الأصل فيها أنها للتحضيض، وهو طلب الفعل بحث، ولكن إذا دخلت على ماضٍ لم تصبح للتحضيض قطعًا بل للتغليظ والتنديم والتوبيخ، وهي هنا لتغليظ أهل مكة وتوبيخهم وتنديمهم على إصرارهم على الكفر وعدم توبتهم كما تاب قوم يونس حتى ينجوا من العذاب كما نجوا.

(٤) كان هؤلاء القوم خليطًا من الأشوريين واليهود الذين كانوا في أسر ملوك بابل بعد بختنصر، وكانت بعثة يونس عليه السلام إليهم في بداية القرن الثامن قبل المسيح عليه السلام.

(٥) إن قوم يونس كانوا بقرية تسمّى نينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، أقام في قومه يدعوهم إلى التوحيد وترك الشرك تسع سنين فيئس من إيمانهم فتوعدهم بالعذاب وخرج من بين أظهرهم وتركهم فلمّا رأوا ذلك خافوا نزول العذاب بهم فجأروا إلى الله تعالى بالاستغفار والدعاء والضراعة يا حي حين لا حي يا حي محيي الموتى يا حي لا إله إلا أنت ارفع عنا العذاب وقد ظهرت أماراته، فكشف الله عنهم العذاب كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

ألم وحزن وعدم إيمان قومه وهو يدعوهم بجد وحرص ليل نهار فأعلمه ربه أنه لو شاء إيمان كل من في الأرض لآمنوا، ولكنه التكليف المترتب عليه الجزاء فيعرض الإيمان على الناس عرضًا لا إجبار معه فمن آمن نجا، ومن لم يؤمن هلك ويدل على هذا قوله له: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ[1] ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن هذا ليس لك، ولا كلفت به.

(١٠٠) وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تقرير وتأكيد لما تضمنه الكلام السابق من أن الإيمان لا يتم لأحد إلا بإرادة الله وقضائه، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ[2] عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي إلا أنه تعالى يدعو الناس إلى الإيمان مبينًا لهم ثمراته الطيبة ويحذرهم من التكذيب مبينًا لهم آثاره السيئة فمن آمن نجاه وأسعده ومن لم يؤمن جعل الرجس الذي هو العذاب عليه محيطًا به جزاء له لأنه لا يعقل إذ لو عقل لما كذب ربه وكفر به وعصاه وتمرد عليه وهو خالقه ومالك أمره.

هداية الآيات:

١ - من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده دعوته إياهم إلى الإيمان به وحضهم عليه.

٢ - قبول التوبة قبل معاينة العذاب، ورؤية العلامات لا تمنع من التوبة.

٣ - إرادة الله الكونية التي يكون بها الأشياء لا تتخلف أبدًا، وإرادته الشرعية التكليفية جائزة التخلف.

٤ - لا إيمان إلا بإذن الله وقضائه فلذا لا ينبغي للداعي أن يحزن على عدم إيمان الناس إذا دعاهم ولم يؤمنون لأن الله تعالى كتب عذابهم أزلاً وقضى به.

شرح الكلمات:
[الآية: ١٠١ - ١٠٣]

(١٠١) ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي من عجائب المخلوقات، وباهر الآيات. ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾: أي ما تغني أيَّ إغناء إذا كان القوم لا يؤمنون.

(١٠٢) ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾: أي ما ينتظرون. ﴿خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي مضوا من قبلهم من الأمم السابقة. ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾: أي العذاب.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي من العذاب المنتظر. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي كذلك الإنجاء ننج المؤمنين.

معنى الآيات:

(١٠١) ما زال السياق في دعوة قريش إلى الإيمان والتوحيد والطاعة للّه ولرسوله ﷺ فقد أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى[3] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من سائر المخلوقات وما فيها من عجائب الصنعة، ومظاهر الحكمة والرحمة والقدرة فإنها تدعو إلى الإيمان بالله ربًا وإلهًا لا إله غيره ولا رب سواه، وتفند دعوى ألوهية الأصنام والأحجار. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ أي الرسل في هداية قوم قضى الله تعالى أزلاً أنهم لا يؤمنون حتى ينتهوا إلى ما قدر لهم وما حكم به عليهم من عذاب الدنيا والآخرة ولكن لما كان علم ذلك إلى الله تعالى فعلى النذر أن تدعو وتبلغ جهدها والأمر للّه من قبل ومن بعد.

(١٠٢) وقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ[4] ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي إنهم ما ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلفوا من قبلهم من قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم دعتهم رسلهم وبلغتهم دعوة ربهم إليهم إلى الإيمان والتوحيد والطاعة فأعرضوا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب.

(١٠٣) ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾[5] أي ما

---

(١) الاستفهام: إنكاري ينكر تعالى على رسوله ﷺ شدّة حرصه على إيمان قومه، حتى لكأنه يريد إكراههم على الإيمان به وبما جاء به من التوحيد.

(٢) الرجس: بضم الراء وكسرها: العذاب.

(٣) الفاء للتفريع فالكلام متفرّع على جملة: ما تغني الآيات والنذر. والاستفهام إنكاري تهكمي، وفيه معنى النفي أيضًا، والنكات لا تتزاحم.

(٤) المراد من الأيام: العذاب الذي يقع فيها، ويقال فيها: الوقائع وهو نحو قولهم: أيام العرب، فلان عالم بأيام العرب أي: ما جرى فيها من أحداث ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالعذاب الذي وقع فيها.

(٥) الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا لأنها واقعة موقع جواب سؤال تقديره: نحن أولاء منتظرون وأنت ماذا تفعل؟

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

ترتيبها ١١ — سُورَةُ هُودٍ — آياتها ١٢٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

٢٢١

كتب عليكم من العذاب إن لم تتوبوا إليه وتسلموا ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ فإن كان العذاب فإن سنة الله فيه أن يهلك الظالمين المشركين المكذبين وينجي رسله والمؤمنين وهو معنى قوله تعالى[1] في الآية الأخيرة (١٠٣): ﴿ثُمَّ نُنَجِّى[2] رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي الإنجاء ﴿حَقًّا عَلَيْنَا[3] نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

هداية الآيات:

١ ـ لا تنفع الموعظة مهما بولغ فيها عبدًا كُتب أزلاً أنه من أهل النار.

٢ ـ ما ينتظر الظلمة في كل زمان ومكان إلا ما حل بمن ظلم من قبلهم من الخزي والعذاب.

٣ ـ وعد الله تعالى ثابت لأوليائه بإنجائهم من الهلاك عند إهلاكه الظلمة المشركين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٤ ـ ١٠٧]

﴿١٠٤﴾ ﴿مِّن دِينِى﴾: أي الإسلام في أنه حق.

﴿يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾: أي يقبض أرواحكم فيميتكم.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: أي أمرني ربي أن أقم وجهي للدين الإسلامي حنيفًا أي مائلاً عن كل الأديان إليه دون غيره.

﴿١٠٦﴾ ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾: أي آلهة لا تنفع ولا تضر وهي أصنام المشركين وأوثانهم. ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي إنك إذا دعوتها من المشركين الظالمين لأنفسهم.

﴿١٠٧﴾ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾: أي لا مزيل للضر ومبعده عمن أصابه إلا هو عز وجل. ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾: أي بالفضل والرحمة. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أي لذنوب عباده التائبين الرحيم بعباده المؤمنين.

معنى الآيات:

﴿١٠٤﴾ بعد أن بيّن تعالى طريق الهدى وطريق الضلال وأنذر وحذر وواعد وأوعد في الآيات السابقة بما لا مزيد عليه أمر رسوله ﷺ هنا أن يواجه المشركين من أهل مكة وغيرهم بالتقرير التالي فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي مشركي مكة والعرب من حولهم ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ﴾ وريب[4] في صحة ديني الإسلام الذي أنا عليه وأدعو إليه، ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فمجرد شككم في صحة ديني لا يجعلني أعبد أوثانًا وأصنامًا لا تنفع ولا تضر، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ الذي ينفع ويضر، يحيي ويميت، الله الذي يتوفاكم أي يميتكم بقبض أرواحكم فهو الذي يجب أن يُعبد ويُخاف ويُرهب ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أمرني ربي أن أؤمن به فأكون من المؤمنين فآمنت وأنا من المؤمنين.

﴿١٠٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي وأوحى إليَّ ربي آمرًا إياي بأن أقيم وجهي لدينه[5]

---

(١) ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ جملة معترضة لأن المصدر يدل على الفعل، والتقدير أي: حق ذلك علينا حقًا أي: أحققناه حقًا علينا.

(٢) ﴿نُنَجِّى﴾ قرىء بالتخفيف، والتشديد، والمعنى واحد، وفي المصحف ﴿نُنجِ﴾ بدون ياء لالتقاء الساكنين.

(٣) إن انتظار العذاب منذر بنزوله قريبًا بديارهم والرسول ﷺ معهم فمن هنا عطف جملة ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ فأعلمهم بنجاة الرسل فكانت بشرى للرسول ﷺ والمؤمنين.

(٤) أي: إن كنتم في شك من صحة ديني فأنا غير شاكٍ في صحته وبطلان دينكم فلذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله.

(٥) الأمر بإقامة الوجه لله كناية عن توجه النفس والإقبال بها على الله تعالى فلا تلتفت راغبة ولا راهبة إلى غير الله تعالى، وهذا كإسلام الوجه لله تعالى في آية: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ولازمه ترك كل دين إلى دين الله عزّ وجل.

الحق فلا ألتفت إلى غيره من الأديان الباطلة، ونهاني مشددًا على أن أكون من المشركين الذين يعبدون معه آلهة أخرى بعد هذا الإعلان العظيم والمفاصلة الكاملة والتعريض الواضح بما عليه أهل مكة من الضلال والخطأ الفاحش، واجه الله تعالى رسوله ﷺ بالخطاب وهو من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة» فنهاه بصريح القول أن يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره وهو كل المعبودات ما سوى الله عز وجل فقال:

(١٠٦) ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ أي لا يجلب لك نفعًا ولا يدفع عنك ضرًا، ولا يضرك بمنع خير عنك، ولا بإنزال شر بك فإن فعلت بأن دعوت غير الله فإنك إذًا من الظالمين، ولما كان دعاء النبي ﷺ غير الله ممتنعًا فالكلام إذًا تعريض بالمشركين وتحذير للمؤمنين.

(١٠٧) وقوله تعالى في خطاب رسوله ﷺ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾[1] عنك ﴿إِلَّا هُوَ﴾ عز وجل، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ من الخيور عافية وصحة رخاء ونصر ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ أي ليس هناك من يرده عنك بحال من الأحوال، وقوله: ﴿يُصِيبُ﴾[2] أي بالفضل والخير والنعمة ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذ هو الفاعل المختار، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بيان لصفات الجلال والكمال فيه فإنه تعالى يغفر ذنوب التائبين إليه مهما بلغت في العظم، ويرحم عباده المؤمنين مهما كثروا في العدد، وبهذا استوجب العبادة بالمحبة والتعظيم والطاعة والتسليم.

هداية الآيات:

١ ـ على المؤمن أن لا يترك الحق مهما شك وشكك فيه الناس.

٢ ـ تحريم الشرك ووجوب تركه وترك أهله.

٣ ـ دعاء غير الله مهما كان المدعو شرك محرم فلا يحل أبدًا، وإن سموه توسلاً.

٤ ـ لا يؤمن عبد حتى يوقن أن ما أراده الله له من خير أو شر لا يستطيع أحد دفعه ولا تحويله بحال من الأحوال، وهو معنى حديث[3]: **«ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»**.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٨، ١٠٩]

(١٠٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: أي يا أهل مكة. ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾: أي الرسول ﷺ يتلو القرآن ويبين الدين الحق. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾: أي آمن بالله ورسوله ﷺ وعبد الله تعالى موحدًا له. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾: أي أبى إلا الإصرار على الشرك والتكذيب والعصيان. ﴿عَلَيْهَا﴾: أي وبال الضلال على نفس الضال كما أن ثواب الهداية لنفس المهتدي. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾: أي بمجبر لكم على الهداية وإنما أنا مبلغ ونذير.

(١٠٩) ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾: أي في المشركين بأمره. ﴿خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾: أي رحمة وعدلاً وإنفاذًا لما يحكم به لعظيم قدرته.

معنى الآيتين:

(١٠٨) هذا الإعلان الأخير في هذه السورة يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن ينادي المشركين بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهو نداء عام يشمل البشرية كلها وإن أريد به ابتداء أهل مكة ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن يتلوه رسول الله ﷺ وفيه بيان الدين الحق الذي لا كمال للإنسان له إلا بالإيمان به والأخذ الصادق بما تضمنه من هدى. وبعد فمن اهتدى بالإيمان والاتباع فإنما ثواب هدايته لنفسه إذ هي التي تزكو وتَطْهُر وتتأهل لسعادة الدارين، ومن ضلّ بالإصرار على الشرك والكفر والتكذيب فإنما ضلاله أي جزاء ضلاله عائد على نفسه إذ هي التي تَتَدَسَّى وتخبُث وتتأهل لمقت الله وغضبه وأليم عقابه. وما على الرسول المبلغ من ذلك شيء، إذ لم يوكل إليه ربه هداية الناس بل أمره أن يصرح لهم بأنه ليس عليهم بوكيل

---

(١) تنكير ضرّ، كتنكير خير يُراد به النوعية الصالحة للقلة والكثرة.

(٢) يقال: أصابه بكذا: إذا أورده عليه ومسّه به.

(٣) هذا الكلام مستأنف يحمل إعلانًا عظيمًا لأهل مكة أوّلاً، وللناس كافّة ثانيًا مفاده: مجيئهم الرسول ﷺ بالحق من ربهم وهو الدين الإسلامي فمن دخل فيه اهتدى إلى طريق سعادته ومن أعرض عنه ضل طريق نجاته وسعادته.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾[(١)].

(١٠٩) وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾[(٢)] أمر للنبي ﷺ بالتزام الحق باتباع ما يوحى إليه من الأوامر والنواهي وعدم التفريط في شيء من ذلك، ولازم هذا وهو عدم اتباع ما لا يوحي إليه به ربه وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ[(٣)] وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أمر للنبي ﷺ بالصبر على اتباع الوحي والثبات على الدعوة وتحمل الأذى من المشركين إلى غاية أن يحكم الله فيهم وقد حكم فأمره بقتالهم فقتلهم في بدر وواصل قتالهم حتى دانوا للّه بالإسلام وللّه الحمد والمنّة، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ[(٤)] ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ ثناء على الله تعالى بأنه خير من يحكم وأعدل من يقضي لكمال علمه وحكمته، وعظيم قدرته، وواسع رحمته.

هداية الآيتين:

١ ـ تقرير أن القرآن والرسول ﷺ حق والإسلام حق.

٢ ـ تقرير مبدأ أن المرء يشقى ويسعد بكسبه لا بكسب غيره[(٥)].

٣ ـ وجوب اتباع الوحي الإلهي الذي تضمنه القرآن والسنة الصحيحة.

٤ ـ فضيلة الصبر وانتظار الفرج من الله تعالى.

❁ ❁ ❁

سورة هود[(٦)]

مكية

وآياتها مائة وثلاث وعشرون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿الٓرۚ﴾: هذا أحد الحروف المقطعة: يكتب الر ويقرأ ألف، لام، را. ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾: أي نظمت نظمًا متقنًا ورصفت ترصيفًا لا خلل فيه. ﴿فُصِّلَتۡ﴾: أي ببيان الأحكام، والقصص والمواعظ، وأنواع الهدايات. ﴿مِن لَّدُنۡ﴾: أي من عند حكيم خبير وهو الله جلّ جلاله.

(٣) ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾: أي بطيب العيش وسعة الرزق. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: أي موت الإنسان بأجله الذي كتب له. ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ﴾: أي ويعط كل ذي عمل صالح فاضل جزاءه الفاضل. ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾: هو عذاب يوم القيامة.

(٥) ﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾: أي يطأطئون رؤوسهم فوق صدورهم ليستتروا عن الله في زعمهم. ﴿يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾: يغطون رؤوسهم ووجوههم حتى لا يراهم الله في نظرهم الباطل.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ هذا الحرف مما هو متشابه ويحسن تفويض معناه إلى الله فيقال: الله أعلم بمراده بذلك. وإن أفاد فائدتين الأولى: أن القرآن الكريم الذي تحداهم الله بالإتيان بمثله أو بسورة من مثله قد تألف من مثل هذه الحروف: الم، الر، طه، طس،

---

(١) هذه الجملة داخلة ضمن الإعلان، وهي أن يعلم أهل مكة والناس من حولهم أن الرسول ﷺ المبلّغ الإسلام لهم غير موكل بهدايتهم وأنّ أمر ذلك متروك لهم، فمن شاء اهتدى، ومن شاء ضلّ، وما عليه إلا البلاغ. وقد بلّغ.

(٢) هذا إرشاد للرسول ﷺ بأن يلزم المنهج الذي وضعه له بطريق الوحي ولا يخرج عنه بحال فإنه سبيل نجاته ونجاة المؤمنين معه.

(٣) هذا إرشاد آخر له ﷺ بالصبر على إبلاغ أهل مكة ومن حولهم دعوة الله حتى يحكم الله بينه وبينهم بنصر رسوله ﷺ والمؤمنين، وخذلان الكفر والكافرين.

(٤) خير هنا بمعنى أخيَر اسم تفضيل، وإنما عدل عن أخيَر إلى خير لكثرة الاستعمال كاسم شرّ أيضًا، وقد يأتي أيضًا شر وخير لغير تفضيل.

(٥) شواهد هذه الحقيقة في القرآن كثيرة منها: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ ومنها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ ومنها: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾.

(٦) واستثنى منها بعضهم آية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ..﴾ الآية، فإنها مدنية وروي أنّ النبي ﷺ قال: «**شيّبتني هود وأخواتها**» ويذكر القرطبي فيقول: قال أبو عبدالله: فالفزع يورث الشيب، وذلك أنّ الفزع يذهب النفس فينشف رطوبة الجسد، وتحت كل شعرة منبع ومنه يعرق فإذا نشف الفزع رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر فابيضّ، كما ترى الزرع الأخضر بسقائه فإذا ذهب سقاؤه يبس فابيضّ، وإنما يبيضّ شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويبس جلده.

حم، ق، ن، فألفوا مثله فإن عجزتم فاعلموا أنه كتاب الله ووحيه وأن محمدًا ﷺ عبده ورسوله فآمنوا به، والثانية أنهم لما كانوا لا يريدون سماع القرآن بل أمروا باللغو عند قراءته[1]، ومنعوا الاستعلان به جاءت هذه الحروف على خلاف ما ألفوه في لغتهم واعتادوه في لهجاتهم العربية فاضطرتهم إلى سماعه فإذا سمعوا تأثروا به وآمنوا ولنعم الفائدة أفادتها هذه الحروف المقطعة.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ[2] أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي المؤلَّف من هذه الحروف كتاب عظيم أحكمت آياته أي رصفت ترصيفًا ونظمت تنظيمًا متقنًا لا خلل فيها ولا في تركيبها ولا معانيها، وقوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي بين ما تحمله من أحكام وشرائع، ومواعظ وعقائد وآداب وأخلاق بما لا نظير له في أي كتاب سبق، وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي تولى تفصيلها حكيم خبير، حكيم في تدبيره وتصرفه، حكيم في شرعه وتربيته وحكمه وقضائه، خبير بأحوال عباده وشؤون خلقه، فلا يكون كتابه ولا أحكامه ولا تفصيله إلا المثل الأعلى في كل ذلك.

(٢) وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي أنزل الكتاب وأحكم آيه وفصَّل أحكامه وأنواع هدايته بأن[3] لا تعبدوا إلا الله إذ لا معبود حق إلا هو ولا عبادة تنفع إلا عبادته. وقوله: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ هذا قول رسوله ﷺ المبلغ عنه يقول أيها الناس إني لكم منه أي من ربكم الحكيم العليم نذير بين يدي عذاب شديد إن لم تتوبوا فتؤمنوا وتوحدوا.

(٣) وبشير أي أبشر من آمن ووحد وعمل صالحًا بالجنة في الآخرة ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟[4] رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وبأن تستغفروا ربكم باعترافكم بخطإكم بعبادة غيره، ثم تتوبوا إليه أي ترجعوا إليه بالإيمان به وبرسوله ﷺ ووعده ووعيده وطاعته في أمره ونهيه، ولكم جزاء على ذلك وهو أن يمتعكم في هذه الحياة متاعًا حسنًا بالنعم الوفيرة والخيرات الكثيرة إلى نهاية آجالكم المسماة لكل واحد منكم. وقوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[5] أي ويعط سبحانه وتعالى كل صاحب فضل في الدنيا من بر وصدقة وإحسان فضله تعالى يوم القيامة في دار الكرامة الجنة دار الأبرار. وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي تعرضوا عن هذه الدعوة فتبقوا على شرككم وكفركم ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو عذاب يوم القيامة.

(٤) وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يخبرهم تعالى بعد أن أنذرهم عذاب يوم القيامة بأن مرجعهم إليه تعالى لا محالة فسوف يحييهم بعد موتهم ويجمعهم عنده ويجزيهم بعدله ورحمته ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن ذلك إحياؤهم بعد موتهم ومجازاتهم السيئة بمثلها والحسنة بعشر أمثالها وهذا هو العدل والرحمة اللذان لا نظير لهما.

(٥) وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ﴾[6]

---

(١) شاهده في قوله تعالى من سورة فصلت: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

(٢) التنكير في ﴿كِتَٰبٌ﴾ للتفخيم والتعظيم، والإحكام أصله: إتقان الصنعة مشتق من الحكمة التي هي وضع الشيء في موضعه فإحكام الآيات، سلامتها من الإخلال: التي تعرض لنوعها كمخالفة الواقع، والخلل في اللفظ أو في المعنى.

(٣) فالباء سببية، وأن: تفسيرية، إذ لو سأل سائل فقال: لِمَ أحكمت الآيات ثم فُصلت؟ لكان الجواب: بأن لا يعبد إلا الله وأن يُستغفر وأن يُتاب إليه تعالى.

(٤) إن قيل: لم قدّم الاستغفار عن التوبة؟ فالجواب: بأن العبد لا يستغفر إلاّ إذا علم أنه أذنب، ولا يتوب العبد حتى يعلم أنه مذنب وعندها يتوب فهذا سرّ تقديم الاستغفار عن التوبة.

(٥) هذا كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فالفضل الأوّل من العبد، وهو العمل الصالح، والفضل الثاني من الرّب وهو دخول الجنة.

(٦) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة ويظهرون خلافه، ونزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنطق يلقى رسول الله ﷺ بما يحب وينطوي له بقلبه على ما يسوء، وقيل: نزلت في بعض المنافقين كان أحدهم إذا مرّ به الرسول ﷺ ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطّى وجهه كي لا يراه الرسول ﷺ فيدعوه إلى الإيمان.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

﴿صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ هذا النوع من السلوك الشائن الغبي كان بعضهم يثني صدره أي يطأطىء رأسه ويميله على صدره حتى لا يراه الرسول ﷺ، وبعضهم يفعل ذلك ظنًا منه أنه يخفي نفسه عن الله تعالى وهذا نهاية الجهل، وبعضهم يفعل ذلك بغضًا للرسول ﷺ حتى لا يراه فردَّ تعالى هذا بقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي يتغطون بها ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا معنى لاستغشاء الثياب استتارًا بها عن الله تعالى فإن الله يعلم سرهم وجهرهم ويعلم ما تخفي صدورهم وإن كانوا يفعلون ذلك بغضًا[1] للنبي ﷺ، فبئس ما صنعوا وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم.

هداية الآيات:

١ - مظهر من مظاهر إعجاز القرآن وهو أنه مؤلف من الحروف المقطعة ولم تستطع العرب الإتيان بسورة مثله.

٢ - بيان العلة في إنزال الكتاب وأحكام آيِهِ وتفصيلها وهي أن يعبد الله تعالى وحده وأن يستغفره المشركون ثم يتوبون إليه ليكملوا ويسعدوا في الدنيا والآخرة.

٣ - وجوب التخلي عن الشرك أولاً، ثم العبادة الخالصة ثانيًا.

﴿٣﴾ ٤ - المعروف لا يضيع عند الله تعالى إذا كان صاحبه من أهل التوحيد ﴿وَيُؤْتِ[2] كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

٥ - بيان جهل المشركين الذين كانوا يستترون عن الله برؤوسهم وثيابهم[3].

٦ - مرجع الناس إلى ربهم شاؤوا أم أبوا والجزاء عادل ولا يهلك على الله إلا هالك.

الجزء الثاني عشر

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ ـ ٨]

﴿٦﴾ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: أي حيّ يدب على الأرض أي يمشي من إنسان وحيوان. ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾: أي مكان استقرارها من الأرض. ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: أي مكان استيداعها قبل استقرارها كأصلاب الرجال وأرحام النساء. ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: أي اللوح المحفوظ.

﴿٧﴾ ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة. ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: إذ لم يكن قد خلق شيئًا من المخلوقات سواه، والماء على الهواء. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: أي ليختبركم ليرى أيكم أحسن عملاً.

﴿٨﴾ ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾: أي إلى طائفة من الزمن معدودة. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي نزل وأحاط بهم.

معنى الآيات:

﴿٦﴾ لما أخبر تعالى في الآية السابقة أنه عليم بذات الصدور ذكر في هذه مظاهر علمه وقدرته تقريرًا لما تضمنته الآية السابقة فقال عز وجل:

---

(١) لا مانع من توجيه الآية إلى هذا إذ ما زال الناس إلى اليوم، إذا كرهوا الداعية إلى الله تعالى لا يحبون أن يروه أو يسمعوا صوته وقد يثنون صدورهم ويغطون وجوههم حتى لا يروه بغضًا له وكرهًا. والله عليم خبير.

(٢) الثني: الطيّ. طوى الثوب إذا ثناه، وهو مأخوذ من جعل الواحد اثنين.

(٣) أي: يطأطئون رؤوسهم على صدورهم ويتغطون بثيابهم إذ روي أن المشرك كان يدخل بيته ويرخي الستر عليه، ويستغشي ثوبه ويحني ظهره ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي؟ وذلك لجهلهم بعظمة الله تعالى وقدرته وعلمه.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ[1] فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من إنسان يمشي على الأرض أو حيوان يمشي عليها زاحفًا أو يمشي على رجلين أو أكثر أو يطير في السماء إلا وقد تكفّل الله برزقها أي بخلقه وإيجاده لها وبتعليمها كيف تطلبه وتحصل عليه، وهو تعالى يعلم كذلك مستقرها أي مكان استقرار تلك الدابة في الأرض، كما يعلم أيضًا مستودعها بعد موتها إلى أن تبعث ليوم القيامة.

(٧) وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي من الدابة ورزقها ومستقرها ومستودعها قد دوّن قبل خلقه في كتاب المقادير اللوح المحفوظ، وقوله تعالى في الآية (٧): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي أوجد السموات السبع والأرض وما فيها في ظرف ستة أيام وجائز أن تكون كأيام الدنيا، وجائز أن تكون كالأيام التي عنده وهي ألف سنة لقوله في سورة الحج: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[2] أي خلق العرش قبل خلق السموات والأرض، والعرش: سرير المُلك ومنه يتم تدبير كل شيء في هذه الحياة، وقوله: ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ إذ لم يكن أرض ولا سماء فلم يكن إلا الماء كالهواء. وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ[3] عَمَلًا﴾ أي خلقكم وخلق كل شيء لأجلكم، ليختبركم أيكم أطوع له وأحسن عملاً أي بإخلاصه لله تعالى وحده وبفعله على نحو ما شرعه الله وبيّنه رسوله ﷺ.

هذه مظاهر علمه تعالى وقدرته وبها استوجب العبادة وحده دون سواه وبها عُلم أنه لا يخفى عليه من أمر عباده شيء فكيف يحاول الجهلة إخفاء ما في صدورهم وما تقوم به جوارحهم بثني صدورهم واستغشاء ثيابهم. ألا ساء ما يعملون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ ـ أي أيها الرسول للمشركين ـ إنكم مبعوثون من بعد الموت، أي مخلوقون خلقًا جديدًا ومبعوثون من قبوركم لمحاسبتكم ومجازاتكم بحسب أعمالكم في هذه الحياة الدنيا ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي عند سماع أخبار الحياة الثانية وما فيها من نعيم مقيم، وعذاب مهين ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما يقوله محمد من هذا الكلام ما هو إلا سحر مبين يريد به صرف الناس عن ملذاتهم، وجمعهم حوله ليترأس عليهم ويخدموه، وهو كلام باطل وظن كاذب وهذا شأن الكافر.

(٨) وقوله تعالى في الآية (٨): ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ[4] مَّعْدُودَةٍ﴾ أي ولئن أخرنا أي أرجأنا ما توعدناهم به من عذاب إلى أوقات زمانية معدودة الساعات والأيام والشهور والأعوام ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أي شيء حبس العذاب يقولون هذا إنكارًا منهم واستخفافًا، قال تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي ليس هناك من يصرفه ويدفعه عنهم بحال من الأحوال، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ونزل بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون بقولهم: ما يحبسه!!؟

هداية الآيات:

١ ـ سعة علم الله تعالى وتكفله بأرزاق[5] مخلوقاته من إنسان وحيوان.

---

(١) ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾: ما: نافية، ومن: مزيدة لتقوية النفي ليكون أكثر شمولاً، والتقدير: وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها أي: تكفّل الله برزقها فضلاً منه ومنّة.

(٢) روى البخاري في حديث منه: قوله ﷺ: **«كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء»**.

(٣) قال مقاتل: أيكم أتقى لله؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أيكم أعمل بطاعة الله عزّ وجل؟ وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ تلا: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: **«أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله؟»** ولو صحّ هذا الخبر لكان أتمّ وأجمع، وقال الفضيل: أحسن العمل: أخلصه وأصوبه، وهو كما قال.

(٤) ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: إلى أجل معدود وحين معلوم، فالأمّة هنا: المدّة، ولفظ الأمة يطلق على معانٍ منها: الجماعة، وسميت مجموعة السنين أمّة لاجتماعها. والأمّة: أتباع أحد الأنبياء والأمّة، الملّة والدين، والأمّة: الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به.

(٥) قيل لحاتم الأصمّ: من أين تأكل؟ فقال: من عند الله، فقيل له: الله ينزل لك دنانير ودارهم من السماء؟ فقال: كأنّ ماله

٢ ـ بيان خلق الأكوان، وعلة الخلق.

٣ ـ تقرير مبدأ البعث الآخر بعد تقرير الألوهية لله تعالى.

٤ ـ لا ينبغي الاغترار بإمهال الله تعالى لأهل معصيته، فإنه قد يأخذهم فجأة وهم لا يشعرون.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ ـ ١١]

(٩) ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: أي أنلناه رحمة أي غنى وصحة. ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾: أي سلبناها منه. ﴿لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾: أي كثير اليأس أي القنوط شديد الكفر.

(١٠) ﴿نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾: أي خيرًا بعد شر. ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾: جمع سيئة وهي ما يسوء من المصائب. ﴿لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾: كثير الفرح والسرور والبطر.

(١١) ﴿صَبَرُوا۟﴾: أي على الضراء والمكاره. ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: أي لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: أي الجنة دار الأبرار.

معنى الآيات:

(٩) يخبر تعالى أن الإنسان[١] الذي لم يستنر بنور الإيمان ولم يتحل بصالح الأعمال إن أذاقه الله تعالى رحمة منه برخاء وسعة عيش وصحة بدن، ثم نزعها منه لأمر أراده الله تعالى ﴿إِنَّهُ﴾ أي ذلك الإنسان ﴿لَيَـُٔوسٌ﴾[٢] أي كثير اليأس والقنوط ﴿كَفُورٌ﴾ لربه الذي أنعم عليه جحود لما كان قد أنعم به عليه.

(١٠) وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾ أي أذقناه طعم نعمة ولذاذة رخاء وسعة عيش وصحة بدن بعد ضراء كانت قد أصابته من فقر ومرض ﴿لَيَقُولَنَّ﴾: بدل أن يحمد الله ويشكره على إسعاده بعد شقاء وإغنائه بعد فقر وصحة بعد مرض، يقول متبجحًا: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ أي كثير السرور ﴿فَخُورٌ﴾ كثير الفخر والمباهاة، وهذا علته ظلمة النفس بسبب الكفر والمعاصي، أما الإنسان المؤمن المطيع لله ورسوله ﷺ فعلى العكس من ذلك إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، وذلك لما في قلبه من نور الإيمان وفي نفسه من زكاة الأعمال.

(١١) هذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟[٣] وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ[٤]﴾ أي لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ عند ربهم وهو الجنة دار السلام.

هداية الآيات:

١ ـ أن الإنسان قبل أن يطهر بالإيمان والعمل الصالح يكون في غاية الضعف والانحطاط النفسي.

٢ ـ ذم اليأس والقنوط[٥] وحرمتهما.

٣ ـ ذم الفرح بالدنيا والفخر بها.

٤ ـ بيان كمال المؤمن الروحي المتمثل في الصبر والشكر وبيان جزائه بالمغفرة والجنة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ ـ ١٤]

(١٢) ﴿فَلَعَلَّكَ﴾: للاستفهام الإنكاري أي لا يقع منك ترك ولا يضق صدرك. ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾: أي بتلاوته عليهم كراهية أن يقولوا كذا وكذا. ﴿كَنزٌ﴾: مال كثير تنفق منه على نفسك وعلى أتباعك. ﴿وَكِيلٌ﴾: أي رقيب حفيظ.

= إلاّ السماء! يا هذا: الأرض له والسماء له، فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض، وأنشد يقول:

وكيف أخاف الفقر والله رازقي ورازق هذا الخلق في العسر واليسر

تكفل بالأرزاق للخلق كلهم وللضب في البيداء وللحوت في البحر

(١) الإنسان هنا: اسم جنس يشمل كل إنسان كافر، وإن قيل: إن الآية في كافر معيّن، وهو الوليد بن المغيرة، أو عبدالله بن أبي أميّة، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٢) هو من باب: فعل يفعل يئِس ييأس يأسًا فهو آيس، وللمبالغة: يؤوس أي: كثير اليأس الذي هو: القنوط بانقطاع الرجاء، وجملة: ﴿إِنَّهُ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾: جواب القسم في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلخ.

(٣) يعني المؤمنين مدحهم بالصبر على الشدائد وهو استثناء من لفظ الإنسان الذي هو بمعنى الناس، فالاستثناء متصل وليس بمنقطع.

(٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ وخبر، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أجر: معطوف وكبير: نعت.

(٥) لقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

٢٢٣

﴿١٣﴾ ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: اختلقه وكذبه. ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾: من قدرتم على دعائهم لإعانتكم.

﴿١٤﴾ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: أي أسلموا لله بمعنى انقادوا لأمره وأذعنوا له.

معنى الآيات:

﴿١٢﴾ بعد أن كثرت مطالبة المشركين الرسول ﷺ بأن يحول لهم جبال مكة ذهبًا في اقتراحات منها لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرًا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها. قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ(١) تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي لا تتلوه على المشركين ولا تبلغهم إياه لتهاونهم به وإعراضهم عنه ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ أي بالقرآن، كراهة أن تواجههم به فيقولوا: ﴿لَوْلَآ(٢) أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي مال كثير يعيش عليه فيدل ذلك على إرسال الله له ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يدعو بدعوته ويصدقه فيها ويشهد له بها فلا ينبغي أن يكون ذلك منك أي فبلغ ولا يضق صدرك ﴿إِنَّمَآ أَنتَ(٣) نَذِيرٌ﴾ أي محذر عواقب الشرك والكفر والمعاصي، والله الوكيل على كل شيء أي الرقيب الحفيظ أما أنت فليس عليك من ذلك شيء.

﴿١٣﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي بل يقولون افتراه أي افترى القرآن وقاله من نفسه بدون ما أوحي إليه، قل في الرد عليهم ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾(٤) دعوتهم لإعانتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أني افتريته، فإن لم تستطيعوا ولن تستطيعوا فتوبوا إلى ربكم وأسلموا له.

﴿١٤﴾ وقوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟(٥) لَكُمْ﴾ أي قل لهم يا رسولنا فإن لم يستجب لنصرتكم من دعوتموه وعجزتم ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ(٦) ٱللَّهِ﴾ أي أنزل القرآن متلبسًا بعلم الله وذلك أقوى برهان على أنه وحيه وتنزيله ﴿وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(٧) أي وأنه لا إله إلا الله ولا معبود بحق سواه، وأخيرًا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي أسلموا بعد قيام الحجة عليكم بعجزكم، وذلك خير لكم.

هداية الآيات:

١ - بيان ولاية الله لرسوله ﷺ وتسديده له وتأييده.

٢ - بيان ما كان عليه المشركون من عناد في الحق ومكابرة.

٣ - بيان أن الرسول ﷺ لَمْ يُكَلَّفْ

---

(١) ﴿فَلَعَلَّكَ..﴾ إلخ. كلام معناه الاستفهام أي: هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سألوك؟ إذ ورد أنهم قالوا له: لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتبعناك.

(٢) أي: هلا فهي للتحضيض وليست للامتناع.

(٣) القصر هنا إضافي إذ معناه أنه مقصور على الإنذار وليس عليه هداية القلوب.

(٤) أي: كالكهنة والأعوان والأصنام إذ يعتقدون أنها تنصرهم وتدفع عنهم وإلاّ لما عبدوها مع الله تعالى.

(٥) الاستجابة هنا: بمعنى الإجابة والسين والتاء فيه للتأكيد.

(٦) العلم: الاعتقاد اليقيني، أي: فأيقنوا أنّ القرآن ما نزل إلاّ بعلم الله أي: ملابسًا له.

(٧) معطوف على جملة: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي: واعلموا أيضًا موقنين أنه لا إله إلا الله. حيث قامت الحجة عليهم بعجز آلهتهم عن الإتيان بعشر سور من مثل القرآن.

هداية الناس وإنما كُلِّف إنذارهم عاقبة كفرهم وعصيانهم، وعلى الله تعالى بعد ذلك مجازاتهم.

٤ - تحدي الله تعالى منكري النبوة والتوحيد بالإتيان بعشر سور من مثل القرآن فعجزوا وقامت عليهم الحجة وثبت أن القرآن كلام الله ووحيه وأن محمدًا ﷺ عبده ورسوله وأن الله لا إله إلا هو.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ - ١٧]

(١٥) ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾: المال والولد وأنواع اللباس والطعام والشراب. ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾: نعطهم نتاج أعمالهم وافيًا. ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾: أي لا ينقصون ثمرة أعمالهم.

(١٦) ﴿وَحَبِطَ﴾: أي بطل وفسد.

(١٧) ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أي على علم يقيني. ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: أي يتبعه. ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: أي التوراة. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾: أي بالقرآن. ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾: أي مكان وعد به فهو لا محالة نازل به. ﴿فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: أي في شك منه.

معنى الآيات:

(١٥) لما أقام الله تعالى الحجة على المكذبين بعجزهم عن الإتيان بعشر سور من مثل القرآن مفتريات حيث ادعوا أن القرآن مفترى وأن محمدًا ﷺ قد افتراه ولم يبق إلا أن يختار المرء أحد الطريقين طريق الدنيا أو الآخرة الجنة أو النار، فقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ(١) ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ من مال وولد وجاه وسلطان وفاخر اللباس والرياش ﴿نُوَفِّ(٢) إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ(٣) فِيهَا﴾ نعطهم نتاج عملهم فيها وافيًا غير منقوص فعلى قدر جهدهم وكسبهم فيها يعطون ولا يبخسهم عملهم لكفرهم وتركهم، ثم هم بعد ذلك إن لم يتوبوا إلى ربهم هلكوا كافرين ليس لهم إلا النار.

(١٦) ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟﴾(٤) في هذه الدار من أعمال وبطل ما كانوا يعملون.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٥ والثانية ١٦) وهو قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞﴾.

(١٧) وقوله تعالى في الآية الثالثة (١٧): ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ(٥)﴾ بما أوحى إليه من القرآن وما حواه من الأدلة والبراهين على توحيد الله ونبوة رسوله ﷺ، وعلى المعاد الآخر، وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي ويتبع ذلك الدليل دليل آخر وهو لسان الصدق الذي ينطق به وكمالاته الخُلُقيَّة والروحية حيث نظر إليه أعرابي فقال والله ما هو بوجه كذّاب، ودليل ثالث في قوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ شاهد له حيث حمل نعوت الرسول ﷺ وصفاته ونعوت أمته وصفاتها في غير موضع منه أفمن هو على هذه البينات والدلائل والبراهين من صحة دينه، كمن لا دليل له ولا

---

(١٧) ﴿يكفر به﴾ روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار**».

(١) أي: ممن رفضوا الإسلام وأبوه بعد قيام الحجة على بطلان ما هم عليه من الكفر ورضوا بالكفر بإرادة الحياة الدنيا.

(٢) التوفية: إعطاء الشيء وافيًا، وعُدي نوفِّ: بإلى لأنه مضمّن معنى: نوصل.

(٣) لفظ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يشمل الأعمال الخيرية والأعمال الدنيوية فالأعمال الخيرية كصلة الرحم، وقرى الضيف، والإحسان إلى الفقراء والمساكين، فهذه لا يحرمها الكافر بل يجد جزاءها في الدنيا: بركة في ماله وولده وحياته، وأمّا الأعمال الدنيوية كالصناعة والزراعة والتجارة فهذه يوفى قدر جهده فيها، فبقدر ما يبذل من طاقة يحصل له من الكسب والربح والإنتاج فكفره لا يمنعه نتاج عمله بقدر ما يبذل فيه.

(٤) أعمال الكفار في الدنيا خيرية كانت أو دنيوية تذهب في الدار الآخرة هباء كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾.

(٥) اختلف في عود الضمائر في هذه الآية اختلافًا كبيرًا، وقد اخترنا في التفسير عودها إلى النبي ﷺ ولا مانع من عودها على كل مؤمن صادق الإيمان، بقرينة الخبر وهو قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ وهم الفريق الذين أسلموا لمّا شاهدوا الحجج والبراهين.

برهان إلا التقليد للضلال والمشركين، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي أولئك الذين ثبتت لديهم تلك البيّنات والحجج والبراهين ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن الحق والنبي ﷺ الحق والدين الحق. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ونبيه ﷺ ودينه من الأحزاب[1] أي من سائر الطوائف والأمم والشعوب فالنار موعده، وحسبه جهنم وبئس المصير[2].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾[3] أي فلا تك في شك منه أي في أن موعد من يكفر به من الأحزاب النار. وقوله: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[4] أي القرآن الذي كذّب به المكذبون وما تضمنه من الوعد والوعيد، والدين الحق كل ذلك هو الحق الثابت من ربك، إلا أن ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[5] وإن ظهرت الأدلة ولاحت الأعلام وقويت البراهين.

هداية الآيات:

١ - بيان حقيقة وهي أن الكفر غير مانع من أن ينتج الكافر بحسب جهده من كسب يده فيحصد إذا زرع، ويربح إذا اتجر، وينتج إذا صنع.

٢ - بيان أن الكافر لا ينتفع من عمله في الدنيا ولو كان صالحًا وأن الخسران لازم له.

٣ - المسلمون على بينة من دينهم، وسائر أهل الأديان الأخرى لا بينة لهم وهم في ظلام التقليد وضلال الكفر والجهل.

٤ - بيان سنة الله في الناس وهي أن أكثرهم لا يؤمنون.

الجزء الثاني عشر — سورة هود

أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

٢٢٤

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨ - ٢٠]

﴿١٨﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: أي لا أحد فالاستفهام للنفي.

﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أي يوم القيامة. ﴿الْأَشْهَادُ﴾: جمع شاهد وهم هنا الملائكة. ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾: أي طرده وإبعاده. ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: أي المشركين.

﴿١٩﴾ ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي الإسلام. ﴿عِوَجًا﴾: أي معوجة.

﴿٢٠﴾ ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي الله عز وجل أي فائتين بل هو قادر على أخذهم في أية لحظة. ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: أي أنصار يمنعونهم من عذاب الله. ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾: ذلك لفرط كراهيتهم للحق فلا يستطيعون سماعه، ولا رؤيته.

معنى الآيات:

﴿١٨﴾ بعد أن قرر تعالى مصير المكذبين بالقرآن ومن نزل عليه وما نزل به من الشرائع ذكر نوعًا من إجرام المجرمين الذين استوجبوا به النار فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحد في الناس أعظم ظلمًا من أحد افترى على الله كذبًا ما من أنواع[6] الكذب

---

(١) أظهرهم: المشركون واليهود، والنصارى والصابئة والمجوس.

(٢) لأنهم لم يزكّوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح فلذا فلا مأوى لهم إلاّ النار.

(٣) الخطاب للنبي ﷺ ولكل مؤمن أي: لا يشكنّ مؤمن في أن القرآن حق وأنّ ما أخبر به عن الكافرين من أنّ مأواهم النار حق.

(٤) جملة: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ مستأنفة مؤكدة لجملة: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾.

(٥) لما سبق في علم الله وما قضى به قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

(٦) من أنواع كذبهم على الله تعالى: زعمهم أنّ له شريكًا وولدًا، وقولهم في الأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وتحريمهم ما أحلّ الله ونسبة ذلك إليه تعالى.

وإن قل، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك الكذبة يعرضون يوم القيامة على ربهم جلّ جلاله في عرصات القيامة، ويقول الأشهاد من الملائكة شاهدين[1] عليهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ثم يُعْلِنُ مُعْلِنٌ قائلاً: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ[2] عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي ألا بعدًا لهم من الجنة وطردًا لهم منها إلى نار جهنم.

(١٩) ثم وضح تعالى نوع جناياتهم التي استوجبوا بها النار فقال: ﴿الَّذِينَ[3] يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يصرفون أنفسهم وغيرهم عن الدين الإسلامي، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي معوجة كما يهوون ويشتهون فهم يريدون الإسلام أن يبيح لهم المحرمات من الربا والزنى والسفور، ويريدون من الإسلام أن يأذن لهم في عبادة القبور والأشجار والأحجار إلى غير ذلك، ويضاف إلى هذا ذنب أعظم وهو كفرهم بالدار الآخرة.

(٢٠) قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المذكورون ﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لم يكن من شأنهم ومهما رأوا أنفسهم أقوياء أن يعجزوا الله تعالى في الأرض فإنه مدركهم مهما حاولوا الهرب[4] ومنزل بهم عذابه متى أراد ذلك لهم، وليس لهم من دون الله من أولياء أي أنصار يمنعونهم من العذاب متى أنزله بهم، وقوله تعالى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ إخبار منه بأن هؤلاء الظالمين يضاعف لهم العذاب يوم القيامة لأنهم صدوا غيرهم عن سبيل الله فيعذبون بصدهم أنفسهم عن الإسلام، وبصد غيرهم عنه، وهذا هو العدل، وقوله تعالى فيهم: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ[5] السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ إخبار بحالهم في الدنيا أنهم كانوا لشدة كراهيتهم للحق ولأهله من الداعين إليه لا يستطيعون سماعه ولا رؤيته ولا رؤية أهله القائمين عليه والداعين إليه.

هداية الآيات:

١ ـ عظم ذنب من يكذب على الله تعالى بنسبة الولد أو الشريك إليه أو بالقول عليه بدون علم منه.

٢ ـ عظم جرم من يصد عن الإسلام بلسانه أو بحاله، أو سلطانه.

٣ ـ عظم ذنب من يريد إخضاع الشريعة الإسلامية لهواه وشهواته بالتأويلات الباطلة والفتاوى غير المسؤولة ممن باعوا آخرتهم بدنياهم.

٤ ـ بيان أن من كره قولاً أو شخصًا لا يستطيع رؤيته ولا سماعه[6].

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ ـ ٢٤]

(٢١) ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أي غاب عنهم ما كانوا يدعونه من شركاء لله تعالى.

(٢٢) ﴿لَا جَرَمَ﴾: أي حقًا وصدقًا أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

(٢٣) ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أي تطامنوا أو خشعوا لربهم بطاعته وخشيته.

---

(١) ومن الأشهاد: الأنبياء والعلماء والمبلغون لدعوة الله لعباده وفي صحيح مسلم: «**وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم**».

(٢) لعنة الله: أي: بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها.

(٣) يجوز أن يكون: ﴿الَّذِينَ﴾ مجرورًا لمحل نعتًا للظالمين، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر، والمبتدأ محذوف. أي: هم الذين يصدّون.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعجزوني أن آمر الأرض فتنخسف بهم، وفي سورة سبأ ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

(٥) ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ..﴾ قال القرطبي: ما: في موضع نصب على أن يكون المعنى بما كانوا يستطيعون السمع. يُريد أن الباء المحذوفة سببية أي: يُضاعف لهم العذاب بسبب أنهم كانوا لا يستطيعون السمع لما ران على قلوبهم من الآثام فحجب الإثم أسماعهم وأبصارهم، وفي المثل: حبّك الشيء يعمي ويصم، فحبّهم للكفر والشرك والآثام عطّل حواسهم.

(٦) أقول: ما كنت أدرك المعنى الحقيقي لقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ حتى كان صوت العرب على عهد بطل الاشتراكية «عبدالناصر» وأخذ يسبّ ويشتم ويعيّر. ويقبّح سلوك كل من لم يوال الاشتراكيين فكنت ـ والله ـ لا أستطيع سماع ما يذيعه، وثَمّ فهمت معنى الآية على حقيقته.

﴿٢٤﴾ ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾: أي فريق المؤمنين وفريق الكافرين. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي تتعظون، فتستغفروا ربكم ثم تتوبوا إليه؟

معنى الآيات:

﴿٢١﴾ ما زال السياق في تحديد المجرمين وبيان حالهم في الآخرة فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي البعداء ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث استقروا في دار الشقاء فخسروا كل شيء حتى أنفسهم، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يزعمون أن لهم شُركاء، وأنهم يشفعون لهم وينصرونهم.

﴿٢٢﴾ قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾[1] أي حقًا ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي في دار الآخرة ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي الأكثر خسرانًا من غيرهم لأنهم أضافوا إلى جريمة كفرهم جريمة تكفير غيرهم ممن كانوا يدعونهم إلى الضلال، ويصدونهم عن الإسلام سبيل الهدى والنجاة من النار.

﴿٢٣﴾ ولما ذكر تعالى حال الكافرين وما انتهوا إليه من خسران. ذكر تعالى حال المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[2] أي آمنوا بالله وبوعده ووعيده. وآمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به، وعملوا الصالحات التي شرعها الله تعالى لهم من صلاة وزكاة ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي أسلموا له وجوههم وقلوبهم وانقادوا له بجوارحهم فتطامنوا وخشعوا أولئك أي السامون أصحاب الجنة أي أهلها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي لا يبرحون منها ولا يتحولون عنها، هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث.

﴿٢٤﴾ أما الآية الرابعة (٢٤) وهي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ[3] وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ فقد ذكر تعالى مقارنة بين أهل الشرك وأهل التوحيد توضيحًا للمعنى وتقريرًا للحكم فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي صفة الفريقين الموضحة لهما هي كالأعمى والأصم وهذا فريق الكفر والظلم والسميع والبصير. وهذا فريق أهل الإيمان والتوحيد فهل يستويان مثلاً أي صفة الجواب لا، لأن بين الأعمى والبصير تباينًا كما بين الأصم والسميع تباينًا فأي عاقل يرضى أن يكون العمى والصمم وصفًا له ولا يكون البصر والسمع وصفًا له؟ والجواب لا أحد إذًا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتعظون بهذا المثل[4] وتتوبوا إلى ربكم فتؤمنوا به وتوحدوا وتؤمنوا برسوله ﷺ وتتبعوه، وبكتابه وتعملوا بما فيه؟

هداية الآيات:

١ ـ استحسان المقارنات بين الأشياء المتضادة للعبرة والاتعاظ.

٢ ـ الكافر ميت موتًا معنويًا فلذا هو لا يسمع ولا يبصر، والمسلم حيٌ فلذا هو سميع بصير.

٣ ـ بيان ورثة دار النعيم وهم أهل الإيمان والطاعة، وورثة دار الخسران وهم أهل الكفر والظلم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥ ـ ٢٧]

﴿٢٥﴾ ﴿نُوحًا﴾: هو العبد الشكور أبو البشرية الثاني نوح عليه السلام. ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: أي مخوف لكم من عذاب الله بَيِّنُ النذارة.

﴿٢٦﴾ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾: هو عذابه يوم القيامة.

﴿٢٧﴾ ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: الأشراف وأهل الحل والعقد في البلاد. ﴿أَرَاذِلُنَا﴾[5]: جمع أرذل وهو الأكبر خسة ودناءة. ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾: أي ظاهر الرأي، لا عمق

---

(١) ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمة: جزم ويقين، واختلف في تركيبها وأظهر أقوالهم فيها: أن تكون لا: حرف نفي، وجَرَمَ: بمعنى محالة. ويصح معنى الكلمة لا محالة أو: لا بدّ أن يكون كذا وكذا، أو لتفسّر بحقًا، ولا محالة ولا بد، إذ جرم مأخوذ من الجرم الذي هو القطع.

(٢) الموصول: اسم إنّ، وآمنوا: صلة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ معطوفان على الاسم، والخبر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وجملة ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ جملة بيانية أي: مبيّنة لحال أهل الجنة.

(٣) فريق الإيمان، وفريق الكفر والشرك.

(٤) المثل الذي كشف الحقيقة وبيّن أنّ الكفار عمي صم، وأنّ المؤمنين يبصرون ويسمعون، فأي عاقل يرضى أسوأ الوصفين؟!

(٥) الأرذل: اسم تفضيل والمفضّل عنه يقال له: رذْل ككلب ويجمع على أرذُل كأكلب.

وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾

٢٢٥

عندك في التفكير والتصور للأشياء.

معنى الآيات:

﴿٢٥﴾ هذه بداية قصة نوح عليه السلام وهي بداية لخمس قصص[1] جاءت في هذه السورة سورة هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا[2] إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ[3] مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي قال لهم إني لكم نذير مبين أي بين النذارة أي أخوفكم عاقبة كفركم بالله وبرسوله وشرككم في عبادة ربكم الأوثان والأصنام.

﴿٢٦﴾ وقوله: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ[4] إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ أي نذير لكم بأن لا تعبدوا إلا الله، وتتركوا عبادة غيره من الأصنام والأوثان، وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ علل لهم أمرهم بالتوحيد ونهيهم عن الشرك بأنه يخاف عليهم إن أصروا على كفرهم وتركهم عذاب يوم أليم[5] وهو عذاب يوم القيامة.

﴿٢٧﴾ ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ أي فردّ على نوح ملأ قومه أشرافهم وأهل الحل والعقد فيهم ممن كفروا بالله ورسوله فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا[6]﴾ أي لا فضل لك علينا فكيف تكون رسولاً لنا ونحن مثلك هذا أولاً وثانيا ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ أي سفلتنا[7] من أهل المهن المحتقرة كالحياكة والحجامة والجزارة ونحوها، وقولهم[8] بادي الرأي أي ظاهر الرأي لا عمق في التفكير ولا سلامة في التصور عندك، وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ أي وما نرى لكم علينا من أي فضل تستحقون به أن نصبح أتباعًا لكم فنترك ديننا ونتبعكم على دينكم بل نظنكم كاذبين فيما تقولون.

هداية الآيات:

١ ـ إن نوحًا واسمه عبدالغفار أول رسول إلى أهل الأرض بعد أن أشركوا بربهم وعبدوا غيره من الأوثان والآلهة الباطلة.

٢ ـ قوله أن لا تعبدوا إلا الله هو معنى لا إله إلا الله.

٣ ـ التذكير بعذاب يوم القيامة.

٤ ـ أتباع الرسل هم الفقراء والضعفاء وخصومهم الأغنياء والأشراف والكبراء.

٥ ـ احتقار أهل الكِبْر لمن دونهم.

---

(١) هذا العطف من باب عطف قصّة على قصّة، الواو: تسمى الواو الابتدائية.

(٢) كُسرت: إنّ لأنّ الإرسال فيه معنى القول وإنَّ تكسر بعد القول.

(٣) القِصّة: بكسر القاف والجمع: قصص كحجّة وحجج: الخبر يروى وتُتبّع أجزاؤه بعناية، والقصص بفتح القاف: مصدر قصّ الحديث يقصّه قصًا.

(٤) هذه الجملة مفسّرة لجملة ﴿أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ أو لقوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾.

(٥) وجائز أن يكون ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ في الدنيا وهو عذاب الطوفان وقد كان.

(٦) مثلنا: منصوب على الحال.

(٧) قال القرطبي: اختلف في السفلة فقيل: هم الذين يتقلسون ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبون الشهادات، وقال مالك: السفلة: الذين يسبون الصحابة. وقال آخر: الذين يأكلون على حساب دينهم.

(٨) ومنه البادية وهي الأراضي الظاهرة لا تحوطها مبانٍ ولا بساتين ولا مصانع.

وفي الحديث «الكِبر[1] بطر الحق وغمط الناس».

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨ ـ ٣١]

(٢٨) ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أي أخبروني. ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: أي على علم علمنيه الله فعلمت أنه لا إله إلا الله. ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾: أي خفيت عليكم فلم تروها. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾: أي أجبركم على قبولها.

(٢٩) ﴿بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي بمبعدهم عني ومن حولي.

(٣١) ﴿خَزَائِنُ اللَّهِ﴾: التي فيها الفضل والمال. ﴿تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾: تحتقر أعينكم.

معنى الآيات:

(٢٨) ما زال السياق في قصة نوح مع قومه فأخبر تعالى أن نوحًا قال لقومه: أرأيتم، أي أخبروني إن كنت على بيّنة من ربي أي على علم يقيني به تعالى وبصفاته وبما أمرني به من عبادته وتوحيده والدعوة إلى ذلك. وقوله: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ وهي الوحي والنبوة والتوفيق لعبادته. ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أنتم[2] فلم تروها. فماذا أصنع معكم ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي[3] أنجبركم أنا ومن آمن بي على رؤيتها والإيمان بها والعمل بهداها، ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[4] أي والحال أنكم كارهون لها والكاره للشيء لا يكاد يراه ولا يسمعه، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٢٨).

(٢٩) أما الآية الثانية فإن الله تعالى يخبر أيضًا عن قيل نوح لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ أي لا أطلب منكم أجرًا على إبلاغكم هذه الرحمة التي عميت عليكم فلم تروها. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما أجري إلا على الله إذ هو الذي كلفني بالعمل بها والدعوة إليها وواعدني بالأجر عليها. وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي وما أنا بمطيعكم في طرد المؤمنين من حولي كما اقترحتم عليّ، إنهم ملاقو ربهم، ومحاسبهم ومجازيهم على أعمالهم فكيف يصح مني إبعادهم عن سماع الحق وتعلمه والأخذ به ليكملوا ويسعدوا إذ العبرة بزكاة النفوس وطهارة الأرواح بواسطة الإيمان والعمل الصالح لا بالشرف والمال والجاه كما تتصورون ولذا فإني أراكم قومًا تجهلون، هذا ما دلت عليه الآية الثانية (٢٩).

(٣٠) ثم قال لهم في الآية الثالثة: ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي[5] مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي من هو الذي يرد عني عذاب الله ويمنعني منه إن أنا عصيته فطردت أي أقصيت وأبعدت عباده المؤمنين عن سماع الهدى وتعلم الخير ولا علة لذلك إلا لأنهم فقراء ضعفاء تزدريهم أعينكم المريضة التي لا تقدر على رؤية الحق وأهله والداعين إليه. ثم قال لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[6] أي تتفكرون فتعلمون خطأكم وجهلكم فتثوبوا إلى رشدكم. وتتوبوا إلى ربكم فتؤمنوا به وبرسوله وتعبدوه وحده لا شريك له.

(٣١) ثم قال لهم في الآية الأخيرة (٣١): ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾[7] ردًا على قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ

---

(١) الحديث في الصحيح فقد قال ﷺ: «**إنّ الله لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر**» فسئل عن الكبر فقال: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**» وبطر الحق: عدم قبوله، وغمط الناس: احتقارهم.

(٢) قرىء: ﴿عمّيت﴾ بتشديد الميم، وقرأ ورش بتخفيفها، ومعناه: إنّ الرسالة عميت عليكم فلم تفهموها. يقال: عميت عن كذا، وعمي عليّ كذا: أي: لم أفهمه.

(٣) ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: الرحمة التي هي عبادة الله وحده وترك عبادة سواه والاستفهام للإنكار. أي: ما كان لي ذلك والحال أنكم كارهون لها.

(٤) قال قتادة: والله لو استطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ولكنّه لم يملك ذلك.

(٥) أي: مَنْ يرد عنّي عذابه إن استوجبته بطرد عباده المؤمنين؟ والجواب: لا أحد فكيف إذًا يسوغ لي أن أطردهم كما ترغبون؟

(٦) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ قرىء: ﴿تذكرون﴾ بحذف إحدى التائين وقرىء: ﴿تذّكرون﴾: بتشديد الذال، بإدغام إحدى التائين في الأخرى. والاستفهام إنكاري أي: ينكر عليهم غفلتهم وجهلهم وعدم تذكرهم ليتّعظوا.

(٧) أخبر عليه السلام بتذلله وتواضعه لربّه عزّ وجلّ فنفى عن نفسه القدرة على امتلاك خزائن الفضل والمال كما نفى عن نفسه علم الغيب وأن يكون ملكًا من الملائكة.

لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ فأعرف ما تخفيه صدور الناس فأطرد هذا وأبقي هذا، ولا أقول إني ملك حتى تقولوا ما نراك إلا بشرًا مثلنا ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾[١] لفقرهم وضعفهم ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي من صدق أو نفاق ومن حب لي أو بغض كأنهم طعنوا في المؤمنين واتهموهم بأنهم ينافقون أو لهم أغراض فاسدة أو أطماع مادية من أجلها التفوا حول نوح، وقوله: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إنـي إذا قلت للمؤمنين من الضعفاء لن يؤتيكم الله خيرًا كنت بعد ذلك من الظالمين[٢] الذين يعتدون على الناس بهضمهم حقوقهم وامتهان كرامتهم.

هداية الآيات:

١ - كُرهُ الشيء يجعل صاحبه لا يراه ولا يسمعه ولا يفهم ما يقال له فيه.

٢ - كراهية أخذ الأجرة على الدعوة والتربية والتعليم الديني.

٣ - وجوب احترام الضعفاء وإكرامهم وحرمة احتقارهم وازدرائهم.

٤ - علم الغيب استأثر الله تعالى به دون سائر خلقه إلا من علّمه الله شيئًا منه فإنه يعلمه.

٥ - حرمة غمط الناس وازدرائهم والسخرية منهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٢ - ٣٤]

(٣٢) ﴿جَٰدَلْتَنَا﴾: أي خاصمتنا تريد إسقاطنا وعدم اعتبارنا في ديننا وما نحن عليه. ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾: أي من العذاب إن لم نؤمن بما تدعونا إليه. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: أي في دعواك النبوة والإخبار عن الله عز وجل.

(٣٣) ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: أي بغالبين ولا فائتين الله تعالى متى أراد الله عذابكم.

(٣٤) ﴿نُصْحِىٓ﴾: أي بتخويفي إياكم عذاب ربكم إن بقيتم على الكفر به وبلقائه ورسوله. ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: أي يوقعكم في الضلال ويبقيكم فيه فلا يهديكم أبدًا.

معنى الآيات:

(٣٢) ما زال السياق في قصة نوح عليه السلام مع قومه فأخبر تعالى عن قول قوم نوح له عليه السلام: فقال: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾[٣] أي خاصمتنا وأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، أي فعجل العذاب وأنزله علينا إن كنت من الصادقين فيما تقول وتدعو وتعد. فأخبر تعالى عن قول نوح لهم ردًا على مقالتهم وهو ما علمه ربه تعالى أن يقوله، فقال:

(٣٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي بالعذاب إن شاء ذلك. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فائتين الله ولا هاربين منه.

(٣٤) وقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ[٤] هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾. أي إن نصحي لا ينفعكم بمعنى أنكم لا تقبلونه مهما أردت ذلك وبالغت فيه إن كان الله جلّ جلاله يريد أن يغويكم لما فرط منكم وما أنتم عليه من عناد وكفر ومجاحدة ومكابرة إذ مثل هؤلاء لا يستحقون هداية الله تعالى بل الأولى بهم الضلالة حتى[٥] يهلكوا ضالين فيشقوا في الدار الآخرة. وقوله تعالى: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

---

(١) أي: تحتقر أعينكم. والأصل: تزدريهم، حذفت الهاء والميم لطول الاسم، وازدراء: افتعال من الزري الذي هو الاحتقار وإلصاق العيب، فالازدراء أصله الازتراء فقلبت فيه التاء دالاً فصار: الازدراء كما قلبت في: الازدياد.

(٢) في قوله: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: تعريض بقومه، فوصفهم بالظلم من حيث لا يشعرون.

(٣) ﴿جَٰدَلْتَنَا﴾ أي: خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها، والجدل في لغة العرب: المبالغة في الخصومة. مأخوذ من الجدل: الذي هو شدّة القتل، وقالوا في الصقر أجدل: لشدته في الطيران.

(٤) فيه الرد على بطلان مذهب المعتزلة، والقدرية إذ زعموا أن الله لا يريد أن يعصي العاصي ولا أن يكفر الكافر ولا أن يغوي الغاوي وتجاهلوا أنه لا يقع في ملك الله إلا ما يريد، ولا يقع شيء إلاّ بإذنه فهو الهادي لمن شاء هدايته، والمضل لمن شاء إضلاله. ولكن كُلًا من هدايته وإضلاله يتمان حسب سنته في الهداية والإضلال فلا يظلم ربّك أحدًا.

(٥) ومن فسّر ﴿أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: يهلككم: أراد أنّ الهلاك سبب للإغواء، فمن أغواه أهلكهُ، إذ لا يَهلك إلاّ الغاوي.

تُرْجَعُونَ﴾ أي فالأمر له ألستم عبيده وهو ربكم إن يشأ يرحمكم وإن يشأ يعذبكم وإن كانت حكمته تنفي أن يعذب الصالحين ويرحم الغواة الظالمين.

هداية الآيات:

١ - مشروعية الجدال لإحقاق الحق وإبطال الباطل. بشرط الأسلوب الحسن.

٢ - إرادة الله تعالى قبل كل إرادة وما شاءه الله يكون وما لم يشأه لم يكن.

٣ - لا ينفع نصح الناصحين ما لم يرد الله الخير للمنصوح له.

٤ - ينبغي عدم إصدار حكم على عبد لم يمت فيعرف بالموت مآله. إلاَّ قول الله أعلم به.

شرح الكلمات: [الآية: ٣٥]

(٣٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾: أي بل يقولون ﴿افْتَرَاهُ﴾: أي اختلقه وقال من نفسه ولم يوح به إليه. ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي[1]﴾: أي عاقبة الكذب الذي هو الإجرام تعود عليَّ لا على غيري. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ﴾: أي أتبرأ وأتنصل من إجرامكم فلا أتحمل مسؤوليته. ﴿مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾: أي على أنفسكم بإفسادها بالشرك والكفر والعصيان.

معنى الآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة أوقعها الله مُنزِلُها سبحانه وتعالى بين أجزاء الحديث عن نوح وقومه، وحسن موقعها هنا لأن الحديث عن نوح وقومه لا يتأتى لأحد إلا لنبي يوحى إليه، وذلك لبعده في التاريخ فَقَصُّ النبيّ ﷺ له اليوم دليل على أنه نبي يُوحى إليه، فلذا قال أم يقولون افتراه[2] أي يقولون افترى القرآن وكذبه ولم يوح إليه قل إن افتريته كما زعمتم فعليّ إجرامي أي إثم كذبي وأنا بريء مما تجرمون أنتم بتكذيبكم إياي وكفركم بربكم ورسوله ﷺ ووعده ووعيده.

هداية الآية الكريمة:

١ - جواز الاعتراض في الكلام إذا حسن موقعه لإقامته حجة أو إبطال باطل أو تنبيه على أمر مهم.

٢ - قص القصص أكبر دليل على صدق النبي ﷺ في دعوى النبوة ودعوته إلى الله تعالى.

٣ - تقرير مبدأ تحمل كل إنسان مسؤولية عمله وأن لا تزر وازرة وزر أخرى.

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾

٢٢٦

شرح الكلمات:
[الآيات: ٣٦ - ٣٩]

(٣٦) ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾: أي اعلم بطريق الوحي الذي هو الإعلام السريع الخفي. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: لا تحزن ولا يشتد بك الحزن فإني منجيك ومهلكهم.

(٣٧) ﴿الْفُلْكَ﴾: أي السفينة التي أمرناك بصنعها لحمل المؤمنين عليها.

(٣٨) ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾: أي استهزؤوا به كقولهم: تحمل هذا الفلك إلى البحر أو تحمل البحر إليه.

(٣٩) ﴿يُخْزِيهِ﴾: أي يذله ويهينه.

---

(١) الإِجرام: مصدر أجرم يجرم إجرامًا: إذا اقترف السيئات وجرم الثلاثي كأجرم الرباعي، قال الشاعر وهو أحد لصوص بني سعد:

طريد عشيرة ورهين جرم بما جرمت يدي وجنى لساني

(٢) فسرت الآية في التفسير بالقول الراجح وهو: أنّ المراد بمن يقول: افتراه النبي ﷺ. والآية معترضة أحاديث قصة نوح وذهب بعضهم نقلًا عن ابن عباس أنها من محاورة نوح عليه السلام مع قومه: واستظهروها من أجل السياق السابق واللاحق والله أعلم.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: أي وينزل به عذاب النار يوم القيامة فلا يفارقه.

معنى الآيات:

(٣٦) عاد السياق بعد الاعتراض بالآية (٣٥) إلى الحديث عن نوح وقومه فقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ[1] لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن[2] قَدْ آمَنَ﴾. وهذا بعد دعوة دامت قرابة ألف سنة إلا خمسين عامًا أي فلم يؤمن بعد اليوم أحد من قومك وعليه فلا تبتئس[3] أي لا تغتم ولا تحزن بسبب ما كانوا يفعلون من الشر والفساد والكفر والمعاصي فإني منجيك ومَن معك من المؤمنين ومهلكهم بالغرق.

(٣٧) وقوله تعالى في الآية الثانية (٣٧): ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي وأمرناه أن يصنع الفلك أي السفينة تحت بصرنا وبتوجيهنا وتعليمنا. إذ لم يكن يعرف السفن ولا كيفية صنعها، وقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي لا تسألني لهم صرف العذاب ولا تشفع لهم في تخفيفه عليهم، لأنا قضينا بإهلاكهم بالطوفان فهم لا محالة مغرقون.

(٣٨) ـ (٣٩) وقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ[4] وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ يخبر تعالى عن حال نوح وهو يصنع الفلك بقطع الخشب ونجره وتركيبه وقومه يمرون عليه وكلما مرّ عليه أشراف القوم وعليتهم يسخرون منه كقولهم يا نوح أصبحت نجارًا أو وهل تنقل البحر إليها، أو تنقلها إلى البحر فيرد عليهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي منا. فسوف تعلمون أي مستقبلاً من يأتيه عذاب يخزيه أي يذله ويهينه ويكسر أنف كبريائه، ويحل[5] عليه عذاب مقيم وهو عذاب النار يوم القيامة وهو عذاب دائم لا ينتهي أبدًا.

هداية الآيات:

١ - كراهية الحزن والأسى والأسف على ما يقوم به أهل الباطل والشر والفساد.

٢ - بيان تاريخ صنع السفن وأنها بتعليم الله لنوح عليه السلام.

٣ - بيان سنة البشر في الاستهزاء والسخرية بأهل الحق ودعاته لظلمة نفوسهم بالكفر والمعاصي.

٤ - بيان صدق وعد الله رسله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٠ ـ ٤٤]

(٤٠) ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾: أي خرج الماء وارتفع من التنور وهو مكان طبخ الخبز. ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: أي من كل ذكر وأنثى من سائر أنواع المخلوقات اثنين. ﴿وَأَهْلَكَ﴾: أي زوجتك وأولادك.

(٤١) ﴿مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾: أي إجراؤها وإرساؤها.

(٤٢) ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾: الموج ارتفاع ماء البحر وكونه كالجبال أي في الارتفاع.

(٤٣) ﴿يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾: يمنعني من الماء أن يغرقني.

(٤٤) ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾: أي نقص بنضوبه في الأرض. ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾: أي فوق جبل الجودي وهو جبل بالجزيرة غرب الموصل. ﴿بُعْدًا

---

(١) ﴿أَنَّهُ﴾ في موضع رفع نائب فاعل لأوحي أي: أوحي إلى نوح عدم إيمان قومه ومعنى الكلام: الإياس من إيمانهم، واستدامة كفرهم تحقيقًا للوعيد بنزول العذاب بهم.

(٢) روي أنّ رجلاً من قوم نوح مرّ بنوح وهو يحمل طفلهُ فلما رأى الطفل نوحًا قال لأبيه: ناولني حجرًا فناوله إياها فرمى بها نوحًا فأدماه، فأوحى الله تعالى إلى نوح: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ.﴾.

(٣) الابتئاس: افتعال من البؤس الذي هو الهمّ والحزن. قال الشاعر:

وكم من خليل أو حميم رزأته ... فلم أبتئس والرزء فيه جليل

(٤) اختلفت الأقوال في مدّة صنع السفينة، أكثرها أنها: أربعون سنة. وجائز أن تكون أكثر، لأنّ عمل فرد واحد في صنع سفينة يتطلب وقتًا طويلاً أمّا حجمها فيدل على كبره ما حمل فيها، إذ حمل فيها كل مؤمن ومؤمنة ومن كل زوجين اثنين، فحجمها لا شك أنه واسع كبير، وقيل: كانت السفينة ثلاث طبقات: السفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور. والله أعلم، والحديث عن طول السفينة وعرضها ومادتها كله من باب علم لا ينفع وجهالة لا تضر.

(٥) أي: يجب عليه وينزل به.

﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: أي هلاكًا لهم.

معنى الآيات:

(٤٠) ما زال السياق في الحديث عن نوح وقومه، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي واصل صنع السفينة حتى إذا جاء أمرنا أي بإهلاك المشركين، وفار[١] التنور أي خرج الماء من داخل التنور وفار وتلك علامة بداية الطوفان فاحمل فيها أي في السفينة التي صنعت من كل زوجين[٢] اثنين أي من كل نوع من أنواع الحيوانات زوجين أي ذكرًا وأنثى. وأهلك أي واحمل أهلك من زوجة وولد كسام وحام ويافث إلا من سبق عليه القول أي بالإهلاك كامرأته واعلة وولده كنعان. ومن آمن[٣] أي واحمل من آمن من سائر الناس، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي نحو من ثمانين رجلًا و امرأة هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٤٠).

(٤١) أما الثانية فقد أخبر تعالى فيها أن نوحًا قال لجماعة المؤمنين: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا[٤] وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي باسم الله تجري وباسم الله ترسو أي تقف ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ[٥]﴾ أي فهو لا يهلكنا بما قد يكون لنا من ذنب ويرحمنا فينجينا ويكرمنا.

(٤٢) وقوله تعالى في الآية الثالثة (٤٢): ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ وصف للسفينة وهي تغالب الماء وتمخر عبابه وأمواج الماء ترتفع حتى تكون كالجبال في ارتفاعها وقبلها نادى نوح ابنه كنعان، وهو في هذه الساعة في معزل[٦] أي من السفينة حيث رفض الركوب فيها لعقوقه وكفره[٧] فقال له: ﴿يَٰبُنَىَّ[٨] ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فتغرق كما يغرقون فأجاب الولد قائلًا:

(٤٣) ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي يمنعني منه حتى لا أغرق، فأجابه نوح قائلًا: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي بعذاب الكافرين ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي الله فهو المعصوم. قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ أي بين الولد العاق والوالد الرحيم ﴿فَكَانَ﴾ أي الولد ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

(٤٤) وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ أي اشربيه وابتلعيه، ويا سماء أقلعي أي من الصب والإمطار، والآمر للأرض والسماء هو الله تعالى. ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي نقص ونضب. ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ[٩]﴾ أي ورست السفينة بركابها على الجودي وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هلاكًا لهم فلم يبقَ منهم أحد إذ أخذهم الطوفان وهم ظالمون بدأ الطوفان أول يوم من رجب واستمر ستة أشهر حيث رست السفينة في أول محرم.

---

(١) الفوران: غليان القدر، ويطلق على نبع الماء بشدّة تشبيهًا بفوران ماء في القدر إذا غلى، والتنور: اسم لموقد النار للخبز.

(٢) قرأ حفص: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بتنوين كل فالتنوين عوض عن مضاف إليه أي: من كل المخلوقات، و ﴿زَوْجَيْنِ﴾ مفعول لـ (احمل)، واثنين: نعت له وقرأ الجمهور بإضافة كلّ إلى زوجين، والمراد بالزوجين هنا: الذكر والأنثى من كل نوع من أنواع الحيوانات.

(٣) ومن آمن: أي: كل المؤمنين.

(٤) جائز أن يكون القائل: ﴿ٱرْكَبُوا۟﴾ الله جلّ جلاله، وجائز أن يكون نوحًا عليه السلام والركوب: العلو على ظهر شيء، وقال: فيها، ولم يقل عليها: لأنها ظرفٌ لهم يدخلون فيها.

(٥) قرأ الجمهور بضم الميم في كل من ﴿مُجراها﴾، ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ وهما مصدران من: أجرى وأرسى، وقرأ عاصم بفتح ميم ﴿مَجراها﴾، وضم ميم ﴿مُرساها﴾ كالجمهور، ولم يفتح ميم **مرساها** لاشتباهه حينئذ، المرسى مكان الرسو، وقرىء: ﴿مُجْريها﴾ و﴿مرسيها﴾ باسم الفاعل أي: بسم الله مجريها ومرسيها.

(٦) روي أن النبي ﷺ قال: «**أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم**: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١)﴾».

(٧) وقيل: في معزل أي: من دين أبيه.

(٨) قرأ حفص: ﴿يا بنيَّ﴾ بفتح الياء المشددة وكَسَرَهَا غير عاصم.

(٩) ﴿ٱلْجُودِىِّ﴾ أحد جبال ثلاثة أكرمهم الله تعالى، الجودي بإرساء السفينة عليه، وطور سينا: بمناجاة موسى عليه، وحراء بتعبد النبي ﷺ فيه ونزول جبريل عليه فيه.

قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾

٢٢٧

هداية الآيات:

١ ـ الإيمان ينجي، والكفر يهلك ويردي.

٢ ـ مشروعية التسمية عند الركوب في سفينة أو غيرها.

٣ ـ عقوق الوالدين كثيرًا ما يسبب الهلاك في الدنيا، أما عذاب الآخرة فهو لازم له.

٤ ـ مظهر من مظاهر رحمة الوالد بولده.

٥ ـ مظاهر عظمة الرب تعالى وإطاعة الخلق أمره حتى الأرض والسماء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٥ ـ ٤٩]

﴿٤٥﴾ ﴿مِنۡ أَهۡلِي﴾: أي من جملة أهلي من أزواج وأولاد. ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾: أي الثابت الذي لا يخلف.

﴿٤٦﴾ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾: أي إن سؤالك هذا إياي عمل غير صالح. ﴿أَعِظُكَ﴾: أي أنهاك وأخوفك من أن تكون من الجاهلين. ﴿مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: أي من الذين لا يعرفون جلالي وصدق وعدي ووفائي فتسألني ما ليس لك به علم.

﴿٤٨﴾ ﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾: أي بالأرزاق والمُتع إلى نهاية آجالهم ثم يحل بهم عذابي وهم الكفرة.

﴿٤٩﴾ ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾: أي الذين يتقون الله فيعبدونه ولا يشركون به شيئًا.

معنى الآيات:

﴿٤٥﴾ ما زال السياق الكريم في الحديث عن نوح وقومه، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ﴾ أي دعاه سائلًا ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾[1] ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، وهذا كان منه حال الإركاب في الفلك، وامتناع ولده كنعان من الركوب أي رب إن ولدي كنعان من زوجتي ومن جملة أولادي، وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي ومن معي من المؤمنين، ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي الذي لا خلف فيه أبدًا، ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أعلمهم وأعدلهم، وهذا ابني قد استعصى عنّي ولم يركب معي وسيهلك مع الهالكين إن لم ترحمه يا رب العالمين فأجابه الرب تبارك وتعالى بقوله الحق:

﴿٤٦﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ أي الذين وعدتك بإنجائهم لأنه على غير دينك وعلى خلاف منهجك، ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ[2] غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ أي إن سؤالك هذا إليّ بإنجاء ولدك وهو كافر على غير ملتك، وقد أعلمتك إني مغرق الكافرين. سؤالك هذا عمل غير صالح يصدر عنك ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾ أي أنهاك وأخوفك ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فتسألني ما ليس لك به علم.

﴿٤٧﴾ قال نوح: ﴿رَبِّ﴾ أي يا رب إني أعوذ بك أي أستجير وأتحصن بك أن أسألك بعد الآن ما ليس لي به علم. وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين أي الذين غبنوا أنفسهم حظوظها فهلكوا.

---

(١) أي: الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق، وسأل نوح ربّه نجاة ولده لقوله تعالى: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ وكان كنعان يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

(٢) قرأ ابن عباس، وعروة وعكرمة، ويعقوب، والكسائي: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ أي: إن ابنك عمل عملًا غير صالح، وهو الكفر والتكذيب وقرأ الباقون: ﴿عملٌ غير صالح﴾ أي: ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف كقول الشاعر:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكرت ... فإنما هي إقبال وإدبار

أي: ذات إقبال وإدبار.

(٤٨) فأجابه الرب[1] تعالى ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾ من السفينة أنت ومن معك من المؤمنين بسلام منا أي بأمن منا وتحيات، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك أي من ذرية من معك، فلا تخافوا جوعًا ولا شقاء، وأمم من ذرية من معك سنمتعهم متاع الحياة الدنيا بالأرزاق ثم يمسهم منا عذاب أليم يوم القيامة لأنهم ينحرفون عن الإسلام ويعيشون على الشرك والكفر. وهذا من علم الغيب الذي أخبر الله تعالى به فكان كما أخبر فقد نشأت أجيال وأجيال من ذرية نوح منهم الكافر ومنهم المؤمن وفي الجميع ينفذ حكم الله ويتم فيهم وعده ووعيده.

(٤٩) وقوله تعالى في الآية (٤٩) وهي الأخيرة في هذا السياق يقول تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ[2] نُوحِيهَآ﴾ أي هذه القصة التي قصصناها عليك من أنباء الغيب الذي لا يعلم تفصيله إلا الله نوحيها إليك ضمن آيات القرآن ما كنت تعلمها أنت ولا قومك على وجه التفصيل من قبل هذا القرآن إذًا فاصبر يا رسولنا على أذى قومك مبلغًا دعوة ربك حتى يأتيك نصرنا فإن العاقبة[3] الحسنى الحميدة دائمًا للمتقين ربهم بطاعته والصبر عليها حتى يلقوه مؤمنين صابرين محتسبين.

هداية الآيات:

١ - رابطة الإيمان والتقوى أعظم من رابطة النسب.

٢ - حرمة العمل بغير علم فلا يحل القدوم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه.

٣ - ذم الجهل وأهله.

٤ - شرف نوح عليه السلام وأنه أحد أولي العزم من الرسل.

٥ - بيان العبرة من القصص القرآني وهي تسلية الرسول ﷺ والمؤمنين.

٦ - تقرير نبوة الرسول ﷺ وإثباتها ببرهان عقلي وهو الإخبار بالغيب الذي لا يعلم إلا من طريق الوحي.

٧ - بيان فضل الصبر، وأن العاقبة الحميدة للمتقين وهم أهل التوحيد والعمل الصالح.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٠ - ٥٢]

(٥٠) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ[4] هُودٗاۚ﴾: أي وأرسلنا إلى قبيلة عاد[5] أخاهم في النسب لا في الدين أخاهم هودًا. وهود من قبيلة عاد وعاد من ولد سام بن نوح عليه السلام. ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي اعبدوه وحده ولا تعبدوا معه غيره. ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾: أي ليس لكم معبود بحق يستحق عبادتكم غيره. ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾: أي ما أنتم في تأليه غير الله من الأوثان إلا كاذبون.

(٥١) ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾: أي لا أطلب منكم أجرًا على إبلاغي دعوة التوحيد إليكم. ﴿فَطَرَنِيٓۚ﴾: أي خلقني.

(٥٢) ﴿مِّدۡرَارٗا﴾: أي كثيرة الدرور للمطر النازل منها. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾: أي ولا تعرضوا عن دعوة التوحيد مجرمين على أنفسكم بالشرك بالله.

معنى الآيات:

(٥٠) هنا شروع في قصة هود مع قومه عاد بعد قصة نوح عليه السلام ومغزى القصة تقرير توحيد الله ونبوة رسول الله محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ أي وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هودًا وهو أخوهم في النسب وأول من تكلم بالعربية فهو أحد أربعة أنبياء من العرب وهم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد ﷺ. وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي قال هود لقومه بعد أن أرسله الله إليهم: يا قوم اعبدوا الله، أي وحدوه في عبادته فلا تعبدوا معه غيره فإنه ما

---

(١) وجائز أن يكون القائل: ﴿ٱهۡبِطۡ﴾: الملائكة عليهم السلام بإذن الله تعالى.

(٢) اشتملت الآية على ثلاثة أمور هي: الامتنان والصبر، والتسلية، فالامتنان في قوله: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾ والموعظة في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ إلخ.. والتسلية في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

(٣) العاقبة في الدنيا بالظفر، وفي الآخرة بالفوز وهو النجاة من النار، ودخول الجنة.

(٤) وجائز أن تكون إخوة بني آدم إذ الكل من آدم عليه السلام.

(٥) هما: عادان، الأولى والثانية لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ (٥٠)﴾ فهؤلاء هم عاد الأولى، وأمّا الأخرى فالله أعلم بها.

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

لكم من إله غير[1] الله سبحانه وتعالى. وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي ما أنتم في عبادة غير الله من الأصنام والأوثان إلا كاذبون، إذ لم يأمركم الله تعالى ربكم بعبادتها، وإنما كذبتم عليه في ذلك.

﴿٥١﴾ وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ يريد لا أسألكم على دعوتي إياكم إلى توحيد ربكم لتكملوا بعبادته وتسعدوا أجرًا أي مالاً ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ أي ما أجري إلا على الله الذي خلقني. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2] أي أفلا تعقلون أنّي لو كنت أبغي بدعوتي إلى التوحيد أجرًا لطلبت ذلك منكم، غير أني لم أطلب من غير ربي أجرًا فبان بذلك صدقي في دعوتكم ونصحي لكم.

﴿٥٢﴾ وقوله تعالى عن قول هود ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ يخبر تعالى أن هودًا نادى قومه فقال: يا قوم استغفروا ربكم، أي آمنوا به واطلبوا منه المغفرة لذنوبكم، ثم توبوا إليه، أي ارجعوا إلى عبادته وحده بما شرع لكم على لسان نبيكم، واتركوا عبادة غيره يكافئكم بأن يرسل السماء عليكم مدرارًا[3] أي بالأمطار المتتالية بعد الذي أصابكم من الجفاف والقحط والجدب، ويزدكم قوة روحية إلى قوتكم المادية، وقوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ ينهاهم ناصحًا لهم أن يرفضوا نصيحته ويرجعوا إلى عبادة الأوثان فيُجْرِمُوا على أنفسهم بإفسادها بأوضار الشرك والعصيان.

هداية الآيات:

١ - دعوة الرسل من نوح إلى محمد ﷺ واحدة وهي: أن يُعبَدَ الله وحده.

٢ - تقرير مبدأ لا إله إلا الله.

٣ - المشركون والمبتدعون الكل مفترون على الله كاذبون حيث عبدوه بما لم يشرع لهم.

٤ - وجوب الإخلاص في الدعوة.

٥ - فضل الاستغفار ووجوب التوبة.

٦ - تقديم الاستغفار على التوبة مشعر بأن العبد إذا لم يعترف أولاً بذنبه لا يمكنه أن يتوب منه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٣ - ٥٧]

﴿٥٣﴾ ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾: أي بحجة وبرهان على صحة ما تدعونا إليه من عبادة الله وحده. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا﴾: أي عبادة آلهتنا لأجل قولك إنها لا تستحق أن تعبد.

﴿٥٤﴾ ﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾: أي أصابك. ﴿بِسُوٓءٍ﴾: أي بِخَبَل فأنت تهذي وتقول ما لا يقبل ولا يعقل.

﴿٥٥﴾ ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: أي لا تمهلون.

﴿٥٦﴾ ﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾: أي مالكها وقاهرها ومتصرف فيها. فلا تملك نفعًا ولا ضرًا إلا بإذنه. ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي على طريق الحق والعدل.

﴿٥٧﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾: أصلها تتولوا فعل مضارع حذفت منه إحدى التاءين ومعناه تُدبروا. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾: أي رقيبٌ ولا بد أنه يجزي كل نفس بما كسبت.

---

(١) يصح في: ﴿غَيْرُ﴾ الجر والرفع والنصب، فالجرّ على اللفظ، والرفع على الموضع والنصب على الاستثناء.

(٢) وجائز أن يكون ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لما جرى لقوم نوح لمّا كذّبوا الرسل، وما في التفسير أولى وأكثر فائدة.

(٣) أي: كثيرة المطر المتتابع الذي يتلو بعضهُ بعضًا، يقال: درّت السماء تدرّ فهي مدرار، وكان قوم هود أهل بساتين وزروع حياتهم متوقفة على المطر.

معنى الآيات:

(٥٣) ما زال السياق في قصة هود مع قومه إذ أخبر تعالى عن قيل قوم هود إلى هود فقال: ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي بحجة أو برهان على صحة ما تدعونا إليه من عبادة الله وترك عبادة آلهتنا والاعتراف بنبوتك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ أي عبادتها ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ أي من أجل قولك أنها لا تستحق أن تعبد لكونها لا تنفع ولا تضر، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمتابعين لك على دينك ولا مصدقين لك فيما تقول.

(٥٤) ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ[1] بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي ما نجد ما نقول فيك إلا أن بعض آلهتنا التي تسبها وتشتمها قد أصابتك بسوء بخبل وجنون فأنت تهذر وتهذي ولا تدري ما تقول. فأجابهم قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فأعلن براءته في وضوح من آلهتهم وأنه لا يخافها إبطالاً لدعواهم أنها أصابته بسوء، وأعلمهم أنه يُشهد الله على ذلك، ثم أمرهم أن يشهدوا هم كذلك[2].

(٥٥) وقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله من سائر الآلهة والشركاء، ثم تحداهم مستخفًا بهم وبآلهتهم، فقال: ﴿فَكِيدُونِي[3] جَمِيعًا﴾.

(٥٦) أي احتالوا على ضري ثم لا تنظرون أي لا تؤخرون ولا تمهلون، ثم كشف لهم عن مصدر قوته وهو توكله على ربه فقال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي فوضت أمري إليه وجعلت كل ثقتي فيه فهو لا يسلمني إليكم ولا يخذلني بينكم. ثم أعلمهم بإحاطة قدرة الله بهم وقهره لهم فقال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ[4] إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ[5]﴾ أي قاهر لها متحكم فيها يقودها حيث شاء وينزل بها من العذاب ما يشاء، ثم أعلمهم أن ربّه تعالى على طريق العدل والحق فلا يُسلط أعداءه على أوليائه، فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فلذا أنا لست بخائف ولا وجل.

(٥٧) ثم قال لهم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي فإن تدبروا عن الحق وتعرضوا عنه فغير ضائري ذلك إذ أبلغتكم ما أرسلني به ربي إليكم وسيهلككم ويستخلف قومًا غيركم[6]، ولا تضروه شيئًا من الضرر لا قليلاً ولا كثيرًا، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي رقيب، وسيجزي كلاً بما كسب بعدله ورحمته. وله الحمد والمنة.

هداية الآيات:

١ - بيان مدى مجاحدة ومكابرة المشركين في كل زمان ومكان.

٢ - تشابه الفكر الشركي وأحوال المشركين إذ قول قوم هود ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾.. إلخ يردده جهلة المسلمين وهو فلان ضربه الولي الفلاني.

٣ - مواقف أهل الإيمان واحدة فما قال نوح لقومه متحديًا لهم قاله هود لقومه.

٤ - تقرير مبدأ أن كل شيء في الكون خاضع لتدبير الله لا يخرج عما أراده له أو به.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٨ - ٦٠]

(٥٨) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي بعذابهم وهي الريح الصرصر. ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾: أي بفضل منا ونعمة.

(٥٩) ﴿جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: أي مستكبر عن الحق لا يذعن له ولا يقبله.

(٦٠) ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: أي ولعنة في يوم القيامة. ﴿أَلَآ بُعْدًا لِّعَادٍ﴾: أي

---

(١) عراه واعتراه بمعنى واحد، وهو: أصابك، يقال: اعتراني كذا، أي: أصابني، كما يقال: عراني نعاس أو تفكير أي: أصابني.

(٢) ما أمرهم بالشهادة لكونهم أهلاً لها، وإنما زيادة في التقرير، وخالف بين الفعلين حتى لا يسوي بين شهادة الله تعالى وشهادتهم.

(٣) في قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ علم من أعلام النبوة، إذ لا يقدر فرد أن يقول لأمّة بكاملها: افعلي بي من الشر والأذى ما تستطيعين إلاّ أن يكون نبيًا عالمًا بقدرة الله تعالى على حفظه وحمايته، وقد وقف هذا الموقف نوح من قبل ووقفه محمد بعد صلى الله عليهم أجمعين وسلم تسليمًا.

(٤) كل ما فيه روح يقال له: دابّ، والتاء فيه: للمبالغة، فيقال: دابة مبالغة في الدبيب.

(٥) الناصية: ما انسدل من شعر الرأس على الجبهة، والأخذ: الإمساك، وهذا كناية عن التمكن والقدرة الكاملة على التصرف في المخلوقات.

(٦) أي: يخلق من هم أطوع لله تعالى منكم فيعبدونه ويوحّدونه.

هلاكًا لعاد وإبعادًا لهم من كل رحمة.

معنى الآيات:

(٥٨) ما زال السياق في هود وقومه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي عذابنا[1] ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ[2] مِّنَّا﴾ أي بلطف وفضل ونعمة ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم[3] مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ هو عذاب يوم القيامة فهما نجاتان: نجاة في الدنيا من عذاب الريح العقيم الصرصر التي دمرت كل شيء بأمر ربها، ونجاة من عذاب النار يوم القيامة وهي أعظم.

(٥٩) وقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ﴾ أي هذه عاد قوم هود جحدوا بآيات[4] ربهم فلم يؤمنوا وعصوا رسله أي هودًا وجُمع لأن من كذب برسول كأنما كذب بكل الرسل ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ[5]﴾ أي اتبعوا أمر دعاة الضلالة من أهل الكبر والعناد للحق فقادوهم إلى سخط الله وأليم عقابه.

(٦٠) وقوله: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ أي أتبعهم الله غضبه وسخطه وهلاكه، ويوم القيامة كذلك وأشد. ويختم الحديث عن هذه القصة بقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ أي جحدوه فلم يعترفوا بألوهيته وعبادته ﴿أَلَا بُعۡدٗا[6]﴾ أي هلاكًا لعادٍ قوم هود. فهل يعتبر مشركو قريش بهذه القصة فيؤمنوا ويوحدوا فينجوا ويفلحوا.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد إذ القصة كلها مسوقة لذلك.

٢ - بيان سنة الله في الأولين وهي أنه يبعث الرسل مبشرين ومنذرين فإنِ استجابَ المرسل إليهم سعدوا، وإن لم يستجيبوا يمهلهم حتى تقوم الحجة عليهم ثم يهلكهم، وينجي المؤمنين.

٣ - التنديد بالكبر والعناد إذ هما من شر الصفات الخلقية في الإنسان.

٤ - اتباع الطغاة والظلم والكفر والفساد لا تقود إلا إلى الدمار والخسار.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦١ ـ ٦٣]

(٦١) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾: أي وأرسلنا إلى قبيلة ثمود. ﴿أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾: أي في النسب لأنه من قبيلة ثمود، بينه وبين ثمود أبي القبيلة خمسة أجداد.

﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾: أي جعلكم عمارًا فيها تعمرونها بالسكن والإقامة فيها.

﴿قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾: أي من خلقه، إذ العوالم كلها بين يديه ومجيب أي لمن سأله.

(٦٢) ﴿مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾: أي قبل أن تقول ما قلت كنا نرجو أن تكون سيدًا فينا.

(٦٣) ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾: أي أخبروني. ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾: أي على علم بربي علمنيه سبحانه وتعالى فهل يليق بي أن أعبد غيره. ﴿غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾: أي خسار وهلاك.

معنى الآيات:

(٦١) هذه بداية قصة صالح مع قومه إذ قال تعالى مخبرًا عن إرساله إلى قومه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ[7] أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ أي وأرسلنا إلى قبيلة ثمود بالحجر بين الحجاز والشام أخاهم في القبيلة لا في الدين صالحًا. فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ فناداهم بعنوان القومية جمعًا لقلوبهم على ما يقول لهم فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي آمنوا به ووحدوه في عبادته فلا تعبدوا معه أحدًا. إذ ليس

---

(١) بهلاك عاد.

(٢) في صحيح مسلم قوله ﷺ: **«لن ينجي أحدًا منكم عمله»** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»**.

(٣) قيل: كانوا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف نسمة ما بين رجل وامرأة.

(٤) المراد من الآيات: المعجزات وأنكروها.

(٥) العنيد والعنود، والعاند والمعاند: المعارض، المخالف.

(٦) والبعد: التباعد عن الخير أيضًا.

(٧) اختلف في صرف ثمود فمن القراء من صرفه أبدًا وإلى ثمود بالجر والتنوين ومنهم من صرفه في موضع من القرآن ومنه في موضع آخر ولكل فيما رآه وجه صحيح.

لكم من إله غيره. إذ هو ربكم أي خالقكم ورازقكم ومدير أمركم. ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ابتدأ خلقكم بخلق أبيكم آدم منها ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ[١] فِيهَا﴾ أي جعلكم تعمرونها بالسكن فيها والعيش عليها، إذًا فاستغفروه بالاعتراف بألوهيته ثم توبوا إليه فاعبدوه وحده ولا تشركوا في عبادته أحدًا. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أخبرهم بقرب الربّ تعالى من عباده وإجابته لسائليه ترغيبًا لهم في الإيمان والطاعة، وترك الشرك والمعاصي. هذا ما تضمّنته الآية الأولى (٦١).

(٦٢) أما الآية الثانية فقد تضمنت رد القوم عليه عليه السلام إذ قالوا بما أخبر تعالى عنهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي كنا نأمل فيك الخير ونرجو أن تكون سيدًا فينا حتى فاجأتنا بما تدعونا إليه من ترك آلهتنا لإلهك، ثم أنكروا عليه دعوته فقالوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ[٢] أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وأخبروه أنهم غير مطمئنين إلى صحة ما يدعوهم إليه من توحيد الله تعالى فقالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي موقع في الريب وهو اضطراب النفس وعدم سكونها إلى ما قيل لها أو أخبرت به، هذا ما تضمنته الآية الثانية (٦٢).

(٦٣) أما الآية الثالثة (٦٣) فقد تضمنت دعوة صالح لقومه بأسلوب رفيع رغبة منه في إقامة الحجة عليهم لعلهم يؤمنون ويوحدون إذ قال بما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي على علم يقيني بالإيمان بربي ووجوب عبادته وتوحيده وآتاني منه رحمة وهي النبوة والرسالة، فمن ينصرني[٣] من الله إن عصيته اللهم إنه لا أحد أبدًا إذًا فإنكم ما تزيدونني إن أنا أطعتكم في ترك عبادة ربي والرضا بعبادة آلهتكم إلا خسارًا[٤] وضلالاً في هذه الحياة وفي الحياة الآخرة.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

هداية الآيات:

١ - وحدة الوسيلة والغاية عند كافة الرسل فالوسيلة عبادة الله وحده، والغاية رضا الله والجنة.

٢ - تقديم الاستغفار على التوبة في الآية سره أن المرء لا يقلع عن ذنبه حتى يعترف به.

٣ - بيان سنة في الناس وهي أن المرء الصالح يرجى في أهله حتى إذا دعاهم إلى الحق وإلى ترك الباطل كرهوه وقد يصارحونه بما صارح به قوم صالح نبيّهم إذ قالوا: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾.

٤ - حرمة الاستجابة لأهل الباطل

---

(١) استعمر بمعنى أعمر كاستجاب بمعنى أجاب أعمركم جعلكم تعمرونها فأنتم عمارها إلى نهاية آجالكم المحددة لكم، وليس هذا من باب استسهل الشيء إذا وجده سهلاً واستصعبه إذا وجده صعبًا فإن الله تعالى لا يعجزه شيء وفي الآية دليل على العمرى وهو أن يقول مالك لآخر: أعمرتك داري فتصبح له واختلف هل تبقى لذريته بعد موته أو هي له ما دام حيًا فإذا مات عادت لمن أعمره إياها مذهبان مشهوران وفي الحديث: **«العمرى جائزة والعُمرى لمن وهبت له»**.

(٢) الاستفهام للإنكار.

(٣) الاستفهام للنفي أي: لا أحد ينصرني.

(٤) اختلف في توجيه قوله عليه السلام: **«فما تزيدونني غير تخسير»** فمن قائل: غير بصيرة بخسارتكم ومن قائل: التخسير لهم لا له عليه السلام وأوجه الأقوال ما في التفسير وأشكل لفظ زيادة التخسير والخروج منه أنه يعرض بهم فأفهمهم أنهم في خسران كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ ثم بشركهم يزدادون خسرانًا وتخسيرًا أعظم.

بأي نوع من الاستجابة، إذ الاستجابة لا تزيد العبد إلا خسارًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٤ ـ ٦٨]

(٦٤) ﴿ءَايَةً﴾: أي علامة على صدقي فيما جئتكم به من أنه لا إله إلا الله. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾: أي اتركوها ترعى في المراعي غير المحميّة لأحد. ﴿بِسُوٓءٍ﴾: أي كضربها أو قتلها، أو منعها من الماء الذي تشرب منه.

(٦٥) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي قتلوها بالعقر الذي هو قطع قوائمها بالسيف. ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ﴾: أي ابقوا في دياركم تأكلون وتشربون وتتمتعون في الحياة ثلاثة أيام. ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: أي صادق لم أكذبكم فيه ولم يكذبني ربي الذي وعدكم به.

(٦٧) ﴿فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾: أي ساقطين على ركبهم ووجوههم.

(٦٨) ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾: أي كأن لم يكونوا بها أمس ولم تعمر بهم يومًا.

معنى الآيات:

(٦٤) ما زال السياق في الحديث عن صالح وقومه. إنه لما دعاهم صالح إلى توحيد الله تعالى كذبوه وطالبوه بما يدل على صدق ما دعا إليه فأجابهم صالح بما أخبر تعالى به في هذه الآية ﴿وَيَٰقَوْمِ[1] هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ وذلك أنهم سألوا أن يخرج لهم ناقة من جبل أشاروا إليه فدعا صالح ربّه فاستجاب الله تعالى له وتمخض الجبل عن ناقة عشراء هي عجب في خلقتها وكمالها فقال عندئذ: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أضافها إلى الله لأنها كانت بقدرته ومشيئته ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي علامة لكم على صدق ما دعوتكم إليه من عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان، فذروها[2] تأكل في أرض الله أي خلّوها تأكل من نبات الأرض من المراعي العامة التي ليست لأحد، ولا تمسوها بسوء كعقرها أو ذبحها وقتلها فيأخذكم عذاب قريب[3] قد لا يتأخر أكثر من ثلاثة أيام.

(٦٥) فكذبوه فعقروها فلما رأى ذلك قال لهم بأمر الله ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ[4] ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي عِيشوا فيها ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي ذلك الوعد وعد صادق غير مكذوب فيه.

هذا ما دلت عليه الآيتان (٦٤ ـ ٦٥).

(٦٦) وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي لما اكتملت المدة التي حُددت لهم وجاء أمر الله بعذابهم نجى الله تعالى رسوله صالحًا والمؤمنين برحمة منه أي بلطف ونعمة منه عز وجل، وقوله: ﴿وَمِنْ خِزْيِ[5] يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجاهم من ذل ذلك اليوم وعذابه، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي إن ربك يا محمد قوي إذا بطش عزيز غالب لا يُغلب على أمر يريده. هذا ما دلت عليه الآية الثالثة (٦٦).

(٦٧) وأما الآيتان بعد فقد أخبر تعالى فيهما عن هلاك ثمود بقوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ[6] فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي إن الذين أشركوا بربهم وكذبوا بآياته أخذتهم الصيحة فانخلعت لها قلوبهم فهلكوا وأصبحوا في ديارهم جاثمين على ركبهم كأن لم يغنوا بديارهم ولم يعمروها.

(٦٨) قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ أي

---

(١) هذه ناقة الله لكم آية: مبتدأ وخبر وآية منصوب على الحال.

(٢) ذروها أمر، وماضيه وذر شاذ وكذا اسم الفاعل فلا يقال: وذر فهو واذر، والمستعمل منه المضارع والأمر لا غير. ومعناه ترك وبه استغني عن وذر.

(٣) أي: من يوم قتلها وهو كذلك فلم يتأخر.

(٤) ليتمتع كل واحد منكم في داره عن ثلاثة أيام، إذ عقروا الناقة يوم الأربعاء فأصبحوا يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة وأصبحوا يوم الجمعة وهو اليوم الثاني من أيام التمتع في ديارهم ووجوههم محمرة وأصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودة وأخذوا صباح الأحد.

(٥) من فضيحته وذلته وقرأ نافع بنصب: ﴿يومئذ﴾ وقرأ غيره بكسرها على الإضافة.

(٦) جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض فخروا على الأرض جاثمين جثوم الطير على الأرض إذا ألصقت بطونها بها وسكنت لا تتحرك.

هلاكًا لثمود، وبهذا التنديد والوعيد بعد الهلاك والعذاب المخزي انتهت قصة صالح مع قومه ثمود الذين آثروا الكفر على الإيمان والشرك على التوحيد.

هداية الآيات:

١ - إعطاء الله تعالى الآيات للمطالبين بها لا يستلزم الإيمان بها.

٢ - آية صالح عليه السلام من أعظم الآيات ولم يؤمن عليها قومه.

٣ - إقامة ثلاثة أيام لا يعد صاحبها مقيمًا وعليه أن يقصر الصلاة.

٤ - شؤم الظلم وسوء عاقبة أهله.

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٩ - ٧٣]

﴿٦٩﴾ ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: أي بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب. ﴿فَمَا لَبِثَ﴾: أي ما أبطأ. ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾: أي مشوي على الحجارة.

﴿٧٠﴾ ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾: أي لم يتناولوه فيأكلوا منه. ﴿نَكِرَهُمْ﴾: أي لم يعرفهم. ﴿وَأَوْجَسَ﴾: أي أحس بالخوف وشعر به. ﴿لُوطٍ﴾: هو ابن هاران أخي إبراهيم عليه السلام.

﴿٧٢﴾ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: أي يا ويلتي احضري هذا أوان حضورك. ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾: إشارة إلى إبراهيم إذ هو بعلها أي زوجها. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾: أي أمر يتعجب منه استبعادًا له واستغرابًا.

معنى الآيات:

﴿٦٩﴾ هذه بشارة إبراهيم عليه السلام التي بشره الله تعالى بها إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ[(١)]﴾ والمراد بالرسل جبريل وميكائيل وإسرافيل، إذ دخلوا عليه داره فسلموا عليه فرد عليهم السلام وهو معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا[(٢)] قَالَ سَلَٰمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن[(٣)] جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي لم يبطأ حتى جاء بعجل[(٤)] مشوي فحنيذ بمعنى محنوذ وهو المشوي على الحجارة. فقربه إليهم وعرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ[(٥)]﴾.

﴿٧٠﴾ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه أي لم يتناولوه نكرهم بمعنى أنكرهم وأوجس منهم خيفة لأن العادة أن الضيف إذا نزل على أحد فقدّم إليه طعامًا فلم يأكل عرف أنه ينوي شرًا، ولما رأت الملائكة ذلك منه قالوا له لا تخف وبينوا له سبب مجيئهم فقالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۞﴾ أي لإهلاكهم وتدميرهم بسبب إجرامهم. وكانت امرأته قائمة وراء الستار تخدمهم مع إبراهيم.

---

(١) قيل: إن البشرى كانت بإسحاق وقيل: بإهلاك قوم لوط والظاهر أنها بإسحق.

(٢) سلامًا نصب بوقوع فعل قالوا، نحو: قال فلان خيرًا ويجوز عربيّة الرفع والنصب في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾، والرفع يكون على تقدير مبتدأ أي: هو سلام، وسلام عليكم وجاز الابتداء بالنكرة لكثرة تكرار هذا اللفظ نظيره لا هم حيث حذفوا الألف واللام لكثرة استعمال اللهم.

(٣) إن هنا بمعنى حتى، قاله كبراء النحو أي: فما لبث حتى جاءهم.

(٤) في الآية دليل على فضل الضيافة ومشروعيتها والندب إليها إذ هي من خلق البشر وفي الحديث: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**» والضيافة ثلاثة أيام.

(٥) ذكر الطبري رحمه الله تعالى أن إبراهيم عليه السلام لما قدم العجل وقال للملائكة: **ألا تأكلون!** قالوا: لا نأكل طعامًا إلا بثمن قال: كلوه بثمنه قالوا: وما ثمنه؟ قال: أن تسموا الله في أوله وتحمدوه في آخره فقال جبريل لأصحابه: حق للرجل أن يتخذه ربه خليلاً.

(٧١) - (٧٢) فلما سمعت بنبأ هلاك قوم لوط ضحكت فرحًا بهلاك أهل الخبث فعندئذ بشرها الله تعالى على لسان الملائكة بإسحق ومن بعده يعقوب أي بولد وولد ولد، فلما سمعت البشرى صكت وجهها تعجبًا على عادة النساء وقالت: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي﴾ تشير إلى زوجها إبراهيم ﴿شَيۡخًاۖ﴾ أي كبير السن إذ كانت سنه يومئذ مائة سنة وسنها فوق التسعين. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ أي ولادتي في هذه السن أمر يتعجب منه.

(٧٣) ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ[١] ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ أي بيت إبراهيم، ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ أي محمود بإفضاله وإنعامه عليكم ﴿مَّجِيدٞ﴾ أي ذو مجد وثناء وكرم. وامرأة إبراهيم المبشرة هي سارة بنت عم إبراهيم عليه السلام، والبشارة هنا لإبراهيم وزوجه سارة معًا وهي مزدوجة إذ هي بهلاك الظالمين، وبإسحاق ويعقوب.

هداية الآيات:

١ - استحباب تبشير المؤمن بما هو خير له ولو بالرؤيا الصالحة.

٢ - مشروعية السلام[٢] لمن دخل على غيره أو وقف عليه أو مرّ به ووجوب رد السلام.

٣ - مشروعية خدمة أهل البيت[٣] لضيوفهم ووجوب إكرام الضيف وفي الحديث الصحيح «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**».

٤ - شرف أهل بيت إبراهيم عليه السلام.

شرح الكلمات:
[الآية: ٧٤ - ٧٦]

(٧٤) ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾[٤]: الفزع والخوف.

﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: أي الخبر السار المفرح للقلب. ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾: أي يخاصمنا.

﴿فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾: أي في شأن هلاك قوم لوط، ولوط هو رسول الله لوط بن هاران ابن عم إبراهيم.

(٧٥) ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ﴾: الحليم الذي لا يعامل بالعقوبة والأواه كثير التأوه مما يسيء ويحزن.

(٧٦) ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾: أي اترك الجدال في قوم لوط. ﴿غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾: أي لا يستطيع أحد رده لأن الله تعالى قد قضى به فهو واقع لا محالة.

معنى الآيات:

(٧٤) ما زال السياق الكريم في الحديث عن بشارة إبراهيم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ أي الفزع والخوف من الملائكة قبل أن يعرفهم وجاءته البشرى بالولد وبهلاك قوم لوط أخذ يجادل الملائكة في شأن هلاك قوم لوط لأجل ما بينهم من المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ فأجابوه بقولهم الذي ذكر تعالى في سورة العنكبوت: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

(٧٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ[٥]﴾ تعليل لمجادلة إبراهيم الملائكة في قوم لوط، وذلك أن إبراهيم رقيق القلب حليم لا يعامل بالعقوبة فأراد تأخير العذاب عنهم لعلهم يتوبون، وكان أواهًا ضارعًا قانتًا يكثر من قول آه إذا رأى أو سمع[٦] ما يسوء ومنيبًا أي توابًا رجاعًا إلى ربه في كل وقت. ولما ألحّ إبراهيم في مراجعة الملائكة قالوا له يا إبراهيم أعرض

---

(١) من أمر الله أي: قضائه وقدره.

(٢) في الآية دليل على أن لفظ السلام ينتهي بكلمة: وبركاته.

(٣) في الآية دليل على أن امرأة الرجل تعد من أهل بيته.

(٤) يقال: ارتاع يرتاع من كذا إذا خاف قال النابغة:

فارتاع من صوت كلاّب فبات له ... طوع الشوامت من خوف ومن ضرر

الشاعر يصف ثورًا وحشيًا والكلاّب: صاحب الكلاب.

(٥) المنيب: الراجع يقال: أناب إذا رجع وإبراهيم كان راجعًا إلى ربه في أموره كلها والأواه الكثير لقول أوّه وأواه اسم فعل. نائب مناب أتوجع.

(٦) جائز أن يكون هذا وحيًا أوحاه الله تعالى إلى إبراهيم وجائز أن يكون قول الملائكة، وأمر الله: قضاؤه بإهلاك قوم لوط.

عن هذا الجدال إنه قد جاء[1] أمر ربك أي بهلاك القوم.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي غير مدفوع من أحد وهو ما سَيُذْكَرُ في السياق بعد.

هداية الآيات:

١ - مشروعية الجدال عمن يُرجى له الخير من الناس، وذلك في غير الحدود الشرعية إذا رفعت إلى الحاكم.

٢ - فضيلة خلق الحلم.

٣ - فضل الإنابة إلى الله تعالى.

٤ - قضاء الله لا يرد أي ما حكم الله به لا بد واقع.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٧ ـ ٨٠]

(٧٧) ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾: أي حصل له غم وهم بمجيئهم إليه. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾[2]: أي عجزت طاقته عن تحمل الأمر. ﴿يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾: أي شديد لا يحتمل.

(٧٨) ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: أي مدفوعين بدافع الشهوة يمشون مسرعين في غير اتزان. ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: أي كبائر الذنوب بإتيان الذكور. ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾: أي لا تذلوني ولا تهينوني بالتعرض لضيفي. ﴿رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾: أي ذو رشد وعقل ومعرفة بالأمور وعواقبها. ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾: أي إلى عشيرة قوية تمنعني منكم. ولم تكن له عشيرة لأنه من غير ديارهم.

معنى الآيات:

(٧٧) هذه فاتحة حديث لوط عليه السلام مع الملائكة ثم مع قومه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا﴾ وهم ضيف إبراهيم عليه السلام ﴿لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أي تضايق وحصل له هم وغم خوفًا عليهم من مجرمي قومه. وقال هذا يوم عصيب، أي شديد لما قد يحدث فيه من تعرض ضيفه للمذلة والمهانة وهو بينهم. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٧٧).

(٧٨) أما الثانية (٧٨) فقد أخبر تعالى عن مجيء قوم لوط إليه وهو في ذلك اليوم الصعب والساعة الحرجة فقال عز وجل: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ[3] إِلَيْهِ﴾ أي مدفوعين بدافع الشهوة البهيمية مسرعين ومن قبل كانوا يعملون السيئات أي من قبل[4] مجيئهم كانوا يأتون الرجال في أدبارهم فأراد أن يصرفهم عن الضيف فقال: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ[5]﴾ أي هؤلاء نساء الأمة هن أطهر لكم فتزوجوهن. واتقوا الله أي خافوا نقمته ولا تخزوني في ضيفي أي لا تهينوني ولا تذلوني فيهم. أليس منكم رجل رشيد؟ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟

(٧٩) فأجابوه لعنهم الله قائلين: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي من رغبة وحاجة[6]، وإنك لتعلم ما نريد أي من إتيان الفاحشة في الرجال.

(٨٠) وهنا قال لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي أنصارًا ينصرونني وأعوانًا يعينونني لحلت بينكم وبين ما تشتهون، أو آوي إلى ركن شديد، يريد عشيرة قوية يحتمي بها فتحميه وضيفه من قومه المجرمين.

هداية الآيات:

١ ـ فضيلة إكرام الضيف وحمايته من كل ما يسؤه.

---

(١) في هذا دليل على رحمة إبراهيم القلبية فما أن يرى أو يسمع ما يضر أو يسيء إلاّ أخذ في التأوه والتحسر والتحزن، وقيل: اسم إبراهيم مركب من كلمتين: أب رحيم، وظهر هذا في سلوكه ورحمته.

(٢) أي: ضاق صدره بمجيئهم وكرهه، ويقال: ضاق وسعه وطاقته وأصله أن يذرع البعير بيديه في سيره ذرعًا على قدر سعة خطوه فإذا عمل عليه أكثر من طوقه ضاق عن ذلك وضعف ومد عنقه فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع.

(٣) الإهراع: السرعة في المشي مع رعدة. يقال: أهرع الرجل إهراعًا إذا أسرع في رعدة من برد أو غضب أو حُمّى فهو مهرع وفعله على صيغة المبني للمجهول دائمًا لأن أصله من مشي الأسير الذي يسرع به.

(٤) جائز أن يكون من قبل مجيء لوط إليهم، وجائز أن يكون من قبل مجيء الضيف وهم الرسل عليهم السلام.

(٥) أراد نساء الأمة إذ نبي القوم أب لهم شاهده قراءة ابن مسعود: **﴿وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم﴾** الآية من سورة الأحزاب.

(٦) قيل: إنهم كانوا خطبوا بناته ولم يزوجهم بهن إذ سنتهم أن الرجل إذا خطب امرأة ثم لم يعطها لا تحل له بعد ولذا قالوا: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وما في التفسير أوجه.

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

٢ - فظاعة العادات السيئة وما تحدثه من تغير في الإنسان.

٣ - بذل ما يمكن لدفع الشر لوقاية لوط ضيفه ببناته[(١)].

٤ - أسوأ الحياة أن لا يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

٥ - إظهار الرغبة في القوة لدفع الشر وإبعاد المكروه ممدوح.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨١ ـ ٨٣]

﴿٨١﴾ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾: أي اخرج بهم من البلد ليلاً. ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: أي بجزء وطائفة من الليل. ﴿ٱلصُّبْحُ﴾: هو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

﴿٨٢﴾ ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾: أي عالي القرية سافلها. ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾: أي من طين متحجر. ﴿مَّنضُودٍ﴾: أي منظم واحدة فوق أخرى بانتظام.

﴿٨٣﴾ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: أي معلمة بعلامة خاصة. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: أي معلمة من عند الله تعالى.

معنى الآيات:

﴿٨١﴾ ما زال السياق في الحديث عن ضيف لوط مع قومه إنه بعد أن اشتد بلوط الخوف وتأسف من عدم القدرة على حماية الضَّيف الكريم وقال متمنيًا: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. هنا قالت له الملائكة[(٢)]: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ إليك لنُنَجينَّك ونهلك قومك لن يصلوا إليك أي بأي سوء أو بأدنى أذى فأسر[(٣)] بأهلك أي فاخرج بهم بقطع من الليل أي بطائفة وجزء من الليل ولا يلتفت[(٤)] منكم أحد كراهة أن يرى ما ينزل بالقوم من العذاب فيصيبه كرب من ذلك إلا امرأتك وهي عجوز السوء فخلفها في القرية وإن خرجت دعها تلتفت فإنها مصيبها ما أصابهم. وسأل لوط عن موعد نزول العذاب بالقوم فقالوا إن موعدهم الصبح، وكان لوطُ قد استبطأ الوقت فقالوا له: أليس الصبح بقريب؟

﴿٨٢﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾[(٥)] أي فلما جاء أمر الله بعذاب القوم أمر جبريل عليه السلام فقلبها على أهلها فجعل عالي القرية سافلها، وسافلها عاليها وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل فمن كان خارج القرية أصابه حجر فأهلكه.

﴿٨٢﴾ ـ ﴿٨٣﴾ وقوله تعالى: ﴿مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً﴾ أي مركب بعضها فوق بعض معلمة كل حجر عليها اسم من يرمى به، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: أي

---

(١) هذا بناء على أن المراد من قوله هؤلاء بناتي: إنهن بناته لصلبه لا بنات أمته وحتى ولو كان المراد بنات القوم فإن فيه معنى دفع الشر بشر أخف.

(٢) أي: بعد أن رأت حزنه واضطرابه.

(٣) ﴿فأسر﴾ بقطع الهمزة و ﴿أسر﴾ بوصلها قراءتان سبعيتان وقيل: يقال: أسرى إذا مشى أول الليل، وسرى يسري إذا مشى آخر الليل.

(٤) ألاّ ينظر وراءه منكم أحد، أو لا يتخلف منكم أحد، أو لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع وما في التفسير أوجه وإلا امرأتك بالنصب على الاستثناء أي: فأسر بأهلك إلا امرأتك فاتركها فإنها من الغابرين أي: الهالكين.

(٥) جعلنا عاليها سافلها قيل: إن جبريل أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهي خمس: سدوم وعامورا ودادوما وضعوه وقتم، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها.

معلمة من عند ربك يا رسول الله، وما هي من الظالمين ببعيد أي وما تلك القرية الهالكة من الظالمين وهم مشركو العرب ببعيد، أو وما تلك الحجارة التي أهلك بها قوم لوط ببعيد نزولها بالظالمين.

هداية الآيات:

١ - استحباب السير في الليل لما فيه من البركة بقطع المسافات البعيدة بدون تعب.

٢ - كراهة التأسف لهلاك الظالمين.

٣ - مظاهر قدرة الله تعالى في قلب أربع مدن في ساعة فكان الأعلى أسفل[١] والأسفل أعلى.

٤ - وعيد الظالمين في كل زمان ومكان بأشد العقوبات وأفظعها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٤ - ٨٦]

(٨٤) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾: أي أرسلنا إلى مدين[٢] إلى أهل مدين. ﴿الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾: أي إذا بعتم لأحد فلا تنقصوا المكيال والميزان. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾: أي يحيط بكم من جميع جهاتكم فلا ينجو منه أحد منكم.

(٨٥) ﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي بالعدل أي بالمساواة والتساوي في البيع والشراء على حد سواء. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾: أي لا تنقصوهم حقوقهم التي هي لهم عليكم في الكيل والوزن وفي غير ذلك. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾: أي ولا تعثوا في الأرض بالفساد.

(٨٦) ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أي ما يبقى لكم بعد توفية المكيال والميزان خير لكم من الحرام الذي حرم الله عليكم. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾: أي رقيب أراقب وزنكم وكيلكم وإنما أنا واعظ لكم وناصح لا غير.

معنى الآيات:

(٨٤) هذا بداية قصص شعيب عليه السلام مع قومه أهل مدين قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم في النسب شعيبًا. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ[٣] اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ أي وحّدوا الله تعالى ليس لكم إله تعبدونه بحق إلا هو إذ هو ربكم الذي خلقكم ورزقكم ويدبر أمركم. وقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوا المكيال إذا كلتم لغيركم، والميزان إذا وزنتم لغيركم. وقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ أي في رخاء وسعة من الرزق، ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ[٤] يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ إن أصررتم على الشرك والنقص والبخس[٥] وهو عذاب يحيط بكم فلا يفلت منكم أحد.

(٨٥) وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أمر بتوفية المكيال والميزان بالعدل بعد أن نهاهم عن النقص تأكيدًا لما نهاهم عنه وليعطف عليه نهيًا آخر وهو النهي عن بخس الناس أشياءهم إذ قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي تنقصوهم حقوقهم وما هو لهم بحق من سائر الحقوق. ونهاهم عما هو أعم من ذلك فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تسعوا في الأرض بالفساد وهو شامل لكل المعاصي والمحرمات.

(٨٦) وقوله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ[٦] لَّكُمْ

---

(١) في الآية بيان عقوبة من عمل عمل قوم لوط وهي الإرسال من أعلى جبل ثم الرمي بالحجارة وهذا مذهب أبي حنيفة. وعند الشافعي أن يقتل الفاعل والمفعول به سواء من أحصن ومن لم يحصن، وقيل: غير المحصن يجلد، وفي الحديث: **«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**.

(٢) مدين أبو القبيلة وهو مدين بن إبراهيم عليهما السلام وكان متزوجًا بإحدى بنات لوط عليه السلام.

(٣) ناداهم بعنوان القومية، لأنّ القومي عادة لا يخون قومه وأرشدهم إلى ما يلي:

أ - عبادة الله وحده وفيه إصلاح عقائدهم وبصلاح عقائدهم تصلح جميع أمورهم.

ب - صلاح أعمالهم في تصرفاتهم في أمور دنياهم.

(٤) جائز أن يكون عذاب إبادة واستئصال وهو ما تم لهم بعد إصرارهم على الشرك والعصيان وجائز أن يكون عذاب يوم القيامة وهو كائن لا محالة.

(٥) في الحديث: **«ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء»**.

(٦) قال مجاهد: بقية الله خير لكم يريد طاعته، وقال الربيع: وصية الله وقال الفراء: مراقبة الله وقال ابن زيد: رحمة الله، وقال

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ (٨٩) وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ (٩٠) قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ (٩١) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ (٩٢) وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ (٩٣) وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ (٩٥) وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ (٩٧)

إن كنتم مؤمنين﴾ أي وما يبقى لكم بعد توفية الناس حقوقهم خير لكم مما تأخذونه بالنقص والبخس لما في الأول من البركة ولما في الثاني من المحق إن كنتم مؤمنين بشرع الله ووعده ووعيده، وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ أي بمراقب لكم حين تبيعون وتشترون، ولا بحاسب مُحصرٍ عليكم ظلمكم فأجازيكم به، وإنما أنا واعظ لكم ناصح ليس غير.

هداية الآيات:

١ - وحدة دعوة الرسل وهي البداية بتوحيد الله تعالى أولاً ثم الأمر والنهي لإكمال الإنسان وإسعاده بعد نجاته من الخسران.

٢ - حرمة نقص الكيل والوزن أشد حرمة[1].

٣ - وجوب الرضا بالحلال وإن قل، وسخط الحرام وإن كثر.

٤ - حرمة بخس الناس حقوقهم كأجور العمال، وأسعار البضائع ونحو ذلك.

٥ - حرمة السعي بالفساد في الأرض بأي نوع من الفساد وأعظمه تعطيل شرائع الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٧ ـ ٩٠]

(٨٧) ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾[2]: أي كثرة الصلاة التي تصليها هي التي أثرت على عقلك فأصبحت تأمرنا بما لا ينبغي من ترك عبادة آلهتنا والتصرف في أموالنا.

﴿ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾: أي ذو الحلم والرشد، والحلم ضد الطيش والرشد ضد السفه ولم يكن قولهم هذا مدحًا له وإنما هو استهزاء به.

(٨٨) ﴿أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ﴾: أي لا أريد أن أنهاكم عن الشيء لتتركوه ثم أفعله بعدكم. ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾: أي ما أريد إلا الإصلاح لكم. ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾: أي وما توفيقي للعمل الإصلاحي والقيام به إلا بفضل الله عليّ. ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾: أي أرجع في أمري كله.

(٨٩) ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾: أي لا تكسبنكم مخالفتي أن يحل بكم من العذاب ما حل بقوم نوح والأقوام من بعدهم. ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾: أي في الزمن والمكان إذ بحيرة لوط قريبة من بلاد مدين التي هي بين معان والأردن.

(٩٠) ﴿رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾: أي رحيم بالمؤمنين ودود محب للمتقين.

معنى الآيات:

(٨٧) ما زال السياق الكريم في الحديث عن شعيب عليه السلام مع قومه أهل مدين إنه لما أمرهم بعبادة الله تعالى وحده ونهاهم نقص الكيل والوزن وبخس الناس أشياءهم والسعي في الأرض بالفساد، إذ كانوا يكسرون الدراهم وينشرونها ويقطعون الطريق. فردوا عليه قوله بما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ[3] أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾؟ إنهم بهذا الخطاب ينكرون عليه نهيه لهم عن عبادة الأوثان والأصنام التي كان

= ابن عباس: رزق الله خير لكم، وقال الحسن: حظكم من ربكم خير لكم. كل هذا بشرط الإيمان والتوحيد وأرجح هذه الأقوال ما في التفسير.

(١) وشاهده من القرآن ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ (٣)﴾.

(٢) قُرِىء بالإفراد: ﴿أصلاتك﴾ وبالجمع ﴿أصلواتك﴾، والمعنى واحد إذ الإفراد اسم جنس شمل كل صلاة له فهو كالجمع.

(٣) روي أنهم كانوا يحذفون الدراهم أي: يقطعونها من أطرافها وهو تصرف فاسد ظالم حملهم عليه حب الدنيا والمال.

يعبدها آباؤهم من قبلهم كما ينكرون عليه نهيه لهم عن نقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم وأمره إياهم بالتزام الحق والعدل في ذلك، ينكرون عليه نهيه لهم وأمره إياهم وينسبون ذلك إلى كثرة صلاته فهي التي في نظرهم قد أصابته بضعف العقل وقلة الإدراك، وقولهم لـه: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ إنما هو تهكم[1] واستهزاء منهم لا أنهم يعتقدون حلم شعيب ورشده وإن كان في الواقع هو كما قالوا حليم رشيد إذ الحليم هو الذي لا يحمله الغضب أن يفعل ما لا يفعله في حال الرضا والرشيد خلاف السفيه الذي لا يحسن التصرف في المال وغيره، هذا ما تضمنته الآية الأولى (٨٧) وأما الآيات الثلاث بعدها فقد تضمنت رد شعيب عليه السلام على مقالتهم السابقة إذ قال: (٨٨) ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي على برهان وعلم يقيني بألوهيته ومحابه ومساخطه ووعده لأوليائه ووعيده لأعدائه، ورزقني منه رزقًا حسنًا أي حلالاً طيبًا أخبروني فهل يليق بي أن أتنكر لهذا الحق والخير وأُجارِيكُمْ على باطلكم. اللهم لا، وشيء آخر وهو أني ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه فإني لا آمركم بتوفية الكيل والوزن وأنقصها ولا بترك عبادة الأوثان وأعبدها، ولا أنهاكم عن كسر الدراهم[2] وأكسرها فأكون كمن يأمر بالشيء ولا يفعله، وينهى عن الشيء ويفعله فيستحق اللوم والعتاب ونزع الثقة منه، وعدم اعتباره فلا يؤخذ بقوله ولا يعمل برأيه. وأمر آخر هو أني ما أريد بما أمرتكم به ولا بما نهيتكم عنه إلا الإصلاح لكم ما استطعت ذلك وقدرت عليه. وما توفيقي في ذلك إلا بالله ربي وربكم عليه توكلت في أمري كله وإليه وحده أنيب، أي أقبل بالطاعة وأرجع بالتوبة. ثم ناداهم محذرًا إياهم من اللجاج والعناد فقال: ويا قوم لا يجرمنكم أي لا يحملنكم شقاقي أي خلافي على الاستمرار في الكفر والعصيان فيصيبكم عذاب مثل عذاب قوم نوح وهو الغرق أو قوم هود وهو الريح المدمرة أو قوم صالح وهو الصيحة المرجفة.

(٨٩) ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ في الزمن والمكان وقد علمتم ما حل بهم من دمار وخراب. أي لا يحملنكم شقاقي وعداوتي على أن ينزل بكم العذاب، واستغفروا ربكم مما أنتم عليه من الشرك والمعاصي، ثم توبوا إليه بالطاعة.

(٩٠) ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ لا يعذب من تاب إليه ودود يحب من أناب إليه.

هداية الآيات:

١ ـ التعريض القريب يُعطي حكم القذف الصريح[3].

٢ ـ كراهية إتيان الشيء بعد النهي عنه، وترك الشيء بعد الأمر به والحث عليه.

٣ ـ كراهية اللجاج والعناد لما يمنع من الاعتراف بالحق والالتزام به.

٤ ـ وجوب الاستغفار والتوبة من الذنوب.

٥ ـ وصف الرب تعالى بالرحمة والمودة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩١ ـ ٩٥]

(٩١) ﴿مَا نَفْقَهُ﴾: أي ما نفهم بدقة كثيرًا من كلامك. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾: أي أفراد عشيرتك. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾: أي بقوي ممتنع.

(٩٢) ﴿ظِهْرِيًّا﴾[4]: أي لم تأبهوا به ولم تلتفتوا إليه كالشيء الملقى وراء الظهر.

(٩٣) ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: أي على ما

---

(١) هو كقول خزنة جهنم لأبي جهل: ذق إنك أنت العزيز الكريم وقيل: إنهم وصفوه بالحلم والرشد لمعرفتهم بحلمه ورشده ولم يكن تهكمًا واستهزاء منهم. وجائز أن يكون هذا وذاك إذ ما بعد الكفر ذنب كما يقال.

(٢) لا خلاف في أن من كسر الدراهم أو بردها ليأخذ منها قد أفسد واقترف ما يستوجب العقوبة وهل هي ضرب وتعزير أو قطع يد خلاف وما يراه الحاكم كافيًا في الردع أجزأ ولا فرق في الكسر والبرد بين الدنانير والدراهم.

(٣) مأخوذ من قول قوم شعيب له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ وهم يعنون الأحمق السفيه. فمن قال لرجل في حال النزاع: أنت الطيب الطاهر فإنه يعرض به بأنه الخبيث الزاني فيحد حد القذف.

(٤) الظهري نسبة إلى الظهر على غير قياس وهو منصوب على الحال المؤكدة.

أنتم عليه من حال التمكن والقدرة.

(٩٤) ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾: أي صيحة العذاب التي أخذتهم. ﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي على ركبهم.

(٩٥) ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾: أي كأن لم يقيموا بها يومًا. ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾: أي هلاكًا لمدين قوم شعيب.

معنى الآيات:

(٩١) ما زال السياق في الحديث عن شعيب وقومه إنه بعد الحوار الذي دار بين شعيب وقومه يقول ويقولون وكان عليه السلام فصيحًا مؤيدًا من الله تعالى فيما يقول فأفحمهم وقطع الحجة عليهم، لجؤوا إلى أسلوب القوة والتهديد بل والشتم والإهانة وكان هذا منهم إيذانًا بقرب ساعة هلاكهم فقالوا فيما قصّ تعالى عنهم في هذه الآيات: ﴿يَٰشُعَيْبُ[١] مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ فقد نادوه ليسمع منهم ثم أعلموه أنهم لا يفقهون كثيرًا من كلامه مع أنه يخاطبهم بلغتهم، ولكنه الصلف والكبرياء فإن صاحبها لا يفهم ما يقوله الضعفاء. وقالوا له: وإنا لنراك فينا ضعيفًا وهو احتقار منهم له، وقالوا: ولولا رهطك لرجمناك[٢]، أي ولولا وجود جماعة من عشيرتك نحترمهم لرجمناك، أي لقتلناك رميًا بالحجارة، وأخيرًا وما أنت علينا بعزيز أي بممتنع لو أردناك. وهنا ردّ شعيب عليه السلام عليهم بقوله فقال ما أخبر تعالى به عنه:

(٩٢) ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ[٣] أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي غير مبالين بأمره ولا نهيه كما جعلتموه وراء ظهوركم لا تلتفتون إليه ولا تسمعون منه ولا تطيعونه، يا ويلكم ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي علمه فأعمالكم معلومة له لا يخفى منها عليه شيء ولسوف يجزيكم بها عاجلاً أو آجلاً، وقابل تهديدهم له بمثله فقال لهم:

(٩٣) ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على تمكنكم من عملكم ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي على تمكني من العمل الذي أعمله ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يذله ويهينه ومن هو كاذب منا فيعذب ويخزى ويذل ويهان أيضًا وعليه فارتقبوا يومذاك ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر.

(٩٤) قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي بالعذاب، ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي بفضل منا ونعمة من عندنا، ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي بالشرك والعصيان ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة العذاب[٤] التي ارتجفت لها قلوبهم وانخلعت فبركوا على ركبهم جاثمين هلكى لا يتحركون.

(٩٥) قال تعالى في بيان حالهم: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي كأن لم يقيموا في تلك الديار ويعمروها زمنًا طويلاً. ثم لعنهم فقال: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ بعدًا لها من الرحمة وهلاكًا، كما بعدت[٥] قبلها ثمود وهلكت.

هداية الآيات:

١ - بيان ما أوتي نبي الله شعيب العربي من فصاحة وبيان حتى قيل فيه خطيب الأنبياء.

٢ - اشتداد الأزمات مؤذن بقرب انفراجها[٦].

٣ - بيان فساد عقل من يهتم بتنفيذ أوامر الناس ويهمل أوامر الله تعالى ولا يلتفت إليها.

٤ - فضل انتظار الفرج من الله تعالى وهو الرجاء المأمور به.

---

(١) الاستفهام: إنكاري.

(٢) إما أن يكون قولهم هذا استخفافًا وتجاهلاً منهم وإما أن يكون ثقل عليهم فهم البعث الآخر والحساب فيه والجزاء بالجنة والنار.

(٣) رهط الرجل عشيرته وقولهم: لرجمناك جائز أن يراد به حقيقته وهو القتل رجمًا بالحجارة إذ كانوا يقتلون من أرادوا قتله كذلك، وجائز أن يكون لرجمناك بالقول سبًا وشتمًا كما قال الشاعر:

تراجمنا بمُر القول حتى ... نصير كأننا فرسا رهان

(٤) قيل: كانت الصيحة صيحة جبريل عليه السلام والله أعلم.

(٥) قرأ السلمي: ﴿بعُدت﴾ بضم العين ووجه بأنه لغة وتستعمل في الخير وفي الشر وأما بعِدت بكسر العين فإنها في الشر خاصة يقال: بعد يبعد بعدًا كفرح يفرح فرحًا إذا أبعد وهلك.

(٦) شاهده من القرآن ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾.

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

٥ - صدق وعد الله رسله وعدم تخلفه أبدًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٦ - ٩٩]

(٩٦) ﴿مُوسَىٰ﴾: هو موسى بن عمران كليم الله ورسوله إلى بني إسرائيل.

﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: هي التسع الآيات التي ذكر أكثرها في آية الأعراف.

﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي بحجة قوية على عدو الله فرعون فهزمه بها.

(٩٧) ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾: أي أشرف رجال دولة فرعون. ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾: أي بذي رشد بل هو السفه كله.

ز (٩٨) ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾: أي تقدمهم إلى النار فأوردهم النار. ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾: أي قبح وساء وردًا يورد النار.

(٩٩) ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾: أي ألحقتهم في دار الدنيا لعنة وهي غرقهم. ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾: أي قبح الرفد الذي هو العطاء المرفود به أي المعطى لهم. والمراد لعنة الدنيا ولعنة الآخرة.

معنى الآيات:

(٩٦) هذه لمحة خاطفة لقصة موسى عليه السلام مع فرعون تضمنتها أربع آيات قصار قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ أي بعد إرسالنا[1] شعيبًا إلى أهل مدين أرسلنا موسى بن عمران مصحوبًا بآياتنا الدالة[2] على إرسالنا له وصدق ما يدعو إليه ويطالب به وسلطان مبين[3] أي وحجة قوية ظاهرة على وجوب توحيد الله تعالى وبطلان ألوهية من عداه كفرعون عليه لعائن الله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾.

(٩٧) وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أرسلناه بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وأشراف جنده وزعماء دولته فأمرهم موسى باتباع الحق وترك الباطل فأبوا واتبعوا أمر فرعون فأضلهم. ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ حتى يهدي إلى الفلاح من تبعه.

(٩٨) قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ[4] يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي يتقدمهم إلى النار فيوردهم حياضها ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي نار جهنم.

(٩٩) قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ أي فرعون وقومه لعنوا في الدنيا، ويوم القيامة يلعنون أيضًا ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ[5]﴾ وهما لعنة الدنيا ولعنة الآخرة، والرفد العون والعطاء والمرفود هو المعان به والمعطى لمن يرفد من الناس.

هداية الآيات:

١ - من كتب الله شقاءه لا يؤمن بالآيات بل يردها ويكذب بها حتى يهلك.

٢ - قوة الحجج وكثرة البراهين لا تستلزم إذعان الناس وإيمانهم.

٣ - التحذير من اتباع رؤساء الشر وأئمة الفساد والضلال.

٤ - ذم موارد الباطل والشر والفساد.

٥ - شر المعذبين من جمع له بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) تابع الحق عز وجل إرسال الرسل بيانًا للمحجة وإقامة للحجة.

(٢) التوراة والمعجزات أيضًا إذ كلاهما آيات.

(٣) هي العصا فإنها أكبر برهان وأعظم حجة وأقوى سلطان.

(٤) يقال: قدمه يقدمه إذا تقدمه وأما قدم يقدم فإنه بمعنى أتى وجاء وفد.

(٥) رفده يرفده رفدًا إذا أعانه وأعطاه واسم العطية الرِّفد بكسر الراء وسكون الفاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٠ ـ ١٠٢]

(١٠٠) ﴿ذَلِكَ﴾: الإشارة إلى قصص الأنبياء الذي تقدم في السورة. ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى﴾: أي أخبار أهل القرى قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾: منها مدن بقيت آثارها كمدائن صالح، ومنها مدن لم يبقَ منها شيء كديار عاد.

(١٠١) ﴿الَّتِي يَدْعُونَ﴾: أي يعبدونها بالدعاء وغيره كالذبح لها والنذور والحلف بها. ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: أي تخسير وهلاك.

(١٠٢) ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾: أي عاقبها بذنوبها. ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: أي موجع شديد الإيجاع.

معنى الآيات:

(١٠٠) لما قصّ تعالى على رسوله ﷺ في هذه السورة ما قصّ من أخبار الأمم السابقة خاطبه قائلاً: ﴿ذَلِكَ﴾[1] أي ما تقدم في السياق ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى﴾ أي أهلها نقصه عليك تقريرًا لنبوتك وإثباتًا لرسالتك وتثبيتًا لفؤادك وتسلية لك. وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ[2]﴾ أي ومن تلك القرى البائدة منها آثار قائمة من جدران وأطلال، ومنها ما هو كالحصيد ليس فيه قائم ولا شاخص لاندراسها وذهاب آثارها.

(١٠١) وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم ولكن هم ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي والمجاحدة لآياتنا والمكابرة لرسولنا. وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ[3]﴾ أي لم تغن عنهم أصنامهم التي اتخذوها آلهة فعبدوها بأنواع العبادات من دعاء ونذر وذبح وتعظيم إذ لم تغن عنهم شيئًا من الإغناء ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بعذابه ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ[4]﴾ أي تخسير ودمار وهلاك.

(١٠٢) ثم في الآية الأخيرة قال تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي وكذلك الأخذ المذكور أخذ ربك ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي العواصم والحواضر بمن فيها والحال[5] أنها ظالمة بالشرك والمعاصي. ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي ذو وجع شديد لا يطاق فهل يعتبر المشركون والكافرون والظالمون اليوم فيترك المشركون شركهم والكافرون كفرهم والظالمون ظلمهم قبل أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم؟.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة محمد ﷺ ونشر رسالته وتسليته بما يقص الله عليه من أنباء السابقين.

٢ - تنزه الله تعالى عن الظلم في إهلاك أهل الشرك والمعاصي.

٣ - آلهة المشركين لم تغن عنهم عند حلول النقمة بهم شيئًا.

٤ - التنديد بالظلم وسوء عاقبة الظالمين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٣ ـ ١٠٩]

(١٠٣) ﴿لَآيَةً﴾: أي علامة على أن الذي عذّب في الدنيا قادر على أن يعذب في الآخرة. ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: أي يشهده جميع الخلائق وهو يوم القيامة.

(١٠٤) ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾: أي أجل الدنيا المعدود الأيام والساعات.

(١٠٥) ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: أي إلا بإذن الله تعالى. ﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾: أي فمن

---

(١) ذلك: مبتدأ أي: ذلك النبأ المتقدم من أنباء القرى ونقصه في محل رفع خبر ورجح أن يكون ذلك خبرًا والمبتدأ محذوف تقديره: الأمر ذلك.

(٢) شاهده من قول الشاعر:

والناس في قسم المنية بينهم ... كالزرع منه قائم وحصيد

(٣) من شيء نكرة في سياق النفي ومؤكده بمن الزائدة فدل هذا على أن آلهتهم لم تدفع عنهم ما أراد الله بهم من الهلاك أدنى شيء.

(٤) شاهده في قول لبيد:

فلقد بليت وكل صاحب جدة ... يبلى بعود وذاكم التتبيب

أي: التخسير والتباب الهلاك والخسران.

(٥) قوله: وهي ظالمة: الجملة في محل نصب حال من المفعول.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

أهل الموقف من هو شقي أزلاً وسيدخل النار، ومنهم سعيد أزلاً وسيدخل الجنة.

(١٠٦) ﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾: أي صوت شديد وهو الزفير وصوت ضعيف وهو الشهيق.

(١٠٨) ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾: أي غير مقطوع بل هو دائم أبدًا.

(١٠٩) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي في شك من بطلان عبادة هؤلاء المشركين. ﴿نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾: ما قدر لهم من خير أو شر رحمة أو عذاب.

معنى الآيات:

(١٠٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن في أخذ الله تعالى للأمم الظالمة وتعذيبها بأشد أنواع العذاب آية أي علامة واضحة على أن من عذّب في الدنيا قادر على أن يعذب في الآخرة فالمؤمنون بلقاء الله تعالى يجدون فيما أخبر تعالى به من إهلاك الأمم الظالمة آية هي عبرة لهم فيواصلون تقواهم لله تعالى حتى يلاقوه وهم به مؤمنون ولأوامره ونواهيه مطيعون. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ(١) لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي ذلك الذي فيه عذاب الآخرة هو يوم القيامة حيث يجمع فيه الناس لفصل القضاء ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ إذ تشهده الخلائق كلها.

(١٠٤) وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۞﴾ أي وما يؤخر يوم القيامة إلا لإكمال عمر الدنيا المعدود السنين والأيام بل والساعات.

(١٠٥) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾(٢) أي يوم القيامة ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ(٣) إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي(٤) بإذن الله تعالى وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي والناس فيه ما بين شقي وسعيد، وذلك عائد إلى ما كتب لكل إنسان من شقاوة أو سعادة في كتاب المقادير، أولاً، ولما كسبوا من خير وشر ثانيًا.

(١٠٦) وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ أي في حكم الله وقضائه ففي النار لهم فيها زفير وهو صوت شديد وشهيق(٥) وهو صوت ضعيف والصوتان متلازمان إذ هما كأول النهيق وآخره عند الحمار.

(١٠٧) وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في النار ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي مدة دوامهما، وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أن لا يخلد فيها وهم أهل التوحيد ممن ماتوا على كبائر الذنوب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي إن ربك أيها الإنسان فعال لما يريد إذا أراد شيئًا فعله لا يحال بينه وبين فعله(٦).

(١) الجمع أصله لمّ الشتات والمتفرق منه يكون واحدًا والجمع حشر الناس يوم القيامة في صعيد فصل القضاء.

(٢) قرىء: ﴿يوم يأت﴾ بدون ياء لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة.

(٣) لا تكلم: الأصل لا تتكلم بتائين وحذفت إحداهما للتخفيف وقرىء: ﴿يأتي﴾ بالياء وهو الأصل والحذف للتخفيف لا غير، كقول الرجل: لا أدر فيما لا يدري.

(٤) وردت آيات فيها نفي الكلام عن أهل الموقف إلا بإذن الله تعالى وأخرى تثبت ذلك والجمع أن للمحشر مواقف وأحوالاً فيؤذن لهم فيها أحيانًا ولا يؤذن لهم أحيانًا أخرى ولا خلاف في أنه لا يتكلم أحد إلا بإذن الله تعالى له بالكلام.

(٥) اختلف في تحديد معنى كل من الزفير والشهيق وما في التفسير خلاصته وهما أصوات المحزونين والزفير مأخوذ من الزّفر وهو الحمل على الظهر لشدته، والشهيق النفس الطويل مأخوذ من قولهم: جبل شاهق طويل.

(٦) أي: لا يرد قضاؤه ولا يوقف فعله ولا يحال بينه وبين مراده.

(١٠٨) وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ أي حكم الله تعالى بسعادتهم، لما وفقهم الله من الإيمان والعمل الصالح وترك الشرك والمعاصي ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ[(١)] وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ إذ إرادة الله مطلقة لا تحد إلا بمشيئته العليا، وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي عطاء من ربك لأهل طاعته غير مقطوع أبدًا وهذا دليل خلودهم فيها أبدًا.

(١٠٩) وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هو خطاب لرسول الله ﷺ ينهاه ربه تعالى أن يشك في بطلان عبادة المشركين أصنامهم فإنهم لا دليل لهم على صحة عبادتها وإنما هم مقلدون لآبائهم يعبدون ما كانوا يعبدون من الأصنام والأوثان، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ يخبر تعالى أنه موفي المشركين ما كتب لهم من خير وشر أو رحمة وعذاب توفية كاملة لا نقص فيها بحال.

هداية الآيات:

١ - فضل وفضيلة الإيمان بالآخرة.

٢ - حتمية البعث الآخر وأنه لا شك فيه.

٣ - الشقاوة والسعادة مضى بهما القضاء والقدر قبل وجود الأشقياء والسعداء.

٤ - عجز كل نفس عن الكلام يوم القيامة حتى يؤذن لها به.

٥ - إرادة الله مطلقة، لو شاء أن يخرج أهل النار لأخرجهم منها ولو شاء أن يخرج أهل الجنة لأخرجهم إلا أنه حكم بما أخبر به وهو العزيز الحكيم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٠ - ١١٣]

(١١٠) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي التوراة.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾: أي لولا ما جرى به قلم القدر من تأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة.

﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾: أي موقع في الريب الذي هو اضطراب النفس وقلقها.

(١١٢) ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾: أي على الأمر والنهي كما أمرك ربك بدون تقصير. ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾: أي لا تجاوزوا حدود الله.

(١١٣) ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: أي لا تميلوا إليهم بموادة أو رضا بأعمالهم. ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي تصيبكم ولازم ذلك دخولها.

معنى الآيات:

(١١٠) ما زال السياق الكريم في تسلية النبي ﷺ وحمله على الصبر والثبات وهو يبلّغ دعوة الله تعالى ويدعو إلى توحيده مواجهًا صلف المشركين وعنادهم فيقول له: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾[(٢)] أي التوراة كما أنزلنا عليك القرآن. فاختلفت اليهود في التوراة فمنهم من آمن بها ومنهم من كفر كما اختلف قومك في القرآن فمنهم من آمن به ومنهم من كفر إذًا فلا تحزن. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي تأخير الجزاء على الأعمال في الدنيا إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ فنجى المؤمنين وأهلك الكافرين. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ وإن قومك من مشركي العرب لفي شك من القرآن هل هو وحي الله وكلامه أو هو غير ذلك مريب أي موقع في الريب الذي هو شك مع اضطراب النفس وقلقها وحيرتها.

(١١١) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ[(٣)] رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي وإن كل واحد من العباد مؤمنًا كان أو كافرًا بارًا أو فاجرًا ليوفينّه جزاء عمله يوم القيامة ولا ينقصه من عمله

---

(١) قيل: إن هذا تعبير عربي معتاد، المقصود منه التأييد كقولهم: لا أكلمك ما طلع نجم أو ما نبح كلب وما إلى ذلك وما في التفسير أوجه وهو الذي عليه المحققون.

(٢) ظاهر البيان أن الله تعالى يبتلي رسوله ﷺ ويخفف عنه ما يجده من ألم من جراء كفر قريش بما جاءها به من الهدى ودين الحق فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة فاختلف الناس في ذلك فآمن بعض وكفر بعض واليهود ما زالوا مختلفين في التوراة أي: فيما تحمله من أحكام فهذا يحلل وهذا يحرّم.

(٣) قرىء: ﴿وإن كلا﴾ بتخفيف إن وأعمالها على أنها المخففة من الثقيلة وقالوا: سمع من يقول: إن زيدًا لمنطلق وشددها آخرون ونصبوا بها كلًا، وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر: ﴿لمّا﴾ بالتشديد وقرأ نافع وغيره بالتخفيف بناء على أن ما: صلة واللام هي لام الابتداء التي تدخل على الخبر واللام الثانية لام القسم وفصل بين اللامين بما كراهية توالي لامين، وعلى قراءة تشديد لمّا فقد

شيئًا، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تقرير لما أخبر به من الجزاء العادل إذ العلم بالعمل والخبرة التامة به لا بد منهما للتوفية العادلة.

﴿١١٢﴾ وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ[1] كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي بناء على ذلك فاستقم كما أمرك ربك في كتابه فاعتقد الحق واعمل الصالح واترك الباطل ولا تعمل الطالح أنت ومن معك من المؤمنين ليكون جزاؤكم خير جزاء يوم الحساب والجزاء. وقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ أي لا تتجاوزوا ما حد لكم في الاعتقاد والقول والعمل، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير لهم من الطغيان الذي نهوا عنه، وتهديد لمن طغى فتجاوز منهج الاعتدال المأمور بالتزامه.

﴿١١٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟[2] إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي لا تميلوا إلى المشركين بمداهنتهم أو الرضا بشركهم فتكونوا مثلهم فتدخلوا النار مثلهم فتمسكم النار كما مستهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ[3] ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي إن أنتم ركنتم إلى الذين ظلموا بالشرك بربهم فكنتم في النار مثلهم فإنكم لا تجدون من دون الله وليًا يتولى أمر الدفاع عنكم ليخرجكم من النار ثم لا تنصرون بحال من الأحوال، وهذا التحذير وإن وجه إلى الرسول ﷺ ابتداء فإن المقصود به أمته إذ هي التي يمكنها فعل ذلك أما الرسول ﷺ فهو معصوم من أقل من الشرك فكيف بالشرك.

هداية الآيات:

١ - تسلية الرسول ﷺ والتخفيف عنه مما يجده من جحود الكافرين.

٢ - بيان سبب تأخر العذاب في الدنيا، وهو أن الجزاء في الآخرة لا في الدنيا.

٣ - الجزاء الأخروي حتمي لا يتخلف أبدًا إذ به حكم الحق عز وجل.

٤ - وجوب الاستقامة على دين الله تعالى عقيدة وعبادة وحكمًا وأدبًا.

٥ - حرمة الغلو وتجاوز ما حدّ الله تعالى في شرعه.

٦ - حرمة مداهنة المشركين[4] أو الرضا بهم أو بعملهم، لأن الرضا بالكفر كفر.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٤، ١١٥]

﴿١١٤﴾ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي صل الصلاة المفروضة. ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾: أي الصبح، وهي في الطرف الأول، والظهر والعصر وهما في الطرف الثاني. ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: أي ساعات الليل والمراد صلاة المغرب وصلاة العشاء. ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: أي حسنات الصلوات الخمس يذهبن صغائر الذنوب التي تقع بينهن. ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾: أي ذلك المذكور من قوله وأقم الصلاة عظة للمتعظين.

﴿١١٥﴾ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: أي الذين يحسنون نياتهم وأقوالهم وأعمالهم بالإخلاص فيها لله وأدائها على نحو ما شرع الله وبيّن رسول الله ﷺ.

معنى الآيتين:

﴿١١٤﴾ ما زال السياق الكريم في توجيه الرسول ﷺ والمؤمنين وهدايتهم إلى

= خرجوها على أن الأصل لمن ما فأدغمت النون في الميم فصارت لما فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت الميم الأولى تخفيفًا فصارت لمًا وتوجيه الكلام وإن جميعهم للاقون جزاء أعمالهم.

(١) قال ابن عباس: ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية ولذا قال وقد سأله أبو بكر عن إسراع الشيب إليه: «**شيبتني هود وأخواتها**»، وليس الرسول وحده مأمورًا بالاستقامة بل كل مؤمن ومؤمنة لقوله: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فاللهم أعنا على ذلك.

(٢) حقيقة الركون هي الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به قال قتادة: معناه لا تودوهم ولا تطيعوهم ولا ترضوا أعمالهم.

(٣) في الآية دليل على وجوب هجران أهل الكفر والمعاصي وأهل البدع والأهواء فإن صحبتهم كفر أوْ مَعصية إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة وقد قال حكيم:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

(٤) المداهنة هي أن يتنازل العبد عن دينه لأجل دنياه وهي محرمة والمداراة جائزة وهي أن يتنازل العبد عن دنياه ليحفظ دينه.

ما فيه كمالهم وسعادتهم فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ[1] ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا[2] مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أقمها في هذه الأوقات الخمس وهي الصبح والظهر والعصر والمغرب والعِشاء، ومعنى أقمها أدها على الوجه الأكمل لأدائها، فيكون ذلك الأداء حسنات[3] يمحو الله تعالى بها السيئات[4]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المأمور به وما يترتب عليه ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي عظة ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي المتعظين.

(١١٥) وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي على الطاعات فعلاً وتركًا وعلى أذى المشركين ولا تجزع ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي جزاءهم يوم القيامة، والمحسنون هم الذين يخلصون أعمالهم لله تعالى ويؤدونها على الوجه الأكمل في أدائها فتنتج لهم الحسنات التي يذهب الله بها السيئات.

هداية الآيتين:

١ - بيان أوقات الصلوات الخمس إذ طرفي النهار هما الصبح وفيها صلاة الصبح والعشيّ وفيها صلاة الظهر والعصر كما أن زلفًا من الليل هي ساعاته فيها صلاة المغرب والعشاء.

٢ - بيان سنة الله تعالى في أن الحسنة تمحو السيئة وفي الحديث «**الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينها ما لم تغش الكبائر**».

٣ - وجوب الصبر والإحسان وأنهما من أفضل الأعمال.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٦ - ١١٩]

(١١٦) ﴿فَلَوْلَا﴾: لولا كلمة تفيد الحض على الفعل والحث عليه. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: أي أهل القرون والقرن مائة سنة. ﴿أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾: أي أصحاب بقيّة أي دين وفضل. ﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾: أي ما نعموا فيه من طعام وشراب ولباس ومتع. ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾: أي لأنفسهم بارتكاب المعاصي ولغيرهم بحملهم على ذلك.

(١١٧) ﴿بِظُلْمٍ﴾: أي منه لها بدون ما ذنب اقترفته.

(١١٨) ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: أي على دين واحد وهو الإسلام.

(١١٩) ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾: أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة.

معنى الآيات:

(١١٦) يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ من قبلكم أيها الرسول والمؤمنون ﴿أُولُوا۟[5] بَقِيَّةٍ﴾ من فهم وعقل وفضل ودين ينهون عن الشرك والتكذيب والمعاصي أي فهلا كان ذلك إنه لم يكن اللهم إلا قليلاً ممن أنجى الله تعالى من اتباع الرسل عند إهلاك أممهم، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟[6] فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي لم يكن بينهم أولو بقيّة ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجى الله وما عداهم كانوا ظالمين لأنفسهم بالشرك والمعاصي متبعين ما أترفوا فيه من ملاذ الحياة الدنيا وبذلك كانوا مجرمين فأهلكهم الله تعالى ونجى رسله

---

(١) طرف النهار: أوله، وهو من طلوع الفجر وآخره من العصر إلى غروب الشمس.

(٢) الزلف جمع زلفة كغرفة وهي الساعة القريبة من أختها والمراد بها صلاة المغرب والعشاء، وهذه الآية إحدى ثلاث آيات ذكرت أوقات الصلوات الخمس. الثانية آية الإسراء ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ والثالثة آية الروم ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)﴾.

(٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ جملة تعليلية للأمر بإقام الصلاة وكون الحسنات يذهبن السيئات يتناول أمرين: الأول هو الظاهر أن الحسنات يمحو الله تعالى بها السيئات وهي الصغائر والثاني أن فعل الحسنات يمنع من فعل السيئات وهو إذهابها.

(٤) روى البخاري عن عبدالله بن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة حرام فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك فنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية فقال الرجل: أليَ هذا؟ قال: «**لمن عمل بها من أمتي**».

(٥) أصحاب: بقية والبقية أهل فضل ودين وصلاح يوجدون كبقية باقية في وسط أمة ضالة فاسدة غلب عليها الضلال والفساد فتوجد بقية صالحة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

(٦) أترفوا أي: أترفهم الله بما وسع عليهم من الأرزاق ولم يشكروه، هؤلاء المترفون اتبعوا ما أترفوا فيه وانقطعوا إليه فلا هم لهم إلا متاع الحياة الدنيا، وبذلك أجرموا على أنفسهم وعقولهم فأصبحوا بذلك مجرمين، في الآية ذم الترف إن اتبعه صاحبه وانقطع به عن طاعة الله ورسوله ﷺ.

والمؤمنين كما تقدم ذكره في قصة نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام.

(١١٧) وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1] أي لم يكن من شأن ربّك أيها الرسول أن يهلك القرى بظلم منه وأهلها مصلحون، ولكن يهلكهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بالشرك والتكذيب والمعاصي. وما تضمنته هذه الآية هو بيان لسنة الله تعالى في إهلاك الأمم السابقة ممن قصّ تعالى أنباءهم في هذه السورة.

(١١٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[2] أي على الإسلام بأن خلق الهداية في قلوبهم وصرف عنهم الموانع. ولما لم يشأ ذلك لا يزالون مختلفين على أديان شتى من يهودية ونصرانية ومجوسية وأهل الدين الواحد يختلفون إلى طوائف ومذاهب مختلفة.

(١١٩) وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[3] أيها الرسول فإنهم لا يختلفون بل يؤمنون بالله ورسوله ﷺ ويعملون بطاعتهما فلا فرقة ولا خلاف بينهم دينهم واحد وأمرهم واحد. وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي وعلى ذلك خلقهم فمنهم كافر ومنهم مؤمن، والكافر شقي والمؤمن سعيد، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ﴾ أي حقت ووجبت وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ[4] مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ[5] أَجْمَعِينَ﴾ ولذا كان اختلافهم مُهيّئًا لهم لدخول جهنم حيث قضى الله تعالى بامتلاء جهنم من الجن والإنس أجمعين فهو أمر لا بد كائن.

هداية الآيات:

١ - ما يزال الناس بخير ما وجد بينهم أولو الفضل والخير يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن الفساد والشر.

٢ - الترف كثيرًا ما يقود إلى الإجرام على النفس باتباع الشهوات وترك الصالحات.

٣ - متى كان أهل القرى صالحين فهم آمنون من كل المخاوف.

٤ - الاتفاق رحمة والخلاف عذاب.

الجزءُ الثّاني عَشَر — سُورةُ هُودٍ

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

ترتيبها ١٢ — سُورَةُ يُوسُفَ — آياتها ١١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

٢٣٥

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٠ - ١٢٣]

(١٢٠) ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ﴾: أي وكل ما تحتاج إليه من أنباء الرسل نقصه عليك تثبيتًا لفؤادك. ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: أي نقص عليك من القصص ما نثبت به قلبك لتصبر على دعوتنا وتبليغها. ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾: أي في هذه السورة الحق الثابت من الله تعالى كما جاءك في غيرها. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ﴾: أي

(١) في الآية إشارة إلى مصداق مثلٍ سائر بين الناس وهو قولهم: يدوم الكفر ولا يدوم الظلم. فالأمة إذ كان أفرادها مصلحين لا يفسدون ولا يرضون الفساد ولا يقرونه فتطول حياتها ويعظم شأنها ولو كانت كافرة.

(٢) في الآية تقرير مشيئة الله تعالى التي لا يقع في الكون شيء إلا بها فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم على ملة الإسلام أو ملة الكفر أمة واحدة ولكن حكمته اقتضت اختلاف الناس لتتجلى في ذلك قدرته ورحمته وعدله وعفوه ومغفرته.

(٣) اجتماع الأمة وعدم اختلافها مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى واختلافها مظهر من مظاهر عذابها وشقائها وحرمانها.

(٤) جملة لأملأن جهنم تفسير للكلمة التي أتمها الله تعالى وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ..﴾.

(٥) أي: من الفريقين فمن تبعيضية فيدخل بعض الجن والإنس الجنة ويدخل بعض الجن والإنس النار.

وجاءك فيها موعظة وذكرى للمؤمنين إذ هم المنتفعون بها.

(١٢٣) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي ما غاب علمه فيهما فالله يعلمه وحده وليس لغيره فيه علم. ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾: أي وَحِّدْهُ في العبادة ولا تشرك به شيئًا. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾: أي فوض أمرك إليه وثق تمام الثقة فيه فإنه يكفيك.

معنى الآيات:

(١٢٠) لما قصّ تعالى على رسوله ﷺ في هذه السورة الشريفة ما قصّه من أنباء الرسل مع أممهم مبيّنًا ما لاقت الرسل من أفراد أممهم من تكذيب وعناد ومجاحدة وكيف صبرت الرسل حتى جاءها النصر أخبر تعالى رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَكُلًّا[1] نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي ونقص عليك كل ما تحتاج إليه في تدعيم موقفك وقوة عزيمتك من أنباء الرسل أي من أخبارها مع أممها الشيء الذي نثبت به قلبك حتى تواصل دعوتك وتبلغ رسالتك. وقوله: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ أي السورة الحق[2] من الأخبار كما جاءك في غيرها ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾[3] لك تعظ بها غيرك، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يتذكر بها المؤمنون فيثبتون على الحق ويصبرون على الطاعة والبلاء فلا يجزعوا ولا يملوا.

(١٢١) - (١٢٢) وقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝﴾ أي وقل يا رسولنا للذين لا يؤمنون من قومك ممن هم مصرون على التكذيب والشرك والعصيان اعملوا على حالكم وما أنتم متمكنون منه إنا عاملون على حالنا كذلك، وانتظروا أيّنا ينتصر في النهاية أو ينكسر.

(١٢٣) وقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ[4] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو وحده يعلم متى يجيء النصر ومتى تحق الهزيمة. وإليه يرجع الأمر كله أمر الانتصار والانكسار كأمر الهداية والإضلال والإسعاد والإشقاء، وعليه فاعبده يا رسولنا وحده وتوكل[5] عليه وحده، فإنه كافيك كل ما يهمك من الدنيا والآخرة، وما ربك بغافل عما تعملون أيها الناس وسيجزي كلا بما عمل من خيرٍ أو غيرٍ وهو على كل شيء قدير.

هداية الآيات:

١ - بيان فائدة القصص القرآني وهي أمور منها:

أ - تثبيت قلب النبي ﷺ.

ب - إيجاد مواعظ وعبر للمؤمنين.

ج - تقرير نبوة الرسول ﷺ.

٢ - علم الغيب لله وحده لا يعلمه غيره.

٣ - مرد الأمور كلها لله بدءًا وعودًا ونهاية.

٤ - وجوب[6] عبادة الله تعالى والتوكل عليه.

❁ ❁ ❁

سورة يوسف
مكية
وآياتها مائة وإحدى عشرة

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٣]

(١) ﴿الٓر﴾: تكتب الر وتقرأ: ألف، لام، را، والله أعلم بمراده بذلك. ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: أي القرآن المظهر للحق في الاعتقادات والعبادات والشرائع.

(٢) ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾: أي بلغة العرب العدنانيّون والقحطانيون سواء.

(٣) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾: نحدثك متتبعين آثار الحديث على وجهه الذي كان عليه وتم به. ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾: أي بإيحائنا إليك فالوحي هو أداة القصص. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾: أي من قبل

---

(١) نصب كلاً بفعل نقص أي: نقص عليك كلا والتنوين عوض عن كلمة محذوفة تقديرها كل ما تحتاج إليه من أنباء الرسل.

(٢) لاشتمالها على خمس قصص: قصة نوح وقصة هود وقصة صالح وقصة لوط وقصة شعيب، مع الإشارة إلى قصتي إبراهيم وموسى عليهما السلام.

(٣) الموعظة اسم مصدر الوعظ وهي التذكير بما يصرف العبد عما يضره ويسيء إليه في سائر المحرمات فعلاً وتركًا.

(٤) أي: له علمه وحده دون سواه أي: غيره لا في السماء ولا في الأرض.

(٥) أي: ثق فيه وفوض أمر نصرك إليه ولا تلتفت إلى غيره فإنه كافيك دون سواه.

(٦) إذ لأجلها خلق الخلق كله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ الآية، وفي الحديث القدسي: **«يا ابن آدم لقد خلقت كل شيء من أجلك وخلقتك من أجلي»**. **إذًا** فِعلهُ الحياة كلها لِيُعْبَدَ الله تعالى.

نزوله عليك. ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾: أي من قبل إيحائنا إليك غافلاً عنه لا تذكره ولا تعلم منه شيئًا.

معنى الآيات:

إن المناسبة بين سورتي هود ويوسف عليهما السلام أن الثانية تتميم للقصص الذي اشتملت عليه الأولى إذ سورة يوسف اشتملت على أطول قصص في القرآن الكريم أوله ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ رابع آية وآخره ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ الآية الثانية بعد المائة وأما سبب نزول هذه السورة فقد قيل للرسول[1] ﷺ: لو قصصت علينا، فأنزل الله تعالى:

(١) ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ فقصّ أحداث أربعين سنة تقريبًا، فقوله تعالى: ﴿الٓر﴾ من هذه الحروف المقطعة تألفت آيات القرآن الكريم، فأشار إليها بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي المبيّن للحق المُظهر له ولكل ما الناس في حاجة إليه مما يصلح دينهم ودنياهم.

(٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[2] أي بلسان العرب ليفهموه ويعقلوا معانيه فيهتدوا عليه فيكملوا ويسعدوا. وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3] أي ليمكنكم فهمه ومعرفة ما جاء فيه من الهدى والنور.

(٣) وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا رسول الله ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[4] أي أصحه وأصدقه وأنفعه وأجمله ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي بواسطة إيحائنا إليك هذا القرآن، ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل إيحائه إليك ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عنه لا تذكره ولا تعلمه.

هداية الآيات:

١ - تقرير إعجاز القرآن إذ هو مؤلف من مثل ألر، وطس، وق، ومع هذا لم يستطع العرب أن يأتوا بسورة مثله.

٢ - بيان الحكمة في نزول القرآن باللغة العربية وهي أن يعقله العرب ليبلغوه إلى غيرهم.

٣ - القرآن الكريم اشتمل على أحسن القصص فلا معنى لسماع[5] قصص غيره.

٤ - تقرير نبوة الرسول ﷺ وإثباتها بأقوى برهان عقليّ وأعظم دليل نقليّ.

الجُزْءُ الثَّانِي عَشَر — سُورَةُ يُوسُف

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

٢٣٦

شرح الكلمات:

[الآية: ٤ - ٦]

(٤) ﴿لِأَبِيهِ﴾: أي يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام. ﴿إِنِّى رَأَيْتُ﴾: أي في

---

(١) روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: قالوا يا رسول الله ﷺ: لو قصصت علينا فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية.

(٢) قرآنًا عربيًا حال من الضمير في أنزلناه وعربيًا صفة له فلم يكن على نهج الأشعار ـ والقصص التي يقص، وإنما هو كتاب منظم يقرأ ويحفظ ويعلم ما فيه ويعمل به لسعادة الدارين.

(٣) أي: جعلناه قرآنًا عربيًا بلغتكم التي تتخاطبون بها وتفهمون أساليبها الكلامية ومعانيها الإفرادية والتركيبية رجاء أن تتمكنوا من فهمه ومعرفة ما يدعو إليه من الحق والصراط المستقيم.

(٤) القصص منقول من قص الأثر إذا تتبع آثار الأقدم ليعرف منتهى سير صاحبها فالقصص تتبع الأخبار للمعرفة والعظة والاعتبار.

(٥) روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال: فغضب وقال: «**أمتهوّكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء**

منامي. ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾: أي من كواكب السماء. ﴿سَاجِدِينَ﴾: أي نزل الكل من السماء وسجدوا ليوسف وهو طفل.

﴿٥﴾ ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ﴾: أي يحتالوا عليك بما يضرك. ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: أي بيِّن العداوة ظاهرها.

﴿٦﴾ ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾: أي يصطفيك له لتكون من عباده المخلصين. ﴿مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: أي تعبير الرؤيا. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: أي بأن ينبّئك ويرسلك رسولاً.

معنى الآيات:

﴿٤﴾ قوله تعالى: ﴿إِذْ[١] قَالَ يُوسُفُ﴾ هذا بداية القصص أي اذكر أيها الرسول إذ قال يوسف بن يعقوب لأبيه يعقوب ﴿يَا أَبَتِ﴾[٢] أي يا أبي ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ أي من كواكب السماء ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ[٣]﴾ أي نزلوا من السماء وسجدوا له تحيّة وتعظيمًا. وسيظهر تأويل هذه الرؤيا بعد أربعين سنة حيث يجمع الله شمله بأبويه وإخوته الأحد عشر ويسجدُ الكل له تحيّة وتعظيمًا.

﴿٥﴾ وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ أي قال يعقوب لولده يوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾[٤] وهم إخوة له من أبيه دون أمه ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي يحملهم الحسد على أن يكيدوك بما يضرك بطاعتهم للشيطان حين يغريهم بك ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ إذ أخرج آدم وحواء من الجنة بتزيينه لهما الأكل من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عن الأكل منها.

﴿٦﴾ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ وكما أراك ربك الكواكب والشمس والقمر ساجدين لك يجتبيك أي يصطفيك له لتكون من عباده المخلصين.

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي ويعلمك معرفة ما يؤول إليه أحاديث الناس ورؤياهم[٥] المنامية، ويتم نعمته عليك بالنبوة وعلى آل يعقوب أي أولاده. ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ إسحق جد يوسف الأدنى وإبراهيم جده الأعلى حيث أنعم عليهم بإنعامات كبيرة أعظمها النبوة والرسالة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ أي بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي في تدبيره فيضع كل شيء في موضعه فيكرم من هو أهل للإكرام، ويحرم من هو أهل للحرمان.

هداية الآيات:

١ - ثبوت الرؤيا شرعًا ومشروعية تعبيرها[٦].

٢ - قد تتأخر الرؤيا فلا يظهر مصداقها إلا بعد السنين العديدة.

٣ - مشروعية الحذر والأخذ بالحيطة في الأمور الهامة.

٤ - بيان إفضال الله على آل إبراهيم بما أنعم عليهم فجعلهم أنبياء آباء وأبناء وأحفادًا.

شرح الكلمات: [الآية: ٧ - ١٠]

﴿٧﴾ ﴿آيَاتٌ[٧] لِّلسَّائِلِينَ﴾: عبر

= فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني».

(١) إذ ظرف في محل نصب والعامل فيه اذكر أي: اذكر لهم حين قال يوسف إلخ..

(٢) في يا أبت لغات: كسر التاء وفتحها وضمها، والأصل يا أبي فزيدت التاء عوضًا عن الياء فلذا لا يجمع بينهما فلا يقال: يا أبتي.

(٣) ساجدين جمع ساجد وهو للعاقل، والشمس والقمر والنجوم من غير العقلاء. فلم ما قال ساجدة؟ والجواب لما كان السجود هو طاعة لا يصدر إلا من عاقل ذكر الفعل فقال: ساجدين.

(٤) الرؤيا ما يراه المرء في منامه من أمور وأحوال، هي ثلاثة أنواع لقوله ﷺ: «**الرؤيا ثلاثة: منها أهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم، ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**» وقال ﷺ: «**الرؤيا من الله والحلم من الشيطان**».

(٥) قيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: بالنبوة تلعب؟ لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها فإن رأى خيرًا أخبر به وإن رأى مكروهًا فليقل خيرًا أو ليصمت.

(٦) روى البخاري عن أبي قتادة أنه قال: كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدث بها أحدًا فإنها لن تضره**» وروى: «**أن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبّر فإذا عُبرت وقعت**».

(٧) الآيات: الدلائل على ما تُطلبُ معرفتهُ من الأمور الخفية ذات الشأن وهي مأخوذة من آيات الطريق وهي علامات توضع على جنبات الطريق ترشد السائرين.

للسائلين عن أخبارهم وما كان لهم من أحوال غريبة.

⑧ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: أي جماعة إذ هم أحد عشر رجلاً.

⑨ ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾: أي ألقوه في أرض بعيدة لا يعثر عليه. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: أي من النظر إلى يوسف فيقبل عليكم ولا يلتفت إلى غيركم.

⑩ ﴿فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾: أي ظلمة البئر. ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾: أي المسافرين السائرين في الأرض.

معنى الآيات:

⑦ ما زال السياق في قصة يوسف عليه السلام. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أي في شأن يوسف وإخوته وما جرى لهم وما تم من أحداث جسام عبر وعظات للسائلين[1] عن ذلك المتطلعين إلى معرفته.

⑧ ﴿إِذْ قَالُوا﴾ أي إخوة يوسف ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين وهو شقيقه[2] دونهم ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة فكيف يفضل[3] الاثنين على الجماعة ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ أي يعقوب عليه السلام ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي في خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخاه بالمحبة دوننا.

⑨ وقوله: ﴿اقْتُلُوا[4] يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يخبر تعالى عما قاله إخوة يوسف وهم في خلوتهم يتآمرون على أخيهم للتخلص منه فقالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ بإزهاق روحه. ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ﴾ في أرض بعيدة ألقوه فيها فيهلك وتتخلصوا منه بدون قتل منكم، وبذلك ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ حيث كان مشغولاً بالنظر إلى يوسف، ويحبكم وتحبونه وتتوبوا إلى الله من ذنب إبعاد يوسف عن أبيه، وتكونوا بعد ذلك قومًا صالحين حيث لم يبق ما يورثكم ذنبًا أو يكسبكم إثمًا.

⑩ وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يخبر تعالى عن قيل إخوة يوسف لبعضهم البعض وهم يتشاورون في شأن يوسف وكيف يبعدونه عن أبيهم ورضاه عنهم قال قائل منهم هو يهودا أو روبيل وكان أخاه وابن خالته وكان أكبرهم سنًا وأرجحهم عقلاً قال: لا تقتلوا يوسف، لأن القتل جريمة لا تطاق ولا ينبغي ارتكابها بحال، وألقوه في غيابة الجب[5] أي في ظلمة البئر، وهي بئر معروفة في ديارهم بأرض فلسطين يلتقطه[6] بعض السيارة من المسافرين إن كنتم فاعلين شيئًا إزاء أخيكم فهذا أفضل السبل لذلك.

هداية الآيات:

١ ـ الميل إلى أحد الأبناء بالحب يورث العداوة بين الإخوة.

٢ ـ الحسد[7] سبب لكثير من الكوارث البشرية.

٣ ـ ارتكاب أخف الضررين قاعدة شرعية عمل بها الأولون.

٤ ـ الشفقة والمحبة في الشقيق أكبر منها في الأخ للأب.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ ـ ١٤]

⑪ ﴿لَنَاصِحُونَ﴾: لمشفقون عليه

---

(١) السائلون: من يتوقع منهم السؤال عن المواعظ والعبر، والحكم والعرب يستعملون هذا في أساليبهم للتشويق قال السمؤل:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول

(٢) أمهما يقال لها: راحيل بنت لابان وباقي الإخوة منهم الأشقاء لبعضهم ومنهم لأب إذا لم تكن أمهم واحدة.

(٣) نظرتهم هذه مادية بحتة إذ رأوا أن نفع الجماعة لأبيهم أكثر من نفع الواحد والاثنين، وهو ما فَضَّلَ يوسفَ للمادة ولكن للكمال الروحي المهيأ له الدال عليه رؤياه.. والعصبة الجماعة ولا واحد لها من لفظها.

(٤) الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا كأن سائلاً قال: فماذا قالوا في تآمرهم وتشاورهم؟ فأجيب: قالوا: اقتلوا إلخ..

(٥) غيابة الجب والجمع غيابات وهي ما غاب عن البصر من شيء المراد هنا قعر الجبّ وسمي الجب جبًا لأنه مقطوع من الأرض ويجمع على جباب وجيبة.

(٦) في الآية دليل على مشروعية التقاط اللقطة وقد أذن فيها رسول الله ﷺ ولم يأذن في ضالة الإبل إذ قال في اللقطة: «**اعرف عفاصها (وعاءها) ووكاءها ثم عرّفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها**». وقال في ضالة الغنم: «**هي لك أو لأخيك أو للذئب**» وقال في الإبل: «**ما لك ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها**».

(٧) شاهدها حسد إبليس آدم فكانت كارثة الهبوط في الأرض والفتنة فيها وآخر حسد قابيل فقتله لذلك وثالث حسد اليهود للإسلام والمسلمين فجرّ حروبًا وويلات لا حد لها على الإسلام والمسلمين.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

٢٣٧

نحب له الخير كما نحبه لأنفسنا.

(١٢) ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[1]: أي يأكل ويشرب ويلعب بالمسابقة والمناضلة.

(١٣) ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ﴾: أي يوقعني في الحزن الذي هو ألم النفس أي ذهابكم به. ﴿ٱلذِّئْبُ﴾: حيوان مفترس خداع شرس.

(١٤) ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: أي جماعة قوية. ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾: أي ضعفاء عاجزون عرضة للخسران بفقدنا أخانا.

معنى الآيات:

(١١) ما زال السياق في قصة يوسف إنهم بعد ائتمارهم واتفاقهم السري على إلقاء يوسف في غيابة الجب طلبوا من أبيهم أن يترك يوسف يخرج معهم إلى البر كعادتهم للنزهة والتنفه وكأنهم لاحظوا عدم ثقة أبيهم فيهم فقالوا له: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا[2] عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ أي محبون له كل خير مشفقون عليه أن يمسه أدنى سوء.

(١٢) ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي يرتع في البادية يأكل الفواكه ويشرب الألبان ويأكل اللحوم ويلعب بما نلعب به من السباق والمناضلة، والمصارعة، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من كل ما قد يضره أو يُسيء إليه.

(١٣) فأجابهم عليه السلام قائلاً: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ[3] أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ﴾ أي إنه ليوقعني في الحزن وآلامه ذهابكم به. ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ في رتعكم ولعبكم.

(١٤) فأجابوه قائلين: والله ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي لا خير في وجودنا ما دمنا نُغلب على أخينا فيأكله الذئب بيننا. ومع الأسف فقد أقنعوا بهذا الحديث والدهم وغدًا سيذهبون بيوسف لتنفيذ مؤامرتهم الدنية.

هداية الآيات:

١ - تقرير قاعدة: لا حذر مع القدر أي لا حذر ينفع[4] في ردّ المقدور.

٢ - صدق المؤمن يحمله على تصديق من يحلف له ويؤكد كلامه.

٣ - جواز الحزن وأنه لا إثم فيه وفي الحديث **«وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**.

٤ - أكل الذئب[5] للإنسان إن أصاب منه غفلة واقع وكثير أيضًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ ـ ١٨]

(١٥) ﴿وَأَجْمَعُوٓا﴾: أي أمرهم على إلقائه في غيابة الجب. ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾: أي في ظلمة البئر.

---

(١) قرأ نافع: ﴿يرتعِ﴾ بكسر العين مجزوم في جواب الطلب بحذف الياء من ارتعى يرتعي الغنم ليتدرب بذلك وقرأها حفص بإسكان العين جزمًا من رتَع يرتع في المكان إذا أكل كيف شاء قال الشاعر:

ترتع ما غفلت حتى إذا اذّكرت ... فإنما هي إقبال وإدبار

(٢) قرئت: ﴿لا تأمنا﴾ بالإدغام وبدون إشمام وقرئت بالإدغام مع الإشمام وقرئت: ﴿لا تأمننا﴾ بنونين ظاهرتين وقرئت: ﴿لا تِمَنَّا﴾ بكسر التاء لغة تميم.

(٣) أي: يشق علي مفارقته مدة ذهابكم به وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة ومخائل الكمال.

(٤) وينفع في ما لم يقدر بإذن الله تعالى.

(٥) الذئب مأخوذ من تذاءبت الريح إذا جاءت من كل وجه والذئب مهموز لأنه يجيء من كل وجه. وقرأ ورش عن نافع: ﴿الذيب﴾ بدون همز لأن الهمزة ساكنة وقبلهما كسرة فحذفت تخفيفًا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾: أي أعلمناه بطريق خفي سريع.

⑯ ﴿عِشَآءً﴾: أي بعد غروب الشمس أول الليل.

⑰ ﴿نَسْتَبِقُ﴾: أي بالمناضلة. ﴿عِندَ مَتَٰعِنَا﴾: أي أمتعتنا من ثياب وغيرها. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾: أي بمصدّق لنا.

⑱ ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾: أي بدم مكذوب أي دم سخلة وليس دم يوسف. ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾: أي زينت وحسنت. ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾: أي من الكذب.

معنى الآيات:

⑮ ما زال السياق الكريم في الإخبار عما عزم عليه إخوة يوسف أن يفعلوه فقد أقنعوا والدهم يوم أمس على إرسال يوسف معهم إلى البر وها هم أولاء وقد أخذوه معهم وخرجوا به، وما إن بعدوا به حتى تغيّرت وجوههم عليه وصار يتلقى الكلمات النابية والوكز والضرب أحيانًا، وقد أجمعوا أمرهم على إلقائه في بئر معلومة لهم في الصحراء، ونفذوا مؤامرتهم وألقوا أخاهم وهو يبكي بأعلى صوته وقد انتزعوا منه قميصه وتركوه مكتوفًا في قعر البئر. وهنا أوحى الله تعالى إليه أي أعلمه بما شاء من وسائط العلم أنه سينبئهم في يوم من الأيام بعملهم الشنيع هذا وهو معنى قوله تعالى في السياق: ﴿وَأَوْحَيْنَآ[1] إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وبعد أن فرغوا من أخيهم ذبحوا سخلة ولطخوا بدمها قميصه، وعادوا إلى أبيهم مساء يبكون يحملون الفاجعة إلى أبيهم الشيخ الكبير.

⑯ قال تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ أي ليلاً ﴿يَبْكُونَ﴾[2].

⑰ وقالوا معتذرين ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ[3] وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا[4] فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي بمصدق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ وقد دلت عباراتهم على كذبهم.

⑱ قال تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[5] أي ذي كذب أو مكذوب إذ هو دم سخلة ذبحوها فأكلوها ولطخوا ببعض دمها قميص يوسف أخيهم ونظر يعقوب إلى القميص وهو ملطخ بالدم الكذب ولم يكن به خرق ولا تمزيق فقال: إن هذا الذئب لحليم إذ أكل يوسف ولم يخرق ثوبه. ثم قال ما أخبر تعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي لم يكن الأمر كما وصفتم وادعيتم وإنما سولت لكم أنفسكم أمرًا فنفذتموه. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[6] أي فأمري صبر جميل والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى معه. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ[7] عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي من الكذب.

هداية الآيات:

١ ـ جواز صدور الذنب الكبير من الرجل المؤمن المهيء للكمال مستقبلاً[8].

٢ ـ لطف الله تعالى بيوسف

---

(١) هذا دليل على نبوته وأنه نبيء وهو صغير إذ النبوة لا يشترط لها بلوغ الرشد كالرسالة. وقيل: الهاء في إليه تعود إلى يعقوب وعليه فلا إشكال إذ هو نبي ورسول عليه السلام.

(٢) في الآية دليل على أن بكاء المرء لا يكون دليلاً على صدق قوله لاحتمال أن يكون تصنعًا كما حصل لأولاد يعقوب.

(٣) هو المسابقة وقيل: ننتضل وهو نوع من المسابقة وهو في السهام لا في الأقدام وفي الآية دليل على مشروعية السباق وقد سابق النبي ﷺ بين الخيل التي أضمرت من الحفياء وكان أمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق، الحفياء تبعد من ثنية الوداع ستة أميال أو سبعة، أجمع المسلمون أنه لا يجوز الرهان في السباق إلا في الخيل والإبل والنصل وهي الرماية بالسهام لإصابة الهدف.

(٤) أي: ثيابنا وأمتعتنا.

(٥) استدل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الإمارات في مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها إذ يعقوب عليه السلام استدل على كذب بنيه بصحة القميص وعدم تمزقه بأنياب الذئب.

(٦) فصبر جميل أولى به، فصبر جميل مبتدأ وأولى به الخبر وهو محذوف وما في التفسير واضح كذلك.

(٧) والله مبتدأ والمستعان خبر وعلى ما تصفون متعلق به، والمعنى والله المستعان به على احتمال ما تصفون من الكذب.

(٨) لأن إخوة يوسف بعد فعلتهم تلك بأخيهم تاب الله عليهم ونجاهم، ومن ألطافه بهم أنه حال بينهم وبين جريمة القتل ونجا يوسف وهم يعلمون.

وإكرامه له بإعلامه إياه أنه سينبّىء إخوته بفعلتهم هذه وضمن ذلك بشره بسلامة الحال وحسن المآل.

٣ - اختيار الليل للاعتذار دون النهار لأن العين تستحي من العين كما يقال. وكما قيل «كيف يرجو الحياء منه صديق... ومكان الحياء منه خراب» يريد عينيه لا تبصران.

٤ - فضيلة الصبر الجميل وهو الخالي من الجزع والشكوى معًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ ـ ٢٢]

(١٩) ﴿سَيَّارَةٌ﴾: رُفقَة من الناس تسير مع بعضها بعضًا. ﴿وَارِدَهُمْ﴾: أي الذي يرد لهم الماء. ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾: أي دلى دلوه في البئر. ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾: أي أخفوه كبضاعة من البضائع.

(٢٠) ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾: أي باعوه بثمن ناقص.

(٢١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾: أي الرجل الذي اشتراه واسمه قطفير ولقبه العزيز. ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾: أي أكرمي موضع إقامته بمعنى أكرميه وأحسني إليه. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: أي نتبناه فقال ذلك لأنه لم يكن يولد له. ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: أي تعبير الرؤيا.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾: أي قوته البدنية والعقلية. ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: أي حكمة ومعرفة أي حكمة في التدبير ومعرفة في الدين.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحديث عن يوسف وإخوته أنه لما ألقي يوسف في الجب وترك هناك جاءت قافلة من بلاد مدين تريد مصر فأرسلوا واردًا[1] لهم يستقي لهم الماء فأدلى دلوه في البئر فتعلق به يوسف فخرج معه وما إن رآه المدلي حتى صاح قائلًا: يا بشراي[2] هذا غلام، وكان إخوة يوسف يترددون على البئر يتعرفون على مصير أخيهم فلما رأوه بأيدي الوارد ورفقائه قالوا لهم هذا عبد لنا أبق، وإن رأيتم شراءه بعناه لكم فقالوا ذاك الذي نريد فباعوه لهم بثمن ناقص وأسرّه[3] الذين اشتروا أي أخفوه عن رجال القافلة حتى لا يطالبوهم بالاشتراك فيه معهم، وقالوا هذه بضاعة كلفنا أصحاب الماء بإيصالها إلى صاحبها بمصر.

(١٩) هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

(٢٠) ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾.

وكونها معدودة غير موزونة دال على قلتها ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ[4]﴾ أي إخوته لا الذين اشتروه. ولما وصلوا به مصر باعوه من وزير يقال له قطفير العزيز فتفرس فيه الخير فقال لامرأته زليخا أكرمي مقامه بيننا رجاء أن ينفعنا في الخدمة أو نبيعه بثمن غال، أو نتخذه ولدًا حيث نحن لا يولد لنا.

(٢١) هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وكما نجيناه من القتل والجب وعطفنا عليه العزيز مكنا له في الأرض فيما بعد فصار ملك مصر بما فيها يحكمها ويسوسها بالعدل والرحمة. وقوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي ولنعلمه[5] تعبير الرؤى من أحاديث الناس وما

---

(١) الوارد الذي يرد الماء يستقي للقوم.

(٢) قرأ ورش: ﴿بُشْرَايْ﴾، وقرأ حفص: ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾.

(٣) اختلف فيمن أسروا يوسف بضاعة. فقيل: إنهم إخوة يوسف وقيل: هم التجار الذين اشتروه وقيل: هم الوارد وأصحابه وذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنهم إخوة يوسف لما استخرج الوارد يوسف أدركهم إخوته وقالوا لهم: هذا عبدنا أبق وإن شئتم بعناكموه فقالوا: نود ذلك فباعوهم إياه كبضاعة لأنّ العبد يباع ويشترى كالبضاعة وما في التفسير وهو اختيار ابن جرير أصوب والله أعلم.

(٤) لفظ الزاهدين وصف للذين باعوا يوسف ومن هنا قيل: هم إخوة يوسف وقيل: الوارد وقيل: السيارة فالخلاف عائد إلى الأول حيث اختلف فيمن أسروا يوسف بضاعة. واستدل مالك بالآية على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ويكون البيع لازمًا.

(٥) قال القرطبي: أي فعلنا ذلك تصديقًا لقول يعقوب ويعلّمك من تأويل الأحاديث.

يقصونه منه. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾[١] أي على أمر يوسف فلم يقدر إخوته أن يبلغوا منه مرادهم كما هو تعالى غالب على كل أمر أراده فلا يحول بينه وبين مراده أحد وكيف وهو العزيز الحكيم. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إذ لو علموا لفوضوا أمرهم إليه وتوكلوا عليه ولم يحاولوا معصيته بالخروج عن طاعته. وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ على ما يجد من أقربائه من أذى إذ يوسف ناله الأذى من إخوته الذين هم أقرب الناس إليه بعد والديه.

(٢٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ[٢] وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي ولما بلغ يوسف اكتمال قوته البدنية بتجاوز سن الصبا إلى سن الشباب وقوته العقلية بتجاوزه سن الشباب إلى سن الكهولة آتيناه حكمًا وعلمًا أي حكمة وهي الإصابة في الأمور وعلمًا وهو الفقه في الدين، وكما آتينا يوسف الحكمة والعلم نجزي المحسنين[٣] طاعتنا بالصبر والصدق وحسن التوكل وفي هذا بشارة لرسول الله ﷺ بحسن العاقبة وأن الله تعالى سينصره على أعدائه ويمكن له منهم.

هداية الآيات:

١ - جواز الفرح بما يسر[٤] والإعلان عنه.

٢ - جواز الاحتياط لأمر الدين والدنيا.

٣ - إطلاق لفظ الشراء على البيع.

٤ - نسخ التبني في الإسلام.

٥ - معرفة تعبير الرؤى كرامة لمن علّمه الله ذلك.

٦ - من غالب الله غُلِب.

٧ - بلوغ الأشد يبتدى بانتهاء الصبا والدخول في البلوغ.

٨ - حسن الجزاء مشروط بحسن القصد والعمل.

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ (٢٤) وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٢٥) قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ (٢٨) يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ (٢٩) ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٣٠)

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣ ـ ٢٥]

(٢٣) ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾: أي طالبته لحاجتها تريد أن ينزل عن إرادته لإرادتها وهو يأبى. ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾: أي زليخا امرأة العزيز. ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾: أغلقتها بالمغاليق. ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾: أي تعال عندي. ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أي أعوذ بالله أي أتحصن وأحتمي به من فعل ما لا يجوز. ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾: أي إقامتي في بيته.

(٢٤) ﴿هَمَّتۡ بِهِۦ﴾: أي لتبطش به ضربًا. ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾: أي ليدفع صولتها عليه. ﴿بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾: ألهمه ربه أن الخير في عدم ضربها. ﴿ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾: السوء ما يسوء وهو ضربها، والفحشاء الخصلة القبيحة. ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾: أي الذين استخلصناهم لولايتنا وطاعتنا ومحبتنا.

(٢٥) ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ﴾: أي قطعته

---

(١) اختلف في عود الضمير في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ هل هو عائد إلى الله تعالى فهو الغالب على أمره دون سواه، إذ لا يغلب الله شيء بل هو الغالب على أمره وقيل: الضمير يعود إلى يوسف أي: أن الله غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره.

(٢) أي: ولّيناه حكم مصر فصار الحاكم فيها وآتيناه النبوة والعقل والفهم والعلم بالدين.

(٣) هذا الجزاء عام في كل مؤمن أحسن فبقدر إحسان العبد يكون جزاء الرب له فالخطاب يتناول يوسف ومحمدًا ﷺ ويتناول غيرهما لأن القرآن كتاب هداية فعمومه لا يخصص بالواحد والاثنين.

(٤) مأخوذ من قول الوارد: يا بشرى هذا غلام.

من وراء. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾: أي وجدا العزيز زوجها وكانوا يطلقون على الزوج لفظ السيد لأنه يملك المرأة.

معنى الآيات:

(٢٣) ما زال السياق الكريم في الحديث عن يوسف وما جرى له من أحداث في بيت العزيز الذي اشتراه إنه ما إن أوصى العزيز امرأته بإكرام يوسف حتى بادرت إلى ذلك فأحسنت طعامه وشرابه ولباسه وفراشه، ونظرًا إلى ما تجلبه الخلوة بين الرجل والمرأة من إثارة الغريزة الجنسية لا سيما إذا طالت المدة، وأمن الخوف وقلت التقوى حتى راودته بالفعل عن نفسه أي طلبت منه نفسه ليواقعها بعد أن اتخذت الأسباب المؤمّنة حيث غلّقت أبواب الحجرة والبهو والحديقة، وقالت تعال إليّ. وكان رد يوسف على طلبها حازمًا قاطعًا للطمع وهذا هو المطلوب في مثل هذا الموقف قال تعالى مخبرًا عما جرى في القصر حيث لا يعلم أحدٌ من الناس ما جرى وما تم فيه من أحداث. ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ[١] ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ[٢] لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. إنها بعد أن اتخذت كل ما يلزم للحصول على رغبتها منه أجابها قائلاً: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ[٣] أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ يريد العزيز أحسن إقامتي فكيف أخونه في أهله. وفي نفس الوقت أن سيده الحق الله جل جلاله قد أحسن مثواه بما سخّر له فكيف يخونه فيما حرم عليه. وقوله إنه لا يفلح الظالمون تعليل ثان فالظالم بِوَضْعِ الشيء في غير موضعه يخيب في سعيه ويخسر في دنياه وأُخراه فكيف أرضى لنفسي ولك بذلك.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[٤] أي همت بضربه لامتناعه عن إجابتها لطلبها بعد مراودات طالت مدتها، وهمّ هو بها أي بضربها دفعًا لها عن نفسه إلا أنه أراه الله برهانًا في نفسه فلم يضربها وآثر الفرار إلى خارج البيت، ولحقته تجري وراءه لترده خشية أن يعلم أحد بما صنعت معه. واستبقا الباب هو يريد الخروج وهي تريد رده إلى البيت خشية الفضيحة وأخذته من قميصه فقدّته أي شقّته من دُبر أي من وراء لأنه أمامها وهي وراءه. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾[٥] أي هكذا نصرف عن يوسف السوء فلا يفعله والفحشاء فلا يقربها، وعلل لذلك بقوله إنه من عبادنا المخلصين أي الذين استخلصناهم لعبادتنا ومحبتنا فلا نرضى لهم أن يتلوثوا بآثار الذنوب والمعاصي.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا[٦] لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي ووجدا زوجها عند الباب جالسًا في حال هروبه منها وهي تجري وراءه حتى انتهيا إلى الباب وإذا بالعزيز جالس عنده فخافت المعرة على نفسها فبادرت بالاعتذار قائلة ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن أي يومًا أو يومين، أو عذاب أليم يكون جزاءً له كأن يضرب ضربًا مبرحًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ ـ ٢٩]

(٢٦) ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾:

---

(١) أي: أحكمت إغلاقها متحققة من ذلك وقد قيل: إنها سبعة أبواب يقال: غلق الباب وأغلقه وإذا أريد الكثرة قيل: غلّق الأبواب.

(٢) أي: هلم وأقبل وتعال ولا مصدر له ولا تصريف. كأنه اسم فعل أمر بمعنى أقبل وتعال وفيه سبع قراءات أفصحها وأجلها ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء ونظيرها ﴿هِيتَ﴾ بكسر الهاء وفتح التاء وهي قراءة نافع وروي أن عكرمة قال: إنها لغة عربية تدعو بها إلى نفسها. قال الجوهري: يقال: هرّت وهيّت به إذا صاح به ودعاه. قال الشاعر:

قد رابني أن الكرى أسكتا ... لو كان معنيًا بها لهيّتا

(أي: لصاح)، وقال آخر: يحدو بها كل فتى هيّاتِ.

(٣) يعني بقوله ربي؛ زوجها أي: سيده.

(٤) جواب لولا محذوف لعلم السامع به وتقديره لضربها أو لكان ما كان.

(٥) السوء هو ضرب وقدم في الذكر عن الفحشاء لأنه الحادث الأخير وأما الفحشاء فكانت قبل.

(٦) في عرف لغتهم إطلاق السيد على الزوج.

أي ابن عمها. ﴿قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾: أي من قدام.
(٢٧) ﴿قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾: أي من وراء أي من خلف.
(٢٨) ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾: أي قولها، ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا.
(٢٩) ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾: أي عن هذا الأمر ولا تذكره لكيلا يشيع. ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾: المرتكبين للخطايا الآثمين.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن يوسف وأحداث القصة فقد ادعت زليخا أن يوسف راودها عن نفسها وطالبت بعقوبته فقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(٢٦) وهنا ردّ يوسف ما قذفته به، ولولا أنها قذفته ما أخبر عن مراودتها إياه فقال ما أخبر تعالى به في هذه الآيات: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ وهنا أنطق الله جلّ جلاله طفلاً رضيعًا[١] إكرامًا لعبده وصفيّه يوسف فقال هذا الطفل والذي سماه الرسول ﷺ شاهد يوسف:
(٢٦) ـ (٢٧) ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝﴾ هذا ما قضى به الشاهد الصغير.

(٢٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ﴾ ـ أي قولها ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ـ ﴿مِن كَيْدِكُنَّ[٢]﴾ أي من صنيع النساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

(٢٩) ثم قال ليوسف[٣] يا يوسف ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الأمر ولا تذكره لأحد لكيلا يفشو فيضر. وقال لزليخا: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ أي اطلبي العفو من زوجك ليصفح عنك ولا يؤاخذك بما فرط منك من ذنب إنك كنت من الخاطئين أي الآثمين من الناس. هذا ما تضمنته الآيات الأربع في هذا السياق الكريم.

هداية الآيات:

١ - مشروعية الدفاع عن النفس ولو بما يُسيءُ إلى الخصم.
٢ - إكرام الله تعالى لأوليائه حيث أنطق طفلاً في المهد فحكم ببراءة يوسف.
٣ - تقرير أن كيد النساء عظيم وهو كذلك.
٤ - استحباب الستر على المسيء وكراهية إشاعة الذنوب بين الناس.

الجزء الثاني عشر — سورة يوسف

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ (٣٧)

٢٣٩

شرح الكلمات:
[الآية: ٣٠ ـ ٣٤]

(٣٠) ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي عاصمة مصر يومئذ. ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾: أي عبدها الكنعاني. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾: أي دخل حبّه شغاف قلبها أي أحاط بقلبها فتملكه عليها. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي في خطأ بيّن بسبب حبها إياه.
(٣١) ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾: أي بما تحدثن به عنها في غيبتها. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾: أي وأعدت لهن فراشًا ووسائد للاتكاء عليها. ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾:

---

(١) وقيل: إنه كان رجلاً حكيمًا ذا عقل، كان الوزير يستشيره في أموره وكان من أهل المرأة ورجح هذا غير واحد وما في التفسير أصح لصحة الحديث الشريف: «**تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم**».
(٢) الكيد: المكر والاحتيال وقال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من الورطة.
(٣) القائل: هو الشاهد وقيل: الزوج، والراجح حسب السياق والعادة أنه الشاهد الذي أصبح حكمًا بينهما.

أي أعظمنه في نفوسهن.

(٣٢) ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾: أي قلتن كيف تحب عبدًا كنعانيًا. ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾: أي امتنع مستمسكًا بعفته وطهارته. ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: الذليلين المهانين.

(٣٣) ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: أمل إليهن. ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: أي المذنبين إذ لا يذنب إلا من جهل قدرة الله واطلاعه عليه.

معنى الآيات:

(٣٠) ما زال السياق الكريم في قصة يوسف إنه بعد الحكم الذي أصدره شاهد يوسف عليه السلام انتقل الخبر إلى نساء بعض الوزراء فاجتمعن في بيت إحداهن وتحدثن بما هو لوم لامرأة العزيز حيث راودت عبدًا لها كنعانيًا عن نفسه وهو ما أخبر تعالى عنه في الآيات الآتية. قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ[(١)] فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي عاصمة مصر يومئذ ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا[(٢)]﴾ أي عبدها ﴿عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[(٣)] أي قد بلغ حبها إياه شغاف قلبها أي غشاءه. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ أي نظنها ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي خطأ واضح: إذ كيف تحب عبدًا وهي من هي في شرفها وعلوّ مكانتها.

(٣١) قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ[(٤)]﴾ أي ما تحدثن به في غيبتها ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ[(٥)] وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ[(٦)] مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ أي فقابلت مكرهن بمكر أعظم منه فأعدت لهن حفلة طعام وشراب فلما أخذن في الأكل يقطعن بالسكاكين الفواكه كالأترج وغيره أمرته أن يخرج عليهن ليرينه فيعجبن برؤيته فيذهلن عن أنفسهن ويقطعن[(٧)] أيديهن بدل الفاكهة التي يقطعنها للأكل وبذلك تكون قد دفعت عن نفسها المعرة والملامة، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ[(٨)] مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي إنسان من الناس. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي ما هذا إلا ملك ﴿كَرِيمٌ﴾ وذلك لجماله وما وهبه الله تعالى من حسن وجمال في خَلْقِه وخُلُقِه وهنا قالت ما أخبر تعالى به في قوله:

(٣٢) ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي هذا هو الفتى الجميل الذي لمتنني في حبه ومراودته عن نفسه ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي راودته فعلاً وامتنع عن إجابتي. ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي به مما أريده منه ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي الذليلين المهانين. وهكذا أسمعته تهديدها أمام النسوة المعجبات به.

(٣٣) ومن هنا فزع يوسف إلى ربّه ليخلصه من مكر هذه المرأة وكيدها فقال ما أخبر تعالى به عنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي يا رب فلذا عد كلامه هذا سؤالاً لربه ودعاء السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه من الإثم، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ أي كيد النسوة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي أَمِلْ إليهن ﴿وَأَكُن﴾ أي بفعل ذلك ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي الآثمين بارتكاب معصيتك.

---

(١) نسوة بكسر النون وضمها والجمع الكثير نساء ولا واحدة من لفظه إذ مفرد النسوة امرأة من غير لفظه.

(٢) ﴿فَتَىٰهَا﴾ نسب إليها وهو لزوجها باعتبار أنه يخدمها بملك زوجها له فصحّ نسبته إليها، وقيل: إن زوجها وهبه إيّاها كما وهبت سارة هاجر لإبراهيم عليه السلام.

(٣) شغاف القلب: غلافه، وهو: جلدة عليه، وقرىء: ﴿شعفها﴾ بالعين المهملة أي: أحرق حبّه قلبها، يقال: شعفه الحب: إذا أحرق قلبه.

(٤) وجه مكرهن: أنهن لما سمعن بجمال يوسف وحسنه، رغبن في النظر إليه فاحتلن لذلك بالحديث عن زليخا وانتقادها في حبها لخادمها.

(٥) في الكلام حذف تقديره: فأرسلت إليهن تدعوهنّ إلى وليمة لتوقعهن فيما وقعت فيه. أعتدت: هذا من العتاد وهو ما جعل عدّة لشيء ومنه العتاد الحربي وهو ما أعدّ للحرب من أنواع السلاح.

(٦) أصل: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ موتكأ، حذفت منه الواو كمتزن من وزنت، ومتّعد من وعدت وقرىء: ﴿متكًا﴾ غير مهموز وهو الأترج وأمّا مهموزًا فهو: كل ما اتكىء عليه عند الجلوس.

(٧) قال مجاهد: ليس قطعًا تبينُ به اليد، وإنما خدش وحزر وهو معروف في كلام العرب، يقال: قطع يده إذا جرحها.

(٨) قرىء: ﴿حاش لله﴾ و ﴿حاشا لله﴾، وفيه أربع لغات، ويقال: حاشا زيد وحاشا زيدًا، ومعناه هنا: معاذ الله.

الجزءُ الثَّاني عَشَر — سُورَةُ يُوسُف

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

٢٤٠

﴿٣٤﴾ وهذا ما لا أريده وهو ما فررت منه ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي أجابه في دعائه وصرف عنه كيدهن إنه تعالى هو السميع لأقوال عباده ودُعَاءِ عبده وصفيه يوسف عليه السلام العليم بأحوال وأعمال عباده ومنهم عبده يوسف. ولذا استجاب له فطمأنه وأذهب الألم ألم الخوف من نفسه، وله الحمد والمنة.

هداية الآيات:

١ - بيان طبيعة الإنسان في حب الاطلاع وتتبع الأخبار.

٢ - رغبة الإنسان في الثأر لكرامته، وما يحميه من دم أو مال أو عرض.

٣ - ضعف النساء أمام الرجال، وعدم قدرتهن على التحمل كالرجال.

٤ - إيثار يوسف عليه السلام السجن على معصية الله تعالى وهذه مظاهر الصديقية.

٥ - الجهل بالله تعالى وبأسمائه وصفاته ووعده ووعيده وشرعه هو سبب كل الجرائم في الأرض.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٥ - ٣٨]

﴿٣٥﴾ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾: أي ظهر لهم.

﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾: أي الدلائل على براءة يوسف.

﴿٣٦﴾ ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾: أي أعصر عنبًا ليكون خمرا.

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ﴾: أي دين. ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾: أي ما انبغى لنا ولا صح منّا.

﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾: أي أن أشرك بالله شيئًا من الشرك وإن قل ولا من الشركاء وإن عظموا أو حقروا. ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾: أي ذلك التوحيد والدين الحق.

﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾: إذ جاءتهم الرسل به ولكنهم ما شكروا فلم يتبعوا.

معنى الآيات:

﴿٣٥﴾ ما زال السياق في الحديث عن يوسف عليه السلام وما حدث له بعد ظهور براءته من تهمة امرأة العزيز قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي ثم ظهر للعزيز ومن معه من بعد ما رأوا الدلائل الواضحة على براءة يوسف وذلك كقدّ القميص من دُبر ونطق الطفل وحكمه في القضية بقوله: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ إلخ وهي أدلة كافية في براءة يوسف إلا أنهم رأوا سجنه إلى حين[(١)] ما، أي ريثما تسكن النفوس وتنسى الحادثة ولم يبق لها ذكر بين الناس.

﴿٣٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ[(٢)] فَتَيَانِ﴾ أي فقرروا سجنه وأدخلوه السجن ودخل معه فتيان أي خادمان كانا يخدمان ملك البلاد بتهمة[(٣)] وجهت إليهما. وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿٣٧﴾ وكان هذا الطلب منهما بعد أن أعجبا بسلوكه مع أهل السجن وحسن معاملته وسألاه عن معارفه فأجابهم بأنه يعرف تعبير الرؤيا

(١) ذُكر للحين آماد مختلفة: فقد قيل: ستة أشهر، وقيل: ثلاثة عشر شهرًا وقيل: تسع سنين، وما في التفسير أصح تلك الأقوال.

(٢) رضي بالسجن ولم يرض ارتكاب الفاحشة لعصمة الله تعالى له، ومن هنا قال العلماء: لو أكره مؤمن على الفاحشة أو السجن لتعيّن عليه أن يدخل السجن ولا يرتكب الفاحشة.

(٣) هذه التهمة هي: تآمرهما على قتل الملك بوضع سمّ في طعامه أو شرابه، وفعلاً كان الطاهي قد وضع سمًا في الطعام وأعطى حيوانًا فمات لفوره، ومن ثمّ أدخلا السجن معًا نظرًا للحكم عليهما.

فعندئذ قالا هيا نجربه فنذعي[١] أنا رأينا كذا وكذا وسألاه فأجابهما بما أخبر تعالى به في هذه الآيات: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ[٢] أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ واللفظ محتمل لما يأتيهما في المنام أو اليقظة وهو لما علمه الله تعالى يخبرهما به قبل وصوله إليهما وبما يؤول إليه. وعلل لهما مبيّنا سبب علمه هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى[٣] تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وهم الكنعانيون والمصريون إذ كانوا مشركين يعبدون الشمس وغيرها، تركت ملة الكفر واتبعت ملة الإيمان بالله واليوم الآخر ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب، ثم واصل حديثه معهما دعوة لهما إلى الإيمان بالله والدخول في الإسلام فقال:

(٣٨) ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ أي ما ينبغي لنا أن نشرك بالله من شيء فنؤمن به ونَعْبُده معه، ثم أخبرهما أن هذا لم يكن باجتهاد منهم ولا باحتيال، وإنما هو من فضل الله تعالى عليهم، فقال ذلك من فضل الله علينا[٤]، وعلى الناس إذ خلقهم ورزقهم وكلأهم ودعاهم إلى الهدى وبيّنه لهم ولكن أكثر الناس لا يشكرون[٥] فهم لا يؤمنون ولا يعبدون.

هداية الآيات:

١ - دخول يوسف السجن بداية أحداث ظاهرها محرق وباطنها مشرق.

٢ - دخول السجن ليس دائمًا دليلاً على أنه بيت المجرمين والمنحرفين إذ دخله صفيّ لله تعالى يوسف عليه السلام.

٣ - تعبير الرؤى تابع لصفاء الروح وقوة الفراسة وهي في يوسف علم لدني خاص.

٤ - استغلال المناسبات للدعوة إلى الله تعالى كما استغلها يوسف عليه السلام.

٥ - وجوب البراءة من الشرك وأهله.

٦ - إطلاق لفظ الآباء على الجدود إذ كل واحد هو أب لمن بعده.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٩ ـ ٤٢]

(٣٩) ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾: أي يا صاحبي في السجن وهما الفتيان صاحب طعام الملك وصاحب شرابه. ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾: أي آلهة متفرقون هنا وهناك أي في ذواتهم وصفاتهم وأماكنهم.

(٤٠) ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: أي من دون الله سبحانه وتعالى. ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾: أي مجرد اسم إله، وإلا في الحقيقة هو ليس بإله إنما هو صنم. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾: أي لم يأمر الله تعالى بعبادتها بأي نوع من أنواع العبادة.

(٤١) ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾: أي يسقي سيده الذي هو ملك البلاد شراب الخمر. ﴿فَيُصْلَبُ﴾: يقتل مصلوبًا على خشبة كما هي عادة القتل عندهم. ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: أي فرغ منه وبتّ فيه.

(٤٢) ﴿ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾: أي أيقن إنه محكوم ببراءته. ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾: أي اذكرني عند الملك بأني مسجون ظلمًا بدون جريمة. ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾: أي أنسى الشيطان يوسف ذكر ربّه تعالى.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحديث عن يوسف وهو في السجن، لقد سبق أن استعبر الفتيان يوسف رؤياهما أي طلبا منه أن يعبرها لهما لما علما منه أنه يعبر الرؤى غير أن يوسف استغل الفرصة وأخذ يحدثهما عن أسباب علمه بتعبير الرؤى وعن تركه لملّة الكفر وإيمانه بالله تعالى

---

(١) روي أنه قال لهما: فما رأيتما؟ فقال الخباز: رأيت كأني اختبزت في ثلاثة تنانير وجعلته في ثلاث سلال فوضعته على رأسي فجاء الطير فأكل منهن، وقال الآخر: رأيت كأني أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض فعصرتهن في ثلاث أوانٍ، ثمّ صفيته فسقيت الملك كعادتي فيما مضى هذا معنى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾.

(٢) أي: بتفسيره في اليقظة، فقالا له: هذا من فعل العرّافين والكهنة فردّ عليهما قائلًا: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

(٣) لمّا ردّ عليهم بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ علّل له بقوله: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ..﴾.

(٤) إذ جعلنا أنبياء ورسلاً ندعوا الناس إلى عبادة ربهم، وتوحيده فيها ليكملوا عليها ويسعدوا في الدارين.

(٥) أي: لا يعرفون نعمة الله تعالى عليهم بإرسال الرسل إليهم مبشرين ومنذرين فلذا هم لا يعبدون الله ولا يوحدونه فيها.

وحده وأنه في ذلك متّبع ملة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب، وأنه لا ينبغي لهم أن يشركوا بالله وفي هذا تعريض بما عليه أهل السجن من الشرك بالله تعالى بعبادة الأصنام، وواصل حديثه داعيًا إلى الله تعالى فقال ما أخبر به تعالى في هذا السياق:

(٣٩) ﴿يَٰصَٰحِبَيِ[1] ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ فخاطب صاحبيه يا صاحبي السجن أخبراني واصدقاني: أأرباب أي آلهة متفرقون هنا وهناك، هذا صنم وهذا كوكب، وهذا إنسان، وهذا حيوان، وهذا لونه كذا وهذا لونه كذا خير أم الله الواحد في ذاته وصفاته القهار لكل ما عداه من سائر المخلوقات، ولم يكن لهم من جواب سوى ﴿ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ إن العقل يقضي بهذا.

(٤٠) ثم خاطب أهل السجن كافة فقال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾[2] أي من دون الله الواحد القهار ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ إنها مجرد أسماء لا غير إذ كونكم تطلقون لفظ إله أو رب على صنم أو كوكب مرسوم له صورة لا يكون بذلك ربًا وإلهًا إن الرب هو الخالق الرازق المدبر أما المخلوق المرزوق الذي لا يملك نفعًا ولا ضرًا لنفسه فضلاً عن غيره فإطلاق الربّ والإله عليه كذب وزور، إنها أسماء ما أنزل الله بها من سلطان[3] حجة ولا برهانًا فتعبد لذلك بحكم أن الله أمر بعبادتها. ثم قال لهم: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم إلا لله، وقد حكم بأن لا يعبد إلا هو، إذًا فكل عبادة لغيره هي باطلة يجب تركها والتخلي عنها، ذلك الدين القيم أخبرهم أن عبادة الله وحده وترك عبادة غيره هي الدين القويم والصراط المستقيم إلا أن أكثر الناس لا يعلمون فجهلهم بمعرفة ربهم الحق الذي خلقهم ورزقهم ويدبر حياتهم وإليه مرجعهم هو الذي جعلهم يعبدون ما ينحتون ويؤلهون ما يصنعون.

(٤١) ولما فرغ من دعوته إلى ربه التفت إلى من طلبا منه تعبير رؤياهما فقال: ما أخبر تعالى به عنه ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾ أي سيطلق سراحه[4] ويعود إلى عمله عند الملك فيسقيه الخمر كما كان يسقيه من قبل، وأما الآخر وهو طباخ الملك المتهم بأنه أراد أن يضع في طعام الملك السم ليقتله، فيصلب فتأكل الطير من رأسه بعد صلبه. وهنا قالا: إننا لم نر شيئًا وإنما سألناك لنجربك لا غير فردّ عليهما قائلاً: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ أي فرغ منه وبتّ فيه رأيتما أم لم تريا.

(٤٢) ثم قال للذي ظن أنه ناج منهما ما أخبر تعالى به عنه ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ[5]﴾ أي عند سيدك وكانوا يطلقون على السيد المالك لفظ الربّ. فأنساه الشيطان ذكر ربّه[6] أي أنسى الشيطان يوسف عليه السلام ذكر ربه تعالى حيث التفت بقلبه إلى الخادم والملك ونسي الله تعالى فعاقبه ربه الحق فلبث في السجن بضع سنين أي سبع سنوات عدًا.

هداية الآيات:

١ - وجوب اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى.

٢ - تقرير التوحيد عن طريق أحاديث السابقين.

---

(١) أطلق لفظ الصحبة لطول مكثهما في السجن كقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ و ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾. وذلك لطول المقام فيهما.

(٢) بيّن ذلك عجز تلك الآلهة الباطلة.

(٣) أي: من حجّة تحكم بمشروعية عبادتها كما تفعلون.

(٤) أي: بعد ثلاثة أيام، وكذلك كان.

(٥) إطلاق لفظ الربّ على السيد كان عند من قبلنا أمّا نحن أمّة الإسلام، فقد نهينا عن ذلك، روى مسلم قوله ﷺ: **«لا يقل أحدكم: اسق ربّك أطعم ربّك وضىء ربك، ولا يقل أحدكم: ربّي، وليقل: سيّدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي وليقل: فتاي فتاتي غلامي»**.

(٦) عجبًا لبعض المفسرين كيف يرجعون الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إلى الفتى الخادم، ولم يرجعوه إلى يوسف عليه السلام كما رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره، إذ لو كان الضمير يصحّ رجوعه إلى الخادم لكان النظم القرآني هكذا: فأنساه الشيطان ذكر يوسف عند ربّه فلبث في السجن.

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

٢٤١

٣ ـ لا حكم في شيء إلا بحكم الله تعالى فالحق ما أحقه الله والباطل ما أبطله والدين ما شرعه.

٤ ـ مشروعية الاستفتاء في كل مشكل من الأمور.

٥ ـ غفلة يوسف عليه السلام بإقباله على الفتى وقوله له اذكرني عند ربك ناسيًا مولاه الحق ووليه الذي أنجاه من القتل وغيابة الجب، وفتنة النساء جعلته يحبس في السجن سبع سنين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٣ ـ ٤٦]

﴿٤٣﴾ ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾: ملك مصر الذي العزيز وزير من وزرائه واسمه الريان بن الوليد. ﴿سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾: هزال غير سمان. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾: أيها الأشراف والأعيان من رجال الدولة. ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾: أي عبروها لي.

﴿٤٤﴾ ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ﴾: أي أخلاط أحلام كاذبة لا تعبير لها إلا ذاك.

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾: أي وتذكر بعد حين من الزمن أي قرابة سبع سنين.

﴿٤٦﴾ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾: أي يا يوسف أيها الصديق أي يا كثير الصدق علم ذلك منه في السجن.

معنى الآيات:

﴿٤٣﴾ ما زال السياق الكريم في الحديث عن يوسف وهو في محنته إنه لما قارب الفرج أوانه رأى ملك مصر رؤيا أهالته وطلب من رجال دولته تعبيرها، وهو ما أخبر تعالى به في هذه الآيات إذ قال عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ أي ملك البلاد ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ أي في منامي ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ بقرات ﴿عِجَافٞ﴾[1] أي مهازيل في غاية الهزال ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ﴾ أي سنبلات يابسات. ثم واجه رجال العلم والدولة حوله وقد جمعهم لذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ أي تؤولون.

﴿٤٤﴾ فأجابوه بما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ[2] أَحۡلَٰمٖ﴾ أي رؤياك هذه هي من أضغاث الأحلام التي لا تعبر، إذ قالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ والمراد من الأضغاث الأخلاط. وفي الحديث الصحيح **«الرؤيا من الرحمن والحلم من الشيطان»**.

﴿٤٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾ أي من صاحبي السجن، ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾[3] أي وتذكر ما أوصاه به يوسف وهو يودعه عند باب السجن إذ قال له: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ بعد حين من الزمن قرابة سبع سنوات. قال ما أخبر تعالى به عنه: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ أي إلى يوسف في السجن فإنه أحسن من يعبر الرؤى فأرسلوه

---

(١) ﴿عِجَافٞ﴾ جمع عجفاء من عجُف يعجُف كعظُم يعظُم، والعجاف، المهاذيل والهُزال في الحيوان: الضعف لقلة الشحم واللحم.

(٢) الأضغاث: جمع ضغث والضغث في اللغة: الحزمة من الشيء كالبقل والكلأ، والأحلام: الرؤيا المختلطة، وما لا تأويل له من الرؤى.

(٣) قرىء: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أَمَهٍ﴾ بفتح الهمزة وتخفيف الميم أي: بعد نسيان يقال: أمِهَ أَمْهًا إذا نُسي، قال الشاعر:

أمهت وكنت لا أنسى حديثًا ... كذاك الدهر يودي بالعقول

﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أصلها: واذتكر، فأبدلت التاء دالاً، ثم أدغمت الذال في الدال فصارت: وادّكر، وذلك لمناسبتين الأولى: لقرب مخرج التاء من الذال والثانية: رخاوة الدال ولينها فحصل الإدغام لذلك.

فدخل عليه وقال ما أخبر به تعالى عنه في قوله:

(٤٦) ﴿يُوسُفُ﴾ أي يا يوسف ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ وقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي الملك ورجاله ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي ما تعبرها به أنت فينتفعون بذلك.

هداية الآيات:

١ - جواز الرؤيا الصالحة يراها الكافر والفاسق.

٢ - الرؤى نوعان حلم من الشيطان، ورؤيا من الرحمٰن.

٣ - النسيان من صفات البشر.

٤ - جواز وصف الإنسان بما فيه من غير إطراء كقوله أيها الصديق.

٥ - لعل تكون بمعنى كي التعليلية.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧ ـ ٤٩]

(٤٧) ﴿دَأَبًا﴾: أي متتابعة على عادتكم. ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾: أي اتركوه في سنبله لا تدرسوه.

(٤٨) ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾: أي صعاب قاسية لما فيها من الجدب. ﴿مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾: أي تحفظونه وتدخرونه للبذر والحاجة.

(٤٩) ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾: أي يغيثهم ربهم بالأمطار وجريان النيل. ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: أي ما من شأنه أن يعصر كالزيتون والعنب وقصب السكر.

معنى الآيات:

(٤٧) قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ إلى آخره، هو جواب يوسف للذي استفتاه أي طلب منه تعبير رؤيا الملك قال له في بيان تأويل الرؤيا تزرعون بمعنى ازرعوا سبع سنين دأبًا[1] أي متتالية كعادتكم في الزرع كل سنة وهي تأويل السبع البقرات السمان، فما حصدتم من زروع فذروه في سنبله أي اتركوه بدون درس حتى لا يفسد[2] إلا قليلاً مما تأكلون أي فادرسوه لذلك.

(٤٨) ثم يأتي بعد ذلك أي من بعد المخصبات سبع[3] شداد أي مجدبات صعاب وهي تأويل السبع البقرات العجاف يأكلن ما قدمتم لهن أي من الحبوب التي احتفظتم بها من السبع المخصبات يريد تأكلونه فيهن إلا قليلاً مما تحصنون[4] أي تدخرونه للبذور ونحوه. ثم يأتي بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون أي يأتي من بعد السبع السنين المجدبات عام فيه يغاث[5] الناس بالمطر وفيه يعصرون العنب والزيت وكل ما يعصر لوجود الخصب فيه.

(٤٩) وقوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾، إلخ. هذا لم تدل عليه الرؤيا وإنما هو مما علّمه الله تعالى يوسف فأفادهم به من غير ما سألوه ذلك إحسانًا منه ولحكمة عالية أرادها الله تعالى. وهو الحكيم العليم.

هداية الآيات:

١ - أرض مصر أرض فلاحة وزراعة من عهدها الأول.

٢ - الاحتفاظ بالفائض في الصوامع وغيرها مبدأ اقتصادي هام ومفيد.

٣ - كمال يوسف في حسن تعبير الرؤى شيء عظيم.

٤ - فضل يوسف عليه السلام على أهل مصر حيث أفادهم بأكثر مما سألوا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٠ ـ ٥٢]

(٥٠) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾: أي بيوسف. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾: أي مبعوث الملك. ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي سيدك. ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾: ما حالهن.

---

(١) ﴿دَأَبًا﴾ أي: متتالية متتابعة وهي مصدر على غير معناه لأنّ معنى تزرعون تدأبون كعادتكم في الزراعة سبع سنين. وقرىء: ﴿دأْبًا﴾ بسكون الهمزة وأصل الدأب: العادة، ومنه قول الشاعر:

كدأبك من أم الحويرث قبلها ... وجارتها أم الرباب بمأسل

(٢) أي: بأكل السوس له.

(٣) هذه الآية دليل على مشروعية المصالح الشرعية المرسلة، التي هي حفظ الأديان، والنفوس، والعقول، والأنساب، والأموال، فكل ما تضمّن تحصيل شيء من هذه الكليات الخمس فهو مصلحة، وكل ما يُفوِّت شيئًا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مقصود الشارع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية والأخروية. على هذا أهل السنة والجماعة.

(٤) ﴿تُحْصِنُونَ﴾ أي: تحبسونه وتخزنونه لتزرعوه وفي هذه دليل على رُؤيا الكافر وأنّه قد يرى ما هو حق، وذلك بتدبير الله تعالى.

(٥) يقال: غوّث الرجل: إذا قال: واغوثاه، والاسم الغوث والغواث، واستغاثه فأغاثه إغاثة والاسم الغياث، والغيث: المطر.

(٥١) ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾: ما شأنكن. ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾: أي تنزيهًا لله تعالى عن العجز أن يخلق بشرًا عفيفًا. ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾: وضح وظهر الحق.

معنى الآيات:

(٥٠) إن رؤيا الملك كانت تدبيرًا من الله تعالى لإخراج يوسف من السجن إنه بعد أن رأى الملك الرؤيا وعجز رجاله عن تعبيرها وتذكّر أحد صاحبي السجن ما وصّاه به يوسف، وطلب من الملك أن يرسله إلى يوسف في السجن ليستفتيه في الرؤيا وأرسلوه واستفتاه فأفتاه وذهب به إلى الملك فأعجبه التعبير وعرف مدلوله أمر بإحضار يوسف لإكرامه لما ظهر له من العلم والكمال وهو ما أخبر تعالى به في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي﴾ أي يوسف ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي جاء يوسف رسول الملك وهو صاحبه الذي كان معه في السجن ونجا من العقوبة وعاد إلى خدمة الملك فقال له: إن الملك يدعوك فقال له: عد إليه[١] واسأله ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ[٢] ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي قل له يسأل عن حال النسوة اللائي قطعن أيديهن والمرأة التي اتهمتني، فجمع الملك النسوة وسألهن قائلاً ما خطبكن[٣] إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ فأجبن قائلات حاش للّه ما علمنا عليه من سوء، أي نُنَزِّهُ الله تعالى أن يعجز أن يخلق بشرًا عفيفًا مثل هذا. ما علمنا عليه من سوء.

(٥١) وهنا قالت امرأة العزيز زليخا ما أخبر تعالى به عنها ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ[٤] ٱلْحَقُّ﴾ أي وضح وبان وظهر ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وليس هو الذي راودني، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

(٥٢) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ هذا إخبار عن يوسف عليه السلام فإنه قال ذلك، أي امتناعي من الخروج من السجن وعدم إجابتي الملك وطلبي إليه أن يسأل عن حال النسوة حتى تم الذي تم من براءتي على لسان النسوة عامة، وامرأة العزيز خاصة حيث اعترفت قطعيًا ببراءتي وقررت أنها هي التي راودتني عن نفسي فأبيت ورفضت فعلت هذا ليعلم زوجها العزيز أني لم أخنه في أهله في غيبته وأن عرضه مصان وشرفه لم يدنس لأنه ربي أحسن مثواي. وإن الله لا يهدي كيد الخائنين فلو كنت خائنًا ما هداني لمثل هذا الموقف المشرف والذي أصبحت به مبرأ الساحة سليم العرض طاهر الثوب والساحة.

هداية الآيات:

١ - فضل العلم وشرفه إذ به رفع الملك يوسف إلى حضرته وهو رفيع.

٢ - فضيلة الحلم والأناة وعدم التسرع في الأمور.

٣ - فضيلة الصدق وقول الحق ولو كان على النفس.

٤ - شرف زليخا[٥] بإقرارها بذنبها رفعها مقامًا ساميًا وأنزلها درجة عالية

---

(١) أبى أن يخرج إلاّ أن تصحّ براءته للملك مما قذف به وأنّ حبسه كان بلا جرم. روى الترمذي أن النبي ﷺ قال: «**إنّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**». قال: «**لو لبثت في السجن ما لبث ثم جاءني الرسول أجبت**» وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي، ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾**».

(٢) ذكر النسوة جملة: حتى لا يؤذي امرأة العزيز لو خصها بالذكر إكرامًا منه وحلمًا، وكمالاً خلقيًا وإلاّ فالمراد زليخا.

(٣) قوله: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾: جرى فيه على سنة يوسف إذ خاطب النسوة كافة ولم يفرد زليخا وهذا أيضًا من باب الستر متى أمكن ولم تحوج الحال إلى التعيين والكشف.

(٤) ﴿حَصْحَصَ﴾ أي: تبيّن وظهر، وأصله: حصص فقيل: حصحص، نحو: كفكف في كفف، وأصل الحصّ: استئصال الشيء من حص الشعر: إذا استأصله جزًا، قال الشاعر:

قد حصّت البيضة رأسي فما ... أطعم نومًا غير تهجاع

أي: النوم الخفيف، ومنه الحصّة: القطعة من الشيء، فالمعنى إذًا: بانت حصة الحق من حصة الباطل.

(٥) ذهبت في التفسير مذهب إمام المفسرين ابن جرير رحمه الله تعالى وكثير من علماء السلف إلى أنّ القائل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٢) ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾ هو يوسف عليه السلام: أي: إنه لما جاء الرسول يدعوه إلى حضرة الملك أبى أن يجيب الدعوة حتى يحقق الملك في قضيته التي

فقد تصبح بعد قليل زوجة لصفي الله يوسف الصديق بن الصديق زوجة له في الدنيا وزوجة له في الآخرة وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

الجزء الثالث عشر

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥٣) وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ (٥٤) قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٥٧) وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ (٦٠) قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٦٣)﴾

٢٤٢

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٣ - ٥٧]

(٥٣) ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾: أي كثيرة الأمر والسوء هو ما يُسيء إلى النفس البشرية مثل الذنوب. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾: أي إلا من رحمه الله فإن نفسه لا تأمر بالسوء لطيبها وطهارتها.

(٥٤) ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾: أجعله من خلصائي من أهل مشورتي وأسراري. ﴿مَكِينٌ أَمِينٞ﴾: أي ذو مكانة تتمكن بها من فعل ما تشاء، أمين مؤتمن على كل شيء عندنا.

(٥٥) ﴿خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: أي خزائن الدولة في أرض مصر. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾: أي أحافظ على ما تسنده إليّ وأحفظه، عليم بتدبيره.

(٥٦) ﴿يَتَبَوَّأُ﴾: أي ينزل ويحل حيث يشاء بعدما كان في غيابة الجب وضيق السجن.

معنى الآيات:

(٥٣) ما زال السياق في الحديث على يوسف عليه السلام فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۞﴾ هذا من قول يوسف[1] عليه السلام، إذ قال لما طلب إلى الملك أن يحقق في قضية النسوة اللاتي قطعن أيديهن وامرأة العزيز وتم التحقيق بالإعلان عن براءة يوسف مما اتهم به قال ذلك، أي فعلت ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. وهضمًا لنفسه من جهة ومن جهة أخرى فقد همّ بضرب زليخا كما تقدم، قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ وعلل لذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾ أي البشرية ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ[2] رَبِّيٓۚ﴾ إلا نفسًا رحمها ربي بتوفيقها إلى تزكيتها وتطهيرها بالإيمان وصالح الأعمال فإنها تصبح نفسًا مطمئنة تأمر بالخير وتنهى عن الشر[3]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ذكر هذه الجملة تعليلاً لقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ فذكر وإن حصل

= سجن فيها ثمّ بعد ذلك يخرج. ودعا الملك النسوة وحقق معهن وبرأن يوسف بقولهن: ما علمنا عليه من سوء، وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ كأن سائلاً قال ليوسف: لم لَم تجب الداعي؟ فأجاب: ذلك أي: فعلت ذلك ليعلم أي: العزيز: أني لم أخنه بالغيب، ثم قال تواضعًا: وما أبرّىء نفسي إذ همّ بضرب زليخا لما ألحت عليه وأرادت ضربه.
وذهبت إلى هذا مرجحًا له لأمرين الأول: ترجيح إمام المفسرين له والثاني: أنّى لتلك المرأة المشركة أن ترقى إلى هذا المستوى فتقول: وما أبرىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّي إنّ ربيّ غفور رحيم. إنّ هذا الكلام لا يجري إلا على لسان الأنبياء الصالحين.
ومع هذا فمن رجّح أن يكون القول قول زليخا كابن القيم رحمه الله تعالى فلا بأس، ويجب على الجميع أن يقول: الله أعلم، إذ قولنا مجرد ارتئاء رأيناه والعلم الحق لله وحده لا شريك له.

(١) على ما رجحته في التفسير. وعلى قول شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم فهو من قول امرأة العزيز.

(٢) ﴿مَا رَحِمَ﴾ ما: بمعنى: مَنْ، وهي شائعة الاستعمال، من ذلك: فانكحوا ما طاب لكم. أي: من طبن لكم من النساء.

(٣) وبذلك يتمّ عصمتها بإذن الله تعالى.

مني همّ بضرب وهو سوء فإني تبت إلى الله، والله غفور أي يعفو ويصفح فلا يؤاخذ من تاب إليه ويرحمه فإنه رحيم بالمؤمنين من عباده. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٣) أما الآية الثانية (٥٤).

(٥٤) والثالثة (٥٥) فقد تضمنت استدعاء الملك ليوسف وما دار من حديث بينهما إذ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ الريان بن الوليد ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ أي بيوسف بعد أن ظهر له علمه وكماله الروحي ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي أجعله خالصًا لي أستشيره في أمري وأستعين به على مهام ملكي. وجاء يوسف من السجن وجلس إلى الملك وتحدث معه وسأله عن موضوع سني الخصب والجدب فأجابه بما أثلج صدره من التدابير الحكيمة السديدة وهنا قال له ما أَخْبَر تعالى به قال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي ذو مكانة عندنا تمكنك من التصرف في البلاد كيف تشاء أمين على كل شيء عندنا فأجابه يوسف بما أخبر به تعالى بقوله:

(٥٥) ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى[1] عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر ومعنى هذا أنه حل محل العزيز الذي قد مات في تلك الأيام. وعلل لطلبه وزارة المال والاقتصاد بقوله: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي حفيظ على ما أتولى تدبيره عليم بكيفية الإدارة وتدبير الشؤون.

(٥٦) وقوله تعالى في الآية الرابعة (٥٦): ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي بمثل هذه الأسباب والتدابير مكنا ليوسف في أرض مصر يتبوأ منها أي ينزل حيث يشاء يتقلب فيها أخذًا وعطاءً وإنشاءً وتعميرًا لأنه أصبح وزيرًا مطلق التصرف. وقوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي رحمته من عبادنا ولا نضيع أجر المحسنين، وهذا وعد من الله تعالى لأهل الإحسان بتوفيتهم أجورهم، ويوسف عليه السلام من شاء الله رحمتهم كما هو من أهل الإحسان الذين يوفيهم الله تعالى أجورهم في الدنيا والآخرة، وأخبر تعالى أن أجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون، ترغيبًا في الإيمان والتقوى إذ بهما تنال ولاية الله تعالى عز وجل إذ أولياؤه هم المؤمنون المتقون.

هداية الآيات:

١ - فضيلة هضم النفس باتهامها بالنقص والتقصير.

٢ - تحقيق الحكمة القائلة: المرء مخبوء تحت لسانه.

٣ - جواز ذكرِ المُرشّح للعمل كحذق الصنعة ونحوه ولا يعد تزكية للنفس.

٤ - فضيلة الإحسان في المعتقد والقول والعمل.

٥ - فضل الإيمان والتقوى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٨ ـ ٦٢]

(٥٨) ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾: من أرض كنعان لما بلغهم أن ملك مصر يبيع الطعام. ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾: أي غير عارفين أنه أخوهم.

(٥٩) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾: أي أكرمهم وزوّدهم بما يحتاجون إليه في سفرهم بعدما كال لهم ما ابتاعوه منه. ﴿بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾: هو بِنيامين لأنه لم يجيء معهم لأن والده لم يقدر على فراقه.

(٦١) ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: أي سنجتهد في طلبه منه.

(٦٢) ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾: أي غلمانه وخدمه. ﴿بِضَٰعَتَهُمْ﴾: أي دراهمهم التي جاؤوا يمتارون بها.

معنى الآيات:

(٥٨) ما زال السياق الكريم في الحديث عن قصة يوسف عليه السلام وتتبع أحداثها، إنه بعد أن ولي يوسف أمر الوزارة ومرت سنوات الخصب وجاءت سنوات الجدب فاحتاج أهل أرض كنعان إلى الطعام كغيرهم فبعث يعقوب عليه السلام بنيه يمتارون وكانوا عشرة رجال بعد أن علم أن ملك مصر يبيع الطعام، قال تعالى مخبرًا عن حالهم: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ[2] يُوسُفَ﴾ أي

---

(١) قال بعض أهل العلم: في الآية دليل على جواز عمل الرجل الصالح للرجل الكافر أو الفاجر إذا كان ذلك لا يضرّ بدينه، وهو كذلك، وفيها دليل على جواز ذكر طالب العمل كفاءته العلمية حتى يسند إليه العمل على أن يكون صادقًا في ذلك، وليس هذا من باب: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ ولا هو من باب طلب الإمارة حيث قال الرسول ﷺ: «**لن نستعمل على عملنا هذا مَنْ أراده**» رواه مسلم.

(٢) جاؤوا إلى مصر لما أصابهم القحط ليميروا.

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

من أرض كنعان ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي على يوسف ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي لم يعرفوه لتغيره بكبر السن وتغير أحواله[(١)].

﴿٥٩﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ[(٢)]﴾ أي كال لهم وحمّل لكل واحد بعيره بعد أن أكرمهم غاية الإكرام ﴿قَالَ ائْتُونِي[(٣)] بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ولا شك أنه قد سألهم عن أحوالهم فأخبروه عن أبيهم وأولاده بالتفصيل فلذا قال لهم: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ وهو بنيامين، ورغبهم في ذلك بقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

﴿٦٠﴾ أي خير المضيفين لمن نزل عليهم ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

﴿٦١﴾ بعد هذا الإلحاح عليهم أجابوه بما أخبر تعالى به عنهم بقوله: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أي سنبذل جهدنا في طلبه حتى نأتي به، ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ كما أخبرناك.

﴿٦٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ[(٤)] اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ يخبر تعالى عن قيل يوسف لغلمانه: اجعلوا دراهمهم التي اشتروا بها الطعام في رحالهم من حيث لا يشعرون ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا[(٥)] إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[(٦)]﴾ كل هذا كان رغبة من يوسف في إحضار أخيه الشقيق فجعل رد الدراهم وسيلة لذلك لأنهم إذا وجدوها تحرجوا من أخذها فرجعوا بها. وجاؤوا بأخيهم معهم، وهو مطلب يوسف عليه السلام حققه الله.

هداية الآيات:

١ ـ عجيب تدبير الله تعالى إذ رؤيا الملك وتعبير يوسف لها وظهورها كما عبرها كان تدبيرًا لولاية يوسف ثم لمجيء إخوته يطلبون الطعام الأهليه ولتتم سلسلة الأحداث الآتية، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

٢ ـ حسن تدبير يوسف عليه السلام للإتيان بأخيه بنيامين تمهيدًا للإتيان بالأسرة كلها.

٣ ـ أثر الإيمان في السلوك، إذ عرف يوسف أن أخوته لا يستحلون أكل مال بغير حقه فجعل الدراهم في رحالهم ليرجعوا بها ومعهم أخوهم الذي يريد إحضاره.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٣ ـ ٦٧]

﴿٦٣﴾ ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾: أي منع الملك منا الكيل حتى نأتيه بأخينا.

﴿نَكْتَلْ﴾: أي نحصل على الكيل المطلوب.

---

(١) ولطول المدة إذ مضى عليهم يوم فارقوه أربعون سنة.

(٢) الجهاز بالفتح والكسر: ما يحتاج إليه المسافر والمراد به: الطعام الذي امتاروه من عنده.

(٣) سبب طلب يوسف أخاهم أنه كان معهم أحد عشر بعيرًا وهم عشرة وقالوا ليوسف: إنّ لنا أخًا تخلف عنا، وبعيره معنا، فسألهم لِمَ تخلّف؟ فقالوا: لحب أبيه إيّاه وذكروا له القصة وما جرى فيها، وهنا قال لهم: إن رجعتم للميرة مرّة أخرى فأتوني بأخٍ لكم من أبيكم، ورغبهم في ذلك وحذّرهم من أن يأتوا بدونه فإنه لا يبيعهم الطعام الذي هو حاجتهم.

(٤) قرىء: ﴿لِفِتْيَانِهِ﴾ و ﴿لفتيته﴾ قراءتان سبعيتان نحو: صبية وصبيان.

(٥) قال لعلهم يعرفونها: إذ من الجائز أن لا تسلم لهم بضاعتهم بأن تؤخذ منهم في الطريق مثلًا.

(٦) من الجائز أن يكون ردّ البضاعة إلى إخوته لأنه كره أن يأخذها من أبيه وإخوته، ومن الجائز أن يكون ردّها إليهم لعلمه أنهم لا يأكلون الطعام بغير حقه فسيرجعون بها، وهو المراد.

(٦٤) ﴿عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾: أي كما أمنتكم على يوسف من قبل وقد فرطتم فيه.

(٦٥) ﴿مَا نَبۡغِي﴾: أي أي شيء نبغي. ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾: أي بدل ما كنا عشرة نصبح أحد عشر لكل واحد حمل بعير. ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾: أي على الملك لغناه وطوله فلا يضره أن يزيدنا حمل بعير.

(٦٦) ﴿مَوۡثِقٗا﴾: أي عهدًا مؤكدًا باليمين. ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾: أي تهلكوا عن آخركم.

(٦٧) ﴿مِن شَيۡءٍ﴾: أي أراد الله خلافه.

معنى الآيات:

(٦٣) ما زال السياق الكريم في الحديث عن يوسف وإخوته. قال تعالى مخبرًا عن رجوع إخوة يوسف من مصر إلى أرض كنعان بفلسطين: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ﴾ أي يعقوب عليه السلام ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ أي منع[١] منا ملك مصر الكيل إلا أن نأتي بأخينا بنيامين ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ[٢] وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أن يناله مكروه بحال من الأحوال.

(٦٤) فأجابهم يعقوب عليه السلام بما أخبر تعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي ما آمنكم عليه ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ يعني يوسف لما ذهبوا به إلى البادية. ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا[٣] وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ جرى هذا الحديث بينهم عند وصولهم وقبل فتح أمتعتهم، وأما بعد فتحها فقد قالوا ما أخبر تعالى به في قوله:

(٦٥) ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ أي دراهمهم ﴿رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ أي فأرسل معنا أخانا نذهب به إلى مصر ﴿وَنَمِيرُ[٤] أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ لأن الملك المصري لا يبيع للنفر الواحد إلا حمل بعير نظرًا لحاجة الناس إلى الطعام في هذه السنوات الصعبة للجدب العام في البلاد.

(٦٦) فأجابهم يعقوب بما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي حتى تعطوني عهدًا مؤكدًا باليمين على أن تأتوني به ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾[٥] بعدو ونحوه فتهلكوا جميعًا فأعطوه ما طلب منهم من عهد وميثاق، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ أي شهيد عليّ وعليكم، أي فأشهد الله تعالى على عهدهم.

(٦٧) ولما أرادوا السفر إلى مصر حملته العاطفة الأبوية والرحمة الإيمانية على أن قال لهم ما أخبر تعالى عنه: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ أي لا تدخلوا وأنتم أحد عشر رجلاً من باب واحد فتسرع إليكم العين[٦]، وإنما ادخلوا من عدة

---

(١) إذ قال لهم: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ (٦٠)﴾.

(٢) أصل نكتل: نكتال فحذفت الألف لسكون اللام بالجازم وقرىء بالياء: ﴿يكتل﴾: أي: أخوهم بنيامين.

(٣) وقرىء: ﴿خير حفظًا﴾ قراءة سبعية.

(٤) ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ أي: نجلب لهم الطعام قال الشاعر:

بعثتك مائرًا فمكثت حولاً ... متى يأتي غياثك من تغيث

(٥) أي: تهلكوا أو تموتوا وإلاّ أن تغلبوا عليه.

(٦) في الآية دليل على ما يلي:

أ ـ على التحرّز من العين، والعين حق لحديث: «**إنّ العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر**» ولتعوذ الرسول ﷺ منها في غير حديث.

ب ـ على المسلم إن أعجبه شيء أن يبرّك، لقول الرسول ﷺ: «**ألا برّكت**»!! والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين اللهم بارك فيه.

جـ ـ إذا أصاب العبد بعينه لأنه لم يبرّك فإنه يؤمر بالاغتسال ويجبر عليه.

د ـ إذا عرف المرء بأذاه للناس بعينه يبعد عنهم وجوبًا.

هـ ـ الاغتسال من العين: هو أن يغسل المعيان وجهه ويديه، ومرفقيه وركبتيه، وأطراف رجليه وداخل إزاره في إناء ثمّ يصب على المصاب بالعين فيشفى بإذن الله تعالى.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ (٧٠) قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ (٧٣) قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ (٧٤) قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٧٨)

أبواب فلا تُرون جماعة واحدة أبناء رجل واحد فلا تصيبكم عين الحاسدين. ثم قال: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، وهو كذلك ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فما شاءه كان. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي فوضت أمري إليه ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليفوض إليه المتوكلون أمورهم لأنه الكافي ولا كافي على الحقيقة إلا هو عز جاره وعظم سلطانه.

هداية الآيات:

١ - بيان مدى توكل يعقوب عليه السلام على الله وثقته في ربّه عز وجل، ومعرفته بأسمائه وصفاته، وكيف لا وهو أحد أنبياء الله ورسله عليهم السلام.

٢ - جواز أخذ العهد المؤكد في الأمور الهامة ولو على أقرب الناس كالأبناء مثلاً.

٣ - لا بأس بتخوف المؤمن من إصابة العين وأخذ الحيطة للوقاية منها مع اعتقاد أن ذلك لا يغني من الله شيئًا وأن الحكم لله وحده في خلقه لا شريك له في ذلك.

٤ - وجوب التوكل على الله تعالى وإمضاء العمل الذي تعيَّن وتفويض أمر ما يحدث لله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٨ ـ ٧٢]

(٦٨) ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾: هي إرادة دفع العين عن أولاده شفقة عليهم.

(٦٩) ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾: أي ضمه إليه أثناء الأكل وأثناء المبيت. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: أي لا تحزن.

(٧٠) ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾: أي صاع الملك وهو من ذهب كان يشرب فيه ثم جعله مكيالاً يكيل به. ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: نادى مناد. ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾: أي القافلة.

(٧٢) ﴿صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾: أي صاع الملك. فالصاع والصواع بمعنى واحد. ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾: أي بالحمل كفيل.

معنى الآيات:

(٦٨) ما زال السياق في الحديث عن إخوة يوسف فقد عهد إليهم إذا هم وصلوا إلى ديار مصر أن لا يدخلوا من باب واحد بل من أبواب متعددة خشية العين عليهم، وقد وصلوا وعملوا بوصية أبيهم فقد قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم﴾ أي دخولهم من أبواب متفرقة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من قضائه ﴿مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً﴾ أي لكن حاجة ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ وهي خوف العين عليهم ﴿قَضَىٰهَا﴾[1] أي لا غير.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ ثناء على يعقوب أي إنه لصاحب علم وعمل لتعليمنا إياه وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو كما أخبر عز وجل أكثر الناس لا يعلمون عن الله تعالى صفات جلاله وكماله ومحابه ومساخطه وأبواب الوصول إلى مرضاته والحصول على رضاه ومحبته، وما يتقي مما يحرم على العبد من ذلك.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦٨).

(٦٩) أما الآية الثانية فقد أخبر تعالى أن إخوة يوسف لما دخلوا عليه في منزله آوى إليه أخاه أي شقيقه وهو بنيامين، وذلك لما جاء وقت النوم جعل كل اثنين في غرفة وهم أحد عشر رجلاً بقي بنيامين فقال هذا ينام معي، وأنه لما آواه إليه في فراشه أعلمه أنه أخوه يوسف، وأعلمه أن

(١) ﴿قَضَىٰهَا﴾ أي: أنفذها إذ القضاء: إنفاذ المحكوم به.

لا يحزن بسبب ما كان إخوته قد عملوه مع أبيهم ومع أخيهم يوسف وأعلمه أنه سيحتال على بقائه معه فلا يكترث بذلك ولا يخبر إخوته بشيء من هذا. هذا ما دلت عليه الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ[١] بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾.

(٧٠) أما الآية الثالثة (٧٠) فقد تضمنت الإخبار عن تدبير[٢] يوسف لبقاء أخيه معه دونهم وذلك أنه لما جهزهم بجهازهم أي كال لهم الطعام وزودهم بما يحتاجون إليه بعد إكرامه لهم جعل بطريق خفيّ لم يشعروا به سقاية الملك وهي الصاع أو الصواع وهي عبارة عن إناء من ذهب كان يشرب فيه ثم جعل آلة كيل خاصة بالملك عرفت بصواع الملك أو صاعه. جعلها في رحل أخيه بنيامين، ثم لما تحركت القافلة وسارت خطوات نادى منادٍ قائلاً أيتها العير[٣]، أي يا أهل القافلة إنكم لسارقون. هذا ما تضمنته الآية الكريمة إذ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ۝﴾.

(٧١) قال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝﴾.

(٧٢) فأجابوا بقولهم: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي مكافأة له ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ[٤]﴾ أي وأنا بإعطائه حمل البعير كفيل.

هداية الآيات:

١ - بيان فضل العلم وأهله.

٢ - تقرير حقيقة وهي أن أكثر الناس لا يعلمون.

٣ - حسن تدبير يوسف للإبقاء على أخيه معه بعد ذهاب إخوته.

٤ - مشروعية إعطاء المكافآت لمن يقوم بعمل معين وهي الجعالة في الفقه.

٥ - مشروعية الكفالة والكفيل غارم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٣ - ٧٦]

(٧٣) ﴿تَٱللَّهِ﴾: أي والله. ﴿لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي بارتكاب المعاصي وغشيان الذنوب. ﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾: أي لم نسرق الصواع كما أنا لم نسرق من قبل متاع أحد.

(٧٥) ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾: أي يؤخذ بالسرقة رقيقًا. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: أي في شريعتنا.

(٧٦) ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾: أي في وعاء أخيه الموجود في رحله. ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾: أي يسرنا له هذا الكيد الذي توصل به إلى أمر محمود. ﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾: أي في شرعه إذ كان يضرب السارق ويغرم بمثل ما سرق. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: أي كما رفع يوسف عليه السلام.

معنى الآيات:

(٧٣) ما زال السياق في الحديث عن يوسف وإخوته، إنه لما أعلن عن سرقة صواع الملك وأوقفت القافلة للتفتيش، وأعلن عن الجائزة لمن يأتي بالصواع وأنها مضمونة هنا قال إخوة يوسف ما أخبر تعالى به عنهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بالسرقة وغشيان الذنوب وإنما جئنا للميرة[٥] ﴿وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ[٦]﴾ أي في يوم من الأيام.

(٧٤) وهنا قال رجال الملك ردًا على مقالتهم بما أخبر تعالى به: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ۝﴾.

(٧٥) فأجاب الإخوة بما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ يريدون أن السارق يُسترق أي يملك بالسرقة،

---

(١) الابتئاس من البؤس الذي هو الحزن والكدر، فالابتئاس مطاوع الابئاس أي: جعل المرء بائسًا: صاحب بؤس.

(٢) قيل: إنّ بنيامين قال ليوسف: لا تردني إليهم فأجابه يوسف ودبّر كيفية إبقاء أخيه معه وكلّ ذلك بتدبير الله تعالى لهم.

(٣) العير: لفظ يطلق على ما امتير عليه من الإبل والخيل والبغال، والحمير، والمراد بها هنا: الإبل.

(٤) الزعيم: الكفيل، والحميل، والضمين، والقبيل، وهي بمعنى واحد سواء، ويطلق الزعيم على الرئيس.

(٥) الميرة: الطعام الذي يدّخره الإنسان.

(٦) إذ لو كانوا سارقين ما ردّوا البضاعة التي وضعت لهم في رحالهم من أجل أن يرجعوا إلى مصر، فمن ردّ بضاعة بعد ما تمكن منها لا يكون سارقًا.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي في شريعتنا. وهنا أخذ يوسف بنفسه يفتش أوعية إخوته بحثًا عن الصواع، وبدأ بأوعيتهم واحدًا بعد واحد وآخر وعاء وعاء أخيه بنيامين دفعًا للتهمة والتواطؤ في القضية، حتى استخرجها من وعاء أخيه الذي كان في رحله.

(٧٦) هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ[1] أَخِيهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ أي هكذا يسرنا[2] له هذا الكيد الذي توصل به إلى أمر محمود غير مذموم. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ أي لم يكن في شرع مصر أن يأخذ أخاه عبدًا بالسرقة بل السارق يضرب ويغرم فقط، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أمرًا فإنه يكون. وقوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ[3] مَّن نَّشَآءُ﴾ أي في العلم كما رفعنا يوسف ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ[4]﴾ من الناس ﴿عَلِيمٞ﴾ إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى فهو العليم الذي لا أعلم منه بل العلم كله له ومنه ولولاه لما علم أحد شيئًا.

هداية الآيات:

١ - جواز الحلف بالله تعالى للحاجة.

٢ - مشروعية دفع التهمة عن النفس البريئة.

٣ - معرفة حكم السرقة في شرعة يعقوب عليه السلام.

٤ - بيان حسن تدبير الله تعالى لأوليائه.

٥- بيان حكم السرقة في القانون المصري على عهد يوسف عليه السلام.

٦- علوّ مقام يوسف عليه السلام في العلم.

٧- تقرير قاعدة (وفوق كل ذي علم عليم) إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى.

الجزء الثالث عشر — سورة يوسف

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾

٢٤٥

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٧ ـ ٧٩]

(٧٧) ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾: أي يأخذ الصواع خفية من حرزه. ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ﴾: أي يوسف في صباه. ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾: أي أخفى هذه التهمة في نفسه. ﴿وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾: أي لم يظهرها لهم. ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾: أي منزلة ممن رميتموه بالسرقة. ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾: أي بحقيقة ما تصفون أي تذكرون.

(٧٨) ﴿أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾: أي يعقوب عليه السلام.

(٧٩) ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أي نعوذ بالله من أن نأخذ من لم نجد متاعنا عنده. ﴿مَتَٰعَنَا﴾: أي الصواع.

معنى الآيات:

(٧٧) ما زال السياق في الحديث مع يوسف عليه السلام وإخوته، إنه بعد أن استخرج يوسف الصواع من متاع أخيه وتقرر ظاهرًا أن بنيامين قد سرق، قال إخوته ما أخبر به تعالى

(١) الوعاء: ما يحفظ فيه الشيء، وتُضمّ واوه وتكسر، والكسر أشهر قيل لمّا استخرج السقاية من وعاء بنيامين: طأطأوا رؤوسهم حياءً، وقالوا لأخيهم بنيامين: ويلك يا بنيامين ما رأينا كاليوم قط.

(٢) قالت العلماء: يجوز للرجل أن يتصرف في ماله بالبيع والشراء والهبة والعطاء قبل حلول حول الزكاة ما لم ينو الفرار من الزكاة، فإن حال الحول فلا يصح شيء إلا بعد إخراج الزكاة.

(٣) أي: بالإيمان والعلم شاهده: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: يكون ذا أعلم من ذا، وذا أعلم من ذا، والله فوق كل عليم وقرأ الجمهور: ﴿دَرَجَاتِ مَن نَّشَاءُ﴾ بإضافة درجات إلى مَنْ وقرأ حفص: ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ بالتنوين تمييز لتعلق فعل نرفع بمفعوله وهو: ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾.

عنهم في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[1] أي إن يكن بنيامين قد سرق كما قررتم فلا عجب فقد سرق أخ له من قبل يعنون يوسف أيام صباه، كان يسرق الطعام ويعطيه للمساكين وسرق صنمًا لأبي أمه فكسره حتى لا يعبده، وليس هذا من السرقة المحرمة ولا المذمومة بل هي محمودة. وقوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا[2] يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي أسر يوسف قولتهم ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ولم يظهرها لهم وقال ردًا لقولتهم الخاطئة: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ[3] مَّكَانًا﴾ أي شر منزلة ممن رميتموه بالسرقة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي بحقيقة ما تذكرون.

(٧٨) ولما سمعوا قول يوسف وكان فيه نوع من الصرامة والشدة قالوا مستعطفين يوسف مسترحمينه بما حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ[4] إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا[5]﴾ أي لأخينا والدًا كبير السن يعز عليه فراقه ولا يطيقه. ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا[6] مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي واحدًا منا بدلاً عنه ومثلك يفعل ذلك لأنه إحسان وأنت من المحسنين.

(٧٩) فأجابهم بما أخبر تعالى به في قوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ[7] ٱللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾ أي إذا أخذنا من لم يَجْنِ ونترك من جنى أي سرق فقد كنا بذلك ظالمين وهذا ما لا نرضاه ولا نوافق عليه.

هداية الآيات:

١ - مشروعية الاعتذار عن الخطأ.

٢ - قد يضطر الحليم إلى أن يقول ما لم يكن يقوله لولا ما وُوجِهَ به من السوء.

٣ - مشروعية الاسترحام والاستعطاف لمن احتاج إلى ذلك رجاء أن يرحم ويعطف عليه.

٤ - حرمة ترك الجاني وأخذ غيره بدلاً منه إذ هذا من الظلم المحرم.

شرح الكلمات:
[الآية: ٨٠ ـ ٨٤]

(٨٠) ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾: أي اعتزلوا يناجي بعضهم بعضًا. ﴿أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾: أي عهدًا وميثاقًا لتأتن به إلا أن يحاط بكم. ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾: أي ومن قبل إضاعتكم لبنيامين فرطتم في يوسف كذلك. ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾: أي لن أفارق الأرض، أي أرض مصر.

(٨١) ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾: أي لما غاب عنا ولم نعرفه حافظين.

(٨٢) ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾: أي أصحاب القافلة التي جئنا معها وهم قوم كنعانيون.

(٨٣) ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾: أي زينت وحسنت لكم أمرًا ففعلتموه. ﴿أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾: أي بيوسف وأخويه بنيامين وروبيل.

(٨٤) ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: أي معرضًا عن حديثهم. ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾: أي يا حزني احضر هذا أوان حضورك. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي مغموم مكروب لا يظهر كربه.

معنى الآيات:

(٨٠) ما زال السياق في الحديث على قصة يوسف وإخوته، إنه بعد أن أخذ يوسف أخاه بالسرقة ولم يقبل استرحامهم له بأخذ غيره بدلاً عنه انحازوا ناحية يفكرون في أمرهم وهو ما أخبر به تعالى عنه في قوله:

---

(١) وجائز أن يكون قولهم: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾: مجرد رد تهمة وجهت إليهم وألزموا بها فدفعوها بقولهم: فقد سرق أخ له من قبل. وهو مجرد بهتان وقول باطل.

(٢) وجائز أن يكون: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾. أي: أسرّ كلمة: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: أخفاها فلم يتلفظ بها إحسانًا إليهم ثم جهر بقوله: والله أعلَمُ بما تصنعون.

(٣) شرّ: اسم تفضيل بمعنى: أشرّ، والمكان بمعنى: حالة أي: الحال التي أنتم عليها من أشر الأحوال.

(٤) يبدو أن لفظ العزيز لقب لكل من يلي ولاية في تلك البلاد.

(٥) هذا أسلوب الاستعطاف والاسترحام، اقتضاه موقف يوسف الحازم الصارم فنادوه بعنوان الحكم وذكروا له ضعف أبيهم وحالته النفسية إزاء ولده.

(٦) أي: خذه عبدًا لتسترقه لأنه سبق أن قيل: إن شريعة يعقوب عليه السلام أنّ السارق يسترق بالسرقة.

(٧) ﴿مَعَاذَ﴾: مصدر ميمي من العوذ الذي هو مصدر عاذ يعوذ عوذًا إذا تحصّن واستجار فهو مصدرٌ قام مقام الفعل.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ أي يئسوا ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا[١]﴾ أي اعتزلوا يتناجون في قضيتهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو روبيل مخاطبًا إياهم[٢] ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ يذكرهم بالميثاق الذي أخذه يعقوب عليهم لما طلبوا منه أن يرسل معهم بنيامين لأن عزيز مصر طلبه. ﴿وَمِن قَبْلُ مَا[٣] فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي وذكرهم بتفريطهم في يوسف يوم ألقوه في غيابة الجب وباعوه بعد خروجه من الجب. ومن هنا قال لهم ما أخبر تعالى به: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض مصر حتى يأذن لي أبي بالرجوع إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بما هو خير[٤] ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

(٨١) ولما أقنعهم بتخلفه عنهم أخذ يرشدهم إلى ما يقولونه لوالدهم وهو ما أخبر تعالى به في قوله عنه: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ[٥] وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا[٦]﴾ أي حيث رأينا الصواع يستخرج من رحل أخينا ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي ولو كنا نعلم أن أخانا يحدث له هذا الذي حدث ما أخذناه معنا.

(٨٢) كما أننا ما شهدنا بأن السارق يؤخذ بالسرقة إلا بما علمنا منك ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا[٧]﴾ وهي عاصمة مصر ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ إذ فيها كنعانيون من جيرانك ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في كل ما أخبرناك به. هذا ما أرشد به روبيل إخوته، ولما ذهبوا به واجتمعوا بأبيهم وحدثوه بما علمهم روبيل أن يقولوه فقالوه لأبيهم.

(٨٣) رد عليهم يعقوب عليه السلام بما أخبر تعالى به عنه في قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي زينت لكم أنفسكم أمرًا ففعلتموه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فصبري على ما أصابني صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية لأحد غير الله ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي يوسف وبنيامين وروبيل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بفقري إليه وحاجتي عنده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره لأوليائه وصالحي عباده.

(٨٤) ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عن مخاطبتهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ أي يا أسفي وشدة حزني احضر فهذا أوان حضورك ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قال تعالى مخبرًا عن حاله بعد ذلك: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ فغلب بياضهما على سوادهما ومعنى هذا أنه فقد الإبصار بما أصاب عينيه من البياض. ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ[٨]﴾ أي ممتلىء من الهم والكرب والحزن مكظوم لا يبثه لأحد ولا يشكوه لغير ربه تعالى.

هداية الآيات:

١ ـ مشروعية المناجاة للتشاور في الأمر الهام.

٢ ـ مشروعية التذكير بالالتزامات والعهود والمحافظة على ذلك.

٣ ـ قد يغلب الحياء على المؤمن فيمنعه من أمور هي خير له.

٤ ـ مشروعية النصح وتزويد المنصوح له بما يقوله ويعمله.

---

(١) لفظ نجيّ: يطلق على الواحد والجماعة كلفظ عدو، ويجمع على أنجية قال الشاعر:
إني إذا ما القوم كانوا أنجية ... واضطرب القوم اضطراب الأدشية
هناك أوصيني ولا توصي بيه

(٢) قيل: هو شمعون إذ كان أكبرهم في الرأي، وقيل: يهوذا وكان أعقلهم. وقيل: هو لاوى وهو أبو الأنبياء.

(٣) ما: مصدرية أي: تفريطكم في يوسف، والجملة معترضة.

(٤) بأن يطلق سراح أخي فأمضي معه إلى أبينا، أو يحكم الله لي بالسيف فأحارب حتى أخلّص أخي، أو أغلب فأعذر إذ قال والدي: إلاّ أن يحاط بكم.

(٥) قرأ ابن عباس والضحّاك وأبو رزين سُرّق بتشديد الراء والبناء للمجهول أي: نسب إلى السرقة ورمي بها، السرق: بفتح السين والراء: مصدر سرق والسَّرق والسرقة: اسم الشيء المسروق.

(٦) في الآية دليل على مشروعية الشهادة بأي وجه حصل العلم: بالبصر، بالسمع باللمس إذ الشهادة مرتبطة بالعلم عقلاً وشرعًا، وفي الحديث: **«ألا أخبركم بخير الشهداء؟ خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها»**.

(٧) المراد: أهل القرية إذ العادة أن القرية لا تنطق، ولو قال: أحدّ كلّم هندًا وهو يريد غلامها لما جاز.

(٨) الكظيم: مبالغة للكظم، والكظم: الإمساك النفساني، أي: كاظم للحزن لا يظهره للناس، وكظيم: بمعنى مكظوم كمحزون.

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

٥ ـ جواز اتهام البريء لملابسات أو تهمة سابقة.

٦ ـ جواز إظهار التأسف والحزن والشكوى لله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٥ ـ ٨٨]

﴿٨٥﴾ ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ﴾: أي والله لا تزال تذكر يوسف.

﴿حَرَضًا﴾: أي مشرفًا على الهلاك لطول مرضك.

﴿٨٦﴾ ﴿أَشْكُواْ بَثِّي﴾: أي عظيم حزني إذ البث الذي لا يصبر عليه حتى يبث إلى الغير.

﴿٨٧﴾ ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾: أي اطلبوا خبرهما بلطف حتى تصلوا إلى النتيجة.

﴿مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾: أي من رحمة الله.

﴿٨٨﴾ ﴿بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾: أي بدراهم مدفوعة لا يقبلها الناس لرداءتها.

﴿يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾: أي يثيب المتصدقين بثواب الدنيا والآخرة.

معنى الآيات:

﴿٨٥﴾ ما زال السياق فيما جرى من حديث بين يعقوب عليه السلام وبنيه أنه بعدما ذكروا له ما جرى لهم في مصر أعرض عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم. قالوا له ما أخبر به تعالى في قوله: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾[1] أي والله لا تزال تذكر يوسف حتى تصبح حرضًا مشرفًا[2] على الموت أو تكون من الهالكين أي الميتين.

﴿٨٦﴾ أجابهم بما أخبر تعالى به عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُواْ بَثِّي[3]﴾ أي همي ﴿وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يريد أن رجاءه في الله كبير وأن الله لا يخيب رجاءه وأن رؤيا يوسف صادقة وأن الله تعالى سيجمع شمله به ويسجد له كما رأى.

﴿٨٧﴾ ومن هنا قال لهم ما أخبر تعالى به: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[4] أي التمسوا أخبارهما بحواسكم بالسؤال عنهما والنظر إليهما، ﴿وَلَا تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أي لا تقنطوا من فرج الله ورحمته وعلل للنهي فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾[5] أي من فرجه ورحمته ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿٨٨﴾ وامتثل الأبناء أمر الوالد وذهبوا إلى مصر وانتهوا إليها ونزلوا بها وأتوا إلى دار العزيز ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ﴾ ما أخبر تعالى به عنهم ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا[6] وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي من الجدب والقحط والمجاعة ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أي دراهم رديئة مدفوعة لا تقبل كما تقبل الجيدة منها ﴿فَأَوْفِ[7] لَنَا الْكَيْلَ﴾ بها ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بقبولها على

---

(١) حرف النفي مقدّر أي: تالله لا تفتأ، ومعنى تفتأ: لا تفتر إذ فتيء بمعنى فتر، وهذا القول إشفاق على يعقوب.

(٢) الحرض: شدة المرض المشفي بصاحبه على الهلاك، وأصل الحرض: الفساد في الجسم أو العقل، من الحزن أو العشق أو الهرم.

(٣) البث: الهم الشديد.

(٤) هذا اللفظ دال على أنه تيقن حياة يوسف وذلك إمّا بوحي إلٰهي أو إلهام أو هداية عقل، وإلا كيف يطلب منهم التحسس على يوسف، والتحسس: شدة التّطلب، والتعرّف وهو أعم من التجسس.

(٥) الجملة تعليلية للنهي المتقدم، وهو اليأس من روح الله وهو رحمة الله وفَرَجُه.

(٦) أي: أصابهم الضرّ.

(٧) جملة تعليلية لاستدعائهم التصدق عليهم.

رداءتها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي[1] ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي يثيبهم على إحسانهم ويجزيهم به خيرًا.

هداية الآيات:

١ - شدة الحزن تعرض صاحبها للحرض أو الموت.

٢ - تحرم الشكوى لغير الله عز وجل.

٣ - حرمة اليأس من الفرج عند الشدة والرحمة عند العذاب.

٤ - جواز الشكوى إذا كان المراد بها الكشف عن الحال للإصلاح أو العلاج كأن يقول المحتاج إني جائع أو عار مثلاً وكأن يقول المريض للطبيب أشكو ألمًا في بطني أو رأسي مثلاً.

٥ - فضل الصدقة وثواب المتصدقين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٩ ـ ٩٣]

(٨٩) ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾: أي لا تعلمون ما يؤول إليه أمر يوسف.

(٩٠) ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾: أي أنعم علينا بأن جمع بيننا بعد افتراق طويل أنتم سببه. ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾: أي يتق الله فيخافه فلا يعصيه ويصبر على ما يناله من وصب ونصب.

(٩١) ﴿لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾: أي فضلك علينا بما منّ عليك من الإنعام والكمال.

(٩٢) ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾: أي لا عتب عليكم ولا لوم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث مع يوسف وإخوته، إنه لما وصلوا إليه من أرض كنعان بأمر والدهم وشكوا إليه ما هم فيه من ضيق الحال إذ قالوا له: قد مسنا الضر[2] وجئنا ببضاعة[3] مزجاة، لما سمع منهم ذلك رقّ قلبه وارفضّت عيناه بالدموع وأراد أن ينهي التكتم الذي كان عليه وهو إخفاء حاله عليهم فقال لهم:

(٨٩) ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[4] ذكرهم بما صنعوا به من إلقائه في الجب وبيعه عبدًا وبذلك فرقوا بينه وبين والده وأخيه شقيقه، وقوله: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ أي بما يصير إليه أمر يوسف وهنا قالوا في اندهاش وتعجب:

(٩٠) ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ فأجابهم قائلاً بما أخبر تعالى به عنه ﴿قَالَ أَنَا۠[5] يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ أي أنعم علينا فجمع بيننا على أحسن حال، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ أي يتق الله يخافه فيقيم فرائضه ويتجنب نواهيه ويصبر على ذلك وعلى ما يبتليه به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي في طاعة ربهم والإسلام له ظاهرًا وباطنًا.

(٩١) وهنا قالوا له ما أخبر به تعالى عنهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾[6] أي بالعلم والعمل والفضل ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ فيما فعلنا بك، فكان هذا توبة منهم فقال لهم:

(٩٣) ﴿لَا تَثۡرِيبَ[7] عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ أي لا عتب ولا لوم ولا ذكر لما

---

(١) قال مالك: في الآية دليل على أنّ أجرة الكيال والوزان على البائع، إذا هو باع شيئًا لا بد وأن يبرزه ويفصله لمن اشتراه.

(٢) في الآية دليل على جواز الشكوى عند الضرّ بل يتعين على العبد إذا خاف على نفسه الضرر من جوع أو مرض أن يشكو ذلك لرفعه.

(٣) بضاعة مزجاة: البضاعة: القطعة من المال يقصد بها شراء شيء يقال: أبضعت الشيء واستبضعته أي: جعلته بضاعة، والمزجاة: المدفوعة التي لا تقبل من الإزجاء الذي هو السوق بدفع، ومنه قوله تعالى: ﴿يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ يريدون أنها بضاعة رديئة.

(٤) كأنه يقول: أنا يوسف أنا المظلوم أنا المراد قتله.

(٥) الجملة تعليلية، والمعلل له محذوف هو جواب الشرط تقديره: ينعم الله تعالى عليه وينصره ويكرمه، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

(٦) آثره بكذا: إذا فضّله به، والمصدر: الإيثار، واسم الفاعل مؤثر.

(٧) التثريب: التوبيخ، والتقريع، واللوم، وفي الحديث الصحيح: **«إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يثرّب عليها»** أي: لا يعيّرها. قال الشاعر:

فعفوت عنهم غير مثرّب ... وتركتهم لعقاب يوم سرمد

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

صنعتم لأنه يؤذي ﴿يَغْفِرُ[١] ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٢] سأل الله تعالى له ولهم المغفرة وأثنى على الله تعالى بأنه أرحم الراحمين متعرضًا لرحمته تعالى له ولإخوته.

﴿٩٣﴾ ثم سألهم عن والده فأخبروه أنه قد عمي من الحزن عليه فقال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾[٣] أي يرجع بصيرًا كما كان ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٤] يريد أبويه والنساء والأطفال والأحفاد. وهو تحول كامل للأسرة الشريفة من أرض كنعان إلى أرض مصر تدبيرًا من الله العزيز الحكيم.

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ أن المعاصي لن تكون إلا نتيجة للجهل بالله تعالى وجلاله وشرائعه ووعده ووعيده.

٢ - فضل التقوى والصبر وما لهما من حسن العاقبة.

٣ - فضل الصفح والعفو وترك عتاب القريب إذا أساء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٤ - ١٠٠]

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾: أي خرجت من عريش مصر متوجهة إلى أرض فلسطين. ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾: أشتمها لأن الريح حملتها إليه بأمر الله تعالى. ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾: أي تسفهون، لصدقتموني فإني وجدت ريح يوسف.

﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾: أي خطئك بإفراطك في حب يوسف.

﴿٩٦﴾ ﴿فَلَمَّآ أَن[٥] جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾: هو يهودا الذي حمل إليه القميص الملطخ بالدم الكذب. ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾: أي رجع بصيرًا.

﴿٩٨﴾ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾: أجَّلَ الاستغفار لهم إلى آخر الليل أو إلى ليلة الجمعة.

﴿١٠٠﴾ ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: أي السرير. ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾: أي سجدوا له تحية وتعظيمًا. ﴿مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾: أي البادية، بادية الشام. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾: أي أفسد. ﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾: أي لطيف في تدبيره لمن يشاء من عباده كما لطف بيوسف.

معنى الآيات:

﴿٩٤﴾ هذه أواخر قصة يوسف عليه السلام، إنه بعد أن بعث بقميصه إلى والده وحمله أخوه يهودا ضمن القافلة المتجهة إلى أرض كنعان، ولما فصلت[٦] العير من عريش مصر حملت ريح الصبا ريح يوسف إلى

---

(١) لا يصحّ تعليق اليوم بيغفر الله إذ لا يعلم الغفران متى يتم لهم فكيف يصح أن يقال: يغفر الله لكم اليوم أو غدًا؟ بل يتعلق اليوم بكلمة لا تثريب.

(٢) قال عطاء الخرساني: طلب الحوائج من الشباب أسهل منها من الشيوخ ألم تَرَ إلى قول يوسف: يغفر الله لكم. وقال يعقوب: سوف أستغفر لكم ربي.

(٣) لا شك أنّ هذا العلم حصل ليوسف بوحي من الله تعالى، ولعل يوسف نبيء ساعتئذ وأراد يوسف بإلقاء القميص على وجه أبيه المفاجأة السارة لتكون سببًا في رجوع البصر.

(٤) قال مسروق: كانوا ثلاثة وتسعين نسمة ما بين رجل وامرأة.

(٥) أن: مزيدة.

(٦) فصلت: بمعنى: انفصلت، وبانت وبعدت من المكان الذي كانت فيه كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾.

أبيه قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ[1] يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي تسفهون لصدقتموني[2] فإني أجدها، فقال الحاضرون مجلسه من أفراد الأسرة والذين لم يعلموا بخبر يوسف بمصر قالوا له:

(٩٥) ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[3] أي من خطئك بإفراطك في حب يوسف. وواصلت العير سيرها وبعد أيام وصلت وجاء يهودا يحمل القميص فألقاه على وجه يعقوب فارتد بصيرًا كما أخبر يوسف إخوته بمصر.

(٩٦) وهنا واجه أبناءه بالخطاب الذي أخبر تعالى به في قوله: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من لطف الله وحسن تدبيره ورحمته وإفضاله ما لا تعلمون.

(٩٧) ـ (٩٨) وهنا طلبوا من والدهم أن يعفو عنهم ويستغفر لهم ربهم فقالوا ما أخبر تعالى به: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾. أجل لهم طلب المغفرة إلى ساعة الاستجابة كآخر الليل وقت السحر أو يوم الجمعة. وتنفيذًا لأمر يوسف إخوته بأن يأتوه بأهلهم أجمعين تحملت الأسرة بسائر أفرادها مهاجرين إلى مصر. وكان يوسف وملك مصر وألوف من رجال الدولة وأعيان البلاد في استقبالهم، وكان يوسف قد ضربت له خيمة أو فسطاط، ووصلت المهاجرة إلى مشارف الديار المصرية وكان يوسف في فسطاطه.

(٩٩) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي ضمهما إلى موكبه ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

(١٠٠) ولما انتهوا إلى القصر ودخلوا ﴿وَرَفَعَ﴾ يوسف ﴿أَبَوَيْهِ﴾ أمه وأباه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ سرير الملك ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ تحية وتشريفًا[4]. وهنا قال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ إذ رأى في صباه أن أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رآهم له ساجدين. وقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي[5] مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ[6] مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ هذا ثناء على الله بنعمه وتذكير للحاضرين بالحادثة وإلطاف الله تعالى فيها. ومن كرم نفس يوسف وسمو آدابه لم يقل قد أحسن بي إذ أخرجني من الجب فيذكرهم بما يؤلمهم بل قال من السجن. ويعني بقوله وجاء بكم من البدو أي من أرض كنعان. ونسب الإساءة التي كانت من إخوته إلى الشيطان تلطيفًا للجو ومبالغة في إذهاب الهم من نفس إخوته، وختم حديث النعمة في أعظم فرحة ﴿إِنَّ رَبِّي[7] لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي بخلقه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره وصنعه.

هداية الآيات:

١ ـ آية عظيمة هي حمل الريح ريح[8] يوسف على مسافات بعيدة.

٢ ـ آية أخرى هي ارتداد بصر يعقوب بعد العمى بمجرد أن أُلقِيَ القميص على وجهه.

٣ ـ كرم يعقوب وحسن عفوه وصفحه على أولاده إذ استغفر لهم

---

(١) الريح: الرائحة، وهي ما يعبق من طيب تدركه حاسّة الشمّ.

(٢) لصدّقتموني: جواب لولا، وهو يخاطب أحفاده أي: أولاد أولاده، والتفنيد النسبة إلى الفَند محرّك الفاء والنون وهو اختلال العقل من الهرم ونحوه قال الشاعر:

يا عاذليَّ دعا الملام وأقصرا ... طال الهوى وأطلتما التفنيدا

(٣) أي: لفي ذهاب عن طريق الحق والصواب، والقائلون ليعقوب هذا: هم أحفاده أو بعض الأقارب لجهلهم بمقام يعقوب، وهي عبارة فيها خشونة لكن من الجائز أن تكون في عرفهم لا خشونة فيها ولا إساءة أدب.

(٤) على عادة أهل ذلك الزمان، وهو سجود تحية لا عبادة.

(٥) أحسن بي وإليّ بمعنى واحد أي: قدم أي: صنع إليّ معروفًا. بجلب خير أو دفع ضير.

(٦) أي: البادية، والبدو ضدّ الحضر، والاسم مشتق من البُدوّ الذي هو الظهور والنزغ عبارة عن إدخال الفساد في النفس، شبه بنزغ الراكب الدابة وهو يريدها تسرع.

(٧) اللطف: التدبير الملائم، واللطيف: صاحب اللّطف.

(٨) أي: رائحته.

وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

ربهم فغفر لهم.

٤ - مشروعية الخروج خارج المدينة لاستقبال أهل الكمال والفضل كالحجاج مثلاً.

٥ - صدق رؤيا يوسف عليه السلام إذ تمت حرفيًا فجلس يوسف على عرشه وخرّ له أبواه وإخوته ساجدين.

٦ - قد يتأخر تأويل الرؤيا عشرات السنين إذ تأخرت رؤيا يوسف أربعين سنة.

٧ - تجليات الألطاف الإلهية والرحمات الربانية في هذه القصة في مظاهر عجيبة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠١]

﴿١٠١﴾ ﴿رَبِّ﴾: أي يا رب خالقي ورازقي ومالك أمري ومعبودي الذي ليس لي معبود سواه.

﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾: أي من بعض الملك إذ أصبح ملكًا لمصر فقط.

﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: تعبير الرؤى.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي خالقهما على غير مثال سابق.

﴿أَنتَ وَلِىِّۦ﴾: أي متولي أمري في الحياتين الدنيا والآخرة.

معنى الآية الكريمة:

هذا آخر الحديث عن قصة يوسف، إنه بعد أن جمع الله تعالى شمله بكافة أفراد أسرته وفتح عليه من خزائن رحمته ما فتح، وانقلبت الإحراقات: إحراقات الإلقاء في الجب، والبيع رقيقًا بثمن بخس، وفتنة امرأة العزيز، والسجن سبع سنين؛ انقلبت إلى إشراقات ملكًا ودولة، عزًا ورفعة، مالاً وثراءً، اجتماعًا ووئامًا، وفوق ذلك العلم اللدنّي والوحي الإلهي وتأويل الأحاديث. وبعد أن قبض الله تعالى والده وتاب على إخوته وهيأهم للنبوة ونبأهم. تاقت نفس يوسف إلى الملكوت الأعلى إلى الجيرة الصالحة إلى رفقة الأخيار آبائه الأطهار إبراهيم وإسحق ويعقوب رفع يديه إلى ربه وقال: ﴿١٠١﴾ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ[1] ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى[2] مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ واستجاب الله تعالى دعاءه فلم يلبث إلا قليلاً حتى وافاه الأجل فارتحل والتحق بآبائه وصالحي إخوانه فسلام عليه وعليهم وعلى كل صالح في الأرض والسماء، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

هداية الآيات:

١ - مشروعية دعاء الله تعالى والتوسل إليه بأسمائه وصفاته.

٢ - مشروعية العزوف عن الدنيا والرغبة عنها عند حصولها والتمكن منها.

٣ - فضل الشوق إلى الله والحنين إلى رفقة الصالحين في الملكوت الأعلى.

٤ - مشروعية سؤال الموت إن لم يكن لضر أو ملل من العبادة، أو رغبة في الراحة لحديث «**لا يسألن أحدكم**[3] **الموت لضر نزل به**» وهو صحيح. ولكن شوقًا إلى الله تعالى

---

(١) من: للتبعيض، إذ ملك مصر محدود، ولم يملك يوسف على غيره، ومن، في قوله: ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ للجنس أولى مما تكون للتبعيض.

(٢) قال قتادة: لم يتمن الموت أحد نبي ولا غيره إلاّ يوسف عليه السلام حين تكاملت عليه النعم، وجمع له الشمل اشتياقًا إلى لقاء ربه عز وجل، وردّ الجمهور هذا وقالوا: إنّما تمنى الموت على الإسلام وما ذكرته في التفسير أرجح وأوضح.

(٣) في الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان لا بد متمنيًا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**» رواه مسلم.

والالتحاق بالصالحين[1]، عزوفًا عن هذه الدار وشوقًا إلى الأخرى دار السلام.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٢ - ١٠٦]

(١٠٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما قص تعالى على رسوله ﷺ من قصة يوسف وإخوته. ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾: أي أخبار الغيب. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾: أي لدى إخوة يوسف. ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾: أي اتفقوا على إلقاء يوسف في غيابة الجب.

(١٠٤) ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾: أي يحتالون على إخراجه وإلقائه في الجب.

﴿عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: أي على القرآن وإبلاغه من ثواب أي مال. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾: أي ما هو إلا ذكر أي موعظة يتعظ بها المؤمنون.

معنى الآيات:

بعدما قصّ تعالى على رسوله ﷺ بواسطة الوحي قصة يوسف وإخوته وهي من الغيب المحض إذ لم يكن رسول الله ﷺ ولا قومه من العرب يعرفون عن هذه الأحداث التاريخية شيئًا، لا سيما وأن بعض هذه الأنباء تم في ظلام الليل وبعضها في ظلام البئر وبعضها وراء الستور، وبعضها في طبقات السجون وبعضها في قصور الملوك وبعضها في الحضر وبعضها في البدو، وبعد تطاول الزمن وتقادم العصور.

(١٠٢) بعد أن قصّ ما قصّ قال لرسوله محمد ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾[2] أي من أخبار الغيب ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي نعلمك به بطريق الوحي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ويؤكد وحيه إليه بذلك فيقول، وما كنت لدى إخوة يوسف في الوقت الذي أجمعوا فيه أمرهم على التخلص من يوسف بأي ثمن وهم يحتالون على إخراجه من بين يدي أبويه ليلقوه في غيابة الجب تخلصًا منه حيث رأوا أنه حجب عنهم وجه أبيهم وذهب بعطفه وحنانه دونهم.

(١٠٣) وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[3] يخبره تعالى أن الإيمان بك وبما جئت به من الوحي والتوحيد والبعث الآخر مثل هذا القصص كافٍ في التدليل على صحة نبوتك وعلى وجوب الإيمان بما جئت به وتدعو إليه ومع هذا فأكثر الناس ولو حرصت على إيمانهم ما هم بمؤمنين، ولذلك عوامل من أبرزها أن الإيمان يتعارض مع ما ألفوا من الباطل والشر والفساد، لا سيما شهواتهم وأغراضهم الدنيوية ومن قبل ذلك أن من كتب الله شقاءه لا يؤمن بحال، ولذا فلا تحزن ولا تكرب.

(١٠٤) وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ[4] أَجْرٍ﴾ أي على هذا القرآن وإبلاغه إليهم من مال إذ لو كنت سائلهم أجرًا على قراءتك عليهم وإبلاغك لهم لكان ذلك مانعًا من قبول ما تدعوهم إليه، ولكن ما دام ذلك يقدم لهم مجانًا فلا معنى لعدم إيمانهم إلا ما كتب الله من خسرانهم فهم عاملون للوصول إليه.

(١٠٥) وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن وما يحمله من هدى ونور وقراءتك له إلا ذكرى أي موعظة يتعظ بها من يسمعها من أهل البصيرة والإيمان من العالمين ممن هيأهم الله تعالى للسعادة والكمال، وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن[5] مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وكثير من الآيات الدالة على الله وعلى وجوب عبادته

---

(١) قيل: كان عمره يوم مات: مائة عام وسبع سنين، وخلف من الولد ثلاثة: افرائيم، ومنشا، ورحمة.

(٢) هذا الكلام تذييل للقصة بعد انتهائها إتمامًا للفائدة منها، والغيب ما غاب عن علم الناس، وأصل الغيب مصدر غاب يغيب غيبًا، فسمي به الشيء الغائب.

(٣) في الآية تسلية للرسول ﷺ إذ آلمه عدم إيمان قريش بعد أن سألوه عن هذه القصة ليؤمنوا فلمّا قصها عليهم لم يؤمنوا فآلمه ذلك.

(٤) (من) صلة لتقوية النفي.

(٥) أصل: كأيّن: أي: فدخلت عليها كاف التشبيه، وبنيت معها فصار معناها (كم) قال القرطبي: قد يقع في هذا القول والذي قبله كثير من عوام الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

وتوحيده فيها في السموات كالشمس والقمر والكواكب والسحب والأمطار، والأرض كالجبال والأنهار والأشجار والمخلوقات المختلفة يمرون عليها صباح مساء وهم معرضون غير ملتفتين إليها ولا متفكرين فيها فلذا هم لا يؤمنون ولا يهتدون.

(١٠٦) وقوله تعالى في الآية الأخيرة (١٠٦): ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1] يخبر تعالى رسوله ﷺ أن من يدعوهم إلى الإيمان به وبما جاء به ما يؤمن أكثرهم بالله ربًا خالقًا رازقًا إلا وهم مشركون به أصنامًا وأوثانًا يعبدونها وهي حقيقة قائمة لو سئل يهودي أو نصراني عن الخالق الرازق المحيي المميت المدبر للكون لقال الله، ولكن هو به مشرك يعبد معه غيره وكذلك حال المشركين الذين أخبر تعالى عنهم، وكثير من أهل الجهل في هذه الأمة القرآنية يدعون غير الله ويذبحون لغير الله وينذرون لغير الله وهم مؤمنون بالله وبما جاء به رسوله ﷺ من التوحيد والبعث والجزاء والشرع.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية بأصدق برهان وأعظم حجة.

٢ - بيان حكم الله في الناس وهو أن أكثرهم لا يؤمنون فلا يحزن الداعي ولا يكرب.

٣ - دعوة الله ينبغي أن تقدم إلى الناس مجانًا، وأجر الداعي على الله تعالى الذي يدعو إليه.

٤ - ذم الغفلة وعدم التفكر في الآيات الكونية.

٥ - بيان حقيقة ثابتة وهي أن غير أهل التوحيد وإن آمنوا بالله ربًا خالقًا رازقًا مدبرًا أكثرهم يشركون به غيره في بعض صفاته وعباداته.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٧ - ١٠٩]

(١٠٧) ﴿غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾: أي نقمة من نقمه تعالى تغشاهم[2] أي تحوط بهم. ﴿بَغْتَةً﴾: فجأة وهم مقيمون على شركهم وكفرهم.

(١٠٨) ﴿هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾: أي دعوتي وطريقتي التي أنا عليها. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: أي على علم يقين مني. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾: أي تنزيهًا لله وتقديسًا أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه.

(١٠٩) ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾: من أهل المدن والأمصار لا من أهل البوادي. ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: أي الله تعالى بأداء فرائضه وترك نواهيه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أي أفلا يعقل هؤلاء المشركون هذا الذي يتلى عليهم ويبين لهم فيؤمنوا ويوحدوا.

معنى الآيات:

(١٠٧) ما زال السياق في الدعوة إلى الإيمان بالوحي الإلهي والتوحيد والبعث والجزاء وهي أركان الدين العظمى، فقال تعالى: أفأمن هؤلاء المشركون والذين لا يؤمن ﴿أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ والذين يمرون بالكثير من آيات الله وهم معرضون، أفأمن هؤلاء ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أي عقوبة من عذاب تغشاهم وتجللهم بالعذاب الذي لا يطاق ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ أي القيامة ﴿بَغْتَةً﴾[3] أي فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئها فتعظم البلية وتشتد عليهم الرزية، وكيف يأمنون وهل يوجد من يؤمنهم غير الله تعالى فما لهم إذًا لا يؤمنون ولا يتقون حتى ينجوا مما يتوقع لهم؟ هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٠٧).

(١٠٨) أما الثانية فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يواصل دعوته دعوة الخير هو والمؤمنون معه فقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ أي قل أيها الرسول للناس هذه طريقتي في دعوتي إلى ربي بأن يؤمن به ويعبد وحده دون سواه. ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[4] أي على علم يقين بمن أدعو إليه وبما أدعو به وبالنتائج

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في تلبية المشركين: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: مجلّلة، وهو معنى تعظيمهم، وتحوط بهم من كل جوانبهم بحيث لا ينجون منها.

(٣) منصوب على الحال، ومعناه إصابة من غير توقع ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: توكيد لمعنى بغتة. هذا كقوله تعالى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

(٤) أي: على يقين وحق كقولهم: فلان مستبصر بهذا الأمر.

المترتبة على هذه الدعوة، ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ من المؤمنين كلنا ندعو إلى الله على بصيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي وقل سبحان الله أي تنزيهًا له عن أن يكون له شريك أو ولد، وقل كذلك معلنًا براءتك من الشرك والمشركين ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. هذا ما دلت عليه الآية الثانية.

(١٠٩) أما الآية الثالثة فإن الله تعالى يخبر رسوله ﷺ بأنه ما أرسل من قبله من الرسل وهم كثر إلا رجالاً أي لا نساء ولا ملائكة ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[1] أي الأمصار والمدن، وهذا إبطال لإنكارهم أن يكون الرسول رجلاً من الناس، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ أي هؤلاء المكذبون من قريش وغيرهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للاعتبار ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾[2] كيف كان عاقبة من سبقهم من الأمم كعاد وثمود فإنا أهلكناهم ونجينا أهل الإيمان والتوحيد من بينهم مع رسلهم هذه النجاة ثمرة من ثمرات الإيمان والتقوى، ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ[3] لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ فإنها دار النعيم المقيم والسلامة من الآهات والعاهات والكبر والهرم والموت والفناء.

وقوله تعالى في نهاية الآية: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4] يوبخ أولئك المشركين المصرين على التكذيب والشرك على عدم تعقلهم وتفهمهم لما يتلى عليهم وما يسمعون من الآيات القرآنية وما يشاهدون من الآيات الكونية.

هداية الآيات:

١ - التحذير من العقوبات المترتبة على الشرك والمعاصي.

٢ - تقرير عقيدة البعث الآخر.

٣ - تعين الدعوة إلى الله تعالى على كل مؤمن تابع للرسول ﷺ.

٤ - تعين العلم اليقيني للداعي إلى الله إذ هو البصيرة المذكورة في الآية.

٥ - وجوب توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

٦ - الرسالة من خصوصيات الرجال وليس في النساء رسولة[5].

٧ - بيان ثمرات التوحيد والتقوى في الدنيا والآخرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٠، ١١١]

(١١٠) ﴿ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾: أي يئسوا من إيمان قومهم. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾: أي ظن الأمم المرسل إليهم أن الرسل قد أخلفوا ما وعدوا به من النصر. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾: أي عذابنا الشديد. ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أي الذين أجرموا على أنفسهم بالشرك والمعاصي وأجرموا على غيرهم بصرفهم عن الإيمان.

(١١١) ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾: أي الرسل عليهم السلام. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾: أي ما كان هذا القرآن حديثًا يختلق. ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي ما قبله من الكتب الإلهية إذ نزل مصدقًا لها في الإيمان والتوحيد.

معنى الآيتين:

(١١٠) ما زال السياق في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ أي ما زال مَنْ أرسلنا من رسلنا يدعون إلينا ويواصلون دعوتهم ويتأخر نصرهم حتى يدب اليأس إلى قلوبهم[6] ويظن أتباعهم أنهم قد

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ردّ على القائلين: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

(٢) ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة لأنبيائهم وما جاؤوهم به من الهدى ودين الحق من أجل هدايتهم، وسعادتهم.

(٣) ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، وهل الإضافة هنا كما هي في يوم الخميس وبارحة الأولى؟ خلاف ويُرجح أحد الرأيين فقولُ الشاعر:

ولو أقوت عليك ديار عبس ... عرفت الذل عرفان اليقين

أي: عرفانًا يقينيًا. قال النحاس: إضافة الشيء إلى نفسه محال، لأنّ الشيء يضاف إلى غيره ليعرّف به، الأجود أن يقال: الصلاة الأولى.

(٤) قرىء: ﴿أفلا يعقلون﴾: بالياء والتاء في السبع.

(٥) حديث: «إن في النساء أربع نبيات: حواء وآسية وأم موسى ومريم» حديث ضعيف لا يصح، وهو معارض لهذه الآية وآيات أخرى.

(٦) أي: من إيمان قومهم، لأنّ الله تعالى لم يعلمهم أنّ قومهم سيؤمنون حتى لا يصح منه ظن عدم إيمانهم.

الجزء الثالث عشر — سورة الرعد

ترتيبها ١٣ — سورة الرعد — آياتها ٤٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

٢٤٩

أخلفوا ما وعدوا به من نصرهم وإهلاك أعدائهم ﴿جَآءَهُمْ﴾ بعد وجود اليأس نصرنا[1] ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. هذا ما جاء في الآية الأولى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ وهم أهل الشرك والمعاصي.

﴿١١١﴾ وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ[2] عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي كان في قصص الرسل مع أممهم بذكر أخبارهم وتبيان أحوالهم من نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين المكذبين عبرة[3] يعتبر بها المؤمنون فيثبتون على إيمانهم ويواصلون تقواهم لربهم بأداء فرائضه واجتناب نواهيه. وأولوا الألباب هم أصحاب العقول، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي لم يكن هذا القرآن العظيم بالحديث الذي في إمكان الإنسان أن يكذب ويختلق مثله بحال من الأحوال ولكنه أي القرآن هو ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي تقدم في النزول عليه كالتوراة والإنجيل فهو مصدق لهما في أصول الإيمان والتوحيد ولا يتنافى معهما وهذا أكبر دليل على أنه وحي إلهي مثلهما، وليس بالكلام المختلق كما يقول المبطلون، وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ[4] كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي كما هو مصدق لما بين يديه هو أيضًا يفصل كل شيء تحتاج إليه البشرية في دينها المزكي لأنفسها الموجب لها رحمة ربها ورضاه عنها وهدى ينير الطريق فيهدي من الضلالة ورحمة تنال المؤمنين به العاملين به المطبقين لشرائعه وأحكامه.

هداية الآيتين:

١ - بيان سنة الله تعالى في تأخر النصر على رسله وعباده المؤمنين زيادة في الإعداد والتمحيص ثم يأتي نصر الله فيعز أولياء الله ويذل أعداءه.

٢ - التنديد بالإجرام وهو الإفساد للعقائد والأخلاق والشرائع والأحكام.

٣ - بيان فضل القرآن وما فيه من الهدى والرحمة لمن طلب ذلك منه.

٤ - المؤمنون باعتبار أنهم أحياء هم الذين ينتفعون بهداية القرآن ورحمته.

❁ ❁ ❁

سورة الرعد
مكية
وآياتها ثلاث وأربعون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٤]

﴿١﴾ ﴿الٓمٓر﴾: هذه الحروف المقطعة تكتب المرَ وتُقرأ ألف لاَمْ مِيمْ را. والله أعلم بمراده بها.

﴿٢﴾ ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾: العمد جمع عمود أي مرئية لكم إذ الجملة نعت. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[5]: استواء يليق به عز وجل. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: أي ذللها بمواصلة دورانها لبقاء الحياة إلى أجلها.

---

(١) المراد بالنصر: العذاب، فلما جاء العذاب بعد طول انتظار نجى الله تعالى رسله والمؤمنين، وأهلك أعداءه وأعداءهم الكافرين.

(٢) يدخل أوّلاً قصة يوسف، وإخوته ثم باقي القصص.

(٣) فكرة وتذكرة وعظة.

(٤) أي: مما يحتاج إليه البشر من الحلال والحرام. والشرائع والأحكام.

(٥) عقيدة السلف في هذه الصفة: وجوب الإيمان بها وإمرارها كما ذكرها تعالى بلا تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، وكذا سائر صفاته عزّ وجلّ.

﴿٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾: أي بسطها للحياة فوقها. ﴿رَوَٰسِىَ﴾ أي جبال ثوابت. ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: أي نوعين وضربين كالحلو والحامض والأصفر والأسود مثلاً. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾: أي يغطيه حتى لا يبقى له وجود بالضياء. ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾: أي دلالات على وحدانية الله تعالى.

﴿٤﴾ ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾: أي بقاع متلاصقات. ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾: أي عدة نخلات في أصل واحد يجمعها، والصنو الواحد والجمع صنوان. ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾: أي في الطعم هذا حلو وهذا مرّ وهذا حامض، وهذا لذيذ وهذا خلافه.

معنى الآيات:

﴿١﴾ قوله تعالى: ﴿الٓمٓر﴾ الله أعلم بمراده به. وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإشارة إلى ما جاء من قصص سورة يوسف، فالمراد بالكتاب التوراة والإنجيل فمن جملة آياتها ما قص الله تعالى على رسوله. وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ[(١)] أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[(٢)] وهو القرآن العظيم، ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي هو الحق الثابت. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي مع أن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق فإن أكثر الناس من قومك وغيرهم لا يؤمنون بأنه وحي الله وتنزيله فيعملوا به فيكملوا ويسعدوا.

﴿٢﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ[(٣)] تَرَوْنَهَا﴾: أي أن إلهكم الحق الذي يجب أن تؤمنوا به وتعبدوه وتوحدوه الله الذي رفع السموات على الأرض بغير عمد مرئية لكم ولكن رفعها بقدرته وبما شاء من سنن. وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي خلق السموات والأرض ثم استوى على عرشه استواء يليق بذاته وجلاله يدبر أمر الملكوت، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي ذللهما بعد خلقهما يسيران في فلكهما سيرًا منتظمًا إلى نهاية الحياة، وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ أي في فلكه، فالشمس تقطع فلكها في سنة كاملة، والقمر في شهر كامل وهما يجريان هكذا إلى نهاية الحياة الدنيا فيخسف القمر وتنكدر الشمس، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي يقضي ما يشاء في السموات والأرض، ويدبر أمر مخلوقاته بالإماتة والإحياء والمنع والإعطاء كيف يشاء وحده لا شريك له في ذلك. وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي القرآنية بذكر القصص، وضرب الأمثال، وبيان الحلال والحرام كل ذلك ليهيئكم ويعدكم للإيمان بلقاء ربكم فتؤمنوا به، وتعبدوا الله وتوحدوه في عبادته فتكملوا في أرواحكم وأخلاقكم وتسعدوا في دنياكم وآخرتكم.

﴿٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾[(٤)] أي بسطها، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالاً ثوابت، ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي وأجرى فيها أنهارًا، ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي نوعين وضربين فالرمان منه الحلو ومنه الحامض، والزيتون منه الأصفر والأسود، والتين منه الأبيض والأحمر، وقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يغطي سبحانه وتعالى النهار بالليل لفائدتكم لتناموا وتستريح أبدانكم من عناء النهار. وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور في هذه الآية الكريمة من مد الأرض وجعل الرواسي فيها وإجراء الأنهار، وخلق أنواع الثمار وإغشاء الليل النهار، في كل هذا المذكور

---

(١) يصح أن تكون الواو عاطفة صفة على أخرى، أي: عطفت الذي على الكتاب فالموصول في محل جرّ نعت للكتاب، وهو نظير قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

ويكون المعنى: تلك آيات الكتاب الذي أنزل إليك من ربك والحق: مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الحق. وما في التفسير واضح قال به مجاهد وقتادة.

(٢) قال مقاتل: نزلت هذه الآية ردًا على المشركين القائلين: إنّ محمدًا ﷺ يأتي بالقرآن من تلقاء نفسه.

(٣) في الآيات استدلال بقدرة الله وعلمه وحكمته على أن القرآن الكريم وحيه أوحاه إلى رسوله وتنزيله أنزله عليه ليس كما يدّعي المشركون.

(٤) لمّا ذكر تعالى آياته الكونية في السماء ذكر آياته الكونية في الأرض استدلالاً بها على قدرته وعلمه وحكمته الموجبة لتوحيده وعبادته دون سواه.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

٢٥٠

﴿لَآيَاتٍ﴾ أي علامات ودلائل واضحات على وجود الله تعالى وعلمه وقدرته وحكمته وعلى وجوب عبادته وتوحيده وعلى الإيمان بوعده ووعيده، ولقائه وما أعد من نعيم لأوليائه وعذاب لأعدائه.

﴿٤﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ[(١)]﴾ أي بقاع من الأرض بعضها إلى جنب بعض متلاحقات هذه تربتها طيبة وهذه تربتها خبيثة ملح سبخة، وفي الأرض أيضًا جنات أي بساتين من أعناب وفيها زرع ونخيل ﴿صِنْوَانٌ﴾[(٢)] النخلتان والثلاث في أصل واحد، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ كل نخلة قائمة على أصلها، وقوله: ﴿يُسْقَىٰ﴾ أي تلك الأعناب والزروع والنخيل ﴿بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾[(٣)] وهو ما يؤكل منها فهذا حلو وهذا حامض وهذا لذيذ وهذا سمج، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من القطع المتجاورات مع اختلاف الطيب وعدمه وجنات الأعناب والنخيل وسقيها بماء واحد واختلاف طعومها وروائحها وفوائدها ﴿لَآيَاتٍ﴾[(٤)] علامات ودلائل باهرات على وجوب الإيمان بالله وتوحيده ولقائه، ولكن ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أما الذين فقدوا عقولهم لاستيلاء المادة عليها واستحكام الشهوة فيها فإنهم لا يدركون ولا يفهمون شيئًا فكيف إذًا يرون دلائل وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته فيؤمنون به ويعبدونه ويتقربون إليه.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة الوحي الإلهي ونبوة محمد ﷺ.

٢ - تقرير عقيدة التوحيد وأنه لا إله إلا الله.

٣ - تقرير عقيدة البعث الآخر والجزاء على الكسب في الدنيا.

٤ - فضيلة التفكر في الآيات الكونية.

٥ - فضيلة العقل للاهتداء به إلى معرفة الحق واتباعه للإسعاد والإكمال.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥ ـ ٩]

﴿٥﴾ ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾: أي يأخذك العجب من إنكارهم نبوتك والتوحيد. ﴿فَعَجَبٌ﴾: أي فأعجب منه إنكارهم للبعث والحياة الثانية مع وضوح الأدلة وقوة الحجج. ﴿لَفِي

---

(١) أي: وأخرى غير متجاورات فحذفت على حدّ قوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ حيث حذف المقابل وهو: تقيكم البرد.

(٢) الصنو: المثل، ومنه الحديث: «عمّ الرجل صنو أبيه» ولا فرق بين التثنية والجمع في: (صنوان) إلاّ بكسر نون المثنى، وتنوين نون الجمع، فتقول: هذان صنوان وهؤلاء صنوان.

(٣) كالدقل والحلو والحامض، وبنو آدم كذلك الأصل واحد والخلاف قائم هذا مؤمن وهذا كافر، هذا صالح وهذا فاسد، كما قال الشاعر:

الناس كالنبت والنبت ألوان ... منها شجر الصندل والكافور والبان
ومنها شجر ينضح طول الدهر قطران

(٤) في هذه الآيات دلائل الوحدانية وعظم الصمدية والإرشاد لمن ضل عن معرفته حيث نبّه تعالى بقوله: ﴿مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ ومع تجاورها قطعة عذبة وأخرى ملحة، قطعة طيّبة وأخرى خبيثة كما أنّ التربة واحدة، وتسقى بماء واحد وتختلف طعوم الثمار وألوانه وخصائصه ومنافعه فهذا لن يكون صادرًا إلاّ عن ذي قدرة لا تُحدّ وعلم لا ينتهي وحكمة لا يخلو منها شيء، وهو الله تعالى، وأين الطبيعة العمياء الصماء التي لا علم لها ولا إرادة من الله خالق كل شيء العليم بكل شيء؟

﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: أي نرجع كما كنا بشرًا أحياء. ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾: أي موانع من الإيمان والاهتداء في الدنيا، وأغلال تشد بها أيديهم إلى أعناقهم في الآخرة.

(٦) ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: أي بالعذاب. ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾: أي الرحمة وما يحسن بهم من العاقبة والرخاء والخصب. ﴿ٱلْمَثُلَٰتُ﴾: أي العقوبات واحدها مَثُلة التي قد أصابت المكذبين في الأمم الماضية.

(٧) ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾: أي هلاَّ أنزل، ولولا أداة تحضيض كهلاَّ. ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾: أي معجزة كعصا موسى وناقة صالح مثلاً. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: أي نبي يدعوهم إلى ربهم ليعبدوه وحده ولا يشركون به غيره.

(٨) ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾: أي من ذكر أو أنثى واحدًا أو أكثر أبيض أو أسمر. ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾: أي تنقص من دم الحيض، وما تزداد منه.

معنى الآيات:

(٥) ما زال السياق الكريم في دعوة المشركين إلى الإيمان بالتوحيد والنبوة المحمدية والبعث يوم القيامة للحساب والجزاء، فقوله تعالى في الآية الأولى (٥): ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾[1] يا نبينا من عدم إيمانهم برسالتك وتوحيد ربك فعجب أكبر هو عدم إيمانهم بالبعث الآخر، إذ قالوا في إنكار وتعجب: ﴿أَءِذَا[2] كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي يحصل لنا بعد الفناء والبلى؟ قال تعالى مشيرًا إليهم مسجلاً الكفر عليهم ولازمه وهو العذاب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ[3] فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ وهي في الدنيا موانع الهداية كالتقليد الأعمى والكبر والمجاحدة والعناد، وفي الآخرة أغلال توضع في أعناقهم من حديد تشد بها أيديهم إلى أعناقهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي أهلها، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي ماكثون أبدًا لا يخرجون منها بحال من الأحوال.

(٦) وقوله تعالى في الآية الثانية (٦): ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ يخبر تعالى رسوله مقررًا ما قال أولئك الكافرون بربهم ولقائه ونبي الله وما جاء به، ما قالوه استخفافًا واستعجالاً وهو طلبهم العذاب الدنيوي، إذ كان الرسول ﷺ يخوفهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فهم يطالبون به كقول بعضهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قبل طلبهم الحسنة وهذا لجهلهم وكفرهم، وإلا لطالبوا بالحسنة التي هي العافية والرخاء والخصب قبل السيئة التي هي الدمار والعذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ[4]﴾ أي والحال أن العقوبات قد مضت في الأمم من قبلهم كعقوبة الله لعاد وثمود وأصحاب الأيكة والمؤتفكات فما لهم يطالبون بها استبعادًا لها واستخفافًا بها أين ذهبت عقولهم؟ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ[5] عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ وهو ظاهر مشاهد إذ لو كان يؤاخذ بالظلم لمجرد وقوعه فلم يغفر لأصحابه لما ترك على الأرض من دابة، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي على من عصاه بعد أن أنذره وبين له ما يتقي فلم يتقِ ما يوجب له العذاب من الشرك والمعاصي.

---

(١) أصل التعجب: تغير النفس بما تخفي أسبابه، والمخاطب في هذا الرسول ﷺ والمؤمنون تابعون له.

(٢) مثل هذا الاستفهام وقع في تسع سور من القرآن في أحد عشر موضع ومن القرّاء من استفهم في الموضعين ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ ومنهم من استفهم في موضع واحد، فمن استفهم في الأول والثاني قصد المبالغة في الإنكار فأتى به في الجملة الأولى وأعاده في الثانية تأكيدًا له ومن أتى به مرّة واحدة لحصول المقصود به لأنّ كل جملة مرتبطة بالثانية فإذا أنكر في إحداهما حصل الإنكار في الأخرى (أفادهُ الجمل).

(٣) الأغلال: جمع غل وهو طوق من حديد تشدّ به اليد إلى العنق.

(٤) المثلات: جمع مثلة، وهي العقوبة نحو: صدُقة وصدُقات، وتضم الميم وتسكن الثاء مثلة كغرفة والجمع مُثل كقُرب وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالاً تمثل بها العقوبات.

(٥) قال ابن عباس رضي الله عنه هذه أرجى آية في كتاب الله، قال سعيد بن المسيّب، لمّا نزلت قال رسول الله ﷺ: **«لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنأ أحدًا عيشُه ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتّكل كل أحد»**.

(٧) وقوله تعالى في الآية الثالثة (٧): ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾! يخبر تعالى رسوله والمؤمنين عن قيل الكافرين بالتوحيد والبعث والنبوة: ﴿لَوْلَآ﴾ أي هلا أنزل على محمد ﷺ آية من ربه كعصا موسى وناقة صالح، حتى نؤمن بنبوته ونصدق برسالته، فيرد تعالى عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ والمنذر المخوف من العذاب وليس لازمًا أن تنزل معه الآيات، وعليه فلا تلتفت إلى ما يطالبون به من الآيات، واستمر على دعوتك فإن لكل قوم [١] هاديًا وأنت هادي هذه الأمة، وداعيها إلى ربها فادع واصبر.

(٨) وقوله تعالى في الآية الرابعة (٨): ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [٢] أي من ذكر أو أنثى واحدًا أو اثنين أبيض أو أسمر سعيدًا أو شقيًا، وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ [٣] ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي ويعلم ما تغيض الأرحام من دماء الحيض [٤] وما تزداد منها إذ غيضها ينقص من مدة الحمل وازديادها يزيد في مدة الحمل فقد تبلغ السنة أو أكثر، وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي وكل شيء في حكمه وقضائه وتدبيره بمقدار معين لا يزيد ولا ينقص في ذات ولا صفة ولا حال، ولا زمان ولا مكان.

(٩) وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي كل ما غاب عن الخلق، وما لم يغب عنهم مما يشاهدونه أي العليم بكل شيء، وقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ أي الذي لا أكبر منه وكل كبير أمامه صغير المتعال على خلقه المنزه عن الشريك والشبيه والصاحبة والولد هذا هو الله وهذه صفاته فهل يليق بعاقل أن ينكر استحقاقه للعبادة دون سواه؟ فهل يليق بعاقل أن ينكر عليه أن يوحي بما شاء على من يشاء من عباده؟ فهل يليق بعاقل أن ينكر على من هذه قدرته وعلمه أن يحيي العباد بعد أن يميتهم ليسألهم عن كسبهم ويحاسبهم عليه ويجزيهم به؟ اللهم لا إذًا فالمنكرون على الله ما دعاهم إلى الإيمان به لا يعتبرون عقلاء وإن طاروا في السماء وغاصوا في الماء.

هداية الآيات:

١ - تقرير أصول العقيدة الثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث والجزاء الآخر.

٢ - صوارف الإيمان والتي هي كالأغلال هي التقليد الأعمى، والكبر والعناد.

٣ - عظيم قدرة الله تعالى وسعة علمه.

٤ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ ـ ١٣]

(١٠) ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾: أي ظاهر في سربه أي طريقه. ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾: أي ملائكة تتعقبه بالليل والنهار.

(١١) ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: أي بأمر الله تعالى وعن إذنه وأمره. ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾: أي من عافية ونعمة إلى بلاء وعذاب. ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾: أي من طهر وصفاء بالإيمان والطاعات إلى الذنوب والآثام. ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾: أي وليس لهم من دون الله من يلبي أمرهم فيدفع عنهم العذاب.

(١٣) ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾: أي من الخوف منه وهيبته وجلاله. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾: أي القوة والمماحلة.

معنى الآيات:

(١٠) ما زال السياق في ذكر جلال الله وعظيم قدرته وسعة علمه، قال

---

(١) هادي كل أمة رسولها الذي بعث فيها وخلفاء الأنبياء وحواريوهم هداة يهدون من بعدهم والله يهدي من يشاء.

(٢) قال القرطبي: من ذكر أو أنثى: صَبيحٌ أو قبيح صالح أو طالح. وقوله: ﴿كُلُّ أُنثَىٰ﴾ يفيد عموم كل أنثى في الإنسان والحيوان، وهو كذلك.

(٣) العادة أنّ انحباس الحيض دال على العلوق أي: الحمل، وفيضان الدم دال على عدم الحمل، وتفسير الآية بهذا حسن، فالله تعالى يعلم ما تغيض الأرحام من الدم، لانشغال الرحم بالعلقة ثمّ بالجنين، وما تزداد من الدم حتى يفيض عنها، ويخرج، وهو دم من لا حمل لها. وما في التفسير وجه وهذا الوجه أوضح.

(٤) استدل بالآية من قال: الحامل لا تحيض وهو أبو حنيفة. والجمهور على أنها تحيض كما استدل بها كل من قال: الحمل تزيد مدته إلى أربع سنوات، وهو الجمهور، وخالف الظاهرية في ذلك.

تعالى في هذه الآية: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم[1] مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ فالله يعلم السر والجهر وأخفى، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ يمشي في ظلامه، ومن هو ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي يمشي في سربه[2] وطريقه مكشوفًا معلومًا لله تعالى.

(١١) وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ[3] مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ جائز أن يعود الضمير في «له» على من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، فيكون المراد من المعقبات الحرس والجلاوزة الذين يحرسون السلطان من أمر الله تعالى في نظرهم، ولكن إذا أراده الله بسوء فلا مرد له وما له من دون الله من وال يتولى حمايته والدفاع عنه، وجائز أن يعود على الله تعالى ويكون المراد من المعقبات الملائكة الحفظة[4] والكتبة للحسنات والسيئات ويكون معنى من أمر الله[5] أي بأمره تعالى وإذنه، والمعنى صحيح في التوجيهين للآية وإلى الأول ذهب ابن جرير وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يخبر تعالى عن سنة من سننه في خلقه ماضية فيهم وهي أنه تعالى لا يزيل نعمة أنعم بها على قوم من عافية وأمن ورخاء بسبب إيمانهم وصالح أعمالهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من طهارة وصفاء بسبب ارتكابهم للذنوب وغشيانهم للمعاصي نتيجة الإعراض عن كتاب الله وإهمال شرعه وتعطيل حدوده والانغماس في الشهوات والضرب في سبيل الضلالات، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ هذا إخبار منه تعالى بأنه إذا أراد بقوم أو فردٍ أو جماعة سوءًا ما أي ما يسوءهم من بلاء وعذاب فلا مرد له بحال من الأحوال بل لا بد وأن يمسهم، ولا يجدون من دون الله من وال يتولى صرف العذاب عنهم، أما من الله تعالى فإنهم إذا أنابوا إليه واستغفروه وتابوا إليه فإنه تعالى يكشف عنهم السوء ويصرف عنهم العذاب.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصواعق من جهة ﴿وَطَمَعًا﴾ في المطر من جهة أخرى ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي وهو الذي ينشىء[6]، أي يبدء السحاب الثقال الذي يحمل الأمطار.

(١٣) ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾[7] أي وهو الذي يسبح الرعد بحمده وهو ملك موكل بالسحاب يقول: سبحان الله وبحمده، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[8] مِنْ خِيفَتِهِۦ[9]﴾ أي خيفة الله وهيبته وجلاله فهي لذلك تسبحه أي تنزهه عن الشريك والشبيه والولد بألفاظ يعلمها الله تعالى،

---

(١) هذه الآية كالنتيجة لما تقدم من الدلائل على علم الله وقدرته وحكمته الموجبة لألوهيته وفيها تعريض بالمشركين المتآمرين على قتل النبي ﷺ أو أذيته، وسواء: بمعنى مستو، وهو اسم يكون بين شيئين كالسر هنا والجهر أي: مستوي عنده السر والجهر.

(٢) السَّرب: بفتح السين وسكون الراء: الطريق، والسارب: اسم فاعل من سرب إذا ذهب.

(٣) جمع معقبة وهو مأخوذ من العقب الذي هو مؤخر الرجل فكل من اتبع آخر فقد تعقبه فهو متعقِّب له، وعقبه يعقبه فهو عاقب له: إذا جاء بعده، والمعقبات هنا: الملائكة لحديث: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار**» إذا صعدت ملائكة النهار أعقبتها ملائكة الليل وهكذا.

(٤) الحفظة: جمع حافظ: ملائكة موكلون بالعبد يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من الجن، والشياطين، فإذا جاء أمر الله أي: قدره تخلّوا عنه، والكتبة: جمع كاتب: ملك يكتب الحسنات وآخر يكتب السيئات.

(٥) ذكر القرطبي: أن العلماء رحمهم الله تعالى ذكروا أن الله سبحانه وتعالى جعل أوامره على وجهين. أحدهما: قضى وقوعه وحلوله بصاحبه فهذا لا يدفعه أحد، والثاني: قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة.

(٦) إنشاء السحاب: تكوينه من عدم بإثارة الأبخرة التي تتجمع سحابًا، والسحاب اسم جمع لسحابة، وسميت سحابة لأنها تسحب من مكان إلى مكان.

(٧) الباء للملابسة: أي يسبّح الله تسبيحًا ملابسًا لحمده، والتسبيح: التنزيه.

(٨) والملائكة تسبح أيضًا من خوف الله تعالى.

(٩) ﴿مِّنْ خِيفَتِهِۦ﴾ من: تعليلية أي: لأجل الخوف منه تعالى.

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)

وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ[١] فِي اللَّهِ﴾ أي في وجوده وصفاته وتوحيده وطاعته، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ[٢]﴾ هذه الآية نزلت فعلاً في رجل[٣] بعث إليه رسول الله ﷺ من يدعوه إلى الإسلام فقال الرجل الكافر لمن جاء من قبل رسول الله ﷺ: من رسول الله؟ وما الله أمن ذهب هو أم من فضة أم من نحاس؟ فنزلت عليه صاعقة أثناء كلامه فذهبت بقحف رأسه، ومعنى شديد المحال أي القوة والأخذ والبطش.

هداية الآيات:

١ - سعة علم الله تعالى.

٢ - الحرس والجلاوزة لمن يستخدمهم لحفظه من أمر الله تعالى لن يغنوا عنه من أمر الله شيئًا.

٣ - تقرير عقيدة أن لكل فرد ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار منهم الكرام الكاتبون، ومنهم الحفظة للإنسان من الشياطين والجان.

٤ - بيان سنة أن النعم لا تزول إلا بالمعاصي.

٥ - استحباب قول سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته عند سماع الرعد لورود ذلك عن النبي ﷺ بألفاظ مختلفة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤ - ١٦]

(١٤) ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾: أي لله تعالى الدعوة[٤] الحق أي فهو الإله الحق الذي لا إله إلا هو. ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾: أي الماء فمه. ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾: أي في ضياع لا حصول منه على طائل.

(١٥) ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾: أي بالبُكر جمع بكرة، والعشايا جمع عشية.

معنى الآيات:

(١٤) ما زال السياق في تقرير عقيدة التوحيد بالأدلة والبراهين، قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي لله سبحانه وتعالى الدعوة الحق وهي أنه الإله الحق الذي لا إله إلا هو، أما غيره فإطلاق لفظ الإله إطلاق باطل، فالأصنام والأوثان وكل ما عبد من دون الله إطلاق لفظ إله عليه إطلاق باطل، والدعوة إلى عبادته باطلة، أما الدعوة الحق فإنها لله وحده.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي من دون الله من سائر المعبودات، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ أي لا يجيبونهم بإعطائهم شيئًا مما يطلبون منهم، ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾[٥]

---

(١) ﴿يُجَادِلُونَ﴾: المفعول محذوف تقديره: يجادلونك وأتباعك المؤمنين في شأن توحيد الله تعالى ولقائه ونبوة رسوله ﷺ.

(٢) ﴿الْمِحَالِ﴾: إن كان من الحول والميم زائدة فهو بمعنى شديد القوى، وإن كانت الميم أصلية فالمحال بكسر الميم: فهو فِعال بمعنى الكيد، وفعله محل وتمحّل إذا تحيّل، إذ المجادلون كانوا يتحيلون في أسئلتهم، فأعلمهم الله أنه أقوى منهم، وأشد كيدًا منهم.

(٣) قيل: نزلت في يهودي، وقيل: في أربد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل، وقد هلك أربد بصاعقة نزلت به، وهلك عامر بغدة نبتت في جسمه فمات منها وهو في بيت امرأة من بني سلول.

(٤) أي: الدعوة الصدق لله تعالى لأنه هو الذي يستجيب ويعطي السؤال وأما دعوة الأصنام، فإنها دعوة كذب وباطل، فإطلاق الإله على الله إطلاق حق وصدق، وإطلاق إله على صنم أو مخلوق فهو إطلاق كذب وباطل.

(٥) ضرب الله تعالى هذا المثل المائي لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد، قال الشاعر:

فأصبحت فيما كان بيني وبينها ... من الودّ مثل القابض الماء باليد

أي إلا كاستجابة[(١)] من بسط يديه، أي فتحهما ومدهما إلى الماء والماء في قعر البئر فلا كفاه تصل إلى الماء ولا الماء يصل إلى كفيه وهو عطشان ويظل كذلك حتى يهلك عطشًا، هذا مثل من يعبد غير الله تعالى بدعاء أو ذبح أو نذر أو خوف أو رجاء فهو محروم الاستجابة خائب في مسعاه ولن تكون له عاقبة إلا النار والخسران وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ[(٢)]﴾ أي بطلان وخسران.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي الملائكة، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي من مؤمن يسجد طوعًا، ومنافق أي يسجد كرهًا[(٣)]، ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ تسجد أيضًا، ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أوائل النهار، ﴿وَٱلْءَاصَالِ[(٤)]﴾ أواخر النهار. ومعنى الآية الكريمة: إذا لم يسجد الكافرون أي لم ينقادوا لعبادة الله وحده تعالى فإنَّ لله يسجد من في السماوات من الملائكة، ومن في الأرض من الجن والإنس المؤمنون يسجدون طائعين والكافرون يسجدون إذا أكرهوا على السجود والمنافقون يسجدون مكرهين، وظلالهم تسجد في البكر والعشايا كما أنهم منقادون لقضاء الله تعالى وحكمه فيهم لا يستطيعون الخروج عنه بحال فهو الذي خلقهم وصورهم كما شاء ورزقهم ما شاء ويميتهم متى شاء فأي سجود وخضوع وركوع أظهر من هذا؟

(١٦) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي من خالقهما ومالكهما ومدبر الأمر فيهما؟ وأمر رسوله أن يسبقهم إلى الجواب ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جواب لهم إلا هو، وبعد أن أقروا بأن الرب الحق هو الله، أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم موبخًا مقرعًا: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ[(٥)]﴾ أي شركاء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فضلاً عن أن يملكوا لكم نفعًا أو يدفعون عنكم ضرًا فأين يذهب بعقولكم أيها المشركون، ومبالغة في البيان وإقامة للحجة والبرهان على وجوب التوحيد وبطلان الشرك والتنديد أمر رسوله أن يقول لهم: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾؟ والجواب قطعًا لا إذًا فكيف يستوي المؤمن والكافر، وكيف يستوي الهدى والضلال، فالمؤمن يعبد الله على بصيرة على علم أنه خالقه ورازقه يعلم سره ونجواه يجيبه إذا دعاه أرسل إليه رسوله وأنزل عليه كتابه، والكافر المشرك يعبد مخلوقًا من مخلوقات الله لا تملك لنفسها فضلاً عن عابديها نفعًا ولا ضرًا لا تسمع نداءً ولا تجيب دعاء، المؤمن يعبد الله بما شرع له من عبادات وبما طلب منه من طاعات وقربات، والكافر المشرك يعبد الباطل بهواه، ويسلك سبيل الغيّ في الحياة.

وقوله: ﴿أَمْ[(٦)] جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ[(٧)]﴾ أي بل جعلوا لله شركاء فخلقت تلك الشركاء مخلوقات كخلق الله فتشابه الخلق على المشركين فعبدوها ظنًا منهم أنها خلقت كخلق الله؟ والجواب لا فإنها لم تخلق ولا تستطيع خلق ذبابة فضلاً عن غيرها إذًا فكيف تصح عبادتها وهي لم تخلق شيئًا، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ[(٨)] شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ أي

---

(١) هذا التفسير مروي عن علي رضي الله عنه.

(٢) الضلال: التلف والضياع، والجملة: بيان لخيبة المشركين في عبادة أصنامهم ودعائها وتقرير لخسرانهم.

(٣) وكافر يسجد بخضوعه لأحكام الله تعالى الجارية عليه ولا يقدر على ردّها من غِنى وفقر، وصحة ومرض وسعادة وشقاوة.

(٤) الآصال: جمع أصل: وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. وجمع الجمع أصائل، قال الشاعر:
لعمري لأنت البيت أكرم أهله وأقعد في أفيائه بالأصائل

(٥) الاستفهام للتوبيخ والتقرير.

(٦) أم: للإضراب الانتقالي من قضية إلى أخرى واختيار العمى والبصر والنور والظلمات لبيان أنّ حال المؤمنين وحال الكافرين في تضاد فالمؤمنون مبصرون يمشون في النور، والكافرون عمي يمشون في الظلمات.

(٧) هذا من تمام الاحتجاج والاستفهام للاضراب الانتقالي، وهو للتهكم بالمشركين، فالمعنى: لو جعلوا لله شركاء يخلقون فخلقوا كما يخلق الله فتشابه الخلق عليهم لكانوا معذورين ولكنهم لم يخلقوا ولن يخلقوا.

(٨) في الآية رد على الملاحدة الشيوعيين الذين ينكرون وجود الله جل جلاله ورد على القدرية الذين يزعمون أنهم يخلقون أفعالهم=

قل أيها الرسول للمشركين عند اعترافهم بأن آلهتهم لم تخلق شيئًا قل لهم: الله خالق كل شيء وهو الواحد الذي لا شريك له ولا ند ولا مِثْلَ، القهار لكل جبار والمذل لكل معاند كفار، هو المستحق للعبادة الواجب له الطاعة، الإيمان به هدى والكفر به ضلال.

هداية الآيات:

١ ـ دعوة الحق لله وحده فهو المعبود بحق لا إله غيره ولا رب سواه.

٢ ـ حرمان المشركين من دعائهم وسائر عباداتهم.

٣ ـ الخلق كلهم يسجدون لله طوعًا أو كرهًا إذ الكل خانع خاضع لحكم الله وتدبيره فيه.

٤ ـ مشروعية السجود للقارىء والمستمع إذا بلغ هذه الآية. ⑮ ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ ويستحب أن يكون طاهرًا مستقبلاً القبلة، ويكبر عند الخفض والرفع ولا يسلم.

٥ ـ بطلان الشرك إذ لا دليل عليه من عقل ولا نقل[١].

٦ ـ وجوب العبادة لله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ ـ ١٨]

⑰ ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾: أي بمقدار مائها الذي يجري فيها. ﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾: أي غثاء عاليًا إذ الزبد هو وَضَرُ غليان الماء أو جريانه في الأنهار. ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾: أي كالذهب والفضة والنحاس. ﴿ٱبْتِغَآءَ[٢] حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾: أي طلبًا لحلية من ذهب أو فضة أو متاع من الأواني. ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾: أي مثل زبد السيل. ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾: أي زبد السيل أو زبد ما أوقد عليه النار. ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً[٣]﴾: أي باطلاً مرميًا به بعيدًا إذ هو غثاء ووضر لا خير فيه. ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي يبقى في الأرض زمنًا ينتفع به الناس.

⑱ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي للذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة. ﴿لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾: أي لم يؤمنوا به ولم يطيعوه. ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾: أي من العذاب. ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾: وهي المؤاخذة بكل ذنب عملوه لا يغفر لهم منه شيء. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: أي الفراش الذي أعدوه لأنفسهم وهو جهنم.

معنى الآيتين:

⑰ ما زال السياق في تقرير التوحيد والتنديد بالكفر والشرك ففي هذه الآية الكريمة ضرب الله تعالى مثلاً للحق والباطل، للحق في بقائه، والباطل في اضمحلاله وتلاشيه فقال: ﴿أَنزَلَ﴾ أي الله، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[٤] أي بحسب كبرها وصغرها لأن الوادي قد يكون كبيرًا وقد يكون صغيرًا، فاحتمل السيل أي حمل سيل الماء في الوادي زبدًا رابيًا أي غثاءً ووضرًا عاليًا على سطح الماء، هذا مثل مائي، ومثل ناري قال فيه عز وجل: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾[٥] أي ومما يوقد عليه الصاغة والحدادون، ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلبًا للحلية، ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ أي طلبًا لمتاع يتمتع به كالأواني إذ الصائغ أو الحداد يضع الذهب أو الفضة أو النحاس في البوتقة وينفخ عليها بالكير فيعلو ما كان فاسدًا غير صالح على صورة الزبد[٦] وما كان صالحًا يبقى في البوتقة وهو الذي يصنع منه الحلية والمتاع، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الأمور الأربعة مثلي الحق وهما الماء والجوهر، ومثلي

= والله يقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فلا يخرج شيء عن كونه مخلوقًا لله تعالى.

(١) إذ العقل لا يُجيز عبادة مخلوق مربوب لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره موتًا ولا حياة بل ولا ضرًا ولا نفعًا والنقل حرّم الشرك بجميع أنواعه الأكبر والأصغر والخفي والجلي قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ من الشرك والشركاء.

(٢) ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله، والحلية: ما يتحلى به، أي يتزيّن، والمتاع ما يتمتع به وينتفع.

(٣) الجفاء: ما أجفاه الوادي أي: رمى به.

(٤) ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾ جمع واد، والوادي اسم للماء السائل هنا إذ الوادي وهو أخدود بين مرتفعين لا يسيل وإنما يسيل الماء فيه، ومعنى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾: أي: بقدر مثلها.

(٥) هذا المثل الثاني والأول هو مثل الماء السائل في الوادي وما يحمل من زبد عالٍ.

(٦) هو معنى قوله تعالى: ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي زبد ما يعلو الذهب والفضة والحديد كزبد ما يعلو ماء السيل.

الباطل وهما زبد الماء وزبد الجوهر، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي باطلاً مرميًا به يرميه السيل إلى ساحل الوادي فيعلق بالأشجار والأحجار ويرميه الصائغ عن بوتقته، وأما ما ينفع الناس من الماء للسقي والري فيمكث في الأرض، وكذا ما ينفع من الحلي والمتاع يبقى في بوتقة الصائغ[1] والحداد وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي مثل هذا المثل الذي ضربه للحق في بقائه والباطل في ذهابه وتلاشيه وإن علا وطغا في بعض الأوقات، ﴿يَضْرِبُ﴾ أي يبين الأمثال، ليعلموا فيؤمنوا ويهتدوا فيكملوا ويسعدوا.

(١٨) هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٧) وأما الآية الثانية (١٨) فقد أخبر تعالى بوعد له ووعيد أما وعده فلأهل طاعته بأن لهم الحسنى[2] الجنة وأما وعيده فلأهل معصيته وهو أسوأ وعيد وأشده[3]، فقال تعالى في وعده: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقال في وعيده: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي من مال ومتاع، ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أيضًا لافتدوا به من العذاب الذي تضمنه هذا الوعيد الشديد، ويعلن عن الوعيد فيقول: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الأشقياء ﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو أن يحاسبوا على كل صغيرة وكبيرة في أعمالهم ولا يغفر لهم منها شيء ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مقرهم ومكان إيوائهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي الفراش جهنم لهم.

هداية الآيتين:

١ - استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.

٢ - ثبات الحق، واضمحلال الباطل سنة من سنن الله تعالى.

٣ - بيان وعد الله للمستجيبين له بالإيمان والطاعة وهي الجنة.

٤ - بيان وعيد الله لمن لم يستجب له بالإيمان والطاعة.

الجزءُ الثَّالِث عَشَر — سُورَةُ الرَّعْد

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩) ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ (٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٤) وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٢٥) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ (٢٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ (٢٨)﴾

٢٥٣

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ - ٢٤]

(١٩) ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾: أي لا يرى الحق ولا يعلمه ولا يؤمن به. ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي أصحاب العقول.

(٢١) ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: أي من الإيمان والتوحيد والأرحام.

(٢٢) ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾: أي يدفعون بالحلم الجهل، وبالصبر الأذى. ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾: أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة.

(٢٣) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: أي جنات إقامة دائمة.

معنى الآيات:

(١٩) لقد تضمنت هذه الآيات مقارنة ومفاضلة بين شخصيتين: الأولى شخصية مؤمن صالح كحمزة بن عبدالمطلب والثانية شخصية كافر فاسد كأبي جهل المخزومي وبين ما لهما من جزاء في الدار الآخرة، مع ذكر صفات كل منهما، تلك الصفات المقتضية لجزائهما في الدار الآخرة قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فيؤمن به بعد العلم ويستقيم على منهجه في عقيدته وعبادته ومعاملاته وسلوكه كله. هذه الشخصية الأولى ﴿كَمَنْ

(١) هذا مثل للحق والباطل إذا اجتمعا فإنه لا ثبات للباطل ولا دوام له مثل الزبد مع الماء أو مع الحلية لا يبقى بل يذهب ويتلاشى ويضمحل والمراد من الحق والباطل: الإيمان والكفر، واليقين والشك.

(٢) ومن الحسنى: النصر في الدنيا والتمكين فيها لأهل التوحيد.

(٣) وهو النار وبئس المهاد.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)﴾

٢٥٣

﴿هُوَ أَعْمَىٰ[1]﴾ لم يعلم الحق ولم يؤمن به ولم يعمل بما أنزل إلى الرسول من الشرع. والجواب قطعًا أنهما لا يستويان ولا يكونان في ميزان العدل والحق متساويين وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي يتعظ بمثل هذه المقارنة أصحاب العقول المدركة للحقائق والمفرقة بين المتضادّات كالحق والباطل والخير والشر والنافع والضار.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ﴾ هذا مشروع في بيان صفاتهم المقتضية إنعامهم وإكرامهم نذكر لهم ثماني صفات هي كالتالي:

١ - الوفاء بالعهود وعدم نقضها: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ[2] اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ[3]﴾ إذ لا دين لمن لا عهد له.

(٢١) ٢ - وصل ما أمر الله به أن يوصل من الإيمان والإسلام والإحسان والأرحام: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾.

٣ - خشية الله المقتضية لطاعته: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

٤ - الخوف من سوء الحساب يوم القيامة المقتضي لمحاسبة النفس على الصغيرة والكبيرة: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

(٢٢) ٥ - الصبر طلبًا لمرضاة الله على الطاعات وعن المعاصي، وعلى البلاء: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾.

٦ - إقامة الصلاة وهي أداؤها في أوقاتها جماعة بكامل الشروط والأركان والسنن والآداب: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾.

٧ - الإنفاق مما رزقهم الله في الزكاة والصدقات الواجبة والمندوبة: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.

٨ - دفع السيئة بالحسنة فيدرؤون سيئة الجهل عليهم بحسنة الحلم، وسيئة الأذى بحسنة الصبر[4].

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة وفسرها بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي إقامة لا ظعن منها يدخلونها هم ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ والصلاح هنا الإيمان والعمل الصالح. وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ هذا عند دخولهم الجنة تدخل عليهم الملائكة تهنئهم بسلامة الوصول وتحقيق المأمول وتسلم عليهم قائلة: (٢٤) ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي بسبب صبركم والإيمان والطاعة ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[5]. هذه تهنئة الملائكة لهم وأعظم بها تهنئة وأبرك بها بركة اللهم اجعلني منهم ووالدي وأهل بيتي والمسلمين أجمعين.

هداية الآيات:

١ - المؤمن حيّ يبصر ويعلم ويعمل والكافر ميت أعمى لا يعلم ولا يعمل.

(١) المراد من العمى هنا: عمى القلب لا عمى البصر، والجهل هو سبب العمى.

(٢) العهد هنا: اسم جنس إذ المراد الوفاء بكافة عهود الله تعالى وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عباده.

(٣) الميثاق هنا: أيضًا اسم جنس يدخل فيه كل المواثيق أي: إذا عقدوا في طاعة الله عهدًا لم ينقضوه، قال قتادة: ورد النهي عن نقض الميثاق في بضع وعشرين آية.

(٤) وسيئة المعصية بالتوبة منها. واللفظ العام الشامل هو أنهم يدفعون بالعمل الصالح كل عمل فاسد.

(٥) جائز أن يكون معنى عقبى الدار: الجنة وجائز أن يكون عقبى الدار: دار الدنيا إذ عقباها الدار الآخرة وفيها الجنة، إذا كانوا في دار الدنيا يعملون الصالحات فورثهم الله الجنة فكانت عقبى الدنيا إذ عقبى الدار بمعنى عاقبتها.

٢ ـ الاتعاظ بالمواعظ يحصل لذي عقل راجح سليم.

٣ ـ فضل هذه الصفات الثمانية المذكورة في هذه الآيات. أولها الوفاء بعهد الله وآخرها درء السيئة بالحسنة.

٤ ـ تفسير عقبى الدار[1] وأنها الجنة.

٥ ـ بيان أن الملائكة تهنىء أهل الجنة عند دخولهم وتسلم عليهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥ ـ ٢٩]

(٢٥) ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾: أي يحلونه ولا يلتزمون به فلم يعبدوا ربهم وحده. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: أي من الإيمان والأرحام. ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي بترك الصلاة ومنع الزكاة، وبارتكاب السيئات وترك الحسنات.

﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾: أي البعد من رحمة الله تعالى. ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾: أي جهنم وبئس المهاد.

(٢٦) ﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي يضيق ويقتر.

﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾: قدر يسير يتمتع به زمنًا ثم ينقضي.

(٢٩) ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾: أي لهم طوبى شجرة في الجنة وحسن منقلب وهو دار السلام.

معنى الآيات:

(٢٥) قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾ الآيات، هذا هو الطرف المقابل أو الشخصية الثانية وهو من لم يعلم ولم يؤمن كأبي جهل المقابل لحمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه ذكر تعالى هنا صفاته الموجبة لعذابه وحرمانه فذكر له ولمن على شاكلته الصفات التالية:

١ ـ نقض العهد فلم يعبدوا الله ولم يوحدوه وهو العهد الذي أخذ عليهم في عالم الأرواح: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾.

٢ ـ قطع ما أمر الله به أن يوصل من الإيمان[2] وصلة الأرحام: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾.

(٢٦) ٣ ـ الإفساد في الأرض بالشرك والمعاصي: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3] بهذه الصفات استوجبوا هذا الجزاء، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي البعد من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ[4] ٱلدَّارِ﴾ أي جهنم وبئس المهاد، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ۝﴾ يخبر تعالى عن سنة من سننه في خلقه وهي أنه يبسط الرزق أي يوسعه على من يشاء امتحانًا هل يشكر أم يكفر ويضيّق ويقتّر على من يشاء ابتلاء هل يصبر أو يجزع، وقد يبسط الرزق لبعض إذ لا يصلحهم إلا ذاك، وقد يضيق على بعض إذ لا يصلحهم إلا ذاك، فلن يكون الغنى دالاً على رضى الله، ولا الفقر دالاً على سخطه تعالى على عباده، وقوله: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فرح أولئك الكافرون بالحياة الدنيا لجهلهم بمقدارها وعاقبتها وسوء آثارها وما الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وهم أهل الإيمان به وطاعته إلا متاع قليل كَكَفِّ التمر أو قرص الخبز يعطاه الراعي غذاء له طول النهار ثم ينفد.

(٢٧) وقوله تعالى في الآية (٢٧): ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ[5] عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فقد تقدم مثل هذا الطلب من المشركين وهو مطالبة المشركين النبي ﷺ أن تكون له آية كناقة صالح أو عصا موسى ليؤمنوا به وهم في ذلك كاذبون فلم يحملهم على هذا الطلب إلا الاستخفاف والعناد وإلا آيات القرآن أعظم من آية الناقة والعصا، فلذا قال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله ولو رأى وشاهد ألوف الآيات ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[6] ولو لم ير آية

---

(١) أي: فعقبى دار الدنيا الجنة هذا كقوله والعاقبة للتقوى، وقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الجنة.

(٢) أي: بسائر الأنبياء فلا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض كاليهود والنصارى.

(٣) أي: بالشرك وارتكاب المعاصي.

(٤) أي: سوء المنقلب وهو جهنم. قال سعد ابن أبي وقاص: والله الذي لا إله إلا هو أنهم الحرورية: بمعنى الخوارج.

(٥) المطالبون بالآيات المقترحون لها على رسول الله ﷺ، من بينهم عبدالله بن أمية وأصحابه.

(٦) الضمير في قوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾: يعود على الحق أو الإسلام أو الله عز وجل. أي: يهدي إلى جنته وطاعته من رجع إليه بقلبه والكل صالح ومراد.

واحدة إلا أنه أناب إلى الله فهداه إليه وقبله وجعله من أهل ولايته.

(٢٨) وقوله تعالى في الآية (٢٨): ﴿ٱلَّذِينَ(١) ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أولئك الذين أنابوا إليه تعالى إيمانًا وتوحيدًا فهداهم إليه صراطًا مستقيمًا هؤلاء تطمئن قلوبهم أي تسكن وتستأنس بذكر الله وذكر وعده وذكر صالحي عباده محمد ﷺ وأصحابه، وقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي قلوب المؤمنين أما قلوب الكافرين فإنها تطمئن لذكر الدنيا وملاذها وقلوب المشركين تطمئن لذكر أصنامهم.

(٢٩) وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟(٢) وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ(٣) لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝﴾ إخبار من الله تعالى بما أعد لأهل الإيمان والعمل الصالح وهو طوبى حال من الحسن الطيب يعجز البيان عن وصفها أو شجرة في الجنة وحسن منقلب وهو الجنة دار السلام والنعيم المقيم.

هداية الآيات:

١ ـ حرمة الاتصاف بصفات أهل الشقاء وهي نقض العهد، وقطع ما أمر الله به أن يوصل والإفساد في الأض بالشرك والمعاصي.

٢ ـ بيان أن الغنى والفقر يتمان حسب علم الله تعالى امتحانًا وابتلاء فلا يدلان على رضا الله ولا على سخطه.

٣ ـ حقارة الدنيا وضآلة ما فيها من المتاع.

٤ ـ فضل ذكر الله وسكون القلب إليه.

٥ ـ وعد الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح بطوبى وحسن المآب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠ ـ ٣٢]

(٣٠) ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾: أي مثل ذلك الإرسال الذي أرسلنا به رسلنا أرسلناك. ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ﴾: أي لتقرأ عليهم القرآن تذكيرًا وتعليمًا ونذارة وبشارة. ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: إذ قالوا وما الرحمن وقالوا لا رحمان إلا رحمان اليمامة.

(٣١) ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾: أي نقلت من أماكنها. ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾: أي شققت فجعلت أنهارًا وعيونًا. ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: أي أحيوا وتكلموا. ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ﴾: أي يعلم. ﴿قَارِعَةٌ﴾: أي داهية تقرع قلوبهم بالخوف والحزن وتهلكهم وتستأصلهم. ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾: أي القارعة أو الجيش الإسلامي.

(٣٢) ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾: أي أمهلت وأخرت مدة طويلة.

معنى الآيات:

(٣٠) ما زال السياق في تقرير أصول العقائد: التوحيد والنبوة والبعث والجزاء الآخر ففي الآية الأولى من هذا السياق وهي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ فقرر نبوة الرسول ﷺ بقوله كذلك أي الإرسال(٤) الذي أرسلنا من قبلك أرسلناك أنت إلى أمة قد خلت من قبلها أمم، وبين فائدة الإرسال فقال: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وهو الرحمة والهدى والشفاء ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الرحمن(٥) الذي أرسلك لهم بالهدى ودين الحق لإكمالهم وإسعادهم يكفرون به، إذًا فقل أنت أيها الرسول هو ربي لا إله

---

(١) الذين: في محل نصب لأنه مفعول يهدي، ويصح أن يكون بدلاً من قوله: ﴿أَنَابَ﴾ وذكر الله هو ذكره بألسنتهم وبقلوبهم وهو يشمل ذكر الوعد والوعيد وكمال الله كما يشمل قراءة كتابه وتلاوة آياته قال مجاهد: هم أصحاب النبي ﷺ وحقًا هم ومن يأتي بعدهم ينهج نهجهم في الإيمان والتقوى.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، هذا مبتدأ، والخبر: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ يعطف عليه، وطوبى ورد أنها شجرة في الجنة، ففي البخاري: **«إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»**.

(٣) ﴿طُوبَىٰ﴾: مصدر طاب يطيب طيبًا إذا أحسن وهي بوزن البشرى، والزلفى قلبت ياؤها واوًا لمناسبة الضمة قبلها أي: الخير الكامل لأنهم اطمأنت قلوبهم بذكر الله فهم في طيب حال.

(٤) هذا تشبيه في الإنعام أي: شبّه الإنعام على من أرسل إليهم محمدًا ﷺ بالإنعام على من أرسل إليهم الأنبياء قبله.

(٥) قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: **«اسجدوا للرحمٰن»** قالوا: وما الرحمٰن، والآية وإن لم تنزل بخصوص دعوى المشركين إلاّ أنها تحمل ردًا عليهم في دعواهم الباطلة.

إلا هو أي لا معبود بحق إلا هو عليه توكلت وإليه متاب أي توبتي ورجوعي فقرر بذلك مبدأ التوحيد بأصدق عبارة.

(٣١) وقوله تعالى في الآية الثانية (٣١): ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ إلخ.. لا شك أن مشركي مكة كانوا طالبوه[1] بما ذكر في هذه الآية إذ قالوا إن كنت رسولاً فادع لنا ربك فيسر عنا هذه الجبال التي تكتنف وادينا فتتسع أرضنا للزراعة والحراثة وقطع أرضنا فأخرج لنا منها العيون والأنهار وأحيي لنا فلانًا وفلانًا حتى نكلمهم ونسألهم عن صحة ما تقول وتدعي بأنك نبي فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي لكان هذا القرآن، ولكن ليست الآيات[2] هي التي تهدي بل لله الأمر جميعًا يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ولما صرفهم الله تعالى عن الآيات الكونية لعلمه تعالى أنهم لو أعطاهم إياها لما آمنوا عليها فيحق عليهم عذاب الإبادة كالأمم السابقة، وكان من المؤمنين من يود الآيات الكونية ظنًا منه أن المشركين لو شاهدوا آمنوا وانتهت المعركة الدائرة بين الشرك والتوحيد قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ[3] ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي يعلموا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ بالآيات وبدونها فليترك الأمر له سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ أي من الشرك والمعاصي ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي داهية تقرع قلوبهم بالخوف والفزع ونفوسهم بالهم والحزن وذلك كالجدب والمرض والقتل والأسر ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي يحل الرسول بجيشه الإسلامي ليفتح مكة حتى يأتي وعد الله بنصرك أيها الرسول عليهم والآية عامة فيمن بعد قريش ويكون الوعيد متناولاً أمم الكفر عامة وها هي ذي الحروب تقرعهم كل قرن مرة ومرتين والحرب الذرية على أبوابهم ولا يزال أمرهم كذلك حتى يحل الجيش الإسلامي قريبًا من دارهم ليدخلوا في دين الله أو يهلكوا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وقد أنجز ما وعد قريشًا.

(٣٢) وفي الآية الأخيرة (٣٢) يخبر تعالى رسوله مسليًا إياه عما يجد من تعب وألم من صلف المشركين وعنادهم فيقول له: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ[4] بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي كما استهزىء بك فصبروا فاصبر أنت، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي أمهلتهم وأنظرتهم حتى قامت الحجة عليهم ثم أخذتهم فلم أبق منهم أحدًا ﴿فَكَيْفَ[5] كَانَ عِقَابِ﴾ أي كان شديدًا عامًا واقعًا موقعه، فكذلك أفعل بمن استهزأ بك يا رسولنا إذا لم يتوبوا ويسلموا.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير التوحيد.

٢ ـ لا توكل إلا على الله، ولا توبة لأحد إلا إليه.

٣ ـ عظمة القرآن الكريم وبيان فضله.

٤ ـ إطلاق لفظ اليأس[6] والمراد به العلم.

٥ ـ توعد الرب تعالى الكافرين بالقوارع في الدنيا إلى يوم القيامة.

٦ ـ الله جل جلاله يملي ويمهل ولكن لا يهمل بل يؤاخذ ويعاقب.

---

(١) تقدّم أن من بين المطالبين أبا جهل، وعبدالله بن أمية المخزوميين إذ قالا له ﷺ: إن سرّك أن نتبعك فسيّر لنا جبال مكة بالقرآن فأذهبها عنا.. إلخ..

(٢) أي: فليس ما تطلبونه مما يكون بالقرآن، وإنّما يكون بأمر الله تعالى.

(٣) يئس ييأس بمعنى: علم يعلم لغة النخع، والقرآن نزل بلغات العرب، وقيل: لغة هوازن قال شاعرهم:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ... ألم تيأسوا أنّي ابن فارس زهدم

(٤) أي: سُخر بهم أُزري عليهم، وذلك كما سخرت قوم نوح بنوح، وعاد بهود وثمود بصالح ومدين بشعيب.

(٥) الاستفهام للعجب.

(٦) في لغة النخع أو هوازن.

۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ ـ ٣٥]

(٣٣) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ[1] عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي حافظها ورازقها وعالم بها وبما كسبت ويجازيها بعملها. ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾: أي صِفُوهم له مَنْ هُم؟ ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾: أي أتخبرونه بما لا يعلمه؟ ﴿بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾: أي بظن باطل لا حقيقة له في الواقع.

(٣٤) ﴿أَشَقُّ﴾: أي أشد. ﴿صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾: أي مانع يمنعهم من العذاب.

(٣٥) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي صفتها التي نقصها عليك. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾: أي ما يؤكل فيها دائم لا يفنى وظلها دائم لا ينسخ.

معنى الآيات:

(٣٣) ما زال السياق في تقرير التوحيد وإبطال التنديد بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[2] أي حافظها ورازقها وعالم بها وبما كسبت من خير وشر ومجازيها كمن لا يحفظ ولا يرزق ولا يعلم ولا يجزي وهو الأصنام، إذًا فبطل تأليهها ولم يبق إلا الإله الحق الله الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي يعبدونهم معه ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾[3] أي قل لهم يا رسولنا سموا لنا تلك الشركاء صفوهم بينوا من هم؟ ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ[4] فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أتنبئون الله بما لا يعلم في الأرض؟ ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي بل بظاهر[5] من القول أي بظن باطل لا حقيقة له في الواقع.

(٣٤) وقوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ أي قولهم الكاذب وافتراؤهم الماكر فبذلك[6] صدوا عن السبيل سبيل الحق وصرفوا عنه فلم يهتدوا إليه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي أشد من عذاب الدنيا مهما كان ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ[7]﴾ أي وليس لهم من دون الله من يقيهم فيصرفه عنهم ويدفعه حتى لا يذوقوه.

---

(١) ليس القيام هنا ضد القعود بل هو التولّي لأمور الخلق بالحفظ والتدبير.

(٢) الجواب محذوف في الآية، وقد ذكر في التفسير.

(٣) سموهم شركاء فإنهم ليس لهم حظ من ذلك إلاّ التسمية فيكون الأمر للإباحة كناية عن عدم المبالاة بادعائهم أنهم شركاء، وذكر هذا المعنى صاحب التحرير، وهو معنى جميل.

(٤) أم: هي المنقطعة ودلّت على أنّ ما بعدها استفهام إنكاري توبيخي، وقوله: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وما لا يعلمه الله فليس بموجود إذ الله خالق كل شيء.

(٥) بل بظاهر من القول ليس بظاهر من الظهور بل هو بمعنى الزوال والبطلان وشاهده قول الشاعر، وتلك شكاة ظاهر عليك عارها. أي: باطل زائل.

(٦) إنّ بعض المشركين زيّن للمشركين عبادة الأصنام، ورغبهم في عبادتها مكرًا بهم فانخدعوا له، وحسبوه زينًا وذلك كعمرو بن لحيّ إذ هو أوّل من دعا إلى عبادة الأصنام في بلاد العرب.

(٧) واق، وقاض ووال: يوقف عليها بدون ياء، إلاّ إذا نودي نحو: يا قاضي يا والي فإنه يوقف عليه بالياء ومن: صلة لتقوية الكلام.

﴿٣٥﴾ وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ[(١)] ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي لما ذكر عذاب الآخرة لأهل الكفر والفجور ذكر نعيم الآخرة لأهل الإيمان والتقوى، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي صفة الجنة ووصفها بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ[(٢)] وَظِلُّهَا﴾ دائم كذلك فطعامها لا ينفد، وظلها لا يزول ولا ينسخ بشمس كظل الدنيا، وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي الجنة ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي ربهم فآمنوا به وعبدوه ووحدوه وأطاعوا في أمره ونهيه، ﴿وَّعُقْبَى[(٣)] ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ والعقبى بمعنى العاقبة في الخير والشر.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد إذ الأصنام لا تحفظ ولا ترزق ولا تحاسب ولا تجزي، والله هو القائم على كل نفس فهو الإله الحق وما عداه فآلهة باطلة لا حقيقة لها إلا مجرد أسماء.

٢ - استمرار الكفار على كفرهم هو نتيجة تزيين الشيطان لهم ذلك فصدهم عن السبيل.

٣ - ميزة القرآن الكريم في الجمع بين الوعد والوعيد إذ بهما تمكن هداية الناس.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ - ٣٩]

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي كعبدالله بن سلام ومن آمن من اليهود. ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: أي يُسَرون به لأنهم مؤمنون صادقون ولأنه موافق لما عندهم. ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾: أي من اليهود والمشركين. ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾: أي بعض القرآن فالمشركون أنكروا لفظ الرحمن وقالوا لا رحمان إلا رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب.

﴿٣٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: أي بلسان العرب لتحكم به بينهم.

﴿٣٨﴾ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: أي لكل مدة كتاب كتبت فيه المدة المحددة.

﴿٣٩﴾ ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾: أي يمحو من الأحكام وغيرها ويثبت ما يشاء فما محاه هو المنسوخ وما أبقاه هو المحكم.

معنى الآيات:

﴿٣٦﴾ ما زال السياق في تقرير أصول العقيدة: التوحيد والنبوة والبعث والجزاء، فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كعبدالله بن سلام[(٤)] يفرحون بما أنزل إليك وهو القرآن وفي هذا تقرير للوحي وإثبات له، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ ككفار أهل الكتاب[(٥)] والمشركين ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ فاليهود أنكروا أغلب ما في القرآن من الأحكام ولم يصدقوا إلا بالقصص، والمشركون أنكروا «الرحمن» وقالوا لا رحمان إلا رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب عليه لعائن الله، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي أمرني ربي أن أعبده ولا أشرك به، إليه تعالى أدعو الناس أي إلى الإيمان به وإلى توحيده وطاعته، ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾[(٦)] أي رجوعي وإيابي وفي هذا تقرير للتوحيد.

﴿٣٧﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾[(٧)] أي وكهذا الإنزال للقرآن أنزلناه بلسان العرب لتحكم

---

(١) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ..﴾ إلخ: مبتدأ والخبر محذوف تقديره فيما يتلى عليكم: مثل الجنة، وقيل الخبر: تجري من تحتها الأنهار. والأوّل أولى.

(٢) في الآية ردّ على الجهمية القائلين بفناء نعيم الجنة.

(٣) أي: عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها.

(٤) اللفظ عام والمراد به الخصوص، ويدخل فيه أصحاب النبي ﷺ فهم يفرحون بنزول القرآن قاله قتادة. وهو كما قال فقد كانوا يفرحون بكل ما ينزل من وحي.

(٥) لفظ أهل الكتاب يشمل اليهود والنصارى معًا، لفظ البعض عام في القلة والكثرة ولذا فاليهود كالنصارى كالمشركين كالمجوس ينكرون من القرآن ما يتعارض مع معتقداتهم الباطلة ولا ينكرون ما لا يتعارض معها.

(٦) أي: أرجع في أموري كلها إليه دون غيره، وفي هذا معنى الاعتماد على الله والتوكل عليه في الأمر كله.

(٧) ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: حالان من أنزلناه، وقيل: المراد من ﴿حُكْمًا﴾ الحكمة كقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: الحكمة، فالقرآن يحوي الحكم المعبر عنها بالعربية وكونه من الحُكم أولى لأنه يحكم به في الأمور كلها.

بينهم به، وفي هذا تقرير للوحي الإلهي والنبوة المحمدية، وقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بأن وافقتهم على مِلَلِهِم وباطلهم في اعتقاداتهم، وحاشا رسول الله ﷺ أن يفعل وإنما الخطاب من باب.. إياك أعني واسمعي يا جارة.. ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي ليس لك من دون الله من ولي يتولى أمر نصرك وحفظك، ولا واق يقيك عذاب الله إذا أراده بك لاتباعك أهل الباطل[1] وتركك الحق وأهله.

(٣٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فلا معنى لما يقوله المبطلون[2]: لم يتخذ محمد أزواجًا ولم تكن له ذرية؟ وهو يقول أنه نبي الله ورسوله، فإن الرسل قبلك من نوح وإبراهيم إلى موسى وداوود وسليمان الكل كان لهم أزواج وذرية[3]، ولما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فالرسل كلهم مربوبون لله مقهورون لا يملكون مع الله شيئًا فهو المالك المتصرف إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل وقت محدد يعطي الله تعالى فيه أو يمنع كتابًا كتب فيه ذلك الأجل وعُيِّن فلا فوضى ولا أُنُف[4].

(٣٩) وقوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ رد على قولهم لم يثبت الشيء ثم يبطله كاستقبال بيت المقدس ثم الكعبة وكالعدة من الحول إلى أربعة أشهر وعشرة أيام فأعلمهم أن الله تعالى ذو إرادة ومشيئة لا تخضعان لإرادة الناس ومشيئاتهم فهو تعالى يمحو ما يشاء من الشرائع والأحكام بحسب حاجة عباده ويثبت كذلك ما هو صالح لهم نافع، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[5] أي الذي حوى كل المقادير فلا يدخله تبديل ولا تغيير كالموت والحياة والسعادة والشقاء، وفي الحديث: «رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه مسلم.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة الوحي والنبوة.

٢ - تقرير عقيدة التوحيد.

٣ - تقرير أن القضاء والحكم في الإسلام مصدره الأول القرآن الكريم ثم السنة لبيانها للقرآن، ثم القياس المأذون فيه فإجماع الأمة لاستحالة اجتماعها على غير ما يحب الله تعالى ويرضى به.

٤ - التحذير من اتباع أصحاب البدع والأهواء والمِلَلْ والنِّحَلْ الباطلة.

٥ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.

٦ - بيان النسخ في الأحكام بالكتاب والسنة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٠ ـ ٤٣]

(٤٠) ﴿نَعِدُهُمْ﴾: أي من العذاب.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: أي قبل ذلك.

(٤١) ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾: أي بلدًا بعد بلد بالفتح ودخول الإسلام فيها وانتهاء الشرك منها. ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾: أي لا راد له بحيث لا يتعقب حكمه فيبطل.

(٤٣) ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي من مؤمني اليهود والنصارى.

---

(١) في الآية إنذار وتحذير عظيمان لمن يترك أوامر الله تعالى أو يغشى محارمه موافقة لأهل الباطل طلبًا لرضاهم أو خوفًا من غضبهم.

(٢) قيل: إنّ اليهود هم الذين عابوا رسول الله ﷺ على الأزواج وعيروه بذلك فقالوا: ما نرى لهذا الرجل همة إلاّ النساء والنكاح، ولو كان نبيًا لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وعليه فالآية مدنية.

(٣) في الآية: الترغيب في النكاح والحض عليه، وهو كذلك فقد جاء في السنة قوله ﷺ: **«تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»** وفي الموطأ: **«من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة: ما بين لحييه وما بين رجليه»**.

(٤) أي: ولا بداء، والبداء: أن يبدو له الشيء بعد أن لم يكن يعلمه.

(٥) صح قوله ﷺ: **«من سرّه أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أجله فليصل رحمه»** فهذا الحديث يفسر قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: ما يشاء، وقد تكلّم العلماء في هذا بشيء كثير وما أراه يوضح هذا هو أنّ الله تعالى لما كتب في اللوح المحفوظ كتب أنّ فلانًا يصل رحمه فيكون رزقه كذا سعة ويكون أجله كذا طولاً، فصلة الرحم سبب في توسعة الرزق وطول العمر.

معنى الآيات:

(٤٠) قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا[1] نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي إن أريتك بعض الذي نعد قومك من العذاب فذاك، وإن توفيتك قبل ذلك فليس عليك إلا البلاغ[2] فقد بلغت وعلينا الحساب فسوف نجزيهم بما كانوا يكسبون، فلا تأس أيها الرسول ولا تضق ذرعًا بما يمكرون.

(٤١) وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي المشركون الجاحدون الماكرون المطالبون بالآيات على صدق نبوة نبينا ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[3] أي نفتحها للإسلام بلدًا بعد بلد أليس ذلك آية دالة على صدق الرسول ﷺ وصحة دعوته، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي والله جل جلاله يحكم في خلقه بما يشاء فيعز ويذل ويعطي ويمنع وينصر ويهزم، ولا معقب لحكمه أي ليس هناك من يعقب على حكمه فيبطله فإذا حكم بظهور الإسلام وإدبار الكفر فمن يرد ذلك على الله، وقوله: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذا حاسب على كسب فحسابه سريع يجزي الكاسب بما يستحق دون بطء ولا تراخ.

(٤٢) وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي وقد مكرت أقوام قبل قريش وكفار مكة فكيف كان عاقبة مكرهم؟ إنها دمارهم أجمعين، أما يخشى رؤساء الكفر في مكة من عاقبة كهذه؟ وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي إذًا فلا عبرة بمكرهم ولا قيمة له فلا يرهب ولا يلتفت إليه وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر فأين مكر من لا يعلم من مكر من يعلم كل شيء فسوف يصل بالممكور به إلى حافة الهلاك وهو لا يشعر، أفلا يعي هذا كفار قريش فيكفوا عن مكرهم برسول الله ودعوته؟ وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ[4] لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي سيعلم المشركون خصوم التوحيد يوم القيامة لمن عقبى الدار أي العاقبة الحميدة لمن دخل الجنة وهو محمد ﷺ وأتباعه أو لمن دخل النار وهم دعاة الشرك والكفر وأتباعهم.

(٤٣) وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي يواجهونك بالإنكار عليك والجحود لنبوتك ورسالتك قل لهم يا رسولنا الله شهيد بيني وبينكم وقد شهد لي بالرسالة وأقسم لي عليها مرات في كلامه مثل ﴿يسٓ ۞ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۞ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞﴾ وكفى بشهادة الله شهادة، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الأول التوراة والإنجيل وهم مؤمنوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى كعبدالله بن سلام[5] وسلمان الفارسي والنجاشي وتميم الداري وغيرهم[6].

الجزء الثالث عشر — سورة إبراهيم

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

ترتيبها ١٤ — سورة إبراهيم — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

٢٥٥

---

(١) ﴿مَّا﴾: زائدة لتقوية الكلام، والأصل: وإن نرينك.

(٢) ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: التبليغ و﴿ٱلْحِسَابُ﴾: الجزاء والعقوبة.

(٣) فسّر بعضهم الأطراف بالأشراف، وقال: المراد موت العلماء، وهو تفسير بعيد جدًا، وما في التفسير أقرب وأوضح إلى معنى الآية الكريمة، وردّ قول من قال هو نقصان الأرض بقول أحدهم لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك أي: مكان قضاء حاجتك.

(٤) قرأ نافع ﴿الكافر﴾: بالإفراد، وهو اسم جنس بمعنى الجمع، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْكُفَّٰرُ﴾، وقيل المراد بالكافر هنا: أبو جهل، والله أعلم، وفي الآية وعيد وتهديد للكفار مطلقًا.

(٥) عبدالله بن سلام كان اسمه في الجاهلية: حصين فسمّاه رسول الله ﷺ عبدالله.

(٦) قال بعضهم: الذي عنده علم الكتاب هو علي رضي الله عنه، وردّ على هذا القول، وقال بعضهم: هم المسلمون، كل ذلك من=

هداية الآيات:

١ - انتصار الإسلام وانتشاره في ظرف ربع قرن أكبر دليل على أنه حق.

٢ - أحكام الله تعالى لا ترد، ولا يجوز طلب الاستئناف على حكم من أحكام الله تعالى في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ.

٣ - شهادة الله أعظم شهادة، فلا تطلب بعدها شهادة إذا كان الخصام بين مؤمنين.

٤ - فضل العالم على الجاهل، إذ شهادة مؤمني أهل الكتاب تقوم بها الحجة على من لا علم لهم من المشركين.

❁ ❁ ❁

سورة إبراهيم
مكية
وآياتها اثنتان وخمسون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿الٓر﴾: هذا أحد الحروف المقطعة تكتب الر وتقرأ ألف لاَمْ رَا والتفويض فيها أسلم وهو قول الله أعلم بمراده بذلك[1].

﴿كِتَٰبٌ﴾: أي هذا كتاب عظيم.

﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾: يا محمد ﷺ.

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: أي من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: أي المحمود بآلائه.

(٣) ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي الإسلام.

﴿عِوَجًا﴾: أي معوجّة.

(٥) ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: أي المعجزات التسع: العصا، اليد، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، والطمس والسنين ونقص الثمرات.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾: أي ببلائه ونعمائه.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿الٓر﴾ الله أعلم بمراده وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي هذا كتاب عظيم القدر أنزلناه إليك يا رسولنا لتخرج الناس[2] من الظلمات أي من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم الشرعي، وذلك ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بتوفيقه ومعونته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[3] أي إلى طريق العزيز الغالب الحميد أي المحمود بآلائه وإفضالاته على عباده وسائر مخلوقاته.

(٢) ﴿ٱللَّهِ[4] ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وملكًا وتصريفًا وتدبيرًا، هذا هو الله صاحب الصراط الموصل إلى الإسعاد والإكمال البشري، والكافرون معرضون بل ويصدون عنه فويل لهم من عذاب شديد، الكافرون.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[5] أي يفضلون الحياة الدنيا فيعملون للدنيا ويتركون العمل للآخرة لعدم إيمانهم بها ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ أنفسهم وغيرهم أيضًا ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي معوجة إنهم يريدون من الإسلام أن يوافقهم في أهوائهم وما يشتهون حتى يقبلوه ويرضوا به دينًا قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ إنهم بهذا السلوك المتمثل في إيثار الدنيا على الآخرة والصد عن الإسلام، ومحاولة تسخير الإسلام لتحقيق أطماعهم وشهواتهم في ضلال بعيد لا يمكن لصاحبه أن يرجع منه إلى الهدى.

(٤) وقوله تعالى في الآية (٤) من

= أجل أن السورة مكية، وهذا غير مانع أن ينزل القرآن بمكة ويظهر تأويله بالمدينة، ولا مانع أن تكون الآية مدنية والسورة مكية، فلهذا ما في التفسير أولى بالقبول.

(١) هذا مذهب السلف وهو: تفويض فهم معناها إلى الله تعالى منزلها، ويعدونها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل. وهو أسلم من القول بالإجهاد الفكري.

(٢) لتخرج الناس: أي: بالقرآن العظيم الذي أنزلناه عليك.

(٣) الطريق هو الإسلام دين الله الذي لا يقبل دينًا غيره.

(٤) قرأ نافع برفع اسم الجلالة، وقرأ الجمهور بالجر، واستحب بعضهم الجر إذا وصل والرفع إذا وقف وهو حسن ومن وصل وقف على ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

(٥) قال ابن عباس وغيره: كل من آثر الدنيا وزهرتها واستحب البقاء في نعيمها على نعيم الآخرة وصد عن سبيل الله أي: صرف نفسه وغيره عن طاعة الله ورسوله ﷺ فهو داخل في هذه الآية، وهي ذات وعيد شديد.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

٢٥٦

هذا السياق ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[(١)] أي بلغتهم التي يتخاطبون بها ويتفاهمون لحكمة أن يبين لهم، والله بعد ذلك يضل من يشاء إضلاله حسب سنته في الإضلال ويهدي من يشاء كذلك ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يمانع في شيء أراده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾[(٢)] الذي يضع كل شيء في موضعه فلذا هو لا يضل إلا من رغب في الإضلال وتكلف له وأحبه وآثره، وتنكر للهدى وحارب المهتدين والداعين إلى الهدى، وليس من حكمته تعالى أن يضل من يطلب الهدى ويسعى إليه ويلتزم طريقه ويحبه ويحب أهله.

﴿٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ أي موسى نبي بني إسرائيل ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بحججنا وأدلتنا الدالة على رسالته والهادية إلى ما يدعو إليه وهي تسع آيات منها اليد والعصا ﴿أَنْ[(٣)] أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي أخرج قومك من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ﴿وَذَكِّرْهُم[(٤)] بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي وقلنا له: ذكرهم بأيام الله وهي بلاؤه ونعمه إذ أنجاهم من عذاب آل فرعون وأنعم عليهم بمثل المن والسلوى، وذلك ليحملهم على الشكر لله بطاعته وطاعة رسوله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في ذلك التذكير بالبلاء والنعماء لدلالات يستدل بها على إفضال الله وإنعامه الموجب للشكر، ولكن الذين يجدون تلك الدلالات في التذكير هم أهل الصبر والشكر بل هم الكثيرو الصبر[(٥)] والشكر، وأما غيرهم فلا يرى في ذلك دلالة ولا علامة.

هداية الآيات:

١ - إقامة الحجة على المكذبين بالقرآن الكريم، إذ هو مؤلف من الحروف المقطعة مثل الر وطسم والم وحم، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله بل بسورة مثله.

٢ - بيان أن الكفر ظلام والإيمان نور.

٣ - بيان الحكمة في إرسال الله تعالى الرسل بلغات أقوامهم.

٤ - تقرير أن الذي يخلق الهداية

---

(١) لا حجة لغير العرب في هذه الآية إذ كل من ترجم له الإسلام بلغته وجب عليه الدخول فيه والعمل بشرائعه ليكمل ويسعد، وقد استعمرت بريطانيا نصف العالم فتكلم الناس بلغتها وتعاملوا بها وهي لغة دنيا لا غير. فالواجب على غير العربي أن يتعلم لغة الإسلام ما أمكنه ذلك.

(٢) من مظاهر حكمته أنه ختم الرسالة برسالة محمد ﷺ، وواجب على البشرية كلها الإيمان به وبما جاء به ومن أبى دخل النار، فقد روى مسلم قوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**». فوحد بذلك البشرية توحيدًا روحيًا واجتماعيًا وسياسيًا، لو أنها آمنت بمحمد ﷺ وأخذت بهدايته لحصل لها من الكمال والإسعاد ما لم يخطر على بال.

(٣) أن: تفسيرية فسرت الإرسال لأنه فيه معنى القول.

(٤) التذكير إزالة نسيان شيء، ويكون بتعليم مجهول كان شأنه أن يعلم، ولما ضمّن التذكير معنى الإنذار والوعظ عدي بالباء أي: ذكّرهم تذكير عظة بأيام الله.

(٥) الصبر مع البلاء، والشكر مع الرخاء، وخير الناس من إذا ابتلي صبر وإذا أعطي شكر ولا يكون كذلك إلاّ ذو علم وبصيرة.

هو الله وأما العبد فليس له أكثر من الكسب.

٥ - فضيلة التذكير بالخير والشر ليشكر الله ويتقي.

٦ - فضيلة الصبر والشكر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ - ٩]

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾: أي اذكر إذ قال موسى. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يذيقونكم. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾: أي يستبقونهنَّ. ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: أي ابتلاء واختبار، ويكون بالخير والشر.

(٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾: أي أعلم ربكم.

(٩) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: بالحجج الواضحة على صدقهم في دعوة النبوة والتوحيد والبعث الآخر. ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: أي فرد الأمم أيديهم في أفواههم أي أشاروا إليهم أن اسكتوا. ﴿مُرِيبٍ﴾: موقع في الريبة.

معنى الآيات:

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي اذكر يا رسولنا إذ قال موسى لقومه من بني إسرائيل ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي لتشكروها بتوحيده وطاعته، فإن من ذكر شكر وبين لهم نوع النعمة وهي إنجاؤهم من فرعون وملإه إذ كانوا يعذبونهم بالاضطهاد والاستعباد، فقال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يذيقونكم سوء العذاب وهو أسوأه وأشده، ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي الأطفال المولودين، لأن الكهنة أو رجال السياسة قالوا لفرعون: لا يبعد أن يسقط عرشك وتزول دولتك على أيدي رجل من بني إسرائيل فأمر بقتل المواليد فور ولادتهم فيقتلون الذكور ويستبقون الإناث للخدمة ولعدم الخوف منهن وهو معنى قوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فهو بالنظر إلى كونه عذابًا بلاءٌ بالشر، وفي كونه نجاة منه، بلاءٌ بالخير.

(٧) وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ[1] رَبُّكُمْ﴾ هذا من قول موسى لبني إسرائيل أي اذكر لهم إذ أعلم ربكم مقسمًا لكم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾[2] نعمي بعبادتي وتوحيدي فيها وطاعتي وطاعة رسولي بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ في الإنعام والإسعاد ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ فلم تشكروا نعمي فعصيتموني وعصيتم رسولي أي لأسلبنها منكم وأعذبكم بسلبها من أيديكم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فاحذروه واخشوني فيه.

(٨) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ أي لبني إسرائيل ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ﴾ نعم الله فلم تشكروها بطاعته ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وكفرها من في الأرض جميعًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن سائر خلقه لا يفتقر إلى أحد منهم[3] ﴿حَمِيدٌ﴾ أي محمود بنعمه على سائر خلقه.

(٩) وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ هذا قول موسى لقومه وهو يعظهم ويذكرهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ[4] نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا يعلم عددهم ولا يحصيهم[5] ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والبراهين على صدق دعوتهم وما جاء به من الدين الحق ليعبد الله وحده ويطاع وتطاع رسله فيكمل الناس بذلك ويسعدوا، وقوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي ردت الأمم المرسل إليهم أيديهم إلى

---

(١) أي: تكلم تكلمًا علنًا وهو يناجي موسى عليه السلام بجبل الطور، وأذّن وتأذن: أعلم، ومنه الأذان للصلاة، قال الشاعر:

فلم نشعر بضوء الصبح حتى ... سمعنا في مجالسنا الأذينا

(٢) سئل بعض الصالحين عن الشكر لله تعالى فقال: ألاّ تتقوى بنعمه على معاصيه. وحكي أن داود عليه السلام قال: أي ربي كيف أشكرك وشكري لك نعمة متجددة منك عليّ؟ قال: (**يا داود: الآن شكرتني**)، وعليه فالشكر الاعتراف بالنعمة للمنعم ولا يصرفها في غير طاعته.

(٣) أي: لا يلحقه نقص بكفر الناس ولو كفروا أجمعون.

(٤) صالح لأن يكون من قول موسى عليه السلام، ومن قول الله تعالى تعليمًا لرسوله محمد ﷺ.

(٥) ولا يعرف أنسابهم كذلك إلاّ الله وفي الحديث: «**كذب النسابون، إن الله يقول لا يعلمهم إلا الله**» قاله لمّا زاد النسابون على معد بن عدنان، وقال: «**لا ترفعوني فوق عدنان**».

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

٢٥٧

أفواههم تغيظًا على أنبيائهم وحنقًا، أو أشاروا إليهم بالسكوت فأسكتوهم ردًا لدعوة الحق التي جاؤوا بها، وقالوا لهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي بما جئتم به من الدين الإسلامي والدعوة إليه، ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي موقع في الريبة التي هي قلق النفس واضطرابها لعدم سكونها للخبر الذي يلقى إليها، هذا وما زال السياق طويلاً وينتهي بقوله تعالى: ﴿١٥﴾ ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۞﴾.

هداية الآيات:

١ - مشروعية التذكير بنعم الله لنشكر ولا نكفر.

٢ - وعد الله تعالى بالمزيد من النعم لمن شكر نعم الله عليه.

٣ - كفر النعم سبب زوالها.

٤ - بيان غنى الله تعالى المطلق على سائر خلقه فالناس إن شكروا شكروا لأنفسهم وإن كفروا كفروا على أنفسهم أي شكرهم ككفرهم عائد على أنفسهم.

٥ - التذكير بقصص السابقين وأحوال الغابرين مشروع وفيه فوائد عظيمة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ - ١٤]

﴿١٠﴾ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾: أي لا شك في وجود الله ولا في توحيده، إذ الاستفهام إنكاري.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي إلى أجل الموت.

﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: بحجة ظاهرة تدل على صدقكم.

﴿١١﴾ ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾: أي بالنبوة والرسالة على من يشاء لذلك.

﴿١٢﴾ ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾: أي طرقه التي عرفناه بها وعرفنا عظيم قدرته وعز سلطانه.

﴿١٣﴾ ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا﴾: أي من ديارنا أو لتعودون في ديننا.

﴿١٤﴾ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾: أي وقوفه بين يدي يوم القيامة للحساب والجزاء.

معنى الآيات:

﴿٩﴾ ما زال السياق في ما ذكر به موسى قومه بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ . . .﴾.

﴿١٠﴾ فقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ أي قالت الرسل إلى أولئك الأمم الكافرة ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ[1]﴾؟ أي كيف يكون في توحيد الله شك وهو فاطر السماوات[2] والأرض، فخالق السماوات والأرض وحده لا يعقل أن يكون له شريك في عبادته، إنه لا إله إلا هو وقوله: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان والعمل الصالح الخالي من الشرك ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم[3] مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وهو كل ذنب بينكم وبين ربكم من كبائر الذنوب وصغائرها أما مظالم الناس فردوها إليهم تغفر لكم وقوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي يؤخر العذاب عنكم لتموتوا بآجالكم المقدرة لكم، وقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ أي قالت الأمم الكافرة لرسلهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي[4] ما أنتم إلا بشر مثلنا، ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾ أي تصرفونا ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من آلهتنا

(١) الاستفهام إنكاري أي: لا شك في الله، أي: في وجوده، وقدرته وعلمه وحكمته الموجبة لألوهيته، وهي عبادته وحده لا شريك له.

(٢) هذا الوصف الكامل لله وهو مقتضى وجوده وألوهيته عزّ وجل.

(٣) على ما في التفسير (من) للتبعيض، ويصح أن تكون زائدة، والمغفرة لكل الذنوب لأنّ الإسلام يجبّ ما قبله من سائر الذنوب.

(٤) أي: في الهيئة تأكلون كما نأكل وتشربون كما نشرب، وتمرضون، وتصحون مثلنا ولستم ملائكة.

أي أصنامهم وأوثانهم التي يدّعون أنها آلهة، وقولهم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال الكافرون للرسل ائتونا بسلطان مبين أي بحجة ظاهرة تدل على صدقكم أنكم رسل الله إلينا فأجابت الرسل قائلة ما أخبر تعالى به عنهم بقوله:

⑪ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي ما نحن إلا بشر مثلكم فما لا تستطيعونه أنتم لا نستطيعه نحن ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ[1] عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أي إلا أن الله يمن على من يشاء بالنبوة فمن علينا بها فنحن ننبئكم بما أمرنا الله ربنا وربكم أن ننبئكم به كما نأمركم وندعوكم لا من تلقاء أنفسنا ولكن بما أمرنا أن نأمركم به وندعوكم إليه، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بإرادته وقدرته فهو ذو الإرادة التي لا تحد والقدرة التي لا يعجزها شيء، ولذا توكلنا عليه وحده وعليه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه يكفيهم كل ما يهمهم، ثم قالت الرسل وهي تعظ أقوامها بما تقدم:

⑫ ﴿وَمَا[2] لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أي طرقنا التي عرفناه بها وعرفنا عظمته وعزة سلطانه فأي شيء يجعلنا لا نتوكل عليه وهو القوي العزيز ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ بألسنتكم وأيديكم متوكلين على الله حتى ينتقم الله تعالى لنا منكم، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ إذ هو الكافل لكل من يثق فيه ويفوض أمره إليه متوكلاً عليه وحده دون سواه.

⑬ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ هذا إخبار منه تعالى على ما قالت الأمم الكافرة لرسلها: قالوا موعدين مهددين بالنفي والإبعاد من البلاد لكل من يرغب عن دينهم ويعبد غير آلهتهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي ديننا الذي نحن عليه وهنا أوحى الله تعالى إلى رسله بما أخبر تعالى به: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ قال لنهلكن الظالمين ولم يقل لنهلكنهم إشارة إلى علة الهلاك وهي الظلم الذي هو الشرك والإفساد ليكون ذلك عظة للعالمين

⑭ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإنجاء للمؤمنين والإهلاك للظالمين[3] جزاء ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي[4]﴾ أي الوقوف بين يدي يوم القيامة ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ على ألسنة رسلي بالعذاب لمن كفر بي وأشرك في عبادتي ومات على غير توبة إليّ من كفره وشركه وظلمه.

هداية الآيات:

١ - بطلان الشك في وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته ووجوب عبادته وحده وذلك لكثرة الأدلة وقوة الحجج، وسطوع البراهين.

٢ - بيان ما كان أهل الكفر يقابلون به رسل الله والدعاة إليه سبحانه وتعالى وما كانت الرسل ترد به عليهم.

٣ - وجوب التوكل على الله تعالى، وعدم صحة التوكل على غيره إذ لا كافي إلا الله.

٤ - وجوب الصبر على الأذى في سبيل الله وانتظار الفرج بأخذ الظالمين.

٥ - عاقبة الظلم وهي الخسران والدمار لا تتبدل ولا تتخلف وإن طال الزمن.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ - ٢٠]

⑮ ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾: أي طلب الرسل الفتح لهم أي النصر على أقوامهم الظالمين. ﴿وَخَابَ﴾: أي خسر وهلك. ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: أي ظالم يجبر الناس على مراده عنيد

---

(١) ومما منّ الله به عليهم، الحكمة والمعرفة والهداية إلى ما يوجب رضاه ومحبته. وقيل: إنّ أعظم ما يمن به الله تعالى على عبده ذكره بأسمائه وصفاته.

(٢) وما: اسم استفهام مبتدأ، وما بعدها في موضع الحال، والتقدير: أي شيء لنا في ترك التوكل على الله؟ والاستفهام إنكاري.

(٣) وإسكان الصالحين الأرض بعد إهلاك الظالمين.

(٤) المقام: مصدر ميمي وقوله ﴿مَقَامِي﴾: أي قيامه بين يديّ للحساب، والوعيد هو عذاب النار، وقيل: مقامي: أي قيامي عليه، ومراقبتي له والمعنى إذًا: خافني وراقبني، وهو معنى صحيح، والخوف من الله ومراقبته موجبة للصلاح المورث للأرض والدولة لقوله تعالى: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾

كثير العناد.

(١٦) ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾: أي أي هو ما يخرج سائلًا من أجواف أهل النار مختلطًا من قيح ودم وعرق.

(١٧) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾: أي يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته ولا يقارب ازدراده لقبحه ومراراته. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: أي لشدة ما يحيط به من العذاب فكل أسباب الموت حاصلة ولكن لا يموت.

(١٨) ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾: أي الصالحة منها كصلة الرحم وبر الوالدين وإقراء الضيف وفك الأسير والفاسدة كعبادة الأصنام بالذبح لها والنذر والحلف والعكوف حولها كرماد. ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: أي لا يحصلون من أعمالهم التي كسبوها على ثواب وإن قل لأنها باطلة بالشرك.

(٢٠) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾: أي بصعب ممتنع عليه.

معنى الآيات:

(١٥) هذا آخر حديث ما ذكر به موسى قومه من أنباء الأمم السابقة على بني إسرائيل، قال تعالى في الإخبار عنهم: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي واستفتح الرسل أي طلبوا من الله تعالى أن يفتح عليهم[١] بنصر على أعدائه وأعدائهم واستجاب الله لهم، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[٢]﴾ أي خسر وهلك كل ظالم طاغ معاند للحق وأهله.

(١٦) وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ[٣] جَهَنَّمُ﴾ أي أمامه جهنم تنتظره سيدخلها بعد هلاكه ويعطش ويطلب الماء فتسقيه الزبانية ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ[٤]﴾ أي وهو صديد أهل النار وهو ما يخرج من قيح ودم وعرق.

(١٧) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي يبتلعه جرعة بعد أخرى لمرارته[٥] ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي يدخله جوفه الملتهب عطشًا لقبحه ونتنه ومرارته وحرارته، وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي ويأتي هذا الجبار العنيد والذي هو في جهنم يقتله الظمأ فيسقى بالماء الصديد يأتيه الموت لوجود أسبابه وتوفرها من كل مكان إذ العذاب محيط به من فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وما هو بميت لأن الله تعالى لم يشأ ذلك قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ وقال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا

---

(١) كقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ قالها شعيب والمؤمنون معه، وكان النبي ﷺ يدعو طالبًا نصره وهزيمة أعدائه.

(٢) العنيد: المعاند للحق، والجبار: المتعاظم الشديد التكبر، وقيل هو من يجبر الناس على مراده، وهو وصف مذموم لغير الله تعالى.

(٣) لفظ وراء يطلق على ما كان خلفًا وما كان أمامًا، لأن كل ما ووري أي: استتر فهو وراء. وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾: صفة لجبار عنيد، والوراء مستعمل في معنى ما يتنظره ويحل به من بعد، قال الشاعر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

أي بعده.

(٤) الصديد: المهلة، أي: مثل الماء يسيل من الدمّل ونحوه، والتجرّع: تكلّف الجرع، والجرع: بلع الماء.

(٥) روي أن النبي ﷺ قال قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال: «**يقرّب إلى فيه فيكرهه فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره..**» إلخ.. رواه الترمذي واستغربه.

﴿يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ ومن وراء ذلك العذاب الذي هو فيه ﴿عَذَابٌ﴾ أي لون آخر من العذاب ﴿غَلِيظٌ﴾ أي شديد لا يطاق.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ[1] الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ[2] اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي شديد هبوب الريح فيه ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي من أعمال في الدنيا ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي من الثواب والجزاء الحسن عليها، هذا مثل أعمالهم الصالحة كأنواع الخير والبر والطالحة كالشرك والكفر وعبادة غير الله مما كانوا يرجون نفعه، الكل يذهب ذهاب رماد حملته الريح وذهبت به، مشتدة في يوم عاصف شديد هبوب الريح فيه. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي ذلك الذي دل عليه المثل هو الضلال البعيد لمن وقع فيه إذ ذهب كل عمله سدى بغير طائل فلم ينتفع بشيء منه وأصبح من الخاسرين.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ[3] أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي ألم تعلم أيها الرسول أن الله خلق السماوات والأرض بالحق أي من أجل الإنسان ليذكر الله تعالى ويشكره فإذا تنكر لربه فكفر به وأشرك غيره في عبادته عذبه بالعذاب الأليم الذي تقدم وصفه في هذا السياق لأن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض عبثًا وباطلًا بل خلقهما وخلق ما فيهما من أجل أن يذكر فيهما ويشكر فمن ترك الذكر والشكر عذبه أشد العذاب وأدومه وأبقاه، وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس المتمردون على طاعته المشركون به ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[4] غيركم يعبدونه ويوحدونه.

(٢٠) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بممتنع ولا متعذر لأن الله على كل شيء قدير.

هداية الآيات:

١ - إنجاز وعد الله لرسله في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الآية.

٢ - خيبة وخسران عامة أهل الشرك والكفر والظلم.

٣ - عظم عذاب يوم القيامة وشدته.

٤ - بطلان أعمال المشركين والكافرين وخيبتهم فيها إذ لا ينتفعون بشيء منها.

٥ - عذاب أهل الكفر والشرك والظلم لازم لأنهم لم يذكروا ولم يشكروا والذكر والشكر علة الوجود كله فلما عبثوا بالحياة استحقوا عذابًا أبديًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ ـ ٢٣]

(٢١) ﴿وَبَرَزُوا[5] لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: أي برزت الخلائق كلها لله وذلك يوم القيامة. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: أي تابعين لكم فيما تعتقدون وتعملون. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾: أي دافعون عنا بعض العذاب. ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾: أي من ملجأ ومهرب أو منجا.

(٢٢) ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: بإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾: أي بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب والكرب.

(٢٣) ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أي من تحت قصورها وأشجارها الأنهار الأربعة: الماء واللبن والخمر والعسل.

معنى الآيات:

(٢١) في هذه الآيات عرض سريع للموقف وما بعده من استقرار أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة يقرر مبدأ الوحي والتوحيد والبعث الآخر بأدلة لا ترد، قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي خرجت

---

(١) المثل: الحال العجيبة أي حال أعمالهم كرماد.

(٢) الرماد: ما يبقى من احتراق الحطب والفحم، ضرب الله في هذه الآية مثلًا لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف.

(٣) الرؤية هنا: رؤية القلب وهي العلمية.

(٤) أي: أفضل منكم وأطوع وما في التفسير أدل على المقصود.

(٥) البروز: الظهور، وهو هنا الخروج من القبور والظهور خارجها للحشر حيث فصل القضاء، ومن هذا قولهم: امرأة برزة أي: تظهر للناس.

البشرية من قبورها مؤمنوها وكافروها صالحوها وفاسدوها ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ أي الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ أي الرؤساء والموجهون للناس بما لديهم من قوة وسلطان ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا[1]﴾ أي أتباعًا في عقائدكم وما تدينون به، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾؟ أي فهل يمكنكم أن ترفعوا عنا بعض العذاب بحكم تبعيتنا لكم فأجابوهم بما أخبر تعالى به عنهم: ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾[2] اعترفوا الآن أن الهداية بيد الله وأقروا بذلك، ولكنا ضللنا فأضللناكم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾ اليوم ﴿أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ[3]﴾ أي من مخرج من هذا العذاب ولا مهرب.

﴿٢٢﴾ وهنا يقوم إبليس خطيبًا فيهم[4] بما أخبر تعالى عنه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي إبليس عدو بني آدم ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأدخل أهل النار النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾[5] بأن من آمن وعمل صالحًا مبتعدًا عن الشرك والمعاصي أدخله جنته وأكرمه في جواره، وأن من كفر وأشرك وعصى أدخله النار وعذبه عذاب الهون في دار البوار ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ بأن وعد الله ووعيده ليس بحق ولا واقع ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ فيما وعدتكم به، وكنت في ذلك كاذبًا عليكم مغررًا بكم، ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ﴾ أي من قوة مادية أكرهتكم بها على اتباعي ولا معنوية ذات تأثير خارق للعادة أجبرتكم بها على قبول دعوتي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أي لكن دعوتكم ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ إذًا ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمزيل صراخكم بما أغيثكم به من نصر وخلاص من هذا العذاب ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ أيضًا ﴿بِمُصْرِخِىَّ﴾[6] أي بمغيثي، ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ[7] مِن قَبْلُ﴾ إذ كل عابد لغير الله في الواقع هو عابد للشيطان إذ هو الذي زين له ذلك ودعاه إليه، و ﴿إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي المشركين لهم عذاب أليم موجع.

﴿٢٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ[8] ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي وأدخل الله الذين آمنوا أي صدَّقوا بالله وبرسوله وبما جاء به رسوله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ وهي العبادات التي تَعَبَّدَ الله بها عباده فشرعها في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ﴿جَنَّـٰتٍ﴾[9] بساتين ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي من خلال قصورها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها ولا يبغون عنها حولاً، وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾[10] أي أن ربهم هو الذي أذن لهم بدخولها والبقاء فيها أبدًا، وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ أي السلام عليكم يحييهم ربهم وتحييهم الملائكة ويحيي بعضهم بعضًا بالسلام وهي كلمة دعاء بالسلامة من كل

---

(١) ﴿تَبَعًا﴾: يصح أن يكون مصدرًا أي: ذوي تبع، ويجوز أن يكون جمع تابع مثل: حرس وحارس، وخدم وخادم.

(٢) أي: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه، أو لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها.

(٣) المحيص: مصدر ميمي كالمغيث والمشيب من غاب وشاب، وكذلك حاص يحيص حيصًا عن كذا: هرب ونجا، ويجوز أن يكون المحيص هنا اسم مكان أي: ما لنا من مكان نلجأ إليه وتنجو فيه.

(٤) أي: على منبر من نار.

(٥) ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: يعني البعث والجنة والنار، وثواب المطيع وعقاب العاصي، فصدقكم وعده، ووعدتكم ألاّ بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب، فأخلفتكم.

(٦) (الصارخ): والمستصرخ هو الذي يطلب النصر والمعاونة، المصرخ هو المغيث قال الشاعر:

ولا تجزعوا إني لكم غير مصرخ ... وليس لكم عندي غناء ولا نصر

(٧) ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾: الميم مصدرية والتقدير كفرت بإشراككم إيّاي مع الله تعالى.

(٨) لمّا أخبر تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة وهو أسلوب الترغيب والترهيب الذي امتاز به القرآن الكريم لأنه كتاب هداية وإصلاح.

(٩) ﴿جَنَّـٰتٍ﴾: جمع جنة، وجنّات: منصوب على نزع الخافض أي: في جنات، لأنّ دخل كخرج لا يتعدى إلا بحرف الجر.

(١٠) أي: بمشيئته وتيسيره.

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)﴾

٢٥٩

العاهات والمنغصات وتحية بطلب الحياة الأبدية.

هداية الآيات:

١ - بيان أن التقليد والتبعية لا تكون عذرًا لصاحبها عند الله تعالى.

٢ - بيان أن الشيطان هو المعبود من دون الله تعالى إذ هو الذي دعا إلى عبادة غير الله وزينها للناس.

٣ - تقرير لعلم الله بما لم يكن كيف يكون إذ ما جاء في الآيات من حوار لم يكن بعد ولكنه في علم الله كائن كما هو وسوف يكون كما جاء في الآيات لا يتخلف منه حرف واحد.

٤ - وعيد الظالمين بأليم العذاب.

٥ - العمل لا يُدخل الجنة إلا بوصفه سببًا لا غير، وإلا فدخول الجنة يكون بإذن الله تعالى ورضاه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤ - ٣٠]

(٢٤) ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: هي لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: هي النخلة.

(٢٦) ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: هي كلمة الكفر.

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: هي الحنظل. ﴿اجْتُثَّتْ﴾: أي اقتلعت جثتها أي جسمها وذاتها.

(٢٧) ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾: هو لا إله إلا الله. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: أي في القبر فيجيب الملكين عما يسألانه عنه حيث يسألانه عن ربه ودينه ونبيه.

(٢٨) ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾: أي بدلوا التوحيد والإسلام بالجحود والشرك. ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾: أي جهنم.

(٣٠) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾: أي شركاء.

معنى الآيات:

(٢٤) الآيات في تقرير التوحيد والبعث والجزاء، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرسول أي ألم تعلم ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً[1]﴾ هي كلمة الإيمان يقولها المؤمن ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة[2] ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا﴾ عال ﴿فِي السَّمَاءِ﴾.

(٢٥) ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ تعطي أكلها أي ثمرها الذي يؤكل منها كل حين بلحًا وبُسْرًا ومُنَصَّفًا ورطبًا وتمرًا وفي الصباح والمساء ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي بقدرته وتسخيره فكلمة الإيمان لا إله إلا الله محمد رسول الله تثمر للعبد أعمالاً صالحة كل حين فهي في قلبه والأعمال الصالحة الناتجة عنها ترفع إلى الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي كما ضرب هذا المثال للمؤمن والكافر في هذا السياق يضرب الأمثال للناس مؤمنهم وكافرهم لعلهم يتذكرون أي رجاء أن يتذكروا فيتعظوا فيؤمنوا ويعملوا الصالحات فينجوا من عذاب الله.

(٢٦) وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر في قلب الكافر ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي الحنظل مُرَّة ولا خير فيها ولا أصل لها ثابت ولا فرع لها في السماء ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أي

---

(١) الكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة هي المؤمن، والشجرة المضروب بها المثل هي النخلة، وفي الحديث الصحيح: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن خبروني ما هي؟ قال: هي النخلة**» وورد: «**مثل المؤمن كالنخلة إن صاحبته نفعك، وإن جالسته نفعك، وإن شاورته نفعك كالنخلة كل شيء منها ينتفع به**».

(٢) وورد (أكرموا عمتكم النخلة)، ومن وجه شبهها بالمؤمن أنها برأسها تبقى وبقلبها تحيا وفي اللقاح ورائحة طلع ذكرها كرائحة المني، وقيل: إنها خلقت من فضلة طينة آدم التي خلق منها، فهي لذا عمة بني آدم.

اقتلعت واستؤصلت ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي لا ثبات لها ولا تثمر إلا ما فيها من مرارة وسوء طعم وعدم بركة.

﴿٢٧﴾ وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هذا وعد من الله تعالى لعباده المؤمنين الصادقين بأنه يثبتهم على الإيمان مهما كانت الفتن والمحن حتى يموتوا على الإيمان ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي في القبر إذ هو عتبة الدار الآخرة عندما يسألهم[1] الملكان عن الله وعن الدين والنبي، من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيثبتهم بالقول الثابت وهو الإيمان وأصله لا إله إلا الله محمد رسول الله والعمل الصالح الذي هو الإسلام وقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ مقابل هداية المؤمنين فلا يوفقهم للقول الثابت حتى يموتوا على الكفر فيهلكوا ويخسروا، وذلك لإصرارهم على الشرك ودعوتهم إليه وظلم المؤمنين وأذيتهم من أجل إيمانهم، وقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ تقرير لإرادته الحرة فهو عز وجل يثبت من يشاء ويضل من يشاء فلا اعتراض عليه ولا نكير مع العلم أنه يهدي ويضل بحكم عالية تجعل هدايته كإضلاله رحمة وعدلاً.

﴿٢٨﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم ينته إلى علمك أيها الرسول ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ التي هي الإسلام الذي جاءهم به رسول الله بما فيه من الهدى والخير فكذبوا رسول الله وكذبوا بما جاء به ورضوا بالكفر وأنزلوا بذلك قومهم الذين يحثونهم على الكفر ويشجعونهم على التكذيب أنزلوهم[2] ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ[3]﴾ فهلك من هلك في بدر كافرًا إلى جهنم، ودار البوار هي جهنم يصلونها أي يحترقون بحرها ولهيبها.

﴿٢٩﴾ ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي المقر الذي أحلوا قومهم فيه.

﴿٣٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي جعل أولئك الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وهم كفار مكة لله أندادًا أي شركاء عبدوها وهي اللاَّت والعُزَّى وهُبل ومَناة وغيرها من آلهتهم الباطلة، جعلوا هذه الأنداد ودعوا إلى عبادتها ليضلوا ويضلوا غيرهم عن سبيل الله التي هي الإسلام الموصل إلى رضا الله تعالى وجواره الكريم، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾[4] أي بما أنتم فيه من متاع الحياة الدنيا ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ أي نهاية أمركم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ حيث تصيرون إليها بعد موتكم إن أصررتم على الشرك والكفر حتى متم على ذلك.

هداية الآيات:

١ - استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.

٢ - المقارنة بين الإيمان والكفر،

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾

(١) روى النسائي عن البراء قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ نزلت في عذاب القبر، يقال: من ربك فيقول ربي الله وديني دين محمد ﷺ.

(٢) هذه الآية نزلت في قريش، وقيل: في هلكى بدر، وقيل: في متنصِّرة العرب: جبلة بن الأيهم وأصحابه، والظاهر أنها عامة في كل من كفر بالله ورسوله ﷺ وحاد عن سبيلهما، وقال الحسن: إنها عامة في جميع المشركين.

(٣) ﴿ٱلْبَوَارِ﴾: الهلاك.

(٤) الأمر للتهديد والوعيد، وفي اللفظ إشارة إلى قلّة ما في الدنيا من ملاذ مع سرعة زوالها ولزوم انقطاعها.

وكلمة التوحيد وكلمة الكفر وما يثمره كل واحد من هذه الأصناف من خير وشر.

٣ - بشرى المؤمن بتثبيت الله تعالى له على إيمانه حتى يموت مؤمنًا وبالنجاة من عذاب القبر حيث يجيب منكرًا ونكيرًا على سؤالهما إياه بتثبيت الله تعالى له.

٤ - الأمر في قوله تعالى تمتعوا ليس للإباحة ولا للوجوب وإنما هو للتهديد والوعيد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ ـ ٣٤]

(٣١) ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾: هذا يوم القيامة لا بيع فيه ولا فداء ولا مخالة تنفع ولا صداقة.

(٣٢) ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: أي السفن فلفظ الفلك دال على متعدد ويذكّر ويؤنث.

(٣٣) ﴿دَآئِبَيْنِ﴾: جاريين في فلكهما لا يفتران أبدًا حتى نهاية الحياة الدنيا.

(٣٤) ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾: كثير الظلم لنفسه ولغيره، كفار عظيم الكفر هذا ما لم يؤمن ويهتد فإن آمن واهتدى سلب هذا الوصف منه.

معنى الآيات:

(٣٠) لما أمر الله تعالى رسوله أن يقول لأولئك الذين بدلوا نعمة الله كفرًا: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أمر رسوله أيضًا أن يقول للمؤمنين أن يقيموا الصلاة وينفقوا من أموالهم سرًا وعلانية ليتقوا بذلك عذاب يوم القيامة الذي توعد به الكافرين فقال:

(٣١) ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ[1]﴾ أي يؤدوها على الوجه الذي شرعت عليه فيتموا ركوعها وسجودها ويؤدوها في أوقاتها المعينة لها وفي جماعة وعلى طهارة كاملة مستقبلين بها القبلة حتى تثمر لهم زكاة أنفسهم وطهارة أرواحهم ﴿وَيُنفِقُوا۟[2]﴾ ويوالوا الإنفاق في كل الأحيان ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ[3]﴾ لا شراء فيحصل المرء على ما يفدي به نفسه من طريق البيع، ولا خلة أي صداقة تنفعه ولا شفاعة إلا بإذن الله تعالى.

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ[4] ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أنشأهما وابتدأ خلقهما ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو ماء الأمطار ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والحبوب ﴿رِزْقًا[5] لَّكُمْ﴾ تعيشون به وتتم حياتكم عليه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بإذنه وتسخيره تحملون عليها البضائع والسلع من إقليم إلى إقليم وتركبونها كذلك ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ الجارية بالمياه العذبة لتشربوا وتسقوا مزارعكم وحقولكم.

(٣٣) ﴿وَسَخَّرَ[6] لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ[7]﴾ لا يفتران أبدًا في جريهما وتنقلهما في بروجهما لمنافعكم التي لا تتم إلا على ضوء الشمس وحرارتها ونور القمر وتنقله في منازله ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ الليل لتسكنوا فيه وتستريحوا والنهار لتعملوا فيه وتكسبوا أرزاقكم.

(٣٤) ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ[8]﴾ مما أنتم في حاجة إليه

---

(١) هي الصلوات الخمس: الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

(٢) هي الزكاة ويدخل معها صدقة التطوع، إذ الكلّ إنفاق، والسرية غالبًا هي صدقة التطوع والعلانية هي الزكاة المفروضة.

(٣) ﴿خِلَٰلٌ﴾ جمع خُلة كقُلة وقلال، وهي المودة والصداقة والمنفي هنا هو آثارها بالنفع بالإرفاد والإسعاف بالثواب.

(٤) هذا استئناف واقع موقع الاستدلال على بطلان الشرك ووجوب التوحيد وما يترتب على ذلك من سعادة الموحدين وشقاء المشركين.

(٥) الرزق: القوت، وهو كل ما يقتات به من أنواع الحبوب والخضر والفواكه واللحوم.

(٦) التسخير هو التذليل والتطويع، وهو كناية عن كون الشيء قابلاً للتصرف فيه.

(٧) الدّؤوب: مرور الشيء في العمل على عادة جارية لا تختلف، وفعله: دأب يدأب دؤوبًا على الشر: إذا استمر عليه ولم يقطعه.

(٨) ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: من كل مسؤول سألتموه شيئًا فحذف مسؤول لدلالة الكلام عليه، والمقابل محذوف أي: ومن كل ما لم تسألوه، فإنّ هناك أشياء لم يسألها الإنسان، وأعطاه الله تعالى إياها، وهذا الحذف كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ..﴾ وسرابيل تقيكم البرد: فحذف.

لقوام حياتكم، هذا هو الله المستحق لعبادتكم رغبة فيه ورهبة منه، هذا هو المعبود الحق الذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له وليس تلك الأصنام والأوثان التي تعبدونها وتدعون إلى عبادتها حتى حملكم ذلك على الكفر والعناد بل والظلم والشر والفساد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ[1]﴾ أي بعد أن عدد الكثير من نعمه أخبر أنه لا يمكن للإنسان أن يعد نعم الله عليه ولا أن يحصيها عدًا بحال من الأحوال، وقرر حقيقة في آخر هذه الموعظة والذكرى وهي أن الإنسان إذا حُرم الإيمان والهداية الربانية ﴿لَظَلُومٌ﴾ أي كثير الظلم كفور كثير الكفر عظيمه، والعياذ بالله تعالى من ذلك.

هداية الآيات:

١ - وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإكثار من الصدقات لاتقاء عذاب النار.

٢ - جواز صدقة العلن كصدقة السر وإن كانت الأخيرة أفضل.

٣ - التعريف بالله عز وجل إذ معرفة الله تعالى هي التي تثمر الخشية منه تعالى.

٤ - وجوب عبادة الله تعالى وبطلان عبادة غيره.

٥ - وصف الإنسان بالظلم والكفر وشدتهما ما لم يؤمن ويستقيم على منهج الإسلام.

شرح الكلمات:
[الآية: ٣٥ ـ ٤١]

(٣٥) ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾: أي اجعل مكة بلدًا آمنًا يأمن كل من دخله. ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾: بعدني. ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾: عن أن نعبد الأصنام.

(٣٦) ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: أي بعبادتهم لها. ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾: أي من اتبعني على التوحيد فهو من أهل ملتي وديني.

(٣٧) ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾: أي من بعض ذريتي وهو إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر. ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾: أي مكة إذ لا مزارع فيها ولا حولها يومئذ. ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾: تحِنُّ إليهم وتميل رغبة في الحج والعمرة.

(٣٩) ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾: أي مع الكبر إذ كانت سنه يومئذ تسعًا وتسعين سنة وولد له إسحاق وسنه مائة واثنتا عشرة سنة.

(٤١) ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾: هذا قبل أن يعرف موت والده على الشرك. ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: أي يوم يقوم الناس للحساب.

معنى الآيات:

(٣٥) ما زال السياق في تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء وقد تضمنت هذه الآيات ذلك، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي اذكر إذ قال إبراهيم فكيف يذكر ما لم يوح الله تعالى إليه بذلك ففسر هذا نبوة رسول الله ونزول الوحي إليه، وقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أي ذا أمن فيأمن من دخله على نفسه وماله والمراد من البلد مكة.

وقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى[2] وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ فيه تقرير للتوحيد الذي هو عبادة الله وحده ومعنى اجنبني أبعدني أنا وأولادي وأحفادي وقد استجاب الله تعالى له فلم يكن في أولاده وأولاد أولاده مشرك.

(٣٦) وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ[3] كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ تعليل لسؤاله ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها، وإضلال الناس كان بعبادتهم لها فضلوا في أودية الشرك، وقوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ أي من أولادي ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي على ملتي وديني، ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ فلم يتبعن على ملة الإسلام إن تعذبه فذاك وإن تغفر له ولم تعذبه ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

---

(١) الإحصاء: ضبط العدد، وهو مشتق من الحصا اسمًا للعدد، وهو منقول من الحصى وهي صغار الحجارة إذ كانوا يعدون الأعداد الكبيرة بها.

(٢) أي: اجعلني جانبًا عن عبادتها، وبنيه من صلبه وكانوا ثمانية: فما عبد منهم أحد صنمًا قط. كان إبراهيم التيمي يقول: من يأمن البلاء بعد الخليل حتى يقول: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام.

(٣) نسب الإضلال إليهن وهن جمادات لا يفعلن شيئًا: لأنهن السبب في الإضلال.

(٤) فوّض الأمر لربه إن شاء غفر لمن عصاه رحمة، وإن شاء عذّبه. وقيل: قال إبراهيم هذا قبل أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك لأصحابه.

(٣٧) وقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾[١] أي من بعض ذريتي وهو إسماعيل مع أمه هاجر ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ هو مكة إذ ليس فيها ولا حولها زراعة يومئذ وإلى آماد بعيدة وأزمنة عديدة ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ قال هذا بإعلام من الله تعالى له أنه سيكون له بيت في هذا الوادي ومعنى المحرم أي الحرام وقد حرمه تعالى فمكة حرام إلى يوم القيامة لا يُصاد صيدها ولا يُختلى خلاها ولا تُسفك فيها دماء ولا يحل فيها قتال، وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ[٢] فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ هذا دعاء بأن ييسر الله تعالى عيش سكان مكة ليعبدوا الله تعالى فيها بإقام الصلاة، فإن قلوب بعض الناس عندما تهفوا إلى مكة وتميل إلى الحج والعمرة تكون سببًا في نقل الأرزاق والخيرات إلى مكة، وقوله: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ دعاء آخر بأن يرزق الله بنيه من الثمرات ليشكروا الله تعالى على ذلك فوجود الأرزاق والثمرات موجبة للشكر، إذ النعم تقتضي شكرًا.

(٣٨) وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد به أن ما سأل ربه فيه من كل ما سأل إنما هو من باب إظهار العبودية لله والتخشع لعظمته والتذلل لعزته والافتقار إلى ما عنده، وإلا فالله أعلم بحاله وما يصلحه هو وبنيه، وما هم في حاجة إليه لأنه تعالى يعلم كل شيء ولا يخفى[٣] عنه شيء في الأرض ولا في السماء..

(٣٩) وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ[٤] إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أراد به حمد الله وشكره على ما أنعم به عليه حيث رزقه إسماعيل وإسحق على كبر سنه، والإعلام بأن الله تعالى سميع دعاء من يدعوه وينيب إليه.

(٤٠) وقوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ أيضًا من يقيم الصّلاة، لأن الصلاة هي علة الحياة كلها إذ هي الذكر والشكر فمتى أقام العبد الصلاة فأداها بشروطها وأركانها كان من الذاكرين الشاكرين، ومتى تركها العبد كان من الناسين الغافلين وكان من الكافرين.

(٤١) وأخيرًا ألحَّ على ربه في قبول دعائه وسأل المغفرة له ولوالديه[٥] وللمؤمنين يوم يقوم[٦] الناس للحساب وذلك يوم القيامة.

هداية الآيات:

١ ـ فضل مكة وشرفها وأنها حرم آمن أي ذو أمن.

٢ ـ الخوف من الشرك لخطره وسؤال الله تعالى الحفظ من ذلك.

٣ ـ علاقة الإيمان والتوحيد أولى من علاقة الرحم والنسب.

٤ ـ أهمية إقام الصلاة وأن من لم يرد أن يصلي لا حق له في الغذاء ولذا يُعدم إن أصر على ترك الصلاة.

٥ ـ بيان استجابة دعاء إبراهيم عليه السلام فيما سأل ربه تعالى فيه.

٦ ـ وجوب حمد الله وشكره على ما ينعم به على عبده.

---

(١) ذكر البخاري قصّة إسكان إبراهيم عليه السلام هاجر مكة، بالتفصيل فليرجع إليها و(من) في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ للتبعيض إذ لم يسكن مكة إلاّ إسماعيل وباقي أولاده كانوا بالشام.

(٢) خصّ الصلاة بالذكر لأنها العبادة التي تشتمل على الذكر والشكر، وهي علّة الحياة وسرّ هذا الوجود والكلام في قوله: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لام كي: التعليلية والفعل متعلق بأسكنت أي: أسكنتهم بمكة ليقيموا الصلاة فيها.

(٣) قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ أي: من الوجد بإسماعيل وأمّه حيث أُسكنا بواد غير ذي زرع، والوجد: الحزن.

(٤) قيل: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) استغفر عليه السلام لوالديه قبل أن يتبيّن له عداوة أبيه آزر لله تعالى فلمّا تبيّن له أنه عدو الله تبرأ منه، كما تقدم في سورة التوبة، كما جاء فيها: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ فلذا لا يجوز الاستغفار لمن مات مشركًا، كما لا يجوز الصلاة عليه إذا مات إجماعًا.

(٦) نسبة القيام إلى الحساب كقولهم: قامت الحرب على ساق: يعنون اشتداد الأمر، وصعوبة الحال.

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

٢٦١

٧ - مشروعية الاستغفار للنفس وللمؤمنين والمؤمنات.

٨ - تقرير عقيدة البعث والحساب والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٢ - ٤٦]

﴿٤٢﴾ ﴿عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾: أي المشركون من أهل مكة وغيرهم. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾: أي تنفتح فلا تغمض لشدة ما ترى من الأهوال.

﴿٤٣﴾ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أي مسرعين إلى الداعي الذي دعاهم إلى الحشر، رافعي رؤوسهم. ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾: أي فارغة من العقل لشدة الخوف والفزع.

﴿٤٤﴾ ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾: أي على لسان رسولك فنعبدك ونوحدك ونتبع الرسل. ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾: أي عن الدنيا إلى الآخرة.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾: أي مكرت قريش بالنبي ﷺ حيث أرادوا قتله أو حبسه أو نفيه. ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: أي لم يكن مكرهم بالذي تزول منه الجبال فإنه تافه لا قيمة له فلا تعبأ به ولا تلتفت إليه.

معنى الآيات:

﴿٤٢﴾ في هذا السياق الكريم تقوية رسول الله ﷺ وحمله على الصبر ليواصل دعوته إلى ربه إلى أن ينصرها الله تعالى وتبلغ المدى المحدد لها والأيام كانت صعبة على رسول الله وأصحابه لتكالب المشركين على أذاهم، وازدياد ظلمهم لهم فقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ من قومك إنه إن لم ينزل بهم نقمته ولم يحل بهم عذابه إنما يريد أن يؤخرهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ[1] فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي تنفتح فلا تغمض ولا تطرف لشدة الأهوال وصعوبة الأحوال.

﴿٤٣﴾ ﴿مُهْطِعِينَ﴾[2] أي مسرعين ﴿مُقْنِعِي[3] رُءُوسِهِمْ﴾ أي حال كونهم مهطعين مقنعي رؤوسهم أي رافعين رؤوسهم مسرعين للداعي الذي دعاهم إلى المحشر، قال تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ[4]﴾ أي لا تغمض أعينهم من الخوف ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ﴾ أي قلوبهم ﴿هَوَاءٌ﴾

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: تشخص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يرمضون، وفعل الشخوص: شخص يشخص البصر: إذا سما وطمح من الخوف.

(٢) ﴿مُهْطِعِينَ﴾: اسم فاعل من أهطع يهطع إهطاعًا فهو مهطع إذا أسرع ومنه قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مسرعين، قال الشاعر:

بدجلة دارهم ولقد أراهم ... بدجلة مهطعين إلى السماع

والمهطع أيضًا من ينظر في ذل وخشوع.

(٣) ﴿مُقْنِعِي﴾ الإقناع: رفع الرأس ومنه الإقناع في الصلاة وهو مكروه وقد يطلق الإقناع أيضًا على تنكيس الرأس، يقال: أقنع رأسه: إذا طأطأه أو رفعه، واللفظ يحتمل الوجهين.

(٤) الطرف: العين، قال الشاعر:

وأغمض طرفي ما بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها

يقال: طرف يطرف طرفًا إذا أطبق جفنه على الآخر، ولم يطرف: إذا فتح عينه ولم يغمضها.

أي[1] فارغة من الوعي والإدراك لما أصابها من الفزع والخوف ثم أمر تعالى رسوله في الآية (٤٤) بإنذار الناس مخوفًا لهم من عاقبة أمرهم إذا استمروا على الشرك بالله والكفر برسوله وشرعه.

(٤٤) ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي أشركوا بربهم، وآذوا عباده المؤمنين ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي يطلبون الإنظار والإمهال ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي نوحدك ونطيعك ونطيع رسولك، فيقال لهم: توبيخًا وتقريعًا وتكذيبًا لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم﴾ أي حلفتم ﴿مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي أطلبتم الآن التأخير ولم تطلبوه عندما قلتم ما لنا من زوال ولا ارتحال من الدنيا إلى الآخرة.

(٤٥) ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالشرك والمعاصي ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ أي عرفتم ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي بإهلاكنا لهم وضربنا لكم الأمثال في كتبنا وعلى ألسنة رسلنا فيوبخون هذا التوبيخ ولا يجابون لطلبهم ويقذفون في الجحيم.

(٤٦) وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أي وقد مكر كفار قريش برسول الله ﷺ حيث قرروا حبسه مغللاً في السجن حتى الموت أو قتله، أو نفيه وعزموا على القتل ولم يستطيعوه ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي علمه وما أرادوا به، وجزاؤهم عليه، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ[2] مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ أي ولم يكن مكرهم لتزول منه الجبال فإنه تافه لا وزن له ولا اعتبار فلا تحفل به أيها الرسول ولا تلتفت، فإنه لا يحدث منه شيء، وفعلاً قد خابوا فيه أشد الخيبة.

هداية الآيات:

١ - تأخير العذاب عن الظلمة في كل زمان ومكان لم يكن غفلة عنهم، وإنما هو تأخيرهم إلى يوم القيامة أو إلى أن يحين الوقت المحدد لأخذهم.

٢ - بيان أهوال يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه حتى يتمنى الظالمون الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا ويوحدوا ربهم في عبادته.

٣ - التنديد بالظلم وبيان عقاب الظالمين بذكر أحوالهم.

٤ - تقرير جريمة قريش في ائتمارها على قتل رسول الله ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧ - ٥٢]

(٤٧) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: أي غالب لا يحال بينه وبين مراده بحال من الأحوال. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: أي صاحب انتقام ممن عصاه وعصى رسوله. ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾: أي اذكر يا رسولنا للظالمين يوم تبدل الأرض. ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾: أي خرجوا من القبور لله ليحاسبهم ويجزيهم.

(٤٩) ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: أي مشدودة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم. ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾: الأصفاد جمع صفد وهو الوثاق من حبل وغيره.

(٥٠) ﴿سَرَابِيلُهُم﴾: أي قمصهم التي يلبسونها من قطران.

(٥٢) ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾: أي هذا القرآن بلاغ للناس. ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أصحاب العقول.

معنى الآيات:

(٤٧) ما زال السياق في تسلية الرسول ﷺ والمؤمنين وهم يعانون من صلف المشركين وظلمهم وطغيانهم فيقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ[3] وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ إنه كما لم يخلف رسله الأولين لا يخلفك أنت، إنه لا بد منجز لك ما وعدك من النصر على أعدائك فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) هي كالهواء في الخلو من الإدراك لشدة الهول، والهواء: الخلاء.

(٢) قرىء: ﴿لتزول﴾ بفتح اللام الأولى وضم الآخرة لتزول، وإن مخففة من الثقيلة، واللام لام الابتداء، ومعنى الآية: استعظام مكرهم حتى لتكاد الجبال تزول منه، وما في التفسير من قراءة وتوجيه هو الذي رجّحه ابن جرير الطبري. هنا ذكر القرطبي بإسهاب قصّة النمرود الجبار الذي حاج إبراهيم عليه السلام، ولا طائل تحتها.

(٣) ﴿مُخْلِفَ﴾ مفعول ثان لحسب، ووعده: مجرور بالإضافة، و﴿رُسُلَهُۥٓ﴾: معمول لمخلف مؤخر، والأصل: مخلف رسله وعده، وقدّم الوعد للاهتمام به.

﴿عَزِيزٌ﴾[1] أي غالب لا يغلب غالب على أمره ما يريده لا بد واقع ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ شديد ممن عصاه وتمرد على طاعته وحارب أولياءه، واذكر.

(٤٨) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[2] كذلك ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ أي ظهروا بعد خروجهم من قبورهم في طريقهم إلى المحشر إجابة منهم لدعوة الداعي وقد برزوا ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

(٤٩) ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ يا رسولنا تراهم ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ[3]﴾ مشدودة أيديهم وأرجلهم إلى أعناقهم، هؤلاء هم المجرمون اليوم بالشرك والظلم والشر والفساد أجرموا على أنفسهم أولاً ثم على غيرهم ثانيًا سواء ممن ظلموهم وآذوهم أو ممن دعوهم إلى الشرك وحملوهم عليه، الجميع قد أجرموا في حقهم.

(٥٠) ﴿سَرَابِيلُهُم﴾[4] قمصانهم التي على أجسامهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو ما تدهن به الإبل: مادة سوداء محرقة للجسم أو من نحاس إذ قُرىء من قِطرآن أي من نحاس أُحمي عليه حتى بلغ المنتهى في الحرارة ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي وتغطي وجوههم النار بلهبها، هؤلاء هم المجرمون في الدنيا بالشرك والمعاصي، وهذا هو جزاؤهم يوم القيامة، فعل تعالى هذا بهم.

(٥١) ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فما بين أن وجدوا في الدنيا وبين أن انتهوا إلى نار جهنم واستقروا في أتون جحيمها إلا كمن دخل مع باب وخرج مع آخر.

(٥٢) وأخيرًا يقول تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ[5] لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي هذا القرآن بلاغ للناس من رب الناس قد بلغه إليهم رسول رب الناس ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بما فيه من العظات والعبر والعرض لألوان العذاب وصنوف الشقاء لأهل الإجرام والشر والفساد، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟﴾ أي بما فيه من الحجج والدلائل والبراهين ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي معبود واحد لا ثاني له وهو الله جل جلاله، فلا يعبدوا معه غيره إذ هو وحده الرب والإله الحق، وما عداه فباطل، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول المدركة الواعية فيعملوا على إنجاء أنفسهم من غضب الله وعذابه، وليفوزوا برحمته ورضوانه.

هداية الآيات:

١ - بيان صدق وعد الله من وعدهم من رسله وأوليائه.

٢ - بيان أحوال المجرمين في العرض وفي جهنم.

٣ - بيان العلة في المعاد الآخر وهو الجزاء على الكسب في الدنيا.

٤ - قوله تعالى في آخر آية من هذه السورة: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هذه الآية صالحة لأن تكون عنوانًا[6] للقرآن الكريم إذ دلت على مضمونه كاملاً مع وجازة اللفظ وجمال العبارة، والحمد لله أولاً وآخرًا.

---

(١) جملة تعليلية للنهي عن حسبان خلف وعده تعالى.

(٢) الآية نصّ صريح في كون الأرض والسماوات تتبدل في ذاتها وسائر صفاتها وتزول تمامًا ويخلق الله تعالى أرضًا غير ذي وسماء غير هذه، وفي الحديثين الآتيين ما يقرّر ذلك:

أ ـ حديث مسلم، وفيه: (إنّ يهوديًا سأل رسول الله ﷺ قائلاً: أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: «**في الظلمة دون الجسر**»).

ب ـ حديث ابن ماجه بإسناد مسلم قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ؟ قال: «**على الصراط**»).

(٣) الأصفاد: جمع صفد بفتح كل من الصاد والفاء، وهو الغلّ والقيد يشد به ويربط الجاني، قال الشاعر:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا ... وأُبنا بالملوك مصفّدين

(٤) واحد السرابيل: سربال، وهو القميص، يقال: تسربل، إذا لبس السربال وكونها من قطران لشدّة حرارتها، واشتعال النار فيها.

(٥) ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: تبليغ للناس يقوم به الرسول ﷺ.

(٦) قال هذا: العلامة الشيخ، البشير الإبراهيمي الجزائري، وظننا أنه إلهام من الله تعالى له، وإذا بنا نعثر في كلام الأولين على من قاله، وسبق به وجائز أن يكون الشيخ ألهمه والآخر كذلك، وتوارد الخواطر معروف ولا مانع من النقل والسكوت على من نقل=

الجزء الرابع عشر　　سورة الحجر

ترتيبها ١٥　سورة الحجر　آياتها ٩٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

٢٦٢

الجزء الرابع عشر

سورة الحجر
مكية
وآياتها تسع وتسعون

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿الٓر﴾: الله أعلم بمراده بذلك، تُكتب الر. وتقرأ: ألِفْ، لَامْ، را.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الآيات المؤلفة من مثل هذه الحروف المقطعة تلك آيات الكتاب أي القرآن.

(٢) ﴿يَوَدُّ﴾: يحب ويرغب متمنيًا أن لو كان من المسلمين.

(٣) ﴿وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾: أي بالملذات والشهوات.

﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾: أي بطول العمر وبلوغ الأوطار وإدراك الرغائب الدنيوية.

(٤) ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾: أي أجل محدود لإهلاكها.

(٥) ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾: أي لا يتقدم أجلها المحدد لها ومن زائدة للتأكيد.

معنى الآيات:

(١) بما أن السورة مكية فإنها تعالج قضايا العقيدة وأعظمها التوحيد والنبوة والبعث. قوله تعالى: ﴿الٓر﴾: الله أعلم بمراده به، ومن فوائد هذه الحروف المقطعة تنبيه السامع وشده بما يسمع من التلاوة، إذ كانوا يمنعون سماعه خشية التأثر به، فكانت هذه الفواتح التي لم يألفوا مثلها في كلامهم تشدهم إلى سماع ما بعدها من القرآن. وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ[1]﴾ من الجائز القول: الآيات المؤلفة من مثل هذه الحروف الر، الم، طس، حم عسق. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ المبين: المبين للحق والباطل والهدى والضلال.

(٢) وقوله تعالى: ﴿رُّبَمَا[2] يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝﴾: يخبر تعالى أن يومًا سيأتي هو يوم القيامة عندما يرى الكافر المسلمين يدخلون الجنة ويدخل هو النار يود يومئذٍ متمنيًا أن لو كان من المسلمين. وقد يُحدث الله تعالى ظروفًا في الدنيا وأمورًا يتمنى الكافر فيها لو كان من[3] المسلمين.

(٣) وقوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾ أي اتركهم يا رسولنا، أي اترك الكافرين يأكلوا ما شاؤوا من الأطعمة، ويتمتعوا بما حصل لهم من الشهوات والملذات، ويلهيهم الأمل عن التفكير في عاقبة أمرهم. إذ همهم طولُ أعمارهم،

= عنه، إذ العلم مشاع كالماء والهواء لا غنى لأحد عنهما، ولذا فلا بأس أن ينقل العلم ولا ينسب إلى قائله لكن لا ينسب إلى غير قائله، فتلك سرقة ممنوعة.

(١) لفظ الكتاب الذي هو القرآن أصبح علمًا بالغلبة على القرآن العظيم الذي أنزل على محمد ﷺ وسمي بالكتاب لأنه مأمور بكتابته وحفظه فسمي بالكتاب قبل أن يكتب للأمر لذلك، والقرآن: اسم ثان للكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ والكتاب مشتق من الكتب الذي هو الجمع، والقرآن من القرء الذي هو الجمع أيضًا فهو تجمع حروفه وكلماته.

(٢) ربَّ: حرف جرّ يدخل على الأسماء، وإن أريد إدخالها على الأفعال لحقت بها (ما) كما في الآية. وقرأ نافع: ﴿رُبَمَا﴾ بالتشديد، وخففها غيره في هذه الآية ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟..﴾ إلخ.. وأصل استعمالها في التقليل، وقد تستعمل في التكثير.

(٣) وقد ورد أنه لما يرى الكافرون وهم في النار أهل التوحيد يخرجون منها يودون لو كانوا موحدين، والكل وارد ولا مانع منه.

وتحقيق أوطارهم، فسوف يعلمون إذا رُدّوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون أنهم كانوا في الدنيا مخطئين بإعراضهم عن الحق ودعوة الحق والدين الحق.

④ وقوله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن[1] قَرْيَةٍ﴾ أي من أهل قرية بعذاب الإبادة والاستئصال ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ﴾ أي لها أجلٌ مكتوبٌ في كتاب محدد اليوم والسعة.

⑤ وقوله: ﴿.. مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ۝﴾ أي بناء على كتاب المقادير فإن أمة كتب الله هلاكها لا يمكن أن يتقدم هلاكها قبل ميقاته المحدد، ولا أن يستأخر عنه ولو ساعة. وفي هذا تهديدٌ وتخويف لأهل مكة وهم يحاربون دعوة الحق ورسول الحق لعل قريتهم قد كتب لها كتابٌ وحدد لها أجلٌ وهم لا يشعرون.

هداية الآيات:

١ ـ القرآن الكريم مبينٌ لكل ما يُحتاج إليه في إسعاد الإنسان وإكماله.

٢ ـ إنذار الكافرين وتحذيرهم من مواصلة كفرهم وحربهم للإسلام فإن يومًا سيأتي يتمنون فيه أن لو كانوا مسلمين.

٣ ـ تقرير عقيدة القضاء والقدر فما من شيء إلا وسبق به علم الله وكتبه عنده في كتاب المقادير الحياة كالموت، والربح كالخسارة، والسعادة كالشقاء، جميع ما كان وما هو كائنٌ وما سيكون سبق به علم الله وكتب في اللوح المحفوظ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ ـ ١١]

⑥ ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾: أي القرآن الكريم.

⑦ ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: أي هلا تأتينا بالملائكة تشهد لك أنك نبي الله.

⑧ ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾: أي ممهلين، بل يأخذهم العذاب فور نزول الملائكة.

⑨ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾: أي القرآن.

⑩ ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي في فرق وطوائف الأولين.

معنى الآيات:

⑥ قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي قال الكافرون المنكرون للوحي والنبوة ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي غير عاقل وإلا لما ادعيت النبوة. وفي قولهم هذا استهزاء ظاهر بالرسول ﷺ وهو ثمرة ظلمة الكفر التي في قلوبهم.

⑦ وقوله: ﴿لَّوْ مَا[2] تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ لو ما هنا بمعنى هلا التحضيضية أي هلا تأتينا بالملائكة نراهم عيانًا يشهدون لك بأنك رسول الله ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك النبوة والرسالة فأت بالملائكة تشهد لك.

⑧ قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ[3] ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي نزولاً ملتبسًا بالحق. أي لا تنزل الملائكة إلا لإحقاق الحق وإبطال الباطل لا لمجرد تشهي الناس ورغبتهم ولو نزلت الملائكة ولم يؤمنوا لنزل بهم العذاب فورًا ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا[4] مُّنظَرِينَ﴾ أي ممهلين بل يهلكون في الحال.

⑨ وقوله تعالى في الآية (٩): ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي من الضياع ومن الزيادة والنقصان لأنه حجتنا على[5] خلقنا إلى يوم القيامة. أنزلنا

---

(١) ﴿مِن﴾: صلة لتقوية النفي وتأكيد الخبر.

(٢) ﴿لَّوْ مَا﴾ كلولا، وهلاّ: حرف تحضيض على الفعل نحو: لو ما أكرمت عمرًا ولولا أكرمت زيدًا وهلاّ كذلك، وتأتي مع الخبر فلا يراد بها التحضيض نحو: لو ما خوف الله لقلت فيك كذا وكذا، قال الشاعر:

لو ما الحياء ولو ما الدين عبتكما ... ببعض ما فيكما إذ عبتما عَوَري

(٣) قرأ حفص: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿ما تُنزَّل﴾ وقرأ ورش عن نافع: ﴿ما تَنزَّل﴾ بحذف إحدى التائين تخفيفًا، إذ الأصل: تتنزّل.

(٤) أصل إذًا: إذ أن، ومعناها حينئذ أي: تنزّلت الملائكة بإهلاكهم لما كانوا حينئذ منظرين أي: ممهلين ساعة من الزمن.

(٥) قالت العلماء: لما وكل الله تعالى حفظ التوراة والإنجيل إلى أهل الكتاب في قوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أضاعوه فزادوا فيه ونقصوا منه، ولمّا تولى الله تعالى حفظ القرآن، حفظه فلم يُزَدْ فيه حرف ولم يُنقص منه حرف.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

الذكر هدى ورحمة وشفاء ونورًا. هم يريدون العذاب والله يريد الرحمة. مع أن القرآن نزلت به الملائكة، والملائكة إن نزلت ستعود إلى السماء ولم يبق ما يدل على الرسالة إلا القرآن ولكن القوم لا يريدون أن يؤمنوا وليسوا في ذلك الكفر والعناد وحدهم بل سبقتهم طوائف وأمم أرسل فيهم فكذبوا وجاحدوا وهو قوله تعالى:

(١٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا[1] مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ[2] الْأَوَّلِينَ﴾ أي في فرقهم وأممهم. (١١) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ[3] يَسْتَهْزِءُونَ﴾ لأن علة المرض واحدة إذًا فلا تيأس يا رسول الله ولا تحزن بل اصبر وانتظر وعد الله لك بالنصر فإن وعده حق: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

هداية الآيات:

١ - بيان ما كان يلقاه رسول الله ﷺ من استهزاء وسخرية من المشركين.

٢ - مظهر من مظاهر رحمة الله بالإنسان، يطلب نزول العذاب والله ينزل الرحمة.

٣ - بيان حفظ الله تعالى للقرآن الكريم من الزيادة والنقصان ومن الضياع.

٤ - بيان سنة الله تعالى في الأمم والشعوب وهي أنهم ما يأتيهم من رسول ينكر عليهم مألوفهم ويدعوهم إلى جديد من الخير والهدى إلا وينكرون ويستهزئون.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ ـ ١٨]

(١٢) ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾: أي التكذيب بالقرآن أو النبي ﷺ.

(١٣) ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي مضت سنة الأمم السابقة.

(١٤) ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾: أي يصعدون.

(١٥) ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾: أي سدت كما يُسَكَّرُ النهر أو الباب.

(١٦) ﴿فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾: أي كواكب ينزلها الشمس والقمر.

(١٧) ﴿شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾: أي مرجومٌ بالشهب.

(١٨) ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾: كوكب يُرجم به الشيطان يحرقه أو يمزقه أو يُخبِلُهُ أي يفسده.

معنى الآيات:

(١٢) ما زال السياق في المكذبين للنبي ﷺ المطالبين بنزول الملائكة لتشهد للرسول ﷺ بنبوته حتى يؤمنوا بها. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ[4]﴾ أي التكذيب في قلوب المجرمين من قومك، كما سلكناه

(١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلخ. هذه الجملة إبطال لاستهزاء المشركين بالرسول ﷺ على طريقة التمثيل بأشياعهم من الأمم السابقة.

(٢) الشِيَع: جمع شيعة، وهي الفرقة المتآلفة المتفقة الكلمة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي: فرقًا كل فرقة تتآلف مع أفرادها، وتحارب عن مبادئها وأفكارها وما هي عليه من دين وعادة.

(٣) تقديم الجار والمجرور (به) على فعل يستهزئون: لإفادة القصر للمبالغة أي: كأنهم لفساد قلوبهم لا شغل لهم إلا الاستهزاء برسول الله ﷺ.

(٤) عود الضمير في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ على القرآن أولى إذ السياق تابع لقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴿٩﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴿١٠﴾﴾ أي: أرسل فيهم رسلًا وكانوا يتلون عليهم آياتنا ولم ينتفعوا لإعراضهم عنها فلا تعيها قلوبهم ولا تدركها فُهومُهم، ولا يتأثرون بها لوجود حوائل حالت دون ذلك، وهي الكبر والحسد والعناد وكذلك=

حسب سنتنا في قلوب من كذبوا الرسل من قبلك فسلكه ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من قومك فلا يؤمنون بك ولا بالذكر الذي أنزل عليك.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] أي مضت وهي تعذيب المكذبين للرسل المستهزئين بهم لأنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم[2] بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟﴾ أي الملائكة أو المكذبون ﴿فِيهِ﴾ أي في ذلك الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾ أي يصعدون طوال النهار طالعين هابطين ولقالوا في المساء.

(١٥) ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ أي منعت من النظر الحقيقي فلم نر الملائكة ولم نر السماء ﴿بَلْ نَحْنُ[3] قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ فأصبحنا نرى أشياء لا حقيقة لها.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ[4] جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي كواكب[5] هي منازل للشمس والقمر ينزلان بها وعلى مقتضاها يعرف عدد السنين والحساب. وقوله: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ أي السماء بالنجوم ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ فيها من الناس.

(١٧) وقوله: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا﴾ أي السماء الدنيا ﴿مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي مرجوم ملعون.

(١٨) وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ إلا مارد من الشياطين طلع إلى السماء لاستراق السمع من الملائكة لينزل بالخبر إلى وليه من الكهان من الناس ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ من نار ﴿مُّبِينٌ﴾ أي يبين أثره في الشيطان إما بإخباله وإفساده وإما بإحراقه.

(١٦) هذه الآيات وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ إلى آخر ما جاء في هذا السياق الطويل، القصد منه إظهار قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته وكلها مقتضية لإرسال الرسول وإنزال الكتاب لهداية الناس إلى عبادة ربهم وحده عبادة يكملون عليها ويسعدون في الدنيا والآخرة، ولكن المكذبين لا يعلمون.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله تعالى في المكذبين المعاندين وهي أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

٢ - مطالبة المكذبين المجرمين بالآيات كرؤية الملائكة لا معنى لها إذ القرآن أكبر آية ولم يؤمنوا به فلذا لو فتح باب من السماء فظلوا فيه يعرجون لما آمنوا.

٣ - بيان مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته فيما حَمَلَت الآيات من مظاهر لذلك، بدءًا من قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا[6]﴾ إلى الآية السابعة والعشرين من هذا السياق الكريم.

= المسلك الذي سلكناه في قلوب الأولين نسلكه اليوم في قلوب المجرمين فيدخل القرآن عند سماعه إلى قلوبهم ولا يلامسها ولا يباشرها فلا تتأثر به وذلك لحوائل منها الحسد والعناد والكبر، وتلك سنّة الله تعالى في أمثالهم، وأصل السلك: إدخال الشيء في آخر.

(١) في الآية تعريض للمجرمين بالهلاك.

(٢) هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾.

(٣) أي: أضربوا عن القول الأوّل. وهو قولهم: إنّما سكّرت أبصارنا إلى قولهم بل نحن قوم مسحورون. أي: ما رأينا شيئًا، ثم أقرّوا بأنهم رأوا ولكن ما رأوه إنما هو تخيلات المسحور لا غير.

(٤) هذا شروع في ذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته الموجبة للتوحيد والمقررة للبعث والجزاء.

(٥) هذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: كواكب.

(٦) البروج: جمع برج وهو في الأصل البناء الكبير المحكم البناء الذي يظهر من بعيد قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي: قصور ظاهرة، ومنه: المرأة تتبرّج بزينتها: أي تظهرها، والمراد من البروج في الآية: كواكب ثابتة غير سيارة هي منازل الشمس والقمر، وسمى هذه البروج العرب بأسماء تخيلوا أشكالها في السماء وهي: برج الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، ابتداء من فصل الربيع وانتهاء بفصل الشتاء.

قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ ـ ٢٥]

﴿١٩﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾: أي بسطناها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾: أي جبالاً ثوابت لئلا تتحرك الأرض. ﴿مَّوْزُونٍ﴾: أي مقدر معلوم المقدار لله تعالى.

﴿٢٠﴾ ﴿مَعَٰيِشَ﴾: جمع معيشة أي ما يعيش عليه الإنسان من الأغذية. ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾: كالعبيد والإماء والبهائم.

﴿٢١﴾ ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾: أي المطر.

﴿٢٢﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾: أي تلقح السحاب فيمتلىء ماء، كما تنقل مادة اللقاح من ذكر الشجر إلى أنثاه. ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾: أي لا تملكون خزائنه فتمنعونه أو تعطونه من تشاؤون.

﴿٢٤﴾ ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: أي من هلكوا من بني آدم إلى يومكم هذا والمستأخرين ممن هم أحياء وممن لم يوجدوا بعد إلى يوم القيامة.

معنى الآيات:

﴿١٩﴾ ما زال السياق في ذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته وهي موجبات الإيمان به وعبادته وتوحيده والتقرب إليه بفعل محابه وترك مساخطه[1]. قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ[2] مَدَدْنَٰهَا﴾ أي بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالاً ثوابت تثبت الأرض حتى لا تتحرك أو تميد بأهلها فيهلكوا، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ[3]﴾ أي مقدر معلوم المقدار لله تعالى.

﴿٢٠﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ[4]﴾ عليها تعيشون وهي أنواع الحبوب والثمار وغيرها، وقوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ[5]﴾ بل الله تعالى هو الذي يرزقه وإياكم من العبيد والإماء والبهائم.

﴿٢١﴾ وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ[6] إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۞﴾ أي ما من شيء نافع للبشرية هي في حاجة إليه لقوام حياتها عليه إلا عند الله خزائنه، ومن ذلك الأمطار، لكن ينزله بقدرٍ معلوم حسب حاجة المخلوقات وما تتوقف عليه مصالحها، وهو كقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۞﴾.

﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ[7]﴾ أي تلقح السحاب فتمتلىء

---

(١) وموجبة أيضًا للبعث الآخر والوحي الإلهي.

(٢) هنا انتقال من عرض آيات الله في السماء إلى آياته في الأرض.

(٣) قال: ﴿مَّوْزُونٍ﴾: لأنّ الوزن يعرف به مقدار الشيء، والموزون من الكلام وغيره الخالي من النقص والزيادة، والمراد أنّ ما أنبته الله تعالى في الأرض من سائر النباتات والمعادن من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير حتى الزرنيخ والكحل كل ذلك يكال ويوزن.

(٤) واحد المعايش: معيشة، وهي المطاعم والمشارب والملابس والمراكب أيضًا، إذ كل هذا يدخل تحت العيش حتى قيل: المعايش: إنها التصرف في أسباب الرزق مدّة الحياة.

(٥) الرزق: بفتح الراء مصدر رزقه يرزقه رزقًا، والرّزق بكسر الراء فهو الاسم وهو القوت.

(٦) أي: نافع للناس لا مطلق الأشياء التي لا نفع للناس فيها.

(٧) في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ استدلال بظاهرة كرة الهواء بين السماء والأرض بعد الاستدلال بالسماء والأرض، ولواقح: حال=

ماء، ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ بقدرتنا وتدبيرنا ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي لا تملكون خزائنه فتمنعونه من تشاؤون وتعطونه من تشاؤون بل الله تعالى هو المالك لذلك، فينزله على أرض قومٍ ويمنعه آخرين.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٤﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ[1] مِنكُمْ﴾ أي الذين ماتوا من لدن آدم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ ممن هم أحياء ومن لم يوجدوا وسيوجدون ويموتون إلى يوم القيامة، الجميع عَلِمَهُم الله، وغيره لا يعلم فلذا استحق العبادة وغيره لا يستحقها.

﴿٢٥﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي إليه يوم القيامة ليحاسبهم ويجازيهم، وهذا متوقفٌ على القدرة والحكمة والعلم، والذي أحياهم ثم أماتهم قادرٌ على إحيائهم مرةً أخرى والذي عَلِمَهُمْ قبل خلقهم وعلمهم بعد خلقهم قادرٌ على حشرهم والحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه لا يخلقهم عبثًا بل خلقهم ليبلوهم ثم ليحاسبهم ويجزيهم إنه هو الحكيم العليم.

هداية الآيات:

١ - بيان مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته المتجلية فيما يلي:

أ - خلق الأرض ومدّها وإلقاء الجبال فيها. إرسال الرياح لواقح للسحب.

ب - إنبات النباتات بموازين دقيقة. إحياء المخلوقات ثم إماتتها.

ج - إنزال المطر بمقادير معينة. علمه تعالى بمن مات ومن سيموت.

٢ - تقرير التوحيد أن من هذه آثار قدرته هو الواجب أن يعبد وحده دون سواه.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٤ - تقرير نبوة الرسول ﷺ إذ هذا الكلام كلام الله أوحاه إليه ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ - ٣٣]

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: أي آدم عليه السلام. ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾: أي طين يابس له صلصلة من حمإ أي طين أسود متغير.

﴿٢٧﴾ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾: نار لا دخان لها تنفذ في المسام وهي ثقب الجلد البشري.

﴿٢٩﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أي أتممت خلقه. ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: أي خرّوا له ساجدين.

معنى الآيات:

﴿٢٦﴾ ما زال السياق في ذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي آدم ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي طين يابس يسمع له صوت صلصلة.

﴿٢٧﴾ ﴿مِّنْ حَمَإٍ[2] مَّسْنُونٍ﴾ أي طين أسود متغير الريح، هذا مظهر من مظاهر القدرة والعلم. وقوله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل خلق آدم والجان[3] هو أبو الجن خلقناه ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ ونار السموم نار لا دخان لها تنفذ في مسام الجسم..

﴿٢٨﴾ - ﴿٣٠﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي اذكر يا رسولنا إذ قال ربك للملائكة اسجدوا لآدم أي سجود تحيةٍ وتعظيم لا سجود عبادةٍ لآدم، إذ المعبود هو الآمر المطاع وهو الله تعالى. فسجدوا.

﴿٣١﴾ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ[4] أَبَىٰٓ﴾ أي امتنع أن يكون مع الساجدين.

﴿٣٢﴾ وقوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝﴾ أي أي شيء حصل لك حتى امتنعت أن تكون من

= من الرياح ولواقح صالح لأن يكون جمع لاقح، وهي الناقة الحبلى، أو ملقح وهو الذي يجعل غيره لاقحًا.

(١) ويدخل في معنى الآية المستقدمين في الطاعة والخير، والمستأخرين في المعصية والشر كما يدخل أيضًا المستقدمين في صفوف الحرب والصلاة، والمستأخرين في ذلك، والآية دليل على فضل السبق في الخير وعلى فضل الصف الأول في القتال والصلاة، وفي الحديث الصحيح: **«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»**.

(٢) ترتيب طينة آدم التي خلق منها كما في الآية هكذا: تراب بلّ بالماء فصار طينًا ثمّ ترك حتى أنتن فصار حمأ مسنونًا أي: متغيّرًا ثمّ يبس فصار صلصالاً، والمسنون: المتغيّر، بسبب مكثه مدّة كسنة مثلاً.

(٣) وفي صحيح مسلم قوله ﷺ: **«خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»**.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجان: أبو الجن وليسوا شياطين، والشياطين ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس، والجنّ يموتون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر فآدم أبو الإنس، والجان أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين.

جملة الساجدين من الملائكة؟ فأظهر اللعين سبب امتناعه وهو حسده لآدم واستكباره.
(٣٣) فقال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. وفي الآيات التالية جواب الله تعالى ورده عليه.

هداية الآيات:

١ - بيان أصل خلق الإنسان وهو الطين، والجان وهو لهب النار.

٢ - فضل السجود، إذ أمر تعالى به الملائكة فسجدوا أجمعون إلا إبليس.

٣ - ذم الحسد وأنه شر الذنوب وأكثرها ضررًا.

٤ - ذم الكبر وأنه عائق لصاحبه عن الكمال في الدنيا والسعادة في الآخرة.

٥ - فضل الطين على النار لأن من الطين خلق آدم ومن النار خلق إبليس.

شرح الكلمات:
[الآية: ٣٤ - ٤٤]

(٣٤) ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾: أي من الجنة. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾: أي مرجومٌ مطرودٌ ملعون.
(٣٨) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾: أي وقت النفخة الأولى التي تموت فيها الخلائق كلها.
(٣٩) ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾: أي بسبب إغوائك لي أي إضلالك وإفسادك لي.
(٤٠) ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾: أي الذين استخلصتهم لطاعتك فإن كيدي لا يعمل فيهم.
(٤١) ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾: أي هذا طريقٌ مستقيم موصل إليَّ وعليَّ مراعاته وحفظه.
(٤٤) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: أي أبواب طبقاتها السبع التي هي جهنم، ثم لظى، ثم الحُطمة، ثم السعير، ثم سَقَر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

معنى الآيات:

(٣٣) - (٣٤) قوله تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ هذا جوابٌ عن قول إبليس. ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾. الآية إذًا فاخرج منها أي من الجنة. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي مرجوم مطرود مُبعد.
(٣٥) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ﴾ لعنتي أي غضبي وإبعادي لك من السماوات ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي إلى يوم القيامة وهو يوم الجزاء.
(٣٦) فقال اللعين ما أخبر تعالى به عنه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ أي أمهلني لا تُمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ[١]﴾.
(٣٧) فأجاب الرب تعالى بقوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أي الممهلين.
(٣٨) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[٢] وهو فناء بني آدم حيث لم يبق منهم أحد وذلك عند النفخة الأولى.
(٣٩) فلما سمع اللعين ما حكم به الرب تعالى عليه قال ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي بسبب إغوائك ﴿لَأُزَيِّنَنَّ[٣] لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي الكفر والشرك وكبائر الذنوب، و﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي لأضلنّهم.
(٣٩) - (٤٠) ﴿أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝﴾ فاستثنى اللعين من استخلصهم الله تعالى لطاعته وأكرمهم بولايته وهم الذين لا يَسْتَبِدُّ بهم غضبٌ ولا تتحكم فيهم شهوة ولا هوى.
(٤١) وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝﴾ أي هذا طريق مستقيم إليَّ أرعاه وأحفظه وهو.
(٤٢) ﴿إِنَّ عِبَادِي[٤] لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ[٥] ۝﴾.
(٤٣) ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ لموعدك وموعد أتباعك الغاوين أجمعين.
(٤٤) ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ إذ هي سبع طبقات لكل طبقة باب فوقها يدخل معه أهل تلك الطبقة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي نصيبٌ معين وطبقاتها هي: جهنم، لظى، الحطمة، السعير، سقر، الجحيم، الهاوية.

---

(١) أراد اللعين بسؤاله إلى يوم يبعثون ألاّ يموت، لأنّ يوم البعث لا موت فيه ولا بعده أيضًا.
(٢) قال ابن عباس: أراد به النفخة الأولى أي: حين تموت الخلائق.
(٣) التزيين: يشمل أمرين. الأول: تزيين المعاصي، والثاني: شغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعات.
(٤) أي: ليس له سلطان على قلوبهم، وقال ابن عيينة، أي: في أن يلقيهم في ذنب.
(٥) الغاوين: الفاسدين بالشرك والمعاصي.

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾

هداية الآيات:

١ ـ حرمان إبليس من التوبة لاستمرار غضب الله عليه إلى يوم القيامة.

٢ ـ استجاب الله لشر خلقه وهو إبليس فمن الجائز أن يستجيب الله دعاء الكافر لحكمة يريدها الله تعالى.

٣ ـ أمضى سلاح يغوي به إبليس بني آدم هو التزين للأشياء حتى ولو كانت دميمة قبيحة يصيرها بوسواسه زينة حسنة حتى يأتيها الآدمي.

٤ ـ عصمة الرسل وحفظ الله للأولياء حتى لا يتلوثوا بأوضار الذنوب.

٥ ـ طريق الله مستقيم إلى الله تعالى يسلكه الناس حتى ينتهوا إلى الله سبحانه فيحاسبهم ويجزيهم بكسبهم الخير بالخير والشر بالشر.

٦ ـ بيان أن لجهنم طبقات واحدة فوق أخرى ولكل طبقة بابها فوقها يدخل معه أهل تلك الطبقة لا غير.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٥ ـ ٥٦]

﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أي الذين خافوا ربهم فعبدوه وحده بما شرع لهم من العبادات.

﴿٤٧﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾: أي حقد وحسد وعداوة وبغضاء. ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: أي ينظر بعضهم إلى بعض ما داموا جالسين وإذا انصرفوا دارت بهم الأسرة فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

﴿٤٨﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: أي تعب.

﴿٥٠﴾ ﴿ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾: أي الموجع الشديد الإيجاع.

﴿٥١﴾ ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾: هم ملائكة نزلوا عليه وهم في طريقهم إلى قوم لوط لإهلاكهم كان من بينهم جبريل وكانوا في صورة الشباب من الناس.

﴿٥٢﴾ ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾: أي خائفون وذلك لمَّا رفضوا أن يأكلوا.

﴿٥٣﴾ ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾: أي بولد ذي علم كثير هو إسحاق عليه السلام.

﴿٥٤﴾ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾: أي تعجَّبَ من بشارتهم مع كبره بولد.

﴿٥٥﴾ ﴿مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾: أي الآيسين.

معنى الآيات:

﴿٤٥﴾ لما ذكر تعالى جزاء اتباع إبليس الغاوين، ناسب ذكر جزاء عباد الرحمن أهل التقوى والإيمان فقال تعالى مخبرًا عما أعد لهم من نعيم مقيم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] أي المتقين الله بترك الشرك والمعاصي ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[2] يقال لهم.

﴿٤٦﴾ ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ[3] ءَامِنِينَ﴾ أي حال كونكم مصحوبين بالسلام آمنين من الخوف والفزع.

﴿٤٧﴾ وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ[4]﴾ أي لم يُبقِ الله تعالى في

(١) روي أن سلمان الفارسي رضي الله عنه لما سمع هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٤٣﴾﴾ فرّ ثلاثة أيام من الخوف فجيء به إلى رسول الله ﷺ فسأله فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ...﴾ إلخ. فوالذي بعثك بالحق لقد قطّعت قلبي فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴿٤٥﴾﴾.

(٢) هي الأنهار الأربعة: ماء، وخمر، ولبن، وعسل، المذكورة في سورة محمد ﷺ.

(٣) بسلامة من كل داء وآفة، وقيل: بتحية من الله تعالى آمنين من الموت والعذاب.

(٤) قال ابن عباس: أول ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان فيشربون من إحدى العينين فيُذهب الله ما في قلوبهم من غل ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم وتجري عليهم نضرة النعيم.

صدور أهل الجنة ما ينغصُ نعيمها، أو يكدر صفوها كحقدٍ أو حسدٍ أو عداوةٍ أو شحناء. وقوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ لما طهر صدورهم مما من شأنه أن ينغص أو يكدر، أصبحوا في المحبة لبعضهم بعضًا إخوانًا يضمهم مجلسٌ واحد يجلسون فيه على سررٍ متقابلين وجهًا لوجه، وإذا أرادوا الانصراف إلى قصورهم تدور بهم الأسرة فلا ينظر أحدهم إلى قفا أخيه.

(٤٨) وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فيه الإخبار بنعيمين: نعيم الراحة الأبدية إذ لا نصب ولا تعب في الجنة ونعيم البقاء والخلد فيها إذ هم لا يخرجون منها أبدًا. وفي هذا تقرير لمُعْتَقَدِ البعث والجزاء بأبلغ عبارةٍ وأوضحها.

(٤٩) وقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ[١] أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي خبر يا رسولنا عبادنا المؤمنين الموحدين أن ربهم غفور لهم إن عصوه وتابوا من معصيتهم. رحيم بهم فلا يعذبهم.

(٥٠) ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ ونبئهم أيضًا أن عذابي هو العذاب الأليم فليحذروا معصيتي بالشرك بي، أو مخالفة أوامري وغشيان محارمي.

(٥١) - (٥٢) وقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ[٢] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي سلموا عليه فرد عليهم السلام وقدم لهم قِرَى الضيف وكان عجلاً حنيذا، كما تقدم في هود وعرض عليهم الأكل فامتنعوا وهنا قال: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾[٣] أي خائفون، وكانوا جبريل وميكائيل وإسرافيل في صورةٍ لشباب حسان. فلما أخبرهم بخوفه منهم، لأن العادة أن النازل على الإنسان إذا لم يأكل طعامه دل ذلك على أنه يريد به سوءًا.

(٥٣) ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أي لا تخف، ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي بولدٍ ذي علم كثير.

(٥٤) فرد إبراهيم قائلاً بما أخبر تعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ[٤] الْكِبَرُ فَبِمَ[٥] تُبَشِّرُونَ﴾ أي هذه البشارة بالولد على كبر سني أمر عجيب.

(٥٥) فلما تعجب من البشارة وظهرت عليه علامات الشك والتردد في صحة الخبر قالوا له: ﴿بَشَّرْنَاكَ[٦] بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ[٧]﴾ أي الآيسين. وهنا رد عليهم قائلاً نافيًا القنوط عنه لأن القنوط حرام.

(٥٦) ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ أي الكافرون بقدرة الله ورحمته لجهلهم بربهم وصفاته المتجلية في رحمته لهم وإنعامه عليهم.

هداية الآيات:

١ - تقرير نعيم الجنة، وأن نعيمها جسماني روحاني معًا دائم أبدًا.

٢ - صفاء نعيم الجنة من كل ما ينغصه أو يكدره.

٣ - وعد الله بالمغفرة لمن تاب من أهل الإيمان والتقوى من موحديه.

٤ - وعيده لأهل معاصيه إذا لم يتوبوا إليه قبل موتهم.

٥ - مشروعية الضيافة وأنها من خلال البر والكرم.

٦ - حرمة القنوط واليأس من رحمة الله تعالى.

---

(١) شاهد هذه الآية قوله ﷺ: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد».**

(٢) هم الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام. والضيف: لفظ يطلق على الواحد والاثنين والجماعة.

(٣) قال هذا بعد أن قرّب إليهم العجل المشوي ليأكلوا فلم يأكلوا.

(٤) أن: مصدرية، والتقدير: على مسّ الكبر إياي وزوجتي.

(٥) الاستفهام للتعجب أو هو على حقيقته.

(٦) أي: بما لا خلف فيه، وأن الولد لا بدّ منه.

(٧) قراءة العامة: ﴿الْقَانِطِينَ﴾، وقرىء ﴿القنطين﴾ بدون ألف، ويكون الفعل حينئذ من قنِط يقنط كفرح يفرح فهو فرح، وعلى قراءة الجمهور فهو من باب فعل يفعل كضرب يضرب فهو ضارب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٧ ـ ٦٦]

(٥٧) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾: أي ما شأنكم؟

(٥٨) ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾: هم قوم لوط عليه السلام.

(٥٩) ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي لإيمانهم وصالح أعمالهم.

(٦٠) ﴿الْغَابِرِينَ﴾: أي الباقين في العذاب.

(٦٢) ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: أي لا أعرفكم.

(٦٣) ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾: أي بالعذاب الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم.

(٦٥) ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾: أي إلى الشام حيث أمروا بالخروج إليه.

(٦٦) ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾: أي فرغنا إلى لوط من ذلك الأمر، وأوحينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين.

معنى الآيات:

(٥٧) ما زال السياق في الحديث عن ضيف إبراهيم، وها هو ذا قد سألهم بما أخبر به تعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ[1] أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي ما شأنكم أيها المرسلون من قبل الله تعالى إذ هم ملائكته؟ (٥٨) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾[2] أي على أنفسهم، وعلى غيرهم وهم اللوطيون لعنهم الله.

(٥٩) وقوله تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أي آل بيته والمؤمنين معه.

(٥٩) ـ (٦٠) ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا﴾ أي قضينا[3] ﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الباقين في العذاب، أي قضى الله وحكم بإهلاكها في جملة من يهلك لأنها كافرة مثلهم.

(٦١) إلى هنا انتهى الحديث مع إبراهيم وانتقلوا إلى مدينة لوط عليه السلام قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي انتهوا إليهم ودخلوا عليهم الدار قال لوط عليه السلام لهم:

(٦٢) ـ (٦٣) ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي لا أعرفكم وأجابوه قائلين: نحن رسل ربك جئناك بما كان قومك فيه يمترون أي يشكون وهو عذابهم العاجل جزاء كفرهم وإجرامهم.

(٦٤) ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الثابت الذي لا شك فيه ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به وهو عذاب قومه المجرمين. وعليه.

(٦٥) ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي أسر بهم في جزء من الليل، ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾[4] أي امش وراءهم وهم أمامك ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ بأن ينظر وراءه، أي حتى[5] لا يرى ما يسوءه عند نزول العذاب بالمجرمين، وقوله: ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي يأمركم ربكم وقد أمروا بالذهاب إلى الشام.

(٦٦) وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا[6] إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ[7]﴾ أي وفرغنا إلى لوط من ذلك الأمر، وأوحينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، أي أنهم مُهلكون عن آخرهم في الصباح الباكر ما أن يطلع الصباح حتى تُقلب بهم الأرض ويهلكوا عن آخرهم.

هداية الآيات:

١ ـ التنديد بالإجرام وبيان عقوبة المجرمين.

٢ ـ لا قيمة للنسب ولا للمصاهرة ولا عبرة بالقرابة إذا فصل الكفر والإجرام بين الأنساب والأقرباء فامرأة لوط هلكت مع الهالكين ولم

---

(١) الخطب: الأمر الخطير والشأن العظيم.

(٢) في الكلام إضمار جملة (لنهلكنهم) فلذا كان الاستثناء إلا آل لوط، وهم أتباعه وأهل بيته.

(٣) وكتبنا في كتاب المقادير.

(٤) لئلا يتخلف منهم أحد فيهلك مع الهالكين.

(٥) أو نهوا عن الالتفات ليجدّوا في السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح موعد هلاك القوم.

(٦) قضينا: قدرنا، وضمن معنى أوحينا فعدي بإلى، والتقدير: وقضينا ذلك الأمر فأوحينا إليه بما قضينا، وجملة: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، مفسرة لذلك الأمر والإشارة للتهويل.

(٧) ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أي: داخلين في الصباح، ومثله: مشرقين أي: داخلين في وقت الإشراق.

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

يشفع لها أنها زوجة نبي ورسول عليه السلام.

٣ - مشروعية المشي بالليل لقطع المسافات البعيدة.

٤ - مشروعية مشي المسؤول وكبير القوم وراء الجيش والقافلة لتفقد أحوالهم، والاطلاع على من يتخلف منهم لأمر، وكذا كان رسول الله ﷺ يفعل.

٥ - كراهية الإشفاق على الظلمة الهالكين، لقوله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾ أي: بقلبه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٧ - ٧٩]

(٦٧) ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: أي مدينة سدوم، أي فرحين باتيانهم الفاحشة.

(٦٩) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾: أي لا تذلوني في انتهاك حرمة ضيفي.

(٧٠) ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي عن إجارتك لهم واستضافتك.

(٧٢) ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾: أي غوايتهم، وشدة غُلْمتهم[1] التي أزالت عقولهم، يترددون.

(٧٣) ﴿مُشۡرِقِينَ﴾: أي وقت شروق الشمس.

(٧٤) ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾: أي طين طُبِخَ بالنار.

(٧٥) ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾: أي الناظرين المعتبرين.

(٧٦) ﴿لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾: أي طريق قريش إلى الشام مقيم دائم ثابت.

(٧٨) ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾: أي قوم شعيب عليه السلام، والأيكة غيضة شجر بقرب مدين.

(٧٩) ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾: أي قوم لوط، وأصحاب الأيكة لبطريق مبين واضح.

معنى الآيات:

(٦٧) ما زال السياق مع لوط عليه السلام وضيفه من الملائكة من جهة، وقوم لوط من جهة. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي مدينة سدوم وأهلها سكانها من اللوطيين، وقوله: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أي فرحين مسرورين لطمعهم في إتيان الفاحشة.

(٦٨) فقال لهم لوط ما أخبر الله تعالى به: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يشير إلى الملائكة ﴿ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ أي فيه أي بطلبكم الفاحشة.

(٦٩) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي خافوه ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ أي تهينوني وتذلوني.

(٧٠) فأجابوا بما أخبر تعالى به عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي أتقول ما تقول ولم تذكر أنا نهيناك عن استضافة أحد من الناس أو تجيره.

(٧١) فأجابهم لوط عليه السلام بما أخبر تعالى به عنه: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ أي هؤلاء بناتي فتزوجوهن إن كنتم فاعلين ما آمركم به أو أرشدكم إليه.

(٧٢) وقوله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ[2] لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أي وحياتك يا رسولنا، إنهم أي قوم لوط ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ غوايتهم التي أذهبت عقولهم فهبطوا إلى درك أسفل من درك

---

(١) الغُلْمة: شدة الشهوة الجنسية.

(٢) هذا الإقسام بحياة النبي ﷺ تشريفًا له، وأصل عمرك بضم العين وفتحت لكثرة الاستعمال، وجائز أن يكون القسم بحياة لوط أيضًا، وليس لأحد أن يجيز القسم بغير الله محتجًا بهذا القسم الإلهي فإنّ لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، فقد أقسم بالشمس وضحاها، وأقسم بالسماء والليل وغيرها من مخلوقاته ولا اعتراض عليه وأما العباد فقد أعلن الرسول ﷺ عن حرمة الحلف بغير الله فقد قال: «من حلف بغير الله **فقد أشرك**» رواه الترمذي.

الحيوان، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي حيارى يترددون.

(٧٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام مشرقين مع إشراق الشمس.

(٧٤) وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي جعلنا عالي المدن سافلها وهو قلبها ظهرًا على بطن، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فوق ذلك ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي من طين مطبوخ بالنار..

(٧٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝﴾[1] أي إن في ذلك المذكور من تدمير مدن كاملة بما فيها لآيات وعبر وعظات للمتوسمين أي الناظرين نظر تفكر وتأمل لمعرفة الأشياء بسماتها وعلاماتها.

(٧٦) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝﴾ أي وإن تلك القرى الهالكة لبطريق ثابت باق يمر به أهل مكة في أسفارهم إلى الشام.

(٧٧) وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ أي لعبرة للمؤمنين فلا يقدمون على محارم الله، ولا يرتكبون معاصيه.

(٧٨) وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝﴾. هذه إشارة خاطفة إلى قصة شعيب عليه السلام مع قومه أصحاب الأيكة، والأيكة الغيضة من الشجر الملتف.. وكانت منازلهم بها وكانوا مشركين وهو الظلم في قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ[2] لَظَٰلِمِينَ ۝﴾ لأنفسهم بعبادة غير الله تعالى.

(٧٩) وقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي أهلكناهم بحر شديد يوم الظلة وسيأتي الحديث عنهم في سورة الشعراء قال تعالى هناك: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ الإمام الطريق لأن الناس يمشون فيه وهو أمامهم، ومبين واضح. والضمير في قوله وإنهما عائد على قوم لوط، وقوم شعيب وهم أصحاب الأيكة لا أصحاب مدين لأنه أرسل إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين. والطريق طريق قريش إلى الشام، والقصد من ذكر هذا وعظ قريش وتذكرهم، فهل يتعظون ويتذكرون؟

هداية الآيات:

١ - بيان إهلاك قوم لوط.

٢ - إنكار الفاحشة وأنها أقبح فاحشة تعرفها الإنسانية هي إتيان الذكور.

٣ - بيان دفاع لوط عليه السلام عن ضيفه حتى فداهم ببناته.

٤ - شرف النبي ﷺ حيث أقسم الله تعالى بحياته في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾.

٥ - الحث على نظر التفكر والاعتبار والتفرس فإنه أنفع للعقل البشري.

٦ - بيان نقمة الله تعالى من الظالمين للاعتبار والاتعاظ.

٧ - تقرير نبوة الرسول ﷺ إذ مثل هذه الأخبار لن تكون إلا عن وحي إلهي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٠ - ٨٨]

(٨٠) ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾: هم قوم صالح ومنازلهم بين المدينة النبوية والشام.

(٨١) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾: أي في الناقة وهي أعظم آية.

(٨٤) ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝﴾: من بناء الحصون وجمع الأموال.

(٨٥) ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾: أي أعرض عنهم إعراضًا لا جزع فيه وهذا قبل الأمر بقتالهم.

(٨٧) ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾: هي آيات سورة الفاتحة السبع.

(٨٨) ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: أي أصنافًا من الكفار. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾: أي ألِن جانبك للمؤمنين.

معنى الآيات:

(٨٠) هذا شروع في موجز قصة أخرى هي قصة أصحاب الحجر وهم ثمود

---

(١) روي أن النبي ﷺ فسر المتوسمين بالمتفرسين إذ قال: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)﴾ رواه الترمذي واستغربه، وقيل: للناظر كما قال الشاعر:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة ... بعثوا إليّ عريفهم يتوسّم

وأصل التوسم: النظر بتثبّت وتفكر وعليه فما ورد في التوسم من النظر والتفرس كله متقارب المعنى.

(٢) جمع الأيكة وهي جماعة الشجر: الأيك، أو سميت القرية بالأيكة باعتبار الأصل.

قوم صالح، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ[١] الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ وفي هذا موعظة لرسول الله ﷺ إذ كذبه قومه من أهل مكة فليصبر على تكذيبهم فقد كذبت قبلهم أقوام. وقال تعالى: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يكذبوا إلا صالحًا باعتبار أن من كذب رسولاً فقد كذب عامة الرسل، لأن دعوة الرسل واحدة وهي أن يعبد الله وحده بما شرع لإكمال الإنسان وإسعاده في الحالتين.

(٨١) وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ[٢] آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝﴾ إن المراد من الآيات القائمة بالناقة منها أنها خرجت من صخرة، وأنها تشرب ماء البلد يومًا، وأنها تقف أمام كل بيت ليحلب أهله منها ما شاؤوا، وإعراضهم عنها، عدم إيمانهم وتوبتهم إلى الله تعالى بعد أن آتاهم ما طلبوا من الآيات.

(٨٢) وقوله: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ[٣] مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي كانوا يتخذون بالنحت بيوتًا داخل الجبال يسكنونها شتاء آمنين من أن تسقط عليهم لقوتها ومن أن ينالهم برد أو حرّ لوقايتها لهم

(٨٣) وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ[٤] ۝﴾ وذلك صيحة اليوم الرابع وهو يوم السبت فهلكوا أجمعين.

(٨٤) ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝﴾ من المال والعتاد وبناء الحصون بل هلكوا[٥] ولم ينج منهم أحد إلا من آمن وعمل صالحًا فقد نجاه الله تعالى مع نبيه صالح عليه السلام.

(٨٥) وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا من أجل أن أُذكر وأُشكر، فلذا من كفر بي فلم يذكرني وعصاني فلم يشكرني أهلكته. لأني لم أخلق هذا الخلق العظيم لهوًا وباطلاً وعبثًا. وقوله: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ[٦]﴾ أي حتمًا لا محالة وثَمَّ يُجزى كلٌ بما كسب فلا تحزن على قومك ولا تجزع منهم فإن جزاءهم لازم وآت لا بد، فاصبر واصفح عنهم وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[٧] أي الذي لا جزع معه.

(٨٦) وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝﴾ خلق كل شيء وعلم بما خلق فعلى كثرة المخلوقات يعلم نياتها، وأعمالها، وأحوالها، ولا يخفى عليه شيء من أمرها وسيعيدها كما بدأها ويحاسبها ويجزيها بما كسبت. وهذا من شأنه أن يساعد الرسول ﷺ على الصبر والثبات على دعوته حتى ينصرها الله تعالى في الوقت الذي حدده لها.

(٨٧) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝﴾ أي أعطيناك سورة الفاتحة[٨] أم القرآن وأعطيناك القرآن العظيم وهو خير عظيم لا يقادر قدره. إذًا.

---

(١) لفظ الحجر يطلق على أمور عدّة منها: العقل ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ والحرام: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ والفرس الأنثى وحجر القميص، والفتح فيه أولى، وحجر إسماعيل إزاء الكعبة وديار ثمود: وهو المراد هنا.

(٢) المراد بالآيات: الناقة لأنها تشتمل على عدّة آيات، وجائز أن يكون هناك آيات أخرى أعطيها صالح غير الناقة.

(٣) النحت: البري والنجر، يقال: نحته ينحته نحتًا إذا براه، والنحاته: البراية كالنجارة والخشارة، والمنحت: آلة النحت، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من أن تسقط عليهم أو تخرب فلا تصلح للسكن فيها.

(٤) ﴿مُصْبِحِينَ﴾: حال من أخذتهم الصيحة أي: حال كونهم داخلين في الصباح وهو أوّل النهار، فالأيام الثلاثة التي قيل لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي﴾ هي الأربعاء والخميس والجمعة، وصبيحة السبت كان هلاكهم والعياذ بالله من حال الهالكين.

(٥) صحّ أن النبي ﷺ قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم**»، وأمر بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز منه لأجل أنه ماء سخط فلا يجوز الانتفاع به فرارًا من سخط الله تعالى، وقال: «**اعلفوه الإبل ففعلوا**».

(٦) لآتية: جائية إذ الأيام تنصرم يومًا فيوم إلى آخر يوم فالساعة الأخيرة لهذه الحياة آتية، وهي في طريقها.

(٧) هذا كان قبل الأمر بالجهاد إذ السورة مكيّة والجهاد فرض في المدينة فالآية منسوخة بمثل قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية من التوبة المدنية.

(٨) كون الفاتحة هي السبع المثاني هو قول عليّ وأبي هريرة والحسن وغيرهم ويشهد له الحديث الصحيح: «**الحمد لله أم القرآن**=

(٨٨) ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[1] متطلعًا ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي أصنافًا من رجالات قريش، فما آتيناك خير مما هم عليه من المال والحال التي يتمتعون فيها بلذيذ الطعام والشراب. وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن هم لم يؤمنوا بك ولم يتابعوك على ما جئت به، فإن أمرهم إلى الله تعالى، وأمره تعالى أن يلين جانبه لأصحابه المؤمنين فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فحسبك ولاية الله لك فذر المكذبين أولي النعمة، وتعايش مع المؤمنين، ولين جانبك لهم، واعطف عليهم فإن الخير فيهم وليس في أولئك الأغنياء الأثرياء الكفرة الفجرة.

هداية الآيات:

١ - إذا أراد الله هلاك أمة فإن قوتها المادية لا تغني عنها شيئًا.

٢ - لم يخلق الله الخلق عبثًا بل خلقه ليعبد بالذكر والشكر، فمن عبده نجا، ومن أعرض عن ذكره وترك عبادته أذاقه عذاب الخزي في الدنيا والآخرة أو في الآخرة وهو أشد وأخزى.

٣ - بيان أن الصفح الجميل هو الذي لا جزع معه.

٤ - بيان أن من أوتي القرآن لم يؤت أحد مثله من الخير قط.

٥ - فضل الفاتحة إذ هي السبع المثاني.

٦ - على الدعاة إلى الله أن لا يلتفتوا إلى ما في أيدي الناس من مالٍ ومتاع، فإن ما آتاهم الله من الإيمان والعلم والتقوى خير مما آتى أولئك من المال والمتاع.

٧ - استحباب لين الجانب للمؤمنين والعطف عليهم والرحمة لهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٩ ـ ٩٩]

(٨٩) ﴿ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾: البيّن النذارة.

(٩٠) ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾: أي الذين قسموا كتاب الله فقالوا فيه شعر، وقالوا سحر، وقالوا كهانة.

(٩١) ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾: هم المقسمون للقرآن وجعلوه عضين جمع عضة وهي القطعة والجزء من الشيء.

(٩٤) ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾: أي اجهر به واعرضه كما أمرك ربك.

(٩٧) ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾: أي من الاستهزاء بك والتكذيب لك.

(٩٩) ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾: أي الموت، أي إلى أن تتوفى وأنت تعبد ربك.

معنى الآيات:

(٨٩) ما زال السياق في إرشاد الرسول ﷺ وتعليمه ما ينبغي أن يكون عليه فأمره تعالى بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝﴾[2] أي أعلن لقومك

الجزءُ الرابع عشر — سورةُ النحل

ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٣) فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩)

ترتيبها ١٦ — سُورَةُ النَّحْلِ — آياتها ١٢٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)

٢٦٧

= وأم الكتاب والسبع المثاني». روي عن ابن عباس أنه قال: هي السبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة معًا.

(١) هذه الآية تدعو إلى الإعراض عن زخارف الدنيا وعدم الإقبال عليها، والاكتفاء فيها بما أحل الله عمّا حرّم وبما تيسّر عما تعسر، وفيها: أن من أعطاه الله القرآن وجب عليه أن يشعر بالغنى وعدم الفقر لحديث: «**ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن**» أي: لم يستغن به عن طلب غيره.

(٢) في الكلام حذف، وهو لفظ عذابًا. فحذف المفعول لدلالة لفظ النذير عليه أو لكون الكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ زائدة ويصح التقدير هكذا: أنا النذير المبين ما أنزلنا على المقتسمين أي: من العذاب.

بأنك النذير البين النذارة لكم يا قوم أن ينزل بكم عذاب الله إن أصررتم على الشرك والعناد والكفر.

(٩٠) ـ (٩١) وقوله: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۝ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ[1] ۝﴾ أنذركم عذابًا كالذي أنزله الله وينزله على المقتسمين الذين قسموا التوراة والإنجيل فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وهم اليهود والنصارى، والمقتسمين الذين تقاسموا أن يبيتوا صالحًا فأنزل الله بهم عقوبته والمقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين أي أجزاء فقالوا فيه شعر وسحر وكهانة، المقتسمين الذين قسموا طرق مكة وجعلوها نقاط تفتيش يصدون عن سبيل الله كل من جاء يريد الإسلام وهؤلاء كلهم مقتسمون وحل بهم عذاب الله ونقمته.

(٩٢) ـ (٩٣) وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾[2] يقسم الجبار تبارك وتعالى لرسوله أنه ليسألنهم يوم القيامة عما كانوا يعملون ويجزيهم به فلذا لا يهولنَّك أمرهم واصبر على أذاهم.

(٩٤) وقوله: ﴿فَاصْدَعْ[3] بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي اجهر بدعوة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما تؤمر ببيانه والدعوة إليه أو التنفير منه، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تبال بهم.

(٩٥) ـ (٩٦) وقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾ والمراد بهؤلاء المستهزئين الذين واعد تعالى بكفاية رسوله شَرَّهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد يغوث كلهم ماتوا بآفات مختلفة في أمدٍ يسير، عليهم لعائن الله تعالى.

(٩٧) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝﴾ أي من الاستهزاء بك والسخرية، ومن المبالغة في الكفر والعناد فنرشدك إلى ما يخفف عنك الألم النفسي.

(٩٨) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي قل سبحان الله وبحمده أي أكثر من هذا الذكر ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي المصلين إذ لا سجود إلا في الصلاة أو تلاوة القرآن[4]، إذًا فافزع عند الضيق إلى الصلاة فلذا كان ﷺ إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة.

(٩٩) وقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝﴾ أي واصل العبادة وهي الطاعة في غاية الذل والخضوع لله تعالى حتى يأتيك اليقين الذي هو الموت فإن القبر أول عتبة الآخرة وبموت الإنسان ودخوله في الدار الآخرة أصبح إيمانه يقينًا محضًا.

هداية الآيات:

١ - حرمة الاختلاف في كتاب الله تعالى على نحو ما اختلف فيه أهل الكتاب.

٢ - مشروعية الجهر بالحق وبيانه لا سيما إذا لم يكن هناك اضطهاد.

٣ - فضل التسبيح بجملة: سبحان الله وبحمده ومن قالها مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وهذا مروي في الصحيح[5].

٤ - مشروعية صلاة الحاجة فمن حزبه أمر أو ضاق به فليصل صلاة يفرج الله تعالى بها ما به أو يقضي حاجته إن شاء وهو العليم الحكيم.

❁ ❁ ❁

---

(١) واحد: (عضين) عضة من عضيت الشيء تعضيه أي: فرقته وكل فرقة عضة، وقيل: أصلها عضوة، فسقطت الواو، ولذا جمعت على عضين كعزين، إذ واحدها عزوة، وذلك أنهم فرقوا كلام الله فجعلوا بعضه سحرًا وبعضه شعرًا و. . و. .

(٢) وورد أنّ النبي ﷺ قال: في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ . .﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ قال: «**عن قول لا إله إلا الله، إذ أبوا أن يقولوها فتمادوا في الكفر والشرّ والفساد ولو قالوا لما كان لهم سوى الخير والصلاح**».

(٣) قضى رسول الله ﷺ فترة من الزمن مستخفيًا هو وأصحابه في دار الأرقم حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج ﷺ وأعلن الإسلام ودعا إليه جهرة.

(٤) قيل: إنّ هذه سجدة من سجدات القرآن، والجمهور على أنها ليست سجدة وإنما أرشد الله تعالى رسوله ﷺ لتفريج همّه وتوسعة صدره مما يسمع ويُقال له، أمره بالتسبيح والصلاة وفعلاً كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

(٥) رواه مسلم.

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)

سورة النحل[1]
مكية
وآياتها مائة وثمان وعشرون

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٧]

(١) ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾: أي دنا وقرب أمر الله بعذابكم أيها المشركون فلا تستعجلون.

(٢) ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾: أي بالوحي الذي به حياة الأرواح والمراد من الملائكة جبريل.

(٤) ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾: أي قطرة من المني.

(٥) ﴿دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾: أي ما تستدفئون به، ومنافع من العسل واللبن واللحم والركوب.

(٦) ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾: أي حين تردونها من مراحها. ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾: أي وحين إخراجها من مراحها إلى مسارحها أي الأماكن التي تسرح فيها.

(٧) ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾: أي بجهد الأنفس ومشقة عظيمة.

معنى الآيات:

(١) لقد استعجل المشركون بمكة العذاب وطالبوا به غير مرة فأنزل الله تعالى قوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾[2] أي بعذابكم أيها المستعجلون له. لقد دنا منكم وقرب فالنضر بن الحارث القائل: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم)، جاءه بعد سُنيّات قلائل فهلك ببدر صَبْرًا، إلى جهنم، وعذابُ يوم القيامة لمن استعجله قد قرب وقته ولذا عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه وقرب مجيئه فلا معنى لاستعجاله فلذا قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه وتقدس عما يشركون به من الآلهة الباطلة إذ لا إله حق إلا هو.

(٢) وقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ[3] مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي بإرادته وإذنه ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي ينزل جبريل عليه السلام بالوحي على من يشاء من عباده[4] وهو محمد ﷺ وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي بأن أنذروا[5] أي خوفوا المشركين عاقبة شركهم فإن شركهم باطل سيجر عليهم عذابًا لا طاقة لهم به، لأنه لا إله إلا الله، وكل الآلهة دونه باطلة. إذًا فاتقوا الله بترك الشرك والمعاصي وإلا تعرضتم للعذاب الأليم. في هاتين الآيتين تقرير للوحي والنبوة للنبي ﷺ وتقرير التوحيد أيضًا.

(٣) وقوله تعالى في الآيات التالية: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾ استدلال على وجوب التوحيد وبطلان الشرك

---

(١) وتسمى أيضًا سورة النعم، لما عدد تعالى فيها من نعمه على عباده.

(٢) من الجائز أن يراد بـ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ القيامة لقول الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ وقول الرسول ﷺ: «**بعثت والساعة كهاتين**» وأشار بأصبعيه.

(٣) بالروح، أي بالوحي بالنبوة نظيره قوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

(٤) أي: من الأنبياء ومحمد ﷺ إمامهم وخاتمهم وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوا﴾: تفسير لقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾.

(٥) أمر الله الأنبياء الذين أوحي إليهم بشرعه أن ينذروا المشركين عاقبة الشرك ويدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح بعد نبذ الشرك والعمل الفاسد.

فالذي خلق السماوات والأرض بقدرته وعلمه وحده دون ما مُعِين له ولا مساعد حُقَّ أن يعبد، لا تلك الآلهة الميتة التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي تنزه وتقدس تعالى عما يشركون به من أصنام وأوثان.

④ وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي من أضعف شيء وأحقره قطرة المني خلقه في ظلمات ثلاث وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا حتى إذا رباه وأصبح رجلًا إذا هو خصم لله يجادل ويعاند[1]، ويقول من يحيي العظام وهي رميم.

⑤ وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ[2] وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝﴾ فهذه مظاهر القدرة الإلهية والعلم والحكمة والرحمة وهي الموجبة لعبادته تعالى وترك عبادة ما سواه. فالأنعام وهي الإبل والبقر والغنم خلقها الله تعالى لبني آدم ولم يخلقها لغيرهم، لهم فيها دفء إذ يصنعون الملابس والفرش والأغطية من صوف الغنم ووبر الإبل ولهم فيها منافع كاللبن والزبدة والسمن والجبن والنسل حيث تلد كل سنة فينتفعون بأولادها. ومنها يأكلون اللحوم المختلفة فالمنعم بهذه النعم هو الواجب العبادة دون غيره من سائر مخلوقاته.

⑥ وقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ[3]﴾ أي منظر حسن جميل حين تريحونها عشية من المرعى إلى المراح ﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ أي تخرجونها صباحًا من مراحها إلى مراعيها، فهذه لذة روحية ببهجة المنظر.

⑦ وقوله: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ[4] ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ أي إلا بجهد النفس والمشقة العظيمة. فالإبل في الصحراء كالسفن في البحر تحمل الأثقال من بلدٍ إلى بلد وقد تكون المسافة بعيدة لا يصلها الإنسان إلا بشق النفس وبذل الجهد والطاقة، لولا الإبل سفن الصحراء ومثل الإبل الخيل والبغال والحمير في حمل[5] الأثقال. فالخالق لهذه الأنعام هو ربكم لا إله إلا هو فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ﴾ أي خالقكم ورازقكم ومربيكم وإلهكم الحق الذي لا إله لكم غيره لرؤوف رحيم، ومظاهر رحمته ورأفته ظاهرة في كل حياة الإنسان فلولا لطف الله بالإنسان ورحمته له لما عاش ساعة في الحياة الدنيا فللَّه الحمد وله المنة.

هداية الآيات:

١ - قرب يوم القيامة فلا معنى لاستعجاله فإنه آتٍ لا محالة، وكل آتٍ قريب.

٢ - تسمية الوحي بالروح من أجل أنه يحيي القلوب، كما تحيى الأجسام بالأرواح.

٣ - تقرير التوحيد والنبوة والبعث الآخر بذكر مظاهر القدرة الإلهية والعلم والحكمة والرأفة والرحمة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ ـ ١٣]

⑧ ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: من سائر الحيوانات ومن ذلك السيارات والطائرات والقطر.

⑨ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي تفضلًا منه وامتنانًا ببيان السبيل القاصدة وهي الإسلام. ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾: أي عادل عن القصد وهو سائر الملل كاليهودية والنصرانية.

⑩ ﴿وَمِنۡهُ شَجَرٞ﴾: أي وبسببه يكون الشجر وهو هنا عام في سائر النباتات. ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾: ترعون مواشيكم.

---

(١) هذا الإنسان الخصيم هو أبيّ بن خلف الجمحي، جاء إلى النبي ﷺ بعظم رميم فقال: أترى يحيي الله هذا بعد ما قد رمّ؟ وفيه نزل: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ..﴾ إلخ.. من سورة يسٓ.

(٢) الدفء: الشيء الذي يدفىء الإنسان، والجمع: أدفاء، ويقال: دفىء دفاءة ككره كراهة.

(٣) الجمال يكون في الصورة، وهو تناسب أجزائها، ويكون في الأخلاق بأن يكون المرء على صفات محمودة كالعدل والعلم والحكمة وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد وجمال الأفعال يكون بملاءمتها لمصالح الخلق نافعة لهم غير ضارة بهم.

(٤) شق النفس: مشقتها، وغاية جهدها وعليه فالشق المشقة، والشق: الجانب من كل شيء.

(٥) في الآية دليل على جواز ركوب الإبل، والحمل عليها لكن لا تحمل أكثر مما تطيق فقد ضرب عمر حمالاً وقال: تحمل على بعيرك ما لا يطيق. وكان لأبي الدرداء جمل يقال له دمون يقول له: يا دمون لا تخاصمني عند ربك.

⑫ ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾: أي بإذنه وقدرته.

⑬ ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي خلق لكم في الأرض من الحيوان والنباتات المختلفة.

معنى الآيات:

⑧ ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد بذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته إذ قال تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ[1] وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ﴾ أي خلقها وهو خالق كل شيء لعلة ركوبهم إياها إذ قال: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾[2] أي ولأجل أن تكون زينة لكم في حياتكم وقوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي مما هو مركوب وغير مركوب من مخلوقات عجيبة ومن المركوب هذه السيارات على اختلافها والطائرات والقطر السريعة والبطيئة هذا كله إفضاله وإنعامه على عباده فهل يليق بهم أن يكفروه ولا يشكروه؟ وهل يليق بهم أن يشركوا في عبادته سواه.

⑨ وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[3] ومن إفضاله وإنعامه الموجب لشكره ولعبادته دون غيره أن بين السبيل القاصد الموصل إلى رضاه وهو الإسلام، في حين أن ما عدا الإسلام من سائر الملل كاليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها سبل جائرة عن العدل والقصد سالكوها ضالون غير مهتدين إلى كمال ولا إلى إسعاد هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي لو تعلقت بإرادته هداية الناس أجمعين لهداهم أجمعين وذلك لكمال قدرته وعلمه، إلا أن حكمته لم تقتض هداية لكل الناس فهدى من رغب في الهداية وأضل من رغب في الضلال.

⑩ ومن مظاهر ربوبيته الموجبة لألوهيته أي عبادته ما جاء في الآيات التالية: (١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥) إذ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾[4] تشربون منه وتتطهرون، ﴿وَمِنۡهُ﴾ أي من الماء الذي أنزل من السماء شجر[5] لأن الشجرة والمراد به هنا سائر النباتات يتوقف وجوده على الماء وقوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ[6]﴾ أي في ذلك النبات ترعون مواشيكم. يقال سام الماشية أي ساقها إلى المرعى ترعى وسامت الماشية أي رعت بنفسها.

⑪ وقوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ﴾ أي بما أنزل من السماء من ماء ﴿ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ كالفواكه والخضر على اختلافها إذ كلها متوقفة على الماء. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من نزول الماء وحصول المنافع الكثيرة به ﴿لَأٓيَةٗ﴾ أي علامةً واضحةً على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وهي مقتضية لعبادته وترك عبادة غيره. ولكن ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتعظون. أما أشباه البهائم الذين لا يفكرون في شيء فلا يجدون آية ولا شبه آية في الكون كله وهم يعيشون فيه.

⑫ وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ الليل للسكون والراحة، والنهار للعمل ابتغاء الرزق

---

(١) قيل: واحد الخيل: خائل، وقيل: هو اسم جنس لا واحد له، وهذه الثلاثة: الخيل والبغال والحمير لم تدخل في لفظ الأنعام، ونصب: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾ على تقدير: (وخلق الخيل).

(٢) أخذ مالك من قوله تعالى: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾: حرمة أكل لحوم الخيل ووافقه أبو حنيفة، وأجاز الجمهور أكلها لأنّ الآية لم تحرّم شيئًا وإنّما ذكرت فائدة من فوائدها وهي الركوب، ومن أدلة الجمهور: الحديث الصحيح من ذلك قول الصحابي: (نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن لنا في لحوم الخيل). وقال جابر رضي الله عنه: (كنا نأكل لحوم الخيل على عهد رسول الله ﷺ). وحديث مسلم عن أسماء رضي الله عنها قالت: (فجزرنا فرسًا على عهد رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة وأكلناه).

(٣) أي: على الله بيان قصد السبيل، والسبيل هو الإسلام، أي: بيان شرائعه وأحكامه وحِكمه ومواعظه بواسطة كتبه ورسله. وقصد السبيل: استقامته كما أن جائر السبيل: هو الحائد عن الاستقامة.

(٤) الشراب: اسم لما يشرب وذكر للماء النازل من السماء فائدتين. الأولى: الشراب، والثانية: إنبات النبات وهما نعمتان.

(٥) لفظ الشجر: يطلق على النبات ذي الساق الصلبة ويطلق على مطلق العشب والكلأ تغليبًا.

(٦) الإسامة: إطلاق الإبل للسوم وهو الرعي يقال: سامت الماشية إذا رعت وأسامها: إذا رعاها.

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

٢٦٩

وتسخيرهما كونهما موجودين باستمرار لا يفترقان أبدًا إلى أن يأذن الله بانتهائهما وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي سخرهما كذلك للانتفاع بضوء الشمس وحرارتها، وضوء القمر لمعرفة عدد السنين والحساب، وقوله: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ[1] بِأَمْرِهِۦٓ﴾ كذلك ومن فوائد النجوم الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر وكونها زينة وجمالاً للسماء التي هي سقف دارنا هذه.. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عدة يستدل بها على الخالق وعلى وجوب عبادته وعلى توحيده فيها، ولكن ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي الذين يستخدمون طاقة عقولهم في فهم الأشياء وإدراك أسرارها وحقائقها أما أشباه البهائم والمجانين الذين لا يفكرون ولا يتعقلون ولا يعقلون، فليس لهم في الكون كله آية واحدة يستدلون بها على ربهم ورحمته بهم وواجب شكره عليهم.

﴿١٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ[2] لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي وما خلق لكم في الأرض من إنسان وحيوان ونبات ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾[3] وخصائصه وشيانه ومنافعه وآثاره ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الخلق العجيب ﴿لَأَيَةً﴾ أي دلالة واضحة على وجود الخالق عز وجل ووجوب عبادته وترك عبادة غيره ولكن ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيتعظون فينتبهون إلى ربهم فيعبدونه وحده بامتثال أمره واجتناب نهيه فيكملون على ذلك ويسعدون في الحياتين.

هداية الآيات:

١ - كون الخيل[4] والبغال والحمير خلقت للركوب والزينة لا ينفي منفعة أخرى فيها وهي أكل لحوم الخيل لثبوت السنة بإباحة لحوم الخيل، ومنع لحوم البغال والحمير كما في الصحيحين.

٢ - الإسلام هو السبيل التي بينها الله تعالى فضلاً منه ورحمة وما عداه فهي سبل جائرة عن العدل والحق.

٣ - فضيلة التفكر والتذكر والتعقل وذم أضدادها لأن الآيات الكونية كالآيات القرآنية إذا لم يتفكر فيها العبد لا يهتدي إلى معرفة الحق المنشود وهو معرفة الله تعالى ليعبده بالذكر والشكر وحده دون سواه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤ - ١٩]

﴿١٤﴾ ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: هي اللؤلؤ والمرجان. ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾: أي تشقه بجريها فيه مقبلة ومدبرة بريح

---

(١) ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: أي: مذلّلات لمعرفة الأوقات ونضج الثمار، والاهتداء بالنجوم في الظلمات.

(٢) الذرء: الخلق بالتناسل والتولّد بالحمل والتفريخ فليس الإنبات فقط.

(٣) المخلوقات قسمان: قسم منها مسخر مذلل كالدواب والأنعام والأشجار، وقسم غير مذلل ولا مسخر، وشاهد هذا: قول كعب الأحبار: لولا كلمات أقولهن لجعلتني يهود حمارًا فقيل له وما هن؟ قال: أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم من شرّ ما خلق وذرأ وبرأ.

(٤) ما في الآية: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ ما يدل على وجوب الزكاة فيها، وفي الحديث الصحيح: **«ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة»** رواه مالك.

﴿١٤﴾ ﴿سخر البحر﴾: تسخير البحر: هو تمكين البشر من التصرف فيه، وتذليله من التصرف فيه، وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره وهي نعمة إذ لو شاء الله لسلّط البحر على العباد لأغرقهم.

واحدة وبالبخار اليوم. ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾: أي من فضل الله تعالى بالتجارة.

(١٥) ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾: أي تميل وتتحرك فيخرب ما عليها ويسقط.

(١٨) ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾: أي عدًا فتضبطوها فضلًا عن شكرها للمنعم بها عز وجل.

(١٩) ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾: من المكر بالنبي ﷺ ومن أذاه علانية هذا بالنسبة إلى أهل مكة، إذ الخطاب يتناولهم أولاً ثم اللفظ عام فالله يعلم كل سرٍ وعلانية في أي أحد.

معنى الآيات:

(١٤) ما زال السياق الكريم في ذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته تلك المظاهر الموجبة لتوحيده وعبادته وشكره وذكره قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ وهو كل ماء غمر كثير عذبًا كان أو ملحًا وتسخيره تيسير الغوص فيه وجري السفن عليه. وقوله: ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا[١] طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ بيان لعلة تسخير البحر وهي ليصيد الناس منه السمك يأكلونه، ويستخرجون اللؤلؤ والمرجان حلية لنسائهم[٢]. وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي وترى أيها الناظر إلى البحر ترى السفن تمخر الماء أي تشقه ذاهبة وجائية. وقوله: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ أي سخّر البحر والفلك لتطلبوا الرزق بالتجارة بنقل البضائع والسلع من إقليم إلى إقليم وذلك كله من فضل الله وحوله ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي كي تشكروا الله تعالى. أي سخر لكم ذلك لتحصلوا على الرزق من فضل الله فتأكلوا وتشكروا الله على ذلك والشكر يكون بحمد الله والاعتراف بنعمته وصرفها في مرضاته.

(١٥) وقوله: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ[٣]﴾ أي ألقى في الأرض جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ كي لا تميد بكم، وميدانها ميلها وحركتها إذ لو كانت تتحرك لما استقام العيش عليها والحياة فيها. وقوله: ﴿وَأَنۡهَٰرٗا﴾ أي وأجرى لكم أنهارًا في الأرض كالنيل والفرات وغيرهما ﴿وَسُبُلٗا﴾ أي وشقّ لكم طرقًا ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ إلى منازلكم في بلادكم.

(١٦) وقوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ﴾ أي وجعل لكم علامات للطرق وأمارات كالهضاب والأودية والأشجار وكل ما يستدل به على الطريق والناحية، وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ﴾ أي وبالنجوم[٤] ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ فركاب البحر لا يعرفون وجهة سيرهم في الليل إلا بالنجوم وكذا المسافرون في الصحارى والوهاد لا يعرفون وجهة سفرهم إلا بالنجوم وذلك قبل وجود آلة البوصلة البحرية ولم توجد إلا على ضوء النجم وهدايته.

(١٧) وقوله في الآية (١٧): ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هذا تأنيب عظيم لأولئك الذين يصرون على عبادة الأصنام ويجادلون عليها ويجالدون فهل عبادة من يخلق ويرزق ويدبر حياة الإنسان وهو الله رب العالمين كعبادة من لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر؟ فمن يسوي من العقلاء بين الحي المحيي الفعال لما يريد واهب الحياة كلها وبين الأحجار والأوثان؟ فلذا وبخهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتذكرون فتعرفون أن عبادة الأصنام باطلة وأن عبادة الله حق فتتوبوا إلى ربكم وتسلموا له قبل أن يأتيكم العذاب.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ

---

(١) قسّم مالك اللحم ثلاثة أقسام وهي: لحم ذوات الأربع، ولحم ذوات الريش، ولحم ذوات الماء، ومنع بيع الجنس الواحد بجنسه متفاضلاً أو نسيئة.

(٢) الإجماع على جواز تختم الرجل بخاتم الفضة للأحاديث الثابتة وذلك منها حديث البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن النبي ﷺ اتخذ خاتمًا من فضة ونقش فيه محمد رسول الله) ولذا جاز للقضاة وغيرهم أن ينقشوا أسماءهم على خواتمهم.

(٣) في هذه الآية دليل على استعمال الأسباب إذ كان الله قادرًا على سكونها دون الجبال، ومع هذا أرساها، وسكنها بالجبال تعليمًا لعباده للأخذ بالأسباب، و﴿رَوَٰسِيَ﴾ جمع راس، على غير قياس، كفوارس، وعواذل جمع فارس وعاذل.

(٤) وقد يُراد بالنجم: الجدي خاصة لقول الرسول ﷺ لابن عباس وقد سأله عن النجم فقال له: «**هو الجدي عليه قبلتكم وبه تهتدون في برّكم وبحركم**» وكون المراد بالنجم النجوم لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾.

ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ بعدما عدد في هذه الآيات من النعم الكثيرة أخبر أن الناس لو أرادوا أن يعدوا نعم الله ما استطاعوا عدها فضلاً عن شكرها، ولذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولولا أنه كذلك لآخذهم على تقصيرهم في شكر نعمه عليهم ولَسَلَبَهَا منهم عند كفرها وعدم الاعتراف بالمنعم بها عز وجل.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝﴾ هذه آخر مظاهر القدرة والعلم والحكمة والنعمة في هذا السياق الكريم فالله وحده يعلم سر الناس وجهرهم فهو يعلم إذًا حاجاتهم وما تتطلبه حياتهم، فإذا عادوه وكفروا به فكيف يأمنون على حياتهم ولما كان الخطاب في سياق دعوة مشركي مكة إلى الإيمان والتوحيد فالآية إخطار لهم بأن الله عليم بمكرهم برسوله وتبييت الشر له وأذاهم له بالنهار. فهي تحمل التهديد والوعيد لكفار مكة.

هداية الآيات:

١ - بيان العلة في الرزق وأنها الشكر فالله سبحانه وتعالى يرزق لِيُشكر.

٢ - إباحة أكل الحوت وكل دواب البحر.

٣ - لا زكاة في اللؤلؤ والمرجان لأنه من حلية النساء.

٤ - المقارنة بين الحي الخلاق العليم، وبين الأصنام الميتة المخلوقة لتقرير بطلان عبادة غير الله تعالى لأن من يَخلُق ليس كمن لا يَخلق.

٥ - عجز الإنسان عن شكر نعم الله تعالى يتطلب منه أن يشكر ما يمكنه منها وكلمة (الحمد لله) تعد رأس الشكر والاعتراف بالعجز عن الشكر من الشكر، والشكر صرف النعم فيما من أجله أنعم الله تعالى بها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ - ٢٥]

(٢٠) ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾: أي يصورون من الحجارة وغيرها.

(٢١) ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: أي وما تشعر الأصنام ولا تعلم الوقت الذي تبعث فيه وهو يوم القيامة. ولا يبعث فيه عابدوها من دون الله.

(٢٢) ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾: أي جاحدة للوحدانية والنبوة والبعث والجزاء. ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾: لظلمة قلوبهم بالكفر يتكبرون.

(٢٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾: أي حقًا.

(٢٤) ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي أكاذيب الأولين.

(٢٥) ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾: أي ذنوبهم يوم القيامة. ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾: أي بئس ما يحملون من الأوزار.

معنى الآيات:

(٢٠) في هذا السياق مواجهة صريحة للمشركين بعد تقدم الأدلة على إشراكهم وضلالهم فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾(١) مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تعبدونهم أيها المشركون.

(٢١) ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي هم أموات إذ لا حياة لهم ودليل ذلك أنهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا ينطقون، وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾(٢) أي لا يعلمون(٣) متى يبعثون كما أنكم أنتم أيها العابدون لهم لا تشعرون متى تبعثون. فكيف تصح عبادتهم وهم أموات ولا يعلمون متى يبعثون للاستنطاق والاستجواب والجزاء على الكسب في هذه الحياة.

(٢٢) وقوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذه النتيجة العقلية التي لا ينكرها العقلاء وهي أن المعبود واحد لا شريك له، وهو الله جل جلاله، إذ هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت ذو الصفات العلا والأسماء الحسنى، وما عداه فلا يخلق ولا يرزق ولا يُدبّر ولا يحيي ولا يميت فتأليهه سفه وضلال، وبعد تقرير ألوهية الله تعالى وإثباتها بالمنطق السليم قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ ذكر علة الكفر لدى الكافرين والفساد عند المفسدين وهي تكذيبهم بالبعث

---

(١) قرأ عامة القراء: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالتاء لأن ما قبله خطاب، وقرىء عن عاصم وحفص بالياء، وهي قراءة يعقوب أيضًا.

(٢) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: تبعث الأصنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينها فيتبرّؤون من عبدتها، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار.

(٣) عبّر عنهم بصيغة من يعقل لأن المشركين يزعمون أنها تعقل عنهم وتشفع لهم عند الله تعالى، وتقرّبهم إلى الله زلفى.

الآخر إذ لا يستقيم عبد على منهج الحق والخير وهو لا يؤمن باليوم الآخر يوم الجزاء على العمل في الحياة الدنيا، فأخبر تعالى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة لكل ما يسمعون من الحق الذي يدعو إليه رسول الله ﷺ وتبيينه آيات القرآن الكريم، وهم مع إنكار قلوبهم لما يسمعون من الحق مستكبرون عن قبول الحق والإذعان له.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ[١] أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ[٢]﴾ أي حقاً إن الله يعلم ما يسر أولئك المكذبون بالآخرة وما يعلنون وسيحصي ذلك عليهم ويجزيهم به لا محالة في يوم كانوا به يكذبون.. ويا للحسرة ويا للندامة!! وهذا الجزاء كان بعذاب النار متسبب عن بغض الله للمستكبرين وعدم حبه لهم.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ[٣] ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يخبر تعالى عن أولئك المنكرة قلوبهم للوحي الإلهي وما جاء به رسول الله هؤلاء المستكبرون كانوا إذا سئلوا عن القرآن من قِبل من يريد أن يعرف ممن سمع بالدعوة المحمدية فجاء من بلاد يتعرف عليها

قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[٤] أخبار كاذبة عن الأولين مسطرة عند الناس فهو يَحْكيها ويقول بها، وبذلك يصرفون عن الإسلام ويصدون عن سبيل الله.

(٢٥) قال تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ أي تبعة آثامهم وتبعة آثام من صدوهم عن سبيل الله كاملة غير منقوصة يوم القيامة، وهم لا يعلمون ذلك ولكن الحقيقة هي: أن من دعا إلى ضلالة كان عليه وزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزار من عملها شيء، وكذا من دعا[٥] إلى هدى فله أجر من عمل به من غير أن ينقص من أجر العامل به شيء. وقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي قُبح الوزر الذي يزرونه فإنه قائدهم إلى النار موبقهم في نار جهنم.

هداية الآيات:

١ - بطلان الشرك وتقرير التوحيد.

٢ - التكذيب باليوم الآخر والبعث والجزاء هو سبب كل شر وفساد يأتيه العبد.

٣ - التنديد بجريمة الاستكبار عن الحق والإذعان له.

٤ - بيان إثم وتبعة من يصد عن سبيل الله بصرف الناس عن الإسلام.

٥ - بيان تبعة من يدعو إلى ضلالة فإنه يتحمل وزر كل من عمل بها.

ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٢٧) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٢٨) فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ (٣١) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٣٢) هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٤)

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ ـ ٣٤]

(٢٦) ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: أي من قبل كفار قريش بمكة كالنمرود وغيره. ﴿فَأَتَى

---

(١) ﴿لَا جَرَمَ﴾: كلمة تحقيق ولا تكون إلا جوابًا، يقال: فعلوا كذا وكذا فيجاب بكلمة لا جرم أنهم سيندمون.

(٢) أي: فهو لا يثيبهم ولا يثني عليهم خيرًا، وفي الحديث الصحيح: **«إن المستكبرين يحشرون أمثال الذر يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبّرهم»**. قالت العلماء: كل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر، وهو أصل العصيان كله.

(٣) قيل: إن الآية نزلت في النضر بن الحارث وهو القائل: أساطير الأولين. والآية تشمله وغيره ممن قال ويقول هذه الكلمات الكاذبة الباطلة.

(٤) الأساطير: الأباطيل، والترهات، و﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: خبر والمبتدأ الذي أنزله أي: الذي أنزله أساطير الأولين.

(٥) وفي الصحيح شاهد هذا فقد روى مسلم أنه ﷺ قال: **«من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»**.

﴿ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم﴾: أي قصد إليه ليدمره فسلط عليه الريح والزلزلة فسقط من أسسه. ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾: أي سقط لتداعي القواعد وسقوطها.

(٢٧) ﴿كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾: أي تخالفون المؤمنين فيهم بعبادتكم إياهم وجدالكم عنهم، وتشاقون الله بمخالفتكم إياه بترك عبادته وعبادتكم إياها. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: أي الأنبياء والمؤمنون.

(٢٨) ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: بالشرك والمعاصي. ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾: أي استسلموا وانقادوا.

(٢٩) ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: أي قبح منزل المتكبرين في جهنم مثلاً.

(٣٠) ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾: أي اتقوا الشرك والمعاصي. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾: أي أعمالهم وأقوالهم ونياتهم فأتوا بها وفق مراد الله تعالى. ﴿حَسَنَةٌ﴾: أي الحياة الطيبة حياة العز والكرامة. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أي الجنة دار السلام.

(٣٢) ﴿طَيِّبِينَ﴾: أي الأرواح بما زكوها به من الإيمان والعمل الصالح. وبما أبعدوها عنه من الشرك والمعاصي. ﴿يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾: أي يقول لهم ملك الموت «عزرائيل» وأعوانه.

(٣٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: أي لقبض أرواحهم وعند ذلك يؤمنون. ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: أي بالعذاب أو بقيام الساعة وحشرهم إلى الله عز وجل.

(٣٤) ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي نزل بهم العذاب وأحاط بهم وقد كانوا به يستهزئون.

معنى الآيات:

(٢٦) ما زال السياق الكريم مع كفار قريش في تذكيرهم وتبصرهم بما هم فيه من الجهالة والضلالة. فيقول تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل مكر كفار قريش وذلك كالنمرود وفرعون وغيرهم من الجبابرة الذين تطاولوا على الله عز وجل ومكروا برسلهم، فالنمرود ألقى بإبراهيم في النار، وفرعون قال ذروني أقتل موسى وليدع ربه.. وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي أتاه أمر الله بهدمه وإسقاطه على الظلمة الطغاة ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾(١). وذهب باطلهم وزال مكرهم. ألم يتعظ بهذا كفرة قريش وهم يمكرون بنبيهم ويبيّتون له السوء بالقتل أو النفي أو الحبس؟

(٢٧) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي يهينهم ويذلهم ويوبخهم بقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ(٢) فِيهِمْ﴾ أي أصنامكم وأوثانكم الذين كنتم تخالفوني بعبادتكم إياهم دوني كما تشاقون أوليائي المؤمنين أي تخالفونهم بذلك وتحاربونهم فيه. وهنا يقول الأشهاد والذين أوتوا العلم من الأنبياء والعلماء الربانيين: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي إن الذل والهون والدون على الكافرين.

(٢٨) وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ(٣) ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالشرك والمعاصي ومن جملة المعاصي ترك الهجرة والبقاء بين ظهراني الكافرين والفساق المجرمين حيث لا يتمكن المؤمن من عبادة الله تعالى بترك المعاصي والقيام بالعبادات. وقوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي عند معاينتهم ملك الموت وأعوانه أي استسلموا وانقادوا وحاولوا الاعتذار بالكذب وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ فترد عليهم الملائكة قائلين: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي كنتم تعملون السوء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويقال لهم أيضًا.

(٢٩) ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي أبواب طبقاتها ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ﴾ جهنم ﴿مَثْوَى﴾ أي مقامًا ومنزلاً ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن عبادة الله وحده.

(٣٠) وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي ربهم فلم يشركوا به ولم يعصوه في أمره ولا نهيه وأطاعوا رسوله كذلك: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي إذا سألهم من أتى مكة يتعرف على

---

(١) أي: من حيث ظنوا أنهم في أمان، وقال ابن عباس يعني البعوضة التي أهلك الله تعالى بها النمرود الكنعاني.

(٢) قرىء: ﴿تشاقون﴾ بفتح النون وبكسرها على الإضافة، كما قرأ ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ ابن كثير: ﴿شركاي﴾ بفتح الياء وبدون همزة.

(٣) قيل: الآية نزلت في الذين تركوا الهجرة إلى المدينة وبقوا في مكة يزاولون أعمال الشرك خوفًا من المشركين، ومن بينهم الذين لمّا رأوا قلّة المؤمنين رجعوا إلى الشرك.

ما بلغه من دعوة الإسلام فيقولون له: ﴿خَيْرًا﴾ أي أنزل خيرًا لأن القرآن خير وبالخير نزل بخلاف تلاميذ المشركين يقولون أساطير الأولين كما تقدم في هذا السياق.

كما ذكر تعالى جزاء الكافرين وما يلقونه من العذاب في نار جهنم وهم الذين أساؤوا في هذه الحياة الدنيا إلى أنفسهم بشركهم بالله ومكرهم وظلمهم للمؤمنين، ذكر جزاء المحسنين. فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي آمنوا وعملوا الصالحات متبعين شرع الله في ذلك فأخلصوا عبادتهم لله تعالى ودعوا الناس إلى عبادة الله وحثوهم على ذلك فكانوا بذلك محسنين لأنفسهم ولغيرهم لهؤلاء الذين أحسنوا في الدنيا ﴿حَسَنَةٌ﴾ وهي الحياة الطيبة حياة الطهر والعزة والكرامة[(١)]، ولدار الآخرة خيرٌ لهم من دار الدنيا مع ما فيها من حسنة وقوله تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ثناء ومدح لتلك الدار الآخرة لما فيها من النعيم المقيم وإضافتها إلى المتقين باعتبار أنهم أهلها الجديرون بها إذ هي خاصة بهم ورثوها بإيمانهم وصالح أعمالهم بتركهم الشرك والمعاصي.

(٣١) وقوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ[(٢)] عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ هو وصف وبيان لدار المتقين فأخبر أنها جنات جمع جنة وهي البستان المشتمل على الأشجار والأنهار والقصور وما لذ وطاب من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمراكب وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ هذا نهاية الإكرام والإنعام إذ كون العبد يجد كل ما يشتهي ويطلب هو نعيم لا مزيد عليه وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي كهذا الجزاء الحسن العظيم يجزي الله المتقين في الدنيا والآخرة.

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ[(٣)]﴾ أي طاهري الأرواح لأرواحهم ريح طيبة ثمرة إيمانهم وصالح أعمالهم ونتيجة بعدهم عما يدنس أنفسهم من أوضار الشرك وعفن المعاصي. وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ أي تقول لهم الملائكة وهم ملك الموت وأعوانه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾[(٤)] تحييهم وفي ذلك بشارة لهم برضا ربهم وجواره الكريم. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بأرواحهم اليوم وبأجسامهم غدًا يوم القيامة. وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب ما كنتم تعملونه من الطاعات والمسابقة في الخيرات بعد عمل قلوبكم بالإيمان واليقين والحب في الله والبغض فيه عز وجل والرغبة والتوكل عليه. هذا ما تضمنته الآيات (٣١، ٣٢) وأما الآيات بعد ذلك فيقول الله مستبطئًا إيمان قريش وتوبتهم بعد تلك الحجج والبراهين والدلائل والبينات على صدق نبوة محمد ﷺ وعلى وجوب التوحيد وبطلان الشرك وعلى الإيمان باليوم الآخر.

(٣٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي ما ينظرون بعد هذا إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بإبادتهم واستئصالهم، إذ لم يبق ما ينتظرونه إلا أحد هذين الأمرين وكلاهما مر وشر لهم. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم السابقة فحلت بهم نقمة الله ونزل بهم عذابه فأهلكهم. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ تعالى في ذلك أبدًا ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإصرارهم على الشرك والعناد والمجاحدة والمكابرة.

(٣٤) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ﴾ أي جزاء سيئات ﴿مَا عَمِلُوا﴾ من الكفر والظلم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي نزل بهم وأحاط

---

(١) مع الفتح والنصر والغنائم أيضًا إذ الكل حسنة عظيمة.

(٢) ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: بدل من قوله: ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

(٣) طيّبين بإيمانهم وعملهم الصالح وبعدهم عن الشرك والمعاصي ووفاتهم أيضًا طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم بخلاف ما تقبض به أرواح أهل الكفر والشرك والفساد.

(٤) قال ابن المبارك: إذا استقنعت نفس العبد المؤمن «أي: اجتمعت في فيه تريد الخروج» جاءه ملك الموت فقال له: السلام عليك وليَّ الله، الله يقرأ عليك السلام، ثمّ قرأ هذه الآية: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إلخ..، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال: ربّك يقرئك السلام.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ إذ كانت رسلهم إذا خوفتهم من عذاب الله سخروا منهم واستهزؤوا بالعذاب واستخفوا به حتى نزل بهم والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - سوء عاقبة المكر وأنه يحيق بأهله لا محالة والمراد به المكر السيء.

٢ - بيان خزي الله تعالى يوم القيامة لأهل الشرك به والمعاصي له ولرسوله.

٣ - فضل أهل العلم إذ يتخذ منهم شهداء يوم القيامة ويشمتون بأهل النار.

٤ - بيان استسلام الظلمة عند الموت وانهزامهم وكذبهم.

٥ - تقرير معتقد البعث والحياة الآخرة بأروع أسلوب وأحكمه وأمتنه.

٦ - إطلاق لفظ خير على القرآن وهو حق خير فالذي أوتي القرآن أوتي الخير كله، فلا ينبغي أن يرى أحدًا من أهل الدنيا خيرًا منه وإلا سخط نعمة الله تعالى عليه.

٧ - سعادة الدارين لأهل الإحسان وهم أهل الإيمان والإسلام والإحسان في إيمانهم بالإخلاص وفي إسلامهم بموافقة الشرع ومراقبة الله تعالى في ذلك.

٨ - بشرى أهل الإيمان والتقوى عند الموت، وعند القيام من القبور بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين.

٩ - أعمال القلوب والجوارح سبب في دخول الجنة وليست ثمنًا لها لغلائها، وإنما الأعمال تزكي النفس وتطهر الروح وبذلك يتأهل العبد لدخول الجنة.

١٠ - ما ينتظر المجرمون بإصرارهم على الظلم والشر والفساد إلا العذاب، عاجلاً أو آجلاً فهو نازل بهم حتمًا مقضيًا إن لم يبادروا إلى التوبة الصادقة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٥ ـ ٤٠]

(٣٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾: هم كفار قريش ومشركوها. ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾: كالسوائب والبحائر والوصائل والحامات. ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾: أي ما على الرسل إلا البلاغ فالاستفهام للنفي.

(٣٦) ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾: أي عبادة الأصنام والأوثان. ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾: أي وجبت في علم الله أزلاً.

(٣٨) ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي غايتها حيث بذلوا جهدهم فيها مبالغة منهم. ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾: أي بلى يبعث من يموت وقد وعد به وعدًا وأحقه حقًا. فهو كائنٌ لا محالة.

(٣٩) ﴿يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾: أي بين المؤمنين من التوحيد والشرك. ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾: أي في قولهم: «لا نُبعث بعد الموت».

معنى الآيات:

(٣٥) ما زال السياق في الحجاج مع مشركي قريش فيقول تعالى مُخْبرًا عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي مع الله آلهة أخرى وهي أصنامهم كهبل واللات والعُزَّى وقالوا لو شاء الله عدم إشراكنا به ما أشركنا نحن ولا آباؤنا، ولا حرمنا من دون تحريمه شيئًا فهل قالوا هذا إيمانًا بمشيئة الله تعالى، أو قالوه استهزاء وسخرية دفاعًا عن شركهم وشرعهم الباطل في التحريم والتحليل بالهوى، والأمران محتملان. والرد عليهم بأمرين أولهما ما دام الله قد نهاهم عن الشرك والتشريع فإن ذلك أكبر دليل على تحريمه تعالى لشركهم ومحرماتهم من السوائب والبحائر وغيرها وثانيهما كونه لم يعذبهم عليها بعد ليس دليلاً على رضاه بها بدليل أن من سبقهم من الأمم والشعوب الكافرة قالوا قولتهم

هذه محتجين به على باطلهم فلم يلبثوا حتى أخذهم الله، فدل ذلك قطعًا على عدم رضاه بشركهم وشرعهم إذ قال تعالى في سورة الأنعام ردًا على هذه الشبهة ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ أي عذاب انتقامنا منهم لما كذبوا رسلنا وافتروا علينا. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ[1] مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من الأمم السابقة قالوا قول هؤلاء لرسلهم وفعلوا فعلهم حتى أخذهم الله بالعذاب. وقوله: ﴿فَهَلۡ[2] عَلَى ٱلرُّسُلِ[3] إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي ليس على الرسول إكراه المشركين على ترك الشرك ولا إلزامهم بالشرع وإنما عليه أن يبلغهم أمر الله تعالى ونهيه لا غير. فلذا كان في الجملة تسلية رسول الله ﷺ وحمله على الصبر حتى يبلغ دعوة ربه وينصره على أعدائه.

(٣٦) هذا ما دلت عليه الآية الأولى في هذا السياق (٣٥) وقوله في الآية الثانية (٣٦): ﴿وَلَقَدۡ[4] بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ فأخبر تعالى بأنه ما أخلى أمة من الأمم من إرسال رسول إليها لهدايتها وبيان سبيل نجاتها وتحذيرها من طرق غوايتها وهلاكها. كما أخبر عن وحدة الدعوة بين الرسل وهي لا إله إلا الله المفسرة بعبادة الله تعالى وحده، واجتناب الطاغوت وهو كل ما عبد من دون الله مما دعا الشيطان إلى عبادته بالتزيين والتحسين عن طريق الوسواس من جهة ومن طريق أوليائه[5] من الناس من جهةٍ أخرى.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم﴾ أي من الأمم المرسل إليهم ﴿مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فعرف الحق واعتقده وعمل به فنجا وسعِد، ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ[6] عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ أزلاً في كتاب المقادير لأنه أصر على الضلال وجادل عنه وحارب من أجله باختياره وحريته فحرمه الله لذلك التوفيق فضلَّ ضلالاً لا أمل في هدايته. وقوله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أمرٌ لكفار قريش المجادلين بالباطل المحتجين على شركهم وشرعهم الباطل أمرٌ لهم أن يسيروا في الأرض جنوبًا أو شمالاً فينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين أمثالهم من أمة عاد في الجنوب وثمود في الشمال، ومدين ولوط وفرعون في الغرب.

(٣٧) وقوله تعالى في تسلية رسوله والتخفيف من الهمّ عنه: ﴿إِن تَحۡرِصۡ﴾ يا رسولنا ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ أي هدايتهم إلى الحق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي[7] مَن يُضِلُّۖ﴾ فخفف على نفسك وهون عليها فلا تأسف ولا تحزن وادع إلى ربك في غير حرص يضير بك وقوله: ﴿لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ أي لا يقدر أحد أن يهدي من أضله الله، لأن إضلال الله تعالى يكون على سنن خاصة لا تقبل التبديل ولا التغيير لقوة سلطانه وسعة علمه. وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي وليس لأولئك الضلال الذين أضلهم الله حسب سنته من ناصرين ينصرونهم على ما سينزل بهم من العذاب وما سيحل بهم من خسرانٍ وحرمان.

---

(١) الإشارة بذلك إلى الإشراك وتحريمهم أشياء من تلقاء أنفسهم أي: كفعل هؤلاء فعل الذين من قبلهم ممن مكروا برسلهم وأهلكهم الله جل جلاله.

(٢) الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، ولذا جاء الاستثناء بعده أي: ما على الرسل إلا البلاغ، أي: ليس عليهم هداية الخلق إذ لا يملكون ذلك ولم يكلفوا به وإنما كلفوا بالبلاغ والبيان.

(٣) في الآية: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ...﴾ تسلية للرسول ﷺ وتعليم، وفيها أيضًا التحريض بإبلاغ المشركين.

(٤) هذا الكلام معطوف على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ متضمن بيانًا لسنة الله تعالى في إرسال الرسل لإحقاق الحق وإبطال الباطل ونصر المؤمنين، وهلاك الكافرين المكذّبين.

(٥) أولياء الشيطان: هم الكهان ودعاة الضلال الذين يصدّون عن سبيل الله بتزيين الباطل وتحسين الشرك والخرافة.

(٦) في هذا ردّ على القدرية نفاة القدر إذ معنى: ﴿حَقَّتۡ﴾: وجبت له أزلاً في كتاب المقادير.

(٧) قرىء في السبع ﴿يُهدى﴾ بضم الياء مبنيًا للمجهول وقرىء: ﴿يَهدي﴾ بفتح الياء مبنيًا للمعلوم وقراءة لا يهدي هي التي فسر بها في التفسير. وقراءة يهدي، أي: أن الله إذا كتب على عبد شقاء لا يهديه للخلاص منه.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

٢٧٢

(٣٨) وقوله تعالى في الآية (٣٨): ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ[1] جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ إخبار عن قول المشركين والمكذبين باليوم الآخر أصحاب القلوب المنكرة، ومعنى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ﴾[2] أي حلفوا أشد الأيمان إذ كانوا في الأمور التافهة يحلفون بآلهتهم وآبائهم. وإذا كان الأمر ذا خطر وشأن أقسموا بالله وبالغوا في الإقسام حتى يبلغوا جهد أيمانهم والمحلوف عليه هو أنهم إذا ماتوا لا يبعثون أحياء فيحاسبون ويجزون فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي تبعثون وعد الله حقًا فلا بد ناجز ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] فلذا ينفون البعث وينكرونه لجهلهم بأسرار الكون والحياة وعِلَلِ الوجود والعمل فيه فلذا أشار الله تعالى إلى بعض تلك العلل في قوله:

(٣٩) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ فلولا البعث الآخر ما عرف المُحق من المبطل في هذه الحياة والخلاف سائد ودائم بين الناس. هذا أولاً. وثانيًا: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾[4] في اعتقاداتهم وأعمالهم ونفيهم الحياة الثانية للجزاء على العمل في دار العمل هذه أما استبعادهم البعث بعد الموت نظرًا إلى وسائلهم ووسائطهم الخاصة بهم فقد أخبرهم تعالى بأن الأمر ليس كما تقدرون أنتم وتفكرون: إنه مجرد ما تتعلق إرادتنا بشيء نريد أن يكون، نقول له كن فيكون فورًا، والبعث الآخر من ذلك.

(٤٠) هذا ما دل عليه قوله في الآية (٤٠): ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن[5] فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ ولا يقولن قائل كيف يخاطب غير الموجود فيأمره ليوجد فإن الله تعالى إذا أراد شيئًا علمه أولاً ثم قال له كن فهو يكون.

هداية الآيات:

١ - الرد على شبهة المشركين في احتجاجهم بالمشيئة الإلهية.

٢ - تفسير لا إله إلا الله.

٣ - التحذير من تعمد الضلال وطلبه والحرص عليه فإن من طلب ذلك وأضله الله لا ترجى هدايته.

٤ - بيان بعض الحكم في البعث الآخر.

---

(١) روي أن رجلاً من المسلمين كان له دَين على مشرك فقاضاه منه وقال في بعض كلامه: والذي أرجوه بعد الموت، أنه لكذا وكذا فأقسم المشرك بالله: لا يبعث الله من يموت، فنزلت الآية.

(٢) ذكر القرطبي عن قتادة أن رجلاً قال لابن عباس: إنّ ناسًا يزعمون أنّ عليًا مبعوث بعد الموت قبل الساعة يتأوّلون هذه الآية فقال ابن عباس: كذب أولئك إنّما هذه الآية عامة للناس فلو كان عليّ مبعوثًا قبل يوم القيامة ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه.

(٣) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك**».

(٤) أي: في نفيهم البعث وإقسامهم على عدم وقوعه، وفي إنكارهم التوحيد والنبوّة أيضًا.

(٥) قال أهل العلم: في الآية دليل على عدم خلق القرآن إذ لو كان مخلوقًا لكان قوله: ﴿كُن﴾ مخلوقًا، ولاحتاج إلى قول ثانٍ، والثاني يحتاج إلى ثالث وتسلسل، وهذا محال. وفيها دليل على أن الله مريد لجميع الحوادث خيرها وشرها نافعها وضارها، والدليل أن من رأى في سلطانه ما يكرهه ولا يريده لأحد شيئين: إما لكونه جاهلاً لا يدري وإما لكونه مغلوبًا لا يطيق وهذا محال في حقه سبحانه وتعالى وبذلك تأكد أن الله مريد لكل ما يجري من أحداث في الملكوت وحكمته لا يخلو منها شيء.

٥ - لا يستعظم على الله خلق شيء وإيجاده، لأنه يوجد بكلمة التكوين فقط.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ - ٤٤]

(٤١) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾: أي خرجوا من مكة في سبيل الله نصرة لدينه وإقامته بين الناس. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: أي لننزلنهم دارًا حسنة هي المدينة النبوية هذا بالنسبة لمن نزلت فيهم الآية.

(٤٢) ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: أي على أذى المشركين وهاجروا متوكلين على ربهم في دار هجرتهم.

(٤٣) ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾: أي أيها الشاكون فيما جاء به محمد ﷺ فاسألوا أهل التوراة والإنجيل لإزالة شككم ووقوفكم على الحقيقة وأن ما جاء به محمد حق وأن الرسل قبله كلهم كانوا بشرًا مثله.

(٤٤) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾: أي أرسلناهم بشرًا بالبينات والزبر[١] لهداية الناس. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾: أي القرآن. ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾: علة لإنزال الذكر إذ وظيفة الرسل، البيان.

معنى الآيات:

(٤١) إنه بعد اشتداد الأذى على المؤمنين لعناد المشركين وطغيانهم، أذن الله تعالى على لسان رسوله للمؤمنين بالهجرة من مكة إلى الحبشة ثم إلى المدينة فهاجر رجال ونساء فذكر تعالى ثناءً عليهم وتشجيعًا على الهجرة من دار الكفر فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا[٢] فِي اللَّهِ﴾ أي في ذات الله ومن أجل عبادة الله ونصرة دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي من قبل المشركين ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أي لننزلهم ولنسكننهم ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهي المدينة النبوية ولنرزقنهم فيها رزقًا حسنًا هذا بالنسبة لمن نزلت[٣] فيهم الآية، وإلا فكل من هاجر في الله ينجز له الرب هذا الوعد كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أي في العيش والرزق ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ المعد لمن هاجر في سبيل الله ﴿أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٤].

(٤٢) هذا ترغيب في الهجرة وتشجيع للمتباطئين على الهجرة وقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٥] بيان لحالهم وثناء عليهم بخير لأنهم صبروا أولاً على الأذى في مكة ثم لما أذن لهم بالهجرة هاجروا متوكلين على الله تعالى مفوضين أمورهم إليه، واثقين في وعده. هذا ما دلت عليه الآيتان (٤١)، (٤٢). وأما الآية الثالثة (٤٣) والرابعة من هذا السياق فهما تقرير حقيقة علمية بعد إبطال شبهة المشركين القائلين كيف يرسل الله محمدًا رسولاً وهو بشر مثلنا لم لا يرسل ملكًا.

(٤٣) وهو ما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي من الرسل ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكة ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ بأمرنا وقوله: ﴿فَاسْأَلُوا﴾ أيها المشركون المنكرون أن يكون الرسول بشرًا، اسألوا أهل الذكر وهو الكتاب[٦] الأول أي اسألوا علماء أهل الكتاب اليهود والنصارى هل كان الله تعالى يرسل

---

(١) ﴿الزُّبُرِ﴾: الكتب.

(٢) أي: تركوا الوطن، والأهل، والقرابة كما تركوا السيئات. ومعنى في الله أي: لأجل الله إذ بدار الكفر لا يتمكنون من عبادة الله تعالى فإذا هاجروا تمكنوا فكانت هجرتهم إذًا لله أي لعبادته التي خلقهم من أجلها.

(٣) قيل: نزلت الآية في صهيب وبلال وعمار، وخبّاب إذ عذّبهم المشركون أشد العذاب حتى هاجروا، ويدخل في هذا أيضًا أبو جندل وغيره.

(٤) هذا صالح لكلّ من المؤمنين ومعذبيهم، غير أنه في المؤمنين أظهر إذ كان عمر رضي الله عنه إذا أعطى المهاجرين العطاء قال: هذا ما وعدكم الله في الدنيا وما ادخر لكم في الآخرة أكثر ثم يتلو هذه الآية: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

(٥) قال العلماء: خيارُ المؤمنين من إذا نابه أمر صبر وإذا عجز عن أمر توكل وهو المراد من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

(٦) يدخل في أهل الذكر أهل القرآن، وهم علماء هذه الأمّة، وبهذا أمر الله تعالى غير العالمين أن يسألوا أهل العلم، وأمر العالمين أن يعلّموا ويبيّنوا ومن كتم منهم عُذِّب.

الرسل من غير البشر ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإنهم يخبرونكم. وما موسى ولا عيسى إلا بشر.
(٤٤) وقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي أرسلنا أولئك الرسل من البشر بالبينات أي الحجج والدلائل الدالة على وجوب عبادتنا وترك عبادة من سوانا. والزبر أي الكتب. ثم يقول تعالى لرسوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وفي هذا تقريرٌ لنبوته وقوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعرفون صدق ما جئتهم به فيؤمنوا. ويتوبوا إلى ربهم فينجوا ويسعدوا.

هداية الآيات:

١ - فضل الهجرة ووجوبها عند اضطهاد المؤمن وعدم تمكنه من عبادة الله تعالى.

٢ - وجوب سؤال أهل العلم على كل من لا يعلم أمور دينه من عقيدة وعبادة وحكم.

٣ - السنة لا غنى عنها لأنها المبينة لمجمل القرآن والموضحة لمعانيه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٥ - ٥٠]

(٤٥) ﴿مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾: أي مكروا المكرات السيئات فالسيئات وصف للمكرات التي مكروها.
(٤٦) ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾: أي في البلاد مسافرين للتجارة وغيرها.
(٤٧) ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾: أي تنقص.
(٤٨) ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾: أي تتميل من جهةٍ إلى جهة. ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾: أي خضعًا لله كما أراد منهم. ﴿دَاخِرُونَ﴾: أي صاغرون ذليلون.
(٥٠) ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾: من أعلى منهم إذ هو تعالى فوق كل شيء ذاتًا وسلطانًا وقهرًا. ﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾: أي ما يأمرهم ربهم تعالى به.

معنى الآيات:

(٤٥) ما زال السياق في تخويف المشركين وتذكيرهم لعلهم يرجعون بالتوبة من الشرك والجحود للنبوة والبعث والجزاء. قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا﴾[1] المكرات ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ من محاولة قتل النبي ﷺ والشرك والتكذيب بالنبوة والبعث وظلم المؤمنين وتعذيب بعضهم، أفأمنوا ﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ من تحتهم فيقرون في أعماقها، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2] ولا يتوقعون من ريح عاصف تعصف بهم أو وباء يشملهم أو قحط يذهب بمالهم.
(٤٦) وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي في تجارتهم وأسفارهم ذاهبين آيبين من بلدٍ إلى بلد. ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾[3] له تعالى لو أراد أخذهم وإهلاكهم.
(٤٧) وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[4] أي تنقص[5] بأن يهلكهم واحدًا بعد واحد أو جماعة بعد جماعة حتى لا يبقى منهم أحدًا، وقد أخذ منهم ببدرٍ من أخذ وفي أحد. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تذكير لهم برأفته ورحمته إذ لولاهما لأنزل بهم نقمته وأذاقهم عذابه بدون إنظار لتوبةٍ أو إمهال لرجوع إلى الحق.
(٤٨) وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[6] من شجرٍ وجبل وإنسانٍ وحيوان ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾

---

(١) هذا وعيد للمشركين الذين احتالوا في إبطال الإسلام.

(٢) وقد تمّ لهم وذاقوا مُرًّا يوم بدر بقتل صناديدهم وأسرهم.

(٣) أي: بسابقين الله ولا فائتيه.

(٤) التخوّف: مصدر لفعل تخوّف إذا خاف، ومصدر لتخوّف المتعدي الذي بمعنى تنقص، وهو لغة هذيل، فللآية معنيان. الأول: أن يكون المعنى: يأخذهم العذاب وهم في حالة توقع بنزول العذاب لوجود أماراته كالرعد والبرق مثلًا. والثاني: أن يكون المعنى بأن يأخذهم وهم في حالة تنقص بأن يأخذ القرية فتخاف القرية الأخرى وهو واضح المعنى في التفسير.

(٥) ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير التخوّف: بأن يعاقب أو يتجاوز، ويشهد له الجملة التعليلية وهي: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو لا يعاجل بالعقوبة.

(٦) أي: من أي جسم قائم له ظل كشجرة أو جبل ومعنى تفيء الظلال: ميلانه من جانب إلى جانب ومنه سمي الظلّ بالعشي فيء: لأنه فاء من المشرق إلى المغرب أي: رجع، والفيء: الغنائم التي ترجع إلى المسلمين من الكافرين لأنّهم أحق بها فرجعت إليهم.

بالصباح والمساء ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ «جمع شمال» ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ خضعًا بظلالهم ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾[1] أي صاغرون ذليلون. أما يكفيهم ذلك دلالةً على خضوعهم لله وذلتهم بين يديه، فيؤمنوا به ويعبدونه ويوحدوه فينجوا من عذابه ويفوزوا برحمته.

(٤٩) وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ أي ولله لا لغيره يسجد بمعنى يخضع وينقاد لما يريده الله تعالى من إحياء أو إماتة أو صحة أو مرض أو خير أو غيره من دابةٍ أي من كل ما يدب من كائن على هذه الأرض ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2] على شرفهم يسجدون ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادة ربهم.

(٥٠) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ إذ هو العلي الأعلى وكل الخلق تحته. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فلا يعصون ربهم ما أمرهم. إذا كان هذا حال الملائكة فما بال هؤلاء المشركين يلجون في الفساد والاستكبار والجحود والمكابرة وهم أحقر سائر المخلوقات، وشر البريات إن بقوا على كفرهم وشركهم.

هداية الآيات:

١ - حرمة الأمن من مكر الله.

٢ - كل شيء ساجد لله، أي خاضع لما يريده منهم، إلا أن السجود الطوعي الاختياري هو الذي يثاب عليه العبد، أما الطاعة اللاإرادية فلا ثواب فيها ولا عقاب.

٣ - فضل السجود الطوعي الاختياري.

٤ - مشروعية السجود عند هذه الآية: إذا قرأ القارىء أو المستمع: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾، عليه أن يسجد إن كان متطهرًا إلى القبلة إن أمكن ويسبح في السجود ويكبر في الخفض والرفع ولا يسلم، ولا يسجد عند طلوع الشمس ولا عند غروبها.

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)

٢٧٣

شرح الكلمات:

[الآية: ٥١ ـ ٥٦]

(٥١) ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ﴾: أي تعبدونهما إذ ليس لكم إلا إله واحد.

(٥٢) ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي خلقًا وملكًا، إذًا فما تعبدونه مع الله هو لله ولم يأذن بعبادته.

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾: أي خالصًا دائمًا واجبًا.

(٥٣) ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾: أي ترفعون أصواتكم بدعائه طالبين الشفاء منه.

(٥٥) ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: تهديدٌ على كفرهم وشركهم ونسيانهم دعاء الله تعالى.

(٥٦) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾: أي يجعلون لآلهتهم نصيبًا من الحرث والأنعام. ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾: أي تختلقون بالكذب وتفترون على الله عز وجل.

---

(١) أي: خاضعون، والدخور: الصغار والذل يقال: دخر الرجل فهو داخر وأدخره الله. قال ذو الرمّة:

فلم يبق إلا داخر في مخيّس ... ومنجحر في غير أرضك في حجر

والشاهد في قوله: داخر أي: خاضع ذليل والمخيّس بناء من مدر يسجن فيه.

(٢) قيل: المراد بالملائكة: ملائكة الأرض، وخصّهم بالذكر وهم داخلون في عموم ما في السماوات وما في الأرض لشرف منزلتهم عند ربّهم جلّ جلاله، والملائكة يطيرون ولا يدبّون، فلذا أخرجوا أيضًا بالذكر.

(٥١) جائز أن يكون سكّان شرق الجزيرة من العرب قد انتقلت إليهم عقيدة المجوس المبنية على إله الخير وهو يزدان وإله الشر الذي هو أهرمُنْ وذلك لمجاورتهم لحكومة المجوس الممتدة إلى العراق، ويكون النهي في الآية موجهًا إليهم.

معنى الآيات:

بعد إقامة الحجج على التوحيد وبطلان الشرك أخبرهم أن الله ربهم رب كل شيء قد قال لهم: أيها الناس.

(٥١) ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ فلفظ اثنين توكيد للفظ إلهين أي لا تعبدوا إلهين بل اعبدوا إلهًا واحدًا وهو الله إذ ليس من إله إلا هو فكيف تتخذون إلهين والحال أنه ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لا غير وهو الله الخالق الرازق المالك، ومن عداه من مخلوقاته كيف تُسوَّى به وتُعبَد معه؟ وقوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[١] أي ارهبوني وحدي ولا ترهبوا سواي إن بيدي كل شيء، وليس لغيري شيء فأنا المحيي المميت، الضار النافع، يوبخهم على رهبتهم غيره سبحانه وتعالى من لا يستحق أن يُرهب لعجزه وعدم قدرته على أن ينفع أو يضر.

(٥٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٢] برهان على بطلان رهبة غيره أو الرغبة في سواه ما دام له ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا. وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ[٣] وَاصِبًاۚ﴾ أي العبادة والطاعة دائمًا ثابتًا واجبًا، ألا لله الدين الخالص. وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ يوبخهم على خوف سواه وهو الذي يجب أن يرهب ويخاف لأنه الملك الحق القادر على إعطاء النعم وسلبها، فكيف يُتقى من لا يملك ضرًا ولا نفعًا ويُعصى من بيده كل شيء وإليه مرد كل شيء، وما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن.

(٥٣) وقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[٤] يخبرهم تعالى بالواقع الذي يتنكرون له فيخبرهم أنه ما بهم من نعمة جلت أو صغرت من صحةٍ أو مالٍ أو ولد فهي من الله تعالى خالقهم وواهبهم حياتهم، وليست من أحدٍ غيره، ودلل على ذلك شعورهم الفطري وهو أنهم إذا مسهم الضر من فقرٍ أو مرض أو تغير حال كخوف غرقٍ في البحر فإنهم يرفعون أصواتهم إلى أعلاها مستغيثين بالله سائلينه أن يكشف ضرهم أو ينجيهم من هلكتهم المتوقعة لهم فقال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ﴾ دون غيره ﴿تَجۡـَٔرُونَ﴾ برفع أصواتكم بالدعاء والاستغاثة به سبحانه وتعالى.

(٥٤) وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ﴾ كبير ﴿مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ فيعبدون غيره بأنواع العبادات متناسين الله الذي كشف ضرهم وأنجاهم من هلكتهم.

(٥٥) وقوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ[٥] بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ أي ليؤول أمرهم إلى كفران ونسيان ما آتاهم الله من نعم وما أنجاهم من محن. أفهكذا يكون الجزاء؟ أينعم بكل أنواع النعم وينجي من كل كرب ثم ينسى له ذلك كله، ويعبد غيره؟ بل ويحارب دينه ورسوله؟ إذًا ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾[٦] أيها الكافرون ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة كفركم وإعراضكم عن طاعة الله وذكره وشكره.

(٥٦) وقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ وهذا ذكرٌ لعيب آخر من عيوبهم وباطلٍ من باطلهم أنهم يجعلون لأوثانهم التي لا يعلمون عنها شيئًا من نفع أو ضر أو إعطاء أو منع أو إماتة أو إحياء يجعلونها لها طاعةً للشيطان نصيبًا وحظًا من أموالهم يتقربون به إليها فسيبوا لها السوائب، وبحروا لها البحائر من الأنعام، وجعلوا لها من الحرث والغرس كذلك كما جاء ذلك

---

(١) الرهبة: الخوف، فمعنى ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾: خافوني ولا تخافوا سواي، وتقديم المفعول: ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ مؤذن بحصر الرهبة في الله تعالى ونفيها عمَّن سواه.

(٢) في الآية تقرير وحدانية الله تعالى إذ ما في السماوات له، وما في الأرض له فهو إذًا إله واحد وبطل التعدد الذي يراه المجوس.

(٣) لفظ الدّين هنا: صالح لأن يكون الطاعة يقال: دان فلان للملك: أطاعه وصالح لأن يكون الجزاء كقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وصالح لأن يكون الديانة والكل لله لا شريك له، فالطاعة واجبة له والجزاء هو الذي يملكه والديانة هو شارعها فهي له دون سواه.

(٤) فيه إشارة إلى بطلان إله الخير الذي يدين له المجوس الذين يقولون الخير من إله الخير، والشر من إله الشر.

(٥) وجائز أن تكون اللام: لام كي التعليلية.

(٦) الأمر للتهديد.

في سورة الأنعام والمائدة قبلها. وقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ[1] عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أقسم الجبار لهم تهديدًا لهم وتوعدًا أنهم سيسألون يوم القيامة عما كانوا يفترون أي من هذا التشريع الباطل حيث يحرمون ويحللون ويعطون آلهتهم ما شاؤوا وسوف يوبخهم عليه ويجزيهم به جهنم وبئس المهاد.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد بعبادة الله تعالى وحده.

٢ - وجوب الرهبة من الله دون سواه.

٣ - وجوب الدين لله إذ هو الإله الحق دون غيره.

٤ - كل نعمة بالعبد صغرت أو كبرت فهي من الله سبحانه وتعالى.

٥ - تهديد المشركين إن أصروا على شركهم وعدم توبتهم.

٦ - التنديد بالمشركين وتشريعهم الباطل بالتحليل والتحريم والإعطاء والمنع.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٧ ـ ٦٢]

(٥٧) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾: أي قالوا الملائكة بنات الله. ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾: أي الذكور من الأولاد.

(٥٨) ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾: أي متغيرًا بالسواد لما عليه من كرب. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي ممتلىء بالغم.

(٥٩) ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾: أي يدفن تلك المولودة حية وهو الوأد.

(٦٠) ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾: أي الصفة القبيحة. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: أي الصفة العليا وهي لا إله إلا الله.

(٦٢) ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي الجنة إذ قال بعضهم ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى. ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾: أي مقدمون إلى جهنم متروكون فيها.

معنى الآيات:

(٥٧) ما زال السياق في بيان أخطاء المشركين في اعتقاداتهم وسلوكهم فقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ[2] لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۩﴾[3] وهذا من سوء أقوالهم وأقبح اعتقادهم حيث ينسبون إلى الله تعالى البنات، إذ قالوا الملائكة بنات الله في الوقت الذي يكرهون نسبة البنات إليهم، حتى إذا بشر أحدهم بأنثى بأن أخبر بأنه ولدت له بنت ظل نهاره كاملاً في غم وكرب.

(٥٨) ﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[4]﴾ ممتلىء بالغم والهم.

(٥٩) ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ أي يستتر ويختفي عن أعين الناس خوفًا من المعرة، وذلك ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ وهو البنت وهو في ذلك بين أمرين إزاء هذا المبَشَّر به: إما أن يمسكه. أن يبقيه في بيته بين أولاده ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي مذلة وهوان، وإما أن ﴿يَدُسُّهُۥ[5] فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي يدفنه حيًا وهو الوأد المعروف عندهم. قال تعالى منددًا بهذا الإجرام: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ في حكمهم هذا من جهة نسبة البنات‌لله وتَبرُّئهم منها، ومن جهة وأد البنات[6] أو إذلالهن، قبح حكمهم الجاهلي هذا من حكم.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٧) وهي قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ حيث قالوا الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي نزه تعالى نفسه عن الولد والصاحبة فلا ينبغي أن يكون له ولد ذكرًا كان أو أنثى لأنه رب كل شيء ومليكه فما الحاجة إلى الولد إذًا؟

والآية الثانية (٥٨) وهي قوله

---

(١) هذا سؤال توبيخ ويتم في عرصات القيامة أو في النار.

(٢) هذه الآية نزلت في خزاعة وكنانة إذ زعموا أنّ الملائكة بنات الله، وكانوا يقولون: ألحقوا البنات بالبنات.

(٣) (ما): موصولة، وهو وصلته مبتدأ في محل رفع، والخبر متعلّق الجار والمجرور أي: ثابت لهم.

(٤) الكظيم: مشتق من الكظامة وهو شدّ فم القربة، إذ الكظيم هو المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلّم من الغمّ.

(٥) دسّها: إخفاؤها في التراب عن الناس حتى لا تعرف، وفي الحديث: «**من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له سترًا من النار يوم القيامة**».

(٦) كانت مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء، وأشدهم في هذا تميم زعموا خوف القهر عليهن وطمع غير الأكفاء فيهن وكان صعصع بن ناجية عمّ الفرزدق إذا أحسّ بشيء من ذلك وجّه إلى والد البنت إبلاً يستحييها بذلك، قال الفرزدق يفتخر:

وعمّي الذي منع الوائدات ... فأحيى الوئيد فلم يوأد

تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ[1] ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي أقام النهار كله مسود الوجه من الغم ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ممتلىء بالغم والهم. ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي من البنت ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

(٦٠) وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ يخبر تعالى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم منكروا البعث الآخر لهم المثل السوء[2] أي الصفة السوء وذلك لجهلهم وظلمة نفوسهم لأنهم لا يعملون خيرًا ولا يتركون شرًا، لعدم إيمانهم بالحساب والجزاء فهؤلاء لهم الصفة السوأى في كل شيء، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ[3] ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الصفة الحسنى وهو أنه لا إله إلا الله منزه عن النقائص رب كل شيء ومالكه، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا شريك له ولا ند له ولا ولد وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ثناء على نفسه بأعظم وصف العزة والقهر والغلبة لكل شيء والحكمة العليا في تدبيره وتصريفه شؤون عباده، وحكمه وقضائه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

(٦١) وقوله تعالى في الآية (٦١): ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾[4] أي على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي نسمة تدب على الأرض من إنسان أو حيوان فهذه علة عدم مؤاخذة الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم يفسدون ويجرمون وهذا الإهمال تابع لحكم عالية أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وقت معين محدد قد يكون نهاية عمر كل أحد، وقد يكون نهاية الحياة كلها فإذا جاء ذلك الأجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عنه أخرى ثم يجزيهم بأعمالهم السيئة بمثلها وما هو عز وجل بظلام للعبيد.

(٦٢) وآخر آية في هذا السياق (٦٢) تضمنت التنديد بسوء حال الذين لا يؤمنون بالآخرة وذلك أنهم لجهلهم بالله وقبح تصورهم لظلمة نفوسهم أنهم يجعلون لله تعالى ما يكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء وسب الرسول وازدرائه، ومع هذا يتبجحون بالكذب بأن لهم الحسنى أي الجنة يوم القيامة. فرد تعالى على هذا الافتراء والهُراء السخيف بقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقًا وصدقًا ولا محالة ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ بدل الجنة ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾[5] إليها مقدمون متروكون فيها أبدًا. هذا ما تضمنته الآية في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ[6]﴾ وإن قرىء مفرطون باسم الفاعل فهم حقًا مفرِطون في الشر والفساد والكفر والضلال والانحطاط إلى أبعد حد.

هداية الآيات:

١ - بيان الحال الاجتماعية التي كان عليها المشركون وهي كراهيتهم للبنات خوف العار.

٢ - بيان جهلهم بالرب تعالى فهم يؤمنون به ويجهلون صفاته حتى نسبوا إليه الولد والشريك.

٣ - بيان العلة في ترك الظَّلَمة يتمادون زمنًا في الظلم والشر والفساد.

---

(١) تكرّر شرح هذه الآية في التفسير سهوًا وهو غير ضار.

(٢) أي: صفة السوء من الجهل والكفر.

(٣) إن قيل: كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه عزّ وجلّ وقد قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فالجواب: إنّ قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ معناه الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص أي: لا تضربوا له مثلاً يقتضي نقصًا وتشبيهًا بالخلق والمثل الأعلى هو وصفه تعالى بما لا شبيه له ولا نظير.

(٤) قال ابن مسعود رضي الله عنه وقرأ هذه الآية: لو آخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب جميع الخلق حتى الجعلان في جحرها، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فماتت الدّواب ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل كما قال: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾.

(٥) أفرط يفرط: إذا تقدّم لطلب الماء فهو مفرط وهم مفرطون، وعليه فقوله تعالى: ﴿مُفْرِطون﴾ معناه يتقدّمون غيرهم إلى النار وهي قراءة ورش عن نافع وقرأ حفص: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ باسم المفعول، ومعناه: متروكون في النار منسيون فيها.

(٦) مفرّطون: اسم فاعل من فرّط المضاعف إذا ضيّع الحقوق الواجبة عليه.

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

٢٧٤

٤ - بيان سوء اعتقاد الذين لا يؤمنون بالآخرة وهو أنهم ينسبون إلى نفوسهم الحسنى ويجعلون لله ما يكرهون من البنات والشركاء وسب الرسل وامتهانهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٣ ـ ٦٦]

﴿٦٣﴾ ﴿تَاللَّهِ﴾: أي والله. ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: أي رسلاً. ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: فكذبوا لذلك الرسل. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾(١): أي الشيطان هو وليهم اليوم أي في الدنيا.

﴿٦٥﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾: أي دلالة واضحة على صحة عقيدة البعث الآخر. ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: أي سماع تدبر وتفهم.

﴿٦٦﴾ ﴿لَعِبْرَةً﴾: أي دلالة قوية يعبر بها من الجهل إلى العلم لأن العبرة من العبور. ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ﴾: أي ثُفل الكِرْش، أي الرَّوْث الموجود في الكرش. ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾: أي ليس فيه شيء من الفرث ولا الدم، لا لونه ولا رائحته ولا طعمه.

معنى الآيات:

﴿٦٣﴾ يقسم الله تعالى بنفسه لرسوله فيقول بالله يا رسولنا. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ رسلاً ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كانوا مشركين كافرين كأمتك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فقاوموا رسلنا وحاربوهم وأصروا على الشرك والكفر فتولاهم الشيطان، لذلك ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿٦٤﴾ والسياق الكريم في تسلية رسول الله ﷺ ولذا قال تعالى في الآية الثانية: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي لإرهاقك وتعذيبك ولكن لأجل أن تبين للناس الذي اختلفوا فيه من التوحيد والشرك والهدى والضلال. كما أنزلنا الكتاب هدىً يهتدي به المؤمنون إلى سبل سعادتهم ونجاحهم، ورحمةً تحصل لهم بالعمل به عقيدةً وعبادةً وخلقًا وأدبًا وحكمًا، فيعيشون متراحمين تسودهم الأخوة والمحبة وتغشاهم الرحمة والسلام.

بعد هذه التسلية لرسول الله ﷺ عاد السياق إلى الدعوة إلى التوحيد وعقيدة البعث والجزاء بعد تقرير النبوة المحمدية بقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ الآية.

﴿٦٥﴾ فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ(٢) ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ الماء هو ماء المطر وحياة الأرض بالنبات والزرع بعدما كانت ميتة لا نبات فيها وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بعد موتها ﴿لَءَايَةً﴾ واضحة الدلالة قاطعة على وجوده تعالى وقدرته، وعلمه ورحمته كما هو آية على البعث بعد الموت من باب أولى.

﴿٦٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ(٣) لَعِبْرَةً(٤)﴾ أي حالاً تعبرون

---

(١) الشيطان الذي زيّن للذين كفروا أعمالهم حتى ضلوا وهلكوا هو وليّ الذين كفروا اليوم يزيّن لهم أعمالهم ليضلّهم فيهلكوا كما هلك من قبلهم، وفي الآية تسلية للرسول ﷺ.

(٢) كون المسند فعلاً وهو: أنزل من السماء ماء أفاد التخصيص أي: الله وحده الذي أنزل من السماء ماء والمراد من السماء: السحاب.

(٣) هناك مناسبة ظاهرة بين الآيتين وهي: كما أنّ الأرض تحيى بماء السماء كذلك الإنسان يحيى بالألبان.

(٤) اسم جمع لكل جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز، والعبر: ما يتعظ به ويعتبر.

بها من الجهل إلى العلم.. من الجهل بقدرة الله ورحمته ووجوب عبادته بذكره وشكره إلى العلم بذلك والمعرفة به فتؤمنوا وتوحدوا وتطيعوا. وبين وجه العبرة العظيمة فقال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ[(١)]﴾ أي بطون المذكور من الأنعام ﴿مِن[(٢)] بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ فسبحان ذي القدرة العجيبة والعلم الواسع والحكمة التي لا يقادر قدرها.. اللبن يقع بين الفرث والدم، فينتقل الدم إلى الكبد فتوزعه على العروق لبقاء حياة الحيوان، واللبن يساق إلى الضرع، والفرث يبقى أسفل الكرش، ويخرج اللبن خالصًا من شائبة الدم وشائبة الفرث فلا يرى ذلك في لون اللبن ولا يشم في رائحته ولا يوجد في طعمه بدليل أنه سائغ للشاربين، فلا يغص به شارب ولا يشرق به، حقًا! إنها عبرة من أجل العبر تنقل صاحبها إلى نور العلم والمعرفة بالله في جلاله وكماله، فتورثه محبة الله وتدفعه إلى طاعته والتقرب إليه.

هداية الآيات:

١ - بيان أن الله يقسم بنفسه وبما شاء من[(٣)] خلقه.

٢ - بيان أن الله أرسل رسلاً إلى أمم سبقت وأن الشيطان زين لها أعمالها فخذلها.

٣-تقرير النبوة وتسلية رسول الله ﷺ من جراء ما يلقاه من المشركين.

٤ - بيان مهمة رسول الله وأنها بيان ما أنزل الله تعالى لعباده من وحيه في كتابه.

٥ - بيان كون القرآن الكريم هدىً ورحمة للمؤمنين الذين يعملون به.

٦ - دليل البعث والحياة الثانية إحياء الأرض بعد موتها فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات بعد فنائهم وبلاهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٧ ـ ٧٠]

(٦٧) ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾: أي ومن بعض ثمرات النخيل والأعناب ثمرٌ تتخذون منه سكرًا[(٤)]، أي خمرًا، ورزقًا حسنًا، أي والتمر والزبيب والنخل والدبس الرزق الحسن.

(٦٨) ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾: أي ألهمها أن تفعل ما تفعله بإلهام منه تعالى. ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾: أي يبنون لها.

(٦٩) ﴿سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾: أي طرق ربك مذللة فلا يعسر عليك السير فيها ولا تضلين عنها. ﴿شَرَابٌ﴾: أي عسل. ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾: أي من الأمراض إن شرب بنية الشفاء، أو بضميمته إلى عقار آخر.

(٧٠) ﴿إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾: أي أخسّه من الهرم والخرف، والخرف فساد العقل.

معنى الآيات:

(٦٧) ما زال السياق في ذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته الموجبة لعبادته وحده والمقررة لعقيدة النبوة والبعث الآخر. قال تعالى في معرض بيان ذلك بأسلوب الامتنان المقتضي للشكر: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ ورزقًا حسنًا أي ومن بعض ثمرات النخيل والأعناب ثمرٌ تتخذون منه سكرًا أي شرابًا مسكرًا. وهذا كان قبل تحريم[(٥)] الخمر ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو الزبيب والخل من العنب والتمر والدبس العسل من النخل وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

---

(١) البطون: جمع بطن وهو اسم للجوف الحاوية للجهاز الهضمي كلّه من معدة وكبد وأمعاء.

(٢) ﴿مِنْ﴾: زائدة لتوكيد التوسط أي: يفرز في حالة بين حالتي الفرث والدم وموقع: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ موقع الصفة والموصوف: لبنًا وقدّمت للاهتمام بها.

(٣) نحو: ﴿وَالْفَجْرِ (١)﴾، ﴿وَالتِّينِ﴾ وما إلى ذلك إلاّ أنّ بعض أهل العلم كمالك يرون أنّ المقسم به محذوف تقديره: وربّ الفجر، وربّ التين وهكذا.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: السكر ما حرم من ثمرتيهما والرزق الحسن، ما أحل من ثمرتيهما، وليست الخمر مقصورة على العنب والتمر فقد خطب عمر وقال: أيها الناس إنّ الله قد حرّم الخمر وهي من خمسة، من العنب والعسل والتمر والحنطة والشعير. والإجماع على أنّ كل مسكر حرام.

(٥) إن قيل: هذا خبر، والنسخ لا يكون في الأخبار، فالجواب: إن تضمّن الخبر حكمًا شرعيًا جاز نسخه، ومن أدلة ذلك هذا الخبر ونسخه.

يَعۡقِلُونَ﴾ أي أن فيما ذكرنا لكم لآية أي دلالة واضحة على قدرتنا وعلمنا ورحمتنا لقوم يعقلون الأمور ويدركون نتائج المقدمات، فذو القدرة والعلم والرحمة هو الذي يستحق التأليه والعبادة..

(٦٨) وقوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝﴾ هذا مظهر آخر عظيم من مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته يتجلى بإعلامه حشرة النحل كيف تلد العسل وتقدمه للإنسان فيه دواء من كل داء. فقوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾[1] بأن ألهمها ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ أيضا بيوتا، ﴿وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾[2] أي ومما يعرش الناس لَكِ أي يبنون لَكِ، اتخذي من ذلك بيوتًا لَكِ إذ النحلة تتخذ لها بيتًا داخل العريش الذي يعرش لها تبنيه بما تفرزه من الشمع.

(٦٩) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ألهمها أن تأكل من كل ما تحصل عليه من الثمرات من الأشجار والنباتات أي من أزهارها ونوارها وقوله لها: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗا﴾[3] بإلهام منه تسلك ما سخر لها وذلك من الطرق فتنتقل من مكان إلى آخر تطلب غذاءها ثم تعود إلى بيوتها لا تعجز ولا تضل وذلك بتذليل الله تعالى وتسخيره لها تلك الطرق فلا تجد فيها وعورة ولا تنساها فتخطئها. وقوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ[4] بُطُونِهَا﴾ أي بطون النحل ﴿شَرَابٞ﴾ أي عسل يشرب ﴿مُّخۡتَلِفٌ[5] أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ ما بين أبيض وأحمر وأسود، أو أبيض مشرب بحمرة أو يضرب إلى صفرة. وقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ أي من الأدواء، هذا التذكير في قوله شفاء دال على بعض دون بعض جائز هذا حتى يضم إليه بعض الأدوية أو العقاقير الأخرى، أمَّا مع النية أي أن يشرب بنية الشفاء من المؤمن فإنه شفاء لكل داء وبدون ضميمة أي شيء آخر له. وفي حديث الصحيح وخلاصته أن رجلًا شكا إلى رسول الله ﷺ استطلاق بطن أخيه أي مشي بطنه عليه فقال له: اسقه العسل، فسقاه فعاد فقال: ما أراه زاده إلا استطلاقًا فعاد فقال مثل ما قال أولاً ثلاث مرات وفي الرابعة أو الثالثة قال له رسول الله ﷺ: **«صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه العسل»** فسقاه فقام كأنما نشط من عقال.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من إلهام الله تعالى للنحل وتعليمها كيف تصنع العسل ليخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس لدلالة واضحة على علم الله وقدرته ورحمته وحكمته المقتضية عبادته وحده وتأليهه دون سواه ولكن لقوم يتفكرون في الأشياء وتكوينها وأسبابها ونتائجها فيهتدون إلى المطلوب منهم وهو أن يذكروا فيتعظوا فيتوبوا إلى خالقهم ويسلموا له بعبادته وحده دون سواه.

(٧٠) وقوله تعالى في الآية الأخرى (٧٠): ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ هذه آية أخرى أجل وأعظم في الدلالة على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته، وهي موجبة لعبادته وحده وملزمة بالإيمان بالبعث الآخر فخلق الله تعالى لنا وحده وهو واحد ونحن لا يحصى لنا عد، ثم إماتته لنا موتًا حقيقيًا بقبض أرواحنا ولا يستطيع أحد أن لا يموت ولا يتوفى أبدًا ثم من مظاهر الحكمة أن يتوفانا من آجالٍ مختلفة اقتضتها الحكمة لبقاء النوع واستمرار الحياة إلى نهايتها. فمن

---

(١) قيل: سمي النحل نحلًا: لأنّ الله تعالى نحله العسل الذي خرج منه.

(٢) بيوت النحل في ثلاثة، في الجبال وكواها، ومتجوّف الأشجار، وما يعرش لها من الأجباح والخلايا والحيطان، وعرش يعرش: إذا بنى عريشًا من الأغصان والخشب، ومن عجيب ما ألهم الله النحل أنّه يجعل بيوته مسدسة الشكل.

(٣) اللّفظ صالح لأن يكون لفظ ذللاً المراد به النحلة نفسها وذلل جمع ذلول وهي المنقادة المطيعة المسخرة، وصالح أن يكون المراد به الطرق التي تسلكها النحلة كما في التفسير.

(٤) روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تحقير الدنيا: أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة وأشرف شرابه فيها رجيع نحلة.

(٥) بحسب تنويع الغذاء كما أنّ الطعم يختلف باختلاف المراعي ومن هذا المعنى قول زينب رضي الله عنها: جرست نحلة العرفط، حين شبهت رائحته برائحة المغافير والعرفط شجر الطلح له صمغ كريه الرائحة.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

٢٧٥

الناس من يموت طفلًا ومنهم من يموت شابًا، وكلها حسب حكمة الابتلاء والتربية الإلهية، وآية أخرى أن منا من يرد إلى أرذل عمره، أي أرذأه وأخسَّه فيهرم ويخرف فيفقد ما كان له من قوة بدنٍ وعقل ولا يستطيع أحد أن يخلصه من ذلك إلا الله، مظهر قدرة ورحمة أرأيتم لو شاء الله أن يرد الناس كلهم إلى أرذل العمر ولو في قرنٍ أو قرنين من السنين فكيف تصبح حياة الناس يومئذ؟ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ تقرير لعلمه وقدرته، إذ ما نتج وما كان ما ذكره من خلقنا ووفاتنا ورد بعضنا إلى أرذل العمر إلا بقدرة قادر وعلم عالم وهو الله العليم القدير.

هداية الآيات:

١ - بيان منة الله تعالى على العباد بذكر بعض أرزاقهم لهم ليشكروا الله على نعمه.

٢ - بيان آيات الله تعالى الدالة على قدرته وعلمه وحكمته في خلق شراب الإنسان وغذائه ودوائه.

٣ - فضيلة العقل والتعقل والفكر والتفكر.

٤ - تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر الدال عليه القدرة والعلم الإلهيين، إذ من خلق وأماتَ لا يُستنكر منه أن يخلق مرة أخرى ولا يميت.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧١ - ٧٤]

﴿٧١﴾ ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾: أي فمنكم الغني ومنكم الفقير، ومنكم المالك ومنكم المملوك. ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: أي بجاعلي ما رزقناهم شركة بينهم وبين مماليكهم من العبيد.

﴿٧٢﴾ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: إذ حواء خلقت من آدم وسائر النساء من نطف الرجال.

﴿وَحَفَدَةً﴾: أي خدمًا من زوجه وولدٍ وولد ولد وخادم وختن.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾: أي بعبادة الأصنام يؤمنون.

﴿٧٣﴾ ﴿رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي بإنزال المطر من السماء، وإنبات النبات من الأرض.

معنى الآيات:

﴿٧١﴾ ما زال السياق العظيم في تقرير التوحيد وإبطال التنديد. فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ[1] بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ فمنكم من أغناه ومنكم من أفقره أيها الناس[2]، وقد يكون لأحدكم أيها الأغنياء عبيد مملوكين له، لم لا يرضى أن يشرك عبيده في أمواله حتى يكونوا فيها سواء لا فضل لأحدهما على الآخر؟ والجواب أنكم تقولون في استنكار عجيب كيف أسوِّي مملوكي في رزقي فأصبح وإياه

(١) هذا استدلال على قدرة الله وتدبيره وقهره لعباده إذ فضل بعضهم على بعض في الرزق تفضيلًا عجيبًا: هذا غني، وهذا فقير، هذا موسر، وهذا معسر فقد يفتقر الذكي القوي ويستغني البليد الضعيف كما قيل:

ومن الدليل على القضاء وكونه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

والآية متضمنة مثلًا ضربه لعبادة الأصنام، ونظير هذه المُثل في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ..﴾ إلخ..

(٢) يريد أنّ أغنياءهم لا يشاطرون عبيدهم رزقهم فيستووا فيه فكيف يرضون لله ما لا يرضونه لأنفسهم كما في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: البنون.

سواء؟ هذا لا يعقل أبدًا! إذًا كيف جوزتم إشراك آلهتكم في عبادة ربكم وهي مملوكة له تعالى إذ هو خالقها وخالقكم ومالك جميعكم؟ فأين يذهب بعقولكم أيها المشركون؟ وقوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؟ حقًا إنهم جحدوا نعمة العقل أولاً فلم يعترفوا بها فلذا لم يفكروا بعقولهم، ثم جحدوا نعمة الله عليهم في خلقهم ورزقهم فلم يعبدوه بذكره وشكره وعبدوا غيره من أصنام وأوثان لا تملك ولا تضر ولا تنفع. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٧١).

(٧٢) أما الآية الثانية فيقول تعالى فيها مقررًا إنعامه تعالى على المشركين بعد توبيخهم على إهمال عقولهم في الآية الأولى وكفرهم بنعم ربهم فيقول: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي وحده ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ[1] أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي جعل لكم من أنفسكم أزواجًا[2] أي بشريّات من جنسكم تسكنون إليهنّ وتتفاهمون معهن وتتعاونون بحكم الجنسية الآدمية وهي نعمة عظمى، وجعل لكم من أولئك الأزواج بنين بطريق التناسل والولادة وحفدة أيضًا والمراد من الحفدة كل من يحفد أي يسرع في خدمتك وقضاء حاجتك من زوجتك وولدك وولد ولدك وختنك أي صهرك، وخادمك إذ الكل يحفدون لك أي يسارعون في خدمتك بتسخير الله تعالى لك، وثالثًا: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي حلال الطعام والشراب على اختلافه وتنوع مذاقه وطعمه ولذته. هذا هو الله الذي تُدعون إلى عبادته وحده فتكفرون فأصبحتم بذلك تؤمنون بالباطل وهي الأصنام وعبادتها، وتكفرون بالمنعم ونعمه ولذا استحقوا التوبيخ والتقريع فقال تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ[3] يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾؟ إذ عدم عبادتهم للمنعم عز وجل هو عين كفرانهم بنعمة الله تعالى.

(٧٣) وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أصنامًا لا تملك لهم ﴿رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بإنزال المطر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بإنبات الزروع والثمار شيئًا ولو قلّ ولا يستطيعون شيئًا من ذلك لعجزهم القائم بهم لأنهم تماثيل منحوتة من حجر أو خشب وفي هذا من التنبيه لهم على خطئهم ما لا يقادر قدره.

(٧٤) وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ[4] إِنَّ ٱللَّهَ[5] يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ينهاهم تعالى عن ضرب الأمثال لله باتخاذ الأصنام آلهة بإطلاق لفظ إله عليها، والله لا مثل له، وباعتقاد أنها شافعة لهم عند الله وأنها تقربهم إليه تعالى، وأنها واسطة بمثابة الوزير للأمير إلى غير ذلك، فنهاهم عن ضرب هذه الأمثال لله تعالى لأنه عز وجل يعلم أنه لا مثل له ولا مثال، بل هو الله الذي لا إله إلا هو تعالى عن الشبيه والمثيل والنظير، وهم لا يعلمون فلذا هم متحيرون متخبطون في ظلمات الشرك وأودية الضلال.

هداية الآيات:

١ - قطع دابر الشرك في المثل الذي حوته الآية الأولى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾.

٢ - وجوب شكر الله تعالى على نعمه وذلك بذكره وشكره وإخلاص ذلك له.

٣ - قبح كفر النعم وتجاهل المنعم بترك شكره عليها.

٤ - التنديد بمن يضربون لله الأمثال وهم لا يعلمون باتخاذ وسائط له تشبيهًا لله تعالى بعباده فهم يتوسطون بالأولياء والأنبياء بدعائهم والاستغاثة بهم بوصفهم مقربين إلى الله تعالى

---

(١) أي: من نوعكم، ومِنْ: للابتداء ومِنْ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾: للتبعيض.

(٢) الأزواج: جمع زوج وهو ما يُكوّن مع آخر اثنين.

(٣) الباطل: ضد الحق لأنّ ما لا يخلق لا يعبد، فإن عُبد فقد عبد بالباطل، والجملة تحمل توبيخًا كبيرًا للمشركين.

(٤) الأمثال: جمع مثل بفتحتين بمعنى المماثل كشبه بمعنى مشابه، ومعنى ضربهم الأمثال لله تعالى: هو أنهم أثبتوا للأصنام صفات الإلهية وشبّهوها بالخالق عزّ وجلّ حيث عبدوها بالنذر لها وبالذبح والدعاء والإقسام بها والعكوف حولها.

(٥) جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تعليلية لنهيهم عن ضرب الأمثال لله تعالى. فنهيه تعالى لهم عن ضرب الأمثال لعلمه عزّ وجلّ أنه لا مثل له، وأنّ ما يضربونه له باطل، وهو تعالى منزّه عنه.

يستجيب لهم، ولا يستجيب لغيرهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٥ ـ ٧٨]

(٧٥) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾: أي هو عبدًا مملوكًا إلخ.. ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾: أي ليس بحُر بل هو عبد مملوك لغيره. ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾: أي العبيد العجزة والحُر المتصرف، والجواب: لا يستوون قطعًا.

(٧٦) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾: أي هو رجلين إلخ.. ﴿أَبْكَمُ﴾: أي ولد أخرس وأصم لا يسمع. ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: أي لا يَفهَمْ ولا يُفهِمْ غيره.

(٧٧) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي ما غاب فيهما. ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾: أي أمر قيامها، وذلك بإماتة الأحياء وإحيائهم مع من مات قبل وتبديل صور الأكوان كلها.

(٧٨) ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: أي القلوب.

معنى الآيات:

(٧٥) ما زال السياق في تقرير التوحيد والدعوة إليه وإبطال الشرك والتنفير منه وقد تقدم أن الله تعالى جهل المشركين في ضرب الأمثال له وهو لا مثل له ولا نظير، وفي هذا السياق ضرب تعالى مثلين وهو العليم الخبير.. فالأول قال فيه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ أي غير حر من أحرار الناس. ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ إذ هو مملوك لا حق له في التصرف في مال سيده إلا بإذنه[1]، فلذا فهو لا يقدر على إعطاء أو منع شيء، هذا طرف المثل، والثاني: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ صالحًا واسعًا ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ ليلًا ونهارًا لأنه حر التصرف بوصفه مالكًا ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ[2]﴾؟ الجواب لا يستويان.. إذًا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ[3] لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمثل مضروب للمؤمن والكافر، فالكافر أسير للأصنام عبدٌ لها لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، لا يعمل في سبيل الله ولا ينفق لأنه لا يؤمن بالدار الآخرة، والجزاء فيها، وأما المؤمن فهو حرٌ يعمل بطاعة الله فينفق في سبيل الله سرًا وجهرًا يبتغي الآخرة والمثوبة من الله، ذا علم وإرادة، لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا هو سبحانه وتعالى.

(٧٦) وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ هو المثال الثاني في هذا السياق وقد حوته الآية الثانية (٧٦) فقال تعالى فيه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ هو ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ[4] أَبْكَمُ﴾ ولفظ الأبكم قد يدل على الصمم فالغالب أن الأبكم لا يسمع ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ فلا يفهم غيره لأنه أصم ولا يُفهِم غيره لأنه أبكم، ﴿وَهُوَ كَلٌّ[5] عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي ابن عمه أو من يتولاه من أقربائه يقومون بإعاشته ورعايته لعجزه وضعفه وعدم قدرته على شيء. وقوله: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي أينما يوجهه مولاه وابن عمه ليأتي بشيء لا يأتي بخير، وقد يأتي بشر، أمّا النفع والخير فلا يحصل منه شيء.

وهذا مثل الأصنام التي تعبد من دون الله إذ هي لا تسمع ولا تبصر فلا تفهم ما يقال لها، ولا تُفهم عابديها شيئًا وهي محتاجة إليهم في صُنعِها ووضعها وحملها وحمايتها. وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الله تعالى يأمر بالعدل أي بالتوحيد والاستقامة في كل شيء، وهو قائم على كل شيء، وهو على صراطٍ مستقيم يدعو الناس إلى سلوكه لينجوا ويسعدوا في الدارين، فالجواب، لا يستويان بحال، فكيف

---

(١) هذه الآية منزع الفقهاء في ملكية العبد وعدمها، فذهب مالك إلى أنّ العبد يملك بإذن سيده، وهو ناقص الملك، وقال أبو حنيفة والشافعي في الجديد: العبد لا يملك شيئًا، وقالوا: الرّق ينافي الملك، وقول الرسول ﷺ: **«من أعتق عبدًا وله مال»** شاهد لمن قال: يملك ملكًا ناقصًا.

(٢) لم يقل: يستويان لأنّ مَنْ صالحة للواحد والجماعة.

(٣) لا يعلمون أن الله هو المستحق للحمد دون آلهتهم لأنّ الله تعالى هو المنعم بالخلق والرزق، والأصنام لا تخلق ولا ترزق فلذا الحمد له وحده.

(٤) هذا مثل آخر ضربه تعالى لنفسه وللمؤمن. قاله قتادة وغيره.

(٥) أي: ثقل على وليّه وقرابته ووبال على صاحبه وابن عمّه.

يرضى المشركون بعبادة وولاية الأبكم الذي لا يقدر على شيء ويتركون عبادة السميع البصير، القوي، القدير، الذي يدعوهم إلى كمالهم وسعادتهم في كلتا حياتهم، أمر يحمل على العجب، ولكن لا عجب مع أقدار الله وتدابير الحكيم العليم.

﴿٧٧﴾ وقوله تعالى في الآية (٧٧): ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] وحده يعلم ما غاب عنا فيهما فهو يعلم من كُتبت له السعادة ومن حُكم عليه بالشقاوة، ومن يهتدي ومن لا يهتدي، والجزاء آتٍ بإتيان الساعة ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ[2]﴾ أي إتيانها ﴿إِلَّا كَلَمْحِ[3] ٱلْبَصَرِ أَوْ[4] هُوَ أَقْرَبُ﴾ إذ لا يتوقف أمرها إلا على كلمة ﴿كُن﴾ فقط فتنتهي هذه الحياة بكل ما فيها، وتأتي الحياة الأخرى وقد تبدلت صور الأشياء كلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن ذلك قيام القيامة، ومجيء الساعة.

﴿٧٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ[5] أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ حقيقة لا تُنكر، الله الذي أخرجنا من بطون أمهاتنا بعد أن صورنا في الأرحام ونمانا حتى صرنا بشرًا ثم أذن بإخراجنا، فأخرجنا، وخرجنا لا نعلم شيئًا قط، هذه آية القدرة الإلهية والعلم الإلهي والتدبير الإلهي، فهل للأصنام شيء من ذلك، والجواب لا، وثانيا جعل الله تعالى لنا الأسماع والأبصار والأفئدة نعمة أخرى، إذ لولا ذلك ما سمعنا ولا أبصرنا ولا عقلنا وما قيمة حياتنا يومئذٍ، إذ العدم خيرٌ منها. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[6]﴾ كشف كامل عن سر هذه النعمة وهي أنه جعلنا نسمع ونبصر ونعقل ليكلفنا فيأمرنا وينهانا فنطيعه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وذلك شكره منا مع ما في ذلك الشكر من خير.. إنه إعداد للسعادة في الدارين. فهل من متذكر يا عباد الله؟!

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

هداية الآيات:

١ ـ استحسان ضرب الأمثال وهو تشبيه حال بحال على أن يكون ضارب المثل عالمًا.

٢ ـ بيان مثل المؤمن في كماله والكافر في نقصانه.

٣ ـ بيان مثل الأصنام في جمودها وتعب عَبَدتِها عليها في الحماية وعدم انتفاعهم بها. ومثل الرب تبارك وتعالى في عدله، ودعوته إلى الإسلام وقيامه على ذلك مع استجابة دعاء أوليائه، ورعايتهم، وعلمه بهم وسمعه لدعائهم ونصرتهم في حياتهم وإكرامهم والإنعام عليهم في كلتا حياتهم. ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٩ ـ ٨٣]

﴿٧٩﴾ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾:

---

(١) ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: اللام لام الملك، والغيب مصدر بمعنى اسم الفاعل أي: الأشياء الغائبة، والغيب: ما غاب عن أعين الناس.

(٢) الساعة: هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق بصيحة.

(٣) اللّمح: النظر بسرعة يقال: لمحه لمحًا ولمحانًا.

(٤) ليس (أو) للشك وإنما هي بمعنى بل الانتقالية من شيء إلى آخر كقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي: بل يزيدون.

(٥) البطون: جمع بطن وهو ما بين ضلوع الصدر إلى العانة، وفيه الأمعاء والمعدة والكبد والرحم.

(٦) الشكر: الاعتراف بالنعمة لله وحمده عليها وصرفها فيما يرضيه تعالى.

أي مذللات في الفضاء بين السماء والأرض وهو الهواء. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾: أي عند قبض أجنحتها وبسطها إلا الله تعالى بقدرته وسننه في خلقه.

(٨٠) ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾: أي مكانًا تسكنون فيه وتخلدون للراحة. ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾: أي خيامًا وقبابًا. ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾: أي ارتحالكم في أسفاركم. ﴿أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾: كبُسط وأكسية تبلى وتتمزق وتُرمى.

(٨١) ﴿ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾: أي ما تستظلون به من حر الشمس، وما تسكنون به في غيران الجبال. ﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾: أي قمصانًا تقيكم الحر والبرد. ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾: أي دروعًا تقيكم الضرب والطعان في الحرب. ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾: أي رجاء أن تسلموا له قلوبكم ووجوهكم فتعبدوه وحده.

معنى الآيات:

(٧٩) ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد والدعوة إليه وإبطال الشرك وتركه فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ[١] يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ[٢] فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ[٣] إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فإن في خلق الطير على اختلاف أنواعه وكثرة أفراده، وفي طيرانه في جو[٤] السماء، أي في الهواء وكيف يقبض جناحيه وكيف يبسطها ولا يقع على الأرض فمن يمسكه غير الله بما شاء من تدبيره في خلقه وأكوانه إن في ذلك المذكور لآياتٍ عدة تدل على الخالق وقدرته وعلمه وتوجب معرفته والتقرب إليه وطاعته بعبادته وحده، كما تدل على بطلان تأليه غيره وعبادة سواه، وكون الآيات لقوم يؤمنون هو باعتبار أنهم أحياء القلوب يدركون ويفهمون بخلاف الكافرين فإنهم أموات القلوب فلا إدراك ولا فهم لهم، فلم يكن لهم في ذلك آية..

(٨٠) وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ[٥] لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي موضع سكونٍ وراحة، ﴿وَجَعَلَ لَكُم[٦] مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿بُيُوتًا﴾ أي خيامًا وقبابًا ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي تجدونها خفيفة المحمل ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ أي ارتحالكم في أسفاركم وتنقلاتكم ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ في مكان واحد كذلك. وقوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ أي جعل لكم منه ﴿أَثَٰثًا﴾ كالبسط والفرش والأكسية (متاعًا) أي تتمتعون بها إلى حين بلاها وتمزقها[٧].

(٨١) وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من أشياء كثيرة ﴿ظِلَٰلًا﴾ تستظلون بها من حر الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا[٨]﴾ تكنون فيها أنفسكم من المطر والبرد أو الحر وهي غيران وكهوف في الجبال ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ قمصان ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ والبرد ﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾ هي الدروع ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ في الحرب تتقون بها ضرب السيوف وطعن الرماح. أليس الذي جعل لكم هذه كلها أحق بعبادتكم وطاعتكم، وهكذا ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ فبعث إليكم رسوله وأنزل عليكم كتابه ليُعِدّكم للإسلام فتسلموا. وهنا وبعد هذا البيان الواضح والتذكير البليغ يقول لرسوله.

(٨٢) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا عما ذكرتهم به فلا تحزن ولا تأسف إذ ليس عليك هداهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ

---

(١) قرىء بالتاء: ﴿ألم تروا﴾ وقرىء بالياء وهي قراءة الأكثر.

(٢) ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: أي: مذللات لأمر الله تعالى، ومذللات لمنافعكم أيضًا.

(٣) ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾: أي: في حال القبض والبسط والاصطفاف إلا الله عزّ وجلّ.

(٤) ﴿جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾: هو الفضاء الذي بين السماء والأرض، وإضافته إلى السماء لأنه يبدو متصلًا بالقبة الزرقاء فيما يخال الناظر.

(٥) ﴿جَعَلَ﴾: بمعنى أوجد وهذا شروع في تعداد النعم التي أنعم بها الخالق عزّ وجلّ على العباد، والسكن: مصدر، والمنة في كونه تعالى جعل الإنسان يسكن ويتحرّك ولو شاء لجعله متحرّكًا دائمًا كالأفلاك في السماء أو جعله كالأرض ساكنًا أبدًا.

(٦) بعد أن ذكر تعالى السكن في الدور ذكر السكن في البيوت المتنقلة وهي الخيام والقباب.

(٧) في الآية دليل على حليّة جلود الميتة ولكن بعد دبغها لحديث: «**أيما إهاب دبغ فقد طهر**».

(٨) الأكنان: جمع كن وهو: ما يكن عن الحرّ والريح والبرد وهو الغار في الجبل.

﴿ٱلْمُبِينُ﴾ وقد بلغت وبينت. فلا عليك بعد شيء من التبعة والمسؤولية.

(٨٣) وقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي نعمة الله عليهم كما ذكَّرناهم بها ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ فيعبدون غير المُنعم بها ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي الجاحدون المكذبون بنبوتك ورسالتك والإسلام الذي جئت به.

هداية الآيات:

١ - لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون لحياة قلوبهم، أما الكافرون فهم في ظلمة الكفر لا يرون شيئًا من الآيات ولا يبصرون.

٢ - مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته ونعمه تتجلى في هذه الآيات الأربع ومن العجب أن المشركين كالكافرين عمي لا يبصرون شيئًا منها وأكثرهم الكافرون.

٣ - مهمة الرسول ﷺ ليست هداية القلوب وإنما هي بيان الطريق بالبلاغ المبين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٤ ـ ٨٩]

(٨٤) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾: أي اذكر يوم نبعث. ﴿شَهِيدًا﴾: هو نبيها. ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي بالاعتذار فيعتذرون. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي لا يطلب منهم العتبى أي الرجوع إلى اعتقاد وقول وعمل ما يرضي الله عنهم.

(٨٥) ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾: أي الذين كانوا يعبدونهم من دون الله كالأصنام والشياطين.

(٨٦) ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾: أي ردوا عليهم قائلين لهم إنكم لكاذبون.

(٨٧) ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾: أي ذلوا له وخضعوا لحكمه واستسلموا. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وتنجيهم من عذابه، ومعنى ضل غاب.

(٨٨) ﴿عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾: أنه عقارب وحيات كالنَّخل الطوال والبغال الموكفة.

(٨٩) ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي القرآن. ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾: أي لكل ما بالأمة من حاجة إليه في معرفة الحلال والحرام والحق والباطل والثواب والعقاب.

معنى الآيات:

(٨٤) انحصر السياق الكريم في هذه الآيات الست في تقرير البعث والجزاء مع النبوة فقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾[1] أي اذكر يا رسولنا محمد يوم نبعث ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿شَهِيدًا﴾ هو نبيها الذي نبىء فيها وأرسل إليها ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي بالاعتذار فيعتذرون ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ[2]﴾ أي لا يطلب منهم العتبى[3] أي الرجوع إلى اعتقاد وقول وعمل يرضي الله عنهم أي اذكر هذا لقومك، علهم يذكرون فيتعظون، فيتوبون، فينجون ويسعدون.

(٨٥) وقوله في الآية الثانية (٨٥): ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي

الجزءُ الرَّابع عشَر — سُورةُ النَّحل

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

٢٧٧

---

(١) نظير هذه الآية آية النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ..﴾ الآية.

(٢) أي: لا يكلفون أن يرضوا ربهم لأنَّ الآخرة ليست دار تكليف ولا يمكنون من الرجوع إلى الدنيا فيتوبون.

(٣) العتبى: الرضا، والفعل: عتب يعتب عليه إذا وجد عليه في نفسه، وأعتبه: إذا أزال الموجدة ورجع إلى مسرّته وفي الحديث: «لك العتبى حتى ترضى» والعتبى: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب وهو المراد في الحديث.

يوم[1] القيامة ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يمهلون. اذكر هذا أيضًا تذكيرًا وتعليمًا، واذكر لهم.
(٨٦) ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ في عرصات القيامة أو في جهنم صاحوا قائلين ﴿رَبَّنَا﴾ أي يا ربنا ﴿هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا[2] الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أي نعبدهم بدعائهم والاستغاثة بهم، ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ فورًا ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.
(٨٧) ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي الاستسلام فذلوا لحكمه ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من ألوان الكذب والترهات كقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وأنهم ينجون من النار بشفاعتهم، وأنهم وسيلتهم إلى الله كل ذلك ضل أي غاب عنهم ولم يعثروا منه على شيء.
(٨٨) وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ غيرهم بالدعوة إلى الكفر وأسبابه والحمل عليه أحيانًا بالترهيب والترغيب ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ الذي استوجبوه بكفرهم. ورد أن هذه الزيادة من العذاب أنها عقارب كالبغال الدهم، وأنها حيات كالنخل الطوال والعياذ بالله تعالى من النار وما فيها من أنواع العذاب.
(٨٩) وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ أي اذكر يا رسولنا يوم نبعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي يوم القيامة ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا[3] عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي على من أرسلت إليهم من أمتك. فكيف يكون الموقف إذ تشهد على أهل الإيمان بالإيمان وعلى أهل الكفر بالكفر. وعلى أهل التوحيد بالتوحيد، وعلى أهل الشرك بالشرك إنه لموقف صعب تعظم فيه الحسرة وتشتد الندامة.. وقوله تعالى في خطاب رسوله مقررًا نبوته والوحي إليه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ﴿تِبْيَانًا[4] لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ الأمة في حاجة إلى معرفته من الحلال والحرام والأحكام والأدلة ﴿وَهُدًى﴾ من كل ضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ خاصة بالذين يعملون به ويطبقونه على أنفسهم وحياتهم فيكون رحمة عامة بينهم ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[5] أي المنقادين لله في أمره ونهيه بشرى لهم بالأجر العظيم والثواب الجزيل يوم القيامة، وبالنصر والفوز والكرامة في هذه الدار. وبعد إنزالنا عليك هذا الكتاب فلم يبق من عذر لمن يريد أن يعتذر يوم القيامة ولذا ستكون شهادتك على أمتك أعظم شهادة وأكثرها أثرًا على نجاة الناجين وهلاك الهالكين ولا يهلك على الله إلا هالك.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث الآخر بما لا مزيد عليه لكثرة ألوان العرض لما يجري في ذلك اليوم.
٢ - براءة الشياطين والأصنام الذين أشركهم الناس في عبادة الله من المشركين بهم والتبرؤ منهم وتكذيبهم.
٣ - زيادة العذاب لمن دعا إلى الشرك والكفر وحمل الناس على ذلك.
٤ - لا عذر لأحد بعد أن أنزل الله تعالى القرآن تبيانًا لكل شيء وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين.

شرح الكلمات:
[الآية: ٩٠ - ٩٣]

(٩٠) ﴿بِالْعَدْلِ﴾: الإنصاف ومنه التوحيد. ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾: أداء

---

(١) أي: عذاب جهنم بالدخول فيها.
(٢) أي: أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها، وذلك لأنّ الله تعالى يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يوردوهم النار، روى مسلم: «**من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت..**» الحديث، وفي الترمذي: «**فيمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره فيتبعون ما كانوا يعبدون**».
(٣) الشهداء: هم الأنبياء والعلماء، فالنبي يشهد على أمته والعالم يشهد على من أمره ونهاه ودلّ هذا على أنه لم تخل فترة من وجود داعٍ إلى الله تقوم به الحجة لله تعالى فقد قال رسول الله ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل: «**يبعث أمة وحده**». ومثل زيد قس وورقة وسطيح.
(٤) التبيان: مصدر دال على المبالغة في المصدرية وأريد به هنا اسم الفاعل أي: المبيّن لكل شيء.
(٥) خُصّ المسلمون دون غيرهم لأنّ غيرهم أعرضوا عنه فحرموا الهدى والرحمة والبشرى في الدارين.

الفرائض وترك المحارم مع مراقبة الله تعالى. ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أي إعطاء ذي القربى حقوقهم من الصلة والبر. ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾: الزنا. ﴿يَعِظُكُمْ﴾: أي يأمركم وينهاكم. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: أي تتعظون.

﴿٩١﴾ ﴿تَوْكِيدِهَا﴾: أي تغليظها.

﴿٩٢﴾ ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾: أي أفسدت غزلها بعد ما غزلته. ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾: أي إحكام له وبرم. ﴿أَنكَٰثًا﴾: جمع نكث وهو ما ينكث ويحل بعد الإبرام. ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾: هي حمقاء مكة وتدعى رَيْطَة بنت سعد بن تيم القرشية. ﴿دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾: الدخل ما يدخل في الشيء وهو ليس منه للإفساد والخديعة. ﴿أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾: أي أكثر منها عددًا وقوة.

معنى الآيات:

﴿٩٠﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾[1] أي أن الله يأمر في الكتاب الذي أنزله تبيانًا لكل شيء، يأمر بالعدل وهو الإنصاف ومن ذلك أن يعبد الله بذكره وشكره لأنه الخالق المنعم وتترك عبادة غيره لأن غيره لم يخلق ولم يرزق ولم ينعم بشيء. ولذا فسر هذا اللفظ بلا إله إلا الله، ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[2] وهو أداء الفرائض واجتناب المحرمات مع مراقبة الله تعالى في ذلك حتى يكون الأداء على الوجه المطلوب إتقانًا وجودة والاجتناب خوفًا من الله حياءً منه، وقوله: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي ذوي القرابات حقوقهم من البر والصلة. هذا مما أمر الله تعالى به في كتابه، ومما ينهى عنه الفحشاء وهو الزنا واللواط وكل قبيح اشتد قبحه وفحش حتى البخل ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهو كل ما أنكر الشرع وأنكرته الفطر السليمة والعقول الراجحة السديدة، وينهى عن البغي[3] وهو الظلم والاعتداء ومجاوزة الحد في الأمور كلها، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي أمر بهذا في كتابه رجاء أن تذكروا فتتعظوا فتمتثلوا الأمر وتجتنبوا النهي. وبذلك تكملون وتسعدون. ولذا ورد أن هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ[4] وَٱلْإِحْسَٰنِ[5]﴾ إلى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ هي أجمع آية في كتاب الله للخير والشر. وهي كذلك فما من خيرٍ إلا وأمرت به ولا من شر إلا ونهت عنه.

﴿٩١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالوفاء بالعهود فعلى كل مؤمن بايع إمامًا أو عاهد أحدًا على شيء أن يفي له بالعهد ولا ينقضه. «إذ لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» كما في الحديث الشريف. . وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟[6] ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الأيمان جمع يمين وهو الحلف بالله وتوكيدها تغليظها بالألفاظ الزائدة ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي وكيلاً، أي أثناء حلفكم به تعالى، فقد جعلتموه وكيلاً، فهذه

---

(١) ورد في فضل هذه الآية أنّ عثمان بن مظعون رضي الله عنه قال: ما أسلمت ابتداء إلاّ حياءً من رسول الله ﷺ ـ وكان أخاه من الرضاعة ـ حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الإيمان في قلبي فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: يا ابن أخي أعِد فأعدت فقال: والله إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أصله لمورق وأعلاه لمثمر وما هو بقول بشر.

(٢) الإحسان مصدر أحسن إحسانًا وهو متعدّ بنفسه نحو: أحسنت كذا إذا أتقنته وحسّنته وجوّدته، ومتعدّ بحرف الجرّ نحو: أحسنت إلى فلان، أي: أوصلت إليه ما ينفعه أو دفعت عنه ما يضرّه، وكلا المعنيين مراد في الآية وما في حديث جبريل يتناول الأول لأن من راقب الله تعالى أتقن عمله وحسنه.

(٣) ورد في البغي: لا ذنب أسرع عقوبة من البغي، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب، والباغي مصروع وقد وعد الله من بُغي عليه بالنصر في قوله: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾.

(٤) قال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه الآية أجمع آية في القرآن لخير يمتثل ولشرّ يجتنب.

(٥) روي أنّ جماعة رفعت شكوى بعاملها إلى أبي جعفر المنصور فحاجّها العامل فغلبها حيث لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جور في شيء، فقام فتى منهم وقال يا أمير المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ وإنّه عدل ولم يحسن فعجب أبو جعفر المنصور من إصابته، وعزل العامل.

(٦) هذا في الأيمان المؤكد بها الحلف في الجاهلية لقول الرسول ﷺ في حديث مسلم: «**لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في**

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

الآية حرمت نقض الأيمان وهو نكثها وعدم الالتزام بها بالحنث فيها لمصالح مادية[١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ[٢] مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيه وعيد شديد لمن ينقض أيمانه بعد توكيدها.

﴿٩٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾، وهي امرأة بمكة حمقاء[٣] تغزل ثم تنكث[٤] غزلها وتفسده بعد إبرامه وإحكامه فنهى الله تعالى المؤمنين أن ينقضوا أيمانهم بعد توكيدها فتكون حالهم كحال هذه الحمقاء. وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي إفسادًا وخديعة كأن تحالفوا جماعةً وتعاهدوها، ثم تنقضون عهدكم وتحلون ما أبرمتم من عهد وميثاق وتعاهدون جماعة أخرى لأنها أقوى وتنتفعون بها أكثر. هذا معنى قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي جماعة أكثر من جماعة رجالاً وسلاحًا ومالاً ومنافع. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي يختبركم فتعرض لكم هذه الأحوال وتجدون أنفسكم تميل إليها، ثم تذكرون نهي ربكم عن نقض الأيمان والعهود فتتركوا ذلك طاعة لربكم أو لا تفعلوا إيثارًا للدنيا عن الآخرة، ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ثم يحكم بينكم ويجزيكم، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته..

﴿٩٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على التوحيد والهداية لفعل.. ولكن اقتضت حكمته العالية أن يهدي من يشاء هدايته لأنه رغب فيها وطلبها، ويضل من يشاء إضلاله لأنه رغب في الضلال وطلبه وأصر عليه بعد النهي عنه. وقوله تعالى: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾[٥] أي سؤال توبيخ وتأنيب ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من سوء وباطل، ولازم ذلك الجزاء العادل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا بمثلها وهم لا يظلمون.

هداية الآيات:

١ - بيان أجمع آية للخير والشر في القرآن وهي آية.
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية (٩٠).

٢ - وجوب العدل والإحسان وإعطاء ذوي القربى حقوقهم الواجبة من البر والصلة.

٣ - تحريم الزنا واللواط وكل قبيح اشتد قبحه من الفواحش الظاهرة والباطنة.

= **الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلاّ شدة»** وأبطل ﷺ الحلف في الإسلام، لأن الإسلام جاء بنصرة المظلوم وأخذ الحق له من الظالم كما هو مبيّن في شريعته.

(١) أمّا إذا حلف العبد يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها فإنه ينقض يمينه ويكفر كفّارة يمين لقوله ﷺ: «**إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلاّ أتيت الذي هو خير وكفّرت عن يميني**».

(٢) هذه الجملة ذكرت علّة لتحريم نقض العهد فهي تحمل وعيدًا شديدًا وتهديدًا كبيرًا لمن ينقض العهد.

(٣) يقال لها ريطة بنت عمر وكانت تغزل طول النهار، وفي المساء إذا غضبت لحمقها تحلّ ما أبرمته من غزلها، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا كهذه الحمقاء فيحلون ما يبرمون من عقود وعهود.

(٤) النكث والجمع أنكاث: وهو النقض والحل بعد الإبرام.

(٥) اللام دالة على قسم محذوف نحو: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾.

٤ - تحريم البغي وهو الظلم بجميع صوره وأشكاله.

٥ - وجوب الوفاء بالعهود وحرمة نقضها.

٦ - حرمة نقض الأيمان بعد توكيدها وتوطين النفس عليها لتخرج لغو اليمين.

٧ - من بايع أميرًا أو عاهد أحدًا يجب عليه الوفاء ولا يجوز النقض والنكث لمنافع دنيوية أبدًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٤ ـ ٩٧]

(٩٤) ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾: أي لأجل الإفساد والخديعة. ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾: أي العذاب.

(٩٦) ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾: يفنى وينتهي.

(٩٧) ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: أي والحال أنه عندما عمل صالحًا كان مؤمنًا، إذ بدون إيمان لا عمل يقبل. ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾: في الدنيا بالقناعة والرزق الحلال وفي الآخرة هي حياة الجنة. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي يجزيهم على كل أعمالهم حسنها وأحسنها بحسب الأحسن فيها.

معنى الآيات:

(٩٤) ما زال السياق في تربية المؤمنين أهل القرآن الذي هو تبيان كل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين. وقال تعالى لهم: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا﴾ أي خديعة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ لتتوصلوا بالأيمان إلى غرض دنيوي سافل، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ[1] بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ بأن يقع أحدكم في كبيرة من هذا النوع، يحلف بالله بقصد الخداع والتضليل فتذوقوا السوء في الدنيا بسبب صدكم عن سبيل الله من تعاهدونهم أو تبايعونهم وتعطونهم أيمانكم وعهودكم ثم تنقضوها فهؤلاء ينصرفون عن الإسلام ويعرضون عنه بسبب ما رأوا منكم من النقض والنكث، وتتحملون وزر ذلك، ويكون لكم العذاب العظيم يوم القيامة. فإياكم والوقوع في مثل هذه الورطة، فاحذروا أن تزل قدم أحدكم عن الإسلام بعد أن رسخت فيه.

(٩٥) وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا[2] بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وكل ما في الدنيا قليل وقوله تعالى إنما عند الله هو خير لكم قطعًا، لأن ما عندكُمْ من مالٍ أو متاع ينفد أي يفنى.

(٩٦) ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ لا نفاذ له، فاذكروا هذا ولا تبيعوا الغالي بالرخيص والباقي بالفاني، وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على عهودهم ﴿أَجْرَهُم﴾ على صبرهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي يضاعف لهم الأجر فيعطيهم سائر أعمالهم حسنها وأحسنها بحسب أفضلها وأكملها حتى يكون أجر النافلة، كأجر الفريضة وهذا وعد من الله تعالى لمن يصبر على إيمانه وإسلامه ولا يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل.

(٩٧) ووعدٌ ثان في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً[3] وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ إلا أن أصحاب هذا الوعد هم أهل الإيمان والعمل الصالح، الإيمان الحق الذي يدفع إلى العمل الصالح، ولازم ذلك أنهم تخلوا عن الشرك والمعاصي، هؤلاء وعدهم ربهم بأنه يحييهم في الدنيا حياة طيبةً لا خبث فيها قناعة وطيب طعام[4] وشراب ورضا، هذا في الدنيا وفي الآخرة الجنة والجزاء يكون بحسب أحسن عمل عملوه من كل نوع، من الصلاة كأفضل صلاة وفي الصدقات بأفضل صدقة وهكذا. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ اللهم

---

(١) هذه الجملة دلت على المبالغة في النهي عن اتخاذ الأيمان دخلًا أي: خديعة، إذ مَنْ وقع في ورطة يقال: زلت قدمه لأنّ القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرّ.

(٢) نهى تعالى المؤمنين عن الرُشا وأخذ الأموال على نقض العهد أي: لا تنقضوا عهودكم لعرض قليل من الدنيا. روي أن امرء القيس بن عابس الكندي اختصم مع ابن أسوع في أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف فلمّا سمع هذه الآية نكل وأقر لخصمه بالأرض.

(٣) اختلف في معنى الحياة الطيّبة فقال بعضهم: هي الرزق الحلال، وقيل: هي القناعة وقيل: التوفيق إلى الطاعة الموجبة لرضوان الله تعالى، وقيل: هي حلاوة الطاعة، وقيل هي المعرفة بالله وصدق المقام بين يدي الله.

(٤) روى مسلم قول رسول الله ﷺ: **«قد أفلح من أسلم ورُزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه»**.

اجعلنا منهم واحشرنا في زمرتهم وآتنا ما وعدتهم إنك برّ رحيم.

هداية الآيات:

١ - حرمة اتخاذ الأيمان طريقًا إلى الغش والخديعة والإفساد.

٢ - ما عند الله خير مما يحصل عليه الإنسان بمعصيته الرحمن من حطام الدنيا.

٣ - عظم أجر الصبر على طاعة الله تعالى فعلًا وتركًا.

٤ - وعد الصدق لمن آمن وعمل صالحًا من ذكرٍ وأنثى بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٨ ـ ١٠٢]

(٩٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أي أردت أن تقرأ القرآن. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: أي قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لحمايتك من وسواسه.

(٩٩) ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾: أي قوة وتسلط على إفساد الذين آمنوا وإضلالهم، ما داموا متوكلين على الله.

(١٠١) ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾: أي بنسخها وإنزاله آية أخرى غيرها لمصلحة العباد.

(١٠٢) ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: أي جبريل عليه السلام. ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي على إيمانهم.

معنى الآيات:

(٩٨) ما زال السياق الكريم في هداية المسلمين وتكميلهم، فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يا محمد أنت أو أحد من المؤمنين أتباعك ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[(١)] أي إذا كنت قارئًا عازمًا على القراءة فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن ذلك يقيك من وسواسه الذي قد يفسد عليك تلاوتك[(٢)].

(٩٩) وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ﴾ أي للشيطان ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ يعني تسلط وغلبة وقهر ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وهذه بشرى خير للمؤمنين.

(١٠٠) ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾[(٣)] بطاعته والعمل بتزيينه للشر والباطل[(٤)]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ[(٥)] مُشْرِكُونَ﴾. هؤلاء هم الذين يتسلط الشيطان عليهم فيغويهم ويضلهم حتى يهلكهم.

(١٠١) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أي نسخنا حكمًا بحكم آخر بآية أخرى قال المشركون المكذبون بالوحي الإلهي ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُفْتَرٍ﴾ تقول بالكذب والخرص، أي يقول اليوم شيئًا ويقول غدًا خلافه. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ فإنه ينزله لمصلحة عباده فينسخ ويثبت لأجل مصالح المؤمنين. وعلم الله تعالى رسوله كيف يرد على هذه الشبهة وقال له:

(١٠٢) ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ[(٦)] مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فلست أنت الذي تقول ما تشاء وإنما هو وحي الله وكلامه ينزل به جبريل عليه السلام من عند ربك بالحق الثابت عند الله الذي لا يتبدل ولا يتغير، وذلك لفائدة تثبيت الذين آمنوا على إيمانهم وإسلامهم. فكلما نزل قرآن ازداد المؤمنون إيمانًا فهو كالغيث ينزل على الأرض كلما نزل ازدادت حياتها نضرة وبهجة فكذلك نزول القرآن تحيا به قلوب المؤمنين، وهو أي القرآن هدىً من كل ضلالة. وبشرى لكل المسلمين بفلاح الدنيا وفوز الآخرة.

---

(١) هذه كآية الوضوء: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟..﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم على غير وضوء فاغسلوا وجوهكم أي: توضؤوا.

(٢) لقد صحت الأحاديث الكثيرة في أنّ النبي ﷺ كان يتعوّذ في صلاته قبل القراءة، روي أن بعض السلف كان يتعوّذ بعد القراءة أخذًا بهذه الآية.

(٣) فائدة الاستعاذة قبل القراءة أن يحفظ المرء من أن يلبس عليه إبليس قراءته ويخلط عليه ويمنعه من التدبّر.

(٤) قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾: أي: أنه لا يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه.

(٥) الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد إلى الشيطان ويصح عوده على الله تعالى.

(٦) روح القدس: جبريل عليه السلام، «**فقد نزل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه ما عدا الفاتحة فقد نزل بها ملك لم ينزل إلى الأرض قط**» رواه مسلم.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

٢٧٩

هداية الآيات:

١ - استحباب الاستعاذة عند قراءة القرآن بلفظ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

٢ - بيان أنه لا تسلط للشيطان على المؤمنين المتوكلين على ربهم.

٣ - بيان أن سلطان الشيطان على أوليائه العاملين بطاعته المشركين بربهم.

٤ - بيان أن القرآن فيه الناسخ والمنسوخ.

٥ - بيان فائدة نزول القرآن بالناسخ والمنسوخ وهي تثبيت الذين آمنوا على إيمانهم وهدى من الضلالة وبشرى للمسلمين بالفوز والفلاح في الدارين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٣ - ١٠٩]

﴿١٠٣﴾ ﴿بَشَرٌ﴾: يعنون قينًا (حدادًا) نصرانيًا في مكة. ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾: أي يميلون إليه. ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾: أي القرآن فكيف يعلمه أعجمي.

﴿١٠٦﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾: أي على التلفظ بالكفر فتلفظ به. ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾: أي فتح صدره للكفر وشرحه له فطابت نفسه له.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾: أي عما يراد بهم.

﴿١٠٩﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾: أي حقًا. ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: أي لمصيرهم[(١)] إلى النار خالدين فيها أبدًا.

معنى الآيات:

﴿١٠٣﴾ ما زال السياق الكريم في الرد على المشركين الذين اتهموا الرسول ﷺ بالافتراء فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ[(٢)] أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أي يعلم محمدًا بشر أي إنسان من الناس، لا أنه وحي يتلقاه من الله. قال تعالى في الرد على هذه الفرية وإبطالها: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يميلون إليه بأنه هو الذي يعلم محمدًا لسانه ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾[(٣)] لأنه عبدٌ رومي، ﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ذو فصاحة وبلاغة وبيان فكيف يتفق هذا مع ما يقولون إنهم يكذبون لا غير.

﴿١٠٤﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهي نورٌ وهدى وحججٌ قواطع، وبرهان ساطع ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلى معرفة الحق وسبيل الرشد لأنهم أعرضوا عن طريق الهداية وصدوا عن سبيل العرفان وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي جزاء كفرهم بآيات الله.

﴿١٠٥﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي[(٤)] ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي إنما يختلق الكذب ويكذب فعلاً الكافر بآيات الله لأنه لا يرجو ثواب الله ولا يخاف عقابه، فلذا لا يمنعه شيء عن الكذب، أما المؤمن فإنه يرجو

---

(١) أي: لكون مصيرهم إلى النار وأيّ خسران أعظم من خسران مَنْ دخل النار فخسر نفسه وأهله قال تعالى فيه: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

(٢) اختلف في تعيين هذا الرجل فقيل: اسمه جبر ويكنى بأبي فكيهة، وقيل: اسمه عايش، وقيل: اسمه يعيش وكان روميًا وكان صيقليًا يشحذ السيوف ويحليها وكان يجلس إليه النبي ﷺ أحيانًا فقالوا قولتهم هذه.

(٣) العجمة: الإخفاء وضد البيان ورجل أعجم وامرأة عجماء أي: لا يفصح ولا يبين ومنه عجب الذنب لاستتاره والعجماء البهيمة والأعجمي من لا يتكلم العربية.

(٤) هذا جواب وصفهم النبي ﷺ بالكذب فأعلم تعالى أنّ الذي يفتري الكذب هو الكافر بآيات الله الكاذب الذي لا يعرف الصدق أبدًا.

ثواب الصدق ويخاف عقاب الكذب فلذا هو لا يكذب أبدًا، وبذا تعين أن النبي لم يفتر الكذب وإنما يفتري الكذب أولئك المكذبون بآيات الله وهم حقًا الكاذبون.

(١٠٦) وقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ[1] بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ[2]﴾ على التلفظ بالكفر ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ﴾ لا يخامره شك ولا يجد اضطرابًا ولا قلقًا فقال كلمة الكفر لفظًا فقط، فهذا كعمار بن ياسر كانت قريش تكرهه على كلمة الكفر فأذن له الرسول ﷺ في قولها بلسانه ولكن المستحق للوعيد الآتي ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ أي رضي بالكفر وطابت نفسه وهذا وأمثاله ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي باؤوا بغضب الله وسخطه ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

(١٠٧) وعلل تعالى لهذا الجزاء العظيم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بكفرهم بالله وعدم إيمانهم به لما في ذلك من التحرر من العبادات، فلا طاعة ولا حلال ولا حرام. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذا وعيد منه تعالى سبق به علمه وأن القوم الكافرين يحرمهم التوفيق للهداية عقوبة لهم على اختيارهم الكفر وإصرارهم عليه.

(١٠٨) وقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ وعلى سمعهم وأبصارهم أولئك الذين توعَّدهم الله بعدم هدايتهم الذين طبع على قلوبهم فهم لا يفهمون ﴿وَسَمۡعِهِمۡ﴾ فهم لا يسمعون المواعظ ودعاء الدعاة إلى الله تعالى ﴿وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾ فهم لا يبصرون آيات الله وحججه في الكون، وما حصل لهم من هذه الحال سببه الإعراض المتعمد وإيثار الحياة الدنيا، والعناد، والمكابرة، والوقوف في وجه دعوة الحق والصد عنها. وقوله: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ أي عمَّا خلقوا له، وعما يراد لهم من نكال في الآخرة وعذابٍ أليم.

(١٠٩) وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقًا ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ المغبونون حيث وجدوا أنفسهم في عذاب أليم دائم لا يخرجون منه ولا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون.

هداية الآيات:

١ ـ دفاع الله تعالى عن رسوله ودرء كل تهمةٍ توجه إلى رسول الله ﷺ.

٢ ـ المكذبون بآيات الله يحرمون هداية الله، لأن طريق الهداية هو الإيمان بالقرآن. فلما كفروا به فعلى أي شيء يهتدون.

٣ ـ المؤمنون لا يكذبون لإيمانهم بثواب الصدق وعقاب الكذب، ولكن الكافرين هم الذين يكذبون لعدم ما يمنعهم من الكذب إذ لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا.

٤ ـ الرخصة[3] في كلمة الكفر في حال التعذيب بشرط اطمئنان القلب إلى الإيمان وعدم انشراح الصدر بكلمة الكفر.

٥ ـ إيثار الدنيا على الآخرة طريق الكفر وسبيل الضلال والهلاك.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٠ ـ ١١٣]

(١١٠) ﴿هَاجَرُواْ﴾: أي إلى المدينة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾: أي فتنهم

---

(١) قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ عائد إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾. وقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾: نزلت في عمّار بن ياسر في قول أهل التفسير لأنه قارب أن يقول بعض ما طلبوه منه فرفع تعالى عنه الحرج وقال له الرسول ﷺ: «**أعطهم يا عمار**» وهو تحت العذاب وقال ﷺ: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**» واستثنى أهل العلم من أكره على قتل مؤمن أنه لا يقتله، وليكن المقتول ولا يقتل فلا يفد نفسه بأخيه حتى مجرّد الضرب لا يضربه.

(٢) أهل العلم على أنّ المكره على الطلاق وعلى الحلف وعلى الحنث أنه لا شيء فيه.

(٣) وكذلك الرخصة في العتاق والطلاق والنكاح والحلف والحنث ما دام مكرهًا فلا يلزمه شيء لحديث: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**» الحديث، وكذا من أكره على تسليم زوجته فلا شيء عليه، إذ أكره إبراهيم على ذلك وعصمه الله تعالى ومن صبر على ما أكره به من الضرب والتعذيب فله ذلك فقد صبر عبدالله بن حذافة السهمي على ألوان من التعذيب والتهديد على يد ملك الروم حيث أسر مع جمع من المسلمين فعذب ما شاء الله أن يعذّب ثم أطلق الأسرى، وقبّل عمر رضي الله عنه رأسه إكرامًا له واعترافًا بفضله لأنّ ملك الروم أخذ ما أكرهه عليه تقبيل رأسه فقبّله.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

المشركون بمكة فعذبوهم حتى قالوا كلمة الكفر مكرهين. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾: أي من بعد الهجرة والجهاد والصبر على الإيمان والجهاد. ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي غفورٌ لهم رحيم بهم.

﴿١١١﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾: أي اذكر يا محمد يوم تأتي كل نفسٍ تجادل عن نفسها.

﴿١١٢﴾ ﴿مَثَلًا قَرْيَةً﴾: هي مكة. ﴿رِزْقُهَا رَغَدًا﴾: أي واسعًا. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾: أي بالرسول والقرآن والأمن ورغد العيش. ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾: أي بسبب قحطٍ أصابهم حتى أكلوا العهن لمدة سبع سنين. ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾: حيث أصبحت سرايا الإسلام تغزوهم وتقطع عنهم سبل تجارتهم.

معنى الآيات:

﴿١١٠﴾ بعدما ذكر الله تعالى رخصة كلمة الكفر عند الإكراه وبشرط عدم انشراح الصدر بالكفر ذكر مخبرًا عن بعض المؤمنين، تخلفوا عن الهجرة بعد رسول الله ﷺ فلما أرادوا الهجرة منعتهم قريش وعذبتهم حتى قالوا كلمة الكفر، ثم تمكنوا من الهجرة فهاجروا وجاهدوا وصبروا فأخبر الله تعالى عنهم بأنه لهم مغفرته ورحمته، فلا يخافون ولا يحزنون فقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾[1] أيها الرسول ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ[2] مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ أي عُذبوا ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ[3] بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفورٌ لهم رحيمٌ بهم.

﴿١١١﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ[4] تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ أي اذكر ذلك واعظًا به المؤمنين أي تخاصم طالبةً النجاة لنفسها ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لأن الله عدلٌ لا يجور في الحكم ولا يظلم.

﴿١١٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً[5]﴾ أي مكة ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ من غارات الأعداء ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ لا ينتابها فزعٌ ولا خوف، لما جعل الله تعالى في قلوب العرب من تعظيم الحرم وسكانه، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي واسعًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾[6] حيث يأتيها من الشام واليمن في رحلتيهما في الصيف والشتاء ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ وهي تكذيبها برسول الله ﷺ وإنكارها للتوحيد، وإصرارها على الشرك وحرب الإسلام ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ فدعا عليهم الرسول اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف السبع

---

(١) لمّا كانت الهجرة لله ولرسوله ﷺ قرن الله تعالى اسمه مع اسم نبيّه ﷺ فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: بمغفرته ورحمته للذين هاجروا.

(٢) هاجروا أولاً إلى الحبشة ثم إلى المدينة النبوية.

(٣) أي: من بعد الحال التي كانت أيام تعذيبهم وفتنتهم على يد المشركين.

(٤) جائز أن يكون الظرف متعلقًا بقوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وجائز أن يكون معمولاً لفعل محذوف تقديره: اذكر، ومعنى تجادل: تخاصم وتحاج عن نفسها وفي الحديث: «**أن كل نفس يوم القيامة تقول: نفسي نفسي**» لشدة الهول.

(٥) هي مكة وكان النبي ﷺ قد دعا على أهلها فقال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**» فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام.

(٦) من البرّ والبحر، هذا كقوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

الشداد، فأصابهم القحط سبع سنوات فجاعوا حتى أكلوا الجيف والعهن، وأذاقها لباس الخوف إذ أصبحت سرايا الإسلام تعترض طريق تجارتها بل تغزوها في عقر دارها، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[1] أي جزاهم الله بالجوع والخوف بسبب صنيعهم الفاسد وهو اضطهاد المؤمنين بعد كفرهم وشركهم وإصرارهم على ذلك.

(١١٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ هو محمد ﷺ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي جحدوا رسالته وأنكروا نبوته وحاربوا دعوته ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عذاب الجوع والخوف والحال أنهم ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ أي مشركون وظالمون لأنفسهم حيث عرضوها بكفرهم إلى عذاب الجوع والخوف.

هداية الآيات:

١ - فضل الهجرة والجهاد والصبر، وما تكفر هذه العبادات من الذنوب وما تمحو من خطايا.

٢ - وجوب التذكير باليوم الآخر وما يتم فيه من ثوابٍ وعقاب للتجافي عن الدنيا والإقبال على الآخرة.

٣ - استحسان ضرب الأمثال من أهل العلم.

٤ - كفر النعم بسبب زوالها والانتقام من أهلها.

٥ - تكذيب الرسول ﷺ في ما جاء به، ولو بالإعراض عنه وعدم العمل به يجر البلاء والعذاب.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٤ - ١١٨]

(١١٤) ﴿فَكُلُواْ﴾: أي أيها الناس. ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾: أي غير حرام ولا مستقذر. ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: أي بعبادته وحده وبالانتهاء إلى ما أحل لكم عما حرمه عليكم. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: أي إن كنتم تعبدونه وحده فامتثلوا أمره، فكلوا مما أحل لكم وذروا ما حرم عليكم.

(١١٥) ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾: أي ما مات من الحيوان حتف أنفه من غير تذكية شرعية. ﴿وَٱلدَّمَ﴾: أي الدم المسفوح السائل لا المختلط باللحم والعظم. ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: أي ما ذكر عليه غير اسم الله تعالى. ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾: أي غير باغ على أحد، ولا عادٍ أي متجاوز حد الضرورة.

(١١٦) ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾: أي لا تحللوا ولا تحرموا بألسنتكم كذبًا على الله فتقولوا هذا حلال وهذا حرام بدون تحليل ولا تحريم من الله تعالى.

(١١٨) ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: أي اليهود. ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾: أي في سورة الأنعام.

معنى الآيات:

(١١٤) امتن الله عز وجل على عباده، فأذن لهم أن يأكلوا مما رزقهم من الحلال الطيب ويشكروه على ذلك بعبادته وحده وهذا شأن من يعبد الله تعالى وحده، فإنه يشكره على ما أنعم به عليه.

(١١٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ[2] عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ فلا تحرموا ما لم يحرم عليكم كالسائبة والبحيرة والوصيلة التي حرمها المشركون افتراءً على الله وكذبًا. وقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ منكم أي خاف على نفسه ضرر الهلاك بالموت لشدة الجوع وكان ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على أحد ولا معتدٍ ما أحل له إلى ما حرم عليه فليأكل ما يدفع به غائلة الجوع ولا إثم عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر للمضطر كما يغفر للتائب ويرحم المضطر فيأذن له في الأكل دفعًا للضرر رحمة به كما يرحم من أناب إليه.

(١١٦) وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ[3] هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي ينهاهم عن التحريم والتحليل من

---

(١) وقيل: إنّ القرية هذه هي المدينة، قالت هذا حفصة وعائشة زوجتا الرسول ﷺ وذلك لما قتل عثمان واشتد البلاء بأهل المدينة وعموم الآية ظاهر، وكونها مكة أظهر.

(٢) هذه الجملة بيان لمضمون جملة: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ لتمييز الطيّب من الخبيث وذكر تعالى هنا أربع محرمات وهي عشر جاءت في سورة المائدة إلاّ أنّ هذه الأربعة هي الأصول وما دونها تابع لها: المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة وما أكل السبع وما ذُبح على النصب فالخمسة الأولى تابعة للميتة والسادسة تابعة لما أهل به لغير الله.

(٣) ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة أي: مطلق الكذب.

تلقاء أنفسهم بأن يصفوا الشيء بأنه حلالٌ أو حرامٌ لمجرد قولهم بألسنتهم الكذب: هذا حلال وهذا حرام كما يفعل المشركون فحللوا وحرموا بدون وحي إلهي ولا شرع سماوي. ليؤول قولهم وصنيعهم ذلك إلى الافتراء على الله والكذب عليه.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ مع أن الكاذب على الله لا يفلح أبدًا لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ[1]﴾ وإن تمتعوا قليلاً في الدنيا بمالٍ أو ولد أو عزةٍ وسلطان فإن ذلك متاع قليل جدًا ولا يعتبر صاحبه مفلحًا ولا فائزًا. فإن وراء ذلك العذاب الأخروي الأليم الدائم الذي لا ينقطع.

﴿١١٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ يخاطب الله تعالى رسوله فيقول: كما حرمنا على هذه الأمة المسلمة الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به، حرمنا على اليهود ما قصصنا عليك من قبل في سورة الأنعام. إذ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ[2] هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾. وحرم هذا الذي حرم عليهم بسبب ظلم منهم فعاقبهم الله فحرم عليهم هذه الطيبات التي أحلها لعباده المؤمنين. ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - يجب مقابلة النعم بالشكر فمن غير العدل أن يكفر العبد نعم الله تعالى عليه فلا يشكره عليها بذكره وحمده وطاعته بفعل محابه وترك مساخطه.

٢ - بيان المحرمات من المطاعم وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله.

٣ - بيان الرخصة في الأكل من المحرمات المذكورة لدفع غائلة الموت.

٤ - حرمة التحريم والتحليل بغير دليل شرعي قطعي لا ظني إلا ما غلب على الظن تحريمه.

٥ - حرمة الكذب على الله وأن الكاذب على الله لا يفلح في الآخرة وفلاحه في الدنيا جزئي قليل لا قيمة له.. هذا إن أفلح.

٦ - قد يحرم العبد النعم بسبب ظلمه فكم حرمت أمة الإسلام من نعم بسبب ظلمها في عصور انحطاطها.

الجزء الرابع عشر — سورة النحل

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

٢٨١

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٩ - ١٢٤]

﴿١١٩﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ[3]﴾: أي ثم إن ربك غفورٌ رحيمٌ للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا. ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾: أي من بعد الجهالة والتوبة.

﴿١٢٠﴾ ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾: أي إمامًا جامعًا لخصال الخير كلها قدوة يقتدى به في ذلك. ﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ

---

(١) جملة: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾: جملة بيانية في جواب قول من قال: كيف لا يفلحون وهم يتمتعون بالطعام والشراب والنساء والأموال؟ فأجيب بأن هذا متاع قليل جدًا بالنظر إلى ما في الآخرة.

(٢) تقديم الجار والمجرور: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾ للاهتمام وللإشارة إلى أنّ ذلك التحريم كان انتقامًا منهم ولم يكن شرعًا لإكمالهم وإسعادهم.

(٣) الجهالة: انتفاء العلم بما يجب أن يعلم، والمراد بجهالتهم: جهالتهم بأدلة الشرع المحرّمة للشرك والكفر والفساد، والموجبة للتوحيد وطاعة الله ورسوله ﷺ. والباء في: ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾: للملابسة وهي في موضع الحال من ضمير عملوا.

﴿حَنِيفًا﴾: أي مطيعًا لله حنيفًا: مائلاً إلى الدين القيم الذي هو الإسلام.

(١٢١) ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾: أي ربه اصطفاه للخلة بعد الرسالة والنبوة.

(١٢٢) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: هي الثناء الحسن من كل أهل الأديان السماوية.

(١٢٤) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾: إن اليهود أمروا بتعظيم الجمعة فرفضوا وأبوا إلا السبت ففرض الله عليهم ذلك وشدد لهم فيه عقوبة لهم.

معنى الآيات:

(١١٩) بعدما ندّدت الآيات في سياق طويل بالشرك وإنكار البعث والنبوة من قبل المشركين الجاحدين المعاندين، وقد أوشك سياق السورة على الانتهاء فتح الله تعالى باب التوبة لهم وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي بالمغفرة والرحمة ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ فأشركوا بالله غيره وأنكروا وحيه وكذبوا بلقائه ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ فوحدوه تعالى بعبادته وأقروا بنبوة رسوله وآمنوا بلقائه واستعدوا له بالصالحات ﴿وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ ما كانوا قد أفسدوه من قلوبهم وأعمالهم وأحوالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد هذه التوبة[(١)] والأوبة الصحيحة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بهم.

فكانت بشرى لهم على لسان كتاب ربهم.

(١٢٠) ـ (١٢٣) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ[(٢)] كَانَ أُمَّةً[(٣)] قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ[(٤)] مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝﴾ إنه لما كان من شبه المشركين أنهم على دين أبيهم إبراهيم باني البيت وشارع المناسك ومحرم الحرم، واليهود والنصارى كذلك يدعون أنهم على ملة إبراهيم فأصر الجميع على أنه متبع لملة إبراهيم وأنه على دينه ورفضوا الإسلام بدعوى ما هم عليه هو دين الله الذي جاء به إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام، ومن باب إبطال الباطل وإزاحة ستار الشبه وتنقية الحق لدعوة الحق والدين الحق ذكر تعالى جملةً من حياة إبراهيم الروحية والدينية كمثال حي ناطق لكل عاقل إذا نظر إليه عرف هل هو متبع لإبراهيم يعيش على ملته أو هو على غير ذلك. فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً[(٥)]﴾ أي إمامًا صالحًا جامعًا لخصال الخير، يقتدي به كل راغب في الخير. هذا أولاً، وثانيًا: أنه كان قانتًا أي مطيعًا لربه فلا يعصي له أمرًا ولا نهيًا ثالثًا: لم يك من المشركين بحالٍ من الأحوال بل هو بريء من الشرك وأهله، ورابعًا: كان شاكرًا لأنعم الله تعالى عليه أي صارفًا نعم الله عليه فيما يرضي الله، خامسًا: اجتباه ربه أي اصطفاه لرسالته وخلته لأنه أحب الله أكثر من كل شيء فتخلل حب الله قلبه فلم يبق لغيره في قلبه مكان. فخالّه الله أي بادله خلة بخلّة فكان خليل الرحمن. سادسًا: وهداه إلى صراط مستقيم الذي هو الإسلام، سابعًا: وآتاه في الدنيا حسنة وهي الثناء الحسن والذكر الجميل من جميع أهل الأديان الإلهية الأصل. ثامنًا: وإنه في الآخرة لمن الصالحين الذين قال الله تعالى فيهم: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهي منزلة من أشرف المنازل وأسماها. تاسعًا: مع جلالة قدر النبي محمد ﷺ ورفعة مكانته أمره الله تعالى أن يتبع ملة إبراهيم حنيفًا.

هذا هو إبراهيم فمن أحق بالنسبة إليه، المشركون؟ لا! اليهود؟ لا، النصارى؟ لا! المسلمون الموحدون؟ نعم نعم اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمرتهم وأكرمنا يوم تكرمهم.

(١٢٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ

---

(١) وجائز أن يعود الضمير على الجهالة أيضًا كما جائز أن يعود على التوبة.

(٢) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾: هذه الجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا لغرض التنويه بدين الإسلام الذي هو دين إبراهيم من قبل.

(٣) الأمّة: الجامع للخير، والقانت: المطيع لله تعالى، والحنيف: المائل إلى الحق المجانب للباطل.

(٤) في الآية الدليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول ولا تبعة على الفاضل أي: لا غضاضة عليه ولا مساس بمقامه.

(٥) قال مالك: بلغني أنّ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: يرحم الله معاذًا كان أمّة قانتًا فقيل له: يا أبا عبدالرحمن إنّما ذكر الله عزّ وجلّ بهذا إبراهيم عليه السلام فقال عبدالله: (إن الأمة: الذي يعلّم الناس الخير وإنّ القانت: هو المطيع).

﴿ٱلسَّبْتُ﴾[1] ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فيه دليل على بطلان دعوى اليهود أنهم على ملة إبراهيم ودينه العظيم، إذ تعظيم السبت لم يكن من دين إبراهيم، وإنما سببه أن الله تعالى أوحى إلى أحد أنبيائهم أن يأمر بني إسرائيل بتعظيم الجمعة فاختلفوا في ذلك وآثروا السبت عنادًا ومكابرة فكتب الله عليهم تعظيم السبت. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيه وعيد لهم وأنه سيجزيهم سوءًا على تمردهم على أنبيائهم واختلافهم عليهم.

هداية الآيات:

١ - باب التوبة مفتوح لكل ذي ذنبٍ عَظُم أو صغُر على شرط صدق التوبة بالإقلاع الفوري والندم والاستغفار الدائم وإصلاح الفاسد.

٢ - تقرير التوحيد والإعلان عن شأن إبراهيم عليه السلام وبيان كمالاته وإنعام الله عليه.

٣ - بيان أن سبت اليهود هو من نقم الله عليهم لا من نعمه وأفضاله عليهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٥ - ١٢٨]

(١٢٥) ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾: أي إلى طاعته إذ طاعة الله موصلة إلى رضوانه وإنعامه فهي سبيل الله.

﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: أي بالقرآن والمقالة المحكمة الصحيحة ذات الدليل الموضح للحق. ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾: هي مواعظ القرآن، والقول الرقيق الحسن. ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: أي بالمجادلة التي هي أحسن من غيرها.

(١٢٦) ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾: أي خيرٌ من الانتقام عاقبةً.

(١٢٧) ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: أي لا تهتم بمكرهم، ولا يضيق صدرك به.

(١٢٨) ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾: أي اتقوا الشرك والمعاصي. ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾: أي في طاعة الله، ومعيته تعالى هي نصره وتأييده لهم في الدنيا.

معنى الآيات:

(١٢٥) يخاطب الرب تعالى رسوله تشريفًا وتكليفًا: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾[2] أي إلى دينه وهو الإسلام سائر الناس، وليكن دعاؤك ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ التي هي القرآن الكريم الحكيم ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي مواعظ القرآن وقصصه وأمثاله، وترغيبه وترهيبه، ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي خاصمهم بالمخاصمة التي هي أحسن وهي الخالية من السب والشتم والتعريض بالسوء، فإن ذلك أدعى لقبول الخصم الحق وما يدعي إليه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ من الناس ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وسيجزيهم المهتدي بهداه، والضال بضلاله، كما هو أعلم بمن ضل واهتدى أزلاً. فهون على نفسك ولا تشطط في دعوتك فتضر بنفسك، والأمر ليس إليك. بل لربك يهدي من يشاء ويضل من يشاء وما عليك إلا الدعوة بالوصف الذي وصف لك، بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

(١٢٦) وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾[3]

---

(١) أي: لم يكن في شرع إبراهيم ولا من دينه، إذ كان دين إبراهيم سمحًا لا تغليظ فيه، والسبت تغليظ على اليهود في ترك الأعمال وترك التبسّط في المعاش بسبب اختلافهم فيه أي: اختلفوا في يوم الجمعة بعدما أمروا بتعظيمه فأبت اليهود إلاّ السبت بدعوى أنّ الله فرغ من الخلق فيه. واختار النصارى الأحد: لأن الله ابتدأ الخلق فيه، وهدى الله أمّة الإسلام ليوم الجمعة الذي اختلفوا فيه ففي البخاري يقول ﷺ: «**نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة، ونحن أوّل من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له**». (يوم الجمعة).

(٢) قال القرطبي: هذه الآية نزلت بمكة في وقت مهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلّطف ولين دون مخاشنة وعُنف، وهكذا ينبغي أن يدعو المسلمون إلى يوم القيامة.

(٣) جمهور المفسرين على أن هذه الآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟...﴾ إلخ.. نزلت بالمدينة في شأن قتل حمزة والتمثيل به رضي الله عنه وأرضاه يوم أحد، ذكر ذلك البخاري وغيره وفي الآية دليل على وجوب المماثلة في القصاص ويحرم عدمها. وفي الآية دليل لمن قال بجواز أخذ مال من أخذ مال غيره إذا لم يتمكن منه بعلمه ورضاه على شرط أن لا يأخذ أكثر مما أخذ منه.

الجُزْءُ الخَامِسَ عَشَرَ — سُورَةُ الإِسْرَاءِ

ترتيبها ١٧ — سُورَةُ الإِسْرَاءِ — آياتها ١١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

٢٨٢

﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ لا أكثر، ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ وتركتم المعاقبة ﴿لَهُوَ﴾ أي صبركم ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من المعاقبة على الذنب والجناية.

﴿١٢٧﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ترك ما عزمت عليه أيها الرسول من التمثيل بالمشركين جزاء تمثيلهم بعمك حمزة، فأمره بالصبر ولازمه ترك المعاقبة والتمثيل معًا، وقوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي إلا بتوفيقه وعونه، فكن مع ربك تستمد منه الصبر كما تستمد منه العون والنصر. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على عدم اهتدائهم إلى الحق والأخذ به والسير في طريقه الذي هو الإسلام ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ[1]﴾ نفسي يؤلمك ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بك فإن الله تعالى كافيك مكرهم وشرهم إنه معك فلا تخف ولا تحزن لأنه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأنت منهم.

﴿١٢٨﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ[2] اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ يخبر تعالى رسوله والمؤمنين أنه عز وجل بنصره وتأييده ومعونته وتوفيقه مع الذين اتقوا الشرك والمعاصي فلم يتركوا فرائض دينه، ولم يغشوا محارمه والذين هم محسنون في طاعة ربهم إخلاصًا في النية والقصد، وأداءً على نحو ما شرع الله وبين رسول الله ﷺ.

هداية الآيات:

١ - وجوب الدعوة إلى الله تعالى أي إلى الإسلام وهو واجب كفائي، إذا قامت به جماعة أجزأ ذلك عنهم.

٢ - بيان أسلوب الدعوة وهو أن يكون بالكتاب والسنة وأن يكون خاليًا من العنف والغلظة والشدة، وأن تكون المجادلة بالتي هي أحسن من غيرها.

٣ - جواز المعاقبة بالأخذ بقدر ما أخذ من المرء، وتركها صبرًا واحتسابًا أفضل.

٤ - معية الله تعالى ثابتة لأهل التقوى والإحسان، وهي معية نصرٍ وتأييد وتسديد.

الجزء الخامس عشر

سورة الإسراء
مكية
وآياتها عشر ومائة

شرح الكلمات:

[الآية: ١]

﴿١﴾ ﴿سُبْحَانَ﴾: أي تنزه وتقدس عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله وهو الله جل جلاله. ﴿بِعَبْدِهِ﴾: أي بعبده ورسوله محمد ﷺ. ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: أي الذي بمكة. ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾: أي الذي ببيت المقدس. ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾: أي من عجائب قدرتنا ومظاهرها في الملكوت الأعلى.

معنى الآية الكريمة:

نزه الرب تبارك وتعالى نفسه عما نسب إليه المشركون من الشركاء والبنات وصفات المحدثين، فقال:

---

(١) الضيق والضَيق: بالكسر والفتح، يقال: في صدره ضيق وضِيق بالكسر والفتح، وقيل: الضيق بالفتح في الصدر، والضيق بالكسر في الدار والثوب ونحوهما.

(٢) قيل: لهرم بن حبان عند موته: أوصنا فقال: أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ..﴾ إلى ﴿مُحْسِنُونَ﴾.

﴿سُبْحَانَ[1] الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ[2]﴾ أي محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم القرشي العدناني ﴿لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي بالليل من المسجد الحرام بمكة إذ أخرج من بيت أم هانيء وغسل قلبه بماء زمزم وحشي إيمانًا وحكمة، ثم أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، وأخبر ﷺ أنه جمع الله تعالى له الأنبياء في المسجد الأقصى وصلى بهم إمامًا فكان بذلك إمام الأنبياء وخاتمهم ثم عرج به إلى السماء سماء بعد سماء يجد في كل سماء مقربيها إلى أن انتهى إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ثم عرج به إلى أن انتهى إلى مستوى سمع فيه صرير الأقلام وقوله تعالى: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي حول المسجد الأقصى[3] معنى حوله خارجه وذلك بالأشجار والأنهار والثمار أما داخله فالبركة الدينية بمضاعفة الصلاة فيه أي أجرها إذ الصلاة فيه بخمسمائة صلاة أجرًا ومثوبة وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ تعليل للإسراء والمعراج وهو أنه تعالى أسرى بعبده وعرج به ليريه من عجائب صنعه في مخلوقاته في الملكوت الأعلى، وليكون ما علمه من طريق الوحي قد علمه بالرؤية والمشاهدة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يعني تعالى نفسه بأنه هو السميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم فاقتضت حكمته هذا الإسراء العجب ليزداد الذين آمنوا إيمانًا وليرتاب المرتابون ويزدادون كفرًا وعنادًا.

هداية الآية الكريمة:

١ - تقرير عقيدة الإسراء والمعراج بالنبي ﷺ بالروح والجسد[4] معًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم إلى السماوات العلى، إلى مستوى سمع فيه صرير الأقلام وأوحى إليه تعالى ما أوحى وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس.

٢ - شرف المساجد الثلاثة: الحرام، ومسجد النبي ﷺ، والمسجد الأقصى أما المسجدان الحرام والأقصى فقد ذكرا بالنص وأما مسجد الرسول ﷺ فقد ذكر بالإشارة[5] والإيماء إذ قول الأقصى يقتضي قصيًا، فالقصي هو المسجد النبوي والأقصى هو مسجد بيت المقدس.

٣ - بيان الحكمة في الإسراء والمعراج وهي أن يرى الرسول ﷺ

---

(١) روي أنّ طلحة بن عبيدالله الفيّاض أحد العشرة المبشرين بالجنة سأل رسول الله ﷺ عن معنى سبحان الله فقال: «**تنزيه الله عن كل سوء**» وأسرى: فيها لغتان: أسرى وسرى فصيحتان، وجمع اللغتين في بيت واحد هو:

حيّ النضيرة ربّة الخدر ... أسرت إليّ ولم تكن تسري

وقيل: أسرى من أوّل الليل، وسرى من آخره، والإسراء، والسُّرى: سير الليل.

(٢) قالت العلماء: لو كان هناك اسم للنبي ﷺ أشرف من اسم عبد لسمّاه به في هذه الحال العليّة، وفي معناه قال الشاعر:

يا قوم قلبي عند زهراء ... يعرفه السامع والرائي
لا تدعُني إلاّ بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

(٣) المسجد الحرام: أول مسجد بني في الأرض، ويليه المسجد الأقصى والزمن بينهما أربعون سنة، والمسجد النبوي بني بعدهما بقرون طويلة، فهذه الثلاثة أشرف المساجد على الإطلاق وعليه فمن نذر صلاة فيها وجب عليه الوفاء بالصلاة فيها، ومن نذر الصلاة في مسجدٍ غيرها جاز أن يصلي في أي مسجد آخر.

(٤) لا قيمة للقول بأنّ الإسراء كان بالروح فقط إذ لو كان بالروح لكان من المنام، ولما قال تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ ولما قالت أم هانيء: لا تحدّث الناس فيكذبوك، ولا فضل أبو بكر بلقب الصدّيق ولا ما أمكن قريشًا التشنيع والتكذيب، ولما ارتد أفراد عن الإسلام بتشنيع قريش، وأما إطلاق لفظ الرؤيا على المنام خاصة فليس بذلك إذ قد يطلق لفظ الرؤيا على الرؤية في اليقظة، وأعظم دليل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى (١٤)﴾ أي: رأى الرسول ﷺ جبريل مرّة أخرى في الجنة في السماء ليلة الإسراء والمعراج كما رآه أوّل مرّة في جياد بمكة.

(٥) حدثنا شيخنا الطيب العقبي خريج المسجد النبوي الشريف: أنّه ألقى كلمة في الروضة بالمسجد النبوي ففتح الله تعالى عليه فذكر أنّ المسجد النبوي أشير إليه في آية الإسراء فهو إذًا مذكور في القرآن بالإيماء كما ذكرت في التفسير.

بعيني رأسه ما كان آمن به وعلمه من طريق الوحي فأصبح الغيب لدى رسول الله شهادة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢ ـ ٦]

(٢) ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي التوراة. ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾: أي جعلنا الكتاب أو موسى هدى أي هاديًا لبني إسرائيل. ﴿وَكِيلًا﴾: أي حفيظًا أو شريكًا.

(٣) ﴿مَنْ حَمَلْنَا﴾: أي في السفينة.

(٤) ﴿وَقَضَيْنَآ﴾: أي أعلمناهم قضاءنا فيهم. ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي التوراة. ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: أي بغيًا عظيمًا.

(٥) ﴿أُولَىٰهُمَا﴾: أي أولى المرتين. ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ﴾: أي ترددوا جائين ذاهبين وسط الديار يقتلون ويفسدون. ﴿وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾: أي منجزًا لم يتخلف.

معنى الآيات:

يخبر تعالى أنه هو الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وأنه هو الذي آتى موسى الكتاب أي التوراة فهو تعالى المتفضل على محمد ﷺ وعلى أمته بالإسراء به والمعراج وعلى موسى بإعطائه الكتاب ليكون هدى وبيانًا لبني إسرائيل فهو متفضل أيضًا على بني إسرائيل فله الحمد وله المنة.

(٢) قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب ﴿هُدًى﴾ أي بيانًا لبني إسرائيل يهتدون إلى سُبل الكمال والإسعاد وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل من أجل ألا يتخذوا من غيري حفيظًا لهم يشركونه بي بالتوكل عليه وتفويض أمرهم إليه ناسين لي وأنا ربهم وولي نعمتهم.

(٣) وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي يا ذرية[1] من حملنا مع نوح اشكروني كما شكرني نوح على إنجائي إياه في السفينة مع أصحابه فيها، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي نوحًا ﴿كَانَ عَبْدًا[2] شَكُورًا﴾ فكونوا أنتم مثله فاشكروني بعبادتي ووحدوني ولا تتركوا طَاعَتِي ولا تشركوا بي سِوَايَ.

(٤) وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝﴾ يخبر تعالى بأنه أعلم بني إسرائيل بقضائه فيهم وذلك في كتابهم التوراة أنهم يفسدون في الأرض بارتكاب المعاصي وغشيان الذنوب، ويعلون في الأرض بالجراءة على الله وظلم الناس ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي عظيمًا. ولا بد أن ما قضاه واقع.

(٥) وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي وقت المرة الأولى ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ[3] أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي قوة وبطش في الحرب شديد، وتم هذا لما أفسدوا وظلموا بانتهاك حدود الشرع والإعراض عن طاعة الله تعالى حتى قتلوا نبيهم «أرميا» عليه السلام وكان هذا على يد الطاغية جالوت فغزاهم من أرض الجزيرة ففعل بهم مع جيوشه ما أخبر تعالى به في قوله: ﴿فَجَاسُوا۟[4] خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ ذاهبين جائين قتلًا وفتكًا وإفسادًا نقمة الله على بني إسرائيل لإفسادهم وبغيهم البغي العظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي ما حصل لهم في المرة

---

(١) قرىء ذَرية بفتح الذال، وقرىء ﴿ذِرِّيَّةَ﴾ بكسر الذال أيضًا فهي إذًا مثلثة واللفظ مشتق من الذرء، الذي هو الخلق، فيقال: ذرأ يذرأ ذرأ: إذا خلق وفي الآية تذكير بني إسرائيل بواجب الشكر أي اشكروا كما شكر نوح، وفيها تعريض لهم بأنهم إذا لم يشكروا يؤخذوا كما أخذ قوم نوح.

(٢) أثنى تعالى على عبده نوح بكثرة الشكر لأنّ شكور: من صيغ المبالغة معناه كثير الشكر، روي أنه كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء لأجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي أرواني ولو شاء لأظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني.

(٣) قال: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ ولم يقل: عبادي لأنهم أهل كفر وشرك وفسق فلم يشرفهم بالإضافة إليه ووصفهم بأنهم من ملكه فسخرهم لتأديب عباده الذين فسقوا عن أمره وخرجوا عن طاعته.

(٤) الجوس: وهو مصدر جاس يجوس جوسًا معناه: التخلل في البلاد وطرقها ذهابًا وإيابًا لتتبع ما فيها، والمراد به تتبع المقاتلة لقتالهم.

الأولى[1] من الخراب والدمار ومن أسبابه كان بوعد من الله تعالى منجزًا فوفاه لهم، لأنه قضاه وأعلمهم به في كتابهم.

﴿٦﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي بعد سنين طويلة وبنو إسرائيل مضطهدون مشردون نبتت منهم نابتة وطالبت بأن يعين لهم ملكًا يقودهم إلى الجهاد وكان ذلك كما تقدم في سورة البقرة جاهدوا وقتل داود جالوت وهذا معنى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي رجالاً في الحروب وكثرت أموالهم وأولادهم وتكونت لهم دولة سادت العالم على عهد داود وسليمان عليهما السلام.

هداية الآيات:

١ - بيان أفضال الله تعالى على الأمتين الإسلامية والإسرائيلية.

٢ - بيان سر إنزال الكتب وهو هداية الناس إلى عبادة الله تعالى وتوحيده فيها.

٣ - وجوب شكر الله تعالى على نعمه إذ كان نوح عليه السلام إذا أكل الأكلة قال الحمد لله، وإذا شرب الشربة قال الحمد لله، وإذا لبس حذاءه قال الحمد لله وإذا قضى حاجة قال الحمد لله فسمي عبدًا شكورًا وكذا كان رسول الله والصالحون من أمته إلى اليوم.

٤ - ما قضاه الله تعالى كائن، وما وعد به ناجز، والإيمان بذلك واجب.

٥ - التنديد بالإفساد والظلم والعلو في الأرض، وبيان سوء عاقبتها.

الجزءُ الخامس عشر — سورةُ الإسراء

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

٢٨٣

شرح الكلمات:

[الآية: ٧، ٨]

﴿٧﴾ ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾: أي طاعة الله وطاعة رسوله بالإخلاص فيها وبأدائها على الوجه المشروع لها.

﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾: أي أن الأجر والمثوبة والجزاء الحسن يعود عليكم لا على غيركم. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾: أي في الطاعة فإلى أنفسكم سوء عاقبة الإساءة. ﴿وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾: أي المرة الآخرة المقابلة للأولى وقد تقدمت.

﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾: أي يقبحوها بالكرب واسوداد الحزن وهم الذل.

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾: أي بيت المقدس. ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾: أي وليدمروا ما غلبوا عليه من ديار بني إسرائيل تدميرًا.

﴿٨﴾ ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾: أي وإن

(١) في هذه الآيات ذكر مجمل لتاريخ بني إسرائيل بدءًا من دولة يوشع بن نون بعد فتحه لبلاد القدس، وطرد العمالقة منها، وإقامة دولة فيها لأول مرة وختامًا بطردهم على أيدي الرومان وذلك سنة مائة وخمس وثلاثين بعد ميلاد عيسى عليه السلام، وقسمت الآيات هذا التاريخ قسمين معبرّة عنه بالمرتين: الأولى بدءًا من دولة يوشع بن نون واستمرّت إلى أن عاثوا في الأرض وفسدوا فيها بالفسق والفجور فسلط عليهم البابليين فأسقطوا دولتهم، ومزّقوا ملكهم واستمروا مشتتين إلى أن ملّكوا طالوت وقاتلوا معه على عهد نبي الله حزقيل فهزموا جالوت البابلي، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴿٦﴾﴾ إذ تكونت لهم دولة عظيمة على عهد كل من طالوت وداود وسليمان واستمرّت حتى فسقوا وفجروا فاستحقوا العذاب فسلّط الله عليهم بختنصر البابلي أيضًا فأحرق هيكل سليمان، ودمّر أورشليم فتركها خرابًا ودمارًا، وهذه هي المرة الآخرة ثم أنجز لهم الله تعالى ما وعدهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ فاجتمعوا وصلحوا وعاد لهم ملكهم فترة من الزمن، وعادوا إلى الفسق والعصيان فعاد الله تعالى عليهم فسلّط عليهم الرومان سنة ١٣٥ بعد الميلاد فاحتلوا بلادهم وشرّدوهم في الأرض.

رجعتم إلى الفساد والمعاصي عدنا بالتسليط عليكم. ﴿حَصِيرًا﴾: أي محبسًا وسجنًا وفراشًا يجلسون عليها فهي من فوقهم ومن تحتهم.

معنى الآيتين:

(٧) ما زال السياق في الحديث عن بني إسرائيل فبعد أن أخبرهم تعالى بما حكم به عليهم في كتابهم أنهم يفسدون في الأرض مرتين ويعلون علوًا كبيرًا. وأنه إذا جاء ميقات أولى المرتين بعث عليهم عبادًا أشداء أقوياء وهم جالوت وجنوده فقتلوهم وسبوهم، أنه تعالى رد لهم الكرة عليهم فانتصروا عليهم وقتل داود جالوت وتكونت لهم دولة عظيمة كانت أكثر الدول رجالاً وأوسعها سلطانًا وذلك لرجوعهم إلى الله تعالى بتطبيق كتابه والتزام شرائعه وهناك قال تعالى لهم: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي إن أحسنتم باتباع الحق والتزام الطاعة لله ورسوله بفعل المأمورات واجتناب المنهيات والأخذ بسنن الله تعالى في الإصلاح البشري وإن أسأتم بتعطيل الشريعة والانغماس في الملاذ والشهوات فإن نتائج ذلك عائدة على أنفسكم حسب سنة الله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي وقتها المعين لها، وهي المرة الآخرة بعد الأولى بعث أيضًا عليهم عبادًا له وهم بختنصّر وجنوده بعثهم عليهم ليسودوا وجوههم بما يصيبونهم به من الهم والحزن والمهانة والذل ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ أي بيت المقدس كما دخوله أول مرة ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ أي يدمروا ما علوا أي ما غلبوا عليه من ديارهم ﴿تَتْبِيرًا﴾ أي تدميرًا كاملاً وتحطيمًا تامًا وحصل لهم هذا لما قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام وكثيرًا من العلماء وبعد أن ظهر فيهم الفسق وفي نسائهم التبرج والفجور واتخاذ الكعب العالي. كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

(٨) وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾(١) فهذا خير عظيم لهم لو طلبوه بصدق لفازوا به ولكنهم أعرضوا عنه وعاشوا على التمرد على الشرع والعصيان لله ورسله. وقوله وإن عدتم عدنا أي وإن عدتم إلى الفسق والفجور عدنا بتسليط من نشاء من عبادنا فأنجزهم الله تعالى ما وعدهم فسلط عليهم رسوله محمدًا ﷺ والمؤمنين فأجلى بني قينقاع وبني النضير من المدينة وقتل بني قريظة كما سلط عليهم ملوك أوروبا فطاردوهم وساموهم الخسف وأذاقوهم سوء العذاب في قرون طويلة وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا(٢)﴾ أي إن كان عذاب الدنيا بالتسلط على الظالمين وسلبهم حريتهم وإذاقتهم عذاب القتل والأسر والتشريد فإن عذاب الآخرة هو الحبس والسجن في جهنم تكون حصيرًا للكافرين لا يخرجون منها للكافرين أي الذين يكفرون شرائع الله ونعمه عليهم بتعطيل الأحكام وتضييع الفرائض وإهمال السنن والانغماس في الملاذ والشهوات.

هداية الآيتين:

١ - صدق وعد الله تعالى.

٢ - تقرير نبوة النبي ﷺ إذ مثل هذه الأنباء لا يقصها إلا نبي يوحى إليه.

٣ - تقرير قاعدة ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.

٤ - وجوب الرجاء في الله وهو انتظار الفرج والخير منه وإن طال الزمن.

٥ - قد يجمع الله تعالى للكافرين بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وكذا الفاسقون من المؤمنين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ - ١٢]

(٩) ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾: أي للطريقة

---

(١) تقدم أن الله تعالى أنجز لهم وعده في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ وأنه رحمهم فصلحوا واستقاموا، وأعادوا بناء دولتهم وسعدوا فيها زمنًا ثم عادوا إلى الفسق والفجور فعاد تعالى عليهم فسلط الرومان فقتلوهم وشردوهم وذلك سنة ١٣٥ بعد الميلاد، ومن يومئذ انتهى ملك اليهود، واستمرت أورشليم تحت يد الرومان إلى الفتح الإسلامي حيث فتحت على يد عمر رضي الله عنه سنة ١٦ صلحًا مع أهلها وهي تسمى يومئذ (إلياء).

(٢) الحصير المكان الذي يحصر فيه فلا يستطاع الخروج منه ففعيل (حصير) إمّا أن يكون بمعنى فاعل أي: حاصر أو بمعنى مفعول أي: محصور فيه، وفسّر في التفسير بالسجن وهو كذلك إذ السجن يحصر مَنْ فيه فلا يقدر على الخروج منه.

التي هي أعدل وأصوب. ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾: إنه الجنة دار السلام.
⑩ ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: إنه عذاب النار يوم القيامة.
⑪ ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾: أي على نفسه وأهله إذا هو ضجر وغضب. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾: أي سريع التأثر بما يخطر على باله فلا يتروى ولا يتأمل.
⑫ ﴿آيَتَيْنِ﴾: أي علامتين دالتين على وجود الله وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته. ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: أي طمسنا نورها بالظلام الذي يعقب غياب الشمس. ﴿مُبْصِرَةً﴾: أي يبصر الإنسان بها أي بسبب ضوء النهار فيها. ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾: أي عدد السنين وانقضائها وابتداء دخولها وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها كالأيام والأسابيع والشهور.

معنى الآيات:

⑨ يخبر تعالى أن هذا القرآن الكريم[١] الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ الذي أسرى به ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى يهدي بما فيه من الدلائل والحجج والشرائع والمواعظ للطريقة والسبيل التي هي أقوم[٢] أي أعدل وأقصد من سائر الطرق والسبيل إنها الدين القيم الإسلام سبيل السعادة والكمال في الدارين. ⑨ ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي ويبشر القرآن الذين آمنوا بالله ورسوله ولقاء الله ووعده ووعيده وعملوا الصالحات وهي الفرائض والنوافل بعد تركهم الكبائر والمعاصي بأن لهم أجرًا كبيرًا ألا وهو الجنة.
⑩ كما يخبر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن الله تعالى أعد أي هيأ لهم عذابًا أليمًا في جهنم.
⑪ وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾[٣] يخبر تعالى عن الإنسان في ضعفه وقلة إدراكه لعواقب الأمور من أنه إذا ضجر أو غضب يدعو على نفسه وأهله بالشر غير مفكر في عاقبة دعائه لو استجاب الله تعالى له. يدعو بالشر دعاءه بالخير أي كدعائه بالخير، وقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾[٤] أي كثير العجلة يستعجل في الأمور كلها هذا طبعه ما لم يتأدب بآداب القرآن ويتخلق بأخلاقه فإن هو استقام على منهج القرآن تبدل طبعه وأصبح ذا تؤدة وحلم وصبر وأناة.
⑫ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أي علامتين على وجودنا وقدرتنا وعلمنا وحكمتنا، وقوله: ﴿فَمَحَوْنَا[٥] آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي بطمس نورها، وجعلنا آية النهار مبصرة أي مضيئة وبين علة ذلك بقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لتطلبوا رزقكم بالسعي والكسب في النهار. هذا من جهة ومن جهة أخرى ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي عدد السنين وانقضائها وابتداء دخولها وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها كالأيام والأسابيع والشهور. لتوقف مصالحكم الدينية[٦] والدنيوية على ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ أي وكل شيء يحتاج

---

(١) قوله: ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الإشارة بهذا إلى القرآن الحاضر بين أيدي الناس المحفوظ في الصدور المكتوب في السطور، وفي الإشارة إليه تنويه بشأنه وعلو مقامه بين الكتب الإلهية.

(٢) ﴿أَقْوَمُ﴾ اسم تفضيل من القويم، وأقوم: صفة لمحذوف وهو الطريق أي: الطريق التي هي أقوم من هدي كتاب بني إسرائيل إذ قال فيه: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فالقرآن أكثر هداية إلى السبيل الأقوم من التوراة.

(٣) قال ابن عباس وغيره: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما يحب ألا يستجاب له: اللهم أهلكهم ونحوه. وحذفت الواو من ﴿يَدْعُ﴾ كما حذفت من ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ⑱﴾ و﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾: لأنه لا ينطق بها لأصلها الساكن.

(٤) روي أن آدم عليه السلام لما نفخ الله تعالى فيه الروح فانتهت الروح إلى سرّته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقدر فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومن مظاهر عجلة الإنسان أنه يؤثر العاجل وإن قلّ على الآجل وإن كثر.

(٥) قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقتادة رحمه الله: المراد بالمحو: اللطخة السوداء في القمر ليكون ضوء القمر أقلّ من ضوء الشمس فيتميّز الليل من النهار وما في التفسير أولى أي: جعل الله الليل مظلمًا، والنهار مضيئًا لما يترتب على ذلك من مصالح العباد.

(٦) كمعرفة أوقات الصلاة، وشهر الصيام، والحج، وما إلى ذلك من آجال الديون ونحوها كالعدد للنساء.

إليه في كمال الإنسان وسعادته بيناه تبيينًا أي في هذا الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم.

هداية الآيات:

١ - بيان فضل القرآن الكريم، بهدايته إلى الإسلام الذي هو سبيل السعادة للإنسان.

٢ - الوعد والوعيد بشارة المؤمنين العاملين للصالحات، ونذارة الكافرين باليوم الآخر.

٣ - بيان طبع الإنسان قبل تهذيبه بالآداب القرآنية والأخلاق النبوية.

٤ - كون الليل والنهار آيتين تدلان على الله تعالى وتقرران علمه وقدرته وتدبيره.

٥ - مشروعية علم الحساب وتعلمه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣ - ١٧]

(١٣) ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾: أي عمله وما قدر له من سعادة وشقاء. ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾: أي ملازم له لا يفارقه حتى يفرغ منه.

(١٤) ﴿عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾: أي كفى نفسك حاسبًا عليك.

(١٥) ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى.

(١٦) ﴿مُتْرَفِيهَا﴾: أي منعميها من أغنياء ورؤساء. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾: أي بالعذاب.

(١٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾: أي أهلكنا كثيرًا. ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: أي من أهل القرون السابقة. ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾: أي عليمًا بصيرًا بذنوب العباد.

معنى الآيات:

(١٣) يخبر تعالى أنه عز وجل لعظيم قدرته، وسعة علمه، وحكمته في تدبيره ألزم كل إنسان ما قضى به له من عمل وما يترتب على العمل من سعادة أو شقاء في الدارين، ألزمه ذلك بحيث لا يخالفه ولا يتأخر عنه بحال حتى كأنه مربوط بعنقه. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ[١] فِى عُنُقِهِۦ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا[٢]﴾ أي وفي يوم القيامة يخرج الله تعالى لكل إنسان كتاب عمله فيلقاه منشورًا أي مفتوحًا أمامه. ويقال له: اقرأ كتابك الذي أحصى لك عملك كله فلم يغادر منه صغيرة ولا كبيرة.

(١٤) وقوله: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي يكفيك نفسك حاسبًا لأعمالك محصيًا لها عليك أيها الإنسان.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي بعد هذا الإعلام والبيان ينبغي أن يعلم أن من اهتدى اليوم فآمن بالله ورسوله، ولقاء الله، ووعده ووعيده وعمل صالحًا وتخلّى عن الشرك والمعاصي فإنما عائد ذلك له، هو الذي ينجو من العذاب، ويسعد في دار السعادة، وأن من ضل طريق الهدى فكذب ولم يؤمن، وأشرك ولم يوحّد، وعصى ولم يطع فإن ذلك الضلال عائد عليه، هو الذي يشقى به ويعذب في جهنم دار العذاب والشقاء. وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ[٣] وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الوزر الإثم والذنب والوازرة الحاملة له لتؤخذ به ومعنى الكلام ولا تحمل يوم القيامة نفس آثمة إثم نفس أخرى، بل كل نفس تتحمل مسؤوليتها بنفسها[٤]، والكلام تقرير لقوله: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا[٥]﴾ أي لم

---

(١) قال الزجّاج ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق، وقال ابن عباس: طائره: عمله وما قدّر عليه من خير وشر وهو ملازمه أينما كان.

(٢) قالوا في علة نشره: أنه تعجيل للبشرى بالحسنات والتوبيخ بالسيئات.

(٣) قيل في هذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ...﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة إذ قال لأهل مكة اتبعوني واكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم. وإن لم تنزل فيه فهي شاملة لكل من يقول بقوله تضليلاً وباطلاً.

(٤) استدلت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية على بطلان حديث ابن عمر إذ قال: إنّ الميّت يعذّب ببكاء أهله، وردّ اعتراضها بأنّ الميت إذا أوصى بالبكاء كان ذلك من وزره لا من وزر غيره، وقد كانوا يوصون بذلك، قال طرفة بن العبد:

إذا متّ فأنبعيني بما أنا أهله ... وشقّي عليّ الجيب يا بنت معبد

ومن الجائز أن يعذّب وإن لم يوص، إذا هو أهمل تأديب أهله.

(٥) أوّل المعتزلة الرسول (رسولاً) بالعقل، وقالوا: العقل يحسن ويقبح ويبيح ويحظر، وهو تأويل باطل لا يتفق مع اللغة ولا مع الشرع.

يكن من شأن الله تعالى وهو العدل الرحيم أن يهلك أمة بعذاب إبادة واستئصال قبل أن يبعث فيها رسولاً يعرفها بربها وبمحابه ومساخطه، ويمرها بفعل المحاب وترك المساخط التي هي الشرك والمعاصي.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي أهل قرية ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي أمرنا منعميها من أغنياء ورؤساء وأشراف من أهل الحل والعقد أمرناهم بطاعتنا بإقامة الشرع وأداء الفرائض والسنن واجتناب كبائر الإثم والفواحش فلم يستجيبوا للأمر ولا للنهي وهو معنى ﴿فَفَسَقُوا۟[1] فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي وجب عليها العذاب ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكناها إهلاكًا كاملاً.

وهذا الكلام بيان لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إذ الرسول يأمر وينهى بإذن الله تعالى فإن لم يُطَعْ استوجب الناس العذاب فعذبوا.

(١٧) وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ هو تقرير لهذا الحكم أيضًا إذ علمنا تعالى أن ما أخبر به كان واقعًا بالفعل فكثيرًا من الأمم أهلكها من بعد هلاك قوم نوح كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وآل فرعون.. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾: فإن القول وإن تضمّن علم الله تعالى بذنوب عباده فإن معناه الوعيد الشديد والتهديد الأكيد، فإنه تعالى لا يرضى باستمرار الجرائم والآثام إنه يمهل لعل القوم يستفيقون، لعل الفساق يكفون، ثم إذا استمروا بعد الإعلام إليهم والتنديد بذنوبهم والتخويف بظلمهم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. ألا فليحذر ذلك المصرون على الشرك والمعاصي!!

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٣ - تقرير العدالة[2] الإلهية يوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا.

٤ - بيان سنة الله تعالى في إهلاك الأمم غير أنها لا تهلك إلا بعد الإنذار والإعذار إليها.

٥ - التحذير من كثرة التنعم والترف فإنه يؤدي إلى الفسق بترك الطاعة ثم يؤدي الفسق إلى الهلاك والدمار.

سُورَةُ الإِسْرَاء — الجُزْءُ الخَامِسَ عَشَرَ

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

٢٨٤

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨ ـ ٢٢]

(١٨) ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾: أي الدنيا لسرعة انقضائها. ﴿يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾:

---

(١) شاهده حديث زينب في الصحيح: (أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»).

(٢) تجلّت عدالة الله تبارك وتعالى في أنه عز وجل لا يعذّب أمة من الأمم عذاب إبادة واستئصال إلا بعد أن يبعث إليها رسوله ينذرها ويبشرها، فإذا أصرّت على الكفر والتكذيب عذّبها. وهنا يرد موضوع أهل الفترة بين الرسل فهل يعذبون ولم تبلغهم دعوة الله أولا يعذبون فيكون حالهم أحسن ممن جاءتهم الرسل؟ والجواب على هذا الإشكال هو: فيما ورد عن النبي ﷺ وصح: «**أن أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصمّ لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة فأمّا الأصمّ فيقول: يا رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأمّا الأحمق فيقول: ربّ قد جاء الصبيان يقذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: ربّ قد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، وأمّا الذي مات في الفترة فيقول: ربّ ما أتاني لك رسول فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن: ادخلوا النار فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلها يسحب إليها**» فظاهر الحديث أنّ من كان من أهل الجنة يطيع يوم القيامة ويدخل النار ثم لا يعذّب بها ويدخل الجنة، ومن كان من أهل النار يعصي يوم القيامة

أي يدخلها ملومًا مبعدًا من الجنة.

(١٩) ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾: أي عمل لها العمل المطلوب لدخولها وهو الإيمان والعمل الصالح. ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾: أي عملهم مقبولاً مثابًا عليه من قبل الله تعالى.

(٢٠) ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ﴾: أي كل فريق من الفريقين نعطي. ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾: أي لم يكن عطاء الله في الدنيا محظورًا أي ممنوعًا عن أحد.

(٢١) ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي في الرزق والجاه.

(٢٢) ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾: أي لا تعبد مع الله تعالى غيره من سائر المعبودات الباطلة. ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾: أي فتصير مذمومًا من الملائكة والمؤمنين مخذولاً من الله تعالى.

معنى الآيات:

(١٨) ما زال السياق الكريم في أخبار الله تعالى الصادقة والمتضمنة لأنواع من الهدايات الإلهية التي لا يحرمها إلا هالك، فقال تعالى في الآية الأولى (١٨): ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾، لا ما يشاؤه العبد، وقوله: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ لا من يريد غيرنا فالأمر كله لنا، ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا﴾ أي ملومًا ﴿مَّدْحُورًا﴾[١] أي مطرودًا من رحمتنا التي هي الجنة دار الأبرار أي المطيعين الصادقين.

(١٩) وقوله تعالى في الآية الثانية (١٩): ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ يخبر تعالى أن من أراد الآخرة أي سعادة الآخرة ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي عمل لها عملها اللائق بها وهو الإيمان الصحيح والعمل الصالح الموافق لما شرع الله في كتابه وعلى لسان رسوله، واجتنب الشرك والمعاصي وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قيد في صحة العمل الصالح أي لا يقبل من العبد صلاة ولا جهاد إلا بعد إيمانه بالله وبرسوله وبكل ما جاء به رسوله وأخبر به من الغيب.

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أي المذكورون بالإيمان والعمل الصالح ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٢] أي كان عملهم متقبلاً يثابون عليه بالجنة ورضوان الله تعالى.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٣] أي إن كلا من مريدي الدنيا ومريدي الآخرة يمد الله هؤلاء وهؤلاء من عطائه أي فضله الواسع فالكل يأكل ويشرب ويكتسي بحسب ما قدر له من الضيق والوسع ثم يموت وثَمَّ يقع التفاضل بحسب السعي الفاسد أو الصالح وقوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ يعني أن من أراد الله إعطاءه شيئًا لا يمكن لأحد أن يصرفه منه ويحرمه منه بحال من الأحوال.

(٢١) وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي انظر يا رسولنا ومن يفهم خطابنا كيف فضلنا بعض الناس على بعض في الرزق الذي شمل الصحة والعافية والمال والذرية والجاه، فإذا عرفت هذا فاعرف أن الآخرة أكبر درجات[٤] وأكبر تفضيلاً وذلك عائد إلى فضل الله أولاً ثم إلى الكسب صلاحًا وفسادًا وكثرة وقِلَّةً كما هي

= ويدخل النار يخلد فيها، والطاعة والعصيان في هذا الامتحان دالان على حال أهلهما في الدنيا لو توفرت لهم شروط التكليف التي هي: البلوغ، والعقل، والسمع، والبصر، وبلوغ الدعوة. فأولاد المشركين يدخلون ضمن هؤلاء الأربعة أيضًا.

(١) قال القرطبي: ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: مطرودًا مبعدًا من رحمة الله، وهذه صفة المنافقين الفاسقين والمرائين والمدّاحين يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يعطون في الدنيا إلاّ ما قُسم لهم.

(٢) وجائز أن يكون مضاعفًا أي: تضاعف لهم الحسنات إلى عشر إلى سبعين إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، فقد قيل لأبي هريرة، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة**؟» قال: سمعته يقول: «**إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة**».

(٣) لفظ الحظر لغة: المنع، محظورًا أي ممنوعًا يقال: حظره كذا يحظره حظرًا وحظارًا: إذا حبسه عنه ومنعه منه.

(٤) ورد أن أهل الجنة يتفاوتون في درجاتهم إذ الجنة مائة درجة، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض، وفي الصحيح: «**أن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء**».

الحال أيضًا في الدنيا فبقدر كسب الإنسان الصالح للدنيا يحصل عليها ولو كان كافرًا لقوله تعالى من سورة هود[1]: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝﴾ أي لا ينقصون ثمرات عملهم لكونهم كفارًا مشركين.

(٢٢) وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ[2] مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا تجعل يا رسولنا مع الله إلهًا آخر تؤمن به وتعبده وتقرر إلهيته دوننا فإنك إن فعلت ـ وحاشاه أن يفعل لأن الله لا يريد له ذلك ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ أي ملومًا يلومك المؤمنون والملائكة مخذولاً من قبل ربك لا ناصر لك والسياق وإن كان في خطاب الرسول ﷺ فإن المراد به كل إنسان فالله تعالى ينهى عبده أن يعبد معه غيره فيترتب على ذلك شقاؤه والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - كلا الدارين السعادة فيها أو الشقاء متوقف على الكسب والعمل هذه سنة الله تعالى في العباد.

٢ - سعي الدنيا التجارة والفلاحة والصناعة.

٣ - سعي الآخرة الإيمان وصالح الأعمال والتخلية عن الشرك والمعاصي.

٤ - يعطي الله تعالى الدنيا من يحب ومن لا يحب وعطاؤه قائم على سنن له في الحياة يجب معرفتها والعمل بمقتضاها لمن أراد الدنيا والآخرة.

٥ - ما أعطاه الله لا يمنعه أحد فوجب التوكل على الله والإعراض عما سواه.

٦ - تحريم الشرك والوعيد عليه بالخلود في نار جهنم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣ ـ ٢٧]

(٢٣) ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾: أي أمر وأوصى. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾: أي وأن تحسنوا بالوالدين إحسانًا وذلك ببرهما. ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾: أي تبًا أو قبحًا أو خسرانًا. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: أي ولا تزجرهما بالكلمة القاسية. ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾: جميلاً لينًا.

(٢٤) ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾: أي ألن لهما جانبك وتواضع لهما.

(٢٥) ﴿كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾: أي الرجاعين إلى الطاعة بعد المعصية.

(٢٦) ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أي أعط أصحاب القرابات حقوقهم من البر والصلة. ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾: أي ولا تنفق المال في غير طاعة الله ورسوله.

(٢٧) ﴿لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾: أي كثير الكفر كَبيرَهُ لنعم ربه تعالى، فكذلك المبذر أخوه.

معنى الآيات:

(٢٢) لما حرم الله تعالى الشرك ونهى عنه رسوله بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝﴾. أمر بالتوحيد فقال:

(٢٣) ﴿وَقَضَىٰ[3] رَبُّكَ﴾ أي حكم وأمر ووصى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا[4]﴾ أي وأوصى بالوالدين وهما الأم والأب إحسانًا وهو برهما وذلك بإيصال الخير إليهما وكف الأذى عنهما، وطاعتهما[5] في غير معصية الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا

---

(١) هود: ١٥.

(٢) الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته.

(٣) فعل قضي يكون لمعان عدة منها قضى بمعنى: أمر كما هنا، وقضى بمعنى: فرغ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ أي: فرغتم منها، ويكون بمعنى حكم نحو: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ وبمعنى العهد نحو: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ ويكون بمعنى الخلق نحو: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي: خلقهن.

(٤) هذه الآية نص في برّ الوالدين وحرمة عقوقهما، وشاهد ذلك من السنة قوله ﷺ وقد سئل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى فقال: **«بر الوالدين»** وقال: **«إن من الكبائر شتم الرجل والديه»**. قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: **«نعم، يسبّ الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسبّ أمه فيسبّ أمّه»**.

(٥) من شواهد الطاعة أن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كانت تحتي امرأة أحبّها وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبيت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«يا عبدالله بن عمر طلّق امرأتك»** وللأم ثلاثة أرباع الطاعة وللأب الربع لحديث الصحيح:

تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا[(١)]﴾ أي إن يبلغ سن الكبر عندك واحد منهما الأب أو الأم أو يكبران معًا وأنت حي موجود بينهما في هذه الحال يجب أن تخدمهما خدمتهما لك وأنت طفل فتغسل بولهما وتطهر نجاستهما وتقدم لهما ما يحتاجان إليه ولا تتضجّر أو تتأفف من خدمتهما كما كانا هما يفعلان ذلك معك وأنت طفل تبول وتخرأ وهما يغسلان وينظفان ولا يتضجران أو يتأففان، وقوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تزجرهما بالكلمة العالية النابية ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا[(٢)]﴾ أي جميلاً سهلاً لينًا يشعران معه بالكرامة والإكرام لهما.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ[(٣)]﴾ أي ألن لهما وتطامن وتعطف عليهما وترحم. وادع لهما طوال حياتك بالمغفرة والرحمة إن كانا موحّدين وماتا على ذلك لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ[(٤)] فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

يخبر تعالى بأنه أعلم بنا من أنفسنا فمن كان يضمر عدم الرضا عن والديه والسخط عليهما فالله يعلمه منه، ومن كان يضمر حبهما واحترامهما والرضا بهما وعنهما فالله تعالى يعلمه ويجزيه به فالمحسن يجزيه بالإحسان والمسيء يجزيه بالإساءة، وقوله: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ[(٥)] غَفُورًا﴾ بحكم ضعف الإنسان فإنه قد يضمر مرة السوء لوالديه أو تبدر منه البادرة السيئة من قول أو عمل وهو صالح مؤدٍ لحقوق الله تعالى وحقوق والديه وحقوق الناس فهذا العبد الصالح يخبر تعالى أنه غفور له متى آب إلى الله تعالى مستغفرًا مما صدر منه نادمًا عليه.

(٢٦) وقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ[(٦)] حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا أمر الله للعبد المؤمن بإيتاء قرابته حقوقهم من البر والصلة وكذا المساكين وهم الفقراء الذي مسكنتهم الفاقة وأذلهم الفقر فهؤلاء أمر تعالى المؤمن بإعطائهم حقهم من الإحسان إليهم بالكساء أو الغذاء والكلمة الطيبة، وكذا ابن السبيل وهو المسافر يعطي حقه من الضيافة والمساعدة على سفره إن احتاج إلى ذلك مع تأمينه وإرشاده إلى طريقه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ[(٧)] تَبْذِيرًا﴾ أي ولا تنفق مالك ولا تفرقه في غير طاعة الله تعالى.

(٢٧) وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ لأنهم بتبذيرهم المال في المعاصي كانوا عصاة لله فاسقين عن أمره وهذه حال الشياطين فتشابهوا فكانوا إخوانًا، وقوله إن الشيطان كان لربه كفورًا لأنه عصى الله تعالى وكفر نعمه عليه ولم يشكره بطاعته فالمبذر للمال في المعاصي فسق عن أمر ربه ولم يشكر نعمه عليه فهو إذًا شيطان فهل يرضى عبد الله المسلم أن يكون شيطانًا؟

هداية الآيات:

١ - وجوب عبادة الله تعالى وحده ووجوب بر الوالدين، وهو الإحسان

= رواه الترمذي وصححه: من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال: «أمّك» قال: ثمّ من قال: «أمّك». قال: ثمّ من قال: «أمّك». قال: ثم قال: «أبوك».

(١) أي: لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرّم وعدم رضا، وأف: اسم فعل كصَه ومَهْ منوّن وفيه لغات.

(٢) الكريم من كل شيء أرفعه في نوعه.

(٣) أل: في الرحمة نابت عن المضاف، إذ التقدير: من رحمتك إياهما.

(٤) ﴿صَٰلِحِينَ﴾: أي: مؤدين لحقوق الله تعالى وافية وحقوق عباده كذلك.

(٥) الأوّاب: الذي كلما أذنب تاب. والأوّاب: الحفيظ الذي كلما ذكر ذنبه استغفر ربّه. وصلاة الأوّابين: صلاة الضحى حين ترمض الفصلان أي تحترق أخفافها من الرمضاء فتبرك من شدة الحر.

(٦) هم قرابة المرء من قبل أبيه وأمّه معًا. قاله ابن عباس والحسن.

(٧) قال مجاهد: لو أنفق ماله كله في حق ما كان مبذرًا، ولو أنفق مُدًا في غير حق كان مبذرًا.

بهما، وكف الأذى عنهما، وطاعتهما في المعروف.

٢ - وجوب الدعاء للوالدين بالمغفرة والرحمة[١].

٣ - وجوب مراقبة الله تعالى وعدم إضمار أي سوء في النفس.

٤ - من كان صالحًا وبدرت منه البادرة وتاب منها فإن الله يغفر له ذلك.

٥ - وجوب إعطاء ذوي القربى حقوقهم من البر والصلة، وكذا المساكين وابن السبيل.

٦ - حرمة التبذير وحقيقته إنفاق المال في المعاصي والمحرمات.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

٢٨٥

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨ - ٣٣]

﴿٢٨﴾ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾: أي عن المذكورين من ذي القربى والمساكين وابن السبيل فلم تعطهم شيئًا. ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾: أي طلبًا لرزق ترجوه من الله تعالى. ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾: أي لينًا سهلاً بأن تعدهم بالعطاء عند وجود الرزق.

﴿٢٩﴾ ﴿مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾: أي لا تمسك عن النفقة كأن يدك مربوطة إلى عنقك فلا تستطيع أن تعطي شيئًا.

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾: أي ولا تنفق كل ما بيدك ولم تبق شيئًا. ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾: أي يلومك من حرمتهم من الإنفاق. ﴿مَّحْسُورًا﴾: أي منقطعًا عن سيرك في الحياة إذ لم تبق لك شيئًا.

﴿٣٠﴾ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾: أي يوسعه، ويقدر أي يضيقه امتحانًا وابتلاء.

﴿٣١﴾ ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾: أي خوف الفقر وشدته. ﴿خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾: أي إثمًا عظيمًا.

﴿٣٢﴾ ﴿فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾: أي خصلة قبيحة شديدة القبح، وسبيلاً بئس السبيل.

﴿٣٣﴾ ﴿لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: أي لوارثه تسلطًا على القاتل. ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾: أي لا يقتل غير القاتل.

معنى الآيات:

﴿٢٨﴾ ما زال السياق الكريم في وصايا الرب تبارك وتعالى والتي هي حكم أوحاها الله تعالى إلى رسوله للاهتداء بها، والكمال والإسعاد عليها. فقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝﴾ أي إن أعرضت عن قرابتك أو عن مسكين سألك أو ابن سبيل احتاج إليك ولم تجد ما تعطيهم فأعرضت عنهم بوجهك أيها الرسول ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾[٢] أي سهلاً لينًا وهو العدة الحسنة كقولك إن رزقني الله سأعطيك أو

---

(١) روى أبو داود وغيره أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله: (هل بقي من برّ والدي من بعد موتهما شيء أبرهما به؟) قال: «**نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلاّ من قِبلهما فهذا الذي بقي عليك**» وفي الصحيح عن ابن عمر قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ من أبرّ البرّ صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يولي**»).

(٢) روي أنّ النبي ﷺ كان إذا سئل وليس عنده ما يعطي سكت انتظارًا للرزق يأتي من الله تعالى كراهة الرد فنزلت هذه الآية. فكان ﷺ: إذا سئل وليس عنده ما يعطي قال: «**يرزقنا الله وإيّاكم من فضله**» فالرحمة في الآية: الرزق المنتظر ولقد أحسن مَنْ قال:

إلاّ تكن ورق يوم أجود بها ... للسائلين فإني ليّن العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقي ... إمّا نوالي وإمّا حسن مردودي

عما قريب سيحصل لي كذا وأعطيك وما أشبه ذلك من الوعد الحسن، فيكون ذلك عطاء منك عاجلاً لهم يسرون به، ولا يحزنون.

(٢٩) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تبخل بما آتاك الله فتمنع ذوي الحقوق حقوقهم كأن يدك مشدودة إلى عنقك فلا تستطيع أن تنفق، وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي تفتح يديك بالعطاء فتخرج كل ما بجيبك أو خزانتك فلا تبق شيئًا لك ولأهلك. وقوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ أي إن أنت أمسكت ولم تنفق لامك سائلوك إذ لم تعطهم، وإن أنت أنفقت كل شيء عندك انقطعت بك الحياة ولم تجد ما تواصل به سيرك في بقية عمرك فتكون كالبعير الذي أعياه السير فانقطع عنه وترك محسورًا في الطريق لا يستطيع صاحبه رده إلى أهله، ولا مواصلة السير عليه إلى وجهته.

(٣٠) وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي يوسع على من يشاء امتحانًا له أيشكر أم يكفر ويقدر لمن يشاء أي يضيق على من يشاء ابتلاء له أيصبر أم يضجر ويسخط، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فلذا هو يوسع ويضيق بحسب علمه وحكمته، إذ من عباده من لا يصلحه إلا السعة، ومنهم من لا يصلحه إلا الضيق.

(٣١) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي ومما حكم به وقضى ووصى ألا تقتلوا أولادكم أي أطفالكم[١] ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي مخافة الفاقة والفقر، إذ كان العرب يئدون البنات خشية العار ويقتلون الأولاد الذكور كالإناث مخافة الفقر فأوصى تعالى بمنع ذلك وقال متعهدًا متكفلاً برزق الأولاد وآبائهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وأخبر تعالى أن قتل الأولاد ﴿كَانَ خِطْئًا[٢] كَبِيرًا﴾ أي إثمًا عظيمًا فكيف يقدم عليه المؤمن؟.

(٣٢) وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا[٣] الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا[٤]﴾ أي ومن جملة ما حكم به ووصى أن لا تقربوا أيها المؤمنون الزنا مجرد قرب منه قبل فعله، لأن الزنا كان في حكم الله فاحشة أي خصلة قبيحة شديدة القبح ممجوجة طبعًا وعقلاً وشرعًا، وساء طريق هذه الفاحشة سبيلاً أي بئس الطريق الموصل إلى الزنا طريقًا للآثار السيئة والنتائج المدمرة التي تترتب عليه أولها أذية المؤمنين في أعراضهم وآخرها جهنم والاصطلاء بحرها والبقاء فيها أحقابًا طويلة.

(٣٣) وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ومما حكم تعالى به وأوصى أن لا تقتلوا أيها المؤمنون النفس التي حرم الله أي قتلها إلا بالحق، وقد بيَّن رسول الله ﷺ الحق الذي تقتل به نفس المؤمن وهو واحدة من ثلاث: القتل العمد العدوان، الزنا بعد الإحصان، الكفر بعد الإيمان. وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ[٥] سُلْطَانًا﴾ أي من قتل له قتيل ظلمًا وعدوانًا أي غير خطأ فقد أعطاه تعالى سلطة كاملة على قاتل وليه إن شاء قتله وإن شاء أخذ دية منه، وإن شاء عفا عنه لوجه الله تعالى. وقوله: ﴿فَلَا يُسْرِف[٦] فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا[٧]﴾ أي لا يحل لولي الدم أي لمن قتل له قتيل أن يسرف في القتل فيقتل بدل الواحد أكثر من واحد أو بدل المرأة رجلاً. أو يقتل غير القاتل، وذلك أن الله تعالى أعطاه سلطة تمكنه من قتل قاتله فلا يجوز أن يقتل غير قاتله كما كانوا في الجاهلية يفعلون.

---

(١) الإملاق: الفقر، وعدم الملك، يقال: أملق الرجل: إذا لم يبق له إلاّ الملقات، وهي الحجارة العظام المُلس.
(٢) يقال: خطىء يخطأ خطئًا، وخطأ: إذا أذنب. وأخطأ يُخطىء خطأً: إذا سلك سبيل خطإٍ عمدًا.
(٣) قالت العلماء: قول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾: أبلغ من قول: ولا تزنوا، فإنّ معناه لا تدنوا من الزنى، والزنى يمدّ ويقصر لغتان.
(٤) قبح سبيلاً أي: طريقًا لأنه يؤدي إلى النار.
(٥) الولي: هو المستحق الدّم رجلاً كان أو امرأة، والسلطان معناه التسليط فهو إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدية.
(٦) أي: فلا يقتل غير قاتله، ولا يمثّل بالقتيل، ولا يقتل بالواحد اثنين أو أكثر ولا بالعبد الحر.
(٧) جملة: إنه كان منصورًا: تعليلية أي: علّة للنهي عن الإسراف في القتل.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

٢٨٦

هداية الآيات:

١ - العدة الحسنة تقوم مقام الصدقة لمن لم يجد ما يتصدق به على من سأله.

٢ - حرمة البخل، والإسراف معًا وفضيلة الاعتدال والقصد.

٣ - تجلي حكمة الله تعالى في التوسعة على أناس، والتضييق على آخرين.

٤ - حرمة قتل الأولاد بعد الولادة أو إجهاضًا قبلها خوفًا من الفقر أو العار.

٥ - حرمة مقدمات الزنا كالنظر بشهوة والكلام مع الأجنبية ومسها وحرمة الزنا وهو أشد.

٦ - حرمة قتل النفس التي حرّم الله قتلها إلا بالحق والحق قتل عمد عدوانًا، وزنًا بعد إحصان، وكفر بعد إيمان[(١)].

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤ - ٣٩]

﴿٣٤﴾ ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: أي إلا بالخصلة التي هي أحسن من غيرها وهي تنميته والإنفاق عليه منه بالمعروف. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي بلوغه سن التكليف وهو عاقل رشيد. ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾: أي إذا عاهدتم الله أو العباد فأوفوا بما عاهدتم عليه. ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾: أي عنه وذلك بأن يُسأل العبدُ يوم القيامة لم نكثت عهدك؟

﴿٣٥﴾ ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾: أي أتموه ولا تنقصوه. ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: أي الميزان السوي المعتدل. ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: أي مآلاً وعاقبة.

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَا تَقْفُ﴾: أي ولا تتبع. ﴿وَٱلْفُؤَادَ﴾: أي القلب. ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾: أي عن كل واحد من هذه الحواس الثلاث يوم القيامة.

﴿٣٧﴾ ﴿مَرَحًا﴾: أي ذا مرح بالكبر والخيلاء. ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾: أي لن تثقبها أو تشقها بقدميك.

﴿٣٩﴾ ﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾: أي التي هي معرفة المحاب لله تعالى للتقرب بها إليه ومعرفة المساخط لتتجنبها تقربًا إليه تعالى بذلك. ﴿مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾: أي تلوم نفسك على شركك بربك مبعدًا من رحمة الله تعالى.

معنى الآيات:

﴿٣٤﴾ ما زال السياق الكريم في بيان ما قضى به الله تعالى على عباده المؤمنين ووصاهم به فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ أي أيها المؤمنون ﴿مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالفعلة التي هي أجمل وذلك بأن تتصرفوا فيه بالتثمير له والإصلاح فيه، والإنفاق منه على اليتيم بالمعروف أما أن تقربوه لتأكلوه إسرافًا وبدارًا فلا. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى يبلغ سن الرشد فتحاسبوه وتعطوه ماله يتصرف فيه حسب المشروع من التصرفات المالية. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ[(٢)]﴾ أي ومما أوصاكم به أن توفوا بعهودكم التي بينكم وبين ربكم وبينكم وبين سائر الناس مؤمنهم وكافرهم فلا يحل لكم أن لا توفوا بالعهد وأنتم قادرون على الوفاء بحال من الأحوال. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[(٣)] تأكيد للنهي عن نكث العهد إذ أخبر تعالى أن العبد سيسأل

---

(١) لحديث الصحيحين: «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة**» وفي السنن: «**لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم**».

(٢) التعريف في «العهد» للجنس ليشمل سائر العهود.

(٣) الجملة تعليلية علل بها الأمر بالوفاء بالعهود، وحذف متعلق مسؤولاً لظهوره: وهو عنه أي مسؤولاً عنه.

عن عهده الذي لم يف به يوم القيامة، ومثل العهد سائر العقود من نكاح وبيع وإيجار وما إلى ذلك لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ أي العهود.

(٣٥) وقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ[1] ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ هذا مما أمر الله تعالى وهو إيفاء الكيل والوزن أي توفيتهما وعدم بخسهما ونقصهما شيئًا ولو يسيرًا ما دام في الإمكان عدم نقصه، أما ما يعسر التحرز منه فهو من العفو لقوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ أي ذلك الوفاء والتوفية في الكيل والوزن خير لبراءة الذمة وطيب النفس به وأحسن تأويلاً أي عاقبة إذ يبارك الله تعالى في ذلك المال بأنواع من البركات لا يعلمها إلا هو عز وجل. ومن ذلك أجر الآخرة وهو خير فإن من ترك المعصية وهو قادر عليها أثابه الله تعالى على ذلك بأحسن ثواب.

(٣٦) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ[2] مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ[3] عِلۡمٌۚ﴾ أي لا تتبع بقول ولا عمل ما لا تعلم، ولا تقل رأيت كذا وأنت لم تر، ولا سمعت كذا وأنت لم تسمع. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾ أي القلب ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ[4] كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ أي لا تقف ما ليس لك به علم، لأن الله تعالى سائل هذه الأعضاء يوم القيامة عما قال صاحبها أو عمل فتشهد عليه بما قال أو عمل مما لا يحل له القول فيه أو العمل. ومعنى أولئك أي تلك المذكورات من السمع والبصر والفؤاد.

(٣٧) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ أي خيلاء وتكبرًا أي مما حرم تعالى وأوصى بعدم فعله المشي في الأرض مرحًا أي تكبرًا واختيالاً، لأن الكبر حرام وصاحبه لا يدخل الجنة، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي برجليك أيها المتكبر لأن المتكبر يضرب الأرض برجليه اعتزازًا واهتزازًا، ولن تبلغ الجبال طولاً مهما تعاليت وتطاولت فإنك كغيرك من الناس لا تخرق الأرض أي تثقبها أو تقطعها برجليك ولا تبلغ علو الجبال فلذا اترك مشية الخيلاء والتكبر، لأن ذلك معيب ومنقصة ولا يأتيه إلا ذو حماقة وسفه.

(٣٨) وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ[5] عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ۝﴾ أي كل ذلك المأمور به والمنهي عنه من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ۝﴾ سيئه كالتبذير والبخل وقتل الأولاد والزنا وقتل النفس وأكل مال اليتيم، وبخس الكيل والوزن، والقول بلا علم كالقذف وشهادة الزور، والتكبر كل هذا الشيء مكروه عند الله تعالى إذًا فلا تفعله يا عبد الله وما كان من حسن فيه كعبادة الله تعالى وحده وبر الوالدين والإحسان إلى ذوي القربى والمساكين وابن السبيل والعدة الحسنة فكل هذا الحسن هو عند الله حسن فأته يا عبد الله ولا تتركه ومن قرأ كنافع كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهًا فإنه يريد ما اشتملت عليه الآيات من التبذير والبخل وقتل النفس إلى آخر المنهيات.

---

(١) القسطاس: بضم القاف قراءة الجمهور وبكسرها قراءة حفص وهو اسم للميزان أي آلة الوزن، واسم للعدل أيضًا وقيل هو معرب من الرومية مركب من قسط أي: عدل وطاس وهو كفة الميزان والأصل ضم القاف، وكسره العرب لأنه أعجمي وهم يقولون: أعجمي العب به ما شئت.

(٢) القفو: الاتباع يقال: قفاه يقفوه إذا اتبعه وهو مشتق من القفا وهو وراء العنق.

(٣) بهذه الحكمة وهي: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾: وضع حد لكثير من المفاسد التي كانت تقع لسبب القول بدون علم منها: الطعن في الأنساب لمجرد ظن، ومنها القذف بالفاحشة، ومنها الكذب، ومنها شهادة الزور إلى غير ذلك من الأضرار التي تتم بسبب القول بالظن وبدون علم.

(٤) كل أولئك: المفروض أن يقال: كلها ولكن عدل إلى أولئك لأهمية تلك الحواس ونظير هذا في كلام العرب قول الشاعر:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك الأيام

(٥) قرأ الجمهور: ﴿سيئة﴾، وقرأ حفص: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ والسيئة ضد الحسنة.

(٣٩) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ[(١)] مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ أي ذلك الذي بيَّنَّا لك يا رسولنا من الأخلاق الفاضلة والخلال الحميدة التي أمرناك بالأخذ بها والدعوة إلى التمسك بها، ومن الخلال القبيحة والخصال الذميمة التي نهيناك عن فعلها وحرمنا عليك إتيانها مما أوحينا إليك في كتابنا هذا من أنواع الحكم وضروب العلم والمعرفة، فللَّه الحمد وله المنة.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ[(٢)] مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا[(٣)]﴾ هذه أم الحكم بدأ بها السياق وختمه بها تقريرًا وتأكيدًا إذ تقدم قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾. والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن كل أحد معني به فأي إنسان يشرك بربه أحدًا من خلقه في عبادته فقد جعله إلـهًا مع الله، ولا بد أن يلقى في جهنم ملومًا من نفسه مدحورًا مبعدًا من رحمة ربه التي هي الجنة. وهذا إذا مات قبل أن يتوب فيوحد ربه في عباداته. إذ التوبة إذا صحت جَبَّت ما قبلها.

هداية الآيات:

١ ـ حرمة مال اليتيم أكلًا أو إفسادًا أو تضييعًا وإهمالاً.

٢ ـ وجوب الوفاء بالعهود وسائر العقود.

٣ ـ وجوب توفية الكيل والوزن وحرمة بخس الكيل والوزن.

٤ ـ حصول البركة لمن يمتثل أمر الله في كيله ووزنه.

٥ ـ حرمة القول أو العمل بدون علم لما يُفْضِي إليه ذلك من المفاسد ولأن الله تعالى سائل كل الجوارح ومستشهدها على صاحبها يوم القيامة.

٦ ـ حرمة الكبر ومقت المتكبرين.

٧ ـ انتظام هذا السياق لخمس وعشرين حكمة الأخذ بها خير من الدنيا وما فيها، والتفريط فيها هو سبب خسران الدنيا والآخرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٠ ـ ٤٤]

(٤٠) ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾: الاستفهام للتوبيخ والتقريع ومعنى أصفاكم خصكم بالبنين واختارهم لكم.

(٤١) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: أي بينا فيه من الوعد والوعيد والأمثال والعظات والأحكام والعبر.

﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾: أي ليذكروا فيتعظوا فيؤمنوا ويطيعوا.

(٤٢) ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾: أي لَطَلَبوا طريقًا إلى الله تعالى للتقرب إليه وطلب المنزلة عنده.

(٤٤) ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾: أي في السموات من الملائكة والأرض من إنسان وجان وحيوان. ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾: أي وما من شيء إلا يسبح بحمده من سائر المخلوقات. ﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على معصيتكم إياه وعدم طاعتكم له.

معنى الآيات:

(٤٠) يقول تعالى مقرعًا موبخًا المشركين الذين يئدون البنات ويكرهونهنّ ثم هم يجعلون الملائكة إناثا. ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم[(٤)] بِٱلْبَنِينَ﴾ أي أخصكم بالبنين ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أيها المشركون إذ تجعلون لله ما تكرهون افتراءً وكذبًا على الله تعالى.

(٤١) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا[(٥)] فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي من الحجج والبينات

---

(١) الإشارة إلى ما تقدم، والجملة مذيّل بها الكلام تنبيهًا على ما اشتملت عليه الآيات السبع عشرة من الحكمة تحريضًا على اتباع ما فيها وأنه خير عظيم كما فيها الامتنان على النبي ﷺ وعلى أمته بهذه الحكم والمعارف النافعة في الدنيا والآخرة.

(٢) هذه الجملة معطوفة على مثيلاتها المتضمنة للنهي عن كبائر الذنوب وهي مؤكدة لمضمون جملة: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

(٣) المدحور: هو المطرود من رحمة الله المغضوب عليه من الله تعالى.

(٤) الجملة متفرعة عن جملة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهي متضمنة للإنكار على المشركين في تسميتهم الملائكة إناثًا ونسبتهم إلى الله تعالى إذ قالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك، كما هي متضمنة توبيخ المشركين على سوء فهمهم وقبيح قولهم بدليل قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

(٥) من الجائز أن تكون (في) مزيدة، والقرآن: معمول لصرّفنا، إذ التصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة، والمراد به هنا: البيان والتكرير والانتقال من حكمة إلى حكمة ومن عبرة إلى موعظة.

والأمثال والمواعظ الشيء الكثير من أجل أن يُذّكروا فيذكروا ويتعظوا فيُنيبوا إلى ربهم فيوحدونه وينزهونه عن الشريك والولد، ولكن ما يزيدهم القرآن وما فيه من البينات والهدى إلا نفورًا وبعدًا عن الحق. وذلك لغلبة التقليد عليهم، والعناد والمكابرة والمجاحدة.

(٤٢) وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي قل يا نبينا لهؤلاء المشركين المتخذين لله أندادًا يزعمون أنها آلهة مع الله قل لهم لو كان مع الله آلهة كما تقولون وإن كان الواقع يكذبكم إذ ليس هناك آلهة مع الله ولكن على فرض أنه لو كان مع الله آلهة ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي لطلبوا طريقًا إلى ذي العرش سبحانه وتعالى يلتمسون فيها رضاه ويطلبون القرب منه والزلفى إليه لجلاله وكماله، وغناه وحاجتهم وافتقارهم[١] إليه.

(٤٣) ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه أن يكون معه آلهة فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

(٤٤) وقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ[٢]﴾ فأخبر تعالى منزهًا نفسه مُقدّسًا ذاته عن الشبيه والشريك والولد والعجز، فأخبر أنه لعظمته وكماله تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن بكلمة: سبحان الله وبحمده ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ كما أخبر أنه ما من شيء من المخلوقات إلا ويسبح بحمده بلسان قَالِهِ وحَالِه[٣] معًا فيقول سبحان الله وبحمده وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٤] لاختلاف الألسنة واللغات. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أي الله حليمًا أي لا يعاجل بالعقوبة من عصاه ﴿غَفُورًا﴾ يغفر ذنوب وزلات من تاب إليه وأناب طالبًا مغفرته ورضاه.

هداية الآيات:

١ - حرمة القول على الله تعالى بالباطل ونسبة النقص إليه تعالى كاتخاذه ولدًا أو شريكًا.

٢ - مشروعية الاستدلال بالعقليات، على إحقاق الحق وإبطال الباطل.

٣ - فضيلة التسبيح وهو قول: سبحان الله وبحمده حتى إن من قالها مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت في الكثرة مثل زبد البحر.

٤ - كل المخلوقات في العوالم كلها تسبح الله تعالى أي تنزهه عن الشريك والولد والنقص والعجز ومشابهة الحوادث إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

٥ - حلم الله يتجلى في عدم تعجيل عقوبة من عصاه ولولا حلمه لعجل عقوبة مشركي مكة وأكابر مجرميها. ولكن الله أمهلهم حتى تاب أكثرهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٥ ـ ٤٨]

(٤٥) ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾: أي ساترًا لهم فلا يسمعون كلام الله تعالى.

(٤٦) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: أي أغطية على القلوب فلا تعي ولا تفهم. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: أي ثقلاً فلا يسمعون القرآن ومواعظه. ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾: أي فرارًا من السماع حتى لا يسمعوا.

(٤٧) ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾: أي بسببه وهو الهزء بالنبي ﷺ. ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾: أي يتناجون بينهم يتحدثون سرًا. ﴿رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾: أي مغلوبًا على عقله مخدوعًا.

(٤٨) ﴿ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾: أي قالوا ساحر، وقالوا كاهن وقالوا شاعر.

---

(١) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لطلبوا مع الله منازعة وقتالاً كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض، وقال سعيد بن جبير: المعنى: إذًا لطلبوا طريقًا إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه لأنهم شركاؤه، وما قاله ابن عباس كالذي قاله سعيد جائز لكن ما ذهبنا إليه في التفسير أولى وألصق بمعنى الآيات والسياق.

(٢) من الملائكة والجنّ والإنس.

(٣) المراد من لسان الحال: هو تسبيح الدلالة، إذ كل محدث شاهد على أن الله خالق قادر، ولا مانع من أن يسبّح كل شيء من إنسان وحيوان ونبات وجماد والجن والملائكة، إلا ذرية إبليس فإنهم لا يسبّحون بلسان القال ولكن بلسان الحال.

(٤) قوله: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ دليل على أن تسبيح كل شيء بلسان قاله ويؤيد هذا تسبيح الطعام، وسلام الحجر على رسول الله ﷺ وأدل من هذا قوله ﷺ: **«لا يسمع صوت مؤذن من جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلاّ شهد له يوم القيامة».**

﴿فَضَلُّواْ﴾: أي عن الهدى فلا يستطيعون سبيلاً.

معنى الآيات:

(٤٥) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[1] يخبر تعالى رسوله محمدًا ﷺ أنه إذا قرأ القرآن على المشركين ليدعوهم به إلى الله تعالى ليؤمنوا به ويعبدوه وحده جعل الله تعالى بينه وبين المشركين حجابًا[2] ساترًا، أو مستورًا لا يُرى وهو حقًا حائل بينهم وبين الرسول ﷺ حتى لا يسمعوا القرآن الذي يقرأ عليهم فلا ينتفعون به. وهذا الحجاب ناتج عن شدة بغضهم للرسول ﷺ وكراهيتهم لدعوته فهم لذلك لا يرونه ولا يسمعون قراءته.

(٤٦) وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[3] جمع كنان وهو الغطاء حتى لا يصل المعنى المقروء من الآيات إلى قلوبهم فيفقهوه، وقوله: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي وجعل تعالى في آذان أولئك المشركين الخصوم ثقلاً في آذانهم فلا يسمعون القرآن الذي يتلى عليهم، وهذا كله من الحجاب الساتر والأكنة، والوقر في الآذان عقوبة من الله تعالى لهم حرمهم بها من الهداية بالقرآن لسابقة الشر لهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين ببغضهم للرسول وما جاء به وحربهم له ولما جاء به من التوحيد والدين الحق، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ بأن قلت لا إله إلا الله[4]، أو ما أفهم معنى[5] لا إله إلا الله ولى المشركون على أدبارهم نفورًا[6] من سماع التوحيد لحبهم الوثنية وتعلق قلوبهم بالشرك.

(٤٧) وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ يقول تعالى لرسوله نحن أعلم بما يستمع به المشركون أي بسبب أنهم يستمعون من أجل الاستهزاء بك والسخرية منك ومما تتلوه لا أنهم يستمعون للعلم والمعرفة ولطلب الحق والاهتداء إليه. وقوله: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي يناجي بعضهم بعضًا ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[7] أي المشركون ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي لا تتبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي مخدوعًا مغلوبًا على أمره، فكيف تتبعونه إذًا؟.

(٤٨) وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ[8] ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي انظر يا رسولنا كيف ضرب لك هؤلاء المشركون المعاندون الأمثال فقالوا عنك: ساحر، وشاعر، وكاهن ومجنون فضلوا في طريقهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إنهم عاجزون عن الخروج من حيرتهم هذه التي أوقعهم فيها كفرهم وعنادهم.

هداية الآيات:

١ - تقرير قاعدة حبك الشيء يعمي ويصم: فإن الحجاب المذكور في الآية وكذا الأكنة والثقل في الآذان هذه كلها حالت دون سماع القرآن من أجل بغضهم للرسول ﷺ وللقرآن وما جاء به عن الدعوة إلى التوحيد.

٢ - بيان مدى كراهية المشركين

---

(١) روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها قالت: لما نزلت سورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها (حجر ملء الكف) وهي تقول: مذمّمًا عصينا وأمره أبينا، ودينه قلينا، والنبي ﷺ قاعد في المسجد ومعه أبو بكر قال: يا رسول الله: لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، قال رسول الله ﷺ: **«إنها لن تراني»** فقرأ ﷺ قرآنًا، فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ، قالت لأبي بكر: بلغني أنّ صاحبك هجاني قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك فولّت.

(٢) ساترًا أي: للرسول ﷺ حتى لا يراه من أراده بسوء، ومستورًا أي: الحجاب لا يراه المشركون وهو موجود فعلاً، ولكن لا يُرى.

(٣) أن يفقهوه أي: لئلا يفقهوه أو كراهية أن يفقهوه.

(٤) أي: وأنت تقرأ القرآن.

(٥) أي: دلّ على معنى لا إله إلا الله.

(٦) يجوز أن يكون نفور جمع نافر كشهود جمع شاهد، ويجوز أن يكون مصدرًا من نفر نفورًا أي: نفروا نفورًا.

(٧) قولهم هذا وهم يتناجون يقولون: إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحورًا أي: مطبوبًا قد خبله السحر فاختلط عليه أمره. يقولون هذا حتى ينفروا الناس عنه ولا يتبعوه.

(٨) عجّبه من صنعهم كيف يقولون: تارة ساحر وتارة مجنون وأخرى شاعر فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً يرجعون معه من حيرتهم أو يتمكنون به من صدّ النّاس عنك وصرفهم عن دعوتك.

للتوحيد وكلمة الإخلاص لا إله إلا الله.

٣ - بيان مدى ما كان عليه المشركون من السخرية والاستهزاء بالرسول والقرآن.

٤ - بيان اتهامات المشركين للرسول ﷺ بالسحر مرة والكهانة ثانية والجنون ثالثة بحثًا عن الخلاص من دعوة التوحيد فلم يعثروا على شيء كما قال تعالى: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٩ - ٥٢]

(٤٩) ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾: الاستفهام للإنكسار والاستبعاد والرُّفات الأجزاء المتفرقة.

(٥١) ﴿مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾: أي يعظم عن قبول الحياة في اعتقادكم. ﴿فَطَرَكُمۡ﴾: خلقكم. ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ﴾: أي يحركون رؤوسهم تعجبًا. ﴿مَتَىٰ هُوَۖ﴾؟: الاستفهام للاستهزاء أي متى هذا البعث الذي تعدنا.

(٥٢) ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ﴾: أي يناديكم من قبوركم على لسان إسرافيل. ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ﴾: أي تجيبون دعوته قائلين سبحانك اللهم وبحمدك. ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾: وتظنون أنكم ما لبثتم في قبوركم إلا قليلاً.

معنى الآيات:

(٤٩) ما زال السياق في تقرير العقيدة ففي الآيات قَبْلَ هذه كان تقرير التوحيد والوحي وفي هذه الآيات تقرير البعث والجزاء الآخر ففي الآية **(٤٧) يخبر تعالى عن إنكار** المشركين للبعث واستبعادهم له بقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ[1] أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا[2]﴾ أي أجزاء متفرقة كالحطام ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا[3] جَدِيدٗا﴾ وفي الآية الثانية **(٤٨) يأمر تعالى** الرسول ﷺ أن يقول لهم كونوا ما شئتم فإن الله تعالى قادر على إحيائكم وبعثكم للحساب والجزاء وهو قوله تعالى:

(٥٠) - (٥١) ﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا[4] ۝ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ[5] فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ أي مما يعظم في نفوسكم أن يقبل الحياة كالموت[6] مثلاً فإن الله تعالى سيحييكم ويبعثكم. وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾؟ يخبر تعالى رسوله أن منكري البعث سيقولون له مستبعدين البعث: من يعيدنا وعلمه الجواب فقال له قل: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ﴾ أي خلقكم أول مرة وهو جواب مسكت فالذي خلقكم ثم أماتكم هو الذي يعيدكم كما بدأكم وهو أهون عليه. وقوله تعالى: ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾؟ يخبر تعالى رسوله بما سيقوله منكروا البعث له فيقول تعالى: ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ﴾ أي يحركون إليك رؤوسهم خفضًا ورفعًا استهزاءً ويقولون: ﴿مَتَىٰ هُوَۖ﴾؟ أي متى البعث أي في أي يوم هو كائن. وقوله تعالى: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ علمه تعالى كيف يجيب المكذبين.

(٥٢) وقوله: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ[7] بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ۝﴾ أي يكون بعثكم الذي تنكرونه يوم يدعوكم بأمر الله تعالى إسرافيل من قبوركم فتستجيبون أي فتجيبونه[8] بحمد الله ﴿وَتَظُنُّونَ إِن

---

(١) هذا من قولهم الذي قالوا وهم يسمعون القرآن، ويتناجون بينهم فيقولون: كذا وكذا.

(٢) الرفات: ما تكسّر وبَلي من كل شيء كالفتات، والحطام والرّضاض يقال: رُفِت الشيء رفتًا أي: حطم والاستفهام إنكاري.

(٣) الاستفهام للاستهزاء مع الجحد والإنكار، و﴿خَلۡقٗا﴾: منصوب على الحال من ضمير ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾.

(٤) الحديد: تراب معدني لا يوجد إلا في مغاور الأرض، وهو تراب غليظ وأصنافه ثمانية وأشهر أنواعه الأحمر وهو صنفان: ذكر وأنثى.

(٥) قال مجاهد: يعني السماوات والأرض والجبال لعظمها في النفوس.

(٦) لأنّ الموت لا شيء أكبر منه في نفوس بني آدم، قال أمية بن الصلت:

وللموتُ خلق في النفوس فظيع

وخلقًا بمعنى مخلوق، ومن يكبر في صدوركم صفة له.

(٧) روي أنه ﷺ قال: «**إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم**».

(٨) قال سعيد بن جبير يخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون: سبحانك وبحمدك.

۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

٢٨٧

﴿لَّبِثْتُمْ﴾ أي لبثتم إلا قليلاً أي ما لبثتم في قبوركم إلا قليلاً[1] من اللبث وذلك لما تعاينون من الأهوال وتشاهدون من الأحوال المفزعة المرعبة.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء وبيان حتميتها.

٢ - بيان ما كان عليه المشركون من شدة إنكارهم للبعث الآخر.

٣ - تعليم الله تعالى لرسوله كيف يجيب المنكرين المستهزئين بالتي هي أحسن.

٤ - بيان الأسلوب الحواري الهادي الخالي من الغلظة والشدة.

٥ - استقصار مدة اللبث في القبور مع طولها لما يشاهد من أهوال البعث.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٣ ـ ٥٥]

﴿٥٣﴾ ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: أي الكلمة التي هي أحسن من غيرها للطفها وحسنها. ﴿يَنزَغُ﴾: أي يفسد بينهم[2]. ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: أي بيّن العداوة ظاهرها.

﴿٥٤﴾ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾: هذه هي الكلمة التي هي أحسن. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾: أي فيلزمك إجبارهم على الإيمان.

﴿٥٥﴾ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ﴾: أي بتخصيص كل منهم بفضائل أو فضيلة خاصة به. ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾: أي كتابًا هو الزبور هذا نوع من التفضيل.

معنى الآيات:

﴿٥٣﴾ ما زال السياق في طلب هداية أهل مكة، من طريق الحوار والمجادلة وحدث أن بعض المؤمنين واجه بعض الكافرين أثناء الجدال بغلظة لفظ كأن توعده بعذاب النار فأثار ذلك حفائظ المشركين فأمر تعالى رسوله أن يقول للمؤمنين إذا خاطبوا المشركين أن لا يغلظوا لهم القول فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾[3] أي المؤمنين ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من الكلمات لتجد طريقًا إلى قلوب الكافرين، وعلل لذلك تعالى فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ بالوسواس فيفسد العلائق التي كان في الإمكان التوصل بها إلى هداية الضالين، وذلك أن الشيطان كان وما زال للإنسان عدوًا مبينًا أي بيّن العداوة ظاهرها فهو لا يريد للكافر أن يسلم، ولا يريد للمسلم أن يؤجر ويثاب في دعوته.

﴿٥٤﴾ وقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فيتوب عليكم فتسلموا. ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بأن يترككم تموتون على شرككم فتدخلوا النار. مثل هذا الكلام ينبغي أن يقول المؤمنون للكافرين لا أن يصدروا الحكم عليهم بأنهم أهل النار والمخلدون فيها فيزعج ذلك المشركين فيتمادوا في العناد والمكابرة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا

(١) وقيل: هذا ما بين النفختين، وذلك أنّ العذاب يكفّ عن المعذّبين بين النفختين وذلك أربعين عامًا فينامون فإذا نفخ النفخة الثانية قالوا: من بعثنا من مرقدنا وظنّوا أنهم ما لبثوا إلاّ قليلاً.

(٢) روي أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب وذلك أن رجلاً من العرب شتمه وسبه عمر وهم بقتله فكادت تثير فتنة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فلذا الآية دعوة عامة لإحسان القول في أثناء دعوة الناس وهدايتهم.

(٣) أي: بالكلمات التي هي أحسن.

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ[1] وَكِيلًا﴾. يقول تعالى لرسوله إنا لم نرسلك رقيبًا عليهم فتجبرهم على الإسلام وإنما أرسلناك مبلغًا دعوتنا إليهم بالأسلوب الحسن وهدايتهم إلينا، وفي هذا تعليم للمؤمنين كيف يدعون الكافرين إلى الإسلام.

﴿٥٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يخبر تعالى رسوله والمؤمنين ضمنًا أنه تعالى أعلم بمن في السموات والأرض فضلاً عن هؤلاء المشركين فهو أعلم بما يصلحهم وأعلم بما كتب لهم أو عليهم من سعادة أو شقاء، وأسباب ذلك من الإيمان أو الكفر، وعليه فلا تحزنوا على تكذيبهم ولا تيأسوا من إيمانهم، ولا تتكلفوا ما لا تطيقون في هدايتهم فقولوا التي هي أحسن واتركوا أمر هدايتهم لله تعالى هو ربهم وأعلم بهم وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا[2]﴾، يخبر تعالى عن إنعامه بين عباده فالذي فاضل بين النبيين وهم أكمل الخلق وأصفاهم فهذا فضله بالخلة كإبراهيم وهذا بالتكليم كموسى، وهذا بالكتاب الحافل بالتسابيح والمحامد والعبر والمواعظ كداود، وأنت يا محمد بمغفرته لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وبإرسالك إلى الناس كافة إلى غير ذلك من الإفضالات وإذا تجلت هذه الحقيقة لكم وعرفتم أن الله أعلم بمن يستحق الهداية وبمن يستحق الضلالة، وكذا الرحمة والعذاب ففوضوا الأمر إليه، وادعوا عباده برفق ولين وبالتي هي أحسن من غيرها من الكلمات.

هداية الآيات:

١ - النهي عن الكلمة الخشنة المسيئة إلى المدعو إلى الإسلام.

٢ - بيان أن الشيطان يسعى للإفساد دائمًا فلا يمكن من ذلك بالكلمات المثيرة للغضب والحاملة على اللجج والخصومة الشديدة.

٣ - بيان نوع الكلمة التي هي أحسن مثل. ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾.

٤ - بيان أن الله تعالى أعلم بخلقه فهو يهب كل عبد ما أهله له حتى إنه فاضل بين أنبيائه ورسله عليهم السلام في الكمالات الروحية والدرجات العالية.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٦ ـ ٦٠]

﴿٥٦﴾ ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾: أي لا يستطيعون. ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ﴾: أي إزالته بشفاء المريض. ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾: أي للمرض من شخص مريض إلى آخر صحيح ليمرض به.

﴿٥٧﴾ ﴿يَدْعُونَ﴾: أي ينادونهم طالبين منهم أو متوسلين بهم. ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾: أي يطلبون القرب منه بالطاعات وأنواع القربات. ﴿كَانَ مَحْذُورًا﴾: أي يحذره المؤمنون ويحترسون منه بترك معاصي الله تعالى.

﴿٥٨﴾ ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾: أي في كتاب المقادير الذي هو اللوح المحفوظ مكتوبًا.

---

(١) الرقيب والحفيظ والوكيل والكفيل كلها بمعنى واحد في هذا السياق ومن إطلاق الوكيل وإرادة الرقيب قول الشاعر:

ذكرت أبا أروى فبت كأنني ... برد الأمور الماضيات وكيل

(٢) الزبور: كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود لعدم الحاجة إلى ذلك لوجود التوراة بينهم، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد والآية صالحة لحجاج اليهود منكري نزول القرآن على محمد ﷺ.

(٥٩) ﴿أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾: أي بالآيات التي طلبها أهل مكة كتحويل الصفا إلى جبل ذهب. أو إزالة جبال مكة لتكون أرضًا زراعية وإجراء العيون فيها. ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾: إذ طالب قوم صالح بالآية ولما جاءتهم كفروا بها فأهلكهم الله تعالى. ﴿ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾: أي وأعطينا ثمود قوم صالح الناقة آية مبصرة واضحة بينة. ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾: أي كفروا بها وكذبوا فأهلكهم الله تعالى. ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾: إلا من أجل تخويف العباد بأنا إذا أعطيناهم الآيات ولم يؤمنوا أهلكناهم.

(٦٠) ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾: أي قدرة وعلمًا فهم في قبضته وتحت سلطانه فلا تخفهم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا[1]﴾: هي ما رآه الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج من عجائب خلق الله تعالى. ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ[2]﴾: هي شجرة الزقوم الوارد لفظها في الصافات والدخان. ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾: بعذابنا في الدنيا بالإهلاك والإبادة وفي الآخرة بالزقوم والعذاب الأليم. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾: أي التخويف إلا طغيانًا وكفرًا.

معنى الآيات:

(٥٦) ما زال السياق في تقرير التوحيد فيقول تعالى لرسوله قل يا محمد ﷺ لأولئك المشركين ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله سبحانه وتعالى فإنهم لا يملكون أن يكشفوا الضر عن مريض ولا يستطيعون تحويله عنه إلى آخر عدو له يريد أن يمسه الضر لأنهم أصنام وتماثيل لا يسمعون ولا يبصرون فضلاً عن أن يستجيبوا دعاء من دعاهم لكشف ضر أو تحويله إلى غيره، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٦): ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟[3] ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝﴾.

(٥٧) وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾. يخبرهم تعالى بأن أولئك الذين يعبدونهم من الجن[4] أو الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين هم أنفسهم يدعون ربهم ويتوسلون للحصول على رضاه. بشتى أنواع الطاعات والقربات فالذي يَعْبُدُ لا يُعْبَد، والذي يتقرب إلى الله بالطاعات لا يتقرب إليه وإنما يتقرب إلى من هو يتقرب إليه ليحظى بالمنزلة عنده، وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ[5] وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ أي أن أولئك الذين يدعوهم الجهال من الناس ويطلبون منهم قضاء حاجاتهم هم أنفسهم يطلبون الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه. لأن عذابه تعالى كان وما زال يحذره العقلاء، لأنه شديد لا يطاق. فكيف يُدعى ويُرجى ويُخاف من هو يَدعو ويَرجو ويَخاف لو كان المشركون يعقلون.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ[6]﴾ أي مدينة من المدن ﴿إِلَّا

---

(١) لفظ الرؤيا يطلق في الغالب على الرؤيا في المنام، ويطلق على رؤية العين كما في هذه الآية رواية صحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي البخاري والترمذي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا..﴾ إلخ.. قال: هي رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس.

(٢) قيل فيها: ملعونة جريًا على عادة العرب في كل طعام مكروه يقولون فيه: ملعون، وجائز أن يكون المراد باللعن لعن آكلها أي: الشجرة الملعون آكلها.

(٣) قيل: إنه لما ابتليت قريش بالقحط، وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ أنزل الله تعالى هذه الآية أي: ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتم أنهم آلهة لكم.

(٤) روى مسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في قول الله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ قال: نفر من الجنّ أسلموا، وكانوا يُعْبَدون فبقي الذين كانوا يعبدونهم على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجنّ، وفي رواية قال: أنزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجنّ فأسلم الجنيّون، والذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون أي: بإسلامهم فبقوا يعبدونهم.

(٥) في الآية الجمع بين الخوف والرجاء وهما كجناحي الطائر إن انكسر أحدهما لم يطر بالآخر، ولذا فلا بد للمؤمن منهما، فالخوف يحمل على أداء الفرائض واجتناب المحرمات، والرجاء يحمل على المسابقة في الخيرات، وبذلك تتم ولايته لربه ويأمن عاقبة أمره.

(٦) ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: ظالمة، حذفت الصفة للعلم بها إذ لا يأخذ الله أهل قرية إلاّ بعد ظلمهم إذ هو أعدل من يعدل وعدل،

﴿نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾ أي بعذاب إبادة قبل يوم القيامة، ﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ بمرض أو قحط أو خوف من عدو ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ أي مكتوبًا في اللوح المحفوظ، فلذا لا يستعجل أهل مكة العذاب فإنه إن كان قد كتب عليهم فإنه نازل بهم لا محالة وإن لم يكن قد كتب عليهم فلا معنى لاستعجاله فإنه غير واقع بهم وهم مرجون للتوبة أو لعذاب يوم القيامة.

(٥٩) وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ[1] أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي بالمعجزات وخوارق العادات ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ أي بالمعجزات الأولون من الأمم فأهلكناهم بتكذيبهم بها، فلو أرسلنا نبينا محمدًا بمثل تلك الآيات وكذبت بها قريش لأهلكهم، وهو تعالى لا يريد إهلاكهم بل يريد هدايتهم ليهتدي على أيديهم خلقًا كثيرًا من العرب والعجم والأبيض والأصفر فسبحان الله العليم الحكيم وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾ أي آية مبصرة أي مضيئة بينة فظلموا بها أي كذبوا بها فعقروها فظلموا بذلك أنفسهم وعرضوها لعذاب الإبادة فأبادهم الله فأخذتهم الصيحة وهم ظالمون هذا دليل على أن المانع من الإرسال بالآيات هو ما ذكر تعالى في هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا[2]﴾ يخبر تعالى أنه ما يرسل الرسل مؤيدين بالآيات التي هي المعجزات والعبر والعظات إلا لتخويف الناس عاقبة الكفر والعصيان لعلهم يخافون فيؤمنون ويطيعون.

(٦٠) وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ أي اذكر يا محمد إذ قلنا لك بواسطة وحينا هذا إن ربك أحاط بالناس. فهم في قبضته وتحت قهره وسلطانه فلا ترهبهم ولا تخش منهم أحدًا فإن الله ناصرك عليهم، ومنزل نقمته بمن تمادى في الظلم والعناد، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ﴾ يريد رؤيا الإسراء والمعراج حيث أراه الله من آياته وعجائب صنعه وخلقه، ما أراه ﴿إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أي لأهل مكة اختبارًا لهم هل يصدقون أو يكذبون، إذ ليس لازمًا لتقرير نبوتك وإثبات رسالتك وفضلك أن نريك الملكوت الأعلى وما فيه من مظاهر القدرة والعلم والحكمة والرحمة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ﴾ أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن الكريم وهي شجرة الزقوم وأنها ﴿تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إلا فتنة كذلك لأهل مكة حيث قالوا كيف يصح وجود نخلة ذات طلع في وسط النار، كيف لا تحرقها النار قياسًا للغائب على الشاهد وهو قياس فاسد، وقوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾ بالشجرة الملعونة وأنها ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ۝﴾ وبغيرها من أنواع العذاب الدنيوي والأخروي، وما يزيدهم ذلك إلا طغيانًا كبيرًا أي ارتفاعًا وتكبرًا عن قبول الحق والاستجابة له لما سبق في علم الله من خزيهم وعذابهم فاصبر أيها الرسول وامض في دعوتك فإن العاقبة لك.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد بالحكم على عدم استجابة الآلهة المدعاة لعابديها.

٢ - بيان حقيقة عقلية وهي أن دعاء الأولياء والاستغاثة بهم والتوسل إليهم بالذبح والنذر هو أمر باطل ومضحك في نفس الوقت، إذ

= وأرحم من يرحم ورحم، وقد جاء هذا الوصف في عدّة آيات منها: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ وفي الآية تهديد ووعيد عرفه ابن مسعود رضي الله عنه فقال: إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكهم.

(١) أي: وما صرفنا عن إرسالك يا رسولنا بالمعجزات التي يطالب بها المشركون إلاّ تكذيب الأولين بها وهؤلاء مثلهم لو أرسلناك بها فكذّبوا بها واستحقوا الهلاك ونحن لا نريد لهم ذلك.

(٢) في السياق ما يدل على أنّ هناك رغبة في المعجزات من الكافرين والمؤمنين ولذا ذكر تعالى علل عدم إعطائها لرسوله ﷺ، فالعلة الأولى: تكذيب الأولين بها ودلل بتكذيب ثمود بها، والثانية: أنه ما يرسل بالمعجزات من أرسلهم بها إلا لعلة التخويف فقط، والثالثة: إعلامه تعالى رسوله ﷺ بأن ربك محيط بعباده قادر عليهم فلا تخفهم ولا تطلب الآية لهم، والرابعة: أن معجزة الإسراء والمعراج لم تكن للهداية وإنما هي للفتنة لا غير.

الأولياء كانوا قبل موتهم يطلبون الوسيلة إلى ربهم بأنواع الطاعات والقربات ومن كان يَعْبُدُ لا يُعْبَدْ. ومن كان يَتَقرب لا يُتقرَّب إليه، ومن كان يَتَوَسَّلُ لا يُتوسلْ إليه. بل يعبد الذي كان يُعْبَد، ويَتُوسل إلى الذي كان يُتَوسل إليه، ويتقرب إلى الذي كان يتقرب إليه، وهو الله سبحانه وتعالى.

٣ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.

٤ - بيان المانع من عدم إعطاء الرسول ﷺ الآيات على قريش.

٥ - بيان علة الإسراء والمعراج، وذكر شجرة الزقوم في القرآن الكريم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦١ ـ ٦٥]

(٦١) ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾: أي من الطين.

(٦٢) ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: أي أخبرني. ﴿كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾: أي فضَّلته علي بالأمر بالسجود له. ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾: لأستولين عليهم فأقودهم إلى الغواية كالدابة إذا جعل الرسن في حنكها، تُقاد حيث شاء راكبها!.

(٦٣) ﴿اذْهَبْ﴾: أي منظرًا إلى وقت النفخة الأولى. ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾: أي وافرًا كاملًا.

(٦٤) ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾: أي واستخفف. ﴿بِصَوْتِكَ﴾: أي بدعائك إياهم إلى طاعتك ومعصيتي بأصوات المزامير والأغاني واللهو. ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾: أي صِحْ فيهم بركبانك ومُشاتك. ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾: بحملهم على أكل الربا وتعاطيه. ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾: بتزيين الزنا ودفعهم إليه. ﴿وَعِدْهُمْ﴾: أي بأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء. ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾: أي باطلًا.

(٦٥) ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾: أي إن عبادي المؤمنين ليس لك قوة تتسلط عليهم بها. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾: أي حافظًا لهم منك أيها العدوّ.

معنى الآيات:

(٦١) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أي اذكر يا رسولنا لهؤلاء المشركين الجهلة الذين أطاعوا عدوهم وعدو أبيهم من قبل، وعصوا ربهم، اذكر لهم كيف صدَّقوا ظنّ إبليس فيهم، واذكر لهم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟﴾ فامتثلوا أمرنا ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قال منكرًا أمرنا، مستكبرًا عن آدم عبدنا ﴿ءَأَسْجُدُ[1] لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؟ أي لمن خلقته من الطين لأن آدم خلقه الله تعالى من أديم الأرض عذبها وملحها ولذا سمي آدم آدم، ثم قال في صلفه وكبريائه.

(٦٢) ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أي أخبرني أهذا ﴿ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾[2]؟! قال هذا استصغار لآدم واستخفافًا بشأنه، ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ أي وعزتك لئن أخرت موتي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لأستولين عليهم وأسوقهم إلى أودية الغواية والضلال حتى يهلكوا مثلي ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾[3] منهم ممن تستخلصهم لعبادتك.

(٦٣) فأجابه الرب تبارك وتعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾[4] أي مُنظرًا وممهلًا إلى وقت النفخة الأولى وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي عصاني وأطاعك ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي وافرًا كاملًا.

(٦٤) وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال هذا لإبليس بعد أن أنظره إلى يوم الوقت المعلوم أذن له في أن يعمل ما استطاع في إضلال أتباعه، ﴿وَٱسْتَفْزِزْ[5] مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ أي واستخفف منهم بدعائك إلى الباطل بأصوات المزامير

---

(١) الاستفهام إنكاري.

(٢) أي: فضلت، والإكرام: اسم جامع لكل ما يحمد، وفي الكلام حذف تقديره: أخبرني عن هذا الذي فضلته عليَّ لمَ فضلته وقد خلقتني من نار وخلقته من طين، ويصح بدون تقدير المحذوف أي: أترى هذا الذي كرّمته عليَّ لأفعلن به كذا وكذا.

(٣) ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: يعني المعصومين وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ واستثناء إبليس القليل كان ظنًا منه فقط كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ وقال الحسن: ظن ذلك لأنه وسوس لآدم في الجنة ولم يجد له عزمًا فحصل له بذلك هذا العلم المعبّر عنه بالظنّ إذ يطلق لفظ الظن، ويراد به العلم.

(٤) الأمر هنا: للإهانة والطرد والاحتقار والصغار.

(٥) الاستفزاز: طلب الفز، وهو الخفة والانزعاج، وترك التثاقل، والسين والتاء فيه لشدة طلب الاستخفاف والإزعاج.

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

٢٨٩

والأغاني وصور الملاهي وأنديتها وجمعياتها، ﴿وَأَجْلِبْ[1] عَلَيْهِم﴾ أي صِح على خيلك ورجلك[2] الركبان والمشاة وسقهم جميعًا على بني آدم لإغوائهم وإضلالهم ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملهم على الربا وجمع الأموال من الحرام وفي ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بتزيين الزنا وتحسين الفجور ﴿وَعِدْهُمْ﴾ بالأماني الكاذبة وبأن لا بعث يوم القيامة ولا حساب ولا جزاء قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي باطلًا وكذبًا وزورًا.

﴿٦٥﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ أي المؤمنين بي، المصدقين بلقائي ووعدي ووعيدي ليس لك عليهم قوة تتسلط عليهم بها، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي حافظًا لهم منك فلا تقدر على إضلالهم ولا إغوائهم يا عدوي وعدوهم.

هداية الآيات:

١ - مشروعية التذكير بالأحداث الماضية للتحذير من الوقوع في الهلاك.

٢ - ذم الكبر وأنه من شر الصفات.

٣ - تقرير عداوة إبليس والتحذير منها.

٤ - بيان مشاركة إبليس أتباعه في أموالهم وأولادهم ونسائهم.

٥ - بيان أن أصوات الأغاني والمزامير والملاهي وأندية الملاهي وجمعياتها الجميع من جند إبليس الذي يحارب به الآدمي المسكين الضعيف.

٦ - بيان حفظ الله تعالى لأوليائه، وهم المؤمنون المتقون، جعلنا الله تعالى منهم وحفظنا بما يحفظهم به إنه بر كريم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٦ - ٧٠]

﴿٦٦﴾ ﴿يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾: أي يسوقها فتسير فيه. ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: أي لتطلبوا رزق الله بالتجارة من إقليم إلى آخر.

﴿٦٧﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾: أي الشدة والبلاء والخوف من الغرق. ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: أي غاب عنكم من كنتم تدعونهم من آلهتكم. ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾: أي عن دعاء الله وتوحيده في ذلك.

﴿٦٨﴾ ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: أي ريحًا ترمي بالحصباء لشدتها. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾: أي حافظًا منه أي من الخسف أو الريح الحاصب.

﴿٦٩﴾ ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾: أي ريحًا شديدة تقصف الأشجار وتكسرها لقوتها. ﴿عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾: أي نصيرًا ومعينًا يتبعنا ليثأر لكم منا.

﴿٧٠﴾ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾: أي فضلناهم بالعلم والنطق واعتدال الخلق. ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: في البر على البهائم والبحر على السفن.

معنى الآيات:

﴿٦٦﴾ ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد والدعوة إليه. فقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ يخبرهم تعالى بأن ربهم الحق الذي يجب أن يعبدوه ويطيعوه بعد أن يؤمنوا به هو الذي ﴿يُزْجِى[3] لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي

(١) الإجلاب: جمع الجيوش وسوقها مشتق من الجلبة التي هي الصياح إذ الجيوش تجمع بالجلبة فيهم والصياح بهم.

(٢) قرأ حفص: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ بكسر الجيم لغة في رجل وقرأ غيره: ﴿رجْلك﴾ بسكون الجيم، والمعنى بخيلك: أي فرسانك ورجالك.

(٣) الإزجاء: السوق قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ وقال الشاعر:

يا أيها الراكب المزجي مطيّته ... سائل بني أسد ما هذه الصوت

السفينة ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ أي يسوقها فتسير بهم في البحر إلى حيث يريدون من أجل أن يطلبوا رزق الله لهم بالتجارة من إقليم لآخر. هذا هو إلهكم الحق[1]، أما الأصنام والأوثان فهي مخلوقة لله مربوبة له، لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها، نفعًا ولا ضرًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته تعالى تسخيره البحر لهم وإزجاء السفن وسوقها فيه ليحصلوا على أقواتهم عن طريق السفر والتجارة.

(٦٧) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ[2] فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ يذكرهم بحقيقة واقعة لهم وهي أنهم إذا ركبوا في الفلك وأصابتهم شدة من مرض أو ضلال طريق أو عواصف بحرية اضطربت لها السفن وخافوا الغرق دعوا الله وحده ولم يبق من يدعون سواه تعالى لكنهم إذا نجاهم من الهلكة التي خافوها ونزلوا بشاطىء السلامة أعرضوا عن ذكر الله وذكروا آلهتهم ونسوا ما كانوا يدعونه وهو الله من قبل ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ هذا طبعه وهذه حاله سرعة النسيان، وشدة الكفران.

(٦٨) وقوله تعالى وهو يخاطبهم لهدايتهم: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ يقرعهم على إعراضهم فيقول: ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الله تعالى: ﴿أَن يَخْسِفَ[3] بِكُمْ﴾ جانب الأرض الذي نزلتموه عند خروجكم من البحر ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي ريحًا شديدة تحمل الحصباء[4] فيهلككم كما أهلك عادًا ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ﴾ من غير الله ﴿وَكِيلًا﴾ يتولى دفع العذاب عنكم.

(٦٩) ويقول: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ الله تعالى: ﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي مرة أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ أي ريحًا شديدة تقصف الأشجار وتحطمها ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي بسبب كفركم كما أغرق آل فرعون ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي تابعًا يثأر لكم منا ويتبعنا مطالبًا بما نلنا منكم من العذاب. فما لكم إذًا لا تؤمنون وتوحدون وبالباطل تكفرون.

(٧٠) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي فضلناهم بالنطق والعقل والعلم واعتدال الخلق ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ على ما سخرنا لهم من المراكب ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[5] أي المستلذات من اللحوم والحبوب والفواكه والخُضَر والمياه العذبة الفرات. وقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فالآدميون أفضل من الجن وسائر الحيوانات، وخواصهم أفضل من الملائكة، وعامة الملائكة أفضل من عامة الآدميين ومع هذا فإن الآدمي إذا كفر ربه وأشرك في عبادته غيره، وترك عبادته، وتخلى عن محبته ومراقبته أصبح شر الخليقة كلها. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.

هداية الآيات:

١ - تعريف الله تعالى بذكر صفاته الفعلية والذاتية.

٢ - تذكير المشركين بحالهم في الشدة والرخاء حيث يعرفون الله في الشدة ويخلصون له الدعاء، وينكرونه في الرخاء ويشركون به سواه.

٣ - تخويف المشركين بأن الله تعالى قادر على أن يخسف بهم الأرض أو يرسل عليهم حاصبًا من الريح فيهلككم أو يردهم إلى البحر

---

(١) أي: الذي يجب أن يشكروه بعبادته وحده دون من سواه.

(٢) لفظ الضرّ يعم المرض وخوف الغرق والإمساك عن الجري وأهوال حالة اضطراباته.

(٣) الخسف: انهيار الأرض بالشيء فوقها، وجانب البر: ناحية الأرض إذ البحر جانب والأرض جانب.

(٤) يقال: لكل ريح تحمل التراب والحصباء: حاصب، قال الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضربنا ... بحاصب كنديف القطن منثور

(٥) في الآية دليل على إبطال الزهد في لذيذ الطعام كالعسل والسمن واللحم والفواكه والاكتفاء بالخبز بالملح ونحوه مع توفر طيب الطعام والشراب لأنه مخالف لمنهج السلف وفيه كفر ما أنعم الله تعالى به على عباده من طيب الرزق.

(٧١) ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ معطوف على مقدر اقتضاه قوله: ﴿نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: فيؤتون كتبهم ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ...﴾ إلخ..

وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

مرة أخرى ويرسل عليهم قاصفًا من الريح فيغرقهم بسبب كفرهم بالله، وعودتهم إلى الشرك بعد دعائه تعالى والتضرع إليه حال الشدة.

٤ - بيان منن الله تعالى على الإنسان وأفضاله عليه في تكريمه وتفضيله.

٥ - حال الرخاء أصعب على الناس من حال الشدة بالقحط والمرض، أو غيرهما من المصائب.

٦ - الإعلان عن كرامة الآدمي وشرفه على سائر المخلوقات الأرضية.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧١ ـ ٧٧]

﴿٧١﴾ ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾: أي الذي كانوا يقتدون به ويتبعونه في الخير أو الشر. ﴿فَتِيلًا﴾: أي مقدار فتيل وهو الخيط الذي يوجد وسط النواة.

﴿٧٢﴾ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾: من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله تعالى الدالة على وجوده وعلمه وقدرته، فلم يؤمن به ولم يعبده فهو في الآخرة أشد عمى وأضل سبيلاً.

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِن كَادُوا﴾: أي قاربوا. ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾: أي يستنزلونك عن الحق، أي يطلبون نزولك عنه. ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾: أي لتقول علينا افتراءً غير الذي أوحينا إليك. ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾: أي لو فعلت الذي طلبوا منك فعله لاتخذوك خليلاً لهم.

﴿٧٥﴾ ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾: أي لعذبناك عذاب الدنيا مضاعفًا وعذاب الآخرة كذلك.

﴿٧٦﴾ ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾: أي ليستخفونك من الأرض أرض مكة. ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ﴾: أي لا يبقون خلقك أي بعدك إلا قليلاً ويهلكهم الله.

﴿٧٧﴾ ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾: أي لو أخرجوك لعذبناهم بعد خروجك بقليل، سنتنا في الأمم. ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾: أي عما جرت به في الأمم السابقة.

معنى الآيات:

﴿٧١﴾ قوله تعالى لرسوله في تقرير عقيدة البعث والجزاء، اذكر يا رسولنا: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ الذي كانوا يقتدون به ويتبعونه فيتقدم ذلك الإمام ووراءه أتباعه وتوزع الكتب عليهم واحدًا واحدًا فمن أعطي كتابه بيمينه تشريفًا له وتكريمًا، فأولئك الذين أكرموا بإعطائهم كتبهم بأيمانهم، يقرؤون كتابهم ويحاسبون بما فيه ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون مقدار فتيل لا تنقص حسناتهم، ولا بزيادة سيئاتهم[1]. واذكر هذا لهم تعظهم به لعلهم يتعظون.

﴿٧٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ﴾ أي الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ لا يبصر هذه الحجج والآيات والدلائل وأصر على الشرك، والتكذيب والمعاصي ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي أشد عمى ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فلا يرى طريق النجاة ولا يسلكه حتى يقع في جهنم.

﴿٧٣﴾ وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ[2]﴾ أي يصرفونك ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا[3] إِلَيْكَ﴾ من توحيدنا

---

(١) لم يذكر من أوتي كتبهم بشمائلهم إذ هم الذين خسروا أنفسهم اكتفاء بذكر من أوتوا كتبهم بأيمانهم، وقد ذكر في أول السورة: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وذكر في سورتي الحاقة والانشقاق.

(٢) عدي فعل يفتنونك بعن لأنه مضمن معنى فعل يتعدّى بها وهو الصرف يقال: صرفه عن كذا أي: يصرفونك.

(٣) الآية مسوقة مساق الامتنان على النبي ﷺ حيث عصمه، وفيها بيان مدى ما كان المشركون يريدونه من صرف النبي ﷺ عن الحق الذي جاءه وهو يدعو إليه من التوحيد.

والكفر بالباطل وأهله. ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ أي لتقول علينا غير الحق الذي أوحيناه إليك، وإذًا لو فعلت بأن وافقتهم على ما طلبوا منك، من الإغضاء على شركهم والتسامح معهم إقرارًا لباطلهم، ولو مؤقتًا، ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ لهم وكانوا أولياء لك، وذلك أن المشركين في مكة والطائف، واليهود في المدينة كانوا يحاولون جهدهم أن يستنزلوا الرسول على شيء من الحق الذي يأمر به ويدعو إليه مكرًا منهم وخديعة سياسية إذ لو وافقهم على شيء لطالبوا بآخر، ولقالوا قد رجع إلينا، فهو إذًا يَتَقَوَّل، وليس بالذي يوحى إليه بدليل قبوله منا كذا وكذا وتنازله عن كذا وكذا.

(٧٤) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ أي على الحق حيث عصمناك ﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾ أي قاربت ﴿تَرْكَنُ﴾[1] أي تميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ بقبول بعض اقتراحاتهم.

(٧٥) ﴿إِذًا﴾ أي لو ملت إليهم، وقبلت منهم ولو شيئًا يسيرًا ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ[2] ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ[3]﴾، أي لضاعفنا عليك العذاب في الدنيا والآخرة ثم لا تجد لك نصيرًا ينصرك إذا نحن خذلناك وعذبناك وقوله تعالى في حادثة أخرى وهي أنهم لما فشلوا في المحاولات السلمية أرادوا استعمال القوة فقرروا إخراجه من مكة بالموت أو الحياة فأخبر تعالى رسوله بذلك إعلامًا وإنذارًا.

(٧٦) فقال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا﴾ أي لو فعلوا لم يلبثوا بعد إخراجك إلا زمنًا قليلًا ونهلكهم كما هي سنتنا في الأمم السابقة التي أخرجت أنبياءها أو قتلتهم هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ[4]﴾ أي يستخفونك.

(٧٦) ـ (٧٧) ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ[5] إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي عما جرت به في الأمم السابقة.

هداية الآيات:

١ ـ الترغيب في الاقتداء بالصالحين ومتابعتهم والترهيب من الاقتداء بأهل الفساد ومتابعتهم.

٢ ـ عدالة الله تعالى في الموقف بإقامة الحجة على العبد وعدم ظلمه شيئًا.

٣ ـ عمى الدنيا عن الحق وشواهده سبب عمى الآخرة وموجباته من السقوط في جهنم.

٤ ـ حرمة الركون أي الميل لأهل الباطل بالتنازل عن شيء من الحق الثابت إرضاءً لهم.

٥ ـ الوعيد الشديد لمن يرضي أهل الباطل تملقًا لهم طمعًا في دنياهم فيترك الحق لأجلهم.

٦ ـ إمضاء سنن الله تعالى وعدم تخلفها بحال من الأحوال.

شرح الكلمات:
[الآية: ٧٨ ـ ٨٤]

(٧٨) ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾: أي زوالها من كبد السماء ودحوضها إلى جهة الغرب. ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾: أي إلى ظلمة الليل، إذ الغسق الظلمة. ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾: صلاة الصبح. ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾: تشهده الملائكة، ملائكة الليل وملائكة النهار.

(٧٩) ﴿فَتَهَجَّدْ[6] بِهِۦ﴾: أي بالقرآن. ﴿نَافِلَةً﴾: أي زائد عن الغرض وهي التهجد بالليل. ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾: هو الشفاعة العظمى يوم القيامة حيث يحمده الأولون والآخرون.

(٨٠) ﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾: أي

---

(١) الركون: الميل بالركن الذي هو الجانب من جسد الإنسان واستعمل في الموافقة بعلاقة القرب.

(٢) هذه الجملة جزاء لجملة: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ إذ تقدير الكلام لو ركنت إليهم لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات.

(٣) جائز أن يكون المراد بعذاب الدنيا: تراكم المصائب والأرزاء في مدّة الحياة وعذاب الممات أن يموت مكمودًا مستذلاً بين من فازوا عليه بشرف سقوطه بينهم وضياع ما كان يأمله ويدعو إليه.

(٤) الاستفزاز: الحمل على الترحل، وهو استفعال من فزّ يفزّ بمعنى: بارح المكان، والمعنى: كادوا أن يخرجوك من بلدك كرهًا ثم صرفهم الله عنك حتى خرجت برضاك واختيارك فلذا لم تنزل بهم العقوبة بخروجك من بلدك.

(٥) قرأ نافع: ﴿خلفك﴾ أي: بعدك، وقرأ حفص: ﴿خِلَٰفَكَ﴾ وهي لغة في خلف بمعنى: بعد.

(٦) تهجّد: إذا ألقى الهجود عنه، وهو النوم، وقام يصلّي، والتهجّد من الهجود وهو من الأضداد، هجد: نام، وهجد: سهر.

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

المدينة، إدخالاً مرضيًا لا أرى فيه مكروهًا. ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾: أي من مكة إخراجًا لا ألتفت بقلبي إليها.

﴿٨١﴾ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾: أي عند دخولك مكة فاتحًا لها بإذن الله تعالى. ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: أي ذهب واضمحل.

﴿٨٣﴾ ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: أعرض عن الشكر فلم يشكر، ونأى بجانبه: أي ثنى عطفه متبخترًا في كبرياء.

﴿٨٤﴾ ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾: أي طريقته ومذهبه الذي يشاكل حاله في الهدى والضلال.

معنى الآيات:

﴿٧٨﴾ بعد ذلك العرض الهائل لتلك الأحداث الجسام أمر تعالى رسوله بإقام الصلاة فإنها مأمن الخائفين، ومنار السالكين، ومعراج الأرواح إلى ساحة الأفراح فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي لأول دلوكها[١] وهو ميلها من كبد السماء إلى الغرب وهو وقت الزوال ودخول وقت الظهر، وقوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ[٢] ٱلَّيْلِ﴾ أي إلى ظلمته، ودخلت صلاة العصر[٣] فيما بين دلوك الشمس وغسق الليل، ودخلت صلاة المغرب وصلاة العشاء في غسق الليل الذي هو ظلمته، وقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[٤] أي صلاة الصبح وهذه هي الصلوات الخمس المفروضة على أمة الإسلام، النبي وأتباعه سواء وقوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يعني محضورًا، تحضره ملائكة النهار لتنصرف ملائكة الليل، لحديث الصحيح: «يتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار....».

﴿٧٩﴾ وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾[٥] أي صلاة زائدة على الفرائض الخمس وهي قيام الليل، وهو واجب عليه ﷺ بهذه الآية، وعلى أمته مندوب إليه، مرغب فيه.

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ عسى من الله تعالى تفيد الوجوب، ولذا فقد أخبر تعالى رسوله مبشرًا إياه بأن يقيمه يوم القيامة ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يحمده عليه الأولون والآخرون. وهو الشفاعة العظمى حيث يتخلى عنها آدم فمن دونه... حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: أنا لها، أنا لها، ويأذن له ربه فيشفع للخليقة في فصل القضاء،

---

(١) ما في التفسير أشهر وأولى بالأخذ به وهو ما ذهب إليه عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس ومالك، ويرى غير هؤلاء من بعض الصحابة والتابعين: أنّ دلوك الشمس هو غروبها وعليه فلم تشمل الآية أوقات الصلوات الخمس بخلاف القول بدلوك الشمس: زوالها عن كبد السماء.

(٢) غسق الليل: سواده وظلمته قال ابن قيس الرقيّات:

إنّ هذا الليل قد غسقا ... واشتكيت الهمّ والأرقا

(٣) وقت العصر إذا زاد ظل كل شيء مثله، ووقت المغرب: غروب الشمس، ووقت العشاء: ذهاب الشفق الأحمر، ووقت الصبح طلوع الفجر ووقت الظهر: زوال الشمس عن كبد السماء.

(٤) ﴿وَقُرْءَانَ﴾: منصوب على الإغراء أي: والزم قرآن الفجر لأهميته ويصح أن ينصب على العطف أي: أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر أي: صلاته.

(٥) ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: أي: نافلة لأجلك خاصة بك دون سائر أمتك.

ليدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وتستريح الخليقة من عناء الموقف وطوله وصعوبته.

﴿٨٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ[1] أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾. هذه بشارة أخرى أن الله تعالى أذن لرسوله بالهجرة من تلقاء نفسه لا بإخراج قومه وهو كاره. فقال له: قل في دعائك ربي أدخلني المدينة دار هجرتي ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ بحيث لا أرى فيها مكروهًا، وأخرجني من مكة يوم تخرجني ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ غير ملتفت إليها بقلبي شوقًا وحنينًا إليها.

﴿٨١﴾ ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ أي وسلني أن أجعل لك من لدني سلطانًا نصيرًا لك على من بغاك بسوء، وكادك بمكر وخديعة، وحاول منعك من إقامة دينك، ودعوتك إلى ربك، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ هذه بشارة أخرى بأن الله تعالى سيفتح له مكة، ويدخلها ظافرًا منتصرًا وهو يكسر الأصنام حول الكعبة وكانت ثلاثمائة وستين صنمًا! ويقول جاء الحق وزهق الباطل أي ذهب الكفر واضمحل. ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. لا بقاء له ولا ثبات إذا صاول الحق، ووقف في وجهه، وجائز أن يكون المراد بالحق، القرآن وبالباطل الكذب والافتراء، وجائز أن يكون الحق الإسلام والباطل الكفر والشرك وأعم من ذلك، أن الحق هو كل ما هو طاعة لله عز وجل، والباطل كل طاعة للشيطان من الشرك والظلم وسائر المعاصي.

﴿٨٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ[2] الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وننزل عليك يا رسولنا محمد من القرآن ما هو شفاء[3] أي ما يستشفى به من مرض الجهل والضلال والشك والوساوس ورحمة للمؤمنين دون الكافرين، لأن المؤمنين يعملون به فيرحمهم الله تعالى بعملهم بكتابه، وأما الكافرون، فلا رحمة لهم فيه، لأنهم مكذبون به تاركون للعمل بما فيه. وقوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي ولا يزيد القرآن الظالمين وهم المشركون المعاندون الذين أصروا على الباطل عنادًا ومكابرة، هؤلاء لا يزيدهم ما ينزل من القرآن ويسمعونه إلا خسارًا لازدياد كفرهم وظلمهم وعنادهم.

﴿٨٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ[4] وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ يخبر الله تعالى عن الإنسان الكافر المحروم من نور الإيمان وهداية الإسلام أنه إذا أنعم عليه بنعمة النجاة من الهلاك وقد أشرف عليه بغرق أو مرض أو جوع أو نحوه، أعرض عن ذكر الله ودعائه كما كان يدعوه في حال الشدة، ونأى بجانبه أي بعد عنا فلا يلتفت إلينا بقلبه، وذهب في خيلائه وكبريائه وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾[5] أي قنوطًا. هذا هو الكافر، ذو ظلمة النفس لكفره وعصيانه. إذا مسه الشر من جوع أو مرض أو خوف أحاط به كان يؤوسًا أي كثير اليأس والقنوط تامهما، لعدم إيمانه بالله ورحمته وقدرته على إنجائه وخلاصه.

﴿٨٤﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي قل يا رسولنا

---

(١) روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ بمكة ثمّ أمر بالهجرة فنزلت: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي..﴾ إلخ.. وهو تعليم من الله لرسوله ﷺ هذا الدعاء يقوله في صلاته وخارجها.

(٢) ﴿وَمِنَ﴾: بيانية أي: مبيّنة للموصول، ما هو شفاء وليست للابتداء ولا هي زائدة أي: وننزّل القرآن الذي هو شفاء وهدى ورحمة للمؤمنين.

(٣) وقد يستشفى بالقرآن من الأمراض الجسمية ففي البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ بعثهم وكانوا ثلاثين راكبًا فنزلوا على قوم من العرب فسألوهم أن يضيفوهم فأبوا فلدغ سيّد الحي فأتاهم آت وقال لهم: هل فيكم من يرقي من العقرب؟ قلنا: نعم لكن حتى تعطونا فقالوا: إنا نعطيكم ثلاثين شاة فرقاه بفاتحة الكتاب قرأها عليه سبع مرات فشفي فأخذوا الثلاثين شاة فأتوا بها رسول الله ﷺ فقال لهم: كلوا وأطعمونا من الغنم.

(٤) المراد بالإنسان هنا: الكافر لا المؤمن وأل فيه للجنس، فيشمل اللّفظ كل إنسان كافر لم يهتد إلى الإسلام.

(٥) كونه يؤوسًا: لا يتعارض مع كثرة دعائه كما في قوله تعالى: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ إذ يدعو وهو قانط.

للمشركين، كل منا ومنكم يعمل على طريقته ومذهبه بحسب حاله هداية وضلالاً. والله تعالى ربكم أعلم بمن هو أهدى منا ومنكم سبيلاً. ويجزي الكل بحسب عمله وسلوكه. وهذه كلمة مفاصلة قاطعة، للنزاع الناجم عن كون كل يدعي أنه على الحق وأن دينه أصوب، وطريقته أمثل وسبيله أجدى وأنفع.

هداية الآيات:

١ - وجوب إقامة الصلاة وبيان أوقاتها المحددة لها.

٢ - الترغيب في النوافل، وخاصة التهجد أي «نافلة الليل».

٣ - تقرير الشفاعة العظمى للنبي ﷺ.

٤ - ضعف الباطل وسرعة تلاشيه إذا صاوله الحق ووقف في وجهه.

٥ - القرآن شفاء لأمراض القلوب عامة ورحمة بالمؤمنين خاصة.

٦ - بيان طبع المرء الكافر وبيان حال الضعف الملازم له.

٧ - تعليم الرسول ﷺ والمؤمنين كيف يتخلصون من الجدال الفارغ والحوار غير المثمر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٥ ـ ٨٩]

﴿٨٥﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾: أي يسألك المشركون بواسطة أهل الكتاب عن الروح الذي يحيا به البدن. ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾: أي من شأنه وعلمه الذي استأثر به ولم يعلمه غيره.

﴿٨٦﴾ ﴿لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي القرآن بأن نمحوه من الصدور والمصاحف لفعلنا. ﴿لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾: يمنع ذلك منا ويحول دون ما أردناه منك.

﴿٨٧﴾ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: أي لكن أبقيناه عليك رحمة من ربك فلم نذهب به.

﴿٨٨﴾ ﴿بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: من الفصاحة والبلاغة والمحتوى من الغيوب والشرائع والأحكام. ﴿ظَهِيرًا﴾: أي معينًا ونصيرًا.

﴿٨٩﴾ ﴿صَرَّفْنَا﴾: بينا للناس مثلاً من جنس كل مثل ليتعظوا به فيؤمنوا ويوحدوا. ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾: أي أهل مكة إلا كفورًا أي جحودًا للحق وعنادًا فيه.

معنى الآيات:

﴿٨٥﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ[1] عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ إذ قد سأله المشركون عن الروح وعن أصحاب الكهف، وذي القرنين بإيعاز من يهود المدينة فأخبره تعالى بذلك وعلمه الرد عليهم فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ[2] رَبِّي﴾ وعلمه الذي لا يعلمه إلا هو، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً لأن سؤالهم هذا ونظائره دال على ادعائهم العلم فأعلمهم أن ما أوتوه من العلم إلا قليل بجانب علم الله تعالى[3].

﴿٨٦﴾ ـ ﴿٨٧﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ[4] بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ هذا امتنان من الله على رسوله الذي أنزل عليه القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بأنه تعالى قادر على محوه من صدره. وسطره، فلا تبقى منه آية ثم لا يجد الرسول وكيلاً له يمنعه من فِعْلِ الله به ذلك ولكن رحمة منه تعالى لم يشأ ذلك بل يبقيه إلى قرب قيام الساعة حجة الله على عباده وآية على نبوة محمد ﷺ، وصدق رسالته، وليس هذا بأول إفضال من الله تعالى على رسوله، بل

---

(١) روى ابن إسحاق أنّ قريشًا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود ويثرب يسألانهم عن أمر النبي ﷺ فقال اليهود لهما: سلوه عن ثلاثة وذكروا لهما أهل الكهف وذا القرنين وعن الروح، فإن أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبي وإلاّ فروا رأيكم فيه فأنزل الله تعالى سورة الكهف وفيها الجواب عن أصحاب الكهف، وذي القرنين، وأنزل هذه الآية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾.

(٢) يطلق الروح على ملك من الملائكة عظيم ويطلق على جبريل ويطلق على هذا الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير وهو المسؤول عنه في هذه الآية، وسؤالهم كان عن بيان حقيقته وماهيته.

(٣) لفظ الآية عام وإن كان سبب نزولها خاصًا إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإنه ما أوتي أحد علمًا إلاّ وهو إلى جانب علم الله تعالى قليل.

(٤) روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قوله: إنّ هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن ينزع منكم. قالوا: كيف ينزع منا وقد أثبته الله في قلوبنا وكتبناه في المصاحف قال: يسري عليه في ليلة واحدة فينزع ما في القلوب ويذهب ما في المصاحف ويصبح الناس منه فقراء ثمّ قرأ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ﴾ الآية.

فضل الله عليه كبير، ولنذكر من ذلك طرفًا وهو عموم رسالته، كونه خاتم الأنبياء، العروج به إلى الملكوت الأعلى، إمامته للأنبياء الشفاعة، العظمى، والمقام المحمود.

(٨٨) وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ[1] الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ لا شك أن هذا الذي علم الله رسوله أن يقوله له سبب وهو ادعاء بعضهم أنه في إمكانه أن يأتي بمثل هذا القرآن الذي هو آية صدق نبوة محمد ﷺ، وبذلك تبطل الدعوى، وينتصر باطلهم على الحق. فأمر تعالى رسوله أن يرد على هذا الزعم الباطل بقوله: قل يا رسولنا لهؤلاء الزاعمين الإتيان بمثل هذا القرآن لئن اجتمعت الإنس والجن متعاونين متظاهرين على الإتيان بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ذلك لأنه وحي الله وكتابه، وحجته على خلقه. وكفى. فكيف إذًا يمكن للإنس والجن أن يأتوا بمثله؟!

(٨٩) وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ أي بينا مثلاً من جنس كل مثل من أجل هداية الناس وإصلاحهم علهم يتذكرون فيتعظون، فيؤمنون ويوحدون فأبى أكثر الناس إلا كفورًا أي جحودًا بالحق، وإنكارًا للقرآن وتكذيبًا به وبما جاء فيه من الحق والهدى والنور، لما سبق القضاء الإلهي من امتلاء جهنم بالغاوين وجنود إبليس أجمعين.

هداية الآيات:

١ - علم الروح مما استأثر الله تعالى به.

٢ - ما علم أهل العلم إلى علم الله تعالى إلا كما يأخذ الطائر بمنقاره من ماء المحيط.

٣ - حفظ القرآن في الصدور والسطور إلى قرب الساعة.

٤ - عجز الإنس والجن عن الإتيان بقرآن كالقرآن الكريم.

٥ - لما سبق في علم الله من شقاوة الناس تجد أكثرهم لا يؤمنون.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٠ ـ ٩٥]

(٩٠) ﴿يَنبُوعًا﴾: عينًا لا ينضب ماؤها فهي دائمة الجريان.

(٩١) ﴿جَنَّةٌ﴾: بستان كثير الأشجار.

(٩٢) ﴿كِسَفًا﴾: قطعًا جمع كسفة كقطعة. ﴿قَبِيلًا﴾: مقابلة لنراهم عيانًا.

(٩٣) ﴿مِّن زُخْرُفٍ﴾: من ذهب. ﴿تَرْقَىٰ﴾: تصعد في السماء.

(٩٥) ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾: ساكنين في الأرض لا يبرحون منها.

معنى الآيات:

(٩٠) ما زال السياق الكريم في الدعوة إلى التوحيد والنبوة والبعث وتقرير ذلك. فقال تعالى مخبرًا عن قيلهم لرسول الله وهم يجادلون في نبوته. فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾[2] أي لن نتابعك على ما تدعو إليه من التوحيد والنبوة لك والبعث والجزاء لنا ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ أي عينًا يجري ماؤها على وجه الأرض لا ينقطع.

(٩١) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي بستان من نخيل وعنب، ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا﴾ أي خلال الأشجار تفجيرًا.

(٩٢) ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[3] أي قطعًا، ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا[4]﴾ أي مقابلة نراهم معاينة.

(٩٣) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي من ذهب تسكنه بيننا ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي تصعد بسلم ذي درج في

---

(١) نزلت هذه الآية ردًا على كفار قريش عندما قال النضر بن الحارث وغيره: لو نشاء لقلنا مثل هذا. ومعنى ظهيرًا: أي: عونًا ونصيرًا كما يتعاون الشعراء على قصيد الشعر.

(٢) نزلت هذه الآية في رؤساء قريش مثل: عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحارث وأبي جهل وأمية بن خلف وغيرهم حيث اجتمعوا حول الكعبة ليلاً وبعثوا إلى الرسول ﷺ وكان حريصًا على هدايتهم فأتاهم فقالوا له كلامًا طويلاً ثم خلصوا إلى ما ذكر تعالى في هذه الآية وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا إلخ..

(٣) الكسف: بفتح السين جمع كسفة بإسكانها، قرأ نافع ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين وكذا عاصم وقرأ غيرهما ﴿كسفًا﴾ بإسكان السين أي: قطعة.

(٤) فسر قبيلاً بعدّة تفسيرات قال ابن عباس: كفيلاً، وقال مقاتل: شهيدًا، وقال مجاهد: جمع القبيلة أي: بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، وقيل ضمناء يضمنون لنا إتيانك به وما في التفسير أولى وأظهر في تفسير الآية.

السماء، ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ[1]﴾ إن أنت رقيت ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ من عند الله ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ يأمرنا فيه بالإيمان بك واتباعك! هذه ست طلبات كل واحدة اعتبروها آية متى شاهدوها زعموا أنهم يؤمنون، والله يعلم أنهم لا يؤمنون، فلذا لم يستجب لهم وقال لرسوله: قل يا محمد لهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ متعجبًا من طلباتهم ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟! أي هل كنت غير بشر رسول؟ وإلا كيف يطلب مني هذا الذي طلبوا، إن ما تطلبونه لا يقدر عليه عبد مأمور مثلي، وإنما يقدر عليه رب عظيم قادر، يقول للشيء كن.... فيكون! وأنا ما ادعيت ربوبية، وإنما أصرح دائمًا بأني عبد الله ورسوله إليكم لأبلغكم رسالته بأن تعبدوه وحده ولا تشركوا به سواه وتؤمنوا بالبعث الآخر وتعملوا له بالطاعات وترك المعاصي.

(٩٤) وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي وما منع أهل مكة أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى[2] على يد رسولهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ أي إلا قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ منكرين على الله أن يبعث رسولاً من البشر!

(٩٥) وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ أي قل يا رسولنا لهؤلاء المنكرين أن يكون الرسول بشرًا، المتعجبين من ذلك، قل لهم: لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ساكنين في الأرض لا يغادرونها لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً يهديهم بأمرنا ويعلمهم ما يطلب منهم فعله بإذننا لأنهم يفهمون عنه لرابطة الجنس بينهم والتفاهم الذي يتم لهم. ولذا بعثنا إليكم رسولاً من جنسكم تفهمون ما يقول لكم يقدر على إفهامكم والبيان لكم فكيف إذًا تنكرون الرسالة للبشر وهي أمر لا بد منه؟!

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة الرسول ﷺ.

٢ - بيان شدة عناد مشركي قريش، وتصلبهم وتحزبهم إزاء دعوة التوحيد.

٣ - بيان سخف عقول المشركين برضاهم للألوهية بحجر وإنكارهم الرسالة للبشر!

٤ - تقرير أن التفاهم حسب سنة الله لا يتم إلا بين المتجانسين فإذا اختلفت الأجناس فلا تفاهم إلا أن يشاء الله فلا يتفاهم إنسان مع حيوان أو جان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٦ - ٩٩]

(٩٦) ﴿شَهِيدًۢا﴾: على أني رسول الله إليكم وقد بلغتكم وعلى أنكم كفرتم وعاندتم.

(٩٧) ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾: أي يهدونهم. ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾: أي يمشون على وجوههم. ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾: لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون. ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾: أي سكن لهبها زدناهم سعيرًا أي تلهبًا واستعارًا.

(٩٨) ﴿وَقَالُوٓا۟﴾: أي منكرين للبعث.

(٩٩) ﴿مِثْلَهُمْ﴾: أي أناسًا مثلهم. ﴿أَجَلًا﴾: وقتًا محددًا.

معنى الآيات:

(٩٦) ما زال السياق في تقرير النبوة المحمدية إذ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل لأولئك المنكرين أن يكون الرسول بشرًا ﴿كَفَىٰ[3] بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ على أني رسوله وأنتم منكرون عليَّ ذلك.

إنه تعالى كان وما زال ﴿بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ أي ذا خبرة تامة بهم ﴿بَصِيرًا﴾ بأحوالهم يعلم المحق منهم من المبطل، والصادق من الكاذب وسيجزي كلًا بعدله ورحمته.

(٩٧) وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ[4]﴾ يخبر تعالى أن الهداية بيده تعالى فمن يهده الله فهو

---

(١) الرقي: مصدر رقى يرقي رقيًا ورُقيا أي: صعد المنبر ونحوه.

(٢) الهدى: أي ما يحقق الهداية من الكتب والرسل من عند الله تعالى.

(٣) روي أن نفرًا من قريش قالوا حين سمعوا قوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزل: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

(٤) حذفت الياء ليوقف على الدّال بالسكون وهي لغة فصيحة وفي حال الوصل يؤتى بالياء نطقًا بها.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

٢٩٢

المهتدي بحق، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ[1] أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي يهدونهم بحال من الأحوال، وفي هذا الكلام تسلية للرسول وعزاء له في قومه المصرّين على الجحود والإنكار لرسالته.

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي أولئك المكذبين الضالين الذين ماتوا على ضلالهم وتكذيبهم فلم يتوبوا نحشرهم يوم القيامة، يمشون على وجوههم[2] حال كونهم عميًا لا يبصرون، بكمًا لا ينطقون، صمًا[3] لا يسمعون وقوله تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي محل استقرارهم في ذلك اليوم جهنم الموصوفة بأنها ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي سكن لهبها عنهم زادهم الله سعيرًا أي تلهبًا واستعارًا. ﴿٩٨﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ أي ذلك العذاب المذكور جزاؤهم بأنهم كفروا بآيات الله أي بسبب كفرهم بآيات الله. وقولهم إنكارًا للبعث الآخر واستبعادًا له: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ أي ترابًا ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ورد الله تعالى على هذا الاستبعاد منهم للحياة الثانية فقال: ﴿٩٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي أينكرون البعث الآخر؟ ولم يروا بعيون قلوبهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؟؟! بلى إنه لقادر لو كانوا يعلمون!

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾[4] أي وقتًا محدودًا معينًا لهلاكهم وعذابهم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهم صائرون إليه لا محالة، وقوله: ﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي مع هذا البيان والاستدلال العقلي أبى الظالمون إلا الجحود والكفران ليحق عليهم كلمة العذاب فيذوقوه والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ ـ عظم شهادة الله تعالى ووجوب الاكتفاء بها.

٢ ـ الهداية والإضلال بيد الله فيجب طلب الهداية منه والاستعاذة به من الضلال.

٣ ـ فظاعة عذاب يوم القيامة إذ يحشر الظالمون يمشون على وجوههم كالحيات وهم صم بكم عمي والعياذ بالله تعالى من حال أهل النار.

٤ ـ جهنم جزاء الكفر بآيات الله والإنكار للبعث والجزاء يوم القيامة.

٥ ـ دليل البعث عقلي كما هو نقلي فالقادر على البدء، قادر عقلاً على الإعادة بل الإعادة ـ عقلاً ـ أهون من البدء للخلق من لا شيء.

---

(١) جمع الضمير (لهم) مراعاة إلى أن (من) تكون للواحد والمتعدد.

(٢) أي: يسحبون على وجوههم إهانة لهم كما يفعل في الدنيا بمن ينتقم منه حيث يسحبونه على وجهه في الأرض إهانة، ومن سورة القمر قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ وجائز أن يمشوا على وجوههم عند حشرهم إلى جهنم فإذا دخلوها سحبوا على وجوههم لحديث أنس: «**أليس الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه؟**» في جواب سائل قال: أفيحشر الكفّار على وجوههم؟

(٣) هذا في حال حشرهم إلى جهنم وكانوا قبل ذلك يسمعون ويبصرون وينطقون ثم إذا دخلوها عادت إليهم حواسهم للآيات القرآنية المصرّحة بذلك منها: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ..﴾ ومنها: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ ومنها: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ..﴾.

(٤) جملة: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ معطوفة على جملة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ لتأويلها بمعنى: قد رأوا ذلك لو كانوا يعقلون. الأجل: الزمن المجعول غاية يبلغ إليها في حال من الأحوال والمراد به هنا مدّة حياتهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٠ ـ ١٠٤]

(١٠٠) ﴿خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾: أي من المطر والأرزاق. ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾: أي منعتم الإنفاق. ﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾: خوف النفاد. ﴿قَتُورٗا﴾: أي كثير الإقتار أي البخل والمنع للمال.

(١٠١) ﴿تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾: أي معجزات بينات أي واضحات وهو اليد والعصا والطمس إلخ. ﴿مَسۡحُورٗا﴾: أي مغلوبًا على عقلك، مخدوعًا.

(١٠٢) ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي الآيات التسع. ﴿مَثۡبُورٗا﴾: هالكًا بانصرافك عن الحق والخير.

(١٠٣) ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم﴾: أي يستخفهم ويخرجهم من ديار مصر.

(١٠٤) ﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي أرض القدس والشام. ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: أي الساعة. ﴿لَفِيفٗا﴾: أي مختلطين من أحياء وقبائل شتى.

معنى الآيات:

يقول تعالى لرسوله ﷺ، قل يا محمد لأولئك الذين يطالبون بتحويل جبل الصفا إلى ذهب، وتحويل المنطقة حول مكة إلى بساتين من نخيل وأعناب تجري الأنهار من خلالها، قل لهم، لو كنتم أنتم تملكون خزائن رحمة ربي من الأموال والأرزاق لأمسكتم بخلابها ولم تنفقوها خوفًا من نفادها إذ هذا طبعكم، وهو البخل.

(١٠٠) ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ قبل هدايته وإيمانه ﴿قَتُورٗا﴾ أي كثير التقتير بخلًا وشحًا نفسيًا ملازمًا له حتى يعالج هذا الشح بما وضع الله تعالى من دواء نافع جاء بيانه في سورة المعارج(١) من هذا الكتاب الكريم.

(١٠١) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ(٢) ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ أي، ولقد أعطينا موسى بن عمران نبي بني إسرائيل تسع آيات وهي: اليد، والعصا والدم(٣)، وانفلاق البحر، والطمس على أموال آل فرعون، والطوفان والجراد والقمل والضفادع، فهل آمن عليها آل فرعون؟! لا، إذًا، فلو أعطيناك ما طالب به قومك المشركون من الآيات الست التي اقترحوها وتقدمت في هذه السياق الكريم مبينة، ما كانوا ليؤمنوا بها، ومن هنا فلا فائدة من إعطائك إياها.

وقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي سل يا نبينا علماء بني إسرائيل كعبدالله بن سلام وغيره، إذ جاءهم موسى يطالب فرعون بإرسالهم معه ليخرج بهم إلى بلاد القدس، وأرى فرعون الآيات الدالة على صدق نبوته ورسالته وأحقية ما يطالب به فقال له فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ أي ساحرًا لإظهارك ما أظهرت من هذه الخوارق، ومسحورًا بمعنى مخدوعًا مغلوبًا على عقلك فتقول الذي تقول مما لا يقوله العقلاء فرد عليه موسى بقوله بما أخبر تعالى به في قوله:

(١٠٢) ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ أي فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات البينات إلا رب السماوات أي خالقها ومالكها والمدبر لها ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي آيات واضحات مضيئات هاديات لمن طلب الهداية، فعميت عنها وأنت تعلم صدقها ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ

(١) هو قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ (٢٣)﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (٣٤)﴾.

(٢) روى الترمذي وصححه والنسائي عن صفوان بن عسال المرادي: أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله، فقال: لا تقل له نبي فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين، فأتيا النبي ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ فقال: **«لا تشركوا بالله شيئًا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تَمْشوا ببريء إلى سلطان فيقتله، ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفرّوا من الزحف، وعليكم يا معشر يهود خاصة ألاّ تعدوا في السبت»** فقبّلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبي قال: **«ما يمنعكما أن تؤمنا؟»** قالا: إن داود دعا الله ألاّ يزال في ذريته نبي وإنّا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود. وعليه فالمراد بالآيات: آيات التشريع في التوراة، وهذا وجه. ولا منافاة مع تفسير الآيات بالمعجزات التسع كما في التفسير.

(٣) لا خلاف في اليد والعصا والطوفان والجراد والقمّل والدم وإنما الخلاف في الثلاث الباقية وانفلاق البحر مجمع عليه وإنما في الطمس والحجر لأن الحجر كان في التيه بعد نجاة بني إسرائيل.

﴿مَثْبُورًا﴾[1]! أي من أجل هذا أظنك يا فرعون ملعونًا، من رحمة الله مبعدًا مثبورًا هالكًا. فلما أعيته أي فرعون الحجج والبينات لجأ إلى القوة.

(١٠٣) ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي يستخفهم من أرض مصر بالقتل الجماعي استئصالاً لهم، أو بالنفي والطرد والتشريد، فعامله الرب تعالى بنقيض قصده، فأغرقه الله تعالى هو وجنوده أجمعين، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي من الجنود ﴿جَمِيعًا﴾.

(١٠٤) وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد هلاك فرعون وجنوده لبني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض القدس والشام إلى نهاية آجالكم بالموت. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي يوم القيامة بعثناكم أحياء كغيركم، ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي مختلطين من أحياء وقبائل وأجناس شتى لا ميزة لأحد على آخر، حفاة عراة لفصل القضاء ثم الحساب والجزاء.

هداية الآيات:

١ - الشح من طبع الإنسان إلا أن يعالجه بالإيمان والتقوى فيقيه الله منه[2].

٢ - الآيات وحدها لا تكفي لهداية الإنسان بل لا بد من توفيق إلهي.

٣ - مظاهر قدرة الله تعالى وانتصاره لأوليائه وكبت أعدائه.

٤ - بيان كيفية حشر الناس يوم القيامة لفيفًا أخلاطًا من قبائل وأجناس شتى.

الجزء الخامس عشر — سورة الإسراء

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩) قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا (١١١)

ترتيبها ١٨ — سُورَةُ الكَهْفِ — آياتها ١١٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤)

٢٩٣

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٥ - ١٠٩]

(١٠٥) ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾: أي القرآن. ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾: أي نزل ببيان الحق في العبادات والعقائد والأخبار والمواعظ والحكم والأحكام.

(١٠٦) ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾: أي نزلناه مفرقًا في ظرف ثلاث وعشرين سنة لحكمة اقتضت ذلك. ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: أي على مهل وتؤده ليفهمه المستمع إليه. ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾: أي شيئًا فشيئًا حسب مصالح الأمة لتكمل به ولتسعد عليه.

(١٠٧) ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾: أي مؤمنو أهل الكتاب من اليهود والنصارى كعبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي. ﴿لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾: أي سجدًا على وجوههم، ومن سجد على وجهه فقد خرَّ على ذقنه ساجدًا.

(١٠٨) ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾: منجزًا، واقعًا، فقد أرسل النبي الأمي الذي بشرت به كتبه وأنزل عليه كتابه.

معنى الآيات:

(١٠٥) يقول تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي ذلك الكتاب الذي جحد به الجاحدون، وكذب به المشركون أنزلناه بالحق الثابت حيث لا شك أنه كتاب الله ووحيه إلى رسوله، ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ فكل ما جاء فيه ودعا إليه وأمر به. وأخبر عنه من عقائد وتشريع وأخبار ووعد ووعيد كله

---

(١) الظنّ هنا بمعنى التحقيق، ولذكر كلمة مثبور عدة معان كلها صحيحة منها: الهلاك والخسران والخبال والمنع من الخير. قال ابن الزِّبعري:

إذ أجاري الشيطان في سنن الغَـ ... ـيِّ ومَن مال مَيْلَهُ مثبورُ

أي: هالك وخاسر.

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

حق ثابت لا خلاف فيه ولا ريبة منه. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي لم نرسلك لخلق الهداية في قلوب عبادنا ولا لإجبارهم بقوة السلطان على الإيمان بنا وتوحيدنا، وإنما أرسلناك للدعوة والتبليغ ﴿مُبَشِّرٗا﴾ من أطاعنا بالجنة ومنذرًا من عصانا مخوفًا من النار. وفي هذا تقرير لرسالته ﷺ ونبوته.

(١٠٦) وقوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي أنزلنا القرآن وفرقناه في خلال ثلاث وعشرين سنة لحكمة منا اقتضت ذلك وقوله: ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ آيات بعد آيات ليكون ذلك أدعى إلى فهم من يسمعه ويستمع إليه، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾[1] أي شيئًا فشيئًا حسب[2] مصالح العباد وما تتطلبه تربيتهم الروحية والإنسانية ليكملوا به، عقولاً وأخلاقًا وأرواحًا ويسعدوا به في الدارين.

(١٠٧) وقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ أي قل يا رسولنا للمنكرين للوحي القرآني مِنْ قومك، آمنوا به أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم به كعدمه لا يغيّر من واقعه شيئًا، فسوف يؤمن به ويسعد عليه غيركم إن لم تؤمنوا أنتم به وها هم أولاء الذين أوتوا العلم من قبله من علماء أهل الكتابين اليهود والنصارى قد آمنوا به، يريد أمثال عبدالله بن سلام وسلمان الفارسي، والنجاشي أصحم الحبشي وإنهم ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي يقرأ عليهم ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾ أي يخرون ساجدين على أذقانهم ووجوههم ويقولون حال سجودهم.

(١٠٨) ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾[3] أي تنزيهًا له أن يخلف وعده إذ وعد أنه يبعث نبي آخر الزمان وينزل عليه قرآنا، ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ إقرارًا منهم بالنبوة المحمدية والقرآن العظيم، أي ناجزًا إذ وعد بإرسال النبي الخاتم وإنزال الكتاب عليه فأنجز ما وعد، وهكذا وعد ربنا دائمًا ناجز لا يتخلف.

(١٠٩) وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ[4] يَبۡكُونَ[5]﴾ أي عندما يسمعون القرآن لا يسجدون فحسب بل يخرون يبكون ويزيدهم سماع القرآن وتلاوته خشوعًا في قلوبهم واطمئنانًا في جوارحهم لأنه الحق سمعوه من ربهم.

هداية الآيات:

١ - القرآن حق من الله وما نزل به كله حق.

٢ - الندب إلى ترتيل القرآن لا سيما عند قراءته على الناس لدعوتهم إلى الله تعالى.

٣ - تقرير نزول القرآن مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة.

٤ - تقرير النبوة المحمدية بنزول القرآن وإيمان من آمن به من أهل الكتاب.

٥ - بيان حقيقة السجود وأنه وضع الوجه على الأرض.

٦ - مشروعية السجود للقارىء أو المستمع وسنية ذلك عند قراءة هذه الآية وهي: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩﴾ فيخر ساجدًا مكبرًا في الخفض وفي الرفع قائلاً: الله أكبر ويسبح ويدعو في سجوده بما يشاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٠، ١١١]

(١١٠) ﴿ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾: أي سموه بأيهما ونادوه بكل واحد منهما الله أو الرحمن. ﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ﴾: أي إن تدعوه بأيهما فهو

---

(١) قال القرطبي: لا خلاف في أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة.

(٢) ﴿تَنزِيلٗا﴾: مصدر مؤكد لنزوله نجمًا بعد نجم وهو معنى مفرّقًا آية بعد آية وسورة بعد سورة حتى اكتمل نزوله.

(٣) في الآية دليل على مشروعية التسبيح في السجود وشاهده من السنة رواية مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في سجوده وركوعه سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي) وورد أنه فعله استجابة لقول الله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ آخر سورة النصر.

(٤) ﴿ٱلۡأَذۡقَانِ﴾: جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين، والسجود على الجبهة والأنف وإنما ذكر الأذقان هنا لأنّ اللحية تصل إلى الأرض قبل الجبهة والأنف إذا كانت طويلة كما هي السنة.

(٥) دلت الآية على أن البكاء في الصلاة لا يقطعها، والخلاف في النفخ والأنين والتنحنح، والصحيح أنّ ما كان بحروف تسمع كان كلامًا ويقطع الصلاة، وما لم يكن بحرف فلا، فقد كان النبي ﷺ يبكي في صلاته ويسمع له أزيز كأزيز المرجل.

حسن لأن له الأسماء الحسنى وهذان منها. ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: أي بقراءتك في الصلاة كراهة أن يسمعها المشركون فيسبوك ويسبوا القرآن ومن أنزله. ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾: أي ولا تسر به إسرارًا حتى ينتفع بقراءتك أصحابك الذين يصلون وراءك بصلاتك. ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾: أي اطلب بين السر والجهر طريقًا وسطًا.

(١١١) ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: كما يقول الكافرون. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ﴾: كما يقول المشركون. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾: أي لم يكن له ولي ينصره من أجل الذل إذ هو العزيز الجبار مالك الملك ذو الجلال والإكرام. ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾: أي عظمه تعظيمًا كاملًا عن اتخاذ الولد والشريك والولي من الذل.

معنى الآيتين:

(١١٠) كان ﷺ يقول في دعائه يا الله يا رحمن، يا رحمن يا رحيم فسمعه المشركون وهم يتصيدون له أية شبهة ليثيروها ضده فلما سمعوه يقول: يا الله، يا رحمن قالوا: انظروا إليه كيف يدعو إلهين وينهانا عن ذلك فأنزل الله تعالى[١]: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أي قل لهم يا نبينا ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فالله هو الرحمن الرحيم ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا﴾ منهما الله أو الرحمن فهو الله ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ[٢] بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي وسطًا بين السر والجهر، وذلك أن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبُّوا قارئه ومن أنزله، فأمر الله تعالى رسوله والمؤمنون تابعون له إذا قرؤوا في صلاتهم أن لا يجهروا حتى لا يسمع المشركون قراءتهم ولا يسروا حتى لا يحرم سماع القرآن من يصلي وراءهم فأمر رسول الله بالتوسط بين الجهر والسر.

(١١١) وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ[٣] الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي أمر الله تعالى الرسول أن يحمد الله الذي لم يتخذ ولدًا كما زعم ذلك بعض العرب، إذ قالوا الملائكة بنات الله! وكما زعم ذلك اليهود إذ قالوا عزير بن الله! والنصارى إذ قالوا عيسى بن الله! ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كما قال المشركون من العرب: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك! ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ كما قال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذل الله! ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ أنت أو عظمه يا رسولنا تعظيمًا من أن يكون له وصف النقص والافتقار والعجز.

هداية الآيتين:

١ - إن لله الأسماء الحسنى وهي مائة اسم إلا اسمًا[٤] واحدًا فيدعى الله تعالى وينادى بأيها، وكلها حسنى كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

٢ - بيان ما كان عليه المشركون في مكة من بغض للرسول والقرآن والمؤمنين..

٣ - مشروعية الأخذ بالاحتياط للدين كما هو للدنيا.

٤ - وجوب حمد الله تعالى والثناء

---

(١) فنزلت الآية مبيّنة أنهما الله والرحمٰن اسمان لمسمى واحد فإن دُعي يا الله فهو ذاك وإن دعي يا رحمن فهو ذاك.

(٢) روى مسلم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ إلخ.. قوله: (نزلت ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به). فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمع المشركون قراءتك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك أي: أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: بين الجهر والمخافتة. كان هذا في مكة ثمّ استقرّت السنة بالجهر في صلاة الصبح والمغرب والعشاء في الركعتين الأولتين والسر في صلاة الظهر والعصر وثالثة المغرب والأخيرتين من صلاة العشاء.

(٣) روي عن عمر أنه قال: الله أكبر خير من الدنيا وما فيها، وورد أن هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلخ.. خاتمة التوراة وفاتحتها أوّل سورة الأنعام.

(٤) الإجماع على أنه لا يصح وضع اسم لله تعالى بالنظر والاجتهاد وإنما أسماؤه وصفاته توقيفية مصدرها الوحي الإلهي: الكتاب والسنة.

عليه وتنزيهه عن كل عجز ونقص.
٥ ـ هذه الآية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ تسمى آية العز هكذا سماها رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

سورة الكهف[1]
مكية
وآياتها عشر ومائة

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٦]

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الحمد الوصف بالجميل، والله عَلَم على ذات الرب تعالى. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن الكريم. ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾: أي ميلاً عن الحق والاعتدال في ألفاظه ومعانيه.

(٢) ﴿قَيِّمًا﴾: أي ذا اعتدال لا إفراط فيه ولا تفريط في كل ما حواه ودعا إليه من التوحيد والعبادة والآداب والشرائع والأحكام. ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾: عذابًا ذا شدة وقسوة وسوء عذاب في الآخرة. ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾: من عنده سبحانه وتعالى. ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾: أي الجنة إذ هي أجر المؤمنين العاملين بالصالحات.

(٥) ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾: أي عظمت فرية وهي قولهم الملائكة بنات الله. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾: أي ما يقولون إلا كذبًا بحتًا لا واقع له من الخارج.

(٦) ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: قاتل نفسك كالمنتحر. ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾: أي بالقرآن من أجل الأسف الذي هو الحزن الشديد.

معنى الآيات:

(١) أخبر تعالى في فاتحة سورة الكهف[2] بأنه المستحق للحمد، وأن الحمد لله وذكر موجب ذلك، وهو إنزاله على عبده ورسوله محمد ﷺ الكتاب الفخم العظيم وهو القرآن العظيم الكريم فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا[3]﴾ أي ولم يجعل لذلك الكتاب العظيم عوجًا أي ميلاً عن الحق والاعتدال في ألفاظه ومعانيه فهو كلام مستقيم محقق للآخذ به كل سعادة وكمال في الحياتين.

(٢) ـ (٣) وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ أي معتدلاً خاليًا من الإفراط والتفريط قيمًا على الكتب السابقة مهيمنًا عليها الحق فيها ما أحقه والباطل ما أبطله.

وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي أنزل الكتاب الخالي من العوج القيم من أجل أن ينذر الظالمين من أهل الشرك والمعاصي عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة ينزل بهم من عند ربهم الذين كفروا به وأشركوا وعصوه وكذبوا رسوله وعصوه. ومن أجل أن يبشر بواسطته أيضًا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يخبرهم بما يسرهم ويفرح قلوبهم وهو أن لهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا.

(٤) وقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ﴾ بصورة خاصة أولئك المتقولين على الله المفترين عليه بنسبتهم الولد إليه فقالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ وهم اليهود والنصارى وبعض مشركي العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله! هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا۝﴾ وهو قول تَوَارَثُوهُ لا علم لأحد منهم به، وإنما هو مجرد

(١) روى مسلم: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**» وروى الدارمي في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق**». وروي أيضًا: «**أن من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطي نورًا يبلغ السماء ووقي فتنة الدجال**».

(٢) روى ابن إسحاق في سبب نزول سورة الكهف حديثًا طويلاً خلاصته أنّ وفدًا من قريش أتوا اليهود بالمدينة وقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب فأخبرونا عن صاحبنا هذا ـ محمد ﷺ ـ فقالت اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل فإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ما كان من أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوافة قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه فإنه نبي وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فانظروا في أمره ما بدا لكم وأتى الوفد مكة وسألوا رسول الله ﷺ فقال: «**أخبركم بما سألتم عنه غدًا**»؛ ولم يستثن أي: لم يقل إن شاء الله فانقطع الوحي نصف شهر ثم نزلت سورة الكهف وفيها جواب ما سألوا.

(٣) العوج: ضد الاستقامة وهو الانحراف في الذوات والمعاني وتكسر عينه وتفتح، وقيل: الكسر في المعاني والفتح في الذّوات.

كذب يتناقلونه بينهم لذا قبح الله قولهم هذا وعجّب منه العقلاء.

(٥) فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي عظم قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ كلمة قالوها تخرج من أفواههم لا غير إذ لا واقع لها أبدًا. وقرر الإنكار عليهم فقال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون إلا الكذب البحت الذي لا يعتمد على شيء من الصحة البتة.

(٦) وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ يعاتب الله تعالى رسوله ويخفف عنه ما يجده في نفسه من الحزن على عدم إيمان قومه واشتدادهم في الكفر والتكذيب وما يقترحونه عليه من الآيات أي فلعلك يا رسولنا قاتل نفسك على إثر رفض قومك للإيمان بك وبكتابك وما جئت به من الهدى، حزنًا عليهم، وجزعًا منهم، فلا تفعل واصبر لحكم ربك فإنه منجز وعده لك بالنصر على قومك المكذبين لك.

هداية الآيات:

١ - وجوب حمد الله تعالى على آلائه وعظيم نعمه.

٢ - لا يحمد إلا من له ما يقتضي حمده، وإلا كان المدح كذبًا وزورًا.

٣ - عظم شأن القرآن الكريم وسلامته من الإفراط والتفريط والانحراف في كل ما جاء به.

٤ - بيان مهمة القرآن وهي البشارة لأهل الإيمان والإنذار لأهل الشرك والكفران.

٥ - التنديد بالكذب على الله ونسبة ما لا يليق بجلاله وكماله إليه كالولد ونحوه.

٦ - تحريم الانتحار وقتل النفس من الحزن أو الخوف ونحوه من الغضب والحرمان.

مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ - ١٢]

(٨) ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: أي ترابًا لا نبات فيه، فالصعيد هو التراب والجرز[2] الذي لا نبات فيه.

(٩) ﴿الْكَهْفِ﴾: النقب الواسع في الجبل والضيق منه يقال له «غار». ﴿وَالرَّقِيمِ﴾: لوح حجري رقمت فيه أسماء أصحاب الكهف.

(١٠) ﴿أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾: اتخذوه مأوى لهم ومنزلاً نزلوا فيه. ﴿الْفِتْيَةُ﴾: جمع فتى وهم شبان مؤمنون. ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: أي يسر لنا طريق رشد وهداية.

(١١) ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾: أي ضربنا على آذانهم حجابًا يمنعهم من سماع الأصوات والحركات. ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾: أي أعوامًا عدة.

(١٢) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾: أي من نومهم بمعنى أيقظناهم. ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا﴾: أي أضبط لأوقات بعثهم في الكهف. ﴿أَمَدًا﴾: أي مدة محدودة معلومة.

معنى الآيات:

(٧) قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ من حيوان وأشجار ونبات وأنهار وبحار، وقوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي لنختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي أيهم أترك لها وأتبع

---

(١) ﴿بَاخِعٌ﴾ مهلك نفسك، قال ذو الرّمة:

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه ... بشيء نحته عن يديه المقادر

وفسّر ابن عباس رضي الله عنهما الباخع بقاتل نفسه من شدّة الحزن.

(٢) الجرُز: القاحل الأجرد الذي لا نبات فيه.

لأمرنا ونهينا وأعمل فيها بطاعتنا.

(٨) وقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي وإنا لمخربوها في يوم، من الأيام بعد عمارتها ونضارتها وزينتها نجعلها ﴿صَعِيدًا[1] جُرُزًا﴾ أي ترابًا لا نبات فيه، إذًا فلا تحزن يا رسولنا ولا تغتم مما تلاقيه، من قومك فإن مآل الحياة التي من أجلها عادوك وعصونا إلى أن تصبح صعيدًا جرزًا.

(٩) وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ[2] أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ[3] كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي أظننت أيها النبي أن أصحاب الكهف أي الغار في الكهف والرقيم وهو اللوح الذي كتبت عليه ورقم أسماء أصحاب الكهف وأنسابهم وقصتهم ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾[4] أي كان أعجب من آياتنا في خلق ومخلوقات، السماوات والأرض بل من مخلوقات الله ما هو أعجب بكثير.

(١٠) وقوله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ هذا شروع في ذكر قصتهم العجيبة، أي اذكر للسائلين لك عن قصة هؤلاء الفتية، إذ أووا إلى الغار في الكهف فنزلوا فيه، واتخذوه مأوى لهم ومنزلاً هروبًا من قومهم الكفار أن يفتنوهم في دينهم وهم سبعة شبان ومعهم كلب لهم فقالوا سائلين ربهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي أعطنا من عندك رحمة تصحبنا في هجرتنا هذه للشرك والمشركين ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي ويسر لنا من أمرنا في فرارنا من ديار المشركين خوفًا على ديننا ﴿رَشَدًا﴾[5] أي سدادًا وصلاحًا ونجاة من أهل الكفر والباطل، قال ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآيات وقد اختلف أهل العلم في سبب مصير هؤلاء الفتية إلى الكهف الذي ذكره الله في كتابه فقال بعضهم: كان سبب ذلك أنهم كانوا مسلمين على دين عيسى وكان لهم ملك عابد وثن دعاهم إلى عبادة الأصنام فهربوا بدينهم منه خشية أن يفتنهم عن دينهم أو يقتلهم فاستخفوا منه في الكهف.

(١١) وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي فضربنا على آذانهم حجابًا[6] يمنعهم من سماع الأصوات والحركات فناموا في كهفهم سنين معدودة أي ثلاثمائة وتسع سنين، وكانوا يتقلبون بلطف الله وتدبيره لهم من جنب إلى جنب حتى بعثهم من نومهم وهذا استجابة الله تعالى لهم إذ دعوه قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي من نومهم ورقادهم ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾ أي في الكهف ﴿أَمَدًا﴾ أي لنعلم عِلمَ مشاهدة ولينظر عبادي فيعلموا أي الطائفتين[7] اللتين اختلفتا في قدر لبثهم في الكهف كانت أحصى لمدة لبثهم في الكهف حيث اختلف الناس إلى حزبين حزب يقول لبثوا في كهفهم كذا سنة وآخر يقول لبثوا إلى مدى أي غاية كذا من السنين.

هداية الآيات:

١ - بيان العلة في وجود الزينة على هذه الأرض، وهي الابتلاء والاختبار للناس ليظهر الزاهد فيها، العارف بتفاهتها وسرعة زوالها، وليظهر الراغب فيها المتكالب عليها الذي عصى الله من أجلها.

٢ - تقرير فناء كل ما على الأرض

---

(١) الصعيد: وجه الأرض والجمع صُعُد، والصعيد: الطريق أيضًا لحديث الصحيح: **«إياكم والقعود على الصعدات»** أي: الطرق، وجمع الجرز: أجراز يقال: سنين أجراز لا مطر فيها ولا عشب ولا نبات.

(٢) (أم) هذه هي المنقطعة التي تقدّر ببل والاستفهام للتعجيب.

(٣) ويجمع الرقيم على رُقُم، والرقيم: فَعيل بمعنى مفعول أي: مرقوم بمعنى مكتوب.

(٤) إنّ إماتة الأحياء أعجب من إماتة أصحاب الكهف.

(٥) الرشد: بفتحتين: الخير، وإصابة الحق والنفع والصلاح أيضًا.

(٦) أي: حائلًا كغشاوة ونحوها مما يحول دون السمع، ومعنى ضربنا، جعلنا أو وضعنا كقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي: جعلت وألصقت بهم.

(٧) يبعد أن يكون المراد بالحزبين: هم أصحاب الكهف أنفسهم بل الذين اختلفوا فيهم حزبان من الأمة التي اكتشفتهم بعد مضيّ سنين عديدة.

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

٢٩٥

حتى تبقى صعيدًا جرزًا وقاعًا صفصفًا لا يرى فيها عوج ولا أمت.

٣ - تقرير نبوة الرسول ﷺ بإجابة السائلين عن أصحاب الكهف بالإيجاز والتفصيل.

٤ - تقرير التوحيد ضِمْنَ قصة أصحاب الكهف إذ فروا بدينهم خوفًا من الشرك والكفر.

٥ - استجابة الله دعاء عباده المؤمنين الموحدين حيث استجاب للفتية فآواهم الغار ورعاهم حتى بعثهم بعد تغير الأحوال وتبدل العباد والبلاد.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤ - ١٦]

﴿١٣﴾ ﴿نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: أي خبرهم العجيب بالصدق واليقين. ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾: أي إيمانًا وبصيرة في دينهم ومعرفة ربهم حتى صبروا على الهجرة.

﴿١٤﴾ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي شددنا عليها فقويت عزائمهم حتى قالوا كلمة الحق عند سلطان جائر. ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾: لن نعبد من دونه إلهًا آخر.

﴿١٥﴾ ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ﴾: أي هلا يأتون بحجة قوية تثبت صحة عبادتهم. ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: أي باتخاذ آلهة من دونه تعالى يدعوها ويعبدها.

﴿١٦﴾ ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾: أي انزلوا في الكهف تستترون به على أعين أعدائكم المشركين. ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: أي يبسط من رحمته عليكم بنجاتكم مما فررتم منه. ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾: وييسر لكم من أمركم الذي أنتم فيه من الغم والكرب. ﴿مِّرْفَقًا﴾: أي ما ترتفقون به وتنتفعون من طعام وشراب وإيواء.

معنى الآيات:

﴿١٣﴾ بعد أن ذكر تعالى موجز قصة أصحاب الكهف أخذ في تفصيلها فقال: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾(١) أي نحن رب العزة والجلال نقص عليك أيها الرسول خبر أصحاب الكهف بالحق الثابت الذي لا شك فيه ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾(٢)، جمع فتى ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ أي صدقوا بوجوده ووجوب عبادته وتوحيده فيها وقوله: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أي هداية إلى معرفة الحق من محاب الله تعالى ومكارهه.

﴿١٤﴾ وقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قوينا عزائمهم بما شددنا على قلوبهم حتى قاموا وقالوا على رؤوس الملأ وأمام ملك كافر ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ليس لنا رب سواه، لن ندعوا من دونه إلهًا مهما كان شأنه. إذ لو اعترفنا بعبادة غيره لكنا قد قلنا إذًا شططًا من القول وهو الكذب والغلو فيه.

﴿١٥﴾ وقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن(٣) دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يخبر تعالى عن قيل الفتية لما ربط الله على قلوبهم إذ قاموا في وجه المشركين الظلمة وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي هلا يأتون عليهم بسلطان بيّن أي بحجة واضحة تثبت عبادة هؤلاء الأصنام من دون الله؟ ومن أين ذلك

---

(١) الحق هنا بمعنى الصدق في الإخبار، والباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للملابسة أي: القصص المصاحب للصدق، والنبأ: الخبر ذو الشأن والأهمية.

(٢) الجملة بيانية أي: مبينة للقصص.

(٣) ﴿مِن﴾: ابتدائية، أي: آلهة ناشئة من غير الله تعالى.

والحال أنه لا إله إلا الله؟!

⑯ وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ[1] ٱفْتَرَىٰ﴾ ينفي الله عز وجل أن يكون هناك أظلم ممن افترى على الله كذبًا باتخاذ آلهة يعبدها معه باسم التوسل بها وشعار التشفع والتقرب إلى الله زلفى بواسطتها!! وقوله تعالى عن قيل أصحاب الكهف لبعضهم[2]: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي فصيروا إلى غار الكهف المسمى «بنجلوس» ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي يبسط لكم من رحمته بتيسيره لكم المخرج من الأمر الذي رميتم به من الكافر «دقينوس» ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي ما ترتفقون به من طعام وشراب وأمن في مأواكم الجديد الذي أويتم إليه فرارًا بدينكم واستخفائكم من طالبكم المتعقب لكم ليفتنكم في دينكم أو يقتلكم.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية بذكر قصة أصحاب الكهف.

٢ - تقرير زيادة الإيمان ونقصانه.

٣ - فضيلة الجرأة في الحق والتصريح به ولو أدى إلى القتل أو الضرب أو السجن

٤ - تقرير التوحيد وأنه لا إله إلا الله على لسان أصحاب الكهف.

٥ - بطلان عبادة غير الله لعدم وجود دليل عقلي أو نقلي عليها.

٦ - الشرك ظلم وكذب والمشرك ظالم مفتر كاذب.

٧ - تقرير فرض الهجرة في سبيل الله.

٨ - فضيلة الالتجاء إلى الله تعالى وطلب حمايته لعبده وكفاية الله من لجأ إليه في صدق.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧، ١٨]

⑰ ﴿تَّزَٰوَرُ﴾: أي تميل.

﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾: تتركهم وتتجاوز عنهم فلا تصيبهم. ﴿فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: متسع من الكهف ينالهم برد الريح ونسيمها. ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي دلائل قدرته.

⑱ ﴿أَيْقَاظًا﴾: جمع يقظ أي منتبهين لأن أعينهم منفتحة.

﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾: فناء الكهف.

﴿رُعْبًا﴾: منعهم الله بسببه من الدخول عليهم.

معنى الآيتين:

⑰ ما زال السياق الكريم في عرض قصة أصحاب الكهف يقول تعالى في خطاب رسوله ﷺ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ[3] عَن كَهْفِهِمْ﴾ أي تميل عنه ذات اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي تتركهم وتتجاوز عنهم فلا تصيبهم ذات الشمال. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ[4] مِّنْهُ﴾ أي متسع من الكهف ينالهم برد الريح ونسيمها، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي وذلك المذكور من ميلان الشمس عنهم إذا طلعت وقرضها لهم إذا غربت من دلائل قدرة الله تعالى ورحمته بأوليائه ولطفه بهم[5]، وقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ يخبر تعالى أن الهداية بيده وكذلك الإضلال فليطلب العبد من ربه الهداية إلى صراطه المستقيم، وليستعذ به من الضلال المبين، إذ من يضله الله لن يوجد له ولي يرشده بحال من الأحوال.

⑱ وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ[6]﴾ أي إنك إذا نظرت إليهم

---

(١) ﴿مَّنِ﴾: اسم استفهام، ومعناه الإنكار والنفي، الإنكار على من اتخذ آلهة دون الله تعالى، والنفي لوجود آلهة حق مع الله تعالى.

(٢) أي: قالوا ما قالوه على سبيل النصح والمشورة الصائبة.

(٣) ﴿تَّزَٰوَرُ﴾: تتنحى أو تميل من الازورار والزور: الميل، والأزور من الناس: المائل النظر إلى ناحية، وازورّ: مال، ومنه قول عنترة:

فازورّ من وقع القنا بلبانه … وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

اللبان: الصدر، والتحمحم: صوت دون الصهيل.

(٤) الفجوة: والجمع فجوات وفجاء وهو المتسع.

(٥) والمقصود بيان حفظهم من تطرق البلاء، وتغير الأبدان والألوان والتأذي بحرّ أو برد.

(٦) ﴿رُقُودٌ﴾: جمع راقد كراكع وركوع، وساجد وسجود، والتقليب: تغيير وضع الشيء من ظاهره إلى باطنه وفعل الله تعالى هذا لحكمة وهي: حتى لا تؤثر الأرض على أجسامهم فتبلى، ولم يعرف كم مرّة يقلبون فيها في الشهر أو العام أو في أقل أو أكثر.

تظنهم أيقاظًا أي منتبهين لأن أعينهم متفتحة وهم رقود نائمون لا يحسّون بأحد ولا يشعرون، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي جهة اليمين ﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي جهة الشمال حتى لا تَعْدو التربة على أجسادهم فتبليها. وقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾[1] أي: وكلبهم الذي خرج معهم، وهو كلب صيد ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ أي بفناء الكهف. وقوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي لو شاهدتهم وهم رقود وأعينهم مفتحة ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لرجعت فارًا منهم ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي خوفًا وفزعًا، ذلك أن الله تعالى ألقى عليهم من الهيبة والوقار حتى لا يدنو منهم أحد ويمسهم بسوء إلى أن يوقظهم عند نهاية الأجل الذي ضرب لهم، ليكون أمرهم آية من آيات الله الدالة على قدرته وعظيم سلطانه وعجيب تدبيره في خلقه.

هداية الآيتين:

١ - بيان لطف الله تعالى بأوليائه بإكرامهم في هجرتهم إليه.

٢ - تقرير أن الهداية بيد الله فالمهتدي من هداه الله والضال من أضله الله ولازم ذلك طلب الهداية من الله، والتعوذ به من الضلال لأنه مالك ذلك.

٣ - بيان عجيب تدبير الله تعالى وتصرفه في مخلوقاته فسبحانه من إله عظيم عليم حكيم.

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۖ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

٢٩٦

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ - ٢١]

(١٩) ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾: أي كما أنمناهم تلك النومة الطويلة الخارقة للعادة بعثناهم[2] من رقادهم بعثًا خارقًا للعادة أيضًا فكان في منامهم آية وفي إفاقتهم آية. ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾: أي في الكهف نائمين. ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: لأنهم دخلوا الكهف صباحًا واستيقظوا عشية. ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾: بدراهم الفضة التي عندكم. ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي المدينة التي كانت تسمى «أفسوس» وهي «طرسوس» اليوم. ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾: أي أيُّ أطعمة المدينة أحلُّ أي أكثر حِلِّيَّة. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: أي يذهب يشتري الطعام ويعود في لطف وخفاء.

(٢٠) ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: أي يقتلوكم رميًا بالحجارة.

(٢١) ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾: أطلعنا عليهم أهل بلدهم. ﴿لِيَعْلَمُوٓا﴾: أي قومهم أن البعث حق للأجساد والأرواح معًا. ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾: أي الكفار، قالوا: ابنوا عليهم أي حولهم بناء يسترهم. ﴿فَقَالُوا﴾: أي المؤمنون والكافرون في شأن البناء عليهم. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾: وهم المؤمنون لنتخذن حولهم مسجدًا يصلى فيه.

معنى الآيات:

(١٩) ما زال السياق الكريم في الحديث عن أصحاب الكهف فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي كما أنمناهم ثلاثمائة سنة وتسعًا وحفظنا أجسادهم وثيابهم من البلى ومنعناهم من وصول أحد إليهم، وهذا من مظاهر قدرتنا وعظيم سلطاننا بعثناهم من نومهم الطويل ليتساءلوا بينهم فقال قائل منهم مستفهمًا كم لبثتم يا إخواننا فأجاب بعضهم قائلاً: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم آووا إلى الكهف في الصباح وبعثوا من رقادهم في المساء وأجاب بعض آخر بقول

(١) فناء عند مدخل الكهف فشبّه بالباب الذي هو الوصيد لأنه يوصد ويغلق.

(٢) البعث: التحريك من سكون أي: كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدىً وقلبناهم بعثناهم أيضًا أي: أيقظناهم من رقادهم على ما كانوا عليه من ثيابهم وأحوالهم.

مُرْضٍ للجميع وهو قوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فسلموا الأمر إليه، وكانوا جياعًا فقالوا لبعضهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ[(١)] هَٰذِهِ﴾ يشيرون إلى عملة من فضة كانت معهم ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ وهي «أفسوس» التي خرجوا منها هاربين بدينهم. وقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي فلينظر الذي تبعثونه لشراء الطعام أي أنواع الأطعمة أزكى أي أطهر من الحرام والاستقذار ﴿فَلْيَأْتِكُم[(٢)] بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ لتأكلوه سدًا لجوعكم وليتلطف[(٣)] في شرائه وذهابه وإيابه حتى لا يُشعر بكم أحدًا وعلل لقوله هذا بقوله:

(٢٠) ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلعوا ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم رجمًا بالحجارة[(٤)] ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ ملة الشرك بالقسر والقوة. ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي ولن تفلحوا بالنجاة من النار ودخول الجنة إذا أنتم عدتم للكفر والشرك.. فكفرتم وأشركتم بربكم.

(٢١) وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة وبعثناهم ليتساءلوا بينهم فيزدادوا إيمانًا ومعرفة بولاية الله تعالى وحمايته لأوليائه ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾[(٥)] أهل مدينتهم الذين انقسموا إلى فريقين فريق يعتقد أن البعث حق وأنه بالأجسام والأرواح، وفريق يقول البعث الآخر للأرواح دون الأجسام كما هي عقيدة النصارى إلى اليوم، فأنام الله الفتية وبعثهم وأعثر عليهم هؤلاء القوم المختلفين فاتضح لهم أن الله قادر على بعث الناس أحياء أجسامًا وأرواحًا كما بعث أصحاب الكهف وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا﴾ أي أولئك المختلفون في شأن البعث أن وعد الله حق وهو ما وعد به الناس من أنه سيبعثهم بعد موتهم يوم القيامة ليحاسبهم ويجزيهم بعملهم. ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي أعثرناهم عليهم في وقت كان أهل البلد يتنازعون في شأن البعث والحياة الآخرة هل هي بالأجسام والأرواح أو بالأرواح دون الأجسام. فتبين لهم بهذه الحادثة أن البعث حق وأنه بالأجسام والأرواح معًا. وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ واتركوهم في الكهف أي سدوا عليهم باب الكهف واتركوهم فيه لأنهم بعد أن عثروا عليهم ماتوا ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وبحالهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي قال الذين غلبوا على أمر الفتية لكون الملك كان مسلمًا معهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[(٦)] أي للصلاة فيه

---

(١) قال ابن عباس كان معهم دراهم فضة عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم، والورق: الفضة، وقرىء بكسر الراء وقرىء بسكونها.

(٢) في هذه الآية دليل على جواز الوكالة في كل مباح مأذون فيه وسواء كان الموكل عاجزًا أو قادرًا، ورأى بعضهم أنّ القادر لا يوكل، والصحيح جوازه، وقد وكّل النبي ﷺ وهو صحيح حاضر، ووكّل عليّ رضي الله عنه ووكل كثير من الصحابة من ينوب عنهم في أمورهم.

(٣) الجمهور على أن نصف حروف القرآن التاء من قوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: نصف القرآن من الفاتحة إلى ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ والنصف الآخر والأخير منها إلى الناس.

(٤) القتل بالرجم بالحجارة أشفى لصدور أهل الدين لأنهم يشاركون في القتل بالرجم.

(٥) أطلعنا عليهم: يقال عثر على كذا: وقف عليه برجله ومنه العثار للرجل وأعثر عليه: جعل غيره يعثر عليه بمعنى يقف عليه مطلعًا عليه ظاهرًا.

(٦) اتخاذ المساجد على القبور من عمل أهل الكتاب قبل هذه الأمّة، وقد بيّن ذلك رسول الله ﷺ وحذّر منه وحرّمه على أمته لما يفضي به إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى فلقد روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: (لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنّ أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما ذكرتا كنيسة رأتاها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ فقال ﷺ: «**إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا وصوّروا تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**». وروى مسلم: «**لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها**» وفي الصحيحين: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا**».

وفعلاً بنوه على مقربة من فم الغار بالكهف.

هداية الآيات:

١ - مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته.

٢ - وجوب طلب الحلال في الطعام والشراب وغيرهما.

٣ - الموت على الشرك والكفر مانع من الفلاح يوم القيامة أبدًا.

٤ - تقرير معتقد البعث والجزاء الذي ينكره أهل مكة.

٥ - مصداق قول الرسول ﷺ: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** وقوله: **«إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق يوم القيامة»** (في الصحيحين).

٦ - مصداق قول الرسول ﷺ: **«لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع»**. إذ قد بنى[١] المسلمون على قبور الأولياء والصالحين المساجد. بعد القرون المفضلة حتى أصبح يندر وجود مسجد عتيق خال من قبر أو قبور[٢].

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٢ - ٢٦]

(٢٢) ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾: أي قذفًا بالظن غير يقين علم. ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: أي من الناس. ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾: لا تجادل في عدتهم. ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾: أي من أهل الكتاب، الاستفتاء: الاستفهام والسؤال.

(٢٤) ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾: أي إلا أن تقول إن شاء الله. ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾: هداية وأظهر دلالة على نبوتي من قصة أصحاب الكهف.

(٢٦) ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي علم غيب السماوات والأرض وهو ما غاب فيهما. ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: أي أبصر بالله وأسمع به صيغة تعجب! والأصل ما أبصره وما أسمعه. ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾: أي ليس لأهل السماوات والأرض من دون الله أي من ناصر. ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾: لأنه غني عما سواه ولا شريك له.

معنى الآيات:

(٢٢) ما زال السياق في الحديث عن أصحاب الكهف يخبر تعالى بأن الخائضين في شأن أصحاب الكهف سيقول بعضهم بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ويقول بعض آخر هم خمسة سادسهم كلبهم. ﴿رَجْمًا[٣] بِالْغَيْبِ﴾ أي قذفًا بالغيب من غير علم يقيني، ويقول بعضهم هم سبعة وثامنهم كلبهم، ثم أمر الله تعالى رسوله أن يقول لأصحابه تلك الأقوال: ﴿رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس قال ابن عباس أنا من ذلك القليل فعدتهم سبعة وثامنهم كلبهم ولعله فهم ذلك من سياق الآية إذ ذكر تعالى أن الفريقين الأول والثاني قالوا ما قالوه من باب الرجم بالغيب لا من باب العلم والمعرفة، وسكت عن الفريق الثالث، فدل ذلك على أنهم سبعة وثامنهم كلبهم والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا[٤]﴾ أي ولا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً بينًا لينًا بذكرك ما قصصنا عليك دون تكذيب لهم، ولا موافقة لهم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ[٥] فِيهِم﴾ أي في أصحاب الكهف ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ وذلك

---

(١) روى الترمذي وصححه عن جابر رضي الله عنه قال: (نهى رسول الله ﷺ أن تجصص القبور وأن يكتب عليها أو يبنى عليها وأن توطأ) وروى أبو داود والترمذي وغيرهما أنّ عليًا قال لأحد رجاله: (أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: ألاّ تدع تمثالاً إلاّ طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلاّ سويته ولا صورة إلاّ طمستها) والمراد بالمشرف: العالي المرتفع أما تسنيم القبر شبرًا وأكثر ليعرف فلا بأس به.

(٢) ذكر القرطبي هنا أنّ الدفن في التابوت جائز لا سيما في الأرض الرخوة وقال: روي أنّ دانيال عليه السلام كان في تابوت من حجر وأنّ يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج.

(٣) أصل الرجم هو الرجم بالحجارة ونحوها والمراد به هنا، رمي الكلام من غير رويّة ولا تثبّت، والمراد أنّ ما قالوه في بيان عددهم هو من باب القول بالظن بدون علم.

(٤) المراد: بالظاهر هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه.

(٥) الاستفتاء: طلب الفتيا وهي الخبر عن أمر لا يعلمه إلاّ ذوو العلم. روي أنّ النبي ﷺ سأل بعض نصارى نجران فنهي عن ذلك.

لأنهم لا يعلمون عدتهم وإنما يقولون بالخرص والتخمين لا بالعلم واليقين.

(٢٣) - (٢٤) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ[1] إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي لا تقل يا محمد في شأن تريد فعله مستقبلاً أي سأفعل كذا إلا أن تقول إن شاء الله[2]، وذلك أنه ﷺ لما سأله وفد قريش بإيعاز من اليهود عن المسائل الثلاث: الروح، وأصحاب الكهف وذي القرنين، قال لسائليه: أجيبكم غدًا انتظارًا للوحي ولم يقل إن شاء الله، فأدبه ربه تعالى بانقطاع الوحي عنه نصف شهر، وأنزل هذه السورة وفيها هذا التأديب له ﷺ وقوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي إذا نسيت الاستثناء الذي علمناك فاذكره ولو بعد حين لتخرج من الحرج.

أما الكفارة فلازمة إلا أن يكون الاستثناء متصلاً بالكلام وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ﴾ أي وقل بعد النسيان والاستثناء المطلوب منك ﴿عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي لعل الله تعالى أن يهديني فيسددني لأَسَدَّ ما وعدتكم أن أخبركم به مما هو أظهر دلالة على نبوتي مما سألتموني عنه اختبارًا لي.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ[3] سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۞﴾ يخبر تعالى أن الفتية لبثوا في كهفهم رقودًا من ساعة دخلوه إلى أن أعثر الله عليهم قومهم ثلاثمائة سنين بالحساب الشمسي وزيادة تسع سنين بالحساب القمري.

(٢٦) وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ رد به على من قال من أهل الكتاب إن الثلاثمائة والتسع سنين هي من ساعة دخولهم الكهف إلى عهد النبي ﷺ فأبطل الله هذا بتقرير الثلثمائة والتسع أولاً، وبقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ ثانيًا، وبقوله: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما غاب فيهما ثالثًا، وبقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي ما أبصره بخلقه وما أسمعه لأقوالهم حيث لا يخفى عليه شيء من أمورهم وأحوالهم رابعًا، وقوله: ﴿مَا لَهُم﴾ أي لأهل السماوات والأرض من دونه تعالى ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ أي ولا ناصر ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ لغناه عما سواه ولعدم وجود شريك له بحال من الأحوال خامسًا.

هداية الآيات:

١ - بيان اختلاف أهل الكتاب وعدم ضبطهم للأحداث التاريخية.

٢ - بيان عدد فتية أصحاب الكهف وأنهم سبعة وثامنهم كلبهم.

٣ - من الأدب مع الله تعالى أن لا يقول العبد سأفعل كذا مستقبلاً إلا قال بعدها إن شاء الله.

٤ - من الأدب من نسي الاستثناء أن يستثني ولو بعد حين فإن حلف لا ينفعه الاستثناء إلا إذا كان متصلاً بكلامه.

٥ - تقرير المدة التي لبثها الفتية في كهفهم وهي ثلاث مائة وتسع سنين بالحساب القمري.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ - ٣١]

(٢٧) ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾: أي اقرأ القرآن تعبدًا ودعوة وتعليمًا. ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: أي لا مغير لكلمات الله في ألفاظها ولا معانيها وأحكامها. ﴿مُلْتَحَدًا﴾: أي ملجأ تميل إليه احتماءًا به.

(٢٨) ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾: أي احبسها. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: أي طاعته ورضاه، لا عرضًا من عرض الدنيا. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾: أي لا تتجاوزهم بنظرك إلى غيرهم من أبناء الدنيا. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أي بمجالستك الأغنياء تريد الشرف والفخر. ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾: أي جعلناه غافلاً عما يجب عليه من ذكرنا وعبادتنا. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾: أي ضياعًا وهلاكًا.

(٢٩) ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾: حائط من نار أحيط بهؤلاء المعذبين في

---

(١) لشيء أي: في شيء أو لأجل شيء.

(٢) أي: إلاّ أن تذكر مشيئة الله تعالى.

(٣) قرأ الجمهور: ﴿ثلثمائةٍ﴾ بالتنوين و﴿سنين﴾ منصوب على التمييز أو على البدلية، فهو مجرور، وقرأ خلافهم بإضافة ثلثمائة إلى سنين.

النار. ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾: أي كعكر الزيت أي الدردي وهو ما يبقى في أسفل الإناء ثخنًا رديئًا.

(٣٠) ﴿مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾: أي ما رَقَّ من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه أي من الديباج.

معنى الآيات:

(٢٧) بعد نهاية الحديث عن أصحاب الكهف أمر تعالى رسوله بتلاوة كتابه فقال: ﴿وَٱتۡلُ﴾[1] أي واقرأ ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾ تعبدًا به ودعوة للناس إلى ربهم به وتعليمًا للمؤمنين بما جاء فيه من الهدى.

وقوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي لا تتركن تلاوته والعمل به والدعوة إليه فتكون من الهالكين فإن ما وعد ربك به المعرضين عنه المكذبين به كائن حقًا وواقع صدقًا فإن ربك ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ المشتملة على وعده لأوليائه ووعيده لأعدائه ممن كفروا به وكذبوا بكتابه فلم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ أي إنك إن لم تتل كتابه الذي أوحاه إليك وتعمل بما فيه فَنالَكَ ما أوعد به الكافرين المعرضين عن ذكره. ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ أي موئلاً تميل إليه وملجأ تحتمي به وإذا كان مثل هذا الوعيد الشديد يوجه إلى رسول الله ﷺ وهو المعصوم فغيره ممن تركوا تلاوة القرآن والعمل به فلا أقاموا حدوده ولا أحلوا حلاله ولا حرموا حرامه أولى بهذا الوعيد وهو حائق بهم لا محالة إن لم يتوبوا قبل موتهم.

الجزءُ الخامس عشر — سُورَةُ الكَهف

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾

٢٩٧

(٢٨) وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ نزل هذا التوجيه للرسول ﷺ عندما عرض عليه المشركون إبعاد أصحابه الفقراء كبلال وصهيب وغيرهما ليجلسوا إليه ويسمعوا منه فنهاه ربه عن ذلك وأمره أن يحبس نفسه مع أولئك الفقراء المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ ربهم في صلاتهم في الصباح والمساء لا يريدون بصلاتهم وتسبيحهم ودعائهم عرضًا من أعراض الدنيا وإنما يريدون رضا الله ومحبته بطاعته في ليلهم ونهارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ[2] عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ أي لا تتجاوز ببصرك هؤلاء المؤمنين الفقراء إلى أولئك الأغنياء تريد مجالستهم للشرف والفخر وقوله: ﴿وَلَا تُطِعۡ[3] مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ فجعلناه غافلاً عن ذكرنا وذكر وعدنا ووعيدنا ليكون من الهالكين لعناده وكبريائه وظلمه. ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا[4]﴾ أي ضياعًا وهلاكًا.

(٢٩) وقوله تعالى في الآية الثالثة من هذا السياق ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن[5] وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ أي

---

(١) تضمنت هذه الآية: ﴿وَٱتۡلُ﴾ إلخ.. الرد على المشركين إذ المعنى: لا تعبأ بهم إن كرهوا تلاوة بعض القرآن لأن فيها التعريض بآلهتهم والتنديد بها حتى طالبوك بأن تجعل بعض القرآن للثناء عليها أو عليهم.

(٢) لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة.

(٣) روي أنها نزلت في أمية بن خلف الجمحي لأنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه وهو إبعاد الفقراء وتقريب صناديد قريش.

(٤) الفرط: الظلم والاعتداء وهو مشتق من الفروط وهو السبق لأنّ الظلم سبق في الشر، والظلم يؤدي إلى الهلاك والضياع والخسران.

(٥) الأمر في قوله: ﴿فَلۡيُؤۡمِن﴾ و﴿فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ للتسوية بينهما وليس في هذا إذن لهم بالكفر وإنما الخطاب للتهديد والوعيد لمن اختار

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

٢٩٨

هذا الذي جئت به وأدعو إليه من الإيمان والتوحيد والطاعة لله بالعمل الصالح هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أيها الناس. ﴿فَمَن شَآءَ﴾ الله هدايته فآمن وعمل صالحًا فقد نجاه ومن لم يشأ الله هدايته فبقي على كفره فلم يؤمن فقد خاب وخسر.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي جدرانها النارية. ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾ من شدة العطش ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ رديئًا ثخينًا ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا أدناه الشارب من وجهه ليشرب شوي جلده ووجهه ولذا قيل فيه ذم له ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ﴾ أي جهنم ﴿مُرْتَفَقًا﴾ في منزلها وطعامها وشرابها إذ كله سوء وعذاب هذا وعيد من اختار الكفر على الإيمان وأما وعد من آمن وعمل صالحًا وقد تضمنته الآيتان (٣١ ـ ٣٢) إذ قال تعالى: ﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ هذا حكمنا الذي لا تبديل له وبين تعالى أجرهم على إيمانهم وإحسان أعمالهم فقال: ﴿٣١﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي إقامة دائمة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾[(١)] وهي الأسرة بالحجلة. ثم أثنى الله تعالى على نعيمهم الذي أعده لهم بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الذي أثيبوا به ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الجنة في حليها وثيابها وفرشها وأسرتها وطعامها وشرابها وحورها ورضوان الله فيها ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[(٢)] يرتفقون فيه وبه، جعلنا الله من أهلها.

هداية الآيات:

١ ـ بيان خيبة وخسران المعرضين عن كتاب الله فلم يتلوه ولم يعملوا بما جاء فيه من شرائع وأحكام.

٢ ـ الترغيب في مجالسة أبناء الآخرة وهم الفقراء الصابرون وترك أبناء الدنيا والإعراض عما هم فيه.

٣ ـ على الداعي إلى الله تعالى أن يبين الحق، والناس بعد بحسب ما كتب لهم أو عليهم.

٤ ـ الترغيب والترهيب بذكر جزاء الفريقين المؤمنين والكافرين.

٥ ـ عذاب النار شر عذاب، ونعيم الجنة، نعم النعيم ولا يهلك على الله إلا هالك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٢ ـ ٣٨]

﴿٣٢﴾ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾: أي اجعل لهم مثلاً هو رجلين... إلخ. ﴿جَنَّتَيْنِ﴾: أي بستانين. ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾: أي أحطناهما بنخل.

﴿٣٣﴾ ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾: أي أعطت ثمارها وهو ما يؤكل. ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾: أي وَلَمْ تنقص منه شيئًا بل أتت به كاملاً ووافيًا. ﴿خِلَٰلَهُمَا

= الكفر على الإيمان بدليل الجملة التعليلية: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ إلخ..، والمراد بالظالمين المشركون لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

(١) ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: جمع أريكة وهي مجموع سرير وحجلة، والحجلة: قبة من ثياب تكون في البيت تجلس فيها المرأة أو تنام فيها ولذلك يقال للنساء ربات الحجال فإذا وضع فيها سرير فهي أريكة يجلس فيها وينام.

(٢) (المرتفق): محل الارتفاق، وإطلاق المرتفق على النار تهكّم، إذ النار لن تكون محل راحة وارتفاق أبدًا بل هي دار شقاء وعذاب.

نَهَرًا﴾: أي خلال الأشجار والنخيل نهرًا جاريًا.

﴿٣٤﴾ ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ﴾: أي يحادثه ويتكلم معه. ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾: أي عشيرة ورهطًا.

﴿٣٥﴾ ﴿تَبِيدَ﴾: أي تفنى وتذهب.

﴿٣٦﴾ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾: أي مرجعًا في الآخرة.

﴿٣٧﴾ ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾؟! الاستفهام للتوبيخ والخلق من تراب باعتبار الأصل هو آدم: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: أي مني. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾: أي عدلك وصيرك رجلًا.

﴿٣٨﴾ ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾: أي لكن أنا، حذفت الألف وأدغمت النون في النون فصارت لكنا. ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾: أي أنا أقول الله ربي.

معنى الآيات:

﴿٣٢﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: واضرب لأولئك المشركين المتكبرين الذين اقترحوا عليك أن تطرد الفقراء المؤمنين من حولك حتى يجلسوا إليك ويسمعوا منك ﴿وَٱضْرِبْ[(1)] لَهُم﴾ أي اجعل لهم مثلًا: ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ مؤمنًا وكافرًا ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي أحطناهما بنخل، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ أي بين الكروم والنخيل ﴿زَرْعًا﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ[(2)] ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي لم تنقص منه شيئًا ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ ليسقيهما.

﴿٣٤﴾ ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ[(3)] فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ﴾ أي في الكلام يراجعه، ويفاخره: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[(4)] أي عشيرة ورهطًا، قال هذا فخرًا وتعاظمًا.

﴿٣٥﴾ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ والحال أنه ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر والكبر وقال: ﴿مَآ أَظُنُّ[(5)] أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ﴾ يشير إلى جنته ﴿أَبَدًا﴾ أي لا تفنى.

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ كما تقول أنت: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا[(6)]﴾ أي من جنتي ﴿مُنقَلَبًا﴾ أي مرجعًا إن قامت الساعة وبعث الناس وبعثت معهم. هذا القول من هذا الرجل هو ما يسمى بالغرور النفسي الذي يصاب به أهل الشرك والكبر.

﴿٣٧﴾ وهنا قال له صاحبه المسلم: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾؟ وهو الله عز وجل حيث خلق أباك آدم من ﴿تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ[(7)]﴾ أي ثم خلقك أنت من نطفة أي من مني ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ وهذا توبيخ من المؤمن للكافر المغرور ثم قال له:

﴿٣٨﴾ ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أي لكن أنا أقول هو الله ربي، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ من خلقه في عبادته.

هداية الآيات:

١ - استحسان ضرب الأمثال للوصول بالمعاني الخفية إلى الأذهان.

٢ - بيان صورة مثالية لغرس بساتين النخل والكروم.

٣ - تقرير عقيدة التوحيد والبعث والجزاء.

٤ - التنديد بالكبر والغرور حيث يفضيان بصاحبهما إلى الشرك والكفر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٩ - ٤٤]

﴿٣٩﴾ ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أي يكون وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) اختلف في تحديد الفريقين اللذين ضرب لهما المثل، وفي الرجلين اللّذين ضرب بهما المثل، والظاهر أنّ الفريقين اللّذين ضرب لهما المثل هم المؤمنون والكافرون المستنكفون عن مجالسة المؤمنين، وأما الرجلان فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهما من بني إسرائيل وهو الظاهر والله أعلم.

(٢) قال سيبويه: أصل كلا: كِلْوَ وأصل كلتا: كلوا فحذفت لام الفعل من كلتا وعوضت التاء عن اللام المحذوفة لتدل التاء على التأنيث.

(٣) ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ..﴾: الجملة في محل نصب على الحال، والثمر بضم الثاء والميم: المال الكثير المختلف من النقدين والأنعام والجنات والمزارع مأخوذ من: ثمر ماله: إذا كثر، وقرأ الجمهور بضم الثاء والميم وقرأ حفص بفتحهما.

(٤) أعز أي: أشد عزّة، والنفر: عشيرة الرجل الذين ينفرون معه للدفاع أو القتال والمراد بالنفر هنا أولاده.

(٥) الظنّ هنا بمعنى الاعتقاد ومعنى تبيد: تفنى وتهلك.

(٦) قرأ الجمهور: ﴿منهما﴾ بالتثنية وقرأ عاصم ﴿مِّنْهَا﴾ بالإفراد.

(٧) النطفة: ماء الرجال مشتقة من النطف الذي هو السيلان.

(٤٠) ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي عذابًا ترمى به فتؤول إلى أرض ملساء دحضًا لا يثبت عليها قدم.

(٤١) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾: أي غائرًا في أعماق الأرض فلا يَقْدِرُ عَلَى استنباطِه وإخراجه.

(٤٢) ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾: أي هلكت ثماره، فلم يبق منها شيء. ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾: ندمًا وحسرة على ما أنفق فيها من جهد كبير ومال طائل. ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: أي ساقطة على أعمدتها التي كَان يُعرش بها للكرم، وعلى جدران مبانيها.

(٤٣) ﴿فِئَةٌ﴾: جماعة من الناس قوية كعشيرته من قومه.

(٤٤) ﴿هُنَالِكَ﴾: أي حين حل العذاب بصاحب الجنتين أي يوم القيامة. ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: أي الملك والسلطان الحق لله تعالى. ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: أي الله تعالى خير من يثيب وخير من يُعقب أي يجزي بخير.

معنى الآيات:

(٣٩) ما زال السياق الكريم في المثل المضروب للمؤمن الفقير والكافر الغني فقد قال المؤمن للكافر ما أخبر تعالى به في قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أي هلا إذ دخلت بستانك قلت عند تعجبك من حسنه وكماله ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] أي كان ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[2] أي لا قوة لأحد على فعل شيء أو تركه إلا بإقدار الله تعالى له وإعانته عليه قال هذا المؤمن نصحًا للكافر وتوبيخًا له. ثم قال له: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠[3] أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ اليوم.

(٤٠) ﴿فَعَسَىٰ[4] رَبِّىٓ﴾ أي فرجائي في الله ﴿أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على جنة الكافر ﴿حُسْبَانًا[5] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذابًا ترمى به. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي ترابًا أملس لا ينبت زرعًا ولا يثبت عليه قدم.

(٤١) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ الذي تسقى به غائرًا في أعماق الأرض فلن تقدر على استخراجه مرة أخرى، وهو معنى ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾.

(٤٢) وقوله تعالى في الآيات (٤٠)، (٤١)، (٤٢) يخبر تعالى أن رجاء المؤمن قد تحقق إذ قد أحيط فعلاً ببستان الكافر فهلك بكل ما فيه من ثمر ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ندمًا وتحسرًا ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ من جهد ومال في جنته ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة على أعمدة الكرم التي كان يعرشها للكرم أن يحمله عليها كما سقطت جدران مبانيها على سقوفها وهو يتحسر ويتندم ويقول: (٤٢) - (٤٣) ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ﴾ جماعة قوية تنصره ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ﴾ المنهزم ﴿مُنتَصِرًا﴾ لأن من خذله الله لا ناصر له.

(٤٤) قال تعالى في نهاية المثل الذي هو أشبه بقصة: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي يوم القيامة ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ أي القوة والملك والسلطان ﴿لِلَّهِ﴾ أي المعبود ﴿ٱلْحَقِّ﴾ لا لغيره من الأصنام والأحجار ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي خير من يثيب على الإيمان والعمل الصالح. ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا[6]﴾ أي خير من يعقب أي يجزي بحسن العواقب.

---

(١) هذا وجه في إعراب (ما شاء الله) ما: مبتدأ والخبر: كان، وهناك وجه آخر حسّنه بعضهم وهو: هذه الجنة ما شاء الله. فما: خبر عن مبتدأ محذوف ويجوز تقديره أيضًا: الأمر الذي شاء الله إعطاءه.

(٢) قال مالك: ينبغي لكل من دخل داره أو بستانه أن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وروي أنه كان مكتوبًا على باب وهب بن منبّه ما شاء الله لا قوّة إلا بالله، وروى مسلم أنّ: لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة وورد استحباب قول بسم الله آمنت بالله توكلت على الله لا قوة إلاّ بالله.

(٣) أنا: ضمير فصل، وأقل: مفعول ثانٍ لترن وحذفت ياء المتكلم بعد نون الوقاية تخفيفًا.

(٤) (عسى) للرجاء وهو طلب الأمر القريب الحصول وأراد به هنا الدعاء لنفسه وعلى صاحبه الكافر المشرك.

(٥) الحسبان: مصدر كالغفران وهو هنا وصف لمحذوف تقديره: هلاكًا حسبانًا أي: مقدّرًا من الله تعالى، وقيل: هو اسم جمع حسبانة أي: صاعقة، وقيل: اسم للجراد وهو محتمل لكل ما ذكر.

(٦) العقب: بمعنى العاقبة وقرىء: بضمتين عُقُب وقرىء بضم العين وسكون القاف بمعنى: عاقبة وهي آخرة الأمر وما يرجوه المرء من سعيه وعمله ولذا فسرت الآية بـ: هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به، يقال: هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعقبه: أي آخره.

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

٢٩٩

هداية الآيات:

١ - بيان مآل المؤمنين كصهيب وسلمان وبلال، وهو الجنة ومآل الكافرين كأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وهو النار.

٢ - استحباب قول من أعجبه شيء: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فإنه لا يرى فيه مكروهًا إن شاء الله.

٣ - استجابة الله تعالى لعباده المؤمنين وتحقيق رجائهم فيه سبحانه وتعالى.

٤ - المخذول من خذله الله تعالى فإنه لا ينصر أبدًا.

٥ - الولاية[1] بمعنى الموالاة النافعة للعبد هي موالاة الله تعالى لا موالاة غيره.

٦ - الولاية بمعنى الملك والسلطان لله يوم القيامة ليست لغيره إذ الملك والأمر كلاهما لله تعالى.

شرح الكلمات:
[الآية: ٤٥، ٤٦]

﴿٤٥﴾ ﴿مَثَلَ﴾: الصفة المعجبة. ﴿هَشِيمًا﴾: يابسًا متفتتًا. ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾: أي تنشره الرياح وتفرقه لخفته ويبوسته. ﴿مُّقْتَدِرًا﴾: أي كامل القدرة لا يعجزه شيء.

﴿٤٦﴾ ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي يتجمل بما فيها. ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: هي الأعمال الصالحة من سائر العبادات والقربات. ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾: أي ما يأمله الإنسان وينتظره من الخير.

معنى الآيتين:

هذا مثل آخر مضروب أي مجعول للحياة الدنيا حيث اغتر بها الناس وخدعتهم فصرفتهم عن الله تعالى ربهم فلم يذكروه ولم يشكروه فاستوجبوا غضبه وعقابه.

﴿٤٥﴾ قال تعالى في خطاب رسوله محمد ﷺ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ أي لأولئك المغرورين بالمال والسلطان ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي صفتها الحقيقية التي لا تختلف عنها بحال ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ[2] مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فزها وازدهر واخضرّ وأنضر، فأعجب أصحابه، وأفرحهم وسرهم ما يأملون منه. وفجأة أتاه أمر الله برياح لاحفة، محرقة، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[3]﴾ أي يابسًا متهشمًا متكسرًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ هنا وهناك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي

---

(١) ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: بفتح الواو: الموالاة، وبكسرها: الملك والسلطان.

(٢) بعض الحكماء شبّه الحياة الدنيا بالماء للاتصالات الآتية:

١ ـ الماء لا يستقر في موضع والحياة كذلك.

٢ ـ الماء يتغير والدنيا كذلك.

٣ ـ الماء لا يبقى والدنيا كذلك.

٤ ـ الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل والدنيا لا يدخلها أحد ويسلم من فتنها وآفاتها.

٥ ـ الماء إذا كان بقدر كان نافعًا منبتًا وإذا جاوز المقدار كان ضارًا مهلكًا وكذلك الدنيا، الكفاف منها ينفع وفضولها يضر.

وفي الصحيح: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه**» رواه مسلم.

(٣) يقال: هشمه يهشمه إذا كسره وفتّته، وهشيم بمعنى: مهشوم فهو فعيل بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول، وهشم الثريد إذا فتته وبه سمي هاشم بن مناف وكان اسمه عمرو. وفيه يقول عبدالله بن الزبعري:

عمرو العُلا هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مسنتون عجاف

قادرًا كامل القدرة، فأصبح أهل الدنيا مبلسين آيسين من كل خير.

﴿٤٦﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ إنه بعد أن ضرب المثل للحياة الدنيا التي غرت أبناءها فأوردتهم موارد الهلاك أخبر بحقيقة أخرى، يعلم فيها عباده لينتفعوا بها، وهي أن ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ أي الأولاد ﴿زِينَةُ[1] ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لا غير أي يتجمل بهما ساعة ثم يبيدان ويذهبان، فلا يجوز الاغترار بهما، بحيث يصبحان همَّ الإنسان في هذه الحياة فيصرفانه عن طلب سعادة الآخرة بالإيمان وصالح الأعمال، هذا جزء الحقيقة في هذه الآية، والجزء الثاني هو أن ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ والمراد بها أفعال البر وضروب العبادات ومنها سبحان الله[2]، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أي هذه ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي جزاءً وثمارًا، يجنيه العبد من الكدح المتواصل في طلب الدنيا مع الإعراض عن طلب الآخرة، ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ يأمله الإنسان من الخير ويرجوه ويرغب في تحصيله.

هداية الآيتين:

١ - بيان حقارة الدنيا وسوء عاقبتها.

٢ - تقرير أن المال والبنين لا يعدوان كونهما زينة، والزينة سريعة الزوال وهما كذلك فلا يجوز الاغترار بهما، وعلى العبد أن يطلب ما يبقى على ما يفنى وهو الباقيات الصالحات من أنواع البر والعبادات من صلاة وذكر وتسبيح وجهاد، ورباط، وصيام وزكاة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧ ـ ٤٩]

﴿٤٧﴾ ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾: أي تقتلع من أصولها وتصير هباءً منبثًا. ﴿بَارِزَةً﴾: ظاهرة إذ فنى كل ما كان عليها من عمران. ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾: لم نترك منهم أحدًا.

﴿٤٨﴾ ﴿مَّوْعِدًا﴾: أي ميعادًا لبعثكم أحياء للحساب والجزاء.

﴿٤٩﴾ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: كتاب الحسنات وكتاب السيئات فيؤتاه المؤمن بيمينه والكافر بشماله. ﴿مُشْفِقِينَ﴾: خائفين. ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾: أي يا هلكتنا احضري هذا أوان حضورك. ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾: أي لا يترك صغيرة من ذنوبنا ولا كبيرة إلا جمعها عدًا. ﴿مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾: مثبتًا في كتابهم، مسجلاً فيها.

معنى الآيات:

﴿٤٧﴾ لما ذكر تعالى مآل الحياة الدنيا وأنه الفناء والزوال ورغَّب في الصالحات وثوابها المرجو يوم القيامة، ناسب ذكر نبذة عن يوم القيامة، وهو يوم الجزاء على الكسب في الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ أي اذكر ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ﴾ أي تقتلع[3] من أصولها وتصير هباءً منبثًا، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرة ليس عليها شيء فهي قاع صفصف ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي جمعناهم من قبورهم للموقف ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ[4] مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لم نترك منهم أحدًا كائنًا من كان.

﴿٤٨﴾ ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ أيها الرسول صفًا وقوفًا أذلاء، وقِيلَ لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾[5] لا مال معكم ولا سلطان

---

(١) قيل: في المال والبنين زينة الحياة الدنيا: لأنّ في المال جمالاً ونفعًا وفي البنين قوة ودفعًا والمثل مضروب لحقارة الدنيا وسرعة زوالها ولذا قيل: لا تعقد قلبك مع المال لأنه فيء ذاهب ولا مع النساء لأنها اليوم معك وغدًا مع غيرك ولا مع السلطان لأنه اليوم لك وغدًا لغيرك.

(٢) روى مالك في الموطأ: أن الباقيات الصالحات هنّ: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٣) هذا على قراءة ﴿تُسير﴾ بالتاء المضمومة للبناء للمفعول وقراءة الجمهور: ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ والفاعل هو الله تعالى، وقرىء أيضًا: ﴿تسير الجبال﴾ بفتح التاء مضارع سار يسير كقوله تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾.

(٤) المغادرة الترك ومنه الغدر لأنه ترك الوفاء، وسمي الغدير من الماء غديرًا لأنه ترك بعد السيل، ومنه غدائر المرأة وهو شعرها تضفره وتتركه خلفها.

(٥) أخرج الحافظ أبو القاسم بن مندة في كتاب التوحيد له عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك

لكم بل حفاة عراة غُرلاً[١]، جمع أغرل، وهو الذي لم يختتن.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾[٢] أي ادعيتم كذبًا أنا لا نجمعكم ليوم القيامة، ولن نجعل لكم موعدًا فها أنتم مجموعون لدينا تنتظرون الحساب والجزاء، وفي هذا من التوبيخ والتقريع ما فيه.

(٤٩) وقوله تعالى في الآية: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ[٣]﴾ يخبر تعالى عن حال العرض عليه فقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي كتاب الحسنات والسيئات وأعطي كل واحدٍ كتابه فالمؤمن يأخذه بيمينه والكافر بشماله، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في تلك الساعة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ أي في الكتاب من السيئات ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا[٤]﴾ ندمًا وتحسرًا ينادون يا ويلتهم وهي هلاكهم قائلين: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً[٥] وَلَا كَبِيرَةً﴾ من ذنوبنا ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي أثبتها عدًا.

وقوله تعالى في آخر العرض: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ أي من خير وشر مثبتًا في كتابهم، وحوسبوا به، وجوزوا عليه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ بزيادة سيئة على سيئاته أو بنقص حسنة من حسناته، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرضها على مسامع المنكرين لها.

٢ - يبعث الإنسان كما خلقه الله ليس معه شيء، حافيًا عاريًا لم يقطع منه غلفة الذكر.

٣ - تقرير عقيدة كتب الأعمال في الدنيا وإعطائها أصحابها في الآخرة تحقيقًا للعدالة الإلهية.

٤ - نفي الظلم عن الله تعالى وهو غير جائز عليه لغناه المطلق وعدم حاجته إلى شيء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٠ ـ ٥٣]

(٥٠) ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾: أي حيوه بالسجود له كما أمرتكم طاعة لي.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾: أي الشيطان أبى السجود ورفضه وهو معنى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي خرج عن طاعته، ولم يكن من الملائكة، بل كان من الجن، لذا أمكنه أن يعصي ربه!

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾؟: الاستفهام للاستنكار، ينكر تعالى على بني آدم اتخاذ الشيطان وأولاده أولياء بطاعون ويوالون بالمحبة والمناصرة، وهم لهم عدو، عجبًا لحال بني آدم كيف يفعلون ذلك!؟.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾: قبح بدلاً طاعة إبليس وذريته عن طاعة الله ورسوله.

(٥١) ﴿ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾: أي ما كنت متخذ الشياطين من الإنس والجن أعوانًا في الخلق والتدبير، فكيف تطيعونهم وتعصونني.

(٥٢) ﴿مَّوْبِقًا﴾: أي واديًا من أودية جهنم يهلكون فيه جميعًا هذا إذا دخلوا النار، أما ما قبلها فالموبق، حاجز بين المشركين، وما كانوا يعبدون بدليل قوله:

(٥٣) ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾. ﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾: أي واقعون فيها ولا يخرجون منها أبدًا. ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾: أي مكانًا غيرها ينصرفون إليه لينجوا من عذابها.

= **وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رقيع غير فظيع: يا عبادي أنا الله لا إله إلاّ أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين، يا عبادي لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون أحضروا حجتكم ويسروا جوابكم فإنكم مسؤولون محاسبون، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفًا على أنامل أقدامهم للحساب»** تضمن هذا الحديث تفسيرًا كاملاً لهذه الآيات.

(١) روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً**» (**غير مختونين**).

(٢) هذا الخطاب لمنكري البعث والجزاء من أهل الكفر والشرك.

(٣) ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: اسم جنس يشمل كل الكتب التي يُعطاها العباد في المحشر.

(٤) الويلة: مؤنث الويل للمبالغة وهي سوء الحال والهلاك، كما أنث الدار على دارة للدلالة على سعة المكان، ونداء الويلة معناه: الدعاء على أنفسهم بالهلاك لمشاهدتهم عظائم الأهوال وما ينتظرهم من صنوف العذاب نادوا ويلتهم طالبين حضورها.

(٥) أصغر الصغائر: النظر بغير قصد وأكبر الكبائر الشرك بالله تعالى، ولا ضابط حق الكبيرة إلا أن هناك ضابطًا يستأنس به وهو: ما توعد عليه أو لعن عليه أو وضع حدّ له في الكتاب أو السنة فهو كبيرة.

معنى الآيات:

(٥٠) ما زال السياق الكريم في إرشاد بني آدم وتوجيههم إلى ما ينجيهم من العذاب ويحقق لهم السعادة في الدارين، قال تعالى في خطاب رسوله واذكر لَهُمْ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وهم عبادنا المكرمون ﴿ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ فامتثلوا أمرنا وسجدوا إلا إبليس. لكن إبليس الذي يطيعه الناس اليوم كان من الجن وليس من الملائكة لم يسجد، ففسق[١] بذلك عن أمرنا وخرج عن طاعتنا. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾[٢] أي أيصح منكم يا بني آدم أن تتخذوا عدو أبيكم وعدو ربكم وعدوكم أيضًا وليًا توالونه وذريته[٣] بالطاعة لهم والاستجابة لما يطلبون منكم من أنواع الكفر والفسق ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم ﴿بَدَلًا﴾ طاعة الشيطان وذريته[٤] وولايتهم عن طاعة الله ورسوله وولايتهما.

(٥١) وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ[٥] خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ يخبر تعالى بأنه المنفرد بالخلق والتدبير ليس له وزير معين فكيف يُعْبَدُ الشيطان وذريته، وأنا الذي خلقتهم وخلقت السماوات والأرض[٦] وخلقت هؤلاء الذين يعبدون الشيطان، ولم أكن ﴿مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ وهم الشياطين من الجن والإنس الذين يضلون عبادنا عن طريقنا الموصل إلى رضانا وجنتنا، أي لم أكن لأجعل منهم معينًا لي يعضدني ويقوي أمري وخلاصة ما في الآية أن الله تعالى ينكر على الناس عبادة الشياطين وهي طاعتهم وهم مخلوقون وهو خالقهم وخالق كل شيء.

(٥٢) وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي اذكر يا رسولنا لهؤلاء المشركين المعرضين عن عبادة الله إلى عبادة عدوه الشيطان، اذكر لهم يوم يقال لهم في عرصات القيامة ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ﴾ أشركتموهم في عبادتي زاعمين أنهم يشفعون لكم في هذا اليوم فيخلصونكم من عذابنا.

قال تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾[٧] يا فلان!! يا فلان... ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ إذ لا يجرؤ أحد ممن عبد من دون الله أن يقول رب هؤلاء كانوا يعبدونني. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا[٨]﴾ أي حاجزًا وفاصلاً من عداوتهم لبعضهم. وحتى لا يتصل بعضهم ببعض في عرصات القيامة.

(٥٣) وقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ أي يؤتى بها تُجَرُّ بالسلاسل حتى تبرز لأهل الموقف فيشاهدونها

---

(١) الفسق: مشتق من: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها، والفأرة من جحرها، وفسق العبد: خرج عن طاعة ربه متجاوزًا الطاعة إلى المعصية، فكل من ترك واجبًا وفعل حرامًا فقد فسق بذلك عن طاعة ربه أي: خرج عنها.

(٢) الاستفهام للتوبيخ والإنكار، وذرية الشيطان بيّنت السنة كيفية وجودهم فقد صح عن النبي ﷺ قوله: «**لا تكن أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها، فيها باض الشيطان وفرّخ**»، فهذا دال على أن للشيطان ذرية من صلبه.

(٣) في مسلم: «**أنّ للصلاة شيطانًا يسمى خنزب مهمته الوسوسة فيها**» وروى الترمذي: «**أن للوضوء شيطانًا يسمى الولهان يوسوس فيه**».

(٤) روى مسلم رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا فيقول: ما صنعت شيئًا قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرّقت بينه وبين أهله قال: فيدنيه ـ أو قال: ـ فيلتزمه ويقول: نعم أنت!!**».

(٥) أي: ما أحضرتهم لأستعين بهم على خلق السماوات والأرض ولا أحضرت بعضهم لأستعين به على خلق البعض الآخر.

(٦) في الآية رد على أهل الضلال كافة من شيطان وكاهن ومنجم وطبعيّ وملحد إذ الجميع مخلوق مربوب والله خالق كل شيء ومليكه وربّه ومدبّره.

(٧) أي: امتثلوا الأمر ودعوهم فلم يستجيبوا لهم.

(٨) فسّر الموبق ابن عباس رضي الله عنهما: بالحاجز، وفسره أنس بن مالك رضي الله عنه بواد في جهنم من قيح ودم، وفسّر بالمهلك والتفسير بالمهلك يدخل فيه كل ما ذكر، ومن الجائز أن يتعدد الحاجز ويكون أنواعًا منها: عداوة بعضهم لبعض فإنها حاجز والنار نفسها أعظم موبق ولعلها هي المراد بالموبق.

وعندئذ يظن[1] المجرمون أي يوقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي داخلون فيها. ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا[2]﴾ أي مكانًا ينصرفون إليه لأنهم محاطون بالزبانية، والعياذ بالله من النار وعذابها.

هداية الآيات:

١ - تقرير عداوة إبليس وذريته لبني آدم.

٢ - العجب من بني آدم كيف يطيعون عدوهم ويعصون ربهم!!

٣ - لا يستحق العبادة أحد سوى الله عز وجل لأنه الخالق لكل معبود مما عُبِدَ من سائر المخلوقات.

٤ - بيان خزي المشركين يوم القيامة حيث يطلب إليهم أن يدعوا شركاءهم لإغاثتهم فيدعونهم فلا يستجيبون لهم.

٥ - جمع الله تعالى المشركين وما كانوا يعبدون من الشياطين في موبق واحد في جهنم وهو وادٍ من شر أودية جهنم وأسوئها.

الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

٣٠٠

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٤ - ٥٩]

﴿٥٤﴾ ﴿صَرَّفْنَا﴾: أي بينا وكررنا البيان. ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: المثل الصفة المستغربة العجيبة. ﴿جَدَلًا﴾: أي مخاصمة بالقول.

﴿٥٥﴾ ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي العذاب بالإبادة الشاملة والاستئصال التام.

﴿قُبُلًا﴾: عيانًا ومشاهدة.

﴿٥٦﴾ ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾: أي يبطلوا به الحق. ﴿هُزُوًا﴾: أي مهزوءًا به.

﴿٥٧﴾ ﴿أَكِنَّةً﴾: أغطية.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾: أي ثقلاً فهم لا يسمعون.

﴿٥٨﴾ ﴿مَوْئِلًا﴾: أي مكانًا يلجؤون إليه.

﴿٥٩﴾ ﴿لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾: أي وقتًا معينًا لإهلاكهم.

معنى الآيات:

﴿٥٤﴾ ما زال السياق الكريم في بيان حجج الله تعالى على عباده ليؤمنوا به ويعبدوه وحده فينجوا من عذابه ويدخلوا دار كرامته فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا[3] فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ضربنا فيه الأمثال الكثيرة وبيّنا فيه الحجج العديدة، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ﴾ من الوعد والوعيد ترغيبًا وترهيبًا، وقابلوا كل ذلك بالجحود والمكابرة، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ[4] أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ فأكثر همِّ الإنسان يصرفه في الجدل والخصومات حتى لا يذعن للحق ويسلم به ويؤديه إن كان عليه. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٤)، أما الآية الثانية فقد أخبر تعالى فيها أن الناس ما منعهم.

﴿٥٥﴾ ﴿أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾

---

(١) ﴿ظَنُّوا﴾ أي: أيقنوا، إذ يطلق الظن ويراد به اليقين وهو كثير في القرآن الكريم. قال الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج ... سراتهم في الفارسيّ المسرد

(٢) ﴿مَصْرِفًا﴾ أي: مهربًا لإحاطتها بهم من كل جانب ولا ملجأ ولا معدلاً.

(٣) قال القرطبي: يحتمل أي: هذا الكلام وجهين: أحدهما ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية والثاني: ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وما في التفسير لم يخرج عن هذا فتأمله.

(٤) يحتمل اللفظ الكافر لقوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ ويحتمل المسلم إلا أنه في الكافر أظهر وأكثر وروى مسلم عن علي رضي الله عنه: (أن النبي ﷺ طرقه وفاطمة فقال: «**ألا تصلون؟**» فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت له ذلك ثمّ سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول: «﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾».

وهو بيان[١] طريق السعادة والنجاة بالإيمان وصالح الأعمال بعد التخلي عن الكفر والشرك وسوء الأعمال ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بعذاب الاستئصال والإبادة الشاملة، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ﴾ عذاب يوم القيامة معاينة[٢] وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا[٣]﴾ وحينئذ لا ينفع الإيمان.

(٥٦) وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي دعاة هداة يبشرون من آمن وعمل صالحًا بالجنة وينذرون من كفر، وعمل سوءًا بالنار. فلم نرسلهم جبارين ولم نكلفهم بهداية الناس أجمعين، لكن الذين كفروا يتعامون عن هذه الحقيقة ويجادلون ﴿بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾. ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟﴾ آيات الله وحججه ﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾ به من العذاب اللازم لكفرهم وعنادهم اتخذوه سخرية وهزءًا يهزؤون به ويسخرون منه وبذلك أصبحوا من أظلم الناس. وهو ما قررته الآية (٥٧) إذ قال تعالى فيها:

(٥٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي من الإجرام والشر والشرك. اللهم إنه لا أحد أظلم من هذا الإنسان الكافر العنيد. ثم ذكر تعالى سبب ظلم وإعراض ونسيان هؤلاء الظلمة المعرضين الناسين وهو أنه تعالى حسب سنته فيمن توغل في الشر والظلم والفساد يجعل على قلبه كنانًا يحيطه به فيصبح لا يفقه شيئًا. ويجعل في أذنيه ثقلاً فلا يسمع الهدى. ولذا قال لرسوله ﷺ: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا﴾ أي بعد ما جعل على قلوبهم من الأكنة وفي آذانهم من الوقر ﴿أَبَدًا﴾.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي لو يؤاخذ هؤلاء الظلمة المعرضين ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾، ولكن مغفرته ورحمته تأبيان ذلك وإلا لعجل لهم العذاب فأهلكهم أمامكم وأنتم تنظرون. ولكن ﴿لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا[٤]﴾ يئلون إليه ولا ملجأ يلجؤون إليه. ويرجح أن يكون ذلك يوم بدر لأن السياق في الظلمة المعاندين المحرومين من هداية الله كأبي جهل وعقبة ابن أبي معيط والأخنس بن شريق، هذا أولاً.

(٥٩) وثانيًا قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ[٥] ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ يريد أهل القرى من قوم هود وقوم صالح وقوم لوط. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي لهلاكهم موعدًا محددًا فكذلك هؤلاء المجرمون من قريش، وقد أهلكهم ببدر ولعنهم إلى الأبد.

هداية الآيات:

١ - لقد أعذر الله تعالى إلى الناس بما يبين في كتابه من الحجج وما ضرب فيه من الأمثال.

٢ - بيان غريزة الجدل في الإنسان والمخاصمة.

٣ - بيان مهمة الرسل وهي البشارة والنذارة وليست إكراه الناس على الإيمان.

٤ - بيان عظم ظلم من يُذَكَّرُ بالقرآن فيعرض ويواصل جرائمه ناسيًا ما قدمت يداه.

٥ - بيان سنة الله في أن العبد إذا واصل الشر والفساد يحجب عن الإيمان والخير ويحرم الهداية أبدًا حتى يهلك كافرًا ظالمًا فيخلد في العذاب المهين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٠ - ٦٩]

(٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾: أي

---

(١) أي: بواسطة القرآن والرسول ﷺ.

(٢) أي: عيانًا، وفسّره بعضهم بعذاب السيف يوم بدر.

(٣) قراءة الجمهور: ﴿قِبلا﴾ بكسر القاف أي: المقابل الظاهر، وقرىء ﴿قُبلا﴾ بضم القاف والباء وهو جمع قبيل أي: يأتيهم العذاب أنواعًا متعدّدة.

(٤) ﴿مَوْئِلًا﴾: أي: منجىً أو محيصًا يقال: وأل يئل وألاً ووؤولاً أي: لجأ، تقول العرب: لا وألت نفسه أي: لا نجت ومنه قول الشاعر:

لا وألت نفسك خليتها ... للعامريين ولم تكلم

(٥) تلك: مبتدأ وأهلكناهم: الخبر، ويصح أن تكون تلك في محل نصب والعامل: أهلكنا نحو: زيدًا ضربته.

سُورَةُ الكَهْف — الجُزْءُ الخَامِس عَشَر

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

٣٠١

اذكر إذ قال موسى بن عمران نبي بني إسرائيل لفتاه يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام.

﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: أي حيث التقى البحران بحر فارس وبحر الروم.

﴿حُقُبًا﴾: الحقب الزمن وهو ثمانون سنة والجمع أحقاب.

﴿٦١﴾ ﴿سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾: أي طريقه في البحر سربًا أي طريقًا كالنفق.

﴿٦٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾: أي المكان الذي فيه الصخرة ومنه اتخذ الحوت طريقه في البحر سربًا.

﴿٦٣﴾ ﴿فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾: أي عجبًا لموسى حيث تعجب من إحياء الحوت واتخاذه في البحر طريقًا كالنفق في الجبل.

﴿٦٤﴾ ﴿قَصَصًا﴾: أي يتتبعان آثار أقدامهما.

﴿٦٥﴾ ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾: هو الخضر عليه السلام.

﴿٦٦﴾ ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾: أي ما هو رشاد إلى الحق ودليل على الهدى.

﴿٦٨﴾ ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾: أي علمًا.

﴿٦٩﴾ ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾: أي أنتهي إلى ما تأمرني به وإن لم يكن موافقًا هواي.

معنى الآيات:

هذه قصة موسى[(١)] مع الخضر عليهما السلام وهي تقرر نبوة محمد ﷺ وتؤكدها. إذ مثل هذا القصص الحق لا يتأتى لأحد أن يقصه ما لم يتلقه وحيًا من الله عز وجل.

﴿٦٠﴾ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ أي اذكر يا رسولنا تدليلاً على توحيدنا ولقائنا ونبوتك. إذ قال موسى بن عمران نبينا إلى بني إسرائيل لفتاه[(٢)] يوشع بن نون ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي سائرًا ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ[(٣)] ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ حيث أرشدني ربي إلى لقاء عبدٍ هناك من عباده هو أكثر مني علمًا حتى أتعلم منه علمًا أزيده على علمي، ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا[(٤)]﴾ أي أواصل سيري زمنًا طويلاً حتى أظفر بهذا العبد الصالح لأتعلم عنه.

﴿٦١﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي بين البحرين وهما بحر الروم وبحر فارس عند باب المندب حيث التقى البحر الأحمر والبحر الهندي. أو البحر الأبيض والأطلنطي عند طنجة والله أعلم بأيهما أراد. وقوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي نسي الفتى الحوت، إذ هو الذي كان يحمله، ولكن نسب النسيان إليهما جريًا على المتعارف من لغة العرب[(٥)]، وهذا الحوت قد جعله الله تعالى علامة لموسى على وجود الخضر حيث يفقد الحوت، إذ القصة كما في البخاري تبتدىء

---

(١) ذهب نوف البكالي إلى أنّ موسى هذا هو موسى بن منشا بن يوسف عليه السلام وردّ هذا عليه ابن عباس رضي الله عنهما ردًا عنيفًا كما في البخاري فالصحيح أنه موسى بن عمران رسول الله إلى بني إسرائيل.

(٢) اختلف في فتى موسى مَنْ هو؟ قيل: إنه كان شابًا يخدمه ولذا أطلق عليه لفظ الفتى على جهة حسن الأدب، قال ابن العربي: ظاهر القرآن أنه عبد وما دام صح الحديث بأنه يوشع بن نون فلا حاجة إلى البحث والتنقيب.

(٣) أي: ملتقاهما. وهما بحر الأردن وبحر القلزم على الراجح الصحيح.

(٤) قال النحاس: الحقب: زمان من الدهر مبهم غير محدود وجمعه أحقاب وورد الحقب مقدرًا بثمانين سنة، إلاّ أنه في قول موسى هذا مراده الأوّل وهو زمن غير محدود.

(٥) نحو قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ مع أنه لا يخرج إلاّ من البحر الملح ونحو قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ مع العلم أن الرسل من الإنس فقط.

بأن موسى خطب يومًا في بني إسرائيل فأجاد وأفاد فأعجب به شاب من بني إسرائيل فقال له: هل يوجد من هو أعلم منك يا موسى؟ فقال: لا. فأوحى إليه ربه فورًا بلى عبدنا خضر، فتاقت نفسه للقياه للتعلم عنه، فسأل ربه ذلك، فأرشده إلى مكان لقياه وهو مجمع البحرين، وجعل له الحوت علامة فأمره أن يأخذ طعامه حوتًا وأعلمه أنه إذا فقد الحوت فثم يوجد عبدالله خضر ومن هنا لما بلغا مجمع البحرين واستراحا فنام موسى[1] والفتى شبه نائم وإذا بالحوت يخرج من المكتل «وعاء» ويشق طريقه إلى البحر فينجاب عنه البحر فيكون كالطاق أو النفق آية لموسى. ويغلب النوم على يوشع فينام فلما استراحا قاما مواصلين سيرهما ونسي الفتى وذهب من نفسه خروج الحوت من المكتل ودخوله في البحر لغلبة النوم فلما مشيا مسافة بعيدة وشعرا بالجوع وقد جاوزا المنطقة التي هي مجمع البحرين[2] قال موسى للفتى:

(٦٢) ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾[3] وعلل ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي تعبًا.

(٦٣) هنا قال الفتى لموسى ما قصّ الله تعالى: قال مجيبًا لموسى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ أي أتذكر ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ التي استراحا عندها ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ وقال كالمعتذر، ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾[4] ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ أي طريقه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي حيي بعد موت ومشى حتى انتهى إلى البحر وانجاب له البحر فكان كالسرب فيه أي النفق فأجابه موسى بما قص تعالى:

(٦٤) ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ وذلك لأن الله تعالى جعل لموسى فقدان الحوت علامة على مكان الخضر الذي يوجد فيه ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي يتتبعان آثار أقدامهما.

(٦٥) ﴿فَوَجَدَا﴾ خضرًا كما قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا[5] مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ وهو خضر ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي نبوة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو علم غيب خاص به.

(٦٦) ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ مستعطفًا له ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي مما علمك الله رشدًا أي رشادًا يدلّني على الحق وتحصل لي به هداية فأجابه خضر بما قال تعالى:

(٦٧) ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ يريد أنه يرى منه أمورًا لا يقره عليها وخضر لا بد يفعلها فيتضايق موسى لذلك ولا يطيق الصبر، وعلل له عدم استطاعته الصبر بقوله:

(٦٨) ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي علمًا كاملًا. فأجابه موسى وقد صمم على الرحلة لطلب العلم مهما كلفه الثمن فقال:

(٦٩) ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أي سأنتهي إلى ما تأمرني وإن لم يكن موافقًا لما أحب وأهوى.

هداية الآيات:

١ - عتب الله تعالى على رسوله موسى عليه السلام عندما سئل هل هناك من هو أعلم منك فقال لا وكان المفروض أن يقول على الأقل الله أعلم. فعوقب لذلك فكلف هذه الرحلة الشاقة.

٢ - استحباب الرفقة في السفر، وخدمة التلميذ للشيخ، إذ كان يوشع يخدم موسى بحمل الزاد.

٣ - طروء النسيان على الإنسان مهما كان صالحًا.

٤ - مراجعة الصواب بعد الخطأ خير من التمادي على الخطأ ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

---

(١) في البخاري: أن موسى عليه السلام قال ليوشع: لا أكلفك إلاّ أن تخبرني حيث يفارقك الحوت، قال الفتى: ما كلّفت كثيرًا.

(٢) هذا يُرجح أن يكون البحران: نهر الأردن وبحيرة طبريّة.

(٣) في الآية دليل على وجوب حمل الزاد في السفر ففي هذا رد على المتصوفة الذين يخرجون بلا زاد بدعوى التوكل ثمّ هم يسألون الناس، وشاهد هذا آية البقرة إذ نزلت في أناس من اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون فنزل قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ..﴾ الآية.

(٤) أن: وما دخلت عليه تسبك بمصدر فيقال: وما أنساني ذكره إلا الشيطان.

(٥) في البخاري: «**فوجدا خضرًا على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجّى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه فسلّم عليه موسى فكشف عن وجهه فقال: هل بأرضك من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى..**» إلخ..

٥ ـ تجلي قدرة الله تعالى في إحياء الحوت بعد الموت، وانجياب الماء عليه حتى كان كالطاق فكان للحوت سربًا ولموسى وفتاه عجبًا. وبه استدل موسى أي بهذا العجب على مكان خضر فوجده هناك.

٦ ـ استحباب طلب المزيد من العلم مهما كان المرء عالمًا وهنا أورد الحديث التالي وهو خير من قنطار ذهبًا لمن حفظه وعمل به وهو قول ابن عباس رضي الله عنه قال سأل موسى ربه: قال رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال: فأي عبيدك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: أي رب أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علم نفسه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى. وللأثر بقية ذكره ابن جرير عند تفسير هذه الآيات.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٠ ـ ٧٤]

(٧٠) ﴿ذِكۡرٗا﴾: أي بيانًا وتفصيلاً لما خفي عليك.

(٧١) ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾: أي فعلت شيئًا منكرًا.

(٧٣) ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي﴾: أي لا تغشني بما يعسر علي ولا أطيق حمله فتضيق علي صحبتي إياك.

(٧٤) ﴿نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ﴾: أي طاهرة لم تتلوث روحها بالذنوب. ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾: أي بغير قصاص. ﴿نُّكۡرٗا﴾: الأمر الذي تنكره الشرائع والعقول من سائر المناكر! وهو المنكر الشديد النكارة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام والعالم الذي أراد أن يصحبه لطلب العلم منه وهو خضر.

(٧٠) قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي خضر ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ مصاحبًا لي لطلب العلم ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي[١] عَن شَيۡءٍ﴾ أفعله مما لا تعرف له وجهًا شرعيًا ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ أي حتى أكون أنا الذي يبين لك حقيقته وما جهلت منه.

(٧١) وقوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي بعد رضا موسى بمطلب خضر انطلقا يسيران في الأرض[٢] فوصلا ميناء من الموانى البحرية، فركبا سفينة كان خضر يعرف أصحابها فلم يأخذوا منهما أجر الإركاب فلما أقلعت السفينة، وتوغلت في البحر أخذ خضر فأسًا فخرق السفينة، فجعل موسى يحشو بثوب له الخرق ويقول: ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ على أنهما حملانا بدون نَوْل ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾ أي أتيت يا عالم منكرًا فظيعًا فأجابه خضر بما قص تعالى:

(٧٢) ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝﴾ فأجاب موسى بما ذكر تعالى عنه:

(٧٣) ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ۝﴾ أي لا تعاقبني بالنسيان فإن الناسي لا حرج عليه. وكانت هذه من موسى[٣] نسيانًا حقًا ولا تغشني بما يعسر علي ولا أطيقه فأتضايق من صحبتي إياك.

(٧٤) قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ بعد نزولهما من البحر إلى البر فوجدا غلامًا جميلاً وسيمًا يلعب مع الغلمان فأخذه خضر جانبًا وأضجعه[٤] وذبحه فقال له موسى

---

(١) في قول موسى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾ من حسن الأدب والتلطف في السؤال وتواضع الطالب للشيخ الشيء الكثير، وفي الآية دليل على أن المتعلم تابع للعالم وإن تفاوتت مرتبتهما، وما كان موسى إلاّ أفضل من خضر ولكنه بحكم أنه تابع للخضر العالم تواضع في لطف.

(٢) في البخاري: «**فانطلقا يسيران على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول أي (أجرة)**».

(٣) في البخاري: (قال رسول الله ﷺ: «**وكانت الأولى من موسى نسيانًا قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة في البحر فقال له الخضر ما علمي وعلمك من علم الله إلاّ مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر**». حرف السفينة: طرفها، وحرف كل شيء طرفه.

(٤) في الترمذي: «**أنه أخذ رأسه بيده فاقتلعه فقتله**» وفي بعض الروايات: «**أنه أخذ حجرًا فضرب بها رأس الغلام فقتله**» وما في التفسير أصح وأوضح.

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

بما أخبر تعالى عنه: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ زاكية طاهرة لم يذنب صاحبها ذنبًا تتلوث به روحه ولم يقتل نفسًا يستوجب بها القصاص ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي أتيت منكرًا عظيمًا بقتلك نفسًا طاهرة لم تذنب ولم تكن هذه نسيانًا من موسى بل كان عمدًا إذ لم يطق فعل منكر كهذا لم يعرف له[1] وجهًا ولا سببًا.

هداية الآيات:

١ - جواز الاشتراط في الصحبة وطلب العلم وغيرهما للمصلحة الراجحة.

٢ - جواز ركوب السفن في البحر.

٣ - مشروعية انكار المنكر على من علم أنه منكر.

٤ - رفع الحرج عن الناس.

٥ - مشروعية القصاص وهو النفس بالنفس.

الجزء السادس عشر

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٥ - ٧٨]

﴿٧٥﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾: أي قال خضر لموسى عليهما السلام.

﴿٧٦﴾ ﴿بَعْدَهَا﴾: أي بعد هذه المرة.

﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾: أي لا تتركني أتبعك.

﴿مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾: أي من قبلي (جهتي) عذرًا في عدم مصاحبتي لك.

﴿٧٧﴾ ﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾: مدينة أنطاكية.

﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾: أي طلبا منهم الطعام الواجب للضيف. ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾: أي قارب السقوط لميلانه.

﴿فَأَقَامَهُ﴾: أي الخضر بمعنى أصلحه حتى لا يسقط. ﴿أَجْرًا﴾: أي جعلاً على إقامته وإصلاحه.

﴿٧٨﴾ ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾: أي قولك هذا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ هو نهاية الصحبة وبداية المفارقة ﴿بِتَأْوِيلِ﴾: أي تفسير ما كنت تنكره على حسب علمك.

معنى الآيات:

﴿٧٤﴾ ما زال السياق في محاورة الخضر مع موسى عليهما السلام، فقد تقدم إنكار موسى على الخضر قتله الغلام بغير نفس، ولا جرم ارتكبه، وبالغ موسى في إنكاره إلى أن قال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا[2]﴾ فأجابه خضرٌ بما أخبر تعالى به في قوله:

﴿٧٥﴾ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ لما سألتني الصحبة للتعليم، فأجاب موسى بما أخبر تعالى به في قوله:

﴿٧٦﴾ ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي اترك صحبتي فإنك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي[3]﴾ أي من جهتي وقبلي عذرًا في تركك إياي.

﴿٧٧﴾ قال تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ في سفرهما ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ (أي مدينة) قيل إنها أنطاكية ووصلاها في الليل والجو بارد فاستطعما أهلها أي طلبا منهم طعام الضيف الواجب له ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا[4]﴾ فَوَجَدَا فِيهَا﴾ أي في

(١) سيأتي بيان علّة القتل وأنها حق والقتل كان بإذن الله تعالى وما مات أحد ولا قتل إلاّ بإذن الله تعالى.

(٢) اختلف في أيهما أبلغ: إمرًا أو نكرًا، ورجح بعضهم أن إمرًا فيما لم يحدث من فعل منكر فيكون خاصًا بالمستقبل، ومعناه: أمر فظيع مهيل، ونكرًا: يكون فيما وقع فهو بيّن الفساد بالغ في النكر واجب الإنكار.

(٣) قرىء: ﴿من لدني﴾ بتخفيف الدال وقرىء في السبع بتشديدها وقرىء عذرًا بسكون الذال وقرىء في السبع أيضًا بضمهما، وضمّ العين قبلهما كنُذُر ونُذْر.

(٤) في الحديث: «إنهم كانوا لئامًا بخلاء» وهو تعليل لعدم استضافة موسى والخضر.

القرية ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي يسقط فأقامه الخضر وأصلحه فقال موسى له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي جعلٌ مقابل إصلاحه، لا سيما أن أهل هذه القرية لم يعطونا حقنا من الضيافة.

﴿٧٨﴾ وهنا قال الخضر لموسى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ لأنك تعهدت إنك إذا سألتني بعد حادثة قتل الغلام عن شيء أن لا تطلب صحبتي وها أنت قد سألتني، فهذا وقت[1] فراقك إذًا ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي أخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار.

هداية الآيات:

١ - وجوب الوفاء بما التزم به الإنسان لآخر.

٢ - وجوب الضيافة لمن استحقها.

٣ - جواز التبرع بأي خير أو عمل ابتغاء وجه الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٩ - ٨٢]

﴿٧٩﴾ ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾: جمع مسكين وهو الضعيف العاجز عن الكسب.

﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾: أي يؤجرون سفينتهم للركاب. ﴿أَعِيبَهَا﴾: أي أجعلها معيبة حتى لا يرغب فيها.

﴿غَصْبًا﴾: أي قهرًا.

﴿٨٠﴾ ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: أي يغشاهما: ظلمًا وجحودًا.

﴿٨١﴾ ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: أي رحمة إذ الرحم والرحمة بمعنى واحد.

﴿٨٢﴾ ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾: أي عن اختيار مني بل بأمر ربي جل جلاله وعظم سلطانه.

معنى الآيات:

﴿٧٩﴾ هذا آخر حديث موسى والخضر عليهما السلام، فقد واعد الخضر موسى عندما أعلن له عن فراقه أن يبين له تأويل ما لم يستطع عليه صبرًا، وهذا بيانه، قال تعالى: (حكاية عن الخضر): ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها وأنكرت عليَّ ذلك ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ[2] يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ يؤجرون سفينتهم بما يحصل لهم بعض القوت ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا[3]﴾ لا لأغرق أهلها، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم[4] مَّلِكٌ[5]﴾ ظالم ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة ﴿غَصْبًا﴾ أي قهرًا وإنما أردت أن أبقيها لهم إذ الملك المذكور لا يأخذ إلا السفن الصالحة.

﴿٨٠﴾ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلت وأنكرت عليَّ قتله ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا﴾ إن كبر ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا[6]﴾ أي يُغشيهما.

﴿٨٠﴾ - ﴿٨١﴾ ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ أي طهرًا وصلاحًا ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا[7]﴾ أي رحمة وبرًا بهما فلذا قتلته.

﴿٨٢﴾ ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا[8] أَشُدَّهُمَا﴾ أي سن الرشد ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي كان ذلك رحمة ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي عن إرادتي واختياري بل كان بأمر ربي وتعليمه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي

---

(١) في البخاري: هنا قال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما**».

(٢) بهذه الآية استدل من قال من الفقهاء بأنّ المسكين أقلّ فقرًا من الفقير لأنّ من ملك سفينة لا يعتبر فقيرًا، وردّ هذا بأنّ أصحاب السفينة كانوا سبعة أفراد، وخمسة منهم زمنى ورثوا السفينة من أبيهم وبذا هم فقراء مساكين.

(٣) أعيبها: أي أجعلها ذات عيب، يقال: عبت الشيء فعاب أي: صار ذا عيب فهو معيب.

(٤) جائز أن يكون الوراء على حقيقته أي: خلفهم، وإذا رجعوا أخذ السفينة منهم، وجائز أن يكون وراء بمعنى أمام، ويؤيده قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير: (وكان أمامهم ملك).

(٥) قيل: اسم الملك هو هدد بن بدد، واسم الغلام المقتول: جيسور.

(٦) وفسّر أيضًا: يجشمهما ويحملهما على الرهق وهو الجهل والمعنى: أنه يحملهما حبه على الغلو فيه فيطغيان ويكفران.

(٧) الرحم والرحمة بمعنى واحد قال الشاعر:

وكيف بظلم جارية ... ومنها اللين والرُحم

(٨) قيل: اسم الغلامين: أصرم وصريم، وكان الكنز ذهبًا وفضة لحديث الترمذي عن أبي الدرداء، وشاهده من اللغة، فإنّ الكنز: المال المدفون المدّخر، وجائز أن يكون مع المال كتاب فيه علم.

هـــــــذا ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع[1] عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

هداية الآيات:

١ - بيان ضروب من خفي ألطاف الله تعالى فعلى المؤمن أن يرضى بقضاء الله تعالى وإن كان ظاهره ضارًا.

٢ - بيان حسن تدبير الله تعالى لأوليائه بما ظاهره عذاب ولكن في باطنه رحمة.

٣ - مراعاة صلاح الأباء في إصلاح حال الأبناء.

٤ - كل ما أتاه الخضر كان بوحي إلهي وليس هو مما يدعيه جُهال الناس ويسمونه بالعلم اللَّدنّي وأضافوه إلى من يسمونهم الأولياء، وقد يسمونه كشفًا، ويؤكد بطلان هذا أن النبي ﷺ قال: إن الخضر قال لموسى: أنا على علم مما علمني ربي وأنت على علم مما علمك الله وإن علمي وعلمك إلى علم الله إلا كما يأخذ الطائر بمنقاره من البحر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٣ - ٩٣]

(٨٣) ﴿وَيَسْئَلُونَكَ﴾: أي كفار قريش بتعليم يهود لهم. ﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾: الإسكندر باني الإسكندرية المصرية الحميري أحد الملوك التبابعة وكان عبدًا صالحًا. ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾: سأقص عليكم من حاله خبرًا يحمل موعظة وعلمًا.

(٨٤) ﴿مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بالحكم والتصرف في ممالكها. ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾: أي يحتاج إليه سببًا موصلاً إلى مراده.

(٨٥) ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾: أي فأتبع السبب سببًا آخر حتى انتهى إلى مراده.

(٨٦) ﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: ذات حماة وهي الطين الأسود وغروبها إنما هو في نظر العين وإلا فالشمس في السماء والبحر في الأرض. ﴿قَوْمًا﴾: أي كافرين.

(٨٧) ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾: أي عظيمًا فظيعًا.

(٨٨) ﴿يُسْرًا﴾: أي لينًا من القول سَهْلاً من العمل.

(٩٠) ﴿مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾: أي مكانًا تطلع منه. ﴿قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾: القوم هم الزّنج ولم يكن لهم يومئذ ثياب يلبسونها ولا منازل يسكنونها وإنما لهم أسراب في الأرض يدخلون فيها.

(٩١) ﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي الأمر كما قلنا لك ووصفنا.

(٩٣) ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾: السدان جبلان شمال شرق بلاد الترك سد ذو القرنين ما بينهما فقيل فيهما سدان. ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾: لا يفهمون كلام من يخاطبهم إلا بشدة وبطء وهم يأجوج ومأجوج.

معنى الآيات:

(٨٣) هذه قصة العبد الصالح ذي القرنين الحميري التُّبعي على الراجح من أقوال العلماء، وهو الإسكندر باني الإسكندرية المصرية، ولأمر ما لقِّب بذي القرنين[2]، وكان قد تضمن سؤال قريش النبي ﷺ بإيعاذ من يهود المدينة ذا القرنين إذ قالوا لقريش سلوه عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين فإن أجابكم عنها فإنه نبي، وإلا فهو غير نبي فَرَوْا رأيكم فيه فكان الجواب عن الروح في سورة الإسراء وعن الفتية وذي القرنين في سورة الكهف هذه وقد تقدم الحديث التفصيلي عن أصحاب الكهف في أول السورة وهذا بدء الحديث المتضمن للإجابة عن الملك ذي القرنين عليه السلام قال تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ﴾ يا نبينا ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ﴾ للسائلين من مشركي قريش ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا[3]﴾ أي سأقرأ عليكم من أمره وشأنه العظيم ذكرًا خبرًا يحمل الموعظة والعلم والمعرفة.

(٨٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ هذه بداية الحديث عنه فأخبر تعالى أنه مكن له في الأرض بالملك

---

(١) تسطع وتستطيع بمعنى.

(٢) اختلفوا في اسم ذي القرنين على أربعة أقوال هي: عبدالله أو الإسكندر أو عبّاس أو جابر، كما اختلفوا في تلقيبه بذي القرنين على عشرة أقوال أمثلها أنه ملك فارس والروم أو أنه كان له ضفيرتان من شعر رأسه فلقب لذلك بذي القرنين، واختلف في نبوته، والظاهر أنه كان نبيًا يوحى إليه وكان ملكًا حاكمًا.

(٣) ﴿ذِكْرًا﴾ أي: خيرًا يتضمن ذكره.

والسلطان، وأعطاه من كل شيء يحتاج إليه في فتحه الأرض ونشر العدل والخير فيها سببًا يوصله إلى ذلك.

﴿٨٥﴾ وقوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[1] ﴿٨٥﴾ حسب سنة الله في تكامل الأشياء فمن صنع إبرة وتابع الأسباب التي توصل بها إلى صنع الإبرة فإنه يصنع المسلة، وهكذا تابعه بين أسباب الغزو والفتح والسير في الأرض.

﴿٨٦﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وهي على ساحل المحيط الأطلنطي، وكونها تغرب فيها هو بحسب رأي العين، وإلا فالشمس في السماء والعين الحمئة[2] والمحيط إلى جنبها في الأرض وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي عند تلك العين في ذلك الإقليم المغربي ﴿قَوْمًا﴾ أي كافرين غير مسلمين فأذن الله تعالى له في التحكم والتصرف فيهم إذ يسر له أسباب الغلبة عليهم وهو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ وقد يكون نبيًا ويكون قوله تعالى هذا له وحيًا وهو: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالأسر والقتل، ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ وهذا بعد حربهم والتغلب عليهم فأجاب ذو القرنين ربه بما أخبر تعالى به:

﴿٨٧﴾ ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾[3] أي بالشرك والكفر ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل والأسر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ بعد موته ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي فظيعًا أليمًا.

﴿٨٨﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي أسلم وحسن إسلامه ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً﴾[4] على إيمانه وصالح أعماله ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الجنة في الآخرة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ فلا نغلظ له في القول ولا نكلفه ما يشق عليه ويرهقه.

﴿٨٩﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ أي ما تحصل عليه من القوة في فتح المغرب استخدمه في مواصلة الغزو والفتح في المشرق.

﴿٩٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ[5] وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ[6]﴾ بدائيين لم تساعدهم الأرض التي يعيشون عليها على التحضر فلذا هم لا يبنون الدور ولا يلبسون الثياب، ولكن يسكنون الكهوف والمغارات والسراديب وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا﴾ أي الشمس ﴿سِتْرًا﴾.

﴿٩١﴾ وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾[7] أي القول الذي قلنا والوصف الذي

الجزء السادس عشر — سورة الكهف

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

٣٠٣

---

(١) أصل السبب: الحبل واستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء، وأوتي ذو القرنين من كل شيء علمًا يتسبب به إلى ما يريد فتوصّل إلى فتح البلاد وقهر الأعداء وقرىء ﴿فَأَتْبَعَ﴾ سببًا بقطع الهمزة وقرأ أهل المدينة فاتّبع سببًا بهمزة وصل وتشديد التاء.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿حمئة﴾ من الحمأة أي كثيرة الحمأة وهي الطين الأسود وقرأ بعضهم حامية أي: حارة وجائز أن تكون حامية من الحمأة فخففت الهمزة وقلبت ياء.

(٣) أي: قال لأولئك القوم أمّا مَنْ ظلم.. إلخ..

(٤) قراءة أهل المدينة: ﴿فله جزاءُ الحسنى﴾ برفع جزاء بدون تنوين والحسنى مضاف إليه والخبر تقديره: عند الله. وقرأ غيرهم بنصب جزاء على التمييز أي: فله الحسنى جزاءً ويجوز أن يكون منصوبًا على المصدرية.

(٥) المطلع: يجوز فيه كسر الميم وفتحها مثل المنسك والمجزر والمسكن والمنبت هذه يجوز فيها وجهان الكسر والفتح في ميمها.

(٦) قال صاحب التنوير: والظاهر أنه بلغ ساحل اليابان في حدود منشوريا أو كوريا شرقًا.

(٧) جائز أن يكون المعنى: كذلك أمرهم كما قصصنا عليك وهو معنى ما في التفسير وجائز أن يكون كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها كذلك.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

٣٠٤

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٤ ـ ١٠١]

﴿٩٤﴾ ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾: قبيلتان من أولاد يافث بن نوح عليه السلام والله أعلم. ﴿نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾: أي جعلاً مقابل العمل. ﴿سَدًّا﴾: السد بالفتح والضم الحاجز المانع بين شيئين.

﴿٩٥﴾ ﴿رَدْمًا﴾: حاجزًا حصينًا وهو السد.

﴿٩٦﴾ ﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾: جمع زبرة قطعة من حديد على قدر الحجرة التي يبنى بها. ﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾: أي صدف الجبلين أي جانبهما. ﴿قِطْرًا﴾: القطر النحاس المذاب.

﴿٩٧﴾ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾: أي عجزوا عن الظهور فوقه لعلوه وملاسته. ﴿نَقْبًا﴾: أي فتح ثغرة تحت تحته ليخرجوا معها.

﴿٩٨﴾ ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾: أي ترابًا مساويًا للأرض.

﴿٩٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾: أي يأجوج ومأجوج أي يذهبون ويجيئون في اضطراب كموج البحر.

﴿١٠١﴾ ﴿أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾: أي عن القرآن لا يفتحون أعينهم فيما تقرأه عليهم بغضًا له أو أعين قلوبهم وهي البصائر فهي في أكنة لا تبصر الحق ولا تعرفه. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾: لبغضهم للحق والداعي إليه.

معنى الآيات:

﴿٩٤﴾ ما زال السياق في حديث ذي القرنين إذ شكا إليه سكان المنطقة

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة النبي محمد ﷺ إذ هذا جواب آخر أسئلة قريش الثلاثة. قرأه عليهم قرآنًا موحى به إليه.

٢ - إتباع السبب السبب يصل به ذو الرأي والإرادة إلى تحقيق ما هو كالمعجزات.

٣ - قول ذو القرنين: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ......﴾ إلخ يجب أن يكون مادة دستورية يحكم به الأفراد والجماعات لصدقها وإجابيتها وموافقتها لحكم الله تعالى ورضاه، ومن الأسف أن يعكس هذا القول السديد والحكم الرشيد فيصبح أهل الظلم مكرمين لدى الحكومات، وأهل الإيمان والاستقامة مهانين!!

٤ - بيان وجود أمم بدائية إلى عهد ما بعد ذي القرنين لا يلبسون ثيابًا ولا يسكنون سوى الكهوف والمغارات ويوجد في البلاد الكينية إلى الآن قبائل لا يرتدون الثياب، وإنما يضعون على فروجهم خيوط وسيور لا غير.

٥ - تقرير أن هذا الملك الصالح قد ملك الأرض فهو أحد أربعة[٣] حكموا الناس شرقًا وغربًا.

وصفنا لك من حال ذي القرنين ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من قوة وأسباب مادية وروحية ﴿خُبْرًا﴾ أي علمًا كاملاً.

﴿٩٢﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ﴾ أي ذو القرنين ﴿سَبَبًا﴾ أي واصل طريقه في الغزو والفتح.

﴿٩٣﴾ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ[١]﴾ وهما جبلان بأقصى الشمال الشرقي للأرض بنى ذو القرنين بينهما سدًا عظيمًا حال به دون غزو يأجوج ومأجوج للإقليم المجاور لهم، وهم القوم الذين قال تعالى عنهم: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا[٢] قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فلا يفهمون ما يقال لهم ويخاطبون به إلا بشدة وبطء كبير.

---

(١) قرأ حفص بفتح السين، وقرأ نافع بضمها، ونظير السد في الفتح والضم: الضعف والضُعف والقَر والقُر.

(٢) قوله: من دونهما يعني أمام السدين لا خلفهما إذ خلفهما يأجوج ومأجوج.

(٣) هم: مسلمان وهما: ذو القرنين وسليمان عليهما السلام، وكافران وهما: النمرود وبختنصر. كذا قيل والله أعلم.

الشمالية الشرقية من الأرض بما أخبر تعالى به عنهم إذ قال: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ[١] وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي بالقتل والأكل والتدمير والتخريب، ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا[٢]﴾ أي أجرًا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ أي حاجزًا قويًا لا يصلون معه إلينا. فأجابهم ذو القرنين بما أخبر الله تعالى به في قوله:

(٩٥) ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ من المال والقوة والسلطان ﴿خَيۡرٞ﴾ أي من جعلكم وخرجكم ﴿فَأَعِينُونِي[٣] بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا[٤]﴾ أي سدًا قويًا وحاجزًا مانعًا.

(٩٦) ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ أي قطع الحديد كل قطعة كاللَّبِنَة المضروبة، فجاؤوا به إليه فأخذ يضع الحجارة وزبر الحديد ويبني حتى ارتفع البناء فساوى بين الصدفين جانبي الجبلين، وقال لهم: ﴿ٱنفُخُواْۖ﴾ أي النار على الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾ قال آتوني بالنحاس المذاب أفرغ عليه قطرًا[٥] فآتوه به فأفرغ عليه من القطر ما جعله كأنه صفيحة واحدة من نحاس.

(٩٧) ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ أي يأجوج ومأجوج ﴿أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ أي يعلوا فوقه، ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ أي خرقًا فلما نظر إليه وهو جبل شامخ وحصن حصين قال هذا من رحمة ربي أي من أثر رحمة ربي عليَّ وعلى الناس وأردف قائلاً:

(٩٨) ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ وهو خروج يأجوج ومأجوج عند قرب الساعة ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ أي ترابًا مساويًا للأرض، ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ وهذا مما وعد به وأنه كائن لا محالة قال تعالى:

(٩٩) ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ أي مختلطين مضطربين إنسهم[٦] وجنهم ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ نفخة البعث ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ﴾ للحساب والجزاء.

(٩٩) ـ (١٠٠) ﴿جَمۡعٗا ۝ وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ۝﴾ حقيقيًا يشاهدونها فيه من قرب، ثم ذكر ذنب الكافرين وعلة عرضهم على النار فقال: وقوله الحق:

(١٠١) ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ أي أعين قلوبهم وهي البصائر فلذا هم لا ينظرون في آيات الله الكونية فيستدلون بها على وجود الله ووجوب عبادته وتوحيده فيها، ولا في آيات الله القرآنية فيهتدون بها إلى أنه لا إله إلا الله ويعبدونه بما تضمنته الآيات القرآنية، ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ للحق ولما يدعوا إليه رسل الله من الهدى والمعروف.

هداية الآيات:

١ ـ مشروعية الجعالة للقيام بالمهام من الأعمال.

٢ ـ فضيلة التبرع بالجهد الذاتي والعقلي.

٣ ـ مشروعية التعاون على ما هو خير، أو دفع للشر.

٤ ـ تقرير وجود أمة يأجوج ومأجوج، وأن خروجهم من أشراط الساعة.

٥ ـ تقرير البعث والجزاء.

---

(١) يأجوج ومأجوج: اسمان أعجميان يهمزان ولا يهمزان ولذا قرىء في السبع بهما وهما ابنا يافث بن نوح عليه السلام ورد وصفهم أنّ صنفًا منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف بالأخرى، ولا يمرون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلاّ أكلوه، ومن مات منهم أكلوه. مقدّمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية، وذلك يوم يفتح سدهم ويهدم، وخروجهم من أشراط الساعة الكبرى.

(٢) الخرج والخراج: لغتان، وقيل الخرج: ما يعطى تطوعًا والخراج: ما يلزم عطاؤه والمراد به هنا الأجر مقابل العمل المطلوب من إقامة السدّ.

(٣) القوة: الرجال والمال.

(٤) الردم أعظم من السدّ.

(٥) جائز أن يكون المراد بالقطر النحاس المذاب، وهذا الظاهر، وجائز أن يكون الحديد المذاب والثالث: أنه الصفر والرابع أنه الرصاص. روى أحمد عن النبي ﷺ ما خلاصته أنّ يأجوج ومأجوج يحفران يوميًا السدّ حتى إذا كادوا يخرقونه يقولون: غدًا نتم حفره وإذا جاء الغد حفروا ولم يقولوا: إن شاء الله، حتى إذا جاء وعد الله قالوا: إن شاء الله، ففتح لهم.

(٦) جائز أن يكون المراد بمن يموج بعضهم في بعض: يأجوج ومأجوج وجائز أن يكون الإنس والجن وذلك يوم القيامة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٢ ـ ١٠٦]

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الاستفهام للتقريع والتوبيخ. ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾: كالملائكة وعيسى ابن مريم والعزير وغيرهم. ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: أربابًا يعبدوهم بأنواع من العبادات. ﴿نُزُلًا﴾: النزل: ما يعد للضيف من قرى وهو طعامه وشرابه ومنامه.

(١٠٤) ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾: أي بطل عملهم وفسد عليهم فلم ينتفعوا به. ﴿يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾: أي بعمل يعمل يجازون عليه بالخير وحسن الجزاء.

(١٠٥) ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: أي بالقرآن وما فيه من دلائل التوحيد والأحكام الشرعية. ﴿وَلِقَائِهِ﴾: أي كفروا بالبعث والجزاء. ﴿وَزْنًا﴾: أي لا نجعل لهم قدرًا ولا قيمة بل نزدريهم ونذلهم.

(١٠٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي أولئك جزاؤهم جهنم وأطلق لفظ ذلك بدل أولئك، لأنهم بكفرهم وحبوط أعمالهم أصبحوا غثاء كغثاء السيل لا خير فيه ولا وزن له فحسن أن يشار إليه بذلك.

معنى الآيات:

ينكر تعالى على المشركين شركهم ويوبخهم مقرعًا لهم على ظنهم أن اتخاذهم[1] عِبادَهُ من دونه أولياء يعبدونهم كالملائكة حيث عبدهم بعض العرب والمسيح حيث عبده النصارى، والعزير حيث عبده بعض اليهود، لا يغضبه تعالى ولا يعاقبهم عليه. وكيف لا يغضبه ولا يعاقبهم عليه وقد أعد جهنم للكافرين نزلاً أي دار ضيافة لهم فيها طعامهم وفيها شرابهم وفيها فراشهم كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٠٢) وهي قوله تعالى: (١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ[2] الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ[3] إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾. وقوله تعالى في الآية الثانية (١٠٣) يخبر تعالى بأسلوب الاستفهام للتشويق للخبر فيقول: (١٠٣) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أيها المؤمنون ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ إنهم. (١٠٤) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ[4] فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي عملاً، ويعرفهم فيقول: (١٠٥) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فلم يؤمنوا بها، وبلقاء ربهم فلم يعملوا العمل الذي يرضيه عنهم ويسعدهم به وهو الإيمان الصحيح والعمل الصالح الذي شرعه الله لعباده المؤمنين به يتقربون به إليه. فلذلك حبطت أعمالهم لأنها شرك وكفر وشر وفساد، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا[5]﴾ إذ لا قيمة لهم ولا لأعمالهم الشركية الفاسدة الباطلة فإن أحدهم لا يزن جناح بعوضة لخفته. (١٠٦) وأخيرًا أعلن تعالى عن حكمه فيهم وعليهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾[6] أي المذكور من غثاء الخلق ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وعلل للحكم فقال: ﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات ربهم وبرسله فكان الحكم عادلاً، والجزاء موافقًا والحمد لله رب العالمين.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير شرك من يتخذ الملائكة

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنهم الشياطين. وهو صحيح إذ الشياطين هم الذين زينوا لهم عبادة الملائكة والأنبياء والأولياء والأصنام ودعوهم إلى عبادتهم.

(٢) قرىء: ﴿أفحسْبُ﴾ بإسكان السين وضم الباء أي: أفيكفيهم أن يتخذوهم أولياء؟

(٣) جواب الاستفهام محذوف تقديره: كلا بل هم أعداء يتبرؤون منهم وجائز أن يكون: ولا أغضب ولا أعاقبهم، وكلا المعنيين يراد.

(٤) يدخل في هذا كل من المشركين واليهود والنصارى والحرورية والمرائين بأعمالهم، وكل من يعمل الأعمال، وهو يظن أنه محسن وقد حبطت أعماله لفساد اعتقاده ولمراءاته أو لعمله بغير ما شرع الله كأنواع البدع المكفّرة.

(٥) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**» وقال: «**اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾**».

(٦) وجائز أن تكون الإشارة بذلك إلى ترك الوزن وخسة القدر والخبر: جزاؤهم جهنم. و(جهنم) بدل من (جزاؤهم) بدلاً مطابقًا فيه زيادة توكيد.

أو الأنبياء أو الأولياء آلهة يعبدوهم تحت شعار التقرب إلى الله تعالى والاستشفاع بهم والتوسل إلى الله تعالى بحبهم والتقرب إليهم.

٢ - تقرير هلاك أصحاب الأهواء الذين يعبدون الله تعالى بغير ما شرع ويتوسلون إليه بغير ما جعله وسيلة لرضاه وجنته. كالخوارج والرهبان من النصارى والمبتدعة الروافض والإسماعيلية، والنصيرية والدروز ومن إليهم من غلاة المبتدعة في العقائد والعبادات والأحكام الشرعية.

٣ - لا قيمة ولا ثقل ولا وزن لعمل لا يوافق رضا الله تعالى وقبوله له، كما لا وزن عند الله تعالى لصاحبه، وإن مات خوفًا من الله أو شوقًا إليه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٧ - ١١٠]

(١٠٧) ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾: أي جزاء إيمانهم وعملهم الصالح. ﴿الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾: هو وسط الجنة وأعلاها ونزلاً منزل إكرام وإنعام.

(١٠٨) ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾: أي لا يطلبون تحولاً منها لأنها لا خير منها أبدًا.

(١٠٩) ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾: أي ماؤه مدادًا. ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾: أي قبل أن تفرغ. ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾: أي ولم تنفد هي أي لم تفرغ.

(١١٠) ﴿يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾: يأمل وينتظر البعث والجزاء يوم القيامة حيث يلقى ربه تعالى. ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾: أي لا يرائي بعمله أحدًا ولا يشرك في عبادة الله تعالى غيره تعالى.

معنى الآيات:

(١٠٧) بعدما ذكر تعالى جزاء أهل الشرك والأهواء وأنه جهنم ناسب ذكر جزاء أهل الإيمان والتقوى التي هي عمل الصالحات واجتناب المحرمات فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي صدقوا الله ورسوله وآمنوا بلقاء الله، ووعده لأوليائه، ووعيده لأعدائه من أهل الشرك والمعاصي، وعملوا الصالحات فأدوا الفرائض والواجبات وسارعوا في النوافل والخيرات هؤلاء ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علم الله وحكمه ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾[1] أي بساتين الفردوس منزلاً ينزلونه ودار كرامة يكرمون فيها وينعمون، والفردوس أعلى الجنة وأوسطها قال رسول الله ﷺ واصفًا لها ومرغبًا فيها وقد ارتادها وانتهى إلى مستوى فوقها ليلة الإسراء والمعراج قال: **«إن سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنها أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى، ومنه تفجر أنهار الجنة»**، كما في الصحيح[2].

(١٠٨) وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا لا يطلبون متحولاً عنها إذ نعيمها لا يمل وسعادتهما لا تنقص، وصفوها لا يكدر وسرورها لا ينغص بموت ولا بمرض ولا نصب ولا تعب جعلني الله ومن قال آمين من أهلها.

(١٠٩) وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا[3] لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ تضمنت هذه الآية ردًا على اليهود الذين لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في الرد عليهم لما سألوا عن الروح بواسطة وفد قريش إليهم. فقالوا: أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾ الآية ردًا عليهم وإبطالاً لمزاعمهم فأعلمهم وأعلم كل من يدعي العلم الذي ما فوقه علم بأنه لو كان ماء البحر مدادًا وكان كل غصن وعود في أشجار الدنيا كلها قلمًا، وكتب بهما لنفد ماء البحر وأغصان الشجر ولم تنفد كلمات ربي التي تحمل العلوم والمعارف

---

(١) روى الشيخان من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: **«جنان الفردوس أربع: ثنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما، وثنتان من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيهما، وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»**.

(٢) وروى البخاري وغيره عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، الفردوس أعلاها، ومنها تفجر أنهار الجنة فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس»**.

(٣) المداد في أوّل الآية والمداد في آخرها بمعنى واحد واشتقاقها لا يختلف.

ترتيبها ١٩ — سُورَةُ مَرْيَمَ — آياتها ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

٣٠٥

الإلهية وتدل عليها وتهدي إليها فسبحان الله وبحمده، سبحانه الله العظيم سبحان الله الذي انتهى إليه علم كل شيء وهو على كل شيء قدير.

(١١٠) وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ[1] مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾. يأمر تعالى رسوله بأن يقول للمشركين الذين يطلبون منه المعجزات كالتي أوتي موسى وعيسى: إنما أنا بشر مثلكم لا أقدر على ما لا تقدرون عليه أنتم، والفرق بيننا هو أنه يوحى إلي الأمر من ربي وأنتم لا يوحى إليكم يوحى إلي إنما إلهكم أي معبودكم الحق وربكم الصدق هو إله واحد الله ربكم ورب آبائكم الأولين. وقوله: ﴿فَمَن[2] كَانَ يَرْجُوا۟[3]﴾ أي يأمل وينتظر ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ خوفًا منه وطمعًا فيه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهو مؤمن موقن، ﴿وَلَا يُشْرِكْ[4] بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ فإن الشرك محبط للعمل مبطل له، وبهذا يكون رجاءه صادقًا وانتظاره صالحًا صائبًا.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - بيان أفضل الجنان وهو الفردوس الأعلى.

٣ - علم الله غير متناهي لأن كلماته غير متناهية.

٤ - تقرير صفة الكلام لله تعالى.

٥ - تقرير بشرية النبي ﷺ وأنه ليس روحًا ولا نورًا فحسب كما يقول الغلاة الباطنية.

٦ - تقرير التوحيد والتنديد بالشرك.

٧ - تقرير أن الرياء شرك لما ورد أن الآية نزلت في بيان حكم المرء يجاهد[5] يريد وجه الله ويرغب أن يرى مكانه بين الناس، يصلي ويصوم ويحب أن يثنى عليه بذلك.

❁ ❁ ❁

سورة مريم
مكية
وآياتها ثمان وتسعون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٧]

﴿١﴾ ﴿كٓهيعٓصٓ[6]﴾: هذه من الحروف المقطعة تكتب كهيعص

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: (علّم الله تعالى رسوله التواضع لئلا يزهى على خلقه فأمره أن يقرّ على نفسه بأنه آدميّ كغيره إلاّ أنه أكرم بالوحي).

(٢) روي في سبب نزول هذه الآية ما يلي: أتى جندب بن زهير الغامدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أعمل لله تعالى فإذا اطُّلع عليه سرّني فقال رسول الله ﷺ: إن الله طيّب لا يقبل إلا طيّبًا ولا يقبل ما روئي فيه. فنزلت هذه الآية.

(٣) فسر ﴿يَرْجُوا۟﴾ بمعنى: يأمل وبمعنى يخاف وكلاهما مطلوب الخوف من الله ومن عذاب الآخرة، والأمل في فضل الله وإحسانه وثوابه في الدنيا والآخرة.

(٤) فسّر سعيد بن جبير رحمه الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ بأن لا يرائي. وهو صحيح ولفظ الشرك أعم من الرياء.

(٥) قال ابن عباس وطاووس: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب الجهاد في سبيل الله وأحب أن يُرى مكاني فنزلت هذه الآية وجائز تعدد النزول من أجل أن يجاب السائل بنفس الآية التي كانت جوابًا لسؤال مماثل.

(٦) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن الكاف من كافٍ والهاء من هادٍ والياء من حكيم والعين من عليم والصاد من صادق. وعن قتادة أنه اسم من أسماء القرآن، وقيل: هو اسم للسورة وقيل: هي اسم الله الأعظم، وكان علي يقول: يا كهيعص اغفر لي.

وتُقرأ كاف، ها يا عين صاد. ومذهب السلف أن يقال فيها: الله أعلم بمراده بذلك.

(٢) ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾: أي هذا ذكر رحمة ربك.

(٣) ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾: أي قال: يا رب ليسأله الولد. ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾: أي سرًا بعدًا عن الرياء.

(٤) ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾: أي رق وضعف لكبر سني. ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾: أي انتشر الشيب في شعر رأسي انتشار النار في الحطب. ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾: أي إنك لم تخيبني فيما دعوتك فيه قبل فلا تخيبني اليوم فيما أدعوك فيه.

(٥) ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ﴾: أي خشيت بني عمي أن يضيعوا الدين بعد موتي. ﴿ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾: لا تلد واسمها أشاع وهي أخت حنة أم مريم. ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾: أي ارزقني من عندك ولدًا.

(٦) ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: أي جدي يعقوب العلم والنبوة. ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: أي مرضيًا عندك.

(٧) ﴿سَمِيًّا﴾: أي مسمى يحيى.

معنى الآيات:

(١) أما قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ[١]﴾ فإن هذا من الحروف المقطعة والراجح أنها من المتشابه الذي نؤمن به ونفوض فهم معناه لمنزله سبحانه وتعالى فنقول: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ الله أعلم بمراده به.

(٢) وأما قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ[٢] رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ فإن معناه: مما نتلو[٣] عليك في هذا القرآن يا نبينا فيكون دليلاً على نبوتك ذكر رحمة ربك التي رحم بها عبده زكريا حيث كبرت سنه، وامرأته عاقر لا يولد لها ورغب في الولد لمصلحة الدعوة الإسلامية إذ لا يوجد من يخلفه فيها إذا مات نظرًا إلى أن الموجود من بني عمه ومواليه ليس بينهم كفؤ لذلك بل هم دعاة إلى السوء فنادى[٤] ربه نداءً خفيًا قائلاً:

(٤) ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ أي رق وضعف، ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي شاب شعر رأسي لكبر سني، ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي في يوم من الأيام بمعنى أنك عودتني الاستجابة لما أدعوك له ولم تحرمني استجابة دعائي فأشقى به دون الحصول على رغبتي.

(٥) ﴿وَإِنِّى﴾ يا ربي قد ﴿خِفْتُ[٥] ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ أن يضيعوا هذه الدعوة دعوة الحق التي هي عبادتك بما شرعت وحدك لا شريك لك، وذلك بعد موتي ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ أي من عندك تفضلاً به علي إذ الأسباب غير متوفرة للولد: المرأة عاقر وأنا شيخ كبير هرم، ﴿وَلِيًّا﴾ أي ولدًا يلي أمر هذه الدعوة بعد وفاتي فيرثني فيها.

(٦) ﴿وَيَرِثُ[٦] مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ جدي ما تركوه بعدهم من دعوة أبيهم إبراهيم وهي الحنيفية عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي واجعل الولد الذي تهبني يا ربي ﴿رَضِيًّا﴾ أي عبدًا صالحًا ترضاه لحمل رسالة الدعوة إليك، فأجابه الرب تبارك وتعالى بما في قوله:

(٧) ﴿يَٰزَكَرِيَّآ[٧] إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ

---

(١) كهيعص: هذه حروف هجاء مكتوبة بمسمياتها مقروءة بأسمائها.

(٢) ﴿ذِكْرُ﴾: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا ذكر رحمة ربك، وعبده: منصوب بالمصدر الذي هو ذكر.

(٣) بناء على أن ذكر رحمة ربك: خبر، والمبتدأ محذوف فإنه يصح تقديره: هذا ذكر وذكر رحمة ربك، وهذا الذي نتلوه عليك ذكر رحمة ربك.

(٤) النداء هنا: الدعاء والرغبة إلى الله تعالى، وفيه استحباب دعاء السرّ والمناجاة الخفية، وقد أسرّ مالك القنوت وجهر به الشافعي لأنّ الرسول ﷺ جهر به.

(٥) الموالي هنا: الأقارب وبنو العم والعصبة الذين يلونه في النسب لأنّ العرب تسمّي بني العم موالي. قال شاعرهم:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

(٦) المراد من الإرث هو: إرثه في دعوته لأنّ مواليه كانوا مهملين للدّين والدعوة فخاف ضياع ذلك فسأل ربه ولدًا يقوم بذلك، أمّا المال فإنّ الأنبياء لا يورّثون وما يتركونه فهو صدقة.

(٧) في الكلام حذف تقديره: فاستجاب الله دعاءه فقال: يا زكريا.. إلخ..

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ[١] لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝﴾ أي ما سمي باسمه يحيى قط.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة محمد ﷺ بإخباره بهذا الذي أخبر به عن زكريا عليه السلام.

٢ - استحباب السرية في الدعاء لأنه أقرب إلى الاستجابة.

٣ - وجود العقم في بعض النساء.

٤ - قدرة الله تعالى فوق الأسباب إن شاء تعالى أوقف الأسباب وأعطى بدونها.

٥ - تقرير مبدأ أن الأنبياء لا يورثون فيما يخلفون من المال كالشاه والبعير[٢] وإنما يورثهم الله أولادهم في النبوة والعلم والحكمة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ ـ ١٥]

﴿٨﴾ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾؟: أي من أي وجهٍ وجهةٍ يكون لي ولد.

﴿عِتِيًّا﴾: أي يبست مفاصلي وعظامي.

﴿١٠﴾ ﴿ءَايَةً﴾: أي علامة تدلني على حمل امرأتي. ﴿سَوِيًّا﴾: أي حال كونك سويَّ الخَلقِ ما بك خرس.

﴿١١﴾ ﴿مِنَ ٱلْمِحْرَابِ[٣]﴾: المصلى الذي يصلى فيه وهو المسجد. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾: أومأ إليهم وأشار عليهم.

﴿١٢﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾: الحكم والحكمة بمعنى واحد وهما الفقه في الدين ومعرفة أسرار الشرع.

﴿١٣﴾ ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: أي عطفا على الناس موهوبًا له من عندنا. ﴿وَزَكَوٰةً﴾: أي طهارة من الذنوب والآثام.

﴿١٤﴾ ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: أي متعاليًا لا يقبل الحق عصيًا لا يطيع أمر الله عز وجل وأمر والديه.

﴿١٥﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾: أي أمان له من الشيطان أن يمسه بسوء يوم يولد، وأمان له من فتاني القبر يوم يموت، وأمان له من الفزع الأكبر يوم يبعث حيًا.

معنى الآيات:

﴿٨﴾ ما زال السياق الكريم في ذكر رحمة الله عبده زكريا إنه لما بشره ربه تعالى بيحيى قال: ما أخبر به تعالى عنه في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا[٤] ۝﴾ أي من أي وجه وجهة يأتيني الولد أمن امرأة غير امرأتي، أم منها ولكن تهبني قوة على مباضعتها[٥] وتجعل رحمها قادرة على العلوق[٦]، لأني كما تعلم يا ربي قد بلغت من الكبر حدًا يبس فيه عظمي ومفاصلي وهو العتي كما أن

(١) تضمنت هذه البشرى ثلاثة أمور: أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة. الثاني: إعطاؤه الولد وهو قوّة له، والثالث: إفراده بتسمية لم يسمّ بها أحد قبله، قيل في قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ إشارة إلى أنه سيخلف بعده من هو أشرف اسمًا وذاتًا وحالاً وهو محمد ﷺ.

(٢) والدينار والدرهم.

(٣) المحراب: مكان مرتفع، ومن هنا كره مالك أن يصلي الإمام في مكان أرفع من المكان الذي يصلي فيه الناس وراءه خشية الكبر عليه، والكبر من كبائر الذنوب ولم يكره أحمد رحمه الله تعالى.

(٤) قرأ نافع: ﴿عُتِيًّا﴾ بضم أوله كما: بُكيًا وصليًا، وبكسرها قرأ حفص، والعتي: هو قحول العظم ويبوسته.

(٥) أي: جماعها من إدخال البضع في البضع.

(٦) أي: علوق النطفة في الرحم.

امرأتي عاقر لا يولد لها. فأجابه الرب تبارك وتعالى بما في قوله عز وجل:

(٩) ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كما قلت يا زكريا، ولكن ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي إعطاؤك الولد على ما أنت عليه من الضعف والكبر وامرأتك من العقر سهل يسير لا صعوبة فيه ويدلك على ذلك أني ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ[(١)] مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾، فكما قدر ربك على خلقك ولم تك شيئًا فهو قادر على هبتك الولد على ضعفك وعقر امرأتك وهنا طالب زكريا ربه بأن يجعل له علامة تدله على وقت حمل امرأته بالولد فقال ما أخبر به تعالى في قوله:

(١٠) ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ فأعطاه تعالى علامة على وقت حمل امرأته بالولد وهي أنه يصبح يوم بداية الحمل لا يقدر على الكلام وهو سوي البدن ما به خرس ولا مرض يمنعه من الكلام.

(١١) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي المصلى الذي يصلي فيه ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أي أومأ وأشار[(٢)] إليهم ﴿أَن سَبِّحُوا[(٣)] بُكْرَةً وَعَشِيًّا[(٤)]﴾ أي اذكروا الله في هذين الوقتين بالصلاة والتسبيح. وهنا علم بحمل امرأته إذ امتناعه عن الكلام مع سلامة جسمه وحواسه آية على بداية الحمل.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ هذا قول الله تعالى للغلام بعد بلوغه ثلاث سنين أمره الله تعالى أن يتعلم التوراة ويعمل بها بقوة جد وحزم وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ[(٥)] صَبِيًّا﴾ أي وهبناه الفقه في الكتاب ومعرفة أسرار الشرع وهو صبي لم يبلغ سن الاحتلام.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا[(٦)] مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي ورحمة منا به ومحبة له آتيناه الحكم صبيًا كما أنه عليه السلام كان ذا حنان على أبويه وغيرهما من المسلمين وقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ أي طهارة من الذنوب باستعمال بدنه في طاعة ربه عز وجل ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي خائفًا من ربه فلا يعصه بترك فريضة ولا يفعل حرام.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أي محسنًا بهما مطيعًا لهما لا يؤذيهما أدنى أذى وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي لم يكن عليه السلام مستكبرًا ولا ظالمًا، ولا متمردًا عاصيًا لربه ولا لأبويه وقوله:

(١٥) ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ[(٧)] وُلِدَ﴾ أي أمان له من الشيطان يوم ولد، وأمان له من فتاني القبر يوم يموت، وأمان له من الفزع الأكبر يوم يبعث حيًا، فسبحان الله ما أعظم فضله وأجزل عطائه على أوليائه، اللهم أمنا كما أمنته فإنك ذو فضل عظيم.

هداية الآيات:

١ - طلب معرفة السبب الذي يتأتى به الفعل غير قادح في صاحبه فسؤال زكريا عن الوجه الذي يأتي به الولد، كسؤال إبراهيم عن كيفية إحياء الموتى.

٢ - جواز طلب العلامات الدالة على الشيء للمعرفة.

٣ - آية عجيبة أن يصبح زكريا لا يتكلم فيفهم غيره بالإشارة فقط.

٤ - فضل التسبيح في الصباح والمساء.

٥ - وجوب أخذ القرآن بجد وحزم قراءة وحفظًا وعملاً بما فيه.

٦ - صدق قول أهل العلم من حفظ

---

(١) أي: فخلق الولد كخلقك.

(٢) أو كتب إليهم كتابة.

(٣) إذ كان يأمرهم بالصلاة بكرة وعشيًا فلما حملت امرأته أمرهم بالصلاة بالإشارة لأنه لم يقدر على الكلام إذ جعل الله تعالى عجزه عن الكلام علامة الحمل لامرأته.

(٤) بكرة وعشيًا ظرفان في الصباح والمساء.

(٥) يروى أنه قال له الأولاد: هيا بنا نلعب فقال لهم: ما للعب خلقت، فهذا مما أوتيه من الحكم صبيًا.

(٦) الحنان: التعطف والترحم وأصله من حنين الناقة إلى فصيلها، ويقال: حنانك وحنانيك وهما بمعنى واحد. قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

(٧) وجائز أن يكون المراد بالسلام هنا: التحية منه تعالى وهي أشرف من غيرها.

القرآن في سن ما قبل البلوغ فقد أوتي الحكم صبيًا.

٧ - وجوب البر بالوالدين ورحمتهما والحنان عليهما والتواضع لهما.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ - ٢١]

(١٦) ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي القرآن مريم أي خبرها وقصتها. ﴿مَرۡيَمَ﴾: هي بنت عمران والدة عيسى عليه السلام. ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾: أي حين اعتزلت أهلها باتخاذها مكانًا خاصًا تخلو فيه بنفسها. ﴿شَرۡقِيّٗا﴾: أي شرق الدار التي بها أهلها.

(١٧) ﴿حِجَابٗا﴾: أي ساترًا يسترها عن أهلها وذويها. ﴿رُوحَنَا﴾: جبريل عليه السلام. ﴿بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾: أي تام الخلق حتى لا تفزع ولا تروع منه.

(١٨) ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾: أي عاملاً بإيمانك وتقواك لله فابتعد عني ولا تؤذني.

(١٩) ﴿غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾: ولدًا طاهرًا لم يتلوث بذنب قط.

(٢٠) ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾: أي لم أتزوج. ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾: أي زانية.

(٢١) ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾: أي الأمر كذلك وهو خلق غلام منك من غير أب. ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾: ما هو إلا أن ينفخ رسولنا في كم درعك حتى يكون الولد. ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾: أي على عظيم قدرتنا. ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾: أي وليكون الولد رحمة بمن آمن به واتبع ما جاء به. ﴿أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾: أي حكم الله به وفرغ منه فهو كائن حتمًا لا محالة.

معنى الآيات:

(١٦) هذه بداية قصة مريم عليها السلام إذ قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي القرآن الكريم ﴿مَرۡيَمَ﴾ أي نبأها وخبرها ليكون ذلك دليلاً على نبوتك وصدقك في رسالتك وقوله: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ أي اعتزلت ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ هذا بداية القصة وقوله: ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي موضعًا شرقي دار قومها وشرق المسجد، ولذا اتخذ النصارى المشرق قبلة لهم في صلاتهم ولا حجة لهم في ذلك إلا الابتداع وإلا فقبلة كل مصلي لله الكعبة بيت الله الحرام قوله تعالى:

(١٧) ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ﴾ أي من دون أهلها ﴿حِجَابٗا﴾ ساترًا لها عن أعينهم[(١)]، ولما فعلت ذلك أرسل الله تعالى إليها جبريل في صورة بشر سوي الخلقة معتدلها، فدخل عليها فقالت ما قص الله تعالى في كتابه:

(١٨) ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أي أحتمي بالرحمن الذي يرحم الضعيفات مثلي إن كنت مؤمنًا تقيًا فاذهب عني ولا تروعني أو تمسني بسوء.

(١٩) فقال لها جبريل عليه السلام ما أخبر تعالى به وهو: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ[(٢)] لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝﴾ أي طاهرًا لا يتلوث بذنب قط. فأجابت بما أخبر تعالى عنها في قوله:

(٢٠) ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ أي من أي وجه يأتيني الولد، ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ أي وأنا لم أتزوج، ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا[(٣)]﴾ أي ولم أكن زانية، فأجابها جبريل بما أخبر تعالى به في قوله:

(٢١) ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ أي الأمر كما قلت ولكن ربك قال: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ أي خلقه بدون أب من نكاح أو سفاح، لأنه هين علينا من جهة، ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ[(٤)] ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ دالة على قدرتنا على خلق آدم بدون أب ولا أم، والبعث الآخر من جهة أخرى. وقوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا[(٥)]﴾ أي ولنجعل الغلام المبشر به رحمة منا لكل من آمن به واتبع طريقته في الإيمان والاستقامة وكان هذا الخلق للغلام وهبته لك

---

(١) قيل: استترت عن أهلها لتغتسل من حيضتها وتمتشط، وذلك لكمال حيائها.

(٢) قرأ ورش عن نافع: ﴿ليهب﴾ بالياء بغير همزة، وقرأ غيره: ﴿لأهب﴾ بالهمزة فعلى قراءة نافع المعنى: أرسلني ليهب لك، وعلى قراءة غيره أرسلني يقول لك: أرسلت رسولي إليك لأهب لك.

(٣) لم تقل بغيّة لأنه وصف يغلب على النساء فقلّما تقول العرب: رجل بغي فجرى بغيًا مجرى حائض وعاقر، وقيل: هو فعيل بمعنى فاعل والأوّل أولى.

(٤) ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: ونخلقه لنجعله.

(٥) أي: مقدرًا في اللوح المحفوظ كتاب المقادير العام.

أمرًا مقضيًا أي حكم الله فيه وقضى به فهو كائن لا محالة ونفخ جبريل في جيب قميصها فسرت النفخة في جسمها فحملت به كما سيأتي بيانه في الآيات التالية.

هداية الآيات:

١ - بيان شرف مريم وكرامتها على ربها.

٢ - فضيلة العفة والحياء.

٣ - كون الملائكة يتشكلون كما أذن الله تعالى لهم.

٤ - مشروعية التعوذ بالله من كل ما يخاف من إنسان أو جان.

٥ - التقوى[1] مانعة من فعل الأذى بالناس أو إدخال الضرر عليهم.

٦ - خلق عيسى آية مبصرة تتجلى فيها قدرة الله تعالى على الخلق بدءًا وإعادة.

فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

٣٠٧

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٢ - ٢٦]

﴿٢٢﴾ ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾: فاعتزلت به. ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾: أي بعيدًا من أهلها. ﴿٢٣﴾ ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾: أي ألجأها الطلق واضطرها وجع الولادة. ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾: لتعتمد عليها وهي تعاني من آلام الولادة. ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: أي شيئًا متروكًا لا يعرف ولا يذكر.

﴿٢٤﴾ ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾: أي عيسى عليه السلام بعدما وضعته. ﴿تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: أي نهرًا يقال له سري.

﴿٢٥﴾ ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾: الرطب الجني: ما طاب وصلح للإجتناء.

﴿٢٦﴾ ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾: أي كلي من الرطب واشربي من السري. ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾: أي وطيبي نفسًا وافرحي بولادتك إياي ولا تحزني. ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾: أي إمساكًا عن الكلام وصمتًا.

معنى الآيات:

﴿٢٢﴾ ما زال السياق الكريم في قصة مريم إنه بعد أن بشرها جبريل بالولد وقال لها وكان أمرًا مقضيًا ونفخ في كم درعها أو جيب قميصها فحملته[2] فورًا ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي فاعتزلت به في مكان بعيد[3].

﴿٢٣﴾ ﴿فَأَجَآءَهَا[4] ٱلْمَخَاضُ﴾ أي ألجأها وجع النفاس ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتعتمد عليه وهي تعاني من آلام الطلق وأوجاعه، ولما وضعته قالت متأسفة متحسرة ما أخبر تعالى به: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى[5] مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي الوقت الذي أصبحت فيه أم

---

(١) بخلاف الفجور فإنه مصدر كل ضرّ وشرّ.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما هو إلاّ أن حملت فوضعت في الحال. قال القرطبي: هذا هو الظاهر لأنّ الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ والفاء للترتيب والتعقيب.

(٣) انتحت بالحمل إلى مكان بعيد، قال ابن عباس: إلى أقصى الوادي وادي بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال وإنما بعدت فرارًا من تعيير قومها بالولادة من غير أب.

(٤) يقال: جاء به وأجاءه إلى موضع كذا: اضطره وألجأه.

(٥) تمني الموت لا يجوز لحديث: «**لا يتمنّين أحدكم الموت لضرّ نزل به**» الحديث. وتمنّته مريم عليها السلام لا لصالح نفسها ولكن لله تعالى، وذلك أنها خافت أن يظنّ بها الشرّ في دينها وتُعيَّر فتفتن بذلك، وهذا لله، وثانيًا خافت أن يقع بعض الناس في البهتان والنسبة إلى الزنى فيهلكون. وهذا أيضًا لله لا لها.

ولد، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا[١]﴾ أي شيئًا متروكًا لا يذكر ولا يعرف وهنًا.
(٢٤) ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ عيسى[٢] عليه السلام ﴿مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي﴾ يحملها على الصبر والعزاء وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي نهر ماء يقال له سري.
(٢٥) - (٢٦) ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ أي كلي من الرطب واشربي من ماء النهر، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي طيبي نفسًا وافرحي بولدك، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي فسألك عن حالك أو عن ولدك فلا تكلميه واكتفي بقولك: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي صمتًا ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ هذا كله من قول عيسى لها أنطقه الله كرامة لها ليذهب عنها حزنها وألمها النفسي من جراء الولادة وهي بكر لم تتزوج.

هداية الآيات:

١ - من مظاهر قدرة الله تعالى حملها ووضعها في خلال ساعة من نهار.

٢ - إثبات كرامات الله لأوليائه إذ أكرم الله تعالى مريم بنطق عيسى ساعة وضعه فأرشدها وبشرها وأذهب عنها الألم والحزن، وأثمر لها النخلة فأرطبت وأجرى لها النهر بعد يبسه.

٣ - تقرير نظام الأسباب التي في مكنة الإنسان القيام بها فإن الله تعالى قد أثمر لمريم النخلة إذ هذا لا يمكنها القيام به ثم أمرها أن تحرك النخلة من جذعها ليتساقط عليها الرطب[٣] الجني إذ هذا في استطاعتها.

٤ - مشروعية النذر إلا أنه بالامتناع[٤] عن الكلام منسوخ في الإسلام.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ - ٣٣]

(٢٧) ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾: أي بولدها عيسى عليه وعليها السلام. ﴿جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا[٥]﴾: أي عظيمًا حيث أتيت بولد من غير أب.
(٢٨) ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ[٦]﴾: أي يا أخت الرجل الصالح هارون. ﴿ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾: أي رجلاً يأتي الفواحش.
(٢٩) ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾: أي إلى عيسى وهو في المهد.
(٣٠) ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي الإنجيل باعتبار ما يكون مستقبلاً.

---

(١) النسي: الشيء الحقير الذي شأنه أن ينسى ولا يُتألم لفقده كالوتد والحبل ونحوهما، ويجمع النسي على أنساء. قال الكميت رضي الله عنه:

أتجعلنا جسرًا لكلب قضاعة ... ولست بنسي في معدّ ولا دخل

والنسي أيضًا: خرق الحيض التي ترمى بدمها من الحيض.

(٢) قرأ نافع: ﴿مِن﴾ بكسر الميم حرف جر، وقرأ حفص: ﴿مَّن﴾ بفتحها، اسم موصول والمراد بالموصول عيسى عليه السلام ناداها قبل أن ترضعه من تحتها تعجيلاً للمسرة والبشرى لها به، فأنْ في ألا تحزني: تفسيرية لأنّ النداء قول.

(٣) قالت العلماء: أكل الرطب للنفساء من أنفع الأغذية لها نظرًا إلى أنّ الله تعالى اختاره لمريم عليها السلام.

(٤) قولها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ فسر الصوم بالصمت كما في التفسير وأولى من هذا أن يكون صوم النذر في دينهم مستلزمًا للصمت وعدم الكلام، والسياق دالّ عليه ظاهر فيه، وما زال النصارى يعتبرون الصمت عبادة فيصمتون دقائق على أرواح موتاهم ونسخ الإسلام هذا كما في الصحيح حيث أمر من نذر أن لا يتكلم أن يتكلم، ومن سنن الهدى في الإسلام الامتناع عن الكلام القبيح في الصيام لحديث الصحيح: «**إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل فإن امرءًا قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم**» وهو كقول مريم: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

(٥) ﴿فَرِيًّا﴾: أي: مختلقًا مفتعلاً من الافتراء الذي هو الكذب يقال: فرى وأفرى: كذب. ومن كراماتها أن امرأة مدّت لها يدها لتضرّبها أصيبت بالشلل الفوري فحملت كذلك وقالت لها أخرى: ما أراكِ إلاّ زنيت فأخرسها الله فورًا فصارت لا تتكلم ومن ثمّ ألانوا لها الكلام واحترموها.

(٦) من الجائز أن يكون لمريم أخ صالح من أبيها أو من أبويها نسبوها إليه ومن الجائز أن تنسب إلى هارون الرسول عليه السلام كقول العرب: يا أخا تميم ويا أخا العرب، وما في التفسير إجمال يشمل الكلّ فتأمّل. وفي الآية دليل على جواز التسمية بالأنبياء والصالحين، ولا خلاف في ذلك.

(٣١) ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾: أي حيثما وجدت كانت البركة فيَّ ومعي ينتفع الناس بي.

(٣٢) ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾: أي محسنًا بها مطيعًا لها لا ينالها مني أدنى أذى.

﴿جَبَّارًا شَقِيًّا﴾: ظالمًا متعاليًا ولا عاصيًا لربي خارجًا عن طاعته.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصة مريم مع قومها: إنها بعد أن تماثلت للشفاء حملت ولدها وأتت به قومها وما أن رأوهما حتى قال قائلهم: (٢٧) ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي أمرًا عظيمًا وهو إتيانك بولد من غير أب.

(٢٨) ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ نسبوها إلى عبد صالح يسمى هارون: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عمران ﴿ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ يأتي الفواحش ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ «حنة» ﴿بَغِيًّا﴾ أي زانية فكيف حصل لك هذا وأنت بنت البيت الطاهر والأسرة الشريفة. وهنا أشارت إلى عيسى الرضيع في قماطته أي قالت لهم سلوه يخبركم الخبر وينبئكم بالحق، لأنها علمت أنه يتكلم لما سبق أن ناداها ساعة وضعه من تحتها وقال لها ما ذكر تعالى في الآيات السابقة. فردوا عليها مستخفين بها منكرين عليها متعجبين منها:

(٢٩) ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ[١] فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟ فأنطق الله عيسى الرضيع فأجابهم بما أخبر تعالى عنه في قوله: (٣٠) ـ (٣٣) ﴿قَالَ إِنِّى[٢] عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا[٣] بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝﴾[٤] فأجابهم بكل ما كتب الله وأنطقه به، وكان عيسى كما أخبر عن نفسه لم ينقص من ذلك شيئًا كان عبدًا لله وأنزل عليه الإنجيل ونبأه وأرسله إلى بني إسرائيل وكان مباركًا يشفي المرضى ويحيي الموتى بإذن الله تنال البركة من صحبته وخدمته والإيمان به وبمحبته وكان مقيمًا للصلاة مؤديًا للزكاة طوال حياته وما كان ظالمًا ولا متكبرًا عاتيًا ولا جبارًا عصيًا. فعليه كما أخبر السلام أي الأمان التام يوم ولد فلم يقربه شيطان ويوم يموت فلا يفتن في قبره ويوم يبعث حيًا فلا يحزنه الفزع الأكبر، ويكون من الآمنين السعداء في دار السلام.

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا (٤٢) يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا (٤٣) يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١)

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة محمد ﷺ وعبودية عيسى ونبوته عليهما السلام.

٢ - آية نطق عيسى في المهد وإخباره بما أولاه الله من الكمالات.

٣ - وجوب بر الوالدين بالإحسان بهما وطاعتهما والمعروف وكف الأذى عنهما.

٤ - التنديد بالتعالي والكبر والظلم والشقاوة التي هي التمرد والعصيان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤ ـ ٤٠]

(٣٤) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾: أي

---

(١) كان: هنا زائدة للتوكيد، ومن: مبتدأ، والخبر: في المهد، وصبيًا: حال من الموصول.

(٢) قيل: لما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه وقال مشيرًا بسبابته اليمنى: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى، وفي هذا ردّ على الذين ألّهوه وعبدوه من دون الله تعالى.

(٣) البرّ: بمعنى البار وخص بهذه الصفة لأنّ قومهم قل فيهم البرور بالوالدين وكثر فيهم العقوق نظرًا إلى فشو الباطل فيهم ورقة حبل الدين بينهم، والجبّار: المتكبر على الناس الغليظ في معاملتهم، والشقي: ضدّ السعيد.

(٤) لما قال ما قال في المهد: إني عبدالله.. إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ لم يتكلم حتى بلغ سن التكلم.

هذا الذي بينت لكم صفته وأخبرتكم خبره هو عيسى بن مريم. ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾: أي وهو قول الحق الذي أخبر تعالى به. ﴿يَمْتَرُونَ﴾: يشكون.

(٣٥) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾: أي ليس من شأن الله أن يتخذ ولدًا وهو الذي يقول للشيء كن فيكون. ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾: أي تنزيهًا له عن الولد والشريك والشبيه والنظير.

(٣٦) ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: أي طريق مستقيم لا يضل سالكه.

(٣٧) ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾: أي في شأن عيسى فقال اليهود هو ساحر وابن زنا، وقال النصارى هو الله وابن الله تعالى الله عما يصفون. ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: هو يوم القيامة.

(٣٨) ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾: أي ما أسمعهم وما أبصرهم يوم القيامة عند معاينة العذاب.

(٣٩) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾: أي خوفهم بما يقع في يوم القيامة من الحسرة والندامة وذلك عندما يشاهدون أهل الجنة قد ورثوا منازلهم فيها وهم ورثوا منازل أهل الجنة في النار فتعظم الحسرة ويشتد الندم.

معنى الآيات:

بعد أن قص الله تعالى قصة مريم من ساعة أن اتخذت من دون أهلها حجابًا معتزلة أهلها منقطعة إلى ربها إلى أن أشارت إلى عيسى وهو في مهده فتكلم فقال: إني عبد الله، فبين تعالى أن جبريل بشرها، وأنه نفخ في كم درعها فحملت بعيسى وأنه ولد في ساعة من حمله وأنها وضعته تحت جذع النخلة وأنه ناداها من تحتها: أن لا تحزني، وأرشدها إلى القول الذي تقول لقومها إذا سألوها عن ولادتها المولود بدون أب، وهو أن تشير إليه تطلب منهم أن يسألوه وسألوه فعلاً فأجاب بأنه عبد الله وأنه آتاه الكتاب وجعله نبيًا ومباركًا وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيًا وأنه بر بوالدته، ولم يكن جبارًا شقيًا فأشار تعالى إلى هذا بقوله في هذه الآية (٣٤):

(٣٤) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا الذي بينت لكم صفته وأخبرتكم خبره هو ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وما أخبرتكم به هو ﴿قَوْلَ[١] ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون إذ قال اليهود في عيسى أنه ابن زنا وأنه ساحر وقال النصارى هو الله وابن الله وثالث ثلاثة حسب فرقهم وطوائفهم المتعددة وقوله تعالى:

(٣٥) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ ينفي تعالى عنه اتخاذ الولد وكيف يصح ذلك له أو ينبغي وهو الغني عما سواه والمفتقر إليه كل ما عداه، وأنه يقول للشيء كن فيكون فعيسى عليه السلام كان بكلمة الله تعالى له كن فكان وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢]. وقد نزه تعالى نفسه عن الولد والشريك والشبيه والنظير، والافتقار والحاجة إلى مخلوقاته بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ أي تنزيهًا له عن صفات المحدثين وقوله تعالى:

(٣٦) ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ[٣]﴾. هذا من قول[٤] عيسى عليه السلام لبني إسرائيل أخبرهم أنه عبد الله وليس بابن لله ولا بإله مع الله وأخبرهم أن الله تعالى هو ربه وربهم فليعبدوه جميعًا بما شرع لهم ولا يعبدون معه غيره إذ لا إله لهم إلا هو سبحانه وتعالى، وأعلمهم أن هذا الاعتقاد

---

(١) قرأ الجمهور برفع ﴿قول﴾ وقرأ عاصم بنصبها، فأما الرفع فهو خبر ثانٍ عن اسم الإشارة أو وصف لعيسى أو بدل منه، وأمّا النصب فعلى الحال من اسم الإشارة.

(٢) في هذا ردّ على النصارى القائلين بأن المكوّن بأمر التكوين من غير سبب معتاد لا يكون إلاّ ابن الله تعالى فبيّنت الآية أنّ أصول الموجودات كلها كانت بأمر التكوين فهل يقال فيها أبناء الله؟! والجواب قطعًا لا، وعليه فقد بطل قولهم: عيسى ابن الله لأنه كان بكلمة التكوين.

(٣) جملة ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ تذييل وفذلكة لما سبق من الكلام وإشارة إلى مضمون ما تقدّم على اختلاف وجوهه، في تقرير الحق وإبطال الباطل.

(٤) نعم، الظاهر أنه من قول عيسى عليه السلام، والجمل قبله من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ اعتراض بين قول عيسى الأوّل: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وبين قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾.

الحق والعبادة بما شرع الله هو الطريق المفضي بسالكه إلى السعادة ومن تنكب عنه وسلك طريق الشرك والضلال أفضى به إلى الخسران وقوله تعالى في الآية (٣٧):
(٣٧) ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ[1] بَيْنِهِمْ﴾ أي في شأن عيسى فمن قائل هو الله، ومن قائل هو ابن الله ومن قائل هو وأمه إلهين من دون الله والقائلون بهذه المقالات كفروا بها فتوعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنسبتهم الولد والشريك لله، والويل واد في جهنم فهم إذا داخلوها لا محالة، وقوله: ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني به يوم القيامة وهو يوم ذو أهوال وشدائد لا يقادر قدرها.
(٣٨) وقوله تعالى في الآية (٣٨): ﴿أَسْمِعْ[2] بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يخبر تعالى أن هؤلاء المتعامين اليوم عن الحق لا يريدون أن يبصروا آثاره الدالة عليه فيؤمنوا ويوحدوا ويعبدوا، والمتصاممين عن سماع الحجج والبراهين وتوحيد الله وتنزيهه عن الشريك والولد هؤلاء يوم يقدمون عليه تعالى في عرصات القيامة يصبحون أقوى ما يكون أبصارًا وسمعًا، ولكن حين لا ينفعهم سمع ولا بصر، وقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يخبر تعالى أن أهل الشرك والكفر وهم الظالمون في ضلال مبين أي عن طريق الهدى وهو سبب عدم إبصارهم للحق وسماعهم لحججه التي جاءت بها رسل الله ونزلت بها كتبه.
(٣٩) وقوله تعالى في آية (٣٩): ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ[3] إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يأمر تعالى رسوله محمدًا ﷺ بأن ينذر الكفار والمشركين أي يخوفهم عاقبة شركهم وكفرهم وضلالهم يوم القيامة حيث تشتد فيه الحسرة وتعظم الندامة وذلك عندما يتوارث الموحدون مع المشركين فالموحدون يرثون منازل المشركين في الجنة، والمشركون يرثون منازل الموحدين في النار، وعندما يؤتى بالموت في صورة كبش فيذبح بين الجنة والنار، وينادي منادٍ يا أهل الجنة خلود فلا موت! ويا أهل النار خلود فلا موت! عندها تشتد الحسرة ويعظم الندم هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عما حكم عليهم به من الخلود في نار جهنم ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالبعث ولا بما يتم فيه من نعيم مقيم وعذاب أليم.
(٤٠) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ[4] نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يخبر تعالى عن نفسه بأنه الوارث للأرض ومن عليها ومعنى هذا أنه حكم بفناء، هذه المخلوقات وأن يومًا سيأتي يفنى فيه كل من عليها، والجميع سيرجعون إليه ويقفون بين يديه ويحاسبهم بما كتبت أيديهم ويجزيهم به، ولذا فلا تحزن أيها الرسول وامض في دعوتك تبلغ عن ربك ولا يضرك تكذيب المكذبين ولا شرك المشركين.

هداية الآيات:

١ - تقرير أن عيسى عبد الله ورسوله، وليس كما قال اليهود، ولا كما قالت النصارى.

---

(١) ﴿مِنْ﴾: زائدة، واختلاف الأحزاب وجهه: أن اليهود قادحون والنصارى مادحون، فاليهود قالوا: ساحر وابن زنية، والنصارى فرقة قالت: هو الله، وأخرى قالت: ابن الله، وثالثة قالت: ثالث ثلاثة، وهذه الفرق هي الملكانية، واليعقوبية، والنسطورية. ثم تشعبت وأشهرها الآن: الملكائية أي: الكاثوليك، واليعقوبية أي: أرثذوكس والاعتراضية أي: البروتستانت.

(٢) هذا الكلام ظاهر أنه أمر لحمل السامع على التعجب من حال المذكورين، ومعناه الخبر أي: لا أحد أسمع منهم ولا أبصر يوم يقفون في عرصات القيامة، ويشاهدون النار ويسمعون زفيرها.

(٣) روي في مسند أحمد وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرونه ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح. قال: ويقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت**»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ..﴾ الآية.

(٤) هذه الجملة ذيّل بها الكلام السابق فتمت به القصة وضمير ﴿نَحْنُ﴾ للتأكيد، و﴿الْأَرْضَ﴾: المراد بها ما فيها من غير العقلاء ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ المراد بهم العقلاء وهم البشر.

٢ ـ استحالة اتخاذ الله الولد وهو الذي يقول للشيء كن فيكون.

٣ ـ تقرير التوحيد على لسان عيسى عليه السلام.

٤ ـ الإخبار بما عليه النصارى من خلاف في شأن عيسى عليه السلام.

٥ ـ بيان سبب الحسرة يوم القيامة وهو الكفر بالله والشرك به.

٦ ـ تقرير فناء الدنيا، ورجوع الناس إلى ربهم بعد بعثهم وهو تقرير لعقيدة البعث والجزاء التي تعالجها السور المكية في القرآن الكريم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ ـ ٤٥]

(٤١) ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي في القرآن. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا﴾: أي كثير الصدق بالغ الحد الأعلى فيه.

(٤٢) ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: يا أبي وهو آزر.

(٤٣) ﴿صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾: أي طريقًا مستقيمًا لا اعوجاج فيه يفضي بك إلى الجنة.

(٤٤) ﴿لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾: أي لا تطعه في دعوته إياك إلى عبادة الأصنام. ﴿عَصِيّٗا﴾: أي عاصيًا لله تعالى فاسقًا عن أمره.

(٤٥) ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾: أي قريبًا منه قرينًا له فيها أي النار.

معنى الآيات:

(٤١) هذه بداية قصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع والده آزر عليه لعائن الرحمن قال تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا نبينا ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي القرآن الكريم ﴿إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ خليلنا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا﴾ أي صادقًا في أقواله وأعماله بالغًا مستوى عظيمًا في الصدق ﴿نَّبِيًّا﴾ من أنبيائنا فهو جدير بالذكر في القرآن ليكون قدوة صالحة للمؤمنين.

(٤٢) واذكره ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ[1] تَعۡبُدُ﴾ أي تسأله بالدعاء والتقرب بأنواع القربات ما لا يسمع ولا يبصر من الأصنام أي لا يبصرك ولا يسمعك ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ لا يدفع عنك ضرًا ولا يجلب لك نفعًا فأي حاجة لك إلى عبادته.

(٤٣) ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ[2] ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي من قبل ربي تعالى ﴿مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ أنت ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾ فيما أعتقده وأعمله وأدعو إليه ﴿أَهۡدِكَ[3] صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ أي مستقيمًا يفضي بك إلى السعادة والنجاة.

(٤٤) ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ أي بطاعته فيما يدعوك إليه من عبادة غير الله تعالى من هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعطي ولا تمنع، ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا[4]﴾ أي عاصيًا أمره فأبى طاعته وفسق عن أمره.

(٤٥) ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾[5] إن أنت بقيت على شركك وكفرك ولم تتب منهما حتى مت فيمسك عذاب من الرحمن ﴿فَتَكُونَ﴾ أي بذلك ﴿لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ أي قريبًا منه قرينًا له في جهنم فتهلك وتخسر.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير التوحيد بالدعوة إليه.

٢ ـ كمال إبراهيم بذكره في الكتاب.

٣ ـ بطلان عبادة غير الله تعالى.

٤ ـ عبادة الأوثان والأصنام وكل عبادة لغير الله تعتبر عبادة للشيطان لأنه الآمر بها والداعي إليها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٦ ـ ٥٠]

(٤٦) ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾: أي عن التعرض لها وعيبها. ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾: بالحجارة أو بالقول القبيح فاحذرني. ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾[6]: أي سليمًا من عقوبتي.

(٤٧) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾: أي أمنةٌ مني لك أن أعاودك فيما كرهت مني. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾: أي لطيفًا

---

(١) الاستفهام للإنكار أي: لأيّ شيء تعبد.

(٢) أي: من اليقين والمعرفة بالله وبما يكون بعد الموت، وأنّ من عبد غير الله يعذّب أبدًا.

(٣) أرشدك إلى دين قيّم فيه نجاتك وسعادتك.

(٤) الجملة تعليلية للنهي عن عبادة الشيطان واتباع وسوسته وما يدعو إليه من الشرك.

(٥) أي: إني أخاف أن تموت على الكفر فيمسّك العذاب الأليم.

(٦) ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ أي: اتركني وشأني وابعد عنّي طويلاً تسلم من عقوبتي.

بي مكرمًا لي يجيبني لما أدعوه له. ﴿٤٨﴾ ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾: بل يجيب دعائي ويعطني مسألتي.

﴿٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ﴾: بأن هاجر إلى أرض القدس وتركهم. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾: أي وهبنا له ولدين يأنس بهما مجازاة منا له على هجرته قومه.

﴿٥٠﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾: خيرًا كثيرًا المال والولد بعد النبوة والعلم. ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾: أي رفيعًا بأن يُثنى عليهم ويذكرون بأطيب الخصال.

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصة إبراهيم مع أبيه آزر إنه بعد تلك الدعوة الرحيمة بالألفاظ الطيبة الكريمة التي وجهها إبراهيم لأبيه آزر ليؤمن ويوحد فينجو ويسعد قال آزر رادًا عليه بعبارات خالية من الرحمة والأدب بل ملؤها الغلظة والفظاظة والوعيد والتهديد وهي ما أخبر به تعالى عنه في قوله في الآية (٤٦):

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي أكاره لها تعيبها، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ أي عن التعرض لها بأي سوء[1] ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بأبشع الألفاظ وأقبحها، ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[2] أي وابعد عني ما دمت معافى سليم البدن سويه قبل أن ينالك مني ما تكره. كان هذا رد آزر الكافر المشرك.

﴿٤٧﴾ فيما أجاب إبراهيم المؤمن الموحد أجاب بما أخبر تعالى به عنه في قوله في الآية (٤٧): ﴿قَالَ سَلَٰمٌ[3] عَلَيْكَ[4]﴾ أي أمان لك مني يا أبتاه فلا أعاودك فيما كرهت مني قط وسأقابل إساءتك بإحسان ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أي أطلب منه أن يهديك للإيمان والتوحيد فتتوب فيغفر لك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِي حَفِيًّا﴾ لطيفًا بي مكرمًا لي لا يخيبني فيما أدعوه فيه.

﴿٤٨﴾ وقوله تعالى حكاية عن قيل إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أذهب بعيدًا عنكم تاركًا لكم ولما تعبدون من دون الله من أصنام وأوثان، ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[5] أي رجائي في ربي كبير أن لا أشقى بعبادته كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام. قال تعالى مخبرًا عنه فلما حقق ما واعدهم به من هجرته لديارهم إلى ديار القدس تاركًا أباه وأهله وداره كافأناه بأحسن حيث أعطيناه ولدين يأنس بهما في وحشته وهما إسحق ويعقوب وكلًا منهما جعلناه نبيًا رسولاً، ووهبنا لجميعهم وهم ثلاثة الوالد إبراهيم وولداه إسحق ويعقوب بن إسحق عليهم السلام من رحمتنا الخير العظيم من المال والولد والرزق الحسن هذا معنى قوله تعالى:

﴿٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وهو ابن ولده إسحق.

﴿٤٩﴾ - ﴿٥٠﴾ ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾. وقوله تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ هذا إنعام آخر مقابل الهجرة في سبيل الله حيث جعل الله تعالى لهم لسان الصدق في الآخرة فسائر أهل الأديان الإلهية يثنون على إبراهيم وذريته بأطيب الثناء وأحسنه وهو لسان الصدق العلي الرفيع الذي حظي به إبراهيم وولديه إكرامًا من الله تعالى وإنعامًا عليهم جزاء صدق إبراهيم وصبره وبالتالي هجرته للأصنام وعابديها.

---

(١) أي: كعيبها وشتمها.

(٢) وقيل في معناه: اجتنبني سالمًا قبل أن تصيبك عقوبتي، وقيل: اهجرني طويلاً.

(٣) هذا يسمى سلام المتاركة، وليس هو بالتحية وهل يجوز بدء الكافر بالسلام؟ في المسألة خلاف، والراجح: جواز السلام إذا كان لغرض سليم ككونه جارًا لك أو رفيقًا أو مصاحبًا لك في عمل أو لك إليه حاجة وما إلى ذلك إذ سلم الرسول ﷺ على جماعة فيهم مشركون كما في الصحيح، وأمّا حديث: «**لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام**» فهو إذا لم يكن هناك غرض صحيح.

(٤) ﴿سَلَٰمٌ﴾: نكرة وصح الابتداء بها لما فيها من معنى التخصيص فقاربت لذلك المعرفة وصحّ الابتداء بها. و﴿عَلَيْكَ﴾ الخبر.

(٥) أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلاً وولدًا يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ﴾ وهنا له دليل يرجح هذا القول. والله أعلم.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

٣٠٩

هداية الآيات:

١ - بيان الفرق بين ما يخرج من فم المؤمن الموحد من طيب القول وسلامة اللفظ ولين الجانب والكلام، وبين ما يخرج من فم الكافر المشرك من سوء القول وقبح اللفظ وقسوة الجانب وفظاظة الكلام.

٢ - مشروعية سلام المتاركة والموادعة وهو أن يقال للسيء من الناس سلام عليك وهو لا يريد بذلك تحيته ولكن تركه وما هو فيه.

٣ - مشروعية الهجرة وبيان فضلها وهجرة إبراهيم هذه أول هجرة كانت في الأرض.

٤ - الترغيب في حسن الأحدوثة بأن يكون للمرء حسن ثناء بين الناس لما يقدم من جميل وما يورث من خير وإفضال.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥١ ـ ٥٣]

﴿٥١﴾ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي في القرآن تشريفًا وتعظيمًا.

﴿مُوسَىٰٓ﴾: أي ابن عمران نبي بني إسرائيل عليه السلام. ﴿مُخْلَصًا﴾: أي مختارًا مصطفى على قراءة فتح اللام «مخلَصا» وموحدًا لربه مفردًا إياه بعبادته بالغًا في ذلك أعلى المقامات على قراءة كسر اللام.

﴿٥٢﴾ ﴿جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾: الطور جبل بسيناء بين مدين ومصر. ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾: أي أدنيناه إدناء تشريف وتكريم مناجيًا لنا مكلمًا من قبلنا.

﴿٥٣﴾ ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾: إذ سأل ربه لأخيه الرسالة فأعطاه فنبَّأهُ وأرسله معه إلى فرعون.

معنى الآيات:

﴿٥١﴾ هذا موجز قصة موسى عليه السلام قال تعالى في ذلك وهو يخاطب نبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ في هذه السلسلة الذهبية من عباد الله الصالحين أهل التوحيد واليقين موسى ابن عمران أنه جدير بالذكر في القرآن وعلة ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي مختارًا مصطفى للإبلاغ عنا عبادنا ما خلقناهم لأجله وهو ذكرنا وشكرنا ذكرنا بألسنتهم وقلوبهم وشكرهم لنا بجوارحهم وذلك بعبادتنا وحدنا دون مَن سوانا، وكان موسى كذلك، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أي ومن أفضالنا عليه وإكرامنا له أن جعلناه نبيًا رسولاً نبأناه وأرسلناه إلى فرعون وملإه.

﴿٥٢﴾ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾[1] وهو في طريقه من مدين إلى مصر في جانب الطور الأيمن[2] حيث نبأناه وأرسلناه وبذلك ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ فصار يناجينا فنُسمعه كلامنا ونسمع[3] كلامه وأعظم بهذا التكريم من تكريم.

﴿٥٣﴾ وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن[4] رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ هذا إنعام آخر من الله تعالى على موسى النبي إذ سأل ربه أن يرسل معه أخاه هارون إلى فرعون فبرحمة من الله تعالى استجاب له ونبأ هارون وأرسله معه رسولاً وما كان هذا إلا برحمة خاصة إذ النبوة لا تطلب ولا يتوصل إليها بالاجتهاد في العبادة ولا بالدعاء والضراعة إذ هي هبة إلهية خاصة.

---

(١) قيل: كان هذا الكلام والمناجاة ليلة الجمعة. ذكره القرطبي.

(٢) هو بالنسبة إلى يمين موسى عليه السلام أما الجبل فلا يمين له ولا شمال «ابن جرير الطبري».

(٣) أي: من غير وحي بل كفاحًا وجهًا لوجه بلا واسطة.

(٤) وذلك حين سأل ربه قائلاً: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ الآية.

هداية الآيات:

١ - فضيلة الإخلاص، وهو إرادة الله تعالى بالعبادة ظاهرًا وباطنًا.

٢ - إثبات صفة الكلام والمناجاة لله تعالى.

٣ - بيان إكرام الله تعالى وإنعامه على موسى إذ أعطاه ما لم يعط أحدًا من العالمين باستجابة دعائه بأن جعل أخاه هارون رسولاً نبيًا.

٤ - تقرير أن كل رسول نبيًا والعكس لا أي ليس كل نبي رسولاً.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٤ ـ ٥٨]

(٥٤) ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾: أي اذكر في القرآن تشريفًا وتعظيمًا إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام. ﴿صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾: لم يخلف وعدًا قط.

(٥٥) ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾: أي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ﴿مَرۡضِيّٗا﴾: أي رضي الله تعالى قوله وعمله ليقينه وإخلاصه.

(٥٦) ﴿إِدۡرِيسَۚ﴾: هو جد أبي نوح عليه السلام.

(٥٧) ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۩﴾: إلى السماء الرابعة.

(٥٨) ﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أي يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام. ﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾: أي من جملة من هديناهم لطريقنا واجتبيناهم بنبوتنا. ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: أي تقرأ عليهم وهم يستمعون إليها. ﴿سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾: جمع ساجد وباك أي ساجدين وهم يبكون.

معنى الآيات:

(٥٤) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ كما ذكرت من ذكرت من مريم وابنها وإبراهيم وموسى اذكر كذلك إسماعيل[١] فإنه ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾[٢] لم يخلف وعدًا قط وكان ينتظر الموعود الليالي حتى يجيء وهو قائم في مكانه ينتظره، ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ نبأه تعالى بمكة المكرمة إذ عاش بها وأرسله إلى قبيلة جرهم العربية ومنها تزوج وأنجب وكان من ذريته محمد ﷺ وقوله تعالى:

(٥٥) ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ المراد من الأهل أسرته وقومه من قبيلة جرهم والمراد من الصلاة إقامتها ومن الزكاة أداؤها، وهذا مما أعلى شأنه ورفع قدره فاستحق ذكره في القرآن العظيم، وقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ موجب آخر لإكرامه والإنعام عليه بذكره في القرآن الكريم في سلسلة الأنبياء والمرسلين، ومعنى ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ أي أقواله وأفعاله كلها كانت مقبولة مرضية فكان بذلك هو مرضيًا[٣] من قبل ربه عز وجل.

(٥٦) وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾[٤] وهو جد أبي نوح واستوجب الذكر في القرآن لأنه ﴿كَانَ صِدِّيقٗا﴾ كثير الصدق مبالغًا فيه حتى إنه لم يجر على لسانه كذب قط، وصديقًا في أفعاله وما يأتيه فلم يعرف غير الصدق في قول ولا عمل وكان نبيًا من أنبياء الله.

(٥٧) وقوله: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۩﴾

---

(١) هو إسماعيل بن إبراهيم والذي أمه هاجر عليهما السلام ولا التفات إلى قول من قال: إنه إسماعيل بن حزقيل الذي بعثه الله إلى قوم فسلخوا جلد رأسه، إلخ.. كما في القرطبي.

(٢) في الآية دليل على وجوب صدق الوعد وفي الحديث: «إنّ **الخُلف من آيات النفاق**». وقد انتظر النبي ﷺ ثلاثة أيام وهو مقيم في مكان ينتظر من واعده اللقاء فيه وذلك قبل بعثته ﷺ. رواه أبو داود والترمذي، والرجل هو: أبو الحمساء وقال له: «**يا فتى لقد شققت عليّ أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك!!**».

(٣) قيل: إنّ إسماعيل عليه السلام لم يعد شيئًا إلاّ وفّى به وهو صحيح يقتضيه ظاهر الآية الكريمة، وقد قيل العِدة دَين، وفي الأثر: وأي المؤمن واجب. والوأي: الوعد. قال الشاعر:

متى يقل حرّ لصاحب حاجة ... نعم يقضها والحر للوأي ضامن

وقال مالك: إذا سأل الرجل الرجل شيئًا فوعده ثمّ بدا له عدم إنجاز ما وعد، لا شيء عليه ولا يقضي عليه بذلك لأنّ العدة بخير من باب الإحسان وليس على المحسنين من سبيل.

(٤) قيل: إنّ إدريس هو أوّل من خط بالقلم وأوّل من خاط الثياب ولبس المخيط وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر.

إلى السماء الرابعة[1] في حياته كما رفع تعالى عيسى ورفع محمدًا إلى ما فوق السماء السابعة.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ كإدريس[2]، ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي في الفلك كإبراهيم، ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كإسحق وإسماعيل، ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل كموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى، ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ لمعرفتنا وطريقنا الموصل إلى رضانا وذلك بعبادتنا والإخلاص لنا فيها ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ لوحينا وحمل رسالتنا. وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا[3]﴾ أي أولئك الذين هديناهم واجتبينا من اجتبينا منهم. والاجتباء الاختيار والاصطفاء بأخذ الصفوة ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ﴾ الحاملة للعظات والعبر والدلائل والحجج ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ لله ربهم ﴿وَبُكِيًّا﴾ عما يرون من التقصير أو التفريط في جنب ربهم جل وعظم سلطانه.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة إذ الذي نبأ هؤلاء وأرسلهم لا ينكر عليه أن ينبىء محمدًا ويرسله.

٢ - فضيلة الأمر بالصلاة والزكاة.

٣ - فضيلة الوفاء بالوعد والصدق في القول والعمل.

٤ - سُنية السجود لمن تلا هذه الآية أو تليت وهو يستمع إليها. ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

٥ - فضيلة البكاء حال السجود فقد كان عمر إذا تلا هذه الآية سجد ثم يقول هذا السجود فأين البكيُّ يعني البكاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٩ ـ ٦٣]

(٥٩) ﴿خَلْفٌ﴾[4]: أي عقب سوء.

﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾: أهملوها فتركوها فكانوا بذلك كافرين. ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾: انغمسوا في الذنوب والمعاصي كالزنا وشرب الخمر.

﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾: أي واديًا في جهنم يلقون فيه.

(٦٠) ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾: أي لا ينقصون شيئًا من ثواب حسناتهم.

(٦١) ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾: أي إقامة دائمة. ﴿بِالْغَيْبِ﴾: أي وعدهم بها وهي غائبة عن أعينهم لغيابهم عنها إذ هي في السماء وهم في الأرض.

﴿مَأْتِيًّا﴾: أي موعوده وهو ما يعد به عباده آتيًا لا محالة.

(٦٢) ﴿لَغْوًا﴾: أي فضل الكلام وهو ما لا فائدة فيه. ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: أي بقدرهما في الدنيا وإلا فالجنة ليس فيها شمس فيكون فيها نهار وليل.

(٦٣) ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾: أي من كان في الحياة الدنيا تقيًا لم يترك الفرائض ولم يغش المحارم.

معنى الآيات:

(٥٩) قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الصالحين ممن اجتبى وهدى من النبيين وذرياتهم، إنه خلف من بعدهم خلف سوء كان من شأنهم أنهم ﴿أَضَاعُوا[5] الصَّلَاةَ﴾ فمنهم من أخرها عن أوقاتها ومنهم من تركها ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾[6] فانغمسوا في حمأة الرذائل فشربوا الخمور وشهدوا الزور وأكلوا الحرام ولهوا ولعبوا وزنوا وفجروا، بعد ذهاب أولئك

---

(١) كما في حديث المعراج في رواية مسلم وجاء فيه: **«لما عرج بي إلى السماء أتيت على إدريس في السماء الرابعة»**.

(٢) فنال إدريس الشرف بالقرب من آدم، ونال إبراهيم الشرف بالقرب من نوح ونال إسماعيل الشرف وإسحاق ويعقوب بالقرب من إبراهيم عليهم السلام أجمعين.

(٣) البكيّ: مصدر من مصادر بكى يبكي بكاء وبُكىً وبكيًا، ويكون البكي جمع باكٍ نحو: قعود وقاعد، وسجود جمع ساجد، وأصل بكي: بكوي على وزن فعول فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء.

(٤) الخلف: بإسكان اللام خلف سوء وبفتحها خلف خير وصلاح.

(٥) جائز أن يراد بهذا الخلف السيء كل من أضاع الصلاة بتركها أو بعدم إقامتها بإخلاله بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، واتبع الشهوات من أهل الكتاب ومن المسلمين.

(٦) اتباع الشهوات لازم لإضاعة الصلاة لقول عمر: (مَن أضاعها فهو لما سواها أضيع، ولأنّ إقام الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر).

الصالحين كما هو حال النصارى واليهود اليوم وحتى كثير من المسلمين، فهؤلاء الخلف السوء يخبر تعالى أنهم: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ بعد دخولهم نار جهنم. والغي: ورد عن النبي ﷺ أنه بئر في جهنم وعن ابن مسعود أنه واد في جهنم[1]، والكل صحيح إذ البئر توجد في الوادي وكثيرًا ما توجد الآبار في الأودية.

(٦٠) وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي لكن من تاب من هذا الخلف السوء وآمن أي حقق إيمانه وعمل صالحًا فأدى الفرائض وترك غشيان المحارم. فأولئك أي فهؤلاء التائبون المنيبون ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ مع سلفهم الصالح، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي ولا ينقصون ولا يبخسون شيئًا من ثواب أعمالهم.

(٦١) وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي بساتين إقامة أبدية ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي وعدهم بها وهي غائبة عنهم لم يروها لأنها في السماء وهم في الأرض.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ أي كونهم ما رأوها غير ضار لأن ما وعد به الرحمن لا يتخلف أبدًا لا بد من الحصول عليه ومعنى مأتيًا يأتيه صاحبه قطعًا.

(٦٢) وقوله تعالى في الآية (٦٢): ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ يخبر تعالى أن أولئك التائبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ودخلوا الجنة لا يسمعون فيها أي في الجنة لغوًا وهو الباطل من القول وما لا خير فيه من الكلام اللهم إلا السلام فإنهم يتلقونه من الملائكة فيسمعونه منهم وهو من النعيم الروحاني في الجنة دار النعيم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي ولهم طعامهم فيها وهو ما تشتهيه أنفسهم من لذيذ الطعام والشراب ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي في وقت الغداة في الدنيا وفي وقت العشي في الدنيا إذ لا ليل في الجنة ولا نهار[2]، وإنما هي أنوار وجائز إذا وصل وقت الغداء أو العشاء تغير الأنوار من لون إلى آخر أو تغلق الأبواب وترخى الستائر ويكون ذلك علامة على وقت الغداء والعشاء.

(٦٣) وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾[3] آية (٦٣) يشير تعالى إلى الجنة دار السلام تلك الجنة العالية ﴿ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ منهم، أما الفاجر فإن منزلته فيها نورثها المتقي كما أن منزل التقي في النار نورثه فاجرًا من الفجار، إذ هذا معنى التوارث: هذا يرث هذا وذاك يرث ذا، إذ ما من إنسان إلا وله منزلة في الجنة ومنزل في النار فمن آمن وعمل صالحًا دخل الجنة ونزل في منزلته، ومن كفر وأشرك وعمل سوءًا دخل النار ونزل في منزله فيها، ويورث الله تعالى الأتقياء منازل الفجار التي كانت لهم في الجنة.

هداية الآيات:

١ ـ التنديد بخلف السوء وهو من يضيع الصلاة ويتبع الشهوات.

٢ ـ الوعيد الشديد لمن ينغمس في الشهوات ويترك الصلاة فيموت على ذلك.

٣ ـ باب التوبة مفتوح والتوبة مقبولة من كل من أرادها وتاب.

٤ ـ بيان نعيم الجنة دار المتقين الأبرار.

٥ ـ تقرير مبدأ التوارث بين أهل الجنة وأهل النار.

٦ ـ بيان أن ورثة الجنة هم الأتقياء، وأن ورثة النار هم الفجار.

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: (غيّ: واد في جهنم وإن أودية جهنم لتستعيذ من حره أعدّ الله تعالى ذلك الوادي للزاني المصرّ على الزنى ولشارب الخمر المدمن عليه ولآكل الربا لا ينزع عنه، ولأهل العقوق ولشاهد الزور ولامرأة أدخلت على زوجها ولدًا ليس منه).

(٢) روي أن النبي ﷺ قال: «**ليس في الجنة ليل ولا نهار وإنّما هم في نور أبدًا وإنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب**». ذكره أبو الفرج ابن الجوزي، والمهدوي وغيرهما. «القرطبي».

(٣) الجملة مستأنفة، واسم الإشارة فيها للتنويه بها وبعلو مقامها وعظم الكرامة فيها لأهل التقوى.

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٤، ٦٥]

﴿٦٤﴾ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾: التنزل النزول وقتًا بعد وقت. ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾: أي إلا بإذنه لنا في النزول على من يشاء. ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: أي مما هو مستقبل من أمر الآخرة. ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: أي ما مضى من الدنيا. ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: مما لم يمض من الدنيا إلى يوم القيامة أي له علم ذلك كله. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: أي ذا نسيان فإنه تعالى لا ينسى فكيف ينساك ويتركك؟.

﴿٦٥﴾ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي مالكهما والمتصرف فيهما. ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾: أي اصبر وتحمل الصبر في عبادته حتى الموت. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: أي لا سميَّ له ولا مثل ولا نظير فهو الله أحد، لم يكن له كفوًا أحد.

معنى الآيتين:

﴿٦٤﴾ لنزول هاتين الآيتين سبب وهو ما روي واستفاض أن الوحي تأخر عن النبي ﷺ والذي يأتي بالوحي جبريل عليه السلام فلما جاء بعد بطءٍ قال له النبي ﷺ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فأنزل الله تعالى قوله جوابًا لسؤال النبي ﷺ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾(١) أي نحن الملائكة وقتًا بعد وقت على من يشاء ربنا ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ أيها الرسول أي إلا بإذنه لنا فليس لأحد منا أن ينزل من سماء إلى سماء أو إلى أرض إلا بإذن ربنا عز وجل، ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي له أمر وعلم ما بين أيدينا أي ما أمامنا من أمور الآخرة وما خلفنا أي مما مضى من الدنيا علمًا وتدبيرًا، وما بين ذلك إلى يوم القيامة علمًا وتدبيرًا، وما كان ربك عز وجل يا رسول الله ناسيًا(٢) لك ولا تاركًا فإنه تعالى لم يكن النسيان وصفًا له فينسى.

﴿٦٥﴾ وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يخبر تعالى رسوله بأنه تعالى مالك السماوات والأرض وما بينهما والمتصرف فيهما فكل شيء له وبيده وفي قبضته وعليه ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أيها الرسول بما أمرك بعبادته به ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ(٣)﴾ أي تحمل لها المشاق، فإنه لا إله إلا هو، ف ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾(٤) أي نظيرًا أو مثيلًا والجواب لا: إذًا فاعبده وحده وتحمل في سبيل ذلك ما استطعت تحمله. فإنه لا معبود بحق إلا هو إذ كل ما عداه مربوب له خاضع لحكمه وتدبيره فيه.

هداية الآيتين:

١ - تقرير سلطان الله على كل

---

(١) روى البخاري أنّ النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا**» فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية، وقال مجاهد: أبطأ الملك على رسول الله ﷺ ثمّ أتاه فقال: «**ما الذي أبطأك؟ قال: كيف نأتيكم وأنتم لا تقصّون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم ولا تنقون رواجبكم ولا تستاكون**». قال مجاهد: فنزلت الآية في هذا والمراد بالمعيب عليهم: بعض المؤمنين لا رسول الله ﷺ فحاشاه أن يكون معيبًا وهو على أكمل الأحوال.

(٢) هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: ناسيًا إذا شاء أن يرسل إليك أرسل.

(٣) أي: لطاعته، واللام بمعنى: على أي: على طاعته، ولا تحزن لتأخّر الوحي عنك، وأصل اصطبر: اصتبر فقلبت التاء طاءً تخفيفًا في النطق.

(٤) ولذا إجماع أهل الإسلام من عهد آدم أنه لا يجوز أن يسمى مخلوق باسم الله عز وجل «الله».

الخلق وعلمه بكل الخلق وقدرته على كل ذلك.

٢ - استحالة النسيان على الله عز وجل.

٣ - تقرير ربوبية الله تعالى للعالمين، وبذلك وجبت له الألوهية على سائر العالمين.

٤ - وجوب عبادة الله تعالى ووجوب الصبر عليها حتى الموت.

٥ - نفي الشبيه والمثل والنظير لله إذ هو الله أحد لم يكن له كفوًا أحد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٦ - ٧٢]

(٦٦) ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾: أي الكافر بلقاء الله تعالى.

(٦٧) ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾: أي قبل خلقه فلا ذات له ولا اسم ولا صفة.

(٦٨) ﴿جِثِيًّا﴾: أي جاثمين على ركبهم في ذل وخوف وحزن.

(٦٩) ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾: أي طائفة تعاونت على الباطل وتشيع بعضها لبعض فيه. ﴿عِتِيًّا﴾: أي تكبرًا عن عبادته وظلمًا لعباده.

(٧٠) ﴿أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾: أي أحق بها اصطلاء واحتراقًا وتعذيبًا في النار.

(٧١) ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾: أي مارًا بها إن وقع بها هلك، وإن مر ولم يقع نجا. ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾: أي أمرًا قضى به الله تعالى وحكم به وحتَّمه فهو كائن لا بد.

(٧٢) ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾: أي في النار جاثمين على ركبهم بعضهم إلى بعض.

معنى الآيات:

(٦٦) الآيات في سياق تقرير عقيدة البعث والجزاء يقول تعالى وقوله الحق: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي المنكر للبعث والدار الآخرة وقد يكون القائل أُبي بن خلف أو العاص بن وائل وقد يكون غيرهما إذ هذه قولة كل من لا يؤمن بالآخرة يقول: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ(١) أُخْرَجُ حَيًّا﴾.

(٦٧) يقول هذا استنكارًا وتكذيبًا قال تعالى رادًا على هذا الإنسان قولته الكافرة: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ(٢) ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي المنكر للبعث الآخر ﴿أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ(٣) وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أيكذب بالبعث وينكره ولا يذكر خلقنا له من قبل، ولم يك شيئًا؟

(٦٨) أليس الذي قدر على خلقه قبل أن يكون شيئًا قادرًا على إعادة خلقه مرة أخرى؟ أليست الإعادة أهون من الخلق الأول والإيجاد من العدم؟ ثم يقسم الله تبارك وتعالى لرسوله على أنه معيدهم كما كانوا ويحشرهم جميعًا مع شياطينهم الذين يضلونهم ثم يحضرنهم حول جهنم جثيًا على ركبهم أذلاء صاغرين. هذا معنى قوله تعالى في الآية (٦٨): ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ(٤) وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝﴾.

(٦٩) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ۝﴾ يخبر تعالى بعد حشرهم إلى ساحة فصل القضاء أحياء مع الشياطين الذين كانوا يضلونهم، يحضرهم حول جهنم جثيًا، ثم يأخذ تعالى من كل طائفة من تلك الطوائف التي أحضرت حول جهنم وهي جاثية تنتظر حكم الله تعالى فيها أيهم كان أشد على الرحمن عتيًا أي تمردًا عن طاعته وتكبرًا عن الإيمان به وبرسوله ووعده ووعيده وهو معنى قوله تعالى في الآية (٦٩): ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ

---

(١) اللام في ﴿لَسَوْفَ﴾ للتأكيد، والاستفهام ﴿أَءِذَا﴾: للإنكار، واللام: لام الابتداء جاء بها المتكلم لتأكيد إنكاره للبعث بعد الموت والخروج من قبره حيًا.

(٢) الاستفهام للإنكار على منكر البعث، والتعجب من عقليته وعمى قلبه من عدم النظر في عدم أصل خلقه فإنه لو أبصر وزالت غفلته لما أنكر البعث فالذي خلقه اليوم يخلقه غدًا ولا عجب.

(٣) قبل كبعد: ملازمة للإضافة فإذا حذف المضاف بنيت على الضم، والمضاف المحذوف هنا تقديره: من قبل كونه شيئًا يذكر في الوجود وقد أوجده الآن ويعدمه غدًا ويحييه بعد موته يوم يريد ذلك.

(٤) الفاء: للتفريع، والضمير في: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ عائد على جنس الإنسان المكذّب بالبعث الآخر، والمشرك بالله المصر على ذلك، وذكر حشر الشياطين معهم تحقيرًا لشأنهم حيث يحشرون مع أخس الخلق وأحطه ثمّ أشار إلى أنّ شركهم وكفرهم كان بتزيين الشياطين لهم ذلك، والجثي: جمع جاثٍ مثل: قاعد وقعود، فجثي: أصلها جثوي قلبت الواو ياء، وأدغمت، والجاثي هو البارك على ركبتيه عجزًا عن القيام.

﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا۝٦٩﴾.

(٧٠) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا[1] ۝٧٠﴾ يخبر تعالى بعلمه بالذين هم أجدر وأحق بالاصطلاء بعذاب النار، وسوف يدخلهم النار قبل غيرهم ثم يدخل باقيهم بعد ذلك وهو معنى قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا۝٧٠﴾.

(٧١) وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا۝٧١﴾، فإنه يخبر عز وجل عن حكم حكم به وقضاء قضى به وهو أنه ما من واحد منا معشر بني آدم إلا وارد جهنم وبيان ذلك كما جاء في الحديث أن الصراط جسر يمد على ظهر جهنم والناس يمرون فوقه فالمؤمنون يمرون ولا يسقطون في النار والكافرون يمرون فيسقطون في جهنم.

(٧٢) وهو معنى قوله في الآية (٧٢): ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾[2] أي ربهم فلم يشركوا به ولم يعصوه بترك واجب ولا بارتكاب محرم ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالتكبر والكفر وغشيان الكبائر من الذنوب ﴿فِيهَا جِثِيّٗا﴾ أي ونترك الظالمين فيها أي جهنم جاثمين على ركبهم يعانون أشد أنواع العذاب.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بالحشر والإحضار حول جهنم والمرور على الصراط.

٢ - تقرير معتقد الصراط في العبور عليه إلى الجنة.

٣ - تقديم رؤساء الضلال وأئمة الكفر إلى جهنم قبل الأتباع الضالين.

٤ - تقرير حتمية المرور على الصراط.

٥ - بيان نجاة الأتقياء، وهلاك الفاجرين الظالمين بالشرك والمعاصي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٣ - ٧٦]

(٧٣) ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾: أي آيات القرآن البينات الدلائل الواضحات الحجج.

﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا﴾: نحن أم أنتم والمقام المنزل ومحل الإقامة والمراد هنا المنزلة. ﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾: أي ناديا وهو مجتمع الكرام ومحل المشورة وتبادل الآراء.

(٧٤) ﴿أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾: أي مالاً ومتاعًا ومنظرًا.

(٧٥) ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾: أي بالقتل والأسر وأما الساعة القيامة المشتملة على نار جهنم. ﴿مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾: أي منزلة. ﴿وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾: أي أقل أعوانًا.

(٧٦) ﴿وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾: أي ما يرد إليه ويرجع وهو نعيم الجنة.

معنى الآيات:

(٧٣) ما زال السياق في تقرير النبوة والتوحيد والبعث الآخر يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ[3] عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ[4]﴾

---

(١) يقال: صلى يصلى صُليًا كمضى يمضي مُضيًا وهوى يهوي هويًا، و﴿صِلِيّٗا﴾ بكسر الصاد: قراءة حفص، وبضمها: قراءة نافع، وهو مصدر صلي النار كرضي وهو مصدر سماعي بوزن فعول، قلبت فيه الواو ياء وأدغمت في الياء فصار صليًا كما تقدّم في جثيا.

(٢) حاول صاحب التحرير أن يردّ مذهب الجمهور في ورود المؤمنين على الصراط كسائر الخلق ثمّ ينجي الله الذين اتقوا حيث يجتازونه بسلام ويقع فيه الكافرون فلا يخرجون وما هناك حاجة إلى ردّ مذهب الجمهور من أئمة الإسلام إذ حديث الصراط والمرور به ثابت قطعيًا ففي صحيح مسلم: «**ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة فيقولون: اللهم سلم سلم**» قيل: يا رسول الله: وما الجسر؟ قال: «**دحض مزلّة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون فيها شويكة يقال لها: السعدان، فيمرّ المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناجٍ مسلّم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم**»، وبهذا الصراط.. فسّر السلف الورود على جهنم، ولم يقولوا: بلازم الورود وهو الدخول، إذ قد يَرد المرء على الحوض ويقف على طرفه ولا يدخل فيه. وورد وصحّ قول الرسول ﷺ فيمن مات له ثلاثة ولد لم يبلغوا الحنث «**لا تمسه النار إلاّ تحلة القسم**» وهو الورود على متن جهنم نظرًا إلى الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾.

(٣) المراد بهم الكفار الذين سبق ذكرهم في الآيات قبل هذه إذا قرئت عليهم الآيات تعززوا بالدنيا وقالوا: فما بالنا إن كنا على باطل أكثر أموالاً وأعز نفرًا؟ وقصدهم إدخال الشبهة على المستضعفين من المؤمنين.

(٤) ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾: حال مؤكدة.

أي وإذا قرئت على كفار قريش المنكرين للتوحيد والنبوة المحمدية والبعث والجزاء يوم القيامة إذا قرأ عليهم رسول الله أو أحد المؤمنين من أصحابه بعض الآيات من القرآن البينات في معانيها ودلائلها على التوحيد والنبوة والبعث ﴿قَالَ الَّذِينَ[1] كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، وقولهم هذا هو رد فعل لا غير، إذ أنهم لما يسمعون الآيات تحمل الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين مثلهم لا يجدون ما يخففون به ألم نفوسهم فيقولون هذا الذي أخبر تعالى به عنهم ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي فريق المؤمنين أو فريق الكافرين خير مقامًا أي منزلاً ومسكنًا وأحسن نديًا أي ناديًا ومجتمعًا يجتمع فيه، لأنهم يقارنون بين منازل فقراء المؤمنين ودار الأرقم بن أبي الأرقم التي يجتمع فيها الرسول ﷺ والمؤمنون وبين دور ومنازل أبي سفيان وأغنياء مكة ونادي قريش وهو مجلس شوراهم.

(٧٤) فرد تعالى عليهم بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا[2] وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾﴾ أي لا ينبغي أن يغرهم هذا الذي يتبجحون به ويتطاولون فإنه لا يدوم لهم ما داموا يحاربون دعوة الحق والقائمين عليها فكم من أهل قرون أهلكناهم لما ظلموا وكانوا أحسن من هؤلاء مالاً ومتاعًا ومناظر حسنة جميلة.

(٧٥) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي اذكر لهم سنتنا في عبادنا يا رسولنا وهي أن من كان في ضلالة الشرك والظلم والمكابرة والعناد فإن سنة الرحمن فيه أن يمد له بمعنى يمهله ويملي له استدراجًا حتى إذا انتهوا إلى ما حدد لهم من زمن يؤخذون فيه بالعذاب جزاء كفرهم وظلمهم وعنادهم وهو إما عذاب دنيوي بالقتل والأسر ونحوهما أو عذاب الآخرة بقيام الساعة حيث يحشرون إلى جهنم عميًا وبكمًا وصمًا جزاء التعالي والتبجح بالكلام وهو معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ[3] مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي شر منزلة وأقل ناصرًا أهم الكافرون أم المؤمنون، ولكن حين لا ينفع العلم. إذ التدارك أصبح غير ممكن وإنما هي الحسرة والندامة لا غير.

(٧٦) وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[4] أي إذا كان تلاوة الآيات البينات تحمل المشركين على العناد والمكابرة وذلك لظلمة كفرهم فيزدادون كفرًا وعنادًا فإن المؤمنين المهتدين يزدادون بها هداية لأنها تحمل لهم الهدى في كل جملة وكلمة منها وهم لإشراق نفوسهم بالإيمان يرون ما تحمل الآيات من الدلائل والحجج والبراهين فيزداد إيمانهم وتزداد هدايتهم في السير في طريق السعادة والكمال بأداء الفرائض واجتناب المناهي.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ[5] الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ أيها الرسول ﴿ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ في هذه الآية تسلية للرسول والمؤمنين بأن ما يتبجح به المشركون من المال والمتاع وحسن الحال لا يساوي شيئًا أمام الإيمان وصالح الأعمال لأن المال فانٍ، والصالحات باقية

---

(١) الذين كفروا: كالنضر بن الحارث وأبي جهل. والمؤمنون: هم أصحاب النبي ﷺ كعمار وبلال وصهيب.

(٢) الأثاث: متاع البيت من فرش وغيرها مما هو جديد، فإن استعمل قيل فيه: الخرثى قال الشاعر:

تقادم العهد من أم الوليد بنا ... دهرًا وصار أثاث البيت خرثيا

الرئي: المنظر الحسن. وفيه قراءات خمس أشهرها قراءة الجمهور ﴿وَرِئْيًا﴾ بالهمزة، وقراءة نافع ﴿ريًا﴾ بدون همزة واشتقاقه من الرؤية أي: المنظر، ومن الريّ ضد العطش، إذ الريّان هو المنعّم ذو الحال الحسنة.

(٣) في الآية ردّ على قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: سوف تنكشف الحقائق في يوم القيامة، ويعلمون يقينًا من هو الأفضل حالاً والأحسن مآلاً.

(٤) وفي الآية وجه آخر مشرق صالح وهو: أن الله تعالى يمدّ لأهل الضلالة في ضلالتهم، ويزيد لأهل الهداية في هدايتهم إذ قال: ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾. وقال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ وما في التفسير صالح ومشرق أيضًا.

(٥) أي: الأعمال الصالحة التي يعمل العبد إيمانًا وإحسانًا كالصلاة والصيام والصدقات والجهاد، وذكر الله ثوابها لأهلها المدّخر لهم عند الله تعالى خير من أعمال أهل الكفر والشرك والظلم إذ هي ذاهبة هباء منثورًا. فبِمَ يتعزّز الكافرون؟

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

فثواب الباقيات الصالحات من العبادات والطاعات خير من كل متاع الدنيا وخير مردًا أي مردودًا على صاحبها إذ هو الجنة دار السلام والتكريم والإنعام.

هداية الآيات:

١ - الكشف عن نفسيات الكافرين وهي الاعتزاز بالمال والقوة إذا اعتز المؤمنون بالإيمان وثمراته في الدنيا والآخرة من حسن العاقبة.

٢ - بيان سنة الله تعالى في إمهال الظلمة والإملاء لهم استدراجًا لهم حتى يهلكوا خاسرين.

٣ - بيان سنة الله تعالى في زيادة إيمان المؤمنين عند سماع القرآن الكريم، أو مشاهدة أخذ الله تعالى للظالمين.

٤ - بيان فضيلة الباقيات الصالحات ومنها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله..

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٧ - ٨٠]

﴿٧٧﴾ ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: هو العاص بن وائل. ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾: يريد في الآخرة.

﴿٧٨﴾ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾: أي فعرف أنه يعطى مالاً وولدًا يوم القيامة.

﴿٧٩﴾ ﴿كَلَّا﴾: ردع ورد فإنه لم يطلع الغيب ولم يكن له عند الله عهدًا. ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾: أي نضاعف له العذاب يوم القيامة.

﴿٨٠﴾ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾: أي نسلبه ما تبجح به من المال والولد ويبعث فردًا ليس معه مال ولا ولد.

معنى الآيات:

﴿٧٧﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ معجبًا له: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾[1] أي كذب بالوحي وما يدعوا له من التوحيد والبعث والجزاء وترك الشرك والمعاصي. وهو العاص بن وائل المسمى أبو عمرو بن العاص. ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قال هذا الخباب بن الأرت حينما طالبه بدين له عليه فأبى أن يعطيه استصغارًا له لأنه قيّن «حدادًا» وقال له لا أعطيكه حتى تكفر بمحمد فقال له خباب والله ما أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثُمَّ تبعث فقال له العاص إذا أنا متُّ ثم بُعثت كما تقول ثم جئتني ولي مال وولد قضيتك دينك فأكذبه الله تعالى ورد عليه قوله بقوله عز وجل:

﴿٧٨﴾ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾[2] فعرف أن له يوم القيامة مالاً وولدًا. ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ بذلك بأن سيعطيه مالاً وولدًا يوم القيامة.

﴿٧٩﴾ ﴿كَلَّا﴾[3] لم يطلع على الغيب ولم يكن له عند الرحمن عهدًا. وقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ من الكذب والافتراء ونحاسبه به ونضاعف له العذاب بالعذاب وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾.

﴿٨٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ[4] مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۞﴾ أي ونسلبه ما يقول من المال والولد حيث يموت ويترك

---

(١) الأئمة ومن بينهم مسلم في صحيحه على أن هذه الآية نزلت في الخباب والعاص بن وائل إذ كان لخباب دَين على العاص فطالبه فأجابه بما خلاصته في التفسير أعلاه.

(٢) ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنَظَر في اللوح المحفوظ. وقال مجاهد: أعلِم الغيب حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟

(٣) كلا: ردّ عليه أي: لم يكن له ذلك. أي: لم يطلع على الغيب ولم يتخذ عند الرحمٰن عهدًا.

(٤) وقيل: نحرمه ما تمناه في الآخرة من مال وولد إذ قال: لأوتين مالاً وولدًا، ورد تعالى عليه قوله بقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾.

ذلك أو ينصر رسوله على قومه فيسلبهم المال والولد. ويأتينا في عرصات القيامة للحساب فردًا لا مال معه ولا ولد.

هداية الآيات:

١ - الكشف عن نفسيات الكافرين لا سيما إذا كانوا أقوياء بمال أو ولد أو سلطان فإنهم يعيشون على الغطرسة منه والاستعلاء وتجاهل الفقراء واحتقارهم.

٢ -تقرير البعث والحساب والجزاء.

٣ - مضاعفة العذاب على الكافرين الظالمين لظلمهم بعد كفرهم.

٤ - تقرير معنى آية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ۝﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨١ ـ ٨٧]

(٨١) ﴿لِيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾: أي منعة لهم وقوة يشفعون لهم عند الله حتى لا يعذبوا.

(٨٢) ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾: أي يوم القيامة يجحدون أنهم كانوا يعبدونهم. ﴿ضِدًّا﴾[1]: أي أعداء لهم وأعوانًا عليهم.

(٨٣) ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أي تزعجهم إزعاجًا وتحركهم حراكًا شديدًا نحو الشهوات والمعاصي.

(٨٥) ﴿وَفْدًا﴾: أي راكبين على النُّجب تحوطهم الملائكة حتى ينتهوا إلى ربهم فيكرمهم.

(٨٦) ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾: أي يساق المجرمون كما تساق البهائم مشاة عطاشًا.

(٨٧) ﴿عَهْدًا﴾: هو شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

معنى الآيات:

(٨١) يخبر تعالى منددًا بالمشركين فيقول: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أي معبودات من الأصنام فعبدوها بأنواع من العبادات، ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ﴾ ـ في نظرهم الفاسد ـ ﴿عِزًّا﴾[2] أي شفعاء لهم عندنا يعزون بواسطتهم ولا يُهانون.

(٨٢) ﴿كَلَّا﴾[3] أي ليس الأمر كما يظنون ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ وذلك يوم القيامة حيث ينكرون أنهم أمروهم بعبادتهم، ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي خصومًا، ومن ذلك قولهم[4]. ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾. وقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

(٨٣) وقوله تعالى في الآية الثانية (٨٣): ﴿أَلَمْ تَرَ[5] أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا۝﴾ يقول تعالى لرسوله ألم ينته إلى علمك يا رسولنا أنا أرسلنا الشياطين أي شياطين الجن والإنس على الكافرين بنا وبآياتنا ورسولنا ولقائنا تؤزهم أزًا أي تحركهم بشدة نحو الشهوات والجرائم والمفاسد، وتزعجهم إلى ذلك بالإغراء إزعاجًا كبيرًا. أي فلا تعجب من حال مسارعتهم إلى الشر والفساد ولا تعجل عليهم بمطالبتنا بهلاكهم إنما نعد لهم كل أعمالهم ونحصيها عليهم حتى أنفاسهم ونحاسبهم على كل ذلك ونجزيهم به.

(٨٤) هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ[6] عَدًّا۝﴾.

(٨٥) وقوله تعالى في الآية (٨٥): ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي اذكر يا رسولنا يوم نحشر المتقين ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾. والمتقون هم أهل الإيمان بالله وطاعته وتوحيده ومحبته وخشيته وطاعة رسوله ومحبته وفدًا

---

(١) الضدّ: ما يخالف ضده في الماهية أو المعاملة، ومن هذا تسمية العدو ضدّ لأن معاملته تخالف معاملة نظيره، ويكون ضدّ في معنى المصدر عاملوه معاملة المصدر فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث.

(٢) العزّ: ضد الذلّ، وأطلق العزّ هنا وأريد به سببه وهو الشفعاء والأعوان إذ بهم تحصل العزة وتكون المنعة.

(٣) ﴿كَلَّا﴾: جائز أن تكون نافية بمعنى: لا وليس، وجائز أن تكون بمعنى: حقًا أي: حقًا سيكفرون بعبادتهم.. إلخ..

(٤) أي: فيما أخبر تعالى به في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ فها هم قد وقفوا ضدّهم بتكذيبهم إياهم. ورأى بعض أهل التفسير أنّ من الجائز أن تكون الآية مبشرة بنصر الرسول ﷺ وأن يومًا سيأتي يكفر المشركون بآلهتهم وذلك بعد إسلامهم.

(٥) الاستفهام للتقرير وفيه معنى التعجب أي: كيف لم تَرَ ذلك والأمر واضح لوجود آثاره يشاهدها كل أحد؟ وأرسلنا: بمعنى سلطناهم أو خلّيناهم يفعلون بهم ما أرادوا من الإغواء والفتنة.

(٦) أي: لا تطالب بهلاكهم الفوري فإنا نعدّ لهم الأيام والليالي والشهور والسنين إلى انتهاء آجالهم.

أي راكبين على النجائب من النوق عليها رحال الذهب إلى الرحمن إلى جوار الرحمن عز وجل في دار المتقين الجنة دار الأبرار والسلام.

(٨٦) وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي ونسوق المجرمين على أنفسهم بالشرك والمعاصي مشاة على أرجلهم عطاشًا يُساقون سوق البهائم إلى جهنم وبئس الورد[1] المورود جهنم.

(٨٧) وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ[2] ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا[3]﴾ أخبر تعالى أن المشركين المجرمين على أنفسهم بالشرك والمعاصي فدسوها لا يملكون الشفاعة يوم القيامة لا يشفع بعضهم في بعض كالمتقين ولا يشفع لهم أحد أبدًا لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا بالإيمان به وبطاعته بأداء الفرائض وترك المحرمات يملك إن شاء الله الشفاعة بأن يشفعه الله في غيره إكرامًا له أو يشفع فيه غيره إكرامًا للشافع أيضًا وإنعامًا على المشفوع له. كما أن أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله المتبرئين من حولهم وقوتهم إلى الله الراجين ربهم يملكون الشفاعة إن دخلوا النار بذنوبهم فيخرجون منها بشفاعة من أراد الله أن يشفعه فيهم.

هداية الآيات:

١ - براءة سائر المعبودات من دون الله من عابديها يوم القيامة خزيًا لهم وإحقاقًا للعذاب عليهم.

٢ - لا عجب مما يشاهد من مسارعة الكافرين إلى الشر والفساد والشهوات لوجود شياطين تحركهم بعنف إلى ذلك وتدفعهم إليه.

٣ - لا ينبغي طلب العذاب العاجل لأهل الظلم لأنهم كلما ازدادوا ظلمًا ازداد عذابهم شدة يوم القيامة إذ كل شيء محصىً عليهم حتى أنفاسهم محاسبون عليه ومجزيون به.

٤ - بيان كرامة المتقين، ومهانة المجرمين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٨ - ٩٥]

(٨٨) ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾: أي قال العرب الملائكة بنات الله وقال النصارى عيسى ابن الله.

(٨٩) ﴿جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾: أي منكرًا عظيمًا.

(٩٠) ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾: يتشققن من عظم هذا القول وشدة قبحه. ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾: أي تسقط وتتهدم وتنهدم.

(٩١) ﴿أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾: أي من أجل ادعائهم أن للرحمن عز وجل ولدًا.

(٩٢) ﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾: أي لا يصلح ولا يليق به ذلك لأنه رب كل شيء ومليكه.

(٩٣) ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾: أي خاضعًا منقادًا كائنًا من كان.

(٩٥) ﴿فَرْدًا﴾: أي ليس معه شيء لا مال ولا سلطان ولا ناصر.

معنى الآيات:

(٨٨) ما زال السياق في ذكر مقولات أهل الشرك والجهل والرد عليها من قبل الحق تبارك وتعالى قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَقَالُواْ﴾ أي أولئك الكافرون ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا[4]﴾ إذ

---

(١) يطلق لفظ الورد على الماشية عندما تساق إلى الماء لترده، ويطلق على السير إلى الماء أيضًا كما يطلق على الماء المورود ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

(٢) الاستثناء منقطع، والمنقطع هو: استثناء الشيء من غير جنسه، ولذا يؤتى بعده بلكن كما هو في التفسير أي: لكن من اتخذ عند الرحمٰن عهدًا يشفع.

(٣) من لهم عهد بالشفاعة حيث عهد الله تعالى إليهم بذلك هم الملائكة والأنبياء والشهداء أيضًا بدليل السنة الصحيحة، وفسّر ابن عباس رضي الله عنهما العهد أيضًا بشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله والقيام بحقها مع التبرؤ من الحول والقوة لله تعالى.

(٤) قرىء: ﴿وُلْدًا﴾ بضم الواو وسكون اللام، وقراءة الجمهور: ﴿وَلَدًا﴾ بفتح الواو واللام وهما لغتان مثل: العُرب والعَرب. والعُجم والعَجم. قال الشاعر:

ولقد رأيت معاشرا ... قد ثمّروا مالا ووُلدا

وقال آخر:

مهلاً فداءً لك الأقوام كلهم ... وما أثمر من مال ومن وَلَد

ففي البيت الأول شاهد وُلد بسكون اللام وفي الثاني شاهد لفتحها مع ضم الواو في الأول وفتحٍ في الثاني.

قالت بعض القبائل العربية الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله.

(٨٩) يقول تعالى لهم بعد أن ذكر قولهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا(١)﴾ أي أتيتم بشيء منكر عظيم.

(٩٠) ﴿تَكَادُ(٢) السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي يتشققن منه لقبح هذا القول وسوئه، ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا(٣)﴾ أي تسقط لعظم هذا القول لأنه مغضب للجبار عز وجل ولولا حلمه ورحمته لمس الكون كله عذاب أليم.

(٩١) وقوله: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا(٤)﴾ أي أن نسبوا للرحمن ولدًا.

(٩٢) ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ﴾ أي لا يصلح له ولا يليق بجلاله وكماله الولد، لأن الولد نتيجة شهوة بهيمية عارمة تدفع الذكر إلى إتيان الأنثى فيكون بإذن الله الولد، والله عز وجل منزه عن مشابهته لمخلوقاته وكيف يشبههم وهو خالقهم وموجدهم من العدم؟

(٩٣) وقوله تعالى: ﴿إِن(٥) كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ هذا برهان على بطلان قولة الكافرين الجاهلين، إذ الذي ما من أحد في السماوات أو في الأرض من ملائكة وإنس وجن إلا آتي الرحمن عبدًا خاضعًا ذليلًا منقادًا يوم القيامة كيف يعقل اتخاذه ولدًا(٦)، إذ الولد يطلب للحاجة إليه، والغني عن كل خلقه ما هي حاجته إلى عبد من عباده يقول هذا ولدي اللهم إنا نبرؤ إليك مما يقوله الجاهلون بك الضالون عن طريق هدايتك.

(٩٤) وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي علمهم واحدًا واحدًا فلو كان بينهم إله معه أو ولد له لعلمه، فهذا برهان آخر على بطلان تلك الدعوة الجاهلية الباطلة الفاسدة وقوله:

(٩٥) ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ هذا رد على أولئك الذين يدعون أنهم إن بعثوا يكون لهم

سورة طه — الجزء السادس عشر

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

ترتيبها ٢٠ — سورة طه — آياتها ١٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

٣١٢

المال والولد والشفيع والنصير. فأخبر تعالى أنه ما من أحد إلا ويأتيه يوم القيامة فردًا ليس معه شافع ولا ناصر، ولا مال ولا سلطان.

هداية الآيات:

١ - عظم الكذب على الله بنسبة الولد أو الشريك إليه أو القول عليه بدون علم.

٢ - بيان أن كل المخلوقات من

---

(١) الإد والإدة: الداهية والأمر الفظيع. قال ابن عباس: الإد: المنكر العظيم.

(٢) ﴿تَكَادُ﴾: بالتاء قراءة العامة، وقرأ نافع بالياء: ﴿يكاد﴾.

(٣) الهدّ: الهدم بصوت شديد، والهدّة: صوت وقع الحائط ونحوه.

(٤) روى البخاري عن النبي ﷺ قوله: «**يقول الله تبارك وتعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. فأمّا تكذيبه إياي فقوله: ليس يعيدني كما بدأني، وليس أوّل الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأمّا شتمه إيّاي: فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**».

(٥) ﴿إن﴾: نافية بمعنى ما. في الآية دليل على عدم جواز ملك الوالد للولد ولا الولد للوالد، وفي الحديث الصحيح: «**لا يملك ولد والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه**». فإذا لم يملك الأب ابنه فلأن لا يملك الابن أباه من باب أولى.

(٦) روى أحمد في المسند أن النبي ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم**» أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ: «**إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم**».

أجلّها إلى أحقرها ليس فيها غير عبد لله فنسبة الإنسان أو الجان أو الملك إلى الله تعالى هي عبد لرب مالك قاهر عزيز حكيم.

٣ - بيان إحاطة الله بخلقه ومعرفته لعددهم فلا يغيب عن علمه أحد منهم، ولا يتخلف عن موقف القيامة فرد منهم إذ الكل يأتي الله تعالى يوم القيامة فردًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٦ - ٩٨]

(٩٦) ﴿وُدًّا﴾: أي حبًا فيعيشون متحابين فيما بينهم ويحبهم ربهم تعالى.

(٩٧) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾: أي يسرنا القرآن أي قراءته وفهمه بلغتك العربية. ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: أي ألداء شديدو الخصومة والجدل بالباطل وهم كفار قريش.

(٩٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾: أي كثيرًا من أهل القرون من قبلهم أهلكناهم. ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾: أي هل تجد منهم أحدًا. ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾: أي صوتًا خفيًا والجواب لا لأن الاستفهام إنكاري.

معنى الآيات:

(٩٦) يخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله وبرسوله وبوعد الله ووعيده فتخلوا عن الشرك والكفر وعملوا الصالحات وهي أداء الفرائض وكثير من النوافل. هؤلاء يخبر تعالى أنه سيجعل لهم في قلوب عباده المؤمنين محبة[(١)] وودًا وقد فعل سبحانه وتعالى فأهل الإيمان والعمل الصالح متحابون متوادون، وهذا التوادد بينهم ثمرة لحب الله تعالى لهم.

(٩٧) وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي هذا القرآن الذي كذب به المشركون سهلنا قراءته عليك إذ أنزلناه بلسانك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من عبادنا المؤمنين وهم الذين اتقوا عذاب الله بالإيمان وصالح الأعمال بعد ترك الشرك والمعاصي، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا[(٢)]﴾ وهم كفار قريش وكانوا ألداء أشداء في الجدل والخصومة.

(٩٨) وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم[(٣)] مِّن قَرْنٍ﴾ أي وكثيرًا من أهل القرون السابقة لقومك أهلكناهم لما كذبوا رسلنا وحاربوا دعوتنا ﴿هَلْ تُحِسُّ[(٤)] مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ فتراه بعينك أو تمسه بيدك، ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا[(٥)]﴾ أي صوتًا خفيًا اللهم لا فهلا يذكر هذا قومك فيتعظوا فيتوبوا إلى ربهم بالإيمان به وبرسوله ولقائه ويتركوا الشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

١ - أعظم بشرى تحملها الآية الأولى وهي حب الله وأوليائه لمن آمن وعمل صالحًا.

٢ - بيان كون القرآن ميسرًا أن نزل بلغة النبي ﷺ من أجل البشارة لأهل الإيمان والعمل الصالح والنذارة لأهل الشرك و لمعاصي.

٣ - إنذار العتاةِ والطغاة من الناس أن يحل بهم ما حل بمن قبلهم من هلاك ودمار والواقع شاهد أين أهل القرون الأولى؟

❊ ❊ ❊

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنّ الله تعالى إذا أحبّ عبدًا دعا جبريل عليه السلام فقال: إني أحب فلانًا فأحبّه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء قال: ثم يوضع له القبول في الأرض وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل عليه السلام وقال: إني أبغض فلانًا فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه قال: فيبغضونه ثم يوضع له البغضاء في الأرض**».

(٢) ﴿لُّدًّا﴾: جمع الألد، وهو: الشديد الخصومة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾. وقال الشاعر:

أبيت نجيًا للهموم كأنني ... أخاصم أقوامًا ذوي جدل لدا

(٣) في الآية تهديد وتخويف لأهل مكة المصرين على الكفر والشرك والتكذيب. وكم: خبرية، والقرن: الجيل والأمة. ويطلق على الزمان الذي تعيش فيه الأمة وشاع إطلاقه على المائة سنة.

(٤) والإحساس: الإدراك بالحس. والاستفهام إنكاري.

(٥) قيل: الرّكز: ما لا يفهم من صوت أو حركة.

سورة طه
مكية
وآياتها مائة وخمس وثلاثون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٨]

(١) ﴿طه﴾: أي يا رجل.

(٣) ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾: أي يتذكر بالقرآن من يخشى عقاب الله عز وجل.

(٥) ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: أي ارتفع عليه وعلا.

(٦) ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾: الثرى التراب الندي يريد ما هو أسفل الأرضين السبع.

(٧) ﴿وَأَخْفَى﴾: أي من السر، وهو ما علمه الله وقدر وجوده وهو كائن ولكن لم يكن بعد.

(٨) ﴿الْحُسْنَى﴾: الحسنى مؤنث الأحسن المفضل على الحسن.

معنى الآيات:
(١) قوله تعالى: ﴿طه﴾[١] لفظ طه جائز أن يكون من الحروف المقطعة، وجائز أن يكون معناه يا رجل[٢] ورجح الأمر ابن جرير لوجوده في لغة العرب طه بمعنى يا رجل وعلى هذا فمعنى الكلام يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ردًا على النضر بن الحارث الذي قال إن محمدًا شقي بهذا القرآن الذي أنزل عليه لما فيه من التكاليف فنفى الحق عز وجل ذلك وقال:

(٢) ـ (٣) ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ۝﴾ وإنما أنزلناه ليكون[٣] تذكرة ذكرى يذكر بها من يخشى ربه فيقبل على طاعته متحملاً في سبيل ذلك كل ما قد يلاقي في طريقه من أذى قومه المشركين بالله الكافرين بكتابه والمكذبين لرسوله.

(٤) وقوله: ﴿تَنزِيلًا[٤] مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝﴾ أي هذا القرآن الذي ما أنزلناه لتشقى به ولكن تذكرة لمن يخشى نُزِّل تنزيلاً من الله الذي خلق الأرض والسماوات العلى:

(٥) ﴿الرَّحْمَٰنُ[٥] عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾ أي رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما الذي استوى على عرشه استواءً يليق به يدبر أمر مخلوقاته.

(٦) الذي ﴿لَهُ[٦] مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى[٧] ۝﴾ من الأرضين السبع.

(٧) وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ أيها الرسول أو تُسِر ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى[٨]﴾ من السر، وهو ما قدره الله وهو واقع في وقته المحدد له فعلمه تعالى ولم يعلمه الإنسان بعد.

(٨) وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي الله المعبود بحق الذي لا معبود بحق سواه ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ التي لا تكون إلا له، ولا تكون لغيره من مخلوقاته. وهكذا عرَّف تعالى عباده به ليعرفوه فيخافونه ويحبونه فيؤمنون به ويطيعونه فيكملون على ذلك ويسعدون فللّه الحمد وله المنة.

هداية الآيات:
١ ـ إبطال نظرية أن التكاليف الشرعية شاقة ومرهقة للعبد.

---

(١) نزلت: ﴿طه(١)﴾ قبل إسلام عمر رضي الله عنه لما روي: أنه دخل على بيت ختنه سعيد بن زيد فوجده يقرؤها مع زوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر رضي الله عنهم أجمعين فطلبها فلم يُعطها حتى اغتسل فلمّا قرأها لان قلبه ورق للإسلام.

(٢) قيل: إن طه بمعنى: يا رجل لغة معروفة في عكل حتى إنك إذا ناديت المرء بيا رجل لم يجبك حتى تقول: طه. وأنشد الطبري في هذا قول الشاعر:

دعوت بطه في القتال فلم يجب ... فخفت عليه أن يكون مزيلا

(٣) التذكرة: خطور المنسي بالذهن لأنّ التوحيد مستقر في الفطرة والإشراك مناف لها فسماع القرآن كقراءته يثير كامن التوحيد في فطرة الإنسان.

(٤) ﴿تَنزِيلًا﴾: حال من القرآن، المراد منها التنويه بشأن القرآن والإعلان عن خطره.

(٥) ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾: يجوز أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف أي: هو الرحمٰن جل جلاله. ويجوز أن تكون مبتدأ واختير اسم الرحمٰن لأن المشركين ينكرون اسم الرحمٰن جهلاً منهم وعنادًا.

(٦) تقديم الجار والمجرور: مؤذن بالحصر، وهو كذلك، إذ ليس لأحد ملك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما وما تحت الثرى سواه عزّ وجل.

(٧) ما تحت الثرى: هو باطن الأرض كله.

(٨) وجائز أن يكون أخفى السر: حديث النفس إذ هو أخفى من السر إذ السر ينطق به، وخاطر النفس لا ينطق به.

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

٢ - تقرير عقيدة الوحي وإثبات النبوة المحمدية.

٣ - تقرير الصفات الإلهية كالاستواء ووجوب الإيمان بها بدون تأويل أو تعطيل أو تشبيه بل إثباتها على الوجه الذي يليق بصاحبها عز وجل.

٤ - تقرير ربوبية الله لكل شيء.

٥ - تقرير التوحيد وإثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ ـ ١٦]

(٩) ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾: قد أتاك فالاستفهام للتحقيق.

﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾: أي خبره وموسى هو ابن عمران نبي بني إسرائيل.

(١٠) ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾: أي حين رؤيته نارًا.

﴿لِأَهْلِهِ﴾: زوجته بنت شعيب ومن معها من خادم أو ولد. ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾: أي أبصرتها من بعد. ﴿بِقَبَسٍ﴾[١]: القبس عود في رأسه نار.

﴿عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾: أي ما يهديني الطريق وقد ضل الطريق إلى مصر.

(١١) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾: أي النار وكانت في شجرة من العوسج ونحوه تتلألؤ نورًا لا نارًا. ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾: أي ناداه ربه قائلاً له يا موسى...!

(١٢) ﴿ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٢]: طوى اسم للوادي المقدس المطهر.

(١٣) ﴿ٱخْتَرْتُكَ﴾: من قومك لحمل رسالتي إلى فرعون وبني إسرائيل.

﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾: أي إليك وهو قوله تعالى:

(١٤) ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾.

﴿لِذِكْرِىٓ﴾: أي لأجل أن تذكرني فيها.

(١٥) ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[٣]: أي أبالغ في إخفائها حتى لا يعلم وقت مجيئها أحد. ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾: أي سعيها في الخير أو في الشر.

(١٦) ﴿فَتَرْدَىٰ﴾: أي تهلك.

معنى الآيات:

(٩) ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد ففي نهاية الآية السابقة (٨) كان قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تقريرًا للتوحيد وإثباتًا له وفي هذه الآية (٩) يقرره تعالى عن طريق الإخبار عن موسى، وأن أول ما أوحاه إليه من كلامه كان إخباره بأنه لا إله إلا هو أي لا معبود غيره وأمره بعبادته.

(٩) فقال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾[٤] أي يا نبينا ﴿حَدِيثُ﴾[٥] ﴿مُوسَىٰٓ إِذْ رَءَا

---

(١) القبس والمقباس يقال: قبست منه نارًا أقبس قبسًا فقبسني أي: أعطاني منه قبسًا بتحريك السين مفتوحة، واقتبست منه علمًا لأنّ العلم نور، من مادة النار التي هي الضياء والإشراق.

(٢) (طوى) بالكسر، وبالضم أشهر وبه قراءة عامة القراء وهو اسم للوادي وفي لفظه ما يشير إلى أنه مكان فيه ضيق كالثوب المطوي أو لأن موسى طواه سيرًا.

(٣) لما كانت الساعة مخفية الوقوع أثار قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ تساؤلات كثيرة أقربها إلى الواقع ثلاثة. الأول: إخفاء الحديث عنها لأنّ الحديث عنها لا يزيد المعاندين من منكري البعث إلاّ عنادًا. والثاني: أنّ كاد زائدة والتقدير: أنّ الساعة آتية أخفيها. والثالث: أن أخفيها بمعنى: أزيل خفاءها بأن أظهرها فتكون الهمزة للسلب نحو أعجم الكتاب: أزال عجمته وأشكى زيدًا: إذا أزال شكواه.

(٤) هذا الاستفهام أريد به التشويق لما يلقى لعظيم فائدته، وهل هنا: بمعنى قد المفيدة للتحقيق، هي كما في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ أي: قد أتى.

(٥) الحديث: الخبر، ويجمع على غير قياس: أحاديث، وقيل: واحده أحدوثة واستغنوا به عن جمع فعلاء لأن فعيل يجمع

نَارًا﴾، وكان في ليلة مظلمة شاتية وزنده الذي معه لم يقدح له نارًا.

⑩ ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾ أي زوجته ومن معها وقد ضلوا طريقهم لظلمة الليل، ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي ابقوا هنا فقد ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرتها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ فنوقد به نارًا تصطلون بها أي تستدفئون بها، ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي أجد حولها ما يهدينا طريقنا الذي ضللناه.

⑪ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي أتى النار ووصل إليها وكانت شجرة[1] تتلألؤ نورًا ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي ناداه ربه تعالى قائلاً يا موسى:

⑫ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أي خالقك ورازقك ومدبر أمرك ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وذلك من أجل أن يتبرك بملامسة الوادي المقدس بقدميه.

⑬ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾[2] أي لحمل رسالتي إلى من أرسلك إليهم. ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[3] أي إليك وهو:

⑭ ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أي أنا الله المعبود بحق ولا معبود بحق غيري وعليه فاعبدني وحدي، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[4] أي لأجل أن تذكرني فيها وبسببها. فلذا من لم يصلِّ لم يذكر الله تعالى وكان بذلك كافرًا لربه تعالى.

⑮ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ[5] ءَاتِيَةٌ﴾ أي إن الساعة التي يقوم فيها الناس أحياء من قبورهم للحساب والجزاء آتية لا محالة. من أجل مجازاة العباد على أعمالهم وسعيهم طوال أعمارهم من خير وشر، وقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي أبالغ في إخفائها حتى أكاد أخفيها عن نفسي. وذلك لحكمة أن يعمل الناس ما يعملون وهم لا يدرون متى يموتون ولا متى يبعثون فتكون أعمالهم بإرادتهم لا إكراه عليهم فيها فيكون الجزاء على أعمالهم عادلاً.

⑯ وقوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝﴾ ينهى تعالى موسى أن يقبل صدَّ صادٍ من المنكرين للبعث متَّبعي الهوى عن الإيمان بالبعث والجزاء والتزود بالأعمال الصالحة لذلك اليوم العظيم الذي تجزى فيه كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون، فإن من لا يؤمن بها ولا يتزود لها يردى أي يهلك.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير النبوة لمحمد ﷺ.

٢ ـ تقرير التوحيد وإثباته، وأن الدعوة إلى لا إله إلا الله دعوة كافة الرسل.

٣ ـ إثبات صفة الكلام لله تعالى.

٤ ـ مشروعية التبرك بما جعله الله تعالى مباركًا، والتبرك التماس البركة حسب بيان الرسول وتعليمه.

٥ ـ وجوب إقام الصلاة وبيان علة ذلك وهو ذكر الله تعالى.

٦ ـ بيان الحكمة في إخفاء الساعة مع وجوب إتيانها وحتميته.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ ـ ٢٤]

⑰ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝﴾: الاستفهام للتقرير ليرتب عليه المعجزة وهي انقلابها حية.

⑱ ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾: أي أعتمد عليها. ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾: أخبط بها ورق الشجر فيتساقط فتأكله الغنم. ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾: أي حاجات أخرى كحمل الزاد بتعليقه فيها ثم حمله على عاتقه، وقتل الهوام.

⑳ ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾: أي ثعبان عظيم، تمشي على بطنها بسرعة كالثعبان الصغير المسمى بالجان.

㉑ ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾: أي إلى

= على فعلاء. كرحيم ورحماء وسعيد وسعداء وهو اسم للكلام الذي يحكى به أمر قد حدث في الخارج.

(١) قيل: هي شجرة عنّاب.

(٢) قرأ حمزة وحده: **﴿وأنا اخترناك﴾** بضمير العظمة.

(٣) في هذه الآية إشارة إلى أن التعارف بين المتلاقين حسن فقد عرفه تعالى بنفسه في أوّل لقاء معه، روى أنه وقف على حجر واستند على حجر ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره وهذه حالة الاستماع المطلوبة من صاحبها.

(٤) استدل مالك على أن من نام عن صلاة أو نسيها فإنه يصليها مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ أي: لأول وقت ذكرك لها والسنة صريحة في هذا إذ قال ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها متى ذكرها فلا كفارة لها إلا ذاك**».

(٥) الساعة: علم بالغلبة على ساعة البعث والحساب.

حالتها الأولى قبل أن تنقلب حيّة.

(٢٢) ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾: أي إلى جنبك الأيسر تحت العضد إلى الإبط.

﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: أي من غير برص تضيء كشعاع الشمس.

(٢٤) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: أي رسولاً إليه. ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾: تجاوز الحد في الكفر حتى ادعى الألوهية.

معنى الآيات:

(١٧) ما زال السياق الكريم مع موسى وربه تعالى إذ سأله الرب تعالى وهو أعلم به وبما عنده قائلاً: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝﴾[١]؟ يسأله ليقرر بأن ما بيده عصا من خشب يابسة، فإذا تحولت إلى حية تسعى علم أنها آية له أعطاه إياها ربه ذو القدرة الباهرة ليرسله إلى فرعون وملإه.

(١٨) وأجاب موسى ربه قائلاً: ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[٢] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ يريد يخبّط بها الشجر اليابس فيتساقط الورق فتأكله الغنم ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ[٣]﴾ أي حاجات ﴿أُخْرَىٰ﴾[٤] كحمل الزاد والماء يعلقه بها ويضعه على عاتقه كعادة الرعاة وقد يقتل بها الهوام الضارة كالعقرب والحية.

(١٩) ـ (٢٠) فقال له ربه عز وجل: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ فَأَلْقَىٰهَا﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ[٥] تَسْعَىٰ﴾ أي ثعبان عظيم تمشي على بطنها كالثعبان الصغير المسمى بالجان فخاف موسى منها وولى هاربًا فقال له الرب تعالى:

(٢١) ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا[٦] ٱلْأُولَىٰ﴾ أي نعيدها عصا كما كانت قبل تحولها إلى حية وفعلاً أخذها فإذا هي عصاه التي كانت بيمينه.

(٢٢) ثم أمره تعالى بقوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ﴾ أي اليمنى ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ[٧]﴾ الأيسر ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي برص وفعل فضم يده تحت عضده إلى إبطه ثم استخرجها فإذا هي تتلألؤ كأنها فلقة قمر، أو كأنها الثلج بياضًا أو أشد، وقوله تعالى: ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ أي آية لك دالة على رسالتك أخرى إذ الأولى هي انقلاب العصا إلى حية تسعى كأنها جان.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝﴾ أي حولنا لك العصا حية وجعلنا يدك تخرج بيضاء من أجل أن نريك من دلائل قدرتنا وعظيم سلطاننا.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝﴾ لما أراه من عجائب قدرته أمره أن يذهب إلى فرعون رسولاً إليه يأمره بعبادة الله وحده وأن يرسل معه بني إسرائيل ليخرج بهم إلى أرض المعاد بالشام وقوله: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي تجاوز قدره، وتعدى حده كبشر إذ أصبح يدعي الربوبية والألوهية إذ قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، فأي طغيان أكبر من هذا الطغيان.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة الرسول محمد ﷺ إذ مثل هذه الأخبار لا تصح إلا ممن يوحى إليه.

٢ - استحباب تناول الأشياء غير المستقذرة باليمين.

٣ - مشروعية حمل العصا[٨].

٤ - سنة رعي الغنم للأنبياء.

---

(١) الجملة معطوفة على الجمل قبلها، وهي استفهامية أي: وما التي بيمينك؟ والمقصود تقرير الأمر حتى يقول موسى: هي عصاي.

(٢) في هذه الآية دليل على جواز إجابة السائل بأكثر مما سأل عنه. وفي الحديث وقد سئل عن ماء البحر فقال: «**هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته**» فزاد جملة: «**الحل ميتته**» وقوله للتي سألته قائلة: ألهذا حج؟ قال: «**نعم ولك أجر**» فزاد: «**ولك أجر**» وفي البخاري: باب من أجاب السائل بأكثر مما سأل.

(٣) الواحد: مأربة مثلثة الراء.

(٤) أطنب موسى في الجواب طلبًا لمزيد الأنس بالوقوف بين يدي ربّه يناجيه ويوحي إليه.

(٥) الحيّة: اسم لصنف من الحنش مسموم إذا عضّ بنابيه قتل المعضوض.

(٦) السيرة في الأصل: هيئة السير ونقلت إلى العادة والطبيعة.

(٧) الجناح: العضد وما تحته من الإبط فهو مع اليد كجناح الطائر.

(٨) كان خطباء العرب يحملونها في أثناء الخطاب يشيرون بها، وكره هذا الشعوبيون من غير العرب وهم محجوجون بفعل الرسول ﷺ، وللعصا فوائد كثيرة آخر فوائدها أنها تذكر بالسفر إلى الآخرة.

٥ - مشروعية التدريب على السلاح قبل استعماله في المعارك.

٦ - آية موسى في انقلاب العصا حية وخروج اليد بيضاء كأنها الثلج أو شعاع شمس.

٧ - بيان الطغيان: وهو ادعاء العبد ما ليس له كالألوهية ونحوها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥ - ٣٥]

(٢٥) ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾: أي وسعه لي لأتحمل الرسالة.

(٢٦) ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾: أي سهله حتى أقوى على القيام به.

(٢٧) ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ[١] مِّن لِّسَانِي﴾: أي حبسة حتى أفهم من أخاطب.

(٣١) ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾: أي قوي به ظهري.

(٣٢) ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾: أي اجعله نبيًا كما نبأتني[٢].

معنى الآيات:

(٢٥) ما زال السياق الكريم في حديث موسى عليه السلام مع ربه سبحانه وتعالى إنه بعد أن أمر الله تعالى موسى بالذهاب إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده وإرسال بني إسرائيل مع موسى ليذهب به إلى أرض القدس قال موسى عليه السلام لربه تعالى: ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ لأتحمل أعباء الرسالة.

(٢٦) ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ أي سهل مهمتي عليّ وارزقني العون عليها فإنها صعبة شاقة.

(٢٧) ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ تلك العقدة التي نشأت بسبب الجمرة التي ألقاها في فمه بتدبير الله عز وجل حيث عزم فرعون على قتله لما وضعه في حجره يلاعبه فأخذ موسى بلحية فرعون ونتفها فغضب فقالت له آسية: إنه لا يعقل لصغر سنه وقالت له تختبره بوضع جواهر في طبق وجمر في طست ونقدمهما له فإن أخذ الجواهر فهو عاقل ودونك افعل به ما شئت، وإن أخذ الجمر فهو غير عاقل فلا تحفل به ولا تغتم لفعله، وقدم لموسى الطبق والطست فمد يده إلى الطست بتدبير الله فأخذ جمرة فكانت سبب هذه العقدة فسأل موسى ربه أن يحلها من لسانه ليفصح إذا خاطب فرعون ويبين فيفهم قوله، وبذلك يؤدي رسالته.

(٢٧) - (٢٨) هذا معنى قوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ[٣] عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝﴾.

(٢٩) - (٣٠) وقوله تعالى فيما أخبر عن موسى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا[٤] مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝﴾ أي طلب من الله تعالى أن يجعل له من أخيه هارون معينًا على تبليغ الرسالة وتحمل أعبائها.

(٣١) وقوله: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي[٥] ۝﴾ أي قوّ به ظهري.

(٣٢) وقوله: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝﴾ وذلك بتنبئته وإرساله ليكون هارون نبيًا رسولاً.

(٣٣) - (٣٤) وعلل موسى عليه الصلاة والسلام لطلبه هذا بقوله: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ[٦] كَثِيرٗا ۝ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝﴾.

(٣٥) وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ۝﴾ أي أنك كنت ذا بصر بنا لا يخفى عليك شيء من أمرنا وهذا من موسى توسل إلى الله تعالى في قبول دعائه وما طلبه من ربه توسل إليه بعلمه تعالى به وبأخيه وبحالهما.

هداية الآيات:

١ - وجوب اللجوء إلى الله تعالى في كل ما يهم العبد.

---

(١) أصل العقدة: موضع ربط بعض الخيط أو الحبل ببعض آخر وهي فُعلة كغرفة وشرفة أطلقت على عسر النطق بالكلام أو ببعض الحروف ويقال: حُبسة فشبه موسى حبسة لسانه بالعقدة في الحبل ونحوه.

(٢) يقال: ما برّ أخ أخاه كما برّ موسى أخاه هارون إذ طلب له أشرف مطلب الرسالة والنبوة.

(٣) اختلف في هل انحلّت تلك العقدة أو لم تنحل، والصحيح أنها انحلّت، إجابة الله تعالى لدعوة موسى إذ قال: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ وأما قول فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فهو تكرار لما سبق ولأجل الانتقاص من كمال موسى عليه السلام.

(٤) الوزير: المؤازر كالأكيل للمؤاكل، وفي حديث النسائي: «**من ولي منكم عملاً فأراد الله به خيرًا جعل له وزيرًا صالحًا إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه**».

(٥) الأزر: الظهر من موضع الحقوين، والأزر: القوة أيضًا، وآزره أي: قواه، وقيل: الأزر العون، ومنه قول أبي طالب:

أليس أبونا هاشم شدّ أزره ... وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

(٦) في هذه الآية دليل على فضل التسبيح والذكر إذ لولا أنّ موسى علم حب الله تعالى لهما لما توسل بهما لقضاء حاجته.

إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

٣١٤

٢ - مشروعية الأخذ بالأهبة والاستعداد لما يعتزم العبد القيام به.

٣ - فضيلة التسبيح والذكر، والتوسل بأسماء الله وصفاته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ - ٤١]

(٣٦) ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ[1]﴾: أي مسؤولك من انشراح صدرك وتيسير أمرك وانحلال عقدة لسانك، وتنبئة أخيك.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾: أي أنعمنا عليك مرة أخرى قبل هذه.

(٣٨) ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾: أي في شأنك وهو قوله: أن اقذفيه إلخ.

(٣٩) ﴿فِى ٱلتَّابُوتِ﴾: أي الصندوق. ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾: أي في نهر النيل. ﴿وَلِتُصْنَعَ[2] عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾: تربى بمرأى مني ومحبة وإرادة.

(٤٠) ﴿عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾: ليكمل له رضاعه. ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾: هو القبطي الذي قتلته بمصر وهو في بيت فرعون. ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾: إذ استغفرتنا فغفرنا لك وائتمروا بك ليقتلوك فنجيناك منهم. ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾: أي اختبرناك اختبارًا وابتليناك ابتلاءً عظيمًا. ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾[3]: أي جئت للوقت الذي أردنا إرسالك إلى فرعون.

(٤١) ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾: أي أنعمت عليك بتلك النعم اجتباءً منا لك لتحمل رسالتنا.

معنى الآيات:

(٣٦) ما زال السياق في حديث موسى مع ربه تعالى فقد تقدم أن موسى عليه السلام سأل ربه أمورًا لتكون عونًا له على حمل رسالته فأجابه تعالى بقوله في هذه الآية (**٣٦**): ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي قد أعطيت ما طلبت.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي قبل هذه الطلبات وهي أنه لما أمر فرعون بذبح أبناء بني إسرائيل[4].

(٣٨) - (٣٩) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ[5] إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي في الصندوق[6] ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي نهر النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ[7] لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ فهذه النجاة نعمة، ونعمة أخرى تضمنها قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي أضفيت عليك محبتي فأصبح من يراك يحبك، ونعمة أخرى وهي: من أجل أن تُربَّى وتغذى على مرأى مني وإرادة لي أرجعتك بتدبيري إلى أمك لترضعك وتقر عينها ولا تحزن على فراقك.

(٤٠) وهو ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِذْ

---

(١) سؤال بمعنى مسؤول كخبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول.

(٢) الصنع هنا: بمعنى التربية والتنمية.

(٣) كما قال الشاعر:

نال الخلافة أو كانت له قدرا ... كما أتى موسى ربه على قدر

(٤) أوحى الله تعالى إلى أم موسى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ..﴾ الآية.

(٥) هذا إلهام لها أو منام إذ لم تكن نبيّة إجماعًا.

(٦) الساحل: الشاطىء، وهو ساحل معهود وهو الذي يقصده آل فرعون للسباحة. واللام في ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾: لام التكوين الإلهي.

(٧) هذا العدو: فرعون عدو الله تعالى وعدو موسى وبني إسرائيل.

﴿تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾(١) فتقول: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ لكم أي لإرضاعه وتربيته ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، ونعمة أخرى وهي أعظم إنجاؤنا لك من الغم الكبير بعد قتلك النفس وائتمار آل فرعون على قتلك ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ من القتل وغفرنا لك خطيئة القتل. وقوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾(٢) أي ابتليناك ابتلاءً عظيمًا وها هي ذي خلاصته في الأرقام التالية:

١ ـ حمل أمك بك في السنة التي يقتل فيها أطفال بني إسرائيل.

٢ ـ إلقاء أُمك بك في اليم.

٣ ـ تحريم المراضع عليك حتى رجعت إلى أمك.

٤ ـ أخذك بلحية فرعون وهمه بقتلك.

٥ ـ قتلك القبطي وائتمار آل فرعون بقتلك.

٦ ـ إقامتك في مدين وما عانيت من آلام الغربة.

٧ ـ ضلالك الطريق بأهلك وما أصابك من الخوف والتعب.

هذه بعض ما يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾، وقوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ(٣)﴾ ترعى غنم شعيب عشرًا من السنين ﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ من مدين إلى طور سينا ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ منا مقدر ووعد محدد ما كنت تعلمه حتى لاقيته.

(٤١) واصطنعتك لنفسي أي خلقتك وربيتك وابتليتك وأتيت بك على موعد قدّرته لك لأُحمِّلك عبء الرسالة إلى فرعون وبني إسرائيل: إلى فرعون لتدعوه إلى عبادتنا وإرسال بني إسرائيل معك إلى أرض المعاد. وإلى بني إسرائيل لهدايتهم وإصلاحهم وإعدادهم للإسعاد والإكمال في الدارين إن هم آمنوا واستقاموا.

هداية الآيات:

١ - مظاهر لطف الله تعالى وحسن تدبيره في خلقه.

٢ - مظاهر إكرام الله تعالى ولطفه بعبده ورسوله موسى عليه السلام.

٣ - آية حب الله تعالى لموسى، وأثر ذلك في حب الناس له.

٤ - تقرير نبوة محمد ﷺ بإخباره في كتابه بمثل هذه الأحداث في قصص موسى عليه السلام.

شرح الكلمات:
[الآية: ٤٢ ـ ٤٨]

(٤٢) ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾: أي بالمعجزات التي آتيتك كالعصا واليد وغيرها. ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾: أي لا تفترا ولا تقصرا في ذكري فإنه سر الحياة وعونكما على أداء رسالتكما.

(٤٣) ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾: تجاوز قدره بادعائه الألوهية والربوبية.

(٤٤) ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: أي خاليًا من الغلظة والعنف. ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾: أي فيما تقولان فيهتدي إلى معرفتنا فيخشانا فيؤمن ويسلم ويرسل معكما بني إسرائيل.

(٤٥) ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾: أي يعجل بعقوبتنا قبل أن ندعوه ونبين له. ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾: أي يزداد طغيانًا وظلمًا.

(٤٦) ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾: أي اسمع ما تقولانه وما يقال لكما، وأرى ما تعملان وما يعمل لكما.

(٤٧) ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي لنذهب بهم إلى أرض المعاد أرض أبيهم إبراهيم. ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: أي معجزة تدل على صدقنا في دعوتنا وأنا رسولا ربك حقًا وصدقًا. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾: أي النجاة من العذاب في الدارين لمن آمن واتقى، إذ الهدى إيمانٌ وتقوى.

(٤٨) ﴿مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾: أي كذب بالحق ودعوته وأعرض عنهما فلم يقبلهما.

معنى الآيات:

(٤٢) ما زال السياق الكريم في الحديث عن موسى مع ربه تبارك وتعالى فقد أخبره تعالى في الآية السابقة أنه صنعه لنفسه، فأمره في هذه الآية بالذهاب مع أخيه هارون مزودين بآيات الله وهي حججه التي أعطاهما من العصا واليد البيضاء، ونهاهما عن التواني في ذكر الله بأن يضعفا في ذكر وعده ووعيده فيقصرا في الدعوة إليه

---

(١) أخت موسى تسمى مريم بنت عمران.

(٢) الفتون: مصدر كالدخول والخروج وهو كالفتنة، وهي اضطراب حال المرء في مدة حياته.

(٣) مدين أحد أبناء إبراهيم عليه السلام، وأهل مدين: أي: البلاد التي سميت باسم ابن إبراهيم هم قوم شعيب، والبلاد على ساحل البحر الأحمر جنوب العقبة.

تعالى فقال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى[1] وَلَا تَنِيَا[2] فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٣﴾ وبين لهما إلى من يذهبا وعلة ذلك فقال: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي تجاوز قدره وتعدى حده من إنسان يعبد الله إلى إنسان كفار ادعى أنه رب وإله.

﴿٤٤﴾ وعلمهما أسلوب الدعوة فقال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي خاليًا من الغلظة والجفا وسوء الإلقاء وعلل لذلك فقال: ﴿لَّعَلَّهُۥ[3] يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي رجاء أن يتذكر معاني كلامكما وما تدعوانه إليه فيراجع نفسه فيؤمن ويهتدي[4] أو يخشى العذاب إن بقي على كفره وظلمه فيسلم لكما بني إسرائيل ويرسلهم معكما.

﴿٤٥﴾ فأبدى موسى وأخوه هارون تخوفًا فقال ما أخبر تعالى به عنهما في قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي يعجل بعقوبتنا بالضرب أو القتل، ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾[5] أي يزداد طغيانًا وظلمًا، فطمأنهما ربهما عز وجل بأنه معهما بنصره وتأييده وهدايته إلى كل ما فيه عزهما فقال لهما:

﴿٤٦﴾ ﴿لَا تَخَافَآ﴾ أي من فرعون وملإه: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أسمع ما تقولان لفرعون وما يقول لكما. وأرى ما تعملان من عمل وما يعمل فرعون وإني أنصركما عليه فأحق عملكما وأبطل عمله.

﴿٤٧﴾ فأتياه إذًا ولا ترددا فقولا أي لفرعون ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي إليك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لنخرج بهما حيث أمر الله، ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بقتل رجالهم واستحياء نسائهم واستعمالهم في أسوء الأعمال وأحطها، ﴿قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ[6] مِّن رَّبِّكَ﴾ أي بحجة من ربك دالة على أنا رسولا ربك إليك وأنه يأمرك بالعدل والتوحيد وينهاك عن الظلم والكفر ومنع بني إسرائيل من الخروج إلى أرض المعاد معنا. ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي واعلم يا فرعون أن الأمان والسلامة يحصلان لمن اتبع الهدى الذي جئناك به، فاتبع الهدى تسلم[7]، وإلا فأنت عرضة للمخاوف والهلاك والدمار.

﴿٤٨﴾ وذلك لأنه ﴿قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ أي أوحى إلينا ربنا، ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ[8] عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بالحق الذي جئناك به ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عنه فأعرض عنه ولم يقبله كبرياءً وعنادًا.

هداية الآيات:

١ - عظم شأن الذكر بالقلب واللسان والجوارح أي بالطاعة فعلاً وتركًا.

٢ - وجوب مراعاة الحكمة في دعوة الناس إلى ربهم.

٣ - تقرير معية الله تعالى مع أوليائه وصالحي عباده بنصرهم وتأييدهم.

٤ - تقرير أن السلامة من عذاب الدنيا والآخرة هي من نصيب متبعي الهدى.

٥ - شرعية إتيان الظالم وأمره ونهيه والصبر على أذاه.

٦ - عدم المؤاخذة على الخوف حيث وجدت أسبابه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٩ ـ ٥٥]

﴿٥٠﴾ ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾: أي خلقه الذي هو عليه متميز به عن غيره. ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾: أي الحيوان منه

---

(١) يروى أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الآيات التسع. وهذا باعتبار ما يكون وإلا فما حصل هو آية العصا واليد لا غير.

(٢) ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ أي: ولا تضعفا. يقال: وني يني ونىً أي: ضعف في العمل. أي: لا تني أنت وأبلغ هارون أن لا يني.

(٣) لعلّ: حرف ترج ولكن هي هنا بالنسبة إلى موسى وهارون معناه: لعل رجاءكما وطمعكما. فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر.

(٤) لقد تذكر فرعون وخشي وذلك ساعة غرقه ولم ينفعه ذلك إذ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

(٥) قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ إلخ.. هذه بداية كلام موسى وهارون بعد أن انتهى كلام موسى مع ربّه وحده. قبل أن يصل إلى مصر، ومعنى يفرط: يبادر بعقوبتهما ويعجلها، يقال: فرط منه أمر أي: بدر، وأفرط: أسرف، وفرّط: ترك وأضاع، وفي الآية دليل عدم المؤاخذة بالخوف مما من شأنه أن يخاف، ولكن لا يمنع من عبادة الله تعالى التي هي علّة الخلق والوجود.

(٦) هي اليد والعصا.

(٧) والسلام هنا ليس سلام تحية.

(٨) قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ هذه أرجى آية للموحدين لأنهم لم يكذّبوا ولم يتولوا.

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

٣١٥

إلى طلب مطعمه ومشربه ومسكنه ومنكحه.

﴿٥١﴾ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۞﴾: أي قال فرعون لموسى ليصرفه عن إدلائه بالحجج حتى لا يفتضح فما بال القرون الأولى كقوم نوح وعاد وثمود في عبادتهم الأوثان؟

﴿٥٢﴾ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾: أي علم أعمالهم وجزائهم عليها عند ربي دعنا من هذا فإنه لا يعنينا. ﴿فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾: أي أعمال تلك الأمم في كتاب محفوظ عند ربي وسيجزيهم بأعمالهم إن ربي لا يخطيء ولا ينسى فإن عذب أو أخر العذاب فإن ذلك لحكمة اقتضت منه ذلك.

﴿٥٣﴾ ﴿مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾: مهدًا: فراشًا، وسلك: سهل، وسبلًا طرقًا. ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾: أزواجًا: أصنافًا شتى مختلفة الألوان والطعوم.

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾: لدلائل واضحات على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته. ﴿لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ﴾: أي أصحاب العقول لأن النهية العقل وسمي نهية لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح كالشرك والمعاصي.

﴿٥٥﴾ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾: أي من الأرض وفيها نعيدكم بعد الموت ومنها نخرجكم عند البعث يوم القيامة. ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾: أي مرة أخرى إذ الأولى كانت خلقًا من طين الأرض وهذه إخراجًا من الأرض.

معنى الآيات:

﴿٤٧﴾ - ﴿٤٨﴾ السياق الكريم في الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون إذ وصل موسى وأخوه إلى فرعون ودَعَوَاهُ إلى الله تعالى ليؤمن به ويعبده وبأسلوب هادىء لين كما أمرهما الله تعالى فقالا له: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۞﴾؟ ولم يقولا له لا سلام عليك، ولا أنت مكذب ومعذب.

﴿٤٩﴾ وهنا قال لهما فرعون ما أخبر به تعالى في قوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۞﴾؟ أفرد اللعين موسى بالذكر لإدلائه عليه بنعمة التربية في بيته ولأنه الرسول الأول فأجابه موسى بما أخبر تعالى به بقوله:

﴿٥٠﴾ ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ[1] كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ[2]﴾ أي كل مخلوق خلقه الذي هو عليه متميز به من شكل ولون وصفة وذات ثم هدى الأحياء من مخلوقاته إلى طلب رزقها من طعام وشراب، وطلب بقائها بما سن لها وهداها إليه من طرق التناسل إبقاء لأنواعها. وهنا وقد أفحم موسى فرعون وقطع حجته بما ألهمه الله من علم وبيان قال فرعون صارفًا موسى عن المقصود خشية الفضيحة من الهزيمة أمام ملإه قال:

(١) أعلمه عليه السلام بأنّ ربه تعالى يعرف بصفاته لا بذاته ولا باسم يعرف به ولم يقل له موسى: إنه الله، لأنّ الاسم العلم لا يهدي إلى معرفته تعالى كما تهدي إليه الصفات العُلى التي لا يقدر فرعون على جحدها وإنكارها.

(٢) قال ابن عباس: أعطى كل زوج من جنسه ثمّ هداه إلى منكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته ولم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان. قال الشاعر:

وله في كل شيء خلقه ... وكذا الله ما شاء فعل

(٥١) ﴿فَمَا بَالُ[١] ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أخبرنا عن قوم نوح وهود وصالح وقد كانوا يعبدون الأوثان.

(٥٢) وعرف موسى أن اللعين يريد صرفه عن الحقيقة فقال له ما أخبر تعالى به في قوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ[٢] لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى[٣]﴾ فإن ما سألت عنه لا يعنينا فعلم حال تلك الأمم الخالية عند ربي في لوح محفوظ عنده وسيجزيها بعملها، وما عجل لها من العقوبة أو أخر إنما لحكمة يعلمها فإن ربي لا يخطىء ولا ينسى وسيجزي كلًا بكسبه.

(٥٣) ثم أخذ موسى يصف ربه ويعرفهم به وهي فرصة سنحت فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي فراشًا مبسوطة للحياة عليها ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي سهل لكم للسير عليها طرقًا تمكنكم من الوصول إلى حاجاتكم فوقها، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر المكون للأنهار والمغذي الممد للآبار. هذا هو ربي وربكم فاعرفوه واعبدوه ولا تعبدوا معه سواه. وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا[٤] بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي بالمطر أزواجًا أي أصنافًا من نباتٍ شتى أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخصائص. كان هذا من قول الله تعالى تتميمًا لكلام موسى وتذكيرًا لأهل مكة المتجاهلين لله وحقه في التوحيد.

(٥٤) وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أي مما ذكرنا لكم من أزواج النبات وارعوا إبلكم وأغنامكم وسائر بهائمكم واشكروا لنا هذا الإنعام بعبادتنا وترك عبادة غيرنا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي إن في ذلك المذكور من إنزال المطر وإنبات النبات لتغذية الإنسان والحيوان لدلالات على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته وإنه بذلك مستحق للعبادة دون سواه إلا أن هذه الدلائل لا يعقلها إلا أصحاب العقول وذوو النهي فهم الذي يستدلون بها على معرفة الله ووجوب عبادته وترك عبادة غيره.

(٥٥) وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا﴾ أي من الأرض التي فيها حياة النبات والحيوان خلقناكم أي بخلق أصلكم الأول وهو آدم، وفيها نعيدكم بالموت فتقبرون فيها، ﴿وَمِنْهَا[٥] نُخْرِجُكُمْ تَارَةً[٦] أُخْرَىٰ﴾ أي مرة أخرى وذلك يوم القيامة إذ نبعثكم من قبوركم أحياء للحساب والجزاء بالنعيم المقيم أو العذاب المهين بحسب صفات نفوسكم فذو النفس الطاهرة ينعم وذو النفس الخبيثة من الشرك والمعاصي يعذب.

هداية الآيات:

١ - تعين إجابة السائل ولتكن بالعلم الصحيح النافع.

٢ - تقرير مبدأ من حسن[٧] إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

٣ - تنزه الرب تعالى عن الخطأ والنسيان.

٤ - الاستدلال بالآيات الكونية على الخالق عز وجل وقدرته وألوهيته.

٥ - احترام العقول وتقديرها لأنها تعقل[٨] صاحبها دون الباطل والشر.

٦ - تسمية العقل نهية لأنه ينهي صاحبه عن القبائح.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٦ - ٦٠]

(٥٦) ﴿أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾: أي

---

(١) البال: الحال أي: ما حالها وما شأنها؟ فأعلمه موسى عليه السلام أنّ علمها عند الله أي: إن ما سألت عنه من علم الغيب الذي استأثر الله به دون سواه.

(٢) في هذه الآية دليل على مشروعية كتابة العلوم وتدوينها، حتى لا تنسى فتضيع وفي الحديث شاهد آخر ففي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: **«لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب غضبي»**.

(٣) الضلال: الخطأ في العلم شبّه بخطإ الطريق، والنسيان: عدم تذكر الأمر المعلوم في الذهن.

(٤) في الكلام التفات من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم والخطاب تنويعًا للأسلوب وتحريكًا للضمير الجامد.

(٥) بمناسبة ذكر دلائل وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته الموجبة لألوهيته دون سواه ذكّرهم بعقيدة البعث والجزاء مستدلاً عليها بقدرة الله تعالى وعلمه.

(٦) تجمع التارة على تارات كالمرة على المرّات، والتارة: اسم جامد غير مشتق.

(٧) هذا حديث الصحيح: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**.

(٨) تعقل: أي: تحجزه أو تصرفه عما يضرّ حالاً أو مآلاً.

أبصرناه حججنا وأدلتنا على حقيقة ما أرسلنا به رسولينا موسى وهارون إليه كلها فرفضها وأبى أن يصدق بأنهما رسولين إليه من رب العالمين.

(٥٧) ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾: أي أرض مصر التي فرعون ملك عليها. ﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾: يشير إلى العصا واليد البيضاء.

(٥٨) ﴿مَكَانًا سُوًى﴾: أي مكان عدل بيننا وبينك ونَصَفٍ، صالحًا للمباراة بحيث يكون ساحة كبرى مكشوفة مستوية يرى ما فيها كل ناظر إليها.

(٥٩) ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾: أي يوم عيد يتزينون فيه ويقعدون عن العمل. ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾: أي وأن يؤتى بالناس من كل أنحاء البلاد للنظر في المباراة.

(٦٠) ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾: أي انصرف من مجلس الحوار بينه وبين موسى وهارون في كبرياء وإعراض. ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾: أي ذوي كيده وقوته من السحرة.

معنى الآيات:

(٥٦) ما زال السياق الكريم في الحوار بين موسى وهارون من جهة وفرعون وملإه من جهة أخرى فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ أي أرينا فرعون ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أي أدلتنا وحججنا[1] على أن موسى وهارون رسولان من قِبَلِنَا أرسلناهما إليه، فكذب برسالتهما وأبى الاعتراف بهما.

(٥٧) وقال ما أخبر تعالى به عنه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا﴾[2] أي يا موسى ﴿لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي منازلنا وديارنا ومملكتنا ﴿بِسِحْرِكَ﴾ الذي انقلبت به عصاك حية تسعى.

(٥٨) ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ نتقابل فيه، ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾[3] عدلاً بيننا وبينك يكون من الاعتدال والاتساع بحيث كل من ينظر إليه يرى ما يجري فيه من المباراة بيننا وبينك.

(٥٩) فأجاب موسى بما أخبر تعالى به عنه فقال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيد للأقباط يتجملون فيه ويقعدون عن العمل، ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[4] أي في يوم يجمع فيه الناس ضحى للتفرج في المباراة من كل أنحاء المملكة.

(٦٠) وهنا تولى فرعون بمعنى انصرف من مجلس المحاورة وكله كبر وعناد فجمع قواته من السحرة لإنفاذ كيده في موسى وهارون. وفي الآيات التالية تظهر الحقيقة.

هداية الآيات:

١ - بيان كبر فرعون وصلفه وطغيانه.

٢ - للسحر آثار وله مدارس يتعلم فيها ورجال يحذقونه ويعلمونه.

٣ - مشروعية المبارزة والمباراة لإظهار الحق وإبطال الباطل.

٤ - مشروعية اختيار المكان والزمان اللائق للقتال والمباراة ونحوهما.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦١ - ٦٦]

(٦١) ﴿وَيْلَكُمْ﴾: دعاء عليهم معناه: ألزمكم الله الويل وهو الهلاك. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾: أي يهلككم بعذاب من عنده.

(٦٢) ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾: أي في شأن موسى وهارون أي هل هما رسولان أو ساحران. ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾: وهي قولهم: إن هذان لساحران يريدان إلخ.......

(٦٣) ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾: أي ويغلبا على طريقة قومكم وهما أشرافهم وساداتهم.

(٦٤) ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾: أي أحكموا أمر كيدكم حتى لا تختلفوا فيه. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾: أي قد فاز من غلب.

---

(١) أي: الدالة على وجود الله تعالى ووجوب ألوهيته وعلى صحة نبوّة موسى وهارون.

(٢) لما رأى الآيات وبهرته احتال في دفعها اللعين بدعواه أنّ موسى جاء ليخرج فرعون وقومه من بلادهم ليستقل بها دونهم، وهذا من الكذب السياسي الممقوت.

(٣) قرأ حفص: ﴿سُوًى﴾ كطوى بضم السين، وقرأ نافع: ﴿سِوى﴾ بكسرها كطوى، والكسر أفصح. أي: وسطًا في المدينة لا يشق على من يأتيه.

(٤) اختار موسى اليوم والساعة، وهي: الضحى لعلمه أنه سيغلب السحرة وينهزمون أمامه، فأحب أن يكون الوقت مناسبًا بكثرة المتفرّجين ووضوح الرؤية لهم في شباب النهار (الضحى).

قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

(٦٥) ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾: أي عصاك.

(٦٦) ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾: أي فخيل إلى موسى أنها حية تسعى، لأنهم طلوها بالزئبق فلما ضربت الشمس عليها اضطربت واهتزت فخيل إلى موسى أنها تتحرك.

معنى الآيات:

(٦١) ما زال السياق في الحوار الدائر بين موسى عليه السلام والسحرة الذين جمعهم فرعون للمباراة فأخبر تعالى عن موسى أنه قال لهم مخوفًا إياهم علهم يتوبون: ﴿وَيْلَكُمْ[(١)] لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا تتقولوا على الله فتنسبوا إليه ما هو كذب ﴿فَيُسْحِتَكُم[(٢)] بِعَذَابٍ﴾ أي يهلككم بعذاب إبادة واستئصال، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي خسر من كذب على الله أو على الناس. ولما سمعوا كلام موسى هذا اختلفوا فيما بينهم هل صاحب هذا الكلام ساحر أو هو كلام رسول من في السماء؟ (٦٢) وهو ما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟[(٣)] أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي أخفوا ما تناجوا به بينهم وهو ما أخبر تعالى به في قوله:

(٦٣) ﴿إِنْ[(٤)] هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ أي موسى وهارون ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ أي دياركم المصرية، ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ[(٥)]﴾ أي بأشرافكم وساداتكم من بني إسرائيل وغيرهم فيتابعوهما على ما جاءا به ويدينون بدينهما، وعليه فأجمعوا أمركم حتى لا تختلفوا فيما بينكم.

(٦٤) ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ واحدًا متراصًا، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي غلب، وهذا بعد أن اتفقوا على أسلوب المباراة قالوا بأمر فرعون:

(٦٥) ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ عصاك، وإما أن نلقي نحن فنكون أول من ألقى.

---

(١) الويل: الهلاك وهو شبه مصدر، ونصبه إما على تقدير: ألزمهم الله أو على النداء أي: يا ويلهم. كقوله: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا﴾.

(٢) سحت وأسحت بمعنى، وأصله من استقصاء الشعر في إزالته، قرأ أهل الكوفة: ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ بضم الياء من أسحت، وقرأ أهل الحجاز بفتح الياء من سحت. قال الشاعر:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلاّ مُسحتًا أو مجلّفا

والشاهد في: مسحت من أسحت.

(٣) التنازع: مشتق من جذب الدلو من البئر وجذب الثوب من الجسد، والتنازع: تفاعل إذ كل ذي رأي يريد نزع رأي صاحبه لرأيه لما يراه من الصواب.

(٤) قراءة الجمهور بكسر إنّ وتشديد النون، وبلغ الخلاف في هذا الحرف أشدّه فبلغوا فيه إلى ستة تخريجات أمثلها: أن (إن) حرف جواب بمعنى: نعم. قال الشاعر:

ويقلن شيب قد علا ... ك وقد كبرت فقلت إنه

والشاهد في إنه جواب لما في البيت من كلام، والهاء في إنه هاء السكت، وشاهد آخر وهو: أنّ عبدالله بن الزبير قال لأعرابي استجداه فلم يعطه: إنّ وراكبها. لما قال الأعرابي: لعن الله ناقة حملتني إليك. فقوله: إنّ: أي: نعم وراكبها أي: ملعون كذلك.

(٥) المثلى: مؤنث الأمثل، من المثالية التي هي حسن الحال. أراد فرعون إثارة الحمية في قومه ليدافعوا عن عاداتهم وشرائعهم وأخلاقهم.

(٦٦) فقال لهم موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾، فألقوا عندئذ ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ وكانت ألوفًا فغطت الساحة وهي تتحرك وتضطرب لأنهامطلية بالزئبق فلما سخنت بحر الشمس صارت تتحرك وتضطرب الأمر الذي خيل فيه لموسى أنها تسعى (باقي الحديث في الآيات بعد).

هداية الآيات:

١ ـ حرمة الكذب على الله تعالى، وإنه ذنب عظيم يسبب دمار الكذاب وخسرانه.

٢ ـ من مكر الإنسان(١) وخداعه أن يحول القضية الدينية البحتة إلى سياسة خوفًا من التأثير على النفوس فتؤمن وتهتدي إلى الحق.

٣ ـ معية الله تعالى لموسى وهارون تجلت في تصرفات موسى إذ الإذن لهم بالإلقاء أولاً من الحكمة وذلك أن الذي يبقى في نفوس المتفرجين والنظارة هو المشهد الأخير والكلمة الأخيرة التي تقال. لا سيما في موقف كهذا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٧ ـ ٧١]

(٦٧) ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً﴾: أي أحس بالخوف في نفسه.

(٦٨) ﴿أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾: أي الغالب المنتصر.

(٦٩) ﴿تَلْقَفْ﴾: أي تبتلع بسرعة ما صنع السحرة من تلك الحبال والعصي. ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾: أي كيد سحر لا بقاء له ولا ثبات. ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾: أي لا يفوز بمطلوبه حيثما كان.

(٧٠) ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾: أي ألقوا بأنفسهم ورؤوسهم على الأرض ساجدين.

(٧١) ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾: أي لمعلمكم الذي علمكم السحر. ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾: أي يد يمنى مع رجل يسرى. ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾: أي على أخشاب النخل. ﴿أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾: يعني نفسه ـ لعنه الله ـ ورب موسى أشد عذابًا وأدومه على مخالفته وعصيانه.

معنى الآيات:

(٦٨) ما زال السياق في الحديث عن المباراة التي بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون إنه لما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وتحركت واضطربت وامتلأت بها الساحة شعر موسى بخوف في نفسه فأوحى إليه ربه تعالى في نفس اللحظة: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ أي الغالب القاهر لهم.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦٧) فأوجس(٢) في نفسه خيفة موسى والثانية (٦٨): ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ۝﴾.

(٦٩) وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ(٣) تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ أي تبتلع بسرعة وعلل لذلك فقال: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ(٤) سَاحِرٍ﴾ أي هو مكر وخدعة من ساحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي لا يفوز الساحر بما أراد ولا يظفر به أبدًا لأنه مجرد تخيلات يريها غيره. وليس لها حقيقة ثابتة لا تتحول ولما شاهد السحرة ابتلاع العصا لكل حبالهم وعصيهم عرفوا أن ما جاء به موسى ليس سحرًا وإنما هو معجزة سماوية ألقوا بأنفسهم على الأرض ساجدين لله رب العالمين لما بهر نفوسهم من عظمة المعجزة وقالوا في وضوح:

(٧٠) ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

(٧١) وهنا صاح فرعون مزمجرًا مهددًا ليتلافى في نظره شر الهزيمة فقال للسحرة ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ بذلك ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾(٥) أي معلمكم العظيم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ

(١) المراد به الإنسان الذي لا يؤمن بالله ولقائه ولا يتحلى بالصبر والتقوى.

(٢) ﴿فَأَوْجَسَ﴾: أي أحس ووجد أي: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي العصا.

(٣) لم يقل له: ألق العصا لأنّ فيها إكبارًا لشأن العصا وأنها بحق قادرة على إبطال باطل السحرة.

(٤) قال الجمهور: ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ وقرأ بعضهم: **﴿كيد سحر﴾** بكسر السين أي: كيد ذي سحر، وكيد: خبر مرفوع، والمبتدأ: ما الموصولية في قوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ وصنعوا: صلتها، وكيد: الخبر. وقرىء بنصب كيد على أنّ ما: كافة، وكيد: معمول لصنعوا.

(٥) أراد فرعون بقوله هذا التشبيه على الناس والتمويه حتى لا يتبعوا السحرة فيؤمنوا كإيمانهم لا أنّ موسى أستاذهم في السحر وأنه أحذق منهم له وأعلم منهم به.

﴿ٱلسِّحۡرِۗ﴾ فتواطأتم معه على الهزيمة. ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ تعذيبًا وتنكيلاً فاقطع يمين أحدكم مع يسرى رجليه، أو العكس ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ[1] فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ أي لأشدنكم على أخشاب النخل وأترككم معلقين عبرة ونكالاً لغيركم ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ أي أدومه: رب موسى الذي آمنتم به أو أنا «فرعون عليه لعائن الله».

هداية الآيات:

١ - الشعور بالخوف والإحساس به عند معاينة أسبابه لا يقدح في الإيمان.

٢ - تقرير أن ما يظهر السحرة من تحويل الشيء إلى آخر إنما هو مجرد تخييل لا حقيقة له.

٣ - حرمة السحر لأنه تزوير وخداع.

٤ - قوة تأثير المعجزة في نفس السحرة لما ظهر لهم من الفرق بين الآية والسحر.

٥ - شجاعة المؤمن لا يرهبها خوف بقتل ولا بصلب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٢ ـ ٧٦]

(٧٢) ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾: أي لن نفضلك ونختارك. ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾: أي خلقنا ولم نكن شيئًا. ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾: أي اصنع ما قلت إنك تصنعه بنا.

(٧٣) ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾: أي خير منك ثوابًا إذا أطيع وأبقى منك عذابًا إذا عُصي.

(٧٤) ﴿مُجۡرِمٗا﴾: مجرمًا أي على نفسه مفسدًا لها بآثار الشرك والكفر والمعاصي.

(٧٦) ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾: أي ثواب من تتطهر من آثار الشرك والمعاصي وذلك بالإيمان والعمل الصالح.

معنى الآيات:

(٧٢) ما زال السياق مع فرعون والسحرة المؤمنين أنه لما هددهم فرعون بالقتل والصلب على جذوع النخل لإيمانهم بالله وكفرهم به وهو الطاغوت قالوا له ما أخبر تعالى به عنهم في هذه الآية (٧٢): ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾ يا فرعون ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الدلائل والحجج القاطعة على أن رب[2] موسى وهارون هو الرب الحق الذي تجب عبادته وطاعته فلن نختارك على الذي خلقنا فنؤمن بك ونكفر به لن يكون هذا أبدًا واقض ما أنت عازم على قضائه علينا من القتل والصلب. ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ في هذه الحياة الدنيا لما لك من السلطان فيها أما الآخرة فسوف يقضى عليك فيها بالخلد في العذاب المهين.

(٧٣) وأكدوا إيمانهم في غير خوف ولا وجل فقالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ أي خالقنا ورازقنا ومدبر أمرنا ﴿لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي ذنوبنا، ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾ أي من تعلمه والعمل به، ونحن لا نريد ذلك ولا شك أن فرعون كان قد ألزمهم بتعلم السحر والعمل به من أجل محاربة موسى وهارون لما رأى من معجزة العصا واليد. وقولهم: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ أي خير ثوابًا وجزاءً حسنًا لمن آمن به وعمل صالحًا، وأبقى عذابًا لمن كفر به وآمن بغيره وعصاه. هذا ما دلت عليه الآيتان (٧٢) و (٧٣).

(٧٤) أما الآية الثالثة (٧٤) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا[3]﴾ أي على نفسه بإفسادها بالشرك والمعاصي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ[4] جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ

---

(١) حروف الجر تتناوب، والفاء هنا: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ بمعنى: على. قال الشاعر:
هم صلبوا العبديّ في جذع نخلة ... فلا عطست شيبان إلاّ بأجدعا

(٢) روي أن آسيا امرأة فرعون لما بدأت المباراة قالت لهم: أخبروني عمّن يغلب فأخبرت أن موسى وهارون غلبا فقالت: آمنت بربّ موسى وهارون. فأمر فرعون بأعظم صخرة فإذا أصرّت على قولها فألقوها عليها فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فرأت منزلها في الجنة بعد أن قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وخرجت روحها فألقيت عليها الصخرة وهي جسد لا روح فيها، استجاب الله لها عليها السلام.

(٣) المجرم: فاعل الجريمة، وهي المعصية، والفعل الخبيث، والمجرم في اصطلاح القرآن: الكافر غالبًا.

(٤) اللام في: ﴿لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ لام الاستحقاق أي: هو صائر إليها لا محالة.

فِيهَا[(١)]﴾ فيستريح من العذاب فيها، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة يسعد فيها.

(٧٥) وقولهم: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي مؤمنًا به كافرًا بالطاغوت قد عمل بشرائعه فأدى الفرائض واجتنب المناهي ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ[(٢)] لَهُمُ﴾ جزاء إيمانهم وعملهم الصالح ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي في جنات عدن.

(٧٦) ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون منها، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تتطهر بالإيمان وصالح الأعمال بعد تخليه عن الشرك والخطايا والذنوب. لا شك أن هذا العلم الذي عليه السحرة كان قد حصل لهم من طريق دعوة موسى وهارون إذ أقاموا بينهم زمنًا طويلاً.

هداية الآيات:

١ - لا يؤثر الكفر على الإيمان والباطل على الحق والخرافة على الدين الصحيح إلا أحمق جاهل.

٢ - تقرير مبدأ أن عذاب الدنيا يتحمل ويصبر عليه بالنظر إلى عذاب الآخرة.

٣ - الإكراه نوعان: ما كان بالضرب الذي لا يطاق يغفر لصاحبه وما كان لمجرد تهديد ومطالبة فإنه لا يغفر إلا بالتوبة الصادقة وإكراه السحرة كان من النوع الآخر.

٤ - بيان جزاء كل من الكفر والمعاصي، والإيمان والعمل الصالح في الدار الآخرة.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾

٣١٧

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٧ - ٨٢]

(٧٧) ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾: أي سر ليلاً من أرض مصر. ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾: طريقًا في وسط البحر يابسًا لا ماء فيه. ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾: أي لا تخشى أن يدركك فرعون، ولا تخشى غرقًا.

(٧٨) ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾: أي فغطاهم من ماء البحر ما غطاهم حتى غرقوا فيه.

(٧٩) ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾: أي بدعائهم إلى الإيمان به والكفر بالله رب العالمين. ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾: أي لم يهدهم كما وعدهم بقوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

(٨٠) ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾: أي لأجل إعطاء موسى التوراة التي فيها نظام حياتهم دينًا ودنيا. ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: المن: شيء أبيض كالثلج، والسلوى طائر يقال له السُّمَّاني[(٣)].

(٨١) ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾: أي بالإسراف فيه، وعدم شكر الله تعالى عليه.

(٨٢) ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾: أي بالاستقامة على الإيمان والتوحيد والعمل الصالح حتى الموت.

معنى الآيات:

إنه بعد الجدال الطويل والخصومة الشديدة التي دامت زمنًا غير قصير وأبى فيها فرعون وقومه قبول الحق والإذعان له أوحى تعالى إلى موسى عليه السلام بما أخبر به في قوله عز وجل:

(٧٧) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ وبأي شيء أوحى إليه. بالسرى ببني إسرائيل وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

(١) لا يموت فيها ولا يحيى، لأن عذابها متجدد فيها فلا هو ميّت لأنه يحس بالعذاب ولا هو حي لأنه في حالة الموت أهون منها، وهذا كقول عباس بن مرداس:

وقد كنت في الحرب ذا تُدْرَءٍ فلم أُعط شيئًا ولم أُمنَع

(٢) ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ..﴾ الآية: أوتي باسم الإشارة إلى أنهم أحياء بهذا النعيم في جنات ويؤكده قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

(٣) السُّماني: بضم السين، وفتح النون ممدودة، والجمع سمانيات والواحدة سماناة كمناجاة: نوع من الطيور.

﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ قوله: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا[(١)]﴾ أي اجعل لهم طريقًا في وسط البحر، وذلك حاصل بعد ضربه البحر بالعصى فانفلق البحر فرقتين والطريق وسطه يابسًا لا ماء فيه حتى اجتاز بنو إسرائيل البحر، ولما تابعهم فرعون ودخل البحر بجنوده أطبق الله تعالى عليهم البحر فأغرقهم أجمعين، بعد أن نجى موسى وبني إسرائيل.

(٧٨) وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ[(٢)] فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ﴾ أي من ماء البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ[(٣)]﴾ أي الشيء العظيم من مياه البحر.

وقوله لموسى: ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا[(٤)] وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أي لا تخاف أن يدركك فرعون من ورائك ولا تخشى غرقًا في البحر.

(٧٩) وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ[(٥)]﴾ إخبار منه تعالى أن فرعون أضل أتباعه حيث حرمهم من الإيمان بالحق واتباع طريقه، ودعاهم إلى الكفر بالحق وتجنب طريقه فاتبعوه على ذلك فضلوا وما اهتدوا، وكان يزعم أنه ما يهديهم إلا سبيل الرشاد وكذب.

(٨٠) وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ أي فرعون، ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ أي مع نبينا موسى لإنزال التوراة لهدايتكم وحكمكم بشرائعها، وأنزلنا عليكم المن والسلوى غذاء لكم في التيه.

(٨١) ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي قلنا لكم: كلوا من طيبات ما رزقناكم من حلال الطعام والشراب، ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ بترك الحلال إلى الحرام وبالإسراف في تناوله وبعدم شكر الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي أن أنتم طغيتم فيه. ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى﴾ أي ومن يجب عليه غضبي ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي في قعر جهنم وهلك.

(٨٢) وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ[(٦)]﴾ يعدهم تعالى بأن يغفر لمن تاب منهم ومن غيرهم فآمن وعمل صالحًا أي أدى الفرائض واجتنب المناهي ثم استمر على ذلك ملازمًا له حتى مات.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية إذ مثل هذا القصص لا يقصه إلا بوحي إليه إذ لا سبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحي الإلهي.

٢ - آية انفلاق البحر ووجود طريق يابس فيه لبني إسرائيل حتى اجتازوه دالة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته.

٣ - تذكير اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية بإنعام الله تعالى على سلفهم لعلهم يشكرون فيتوبون فيسلمون.

٤ - تحريم الإسراف والظلم، وكفر النعم.

٥ - الغضب صفة لله تعالى كما يليق ذلك بجلاله وكماله لا كصفات المحدثين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٣ - ٨٩]

(٨٣) ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾: أي شيء جعلك تترك قومك وتأتي قبلهم.

(٨٤) ﴿هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾: أي آتون بعدي وليسوا ببعيدين مني. ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾: أي استعجلت

---

(١) اليبس: محرّك الياء والباء، وتسكن الباء أيضًا: وصف بمعنى اليابس وأصله مصدر كالقدم، والعدم بفتح العين وضمها.

(٢) قرىء: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ وبالباء في بجنوده للمصاحبة فهي بمعنى مع أي مع جنوده.

(٣) ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾: في هذا تهويل عظيم لما غشيهم من الماء الذي غمرهم وغطّاهم بحيث يستحيل النجاة معه.

(٤) ﴿دَرَكًا﴾ أي: لحاقًا بك وبمن معك من بني إسرائيل.

(٥) ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾: توكيد لقوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ﴾ لأن الهدى ضد الضلال فما دام قد أضلهم فإنه ما هداهم كقوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾. وكقول الشاعر:

إما ترينا حفاة لا نعال لنا ... إنا كذلك ما نحفى وننتعل

وفي الآية: التهكم بفرعون إذ قال لهم: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

(٦) ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾: بأن لزم طريق الهداية حتى مات على ذلك، أما من تاب وعمل صالحًا ثم ضل بعد ذلك ومات على ضلالة، فلا يناله هذا الوعد ففي قوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ احتراس ممن يتوب ثم يعود فيموت على غير هداية.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

٣١٨

المجيء إليك طلبًا لرضاك عني.

(٨٥) ﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾: أي ابتليناهم أي بعبادة العجل. ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾: أي عن الهدى الذي هو الإسلام إلى الشرك وعبادة غير الرب تعالى.

(٨٦) ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾: أي شديد الغضب والحزن. ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾: أي بأن يعطيكم التوراة فيها نظام حياتكم وشريعة ربكم لتكملوا عليها وتسعدوا. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾: أي مدة الموعد وهي ثلاثون يومًا قبل أن يكملها الله تعالى أربعين يومًا. ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾: بترككم المجيء بعدي.

(٨٧) ﴿بِمَلْكِنَا﴾(١): أي بأمرنا وطاقتنا، ولكن غلب علينا الهوى فلم نقدر على إنجاز الوعد بالسير وراءك. ﴿أَوْزَارًا﴾: أي أحمالاً من حلي نساء الأقباط وثيابهن. ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾: أي ألقيناها في الحفرة بأمر هارون عليه السلام. ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾: السامري هو موسى بن ظفر من قبيلة(٢) سامرة الإسرائيلية، وما ألقاه هو التراب الذي أخذه من تحت حافر فرس جبريل ألقاه أي قذفه على الحلي.

(٨٨) ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾: أي ذا جثة. ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: الخوار صوت البقر. ﴿فَنَسِىَ﴾: أي موسى ربه هنا وذهب يطلبه.

(٨٩) ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾: أنه لا يكلمهم إذا كلموه لعدم نطقه بغير الخوار.

معنى الآيات:

(٨٣) بعد أن نجى الله تعالى بني إسرائيل من فرعون وملاءه حيث اجتاز بهم موسى البحر وأغرق الله فرعون وجنوده أخبرهم موسى أن ربه تعالى قد أمره أن يأتيه ببني إسرائيل وهم في طريقهم إلى أرض المعاد إلى جبل الطور ليؤتيهم التوراة فيها شريعتهم ونظام حياتهم دنيا ودينًا وأنه واعدهم جانب الطور الأيمن، واستعجل(٣) موسى في المسير إلى الموعد فاستخلف أخاه هارون على بني إسرائيل ليسير بهم وراء موسى ببطء حتى يلحقوا به عند جبل الطور، وحدث أن بني إسرائيل فتنهم السامري بصنع العجل ودعوتهم إلى عبادته وترك المسير وراء موسى عليه السلام فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞﴾ هو سؤال من الله تعالى لموسى ليخبره بما جرى لقومه بعده وهو لا يدري فلما قال تعالى لموسى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ عن المجيء وحدك دون بني إسرائيل مع أن الأمر أنك تأتي معهم أجاب موسى بقوله:

---

(١) ميم ملكنا: مثلثة تفتح وتضم وتكسر، والمعنى واحد كما في التفسير أي: لم يكن ذلك بإرادتنا واختيارنا.

(٢) نفى بعضهم أن تكون هناك قبيلة من بني إسرائيل تدعى السامرة. وإنما السامرة، أمة من سكان فلسطين في جهة نابلس قبل أن تكون فلسطين لبني إسرائيل، ثم امتزجوا ببني إسرائيل لما دخلوها واتبعوا معهم شريعة موسى، وبما أن السامري كان في مصر جائز أن يكون من قرية بمصر تسمى سامرة، والمراد من هذا أن السامري لم يكن من بني إسرائيل أصلاً ومحتدًا. ثم بمرور الأيام وجدت طائفة من بني إسرائيل تدعى السامرية، وهي عبارة عن طريقة ضالة تنتمي إلى شريعة التوراة وهي منحرفة فنشأت عن فتنة السامري الأولى كالطرق المنحرفة لدى المسلمين.

(٣) لهذا الاستعجال لامه ربّه وعتب عليه في قوله: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ حتى تركتهم وجئتنا وحدك، وقد ترتب على هذا الاستعجال شرّ كبير باتخاذ بني إسرائيل عجلاً عبدوه دون الله تعالى، ولذا قيل: تأنّ ففي العجلة الندامة وفي التأني السلامة.

(٨٤) ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى[1]﴾ آتون بعدي، وعجلت المجيء إليك لترضى عني.

(٨٥) هنا أخبره تعالى بما حدث لقومه فقال عز وجل: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ أي بصنع العجل لهم ودعوتهم إلى عبادته بحجة أنه الرب تعالى وأن موسى لم يهتد إليه.

(٨٦) ولما انتهت المناجاة وأعطى الله تعالى موسى الألواح التي فيها التوراة ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ أي حزينًا إلى قومه فقال لهم بما أخبر تعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ[2] أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ فذكرهم بوعد الله تعالى لهم بإنجائهم من آل فرعون وإكرامهم بالملك والسيادة موبخًا لهم على خطيئتهم بتخلفهم عن السير وراءه وانشغالهم بعبادة العجل والخلافات الشديدة بينهم، وقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾[3] أي لم يطل فالمدة هي ثلاثون يومًا فلم تكتمل حتى فتنتم وعبدتم غير الله تعالى، وقوله: ﴿أَمْ[4] أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بل أردتم بصنيعكم الفاسد أن يجب عليكم غضب من ربكم فحل بكم، ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى[5]﴾ بعكوفكم على عبادة العجل وترككم السير على أثري لحضور موعد الرب تعالى الذي واعدكم.

(٨٧) وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ هذا ما قاله قوم موسى كالمعتذرين به إليه فزعموا أنهم ما قدروا على عدم إخلاف الموعد لغلبة الهوى عليهم فلم يطيقوا السير وراءه مع وجود العجل وما ضللهم به السامري من أنه هو إلههم وأن موسى أخطأ الطريق إليه. هذا معنى قولهم: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي بأمرنا وقدرتنا إذ كنا مغلوبين على أمرنا.

وقولهم: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا[6] مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا﴾ هذا بيان لوجه الفتنة وسببها وهي أنهم لما كانوا خارجين من مصر استعار نساؤهم حليًا من نساء القبط بدعوى عيد لهم، وأصبحوا خارجين مع موسى في طريقهم إلى القدس، وتم إنجاؤهم وإغراق فرعون ولما نزلوا بالساحل استعجل موسى موعد ربه وتركهم تحت إمرة هارون أخيه على أن يواصلوا سيرهم وراء موسى إلى جبل الطور غير أن موسى الملقب بالسامري استغل الفرصة وقال لنساء بني إسرائيل هذا الحلي الذي عندكن لا يحل لَكُنَّ أخذه إذ هي ودائع كيف تستحلونها وحفر لهم حفرة وقال ألقوها فيها وأوقد فيها النار لتحترق ولا ينتفع بها بعد، هذا ما دل عليه قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي قوم فرعون فقذفناها أي في الحفرة التي أمر بها السامري وقوله تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ[7]﴾ هو من جملة قول بني إسرائيل لموسى فكما ألقينا الحلي في الحفرة ألقى السامري ما معه من التراب الذي أخذه من تحت حافر فرس جبريل.

(٨٨) فصنع السامري العجل ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا[8] لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي

---

(١) أثري، وإثري: لغتان، والأثر: ما يتركه الماشي على الأرض من علامات قدم أو حافر أو خف، والمعنى: هم سائرون على مواضع أقدامي وقرىء: ﴿إثري﴾ بكسر الهمزة والجمهور قرؤوا بالفتح.

(٢) هذا ابتداء كلام يحمل اللوم والعتاب والتأديب حيث جمع موسى بني إسرائيل وفيهم هارون وخاطبهم قائلاً: ﴿يَٰقَوْمِ...﴾ إلخ.

(٣) الاستفهام تابع للاستفهام الأول: ألم يعدكم، وهو للتقرير والإنكار معًا.

(٤) ﴿أم﴾: بمعنى: بل والاستفهام بعدها إنكاري أي: أنكر عليهم إرادتهم حلول غضب الله عليهم بسبب شركهم بعبادة العجل.

(٥) المراد من موعده إياهم: هو ما عهد به إليهم بأن يلزموا طاعة هارون ويسيروا معه بدون تأخر حتى يلحقوا به في جبل الطور فأخلفوا ذلك فعصوا هارون وعكفوا على عبادة العجل وتركوا السير على إثره كما طلب منهم.

(٦) الأوزار: جمع وزر، وهو الحمل الثقيل والمراد بها: الحلي الذي استعاره نساؤهم من جاراتهن القبطيات بمصر بقصد الفرار به للنفع الخاص، وخافوا تلاشي الحلي فرأوا أن يصوغوه في قطع كبيرة يحفظ بها من الضياع.

(٧) أي: فمثل قذفنا الزينة في النار لصوغها قذف السامري، وقالوا: هذا اعتذارًا منهم لموسى عليه السلام.

(٨) الجسد: الجسم ذو الأعضاء وسواء كان حيًا أو ميتًا، والتعبير بأخرج: الإشارة إلى أنّ السامري صنع العجل بحيلة مستورة خفية حتى أتمّه ثمّ أظهره أي: أخرجه ظاهرًا لنا.

صوت فقال بعضهم لبعض هذا إلهكم وإله موسى الذي ذهب إلى موعده فنسي[(١)] وضل الطريق إليه فاعبدوه حتى يأتي موسى.

(٨٩) قال تعالى موبخًا إياهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ إذا كلموه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيف يعقلون أنه إله وهو لا يجيبهم إذا سألوه، ولا يُعطيهم إذا طلبوه، ولا ينصرهم إذا استنصروه ولكنه الجهل والضلال واتباع الهوى. والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - ذم العجلة وبيان آثارها الضَّارة فاستعجال موسى الموعد وتركه قومه وراءه كان سببًا في أمر عظيم وهو عبادة العجل وما تترتب عليها من آثار جسام.

٢ - مشروعية طلب رضا الله تعالى ولكن بما يحب أن يتقرب به إليه.

٣ - مشروعية الغضب لله تعالى والحزن على ترك عبادته بمخالفة أمره ونهيه.

٤ - مشروعية استعارة الحلي للنساء والزينة، وحرمة جحدها وأخذها بالباطل.

٥ - وجوب استعمال العقل واستخدام الفكر للتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٠ ـ ٩٤]

(٩٠) ﴿فُتِنتُم بِهِۦ﴾: أي ابتليتم به أي بالعجل.

(٩١) ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾: أي لن نزال عاكفين على عبادته.

(٩٢) ﴿إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾: أي بعبادة العجل واتخاذه إلهًا من دون الله تعالى.

(٩٤) ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾: حيث أخذ موسى من شدة غضبه بلحية أخيه وشعر رأسه يجره إليه يعذله ويلوم عليه. ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾: أي ولم تنتظر قولي فيما رأيته في ذلك.

معنى الآيات:

(٩٠) ما زال السياق في الحوار الذي دار بين موسى وقومه بعد رجوعه إليهم من المناجاة فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل رجوع موسى قال لهم أثناء عبادتهم العجل يا قوم إن العجل ليس إلهكم ولا إله موسى وإنما هو فتنة فتنتم به ليرى الله تعالى صبركم على عبادته ولزوم طاعة رسوله، وليرى خلاف ذلك فيجزي كلًّا بما يستحق وقال لهم: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي شاهدتم آثار رحمته في حياتكم كلها فاذكروها ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ في عبادة الله وحده وترك عبادة غيره ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾[(٢)] فإني خليفة موسى الرسول فيكم فأجاب القوم الضالون بما أخبر تعالى عنهم بقوله:

(٩١) ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ أي لن نزول عن عبادته والعكوف حوله ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[(٣)].

(٩٢) ولما سمع موسى من قومه ما سمع التفت إلى هارون قائلاً معاتبًا عاذلاً لائمًا ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ[(٤)] إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ أي بعبادة العجل.

(٩٣) ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي بمن معك من المسلمين وتترك المشركين، ﴿أَفَعَصَيْتَ[(٥)] أَمْرِي﴾

(٩٤) ومن شدة الوجد وقوة اللوم والعذل أخذ بشعر رأس أخيه بيمينه وأخذ بلحيته بيساره وجره إليه وهو يعاتبه ويلوم عليه فقال هارون: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ إن

---

(١) إطلاق النسيان على الضلال والغفلة والترك شائع وسائغ في اللغة.

(٢) أي: لا أمر السامري أو: فاتبعوني في مسيري إلى موسى ودعوا العجل، فعصوه.

(٣) روي أنّه لما قالوا هذه المقالة اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفٍ من الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قال: هذا صوت فتنة فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله وقال: ﴿يَٰهَٰرُونُ...﴾ الآية.

(٤) الاستفهام إنكاري إذ أنكر عليه عدم متابعته لما شاهد القوم يعبدون العجل إذ كان المفروض أن يتركهم ويلحق بموسى يخبره.

(٥) أمره هو قوله له عند مغادرة بني إسرائيل إلى جبل الطور: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فلما أقام معهم ولم يبالغ في منعهم والإنكار عليهم نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره وهذا دليل على واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغييره ومفارقة أهله، وأن المقيم بينهم ـ لا سيما إذا كان راضيًا ـ حكمه كحكمهم، وفي هذه الآية دليل على بدعة الصوفية بدعة الرقص والتواجد، وأنها موروثة عن هؤلاء السامريين عَبَدة العجل والعياذ بالله تعالى.

لي عذرًا في عدم متابعتك وهو ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إن أنا أتيتك ببعض قومك وهم المسلمون وتركت بعضًا آخر وهم عباد العجل ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وذلك لا يرضيك. ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي ولم تنظر قولي فيما رأيت في ذلك.

هداية الآيات:

١ ـ معصية الرسول تؤدي إلى فتنة العاص في دينه ودنياه.

٢ ـ جواز العذل والعتاب للحبيب عند تقصيره فيما عهد به إليه.

٣ ـ جواز الاعتذار لمن اتهم بالتقصير وإن حقًا.

٤ ـ قد يخطىء المجتهد في اجتهاده وقد يصيب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٥ ـ ٩٨]

(٩٥) ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾: أي ما شأنك وما هذا الأمر العظيم الذي صدر منك.

(٩٦) ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾: أي علمت من طريق الإبصار والنظر ما لم يعلموا به لأنهم لم يروه. ﴿قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾: أي قبضت قبضة من تراب أثر حافر فرس الرسول جبريل عليه السلام.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾: أي ألقيتها وطرحتها على الحلي المصنوع عجلاً. ﴿سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾: أي زينت لي هذا العمل الذي هو صنع العجل.

(٩٧) ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾: أي اذهب تائهًا في الأرض طول حياتك وأنت تقول لا مساس أي لا يمسني أحد ولا أمسه لما يحصل من الضرر العظيم لمن تمسه أو يمسك. ﴿إِلَٰهِكَ﴾: أي العجل. ﴿ظَلْتَ﴾: أي ظللت طوال الوقت عاكفًا عليه. ﴿فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾: أي في البحر ننسفه بعد إحراقه وجعله كالنشارة نسفًا.

(٩٨) ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي لا معبود لكم إلا الله الذي لا إله إلا هو.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحوار بين موسى وقومه فبعد لومه أخاه وعذله له التفت إلى السامري المنافق إذ هو من عُبّاد البقر وأظهر الإسلام في بني إسرائيل.

(٩٥) ولما أتيحت له الفرصة عاد إلى عبادة البقر فصنع العجل وعبده ودعا إلى عبادته فقال له في غضب: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أي ما شأنك وما الذي دعاك إلى فعلك القبيح الشنيع هذا فقال السامري كالمعتذر:

(٩٦) ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي علمت ما لم يعلمه قومك ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ﴾ حافر فرس ﴿ٱلرَّسُولِ[1] فَنَبَذْتُهَا﴾ في الحلي المصنوع عجلاً فخار كما تخور البقر. ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ذلك أي زينته لي وحسنته ففعلته.

(٩٧) وهنا أجابه موسى عليه السلام بما أخبر تعالى به في قوله: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ[2] فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ[3]﴾ أي لك مدة حياتك أن تقول لمن أراد أن يقربك لا مساس أي لا تمسني ولا أمسك لتتيه طول عمرك في البرية مع السباع والحيوان عقوبة لك على جريمتك، ولا شك أن فراره من الناس وفرار الناس منه لا يكون مجرد أنه لا يرقب في ذلك، بل لعله قيل إنها الحمى فإذا مسَّ أحد حُمَّا معًا أي أصابتهما الحمى معًا كأنه أسلاك كهربائية مكشوفة من مسها تكهرب منها. وقوله له: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي ذاك النفي والطرد عذاب الدنيا، وإن لك عذابًا آخر يوم القيامة في موعد لن تخلفه أبدًا فهو آت وواقع لا محالة.

وقوله أي موسى للسامري: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ المزعوم ﴿ٱلَّذِي

---

(١) الرسول هنا: جبريل عليه السلام، قاله جمهور المفسرين، وقالوا: إنّ السامري فتنه الله تعالى فأراه جبريل راكبًا فرسًا فوطىء حافر الفرس مكانًا فإذا هو مخضرّ بالنبات، فعلم السامري أن أثر فرس جبريل إذا ألقي على جماد صار حيًا، فقبض من تراب وطئه حافر الفرس واحتفظ به إلى اليوم، ولما صنع العجل ألقاه عليه فصار له خوار كالعجل الحيوان.

(٢) نفاه موسى عن قومه، وأمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. قال الشاعر:

تميم كرهط السامري وقوله ... ألا لا تريد السامري مِساسا

هذه المسألة أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألاّ يُخالطوا وقد فعل النبي ﷺ ذلك بالذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

(٣) ﴿لَا مِسَاسَ﴾: المساس مصدر ماسه يماسه ومساسًا. ولا: نافية للجنس، ومساس: اسمها مبني على الفتح.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

٣١٩

ظَلْتَ[1] عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ تعبده لا تفارقه، والله ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ[2] فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ وفعلاً حرقه ثم جعله كالنشارة وذرّه في البحر تذرية حتى لا يعثر له على أثر.

﴿٩٨﴾ ثم قال لأولئك الذين عبدوا العجل المغرر بهم المضللين: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ الحق الذي تجب له العبادة والطاعة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ[3] وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي وسع علمه كل شيء فهو عليم بكل شيء وقدير على كل شيء وما عداه فليس له ذلك وما لم يكن ذا قدرة على شيء وعلم بكل شيء فكيف يُعبد ويُطاع..؟!

هداية الآيات:

١ - مشروعية الاستنطاق للمتهم والاستجواب له.

٢ - ما سولت النفس لأحد ولا زينت له شيئًا إلا تورط فيه إن هو عمل بما سولته له.

٣ - قد يجمع الله تعالى للعبد ذي الذنب العظيم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

٤ - مشروعية هجران المبتدع ونفيه وطرده فلا يسمح لأحد بالاتصال به والقرب منه.

٥ - كسر الأصنام والأوثان والصور وآلات اللهو والباطل الصارفة عن عبادة الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٩ - ١٠٤]

﴿٩٩﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي كما قصصنا عليك هذه القصة قصة موسى وفرعون وموسى وبني إسرائيل نقص عليك من أنباء الرسل. ﴿مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾: أي قرآنا وهو القرآن الكريم.

﴿١٠٠﴾ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾: أي لم يؤمن به ولم يقرأه ولم يعمل به. ﴿وِزْرًا﴾: أي حملاً ثقيلاً من الآثام.

ز﴿١٠٢﴾ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾: أي النفخة الثانية وهي نفخة البعث، والصور هو القرن. ﴿زُرْقًا﴾: أي عيونهم زرق ووجوههم سود آية أنهم أصحاب الجحيم.

﴿١٠٣﴾ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾: أي يخفضون أصواتهم يتسارون بينهم من شدة الهول.

﴿١٠٤﴾ ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أي أعدلهم رأيًا في ذلك، وهذا كله لعظم الموقف وشدة الهول والفزع.

معنى الآيات:

﴿٩٩﴾ بعد نهاية الحديث بين موسى وفرعون، وبين موسى وبني إسرائيل قال تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ[4] عَلَيْكَ﴾ أي كما قصصنا عليك ما قصصنا من نبأ موسى وفرعون وخبر موسى وبني إسرائيل نقص عليك ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي أحداث الأمم السابقة ليكون ذلك آية نبوتك ووحينا إليك،

(١) ظلت: أي: دمت وأقمت عليه عاكفًا أي: ملازمًا وأصل ظلت: ظللت. قال الشاعر:

خلا أنّ العتاق من المطايا ... أحَسْنَ به فهن إليه شوس

فأحَسن أصله: أحسسن، حذفت إحدى السينين كما حذفت إحدى اللامين.

(٢) النسف: نقض الشيء ليذهب به الريح، وهو: التذرية، والمنسف آلة ينسف بها الشيء، والنسافة: ما يسقط منه.

(٣) لا العجل الذهبي الذي سولت نفس السامري الخبيثة صنعه.

(٤) الكاف من ﴿كَذَٰلِكَ﴾: في محل نصب لأنها بمعنى مثل: نعت لمصدر محذوف تقديره: نقص عليك قصصًا من أنباء ما قد سبق مثل ما قصصنا عليك هذا القصص.

وعبرة وذكرى للمؤمنين. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا[(١)]﴾ أي وقد أعطيناك تفضلاً منا ذكرًا وهو القرآن العظيم يذكر به العبد ربه ويهتدي به إلى سبيل النجاة والسعادة.

(١٠٠) وقوله: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي عن القرآن فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي إثمًا عظيمًا لأنه لم يعمل صالحًا وكل عمله كان سيئًا لكفره وعدم إيمانه.

(١٠١) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي في ذلك الوزر في النار، وقوله: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي قبح ذلك الحمل حملاً يوم القيامة إذ صاحبه لا ينجو من العذاب بل يطرح معه في جهنم يخلد فيها.

(١٠٢) وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي المكذبين بالدين الحق العاملين بالشرك والمعاصي ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم ينفخ في الصور النفخة الثانية ﴿زُرْقًا﴾[(٢)] أي الأعين مع اسوداد الوجوه.

(١٠٣) وقوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يتهامسون بينهم يسأل بعضهم بعضًا كم لبثتم في الدنيا وفي القبور فيقول البعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ[(٣)] إِلَّا عَشْرًا﴾ أي ما لبثتم إلا عشر ليال.

(١٠٤) وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ[(٤)] بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي أعدلهم رأيًا ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، وهذا التقال للزمن الطويل سببه هول القيامة وعظم ما يشاهدون فيها من ألوان الفزع والعذاب.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة محمد ﷺ يقص تعالى عليه أنباء ما قد سبق بعد قصه عليه أنباء موسى وفرعون بالحق، وإيتائه القرآن الكريم.

٢ - كون القرآن ذكرًا للذاكرين لما يحمل من الحجج والدلائل والبراهين.

٣ - سوء حال المجرمين يوم القيامة، الذين أعرضوا عن القرآن الكريم.

٤ - عظم أهوال يوم القيامة حتى يتقال معها المرء مدة الحياة الدنيا التي هي آلاف الأعوام.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٥ - ١١٢]

(١٠٥) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾: أي المشركون عن الجبال كيف تكون يوم القيامة. ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾: أي يفتتها ثم تذروها الرياح فتكون هباءً منبثًا.

(١٠٦) ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾: أي مستويًا.

(١٠٧) ﴿عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾: أي لا ترى فيها انخفاضًا ولا ارتفاعًا.

(١٠٨) ﴿ٱلدَّاعِىَ﴾: أي إلى المحشر يدعوهم إليه للعرض على الرب تعالى. ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾: أي سكنت فلا يسمع إلا الهمس وهو صوت الأقدام الخفي.

(١٠٩) ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾: بأن قال لا إله إلا الله من قلبه صادقًا.

(١١٠) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾: الله تعالى ما بين أيدي الناس وما خلفهم، وهم لا يحيطون به علمًا.

(١١١) ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾: أي ذلت وخضعت للرب الحي الذي لا يموت. ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾: أي جاء يوم القيامة يحمل أوزار الظلم وهو الشرك.

(١١٢) ﴿ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾: أي لا يخاف ظلمًا بأن يزاد في سيئاته ولا هضمًا بأن ينقص من حسناته.

معنى الآيات:

(١٠٥) يقول تعالى لرسوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي المشركين من قومك المكذبين بالبعث والجزاء ﴿عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ عن مصيرها يوم القيامة فقل[(٥)] لهم:

---

(١) ويطلق الذكر على الشرف أيضًا، وعلى ما يذكر به الله تعالى من قول والمراد به هنا القرآن الكريم.

(٢) الزَّرَق: خلاف الكَحَل، والعرب تتشاءم بزرق العيون وتذمه وسبب هذه الزرقة هو شدة العطش.

(٣) أي: في الدنيا أو في القبور.

(٤) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾: جملة معترضة قول الأولين: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ نظروا فيه إلى أن تغير الأجسام يتم في عشرة أيام، والذي قال يومًا: إلى أن الأجسام ما تغيرت إذ قد أعيدت كما كانت.

(٥) قال القرطبي: كل سؤال في القرآن أجيب بقل إلاّ هذا فبـ: فقل لأن المعنى: إن سألوك فقل، فتضمن الكلام معنى الشرط، وهو يقترن بالفاء دائمًا.

(١٠٥) ـ (١٠٧) ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا[1] ۝ فَيَذَرُهَا[2] قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا[3] ۝﴾ أي أجبهم بأن الله تعالى يفتتها ثم ينسفها فتكون هباءً منبثًا، فيترك أماكنها قاعًا صفصفًا أي أرضًا مستوية لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا أي لا انخفاضًا ولا ارتفاعًا.

(١٠٨) وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝﴾ أي يوم تقوم القيامة فيُنشرون يدعوهم الداعي هلموا إلى أرض المحشر فلا يميلون عن صوته يمنةً ولا يُسرةً وهو معنى لا عوج له. وقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي ذلت وسكنت ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ وهو صوت خفي كأصوات خفاف الإبل إذا مشت.

(١٠٩) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ عنده ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي يُخبر تعالى أنهم يوم جمعهم للمحشر لفصل القضاء لا تنفع شفاعة أحدٍ أحدًا إلا من أذن له الرحمن في الشفاعة، ورضي له قولاً أي وكان المشفوع فيه من أهل التوحيد أهل لا إله إلا الله وقوله:

(١١٠) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝﴾ أي يعلم ما بين أيدي أهل المحشر أي ما سيحكم به عليهم من جنة أو نار، وما خلفهم مما تركوه من أعمال في الدنيا، وهم لا يحيطون به عز وجل علمًا، فلذا سيكون الجزاء عادلاً رحيمًا.

(١١١) وقوله: ﴿وَعَنَتِ[4] ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ[5]﴾ أي ذلت وخضعت كما يعنو بوجهه الأسير، والحي القيوم هو الله جل جلاله وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي خسر ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ ألا وهو الشرك والعياذ بالله.

(١١٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ والحال أنه مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورُسُلِهِ واليوم الآخر والبعث الآخر[6] فهذا لا يخاف ظلمًا بالزيادة في سيئاته، ولا هضمًا بنقص من حسناته، وهي عدالة الله تعالى تتجلى في موقف الحساب والجزاء.

الجُزْءُ السَّادِسَ عَشَرَ — سُورَةُ طه

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥)

٣٢٠

هداية الآيات:

١ ـ بيان جهل المشركين في سؤالهم عن الجبال.

٢ ـ تقرير مبدأ البعث الآخر.

---

(١) قال ابن الأعرابي وغيره يقلعها قلعًا من أصولها، ثم يصيرها رملًا يسيل سيلاً، ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا أو هكذا، ثم كالهباء المنثور.

(٢) ﴿فَيَذَرُهَا﴾: أي: يذر مواضعها قاعًا صفصفًا، القاع: الأرض الملساء لا نبات فيها، ولا بناء عليها وهي مستوية، وجمع القاع: أقواع وقيعان.

(٣) الأمت: المكان المرتفع كالنبك، وهو التل الصغير، والعوج: الوهدة وهي الانخفاض كالعوج في الشيء أي: ليس في الأرض انخفاض ولا ارتفاع بل هي مستوية.

(٤) ومنه قيل للأسير عانٍ، قال أمية بن الصلت:

مليك على عرش السماء مهيمن ... لعزّته تعنو الوجوه وتسجد

(٥) القيوم: أي: القائم بتدبير الخلق، والقائم على كل نفس بما كسبت.

(٦) والقدر خيره وشرّه.

٣ - لا شفاعة لغير أهل التوحيد فلا يَشفع مشرك، ولا يُشفع لمشرك.

٤ - بيان خيبة المشركين وفوز الموحدين يوم القيامة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٣ - ١١٥]

(١١٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾: أي مثل ذلك الإنزال أنزلنا قرآنًا عربيًا أي بلغة العرب ليفهموه. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾: أي من أنواع الوعيد، وفنون العذاب الدنيوي والأخروي. ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾: أي بهلاك الأمم السابقة فيتعظون فيتوبون ويسلمون.

(١١٤) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾: أي عما يقول المفترون ويشرك المشركون. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾: أي بقراءته. ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾: أي من قبل أن يفرغ جبريل من قراءته عليك.

(١١٥) ﴿عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾: أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة. ﴿فَنَسِيَ﴾: أي عهدنا وتركه. ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾: أي حزمًا وصبرًا عما نهيناه عنه.

معنى الآيات:

(١١٣) يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ[1] أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي ومثل ما أنزلنا من تلك الآيات المشتملة على الوعد والوعيد أنزلنا القرآن بلغة العرب ليفهموه ويهتدوا به ﴿وَصَرَّفْنَا[2] فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي بينا فيه من أنواع الوعيد وكررنا فنون العذاب الدنيوي والأخروي لعل قومك أيها الرسول يتقون ما كان سببًا في إهلاك الأمم السابقة وهو الشرك والتكذيب والمعاصي ﴿أَوْ يُحْدِثُ[3] لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي يوجد لهم ذكرًا في أنفسهم فيتعظون فيتوبون من الشرك والتكذيب للرسول ويطيعون ربهم فيكملون ويسعدون هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١١٣).

(١١٤) وأما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ فإن الله تعالى يخبر عن علوه عن سائر خلقه وملكه لهم وتصرفه فيهم وقهره لهم، وَمِن ثَمَّ فهو منزَّه عن الشريك والولد وعن كل نقص يصفه به المفترون الكذابون.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ[4] بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ يُعلم تعالى رسوله كيفية تلقي القرآن عن جبريل عليه السلام فيرشده إلى أنه لا ينبغي أن يستعجل في قراءة الآيات ولا في إملائها على أصحابها وفي الحكم بها حتى يفرغ جبريل من قراءتها كاملة عليه وبيان مراد الله تعالى منها في إنزالها عليه. وطلب إليه أن يسأله المزيد من العلم بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، وفيه إشعار بأنه دائمًا في حاجة إلى المزيد، ولذا فلا يستعجل ولكن يتريث ويتمهل، وهذا علماء أمته أحوج إليه منه ﷺ فالاستعجال في الفُتيا وفي إصدار الحكم كثيرًا ما يخطىء صاحبهما.

(١١٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ[5] عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ[6] وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا[7]﴾ يقول تعالى مخبرًا رسوله والمؤمنين ولقد وصينا آدم من قبل هذه الأمم التي أمرناها ونهيناها فلم يطع أكثرها وصيناه بأن لا يطيع عدوه إبليس وأن لا يأكل من الشجرة فترك وصيتنا ناسيًا لها غير مبال بها

---

(١) هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، إذ الغرض واحد وهو التنويه بشأن القرآن وتقرير الوحي له ﷺ.

(٢) التصريف: التنويع والتفنين، والوعيد هنا للتهديد.

(٣) لعله يحدث لهم ذكرًا: فيه بيان أنهم قبل نزول القرآن وسماعه لم يكونوا يذكرون الله في توحيده ولا في وعده ووعيده ولا في شرعه وأحكامه.

(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ من الوحي حرصًا منه ﷺ على الحفظ وشفقة على القرآن مخافة النسيان فنهاه تعالى عن ذلك فأنزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ وقال الحسن: نزلت هذه الآية في رجل لطَم وجه امرأته فجاءت إلى النبي ﷺ تطلب القصاص فجعل النبي ﷺ لها القصاص فنزل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ وأبى الله ذلك. ولهذا قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وفي هذه الجملة الأخيرة إشارة إلى أن حرصه في حفظ القرآن محمود.

(٥) قال ابن زيد: نسي ما عهد الله إليه في ذلك، ولو كان له عزم ما أطاع عدوّه إبليس.

(٦) العهد المنسي هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ من هذه السورة.

(٧) فسر العزم بالصبر والثبات أمام الإغراء.

وأطاع عدوه وأكل من الشجرة، ولم نجد له عزمًا بل ضعف أمام الإغراء والتزيين فلم يحفظ العهد ولم يصبر على الطاعة، فكيف إذًا بغير آدم من سائر ذرياته فلذا ينبغي أن لا تأسى ولا تحزن على عدم إيمان قومك بك واستجابتهم لدعوتك.

هداية الآيات:

١ - بيان الحكمة من إنزال القرآن باللسان العربي وتصريف الوعيد فيه.

٢ - إثبات علو الله تعالى وقهره لعباده وملكه لهم وتنزهه عن الولد والشريك وكل نقص يصفه به المبطلون.

٣ - استحباب التريث والتأني في قراءة القرآن وتفسيره وإصدار الحكم والفتيا منه.

٤ - الترغيب في طلب العلم والمزيد من التحصيل العلمي وإشعار النفس بالجهل والحاجة إلى العلم.

٥ - التسلية بنسيان آدم وضعف قلبه أمام الإغراء الشيطاني.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٦ - ١٢٢]

(١١٦) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: أي اذكر قولنا للعظة والاعتبار. ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾: أي امتنع من السجود لكبر في نفسه إذ هو ليس من الملائكة وإنما هو أبو الجان كان مع الملائكة يعبد الله معهم.

(١١٧) ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾: أي حواء ومعنى عدو أنه لا يحب لكما الخير بل يريد لكما الشر. ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾: أي بالعمل في الأرض إذ تزرع وتحصد وتطحن وتخبز حتى تتغذى.

(١١٩) ﴿لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾: أي لا تعطش ولا يصيبك حر شمس الضحى المؤلم في الأرض.

(١٢٠) ﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾: أي التي يخلد من أكل منها. ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾: أي لا يفنى ولا يبيد ولازم ذلك الخلود.

(١٢١) ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾: أي ظهر لكل منهما قُبُلَ صاحبه ودُبُرَهُ فاستاءا لذلك. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾: أي أخذا وجعلا يلزقان ورق الشجر عليهما سترًا لسوءاتهما. ﴿فَغَوَىٰ﴾: أي بالأكل من الشجرة المنهي عنها.

(١٢٢) ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾: أي اختاره لولايته فهداه للتوبة فتاب ليكون عبدًا صالحًا.

معنى الآيات:

(١١٦) لما ذكر تعالى ضعف آدم عليه السلام حيث عهد الله إليه بعدم طاعة إبليس حتى لا يخرجه هو وزوجه من الجنة، وأن آدم نسي العهد فأكل من الشجرة ناسب ذكر قصة آدم بتمامها ليكون موعظة للمتقين وهدى للمؤمنين فقال تعالى لرسوله محمد ﷺ واذكر: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ وسجودهم عبادة لله تعالى وتحية لآدم لشرفه وعلمه. فامتثلت الملائكة أمر الله ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ كلهم أجمعون ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أن يسجد لما داخله من الكبر ولأنه لم يكن من الملائكة بل كان من الجن إلا أنه كان يتعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١١٦).

(١١٧) وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ أي بعد أن تكبّر إبليس عن السجود لآدم نصحنا آدم وقلنا له ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي إبليس ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي فلا تطيعانه فإن[1] طاعته تكون سبب إخراجكما من الجنة ومتى خرجتما منها شقيتما، ووجه الخطاب إلى آدم في قوله تعالى: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ لأن المراد من الشقاء هنا العمل كالزرع والحصاد وغيرهما مما هو ضروري للعيش خارج الجنة والزوج هو المسؤول عن إعاشة[2] زوجته فهو الذي يشقى دونها.

(١١٨) وقوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾.

(١١٩) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا﴾ أي لا تعطش ﴿وَلَا تَضْحَىٰ[3]﴾ أي لا تتعرض لحر شمس ضحى كما هي في الأرض والخطاب وإن كان لآدم فحواء تابعة له بحكم رئاسة الزوج على زوجته، ومن الأدب خطاب

---

(١) هذا مبدأ: أنّ نفقة الزوجة على زوجها، وأن النفقة الواجبة محصورة في الطعام والشراب والكسوة والسكن.

(٢) قال الحسن: المراد بالشقاء: شقاء الدنيا لا يرى ابن آدم فيها إلاّ ناصبًا.

(٣) يقال: ضحيت للشمس ضحاءً: برزت، وضحَيت: بفتح الحاء مثله والمضارع أضحى، والأمر اضح، ومنه قول عمر في عرفة لرجل لازم الخيمة: اضحَ لمن جئت له.

الرجل دون امرأته إذ هي تابعة له.

(١٢٠) وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي ناداه من طريق الوسوسة. ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ[١] وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ فقبل منه ذلك آدم واستجاب لوسوسته فأكلت حواء أولاً ثم أكل آدم وهو قوله تعالى:

(١٢١) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ فترتب على ذلك انكشاف سوءاتهما لهما بذهاب النور الساتر لهما بسبب المعصية لله تعالى وقوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ من ورق الشجر أي فأخذا يشدان ورق الشجر على عوراتهما سترًا لهما لأن منظر العورة يسوء الآدمي ولذلك سميت العورة سوءة وهكذا عصى آدم ربه باستجابته لوسواس عدوه وأكله من الشجرة، فبذلك غوى[٢]، إلا أن ربه تعالى اجتباه أي نبيًا وقربه وليًا.

(١٢٢) ﴿فَتَابَ[٣] عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ وهداه للعمل بطاعته ليكون من جملة أصفيائه وصالح عباده. والحمد لله ذي الإنعام والإفضال.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية بذكر مثل هذا القصص الذي لا يعلم إلا بالوحي الإلهي.

٢ - تقرير عداوة إبليس لبني آدم.

٣ - بيان أن الجنة لا نصب فيها ولا تعب، وإنما ذلك في الأرض.

٤ - التحذير من أخطار الاستجابة لوسوسة إبليس فإنها تُردي صاحبها.

٥ - ضعف المرأة وقلة عزمها فقد أكلت قبل آدم فسهلت عليه المعصية.

٦ - كون المرأة تابعة للرجل وليس لها أن تستقل بحال من الأحوال.

٧ - حرمة كشف العورات ووجوب سترها.

٨ - إثبات نبوة آدم وتوبة الله عليه وقبولها منه وهدايته إلى العمل بمحابه وترك مكارهه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٣ - ١٢٧]

(١٢٣) ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾: أي آدم وحواء من الجنة وإبليس سبق أن أبلس وهبط. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: أي آدم وحواء وذريتهما عدو لإبليس وذريته، وإبليس وذريته عدو لآدم وحواء وذريتهما. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾: أي فإن يأتيكم مني هدى وهو كتاب ورسول. ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾: أي الذي أرسلت به رسولي وهو القرآن. ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾: أي في الدنيا. ﴿وَلَا يَشْقَى﴾: في الآخرة.

(١٢٤) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾: أي عن القرآن فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه. ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾: أي ضيّقة تضيق بها نفسه ولم يسعد بها ولو كانت واسعة. ﴿أَعْمَى﴾: أي أعمى البصر لا يبصر.

(١٢٥) ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾: أي ذا بصر في الدنيا وعند البعث.

(١٢٦) ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾: أي الأمر كذلك أتتك آياتنا فنسيتها فكما نسيتها تنسى في جهنم.

(١٢٧) ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾: أي وكذلك الجزاء الذي جازينا به من نسي آياتنا نجزي من أسرف في المعاصي ولم يقف عند حد، ولم يؤمن بآيات ربه سبحانه وتعالى. ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾: أي أشد من عذاب الدنيا وأدوم فلا ينقضي ولا ينتهي.

معنى الآيات:

(١٢٣) ما زال السياق الكريم في قصة آدم إنه لما أكل آدم وحواء من الشجرة وبدت لهما سوءاتهما وعاتبهما ربهما بقوله في آية غير هذه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا[٤] عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. وأنزل على آدم كلمة[٥] التوبة فقالها

---

(١) روى أبو داود وأحمد أنّ النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها وهي شجرة الخلد**».

(٢) كان هذا قبل النبوة، ومن أذنب مرّة واحدة لا يقال له: مذنب ولا غاو ولا سيّما بعد التوبة.

(٣) ثبت في الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: «**حاجّ موسى آدم فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني**» قال رسول الله ﷺ: «**فحجّ آدم موسى**».

(٤) هي قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ من سورة الأعراف وأخبر تعالى عنها في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾.

(٥) الآية من سورة الأعراف.

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

مع زوجه فتاب الله عليهما لما تم كل ذلك قال: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾[1] أي من الجنة ﴿جَمِيعًا﴾ إذ إبليس العدو قد أُبلس من قبل وطُرد من الجنة فهبطوا جميعًا. وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي بيان عبادتي تحمله كتبي وتبينه رسلي، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ فآمن به وعمل بما فيه ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في حياته ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾[2] في آخرته.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي جزاءً منا له ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[3] أي ضيقة تضيق بها نفسه فلم يشعر بالغبطة والسعادة وإن اتسع رزقه كما يضيق عليه قبره ويشقى فيه طيلة حياة البرزخ، ويحشر يوم القيامة أعمى لا حجة له ولا بصر يبصر به.

﴿١٢٥﴾ وقد يعجب لحاله ويسأل ربه ﴿لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ﴾ في الدنيا وفي البعث ﴿بَصِيرًا﴾.

﴿١٢٦﴾ فيجيبه ربه تعالى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك كنت بصيرًا وأصبحت أعمى لأنك ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ تحملها كتبنا وتبينها رسلنا ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي تركتها ولم تلتفت إليها معرضًا عنها فاليوم تترك في جهنم منسيًا.

﴿١٢٧﴾ كذلك وقوله تعالى في الآية الآخرة (١٢٧): ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ في معاصينا فلم يقف عند حد ولم يؤمن بآيات ربه فنجعل له معيشة ضنكًا في حياته الدنيا وفي البرزخ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ﴾[4] من عذاب الدنيا ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي أدوم حيث لا ينقضي ولا ينتهي.

هداية الآيات:

١ - تقرير عداوة الشيطان للإنسان.

٢ - عِدَةُ الله تعالى لمن آمن بالقرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في حياته ولا يشقى في آخرته.

٣ - بيان جزاء من أعرض عن القرآن في الدنيا والآخرة.

٤ - التنديد بالإسراف في الذنوب والمعاصي مع الكفر بآيات الله، وبيان جزاء ذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٨ ـ ١٣٢]

﴿١٢٨﴾ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: أي أفلم يُبَيِّنْ لهم. ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾: أي من أهل القرون. ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾: أي أصحاب العقول الراجحة إذ النهية العقل.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾: أي بتأخير العذاب عنهم. ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾: أي العذاب لازمًا لا يتأخر عنهم بحال.

﴿١٣٠﴾ ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾: من كلمات الكفر، ومن مطالبتهم بالآيات. ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾: أي ساعات الليل واحدها إِنْيٌ أو إِنْوٌ. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾: أي رجاء أن تثاب الثواب الحسن الذي ترضى به.

﴿١٣١﴾ ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾:

---

(١) الخطاب لآدم وإبليس، وحواء تابعة لزوجها بقرينة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألاّ يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة وتلا هذه الآية.

(٣) ﴿ضَنكًا﴾ أي: ضيقًا، يقال: منزل ضنك وعيش ضنك، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. قال عنترة:

إن يُلحقوا أكرر وإن يستلحموا أشدد وإن يُلفوا بضنك أنزل

(٤) أي: من المعيشة الضنك.

أي رجالاً منهم[١] من الكافرين. ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي زينة الحياة الدنيا وقيل فيها زهرة لأنها سرعان ما تذبل وتذوى. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: أي لنبتليهم في ذلك أيشكرون أم يكفرون.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة لأهل التقوى.

معنى الآيات:

﴿١٢٨﴾ بعد ذكر قصة آدم عليه السلام وما تضمنته من هداية الآيات قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ لأهل مكة المكذبين المشركين أي أغفلوا فلم يهد لهم أي يتبين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي إهلاكنا للعديد من أهل القرون الذين هم يمشون في مساكنهم ذاهبين جائين كثمود وأصحاب مدين والمؤتفكات أهلكناهم بكفرهم ومعاصيهم فيؤمنوا ويوحدوا ويطيعوا فينجوا ويسعدوا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإهلاك للقرون الأولى ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي دلائل واضحة على وجوب الإيمان بالله ورسوله وطاعتهما، ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي لأصحاب العقول أما الذين لا عقول لهم لأنهم عطلوها فلم يفكروا بها فلا يكون في ذلك آيات لهم.

﴿١٢٩﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ[٢] مِن رَّبِّكَ﴾ بأن لا تموت نفس حتى تستوفي أجلها، وأجل مسمىً عند الله في كتاب المقادير لا يتبدل ولا يتغير لكان عذابهم لازمًا لهم لما هم عليه من الكفر والشرك والعصيان.

﴿١٣٠﴾ وعليه ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا رسولنا ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من أنك ساحر وشاعر وكاذب وكاهن من كلمات الكفر، واستعن على ذلك بالصلاة ذات الذكر والتسبيح ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ وهو صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ وهو صلاة العصر ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾[٣] أي ساعات الليل وهما صلاتا المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ وهو صلاة الظهر لأنها تقع بين طرفي النهار أي نصفه الأول ونصفه الثاني وذلك عند زوال الشمس، لعلك بذلك ترضى بثواب الله تعالى لك.

﴿١٣١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تتطلع ناظرًا ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[٤] أشكالاً في عقائدهم وأخلاقهم وسلوكهم ﴿زَهْرَةَ[٥] ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي من زينة الحياة الدنيا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم في ذلك الذي متعناهم به من زينة الحياة الدنيا وقوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي ما لك عند الله من أجر ومثوبة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ خيرًا في نوعه وأبقى في مدته، واختيار الباقي على الفاني مطلب العقلاء.

﴿١٣٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ[٦] بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي من أزواجك وبناتك وأتباعك المؤمنين بالصلاة ففيها الملاذ وفيها الشفاء من آلام الحاجة والخصاصية واصطبر عليها واحمل نفسك على الصبر على إقامتها. وقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي لا نكلفك مالاً تعطيناه ولكن تكلف صلاة فأدها على أكمل وجوهها. ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي رزقك علينا،

---

(١) ﴿أَزْوَٰجًا﴾: رجالاً ونساء لأنّ الرجل زوج والمرأة زوج، والتعبير بلفظ أزواج لأجل الدلالة على العائلات والبيوت أي: إلى ما متّعناهم به من مال وبنين.

(٢) فيه تقديم وتأخير، الأصل: ولولا كلمة سبقت وأجل مسمّى لكان لزامًا. أي: لكان العذاب لازمًا لهم.

(٣) العتمة، واحد الآناء: أنيٌ وإنى وأنى.

(٤) قال مجاهد: الأغنياء منهم، وبهذا يشمل النساء والرجال إذ كل منهما زوج فرجح هذا أنّ أزواجًا: مفعول به، ولا يتنافى هذا مع ما في التفسير لأنّ قولنا: أشكالاً في عقولهم وأخلاقهم وسلوكهم يعني منطقًا: الرجال الأزواج.

(٥) ﴿زَهْرَةَ﴾: منصوب على الحال من الموصول. والزهرة: واحدة الزهور وهو نور الشجر والمراد هنا: الزينة المعجبة المبهرة في النساء والبنين والأنعام والبساتين والجنان.

(٦) الخطاب للرسول ﷺ وجميع أمّته تابعة له في ذلك فكلّ مؤمن يجب عليه أن يقيم الصلاة وأن يأمر أهله بذلك ويصبر. روي أنه لما نزلت هذه الآية: (كان ﷺ يذهب إلى بنته فاطمة كل صباح وقت الصلاة) وكان عمر رضي الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلي وهو يتمثّل بالآية. وكان عروة بن الزبير إذا رأى شيئًا من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله وهو يقرأ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ..﴾ الآية.

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة لأهل التقوى من عبادنا وهم الذين يخشوننا فيؤدون ما أوجبنا عليهم ويجتنبون ما حرمنا عليهم رهبة منا ورغبة فينا. هؤلاء لهم أحسن العواقب ينتهون إليها نصر في الدنيا وسعادة في الآخرة.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير مبدأ العاقل من اعتبر بغيره.

٢ ـ بيان فضيلة العقل وشرف صاحبه وانتفاعه به.

٣ ـ وجوب الصبر على دعوة الله والاستعانة على ذلك بالصلاة.

٤ ـ بيان أوقات الصلوات الخمس والحصول على رضى النفس بثوابها.

٥ ـ وجوب عدم تعلق النفس بما عند أهل الكفر من مال ومتاع لأنهم ممتحنون به.

٦ ـ وجوب الرضا بما قسم الله للعبد من رزق انتظارًا لرزق الآخرة الخالد الباقي.

٧ ـ وجوب الأمر بالصلاة بين الأهل والأولاد والمسلمين والصبر على ذلك.

٨ ـ فضل التقوى وكرامة أصحابها وفوزهم بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

٩ ـ إقام الصلاة بين أفراد الأسرة المسلمة ييسر الله تعالى به أسباب الرزق وتوسعته عليهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٣ ـ ١٣٥]

(١٣٣) ﴿لَوۡلَا﴾[(١)]: أي هلاً فهي أداة تحضيض وحث على وقوع ما يذكر بعدها. ﴿بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾: أي معجزة تدل على صدقه في نبوته ورسالته. ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾: أي المشتمل عليها القرآن العظيم من أنباء الأمم الماضية وهلاكهم بتكذيبهم لرسلهم.

(١٣٤) ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾: من قبل إرسالنا رسولنا محمد ﷺ وإنزالنا كتابنا القرآن. ﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾: أي من قبل أن يصيبنا الذل والخزي يوم القيامة في جهنم.

(١٣٥) ﴿مُّتَرَبِّصٞ﴾: أي منتظر ما يؤول إليه الأمر. ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾: أي يوم القيامة. ﴿ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾: أي الدين الصحيح وهو الإسلام. ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾: أي ممن ضل نحن أم أنتم.

معنى الآيات:

(١٣٣) ما زال السياق مع المشركين طلبًا لهدايتهم فقال تعالى مخبرًا عن أولئك المشركين الذين متع الله رجالاً منهم بزهرة الحياة الدنيا أنهم أصروا على الشرك والتكذيب ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا[(٢)] يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ﴾ أي هلاً يأتينا محمد بمعجزة كالتي أتى بها صالح وموسى وعيسى ابن مريم تدل على صدقه في نبوته ورسالته إلينا. فقال تعالى رادًا عليهم قولتهم الباطلة: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ[(٣)] مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ؟﴾ أيطالبون بالآيات وقد جاءتهم بينة ما في الصحف الأولى بواسطة القرآن الكريم فعرفوا ما حل بالأمم التي طالبت بالآيات ولما جاءتهم الآيات كذبوا بها فأهلكهم الله بتكذيبهم[(٤)] فما يؤمن هؤلاء المشركين المطالبين بالآيات أنها لو جاءتهم ما آمنوا بها فأهلكوا كما أهلك المكذبين من قبلهم.

(١٣٤) وقوله تعالى في الآية الثانية (١٣٤): ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم[(٥)] بِعَذَابٖ

---

(١) لولا: أداة تحضيض وجملة: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ حالية أي: قالوا ذلك، والحال أنها أتتهم بيّنة ما في الصحف الأولى، فالاستفهام إنكاري، والبيّنة: الحجة، والصحف: كتب الأنبياء السابقين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾.

(٢) أي: لولا يأتينا محمد بآية توجب العلم الضروري أو بآية ظاهرة كناقة صالح وعصا موسى، أو هلاً يأتينا بالآيات التي نقترحها كتحويل جبال مكة.

(٣) هذه البيّنة هي محمد ﷺ وكتابه القرآن الكريم، محمد ﷺ أميّ لا يقرأ ولا يكتب، وقد جاء بما لم يأت به غيره من العلوم والمعارف، والقرآن الكريم حوى علوم الأولين وقصصهم، وكل علم نافع في الحياتين فأيّة آية أعظم من هذه الآية، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؟!

(٤) قال القرطبي: فما يؤمنهم إن أتتهم الآيات أن يكون حالهم كحال أولئك.

(٥) هذه الآية دليل على أنّ الإيمان بوحدانية الله تعالى مما يقتضيه العقل وتوجبه الفطرة لولا حجب الضلالات وإغواء الشياطين للناس.

ترتيبها ٢١ | سورة الأنبياء | آياتها ١١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)

٣٢٢

﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل إرسالنا محمد وإنزالنا الكتاب عليه لقالوا للرب تعالى إذا وقفوا بين يديه: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ فيما تدعونا إليه من التوحيد والإيمان والعمل الصالح وذلك من قبل أن نذل هذا الذل ونخزى هذا الخزي في نار جهنم. فإن كان هذا قولهم لا محالة فلم لا يؤمنون ويتبعون آيات الله فيعملون بما جاء فيها من الهدى قبل حلول العذاب بهم؟ (١٣٥) وفي الآية الأخيرة قال تعالى لرسوله بعد هذا الإرشاد الذي أرشدهم إليه ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾(١) أي كل منا متربص أي منتظر ما يؤول إليه الأمر ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، فستعلمون في نهاية الأمر وعندما توقفون في عرصات القيامة ﴿مَنْ﴾ هم ﴿أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾(٢) الذي لا اعوجاج فيه وهو الإسلام الدين الحق، ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ إلى سبيل النجاة والسعادة ممن ضل ذلك فخسر وهلك.

هداية الآيات:

١ - المطالبة بالآيات سنة متبعة للأمم والشعوب عندما تعرض عن الحق وتتنكر للعقل وهدايته.

٢ - الذلة والخزي تصيب أهل النار يوم القيامة لما فرطوا فيه من الإيمان والعمل الصالح.

٣ - في الآية إشادة إلى حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «يحتج به على الله يوم القيامة ثلاثة: الهالك في الفترة، والمغلوب على عقله، والصبي الصغير، فيقول المغلوب على عقله لم تجعل لي عقلًا أنتفع به، ويقول الهالك في الفترة لم يأتني رسول ولا نبي ولو أتاني لك رسول أو نبي لكنت أطوع خلقك إليك. (١٣٤) وقرأ ﷺ: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ ويقول الصبي الصغير كنت صغيرًا لا أعقل. قال فترفع لهم نار ويقال لهم: رِدُوها قال فَيَرِدُها من كان في علم الله أنه سعيد، ويتلكأ عنها من كان في علم الله أنه شقي فيقول إياي عصيتم فكيف برسلي لو أتتكم». رواه ابن جرير عند تفسير هذه الآية ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

❊ ❊ ❊

الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء

مكية

وآياتها مائة واثنتا عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٦]

(١) ﴿اقْتَرَبَ(٣) لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾: أي قرب زمن حسابهم وهو يوم القيامة. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾: أي عما هم صائرون إليه. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: أي عن التأهب ليوم الحساب بصالح الأعمال بعد ترك الشرك والمعاصي.

(٢) ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾: أي من قرآن نازل من ربهم محدث جديد النزول. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾: أي ساخرين مستهزئين.

(٣) ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾: مشغولة عنه بما لا يغني من الباطل والشر

---

(١) هذا جواب عن قولهم: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ وما بينهما اعتراض، والتربّص: الانتظار.

(٢) بمعنى المُسْتوي وهو مأخوذ من التسوية.

(٣) قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: الكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأُول وهن من تلادي: يريد من أوّل ما حفظ كالمال التليد.

والفساد. ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾: أي أخفوا مناجاتهم بينهم.

٥ ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾: أي أخلاط رآها في المنام. ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي اختلقه وكذبه ولم يوح إليه.

٦ ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾: أي لا يؤمنون فالاستفهام للنفي.

معنى الآيات:

١ يخبر تعالى فيقول وقوله الحق: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ[1] حِسَابُهُمْ﴾ أي دنا وقرب وقت حسابهم على أعمالهم خيرها وشرها ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾[2] عما ينتظرهم من حساب وجزاء ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عما يدعون إليه من التأهب ليوم الحساب بترك الشرك والمعاصي والتزود بالإيمان وصالح الأعمال.

٢ وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[3] أي ما ينزل الله من قرآن يعظهم به ويذكرهم بما فيه ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي استمعوه وهم هازئون ساخرون لاعبون غير متدبرين له ولا متفكرين فيه.

٣ قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً[4] قُلُوبُهُمْ﴾ أي مشغولة عنه منصرفة عما تحمل الآيات المحدثة النزول من هدى ونور، ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[5] وهم المشركون قالوا في تناجيهم بينهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي ما محمد إلا إنسان مثلكم فكيف تؤمنون به وتتابعونه على ما جاء به، إنه ما هو إلا ساحر ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ما لكم أين ذهبت عقولكم؟

٤ قال تعالى لرسوله: ﴿قَالَ رَبِّى[6] يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ...﴾ لأقوال عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأعمالهم فهو تعالى سميع لما تقولون من الكذب عليم بصدقي وحقيقة ما أدعوكم إليه.

٥ وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ﴾ أي أولئك المتناجون الظالمون ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي قالوا في القرآن يأتيهم من ربهم محدث لهم؛ ليهتدوا به قالوا فيه أضغاث أي أخلاط رؤيا منامية وليس بكلام الله ووحيه، ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ انتقلوا من قول إلى آخر لحيرتهم ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي ﷺ وما يقوله ليس من جنس الشعر الذي هو ذكر أشياء لا واقع لها ولا حقيقة. وقوله تعالى عنه: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي إن كان رسولاً كما يدعي وليس بشاعر ولا ساحر فليأتنا بآية أي معجزة كآية صالح أو موسى أو عيسى كما أرسل بها الأنبياء الأولون.

٦ قال تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن[7] قَرْيَةٍ﴾ أي أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ بالعذاب لما جاءتها الآية فكذبت أفهم[8] يؤمنون أي لا يؤمنون إذ شأنهم شأن غيرهم، فلذا لا معنى لإعطائهم الآية من أجل الإيمان ونحن نعلم أنهم لا يؤمنون.

هداية الآيات:

١ - قرب الساعة.

٢ - بيان ما كان عليه المشركون من غفلة ولهو وإعراض، والناس اليوم أكثر منهم في ذلك.

---

(١) لفظ الناس: عام وإن أريد به أهل مكة بدليل السياق في الآيات بعد.

(٢) الجملة حالية أي: اقترب للناس حسابهم والحال أنهم في غفلة معرضون.

(٣) محدث: أي: في نزوله وقراءة جبريل له على النبي ﷺ إذ كان ينزل آية آية وسورة سورة وجائز أن يكون الذكر: الرسول ﷺ لقرينة الآيات كقوله: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وقوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا..﴾ فرسول بدلاً من قوله: ﴿ذِكْرًا﴾ وقوله: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ أي: الرسول وهم يلعبون. قاله الحسن بن الفضل.

(٤) لاهية: ساهية معرضة عن ذكر الله تعالى. يقال: لهيت عن الشيء إذا تركته وسهوت عنه، وهو نعت تقدّم عن الاسم فنصب على الحال نحو: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾، ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾. وكقول كثير عزّة:

لعزة موحشًا طلل يلوح كأنه خِلَلُ

(٥) ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: بدل من واو الجماعة في: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾.

(٦) قرأ نافع والجمهور: ﴿قل ربي﴾ بصيغة الأمر، وقرأ حفص ومن وافقه: ﴿قال﴾ بصيغة الماضي.

(٧) ﴿مِّن﴾: زائدة لتقوية الكلام وتوكيد النفي المستفاد من حرف (ما).

(٨) الاستفهام للإنكار أي: إنكار إيمانهم لو جاءتهم الآية أي: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٣ - بيان حيرة المشركين إزاء الوحي الإلهي والنبي ﷺ.

٤ - المعجزات لم تكن يومًا سببًا في هداية الناس بل كانت سبب إهلاكهم إذ هذا طبع الإنسان إذا لم يرد الإيمان والهداية فإنه لا يهتدي ولو جاءته كل آية.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ ـ ١٠]

(٧) ﴿قَبْلَكَ﴾: يا محمد. ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾: أي الكتاب الأول وهم أهل الكتاب.

(٨) ﴿جَسَدًا﴾: أي أجسادًا آدمية.

(٩) ﴿الْوَعْدَ﴾: أي الذي واعدناهم.

﴿الْمُسْرِفِينَ﴾: أي في الظلم والشرك والمعاصي.

(١٠) ﴿كِتَابًا﴾: هو القرآن العظيم. ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: أي ما تذكرون به ربكم وما تذكرون به من الشرف بين الناس.

معنى الآيات:

(٦) كانت مطالب قريش من اعتراضاتهم تدور حَوْلَ لِمَ يكون الرسول بشرًا، ولِمَ يكون رسولاً ويأكل الطعام لم لا يكون له كنز أو جنة يأكل منها، لم لا يأتينا بآية كما أرسل بها الأولون، وهكذا. قال قتادة قال أهل مكة للنبي ﷺ: «وإذا كان ما تقوله حقًا ويسرك أن نؤمن فحول لنا الصفا ذهبًا، فأتاه جبريل فقال إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا «أي ينزل بهم العذاب فورًا» وإن شئت استأنيت بقومك، قال بل استأني بقومي فأنزل الله: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۞﴾».

(٧) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾[1] يا رسولنا ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ما نريد إبلاغه عبادنا من أمرنا ونهينا. ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾[2] إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي فليسأل قومك أهل الكتاب من قبلهم وهم أحبار اليهود ورهبان النصارى إن كانوا لا يعلمون فإنهم يعلمون أن الرسل من قبلهم لم يكونوا إلا بشرًا.

(٨) وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي الرسل ﴿جَسَدًا﴾[3] أي أجسادًا ملائكية أو بشرية لا يأكل أصحابها الطعام بل جعلناهم أجسادًا آدمية تفتقر في بقاء حياتها إلى الطعام والشراب[4] فلم يعترض هؤلاء المشركون على كون الرسول بشرًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟

(٩) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ﴾ أي أولئك الرسل ﴿ٱلْوَعْدَ﴾[5] الذي وعدناهم وهو أنا إذا آتينا أقوامهم ما طالبوا به من المعجزات ثم كذبوا ولم يؤمنوا أهلكناهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي أنجينا رسلنا ومن آمن بهم واتبعهم، وأهلكنا المكذبين المسرفين في الكفر والعناد والشرك والشر والباطل.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞﴾؟ يقول تعالى لأولئك المشركين المطالبين بالآيات التي قد تكون سبب هلاكهم ودمارهم ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ لهدايتكم وإصلاحكم ثم إسعادكم ﴿كِتَٰبًا﴾ عظيم الشأن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[6] أي ما تذكرون به وتتعظون فتهتدون إلى سبيل سلامتكم وسعادتكم، فيه ذكركم بين الأمم والشعوب لأنه نزل بلغتكم

---

(١) هذا ردّ على المشركين إذ قالوا: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وتأنيس للنبي ﷺ حتى لا يضيق بما يقولون.

(٢) جائز أن يكون أهل الذكر أي: الكتاب الأوّل هم اليهود والنصارى إذ كان أهل مكة يسألون يهود المدينة. وجائز أن يكون القرآن وهم المؤمنون ولذا قال عليّ وهو صادق: نحن أهل الذكر. أي: فليناظروا المؤمنين كعلي وأبي بكر الصديق وبلال. وفي الآية دليل على وجوب تقليد العامة العلماء إذ هم أهل الذكر ووجوب العمل بما يفتونهم به ويعلمونهم به.

(٣) الجسد: الجسم لا حياة فيه كالجثة. وفي العبارة تهكم بالمشركين لسخف عقولهم إذ أنكروا على الرسول ﷺ أكل الطعام فقالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾، وهل يعقل وجود أجسام بشرية تستغني عن الأكل والشرب؟

(٤) ولذا هم يموتون ولا يخلدون وهذه حقيقة الآدمي.

(٥) الوعد: منصوب على نزع الخافض أي: صدقناهم في الوعد الذي وعدناهم، وهو وعدهم بنصرهم وإهلاك أعدائهم.

(٦) ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: أي: فيه ذكر أمر دينكم وأحكام شرعكم وبيان ما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب وفيه ذكر مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم.

الناس لكم فيه تبع وهو شرف أي شرف لكم. أتشتطون في المكايدة والعناد فلا تعقلون، ما هو خير لكم مما هو شر لكم.

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ أن الرسل لا يكونون إلا بشرًا ذكورًا لا إناثًا.

٢ - تعين سؤال أهل العلم في كل ما لا يعلم إلا من طريقهم، من أمور الدين والآخرة.

٣ - ذم الإسراف في كل شيء وهو كالغلو في الشرك والظلم.

٤ - القرآن ذكر يذكر به الله تعالى لما فيه من دلائل التوحيد وموعظة لما فيه من قصص الأولين وشرف أي شرف لمن آمن به وعمل بما فيه من شرائع وآداب وأخلاق.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ - ١٥]

(١١) ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾: أي وكثيرًا من أهل القرى قصمناهم بإهلاكهم وتفتيت أجسامهم. ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾: أي كان أهلها ظالمين.

(١٢) ﴿يَرْكُضُونَ﴾: أي فارين هاربين.

(١٣) ﴿إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾: أي من وافر الطعام والشراب والمسكن والمركب. ﴿تُسْأَلُونَ﴾: أي عن شيء من دنياكم على عادتكم.

(١٥) ﴿تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾: أي دعوتهم التي يرددونها وهي: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

﴿حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾: أي لم يبق منهم قائم فهم كالزرع المحصود خامدين لا حراك لهم كالنار إذا أُخمدت.

معنى الآيات:

(١١) يقول تعالى منذرًا قريشًا أن يحل بها ما حل بغيرها ممن أصروا على التكذيب والعناد ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي أهلكنا وأبدنا إبادة كاملة ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾[1] أي أهل قرية ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي كان أهلها ظالمين بالشرك والمعاصي والمكابرة والعناد، ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ هم خير من أولئك الهالكين.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا[2] بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي فلما أحسَّ أولئك الظالمون ﴿بَأْسَنَا﴾ أي شعروا به وأدركوه بحواسهم بأسماعهم وأبصارهم ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ من تلك القرية يركضون هاربين فرارًا من الموت.

(١٣) والملائكة تقول لهم توبيخًا لهم وتقريعًا: لا تركضوا هاربين ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ نعمتم فيه من وافر الطعام والشراب والكساء والمسكن والمركب ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ على العادة عن شيء من أموركم وأمور دنياكم[3].

(١٤) فكان جوابهم ما أخبر تعالى به عنهم: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ أي يا هلاكنا أحضر هذا أو آن حضورك إنا كنا ظالمين أنفسنا بالشرك والمعاصي والتكذيب والعناد.

(١٥) قال تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي ما زال قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ تلك دعوتهم[4] التي يرددونها.

---

(١) قيل: هذه القرى هي مدائن كانت باليمن، والعموم ظاهر في السياق ولا داعي إلى حصره في مدائن اليمن بل هو شامل عادًا وثمود وأهل مدين والمؤتفكات، والقصم: الكسر يقال: قصم ظهر فلان: إذا كسره.

(٢) الإحساس: الإدراك بالحس فيكون برؤية ما يزعجهم أو سماع أصوات مؤذنة بالهلاك كالصواعق والرياح.

(٣) وهذا استهزاء بهم وتهكم وتقريع وتوبيخ لهم.

(٤) أي: الكلمة التي يكررونها وهي: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ حتى هلكوا عن آخرهم.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا[1] خَامِدِينَ﴾ أي مُجتثين من أصولهم ساقطين في الأرض خامدين لا حراك لهم كالنار إذا أُخمدت فلم يبق لها لهيب.

هداية الآيات:

١ - التنديد بالظلم وأعلى درجاته الشرك بالله.

٢ - جواز الاستهزاء بالمشرك الظالم إذا حل به العذاب تقريعًا له وتوبيخًا.

٣ - لا تنفع التوبة عند معاينة العذاب لو طلبها الهالكون.

٤ - شدة الهول ورؤية العذاب قد تفقد صاحبها رشده وصوابه فيهْذِرُ ولا يدري ما يقول.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ ـ ٢٠]

(١٦) ﴿لَٰعِبِينَ﴾: أي عابثين لا مقصد حَسَن لنا في ذلك.

(١٧) ﴿لَهْوًا﴾: أي زوجة وولدًا.

﴿مِن لَّدُنَّآ﴾: أي من عندنا من الحور العين أو الملائكة.

(١٨) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾: أي نرمي بالحق على الباطل. ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾: أي يشج رأسه حتى تبلغ الشجة دماغه فيهلك. ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾: أي ذاهب مُضمحل. ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾: أي ولكم العذاب الشديد من أجل وصفكم الكاذب للديّان بأنَّ له زوجة وولدًا وللرسول بأنه ساحر ومفترٍ.

(١٩) ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: خلقًا وملكًا وتدبيرًا لا شريك له في ذلك. ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾: أي لا يعيون ولا يتعبون فيتركون التسبيح.

(٢٠) ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾: عن التسبيح لأنه منهم كالنفس منا لا يتعب أحدنا من التنفس ولا يشغله عنه شيء.

معنى الآيات:

(١٦) كونه تعالى يهلك الأمم الظالمة بالشرك والمعاصي دليل أنه لم يخلق الإنسان والحياة لعبًا وعبثًا بل خلق الإنسان وخلق الحياة ليذكر ويشكر فمن أعرض عن ذكره وترك شكره أذاقه بأساءه في الدنيا والآخرة وهذا ما دلت عليه الآية السابقة وقررته الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ[2] ۝﴾ أي عابثين لا قصد حسن لنا بل خلقناهما بالحق وهو وجوب عبادتنا بالذكر والشكر لنا.

(١٧) وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ[3] أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أي صاحبة أو ولدًا كما يقول المبطلون من العرب القائلون بأن الله أصهر إلى الجن فأنجب الملائكة وكما يقول ضُلاّلُ النصارى أن الله اتخذ مريم زوجة فولدت له عيسى الابن، تعالى الله عما يأفكون فرد تعالى هذا الباطل بالمعقول من القول فقال لو أردنا أن نتخذ لهوًا نتلهى به من صاحبة وولد لاتخذنا من لدنا من الحور العين والملائكة ولكننا لم نرد ذلك ولا ينبغي لنا إنا نملك كل من في السماوات ومن في الأرض عبيدًا لنا فكيف يعقل اتخاذ مملوك لنا ولدًا ومملوكة زوجةً والناس العجزة الفقراء لا يجيزون ذلك فالرجل لا يجعل مملوكته زوجة له ولا عبده ولدًا بحال من الأحوال.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ[4] فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ فتلك الأباطيل والترهات تنزل حجج القرآن عليها فتدمغها فإذا هي ذاهبة مضمحلة لا يبقى منها شيء ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ أيها الكاذبون مما تصفون الله بالزوجة والولد والشريك والرسول بالسحر والشعر والكهانة والكذب العذاب لازم لكم من أجل كذبكم

---

(١) الحصد: جزّ الزرع والنبات بالمنجل لا باليد، وشاع إطلاق الحصيد على الزرع المحصود، والخامد الذي لا حراك له، من خمدت النار إذا زال لهيبها.

(٢) ينفي تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض وما بينهما وما في السماوات، وما في الأرض من عجائب المخلوقات وبدائع الصناعات، وما بين السماء والأرض من السحب والأمطار ورياح وأجواء الفضاء، ينفي أن يكون هذا الخلق العظيم لعبًا، أي: لهوًا وعبثًا بل خلق ما خلق لأعظم حكمة وأسماها وهي أن يعبد بذكره وشكره، فلذا من كفر به تعالى فترك ذكره وشكره كان من شرّ خلقه واستوجب العذاب الأبدي الذي لا يخرج منه ولا يموت فيه ولا يحيى.

(٣) الآية ردّ على افتراءات المبطلين جهلة البشر الذين نسبوا لله تعالى الصاحبة والولد بغير علم من عقل ولا نقل.

(٤) الدمغ: شج الرأس حتى تبلغ الشجة الدماغ، والباطل هو الشيطان، والحق: القرآن، في قول مجاهد إذ قال: كل ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان.

وافترائكم على ربكم ورسوله.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ برهان آخر على بطلان دعوى أن له تعالى زوجة وولدًا فالذي يملك من في السموات ومن في الأرض غنيٌّ عن الصاحبة والولد إذ الكل له مُلكًا وتصرفًا. وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ[1]﴾ برهان آخر.

(٢٠) ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ۩﴾ أي فكيف يفتقر إلى الزوجة والولد، ومن عنده من الملائكة وهم لا يحصون عدًا يعبدونه لا يستكبرون عن عبادته ولا يملون منها ولا يتعبون من القيام بها، يسبحونه الليل والنهار، والدهر كله ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يسأمون فيتركون التسبيح فترةً بعد فترة للاستراحة، إنهم في تسبيحهم وعدم سآمتهم منه وعدم انشغالهم عنه كالآدميين في تنفسهم وطرف أعينهم هل يشغل عن التنفس شاغل أو عن طرف العين آخر وهل يسأم الإنسان من ذلك والجواب لا، فكذلك الملائكة يسبحون الليل والنهار ولا يفترون.

هداية الآيات:

١ - تنزه الرب تعالى عن اللهو واللعب والصاحبة والولد.

٢ - حجج القرآن هي الحق متى رمي بها الباطل دمغته فذهب واضمحل.

٣ - إقامة البراهين العقلية على إبطال الباطل أمر محمود، وقد يكون لا بد منه.

٤ - بيان غنى الله المطلق عن كل مخلوقاته.

٥ - بيان حال الملائكة في عبادتهم وتسبيحهم لله تعالى.

الجزءُ السَّابع عَشَر — سُورةُ الأَنبِيَاء

> وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾
>
> ٣٢٤

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ - ٢٥]

(٢١) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي من معادنها كالذهب والفضة والنحاس والحجر. ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾: أي يحيون الأموات إذ لا يكون إلهًا حقًا إلا من يحيي الموتى.

(٢٢) ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾: أي في السماوات والأرض. ﴿لَفَسَدَتَا﴾: أي السماوات والأرض لأن تعدد الآلهة يقتضي التنازع عادة وهو يقضي بفساد النظام. ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: أي تنزيه لله عما لا يليق بجلاله وكماله. ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾: أي خالقه ومالكه والمختص به. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: أي الله تعالى من صفات النقص كالزوجة والولد والشريك.

(٢٣) ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾: إذ هو الملك المتصرف، وغيره يسأل عن فعله لعجزه وجهله وكونه مربوبًا.

(٢٤) ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾: أي على ما اتخذتم من دونه من آلهة ولا برهان لهم على ذلك فهم كاذبون. ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾: أي القرآن ذكر أمتي. ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾: أي التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله الكل يشهد أنه لا إله إلا الله. ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾: أي توحيد الله ووجوبه على العباد فلذا هم معرضون.

(٢٥) ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾: أي وحدوني في العبادة فلا تعبدوا معي غيري إذ لا يستحق العبادة سواي.

معنى الآيات:

(٢١) يوبخ تعالى المشركين على شركهم فيقول: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟[2] ءَالِهَةً

---

(١) لا يستحسرون أي: لا يعيون مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع من الإعياء والتعب يقال: حسر البعير يحسر حسورًا: أعيا وكلّ، واستحسر وتحسر مثله.

(٢) الاستفهام هنا للجحد والإنكار أي: لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء في وصف الآلهة من الأرض تهكّم بعابديها ظاهر وتأنيب عجيب.

﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي من أحجارها ومعادنها آلهة ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ أي يحيون الموتى، والجواب كلا إنهم لا يحيون والذي لا يحيي الموتى لا يستحق الألوهية بحال من الأحوال. هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾.

(٢٢) وفي الآية الثانية (٢٢) يبطل تعالى دعواهم في اتخاذ آلهة مع الله فيقول: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ[١]﴾ أي في السماوات والأرض آلهة غير الله تعالى لفسدتا لأن تعدد الآلهة يقتضي التنازع[٢] والتمانع هذا يريد أن يخلق كذا وهذا لا يريده، هذا يريد أن يعطي كذا وذاك لا يريده فيختل نظام الحياة وتفسد، ومن هنا كان انتظام الحياة هذه القرون العديدة دالاً على وحدة الخالق الواجب الوجود الذي تجب له العبادة وحده دون من سواه، فلذا نزه تعالى نفسه عن الشريك وما يصفه به المبطلون من الزوجة والولد فقال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ[٣] ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

(٢٣) وقرر ألوهيته وربوبيته المطلقة بقوله: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ[٤] عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ فالذي يفعل ولا يُسأل لعلمه وقدرته وملكه هو الإله الحق والذي يسأل عن عمله لم فعلت ولم تركت ويحاسب عليه ويجزى به لن يكون إلا عبدًا مربوبًا.

(٢٤) وقوله في توبيخ آخر للمشركين: ﴿أَمِ[٥] ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ عز وجل ﴿ءَالِهَةً﴾ يعبدونها؟ قل لهم يا رسولنا هاتوا برهانكم على صدق دعواكم في أنها آلهة، ومن أين لهم البرهان على إحقاق الباطل؟ وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ[٦] مَن مَّعِيَ﴾ أي من المؤمنين وهو القرآن الكريم به يذكرون الله ويعبدونه وبه يتعظون ﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ﴾ أي التوراة والإنجيل هل في واحد منها ما يثبت وجود آلهة مع الله تعالى. والجواب لا. إذًا فما هي حجة هؤلاء المشركين على صحة دعواهم، والحقيقة أن المشركين جهلة لا يعرفون منطقًا ولا برهانًا فلذا هم مُعرِضون وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ[٧] فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ فليسوا أهلاً لمعرفة الأدلة والبراهين لجهلهم فلذا هم معرضون عن قبول التوحيد وتقرير أدلته وحججه وبراهينه.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ[٨] مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فلو كان المشركون يعلمون هذا لما أشركوا وجادلوا عن الشرك، ولكنهم جهلة مغررون.

هداية الآيات:

١ - من أخص صفات الإله أن يخلق ويرزق ويحيي ويميت فإن لم يكن كذلك فليس بإله.

٢ - وحدة النظام دالة على وحدة المنظم، ووحدة الوجود دالة على وحدة الموجد وهذا برهان التمانع الذي يقرر منطقيًا وجود الله ووجوب عبادته وحده.

٣ - لا برهان على الشرك أبدًا، ولا يصح في الذهن وجود دليل على صحة عبادة غير الله تعالى.

---

(١) هذه الجملة مقررة لما أنكره تعالى على المشركين من اتخاذهم آلهة من الأرض مبيّنة وجه الإنكار شارحة له، أي: يستحيل أن يوجد آلهة حق مع الله تعالى. والبرهان مذكور في التفسير.

(٢) هذا ما يسمى بدليل أو برهان التمانع وأنه إن كان فيه ما يرده إلا أنه في الجملة دليل مسكت للخصم مقنع لذي العقول.

(٣) إظهار اسم الجلالة في مكان الإضمار كان لتربية المهابة منه عزّ وجل إذ كان المفروض أن يقول سبحانه.

(٤) قال ابن جريج: لا يسأله الخلق عن قضائه فيهم وهو يسألهم عن أعمالهم لأنهم عبيده وبهذا انهدّ معتقد المشركين والقدريين معًا إذ الله لا يُسأل عما يفعل وغيره يُسأل، فالذي يُسأل ويُحاسب ويُجزى لن يكون إلهًا أبدًا.

(٥) ﴿أَمِ﴾: بمعنى: بل والاستفهام التعجبي أي: بل اتخذوا من دون الله آلهة يا للعجب فليأتوا إذًا ببرهان عقلي على صحة دعواهم ومن أين لهم إذًا أفلا يتوبون.

(٦) زيادة على إقامة بطلان الشرك بشهادة القرآن كتاب الله وشهادة الكتب السابقة وفيها التهديد والوعيد للمشركين.

(٧) قرأ الحق بالرفع ابن محيسن والحسن على تقدير: هذا هو الحق، وقرأ الجمهور بالنصب مفعول أي: لا يعلمون الحق الذي هو القرآن العظيم فهم لا يتأملونه فحججه وبراهينه على إبطال الشرك ظاهرة.

(٨) هذا برهان آخر على إبطال الشرك إذ عامة الرسل جاءت بالتوحيد بلا إله إلا الله، فكيف يصح إذًا إقرار الشرك والعمل به؟ والآية كآية النحل: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾.

٤ -القرآن والتوراة وكل كتب الله متضافرة على تقرير توحيد الله تعالى.

٥ - تقرير توحيد الله تعالى وإبطال الشرك والتنديد بالمشركين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ ـ ٢٩]

(٢٦) ﴿وَلَدًا﴾: أي من الملائكة حيث قالوا الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾: تنزيه له تعالى عن اتخاذ الولد. ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾: هم الملائكة، ومن كان عبدًا لا يكون ابنًا ولا بنتًا.

(٢٧) ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾: أي لا يقولون حتى يقول هو وهذا شأن العبد لا يتقدم سيده بشيء. ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾: أي فهم مطيعون متأدبون لا يعملون إلا بإذنه لهم.

(٢٨) ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾: أي إلاّ لمن رضي تعالى أن يشفع له. ﴿مُشۡفِقُونَ﴾: أي خائفون.

(٢٩) ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾: أي من دون الله كإبليس عليه لعائن الله. ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي لأنفسهم بالشرك والمعاصي.

معنى الآيات:

(٢٦) بعد أن أبطلت الآيات السابقة الشرك ونددت بالمشركين جاءت هذه الآيات في إبطال باطل آخر للمشركين وهو نسبتهم الولد لله تعالى فقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ[1] ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ﴾ وهو زعمهم أن الملائكة بنات الله فنزه تعالى نفسه عن هذا النقص فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ وأبطل دعواهم وأضرب عنها فقال: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾[2] أي فمن نسبوهم لله بنات له هم عباد له مكرمون عنده ووصفهم تعالى بقوله: (٢٧) ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ فهم لكمال عبوديتهم لا يقولون حتى يقول هو سبحانه تعالى، وهم يعملون بأمره فلا يقولون ولا يعملون إلا بعد إذنه لهم.

(٢٨) وأخبر تعالى أنه يعلم ما بين أيديهم[3] وما خلفهم فعلمه عز وجل محيط بهم ولا يشفعون لأحد من خلقه إلا لمن ارتضى أن يشفع[4] له فقال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ وزيادة على ذلك أنهم ﴿مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ خائفون، وعلى فرض أن أحدًا منهم قال إني إله[5] من دون الله فإن الله تعالى يجزيه بذلك القول جهنم وكذلك الجزاء نجزي الظالمين أي أنفسهم بالشرك والمعاصي، وبهذا بطلت فرية المشركين في جعلهم الملائكة بنات لله وفي عبادتهم ليشفعوا لهم عنده تعالى.

هداية الآيات:

١ - إبطال نسبة الولد إلى الله تعالى من قبل المشركين وكذا اليهود والنصارى.

٢ - بيان كمال عبودية الملائكة لله تعالى وكمال أدبهم وطاعتهم لربهم سبحانه وتعالى.

٣ - بطلان دعوى المشركين في شفاعة الملائكة لهم، إذ الملائكة لا يشفعون إلا لمن رضي الله تعالى أن يشفعوا له.

٤ -تقرير وجود شفاعة يوم القيامة ولكن بشروطها وهي أن يكون الشافع قد أذن له بالشفاعة، وأن يكون المشفوع له من أهل التوحيد فأهل الشرك لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠ ـ ٣٣]

(٣٠) ﴿كَانَتَا رَتۡقٗا﴾: أي كتلة واحدة منسدة لا انفتاح فيها. ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾: أي جعلنا السماء سبع

---

(١) قيل: هذه الآية نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله تعالى، وكانوا يعبدونهم يرجون شفاعتهم، وفريتهم قائمة على أن الله تعالى أصهر إلى سروات الجنّ فأنجب الملائكة ـ تعالى الله علوًا كبيرًا.

(٢) ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ أي: بل هم عباد مكرمون، فعباد: خبر لمبتدأ محذوف، ومكرمون: نعت للخبر.

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعلم ما عملوا وما هم عاملون كما يعلم ما بين أيديهم من الآخرة وما خلفهم من الدنيا.

(٤) قال ابن عباس: هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد: هم كل من رضي الله عنه. وهو أعم من الأوّل، وأخص أيضًا باعتبار جهتين.

(٥) في الآية دليل على أن الملائكة وإن أكرموا بالعصمة فهم متعبدون وليسوا مضطرين إلى العبادة اضطرارًا، بل شأنهم شأن المعصومين من الرسل يعبدون تعبدًا لا اضطرارًا.

سماوات والأرض سبع أرضين.

(٣١) ﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي جبالاً ثابتة. ﴿تَمِيدَ بِهِمْ﴾: أي تتحرك فتميل بهم. ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾: أي طرقًا واسعة يسلكونها تصل بهم إلى حيث يريدون. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: إلى مقاصدهم في أسفارهم.

(٣٢) ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾: من الشمس والقمر والليل والنهار معرضون.

(٣٣) ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: الفلك كل شيء دائر.

معنى الآيات:

(٣٠) ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد ووجوب تنزيه الله تعالى عن صفات النقص والعجز فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ[1] ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي الكافرون بتوحيد الله وقدرته وعلمه ووجوب عبادته إلى مظاهر قدرته وعلمه وحكمته في هذه المخلوقات العلوية والسفلية فالسماوات والأرض كانتا كتلة واحدة من سديم فخلق الله تعالى منها السماوات والأرضين كما أن السماء تتفتق بإذنه تعالى عن الأمطار، والأرض تتفتق عن النباتات المختلفة الألوان والروائح والطعوم والمنافع، وأن كل شيء حيّ في هذه الأرض من إنسان وحيوان ونبات هو من الماء أليست هذه كلها دالة على وجود الله ووجوب عبادته وتوحيده فيها؟

فما للناس لا يؤمنون؟ هذا ما دل عليه قوله تعالى في الآية الأولى (٣٠): ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا[2] فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا[3] مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾؟

(٣١) وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي جبالاً ثوابت كيلا تميد أي تتحرك وتضطرب بسكانها، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي طرقًا سابلة للسير فيها ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ[4]﴾ أي كي يهتدوا إلى مقاصدهم في أسفارهم.

(٣٢) وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا[5] مَّحْفُوظًا﴾ من السقوط ومن الشياطين. وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ من الشمس والقمر والليل والنهار إذ هذه آيات قائمة بها ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي لا يفكرون فيها فيهتدوا إلى معرفة الحق عز وجل ومعرفة ما يجب له من العبادة والتوحيد فيها.

(٣٣) وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ[6] وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[7]﴾ أي كل من الشمس والقمر في فلك خاص به يسبح الدهر كله، والفلك عبارة عن دائرة كفلكة المغزل يدور فيها الكوكب من شمس وقمر ونجم يسبح فيها لا يخرج عنها إذ لو خرج يحصل الدمار الشامل للعوالم كلها، فسبحان العليم الحكيم، هذه كلها مظاهر القدرة والعلم والحكمة الإلهية وهي موجبة للتوحيد مقررة له، ولكن المشركين عنها معرضون لا يفكرون ولا يهتدون.

---

(١) قرأ الجمهور: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ بالواو بعد همزة الاستفهام، وقرأ بعض: ﴿ألم ير﴾ بدون واو، بمعنى يعلم.

(٢) ﴿رَتْقًا﴾: الرتق: السدّ ضد الفتق، يقال: رتقت الفتق أرتقه فارتتق. أي: التأم، ومنه: امرأة رتقاء أي: منضمة الفرج غير مفتوق، والمراد أنّ السماوات والأرض كانت شيئًا واحدًا ملتزقتين ففصل الله بينهما. وما في التفسير إشارة إلى ما اختارهُ ابن جرير الطبري وهو: أن السماء كانت رتقًا لا تمطر والأرض كانت رتقًا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات، والآية دالة على الوجهين والوجهان صحيحان.

(٣) ﴿وَجَعَلْنَا﴾: بمعنى: خلقنا، وهذا اللفظ صالح للدلالة على أنّ كل شيء في هذه المخلوقات من الحيوان والنبات خلق من الماء، والثاني: أن حياة هذه المخلوقات تحفظ بالماء، وفي الحديث: «كل شيء خلق من الماء». ذكره القرطبي رحمه الله تعالى.

(٤) رجاء أن يهتدوا في سيرهم إلى ما يرومون من الديار والبلاد، ورجاء أن يهتدوا بذلك إلى الإيمان بالله وتوحيده.

(٥) سميت السماء سقفًا لأنها مرفوعة فوق الأرض مظلّلة لها كالسقف على الدّار.

(٦) هذه كلها منن الله تعالى على عباده وآيات قدرته وعلمه وحكمته وكلها موجبة للإيمان به وعبادته وتوحيده، وإعراض الناس عن النظر والتدبر هو الذي حرمهم هداية الله تعالى.

(٧) ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: هذه جملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا جوابًا لمن سمع الآيات، فتساءل عن الشمس والقمر وعن باقي الأجرام السماوية قائلاً: كيف لا يقع بينها تصادم ولا يتخلّف بعضها فيحدث خلل في الكون والحياة؟ فأجيب بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

٣٢٥

هداية الآيات:

١ - بيان مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته الموجبة لتوحيده والإيمان به وطاعته.

٢ - بيان الحكمة من خلق الجبال الرواسي.

٣ - بيان دقة النظام الإلهي، وعظيم العلم والحكمة له سبحانه وتعالى.

٤ - إعراض أكثر الناس عن آيات الله في الآفاق كإعراضهم عن آياته القرآنية هو سبب جهلهم وشركهم وشرهم وفسادهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤ - ٣٨]

﴿٣٤﴾ ﴿ٱلْخُلْدَ﴾: أي البقاء في الدنيا.

﴿٣٥﴾ ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: أي مرارة مفارقة الجسد. ﴿وَنَبْلُوكُم﴾: أي نختبركم. ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾: فالشر كالفقر والمرض، والخير كالغنى والصحة. ﴿فِتْنَةً﴾: أي لأجل الفتنة لننظر أتصبرون وتشكرون أم تجزعون وتكفرون.

﴿٣٦﴾ ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾: أي ما يتخذونك إلا هزوًا أي مهزوءًا بك. ﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾: أي يعيبها. ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾: حيث أنكروا اسم الرحمن لله تعالى وقالوا: ما الرحمن؟

﴿٣٧﴾ ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾: حيث خلق الله آدم في آخر ساعة من يوم الجمعة على عجل، فورث بنوه طبع العجلة عنه. ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾: أي سأريكم ما حملته آياتي من وعيد لكم بالعذاب في الدنيا والآخرة.

معنى الآيات:

كأنَّ المشركين قالوا شامتين إن محمدًا سيموت، وقالوا نتربص به ريب المنون فأخبر تعالى أنه لم يجعل لبشر من قبل نبيّه ولا من بعده الخلد حتى يخلد هو ﷺ فكل نفس ذائقة الموت، ولكن إن مات رسوله فهل المشركون يخلدون والجواب لا، إذًا فلا وجه للشماتة بالموت لو كانوا يعقلون.

﴿٣٤﴾ هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣٤): ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ[1] ٱلْخَٰلِدُونَ ۝﴾.

﴿٣٥﴾ وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ[2]﴾ أي كل نفس منفوسة ذائقة مرارة الموت بمفارقة الروح للبدن، والحكمة في ذلك أن يتلقى العبد بعد الموت جزاء عمله خيرًا كان أو شرًا، دل عليه قوله بعد: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ من غِنى وفقر ومرض وصحة وشدة ورخاء ﴿فِتْنَةً﴾ أي لأجل فتنتكم أي اختباركم ليرى الصابر الشاكر والجزع الكافر. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي بعد الموت للحساب والجزاء على كسبكم خيره وشره.

﴿٣٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ يخبر تعالى رسوله بأن المشركين إذا رأوه ما يتخذونه إلا هزوًا وذلك لجهلهم بمقامه وعدم معرفتهم فضله عليهم وهو حامل الهدى لهم، وبين وجه استهزائهم به ﷺ بقوله:

---

(١) الاستفهام مقدّر أي: أفهم الخالدون؟ وهو للنفي والإنكار، كقول الشاعر:

رفوني وقالوا يا خويلد لا تُرع ... فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

أي: أهم؟ ومعنى رفوني سكّنوني، يقال رفاه إذا سكنه.

(٢) يروى أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أنشد واستشهد بالبيتين الآتيين:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي بعيبها وانتقاصها. قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ[1] هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي عجبًا لهم يتألمون لذكر آلهتهم بسوء وهي محط السوء فعلاً، ولا يتألمون لكفرهم بالرحمن ربهم سبحانه وتعالى حتى إنهم أنكروا أن يكون اسم الرحمن اسمًا لله تعالى وقالوا لا رحمان إلا رحمان اليمامة.

(٣٧) ـ (٣٨) وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[2]. قال تعالى هذا لما استعجل المشركون العذاب وقالوا للرسول والمؤمنين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فأخبر تعالى أن الاستعجال[3] من طبع الإنسان الذي خلق عليه، وأخبرهم أنه سيريهم آياته فيهم بإنزال العذاب بهم وأراهم ذلك في بدر الكبرى. وذلك في قوله: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي فلا داعي إلى الاستعجال. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝﴾ أخبر تعالى عن قيلهم للرسول والمؤمنين وهم يستعجلون العذاب: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ وهذا عائد إلى ما فطر عليه الإنسان من العجلة من جهة، وإلى جهلهم وكفرهم من جهة أخرى وإلا فالعاقل لا يطالب بالعذاب بل يطالب بالرحمة والخير، لا بالعذاب والشر.

هداية الآيات:

١ - إبطال ما شاع من أن الخضر حيٌّ مخلد لا يموت لنفيه تعالى ذلك عن كل البشر.

٢ - بيان العلة من وجود خير وشر في هذه الحياة الدنيا وهي الاختبار.

٣ - بيان ما كان عليه المشركون من الاستهزاء بالرسول ﷺ.

٤ - تقرير حقيقة أن الإنسان مطبوع على العجلة فلذا من غير طبعه بالتربية فأصبح ذا أناة وتؤدة كان من أكمل الناس وأشرفهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٩ ـ ٤٣]

(٣٩) ﴿لَا يَكُفُّونَ﴾: أي لا يمنعون ولا يدفعون النار عن وجوههم.

(٤٠) ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾: أي تأتيهم القيامة بغتة أي فجأة. ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾: أي تحيرهم. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: أي يمهلون ليتوبوا.

(٤١) ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ﴾: أي نزل بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون.

(٤٢) ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾: أي من يحفظكم ويحرسكم. ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: أي من عذابه إن أراد إنزاله بكم. ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾: أي هم عن القرآن معرضون فلا يستمعون إليه ولا يفكرون فيه.

(٤٣) ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾: أي لا يجدون من يجيرهم من عذابنا.

معنى الآيات:

(٣٩) يقول تعالى: ﴿لَوْ[4] يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المستعجلون بالعذاب المطالبون به حين أي الوقت الذي يُلقون فيه في جهنم والنار تأكل وجوههم وظهورهم، ولا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم منها ولا هم ينصرون بمن يدفع العذاب عنهم لو علموا هذا وأيقنوا به لما طالبوا بالعذاب ولا استعجلوا يومه وهو يوم القيامة، هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ[5] كَفَرُوا۟ حِينَ[6] لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن

---

(١) عجبًا لجهلهم وسوء فهمهم يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم يجحدون إلهية الرحمٰن، إنّ هذا لغاية الجهل والغرور.

(٢) إنّ طبع الإنسان العجلة، إنه يستعجل الأشياء وإن كان فيها مضرّته، ولفظ الإنسان جائز أن يكون المراد به جنس الإنسان أو آدم عليه السلام. قال سعيد بن جبير: لما دخل الروح في عين آدم نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

(٣) العجلة: السرعة، قيل: إن ضعف صفة الصبر في الإنسان من مقتضى التفكير في المحبة والكراهة، فإذا فكر في شيء محبوب استعجل حصوله، وإذا فكر في شيء مكروه استعجل إزالته، ومن هنا كان عجولاً.

(٤) جواب لو: محذوف تقديره: لما استعجلوا أي: لو عرف هؤلاء المستعجلون وقت لا تزول فيه النار عن وجوههم وعن ظهورهم لما استعجلوا العذاب.

(٥) جواب لو: محذوف كما تقدم آنفًا، والغرض من حذفه تهويل جنسه فتذهب نفس السامع كل مذهب. وجملة: ﴿..لَوْ﴾ إلخ.. مستأنفة استئنافًا بيانيًا.

(٦) ﴿حِينَ﴾: اسم زمان منصرف منصوب على المفعولية لا على الظرفية أي: لو علموا وقته وأيقنوا بحصوله لما كذّبوا به.

ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾.

(٤٠) وقوله تعالى: ﴿بَلْ[1] تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي أن القيامة لا تأتيهم على علم منهم بوقتها وساعتها فيمكنهم بذلك التوبة، وإنما تأتيهم ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي فتحيرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يمهلون ليتوبوا من الشرك والمعاصي فينجوا من عذاب النار.

(٤١) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾﴾ وهو العذاب هذا القول للرسول ﷺ تعزية له وتسلية ليصبر على ما يلاقيه من استهزاء قريش به واستعجالهم العذاب، إذ حصل مثله للرسل قبله فصبروا حتى نزل العذاب بالمستهزئين بالرسل عليهم السلام.

(٤٢) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم[2] بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ يأمر تعالى رسوله أن يقول للمطالبين بالعذاب المستعجلين له: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي من يجيركم من الرحمن إن أراد أن يعذبكم، إنه لا أحد يقدر على ذلك إذًا فلم لا تتوبون إليه بالإيمان والتوحيد والطاعة له ولرسوله، وقوله: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ إن علة عدم استجابتهم للحق هي إعراضهم عن القرآن الكريم وتدبر آياته وتفهم معانيه.

(٤٣) وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ ينكر تعالى أن يكون للمشركين آلهة تمنعهم من عذاب الله متى نزل بهم ويقرر أن آلهتهم لا تستطيع نصرهم ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ[3]﴾ أي وليس هناك من يجيرهم من عذاب الله من آلهتهم ولا من غيرها فلا يقدر أحد على إجارتهم من عذاب الله متى حل بهم.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير أن الساعة لا تأتي إلا بغتة.

٢ ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٣ ـ تسلية الرسول ﷺ بما كان عليه الرسل من قبله وما لاقوه من أممهم.

٤ ـ بيان عجز آلهة المشركين عن نصرتهم بدفع العذاب عنهم متى حل بهم.

٥ ـ بيان أن علة إصرار المشركين على الشرك والكفر هو عدم إقبالهم على تدبر القرآن الكريم وتفكرهم في آياته وما تحمله من هدى ونور.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٤ ـ ٤٧]

(٤٤) ﴿مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾: أي بما أنعمنا عليهم من الخيرات. ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾: فاغتروا بذلك. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾: أي بالفتح على النبي ﷺ وأصحابه المؤمنين.

(٤٥) ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾: أي بأخبار الله تعالى التي يوحيها إليّ وليس هناك شيء من عندي.

(٤٦) ﴿نَفْحَةٌ﴾: أي وقعة من عذاب

---

(١) ﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي من تهويل ما أعدّ لهم إلى التهديد بأن ذلك يحلّ بهم بغتة (أي فجأة).

(٢) يكلؤكم: أي يحرسكم ويحفظكم إذ الكلاءة: الحفظ والحراسة يقال: كلاه الله كلاءة أي: حفظه وحرسه، ومنه قول الشاعر:

إنّ سليمى والله يكلؤها ... ضنّت بشيء ما كان يرزؤها

والاستفهام في: من يكلؤكم: للنفي.

(٣) فسر يصحبون بيمنعون، ويجارون. قال الشاعر:

ينادي بأعلى صوته متعوذًا ... ليصحب منها والرماح دواني

خفيفة. ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾: أي يقولون يا ويلنا أي يا هلاكنا. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: أي بالشرك والتكذيب للرسول ﷺ.

(٤٧) ﴿ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾: أي العادلة. ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾: لا بنقص حسنة ولا بزيادة سيئة. ﴿مِثۡقَالَ حَبَّةٍ﴾: أي زنة حبة من خردل. ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾: أي محصين لكل شيء.

معنى الآيات:

(٤٤) ما زال السياق في إبطال دعاوي المشركين فقال تعالى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾(١) بما أنعمنا عليهم هم وآباؤهم فظنوا أن آلهتهم هي الحافظة لهم بل الله هو الحافظ ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾(٢) فانغروا بذلك. ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾ أرض الجزيرة بلادهم ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآ﴾ بدخول أهلها في الإسلام بلدًا بعد بلد. ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾؟ الله هو الغالب حيث مكن لرسوله والمؤمنين وفتح عليهم، ثم أمر رسوله أن يقول لهم أيها المكذبون إنما أنذركم العذاب وأخوفكم من عاقبة شرككم بالوحي الإلهي لا من تلقاء نفسي.

(٤٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ فالصم لحبهم الباطل الذي هم عليه لا يسمعون الدعاء إذا ما ينذرون وفي الخبر حبك الشيء يعمي ويصم فحبهم للشرك وآلهته جعلهم لا يسمعون فاستوى إنذارهم وعدمه.

(٤٦) وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ﴾(٣) نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي وقعة خفيفة من العذاب لصاحوا يدعون بالويل على أنفسهم قائلين ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾(٤) فكيف بهم إذا وضعت الموازين(٥) العدل ليوم القيامة حيث لا تظلم نفس شيئًا وإن قل وإن كان مثقال حبة من حسنة أو سيئة أتينا بها ووزناها.

(٤٧) ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾(٦) أي محصين لأعمال العباد لعلمنا المحيط بكل شيء وقدرتنا التي لا يعجزها شيء.. ألا فلنتق الله أيها العقلاء!!

هداية الآيات:

١ ـ طول العمر والرزق الواسع كثيرًا ما يُسبب الغرور لصاحبه.

٢ ـ حب الشيء يعمي صاحبه حتى لا يرى إلا ما أحبه ويصمه بحيث لا يسمع إلا ما أحبه.

٣ ـ بيان ضعف الإنسان وأن أدنى عذاب ينزل به لا يتحمله ويصرخ داعيًا يا هلاكاه.

٤ ـ تقرير البعث والحساب والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٨ ـ ٥٠]

(٤٨) ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾: التوراة لأنها فارقة بين الحق والباطل كالقرآن. ﴿وَضِيَآءٗ﴾: أي يهدي إلى الحق في العقائد والشرائع. ﴿وَذِكۡرٗا﴾: أي موعظة.

(٤٩) ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾: أي يخافون ربهم وهم لا يرونه في الدنيا فلا يعصونه بترك واجب ولا بفعل حرام. ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾: أي وهم من أهوال يوم القيامة وعذابه خائفون.

(٥٠) ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾: أي القرآن الكريم تنال بركته قارئه والعامل به. ﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾: الاستفهام للتوبيخ يوبخ تعالى من أنكر أن القرآن كتاب الله.

معنى الآيات:

(٤٨) يخبر تعالى أنه آتى موسى وهارون ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾(٧) أي الحق الذي فرق بين حق موسى وهارون وبين

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أهل مكة. أي: بسطنا لهم ولآبائهم نعيمها.

(٢) ﴿طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُ﴾ أي: في النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم، فانغروا وأعرضوا عن تدبّر حجج الله عز وجل.

(٣) المس: اتصال بظاهر الجسم، والنفحة: المرّة من النفح في العطية، يقال: نفحه بشيء إذا أعطاه. وما في التفسير مغنٍ عن هذا.

(٤) هذا اعتراف منهم في حين لا ينفع الاعتراف.

(٥) قيل: يجوز أن يكون لكل عامل ميزان خاص به فتكثر الموازين، كما قال الشاعر:

ملك تقوم الحادثات لعدله … فلكل حادثة لها ميزان

(٦) ضمير الجمع في ﴿حَٰسِبِينَ﴾: مراعى فيه ضمير العظمة، وهو منصوب على الحال أو التمييز لكفى.

(٧) وفسر ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ بالتوراة أيضًا وهو حق أيضًا وجائز أن يكون النصر، إذ معنى الفرقان: أنه ما يفرّق به بين الحق والباطل بالقول أو العمل.

سورة الأنبياء — الجزء السابع عشر

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

٣٢٧

باطل فرعون، كما فرق بين التوحيد والشرك يوم بدر يوم الفرقان وآتاهما التوراة ضياء يستضاء بها في معرفة الحلال والحرام والشرائع والأحكام ﴿وَذِكْرًا﴾ أي موعظة للمتقين ووصف المتقين بصفتين:

﴿٤٩﴾ الأولى أنهم ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي يخافونه ﴿بِالْغَيْبِ﴾(١) أي وهم لا يرونه والثانية: أنهم ﴿مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(٢)﴾ أي مما يقع فيها من أهوال وعذاب.

﴿٥٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ يشير إلى القرآن الكريم ويصفه بالبركة فبركته لا ترفع فكل من قرأه وعمل بما فيه نالته بركته قراءة الحرف الواحد منه بعشر حسنات لا تنقضي عجائبه ولا تكتنه أسراره ولا تكتشف كل حقائقه، هدى لمن استهدى، وشفاء لمن استشفى وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾(٣) يوبخ به العرب الذين آمنوا بكتاب اليهود إذ كانوا يسألونهم عما في كتابهم، وكفروا بالقرآن الذي هو كتابهم فيه ذكرهم وشرفهم.

هداية الآيات:

١ ـ إظهار منة الله تعالى على موسى وقومه ومحمد وأمته بإنزال التوراة على موسى والقرآن على محمد ﷺ.

٢ ـ بيان صفات المتقين وهم الذين يخشون ربهم بالغيب فلا يعصونه بترك واجب ولا بفعل محرم: وهم دائمًا في إشفاق وخوف من يوم القيامة.

٣ ـ الإشادة بالقرآن الكريم حيث أنزله تعالى مباركًا.

٤ ـ توبيخ وتقريع من يكفر بالقرآن وينكر ما فيه من الهدى والنور.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥١ ـ ٥٨]

﴿٥١﴾ ﴿رُشْدَهُ﴾: أي هداه بمعرفة ربّه والإيمان به ووجوب طاعته والتقرب إليه.

﴿٥٢﴾ ﴿التَّمَاثِيلُ﴾: جمع تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه إنسان أو حيوان. ﴿الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾: أي مقبلون عليها ملازمون لها تعبدًا.

﴿٥٥﴾ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾: أي الهازلين غير الجادين فيما يقولون أو يفعلون.

﴿٥٦﴾ ﴿رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾: أي المستحق للعبادة مالك السموات والأرض. ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾: أي أنشأهن خلقًا وإيجادًا على غير مثال سابق.

﴿٥٧﴾ ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾: أي لأحتالن على كسر أصنامكم وتحطيمها.

﴿٥٨﴾ ﴿جُذَاذًا﴾: فتاتًا وقطعًا صغيرة. ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾: إلا أكبر صنم لهم فإنه لم يكسره. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: كي يرجعوا إليه فيؤمنوا بالله ويوحّدوه بعد أن يظهر لهم عجز آلهتهم.

معنى الآيات:

﴿٥١﴾ على ذكر ما منّ به تعالى على موسى وهارون ومحمد ﷺ من إيتائه إياهم التوراة والقرآن ذكر أنه امتن

---

(١) قال القرطبي: (بالغيب) أي: غائبين لأنهم لم يروا الله تعالى بل عرفوا بالنظر والاستدلال أنّ لهم ربًا قادرًا يجازي على الأعمال فهم يخشونه في سرائرهم وخلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس، والباء في: (بالغيب) بمعنى الفاء أي: يخشونه تعالى في الغيب.

(٢) الإشفاق: هو رجاء حادث مخوف.

(٣) الاستفهام للتعجب والتوبيخ.

قبل ذلك على إبراهيم فآتاه رشده في صباه فعرفه به وبجلاله وكماله ووجوب الإيمان به تعالى وعبادته وحده، وإن عبادة من سواه باطلة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ[1]﴾ وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ[2]﴾ أي بأهليته للدعوة والقيام بها لما علمناه.

(٥٢) ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي في الوقت الذي قال لأبيه أي آزر، وقومه منكرًا عليهم عبادة غير الله ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ[3] ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي مقبلون عليها ملازمون لها.

(٥٣) فأجابوه بما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝﴾ فأعلنوا عن جهلهم إذ لم يذكروا برهانًا على صحة أو فائدة عبادتها واكتفوا بالتقليد الأعمى وشأنهم في هذا شأن سائر من يعبد غير الله تعالى فإنه لا برهان له على صحة عبادة من يعبد إلا التقليد لمن رآه يعبده.

(٥٤) فرد عليهم إبراهيم بما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ أي الذين قلدتموهم في عبادة الأصنام ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي عن الهدى الذي يجب أن تكونوا عليه ﴿مُّبِينٍ﴾ لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه.

(٥٥) وردوا على إبراهيم قوله هذا فقالوا بما أخبر تعالى به عنهم ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا[4] بِٱلْحَقِّ﴾ أي فيما قلت لنا من أنّا وآباءنا في ضلال مبين ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي في قولك الذي قلت لنا فلم تكن جادًا فيما تقول وإنما أنت لاعب لا غير ورد إبراهيم عليهم بما أخبر تعالى به عنه في قوله:

(٥٦) ﴿قَالَ بَل[5] رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝﴾ أي ليس ربكم تلك التماثيل بل ربكم الحق الذي يستحق عبادتكم الذي فطر السماوات والأرض فأنشأهن خلقًا عجيبًا من غير مثال سابق وأنا على كون ربكم رب السموات والأرض من الشاهدين إذ لا رب لكم غيره، ولا إله حق لكم سواه.

(٥٧) ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ قسمًا به تعالى ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أي لأحتالن[6] عليها فأكسرها ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ[7]﴾ أي بعد أن ترجعوا عنها وتتركوها وحدها. وفعلاً لما خرجوا إلى عيد لهم يقضون يومًا خارج المدينة أتى تلك التماثيل فكسرها فجعلها قطعًا متناثرة هنا وهناك إلا صنمًا كبيرًا لهم تركه[8].

(٥٨) ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجعون إلى إبراهيم فيعبدون معه ربّه سبحانه وتعالى عندما يتبيّنُ لهم بطلان عبادة الأصنام لأنها لم تستطع أن تدفع عن نفسها فكيف تدفع عن غيرها.

هداية الآيات:

١ - مظاهر إنعام الله وإكرامه لمن اصطفى من عباده.

٢ - تقرير النبوة والتوحيد، والتنديد بالشرك والمشركين.

---

(١) جائز أن يكون من قبل موسى وهارون وجائز أن يكون من قبل النبوة والوحي إليه، والرشد: الصلاح.

(٢) أي: بأهليته لإيتاء الرشد وصالح للنبوّة، وجائز أن يكون عالمين به في الوقت الذي قال لأبيه وقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ والظرف متعلق باذكر.

(٣) ظاهر السؤال أنه سؤال استعلام فلذا أجابوه بحسبه فقالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾، وضمّن ﴿عَٰكِفُونَ﴾ معنى العبادة فعُدّي باللام.

(٤) الاستفهام للاستعلام أي: جئتنا بالحق في اعتقادك أم أنت مازح فيما تقول؟

(٥) أي: لست بلاعب ولا مازح ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ..﴾ إلخ..

(٦) أقسم لهم بالله على أنه لم يكتف بالمحاجة باللسان وإنما سيكيد أصنامهم فيكسرها وذلك لوثوقه بربه تعالى، ولتوطينه نفسه على مقاساة المكروه في الذبّ عن دين الله. والتاء في تالله تختص بالقسم بالله وحده، والواو تختص بكل اسم ظاهر، والباء بكل مضمر ومظهر.

(٧) ﴿مُدْبِرِينَ﴾: حال مؤكدة لعاملها.

(٨) تركه لم يكسره وعلّق الفأس في عنقه. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: جائز أن يكون المراد بالرجوع إلى الصنم في تكسيرها، وما في التفسير أولى وأصوب.

٣ - ذم التقليد وأنه ليس بدليل ولا برهان للمقلد على ما يعتقد أو يفعل.

٤ - مشروعية الشهادة وفضلها في مواطن تعز فيها ويحتاج إليها.

٥ - تغيير المنكر باليد لمن قدر عليه مقدم على تغييره باللسان والجمع بينهما أفضل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٩ - ٦٥]

(٥٩) ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾: أي بأصنامهم التي سموها آلهة لأنهم يعبدونها ويؤلهونها.

(٦٠) ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾: أي بالعيب والانتقاص.

(٦١) ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾: أي ظاهرًا يرونه بأعينهم. ﴿يَشْهَدُونَ﴾: أي عليه بأنه الذي كسر الآلهة، ويشهدون العقوبة التي ننزلها به.

(٦٢) ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾: هذه صيغة الاستنطاق والاستجواب.

(٦٣) ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾: أشار إلى إصبعه نحو الصنم الكبير الذي علق به الفأس قائلاً بل فعله كبيرهم هذا وَوَرَّى بإصبعه تحاشيا للكذب.

(٦٤) ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أي بعد التفكر والتأمل حكموا على أنفسهم بالظلم لعبادتهم ما لا ينطق.

(٦٥) ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾: أي بعد اعترافهم بالحق رجعوا إلى إقرار الباطل فكانوا كمن نكس فجعل رأسه أسفل ورجلاه أعلى. ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾: فكيف تطلب منا أن نسألهم.

معنى الآيات:

(٥٩) ما زال السياق الكريم فيما دار بين إبراهيم الخليل وقومه من حوار حول العقيدة أنه لما استغل إبراهيم فرصة خروج القوم إلى عيدهم خارج البلد ودخل البهو فكسر الآلهة فجعلها قطعًا متناثرة وعلق الفأس بكبير الآلهة المزعومة وعظيمها وخرج فلما جاء المساء وعادوا إلى البلد ذهبوا إلى الآلهة المزعومة لأخذ الطعام الموضوع بين يديها لتباركه في زعمهم واعتقادهم الباطل وجدوها مهشمة مكسرة صاحوا قائلين: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(٦٠) فأجاب بعضهم بعضًا قائلاً: ﴿سَمِعْنَا فَتًى[(١)] يَذْكُرُهُمْ﴾ أي شابًا يذكر الآلهة بعيب وازدراء، واسمه إبراهيم.

(٦١) وهنا قالوا إذًا: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ[(٢)] ٱلنَّاسِ﴾ لنشاهده ونحقق معه فإذا ثبت أنه هو عاقبناه وتشهد الناس عقوبته فيكون ذلك نكالاً لغيره، وجاؤوا به عليه السلام وأخذوا في استنطاقه فقالوا ما أخبر تعالى به عنهم:

(٦٢) ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ أي التكسير والتحطيم ﴿بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟

(٦٣) فأجابهم بما أخبر تعالى به عنه بقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[(٣)] يشير بإصبعه إلى كبير الآلهة تورية، ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ تقريعًا لهم وتوبيخًا وهنا رجعوا إلى أنفسهم باللائمة فقالوا:

(٦٤) ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي حيث تألهون ما لا ينطق ولا يجيب ولا يدفع عن نفسه فكيف عن غيره.

(٦٥) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ[(٤)]﴾ أي قلبهم الله رأسًا على عقب فبعد أن عرفوا الحق ولاموا على أنفسهم عادوا إلى الجدال بالباطل فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ أي يا إبراهيم ما ﴿هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تطلب منا أن نسألهم وأنت تعلم أنهم لا ينطقون. كما أن اعترافهم بعدم نطق الآلهة المدعاة

---

(١) جائز أن يكون إبراهيم لما قال متوعدًا أصنامهم: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ كان هناك من سمعه من ضعفة القوم أو سمعه من سمعه يعيب الآلهة قبل أن يتوعدها بالكسر.

(٢) في هذا دليل على أنه كان لا يؤاخذ أحد بدعوى أحد قد لا تثبت، بل لا بد من التحري حتى تثبت أو لا تثبت كما هو في شرعنا الإسلامي.

(٣) قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، قاله من أجل أن يقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرّون فيقول لهم: فلم تعبدونهم إذًا؟! فتقوم له الحجة عليهم من أنفسهم ولذا يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه فإنه أقطع للشبهة وأقرب في الحجة.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم.

انتكاس منهم إذ اعترفوا ببطلان تلك الآلهة.

هداية الآيات:

١ - الظلم معروف لدى البشر كلهم ومنكر بينهم ولولا ظلمة النفوس لما أقروه بينهم.

٢ - إقامة البيّنة على الدعاوي أمر مقرر في عرف الناس وجاءت به الشرائع من قبل.

٣ - أسلوب المحاكمة يعتمد على الاستنطاق والاستجواب أولاً.

٤ - مشروعية التورية خشية القول بالكذب[1].

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٦ - ٧٢]

(٦٦) ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾: أي آلهة لا تنفعكم شيئًا ولا تضركم إن أرادت ضركم.

(٦٧) ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾: أي قبحًا لكم ولما تعبدون من دون الله.

(٦٨) ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ﴾: أي أحرقوه بالنار انتصارًا لآلهتكم التي كسرها.

(٦٩) ﴿بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾: أي على إبراهيم فكانت كذلك فلم يحرق منه غير وثاقه «الحبل الذي وثق به».

(٧٠) ﴿كَيْدًا﴾: وهو تحريقه بالنار للتخلص منه. ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾: حيث خرج من النار ولم تحرقه ونجا من قبضتهم وذهب كيدهم ولم يحصلوا على شيء.

(٧١) ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا﴾: أي ابن أخيه هاران. ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾: وهي أرض الشام.

(٧٢) ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾: زيادة على طلبه الولد فطلب ولدًا فأعطاه ما طلب وزاده آخر. ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ﴾: أي وجعلنا كل واحد منهم صالحًا من الصالحين الذين يؤدون حقوق الله كاملة وحقوق الناس كذلك.

معنى الآيات:

(٦٦) يخبر تعالى أن إبراهيم عليه السلام قال لقومه منكرًا عليهم عبادة آلهتهم ﴿أَفَتَعْبُدُونَ[2] مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي أتعبدون آلهة دون الله علمتم أنها لا تنفعكم شيئًا ولا تضركم ولا تنطق إذا استنطقت ولا تجيب إذا سئلت.

(٦٧) ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قبحًا لكم ولتلك التماثيل التي تعبدون من دون الله الخالق الرازق الضار النافع ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3] قبح عبادتها وباطل تأليهها وهي جماد لا تسمع ولا تنطق ولا تنفع ولا تضر.

(٦٨) وهنا أجابوا[4] بما أخبر تعالى به عنهم فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾[5] أي أحرقوا إبراهيم بالنار ﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ التي أهانها وكسرها ﴿إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ أي مريدين نصرتها حقًا وصدقًا.

(٦٩) ونفذوا ما أجمعوا عليه وجمعوا الحطب وأججوا النار في بنيان خاص وألقوه فيه بواسطة منجنيق لقوة لهبها وشدة حرها[6] وقال تعالى للنار ما أخبر به في قوله: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝﴾ فكانت كما طلب منها ولم تحرق غير وثاقه الحبل الذي شدت به يداه، ورجلاه ولو لم يقل وسلامًا

(١) الكذب: هو الإخبار بما يخالف الواقع، والتورية: أن يقول أو يفعل شيئًا ويوري بغيره تجنبًا للكذب، وفي الحديث الصحيح: **«لم يكذب إبراهيم النبي في شيء قط إلا في ثلاث: قوله: إني سقيم، وقوله لسارة: أختي، وقوله: بل فعله كبيرهم»** وهي في الواقع معاريض وليست بالكذب الصريح، وكانت في ذات الله تعالى.

(٢) الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع.

(٣) الاستفهام للتوبيخ والتأنيب.

(٤) بعد أن أعيتهم الحجة وانقطعوا ببيان اللسان لاذوا إلى قوة السنان، وهذا شأن الإنسان إذا كتب عليه الخسران، والعياذ بالرحمٰن.

(٥) روي عن ابن عمر رضي الله عنهما ومجاهد وابن جريج: أنّ الذي قال حرّقوه: رجل من الأكراد من بادية فارس واسمه هيزرُ، وخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. وقيل: إن القائل ملكهم نمرود. والله أعلم.

(٦) روي أنهم جمعوا الحطب في مدة شهر كامل ولما ألقوه في النار عرض له جبريل عليه السلام فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل. وقال عليّ وابن عباس رضي الله عنهم: لو لم يتبع بردها سلامًا لمات إبراهيم من بردها. ولم تبق دابة في المنطقة إلاّ أطفأت عن إبراهيم النار إلاّ الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه فلذا أمر الرسول ﷺ بقتلها وسمّاها الفويسقة.

لكان من الجائز أن تنقلب النار جبلاً من ثلج ويهلك به إبراهيم عليه السلام. روي أن والد إبراهيم لما رأى إبراهيم لم تحرقه النار وهو يتفصد عرقًا قال: نعم الرب ربك يا إبراهيم!

(٧٠) وقوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي أرادوا بإبراهيم مكرًا وهو إحراقه بالنار فخيَّب الله مسعاهم وأنجى عبده وخليله من النار وأحبط عليهم ما كانوا يأملون فخسروا في كل أعمالهم التي أرادوا بها إهلاك إبراهيم.

(٧١) وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ[1] وَلُوطًا﴾ أي ونجينا إبراهيم وابن أخيه هاران وهو لوط ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا[2] فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ وهي أرض الشام فنزل إبراهيم بفلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة وهي قرى قوم لوط التي بعد دمارها استحالت إلى بحيرة غير صالحة للحياة فيها وقوله: ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي بارك في أرزاقها بكثرة الأشجار والأنهار والثمار لكل من ينزل بها من الناس كافرهم ومؤمنهم لقوله: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٧٢) وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أي لإبراهيم إسحق حيث سأل الله تعالى الولد، وزاده يعقوب نافلة[3] وقوله: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي وجعلنا كل واحد منهم من الصالحين الذين يعبدون الله بما شرع لهم فأدوا حقوق الربِّ تعالى كاملة، وأدوا حقوق الناس كاملة وهذا نهاية الصلاح.

هداية الآيات:

١ - بيان قوة حجة إبراهيم عليه السلام، ومتانة أسلوبه في دعوته[4] وذلك مما آتاه ربّه.

٢ - مشروعية توبيخ أهل الباطل وتأنيبهم.

٣ - آية إبطال مفعول النار فلم تحرق إبراهيم إلا وثاقه لما أراد الله تعالى ذلك.

٤ - قوة التوكل على الله كانت سبب تلك المعجزة إذ قال إبراهيم حسبي الله ونعم الوكيل.

(٦٩) فقال الله تعالى للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكانت، وكفاه ما أهمه بصدق توكله عليه، ويؤثر أن جبريل عرض له قبل أن يقع في النار فقال هل لك يا إبراهيم من حاجة؟ فقال إبراهيم: أمَّا إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل.

٥ - تقرير التوحيد والتنديد بالشرك والمشركين.

٦ - خروج إبراهيم من أرض العراق إلى أرض الشام كانت أول هجرة في سبيل الله في التاريخ.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

٣٢٨

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٣ - ٧٧]

(٧٣) ﴿أَئِمَّةً﴾: أي يقتدى بهم في الخير. ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: أي يرشدون الناس ويعلمونهم ما به

(١) هذه النجاة ثانية. الأولى كانت من النار وهذه من ديار الكفار، إذ هاجر من أرض الكلدانيين إلى أرض فلسطين، وهي بلاد الكنعانيين يومئذٍ، وهجرة إبراهيم هذه أول هجرة في تاريخ الإسلام، إذ خرج إبراهيم وابن أخيه لوط بن هاران وزوجه وابنة عمه سارة عليهم السلام، ونصب لوط على المفعول معه، وضمّن فعل نجيناه معنى الإخراج فعدي بإلى.

(٢) قيل لها مباركة لكثرة خصبها وأنهارها وثمارها ولأنها معادن الأنبياء والبركة ثبوت الخير، ومنه برك البعير: إذا لزم مكانه ولم يبرحه.

(٣) نافلة: منصوب على الحال، وصاحبها: إسحاق ويعقوب، والنافلة: الزيادة غير الموعودة.

(٤) قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ من سورة الأنعام.

كمالهم ونجاتهم وسعادتهم بإذن الله تعالى لهم بذلك حيث جعلهم رسلاً مبلغين. ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾: أي خاشعين مطيعين قائمين بأمرنا.

(٧٤) ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: أي أعطينا لوطًا حكمًا أي فصلاً بين الخصوم وفقهًا في الدين وكل هذا يدخل تحت النبوة والرسالة وقد نبأه وأرسله. ﴿تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾: كاللواط وغيره من المفاسد. ﴿فَاسِقِينَ﴾: أي عصاة متمردين عن الشرع تاركين للعمل به.

(٧٦) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾: أي واذكر نوحًا إذ دعا ربّه على قومه الكفرة. ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾: أي من الغرق الناتج عن الطوفان الذي عم سطح الأرض.

معنى الآيات:

(٧٣) ما زال السياق الكريم في ذكر أفضال الله تعالى على إبراهيم وولده فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي إبراهيم وإسحق ويعقوب أئمة هداة يقتدى بهم في الخير ويهدون الناس إلى دين الله تعالى الحق بتكليف الله تعالى لهم بذلك حيث نبأهم وأرسلهم. وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا[(١)]﴾ وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ أي أوحينا إليهم بأن يفعلوا الخيرات جمع خير وهو كل نافع غير ضار فيه مرضاة لله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أي امتثلوا أمرنا فيما أمرناهم به وكانوا لنا مطيعين خاشعين وهو ثناء عليهم بأجمل الصفات وأحسن الأحوال.

(٧٤) وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا[(٢)] آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ[(٣)] إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ أي وكما آتينا إبراهيم وولديه ما آتيناهم من الإفضال والإنعام الذي جاء ذكره في هذا السياق آتينا لوطًا وقد خرج مهاجرًا مع عمه إبراهيم آتيناه أيضًا حكمًا وعلمًا ونبوة ورسالة متضمنة حسن الحكم والقضاء وأسرار الشرع والفقه في الدين. هذه منة وأخرى أنا نجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث وأهلكنا أهلها لأنهم كانوا قوم سوء لا يصدر عنهم إلا ما يسوء إلى الخلق فاسقين عن أمرنا خارجين عن طاعتنا.

(٧٥) وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا إنعام آخر أعظم وهو إدخاله في سلك المرحومين برحمة الله الخاصة لأنه من عباد الله الصالحين.

(٧٦) وقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا﴾ أي واذكر يا رسولنا في سلك هؤلاء الصالحين عبدنا ورسولنا نوحًا الوقت الذي نادى ربه من قبل إبراهيم[(٤)] فقال إني مغلوبٌ فانتصر، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ[(٥)] الْعَظِيمِ﴾ حيث نجاه تعالى وأهله إلا امرأته وولده كنعان فإنهما لم يكونا من أهله لكفرهما وظلمهما فكانا من المغرقين.

(٧٧) وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ونصرناه بإنجائنا له منهم فلم يمسوه بسوء، وأغرقناهم أجمعين لأنهم كانوا قوم سوء[(٦)] فاسقين ظالمين.

هداية الآيات:

١ - فضل الدعوة إلى الله تعالى وشرف القائمين بها.

٢ - فضل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات.

٣ - ثناء الله تعالى على أوليائه

---

(١) وجائز أن يكون معنى ﴿بِأَمْرِنَا﴾: أي: بما أنزلنا عليهم بوحينا من الأمر والنهي كأنه قال: بكتابنا وما بيّنا فيه من التشريع المحقق للآخذين به سعادة الدنيا والآخرة. والأئمة: جمع إمام، وهو الرئيس الذي يقتدى به في الخير لا في الشر.

(٢) ﴿وَلُوطًا﴾: منصوب على الاشتغال أي: وآتينا لوطًا آتيناه. والحكم: الحكمة وهو النبوة والعلم: علم الشريعة.

(٣) الخبائث: جمع خبيثة وهي الفعلة الشنيعة، ومن خبائثهم: اللواط، والتضارط في الأندية وحذف الحصى، والتحريش بين الديك والكلاب. والقرية هي: سدوم وعمورة، وما حولهما إذ كانت سبع مدن قلب جبريل منها ستة وأبقى واحدة للوط وعياله وهي: زغر من كورة فلسطين.

(٤) من قبل إبراهيم ولوط عليهما السلام.

(٥) الكرب: هو الغمّ الشديد وهو هنا: الطوفان.

(٦) السوء: بفتح السين مصدر: القبيح المكروه من القول والفعل وبضم السين اسم مصدر وهو أعم من السوء بفتح السين.

وصالحي عباده بعبادتهم، وخشوعهم له.

٤ - الخبث إذا كثر في الأمة استوجبت الهلاك والدمار.

٥ - التنديد بالفسق والتحذير من عواقبه فإنها مدمرة والعياذ بالله.

٦ - تقرير النبوة المحمدية وتأكيدها إذ مثل هذا القصص لا يتأتى إلا لمن يوحى إليه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٨ ـ ٨٢]

(٧٨) ﴿فِي الْحَرْثِ﴾: أي في الكرم الذي رعته الماشية ليلا. ﴿نَفَشَتْ[1] فِيهِ﴾: أي رعته ليلاً بدون راع. ﴿شَاهِدِينَ﴾: أي حاضرين صدور حكمهم في القضية لا يخفى علينا شيء من ذلك.

(٧٩) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾: أي القضية التي جرى فيها الحكم. ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: أي كلاً من داود وولده سليمان أعطيناه حكمًا أي النبوة وعلمًا بأحكام الله وفقهها. ﴿يُسَبِّحْنَ﴾: أي معه إذا سبح. ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾: أي لما هو أغرب وأعجب من تسبيح الجبال والطير فلا تعجبوا.

(٨٠) ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾: هي الدروع وهي من لباس الحرب. ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾: أي تقيكم وتحفظكم من ضرب السيوف وطعن الرماح. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾: أي اشكروا فالاستفهام معناه الأمر هنا.

(٨١) ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا﴾: أي أرض الشام.

(٨٢) ﴿يَغُوصُونَ﴾: أي في أعماق البحر لاستخراج الجواهر. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾: أي دون الغوص كالبناء وغيره وبعض الصناعات. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾: أي لأعمالهم حتى لا يفسدوها.

الجزء السابع عشر — سورة الأنبياء

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)

٣٢٩

معنى الآيات:

(٧٨) ما زال السياق الكريم في ذكر إفضالات الله تعالى وإنعامه على من يشاء من عباده، وفي ذلك تقرير لنبوة نبيه محمد ﷺ التي كذبت بها قريش فقال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي واذكر يا نبينا داود وسليمان ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ أي اذكرهما في الوقت الذي كانا يحكمان في الحرث الذي ﴿نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي رعت فيه ليلاً بدون راع فأكلته وأتلفته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ حاضرين لا يخفى علينا ما حكم به كل منهما، إذ حكم داود بأن يأخذ صاحب الحرث الماشية مقابل ما أتلفته لأن المتلف يعادل قيمة الغنم التي أتلفته، وحكم سليمان بأن يأخذ صاحب الماشية الزرع يقوم عليه حتى يعود كما كان، ويأخذ صاحب الحرث الماشية يستغل صوفها ولبنها وسخالها فإذا ردت إليه كرومه كما كانت أخذها ورد الماشية لصاحبها لم ينقص منها شيء هذا الحكم أخبر تعالى أنه فهم فيه سليمان وهو أعدل من الأول وهو قوله تعالى:

(٧٩) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾[2] أي الحكومة أو القضية أو الفتيا سليمان، ولم يعاتب داود على حكمه، وقال: ﴿وَكُلًّا

(١) النفش: الرعي ليلاً، والهمل: الرعي بالنهار.

(٢) يروى أن سليمان كان على باب المحكمة فإذا خرج الخصمان سألهما بم قضى بينكما نبي الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث فقال: لعل الحكم غير هذا انصرفا معي فأتى أباه فقال: يا نبي الله إنك حكمت بكذا وكذا وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع فقال: وما هو؟ فقال: ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث إلى آخر ما هو في التفسير.

﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا[1] وَعِلْمًا﴾ تلافيًا لما قد يظن بعضهم أن داود دون ولده في العلم والحكم.

وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ هذا ذكر لبعض ما أنعم به على داود عليه السلام وهو أنه سخر الجبال والطير تسبح معه إذا سبح سواء أمرها بذلك فأطاعته أو لم يأمرها فإنه إذا صلى وسبح صلت معه وسبحت، وقوله: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي لما هو أعجب من تسخير الجبال والطير تسبح مع داوود لأنا لا يعجزنا شيء وقد كتب هذا في كتاب المقادير فأخرجه في حينه.

(٨٠) وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ أي داود ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ[2] لَّكُمْ﴾ وهي الدروع السابغة التي تقي لابسها طعن الرماح وضرب السيوف بإذن الله تعالى فهي آلة حرب ولذا قال تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم[3] مِّن بَأْسِكُمْ﴾ ﴿فَهَلْ أَنتُمْ[4] شَاكِرُونَ﴾؟ أمر لعباده بالشكر على إنعامه عليهم والشكر يكون بحمد الله تعالى والاعتراف بإنعامه، وطاعته وصرف النعمة فيما من أجله أنعم بها على عبده.

(٨١) وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾ أي وسخرنا لسليمان ﴿الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ شديدة السرعة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ إذ يخرج غازيًا أول النهار وفي آخره تعود به الريح تحمل بساطه الذي هو كأكبر سفينة حربية اليوم إلى الأرض التي بارك الله وهي أرض الشام. وقوله: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ يخبر تعالى أنه كان وما زال عليمًا بكل شيء ما ظهر للناس وما غاب عنهم فكل أحداث الكون تتم حسب علم الله وإذنه وتقديره وحكمته فلذا وجبت له الطاعة واستحق الألوهية والعبادة.

(٨٢) وقوله: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ[5] لَهُ﴾ أي وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في أعماق البحار لاستخراج الجواهر، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ كالبناء وصنع التماثيل والمحاريب والجفان وغير ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أي وكنا لأعمال أولئك العاملين من الجن حافظين لها عالمين بها حتى لا يفسدوها بعد عملها مكرًا منهم أو خديعة فقد روى أنهم كانوا يعملون ثم يفسدون ما عملوه حتى لا ينتفع به.

هذا كله من إنعام الله تعالى على داود وسليمان وغيره كثير فسبحان ذي الأنعام والأفضال إله الحق ورب العالمين.

هداية الآيات:

١ - وجوب نصب القضاة للحكم بين الناس.

٢ - بيان حكم الماشية ترعى في حرث الناس وإن كان شرعنا على خلاف شرع من سبقنا فالحكم عندنا إن رعت الماشية ليلاً قُوّم المتلف على صاحب الماشية ودفعه لصاحب الزرع، وإن رعت نهارًا فلا شيء لصاحب الزرع لأن عليه أن يحفظ زرعه من أن ترعى فيه مواشي الناس لحديث العجماء جبار وحديث ناقة البراء بن عازب.

٣ - فضل التسبيح.

٤ - وجوب صنع آلة الحرب وإعدادها للجهاد في سبيل الله.

٥ - وجوب شكر الله تعالى على كل نعمة تستجد للعبد.

٦ - بيان تسخير الله تعالى الجن لسليمان يعملون له أشياء.

٧ - تقرير نبوة الرسول ﷺ إذ من أرسل هؤلاء الرسل وأنعم عليهم بما أنعم لا يستنكر عليه إرسال محمد

---

(١) اختلف هل كان حكمهما بوحي أو باجتهاد فإن كان بوحي فهو نسخ للحكم الأول بالثاني، وإن كان باجتهاد وهو ما عليه الجمهور، ولم يخطىء داود ولكن الحكم الذي ألهمه سليمان كان أرفق بالطرفين.

(٢) هذا مع إلانة الحديد له فقال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ واللبوس في العربية: سلاح الحرب من سيف ورمح ودرع وغيرها واللبوس أيضًا: كل ما يلبس. قال الشاعر:

إلبس لكل حالة لبوسها ... إمّا نعيمها وإما بؤسها

(٣) قرأ حفص: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالتاء أي: الدروع، وقرأ نافع: ﴿ليحصنكم﴾ أي: اللبوس وقرأ ورش ﴿لنحصنكم﴾ بالنون، والإحصان: الوقاية والحماية. وفي الآية دليل على وجوب الصناعة على الكفاية.

(٤) الاستفهام هنا للأمر بالشكر.

(٥) الغوص: النزول تحت الماء، والغوّاص: الذي يغوص لاستخراج اللآلىء وفعله يقال له: الغواصة على وزن حياكة (مهنة).

رسولاً وقد أرسل من قبله رسلاً.

٨ ـ كل ما يحدث في الكون من أحداث يحدث بعلم الله تعالى وتقديره ولحكمة تقضيه.

شرح الكلمات:
[الآية: ٨٣ ـ ٨٦]

﴿٨٣﴾ ﴿وَأَيُّوبَ﴾: أي واذكر أيوب.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾: أي دعاه لما ابتلى بفقد ماله وولده ومرض جسده.

﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾: هو ما ضر بجسمه أو ماله أو ولده.

﴿٨٤﴾ ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾: أي عظة للعابدين، ليصبروا فيثابوا.

﴿٨٦﴾ ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾: بأن نبأناهم فانخرطوا في سلك الأنبياء إنهم من الصالحين.

معنى الآيات:

﴿٨٣﴾ ما زال السياق الكريم في ذكر إفضالات الله تعالى وإنعامه على من شاء من عباده الصالحين فقوله تعالى في الآية الأولى (٨٣): ﴿وَأَيُّوبَ﴾ أي واذكر عبدنا في شكره وصبره وسرعة أَوْبَتِه، وقد ابتليناه بالعافية والمال والولد، فشكر وابتليناه بالمرض وذهاب المال والأهل والولد فصبر. أذكره ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي داعيا ضارعًا بعد بلوغ البلاء منتهاه ربّ أي يا رب ﴿أَنِّى مَسَّنِيَ[1] ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿٨٤﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ من زوجة وولد ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي ضاعف له ما أخذه منه بالابتلاء بعد الصبر وأما المال فقد ذكر النبي ﷺ أنه أنزل عليه رَجْلاً من جَرَادٍ من ذهب فكان أيوب يحثو في ثوبه حثيًا فقال له ربّه في ذلك فقال من ذا الذي يستغني عن بركتك يا رب. وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي رحمناه رحمة خاصة، وجعلنا قصته ذكرى وموعظة للعابدين لنا لما نبتليهم بالسراء والضراء فيشكرون ويصبرون ائتساء بعبدنا أيوب ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[2].

﴿٨٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ[3]﴾ أي واذكر في عداد المصطفين من أهل الصبر والشكر إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وإدريس وهو أخنوخ وذا الكفل ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ على عبادتنا الشاكرين لنعمائنا.

﴿٨٦﴾ وأدخلناهم في رحمتنا فنبأنا منهم من نبأنا وأنعمنا عليهم وأكرمناهم بجوارنا إنهم من الصالحين.

هداية الآيات:

١ ـ علو مقام الصبر ومثله الشكر فالأول على البأساء والثاني على النعماء.

٢ ـ فضيلة الدعاء وهو باب الاستجابة وطريقها من ألهمه ألهم الاستجابة.

٣ ـ في سير الصالحين مواعظ وفي قصص الماضيين عبر.

٤ ـ من ابتلي بفقد مال أو أهل أو ولد فَصَبَرَ كان له من الله الخلف وما يقال عند المصيبة: «إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها».

شرح الكلمات:
[الآية: ٨٧ ـ ٩١]

﴿٨٧﴾ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾: هو يونس بن متّى عليه السلام وأُضيف إلى النون الذي هو الحوت في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ لأن حوتة كبيرة ابتعلته. ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا[4]﴾: أي لربه تعالى حيث لم يرجع إلى قومه لما بلغه أن الله رفع عنهم العذاب. ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: أي أن لن نحبسه ونضيق عليه في بطن الحوت من أجل مغاضبته. ﴿فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾: ظلمة

---

(١) هل قول أيوب: ﴿رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ يتنافى مع الصبر؟ والجواب: هذه المسألة ذكر القرطبي في تفسيره نحوًا من ستة عشر قولاً، والصحيح أنّ هذا لا ينافي الصبر لأنه دعاء، والدليل هو قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ ولم يكن شكوى لأنّ الاستجابة تأتي بعد الدعاء لا الاشتكاء، قال الجنيد: عرّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النوال.

(٢) اختلف في مدة مرضه، أصحّ ما قيل فيها أنها ثماني عشرة سنة وهذا مروي عن النبي ﷺ.

(٣) اختلف في ذي الكفل من هو؟ وأرجح الأقوال ما رواه أبو موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن ذا الكفل لم يكن نبيًا ولكنه كان عبدًا صالحًا فتكفل بعمل رجل صالح عند موته وكان يصلي لله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله الثناء عليه»**.

(٤) قيل: (مغاضبًا لربه) أي: لأجل ربه تعالى حيث عصاه قومه فكان غضبه لله تعالى وهو تأويل حسن إذ يقال: فلان غضب لله. أي: لأجله. وجائز أن يكون مغاضبًا لقومه إذ ردوا دعوته ولم يستجيبوا له.

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾

الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل.

(٨٨) ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾: أي الكرب الذي أصابه وهو في بطن الحوت.

(٨٩) ﴿لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾: أي بلا ولد يرث عني النبوة والعلم والحكمة بقرينة ويرث من آل يعقوب.

(٩٠) ﴿رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾: أي طمعًا فينا ورهبًا منا أي خوفًا ورجاءً.

(٩١) ﴿أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾: أي صانته وحفظته من الفاحشة. ﴿مِن رُّوحِنَا﴾: أي جبريل حيث نفخ في كم درعها عليها السلام.

﴿ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي علامة على قدرة الله تعالى ووجوب عبادته بذكره وشكره.

معنى الآيات:

(٨٧) ما زال السياق الكريم في ذكر إفضال الله تعالى وإنعامه على من يشاء من عباده فقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي واذكر ذا النون أي يونس بن متّى ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ لربه تعالى حيث لم يصبر على بقائه مع قومه يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته وطاعته وطاعة رسوله فسأل لهم العذاب، ولما تابوا ورفع عنهم العذاب بتوبتهم وعلم بذلك فلم يرجع إليهم فكان هذا منه مغاضبة لربه تعالى وقوله تعالى عنه: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي ظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يحبسه في بطن الحوت ولا يضيق عليه وهو حسن ظن منه في ربه سبحانه وتعالى، ولكن لمغاضبته ربه بعدم العودة إلى قومه بعد أن رفع عنهم العذاب أصابه ربّه تطهيرًا له من أمر المخالفة الخفيفة بأن ألقاه في ظلمات ثلاث، ظلمة الحوت والبحر والليل ثم ألهمه الدعاء الذي به النجاة فكان يسبح في الظلمات الثلاث ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ[١]﴾.

(٨٧) ـ (٨٨) فاستجاب الله تعالى له وهو معنى قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي[٢] كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ الذي أصابه من وجوده في ظلمات محبوسًا لا أنيس ولا طعام ولا شراب مع غم نفسه من جراء عدم عودته إلى قومه وقد أنجاهم الله من العذاب. وهو سبب المصيبة، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي[٣] ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مما قد يحل بهم من البلاء.

(٨٩) وقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ أي اذكر يا رسولنا زكريا في الوقت الذي نادى ربه داعيًا ضارعًا قائلاً: ﴿رَبِّ﴾ أي يا رب ﴿لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أي لا تتركني فردًا لا ولد لي يرثني في نبوتي وعلمي وحكمتي ويرث ذلك من آل يعقوب حتى لا تنقطع منهم النبوة والصلاح وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ ذكر هذا اللفظ توسلاً به إلى ربه ليستجيب له دعاءه واستجاب له والحمد لله. فوهبه يحيى وأصلح

---

(١) (من الظالمين) حيث ترك مداومة قومه والصبر عليهم أو في الخروج من غير إذن له فنزّه ربّه عن الظلم ونسبه إلى نفسه اعترافًا واستحقاقًا.

(٢) روى أبو داود أنّ النبي ﷺ قال: «**دعاء ذي النون في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلاّ استجيب له**».

(٣) قرأ ابن عامر: ﴿نجّي﴾ بنون واحدة وجيم مشدّدة وتسكين الياء على الماضي وإضمار المصدر أي: وكذلك نجّي النجاء المؤمنين كما يقال: ضرب زيدًا بمعنى: ضرب الضرب زيدًا.

له زوْجه بأن جعلها ولودًا بعد العقر حسنة الخلق والخُلق.

(٩٠) وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ﴾ أي زكريا ويحيى ووالدته كانوا يسارعون في الطاعات والقربات أي في فعلها والمبادرة إليها. وقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا(١) وَرَهَبًا(٢)﴾ هذا ثناء عليهم أيضًا إذ كانوا يدعون الله رغبة في رحمته ورهبة وخوفًا من عذابه وقوله: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي مطيعين ذليلين متواضعين وهم يعبدون ربهم بأنواع العبادات.

(٩١) وقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ(٣) فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا(٤)﴾ أي واذكر يا نبينا تلك المؤمنة التي أحصنت فرجها أي منعته مما حرم الله تعالى عليها وهي مريم بنت عمران اذكرها في عداد من أنعمنا عليهم وأكرمناهم وفضلناهم على كثير من عبادنا الصالحين، حيث نفخنا فيها من روحنا إذ أمرنا جبريل روح القدس ينفخ في كم درعها فسرت النفخة إلى فرجها فحبلت وولدت في ساعة من نهار، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ أي عيسى كلمة الله وروحه ﴿آيَةً﴾(٥) أي علامة كبرى على وجودنا وقدرتنا وعلمنا وحكمتنا وإنعامنا وواجب عبادتنا وتوحيدنا فيها حيث لا يعبد غيرنا ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي للناس أجمعين يستدلون بها على ما ذكرنا آنفًا من وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته ووجوب عبادته وتوحيده فيها.

هداية الآيات:

١ - فضيلة دعوة ذي النون: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. إذ ورد أنه ما دعا بها مؤمن إلا استجيب له.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقوي هذا الخبر.

٢ - استحباب سؤال الولد لغرض صالح لا من أجل الزينة واللهو به فقط.

٣ - تقرير أن الزوجة الصالحة من حسنة الدنيا.

٤ - فضيلة المسارعة في الخيرات والدعاء برغبة ورهبة والخشوع في العبادات وخاصة في الصلاة والدعاء.

٥ - فضيلة العفة والإحصان للفرج.

٦ - كون مريم وابنها آية لأن مريم ولدت من غير فحل، ولأن عيسى كان كذلك وكلم الناس في المهد، وكان يحيي الموتى بإذن الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٢ - ٩٧]

(٩٢) ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾: أي ملتكم وهي الإسلام ملة واحدة من عهد آدم إلى العهد المحمدي إذ دين الأنبياء واحد وهو عبادة الله تعالى وحده بما يشرع لهم. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾: أنا إلهكم الحق حيث خلقتكم ورزقتكم فلا تنبغي العبادة إلا لي فاعبدون ولا تعبدوا معي غيري.

(٩٣) ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾: أي وتفرقوا في دينهم فأصبح لكل فرقة دين كاليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنيات وما أكثرها. ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾: أي كل فرقة من تلك الفرق التي قطعت الإسلام راجعة إلينا وسوف نجزيها بكسبها.

(٩٤) ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾: أي لا نكران ولا جحود لعمله بل سوف يجزى به وافيًا. ﴿وَإِنَّا لَهُ

---

(١) قيل: الرغب: الدعاء ببطون الأكف إلى السماء، والرهب: رفع ظهورهما. روى الترمذي عن عمر رضي الله عنهما قال: (كان النبي ﷺ إذا رفع يديه لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه). وروى الترمذي أيضًا عن أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورهما وامسحوا بهما وجوهكم**». وعن ابن عباس: إن رفع اليدين حذاء الصدر هو الدعاء ورفعهما حتى يجاوز بهما الرأس: فهو الابتهال.

(٢) ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾: يصح نصبهما على المصدرية وعلى الحال، وعلى المفعول لأجله.

(٣) ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: أي: عفّت فامتنعت عن الفاحشة، وقيل: إن المراد من فرجها فرج القميص: أي لم تعلق بثيابها ريبة أي: أنها طاهرة الأثواب. وفروج القميص أربعة: الكمان والأعلى والأسفل، قال السهيلي: هذا من لطيف الكناية لأنّ القرآن ألطف إشارة وأنزه عبارة.

(٤) إضافة الروح إلى الله تعالى: إضافة تشريف كبيت الله، وقيل فيه: روح الله لأنه مبعوث من قبله سبحانه وتعالى.

(٥) آية: اسم جنس فمريم آية، وعيسى عليه السلام آية.

﴿كَاتِبُونَ﴾: إذ الكرام الكاتبون يكتبون أعمال العباد خيرها وشرها.

(٩٥) ﴿وَحَرَامٌ﴾: أي ممتنع رجوعهم إلى الدنيا.

(٩٦) ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: قبيلتان موجودتان وراء سدهما الذي سيفتح عند قرب الساعة. ﴿حَدَبٍ﴾: أي مرتفع من الأرض. ﴿يَنسِلُونَ﴾: أي يسرعون المشي.

(٩٧) ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾: يوم القيامة. ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾: أي من يوم القيامة وما فيه من أحداث.

معنى الآيات:

(٩٢) بعد ذكر أولئك الأنبياء وما أكرمهم الله تعالى به من إفضالات وما كانوا عليه من كمالات قال تعالى مخاطبًا الناس كلهم: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾[١] أي ملتكم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي ملة واحدة من عهد أول الرسل إلى خاتمهم وهو الإسلام القائم على الإخلاص لله في العبادة والخلوص من الشرك.

(٩٣) وقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا[٢] أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ ينعي تعالى على الناس تقطعيهم الإسلام إلى ملل شتى كاليهودية والنصرانية وغيرهما، وتمزيقه إلى طوائف ونحل، وقوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ إخبار منه تعالى أنهم راجعون إليه لا محالة بعد موتهم وسوف يجزيهم بما كانوا يكسبون ومن ذلك تقطيعهم للدين الإسلامي وتمزيقهم له فذهبت كل فرقة بقطعة منه.

(٩٤) وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾[٣] والحال أنه مؤمن، والمراد من الصالحات ما شرعه الله تعالى من عبادات قلبية وقولية وفعلية ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لعمله فلا يجحد ولا ينكر بل يراه ويجزى به كاملاً. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ يريد أن الملائكة تكتب أعماله الصالحة بأمرنا ونجزيه بها أيضًا أحسن جزاء وهذا وعد من الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح جعلنا الله منهم وحشرنا في زمرتهم.

(٩٥) وقوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ[٤] عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ يخبر تعالى أنه ممتنع امتناعًا كاملاً أن يهلك أمة بذنوبها في الدنيا ثم يردها إلى الحياة في الدنيا، وهذا بناء على أن ﴿لَا﴾ مزيدة لتقوية الكلام ويحتمل الكلام معنى آخر وهو ممتنع على أهل قرية قضى الله تعالى بعذابهم في الدنيا أو في الآخرة أنهم يرجعون إلى الإيمان والطاعة بالتوبة الصادقة ولك بعد أن كذبوا وعاندوا وظلموا وفسقوا فطبع على قلوبهم فهم لا يرجعون إلى التوبة بحال، ومعنى ثالث وهو حرام على أهل قرية أهلكهم الله بذنوبهم فأبادهم إنهم لا يرجعون إلى الله تعالى يوم القيامة بل يرجعون للحساب والجزاء فهذه المعاني كلها صحيحة، والمعنى الأخير لا تكلف فيه بكون ﴿لَا﴾ صلة بل هي نافية[٥] ويرجح المعنى الأخير:

(٩٦) قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ[٦] وَمَأْجُوجُ﴾ فهو بيان لطريق رجوعهم إلى الله تعالى وذلك يوم القيامة وبدايته بظهور علاماته الكبرى ومنها انكسار سد يأجوج ومأجوج وتدفقهم في الأرض يخربون

---

(١) قرأ الجمهور: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ برفع أمتكم على الخبرية ونصب أمّة واحدة على الحال، والوصف. وقرأ بعضٌ: ﴿أمتكم أمةٌ واحدة﴾ بالرفع فيهما.

(٢) تفرقوا في الدين واختلفوا فيه.

(٣) ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾: من: للتبعيض إذ من غير الممكن أن يعمل العبد كل الصالحات ويأتي بكل الطاعات، وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: وموحد أيضًا فإن الشرك محبط للعمل.

(٤) في حرام قراءات ووجوه منها: (حرام) وهي قراءة الجمهور، وحِرم: مثل حِل وحلال. وحرِم: كمرض، وحرُم كشرف، وحرَم: كضرب، وحرّم: كبدّل، وحرّم: كعلم مشددة اللام، وحَرِم: كفرح، وحُرم: كقفل تسع قراءات.

(٥) شاهد أن لا: نافية وليست بصلة، ويكون لفظ الحرام معناه الوجوب، كقول الخنساء:

وإنّ حرامًا لا أرى الدهر باكيا ... على شجوه إلا بكيت على صخر

تريد أخاها صخرًا.

(٦) في الكلام حذف تقديره: حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج، مثل: واسأل القرية. أي: أهل القرية.

ويدمرون ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ[1]﴾ وصوب ﴿يَنسِلُونَ﴾ مسرعين.

(٩٧) وقوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ[2] ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ وهو يوم الدين والحساب والجزاء وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ[3] شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وذلك بعد قيامهم من قبورهم وحشرهم إلى أرض المحشر وهم يقولون في تأسف وتحسر ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ أي يا هلاكنا ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٍ﴾ أي في دار الدنيا ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فاعترفوا بذنبهم حيث لا ينفعهم الاعتراف إذ لا توبة تقبل يومئذ.

هداية الآيات:

١ - وحدة الدين وكون الإسلام هو دين البشرية كافة لأنه قائم على أساس توحيد الله تعالى في عبادته التي شرعها ليعبد بها.

٢ - بيان ما حدث للبشرية من تمزيق الدين بينها بحسب الأهواء والأطماع والأغراض.

٣ - وعد الله لأهل الإيمان والعمل الصالح بالجزاء الحسن وهو الجنة.

٤ - تقرير حقيقة وهي إذا قُضِي بهلاك أمة تعذرت عليها التوبة، وأن أمة يهلكها الله تعالى لا تعود إلى الحياة الدنيا بحال وإن البشرية عائدة إلى ربها فممتنع عدم عودة الناس إلى ربهم، وذلك لحسابهم وجزائهم يوم القيامة.

الجزءُ السَّابع عَشَر — سُورَةُ الأنبِيَاء

لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ (١٠٢) لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ (١٠٦) وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ (١٠٧) قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ (١١٠) وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ (١١١) قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)

ترتيبها ٢٢ — سُورَةُ الحَجِّ — آياتها ٧٨

٣٣١

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٨ ـ ١٠٤]

(٩٨) ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي من الأوثان والأصنام.

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: أي ما توقد به جهنم.

(٩٩) ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ﴾: أي الأوثان التي يعبدها المشركون من قريش. ﴿مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾: أي لحالوا بين عابديهم ودخول النار لأنهم آلهة قادرون على ذلك ولكنهم ليسوا آلهة حق فلذا لا يمنعون عابديهم من دخول النار. ﴿وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: أي العابدون من الناس والمعبودون من الشياطين والأوثان.

(١٠٠) ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾: أي لأهل النار فيها أنين وتنفس شديد وهو الزفير.

(١٠١) ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾: أي كتب الله تعالى أزلاً أنهم أهل الجنة.

(١٠٢) ﴿حَسِيسَهَاۖ﴾: أي حِسّ صوتها.

(١٠٣) ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾: أي عند النفخة الثانية نفخة البعث فإنهم يقومون من قبورهم آمنين غير خائفين.

---

(١) الحدب: ما انقطع من الأرض، والجمع حداب مأخوذ من حدبة الظهر، قال عنترة:

فما رعشت يداي ولا ازدهاني ... تواترهم إليّ من الحداب

و﴿يَنسِلُونَ﴾: يخرجون مسرعين، قال امرؤ القيس: فسلي ثيابي من ثيابك تنسل.

وقال النابغة:

عسلان الذئب أمسى قاربًا ... برد الليل عليه فنسلَ

أي: أسرع.

(٢) قيل: الواو زائدة مقحمة، والمعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق. فاقترب: جواب إذا والواو مقحمة، ومثله: وتلّه للجبين، وناديناه أي: للجبين ناديناه، وأجاز بعضهم أن يكون جواب إذا: فإذا هي شاخصة ويكون اقترب الوعد الحق: معطوفًا.

(٣) هي: ضمير الأبصار، والأبصار بعدها: تفسير لها كأنه قال: فإذا أبصار الذين كفروا قد شخصت عند مجيء الوعد.

﴿١٠٤﴾ ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ﴾: أي يطوي الجبار سبحانه وتعالى السماء طيّ الورقة لتدخل في الظرف. ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾: أي يعيد الله الخلائق كما بدأهم أول مرة فيبعث الناس من قبورهم حفاة عراة غرلاً، كما ولدوا لم ينقص منهم شيء.

معنى الآيات:

﴿٩٨﴾ يقول تعالى للمشركين الذين بدأت السورة الكريمة بالحديث عنهم، وهم مشركو قريش يقول لهم موعدًا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ[1] مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من أصنام وأوثان ﴿حَصَبُ[2] جَهَنَّمَ﴾ أي ستكونون أنتم وما تعبدون من أصنام وقودًا لجهنم التي أنتم واردوها لا محالة.

﴿٩٩﴾ وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾ لو كان هؤلاء التماثيل من الأحجار التي يعبدها المشركون لو كانوا آلهة حقًا ما ورد النار عابدوها لأنهم يخلصونهم منها ولما ورد النار المشركون ودخلوها دل ذلك على أن آلهتهم كانت آلهة باطلة لا تستحق العبادة بحال. وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي المعبودات الباطلة وعابدوها الكل في جهنم خالدون.

﴿١٠٠﴾ وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ[3] وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝﴾ يخبر تعالى أن للمشركين في النار زفيرًا وهو الأنين الشديد من شدة العذاب وأنهم فيها لا يسمعون لكثرة الأنين وشدة الأصوات وفظاعة ألوان العذاب.

﴿١٠١﴾ ـ ﴿١٠٢﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝﴾ نزلت هذه الآية ردًا على ابن الزِّبَعْرَى عندما قال إن كان ما يقوله محمد حقًا بأننا وآلهتنا في جهنم فإن الملائكة معنا في جهنم لأننا نعبدهم، وأن عيسى والعزيز في جهنم لأن اليهود عبدوا العزير والنصارى عبدوا المسيح. فأخبر تعالى أن من عبد بغير رضاه بذلك وكان يعبدنا ويتقرب إلينا بالطاعات فهو ممن سبقت لهم منا الحسنى بأنهم من أهل الجنة هؤلاء عنها أي عن جهنم مبعدون ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ أي حس صوتها وهم في الجنة ولهم فيها ما يشتهون خالدون، ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ[4] ٱلْأَكْبَرُ﴾ عند قيامهم من قبورهم بل هم آمنون.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند القيام من قبورهم بالتحية والتهنئة قائلة لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

﴿١٠٤﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ أي يتم لهم ذلك يوم يطوي الجبار جل جلاله السماء بيمينه ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ[5]﴾ أي الصحيفة للكتب. وذلك يوم القيامة حيث تبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات. وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي يعيد الإنسان كما بدأ خلقه فيخرج الناس من قبورهم حفاة عراة غرلا[6]. وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآۚ

(١) قوله: (ما تعبدون): فيه دليل على وجود العموم في الألفاظ، فإن ابن الزبعري لمّا نزلت هذه الآية أتت به قريش وقالت له: انظر محمدًا شتم آلهتنا. فقال: لو حضرت لرددت عليه، قالوا: وما كنت تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيح تعبده النصارى واليهود تعبد عزيرًا، أفهما من حصب جهنم؟ فعجبت من مقالته ورأوا أن محمدًا ﷺ قد خُصم. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴿١٠١﴾﴾. فدلّ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ على العموم وخصه الله تعالى بهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴿١٠١﴾﴾.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿حصب﴾ بالصاد، وقرأ علي وعائشة رضي الله عنهما: بالطاء أي: حطب. والحصب أعَمّ، إذ كل ما هُيجت به النار وأوقدت به فهو حصب.

(٣) الزفير: نَفَسٌ يخرج من أقصىٰ الرئتين لضغط الهواء من التأثر بالغم، وهو هنا من أحوال المشركين لا الأصنام.

(٤) ﴿لا يُحزنهم﴾: بضم الياء من أحزنه، وبفتحها من حزنه قرءتان سبعيتان، ولفزع الأكبر: أهوال يوم القيامة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار.

(٥) السجل: الكَاتب يكتب الصحيفة ثم يطويها عند انتهاء كتابتها. هذا المعنىٰ أوضح مما في التفسير.

(٦) الغرل: جمع أغرل وهو من لم يختتن فتقطع منه غلفة ذكره، وأول من يكسىٰ إبراهيم كما في صحيح مسلم.

﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي وعدنا بإعادة الخلق بعد فنائهم وبلاهم وعدًا، إنا كنا فاعلين فأنجزنا ما وعدنا، وإنا على ذلك لقادرون.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء.

٢ - من عبد من دون الله بأمره أو برضاه سيكون ومن عَبَده وقودًا لجهنم ومن لم يأمر ولم يرض فلا يدخل النار مع من عبده بل العابد له وحده في النار.

٣ - بيان عظمة الله وقدرته إذ يطوي السماء بيمينه، والأرض في قبضته يوم القيامة.

٤ - بعث الناس حفاة عراة غرلاً لم ينزع منهم شيء ولا غلفة الذكر إنجاز الله وعده في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فسبحان الواحد القهار العزيز الجبار.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٥ - ١١٢]

(١٠٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾: أي في الكتب التي أنزلنا كصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والقرآن.

﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾: أي من بعد أن كتبنا ذلك في الذكر الذي هو اللوح المحفوظ. ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾[1]: أي أرض الجنة. ﴿عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾: هم أهل الإيمان والعمل الصالح من سائر الأمم من أتباع الرسل عامة.

(١٠٦) ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا﴾: أي إن في القرآن لبلاغًا أي لكفاية وبلغة لدخول الجنة فكل من آمن به وعمل بما فيه دخل الجنة. ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾: أي مطيعين الله ورسوله.

(١٠٧) ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾: أي الإنس والجن فالمؤمنون المتقون يدخلون الجنة والكافرون ينجون من عذاب الاستئصال والإبادة الذي كان يصيب الأمم السابقة.

(١٠٨) ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: أي أسلموا فالاستفهام للأمر.

(١٠٩) ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾: أي ما أدري.

(١١١) ﴿فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾: أي اختبار لكم.

(١١٢) ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾: من الكذب من أن النبي ساحر، وأن الله اتخذ ولدًا وأن القرآن شعر.

معنى الآيات:

(١٠٦) يخبر تعالى رسوله والمؤمنين بوعده الكريم الذي كتبه في كتبه المنزلة بعد كتابته في الذكر الذي هو كتاب المقادير المسمى باللوح المحفوظ أن أرض الجنة يرثها عباده الصالحون هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٠٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[2] أي في هذا القرآن العظيم لبلاغًا لمن كان من العابدين لله بأداء فرائضه واجتناب نواهيه لكفاية في الوصول به إلى بغيته وهي رضوان الله والجنة.

(١٠٧) وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله محمدًا ﷺ إلا رحمة للعالمين[3] إنسهم وجنهم مؤمنهم وكافرهم فالمؤمنون باتباعه يدخلون رحمة الله وهي الجنة والكافرون يأمنون من عذاب الإبادة والاستئصال في الدنيا ذلك العذاب الذي كان ينزل بالأمم والشعوب عندما يكذبون رسلهم.

(١٠٨) وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[4] يأمر تعالى رسوله أن يقول لقومه ولمن يبلغهم خطابه إن الذي يوحى إليّ هو أن إلهكم إله واحد أي معبودكم الحق واحد وهو الله تعالى ليس غيره وعليه ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي أسلموا له قلوبكم ووجوهكم فاعبدوه ولا تعبدوا معه سواه فبلغهم يا رسولنا هذا.

(١٠٩) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن هذا الطلب ولم يقبلوه ﴿فَقُلْ آذَنْتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أنا وأنتم أنه لا تلاقي بيننا فأنا حرب عليكم وأنتم حرب عليَّ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي وقل لهم يا رسولنا: إني ما أدري أقريب ما

---

(١) في الأرض: الأرض المقدسة، وقال مرة: إنها أرض الكفار ترثها أمة محمد ﷺ.

(٢) العابدون: قال أبو هريرة وسفيان الثوري: هم أهل الصلوات الخمس.

(٣) قال ابن زيد: المؤمنون خاصة، والعموم أولى وأصح من الخصوص.

(٤) الاستفهام معناه: الأمر أي: أسلموا. كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾؟ أي: انتهوا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٖ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٖ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلٗا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٖ شَيْـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾

٣٣٢

توعدون من العذاب أم بعيد فالعذاب كائن لا محالة ما لم تسلموا إلا أني لا أعلم وقته.

(١١٠) وفي الآية وعيد واضح وتهديد شديد وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي يعلم طعنكم العلني في الإسلام وكتابه ونبيه، كما يعلم ما تكتمونه في نفوسكم من عداوتي وبغضي وما تخفون من إحَنٍ وفي هذا إنذار لهم وتهديد، وهم مستحقون لذلك.

(١١١) وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى﴾ أي وما أدري ﴿لَعَلَّهُۥ﴾[1] أي تأخير العذاب عنكم بعد استحقاقكم له بحربكم للإسلام ونبيه ﴿فِتْنَةٞ لَّكُمْ﴾ أي اختبار لعلكم تتوبون فيرفع عنكم العذاب أو هو متاع لكم بالحياة إلى آجالكم، ثم تعذبون بعد موتكم. فهذا علمه إلى ربي هو يعلمه، وبهذا أمرني بأن أقوله لكم.

(١١٢) وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّۗ﴾ وفي قراءة قُل رب احكم بالحق أي قال الرسول بعد أمر الله تعالى بذلك يا رب احكم بيني وبين قومي المكذبين لي المحاربين لدعوتك وعبادك المؤمنين بالحق وذلك بنصري عليهم أو بإنزال نقمتك بهم، وقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[2] أي وربنا الرحمن عز وجلّ هو الذي يستعان به على إبطال باطلكم أيها المشركون حيث جعلتم لله ولدًا، وشركاء، ووصفتم رسوله بالسحر والكذب.

هداية الآيات:

١ ـ المؤمنون المتقون وهم الصالحون هم ورثة الجنة دار النعيم المقيم.

٢ ـ في القرآن الكريم البُلغة الكافية لمن آمن به وعمل بما فيه بتحقيق ما يصبو إليه من سعادة الدار الآخرة.

٣ ـ بيان فضل النبي ﷺ وكرامته على ربه حيث جعله رحمة للعالمين.

٤ ـ وجوب المفاصلة بين أهل الشرك وأهل التوحيد.

٥ ـ وجوب الاستعانة بالله على كل ما يواجه العبد من صعاب وأتعاب.

❁ ❁ ❁

سورة الحج
مكية ومدنية
وآياتها[3] ثمان وسبعون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٤]

(١) ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾: أي عذاب ربكم وذلك بالإيمان والتقوى.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾: أي زلزلة الأرض عند مجيء الساعة.

(٢) ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾: أي من شدة الهول والخوف تنسى رضيعها وتغفل عنه. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾: أي تسقط الحوامل ما في بطونهن من الخوف والفزع.

﴿سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾: أي ذاهلون فاقدون رشدهم وصوابهم كالسكارى وما هم بسكارى.

(٣) ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ﴾: أي يقول إن الملائكة بنات الله وإن الله

---

(١) لعله أي: الإمهال والتأخير.

(٢) تصفون: قرأ الجمهور تصفون بالتاء، وقرأ بعض: يصفون بالياء.

(٣) ذكر القرطبي عن الغزنوي أنه قال: سورة الحج من أعاجيب سور القرآن. نزلت ليلاً ونهارًا سفرًا وحضرًا مكيًا ومدنيًا سلميًا وحربيًا ناسخًا ومنسوخًا محكمًا ومتشابهًا.

لا يحيي الموتى. ﴿شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾: أي متجرد من كل خير لا خير فيه البتة.

(٤) ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾: فرض فيه أن من تولاه أي اتبعه يضله عن الحق.

معنى الآيات:

(١) بعد ذلك البيان الإلهي في سورة الأنبياء وما عرَض تعالى من أدلة الهداية وما بين من سبل النجاة نادى تعالى بالخطاب العام الذي يشمل العرب والعجم والكافر والمؤمن إنذارًا وتحذيرًا فقال في فاتحة هذه السورة سورة الحج المكية المدنية لوجود آي كثير فيها نزل في مكة وآخر نزل بالمدينة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾[1] أي خافوا عذابهُ، وذلك بطاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه فآمنوا به وبرسوله وأطيعوهما في الأمر والنهي وبذلك تقوا أنفسكم من العذاب. وقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ فكيف بالعذاب الذي يقع فيها لأهل الكفر والمعاصي، إن زلزلة لها تتم قبل[2] قيامها تذهل فيها كل مرضعة عما أرضعت أي تنسى فيها الأم ولدها.

(٢) ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ فتسقط من شدة الفزع لتلك الزلزلة المؤذنة بخراب الكون وفناء العوالم ويرى الناس فيها سكارى أي فاقدين لعقولهم وما هم بسكارى بشرب سكر ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فخافوه لظهور أماراته ووجود بوادره.

(٣) هذا ما دلت عليه الآيتان (١) و (٢) وأما الآية الثالثة فينعي تعالى على النضر بن الحارث وأمثاله ممن يجادلون في الله بغير علم فينسبون لله الولد والبنت ويزعمون أنه ما أرسل محمدًا رسولاً، وأنه لا يحيي الموتى بعد فناء الأجسام وتفتتها فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بجلال الله وكماله ولشرائعه وأحكامه وسننه في خلقه، ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي في جداله وما يقوله من الكذب والباطل ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ أي متجرد من الحق والخير.

(٤) ﴿كُتِبَ[3] عَلَيْهِ﴾ أي على ذلك الشيطان في قضاء الله أن من تولاه بالطاعة والاتباع فإنه يضله عن الحق ويهديه بذلك إلى عذاب السعير في النار.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحوالهما وأهوالهما.

٢ - حرمة الجدال بالباطل لإدحاض الحق وإبطاله.

٣ - حرمة الكلام في ذات الله وصفاته بغير علم من وحي إلهي أو كلام نبوي صحيح.

٤ - موالاة الشياطين واتباعهم يفضي بالموالي المتابع لهم إلى جهنم وعذاب السعير.

---

(١) روى الترمذي وصححه عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ إلى قوله: ﴿شَدِيدٌ﴾ قال: (أنزلت عليه في سفر: فقال: **«أتدرون أي يوم ذلك؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **«ذاك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار قال: يا ربّ وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة»**. قال: فأنشأ المسلمون يبكون فقال رسول الله ﷺ: **«قاربوا وسدّدوا فإنه لم تكن نبوّة قط إلاّ كان بين يديها جاهلية»** قال: **«فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلاّ أخذ من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير»** ثم قال: **«إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبّروا»** ثم قال: **«إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبّروا»** ثمّ قال: **«إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبّروا»**. قال: لا أدري قال: **«الثلثين»** أم لا). الرقمة: الهنة الناتئة في ذراع الدابة والشامة: علامة تخالف البدن الذي هي فيه.

(٢) الذي عليه أكثر أهل التفسير أنّ هذه الزلزلة تتم بنفخة الفناء بقرينة الحمل والوضع وحديث الترمذي الصحيح دال على أنها بعد البعث، والجمع بينهما: صحيح أولاً لا مانع من أن يقع هذا وذاك وهو كذلك والقرآن حمّال الوجوه، فهذا الهول العظيم سيقع حتمًا في النفخة الأولى، وفي ساحة فصل القضاء، وأمّا موضوع الحمل والوضع فكائن أيضًا في عرصات القيامة إذ الناس يبعثون على ما ماتوا عليه فالحامل تبعث حاملاً والمرضع تبعث ترضع أيضًا.

(٣) قال قتادة ومجاهد: من تولى الشيطان فإنه يضله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥ ـ ٧]

(٥) ﴿فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾: الريب الشك مع اضطراب النفس وحيرتها، والبعث الحياة بعد الموت. ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾: قطرة المني التي يفرزها الزوجان. ﴿عَلَقَةٍ﴾: أي قطعة دم متجمد تتحول إليه النطفة في خلال أربعين يومًا. ﴿مُضْغَةٍ﴾: أي قطعة لحم قدر ما يمضغ المرء تتحول العلقة إليها بعد أربعين يومًا. ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾: أي مصورة خلقًا تامًا، مخلقة وغير مخلقة هي السقط يسقط قبل تمام خلقه. ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: أي قدرتنا على ما نشاء ونعرفكم بابتداء خلقكم كيف يكون. ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾: أي ونبقي في الرحم من نريد له الحياة والبقاء إلى نهاية مدة الحمل ثم نخرجه طفلاً سويًا. ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾: أي كمال أبدانكم وتمام عقولكم. ﴿إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾: أي سن الشيخوخة والهرم فيخرف. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾: أي فيصير كالطفل في معارفه إذ ينسى كل علم علمه. ﴿هَامِدَةً﴾: خامدة لا حراك لها ميتة. ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾: أي تحركت بالنبات وارتفعت تربتها وأنبتت. ﴿زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾: أي من كل نوع من أنواع النباتات جميل المنظر حسنه.

(٦) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾: أي الإله الحق الذي لا إله سواه، فعبادة الله حق وعبادة غير الله باطل.

(٧) ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾: أي القيامة. ﴿يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾: أي يحييهم ويخرجهم من قبورهم أحياء كما كانوا قبل موتهم.

معنى الآيات:

(٥) لما ذكر تعالى بعض أحوال القيامة وأهوالها، وكان الكفر بالبعث الآخر هو العائق عن الاستجابة للطاعة وفعل الخير نادى تعالى الناس مرة أخرى ليعرض عليهم أدلة البعث العقلية لعلهم يؤمنون فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ أي في شك وحيرة وقلق نفسي من شأن بعث الناس أحياء من قبورهم بعد موتهم وفنائهم لأجل حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم التي عملوها في دار الدنيا فإليكم ما يزيل شككم ويقطع حيرتكم في هذه القضية العقدية وهو أن الله تعالى قد خلقكم[(١)] ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ أي خلق أصلكم وهو أبوكم آدم من تراب بلا شك، ثم خلقكم أنتم ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾[(٢)] أي ماء الرجل وماء المرأة بلا شك، ثم ﴿مِنْ عَلَقَةٍ﴾[(٣)] بعد تحول النطفة إليها ثم ﴿مِنْ مُضْغَةٍ﴾[(٤)] بعد تحول العلقة إليها وهذا بلا شك أيضًا، ثم المضغة إن شاء الله تحويلها إلى طفل خلقها وجعلها طفلاً، وإن لم يشأ ذلك لم يخلقها وأسقطها من الرحم[(٥)] كما هو معروف ومشاهد، وفعل الله ذلك من أجل أن يبين لكم قدرته وعلمه وحسن تدبيره لترهبوه وتعظموه وتحبوه وتطيعوه وقوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا[(٦)]﴾ أي ونقر تلك المضغة المخلقة في الرحم إلى أجل مسمى وهو ميعاد ولادة الولد وانتهاء حمله ونخرجكم طفلاً أي أطفالاً

---

(١) هذا دليل قاطع وهو دليل البداءة الأولى فمن قدر على البداءة قادر عقلاً على الإعادة وهي أهون عليه.

(٢) النطفة: المني، وسمي نطفة لقلّته.

(٣) العلقة: الدم الجامد، والعلق: الدم العبيطُ أي: الطري.

(٤) هذه الأطوار أربعة أشهر، قال ابن عباس: وفي العشر بعد الأربعة أشهر ينفخ فيه الروح، فذلك عدّة الوفاة منها أربعة أشهر وعشر، وفي الصحيح عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إنّ أحدكم لَيُجْمَع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد**».

(٥) روى ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**لسقط أقدّمه بين يدي أحبّ إليّ من ألف فارس أخلّفه ورائي**».

(٦) أي: فنخرج كل واحد منكم طفلاً، ويطلق الطفل على الولد من يوم انفصاله إلى البلوغ وولد كل وحشية يقال له: طفل ويوصف به مفردًا كالمصدر فيقال: جارية طفل وجاريتان طفل، وجوار طفل، وغلام طفل وغلامان طفل، ويجمع الطفل على أطفال، وأطفلت المرأة: صارت ذات طفل.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

٣٣٣

صغارًا لا علم لكم ولا حلم، ثم ننميكم ونربيكم بما تعلمون من سننا في ذلك ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي تمام نماء أبدانكم وعقولكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ قبل بلوغه أشده لأن الحكمة الإلهية اقتضت وفاته ومنكم من يعيش ولا يموت حتى يرد إلى أرذل العمر فيهرم ويخرف ويصبح كالطفل لا يعلم بعد علم كان له قبل هرمه شيئًا هذا دليل البعث وهو دليل عقلي منطقي وبرهان قوي على حياة الناس بعد موتهم إذ الذي خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة يوجب العقل قدرته على إحيائهم بعد موتهم، إذ ليست الإعادة بأصعب من البداية. ودليل عقلي آخر هو ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ أيها الإنسان ﴿هَامِدَةً﴾ خامدة ميتة لا حراك فيها ولا حياة فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء من السماء ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي تحركت ﴿وَرَبَتْ﴾ أي ارتفعت وانتفخت تربتها وأخرجت من النباتات المختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ جميل المنظر حسنه، أليس وجود تربة صالحة كوجود رحم صالحة وماء المطر كماء الفحل وتخلق النطفة في الرحم كتخلق البذرة في التربة وخروج الزرع حيًا ناميًا كخروج الولد حيًا ناميًا وهكذا إلى حصاد الزرع وموت الإنسان فهذان دليلان عقليان على صحة البعث الآخر وأنه كائن لا محالة وفوق ذلك كله إخبار الخالق وإعلامه خلقه بأنه سيعيدهم بعد موتهم فهل من العقل والمنطق أو الذوق أن نقول له لا فإنك لا تقدر على ذلك قولة كهذه قذرة عفنة لا يود أن يسمعها عقلاء الناس وأشرافهم. ولما ضرب تعالى هذين المثالين أو ساق هذين الدليلين على قدرته وعلمه وحكمته المقتضية لإعادة الناس أحياء بعد الموت والفناء للحساب والجزاء قال وقوله الحق:

﴿٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾(١) أي الرب الحق والإله المعبود الحق، وما عداه فباطل.

﴿٦﴾ - ﴿٧﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ(٢) ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۞﴾ ومن شك فليراجع الدليلين السابقين في تدبر وتعقل فإنه يسلم لله تعالى ما أخبر به عن نفسه في قوله ذلك: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إلخ.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث الآخر والجزاء على الأعمال يوم القيامة.

٢ - بيان تطور خلق الإنسان ودلالته على قدرة الله وعلمه وحكمته.

٣ - الاستدلال على الغائب بالحاضر المحسوس وهذا من شأن العقلاء فإن المعادلات الحسابية والجبرية قائمة على مثل ذلك.

---

(١) لما ذكر تعالى افتقار الموجودات إليه وتسخيرها على وفق اقتداره في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلى قوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ قال ذلك إشارة إلى ما تقدم من أطوار خلق الإنسان وفنائه وإحياء الأرض بعد موتها وانشقاق النبات منها أي: ذلك حصل بسبب أنّ الله هو الإله الحق دون غيره.

(٢) ومن براهين ألوهيته الحقة دون من سواه أنه يحيي الموتى وأنه على كل ما يريده قدير وأنه موجد الدنيا والآخرة وسيفني هذه في ساعة آتية لا محالة، وسيبعث الناس من القبور للحياة الثانية فيخلدون فيها، منهم شقي ومنهم سعيد.

٤ - تقرير عقيدة التوحيد وهي أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ ـ ١٣]

﴿٨﴾ ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾: أي في شأن الله تعالى فينسب إلى الله تعالى ما هو منه براء كالشريك والولد والعجز عن إحياء الموتى، وهذا المجادل هو أبو جهل. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: أي بدون علم من الله ورسوله. ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾: أي ولا كتاب من كتب الله ذي نور يكشف الحقائق ويقرر الحق ويبطل الباطل.

﴿٩﴾ ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾: أي لاويَ عنقه تكبرًا، لأن العطف الجانب من الإنسان. ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾: وقد أذاقه الله تعالى يوم بدر إذ ذبح هناك واحتز رأسه.

﴿١٠﴾ ﴿بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: أي بذي ظلم للعبيد فيعذبهم بغير ظلم منهم لأنفسهم.

﴿١١﴾ ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: أي على شك في الإسلام هل هو حق أو باطل وذلك لجهلهم به وأغلب هؤلاء أعراب البادية. ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾: أي سكنت نفسه إلى الإسلام ورضي به. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾: أي ابتلاء بنقص مال أو مرض في جسم ونحوه. ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾: أي رجع عن الإسلام إلى ما كان عليه من الكفر الجاهلي.

﴿١٢﴾ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾: أي صنمًا لا يضره إن لم يعبده، ولا ينفعه إن عَبَدَه.

﴿١٣﴾ ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾: أي قبح هذا الناصر من ناصر. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾: أي المعاشر وهو الصاحب الملازم.

معنى الآيات:

﴿٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هذه شخصية ثانية معطوفة على الأولى التي تضمنها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ وهي شخصية النضر بن الحارث أحد رؤساء الفتنة في مكة، وهذه الشخصية هي فرعون هذه الأمة عمرو بن هشام الملقب بأبي جهل يخبر تعالى عنه فيقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[1] بل يجادل بالجهل وما أقبح جدال الجهل والجهّال ويجادل في الله عز وجل يا للعجب أفيريد أن يثبت لله تعالى الولد والبنت والعجز والشركاء والشفعاء، ولا علم من وحي عنده، ولا من كتاب إلهي موحى به إلى أحد أنبيائه.

﴿٩﴾ وقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ وصف له في حال مشيه وهو يجر رداءه مصعرًا خده مائلاً إلى أحد جنبيه كبرًا وغرورًا، وجداله لا لطلب الهدى أو لمجرد حب الانتصار للنفس بل ليضل غيره عن سبيل الله تعالى الذي هو الإسلام حتى لا يدخلوا فيه فيكملوا ويسعدوا عليه في الحياتين. وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾[2] أي ذل وهوان وقد ناله حيث قتل في بدر شر قتلة فقد احتز رأسه وفُصل عن جثته ونال منه الذين كان يسخر منهم ويعذبهم من ضعفة المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وقد أذاقه ذلك بمجرد أن قتل فروحه في النار ويوم القيامة يدخلها بجسمه وروحه.

﴿١٠﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي يقال له يوم القيامة ذلك الخزي والهوان وعذاب الحريق بما قدمت يداك من الشرك والظلم والمعاصي، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وأنت منهم والله ما ظلمك بل ظلمت نفسك، والله متنزه عن الظلم لكمال قدرته وغناه.

﴿١١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ[3] مَن

---

(١) نيِّر بيّن الحجة قويها، والمراد من الكتاب: كتب الشرائع مثل: التوراة والإنجيل من الكتب الأولى، والقرآن آخرها نزولاً.

(٢) في هذه الآية إخبار بغيب فكان كما أخبر تعالى فإن كُلاً من أبي جهل والنضر بن الحارث قد أذلهما الله وأخذهما ببدر، فأبو جهل قتل وأخذ رأسه، والنضر قتل صبرًا، والآية قطعًا نزلت بمكة فهي من معجزات القرآن الكريم.

(٣) هذه الآية نزلت بالمدينة النبوية فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍۖ[(١)]﴾ أي على شك هذه شخصية ثالثة عطفت على سابقتيها وهي شخصية بعض الأعراب كانوا يدخلون في الإسلام لا عن علم واقتناع بل عن شك وطمع وهو معنى على حرف فإن أصابهم خير من مال وصحة وعافية اطمأنوا إلى الإسلام وسكنت نفوسهم واستمروا عليه، وإن أصابتهم فتنة أي اختبار في نفس أو مال أو ولد انقلبوا على وجوههم أي ارتدوا عن الإسلام ورجعوا عنه فخسروا بذلك الدنيا والآخرة فلا الدنيا حصلوا عليها ولا الآخرة فازوا فيها، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي البين الواضح إذ لو بقوا على الإسلام لفازوا بالآخرة، ولأخلف الله عليهم ما فقدوه من مال أو نفس.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿يَدۡعُواْ[(٢)] مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك المنقلب على وجهه المرتد يدعو ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ أي صنمًا لا يضره لو ترك عبادته ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إن عبده وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ أي دعاء وعبادة ما لا يضر ولا ينفع ضلال عن الهدى والخير والنجاح والربح وبعيدٌ أيضًا قد لا يرجع صاحبه ولا يهتدي.

(١٣) وقوله: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ أي يدعو ذلك المرتد عن التوحيد إلى الشرك من ضره يوم القيامة أقرب من نفعه فقد يتبرأ منه ويحشر معه في جهنم ليكونا معًا وقودًا لها. قال تعالى: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ[(٣)] ٱلۡعَشِيرُ﴾ المعاشر والصاحب الملازم فذم تعالى وقبح ما كان المشركون يؤملون فيهم ويرجون شفاعتهم[(٤)] يوم القيامة، تنفيرًا لهم من الشرك وعبادة غيره سبحانه وتعالى.

هداية الآيات:

١ ـ قبح جدال الجاهل فيما ليس له به علم.

٢ ـ ذم الكبر والخيلاء وسواء من كافر أو من مؤمن.

٣ ـ عدم جدوى عِبَادةِ صاحبُها شاك في نفعها غير مؤمن بوجوبها ومشروعيتها.

٤ ـ لا يصح دين مع الشك.

٥ ـ تقرير التوحيد والتنديد بالشرك والمشركين.

الجزء السابع عشر — سورة الحج

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ (١٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ (١٩) يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ (٢١) كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ (٢٣)

٣٣٤

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤ ـ ١٧]

(١٤) ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي الفرائض والنوافل وأفعال الخير.

﴿يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: من إكرام المطيع وإهانة العاصي وغير ذلك من رحمة المؤمن وعذاب الكافر.

(١٥) ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾: أي

---

(١) حرف كل شيء: طرفه وجانبه والآية تمثيل لحال المتردد في عمله.

(٢) أي: في الآخرة لأنه بعبادته دخل النار ولم ير منه نفعًا أصلًا وإنما قال: ﴿ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ ترفيعًا للكلام نحو: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ ومعنى الكلام: القسم والتأخير أي: يدعو: والله من ضرّه أقرب من نفعه، والمدعو هو الوثن الذي عبده من دون الله تعالى.

(٣) هذه الجمل تحمل الذم والتقبيح للأصنام التي يدعوها المشركون فإنها شر الموالي وشر العشير، لأن شأن الولي جلب النفع لمولاه وشأن العشير جلب الخير لعشيره فإذا كان العكس كانا شر الموالي والعشراء.

(٤) قال تعالى من سورة يونس: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ وهذا منهم على فرض إن بعثوا أحياء يوم القيامة أو يرجون شفاعتهم في الدنيا.

محمدًا ﷺ. ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾: أي بحبل. ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾: أي سقف بيته وليختنق غيظًا. ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾: أي في عدم نصرة النبي ﷺ الذي يغيظه.

(١٦) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾: أي ومثل إنزالنا تلك الآيات السابقة أنزلنا القرآن.

(١٧) ﴿هَادُوا﴾: أي اليهود. ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾: فرقة من النصارى. ﴿وَالْمَجُوسَ﴾: عبدة النار والكواكب. ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: أي عالم به حافظ له.

معنى الآيات:

(١٤) بعدما ذكر تعالى جزاء الكافرين والمترددين بين الكفر والإيمان أخبر أنه تعالى يدخل الذين آمنوا به وبرسوله ولقاء ربهم ووعده ووعيده وعملوا الصالحات وهي الفرائض التي افترضها الله عليهم والنوافل التي رغبهم فيها يدخلهم جزاء لهم على إيمانهم وصالح أعمالهم جنات تجري من تحتها الأنهار وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ[(١)]﴾ ومن ذلك تعذيبه من كفر به وعصاه ورحمة من آمن به وأطاعه.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿مَنْ[(٢)] كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ أي من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله ودينه وعباده المؤمنين فلذا هو يتردد ولم يؤمن ولم ينخرط في سلك المسلمين كبني أسد وغطفان فإنا نرشده إلى ما يذهب عنه غيظه حيث يسوؤه نصر الله تعالى لرسوله وكتابه ودينه وعباده المؤمنين وهو أن يأتي بحبل وليربطه بخشبة في سقف بيته ويشده على عنقه ثم ليقطع الحبل[(٣)]، وينظر بعد هذه العملية الانتحارية هل[(٤)] كيده هذا يذهب عنه الذي يغيظه؟.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال للآيات التي تقدمت في بيان قدرة الله وعلمه في الخلق وإحياء الأرض وإعادة الحياة بعد الفناء أنزلنا القرآن آيات واضحات تحمل الهدى والخير لمن آمن بها وعمل بما فيها من شرائع وأحكام وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أي هدايته بأن يوفقه للنظر والتفكر فيعرف الحق فيطلبه ويأخذ به عقيدة قولاً وعملاً.

(١٧) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[(٥)] وهم المسلمون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ وهم فرقة من النصارى يقرؤون الزبور ويعبدون الكواكب ﴿وَالنَّصَارَى﴾ وهم عبدة الصليب ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ وهم عبدة النار[(٦)] والكواكب ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وهم عبدة الأوثان هؤلاء جميعًا سيحكم[(٧)] الله بينهم يوم القيامة فيدخل المؤمنين الجنة ويدخل أهل تلك الملل الباطلة النار هذا هو الفصل الحق فالأديان ستة دين واحد للرحمن وخمسة للشيطان فأهل دين الرحمن يدخلهم في رحمته، وأهل دين الشيطان يدخلهم النار مع الشيطان وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي عالم بكل شيء لا

---

(١) هذه الجملة الكريمة هي تذييل لكلّ ما تقدم لقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومتضمنة تعليلاً إجماليًا لاختلاف الناس في الخير والشر ولما يلقون من جزاء كذلك.

(٢) الظاهر أن هذا فريق ثالث غير الفريقين المتقدمين وهما: فريق من يجادل في الله بغير علم وفريق من يعبد الله على حرف، وهذا الفريق الثالث قد يكون من اليهود والمنافقين وبعض المشركين الذين كانوا يغتاظون لانتصار النبي ﷺ لأنهم لا يودّون ذلك ولا كانوا يرون انتصاره ﷺ كائنًا فكلما رأوا نصرًا له ازداد غمهم واشتد كربهم لأنّ انتصاره يحزنهم ويخيفهم.

(٣) قرأ الجمهور: ﴿لِيَقْطَعْ﴾ بسكون اللام لوجود ثم العاطفة وقرأ بعضٌ: ﴿لِيقطع﴾ بكسر اللام لأن ثم ليست كالفاء والواو العاطفتين لأنها مركبة من ثلاثة أحرف.

(٤) ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾: الاستفهام إنكاري، وما: مصدرية أي: هل يذهبن كيده غيظه.

(٥) هذه الآية نزلت كالفذلكة لما سبق فقررت الصراع الدائر بين الحق والباطل وسمت المتصارعين بألقابهم وأعلمتهم أنّ الحكم فيهم مؤجل إلى يوم القيامة وسيكون عادلاً لعلم الله تعالى بهم وحفظه لأعمالهم.

(٦) لذا فهم يثبتون إلٰهين: إلهًا للخير وإلٰهًا للشر وهم أهل فارس، وأقدم النحل المجوسية أسسها ملك فارسي قديم في التاريخ يدعى (كيومرث).

(٧) هذا تفسير لقوله تعالى في الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ إذ الفصل هو الحكم.

يخفى عليه شيء وسيجزي كل عامل بما عمل، ولا يهلك على الله إلا هالك فقد أنزل كتابه وبعث رسوله ورغب ورهّب وواعد وأوعد والناس يختارون ما قدر لهم أو عليهم وسبحان الله العظيم.

هداية الآيات:

١ - كل الأديان هي من وحي الشيطان وأهلها خاسرون إلا الإسلام فهو دين الله الحق وأهله هم الفائزون، أهله هم القائمون عليه عقيدة وعبادة وحكمًا وقضاء.

٢ - إن الله ناصر دينه، ومكرم أهله، ومن غاظه ذلك ولم يرضه فليختنق.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٤ - تقرير إرادة الله ومشيئته فهو تعالى يفعل ما يشاء ويهدي من يريد.

شرح الكلمات: [الآية: ١٨]

(١٨) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أي ألم تر بقلبك فتعلم. ﴿يَسْجُدُ لَهُ﴾: أي يخضع ويذل له بوضع وجهه على الأرض بين يدي الرب تعالى. ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾: من الملائكة. ﴿وَالدَّوَابُّ﴾: من سائر الحيوانات التي تدب على الأرض. ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾: وجب عليه العذاب فلا بد هو واقع به. ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ﴾: أي يُشقه في عذاب مهين. ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾: أي ليس له من مكرم أي مسعد ليسعده، وقد أشقاه الله.

معنى الآية الكريمة:

(١٨) يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾[(١)] أيها الرسول بقلبك فتعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ﴾[(٢)] ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ من الجن والدواب ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ وهم المؤمنون المطيعون وكثير أي من الناس حق عليهم العذاب أي وجب لهم العذاب وثبت، فهو لا يسجد سجود عبادة وقربة لنا أما سجود الخضوع فظلالهم تسجد[(٣)] لنا بالصباح والمساء، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي ومن أراد الله إشقاءه وعذابه فما له من مكرم يكرمه برفع العذاب عنه وإسعاده في دار السعادة وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[(٤)] فمن شاء أهانه ومن شاء أكرمه فالخلق خلقه وهو المتصرف فيهم مطلق التصرف فمن شاء أعزه، ومن شاء أذله فعلى عباده أن يرجعوا إليه بالتوبة سائلين رحمته مشفقين من عذابه فهذا أنجى لهم من عذابه وأقرب إلى رحمته.

الجزء السابع عشر سورة الحج

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

٣٣٥

هداية الآية الكريمة:

١ - تقرير ربوبية الله وألوهيته.

٢ - سجود المخلوقات بحسب ذواتها، وما أراد الله تعالى منها.

٣ - كل شيء خاضع لله إلا الإنسان فأكثر أفراده عصاة له متمردون عليه وبذلك استوجبوا العذاب المهين.

٤ - التالي لهذه الآية والمستمع لتلاوته يسن لهم أن يسجدوا لله تعالى إذا بلغوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ ـ ٢٤]

(١٩) ﴿خَصْمَانِ﴾: خصم مؤمن

---

(١) قال القرطبي: هذه رؤية القلب أي: ألم تر بقلبك، وعقلك.

(٢) قد استعمل السجود في هذه الآية في حقيقته ومجازه.

(٣) وكذلك خضوعهم لأحكام الله تعالى فيهم ومجاري أقداره عزّ وجلّ عليهم من صحة ومرض وغنىً وفقر وحياة وموت.

(٤) الجملة تعليلية لما سبق من أحكام لله تعالى بالإكرام والإهانة بحسب الطاعة والعصيان.

وخصم كافر كل واحد يريد أن يخصم صاحبه. ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾: أي في دينه. ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ﴾: أي فصلت لهم ثياب على قدر أجسامهم.

(٢٠) ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾: أي يذاب بالحميم وهو الماء الحار من شحوم وغيرها.

(٢١) ﴿مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾: جمع مقمعة وهي آلة من حديد كالمجن.

(٢٢) ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾: أي يقال لهم توبيخًا وتقريعًا: ذوقوا عذاب النار.

(٢٣) ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾: أي أساور من لؤلؤ محلاة بالذهب.

(٢٤) ﴿إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾: هو شهادة أن لا إله إلا الله. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾: أي إلى الإسلام إذ هو طريق الله الموصل إلى رضاه وجنته.

معنى الآيات:

(١٩) قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾[1] الخصم الأول المسلمون والثاني أهل الشرك والكفر ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ أي في دينه تعالى كل خصم يدعي أنه على الدين الحق، وماتوا على ذلك وفصل الله تعالى بينهم يوم القيامة ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم أهل الدين الباطل أدخلوا النار وفصلت[2] لهم ثياب من نار ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ أي الماء الحار المنتهي في الحرارة.

(٢٠) ﴿يُصۡهَرُ[3] بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ من لحم وشحم.

(٢١) ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾ يضربون بها.

(٢٢) ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي من النار بسبب ما ينالهم من غم عظيم ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي تجبرهم الزبانية على العودة إليها ولم تمكنهم من الخروج منها، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي لا تخرجوا منها وذوقوا عذاب الحريق. فهذا جزاء الخصم الكافر، وأما الخصم المؤمن فهذا جزاؤه وهو في قوله تعالى:

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ[4]﴾ أي أساور[5] من لؤلؤ محلاة بالذهب ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿حَرِيرٞ﴾[6].

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ في الدنيا وهو لا إله إلا الله وسائر الأذكار والتسابيح وكل كلام طيب، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ وهذا الطريق الموصل إلى رضا ربهم وهو الإسلام، وكل ذلك بتوفيق ربهم الذي آمنوا له وبرسوله وأطاعوه بفعل محابه وترك مساخطه.

هداية الآيات:

١ ـ إثبات حقيقة هي أن المؤمن خصم الكافر والكافر خصم المؤمن في كل زمان ومكان حيث أنّ الآية نزلت في علي وحمزة وعبيدة بن الحارث هذا الخصم المؤمن، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وهذا الخصم الكافر

---

(١) روى مسلم عن قيس بن عبادة رضي الله عنه قال: سمعت أبا ذر يقسم قسمًا: إن ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ أنها نزلت في الذين برزوا يوم بدر وهم: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، وعتبة وشيبة أبناء ربيعة والوليد ابن عتبة، وقال عليّ رضي الله عنه إني لأوّل من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى يوم القيامة. يريد قصته في المبارزة هذه، وعموم الآية يشمل الخصومة بين أهل الإسلام وأهل الكتاب، كما يشمل خصومة الجنة والنار لحديث مسلم: «**احتجت الجنة والنار فقالت: هذه يدخلها الجبّارون والمتكبرون، وقالت: هذه يدخلها الضعفاء والمساكين فقال الله تعالى لهذه: أنت عذابي أعذّب بك من أشاء وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها**».

(٢) قطعت: فصلت أي: تقطّع لهم في الآخرة ثياب من نار، وذكر بلفظ الماضي لأنّ ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ..﴾ أي: يقول الله. وجائز أن يكون قد أعدّت لهم تلك الثياب ليلبسوها يوم القيامة وهذا أولى. وتلك الثياب من النحاس المذاب وهي السرابيل المذكورة في سورة إبراهيم من قطران.

(٣) الصّهر: إذابة الشحم، والصهارة: ما ذاب منه.

(٤) نصب على تقدير: ويحلّون لؤلؤًا.

(٥) قالت العلماء: ليس أحد من أهل الجنة إلاّ وفي يده ثلاثة أسورة. سوار من ذهب، وسوار من لؤلؤ، وسوار من فضة.

(٦) روى أبو داود بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو**» وصحّ قوله ﷺ: «**من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حُرمها في الآخرة**».

وذلك أنهم تقاتلوا يوم بدر بالمبارزة ونصر الله الخصم المؤمن على الكافر.

٢ - بيان جزاء كل من الكافرين والمؤمنين في الدار الآخرة.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحوال الآخرة وما للناس فيها.

٤ - بيان الطيب من القول وهو كلمة التوحيد وذكر الله تعالى.

٥ - بيان صراط الحميد وهو الإسلام جعلنا الله من أهله.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٥]

(٢٥) ﴿كَفَرُواْ﴾: جحدوا توحيد الله وكذَّبوا رسوله وما جاءهم به من عند ربهم. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: يمنعون الناس من الإسلام، ويصرفونهم عنه. ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: مكة المكرمة والمسجد الحرام ضمنها[(١)]. ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾: المقيم بمكة للتعبد في المسجد الحرام. ﴿وَٱلْبَادِۚ﴾: الطارىء عن مكة النازح إليها. ﴿بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ﴾: أي إلحادًا أي ميلاً عن الحق مُلتبسًا بظلم لنفسه أو لغيره.

معنى الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ[(٢)] عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذه الآية الكريمة تحمل تهديدًا ووعيدًا شديدًا لكل من كفر بتوحيد الله وكذب رسوله وما جاء به من الهدى والدين الحق وصدَّ عن سبيل الله أي صرف الناس عن الدخول في الإسلام، وعن دخول المسجد الحرام للطواف بالبيت والإقامة بمكة للتعبد في المسجد الحرام. والآية وإن تناولت المشركين الذين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن دخول مكة عام الحديبية فإنها عامة في كل من كفر وصدَّ إلى يوم القيامة وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ هو وصف للمسجد الحرام. إذ جعله الله تعالى موضع تنسُّك لكل من أتاه وأقام به أو يأتيه للعبادة ثم يخرج منه، فالعاكف أي المقيم فيه كالبادي الطارىء القدوم إليه هم سواء في حق الإقامة في مكة[(٣)] والمسجد الحرام للتعبد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ[(٤)] بِظُلْمٍ﴾ أي يرد بمعنى يعتزم الميل عن الحق فيه بظلم يرتكبه كالشرك وسائر الذنوب والمعاصي القاصرة على الفاعل أو المتعدية إلى غيره. وقوله تعالى: ﴿نُّذِقْهُ[(٥)] مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا جزاء من كفر وصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ومن أراد فيه إلحادًا بظلم لنفسه[(٦)] أو لغيره.

هداية الآية الكريمة:

١ - التنديد بالكفر والصدِّ عن سبيل الله والمسجد الحرام والظلم فيه والوعيد الشديد لفاعل ذلك.

٢ - مكة بلد الله وحرمه من حق كل مسلم أن يقيم بها للتعبد والتنسك ما لم يظلم وينتهك حرمة الحرم بالذنوب والمعاصي، وخاصة الشرك والظلم والضلال.

٣ - عظيم شأن الحرم حيث يؤاخذ فيه على مجرد العزم على الفعل ولو لم يفعل.

شرح الكلمات: [الآية: ٢٦ ـ ٢٩]

(٢٦) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ﴾: أي

---

(١) هذا من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل وهو شائع لغة شائع تعبيرًا.

(٢) أي: وهم يصدّون، وقيل: الواو مزيدة أي: إنّ الذين كفروا يصدّون، وهذا ضعيف والصحيح أن خبر إن محذوف تقديره: خسروا وهلكوا. ولا يصلح أن يكون نذقه لأنه مجزوم.

(٣) كان في الصدر الأول أبواب دور مكة مفتوحة لكل من يريد النزول بها حاجًا أو معتمرًا حتى سرق منزل أحدهم فاتخذ له بابًا فأنكر عليه عمر ذلك فقال الرجل: إنما اتخذت الباب لأحفظ لهم متاعهم، فتركه عمر فاتخذ الناس من يومئذ الأبواب. قال مالك: دور مكة ليست كالمسجد بل لهم أن يمنعوا من النزول بها من شاؤوا.

(٤) الباء في بإلحاد: الإجماع على أنها صلة لتقوية الكلام لشيوع مثلها في كلام العرب والأصل: ومن يرد فيه إلحادًا. قال الشاعر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج ... نضرب بالسيف ونرجوا بالفرج

الفلج: موضع لبني جعدة بن قيس بنجد.

(٥) ﴿نُّذِقْهُ﴾ جواب مَن: الشرطية في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ﴾.

(٦) لا يؤاخذ المؤمن بالنية السيئة في أي بلد كان إلاّ بمكة المكرمة لهذه الآية.

اذكر يا رسولنا إذ بوأنا: أي أنزلنا إبراهيم بمكة مبينين له مكان البيت.

﴿أَن[١] لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾: أي ووصيناه بأن لا تشرك بي شيئًا من الشرك والشركاء. ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾: ونظف بيتي من أقذار الشرك وأنجاس المشركين.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾: أعلن في الناس بأعلى صوتك. ﴿رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: مشاة وركبانًا على ضوامر الإبل. ﴿فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: طريق واسع بعيد الغور في قارات الأرض.

﴿٢٨﴾ ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾: هي أيام التشريق. ﴿بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾: أي الإبل والبقر والغنم إذ لا يصح الهدي إلا منها. ﴿ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾: أي الشديد الفقر.

﴿٢٩﴾ ﴿لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾: أي ليزيلوا أوساخهم المترتبة على مدة الإحرام. ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾: أي بأن يذبحوا وينحروا ما نذروه لله من هدايا وضحايا.

معنى الآيات:

﴿٢٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا[٢] لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي اذكر يا رسولنا لقومك المنتسبين إلى إبراهيم باطلاً وزورًا حيث كان موحدًا وهم مشركون اذكر لهم كيف بوأه ربُّه مكان البيت لِيَبْنِيه ويرفع بناءه وكيف عهد الله إليه ووصاه بأن يطهره من الأقذار الحسية كالنجاسات من دماء وأوساخ والمعنوية كالشرك والمعاصي وسائر الذنوب وذلك من أجل الطائفين به والقائمين في الصلاة والراكعين والساجدين فيه إذ الرُّكَّع جمع راكع والسُّجَّد جمع ساجد حتى لا يتأذوا بأي أذى معنوي أو حسيّ وهم حول بيت ربهم وفي بلده وحرمه، ليذكر قومك هذا وهم قد نصبوا حول البيت التماثيل والأصنام، ويحاربون كل من يقول لا إله إلا الله وقد صدوك وأصحابك عن المسجد الحرام ومنعوك من الطواف بالبيت العتيق، فأين يذهب بعقولهم عندما يدعون أنهم على دين إبراهيم وإسماعيل. هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٧﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن[٣] فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي وعهدنا إليه آمرين إياه أن يؤذن في الناس بأن ينادي معلنًا معلمًا: أيها الناس[٤] إن ربكم قد بنى لكم بيتًا فحجوه ففعل ذلك فأسمع الله صوته من شاء من عباده ممن كتب لهم أزلاً أن يحُجوا وسهل طريقهم وحجوا فعلاً ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي عليك النداء وعلينا البلاغ فنادِ ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي مشاة ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ من النوق المهازيل ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي طريق بعيد في أغوار الأرض وأبعادها كالأندلس غربًا وأندونيسيا شرقًا.

﴿٢٨﴾ وقوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي يأتوك ليشهدوا منافع لهم دينيَّة كمغفرة ذنوبهم واستجابة دعائهم والفوز برضا ربهم، وتعلم دينهم من علمائهم، ودنيويّة كربح تجارة ببيع وشراء وعرض سلع وأنواع صناعات، وقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ شاكرين لله تعالى إنعامه عليهم وإفضاله وذلك في أيام الحج كلها من العشر الأول من ذي الحجة إلى نهاية أيام التشريق بالصلاة والذكر والدعاء، كما يذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام عند نحر الإبل وذبح البقر

---

(١) (أن): الصحيح أنها تفسيرية والقول أو ما في معناه: مقدر فيها نحو وقلنا أو وصينا أو عهدنا.

(٢) يقال: بوأه كذا وبوأ له كذا فاللام مزيدة لتقوية الكلام كما يقال مكنته من كذا، ومكنت له كذا، ومعنى بوأنا لإبراهيم أي: أريناه أصله. وكان قد درس بطول العهد وأنزلناه فيه.

(٣) وقرىء: ﴿وآذن﴾ بمعنى: أعلم، ﴿وَأَذِّن﴾: قراءة الجمهور وهي أولى، والأذان: الإعلام.

(٤) روي عن ابن عباس وابن جبير: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، وقيل له: أذن في الناس بالحج قال له يا ربّ: وما يبلغ صوتي؟ قال: أذّن وعليّ البلاغ، فصعد إبراهيم خليل الله جبل أبي قبيس وصاح: يا أيها الناس إنّ الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ويجيركم من عذاب النار فحجوا. فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك، فمن أجاب يومئذ حجّ على قدر الإجابة إن أجاب مرّة فمرة وإن أجاب مرتين فمرتين وجرت التلبية على ذلك.

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

٣٣٦

والغنم بأن يقول الناحر أو الذابح بسم الله والله أكبر[1] وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أي من بهيمة الأنعام التي نحرتموها أو ذبحتموها[2] تقربًا إلينا كهدي التمتع أو التطوع، ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ وهو من اشتد به الفقر.

﴿٢٩﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ بإزالة الشعث والوسخ الذي لازمهم طيلة مدة الإحرام. وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ أن من كان منهم قد نذر هديًا بذبحه في الحرم فليوف بذلك إذ هذا أوان الوفاء بما نذر أن ينحره أو يذبحه بالحرم. وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي وليطوفوا طواف الإفاضة وهو ركن الحج ولا يصح إلا بعد الوقوف بعرفة ورمي جمرة العقبة صباح العيد عيد الأضحى.

هداية الآيات:

١ - وجوب بناء البيت وإعلائه كلما سقط وتهدم ووجوب تطهيره من كل ما يؤذي الطائفين والعاكفين في المسجد الحرام من الشرك والمعاصي وسائرالذنوب ومن الأقذار كالأبوال والدماء ونحوها.

٢ - مشروعية فتح مكاتب للدعاية للحج.

٣ - جواز الإتجار أثناء إقامته في الحج.

٤ - وجوب شكر الله تعالى وذكره.

٥ - جواز الأكل من الهدي ومن ذبائح التطوع بل استحبابه.

٦ - وجوب الحلق أو التقصير بعد رمي جمرة العقبة.

٧ - وجوب الوفاء بالنذور الشرعية[3] أما النذور للأولياء فهي شرك ولا يجوز الوفاء بها.

٨ - تقرير طواف الإفاضة[4] وبيان زمنه وهو بعد الوقوف بعرفة ورمي جمرة العقبة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠ ـ ٣٣]

﴿٣٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي الأمر هذا مثل قول المتكلم هذا أي ما ذكرت.. وكذا وكذا.. ﴿حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: جمع حرمة ما حرَّم الله انتهاكه من قول أو فعل. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾: أي خير في الآخرة لمن يعظم حرمات الله فلا ينتهكها. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: أي تحريمه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِل لغير الله به. ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ﴾: أي اجتنبوا عبادة الأوثان. ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾: وهو الكذب وأعظم الكذب ما كان على الله تعالى[5] والشرك وشهادة الزور.

﴿٣١﴾ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾: موحدين له مائلين عن كل دين إلى الإسلام. ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي سقط. ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾: أي تأخذه بسرعة.

---

(١) السنة في ذبح الأضحية أن تكون بعد صلاة العيد، ومن ذبح قبل ذلك أعاد لقوله ﷺ: «**من ذبح قبل الصلاة فتلك شاة لحم**» ويستحب في ذبح الأضحية والهدي أن يقول بعد التسمية الواجبة: اللهم منك ولك.

(٢) المشهور وعليه الأكثر أنّ أيام النحر ثلاثة وهي: أيام التشريق الثلاثة بعد يوم العيد.

(٣) لقوله ﷺ: «**لا وفاء لنذر في معصية**»، وقال: «**ومن نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه**».

(٤) أما طواف القدوم فواجب عند مالك وطواف الوداع سنة مؤكدة ويسقط بالعذر عند أكثر أهل العلم، لسقوطه عن الحائض إجماعًا، ومن أهل العلم من يرى طواف القدوم سنة ليس بواجب.

(٥) وكذلك الكذب على رسول الله ﷺ لقوله: «**من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**».

(٣٢) ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: أعلام دينه وهي هنا البُدْن بأن تختار الحسنة السمينة منها. ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾: أي تعظيمها ناشيء من تقوى قلوبهم.

(٣٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾: منها ركوبها والحمل عليها بما لا يضرها وشرب لبنها. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي وقت معين وهو نحرها بالحرم أيام التشريق. ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾: أي عند البيت العتيق وهو مكة والحرم.

معنى الآيات:

(٣٠) ما زال السياق في مناسك الحج قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذاك الذي علمتم من قضاء التفث أي إزالة شعر الرأس وقص الشارب وقلم الأظافر ولباس الثياب ونحر وذبح الهدايا والضحايا، قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ منكم ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فلا ينتهكها ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ أي ذلك التعظيم لها باحترامها وعدم انتهاكها خير له عند ربّه يوم يلقاه وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي الإبل والبقر والغنم أحل الله تعالى لكم أكلها والانتفاع بها وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه كما جاء في سورة البقرة والمائدة والأنعام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ وقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ[(١)] مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ أي اجتنبوا عبادة الأوثان فإنها رجس فلا تقربوها بالعبادة ولا بغيرها غضبًا لله وعدم رضًا بها وبعبادتها، وقوله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ وهو الكذب مطلقًا وشهادة الزور وأعظم الكذب ما كان على الله بوصفه بما هو منزه عنه أو بنسبة شيء إليه كالولد والشريك وهو عنه منزه، أو وصفه بالعجز أو بأي نقص.

(٣١) وقوله: ﴿حُنَفَآءَ[(٢)] لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ أي موحدين لله تعالى في ذاته وصفاته وعباداته مائلين عن كل الأديان إلى دينه الإسلام، غير مشركين به أي شيء من الشرك أو الشركاء وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ إلهًا آخر فعبده أو صرف له بعض العبادات التي هي لله تعالى فحاله في خسرانه وهلاكه هلاك من ﴿رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ﴾: أي سقط منها بعدما رفع إليها ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ﴾: أي تأخذه بسرعة وتمزقه أشلاء كما تفعل البازات والعقبان بصغار الطيور، ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ بعيد فلا يعثر عليه أبدًا فهو بين أمرين إما اختطاف الطير له أو هوي الريح به فهو خاسر هالك هذا شأن من يشرك بالله تعالى فيعبد معه غيره بعد أن كان في سماء الطهر والصفاء الروحي بسلامة فطرته وطيب نفسه فانتكس في حمأة الشرك والعياذ بالله.

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ[(٣)] ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى[(٤)] ٱلْقُلُوبِ﴾ أي الأمر ذلك من تعظيم حرمات الله واجتناب قول الزور والشرك وبيان خسران المشرك ومن يعظم شعائر الله وهي أعلام دينه من سائر المناسك وبخاصة البدن التي تهدى للحرم وتعظيمها باستحسانها واستسمانها ناشيء عن تقوى القلوب فمن عظمها طاعة لله تعالى وتقربًا إليه دل ذلك على تقوى قلبه لربه تعالى والرسول يشير إلى صدره ويقول: **«التقوى هاهنا التقوى هاهنا» ثلاث مرات.**

(٣٣) وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي أذن الله تعالى للمؤمنين أن ينتفعوا بالهدايا وهم

---

(١) الرجس: الشيء القذر، والوثن: التمثال من خشب أو حديد وغيرهما، ومن: كونها لابتداء الغاية أولى ليعم الأمر اجتناب كل رجس في اعتقاد أو قول أو عمل إذ كل الأنجاس محرّمة.

(٢) لفظ: حنفاء: من الأضداد يقع على الاستقامة والميل معًا، ومعناها مائلين عن الشرك إلى التوحيد، وعن الأديان إلى الإسلام.

(٣) الشعائر: جمع شعيرة: وهو كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر عباده به وأعلمهم، والشعار: العلامة، ومنه شعار الحرب، وإشعار البدنة لتعلم أنها مهداة للحرم، فشعائر الله: أعلام دينه لا سيما المناسك وما يتعلّق بها.

(٤) أضيفت التقوى إلى القلوب لأنّ حقيقة التقوى في القلب، والتقوى من الخوف، والخوف في القلب ويشهد لهذا قوله ﷺ: **«التقوى ها هنا»** وأشار إلى صدره ثلاث مرات.

سائقوها إلى الحرم بأن يركبوها[1] ويحملوا عليها ما لا يضرها ويشربوا من ألبانها وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ[2] ٱلْعَتِيقِ﴾ أي محلها عند البيت العتيق وهو الحرم حيث تنحر إن كان مما ينحر أو تذبح إن كان مما يذبح.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب تعظيم حرمات الله لما فيها من الخير العظيم.

٢ ـ تقرير حلِّيَّة بهيمة الأنعام بشرط ذكر اسم الله عند ذبحها أو نحرها.

٣ ـ حرمة قول الزور وشهادة الزور وفي الأثر[3] عدلت شهادة الزور الشرك بالله.

٤ ـ وجوب ترك عبادة الأوثان ووجوب البعد عنها وترك كل ما يمت إليها بصلة.

٥ ـ بيان عقوبة الشرك وخسران المشرك.

٦ ـ تعظيم شعائر الله وخاصة البدن من تقوى قلوب أصحابها.

٧ ـ جواز الانتفاع بالبدن والهدايا بركوبها وشرب لبنها والحمل عليها إلى غاية نحرها بالحرم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤ ـ ٣٧]

(٣٤) ﴿مَنسَكًا﴾: أي ذبائح من بهيمة الأنعام يتقربون بها إلى الله تعالى، ومكان الذبح يقال له منسك. ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾: أي انقادوا ظاهرًا وباطنًا لأمره ونهيه. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: أي المطيعين المتواضعين الخاشعين.

(٣٥) ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: أي خافت من الله تعالى أن تكون قصَّرتْ في طاعته.

(٣٦) ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾: جمع بدنة وهي ما يساق للحرم من إبل وبقر ليذبح تقربًا إلى الله تعالى. ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾: أي من أعلام دينه، ومظاهر عبادته. ﴿صَوَآفَّ﴾: جمع صافَّة وهي القائمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾: أي بعد أن تسقط على جنوبها على الأرض لا روح فيها. ﴿ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: القانع[4] السائل والمعتر الذي يتعرض للرجل ولا يسأله حياء وعفة. ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا﴾: أي مثل هذا التسخير سخرناها لكم لتركبوا عليها وتحملوا وتحلبوا. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي لأجل أن تشكروا الله تعالى بحمده وطاعته.

(٣٧) ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾: أي لا يرفع إلى الله لحم ولا دم، ولكن تقواه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾: أي تقولون الله أكبر بعد الصلوات الخمس أيام التشريق شكرًا له على هدايته إياكم. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: أي الذين يريدون بالعبادة وجه الله تعالى وحده ويؤدونها على الوجه المشروع.

معنى الآيات:

(٣٤) ما زال السياق في توجيه المؤمنين وإرشادهم إلى ما يكملهم ويسعدهم في الدارين فقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي ولكل أمة من الأمم السابقة من أهل الإيمان والإسلام جعلنا لهم مكان نسك يتعبدوننا فيه ومنسكًا[5] أي ذبح قربان ليتقربوا به إلينا، وقوله: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي شرعنا لهم عبادة ذبح القربان لحكمة: وهو أن يذكروا اسمنا على ذبح ما يذبحون ونحر ما

---

(١) في الصحيح أنّ رجلاً يسوق بدنة فقال له النبي ﷺ: «اركبها» فقال الرجل: إنها بدنة قال: «اركبها» قال: إنها بدنة، وفي الثالثة قال له ﷺ: «اركبها ويلك».

(٢) إن كان الهدي في الحج فمحلّه بعد رمي جمرة العقبة ولا ينحر أو يذبح قبله، وإن كان في غير الحج، وإنما هدي مهدى إلى الحرم فمحله مكة حيث يطعمه فقراؤها وفقراء الحرم كله.

(٣) وفي الصحيح: «إن أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور..» الحديث.

(٤) القانع: من الأضداد يطلق على ذي القناعة وعلى من لا قناعة له فهو يسأل، إلاّ أنّ الفعل الماضي لذي القناعة مكسور العين: فعل كعلم، وفعل: من لا قناعة له فهو يسأل. فعل: بفتح العين كنصح ينصح.

(٥) يقال: نسك ينسك نُسكًا: إذا ذبح ذبح تقرّب لله تعالى، والذبيحة تسمى نسيكة وجمعها: نسك، ومنها قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ والنسك: الطاعة لله، وهي عبادته، ومن ذلك قولهم: تنسّك فلان: أي تعبد فهو ناسك ومتنسك، والمنسك بفتح السين وكسرها موضع العبادة، ومنه مناسك الحج وهي الأماكن التي تؤدى فيها الشعائر كعرفات ومزدلفة ومنى ومكة.

ينحرون بأن يقولوا بسم الله والله أكبر. وقوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي فمعبودكم أيها الناس معبود واحد ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ وجوهكم وخصوه بعبادتكم ثم قال لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ برضواننا ودخول دار كرامتنا ووصف المخبتين معرفًا بهم الذين تنالهم البشرى على لسان رسول الله فقال: (٣٥) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ لهم أو بينهم ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت شعورًا بالتقصير في طاعته وعدم أداء شكره والغفلة عن ذكره ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من البلاء فلا يجزعون ولا يتسخطون ولكن يقولون إنا لله وإنا إليه راجعون، ﴿وَٱلْمُقِيمِى﴾ الصلاة أي[1] بأدائها في أوقاتها في بيوت الله مع عباده المؤمنين ومع كامل شرائطها وأركانها وسننها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ مما قل أو كثر ينفقون في مرضاة ربهم شكرًا لله على ما آتاهم وتسليمًا بما شرع لهم وفرض عليهم.

(٣٦) وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ[2] جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي الإبل والبقر مما يُهدى إلى الحرم جعلنا ذلكم من شعائر ديننا ومظاهر عبادتنا، ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ عظيم وأجر كبير عند ربكم يوم تلقوه إذ ما تقرب متقرب يوم عيد الأضحى بأفضل من دم يهرقه في سبيل الله وعليه ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي قولوا بسم الله والله أكبر عند نحرها، وقوله: ﴿صَوَآفَّ﴾[3] أي قائمة على ثلاثة معقولة اليد اليسرى، فإذا نحرتموها ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت على جنوبها فوق الأرض ميتة ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ[4]﴾ الذي يسألكم ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الذي يتعرض لكم ولا يسألكم حياءً، وقوله تعالى: ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ أي مثل ذلك التسخير الذي سخرناها لكم فتركبوا وتحلبوا وتذبحوا وتأكلوا سخرناها لكم من أجل أن تشكرونا بالطاعة والذكر.

(٣٧) وقوله تعالى في آخر آية في هذا السياق وهي **(٣٧)** قوله: ﴿لَن[5] يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ أي لن يرفع إليه لحم ولا دم ولن يبلغ الرضا منه، ولكن التقوى بالإخلاص وفعل الواجب والمندوب وترك الحرام والمكروه هذا الذي يرفع إليه ويبلغ مبلغ الرضا منه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي كذلك التسخير الذي سخرها لكم لعلَّة أن تكبروا الله على ما هداكم إليه من الإيمان والإسلام فتكبروا الله عند نحر البدن وذبح الذبائح وعند أداء المناسك وعقب الصلوات الخمس أيام التشريق. وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أمر الله تعالى رسوله والمبلغ عنه محمدًا ﷺ أن يبشر باسمه المحسنين الذين أحسنوا الإيمان والإسلام فوحدوا الله وعبدوه بما شرع وعلى نحو ما شرع متبعين في ذلك هدى رسوله وسنة نبيه ﷺ.

هداية الآيات:

١ - ذبح القربان مشروع في سائر

---

(١) قرأ الجمهور: بكسر التاء من الصلاة على الإضافة، وقرأ أبو عمرو: (الصلاة) بفتحها على توهم النون، وأنّ حذفها كان للتخفيف لطول الاسم. وأنشد سيبويه:

الحافظو عورة العشيرة لا ... يأتيهم من ورائنا نَطَف

النطف: التلطخ بالعيب والاتهام بريبة أو فجور.

(٢) البدن: بضم الباء والدال، والبُدن: بضم الباء وإسكان الدال لغة فصيحة، وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ بإسكان الدال واحدها بدنة كثمرة وثمر، وخشبة وخشب وسميت بدنة لأنها تبدن، والبدانة: السمن، وتطلق على البقر على الصحيح فمن نذرها أجزأته البقرة، وهي كالبعير تجزىء عن سبعة في هدي التمتع والقرآن.

(٣) أصل هذا اللفظ مأخوذ من صفن الفرس إذا وقف على ثلاثة أرجل، ورفع الرابعة ومنها: تنحر الإبل بعد أن توقف على ثلاثة وتعقد اليد اليسرى منها، وقرىء: ﴿صوافي﴾ و﴿صواف﴾ من الصفاء الذي هو الخلوص لله تعالى أي: خالصة له عز وجل.

(٤) القانع: اسم فاعل من قنع يقنع فهو قانع: إذا سأل وتذلل في السؤال: أما القانع بمعنى: ذي القناعة ففعله قنِع بكسر النون قناعة: إذا اكتفى بما عنده ولم يسأل، قال مالك: أحسن ما سمعت أنّ القانع: الفقير، والمعتر: الزائر وهو موافق في المعنى لما تقدم، ويؤيد هذا قراءة الحسن: ﴿والمعتري﴾ وهو الذي يتعرض لك ويأتيك بدون علم منك.

(٥) قال ابن عباس رضي الله عنهما: لن يصعد إليه. أي: اللحم والدم، ولكن الذي يصل إليه التقوى منكم وما أريد به وجهه.

الأديان الإلهية وهو دليل على أنه لا إله إلا الله إذ وحدة التشريع تدل على وحدة المشرع.

وسر مشروعية ذبح القربان هو أن يذكر الله تعالى، ولذا وجب ذكر اسم الله عند ذبح ما يذبح ونحر ما ينحر بلفظ بسم الله والله أكبر.

٢ - تعريف المخبتين أهل البشارة السارة برضوان الله وجواره الكريم.

٣ - وجوب ذكر اسم الله على بهيمة الأنعام.

٤ - بيان كيفية نحر البدن، وحرمة الأخذ منها قبل موتها وخروج روحها.

٥ - الندب إلى الأكل من الهدايا ووجوب إطعام الفقراء والمساكين منها.

٦ - وجوب شكر الله على كل إنعام.

٧ - مشروعية التكبير عند أداء المناسك كرمي الجمار وذبح ما يذبح وبعد الصلوات الخمس أيام التشريق.

٨ - فضيلة الإحسان وفوز المحسنين ببشرى على لسان رسول الله ﷺ.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ - ٤١]

(٣٨) ﴿يُدَافِعُ﴾: قرىء يدفع أي غوائل المشركين وما يكيدون به المؤمنين. ﴿خَوَّانٍ﴾: كثير الخيانة لأمانته وعهوده. ﴿كَفُورٍ﴾: أي جحود لربه وكتابه ورسوله ونعمه عليه.

(٣٩) ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾: أي بسبب ظلم المشركين لهم.

(٤٠) ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: أي استوجب إخراجهم من ديارهم. ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾: أي إلا قولهم: ربنا الله والله حق، وهل قول الحق يُسوغ إخراج قائله؟ ﴿صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾: معابد الرهبان وكنائس النصارى. ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾: معابد اليهود، باللغة العبرية مفردها صلوثا. ﴿وَمَسَاجِدُ﴾: أي بيوت الصلاة للمسلمين. ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾: أي ينصر دينه وعباده المؤمنين. ﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: قادر على ما يريد عزيز لا يمانع فيما يريد.

(٤١) ﴿إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي نصرناهم على عدوهم ومكنا لهم في البلاد بأن جعلنا السلطة بأيديهم. ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾: أي آخر أمور الخلق مردها إلى الله تعالى الذي يثيب ويُعاقب.

معنى الآيات:

(٣٨) ما زال السياق في إرشاد المؤمنين وتعليمهم وهدايتهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ[1] اللَّهَ يُدَافِعُ[2] عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يدفع عنهم غوائل المشركين ويحميهم من كيدهم ومكرهم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ[3] كَفُورٍ﴾ تعليل وهم المشركين الذين صدوا رسول الله والمؤمنين عن المسجد الحرام وهم الخائنون لأماناتهم وعهودهم الكافرون بربهم ورسوله وكتابه وبما جاء به، ولما كان لا يحبهم فهو

(١) روي أن هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ..﴾ نزلت بسبب أن المؤمنين بمكة لما كثر اضطهاد المشركين لهم فكر بعضهم في اغتيال الكفار، والاحتيال عليهم والغدر بهم فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله: ﴿كَفُورٍ﴾.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿يُدَافِعُ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿يدفع﴾.

(٣) الخوّان: كثير الخيانة، وهي الغدر، والغدر من شر الصفات، فقد صحّ (أن الله تعالى ينصب يوم القيامة للغادر لواء عند أسته بقدر غدرته: يقال هذه غدرة فلان بن فلان)!!

عليهم، وليس لهم. ومقابله أنه يحب كل مؤمن صادق في إيمانه محافظ على أماناته وعهوده مطيع لربه، ومن أحبَّهُ دافع عنه وحماه من أعدائه.

(٣٩) وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾[1] باسم للفاعل أي القادرين على القتال ويقاتلون باسم المفعول وهما قراءتان أي قاتلهم المشركون هؤلاء أذِن الله تعالى لهم في قتال أعدائهم المشركين بعدما كانوا ممنوعين من ذلك لحكمة يعلمها ربهم، وهذه أول آية في القرآن تحمل طابع الحرب بالإذن فيه للمؤمنين، قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ طمأنهم على أنه معهم بتأييده ونصره وهو القدير على ذلك.

(٤٠) وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي بدون موجب لإخراجهم اللهم إلا قولهم[2]: ربنا الله وهذا حق وليس بموجب لإخراجهم من ديارهم وطردهم من منازلهم وبلادهم هذه الجملة بيان لمقتضى الإذن لهم بالقتال، ونصرة الله تعالى لهم. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم[3] بِبَعْضٍ﴾ أي يدفع بأهل الحق أهل الباطل لولا هذا لتغلب أهل الباطل ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ[4] وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ وهذا تعليل أيضًا وبيان لحكمة الأمر بالقتال أي لولا أن الله تعالى يدفع بأهل الإيمان أهل الكفر لتغلب أهل الكفر وهدموا المعابد ولم يسمحوا للمؤمنين أن يعبدوا الله ـ وفي شرح الكلمات بيان للمعابد المذكورة فليرجع إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ أي قدير ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب فمن أراد نصرته نَصَرهُ ولو اجتمع عليه من بأقطار الأرض، والذي يريد الله نصرته هو الذي يقاتل من أجل الله بأن يُعبد في الأرض ولا يُعبد معه سواه فذلك وجه نصر الله فليعلم.

(٤١) وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ﴾[5] أي وطأنا لهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وملكناهم بعد قهر أعدائهم المشركين فحكموا وسادوا ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على الوجه المطلوب منهم، ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة في أموالهم، ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بالإسلام والدخول فيه وإقامته، ﴿وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو الشرك والكفر ومعاصي الله ورسوله هؤلاء الأحقون بنصر الله تعالى لهم لأنهم يقاتلون لنصرة الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ يخبر تعالى بأن مرد كل أمر إليه تعالى يحكم فيه بما هو الحق والعدل فيثيب على العمل الصالح ويعاقب على العمل الفاسد، وذلك يوم القيامة، وعليه فليراقب الله وليُتق في السر والعلن وليُتوكل عليه، وليُنَب إليه، فإن مرد كل أمر إليه.

هداية الآيات:

١ - وعد الله الصادق بالدفاع عن المؤمنين الصادقين في إيمانهم.

٢ - كره الله تعالى لأهل الكفر والخيانة.

٣ - مشروعية القتال لإعلاء كلمة الله بأن يعبد وحده ولا يضطهد أولياؤه.

---

(١) هذه الآية نزلت بالمدينة بعد هجرة الرسول ﷺ والمؤمنين إليها وفيها إذن بقتال المشركين بعد المنع الأوّل فهي أول آية بالإذن بالقتال بعدما كان غير مأذون فيه كما تقدم.

(٢) قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الاستثناء منقطع أي: لكن لقولهم ربنا الله أي: وحده لا ربّ لنا سواه استمرّت مدة السلم ثلاث عشرة سنة، وفي السنة الأولى من الهجرة أذن الله تعالى للمؤمنين بقتال المشركين إذ قد أعذر الله تعالى إليهم.

(٣) في الآية دليل على أنّ أمر الجهاد متقدم في الأمم قبل هذه الأمّة وبه صلحت الشرائع وعبد الناس ربّهم، واستقامت أمورهم وصلحت أحوالهم.

(٤) في الآية دليل على أنه لا يجوز لنا هدم معابد اليهود والنصارى، وإنما يمنعون من زيادة البناء حتى لا يكون ذلك إذنًا بالبقاء على الكفر وهو حرام.

(٥) هذه عامة في هذه الأمة وليست خاصة بالخلفاء الراشدين الأربعة ولا بالصحابة والتابعين بل هي عامة فيمن مكن الله تعالى لهم في الأرض فسوّدهم وحكّمهم، وجب عليهم أن يقوموا بفعل ما ذكر في هذه الآية من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ ـ بيان سر الإذن بالجهاد ونصرة الله لأوليائه الذين يقاتلون من أجله.

٥ ـ بيان أسس الدولة التي ورّث الله أهلها البلاد وملكهم فيها وهي:
إقام الصلاة ـ إيتاء الزكاة ـ الأمر بالمعروف ـ النهي عن المنكر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٢ ـ ٤٦]

(٤٢) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾: أي إن يكذبك قومك فقد كذبت قبلهم قوم نوح إذًا فلا تأس إذ لست وحدك المكذب.

(٤٤) ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾: هم قوم شعيب عليه السلام. ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾: أي كذبه فرعون وآله الأقباط. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾: أي أمهلتهم فلم أُعجل العقوبة لهم. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾: أي بالعذاب المستأصل لهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: أي كيف كان إنكاري عليهم تكذيبهم وكفرهم أكان واقعًا موقعه؟ نعم إذ الاستفهام للتقرير.

(٤٥) ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: أي ساقطة على سقوفها. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾: أي متروكة لا يستخرج منها ماء لموت أهلها. ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: مرتفع مجصص بالجص.

(٤٦) ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: أي فإنها أي القصة لا تعمي الأبصار فإن الخلل ليس في أبصارهم ولكن في قلوبهم حيث أعماها الهوى وأفسدتها الشهوة والتقليد لأهل الجهل والضلال.

معنى الآيات:

(٤٢) ما زال السياق الكريم في دعوة قريش إلى الإيمان والتوحيد وإن تخللته إرشادات للمؤمنين فإنه لما أَذِن للمؤمنين بقتال المشركين بين مقتضيات هذا الإذن وضمن النصرة لهم وأعلم أن عاقبة الأمور إليه لا إلى غيره وسوف يقضي بالحق والعدل بين عباده يوم يلقونه. قال لرسوله ﷺ مسليًا له عن تكذيب المشركين له: ﴿وَإِن[1] يُكَذِّبُوكَ﴾ أيها الرسول فيما جئت به من التوحيد والرسالة والبعث والجزاء يوم القيامة فلا تأس ولا تحزن ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل مُكذِّبيك من قريش والعرب واليهود ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾ قوم هود ﴿وَثَمُودُ﴾ قوم صالح.

(٤٣) ـ (٤٤) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أيضًا مع ما آتيناه من الآيات البينات، وكانت سنتي فيهم أني أمليت لهم أي مددت لهم في الزمن وأرخيت لهم الرسن حتى إذا بلغوا غاية الكفر والعناد والظلم والاستبداد وحقت عليهم كلمة العذاب أخذتهم أخذ العزيز المقتدر ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[2]، أي إنكاري عليهم؟ كان وربك واقعًا موقعه، وليس المذكورون أخذت فقط..

(٤٥) ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ عظيمة غنية برجالها ومالها وسلطانها ﴿أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي ضالعة في الظلم أي الشرك والتكذيب ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة[3] على سقوفها، وكم من بئر ماء[4] عذب كانت سقيًا لهم فهي الآن معطلة، وكم من قصر مشيد[5] أي رفيع مشيد بِالجص إذ مات أهله وتركوه هذا ما تضمنته الآيات الأربع (٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥).

(٤٦) أما الآية الأخيرة من هذا السياق فالحق عز وجل يقول: ﴿أَفَلَمْ[6] يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ حاثًا المكذبين من كفار قريش والعرب على السير في البلاد ليقفوا على آثار الهالكين فلعل ذلك يكسبهم حياة جديدة في تفكيرهم ونظرهم فتكون لهم قلوب حية واعية يعقلون بها خطابنا إليهم ونحن ندعوهم إلى نجاتهم

---

(١) الآية في تسلية الرسول ﷺ وتعزيته من جرّاء ما يلاقي من قومه من أنواع التكذيب والعناد والجحود.

(٢) أي: تغييري ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك. والإنكار والنكير: تغيير المنكر.

(٣) العروش: جمع عرش وهو السقف. والمعنى: إنّ جدرانها فوق سقفها.

(٤) قرأ نافع: ﴿وبير﴾ بدون همزة تخفيفًا.

(٥) ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: أي: مبني بالشيد وهو الجص أي: مثلها معطّل.

(٦) الاستفهام للتعجيب من حالهم وهم في غيهم وجهلهم.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِۦ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧ ـ ٥١]

﴿٤٧﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾: أي يطالبونك مستعجلينك بما حذرتهم منه من عذاب الله. ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: أي من أيام الدنيا ذات الأربع والعشرين ساعة.

﴿٤٨﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾: أي وكثير من القرى أي العواصم والحواضر الجامعة لكل أسباب الحضارة. ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾: أي أمهلتها فمدَّدت أيام حياتها ولم أستعجلها بالعذاب.

﴿٤٩﴾ ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: منذر أي مخوّف عاقبة الكفر والظلم بيِّن النذارة.

﴿٥٠﴾ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: أي ستر لذنوبهم ورزق حسن في الجنة.

﴿٥١﴾ ﴿سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾: أي عملوا بجد واجتهاد في شأن إبعاد الناس عن الإيمان بآياتنا وما تحمله من دعوة إلى التوحيد وترك الشرك والمعاصي.

معنى الآيات:

﴿٤٧﴾ ما زال السياق الكريم في إرشاد الرسول ﷺ وتوجيهه في دعوته إلى الصبر والتحمل فيقول له: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾[٣] أي يستعجلك المشركون

هداية الآيات:

١ - تكذيب الرسل والدعاة إلى الحق والخير سنة مطردة في البشر لها عواملها من أبرزها التقليد والمحافظة على المنافع المادية، وظلمات القلب الناشئة عن الشرك والمعاصي.

٢ - مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك الأمم والشعوب الظالمة بعد الإمهال لهم والإعذار.

٣ - مشروعية طلب العبر وتصيدها من آثار الهالكين.

٤ - العبرة بالبصيرة القلبية لا بالبصر فكم من أعمى هو أبصر للحقائق وطرق النجاة من ذي بصر حاد حديد. ومن هنا كان المفروض على العبد أن يحافظ على بصيرته أكثر من المحافظة على عينيه، وذلك بأن يتجنب مدمرات القلوب من الكذب والترهات والخرافات، والكبر والعجب والحب والبغض في غير الله.

وسعادتهم أو تكون لهم آذان يسمعون بها نداء النصح والخير الذي نوجهه إليهم بواسطة كتابنا ورسولنا، وما لهم من عيون مبصرة بدون قلوب واعية وآذان صاغية فإن ذلك غير نافع ﴿فَإِنَّهَا[١] لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ[٢]﴾. وهذا حاصل القول ألا فليسيروا لعلهم يكسبون عبرًا وعظات تحيي قلوبهم وسائر حواسهم المتبلدة.

---

(١) ﴿فَإِنَّهَا..﴾ أي: الحال أو القصة لا تعمي الأبصار: قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل لما نزلت: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ سأل ابن أم مكتوم النبي ﷺ قائلاً: أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى فنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الآية صريحة في أنّ العقل في القلب، ولا منافاة بين من يرى ذلك في المخ إذ ارتباط كبير بين المخ والقلب في حصول الوعي والإدراك للإنسان.

(٢) ذكر الصدور ظرفًا للقلوب للتأكيد إذ القلوب لا تكون إلاّ في الصدور فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ...﴾ وكقولهم: رأيت بعيني.

(٣) قيل: نزلت في النضر بن الحارث ورفقائه إذ كانوا يستعجلون العذاب ويطالبون رسول الله ﷺ بإنزاله تحديًا منهم وعنادًا، وفيهم نزل: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾، ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ...﴾ الآية.

من قومك بالعذاب الذي خوفتهم به وحذرتهم منه، ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ وقد وعدهم فهو واقع بهم لا بد وقد تم ذلك في بدر وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فلذا تعالى لا يستعجل وهم يستعجلون فيوم الله بألف سنة، وأيامهم بأربع وعشرين ساعة فإذا حدد تعالى لعذابهم يومًا معناه أن العذاب لا ينزل بهم إلا بعد ألف سنة، ونصف يوم بخمسمائة سنة، وربع يوم بمائتين وخمسين سنة وهكذا فلذا يستعجل الإنسان ويستبطىء، والله عز وجل ينجز وعده في الوقت الذي حدده فلا يستخفه استعجال المجرمين العذاب ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ من سورة العنكبوت هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٤٧).

(٤٨) وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي مدينة كبرى ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أي أمهلتها وزدت لها في أيام بقائها والحال أنها ظالمة بالشرك والمعاصي ثم بعد ذلك الإملاء والإمهال أخذتها ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي مصير كل شيء ومرده إليّ فلا إله غيري ولا رب سواي فلا معنى لاستعجال هؤلاء المشركين العذاب فإن هم عذبوا في الدنيا أو لم يعذبوا فإن مصيرهم إلى الله تعالى وسوف يجزيهم بما كانوا يكسبون الجزاء العادل في دار الشقاء والعذاب الأبدي.

(٤٩) وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ[(١)] إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فلست بإله ولا رب بيدي عذابكم إن عصيتموني وإنعامكم إن أطعتموني، وإنما أنا عبد مأمور بأن أنذر عصاة الرب بعذابه، وأبشر أهل طاعته برحمته.

(٥٠) وهو معنى الآية (٥٠)[(٢)] فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ولازمه أنهم تركوا الشرك والمعاصي لهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم عند ربهم وهو الجنة دار النعيم.

(٥١) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ[(٣)]﴾ أي عملوا جادين مسرعين في صرف الناس عن آيات الله حتى لا يؤمنوا بها ويعملوا بما فيها من هدي ونور معاجزين لله يظنون أنهم يعجزونه والله غالب على أمره ناصر دينه وأوليائه، أولئك البعداء في الشر والشرك أصحاب الجحيم الملازمون لها أبد الآبدين.

هداية الآيات:

١ - العجلة من طبع الإنسان ولكن استعجال الله ورسوله بالعذاب حمق وطيش وضلال وكفر.

٢ - ما عند الله في الملكوت الأعلى يختلف تمامًا عما في هذا الملكوت السلفي.

٣ - عاقبة الظلم وخيمة وفي الخبر الظلم يترك الديار بلاقع أي خرابًا خالية.

٤ - بيان مهمة الرسل وهي البلاغ مع الإنذار والتبشير ليس غير.

٥ - بيان مصير المؤمنين والكافرين يوم القيامة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٢ ـ ٥٧]

(٥٢) ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾: الرسول ذكر من بني آدم أوحي إليه بشرع وأمر بإبلاغه. والنبي مقرر لشرع من قبله. ﴿تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: أي قرأ في أمنيته، أي في قراءته. ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أي بعد إزالة ما ألقاه الشيطان في القراءة يُحكِمُ الله آياته أي يثبتها.

(٥٣) ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي اختبارًا للذين في قلوبهم مرض الشرك والشك. ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: هم المشركون.

(٥٤) ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾: أي تتطامن وتخشع له قلوبهم.

(٥٥) ﴿فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: أي في

---

(١) النداء لأهل مكة خاصة وللبشريّة عامة إذ هو ﷺ رسول الله إلى الناس كافة والنذير: المخوف عقوبة الشرك والشر والفساد.

(٢) أي: ظانين أنهم يعجزوننا فلم نقو عليهم ولم نقدر على أخذهم لأنهم مكذّبون بالبعث الآخر وما فيه من حساب وجزاء على الكسب في هذه الدنيا.

(٣) ومما يزيد تفسير هذه الآية وضوحًا قوله ﷺ: «**مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان فالنجاء النجاء فأطاعته طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثلي ومثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق**».

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

شك منه وريب من القرآن. ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: هو عذاب يوم بدر إذ كان يومًا عقيمًا لا خير فيه.

﴿٥٦﴾ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: أي جنات ذات نعيم لا يبلغ الوصف مداه.

﴿٥٧﴾ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: أي يهان فيه صاحبه فهو عذاب جثماني نفساني.

معنى الآيات:

بعد التسلية الأولى للنبي ﷺ التي تضمنها قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ..﴾ إلخ ذكر تعالى تسلية ثانية وهي أنه ﷺ كان يقرأ حول الكعبة في صلاته سورة النجم والمشركون حول الكعبة يسمعون فلما بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۞﴾ ألقى الشيطان في مسامع المشركين الكلمات التالية: «تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى» ففرح المشركون بما سمعوا ظنًا منهم أن النبي ﷺ قرأها **وأن الله أنزلها** فلما سجد في آخر السورة سجدوا معه إلا رجلاً[١] كبيرًا لم يقدر على السجود فأخذ حثية من تراب وسجد عليها وشاع أن محمدًا قد اصطلح مع قومه حتى رجع المهاجرون من الحبشة فكرب لذلك رسول الله وحزن فأنزل الله تعالى هذه الآية تسلية له فقال: ﴿٥٢﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾[٢] ذي رسالة يبلغها ولا نبيّ مقرر لرسالة نبي قبله ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي قرأ ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[٣] أي في قراءته ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ أي يزيل ويبطل ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[٤] من كلمات في قلوب الكافرين أوليائه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بعد إزالة ما قاله الشيطان فيثبتها فلا تقبل زيادة ولا نقصانًا، والله عليم بخلقه وأحوالهم وأعمالهم لا يخفى عليه شيء من ذلك حكيم في تدبيره وشرعه هذه سنته تعالى في رسله وأنبيائه. فلا تأس يا رسول الله ولا تحزن.

﴿٥٣﴾ ثم بين تعالى الحكمة في هذه السنة فقال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي من كلمات في قراءة النبي أو الرسول ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الشك والنفاق ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم المشركون ومعنى فتنة هنا محنة يزدادون بها

---

(١) هذا الرجل، روى البخاري أنه أمية بن خلف، وقيل: هو أبو أحيحة سعيد بن العاص وقيل: هو الوليد بن المغيرة. والله أعلم بأيهم كان.

(٢) في هذه الآية دليل على أن هناك فرقًا بين النبي والرسول لذكر الرسول في الآية ثم النبي: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾ والذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة: أن كل رسول نبي إذ لا يرسل حتى يوحى إليه وينبأ وليس كل نبي رسولاً إذ ينبئه الله تعالى بما شاء ولا يرسله، وجاء في حديث أبي ذر: «**إن عدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ وأن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي جمّ غفير**».

(٣) قال سليمان بن حرب: إنّ (في) هنا هي بمعنى عند أي: ألقى الشيطان عند قراءته، ألقى في قلوب المشركين. ول(في) بمعنى عند نظير هو قوله تعالى: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي: عندنا.

(٤) **ما روي من خبر في قصة الغرانيق كله ضعيف ولم يثبت فيها حديث صحيح قط**، والذي ثبت في الصحيح هو قراءة الرسول ﷺ لسورة النجم وسجوده وسجود المشركين معه والذي عصم منه ﷺ وهو المعصوم **أن ينطق بكلمة**: تلك الغرانيق العلا، إلخ.. وإنما نطق بها الشيطان وأسمعها المشركين للفتنة كما في التفسير المثبت فيه رأي ابن جرير إمام المفسّرين رحمه الله تعالى.

ضلالاً على ضلالهم وبُعدًا عن الحق فوق بعدهم إذ ما يلقي الشيطان في قلوب أوليائه إلا للفتنة أي زيادة في الكفر والضلال. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ هو إخبار منه تعالى عن حال المشركين بأنهم في خلاف الله ورسوله، بعيدون فيما يعتقدونه وما يعملونه وما يقولونه، وما يتصورونه مخالف تمام المخالفة لما يأمر تعالى به ويدعوهم إليه من الاعتقاد والقول والعمل والتصور والإدراك.

(٥٤) وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾.

هذا جزء العلة التي تضمنتها سنة الله في إلقاء الشيطان في قراءة الرسول أو النبي فالجزء الأول تضمنه قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

وهذا هو الجزء الثاني أي ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾(١) بالله وآياته وتدبيره ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي ذلك الإلقاء والنسخ وإحكام الآيات بعده ﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تطمئن وتسكن عنده وتخشع فيزدادون هدى. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ(٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن فعله مع أوليائه المؤمنين به المتقين له وأنه هاديهم في حياتهم وفي كل أحوالهم إلى صراط مستقيم يفضي بهم إلى رضاه وجنته، وذلك بحمايتهم من الشيطان وتوفيقهم وإعانتهم على طاعة الرحمن سبحانه وتعالى.

(٥٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾(٣) أي من القرآن هل هو كلام الله هل هو حق هل اتباعه نافع وتستمر هذه المرية والشك بأولئك القساة القلوب أصحاب الشقاق البعيد ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي فجأة وهي القيامة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾(٤) أي لا خير فيه لهم وهو يوم بدر وقد تم لهم ذلك وعندها زالت ريبتهم وعلموا أنه الحق حيث لا ينفع العلم.

(٥٦) وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ(٥) يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي يوم تأتي الساعة يتمحض الملك لله وحده فلا يملك معه أحد فهو الحاكم العدل الحق يحكم بين عباده بما ذكر في الآية وهو أن الذين آمنوا به وبرسوله وبما جاء به وعملوا الصالحات من فرائض ونوافل بعد تخليهم عن الشرك والمعاصي يدخلهم جنات النعيم، والذين كفروا به وبرسوله وبما جاء به، وكذبوا بآيات الله المتضمنة شرائعه وبيان طاعاته فلم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات وعملوا العكس وهو السيئات فأولئك البعداء في الحطة والخسة لهم عذاب مهين يكسر أنوفهم ذلة لهم ومهانة لأنفسهم.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله في إلقاء الشيطان في قراءة الرسول أو النبي للفتنة.

٢ - بيان أن الفتنة يهلك فيها مرضى القلوب وقساتها، ويخرج منها المؤمنون أكثر يقينًا وأعظم هدىً.

٣ - بيان حكم الله تعالى بين عباده يوم القيامة بإكرام أهل الإيمان والتقوى وإهانة أهل الشرك والمعاصي.

٤ - ظهور مصداق ما أخبر به تعالى عن مجرمي قريش فقد استمروا على ريبهم حتى هلكوا في بدر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٨ - ٦٢]

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾: أي هجروا ديار الكفر وذهبوا إلى دار الإيمان المدينة المنورة. ﴿فِى سَبِيلِ

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ جائز أن يكونوا من المؤمنين ومن أهل الكتاب.

(٢) ومثبتهم على الهداية.

(٣) ومن الدين ومن كل ما جاء به النبي ﷺ.

(٤) وعذاب يوم القيامة عذاب عظيم باعتبار أنه يوم لا ليلة له فهذا وجه العقم لأنّ العقيم هو الذي لا يخلّف ولدًا، ولما ذكر عذاب يوم القيامة تعيّن أن يكون هو يوم بدر ومعنى عقمه: أنه لا خير فيه للمشركين ولم يحصلوا منه على فائدة.

(٥) قالوا: الملك هو اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور، وقيل: في الآية إشارة إلى يوم بدر وهو بعيد ولا داعي إليه، ودلالة الآية تنفيه.

﴿اللهِ﴾: أي هجروا ديارهم لا لدنيا ولكن ليعبدوا الله وينصروا دينه وأولياءه. ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: أي في الجنة إذ أرواحهم في حواصل طير خضر ترعى في الجنة.

(٥٩) ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾: أي الجنة يوم القيامة.

(٦٠) ﴿ذَلِكَ﴾: أي الأمر ذلك المذكور فاذكروه ولا تنسوه. ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾: أي ظُلم بعد أن عاقب عدوه بمثل ما ظلم به.

(٦١) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾: أي يدخل جزءًا من الليل في النهار والعكس بحسب فصول السنة كما أنه يوميًا يدخل الليل في النهار إذا جاء النهار ويدخل النهار في الليل إذا جاء الليل.

(٦٢) ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾: أي الإله الحق الذي تجب عبادته دون سواه. ﴿مِن دُونِهِ﴾: أي من أصنام وأوثان وغيرها هو الباطل بعينه.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بيان حكم الله تعالى بين عباده فذكر تعالى ما حكم به لأهل الإيمان والعمل الصالح وما حكم به لأهل الكفر والتكذيب.

(٥٨) - (٥٩) وذكر هنا ما حكم به لأهل الهجرة والجهاد فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا[١] فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي خرجوا من ديارهم لأجل طاعة الله ونصرة دينه ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ من قِبلِ أعداء الله المشركين ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ حتف أنوفهم بدون قتل ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في الجنة إذ أرواحهم في حواصل طير خضر ترعى في الجنة وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش. ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ يوم القيامة ﴿مُّدْخَلًا[٢] يَرْضَوْنَهُ﴾ وهو الجنة. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي لخير من يرزق فما رزقهم به هو خير رزق وأطيبه وأوسعه. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ عليم بعباده وبأعمالهم الظاهرة والباطنة حليم يعفو ويصفح عن بعض زلات عباده المؤمنين فيغفرها ويسترها عليهم إذ لا يخلو العبد من ذنب إلا من عصمهم الله من أنبيائه ورسله.

(٦٠) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ[٣] وَمَنْ عَاقَبَ﴾ أي الأمر ذلك الذي بينت لكم، ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي ومن أخذ من ظالمه بقدر ما أخذ منه قصاصًا، ثم المعاقب ظلم بعد ذلك من عاقبه فإن المظلوم أولاً وآخرًا تعهد الله تعالى بنصره، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فيه إشارة إلى ترغيب المؤمن في العفو عن أخيه إذا ظلمه فإن العفو خير من المعاقبة وهذا كقوله تعالى[٤]: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۞﴾.

(٦١) وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۞﴾ أي أن القادر على إدخال الليل في النهار والنهار في الليل بحيث إذ جاء أحدهما غاب الآخر، وإذا قصر أحدهما طال الآخر والسميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم قادر على نصرة من بُغي عليه من أوليائه.

(٦٢) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ

---

(١) قيل: نزلت هذه الآية في عثمان بن مظعون وأبي سلمة بن عبدالأسد رضي الله عنهما إذ ماتا بالمدينة مريضين فقال بعض الناس: من مات في سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه. كأنه يعني عثمان وعبدالله فنزلت هذه الآية مسوّية بين المجاهد والمهاجر، ومن شواهد فضل المهاجر ما روي: أن فضالة بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ كان برودس أميرًا على الأرباع، فجيء بجنازتي رجلين أحدهما قتل والآخر متوفى فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حضرته فقال: أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت، اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا..﴾ الآية.

(٢) قرأ نافع: ﴿مَدخلاً﴾ بفتح الميم على أنه اسم مكان من دخل المجرّد، وقرأ غيره: ﴿مُّدْخَلًا﴾ بضم الميم: اسم مكان أيضًا من أدخله يدخله الرباعي مدخلاً.

(٣) ذلك: في محل رفع على الخبرية، والمبتدأ مقدّر كما في التفسير. أي: الأمر ذلك الذي قصصنا عليك. والآية نزلت في حادثة خاصة قاتل فيها المسلمون في الشهر الحرام فحزنوا لذلك، وكان قتالهم اضطراريًا لأنّ المشركين هم البادئون.

(٤) الآية من سورة الشورى.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

٣٤٠

﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي المعبود الحق المستحق للعبادة، وإن ما يدعون من دونه من أصنام وأوثان هو الباطل أي ذلك المذكور من قدرة الله وعلمه ونصرة أوليائه كان لأن الله هو الإله الحق وأن ما يعبدون من دونه من آلهة هو الباطل، وأن الله هو العلي على خلقه القاهر لهم المتكبر عليهم الكبير العظيم الذي ليس شيء أعظم منه.

هداية الآيات:

ز ١ - بيان فضل الهجرة في سبيل الله حتى إنها تعدل[١] الجهاد في سبيل الله.

٢ - جواز المعاقبة بشرط المماثلة، والعفو أولى من المعاقبة.

٣ - بيان مظاهر الربوبية من العلم والقدرة الموجبة لعبادة الله تعالى وحده وبطلان عبادة غيره.

٤ - إثبات صفات الله تعالى: العلم والحلم والمغفرة والسمع والبصر والعفو والعلو على الخلق والعظمة الموجبة لعبادته وترك عبادة من سواه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٣ - ٦٦]

﴿٦٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أي ألم تعلم.

﴿مُخْضَرَّةً﴾: أي بالعشب والكلأ والنبات.

﴿٦٤﴾ ﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: الغني عن كل ما سواه المحمود في أرضه وسمائه.

﴿٦٥﴾ ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي سهل لكم تملكه والتصرف فيه والانتفاع به.

﴿٦٦﴾ ﴿أَحْيَاكُمْ﴾: أي أوجدكم أحياء بعدما كنتم عدمًا.

﴿لَكَفُورٌ﴾: أي كثير الكفر والجحود لربه ونعمه عليه.

معنى الآيات:

﴿٦٣﴾ ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد بذكر مظاهر القدرة والعلم والحكمة قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾[٢] يا رسولنا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ[٣] مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي مطرًا فتصبح الأرض بعد نزول المطر عليها مخضرة بالعشب والنباتات والزروع، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ[٤]﴾ بعباده ﴿خَبِيرٌ﴾ بما يصلحهم ويضرهم وينفعهم.

﴿٦٤﴾ وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلقًا وملكًا وتصرفًا، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن خلقه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي المحمود في الأرض والسماء بجميل صنعه وعظيم إنعامه.

﴿٦٥﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ[٥] لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من

---

(١) والرباط: كالهجرة والجهاد، فقد روي عن سلمان الفارسي أنه مرّ برجال مرابطين على حصن ببلاد الروم. وطال حصارهم للحصن، وإقامتهم عليه فقال لهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات مرابطًا أجرى الله تعالى عليه مثل ذلك الأجر وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين**» واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ الآية.

(٢) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الخطاب صالح لكل متأهل للرؤية من ذوي العقول، والاستفهام للحض على الرؤية فهو كالأمر. والفاء للتفريع إذ يتفرّع عن نزول المطر صيرورة الأرض مخضرّة بالنبات.

(٣) هذا انتقال إلى التذكير بمظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته الموجبة لتوحيده وشكره بطاعته وطاعة رسوله ﷺ بعد الإيمان به حق الإيمان وتصديقه بكل ما جاء به ويدعو إليه.

(٤) لطيف في تدبيره للخلقة خبير في صنعه.. وهاتان الصفتان متجليتان في تدبيره تعالى للكون وصنعه فيه.

(٥) التسخير: معناه: التذليل للشيء حتى يصبح طوع المسخّر له وهو هنا بمعناه، ويعني: تسهيل الانتفاع فيما هو خارج عن قدرة الإنسان بإرسال الرياح ونزول الأمطار.

الدواب والبهائم على اختلافها ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ أي وسخر لكم الفلك أي السفن ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بإذنه وتسخيره، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ[١] أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي كيلا تقع على الأرض ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي لا تقع إلا إذا أذن لها في ذلك وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ من مظاهر رأفته ورحمته بهم تلك الرحمة المتجلية في كل جانب من جوانب حياتهم في حملهم في إرضاعهم في غذائهم في نومهم في يقظتهم في تحصيل أرزاقهم في عفوه عن زلاتهم في عدم تعجيل العقوبة لهم بعد استحقاقهم لها في إرسال الرسل في إنزال الكتب فسبحان الله والحمد لله ولا إله لا الله والله أكبر.

(٦٦) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بالإنشاء والإيجاد من العدم، ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ويبعثكم ليجزيكم بكسبكم كل هذه النعم يكفرها الإنسان فيترك ذكر ربه وشكره ويذكر غيره ويشكر سواه، فهذه المظاهر لقدرة الرب وعلمه وحكمته وتلك الآلاء والنعم الظاهرة والباطنة توجب الإيمان بالله وتحتم عبادته وتوحيده وذكر شكره، وتجعل عبادة غيره سُخفًا وضلالاً عقليًا لا يُقادر قدره ولا يُعرف مداه.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد بذكر مقتضياته من القدرة والنعمة.

٢ - إثبات صفات الله تعالى: اللطيف الخبير الغني الحميد الرؤوف الرحيم المحيي المميت.

٣ - بيان إنعام الله وإفضاله على خلقه.

٤ - مظاهر قدرة الله تعالى في إمساك السماء أن تقع على الأرض، وفي الإحياء والإماتة والبعث.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٧ - ٧٢]

(٦٧) ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: أي مكانًا يتعبدون فيه بالذبائح أو غيرها. ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾: أي لا ينبغي أن ينازعوك. ﴿هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي دين مستقيم هو الإسلام دين الله الحق.

(٧٠) ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾: هو اللوح المحفوظ.

(٧١) ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: أي حجة وبرهانًا.

(٧٢) ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾: أي الإنكار الدال عليه عبوس الوجه وتقطيبه. ﴿يَسْطُونَ﴾: يبطشون. ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾: هو النار.

معنى الآيات:

(٦٧) ما زال السياق الكريم في بيان هداية الله تعالى لرسوله والمؤمنين ودعوة المشركين إلى ذلك قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا[٢] مَنسَكًا﴾ أي ولكل أمة من الأمم التي مضت والحاضرة أيضًا جعلنا لهم منسكًا أي مكانًا يتنسكون فيه ويتعبدون ﴿هُمْ[٣] نَاسِكُوهُ﴾ أي الآن، فلا تلتفت إلى ما يقوله هؤلاء المشركون، ولا تقبل منهم منازعة في أمر واضح لا يقبل الجدل، وذلك أن المشركين انتقدوا ذبائح الهدي والضحايا أيام التشريق، واعترضوا على تحريم الميتة وقالوا كيف تأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما ذبح الله بيمينه وقوله تعالى لرسوله: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي أعرض عن هذا الجدل الفارغ وادع إلى توحيد ربك وعبادته ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي طريق قاصد هاد إلى الإسعاد والإكمال وهو الإسلام.

(٦٨) وقوله: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾[٤] في بيان بعض المناسك والنسك فاتركهم فإنهم جهلة لا يعلمون وقل: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وسيجزيكم بذلك حسنه وسيئه.

(٦٩) ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي

---

(١) وجائز أن يراد بالسماء: ماؤها أي: المطر، كقول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

(٢) سبق مثل هذا النزاع بين المؤمنين والمشركين في التذكية عند قول الله تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ معناه: اترك منازعتهم وأعرض عنهم ولا تلتفت إليهم.

(٣) سبق مثل هذه الآية في أوّل السورة وهو دال على أنه لا إلّه إلا الله، إذ وحدة التشريع تدل على وحدة المشرع عقلاً ولا تنتقض.

(٤) في الآية الكريمة أسلوب المتاركة إذا لم تنفع المجادلة لعدم استعداد الخصم لقبول الحق أو تعذر معرفته له.

يقضي بينكم أيها المشركون فيما كنتم فيه تختلفون وعندها تعرفون المحق من المبطل منا وذلك يوم القيامة.

﴿٧٠﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ[1] مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بلى إن الله يعلم كل ما في السماوات والأرض من جليل ودقيق وجليّ وخفي وكيف لا وهو اللطيف الخبير. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ فكيف يجهل أو ينسى، و ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي كتبه وحفظه في كتاب المقادير ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2] أي هين سهل، لأنه تعالى على كل شيء قدير. هذا ما دلت عليه الآيات الأربع (٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠).

﴿٧١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي ويعبد أولئك المشركون المجادلون في بعض المناسك أصنامًا لم ينزل الله تعالى في جواز عبادتها حُجَّة ولا برهانًا بل ما هو إلا إفك افتروه، ليس لهم به علم ولا لآبائهم، وسوف يحاسبون على هذا الإفك ويجزون به في ساعة لا يجدون فيها وليًا ولا نصيرًا إذ هم ظالمون بشركهم بالله آلهة مفتراة ويوم القيامة ما للظالمين من نصير.

﴿٧٢﴾ هذا ما دلت عليه الآية (٧١) وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يخبر تعالى عن أولئك المشركين المجادلين بالباطل أنهم إذا قرأ عليهم أحد المؤمنين آيات الله وهي بينات في مدلولها تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴿تَعْرِفُ﴾ يا رسولنا ﴿فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾[3] أي تتغيّر وجوههم ويظهر عليها الإنكار على التالي عليهم الآيات ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾[4] أي يبطشون ويقعون بمن يتلون عليهم آيات الله لهدايتهم وصلاحهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم[5] بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ أي قل لهم يا رسولنا أفأنبكم بشر من ذلك الذي تكرهون وهو من يتلون عليكم آيات الله أنه النار التي وعدها الله الذين كفروا أي من أمثالكم، وبئس المصير تصيرون إليه النار إن لم تتوبوا من شرككم وكفركم.

هداية الآيات:

١ - تقرير حقيقة وهي أن كل أمة من الأمم بعث الله فيها رسولاً وشرع لها عبادات تعبده بها.

٢ - استحسان ترك الجدال في البدهيات والإعراض عن ما فيها.

٣ - تقرير علم الله تعالى بكل خفي وجلي وصغير وكبير في السماوات والأرض.

٤ - تقرير عقيدة القضاء والقدر بتقرير الكتاب الحاوي لذلك وهو اللوح المحفوظ.

٥ - بيان شدة بغض المشركين للموحدين إذا دعوهم إلى التوحيد وذكروهم بالآيات.

٦ - مشروعية إغاظة الظالم بما يغيظه من القول الحق.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٣ ـ ٧٦]

﴿٧٣﴾ ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾: أي جعل مثل هو ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ...﴾ إلخ. ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾: أي لن يستطيعوا خلق ذبابة وهي أحقر الحيوانات تتخلق من العفونات. ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا﴾: أي على خلقه فإنهم لا يقدرون، فكيف إذا لم يجتمعوا فهم أعجز. ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾: أي لا يستردوه منه وذلك لعجزهم. ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾: أي العابد والمعبود.

---

(١) الاستفهام تقريري بالنسبة للرسول ﷺ والجملة تحمل التسلية له ﷺ والتخفيف مما يلاقي من جدال المشركين وعنادهم.

(٢) أي: الفصل بين المختلفين ككتابة كل كائن في كتاب المقادير، كل ذلك على الله يسير إذ هو تعالى لا يعجزه شيء، ويقول للشيء كن فيكون.

(٣) أي: الغضب والعبوس.

(٤) السطو: شدّة البطش يقال: سطا به يسطو: إذا بطش، وسواء كان ذلك بسب وشتم أو ضرب، وسطا عليه: إذا علاه ضربًا وشتمًا.

(٥) ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾: الهمزة داخلة على محذوف أي: أتكرهون سماع القرآن ومن يقرأ؟ فأنا أنبّئكم بشر من ذلك الذي تأذّيتم به وكرهتموه وقوله: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا كأنهم قالوا: نبّئنا فقال: النار.. إلخ..

الجزءُ السابع عشر — سُورَةُ الحج

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

ترتيبها ٢٣ — سُورَةُ المؤمنون — آياتها ١١٨

٣٤١

(٧٤) ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾: أي ما عظم المشركون الله تعالى حق قدره أي عظمته.

(٧٥) ﴿يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾: أي يجتبي ويختار كجبريل. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: كمحمد ﷺ.

معنى الآيات:

(٧٣) ما زال السياق الكريم في الدعوة إلى التوحيد والتنديد بالشرك والمشركين يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ[1] فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي يا أيها المشركون بالله آلهة أصنامًا ضرب لآلهتكم في حقارتها وضعفها وقلة نفعها مثل رائع فاستمعوا له. وبينه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من أوثان وأصنام ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا[2]﴾ وهو أحقر حيوان وأخبثه أي اجتمعوا واتحدوا متعاونين على خلقه، أو لم يجتمعوا له فإنهم لا يقدرون على خلقه وشيء آخر وهو إن يسلب الذباب الحقير شيئًا من طيب آلهتكم التي تضمّخونها به، لا تستطيع آلهتكم أن تسترده منه فما أضعفها إذًا وما أحقرها إذا كان الذباب أقدر منها وأعز وأمنع. وقوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[3] أي ضعف الصنم والذباب معًا كما ضعف العابد المشرك والمعبود الصنم.

(٧٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قوي قادر على كل شيء عزيز غالب لا يمانع في أمر يريده فكيف ساغ للمشركين أن يؤلهوا غيره ويعبدونه معه ويجعلونه له مثلاً.

(٧٥) هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (٧٣) والثانية (٧٤) وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ[4] يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ هذا رد على المشركين عندما قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وقالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ فأخبر تعالى أنه يصطفي أي يختار من الملائكة رسلاً كما اختار جبرائيل وميكائيل، ومن الناس كما اختار نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا ﷺ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾[5] لأقوال عباده طيبها وخبيثها ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمالهم صالحها وفاسدها وعلمه بخلقه وبصره بأحوالهم وحاجاتهم اقتضى أن يصطفي منهم رسلاً.

(٧٦) وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي ما بين أيدي رسله من الملائكة ومن الناس وما خلفهم ماضيًا ومستقبلاً إذ علمه أحاط بكل شيء فلذا حق له أن يختار لرسالاته من يشاء فكيف يصح الاعتراض عليه لولا سفه المشركين وجهالاتهم وقوله

---

(١) ضرب المثل: هو ذكره وبيانه، واستعير الضرب للقول والذكر تشبيهًا بوضع الشيء بشدّة، وهو تعبير شائع في اللغة العربية، والمثل هنا تشبيه تمثيلي، إذ هو تشبيه أصنامهم في عجزها وحقارتها بالذباب في عجزه وحقارته، وضمنه الإنكار الشديد عليهم في تشبيه أصنامهم بالله عز وجل إذ عبدوها بعبادته وألّهوها تأليهه عز وجل.

(٢) الذباب: اسم واحد للذكر والأنثى والجمع، والقليل: أذبة والأكثر: ذبان والواحدة: ذبابة، ولا يقال: ذبّانة بالتشديد وكسر الذال، والمِذَبّة: آلة لذب الذّبان. وذباب السيف: طرفه الذي يضرب به.

(٣) قيل: الطالب: الآلهة، والمطلوب: الذباب، والعكس صحيح، وجائز أن يكون الطالب: عابد الصنم، والمطلوب: الصنم.

(٤) الجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا، والإخبار بجملة يصطفي بدل نصطفي: لإفادة الاختصاص أي: هنا الاصطفاء خاص به تعالى لعظيم علمه وحكمته.

(٥) الجملة تعليلية، وجملة: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، مقررة لها وتفيد الدعوة إلى مراقبة الله عز وجل.

تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ هذا تقرير لما تضمنته الجملة السابقة من أن لله الحق المطلق في إرسال الرسل من الملائكة أو من الناس ولا اعتراض عليه في ذلك إذ مرد الأمور كلها إليه بدءًا ونهاية إذ هو ربّ كل شيء ومليكه لا إله غيره ولا رب سواه.

هداية الآيات:

١ - استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان.

٢ - التنديد بالشرك وبطلانه وبيان سفه المشركين.

٣ - ما قدر الله حق قدره من سوى به أحقر مخلوقاته وجعل له من عباده جزءًا وشبهًا ومثلًا.

٤ - إثبات الرسالات[(١)] للملائكة وللناس معًا.

٥ - ذكر صفات الجلال والكمال لله تعالى المقتضية لربوبيته والموجبة لألوهيته وهي القوة والعزة، والسمع والبصر لكل شيء وبكل شيء والعلم بكل شيء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٧، ٧٨]

(٧٧) ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾: أي أطيعوه في أمره ونهيه في تعظيم هو غاية التعظيم وذل له هو غاية الذل.

﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾: أي من كل ما انتدبكم الله لفعله ورغبكم فيه من صالح الأقوال والأعمال. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي كي تفوزوا بالنجاة من النار ودخول الجنة.

(٧٨) ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾: أي الجهاد الحق الذي شرعه الله تعالى وأمر به وهو جهاد الكفار والشيطان والنفس والهوى. ﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾: أي اختاركم لحمل دعوة الله إلى الناس كافة.

﴿مِنْ حَرَجٍ﴾: أي من ضيق وتكليف لا يطاق. ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾: أي الزموا ملة أبيكم إبراهيم وهي عبادة الله وحده لا شريك له. ﴿وَفِي هَٰذَا﴾: أي القرآن. ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾: أي تمسكوا بدينه وثقوا في نصرته وحسن مثوبته. ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾: أي هو تعالى نعم النصير أي الناصر لكم.

معنى الآيتين:

(٧٧) بعد تقرير العقيدة بأقسامها الثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث والجزاء، نادى الربّ تبارك وتعالى المسلمين بعنوان الإيمان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يا من آمنتم بالله ربًا وبمحمد رسولاً وبالإسلام دينًا، ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾[(٢)] أمرهم بإقام الصلاة ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي أطيعوه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه معظمين له غاية التعظيم خاشعين له غاية الخشوع ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ من كل ما انتدبكم الله إليه ورغبكم فيه من أنواع البر وضروب العبادات ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لتتأهلوا بذلك للفلاح الذي هو الفوز بالجنة بعد النجاة من النار.

(٧٨) وقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ[(٣)] فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ[(٤)]﴾ أي أمرهم أيضًا بأمر هام وهو جهاد الكفار حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ومعنى حق جهاده أي كما ينبغي الجهاد من استفراغ الجهد والطاقة كلها نفسًا ومالاً ودعوة وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ هذه مِنّة ذكَر بها تعالى المؤمنين حتى يشكروا الله بفعل ما أمرهم به أي لم يضيق عليكم فيما أمركم به بل وسع فجعل التوبة لكل ذنب، وجعل الكفارة لبعض الذنوب، ورخص للمسافر والمريض في قصر الصلاة والصيام، ولمن لم يجد الماء أو عجز عن استعماله في التيمم.

وقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[(٥)] أي الزموا ملة أبيكم وقوله: ﴿هُوَ

---

(١) في العبارة بعض الخفاء، والمقصود هو أن الله يصطفي من الملائكة مثل جبريل وميكائيل فيرسلهم إلى من يصطفي من الناس وهم الأنبياء، وفي الآية رد على المعترضين على الوحي الإلهي لرسوله محمد ﷺ.

(٢) خصّ الركوع والسجود من بين أركان الصلاة لأنهما أشرف أجزائها وأدل على خضوع العبد لربّه وذلته له.

(٣) هذا من ذكر العام بعد الخاص، والعبادة: الطاعة ولكن مع غاية التعظيم والحبّ للمطاع.

(٤) الجهاد هنا: قتال الكفار المعتدين والمانعين لدعوة الله وصد الناس عنها، والعلّة فيه إكمال البشر وإسعادهم بالإسلام لله تعالى و﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾: تعليلية أي: لأجل الله أي: لإعلاء كلمة الله تعالى، وفي الحديث الصحيح: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**».

(٥) هذا كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ فإنه مخصوص بالاستطاعة وقوله بعد: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ مخصصٌ له

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)

٣٤٢

سَمَّاكُمُ[(١)] الْمُسْلِمِينَ﴾ أي الله جل جلاله هو الذي سماهم المسلمين في الكتب السابقة وفي القرآن وهو معنى قوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ أي القرآن وقوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي اجتباكم أيها المؤمنون لدينه الإسلامي وسماكم المسلمين ليكون الرسول شهيدًا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم وتكونوا أنتم شهداء حينئذ على الرسل أجمعين أنهم قد بلغوا أممهم ما أرسلوا به إليهم وعليه فاشكروا هذا الإنعام والإكرام لله تعالى ﴿فَأَقِيمُوا[(٢)] الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي تمسكوا بشرعه عقيدة وعبادة وخلقًا وأدبًا وقضاءً وحكمًا، وقوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي سيدكم ومالك أمركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾ هو سبحانه وتعالى ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي الناصر لكم ما دمتم أولياءه تعيشون على الإيمان والتقوى.

هداية الآيتين:

١ - فضيلة الصلاة وشرف العبادة وفعل الخير.

٢ - مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٣ - فضل الجهاد في سبيل الله وهو جهاد الكفار، وأن لا تأخذ المؤمن في الله لومة لائم.

٤ - فضيلة[(٣)] هذه الأمة المسلمة حيث أعطيت ثلاثًا لم يعطها إلا نبي كان يقال للنبي عليه السلام اذهب فليس عليك حرج فقال الله لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وكان يقال للنبي عليه السلام أنت شهيد على قومك. وقال الله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وكان يقال للنبي سل تعطه وقال الله لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ دل على هذا قوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

٥ - فرضية الصلاة، والزكاة، والتمسك بالشريعة.

❀ ❀ ❀

الجزء الثامن عشر

سورة المؤمنون
مكية
وآياتها مائة وثماني عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ١١]

(١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾: أي فاز قطعًا بالنجاة من النار ودخول الجنة المؤمنون.

(٢) ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: أي ساكنون متطامنون لا يتلفتون بعين ولا قلب وهم بين يدي ربهم.

(٣) ﴿عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: اللغو كل ما لا يرضى فيه الله من قول

= أيضًا، ويدخل في الأمر بالجهاد هنا: جهاد النفس والشيطان، وكلمة الحق عند من ينكرها لحديث: «**كلمة عدل عند سلطان جائر**».

(١) الملّة: الدين والشريعة، ونصب (ملة): بالزموا ونحوه، والخطاب للعرب إذ إبراهيم أبو العرب المستعربة قاطبة، وهو أيضًا أبو أهل الكتاب وأب كل موحد أبوّة تشريف واتباع وتعظيم.

(٢) قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ بعد ذكر المنن إشارة صريحة إلى وجوب شكر الله تعالى على نعمه، وما شكر الله تعالى من لم يقم الصلاة ويؤت الزكاة كما أن من لم يتمسك بدين الله كافر غير شاكر.

(٣) ذكر هذا ابن جرير الطبري رواية عن معمر وقتادة.

وعمل وتفكير، معرضون أي منصرفون عنه.
(٤) ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾: أي مؤدون.
(٥) ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾: أي صائنون لها عن النظر إليها لا يكشفونها وعن إتيان الفاحشة.
(٦) ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: من الجواري والسرَّاري إن وجدن.
(٧) ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾: أي طلب ما دون زوجته وجاريته المملوكة شرعيًا. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾: أي الظالمون المعتدون على حدود الشرع.
(٨) ﴿رَٰعُونَ﴾: أي حافظون لأماناتهم وعهودهم.
(١١) ﴿ٱلْفِرْدَوْسَ﴾[1]: أعلى درجة في الجنة في أعلى جنة.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝﴾[2] يخبر تعالى وهو الصادق الوعد بفلاح المؤمنين وقد بين تعالى في آية آل عمران معنى الفلاح وهو الفوز بالنجاة من النار ودخول الجنة ووصف هؤلاء المؤمنين المفلحين بصفات من جمعها متصفًا بها فقد ثبت له الفلاح وأصبح من الوارثين الذين يرثون الفردوس يخلدون فيها وتلك الصفات هي:

١ ـ الخشوع في الصلاة بأن يسكن فيها المصلي فلا يلتفت فيها برأسه ولا بطرفه ولا بقلبه مع رقة قلب ودموع عين وهذه أكمل حالات الخشوع في الصلاة، ودونها أن يطمئن ولا يتلفت برأسه ولا بعينه ولا بقلبه في أكثرها.
(٢) هذه الصفة تضمنها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾[3].

٢ ـ إعراضهم عن اللغو وهو كل قول وعمل وفكر لم يكن فيه لله تعالى إذن به ولا رضى فيه ومعنى إعراضهم عنه: انصرافهم عنه وعدم التفاتهم إليه، وقد تضمن هذه الصفة قوله تعالى:
(٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝﴾.

٣ ـ فعلهم الزكاة أي أداؤهم لفريضة الزكاة الواجبة من أموالهم الناطقة كالمواشي والصامتة كالنقدين والحبوب والثمار، وفعلهم لكل ما يزكي النفس من الصالحات وقد تضمن هذه الصفة قوله تعالى:
(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝﴾.

٤ ـ حفظ فروجهم من كشفها ومن وطء غير الزوج أو الجارية المملوكة بوجه شرعي وقد تضمن هذه الصفة قوله تعالى:
(٥) ـ (٦) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾ في إتيان أزواجهم وما ملكت أيمانهم، ولكن اللوم والعقوبة على من طلب هذا المطلب من غير زوجه وجاريته.
(٧) ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي الظالمون المعتدون حيث تجاوزوا ما أحل الله لهم إلى ما حرم عليهم.

٥ ـ مراعاة الأمانات والعهود بمعنى محافظتهم على ما ائتمنوا عليه من قول أو عمل ومن ذلك سائر التكاليف الشرعية حتى الغسل من الجنابة فإنه من الأمانة وعلى عهودهم وسائر عقودهم الخاصة والعامة فلا خيانة ولا نكث ولا خُلْف وقد تضمن هذا قوله تعالى:
(٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝﴾ أي حافظون.

٦ ـ المحافظة على الصلوات الخمس بأدائها في أوقاتها المحددة لها فلا يقدمونها ولا يؤخرونها مع المحافظة على شروطها من طهارة الخبث وطهارة الحدث وإتمام ركوعها وسجودها واستكمال أكثر سننها وآدابها وقد تضمن هذه الصفة قوله تعالى:
(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾.

فهذه ست صفات إجمالاً وسبع صفات تفصيلاً فمن اتصف بها كمل

---

(١) أخرج مسلم أن النبي ﷺ قال: **«فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة»**.

(٢) روى أحمد والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب قوله: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي نسمع عند وجهه كدوي النحل فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: **«اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا»** ثم قال: **«لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١)﴾»** حتى ختم العشر.

(٣) كان السلف الصالح إذا قام أحدهم في صلاته يهاب الرحمٰن أن يمدّ بصره إلى شيء وأن يحدث نفسه بشيء من الدنيا، وأبصر النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: **«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»** والجمهور على أن الخشوع في الصلاة أحد فرائضها.

إيمانه وصدق عليه اسم المؤمن وكان من المفلحين الوارثين للفردوس الأعلى جعلنا الله تعالى منهم.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب الخشوع في الصلاة.

٢ ـ تحريم نكاح المتعة لأن المتمتع بها ليست زوجة لأنها لا ترث ولا تورث بخلاف الزوجة فإنها لها الربع والثمن، ولزوجها النصف والربع، لأن نكاح المتعة هو النكاح إلى أجل معين قد يكون شهرًا أو أكثر أو أقل.

٣ ـ تحريم العادة السريّة وهي نكاح اليد وسحاق المرأة لأن ذلك ليس بنكاح زوجة ولا جارية مملوكة.

٤ ـ وجوب أداء الزكاة ووجوب حفظ الأمانات ووجوب الوفاء بالعهود ووجوب المحافظة على الصلوات.

٥ ـ تقرير حكم التوارث بين أهل الجنة وأهل النار فأهل الجنة يرثون منازل أهل النار وأهل النار يرثون منازل أهل الجنة اللهم اجعلنا من الوارثين الذين يرثون الفردوس.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ ـ ١٦]

(١٢) ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾: السلالة ما يستل من الشيء والمراد بها هنا ما استل من الطين لخلق آدم.

(١٣) ﴿نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾: النطفة قطرة الماء أي المني الذي يفرزه الفحل، والقرار المكين الرحم المصون.

(١٤) ﴿ٱلْعَلَقَةَ﴾: الدم المتجمد الذي يعلق بالإصبع لو حاول أحد أن يرفعه بإصبعه كمح البيض.

﴿ٱلْمُضْغَةَ﴾: قطعة لحم قدر ما يمضغ الآكل. ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾: أي غير تلك المضغة إذ بعد نفخ الروح فيها صارت إنسانًا. ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: أي الصانعين فالله يصنع والناس يصنعون والله أحسن الصانعين.

معنى الآيات:

(١٢) يخبر تعالى عن خلقه الإنسان آدم وذريته وفي ذلك تتجلى مظاهر قدرته وعلمه وحكمته والتي أوجبت عبادته وطاعته ومحبته وتعظيمه وتقديره فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾[1] يعني آدم عليه السلام ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ أي من خلاصة طين جمعه فأصبح كالحمإ المسنون فاستل منه خلاصته ومنها خلق آدم ونفخ فيه من روحه فكان بشرًا سويًا ولله الحمد والمنة.

(١٣) قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ أي ثم جعلنا الإنسان الذي هو ولد آدم نطفة من صُلْبِ آدم ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هو رحم حواء.

(١٤) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾ المنحدرة من صلب آدم ﴿عَلَقَةً﴾[2] أي قطعة دم جامدة تعلق بالإصبع لو حاول الإنسان أن يرفعها بإصبعه، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وهي قطعة لحم قدر ما يمضغ الآكل، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي إنسانًا آخر غير آدم الأب، وهكذا خلق الله عز وجل آدم وذريته، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[3]. وقد يصدق هذا على كون الإنسان هو خلاصة عناصر شتى استحالت إلى نطفة الفحل ثم

---

(١٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ فهي من عطف جملة ابتدائية على مثلها: وهي كعطف قصة على أخرى، وهذا شروع في الاستدلال على التوحيد والبعث والجزاء بمظاهر القدرة والعلم والحكمة، وهي مقتضية لعقيدة كل من التوحيد والبعث الآخر حيث أنكرهما وكذّب بهما المشركون.

(١) جائز أن يكون المراد بالإنسان آدم، وأن يكون أحد ذريته، إذ السلالة: الشيء المستل أي: المنتزع من غيره فالطينة مستلة من مادة الطين. والمنيّ مستل كذلك من مادة ما يفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يصير دمًا، وهذه السلالة مخرجة من الطين لأنها من الأغذية، والأغذية أصلها من الأرض وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣)﴾ هذا طور آخر للخلق وهو طور اختلاط السلالتين في الرحم، وسميت النطفة نطفة: لأنها تنطف أي: تقطر في الرحم في قناة معروفة وهي القرار المكين.

(٢) وقد أثبت علم الأجنة والتشريح أن النطفة في طورها الثاني تعلق بجدار الرحم طيلة طورها الثاني فهي بمعنى عالقة ولا منافاة بين كونها علقة وعالقة.

(٣) في الحديث الصحيح: **«إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل**

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

استحالت إلى علقة فمضغة فنفخ فيها الروح فصارت إنسانًا آخر بعد أن كانت جمادًا لا روح فيها وقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فأثنى الله تعالى على نفسه بما هو أهله أي تعاظم أحسن الصانعين، إذ لا خالق إلا هو ويطلق لفظ الخلق على الصناعة فحسن التعبير بلفظ أحسن الخالقين.

﴿١٥﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ أي بعد خلقنا لكم تعيشون المدة التي حددناها لكم ثم تموتون.

﴿١٦﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أحياء للحساب والجزاء لتحيوا حياة أبدية لا يعقبها موت ولا فناء ولا بلاء.

هداية الآيات:

١ - بيان مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته.

٢ - بيان خلق الإنسان والأطوار التي يمر بها.

٣ - بيان مآل الإنسان بعد خلقه.

٤ - تقرير عقيدة البعث والجزاء التي أنكرها الملاحدة والمشركون.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ ـ ٢٢]

﴿١٧﴾ ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾: أي سبع سموات كل سماء يقال لها طريقة لأن بعضها مطروق فوق بعض.

﴿١٨﴾ ﴿مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾: أي بمقدار معين لا يزيد ولا ينقص.

﴿٢٠﴾ ﴿مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾: جبل يقال له جبل طور سيناء. ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾: أي تنبت بثمر فيه الدهن وهو الزيت. ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾: أي يغمس الآكل فيه اللقمة ويأكلها.

﴿٢١﴾ ﴿فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾: الأنعام الإبل والبقر والغنم والعبرة فيها تحصل لمن تأمل خلقها ومنافعها. ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾: أي من اللبن. ﴿مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾: كالوبر والصوف واللبن والركوب. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: أي من لحومها.

﴿٢٢﴾ ﴿تُحْمَلُونَ﴾: أي تركبون الإبل في البر وتركبون السفن في البحر.

معنى الآيات:

﴿١٧﴾ ما زال السياق في ذكر نعمه[(١)] تعالى على الإنسان لعل هذا الإنسان يذكر فيشكر فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ[(٢)]﴾ أي سموات سماء فوق سماء أي طريقة فوق طريقة وطبقًا فوق طبق وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي ولم نكن غافلين عن خلقنا وبذلك انتظم الكون والحياة، وإلا لخرب كل شيء وفسد.

﴿١٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ هو ماء المطر أي بكميات على قدر الحاجة.

﴿١٨﴾ ـ ﴿١٩﴾ وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى

= ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح..» الحديث. فإذا نفخ فيه الروح تهيأ للحياة والنماء وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ وروي أن يهود يزعمون أن العزل هو الموؤودة الصغرى، وأن عليًا رد هذا وقال: لا تكون موؤودة حتى تمر عليها التارات السبع أي: الأطوار التي في هذه الآية.

(١) وفي ذكر أدلة التوحيد، إذ تقدم الاستدلال على التوحيد بخلق الإنسان وهذا استدلال بخلق العدالة العلوية.

(٢) الطرائق: جمع طريقة، وهي اسم للطريق تذكر وتؤنث، فهل المراد بها هنا طرق الملائكة أو طرق سير الكواكب وهو سمتها وما تجري فيه أو هي السبع السماوات؟ ومعنى طرائق: أن بعضها فوق بعض من قولهم: طارق بين ثوبين جعل أحدهما فوق الثاني، ويكون المعنى طباقًا، وهذا هو الراجح. والله أعلم.

﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[(١)] ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ﴾ أي أوجدنا لكم به بساتين من نخيل وأعناب ﴿لَّكُمۡ فِيهَا﴾ أي في تلك البساتين ﴿فَوَٰكِهُ﴾[(٢)] ﴿كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي ومن تلك الفواكه تأكلون وذكر النخيل والعنب دون غيرهما لوجودهما بين العرب فهم يعرفونهما أكثر من غيرهما فالنخيل بالمدينة والعنب بالطائف.

(٢٠) وقوله: ﴿وَشَجَرَةٗ﴾[(٣)] ﴿تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ أي وأنبت لكم به شجرة الزيتون وهي ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾[(٤)] ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ فبزيتها يدهن ويؤتدم فتصبغ اللقمة به وتؤكل.

(٢١) وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ فتأملوها في خلقها وحياتها ومنافعها تعبرون بها إلى الإيمان والتوحيد والطاعة. وقوله: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾[(٥)] ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من ألبان تخرج من بين فرث ودم، وقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ كصوفها ووبرها ولبنها وأكل لحومها.

(٢٢) وقوله: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ وعلى بعضها كالإبل تحملون في البر وعلى السفن في البحر. أفلا تشكرون لله هذه النعم فتذكروه وتشكروه أليست هذه النعم موجبة لشكر المنعم بها فيُعبد ويوحد في عبادته؟.

هداية الآيات:

١ - بيان قدرة الله تعالى وعظمته في خلق السموات طرائق وعدم غفلته عن سائر خلقه فسار كل شيء لما خلق له فثبت الكون وانتظمت الحياة.

٢ - بيان إفضال الله تعالى في إنزال الماء بقدر وإسكانه في الأرض وعدم إذهابه مما يوجب الشكر لله تعالى على عباده.

٣ - بيان منافع الزيت حيث[(٦)] هو للدهن والائتدام والاستصباح.

٤ - فضل الله على العباد في خلق الأنعام والسفن للانتفاع بالأنعام في جوانب كثيرة منها، وفي السفن للركوب عليها وحمل السلع والبضائع من إقليم إلى إقليم.

٥ - وجوب شكر الله تعالى على إنعامه وذلك بالإيمان به وعبادته وتوحيده فيها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣ ـ ٢٦]

(٢٣) ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي وحدوه بالعبادة إذ ليس لكم من إله غيره.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أي أتعبدون معه غيره فلا تخافون غضبه وعقابه.

(٢٤) ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ﴾: أي أعيان البلاد وكبراء القوم. ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾: أي ما نوح إلا بشر مثلكم فكيف تطيعونه بقبول ما يدعوكم إليه. ﴿أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾: أي يسودكم ويصبح آمرًا ناهيًا بينكم.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾: أي لو شاء الله إرسال رسول لأنزل ملائكة رسلاً.

(٢٥) ﴿رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾: أي مصاب بمس من جنون. ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾: أي فلا تسمعوا له ولا تطيعوه وانتظروا به هلاكه أو شفاءه.

معنى الآيات:

(٢٣) هذا السياق بداية عدة قصص ذكرت على إثر قصة بدء خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾[(٧)] أي قبلك يا رسولنا فكذبوه. كما كذبك

---

(١) ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ منه ما هو ظاهر: كماء الأودية، والأنهار، ومنه ما هو باطن: وهو المياه الجوفية، وإنّ الله تعالى على ذهابه من ظاهر الأرض كباطنها قدير، ويومها تهلك البشرية، وهذه الآية كقوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ (٣٠)﴾.

(٢) جمع فاكهة وهي: ما يؤكل تفكّهًا بآكله أي: تلذذًا بطعمه من غير قصد القوت، وما يؤكل لأجل الطعام يقال له: طعام ولا يقال له فاكهة.

(٣) ﴿وَشَجَرَةٗ﴾: معطوفة على جنات أي: وأخرجنا لكم به شجرة.

(٤) الباء في: ﴿بِٱلدُّهۡنِ﴾ للمصاحبة نحو: خرج زيد بسلامة أي: مصحوبًا بسلامة.

(٥) قريء: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ بضم النون من أسقاه، وبفتحها من سقاه كذا.

(٦) في الآية إشارة إلى أن شجر الزيتون أول ما وجد على الأرض، وُجد بطور سيناء ثم تناقله الناس من إقليم إلى آخر، فقوله: ﴿تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ إعلام بأول منبت لها.

(٧) فوائد سرد القصص كثيرة منها: تسلية الرسول ﷺ وحمله على الصبر مما يلقى من قومه، ومنها: العظة والاعتبار بما جرى من

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾

٣٤٤

قومك وإليك قصته إذ قال يا قوم اعبدوا الله أي وحدوه في العبادة، ولا تعبدوا معه غيره ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[1] أي إذ ليس لكم من إله غيره يستحق عبادتكم. وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أتعبدون معه غيره أفلا تخافون غضبه عليكم ثم عقابه لكم؟.

﴿٢٤﴾ فأجابه قومه المشركون بما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي فرد عليه قوله أشرافهم وأهل الحل والعقد فيهم من أغنياء وأعيان ممن كفروا من قومه ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي نوح ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[2] أي يسود ويشرف فادعى أنه رسول الله إليكم. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي أن لا نعبد معه سواه ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ تخبرنا بذلك ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي بالذي جاء به نوح ودعا إليه من ترك عبادة آلهتنا ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي لم يقل به أحد من أجدادنا السابقين

﴿٢٥﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي ما نوح إلا رجل به مس من جنون، وإلا لما قال هذا الذي يقول من تسفيهنا وتسفيه آبائنا ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾[3] ﴿بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي انتظروا به أجله حتى يموت، ولا تتركوا دينكم لأجله وهنا وبعد قرون طويلة بلغت ألف سنة إلا خمسين شكا نوح إلى ربه وطلب النصر منه فقال ما أخبر تعالى به عنه:

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾[4] ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي وانصرني عليهم.

هداية الآيات:

١ - إثبات النبوة المحمدية بذكر أخبار الغيب التي لا تعلم إلا من طريق الوحي.

٢ - تقرير التوحيد بذكر دعوة الرسل أقوامهم إليه.

٣ - بيان سنة من سنن البشر وهي أن دعوة الحق أول من يردها الكبراء من أهل الكفر.

٤ - بيان كيف يرد الظالمون دعوة الحق باتهام الدعاة بما هم براء منه كالجنون وغيره من الاتهامات كالعمالة لفلان والتملق لفلان..

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ ـ ٣٠]

﴿٢٧﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ﴾: أي أعلمناه بطريق سريع خفي أي اصنع الفلك. ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾: أي بمرأى منا ومنظر، وبتعليمنا إياك صنعها. ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: تنور الخباز فار منه الماء آية بداية الطوفان. ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾: أي أدخل في السفينة. ﴿وَأَهْلَكَ﴾: أولادك ونساءك. ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾: أي لا تكلمني في شأن الظالمين فإني حكمت بإغراقهم.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ﴾: أي وادعني قائلاً

= أحداث، ومنها: تقرير التوحيد وإثبات النبوة المحمدية. واللام في: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ موطئة للقسم أي: وعزّتنا لقد أرسلنا نوحًا.

(١) قرأ الجمهور بجرّ: ﴿إِلَٰهٍ﴾ ورفع ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ وقرأ بعضهم: بجر ﴿غيره﴾ لأنه نعت لـ﴿إله﴾ المجرور بحرف الجر الزائد، ورفع ﴿غيره﴾ هو على المحل إذ محل ﴿إله﴾ الرفع وإنما منع منه حرف الجر الزائد.

(٢) قولهم هذا ناتج عن نفسياتهم المتهالكة على حب الرئاسة والشرف الموهوم.

(٣) التربص: التوقف على عمل يراد عمله، والتريث فيه لما قد يغني عنه.

(٤) ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾: هذه الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا لأنها واقعة جوابًا لسؤال مقدّر تقديره: لما كذب قومه ماذا فعل؟ والجواب: دعا عليهم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾.

يا رب أنزلني منزلاً مباركًا من الأرض.

(٣٠) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾: أي لدلائل وعبر. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾: أي لمختبرين.

معنى الآيات:

(٢٦) ما زال السياق الكريم في ذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه فقد جاء في الآيات السابقة أن نوحًا عليه السلام دعا ربه مستنصرًا إياه لينصره على قومه الذين كذبوه قائلاً: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا[١] كَذَّبُونِ﴾ فاستجاب الله تعالى دعاءه فأوحى إليه أي أعلمه بطريق الوحي الخاص.

(٢٧) ﴿أَنِ اصْنَعِ[٢] الْفُلْكَ﴾ أي السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي بمرأى منا ومنظر وبتعليمنا إياك وجعل له علامة على بداية هلاك القوم أن يفور التنور تنور طبخ الخبز بالماء وأمره إذا رأى تلك العلامة أن يدخل في السفينة من كل زوج أي ذكر وأنثى اثنين من سائر الحيوانات التي أمكنه ذلك منه وأن يركب فيها أيضًا أهله من زوجة وولد إلا من قضى الله بهلاكه ونهاه أن يكلمه في شأن الظالمين لأنهم مغرقون قطعًا. هذا ما تضمنته الآية الأولى (٢٧): ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي بإهلاك الظالمين المشركين ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿مِن كُلٍّ[٣] زَوْجَيْنِ[٤] اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ أي أزواجك وأولادك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي بإهلاكهم كامرأته، ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا[٥]﴾ أي لا تسألني عنهم فإني مهلكهم.

(٢٨) وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ[٦] أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ أي إذا ركبت واستقررْت على متن السفينة أنت ومن معك من المؤمنين فاحمدنا فقل: الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين[٧] وادعنا ضارعًا إلينا قائلاً:

(٢٩) ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا[٨] مُّبَارَكًا﴾ أي من الأرض، وَأَثْنِ علينا خيرًا فقل: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾[٩].

(٣٠) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي المذكور من قصة نوح لدلائل على قدرة الله وعلمه ورحمته وحكمته ووجوب الإيمان به وتوحيده في عبادته. وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي مختبرين عبادنا بالخير والشر ليرى الكافر من المؤمن، والمطيع من العاصي ويتم الجزاء حسب ذلك إظهارًا للعدالة الإلهية والرحمة الربانية.

هداية الآيات:

١ - إثبات الوحي الإلهي وتقرير النبوة المحمدية.

٢ - تقرير حادثة الطوفان المعروفة لدى المؤرخين.

٣ - بيان عاقبة الظلم وأنه هلاك الظالمين.

٤ - سنية قول بسم الله والحمد لله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون عند

---

(١) الباء سببية في موضع الحال من النصر المأخوذ من فعل الدعاء.

(٢) ﴿أَنِ اصْنَعِ﴾: جملة مفسرة لجملة: ﴿أَوْحَيْنَا﴾ لأنّ الوحي فيه معنى القول دون حروفه، فأن: تفسيرية قطعًا.

(٣) قرأ حفص: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بتنوين كل، وقرأ نافع وغيره بلا تنوين أي: بإضافة اثنين إلى كل، وتنوين كل تنوين عوض أي: من كل ما أمرتك أن تحمله في السفينة.

(٤) الزوج: اسم لكل شيء له شيء آخر متصل به بحيث يجعله شفعًا في حالة ما، والمراد به هنا: أزواج الحيوانات لحفظ نوعها حتى لا تنقرض بالطوفان.

(٥) أي: في شأنهم فإنهم قد قضى بإهلاكهم ولا رادّ لقضائه تعالى.

(٦) ﴿اسْتَوَيْتَ﴾: أي علوت فوقها واستقررت فيها، وحرف الجر (على): مؤذن بالاستقرار والتمكن منه.

(٧) الظالمين: أي: المشركين، لأنّ الظلم هو الشرك، والتنجية: الإنجاء من شرهم وأذاهم وشركهم وكفرهم.

(٨) المنزل بضم الميم وفتح الزاي: مصدر الذي هو الإنزال، وبفتح الميم وكسر الزاي: هو مكان النزول أي: أنزلني موضعًا مباركًا، والمنزل بفتح الميم والزاي معًا: مصدر نزل نزولاً ومنزلاً.

(٩) في الآية تعليم للمؤمنين إذا ركبوا أو نزلوا أن يدعوا بهذا الدعاء بل حتى إذا دخلوا بيوتهم وسلموا، فقد كان عليّ رضي الله عنه إذا دخل المسجد دعا بهذا الدعاء: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي..﴾ إلخ..

ركوب الدابة أو السفينة ونحوها كالسيارة والطيارة.

٥ ـ استحباب الدعاء وسؤال الله تعالى ما العبد في حاجة إليه من خير الدنيا.

٦ ـ بيان سر ذكر قصة نوح وهو ما فيها من العظات والعبر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ ـ ٣٨]

(٣١) ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾: أي خلقنا من بعد قوم نوح الهالكين قومًا آخرين هم عاد قوم هود.

(٣٢) ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾: هو هود عليه السلام. ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: أي قولوا لا إله إلا الله فاعبدوا الله وحده.

(٣٣) ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾: أي أنعمنا عليهم بالمال وسعة العيش.

(٣٥) ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾: أي أحياء من قبوركم بعد موتكم.

(٣٦) ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾: أي بَعُدَ بُعْدًا كبيرًا وقوعُ ما يعدكم.

(٣٧) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾: أي ما هي إلا حياتنا الدنيا وليس وراءها حياة أخرى.

(٣٨) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾: أي ما هو إلا رجلٌ افترى على الله كذبًا أي كذب على الله تعالى.

معنى الآيات:

(٣١) هذه بداية قصة هود عليه السلام بعد قصة نوح عليه السلام أيضًا فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي خلقنا وأوجدنا من بعد قوم نوح الهالكين قومًا آخرين هم[1] عاد قوم هود.

(٣٢) ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ[2] رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو هود عليه السلام بأن قال لهم: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي اعبدوا الله بطاعته وإفراده بالعبادة إذ لا يوجد لكم إله غير الله تصح عبادته إذ الخالق لكم الرازق الله وحده فغيره لا يستحق العبادة بحال من الأحوال وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يحثهم على الخوف من الله ويأمرهم به قبل أن تنزل بهم عقوبته.

(٣٣) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وقال أعيان البلاد وأشرافها من قوم هود ممن كفروا بالله ورسوله وكذبوا بالبعث والجزاء في الدار الآخرة وقد أترفهم[3] الله تعالى: بالمال وسعة الرزق فأسرفوا في الملاذ والشهوات: قالوا: وماذا قالوا؟: قالوا ما أخبرنا تعالى به عنهم بقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي ما هذا الرسول إلا بشر مثلكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ من أنواع الطعام ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ من ألوان الشراب[4] أي فلا فرق بينكم وبينه فكيف ترضون بسيادته عليكم يأمركم وينهاكم.

(٣٤) وقالوا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي خاسرون حياتكم ومكانتكم.

(٣٥) وقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ[5] أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أي فنيتم وصرتم ترابًا ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أي أحياء من قبوركم.

(٣٦) وقالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾[6] أي بَعُد بُعْدًا كبيرًا ما يعدكم به هود إنها ما:

(٣٧) ﴿هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي

---

(١) وقيل هم قوم صالح بقرينة قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وهي التي أهلك الله تعالى بها ثمود قوم صالح إذ قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴿٨٣﴾﴾ من سورة الحجر. ورشح هذا لأنّ فيها العبرة أكثر لوجود آثارهم في ديارهم شمال الحجاز إلاّ أن ذكر عاد بعد قوم نوح هو الوارد في كل قصص القرآن وبترجيح الزمان، إذ عاد أوّل أمّة أهلكت بعد قوم نوح. والله أعلم.

(٢) قوله: ﴿فِيهِمْ﴾: بدل إليهم، لأن هودًا أو صالحًا كان المرسل من أهل البلاد وفردًا من أفرادهم فلا يحسن أن يقال: إلى، إلاّ إذا كان خارجًا عنهم ليس من أفرادهم، وذلك كما في أهل سدوم، ونينوى والقبط فجاء التعبير بإلى نحو: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾.

(٣) أي: وسعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا، وصاروا يؤتون بالترفة وهي كالتحفة، يقال: أترفه المال: إذا أبطره وأفسده.

(٤) في قولهم: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾، هذه الجملة وإن كانت تعليلاً لبشرية الرسول فإنها دالة على أنهم حقًا مترفون منعّمون في ملاذ الأكل والشرب كأنه لا هم لهم إلا ذاك، كما قيل: من أحب شيئًا أكثر من ذكره، كما هي مجالس المترفين اليوم جل أحاديثهم حول الأكل والشرب ونحوهما.

(٥) الاستفهام للتعجيب، والكلام انتقال من تكذيبهم بكونه رسولاً إليهم إلى التكذيب بما أرسل به من الدين الحق.

(٦) الجمهور من النّحاة واللغويين أن هيهات: اسم فعل ماضٍ بمعنى بَعُدَ وهي مبنية على الفتح والكسر أيضًا ولا تُقال إلاّ مكررة، قال الشاعر:

فهيهات هيهات العقيق وأهله ... هيهات خلّ بالعقيق نواصله

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾[١] جيل يموت وجيل يحيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

﴿٣٨﴾ وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ[٢] عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي اختلق الكذب على الله وقال عنه أنه يبعثكم ويحاسبكم ويجزيكم بكسبكم.

وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ هذه مقالتهم ذكرها تعالى عنهم وهي مصرحة بكفرهم وتكذيبهم وإلحادهم وما سيقوله هود عليه السلام سيأتي في الآيات بعد.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله تعالى في إرسال الرسل، وما تبتدىء به دعوتهم وهو لا إله إلا الله.

٢ - أهل الكفر لا يصدر عنهم إلا ما هو شر وباطل لفساد قلوبهم.

٣ - الترف يسبب كثيرًا من المفاسد والشرور، ولهذا يجب أن يُحْذَرَ بالاقتصاد.

٤ - تقرير عقيدة البعث والجزاء وإثباتها وهي ما ينكره الملاحدة هروبًا من الاستقامة.

٥ - تُكأة عامة المشركين وهي كيف يكون الرسول رجلًا من البشر، دفعًا للحق وعدم قبوله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٩ - ٤٤]

﴿٤٠﴾ ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾: أي عن قليل من الزمن. ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾: ليصيرن نادمين على كفرهم وتكذيبهم.

﴿٤١﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾: أي صيحة العذاب والهلاك. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾: كغثاء السيل وهو ما يجمعه الوادي من العيدان والنبات اليابس.

﴿فَبُعْدًا﴾: أي هلاكًا لهم.

﴿٤٢﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾: أي أوجدنا من بعدهم أهل قرون آخرين كقوم صالح وإبراهيم ولوط وشعيب.

﴿٤٤﴾ ﴿تَتْرَا﴾: أي يتبع بعضها بعضًا الواحدة عقب الأخرى. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾: أي أهلكناهم وتركناهم قصصًا تقص وأخبارًا تتناقل.

معنى الآيات:

﴿٣٩﴾ هذا ما قال هود[٣] عليه السلام بعد الذي ذكر تعالى من أقوال قومه الكافرين: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي يا رب ﴿ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي بسبب تكذيبهم لي وردهم دعوتي وإصرارهم على الكفر بك وعبادة غيرك.

﴿٤٠﴾ فأجابه الرب تبارك وتعالى بقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ أي بعد قليل من الوقت وعزتنا وجلالنا ليصبحن نادمين أي ليصيرن نادمين على كفرهم بي وإشراكهم في عبادتي وتكذيبهم إياك ولم يمض إلا قليل زمن حتى أخذتهم الصيحة صيحة الهلاك ضمن ريح صرصر في أيام نحسات فإذا هم غثاء كغثاء السيل لا حياة فيهم ولا فائدة ترجى منهم.

﴿٤١﴾ ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هلاكًا للظالمين بالشرك والتكذيب والمعاصي.

---

(١) إن قيل: كيف قالوا: نموت ونحيا وهم منكرون للبعث؟ قيل في الجواب: إما أن يكون مرادهم نكون نطفًا ميتة ثم نحيا، وإما أن يكون في الكلام تقديم وتأخير أي: نحيا فيها ونموت نحو ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾ وإما بموت الآباء وحياة الأبناء.

(٢) الافتراء: الكذب الذي لا شبهة فيه للمخبر، وهو الاختلاق.

(٣) دَرَج الجمهور من المفسرين على أن القصص المذكور هنا كما هو في سائر السور هو قصص هود عليه السلام، وذهب ابن جرير وبعضٌ آخر إلى أنه قصة صالح لقرينة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وقال الجمهور: يمكن أن تكون الصيحة ضمن عواصف الريح العقيم التي أرسلها تعالى على عاد قوم هود فأخذتهم فهلكوا بها والرياح عصفت بهم فمزقت وشتتت شملهم وتركتهم كأعجاز نخل خاوية ثم تفتتوا وصاروا كالغثاء. وهذا الجمع أحسن.

﴿٤٢﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾[1] أي ثم أوجدنا بعد إهلاكنا عادًا أهل قرون آخرين كقوم صالح وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب.

﴿٤٣﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ[2] أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي إن كل أمة حكمنا بهلاكها لا يمكنها أن تسبق أجلها أي وقتها المحدود لها فتتقدمه كما لا يمكنها أن تتأخر عنه بحال.

﴿٤٤﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا[3]﴾ أي يتبع بعضها بعضًا ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي في الهلاك فكلما كذبت أمة رسولها ورفضت التوبة إلى الله والإنابة إليه أهلكها، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ[4]﴾ أي لمن بعدهم يذكرون أحوالهم ويروون أخبارهم ﴿فَبُعْدًا﴾ أي هلاكًا منا ﴿لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في هذا تهديد قوي لقريش المصرة على الشرك والتكذيب والعناد. وقد مضت فيهم سنة الله فأهلك المجرمين منها.

هداية الآيات:

١ - استجابة الله دعوة المظلومين من عباده لا سيما إن كانوا عبادًا صالحين.

٢ - الآجال للأفراد أو الأمم لا تتقدم ولا تتأخر سنة من سنن الله تعالى في خلقه.

٣ - تقرير حقيقة تاريخية علمية وهي أن الأمم السابقة كلها هلكت بتكذيبها وكفرها ولم ينج منها عند نزول العذاب بها إلا المؤمنون مع رسولهم.

٤ - كرامة هذه الأمة المحمدية أن الله تعالى لا يهلكها هلاكًا عامًا بل تبقى بقاء الحياة تقوم بها الحجة لله تعالى على الأمم والشعوب المعاصرة لها طيلة الحياة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٥ - ٥٠]

﴿٤٥﴾ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: الآيات هي التسع الآيات وهي الحجة والسلطان المبين.

﴿٤٦﴾ ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾: أي علوا أهل تلك البلاد قهرًا واستبدادًا وتحكمًا.

﴿٤٧﴾ ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾: أي مطيعون ذليلون نستخدمهم فيما نشاء وكيف نشاء.

﴿٤٩﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي التوراة.

﴿٥٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: أي عيسى حجة وبرهانًا على وجود الله وقدرته وعلمه ووجوب توحيده. ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: أي مكان مرتفع ذي استقرار وفيه ماء جار عذب وفواكه وخضر.

معنى الآيات:

﴿٤٥﴾ ما زال السياق الكريم في ذكر نبذ من قصص الأولين للعظة والاعتبار، ولإقامة الحجة على مشركي قريش فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بعد تلك الأمم الخالية أرسلنا موسى بن عمران وأخاه هارون بسلطان مبين أي بحجج وبراهين بينة دالة على صدق موسى وما يدعو إليه من عبادة الله وتوحيده فيها والخروج ببني إسرائيل إلى الأرض المباركة أرض الشام إلى فرعون ملك مصر يومئذ وملإه من أشراف قومه وعليتهم فاستكبروا عن قبول دعوة الحق وكانوا عالين على أهل تلك البلاد قاهرين لها مستبدين بها وقالوا ردًا على دعوة موسى

---

(١) في الكلام حذف اقتضاه الإيجاز غير المخل وهو: فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم ثم أنشأنا.

(٢) (من) في قوله: ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾: صلة زيدت لتقوية النفي وتوكيده، والأصل ما تسبق أمّة.

(٣) (تترى): على وزن فعلى كدعوى وسلوى، والألف فيه للتأنيث، وأصله وترى من الوتر، الذي هو الفرد أبدلت الواو تاء كما أبدلت في تراث من الورث، وتجاه من الوجه، ولا يقال: تترى إلا إذا كان هناك تعاقب وانقطاع، وقرىء منونًا ﴿تترىً﴾، وهو منصوب على الحال في القراءتين معًا.

(٤) جمع أحدوثة وهو ما يتحدّث به كأعاجيب جمع أعجوبة، وهي ما يتعجّب منه، ومثل هذا التعبير: أحاديث: لا يقال في الخير وإنما يقال في الشر لا غير لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وقد يقال في الخير: إذا كان مقيّدًا بذكره نحو قول ابن دريد:

إنما المرء حديث بعده ... فكن حديثًا حسنًا لمن وعى

وهارون ما أخبر تعالى به في قوله: ﴿٤٦﴾ ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أي خاضعون مطيعون.

﴿٤٧﴾ هكذا أعلنوا متعجبين من دعوة موسى وهارون إلى الإيمان برسالتهما فقالوا: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ أي كيف يكون هذا أنتبع رجلين مثلنا فنصبح نأتمر بأمرهما وننتهي بنهيهما وكيف يتم ذلك ﴿وَقَوۡمُهُمَا﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾: أي خاضعون لنا ومطيعون لأمرنا ونهينا.

﴿٤٨﴾ قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، فيما دعواهما إليه من الإيمان والتوحيد وإرسال بني إسرائيل معهما إلى أرض الميعاد فترتب على تكذيبهم لرسولي الله موسى وهارون هلاكهم فكانوا من المهلكين حيث أغرقهم الله أجمعين.

﴿٤٩﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى[1] ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، ويخبر تعالى أنه بعد إهلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل آتى موسى التوراة من أجل هداية بني إسرائيل عليها لأنها تحمل النور والهدى. هذه أيادي الله على خلقه وآياته فيهم فسبحانه من إله عزيز رحيم.

﴿٥٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ[2] وَأُمَّهُۥٓ﴾ أي جعل عيسى ووالدته مريم ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾ حيث خلق عيسى من غير أب فهي آية دالة على قدرة الله وعلمه ورحمته وحكمته وهذه موجبة الإيمان به وعبادته وتوحيده والتوكل عليه والإنابة والتوبة إليه. وقوله تعالى: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ[3] ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ[4]﴾ أي أنزلنا مريم وولدها بعد اضطهاد اليهود لهما ربوة عالية صالحة للاستقرار عليها بها فاكهة وماء عذب جار إكرام الله تعالى له ولوالدته فسبحان المنعم على عباده المكرم لأوليائه.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة كل من موسى وأخيه هارون عليهما السلام.

٢ - التنديد بالاستكبار، وأنه علة مانعة من قبول الحق.

٣ - مظاهر قدرة الله وعلمه ورحمته في إرسال الرسل بالآيات وفي إهلاك المكذبين.

٤ - آية ولادة عيسى من غير أب مقررة قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥١ - ٥٦]

﴿٥١﴾ ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: أي من الحلال. ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾: أي بأداء الفرائض وكثير من النوافل.

﴿٥٢﴾ ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾: أي ملتكم الإسلامية. ﴿فَٱتَّقُونِ﴾: أي بامتثال أمري واجتناب نهيي.

﴿٥٣﴾ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾: أي اختلفوا في دينهم فأصبحوا طوائف هذه يهودية وتلك نصرانية.

﴿٥٤﴾ ﴿فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾: أي في ضلالتهم.

﴿٥٦﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمۡ﴾: أي نعجل. ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾: أن ذلك استدراج منا لهم.

معنى الآيات:

﴿٥١﴾ بعد أن أكرم الله تعالى عيسى ووالدته بما أكرمهما به من إيوائهما إلى ربوة ذات قرار ومعين خاطب[5]

---

(١) خصّ موسى بإيتائه الكتاب دون هارون لأنّ هارون يوم إعطاء موسى الكتاب (التوراة) كان مع قومه، وموسى كان وحده في الطور للمناجاة.

(٢) أدمج أمّه في الذكر لتسفيه اليهود في قولهم في مريم بهتانًا عظيمًا.

(٣) الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهي مثلثة الراء تضم وتفتح وتكسر، وهي بفلسطين أو مدينة الرملة وهي من أرض فلسطين.

(٤) المعين: هو الماء الجاري على ظهر الأرض ظاهر للعيون.

(٥) اختلف في هذا الخطاب هل هو لعيسى عليه السلام نظرًا لسياق الحديث أو هو لمحمد ﷺ أو هو عام لكل الرسل؟ أي: ما من رسول إلا وأمره بما في هذا السياق، وأمّة كل رسول تابعة له، وما دامت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب في مثل هذا فلا داعي إلى الترجيح وعدمه. ويشهد للعموم قوله ﷺ في الصحيح: **«يا أيها الناس إنّ الله طيب لا يقبل إلاّ طيبًا، وإن الله أمر المرسلين بما أمر به المؤمنين فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾» ثم ذكر: **«الرجل يطيل**

عيسى عبده ورسوله قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الحلال فكان عيسى عليه السلام يأكل من غزل أمه إذا كانت تغزل الصوف بأجرة فكانا يأكلان من ذلك أكلاً من الطيب كما أمرهما الله تعالى وقوله: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ كلوا من الحلال واعملوا صالحًا بأداء الفرائض والإكثار من النوافل، وقوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيه وعد بأن الله تعالى سيثيبهم على ما يعملون من الصالحات.

(٥٢) وقوله: ﴿وَإِنَّ[1] هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ أعلمهم أن ملتهم وهي الدين الإسلامي دين واحد فلا ينبغي الاختلاف فيه وأعلمهم أيضًا أنه ربهم أي مالك أمرهم والحاكم عليهم فليبتغوه بفعل ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، لينجوا من عذابه ويظفروا برحمته ودخول جنته.

(٥٣) وقوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾[2] أي دينهم ﴿زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي فرقوا دينهم فرقًا فذهبت كل فرقة بقطعة منه وقسموا الكتاب إلى كتب فهذه يهودية وهذه نصرانية واليهودية فرق والنصرانية فرق والإنجيل أصبح أناجيل متعددة وصارت كل جماعة فرحة بما عندها مسرورة به لا ترى الحق إلاّ فيه.. ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

(٥٤) وهنا أمر الله رسوله أن يتركهم في غمرة ضلالتهم إلى حين أن ينزل بهم ما قضى به الرب تعالى على أهل الاختلاف في دينه ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إذ قال له في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ وفيه من التهديد ما فيه. وهذا الذي نعاه تعالى على تلك الأمم قد وقعت فيه أمة الإسلام فاختلفوا في دينهم مذاهب وطرقًا عديدة، ويا للأسف وقد حلت بهم المحن ونزل بهم البلاء نتيجة ذلك الخلاف.

(٥٥) وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا[3] نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ مع اختلافهم وانحرافهم مسارعة لهم منا في الخيرات[4] لا بل ذلك استدراج لهم ليهلكوا ولكنهم لا يشعرون بذلك. لشدة غفلتهم واستيلاء غمرة الضلالة عليهم.

هداية الآيات:

١ - وجوب الأكل من الحلال، ووجوب الشكر بالطاعة لله ورسوله.

٢ - الإسلام دين البشرية جمعاء ولا يحل الاختلاف فيه بل يجب التمسك به وترك ما سواه.

٣ - حرمة الاختلاف في الدين وأنه سبب الكوارث والفتن والمحن.

٤ - إذا انحرفت الأمة عن دين الله، ثم رزقت المال وسعة العيش كان ذلك استدراجًا لها، ولم يكن إكرامًا من الله لها دالاً على رضى ربها عنها بل ما هو إلا فتنة ليس غير.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٧ - ٦٢]

(٥٧) ﴿مُّشْفِقُونَ﴾: أي خائفون.

(٥٩) ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾: أي بعبادته أحدًا.

= السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنّى يستجاب لذلك» والشاهد في قوله ﷺ: «بما أمر به المرسلين».

(١) قرىء: ﴿وَإِنَّ﴾ بكسر إن على القطع أي: الابتداء وعلى تقدير قول: أو قلنا لهم: (إن هذه).. إلخ.. وقرىء بفتحها، وهي قراءة الأكثرين على تقدير واعلموا (أن هذه أمتكم).. إلخ..

(٢) كأن هذه الآية تنظر إلى قوله ﷺ: **«ألا إن أهل الكتاب قبلكم افترقوا على اثنتين وسبعين ملّة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين: اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة»** الحديث أخرجه أبو داود ورواه الترمذي وزاد: (قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: **«ما أنا عليه وأصحابي»**) وقوله: **«ملة»** فيه دليل على أنّ الاختلاف في الفروع غير مقصود وإنما المقصود هو ما كان في أصول الدين وقواعده.

(٣) (إنما): ما: موصولة بمعنى الذي أي: أيحسبون يا رسولنا إن الذي نعطيهم في الدنيا من مال وولد هو ثواب لهم على شركهم وكفرهم؟ إنما هو استدراج وإملاء ليس إسراعًا في الخيرات. واختلف في خبر إنّ فقيل: إنه محذوف وتقدير الكلام: إنما نسارع لهم به في الخيرات، والاستفهام في أيحسبون: إنكاري.

(٤) الخيرات: جمع خير وهو من الجموع النادرة مثل: سرادقات جمع سرادق.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

(٦٠) ﴿يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾: أي خائفون أن لا يقبل منهم ذلك.

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾: أي لأنهم إلى ربهم راجعون فيحاسبهم ويسألهم ويجزيهم.

(٦١) ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾: أي بإذن الله وفي علمه.

(٦٢) ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: إلا طاقتها وما تقدر عليه.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾: وهو ما كتبه الكرام الكاتبون فإنه ناطق بالحق. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: أي بنقص حسنة من حسناتهم ولا بزيادة سيئة على سيئاتهم.

معنى الآيات:

(٥٧) لما ذكر تعالى حال الذين فرقوا دينهم فذهبت كل فرقة منهم بكتاب ومذهب ولقب ونعى عليهم ذلك التفرق وأمر رسوله أن يتركهم في غمرة خلافاتهم ويدعهم إلى حين يلقون جزاءهم عاجلاً أو آجلاً: أثنى تبارك وتعالى على عباده المؤمنين من أهل الخشية، فقال وقوله الحق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي من عذابه خائفون من الوقوف بين يديه فهذه صفة لهم وأخرى.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بحجج الله تعالى التي تضمنتها آياته يؤمنون أي يوقنون وثالثة:

(٥٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي في ذاته ولا صفاته ولا عباداته فيعبدونه بما شرع لهم موحدينه في ذلك ورابعة:

(٦٠) ﴿وَٱلَّذِينَ[1] يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ[2]﴾ أي يؤتون[3] الزكاة وسائر الحقوق والواجبات وقلوبهم خائفة من ربهم أن يكونوا قد قصروا فيما أوجب عليهم وخائفة أن لا يقبل منهم عملهم، وذلك ناجم لهم من قوة إيمانهم برجوعهم إلى ربهم ووقوفهم بين يديه ومساءلته لهم: لم قدمت؟ لم أخرت؟

(٦١) وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ[4] فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ في هذا بشرى لهم إذ أخبر تعالى أنهم يسارعون في الخيرات، وأنهم سبق ذلك لهم في الأزل فهنيئًا لهم.

(٦٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فيه قبول عذر من بذل جهده في المسارعة في الخيرات ولم يلحق بغيره أعذره ربه فإنه لا خوف عليه ما دام قد بذل جهده إذ هو

---

(١) روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**».

(٢) أي: لأنهم، أو من أجل أنهم إلى ربهم راجعون. وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبرة بما يختم به للعبد، وفي البخاري: «**وإنما الأعمال بالخواتيم**».

(٣) قرىء: ﴿يأتون﴾ من الإتيان، ولا يختلف المعنى إذ هم يأتون الأعمال الصالحة ويفعلونها، وقلوبهم خائفة. كما يعطون ما يعطون من الزكاة والنفقات وقلوبهم وجلة أو يعطون الملائكة أعمالهم التي يكتبونها وقلوبهم وجلة.

(٤) ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: في الطاعات كي ينالوا بها أعلى الدرجات والغرفات، ولم يقل يسارعون إلى الخيرات إذ هم في الخيرات لم يخرجوا من دائرتها أبدًا فهم فيها يسارعون. في الآية إشارة إلى أن الصلاة في أول وقتها أفضل، وهكذا السبق في كل خير قبل الغير خير.

تعالى ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي طاقتها وما يتسع له جهده.

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه وعدٌ لأولئك المسارعين بالخيرات بأنَّ أعمالهم مكتوبة لهم في كتاب ينطق بالحق لا يخفي حسنة من حسناتهم ويستوفونها كاملة وفيه وعيد لأهل الشرك والمعاصي بأنَّ أعمالهم محصاة عليهم قد ضمها كتاب صادق وسوف يجزون بها وهم لا يظلمون فلا تكتب عليهم سيئة لم يعملوها قط ولا يجزون إلاَّ بما كانوا يكسبون.

هداية الآيات:

١ - فضيلة الخشية والإيمان والتوحيد والتواضع والمراقبة لله تعالى.

٢ - بشرى الله تعالى لأهل الإيمان والتقوى.

٣ - تقرير قاعدة رفع الحرج في الدين.

٤ - تقرير كتابة أعمال العباد وإحصاء أعمالهم ومجازاتهم العادلة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٣ - ٧٠]

(٦٣) ﴿فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾: أي جهالة من القرآن وعمى. ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾: أي من دون أعمال المؤمنين التي هي الخشية والإيمان بالآيات والتوحيد والمراقبة. ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾: أي سيعملونها لتكون سبب نهايتهم حيث يأخذهم الله تعالى بها.

(٦٤) ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾: أي يصرخون بأعلى أصواتهم ضاجّين مستغيثين ممَّا حلَّ بهم من العذاب.

﴿تَنكِصُونَ﴾: أي ترجعون على أعقابكم كراهة سماع القرآن.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾: أي بالحرم أي كانوا يقولون: لا يظهر علينا فيه أحد لأنّا أهل الحرم. ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾: أي تسمرون بالحرم ليلاً هاجرين الحق وسماعه على قراءة فتح التاء وعلى قراءة ضمها تهجرون أي تقولوا الهجر من القول كالفحش والقبح.

(٦٩) ﴿رَسُولَهُمْ﴾: أي محمدًا ﷺ.

(٧٠) ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾: أي مجنون.

معنى الآيات:

(٦٣) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي ليس الأمر كما يحسب هؤلاء المشركون أنّا نمدهم بالمال مسارعة منا لهم في الخيرات لرضانا عنهم لا بل إن قلوبهم في غمرة وعمى من القرآن، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾[1] أي دون عمل المؤمنين. ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ حتى تنتهي بمترفيهم إلى هلاكهم ودمارهم.

(٦٤) وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝﴾ أي استمرت الأعمال الشركية الإجرامية حتى أخذ الله تعالى مترفيهم في بدر بعذاب القتل والأسر ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ[2]﴾ يضجون بالصراخ مستغيثين.

(٦٥) والله تعالى يقول لهم: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝﴾ وذكر تعالى لهم ما كانوا عليه من التكذيب والاستكبار وقول الهجر موبخًا إياهم.

(٦٦) ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ[3] ۝﴾ هروبًا من سماعها حال كونكم.

(٦٧) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي بالحرم زاعمين أنكم أهل الحرم، وأن أحدًا لا يظهر عليكم فيه لأنكم أهله وقوله: ﴿سَٰمِرًا[4] تَهْجُرُونَ﴾ أي

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: دون ذلك أي: دون الشرك من كبائر الذنوب هم عاملوها لا محالة إذ كتبت عليهم ليدخلوا بها النار، وما كان دون عمل المؤمنين قطعًا هو الشرك والمعاصي، فلا منافاة بين ما في التفسير وما روي عن ابن عباس.

(٢) الجؤار: كالخوار يقال: خار الثور يخأر: إذا صاح، وجأر الرجل بالدعاء: تضرع به، قال قتادة: يصرخون بالتوبة فلا تقبل منهم، وجأروا كذلك يوم أصابهم القحط والجدب فجاعوا حتى كادوا يهلكون بدعوة الرسول ﷺ.

(٣) ﴿تَنكِصُونَ﴾: ترجعون وراءكم، وأصله الرجوع إلى الوراء القهقرى. قال الشاعر:

زعموا أنهم على سبل النجا ... ةِ وإنما نكصوا على الأعقاب

(٤) ﴿سَٰمِرًا﴾ معناه: سمّارًا أي: جماعة تتحدّثون بالليل، والسمر مأخوذ من السّمر الذي هو ظل القمر، ومنه سمرة اللون وكانوا يتحدثون حول الكعبة في سمرة القمر فسمي التحدّث به، وقرىء ﴿سُمّارًا﴾: جمع سامر. يقال: جاء من السامر يريد: من القوم الذين يسمرون، وفي الحديث: كراهة النوم قبل العشاء، والحديث أي: السمر بعدها، وروي أن عمر رضي الله عنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء ويقول: أسمرًا أول الليل ونومًا آخره؟!!

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

٣٤٧

تسمرون بالليل تهجرون بذلك سماع الحق ودعوة الحق التي تُتلى بها عليكم آيات الله. وقد قرىء تُهجرون بضم التاء وكسر الجيم أي تقولون أثناء سمركم في الليل الهجر من القول كالكفر وقول الفحش وما لا خير فيه من الكلام، وكانوا كذلك.

(٦٨) وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟[1] ٱلْقَوْلَ﴾ الذي يسمعونه من نبينا محمد ﷺ فيعرفوا أنه حق وخير وأنه فيه صلاحهم ﴿أَمْ جَآءَهُم﴾[2] من الدين والشرع ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فقد جاءت رسل ونزلت كتب وهم يعرفون ذلك.

(٦٩) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ محمداً ﷺ ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ إنهم يعرفونه بصدقه وطهارته وكماله منذ نشأته وصباه إلى يوم أن دعاهم إلى الله.

(٧٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي جنون وأين الجنون من رجل ينطق بالحكمة ويعمل بها ويدعو إليها ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ[3] لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، وهذا هو سرُّ إعراضهم واستكبارهم - إنه كراهيتهم للحق لطول ما ألفوا الباطل وعاشوا عليه، وهذه سنة البشر في كل زمان ومكان.

هداية الآيات:

١ - غمرة الجهل والتعصب وعمى التقليد هي سبب إعراض الناس عن الحق ومعارضتهم له.

٢ - لا تنفع التوبة عند معاينة العذاب أو نزوله.

٣ - بيان الذنوب التي أخذ بها مترفو مكة ببدر وهي هروبهم من سماع القرآن ونكوصهم عند سماعه على أعقابهم حتى لا يسمعوه واستكبارهم بالحرم واعتزازهم به جهلاً وضلالاً واجتماعهم في الليالي الطوال يسمرون على اللهو وقول الباطل هاجرين سماع القرآن وما يدعو إليه من هدى وخير.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧١ - ٧٧]

(٧١) ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾: أي ما يهوونه ويشتهونه. ﴿أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾: أي بالقرآن العظيم الذي فيه ذكرهم فيه يذكرون ويُذكرون.

(٧٢) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾: أي مالاً مقابل إبلاغك لهم دعوة ربهم. ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾: أي ما يرزقكه الله خير وهو خير الرازقين.

(٧٣) ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي إلى الإسلام.

(٧٤) ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾: أي عن الإسلام أي متنكبونه جاعلوه على منكب أي جانب عادلون عنه.

(٧٥) ﴿لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: لتمادوا في طغيانهم مصرين عليه.

(٧٦) ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾: أي ما ذلوا ولا خضعوا.

(٧٧) ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: أي آيسون قنطون.

معنى الآيات:

(٧١) ما زال السياق الكريم في دعوة

---

(١) وقيل: القول: القرآن، وسمي قولاً لأنهم خوطبوا به، والاستفهام إنكاري يحمل التقريع والتأنيب.

(٢) ﴿أَمْ جَآءَهُم﴾ إلخ.. أي: فأنكروه وأعرضوا عنه. وقيل: أم بمعنى: بل الانتقالية: بل جاءهم مالاً عهد لآبائهم به فلذا أنكروه وتركوا التديُّن به، والفاء في: أفلم يدّبروا: للتفريع إذ هذا الكلام متفرع عما سبقه، والتدبر معناه إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصبت له، وأصله النظر في دبر الأمر أي: فيما لا يظهر منه للمتأمل بادىء ذي بدء.

(٣) في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ احتراس عرف في القرآن حتى لا ينقض ببعض الأفراد وهو من إعجاز القرآن وبالغ كماله في البلاغة والبيان.

المشركين إلى التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء فقوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ[(١)] الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ هذا كلام مستأنف لبيان حقائق أخرى منها أن هؤلاء المشركين لو اتبع الحقُّ النازل من عند الله والذي يمثله القرآن أهواءهم أي ما يهوونه ويشتهونه فكان يوافقهم عليه لأدى ذلك إلى فساد الكون كله علويه[(٢)] وسفليه، وذلك لأنهم أهل باطل لا يرون إلا الباطل ويصبح سيرهم معاكسًا للحق فيؤدي حتمًا إلى خراب الكون وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي جئناهم بذكرهم الذي هو القرآن الكريم إذ به يذكرون وبه يُذكرون لأنه سبب شرفهم، وقوله: ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾، فهم لسوء حالهم وفساد قلوبهم معرضون عما به يذكرون ويُذكرون[(٣)].

﴿٧٢﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾[(٤)] أي أجرًا ومالاً ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي ثواب ربك الذي يثيبك به خير وهو تعالى خير الرازقين وحاشا رسول الله ﷺ أن يسألهم عن التبليغ أجرًا.

﴿٧٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى الإسلام طريق السعادة والكمال في الدنيا والآخرة.

﴿٧٤﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ[(٥)] لَنَاكِبُونَ﴾ أي علة تنكبهم أي ابتعادهم عن الإسلام هو عدم إيمانهم بالآخرة، وهو كذلك فالقلب الذي لا يعمره الإيمان بلقاء الله والجزاء يوم القيامة صاحبه ضد كل خير ومعروف ولا يؤمل منه ذلك لعلة كفره بالآخرة.

﴿٧٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ[(٦)] وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يخبر تعالى أنه لو رحم أولئك المشركين المكذبين بالآخرة، وكشف ما بهم من ضر أصابهم من قحط وجدب وجوع ومرض لا يشكرون الله، بل يتمادون في عتوهم وضلالهم وظلمهم يعمهون حيارى يترددون.

﴿٧٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم[(٧)] بِالْعَذَابِ﴾ وهي سنوات الجدب والقحط بدعوة الرسول ﷺ وما أصابهم من قتل وجراحات وهزائم في بدر. وقوله: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا[(٨)] لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ فما ذلوا لربهم وما دعوه ولا تضرعوا إليه بل بقوا على طغيانهم في ضلالهم ومرد هذا ظلمة النفوس الناتجة عن الشرك والمعاصي.

﴿٧٧﴾ وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو معركة بدر وما أصاب المشركين من القتل ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ[(٩)]﴾ أي آيسون

---

(١) اختلف في المراد بالحق فقيل: هو الله تعالى، قاله مجاهد وغيره، وقيل معناه: ولو اتبع صاحب الحق، وقيل: هو مجاز أي: لو وافق الحق أهواءهم فجعل موافقته اتباعًا، وما في التفسير أظهر، وقد استظهره ابن جرير الطبري.

(٢) وما في الكون العلوي من الملائكة، والسفلي من الجن والإنس، وإلى هذا الإشارة بِمَنْ في قوله: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾.

(٣) الأولى: يذكرون بفتح الياء، مبني للفاعل، والثانية: يذكرون بضم الياء مبنيٌ للمفعول.

(٤) قرىء ﴿خراجًا﴾ أيضًا والمعنى واحد، والمعنى: أتسألهم رزقًا؟ فرزق ربك خير، وقيل: الخرج: الجعل، والخراج: العطاء، والخرج: المصدر، والخراج: الاسم.

(٥) الصراط في اللغة: الطريق، وسمي الدين طريقًا لأنه طريق إلى الجنة، والناكب: العادل عن الشيء المعرض عنه، وهو مشتق من المنكب وهو جانب الكتف.

(٦) ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ﴾ معطوف على جملة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ وما بينهما: اعتراض باستدلال عليهم وتنديم لهم وقطع لمعاذيرهم أي: أنهم ليسوا بحيث لو استجاب الله جؤارهم (دعاءهم) عند نزول العذاب بهم وكشفه عنهم لعادوا إلى ما كانوا فيه من الغمرة والشرك والأعمال السيئة. وهذا كقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

(٧) هذا استدلال على مضمون ما في قوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ﴾ إلخ.. و(أل) في العذاب للعهد أي: بالعذاب المذكور آنفًا في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾.

(٨) الاستكانة: مصدر بمعنى الخضوع، مشتقة من السكون، لأنّ الذي يخضع يقطع الحركة أمام من يخضع له.

(٩) الإبلاس: شدة اليأس من النجاة، وجائز أن يكون العذاب الذي أبلسهم: عذاب القحط والمجاعة التي أصابتهم، وجائز أن يكون عذاب يوم القيامة.

من كل خير حزنون قنطون وذلك لظلمة نفوسهم بالشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

١ ـ خطر اتباع الهوى وما يفضي إليه من الهلاك والخسران.

٢ ـ الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة والكمال هو الإسلام لا غير.

٣ ـ التكذيب بيوم القيامة وما يتم فيه من حساب وجزاء هو الباعث على كل شر والمانع من كل خير.

٤ ـ من آثار ظلمة النفس نتيجة الكفر اليأس والقنوط والتمادي في الشر والفساد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٨ ـ ٨٣]

(٧٨) ﴿أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ﴾: أي خلق وأوجد لكم الأسماع والأبصار.

﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾: جمع فؤاد وهو القلب.

﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾: أي ما تشكرون إلاّ قليلاً.

(٧٩) ﴿ذَرَأَكُمۡ﴾: أي خلقكم. ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾: أي تجمعون إليه بعد إحيائكم وخروجكم من قبوركم.

(٨٠) ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾: أي إليه تعالى إيجاد الليل والنهار وظلمة الليل وضياء النهار. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: فتعرفوا أن الله هو المعبود الحق إذ هو الرب الحق.

(٨٣) ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي ما تقولون من البعث والحياة الثانية ما هو إلا حكايات وأساطير وأخبار الأولين، والأساطير جمع أسطورة أي حكاية مسطرة مكتوبة.

معنى الآيات:

(٧٨) ما زال السياق الكريم في دعوة المنكرين للبعث الآخر إلى الإيمان به بعرض الأدلة العقلية عليهم لعلهم يؤمنون فقال تعالى لهم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ[١] لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ[٢] وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ أي الله الذي خلق لكم أسماعكم وأبصاركم وقلوبكم قادر على إحيائكم بعد موتكم وحشركم إليه تعالى ليحاسبكم ويجزيكم، وقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[٣] يوبخهم تعالى على كفرانهم نعمه عليهم، إذ أوجد لهم أسماعًا وأبصارًا وأفئدة ولم يحمدوه على ذلك ولم يشكروه بالإيمان به وبطاعته.

(٧٩) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي خلقكم في الأرض، ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ إذ الذي قدر على خلقكم في الأرض قادر على خلقكم في أرض أخرى بعد أن يميتكم ويحشركم أي يجمعكم إليه ليحاسبكم ويجزيكم.

(٨٠) وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ[٤] وَيُمِيتُ﴾ أي يحيي النطفة بجعلها مضغة لحم ثم ينفخ فيها الروح فتكون بشرًا، ويميتكم بعد انقضاء آجالكم أليس هذا قادرًا على إحيائكم بعد موتكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ[٥] ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي ولله تعالى اختلاف الليل والنهار بإيجادهما وتعاقبهما وإدخال أحدهما في الآخر أفلا[٦] تعقلون أنَّ من هذه قدرته وتصاريفه في خلقه قادر على بعثكم بعد إماتتكم.

(٨١) وقوله تعالى: ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ[٧] مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝﴾ أي بدل أن يؤمنوا باليوم الآخر لِما دلَّ عليه من

---

(١) هذا الكلام الإلهي، استدلال وامتنان فقد عرّفهم بكمال قدرته وعظيم منته.

(٢) جمع الأبصار والأفئدة باعتبار تعدد الأفراد، ووحد السمع لأنه مصدر فجرى على الأصل.

(٣) جائز أن يكون لهم شكر قليل، وجائز أن يكون لا شكر لهم البتة، وإنما هو من باب الاحتراس كيلا ينقض الخبر بأدنى شكر منهم.

(٤) هذه بعض مظاهر القدرة الإلهية الموجبة لعبادته وحده، والموجبة لتصديقه فيما واعد به وأوعد من نعيم الآخرة وعذابها.

(٥) ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ هذه اللام: لام الاختصاص إذ لا قدرة لكائن سواه على اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر، والضياء والظلام، وما يجري فيهما من تصاريف الكائنات على اختلافها وتنوعها.

(٦) الاستفهام إنكاري ينكر عليهم عدم تعقلهم وفهمهم لدلائل التوحيد والبعث والجزاء، والفاء: للتفريع، إذ هذا الكلام متفرع على ما تقدم من الأدلة في السياق.

(٧) في هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة لأنّ الكلام انتقل من التقريع إلى حكاية ضلالهم، وبل: للإضراب الإبطالي أي: أبطل كونهم يعقلون مع إثبات إنكارهم للبعث مع علّة الإنكار وهي: تقليدهم لآبائهم.

هذه الأدلة التي لا يردها عاقل ولا ينكرها عقل عادوا فقالوا قولة المنكرين من الأمم قبلهم: ﴿٨٢﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا[1] مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ وهو إنكار صريح منهم للبعث الآخر.

﴿٨٣﴾ وقالوا أيضًا ما أخبر تعالى عنهم، وهم يعلنون تكذيبهم لله تعالى ورسوله: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن[2] قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي لقد وعد هذا آباؤنا من قبل ولم يحصل ما هذا الذي يقال إلا أساطير أي حكايات سطرها الأولون في كتبهم فهي تروى ويتناقلها الناس ولا حقيقة لها ولا وجود.

هداية الآيات:

١ - وجوب الشكر لله تعالى بطاعته على نعمه ومن بينها نعمة السمع والبصر والقلب.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بما تضمنت الآيات من الأدلة العديدة على ذلك.

٣ - سوء التقليد وآثاره في السلوك الإنساني بحيث ينكر المقلد عقله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٤ - ٩٢]

﴿٨٥﴾ ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: فتعلمون أن من له الأرض ومن فيها خلقًا وملكًا قادر على البعث وأنه لا إله إلا هو.

﴿٨٧﴾ ﴿قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أي كيف لا تتقونه بالإيمان به وتوحيده وتصديقه في البعث والجزاء.

﴿٨٨﴾ ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: أي ملك كل شيء يتصرف فيه كيف يشاء. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾: يحفظ ويحمي من يشاء ولا يُحمى عليه ويحفظ من أراده بسوء.

﴿٨٩﴾ ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾: أي كيف تخدعون وتصرفون عن الحق.

﴿٩٠﴾ ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ﴾: أي بما هو الحق والصدق في التوحيد والنبوة والبعث والجزاء.

﴿٩١﴾ ﴿وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾: أي قهرًا وسلطانًا. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: أي من الكذب كزعمهم أن لله ولدًا وأن له شريكًا وأنه غير قادر على البعث.

معنى الآيات:

﴿٨٤﴾ ما زال السياق الكريم في دعوة المشركين إلى التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء فقال تعالى لرسوله قل[3] لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث والجزاء ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ﴾ من المخلوقات ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ من هي له فسموه.

﴿٨٥﴾ ولما لم يكن لهم من بُدّ أن يقولوا ﴿لِلَّهِ﴾ أخبر تعالى أنهم سيقولون لله. إذًا قل لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[4] فتعلموا أن من له الأرض ومن فيها خلقًا وملكًا وتصرفًا لا يصلح أن يكون له شريك من عباده، وهو رب كل شيء ومليكه.

الجزء الثامن عشر — سورة المؤمنون

بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

٣٤٨

---

(١) قرأ الجمهور بهمزتين الأولى: همزة الاستفهام، والثانية: همزة إذ الشرطية وكذلك مع ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ إلاّ نافعًا وأبا عمرو فقد قرءا بهمزة واحدة اكتفاء بهمزة الاستفهام الأولى الدالة على الشرط عن همزة الجواب. والاستفهام إنكاري.

(٢) من قبل محمد ﷺ وجملة: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا جوابًا لمن قال: كيف رد الأولون والآخرون على هذا القول؟.

(٣) قل: يا رسولنا جوابًا لهم عما قالوه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ..﴾ إلخ..

(٤) أي: تتعظون فتعلموا.. إلخ..

(٨٦) وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي سَلْهُمْ من هو رب السماوات السبع وربّ العرش العظيم. الذي أحاط بالملكوت كله، أي من هو خالق السماوات السبع، ومن فيهن ومن خالق العرش العظيم ومالك ذلك كله والمتصرف فيه، ولما لم يكن من جواب سوى الله أخبر تعالى أنهم سيقولون الله أي خالقها وهي لله ملكًا وتدبيرًا وتصريفًا إذًا قل لهم يا رسولنا.

(٨٧) ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي الله وأنتم تنكرون عليه قدرته في إحياء الناس بعد موتهم وتجعلون له أندادًا تعبدونها معه[١]، أما تخافون عقابه أما تخشون عذابه.

(٨٨) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ[٢] كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي سلهم يا رسولنا فقل لهم من بيده ملكوت كل شيء أي ملك كل شيء وخزائنه؟ وهو يجير من يشاء أي يحمي ويحفظ من يشاء فلا يستطيع أحد أن يمسه بسوء ولا يجار عليه، أي ولا يستطيع أحد أن يجير أي يحمي ويحفظ عليه أحدًا أراده بسوء وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون أحدًا غير الله بيده ملكوت كل شيء ويجير ولا يجار عليه فاذكروه، ولما لم يكن لهم أن يقولوا غير الله، أخبر تعالى أنهم سيقولون الله أي[٣] هو الذي بيده ملكوت كل شيء وهي لله خلقًا وملكًا وتصرفًا إذًا قل لهم.

(٨٩) ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾؟ أي كيف تخدعون فتصرفون عن الحق فتعبدون غير الخالق الرازق، وتنكرون على الخالق إحياء الأموات وبعثهم وهو الذي أحياهم أولاً ثم أماتهم ثانيًا فكيف ينكر عليه إحياءهم مرة أخرى.

(٩٠) وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾[٤] أي ليس الأمر كما يتوهمون ويخيل إليهم بل أتيناهم بذكرهم الذي هو القرآن به يذكرون لأنه ذكرى وذكر، وبه يذكرون لأنه شرف لهم وإنهم لكاذبون في كل ما يدعون ويقولون.

(٩١) ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾[٥] ولا بنت، ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ ولا ينبغي ذلك، والدليل المنطقي العقلي الذي لا يرد هو أنه لو كان مع الله إله آخر لقاسمه الملك وذهب كل إله بما خلق، ولحارب بعضهم بعضًا وعلا بعضهم على بعض غلبة وقهرًا وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهًا لله تعالى عما يصفه به الواصفون من صفات العجز كاتخاذ الولد والشريك، والعجز عن البعث.

(٩٢) وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[٦] أي ما ظهر وما بطن، وما غاب وما حضر فلو كان معه آلهة أخرى لعرفهم وأخبر عنهم ولكن هيهات هيهات أن يكون مع الله إله آخر وهو الخالق لكل شيء والمالك لكل شيء. ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا

---

(١) وتجعلون لله البنات وأنتم تكرهون ذلك لأنفسكم فكيف ترضونه لربكم؟

(٢) الملكوت: من صفات المبالغة كالجبروت، والرهبوت، والمراد: ملك كل شيء، وهذا كله احتجاج على العرب لأنهم مقرّون بالله ربًا، والاستفهام فيه وفي الذي قبله: تقريري لأنهم مقرّون أن الله هو ربّ السماوات وأنه الذي بيده ملكوت كل شيء.

(٣) قرأ أبو عمرو: ﴿سيقولون الله﴾ في الموضعين الأخيرين، ولا خلاف في الموضع الأول لأنه سؤال بـ لمن الملك؟ ومن قرأ في الأخيرين بلفظ: الله فلأنّ السؤال بغير اللام فجاء الجواب على لفظه. ومن أجاب بـ الله، فإنه راعى المعنى إذ رب السموات: مالكها فهي له وملكوت كل شيء لله.

(٤) ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾: إضراب لإبطال كونهم مسحورين. أي: ليس الأمر كما يخيّل إليهم، وإنما أتيناهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون، فهذه علّة إعراضهم وعدم قبولهم لدعوة الحق، وقولهم فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٥) نفى عنه تعالى اتخاذ الولد كما نفى أن يكون له شريك في الألوهية بالبرهان العقلي وهو: أنه لو كان معه آلهة لاقتسموا الكون وذهب كل إله بما خلق، وقد يحارب بعضهم بعضًا ويعلو من يغلب، ولم يكن من مظاهر هذا شيء البتة فثبتت النتيجة وهي المذكورة أولاً: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

(٦) هذا من جملة أدلة نفي الشريك له تعالى إذ العالم بكل شيء كيف يكون له شريك ولا يعرفه؟ وقرأ حفص ﴿عَٰلِمِ﴾ بالجر على أنه نعت لاسم الجلالة في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، وقرأ نافع بالرفع على أنه خبر لمحذوف أي: هو عالم.

﴿يُشْرِكُونَ﴾[1] علوًا كبيرًا وتنزه تنزهًا عظيمًا.

هداية الآيات:

١ - مشروعية توبيخ المتغافل المتجاهل وتأنيب المتعامي عن الحق وهو قادر على رؤيته.

٢ - تقرير ربوبية الله تعالى وألوهيته.

٣ - تنزيه الله تعالى عن الصاحبة والولد وإبطال ترهات المفترين.

٤ - الاستدلال العقلي ومشروعيته والعمل به لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٣ - ١٠٠]

(٩٣) ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾: أي إن تُريني من العذاب.

(٩٦) ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: أي ادفع بالخصلة التي هي أحسن وذلك كالصفح والإعراض عنهم.

(٩٧) ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾: أي من وساوسهم التي تخطر بالقلب فتكاد تفسده.

(٩٨) ﴿أَن يَحْضُرُونِ﴾: أي في أموري حتى لا يفسدوها علي.

(٩٩) ﴿جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾: أي رأى علاماته ورآه.

(١٠٠) ﴿بَرْزَخٌ﴾: أي حاجز يمنع وهو مدة الحياة الدنيا، وإن عاد بالبعث فلا عمل يقبل.

معنى الآيات:

(٩٣) في هذا السياق تهديد للمشركين الذين لم ينتفعوا بتلك التوجيهات التي تقدمت في الآيات قبل هذه، فأمر الله تعالى رسوله أن يدعوه ويضرع إليه إن هو أبقاه حتى يحين هلاك قومه، أن لا يهلكه معهم فقال: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا[2] تُرِيَنِّي﴾ أي أن تريني ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ أي من العذاب.

(٩٤) ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بل أخرجني منهم وأبعدني عنهم حتى لا أهلك معهم.

(٩٥) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ[3] مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ يخبر تعالى رسوله بأنه قادر على إنزال العذاب الذي وعد به المشركين إذا لم يتوبوا قبل حلوله بهم.

(٩٦) وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي[4] هِيَ أَحْسَنُ﴾ هذا قبل أمره بقتالهم: أمره بأن يدفع ما يقولونه له في الكفر والتكذيب بالخُلَّة والخصلة التي هي أحسن وذلك كالصفح والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم. وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي من قولهم لله شريك وله ولد، وأنه ما أرسل محمدًا رسولاً، وأنه لا بعث ولا حياة ولا نشور يوم القيامة.

(٩٧) - (٩٨) وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ[5] الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝﴾ لما علمه الاحتراز والتحصُّن من المشركين بالصفح والإعراض أمره أن يتحصن من الشياطين بالاستعاذة بالله تعالى فأمره أن يقول: ﴿رَبِّ﴾ أي يا رب ﴿أَعُوذُ[6] بِكَ﴾ أي أستجير بك من همزات الشياطين أي وساوسهم حتى لا يفتنوني عن ديني وأعوذ بك أن يحضروا أمري فيفسدوه عليّ.

(٩٩) وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ أي إذا حضر أحد أولئك المشركين الموت أي رأى ملك الموت وأعوانه وقد حضروا لقبض

---

(١) ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما: مصدرية، والمعنى: تعالى عن إشراكهم. أي: هو منزه عن أن يكون له شريك.

(٢) أصل إما: إن ما، إن: شرطية، وما: صلة لتقوية الشرط، وجواب الشرط فلا تجعلني مع القوم الظالمين، علمه ربه هذا الدعاء ليدعو به. أي: إذا أردت بهم عقوبة فأخرجني عنهم وأبعدني عنهم. وفي الآية تهديد عظيم للمشركين.

(٣) الجملة تحمل وعيدًا آخر مؤكدًا للأول الذي تضمنته جملة: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾.

(٤) هذا بالنسبة إلى الأمة فهو محكم باق، وهو الصفح وعدم المؤاخذة فيما بينهم وأمّا بالنسبة للمشركين والكافرين، فهو موادعة لهم لا غير إلى أن يؤمر بقتالهم، وقد أمر به فيما بعد.

(٥) جمع همزة، والهمز في اللغة النخس والدفع، يقال: همزه ونخسه ودفعه، قال الليث: الهمز: كلام من وراء القفا، واللمز: مواجهة، والشيطان يوسوس بوساوسه في صدر ابن آدم، الهمس لغة: الكلام الخفي يقال: همس في أذنه بكذا: أسرّ به إليه.

(٦) هذا التعوذ، وإن خوطب به الرسول ﷺ فهو لأمته معه بل هي أحوج منه إليه، وهمزات الشيطان: هي سورات الغضب التي لا يملك الإنسان بها نفسه وقد شكا خالد بن الوليد للنبي ﷺ أنه كان يؤرق من الليل فأمره أن يقول: «**أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شرّ عباده ومن همزات الشياطين وأعوذ بك ربّ أن يحضرون**».

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ الْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

ترتيبها ٢٤ — سُورَةُ النُّورِ — آياتها ٦٤

روحه ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ[1]﴾ أي أخروا موتي كي أعمل صالحًا فيما تركت العمل فيه بالصلاح.

(١٠٠) وفيما ضيعت من واجبات قال تعالى ردًا عليه ﴿كَلَّآ﴾[2] أي لا رجوع أبدًا، ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا فائدة منها ولا نفع فيها، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز مانع من العودة إلى الحياة وهو أيام الدنيا كلها حتى إذا انقضت عادوا إلى الحياة، ولكن ليست حياة عمل وإصلاح ولكنها حياة حساب وجزاء هذا معنى قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ[3] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

هداية الآيات:

١ - مشروعية الدعاء والترغيب فيه وإنه لذو جدوى للمؤمن.

٢ - استحباب دفع السيء من القول أو الفعل بالصفح والإعراض عن صاحبه.

٣ - مشروعية الاستعاذة بالله تعالى من وساوس الشياطين ومن حضورهم أمر العبد الهام حتى لايفسدوه عليه بالخواطر السيئة.

٤ - موعظة المؤمن بحال من يتمنى العمل الصالح عند الموت فلا يُمكن منه فيموت بندمه وحسرته ويلقى جزاء تفريطه حرمانًا وخسرانًا في الدار الآخرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠١ - ١٠٧]

(١٠١) ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾: أي في القرن المعبر عنه بالبوق نفخة القيام من القبور للحساب والجزاء.

(١٠٢) ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: أي الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة.

(١٠٤) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي تحرقها. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾: الكالح من أحرقت النار جلدة وجهه وشفتيه فظهرت أسنانه.

(١٠٥) ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: أي يوبخون ويذكرون بالماضي ليحصل لهم الندم والمراد بالآيات آيات القرآن.

(١٠٦) ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾: أي الشقاوة الأزلية التي تكتب على العبد في كتاب المقادير قبل وجوده.

(١٠٧) ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا﴾: أي من النار فإن عدنا إلى الشرك والمعاصي.

معنى الآيات:

(١٠١) ما زال السياق في تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء والدعوة إلى ذلك وعرض الأدلة وتبيينها وتنويعها، إذ لا يمكن استقامة إنسان في تفكيره وخلقه وسلوكه على مناهج الحق والخير إلا إذا آمن إيمانًا راسخًا بوجود الله تعالى ووجوب طاعته وتوحيده في عباداته، وبالواسطة في ذلك وهو الوحي والنبي الموحى إليه، وبالبعث الآخر الذي هو دور الحصاد لما زرع الإنسان في هذه الحياة من خير وشر فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ[4] فِي ٱلصُّورِ

(١) ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾: هذا تمنٍّ للحياة الدنيا بعد ذهابها، وهيهات هيهات أن تعودا! وقوله: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾: خاطب الربّ تعالى بضمير التعظيم، وتعظيم المخاطب شائع في كلام العرب.

(٢) ﴿كَلَّآ﴾: ردع للسامع ليعلم يقينًا إبطال ما يطلبه الكافر من الرجوع.

(٣) البرزخ: هو ما بين الدنيا والآخرة إذ كل ما حجز بين شيئين قيل فيه: برزخ.

(٤) هذه النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والحشر، والتي قبلها هي نفخة الفناء، والتي بعد نفخة الصعق، والأخيرة نفخة الحساب والجزاء.

﴿فَلَآ أَنسَابَ[١] بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ هذا عرض لما يجري في الآخرة فيخبر تعالى أنه إذا نفخ إسرافيل بإذن الله في الصور الذي هو القرن أي كقرن الشاة لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ فلشدة الهول وعظيم الفزع لم يبق نسب[٢] يراعى أو يلتفت إليه بل كل واحد همه نفسه فقط، ولا يسأل حميم حميمًا وسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ قالت: هل تذكرون أهليكم يا رسول الله يوم القيامة فقال أما عند ثلاثة فلا: إذا تطايرت الصحف، وإذا وضع الميزان وإذا نصب الصراط ومعنى هذا الحديث واضح والشاهد منه ظاهر وهو أنهم لا يتساءلون.

(١٠٢) وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي من رجحت كفة حسناته على كفة سيئاته أفلح أي نجا من النار وأدخل الجنة ومن خفت موازينه بأن حصل العكس فقد خسر وأبعد عن الجنة وأدخل النار وهذا معنى قوله تعالى:

(١٠٣) - (١٠٤) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ تَلْفَحُ[٣] وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ[٤]﴾ أي تحرق وجوههم النار فيكلحون باحتراق شفاههم وتظهر أسنانهم وهو أبشع منظر وأسوأه.

(١٠٥) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ[٥] ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؟ هذا يقال لهم تأنيبًا وتوبيخًا وهم في جهنم وهو عذاب نفساني مع العذاب الجثماني ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أما كان رسلنا يتلون عليكم آياتنا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ بأقوالكم وأعمالكم أو بأعمالكم دون أقوالكم فلم تحرموا ما حرم الله ولم تؤدوا ما أوجب الله، ولم تنتهوا عما نهاكم عنه.

(١٠٦) وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا[٦]﴾ هذا جوابهم كالمعتذرين بأن شقاءهم كان بقضاء وقدر فلذا حيل بينهم وبين الإيمان والعمل الصالح. وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ هذا قولهم أيضًا وهو اعتراف صريح بأنهم كانوا ضالين.

(١٠٧) ثم قالوا ما أخبر تعالى به عنهم بقوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ هذا دعاؤهم وهم في جهنم يسألون ربهم أن يردهم إلى الدنيا ليؤمنوا ويستقيموا[٧] على صراط الله المستقيم الذي هو الإسلام وسوف ينتظرون جواب الله تعالى ألف سنة، وهو ما تضمنته الآيات التالية.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء من خلال عرض أحداثها في هذه الآيات.

٢ - تقرير أن وزن الأعمال يوم القيامة حق وإنكاره بدعة مكفرة.

٣ - تقرير أن إسرافيل ينفخ في الصور وإنكار ذلك وتأويله بلفظ الصور كما فعل المراغي عند تفسيره هذه الآية مع الأسف بدعة من البدع المنكرة ولذا نبهت عليها هنا حتى لا يغتر بها المؤمنون.

٤ - الاعتذار بالقدر لا ينفع صاحبه، إذ القدر مستور فلا ينظر إليه والعبد مأمور فليؤتمر بأمر الله ورسوله ولينته بنهيهما ما دام العبد

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون في الدنيا: من أي قبيلة أنت ولا من أي نسب ولا يتعارفون لهول ما أذهلهم!!

(٢) ورد ما يخصص هذا العموم وهو قوله ﷺ: **«كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»** رواه الطبراني فإنه إن صح يكون مخصصًا لعموم الآية. والله أعلم.

(٣) (تلفح) وتنفح: بمعنى واحد لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ إلاّ أن تلفح أبلغ من تنفح وأشد.

(٤) الكلوح: تكشر في عبوس، والكالح الذي تشمّرت شفتاه وبدت أسنانه. قال ابن مسعود: أرأيت الرأس المشيط بالنار وقد بدت أسنانه وقلصت شفتاه؟

(٥) الاستفهام للتقريع والتأنيب، والتذكير بما يزيد في حسرتهم وعظيم محنتهم وبلائهم.

(٦) قرأ ابن مسعود، وبها قرأ الكوفيون إلا حفصًا: **﴿شقاوتنا﴾** وقرأ الجمهور: ﴿شِقْوَتُنَا﴾.

(٧) وما يستقيمون لو ردوا لعلم الله تعالى بهم إذ قال عز وجل: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

قادرًا على ذلك فإن عجز فهو معذور.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٨ ـ ١١١]

(١٠٨) ﴿اخْسَئُوا﴾: أي ابعدوا في النار أذلاء مخزيين.

(١٠٩) ﴿فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي﴾: هم المؤمنون المتقون.

(١١٠) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾: أي جعلتموهم محط سخريتكم واستهزائكم.

(١١١) ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾: أي على الإيمان والتقوى. ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾: أي الناجون من النار المنعمون في الجنة.

معنى الآيات:

(١٠٧) ـ (١٠٨) قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝﴾[1].

هذا جواب سؤالهم المتقدم حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ[2] ۝﴾.

(١٠٩) ـ (١١٠) وعلل تعالى لحكمه فيهم بالإبعاد في جهنم أذلاء مخزيين بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي﴾ وهو فريق المؤمنين المتقين[3] يقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا ﴿وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي يعبدوننا ويتقربون إلينا ويتوسلون بإيمانهم وصالح أعمالهم ويسألوننا المغفرة والرحمة وكنتم أنتم تضحكون من عبادتهم ودعائهم وضراعتهم إلينا وتسخرون[4] منهم إني جزيتهم اليوم بصبرهم على طاعتنا مع ما يلاقون منكم من اضطهاد وسخرية.

(١١١) ﴿أَنَّهُمْ[5] هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ برضواني في جناتي لا غيرهم.

هداية الآيات:

١ ـ بيان مدى حسرة أهل النار لما يجابون بكلمة: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

٢ ـ فضيلة التضرع إلى الله تعالى ودعائه والتوسل إليه بالإيمان وصالح الأعمال.

٣ ـ حرمة السخرية بالمسلم والاستهزاء به والضحك منه.

٤ ـ فضيلة الصبر ولذا ورد أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٢ ـ ١١٨]

(١١٢) ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي كم سنة لبثتموها في الأرض أحياء وأمواتًا في قبوركم؟.

(١١٣) ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾: يريدون الملائكة التي كانت تعد، وهم الكرام الكاتبون أو من يعد أما نحن فلم نعرف.

(١١٥) ﴿خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾: أي لا لحكمة بل لمجرد العيش واللعب كلا.

(١١٦) ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾: أي تنزه الله عن العبث.

(١١٧) ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾: الجملة صفة لـ «إلهًا آخر» لا مفهوم لها إذ لا يوجد برهان ولا حجة على صحة عبادة غير الله تعالى إذ الخلق كله مربوب لله مملوك له. ﴿حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾: أي مجازاته عند ربه هو الذي يجازيه بشركه به ودعاء غيره.

معنى الآيات:

(١١٢) ما زال السياق الكريم مع أهل النار المنكرين للبعث والتوحيد بقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝﴾؟ هذا سؤال طرح عليهم أي سألهم ربهم وهو أعلم بلبثهم كم لبثتم من سنة في الدنيا مدة حياتكم فيها ومدة لبثكم أمواتًا في قبوركم؟

(١١٣) فأجابوا قائلين: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ

---

(١) أي: ابعدوا في جهنم كما يقال لكلب: اخسأ أي: ابعد، يقال: خسأ الكلب وأخساه لازم ومتعدّ. يروى عن ابن المبارك عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: إن أهل جهنم يدعون مالكًا فلا يجيبهم أربعين عامًا ثمّ يرد عليهم: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ والصحيح أنه يجيبهم بعد ألف سنة، وعندها ينقطع رجاؤهم ودعاؤهم ويقبل بعضهم على بعض فيتنابحون كالكلاب وقد أطبقت عليهم النار.

(٢) الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وعابد غير الله تعالى واضع العبادة في غير موضعها فلذا هو ظالم. والشرك: ظلم عظيم.

(٣) كبلال وصهيب وعمّار وخباب من فقراء المسلمين الذين كان أبو جهل وأصحابه يهزؤون بهم ويسخرون منهم.

(٤) في الآية دليل على حرمة السخرية بالمسلم والاستهزاء به.

(٥) قرىء بفتح الهمزة أي: لأنهم هم الفائزون وقرىء بكسرها على الابتداء.

بَعۡضَ[(١)] يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ[(٢)] ٱلۡعَآدِّينَ﴾ أي من كان يعد من الملائكة أو من غيرهم، وهذا الاضطراب منهم عائد إلى نكرانهم للبعث وكفرهم في الدنيا به أولاً وثانيًا أهوال الموقف وصعوبة الحال وآلام العذاب جعلتهم لا يعرفون أما أهل الإيمان فقد جاء في سورة الروم أنهم يجيبون إجابة صحيحة إذ قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝﴾.

﴿١١٤﴾ وقوله تعالى: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ[(٣)]﴾ هذا بالنظر إلى ما تقدم من عمر الدنيا، فمدة حياتهم وموتهم إلى بعثهم ما هي إلا قليل.

﴿١١٥﴾ وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ[(٤)] أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ[(٥)] عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ۝﴾، هذا منه تعالى توبيخ لهم وتأنيب على إنكارهم للبعث أنكر تعالى عليهم حسبانهم وظنهم أنهم لم يخلقوا للعبادة وإنما خلقوا للأكل والشرب والنكاح كما هو ظن كل الكافرين وأنهم لا يبعثون ولا يحاسبون ولا يجزون بأعمالهم.

﴿١١٦﴾ وقوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى[(٦)] ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي عن العبث وعن كل ما لا يليق بجلاله وكماله وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ أي مالك العرش الكريم ووصف العرش بالكرم سائغ كوصفه بالعظيم والعرش سرير الملك وهو كريم لما فيه من الخير وعظيم إذ هو أعظم من الكرسي والكرسي وسع السموات والأرض، ولم لا يكون العرش كريمًا وعظيمًا ومالكه جل جلاله هو مصدر كل كرم وخير وعظمة.

﴿١١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ﴾ أي ومن يعبد مع الله إلهًا آخر بالدعاء أو الخوف أو الرجاء أو النذر والذبح، وقوله: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ﴾ أي لا حجة له ولا سلطان على جواز عبادة ما عبده، ومن أين يكون له الحجة والبرهان على عبادة غير الله والله رب كل شيء ومليكه وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾ أي الله تعالى ربه يتولى حسابه ويجزيه بحسب عمله وسيخسر خسرانًا مبينًا لأنه كافر والكافرون لا يفلحون أبدًا فلا نجاة من النار ولا دخول للجنة بل حسبهم جهنم وبئس المهاد.

﴿١١٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ[(٧)]﴾ أي أمر الله تعالى رسوله أن يدعو بهذا الدعاء: رب اغفر لي وارحمني واغفر لسائر المؤمنين وارحمهم أجمعين فأنت خير الغافرين والراحمين.

هداية الآيات:

١ - عظم هول يوم القيامة وشدة الفزع فيه فليتق ذلك بالإيمان وصالح الأعمال.

٢ - تنزه الله تعالى عن العبث واللهو واللعب.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٤ - كفر وشرك من يدعو مع الله إلهًا آخر.

٥ - الحكم بخسران الكافرين وعدم فلاحهم.

---

(١) هذا السؤال موجه للمشركين في عرصات القيامة، والسؤال عن لبثهم في قبورهم، وجائز أن يكون عن مدة حياتهم في الدنيا.

(٢) قيل: أنساهم شدة العذاب مدة مكثهم في قبورهم، وقيل: استقصروا مدة لبثهم في الدنيا وفي القبور ورأوه يسيرًا بالنسبة إلى ما هم بصدده.

(٣) هذا بالنظر إلى الدار الآخرة لا يعتبر شيئًا يذكر.

(٤) روي بضعف أن ابن مسعود مرّ بمصاب مبتلى فقرأ في أذنه: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ﴾ الآية إلى ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ فبرأ فقال رسول الله ﷺ: «**ماذا قرأت في أذنه؟**» فأخبره فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقنًا قرأها على جبل لزال**».

(٥) **أي**: مهملين كما خلق البهائم لا ثواب لها ولا عقاب عليها كقوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾.

(٦) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾: أي تنزه وتقدس الله الملك الحق عن الأولاد والشركاء والأنداد، وعن أن يخلق شيئًا عبثًا أو سفهًا.

(٧) نظرت إلى حذف المفعول في: ﴿ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ﴾ فانقدح في نفسي أن لحذفه سرًا وهو: أن يكون عامًا في المؤمنين والمؤمنات لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

٣٥٠

٦ - استحباب الدعاء بالمغفرة والرحمة للمؤمنين والمؤمنات.

❊ ❊ ❊

سورة النور[1]

مدنية

وآياتها أربع وستون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٣]

(١) ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾: أي هذه سورة أنزلناها. ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾: أي فرضنا ما فيها من أحكام. ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾: أي وأنزلنا ضمنها آيات أي حججًا واضحات تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: أي تتعظون فتعملون بما في السورة من أحكام.

(٢) ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾: من أفضت إلى رجل بغير نكاح شرعي وهي غير محصنة. ﴿مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾: أي ضربة على جلد ظهره. ﴿رَأْفَةٌ﴾: شفقة ورحمة. ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾: أي إقامة الحد عليهما. ﴿طَآئِفَةٌ﴾: أي عدد لا يقل عن ثلاثة أنفار من المسلمين والأربعة أولى من الثلاثة.

(٣) ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾: أي إلا زانية مثله أو مشركة أي لا يقع وطء إلاَّ على مثله[2].

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ أي هذه سورة من كتاب الله أنزلناها أي على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أي وفرضنا ما اشتملت عليه من أحكام على أمة الإسلام، وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتعظون فتعملون بما حوته هذه السورة من أوامر ونواه وآداب وأخلاق.

(٢) وقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ[3] وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ[4] وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ أي من زنت برجل منكم أيها المسلمون وهما بكران حُرَّان غير محصنين ولا مملوكين فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة بعصا لا تشين جارحة ولا تكسر عضوًا أي جلدًا غير مبرح، وزادت السنة تغريب سنة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تشفقوا عليهما فتعطلوا حَدَّ الله تعالى وتحرموهما من التطهير بهذا الحد لأن الحدود كفارة لأصحابها، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي فأقيموا عليهما الحد وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ أي إقامة الحد ﴿طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ثلاثة أنفار فأكثر وأربعة أولى لأن شهادة الزنا تثبت بأربعة شهداء وكلما كثر العدد كان أولى وأفضل.

(٣) وقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ أي لا يطأ إلا

---

(١) روي أن عمر رضي الله عنه كتب يومًا إلى أهل الكوفة: علّموا نساءكم سورة النور. كما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن سورة النور، والغزل.

(٢) أي: إلا مثل الواطىء، يريد الزاني بالزانية والمشرك بالمشركة.

(٣) قرأ الجمهور: برفع الزانية وقرأ عيسى الثقفي: بالنصب وهو أوجه عند سيبويه لأنه نحو: زيدًا أضربه، وتقدير الرفع: مما يتلى عليكم الزانية والزاني. على تقديم الخبر، وقدمت الزانية لأنّ الزنى في النساء أعرّ وأقبح وأضر للحمل، وأل: في الزانية والزاني: للجنس ليعم سائر الزناة، على مرور الأعصر والأيام.

(٤) لا خلاف في أنّ الذي يقوم بإقامة هذا الحد هو الإمام أو نائبه والسادة في العبيد، وأن السوط يكون بين اللين والشدة وسطًا بينهما، ولا يتعدى هذا الحد إلا أن يجرؤ الناس على الجرائم ويكثر الشر والفساد فيعزرون بما يردعهم.

مثله من الزواني أو مشركة لا دين لها، والزانية أيضًا لا يطأها إلا زانٍ مثلها أو مشرك ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حرم الله الزنا على المؤمنين والمؤمنات ولازم هذا أن لا نزوج زانيًا من عفيفة إلا بعد توبته[١]، ولا نزوج زانية من عفيف إلا بعد توبتها[٢].

هداية الآيات:

١ - بيان حكم الزانية والزاني البكرين الحرين وهو جلد مائة وتغريب عام وأما الثيبان فالرجم إن كانا حرين أو جلد خمسين[٣] جلدة لكل واحد منهما إن كانا غير حرين.

٢ - وجوب إقامة هذا الحد أمام طائفة من المؤمنين.

٣ - لا يحل تزويج الزاني إلا بعد توبته، ولا الزانية إلا بعد توبتها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤ ـ ٥]

﴿٤﴾ ﴿يَرْمُونَ﴾: أي يقذفون.

﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: أي العفيفات والرجال هنا كالنساء. ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ﴾: أي حدًا عليهم واجبًا. ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾: لسقوط عدالتهم بالقذف للمؤمنين والمؤمنات.

﴿٥﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾: فإنهم بعد توبتهم يعود إليهم اعتبارهم وتصح شهادتهم.

معنى الآيتين:

﴿٤﴾ بعد بيان حكم الزناة بين تعالى حكم القذف فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾[٤] أي والذين يرمون المؤمنين والمؤمنات بالفاحشة وهي الزنا واللواط بأن يقول فلان زان أو لائط فيقذفه بهذه الكلمة[٥] الخبيثة فإن عليه أن يحضر شهودًا أربعة يشهدون أمام الحاكم على صحة ما رمى به أخاه المؤمن فإن لم يأت بالأربعة شهود أقيم عليه الحد المذكور في الآية: وهو جلد ثمانين جلدة على ظهره وتسقط عدالته حتى يتوب وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾ أي عن طاعة الله ورسوله.

﴿٥﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ بأن كذبوا أنفسهم بأنهم ما رأوا الفاحشة وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ فيغفر لهم بعد التوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم يرحمهم ولا يعذبهم بهذا الذنب العظيم بعدما تابوا منه.

هداية الآيتين:

١ - بيان حد القذف وهو جلد ثمانين جلدة لمن قذف مؤمنًا أو مؤمنة بالفاحشة وكان المقذوف بالغًا عاقلاً[٦] مسلمًا عفيفًا أي لم يعرف

---

(١) قيل: إن هذه الآية منسوخة بآية: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ وما في التفسير أولى وأظهر، وبه العمل.

(٢) الجمهور على أن من زنى بامرأة يجوز له أن يتزوجها بعد استبرائها بحيضة، وإذا زنت امرأة الرجل أو زنى هو لا يفسد نكاحهما.

(٣) لقوله تعالى من سورة النساء: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ والمراد به: الإماء والعبيد مثلهن، ولما كان الموت لا ينصّف فعلم أنه الجلد خمسين جلدة.

(٤) قيل: خص النساء بهذا وإن كان الرجال يشاركونهن في الحكم لأنّ القذف فيهن أشنع وأنكر للنفوس ومن حيث هو هوى الرجال.

(٥) اختلف في التعريض هل يوجب الحد أو لا؟ فمالك يرى إيجابه إذا حصلت المعرة بالتعريض وإلا فلا، وأخذ التعريض من آية: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قاله قوم شعيب لنبيهم شعيب عليه السلام تعريضًا به لا مدحًا له. ومن أمثلة التعريض قول الشاعر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

شبهه بالنساء.

وقال آخر:

قبيلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

اتهم القبيلة بالضعف وهو من أحوال النساء.

(٦) للقذف شروط تسعة: العقل والبلوغ: وهما للقاذف والمقذوف سواء إذ هما شرط التكليف، وشرطان في الشيء المقذوف به وهما: أن يكون القذف بوطىء يوجب الحد وهو الزنى واللواط أو بنفيه من أبيه، وخمسة في المقذوف وهي: العقل والبلوغ كما تقدّم والإسلام والحرية والعفة.

بالفاحشة قبل رميه بها[(١)].

٢ ـ سقوط عدالة القاذف إلا أن يتوب فإنه تعود إليه عدالته.

٣ ـ قبول توبة[(٢)] التائب إن كانت توبته صادقة نصوحًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ ـ ١٠]

(٦) ﴿يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾: أي يقذفونهن بالزنا كأن يقول زنت أو الحمل الذي في بطنها ليس منه. ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: أي فيما رماها به من الزنى.

(٧) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾: أي والشهادة الخامسة.

(٨) ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾: أي يدفع عنها حد القذف وهو هنا الرجم حتى الموت. ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾: أي شهادتها أربع شهادات.

(٩) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾: هي قولها غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

(١٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: أي لفضح القاذف أو المقذوف ببيان كذب أحدهما.

معنى الآيات:

(٦) بعد بيان حكم حد القذف[(٣)] العام ذكر تعالى حكم القذف الخاص وهو قذف الرجل زوجته فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ[(٤)] أَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي بالفاحشة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ[(٥)]﴾ أي من يشهد معهم إلا أنفسهم أي إلا القاذف وحده فالذي يقوم مقام الأربعة شهود هو أن يشهد أربع[(٦)] شهادات قائلاً: أشهد[(٧)] بالله لقد رأيتها تزني أو زنت أو هذا الولد أو الحمل ليس لي ويلتعن فيقول في الخامسة:

(٧) ﴿لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي فيما رمى به زوجته.

(٨) ـ (٩) وهنا يعرض على الزوجة أن تقر بما رماها به زوجها ويقام عليها حد القذف وهو هنا الرجم، أو تشهد أربع شهادات بالله أنها ما زنت، والخامسة تدعو على نفسها بغضب الله فتقول: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما رماها به، وبذلك درأت عنها العذاب الذي هو الحد ويفرق بينهما فلا يجتمعان أبدًا.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ[(٨)] عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ جواب لولا محذوف تقديره لعاجلكم بالعقوبة ولفضح أحد الكاذبين: ولكن الله تواب رحيم فستر عليكم ليتوب من يتوب منكم ورحمكم بهذا التشريع العادل الرحيم.

هداية الآيات:

١ ـ بيان حكم قذف الرجل امرأته ولم يكن له أربعة شهود يشهدون معه على ما رمى به زوجته وهو اللعان.

٢ ـ بيان كيفية اللعان، وأنه موجب

---

(١) الجمهور على أنه لا حد على من قذف كتابيًا ذكرًا أو أنثى والإجماع على عدم إقامة الحد على من قذف كافرًا لأنه لا يُحْرِمُ الزنى فكيف يحد على من قذف به؟

(٢) إن شهد أربعة وأقيم الحد على المقذوف ثم أقرّ أحد الشهود بأنه كان كاذبًا فإن لأولياء الدم بين قتله وبين العفو عنه وبين أخذ ربع الدية منه. هذا مذهب مالك وبه قال أحمد: رحمهما الله تعالى.

(٧) قرأ الجمهور بتشديد: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ و﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ بلفظ المصدر في: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ وتقدر باء الجر قبل أنّ لأنها هي التي اقتضت فتح أنّ، وقرأ نافع: بتخفيف نون أن في الموضعين، وغضب بصيغة الماضي.

(٣) ويعرف باللعان: لأن كلاً من الزوجين يلعن نفسه إن كان كاذبًا.

(٤) نزلت هذه الآيات في قضية عويمر العجلاني مع زوجته خولة بنت عاصم أو قيس. فقد جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فيقتلونه أم كيف يفعل؟ قال رسول الله ﷺ: «**قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك فاذهب فأت بها**»، فأتى بها وتلاعنا وكانت هذه الحادثة في شعبان سنة تسع عقب القفول من غزوة تبوك.

(٥) حذف متعلق شهداء لظهوره من السياق أي: شهداء على ما ادعوه مما رموا به أزواجهم.

(٦) قامت الأربع شهادات مقام أربعة شهود الذين لا بد منهم في القذف بالفاحشة خاصة، فشهادة القتل والسرقة وغيرها يكتفى بشاهدين، وفي القذف لا بد من أربعة شهود.

(٧) سميت الأيمان هنا شهادة لأنها أقيمت مقام الشهود وأصبحت بدلاً عنها.

(٨) هذا تذييل لما مرّ من الأحكام العظيمة الدالة على تفضل الله على عباده المؤمنين بأفضل تشريع وأحسن حل لأخطر مشكلة اجتماعية.

لإقامة الحد، إن لم ترد الزوجة الدعوى بأربع شهادات والدعاء عليها في الخامسة وقولها: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٣ - في مشروعية اللعان مظهر من مظاهر حسن التشريع الإسلامي وكماله وأن مثله لن يكون إلا بوحي إلهي وفيه إشارة إلى تقرير النبوة المحمدية.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ ـ ١٨]

﴿١١﴾ ﴿بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾: الإفك الكذب المقلوب وهو أسوأ الكذب، والعصبة الجماعة. ﴿شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: الشر ما غلب ضرره على نفعه، والخير ما غلب نفعه على ضرره، والشر المحض النار يوم القيامة والخير المحض الجنة دار الأبرار. ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾: أي معظمه وهو ابن أُبي كبير المنافقين.

﴿١٢﴾ ﴿لَّوْلَآ﴾: أداة تحضيض وحث بمعنى هَلاَّ.

﴿١٤﴾ ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾: أي فيما تحدثتم بتوسع وعدم تحفظ.

﴿١٥﴾ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾: أي تتلقونه أي يتلقاه بعضكم من بعض. ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾: أي من صغائر الذنوب وهو عند الله من كبائرها لأنه عرض مؤمنة هي زوج رسول الله ﷺ.

﴿١٦﴾ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: كلمة تقال عند التعجب والمراد بها تنزيه الله تعالى عما لا يليق به. ﴿بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾: البهتان الكذب الذي يحيّر من قيل فيه.

﴿١٧﴾ ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي ينهاكم نهيًا مقرونًا بالوعيد حتى لا تعودوا لمثله أبدًا.

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى حكم القذف العام والخاص ذكر حادثة الإفك التي هلك فيها خلق لا يحصون عدًا إذ طائفة الشيعة الروافض ما زالوا يهلكون فيها جيلاً بعد جيل إلى اليوم إذ ورَّث فيهم رؤساء الفتنة الذين اقتطعوا من الإسلام وأمته جزءًا كبيرًا سموه شيعة آل البيت تضليلاً وتغريرًا فأخرجوهم من الإسلام باسم الإسلام وأوردوهم النار باسم الخوف من النار فكذبوا الله ورسوله وسبوا زوج رسول الله واتهموها بالفاحشة وأهانوا أباها ولوثوا شرف زوجها ﷺ بنسبة زوجه إلى الفاحشة.

وخلاصة الحادثة أن رسول الله ﷺ بعد أن فرض الحجاب على النساء المؤمنات خرج إلى غزوة تدعى غزوة بني المصطلق أو المريسيع، ولما كان عائدًا منها وقارب المدينة النبوية نزل ليلاً وارتحل، ولما كان الرجال يرحلون النساء على الهوادج وجدوا هودج عائشة رضي الله عنها فظنوها فيه فوضعوه على البعير وساقوه ضمن الجيش ظانين أن عائشة فيه، وما هي فيه، لأنها ذكرت عقدًا لها قد سقط منها في مكان تبرزت فيه فعادت تلتمس عقدها فوجدت الجيش قد رحل فجلست في مكانها لعلهم إذا افتقدوها رجعوا إليها وما زالت جالسة تنظر حتى جاء صفوان بن معطل السلمي رضي الله عنه وكان الرسول ﷺ قد عينه في الساقة وهم جماعة يمشون وراء الجيش بعيدًا عنه حتى إذا تأخر شخص أو ترك متاع أو ضاع شيء يأخذونه ويصلون به إلى المعسكر فنظر فرآها من بعيد فأخذ يسترجع أي يقول إنا لله وإنا إليه راجعون آسفًا لتخلف عائشة عن الركب قالت رضي الله عنها فتجلببت بثيابي وغطيت وجهي وجاء فأناخ راحلته فركبتها وقادها بي حتى انتهينا إلى رسول الله ﷺ في المعسكر، وما إن رآني ابن أُبي لعنة الله عليه حتى قال والله ما نجت منه ولا نجا منها، وروج للفتنة فاستجاب له ثلاثة أنفار فرددوا ما قال وهم حسان بن ثابت

ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش.

⑪ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ هو ابن أُبي المنافق وتورط آخرون ولكن هؤلاء الأربعة هم الذين أشاعوا وراجت الفتنة في المدينة واضطربت لها نفس رسول الله ﷺ ونفوس أصحابه وآل بيته فأنزل الله هذه الآيات في براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وبراءة صفوان رضي الله عنه، ومن خلال شرح الآيات تتضح جوانب القصة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ[1] جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ[2] مِّنكُمْ﴾ أي إن الذين جاؤوا بهذا الكذب المقلوب إذ المفروض أن يكون الطهر والعفاف لكل من أم المؤمنين وصفوان بدل الرمي بالفاحشة القبيحة فقلبوا القضية فلذا كان كذبهم إفكًا وقوله: ﴿عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة لا يقل عادة عددهم على عشرة أنفار إلا أن الذين روجوا الفتنة وتورطوا فيها حقيقة وأقيم عليهم الحد أربعة ابن أُبي وهو الذي تولى كبره منهم وتوعده الله بالعذاب العظيم لأنه منافق كافر مات على كفره ونفاقه، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب رضي الله عنها وحسان بن ثابت رضي الله عنه، وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ لما نالكم من هم وغم وكرب من جرائه ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما كان له من العاقبة الحسنة وما نالكم من الأجر العظيم من أجل عظم المصاب وشدة الفتنة وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ على قدر ما قال وروج وسيجزى به إن لم يتب الله تعالى عليه ويعفو عنه.

وقوله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ[3] مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عبدالله بن أُبيّ ابن سلول رئيس المنافقين عليه لعنه الله.

⑫ وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ[4] ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ هذا شروع في عتاب القوم وتأديبهم وتعليم المسلمين وتربيتهم فقال عز وجل: ﴿لَّوْلَا﴾ أي هلا وهي للحض والحث على فعل الشيء إذ سمعتم قول الإفك ظننتم بأنفسكم خيرًا إذ المؤمنون والمؤمنات كنفس واحدة، وقلتم لن يكون هذا وإنما هو إفك مبين أي ظاهر لا يقبل ولا يقر عليه هكذا كان الواجب عليكم ولكنكم ما فعلتم.

⑬ وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا[5] جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي كان المفروض فيكم أيها المؤمنون أنكم تقولون هذا لمن جاء بالإفك فإنهم لا يأتون بشاهد فضلاً عن أربعة وبذلك تسجلون عليهم لعنة الكذب في حكم الله.

⑭ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا[6] فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ[7]﴾ هذه منة من الله تحمل أيضًا عتابًا واضحًا إذ بولوغكم في عرض أم المؤمنين، وما كان لكم أن تفعلوا ذلك قد استوجبتم العذاب لولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم العذاب العظيم.

⑮ وقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي يتلقاه بعضكم من بعض، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ وهذا عتاب وتأديب. وقوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ أي ليس بذنب كبير ولا تبعة فيه ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، وكيف وهو يمس عرض رسول الله وعائشة والصديق وآل البيت أجمعين.

---

(١) هذا كلام مستأنف استئنافًا ابتدائيًا، والإفك: الكذب الخالص الذي لا شبهة فيه يفاجأ به المرء فيبهته فيصير بهتانًا وهو مشتق من الأفك بفتح الهمزة وهو القلب، ومن صوره أن يقال في الصادق: كاذب والطاهر خبيث ونحو ذلك.

(٢) عصبة: خبر إنّ، والعصبة: الجماعة يتعصب بعضهم لبعض.

(٣) الكِبر: بكسر الكاف قراءة الجمهور ومعناه: أشد الشيء ومعظمه، وقرىء ﴿كُبره﴾: بضم الكاف.

(٤) كلام مستأنف مسوق لتوبيخ العصبة وفيه تربية للمسلمين وإرشاد لهم لما ينبغي أن يكونوا عليه من الآداب.

(٥) لولا: هذه مثل سابقتها حرف تحريض.

(٦) لولا: هذه حرف امتناع لوجود، امتنع مس العذاب لوجود فضل الله ورحمته.

(٧) الإفاضة في القول: التوسع فيه مشتقة من إفاضة الماء على العضو.

١٦ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ[1] إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ إذ هذه مما لا يصح لمؤمن أن يقول فيه لخطره وعظم شأنه. وقلتم متعجبين من مثله كيف يقع ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي يا رب ﴿هَٰذَا﴾ أي الإفك ﴿بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ بهتوا به أم المؤمنين وصفوان.

١٧ وقوله: ﴿يَعِظُكُمُ[2] ٱللَّهُ﴾ أي ينهاكم الله مخوفًا لكم بذكر العقوبة الشديدة ﴿أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي طول الحياة فإياكم إياكم إن كنتم مؤمنين حقًا وصدقًا فلا تعودوا لمثله أبدًا.

١٨ وقوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ التي تحمل الهدى والنور لترشدوا وتكملوا والله عليم بخلقه وأعمالهم وأحوالهم حكيم فيما يشرع لهم من أمر ونهي.

هداية الآيات:

١ - قضاء الله تعالى للمؤمن كله خير له.

٢ - بشاعة الإفك وعظيم جرمه.

٣ - العقوبة على قدر الجرم كبرًا وصغرًا قلة وكثرة.

٤ - واجب المؤمن أن لا يصدق من يرمي مؤمنًا بفاحشة، وأن يقول له هل تستطيع أن تأتي بأربعة شهداء على قولك فإن قال لا قال له إذًا أنت عند الله من الكاذبين.

٥ - حرمة القول بدون علم والخوض في ذلك.

الجزء الثامن عشر — سورة النور

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

٣٥٢

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ - ٢٢]

١٩ ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾: أي تعم المجتمع وتنتشر فيه والفاحشة هي الزنا.

٢٠ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾: جواب لولا محذوف تقديره: لعاجلكم بالعقوبة أيها العصبة.

٢١ ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: نزغاته ووساوسه. ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾: أي ما طهر ظاهره وباطنه وهي خلو النفس من دنس الإثم.

٢٢ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾: أي ولا يحلف صاحب الفضل منكم وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه. ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾: أي سعة الرزق والفضل والإحسان إلى الغير.

معنى الآيات:

١٩ ما زال السياق في عتاب المؤمنين الذين خاضوا في الإفك فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ[3] أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي تنتشر وتشتهر ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي في المؤمنين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بإقامة حد القذف عليهم وإسقاط عدالتهم وفي الآخرة إن لم يتوبوا بإدخالهم نار جهنم، وكفى بهذا الوعد زاجرًا ورادعًا وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ما يترتب على حب إشاعة الفاحشة بين المؤمنين من الآثار السيئة فلذا توعد من يحبها بالعذاب الأليم في الدارين.

---

(١) لولا هنا بمعنى: هلا وهي للتوبيخ.

(٢) قال مالك: من سبّ أبا بكر وعمر أدّب ومن سبّ عائشة كفر، لأن عائشة برأها الله تعالى، فمن سبّها بغير الفاحشة أدّب ومن سبّها بالفاحشة كفر، لأنه كذّب الله تعالى.

(٣) روي أنه ﷺ قال: **«أيما رجل شد عضد امرىء من الناس في خصومة لا علم له بها فهو في سخط الله حتى ينزع، وأيما رجل قال شفاعة دون حد من حدود الله أن يقام فقد عاند الله وأقدم على سخطه وعليه لعنة الله تتابع إلى يوم القيامة، وأيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها بريء أن يشقيه بها في الدنيا كان حقًا على الله أن يرميه بها في النار، ثم تلا مصداقه من كتاب الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾» الآية.**

(٢٠) وأوجب رد الأمور إليه تعالى وعدم الاعتراض على ما يشرع وذلك لعلمه المحيط بكل شيء وجهلنا لكل شيء إلا ما علمناه فأزال به جهلنا وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لهلكتم[1] بجهلكم وسوء عملكم. ولكن لما أحاطكم الله به من فضل لم تستوجبوه إلا برأفته بكم ورحمته لكم عفا عنكم ولم يعاقبكم.

(٢١) وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ[2] خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله لا تتبعوا خطوات الشيطان فإنه عدوكم فكيف تمشون وراءه وتتبعونه فيما يزين لكم من قبيح المعاصي وسيء الأقوال والأعمال فإن من يتبع خطوات الشيطان لا يلبث أن يصبح شيطانًا يأمر بالفحشاء والمنكر، ففاصلوا هذا العدو، واتركوا الجري وراءه فإنه لا يأمر بخير قط فاحذروا وسواسه وقاوموا نزغاته بالاستعاذة بالله السميع العليم فإنه لا ينجكم منه إلا هو سبحانه وتعالى وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ وهذه منة أخرى وهي أنه لولا فضل[3] الله على المؤمنين ورحمته بحفظهم ودفع الشيطان عنهم ما كان ليطهر منهم أحد، وذلك لضعفهم واستعدادهم الفطري للاستجابة لعدوهم، فعلى الذين شعروا بكمالهم؛ لأنهم نجوا مما وقع فيه عصبة الإفك من الإثم أن يستغفروا لإخوانهم وأن يقللوا من لومهم وعتابهم، فإنه لولا فضله عليهم ورحمته بهم لوقعوا فيما وقع فيه إخوانهم، فليحمدوا الله الذي نجاهم وليتطامنوا تواضعًا لله وشكرًا له. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي فمن شاء الله تزكيته زكاه وعليه فليلجأ إليه وليطلب التزكية منه، وهو تعالى يزكي من كان أهلاً للتزكية، ومن لا فلا، لأنه السميع لأقوال عباده والعليم بأعمالهم ونياتهم وأحوالهم وهي حال تقتضي التضرع إليه والتذلل.

(٢٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ[4] مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ[5] أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق لما منع مسطح بن أثاثة وهو ابن خالته، وكان رجلاً فقيرًا من المهاجرين ووقع في الإفك فغضب عليه أبو بكر وحلف أن يمنعه ما كان يرفده به من طعام وشراب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ولا يأتل أي ولا يحلف أصحاب الفضل والإحسان والسعة في الرزق والمعاش أن يؤتوا أولي القربى أي أن يعطوا أصحاب القرابة، والمساكين والمهاجرين في سبيل الله كمسطح، وليعفوا أي وعليهم أن يعفوا عما صدر من أولئك الأقرباء من الفقراء والمهاجرين، وليصفحوا أي يعرضوا عما قالوه فلا يذكروه لهم ولا يذكرونهم به فإنه يحزنهم ويسوءهم ولا سيما وقد تابوا وأقيم الحد عليهم وقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ[6] أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؟ فقال أبو بكر بلى والله أحب أن يغفر الله لي فعندها صفح وعفا وسأل رسول الله ﷺ عن يمينه فقال كفر عن يمينك ورد الذي كنت تعطيه لمسطح. وتقرر بذلك أن من حلف يمينًا على شيء فرأى غيره

---

(١) (لهلكتم): هو جواب لولا المحذوف والسر في حذفه أن تذهب النفس كل مذهب ممكن في تقديره بحسب المقام والسياق.

(٢) في الآية إشارة أفصح من عبارة وهي: أنّ الظنون السيئة وحب الفاحشة وحب إشاعتها بين المؤمنين كل هذا من وساوس الشيطان وتزيينه للناس للفتنة والإفساد.

(٣) لولا هنا: حرف امتناع لوجود، امتنع عدم التزكية لوجود فضل الله تعالى ورحمته، والجملة سيقت للامتنان على المؤمنين ليشكروا.

(٤) روي في الصحيح أن الله تبارك وتعالى لما أنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر آيات، قال أبو بكر ـ وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال في عائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: لا أنزعها منه أبدًا. قال ابن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله.

(٥) ﴿ٱلْفَضْلِ﴾: الزيادة وهي ضد النقص. ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾: الغنى. والائتلاء: الحلف مأخوذ من الألية التي هي الحلف.

(٦) ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾: الاستفهام للإنكار وهو مستعمل في التحضيض والحث على السعي تحصيلاً للمغفرة بالعفو والصفح.

خيرًا منه كفر عن يمينه وأتى الذي هو خير.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهذا إخبار منه تعالى أنه ذو المغفرة والرحمة وهما من صفاته الثابتة له وفي هذا الخبر تطميع للعباد لأن يرجوا مغفرة الله ورحمته وذلك بالتوبة الصادقة والطلب الحثيث المتواصل لأن الله تعالى لا يغفر لمن لا يستغفره، ولا يرحم من لا يرجو ويطلب رحمته.

هداية الآيات:

١ - لقبح فاحشة الزنى وضع الله تعالى لمقاومتها أمورًا منها وضع حد شرعي لها، ومنع تزويج الزاني من عفيفة أو عفيفة من زانٍ إلا بعد التوبة، ومنها شهود عدد من المسلمين إقامة الحد ومنها حد القذف ومنها اللعان بين الزوجين، ومنها حرمة ظن السوء بالمؤمنين، ومنها حرمة حب ظهور الفاحشة وإشاعتها في المؤمنين. ومنها وجوب الاستئذان عند دخول البيوت المسكونة، ومنها وجوب غض البصر وحرمة النظر إلى الأجنبية، ومنها احتجاب المؤمنة عن الرجال الأجانب ومنها حرمة حركة ما كضرب الأرض بالأرجل لإظهار الزينة. ومنها وجوب تزويج العزاب والمساعدة على ذلك حتى في العبيد بشروطها. ومنها وجوب استئذان الأطفال إذا بلغوا الحلم، وهذه وغيرها كلها أسباب واقية من أخطر فاحشة وهي الزنى.

٢ - حرمة اتباع الشيطان فيما يزينه من الباطل والسوء والفحشاء والمنكر.

٣-متابعة الشيطان والجري وراءه في كل ما يدعو إليه يؤدي بالعبد أن يصبح شيطانًا يأمر بالفحشاء والمنكر.

٤ - على من حفظهم الله من الوقوع في السوء أن يتطامنوا ولا يشعروا بالكبر فإن عصمتهم من الله تعالى لا من أنفسهم.

٥ - من حلف على شيء لا يفعله أو يفعله ورأى أن غيره خيرٌ منه كفر عن يمينه وفعل الذي هو خير.

٦ - وجوب العفو والصفح على ذوي المروءات وإقالة عثرتهم إن هم تابوا وأصلحوا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣ ـ ٢٦]

(٢٣) ﴿يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: أي العفيفات بالزنى. ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾: أي عن الفواحش بحيث لم يقع في قلوبهن فعلها. ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: أي بالله ورسوله ووعد الله ووعيده.

(٢٤) ﴿يَعْمَلُونَ﴾: أي من قول أو عمل.

(٢٥) ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾: أي يجازيهم جزاءهم الواجب عليهم.

(٢٦) ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾: الخبيثات من النساء والكلمات. ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾: للخبيثين من الرجال. ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: من النساء والكلمات. ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾: أي من الرجال. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾: أي صفوان بن المعطل وعائشة رضي الله عنهما أي مبرّؤون مما قاله عصبة الإفك.

معنى الآيات:

(٢٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ[(١)] ٱلْمُحْصَنَٰتِ[(٢)] ٱلْغَٰفِلَٰتِ[(٣)] ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ هذه الآية وإن تناولت ابتداءً عبدالله بن أُبي فإنها عامة في كل من يقذف مؤمنة محصنة أي عفيفة غافلة لسلامة صدرها من الفواحش لا تخطر ببالها ﴿لُعِنُواْ﴾ أي أبعدوا من الرحمة الإلهية ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا بإقامة الحد عليهم وفي الآخرة بعذاب النار.

(٢٤) وذلك ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝﴾ من سوء الأفعال.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ[(٤)] يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي يتم ذلك يوم يوفيهم الله دينهم الحق أي جزاءهم الواجب عليهم ويعلمون حينئذ

---

(١) هذه الجملة مستأنفة كجملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ..﴾ وكلتا الجملتين تفصيل للموعظة في قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧﴾.

(٢) الإجماع على أنّ حكم المحصنين من الرجال كالمحصنات من النساء في القذف بلا فرق، قياسًا واستدلالاً وحكمًا وقضاء.

(٣) الغافلات: هن اللاتي لا علم لهن بما رمين به وذلك لسلامة صدورهن وبُعدهن ـ بحكم إيمانهنَّ ـ عن مواطن الرِّيَب.

(٤) الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا.

أن الله هو الحق[1] المبين أي الإله الحق الواجب الإيمان به والطاعة له والعبودية الكاملة له لا لغيره.

(٢٦) وقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾[2] أي الخبيثات من النساء[3] والكلمات للخبيثين من الرجال كابن أُبي، ﴿وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ أي والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء والكلمات وقوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ أي والطيبات من النساء والكلمات للطيبين من الرجال كالنبي ﷺ وعائشة رضي الله عنها وقوله: ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ أي والطيبون من الرجال للطيبات من النساء والكلمات تأكيد للخبر السابق وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أولئك إشارة إلى صفوان بن المعطل وعائشة رضي الله عنها، ومبرؤون أي من قالة السوء التي قالها ابن أُبي ومن أذاعها معه. وقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذه بشرى لهم بالجنة مقابل ما نالهم من ألم الإفك الذي جاءت به العصبة المتقدم ذكرها إذ أخبر تعالى أن لهم مغفرة لذنوبهم التي لا يخلو منها مؤمن وهو الستر عنها ومحوها ورزقًا كريمًا في الجنة.

وبهذه تمت براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والحمد لله أولاً وآخرًا.

هداية الآيات:

١ - عِظَمُ ذنب قذف المحصنات الغافلات المؤمنات وقد عده رسول الله ﷺ في السبع الموبقات، والعياذ بالله تعالى.

٢ - تقرير الحساب وما يتم فيه من استنطاق واستجواب.

٣ - تقرير التوحيد بأنه لا إله إلا الله.

٤ - استحقاق الخبث أهله. فالخبيث هو الذي يناسبه القول الخبيث والفعل الخبيث.

٥ - استحقاق الطيب أهله فالطيب هو الذي يناسبه القول الطيب والفعل الطيب.

٦ - براءة أم المؤمنين وصفوان مما رماهما به أهل الإفك.

٧ - بشارة أم المؤمنين وصفوان بالجنة بعد مغفرة ذنوبهما.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ - ٢٩]

(٢٧) ﴿ءَامَنُوا﴾: أي صدقوا الله ورسوله فيما أخبرا به من الغيب والشرع. ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾: أي تستأذنوا إذ الاستئذان من عمل الإنسان والدخول بدونه من عمل الحيوان الوحشي. ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ أي تقولوا السلام عليكم أأدخل ثلاثًا. ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: أي تذكرون أنكم مؤمنون، وأن الله أمركم بالاستئذان.

(٢٨) ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾: أي أطهر وأبعد عن الريبة والإثم.

(٢٩) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: أي إثم ولا حرج. ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾: أي ما تتمتعون به كالنزول بها أو شراء حاجة منها. ﴿مَا تُبْدُونَ﴾: أي ما تظهرونه. ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: أي ما تخفونه إذًا فراقبوه تعالى ولا تضمروا ما لا يرضى فإنه يعلمه.

معنى الآيات:

(٢٧) نظرًا إلى خطر الرمي بالفاحشة وفعلها وحرمة ذلك كان المناسب هنا ذكر وسيلة من وسائل الوقاية من الوقوع في مثل ذلك ففرض الله تعالى على المؤمنين الاستئذان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾[4] أي يا من آمنتم بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً لا تدخلوا بيوتًا على أهلها حتى تسلموا

---

(١) لوصف الله تعالى بالحق له معنيان جليلان: الأوّل: أنه بمعنى: الثابت الحق لأنّ وجوده واجب فذاته حق إذ لم يسبق عليها عدم ولا انتفاء فلا يقبل إمكان العدم. والثاني: أنه تعالى ذو الحق الواجب له على عباده وهو عبادته وحده دون سواه.

(٢) الابتداء بذكر الخبيثات لأنّ الغرض من الكلام الاستدلال على براءة عائشة أم المؤمنين. واللام في للخبيثين: للاستحقاق.

(٣) المراد من الخبث والطيب: الصفات النفسية. الفواحش: صفات خبث، والفضائل: صفات طهر.

(٤) ورد في سبب نزول هذه الآية أنّ امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله: إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد لا والد ولا ولد فيأتي الأب فيدخل عليّ وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فكيف أصنع؟ فنزلت الآية فقال أبو بكر: يا رسول الله أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها مساكن؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ..﴾ إلخ..

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

عليهم قائلين السلام عليكم[١] وتستأذنوا قائلين أندخل ثلاث مرات فإن أذن لكم بالدخول دخلتم وإن قيل لكم ارجعوا أي لم يأذنوا لكم لحاجة عندهم فارجعوا وعبر عن الاستئذان بالاستئناس لأمرين، أولهما: أن لفظ الاستئناس[٢] وارد في لغة العرب بمعنى الاستئذان، وثانيهما: أن الاستئذان من خصائص الإنسان الناطق وعدمه من خصائص الحيوان المتوحش إذ يدخل على المنزل بدون إذن إذ ذاك ليس من خصائصه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي الاستئذان خير لكم أي من عدمه لما فيه من الوقاية من الوقوع في الإثم وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكرون أنكم مؤمنون وأن الله تعالى أمركم بالاستئذان حتى لا يحصل لكم ما يضركم وبذلك يزداد إيمانكم وتسمو أرواحكم.

﴿٢٨﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ أي في البيوت يأذن لكم أي بالدخول فلا تدخلوها وقوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا﴾ لأمرٍ اقتضى ذلك ﴿فَارْجِعُوا﴾ وأنتم راضون غير ساخطين. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي أطهر لنفوسكم وأكثر عائدة خير عليكم. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ[٣] عَلِيمٌ﴾ أي مطلع على أحوالكم فتشريعه لكم الاستئذان واقع موقعه إذًا فأطيعوه فيه وفي غيره تكملوا وتسعدوا.

﴿٢٩﴾ وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾. هذه رخصة منه تعالى لعباده المؤمنين بأن لا يستأذنوا عند دخولهم بيوتًا غير مسكونة أي ليس فيها نساء من زوجات وسريات يحرم النظر إليهن وذلك كالدكاكين والفنادق وما إلى ذلك فللعبد أن يدخل لقضاء حاجاته المعبر عنها بالمتاع بدون استئذان لأنها مفتوحة للعموم من أصحاب الأغراض والحاجات أما السلام فسنة على من دخل على دكان أو فندق فليقل السلام عليكم والذي يسقط هو الاستئذان أي طلب الإذن لا غير.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي يعلم ما تظهرون من أقوالكم وأعمالكم وما تخفون إذًا فراقبوه تعالى في أوامره ونواهيه وافعلوا المأمور واتركوا المنهي تكملوا وتسعدوا في الدنيا والآخرة.

هداية الآيات:

١ ـ مشروعية الاستئذان[٤] ووجوبه على كل من أراد أن يدخل بيتًا مسكونًا غير بيته.

٢ ـ الرخصة في عدم الاستئذان من دخول البيوت والمحلات غير المسكونة للعبد فيها غرض.

(١) صح أن رجلًا دخل على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «ارجع فقل السلام عليكم» وقال: «**من لم يبدأ بالسلام فلا تأذنوا له**».

(٢) الاستئناس: معناه طلب الأنس لأهل البيت حتى تزول الوحشة والكراهة وذلك بالاستئذان.

(٣) ورد في الصحيح ما يجعل الاستئذان متأكدًا فوق المشروعية إذ أنّ رجلًا اطلع في جحر في باب رسول الله ﷺ ومع رسول الله ﷺ مِدرًا يرجّل به رأسه فقال له رسول الله ﷺ: «**لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينك إنما جعل الله الإذن من أجل البصر**». وفي الآية توعد ظاهر لأهل التجسس على البيوت وطلب الدخول على غفلة.

(٤) وإذا قيل له: مَن؟ فلا يقل: أنا بل يقول: فلان ابن فلان لحديث الشيخين وغيرهما عن جابر رضي الله عنه قال: استأذنت على رسول الله ﷺ فقال: «**من هذا؟**» فقلت: أنا فقال النبي ﷺ: «**أنا أنا كأنه كره ذلك**».

٣ - من آداب الاستئذان أن يقف بجانب الباب فلا يعترضه، وأن يرفع صوته بقدر الحاجة وأن يقرع الباب قرعًا خفيفًا وأن يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات.

٤ - في كل طاعة خير وبركة وإن كانت كلمة طيبة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠ - ٣١]

(٣٠) ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[١]: أي يخفضوا من أبصارهم حتى لا ينظروا إلى نساء لا يحل لهم أن ينظروا إليهن. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾: أي يصونونها من النظر إليها ومن إتيان الفاحشة الزنى واللواط. ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾: أي أكثر تزكية لنفوسهم من فعل المندوبات والمستحبات.

(٣١) ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: أي مواضع الزينة الساقين حيث يوضع الخلخال، وكالكفين والذراعين حيث الأساور والخواتم والحناء والرأس حيث الشعر والأقراط في الأذنين والتزجيج في الحاجبين والكحل في العينين والعنق والصدر حيث السخاب والقلائد. ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: أي بالضرورة دون اختيار وذلك كالكفين لتناول شيئًا والعين الواحدة أو الاثنتين للنظر بهما، والثياب الظاهرة كالخمار والعجار والعباءة. ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾: أي ولتضرب المرأة المسلمة الحرة بخمارها على جيوب أي فتحات الثياب في الصدر وغيره حتى لا يبدو شيء من جسمها. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: البعل الزوج والجمع بعول. ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾: أي المسلمات فيخرج الذميات فلا تتكشف المسلمة أمامهن. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: أي العبيد والجواري فللمسلمة أن تكشف وجهها لخادمها المملوك. ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ﴾: أي التابعين لأهل البيت يطعمونهم ويسكنونهم ممن لا حاجة لهم إلى النساء. ﴿أَوِ الطِّفْلِ﴾: أي الأطفال الصغار قبل التمييز والبلوغ. ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾: أي لم يبلغوا سنًا تدعوهم إلى الاطلاع على عورات النساء للتلذذ بهن. ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾: أي الخلاخل في الرجلين. ﴿تُفْلِحُونَ﴾: أي تفوزون بالنجاة من العار والنار، وبالظفر بالطهر والشرف وعالي الغرف في دار النعيم.

معنى الآيتين:

(٣٠) سبق أن ذكرنا أنه لقبح وفساد الزنى وسوء أثره على النفس والحياة البشرية وضع الشارع عدة أسباب واقية من الوقوع فيه ومنها الأمر بغض البصر للرجال والنساء فقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا[٢] مِنْ[٣] أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي مُر يا رسولنا المؤمنين بأن يغضوا من أبصارهم أي بأن يخفضوا أجفانهم على أعينهم حتى لا ينظروا إلى الأجنبيات عنهم من النساء ويحفظوا فروجهم عن النظر إليها فلا يكشفوها لأحد إلا ما كان من الزوج لزوجه فلا حرج وعدم النظر أولى وأطيب، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي أطهر لنفوسهم من نوافل العبادات، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فليراقبوه تعالى في ذلك المأمور به من غض البصر وحفظ الفرج إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

(٣١) وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ[٤]﴾ إذ شأنهن

---

(١) بدأ بالأمر بغض البصر قبل الأمر بحفظ الفرج لأنّ البصر رائد للقلب كما أنّ الحمّى رائد الموت. أخذ هذا المعنى شاعر فقال:

ألم تر أن العين للقلب رائد ... فما تألف العينان فالقلب آلف

(٢) غض البصر واحترام النساء بعدم النظر إليهن معروف في الجاهلية، وهذا عنترة بن شداد يقول:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها

لم يذكر الله تعالى ما يغض البصر من أجله للعلم به وهو: وجود النساء الأجنبيات، وكذا ما يحفظ منه الفرج، وهو: النظر إليه والزنى واللواط.

(٣) ﴿مِنْ﴾: جائز أن تكون زائدة في يغضوا أبصارهم، وجائز أن تكون للتبعيض لجواز النظر إلى المحارم.

(٤) ورد في الأمر بغض البصر في السنة قوله ﷺ: **«إياكم والجلوس في الطرقات»** فقالوا: يا رسول ما لنا من مجالسنا بد نتحدث

شأن الرجال في كل ما أمر به الرجال من غض البصر وحفظ الفرج وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[1] أي مُرْهُن بغض البصر وحفظ الفرج وعدم إظهار الزينة ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ مما لا يمكنها ستره وإخفاؤه كالكفين عند تناول شيء أو إعطائه أو العينين تنظر بهما وإن كان في اليد خاتم وحناء وفي العينين كحل وكالثياب الظاهرة من خمار على الرأس وعباءة تستر الجسم فهذا معفو عنه إذ لا يمكنها ستره.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ كانت المرأة تضع خمارها على رأسها مسبلاً على كتفيها فأمرت أن تضرب به على فتحات درعها حتى تستر العنق والصدر سترًا كاملاً وقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أعاد اللفظ ليرتب عليه ما بعده من المحارم الذي يباح للمؤمنة أن تبدي زينتها إليهم وهم الزوج، والأب والجد وإن علا وأب الزوج وإن علا وابنها وإن سفل وأبناء الزوج وإن نزلوا، والأخ لأب أو الشقيق أو لأم وأبناؤه وإن نزلوا، وابن الأخ وإن نزل وسواء كان لأب أو لأم أو شقيق، وابن الأخت شقيقة أو لأب أو لأم. والمرأة المسلمة من نساء المؤمنات، وعبدها المملوك لها دون شريك لها فيه والتابع لأهل بيتها من شيخ هرم أصابه الخرف، وعنيّن ومعتوه وطفل صغير لم يميز دون البلوغ ممن لا حاجة لهم في النساء لعدم الشهوة عندهم لكبر ومرض وصغر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ نهى تعالى المؤمنات أن يضربن الأرض بأرجلهن التي فيها الخلاخل لكي يعلم أنها ذات زينة في رجلها، فلا يحل لها ذلك ولو لم تقصد إظهار زينتها.

وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أمر تعالى المؤمنين والمؤمنات بالتوبة وهي ترك ما من شأنه أن يغضب الله تعالى، وفعل ما وجب فعله ومن ذلك غض البصر وحفظ الفرج والالتزام بالعفة والستر والتنزه عن الإثم صغيره وكبيره وبذلك يتأهل المؤمنون للفلاح الذي هو الفوز بالنجاة من المرهوب والظفر بالمحبوب المرغوب.

هداية الآيتين:

١ - وجوب غض البصر وحفظ الفرج[2].

٢ - وجوب ستر المرأة زينتها ومواضع ذلك ما عدا ما يتعذر ستره للضرورة.

٣ - بيان المحارم الذين للمرأة المؤمنة أن تبدي زينتها عندهم بلا حرج.

٤ - الرخصة في إظهار الزينة للهرم المخرف من الرجال والمعتوه والطفل الصغير الذي لم يعرف عن عورات النساء شيئًا.

٥ - حرمة ضرب ذات الخلاخل الأرض برجلها حتى لا يعلم ما تخفي من زينتها.

٦ - وجوب التوبة من كل ذنب وعلى الفور للحصول على الفلاح العاجل والآجل.

❊ ❊ ❊

= فيها فقال: «**فإذا أبيتم إلا المجلس فاعطوا الطريق حقه**» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «**غض البصر وكف الأذى ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» وقال لعلي رضي الله عنه: «**لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية**».

(١) قال ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية: أن المرأة مأمورة بأن لا تُبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر لحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك فيما ظهر على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.

(٢) وجوب غض البصر عن النظر إلى المحارم والعورات ويستحب ستر العورة عن الزوج، لحديث عائشة: (ما رأيت ذلك منه، ولا رأى ذلك مني) كما يستحب ستر العورة مطلقًا عن الله وملائكته لقوله ﷺ: «**فالله أحق أن يستحي منه من الناس**» لمن قال له: الرجل يكون خاليًا.

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

٣٥٤

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٢ ـ ٣٤]

﴿٣٢﴾ ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾: أي زوجوا من لا زوجة له من رجالكم ومن لا زوج لها من نسائكم.

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾: أي وزوجوا أيضًا القادرين والقادرات على أعباء الزواج من عبيدكم وإمائكم. ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي إن يكن الأيامى فقراء فلا يمنعكم ذلك من تزويجهم فإن الله يغنهم. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: أي واسع الفضل عليم بحاجة العبد وخلته فيسدها تكرمًا.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾: أي وليطلب عفة نفسه بالصبر والصيام. ﴿يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي يطلبون المكاتبة من المماليك. ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾: أي قدرة على السداد والاستقلال عنكم. ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾: أي أعينوهم بثمن نجم من نجوم المكاتبة من الزكاة وغيرها. ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾: أي الزنى تحصنًا أي تعففًا وتحفظًا من فاحشة الزنا. ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي المال. ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾: أي على البغاء «الزنى».

﴿٣٤﴾ ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾: للأحكام موضحة لما يطلب منكم فعله وتركه. ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾: أي قبلكم: أي قصصًا من أخبار الأولين كقصة يوسف وقصة مريم وهما شبيهتان بحادثة الإفك. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾: الموعظة ما يتعظ به العبد فيسلك سبيل النجاة.

معنى الآيات:

﴿٣٢﴾ ما زال السياق في ذكر الأسباب الواقية من وقوع الفاحشة فأمر تعالى في الآية الأولى من هذا السياق (٣٢) أمر جماعة المسلمين أن يزوجوا الأيامى من رجالهم ونسائهم بالمساعدة على ذلك والإعانة عليه حتى لا يبقى في البلد أو القرية عزبٌ إلا نادرًا ولا فرق بين البكر والثيب في ذلك فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟﴾[1] والأمر للإرشاد ﴿ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ جمع أيِّم وهو من لا زوج له من رجل أو امرأة بكرًا كان أو ثيبًا، ﴿مِنكُمْ﴾ أي من جماعات المسلمين لا من غيرهم كأهل الذمة من الكافرين. وقوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ[2] وَإِمَآئِكُمْ﴾ أي وزوجوا القادرين على مؤونة الزواج وتبعاته، وتكاليفه من مماليككم وقوله: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ﴾ غير موسرين لا يمنعكم ذلك من تزويجهم فقد تكفل الله بغناهم بعد تزويجهم بقوله: ﴿يُغْنِهِمُ[3] ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل عليم بحاجة المحتاجين وأمر تعالى في هذه الآية من لا يجد نكاحًا[4] لانعدام الزوج أو الزوجة

---

(١) الخطاب للأولياء ولجماعة المسلمين إن عجز الأولياء أي: زوّجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفف والطهر والتكافل الاجتماعي. والنكاح تجري عليه الأحكام الخمسة إذ يكون واجبًا على من خاف العنت وقدر على مؤونته، ويسن لمن لم يخف العنت وقدر على مؤونته ويحرم على من لم يخف العنت ولا مؤونة لديه، ويكره لمن لم يخف العنت ويشغله عن طاعة الله تعالى، ويباح لمن لا رغبة له فيه وهو قادر عليه.

(٢) اختلف في هل للسيّد أن يكره عبده أو أمته على التزوّج؟ والذي يبدو أن الإكراه يشرع مع خوف الضرر فإن لم يكن ضرر فلا إكراه.

(٣) في الآية دليل على تزوج الفقير بل قال عمر: عجبًا لفقير لم يطلب الغنى بالزواج لقول الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾.

(٤) نكاحًا: أي طَوْلَ نكاح فحذف المضاف، وفي الحديث الذي رواه النسائي: «**ثلاثة كلهم حق على الله عز وجل عونهم: المجاهد في سبيل الله والناكح الذي يريد العفاف، والمكاتب الذي يريد الأداء**».

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ (٤٣)

مؤقتًا أو انعدام مؤونة الزواج من مهر ووليمة أن يستعفف أي يعف نفسه بالصبر والصيام والصلاة حتى لا يتطلع إلى الحرام فيهلك فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل مطلق الغنى عليم بحال عباده وحاجة المحتاجين منهم.

(٣٣) وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذه مسألة ثالثة تضمنتها هذه الآية وهي إذا كان للمسلم عبد وطلب منه أن يكاتبه. وكان أهلاً للتحرر بأن يقدر على تسديد مال المكاتبة. ويستطيع أن يستقل بنفسه فعلى مالكه أن يكاتبه، وأن يعينه على ذلك بإسقاط نجم من نجوم الكتابة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ[1] إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ[2] خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أي على الزنا وهي مسألة رابعة تضمنتها هذه الآية وهي أن جاريتين كانتا لعبدالله بن أُبي ابن سلول المنافق يقال لهما معاذة ومسيكة قد أسلمتا فأمرهما بالزنا لتكسبا له بفرجيهما كما هي عادة أهل الجاهلية قبل الإسلام فشكتا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لأجل مال قليل يعرض لكم ويزول عنكم بسرعة. وقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لهن رحيم بهن لأن المكره لا إثم عليه فيما يقول ولا فيما يفعل فامتنع المنافق من ذلك.

(٣٤) وقوله تعالى في الآية الثانية (٣٤): ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي ولقد أنزلنا إليكم أيها المسلمون آيات أي قرآنية مبينات أي موضحات للشرائع والأحكام والآداب فاعملوا بها تكملوا في حياتكم وتسعدوا في دنياكم وآخرتكم. وقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي قصصًا من أخبار الأولين كقصة يوسف ومريم عليهما السلام وهما شبيهتان بحادثة الإفك وقوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهي ما تضمنته الآيات من الوعيد والوعد والترغيب والترهيب وكونها للمتقين بحسب الواقع وهو أن المتقين هم الذين ينتفعون بالمواعظ دون الكافرين والفاجرين.

هداية الآيات:

١ ـ انتداب المسلمين حاكمين ومحكومين للمساعدة على تزويج الأيامى من المسلمين أحرارًا وعبيدًا.

٢ ـ وجوب الاستعفاف على من لم يجد نكاحًا والصبر حتى ييسر الله أمره.

٣ ـ عدة الله للفقير إذا تزوج بالغنى.

٤ ـ تعين مكاتبة العبد إذا توفرت فيه شروط المكاتبة.

٥ ـ حرمة الزنا بالإكراه أو بالاختيار ومنع ذلك بإقامة الحدود.

٦ ـ صيغة المكاتبة أن يقول السيد للعبد لقد كاتبتك على ثلاثة آلاف دينار منجمة أي مقسطة على ستة نجوم تدفع في كل شهر نجمًا أي قسطًا. على أنك إذا وفيتها في آجالها فأنت حر، وعليه أشهدنا وحرر بتاريخ كذا وكذا.

٧ ـ بيان فضل سورة النور لما احتوته من أحكام في غاية الأهمية.

---

(١) لا تكون المكاتبة إلا على أنجم متعددة فلا تصح ناجزة ولا على نجم واحد.

(٢) ﴿خَيْرًا﴾ أي: صلاحًا وتقوى وقدرة على الأداء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٥ ـ ٣٨]

(٣٥) ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي منورهما فلولاه لما كان نور في السموات ولا في الأرض، والله تعالى نورٌ وحجابه النور[١]. ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: أي في قلب عبده المؤمن. ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾: أي كوة. ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾: أي مضيء إضاءة الدر الوهاج. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: أي نور النار على نور الزيت. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾: أي للإيمان به والعمل بطاعته من يشاء له ذلك لعلمه برغبته وصدق نيته. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾: أي ويجعل الله الأمثال للناس من أجل أن يفهموا عنه ويعقلوا ما يدعوهم إليه.

(٣٦) ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾: هي المساجد ورفعها إعلاء شأنها من بناء وطهارة وصيانة.

(٣٧) ﴿يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[٢]: يوم القيامة.

(٣٨) ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي بلا عَدٍّ ولا كيل ولا وزن وهذا شأن العطاء إن كان كثيرًا.

معنى الآيات:

(٣٥) قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] يخبر تعالى أنه لولاه لما كان في الكون نور ولا هداية في السموات ولا في الأرض فهو تعالى منورهما فكتابه نور ورسوله نور أي يهتدى بهما في ظلمات الحياة كما يهتدى بالنور الحسي والله ذاته نور وحجابه نور فكل نور حسي أو معنوي الله خالقه وموهبه وهادٍ إليه.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي كوة في جدار ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ﴾ من بلور، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ في صفائها وصقالتها مشرقة ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ والكوكب الدري هو المضيء المشرق كأنه درة بيضاء صافية، وقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي وزيت المصباح من شجرة مباركة وهي الزيتونة والزيتونة لا شرقية ولا غربية في موقعها من البستان لا ترى الشمس إلا في الصباح، ولا غربية لا ترى الشمس إلا في المساء بل هي وسط البستان تصيبها الشمس في كامل النهار فلذا كان زيتها في غاية الجودة يكاد يشتعل لصفائه، ولو لم تمسه نار، وقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[٤] أي نور النار على نور الزيت وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يخبر تعالى أنه يهدي لنوره الذي هو الإيمان والإسلام والإحسان من يشاء من عباده ممن علم أنهم يرغبون في الهداية ويطلبونها ويكملون ويسعدون عليها.

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ[٥] ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى: أنه يضرب الأمثال للناس كهذا المثل الذي ضربه[٦] للإيمان وقلب عبده المؤمن وأنه عليم بالعباد وأحوال القلوب، ومن هو أهل للهداية ومن ليس لها بأهل، إذ هو بكل شيء عليم.

(٣٦) وقوله: ﴿فِى بُيُوتٍ[٧] أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي المصباح في بيوت

---

(١) في الحديث الصحيح: «**اللهم أنت نور السماوات والأرض**» وفي آخر صحيح وقد سئل ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور أنى أراه**» وفي آخر: «**رأيت نورًا**».

(٢) تتقلب قلوب الكافرين من الجحد والتكذيب إلى التصديق واليقين وقلوب المؤمنين بين الخوف والرجاء، وأما تقلب الأبصار: فإنها بالنظر هنا وهناك لشدّة الخوف وعظم الهول. هذه قلوب المؤمنين أما قلوب الكافرين فمن الكحل إلى الزرق والعمى بعد الإبصار.

(٣) قال ابن عباس: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول: هادي أهل السماوات والأرض.

(٤) أي: اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة إلى ضوء الزيت فهو لذلك نور على نور، واختلطت هذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما تكون فكذلك براهين الله تعالى واضحة وهي: برهان بعد برهان. والجملة مستأنفة أي: هذا المذكور هو نور على نور.

(٥) قوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾: هي ثلاثة جمل معترضة، أو تذييل لما سبق من الكلام.

(٦) قال ابن عباس: هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسّه النار فإن مسّته النار ازداد ضوءه، كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فإذا جاء العلم زاده هدىً على هدىً ونورًا على نور.

(٧) كون ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ متعلقًا بقوله: ﴿مِصْبَاحٌ﴾ أولى وأوضح من تعلقه بـ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ وإن قيل: كيف يعود إلى المصباح، وهو واحد والبيوت جمع؟ قيل: هذا كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ وهو في سماء واحدة لا في كل سماء وإنما هو تلوين للخطاب.

أذن الله أي أمر وَوَصّى أن ترفع حسّا ومعنى وهي المساجد فتطهر من النجاسات ومن اللغو فيها وكلام الدنيا[1]، وتصان وتحفظ من كل ما يخل بمقامها الرفيع لأنها بيوت الله تعالى، وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي بالأذان والإقامة والصلاة والتسبيح والدعاء وقراءة القرآن. وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ أي لله في تلك البيوت ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أي بالصباح ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾[2] أي المساء.

(٣٧) رجال مؤمنون صادقون أبرار متقون ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ أي لا شراء ولا بيع ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فقلوبهم ذاكرة غير غافلة وألسنتهم ذاكرة غير لاهية ولا لاغية ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي لا تلهيهم دنياهم عن آخرتهم فهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي من شدة الخوف وعظم الفزع والهول وهو يوم القيامة.

(٣٨) وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي إنهم فعلوا ما فعلوا من التسبيح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة معرضين عن كل ما يشغلهم عن عبادة ربهم فتأهلوا بذلك للثواب العظيم ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله فوق ما استحقوه بأعمالهم وتقواهم لربهم، والله يرزق من يشاء بغير حساب وذلك لعظيم فضله وسابق رحمته فيعطي بدون عَد ولا كيل ولا وزن وذلك لعظم العطاء وكثرته.

هداية الآيات:

١ - كل خير وكل نور وكل هداية مصدرها الله تعالى فهو الذي يطلب منه ذلك.

٢ - استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان والفهوم.

٣ - الإشارة إلى أن ملة الإسلام لا يهودية ولا نصرانية، لا اشتراكية ولا رأسمالية. بل هي الملة الحنيفية من دان بها هدي ومن كفرها ضل.

٤ - وجوب تعظيم بيوت الله تعالى «المساجد» بتطهيرها[3] ورفع بنيانها وإخلائها إلا من ذكر الله والصلاة وطلب العلم فيها.

٥ - ثناء الله تعالى على من لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٩ - ٤٢]

(٣٩) ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾: السراب شعاع أبيض يرى في نصف النهار وكأنه ماء، والقيعة جمع قاع وهو ما انبسط من الأرض. ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾: العطشان.

(٤٠) ﴿بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾: أي ذو لجج واللجة معظم الماء وغزيره كما هي الحال في المحيطات. ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾: يعلوه ويغطيه موج آخر.

(٤١) ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾: ينزه ويقدس بألفاظ التسبيح والتقديس كسبحان الله ونحوه والصلاة من التسبيح. ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: باسطات أجنحتها. ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ﴾: أي كل من في السموات والأرض قد علم الله صلاته وتسبيحه كما أن كل مسبح ومصل قد علم صلاة وتسبيح نفسه.

معنى الآيات:

(٣٩) قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾[4] لما بين تعالى حال المؤمنين وأنه تعالى وفاهم أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون وزادهم من فضله ذكر هنا حال الكافرين وهو أن أعمالهم في خسرانها وعدم الانتفاع بها ﴿كَسَرَابٍۭ﴾ وهو شعاع أبيض يرى في نصف

---

(١) لقول الرسول ﷺ للذي أنشد الضالة: «**لا وجدت إنما بنيت المساجد لما بنيت له**» يريد الصلاة والذكر وقراءة القرآن وتعلّم العلم.

(٢) الآصال: جمع أصيل وهو المساء.

(٣) أوّل من أنار مسجد رسول الله ﷺ: تميم الداري، إذ أتى بقناديل من الشام فعلّقها في مسجد رسول الله ﷺ وأسرجها فرآها الرسول ﷺ فدعا بقوله ﷺ: «**نورت الإسلام نوّر الله عليك في الدنيا والآخرة**».

(٤) سمي السراب سرابًا: لأنه يسرب كالماء في جريانه، والسراب يلتصق بالأرض، والآل كالسراب إلاّ أنه يكون كالماء ولكنه مرتفع بين السماء والأرض. قال الشاعر:

وكنت كمهريق الذي في سقائه ... لرقراق آل فوق رابية صَلْد

النهار وكأنه ماء ﴿بِقِيعَةٍ﴾ أي بقاع من الأرض وهو الأرض المنبسطة. ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ أي يظنه العطشان ماء وما هو بماء ولكنه سراب خادع ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ لأنه سراب لا غير. فيا للخيبة، خيبة ظمآن يقتله العطش فرأى سرابًا فجرى وراءه يظنه ماء فإذا به لم يجد الماء، ووجد الحق تبارك وتعالى فحاسبه على كل أعماله وهي في جملتها أعمال إجرام وشر وفساد فوفاه إياها فخسر خسرانًا مبينًا، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فما هي إلا لحظات والكافر في سواء الجحيم. هذا مَثَلٌ تضمنته الآية الأولى (٣٩) ومثل آخر تضمنته الآية الثانية (٤٠) وهو مثل مضروب لضلال الكافر وحيرته في حياته وما يعيش عليه من ظلمة الكفر وظلمة العمل السيء والاعتقاد الباطل وظلمة الجهل بربه وما يريده منه.

(٤٠) وما أعده له قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ[١] فِى بَحْرٍ[٢] لُّجِّىٍّ﴾ أي ذي لجج من الماء ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ أي يعلوه ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي من فوق الموج موج آخر ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾. والسحاب عادة مظلم فهي ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ لشدة الظلمة هذه حال الكافر في هذه الحياة الدنيا، وهي ناتجة عن إعراضه عن ذكر ربه وتوغله في الشر والفساد وقوله تعالى: ﴿وَمَن[٣] لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. أعلم تعالى عباده أن النور له وبيده فمن لم يطلبه منه حرمه وعاش في الظلمات والعياذ بالله.

(٤١) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي ألم ينته إلى علمك يا رسولنا أن الله تعالى يسبح له من في السموات من الملائكة والأرض أي ومن[٤] في الأرض بلسان القال والحال معًا والطير[٥] صافات أي باسطات أجنحتها تسبح الله تعالى بمعنى تنزهه بألفاظ التنزيه كسبحان الله. فإن امتنع المشركون أهل الظلمات من الإيمان بالله وعبادته وتوحيده فيها فإن الله تعالى يسبح له الخلق كله علويه وسفليه فالكافر وإن لم يسبح بلسانه فحاله[٦] تسبح فخلقه وتركيبه وأقواله وأعماله كلها تسبح الله خالقه فهي شاهدة على قدرة الله وعلمه وحكمته وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ أي ممن في السموات والأرض والطير قد علم الله صلاته وتسبيحه كما أن كلًا منهم قد علم صلاته لله تعالى وتسبيحه له ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي والله عليم بأفعال عباده، ويجزيهم بها وهو على ذلك قدير إذ له ملك السموات والأرض وإليه المصير أي مصير كل شيء إليه تعالى فهو الذي يحكم فيه بحكمه العادل.

هداية الآيات:

١ ـ استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني البعيدة إلى الأذهان.

٢ ـ بيان خسران الكافرين في أعمالهم وحياتهم كلها.

٣ ـ بيان حال الكافرين في هذه الدنيا وأنهم يعيشون في ظلمات

---

(١) قال الجرجاني: الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار، والثانية: في ذكر كفرهم، ونسق الكفر على الأعمال لأن الكفر أيضًا من أعمالهم.

(٢) قيل: المراد بالظلمات: أعمال الكفار، وبالبحر اللّجي: قلب الكافر، وبالموج فوق الموج: ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب: الرين والختم والطبع على قلبه، ولذا قال أبيّ بن كعب: الكافر يتقلّب في خمس من الظلمات: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى ظلمة النار.

(٣) قيل: هذه الآية نزلت في شيبة بن ربيعة أو في ربيعة نفسه إذ كلاهما ترهّب وطلب الدين في الجاهلية ولما جاء الإسلام كفرا به ولم يدخلا فيه وماتا كافرين.

(٤) أي: من الجن والإنس.

(٥) قرىء: ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿مَن﴾. وقرىء بالنصب على نحو: قمت وزيدًا أي: معه وهو أجود من الرفع ولو قلت: قمت أنا وزيد لكان الرفع أجود.

(٦) تسبيح الحال هو ما يُرى من علم الله تعالى وقدرته في آثار الصنعة في المخلوقات، فالخالق المدبر وحده لا يكون إلاّ إلٰهًا واحدًا لا شريك له.

الجهل والكفر والظلم.

٤ - تقرير حقيقة وهي أن من لم يجعل الله له نورًا في قلبه لن يكن له نور في حياته كلها.

٥ - بيان أن الكون كله يسبح لله كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٣ - ٤٦]

(٤٣) ﴿يُزْجِى سَحَابًا﴾: أي يسوق برفق ويسر. ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾: أي يجمع بين أجزائه وقطعه. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾: أي متراكمًا بعضه فوق بعض. ﴿ٱلْوَدْقَ﴾: أي المطر. ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾: أي من فرجه ومخارجه. ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾: أي من جبال من برد في السماء والبرد حجارة بيضاء كالثلج. ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: أي فيصيب بالبرد من يشاء. ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾: أي لمعانه. ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾: أي الناظرة إليه.

(٤٤) ﴿لَعِبْرَةً﴾: أي دلالة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه ووجوب توحيده.

(٤٥) ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾: أي حيوان من نطفة. ﴿عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾: كالحيات والهوام. ﴿عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾: كالإنسان والطير. ﴿عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾: أي كالأنعام والبهائم.

(٤٦) ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي إلى الإسلام.

معنى الآيات:

(٤٣) ما زال السياق في عرض مظاهر القدرة والعلم والحكمة الإلهية وهي الموجبة لله تعالى العبادة دون سواه فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ أي ألم ينته إلى علمك يا رسولنا أن الله يزجي[1] سحابًا أي يسوقه برفق وسهولة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ أي يجمع بين أجزائه فيجعله ركامًا أي[2] متراكمًا بعضه على بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ[3]﴾ أي المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي من فتوقه وشقوقه. والخلال جمع خلل كجبال جمع جبل وهو الفتوق بين أجزاء السحاب وهو مظهر من مظاهر القدرة والعلم.

الجُزْءُ الثَّامِن عَشَر — سُورَةُ النُّورِ

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٤٤) وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٥٢) ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)

٣٥٦

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ أي ينزل بردًا من جبال البرد المتراكمة في السماء فيصيب بذلك البرد من يشاء فيهلك به زرعه أو ماشيته، ويصرفه عمن يشاء من عباده فلا يصيبه شيء من ذلك وهذا مظهر آخر من مظاهر القدرة واللطف الإلهي وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا[4] بَرْقِهِۦ﴾ أي يقرب لمعان البرق الذي هو سناه يذهب بالأبصار التي تنظر إليه أي يخطفها بشدة لمعانه.

---

(١) ذكر تعالى من حججه وبراهينه على ألوهيته شيئًا آخر وهو: سوق السحاب وتكوين المطر وإنزاله، وإزجاء السحاب: سوقه يقال: البقرة أزجت ولدها، إذا ساقته أمامها.

(٢) يقال: ركمه يركمه ركمًا، إذا جمعه وألقى بعضه على بعض، والركام: المتراكم.

(٣) الودق: إنه البرق، وكونه المطر: أولى، ومنه قول الشاعر:

فـلا مـزنـة ودقـت ودقـهـا ... ولا أرض أبـقـل إبـقـالـهـا

(٤) السنا مصدر: لمعان البرق، والسَّناء ممدود: الرِّفعة. قال ابن دريد:

زال السـنـا عـن نـاظـري ... وزال عـن شـرف السـنـاء

فالسَّنا الأول: الرفعة، والثاني: ضوء البرق، وجملة: ﴿يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا﴾ وصف لـ: ﴿سَحَابًا﴾.

(٤٤) وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بأن يظهر هذا ويخفي هذا فإذا ظهر النهار اختفى الليل، وإذا ظهر الليل اختفى النهار فيقلب أحدهما على الآخر فيخفيه ويستره به وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي إن في إنزال البرد ولمعان البرق وتقليب الليل والنهار لعظة عظيمة لأولى البصائر تهديهم إلى الإيمان بالله وجلاله وكماله فيعبدونه ويوحدونه مُحِبّين له معظمين راجعين خائفين إن هذه ثمرة الهداية هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (٤٣) والثانية (٤٤).

(٤٥) أما الآية (٤٥) فقد اشتملت على أعظم مظهر من مظاهر القدرة الإلهية فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ[1]﴾ أي من إنسان وحيوان ﴿مِّن مَّآءٍ[2]﴾ أي نطفة من نطف الإنسان والحيوان، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيات والثعابين والأسماك، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام والبهائم، وقوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ إذ بعض الحيوانات لها أكثر من أربع وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ[3] قَدِيرٌ﴾ أي على فعل وإيجاد ما يريده قدير لا يعجزه شيء فأين الله الخالق العليم الحكيم من تلك الأصنام والأوثان التي يؤلهها الجاهلون من أهل الشرك والكفر؟

(٤٦) وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي واضحات لأجل هداية العباد إلى طريق سعادتهم وكمالهم وهي هذه الآيات التي اشتملت عليها سورة النور وغيرها من آيات القرآن الكريم فمن آمن بها ونظر فيها وأخذ بما تدعو إليه من الهدى اهتدى، ومن أعرض عنها فضل وشقي فلا يلومن إلا نفسه، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ممن رغب في الهداية وطلبها وسلك لها مسالكها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ألا وهو الإسلام طريق الكمال والسعادة في الحياتين اللهم اجعلنا من أهله إنك قدير.

هداية الآيات:

١ - مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته وهي موجبات الإيمان والتقوى.

٢ - بيان كيفية نزول المطر والبرد.

٣ - مظاهر لطف الله بعباده في صرف البرد عن الزرع والماشية وبعض عباده.

٤ - مظاهر القدرة والعلم في تقليب الليل والنهار على بعضهما بعضًا.

٥ - بيان أصناف المخلوقات في مشيها على الأرض بعد خلقها من ماء وهو مظهر العلم والقدرة.

٦ - امتنان الله تعالى على العباد بإنزاله الآيات المبينات للهدى وطريق السعادة والكمال.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧ ـ ٥٢]

(٤٧) ﴿وَيَقُولُونَ﴾: أي المنافقون. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾: أي صدقنا بتوحيد الله وبنبوة الرسول محمد ﷺ. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾: أي يعرض.

(٤٨) ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾: أي عن المجيء إلى الرسول ﷺ.

(٤٩) ﴿مُذْعِنِينَ﴾: أي مسرعين منقادين مطيعين.

(٥٠) ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي كفر ونفاق وشرك. ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾: أي بل شكوا في نبوة الرسول ﷺ. ﴿أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾: أي في الحكم فيظلموا فيه.

(٥١) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: هو قولهم سمعنا وأطعنا أي سمعًا وطاعة. ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: أي الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة.

معنى الآيات:

(٤٧) بعد عرض تلك المظاهر لقدرة الله وعلمه وحكمته والموجبة للإيمان بالله ورسوله، وما عند الله من نعيم مقيم، وما لديه من عذاب مهين فاهتدى عليها من شاء الله هدايته وأعرض عنها من كتب الله شقاوته من المنافقين الذين أخبر تعالى عنهم

---

(١) فخرج الملائكة والجن إذ الملائكة خلقوا من نور والجن من النار.

(٢) تنكير ماء: لإرادة النوعية تنبيهًا على اختلاف صفات الماء لكل نوع من الدواب.

(٣) هذه الجملة ذكرت تذييلًا وتعليلًا.

(٥٢) قرأ حفص: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بإسكان القاف على نيّة الجزم لأن مَن: شرطية جازمة، وكسرها الباقون: لأن جزم المعتل بحذف آخره، وأسكن الهاء بعضٌ واختلس كسرتها قالون عن نافع، وأشبع الكسرة الباقون.

بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ أي صدقنا بالله ربًا وإلهًا وبمحمد نبيًا ورسولاً، وأطعناهما[1] ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد تصريحهم بالإيمان والطاعة يقولون معرضين بقلوبهم عن الإيمان بالله وآياته ورسوله، ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأكذبهم الله في دعوة إيمانهم هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٤٧).

(٤٨) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ[2] لِيَحْكُمَ[3] بَيْنَهُمْ﴾ أي في قضية من قضايا دنياهم، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي فاجأك فريق منهم بالإعراض عن التحاكم إلى الرسول ﷺ.

(٤٩) وقوله: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي وإن يكن لهم في الخصومة التي بينهم وبين غيرهم ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى رسول الله ﴿مُذْعِنِينَ﴾ أي منقادين طائعين أي لعلمهم أن الرسول يقضي بينهم بالحق وسوف يأخذون حقهم وافيًا.

(٥٠) وقوله تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[4] أي بل في قلوبهم مرض الكفر والنفاق. ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ أي بل ارتابوا أي شكوا في نبوة رسول الله ﷺ. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ لا، لا، ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولما كانوا ظالمين يخافون حكم الله ورسوله فيهم لأنه عادل فيأخذ منهم ما ليس لهم ويعطيه لمن هو لهم من خصومهم.

(٥١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الصادقين في إيمانهم ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي لم يكن للمؤمنين الصادقين من قول يقولونه إذا دعوا إلى كتاب الله ورسوله ليحكم بينهم إلا قولهم: سمعنا وأطعنا فيجيبون الدعوة ويسلمون بالحق قال تعالى في الثناء عليهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الناجحون في دنياهم وآخرتهم دون غيرهم من أهل النفاق.

(٥٢) وقوله تعالى في الآية الكريمة الأخيرة (٥٢): ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[5] أي فيما يأمران به وينهيان عنه، ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ أي يخافه في السر والعلن، ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ أي يتق مخالفته فلا يقصر في واجب ولا يغْشَى محرمًا، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فقصر الفوز عليهم أي هم الآمنون من عذاب الله يوم القيامة المنعمون في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمرتهم إنك ربنا وربهم.

هداية الآيات:

١ - وجوب التحاكم إلى الكتاب والسنة.

٢ - من دُعِيَ إلى الكتاب والسنة فأعرض فهو منافق معلوم النفاق.

٣ - اتخاذ قوانين وضعية للتحاكم إليها دون كتاب الله وسنة رسوله آية الكفر والنفاق.

---

(١) قولهم هذا قول باطل، إنهم ما آمنوا ولا أطاعوا وإنما هو قول المنافقين والله شهد إنهم لكاذبون.

(٢) قيل: إنّ هذه الآية نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي، كانت بينهما أرض فقال اليهودي: هيا نتحاكم إلى محمد وقال بشر المنافق: لا إن محمدًا يحيف علينا فلنحتكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي، فنزلت.

(٣) لم يقل ليحكما لأن الذي يحكم بينهما هو الرسول ﷺ وإنما قدم اسم الله تعظيمًا ولأن مادة الحكم من الله، والرسول ﷺ مبيّن ومنفّذ لا غير.

(٤) الاستفهام للتوبيخ والذم وهو أبلغ في التوبيخ وأشد في الذم من مجرّد الإخبار كما في المدح أيضًا أبلغ وأشد فيه، وشاهده قول جرير في المدح:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

(٥) حكي أنّ رجلاً من دهاقين الروم أسلم فقيل له: هل لإسلامك سبب؟ قال: نعم إني قد قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيرًا من كتب الأنبياء فسمعت أسيرًا يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما كتب في الكتب المتقدمة فعلمت أنه من عند الله فأسلمت. وقيل له: ما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في الفرائض ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في السنن ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى من عمره ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقي من عمره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة. فقال عمر: قال النبي ﷺ: **«أوتيت جوامع الكلم»**.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

٤ - فضل طاعة الله ورسوله وتقوى الله عز وجل وأن أهلها هم الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٣ - ٥٥]

(٥٣) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي حلفوا بالله بالغين غاية الجهد في حلفهم. ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾: أي بالخروج إلى الجهاد. ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾: أي طاعة معروفة للنبي فيما يأمركم وينهاكم خير من إقسامكم بالله.

(٥٤) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أي فإن تتولوا أي تعرضوا عن الطاعة. ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾: أي من إبلاغ الرسالة وبيانها بالقول والعمل. ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾: أي من وجوب قبول الشرع والعمل به عقيدة وعبادة وحكمًا. ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾: أي وإن تطيعوا الرسول في أمره ونهيه وإرشاده تهتدوا إلى خيركم.

(٥٥) ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: أي يجعلهم خلفاء لغيرهم فيها بأن يُديلَ لهم من أهلها فيسودون فيها ويحكمون. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾: أي بأن يظهر الإسلام على سائر الأديان ويحفظه من الزوال.

معنى الآيات:

(٥٣) ما زال السياق الكريم في ذكر أحوال المنافقين فأخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ[1] أَيْمَانِهِمْ﴾ أي أقسموا للرسول ﷺ مبالغين في ذلك حتى بلغوا غاية الجهد قائلين لئن أمرتنا بالخروج إلى الجهاد لنخرجن معكم. وهنا أمر تعالى رسوله أن يقول لهم: ﴿لَّا تُقْسِمُوا﴾[2] أي ما هناك حاجة إلى الحلف وتأكيده، وإنما هي طاعة منكم معروفة لنا تغنيكم عن الأيمان وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3] تأنيب لهم وتأديب حيث أخبرهم تعالى بأنه مطلع على أسرارهم وما يقولونه ويعملونه في الخفاء ضد الرسول والمؤمنين ثم أمر تعالى رسوله أن يقول لهم: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول في كل ما يأمران به وينهيان عنه.

(٥٤) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾[4] أي تعرضوا عن الطاعة وترفضوها، فإنما على الرسول ما حمل من البلاغ والبيان، وعليكم ما حملتم من وجوب الانقياد والطاعة، ومن أخل بواجبه الذي أنيط به فسوف يلقى جزاءه وافيًا عند ربه وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ هذه الجملة عظيمة الشأن جليلة القدر للمؤمن أن يحلف بالله ولا يحنث على أن من أطاع رسول الله في أمره ونهيه لن يضل أبدًا ولن يشقى فالهداية إلى كل خير كامنة في طاعة رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي ليس على الرسول هداية القلوب، وإنما عليه البلاغ المبين لا غير فلا تلحق الرسول تبعة من عصى فَضَلَّ وهَلَك.

(٥٥) وقوله تعالى في الآية (٥٥):

---

(١) ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: طاقة ما قدروا أن يحلفوا. والجهد: بفتح الهاء: منتهى الطاقة وهو: منصوب إمّا على الحال من أقسموا، أو على المفعول المطلق أي: جهدوا أيمانهم جهدًا.

(٢) هنا تم الكلام، ثم استؤنف على تقدير: طاعة معروفة أولى من أيمانكم هذه المبالغين فيها.

(٣) جملة تذييلية تحمل التهديد لهم إذ هم كاذبون في أيمانهم وغير صادقين في أقوالهم وأعمالهم.

(٤) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أصله: تتولوا حذفت التاء الأولى تخفيفًا. وهو حذف شائع وسائغ.

﴿وَعَدَ[1] ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أي صدقوا الله والرسول ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وعدهم بأن يستخلفهم في الأرض أي يجعلهم خلفاء حاكمين في أهلها سائدين سكانها استخلافًا كاستخلاف الذين من قبلهم من بني إسرائيل حيث أجلى الكنعانيين والعمالقة من أرض القدس وورثها بني إسرائيل وقول: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام فيظهره على الدين كله ويحفظه من التغيير والتبديل والزوال إلى قرب الساعة وقوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم[2] مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إذ نزلت هذه الآية والمسلمون خائفون بالمدينة لا يقدر أحدهم أن ينام وسيفه بعيد عنه من شدة الخوف من الكافرين والمنافقين وتألب الأحزاب عليهم ولقد أنجز تعالى لهم ما وعدهم فاستخلفهم وأمكن لهم وبدلهم بعد خوفهم أمنًا فللّه الحمد والمنة.

وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي[3] لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ هذا ثناء عليهم، وتعليل لما وهبهم وأعطاهم يعبدونه لا يشركون به شيئًا وقد فعلوا وما زال بقاياهم من الصالحين إلى اليوم يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئًا اللهم اجعلنا منهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ[4] هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وعيد وتهديد لمن كفر بعد ذلك الإنعام العظيم والعطاء الجزيل فأولئك هم الفاسقون عن أمر الله الخارجون عن طاعته المستوجبون لعذاب الله ونقمته. عياذًا بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هداية الآيات:

١ - مشروعية الإقسام بالله تعالى وحرمة الحلف بغيره تعالى.

٢ - عدم الثقة في المنافقين لخلوهم من موجب الصدق في القول والعمل وهو الإيمان.

٣ - طاعة رسول الله موجبة للهداية لما فيه من سعادة الدارين ومعصيته موجبة للضلال والخسران.

٤ - صدق وعد الله تعالى لأهل الإيمان وصالح الأعمال من أصحاب رسول الله ﷺ.

٥ - وجوب الشكر على النعم بعبادة الله تعالى وحده بما شرع من أنواع العبادات.

٦ - الوعيد الشديد لمن أنعم الله عليه بنعمة أمن ورخاء وسيادة وكرامة فكفر تلك النعم ولم يشكرها فَعرّضها للزوال.

شرح الكلمات:
[الآية: ٥٦، ٥٧]

(٥٦) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي أدوها أداءً كاملاً تامًا مراعين فيها شروطها وأركانها وواجباتها وسننها حتى تثمر الزكاة والطهر في نفوسكم. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي المفروضة من المال الصامت كالذهب والفضة والحرث والناطق كالأنعام من إبل وبقر وغنم. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾: أي محمدًا ﷺ في أمره ونهيه والأخذ بإرشاده وتوجيهه. ﴿لَعَلَّكُمْ

---

(١) قال مالك: هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقيل: هذه الآية تضمنت خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين وهو كذلك، وصدق ذلك قوله ﷺ: **«الخلافة بعدي ثلاثون سنة»** وفي الآية دليل نبوة الرسول ﷺ وصحة دينه، إذ تضمنت الآية إخبارًا بالغيب فكان كما أخبر تعالى به.

(٢) فإن قيل: وأين الأمن وقد قتل عمر وعثمان وعلي غيلة؟ فالجواب: ليس الأمن مانعًا من الموت فالموت حتم مع الأمن ومع الخوف لأنها آجال محدودة لا تزيد ولا تنقص:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعددت الأسباب والموت واحد

وأخرج مسلم قوله ﷺ: **«والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»**.

(٣) الجملة يصح أن تكون حالاً أي: في حال عبادتهم الله تعالى بالإخلاص والعلم، وجائز أن تكون مستأنفة تحمل الثناء عليهم بعبادة ربهم تعالى وحده.

(٤) المراد بالكفر: كفران النعم، وقد حصل هذا بعد القرون المفضلة حيث فسدت العقائد وتمزقت الروابط، وأهمل الدين، وسلب الله ما أعطى، وفي هذا دليل آخر على صحة القرآن والنبوة والإسلام إذ هذه أخبار غيب تمت كما أعلنت.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

ترحمون﴾: أي رجاء أن يرحمكم ربكم في دنياكم وآخرتكم فلا يعذبكم فيهما.

﴿٥٧﴾ ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي معجزين الله تعالى بحيث لا يدركهم ولا ينزل بهم نقمته وعذابه. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي النار إذ هي المأوى الذي يأوون إليه ويصيرون إليه.

معنى الآيتين:

يأمر تعالى عباده المؤمنين من أصحاب الرسول الكريم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ في أمره ونهيه وإرشاده وتوجيهه وذلك رجاء أن يرحموا في الدارين، ولا يعذبوا فيهما. وهذا وإن كان موجهًا ابتداء إلى أصحاب الرسول فإنه عام بعد ذلك فيشمل كل مؤمن ومؤمنة في الحياة وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ[1] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ[2] فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا خطاب للرسول ﷺ ينهاه ربه تعالى أن يظن أن الذين كفروا مهما كانت قوتهم سيفوتون الله تعالى ويهربون مما أراد بهم من خزي وعذاب، لا، لا بل سيخزيهم ويذلهم ويسلط عليهم، وقد فعل ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ يوم القيامة ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ نار جهنم يصيرون إليها.

هداية الآيات:

١ - وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ للحصول على رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة في الدنيا بالنصر والتمكين والأمن والسيادة وفي الآخرة بدخول الجنة.

٢ - تقرير عجز الكافرين وأنهم لن يفوتوا الله تعالى مهما كانت قوتهم وسينزل بهم نقمته ويحل عليهم عذابه.

٣ - بيان مصير أهل الكفر وأنه النار والعياذ بالله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٨ - ٦٠]

﴿٥٨﴾ ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾: أي ليطلب الإذن منكم في الدخول عليكم. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: من عبيد وإماء. ﴿لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾: أي سن التكليف وهو وقت الاحتلام خمسة عشر سنة فما فوق. ﴿تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾: أي وقت القيلولة للاستراحة والنوم. ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾: العورة ما يستحي من كشفه، وهذه الأوقات الثلاثة ينكشف فيها الإنسان في فراشه فكانت بذلك ثلاث عورات. ﴿بَعْدَهُنَّ﴾: أي بعد الأوقات الثلاثة المذكورة. ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾: أي للخدمة. ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي بعضكم طائف على بعض.

﴿٥٩﴾ ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾: أي في جميع الأوقات لأنهم أصبحوا رجالاً مكلفين.

﴿٦٠﴾ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: أي اللاتي قعدن عن الحيض والولادة لكبر سنهن. ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾: كالجلباب والعباءة والقناع والخمار. ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾: أي غير مظهرات زينة خفية كقلادة وسوار وخلخال. ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾: بأن لا يضعن ثيابهن خير لهن من الأخذ بالرخصة.

معنى الآيات:

﴿٥٨﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) الآية تحمل تسلية للنبي ﷺ وقرئت بالتاء: ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ خطاب للنبي ﷺ ولكل ذي أهلية من أصحابه والمؤمنين والجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا وقرئت الآية: ﴿ولا يحسبن﴾ بالياء وهي قراءة ضعيفة إذ حسب هنا بمعنى ظن ولم يذكر لها إلا مفعولاً واحدًا وهي تنصب مفعولين.

(٢) المعجز: الذي يعجز غيره أي: يجعله عاجزًا عن غلبه، والأرض في الآية هي أرض الدنيا هذه.

ءَامَنُوا۟﴾[1] روي في نزول هذه الآية أن النبي ﷺ بعث غلامًا من الأنصار يقال له مدلج إلى عمر بن الخطاب يدعوه له فوجده نائمًا في وقت الظهيرة فدق الباب ودخل فاستيقظ عمر فانكشف منه شيء فقال عندها عمر وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا في هذه الساعة إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد هذه الآية قد أنزلت فخر ساجدًا شكرًا لله تعالى.

فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هو نداء لكل المؤمنين في كل عصورهم وديارهم. وقوله: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ[2] وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أي علموا أطفالكم وخدمكم الاستئذان عليكم في هذه الأوقات الثلاثة وأمروهم بذلك. وقوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ هي المبينة في قوله: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ وهي ساعات النوم من الليل، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وهي القيلولة، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ[3]﴾ وهي بداية نوم الليل.

وقوله: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ[4] لَّكُمْ﴾ أي هي منطقة انكشاف العورة فيها فأطلق عليها اسم العورة والعورة ما يستحى من كشفه وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ولا على الأطفال والخدم ﴿جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد المرات الثلاث وقوله: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ أي يدخلون ويخرجون عليكم للخدمة. ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي بعضكم يدخل على بعض للخدمة فلا غنى عنه فلذا فلا حرج عليكم في غير الأوقات الثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي كهذا التبيين الذي بين لكم حكم الاستئذان يبين الله لكم الآيات المتضمنة للشرائع والأحكام والآداب فله الحمد وله المنة وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بخلقه وما يحتاجون إليه في إكمالهم وإسعادهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع لهم ويفرض عليهم.

(٥٩) وقوله تعالى في الآية الثانية **(٥٩)**: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾[5] أي إذا بلغ الطفل سن الاحتلام وهو البلوغ واحتلم فعليه أن لا يدخل على غير محارمه إلا بعد الاستئذان كما يفعل ذلك الرجال من قبله إذ قد أصبح بالبلوغ الذي علامته الاحتلام أو بلوغ خمس عشرة سنة فأكثر أصبح رجلًا تمامًا فعليه أن لا يدخل بيت أحد إلا بعد أن يستأذن هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهم الرجال وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي المتضمنة لأحكامه وشرائعه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه، وما يصلح لهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وهذه حال توجب طاعته تعالى فيما يأمر به وينهى عنه.

(٦٠) وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ[6] مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا[7]﴾ أي والتي قعدت عن الحيض والولادة لكبر سنها بحيث أصبحت لا ترجو نكاحًا ولا يرجى منها ذلك فهذه ليس عليها إثم ولا حرج في أن تضع خمارها من فوق رأسها، أو عباءتها من فوق ثيابها التي على جسمها حال

---

(١) قيل: إنّ الآية منسوخة وقيل: هي للندب أو هي واجبة إذ كانوا لا أبواب لغرفهم، والصحيح أنها محكمة وأن الاستئذان من هؤلاء المذكورين واجب، وسواء كان العبد وغدًا أو ذا منظر حسن.

(٢) ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: هم العبيد والذكر والأنثى في هذا سواء.

(٣) يكره تسمية العشاء بالعتمة. روى مسلم أنّ النبي ﷺ قال: «**لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم ألا إنها العشاء وهم معتمون بالإبل**» وفي رواية: «**فإنها في كتاب الله العشاء وإنها** - أي الأعراب - **تعتم بحلاب الإبل**» وفي الصحيح: «**من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل**».

(٤) العورة: في الأصل الخلل والنقص ثم أطلقت على ما يكره انكشافه والنظر إليه.

(٥) المراد أنّ الأطفال إذا بلغوا الحلم تغيّر حكمهم في الاستئذان فأصبحوا كالرجال في الاستئذان على دخول بيوت الغير كما تقدم في آية الاستئذان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ..﴾ الآية.

(٦) القواعد: جمع قاعد بدون تاء وهي: الآيسة من الحيض والحمل.

(٧) هذه الجملة متضمنة وصفًا كاشفًا للقواعد وليس قيدًا.

كونها غير متبرجة[1] أي مظهرة زينة لها كخضاب اليدين والأساور في المعصمين والخلاخل في الرجلين، أو أحمر الشفتين، وما إلى ذلك مما هو زينة يجب ستره وقوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي ومن لازمت خمارها وعجارها ولم تظهر للأجانب كاشفة وجهها ومحاسنها خير لها حالاً ومآلاً، وحسبها أن يختار الله لها فما اختاره لها لن يكون إلا خيرًا في الدنيا والآخرة فعلى المؤمنات أن يخترن ما اختار الله لهن. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأعمالهم وأحوالهم فليتق فيطاع ولا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

هداية الآيات:

١ - وجوب تعليم الآباء والسادة والأطفال والخدم الاستئذان عليهم في الأوقات الثلاثة المذكورة والمعبر عنها بالعورات.

٢ - وجوب استئذان الأولاد إذا احتلموا الاستئذان على من يريدون الدخول عليه في بيته لأنهم أصبحوا رجالاً مكلفين.

٣ - بيان رخصة كشف الوجه لمن بلغت سنًا لا تحيض فيها ولا تلد للرجال الأجانب ولو أبقت على سترها واحتجابها لكان خيرًا لها كما قال تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦١]

(٦١) ﴿حَرَجٌ﴾: الضيق والمراد به هنا الإثم أي لا إثم على المذكورين في مؤاكلة غيرهم. ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾: أي مما هو تحت تصرفكم بالأصالة أو بالوكالة كوكالة على بستان أو ماشية. ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾: أي من صدقكم الود وصدقتموه. ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾: أي مجتمعين على الطعام أو متفرقين. ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾: لأنه هو الذي شرعها وأمر بها، وما كان من عند الله فهو خير عظيم. ﴿طَيِّبَةً﴾: أي تطيب بها نفس المسلم عليه.

معنى الآية الكريمة:

(٦١) ما زال السياق في هداية المؤمنين وبيان ما يكملهم ويسعدهم ففي هذه الآية الكريمة. رفع تعالى عنهم حرجًا عظيمًا كانوا قد شعروا به فآلمهم وهو أنهم قد رأوا أن الأكل مع ذوي العاهات وهم العميان والعرجان والمرضى وأهل الزمانة قد يترتب عليه أن يأكلوا ما لا يحل لهم أكله لأن أصحاب هذه العاهات لا يأكلون كما يأكل الأصحاء كمّا وكيفًا والله يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾. كما أن أصحاب العاهات قد تحرجوا أيضًا من مؤاكلة الأصحاء معهم خوفًا أن يكونوا يتقذرونهم فآلمهم ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية فرفع الحرج عن الجميع الأصحاء وأصحاب العاهات فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ[2] أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ بوكالة وغيرها، ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[3] وهو من صدقكم المودة وصدقتموه فيها ما دام الرضا حاصلاً، وإن لم يحضروا ولا استئذان[4] وإن حضروا.

---

(١) ورد وعيد شديد للمتبرجات، فقد روى مسلم أنّ النبي ﷺ قال: «**صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا..**».

(٢) لم تذكر بيوت الأبناء لأن بيوتهم داخلة في بيوت الآباء للحديث: «**أنت ومالك لأبيك**» والحديث وإن ضعف فما هو إلا شاهد فقط وإلا فمعلوم بالضرورة أنّ الأولاد عادة وعرفًا يكونون في بيوت آبائهم ولذا لم يذكروا.

(٣) روي عن ابن عباس أنه قال: الصديق أوكد من القرابة أي: أقوى صلة وقال: ألا ترى استغاثة الجهنميين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾.

(٤) قال ابن العربي رحمه الله تعالى قولاً حسنًا في هذا الحكم قال: أباح لنا الأكل من جهة النسب من غير استئذان إذا كان الطعام مبذولاً، فإذا كان محرزًا دونهم لم يكن لهم أخذه، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الادخار، ولا إلى ما ليس بمأكول وإن كان غير محرز عنهم إلاّ بإذنهم.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

ترتيبها ٢٥ — سُورَةُ الفُرْقَانِ — آياتها ٧٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

٣٥٩

ورفع تعالى عنهم حرجًا آخر وهو أن منهم من كان يتحرج في الأكل وحده، ويرى أنه لا يأكل إلا مع غيره وقد يوجد من يتحرج أيضًا في الأكل الجماعي خشية أن يؤذي الآكل معه فرفع تعالى ذلك كله بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين[1] على قطعة واحدة[2] ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي متفرقين كل يأكل وحده متى بدا له ذلك وهذا كله ناجم عن تقواهم لله تعالى وخوفهم من معاصيه إذ قد حرم عليهم أكل أموالهم بينهم بالباطل في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم[3] بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فأرشدهم إلى ما يجلب محبتهم وصفاء نفوسهم ويدخل السرور عليهم وهو أن من دخل بيتًا من البيوت بيته كان أو بيت غيره عليه أن يسلم على أهل البيت قائلاً السلام عليكم، وإن كان البيت ما به أحد أو كان مسجدًا قال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وقوله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إذ هو تعالى الذي أمر بها وأرشد إليها وقوله: ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ أي ذات بركة تعود على الجميع وكونها طيبة أن نفوس المُسَلَّم عليهم تطيب بها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي كذلك البيان الذي بين لكم من الأحكام والآداب يبين الله لكم الآيات الحاملة للشرائع والأحكام رجاء أن تفهموا عن الله تعالى شرائعه وأحكامه فتعملوا بها فتكملوا وتسعدوا عليها.

هداية الآية الكريمة:

١ - الإذن العام في الأكل مع ذوي العاهات بلا تحرج من الفريقين.

٢ - الإذن في الأكل من بيوت من ذكر في الآية من الأقارب والأصدقاء.

٣ - جواز الأكل الجماعي والانفرادي بلا تحرج.

٤ - مشروعية التحية عند الدخول على البيوت وأن فيها خيرًا وفضلاً.

شرح الكلمات:
[الآية: ٦٢ - ٦٤]

﴿٦٢﴾ ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾: كخطبة الجمعة ونحوها مما يجب حضوره كاجتماع لأمر هام كحرب ونحوها.

﴿يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾: أي يطلبوا منه ﷺ الإذن. ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾: أي لبعض أمورهم الخاصة بهم.

﴿٦٣﴾ ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾: أي نداءه فلا ينادى بيا محمد ولكن بيا نبي الله ورسول الله. ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾: أي كما ينادي بعضكم بعضًا بيا عمر ويا سعيد مثلاً. ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾: أي ينسلون واحدًا بعد واحد يستتر بعضهم بعضًا حتى يخرجوا خفية. ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾: أي زيغ في قلوبهم فيكفروا.

﴿٦٤﴾ ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾: أي من الإيمان والنفاق، وإرادة الخير أو إرادة الشر. وقد هنا للتأكيد

---

(١) لا ينبغي أن يُفهم من كلمة مجتمعين أنهم رجال أجانب مع نساء أجنبيات بل هم محارم لبعضهم بعضًا.

(٢) هذا يشمل النهد ووليمة العرس وغيرها، والنهد: هو أن يكون القوم في سفر فيجمعون الطعام من بعضهم بعضًا ويخلطونه ويأكلونه مجتمعين فهو جائز مباح.

(٣) ورد كيفية الدخول إلى المنزل وهو أن يقول: «**اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا، ثم يسلّم على أهله**». (في صحيح مسلم).

عوملت معاملة رب إذ هي للتقليل وتكون للتكثير أحيانًا.

معنى الآيات:

(٦٢) يخبر تعالى أن المؤمنين الكاملين في إيمانهم هم الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، وإذا كانوا معه ﷺ في أمر جامع يتطلب حضورهم كالجمعة واجتماعات الحروب، لم يذهبوا حتى يستأذنوه ﷺ ويأذن لهم هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا[1] ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في هذا تعليم للرسول والمؤمنين وتعريض بالمنافقين. فقد أخبر تعالى أن الذين يستأذنون النبي هم المؤمنون بالله ورسوله، ومقابله أن الذين لا يستأذنون ويخرجون بدون إذن هم لا يؤمنون بالله ورسوله وهم المنافقون حقًا، وأمر رسول الله إذا استأذنه المؤمنون لبعض شأنهم أن يأذن لمن شاء منهم ممن لا أهمية لحضوره كما أمره أن يستغفر الله لهم لما قد يكون غير عذر شرعي يبيح لهم الاستئذان وطمعهم في المغفرة بقوله إن الله غفور رحيم.

(٦٣) وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم[2] بَعْضًا﴾ هذا يحتمل أمورًا كلها حق الأول أن يحاذر المؤمنون إغضاب رسول الله بمخالفته فإنه إن دعا عليهم هلكوا لأن دعاء الرسول لا يرد فليس هو كدعاء غيره، والثاني أن لا يدعوا الرسول باسمه يا محمد ويا أحمد بل عليهم أن يقولوا يا نبي الله ويا رسول الله، والثالث أن لا يغلظوا في العبارة بل عليهم أن يلينوا اللفظ ويرققوا العبارة إكبارًا وتعظيمًا لرسول الله ﷺ هذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أعلمهم تعالى أنه يعلم قطعًا أولئك المنافقين الذين يكونون في أمر جامع مع رسول الله ﷺ فيتسللون واحدًا بعد آخر بدون أن يستأذنوا متلاوذين في هروبهم من المجلس يستتر بعضهم بعضًا، وفي هذا تهديد بالغ الخطورة لأولئك المنافقين. وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ[3] ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ[4]﴾ أي أمر رسول الله وهذا عام للمؤمنين والمنافقين وإلى يوم القيامة فليحذروا أن تصيبهم فتنة وهي زيغ في قلوبهم فيموتوا كافرين، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا والعذاب ألوان وصنوف.

(٦٤) وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خلقًا وملكًا وعبيدًا يتصرف كيف يشاء ويحكم ما يريد ألا فَلْيتقّ اللّهُ عز وجل في رسوله فلا يخالف أمره ولا يعصي في نهيه فإن الله لم يرسل رسولاً إلا ليطاع بإذنه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ إخبار يحمل التهديد والوعيد أيضًا فما عليه الناس من أقوال ظاهرة وباطنة معلومة لله تعالى، ويوم يرجعون إلى الله بعد موتهم فينبئهم بما عملوا من خير وشر ويجزيهم به الجزاء الأوفى، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ فليحذر أن يخالف رسوله أو يعصى وليتق في أمره ونهيه فإن نقمته صعبة وعذابه شديد.

هداية الآيات:

١ - وجوب الاستئذان من إمام

---

(١) إنما: أداة حصر، وهي هنا كذلك، فالمعنى أنه لا يتم ولا يكمل إيمان مَنْ آمن بالله ورسوله ﷺ إلاّ إذا كان من الرسول ﷺ سامعًا غير معنت، فلا يناقض للرسول ﷺ في قول ولا عمل أبدًا.

(٢) يريد: لا يصيحوا به من بعيد يا أبا القاسم، بل يعظّموه، شاهده من سورة الحجرات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)﴾.

(٣) دلت الآية على أنّ الأمر للوجوب، وتوجيهه أنّ الله تعالى قد حذّر من مخالفة أمره وتوعّد بالعقاب عليها بقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(٤) قيل: إن ﴿عَنْ﴾ في قوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ زائدة، والتقدير: يخالفون أمره، وقيل: ليست زائدة إذ المعنى: يخالفون بعد أمره فعن بمعنى: عند وهذا كقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: بعد أمر ربّه إيّاه بأن يسجد لآدم.

المسلمين إذا كان الأمر جامعًا. وللإمام أن يأذن لمن شاء ويترك من يشاء حسب المصلحة العامة.

٢ ـ وجوب تعظيم رسول الله ﷺ، وحرمة إساءة الأدب معه حيًا وميتًا.

٣ ـ وجوب طاعة رسول الله وحرمة مخالفة أمره ونهيه.

٤ ـ المتجرىء على الاستهانة بسنة الرسول ﷺ يُخشى عليه أن يموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله.

❊ ❊ ❊

سورة الفرقان
مكية
وآياتها سبع[1] وسبعون آية

الجزءُ الثامن عشَر — سُورةُ الفُرقانِ

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

٣٦٠

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٣]

﴿١﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾: أي تكاثرت بركته وعمت الخلائق كلها. ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾: أي الله الذي نزل القرآن فارقًا بين الحق والباطل. ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾: أي محمد ﷺ. ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾: أي ليكون محمد ﷺ نذيرًا للعالمين من الإنس والجن أي مخوفًا لهم من عقاب الله وعذابه إن كفروا به ولم يعبدوه ويوحدوه.

﴿٢﴾ ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾: أي سواه تسوية قائمة على أساس لا اعوجاج فيه ولا زيادة ولا نقص عما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿٣﴾ ﴿ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾: أي لا دفع ضر ولا جلب نفع. ﴿مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾: أي لا يقدرون على إماتة أحد ولا إحيائه ولا بعثًا للأموات.

معنى الآيات:

﴿١﴾ يثني الرب تبارك[2] وتعالى على نفسه بأنه عَظُم خيره وعمت بركته المخلوقات كلها الذي ﴿نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ الكتاب العظيم الذي فرق به بين الحق والباطل والتوحيد والشرك والعدل والظلم أنزله ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ[3] لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ الإنس والجن ﴿نَذِيرًا﴾ ينذرهم عواقب الكفر والشرك والظلم والشر والفساد وهي عقاب الله وعذابه في الدنيا والآخرة.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خلقًا وملكًا وعبيدًا وهو ثناء بعد ثناء وقوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ[4] فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ وهو ثناء آخر عظيم أثنى تبارك وتعالى فيه على نفسه بالملك والقدرة والخلق والعلم والحكمة.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن[5] دُونِهِۦٓ

---

(١) من الجائز أن يكون فيها بعض الآيات مدنيًا إلا أن أسلوبها ومحتواها ظاهر في أنه مكيّ وهو الصحيح، وسميت بالفرقان لذكر لفظ الفرقان فيها ثلاث مرات.

(٢) للفظ تبارك دلالات كلها حق، منها: تقدس، وتعالى، ودام وثبت إنعامه. قال الثعلبي: لا يقال: متبارك ولا مبارك لأنه يوقف في أسمائه تعالى وصفاته على ما ورد عنه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ. قال الطِّرِمّاح:

تباركت لا معطٍ لشيء منعته وليس لما أعطيت يا ربّ مانع

(٣) ﴿لِيَكُونَ﴾ أي: من نزل عليه القرآن وهو محمد ﷺ للعالمين نذيرًا. في الآية دليل على عموم رسالته ﷺ ولم يكن هذا لغيره إلا نوحًا بعد الطوفان، فقد عمّت رسالته الإنس.

(٤) فيه ردّ على المجوس والثنوية القائلين: هناك خالقان: خالق للظلمة وخالق للنور، أو خالق للخير وخالق للشر، وهو رأي عفن وجهل مظلم.

(٥) في هذه الجملة تعجب من اتخاذ المشركين آلهة دونه تعالى وهي جمادات لا حياة فيها ولا تملك نفعًا ولا ضرًا.

ءَالِهَةً﴾ أصنامًا ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾ فضلاً عن غيرهم من عابديهم ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي دفع ضرٍ ولا جلب نفع، ولا يملكون موتًا لأحد ولا حياة لآخر ولا نشورًا[1] للناس يوم القيامة. أليس هذا موضع تعجب واستغراب أمع الله الذي عمت بركته الأكوان وأنزل الفرقان ملك ما في السماوات والأرض تنزه عن الولد والشريك وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وخلق كل شيء فقدره تقديرًا يتخذون من دونه آلهة أصنامًا لا تدفع عن نفسها ضرًا ولا تجلب لها نفعًا ولا تملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا فسبحان الله أين يذهب بعقول الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هداية الآيات:

١ - مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته وهو إفاضة الخير على الخلق والملك والقدرة والعلم والحكمة.

٢ - التنديد بالشرك والمشركين.

٣ - تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤ - ٩]

(٤) ﴿إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي ما القرآن إلا كذبًا افتراه محمد وليس هو بكلام الله تعالى هكذا قالوا. ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾: أي فرد الله عليهم قولهم بقوله فقد جاؤوا ظلمًا حيث جعلوا الكلام المعجز الهادي إلى الإسعاد والكمال البشري إفكًا مختلقًا وزورًا بنسبة ما هو بريء منه إليه.

(٥) ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾: أي طلب كتابتها له فكتبت له.

(٦) ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾: أي ما يسره أهل السماء والأرض وما يخفونه في نفوسهم.

(٨) ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾: أي من السماء فينفق منه ولا يحتاج معه إلى الضرب في الأسواق. ﴿جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾: بستان فيه ما يغنيه من أنواع الحبوب والثمار. ﴿رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾: مخدوعًا مغلوبًا على عقله.

(٩) ﴿ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾: أي بالسحر والجنون والشعر والكهانة والكذب وما إلى ذلك. ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: فضلوا الطريق الحق وهو أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فلا يهتدون.

معنى الآيات:

(٤) يخبر تعالى عن أولئك المشركين الحمقى الذين اتخذوا من دون الله رب العالمين آلهة أصنامًا لا تضر ولا تنفع أنهم زيادة على سفههم في اتخاذ الأحجار آلهة يعبدونها قالوا في القرآن الكريم والفرقان العظيم ما هو إلا إفك أي كذب اختلقه محمد وأعانه عليه قوم[2] آخرون يعنون اليهود ساعدوه على الإتيان بالقرآن. ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾ بهذا القول الكذب الممقوت ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ظلمًا لأنهم جعلوا القرآن المعجز الحامل للهدى والنور جعلوه كذبًا وجعلوا البريء من الكذب والذي لم يكذب قط كاذبًا فكان قولهم فيه زورًا وباطلاً.

(٥) وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ[3] ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذه الآية نزلت ردًا على شيطان قريش النضر بن الحارث إذ كان يأتي الحيرة ويتعلم أخبار ملوك فارس ورستم. وإذا حدث محمد ﷺ قومه محذرًا إياهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم فإذا قام ﷺ من المجلس جاء هو فجلس وقال تعالوا أقص عليكم إني أحسن حديثًا من محمد، ويقول إن ما يقوله محمد هو من أكاذيب القُصَّاص وأساطيرهم التي سطروها في كتبهم فهو يحدث بها وهي تملى عليه أي يمليها عليه

---

(١) النشور: الإحياء بعد الموت. قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبًا للميت الناشر

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ هم: أبو فكيهة مولى ابن الحضرمي وعدّاس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب.

(٣) الأساطير: جمع أسطورة كأحاديث جمع أحدوثة. وقال بعضهم: إنها جمع أسطار كأقوال وأقاويل. ﴿تُمْلَىٰ﴾ أصلها: تُملل فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف.

غيره صباحًا ومساءً فرد تعالى هذه الفرية.

(٦) بقوله لرسوله: ﴿قُلْ[1] أَنزَلَهُ﴾ أي القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي سر ما يسره أهل السماوات وأهل الأرض فهو علام الغيب المطلع على الضمائر العالم بالسرائر، ولولا أن رحمته سبقت غضبه لأهلك من كفر به وأشرك به سواه ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يستر زلات من تاب إليه ويرحمه مهما كانت ذنوبه.

(٧) ـ (٨) وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا[2] الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا[3] أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝﴾ هذه كلمات رؤساء قريش وزعمائها لما عرضوا على رسول الله ﷺ أن يترك دعوته إلى ربه مقابل ما يشاء من ملك أو مال أو نساء أو جاه فرفض كل ذلك فقالوا له إذًا فخذ لنفسك لماذا وأنت رسول الله تأكل الطعام وتمشي في الأسواق[4] تطلب العيش مثلنا فسل ربك ينزل إليك ملكًا فيكون معك نذيرًا أو يلقي إليك بكنز من ذهب وفضة تعيش بهما أغنى الناس، أو يجعل لك جنة من نخيل وعنب، أو يجعل لك قصورًا من ذهب تتميز بها عن الناس وتمتاز فيعرف قدرك وتسود قومك. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾[5] أي للمؤمنين من أصحاب الرسول ﷺ إن تتبعون إلا رجلًا مسحورًا أي إنكم باتباعكم محمدًا فيما جاء به ويدعو إليه ما تتبعون إلا رجلًا مسحورًا، أي مخدوعًا مغلوبًا على عقله لا يدري ما يقول ولا ما يفعل أي فاتركوه ولا تفارقوا ما عليه آباؤكم وقومكم.

(٩) وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا[6] لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝﴾ أي انظر يا رسولنا إلى هؤلاء المشركين المفتونين كيف شبهوا لك الأشباه وضربوا لك الأمثال الباطلة فقالوا فيك مرة هو ساحر، وشاعر وكاهن ومجنون فضاعوا في هذه التخرصات وضلوا طريق الحق فلا يرجى لهم هداية بعد، وذلك لِبُعْدِ ضلالهم فلا يقدرون على الرجوع إلى الحق وهو معنى قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

هداية الآيات:

١ ـ بيان ما قابل به المشركون دعوة التوحيد من جلب كل قول وباطل ليصدوا عن سبيل الله وما زال هذا دأب المشركين إزاء دعوة التوحيد إلى اليوم وإلى يوم القيامة.

٢ ـ تقرير الوحي الإلهي والنبوة المحمدية.

٣ ـ بيان حيرة المشركين إزاء دعوة الحق وضربهم الأمثال الواهية الرخيصة للصدِّ عن سبيل الله، وقد باءت كل محاولاتهم بالفشل والخيبة المرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ ـ ١٦]

(١٠) ﴿تَبَارَكَ﴾: أي تقدس وكثر خيره

---

(١) هذه الجملة ردّ على من زعم من المشركين أنّ محمدًا ﷺ يتلقى القرآن من أهل الكتاب، وذكر السرّ دون الجهر لأنّ من علم السر فهو بالجهر أعلم. وأمرٌ آخر: لو كان القرآن مأخوذًا عن أهل الكتاب لما كان فيه زيادة عمّا عندهم في حين أنّ فيه من العلوم والمعارف ما لا يخطر حتى على البال ولو لم يكن كذلك لقدروا على الإتيان بسورة من مثله.

(٢) الاستفهام للتعجب، وجملة: ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ جملة حالية، وقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ من باب المجاراة وإلاّ فهم مكذّبون برسالته.

(٣) ﴿لَوْلَا﴾: حرف تحضيض استعملت هنا في التعجيز أي: لولا أنزل عليه ملك لاتبعناه، وإنهم كاذبون.

(٤) ﴿الْأَسْوَاقِ﴾: جمع سوق، وسميت السوق سوقًا لقيام الناس فيها على ساق للبيع والشراء وورد ذكرها في الكتاب والسنة والعمل فيها مباح وكان الرسول ﷺ يأتيها يدعو أهلها إلى الإسلام، وورد أنها شرّ البقاع والمساجد خيرها وهي مقابلة، وورد أنه من قال فيها رافعًا بها صوته: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وإليه المصير وهو على كل شيء قدير**» كتب له ألف ألف حسنة.

(٥) هذا القائل هو: عبدالله بن الزبعري أيّام جاهليته إذ أسلم فيما بعد وحسن إسلامه.

(٦) هذه الجملة تعجبيّة وهي إخبار منه تعالى عن حال المشركين إذ ضلوا في تلفيق المطاعن والبحث عن التهم لدفع الحق وإبطاله فعجزوا وتاهوا في طرق طلبهم ما يبطلون به دعوة الله تعالى.

إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

وعمت بركته. ﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾: أي الذي اقترحه المشركون عليك.

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾: أي كثيرة لا قصرًا واحدًا كما قال المشركون.

﴿١١﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾: أي لم يكن المانع لهم من الإيمان كونك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق بل تكذيبهم بالبعث والجزاء هو السبب في ذلك.

﴿١٢﴾ ﴿تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾: أي صوتًا مزعجًا من تغيظها على أصحابها المشركين بالله الكافرين به.

﴿١٣﴾ ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: أي مقرونة أيديهم مع أعناقهم في الأصفاد. ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾: أي نادوا يا ثبورنا أي يا هلاكنا إذ الثبور الهلاك.

﴿١٥﴾ ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾: أي ثوابًا على إيمانهم وتقواهم، ومصيرًا صاروا إليها لا يفارقونها.

﴿١٦﴾ ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾: أي مطالبًا به إذ المؤمنون يطالبون به قائلين ربنا وآتنا ما وعدتنا والملائكة تقول ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم.

معنى الآيات:

﴿١٠﴾ ما زال السياق الكريم في الرد على مقترحات المشركين على رسول الله ﷺ، إذ قالوا لولا أنزل إليه ملك، أو يلقى إليه كنزٌ وتكون له جنة يأكل منها فقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿تَبَارَكَ[١] ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ[٢] لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي الذي اقترحوه وقالوا خذ لنفسك من ربك بعد أن رفضت طلبهم بترك دعوتك والتخلي عن رسالتك ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من خلال أشجارها وقصورها، ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا[٣]﴾ لا قصرًا واحدًا كما قالوا، ولكنه لم يشأ ذلك لك من هذه الدار لأنها دار عمل ليست دار جزاء وراحة ونعيم فربك قادر على أن يجعل لك ذلك ولكنه لم يشأه والخير فيما يشاءه فاصبر فإن المشركين لم يكن المانع لهم من الإيمان هو كونك بشرًا تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، أو أن الله تعالى لم ينزل إليك ملكًا بل المانع هو تكذيبهم بالساعة فعلة كفرهم وعنادهم هي عدم إيمانهم بالبعث والجزاء فلو آمنوا بالحياة الثانية لطلبوا كل سبب ينجي من عذابها ويحصل نعيمها.

﴿١١﴾ ﴿بَلْ[٤] كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ[٥]﴾ أي القيامة ﴿سَعِيرًا﴾ أي نارًا مستعرة أو هي دركة من دركات النار تسمى سعيرًا.

﴿١٢﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم[٦] مِّن

---

(١) أي: إن شاء جعل لك خيرًا من ذاك الذي اقترحه المشركون عليك، وأن معنى لو الشرطية وجواب الشرط محذوف. أي: لجعل ولكن لم يشأ ذلك لأنه غير لائق بمقامك في هذه الدار وهو لك في الآخرة.

(٢) قرىء: ﴿وَيَجْعَلُ﴾ بالرفع على الاستئناف، وقراءة الأكثر بالجزم على محل الشرط: إن شاء جعل لك.

(٣) القصر في اللغة: كل بناء رفيع عالٍ حصين. وأما البيت فقد يكون من لبن وطين وقد يكون من شعر.

(٤) بل: هنا للإضراب والانتقال. إضراب على جواب اقتراحهم، وانتقال إلى ذكر علة كفرهم وعنادهم واقتراحهم ما اقترحوه، وهو تكذيبهم بالبعث الآخر، إذ هو سبب عنادهم وكفرهم وفسادهم.

(٥) الساعة: اسم غلب على عالم الخلود، تسمية باسم مبدئه وهو ساعة البعث.

(٦) إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم فقد ورد مرفوعًا أنّ النبي ﷺ قال: **«من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدًا»**. قيل يا رسول الله: ولها عينان؟ قال: **«أما سمعتم الله عز وجل:** ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ **يخرج**

﴿مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ۝﴾ هذا وصف للسعير وهو أنها إذا رأت أهلها من ذوي الشرك والظلم والفساد من مكان بعيد تغيظت عليهم تغيظًا وزفرت زفيرًا مزعجًا فيسمعونه فترتعد له فرائصهم.

⑬ ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾ مشدودة أيديهم إلى أعناقهم بالأصفاد ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ﴾ أي نادوا بأعلى أصواتهم يا ثبوراه أي يا هلاكاه أحضر فهذا وقت حضورك: فيقال لهم خزيًا وتبكيتًا وتحسيرًا:

⑭ ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ۝﴾.

⑮ فهذا أوان هلاككم وخزيكم وعذابكم وهنا يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ لأولئك المشركين المكذبين بالبعث والجزاء: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من السعير والإلقاء فيها مقرونة الأيدي بالأعناق وهم يصرخون يدعون بالهلاك ﴿خَيۡرٌ[1] أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ أي التي وعد الله تعالى بها عباده الذين اتقوا عذابه بالإيمان به وبرسوله وبطاعة الله ورسوله قطعًا جنة الخلد خير ولا مناسبة بينها وبين السعير، وإنما هو التذكير لا غير. وقوله: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ﴾ أي جنة الخلد كانت لأهل الإيمان والتقوى ﴿جَزَآءٗ﴾ أي ثوابًا، ﴿وَمَصِيرٗا﴾ يصيرون إليه لا يفارقونه.

⑯ وقوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي فيها من أنواع المطاعم والمشارب والملابس والمساكن وقوله: ﴿خَٰلِدِينَۚ﴾ أي فيها لا يموتون ولا يخرجون، وقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ أي تفضل ربك أيها الرسول بها فوعد بها عباده المتقين وعدًا يسألونه إياه فينجزه لهم فهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾. والملائكة تقول: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝﴾.

هداية الآيات:

١ - بيان أن مرد كفر الكافرين وظلم الظالمين وفساد المفسدين إلى تكذيبهم بالبعث والجزاء في الدار الآخرة فإن من آمن بالبعث الآخر سارع إلى الطاعة والاستقامة.

٢ - تقرير عقيدة البعث الآخر بوصف بعض ما يتم فيه من الجزاء بالنار والجنة.

٣ - فضل التقوى وأنها ملاك الأمر فمن آمن واتقى فقد استوجب الدرجات العلى جعلنا الله تعالى من أهل التقوى والدرجات العلى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ - ٢٠]

⑰ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾: أي يجمعهم.

﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: من الملائكة والأنبياء والأولياء والجن.

﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾: أي طريق الحق بأنفسهم بدون دعوتكم إياهم إلى ذلك.

⑱ ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: أي تنزيهًا لك عما لا يليق بجلالك وكمالك. ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾: أي بأن أطلت أعمارهم ووسعت عليهم أرزاقهم.

⑲ ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾: أي هلكى، إذ البوار الهلاك. ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾: أي ومن يشرك منكم أيها الناس.

⑳ ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾: أي بلية فالغني مبتلى بالفقير، والصحيح بالمريض، والشريف بالوضيع فالفقير يقول ما لي لا أكون كالغني والمريض يقول ما لي لا أكون كالصحيح، والوضيع يقول ما لي لا أكون كالشريف مثلاً. ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾: أي اصبروا على ما تسمعون مِمَّن ابتليتم بهم، إذ الاستفهام للأمر هنا. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾: أي بمن يصبر وبمن يجزع ولا يصبر.

= **عنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول: وكلت بكل من جعل مع الله إلَهًا آخر»** الحديث صححه ابن العربي في القبس.

(١) إن قيل: كيف قال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ ولا خير في النار؟ قيل: هذا من باب قول العرب: الشقاء أحبّ إليك أم السعادة؟ وقد علم أنّ السعادة أحب إليه. قال حسان:

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

وقطعًا الرسول ﷺ لا شرّ فيه البتة.

معنى الآيات:

(١٧) ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مظاهر لها في القيامة إذ إنكار هذه العقيدة هو سبب كل شر وفساد في الأرض فقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[1] وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي اذكر يا رسولنا يوم يحشر الله المشركين وما كانوا يعبدونهم من دوننا كالملائكة والمسيح والأولياء والجن. ﴿فَيَقُولُ﴾ لمن كانوا يعبدونهم ﴿ءَأَنتُمْ[2] أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾؟ أي ما أضللتموهم ولكنهم ضلوا طريق الحق بأنفسهم فلم يهتدوا إلى عبادتي وحدي دون سواي.

(١٨) فيقول المعبودون ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهًا لك وتقديسًا عن كل ما لا يليق بجلالك وكمالك ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ[3]﴾ أي لا يصح منا اتخاذ أولياء من دونك فندعو عبادك إلى عبادتهم فنضلهم بذلك، ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ يا ربنا ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ من قبلهم بطول الأعمار وسعة الأرزاق فانغمسوا في الشهوات والملاذ ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ[4]﴾ أي نسوا ذكرك وعبادتك وما جاءتهم به رسلك فكانوا بذلك قومًا بورًا أي هلكى خاسرين.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ[5] كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ[6]﴾ يقول تعالى للمشركين فقد كذبكم من كنتم تشركون به، فقامت الحجة عليكم فأنتم الآن لا تستطيعون صرفًا للعذاب عنكم ولا نصرًا أي ولا تجدون من ينصركم فيمنع العذاب عنكم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هذا خطاب عام لسائر الناس يقول تعالى للناس ومن يشرك منكم بي أي يعبد غيري نذقه أي يوم القيامة عذابًا كبيرًا.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ أي يا رسولنا ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ[7]﴾ إذًا فلا تهتم بقول المشركين ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ ولا تحفل به فإنهم يعرفون ذلك ولكنهم يكابرون ويجاحدون.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً[8]﴾ أي هذه سنتنا في خلقنا نبتلي بعضهم ببعض فنبتلي المؤمن بالكافر والغني بالفقير والصحيح بالمريض والشريف بالوضيع، وننظر من يصبر ومن يجزع ونجزي الصابرين بما يستحقون والجزعين كذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ هذا الاستفهام معناه الأمر أي اصبروا إذًا ولا تجزعوا أيها المؤمنون من أذى المشركين والكافرين لكم. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي وكان ربك أيها الرسول بصيرًا بمن يصبر وبمن يجزع فاصبر ولا تجزع فإنها دار الفتنة والامتحان وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

---

(١) قرأ الجمهور: ﴿نحشرهم﴾ بالنون للعظمة، و(يقول): بالياء وهو التفات من التكلم إلى الغيبة حسن. وقرأ حفص وغيره: بالياء في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ و(يقول) معًا وقرأ بعضٌ بالنون فيهما معًا.

(٢) الاستفهام تقريري للاستنطاق والاستشهاد.

(٣) الأولياء: جمع ولي بمعنى التابع فإن الولي يرادف المولى فيصدق على كلا طرفي الولاء أي: على السيد والعبد، والناصر والمنصور والمراد هنا من الولي: التابع.

(٤) قيل: الذكر: القرآن، وقيل: الشكر على الإحسان، وما في التفسير أشمل.

(٥) الفاء: الفصيحة إذ أفصحت على جواب شرط محذوف تقديره:
إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذبوكم بما تقولون، وقد جاء التصريح بما يدل على القول المحذوف في قول عباس بن الأحنف:
قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسانا

(٦) قرأ الجمهور بالياء وقرأ حفص بالتاء: ﴿تَقُولُونَ﴾.

(٧) أخرج مسلم قوله ﷺ: **«أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»**.

(٨) هذه الجملة تذييلية، الغرض منها التسلية للرسول ﷺ والمؤمنين من أجل ما يلاقون من عناد المشركين وأذاهم. والاستفهام في: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ معناه الحث على الصبر والأمر به نحو قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.
أي: عما حرّم من الخمر والميسر.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - يا لهول الموقف إذا سئل المعبودون عمن عبدوهم، والمظلومون عمن ظلموهم.

٣ - براءة الملائكة والأنبياء والأولياء من عبادة من عبدوهم.

٤ - خطورة طول العمر وسعة الرزق إذ غالبًا ما ينسى العبد بهما ربه ولقاءه.

٥ - تقرير أن الدنيا دار ابتلاء فعلى أولي الحزم أن يعرفوا هذا ويخلصوا منها بالصبر والتحمل في ذات الله حتى يخرجوا منها ولو كفافًا لا لهم ولا عليهم.

الجزء التاسع عشر

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ ـ ٢٤]

﴿٢١﴾ ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: أي المكذبون بالبعث إذ لقاء العبد ربه يكون يوم القيامة. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أي هلاً أنزلت علينا ملائكة تشهد لك بأنك رسول الله. ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾: أي فيخبرنا بأنك رسوله وأن علينا أن نؤمن بك. ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أي في شأن أنفسهم ورأوا أنهم أكبر شيء وأعظمه غرورًا منهم. ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾: أي طغوا طغيانًا كبيرًا حتى طالبوا بنزول الملائكة ورؤية الرب تعالى.

﴿٢٢﴾ ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي تقول لهم الملائكة حرامًا محرمًا عليكم البشرى.

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟﴾: أي عمدنا إلى أعمالهم الفاسدة التي لم تكن على علم وإخلاص. ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾: الهباء ما يرى من غبار في شعاع الشمس الداخل من الكوى.

﴿٢٤﴾ ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾: المقيل مكان الاستراحة في نصف النهار في أيام الحر.

معنى الآيات:

﴿٢١﴾ ما زال السياق الكريم في ذكر أقوال المشركين من قريش فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا[1]﴾ وهم المكذبون بالبعث المنكرون للحياة الثانية بكل ما فيها من نعيم وعذاب ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي هلا أنزل الله علينا الملائكة تشهد لمحمد بالنبوة ﴿أَوْ نَرَىٰ[2] رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بأن محمدًا رسوله وأن علينا أن نؤمن به وبما جاء به ودعا إليه. قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا[3] كَبِيرًا﴾ أي وعزتنا وجلالنا لقد استكبر هؤلاء المشركون المكذبون بالبعث في شأن أنفسهم ورأوا أنهم شيء كبير وعتوا أي طغوا طغيانًا كبيرًا في قولهم هذا الذي لا داعي إليه إلا الشعور بالكبر، والطغيان النفسي الكبير.

﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي الذين يطالبون بنزولهم عليهم، وذلك يوم القيامة. لا بشرى يومئذ للمجرمين أي الذين أجرموا على أنفسهم فأفسدوها بالشرك والظلم والفساد: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي وتقول لهم

---

(١) ﴿لِقَآءَنَا﴾: أي: لا يخافون لقاءنا ولا يأملونه ولا يبالون به، وهذا كلّه ناتج عن تكذيبهم بالبعث والدار الآخرة.

(٢) لما كانت الحياة الدنيا حياة ابتلاء امتنع أن يعطيهم ما طلبوا إذ لو أراهم الله تعالى نفسه أو أراهم ملائكته لآمنوا وبطل حينئذ التكليف الذي أقام تعالى عليه الحساب والجزاء، مع أن رؤية الله لا يقدرون عليها لكن على فرض لو أقدرهم الله عليها.

(٣) العتو: أشد الكفر وأفحش الظلم.

الملائكة ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حرامًا محرمًا[1] عليكم البشرى بل هي للمؤمنين المتقين.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ[2] إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً[3] مَّنثُورًا﴾ أي وعمدنا إلى أعمالهم التي لم تقم على مبدأ الإيمان والإخلاص والموافقة للشرع فصيرناها هباءً منثورًا كالغبار الذي يرى في ضوء الشمس الداخل مع كوة أو نافذة لا يقبض باليد ولا يلمس بالأصابع لدقته وتفرقه فكذلك أعمالهم لا ينتفعون منها بشيء لبطلانها وعدم الاعتراف بها.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي أهلها الذين تأهلوا لها بالإيمان والتقوى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة الذي كذب به المكذبون ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أي مكان استقرار وإقامة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[4] أي مكان استراحة من العناء في نصف النهار أي خير وأحسن من أهل النار المشركين المكذبين وفي هذا التعبير إشارة إلى أن الحساب قد ينقضي في نصف يوم الحساب وذلك أن الله سريع الحساب.

هداية الآيات:

١ - بيان ما كان عليه غلاة المشركين من قريش من كبر وعتو وطغيان.

٢ - إثبات رؤية الملائكة عند قبض الروح، ويوم القيامة.

٣ - نفي البشرى عن المجرمين وإثباتها للمؤمنين المتقين.

٤ - حبوط عمل المشركين وبطلانه حيث لا ينتفعون بشيء منه البتة.

٥ - انتهاء حساب المؤمنين قبل نصف يوم الحساب الذي مقداره خمسون ألف سنة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥ - ٢٩]

(٢٥) ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾: أي عن الغمام وهو سحاب أبيض رقيق كالذي كان لبني إسرائيل في التيه.

(٢٦) ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: أي الملك الحق لله ولم يبق لملوك الأرض ومالكيها ملك في شيء ولا لشيء. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾: أي صعبًا شديدًا.

(٢٧) ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾: أي ندمًا وأسفًا على ما فرط في جنب الله. ﴿سَبِيلًا﴾: أي طريقًا إلى النجاة بالإيمان والطاعة.

(٢٨) ﴿لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾: أي أبي بن خلف خليلًا صديقًا ودودًا.

(٢٩) ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾: أي عن القرآن وما يدعو إليه من الإيمان والتوحيد والعمل الصالح. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: شيطان الجن وشيطان الإنس معًا.

معنى الآيات:

(٢٥) ما زال السياق الكريم في عرض مظاهر القيامة وبيان أحوال المكذبين بها فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ﴾ أي اذكر ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ[5] ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ[6]﴾ أي عن الغمام ﴿وَنُزِّلَ

---

(١) حرامًا محرمًا أن يدخل الجنة إلاّ من شهد أن لا إله إلا الله وأقام شرائع الله، وكذلك الحال يوم القيامة: لا بشرى يومئذ للمجرمين. ومن شواهد أن حجرًا بمعنى: محرمًا وحرامًا قول المتلمس:

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها ... حجر حرام إلا تلك الدهاريس

الدهاريس: الدراهم.

(٢) قدمنا: عمدنا. قال الشاعر:

وقدم الخوارج والضلال ... إلى عباد ربهم فقالوا

إن دماءكم لنا حلال

(٣) تصغير هباء: هُبيٌّ، وواحده: هبأة، وهمز في هباء لالتقاء الساكنين وجمع هباة: أهباء.

(٤) المقيل: الذي يُؤوى إليه في وقت القيلولة للاستراحة فيه، وفي الحديث: «**قيلوا فإنّ الشياطين لا تقيل**» وروي أن النبي ﷺ قيل له ما أطول هذا اليوم فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا**».

(٥) قرأ نافع: ﴿تشقّق﴾ بتشديد الشين والقاف، وقرأ حفص: ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشين وأصلها: تتشقق، فمن حذف إحدى التائين للتخفيف قرأ بتخفيف الشين ومن أدغم التاء في الشين شدّدها.

(٦) الباء: بمعنى **عن** نحو: رميت بالقوس **وعن** القوس، والغمام: سحاب أبيض رقيق مثل الضباب هو الذي قال تعالى فيه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ وذلك لمجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.

(٢٦) وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ[1]﴾ أي الثابت للرحمن عز وجل لا لغيره من ملوك الدنيا ومالكيها، وكان ذلك اليوم يومًا على الكافرين[2] عسيرًا لا يطاق ولا يحتمل ما فيه من العذاب والأهوال.

(٢٧) وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ أي المشرك الكافر بيان لعسر اليوم وشدته حيث يعض الظالم على يديه تندمًا وتحسرًا وأسفًا على تفريطه في الدنيا في الإيمان وصالح الأعمال.. يقول يا ليتني أي متمنيًا: ﴿ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ[3] سَبِيلًا﴾ أي طريقًا إلى النجاة من هول هذا اليوم وذلك بالإيمان والتقوى.

(٢٨) وينادي مرة أخرى قائلاً: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ أي يا هلكتي احضري فهذا وقت حضورك، ويتمنى مرة أخرى فيقول: ﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ[4] فُلَانًا خَلِيلًا﴾ وهو شيطان من الإنس أو الجن كان قد صافاه ووالاه في الدنيا فغرر به وأضله عن الهدى.

(٢٩) فقال في تحسر ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي القرآن بعد إذ جاءني من ربي بواسطة الرسول وفيه هداي وبه هدايتي، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا[5]﴾ أي يورطه ثم يتخلى عنه ويتركه في غير موضع وموطن.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر البعث والجزاء وبذكر أحوالها وبعض أهوالها.

٢ - إثبات مجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء يوم القيامة.

٣ - تندم الظلمة وتحسرهم على ما فاتهم من الإيمان والطاعة لله ورسوله.

٤ - بيان سوء عاقبة موالاة شياطين الإنس والجن وطاعتهم في معصية الله ورسوله.

٥ - تقرير مبدأ أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب إذ عقبة بن أبي معيط هو الذي أطاع أُبي بن خلف حيث آمن، ثم لامه أُبيّ بن خلف فارتد عن الإسلام فهو المتندم المتحسر القائل:

(٢٨) - (٢٩) ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ...﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠ - ٣٤]

(٣٠) ﴿مَهْجُورًا﴾: أي شيئًا متروكًا لا يلفت إليه.

(٣١) ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾: أي هاديًا لك إلى طريق الفوز والنجاح وناصرًا لك على كل أعدائك.

(٣٢) ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾: أي كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور دفعة واحدة فلا تجزئة ولا تفريق. ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: أي نقوي قلبك لتتحمل أعباء الرسالة وإبلاغها. ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾: أي أنزلناه شيئًا فشيئًا آيات بعد آيات وسورة بعد أخرى ليتيسر فهمه وحفظه.

(٣٤) ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾: أي ينزلونه وهو جهنم والعياذ بالله منها.

معنى الآيات:

(٣٠) ما زال السياق الكريم في عرض أحوال البعث الآخر الذي أنكره المشركون وكذبوا فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ[6] يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟

---

(١) ﴿ٱلْحَقُّ﴾: نعت للملك. المبتدأ والخبر: الجار والمجرور، والجملة تتضمن إبطال أي ملك لأحد سوى الرحمٰن عزّ وجل إذ هو الملك الحق والمالك الحق.

(٢) مفهوم الخطاب أنه على المؤمنين غير عسير فهو إذًا يسير، وهو كذلك.

(٣) أهل التفسير على أن هذا الظالم هو عقبة بن أبي معيط وأنّ خليله أمية بن خلف، فعقبة قتله علي في أسرى بدر وأمية قتله رسول الله ﷺ فكان هذا من دلائل النبوة. لأنه أخبر عنهما بهذا فقُتلا كافرين إلى النار.

(٤) هذا هو عقبة بن أبي معيط وفلان هو: أمية بن خلف. في الآية دليل على وجوب البعد عن قرناء السوء، وفي الحديث الصحيح: **«إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إمّا أن يحذيك وإمّا أن تبتاع منه وإما أن تجد ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحًا خبيثة»** رواه مسلم.

(٥) الخذول: كثير الخذلان، وخذله: إذا ترك نصرته وهو قادر عليها فالخذل والخذلان معناهما: ترك نصر المستنجد مع القدرة على نصره.

(٦) الرسول: هو محمد ﷺ يشكو المشركين من قومه إلى ربه تعالى يوم القيامة لتحق عليهم كلمة العذاب.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

٣٦٣

﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝﴾ هذه شكوى الرسول ﷺ بقومه إلى ربه ليأخذهم بذلك. وهجرهم للقرآن تركهم سماعه وتفهمه والعمل بما فيه.

﴿٣١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا[1] لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي وكما جعلنا لك أيها الرسول أعداء لك من مجرمي قومك جعلنا لكل نبي قبلك عدوًا من مجرمي قومه، إذًا فاصبر وتحمل حتى تبلغ رسالتك وتؤدي أمانتك، والله هاديك إلى سبيل نجاحك وناصرك على أعدائك. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

﴿٣٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي وقال المكذبون بالبعث المنكرون للنبوة المحمدية المشركون بالله آلهة من الأصنام هلا نزل عليه القرآن مرة واحدة مع بعضه بعضًا لا مفرقًا آيات وسورًا أي كما نزلت التوراة جملة واحدة والإنجيل والزبور وهذا من باب التعنت منهم والاقتراحات التي لا معنى لها إذ هذا ليس من شأنهم ولا مما يحق لهم الخوض فيه، ولكنه الكفر والعناد. ولما كان هذا مما قد يؤلم الرسول ﷺ رد تعالى عليهم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾[2] أي أنزلناه كذلك منجمًا ومفرقًا لحكمة عالية وهي تقوية قلبك وتثبيته لأنه كالغيث كلما أنزل أحيا موات الأرض وازدهرت به ونزوله مرة بعد مرة أنفع من نزول المطر دفعة واحدة. وقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي أنزله مرتلاً أي شيئًا فشيئًا ليتيسر حفظه وفهمه والعمل به.

﴿٣٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ[3] بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ[4] تَفْسِيرًا ۝﴾ هذا بيان الحكمة في نزول القرآن مفرقًا لا جملة واحدة وهو أنهم كلما جاؤوا بمثل أو عرض شبهة ينزل القرآن الكريم بإبطال دعواهم وتفنيد كذبهم، وإلغاء شبهتهم، وإحقاق الحق في ذلك وبأحسن تفسير لما اشتبه عليهم واضطربت نفوسهم فيه.

﴿٣٤﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا[5] ۝﴾ أي أولئك المنكرون للبعث المقترحون نزول القرآن جملة واحدة هم الذين يحشرون على وجوههم تسحبهم الملائكة على وجوههم إلى جهنم لأنهم مجرمون بالشرك والتكذيب والكفر والعناد. أولئك البعداء شر مكانًا يوم القيامة، وأضل سبيلاً في

(١) هذه الجملة تحمل العزاء للنبي ﷺ والتسلية من جراء ما يجد من قومه المكذبين والمعادين المحاربين، ومعنى الآية: وكما جعلنا لك عدوًا من قومك وهو أبو جهل جعلنا لكل نبي عدوًا.

(٢) جائز أن يكون كذلك من كلام المشركين: أي: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك أي: كالتوراة والإنجيل فيتم الوقف على كذلك ثم يبتدىء ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ وما في التفسير أولى.

(٣) هذا كقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ وقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ وقولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كل هذا الذي قالوه ردّ عليهم وأبطله بالحجج القوية فأسكتهم وأبطل دعاويهم.

(٤) أي: بما يقطع حجتهم ويلقمهم الحجر فلا يستطيعون الرد أو القول.

(٥) ﴿سَبِيلًا﴾: منصوب على التمييز المحول عن فاعل، أي: ضلّت سبيلهم.

الدنيا، إذ مكانهم جهنم، وسبيلهم الغواية والضلالة والعياذ بالله من ذلك.

هداية الآيات:

١ - شهادة الرسول ﷺ على من هجروا القرآن الكريم فلم يسمعوه ولم يتفهموه ولم يعملوا به، وشكواه إياهم إلى الله عز وجل.

٢ - بيان سنة الله في العباد وهي أنه ما من نبي ولا هاد ولا منذر إلا وله عَدُوٌّ من الناس وذلك لتعارض الحق مع الباطل، فينجم عن ذلك عداء لازم من أهل الباطل لأهل الحق.

٣ - بيان الحكمة في نزول القرآن منجمًا شيئًا فشيئًا مفرقًا.

٤ - بيان أن المجرمين يحشرون على وجوههم لا على أرجلهم إلى جهنم إهانة لهم وتعذيبًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٥ ـ ٤٠]

(٣٥) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي التوراة.

﴿وَزِيرًا﴾: أي يشد أزره ويقويه ويتحمل معه أعباء الدعوة.

(٣٦) ﴿إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾: هم فرعون وآله.

(٣٧) ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾: أي نوحًا عليه السلام. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾: أي علامة على قدرتنا في إهلاك وتدمير الظالمين وعبرة للمعتبرين.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾: أي اذكر قوم عاد وثمود إلخ.. ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾: الرس بئر رس فيها قوم نبيهم، أي رموه فيها ودسوه في التراب. ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾: أي ودمرنا بين من ذكرنا من الأمم قرونًا كثيرًا.

(٣٩) ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾: أي دمرناهم تدميرًا.

(٤٠) ﴿ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾: هي سدوم قرية قوم لوط. ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾: أي لا يؤمنون بالبعث والجزاء الآخر.

معنى الآيات:

(٣٥) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذا شروع في عرض أمم كذبت رسلها وردت دعوة الحق التي جاؤوا بها فأهلكهم الله تعالى ليكون هذا عظة للمشركين لعلهم يتعظون فقال تعالى وعزتنا لقد آتينا موسى بن عمران الكتاب الذي هو التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ أي معينًا.

(٣٦) فقلنا أي لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهم فرعون[١] وملأه فأتوهم فكذبوهما فدمرناهم[٢] تدميرًا كاملاً حيث أغرقوا في البحر.

(٣٧) وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي اذكر قوم نوح أيضًا فإنهم لما كذبوا الرسل[٣] أي كذبوا نوحًا ومن كذب رسولاً فكأنما كذب عامة الرسل أغرقناهم بالطوفان وجعلناهم للناس بعدهم آية أي عبرة للمعتبرين وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي[٤] وهيأنا للظالمين في الآخرة عذابًا أليمًا أي موجعًا زيادة على هلاك الدنيا.

(٣٨) وقوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ[٥]﴾ أي أهلكنا الجميع ودمرناهم تدميرًا لما كذبوا رسلنا وردوا دعوتنا، وقرونًا أي وأهلكنا قرونًا بين ذلك الذي ذكرنا كثيرًا.

(٣٩) وقوله: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي إقامة للحجة عليهم فما أهلكناهم إلا بعد الإنذار والإعذار لهم. وقوله: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي أهلكناهم إهلاكًا لتكذيبهم رسلنا وردهم دعوتنا.

(٤٠) وقوله: ﴿وَلَقَدْ[٦] أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ أي ولقد مر أي كفار قريش على القرية التي

---

(١) فرعون وهامان والقبط.

(٢) في الآية حذف وهو: ما قدرناه في التفسير أي: فكذبوهما فدمرناهم تدميرًا.

(٣) ذكر الجنس وهو الرسل والمراد نوح وحده لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلاّ نوح وحده.

(٤) وجائز أن يكون معنى الآية: هذه سبيلي في كل ظالم آخذه في الدنيا بالدمار والهلاك.

(٥) الرس: في اللغة البئر تكون غير مطوية، والجمع: رساس. قال الشاعر:

تنابلة يحفرون الرسّاسا

يريد آبار المعادن.

(٦) اقتران الخبر بلام القسم لإفادة معنى التعجب من عدم اعتبارهم.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

أمطرت مطر السوء أي الحجارة وهي قرى قوم لوط سدوم وعمورة وغيرهما فأهلكهم لتكذيبهم رسولهم وإتيانهم الفاحشة وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في سفرهم إلى الشام وفلسطين. فيعتبروا بها فيؤمنوا وهو استفهام تقريري وإذ كانوا يمرون بها ولكنهم لم يعتبروا لعلة وهي أنهم لا يؤمنون بالبعث الآخر وهو معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا[1]﴾ فالذي لا يرجو أن يبعث ويحاسب ويجزى لا يؤمن ولا يستقيم أبدًا.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله تعالى في إهلاك الأمم بعد الإنذار والإعذار إليها.

٢ - بيان عاقبة المكذبين وما حل بهم من دمار وعذاب.

٣ - بيان علة تكذيب قريش للرسول ﷺ وما جاء به وهي تكذيبهم بالبعث والجزاء فلهذا لم تنفعهم المواعظ ولم تؤثر فيهم العبر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ ـ ٤٤]

﴿٤١﴾ ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾: أي ما يتخذونك. ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾: أي مهزوءًا به. ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾: أي في دعواه لا أنهم معترفون برسالته والاستفهام للتهكم والاحتقار.

﴿٤٢﴾ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾: أي قارب أن يصرفنا عن آلهتنا. ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾: أي لصرفنا عنها.

﴿٤٣﴾ ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾: أي أخبرني عمن جعل هواه معبوده فأطاع هواه. فهل تقدر على هدايته.

﴿٤٤﴾ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾: أي ما هم إلا كالأنعام في عدم الوعي والإدراك.

معنى الآيات:

﴿٤١﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[2] يخبر تعالى رسوله عن أولئك المشركين المكذبين بالبعث أنهم إذا رأوه في مجلس أو طريق ما يتخذونه إلا هزوًا أي مهزوءًا به احتقارًا وازدراءً له فيقولون فيما بينهم، ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا[3]﴾ وهو استفهام احتقار وازدراء لأنهم لا يعتقدون أنه رسول الله ويقولون:

﴿٤٢﴾ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي يصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا أن صبرنا وثبتنا على عبادتها. وهذا القول منهم ناتج عن ظلمة الكفر والتكذيب بالبعث وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة أي عندما يعاينون العذاب يعرفون من كان أضل سبيلاً هم أم الرسول والمؤمنون، وفي هذا تهديد ووعيد بقرب عذابهم وقد حل بهم في بدر فذلوا وأسروا وقتلوا وتبين لهم أنهم أضل سبيلاً من النبيّ وأصحابه.

﴿٤٣﴾ وقوله تعالى لرسوله وهو يسليه ويخفف عنه آلام إعراض المشركين عن دعوته: ﴿أَرَأَيْتَ[4] مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أخبرني عمن جعل

---

(١) النشور: مصدر نشر الميت: أحياه. قال الشاعر:

يا لبكر أنشروا لي كليبًا ... يا لبكر أين أين الفرار

(٢) جواب: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ قوله: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

(٣) ﴿رَسُولًا﴾: منصوب على الحال، والعائد محذوف تقديره: بعثه الله حال كونه رسولاً.

(٤) الاستفهام للتعجيب أي: عجب الله تعالى رسوله ﷺ من حال المشركين أي: من إضمارهم الشرك وإصرارهم عليه مع إصرارهم

معبوده هواه فلا يعبد غيره فكلما اشتهى شيئًا فعله بلا عقل ولا روية ولا فكر فقد يكون لأحدهم حجر يعبده فإذا رأى حجرًا أحسن منه عبده وترك الأول فهذا لم يعبد إلا هواه وشهوته فهل مثل هذا الإنسان الهابط إلى مستوى دون البهائم تقدر على هدايته يا رسولنا؟ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي حفيظًا تتولى هدايته أم أنك لا تقدر فاتركه لنا يمضي فيه حكمنا.

(٤٤) وقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ أيها الرسول أن أكثر هؤلاء المشركين يسمعون[١] ما يقال لهم ويعقلون ما يطلب منهم إن هم إلا[٢] كالأنعام فقط بل هم أضل[٣] سبيلًا من الأنعام إذ الأنعام تعرف طريق مرعاها وتستجيب لنداء راعيها وهم على خلاف ذلك فجهلوا ربهم الحق ولم يستجيبوا لنداء رسوله إليهم.

هداية الآيات:

١ - بيان ما كان الرسول ﷺ يلاقي في سبيل الدعوة من سخرية به واستهزاء.

٢ - يتجاهل الإنسان الضال الحق وينكره حتى إذا عاين العذاب عرف ما كان ينكر، وآمن بما كان يكفر.

٣ - هداية الإنسان ممكنة حتى إذا كفر بعقله وآمن بشهوته وعبد هواه تعذرت هدايته وأصبح أضل من الحيوان وأكثر خسرانًا منه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٥ ـ ٥٠]

(٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: أي ألم تنظر إلى صنيع ربك في الظل كيف بسطه. ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾: أي ثابتًا على حاله في الطول والامتداد ولا يقصر ولا يطول. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾: أي علامة على وجوده إذ لولا الشمس لما عرف الظل.

(٤٦) ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾: أي أزلناه بضوء الشمس على مهل جزءًا فجزءًا حتى ينتهي.

(٤٧) ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾: أي يستركم بظلامه كما يستركم اللباس. ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾: أي راحة لأبدانكم من عناء عمل النهار. ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾: أي حياة إذ النوم بالليل كالموت والانتشار بالنهار كالبعث.

(٤٨) ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: أي مبشرة بالمطر قبل نزوله، والمطر هو الرحمة. ﴿مَآءً طَهُورًا﴾: أي تتطهرون به من الأحداث والأوساخ.

(٤٩) ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: أي بالزروع والنباتات المختلفة. ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾: أي حيوانًا وأناسًا كثيرين.

(٥٠) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾: أي المطر فينزل بأرض قوم ولا ينزل بأخرى لحكم عالية. ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾: أي يذكروا فضل الله عليهم فيشكروا فيؤمنوا ويوحدوا. ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾: أي فلم يذكروا وأبى أكثرهم إلا كفورًا جحودًا للنعمة.

معنى الآيات:

(٤٥) قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ[٤] إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ[٥]﴾ هذا شروع في ذكر مجموعة من أدلة التوحيد وهي مظاهر لربوبية الله تعالى المقتضية لألوهيته فأولاً الظل وهو المشاهد من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس وقد مدّه الخالق عز وجل أي بسطه في الكون، ثم تطلع

= أن الله تعالى خالقهم ورازقهم، ثم يعمد أحدهم إلى حجر يعبده. قال ابن عباس: الهوى: إنه يعبد من دون الله ثم تلا هذه الآية: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وقد كان الرجل منهم إذا هوى شيئًا عبده حتى إنه ليعبد الحجر أيامًا ثم يرى غيره فيترك الأول ويعبد الثاني.

(١) أي: سماع قبول، أو يتفكرون فيما تقول فيعقلونه.

(٢) الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا لأنها في جواب سؤال لأنّ ما تقدّمها في إنكار سمعهم يثير في النفس سؤالاً عن نفي سماعهم وفهمهم فأجيب ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

(٣) هم أضل من الأنعام لأنّ البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك بخلاف هؤلاء المشركين.

(٤) جائز أن تكون الرؤية هنا بصرية وعلمية معًا إذ بالعين يشاهد الظل وزواله، وبالقلب يعلم ذلك كذلك.

(٥) الظل بالغداء والفيء بالعشي. قال الشاعر:

فلا الظل من برد الضحا نستطيعه ... ولا الفيء من برد العشي نذوق

الشمس فتأخذ في زواله وانكماشه شيئًا فشيئًا، ولو شاء الله تعالى لجعله ساكنًا لا يبارح ولا يغادر ولكنه حسب مصلحة عباده جعله يتقاصر ويقبض حتى تقف الشمس في كبد السماء فيستقر ثم لما تدحض الشمس مائلة إلى الغروب يفيء أي يرجع شيئًا فشيئًا فيطول تدريجيًا لتعرف به ساعات النهار وأوقات الصلوات حتى يبلغ من الطول حدًا كبيرًا كما كان في أول النهار ثم يقبض قبضًا يسيرًا خفيًا سريعًا حين تغرب الشمس ويغشاه ظلام الليل. هذه آية من آيات قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته بعباده تجلت في الظل الذي قال تعالى فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرسول أي تنظر إلى صنيع ربك جل جلاله ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ ينتقل، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ إذ بضوئها يعرف، فلولا الشمس لما عرف الظل.

(٤٦) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝﴾ حسب سنته ففي خفاء كامل وسرعة تامة يقبض الظل نهائيًا ويحل محله الظلام الحالك.

(٤٧) وثانيًا: في الليل والنهار قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا[(١)]﴾ أي ساترًا يستركم بظلامه كما تستركم الثياب، ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا[(٢)]﴾ أي وجعل النوم قطعًا للعمل فتحصل به راحة الأبدان ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا[(٣)]﴾ أي حياة بعد وفاة النوم فينتشر فيه الناس لطلب الرزق بالعمل بالأسباب والسنن التي وضع الله تعالى لذلك.

(٤٨) وثالثًا: إرسال الرياح للقاح السحب للإمطار لإحياء الأرض بعد موتها بالقحط والجدب قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾[(٤)] هو لا غيره من الآلهة الباطلة ﴿أرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي مبشرات بالمطر متقدمة عليه وهو الرحمة وهي بين يديه فمن يفعل هذا غير الله؟ اللهم إنه لا أحد.

(٤٨) ـ (٤٩) ورابعًا: إنزال الماء الطهور العذب الفرات للتطهير به وشرب الحيوان والإنسان قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا[(٥)] لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾ أي إبلًا وبقرًا وغنمًا ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي وأناسًا كثيرين وهم الآدميون ففي خلق الماء وإنزاله وإيجاد حاجة في الحيوان والإنسان إليه ثم هدايتهم لتناوله وشربه كل هذا آيات الربوبية الموجبة لتوحيد الله تعالى.

(٥٠) وخامسًا: تصريف المطر بين الناس فيمطر في أرض ولا يمطر في أخرى حسب الحكمة الإلهية والتربية الربانية. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾[(٦)] أي بين الناس كما هو مشاهد إقليم يسقى وآخر يحرم، وقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا[(٧)]﴾ أي جحودًا لإنعام الله عليهم وربوبيته عليهم وألوهيته لهم. وهو أمر يقتضي التعجب والاستغراب. هذه مظاهر الربوبية المقتضية للألوهية، ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - عرض الأدلة الحسية على وجوب

---

(١) قال ابن العربي: ظنّ بعض الجهال أن كون الليل لباسًا يجزىء من صلى فيه عاريًا وهو لا يجزىء ولو أجزأ لأجزأ من أغلق باب غرفته وصلى عريانًا.

(٢) أصل السبت: القطع والتمدد فهو بانقطاع البدن عن العمل تحصل له الراحة لذا قيل للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة.

(٣) كان النبي ﷺ إذا أصبح يقول: «**الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني وإليه النشور**».

(٤) قيل: إن تكوين الرياح سببه التقاء حرارة جانب من الجو ببرودة جانب آخر تنشأ السحب.

(٥) أكثر الفقهاء على أنّ الماء الطهور غير الطاهر، فالطهور: هو الذي تزال به الأحداث بخلاف الطاهر، فلذا كل طهور طاهر وليس كل طاهر طهورًا.

(٦) وجائز أن يراد بقوله: ﴿صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ القرآن الكريم إذ جرى ذكره أول السورة وفي أثنائها أيضًا.

(٧) قال عكرمة: هو قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا، وأيده النحاس وقال: لا نعلم خلافًا أن الكفر هنا هو قولهم: مطرنا بنوء كذا وكذا. روى الربيع بن صبيح قال: مُطر الناس على عهد رسول الله ﷺ ذات ليلة فلما أصبحوا قال النبي ﷺ: «**أصبح الناس فيها رجلين: شاكرًا وكافرًا فأما الشاكر فيحمد الله تعالى على سقياه وغياثه، وأما الكافر فيقول: مطرنا بنوء كذا وكذا**».

عبادة الله تعالى وتوحيده فيها ووجوب الإيمان بالبعث والجزاء الذي أنكره المشركون فضلوا ضلالاً بعيدًا.

٢ - بيان فائدة الظل إذ به تعرف ساعات النهار وبه يعرف وقت صلاة الظهر والعصر فوقت الظهر من بداية الفيء، أي زيادة الظل بعد توقفه من النقصان عند وقوف الشمس في كبد السماء، ووقت العصر من زيادة الظل مثله بمعنى إذا دخل الظهر والظل أربعة أقدام أو ثلاثة أو أقل أو أكثر فإذا زاد مثله دخل وقت العصر فإن زالت الشمس على أربعة أقدام فالعصر يدخل عندما يكون الظل ثمانية أقدام وإن زالت الشمس على ثلاثة أقدام فالعصر على ستة أقدام وهكذا.

٣ - الماء الطهور وهو الباقي على أصل[1] خلقته فلم يخالطه شيء يغير طعمه أو لونه أو ريحه. وبه ترفع الأحداث وتغسل النجاسات، ويحرم منعه عمن احتاج إليه من شرب أو طهارة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥١ - ٥٦]

﴿٥١﴾ ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾: أي رسولاً ينذر أهلها عواقب الشرك والكفر.

﴿٥٢﴾ ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾: أي بالقرآن جهادًا كبيرًا تبلغ فيه أقصى غاية جهدك.

﴿٥٣﴾ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: أي خلط بينهما وفي نفس الوقت منع الماء الملح أن يفسد الماء العذب. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾: أي حاجزًا بين الملح منهما والعذب.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي وجعل بينهما سدًا مانعًا فلا يحلو الملح، ولا يملح العذب.

﴿٥٤﴾ ﴿خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾: أي خلق من الماء الإنسان والمراد من الماء النطفة. ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾: أي ذكرًا وأنثى أي نسبًا ينسب إليه، وصهرًا يصهر إليه أي يتزوج منه.

﴿٥٥﴾ ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾: أي أصنامًا لا تنفع ولا تضر. ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾: أي معينًا للشيطان على معصية الرحمن.

الجُزْءُ التَّاسِع عَشَر — سُورَةُ الفُرْقَانِ

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

٣٦٥

معنى الآيات:

﴿٥١﴾ ما زال السياق في تعداد مظاهر الربوبية المستلزمة للتوحيد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴿٥١﴾﴾ أي في كل مدينة نذيرًا أي رسولاً ينذر الناس عواقب الشرك والكفر، ولكنا لم نشأ لحكمة اقتضتها ربوبيتنا وهي أن تكون أيها الرسول أفضل الرسل وأعظم منزلة

---

(١) أحكام المياه:

١ - قليل الماء ينجسه قليل النجاسة وكثيره لا ينجسه.

٢ - الماء طهور ما بقي على أصل خلقته فإن خالطه ما غيّر أحد أوصافه: الريح واللون والطعم سلبت طهوريته.

٣ - الماء المتغيّر بطول المكث طهور.

٤ - كره بعض أهل العلم الوضوء بسؤر النصراني، وقد توضأ عمر من بيت نصرانية وقال لها: أسلمي تسلمي، فكشف عن رأسها وإذا به مثل الثغامة وقالت: عجوز كبيرة وإنما أموت الآن، فقال عمر: اللهم اشهد. خرّجه الدارقطني.

٥ - سؤر الكلب لا يتوضأ به ويغسل الإناء سبعًا.

٦ - ما مات في الماء مما لا دم له كالحشرات لا يسلب طهورية الماء.

٧ - سؤر الهر طاهر لحديث أبي قتادة.

وأكثرهم ثوابًا فحبوناك بهذا الفضل فكنت رسول كل القرى أبيضها وأسودها فاصبر وتحمل، واذكر شرف منزلتك.

(٥٢) ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في أي أمر أرادوه منك ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن وكله حجج وبينات ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ تبلغ فيه أقصى[١] جهدك. بعد هذه الجملة الاعتراضية من الكلام الإلهي قال تعالى مواصلاً ذكر مظاهر ربوبيته تعالى على خلقه.

(٥٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ الملح والعذب أي أرسلهما مع بعضهما بعضًا ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي حلو ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ[٢] أُجَاجٌ﴾ أي لا يشرب ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي ساترًا مانعًا من اختلاط العذب بالملح مع وجودهما في مكان واحد، فلا يبغي هذا على هذا بأن يعذب الملح أو يملح العذب.

(٥٤) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ أي من المني ونطفته خلق الإنسان وجعله ذكرًا وأنثى وهو معنى قوله ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا[٣]﴾ أي ذوي نسب ينسب إليهم وهم الذكور، وذوات صهر يصاهر بهن وهن الإناث. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي على فعل ما يريده من الخلق والإيجاد أو التحويل والتبديل، والسلب والعطاء هذه مظاهر الربوبية المقتضية لعبادته وتوحيده والمشركون يعبدون من دونه أصنامًا لا تنفعهم إن عبدوها، ولا تضرهم إن لم يعبدوها وذلك لجهلهم وظلمة نفوسهم فيعبدون الشيطان إذ هو الذي زين لهم عبادة الأصنام وبذلك كان الكافر على ربه ظهيرًا إذ بعبادته للشيطان يعينه على معصية الرب تبارك وتعالى وهو معنى قوله تعالى:

(٥٥) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝﴾ أي معينًا للشيطان على الرحمن والعياذ بالله تعالى.

(٥٦) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝﴾ يقول تعالى لرسوله إنا لم نرسلك لغير بشارة المؤمنين بالجنة ونذارة الكافرين بالنار أما هداية القلوب فهي إلينا من شئنا هدايته اهتدى ومن لم نشأها ضل. إلا أن الله يهدي ويضل حسب سنن له قد مر ذكرها مرات[٤].

هداية الآيات:

١ ـ الإشارة إلى الحكمة في عدم تعدد الرسل في زمن البعثة المحمدية والاكتفاء بالرسول محمد ﷺ.

٢ ـ حرمة طاعة الكافرين في أمور الدين والشرع.

٣ ـ من الجهاد جهاد الكفار والملاحدة بالحجج القرآنية والآيات التنزيلية.

٤ ـ مظاهر العلم والقدرة الإلهية في عدم اختلاط البحرين مع وجودهما في مكان واحد. وفي خلق الله تعالى الإنسان من ماء وجعله ذكرًا وأنثى للتناسل وحفظ النوع.

٥ ـ التنديد بالمشركين والكافرين المعينين للشيطان على الرحمن.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٧ ـ ٦٢]

(٥٧) ﴿عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: أي على البلاغ من أجر أتقاضاه منكم.

﴿سَبِيلًا﴾: أي طريقًا يصل به إلى مرضاته والفوز بجواره، وذلك بإنفاق ماله في سبيل الله.

---

(١) ولا يخالطه فتور، وقيل: الجهاد بالسيف ويرده أن السورة مكية ولم يجر للسيف ذكر فكيف يكون المراد؟ وقيل: بالإسلام وهو أولى من السيف والقرآن أصح، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الملح يوصف به الماء، ولا يقال مالح إلاّ نادرًا، والأجاج، ما كان ملحًا مرًا: والعذب: الحلو، والفرات: زائد الحلاوة، والبرزخ: الحاجز المانع، والحرام المحرم: أن يعذب الملح أو يملح العذب.

(٣) صهر الرجل: قريب زوجته، وأصهاره: أقارب زوجته. وختن الرجل من تزوج قريبته، وأختانه: أقارب من زوّجه قريبته، والحم: والجمع أحماء: أقرباء زوج المرأة، والصهر والنسب: معنيان يَعُمّان كل قربى تكون بين آدميين، قال ابن العربي: النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع. وما في التفسير أوضح لأنه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

(٤) من سنن الله تعالى في الهداية والإضلال، أنّ من طلب الهداية ورغب فيها وسألها من ربه تعالى ولازم الطلب هداه الله، ومن رغب عن الهداية وطلب الغواية وسلك مسالكها مفضلاً لها على الهداية وأصرّ على ذلك أضله الله والعياذ بالله.

(٥٨) ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾: أي قل سبحان الله وبحمده.

(٥٩) ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أي من أيام الدنيا التي قدرها وهي الأحد... والجمعة. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: العرش سرير الملك والاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب. ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾: أي أيها الإنسان اسأل خبيرًا بعرش الرحمن ينبئك فإنه عظيم.

(٦٠) ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾: أي القول لهم اسجدوا للرحمن زادهم نفورًا من الإيمان.

(٦١) ﴿جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾: هي اثنا عشر برجًا انظر تفصيلها في معنى الآيات. ﴿سِرَاجًا﴾: أي شمسًا.

(٦٢) ﴿خِلْفَةً﴾: أي يخلف كل منهما الآخر كما هو مشاهد. ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾: أي ما فاته في أحدهما فيفعله في الآخر. ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾: أي شكرًا لنعم ربه عليه فيهما بالصيام والصلاة.

معنى الآيات:

بعد هذا العرض العظيم لمظاهر الربوبية الموجبة للألوهية أمر الله تعالى رسوله أن يقول للمشركين ما أسألكم على هذا البيان الذي بينت لكم ما تعرفون به إلهكم الحق فتعبدونه وتكملون على عبادته وتسعدون أجرًا أي مالاً، لكن من شاء أن ينفق من ماله في وجوه البر والخير يتقرب به إلى ربه فله ذلك ليتخذ[١] بنفقته في سبيل الله طريقًا إلى رضا ربه عنه ورحمته له.

(٥٨) وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ[٢] عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ يأمر تعالى رسوله أن يمضي في طريق دعوته مبلغًا عن ربه داعيًا إليه متوكلاً عليه أي مفوضًا أمره إليه إذ هو الحي الذي لا يموت وغيره يموت، وأمره أن يستعين على دعوته وصبره عليها بالتسبيح فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي قل سبحان الله وبحمده، وسبحانك اللهم وبحمدك وهو أمر بالذكر والصلاة وسائر العبادات فإنها العون الكبير للعبد على الثبات والصَّبْر. وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي فلا تكرب لهم ولا تحزن عليهم من أجل كفرهم وتكذيبهم وشركهم فإن ربك عالم بذنوبهم محص عليهم أعمالهم وسيجزيهم بها في عاجل أمرهم أو آجله.

(٥٩) ثم أثنى تبارك وتعالى على نفسه بقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا[٣] فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مقدرة بأيام الدنيا أولها الأحد وآخرها الجمعة، ثم استوى على العرش العظيم استواء يليق بجلاله وكماله. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي عمَّت رحمته العالمين ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي فاسأل يا محمد[٤] بالرحمن خبيرًا بخلقه فإنه خالق كل شيء والعليم بكل شيء فهو وحده العليم بعظمة عرشه وسعة ملكه وجلال وكمال نفسه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

(٦٠) وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي وإذا قال لهم الرسول أيها المشركون اسجدوا للرحمن ولا تسجدوا لسواه من المخلوقات. قالوا منكرين متجاهلين ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[٥]؟ ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي أتريد أن

---

(١) وجائز أن يكون ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ باتباع ديني أي: الإسلام حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة والإنفاق في سبيل الله تعالى داخل فيه، والحمد لله.

(٢) التوكل معناه: اعتماد القلب على الله تعالى في كل الأمور مع إتيان الأسباب المشروعة للبلوغ إلى المطلوب مما هو خير ومعروف، وأمر إدراك المطلوب إلى الله تعالى مع الرضا بما يتم من ربح أو خلافه ونجاح وغيره.

(٣) قال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ولم يقل بينهن لأنه أراد الصنفين أو النوعين أو الشيئين وهو أخص من كلمة بينهن وأخف على اللسان، والمقصود ظاهر بكل من العبارتين جمع أو تثنية.

(٤) رجح بعضهم أن الباء هنا بمعنى عن أي: اسأل عن الرحمٰن خبيرًا، واستشهد بقول الشاعر:

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... خبير بأدواء النساء طبيب

فقوله بالنساء أي: عن النساء. ورأي ابن كثير أنّ المسؤول هنا هو الرسول ﷺ لأنه أعرف الخلق بالخالق وبعزته وعظمته جل جلاله.

(٥) إنهم بجهلهم أنكروا اسم الرحمن لله، وقالوا: يأمر بعبادة إله واحد وهو يدعو الله ويدعو الرحمٰن فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الإسراء).

تفرض علينا طاعتك ﴿وَزَادَهُمْ﴾ هذا القول ﴿نُفُورًا﴾ أي بعدًا واستنكارًا للحق والعياذ بالله تعالى.

(٦١) وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أي تقدس وتنزه أن يكون له شريك في خلقه أو في عبادته الذي بعظمته جعل في السماء بروجًا وهي منازل الكواكب السبعة السيارة فلذا سميت بروجًا جمع برج وهو القصر الكبير وتعرف هذه البروج الاثنا عشر بالحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت. والكواكب السبعة السيارة هي: المريخ، والزهرة وعطارد، والقمر، والشمس، والمشتري، وزحل. فهذه الكواكب تنزل في البروج كالقصور لها.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ وهو الشمس ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[١] هو القمر أي تعاظم وتقدس الذي جعل في السماء بروجًا وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا.

(٦٢) وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً[٢]﴾ أي يخلف بعضهما بعضًا فلا يجتمعان أبدًا وفي ذلك من المصالح والفوائد ما لا يقادر قدره ومن ذلك أن من نسي عملاً بالنهار يذكره في الليل فيعمله، ومن نسي عملاً بالليل يذكره بالنهار فيعمله[٣]، وهو معنى قوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ وقوله: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فإن الليل والنهار ظرفان للعبادة الصيام بالنهار والقيام بالليل فمن أراد أن يشكر الله تعالى على نعمه فقد وهبنا له فرصة لذلك وهو الليل للتهجد والقيام والنهار للجهاد والصيام.

هداية الآيات:

١ - دعوة الله ينبغي أن لا يأخذ الداعي عليها أجرًا ممن يدعوهم[٤] إلى الله تعالى ومن أراد أن يتطوع من نفسه فينفق في سبيل الله فذلك له.

٢ - وجوب التوكل على الله فإنه الحي الذي لا يموت وغيره يموت.

٣ - وجوب التسبيح والذكر والعبادة وهذه هي زاد العبد وعدته وعونه.

٤ - مشروعية السجود عند قوله تعالى وزادهم نفورًا للقارىء والمستمع[٥].

٥ - صفة استواء الرحمن على عرشه فيجب الإيمان بها على ما يليق بجلال الله وكماله ويحرم تأويلها بالاستيلاء والقهر ونحوهما.

٦ - الترغيب في الذكر والشكر، واغتنام الفرص للعبادة والطاعة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٣ - ٧١]

(٦٣) ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾: في سكينة ووقار. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾: أي بما يكرهون من الأقوال. ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾: أي قولاً يسلمون به من الإثم، ويسمى هذا سلام[٦] المتاركة.

(٦٤) ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾: أي يصلون بالليل سجدًا جمع ساجد.

---

(١) قرىء في الشاذ: قُمرًا بضم القاف وإسكان الميم وصاحب القراءة هو عصمة الذي يروي القراءات قال فيه أحمد بن حنبل: لا تكتبوا عنه وقد أولع أبو حاتم بالرواية عنه مع الأسف.

(٢) الخلفة: كل شيء بعد شيء ومنه قيل لليل والنهار: خلفة لأنّ كُلًا منهما يخلف الثاني إذا ذهب، ومنه قيل لورق النبات الذي يخلف الورق الأول: خلفة، ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

بها العين والآرام يمشين خلفة ... وأطلاؤهن ينهض من كل مجثم

خلفة: هذه تذهب وتلك تأتي. والعين: جمع عيناء وأعين: واسعات العيون والمراد بقر الوحش، والأطلاء: جمع طلا: ولد البقرة وولد الظبية الصغيرة، والمجثم: موضع الجثوم: أي المقام.

(٣) روى مسلم عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل**».

(٤) لو أعطي الداعي إلى الله تعالى من أوقاف وقفت لهذا الغرض أو أعطي من بيت المال ما يسد به خلته ويقضي به حاجته فأخذ فلا حرج.

(٥) هذه السجدة من عزائم السجدات فلا ينبغي أن يتركها القارىء ولا المستمع.

(٦) سلام المتاركة: هو أن يقول قولاً يسلم به من أذى الجاهل وذلك بأن يدفعه بالتي هي أحسن من الكلمات.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

ترتيبها ٢٦ — سُورَةُ الشُّعَرَاءِ — آياتها ٢٢٧

٣٦٦

﴿٦٥﴾ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾: أي عذاب جهنم كان لازمًا لا يفارق صاحبه.

﴿٦٦﴾ ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: أي بئست مستقرًا وموضع إقامة واستقرار.

﴿٦٧﴾ ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾: أي لم يبذروا ولم يضيقوا. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾: أي بين الإسراف والتقتير وسطًا.

﴿٦٨﴾ ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾: وهي كل نفس آدمية إلا نفس الكافر المحارب. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: وهو واحد من ثلاث: كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو قتل ظلم وعدوان. ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾: أي عقوبة شديدة.

﴿٧٠﴾ ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾: بأن يمحو بالتوبة سوابق معاصيهم، ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم.

معنى الآيات:

لما أنكر المشركون الرحمن ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ وأبوا أن يسجدوا للرحمن، وقالوا أن محمدًا ينهانا عن الشرك وهو يدعو مع الله الرحمن فيقول يا الله يا رحمان، ناسب لتجاهلهم هذا الاسم الرحمن أن يذكر لهم صفات عباد الرحمن ليعرفوا الرحمن بعباده على حد (خيركم من إذا رُؤي ذُكر الله).

﴿٦٣﴾ فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾[1] ووصفهم بثمان صفات وأخبر عنهم بما أعده لهم من كرامة يوم القيامة. الأولى في قوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا[2]﴾ أي ليسوا جبابرة متكبرين، ولا عصاة مفسدين ولكن يمشون متواضعين عليهم السكينة والوقار، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي السفهاء بما يكرهون من القول قالوا قولاً يسلمون[3] به من الإثم فلم يردوا السيئة بالسيئة ولكن بالحسنة.

﴿٦٤﴾ الثانية: في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي يقضون ليلهم بين السجود والقيام يصفون أقدامهم ويذرفون دموعهم على خدودهم خوفًا من عذاب ربهم.

﴿٦٥﴾ والثالثة: في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ إنهم لقوة يقينهم كأنهم شاعرون بلهب جهنم يدنو من وجوههم فقالوا: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي ملحًا

---

(١) ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾: مبتدأ، والخبر: إن أريد بهم أصحاب الرسول ﷺ خاصة فالخبر: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ وما بعده نعوت لهم وصفات، وإن أريد بهم عامة المؤمنين فالخبر: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ والصلات الثمانية: صفات ونعوت لهم. وهذا الراجح.

(٢) الهون: اللين والرفق، والمشي الهون: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفق النعال، فهو غير مشي المتكبرين المعجبين بنفوسهم، وعباد الرحمٰن يمشون وعليهم السكينة والوقار وفي الحديث: «**أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع**» وهو السير مثل الخبب. إن الرسول ﷺ كان إذا زال زال تقلعًا ويخطو تكفؤًا ويمشي هونًا ذريع المشية كأنما ينحط من صبب، قيل: نعم هو كما وصف فالتقلع معناه رفع الرجل بقوة حتى لا يمشي مشية المتمسكن الذليل. والذريع: الواسع الخطا ومعناه أنه كان يرفع رجله بسرعة ويوسع خطوه كأنما ينحط من صبب فأين هذا الهون المحمدي في المشي من الاختيال والتمايل إعجابًا بالنفس وضرب الأرض كأنما يريد أن يخرقها بنعله؟ والله تعالى قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ والمرح: هو مشيُ الخيلاء، والفخر، وقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي: بضربك إياها برجليك بشدة. ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ مهما حاولت العلو والارتفاع.

(٣) هذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

لازمًا لا يفارق صاحبه.

(٦٦) ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ﴾ أي جهنم ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي بئست موضع إقامة واستقرار.

(٦٧) والرابعة: في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾ في إنفاقهم فيتجاوزوا الحد المطلوب منهم، ولم يقتروا فيقصروا في الواجب عليهم وكان إنفاقهم بين الإسراف والتقتير قوامًا أي عدلاً وسطًا.

(٦٨) والخامسة: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا يسألون غير ربهم قضاء حوائجهم كما لا يشركون بعبادة ربهم أحدًا ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها وهي كل نفس آدمية ما عدا نفس الكافر المحارب فإنها مباحة القتل غير محرمة. ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وهو واحدة من ثلاث خصال بينها الرسول ﷺ في حديث الصحيحين: (لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة) ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي لا يرتكبون فاحشة الزنا والزنا نكاح على غير شرط النكاح المباح وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ هذا كلام معترض بين صفات عباد الرحمن. أي ومن يفعل ذلك المذكور من الشرك بدعاء غير الرب أو قتل النفس بغير حق، أو زنا ﴿يَلْقَ أَثَامًا[1]﴾ أي عقابًا.

(٦٩) ﴿يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ أي في العذاب ﴿مُهَانًا﴾ مخزيًا ذليلاً.

(٧٠) وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك وآمن بالله وبلقائه وبرسوله وما جاء به من الدين الحق ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ المذكورون أي التائبون ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ أي يمحو سيئاتهم بتوبتهم ويكتب لهم مكانها صالحات أعمالهم وطاعاتهم بعد توبتهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ذا مغفرة للتائبين من عباده ذا رحمة بهم فلا يعذبهم بعد توبته عليهم.

(٧١) وقوله: ﴿وَمَن تَابَ﴾ من غير هؤلاء المذكورين أي رجع إلى الله تعالى بعد غشيانه الذنوب ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ بعد توبته ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي يرجع إليه تعالى مرجعًا مرضيًا حسنًا فيكرمه وينعمه في دار كرامته.

هداية الآيات:

١ - بيان صفات عباد الرحمن الذين بهم يعرف الرحمن عز وجل.

٢ - فضيلة التواضع والسكينة في المشي والوقار.

٣ - فضيلة رد السيئة بالحسنة والقول السليم من الإثم.

٤ - فضيلة قيام[2] الليل والخوف من عذاب النار.

٥ - فضيلة الاعتدال والقصد في[3] النفقة وهي الحسنة بين السيئتين.

٦ - حرمة الشرك وقتل النفس[4]

---

(١) الأثام: قيل فيه: إنه واد في جهنم. قال الشاعر:

لقيت المهالك في حربنا ... وبعد المهالك نلقى أثاما

وقيل الأثام: العقاب كما في التفسير، وشاهده قول الشاعر:

جزى الله ابن عروة حيث أمسى ... عقوقًا والعقوق له أثام

أي: جزاء وعقوبة.

(٢) أنشد بعضهم الأبيات التالية في صفة أولياء الله جعلنا الله منهم، فقال:

لله قوم أخلصوا في حبه ... فرضي بهم واختصهم خدّاما

قوم إذا جن الظلام عليهم ... باتوا هنالك سجدًا وقياما

خمص البطون من التعفف ضمّرا ... لا يعرفون سوى الحلال طعاما

(٣) روي أن عبدالملك بن مروان سأل بنته فاطمة وهي تحت ابن أخيه عمر بن عبدالعزيز وقد زارهما بالمدينة فقال لها: كيف نفقتكم؟ فقالت: الحسنة بين السيئتين. تعني قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ وقيل: المسؤول زوجها عمر وهو الذي أجاب والله أعلم وفي الحديث: «**إن من السرف أن تأكل كل ما تشتهي**».

(٤) روى مسلم أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**» قال: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**» قال: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**» فأنزل الله تصديقها ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

والزنى وأنها أمهات الكبائر.

٧ - التوبة تجب[1] ما قبلها. والندب إلى التوبة وأنها مقبولة ما لم يغرغر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٢ - ٧٧]

(٧٢) ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾: أي لا يحضرون مجالسه ولا يشهدون بالكذب والباطل. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾: أي بالكلام السيء القبيح وكل ما لا خير فيه. ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾: أي معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن سماعه أو المشاركة فيه.

(٧٣) ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: أي إذا وعظوا بآيات القرآن. ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾: أي لم يطأطئوا رؤوسهم حال سماعها عميًا لا يبصرون ولا صمًا لا يسمعون بل يصغون يسمعون ويعون ما تدعو إليه ويبصرون ما تعرضه.

(٧٤) ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: أي ما تقر به أعيننا وهو أن تراهم[2] مطيعين لك يعبدونك وحدك. ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: أي من عبادك الذين يتقون سخطك بطاعتك قدوة يقتدون بنا في الخير.

(٧٥) ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾: أي الدرجة العليا في الجنة. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾: أي على طاعتك بامتثال الأمر واجتناب النهي.

(٧٦) ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: أي صلحت وطابت مستقرًا لهم أي موضع استقرار وإقامة.

(٧٧) ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾: أي ما يكترث ولا يعتد بكم ولا يبالي. ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾: إياه، ودعاؤه إياكم لعبادته بذكره وشكره. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾: أي العذاب لزامًا أي لازمًا لكم في بدر ويوم القيامة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر صفات عباد الرحمن الذي تجاهله المشركون وقالوا: وما الرحمن فها هي ذي صفات عباده دالة عليه وعلى جلاله وكماله، وقد مضى ذكر خمس صفات:

(٧٢) والسادسة: في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾[3] الزور هو الباطل والكذب وعباد الرحمن لا يحضرون مجالسه ولا يقولونه ولا يشهدونه ولا ينطقون به ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ[4]﴾ وهو كل عمل وقول لا خير فيه ﴿مَرُّوا كِرَامًا[5]﴾ أي مكرمين أنفسهم من التلوث به، بالوقوع فيه.

(٧٣) والسابعة: في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي إذا ذكرهم أحد بآيات القرآن كتاب ربهم عز وجل لم يحنوا رؤوسهم عليها صمًا حتى لا يسمعوا مواعظها ولا عميانًا حتى لا يشاهدوا آثار آياتها بل يحنون رؤوسهم سامعين لها واعين لما تقوله وتدعو إليه مبصرين آثارها مشاهدين وقائعها متأثرين بها.

(٧٤) والثامنة: في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي في دعائهم ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾ أي أعطنا ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ[6]﴾ أي

---

(١) وفي الحديث الصحيح: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**» والشاهد: (إن الحسنات يذهبن السيئات).

(٢) أي: أعيننا.

(٣) قيل في الزور: إنه كل باطل زور وزخرف وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد، وقال ابن عباس: إنه أعياد المشركين، وقال عكرمة: اللعب كان في الجاهلية يسمى الزور، وقال مجاهد: الغناء: ويطلق اليوم على التصوير والصور إذ هو الزور والكذب قطعًا. والحكم في شاهد الزور أن يجلد أربعين جلدة ويسخم وجهه ويحلق رأسه ويطاف به في السوق، بهذا حكم عمر رضي الله عنه. وتسخيم الوجه: أن يسود بالفحم.

(٤) اللغو: كل سقط من قول أو فعل فيدخل فيه الغناء واللهو وذكر النساء وغير ذلك من المنكر، وقال بعضهم: اللغو كل قول أو عمل لم يحقق لك درهمًا لمعاشك ولا حسنة لمعادك.

(٥) كرامًا: أي معرضين منكرين لا يرضونه ولا يمالئون عليه ولا يجالسون أهله.

(٦) قرة العين: مأخوذ من القرّ وهو البرد إذ دموع الفرح باردة ودموع الحزن حارة. قال الشاعر:

فكم تسخنت بالأمس عين قريرة … وقرّت عيون دمعها اليوم ساكب

ومن ثم قالوا في الدعاء: أقر الله عينك أي: أفرحك.

ما تقر به أعيننا وذلك بأن نراهم يتعلمون الهدى ويعملون به طلبًا لمرضاتك يا ربنا ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾ من عبادك الذين يتقون سخطك بطاعتك بفعل أمرك وأمر رسولك واجتناب نهيك ونهي رسولك ﴿إِمَامًا﴾[(١)] أي قدوة صالحة يقتدون بنا في الخير يا ربنا.

(٧٥) قال تعالى مخبرًا عنهم بما أنعم به عليهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي السامون أنفسًا العالون أرواحًا ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ وهي الدرجة العليا في الجنة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ على طاعة مولاهم، وما يلحقهم من أذى في ذات ربهم ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي تتلقاهم الملائكة بالتهاني والتحيات ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي بالدعاء بالحياة السعيدة والسلامة من الآفات إذ هي حياة بلا ممات، وسعادة بلا منغصات.

(٧٦) وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في تلك الغرفة في أعلى الجنة ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ أي طابت موضع إقامة واستقرار. إلى هنا انتهى الحديث عن صفات عباد الرحمن وبيان جزائهم عند ربهم.

(٧٧) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي قل يا رسولنا لأولئك المشركين المنكرين للرحمن ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي﴾ أي ما يكترث لكم أو يبالي بكم ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ إياه أي عبادة من[(٢)] يعبده منكم إذ الدعاء هو العبادة ما أبالي بكم ولا أكترث لكم. أما وقد كذبتم بي وبرسولي فلم تعبدوني ولم توحدوني وإذًا ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العذاب[(٣)] ﴿لِزَامًا﴾ وقد أذقتموه يوم بدر، وسوف يلازمهم في قبورهم إلى نشورهم، وسوف يلاحقهم حتى مستقرهم في جهنم.

هداية الآيات:

١ - حرمة شهود الزور[(٤)] وحرمة شهادته.

٢ - فضيلة الإعراض عن اللغو فعلاً كان أو قولاً.

٣ - فضيلة تدبر القرآن وحسن الاستماع لتلاوته والاتعاظ بمواعظه والعمل بهدايته.

٤ - فضيلة علو الهمة وسمو الروح وطلب الكمال والقدوة في الخير.

٥ - لا قيمة للإنسان وهو أشرف الحيوانات لولا عبادته الله عز وجل فإذا لم يعبده كان شر الخليقة[(٥)].

❋ ❋ ❋

سورة الشعراء
مكية
وآياتها مائتان وسبع وعشرون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ - ٩]

(١) ﴿طسٓمٓ﴾: الله أعلم بمراده بذلك.

(٢) ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: أي القرآن المبين للحق من الباطل.

(٣) ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: أي قاتلها من الغم. ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾: أي من أجل عدم إيمانهم بك.

(٤) ﴿ءَايَةً﴾: أي نخوفهم بها.

(٥) ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾: أي من قرآن. ﴿مُعْرِضِينَ﴾: أي غير ملتفتين إليه.

(٧) ﴿زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾: أي صنف حسن.

(٩) ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالب على أمره ومراده. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: بالمؤمنين من عباده.

---

(١) وحّد إمامًا ولم يجمعه (أئمة) لأن الإمام مصدر كالقيام والصيام، أم القوم يؤمهم فهو إمام لهم، والمصدر يطلق فيدل على الواحد والجمع، وجائز أن يراد أئمة كقول الرجل أميرنا هؤلاء، ومنه قول الشاعر:

يا عاذلاتي لا تزدن ملامتي ... إن العواذل لسن لي بأمير

(٢) إذ كانوا يدعونه تعالى في حال الشدة وعلى هذا فالمصدر مضاف إلى الفاعل، و(إياه) معمول للدعاء.. المصدر، وجائز أن يكون معناه لولا دعاؤه إياكم لعبادته بذكره وشكره فيكون المصدر الذي هو الدعاء مضافًا إلى مفعوله وجواب لولا محذوف تقديره لم يعبأ بكم.

(٣) قال الطبري: معناه عذابًا دائمًا لازمًا. وقيل: فقد كذّبتم فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم أي: جزاؤه، وهو العذاب والمعنى واحد وهو لزوم العذاب لهم من أجل تكذيبهم الذي منعهم من تزكية نفوسهم بالإيمان وصالح الأعمال.

(٤) وفي الصحيح: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الشرك بالله وعقوق الوالدين**» وكان متكئًا فجلس وقال: «**ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

(٥) شاهده قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ وهم الكفار من أهل الكتاب والمشركون. (من سورة البينة).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

٣٦٧

معنى الآيات:

﴿١﴾ ﴿طسٓمٓ ۝﴾ هذه أحد الحروف المقطعة تكتب طسم، وتقرأ طا سين ميم بإدغام النون من سين في الميم الأولى من ميم والله أعلم بمراده منها. وفيها إشارة إلى أن القرآن مؤلف من مثل هذه الحروف وعجز العرب عن تأليف مثله بل سورة واحدة من مثله دال قطعًا على أنه كلام الله ووحيه إلى رسوله ﷺ.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1] أي الآيات المؤلفة من مثل هذه الحروف هي آيات الكتاب أي القرآن ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي المبين للحق من الباطل والهدى من الضلال، والشرائع والأحكام.

﴿٣﴾ وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي قاتلها ومهلكها ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن لم يؤمن بك وبما جئت به قومك، فأشفق على نفسك يا رسولنا ولا تعرضها للغم القاتل فإنه ليس عليك هدايتهم وإنما عليك البلاغ وقد بلغت، إنا لو أردنا هدايتهم بالقسر والقهر لما عجزنا عن ذلك.

﴿٤﴾ ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ[2] لَهَا خَٰضِعِينَ ۝﴾ أي إنا لقادرون على أن ننزل عليهم من السماء آية كرفع جبل أو إنزال كوكب أو رؤية ملك فظلت أي فتظل طوال النهار أعناقهم خاضعة، تحتها تتوقع في كل لحظة نزولها عليهم فتهلكهم فيؤمنوا حينئذ إيمان قسر وإكراه ومثله لا ينفع صاحبه فلا يزكي نفسه ولا يطهر روحه لأنه غير إرادي له ولا اختياري.

﴿٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ[3]﴾ أي وما يأتي قومك المكذبين لك من موعظة قرآنية وحجج وبراهين تنزيلية تدل على صدقك وصحة دعوتك ممَّا يحدثه الله إليك ويوحي به إليك لتذكرهم به إلا أعرضوا فلا يستمعون إليه ولا يفكرون فيه.

﴿٦﴾ وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾[4] يخبر تعالى رسوله بأن قومه قد كذبوا بما أتاهم من ربهم من ذكر محدث وعليه ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ أي أخبار ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو عذاب الله تعالى الذي كذبوا برسوله ووحيه وجحدوا توحيده وأنكروا طاعته وفي الآية وعيد شديد وهم عرضة له في أية لحظة إن لم يتوبوا.

﴿٧﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ[5] يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝﴾ إن كانت علة هذا التكذيب من هؤلاء

---

(١) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال القرطبي: رفع على إضمار مبتدأ أي: هذه تلك.. إلخ.. وما في التفسير أولى أي: هي آيات الكتاب.

(٢) لأنهم إذا ذلت أعناقهم ذلوا ولا داعي إلى أن يقال: أعناقهم: كبراؤهم ورؤساؤهم وإن ساغ لغة، إذ المراد أن ينزل عليهم آية تخضعهم وتذلهم رؤساء ومرؤوسين، والأعناق: جمع عنق بضم العين والنون وهو الرقبة ولما كانت الأعناق هي مظهر الخضوع أسند الخضوع إليها، ومقتضى ظاهر الكلام هو: فظلوا لها خاضعين بأعناقهم، وعدل عنه إلى إسناد الخضوع إلى الأعناق لأنه يحمل الإشارة إلى خضوع رؤسائهم الحاملين على الكفر والعناد وهذا من بليغ الكلام وبديعه.

(٣) ﴿مُحْدَثٍ﴾ أي: مستجد متكرر بعضه يعقب بعضًا ويؤيده.

(٤) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ الفاء: هي الفصيحة أفصحت عن تكذيبهم الناتج عن إعراضهم والفاء في ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾: للتعقيب والأنباء: جمع نبأ وهو الخبر ذو الشأن، والجملة تحمل التهديد والوعيد الشديد.

(٥) الاستفهام إنكاري، والهمزة داخلة على محذوف، والواو عاطفة عليه نحو: اعملوا ولم يروا. الرؤية: معناها النظر بالعين، ولذا عدّي الفعل بإلى. والزوج: النوع، والكريم: النفيس في نوعه، وكم: للتكثير، ومن: للتعيض.

المشركين هي إنكارهم للبعث والجزاء وهو كذلك فلم لا ينظرون إلى الأرض الميتة بالقحط ينزل الله تعالى عليها ماء من السماء فتحيا به بعد موتها فينبت الله فيها من كل زوج أي صنف من أصناف النباتات كريم أي حسن. أليس في ذلك آية على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم وحشرهم للحساب والجزاء، فلم لا ينظرون؟

(٨) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي علامة واضحة للمشركين على صحة البعث والجزاء. ففي إحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الناس بعد موتهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] يخبر تعالى أنَّ فيما ذكر من إنباته أصناف النباتات الحسنة آية على البعث والحياة الثانية ولكن قضى الله أزلاً أن أكثر هؤلاء المشركين لا يؤمنون.

(٩) وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ[2] الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب على أمره المنتقم من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه فاصبر لحكمه وتوكل عليه وواصل دعوتك في غير غم ولا هم ولا حزن وإن العاقبة لك وللمؤمنين بك المتبعين لك.

هداية الآيات:

١ - بيان أن القرآن الكريم معجز لأنه مؤلف من مثل طا سين ميم ولم يستطع أحد أن يؤلف مثله.

٢ - بيان ما كان الرسول ﷺ يناله من الغم والحزن وتكذيب قومه له.

٣ - بيان أن إيمان المكره لا ينفعه، ولذا لم يكره الله تعالى الكفار على الإيمان بواسطة الآيات.

٤ - التحذير من عاقبة التكذيب بآيات الله وعدم الاكتراث بها.

٥ - في إحياء الأرض بالماء وإنبات النباتات المختلفة فيها دليل على البعث الآخر.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ - ١٧]

(١٠) ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾: أي اذكر لقومك يا رسولنا إذ نادى ربك موسى. ﴿أَنِ ائْتِ﴾: أي بأن ائت القوم الظالمين.

(١١) ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾: ألا يخافون الله ربهم ورب آبائهم الأولين ما لهم ما دهاهم؟

(١٣) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾: أي من تكذيبهم لي. ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾: أي للعقدة التي به. ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾: أي إلى أخي هارون ليكون معي في إبلاغ رسالتي.

(١٤) ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾: أي ذنب القبطي الذي قتله موسى قبل خروجه إلى مدين.

(١٥) ﴿قَالَ كَلَّا﴾: أي قال الله تعالى له كلا أي لا يقتلونك. ﴿فَاذْهَبَا﴾: أنت وهارون.

(١٦) ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي إليك.

معنى الآيات:

(١٠) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ هذا بداية سلسلة من القصص بدئت بقصة موسى وختمت بقصة شعيب وقصها على المشركين ليشاهدوا أحداثها ويعرفوا نتائجها وهي دمار المكذبين وهلاكهم مهما كانت قوتهم وطالت أعمارهم قال تعالى في خطاب رسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ أي اذكر إذ نادى ربك موسى في ليلة باردة شاتية بالواد الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة.

(١٠) - (١١) ﴿أَنِ[3] ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ[4]﴾ إذ ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك وظلموا بني إسرائيل باضطهادهم وتعذيبهم ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي قل لهم ألا تتقون أي يأمرهم بتقوى ربهم بالإيمان به وتوحيده وترك ظلم عباده فالاستفهام معناه الأمر.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي

---

(١) المراد ممن نفى الإيمان عن أكثرهم هم: أكابر مجرمي مكة إذ أكثرهم مات كافرًا أما غيرهم فندر من لم يؤمن منهم إذ دخلوا في دين الله بعد الفتح أفواجًا.

(٢) الجملة تعليلية تضمنت التذكير بعزّة الله تعالى ورحمته فذوا العزة قادر على أن ينزل عذابه بأعدائه، وذو الرحمة قادر على رحمة أوليائه. كما أن هناك إشارة إلى أنّ تخلف العذاب اقتضته رحمته سبحانه وتعالى.

(٣) ﴿أَنِ﴾: تفسيرية لأنها واقعة بعد النداء وهو قول.

(٤) ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: بدل من الظالمين.

﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ[1] ﴿١٢﴾﴾ أي قال موسى بعد تكليفه رب إني أخاف أن يكذبون فيما أخبرهم به وأدعوهم إليه.

﴿١٣﴾ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾[2] لذلك ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ للعقدة التي به، وعليه ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي جبريل يبلغه أن يكون معي معينًا لي على إبلاغ رسالتي.

﴿١٤﴾ وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ هذا قول موسى عليه السلام لربه تعالى شكا إليه خوفه من قتلهم له بالنفس[3] التي قتلها أيام كان بمصر قبل خروجه إلى مدين.

﴿١٥﴾ فأجابه الرب تعالى ﴿كَلَّا﴾[4] أي لن يقتلوك. وأمرهما بالسير إلى فرعون فقال: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهي العصا واليد ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي فبلغاه ما أمرتكما ببلاغه وإنا معكم مستمعون لما تقولان ولما يقال لكما.

﴿١٦﴾ ـ ﴿١٧﴾ ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ﴾ عند وصولكما إليه ﴿إِنَّا رَسُولُ[5] رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي نحمل رسالة منه مفادها أن ترسل معنا بني إسرائيل[6] لنخرج بهم إلى أرض الشام التي وعد الله بها بني إسرائيل هذا ما قاله موسى وهارون رسولا رب العالمين أما جواب فرعون ففي الآيات التالية.

هداية الآيات:

١ ـ إثبات صفة الكلام لله تعالى بندائه موسى عليه السلام.

٢ ـ لا بأس بإبداء التخوف عند الإقدام على الأمر الصعب ولا يقدح في الإيمان ولا في التوكل.

٣ ـ مشروعية طلب العون والمساعدة من المسؤولين إذا كلفوا المرء بما يصعب.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨ ـ ٢٢]

﴿١٨﴾ ﴿قَالَ﴾: أي قال فرعون ردًا على كلام موسى في السياق السابق.

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾: أي في منازلنا وليدًا أي صغيرًا قريبًا من أيام الولادة. ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾: أي أقمت بيننا قرابة ثلاثين سنة وكان موسى يدعى ابن فرعون لجهل الناس به ورؤيتهم له في قصره يلبس ملابسه ويركب مراكبه.

﴿١٩﴾ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾: أي قتلت الرجل القبطي. ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي الجاحدين لنعمتي عليك بالتربية وعدم الاستعباد.

﴿٢٠﴾ ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: إذ لم يكن عندي يومئذ من علم ربي ورسالته ما عندي الآن.

﴿٢٢﴾ ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي هل تعبيدك لبني إسرائيل يعد نعمة فتمن بها علي؟

معنى الآيات:

﴿١٨﴾ ما زال السياق والحوار الدائر بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعائن الرحمن فرد فرعون على موسى بما أخبر تعالى به عنه في قوله: ﴿قَالَ أَلَمْ[7] نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ أي أتذكر معترفًا أنا ربيناك وليدًا أي صغيرًا وأنت في حال الرضاع ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾ أي في قصرنا مع الأسرة المالكة ﴿سِنِينَ﴾ ثلاثين سنة قضيتها من عمرك في ديارنا.

﴿١٩﴾ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾[8] أي الشنعاء ﴿ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ وهي قتل

---

(١) ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾: الأصل: أن يكذبوني فحذفت النون الأولى للناصب وهو: أن، فصارت يكذبونني ثم حذفت ياء الضمير لدلالة الكسرة عليها فصارت ﴿يُكَذِّبُونِ﴾.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ بالرفع للفعلين معًا على الاستئناف وقرىء بنصبهما لغير الجمهور.

(٣) المراد بالنفس: نفس القبطي واسمه فاثور.

(٤) ﴿كَلَّا﴾: للردع والزجر عن هذا الظن.

(٥) لم يقل: رسولا إما لأن رسول بمعنى رسالة: إنَّا ذو رسالة رب العالمين، وإما لأنَّ الرسول بمعنى الجمع كالمصدر نحو: هذا عدوي وهؤلاء عدوي، والعرب تقول: هذان رسولي وهؤلاء رسولي.

(٦) قيل: أقام بنو إسرائيل في مصر أربعمائة سنة وكانوا يوم خرجوا منها ستمائة ألف.

(٧) الاستفهام للتقرير ومعناه: المنّ على موسى والاحتقار له.

(٨) الفعلة: المرة وبالكسر: الهيئة وقرأ الجمهور: ﴿فَعْلَتَكَ﴾ وهي المرة من الفعل، وشاهد الفعلة بالكسر للهيئة قول الشاعر:

كأن مشيتها من بيت جارتها … مَرُّ السحابة لا ريث ولا عجل

يذكره بقتله القبطي تخويفًا له وتهديدًا.

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ
لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

موسى القبطي ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لنعمنا عليك الجاحد بها، كان هذا رد فرعون فلنستمع إلى رد موسى عليه السلام.

﴿٢٠﴾ كما أخبر به الله تعالى عنه في قوله: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي يومئذ ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الجاهلين لأنه لم يكن قد علمني ربي ما علّمني الآن وما أوحى إلي ولا أرسلني إليكم[1] رسولاً.

﴿٢١﴾ ﴿فَفَرَرْتُ[2] مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ من أجل قتلي النفس التي قتلت وأنا من الجاهلين ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أي علمًا نافعًا يحكمني دون فعل ما لا ينبغي فعله ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ[3]﴾ أي من أنبيائه ورسله إلى خلقه.

ثم قال له ردًا على ما امتن به فرعون بقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

﴿٢٢﴾ فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ[4]﴾ أي أو تلك نعمة تمنها علي وهي: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي استعبدتهم أي اتخذتهم عبيدًا لك يخدمونك تستعملهم كما تشاء كالعبيد لك ولم تستعبدني أنا لاتخاذك إياي ولدًا حسب زعمك فأين النعمة التي تمنها عليّ يا فرعون، نترك رد فرعون إلى الآيات التالية.

هداية الآيات:

١ - قبح جريمة القتل عند كافة الناس مؤمنهم وكافرهم وهو أمر فطري.

٢ - جواز التذكير بالإحسان لمن أنكره ولكن لا على سبيل الامتنان فإنه محبط للعمل.

٣ - جواز إطلاق لفظ الضلال على الجهل كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾.

﴿٢٠﴾ وكما قال موسى ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الجاهلين قبل أن يعلمني ربي.

٤ - مشروعية الفرار من الخوف إذا لم يكن في البلد قضاء عادل، وإلا لما جاز الهرب من وجه العدالة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣ ـ ٣١]

﴿٢٣﴾ ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي الذي قلت إنك لرسوله من أي جنس هو؟

﴿٢٤﴾ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: أي خالق ومالك السموات والأرض وما بينهما. ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: بأن السموات والأرض وما بينهما من سائر المخلوقات مخلوقة قائمة فخالقها ومالكها هو رب العالمين.

﴿٢٥﴾ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾: أي من أشراف قومه ورجال دولته. ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾:

---

(١) كان خروج موسى من مصر إلى أن عاد إليها أحد عشر عامًا إلا أشهرًا.

(٢) أي: فررت منكم إلى أرض مدين.

(٣) بناء على أنه قضى ثلاثين سنة في مصر وأحد عشر عامًا خارجها، فقد نبىء على رأس الأربعين وهي سنة الله تعالى في الرسل.

(٤) حرف الاستفهام مقدر أي: أو تلك كما هو في التفسير، والاستفهام إنكاري أي: ينكر موسى على فرعون أن يكون استعباد بني إسرائيل نعمة تعدّ عليهم وهذا التقدير أولى من قول: (إن موسى اعترف لفرعون بنعمة التربية من حيث استعبد غيره وتركه هو لم يتعبده) ومن اعترض بأن همزة الاستفهام لا تحذف إذا لم يكن في الكلام أم الدالة عليها محجوج بشواهد كثيرة: منها قول الشاعر:

لم أنس يوم الرحيل وقفتها ... وجفنها من دموعها شرق
وقولها والركاب واقفة ... تركتني هكذا وتنطلق

والشاهد في قوله: تركتني إذ الأصل: أتركتني فحذفت همزة الاستفهام مع عدم (أم).

أي جوابه الذي لم يطابق السؤال في نظره.

(٣٠) ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾: أي أتسجنني ولو جئتك ببرهان وحجة على رسالتي.

(٣١) ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: أي فأت بهذا الشيء المبين إن كنت من الصادقين فيما تقول.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحوار الدائر بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعائن الرحمن لما قال موسى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في أول الحوار قال فرعون مستفسرًا في عناد ومكابرة.

(٢٣) ﴿وَمَا رَبُّ[1] ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ أي أيّ شيء هو أو من أي جنس من أجناس المخلوقات فأجابه موسى بما أخبر تعالى به عنه.

(٢٤) ﴿قَالَ رَبُّ[2] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي خالق السموات والأرض وخالق ما بينهما. ومالك ذلك كله، إن كنتم موقنين بأن كل مخلوق لا بد له من خالق خلقه، وهو أمر لا تنكره العقول.

(٢٥) وهنا قال فرعون في استخفاف وكبرياء لمن حوله من رجال دولته وأشراف قومه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾[3] كأن ما قاله موسى أمر عجب أو مستنكر فعرف موسى ذلك فقال:

(٢٦) ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الأولين الكل مربوب له خاضع لحكمه وتصرفه.

(٢٧) وهنا اغتاظ فرعون فقال ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أراد أن ينال من موسى لأنه أغاظه بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فرد موسى أيضًا قائلًا:

(٢٨) ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي رب الكون كله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ما تخاطبون به ويقال لكم وفي هذا الجواب ما يتقطع له قلب فرعون فلذا رد بما أخبر به تعالى عنه في قوله:

(٢٩) ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ أي ربًا سواي ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أي لأسجننك وأجعلك في قعر تحت الأرض مع المسجونين.

(٣٠) فرد موسى عليه السلام قائلًا: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾[4] أي أتسجنني ولو جئت بحجة بينة وبرهان ساطع على صدقي فيما قلت وأدعوكم إليه؟

(٣١) وهنا قال فرعون ما أخبر تعالى به: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فيما تدعي وتقول.

هداية الآيات:

١ -تقرير الربوبية المقتضية للألوهية من طريق هذا الحوار ليسمع ذلك المشركون، وليعلموا أنهم مسبوقون بالشرك والكفر وأنهم ضالون.

٢ - سنة أهل الباطل أنهم يفجرون في الخصومة وفي الحديث: (وإذا خاصم فجر)[5].

٣ - أهل الكبر والعلو في الأرض إذا أعيتهم الحجج لجؤوا إلى التهديد والوعيد واستخدام القوة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٢ ـ ٤٢]

(٣٢) ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: أي ثعبان ظاهر أنه ثعبان لا شك.

(٣٣) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾: أي أخرجها من جيبه بعد أن أدخلها فيه.

(٣٤) ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾: أي متفوق في علم السحر.

(٣٦) ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾: أي أخر

---

(١) لما غُلب فرعونه في جداله لموسى استفهم بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو استفهام عن جنس ولم يستفهم عن ربّ العالمين تجاهلًا منه ومكابرة فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكان المطلوب أن يقول: ومن ربّ العالمين؟ ولكنه العلو والتكبر.

(٢) لمّا علم موسى جهل فرعون وتجاهله أجابه بما يلقمه الحجر ويبطل دعواه في أنّ الربوبية تكون لبشر أو حجر فقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ . . .﴾ إلخ . .

(٣) استفهم اللعين استفهام تعجّب وتهكم مستخفًا بجواب موسى قائلًا: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي: إلى قول هذا الذي زعم إبطال عقيدتكم وعقيدة آبائكم، ولذا أجاب موسى بتقرير جوابه الأوّل وهو مفحم مبطل لدعوى ربوبية فرعون.

(٤) في جواب موسى عليه السلام هذا تلطّف بفرعون وطمع في إيمانه لما بهره به من الردود المحكمة والإجابات المفحمة.

(٥) نصّ الحديث الشريف كما هو في الصحيح: «**أربع مَنْ كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان وإذا حدّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر**».

أمرهما. ﴿حَٰشِرِينَ﴾: أي جامعين للسحرة.

(٣٧) ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾: أي متفوق في الفن أكثر من موسى.

(٣٨) ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾: هو ضحى يوم الزينة عندهم.

(٣٩) ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾: أي اجتمعوا كي نتبع السحرة على دينهم إن كانوا هم الغالبين.

(٤٢) ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: أي لكم الأجر وهو الجعل الذي جعل لهم وزادهم مزية القرب منه.

معنى الآيات:

(٣٢) - (٣٣) ما زال السياق الكريم في الحوار الدائر بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعائن الرحمن لقد تقدم في السياق أن فرعون طالب موسى بالإتيان بالآية أي الحجة على صدق دعواه وها هو ذا موسى عليه السلام يلقي عصاه أمام فرعون وملإه فإذا هي ثعبان ظاهر لا شك فيه، وأخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين لا يشك في بياضها وأنه بياض خارق للعادة هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (٣٢) والثانية (٣٣): ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ[1] مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا[2] هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ۝﴾ واعترف فرعون بأن ما شاهده من العصا واليد أمر خارق للعادة ولكنه راوغ فقال: (٣٤) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي موسى ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي ذو خبرة بالسحر وتفوق فيه قال هذا للملإ حوله كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

(٣٥) وقوله تعالى عنه: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ قال فرعون هذا تهييجًا للملإ ليثوروا ضد موسى عليه السلام وهذا من المكر السياسي إذ جعل القضية سياسية بحتة وأن موسى يريد الاستيلاء على الحكم والبلاد ويطرد أهلها منها بواسطة السحر، وقال لهم كالمستشير لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟

(٣٦) فأشاروا عليه بما أخبر تعالى به عنهم: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخر أمرهما ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ أي مدن المملكة رجالاً ﴿حَاشِرِينَ﴾ أي جامعين.

(٣٧) ﴿يَأْتُوكَ﴾ أيها الملك ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ[3] عَلِيمٍ﴾ أي ذو خبرة في السحر متفوقة، وفعلاً أخذ بمشورة رجاله.

(٣٨) ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝﴾ أي لموعد معلوم وهو ضحى يوم العيد عندهم واستحثوا الناس على الحضور من كافة أنحاء البلاد وهو ما أخبر تعالى به في قوله: (٣٩) - (٤٠) ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝ فَجُمِعَ[4] السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ فنبقى على ديننا ولا نتبع موسى وأخاه على دينهما الجديد ﴿إِن كَانُوا﴾ أي السحرة ﴿هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ وهذا من باب الاستحثاث والتحريض على الالتفاف حول فرعون وملإه.

(٤١) وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ أي من كافة أنحاء البلاد قالوا لفرعون ما أخبر تعالى به عنهم ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾[5] أي جعلاً ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾؟

(٤٢) فأجابهم فرعون قائلاً: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا[6] لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي زيادة

---

(١) الثعبان: الحية الضخمة الطويلة، و﴿ثُعْبَانٌ﴾ بمعنى بيّن لا خفاء فيه ولا غموض ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أي: أخرجها من قميصه بسرعة وشدّة إذ هذا ما يدل عليه لفظ النزع، ولم يذكر المنزع منه لدلالة اللفظ عليه أي: من جيب قميصه.

(٢) إذا: هي الفجائية ومعنى: ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي: مما يقصده الناظرون لما فيه من العجب، وكان جلد موسى أسمر وكانت اليد بيضاء فكان ذلك آية أخرى.

(٣) ﴿سَحَّارٍ﴾: فيه وصف ثابت دال على تعاطيه للمهنة ورسوخه فيها كنجار وخياط وبنّاء، والوصف بعليم: فيه الحث على الإتيان بالمهرة من السحرة لعظم الموقف.

(٤) دلت الفاء على الفورية واللام كذلك في الميقات أي: لأوّل الوقت كقوله: (الصلاة لوقتها) أي: في أول وقتها، وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ المراد بالناس أهل بلاده، والاستفهام في: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ للاستحثاث على الاجتماع.

(٥) سؤال السحرة الأجر إدلال بخبرتهم والتذكير بالحاجة إليهم لعلمهم بأن فرعون حريص على غلبهم لموسى، وخافوا أيضًا أن يستخدمهم فرعون بدون أجر لأنّ الحال حال التعبئة العامة للدفاع عن المعتقدات وأهلها فلذا شرطوا أجرهم قبل الشروع في العمل.

(٦) ﴿إِذًا﴾ أي: إذا كنتم فعلاً غالبين إنّ لكم لأجرًا عظيمًا.

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١) ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠)

على الأجر مكافأة أخرى وهي أن تكونوا من المقربين لدينا، وفي هذا إغراء كبير لهم على أن يبذلوا أقصى جهدهم في الانتصار على موسى عليه السلام.

هداية الآيات:

١ - إثبات المعجزات للأنبياء كمعجزة العصا واليد لموسى عليه السلام.

٢ - مشروعية استشارة الأمير رجاله في الأمور ذات البال.

٣ - ثبوت السحر وأنه فن من فنون المعرفة وإن كان تعلمه وتعليمه محرمين.

٤ - إعطاء المكافأة للفائزين في المباراة وغيرها ومن ذلك السباق في الإسلام.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٣ ـ ٤٩]

(٤٣) ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾: أمرهم بالإلقاء توسلاً إلى ظهور الحق.

(٤٥) ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾: أي ما يقلبونه بتمويههم من أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى.

(٤٨) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۞﴾: أي لعلمهم بأن ما شاهدوه من العصا لا يأتي بواسطة السحر.

(٤٩) ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: أي يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي لأشدنكم بعد قطع أيديكم وأرجلكم من خلاف على الأخشاب.

معنى الآيات:

(٤٣) ما زال السياق في الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعائن الرحمن إنه بعد إرجاء السحرة فرعون وسؤالهم له: هل لهم من أجر على مباراتهم موسى إن هم غلبوا وبعد أن طمأنهم فرعون على الأجر والجائزة قال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا۟[1] مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من الحبال والعصي في الميدان.

(٤٤) ـ (٤٥) ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ وأقسموا بعزة فرعون إنهم هم الغالبون وفعلاً انقلبت الساحة كلها حيات وثعابين حتى أوجس موسى في نفسه خيفة فأوحى إليه ربه تعالى ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها.

(٤٥) ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

(٤٤) ـ (٤٥) هذا معنى قوله تعالى في هذا السياق: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ[2] فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۞ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ[3] مَا يَأْفِكُونَ ۞﴾ ومعنى تلقف ما يأفكون أي تبتلع في جوفها من طريق فمها كل ما أفكه أي كذبه وافتراه السحرة بسحرهم من انقلاب الحبال والعصي حيات وثعابين.

(٤٦) وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۞﴾ أي أنهم لاندهاشهم وما بهرهم من الحق ألقوا بأنفسهم على الأرض ساجدين لله تعالى مؤمنين به.

---

(١) جاء في سورة الأعراف أن السحرة عرضوا على موسى أن يلقي عصاه أو يلقوا حبالهم وعصيّهم، وهنا قال لهم موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُوا۟﴾ بناء على عرضهم ذلك.

(٢) يبدو أن الباء في قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ هي كالباء في بسم الله للاستعانة والتبرّك لا للقسم وهذا أولى بالمقام من الحلف على شيء لا يملكه المرء، وتكون جملة: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا وليست جواب قسم إلاّ أنها حملت معنى القسم بما فيه من المؤكدات كأنهم قالوا: إنّا وربّنا لغالبون.

(٣) قرأ نافع: ﴿تلقّف﴾ بتشديد القاف، والأصل: تتلقف فحذفت إحدى التائين تخفيفًا، وقرأ حفص: ﴿تَلْقَفُ﴾ بتخفيف القاف من: لقف الشيء يلقفه لقفًا: إذا أخذه بسرعة.

(٤٧) فسئلوا عن حالهم تلك فقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ وهنا خاف فرعون تفلت الزمام من يده وأن يؤمن الناس بموسى وهارون ويكفروا به.

(٤٩) فقال للسحرة: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ بذلك أي كيف تؤمنون بدون إذني؟ على أنه يملك ذلك منهم وهي مجرد مناورة مكشوفة، ثم قال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي موسى ﴿لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ أي إنه لما كان أستاذكم تواطأتم معه على الغلب فأظهرتم أنه غلبكم، تمويهًا وتضليلاً للجماهير.. ثم تهددهم قائلاً: ﴿فَلَسَوۡفَ(١) تَعۡلَمُونَۚ﴾ عقوبتي لكم على هذا التواطؤ وهي: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ أي أقطع من الواحد منكم يده اليمنى ورجله اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فلا أبقي منكم أحدًا إلا أشده على خشبة حتى يموت مصلوبًا، هل فعل فرعون ما توعد به؟.

هداية الآيات:

١ ـ لم يبادر موسى بإلقاء عصاه أولاً لأن المسألة مسألة علم لا مسألة حرب ففي الحرب تنفع المبادرة بافتكاك زمام المعركة، وأما في العلم فيحسن تقديم الخصم، فإذا أظهر ما عنده كر عليه بالحجج والبراهين فأبطله وظهر الحق وانتصر على الباطل، هذا الأسلوب الذي اتبع موسى بإلهام من ربه تعالى.

٢ ـ مظهر من مظاهر الهداية الإلهية هداية السحرة إذ هم في أول النهار سحرة كفرة وفي آخره مؤمنون بررة.

٣ ـ ما سلكه فرعون مع السحرة كله من باب المناورات السياسية الفاشلة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٠ ـ ٦٠]

(٥٠) ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾: أي لا ضرر علينا. ﴿مُنقَلِبُونَ﴾: أي راجعون بعد الموت وذلك يسر ولا يضر.

(٥١) ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أي رجوا أن يكفر الله عنهم سيئاتهم لأنهم سبقوا بالإيمان.

(٥٢) ﴿أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ﴾: السرى المشي ليلاً والمراد من العباد بنو إسرائيل. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: أي من قبل فرعون وجيوشه.

(٥٤) ﴿لَشِرۡذِمَةٞ﴾: أي طائفة من الناس.

(٥٥) ﴿لَغَآئِظُونَ﴾: أي فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا.

(٥٦) ﴿حَٰذِرُونَ﴾: أي متيقظون مستعدون.

(٥٨) ﴿وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾: أي مجلس حسن كان للأمراء والوزراء.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي كان إخراجنا كذلك أي على تلك الصورة.

(٦٠) ﴿مُّشۡرِقِينَ﴾: أي وقت شروق الشمس.

معنى الآيات:

(٥٠) قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَ(٢)﴾ هذا قول السحرة لفرعون بعد أن هددهم وتوعدهم ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ﴾ أي لا ضرر علينا بتقطيعك أيدينا وأرجلنا وتصليبك إيانا ﴿إِنَّآ إِلَىٰ(٣) رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي راجعون إن كل الذي تفعله معنا إنك تعجل برجوعنا إلى ربنا وذاك أحب شيء إلينا.

(٥١) وقالوا: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ(٤) أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أي ذنوبنا ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في هذه البلاد برب العالمين رب موسى وهارون.

(٥٢) بعد هذا الانتصار العظيم الذي تم لموسى وهارون أوحى تعالى إلى موسى ﴿أَنۡ أَسۡرِ(٥) بِعِبَادِيٓ﴾ أي امش بهم ليلاً ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي من قبل فرعون وجنوده.

(٥٣) وعلم فرعون بعزم موسى على الخروج ببني إسرائيل فأرسل

---

(١) اللام: للقسم. وبم يقسم فرعون؟ يقسم بحسب عادته في أيمانه فقد يقسم بعزّته.

(٢) الضير: مرادف الضرّ يقال: ضاره يضيره بمعنى: ضرّه يضره سواء.

(٣) الجملة تعليلية لنفيهم الضرر عليهم.

(٤) لفظ الطمع يطلق ويراد به الظنّ الضعيف غالبًا ويراد به الظن القوي أيضًا كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ (٨٢)﴾.

(٥) قرأ نافع: ﴿أن اسر﴾ بهمزة وصل إذ هو من سرَى يسري، وحركت النون لالتقاء الساكنين. وقرأ عاصم: ﴿أَنۡ أَسۡرِ﴾ بسكون أن وقطع همزة أسر لأنه من أسرى، وأسرى وسرى بمعنى واحد.

في المدائن[1] وكانت له مئات المدن حاشرين من الرجال أي جامعين وكأنها تعبئة عامة.

(٥٤) يقولون محرضين: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ[2]﴾ أي موسى وبني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ أي طائفة أفرادها قليلون.

(٥٥) ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝[3]﴾ أي لفاعلون ما يغيظنا ويغضبنا.

(٥٦) ﴿وَإِنَّا﴾ أي حكومة وشعبًا ﴿لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي متيقظون مستعدون فهلم إلى ملاحقتهم وردهم إلى الطاعة. وعجل تعالى بالمسرة في هذا الخبر.

(٥٧) - (٥٨) فقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ أي آل فرعون ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ﴾ أي كنوز الذهب والفضة التي كانت مدفونة تحت التراب، إذ الطمس كان على العملة فسدت وأما مخزون الذهب والفضة فما زال تحت الأرض، إذ الكنز يطلق على المدفون تحت الأرض وإن كان شرعًا هو الكنز ما لم تؤد زكاته سواء كان تحت الأرض أو فوقها.

(٥٩) وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي إخراجنا لهم كان كذلك، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾[4] أي تلك النعم بني إسرائيل أي بعد هلاك فرعون وجنوده أجمعين.

(٦٠) وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝﴾ أي فاتبع آل فرعون بني إسرائيل أنفسهم في وقت شروق الشمس ليردوهم ويحولوا بينهم وبين الخروج من البلاد.

هداية الآيات:

١ - قوة الإيمان مصدر شجاعة خارقة للعادة بحيث يفرح المؤمن بالموت لأنه يوصله إلى ربه.

٢ - حسن الرجاء في الله والطمع في رحمته، وفضل الأسبقية في الخير.

٣ - مشروعية التعبئة العامة واستعمال أسلوب خاص في الحرب يهدىء من مخاوف الأمة حكومة وشعبًا.

٤ - دمار الظالمين وهلاك المسرفين في الكفر والشر والفساد.

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦٨) وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣)

٣٧٠

شرح الكلمات:

[الآية: ٦١ - ٦٨]

(٦١) ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾: أي رأى بعضهما بعضًا لتقاربهما والجمعان جمع بني إسرائيل وجمع فرعون.

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾: أي قال أصحاب موسى من بني إسرائيل إنا لمدركون أي سيلحقنا فرعون وجنده.

(٦٢) ﴿قَالَ كَلَّآ﴾: أي قال موسى عليه السلام كلا أي لن يدركونا ولن يلحقوا بنا.

(٦٣) ﴿فَٱنفَلَقَ﴾: أي انشق. ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ﴾: أي شق أي الجزء المنفرق والطود: الجبل.

(٦٤) ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝﴾: أي قربنا هنا لك الآخرين أي فرعون وجنده.

(٦٧) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾: أي عظة وعبرة توجب الإيمان برب العالمين برب موسى وهارون.

معنى الآيات:

(٦١) هذا آخر قصة موسى

---

(١) المدائن: جمع مدينة وهي البلد العظيم.

(٢) الإشارة بهؤلاء فيه إيماء بتحقير شأن بني إسرائيل، والشرذمة: الطائفة القليلة العدد.

(٣) الغيظ: أشدّ الغضب، وغائظون: اسم فاعل مِنْ: غاظه بمعنى أغاظه أي: أغضبه أشدّ الغضب.

(٤) يرى بعضهم أن الله أورث بني إسرائيل نعمًا نظير ما كان لفرعون وقومه بدليل آية الدخان: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ وبدليل أن بني إسرائيل ما رجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها والله أعلم.

عليه السلام مع فرعون قال تعالى في بيان نهاية الظالمين وفوز المؤمنين ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا[1] ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ جمع موسى وجمع فرعون وتقاربا بحيث رأى بعضهما بعضًا ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ أي خافوا لما رأوا جيوش فرعون تتقدم نحوهم صاحوا ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾.

(٦٢) فطمأنهم موسى بقوله: ﴿كَلَّآۖ﴾[2] أي لن تدركوا، وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ إلى طريق نجاتي.

(٦٣) قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب﴾ أي اضرب بعصاك البحر فضرب امتثالاً لأمر ربه فانفلق البحر فرقتين كل فرقة[3] منه كالجبل العظيم.

(٦٤) ﴿وَأَزۡلَفۡنَا﴾[4] أي قربنا ﴿ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ أي أدنينا هناك الآخرين وهم فرعون وجيوشه.

(٦٥) ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿أَجۡمَعِينَ﴾.

(٦٦) ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝﴾ المعادين لبني إسرائيل وهم فرعون وجنده.

(٦٧) قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إهلاك فرعون وإنجاء موسى وبني إسرائيل ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾ أي علامة واضحة بارزة لربوبية الله وألوهيته وقدرته وعلمه ورحمته وهي عبرة وعظة أيضًا للمعتبرين، وما كان أكثر قومك[5] يا محمد مؤمنين مع موجب الإيمان ومقتضيه لأنه سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون.

(٦٨) وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ أي وإن ربك يا محمد لهو الغالب على أمره الذي لا يمانع في شيء يريده ولا يحال بين مراده الرحيم بعباده فاصبر على دعوته وتوكل عليه فإنه ناصرك ومذل أعدائك.

هداية الآيات:

١ - ظهور آثار الاستعباد في بني إسرائيل متجلية في خوفهم مع مشاهدة الآيات.

٢ - ثبوت صفة المعية الإلهية في قول موسى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ إذ قال له عند إرساله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾.

٣ - ثبوت الوحي الإلهي.

٤ - آية انفلاق البحر من أعظم الآيات.

٥ - تقرير نبوة محمد ﷺ بقصة مثل هذا القصص الذي لا يتأتى إلا بوحي خاص.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٩ - ٨٢]

(٦٩) ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝﴾: أي اقرأ يا رسولنا على قومك خبر إبراهيم وشأنه العظيم.

(٧٠) ﴿لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾: أي آزر والبابليين.

(٧١) ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾: أي فنقيم أكثر النهار عاكفين على عبادتها.

(٧٤) ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ﴾: أي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر بل وجدنا آباءنا لها عابدين فنحن تبع لهم.

(٧٧) ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾: أي أعداء لي يوم القيامة إذا أنا عبدتهم لأنهم

---

(١) الترائي: تفاعل إذ هو من الجانبين كل جانب رأى الثاني.

(٢) ردع موسى عليه السلام بقوله: كلاّ، الظانين أنّ فرعون مدركهم وعلل لعدم إدراك فرعون بقوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ أي: سيبيّن لي سبيل النجاة فنسلكه فننجو بإذن الله.

(٣) (الفرق): قسم من الشيء المنفلق، وعليه فالفرقة: القسمة من البحر التي كانت كالجبل العظيم. ولذا قال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقًا لكل سبط طريق أي: لكل قبيلة من قبائل بني إسرائيل طريق خاص بها فالبحر انقسم قسمين، كان ما بين جانبيه كالفج العظيم، وفي ذلك الفجّ كانت طرق بني إسرائيل.

(٤) ﴿وَأَزۡلَفۡنَا﴾ أي: جمعنا وقرّبنا فرعون وملأه لإغراقهم وإهلاكهم وسميت مزدلفة ليلة جمع لازدلافها: أي لقربها من منى أو عرفات وسميت ليلة جمع لاجتماع الحجاج فيها، قال الشاعر:

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت ... فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

(٥) القرطبي رحمه الله تعالى رد الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ إلى فرعون وملئه فقال: لأنه لم يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وابنته آسيا امرأة فرعون... إلخ.. في حين أن أكثر المفسرين على أنّ الخطاب للنبي ﷺ وهو وجه العبرة من السياق.

يتبرؤون من عابديهم. ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: فإن من يعبده لا يتبرأ منه يوم القيامة بل ينجيه من النار ويكرمه بالجنة.

(٧٨) ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾: أي إلى ما ينجيني من العذاب ويسعدني في دنياي وأخراي.

(٨١) ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾: أي يميتني عند انتهاء أجلي، ثم يحييني ليوم الدين.

(٨٢) ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾: أي يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة والبعث الآخر.

معنى الآيات:

(٦٩) هذا بداية قصص إبراهيم عليه السلام والقصد منه عرض حياة إبراهيم الدعوية على مسامع قريش قوم محمد ﷺ علهم يتعظون بها فيؤمنوا ويوحدوا فيسلموا ويسلموا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ[١]﴾ أي اقرأ على قومك من قريش خبر إبراهيم في الوقت الذي قال لأبيه وقومه:

(٧٠) ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ مستفهمًا إياهم ليرد على جوابهم وهو أسلوب حكيم في الدعوة والتعليم يسألهم ويجيبهم بناء على مقتضى سؤالهم فيكون ذلك أدعى للفهم وقبول الحق:

(٧١) ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ أي في صور تماثيل ﴿فَنَظَلُّ[٢] لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ فنقيم أكثر النهار عاكفين حولها نتقرب إليها ونتبرك بها خاشعين خاضعين عندها.

(٧٢) ولما سمع جوابهم وقد صدقوا فيه قال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ[٣] إِذْ تَدْعُونَ﴾ أي إذ تدعونها.

(٧٣) ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إن طلبتم منهم منفعة ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إن طلبتم منهم أن يضروا أحدًا تريدون ضره أنتم؟

(٧٤) - (٧٦) فأجابوا قائلين في كل ذلك لا، لا، لا. وإنما وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ففعلنا مثلهم اقتداءً بهم واتباعًا لطريقتهم، وهنا صارحهم إبراهيم بما يريد أن يفهموه عنه فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝﴾ الذين هم أجدادكم الذين ورث عنهم آباؤكم هذا الشرك والباطل.

(٧٧) ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ أي أعداء لي وذلك يوم القيامة إن أنا عبدتهم معكم، لأن كل مَنْ عُبد من دون الله يتبرأ يوم القيامة ممن عبده ويعلن عداوته له طلبًا لنجاة نفسه من عذاب الله. وقوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه لا يكون عدوًا لمن عبده بل يكون ودودًا له رحيمًا به. ألا فاعبدوه يا قوم واتركوا عبادة من يكون عدوًا لكم يوم القيامة!!.

(٧٨) ثم أخذ إبراهيم يذكر ربه ويثني عليه ويمجده تعريفًا به وتذكيرًا لأولئك الجهلة المشركين فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ[٤] ۝﴾ أي إلى طريق نجاتي وكمالي وسعادتي وذلك ببيانه لي محابة لآتيها، ومساخطة لأتجنبها.

(٧٩) ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝﴾ أي يغذوني بأنواع الأطعمة ويسقيني بما خلق ويسر لي من أنواع الأشربة من ماء ولبن وعسل.

(٨٠) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ بأن اعتل جسمي وسقم فهو لا غيره يشفيني.

(٨١) ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾ يوم يريد إماتتي عند انتهاء ما حدد لي من أجل تنتهي به حياتي، ثم يحييني يوم البعث والنشور.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾[٥] أي يسترها ويمحو أثرها من نفسي يوم الدين أي يوم الجزاء

---

(١) ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: قصته مع قومه والهمزة الثانية تخفف وهو أجود من تحقيقها. نبأ إبراهيم أو نبأ إبراهيم، والمقصود من تلاوة هذه القصة طلب هداية قريش إلى الحق بإسماعهم أخبار الأولين ومشاهدة ما دار من جدال بين الرسل وأممهم.

(٢) ﴿فَنَظَلُّ﴾: هذا اللفظ يدل أنهم يقضون فترة طويلة من النهار عاكفين حولها لعبادتها وأمّا في الليل فيعبدون الكواكب لمشاهدتها، والتماثيل إنما هي صور لها فإذا غابت عبدوا صورها بالنهار.

(٣) أراد أي: إبراهيم بقوله: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ فتح باب المجادلة ليصل إلى إقناعهم إن شاء الله ذلك، وليست هذه أوّل محاجة بل حاج إبراهيم أباه على انفراد وحاجه هذه المرة مع قومه، ولا شك أن الحجاج دام سنوات فما ذكر هنا غير ما ذكر في الصافات والأنبياء ومريم.

(٤) حذفت الياء في ﴿يَهْدِينِ﴾ و﴿وَيَسْقِينِ﴾ و﴿يَشْفِينِ﴾ و﴿يُحْيِينِ﴾ لأنّ الحذف في رؤوس الآي حسن لتتفق كلها.

(٥) روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه؟ قال: **«لا إنّه لم يقل يومًا ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»**.

الجُزْءُ التَّاسِع عَشَر — سُورَةُ الشُّعَرَاء

وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

٣٧١

والحساب على عمل الإنسان في هذه الدار إذ هي دار عمل والآخرة دار جزاء.

وإذا قيل ما المراد من الخطيئة التي ذكر إبراهيم لنفسه؟ فالجواب إنها الكذبات الثلاث التي كانت لإبراهيم طوال حياته الأولى قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ والثانية: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ والثالثة قولي للطاغية إنه أخي ولا تقولي إنه زوجي، هذه الكذبات التي كانت لإبراهيم فهو خائف منها ويوم القيامة لما تطلب منه البشرية الشفاعة عند ربها يذكر هذه الكذبات ويقول إنما أنا من وراء وراء فاذهبوا إلى موسى. ألا فليتعظ المؤمنون الذين كذبهم لا يعد كثرة!!

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية بذكر هذا القصص.

٢ - تقرير التوحيد بالحوار الذي دار بين إبراهيم إمام الموحدين وقومه المشركين.

٣ - بيان أن كل من عبد معبودًا غير الله تعالى سيكون له عدوًا لدودًا يوم القيامة.

٤ - بيان أن العكوف على الأضرحة والتمرغ في تربتها وطلب الشفاء منها شرك.

٥ - بيان الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله تعالى من طريق السؤال والجواب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٣ ـ ٩٣]

﴿٨٣﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾: أي يا رب أعطني من فضلك حكمًا أي علمًا نافعًا وارزقني العمل به. ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾: لأعمل عملهم في الدنيا وأكون معهم في الدار الآخرة.

﴿٨٤﴾ ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝﴾: أي اجعل لي ذكرًا حسنًا أذكر به فيمن يأتي بعدي.

﴿٨٦﴾ ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾: كان هذا منه قبل أن يتبين له أنه عدو الله.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝﴾: أي لا تفضحني.

﴿٨٩﴾ ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: أي من الشرك والنفاق.

﴿٩٠﴾ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾: أي أدنيت وقربت للمتقين.

﴿٩١﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝﴾: أي أظهرت وجليت للغاوين.

﴿٩٣﴾ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾: أي بدفع العذاب عنكم.

معنى الآيات:

﴿٨٣﴾ هذا آخر قصص إبراهيم وخاتمته لما ذكر إبراهيم قومه ووعظهم رفع يديه إلى ربه يسأله ويتضرع إليه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ أي علمًا نافعًا يمنعني من فعل ما يسخطك عني ويدفعني إلى فعل ما يرضيك عني، ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في أعمالهم الخيرية في الدنيا وبمرافقتهم في الجنة[1].

﴿٨٤﴾ ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ[2] صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝﴾ أي اجعل لي ذكرًا حسنًا أذكر به فيمن يأتي من عبادك المؤمنين.

---

(١) وفي أعالي الدرجات.

(٢) وقد استجاب الله تعالى له حيث اجتمع أهل الأديان على الثناء عليه والانتساب إلى ملته وإن كانوا مبطلين لما خالطهم من الشرك وها هي ذي أمة الإسلام لا تُصلي صلاة إلاّ وتصلي عليه وعلى آله، فهذا ذكر حسن خالد وثناء عطر باق، قال مالك: لا بأس أن يحب المرء أن يثنى عليه صالحًا ويُرى في عمل الصالحين إذا قصد به وجه الله تعالى لهذه الآية وغيرها نحو: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾.

(٨٥) ﴿وَٱجْعَلْنِي[1] مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝﴾ الذين يرثونها بالإيمان والتقوى بعد فضلك عليهم ورحمتك بهم.

(٨٦) ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾ أي الجاهلين بك وبمحابك ومكارهك فما عبدوك ولا تقربوا إليك. وكان هذا من إبراهيم قبل العلم بأن أباه عدو لله حيث سبق له ذلك أزلاً، إذ قد تبرأ منه بعد أن علم ذلك.

(٨٧) وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ أي لا تذلني ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي من قبورهم للحساب والجزاء على أعمالهم.

(٨٨) ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝﴾ وهو يوم القيامة.

(٨٩) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ[2] سَلِيمٍ ۝﴾ أي لكن من أتى الله أي جاءه يوم القيامة وقلبه سليم من الشرك والنفاق فهذا ينفعه عمله الصالح لخلوه مما يحبطه وهو الشرك والكفر الظاهر والباطن.

(٩٠) وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي قربت وأدنيت للمتقين الله ربهم فلم يشركوا به في عبادته ولم يجاهروا بمعاصيه.

(٩١) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾[3] أي أظهرت وارتفعت ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ أي أهل الغواية والضلالة في الدنيا من المشركين والمسرفين في الإجرام والشر والفساد.

(٩٢) ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي سئلوا في عرصات القيامة.

(٩٢) - (٩٣) ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ أرونا هم ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ مما أنتم فيه فيدفعون عنكم العذاب، ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم فيدفعون عنها العذاب إن كانوا من أهل النار لأنهم رضوا بأن يعبدوا ودعوا الناس إلى عبادتهم كالشياطين والمجرمين من الإنس والجن.

هداية الآيات:

١ - بيان أن الجنة تورث ويذكر تعالى سبب إرثها وهو التقوى في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ[4] ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝﴾.

٢ - مشروعية الاستغفار للوالدين إن ماتا على التوحيد.

٣ - بطلان الانتفاع يوم القيامة بغير الإيمان والعمل الصالح بعد فضل الله ورحمته.

٤ - الترغيب في التقوى والتحذير من الغواية.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٤ - ١٠٤]

(٩٤) ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾: أي ألقوا على وجوههم في جهنم ودحرجوا فيها حتى انتهوا إلى قعرها. ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾: جمع غاوٍ وهو الفاسد القلب المدنس الروح من الشرك والمعاصي.

(٩٥) ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾: أي أتباعه وأنصاره وأعوانه من الإنس والجن.

(٩٨) ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾: أي في العبادة فعبدناكم كما يعبد الله جل جلاله.

(١٠١) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝﴾: أي يهمه أمرنا وتنفعنا صداقته نحتمي به من أن نعذب.

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾: أي رجعة إلى الدنيا لنؤمن ونوحد ونعبد ربنا بما شرع لنا.

معنى الآيات:

(٩٢) - (٩٤) قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾[5] بعد ذلك الاستفهام التوبيخي التقريعي الذي تقدم في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝﴾؟ وفشلوا في الجواب ولم يجيدوه إذ هو غير ممكن فأخبر تعالى عنهم بأنهم كبكبوا في جهنم - أي كبوا على وجوههم ودحرجوا فيها هم والغاوون جمع غاوٍ أي فاسد العقيدة والعمل.

(٩٥) ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ من أتباع الشيطان وأعوانه من دعاة الشرك

---

(١) في هذا ردّ على من زعم أنه لا يسأل الله جنة ولا يستجيره من النار.

(٢) السليم من الشك والشرك وأمراض الكبر والحسد والعجب والغل، ولأنه إذا سلم القلب سلمت الجوارح لحديث: «**ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» (من الصحيح).

(٣) أي: تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن كما يستشعر أهل الجنة المسرة والفرح قبل دخولها. إذ الجنة تزلف والجحيم تبرز، وهذا في عرصات القيامة.

(٤) الآية من سورة مريم عليها السلام.

(٥) ﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾ أي: كبّوا فيها كبًّا بعد كبّ لأنّ كبكبوا مضاعف: كبّوا بالتكرير نحو: كفكف الدمع أي: كفّه مرة بعد مرة.

والمعاصي والجريمة في الأرض من الإنس والجن.

(٩٦) قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ[1] فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝﴾ أي وهم في جهنم يختصمون كل واحد يحمل الثاني التبعة والمسؤولية فقال المشركون لمن أشركوا بهم:

(٩٧) ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝﴾ أي ظاهر بين لا يختلف فيه.

(٩٨) وذلك ﴿إِذْ﴾[2] كنا ﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عز وجل فنعبدكم معه.

(٩٩) ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ۝﴾ وهم دعاة الشرك والشر والضلال الذين أجرموا على أنفسهم فأفسدوها، وأجرموا علينا فأفسدوا نفوسنا بالشرك والمعاصي.

(١٠٠) - (١٠١) وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝﴾ هذا قولهم أيضًا قرروا فيه حقيقة أخرى وهي أنه ليس لهم في هذا اليوم من شافعين يشفعون لهم عند الله تعالى لا من الملائكة ولا من الإنس والجن إذ لا شفاعة تنفع من مات على الشرك والكفر، وقولهم ولا صديق حميم أي وليس لنا أي من صديق حميم تنفعنا صداقته وولايته.

(١٠٢) وقالوا متمنين بعد اليأس من وجود شافعين: ﴿فَلَوْ[3] أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى دار الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فنؤمن ونوحد ونتبع الرسل. وهذا آخر ما أخبر تعالى به عنهم من كلامهم في جهنم.

(١٠٣) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾[4] أي المذكور من كبكبة المشركين والغاوين وجنود إبليس أجمعين في جهنم وخصومتهم فيها وما قالوا وتمنوه وحرمانهم من الشفاعة وخلودهم في النار ﴿لَآيَةً﴾ أي لعبرة لمن يعتبر بغيره، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ولم يكن أكثر قومك يا رسولنا مؤمنين وإلا لانتفعوا بهذه العبر فآمنوا ووحدوا وأسلموا.

(١٠٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾ أي الغالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد الرحيم بعباده إنْ أنابوا إليه وأخلصوا العبادة له يكرمهم في جواره في جنات النعيم.

هداية الآيات:

١ - تقرير أن دعاة الزنى والربا والخرافة والشركيات من الناس هم من جند إبليس.

٢ - تقرير أن المجرمين هم الذين أفسدوا نفوسهم ونفوس غيرهم بدعوتهم إلى الضلال وحملهم على المعاصي.

٣ - تقرير أن الشفاعة لن تكون لمن مات على الشرك والكفر.

٤ - لا تنفع العبر والمواعظ والآيات في هداية قوم كتب الله أزلاً شقاءهم وعلم منها أنهم لا يؤمنون فكتب ذلك عليهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠٥ - ١١٥]

(١٠٥) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾: قوم نوح الأمة التي بعث فيها، والمراد من المرسلين نوح عليه السلام.

(١٠٦) ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾: أي في النسب. ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: أي اتقوا الله ربكم فلا تعصوه بالشرك والمعاصي.

(١٠٧) ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: أي على ما أمرني ربي بإبلاغه إليكم.

(١٠٩) ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾: أي لا أسألكم على إبلاغ رسالة الله أجرة مقابل البلاغ.

(١١١) ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾: أي كيف نتبعك على ما تدعونا إليه وقد اتبعك أراذل الناس أي سفلتهم وأهل الخسة فيهم.

(١١٣) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾: أي ما حسابهم إلا على ربي.

---

(١) من الجائز أن يكون هذا من كلام إبراهيم إلاّ أن كونه من كلام الله تعالى موعظة لأمة محمد ﷺ أولى، وقد استظهره ابن عطية رحمه الله تعالى، وجملة: ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ حالية، وجملة ﴿تَاللَّهِ﴾ إلخ.. مقول القول.

(٢) ﴿إِذْ﴾: ظرفية وليست تعليلية أي: الوقت الذي كنا نسويكم بربّ العالمين، وهذا الكلام منهم كلام متندم حزن على ما فاته وصدر منه كقول أبي بكر وقد أمسك بلسانه وقال له: أنت أوردتني الموارد وكقوله: يا لسان قل خيرًا تغنم واسكت عن شرّ تسلم.

(٣) (لو): حرف تمن وأصلها: لو الشرطية لكنها تنوسي منها معنى الشرط إذ المراد: لو رجعنا إلى الدنيا لآمنا وعملنا صالحًا، ولما لم يقصد تعليق الامتناع على الامتناع تمحضت لو للتمني.

(٤) هذا تكرر ثالث لهذه الجملة تعدادًا على المشركين وتسجيلاً لتصميمهم على الشرك والتكذيب بالنبوة والبعث.

معنى الآيات:

(١٠٥) هذه بداية قصص نوح عليه السلام فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾[1] أي بما جاءهم به نوح من الأمر بالتوحيد وترك الشرك.

(١٠٦) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ أي في النسب[2] ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي عقاب الله وأنتم تشركون به، وتكذبون رسوله.

(١٠٧) - (١٠٨) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝﴾ على ما أبلغكم من وحي الله تعالى فاتقوا الله بترك الشرك وأطيعوني فيما أدعوكم إليه وآمركم به.

(١٠٩) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على البلاغ من أجر أتقاضاه منكم مقابل ما أبلغكم من رسالة ربكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إذ هو الذي كلفني.

(١١٠) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا عقابه أن يحل بكم وأنتم تكفرون به وتكذبون برسوله وأطيعون فيما آمركم به وأنهاكم عنه. بعد هذا الذي أمرهم به وكرره عليهم من تقوى الله وطاعة رسوله كان جوابهم ما أخبر به تعالى عنهم في قوله:

(١١١) ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أي أنصدقك ونتابعك على ما جئت به من الدين ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[3] أي سفالة الناس وأخساؤهم؟.

(١١٢) فأجابهم نوح بقوله: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيما يعملونه بعيدين عني من الباطن أو الظاهر أنا لا أعلمه ولا أسأل عنه ولا أحاسب عليه.

(١١٣) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ[4] إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ هو الذي يحاسبهم ويجزيهم لو تشعرون بهذه الحقيقة لما عبتموهم لي وحملتموني مسؤولية عملهم.

(١١٤) ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ[5] الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ أي من حولي.

(١١٥) ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ[6] مُبِينٌ ۝﴾ فلست بجبار ولا ذي سلطان فأطرد الناس وظيفتي أني أنذر الناس عاقبة الكفر والمعاصي ليقلعوا عن ذلك فينجوا من عذاب الله ويسلموا.

هداية الآيات:

١ - بيان أن من كذب رسولاً فكأنما كذب كل الرسل وذلك باعتبار أن دعوتهم واحدة وهي أن يُعْبَدَ الله وحده بما شرع للناس من عبادات تطهرهم وتزكيهم.

٢ - إثبات أخوة النسب، ولا تعارض بينها وبين أخوة الدين.

٣ - عدم جواز أخذ أجرة على دعوة الله تعالى. ووجوب إبلاغها مجانًا.

٤ - وجوب التقوى لله تعالى، وطاعة الرسول ﷺ.

٥ - لا يجوز طرد الفقراء من مجالس العلم ليجلس مجالسهم الأغنياء وأهل الجاه.

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦)

٣٧٢

---

(١) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾: أنث الفعل إرادة جماعة قوم نوح ونظيره: (قالت الأعراب).

(٢) وأخوّة مجانسة أو هو من باب قول العرب: يا أخا بني تميم: يريدون: يا واحدًا منهم، قال الشاعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

(٣) جمع التكسير: (أراذل) والأنثى: الرذلى والجمع: الرُّذَل، وجملة: ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ حالية، وفيها إضمار قد أي: وقد اتبعك.

(٤) قيل لسفيان: إنّ امرأة زنت وقتلت ولدها وهي مسلمة هل يقطع لها بالنار؟ فقال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)﴾.

(٥) ظاهر الكلام أنهم طلبوا منه طرد الضعفاء من المؤمنين كما فعلت قريش.

(٦) جملة: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ استئناف في معنى التعليل لعدم طردهم والقصر في الجملة إضافي قصر موصوف على صفة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٦ ـ ١٢٢]

(١١٦) ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾: أي عن دعوتنا إلى ترك آلهتنا وعبادة إلهك وحده.

﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾: أي المقتولين رجمًا بالحجارة.

(١١٨) ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾: أي احكم بيني وبينهم حكمًا بأن تهلكهم وتنجيني ومن معي من المؤمنين.

(١١٩) ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ[1]﴾: أي المملوء بالركاب وأزواج المخلوقات الأخرى.

(١٢٠) ﴿بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾: أي بعد إنجائنا نوحًا والمؤمنين بركوبهم في السفينة أغرقنا الكافرين إذ إغراقهم كان بعد نجاة المؤمنين.

معنى الآيات:

(١١٦) ما زال السياق في الحوار الدائر بين نوح وقومه إنه لما دعاهم إلى التوحيد وكرر عليهم الدعوة وأفحمهم في مواطن كثيرة وأعيتهم الحجج لجؤوا إلى التهديد والوعيد فقالوا ما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾ أي قسمًا بآلهتنا لئن لم تنته يا نوح من تسفيهنا وسب آلهتنا ومطالبتنا بترك عبادتها ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ[2]﴾ أي لنقتلنك رميًا بالحجارة.

(١١٧) ـ (١١٨) وهنا وبعد دعوة دامت ألف سنة إلا خمسين عامًا رفع نوح شكواه إلى الله قائلاً: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي[3] كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي احكم بيننا وافصل في قضية وجودنا مع بعضنا بعضًا فأهلكهم ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١١٩) قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء بأنواع الحيوانات.

(١٢٠) ﴿ثُمَّ[4] أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ أي بعد إنجائنا نوحًا ومن معه من المؤمنين بأن ركبوا في الفلك وما زال الماء يرتفع النازل من السماء والنابع من الأرض حتى غرق كل من على الأرض والجبال ولم ينج أحد إلا نوحٌ وأصحاب السفينة.

(١٢١) قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الصراع الذي دار بين التوحيد والشرك وفي عاقبة التوحيد وهي نجاة أهله والشرك وهي دمار أهله ﴿لَآيَةً﴾ أي عبرة[5]. ولكن أهل مكة لم يعتبروا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[6] لما سبق في علم الله تعالى من عدم إيمانهم إذًا فلا تحزن عليهم.

(١٢٢) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الرسول الكريم لهو لا غيره العزيز الغالب الرحيم بمن تاب من عباده فإنه لا يعذبه بل يرحمه.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة أن الظلمة والطغاة إذا أعيتهم الحجج يلجؤون إلى القوة.

٢ - جواز الاستنصار بالله تعالى وطلب الفتح بين المظلوم والظالمين.

٣ - سرعة استجابة الله تعالى لعبده نوح وذلك لصبره قرونًا طويلة فلما انتهى صبره ورفع شكاته إلى ربه أجابه فورًا فأنجاه وأهلك أعداءه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٣ ـ ١٣١]

(١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾: عاد اسم أبي القبيلة وسميت القبيلة به.

(١٢٤) ﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾: أخوهم في النسب.

(١٢٦) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي خافوا عقابه فلا تشركوا به شيئًا.

(١٢٨) ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾: أي مكان عال مرتفع. ﴿آيَةً﴾: أي قصرًا مشيدًا عاليًا مرتفعًا. ﴿تَعْبَثُونَ﴾: أي ببنيانكم حيث تبنون ما لا تسكنون.

---

(١) الشحن: ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم ولم يقل: المشحونة بل قال: ﴿الْمَشْحُونِ﴾ لأنه هنا واحد لا جمع.

(٢) كل لفظ (رجم) في القرآن معناه القتل رميًا بالحجارة إلا قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ فإنه بمعنى لأسبنك وأشتمنك.

(٣) هذه الجملة قالها تمهيدًا للدعاء عليهم.

(٤) ثمّ: للتراخي الرتبي في الأخبار لأنّ إغراق أمة كاملة أعظم دلالة على عظيم القدرة من إنجاء طائفة من الناس.

(٥) وجه العبرة أن الله تعالى أنجى الموحدين وأهلك المشركين بعد أن أبلغ نوح رسالته بصبر واحتساب لا نظير لهما إذ دعا وبلّغ وأوذي وصبر وصابر ألف سنة إلا خمسين عامًا.

(٦) سبق أن ذكرت أن المراد بمن: أكثرهم لا يؤمنون هم أكابر مجرمي مكة وعلى رأسهم المستهزؤون، وهذا من إطلاق العام وإرادة الخاص لأنّ الذين آمنوا وأسلموا أكثر ممن ماتوا على الكفر. أو نفي الإيمان مقيّد بزمن معيّن لا يتعداه.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾: أي حصونًا منيعة وقصورًا رفيعة.
﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: أي كأنكم تأملون الخلود في الأرض وترجونه.
﴿١٣٠﴾ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾: أي أخذتم أحدًا سطوتم عليه بعنف وشدة.
﴿جَبَّارِينَ﴾: أي عتاة متسلطين.

معنى الآيات:

﴿١٢٣﴾ هذه بداية قصص هود عليه السلام يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾[1] أي قبيلة عاد ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ أي رسول الله هودًا.
﴿١٢٤﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝﴾[2] أي ألا تتقون عقاب الله بترككم الشرك والمعاصي بمعنى اتقوا الله ربكم فلا تشركوا به.
﴿١٢٥﴾ وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝﴾ يخبرهم بأنه رسول الله إليهم يبلغهم عن الله أمره ونهيه وأنه أمين على ذلك فلا يزيد ولا ينقص فيما أمره ربه بإبلاغه إليهم، وعليه.
﴿١٢٦﴾ ﴿فَاتَّقُوا[3] اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝﴾ أي بوصفي رسول الله إليكم فإن طاعتي واجبة عليكم حتى أبلغكم ما أرسلت به إليكم.
﴿١٢٧﴾ وقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على إبلاغ رسالتي إليكم من أجر أي من أي أجر كان. ولو قال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما أجري إلا على رب العالمين سبحانه وتعالى إذ هو الذي أرسلني وكلفني فهو الذي أرجو أن يثيبني على حمل رسالتي إليكم وإبلاغها إياكم. وعليه فاتقوا الله أي خافوا عقابه بترك الشرك به والمعاصي وأطيعوني بقبول ما أبلغكم به لتكملوا وتسعدوا.
﴿١٢٨﴾ وقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[4] آيَةً تَعْبَثُونَ ۝﴾ ينكر هود على قومه إنهماكهم في الدنيا وانشغالهم بما لا يعني وإعراضهم عما يعنيهم فيقول لهم كالمنكر عليهم أتبنون بكل ريع أي مكان عال مرتفع ﴿آيَةً﴾ أي قصرًا مشيدًا آية في ارتفاعه وعلوه.
﴿١٢٩﴾ تعبثون حيث لا تسكنون فيما تبنون فهو لمجرد اللهو والعبث وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ وهي مبان عالية كالحصون أو خزانات الماء أو الحصون ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[5] أي كيما تخلدون، وما أنتم بخالدين، وإنما مقامكم فيها قليل.
﴿١٣٠﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم[6] بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝﴾ أي إذا سطوتم على أحد تسطون عليه سطو العتاة الجبارين فتأخذون بعنف[7] وشدة بلا رحمة ولا رفق.
﴿١٣١﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يا قوم فخافوا عقابه وأليم عذابه، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه وأبلغكموه عن ربي فإن ذلك خير لكم من الإعراض والتمادي في الباطل.

هداية الآيات:

١ - الأمر بالتقوى من النصح للمأمور بها، لأن النجاة والفوز لا يتمان للعبد إلا عليها.
٢ - الرسل أمناء على ما يحملون وما يبلغون الناس.
٣ - حرمة أخذ الأجرة على بيان الشرع والدعوة إلى ذلك.
٤ - ينبغي للعبد أن لا يسرف فيبني ما لا يسكن ويدخر ما لا يأكل.
٥ - استنكار العنف والشدة في الأخذ وعند المؤاخذة.

---

(١) جملة مستأنفة استئناف انتقال لعرض الأحداث التاريخية تسلية للرسول ﷺ وموعظة وذكرى لغيره، وعاد: بمعنى القبيلة فلذا أنّث الفعل معها، وكانت منازل عاد وديارهم ما بين عُمان وحضرموت شرقًا وغربًا ومتغلغلة في الشمال إلى الرمال وهي الأحقاف.
(٢) الاستفهام معناه الأمر والحض على التقوى التي هي خوف من الله تعالى يحمل على الإيمان به وعبادته وترك عبادة ما سواه.
(٣) الفاء: للتفريع فالجملة متفرعة عن جملة: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: فينادي إني رسول أمين فاتبعوا ما أقول لكم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ وحذفت الياء من ﴿فَاتَّقُونِ﴾ مراعاة لرؤوس الآي.
(٤) الرّيع: المكان المرتفع أو الطريق الفج بين الجبلين، والآية: العلامة الدالة على الطريق، والمراد: بناء عالٍ هو آية في الفنّ المعماري.
(٥) في الجمل الثلاثة: ﴿أَتَبْنُونَ﴾ و﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾ و﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ توبيخ لهم على هذا السلوك وإنكار عليهم.
(٦) البطش: السطوة والأخذ بعنف، والجبار: القتال في غير حق والمتسلط العاتي.
(٧) ويدل على قوتهم وشدّتهم قولُهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ من سورة فصّلت. وكان العرب ينسبون الشيء القوي إلى عاد فيقولون: هذا عادي.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٢ ـ ١٤٠]

(١٣٢) ﴿أَمَدَّكُم﴾: أي أعطاكم منعمًا عليكم.

(١٣٣) ﴿بِأَنْعَامٍ﴾: هي الإبل والبقر والغنم.

(١٣٥) ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: هو يوم هلاكهم في الدنيا ويوم بعثهم يوم القيامة.

(١٣٦) ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾: أي مستوٍ عندنا وعظك وعدمه فإنا لا نطيعك.

(١٣٧) ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ(١) الْأَوَّلِينَ﴾: أي ما هذا الذي تعظنا فيه من البناء وغيره إلا دأب وعادة الأولين فنحن على طريقتهم، وما نحن بمعذبين.

معنى الآيات:

(١٣٢) ما زال السياق الكريم في الحوار الذي دار بين نبي الله هود عليه السلام وبين قومه المشركين إذ أمرهم بالتقوى وبطاعته وأمرهم أيضًا بتقوى الله الذي أمدهم أي أنعم عليهم بما يعلمونه من أنواع النعم فإن طاعة المنعم شكر له على إنعامه ومعصيته كفر لإنعامه فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

(١٣٣) وبين ذلك بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ﴾ أي مواشي من إبل وبقر وغنم ﴿وَبَنِينَ﴾ أي أولاد ذكور وإناث.

(١٣٤) ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ أي بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ لسقيها وسقيكم وتطهيركم(٣).

(١٣٥) ثم قال لهم في إشفاق عليهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن أنتم أصررتم على الشرك والمعاصي وقد يكون عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة، وقد عذبوا في الدنيا بإهلاكهم ويعذبون في الآخرة لأنهم ماتوا كفارًا مشركين عصاة مجرمين، كان هذا ما وعظهم به نبيهم هود عليه السلام.

(١٣٦) وكان ردهم على وعظه ما أخبر تعالى به في قوله: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي مستوٍ عندنا وعظك أي تخويفك وتذكيرك وعدمه فما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين وقالوا:

(١٣٧) ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ الذي نحن عليه من البناء والإشادة وعبادة آلهتنا ﴿إِلَّا خُلُقُ(٤) الْأَوَّلِينَ﴾ أي دأب وعادة من سبقنا من الناس.

(١٣٧) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ عليه قال تعالى مخبرًا عن نتيجة ذلك الحوار وتلك الدعوة التي قام بها نبي الله هود.

(١٣٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبوا هودًا فيما جاءهم به ودعاهم إليه وحذرهم منه، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾(٥) أي بتكذيبهم وإعراضهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك للمكذبين عبرة لقومك يا محمد لو كانوا يعتبرون ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لما سبق في علم الله من عَدَم إيمانهم فلذا لم تنفعهم المواعظ والعبر.

(١٤٠) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فقد أخذ الجبابرة العتاة فأنزل بهم نقمته وأذاقهم مر عذابه، ورحم أولياءه فأنجاهم وأهلك أعداءهم.

هداية الآيات:

١ - تنويع أسلوب الدعوة وتذكير الجاحدين بما هو محسوس لديهم مرأي لهم.

٢ - التخويف من عذاب الله والتحذير من عاقبة عصيانه من أساليب الدعوة.

٣ - بيان سنة الناس في التقليد واتباع آبائهم وإن كانوا ضلالاً جاهلين.

٤ - تقرير التوحيد والنبوة والبعث إذ هو المقصود من هذا القصص.

---

(١) قرأ الجمهور: ﴿خُلُق﴾: بضم كل من الخاء واللام وهو بمعنى السجية المتمكنة في النفس الباعثة على عمل ما يناسبها ويقال له: القوى النفسية وقرأ غير الجمهور: ﴿خَلْق﴾: بفتح الخاء وسكون اللام، وهو بمعنى الاختلاق والكذب أي: ما تقوله لنا إنما هو كذب واختلاق.

(٢) أي: من الخيرات ثم فسرها بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)﴾.

(٣) فهو الذي يحبّ أن يعبد فيُذكر ويُشكر ولا يُكفر.

(٤) اختلف في تحديد معنى قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧)﴾ بفتح الخاء وإسكان اللام أي: اختلاقهم وكذبهم ومن قرأ: ﴿خُلُقُ﴾ بضم الخاء واللام معناه عادتهم لأنّ الخلق يطلق على الدين والطبع والمروءة، وما في التفسير أولى بتوجيه الآية.

(٥) أي: بريح صرصر ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ (من سورة الحاقة).

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤١ ـ ١٥٢]

(١٤١) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: أي كذبت قبيلة ثمود نبيّها صالحًا.

(١٤٦) ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾: أي من الخيرات والنعم غير خائفين من أحد.

(١٤٨) ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾: أي طلع النخلة ليّن ناعم ما دام في كُفرَّاهُ أي غطاؤه الذي عليه.

(١٤٩) ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾: أي تنجُرون بآلات النحت الصخور في الجبل وتتخذون منها بيوتًا. ﴿فَٰرِهِينَ﴾: أي حذقين من جهة وبطرين متكبرين مغترين بصنيعكم من جهة أخرى.

(١٥٠) ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: أي فيما أمرتكم به.

(١٥١) ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: أي في الشر والفساد بالكفر والعناد.

(١٥٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي بارتكاب الذنوب العظام فيها. ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾: أي بفعل الطاعات والقربات.

معنى الآيات:

(١٤١) هذا بداية قصص نبي الله صالح عليه السلام قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ[١] ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي جحدت قبيلة ثمود ما جاءها به رسولها صالح.

(١٤٢) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب لا في الدين إذ هو مؤمن وهم كافرون ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾[٢] أي يحضهم على التقوى ويأمرهم بها لأن فيها نجاتهم والمراد من التقوى اتقاء عذاب الله بالإيمان به وتوحيده وطاعته وطاعة رسوله وقوله:

(١٤٣) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يعلمهم بأنه مرسل من قبل الله تعالى إليهم أمين على رسالة الله وما تحمله من العلم والبيان والهدى إليهم.

(١٤٤) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرر الأمر بالتقوى وبطاعته إذ هما معظم رسالته ومَتَى حققها المرسل إليهم اهتدوا وأفلحوا.

(١٤٥) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أبعد تهمة المادة لما قد يقال أنه يريد مالاً فأخبرهم في صراحة أنه لا يطلب على إبلاغهم دعوة ربهم أجرًا من أحد إلا من الله رب العالمين إذ هو الذي يثيب ويجزي العاملين له وفي دائرة طاعته

وقوله فيما أخبر تعالى به عنه:

(١٤٦) ﴿أَتُتْرَكُونَ[٣] فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ بين أيديكم من الخيرات ﴿ءَامِنِينَ﴾ غير خائفين، وبين ما أشار إليه بقوله فيما هاهنا فقال:

(١٤٧) ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين ومزارع بمدائنهم وهي إلى الآن قائمة.

(١٤٧) ـ (١٤٨) ﴿وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا[٤] هَضِيمٌ﴾ أي لين ناعم ما دام في كفراه أي غلافه.

(١٤٩) ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ لما خولكم الله من قوة ومعرفة بفن

---

(١) ثمود: أمّة تسكن بالحجر شمال الحجاز، وتعرف اليوم بمدائن صالح والمراد من المرسلين: نبي الله صالح عليه السلام، وتكذيبها به معتبر تكذيبًا لكل الرسل، لأن دعوة الرسل واحدة.

(٢) الاستفهام للإنكار أي: ينكر عليهم عدم تقواهم ويحضهم عليها.

(٣) الاستفهام إنكاري توبيخي وفيه حضهم على الشكر إذ ما هم فيه من النعمة يقتضي ذلك.

(٤) الطلع: وعاء كنصل السيف بباطنه شماريخ القنو. ويسمى هذا الطلع بالكم بكسر الكاف ويقال له: الطلع لأنه يطلع من قلب النخلة وبعد أيام من طلوعه ينفلق من نفسه ويُؤبّر، وبعد قليل يصبح بَلحًا فبُسرًا فرُطبًا فتمرًا، وذكر النخل يقال له: فُحَال بضم الفاء وتشديد الحاء مفتوحة والجمع فحاحيل.

النحت حتى أصبحتم تتخذون من الجبال الصم بيوتًا تسكنونها شتاء فتقيكم الرد. وقوله: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ هذا حال من قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ ومعنى ﴿فَٰرِهِينَ﴾(1) حذقين فن النحت وبطرين متكبرين مغترين بقوتكم وصناعتكم، إذًا.

(١٥٠) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يا قوم بترك الشرك والمعاصي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه وأدعوكم إليه.

(١٥١) ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾(2) أي على أنفسهم بارتكاب الكبائر وغشيان الذنوب.

(١٥٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي بمعاصي الله ورسوله فيها ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي جمعوا بين الفساد والإفساد، وترك الصلاح والإصلاح.

هداية الآيات:

١ - دعوة الرسل واحدة ولذا التكذيب برسول يعتبر تكذيبًا بكل الرسل.

٢ - الأمانة شعار كل الرسل والدعاة الصادقين الصالحين في كل الأمم والعصور.

٣ - مشروعية التذكير بالنعم ليذكر المنعم فيُحب ويُطاع.

٤ - التحذير من طاعة المسرفين في الذنوب والمعاصي لوخامة عاقبة طاعتهم.

٥ - تقرير أن الفساد في الأرض يكون بارتكاب المعاصي فيها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥٣ - ١٥٩]

(١٥٣) ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: الذين سحروا وبُولغ في سحرهم حتى غلب عقولهم.

(١٥٤) ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: إن كنت من الصادقين في أنك رسول فأتنا بآية تدل على ذلك.

(١٥٥) ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾: أي لها يوم تشرب فيه من العين ولكم يوم آخر معلوم.

(١٥٧) ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾: أي فلم يؤمنوا فقتلوها فأصبحوا نادمين لما شاهدوا العذاب.

معنى الآيات:

(١٥٣) ما زال السياق في الحوار الذي دار بين صالح عليه السلام وقومه ثمود فلما ذكرهم ووعظهم ردوا عليه بما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾(3) أي الذين سحروا وبولغ في سحرهم حتى غلب على عقولهم فهم لا يعرفون ما يقولون.

(١٥٤) ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تأكل الطعام وتشرب الشراب فلا أنت رب ولا ملك فنخضع لك ونطيعك ﴿فَأْتِ(4) بِـَٔايَةٍ﴾ علامة قوية ودلالة صادقة تدل على أنك رسول الله حقًا وأنت من الرسل الصادقين.

(١٥٥) فأجابهم صالح بما أخبر تعالى به عنه في قوله: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ آي عظيمة الخلقة سأل ربه آية فأعطاه هذه الناقة فما زال قائمًا يصلي ويدعو وهم يشاهدون حتى انفلق الجبل وخرجت منه هذه الناقة الآية العظيمة فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ(5)﴾ أي حظ ونصيب من ماء البلد تشربه وحدها لا يرد معها أحد ولكم أنتم شرب يوم معلوم لكم تردونه وحدكم.

(١٥٦) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ وحذرهم أن يمسوها بسوء لا بضرب ولا بقتل ولا بمنع من شرب، فإنه يأخذكم عذاب يوم عظيم.

---

(١) ﴿فَٰرِهِينَ﴾: قراءة الجمهور، وقرىء: ﴿فارهين﴾ مشتق من الفراهة التي هي الحذق والكياسة أي: عارفين حذقين بنحت البيوت من الجبال.

(٢) يريد رؤساءهم في الضلالة ممن يحثونهم على الشرك والفساد في البلاد بارتكاب الذنوب والآثام.

(٣) وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي: من المعللين بالطعام والشراب مأخوذ من السحر وهو: الرئة يعنون أنه بشر له رئة يأكل ويشرب كسائر الناس فلا يفضلهم. وشاهده قول الشاعر:

أرانا موضعين لأمر غيب ... ونسحر بالطعام وبالشراب

موضعين: مسرعين إلى الموت. وما في التفسير أولى وأظهر.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالوا: إن كنت صادقًا فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء فتضع ونحن ننظر وترد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبنًا. فدعا وفعل الله ذلك. فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ ...﴾ إلخ..

(٥) الشِرب بكسر الشين وسكون الراء: النوبة في الماء للناقة يومًا تشرب فيه لا يزاحمونها فيه بأنعامهم وأنفسهم.

(١٥٧) قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي فكذبوه وعصوه وعقروها بأن ضربوها في يديها ورجلها فبركت وقتلوها. فلما عقروها قال لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ فأصبحوا بذلك نادمين[(١)] ففي صبيحة اليوم الثالث أخذتهم الصيحة مع شروق الشمس فأهلكوا أجمعين ونجى الله تعالى صالحًا ومن معه من المؤمنين.

(١٥٨) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي علامة كبرى على قدرة الله تعالى وعلمه وأنه واجب الألوهية ﴿وَمَا كَانَ[(٢)] أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٣)] مع وضوح الأدلة لأنه لم يسبق لهم إيمان في قضاء الله وقَدَرِهِ.

(١٥٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الرسول لهو وحده العزيز الغالب الذي لا يغالب الرحيم بأوليائه وصالحي عباده.

هداية الآيات:

١ - تقرير أن السحر من عمل الناس وأنه معلوم لهم معمول به منذ القدم.

٢ - سنة الناس في المطالبة بالآيات عند دعوتهم إلى الدين الحق.

٣ - وجود الآيات لا يستلزم بالضرورة إيمان المطالبين بل أكثرهم لا يؤمنون.

٤ - الندم من التوبة ولكن لا ينفع ندم ولا توبة عند معاينة العذاب أو أماراته.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٠ - ١٦٦]

(١٦٠) ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾: هم سكان مدن سدوم وعمورية وقرى أخرى ولوط هو نبي الله لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم.

(١٦١) ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾: هذه أخوة بلد[(٤)] وسكنى لا أخوة نسب ولا دين.

(١٦٢) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞﴾: أي إني مرسل إليكم لا إلى غيركم أمين في إبلاغكم رسالتي فلا أنقص ولا أزيد.

(١٦٣) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: بالإيمان به وعبادته وحده وترك معاصيه.

(١٦٤) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: أي على البلاغ من أجرة مقابل إرشادكم وتعليمكم.

(١٦٥) ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞﴾: أي أتأتون الفاحشة من الرجال وتتركون النساء.

(١٦٦) ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾: أي معتدون ظالمون متجاوزون الحد في الإسراف في الشر.

معنى الآيات:

(١٦٠) هذه بداية قصص لوط مع قومه أصحاب المؤتفكات قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۞﴾ أي كذبوا لوطًا الرسول وتكذيبه يعتبر تكذيبًا لكافة الرسل لأن دعوة الله واحدة كذبوه لما دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده وترك الفواحش والظلم والشر والفساد إذ قال لهم أخوهم لوط هذه أخوة الوطن لا غير إذ لوط بابلي الموطن

---

(١) إن قيل: لِمَ ما ينفع الندم وهو توبة؟ فالجواب: التوبة تنفع قبل ظهور علامات الموت والعذاب، أما بعد ظهور ذلك فلا توبة تقبل وفي الحديث: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**».

(٢) **كان**: مزيدة لتقوية الكلام، والعبارة جائز أن يراد بها قوم صالح إذ لم يؤمن منهم إلا القليل، وأن يراد بها كفّار مكة إذ أكثر المكابرين ما آمن ومات كافرًا أو ما آمن في تلك الفترة ثم آمن بعد الفتح.

(٣) قيل: **ما** آمن معه إلاّ ألفان وثمانمائة رجل وامرأة، وأنّ قومه كانوا اثني عشر ألف قبيل كل قبيل نحو: اثني عشر ألفِ من سوى النساء والذرية وكان قوم عاد مثلهم ثلاث مرات. ذكر هذا القرطبي في تفسيره ولم يعزه لأحد.

(٤) أي: أخوة مواطنة كما يقال اليوم.

ودينه الإسلام وأبوه هاران أخو إبراهيم عليه السلام، وإنما لما أرسل لوط إلى أهل هذه البلاد وسكن معهم قيل لهم أخوهم بحكم المعاشرة والمواطنة الحاصلة.
(١٦١) ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾[1] يأمرهم بتقوى الله ويحضهم عليها لأنهم قائمون على عظائم الذنوب فخاف عليهم الهلاك فدعاهم إلى أسباب النجاة وهي تقوى الله تعالى بطاعته وترك معاصيه.
(١٦٢) - (١٦٤) وقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[2] فلا تشكوا في رسالتي وأطيعون، وإني غير سائلكم أجرًا على تبليغ رسالتي إليكم إن أجري آخذه من رب العالمين الذي حملني هذه الرسالة وأمرني بإبلاغكم إياها وهنا أنكر عليهم أعظم منكر فقال موبخًا مقرعًا.
(١٦٥) ﴿أَتَأْتُونَ[3] الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فترتكبون الفاحشة معهم.
(١٦٦) ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي تتركون ما خلق الله لكم من أزواجكم ﴿بَلْ[4] أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي متجاوزون الحدود[5] التي رسمها الشرع والعقل والآدمية.

هداية الآيات:

١ - جواز إطلاق أخوة الوطن دون الدين والنسب.
٢ - الأمانة من مستلزمات الرسالة، إذ كل رسول يقول: (١٦٢) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.
٣ - سبيل نجاة الفرد والجماعة في تقوى الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ.
٤ - وجوب إنكار المنكر وتقبيحه على فاعله لعله يرعوي.
٥ - أكبر فاحشة وقعت في الأرض هي فاحشة اللواط. والعياذ بالله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦٧ - ١٧٥]

(١٦٧) ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾: أي عن إنكارك علينا ما نأتيه من الفاحشة. ﴿مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾: أي من بلادنا وطردك من ديارنا.
(١٦٨) ﴿لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾: أي المبغضين له البغض الشديد.
(١٦٩) ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾: أي من عقوبة وعذاب ما يعملونه من الفواحش.
(١٧٠) ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾: أي نجينا لوطًا الذي دعانا وأهله وهم امرأته المؤمنة وابنتاه.
(١٧١) ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾: أي فإنا لم ننجها إذ حكمنا بإهلاكها مع الظالمين فتركناها معهم حتى هلكت بينهم لأنها كانت كافرة وراضية بعمل القوم.
(١٧٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾: أي أنزل عليهم حجارة من السماء فأمطروا بها بعد قلب البلاد عاليها سافلها. ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾: أي فقبح مطر المنذرين ولم يمتثلوا فما كفوا عن الشر والفساد.

معنى الآيات:

(١٦٧) ما زال السياق فيما دار بين نبي الله لوط وقومه المجرمين فإنه لما ذكرهم ووعظهم وأمرهم ونهاهم وسمعوا ذلك كله منه أجابوا بما أخبر تعالى به عنهم ﴿قَالُوا لَئِن[6] لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ أي عن إنكارك علينا ما نأتيه من الفاحشة ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي نخرجك من بلادنا ونطردك من بيننا ولا تبقى ساعة واحدة عندنا انتبه يا رجل..
(١٦٨) فأجابهم لوط الرسول عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ

---

(١) الاستفهام للحض على التقوى وهو متضمن الإنكار والتوبيخ.
(٢) جملة: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾ تعليلية لأمره إياهم بالتقوى والطاعة.
(٣) الاستفهام للإنكار والتوبيخ إذ كانوا يعملون الفاحشة مع الغرباء إذا نزلوا ديارهم بصورة عامة، ومع بعضهم بعضًا بصورة خاصة.
(٤) بل: للانتقال من الوعظ إلى التنديد وتسجيل أكبر العدوان عليهم إذ الجملة الاسمية ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مبالغة في تحقيق نسبة العدوان إليهم وفي الإخبار بالجملة: ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ إعلام بأن العدوان أصبح سجية فيهم وطبعًا لهم.
(٥) العادي: من تجاوز حد الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، فالقوم قد أحلّ الله لهم فروج نسائهم بالنكاح الشرعي وحرّم عليهم إتيان الرجال في أدبارهم فتجاوزوا الحلال إلى الحرام، فكانوا بذلك عادين.
(٦) في الجملة إقسام دلّت عليه اللام ولا شك أنهم يحلفون بآلهتهم الباطلة والجملة متضمنة تهديدًا وإبعادًا بالإبعاد والإخراج من البلد.

ٱلْقَالِينَ(١)﴾ أي إني لعملكم الفاحشة من المبغضين أشد البغض.

(١٦٩) ثم التفت إلى ربه داعيًا ضارعًا فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝﴾ وهذا بعد أن أقام يدعوهم ويتحمل سنين عديدة فلم يجد بدًا من الفزع إلى ربه ليخلصه منهم فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾ من عقوبة وعذاب ما يعملونه من إتيان الفاحشة من العالمين قال تعالى:

(١٧٠) - (١٧١) ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ وهم امرأته المسلمة وابنتاه المسلمتان طبعًا ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ وهي امرأته الكافرة المتواطئة مع الظلمة الراضية بالفعلة الشنعاء كانت في جملة الغابرين(٢) أي المتروكين بعد خروج لوط من البلاد لتهلك مع الهالكين قال تعالى:

(١٧٢) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝﴾ أي بعد أن أنجينا لوطًا وأهله أجمعين باستثناء العجوز الكافرة ﴿دَمَّرْنَا﴾ أي أهلكنا الآخرين.

(١٧٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝﴾ إنه بعد قلب البلاد سافلها على عاليها أمطر عليهم مطر حجارة من السماء لتصيب من كان خارج المدن المأفوكة المقلوبة.

(١٧٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي في هذا الذي ذكرنا من إهلاك المكذبين والمسرفين الظالمين آية وعلامة كبرى لمن يسمع ويرى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣) لما سبق في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون فسبحان الله العظيم.

(١٧٥) وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ وإن ربك يا رسولنا هو لا غيره العزيز الغالب القاهر لكل الظلمة والمسرفين الرحيم بأوليائه وعباده المؤمنين.

هداية الآيات:

١ - التهديد بالنفي سنة بشرية قديمة.

٢ - وجوب بغض الشر والفساد في أي صورة من صورهما.

٣ - استجابة دعوة المظلوم لا سيما إن كان من الصالحين.

٤ - توقع العذاب إذا انتشر الشر وعظم الظلم والفساد.

٥ - الآيات مهما كانت عظيمة لا تستلزم الإيمان والطاعة.

الجزءُ التَّاسع عَشَر — سُورةُ الشُّعَراء

وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٩١) وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦)

٣٧٥

---

(١) القلى: البغض يقال: قليته أقليه قِلى وقلاءً. قال الشاعر:

عليك السلام لا مللت قريبة ... ومالك عندي أن نأيت قلاء

أي: قلى.

(٢) فعل (غبر) يطلق على البقاء والذهاب كالجون: يطلق على الأبيض والأسود. قال الشاعر:

فما وني محمد منذ أن غفر ... له الإله ما مضى وما غبر

أي: ما بقي.

والأغبار: بقيات الألبان. قال الشاعر:

لا تكسع الشول بأغبارها ... إنك لا تدري من الناتج

يقال كسع الناقة: ترك في ضرعها بقية من اللبن، وبعده البيت التالي:

واحلب لأضيافك ألبانها ... فإنَّ شر اللبن للولج

(٣) إذ لم يؤمن إلا إحدى نسائه وابنتاه.

٦ - من لم يسبق له الإيمان لا يؤمن ولو جلب عليه كل آية.

٧ - مظاهر قدرة الله وعلمه ورحمته.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧٦ - ١٨٤]

(١٧٦) ﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: أي الغيضة وهي الشجر الملتف.

(١٧٧) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾: النبي المرسل شعيب عليه السلام.

(١٨١) ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾: أي أتموه. ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾: الذين ينقصون الكيل والوزن.

(١٨٢) ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: أي الميزان السوي المعتدل.

(١٨٣) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: أي لا تنقصوهم من حقوقهم شيئًا. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: أي بالقتل والسلب والنهب.

(١٨٤) ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي والخليقة أي الناس من قبلكم.

معنى الآيات:

(١٧٦) - (١٧٧) هذه بداية قصص شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة والأيكة الشجر الملتف كشجر الدوم وهذه الغيضة قريبة من مدينة مدين وشعيب أرسل لهما معًا وفي سورة هود ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ لأنه منهم ومن مدينتهم فقيل له أخوهم، وأما أصحاب الأيكة جماعة من بادية مدين كانت لهم أيكة من الشجر يعبدونها تحت أي عنوان كعبدة الأشجار والأحجار في كل زمان ومكان، فبعث الله تعالى إليهم شعيبًا فدعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه فكذبوه وهو قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ[1] لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ[2] أَلَا تَتَّقُونَ[3] ۞﴾ أي اتقوا الله وخافوا عقابه.

(١٧٨) (١٧٩) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞﴾ فاتقوا الله بعبادته وترك عبادة ما سواه وأطيعون أهدكم إلى ما فيه كمالكم وسعادتكم.

(١٨٠) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على بلاغ رسالة ربي إليكم أجرًا أي جزاء وأجرة ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ أي ما أجري إلا على رب العالمين. وأمرهم بترك أشهر معصية كانت شائعة بينهم وهي تطفيف الكيل والوزن فقال لهم:

(١٨١) ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أي أتموها ولا تنقصوها ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ أي الذين ينقصون الكيل والوزن.

(١٨٢) ﴿وَزِنُوا۟﴾ أي إذا وزنتم ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي بالميزان العادل.

(١٨٣) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[4] أي لا تنقصوهم من حقوقهم شيئًا فما يساوي دينارًا لا تعطوا فيه نصف دينار وما يساوي عشرة لا تأخذوه بخمسة مثلاً ومن أجرته اليومية عشرون لا تعطوه عشرة مثلاً. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تفسدوا في البلاد بأي نوع من الفساد كالقتل والسلب ومنع الحقوق وارتكاب المعاصي والذنوب.

(١٨٤) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي الله فخافوا عقابه ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ[5] ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي وخلق الخليقة من قبلكم اتقوه بترك الشرك والمعاصي تنجوا من عذابه، وتظفروا برضاه وإنعامه.

هداية الآيات:

١ - الأمر بالتقوى فريضة كل داع

---

(١) الأيكة وليكة: بمعنى واحد كمكة وبكة، وقيل: الأيكة: الشجر الملتف أي: الغليظة، وليكة: وهي قراءة نافع. اسم للبلدة ومنعها من الصرف، ومن قرأ الأيكة صرفها، والراجح أنها بمعنى واحد، وعدم الصرف لانعدام أل لا غير.

(٢) لم يقل: أخاهم شعيبًا: لأنه لا قرابة بينهم بخلاف أهل مدين فهو من أهلها فلذا قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وأصحاب الأيكة أي: بادية وهي الشجر الملتف، فلذا يقال له: الغيضة وكان من شجر الدوم وهو المُقل والسدر، وثماره: النبق.

(٣) الاستفهام للحض على التقوى والإنكار عليهم عبادة غير الله تعالى. وجملة: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾ تعليلية لأمره إيّاهم بالتقوى وفي: ﴿لَكُمْ﴾ إشارة إلى أن رسالته إليهم عارضة وكانت بعد رسالته إلى أهل مدين، فلعلهم أنكروا أن يكون أرسل إليهم، فلذا قال: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾ وفي آية الحجر قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ والتثنية في إنهما إشارة إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين، ولما جاء العذاب أخذ الكل لأن ذنبهم واحد وقرب المنازل والديار.

(٤) الظاهر من السياق أن ذنب أصحاب الأيكة وأهل مدين كان واحدًا: الشرك والتطفيف والبخس للناس، فلذا أدمج خطابهم فصاروا فيه أمة واحدة.

(٥) الجبلّة: الخلقة وأريد بها المخلوقات ولذا قال: (الأولى) أي: وذوي الجبلة الأولى والمعنى خلقكم وخلق الأمم من قبلكم.

إلى الله تعالى وسنة الدعاة والهداة إذ طاعة الله واجبة.

٢ - لا يصح لداع إلى الله أن يطلب أجره ممن يدعوهم فإن ذلك ينفرهم.

٣ - وجوب توفية الكيل والوزن وحرمة التطفيف فيهما.

٤ - حرمة بخس الناس حقوقهم ونقصها بأي حال من الأحوال.

٥ - حرمة الفساد في الأرض بارتكاب المعاصي وغشيان الذنوب.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨٥ - ١٩١]

(١٨٥) ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: أي ممن يأكلون الطعام ويشربون فلست بملك تطاع.

(١٨٦) ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: أي وما نحسبك إلا واحدًا من الكاذبين.

(١٨٧) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾: أي قطعًا من السماء تهلكنا بها إن كنت من الصادقين فيما تقول.

(١٨٩) ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾: أي السحابة التي أظلتهم ثم التهبت عليهم نارًا.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾: أي لعبرة وعلامة عبرة لمن يعتبر وعلامة دالة على صدق الرسول ﷺ.

معنى الآيات:

(١٨٥) ما زال السياق الكريم في قصص شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة وأهل مدين إنه لما ذكرهم ووعظهم وأمرهم كان جوابهم ما أخبر به تعالى عنهم في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ﴾ أي يا شعيب ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ الذي غلب السحر على عقولهم فلا يدرون ما يفعلون وما لا يقولون[(١)] كما أنك بشر مثلنا تأكل الطعام وتشرب الشراب فما أنت بملك من الملائكة حتى نطيعك.

(١٨٦) ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ﴾[(٢)] أي وما نظنك إلا من الكاذبين من الناس.

(١٨٧) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا[(٣)]﴾ أي قطعًا من السماء تهلكنا بها ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعوى أنك رسول من الله إلينا.

(١٨٨) فأجابهم قائلاً بما ذكر تعالى: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ۝﴾ ولازم ذلك أنه سيجازيكم بعملكم قال تعالى:

(١٨٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في كل ما جاءهم به واستوجبوا لذلك العذاب ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ[(٤)] إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فقد أنزل الله تعالى عليهم حرًا شديدًا التهب منه الجوّ أو كاد فلجؤوا إلى المنازل والكهوف والسراديب تحت الأرض فلم تغن عنهم شيئًا، ثم ارتفعت في سماء بلادهم سحابة فذهب إليها بعضهم فوجدها روحًا وبردًا وطيبًا فنادى الناس أن هلموا فجاؤوا فلما اجتمعوا تحتها كلهم انقلبت نارًا فأحرقتهم ورجفت بهم الأرض من تحتهم فهلكوا عن آخرهم.

(١٩٠) قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾[(٥)] أي علامة لقومك يا محمد على قدرتنا وعلمنا ووجوب عبادتنا وتصديق رسولنا ولكن أكثرهم لا يؤمنون لما سبق في علمنا أنهم لا يؤمنون، وإن ربك يا محمد لهو العزيز أي الغالب على أمره الرحيم بمن تاب من عباده.

هداية الآيات:

١ - هذا آخر سبع قصص ذكرت بإيجاز تسلية للنبي ﷺ وتهديدًا للمشركين المكذبين.

٢ - دعوة الرسل واحدة وأسلوبهم يكاد يكون واحدًا: الأمر بتقوى الله وطاعة رسوله.

٣ - سنة تعلل الناس بأن الرسول لا

---

(١) في قولنا: كما أنك... إلخ. دمج للقولين اللذين قيلا في تفسير: ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ إذ كل منهما جائز، والقرآن حمّال الوجوه.

(٢) إطلاق الظنّ على اليقين شائع كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾.

(٣) ﴿كِسفًا﴾ بكسر الكاف وسكون السين قراءة عامة القرّاء ما عدا حفصًا فقد قرأ: ﴿كِسَفًا﴾ بتحريك السين جمع كِسف بسكونها، والكسف: القطعة والجمع: كِسف.

(٤) ﴿ٱلظُّلَّةِ﴾: السحابة التي تظلل من تحتها وهي سحابة عظيمة أظلت مساحة كبيرة لما فرّوا إليها أظلتهم، ثم أرسلت عليهم الصواعق فأحرقتهم وكانت من جنس ما طلبوه وهو: الكسف من السماء.

(٥) أي: في ذلك المذكور من عذاب يوم الظلة آية لكفار قريش إذ حالهم كحال أصحاب الأيكة وأهل مدين في الشرك والتطفيف في الكيل والوزن.

ينبغي أن يكون بشرًا فلذا هم لا يؤمنون.

٤ - المطالبة بالآيات تكاد تكون سنة مطردة، وقل من يؤمن عليها.

٥ - تقرير التوحيد والنبوة والبعث وهي ثمرة كل قصة تقص في هذا القرآن العظيم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩٢ - ٢٠١]

(١٩٢) ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي القرآن الكريم تنزيل رب العالمين.

(١٩٣) ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾: جبريل عليه السلام أمين على وحي الله تعالى.

(١٩٦) ﴿وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي كتب الأولين، واحد الزبر: زبرة وكصفحة وصحف.

(١٩٧) ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾: أي علامة ودليلاً علم بني إسرائيل به.

(١٩٨) ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾: الأعجمي من لا يقدر على التكلم بالعربية.

(٢٠٠) ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾: أي التكذيب في قلوب المجرمين من كفار مكة.

معنى الآيات:

(١٩٢) لقد أنكر كفار مكة أن يكون القرآن وحيًا أوحاه الله تعالى وبذلك أنكروا أن يكون محمد رسول الله، ومن هنا ردوا عليه كل ما جاءهم به من التوحيد وغيره، فإيراد هذا القصص يتلوه محمد ﷺ وهو لا يقرأ ولا يكتب دال دلالة قطعية على أنه وحي إلهي أوحاه إلى محمد ﷺ وهو بذلك رسوله. فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن الذي كذب به المشركون.

(١٩٢) - (١٩٣) ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ[1] بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝﴾ جبريل عليه السلام.

(١٩٤) ﴿عَلَىٰ[2] قَلْبِكَ﴾ أي الرسول لأن القلب هو الذي يتلقى الوحي إذ هو محط الإدراك والوعي والحفظ، وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ هو علة لنزول القرآن عليه وبه كان من الرسل المنذرين.

(١٩٦) وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي القرآن مذكور في الكتب الإلهية التي سبقته كالتوراة[3] والإنجيل.

(١٩٧) وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ أي لكفار قريش ﴿ءَايَةً﴾ أي علامة على أن القرآن وحي الله وكتابه وأن محمدًا عبد الله ورسوله ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي علم بني إسرائيل به كعبدالله بن سلام فقد قال والله إني لأعلم أن محمدًا رسول أكثر مما أعلم أن فلانًا ولدي، لأن ولدي في الإمكان أن تكون أمه قد خانتني أما محمد فلا يمكن أن يكون غير رسول الله وفيهم قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ ومن عرف محمدًا رسولاً عرف القرآن وحيًا إلهيًا.

(١٩٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ[4] ۝﴾.

(١٩٥) أي و﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝﴾ فكان ذلك آية، وقرأه عليهم الأعجمي.

(١٩٩) ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أي من أجل الأنفة والحمية إذ يقولون أعجمي وعربي؟

(٢٠٠) وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي التكذيب وعدم الإيمان ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما سلكنا التكذيب في قلوب المجرمين لو قرأ القرآن

---

(١) قرأ نافع وحفص وغيرهما: ﴿نَزَلَ﴾ بالتخفيف، و﴿ٱلرُّوحُ﴾: مرفوع على الفاعلية وقرأ بعض: ﴿نزّل﴾ بالتضعيف، و﴿الروح﴾: منصوب على المفعولية والفاعل هو الله جل جلاله، والباء في: (به) للمصاحبة.

(٢) ﴿عَلَىٰ﴾: حرف استعلاء وكون القرآن نزل به جبريل على قلب الرسول ﷺ دال على تمكن وصول الوحي واستقراره في القلب، نحو: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وقد روى البخاري في صفة الوحي فقال عن عائشة: إنّ الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول**».

(٣) جاء في التوراة: قال لي الرب: (أي لموسى) أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. فالمراد من إخوة بني إسرائيل هم العرب. وفي الإنجيل: وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيًا (أي رسولاً) آخر ليمكث معكم إلى الأبد وهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم.

(٤) وكذلك لو أنزله على أعجمي بلغته لاعتذروا بأنهم لا يفهمون عنه، والمراد من الأعجمي: هو من لا يحسن اللغة العربية وإن كان عربيًا، والعجمي من أصله عجمي ولو أجاد اللغة العربية.

عليهم أعجمي سلكناه أي التكذيب في قلوب المجرمين إن قرأه عليهم محمد ﷺ، والعلة في ذلك هي أن الإجرام على النفس بارتكاب عظائم الذنوب من شأنه أن يحول بين النفس وقبول الحق لما ران عليها من الذنوب وأحاط بها من الخطايا.

(٢٠١) وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ تأكيد لنفي الإيمان حتى يروا العذاب الأليم أي يستمر تكذيبهم بالقرآن والمنزل عليه حتى يروا العذاب الموجع، وحينئذ لا ينفعهم إيمانهم ولا هم ينظرون.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير معتقد الوحي الإلهي والنبوة المحمدية.

٢ ـ بيان أن جبريل هو الذي كان ينزل بالوحي القرآني على النبي محمد ﷺ.

٣ ـ تقرير النبوة المحمدية وأن محمدًا من المنذرين.

٤ ـ بيان أن القرآن مذكور في الكتب[1] السابقة بشهادة علماء أهل الكتاب.

٥ ـ إذا تراكمت آثار الذنوب والجرائم على النفس حجبتها عن التوبة ومنعتها من الإيمان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠٢ ـ ٢١٢]

(٢٠٣) ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾: أي ممهلون لنؤمن. والجواب قطعًا: لا لا.

(٢٠٥) ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: أي أخبرني. ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾: أي أبقينا على حياتهم يأكلون ويشربون وينكحون.

(٢٠٦) ﴿مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾: أي من العذاب.

(٢٠٧) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾: أي أي شيء أغنى عنهم ذلك التمتع الطويل لا بدفع العذاب ولا بتخفيفه.

(٢٠٨) ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾: أي رسل ينذرون أهلها عاقبة الكفر والشرك.

(٢٠٩) ﴿ذِكْرَىٰ﴾: أي عظة.

(٢١٠) ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝﴾: أي لا يتأتى لهم ولا يصلح لهم أن يتنزلوا به.

(٢١١) ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: أي لا يقدرون.

(٢١٢) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾: أي لكلام الملائكة لمعزولون.

الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)

ترتيبها ٢٧ — سورة النمل — آياتها ٩٣

٣٧٦

معنى الآيات:

(٢٠٣) ما زال السياق الكريم في تقرير النبوة المحمدية وإثبات الوحي. لقد جاء في السياق أن المجرمين لا يؤمنون بهذا القرآن حتى يروا العذاب الأليم. فيأتيهم بغتة أي فجأة وهم لا يشعرون أي لا يعلمون به حتى يفاجئهم. فيقولون حينئذ: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي يتمنون[2] أن لو يمهلوا حتى يؤمنوا ويصلحوا ما أفسدوا.

(٢٠٤) وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا

---

(١) ومذكور من نزل عليه وهو محمد رسول الله ﷺ لإقامته له فيهم كما تقدم في المثلين المذكورين أحدهما من التوراة والثاني من الإنجيل.

(٢) ذكر القرطبي أن عمر بن عبدالعزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾، ثم يبكي ويقول:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازم ... ولا أنت في النوم بناج فسالم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى ... كما سرّ باللذات في النوم حالم
وتسعى إلى ما سوف تكره غبّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

يَسْتَعْجِلُونَ ۝﴾ عندما قالوا للرسول ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝﴾ أي قطعًا، أحُمق هم أم مجانين يستعجلون عذاب الله الذي إن جاءهم كان فيه حتفهم أجمعين؟

(٢٠٥) ـ (٢٠٧) ثم قال لرسوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ يا رسولنا ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ بأن أطلنا أعمارهم ووسعنا في أرزاقهم فعاشوا سنين عديدة ﴿ثُمَّ جَآءَهُم﴾ عذابنا أي أخبرني هل يغني ذلك التمتع عنهم شيئًا؟ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ أي لم يُغْنِ عنهم شيئًا لا بدفع العذاب ولا بتأخيره ولا بتخفيفه.

(٢٠٨) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾[١] كتلك القرى التي مر ذكرها في هذه السورة ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي كان لها رسل ينذرون أهلها عقاب الله إن أصروا على الشرك والكفر والشر والفساد.

(٢٠٩) وقوله: ﴿ذِكْرَىٰ﴾[٢] أي عظة لعلهم يتعظون. وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في إهلاك من أهلكنا بعد أن أنذرنا.

(٢١٠) ونزل ردًا على المشركين المجرمين الذين قالوا إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد كما يأتون للكهان بأخبار السماء. ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ[٣] بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝﴾ كما يزعم المكذبون.

(٢١١) ـ (٢١٢) ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أي للشياطين أي لا يصلح لهم ولا يتأتى منهم ذلك لأنهم معزولون عن السمع، أي سماع كلام الملائكة إذ أرصد الله تعالى شهبًا حالت بينهم وبين السماع من السماء.. فلذا دعوى المشركين باطلة من أساسها.

هداية الآيات:

١ ـ بيان أن المجرمين إذا شاهدوا العذاب تمنوا التوبة ولا يمكنون منها.

٢ ـ بيان أن استعجال عذاب الله حمق ونزغ في الرأي وفساد في العقل.

٣ ـ بيان أن طول العمر وسعة الرزق لا يغنيان عن صاحبهما شيئًا من عذاب الله إذا نزل به.

٤ ـ بيان سنة الله تعالى في أنه لا يهلك أمة إلا بعد الإنذار والبيان.

٥ ـ إبطال مزاعم المشركين في أن القرآن من جنس ما يقوله الكهان، وأن الشياطين تتنزل به.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١٣ ـ ٢٢٠]

(٢١٣) ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: أي لا تعبد مع الله إلـهًا آخر، لأن الدعاء هو العبادة.

(٢١٤) ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝﴾: وهم بنو هاشم وبنو عبدالمطلب.

(٢١٥) ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾: أي ألن جانبك.

(٢١٦) ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾: أي أبوا قبول دعوتك إلى التوحيد، ورفضوا ما تدعوهم إليه. ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أي من عبادة غير الله سبحانه وتعالى.

(٢١٨) ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝﴾: أي إلى الصلاة فتصلي متهجدًا بالليل وحدك.

(٢١٩) ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝﴾: أي ويرى تقلبك مع المصلين راكعًا ساجدًا قائمًا.

معنى الآيات:

(٢١٣) ما زال السياق الكريم في طلب هداية قريش قوم محمد ﷺ فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ[٤] مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝﴾ فيه إيحاء وإشارة واضحة بأنه تعريض بالمشركين الذين يدعون آلهة أصنامًا وهي دعوة توقظهم من نومتهم إنه إذا كان رسول الله ينهى عن عبادة غير الله وإلا يعذب مع المعذبين فغيره من باب أولى فكأن الكلام جرى على حد إياك أعني واسمعي يا جارة!!

(٢١٤) وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ[٥] ٱلْأَقْرَبِينَ ۝﴾ أمر من الله

---

(١) ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ من: صلة أي: زائدة لتقوية الكلام وتأكيده لأن زيادة المبنى تزيد في المعنى كذا يُقال.

(٢) ذكرى: يصح إعرابها حالاً ومصدرًا وخبرًا.

(٣) قرأ محمد بن السميفع: وما تنزلت به الشياطون، وردّ عليه ولم يقبل منه ولعلهُ نظر إلى أنّ الشيطان مشتق من شاط يشيط، والصواب: أنه من شطن لا من شاط.

(٤) إن الخطاب وإن كان في السياق ما يدل على أنه موجه إلى النبي ﷺ فإنه صالح لكل من يسمعه.

(٥) الجملة معطوفة على التي قبلها وهي: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إذ نهاه عن الشرك وأمره أن يُنذر أقرباءه منه لأنه لا فلاح معه.

لرسوله أن يخص أولاً بإنذاره قرابته لأنهم أولى بطلب النجاة لهم من العذاب، وقد امتثل الرسول أمر ربه فقد ورد في الصحاح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ لما أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ[1] عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «يا معشر[2] قريش اشتروا أنفسكم من الله (يعني بالإيمان والعمل الصالح بعد التخلي عن الشرك والمعاصي) فإني لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبدالمطلب لا أغني عنكم من الله أي من عذابه شيئًا، يا عباس بن عبدالمطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا».

(٢١٥) وقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أمره أن يلين جانبه للمؤمنين وأن يعطف عليهم ويُطايبهم ليرسخ الإيمان في قلوبهم ويسلموا من غائلة الردة فيما لو عوملوا بالقسوة والشدة وهم في بداية الطريق إلى الله تعالى.

(٢١٦) وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي من أمرت بدعوتهم إلى توحيد الله وعبادته وخلع الأنداد والتخلي عن عبادتها ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي من عبادة غير الله تعالى وغير راضٍ بذلك منكم ولا موافق عليه لأنه شرك حرام وباطل مذموم.

(٢١٧) وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ[3] عَلَى الْعَزِيزِ﴾ أي الغالب القاهر الذي لا يمانع في شيء يريده الرحيم بالمؤمنين من عباده، والأمر بالتوكل هنا ضروري لأنه أمره بالبراءة من الشرك والمشركين وهي حال تقتضي عداوته والكيد له بل ومحاربته ومن هنا وجب التوكل[4] على الله والاعتماد عليه، وإلا فلا طاقة له بحرب قوم وهو فرد واحد وقوله: (٢١٨) ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي في صلاتك وحدك.

(٢١٩) ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[5] أي ويرى تقلبك قائمًا وراكعًا وساجدًا مع المصلين من المؤمنين، بمعنى أنه معك يسمع ويرى فتوكل عليه ولا تخف غيره وامض في دعوتك ومفاصلتك للمشركين.

(٢٢٠) وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تقرير لتلك المعية الخاصة إذ السميع لكل صوت والعليم بكل حركة وسكون يحق للعبد التوكل عليه وتفويض الأمر إليه.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد، وحرمة دعاء غير الله تعالى من سائر مخلوقاته لأنه الشرك الحرام.

٢ - من مات يدعو غير الله فهو معذب لا محالة مع المعذبين.

٣ - تقرير قاعدة البدء بالأقارب في كل شيء لأنهم ألصق بقريبهم من غيرهم.

٤ - مشروعية لين الجانب والتواضع للمؤمنين لا سيما الحديثو عهد بالإسلام.

٥ - وجوب البراءة من الشرك وأهله.

٦ - وجوب التوكل على الله والقيام بما أوجبه الله تعالى.

٧ - فضل قيام الليل وصلاة الجماعة لما يحصل للعبد من معية الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٢١ - ٢٢٧]

(٢٢١) ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾: أي أخبركم.

(٢٢٢) ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: أي كذاب يقلب الكذب فيكون إفكًا أثيم غارق في الآثام.

(٢٢٣) ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾: أي يلقون أسماعهم ويصغون أشد الإصغاء للشياطين فيتلقون منهم مما أكثره كذب وباطل.

---

(١) في هذه الآية دليل على أن القرب في الأنساب مع البعد في الأسباب ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر لإرشاده ونصحه. وقال ﷺ: **«إن لكم رحمًا سأبلّها ببلالها»**.

(٢) رواه مسلم وغيره بألفاظ فيها بعض الاختلاف.

(٣) قرأ نافع: ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ بالفاء وقرأ غيره بالواو، وكلا الحرفين عاطف فالفاء عاطفة على قوله: ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهي للتفريع أيضًا، والواو عاطفة على جواب الشرط وهو ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(٤) التوكل: تفويض المرء أمره إلى من يكفيه مهمه، وما دام لا كافي إلا الله وجب إذًا التوكل عليه عز وجل.

(٥) في الآية دليل على مشروعية صلاة الجماعة وتأكدها واضح.

(٢٢٤) و﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾: جمع غاوٍ: الضال عن الهدى الفاسد القلب والنية.

(٢٢٥) ﴿فِى كُلِّ وَادٍ﴾: أي من أودية الكلام وفنونه. ﴿يَهِيمُونَ﴾: أي يمضون في كل شعب وواد من الكلام مدحًا أو ذمًا كان صدقًا أو كذبًا.

(٢٢٦) ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾: أي يقولون فعلنا وهم لم يفعلوا.

(٢٢٧) ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾: أي قالوا الشعر انتصارًا للحق بأن ردوا على من هجا المسلمين. ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾: أي مرجع يرجعون بعد الموت وهو دار البوار جهنم.

معنى الآيات:

(٢٢١) لما ادعى المبطلون من مشركي قريش أن الرسول ﷺ يتلقى من الشياطين كما تتلقى الكهان منهم رد تعالى عليهم بقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ[1] عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝﴾؟.

(٢٢٢) وأجاب عن السؤال قائلًا: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب يقلب الكذب قلبًا فيقول في الظالم عادل، وفي الخبيث طيب، وفي الفاسد صالح، ﴿أَثِيمٍ﴾ أي كثير الآثام إذ لم يترك جريمة إلا يقارفها ولا سيئة إلا يجترحها حتى يغرق في الإثم فهذا الذي تتحد معه الشياطين وتلقي إليه بما تسمعه من السماء لكونه مثلها في ظلمة النفس وخبث الروح، وأما محمد ﷺ فهو أبعد الناس عن الكذب والإثم فلم يجرب عليه كذب قط ولم يعرف منه ذنب أبدًا فكيف تتحد معه الشياطين وتخبره وتلقي إليه بخبر السماء؟

(٢٢٣) وبهذا بطلت التهمة وقوله: ﴿يُلْقُونَ[2] ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ[3] كَٰذِبُونَ ۝﴾ أي إن الشياطين قبل أن يحال بينهم وبين استراق السمع بإرصاد الشهب لهم. كانوا يلقون أسماعهم للحصول على الخبر وأكثرهم كاذبون حيث يخلطون مع الكلمة التي سمعوها مائة كلمة كلها كذب منهم ويلقون ذلك الكذب إلى إخوانهم في الكفر والخبث من كهنة الناس.

(٢٢٤) وقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝﴾ أي أهل الغواية والضلال هم الذين يتبعون الشعراء فيروون لهم وينقلون عنهم، ويصدقونهم فيما يقولون.

(٢٢٥) - (٢٢٦) والدليل على ذلك ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الشعراء ﴿فِى كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام وفنونه ﴿يَهِيمُونَ﴾ على وجوههم ماضين في قولهم فيمدحون ويذمون، يهجون، ويفخرون، ويدعون أنهم فعلوا كذا وكذا وما فعلوا فهل محمد ﷺ الذي اتهمتموه بأنه شاعر وما يقوله من جنس الشعر أتباعه[4] غاوون انظروا إليهم واسألوا عنهم فإنهم أهدى الناس وأبرهم فعلًا وأصدقهم حديثًا وأبعدهم عن الريبة، فلو كان محمد شاعرًا لكان أتباعه الغاوين فبذا بطلت الدعوى من أساسها.

(٢٢٧) وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ[5] ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ إنه لما ذم الشعراء، استثنى منهم أمثال: عبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت ممن آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا يردون هجاء المشركين لرسول الله ﷺ وينافحون عن الإسلام وأهله بشعرهم الصادق النقي الطاهر الوفي.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ رسول الله باتهامه بالكهانة مرة

---

(١) هذا الاستفهام صوري واختير له: هل لإفادتها التحقيق كقد وهو يحمل التعريض بأنّ المستفهم عنه مما يسوؤهم فلذا استفهموا في هذا السؤال ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾؟

(٢) وجائز أن يكون من يلقون السمع: الكهان، إذ هم يلقون أسماعهم عند مشاهدة كواكب لتنزل عليهم شياطينهم بالخبر وذلك من إفكهم، وعليه فجملة: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ صفة لـ ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وما في التفسير عليه الكثيرون وكلا المعنيين وارد وصحيح.

(٣) أي: أكثر هؤلاء الأفاكين كاذبون فيما يزعمون أنهم تلقوه من الشياطين فبعضهم لا يتلقى شيئًا وإنما يدعي ذلك، والبعض يتلقى قليلًا فيزيد عليه أضعافه، وفي الصحيح أن النبي ﷺ سئل عن الكهان فقال: «**ليسوا بشيء**» قيل: يا رسول الله فإنهم يحدثون أحيانًا بالشيء يكون حقًا فقال: «**تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون عليها أكثر من مائة كذبة**».

(٤) من كان أتباعه غاوين لا يكون هو إلاّ غاويًا بل أشد غواية.

(٥) في الآية دليل على جواز دراية الشعر الحسن فقد روى مسلم أن النبي ﷺ قال يومًا لعمر بن الشريد: «**هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟**» قال: نعم، قال: «**هيه**»، فأنشدته بيتًا فقال: «**هيه**»، حتى أنشدته مائة بيت.

وبالشعر مرة أخرى وظلموا الوحي الإلهي بوصفه بما هو بعيد عنه من الكهانة والشعر ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أي أي مرجع يرجعون إليه، إنه النار وبئس القرار.

هداية الآيات:

١ - إبطال فرية المشركين من أن القرآن من جنس ما يقوله الكهان.

٢ - إبطال أن الرسول ﷺ كاهن وشاعر.

٣ - بيان أن الشياطين تتحد مع ذوي الأرواح الخبيثة بالإفك والآثام.

٤ - بيان أن الشعراء المبطلين أتباعهم في كل زمان ومكان الغاوون الضالون.

٥ - جواز نظم الشعر وقوله في تقرير علم أو تسجيل[1] حكمة، أو انتصار[2] للإسلام والمسلمين بالرد على من يهجو الإسلام والمسلمين.

٦ - التحذير من عاقبة الظلم فإنها وخيمة.

***

سورة النمل
مكية
وآياتها
ثلاث وتسعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿طسٓ﴾: هذا أحد الحروف المقطّعة، يقرأ: طا. سين. ﴿تِلۡكَ﴾: أي الآيات المؤلفة من هذه الحروف آيات القرآن.

(٢) ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ﴾: أي أعلام هداية للصراط المستقيم، وبشارة للمهتدين.

(٤) ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: أي حببناها إليهم حسب سنتنا فيمن لا يؤمن بالبعث والجزاء. ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾: في ضلال بعيد وحيرة لا تنتهي.

(٥) ﴿لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾: أي في الدنيا بالأسر والقتل.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿طسٓ﴾ لقد سبق أن ذكرنا أن السلف كانوا يقولون في مثل هذه الحروف المقطعة: الله أعلم بمراده بذلك، وهذه أسلم، وذكرنا أن هناك فائدة قد تقتنص من الإشارة بتلك أو بذلك، وهي أن القرآن المعجز الذي تحدى به مُنزله عز وجل الإنس والجن قد تألف من مثل هذه الحروف العربية فألفوا أيها العرب مثله سورة فأكثر فإن عجزتم فآمنوا أنه كلام الله ووحيه واعملوا بما فيه ويدعو إليه.

---

(١) روي عن ابن سيرين أنه أنشد شعرًا فقال له بعض جلسائه: مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر؟ فقال: ويلك يا لكع: وهل الشعر إلاّ كلامًا لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي فحسنه حسن وقبيحه قبيح؟

(٢) من شعر نصرة الحق قول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه والرسول ﷺ يمشي بين يديه وذلك يوم الفتح:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم عن تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

ومنه قول حسان:

هجوت محمدًا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
أتشتمه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدّلاءُ

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[(١)] أي المؤلفة من مثل هذه الحروف آيات القرآن ﴿وَكِتَابٌ مُّبِينٌ[(٢)]﴾ أي مبين لكل ما يحتاج إلى بيانه من الحق والشرع في كل شؤون الحياة.

(٢) وقوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ[(٣)] لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ أي هادٍ إلى الصراط المستقيم الذي يفضي بسالكه إلى السعادة والكمال في الدارين، ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ أي بشارة عظمى للمؤمنين أي بالله ولقائه والرسول ﷺ وما جاء به.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ[(٤)] ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأدائها في أوقاتها في بيوت الله تعالى مستوفاة الشروط والأركان والواجبات والسنن والآداب ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عند وجوبها عليهم ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ﴾ أي بالدار الآخرة ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بوجودها والمصير إليها، وبما فيها من حساب وجزاء.

(٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ أي بالبعث والجزاء ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي حببناها إليهم حتى يأتوها وهي أعمال شر وفساد، وذلك حسب سنتنا فيمن أنكر البعث وأصبح لا يرهب حسابًا ولا يخاف عقابًا انغمس في الرذائل والشهوات وأصبح لا يرعوي عن قبيح ﴿فَهُمْ﴾ لذلك ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في سلوكهم يتخبطون لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا.

(٥) وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي في الدنيا بالأسر والقتل، وهم في الآخرة[(٥)] هم الأكثر خسارًا من سائر أهل النار، أي أشد عذابًا.

هداية الآيات:

١ - بيان إعجاز القرآن إذ آياته مؤلفة من مثل طس، وحم وعجز العرب عن تأليف مثله.

٢ - بيان كَوْن القرآن، هدى وبشرى للمؤمنين الملتزمين بمتطلبات الإيمان.

٣ - إنكار البعث والدار الآخرة يجعل صاحبه شر الخليقة وأسوأ حالاً من الكلاب والخنازير.

٤ - وجوب قتال الملاحدة وأخذهم أسرًا وقتلاً حتى يؤمنوا بالله ولقائه لأنهم خطر على أنفسهم وعلى البشرية سواء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ - ١١]

(٦) ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى﴾: أي تتلقنه وتحفظه وتعلمه. ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾: أي من عند حكيم عليم هو الله جلّ جلاله.

(٧) ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾: أي أبصرت نارًا من بعد حصل لي بها بعض الأنس. ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾: أي عن الطريق حيث ضلوا طريقهم إلى مصر في الصحراء. ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾: أي بشعلة نار مقبوسة أي مأخوذة من أصلها. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: أي تستدفئون.

(٨) ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾: أي بارك الله جل جلاله من في النار وهو موسى عليه السلام إذ هو في البقعة المباركة التي نادى الله تعالى موسى منها. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي نزه الرب تعالى نفسه عما لا يليق بجلاله وكماله من صفات المحدثين.

(٩) ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾: أي

---

(١) عرّف الكتاب ونكّر القرآن وهما في معنى المعرفة كما يقال: فلان رجل عاقل، وفلان الرجل العاقل، والكتاب هو القرآن فجُمع له صفتان تفخيمًا وتعظيمًا فهو قرآن وهو كتاب، والكتاب: علم على القرآن بالغلبة، والقرآن علم بالنقل.

(٢) ﴿مُّبِينٍ﴾: إن كان من أبان اللازم فهو بمعنى بان أي: فهو ظاهر واضح بيّن في نفسه وفي هذا تنويه وتشريف له، وإن كان من أبان المتعدي فهو مبيّن لما أريد منه من أركان العقيدة وأنواع العبادات وأحكام الشريعة وآدابها.

(٣) هدى وبشرى: حال، والإعراب مقدر أشار إلى القرآن حال كونه هاديًا ومبشرًا للمؤمنين به العاملين بما فيه من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق.

(٤) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة الموصول، وصلته وما عطف عليه نعت للمؤمنين وصفٌ لهم بما تضمنه لفظ الهدى، وجملة: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ معطوفة على صلة الموصول فهي نعت ثانٍ للمؤمنين الذين هدوا بالقرآن.

(٥) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ هذه الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا لأنها واقعة موقع جواب عن سؤال تقديرهُ: إذا كان القرآن هاديًا ومبشرًا فما للذين لا يؤمنون بالآخرة لم يهتدوا؟ فالجواب: إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة زيّن الله لهم أعمالهم لذا فهم لا يهتدون، وتزيين الأعمال قائم على سنة من سنن الله تعالى وهي أنّ من رفض الحق وآثر الباطل عليه وأصرّ على اختيار الباطل يحرم الهداية فلا يقبلها ممن جاءه بها كالقرآن والرسول ﷺ.

الحال والشأن أنا الله العزيز الحكيم الذي ناداك باركك.

﴿١٠﴾ ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾: أي تتحرك بسرعة كأنها حية خفيفة السرعة.

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: أي ولم يرجع إليها خوفًا وفزعًا منها.

﴿١١﴾ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾: أي تاب فعمل صالحًا بعد الذي حصل منه من السوء.

معنى الآيات:

﴿٦﴾ ما زال السياق في تقرير النبوة المحمدية فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى[1] ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝﴾ يخبر تعالى رسوله ﷺ بأنه يلقن القرآن ويحفظه ويعلمه من لدن حكيم في تدبيره عليم بخلقه وهو الله جلّ جلاله وعظم سلطانه.

﴿٧﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ اذكر لمنكري الوحي والمكذبين بنبوتك إذ قال موسى إلى آخر الحديث، هل مثل هذا يكون بغير التلقي من الله تعالى. والجواب: لا إذًا فأنت رسول الله حقًا وصدقًا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ امرأته وأولاده ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾[2] أي أبصرتها مستأنسًا بها ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ[3] لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ[4]﴾ أي تستدفئون إذ كانوا في ليلة شاتية باردة وقد ضلوا طريقهم.

﴿٨﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي النار ﴿نُودِىَ﴾[5] أي ناداه ربه تعالى قائلاً: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي تقدس من في النار التي هي نور الله جلّ جلاله. وهو موسى عليه السلام ومن حولها من أرض القدس والشام، والله أعلم بمراده من كلامه وإنا لنستغفره ونتوب إليه إن لم نوفق لمعرفة مراده من كلامه وخطابه فاغفر اللهم ذنبنا وارحم عجزنا وضعفنا إنك غفور رحيم، وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ نزه تعالى نفسه عما لا يليق بجلاله وكماله.

﴿٩﴾ وقوله: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ أي الذي يناديك هو الله ذو الألوهية على خلقه العزيز الغالب الذي لا يحال بينه وبين مراده الحكيم في قضائه وتدبير وتصريف ملكه بعد أن عرفه بنفسه وأذهب عنه روع نفسه، أمره أن يلقي العصا تمرينًا له على استعمالها فقال:

﴿١٠﴾ ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فاهتزت كأنها جان أي حية خفيفة السرعة ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ[6] مُدْبِرًا﴾ أي رجع القهقرى فزعًا وخوفًا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يرجع إليها خوفًا منها فناداه ربه تعالى ﴿يَـٰمُوسَىٰ[7] لَا تَخَفْ﴾ من حية ولا من غيرها ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[8]

﴿١١﴾ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾[9] أي نفسه باقتراف ذنب من الذنوب فهذا يخاف لكن إن هو تاب بعد الذنب ففعل حسنات بعد السيئات فإنه لا يخاف لأني غفور رحيم فأغفر له وأرحمه. طمأن تعالى نفس موسى بهذا لأن موسى كان شاعرًا بأنه أذنب بقتل القبطي قبل نبوته ورسالته، وإن كان القتل خطأ إلا أنَّه تجب فيه الكفارة

---

(١) قال القرطبي: هذه الآية بسط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه وهو كما قال.

(٢) ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرتها من بعد، قال الشاعر:

آنست نبأة وأفزعها القنص عصرًا وقد دنا الإمساءُ

(٣) قرأ عاصم: ﴿بشهاب قبس﴾ بتنوين شهاب، وقرأ نافع: ﴿بشهاب﴾ بلا تنوين مضاف إلى قبس، والإضافة للنوع كثوب خزٌ وخاتم فضة.

(٤) الاصطلاء: الاستدفاء من البرد، قال الشاعر:

النار فاكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتيًا فليصطل

(٥) عن وهب بن منبه قال: فلما رأى موسى النار وقف قريبًا منها فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها: العُليق فعجب منها... ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

(٦) أي: خائفًا على عادة البشر.

(٧) الاستثناء منقطع أي: لكن يخاف من ظلم، ومن ظلم ثم تاب فلا يخاف أيضًا فإن الله غفور رحيم.

(٨) هذا مقول قول أي: يا موسى لا تخف.

(٩) الجملة تعليلية للنهي في قوله: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾.

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية.

٢ - مشروعية السفر بالأهل والولد وجواز خطأ الطريق حتى على الأنبياء والأذكياء.

٣ - قيومية الرجل على النساء والأطفال.

٤ - تجلي الرب تعالى لموسى في البقعة المباركة ومناجاته وتدريبه على العصا والسلاح الذي يقاوم به فرعون وملأه فيما بعد.

٥ - الظلم بسبب الخوف والعقوبة إلا من تاب منه وأصلح فإن الله غفور رحيم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ - ١٤]

﴿١٢﴾ ﴿فِي جَيْبِكَ﴾: أي جيب ثوبك. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: أي برص ونحوه بل هو (البياض) شعاع.

﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾: أي ضمن تسع آيات مرسلاً بها إلى فرعون.

﴿١٣﴾ ﴿مُبْصِرَةً﴾: مضيئة واضحة مشرقة.

﴿١٤﴾ ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾: أي لم يقروا ولم يعترفوا بها.

﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾: أي أيقنوا أنها من عند الله. ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾: أي ردوها لأنهم ظالمون مستكبرون.

معنى الآيات:

﴿١٢﴾ ما زال السياق الكريم مع موسى في حضرة ربه عز وجل بجانب الطور إنه لما أمره بإلقاء العصا فألقاها فاهتزت وفزع موسى لذلك فولى مدبرًا ولم يعقب خائفًا فطمأنه ربه تعالى بأنه لا يخاف لديه المرسلون أمره أن يدخل يده في جيبه فقال: ﴿وَأَدْخِلْ[١] يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي في جيب القميص. ﴿تَخْرُجْ[٢] بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي من غير برص بل هو بياض إشراق يكاد يذهب بالأبصار ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾[٣] أي ضمن تسع آيات مرسلاً بها إلى فرعون وقومه، وبيّن تعالى علة ذلك الإرسال فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن الاعتدال إلى الغلو والإسراف في الشر والفساد.

﴿١٣﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ[٤] آيَاتُنَا﴾ يحملها موسى مبصرة مضيئة واضحة دالة على صدق موسى في دعوته، رفضوها فلم يؤمنوا بها، ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي الذي جاء به موسى من الآيات هو سحر بيّن لا شك فيه.

﴿١٤﴾ قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أي جحدوا بالآيات وكذبوا وتيقنتها أنفسهم أنها آيات من عند الله دالة على رسالة موسى وصدق دعوته في المطالبة ببني إسرائيل. وقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾: أي حملهم على التكذيب والإنكار مع العلم هو ظلمهم واستكبارهم فإنهم ظالمون مستكبرون. وقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ[٥] كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر يا رسولنا محمدًا ﷺ كيف كان عاقبة المفسدين وهي إهلاكهم ودمارهم أجمعين.

---

(١) هذا الكلام معطوف على قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ وما بينهما اعتراض.

(٢) هذه آية أخرى غير الأولى.

(٣) التسع آيات هي: العصا، واليد، والطوفان والجراد والقمّل، والضفادع والدم، والقحط، وانفلاق البحر، وهو من أعظمها.

(٤) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ إلخ.. أوجز بقية القصة وانتقل إلى العبرة بتكذيب فرعون وقومه بالآيات ليعتبر بذلك كفار قريش المكذبون بآيات الله ورسوله ﷺ.

(٥) الخطاب لغير معيّن ويجوز أن يكون للنبي ﷺ تسلية له وحملاً له على الصبر من تكذيب قومه له وإصرارهم على الكفر به.

هداية الآيات:

١ -آية اليد هي إحدى الآيات التسع التي أوتي موسى عليه السلام دليلاً على وجود الآيات التي كان الله تعالى يؤيد بها رسله فمن أنكرها فقد كفر.

٢ - التنديد بالفسق واستحقاق أهله العذاب في الدارين.

٣ - الكبر والعلو في الأرض صاحبهما يجحد الحق ولا يقر به وهو يعلم أنه حق.

٤ - عاقبة الفساد في الأرض بالمعاصي سيئة، والعياذ بالله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ ـ ١٩]

(١٥) ﴿عِلْمًا﴾: هو علم ما لم يكن لغيرهم كمعرفة لغة الطير إلى جانب علم الشرع كالقضاء ونحوه. ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي شكرًا له. ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي بالنبوة وتسخير الجن والإنس والشياطين.

(١٦) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾: أي ورث أباه بعد موته في النبوة والملك والعلم دون باقي أولاده. ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾: أي فهم أصوات الطير وما تقوله إذا صفرت. ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: أوتيه غيرنا من الأنبياء والملوك.

(١٧) ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ﴾: أي جمع له جنوده من الجن والإنس والطير في مسير له. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي يساقون ويرد أولهم إلى آخرهم ليسيروا في نظام.

(١٨) ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾: أي لا يكسرنكم ويقتلنكم. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي بكم.

(١٩) ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ﴾: أي ألهمني ووفقني لأن أشكر نعمتك التي أنعمت علي.

معنى الآيات:

هذا بداية قصص داود وسليمان عليهما السلام ذكر بعد أن أخبر تعالى أنه يلقن رسوله محمدًا ﷺ ويعلمه من لدنه وهو العليم الحكيم، ودلل على ذلك بموجز قصة موسى عليه السلام ثم ذكر دليلاً آخر وهو قصة داود وسليمان.

(١٥) فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ أي أعطينا داود وسليمان ﴿عِلْمًا﴾ أي الوالد والولد علمًا خاصًا كمعرفة منطق الطير وصنع الدروع وإلانة الحديد زيادة على علم الشرع والقضاء[١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي شكرا ربهما بقولهما: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الشكر لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين بما آتاهما من الخصائص والفواضل. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٥).

(١٦) وأما الآية الثانية (١٦) فقد أخبر تعالى فيها أنّ سليمان ورث أباه داود وحده دون باقي أولاده[٢] وذلك في النبوة والملك، لا في الدرهم والدينار والشاة والبعير، لأن الأنبياء لا يورثون فما يتركونه هو صدقة[٣]. كما أخبر أن سليمان قال في الناس[٤]: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ[٥] الطَّيْرِ﴾ فما يصفر طير إلا علم ما يقوله في صفيره، وأوتينا من كل شيء أوتيه غيرنا من النبوة والملك والعلم والحكمة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي فضل الله تعالى البين الظاهر.

(١٧) وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ أي جمع له جنوده ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ هو إخبار عن مسير كان لسليمان مع جنده ﴿فَهُمْ

(١) وآتى داود الزبور وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم من أجلّ النعم وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من المؤمنين.

(٢) قيل: إنّ داود كان له تسعة عشر ولدًا فورث سليمان من بينهم نبوّته وملكه ولو كان وارثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء والزمن بين سليمان ونبينا كان قرابة ألف وثمانمائة سنة.

(٣) قوله ﷺ: **«نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة»** حديث صحيح.

(٤) أي: في بني إسرائيل قال: هذا على جهة الشكر لنعم الله تعالى؟

(٥) مما يؤثر عن سليمان عليه السلام في معرفة منطق الطير: (لدوا للموت وابنوا للخراب) «لورشان» نوع من الحمام البري أكدر (ليت هذا الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا) «لفاختة» نوع من الحمام البري له طوق (من لا يرحم لا يُرحم) «الهدهد» (استغفروا الله يا مذنبين) «لصرد» (قدموا خيرًا تجدوه) «الخطافة» (اللهم العن العشر) «للغراب» (كل شيء هالك إلا وجهه) «للحدأة» (من سكت سلم) «للقطاة» (ويل لمن الدنيا همه) «للقطاة» (سبحان ربي القدوس) «للضفدع» (اذكروا الله يا غافلين) «للديك».

﴿يُوزَعُونَ﴾ أي جنوده توزع تساق بانتظام. بحيث لا يتقدم بعضها بعضًا فيرد دائمًا أولها إلى آخرها محافظة على النظام في السير، وما زالوا سائرين كذلك حتى أتوا على واد النمل بالشام فقالت نملة من النمل:

(١٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ قالت هذا رحمة وشفقة على بنات جنسها تعلم البشر الرحمة والشفقة والنصح لبني جنسهم لو كانوا يعلمون، واعتذرت لسليمان وجنده بقولها: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بكم وإلا لما داسوكم ومشوا عليكم حتى لا يحطمونكم. وما إن سمعها سليمان وفهم كلامها[١] حتى تبسم ضاحكًا من قولها:

(١٩) ﴿وَقَالَ رَبِّ﴾ أي يا رب ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾[٢] ألهمني ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾[٣] ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ أي ويسر لي عملًا صالحًا ترضاه مني، ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي في جملتهم في دار السلام.

هداية الآيات:

١ - وجوب الشكر على النعم.

٢ - وراثة سليمان لداود لم تكن في المال لأن الأنبياء لا يورثون وإنما كانت في النبوة والملك.

٣ - آية تعليم الله تعالى سليمان منطق الطير وتسخير الجن والشياطين له.

٤ - فضل النمل على كثير من المخلوقات ظهر في نصح النملة لأخواتها وشفقتها عليهن.

٥ - ذكاء النمل وفطنته مما أضحك سليمان متعجبًا منه.

٦ - وجوب الشكر عند مشاهدة النعمة ورؤية الفضل من الله عز وجل.

٧ - تقرير النبوة المحمدية إذ مثل هذا الحديث لا يتأتى له إلا بالوحي الإلهي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ - ٢٦]

(٢٠) ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾: أي تعهدها ونظر فيها. ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾: أعرض لي ما منعني من رؤيته أم كان من الغائبين؟.

(٢١) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾: أي بنتف ريشه ورميه في الشمس فلا يمتنع من الهوام. ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾: أي بحجة واضحة على عذره في غيبته.

(٢٢) ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾: أي قليلاً من الزمن وجاء سليمان متواضعًا. ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾: أي اطلعت على ما لم تطلع عليه. ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ﴾: سبأ قبيلة من قبائل اليمن.

(٢٣) ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ﴾: هي بلقيس الملكة. ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾: أي سرير كبير.

(٢٤) ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي طريق الحق والهدى.

(٢٥) ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾: أصلها أن يسجدوا أي فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله. وزيدت فيها «لا» وأدغمت فيها النون فصارت ألاَّ نظيرها ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من آخر سورة الحديد. ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: أي المخبوء في السموات من الأمطار والأرض من النباتات.

معنى الآيات:

(٢٠) ما زال السياق الكريم في

---

(١) قد اختلف في هل كان سليمان يعلم غير منطق الطير من سائر الحيوان؟ والذي عليه الأكثر أنه كان يعلم أصوات سائر الحيوانات ومن ذلك النمل، قال ابن العربي: من قال: إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم، وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم من النبات فكان الشجر يقول له: أنا شجر كذا أنفع من كذا وأضر من كذا فما ظنك بالحيوان؟

(٢) الوزع: الكف عما لا يراد، والوازع: الذي يكفّ غيره عما لا ينبغي، وفعله: وزع يزع وزعًا، فإذا زيدت فيه همزة السلب فقيل: أوزع أي: أزال الوزع الذي هو الكف، فقوله في الآية: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ أي: يكفون أفراد القوات عن التقدم والتأخر حتى يكون السير منتظمًا. وقوله: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾ أي: أبعد عني ما يمنعني من شكرك على نعمك. فصار أوزعني كألهمني وأغرني.

(٣) قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ وقال بعضهم: النعمة وحشيّة قيدوها بالشكر فإنها إذا شكرت قرّت وإذا كفرت فرّت، وقال آخر: من لم يشكر النعمة فقد عرضها لزوالها ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها.

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾

٣٧٩

قصص سليمان عليه السلام. قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ[1] ٱلطَّيۡرَ﴾ أي تفقد سليمان جنده من الطير طالبًا الهدهد لأمر عنَّ له أي ظهر وهو يتهيأ لرحلة هامة، فلم يجده فقال ما أخبر تعالى به عنه: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ[2]﴾ ألعارض عَرَض لي فلم أره، ﴿أَمۡ[3] كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ أي بل كان من الغائبين.

﴿٢١﴾ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ بأن ينتف ريشه ويتركه للهوام تأكله فلا يمتنع منها ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ بقطع حلقومه، ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي بحجة واضحة على سبب غيبته. قوله تعالى الآية (٢٢): ﴿فَمَكَثَ﴾ أي الهدهد.

﴿٢٢﴾ ﴿غَيۡرَ[4] بَعِيدٖ﴾ أي زمنًا قليلاً، وجاء فقال في تواضع رافعًا عنقه مرخيًا ذنبه وجناحيه ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿وَجِئۡتُكَ[5] مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ وسبأ قبيلة من قبائل اليمن، والنبأ اليقين الخبر الصادق الذي لا شك فيه. وأخذ يبين محتوى الخبر فقال:

﴿٢٣﴾ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ﴾ هي بلقيس ﴿تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من أسباب القوة ومظاهر الملك، ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ أي سرير ملكها الذي تجلس عليه وصفه بالعظمة لأنه مرصع بالجواهر والذهب.

﴿٢٤﴾ وقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أخبر أولاً عن أحوالهم الدنيوية وأخبر ثانيًا عن أحوالهم الدينية، وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي الباطلة الشركية ﴿فَصَدَّهُمۡ﴾ بذلك ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي سبيل الهدى والحق فهم لذلك لا يهتدون لأن

﴿٢٥﴾ ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ[6] لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ[7]﴾ أي المخبوء فهو من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من أمطار ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من نباتات، ويعلم سبحانه وتعالى ما يخفون في نفوسهم، وما يعلنون عنه بألسنتهم.

﴿٢٦﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩﴾ وصف الرب تعالى بالعرش العظيم ليقابل وصف بلقيس به، وأين عرش مخلوقة وإن كانت ملكة بنت ملك هو شراحيل من

---

(١) ﴿وَتَفَقَّدَ﴾ بمعنى بحث عن الفقد أي: عدم الوجود أو بحث عن سبب عدم الوجود.

(٢) من خواص الهدهد أنه يرى الماء من بعد ويحس به في باطن الأرض فإذا رفرف على موضع عُلم أن به ماء، ونهى النبي ﷺ عن قتله مع ثلاثة وهي: (الضفدع، والنحل، والصرد)، أخرجه أبو داود وصححه. ونهى عن قتل النمل إلا أن يضرّ ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل.

(٣) (أم): هي المنقطعة: التي بمعنى: بل، ولا تخلو من معنى الاستفهام إذ التقدير: بل أكان من الغائبين.

(٤) أي: مكث في غيابه زمنًا غير بعيد أو في مكان غير بعيد.

(٥) اسم رجل هو: عبشمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لقب بسبأ لأنه أول من سبى في غزوه، وأطلق هنا سبأ على ديار قبيلة سبأ لأنّ من: ابتدائية أي لابتداء الأمكنة غالبًا.

(٦) ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ﴾ أصلها: أن لا يسجدوا فأدغمت أن في لا النافية فصارت ألا، والمضارع منصوب بأن المدغمة في لا، ولذا تعيّن تقدير لام جرّ يتعلق بـ ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: زيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم لأجل أن يسجدوا. وما في التفسير من التقدير أوضح أيضًا.

(٧) الخبء: مصدر خبأ الشيء: إذا أخفاه، أطلق على اسم المفعول أي: المخبوء من أجل المبالغة في الإخفاء.

عرش الله الخالق لكل شيء والمالك لكل شيء.

هداية الآيات:

١ - مشروعية استعراض الجيوش وتفقد أحوال الرعية.

٢ - مشروعية التعزير لمن خالف أمر السلطان بلا عذر شرعي.

٣ - مشروعية اتخاذ طائرات الاستكشاف ودراسة جغرافية العالم.

٤ - تحقيق قول الرسول ﷺ: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**» إذ لم يلبثوا أن غلب عليهم سليمان.

٥ - بيان أن هناك من كانوا يعبدون الشمس إذ سجودهم لها عبادة.

٦ - بيان أن الأحق بالعبادة الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

٧ - مشروعية السجود لمن تلا هذه الآية أو استمع إلى تلاوتها: (٢٦) ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ۝﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ ـ ٣١]

(٢٧) ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾: أي بعد اختبارنا لك.

(٢٨) ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾: أي إلى رجال القصر وهم في مجلس الحكم. ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: أي تنح جانبًا متواريًا مستترًا عنهم. ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾: أي ماذا يقوله بعضهم لبعض في شأن الكتاب.

(٢٩) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾: أي يا أشراف البلاد وأعيانها وأهل الحل والعقد فيها. ﴿أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾: أي ألقاه في حجرها الهدهد.

(٣١) ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾: أي لا تتكبروا انقيادًا للنفس والهوى. ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾: أي منقادين خاضعين.

معنى الآيات:

(٢٧) ﴿قَالَ سَنَنظُرُ﴾[1] أي قال سليمان للهدهد بعد أن أدلى الهدهد بحجته[2] على غيبته سننظر باختبارنا لك ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما ادعيت وقلت ﴿أَمْ كُنتَ[3] مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي من جملتهم. وبدأ اختباره فكتب كتابًا وختمه وقال له:

(٢٨) ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي[4] هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي تنح جانبًا مختفيًا عنهم ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ من القول في شأن الكتاب أي ما يقول بعضهم لبعض في شأنه، وفعلاً ذهب الهدهد بالكتاب ودخل القصر من كوة فيه وألقى الكتاب في حجر الملكة بلقيس فارتاعت له وقرأته ثم قالت:

(٢٩) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ مخاطبة أشراف قومها ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ وصفته بالكرم لما حواه من عبارات كريمة، ولأنه مختوم وختم الكتاب كرمه ونصّ الكتاب كالتالي [من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ بسم الله الرحمٰن الرحيم السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا علي وائتوني مسلمين].

(٣٠) ـ (٣١) ومضمونه ما ذكرته الملكة بقولها: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ[5] وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝﴾ ومعنى إنه من سليمان أي صادر منه وأنه مكتوب ومرسل بسم الله الرحمٰن الرحيم أي بإذنه وشرعه ألا تعلوا علي أي لا تتكبروا على الحق فإني بسم الله أطلبكم ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي خاضعين منقادين.

---

(١) من الجائز أن يكون سليمان قد خشي أن يكون الكلام الذي سمعه من الهدهد ألقى به الشيطان على الهدهد ليضلل سليمان ويفتنه بالبحث عن مملكة موهومة، فلذا قال عليه السلام: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

(٢) في الآية دليل على أن الحاكم يجب عليه أن يقبل عذر المواطن ويدرأ العقوبة عنه بظاهر حاله وباطن عُذره، وفي الصحيح: «**ليس أحد أحبّ إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل**» وللحاكم أن يمتحن المواطن المعتذر حتى يعرف عذره.

(٣) ﴿أَمْ كُنتَ﴾ بمعنى: أنت.

(٤) في الآية دليل على وجوب إرسال الكتب إلى المشركين ودعوتهم إلى الإسلام وتبليغهم دعوة الله عزّ وجل، وقد كتب النبي ﷺ إلى قيصر وكسرى والمقوقس وغيرهم.

(٥) قال القرطبي: الأحسن اليوم بأن يقدّم في الكتاب اسم المكتوب إليه قبل اسم الكاتب لأن البداية باسمه تعد استخفافًا بالمكتوب إليه وتكبرًا عليه، ومراده أن يكتب الكاتب هكذا إلى حضرة فلان... **من فلان**... وتقديم اسم الكاتب هو ما عليه السلف الصالح.

هداية الآيات:

١ - مشروعية الاختبار وإجراء التحقيق مع المتهم.

٢ - مشروعية استخدام السلطان أفراد رعيته لكفاية المستخدم.

٣ - مشروعية إرسال العيون للتعرف على أحوال العدو وما يدور عنده.

٤ - مشروعية كتابة بسم الله الرحمٰن الرحيم في الرسائل والكتب الهامة ذات[1] البال لدلالتها على توحيد الله تعالى وأنه رحمٰن رحيم، وأنَّ الكاتب يكتب بإذن الله تعالى له بذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٢ ـ ٣٥]

(٣٢) ﴿أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي﴾: بينوا لي فيه وجه الصواب، وما هو الواجب اتخاذه إزاءه. ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾: أي قاضيته. ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾: أي تحضروني وتبدوا رأيكم فيه.

(٣٣) ﴿وَأُولُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: أي أصحاب قوة هائلة مادية وأصحاب بأس شديد في الحروب.

(٣٤) ﴿إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً﴾: أي مدينة وعاصمة ملك. ﴿أَفْسَدُوهَا﴾: أي خربوها إذا دخلوها عنوة بدون مصالحة. ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾: أي وكالذي ذكرت لكم يفعل مرسلو هذا الكتاب.

معنى الآيات:

(٣٢) ما زال السياق الكريم عن حديث قصر الملكة بلقيس وها هي ذي تقول لرجال دولتها ما حكاه تعالى عنها بقوله: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي[2] فِيٓ أَمْرِي﴾ أي أشيروا علي بما ترونه صالحًا ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا[3]﴾ أي قاضية باتّةً فيه ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ[4]﴾ أي تحضروني وتبدوا فيه وجهة نظركم. فأجابها رجالها بما أخبر تعالى به عنهم.

(٣٣) ﴿قَالُواْ نَحْنُ أُولُواْ قُوَّةٍ﴾ عسكرية من سلاح وعتاد وخبرة ﴿وَأُولُواْ بَأْسٍ[5] شَدِيدٍ﴾ عند خوضنا المعارك ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي[6] مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ به فأمري ننفذ إنا طوع يديك.

(٣٤) فأجابتهم بما حكاه الله تعالى عنها ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً﴾ أي مدينة عنوة بدون صلح. ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ أي خربوا معالمها وبدلوا وغيروا فيها، ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ بضربهم وإهانتهم وخلعهم من مناصبهم. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أصحاب هذا الكتاب ﴿يَفْعَلُونَ﴾.

(٣٥) ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ[7] بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝﴾ أي الذين نرسلهم من قبول الهدية ورفضها وعلى ضوء ذلك نتصرف فإنهم إن قبلوا الهدية المالية فهم أصحاب دنيا، وإن رفضوها فهم أصحاب دين، وعندها نتخذ ما يلزم حيالهم، ولا شك أن هذه الهدية كانت فاخرة وثمينة.

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ الشورى في الحكم.

٢ - مشروعية إبداء الرأي بصدق ونزاهة ثم ترك الأمر لأهله.

٣ - مشروعية إعداد العدة وتوفير السلاح وتدرب الرجال على حمله واستعماله.

٤ - دخول العدو المحارب الغالب البلاد عنوة ذو خطورة فلذا يتلافى الأمر بالمصالحة.

---

(١) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان يرى رد الكتاب واجبًا كرد السلام ولا يسقط إلاّ من عذر لا سيما إذا سلّم صاحب الكتاب فإن رد السلام واجب بلا خلاف.

(٢) الإفتاء: الإخبار بالفتوى وهي: إزالة مشكل يعرض، والأمر: الحال المهم وإضافته إلى نفسها، لأنها المخاطبة في كتاب سليمان، ولأنها المضطلعة بشؤون الدولة ولذا يقال للحاكم وعالم الدين: وليّ الأمر.

(٣) ﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾: عاملة عملًا لا تردد فيه بالعزم على أن تجيب به سليمان.

(٤) حذفت ياء المتكلم منه تخفيفًا، وحذفت نون الرفع للناصب وبقيت نون الوقاية والمراد من شهودهم: موافقتهم لها على ما تعزم عليه إزاء الكتاب.

(٥) البأس: الشدة على العدو، ومنه ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: في مواقع القتال في جوابهم هذا تصريح بأنهم مستعدون للحرب دفاعًا عن مملكتهم.

(٦) فوّضوا الأمر إليها لثقتهم بأصالة رأيها وخبرتها السياسية.

(٧) دبرت أن تتفادى الحرب بطريقة المصانعة والتزلف إلى سليمان بالهدية مصحوبة بكتاب ووفد، وعلى ضوء عودة الوفد تتصرف في الأمر.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

٥- بيان حسن سياسة الملكة بلقيس وفطنتها وذكائها ولذا ورثت عرش أبيها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦-٤٠]

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾: أي رسول الملكة يحمل الهدية ومعه أتباعه.

﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾: إنه أعطاني النبوة والملك وذلك خير مما أعطاكم من المال فقط.

﴿بِهَدِيَّتِكُمْ[1] تَفْرَحُونَ﴾: لحبكم للدنيا ورغبتكم في زخارفها.

(٣٧) ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾: أي بما أتيت به من الهدية.

﴿بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾: أي لا طاقة لهم بقتالها.

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾: أي من مدينتهم سبأ المسماة باسم رجل يقال له سبأ.

﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾: أي إن لم يأتوني مسلمين أي منقادين خاضعين.

(٣٨) ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾: فإنَّ لي أخذه قبل مجيئهم مسلمين لا بعده.

(٣٩) ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾: أي جني قوي إذ القوي الشديد من الجن يقال له عفريت. ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾: أي من مجلس قضائك وهو من الصبح إلى الظهر. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾: أي قوي على حمله أمين على ما فيه من الجواهر وغيرها.

(٤٠) ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾: أي سليمان عليه السلام.

معنى الآيات:

(٣٦) ما زال السياق الكريم مع سليمان وملكة سبأ إنه لما بعثت بهديتها تختبر بها سليمان هل هو رجل دنيا يقبل المال أو رجل دين، لتتصرف على ضوء ما تعرف من اتجاه سليمان عليه السلام، فلما جاء سليمان، جاءه سفير الملكة ومعه رجال يحملون الهدية قال لهم ما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ[2] بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ آتاني النبوة والعلم والحكم والملك فهو خير مما آتاكم من المال ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ[3] تَفْرَحُونَ﴾ وذلك لحبكم الدنيا ورغبتكم في زخارفها.

(٣٧) وقال لرسول الملكة: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي بما أتيت به من الهدية، وأعلمهم أنهم إن لم يأتوا إلي مسلمين ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا[4]﴾ أي لا قدرة لهم على قتالهم، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ أي من مدينتهم سبأ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي خاضعون منقادون.

(٣٨) ثم قال سليمان عليه السلام لأشراف دولته وأعيان بلاده ﴿يَا أَيُّهَا[5] الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي

---

(١) الهدية: منها ما هو حرام ومنها ما هو مكروه ومنها ما هو مباح أو مندوب، فالهدية الحرام: التي تُهدى للحاكم والقضاة ليحكموا لصاحبها والهدية المكروهة: هدية الكافر والهدية المباحة أو المندوب إليها: هدية المؤمن لأخيه المؤمن للمودة والحب، لحديث مالك وفيه: قال رسول الله ﷺ: **«تصافحوا يذهب الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء»** الشحناء العدواة والبغضاء.

(٢) أي: أتزيدونني إلى ما تشاهدونه من أموالي؟ والاستفهام للإنكار وقرأ الجمهور: ﴿أتمدونني﴾ بنونين. وقرأ بعضٌ بنون واحدة مشددة.

(٣) ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي من الإنكار عليهم إلى ردّ هديتهم إليهم.

(٤) الضمير في ﴿بِهَا﴾ عائد على الجنود والضمير في ﴿مِنْهَا﴾ عائد إلى مدينتهم وهي مأرب أو سبأ على مراحل قليلة من صنعاء.

(٥) هذا استئناف ابتدائي أي: كلام غير مرتبط بما سبقه بنوع من الارتباط قريب.

﴿مُسْلِمِينَ﴾ فإني لا آخذه إلا قبل مجيئهم مسلمين لا بعده.

(٣٩) فنطق عفريت من الجن قائلاً بما أخبر تعالى عنه به ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي مجلس قضائك والذي ينتهي عادة بنصف النهار، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أي قادر على حمله والإتيان به في هذا الوقت الذي حددت لكم وأمين على ما فيه من جواهر وذهب لا يضيع منه شيء.

(٤٠) وهنا ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ[١]﴾ وهو سليمان عليه السلام ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فافتح عينيك وانظر فلا يعود إليك طرفك إلا والعرش بين يديك، وسأل ربه باسمه الأعظم الذي ما دعي به إلا أجاب وإذا العرش بين يديه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾ بين يديه لهج قائلاً: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي علي فلم يكن لي به يد أبدًا ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ بذلك ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ نعمته علي ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ ﴿وَمَن شَكَرَ[٢]﴾ فلنفسه أي عائد الشكر يعود عليه بحفظ النعمة ونمائها ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي النعمة ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ أي عن شكره وليس مفتقرًا إليه، كريم قد يكرم الكافر للنعمة فلا يسلبها كلها منه أو يبقيها له على كفره.

هداية الآيات:

١ - أهل الآخرة لا يفرحون بالدنيا، وأهل الدنيا لا يفرحون بالآخرة.

٢ - استعمال أسلوب الإرهاب والتخويف مع القدرة على إنفاذه مع العدو أليق.

٣ - تقرير أن سليمان كان يستخدم الجن وأنهم يخدمونه في أصعب الأمور.

٤ - استجابة الله تعالى لسليمان فأحضر له العرش من مسافة شهرين أي من اليمن إلى الشام قبل ارتداد طرف الناظر إذا فتح عينه ينظر.

٥ - وجوب رد الفضل إلى أهله فسليمان قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ والجهال يقولون بثورتنا الخلافة، وأبطالنا البواسل.

٦ - وجوب الشكر، وعائدته تعود على الشاكر فقط، ولكرم الله تعالى قد لا يسلب النعمة فور عدم شكرها وذلك لحلمه تعالى وكرمه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ - ٤٤]

(٤١) ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾: أي غيروا هيأته وشكله حتى لا يعرف إلا بصعوبة. ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾: أي إلى معرفته.

(٤٢) ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾: شبهوا عليها إذ لو قالوا هذا عرشك لقالت نعم. ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾: فشبَّهت عليه فقالت كأنه هو.

(٤٣) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾: أي صرفها عن عبادة الله مع علمها وذكائها ما كانت تعبد من دون الله.

(٤٤) ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾: أي بهو الصرح إذ الصرح القصر العالي وفي بهوه بركة ماء كبيرة مغطاة بسقف زجاجي يرى وكأنه ماء. ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾: ظانة أنها تدخل ماء تمشي عليه فرفعت ثيابها. ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾: أي من ماء غمر يجري. ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾: أي مملّس من زجاج.

معنى الآيات:

(٤١) ما زال السياق الكريم فيما دار من أحاديث بين سليمان عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ، لقد خرجت هي في موكبها الملكي بعد أن احتاطت لعرشها أيما احتياط. إلا أن العرش وصل قبلها بدعوة الذي عنده علم من الكتاب، وقبل وصولها أراد سليمان أن يختبر عقلها من حيث الحصافة أو الضعف[٣] فأمر رجاله أن يغيروا عرشها بزيادة ونقصان فيه حتى لا يعرف إلا بصعوبة كما قال عليه السلام: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ إلى معرفته ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ لضعف عقولهم.

---

(١) قال القرطبي: جمهور المفسرين: أن الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن بريخا وقيل: هو سليمان عليه السلام، بقرينة قوله: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، قال ابن عطية وقالت فرقة: هو سليمان عليه السلام. والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لما قال: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وكأن سليمان استبطأ ذلك فقال له على التحقير: آنا آتيك به... إلخ. قيل: يا حي يا قيوم: هو الاسم الأعظم.

(٢) الشكر: قيد النعمة الموجودة وبه تنال النعمة المفقودة.

(٣) قيل: إن الجن قالوا لسليمان: إنها ضعيفة العقل فلذا أمر بتنكير عرشها ليختبر عقلها، وقالوا له: إن رجلها كرجل حمار فلذا امتحنها بدخول بهو الصرح لتكشف عن ساقها فيعرف ما قالت الجن عنها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

﴿٤٢﴾ فلما جاءت ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا[1] عَرْشُكِ﴾ فشبهوا عليها في التغيير وفي التعبير، إذ المفروض أن يقال لها هذا عرشك ومن هنا فطنت لتشبيههم فـ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ إذ لو قالت: هو لقالوا كيف يكون هو والمسافة مسيرة شهرين ولو قالت ليس هو لقيل لها كيف تجهلين سريرك، فكانت ذات ذكاء ودهاء، ومن هنا قال سليمان لما أعجب بذكائها: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ[2] مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ فحمد الله وأثنى عليه ضمن العبارة التي قالها.

﴿٤٣﴾ وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ اتباعًا لقومها إذ كانوا يعبدون الشمس من دون الله. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فهذا سبب عدم إيمانها وتوحيدها وهو ما كان عليه قومها، وجلس سليمان في بهو صرحه وكان البهو تحته بركة ماء عظيمة فيها أسماك كثيرة وللماء موج، وسقف البركة مملس من زجاج، ومع سليمان جنوده من الإنس والجن يحوطون به ويحفونه من كل جانب وأُمرت أن تدخل الصرح[3] لأن سليمان الملك يدعوها.

﴿٤٤﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء ﴿وَكَشَفَتْ[4] عَن سَاقَيْهَا﴾ فقال لها سليمان: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي مملّس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ زجاجية وهنا وقد بهرها الموقف وعرفت أنها كانت ضالة وظالمة نطقت قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وبهذا أصبحت مسلمة صالحة. ولم يذكر القرآن عنها بعد شيئًا فلنسكت عما سكت عنه القرآن.

هداية الآيات:

١ ـ جواز اختبار الأفراد إذا أريد إسناد أمر لهم لمعرفة قدرتهم العقلية والبدنية.

٢ ـ بيان حصافة عقل بلقيس ولذا أسلمت، ظهر ذلك في قولها: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾.

٣ ـ مضار التقليد وما يترتب عليه من التنكر للعقل والمنطق.

٤ ـ حرمة كشف المرأة ساقيها حتى ولو كانت كافرة فكيف بها إذا كانت مسلمة.

٥ ـ فضيلة الائتساء بالصالحين كما ائتست بلقيس بسليمان في قولها: ﴿٤٤﴾ ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٥ ـ ٤٩]

﴿٤٥﴾ ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أي بأن اعبدوا الله. ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾: أي طائفتان مؤمنة موحدة وكافرة مشركة يختصمون.

---

(١) الاستفهام للتقرير مع الاختبار وهو المقصود.

(٢) اختلف في قول: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ من قول سليمان أو أحد رجالاته أو هو من قول بلقيس، والراجح أنه من قول سليمان عليه السلام.

(٣) ﴿الصَّرْحَ﴾ البناء العالي: تقدم أن الجن هم الذين قالوا لسليمان: إن رجل بلقيس رجل حمار وطلبوا اختبارها وهم الذين صنعوا بركة الماء في بهو الصرح.

(٤) ذكر القرطبي هنا حكايات أكثرها منقول عن أهل الكتاب منها: أن الجن أول من صنعوا النورة لإزالة شعر الجسم، وأن سليمان عليه السلام أول من صنع الحمامات، وهذا يرفع إلى النبي ﷺ وذكر قولين أحدهما: أن سليمان تزوج بلقيس وآخر: لم يتزوجها.

(٤٦) ﴿تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾: أي تطالبون بالعذاب قبل الرحمة. ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾: أي هلا تطلبون المغفرة من ربكم بتوبتكم إليه.

(٤٧) ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾: أي تشاءمنا بك وبمن معك من المؤمنين. ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي ما زجرتم من الطير لما يصيبكم من المكاره عند الله علمه. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾: أي تختبرون بالخير والشر.

(٤٨) ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾: أي تسعة رجال ظلمة.

(٤٩) ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾: أي تحالفوا بالله أي طلب كل واحد من الثاني أن يحلف له. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾: أي لنقتلنه والمؤمنين به ليلاً. ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾: أي ما حضرنا قتله ولا قتل أهله.

معنى الآيات:

(٤٥) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ هذا بداية قصص صالح عليه السلام مع قومه ثمود لما ذكر تعالى قصص سليمان مع بلقيس ذكر قصص صالح مع ثمود وذلك تقريرًا لنبوة رسوله محمد ﷺ ووضع المشركين من قريش أمام أحداث تاريخية تمثل حالهم مع نبيهم لعلهم يذكرون فيؤمنوا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ﴾ أي قبيلة ثمود ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي في النسب ﴿صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا﴾ أي قال لهم اعبدوا الله أي وحدوه ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ موحدون ومشركون ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾[١] فريق يدعو إلى عبادة الله وحده وفريق يدعو إلى عبادة الأوثان مع الله وشأن التعارض أن يحدث التخاصم كل فريق يريد أن يخصم الفريق الآخر. وطالبوا صالحًا بالآيات ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أنك رسول إلينا مثل الرسل فردّ عليهم وقال:

(٤٦) ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ[٢] بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي تطالبونني بعذابكم ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ فالمفروض أن تطالبوا بالحسنة التي هي الرحمة لا السيئة التي هي العذاب. إن كفركم ومعاصيكم هي سبيل عذابكم، كما أن إيمانكم وطاعتكم هي سبيل نجاتكم وسعادتكم فبادروا بالإيمان والطاعة طلبًا لحسنة الدنيا والآخرة. إنكم بكفركم ومعاصيكم تستعجلون عذابكم ﴿لَوْلَا﴾[٣] أي هلا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ بترككم الشرك والمعاصي ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي كي ترحموا بعد هذا الوعظ والإرشاد.

(٤٧) كان جو ب القوم ما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا[٤] بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أي تشاءمنا بك وبأتباعك المؤمنين لك، فرد عليهم بقوله: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ما زجرتم من الطير لما يصيبكم من المكاره عند الله علمه وهو كائن لا محالة، وليست القضية تشاؤمًا ولا تيامنًا ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

(٤٨) وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي مدينة الحجر حجر ثمود تسعة رجال ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ[٥]﴾ بالكفر والمعاصي ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وهم الذين تمالؤوا على عقر الناقة ومن بينهم قُدَار بن سالف الذي تولى عقر الناقة.

(٤٩) هؤلاء التسعة نفر قالوا لبعضهم بعضًا في اجتماع خاص ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي ليقسم كل واحد منكم قائلاً والله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ أي صالحًا ﴿وَأَهْلَهُ﴾ أي أتباعه، أي لنأتينهم

---

(١) من الخصومة ما قصه الله تعالى في سورة الأعراف في قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦)﴾.

(٢) الاستفهام إنكاري، و(السيئة كالحسنة) صفة لمحذوف، والتقدير: لم تستعجلون بالحال السيئة قبل الحال الحسنة؟

(٣) (هلا) واطيرنا أداة تحضيض حضهم نبيهم على التوبة بالاستغفار والإقلاع عن الشرك والمعاصي رجاء أن يرحمهم الله تعالى فلا يعذبهم في الدنيا ولا في الآخرة.

(٤) كانت العرب أكثر الناس تطيرًا ﴿اطَّيَّرْنَا﴾ في الآية أصلها: تطيّرنا فقلبت التاء طاء لقرب مخرجها من الطاء وأدغمت في الطاء، وجيء بهمزة الوصل للتوصل إلى النطق بالساكن، والتطير معناه: التشاؤم وهو مأخوذ من الطير تطير يمينًا أو شمالاً فيتيمنون بذلك أو يتشاءمون.

(٥) الأرض: أرض ثمود وأل فيها: للعهد والرهط: العدد من الثلاثة إلى العشر كالنفر ومن بين هؤلاء: قدار بن سالف: عاقر الناقة

ليلاً فنقتلهم، ثم في الصباح ﴿لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي لولي دم صالح من أقربائه، والله ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ[1] أَهْلِهِۦ﴾ ولا مهلكه ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما نقسم عليه من أنا لم نشهد مهلك صالح ولا مهلك أصحابه.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة النبي ﷺ.

٢ - تقرير حقيقة أن الصراع بين الحق والباطل لا ينتهي إلا بانتهاء الباطل.

٣ - حرمة التشاؤم والتيامن كذلك، ولم يجز الشارع إلا التفاؤل لا غير.

٤ - العمل بمعاصي الله تعالى هو الفساد في الأرض، والعمل بطاعته هو الإصلاح في الأرض.

٥ - تقرير أن المشركين يؤمنون بالله ولذا يحلفون به، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام لشركهم في عبادة الله تعالى غيره من مخلوقاته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٠ - ٥٣]

(٥٠) ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾: أي دبروا طريقة خفية لقتل صالح والمؤمنين.

﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾: أي ودبرنا طريقة خفية لنجاة صالح والمؤمنين وإهلاك الظالمين. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: بأنا ندبر لهم طريق هلاكهم.

(٥٢) ﴿بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾: أي فارغة ليس فيها أحد. ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾: أي بسبب ظلمهم وهو الشرك والمعاصي. ﴿لَءَايَةً﴾: أي عبرة.

(٥٣) ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي صالحًا والمؤمنين.

معنى الآيات:

(٥٠) قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾[2] هذا نهاية قصص صالح مع ثمود تقدم أن تسعة رهط من قوم صالح تقاسموا على تبييت صالح والمؤمنين وقتلهم ليلاً ليحولوا في نظرهم دون وقوع العذاب الذي واعدهم به صالح وأنه نازل بهم بعد ثلاثة أيام، وهذا مكرهم وطريقة تنفيذه أنهم أتوا صالحًا وهو يصلي في مسجد له تحت الجبل فسقطت عليهم صخرة من الجبل فأهلكتهم أجمعين وهكذا مكر الله بهم وهم لا يشعرون به، ثم أهلك الله القوم كلهم بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

(٥١) وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ[3] كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ أي انظر يا رسولنا كيف كانت نهاية ذلك المكر وعاقبته ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ[4] وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(٥٢) ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ[5] خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ أي بسبب ظلمهم أنفسهم بالشرك وظلمهم صالحًا والمؤمنين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي الإهلاك للرهط التسعة ولثمود قاطبة ﴿لَءَايَةً﴾ أي علامة على قدرة الله وعلمه وحسن تدبيره ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إذ هم الذين يرون الآية ويدركونها.

(٥٣) وقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ[6]﴾ يريد صالحًا والمؤمنين الذين آمنوا بالله ربًا وإلهًا وبصالح نبيًا ورسولاً. وكانوا طوال حياتهم يتقون عقاب الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله في الأمر والنهي.

---

(١) قرأ الجمهور: ﴿مُهلك﴾ بضم الميم، وقرأ حفص: ﴿مَهْلِكَ﴾ بفتحها، والمهلك: مصدر ميميّ من الرباعي أهلك، أي: ما شهدنا إهلاك من أهلكهم والمراد من وليّه: وليّ الدم من عصبته. قرأ الجمهور: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ وقرأ خلاف الجمهور: ﴿لنبيته﴾ ﴿ولتقولن﴾ بتاء الخطاب وهو قول الماكرين لبعضهم البعض، والمعنى لا يختلف.

(٢) أُكد كلّ من مكر الله تعالى ومكرهم بالمصدر إشارة إلى تعظيم كل من المكرين والمكر: التبييت الخفي لإرادة السوء بالممكور به فعاملهم الله تعالى بما عزموا على فعله مع صالح وأهله.

(٣) النظر هنا: قلبي ليس بصريًا لعدم وجود الهلكى بين يدي الناظر.

(٤) قرىء: ﴿إنا﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف البياني، وقرىء: ﴿أَنَّا﴾ بفتح الهمزة، فمن فتح الهمزة لا يحسن له الوقف على مكرهم، ومن كسر الهمزة جاز له الوقف على مكرهم.

(٥) بيوتهم المنحوتة من الجبال ما زالت إلى اليوم، وقد وقفنا عليها وهي عجب في فن البناء والنحت.

(٦) زيادة كان في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ للدلالة على أنهم كانوا متمكّنين من التقوى التي هي فعل المأمور واجتناب الشرك والمنهي عنه من اعتقاد وقول وعمل وصفة.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير قاعدة: (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله).

٢ ـ تقرير أن ديار الظالمين مآلها الخراب فالظلم يذر الديار بلاقع.

٣ ـ تقرير أن الإيمان والتقوى هما سبب النجاة لأن ولاية الله للعبد تتم بهما.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٤، ٥٥]

(٥٤) ﴿وَلُوطًا﴾: أي واذكر لقومك لوطًا إذ قال لقومه. ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾: هم سكان مدن عمورية وسدوم. ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أي الخصلة القبيحة الشديدة القبح وهي اللواط. ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾: إذ كانوا يأتونها في أنديتهم عيانًا بلا ستر ولا حجاب.

(٥٥) ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: أي قبح ما تأتون وما يترتب عليه من خزي وعذاب.

معنى الآيتين:

(٥٤) هذا بداية قصص لوط عليه السلام مع قومه اللوطيين فقال تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾[١] أي واذكر كما ذكرت صالحًا وقومه اذكر لوطا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾[٢] منكرًا عليهم موبخًا مؤنبًا لهم على فعلتهم الشنعاء ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي قبحها وشناعتها ببصائركم وبأبصاركم حيث كانوا يأتونها علنًا وعيانًا وهم ينظرون.

(٥٥) وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾[٣] ﴿ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لا للعفة والإحصان ولا للولد والإنجاب بل لقضاء الشهوة البهيمية فشأنكم شأن البهائم لا غير. وفي نفس الوقت آذيتم نساءكم حيث تركتم إتيانهن فهضمتم حقوقهن. وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٤] أي قال لهم لوط عليه السلام أي ما كان ذلك الشر والفساد منكم إلا لأنكم قوم سوء جهلة بما يجب عليكم لربكم من الإيمان والطاعة وما يترتب على الكفر والعصيان من العقاب والعذاب.

هداية الآيتين:

١ ـ بيان ما كان عليه قوم لوط من الفساد والهبوط العقلي والخلقي.

٢ ـ تحريم فاحشة اللواط وأنها أقبح شيء وأن فاعلها أحط من البهائم.

٣ ـ بيان أن الجهل بالله تعالى وما يجب له من الطاعة، وبما لديه من عذاب وما عنده من نعيم مقيم هو سبب كل شر في الأرض وفساد. ولذا كان الطريق إلى إصلاح البشر هو تعريفهم بالله تعالى حتى إذا عرفوه وآمنوا به أمكنهم أن يستقيموا في الحياة على منهج الإصلاح المهيء للسعادة والكمال.

الجزء العشرون

الجزء العشرون — سورة النمل

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)﴾

٣٨٢

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٦ ـ ٥٨]

(٥٦) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾: أي لم يكن لهم من جواب إلا قولهم

---

(١) أي: اذكر لوطًا أو: أرسلنا لوطًا، الكل محتمل وجائز.

(٢) هم أهل سدوم وعمورية.

(٣) أعاد ذكرها لفرط قبحها وشناعتها، والاستفهام للإنكار والتقبيح لفعلتهم الشنعاء.

(٤) ﴿تَجْهَلُونَ﴾: إمّا أمر التحريم أو العقوبة، ووصفهم بالجهل، وهو اسم جامع لأحوال أفن الرأي وقساوة القلب وعماه، ووصفهم في الأعراف بالإسراف وذلك نظرًا إلى تعدد مواقف الوعظ والإرشاد.

أخرجوا. ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾: هم لوط عليه السلام وامرأته المؤمنة وابنتاه. ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾: أي مدينتكم سدوم. ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾: أي يتنزهون عن الأقذار والأوساخ.

(٥٧) ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: أي حكمنا عليها أن تكون من الهالكين.

(٥٨) ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾: أي قبح مطر المنذرين من أهل الجرائم أنه حجارة من سجيل.

معنى الآيات:

(٥٦) هذه بقية قصص لوط عليه السلام إنه بعد أن أنكر لوط عليه السلام على قومه فاحشة اللواط وأنَّبهم عليها، وقبَّح فعلهم لها أجابوه مهددين له بالطرد والإبعاد من القرية كما أخبر تعالى عن ذلك بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي لم يكن لهم من جواب يردون به على لوط عليه السلام ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ أي إلا قولهم: ﴿أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾. وعللوا لقولهم هذا بقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ[1] يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي يتنزهون عن الفواحش. قالوا هذا تهكمًا، لا إقرارًا منهم على أن الفاحشة قذر يجب التنزه عنه. ولما بلغ بهم الحد إلى تهديد نبي الله لوط عليه السلام بالطرد والسخرية منه أهلكهم الله تعالى وأنجى لوطًا وأهله إلا إحدى امرأتيه وكانت عجوزًا كافرة وهو

معنى قوله تعالى في الآية (٥٧): (٥٧) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ[2]﴾ حكمنا ببقائها مع الكافرين لتهلك معهم.

(٥٨) وقوله تعالى في الآية (٥٨): ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ هو بيان لكيفية إهلاك قوم لوط بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود فأهلكهم. ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾[3] أي قبح هذا المطر من مطر المنذَرين الذين كذبوا بما أنذروا به وأصروا على الكفر والمعاصي. وهذا المطر كان بعد أن جعل الله عاليَ بلادهم سافلها، أردف خسفها بمطرٍ من حجارة لتصيب من كان بعيدًا عن المُدُن.

هداية الآيات:

١ ـ بيان سنة أن الظلمة إذا أعيتهم الحجج والبراهين يفزعون إلى القوة.

٢ ـ بيان سنة أن المرء إذا أدمن على قبح قول أو عمل يصبح غير قبيح عنده.

٣ ـ سنة إنجاء الله أولياءه وإهلاكه أعداءه بعد إصرار المنذَرين على الكفر والمعاصي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٩ ـ ٦٤]

(٥٩) ﴿اصْطَفَى﴾: أي اختارهم لحمل رسالته وإبلاغ دعوته. ﴿ءَاللَّهُ خَيْرٌ﴾: أي لمن يعبده.

(٦٠) ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾: أي بساتين ذات منظر حسن لخضرتها وأزهارها. ﴿يَعْدِلُونَ﴾: أي بربهم غيره من الأصنام والأوثان.

(٦١) ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾: أي قارة ثابتة لا تتحرك ولا تضطرب بسكانها. ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾: أي جعل الأنهار العذبة تتخللها للشرب والسقي. ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾: أي جبالاً أرساها بها حتى لا تتحرك ولا تميل. ﴿بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾: أي فاصلاً لا يختلط أحدهما بالآخر.

(٦٢) ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾: أي الضر، المرض وغيره. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: أي ما تتعظون إلا قليلا.

(٦٣) ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾: أي مبشرة بين يدي المطر إذ الرياح تتقدم ثم باقي المطر.

(٦٤) ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: أي يبدؤه في الأرحام، ثم يعيده يوم القيامة. ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: أي حجتكم إن كنتم صادقين أن مع الله إلهًا آخر فعل ما ذكر.

معنى الآيات:

لما أخبر الله تعالى رسوله بإهلاك المجرمين ونجاة المؤمنين أمر تعالى رسوله أن يحمده على ذلك تعليمًا له ولأمته إذا تجددت لهم نعمة أن يحمدوا الله تعالى عليها ليكون ذلك من شكرها.

---

(١) أي: عن أدبار الرجال استهزاءً منهم: قاله مجاهد، وقال قتادة: عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء.

(٢) ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ قال ابن كثير: أي: من الهالكين مع قومها لأنها كانت ردءًا لهم على دينهم وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم.

(٣) الذين قامت عليهم الحجة ووصل إليهم الإنذار فخالفوا الرسول وكذبوه وهمّوا بإخراجه من بينهم.

(٥٩) قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ[1] لِلَّهِ﴾ أي الوصف بالجميل لله استحقاقًا. ﴿وَسَلَٰمٌ[2] عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ[3]﴾ الله لرسالته وإبلاغ دعوته إلى عباده ليعبدوه فيكملوا ويسعدوا على ذلك في الحياتين. وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ[4] خَيْرٌ أَمَّا[5] يُشْرِكُونَ﴾ أي آالله الخالق الرازق المدبر القوي المنتقم من أعدائه المكرم لأوليائه؛ عبادته خير لمن يعبده بها أم عبادة من يشركون. (٦٠) فقوله: ﴿أَمَّنْ[6] خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي لحاجتكم إليه غسلاً وشربًا وسقيا ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي بساتين محدقة بالجدران والحواجز ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي حسن وجمال، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ أي لم يكن في استطاعتكم أن تنبتوا شجرها ﴿أَءِلَٰهٌ[7] مَّعَ ٱللَّهِ﴾ لا والله ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي يشركون بربهم أصنامًا ويُسوُّونها به في العبادات. (٦١) وقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا[8]﴾ أي قارة ثابتة لا تتحرك بسكانها ولا تضطرب بهم فيهلكوا. ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي فيما بينها. ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالاً تثبتها، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والملح ﴿حَاجِزًا[9]﴾ حتى لا يختلط الملح بالعذب فيفسده.

الجزء العشرون — سورة النمل

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦)

٣٨٣

---

(١) قال بعضهم: المأمور به هو رسول الله ﷺ.

(٢) أصل السلام: السلامة والأمن ثابتان لمن يسلم عليه عند ملاقاته إذ قد يكون بينهما إحن فكان لفظ السلام كالعهد بالأمان، وقيل: السلام عليكم: كانت تحية البشر في عهد آدم عليه السلام.

(٣) قال بعضهم: الذين اصطفوا هم أمة محمد ﷺ، وقيل: هم الصحابة وردّ هذا بما هو الحق وهو (أن الذين اصطفوا) هم: رسل الله عليهم السلام وفي الآية تعليم أدب رفيع وهو أن من افتتح كلامه مذكرًا أو واعظًا أو معلمًا دارسًا يفتتح كلامه بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله محمد ﷺ.

(٤) ﴿ءَآللَّهُ﴾: الاستفهام تقريري وهو إلجاء المخاطب إلى الإقرار، وخير هنا: ليست بمعنى أفضل، إذ لا خير البتة في آلهة المشركين وإنما من باب إيهام الخصم بأنه يعترف له بما يعتقده من خيرٍ في إلهه، حتى يُصْغي ويسمع ويتأمل علّه يهتدي أو هو مثل قول الشاعر:

أتهجوه ولست به بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

(٥) ﴿أَمَّا﴾ أصلها: أم المعادلة للهمزة وما: الموصولية أدغمت فيها أم فصارت أمّا والعائد محذوف تقديره: تشركونها، أي: آلهتهم بالله تعالى.

(٦) (أم) المنقطعة بمعنى بل للإضراب الانتقالي التهكمي للاستفهام التقريري أي: الذي خلق السماوات وما عطف عليها خير وأحق بالعبادة.

(٧) هذا استئناف كالنتيجة للكلام قبلها لأن إثبات الخلق والرزق لله تعالى بدليل لا يسعهم إلا الإقرار به ينتج أنه لا إله معه، والاستفهام إنكاري أي: إنكار وجود إله مع الله الخالق الرازق والجواب: لا إله مع الله.

(٨) القرار: مصدر قرّ يقرّ قرارًا: الشيء إذا سكن وثبت، وصفت الأرض بالقرار مبالغة في سكونها وثباتها حيث لا تتحرك ولا تضطرب بأهلها على مدى الحياة في حين أنها سابحة في الفضاء متحركة فيه كل لحظة فسبحان الله العلي القدير العزيز الحكيم.

(٩) إنّ هذا الحاجز ليس جسمًا غير الماء إنما هو تفاوت الثقل النسبي لاختلاف أجزاء الماء المركب منها الماء المالح والماء العذب، فالحاجز حاجز من طعميهما وليس جسمًا آخر فاصلاً بينهما.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ والجواب: لا والله. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولو علموا لما أشركوا بالله مخلوقاته.

(٦٢) وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ[1] إِذَا دَعَاهُ﴾ أي ليكشف ضره ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي يبعده، والسوء هو ما يسوء المرء من مرض وجوع وعطش وقحط وجدب. ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ جعل جيلاً يخلف جيلاً وهكذا الموجود خلف لمن سلف وسيكون سلفًا لمن خلف ﴿أَءِلَٰهٌ[2] مَّعَ ٱللَّهِ﴾ والجواب لا إله مع الله ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما تتعظون إلا قليلاً بما تسمعون وترون من آيات الله.

(٦٣) وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ في الليل بالنجوم وفي النهار بالعلامات الدالة والهادية إلى مقاصدكم ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي من يثير الرياح ويرسلها تتقدم المطر وتبشر به؟ لا أحد غير الله إذًا.. ﴿مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى﴾. والجواب: لا، لا.. الله وحده الإله الحق وما عداه فباطل.

وقوله تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزه تعالى نفسه عن شرك المشركين أصنامًا لا تبدىء ولا تعيد ولا تخلق ولا ترزق ولا تعطي ولا تمنع.

(٦٤) وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي نطفًا في الأرحام، ثم بعد حياته يميته، ثم يعيده وهو معنى ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنبات. والجواب: الله إذًا ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ والجواب: لا، لا وإن قلتم هناك آلهة مع الله ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي حججكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن غير الله يفعل شيئًا مما ذُكر في هذا السياق الكريم.

هداية الآيات:

١ - وجوب حمد الله وشكره عند تجدد الشكر، والحمد لله رأس الشكر.

٢ - مشروعية السلام عند ذكر الأنبياء عليهم السلام فمن ذكر أحدهم قال عليه السلام.

٣ - التنديد بالشرك والمشركين.

٤ - تقرير التوحيد بأدلته الباهرة العديدة.

٥ - تقرير عقيدة البعث الآخر وإثباتها بالاستنباط من الأدلة المذكورة.

٦ - لا تثبت الأحكام إلا بالأدلة النقلية والعقلية.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٥ ـ ٦٩]

(٦٥) ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: الملائكة والناس. ﴿ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: أي ما غاب عنهم ومن ذلك متى قيام الساعة إلا الله فإنه يعلمه. ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: أي متى يبعثون.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي تلاحق وهو ما منهم أحد إلا يظن فقط فلا علم لهم بالآخرة بالمرة. ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾: أي في عمى كامل لا يبصرون شيئًا من حقائقها.

(٦٧) ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾: أي أحياء من قبورنا.

(٦٨) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾: أي البعث أحياء من القبور. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي أكاذيبهم التي سطروها في كتبهم.

(٦٩) ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أي المكذبين بالبعث كانت دمارًا وهلاكًا وديارهم الخاوية شاهدة بذلك.

معنى الآيات:

(٦٥) قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لما سأل المشركون من قريش النبي ﷺ عن الساعة أمره تعالى أن يجيبهم بهذا الجواب ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾ إلخ.. والساعة من جملة الغيب بل هي أعظمه. ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من الناس ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾[3] أي لكن الله تعالى يعلم غيب السموات والأرض أما غيره فلا

---

(١) قال ابن عباس: المضطر هو: ذو الضرورة المجهود، والضرورة هي: الحال المحوجة إلى الأشياء العسرة الحصول كالجوع والمرض والخوف ونحوهما من العزوبة وقلّة ذات اليد.

(٢) الاستفهام توبيخي إنكاري أي: إنكار أن يكون مع الله إله آخر لما قام على ذلك من الأدلة والحجج المذكورة، وإله مرفوع بما تعلّق به الظرف أو بإضمار يفعل ذلك أي: أإلَهٌ مع الله يفعل ذلك.

(٣) أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قولها: من زعم أنّ محمدًا يعلم ما في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول:

يعلم إلا ما علمه الله علام الغيوب. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي وما يشعر أهل السموات وأهل الأرض متى يبعث الأموات من قبورهم للحساب والجزاء وهذا كقوله تعالى في سورة الأعراف:

من سورة الأعراف ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

(٦٦) وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ[1] عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قرىء ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي بلغ حقيقته يوم القيامة إذ يصبح الإيمان بها الذي كان غيبًا شهادة ولكن لا ينفع صاحبه يومئذ. وقرىء ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي علم المشركين بالآخرة. أي تلاحق وأدرك بعضه بعضًا وهو أنه لا علم لهم بها بالمرة. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ[2]﴾ أي لا يرون شيئًا من دلائلها، ولا حقائقها بالمرة ويدل على هذا ما أخبر به تعالى عنهم من أنهم لا يؤمنون بالساعة بالمرة في قوله:

(٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا[3] كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝﴾ أي من قبورنا أحياء. والاستفهام للإنكار الشديد ويؤكدون إنكارهم هذا بقولهم:

(٦٨) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل أن يعدنا محمد. ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي الوعد بالبعث والجزاء ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أكاذيبهم وحكاياتهم التي يسطرونها في الكتب ويقرؤونها على الناس. وقوله تعالى في آخر آية من هذا السياق (٦٩): ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قل لهم يا رسولنا سيروا في الأرض جنوبًا أو شمالاً أو غربًا[4].

(٦٩) ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي أهلكناهم لما كذبوا بالبعث كما كذبتم، فالقادر على خلقهم ثم إماتتهم قادر قطعًا على بعثهم وإحيائهم لمحاسبتهم وجزائهم بكسبهم. فالبعث إذًا ضروري لا ينكره ذو عقل راجح أبدًا.

هداية الآيات:

١ - حصر علم الغيب في الرب تبارك وتعالى. فمن ادعى أنه يعلم ما في غد فقد كذب[5].

٢ - تساوي علم أهل السماء والأرض في الجهل بوقت قيام الساعة.

٣ - المكذبون بيوم القيامة سيوقنون به في الآخرة ولكن لا ينفعهم ذلك.

٤ - إهلاك الله الأمم المكذبة بالبعث بعد خلقهم ورزقهم دليل على قدرته تعالى على بعثهم لحسابهم وجزائهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٠ - ٧٥]

(٧٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: المراد به تسلية الرسول ﷺ. ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: أي بك إذ حاولوا قتله ولم يفلحوا.

(٧١) ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: أي بعذابنا.

(٧٢) ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾: وقد حصل لهم في بدر.

(٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي في خلقهم ورزقهم وحفظهم وعدم إنزال العذاب بهم.

(٧٤) ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: أي ما تخفيه وتستره صدورهم.

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾: أي ما من حادثة غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين هو اللوح المحفوظ مدونة فيه مكتوبة.

= ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وذكر القرطبي ما خلاصته: أنّ منجمًا أتي به إلى الحجاج فاعتقله ثم أخذ حصيات فعدّها وقال للمنجّم: كم من حصيات في يدي فأخبره بعددها، ثم أخذ أخرى ولم يعدها وسأل المنجم عنها فلم يعرف عددها وكرر هذا ثلاث مرات فلم يعرف المنجم فسأله كيف عرفت في الأولى ولم تعرف في غيرها؟ قال: لأنك لما عددتها خرجت من الغيب فعلمتها أمّا الغيب فلا يعلمه إلا الله.

(١) أصل: ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾: تدارك فسكنت التاء وأدغمت في الدال وجلبت همزة الوصل فصارت: ادّارك.

(٢) ﴿عَمُونَ﴾ أصلها: عميون: حذفت الياء وضمت الميم تخفيفًا، والمفرد عم.

(٣) قرأ نافع: ﴿إذا كنا﴾ بدون همزة استفهام، وبتسهيل همزة أينا، وقرأ حفص بهمزتين محققتين: ﴿أءِذَا﴾ و﴿أَئِنَّا﴾.

(٤) جنوبًا حيث ديار عاد، وشمالاً حيث ديار ثمود، وغربًا حيث مدين والمؤتفكات.

(٥) شاهده حديث مسلم عن عائشة رضي الله عنها وقد تقدم آنفًا.

معنى الآيات:

ما زال السياق في دعوة المشركين إلى التوحيد والإيمان بالنبوة والبعث الآخر ولقد تقدم تقرير كل من عقيدة التوحيد بأدلة لا تُرد، وكذا تقرير عقيدة البعث والجزاء ولكن المشركين ما زالوا يعارضون ويمانعون بل ويمكرون فلذا نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن الحزن على المشركين في عدم إيمانهم كما نهاه عن ضيق[1] صدره مما يمكرون[2] ويكيدون له ولدعوة الحق التي يدعو إليها. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٧٠) وأما الآية الثانية والثالثة فإنه تعالى يخبر رسوله ﷺ بما يقول أعداؤه ويلقنه الجواب.

(٧١) فقال تعالى: (٧١): ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ[3] هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي بالعذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ـ فيما تقولون وتعدون.

(٧٢) ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي اقترب[4] منكم ودنا وهو ما حصل لهم في بدر من الأسر والقتل هذا ما دلت عليه الآيتان (٧١ و٧٢).

(٧٣) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[5] مؤمنهم وكافرهم إذ خلقهم ورزقهم وعافاهم ولم يهلكهم بذنوبهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فها هم أولاء يستعجلون العذاب ويطالبون به ومع هذا يمهلهم لعلهم يتوبون، وهذا أعظم فضل.

(٧٤) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ[6] صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي لا يخفى عليه من أمرهم شيء وسيحصي لهم أعمالهم ويجزيهم بها وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد لهم وتهديد.

(٧٥) وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ[7] فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾. وهو اللوح المحفوظ أي إن علم ربك أحاط بكل شيء ولا يعزب عنه شيء وهذا مظهر من مظاهر العلم الإلهي المستلزم للبعث والجزاء، إذ لو قلّ علمه بالخلق لكان من الجائز أن يترك بعضًا لا يبعثهم ولا يحاسبهم ولا يجزيهم.

هداية الآيات:

١ - تسلية الرسول ﷺ لأنه يعاني شدة من ظلم المشركين وإعراضهم.
٢ - بيان تعنت المشركين وعنادهم.
٣ - تحقق وعد الله للمشركين حيث نزل بهم بعض العذاب الذي يستعجلون.
٤ - بيان فضل الله تعالى على الناس مع ترك أكثرهم لشكره سبحانه وتعالى.
٥ - بيان إحاطة علم الله بكل شيء.
٦ - إثبات وتقرير كتاب المقادير، وهو اللوح المحفوظ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٦ ـ ٨١]

(٧٦) ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي يذكر أثناء آياته كثيرًا مما اختلف فيه بنو إسرائيل.

(٧٧) ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي به تتم هداية المؤمنين ورحمتهم.

---

(١) الضِّيق: بفتح الضاد وكسرها قَرَأَهُ الجمهور بالفتح، وقرأ غيرهم بالكسر وحقيقة الضيق: عدم اتساع المكان أو الوعاء لما يراد إدخاله فيه، والمراد به هنا الحالة الحرجة التي تعرض للنفس عند كراهية شيء فيحس بضيق في صدره.

(٢) ومن أعظم مكرهم به ﷺ حكمهم الجائر بقتله في مكة لولا أنّ الله أنجاه منهم.

(٣) الاستفهام للإنكار والاستبعاد، والآية نزلت في المستهزئين الذين هلكوا ببدر.

(٤) هذا تفسير لـ ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ يقال: ردفه وأردفه: إذا تبعه كتبعه واتبعه وردفه وردف له بمعنى قال الشاعر:

عاد السواد بياضًا في مفارقه ... لا مرحبًا ببياض الشيب إذ ردف

والشاهد في ردف وأردف: إذا تبع، وقال آخر:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ... ظننت بآل فاطمة الظنونا

(٥) في إدرار الرزق وتأخير العقوبة.

(٦) قرئ: ﴿تكن﴾ من كن الشيء يكنه إذا ستره، وقرأ الجمهور: ﴿تُكِنُّ﴾ من أكنّ الشيء إذا ستره أيضًا.

(٧) قال الحسن: الغائبة هنا: القيامة، وهو حق ولكن اللفظ أعم إذ هو يشمل كل غيب وهو ما غاب عن الخلق في الأرض أو في السماء، فالله تعالى يعلمه وكيف لا، وقد كتبه في كتاب المقادير؟ والغائبة: اسم للشيء الغائب، والتاء فيه للنقل من الوصفية إلى الاسمية كالتاء في الفاتحة، والعاقبة، والمراد ما غاب عن علم الناس، واشتقاقه من الغيب ضدّ الحضور.

وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

(٧٨) ﴿يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾: أي يحكم بين بني إسرائيل بحكمه العادل. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾: الغالب على أمره، العليم بخلقه.

(٧٩) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أي ثق فيه وفوض أمرك إليه.

(٨٠) ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: أي لو أردت أن تسمعهم لأنهم موتى. ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾: أي ولا تقدر على إسماع كلامك الصم الذين فقدوا حاسة السمع. ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾: أي إذا رجعوا مدبرين عنك غير ملتفتين إليك.

(٨١) ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي ما تسمع إلا من يؤمن بآيات الله.

معنى الآيات:

(٧٦) قوله تعالى: ﴿إِنَّ[1] هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الكريم الذي أُنزل على محمد ﷺ ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ المعاصرين لنزوله ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كاختلافهم في عيسى عليه السلام ووالدته، إذ غلا فيهما البعض وأفرطوا فألَّهوهما وفرط فيهما البعض فقالوا في عيسى ساحر، وفي مريم عاهرة لعنهم الله، وكاختلافهم في صفات الله تعالى وفي حقيقة المعاد، وكاختلافهم في مسائل شرعية وأخرى تاريخية.

(٧٧) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى[2] وَرَحْمَةٌ﴾ أي وإن القرآن الكريم لهدى، أي لهادٍ لمن آمن به إلى سبيل السلام ورحمة شاملة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] به، العاملين بما فيه من الشرائع والآداب والأخلاق.

(٧٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي أيها الرسول ﴿يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي بين الناس من وثنيين وأهل كتاب يوم القيامة بحكمه[4] العادل الرحيم، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي ينفذ حكمه فيمن حكم له أو عليه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالمحقين من المبطلين من عباده فلذا يكون حكمه أعدل وأرحم ولذا.

(٧٩) ﴿فَتَوَكَّلْ[5] عَلَى ٱللَّهِ﴾ أيها الرسول بالثقة فيه وتفويض أمرك إليه فإنه كافيك. وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي إنك يا رسولنا على الدين الحق الذي هو الإسلام وخصومك على الباطل فالعاقبة الحسنى لك، لا محالة.

(٨٠) وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ والكفار موتى بعدم وجود

---

(١) هذا الكلام مستأنف استئنافًا بيانيًا إذ هو جواب لكل شاك في توحيد الله وفي البعث الآخر وفي نبوة رسوله محمد ﷺ فمن قال: كيف يكون لا إله إلا الله وكيف يكون البعث وكيف يكون محمد رسولاً؟ فالجواب: أنّ هذا القرآن العظيم أكبر برهان وأعظم دليل على صدق تلك القضايا الثلاث: التوحيد، والبعث، والنبوة.

(٢) هذا التوكيد بأنّ في المواطن الثلاثة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ و﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾ و﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي﴾ تطلبه الابتداء من جهة وشأن الإخبار من جهة أخرى. لأنّ عادة الإنسان إذا أخبر بخبر ذي شأن يتساءل في نفسه عن صحته وعدمها فيتعين التأكيد له.

(٣) خصّ المؤمنون بالذكر دون الكافرين لأنهم هم المنتفعون به.

(٤) جائز أن يكون المراد من الحكم: الحكمة، أي: يحكم بينهم بالحكمة التي تضع كلّ شيء في موضعه فلا يحدث حيف ولا جور. وإطلاق الحكم على الحكمة كثير في القرآن منه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ويجوز أن يكون الحكم على ظاهره أو يحكم بينهم بحكمه المعروف بالعدل والنزاهة من الحيف والجور والخطأ.

(٥) الفاء تفريعية أي: فبناء على عزّة الله وعلمه فتوكل عليه ولا تخف فإنه لعزته وعلمه لا يضيعك ولا يهمل شأنك.

روح الإيمان في أجسامهم والميت لا يسمع فلذا لا تقدر على إسماع هؤلاء الكافرين الأموات[(١)]، كما أنك ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ أي الفاقدين لحاسة السمع ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ أي دعاءك ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ أي إذا رجعوا مدبرين غير ملتفتين إليك.

(٨١) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ التي يعيشون عليها فهوّن على نفسك ولا تكرب ولا تحزن ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي ما تسمع إسماع تفهم وقبول إلا المؤمنين بآيات الله، ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي فهم من أجل إيمانهم مسلمون أي منقادون خاضعون لشرع الله وأحكامه.

هداية الآيات:

١ - شرف القرآن وفضله.

٢ - لن ينتهي خلاف اليهود والنصارى إلا بالإسلام فإذا أسلموا اهتدوا للحق وانتهى كل خلاف بينهم.

٣ - كل خلاف بين الناس اليوم سيحكم الله تعالى بين أهله يوم القيامة بحكمه العادل ويوفى كلا ما له أو عليه وهو العزيز العليم.

٤ - الكفار أموات لخلو أبدانهم من روح الإيمان فلذا هم لا يسمعون الهدى ولا يبصرون الآيات مهما كانت واضحات.

فعلى داعيهم أن يعرف هذا فيهم وليصبر على دعوتهم ودعاويهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٢ - ٨٦]

(٨٢) ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: أي حق عليهم العذاب. ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: حيوان يدب على الأرض لم يرد وَصْفُها في حديث صحيح يعول عليه ويقال به[(٢)]. ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾: بلسان يفهمونه لأنها آية من الآيات. ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾: أي بسبب أن الناس أصبحوا لا يؤمنون بآيات الله وشرائعه أي كفروا فيبلون بهذه الدابة.

(٨٣) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾: أي اذكر يوم نحشر أي نجمع. ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾: أي طائفة وهم الرؤساء المتبوعون في الدنيا. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي يجمعون برد أولهم على آخرهم.

(٨٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾: أي الموقف مكان الحساب.

(٨٥) ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾: أي حق عليهم العذاب. ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾: أي بسبب الظلم الذي هو شركهم بالله تعالى. ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي لا حجة لهم.

(٨٦) ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: أي يبصر فيه من أجل التصرف في الأعمال.

معنى الآيات:

(٨٢) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي حق العذاب على الكافرين حيث لم يبق في الأرض من يأمر بمعروف ولا من ينهى عن منكر ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ﴾ لفتنتهم ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ حيوان أرضي ليس بسماوي ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي بلسان يفهمونه، ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ[(٣)] كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ هذه علة تكليمهم وهي بأن الناس كفروا

---

(١) احتجت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية على عدم إسماع النبي ﷺ موتى بدر لما قيل لها في ذلك وردّ عليها قولها إذ استعملت القياس العقلي مع وجود النص ولا قياس مع النص فقد صح أنه ﷺ ناداهم وهم في القليب وقال لهم: «**أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟**» فقيل: يا رسول الله: ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**» قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخًا وتصغيرًا ونقمة وحسرة وندمًا وقد خصصت هذه الآية بسماع أهل القبور سلام من سلّم عليهم.

(٢) مثل تلك الأحاديث: حديث حذافة ونصه: كما رواه أبو داود الطيالسي قال: (ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: «**لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج في أقصى البادية ولا ويدخل ذكرها القرية** - مكة - **ثم تكمن زمانًا ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشوا ذكرها في البادية يدخل ذكرها القرية**» يعني مكة. قال رسول الله ﷺ: «**ثم بينا الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس منها شتى ومعًا وثبتت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله، فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري، وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إنّ الرجل ليعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول: يا فلان الآن تصلي فتقبل عليه فتسمُه في وجهه ثم تنطلق فتميز الكافر من المؤمن**»).

(٣) قرأ نافع بكسر: ﴿إِنَّ﴾، الجملة تعليلية لما قبلها، وقرأ حفص بفتحها على تقدير حرف جر قبلها بأن أو لأن للسببية أو التعليل.

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

ترتيبها ٢٨ — سُورَةُ القَصَصِ — آياتها ٨٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

٣٨٥

وما أصبحوا يوقنون بآيات الله وشرائعه فيخرج الله تعالى هذه الدابة لِحِكَم منها: أن بها يتميز المؤمن من الكافر.

﴿٨٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا﴾ أي واذكر يا رسولنا ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ﴾ من الأمم البشرية ﴿فَوۡجٗا﴾ أي جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ بأن يرد أولهم على آخرهم لينتظم سيرهم.

﴿٨٤﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ الموقف موضع الحساب. يقول الله تعالى لهم: ﴿أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ وما اشتملت عليه من أدلة وحجج وشرائع وأحكام ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾، وهذا تقريع لهم وتوبيخ. إذ كون الإنسان لم يحط علمًا بشيء لا يجوز له أن يكذب به لمجرد أنه ما عرفه. وقوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي ما الذي كنتم تعملون في آياتي من تصديق وتكذيب.

﴿٨٥﴾ قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم﴾ أي وجب العذاب ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أي بسبب ظلمهم[1] ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي بعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم لأنهم ظَلَمَة مشركون.

﴿٨٦﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾[2] أي ألم يبصر أولئك المشركون المكذبون بالبعث والجزاء أن الله تعالى جعل ﴿ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ وسكونهم هو موتهم على فرشهم بالنوم فيه ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ أي وجعل ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ أي يبصر فيه لينصرفوا فيه بالعمل لحياتهم، فنوم الليل شبيه بالموت وانبعاث النهار شبيه بالحياة، فهي عملية موت وحياة متكررة طوال الدهر فكيف ينكر العقلاء البعث الآخر وله صورة متكررة طوال الحياة، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في ذلك العمل المتكرر للموت والحياة كل يوم وليلة ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ أي براهين وحجج قاطعة على وجود بعث وحياة بعد هذا الموت والحياة.

وخص المؤمنون بالذكر وبالحصول على البرهان المطلوب من عملية الليل والنهار لأن المؤمنين أحياء يسمعون ويبصرون ويفكرون والكافرين أموات والميت لا يسمع ولا يبصر ولا يعي ولا يفكر.

هداية الآيات:

١ - تأكيد آية الدابة والتي تخرج من صدع من الصفا وقد وجد الصدع الآن فيما يبدو وهي الأنفاق التي فتحت في جبل الصفا وأصبحت طرقًا عظيمة للحجاج، وعما قريب تخرج، وذلك يوم لا يبقى من يأمر بالمعروف ولا من ينهى عن المنكر فيحق العذاب على الكافرين.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر وصف لها.

٣ - ويل لرؤساء الضلالة والشر والشرك والباطل إذ يؤتى بهم ويسألون.

٤ - في آية الليل والنهار ما يدل بوضوح على عقيدة البعث الآخر والحساب والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٧ ـ ٩٠]

﴿٨٧﴾ ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾: أي يوم ينفخ إسرافيل في البوق نفخة الفزع والفناء والقيام من القبور. ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾: أي وكل من أهل السماء والأرض أتوا الله عز وجل داخرين أي أذلاء صاغرين.

---

(١) أي: بشركهم إذ الشرك أعظم أنواع الظلم وهو الموجب لدخول النار والخلود فيها.

(٢) الاستفهام هنا للتعجب من حالهم كيف لا يبصرون آيات الله في الكون فتهديهم إلى توحيد الله تعالى.

(٨٨) ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾: أي تظنها في نظر العين جامدة. ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾: وذلك لسرعة تسييرها.

(٨٩) ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾: وهي الإيمان والتوحيد وسائر الصالحات. ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾: أي الجنة.

(٩٠) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: أي الشرك والمعاصي فله النار يكب وجهه فيها.

(٨٩) ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾: أي أصحاب حسنات التوحيد والعمل الصالح آمنون من فزع هول يوم القيامة.

(٩٠) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ﴾: أي جاء بالسيئة كالشرك وأكل الربا، وقتل النفس، فكبت وجوههم في النار والعياذ بالله أي ألقوا فيها على وجوههم. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي ما تجزون إلا بعملكم، ولا تجزون بعمل غيركم.

معنى الآيات:

(٨٧) ما زال السياق في ذكر أحداث القيامة تقريرًا لعقيدة البعث والجزاء التي هي الباعث على الاستقامة في الحياة. فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ[1] يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي ونفخ إسرافيل بإذن ربه في الصور الذي هو القرن أو البوق ﴿فَفَزِعَ[2] مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهي نفخة الفزع فتفزع لها الخلائق إلا من استثنى الله تعالى وهم الشهداء فلا يفزعون وهي نفخة الفناء أيضًا إذ بها يفنى كل شيء، وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾[3] أي أتوا الله تعالى ﴿دَٰخِرِينَ﴾ أي صاغرين ذليلين أتوه إلى المحشر وساحة فصل القضاء.

(٨٨) وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي لا تتحرك وهي في نفس الواقع تسير[4] سير السحاب ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي أوثق صنعه[5] وأحكمه ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ وسيجزيكم أيها الناس بحسب علمه.

(٨٩) ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ألا وهي الجنة.

(٩٠) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي الشرك والمعاصي ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ فذلك جزاء من جاء بالسيئة.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ[6] إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لا تجزون إلا ما كنتم تعملونه في الدنيا من خير وشر وقد تم الجزاء بمقتضى ذلك فقوم دخلوا الجنة وآخرون كبت وجوههم في النار.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحداثها مفصلة.

٢ - بيان كيفية خراب العوالم وفناء الأكوان.

٣ - فضل الشهداء حيث لا يحزنهم الفزع الأكبر وهم آمنون.

٤ - تقرير مبدأ الجزاء وهو الحسنة والسيئة، حسنة التوحيد وسيئة الشرك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩١ - ٩٣]

(٩١) ﴿هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾: أي مكة المكرمة والإضافة للتشريف. ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾: أي الله الذي حرم مكة فلا يختلى خلاها ولا ينفَّر صيدها ولا يقاتل فيها. ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: المؤمنين المنقادين له ظاهرًا وباطنًا وهم أشرف الخلق.

---

(١) العامل في الظرف محذوف للعلم به أي: واذكر يوم ينفخ في الصور، والنافخ هو إسرافيل عليه السلام.

(٢) للفزع معنيان: وكلاهما صالح لدلالة هذا اللفظ عليه، الأوّل: الفزع بمعنى الإسراع: لنداء الداعي، والثاني الخوف والهلع.

(٣) قرأ حفص: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ بالفعل الماضي، وقرأ نافع: **﴿آتوه﴾** باسم الفاعل أي: آتون إليه جمع آتٍ.

(٤) قيل: إنّ قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ هو خطاب للنبي ﷺ خاصة أطلعه فيه على سر من أسرار الكون ولم يبح به لعجز الناس عن إدراكه في ذلك الزمن وحقيقته: أن الأرض تدور حول الشمس دورة في كل يوم وليلة، ودورتها هي تسير معها الجبال فيها قطعًا فيرى المرء الجبال يحسبها جامدة وهي تمر مع الأرض مرّ السحاب والمرور غير السير فالسير يوم الفناء أما المرور يقال: مرّ بفلان يحمله معه ولا يقال: سار به. ورشح هذا المعنى قوله بعدُ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

(٥) الصنع: مصدر صنع الشيء يصنعه صنعًا.

(٦) الاستفهام للنفي كما في التفسير.

(٩٢) ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ﴾: أي أمرني أن أقرأ القرآن إنذارًا وتعليمًا وتعبدًا.

(٩٣) ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أي مدلول آيات الوعيد فيعرفون ذلك وقد أراهموه في بدر وسيرونه عند الموت. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أي وما ربك أيها الرسول بغافل عما يعمل الناس وسيجزيهم بعملهم.

معنى الآيات:

إنه بعد ذلك العرض الهائل لأحداث القيامة والذي المفروض فيه أن يؤمن كل من شاهده ولكن القوم ما آمن أكثرهم ومن هنا ناسب بيان موقف الرسول ﷺ وهو أنه عبد مأمور بعبادة ربه لا غير ربه الذي هو ﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى(١) حَرَّمَهَا﴾ فلا يقاتل فيها ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن يعرفها، وله كل شيء خلقًا وملكًا وتصرفًا فليس لغيره معه شيء في العوالم كلها علويّها وسفليّها.

(٩١) وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأمرني ربي أن أكون في جملة المسلمين أي المنقادين لله والخاضعين له وهم صالحو عباده من الأنبياء والمرسلين.

(٩٢) وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ﴾ أي وأمرني أن أتلو القرآن تلاوة إنذار وتعليم وتعبدًا وتقربًا إليه تعالى، وبعد تلاوتي فمن اهتدى عليها فعرف طريق الهدى وسلكه فنتائج الهداية وعائدها عائد عليه هو الذي ينتفع بها. ومن ضلّ فلم يقبل الهدى وأقام على ضلالته فليس علي هدايته لأن ربي قال لي قل لمن ضل: ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ لا من واهبي الإيمان والهداية إنما يهب الهداية ويمن بها الله الذي بيده كل شيء.

(٩٣) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وأمرني أن أحمده على كل ما وهبني من نعم لا تعد ولا تحصى ومن أجلّها إكرامه لي بالرسالة التي شرفني بها على سائر الناس فالحمد لله والمنة له وقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ(٢) فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي وأعلم هؤلاء المشركين أن الله ربي سيريكم آياته في مستقبل أيامكم وقد أراهم أول آية في بدر وثاني آية في الفتح وآخر آية عند الموت يوم تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وتقول لهم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ أي وما ربك الذي أكرمك وفضلك أيها الرسول ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٣)﴾ أيها الناس مؤمنين وكافرين وصالحين وفاسدين وسيجزي كلًا بعمله وذلك يوم ترجعون إليه ففي الآية وعد ووعيد.

هداية الآيات:

١ ـ بيان وظيفة الرسول ﷺ وأنها عبادة الله والإسلام له، وتلاوة القرآن إنذارًا وإعذارًا وتعليمًا وتَعَبُّدًا به وتقربًا إلى منزله عز وجل.

٢ ـ بيان وتقرير حرمة مكة المكرمة والحرم.

٣ ـ الندب إلى حمد الله تعالى على نعمه الظاهرة والباطنة ولا سيما عند تجدد النعمة وعند ذكرها.

٤ ـ بيان أن عوائد الكسب عائدة على الكاسب خيرًا كانت أو شرًا.

٥ ـ بيان معجزة القرآن الكريم إذ ما أعلم به المشركين أنهم سيرونها قد رأوه فعلًا وهو غيب، فظهر كما أخبر.

❁ ❁ ❁

سورة القصص
مكية
وآياتها ثمان وثمانون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٦]

(١) ﴿طسٓمٓ﴾: هذه إحدى الحروف المقطعة تكتب طسم وتقرأ: طا، سينْ، ميمْ.

(٢) ﴿تِلْكَ﴾: أي الآيات المؤلفة من مثل هذه الحروف هي آيات القرآن الكريم.

(٣) ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ﴾: أي نقرأ عليك قاصين شيئًا من نبأ موسى وفرعون أي من خبرهما. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي لأجل المؤمنين ليزدادوا إيمانًا ويوقنوا بالنصر وحسن العاقبة.

---

(١) قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: (رب هذه البلدة التي حرمها) نعتًا للبلدة. وقرأ الجمهور: ﴿الَّذِى﴾ وهو في موضع نصب نعت لـ ربّ.

(٢) أي: في أنفسكم وفي غيركم كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من سورة فصلت.

(٣) قرأ نافع وحفص والجمهور بتاء الخطاب، وقرأ غيرهم بياء الغيبة.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

(٤) ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي تكبر وظلم فادعى الربوبية وظلم بني إسرائيل ظلمًا فظيعًا. ﴿شِيَعًا﴾: أي طوائف بعضهم عدوّ لبعض من باب فَرِّقْ تَسُدْ. ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾: أي يبقي على النساء لا يذبح البنات لأنه لا يخاف منهم ويذبح الأولاد لخوفه مستقبلاً على ملكه منهم.

(٥) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾: أي ننعم على الذين استضعفوا فنجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين.

(٦) ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾: من المولود الذي يولد في بني إسرائيل ويذهب بملكهم.

معنى الآيات:

(١) ﴿طسٓمٓ﴾: هذا اللفظ الله أعلم بمراده منه، وقد أفاد فائدتين عظيمتين الأولى: هي إعجاز القرآن الموجب للإيمان به وبمنزلة من أنزل عليه القرآن وهو محمد ﷺ وذلك أن هذا القرآن الذي أعجز العرب أن يأتوا بسورة مثله قد تألف من مثل هذه الحروف المقطعة فدل ذلك على أنه كلام الله ووحيه.

والثانية: أنه لما خاف المشركون من تأثير القرآن على نفوس السامعين له وأمروا باجتناب سماعه واستعملوا وسائل شتى لمنع الناس في مكة من سماعه كانت هذه الحروف تضطرهم إلى السماع لغرابتها عندهم فإذا قرأ القارىء ﴿طسٓمٓ﴾ وجد أحدهم نفسه مضطرًا إلى السماع، فإذا ألقى سمعه نفذ القرآن إلى قلبه فاهتدى به إن شاء الله تعالى له الهداية كما حصل لكثيرين منهم.

(٢) وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي هذه آيات الكتاب المبين أي القرآن المبين للهدى من الضلال والخير من الشر والحق من الباطل.

(٣) وقوله: ﴿نَتْلُوا۟[1] عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي نقرأ قاصين عليك أيها الرسول شيئًا من نبأ موسى وفرعون أي من خبر موسى[2] وفرعون وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3] باعتبارهم أنهم هم الذين ينتفعون بما يسمعون في حياتهم ولأنهم في ظرف صعب يحتاجون معه إلى سماع مثل هذا القصص ليثبتوا على إيمانهم حتى ينصرهم الله كما نصر الذين من قبلهم بعد ضعف كان أشد من ضعفهم.

(٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ ...﴾ إلى آخر الآية هذا بيان لما أخبر أنه يقصه للمؤمنين، يخبر تعالى فيقول: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ ...﴾ إلى آخر الآية إن فرعون الحاكم المصري المسمى بالوليد بن الريان الطاغية المدعي الربوبية والألوهية ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض البلاد المصرية، ومعنى علا طغى وتكبر وتسلط[4]. وقوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا﴾ أي أهل تلك البلاد المصرية ﴿شِيَعًا﴾ أي طوائف فرق بينها إبقاء على ملكه على قاعدة فَرِّقْ تَسُدْ المذهب السياسي القائم الآن في بلاد الكفر والظلم. وقوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً﴾ من تلك الطوائف وهي طائفة بني إسرائيل وكيفية استضعافهم أنه يذبح أبناءهم ساعة ولادتهم ﴿وَيَسْتَحْيِۦ

---

(١) مفعول (نتلو) محذوف تقديره: نتلوا عليك كلاماً من نبأ موسى.

(٢) وقارون أيضاً حيث ذكر خبره في آخر هذه السورة.

(٣) اللام في (القوم) للتعليل أي: نتلو عليك لأجل قوم يؤمنون.

(٤) وحسبه أن ادعى الألوهية والربوبية وأنه ابن الشمس.

﴿نِسَآءَهُمۡۚ﴾ أي بناتهم ليكبرن للخدمة. وتذبيح الأولاد سببه أن كهانه وسياسييه أعلموه أن ملكه مهدد بوجود بني إسرائيل أقوياء كثر في البلاد فاستعمل طريقة تقليلهم والحد من كثرتهم بذبح الأولاد الذكور منهم وإبقاء الإناث منهم وهي سياسة تشبه تحديد النسل اليوم التي يستعملها الهالكون اليوم وهم لا يشعرون.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ هذا تعليل لعلو فرعون وطغيانه فذكر أن سبب ذلك الذي يرتكبه من السياسة العمياء الظالمة أنه ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي في الأرض بارتكاب الجرائم العظام التي لا توصف.

(٥) وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً﴾ أي ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ أي من بعض خبرهما أنا نريد أي أردنا أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض أرض مصر وهم بنو إسرائيل، نَمُنُّ عليهم بإيمانهم وتخليصهم من حكم فرعون وتسلطه ونجعلهم قادةً في الخير ﴿وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ لحكم البلاد وسياستها بعد إهلاك فرعون وجنوده وهو معنى قوله:

(٦) ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

وقوله: ﴿وَنُرِيَ[2] فِرۡعَوۡنَ﴾ أي من جملة ما نتلو عليك أنا أردنا أن ﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا[3] مِنۡهُم﴾ أي من بني إسرائيل ما كانوا يحذرونه من مولود يولد في بني إسرائيل فيذهب بملك فرعون وذلك بما سيذكر تعالى من أسباب وترتيبات هي عجب!

تبتدىء من قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ . . .﴾.

هداية الآيات:

١ - تقرير إعجاز القرآن الذي هو آية أنه كتاب الله حقًا.

٢ - تقرير النبوة المحمدية بهذا الوحي الإلهي.

٣ - التحذير من الظلم والاستطالة على الناس والفساد في الأرض.

٤ - المؤمنون هم الذين ينتفعون بما يتلى عليهم لحياة قلوبهم.

٥ - تقرير قاعدة لا حذر مع القدر.

٦ - تحريم تحديد النسل بإلزام المواطن بأن لا يزيد على عدد معين من الأطفال.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ - ١١]

(٧) ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾: أعلمناها أن ترضع ولدها الرضعات الأولى التي لا بد منها ثم تضعه في تابوت ثم تلقيه في اليم. ﴿فِي ٱلۡيَمِّ﴾: أي في البحر وهو نهر النيل. ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾: أي لا تخافي أن يهلك ولا تحزني على فراقه، إنا رادوه إليك.

(٨) ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾: أي أعوانه ورجاله. ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾: أي في عاقبة الأمر، فاللام للعاقبة والصيرورة.

(٩) ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾: أي تقر به عيني وعينك فنفرح به ونُسَرْ.

(١٠) ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾: أي من كل شيء إلا منه عليه السلام أي لا تفكر في شيء إلا فيه. ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾: أي قاربت بأن تصرخ أنه ولدها وتظهر ذلك.

(١١) ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾: أي اتبعي أثره حتى تعرفي أين هو. ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾: أي لاحظته وهي مختفية تتبعه من مكان بعيد.

معنى الآيات:

هذه بداية قصة موسى مع فرعون وهو طفل رضيع إلى نهاية هلاك فرعون في ظرف طويل بلغ عشرات السنين.

(٧) بدأ تعالى بقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[4] أي أعلمناها من طريق الإلقاء في القلب ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ﴾ آل فرعون الذين يقتلون مواليد بني إسرائيل الذكور في هذه

---

(١) المراد من الأرض أرض الشام حيث ورّثهم أرض الكنعانيين وهم الذين كانوا يعرفون بالجبابرة. أما أرض مصر فإن بني إسرائيل لم يرجعوا إليها بعد أن خرجوا منها هكذا يرى بعضهم وأكثر المفسرين أنّ بني إسرائيل عادوا إلى أرض مصر وملكوها وسادوا أهلها، والله أعلم.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿وَنُرِيَ﴾ بنون العظمة والتكلم، وقرأ بعضٌ: ﴿ويري﴾ بياء الغيبة أي: ويرى فرعون وجنوده.

(٣) الجنود: جمع جند، والجند لفظ دال على جمع ولا واحد لهُ ومعناه: الجماعة من الناس تجتمع على أمر تتبعه.

(٤) اختلف هل كان هذا الوحي إلهاماً أو كان مناماً أو أتاها ملك؟ والأقرب أنها أتاها ملك مع الإجماع أنها لم تكن نبيّة وإنما أرسل

السنة ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي بعد أن تجعليه في تابوت أي صندوق خشب مطلي بالقار، ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه الهلاك ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ على فراقك له ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾[1] لترضعيه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ونرسله إلى عدوكم فرعون وملإه.

(٨) قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أي فعلت ما أمرها الله تعالى به بأن جعلته في تابوت وألقته في اليم أي النيل ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ حيث وجدوه لقطة فأخذوه وأعطوه لآسية بنت مزاحم عليها السلام امرأة فرعون. وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ[2] عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ هذا باعتبار ما يؤول إليه الأمر فهم ما التقطوه لذلك ولكن شاء الله ذلك فكان لهم ﴿عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[3] فعاداهم وأحزنهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ أي آثمين بالكفر والظلم ولذا يكون موسى لهم عدوًا وحزنًا.

(٩) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ قالت هذا حين همّ فرعون بقتله لما نتف موسى لحيته وهو رضيع تعلق به فأخذ شعرات من لحيته فتشاءم فرعون وأمر بقتله فاعتذرت آسية له فقالت هو ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فقال فرعون: قرة عين لك أما أنا فلا وقولها: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ في حياتنا بالخدمة ونحوها ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وذلك بالتبني وهذا الذي حصل، فكان موسى إلى الثلاثين من عمره يعرف بابن فرعون وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بما سيكون من أمره وأن هلاك فرعون وجنوده سيكون على يده.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ أي من أي شيء إلا من موسى وذلك بعد أن ألقته في اليم.

وقوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي لتصرخ بأنه ولدها وتُظهر ذلك من شدة الحزن لكن الله تعالى ربط على قلبها فصبرت لتكون بذلك من المؤمنين بوعد الله تعالى لها بأن يرده إليها ويجعله من المرسلين.

(١١) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾[4] أي تتبعي أثره وذلك عندما ألقته في اليم وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ[5]﴾ أي رأته من بعد فكانت تمشي على شاطىء النهر وتلاحقه النظر من بعد حتى رأته انتهى إلى فرع الماء الذي دخل إلى قصر فرعون فعلمت أنه قد دخل القصر. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يشعرون أنها أخته لما كانت تلاحقه النظر وتتعرف إليه من بعد.

هداية الآيات:

١ - بيان تدبير الله تعالى لأولياء وصالحي عباده وتجلى ذلك في الوحي إلى أم موسى بإرضاعه وإلقائه في البحر والتقاط آل فرعون له ليتربى في بيت الملك عزيزًا مكرمًا.

= إليها الملك فكلمها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى في حديث الصحيحين، ولم يعرف لها اسم على الصحيح، وقال السهيلي: اسمها يارخت.

(١) حكى الأصمعي أنه سمع جارية أعرابية تنشد وتقول:

أستغفر الله لذنبي كله ... قبَّلتُ إنساناً بغير حِلّه
مثل الغزال ناعماً في دلّهِ ... فانتصف الليل ولم أصلّه

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: أو يُعدّ هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ إلى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ أي: جمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

(٢) هذه اللام تسمى لام العاقبة والصيرورة على حد قول الشاعر:

ولِلمنايا تُربي كل مرضعة ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

(٣) الْحَزَن: محرّك الوسط كالحزن بإسكانها ضم الحاء مثل الرَشَد والرُشْد والعَدَم والعُدْم والسَقَم والسُقْم لغات.

(٤) اسمها مريم بنت عمران فاتحدت معها مريم أم عيسى في اسمها واسم أبيها عليهم السلام وقيل: اسمها كندم في رواية مرفوعة ضعيفة.

(٥) ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ أي: من مكان جنب أي: جانب وناحية قال قتادة: تنظر إليه بناحية كأنها لا تريده.

٢ - بيان سوء الخطيئة وآثارها السيئة وعواقبها المدمرة وتجلى ذلك فيما حل بفرعون وهامان وجنودهما.

٣ - فضيلة الرجاء تجلت في قول آسية ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال فرعون: أمَّا لي فلا. فكان موسى قرة عين لآسية ولم يكن لفرعون.

٤ - بيان عاطفة الأمومة حيث أصبح فؤاد أم موسى فارغًا إلا من موسى.

٥ - بيان عناية الله بأوليائه حيث ربط على قلب أم موسى فصبرت ولم تبده لهم وتقول هو ولدي ليمضي وعد الله تعالى كما أخبرها. والحمد لله رب العالمين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ ـ ١٦]

(١٢) ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾: أي منعناه من قبول ثدي أيَّة مرضعة. ﴿مِن قَبْلُ﴾: أي من قبل رده إلى أمه. ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ﴾: أي قالت أخت موسى. ﴿أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾: يضمونه إليهم، يرضعونه ويربونه لكم. ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾: أي لموسى ناصحون، فلما قالوا لها إذًا كنت أنت تعرفينه، قالت لا، إنما أعني أنهم ناصحون للملك لا للولد.

(١٣) ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾: أي رددنا موسى إلى أمه أي قبلوا اقتراح أخته. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: إذ أوحى إليها أنه راده إليها وجاعله من المرسلين. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي أكثر الناس لا يعلمون وعد الله لأم موسى ولا يعلمون أن الفتاة أخته وأن أمها أمه.

(١٤) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾: أي ثلاثين سنة من عمره فانتهى شبابه وكمل عقله. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: أي وهبناه الحكمة من القول والعمل والعلم بالدين الإسلامي الذي كان عليه بنو إسرائيل وهذا قبل أن ينبأ ويرسل.

(١٥) ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾: مدينة فرعون وهي مُنُفُ بعد أن غاب عنها مدة. ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾: لأن الوقت كان وقت القيلولة. ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾: أي على دينه الإسلامي. ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾: على دين فرعون والأقباط. ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾: أي ضربه بجمع كفه فقضى عليه أي قتله. ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾: أي هذا الفعل من عمل الشيطان لأنه المهيج غضبي. ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾: أي الشيطان عدو لابن آدم مضل له عن الهدى، مبين ظاهر الإضلال.

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص موسى مع فرعون: إنه بعد أن التقط آل فرعون موسى من النيل وهو رضيع قدموا له المراضع فرفضهن مرضعة بعد أخرى، فاحتار آل فرعون لحبهم لموسى لأن الله تعالى ألقى عليه محبة منه فما رآه أحد إلا أحبه وهذا معنى قوله تعالى في الآية (١٢):

(١٢) ﴿وَحَرَّمْنَا[1] عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل رده إلى أمه. وقوله: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ[2]﴾ هذه أخته وقد أمرتها أمها أن تقص آثار موسى وتتبع أخباره فلما علمت أن أخاها لم يقبل المراضع وأن القصر في قلق من جراء عدم رضاع موسى تقدمت وقالت ما أخبر الله تعالى به عنها في قوله: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ ويرضعونه ويحفظونه حتى تنتهي مدة رضاعته ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وهنا ارتابوا في أمرها واستنطقوها واتهموها بأنها تعرفه فقالت: لا أعرفه، إنما عنيت ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ أن أهل هذا البيت ناصحون للملك وهنا استجابوا لها فأتت به أمه فما إن رآها حتى رمى نفسه عليها وأخذ ثديها يمتصه فقالوا لها: ما سر قبوله هذه المرأة فأجابت: بأنها طيبة الريح طيبة اللبن فأذنوا لها في إرضاعه في بيتها فعادت به وهو معنى قوله تعالى:

(١٣) ﴿فَرَدَدْنَاهُ[3] إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ

---

(١) هذا التحريم ليس التحريم الشرعي وإنما هو بمعنى المنع فقط لعدم تكليف الطفل وشاهده قول امرىء القيس:

جالت لتصرعني فقلت لها اقصري ... إني امرؤ صرعي عليك حرام

المراضع: جمع مرضع بدون تاء إذ ليس في الذكور من يرضع فيفرّق بينهما بالتاء.

(٢) الجملة في محل نصب حالية.

(٣) الفاء للعطف والتفريع، إذ قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ متفرع من قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ إلى قوله: ﴿نَاصِحُونَ﴾.

﴿عَيْنُهَا﴾ أي تفرح وتسر ولا تحزن على فراقه، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إذ وعدها بأنه راده إليها. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنها أمه ولا أن الله وعدها بأن يرده إليها.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي موسى ﴿أَشُدَّهُ﴾[1] أي اكتمال شبابه وهو ثلاثين سنة. ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي حكمة وهي الإصابة في الأمور ﴿وَعِلْمًا﴾ فقهًا في الدين الإسلامي الذي كان عليه بنو إسرائيل. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزينا[2] أم موسى وولدها موسى نجزي المحسنين.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ أي موسى دخل مدينة مُنْفُ[3] - التي هي مدينة فرعون وكان غائبًا فترة ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ لأن الوقت كان وقت القيلولة ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ على دين موسى وبني إسرائيل وهو الإسلام ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ لأنه على دين فرعون والأقباط وهو الكفر. ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي طلب غوثه على الذي من عدوه ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ أي ضربه بجمع كفه ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي فقتله ودفنه في الرمال. وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ أي هذا قول موسى عليه السلام اعترف بأن ضربه القبطي كان من تهيج الشيطان لغضبه فقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ﴾ للإنسان ﴿مُضِلٌّ﴾ له عن طريق الخير والهدى ﴿مُبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة للإنسان والإضلال.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي دعا موسى ربه معترفًا بخطئه أولاً فقال: ﴿رَبِّ﴾ أي يا رب ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي بقتلي القبطي ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ هذا الخطأ، فاستجاب الله تعالى وغفر له، إنه تعالى ﴿هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده التائبين له ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم فلا يعذبهم بذنب تابوا منه.

هداية الآيات:

١ - بيان حسن تدبير الله تعالى في منع موسى من سائر المرضعات حتى يرده إلى أمه.

٢ - بيان حسن رد الفتاة على التهمة التي وجهت إليها وذلك من ولاية الله لها وتوفيقه.

٣ - تقرير أن وعد الله حق، وأنه تعالى لا يخلف الوعد ولا الميعاد.

٤ - بيان إنعام الله على موسى بالحكمة والعلم قبل النبوة والرسالة.

٥ - مشروعية إغاثة الملهوف ونصرة[4] المظلوم.

٦ - وجوب التوبة بعد الوقوع في الزلل، وأول التوبة الاعتراف بالذنب.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ ـ ٢١]

(١٧) ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾: بإنعامك علي بمغفرة ذنبي. ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾: أي معينًا لأهل الإجرام.

(١٨) ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾: ماذا يحدث من خير أو غيره بعد القتل. ﴿اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾: أي طلب نصرته فنصره. ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾: أي يستغيث به على قبطي آخر. ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾: أي لذو غواية وضلال ظاهر.

(١٩) ﴿أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾: أي أن يأخذ الذي هو عدو لموسى والإسرائيلي معًا. ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا﴾: أي ما تريد إلا أن تكون جبارًا تضرب وتقتل ولا تبالي بالعواقب. ﴿مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾: أي الذين يصلحون بين الناس إذا اختلفوا أو تخاصموا.

(٢٠) ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾:

---

(١) قال مالك وربيعة شيخه: الأشد: الحلم لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ وهو أوّل الأشد وأقصاه أربع وثلاثون سنة. واستوى: أي: بلغ أربعين سنة.

(٢) جزاها على استسلامها لأمر ربها وصبرها على فراق ولدها إذ ألقته في اليم وعلى تصديقها بوعد ربها، ومما جزاها به رده ولدها إليها مصحوباً بالتحف والطرف وهي آمنة، ووهب ولدها الحكمة والعلم والنبوة.

(٣) وقيل: منفيس: قاعدة مصر الشمالية، وقوله: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ هذا عطف جزء القصة على جزئها السابق وهو من قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ وأين كان موسى؟ قطعاً كان غائباً عن المدينة لأمر من الأمور اقتضى غيابه.

(٤) لأن نصر المظلوم دِين في الملل كلّها، وفرض في جميع الشرائع.

أي مؤمن آل فرعون أتى من أبعد نواحي المدينة. ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾: أي يتشاورون ويطلب بعضهم أمر بعض ليقتلوك. ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: أي اخرج من هذه البلاد إلى أخرى.

(٢١) ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾: خائف من القتل يترقب ما يحدث له.

معنى الآيات:

(١٧) لقد تقدم في الآية قبل هذه أن موسى عليه السلام قد قتل قبطيًا بطريق الخطأ وأنه اعترف لربه تعالى بخطئه واستغفره، وأن الله تعالى غفر له وأعلمه بذلك بما شاء من وسائط[١]، ولما علم موسى بمغفرة الله تعالى له عاهده بأن لا يكون ﴿ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ مستقبلاً ومن ذلك أن يعتزل فرعون وملأه لأنهم ظالمون مجرمون فقال:

﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي بمغفرتك لي خطئي[٢] وذلك بالنظر إلى إنعامك علي بالمغفرة أعاهدك أن لا أكون ﴿ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[٣] هذا ما دلت عليه الآية (١٧) أي الأولى في هذا السياق وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝﴾.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي فأصبح موسى في مدينة (مُنْفُ) عاصمة المملكة الفرعونية ﴿خَآئِفًا﴾ مما قد يترتب على قتله القبطي ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الأحداث ماذا تسفر عنه؟ فإذا الذي يستنصره بالأمس وهو الإسرائيلي الذي طلب نصرته أمس ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يستغيثه بأعلى صوته فنظر إليه موسى وأقبل عليه ليخلصه قائلاً: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي لذو غواية بينة والغواية الفساد في الخلق والدين لأنك أمس قاتلت واليوم تقاتل أيضًا.

(١٩) ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ أي موسى ﴿بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ وهو القبطي. قال الإسرائيلي: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي تضرب وتقتل كما تشاء ولا تخاف عقوبة ذلك ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ الذين يصلحون بين المتخاصمين. قال الإسرائيلي هذا لأنه جبان وخاف من هجمة موسى ظانًا أنه يريده هو لما قدم له من القول ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فلما سمع القبطي ما قال مقاتله الإسرائيلي نقلها إلى القصر وكان من عماله فاجتمع رجال القصر برئاسة فرعون يتداولون القضية وينظرون إلى ظروفها ونتائجها وما يترتب عليها وكان من جملة رجال المؤتمر مؤمن آل فرعون

الجزء العشرون — سورة القصص

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

٣٨٧

---

(١) يرى بعضهم أن موسى لم يعلم بمغفرة الله تعالى له لأنه لم يكن قد نُبِّيء بعد وجعل جملة ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ معترضة وقوله: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالهداية والحكمة والعلم لا بالمغفرة لأنه لم يعلم بها. وما في التفسير أظهر وأولى بالسياق.

(٢) إنّ قتل موسى للقبطي كان قطعاً خطأ، روى مسلم عن سالم بن عبدالله أنه قال: يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة لِما سمعت أبي عبدالله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الفتنة تجيء من ها هنا** ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ **من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل**: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾».

(٣) قال ابن عباس: لم يستثن فابتلي من ثاني يوم. هذا إن قلنا: إن كلامه كان خبراً لاَ دُعَاءً إذ الدعاء لا يجوز الاستثناء فيه لا يقال: ارحمني إن شئت.

(حزقيل)[1] وكان مؤمنًا يكتم إيمانه فأتى موسى سرًا ليخبره بما يتم حياله وينصح له بالخروج من البلاد وهو ما جاء في قوله تعالى في الآية (٢٠) من هذا السياق:

(٢٠) ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ من أبعدها فإن قصر الملك كان في طرف المدينة وهي مدينة فرعون (مُنْفُ) ﴿يَسْعَىٰ﴾ فمشى بسرعة وجد وانتهى إلى موسى فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

(٢١) قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي من بلاد فرعون ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ خائفًا من القتل يترقب الطلب وماذا سيحدث له من نجاة أو خلافه ودعا ربه عز وجل قائلاً:

﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي من فرعون وملإه أولاً ومن كل ظالم ثانيًا.

هداية الآيات:

١ - شكر النعم، فموسى لما غفر الله تعالى له شكره بأن تعهد له أن لا يقف إلى جنب مجرم[2] أبدًا.

٢ - سوء صحبة الأحمق الغوي فإن الإسرائيلي لغوايته وحمقه هو الذي سبب متاعب موسى.

٣ - لزوم إبلاغ الدولة عن أهل الفساد والشر في البلاد لحمايتها.

٤ - وجوب النصح وبذل النصيحة فمؤمن آل فرعون يعلم سلامة موسى من العيب ومن الجريمة فتعين له أن ينصح موسى بمغادرة البلاد لينجو إن شاء الله وليس هذا من باب خيانة البلاد والدولة، لأن موسى من أهل الكمال وما حدث عنه كان من باب الخطأ فرفده ومد إليه اليد إنقاذًا من موت متعين.

٥ - الخوف الطبيعي لا يلام عليه فموسى عليه السلام قد خاف[3] خوفًا أدى به إلى الالتجاء إلى ربه بالدعاء فدعاه واستجاب له ولله الحمد والمنة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٢ ـ ٢٥]

(٢٢) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾: أقبل بوجهه جهة مدين التي هي مدينة شعيب. ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أرجو ربي أن يهدني وسط الطريق حتى لا أضل فأهلك فاستجاب الله له وهداه إلى سواء السبيل ووصل مدين.

(٢٣) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾: انتهى إلى بئر يسقي منها أهل مدين. ﴿يَسْقُونَ﴾: أي مواشيهم من بقر وإبل وغنم. ﴿تَذُودَانِ﴾: أي أغنامهما منعًا لهما من الماء حتى تخلو الساحة لهما خوف الاختلاط بالرجال الأجانب لغير ضرورة. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾: قال موسى للمرأتين اللتين تذودان ما خطبكما أي ما شأنكما. ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾: لا نسقي ماشيتنا حتى يصدر الرعاء ويبقى لنا الماء وحدنا.

(٢٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾: أي بعد أن سقى لهما رجع إلى ظل الشجرة التي كان جالسًا تحتها. ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾: أي من طعام[4] محتاج إليه لشدة جوعه عليه السلام.

(٢٥) ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾: أي واضعة كم درعها على وجهها حياء منه.

معنى الآيات:

(٢٢) ما زال السياق في شأن موسى عليه السلام بعد حادثة القتل والنصح له بمغادرة بلاد مصر إلى بلاد[5]

---

(١) وقيل: اسمه شمعان، وقال الدارقطني: لا يعرف شمعان بالشين إلا مؤمن آل فرعون، قال الثعلبي: كان ابن عم فرعون.

(٢) روي عن عطاء، قيل له: إنّ أخاً لي يأخذ بقلمه وإنما يحسب ما يدخل وما يخرج وله عيال ولو ترك ذلك لاحتاج وادّان فقال: من الرأس؟ قال: خالد بن عبدالله القسري قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وقال عطاء: فلا يحل لأحد أن يعين ظالماً ولا يكتب له ولا يصحبه، وإنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين، وفي الحديث: «**ينادي منادٍ يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى بهم في جهنم**» لاق الدواة: أصلحها.

(٣) من قوله: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

(٤) من طعام تفسير لقوله من خير، ومحتاج تفسير لقوله: ﴿فَقِيرٌ﴾.

(٥) لأن بها العبد الصالح شعيب، وقيل: لأجل النسب الذي بينه وبينهم لأن مدين من ولد إبراهيم، وموسى من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

٣٨٨

مدين مدينة شعيب عليه السلام. قال تعالى مخبرًا عنه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي ولما توجه موسى عملاً بنصيحة مؤمن آل فرعون تلقاء مدين أي نحوها وجهتها ولم يكن له علم بالطريق الصحراوي والمسافة مسيرة ثمانية أيام قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي[١] سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ترجّى ربه سبحانه وتعالى أن يهديه الطريق السوي حتى لا يضل فيهلك، واستجاب الله له فهداه الطريق حتى وصل إلى بلاد مدين. وقوله تعالى في الآية الثانية من هذا السياق (٢٣):

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي وحين ورد[٢] ماء مدين وهو بئر يسقي منها الناس مواشيهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي على الماء ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي جماعة كبيرة يسقون أنعامهم ومواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ﴾ وهما بنتا شعيب عليه السلام ﴿تَذُودَانِ﴾ أي تمنعان ماشيتهما من الاختلاط بمواشي الناس. فسألهما لا تطفلاً وإنما حالهما دعاه إلى سؤالهما لأنه رأى الناس يسقون مواشيهما ويصدرون فوجًا بعد فوج والمرأتان قائمتان على ماشيتهما تذودانها عن الحوض حتى لا تختلط ولا تشرب فسألهما لذلك قائلاً: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي ما شأنكما فأجابتاه قائلتين: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ لضعفنا وعدم رغبتنا في الاختلاط بالرجال: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقوى على سقي هذه الماشية بنفسه فنحن نسقيها ولكن بعد أن يصدر الرعاء ويبقى في الحوض ماء نسقي به.

﴿٢٤﴾ فلما علم عذرهما سقى لهما ماشيتهما ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ الذي كان جالسًا تحته وهو ظل شجرة وهو شجر صحراوي معروف يقال له السمر، ولما تولى إلى الظل سأل ربه الطعام لشدة جوعه إذ خرج من مصر بلا زاد ولا دليل ولولا حسن[٣] ظنه في ربه لما خرج هذا الخروج فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي[٤] طعام ﴿فَقِيرٌ﴾ أي محتاج إليه أشد الاحتياج. وفي أقرب ساعة وصلت البنتان إلى والدهما فسألهما عن سبب عودتهما بسرعة فأخبرتاه، فقال لإحداهما اذهبي إليه وقولي له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

﴿٢٥﴾ وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ استجابة الله له ﴿تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ واضعة كم درعها على وجهها حياء. وقد قال فيها عمر رضي الله عنه إنها ليست سلفعًا[٥] من النساء خرّاجة ولاّجة، وبلّغت الرسالة المختصرة وكأنها برقية ونصها ما أخبر تعالى به في قوله: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا

---

(١) روي أن الله تعالى بعث إليه ملكاً راكباً فرساً فقال: اتبعني فاتبعه فهداه إلى الطريق وكان ملك مدين لغير فرعون.

(٢) أي: بلغها ووصل إليها ومنه قول زهير:

فلما وردن الماء زرقاً جمامه ... وضعن عصي الحاضر المتخيم

(٣) وتوكله على ربه عز وجل.

(٤) لفظ الخير يطلق عدة إطلاقات فقد أطلق على الطعام كما هنا وأطلق على العبادة كما في قوله: ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وعلى القوة في قوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وعلى المال في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

(٥) السلفع من النساء: الجريئة على الرجال.

﴿سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾!! وقد ورد أنها لما كانت تمشي أمامه تدله على الطريق هبت الريح فكشفت ساقيها قال لها موسى: «امشي ورائي ودليني على الطريق بحصى ترميها نحو الطريق» وهذا الذي دلها على أمانته لما وصفته لأبيها بأنه (٢٦) ﴿الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ كما سيأتي فيما بعد.

هداية الآيات:

١ - وجوب حسن الظن بالله تعالى وقوة الرجاء فيه عز وجل والتوكل عليه.

٢ - بيان فضل الحياء وشرف المؤمنات اللائي يتعففن عن الاختلاط بالرجال.

٣ - بيان مروءة موسى في سقيه للمرأتين.

٤ - فضل الدعاء وسؤال الله تعالى ما العبد في حاجة إليه.

٥ - ستر الوجه عن الأجانب سنة المؤمنات من عهد قديم وليس كما يقول المبطلون هو عادة جاهلية، فبنتا شعيب نشأتا في دار النبوة والطهر والعفاف وغطت إحداهما وجهها عن موسى حياءً وتقوى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥ ـ ٢٨]

(٢٥) ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾: أخبره بشأنه كله من قتله القبطي وطلب السلطة له ونصح المؤمن له بمغادرة البلاد ووصوله إلى ماء مدين. ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: أي من فرعون وملإه إذ لا سلطان لهم على بلاد مدين.

(٢٦) ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾: أي اتخذه أجيرًا يرعى لنا الغنم بدلنا. ﴿الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾: ذكرت له كفاءته وهي القوة البدنية والأمانة.

(٢٧) ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي﴾: أي تكون أجيرًا لي في رعي غنمي. ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾: أي ثماني سنوات إذ الحجة عام والجمع حجج. ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾: أي جعلت الثمانية عشرًا فرغبت عشرًا فهذا من كرمك. ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: أي الذين يوفون ولا ينقضون ولا ينقصون.

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾: أنا أفي بشرطي وأنت تفي بشرطك. ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾: أي الأجلين الثمانية أو العشرة أتممت. ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾: وذلك بطلب الزيادة فوق الثمانية أو فوق العشرة. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: أي وكيل وحفيظ أي أشهد الله على العقد بشطريه أي النكاح ورعي الغنم وبذلك تم العقد.

معنى الآيات:

(٢٥) ما زال السياق الكريم في ما تم بين موسى وابنتي شعيب من السقي لهما ومجيء إحداهما تبلغه رسالة والدها ومشيه معها، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ أي جاء موسى شعيبًا ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ[١]﴾ أي أخبره بشأنه كله من قتله القبطي خطأ وطلب السلطات له ونصح مؤمن آل فرعون له بالخروج من البلاد، ووصوله إلى ماء مدين قال له شعيب عندئذ ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني فرعون وحكومته وهذا ما يعرف الآن باللجوء السياسي فأمنه على نفسه لأن فرعون لا سلطان له على[٢] هذه البلاد.

وقال له شعيب: اجلس تعش معنا، فقال موسى: أخاف أن يكون عوضًا عما سقيت لابنتيك ماشيتهما وإني لمن أهل بيت لا يطلبون على عمل الخير عوضًا، فقال له شعيب: لا ليس هذا بأجر على سقيك وإنما عادتنا أن نقري الضيف ونطعم الطعام، فأكل ولم ير بذلك بأسًا.

(٢٦) وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ يروى أنها لما قالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ[٣] مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ أثارت حفيظته بهذه الكلمة فسألها: كيف علمت ذلك؟ فذكرت له عن القوة في سقيه[٤] لهما وعن الأمانة في غض بصره عن النظر

---

(١) التعريف في: (القصص) عوضاً عن المضاف إليه أو هي للعهد أي: القصص المذكور آنفاً.

(٢) إذ السلطان للكنعانيين وهم أهل بأس وشدة ونجدة.

(٣) الجملة تعليلية لجملة الإشارة عليه بالاستئجار.

(٤) قال بعض أهل العلم: وصفته بالقوة لأنه زاحم الرعاء وغلبهم وهم يزدحمون على الماء حتى سقى، وقيل: كانت على البئر صخرة لا يرفعها إلاّ العدد من الناس فرفعها موسى وحده.

إليها، فصدقها شعيب وقال لموسى: (٢٧) ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أي أزوجك ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾[(١)] ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ[(٢)] حِجَجٍ﴾ أي سنين جمع حجة وهي[(٣)] السَّنَة، وقوله: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي إحسانًا منك وكرمًا، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بطلب العشرة ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي الذين يوفون بعهودهم.

(٢٨) فقال موسى ردًا على كلامه: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أنا عليَّ أن أفي بما اشترطت عليَّ وأنت عليك أن تفي بما اشترطت لي على نفسك ﴿أَيَّمَا[(٤)] ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ الثمانية أو العشرة ﴿قَضَيْتُ﴾ أي وفيت وأديت ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي بطلب الزيادة على الثمانية ولا على العشرة. فقال شعيب: نعم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فأشهد الله تعالى على صحة[(٥)] العقد وبذلك أصبح موسى زوجًا لابنة شعيب التي عيّنها له والغالب أنها الكبرى التي شهدت له بالأمانة والقوة.

هداية الآيات:

١ - تجلى كرم شعيب ومروءته وشهامته في تطمين موسى وإكرامه وإيوائه.

٢ - بيان أن الكفاءة شرط في العمل ولا أفضل من القوة وهي القدرة البدنية والعلمية والأمانة.

٣ - مشروعية عرض الرجل ابنته على من يرى صدقه وأمانته ليزوجه بها.

٤ - مشروعية إشهاد الله تعالى على العقود بمثل ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

٥ - فضيلة موسى عليه السلام بإيجار نفسه على شبع بطنه وإحصان فرجه.

الجزء العشرون — سورة القصص

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ (٣١) ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (٣٥)﴾

٣٨٩

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٩ - ٣٢]

(٢٩) ﴿قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾: أتم المدة المتفق عليها وهي ثمان أو عشر سنوات. ﴿ءَانَسَ﴾: أبصر. ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: عود غليظ في رأسه نار. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: أي تستدفئون.

(٣٠) ﴿نُودِىَ﴾: أي ناداه الله تعالى بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾: قطعة الأرض التي عليها الشجرة الكائنة بشاطىء الوادي.

(٣١) ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: تضطرب وتتحرك بسرعة كأنها حية من حيات البيوت. ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: رجع هاربًا ولم يعقب لخوفه وفزعه منها. ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾: أدخلها في جيب قميصك. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: أي عيب كبرص ونحوه. ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ

---

(١) الإشارة إلى المرأتين اللتين سقى لهما سواء كانتا حاضرتين في المجلس أو في ذهن موسى.

(٢) هذا جمع عقد النكاح مع عقد الإجارة. والمشهور عند الفقهاء أنّ الشرط المقارن لعقد النكاح إن كان مما ينافي عقد النكاح فهو باطل ويفسخ النكاح قبل البناء ويثبت بعده ويلغى الشرط المنافي للنكاح، وأما الشرط غير المنافي للنكاح فهو جائز ولا حرج فيه لقوله ﷺ في الصحيح: «**أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج**».

(٣) مشتقة من اسم الحج، لأن الحج يقع كل سنة، وموسم الحج يقع في آخر شهر من السنة.

(٤) ﴿أَيَّمَا﴾ (أي): اسم موصول مبهم: وهو منصوب بـ ﴿قَضَيْتُ﴾ وزيدت بعده (ما) لتأكيد الكلام، ولتصير أيّ شبيهة باسم الشرط ولذا أجيبت بجملة ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ وهي مقرونة بالفاء.

(٥) اكتفى شعيب وموسى بإشهاد الله تعالى فهل يصح في الإسلام النكاح بدون إشهاد؟ الجمهور على عدم صحته بل لا بد من الإشهاد عليه وهو كذلك.

﴿ٱلرَّهۡبِۖ﴾: اضمم إليك يدك بأن تضعها على صدرك ليذهب روعك.
﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ﴾: أي آيتان من ربك على صدق رسالتك.

معنى الآيات:

(٢٩) ما زال السياق الكريم في قصص موسى وهو في طريقه بتدبير الله تعالى إلى مصر، إنه لما قضى الأجل الذي تعاقد عليه مع صهره شعيب وقد أتم خير الأجلين وأوفاهما وهو العشر حجج قفل[١] ماشيًا بأهله، زوجته وولده، في طريقه إلى مصر لزيارة والدته وإخوته، حدث أن ضلّ الطريق ليلاً، وكان الفصل شتاء والبرد شديد فإذا به يأنس ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي جبل الطور ﴿نَارٗا﴾ فقال لأهله امكثوا هنا ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ أي أبصرت ﴿نَارٗا﴾ سأذهب إليها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ إذ قد أجد عندها من يدلنا على الطريق أو آتيكم بجذوة[٢] من النار أي خشبة في رأسها نار مشتعلة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أي من أجل اصطلائكم بها أي استدفائكم بها، هذا ما دلت عليه الآية (**٢٩**).

(٣٠) وقوله تعالى في الآية الثانية ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي أتى النار ﴿نُودِيَ﴾ أي ناداه مناد ﴿مِن[٣] شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ[٤] فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ﴾ أي ناداه ربه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

(٣١) ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ﴾ فألقاها فاهتزت واضطربت وتحركت بسرعة ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ أي حية عظيمة من الحيات المعروفة بالجنّان ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ أي فزع منها فرجع من الفزع إلى الوراء ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ أي ولم يرجع إليها من الرعب، فقال له ربه تعالى ﴿أَقۡبِلۡ﴾ أي على العصا ﴿وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ أي الذين آمنهم ربهم فلا يخافون شيئًا.

(٣٢) وقال له بعد أن رجع: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ أي أدخل يدك في جيب قميصك وهو الشق الذي يدخل معه الرأس في الثوب ليلبس، وقوله: ﴿تَخۡرُجۡ﴾ أي اليد ﴿بَيۡضَآءَ﴾ كالنور ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ أي برص أو نحوه ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ أي يدك مع العضد إلى صدرك ﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ[٥]﴾ أي الخوف فإنه يذهب عنك بحيث تعود يدك عادية لا نور فيها كما كانت من قبل إدخالها في جيبك أولاً.

ثم قال تعالى له: ﴿فَذَٰنِكَ﴾[٦] أي العصا واليد البيضاء ﴿بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ أي آيتان تدلان على رسالتك المرسل بها إلى فرعون وملإه إنهم كانوا قومًا فاسقين خارجين عن طاعة الله حيث كفروا به وعبدوا غيره وظلموا عباده، لتدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته وإرسال بني إسرائيل معك لتذهب بهم إلى أرض المعاد أي فلسطين وما حولها من أرض الشام.

هداية الآيات:

١ - الأنبياء أوفياء فموسى قضى أوفى الأجلين وأتمهما وهو العشر.

٢ - مشروعية السفر بالأهل وقد يحصل للمرء أنه يضل الطريق أو يحتاج إلى شيء ويصبر.

٣ - فضل تلك البقعة التي كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام وهي من جبل الطور.

---

(١) يقال: قفل راجعاً أي: من سفره إلى أهله: والقافلة: الجماعة العائدة من السفر: ويقال لها: القافلة وهي في بدء سفرها تفاؤلاً بالعودة السليمة لها وموسى عليه السلام قفل عائداً من رحلته إلى بلاده.

(٢) الجذوة مثلثة الجيم ضماً وفتحاً وكسراً: الجمرة الملتهبة، والجمع جُذاً مثلثة الجيم أيضاً.

(٣) ﴿مِن﴾ ابتدائية وكذا من الشجرة إذ من الشجرة بدل اشتمال من قوله: ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ وشاطىء الوادي وشطه جانبه، والجمع: شطآن وشواطىء.

(٤) ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي: عن يمين موسى، والبقعة والجمع بقع: المكان من الأرض وإن فتحت باؤها جمعت على بقاع كجفنة وجفان وأمّا بالضم فهي كغرفة وغرف، و ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: من ناحيتها، وهل الشجرة من سمر أو عليق: (عوسج) الله أعلم.

(٥) قرأ الجمهور: ﴿**الرهب**﴾ بفتح الراء والهاء وقرأ بعضٌ بضم الراء وسكون الهاء: ﴿**الرُّهْب**﴾ وقرأ عاصم بفتح الراء وسكون الهاء: ﴿ٱلرَّهۡبِۖ﴾.

(٦) ﴿فَذَٰنِكَ﴾ بتخفيف النون لغة قريش وبتشديدها مع مدها وتخفيفها مع مدها: ﴿**فذانيك**﴾ لغة هذيل.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

٤ - مشروعية حمل العصا لا سيما للمسافر وراعي ماشية أو سائقها.

٥ - مشروعية التدريب على السلاح قبل استعماله.

٦ - لا يلام على الخوف الطبيعي.

٧ - آية العصا واليد.

٨ - من خاف، وضع يده على صدره زال خوفه إن شاء الله تعالى.

٩ - التنديد بالفسق وأهله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ - ٣٧]

﴿٣٣﴾ ﴿إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا﴾: أي نفس القبطي الذي قتله خطأ قبل هجرته من مصر.

﴿٣٤﴾ ﴿أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾: أي أبين مني قولاً. ﴿رِدۡءٗا﴾: أي معينًا لي.

﴿٣٥﴾ ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾: أي ندعمك به ونقويك بأخيك هارون. ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾: أي حجة قوية يكون لكما بها الغلَبُ. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾: أي بسوء. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾: أي اذهبا بآياتنا.

﴿٣٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي العصا واليد وغيرهما من الآيات التسع. ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾: أي واضحات. ﴿سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾: أي مختلق مكذوب. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾: أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: أي المشركون الكافرون.

معنى الآيات:

﴿٣٣﴾ لما كلف الله تعالى موسى بالذهاب إلى فرعون وحمّله رسالته إليه قال موسى كالمشترط لنفسه: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا﴾ يريد نفس القبطي الذي قتله خطأ أيام كان شابًا بمصر ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ أي يقتلوني به إن لم أبين لهم وأفهمهم حجتي.

﴿٣٤﴾ ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ أي أبين مني قولاً وأكثر إفهامًا لفرعون وملإه ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا[1]﴾ أي عونًا ﴿يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾[2] أي يلخص قولي ويحرره لهم فيكون ذلك تصديقًا منه لي، لا مجرد أني إذا قلت قال صدق موسى. وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فيما جئتهم به.

﴿٣٥﴾ فأجابه الرب تعالى قائلاً: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي نقويك به ونعينك ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ أي برهانًا وحجة قوية يكون لكما الغليب بذلك. قوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ أي بسوء أبدا، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾[3] أي اذهبا بآياتنا أو يكون لفظ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ متصلاً بـ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ أي سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ وعلى هذا فلا نحتاج إلى تقدير فاذهبا.

﴿٣٦﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العصا واليد وغيرهما ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ أي واضحات ﴿قَالُواْ مَا

---

(١) قرأ نافع: ﴿ردًا﴾ منون غير مهموز. وقرأ حفص: ﴿رِدۡءٗا﴾ مهموزاً.

(٢) قرأ نافع: ﴿يصدقني﴾ بالجزم لأنه في جواب الطلب الذي هو: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ﴾ وقرأ حفص بالرفع: ﴿يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ على أن الجملة حال من الهاء في ﴿أَرۡسِلۡهُ﴾.

(٣) قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ يجوز أن يكون ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ متعلقاً بمحذوف تقديره: اذهبا بآياتنا. ويجوز أن يتعلق بـ ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ فتكون رهبتهم منكما آية ويجوز أن يتعلق بـ ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ أي: يصرفون عنكما صرفاً بسبب آياتنا كقول الرسول ﷺ: **«نصرت بالرعب مسيرة شهر»** ويجوز تعليقها أيضاً بـ ﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أي: بآياتنا.

هَٰذَآ﴾ أي الذي جاء به موسى من الآيات ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى[1]﴾ أي مكذوب مختلق ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي الذي جئت به يا موسى في ﴿ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي في أيامهم وعلى عهدهم.

(٣٧) وهنا ردّ موسى على فرعون بأحسن رد وهو ما أخبر تعالى به عنه بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ[2] رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ أي من عند الرب تعالى ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ[3]﴾ أي العاقبة المحمودة يوم القيامة. ولم يقل له اسكت يا ضال يا كافر إنك من أهل النار بل تلطف معه غاية اللطف امتثالاً لأمر الله تعالى في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي الكافرون والمشركون بربهم، هذا من جملة قول موسى لفرعون الذي تلطّف فيه وألانه غاية اللين.

هداية الآيات:

١ - بيان أن القصاص كان معروفًا معمولاً به عند أقدم الأمم. وجاءت الحضارة الغربية فأنكرته فتجرأ الناس على سفك الدماء وإزهاق الأرواح بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية ولذلك صحّ أن تسمى الخسارة البشرية بدل الحضارة الغربية.

٢ - مشروعية طلب العون عند التكليف بما يشق ويصعب من المسؤولين المكلفين.

٣ - مشروعية التلطف في خطاب الجبابرة وإلانة القول لهم، بل هو مشروع مع كل من يدعى إلى الحق من أجل أن يتفهم القول ولا يُغلِق عليه بالإغلاظ له.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ - ٤٣]

(٣٨) ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾: أي ربّا يطاع ويذل له ويعظم غيري لعنة الله عليه ما أكذبه.

﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾: أحد وزراء فرعون، لعله وزير الصناعة أو العمل والعمال. ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾: أي اطبخ لي الآجُر وهو اللبن المشوي. ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾: أي بناءً عاليًا، قصرًا أو غيره. ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: أي أقف عليه وأنظر إليه. ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: أي موسى في ادعائه أن له إلهًا غيري.

(٤٠) ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾: أي طرحناهم في البحر غرقى هالكين.

(٤١) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾: أي رؤساء يُقتدى بهم في الباطل. ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: أي إلى الكفر والشرك والمعاصي الموجبة للنار.

(٤٢) ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾: أي خزيًا وبعدًا عن الخير. ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: أي المبعدين من كل خير المشوّهي الخلقة.

(٤٣) ﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾: قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم. ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾: أي فيه من النور ما يهدي كما تهدي الأبصار.

معنى الآيات:

(٣٨) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ إن فرعون لما سمع كلام موسى عليه السلام المصدق بكلام هارون عليه السلام وكان الكلام في غاية اللين، مؤثرًا خاف فرعون من الهزيمة، ناور وراوغ فقال في الحاضرين: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم[4] مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ أي كما ادعى موسى ولكن سأبحث وأتعرف على الحقيقة إن كان هناك إله آخر غيري، فنادى وزيره هامان وأمره أن يعد اللبن المشوي لأنه قوي ويقوم ببناء صرح عال يصل إلى عنان السماء ليبحث بنفسه عن إله

---

(١) هذا شأن المحجوج المغلوب إذا أعيته الحجة يفزع إلى التلفيق والاتهامات الباطلة دفعاً للمعرة.

(٢) كان مقتضى الكلام في سياق الحوار أن يقال: قال موسى بدون واو العطف إلاّ أنه خولف هنا وأتى بالواو: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ وهي قراءة الجمهور والمقصود منها هو ذكر التوازن بين حجة فرعون وحجة موسى ليظهر للسامع التفاوت بينهما بخلاف لو حذفت الواو كما قرأ ابن كثير فإنها مجرد حكاية قول موسى عليه السلام فليس فيها ما يلفت النظر.

(٣) ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ قد يفهم منها فرعون: ما ينتهي إليه الخصام مع موسى إذا كان لا يؤمن بالمعاد وإن كان يؤمن بالمعاد فالأمر واضح.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وبين قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أربعون سنة، وكذب عدو الله بل علم أن له رباً هو خالقه وخالق قومه.

موسى إن كان حسب دعواه وإني لأظن موسى كاذبًا في دعوى وجود إله له ولكم غيري. هذا معنى قوله تعالى في الآية الأولى (٣٨): ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى[(١)] يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ[(٢)]﴾ يعني في ادعائه أن هناك إلهًا آخر غيري.

(٣٩) قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[(٣)] الذي يحق لهم الاستكبار ﴿وَظَنُّوٓا۟[(٤)] أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي كذبوا بالبعث الآخر.

(٤٠) قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ[(٥)] وَجُنُودَهُۥ﴾ أي بسبب استكبارهم وكفرهم وتكذيبهم بآيات الله ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾[(٦)] أي في البحر. وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إنها كانت وبالاً عليهم وخسارًا لهم.

(٤١) وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي جعلنا فرعون وملأه أئمة في الكفر تقتدي بهم العتاة والطغاة في كل زمان ومكان ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بالكفر والشرك والمعاصي وهي موجبات النار ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بل يضاعف لهم العذاب ويخذلون ويهانون لأن من دعا إلى سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء.

(٤٢) وقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ﴾ أي آل فرعون ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ انتهت بهم إلى الغرق الكامل والخسران التام، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ[(٧)]﴾ أي المبعدين من رحمة الله الثاوين في جهنم ولبئس مثوى المتكبرين.

(٤٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة وذلك بعد إهلاك الظالمين، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم إبراهيم، وقوله: ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي الكتاب بما يحمل من الهدى والنور ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي ضياء للناس من بني إسرائيل يبصرون على ضوئه كل ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي وبيانًا لهم ورحمة لمن يعمل به منهم. وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي وجود الكتاب بصائر وهدى ورحمة بين أيديهم حال تدعوهم إلى أن يتذكّروا دائمًا نعم الله عليهم فيشكرونه بالإيمان به وبرسله وبطاعته وطاعة رسله عليهم السلام.

هداية الآيات:

١ - بيان أن فرعون كان على علم بأنه عبد مربوب لله وأن الله هو رب العالمين.

٢ - تقرير صفة العلو والاستكبار لفرعون وأنه كان من العالين.

٣ - بيان كيف تكون عاقبة الظلمة دمارًا وفسادًا.

٤ - دعاة الدعارة والخنا والضلالة والشرك أئمة أهل النار يدعون إليها وهم لا يشعرون.

٥ - بيان إفضال الله تعالى على بني إسرائيل بإنزال التوراة فيهم كتابًا كله بصائر وهدى ورحمة.

---

(١) كنّي عن البناء بمقدماته، وفعلاً دارت رحى العمل على أشد ما تكون وفرعون يعلم أنه مجرد تمويه على العامة وشغل لأذهانهم عن معرفة الحق الذي دعا إليه موسى: وهل بني الصرح؟ روي أنّه قبل أن يتم سقط فقتل خلقاً كثيراً من العمال والبنائين، ولعل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ من سورة المؤمن، إشارة إلى سقوطه وهلاك القائمين ببنائه.

(٢) نسب موسى إلى جماعة الكذب وهو يعلم أنه صادق تمويهاً على الرعية، ودفعاً للحق الذي بهره نوره فما أطاقه فهو يبحث عن المخرج.

(٣) ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الموجب لهم الاستكبار ولا يوجد حق يوجب الاستكبار قط.

(٤) يطلق الظن ويراد به اليقين ويكون على بابه وهو هنا كفر ولو كان على بابه لأنّ الشك في العقائد كفر.

(٥) قيل: من هلك مع فرعون من جند كانوا مليوناً وستمائة ألف.

(٦) ناحية بحر القلزم في موضع منه يقال له: بطن عُريرة.

(٧) المشوّهي الخلقة المسودي الوجوه زرق العيون فما أقبحهم وما أقبح ما كانوا يصنعون!! يقال: قبحه وقبحه مشدداً ومخففاً أي: نحاه من كل خير، أو جعله قبيحاً. قال الشاعر:

ألا قبّح الله البراجم كلها ... وقبّح يربوعاً وقبّح دارما

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٤ ـ ٤٧]

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾: أي لم تكن يا رسولنا حاضرًا بالجانب الغربي من موسى. ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾: أي بالرسالة إلى فرعون وقومه. ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: حتى تعلمه وتخبر به.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾: أي غير أننا أنشأنا بعد موسى أممًا طالت أعمارهم فنسوا العهود واندرست العلوم وانقطع الوحي فجئنا بك رسولاً وأوحينا إليك خبر موسى وغيره. ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: أي ولم تكن يا رسولنا مقيمًا في أهل مدين فتعرف قصتهم.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾: أي لم تكن بجانب الطور أي جبل الطور إذ نادينا موسى وأوحينا إليه ما أوحينا حتى تخبر بذلك. ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: أي أهل مكة والعرب كافة.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ إلخ: أي فيقولوا لولا أي هلا أرسلت إلينا رسولاً لعاجلناهم بالعقوبة ولما أرسلناك إليهم رسولاً.

معنى الآيات:

بعد انتهاء قصص موسى مع فرعون وإنزال التوراة ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وكان القصص كله شاهدًا على نبوة الرسول محمد ﷺ، خاطب الله تعالى رسوله ﷺ فقال:

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ أي حاضرًا ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي بالجبل الغربي من موسى ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ[1]﴾ بإرساله رسولاً إلى فرعون وملإه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي الحاضرين إذًا فكيف علمت هذا وتتحدث به لولا أنك رسول حق؟!

﴿٤٥﴾ وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ[2] أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي أممًا بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي طالت بهم الحياة وامتدت فنسوا العهود واندرست العلوم الشرعية وانقطع الوحي فجئنا بك رسولاً وأوحينا إليك خبر موسى وغيره، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي مقيمًا ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ فكيف عرفت حديثهم وعرفت إقامة موسى بينهم عشر سنين لولا أنك رسول حتى يوحى إليك نبأ الأولين وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ فأرسلناك رسولاً وأوحينا إليك أخبار الغابرين.

﴿٤٦﴾ وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي جبل الطور ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى وأمرناه بما أمرناه وأخبرناه بما أخبرناه به، فكيف عرفت ذلك وأخبرت به لولا أنك رسول حق يوحى إليك. قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً[3] مِّن رَّبِّكَ﴾ أي أرسلناك رحمة من ربك للعالمين ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾

(١) إذ كلفناه أمرنا ونهينا وألزمناه عهدنا.

(٢) ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾ إلخ.. وجه هذا الاستدراك أنّ المشركين لما تعجبوا من رسالة محمد ﷺ حين لم يسبقها رسالة إلى آبائهم فأعلمهم أن الله تعالى أرسل موسى بعد فترة من الرسل كذلك ولكن لطول الزمن ومضي القرون نسوا رسالة موسى عليه السلام حتى قالوا: ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة.

(٣) أي: ما كان علمك بذلك لحضورك ولكن كان علمك رحمة من ربك فرحمة: منصوب في الآية على تقدير كون محذوف أي: كان علمك رحمة. ويصح النصب على المفعول المطلق أي: ولكن رحمناك رحمة فعلمناك ذلك بواسطة إيحائنا إليك.

وهم أهل مكة والعرب أجمعون ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي كي يتعظوا فيؤمنوا ويهتدوا فينجوا ويسعدوا.

(٤٧) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ[١] أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ أي عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي من الشرك والمعاصي ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي هلا أرسلت إلينا رسولاً ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لولا قولهم هذا لعاجلناهم[٢] بالعذاب ولما أرسلناك إليهم رسولاً إذًا فما لهم لا يؤمنون ويشكرون؟؟!

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية بأقوى الأدلة العقلية.

٢ - بعثة الرسول محمد ﷺ جاءت في أوانها واشتداد الحاجة إليها.

٣ - البعثة المحمدية كانت عبارة عن رحمة إلهية رحم الله بها العالمين.

٤ - جواب ﴿لَوْلَآ﴾ في قوله ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ محذوف وقد ذكرناه وهو لعاجلناهم بالعقوبة ولما أرسلناك إليهم رسولاً.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٨ - ٥١]

(٤٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾: أي محمد ﷺ رسولاً مبينًا. ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾: أي هلا أعطي مثل ما أعطي موسى من الآيات المعجزات من العصا واليد أو كتابًا جملة واحدة كالتوراة. ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾: أي كيف يطالبونك بأن تؤتى مثل ما أوتي موسى وقد كفروا بما أوتي موسى من قبل لما أخبرهم اليهود أنهم يجدون نعت محمد ﷺ في التوراة كفروا بهذا الخبر ولم يقبلوه. ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ﴾: أي التوراة والقرآن كلاهما سحر ظاهر بعضهما بعضًا أي قواه.

(٥٠) ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾: أي بالإتيان بالكتاب الذي هو أهدى من التوراة والقرآن. ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾: في كفرهم ليس غير، فلا عقل ولا كتاب منير. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: أي لا أضل منه قط.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۩﴾: أي بأخبار الأولين وما أحللنا بهم من نقمتنا لما كذبوا رسلنا وأنكروا توحيدنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يتعظون فيؤمنون ويوحدون.

۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ (٥٩)

معنى الآيات:

لما قرر تعالى نبوة رسوله محمد ﷺ بأدلته التي لا أقوى منها ولا أوضح وبين حاجة العالم إليها لا سيما العرب، وذكر أنه لولا كراهة قولهم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما أرسل[٣] إليهم رسوله. ذكر هنا ما واجه به المشركون تلك الرحمة المهداة فقال عنهم:

---

(١) ﴿لَوْلَآ﴾ هنا حرف امتناع لوجود، امتنع إنزال العذاب بهم لوجود قولهم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ أما لولا الثانية فهي أداة تحضيض.

(٢) في الآية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

(٣) ولأخذهم بالعذاب جزاء كفرهم وشركهم وفسادهم.

(٤٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ[1] ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي محمد النبي ﷺ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ أي من الآيات كالعصا واليد البيضاء حتى نؤمن به ونصدق رسالته، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾[2]. وقالوا: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ وذلك أن قريشًا لما كثر المؤمنون وهالهم الموقف بعثوا إلى يهود المدينة يسألونهم بوصفهم أهل الكتاب الأول عن مدى صدق محمد ﷺ فيما يقوله، فأجابهم اليهود بأنهم يجدون نعوت النبي الأمي في التوراة وأنه رسول حق وليس بكذاب ولا دجال، فما كان من المشركين من قريش إلا أن أعلنوا كفرهم بالتوراة وقالوا: التوراة والقرآن ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾[3] تعاونا فلا نؤمن بهما ولا نصدق من جاء بهما وقرىء ﴿ساحران﴾ أي موسى ومحمد عليهما السلام فلا نؤمن بهما.

هذا معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي بكل منهما كافرون.

فكيف لا يخجلون اليوم ويطالبون محمدًا ﷺ أن يعطى مثل الذي أعطي موسى من الآيات، يا للعجب أين يذهب بعقول المشركين؟!!

(٤٩) وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا رسولنا لهؤلاء المشركين الذين كفروا بالتوراة والقرآن ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أنزله بعلمه يكون أثر هداية من التوراة والقرآن.. أتبعه! ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم بأن الفرقان والتوراة سحران تظاهرا.

(٥٠) وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ بالإتيان بكتاب من عند الله تعالى هو أهدى من الفرقان والتوراة ومن أين لهم بذلك.. إنه المستحيل! إذًا فاعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم فيما يقولون ويدعون فلا عقل ولا نقل عندهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟! اللهم إنه لا أضل منه. والنتيجة أنه لا أضل من هؤلاء المشركين من قريش، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ[4]﴾ هذا بيان لسنة الله تعالى في الظالمين الذين أكثروا من الظلم وتوغلوا فيه عقيدة بالشرك وعملاً بالمعاصي فإنه يحرمهم الهداية فلا يهتدون أبدًا.

(٥١) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا[5] لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝﴾ أي لقد وصلنا، أي لهؤلاء المشركين من قومك يا رسولنا أي وصلنا لهم القول بأخبار الماضي، وما أحللنا بهم من بأسنا ونقمنا وعظيم عقوباتنا لما كفروا كما كفر هؤلاء وكذبوا بما كذّب به هؤلاء وصلنا لهم القول مبينًا واضحًا موصولاً أوله بآخره رجاء أن يتذكروا فيذكروا فيؤمنوا ويوحدوا فينجوا من العذاب ويرحموا بدخول الجنة.

هداية الآيات:

١ - بيان تناقض المشركين وكل من يتبع الهوى ويترك الهدى الإلهي.

٢ - بيان تحدي المشركين بالإتيان بكتاب من عند الله وعجزهم عن ذلك فبان بذلك أنهم يتبعون أهواءهم وأنه لا أضل منهم اليوم.

٣ - بيان سنة الله في حرمان المتوغلين في الظلم من الهداية الإلهية.

٤ - بيان أن الله عز وجل وصل القول لأهل مكة مفصلاً مبينًا

---

(١) هذه الفاء هي الفصيحة أفصحت عن جواب طلب متقدم وهو قول المشركين: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: هلاّ أرسلت إلينا رسولاً مطالبين بذلك بإلحاح.

(٢) أي: موسى ومحمد تعاونا على السحر.

(٣) قرأ نافع: ﴿ساحران تظاهرا﴾ وقرأ حفص: ﴿سِحْرَانِ﴾ إخبار بالمصدر.

(٤) المراد بالظالمين: الكاملون في الظلم وهو ظلم الأنفس وظلم الناس وظلم الشرك وهو أعظمها. ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وكذا إتيان الفواحش.

(٥) التوصيل: مبالغة في الوصل وهو: ضمّ شيء إلى شيء وربطه به، والقول: القرآن ألفاظه وصل بعضها ببعض إذ نزل منجماً كلما نزل أي: وصل بالآخر حتى اكتمل، ووصلت معانيه بعضها ببعض بإحكام وإتقان لم يُعهدا في كتاب غيره وصل وعده بوعيده وترغيبه بترهيبه.

لهدايتهم فله الحمد وله المنة وعلى الكافرين اللعنة في جهنم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٢ ـ ٥٥]

(٥٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾: أي التوراة والإنجيل من قبل القرآن الكريم.

(٥٣) ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: أي القرآن.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾: أي منقادين للّه مطيعين لأمره ونهيه.

(٥٤) ﴿أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: أي يضاعف لهم الثواب لأنهم آمنوا بموسى وعيسى وآمنوا بمحمد ﷺ.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: أي يدفعون بالحسنة من القول أو الفعل السيئة منهما.

(٥٥) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: أي الكلام اللاغي الذي لا يقبل ولا يقر عليه لأنه لا يحقق درهمًا للمعاش ولا حسنة للمعاد.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: هذا سلام المتاركة أي قالوا قولاً يسلمون به. ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: أي لا نطلب صحبة أهل الجهل لما فيها من الأذى.

معنى الآيات:

(٥١) إن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ يشمل أيضًا اليهود والنصارى من أهل الكتاب إذ هم كالعرب فيما بيّن لهم من أخبار الماضين وفصّل من أنباء إهلاك الأمم السابقة وما أنزل من بأساء وعذاب بالمكذبين، إذ الجميع مطالبون بالإيمان والعمل الصالح والتخلي عن الشرك والكفر والمعاصي للنجاة والسعادة فذكر تعالى هنا أن فريقًا من أهل الكتاب يؤمنون بالنبي محمد ﷺ لأنه الحق من ربهم.

(٥٢) فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ[1] ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝﴾.

(٥٣) ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل نزول[2] القرآن ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أي موحدين منقادين نعبد الله بما شرع على لسان موسى وعيسى عليهما السلام، هذه الآية تعني مجموعة من آمن من أهل الكتاب على عهد رسول الله ﷺ ونزول القرآن منهم عبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهما.

(٥٤) وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ[3]﴾ أي مضاعفًا لأنهم آمنوا برسولهم وعملوا بما جاء به من الحق وآمنوا بمحمد ﷺ وما جاء به من الهدى، وقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ[4]﴾ أي يدفعون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي الصفح والعفو ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهي الأذى من سب وشتم. وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ[5]﴾ أي يتصدقون بفضول أموالهم حيث تنبغي الصدقة.

(٥٥) وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي وإذا سمع أولئك المؤمنون من أهل الكتابين اللغو من سفهاء الناس أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ولا إلى قائله وأجابوا قائلين: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ أي نتائجها حيث نجزى بها ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ حيث تجزون بها ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي اتركونا، إنا لا نبتغي[6] محبة الجاهلين، لما في ذلك من الأذى والضرر الناتج عن سلوك أهل الجهل بالله تعالى ومحابه ومكارهه.

هداية الآيات:

١ ـ بيان فضل أهل الكتاب إذا آمنوا

---

(١) ذُكر عدة أقوال في هؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية، منها وهو أقربها لأنّ السورة مكية أنها نزلت في النجاشي وأصحابه إذ وجّه باثني عشر رجلاً فجلسوا إلى النبي ﷺ وكان أبو جهل وأصحابه قريباً منهم فآمنوا بالنبي ﷺ فلما قاموا من عنده تبعهم أبو جهل ومن معه فقال لهم: خيبكم الله من ركب وقبّحكم من وفد لم تلبثوا أن صدّقتموه وما رأينا ركباً أحمق منكم ولا أجهل. فقالوا: سلام عليكم لم نأل أنفسنا رشداً لنا أعمالنا ولكم أعمالكم.

(٢) ومن قبل محمد ﷺ كذلك.

(٣) ثبت في الصحيح: **«أن ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدّقه فله أجران وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»** قال الشعبي: خذ هذا الحديث بغير شيء فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة.

(٤) شاهده حديث معاذ: **«اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»**.

(٥) هذا الإنفاق عام في المال والعلم والجاه إذ كل ذلك من رزق الله والكل يُنفق منه في سبيل الله.

(٦) أي: لا تطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة والمخاصمة.

بالنبي الأمي ﷺ وكتابه وأسلموا لله رب العالمين.

٢ ـ فضيلة من يدرأ بالحسنة السيئة، وينفق مما رزقه الله.

٣ ـ فضيلة من يعرض عن اللغو وأهل الجهالات، ويقول ما يسلم به من القول، وهذه إحدى صفات عباد الرحمٰن ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي قولاً يسلمون به. وهذا السلام ليس سلام تحية وإنما هو سلام متاركة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٦ ـ ٥٩]

(٥٦) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: أي هدايته كأبي طالب بأن يسلم ويحسن إسلامه.

(٥٧) ﴿وَقَالُوا﴾: أي مشركو قريش. ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾: أي إن نتبعك على ما جئت به وندعو إليه وهو الإسلام. ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾: أي تتجرأ علينا قبائل العرب ويأخذوننا. ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: أي يحمل ويساق إليه ثمرات كل شيء من كل ناحية. ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾: أي رزقًا لكم من عندنا يا أهل الحرم بمكة.

(٥٨) ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾: أي كفرت نعمة الله عليها فأسرفت في الذنوب وطغت في المعاصي.

(٥٩) ﴿يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾: أي في أعظم مدنها. وهي العاصمة. ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾: بالتكذيب للرسول ﷺ والإصرار على الشرك والمعاصي.

معنى الآيات:

(٥٦) قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ هذه الآية نزلت في شأن[١] أبي طالب عم الرسول ﷺ إذ كان النبي ﷺ يرغب في إسلامه لما له من سالفة في الوقوف إلى جنب النبي ﷺ يحميه ويدافع عنه، فلماحضرته الوفاة زاره النبي ﷺ وعرض عليه الشهادتين فكان يقول له: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله يوم القيامة، وكان حوله عواده من كفار قريش، ومشائخها، فكانوا ينهونه عن ذلك حتى قالوا له: أترغب عن دين آبائك؟ أترغب عن ملة عبد المطلب أبيك حتى قال: هو على ملة عبد المطلب ومات. فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عن ذلك فنهاه الله فلم يستغفر له بعد ونزلت هذه الآية كالعزاء له ﷺ فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته يا نبينا ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته لعلمه أنه يطلب الهداية ولا يرغب عنها كما رغب عنها أبو طالب وأبو لهب وغيرهما، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي بالذين سبق في علمه تعالى أنهم يهتدون.

(٥٧) وقوله تعالى: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ هذا اعتذار اعتذر به بعض رجالات قريش[٢] فقالوا: نحن نعرف أن ما جئت به حق ولكننا نخشى إن آمنا بك واتبعناك يتألب علينا العرب ويرموننا عن قوس واحدة ونصبح نتخطف من قبل المغيرين كما هو حاصل لغيرنا، وبذلك نحرم هذا الأمن والرخاء وتسوء أحوالنا، لهذا نعتذر عن متابعتك فيما جئت به وأنت تدعو إليه من الكفر بآلهتنا وهدمها والتخلي عنها. فقال تعالى في الرد على هذا الاعتذار الساقط البارد: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن[٣] لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ[٤] إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي لم يوطىء لهم أرض بلد حرمناه فلا يسفك فيه دم، ولا يصاد فيه صيد، ولا يؤخذ فيه أحد بجريرة، أليس هذا كافيًا في أن يعلموا أن الذي جعل لهم حرمًا آمنًا قادر على أن يؤمنهم إذا آمنوا وأسلموا، ومن باب أولى. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

---

(١) روى البخاري سبب نزول هذه الآية وأنها نزلت في أبي طالب عم الرسول ﷺ.

(٢) من القائلين هذا القول من قريش الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي وكان هذا القول من تعللاتهم فأجاب تعالى عما اعتل به هؤلاء فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا ..﴾ إلخ.

(٣) الاستفهام للإنكار عليهم أن يكون الله تعالى لم يمكن لهم حرماً آمناً.

(٤) قرأ نافع: ﴿تجبى﴾ بالتاء، وقرأ حفص بالياء، والجبي: الجمع، والجلب، ومنه جباية الزكاة أي: تجمع أموالها، وجابية الحوض ما يجمع فيها الماء من البئر.

﴿يَعۡلَمُونَ﴾[1] فهذه علة إصرارهم على الشرك والكفر. إنها الجهل بالله تعالى وعظمته وعلمه وحكمته. ومعنى ﴿يُجۡبَىٰٓ﴾ أو تجبى ﴿إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي يحمل إليه ويساق من أنحاء البلاد ثمرات كل شيء من أنواع الأرزاق وكان ذلك رزقًا منه تعالى لأهل الحرم. أفلا يشكرون.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ﴾ أي وكثيرًا من أهل القرى أهلكناهم ﴿بَطِرَتۡ[2] مَعِيشَتَهَاۖ﴾ لما بطروا عيشهم فلم يشكروا نعمة الله عليهم فأسرفوا في الظلم والمعاصي فأهلكناهم ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ أي ديارهم ﴿لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾[3] كديار عاد وثمود والمؤتفكات. ﴿وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ لها، فلم نورثها غيرهم وتركناها خاوية خالية لم تسكن. أما يذكرون هذا فيعلموا بذلك قدرتنا فيتقوا فينا ويتوكلوا علينا ويؤمنوا ويوحدوا ويستقيموا على منهج الحق الذي جئت يا رسولنا به.

(٥٩) وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا أيها الرسول ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي أهل المدن والحواضر ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾[4] كما بعثك في أم القرى مكة ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾ أي لم يكن من سنة الله تعالى هذا بل لا يهلك أمة حتى يبعث في أم بلادها رسولاً يتلو عليهم آيات الله المبينة للحق من الباطل والخير من الشر وجزاء ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا[5] ظَٰلِمُونَ﴾ أي ولم يكن من سنة الله تعالى في عباده أن يهلك القرى إلا بعد ظلم أهلها.

فللإهلاك شرطان:

الأول: أن يبعث الرسول يتلو آياته فيُكَذَّب ويُكفر به وبما جاء به.

والثاني: أن يظلم أهل القرى ويعتدوا وذلك بإظهار الباطل والمنكر وإشاعة الشر والفساد في البلاد وهذا من عدل الله تعالى ورحمته بعباده إنه لأرحم بهم من أنفسهم، وكيف ومن أسمائه وصفاته الرحمٰن الرحيم.

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ لا هادي إلا الله. الهداية المنفية هي إنارة قلب العبد وتوفيق العبد للإيمان وعمل الصالحات، وترك الشرك والمعاصي. والهداية المثبتة، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾. تلك هداية الدعوة والوعظ والإرشاد، ومنه ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ أي يدعوهم إلى الهدى.

٢ - مظاهر قدرة الله وعلمه ورحمته وحكمته فيما ألقاه في قلوب العرب المشركين الجاهلين من تعظيم الحرم وأهله ليهيىء بذلك لسكان حرمه أمنًا وعيشًا كما قال تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝﴾.

٣ - من رحمة الله وعدله أن لا يهلك أمة من الأمم إلا إذا توفر لهلاكها شرطان:

١ - أن يبعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آيات الله تحمل الهدى والنور.

٢ - أن يظلم أهلها بالتكذيب للرسول والكفر بما جاء به والإصرار على الكفر والمعاصي.

٤ - التاريخ يعيد نفسه كما يقولون فما اعتذر به المشركون عن قبول الإسلام بحجة تألب العرب عليهم وتعطيل تجارتهم يعتذر به اليوم كثير من المسؤولين فعطلوا الحدود وجاروا الغرب في فصل الدين عن الدولة وأباحوا كبائر الإثم كالربا وشرب الخمور وترك الصلاة حتى لا يقال عنهم أنهم رجعيون متزمتون فيمنعوهم المعونات ويحاصرونهم اقتصاديًا.

---

(١) هذا الاستدراك لذكر علة تجاهلهم حماية الله تعالى لهم بتمكين الحرم لهم فهم فيه آمنون مُطعمون ألا وهي الجهل فهو علّتهم الحاملة لهم على الإصرار على الشرك.

(٢) بطرت: جهلت شكر معيشتها.

(٣) ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: كالمسافرين الذين يمرون بها وينزلون بها ساعات ويغادرون.

(٤) الجملة في محل نصب صفة لـ ﴿رَسُولٗا﴾.

(٥) أي: إلاّ بعد أن ظلموا بالشرك والمعاصي بارتكاب عظائم الذنوب وكبائر الآثام، وذلك لتنزّه الرب تبارك وتعالى عن الظلم.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

٣٩٣

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٠، ٦١]

(٦٠) ﴿وَمَآ أُوتِيتُم[1] مِّن[2] شَيْءٍ﴾: أي وما أعطاكم الله من مال أو متاع.

﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾: فهو ما تتمتعون به وتتزينون ثم يزول ويفنى.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ﴾: أي وما عند الله من ثواب وهو الجنة خير وأبقى. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: لأن من يؤثر القليل الفاني على الكثير الباقي لا عقل له.

(٦١) ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾: أي الجنة. ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾: أي مصيبه وحاصل عليه وظافر به لا محالة. ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: أي في نار جهنم.

معنى الآيتين:

(٦٠) لقد سبق في هذا السياق أن المشركين اعتذروا عن الإسلام بعذر مادي بحت وهو وجود عداوة بينهم وبين سائر العرب. يترتب عليها حروب وتعطل التجارة إلى غير ذلك. فقوله تعالى هنا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هو خطاب لهم ولكل من يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة فيستحل المحرمات ويعطل الأحكام ويضيع الفرائض والواجبات لتعارضها في نظره مع جمع المال والتمتع بالحياة الدنيا. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي من مال ومتاع وإن كثر ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فهو متاع الحياة الدنيا ﴿وَزِينَتُهَاۚ﴾ أي تتمتعون وتتزينون به أيامًا أو أعوامًا ثم ينفد ويزول، أو تموتون عنه وتتركونه ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من نعيم الجنة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ﴾ خير في نوعه وأبقى في مدته، فالأول رديء وتصحبه المنغصات ويعقبه الكدر. والثاني جيد صالح خال من المنغصات والكدورات وباق لا يبلى ولا يفنى ولا يزول ولا يموت صاحبه ويخلفه وراءه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يا من تؤثرون الفاني على الباقي والرديء على الجيد والخبيث على الطيب.

(٦١) وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن[3] وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وهو المؤمن الصادق في إيمانه المؤكد له بصالح عمله، ﴿وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وهو الجنة دار السلام ﴿فَهُوَ[4] لَٰقِيهِ﴾ أي لاق موعده بإذن الله بمجرد أن يلفظ أنفاسه وتعرج إلى السماء روحه. ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهو يأكل ويشرب وينكح كالبهائم ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في جهنم في دار العذاب والهوان، والجواب: لا يستويان أبدًا وشتان ما بينهما، فالأول وهو المؤمن الصالح الموعود بدار السلام لا يقارن بالكافر المتهالك على الدنيا ثم يتركها فجأة ويجد نفسه مع أهل الكفر والإجرام في عذاب وهون لا يفارقه ولا يخرج منه أبدًا.

---

(١) في هذه الآية الكريمة تذكرة لقريش التي آثرت الدنيا على الآخرة فردت الإسلام مخافة أن يؤثر على حياتها الاقتصادية والأمنية في تصورها الهابط المتهالك وهي أيضاً تذكرة لكل الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة.

(٢) ﴿مِّن﴾ بيانية فقوله: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بيان لما في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ والمتاع ما يتمتّع به زمناً ثمّ يزول، والزينة تطلق على ما يحسن الأجسام.

(٣) الاستفهام إنكاري ينكر فيه تعالى التسوية فضلاً عن المفاضلة بين مؤمن وعده ربُّه النعيم المقيم في الآخرة وكافر متعه اليوم بمتع زائلة فانية عمّا قريب تنتهي وتزول ويؤول أمره إلى دار الشقاء والعذاب الأبدي وهي دار البوار.

(٤) جملة: ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ معترضة بين طرفي المقابلة في المفاضلة.

هداية الآيتين:

١ ـ فائدة العقل أن يعقل صاحبه دون ما يضره، ويبعثه على ما ينفعه فإن لم يعقله دون ما يضره ولم يبعثه على ما ينفعه فلا وجود له، ووجوده كعدمه.

٢ ـ بيان فضل الآخرة على الدنيا.

٣ ـ وعد الله للمؤمن بالجنة خير مما يؤتاه الكافر من مال ومتاع وزينة في الحياة الدنيا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٢ ـ ٦٧]

(٦٢) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾: أي الرب سبحانه وتعالى. ﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: أي أنهم شركاء لي فعبدتموهم معي.

(٦٣) ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾: أي بالعذاب في النار وهم أئمة الضلال. ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾: أي فَغَوَوْا ولم نكرههم على الغي. ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾: أي منهم ما كانوا يعبدوننا بل كانوا يعبدون أهواءهم.

(٦٤) ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾: أي نادوهم ليخلصوكم مما أنتم فيه. ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾: أي لما رأوا العذاب وَدُّوا لو أنهم كانوا في الدنيا من المهتدين.

(٦٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾: أي الله تبارك وتعالى.

(٦٦) ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ﴾: أي فخفيت عليهم الأنباء التي يمكنهم أن يحتجوا بها. ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾: أي انقطعوا عن الكلام.

(٦٧) ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ﴾: أي آمن بالله ورسوله ﷺ وتاب من الشرك. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: أدى الفرائض والواجبات. ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾: أي الفائزين بالنجاة من النار ودخول الجنة، وعسى من الله تعالى لا تفيد مجرد الرجاء بل هي لتحقق الموعود به.

معنى الآيات:

(٦٢) يقول تعالى لرسوله ﷺ: واذكر يوم ينادي[1] ربك هؤلاء المشركين وقد ماتوا على شركهم فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي أنهم شركائي، هذا سؤال تقريع وتأنيب والتقريع والتأنيب ضرب من العذاب الروحي الذي هو أشد من العذاب الجثماني.

(٦٣) وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ[2] حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي نطق الرؤساء من أئمة الضلال وهم الذين حق عليهم العذاب في نار جهنم: ﴿رَبَّنَا[3] هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ فغووا ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾[4] أي ما أكرهناهم على الغواية، ﴿تَبَرَّأْنَا[5] إِلَيْكَ﴾ أي منهم. ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي بل كانوا يعبدون أهواءهم لا غير.

(٦٤) وقوله: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي يقال للمشركين تهكمًا بهم واستهزاء، ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي لينصروكم ويخلصوكم مما أنتم فيه من الذل والهوان.

قال تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ بالفعل نادوا ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ إذ لا يقدر واحد من الإنس أو الجن أن يقول هذا كان يعبدني، بل كل معبود يتبرأ ممن عبده كما قالوا في الآية قبل ذي ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ أي منهم ما كانوا يعبدوننا بل كانوا يعبدون أهواءهم. وقوله تعالى: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ بأعينهم فاشتدت حسرتهم وودوا لو أنهم كانوا في الدنيا من المهتدين.

(٦٥) وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي ربهم قائلًا: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾؟ أخبرونا كيف كان موقفكم مع من أرسلنا إليكم؟ هل آمنتم بهم واتبعتموهم أم كذبتموهم وحاربتموهم.

(٦٦) قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ[6] عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي فخفيت عليهم الأخبار التي يمكنهم أن يحتجوا بها

---

(١) بعد تقرير النبوة انتقل الكلام إلى تقرير ركني العقيدة: التوحيد والبعث، فيوم معمول لمحذوف تقديره: اذكر يا رسولنا يوم ينادي الجبار أولئك المحضرين في جهنم يناديهم للتوبيخ والتقريع.

(٢) لم تعطف جملة: ﴿قَالَ الَّذِينَ﴾ بالواو أو بالفاء لأنها في صورة حوار.

(٣) هذا النداء المراد به الاستعطاف والاسترحام.

(٤) أي: أضللناهم كما كنا ضالين، وذلك أنهم دعوهم إلى عبادتهم فعبدوهم، ولذا قال قتادة: هؤلاء هم الشياطين، وقيل: هم الرؤساء، والكل صحيح.

(٥) ﴿تَبَرَّأْنَا﴾ أي: تبرأ الشياطين والرؤساء ممن عبدوهم أو عبدوا غير الله بدعوتهم وتزيينهم، وأنكروا أنهم كانوا يعبدونهم.

(٦) خفيت الأنباء على جميع المسؤولين فسكتوا كلهم إذ لم يروا جواباً ينفع في هذا الموقف الرهيب.

فلم يجدوا حجة واحدة ولذا ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضًا لأنه سقط في أيديهم وعلموا أنهم صالو الجحيم لا محالة.

(٦٧) وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا[1] مَن تَابَ﴾ من هؤلاء المشركين اليوم من الشرك وآمن بالله ولقائه ورسوله وعمل صالحًا فأدى الفرائض والواجبات ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي الفائزين بالنجاة من النار ودخول الجنة، فهذه دعوة سخية لكل مشرك وكافر وفاسق أن يتخلى عن الباطل المتلبس به ويؤمن الإيمان الصحيح ويعمل صالحًا بأداء الفرائض فإنه ينجو من النار ويدخل الجنة دار الأبرار فهل من تائب؟!

هداية الآيات:

١ - التنديد بالشرك والمشركين.

٢ - براءة الرؤساء في الضلالة من المرؤوسين.

٣ - التحذير من الغواية وهي الضلال والانغماس في الذنوب والآثام.

٤ - خذلان المعبودين عابديهم يوم القيامة وتبرؤهم منهم.

٥ - باب التوبة مفتوح لكل عبد مهما كانت ذنوبه ولا يهلك على الله إلا هالك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٨ - ٧٠]

(٦٨) ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾: أي من خلقه. ﴿وَيَخْتَارُ﴾: أي من يشاء لنبوته وطاعته. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾: أي للمشركين. ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾: أي الاختيار في شيء. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: أي تنزيهًا لله عن الشرك.

(٦٩) ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: أي ما تسر وتخفي من الكفر وغيره.

(٧٠) ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾: أي في الدنيا لأنه مولى كل نعمة. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي في الجنة. ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾: أي القضاء النافذ. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: بعد النشور وذلك يوم القيامة.

معنى الآيات:

لقد تقدم في الآيات قبل هذه التنديد بالشرك وتوبيخ المشركين وتحديهم بدعاء شركائهم ليخلصوهم مما هم فيه من الذل والعذاب، وكان شركهم باختيارهم الخاص وإرادتهم الحرة إذ تبرأ منهم من اختاروهم آلهة مع الله فعبدوهم معه. وفي هذه الآية يكشف تعالى عن خطئهم في الاختيار، وذلك من وجهين: الأول أنه لا حق لهم في الاختيار. إذ الاختيار لخالق المخلوقات فيختار منها ما يشاء لنبوته أو طاعته، أما الذي يُخْلَقُ ولا يَخْلُقُ فكيف يصح منه اختيار. والثاني بحكم أنهم مخلوقون مربوبون لله تعالى وهم يعلمون هذا إذ لو سألهم أحد: من خلقكم؟ لقالوا: الله؛ كان المفروض فيهم والمطلوب منهم أن يطلبوا من الله تعالى خالقهم أن يختار لهم ما يعبدون ويبين لهم كيف يعبدون، إذ هو مولاهم الحق ولا مولى لهم سواه، أما أن يركبوا رؤوسهم ويختاروا بأنفسهم ما يعبدون فهذا ظلم منهم كبير استوجبوا به اللوم في الدنيا والعذاب في الآخرة.

(٦٨) قال تعالى(٦٨): ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.. أي وربك يا محمد يخلق ما يشاء ممن يريد خلقهم ويختار[2] من يشاء لما يشاء ممن يشاء من عباده لما يشاء من كمال أو نقصان. أما عبيده فليس لهم حق الاختيار وإنما عليهم السمع والطاعة.

قال تعالى: ﴿مَا[3] كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي حق الاختيار بل الذي يختاره الله هو الذي يجب أن يختاره العبد. وقد كان النبي ﷺ يدعو ويقول: **«اللهم خِرْ لي واختر لي»**

---

(١) هذه الفاء الفصيحة كأنّ سائلاً قال بعد أن عرف حال المشركين في النار: وما حال غيرهم يا ترى؟ فأجيب بأنّ من تاب من الشرك وعمل صالحاً بأداء الفرائض ففلاحه العظيم واجب له متأكد.

(٢) قيل: نزلت رداً على الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. كما هي ردّ على اختيارهم الشركاء ليشفعوا لهم يوم القيامة.

(٣) جائز أن يكون (ما) موصولاً مفعولاً به لفعل: يختار، والعائد محذوف أي: ويختار الذي لهم فيه خيرة، كما أنّ الخلق من خصائصه، إذ قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فكذلك الاختيار له دون غيره، وجائز أن يكون الوقف التام على ﴿وَيَخْتَارُ﴾، وجملة ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ مستأنفة لغرض تأكيد القصر على الله تعالى، هو الخالق وحده وهو الذي يختار وحده وليس لأحد من الخلق الخلق والاختيار.

وكان يعلّم أصحابه دعاء الاستخارة كما يعلّمهم السورة من القرآن، ويحضّهم على أن يختاروا في الأمر الواحد سبع مرات. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزه تعالى نفسه عن شرك المشركين وباطل المبطلين.

(٦٩) وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۞﴾ وهذا برهان أن الخيرة[1] له وليس لغيره إذ الذي يعلم الظواهر والبواطن والبدايات والنهايات قبل البدء والمنتهى صاحب هذا العلم هو الذي يختار. أما الذي لا يعلم ما يكنه أخوه في صدره بل ولا ما يظهره آخر إلى جنبه أي لا يعلم عاقبته فكيف يصح منه الاختيار أو تكون له خيرة في شيء. وفوق ذلك أنه سبحانه وتعالى وهو الله الذي لا إله إلا هو أي المعبود الذي لا معبود بحق سواه الذي له الحمد في الدنيا إذ كل ما في الدنيا هو خلقه وفضله وإنعامه، وله الحمد في الآخرة، يحمده أهل الجنة إذ قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن بل الحياة الدنيا كالآخرة. تختم بالحمد لله. قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٧٠) ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وله الحكم أي القضاء في الدنيا والآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فكما أن الحكم خاص به فكذلك الرجوع إليه، ويوم يرجعون إليه يحكم بينهم بحكمه وهو العزيز العليم.

هداية الآيات:

١ - تقرير مبدأ «ليس من حق العبد أن يختار إلا ما اختار الله له».

٢ - تعين طلب الاختيار في الأمر كله من الله تعالى بقول العبد **«اللهم خر لي واختر لي»**.

٣ - تأكيد سنة الاستخارة وهي إذا همّ العبد بالأمر يصلي ركعتين في وقت لا تكره فيه صلاة النافلة، ثم يدعو بدعاء الاستخارة كما ورد في الصحيح وهو **«اللهم إني أستَخِيرُكَ بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وفي عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وفي عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به»** ويسمي حاجته التي همَّ بها من سفر أو زواج أو بناء أو تجارة أو غراسة.

٤ - تقرير التوحيد وإبطال التنديد.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

٥ - وجوب حمد الله وشكره على كل حال وذلك لتجدد النعمة في كل آن.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧١ - ٧٥]

(٧١) ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾[2]: أي أخبروني.

﴿سَرْمَدًا﴾: أي دائماً، ليلاً واحداً متصلاً لا يعقبه نهار. ﴿بِضِيَآءٍ﴾: أي ضوء كضوء النهار.

(٧٢) ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾: أي تنامون فتسكن جوارحكم فتستريح من تعب الحياة.

(٧٣) ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾: أي في الليل.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي تطلبوا الرزق من فضل الله في النهار.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي كي تشكروا

---

(١) الخيرة: اسم مصدر الاختيار كالطيرة اسم مصدر التطير ولا نظير لهذه الصيغة في الأسماء (الطيرة والخيرة).

(٢) حقق الهمزة من ﴿أرأيتم﴾ حفص، وخففها ورش فقلبها ألفاً تخفيفاً: ﴿أرايتم﴾.

ربكم بطاعته كالصلاة والصيام والصدقة.
(٧٥) ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: أي أحضرنا من كل أمة من يشهد عليها وهو نبيها عليه السلام. ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾: أي حججكم على صحة الشرك الذي أنذرتكم رسلنا عواقبه فما قبلتم النذارة ولا البشارة. ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾: أي تبيَّن لهم أن العبادة والدين الحق لله لا لسواه. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أي وغاب عنهم ما كانوا يكذبونه من الأقوال الباطلة التي كانوا يردون بها على الرسل عليهم السلام.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد وإبطال التنديد وهو حول أنداد الله تعالى من مخلوقاته فقال تعالى لرسوله محمد ﷺ، قل لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله أندادًا وهو خالقهم ورازقهم ومدبر أمر حياتهم.
(٧١) ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[١]﴾ أي دائمًا ليلاً واحدًا متصلاً لا يعقبه نهار ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أخبروني هل هناك ﴿إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ[٢]﴾ كضياء النهار، والجواب لا أحد وإذًا فكيف تشركون به أصنامًا. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ما يقال لكم.
(٧٢) وقل لهم أيضًا: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ أي دائمًا متصلاً لا يخلفه ليل أبدًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إلى انقراض هذا الكون وانتهاء هذه الحياة وقيام الناس لربهم من قبورهم يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ أي أيُ إله غير الله ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ فتخلدون إلى الراحة بالنوم والسكون وعدم الحركة فيه، وإذا قلتم لا أحد يأتينا بليل نسكن فيه إذًا فما لكم لا تبصرون هذه الآيات ولا تسمعون ما تحمله من الأدلة والحجج القواطع القاضية بأنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه.
(٧٣) وقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ[٣] جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ إذ ليس واجبًا عليه ذلك وإنما هو فضل منه ورحمة فالليل تسكنون فيه والنهار تتحركون فتبتغون رزقكم من فضل الله، وبذلك تهيؤون للشكر إذا أكلتم أو شربتم أو ركبتم أو نزلتم قلتم الحمد لله، والحمد لله رأس الشكر، كما أن الليل والنهار ظرف للعبادة التي هي الشكر، فالعبادات لا تقع إلا في الليل والنهار، فالصيام في النهار والقيام بالليل والصلاة والصدقات فيهما.
(٧٤) وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي اذكر يا رسولنا لهم تنبيهًا وتعليمًا يوم يناديهم الرب تبارك وتعالى فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركاء لي فعبدتموهم، وهل يرجى أن يجيبوا لا، لا، وإنما هذا السؤال ونظائره هو سؤال تبكيت وتأنيب وتوبيخ وهو نوع من العذاب النفسي الذي هو أشد من العذاب الجسمي.
(٧٥) وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا[٤] مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي واذكر لهم هذا الموقف من مواقف القيامة الصعبة ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أي أحضرنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليها وهو نبيها، ويشهد الرسول ﷺ أنه بلّغ ونصح وأنذر، ويقال لهم: ﴿هَاتُوا[٥] بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم تعبدون وتدعون. قال تعالى: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي تبين لهم أن الحق لله

(١) ﴿سَرْمَدًا﴾ أي: دائماً. قال طرفة بن العبد:
لعمرك ما أمري عليّ بغمّةٍ ... نهاري ولا ليلي عليَّ بسرمد
(٢) أي: بنهار تبصرون فيه معايشكم ويصلح فيه ثماركم ونباتاتكم.
(٣) فيه تصريح بأنّ الليل بما يحصل فيه من سكون وراحة للأبدان والعقول من الهم والتفكير، والنهار بما يحصل فيه من عمل ونشاط للكسب وتحصيل الرزق نعمة الله على العباد اقتضتها رحمته بهم فله الحمد وله المنّة.
(٤) أعيد هذا الموقف مرة أخرى ليذكر فيه حالاً لم تذكر في الأول وهي: إشهاد الأنبياء على أممهم، وفي هذا تقرير للنبوة المحمدية إذ هذه الآية كآية: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.
(٥) ﴿هَاتُوا﴾: أحضروا، والأمر مستعمل هنا للتعجيز إذ هم عاجزون عن الإتيان بأدنى حجة عن صحة شركهم وكفرهم بلقاء ربهم، فعاب عليهم ما كانوا يكذبونه من الادعاءات الفارغة من أنّ أصنامهم تشفع لهم.

أي أن الدين الحق لله فهو المستحق لتأليه المؤلهين وطاعة المطيعين وقربات المتقربين لا إله غيره ولا رب سواه.

هداية الآيات:

١ - إشارة علمية إلى أن السماع يكون مع السكون وقلة الضجيج، وأن الإبصار يكون مع الضوء، ولا يتم مع الظلام بحال من الأحوال.

٢ - البرهنة القوية على وجوب توحيد الله إذ لا رب يدبر الكون سواه.

٣ - كون النهار والليل ظرفان للسكون وطلب العيش هما من رحمة الله تعالى أمر يقتضي شكر الله تعالى بحمده والاعتراف بنعمته وطاعته بصرف النعمة فيما يرضيه ولا يسخطه.

٤ - بيان أهوال القيامة، بذكر بعض المواقف الصعبة فيها.

٥ - إذا كان يوم القيامة بطل كل كذب وقول ولم يبقَ إلا قول الحق والصدق.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٦ - ٧٨]

(٧٦) ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾: أي ابن عم موسى عليه السلام. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: أي ظلمهم واستطال عليهم. ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾: أي أعطاه الله من المال ما يثقل عن الجماعة حمل مفاتح خزائنه. ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾: أي لا تفرح فرح البطر والأشر.

(٧٧) ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾: أي اطلب في المال الذي أوتيته الدار الآخرة بفعل الخيرات.

(٧٨) ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾: أي لعلم الله تعالى بأني أهل لذلك. ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾: أي للمال. ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أي لعلم الله تعالى بهم فيدخلون النار بدون حساب.

معنى الآيات:

هذا بداية قصص[(١)] قارون الباغي، وهو قارون ابن يصهر بن قاهَث بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام. فهو ابن عم موسى بن عمران وابن خالته أيضًا، وكان يلقب المنور لحسن صورته، ونافق كما نافق السامري المطرود.

(٧٦) قال تعالى في ذكر خبره ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي إسرائيلي ابن عم موسى بن عمران الرسول. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي على بني إسرائيل أي ظلمهم وطغى عليهم، ولعل فرعون كان قد أسند إليه إمارة على بني إسرائيل فأطغته وملك أموالاً كثيرة ففرته وألهته. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ[(٢)] لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ[(٣)] أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾. وهذا الخبر الإلهي دليل على ما كان للطاغية قارون من أموال بحيث أن المفاتح تثقل كاهل العصبة أي الجماعة من الرجال لو حملوها كلها وذلك لثقلها. وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي من بني إسرائيل واعظين له مذكرين ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي بأموالك فرح الأشر البطر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي الأشرين البطرين الذين يختالون ويتفاخرون ويتكبرون.

(٧٧) ﴿وَٱبْتَغِ﴾ أي اطلب ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من أموال ﴿ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ بأن تصدَّق منها وأنفقْ في

---

(١) هذا استئناف ابتدائي لذكر قصة لها مغزاها ونتائجها من الموعظة والذكرى، ومغزى هذه القصص أولاً: تقرير النبوة المحمدية إذ مثل هذا لا يقصه غير من يوحى إليه بحال. ثانياً: تضمن القصص الرد على المعجبين بالمال ومتاع الحياة الدنيا وبيان نهايتهم المؤلمة، وثالثاً: عرض مشابه لموقف أصحاب الرسول ﷺ مع أغنياء مكة وهم يتطاولون عليهم بالمال والجاه. كما كان قارون مع ضعفة بني إسرائيل وفي ذلك عظة للمؤمنين وذكرى للكافرين.

(٢) ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾: الأكثرون على أنّ (ما) موصولة، وصلتها جملة: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ وأنكر بعض أن تبتدىء الصلة بحرف إنّ فقالوا: (ما) موصوفة وما بعدها في محل صفة، والمفاتح: جمع مفتح بكسر الميم: اسم آلة الفتح.

(٣) ﴿لَتَنُوٓأُ﴾: من ناء بالشيء ينوء: ثقل عليه، والباء: في ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ للمصاحبة، ليست للسببية، إذ هي كما في قول امرىء القيس:

وأردف أعجازاً وناء بكلكل

والعصبة: الجماعة من الخمسة إلى العشرة فأكثر.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

٣٩٥

سبيل الله كبناء مسجد أو مدرسة أو ميتم أو ملجأ إلى غير ذلك من أوجه البر والإحسان. ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ[١] مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ فكل واشرب والبس واركب واسكن ولكن في غير إسراف ولا مخيلة، ﴿وَأَحْسِن﴾ عبادة الله تعالى وطاعته وأحسن إلى عباده بالقول والعمل ﴿كَمَآ أَحْسَنَ﴾ أي الله تعالى إليك ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ[٢] فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بترك الفرائض وارتكاب المحرمات. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ومن لم يحبه الله أبغضه ومن أبغضه عذبه في الدنيا والآخرة فبعد هذه الموعظة من قومه الصالحين أهل العلم والبصيرة رَدَّ هذا الطاغية قارون بما أخبر به تعالى عنه في قوله في الآية (٧٨):

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي لا تهددوني ولا تخوفوني بسلب مالي عني إن أنا لم أحسن فإن هذا المال قال ﴿أُوتِيتُهُ﴾ أي آتانيه الله على علم[٣] منه بأني أهل له ولذا أعطاني وزاد عطائي وأكثره قال تعالى في الرد عليه في زعمه هذا ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ أي أيقول ما يقول من الزعم الكاذب ولم ﴿يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، كعاد وثمود وقوم إبراهيم فلو كان كثرة المال دليلاً على حب الله ورضاه عن أهله، ما أهلك عادًا وثمودًا وقوم نوح من قبل وكانوا أشد قوة وأكثر مالاً ورجالاً. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ[٤] عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي إذا أكثر العبد من الإجرام بالشرك والمعاصي حق عليه كلمة العذاب وآن أوان عذابه لا يسأل عن ذنوبه بل يؤخذ فجأة كما أن هؤلاء المجرمين سيدخلون النار بغير حساب فلا يسألون ولا يحاسبون. قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ[٥] فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۞﴾ أي ويرمون في جهنم ويقال لهم: ﴿هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ[٦] ۞﴾.

هداية الآيات:

١ - المال والمنصب العالي عرضة لإفساد المرء إلا من رحم الله عز وجل وقليل ما هم.

٢ - حرمة الفرح بالمال والإمارة إذا كان الفرح فرح بطر وفخر واعتزاز وكبر وخيلاء.

٣ - من فضل الله على الأمة أن يوجد فيها عالمون ينصحون ويرشدون ويوجهون.

---

(١) أشار ابن عمر إلى هذا القول في قوله: احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. ومن تأولها بالعمل للآخرة فقط شاهده قول الشاعر:

مما تجمع الدهر كله ... رداءان تلوى فيهما وحنوط

(٢) الفساد في الأرض يكون بفعل المعاصي الجامعة لترك الفرائض وإتيان الكبائر.

(٣) وقال ابن زيد: لعلم الله تعالى بفضلي ورضاه عني أي: إنّي أوتيتها باستحقاقي.

(٤) أي: لا يسأل سؤال استعتاب ليتوب أما سؤال التقريع والتوبيخ فلا مانع منه، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وقوله: ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

(٥) ﴿سِيمَاهُمْ﴾: إنهم سود الوجوه زرق العيون.

(٦) المجرمون: هم الذين أجرموا على أنفسهم أي: خبّثوها بكثرة ما يرتكبون من الجرائم كالكفر والظلم وكبائر الذنوب، كالقتل ظلماً وأكل الربا وتعاطي الخمور والزنى.

٤ ـ من الحزم للمرء أن يطلب من المال والجاه والمنصب أعلى الدرجات في الجنة.

٥ ـ حلّية الأكل من الطيّب والشرب من الطيّب واللبس والركوب والسكن من غير إسراف ولا خيلاء ولا كبر.

٦ ـ العافية والمال وعز السلطان يصاب صاحبها بالاغترار إلا من رحم الله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٩ ـ ٨٢]

(٧٩) ﴿فِي زِينَتِهِۦٓ﴾: أي لباس الأعياد والحفلات الرسمية. ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾: أي تمنوا أن لو أعطوا من المال والزينة ما أعطي قارون. ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: أي إنه لذو بخت ونصيب وهبه الله إياه في كتاب المقادير.

(٨٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: أي أعطوا العلم الديني بمعرفة الله والدار الآخرة وموجبات السعادة والشقاء. ﴿وَيْلَكُمْ﴾: أي حضر ويلكم وهلاككم بتمنيكم المال وزخرف الدنيا. ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: أي ما عند الله من جزاء للمؤمنين العاملين الصالحات وهو الجنة خير من حطام الدنيا الفاني. ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾: أي ولا يوفق لقول هذه الكلمة وهي ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا إلا الصابرون على الإيمان والتقوى.

(٨١) ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾: أي أسخنا الأرض من تحته فساخت به وبداره وكل من كان معه فيها من أهل البغي والإجرام.

(٨٢) ﴿تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾: أي الذين قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، فالمراد من المكان المكانة وما عليه قارون من الإمارة والزينة والمال والجاه. ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ﴾: أي أعجب عالمًا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء. ﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي يضيّق. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: أي أعجبُ عالمًا أنه لا يفلح الكافرون أي أنهم لا يفوزون بالنجاة من النار ودخول الجنان كما يفوز المؤمنون.

معنى الآيات:

ما زال السياق في قصص قارون الباغي.

(٧٩) قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[١] أي قارون في يوم عيد أو مناسبة خرج على قومه وهم يشاهدون موكبه ﴿فِي زِينَتِهِۦٓ﴾ الخاصة من الثياب والمراكب. قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي من قوم موسى وهم المفتونون بالدنيا وزخرفها من أهل الغفلة عن الآخرة وما أكثرهم اليوم وقبل وبعد اليوم قالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ تمنوا أن يكون لهم مثل الذي أوتي قارون من المال والزينة ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ[٢] عَظِيمٍ﴾ أي بخت ونصيب ورزق.

(٨٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي الشرعي[٣] الديني العالمون بالدنيا والآخرة. وأسباب السعادة والشقاء في كل منهما قالوا ما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي ويحكم هلكتم إن كنتم تؤثرون هذا الفاني على الباقي ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ وهو الجنة خير من هذا الزخرف الفاني ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ولازم ذلك أنه ترك الشرك والمعاصي، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾[٤] أي هذه الجملة من الكلام: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ بربه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ في حياته بأداء الفرائض والنوافل وترك المحرمات والرذائل أي ولا يلقى هذه الكلمة ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ من أهل الإيمان والتقوى

---

(١) لم تؤثر فيه موعظة واعظيه ولم ينتفع منها بشيء لظلمة نفسه وقساوة قلبه لما ران عليه من الذنوب فخرج في مظهر الكبرياء والتحدي.

(٢) الحظ: القسم الذي يُعطاه المقسوم له.

(٣) في الآية دليل قوي على أنّ الجهل بالله وشرائعه وعهده ووعيده هو سبب كل شر وفساد في الأرض، وأنّ العلم بذلك هو سبيل الإصلاح في الأرض.

(٤) ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾: الضمير عائد على ما دلّ عليه قولهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وهو هذه الموعظة، ولا يلهمها وتلقى في روعه وينطق بها إلاّ أهل الصبر على الطاعات وعن المعاصي فتصفو لذلك نفوسهم فيلهمون مثل هذه الموعظة.

هم الذين يلقنهم الله إياها فيقولونها لصفاء أرواحهم وزكاة أنفسهم.

(٨١) وقوله تعالى في الآية (٨١): ﴿فَخَسَفْنَا[1] بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يخبر تعالى أنه خسف بقارون وبداره الأرض انتقامًا منه لكفره ونفاقه وبغيه وكبريائه. وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لما أراد الله خذلانه بخسف الأرض به وبداره ومن فيها من أعوانه الظلمة والمجرمين. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي لنفسه فنجاها مما حلّ بها من الخسف في باطن الأرض التي ما زال يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

(٨٢) وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾[2] يخبر تعالى عن الذين قالوا يوم خرج عليهم قارون في زينته ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ﴾ يخبر تعالى عنهم أنهم لما شاهدوا الخسف الذي حل بقارون وبداره قالوا ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ[3] يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي نعجب عالمين، أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾[4]، أي على من يشاء فالبسط والقبض كله لله وبيد الله فما لنا لا نفزع إلى الله نطلب رضاه ولا نتمنى ما تمنيناه وقد أصبح ذَاهِبًا لا يرى بعين ولا يلمس بيدين، ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[5] أي نعجب أيضًا عالمين بأنه لا يفلح الكافرون كقارون وفرعون وهامان أي لا يفوز الكافرون لا بالنجاة من العذاب ولا بدخول الجنان.

هداية الآيات:

١ ـ بيان أن الفتنة أسرع إلى قلوب الماديين أبناء الدنيا والعياذ بالله تعالى.

٢ ـ بيان موقف أهل العلم الديني وأنهم رُشَّد، أي حكماء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

٣ ـ بيان أن البغي يؤخذ به البغاة في الدنيا ويعذبون به في الآخرة.

٤ ـ بيان أن وجود الإيمان خير من عدمه وإن قلّ وأن ذا الإيمان أقرب إلى التوبة ممن لا إيمان له.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٣، ٨٤]

(٨٣) ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾: أي الجنة، دار الأبرار. ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي بغيا ولا استطالة على الناس. ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: أي ولا يريدون فسادًا بعمل المعاصي. ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾: أي المحمودة في الدنيا والآخرة. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: الذين يتقون مساخط الله فلا يعتقدون ولا يقولون ولا يعملون ما لا يرضى به الله تعالى.

(٨٤) ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾: أي يوم القيامة والحسنة: أثر طاعة الله تعالى يجزى به المؤمن. ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾: أي تضاعف له عشرة أضعاف. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: السيئة أثر معصية الله تعالى يعاقب به العبد إذا لم يعف الله تعالى عنه.

معنى الآيتين:

(٨٣) لقد تقدم في السياق أن ثواب الله وهو الجنة خير لمن آمن وعمل صالحًا فأشار إليه تعالى بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾[6] التي هي الجنة، إذ هي آخر دار يسكنها المتقون فلا يخرجون منها ﴿نَجْعَلُهَا﴾ هذا هو الخبر عن قوله ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ فأخبر تعالى أنه

---

(١) الفاء هنا: للترتيب والتعقيب فقد خسف به يوم خروجه في زينته.

(٢) أي: تمنوا منزلته بين الناس، وهي منزلة المال والترف والجاه والرفعة ومعنى: مكانه: ما كان عليه من منزلة العلو والرفعة.

(٣) ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ قيل: ويكأن: مركبة من (وي) وهي اسم فعل بمعنى أعجب وكاف الخطاب وأنّ الناصبة، ومعنى الكلام: أعجب يا هذا من بسط الرزق لمن شاء، قال عنترة: والشاهد في قوله: ويك، قال:

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

وذهب بعض إلى أن أصل ويك: ويلك اعلم أنه كذا فحذفت اللام والفعل، فصارت ويك.

(٤) أي: يضيق الرزق ولا يوسعه.

(٥) أي: لولا أن منّ الله فعافانا مما ابتلى قارون به من المال والظلم والطغيان لحل بنا ما حل به من الخسف والخسران.

(٦) الجملة ابتدائية وهو بدء مشوق، قرأ الفضل بن عياض هذه الآية ثم قال: ذهبت الأماني ها هنا أي: أماني الذين يزعمون أنه لا يضر مع الإيمان شيء وأن المؤمنين كلهم ناجون من العقاب.

يجعلها مأوى ومسكنًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا[1] فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ لا يريدون استطالة على الناس وتعاليًا وتكبرًا عليهم وبغيًا، ولا فسادًا بارتكاب المعاصي كالقتل والزنا والسرقة وشرب الخمر، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] أي والعاقبة المحمودة في الدارين لأهل الإيمان والتقوى وهم المؤمنون الذين يتقون مساخط الله عز وجل، وذلك بفعل المأمورات واجتناب المنهيات.

(٨٤) وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ﴾ أي يوم القيامة ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي الطاعات لله ورسوله ﴿فَلَهُۥ﴾ جزاء مضاعف الحسنة بعشر أمثالها وقد تُضاعف إلى أكثر بشرط أن لا تكون حسنة أعطيت له من حسنات ظالم في الدنيا فهذه لا تتضاعف. إذ تضاعف الحسنة التي باشرها، كما لا تضاعف حسنة من همَّ بحسنة ولم يعملها فإنها تُكتب له حسنة ولا تُضاعف لعدم مباشرته إياها، وقوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي يوم القيامة. والسيئة أثر معصية الله تعالى ورسوله في نفسه ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ إلا مثلها، أي لا تضاعف عليه وذلك لعدالة الله تعالى ورأفته بعباده، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي في الدنيا إذ هي دار العمل والآخرة دار الجزاء.

هداية الآيتين:

١ - حرمة التكبر والاستطالة على الناس، والعمل بالمعاصي، وأنه الفساد في الأرض.

٢ - بيان فضل الله ورحمته وعدله بين عباده بمضاعفة الحسنات وعدم مضاعفة السيئات.

٣ - العاقبة الحسنى وهي الجنة لأهل الإيمان والتقوى.

الجزءُ العِشرُونَ — سُورَةُ القَصَص

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

ترتيبها ٢٩ — سُورَةُ العَنكبُوت — آياتها ٦٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦)

٣٩٦

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٥ ـ ٨٨]

(٨٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أي الله الذي أنزل عليك القرآن وفرض عليك قراءته والعمل بما فيه وتبليغه.

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: أي لمرجعك إلى مكة فاتحًا إذ معاد الرجل بلده الذي يعود إليه.

(٨٦) ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ﴾: أي تأمل أن ينزل عليك القرآن ويوحى به إليك. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: لكن برحمة من الله وفضل أنزله عليك. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾: أي فمن شكر هذه النعمة أن لا تكون معينًا للكافرين.

(٨٧) ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾: أي لا يصرفنك عن العمل بآيات الله بعد أن شرفك الله بإنزالها عليك. ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي ادع الناس إلى الإيمان بالله وعبادته وترك الشرك به.

(٨٨) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: أي لا تعبد مع الله إلهًا آخر بدعائه والذبح والنذر له. ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ﴾: أي فانٍ. ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾: أي إلا الله سبحانه وتعالى فلا يهلك كما يهلك ما عداه.

معنى الآيات:

(٨٥) تقدم في السياق الكريم الدعوة إلى أصول الدين الثلاثة: التوحيد، النبوة، البعث والجزاء وهذه خاتمة ذلك في هذه السورة الكريمة فقال

(١) روى سفيان بن عيينة أن علياً بن الحسين وهو راكب مرّ على مساكين يأكلون كِسراً لهم فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم فتلا هذه الآية: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ..﴾ إلى ﴿فَسَادًا﴾ ثم نزل وأكل معهم.

(٢) الجملة تذييلية تقرر حقيقة أخرى وهي الإشارة بالتقوى والعاقبة المحمودة في الدارين لأهل التقوى.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى[1] فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي أنزله عليك وفرض عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه، ﴿لَرَآدُّكَ﴾ أي لمرجعك[2] ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ[3]﴾ وهو العودة إلى مكة بعد خروجك منها واشتياقك إلى العودة إليها وإلى الجنة بعد وفاتك لأنك دخلتها ليلة عُرج بك إلى السماء، وفي هذا تقرير لنبوته ﷺ بالوحي إليه، وقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإنه تعليم له ﷺ بما يرد به على المشركين الذين اتهموه بأنه ضال في دعوته وخروجه عن دين آبائه وأجداده، علّمه أن يقول لهم ربي أعلم بمن جاء بالهدى وهو أنا، رسول الله، ومن هو في ضلال مبين وهو أنتم أيها المشركون.

(٨٦) وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي وما كنت يا محمد تأمل أن ينزل عليك القرآن، وذلك قبل بعثته ﷺ، وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن[4] رَّبِّكَ﴾ أي لكن رحمة ربك عليك اقتضت إنزاله عليك لتكون رسول الله للعالمين، وهي نعمة كبيرة وإفضال عظيم فاشكره بما يلي:

١ - ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي عونًا لهم بحال من الأحوال.

٢ - (٨٧) ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ فتترك تلاوتها وإبلاغها والعمل بها. وفي هذا تقرير للنبوة المحمدية.

٣ - ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ادع الناس إلى توحيد ربك والعلم بشرعه.

٤ - ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي فتبرأ منهم ولا ترضى بشركهم وادعهم إلى خلافه وهو التوحيد.

٥ - (٨٨) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا تعبد مع الله إلهًا آخر لا بالدعاء ولا بالنذر والذبح ولا بتقديم أيّ قربان أو طاعة لغير الله سبحانه وتعالى، وفي هذا تقرير للتوحيد وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للتوحيد بإبطال أن يكون هناك إله مع الله.

وقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[5] يخبر تعالى أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل ذاهب بلا مثوبة عليه. كما أن كل شيء سوى الله عز وجل فان ولم يبق إلا الله سبحانه وتعالى كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝﴾ ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي القضاء العادل بين عباده وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي بعد الموت للحساب والجزاء يوم بعثكم وحشركم إليه عز وجل، وفي هذا تقرير للبعث والجزاء. والحمد لله أولاً وآخرًا.

هداية الآيات:

١ - معجزة القرآن في وقوع الغيب بعد الإخبار به وذلك حيث عاد الرسول ﷺ إلى مكة بعد الخروج منها.

٢ - مشروعية الملاينة في الجدال والمناظرة أثناء الدعوة باستعمال أسلوب التشكيك.

٣ - حرمة معاونة الكفار ومناصرتهم لا سيما ضد المؤمنين.

٤ - وجوب الثبات والصبر على الدعوة حتى نجاحها ببلوغها الناس واستجابتهم لها.

٥ - تقرير التوحيد والبعث والنبوة المحمدية.

٦ - فناء كل شيء إلا الله تعالى إلا ما ورد الدليل بعدم فنائه وعُدَّ منهُ ثمانية نظمها بعضهم بقوله:

هي العرش والكرسي نار وجنة
وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

❁ ❁ ❁

---

(١) ختمت هذه السورة المكية بخاتمة نزلت بالمدينة، وهي بشرى له ﷺ بأن مردهُ إلى مكة فاتحاً قاهراً غالباً وحقق الله تعالى له ذلك فبعد ثمان سنوات من هجرته ظهر مصداق هذه البشرى.

(٢) مرجعك: اسم فاعل من أرجعه الرباعي فهو مرجع له.

(٣) وفسّر المعاد بالجنة لأنه دخلها ليلة المعراج، وأخرج منها وبقيت نفسه ملتصقة بها فبشر بأن الله تعالى سيرده إليها.

(٤) الاستثناء منقطع لذا فسّر بـ: لكن.

(٥) قال مجاهد: معناه إلاّ هو، قال سفيان، وأبو العالية: إلاّ ما أريد به وجهه أي: ما يفعل من الطاعات لأجله، كما قال الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لست مُحصيه — ربّ العباد إليه الوجه والعمل

سورة العنكبوت
مكية[(١)]
وآياتها تسع وستون آية

شرح الكلمات: [الآية: ١ ـ ٧]

(١) ﴿الٓمٓ﴾: هذه أحد الحروف المقطعة تكتب الم وتقرأ ألف لام ميم.

(٢) ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي لا يختبرون، بما يتبين به حقيقة إيمانهم من التكاليف ومنها الصبر على الأذى.

(٣) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾: أي اختبرنا من قبلهم إذ هي سنة جارية في الناس. ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾: أي في إيمانهم، وليعلمن الذين كذبوا فيه بما يظهر من أعمالهم. ﴿أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾: أي يفوتونا فلا ننتقم منهم.

(٤) ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: أي بئس الحكم هذا الذي يحكمون به، وهو حسبانهم أنهم يفوتون الله تعالى ولم يقدر على الانتقام منهم.

(٥) ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾: أي من كان يؤمن بلقاء الله وينتظر وقوعه فليعلم أن أجله لآت فليستعد له بالإيمان وصالح الأعمال.

(٦) ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾: أي بذل الجهد في حرب الكفار أو النفس. ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾: أي منفعة الجهاد من الأجر عائدة على نفسه.

(٧) ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾: أي ولنجزينهم على أعمالهم بأحسن عمل كانوا عملوه.

معنى الآيات:

(١) ﴿الٓمٓ﴾: الله أعلم بمراده به وهذا هو مذهب السلف في هذه الحروف وهو تفويض علمها إلى منزّلها عز وجل.

(٢) وقوله: ﴿أَحَسِبَ[(٢)] ٱلنَّاسُ﴾ أي أظن الناس ﴿أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ فيكتفى منهم بذلك ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أي ولا يختبرون بل لا بد من اختبار بالتكاليف الشاقة كالهجرة والجهاد والصلاة والصيام والزكاة وترك الشهوات والصبر على الأذى.

والآية وإن نزلت في مثل عمار بن ياسر وبلال وعياش فإنها عامة إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، واللفظ عام هنا، لأن اسم الجنس إذا دخلت عليه «ال» أفادت استغراق جميع أفراده.

(٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ[(٣)] مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ من الأمم السابقة فهي إذًا سنة ماضية في الناس لا تتخلف. وقوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في إيمانهم أي يظهر ذلك[(٤)] ويعلمه مشاهدة بعد أن عَلِمَه قبل إخراجه إلى الوجود حيث قدر ذلك وكتبه في كتاب المقادير وذلك بتكليفهم وقيامهم بما كلفوا به من شاق الأفعال وشاق التروك، إذ الهجرة والجهاد والزكاة أفعال، وترك الربا والزنا والخمر تروك ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ حيث ادّعوا الإيمان ولما ابتلوا بالتكاليف لم يقوموا بها، فبان بذلك عدم صدقهم وإنهم كاذبون في دعواهم أنهم مؤمنون.

(٤) وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

---

(١) روي أن الآيات الأولى منها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة، وقال علي بن أبي طالب: نزلت بين مكة والمدينة.

(٢) قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية مسلية للمعذبين بمكة المتخلفين عن الهجرة وهم: سلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمار بن ياسر، وياسر أبوه وسميّة أمّه إذ كانت صدورهم تضيق بالعذاب وربما استنكر أن يمكن الله الكفّار من المؤمنين.

(٣) روى البخاري عن خباب بن الأرت قال: (شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: **«قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»**) وروى ابن ماجه عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشدّ بلاء؟ قال: **«الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يُبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتُلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة!!»**.

(٤) وفي الحديث: **«من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها»** أي: أظهرها عليه.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَنَ بِوَلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَيَكُمْ وَمَا هُم بِحَمِلِينَ مِنْ خَطَيَهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَلِمُونَ ﴿١٤﴾

٣٩٧

يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا[1]﴾ أي أظن ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي يفوتونا فلم نأخذهم بالعذاب ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ به لأنفسهم أي قبح حكمهم هذا من حكم لفساده، إذ أقاموه على ظن منهم أن الله تعالى لا يقدر عليهم وهو على كل شيء قدير وأنه لا يعلمهم وهو بكل شيء عليم. ﴿٥﴾ وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ[2] اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ أي ﴿مَن كَانَ﴾ يؤمن ويؤمل لقاء الله وذلك يوم القيامة فليعلم أن أجل الله المضروب لذلك لآت قطعًا وعليه فليستعد للقائه بما يناسبه وهو الإيمان والعمل الصالح بعد التخلي عن الشرك والعمل الفاسد، ومن هنا دعوى المرء أنه يرجو لقاء ربه ولم يعمل صالحًا يثاب عليه، دعوى لا تصح. قال تعالى في سورة الكهف: ﴿.. فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦ أَحَدًا﴾ (١١٠) وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي هو تعالى السميع لأقوال عباده العليم بنياتهم وأعمالهم، فدعوى الإيمان ظاهرة من العبد أو باطنة لا قيمة لها ما لم يقم صاحبها الدليل عليها وذلك بالإيمان والجهاد للعدو[3] الظاهر والباطن. ﴿٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن جَهَدَ فَإِنَّمَا يُجَهِدُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي منفعة هذه العبادة عائدة على العبد نفسه، أما الله عز وجل فهو في غنى عن عمل عباده غنىً مطلقًا وهذا ما دل عليه قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَلَمِينَ﴾ الملائكة والإنس والجن وسائر المخلوقات إذ كل ما سوى الله تعالى عالم ويجمع على عوالم وعالمين[4].

﴿٧﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ هذا وعد من الله تعالى لمن آمن من عباده وذلك على إيمانه وصالح عمله فعلًا وتركًا بأنه يكفر عنه سيئاته التي عملها قبل الإسلام وبعده. ومعنى يكفِّرها عنهم يغطيها ويسترها ولم يطالبهم بها كأنهم لم يفعلوها. وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ أي على أعمالهم الصالحة ﴿أَحْسَنَ﴾ أي بأحسن عمل عملوه فتكون أعظم ما تكون مضاعفة. وهذا من تكرمه على عباده الصالحين ليجزي بالحسنة أضعافها مئات المرات.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة أن الإيمان يصدق بالأعمال أو يكذب.

٢ - بيان إمكان التكليف بما يشق على النفس فعله أو تركه ولكن ليس بما لا يطاق.

٣ - تحذير المغترين من العقوبة وإن تأخرت زمنًا ما فإنها واقعة لا محالة.

٤ - ثمرة الجهاد عائدة على المجاهد نفسه. فلذا لا ينبغي أن يمنها على الله تعالى بأن يقول فعلت وفعلت.

٥ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الوعد للذين آمنوا وعملوا

---

(١) قال ابن عباس: المراد بهم: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل والأسود بن العاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص بن وائل.

(٢) قال القرطبي: أجمع أهل التفسير على أنّ المعنى من كان يخاف الموت فليعمل عملاً صالحاً فإنه لا بد أن يأتيه.

(٣) المراد بجهاد العدو الظاهر: الكفار والباطن: النفسي.

(٤) جمع ملحق بمذكر سالم نحو: الحمد لله رب العالمين.

الصالحات بتكفير السيئات والجزاء الأحسن وهذا يتم يوم البعث.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ ـ ١٣]

(٨) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾: أي عهدنا إليه بطريق الوحي المنزل على رسولنا. ﴿بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾: أي إيصاءً ذا حسن، وذلك ببرهما وعدم عقوقهما. ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾: أي بذلا الجهد في حملك على أن تشرك.

(٩) ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾: أي لندخلنهم مدخلهم في الجنة.

(١٠) ﴿فِتْنَةَ النَّاسِ﴾: أي أذاهم له. ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾: أي في الخوف منه فيطيعهم فينافق. ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾: أي في الإيمان وإنما أكرهنا على ما قلنا بألستنا.

(١٢) ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾: أي ديننا وما نحن عليه. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾: أي ليكن منكم اتباع لسبيلنا وليكن منا حمل لخطاياكم، فالكلام خبر وليس إنشاء.

(١٣) ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾: أي أوزارهم، والأوزار الذنوب. ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾: أي من أجل قولهم للمؤمنين اتبعوا سبيلنا. ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أي يكذبون.

معنى الآيات:

(٨) هذه الآيات نزلت في شأن[1] سعد بن أبي وقاص لما أسلم قالت له أمه حمنة بنت أبي سفيان ما هذا الدين الذي أحدثت والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتُعَيَّر بذلك أبد الدهر يقال يا قاتل أمه، ثم إنها مكثت يومًا وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فأصبحت وقد جهدت ثم مكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب فجاء سعد إليها وقال: يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني فكلي إن شئت وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أسلمت وأكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي عهدنا إليه بواسطة الرسل إيصاءً ذا حسن وهو برهما بطاعتهما في المعروف وترك أذاهما ولو قل، وإيصال الخير بهما من كل ما هو خير قولاً كان أو فعلاً. وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ أي بذلا جهدهما في حملك على أن تشرك بي شيئًا من الشرك أو الشركاء فلا تطعهما كما فعل سعد بن أبي وقاص مع والدته في عدم إطاعتها. وقوله: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أولادًا ووالدين ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وأجزيكم به فلذا قدموا طاعتي على طاعة الوالدين، فإني أنا الذي أحاسبكم وأجزيكم بعملكم أنتم وإياهم على حد سواء.

(٩) وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي هي العبادات التي تَعَبَّد الله تعالى بها عباده المؤمنين، فشرعها لهم وبيّنها رسوله ﷺ كالذكر وقراءة القرآن والصلاة والصيام والصدقات والجهاد والحج وما إلى ذلك. هؤلاء الذين جمعوا بين الإيمان الحق والعمل الصالح الخالي من الشرك والرياء. يقسم الله تعالى أنه يدخلهم في مدخل الصالحين وهم الأنبياء والأولياء في الجنة دار السلام.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ[2] مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية هذه نزلت في أناس كانوا بمكة وآمنوا وأعلنوا عن إيمانهم فاضطهدهم المشركون فكانوا ينافقون فأخبر تعالى عنهم بقوله:

---

(٨) يصح إعراب ﴿حُسْنًا﴾ على أنه منصوب على نزع الخافض أي: بالحسن، نحو: وصيته خيراً، أي: بالخير، ويصح أيضاً أن يكون العامل محذوفاً تقديره ووصينا الإنسان بوالديه أن يفعل بهما حسناً، كما قال الشاعر:

عجبت من دهماء إذ تشكونا ... ومن أبي دهماء إذ يوصينا

خيراً بها كأنما خافونا

أي: يوصينا أن نفعل بها خيراً.

(١) روى مسلم وغيره عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: نزلت في أربع آيات فذكر قصته قال: قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها فنزلت هذه الآية.

(٢) قال الضحاك: هذه الآية نزلت في ناس من المنافقين في مكة كانوا يؤمنون فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي آذاه المشركون نافق وارتد ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أذاهم له وتعذيبهم إياه ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة فوافق المشركين على الكفر. وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي على الإيمان وإنما كنا مكرهين وهذه نزلت فيمن خرجوا من مكة إلى بدر مع المشركين لما انهزم المشركون وانتصر المسلمون وأسروا قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي على الإيمان فردّ تعالى دعواهم بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ[1] ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الناس.

(١١) وقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تقرير لما سبق في الآية قبل وليترتب عليه الجزاء على الإيمان وعلى النفاق. فعلمه تعالى يستلزم الجزاء العادل فأهل الإيمان يجزيهم بالنعيم المقيم وأهل النفاق بالعذاب المهين. أولئك في دار السلام وهؤلاء في دار البوار.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ أي ديننا وما نحن عليه ﴿وَلْنَحْمِلْ[2] خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي قال رؤساء قريش لبعض المؤمنين: اتركوا سبيل محمد ﷺ ودينه واتبعوا سبيلنا وديننا، وإن كان هناك بعث وجزاء كما يقول محمد ﷺ ـ نحن مستعدون أن نتحمل خطاياكم ونجازى بها دونكم فأكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ و﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾.

(١٣) وقال تعالى مقسمًا بعزته وجلاله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي أوزارهم ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أي وأوزارًا أي ذنوبًا مع أوزارهم التي هي ذنوبهم وذلك من أجل ما قالوا لهم. ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي يكذبون من أنهم يحملون خطايا المؤمنين يوم القيامة.

هداية الآيات:

١ - وجوب بر الوالدين في المعروف وعدم طاعتهما فيما هو منكر كالشرك والمعاصي.

٢ - بشرى المؤمنين العاملين للصالحات بإدخالهم الجنة مع النبيين والصديقين.

٣ - ذم النفاق وكفر المنافقين وإن ادعوا الإيمان فما هم بمؤمنين.

٤ - بيان ما كان عليه غلاة الكفر في مكة من العتو والطغيان.

٥ - تقرير مبدأ من سنَّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها كما في الحديث الصحيح[3].

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤، ١٥]

(١٤) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: أي نوحًا بن لَمْكَ بن مُتَوَشلِخَ بن إدريس من ولد شيث بن آدم، بينه وبين آدم ألف سنة. ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: أي فمكث فيهم يدعوهم إلى الله تعالى تسعمائة وخمسين سنة. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾: أي الماء الكثير الذي طاف بهم وعلاهم فأغرقهم. ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: أي مشركون. ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: أي عبرة للناس يعتبرون بها فلا يشركون ولا يعصون.

معنى الآيتين:

لما ذكر تعالى ما كان يلاقيه رسوله ﷺ والمؤمنون من مشركي قريش ذكر تعالى نوحًا وإبراهيم

---

(١) الاستفهام للتقرير فلذا يُجاب بـ: بلى.

(٢) جزم الفعل ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾: على الأمر، قال الفرّاء والزجّاج: هو في تأويل الشرط والجزاء أي: أن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، كما قال مدثار بن شيبان الضمري:

تقول خليلتي لما اشتكينا ... سيدركنا بنو القرم الهجان
فقلت ادعي وأدع فإن أندى ... لصوت أن ينادى داعيان

أي: إن دعوتِ دعوتُ.

(٣) نص الحديث كما هو في الصحيح: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً»** وفي الصحيح أيضاً: **«ما قتلت نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أوّل من سنّ القتل».**

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

٣٩٨

وكلاهما قد عانى ولاقى ما لم يلاقه محمد ﷺ وأصحابه ليكون ذلك تسلية لهم وتخفيفًا عنهم.

﴿١٤﴾ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[1] وقوم نوح يومئذ هم البشرية جمعاء. إذ لم يكن غيرهم ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ أي مكث يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وتوحيده فيها وترك الأصنام الخمسة التي كانت لهم وهي (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) وكان هؤلاء الخمسة رجالاً صالحين فلما ماتوا بنوا على قبورهم ووضعوا لهم تماثيل بحجة أنها تذكرهم بالله فيرغبوا في الطاعة والعمل الصالح، ثم زين لهم الشيطان عبادتهم فعبدوهم فبعث الله تعالى إليهم نوحًا رسولاً فدعاهم إلى عبادة الله وترك عبادة هؤلاء ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ[2] سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعوهم فلم يستجيبوا له ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ فاستجاب الله له فأنجاه وأصحاب السفينة وهم المؤمنون وهلك في الطوفان زوجته وولده كنعان وسائر البشر إلا نوحًا ومن معه في السفينة، وكانوا قرابة الثمانين نسمة، وخلف نوحًا ثلاثة أولاد هم (سام) وهو أبو العرب وفارس والروم وهم الجنس السامي، و(حام) وهو أبو القبط والسودان والبربر، و(يافث) وهو أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ[3] وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي لأنفسهم بالشرك.

﴿١٥﴾ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾[4] ومن بين ما فيها أبناؤه الثلاثة (سام وحام ويافث) ومنهم عمر الكون بالبشر شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً[5] لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي حادثة الطوفان ومنها السفينة ومكث تلك المدة الطويلة مع قلة المستجيبين ﴿ءَايَةً﴾ أي عبرة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي للناس ليعتبروا بها فلا يعصوا رسلهم ولا يشركون بربهم هذا إذا اعتبروا وقليل من يعتبر.

هداية الآيتين:

١ - بيان سنة الله تعالى في إرسال الرسل لهداية الخلق.

٢ - بيان قلة من استجاب لنوح مع المدة الطويلة فيكون هذا تسلية لرسول الله ﷺ والدعاة من بعده.

٣ - بيان إهلاك الله تعالى الظالمين وإنجائه المؤمنين وهي عبرة للمعتبرين.

---

(١) روى أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«أوّل نبي أرسل واختلف في سني عمره»** فروى عن أنس أن النبي ﷺ قال: **«لمّا بعث الله نوحاً إلى قومه وبعثه وهو ابن لخمسين ومائتي سنة فلبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، وبقي بعد الطوفان خمسين ومائتي سنة فلما أتاه ملك الموت قال: يا نوح يا أكبر الأنبياء ويا طويل العمر ويا مجاب الدعوة كيف رأيت الدنيا؟ قال: مثل رجل بني له بيت له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر»**.

(٢) العدول عن السنة إلى العام حتى لا يحصل تكرار في لفظ السنة وهو من بلاغة الكلام.

(٣) الطوفان: مأخوذ من أطاف بالشيء يطيف وهو كطاف يطوف طوفاً وطوفاناً قال النحاس: يقال: لكل كثير مطيف بالجميع، من مطر أو قتل أو موت طوفان.

(٤) في البخاري أن قتادة قال: بقيت السفينة على الجودي حتى نظرتها أوائل هذه الأمة. وقيل: إنها دامت إلى أوائل الدولة العباسية ثم غمرتها الثلوج، وكان الجودي الذي رست فوقه قرب (باقِردَى) وهي قرية من جزيرة ابن عمر بالموصل شرقي دجلة.

(٥) الضمير في: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ عائد إلى السفينة، وما في التفسير أعم وأشمل.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ ـ ١٨]

(١٦) ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾: أي واذكر إبراهيم على قراءة النصب لإبراهيم، وعلى قراءة الرفع: ومن المرسلين إبراهيم.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾: أي آمنوا به ووحدوه في عبادته واتقوا أن تشركوا به وتعصوه.

(١٧) ﴿أَوْثَانًا﴾: أصنامًا وأحجارًا وصُوَرًا وتماثيل. ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: أي تختلقون الكذب فتقولون في الأصنام والأوثان آلهة وتعبدونها.

﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾: أي اطلبوا الرزق من الله الخلاق العليم لا من الأصنام والتماثيل المصنوعة المنحوتة بأيدي الرجال بالمعاول والفؤوس. ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾: أي بالإيمان به وتوحيده واشكروه بطاعته.

(١٨) ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾: أي يا أهل مكة بعد هذا الذي عرضنا عليكم من الآيات والعبر فقد كذب أمم من قبلكم. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ﴾: أي محمد ﷺ. ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾: وقد بلغ وبيّن فبرئت ذمته وأنتم المكذبون ستحل بكم نقمة الله.

معنى الآيات:

(١٦) هذا القصص معطوف على قصص نوح لتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين ولتذكير قريش بأنها في إصرارها على الشرك والتكذيب للرسول ﷺ صائرة إلى ما صار إليه المكذبون من قبل إن لم تتب إلى الله وترجع إليه بالإيمان والطاعة وترك الشرك والمعاصي قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي[١] واذكر يا رسولنا إبراهيم خليلنا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ البابليين ومن بينهم والده آزر يا قوم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي بتوحيده في عبادته ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ بترك الشرك والعصيان وإلا حلّت بكم عقوبته ونزل بكم عذابه، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي الإيمان والتوحيد والطاعة خير لكم من الكفر والشرك والعصيان. إذ الأول يجلب الخير والثاني يجلب الشر ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر وتفرقون بينهما.

(١٧) وقوله عليه السلام: ﴿إِنَّمَا[٢] تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ يخبرهم معرفًا لهم بخطئهم فيقول: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أي أصنامًا[٣] وتماثيل، وعبادة الأصنام والأوثان عبادة باطلة لا تجلب لكم نفعًا ولا تدفع عنكم ضرًا. إن الذي يجب أن يعبد الله الخالق الرازق الضار النافع المحيي المميت السميع البصير. أما الأوثان فلا شيء في عبادتها إلا الضلال واتباع الهوى. وقوله لهم: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي وتصنعون كذبًا تختلقونه اختلاقًا عندما تقولون في التماثيل والأصنام إنها آلهة. وقوله عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يخبرهم عليه السلام معرفًا لهم بحقيقة هم عنها غافلون وهي أن الذين يعبدونهم من دون الله لا يملكون لهم رزقًا لأنهم لا يقدرون على ذلك فما الفائدة إذًا من عبادتهم وما الحاجة الداعية إليها لولا الغفلة والجهل، ولما أبطل لهم عبادة الأصنام أرشدهم إلى عبادة الله الواحد القهار فقال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ إن كنتم عبدتم الأصنام لذلك فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين فاطلبوا عنده الرزق فإنه مالكه والقادر على إعطائه ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ بالإيمان به وبرسوله وبتوحيده ﴿وَاشْكُرُوا[٤] لَهُ﴾ يرزقكم ويحفظ عليكم الرزق، وقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ذكّرهم بعلة غفلتهم ومَصْدَر جهلهم وهي كفرهم بالبعث فأعلمهم أنهم إليه تعالى لا إلى غيره يرجعون. إذًا فليتعرفوا إليه ويعبدوه طلبًا لرضاه وإكرامهم يوم يلقونه.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾ أي يا أهل مكة رسولنا وتنكروا وحينا وتكفروا بلقائنا فلستم وحدكم في ذلك. ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قوم نوح وعاد وفرعون وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وغيرهم

---

(١) ويجوز أن يكون منصوباً بـ ﴿أَنْجَيْنَا﴾ معطوفاً على الهاء.

(٢) إنما: ما: كافة، أوثاناً: منصوب بـ ﴿تَعْبُدُونَ﴾.

(٣) قال أبو عبيدة: الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس والوثن ما اتخذ من حصى أو حجارة.

(٤) سلك إبراهيم في دعوة قومه هذه سبيل الاستدلال بالنعم الحسية لأنّ إثباتها أقرب إلى أذهان العوام، وعدى بالشكر باللام لما تفيده اللام من الاختصاص أي: الاستحقاق.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾[1] أي رسولنا محمد ﷺ إلا البلاغ المبين وقد بلغكم وأنتم الآن بين خيارين لا ثالث لهما: الأول أن تتعظوا بما أسمعناكم وأريناكم من آياتنا فتؤمنوا وتوحدوا وتطيعوا فتكملوا وتسعدوا وإما أن تبقوا[2] على إصراركم على الشرك والكفر والعصيان فسوف يحل بكم ما حل بأمثالكم، إذ كفاركم ليسوا بخير من كفار أولئكم الذين انتقم الله منهم وأذاقهم سوء العذاب. هذا ما دلت عليه الآية (١٨) وهي معترضة بين الآيات التي اشتملت على قصص إبراهيم عليه السلام. وسر الاعتراض هو وجود فرصة في سياق الكلام قد تلفت أنظار القوم وتأخذ بقلوبهم إذ الآيات كلها مسوقة لهدايتهم.

هداية الآيات:

١ - وجوب عبادة الله وتقواه طلبًا للنجاة من الخسران في الدارين.

٢ - بطلان عبادة غير الله ووجوب عبادة الله عن طريق الأدلة العقلية.

٣ - ما عبد الناس الأوثان إلا من جهلهم وفقرهم فلذا يجب أن يعلموا أن الله هو ربهم المستحق لعبادتهم وأن الله تعالى هو الذي يسد فقرهم ويرزقهم ومن عداه لا يملك ذلك لهم.

٤ - وجوب شكر الله تعالى بحمده والثناء عليه وبطاعته وصرف النعم فيما من أجله أنعم بها على عبده.

٥ - تسلية الرسول ﷺ وتأنيب المشركين من أهل مكة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ - ٢٣]

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: أي ينظروا بأبصارهم فيعلموا بقلوبهم. ﴿يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾: أي كيف يخلق المخلوق ابتداء. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾: أي ثم هو تعالى يعيده بعد بدئه وإفنائه يعيده لأن الإعادة أهون من البدء وقد بدأ وأفنى فهو بالضرورة قادر على الإعادة. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: أي إن الخلق الأول والثاني هو الإعادة. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾: أي سهل لا صعوبة فيه، فكيف إذًا ينكر المشركون البعث.

(٢٠) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي قل يا رسولنا لقومك المكذبين بالبعث سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق وأنشأه، تستدلون بذلك على قدرته على البعث الآخر. ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾: أي يحيي الناس بعد موتهم وهو البعث الآخر الذي أنكره الجاهلون.

(٢١) ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾: أي ترجعون إليه لا إلى غيره أحياء كما كنتم فيحاسبكم ويجزيكم بأعمالكم، الحسنة بخير منها والسيئة بمثلها جزاء عادلاً.

(٢٢) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾: أي بغالبين ولا فائتين بالهروب فإن الله غالبكم. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: ليس لكم من ولي يتولاكم ولا نصير ينصركم من الله تعالى.

(٢٣) ﴿يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾: أي من دخول الجنة لأنهم كافرون أعظم كفر وهو التكذيب بالقرآن والبعث الآخر.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير أصول الدين التوحيد والنبوة والبعث، وقد قررت الآيات السابقة أصلي التوحيد والنبوة المحمدية، وفي هذه الآيات تقرير الأصل الثالث وهو البعث والجزاء في الدار الآخرة.

(١٩) قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾[3] أي أولئك المنكرون للبعث، أيكذبون؟ ولم ينظروا كيف يبدىء الله الخلق أي خلق الإنسان، فإن ذلك دال على إعادته متى أراد الله الخالق ذلك، ثم هو تعالى يعيده متى شاء، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الخلق والإعادة بعد الفناء

---

(١) القصد من هذه الجملة: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إعلام المخاطبين بأن تكذيبهم لا يلحقه منه ما فيه نكاية به أو تشفٍّ منه، فإن كان من خطاب الله تعالى لقريش فالمراد من الرسول محمد ﷺ، وإن كان من كلام إبراهيم، فالمراد به إبراهيم نفسه سلك فيه مسلك الإظهار في مقام الإضمار تنويعاً للأسلوب.

(٢) أي: والثاني: أن تبقوا على إصراركم أعني الخيار الثاني بعد الأول.

(٣) الاستفهام للإنكار والتوبيخ لهم على عدم استعمال عقولهم إذ ينكرون البعث وأمامهم صوّر منه دالة عليه فهو يبدىء الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبداً ويخلق المرء ثم يميته بعد أن يخلق منه ولداً ويخلق من الولد ولداً، وهكذا تتكرر عملية البعث أمامهم فما لهم لا يرونها؟!

والبلى ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل لا يتعذر عليه أبدًا.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا[1] فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي قل يا رسولنا للمكذبين بالبعث الآخر ﴿سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ شرقًا وغربًا ﴿فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ﴾ تعالى خلق تلك المخلوقات التي تشاهدونها من أرض، وسماء، وأنهار، وأشجار، وحيوان، وإنسان، إنها كلها كانت عدمًا فأنشأها الله تعالى ثم هو سيفنيها ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾[2] وذلك بأن يعيد حياة الإنسان ليحاسبه على كسبه في الدنيا ويجزيه به خيرًا أو شرًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] إذًا فلا يستنكر عليه إعادة الناس أحياء بعد نهاية هذه الحياة الدنيا ليحاسبهم ويجزيهم بما كانوا يعملون.

(٢١) وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ هذه فائدة وحكمة البعث الآخر وهي المجازاة على العمل في هذه الحياة فيعذب أهل الكفر به وبرسوله والذين لم يزكوا أنفسهم بالإيمان وصالح الأعمال فيدخلهم جهنم دار الشقاء والعذاب ويرحم أهل الإيمان والتقوى الذين زكوا أنفسهم بالإيمان والصالحات. وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي إلى الله ربكم تُرجعون بعد الموت والفناء وإنشاء النشأة الآخرة.

(٢٢) وقوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ[4]﴾ أي الله تعالى ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ﴾ بل أنتم مقهورون له خاضعون لسلطانه لا يمكنكم الهرب منه ولا الخلاص بحال من الأحوال. وليس لكم من دونه تعالى ولي يتولاكم فيدفع عنكم العذاب ولا نصير ينصركم فلا تُغلَبون ولا تُعذبون.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي جاءت بها رسله ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ وهو البعث الآخر الموجب للوقوف بين يدي الله للسؤال والحساب والجزاء، هذا إن كان للعبد ما يحاسب عليه من الخير، أما إن لم يكن له حسنات فإنه يُلقى في جهنم بلا حساب ولا وزن إذ ليس له من الصالحات ما يوزن له ويحاسب به، ولذا قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ أي المكذبون بآيات الله[5] ولقائه ﴿يَئِسُوا[6] مِن رَّحْمَتِي﴾ إذ تكذيبهم بالقرآن مانع من الإيمان والعمل الصالح وتكذيبهم بيوم القيامة مانع لهم أن يتخلوا عن الشرك والمعاصي، أو يعملوا صالحًا من الصالحات لتكذيبهم بالجزاء، فهم يائسون من الجنة. ﴿وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي موجع وهو عذاب النار في جهنم والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - وجوب استعمال العقل للاستدلال على الغائب بالحاضر وعلى المعدوم بالموجود.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء وذكر أدلتها التفصيلية.

٣ - تقرير عجز الإنسان التام وأنه لا مهرب له من الله تعالى ربه ومالكه وهي حال تستدعي الفرار إلى الله اليوم بالإيمان والتقوى.

٤ - إنذار المكذبين بأنهم إن ماتوا على التكذيب بالبعث لا يدخلون الجنة بحال، وسيعذبون في نار جهنم أشد العذاب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤، ٢٥]

(٢٤) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾: أي قوم إبراهيم عليه السلام. ﴿إِلَّآ

---

(١) هذا الأمر للإرشاد والتوجيه والنصح لو كانوا يعقلون.

(٢) أظهر اسم الجلالة بعد تقديم ذكر ضميره في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ ليحرك ضمائرهم باسم الجلالة ويدفع بنفوسهم إلى التسليم بالنشأة الآخرة بعد التسليم بالنشأة الأولى وهي بدء الخلق.

(٣) الجملة تذييلية أعلن فيها عن قدرة الله الذي لا يعجزه شيء أراده، البدء: كالإعادة سواء.

(٤) المعجز: هو الذي يجعل غيره عاجزاً عن فعل ما، وهو هنا كناية عن الغلبة والانقلاب، قرّر بهذه الجملة عجزهم التام في الأرض التي هم يسكنونها، وحتى في السماء لو فرض أنهم يرقونها وما هم بأهل لذلك كما قال الأعشى:

فلو كنت في جبّ ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلّم

(٥) المراد بآيات الله: القرآن الكريم: المشتمل على الأدلة والبراهين والحجج الدالة على قدرة الله وعلمه وحكمته والمفصلة لأنواع عباداته.

(٦) أخبر عن يأسهم بالفعل الماضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه وإن كان المعنى أنهم سييأسون من رحمة الله التي هي الجنة لا محالة.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

٣٩٩

أن قالوا اقتلوه﴾: أي إلا قولهم اقتلوه أو حرقوه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ﴾: أي في كون النار لم تحرق الخليل ويخرج منها سالمًا. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالآيات لحياة قلوبهم.

﴿٢٥﴾ ﴿أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾: أي اتخذتم أوثانكم آلهة تتوادون من أجل عبادتها وتتحابون لذلك. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي هذا التوادد والتحاب على الآلهة في الحياة الدنيا فقط أما الآخرة فلا. ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾: أي يكفر المتبوعون بأتباعهم ويتبرؤون منهم. ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: يلعن الأتباع القادة الذين اتبعوهم في الباطل.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في قصص[1] إبراهيم الخليل عليه السلام فإنه لمَّا أفحمهم بالحجة وبين لهم باطلهم وكشف لهم عن جهلهم وضلالهم لجؤوا كعادة الطغاة من أهل الكفر والباطل إلى التهديد بالقوة فقالوا ما أخبر به تعالى عنهم:

﴿٢٤﴾ أي ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ فما كان جوابهم أي عما سمعوا من الحجج والبراهين على بطلان الشرك وصحة التوحيد ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ[2]﴾ أي إلا قولهم اقتلوا إبراهيم بالسيف ونحوه أو حرقوه بالنار، ونفذوا جريمتهم بالفعل وأوقدوا النار وألقوه فيها، وقال الله جلّ جلاله للنار ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكانت كما أمرت وخرج إبراهيم سالمًا لم تحرق النار سوى كتافه الذي شد به يداه ورجلاه. وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي في كون النار لم تحرق إبراهيم فيتخلف طبعها وتصبح بردًا وسلامًا على إبراهيم فلم تحرقه، ﴿لَءَايَـٰتٍ﴾ أي دلائل قدرة الله تعالى ورحمته وحكمته ولكن تلك الآيات لا ينتفع بها غير المؤمنين، لأنهم أموات لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون. أما المؤمنون فهم أحياء فينتفعون بما يسمعون ويبصرون لأن الإيمان بمثابة الروح في البدن فإن وجد في القلب حيي الجسم وإن فارقه فالجسم ميت فلا العين تبصر الأحداث ولا الأذن تسمع الآيات.

﴿٢٥﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ[3] بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا[4]﴾ هذا من جملة قول إبراهيم لقومه وهو يعظهم ويرشدهم فأخبرهم بحقيقة يتجاهلونها وهي أنهم ما اتخذوا تلك الأوثان آلهة يعبدونها إلا لأجل التعارف عليها والتوادد والتحاب من أجلها، فيقيمون الأعياد لها ويجتمعون حولها فيأكلون ويشربون لا أنهم حقيقة يعتقدون أنها آلهة وهي أحجار نحتوها بأيديهم ونصبوها تماثيل في

(١) عاد السياق الكريم إلى الحديث عن قصة إبراهيم بعد تلك الجمل الاعتراضية التي تخللت القصة بقصد إثارة شعور قريش وتحريك ضمائرها رجاء أن تطلب الهداية فتحصل عليها إذ هي المقصودة من سوق القصة.

(٢) ثمّ اتفقوا على تحريقه ونفذوا ما اتفقوا عليه فألقوه في النار ونجّاه الله فله الحمد وله المنة.

(٣) قرأ نافع: ﴿مودّة﴾ بالتنوين منصوباً، وقرأ حفص بدون تنوين منصوباً مضافاً إلى الظرف، وقرأ ابن كثير وغيره: ﴿مودّةُ﴾ بالرفع مضاف إلى ﴿بينِكم﴾ على أنه خبر إنّ وما: اسمها.

(٤) قال القرطبي: معنى الآية: جعلتم الأوثان تتحابون عليها في الحياة الدنيا.

سوح دورهم وأمام منازلهم و﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي في الآخرة، فالعكس هو الذي سيحدث لهم حيث ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ[1] بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يكفر المتبوعون وهم الرؤساء بمن اتبعوهم وهم الأتباع من الدهماء وعوام الناس، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ كل من الأتباع والمتبوعين يطلب بعد الآخر عنه، وعدم الاعتراف به وذلك عند معاينة العذاب، ولم تبق تلك الروابط والصلات التي كانت لهم في هذه الحياة!! وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ[2] ٱلنَّارُ﴾ أي ومقركم الذي يؤويكم جميعًا فتستقرون فيه هو النار ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ بعد أن أذلكم الله الذي أشركتم به أوثانًا، فجعلتموها مودة بينكم في الحياة الدنيا.

هداية الآيتين:

١ - تقرير أن الظَّلمة سنتهم أنهم إذا أعيتهم الحجج يلجؤون إلى استعمال القوة.

٢ - في عدم إحراق النار دليل على أن الله تعالى قادر على إبطال السنن إذا شاء ذلك، ومن هنا تكون الكرامات والمعجزات إذ هي خوارق للعادات.

٣ - بيان أن الخرافيين في اجتماعهم على البدع لم يكن ذلك عن علم بنفع البدعة وإنما لعنصر التوادد والتعارف والتلاقي على الأكل والشرب كما قال إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦، ٢٧]

(٢٦) ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾: أي آمن بإبراهيم لوط وهو ابن أخيه هاران ولم يؤمن من قومه سواه. ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾: أي إلى حيث أعبد ربي فلا أفتن في ديني.

(٢٧) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾: أي هاجر لأجلنا فأكرمناه في دار هجرته فوهبنا له ذرية هم إسحق الابن ويعقوب الحفيد. ﴿فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾: فكل الأنبياء بعده من ذريته وكل الكتب التي أُنزلت بعده فهي في ذريته. ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾: وذلك بالرزق الحسن والثناء الحسن على ألسنة كافة الناس من أهل الأديان الإلهية. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾: أي هو أحدهم، فيكرم كما يكرمون بالدرجات العلا، والصالحون هم أنبياء الله ورسُله وأولياؤه وصالحو عباده.

معنى الآيتين:

(٢٦) هذا آخر قصص إبراهيم الخليل في هذا السياق الكريم فأخبر تعالى أن إبراهيم بعد الجهاد الطويل في الدعوة إلى عبادة الرحمٰن الرحيم لم يؤمن له ولم يتابعه على الحق الذي دعا إليه إلا لوط بن هاران أخيه فقال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ﴾ أي إبراهيم ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ[3]﴾ فترك بلاد قومه من سواد[4] العراق وارتحل إلى أرض الشام فأكرمه الله تعالى جزاء هجرته إلى ربه عز وجل بما أخبر به في هذا السياق حيث قال:

(٢٧) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ[5] وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ وهبه أي أعطاه ولده إسحق بن سارة وولد إسحق وهو يعقوب، وجعل

---

(١) قال القرطبي: تتبرأ الأوثان من عُبادها، والرؤساء من السفلة كما قال الله عز وجل: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾.

(٢) قيل: يحشرون في النار الرؤساء والأتباع والأوثان كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ وهي الأوثان التي كانت تُعبد من دون الله عز وجل.

(٣) المهاجرة: مفاعلة من الهجر الذي هو الترك لما كان ملازماً له وحرف إلى الأصل فيه الانتهاء، وهي هنا أفادت التعليل: أي لأجل ربي إذ هو الذي أمره بها من أجل أن يعبده في دار هجرته هو وأهله.

(٤) من قرية كوثا من سواد الكوفة إلى حران ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن تارخ، وامرأته سارة، وهو أوّل من هاجر في سبيل الله. وأوّل من هاجر من أمة محمد ﷺ في سبيل الله تعالى: عثمان بن عفان مع زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة.

(٥) هذه الهبة كان قبلها هبة إسماعيل إذ وُلد قبل إسحق عليهم السلام.

كافة الأنبياء من ذريته وجعل الكتاب فيهم أيضًا فالتوراة أنزلت على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى وهم من ذرية إبراهيم، والقرآن الكريم أنزل على محمد ﷺ وهو من ذرية إسماعيل بن إبراهيم، وقول إبراهيم هو كما قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ وصف ربه بالعزة والحكمة. فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ[1] ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب القاهر ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي وضع كل شيء في موضعه، ودلائل العزة أن أنجى إبراهيم من أيدي الظلمة الطغاة، ومن مظاهر الحكمة أن نقله من أرض لا خير فيها إلى أرض كلها خير، وأكرمه فيها بما ذكر في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ حيث رزقه أطيب الأرزاق في دار هجرته ورزقه الثناء الحسن من كل أهل الأديان الإلهية كاليهودية والنصرانية، والإسلام وهو خاتم الأديان هذا في الدنيا أما في الآخرة فإنه من الصالحين ذوي الدرجات العلا والمنازل العالية في مواكب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

هداية الآيتين:

١ ـ بيان حصيلة دعوة إبراهيم كذا سنة وأنها كانت إيمان واحد بها وهو لوط عليه السلام وفي هذا تسلية للرسول الكريم ﷺ.

٢ ـ بيان إكرام الله تعالى لمن يهاجر إليه ويترك أهله وداره.

٣ ـ بيان ما أكرم الله تعالى به إبراهيم من خير الدنيا والآخرة جزاء صبره على دعوة الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨ ـ ٣٠]

(٢٨) ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: أي واذكر إذ قال لوط بن هاران لقومه أهل سَدُوم.

(٢٩) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أي الخصلة القبيحة وهي إتيان الذكران في أدبارهم. ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾: أي لم تعرف البشرية قبل قوم لوط إتيان الذكران في أدبارهم. ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾: أي باعتدائكم على المارة في السبيل فامتنع الناس من المرور خوفًا منكم. ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾: أي مجالس أحاديثكم تأتون المنكر كالضراط وحلّ الإزار والفاحشة أي اللواط. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾: أي إلا قولهم ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

معنى الآيات:

(٢٨) هذا بداية قصص لوط عليه السلام مع قومه أهل سَدُوم وعمورية والغرض من سياقه تقرير النبوة المحمدية إذ مثل هذه القصص لا يتم لأحد إلاَّ من طريق الوحي، وتسلية الرسول ﷺ من أجل ما يلاقي من عناد المشركين ومطالبتهم بالآيات والعذاب. قال تعالى: واذكر يا رسولنا لقومك لوطًا[2] ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ وهي الفعلة القبيحة ويزيدها قبحًا أن الناس قبل قوم لوط لم تحدث فيهم هذه الخصلة ولم يعرفها أحد من العالمين.

(٢٩) ثم يواصل لوط إنكاره وتشنيعه عليهم فيقول: ﴿أَئِنَّكُمْ[3] لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي في أدبارهم ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وذلك أنهم كانوا يعتدون على المارة بعمل الفاحشة معهم قسرًا وبسلب أموالهم وبذلك امتنع الناس من المرور فانقطعت السبيل، كما أنهم بإتيانهم الذكران عطلوا النسل بقطع سبيل الولادة، وزاد لوط في تأنيبهم والإنكار عليهم والتوبيخ لهم فقال: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ والنادي محل اجتماعهم وتحدثهم وإتيان المنكر فيه كان بارتكاب الفاحشة مع بعضهم بعضًا، وبالتضارط فيه، وحل الإزار، والقذف بالحصى وما إلى ذلك[4]

---

(١) هذه الجملة واقعة موقع التعليل لمضمون جملة: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لأنّ من كان عزيزاً يعتزّ به جاره، ومن كان حكيماً لا يأمر بغير ما هو خير للمأمور الممتثل لأمره.

(٢) ﴿لُوطًا﴾: منصوب إمّا على تقدير اذكر كما في التفسير أو على تقدير وأرسلنا أو أنجينا كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ..﴾.

(٣) الاستفهام للإنكار والتقريع والتقرير على جريمتهم التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

(٤) من ذلك: أنهم كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك، والصفير وتطريفُ الأصابع بالحناء وفرقتها، ويحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم، روى هذا الترمذي وحسّنه.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

مما يؤثر عنهم من سوء وقبح. قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بعد أن أنبهم ووبخهم ناهيًا لهم عن مثل هذه الفواحش ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا[١] بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي ما كان جوابهم إلا المطالبة بعذاب الله، وهذه طريقة الغلاة المفسدين والظلمة المتكبرين، إذا أعيتهم الحجج لجؤوا إلى القوة يستعملونها أو يطالبون بها.

(٣٠) وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ[٢]﴾ أي لما طالبوه بالعذاب، وقد أعياه أمرهم لجأ إلى ربه يطلب نصره على قومه الذين كانوا شر قوم وجدوا على وجه الأرض، واستجاب الله تعالى له ونصره، وسيأتي بيان ذلك في الآيات بعد.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية بذكر قصص لا يتم إلا عن طريق الوحي.

٢ - تسلية الرسول ﷺ من أجل ما يعاني من المشركين من كفر وعناد ومطالبة بالعذاب.

٣ - قبح الفاحشة وحرمتها وأسوأها فاحشة اللواط.

٤ - وجوب إقامة الحد على اللوطيّ الفاعل والمفعول لأن الله تعالى سماها فاحشة وسمى الزنا فاحشة ووضع حدًا للزنى فاللوطية تقاس عليه، وقد صرحت السنة بذلك فلا حاجة إلى القياس.

٥ - التحذير من العبث والباطل قولاً أو عملاً وخاصة في الأندية والمجتمعات.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ - ٣٥]

(٣١) ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: أي إسحاق ويعقوب بعده. ﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾: أي قرية لوط وهي سدوم.

(٣٢) ﴿قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾: أي قالت الرسل نحن أعلم بمن فيها. ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي كانت في علم الله وحكمه من الباقين في العذاب.

(٣٣) ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾: أي حصلت لهم مساءة وغم بسبب مخافة أن يقصدهم قومه بسوء. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: أي عجز عن احتمال الأمر لخوفه من قومه أن ينالوا ضيفه بسوء.

(٣٤) ﴿رِجْزًا﴾: أي عذابًا من السماء. ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾: أي بسبب فسقهم وهو إتيان الفاحشة.

(٣٥) ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ﴾: أي تركنا من قرية سدوم التي دمرناها آية بينة وهي خرابها ودمارها وتحولها إلى بحر ميت لا حياة فيه. ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: أي يعلمون الأسباب والنتائج إذا تدبروا.

معنى الآيات:

(٣١) ما زال السياق في قصص لوط عليه السلام، إنه بعد أن ذكّرهم وخوّفهم عذاب الله قالوا كعادة المكذبين الهالكين فائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين وأنه عليه السلام استنصر ربه تعالى عليهم، واستجاب الله تعالى له وفي هذه الآية بيان ذلك بكيفيته، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا[٣] جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾

---

(١) هذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم قطعاً.

(٢) الإفساد في الأرض: هو العمل بمعاصي الله ورسوله ﷺ فكل عامل بالمعاصي فهو مفسد في الأرض، إذ فعل المعاصي يورث الفقر والخوف وهما شرّ ما يُتقى.

(٣) (لما): حرف وجود لوجود نحو: لما جاء الحق ذهب الباطل. وهي أداة تدل على التوقيت كما هي ظرف ملازم للإضافة إلى جملة بعدها.

الخليل عم لوط ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾[1] التي هي ولادة ولدٍ له هو إسحق ومن بعده يعقوب ولد إسحق عليه السلام كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قالت الملائكة لإبراهيم ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ يريدون قرية قوم لوط وهي سدوم، وعللوا لذلك بقولهم: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾[2] أي لأنفسهم بغشيان الذنوب وإتيان الفواحش، ولغيرهم إذ كانوا يقطعون السبيل.

﴿٣٢﴾ وهنا قال لهم إبراهيم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ليس من الظالمين بل هو من عباد الله الصالحين، فأجابته الملائكة فقالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ منك يا إبراهيم. ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ[3] وَأَهْلَهُۥٓ﴾ من الهلاك ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وذلك لطول عمرها فسوف تهلك معهم لكفرها ومُمالأتها للظالمين.

﴿٣٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ أي ولما وصلت الملائكة لوطًا قادمين من عند إبراهيم من فلسطين ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي استاء بهم وأصابه غم وهم خوفًا من قومه أن يسيئوا إليهم، وهم ضيوفه نازلون عليه، ولما رأت ذلك الملائكة منه طمأنوه بما أخبر به تعالى في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ أي علينا ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ على من سيهلك من أهلك مع قومك الظالمين. ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ من العذاب أنت وأهلك، أي زوجتك المؤمنة وبنتيك، ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ أي العجوز الظالمة فإنها ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الذين طالت أعمارهم وستهلك مع الهالكين.

﴿٣٤﴾ وقوله تعالى في الآية (٣٤): ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝﴾ أي أخبرت الملائكة لوطًا بما هم فاعلون لقومه وهو قولهم: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي مدينة سدوم ﴿رِجْزًا﴾ أي عذابًا من السماء وهي الحجارة بسبب فسقهم بإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿٣٥﴾ قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ أي من تلك القرية ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾[4]، أي عظة وعبرة، وعلامة واضحة على قدرتنا على إهلاك الظالمين والفاسقين. وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إذ هم الذين يتدبرون في الأمور ويستخلصون أسبابها وعواملها ونتائجها وآثارها، أما غير العقلاء فلا حظ لهم في ذلك ولا نصيب فهم كالبهائم التي تنساق إلى المجزرة وهي لا تدري، وفي هذا تعريض بمشركي مكة وما هم عليه من الحماقة والغفلة.

هداية الآيات:

١ - حلم إبراهيم ورحمته تجليا في دفاعه عن لوط وأهله.

٢ - تقرير مبدأ: من بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه، حيث العلاقة الزوجية بين لوط وامرأته العجوز لم تنفعها وهلكت لأنها كانت مع الظالمين بقلبها وسلوكها.

٣ - مشروعية الضيافة وتأكدها في الإسلام لحديث الصحيح «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**».

٤ - التنديد بالفسق عن طاعة الله وهو سبب هلاك الأمم والشعوب.

٥ - فضيلة العقل إذا استعمله صاحبه في التعرف إلى الحق والباطل والخير والشر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦، ٣٧]

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾: أي وأرسلنا إلى قبيلة مَدْين، ومدين أبو القبيلة فسميت باسمه. ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: أي أخاهم في النسب. ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا. ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾: أي آمنوا به وتوقعوا مجيئه وما

---

(١) البُشرى: اسم للبشارة التي هي: الإخبار بما يسرّ المخبر.

(٢) الجملة تعليلية لما تقدمها من الإهلاك.

(٣) قرأ الجمهور ونافع وحفص: ﴿مُنَجُّوكَ﴾ بتشديد الجيم، وقرأ ابن كثير: ﴿**منجوك**﴾ بتخفيفها من: أنجاه ينجيه، ونجي وأنجى بمعنى.

(٤) المعنى: وقد تركنا من القرية آثاراً دالة عليها، وهي بقايا القرية المغمورة بماء بحيرة لوط تلوح من تحت المياه، مع بقايا لون الكبريت والمعادن التي رجمت بها قريتهم.

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

٤٠١

يحدث فيه. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: أي ولا تعيثوا في الأرض فسادًا بأن تنشروا فيها الفساد وهو العمل بالمعاصي فيها.

(٣٧) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: الهزة العنيفة والزلزلة الشديدة. ﴿فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾: لاصقين بالأرض أمواتًا لا يتحركون.

معنى الآيتين:

هذا موجز لقصة[١] شعيب عليه السلام مع قومه أهل مدين، والعبرة منه إهلاك تلك الأمة لما كذبت رسولها واستمرت على الشرك والمعاصي لعل قريشًا تعتبر بما أصاب هذه الأمة من هلاك ودمار من أجل تكذيبها لرسولها وعصيانها لربها. (٣٦) قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾[٢] أي وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وهو نبيّ عربي فلما انتهى إليهم برسالته قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي وحدوه في عبادته وأطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه من التطفيف في الكيل والوزن، ﴿وَٱرْجُوا۟[٣] ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، أي آمنوا بيوم القيامة وتوقعوا دائمًا مجيئه وخافوا ما فيه من أهوال وأحوال فإن ذلك يساعدكم على التقوى، وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟[٤] فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وذلك أنهم ينقصون الكيل والوزن ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض بالمعاصي.

(٣٧) وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذب أصحاب مدين نبيهم شعيبًا فيما أخبرهم به ودعاهم إليه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ[٥] ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي رجفة الهلاك من تحتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين على الركب هلكى وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين.

هداية الآيتين:

١ - تقرير التوحيد والنبوة والبعث الآخر.

٢ - حرمة الفساد في الأرض وذلك بارتكاب المعاصي وغشيان الذنوب.

٣ - بيان نقمة الله تعالى على المكذبين والظالمين والفاسقين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ ـ ٤٠]

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾: أي وأهلكنا عادًا القبيلة وثمود القبيلة كذلك. ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾: أي تبين لكم إهلاكهم من مساكنهم الخالية منهم بالحجر شمال الحجاز والشجر جنوب اليمن. ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي سبيل الهدى والحق التي بينتها لهم رسلهم. ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾: أي ذوي بصائر لما علمتهم رسلهم.

(٣٩) ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾:

---

(١) هذه القصة معطوفة على سابقاتها: قصة نوح وإبراهيم ولوط عليهم السلام.

(٢) إن طلبت المناسبة بين قصة لوط وقصة أصحاب مدين فإنها في كون مدين من أبناء إبراهيم وكون لوط من الأسرة الإبراهيمية وأوضح من هذا السبب قرب الديار من بعضها، فمدين غير بعيدة من قرى لوط.

(٣) أمره إيّاهم برجاء اليوم الآخر دال على أنهم ما كانوا يؤمنون باليوم الآخر أو ذكرهم به لغفلتهم عنه بارتكاب المعاصي وغشيان الذنوب.

(٤) العثو: بالواو كالدنو والعثي بالياء كالعصي: أشد الفساد، وفعله: عثا يعثو، وعثي كرضي يعثى كيرضى بمعنى واحد.

(٥) الفاء: للسببية، (والرجفة): الزلزال الشديد الذي ترجف منه الأرض والقلوب وكانت هذه الزلازل مصحوبة بصيحة شديدة انخلعت منها القلوب.

أي وأهلكنا قارون بالخسف وفرعون وهامان بالغرق. ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: أي عن عبادة الله تعالى وطاعته وطاعة رسله. ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾: أي فائتين عذاب الله أي فارين منه، بل أدركهم.

(٤٠) ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾: أي فكل واحد من المذكورين أخذناه بذنبه ولم يفلت منا. ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾: أي ريحًا شديدة، كعاد. ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أي كثمود. ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي كقارون. ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾: كقوم نوح وفرعون.

معنى الآيات:

(٣٨) لما ذكر تعالى في الآيات قبل ذي[1] إهلاكه لقوم لوط وقوم شعيب وقوم نوح من قبل لما ردوا دعوته وكذبوا رسله ذكر بقية الأقوام الذين كذبوا بآيات الله ورسله فأهلكهم، فقال عز وجل: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾[2] أي وأهلكنا كذلك عادًا قوم هود، وثمود قوم صالح! وقوله تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ[3] لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ أي وقد تبين لكم يا معشر كفار مكة ومشركي قريش من مساكنهم بالحجر[4] والشجر[5] من حضرموت ما يؤكد لكم إهلاكنا لهم، إذ مساكنهم الخاوية دالة على ذلك دلالة عين. وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي وقد زين لهم الشيطان أعمالهم من الشرك والشر والظلم والفساد وصدهم بذلك التزيين عن السبيل، سبيل الإيمان والتقوى المورثة للسعادة في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ[6]﴾ أي ذوي بصائر أي معرفة بالحق والباطل والخير والشر لما علمتهم الرسل ولكن آثروا أهواءهم على عقولهم فهلكوا. وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين.

(٣٩) وقوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ﴾ أي أهلكنا قارون الإسرائيلي ابن عم موسى عليه السلام، أهلكناه ببغيه وكفره، فخسفنا به الأرض وبداره أيضًا، وفرعون وهامان أغرقناهما في اليم بكفرهما وطغيانهما وظلمهما واستعلائهما وذلك بعدما جاءهم موسى بالبينات من الآيات والحجج الواضحات التي لم تُبق لهم عذرًا في التخلف عن الإيمان والتقوى ولكن ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ[7] فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أرض مصر وديارها فرفضوا الإيمان والتقوى ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ ولا فائتين، فأحلَّ الله تعالى بهم نقمته وأنزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم الظالمين.

(٤٠) ثم في الآية الأربعين من هذا السياق بيّن تعالى أنواع العذاب الذي أهلك به هؤلاء الأقوام، فقال: ﴿فَكُلًّا﴾[8] أي فكل واحد من هؤلاء المكذبين ﴿أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم[9] مَّنۡ

---

(١) وجه المناسبة ظاهر بين هذه الآيات وسابقتها وهي إتمام ذكر كل من قص تعالى في كتابه قصصهم مفصلة في الأعراف وهود والشعراء والنمل والقصص، فذكر بإيجاز من لم يذكرهم في هذا العرض من هذه السورة، فذكر عاداً وثموداً وقارون وفرعون وهامان.

(٢) وعاداً جائز أن يكون منصوباً بفعل مقدر، وأهلكنا عاداً أو اذكر عاداً.

(٣) الجملة حالية.

(٤) مدائن صالح.

(٥) منازل عاد.

(٦) الاستبصار: البصارة بالأمور، والسين والتاء للتأكيد كالاستحباب بمعنى الحب، والمراد أنهم أهل بصائر ومعرفة بالأمور لما لهم من عقول صالحة للنظر والإدراك، وما في التفسير وجه أحسن من هذا.

(٧) إن فرعون وهامان وقارون شأنهم شأن أبي جهل والعاص بن وائل والنضر بن الحارث ما حملهم على الكفر والعناد إلاّ الاستكبار في البلاد.

(٨) ﴿فَكُلًّا﴾: الفاء للتفريع على ما سبق قوله تعالى: ﴿وَعَادٗا﴾ إذ التنوين عوضٌ عن كلمة، أي: فكل واحد ممّن ذُكروا من عاد إلى قارون أخذ الله أي: أهلك بذنبه، ولم يظلمهم الله تعالى بإهلاكه إيّاهم.

(٩) الفاء: للتفريع إذ هذا التفصيل بعد الفاء متفرع ذلك الإجمال المذكور في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾.

﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي ريحًا شديدة كعاد. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كفرعون، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي لم يكن من شأن الله تعالى الظلم فيظلمهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟﴾ أي أولئك الأقوام ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك والكفر والتكذيب والمعاصي فأهلكوها بذلك، فكانوا هم الظالمين.

هداية الآيات:

١ - بيان أن الشيطان هو سبب هلاك الأقوام وذلك بتزيينه لهم الشر والقبيح كالشرك والباطل والشر والفساد.

٢ - بيان أن الاستكبار كالظلم عاقبتهما الهلاك والخسران.

٣ - بيان أن الله تعالى ما أهلك أمة حتى يبين لها ما يجب أن تتقيه[1] من أسباب الهلاك والدمار، فإذا أبت إلا ذلك أوردها الله موارده.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ ـ ٤٥]

(٤١) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾: أي صفة وحال الذين اتخذوا أصنامًا يرجون نفعها.

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾: أي لنفسها تأوي إليه. ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾: أضعف البيوت وأقلها جدوى.

(٤٢) ﴿يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾: أي من الأوثان والأصنام وغيرها. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: أي الغالب على أمره الحكيم في تدبير أمور خلقه.

(٤٣) ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾: أي العالمون بالله وآياته وأحكام شرعه وأسراره.

(٤٤) ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي من أجل أن يعبد لا للهو ولا لباطل.

(٤٥) ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اقرأ يا رسولنا ما أنزل إليك من القرآن. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: بأدائها مقامة مراعى فيها شروطها وأركانها وواجباتها وسننها. ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾: أي الصلاة بما توجده من نور في قلب العبد يصبح به لا يقدر على فعل فاحشة ولا إتيان منكر. ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾: أي ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد ربه كما أن ذكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة وغيرهما.

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى نقمته على أعدائه الذين كفروا به وأشركوا غيره في عبادته وكذبوا رسله وكان ذلك تنبيهًا وتعليمًا للمشركين والكافرين المعاصرين لنزول القرآن لعلهم يستجيبون للدعوة المحمدية فيؤمنوا ويوحدوا ويسلموا فيسلموا من العذاب والخسران. ذكر هنا في هذه الآيات مثلاً لعبادة الأوثان في عدم نفعها لعابديها والقصد هو تقرير التوحيد، وإبطال الشرك العائق عن كمال الإنسان وسعادته.

(٤١) وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي شركاء وهي الأصنام والأوثان يعبدونها راجين نفعها وشفاعتها لهم عند الله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ[2] ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لتأوي إليه قصد وقايتها مما تخاف من جراء برد أو اعتداء حشرة عليها، ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ[3] ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ والحال أن أوهن البيوت أي أضعفها وأحقرها شأنًا وأقلها مناعة هو بيت العنكبوت فهذه حال المشركين الذين اتخذوا

---

(١) شاهده في قول الله تعالى من سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ والإضلال سبيل الهلاك وطريقه.

(٢) العنكبوت: صنف من الحشرات ذات بطون وأرجل وهي ثلاثة أصناف: منها صنف يسمى ليث العنكبوت، وهو الذي يفترس الذباب وكلها تتخذ لنفسها نسيجاً تنسجه من لعابها يكون خيوطاً مشدودة بين طرفين من الشجر أو الجدران، وتتخذ في وسط تلك الخيوط جانباً أغلظ وأكثر خيوطاً فتحتجب فيه ويسمى بيتاً لشبهه بالخيمة لأنه منسوج ومشدود من أطرافه فهو كبيت الشعر، وجملة: ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ حال من العنكبوت ويصغّر على العنيكبوت ويجمع على: عناكب.

(٣) ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ..﴾ هذه الجملة معترضة مبيّنة لوجه الشبه وتجري هذه الجملة مجرى المثل يضرب للشيء إذا قلّت فائدته وجدواه.

من دون الله ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي أصنامًا يرجون النفع، ودفع الضر بها فهم واهمون في ذلك غالطون، مخطئون، إنه لا ينفع ولا يضر إلا الله فليعبدوه وحده وليتركوا ما سواه. وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان المشركون يعلمون أن حالهم في عبادتهم غير الله في عدم الانتفاع بها كحال العنكبوت في عدم الانتفاع ببيتها الواهي لما رضوا بعبادة غير الله وتركوا عبادة الله الذي بيده كل شيء وإليه مصير كل شيء.

﴿٤٢﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ في تهديد للمشركين المصرين على الشرك بأنه لا يخفى عليه ما هم عليه من دعاء غيره، ولو شاء لأهلكهم كما أهلك من قبلهم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب على أمره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه ولذا يعجل العقوبة لمن يعجل لحكمة ويؤخرها لمن يؤخرها عنه لحكمة فلا يغتر المشركون بتأخير العذاب، ولا يستدلون به على رضا الله تعالى بعبادتهم، وكيف يرضاها وقد أهلك أممًا بها وأنزل كتابه وبعث رسوله ﷺ لإبطالها والقضاء عليها.

﴿٤٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ[1] نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي وهذه الأمثال نضربها للناس لأجل إيقاظهم وتبصيرهم وهدايتهم، وما ﴿يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي وما يدرك مغزاها وما تهدف إليه من التنفير من الشرك العائق عن كل كمال وإسعاد في الدارين ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[2] أي بالله وشرائعه وأسرار كلامه وما تهدي إليه آياته.

﴿٤٤﴾ وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ إخبار بأنه تعالى هو الذي خلق السموات والأرض وهي مظاهر قدرته وعلمه وحكمته موجبة لعبادته بتعظيمه وطاعته ومحبته والإنابة إليه والخوف منه. وخلقهما بالحق لا بالباطل وذلك من أجل أن يذكر فيهما ويشكر فمن كفر به فترك ذكره وشكره كان كمن عبث بالسموات والأرض وأفسدها، لذا يعذب نظرًا إلى عظم جرمه عذابًا دائمًا أبدًا. وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن في خلق السموات[3] والأرض بالحق ﴿لَءَايَةً﴾ أي علامة بارزة على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته، وهذه موجبات ألوهيته على سائر عباده فهو الإله الحق الذي لا رب غيره ولا إله سواه، وبعد هذا البيان والبرهان لم يبقَ عذر المعتذر.

﴿٤٥﴾ وعليه فـ ﴿ٱتْلُ﴾[4] أيها الرسول ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تعليمًا وتذكيرًا وتعبدًا وتقربًا ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ طرفي النهار وزلفًا من الليل فإن في ذلك عونًا كبيرًا لك على الصبر والثبات وزادًا عظيمًا لرحلتك إلى الملكوت الأعلى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ[5] عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ تعليل للأمر بإقام الصلاة فإن الصلاة بما توجده من إشراقات النفس والقلب والعقل حال تحول بين العبد وبين التلوث بقاذورات الفواحش ومفاسد المنكر وذلك يفيد إقامتها لا مجرد أدائها والإتيان بها. وإقامة الصلاة تتمثل في الإخلاص فيها لله تعالى أولاً ثم بطهارة القلب من الالتفات إلى غير الرب تعالى أثناء أدائها ثانيًا، ثم بأدائها في أوقاتها المحددة لها وفي المساجد بيوت الله، ومع جماعة المسلمين عباد الله وأوليائه، ثم بمراعاة أركانها من قراءة الفاتحة والركوع والطمأنينة فيه والاعتدال والطمأنينة فيه، والسجود

---

(١) ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾: مبتدأ، والخبر: جملة ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

(٢) عنه ﷺ أنه قال: «**العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه**».

(٣) لفظ السموات والأرض: يشمل ذاتهما والموجودات المظروفة فيهما.

(٤) المراد من: ﴿ٱتْلُ﴾: مداومة تلاوة ما أوحي إليه وهو القرآن الكريم.

(٥) قيل لابن عطية: إن حماداً وابن جريج والكلبي يقولون: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ما دام العبد فيها. قال: هذه عجمة أي: نسبهم إلى قلة الفهم وهو كذلك للحديث وهو قوله ﷺ: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له**» وقال له أحد الصحابة: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق. فقال: «**سينهاه ما تقول**». يعني: صلاته.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

على الجبهة والأنف والطمأنينة فيه، وآخر أركانها الخشوع وهو السكون ولين القلب وذرف الدمع. هذه هي الصلاة التي توجد طاقة النور التي تحول دون الانغماس في الشهوات والذنوب وإتيان الفاحشة وارتكاب المنكر. وقوله تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ أي أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من إقامة الصلاة لأن الصلاة أثناء أدائها مانعة عاصمة لكن إذا خرج منها، قد يضعف تأثيرها، أما ذكر الله بالقلب واللسان في كل الأحيان فهو عاصم مانع من الوقوع في الفحشاء والمنكر وفي اللفظ معنى آخر وهو أن ذكر الله للعبد في الملكوت الأعلى أكبر من ذكر العبد للرب في ملكوت الأرض، ويدل عليه قوله: **«من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»** كما في الحديث الصحيح. وقطعًا والله لذكر الرب العبد الضعيف أكبر من ذكر العبد الضعيف الرب العظيم. اللهم اجعلنا من الذاكرين الشاكرين لآلائك. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾[1] فيه وعد ووعيد، فإن علمه يترتب عليه الجزاء فمن كان يصنع المعروف جزاه به، ومن كان يصنع السوء جزاه به. اللهم ارزقنا صنائع المعروف وأبعد عنا صنائع السوء آمين.

هداية الآيات:

١ - استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني للأفهام.

٢ - تقرير التوحيد وإبطال التنديد.

٣ - فضل العلماء على غيرهم، العلماء بالله، بصفاته وأسمائه وآياته، وشرائعه، وأسرارها.

٤ - وجوب تلاوة القرآن، وإقامة الصلاة، وذكر الله، إذ هي غذاء الروح وزاد العروج إلى الملكوت الأعلى.

٥ - بيان فائدة إقام الصلاة وتلاوة القرآن وذكر الله تعالى بالقلب واللسان.

الجزء الحادي والعشرون

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٦ ـ ٤٩]

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي لا تحاجوا ولا تناظروا اليهود ولا النصارى. ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾: أي إلا بالمجادلة التي هي أحسن وهي الدعوة إلى الله بآياته والتنبيه على حججه. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾: أي الذين لم يدخلوا في ذمة المسلمين بدفع الجزية وبقوا حربًا على المسلمين.

﴿٤٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾: أي وكإنزالنا الكتاب على من قبلك من الرسل أنزلنا إليك الكتاب. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾: أي كعبدالله بن سلام وإخوانه الذين آمنوا بالرسول ﷺ وكتابه. ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾: أي ومن هؤلاء المشركين من يؤمن به وفعلًا آمن به كثيرون.

﴿٤٨﴾ ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾: أي تكتب بيدك لأنك أميّ لا تقرأ ولا تكتب. ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: أي

---

(1) في الآية وازع المراقبة، وعليه فتلاوة القرآن وإقام الصلاة وذكر الله تعالى ومراقبته. هذه الأربعة تمثّل سبيل السلام إلى دار السلام من سلكه نجا ومَن تنكّبه هلك، والعياذ بالله العليم الحكيم.

لشك اليهود في نبوتك ونزول القرآن إليك.

﴿٤٩﴾ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾: أي محمد ﷺ نعوته وصفاته آيات بينات في التوراة والإنجيل محفوظة في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي وما يجحد بآيات الله الحاملة لنعوت الرسول الأمي ﷺ وصفاته إلا الذين ظلموا أنفسهم بكتمان الحق والاستمرار على الباطل.

معنى الآيات:

﴿٤٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ[١] أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا تعليم للرسول ﷺ والمؤمنين يأخذون به مستقبلاً عندما يتصلون بأهل الكتاب ويحتكون بهم فقال عز وجل مخاطبًا الرسول ﷺ والمؤمنين من أمته: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ[٢] أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذين هم اليهود والنصارى، فنهاهم عن مجادلتهم وهي خصامهم ومحاجتهم ومناظرتهم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالمجادلة التي هي أحسن[٣] وذلك بدعوتهم إلى الله تعالى ليؤمنوا برسوله ﷺ ويدخلوا في دينه الإسلام والتنبيه على حجج الله وأدلة وحيه وكتابه. وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين لم يدخلوا في ذمة المسلمين ولم يؤدوا الجزية وناصبوا المسلمين الحرب والعداء فهؤلاء لا يجادلون ولكن يُحَكَّم فيهم السيف فيقاتلون حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾. هذا تعليم آخر للمؤمنين وهو: إن أخبرهم أهل الكتاب بشيء لا يوجد في الإسلام ما يثبته ولا ما ينفيه وادّعوا هم أنه في كتابهم في هذه الحال فقولوا ما أرشدنا الله تعالى إلى قوله وهو: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى آخر الآية حتى لا نكون قد كذّبنا بحق ولا آمنّا بباطل، وفي البخاري أن النبي ﷺ قال: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**[٤]، **وقولوا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾».

﴿٤٧﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي وكإنزالنا الكتب السابقة على رسل سبقوا كموسى وداود وعيسى عليهم السلام أنزلنا إليك أنت يا محمد الكتاب أي القرآن، وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. فهذا إخبار بغيب فكما علّم الله تعالى المؤمنين كيف يكونون مع أهل الكتاب عندما يتصلون بهم ويعيشون معهم في المدينة وغيرها أخبر أن الذين آتاهم الكتاب أي التوراة والإنجيل وهم الراسخون في العلم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، أي بالقرآن، وقد آمن عبدالله بن سلام وكثير من أحبار أهل الكتاب، وآمن من المشركين كثيرون فكان الأمر كما أخبر. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فهو كما أخبر لا يجحد بالآيات القرآنية ويكذّب بها إلا كافر مظلم النفس خبيثها.

﴿٤٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ هو كما قال عز وجل: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ قبل القرآن أيّ كتاب، ولا كان يخط بيمينه أيّ كتاب لأنه أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، أي فلو كان قبل نزول القرآن عليه يقرأ ويكتب لكان للمبطلين[٥] مجال للشك في صحة دعوى النبوة

---

(١) ذكر القرطبي الخلاف في هل هذه الآية منسوخة أو محكمة؟ ورجّح قول مجاهد وهي أنها محكمة، وما في التفسير على هذا وهو الصواب.

(٢) الجدال والمجادلة مصدران لجادل، والمراد بالمجادلة: إقامة الدليل على رأي اختلف فيه صاحبه مع غيره. والجدل: شدّة الخصومة وهو مأخوذ من الجدل الذي هو الفتل للحبل. ونحوه إذا قواه، والمجادل يقوي رأي رأيه بما يراه ويورده من حجج.

(٣) وجه المجادلة بالحسنى لأهل الكتاب لأنهم أهل علم متأهلون للفهم وقبول الحق متى اتضح لهم بخلاف جهّال المشركين فإن تهجين عبادتهم وتفظيع طريقتهم قد يكون أنجع فيهم.

(٤) تفرّد به البخاري رحمه الله تعالى.

(٥) قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أنّ محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية.

المحمدية ونزول القرآن عليه، ولكن لم يكن قبل القرآن يقرأ أيّ كتاب، ولم يكن يخط بيمينه أيّ خط ولا كتاب فلم يبق إذًا للمشركين ما يحتجون به أبدًا.

(٤٩) وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ[1] ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي بل الرسول ﷺ ونعوته وصفاته ومنها وصف الأمية آيات في التوراة والإنجيل محفوظة في صدور الذين أُوتوا العلم من أهل الكتاب.. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في التوراة والإنجيل والقرآن ﴿إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنفسهم[2] من الماديين اليهود والنصارى الذين يأكلون ويَترأسُونَ على حساب الحق والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - مشروعية مجادلة أهل الكتاب من أهل الذّمّة بالتي هي أحسن.

٢ - حرمة سؤال أهل الكتاب لقوله ﷺ: «**لا تسألوا أهل الكتاب[3] عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل**».

٣ - منع تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم إذا أخبروا بشيء ووجوب قول: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

٤ - إخبار القرآن بالغيب قبل وقوعه فيقع كما أخبر فيكون ذلك آية على أنه وحي الله تعالى.

٥ - تقرير صفة الأمية في النبي ﷺ كما هي في الكتب السابقة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٠ ـ ٥٢]

(٥٠) ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ﴾: أي قال كفار قريش: هلاّ أُنزل على محمد ﷺ آيات من ربّه كناقة صالح، وعصا موسى. ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي قل لهم يا رسولنا الآيات عند الله ينزلها متى شاء.

(٥١) ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي أولم يكفهم فيما طلبوا من الآيات إنزالنا الكتاب عليك. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾: أي في القرآن رحمة وموعظة للمؤمنين فهو خير من ناقة صالح.

(٥٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: وهو ما يعبد من دون الله. ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: وهو الإله الحق. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: أي حيث استبدلوا الكفر بالإيمان.

معنى الآيات:

(٥٠) ما زال السياق في تقرير النبوة المحمدية فقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي أهل مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ[4] مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي هلاّ أُنزل على محمد ﷺ آيات من ربّه كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى إذ هذا الذي يعنون بالآيات أي معجزات خارقة للعادة. قال تعالى لرسوله ﷺ: قل يا رسولنا لقومك المطالبين بالآيات دليلاً على صدق نُبُوَّتك قل لهم: أولاً: الآيات التي تطالبون بها هي عند الله وليست عندي فهو تعالى ينزِّلها متى شاء وعلى من شاء. وثانيًا: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وظيفتي التي أقوم بها هي إنذار أهل الظلم من عاقبة ظلمهم وهي عذاب النار فلذا لا معنى بمطالبتي بالآيات.

(٥١) وثالثًا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾[5] آية أن الله تعالى أنزل عليّ كتابه فأنا أتلوه عليكم صباح مساء فأي آية أعظم من

---

(١) أي: ليس هو كما يقول المبطلون: من أنه سحر أو شعر ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه وكذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمد ﷺ والمؤمنون به، وهذا لا يتنافى مع ما في التفسير، إذ الوجهان صحيحان، وقال كعب في صفة هذه الأمة: إنهم حكماء علماء وهم في الفقه أنبياء.

(٢) والمشركون كاليهود والنصارى في هذا أي: الجحود بالآيات.

(٣) رواه ابن جرير عن عبدالله بن مسعود قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال.

(٤) قرأ ابن كثير وحمزة: ﴿آية﴾ بالإفراد، وقرأ الجمهور ونافع وحفص بالجمع: ﴿ءَايَٰتٌ﴾.

(٥) أخرج الدارمي في سننه أنّ النبي ﷺ أُتي بكتف فيه كتاب فقال: «**كفى بقوم ثلاثة: أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم**» فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾.

كتاب من أميّ لا يقرأ ولا يكتب تُتلى آياته تحمل الهدى والنور وهو في الوقت نفسه رحمة وذكرى أي موعظة لقوم يؤمنون فهي معجزة ثابتة قائمة باقية يجد فيها المؤمنون الرحمة فيتراحمون بها ويجدون فيها الموعظة فهم يتعظون بها، فأين هذا من معجزة تبقى ساعة ثم تذهب وتروح كمائدة عيسى أو عصا موسى.

﴿٥٢﴾ ورابعًا: شهادة الله برسالتي كافية لا يُطلب معها دليل آخر على نبوتي ورسالتي، فقد قال لي ربي: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا[1]﴾ ربي الذي يعلم ما في السموات والأرض من كل غيب، ومن ذلك علمه بأني رسوله فشهد لي بذلك بإنزاله عليَّ هذا الكتاب، وأخيرًا وبعد هذا البيان يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا[2] بِالْبَاطِلِ﴾ وهو تأليه المخلوقات من دون الله ﴿وَكَفَرُوا﴾ بألوهية الله الحق ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء في الفساد العقلي وسوء الفهم ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في صفتهم حين اشتروا الكفر بالإيمان واستبدلوا الضلالة بالهدى.

هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث فلتعد تلاوتها بالتأني والتدبر.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية بالأدلة القاطعة التي لا تُرد، وهي أربعٌ كما ذُكر آنفًا.

٢ - بيان أكبر معجزة لإثبات النبوة لرسول الله ﷺ وهي نزول القرآن الكريم عليه وفي ذلك قال عليه الصلاة والسلام كما في البخاري[3]: «**ما من نبي إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**».

٣ - القرآن الكريم رحمة وذكرى أي عبرة وعظة للمؤمنين به وبمن نزل عليه.

٤ - تقرير خسران المشركين في الدارين لاستبدالهم الباطل بالحق والعياذ بالله تعالى.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

٤٠٣

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٣ - ٥٥]

﴿٥٣﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾: أي يطلبون منك تعجيل العذاب لهم.

﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾: أي وقت محدد للعذاب لا يتقدمه ولا يتأخر عنه لجاءهم. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾: فجأة من حيث لا يخطر لهم على بال.

﴿٥٤﴾ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾: أي من كل جانب وهم فيها وذلك يوم يغشاهم.

﴿٥٥﴾ ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾: أي من فوقهم ومن تحت أرجلهم. ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي ويقول لهم الجبار: ذوقوا ما كنتم تعملون، أي من الشرك والمعاصي.

معنى الآيات:

﴿٥٣﴾ لقد تقدم في الآيات القريبة أن المكذِّبين بالرسالة المحمدية طالبوا بالعذاب تحديًا منهم للرسول ﷺ فقالوا: ائتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين في أنك نبي ورسول إلينا،

---

(١) ﴿شَهِيدًا﴾ أي: يشهد لي بالصدق فيما أدّعيه من أني رسول وأنّ هذا كتابه.

(٢) قال يحيى بن سلام: الباطل هنا: إبليس وهو شامل لإبليس ولعبادة الأوثان وما في التفسير أعم، إذ اللفظ يشمل عبادة غير الله مطلقاً وهو الباطل.

(٣) أخرجه ابن كثير بهذا اللفظ: «**وما من الأنبياء من نبي إلاّ قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**» وقال: أخرجاه من حديث الليث.

وفي هذه الآية يعجّب تعالى رسوله أي يحملُه على أن يتعجب من حمق المشركين وطيشهم وضلالهم إذ يطالبون بالعذاب فيقول له: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ[1] بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى[2]﴾ للعذاب، أي وقت محدد له لا يتقدمه ولا يتأخره ﴿لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾. ثم أخبر تعالى رسوله مؤكدًا خبره فقال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ أي العذاب: ﴿بَغْتَةً﴾ لا محالة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه، ثم كرر تعالى حمل رسوله على التعجب من سخف المشركين الذين لا يطيقون لسعة عقرب ولا نهشة أفعى يطالبون بالعذاب فقال:

(٥٤) ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ[3] بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لا محالة كقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾.

(٥٥) ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي يغطيهم ويغمرهم فيكون ﴿مِن فَوْقِهِمْ[4]﴾ ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وجهنم محيطة بهم، ويقول[5] الجبار تبارك وتعالى موبخًا لهم: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

١ - مشروعية التعجب إذا وجدت أسبابه الحاملة عليه.

٢ - بيان مدى حُمق وجهل وسفه الكافرين والمشركين بخاصة.

٣ - بيان أن تأخير العذاب لم يكن عن عجز وإنما هو لنظام[6] دقيق إذ كل شيء له أجل محدد لا يتقدم ولا يتأخر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٦ - ٦٠]

(٥٦) ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾: أي هاجروا من بلاد لم تتمكنوا من العبادة فيها فإن أرض الله واسعة. ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾: فاعبدوني وحدي ولا تعبدوا معي غيري كما يريد منكم المشركون.

(٥٧) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾: أي لا يمنعنكم الخوف من الموت أن لا تهاجروا في سبيل الله فإن الموت لا بد منه للمهاجر ولمن ترك الهجرة. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾: أي بعد موتكم ترجعون إلى الله فمن مات في سبيل مرضاته أكرمه وأسعده، ومن مات في معصيته أذاقه عذابه.

(٥٨) ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾: أي لننزلنّهم من الجنة غرفًا تجري من تحتها الأنهار.

(٥٩) ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: أي صبروا على الإيمان والهجرة متوكلين على الله تعالى.

(٦٠) ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾: أي لا تطيق جمعه ولا حمله لضعفها، والله يرزقها فلا عذر لمن ترك الهجرة خوفًا من الجوع والخصاصة. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: أي السميع لأقوال عباده العليم بنياتهم وأحوالهم وأعمالهم.

معنى الآيات:

(٥٦) لا شك أنه بعد ذلك التأنيب الإلهي للمشركين وتهديدهم بالعذاب وتوعدهم بعذاب جهنم وتوبيخهم فيها على شركهم وباطلهم، لا شك أن رد الفعل من المشركين هو الضغط على المؤمنين المستضعفين في مكة فأرشدهم الله تعالى إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ليتمكنوا من عبادة الله تعالى، فناداهم بقوله

---

(١) من بين المطالبين بالعذاب: أبو جهل، والنضر بن الحارث إذ قالا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وفيهم نزل: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَافِرِينَ..﴾.

(٢) المعنى: لولا الأجل المعيّن لحلول العذاب بهم لجاءهم العذاب عاجلاً لأنّ كفرهم يستحق تعجيل عقابهم، ولكن الله أراد تأخيره لحكم يعلمها منها: إمهالهم ليؤمن من يؤمن منهم، ومنها ليعلموا أن الله لا يستفزّه استعجالهم ومنه إظهار رحمته بعباده وحلمه عليهم.

(٣) حكى استعجالهم العذاب بصيغة المضارع لاستحضار حال استعجالهم لإفادة التعجب منها كما في قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾.

(٤) ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ حال مؤكدة، إذ غشيان العذاب لا يكون إلاّ من فوق، وقوله: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ﴾ احتراس عمّا قد يوهمه الغشيان من الفوقية خاصة.

(٥) قرأ بعضهم: **﴿ونقول﴾** بنون التكلم والتعظيم.

(٦) وحكم عالية تقدم بعضها إزاء رقم (٢) في هذه الصفحة.

عز وجل: ﴿يَٰعِبَادِىَ[1] ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي بي وبرسولي ولقائي ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجروا فيها، ولا ترضوا بالبقاء مع الكفر تهانون وتُلزمون بعبادة غيري من آلهة المشركين، ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ لا تعبدوا معي غيري. وعليه فهاجروا في سبيل مرضاتي ولا تخشوا موتًا ولا فقرًا فإن كل نفس ذائقة الموت هاجر صاحبها أو لم يهاجر.

(٥٧) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ[2]﴾، لا محالة، فمن رجع إلينا وهو مؤمن مطيع منفذ لأوامرنا مجتنب نواهينا أسعدناه، ومن رجع إلينا وهو كافر بنا عاص لنا مهمل أوامرنا مرتكب نواهينا أشقيناه.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي لننزلنهم من الجنة دار الإسعاد ﴿غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي لا يخرجون منها ولا يموتون فيها. هذا بيان لمن مات وهو مؤمن عامل بالصالحات ومنها الهجرة في سبيل الله وقوله: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي ذلك الإنزال في الغرف في الجنان هو الإسعاد المترتب على الإيمان والهجرة والعمل الصالح فالإيمان والهجرة والعمل الصالح عملٌ والجنة وما فيها من النعيم أجرة ذلك العمل. وأثنى الله تعالى على الجنة فقال: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ ووصفهم بقوله:

(٥٩) ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي على الإيمان والهجرة والطاعة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فخرجوا من ديارهم تاركين أموالهم لا يحملون معهم زادًا، كل ذلك توكلاً على ربهم.

(٦٠) وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن[3] مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لضعفها وعجزها، أي وكثير من الدواب من الإنسان والحيوان من يعجز حتى عن حمل طعامه أو شرابه لضعفه والله عز وجل يرزقه بما يسخر له من أسباب وما يهيىء له من فرص فيطعم ويشرب كالأقوياء والقادرين، وعليه فلا يمنعنكم عن الهجرة مخافة الفاقة والفقر، فالله تعالى تكفّل برزقكم ورزق سائر مخلوقاته. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾[4] ببواطنكم وظواهركم وأعمالكم وأحوالكم فارهبوه ولا ترهبوا سواه فإن في طاعته السعادة والكمال وفي معصيته الشقاء والخسران.

هداية الآيات:

١ ـ لا عذر لأحد في ترك عبادة الله وتوحيده فيها لأنه إن منع منها في بلد وجب عليه أن يهاجر إلى بلد آخر.

٢ ـ لا معنى للخوف من الموت إذا وجب العمل كالهجرة والجهاد لأن الموت حق ولا بد منه.

٣ ـ بيان جزاء أهل الصبر والتوكل من أهل الإيمان والهجرة والتقوى.

٤ ـ لا يمنعن المؤمن من الهجرة خوفه من الجوع في دار هجرته إذ تكفل الله برزقه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦١ ـ ٦٤]

(٦١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾: أي المشركين. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: أي ذللهما يسيران الدهر كله لا يملان ولا يفتران. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: أي كيف يصرفون عن الحق بعد ظهور أدلته لهم. وهو أن

---

(١) قال القرطبي: هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة وهو كذلك إلا أنها عامة في كل من منع من عبادة الله تعالى في أرض عليه أن يهاجر إلى أخرى يعبد الله تعالى فيها إذ العبادة هي علّة خلقه ووجوده لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ وقرأ البعض بالياء: ﴿يرجعون﴾.

(٣) روى مسلم: «**أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدريّ الغابر في الأفق من المشرق أو من المغرب لتفاضل ما بينهم**»، وقيل له ﷺ: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم! قال: «**بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين**».

(٤) وكأين: أصلها (أي) دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم، والتقدير: أي كشيء كثير من العدد من دابة قال ابن عباس: الدواب هي كل ما دبّ من الحيوان فكله لا يحمل رزقه ولا يدخر إلاّ ابن آدم والنمل والفأر.

(٥) وهو السميع لدعائكم العليم بما في نفوسكم من إخلاص لله تعالى في أعمالكم وتوكلكم ورجائكم من الرزق.

وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

ترتيبها ٣٠ — سورة الروم — آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

٤٠٤

الخالق المدبر هو الإله الحق الذي يجب توحيده في عبادته.

(٦٢) ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: أي يوسّع الرزق على من يشاء من عباده امتحانًا للعبد هل يشكر الله أو يكفر نعمه. ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾: أي ويضيق عليه ابتلاء ليرى هل يصبر أو يسخط.

(٦٣) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾: إذًا كيف يشركون به أصنامًا لا تنفع ولا تضر؟. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي قل لهم الحمد لله على ثبوت الحجة عليكم. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾: أي إنهم متناقضون في فهمهم وجوابهم.

(٦٤) ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾: أي بالنظر إلى العمل لها والعيش فيها فهي لهو يتلهى بها الإنسان ولعب يخرج منه بلا طائل ولا فائدة. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾: أي الحياة الكاملة الخالدة، ولذا العمل لها أفضل من العمل للدنيا. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: أي لو علم المشركون هذا لما آثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

معنى الآيات:

(٦١) ما زال السياق في تقرير التوحيد والتنديد بالشرك وتذكير المشركين لعلهم يوحدون. يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين الذين يؤذون المؤمنين ويضطهدونهم من أجل توحيدهم لله تعالى لو سألتهم ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي من أوجدهما من العدم، ومن سخر الشمس والقمر في فلكيهما يسيران الحياة كلها ليجيبنك قائلين ﴿اللَّهُ﴾. ﴿فَأَنَّىٰ[1] يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق بعد ظهور أدلته إنّها حالٌ تستدعي التعجب.

(٦٢) وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ هذا مظهر من مظاهر الحكمة الإلهية والتدبير الحكيم وهو موجبٌ له الألوهية نافٍ لها عما سواه. فهذا يبسط الرزق له فيوسع عليه في طعامه وشرابه وكسائه ومركوبه ومسكنه، وهذا يضيق عليه في ذلك لماذا؟! والجواب إنه يوسع امتحانًا للعبد هل يشكر أو يكفر، ويضيق ابتلاءً للعبد هل يصبر أو يسخط. ولذا فلا حجة للمشركين[2] في غناهم وفقر المؤمنين فالغنى لا يدل على رضا الله على العبد ولا على سخطه. والفقر كذلك لا يدل على سخط ولا على رضا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ[3] شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تقرير لحكمته ورحمته وعدله وتدبيره فهو يوسع لحكمة ويضيق لحكمة لعلمه بعباده وما يصلحهم وما يفسدهم إذ من الناس من يصلحه الغنى، ومنهم من يصلحه الفقر، والإفساد كذلك.

(٦٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي ولئن سألت يا رسولنا هؤلاء المشركين فقلت من نزل من السماء ماء المطر فأحيا به الأرض بعد موتها بالقحط والجدب لأجابوك قائلين: ﴿اللَّهُ﴾ إذًا قل لهم:

---

(١) الاستفهام للإنكار والتعجب.

(٢) نزلت الآية ردّاً على المشركين الذين عيّروا المؤمنين بالفقر وقالوا لهم: لو كنتم على الحق لم تكونوا فقراء، وهذا تمويه منهم إذ في الكافرين فقراء أيضاً.

(٣) هذه الجملة تذييلية لإفادة أنّ ذلك كلّه جار على حكمة لا يُطّلع عليها.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾[1] على اعترافكم بالحق لو أنكم تعملون بمقتضاه فما دام الله هو الذي ينزل الماء ويحيي الأرض بعد موتها فالعبادة إذًا لا تنبغي إلا له فلِم إذًا تعبدون معه آلهةً أخرى لا تنزل ماء ولا تُحيي أرضًا ولا غيرها، ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ إذ لو عقلوا ما أشركوا بربهم أحجارًا وأصنامًا ولا ما تناقضوا هذا التناقض في أقوالهم وأفعالهم يعترفون بالله ربًا خالقًا رازقًا مدبرًا ويعكفون على الأصنام يستغيثون بها ويدعونها ويعادون بل ويحاربون من ينهاهم عن ذلك.

(٦٤) وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ أي التي أعمت الناس عن الآخرة وصرفتهم عن التزوّد لها ما هي ﴿إِلَّا لَهۡوٞ[2] وَلَعِبٞۚ﴾ إذ يتشاغل بها الكافر ويعمل لها الليل والنهار ثم يموت ويخرج منها صفر اليدين كالأطفال يلعبون طوال النهار ثم يعودون بلا شيء سوى ما نالهم من التعب، فالواجب أن تحول إلى عمل صالح مثمر يتزود به العبد إلى آخرته إذ الآخرة هي الحيوان أي الحياة الكاملة الخالدة فلها يعمل العاملون، وفي عملها يتنافس المتنافسون. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي الدار الآخرة ﴿لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾[3] أي الحياة التي يجب أن نعمل لها لبقائها وخيريّتها، وقوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي نعم إذ لو علموا أن الآخرة خير لما أقبلوا على الدنيا وأعرضوا عن الآخرة، ولكن جهلهم هو سبب إعراضهم، فدواؤهم العلم.

هداية الآيات:

١ - التعجب من تناقض المشركين الذين يؤمنون بربوبيَّة الله ويجحدون ألوهيته.

٢ - بيان حقيقة وهي أن الغنى والفقر لا يدلان على رضا الرب ولا على سخطه، وإنما يدلان على علم الله وحكمته وحسن تدبيره.

٣ - بيان حقارة الدنيا وتفاهتها وعظمة الآخرة وعلو قيمتها. فلذا أحمق الناس وأشدهم سفاهة من يعمى عن الآخرة ويكفر بها ويبصر الدنيا ويؤمن بها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٥ - ٦٩]

(٦٥) ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾: أي في السفينة.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: أي دعوا الله وحده فلم يذكروا معه غيره من الآلهة. ﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾: أي يفاجئونك بالشرك وهو دعاء غير الله تعالى.

(٦٦) ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾: أي بنعمة الإنجاء من الغرق وغيرها من النعم.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾: أي سوف يعلمون عاقبة كفرهم إذا ألقوا في جهنم.

(٦٧) ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾: أي يُسبون ويُقتلون في ديار جزيرتهم. ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾: أي يؤمنون بالأصنام وهي الباطل، ينكر تعالى عليهم ذلك.

(٦٩) ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾: أي بذلوا جهدهم في تصحيح عقائدهم وتزكية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم ثم بقتال أعداء الله من أهل الكفر المحاربين للإسلام والمسلمين.

﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾: أي لنوفقنَّهم إلى معرفة ما يوصل إلى محبتنا ورضانا ونعينهم على تحصيله.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في التنديد بالمشركين وشركهم فقد تقدم في السياق أنهم يعترفون بربوبية الله تعالى إذ لو سئلوا عمن خلق السموات والأرض وسخّر الشمس والقمر لقالوا الله، ولو سُئلوا عمن نزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها لقالوا الله. ومع هذا هم يشركون بالله آلهة أوثانًا، وكما يعترفون بربوبيَّة الله ثم يشركون به الأصنام، فإنهم إذا ﴿رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، أي في سفينة من السفن، وجاءهم موج واضطربت بهم وخافوا الغرق دعوا الله تعالى ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الدعاء فسألوه وحده دون آلهتهم أن ينجيهم من الغرق. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ ونزلوا سالمين من الغرق إذا هم يشركون، يفاجئونك بالشرك، فهذا التناقض منهم

---

(١) ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ أي: على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته على كل شيء أراده.

(٢) اللهو: ما يلهو به الناس أي: يشتغلون به عن الأمور المكدّرة أو يعمرون به أوقاتهم الخلية عن الأعمال.

(٣) الحيوان: يقع على كل شيء حي، وحيوان: عين في الجنة، وقيل: أصل الحيوان حييان فأبدلت إحداهما واواً لاجتماع المثلين.

كالتناقض في اعترافهم بربوبيّة الله تعالى ثم بالإشراك به. ومردُّ هذا إلى الجهل والتقليد والعناد والمجاحدة والمكابرة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى من هذا السياق وهي قوله: ﴿٦٥﴾ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1].

﴿٦٦﴾ وقوله تعالى في الآية (٦٦): ﴿لِيَكْفُرُوا[2] بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي عودتهم إلى الشرك بعد نجاتهم من الغرق ونزولهم في البر كان كأنه من أجل أن يكفروا بنعمة الله تعالى بإنجائهم من الغرق، إذ لو لم يكفروها لاستمروا على الإخلاص لله بدعائه وعبادته وحده دون الآلهة التي تركوها عند حلول الشدة ومعاينة البلاء. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قرىء بسكون اللام ورجح ابن جرير هذه القراءة فيكون المعنى: وليتمتعوا في دنياهم بما آتاهم الله من متاع الحياة الدنيا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك بعد موتهم وهي عذاب الآخرة، والأمر حينئذ في قوله وليتمتعوا للتهديد والوعيد.

أما على قراءة جر اللام وليتمتعوا فالجملة معطوفة على قوله ليكفروا أي أخلصوا في الشدة وأشركوا في الرخاء ليكفروا وليتمتعوا بما أوتوا في الحياة، ولم يكن ذلك بنافعهم ولا بمغن عنهم من الله شيئًا فسوف يعلمون ما يحل بهم من عذاب وما ينزل بهم من بلاء وشقاء.

﴿٦٧﴾ وقوله تعالى في الآية الثالثة (٦٧): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا[3] آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ[4] النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي ألم ير أولئك المشركون الكافرون بنعمة الله في الإنجاء من الغرق نعمة أخرى وهي أن جعل الله تعالى لهم حرمًا آمنًا يسكنونه آمنين من غارات الأعداء وحروب الظالمين المعتدين، لا يعتدى عليهم في حرمهم ولا يظلمون في حين أنّ الناس من حولهم في أطراف جزيرتهم وأوساطها يتخطفون فتُشنُّ عليهم الغارات ويقتَّلون ويؤسرون في كل وقت وحين، أليست هذه نعمة من أعظم النعم تستوجب شكرهم لله تعالى بعبادته وترك عبادة ما سواه. ولذا قال تعالى عاتبًا عليهم منددًا بسلوكهم: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾[5] أي بالشرك وعبادة الأصنام يصدقون ويعترفون ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي يجحدون إنعام ربهم عليهم فلا يشكرونه بعبادته وتوحيده فيها.

﴿٦٨﴾ وقوله تعالى في الآية الرابعة (٦٨): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ وصفهم بالظلم الفظيع في حالتين: الأولى في كذبهم على الله بتحريم ما أحل وتحليل ما حرّم واتخاذ شركاء لله زاعمين أنها تشفع لهم عند الله عز وجل، والثانية: في تكذيبهم للحق الذي جاءهم به رسول الله ﷺ وهو الدين الإسلامي بعقائده وشرائعه حيث كذبوا بالقرآن والرسول ﷺ. وبعد هذا التسجيل لأكبر ظلم عليهم قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى[6] لِلْكَافِرِينَ﴾؟ والاستفهام للتقرير أي إن في جهنم مثوى أي مسكنًا للكافرين من أمثالهم وهم كافرون ظالمون وذلك جزاؤهم وليئس الجزاء جهنم.

﴿٦٩﴾ وقوله تعالى في الآية الخامسة (٦٩): ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾[7]

---

(١) قال القرطبي: يدعون معه غيره وما لم ينزل به سلطاناً. وقيل: إشراكهم أن يقول قائلهم: لولا الله والرئيس والملاح لغرقنا، وهو كما قال، وإنما هو عند المسلمين من الشرك الأصغر لا الأكبر كقول الرجل: لولا الطبيب لمات فلان، ولولا الكلب لسرقنا.

(٢) ﴿لِيَكْفُرُوا﴾: هذه اللام هي لام كي، والظاهر أنها للعاقبة وما يؤول إليه الأمر، وقيل هي لام الأمر، وإن كانت كذلك فهو للتهديد والوعيد، ويقوّي هذا الوجه قراءة من قرأها من القراء السبعة بسكون اللام: **﴿وليتمتعوا﴾**.

(٣) هو مكة والحرم حولها.

(٤) الخطف: الأخذ بسرعة. قال الضحّاك: يتخطف الناس من حولهم أي: يقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً فذكرهم الله تعالى بهذه النعمة لعلهم يذعنون له بالطاعة.

(٥) الاستفهام للإنكار والتعجب أيضاً.

(٦) المثوى: المستقر الدائم، والمثوى كالمأوى وزناً ومعنى والاستفهام هنا للتقرير.

(٧) جاهدوا الكفار والفساق والنفس، أمّا جهاد الكفار فلم يؤذن فيه في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآية إلاّ أنه لا مانع أن ينزل

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ[1] الْمُحْسِنِينَ﴾ في هذه الآية بشرى سارة ووعد صدق كريم، وذلك أن من جاهد في سبيل الله أي طلبًا لمرضاة الله بالعمل على إعلاء كلمته بأن يعبد ولا يعبد معه سواه فقاتل المشركين يوم يؤذن له في قتالهم يهديه الله تعالى أي يوفقه إلى سبيل النجاة من المرهوب والفوز بالمحبوب، وكل من جاهد في ذات الله نفسه وهواه والشيطان وأولياءه فإن هذه البشرى تناله وهذا الوعد ينجز له وذلك أن الله مع المحسنين بعونه ونصره وتأييده على من جاهدهم في سبيل الله، والمراد من المحسنين الذين يحسنون نياتهم وأعمالهم وأقوالهم فتكون صالحة مثمرة لزكاة نفوسهم وطهارة أرواحهم. اللهم اجعلنا منهم وآتنا ما وعدتهم إنك جواد كريم.

هداية الآيات:

١ - بيان أن مشركي العرب لم يكونوا ملاحدة لا يؤمنون بالله تعالى وتقرير أنهم كانوا موحدين توحيد الربوبية مشركين في توحيد الألوهية أي العبادة.

٢ - إيقاظ ضمائر المشركين بتنبيههم بنعم الله تعالى عليهم لعلهم يشكرون.

٣ - لا ظلم أعظم من ظلم من افترى على الله الكذب، وكذَّب بالحق لما جاءه وانتهى إليه وعرفه فانصرف عنه مؤثرًا دنياه متبعًا لهواه.

٤ - بشرى الله لمن جاهد المشركين وجاهد نفسه والهوى والشياطين بالهداية إلى سبيل الفوز والنجاة في الحياة الدنيا والآخرة.

٥ - فضل الإحسان وهو إخلاص العبادة لله تعالى وأداؤها متقنة مُجوَّدة كما شرعها الله تعالى، وبيان هذا الفضل للإحسان بكون الله تعالى مع المحسنين بنصرهم وتأييدهم والإنعام عليهم وإكرامهم في جواره الكريم.

❁ ❁ ❁

سورة الروم
مكية
وآياتها ستون آية

الجزءُ الحادي والعشرون — سُورَةُ الرُّوم

وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

٤٠٥

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٧].

﴿١﴾ ﴿الٓمٓ﴾: هذه أحد الحروف المقطعة تكتب الم، وتقرأ ألف، لام، ميم.

﴿٢﴾ ﴿غُلِبَتِ﴾: أي غلبت فارس الروم. ﴿الرُّومُ﴾: اسم رجل هو روم بن عيصو بن إسحق بن إبراهيم سميت به قبيلة لأنه جدها.

﴿٣﴾ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾: أي أقرب أرض الروم إلى فارس وهي أرضٌ يقال لها الجزيرة «بين دجلة والفرات». ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾: أي وهم أي الروم من بعد غلب فارس لهم سيغلبونها.

﴿٤﴾ ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾: أي في فترة ما بين الثلاث سنوات إلى تسع سنين. ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾: أي الأمر في ذلك أي في غلب فارس أولاً ثم في غلب الروم أخيرًا لله وحده إذ ما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾: أي ويوم تَغلِب الروم فارسًا يفرح المؤمنون بنصر أهل الكتاب على المشركين عبدة النار، وبنصرهم هم على المشركين في بدر.

= الحكم قبل أن يشرع العمل. ولكنه منتظر، وأما جهاد النفس فهو لازم لا يفارق وكذا جهاد الشيطان عليه لعائن الله.

(١) المعية هنا: معيّة إعانة وتسديد ونصرة على الأعداء المحاربين من الكفار والشياطين والنفس.

﴿٦﴾ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾: أي وعدهم الله تعالى وعدًا وأنجزه لهم. ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾: أي ليس من شأن الله خلف الوعد وذلك لكمال قدرته وعلمه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: كمال الله في قدرته وعلمه المستلزم لإنجاز وعده.

﴿٧﴾ ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: أي لا يعلمون حقائق الإيمان وأسرار الشرع وإنما يعلمون ما ظهر من الحياة الدنيا كطلب المعاش من تجارة وزراعة وصناعة. ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾: أي عن الحياة الآخرة، وما فيها من نعيم وجحيم وما يؤدي إلى ذلك من عقائد وأفعال وتُروك.

معنى الآيات:

﴿١﴾ قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١﴾ أحسن أوجه التفسير لمثل هذه الحروف القول بأن الله أعلم بمراده به، مع الإشارة إلى أنه أفاد فائدتين الأولى: أن هذا القرآن المؤلف من مثل هذه الحروف المقطعة قد أعجز العرب على تأليف مثله فدلّ ذلك على أنه وحي الله وتنزيله، وأن من نزل عليه نبي الله ورسوله ﷺ وأن ما يحمل من تشريع هو حاجة البشرية ولا تصلح ولا تكمل ولا تسعد إلا به وعليه، والثانية: أنها لما كان المشركون يمنعون من سماع القرآن مخافة تأثيره على المستمع له جاء تعالى بمثل هذه الفواتح للعديد من سور كتابه فكانت تضطرهم إلى الاستماع إليه لأن هذه الحروف لم تكن معهودة في مخاطباتهم.

﴿٢﴾ وقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢﴾[1] أي غَلَبت فارس الروم في

﴿٣﴾ ﴿أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾[2] أي أرض الشام الأقرب إلى بلاد فارس وذلك في أرض الجزيرة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، وقوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ أي وهم من بعد غلب فارس الروم ستغلب الروم فارسًا.

﴿٤﴾ وقوله: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ أي في فترة زمانية ما بين الثلاث سنوات إلى تسع سنوات، وقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾[3] أي الأمر في ذلك لله تعالى من قبل الغلب ومن بعده إذ هو المتصرف في خلقه.

﴿٤﴾ - ﴿٥﴾ وقوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[4] أي ويوم يَغلِب الروم فارسًا يفرح المؤمنون بانتصار الروم على فارس لأن الروم أهل كتاب وفارسًا مشركون يعبدون النار، كما يفرح المؤمنون أيضًا بانتصارهم على المشركين في بدر إذ كان الوقت الذي انتصرت فيه الروم هو وقت انتصر فيه المؤمنون على المشركين في بدر. وهذا من الغيب الذي أخبر به القرآن قبل وقوعه فكان كما أخبر فأكد بذلك أن الإسلام وكتابه ورسوله ﷺ حق. وقوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ينصر تعالى من يشاء نصره من عباده وقد شاء نصر المؤمنين والروم فنصرهم في وقت واحد منجزًا بذلك وعده الذي واعد به منذ بضع سنين[5]، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي الغالب على أمره القادر

---

(١) هذا الخبر المقصود منه لازم الفائدة، إذ الله يعلم ذلك، وإنما المراد نحن نعلم ذلك فلا يهنئكم أيها المشركون ذلك ولا تتطاولوا به على رسولنا وأوليائنا فإنا نعلم أنهم سيغلبون من غلبهم في بضع سنين لا يُعد الغلب في مثله غلباً.

(٢) اختلف في أدنى الأرض هل هذا الإدناء إلى أرض الروم أو إلى أرض الفرس كما في التفسير أو أدنى الأرض إلى أرض الروم أو إلى أرض العرب، وهذا الخلاف سببه الخلاف في تحديد موقع المعركة فإن كانت بالجزيرة فأدنى الأرض هو بالنسبة إلى أرض فارس وإن كانت الوقعة بالأردن فهي أقرب إلى أرض الروم وإن كانت الوقعة بأذرعات جنوب الشام فهي أقرب إلى ديار العرب: الحجاز وما حوله والراجح الأول كما في التفسير.

(٣) قبل، وبعد: مبنيان على الضم لحذف المضاف إليه، ونيّة معناه أي: من قبل الغلب وبعده.

(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل الأوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وذكر أنّ أبا بكر راهن قريشاً في كلام طويل، وقال الترمذي فيه: حديث حسن صحيح غريب نقله القرطبي.

(٥) وقيل: كان النصر يوم صلح الحديبية لأن صلح الحديبية كان في واقع الأمر نصراً للمؤمنين، وما في التفسير أصح لحديث الترمذي وقد حسّنه وصححه وقال فيه: غريب.

على إنجاز وعده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه وصالحي عباده.

﴿٧﴾ وقوله ولكن ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[1] كتدبير الله وقدرته وعزته وفوائد شرعه وأسرار دينه، ولكن يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا كتدبير معايشهم من زراعة وصناعة وتجارة، وفي نفس الوقت هم عن الحياة الآخرة غافلون عما يجب عليهم فعله وتركه ليسعدوا فيها بالنجاة من النار وسكنان الجنان في جوار الرحمٰن سبحانه وتعالى.

هداية الآيات:

١ - تقرير صحة الإسلام وأنه الدين الحق بِصِدْقِ ما يخبر به كتابه من الغيوب.

٢ - بيان أن أهل الكتاب من يهود ونصارى أقرب إلى المسلمين من المشركين والملاحدة من بلاشفة شيوعيين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

٣ - بيان أن أكثر الناس لا يعلمون ما يسعدهم في الآخرة ويكملهم من العقائد الصحيحة والشرائع الحكيمة الرحيمة التي لا يكمل الإنسان ولا يسعد إلا عليها، ويعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا كتدبير المعاش من زراعة وصناعة وتجارة، أما عن سر الحياة الدنيا ولماذا كانت فهم لا يعلمون شيئًا كما هم عن الحياة الآخرة غافلون بالمرة فلا يبحثون عما يسعد فيها ولا عما يشقي. والعياذ بالله تعالى من الغفلة عن دار البقاء في السعادة أو الشقاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ - ١٠]

﴿٨﴾ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾: أي كيف خُلقوا ولم يكونوا شيئًا، ثم كيف أصبحوا رجالاً. ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾: أي لم يخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق الذي هو العدل. ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ﴾: وهو نهاية هذه الحياة لتكون الحياة الثانية حياة الجزاء العادل. ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾: أي بالبعث والوقوف بين يدي الله ليسألهم ويحاسبهم ويجزيهم.

﴿٩﴾ ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾: قلبوها للحرث والغرس والإنشاء والتعمير. ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾: أي عمروا الأرض عمارة أكثر مما عمرها هؤلاء المشركون. ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾: أي بالدلائل والحجج والبراهين من المعجزات وغيرها. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾: أي بتكذيبهم وشركهم ومعاصيهم فعرضوا أنفسهم للهلاك.

﴿١٠﴾ ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: أي بالتكذيب والشرك والمعاصي، والسوأى هي الحالة الأسوأ. ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي بتكذيبهم بآيات الله القرآنية واستهزائهم بها.

معنى الآيات:

﴿٨﴾ ما زال السياق الكريم في دعوة المنكرين للبعث الآخر إلى الإيمان به من طريق ذكر الأدلة العقلية التي تحملها الآيات القرآنية، فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾[2] أي أينكرون البعث ولم يتفكروا في أنفسهم كيف كانوا عدمًا ثم وجدوا أطفالاً ثم شبابًا ثم رجالاً كهولاً وشيوخًا ثم يموتون أليس القادر على خلقهم وتربيتهم ثم إماتتهم قادر على بعثهم وحسابهم ومجازاتهم على كسبهم في هذه الحياة الدنيا، وقوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ[3] وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ﴾ أي لم يخلقهما عبثًا بل خلقهما ليُذكر ويُشكر، ثم إذا تم الأجل المحدد لهما أفناهما ثم بعث عباده ليحاسبهم هل ذكروا وشكروا أو تركوا ونسوا وكفروا ثم يجزيهم بحسب إيمانهم وطاعتهم أو كفرهم وعصيانهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ

---

(١) قال الحسن: بلغ - والله - من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلي وفي هذا قال بعضهم شعراً:

ومن البلية أن ترى لك صاحباً ... في صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة في ماله ... وإذا يصاب بدينه لم يشعر

(٢) ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾: ظرف للتفكر، وليس مفعولاً لفعل يتفكّروا لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلق أنفسهم بل في خلق السماوات والأرض وما بينهما.

(٣) جائز أن يكون ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ معناه: إلا للحق أو لإقامة الحق أو بالحكمة وما في التفسير أولى وكل ما ذكر يشمله ويدل عليه. والأجل المسمّى: المراد به أن كل المخلوقات حدد لها أجل فنائها، وهذا التقرير للفناء مستلزم للحياة الآخرة.

ﵟٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَﵞ يخبر تعالى أنه مع ظهور الأدلة وقوة الحجج على صحة عقيدة البعث والجزاء فإن كثيرًا من الناس كافرون بالبعث والجزاء.

(٩) وقوله تعالى في الآية (٩): ﵟأَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚﵞ أي أيكذّب أولئك المشركون بالبعث والجزاء ولم يسيروا في الأرض شمالاً وجنوبًا[١] فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم هلاكًا ودمارًا، ﵟكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَﵞ بالإنشاء والتعمير والزراعة والفلاحة ﵟوَعَمَرُوهَآﵞ عمارة أكثر مما عَمَرَها هؤلاء ﵟوَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖﵞ[٢]، ولما أهلكهم لم يكن ظالمًا لهم بل كانوا هم الظالمين لأنفسهم. أليس في هذا دليلاً على حكمة الله وعلمه وقدرته فكيف ينكر عليه بعثه لعباده يوم القيامة لحسابهم ومجازاتهم؟

(١٠) وقوله تعالى: ﵟثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْﵞ أي الأعمال فلم يصلحوها حيث كذّبوا برسل الله وشرائعه. وقوله: ﵟٱلسُّوٓأَىٰٓﵞ[٣] أي عاقبة الذين أساؤوا السُّوأى أي العاقبة السوأى وهو خسرانهم وهلاكهم، وقوله: ﵟأَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِﵞ أي من أجل أنهم كذبوا بآيات الله ﵟوَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَﵞ وأصروا على ذلك ولم يتوبوا.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة العقلية المثبتة لها.

٢ - كفر أكثر الناس[٤] بالبعث مع كثرة الأدلة وقوتها.

٣ - مشروعية السير في الأرض للاعتبار مع اشتراط عدم حصول إثم في ذلك بترك واجب أو بفعل محرم.

٤ - بيان جزاء الله العادل في أنَّ عاقبة الإساءة السوأى[٥].

٥ - كفر الاستهزاء بالشرع وأحكامه والقرآن وآياته.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ ـ ١٦]

(١١) ﵟثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَﵞ: أي بعد إعادة الخلق وبعث الناس.

(١٢) ﵟيُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَﵞ: أي ييأسوا من النَّجاة وتنقطع حجتهم فلا يتكلمون.

(١٣) ﵟوَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَﵞ: أي يتبرّؤون منهم ولا يعترفون بهم.

(١٤) ﵟيَتَفَرَّقُونَﵞ: أي ينقسمون إلى سعداء أصحاب الجنة وأشقياء أصحاب النار.

(١٥) ﵟفِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَﵞ: أي في روضة من رياض الجنة يُسرّون ويفرحون.

(١٦) ﵟفِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَﵞ: أي مُدخلون فيه لا يخرجون منه.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة وعرض صور حية صادقة لما يتم بعد البعث من جزاء.

(١١) فقوله تعالى: ﵟٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝ﵞ إعلان واضح صريح قاطع للشك مزيلٌ للَّبس بأن الله ربُّ السموات والأرض وما بينهما هو الذي بدأ الخلق فخلق ما شاء ثم يميته ثم يعيده، وإليه لا إلى غيره ترجع الخليقة كلها راضية أو ساخطة محبّة أو كارهة، هكذا قرر تعالى عقيدة البعث والجزاء مُدلّلًا عليها بأقوى دليل وهو وجوده تعالى وقدرته التي لا تُحد وعلمه الذي أحاط بكل شيء وحكمته التي لا يخلو منها عمل،

---

(١) فينظروا بأبصارهم وبصائرهم فلمّا كذبوا أهلكهم الله وما كان ظالماً لهم بل هم الظالمون لأنفسهم بالشرك والمعاصي.

(٢) أي: بالمعجزات والأحكام الشرعية.

(٣) السوأى: تأنيث الأسوأ، كالحسنى تأنيث الأحسن، والأسوأ: الأقبح من الأفعال والأقوال والمعتقدات، وجائز أن يكون المراد بالسوأى هنا جهنم كما أن المراد بالحسنى الجنة في قوله تعالى: ﵟلِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰﵞ أي: الجنة.

(٤) العلة أنهم لا يفكرون أي: لا يعملون خواطرهم في النظر والتأمل هذا هو سرّ عدم إيمانهم إذ لو نسب المفكرون إلى غيرهم لما كانت النسبة واحداً إلى مليون:

ولم أر كالرجال تفاوتاً ... لدى الفكر حتى عُد ألف بواحد

(٥) أي: عاقبة الشرك والمعاصي وهما السوء والإساءة عاقبتهما السوأى أي: أشدّ العقوبات وأنكاها في الدنيا وفي الآخرة.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

٤٠٦

فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٢﴾ وقوله عز وجل في الآية الثانية عشر (١٢): ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾[1] هذا عرض لما بعد البعث فذكر أنه لمَّا تقوم الساعة ويُبعث الناس يُبلس المجرمون أي ييأسون من الرحمة وينقطعون عن الكلام لعدم وجود حجة يحتجون بها.

﴿١٣﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ أي ولم يكن لهم من يشفع لهم من شركائهم الذين عبدوهم بحجة أنهم يشفعون لهم عند الله، فأيسوا من شفاعتهم وكفروا بهم أيضًا أي أنكروا أنهم كانوا يعبدونهم خوفًا من زيادة العذاب. هذه حال المجرمين الذين أجرموا على أنفسهم بالشرك والمعاصي، الحامل عليها تكذيبهم بآيات الله ولقائه.

﴿١٤﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ هذا عرض آخر يخبر تعالى أنه إذا قامت الساعة تفرق الناس على أنفسهم فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، وبين ذلك مقرونًا بعلله فقال:

﴿١٥﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ[2] وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي صدَّقوا بالله ربًا وإلهًا وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام دينًا لا دين يقبل غيره وبالبعث والجزاء حقًا. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي عبدوا الله تعالى بما شرع لهم من العبادات إذ الصالحات هي المشروع من الطاعات القولية والفعلية فهؤلاء المؤمنون العاملون للصالحات ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ[3]﴾ من رياض الجنة ﴿يُحْبَرُونَ﴾[4] أي يُسرُّون ويفرحون بما لاقوه من الرضوان والنعيم المقيم، وذلك بفضل الله تعالى عليهم وبما هداهم إليه من الإيمان، وما وفقهم إليه من عمل الصالحات.

﴿١٦﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ فقد أخبر عن جزائهم مقرونًا بعلة ذلك الجزاء وهو الكفر بتوحيد الله تعالى، والتكذيب بالآيات القرآنية وما تحمله من حجج وشرائع وأحكام، وبلقاء الآخرة وهو لقاء الله تعالى بعد البعث للحساب والجزاء، فجزاؤهم أن يحضروا في

---

(١) يقال: أبلس يبلس إبلاساً: إذا سكت متحيراً وانقطعت حجّته وأيس أن تكون له حجّة، قال الشاعر:

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً ... قال نعم أعرفه وأبلسا

والمكرس: الذي بعرت فيه الإبل وبولت فركب بعضه بعضاً.

(٢) قيل في: ﴿فَأَمَّا﴾ أن معناها: دع ما كنا فيه وخذ في غيره، وقيل معناها: مهما كنا في شيء فخذ في غير ما كنا فيه، والمعنى متقارب، والحقيقة أنها أداة شرط وتفصيل، تفصيل لما أجمل في الكلام السابق عليها وشرط ولذا قرن جوابها بالفاء.

(٣) الروضة: كل أرض ذات أشجار وماء وأزهار قال الأعشى:

وما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسبل هطل

يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مؤزر بعميم النبت مكتهل

(٤) ﴿يُحْبَرُونَ﴾: ينعمون ويكرمون ويسرون بالحبور والسرور وأثر النعيم يقال: فلان حسن السبر والحبر، وفي الحديث: **«يخرج رجل من النار ذهب حبره وسبره»**.

العذاب دائمًا وأبدًا لا يغيبون عنه، ولا يفتر عنهم، وهم فيه خالدون.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة وعرض مشاهد القيامة.

٢ - تقرير عقيدة أن لا شفاعة لمشرك ولا كافر يوم القيامة، وبطلان ما يعتقده المبطلون من وجود من يشفع لأهل الشرك والكفر.

٣ - تقرير مبدأ السعادة والشقاء يوم القيامة فأهل الإيمان والتقوى في روضة يحبرون، وأهل الشرك والمعاصي في العذاب محضرون.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ - ٢١]

(١٧) ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾: أي سبحوا الله أي صلوا. ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: أي تدخلون في المساء وفي هذا الوقت صلاة المغرب وصلاة العشاء. ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: وتدخلون في الصباح وفيه صلاة الصبح.

(١٨) ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي وهو المحمود دون سواه في السموات والأرض. ﴿وَعَشِيًّا﴾: أي حين تدخلون في العشي وفيه صلاة العصر. ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: أي تدخلون في الظهيرة وفيه صلاة الظهر.

(١٩) ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: أي يخرج الإنسان الحي من النطفة وهي ميتة. ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: أي يخرج النطفة من الإنسان الحي والبيضة الميتة من الدجاجة الحيّة. ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: أي يحييها بالمطر فتحيا بالنبات بعدما كانت يابسة ميتة. ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾: أي من قبوركم أحياء بعدما كنتم ميتين.

(٢٠) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾: أي ومن أدلة قدرته وعلمه وحكمته المقتضية لبعثكم بعد موتكم. ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾: أي خلقه إياكم من تراب، وذلك بخلق آدم الأب الأول. ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾: أي في الأرض بشرًا تعمرونها.

(٢١) ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾: أي لتسكن نفوسكم إلى بعضكم بعضًا بحكم التجانس في البشرية. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً﴾: أي محبة ورحمة أي شفقة إذ كل من الزوجين يحب الآخر ويرحمه.

معنى الآيات:

(١٧) قوله سبحانه وتعالى في هذا السياق: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ..﴾[1] الآية لما بين تعالى بدء الخلق ونهايته باستقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وهذا عمل يستوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بجلاله وكماله كما يستلزم حمده، ولما كانت الصلوات الخمس تشتمل على ذلك أمر بإقامتها في المساء والصباح والظهيرة والعشيّ فقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ[2] اللَّهِ﴾ أي سبحوا الله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أي تدخلون في المساء وهي صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي تدخلون في الصباح وهي صلاة الصبح.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يخبر تعالى أن له الحمد مستحقًا له دون سائر خلقه في السموات والأرض. وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾[3] معطوف على قوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي وسبحوه في العشي. وهي صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي وسبحوه حين تدخلون في الظهيرة وهي صلاة الظهر.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾[4] أي ومن مظاهر الجلال والكمال الموجبة لحمده وطاعته والمقتضية لقدرته على بعث عباده ومحاسبتهم ومجازاتهم أنه يخرج

---

(١) في هذه الآية الكريمة: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بعبادته في الأوقات المذكورة في الآية، وأعظم العبادات الصلاة لأنها مشتملة على ذكره وشكره.

(٢) هذه الفاء للتفريع إذ هذا الأمر متفرع عما قبله إذ بيّن تعالى أن الإيمان والعمل الصالح منج لصاحبه فبناء على ذلك فأقيموا الصلاة.

(٣) العشي والعشية من صلاة العصر إلى غروب الشمس حسب دلالة الآية لتدخل صلاة العصر، والإمساء: تدخل فيه صلاة المغرب والعشاء والصبح في الإصباح والظهر في الظهيرة.

(٤) كون النطفة تحمل حيوانات منوية لا يتنافى مع إطلاق الموت عليها إذ المراد من الموت الذي يوصف به الشيء كما وصفت الأرض بالموت إذا يبست ولم يكن بها نبات، وحبة البر والشعير بالموت إذ الحياة تحدث للأرض بعد نزول المطر عليها والحبة بعد تفاعلها مع التربة الثرية وكذا النطفة تحمل مادة الحياة كالأرض والحبة ولا تظهر فيها إلا بعد تفاعلها الخاص في الرحم.

الحيَّ كالإنسان من النطفة والطير من البيضة والمؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ كالنطفة من الإنسان والبيضة من الدجاجة وسائر الطيور التي تبيض. وقوله: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي ومن مظاهر وجوده وقدرته وعلمه ورحمته أيضًا أنه يُحيي الأرض أي بالمطر بعد موتها بالجدب والقحط فإذا هي رابية تهتز بأنواع النباتات والزروع، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[1] أي وكإخراجه الحيّ من الميت والميّت من الحي وكإحيائه الأرض بعد موتها: يُحييكُم ويخرجكم من قبوركم للحساب والجزاء إذ القادر على الأول قادر على الثاني. ولا فرق.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ[2] ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝﴾ أي ومن آياته الدالة على وجوده وعلمه وقدرته المستوجبة لعبادته وحده والمقررة لقدرته على البعث والجزاء خَلْقُهُ للبشرية من تراب إذ خلق أباها الأول آدم عليه السلام من تراب، وخلق حواء زوجه من ضلعه ثم خلق باقي البشرية بطريقة التناسل. فإذا هي كما قال سبحانه وتعالى: بشر ينتشرون[3] في الأرض متفرقين في أقطارها يعمرونها بإذنه تعالى.

(٢١) وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا[4] إِلَيْهَا﴾ أي ومن آياته أي حججه وأدلته الدالة على وجوده وعلمه ورحمته المستوجبة لعبادته وتوحيده فيها والدالة أيضًا على قدرته على البعث والجزاء خلقه لكم أيها الناس من أنفسكم أي من جنسم الآدمي أزواجًا أي زوجات لتسكنوا إليها بعامل التجانس، إذ كل جنس من المخلوقات يطمئن إلى جنسه ويسكن إليه، وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعل بين الزوجين مودة أي محبة ورحمة أي شفقة إلا إذا ظلم أحدهما الآخر فإن تلك المودة وتلك الرحمة قد ترتفع حتى يرتفع الظلم ويسود العدل والحق. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي دلائل وحجج واضحة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ باستعمال عقولهم في النظر والفكر فإنهم يجدون تلك الأدلة على قدرة الله وعلمه ورحمته وكلها مقتضية لتوحيد الله ومحبته وطاعته بفعل محابه وترك مساخطه، مع تقرير عقيدة البعث والجزاء التي أنكرها المجرمون المكذبون.

هداية الآيات:

١ - وجوب تنزيه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

٢ - وجوب حمد الله على آلائه وإنعامه.

٣ - وجوب إقام الصلاة.

٤ - بيان أوقات الصلوات الخمس[5].

٥ - بيان مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه ورحمته المقتضية لتوحيده والمقررة لعقيدة البعث والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٢ ـ ٢٥]

(٢٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أي حججه وبراهينه الدالة على قدرته على البعث والجزاء. ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾: أي لغاتكم من عربية وعجمية والعجمية بينها اختلاف كثير. ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾: أي من أبيض وأصفر وأحمر وأسود

---

(١) في هذه الآية دليل على مشروعية القياس وصحته، وجه القياس في الآية هو قياس المعاد على الخلق الأول والإيجاد.

(٢) ووجه آخر للخلق من تراب وهو أن النطف التي هي أصل خلق الإنسان بعد الأبوين آدم وحواء قد تكونت من الغذاء، وأن الغذاء قد تكون من نبات الأرض، وأن نبات الأرض مشتمل على الأجزاء الترابية التي أنبتته فبهذا كان تكوين الإنسان من تراب فكان آية. وأمر آخر هو أن التراب بارد يابس، وهو طبع الموت وطبع الحياة الحرارة والرطوبة، فمن ذلك البارد اليابس ينشأ المخلوق الحي الرطب فسبحان الخلاق العليم.

(٣) الانتشار: الظهور والتفرق هنا وهناك في البلاد والأقطار. تعملون سامعين مبصرين منكم الصالح ومنكم خلافه وهو الفاسد.

(٤) ضمن لتسكنوا لتميلوا لذا عُدي باللام وفي الآية دليل على عدم تزوج الآدمي بغير الآدمية كالجنية إذ لا يحصل الأنس إلا بالجنس والآية تُومِي إلى أن أول ارتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوة وذلك أن الختانين إذا التقيا هيجا ماء الصلب فإذا نزل حصل السكون ووقف الهيجان كما هو معروف.

(٥) روي عن ابن عباس أنه سُئل هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ هذه الآية ومنها أخذ الإمام الشافعي أوقات الصلوات الخمس وأخذها مالك من آية الإسراء: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ الآية.

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

والكل أبناء رجل واحد وامرأة واحدة. ﴿لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[١]: أي للعقلاء على قراءة للعالمين بفتح اللام، ولألي العلم على قراءة كسر اللام.

﴿٢٣﴾ ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾: أي طلبكم الرزق بإحضار أسبابه من زراعة وتجارة وصناعة وعمل. ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: أي سماع تدبر وفهم وإدراك لا مجرد سماع الأصوات.

﴿٢٤﴾ ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: أي إراءته إياكم البرق خوفًا من الصواعق والطوفان وطمعًا في المطر.

﴿٢٥﴾ ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾: أي قيام السماء والأرض على ما هما عليه منذ نشأتهما بقدرته وتدبيره. ﴿دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي دعوة واحدة لا تتكرر وهي نفخة إسرافيل. ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾: أي من قبوركم أحياء للحساب والجزاء.

معنى الآيات:

﴿٢٢﴾ ما زال السياق في تقرير عقيدة التوحيد والبعث والجزاء بذكر الأدلة والبراهين العقلية فقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي حججه الدالة على قدرته على البعث والجزاء وعلى وجوب توحيده ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فخلْقُ بمعنى إيجادِ السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من أكبر الأدلة وأقواها على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته وكلها موجبة لتوحيده ومثبتة لقدرته على البعث والجزاء، مقررة له، وقوله: ﴿وَٱخْتِلَـٰفُ[٢] أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي لغاتكم من عربية وعجمية ولهجاتكم بحيث لكل ناطق لهجة تخصه يتميز بها إذا سمع صوته عرف بها من بين بلايين البشر، ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ واختلاف ألوانكم أيها البشر من أبيض إلى أسود ومن أحمر إلى أصفر مع اختلاف الملامح والسمات بحيث لا يوجد اثنان من ملايين البشر لا يختلف بعضهما عن بعض حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر إن في هذا وذاك ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ أي لحججًا ظاهرة وبراهين قاطعة بعضها للعالمين[٣] وذلك البياض والسواد وبعضها للعلماء كاختلاف اللهجات وملامح الوجوه والسمات المميزة الدقيقة والكل أدلة على قدرة الله وعلمه ووجوب عبادته وتوحيده في ذلك مع تقرير عقيدة البعث والجزاء.

﴿٢٣﴾ وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي ومن آياته الدالة على قدرته على البعث والجزاء منامكم بالليل فالنوم[٤] كالموت والانتشار في النهار لطلب الرزق كالبعث بعد الموت

---

(١) بالفتح قرأ نافع وبالكسر قرأ حفص ولكل منهما متابع على ما قرأ والمعنى واحد إذ لا يكون العالم عالماً بدون عقل فكل عالم عاقل والعاقل يهديه عقله إلى أن يعلم فيعلم أيضاً.

(٢) قال القرطبي: اللسان في الفم وفيه اختلاف اللغات من العربية والعجمية والتركية والرومية واختلاف الألوان في الصورة من البياض والسواد والحمرة فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرق بينه وبين الآخر وليست هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين، فلا بد من فاعل فعلم أن الفاعل هو الله تعالى فهذا من أدل الدليل على الباريء سبحانه وتعالى.

(٣) ذكر العالمين والعلماء في التفسير إشارة إلى القراءتين إذ قرأ نافع والجمهور: ﴿للعالمين﴾ بفتح اللام وقرأ حفص بكسر اللام: ﴿لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ وهم العلماء.

(٤) المنام مصدر ميمي وهو من الأعراض لا من الذوات وأمره عجيب إذ لو قيل لإنسان: نم ولك مكافأة أعظم مكافأة لا يقدر على أن ينام إلا على سنة النوم وهو الاسترخاء والاضطجاع وإغماض العينين فترة حتى ينام، ولو شاء الله ما نام كما لو شاء ما هب من نومه.

فهذه عملية للبعث بعد الموت تتكرر كل يوم وليلة في هذه الحياة الدنيا، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي في ذلك المذكور من النوم والانتشار لطلب الرزق لدلائل وحجج على قدرة الله على البعث لقوم يسمعون[1] نداء الحق والعقل يدعوهم إلى الإيمان بالبعث والجزاء فيؤمنون فيصبحون يعملون للقاء ربهم ويستجيبون لكل من يدعوهم إلى ربهم ليعبدوه ويتقربوا إليه.

(٢٤) وقوله تعالى في الآية الثالثة (٢٤): ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا[2]﴾ أي ومن حججه تعالى الدالة على قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وهي مقتضيات توحيده والإيمان بلقائه إراءته[3] إيّاكم أيها الناس البرق خوفًا للمسافرين من الأمطار الغزيرة ومن الصواعق الشديدة أن تصيبهم، وطمعًا في المطر الذي تحيا به مزارعكم وتنبت به أرضكم فيتوفر لكم أسباب رزقكم، وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي ومن آياته تنزيله تعالى من السماء ماءً وهو ماء المطر فيحيي به الأرض بالنباتات والزروع بعد أن كانت ميتة لا حياة فيها لا زرع ولا نبت إن في ذلك المذكور من إنزال الماء وإحياء الأرض بعد إراءته عباده البرق خوفًا وطمعًا لآيات دلائل وحجج على قدرته على البعث والجزاء ولكن يرى تلك الدلائل ويعقل ويفهم تلك الحجج قوم يعقلون أي لهم عقول سليمة يستعملونها في النظر والاستدلال فيفهمون ويؤمنون.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي ومن آياته تعالى الدالة على قدرته وعلمه وحكمته والموجبة لتوحيده والمقررة لنبوة نبيه ﷺ ولقائه للحساب والجزاء قيام السماء والأرض منذ خلقهما فلا السماء تسقط، ولا الأرض تغور فهما قائمتان منذ خلقهما بأمره تعالى أليس في ذلك أكبر دليل على قدرة الله تعالى على بعث الناس بعد موتهم أحياء لحسابهم على كسبهم ومجازاتهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا[4] أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي أقام السماء والأرض للحياة الدنيا يحيي فيهما ويميت حتى تنتهي المدة المحددة للحياة فيهلك الكل ويفنيه ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ بنفخ إسرافيل في الصور ﴿إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من الأرض استجابة لتلك الدعوة، وذلك للحساب والجزاء العادل على العمل في هذه الحياة الدنيا.

هداية الآيات:

١ - بيان مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته الموجبة لعبادته وحده وترك عبادة من سواه.

٢ - مشروعية طلب الرزق بالمشي في الأرض واستعمال الوسائل المشروعة لذلك.

٣ - تقرير أن الذين ينتفعون بأسماعهم وعقولهم هم أهل حياة الإيمان إذ الإيمان روح متى دخلت جسمًا حَيِيَ وأصبح صاحبه يسمع ويبصر ويفكر ويعقل.

٤ - تقرير عقيدة البعث والجزاء التي عليها مدار الإصلاح البشري بعد عقيدة الإيمان بالله ربًا وإلهًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ - ٢٩]

(٢٦) ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي خلقًا وملكًا وتصرفًا وعبيدًا.

﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ[5]﴾: أي كل من

---

(١) اختيار لفظ السماع مع آية النوم فيه إشارة إلى أن النائم يفقد السماع حال نومه بدون إرادته ولا اختياره.

(٢) جائز أن يكون الخوف للمسافر والطمع للمقيم.

(٣) التعبير بالمصدر «إراءته» إشارة إلى أن من أهل التفسير من يقول: إنّ «أنْ» المصدرية محذوفة نحو قال الشاعر:

ألا أيها اللائمي احضر الوغى ... وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدي

إذ التقدير أن احضر فحذف أن، ويصح أن يكون المعنى: ومن آياته أنه يريكم فحذف أن واسمها وبقي الخبر وهو جملة يريكم والكل واسع وجائز.

(٤) إذاً الأولى: شرطية والثانية: فجائية سادة مسد فاء الجواب وصيغة الدعاء كما ذكرها القرطبي: يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

(٥) القنوت: الطاعة وهي الانقياد والخلائق كلها منقادة مطيعة لما أراد الله منها فلا يتخلف قضاؤه تعالى وحكمه فيها بحال من الأحوال.

في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن منقادون له تجري عليهم أحكامه كما أرادها فلا يتعطل منها حكم. ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾: أي أيسر وأسهل نظرًا إلى أن الإعادة أسهل من البداية.

(٢٧) ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾: أي الوصف الأعلى في كل كمال فصفاته كلها عليا ومنها الوحدانية. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: أي الغالب على أمره الحكيم في قضائه وتصرفه.

(٢٨) ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾: أي جعل لكم مثلاً. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي منتزعًا من أموالكم وما تعرفونه من أنفسكم. ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾: أي تخوفكم من بعضكم بعضًا أيها الأحرار. ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: أي نبينها بتنويع الأسلوب وإيراد الحجج وضرب الأمثال.

(٢٩) ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم﴾: أي ليس الأمر قصورًا في البيان حتى لم يؤمن المشركون وإنما العلة اتباع المشركين لأهوائهم وتجاهل عقولهم. ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾؟ أي لا أحد فالاستفهام للنفي.

معنى الآيات:

(٢٦) ما زال السياق الكريم في تقرير قدرة الله تعالى على البعث الذي أنكره المشركون بذكر الأدلة العقلية وتصريف الآيات فقال تعالى: ﴿وَلَهُ﴾ أي لله المحيي المميت الوارث الباعث سبحانه وتعالى ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من ملائكة وجان وإنسان فهو خلقهم وهو يملكهم ويتصرف فيهم. وقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ[١]﴾ أي مطيعون منقادون فالملائكة لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والجن والإنس منقادون لما أراده منهم من حياة وموت ونشور وأمّا عصيانهم في العبادات فهو غير مقصود لأنه التكليف الذي هو علة الحياة كلها ومع هذا فهم منفذون باختيارهم وإراداتهم الحرة ما كتبه عليهم أزلاً والله أكبر ولله الحمد.

(٢٧) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي[٢] يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي هو الله الذي يبدأ خلق ما أراد خلقه في كل يوم وساعة من غير شيء ويهبه الحياة ثم يسلبها منه في آجال سماها ثم يعيده يوم القيامة أحب الناس أم كرهوا. وقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ[٣] عَلَيْهِ﴾ أي الإعادة أيسر وأسهل عليه فليس على الله شيء صعب ولا شاق ولا عزيز ممتنع، وإنما خرج الخطاب على أسلوب المتعجبين من إعادة الخلق بعد فنائه فأعلمهم أن المتعارف عليه عندهم أن الإعادة أسهل من البداءة ليفهموا ويقتنعوا، وإلا فلا شيء صعب على الله تعالى ولا شاق ولا عسير، إذ هو يقول للشيء متى أراده كن فيكون. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ[٤] الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وله أي للّه سبحانه وتعالى الوصف الأكمل في السموات والأرض وهو الألوهية والوحدانية فهو الرب الذي لا إله إلا هو المعبود في السماء والأرض لا إله إلا هو فيهما ولا ربّ غيره لهما وهو العزيز الغالب المنتقم ممن كفر به وعصاه الحكيم في تدبيره وتصريفه لشؤون خلقه.

(٢٨) وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا[٥] مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي جعل لكم مثلاً مأخوذًا منتزعًا من أنفسكم[٦] وهو: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ

---

(١) ذكر القرطبي لتفسير كلمة ﴿قَانِتُونَ﴾ تفاسير عدة من السلف منها: مطيعون طاعة انقياد، مقرون بالعبودية إما قالة وأما دلالة مصلون قائمون يوم القيامة مخلصون.

(٢) قال القرطبي: أما بدء خلقه فبعلوقه في الرحم قبل ولادته وأما إعادته فإحياؤه بعد الموت في النفخة الثانية للبعث فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلاً على ما يخفى من إعادته استدلالاً بالشاهد على الغائب.

(٣) أهون بمعنى هين، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، والعرب تطلق أفعل على فاعل قال الشاعر:

إن الذين سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعز وأطول

(٤) أي: ثبت له واستحق الشأن الأتم الذي لا يقاس بشؤون الناس المتعارفة وإنما بقصد التقريب لأفهامكم والأعلى: الأعظم البالغ نهاية العظمة والقوة.

(٥) ضرب المثل إيقاعه ووضعه، واللام في لكم للتعليل أي: لأجلكم.

(٦) من في قوله: ﴿مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ للابتداء وفي قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ للتبعيض وفي قوله: ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾ زائدة. قال قتادة:

سَوَآءٌ﴾ أي أنه ليس لكم من ممالیککم وعبيدكم شريك منهم يشارككم في أموالكم إذ لا ترضون بذلك ولا تقرونه أبدًا، إذًا فكذلك الله تعالى لا يرضى أن يكون من عبيده من هو شريك له في عبادته التي خلق كل شيء من أجلها. وقوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تخافون عبيدكم كما تخافون بعضكم بعضًا أيها الأحرار، أي لا يكون هذا منكم ولا ترضون به إذًا فالله - وله المثل الأعلى - كذلك لا يرضى أبدًا أن يكون مخلوق من مخلوقاته ملكًا كان أو نبيًا أو وثنًا أو صنمًا شريكًا له في عباداته، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي نبيّنها بتنويع الأساليب وضرب الأمثال ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إذ هم الذين يفهمون معاني الكلام وما يراد من أخباره وقصصه وأمثاله وأوامره ونواهيه.

(٢٩) وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ليس الأمر قصورًا في الأدلة ولا عدم وضوح في الحجج وإنما الظالمون اتبعوا أهواءهم أي ما يهوونه ويشتهونه بغير علم من نفعه وجدواه لهم فضلوا لذلك. فمن يهديهم، وقد أضلهم الله حسب سنته في الإضلال. وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؟ أي لا أحد، وقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي يهدونهم بعد أن أضلّهم الله، والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والتوحيد بذكر الأدلة وضرب الأمثال وتفصيل الآيات.

٢ - تَفَرُّدُ الربّ تعالى بالمثل الأعلى في كل جلال وكمال.

٣ - استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأفهام.

٤ - عظم فائدة هذا المثل «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم الآية» حتى قال بعضهم[(١)]: فَهْمُ هذا المثل أفضل من حفظ كذا مسألة فقهيّة.

٥ - علّة ضلال الناس اتباعهم لأهوائهم بغير علم وبانصرافهم عن الهدى بالاسترسال في اتباع الهوى[(٢)].

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠ ـ ٣٢]

(٣٠) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: أي سدد وجهك يا رسولنا للدين الإسلامي بحيث لا تنظر إلا إليه.

﴿حَنِيفًا﴾: أي مائلاً عن سائر الأديان إليه، وهو بمعنى مقبلاً عليه.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾: أي صنعة الله التي صنع عليها الإنسان وهي قابليته للإيمان بالله تعالى. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: أي لا تعملوا على تغيير تلك القابلية للإيمان والتوحيد فالجملة خبرية لفظًا إنشائية معنى. ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾: أي المستقيم الذي لا يضل الآخذ به.

(٣١) ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: أي راجعين إليه تعالى بفعل محابه وترك مكارهه.

(٣٢) ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾: أي طوائف وأحزابًا كل فرقة فرحة بما هي عليه من حق وباطل.

معنى الآيات:

(٣٠) لما قرر تعالى عقيدة التوحيد والبعث والجزاء بالأدلة وضمن ذلك عقيدة النبوة وإثباتها للنبيّ ﷺ أمر رسوله ﷺ والمؤمنون تبع له فقال: ﴿فَأَقِمْ[(٣)] وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا[(٤)]﴾ أي أنصبوا وجوهكم أيها الرسول والمؤمنون للدين الحق دين الإسلام القائم على مبدأ التوحيد والعمل الصالح، فلا تلتفتوا إلى غيره من

= هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين والمعنى: هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه في ماله ونفسه مثله فإن لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء؟

(١) المراد به القرطبي إذ قال عند تفسير هذه الآية: «وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل في الفقه لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلاّ بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك».

(٢) لما أقام عليهم الحجة ذكر تعالى أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم وتقليد آبائهم وأسلافهم.

(٣) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾: هذه الفاء هي الفاء الفصيحة إذ هي مفصحة عن جواب سؤال مقدر تقديره هنا: إذا علمت أحوال المعرضين عن الحق بعد ظهور دلائله فأقم وجهك والمراد من الأمر دوام إقامة الوجه والاستمرار عليه.

(٤) ﴿حَنِيفًا﴾: منصوب على الحال أي: حال كونك معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المحرفة الباطلة إلى دين الله الحق الذي لم يبدل ولم يُغيّر وهو الإسلام.

الأديان المنحرفة الباطلة. وقوله: ﴿فِطْرَتَ[1] ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي أقيموا وجوهكم للدّين الحق الذي فطر الله الإنسان عليه تلك الفطرة التي هي خلق الإنسان قابلاً للإيمان والتوحيد. وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تبدلوا تلك الخلقة ولا تغيروها بل نموها وابرزوها بالتربية حتى ينشأ الطفل على الإيمان والتوحيد. فالجملة خبرية لفظًا إنشائية معنى نحو ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فهي بمعنى انتهوا وهي أبلغ من انتهوا فكذا: لا تبديل أبلغ من لا تبدلوا. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[2] أي لزوم ما فطر عليه المرء من الإيمان بالله وتوحيده.. وإبراز ذلك في الواقع بالإيمان بالله وبما أمر بالإيمان به من أركان الإيمان وبعبادة الله تعالى وهي طاعته بفعل ما يأمر به وينهى عنه مخلصًا له ذلك لا يشاركه فيه غيره من سائر مخلوقاته هو الدين القيم الذي يجب أن يكون عليه الإنسان وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] يخبر تعالى بأن ما قرره من الدين القيم كما بيَّنه في الآيات أكثر الناس لا يعلمونه ولا يعرفونه وهو كما أخبر سبحانه وتعالى.

(٣١) وقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾[4] أي أقيموا وجوهكم للدين القيم حال كونكم راجعين إليه تعالى تائبين إليه من كل دين غير هذا الدين، ومن كل طاعة غير طاعته تعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي. وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي خافوه تعالى إذ عذابه شديد فلا تتركوا دينه لأي دين ولا طاعته لأي مطاع غير الله تعالى ورسوله وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي حافظوا عليها في أوقاتها وأدوها كما شرعها كميّة وكيفيّة فإنها سقيا الإيمان ومُنمية الخشية والمحبة لله تعالى.

(٣١) - (٣٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟[5] دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ ينهى تعالى المؤمنين أهل الدين القيم الذي هو الإسلام أن يكونوا من المشركين في شيء من ضروب الشرك عقيدة أو قولاً أو عملاً. فكل ملة غير ملة الإسلام أهلها مشركون كافرون سواء كانوا مجوسًا أو يهودًا أو نصارى أو بوذة أو هندوكًا أو بلاشفة شيوعيين إذ جميعهم فرقوا دينهم الذي يجب أن يكونوا عليه وهو دين الفطرة وهو الإسلام وكانوا شيعًا أي فرقًا وأحزابًا كل فرقة تنتصر لما هي عليه وتتحزب له. فأصبح كل حزب منهم بما لديهم من دين فرحين به ظنًا منهم أنه الدين الحق وهو الباطل قطعًا، لأنه ليس دين الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان وهو الإسلام القائم على توحيد الله تعالى وعبادته بما شرع لعباده أن يعبدوه به ليَكْمُلُوا على ذلك ويسعدوا.

هداية الآيات:

١ - وجوب الإقبال على الله تعالى بعبادته والإخلاص له فيها.

٢ - الإسلام دين الله الذي خلق

---

(١) ﴿فِطْرَتَ﴾: جائز أن يكون منصوباً على المفعولية المطلقة أي: فطر الله تعالى الإنسان على ذلك فطرة، وجائز أن يكون منصوباً على أنه مفعول به أي: واتبع فطرة الله والتقدير: فأقم وجهك للدين حنيفاً واتبع فطرة الله.

(٢) قيّم: كهيّن وليّن مفيد قوة الاتصاف بمصدره أي: الدين البالغ قوة القيام أي: الاستقامة والبعد عن الاعوجاج. يقال: عود مستقيم وقيم من تشبيه المعقول بالمحسوس.

(٣) في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: يقول الرسول ﷺ مقرراً حقيقة أن الإسلام هو دين الفطرة يقول: «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟**» ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ..﴾ الجمعاء أي: جامعة لأعضائها لا نقص فيها والجدعاء التي يجدع أي: يقطع منها عضو كالذيل أو الأذن.

(٤) شاهد الإنابة بمعنى التوبة في قول الشاعر:

فإن تابوا فإن بني سليم ... وقومهم هوازن قد أنابوا

ومنيبي حال من أقم وجهك وجمع لأن الأمة مخاطبة معه ﷺ.

(٥) قرأ الجمهور: ﴿فَرَّقُوا۟﴾ وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقوا﴾، والشيع جمع شيعة: وهي الجماعة التي تتشايع أي: توافق رأياً وتجمع عليه والحزب: الجماعة الذين رأيهم ونزعتهم واحدة.

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

٤٠٨

الإنسان متأهلاً له ولا يقبل منه دين غيره.

٣ - وجوب الإنابة إلى الله تعالى والرجوع إليه في كل حال.

٤ - وجوب تقوى الله عز وجل وإقام الصلاة.

٥ - البراءة من الشرك والمشركين.

٦ - حرمة الافتراق في الدين الإسلامي ووجوب الاتحاد فيه عقيدة وعبادة وقضاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ - ٣٧]

(٣٣) ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾: أي إذا مس المشركين ضرٌ أي شدة من مرض أو فقر أو قحط. ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: أي راجعين بالضراعة والدعاء إليه تعالى دون غيره. ﴿رَحْمَةً﴾: بكشفِ ضُر أو إنزال غيث وإصابة رخاء وسعة رزق. ﴿يُشْرِكُونَ﴾: أي بربهم فيعبدون معه غيره بالذبح للآلهة والنذر وغيره.

(٣٤) ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: أي ليكون شكرهم لله كفرًا بنعمه والعياذ بالله.

(٣٥) ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾: أي حجة من كتاب وغيره ينطق بشركهم ويقرره لهم ويأمرهم به. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: أي بذنوبهم وخروجهم عن سنن الله تعالى في نظام الحياة.

(٣٦) ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾: أي ييأسون من الفرج بزوال الشدة.

(٣٧) ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾: أي يوسعه امتحانًا له. ﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي يضيّق الرزق على من يشاء ابتلاء.

معنى الآيات:

لما أمر تعالى رسوله والمؤمنين بإقامة الدين ونهاهم أن يكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا أخبر تعالى عن المشركين أنهم إذا مسهم الضرّ وهو المرض والشدة كالقحط والغلاء ونحوها دعوا ربهم تعالى منيبين إليه أي راجعين إليه بالدعاء والضراعة لا يدعون غيره.

(٣٣) وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ[1] دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أصابهم برحمة من عنده وهي الصحة والرخاء والخصب ونحوه ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي كثير ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فيعبدون الأصنام والأوثان بأنواع العبادات.

(٣٤) وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟[2] بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي أشركوا بالله بعد إنعامه عليهم ليكفروا بما آتاهم من نعمة كشف الضر عنهم إذًا ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾[3] أيها الكافرون بما خولكم الله من نعمة فسوف تعلمون عاقبة كفركم لنعم الله وشرككم به يوم تردون عليه حفاة عراة لا ولي لكم من دونه تعالى ولا نصير.

(٣٥) وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا[4] عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ أي ما الذي شجعهم على الشرك وجعلهم يصرون عليه

---

(١) الضرُّ بضم الضاد: سوء الحال في البدن أو العيش أو المال وهذه الجملة الخبرية تحمل السامع على التعجب من حال المشركين كيف يخلصون لله تعالى الدعاء في الشدة ويشركون به في الرخاء يا للعجب!!

(٢) هذه لام التعليل في ظاهرها ولكنها آلت لمعنى العاقبة في واقعها.

(٣) الأمر للتهديد والتوعد على كفران النعم واستبدال شكرها بالكفر بالمنعم عز وجل والشرك به.

(٤) ﴿أَمْ أَنزَلْنَا﴾: أم للإضراب الانتقالي فهي بمعنى بل، وحرف الاستفهام مقدر أي: أنزلنا عليهم إلخ.. وهو إنكاري أن الله تعالى لم ينزل عليهم حجة تبيح لهم الشرك وتقرره.

حتى إذا تركوه ساعة الشدة عادوا إليه ساعة الرخاء أأنزلنا عليهم سلطانًا أي حجة من كتاب ونحوه فهو ينطق بشركهم ويقرره لهم ويأمرهم به اللهم لا، لا، وإنما هو الجهل والتقليد والعناد.

(٣٦) وقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ هذه حال أهل الشرك والكفر والجهل من الناس إذا أذاقهم الله رحمة من خصب ورخاء وصحة فرحوا بها فرح البطر والأشر ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ من جدب وقحط ومرض وفقر، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الذنوب والمعاصي ومنها مخالفة سنن الله في الكون ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ[١]﴾ أي ييأسون من الفرج وذلك لكفرهم بالله وجهلهم بأسمائه وصفاته.

(٣٧) وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي ألم يروا بأعينهم أن الله يبسط الرزق أي يوسعه لمن يشاء امتحانًا له أيشكر أم يكفر، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيق الرزق على من يشاء ابتلاء أيصبر أم يضجر ويسخط. إذ لو كانت لهم عيون يبصرون بها وقلوب يفقهون بها لما أيسوا من رحمة الله وفرَجِهِ ولا ما قنطوا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من تدبير الله في خلقه بالإعطاء والمنع ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ أي حججًا ودلائل تدل المؤمنين على قدرة الله ولطفه ورحمته وحكمته في تدبير ملكه وملكوته فسبحانه من إله عظيم ورب غفور رحيم.

هداية الآيات:

١ - بيان جهل المشركين وضلال عقولهم بما ذكر تعالى من صفاتهم وأحوالهم.

٢ - بيان تهديد الله تعالى للمصرين على الشرك والكفر بعذاب يوم القيامة.

٣ - بيان حال أهل الشرك والكفر والجهل في فرحهم بالنعمة فرح البطر والأشر ويأسهم وقنوطهم عند نزول البلاء بهم والشدة.

٤ - مظهر حكمة الله وتدبيره في الرزق توسعة وتقديرًا وإدراك ذلك خاص بالمؤمنين لأنهم أحياء يبصرون ويفهمون بخلاف الكافرين فهم أموات لا إبصار ولا إدراك لهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ ـ ٤٠]

(٣٨) ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾: أي أعط ذا القرابة حقه من البر والصلة. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾: أي المعدم الذي لا مال له أعطه حقه في الطعام والشراب والكساء. ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي أعط ابن السبيل أي المسافر حقه في الإيواء والطعام. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: أي ذلك الإنفاق خير من عدمه للذين يريدون وجه الله تعالى إذ يثيبهم ربهم أحسن ثواب.

(٣٩) ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾: أي من هدية أو هبة وسميت ربًا لأنهم يقصدون بها زيادة أموالهم. ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾: أي ليكثر بسبب ما يرده عليكم من أهديتموه القليل ليرد عليكم الكثير. ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي لا يباركه الله ولا يضاعف أجره. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾: أي الذين يؤتون أموالهم صدقة يريدون بها وجه الله فهؤلاء الذين يضاعف لهم الأجر أضعافًا مضاعفة.

(٤٠) ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾: أي من أصنامكم التي تعبدونها. ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾: والجواب لا أحد، إذًا بطلت ألوهيتها وحرمت عبادتها. ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي تنزه الرب عن الشرك وتعالى عن المشركين.

معنى الآيات:

لما بيّن تعالى في الآية السابقة لهذه أنه يبسط الرزق لمن يشاء امتحانًا ويقدر على من يشاء ابتلاء أمر رسوله وأمته التابعة له بإيتاء ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل، إذ منع الحقوق الواجبة لا يزيد في سعة الرزق ولا في تضييقه، إذ توسعة الرزق وتضييقه مرده إلى تدبير الله تعالى الحكيم العليم هذا ما دل عليه قوله تعالى:

(٣٨) ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ[٢]﴾ أي من

---

(١) هذه الصفة وإن كان المراد بها المشركون فإنها قد يتصف بها بعض المؤمنين فتجد أحدهم يصاب بالبطر عند حلول النعم ويترك الشكر ويقنط عند حلول النقم والشدة وينسى الدعاء والتضرع إلى الله تعالى فهو كما قال الشاعر:

كحمار السوء إن أعلفته ... رمح الناس وإن جاع نهق

(٢) الخطاب وإن كان موجهاً للنبي ﷺ فأمته تابعة له في هذا كله، وابن السبيل إن استضاف مؤمناً وجب عليه ضيافته لقوله ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»** في الصحيح.

البر والصلة ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ وهو من لا يملك قوته ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر ينزل البلد لا يعرف فيها أحدًا، وحقهما: إيواءهما وإطعامهما وكسوتهما، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الإيتاء من الحقوق خير حالاً ومآلاً للذين يريدون وجه الله تعالى وما عنده من ثواب. وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بالنجاة من العذاب في الدنيا والآخرة، وبدخول الجنة يوم القيامة.

(٣٩) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي وما أعطيتم من هبات وهدايا تريدون بها أن يُردَّ عليكم بأكثر مما أعطيتم فهذا العطاء لا يربو عند الله ولا يضاعف أجره بل ولا يؤجر عليه، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ أي صدقات تريدون بها وجه الله ليرضى عنكم ويغفر لكم ويرحمكم، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي هؤلاء الذين ينفقون ابتغاء وجه الله ﴿هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي الذين يضاعف لهم الأجر والثواب.

(٤٠) وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ[1] ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يخبر تعالى المشركين من عباده موبخًا لهم على شركهم مقرعًا: الله لا غيره هو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئًا ثم رزقكم بما تنموا به أجسادكم وتحفظ به حياتكم من أنواع الأغذية ثم يميتكم عند نهاية آجالكم، ثم يحييكم يوم القيامة للحساب والجزاء على الكسب في هذه الدنيا ثم يقول لهم: ﴿هَلْ[2] مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء ﴿مِّن شَىْءٍ﴾؟ والجواب لا، وإذًا فلمَ تعبدونهم من دون الله، فأين يذهب بعقولكم أيها المشركون. ثم نزّه تعالى نفسه عن الشرك، وتعالى عن المشركين فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ[3]﴾.

هداية الآيات:

١ - وجوب إعطاء ذوي القربى حقوقهم من البر والصلة.

٢ - وجوب كفاية الفقراء وأبناء السبيل في المجتمع الإسلامي.

٣ - جواز هدية الثواب[4] الدنيوي كأن يهدي رجل شيئًا يريد أن يُردّ عليه أكثر منه ولكن لا ثواب فيه في الآخرة، وتسمى هذه الهدية: هدية الثواب وهي للرسول ﷺ محرمة لقوله تعالى له: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾.

٤ - بيان مضاعفة الصدقات التي يراد بها وجه الله تعالى.

٥ - إبطال الشرك والتنديد بالمشركين وبيان جهلهم وضلال عقولهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ ـ ٤٥]

(٤١) ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: أي ظهرت المعاصي في البر والبحر وتبعها الشر والفساد. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾: أي بسبب ما كسبته أيدي الناس من ظلم واعتداء. ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾: أي تم ذلك وحصل ليذيقهم الله العذاب ببعض ذنوبهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: كي يرجعوا عن المعاصي إلى الطاعة والاستقامة.

(٤٢) ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي قل يا رسولنا لأهل مكة المكذبين بك والمشركين بالله سيروا. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾: أي كيف كانت نهاية تكذيبهم لرسلهم وشركهم بربهم إنها هلاكهم.

---

(١) استئناف لتقرير عقيدة التوحيد وإبطال التنديد والتوبيخ والتقريع على الشرك الذي هو أعظم أنواع الظلم وصاحبه أحط الناس قدراً وأفسدهم ذوقاً وعقلاً.

(٢) الاستفهام إنكاري مشبوب بالنفي لقرينة (من) المؤكدة لنفي الجنس والإشارة في قوله: ﴿مِّن ذَٰلِكُم﴾ إلى ما ذلك من الخلق والرزق والإماتة والإحياء.

(٣) قرأ الجمهور بالياء وقرأ غيرهم بتاء الخطاب بدون التفات من الغيبة إلى الخطاب.

(٤) الهبة ثلاث أنواع: الأول: هبة يريد بها صاحبها وجه الله تعالى كأن يهب عبداً صالحاً هبة إكراماً له وإسعاداً فهذه جائزة ويثيب عليها الله تعالى والثانية: هبة يريد بها صاحبها رد أكثر منها كأن يهدي فقير لغني أو مأمور لأمير فهذه ثوابها ما يعطيه له من أهداه ولا أجر له عند الله، وله أن يطالب من أهداه الثواب ولم يثيبه والثالثة: الصدقات تعطى للفقراء فهي هبة الله والله يثيب عليها إن خلت من الربا فإذا شابها رياء فلا ثواب فيها.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٥) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)

٤٠٩

(٤٣) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾: أي استقم على طاعة ربك عابدًا له مبلغًا عنه منفذًا لأحكامه. ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: أي لا يرده الله تعالى لأنه قضى بإتيانه وهو يوم القيامة. ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: أي يتفرقون فرقتين.

(٤٤) ﴿يَمْهَدُونَ﴾: أي يوطئون ويفرشون لأنفسهم في منازل الجنة بإيمانهم وصالح أعمالهم.

معنى الآيات:

(٤١) تقدم في السياق الكريم إبطال الشرك بالدليل العقلي إلا أن المشركين مصرون على الشرك وبذلك سيحصل فساد في الأرض لا محالة فأخبر تعالى عنه بقوله في هذه الآية الكريمة (٤١) فقال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي انتشرت المعاصي في البر[1] والبحر وفي الجو اليوم فعُبد غير الله واستبيحت محارمه وأوذي الناس في أموالهم وأبدانهم وأعراضهم وذلك نتيجة الإعراض عن دين الله وإهمال شرائعه وعدم تنفيذ أحكامه. وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي بظلمهم وكفرهم وفسقهم وفجورهم. وقوله: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ أي فما يصيبهم من جدب وقحط وغلاء وحروب وفتن إنما أصابهم الله به ﴿لِيُذِيقَهُم[2] بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ من الشرك والمعاصي لا بكل ما فعلوا إذ لو أصابهم بكل ذنوبهم لأنهى حياتهم وقضى على وجودهم[3]، ولكنه الرحمٰن الرحيم بعباده اللطيف بهم.

(٤٢) وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ قل يا رسولنا لكفار قريش المكذبين لك المشركين بربهم: سيروا في الأرض شمالاً أو جنوبًا أو غربًا فانظروا بأعينكم كيف كان عاقبة الذين كذبوا رسلهم وكفروا بربهم من قبلكم إنها كانت دمارًا وهلاكًا فهل ترضون أن تكونوا مثلهم. وقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي كان أكثر أولئك الأقوام الهالكين مشركين فالشرك والتكذيب الذي أنتم عليه هو سبب هلاكهم وخسرانهم.

(٤٣) وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي استقم يا رسولنا أنت والمؤمنون معك على الدين الإسلامي إذ لا دين يقبل سواه فاعتقدوا عقائده وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه وتأدبوا بآدابه وتخلقوا بأخلاقه وأقيموا حدوده وأحلوا حلاله وحرموا حرامه وادعوا إليه وعلّموه الناس أجمعين، واصبروا على ذلك فإن العاقبة للمتقين، وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي افعلوا ذاك الذي أمرتكم به قبل مجيء يوم القيامة حيث لم يكن عمل وإنما جزاء، وقوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي إنه لا يرده الله إذا جاء ميعاده لأنه قضى بإتيانه لا محالة من أجل الجزاء على العمل في الدنيا. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يوم يأتي اليوم الذي لا مرد له

---

(١) ذكر للفساد في البر والبحر تأويلات وما في التفسير أصحها وأولاها بفهم الآية الكريمة وأنفعها لأهل القرآن المتدبرين به العاملين بما فيه.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ بالياء وقرأ البعض بالنون.

(٣) شاهده قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا (٤٥)﴾ (فاطر).

يصدعون أي يتفرقون فرقتين[١] كما يتصدع الجدار فرقتين فريق في الجنة وفريق في النار.

(٤٤) وقوله: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي من كفر اليوم فعائد كفره عليه يوم القيامة، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي اليوم ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يوطئون فرشهم في الجنة إذ[٢] عائدة عملهم الصالح تعود عليهم لا على غيرهم.

(٤٥) وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ[٣] ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي يصدعون فرقتين من أجل أن يجزي الله تعالى أولياءه المؤمنين العاملين للصالحات من فضله، إذ أعمالهم حسبها أنها زكّت نفوسهم فتأهلوا لدخول الجنة، أما النعيم المقيم فيها فهو من فضل الله فقط، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ[٤] لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه الجملة علة لجملة محذوفة إذ التقدير ويجزي الكافرين بعدله، وهو سوء العذاب لأنه لا يحب الكافرين.

هداية الآيات:

١ - ظهور الفساد بالجدب والغلاء أو بالحرب والأمراض يسبقه حسب سنة الله تعالى ظهور فساد في العقائد بالشرك، وفي الأعمال بالفسق والمعاصي.

٢ - وجوب الاستقامة على الدين الإسلامي عقيدة وعبادة وقضاء وحكمًا.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحداثه ووقائعه.

٤ - بيان أن الله تعالى يحب المتقين ويكره الكافرين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٦، ٤٧]

(٤٦) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾: أي ومن حججه الدالة على قدرته على البعث والجزاء والموجبة لعبادته وحده. ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾: أي تبشر العباد بالمطر وقربه. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: أي بالغيث والخصب والرخاء وسعة الرزق. ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي لتطلبوا الرزق من فضله الواسع بواسطة التجارة في البحر. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي كي تشكروا هذه النعم فتؤمنوا وتوحّدوا ربكم.

(٤٧) ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾: أي كنوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام. ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي بالحجج والمعجزات. ﴿ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾: أي أفسدوا نفوسهم فخبثوها بآثار الشرك والمعاصي. ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي ونصر المؤمنين أحققناه حقًا وأوجبناه علينا فهو كائن لا محالة.

معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في تقرير ألوهية الله تعالى وعدله ورحمته.

(٤٦) فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي ومن آياتنا الدالة على ألوهيتنا وعدلنا في خلقنا ورحمتنا بعبادنا إرسالنا الرياح مبشرات[٥] عبادنا بقرب المطر الذي به حياة البلاد والعباد، فإرسال الرياح أمر لا يقدر عليه إلا الله، وتدبير يقصر دونه كل تدبير ورحمة تعلو كل رحمة. وقوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي بإنزال المطر المترتب عليه الخصب والرخاء، وقوله: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ أي السفن في البحر إذ الرياح كانت قبل اكتشاف البخار هي المسيرة للسفن في البحر صغيرها وكبيرها. وقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾[٦] أي بإذنه وإرادته وتدبيره الحكيم، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي لتطلبوا الرزق بالتجارة في البحر من إقليم إلى آخر تحملون

(١) شاهده قول الشاعر:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

جذيمة الأبرشي كان ملكاً ونديماه هما: مالك وعقيل نادماه أربعين سنة وندماني في البيت: تثنية ندمان.

(٢) شاهده قوله تعالى من سورة الشورى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

(٣) اللام: لام التعليل وهو واضح في التفسير.

(٤) علة الحذف طلب الإيجاز مع ظهور المعنى بدلالة السياق عليه.

(٥) قيل في الرياح مبشرات: لأنها تتقدم المطر فهي كالمبشرة بمجيئه.

(٦) قال بأمره: لأن الرياح قد تهب ولا تكون مواتية فيتعين إرساء السفن والاحتيال على حبسها إذ ربما عصفت بها الرياح فأغرقتها فمن هنا قال بأمره وإلا فالرياح وحدها لن تغرق السفن وتعوقها عند السير.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)

البضائع لبيعها وشرائها، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي فعل الله تعالى بكم ذلك فسخره لكم وأقدركم عليه رجاء أن تشكروا ربكم بالإيمان به وبطاعته وتوحيده في عبادته. فهل أنتم يا عباد الله شاكرون؟

(٤٧) وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا رسولنا ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كنوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام فجاؤوا أقوامهم بالبيّنات والحجج النيرات كما جئت أنت قومك فكذبت تلك الأقوام رسلهم ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ فأهلكناهم، ونجينا الذين آمنوا ﴿وَكَانَ حَقًّا[(١)] عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ألا فلتعتبر قريش بهذا وإلا فستحلُّ بها نقمة الله فيهلك الله المجرمين وينجي رسوله ﷺ والمؤمنين كما هي سنته في الأولين والحمد لله رب العالمين.

هداية الآيتين:

١ - تقرير الربوبية لله المستلزمة لألوهيته بذكر مظاهر القدرة والعلم والرحمة والعدل.

٢ - بيان أن الله تعالى ينعم على عباده من أجل أن يشكروه بعبادته وتوحيده فيها فإذا كفروا تلك النعم ولم يشكروا الله تعالى عليها عذبهم بما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء.

٣ - بيان أن الله منتقم من المجرمين وإن طال الزمن، وناصر المؤمنين كذلك.

شرح الكلمات:
[الآية: ٤٨ - ٥٣]

(٤٨) ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: أي تحركه وتهيجه فيسير وينتشر. ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾: أي قطعًا متفرقة في السماء هنا وهناك. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾: أي المطر يخرج من خلال السحاب.

﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: أي فرحون بالمطر النازل لسقياهم.

(٤٩) ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾: أي قنطين آيسين من إنزاله عليهم.

(٥٠) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾: أي القادر على إنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى وهو الله تعالى.

(٥١) ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: أي رأوا النبات والزرع مصفرًا للجائحة التي أصابته وهي ريح الدبور المحرقة.

﴿لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾: أي أقاموا بعد هلاك زروعهم ونباتهم يكفرون نعم الله عليهم السابقة.

(٥٣) ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾: أي ما تسمع إلا المؤمنين بآيات الله.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مظاهر قدرة الله تعالى في الكون.

(٤٨) قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ[(٢)]﴾ أي ينشئها ويبعث بها من أماكن وجودها ﴿فَتُثِيرُ﴾ تلك الرياح ﴿سَحَابًا﴾ أي تزعجه وتحركه فيبسطه

---

(١) حقاً: هذه الكلمة من صيغ الالتزام يقال: فلان محفوف بكذا أي: لازم له شاهده في قول الأعشى:

لمحفوفة أن تستجيبي لصوته

حقاً خبر كان مقدم على اسمها وهو نصر المؤمنين ولا التفات إلى من رأى الوقف على (حقاً).

(٢) استئناف مبدوء باسم الله الأعظم الدال على قدرته وواسع علمه فهو الذي يرسل الرياح وينزل من السماء ماء ويحيي به الأرض هو الله الرب القادر على إحياء الناس بعد موتهم والمستحق لعبادتهم دون سواه و: ﴿الرِّيَاحَ﴾ قرأ بها الجمهور وقرأ بعض: ﴿الريح﴾ بالإفراد ومما عرف بالعادة أن الرياح للأمطار والريح للدمار.

تعالى في السماء كيف يشاء من كثافة وخفة وكثرة وقلة، ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا[1]﴾ أي قطعًا فترى أيها الرائي ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ أي المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي من بين أجزاء السحاب. وقوله: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي بالمطر ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ﴾ أي المصابون بالمطر في أرضهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يفرحون.

(٤٩) ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ أي المطر ﴿مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ[2]﴾ أي مكتئبين حزينين قانطين.

(٥٠) وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي فانظر يا رسولنا إلى آثار رحمة الله أي إلى آثار المطر كيف ترى الأرض قد اخضرت بعد يبس وحييت بعد موت. فإذا رأيت ذلك علمت أن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الموتى من قبورهم وذلك يوم القيامة، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لعظم قدرته وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى فعل كل شيء أراده.

(٥١) وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أي وعزتنا وجلالنا لئن أرسلنا ريحًا فيه إعصار فيه نار فأحرقت تلك النباتات وأيبستها فرآها أولئك الذين هم بالأمس فرحون فرح بطر بالغيث ﴿يَكْفُرُونَ﴾ بربهم أي يقولون: ما هو كفر من ألفاظ السخط وعدم الرضا وذلك لجهلهم وكفرهم.

(٥٢) وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ[3] إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أي إنك يا رسولنا لا تقدر على هداية هؤلاء الكافرين لأنهم صم لا يسمعون وعمي لا يبصرون لما ران على قلوبهم من الذنوب فعطل حواسهم وأنت بحكم بشريتك وقدرتك المحدودة لا تستطيع إسماع الموتى كلامك فيفهموه ويعملوا به كما لا تستطيع إسماع الصم نداءك إذا هم ولّوا مدبرين إذ لو كانوا مقبلين عليك قد تفهمهم ولو بالإشارة، أما إذا ولّوا مدبرين عنك فلا يمكن إسماعهم. إذًا فهون على نفسك ولا تحزن عليهم.

(٥٣) وقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي إنك ما تسمع سماع قبول وانقياد وإدراك ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي إلا المؤمنين الذين آمنوا بآيات الله وعرفوا حججه فآمنوا به ووحّدوه ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي منقادون خاضعون مطيعون فهؤلاء في إمكانك إسماعهم وهدايتهم بإذن الله إلى ما يكملهم ويسعدهم في الدارين.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة والحجج العقلية.

٢ - بيان كيفية إنشاء السحاب ونزول المطر وهو مظهر من مظاهر القدرة والعلم الإلهي.

٣ - بيان حال الكافر في أيام الرخاء وأيام الشدة فهو في الشدة يقنط وفي الرخاء يكفر، وذلك لفساد قلبه بالجهل بالله تعالى وآياته.

٤ - الاستدلال بالمحسوس الحاضر على المحسوس الغيبي.

٥ - بيان أن الكفار أموات، ولذا هم لا يسمعون ولا يبصرون وأن المؤمنين أحياء لأنهم يسمعون ويبصرون، إذ الحياة لها آثارها في الجسم الحي والموت كذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٤ - ٥٧]

(٥٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾: أي من نطفة وهي ماء مهين. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾: أي من بعد ضعف الطفولة قوة الشباب. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾: أي من بعد قوة الشباب والكهولة ضعف الكبر والشيب ﴿وَشَيْبَةً﴾: أي الهرم.

---

(١) الكِسَف جمع كسفة أي: قطعة والمراد أن الله تعالى يرسل الرياح فتثير سحاباً ويكون عاماً مجللاً للسماء كافة ويكون منه قطعاً قطعاً لحكمة تتطلب ذلك والكسف بكسر الكاف وسكون السين كالكِسف بكسر الكاف وفتح السين كلاهما جمع كسفة كسدرة وسدر وقرىء: ﴿من خَلله﴾ وجائز أن يكون جمع خلال أيضاً.

(٢) وفسر بآيسين أي: قانطين أذلين كما في الحديث أي: في ضيق وشدة وفُسر بيئسين والكل صحيح.

(٣) قال القرطبي: أي: وضحت بالحجج يا محمد لكنهم لإلفهم تقليد الأسلاف في الكفر ماتت قلوبهم وعميت بصائرهم فلا يتهيأ لك إسماعهم وهدايتهم وقرأ الجمهور: ﴿تُسْمِعُ﴾ بالتاء وقرأ ابن كثير: ﴿يسمع﴾ ورفع (الصم) على أنه فاعل وقرأ الجمهور: ﴿هَٰدِى﴾ وقرأ ابن كثير: ﴿تهدي﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾: أي كما صرفوا عن معرفة الصدق في اللبث كانوا يصرفون في الدنيا عن الإيمان بالبعث والجزاء في الآخرة فانصرافهم عن الحق في الدنيا سبب لهم عدم معرفتهم لمدة لبثهم في قبورهم.

﴿٥٧﴾ ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾: أي في إنكارهم للبعث والجزاء. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي لا يطلب منهم العتبى أي الرجوع إلى ما يرضي الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح.

معنى الآيات:

﴿٥٤﴾ ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾[1] وحده ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾[2] أي من ماء مهين وهي النطفة، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ أي ضعف الطفولة ﴿قُوَّةً﴾ وهي قوة الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي قوة الشباب والكهولة ﴿ضَعْفًا﴾ أي ضعف الكبر ﴿وَشَيْبَةً﴾[3] أي الهرم، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بخلقه ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على ما يشاء ويريده فهو تعالى قادر على إحياء الأموات وبعثهم، إذ القادر على إيجادهم من العدم قادر على بعثهم من الرّمَم.

﴿٥٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي القيامة ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي يحلف المجرمون من أهل الشرك والمعاصي ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[4] أي لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة من زمن. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾[5] أي كما صرفوا عن معرفة الصدق في اللبث في القبر كانوا يصرفون في الدنيا عن الإيمان بالله تعالى ولقائه، والصارف لهم ظلمة نفوسهم بسبب الشرك والمعاصي.

﴿٥٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في كتاب المقادير ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لعدم إيمانكم بالله وبآياته والكتاب الذي أنزله.

﴿٥٧﴾ وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ يأتي يوم البعث ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي عن شركهم وكفرهم بلقاء ربهم، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم العتبى أي الرجوع إلى ما يرضي الله تعالى من الإيمان والعمل الصالح وترك الشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة العقلية التي لا ترد بحال.

٢ - بيان أطوار خلق الإنسان من نطفة إلى شيخوخة وهرم.

٣ - فضل العلم والإيمان وأهلهما.

٤ - بيان أن معذرة الظالمين لا تقبل منهم، ولا يستعتبون فيرضون الله تعالى فيرضى عنهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٨ ـ ٦٠]

﴿٥٨﴾ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾: أي جعلنا للناس. ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: أي من كل صفة مستغربة تلفت الانتباه وتحرك الضمير كالأمثال لعلهم يذكرون فيؤمنوا ويوحدوا. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾: أي ولئن أتيت هؤلاء المشركين بكل حجة خارقة. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾: أي ما أنتم أيها الرسول والمؤمنون إلا مبطلون فيما

---

(١) هذا الاستئناف كسابقه: الاستدلال به على علم قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته وعظيم تدبيره في خلقه وهي موجبة التوحيد له والنبوة لرسوله ﷺ والبعث لعباده ليحاسبهم ويجزيهم برحمته وعدله.

(٢) قرأ نافع والجمهور: ﴿من ضعف﴾ بضم الضاد في الألفاظ الثلاثة في هذه الآية وهي لغة الحجاز، وقرأ حفص بالفتح وهي لغة تميم ومن: ابتدائية أي: ابتدأ خلقكم من ضعف وهي النطفة ولا أضعف منها.

(٣) الشيبة: اسم مصدر الشيب وعطف الشيبة على الضعف إشارة إلى عدم وجود قوة بعدها وإنما يأتي الفناء كما قيل: الشيب نذير الموت وهو كذلك.

(٤) روي أن أم حبيبة زوج النبي ﷺ قالت: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية فقال لها النبي ﷺ: **«لقد سألت الله تعالى لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولكن سليه أن يعيذك من عذاب جهنم وعذاب القبر»** في الصحيح.

(٥) يقال: أفك الرجل إذا صرف عن الصدق والخير. وأرض مأفوكة: ممنوعة من المطر.

تقولون وتدعون إليه من الإيمان بآيات الله ولقائه.

(٥٩) ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أي ما أنزل الله على رسوله ﷺ وما أوحاه إليه من الآيات البينات.

(٦٠) ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: أي اصبر يا رسولنا على أذاهم فإن العاقبة لك إذ وعدك ربك بها ووعد الله حق. ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾: أي لا يحملنك هؤلاء المشركون المكذبون بلقاء الله على الخفة والطيش فتترك دعوتك إلى ربك.

معنى الآيات:

بعد إيراد العديد من الأدلة وسوق الكثير من الحجج وعرض مشاهد القيامة في الآيات السابقة تقريرًا لعقيدة البعث والجزاء التي أنكرها المشركون من قريش.

(٥٨) قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ[(١)]﴾ أي جعلنا للناس في هذا القرآن من أساليب الكلام وضروب التشبيه، وعرض الأحداث بصور مثيرة للدهشة موقظة للحس، ومنبهة للضمير، كل ذلك لعلهم يذكرون فيؤمنوا فيهتدوا للحق فينجوا ويسعدوا، ولكن أكثرهم لم ينتفعوا بذلك، ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم[(٢)] بِـَٔايَةٖ﴾ أي بحجة من معجزة وغيرها تدل على صدقك وصحة دعوتك وما جئت به ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي منهم[(٣)] ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ أي ما أنتم أيها الرسول والمؤمنون ﴿إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾ أي من أهل الباطل فيما تقولون وتدعون إليه من الدين الحق والبعث الآخر.

(٥٩) وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي كذلك الطبع على قلوب الكافرين الذين لو جئتهم بكل آية لم يؤمنوا عليها لما ران على قلوبهم وما ختم به عليها، يطبع على قلوب الذين لا يعلمون[(٤)]، إذ ظلمة الجهل كظلمة الشرك والكفر تحجب القلوب عن الفهم والإدراك فلا يحصل إيمان ولا استجابة لدعوة الحق.

(٦٠) وقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يأمر تعالى رسوله أن يلتزم بالصبر على دعوته والثبات عليها في وجه هذا الكفر العنيد، حتى ينصره الله تعالى إذ واعده بالنصر في غيرما آية ووعد الله حق فهو ناجز لا يتخلف. وقوله: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ[(٥)] ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ[(٦)]﴾ أي اصبر ولا يحملنك عناد المشركين وإصرارهم على الكفر والتكذيب على الخفة والطيش والاستجهال بترك الحلم والصبر. والمراد بالذين لا يوقنون كل من لا يؤمن بالله ولقائه إيمانًا يقينيًا إذ هذا الصنف من الناس هو الذي يستفز الإنسان ويحمله على أن يخرج عن اللياقة والأدب والعياذ بالله.

هداية الآيات:

١ ـ إعذار الله تعالى إلى الناس بما ساقه تعالى في كتابه من أدلة الإيمان وحجج الهدى.

٢ ـ أسوأ أحوال الإنسان عندما يطبع على قلبه لكثرة ذنوبه فيصبح لا

---

(١) قال القرطبي: أي: من كل مثل يدلهم على ما يحتاجون إليه وينبههم على التوحيد وصدق الرسل.

(٢) أي: كآيات موسى من فلق البحر والعصا أو آيات عيسى كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

(٣) أي: من الناس لقوله: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ﴾ وهو لفظ عام يشمل الكافر والمؤمن.

(٤) في هذه الآية إنذار خطير للجهال وتنديد بالجهل، إذ أهله لا يفهمون عن الله ولا يهتدون إلى سبل الخير وطريق السعادة والكمال ولذا أوجب الرسول ﷺ طلب العلم على كل مسلم في قوله: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**» وما أصاب المسلمين ما أصابهم من خوف وهون ودون إلا نتيجة لجهلهم بربهم ومحابه ومكارهه وضروب عباداته وكيفيات أدائها لتزكو بها نفوسهم وتطهر أرواحهم وقلوبهم.

(٥) وفسر بـ: يستفزنك الذين: في محل رفع فاعل وبعض العرب يعربونه إعراب جمع المذكر السالم فيقولون: اللذون رفعاً والذين نصباً وجراً قال الشاعر:

نحن اللذون صبحوا الصباحا ... يوم النخيل غارة ملحاحا

(٦) الاستخفاف: طلب خفة الشيء بفقد ثقله ورصانته فيغضب ويترك العمل. والذين لا يؤمنون: هم المشركون كالنضر بن الحارث وأبي جهل والمراد بنفي اليقين عنهم. اليقين بالأمور البديهيات اليقينية للناس لكون الله تعالى خلق كل شيء ورب كل شيء وقدرته على كل شيء إذ هذه يقينيات لدى عامة الناس.

يفهم ولا يعقل شيئًا وفي الخبر حبك الشيء يعمي ويصم.

٣ - وجوب الصبر والتزام الحلم والأناة مهما جهل الجاهلون.

❋ ❋ ❋

سورة لقمان
مكية[1]
وآياتها أربع وثلاثون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿الٓمٓ﴾: هذه أحد الحروف المقطعة التي تكتب الم، وتقرأ: ألف لام ميم.

(٢) ﴿تِلْكَ﴾: أي الآيات المؤلفة من مثل هذه الحروف هي آيات الكتاب الحكيم. ﴿الْحَكِيمِ﴾: أي المحكم الذي لا نسخ يطرأ عليه بعد تمام نزوله، ولا خلل فيه، وهو الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه فلا خلط ولا خبط فيما يحمل من هدى وتشريع.

(٣) ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾: أي هو هدى يهتدى به ورحمة يرحم بها. ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾: أي الذين يراقبون الله تعالى في كل شؤونهم إذ هم الذين يجدون الهدى والرحمة في القرآن الكريم أما غيرهم من أهل الشرك والمعاصي فلا يجدون ذلك.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي المحسنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوقنون بالآخرة. ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾: أي هم على هداية من الله تعالى فلا يضلون ولا يجهلون معها أبدًا. ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: أي الفائزون بالنجاة من كل مرهوب وبالظفر بكل مرغوب محبوب.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞﴾ أحسن ما يفسر به مثل هذه الحروف المقطعة قول: الله أعلم بمراده به وقد أفادت هذه الحروف فائدة عظيمة، وذلك من جهتين الأولى أنه لما كان المشركون يمنعون سماع القرآن خشية التأثر به فيهتدي إلى الحق من يحصل له ذلك، وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ كانت هذه الحروف بنغمها الخاص ومُدودها العجيبة تضطر المشرك إلى الإصغاء والاستماع فحصل ضد مقصودهم وكفى بهذه فائدة. والثانية أنهم لما ادعوا أن القرآن سحر وكهانة وشعر وأساطير الأولين كأنما قيل لهم هذا القرآن الذي ادعيتم فيه كذا وكذا قد تألف من هذه الحروف ص، ن، ق، يس، طس، الم فألفوا سورة مثله وأتوا بها للناس فيصبح لكم ما تدعون فإن عجزتم فسلموا أنه كلام الله أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ فآمنوا ووحدوا واستقيموا على ذلك تعزوا وتكرموا وتكملوا وتسعدوا.

(٢) وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ[2] الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذه الآيات هي آيات القرآن الكريم الموصوف بالحكمة إذ هو لا يخلط ولا يغلط ولا يخبط بل يضع كل شيء في موضعه اللائق به في كل ما قال فيه وحكم به، وأخبر عنه أو به من سائر المعارف والعلوم التي حواها كما هو حكيم بمعنى محكم لا نسخ يطرأ عليه بعد تمامه كما طرأ على الكتب السابقة، ومحكم أيضًا بمعنى لا خلل فيه، ولا تناقض بين أخباره وأحكامه على كثرتها وتنوع أسبابها ومقتضيات نزولها.

(٣) وقوله: ﴿هُدًى[3] وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ[4] ۞﴾ أي هو بيان هداية ورحمة تنال المحسنين وهم الذين أحسنوا عبادتهم لربهم فخلصوها من الشرك والرياء وأتوا بها على الوجه المرضي للّه تعالى وهو ما بيّنه رسوله ﷺ من كيفيات العبادات وبيان فعلها وأدائها عليه.

---

(١) قال قتادة: غير آيتين أولهما: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ وقال ابن عباس: غير ثلاث آيات أولهن: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن﴾ إلخ..

(٢) تلك: في محل رفع مبتدأ وآيات الكتاب: الخبر.

(٣) هدى ورحمة نصباً على الحال على حد ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ وقرىء: ﴿هدىً ورحمة﴾ بالرفع على أن هدى: خبر ثان ورحمة: معطوف عليه وهي قراءة حمزة.

(٤) وجائز أن يكون المحسنين: الفاعلين للحسنات والمحسنين إلى غيرهم كالوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين ومن ذكروا في آية الحقوق العشرة من سورة النساء: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلخ..

﴿٤﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي المحسنين ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يؤدون الصلوات الخمس مُراعى فيها شروطها مستوفاة أركانها وسننها الواجبة منها والمستحبة. ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي يخرجون زكاة أموالهم الصامتة كالذهب والفضة أو الْعُمَلِ القائمة مقامهما والحرث من تمر وزيتون، وحبوب مقتاة مدخرة والناطقة من إبل وبقر وغنم وذلك إن حال الحول في الذهب والفضة والعمل وفي بهيمة الأنعام، أما الحرث والغرس فيوم حصاده وجداده. وقوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي والحال هم موقنون بما أعده الله من ثواب وجزاء على الإحسان والإيمان والإسلام الذي دلت عليه صفاتهم في هذا السياق الكريم.

﴿٥﴾ وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يخبر تعالى عن المحسنين أصحاب الصفات الكريمة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان باليوم الآخر والإيقان بثواب الله تعالى فيه أنهم ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أي طريق مستقيم وهو الإسلام هداهم الله تعالى إليه ومكنهم من السير عليه وبذلك أصبحوا من المفلحين الذين يفوزون بالنجاة من النار، وبدخول الجنة دار الأبرار. اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمرتهم إنك برّ كريم توّاب رحيم.

هداية الآيات:

١ - بيان إعجاز القرآن حيث ألّف من مثل الم، وص، وطس، ولم يستطع خصومه تحديه.

٢ - بيان معنى الحكيم وفضل الحكمة.

٣ - بيان أن القرآن بيان للهدى المنجي المسعد ورحمة لمن آمن به وعمل بما فيه.

٤ - فضل الصلاة والزكاة واليقين.

٥ - بيان مبنى الدين: وهو الإيمان والإسلام والإحسان[1].

الجُزءُ الحَادِي وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ لُقْمَانَ

ترتيبها ٣١ — سُورَةُ لُقْمَانَ — آياتها ٣٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

٤١١

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ - ١١]

﴿٦﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: أي ومن بعض الناس إنسان هو النضر بن الحارث بن كلدة حليف قريش.

﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: أي الحديث الملهي عن الخير والمعروف وهو الغناء. ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي ليصرف الناس عن الإسلام ويبعدهم عنه فيضلوا. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾: أي ويتخذ الإسلام وشرائعه وكتابه هزوًا أي مهزوءًا به مسخورًا منه.

﴿٧﴾ ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي رجع في كبرياء ولم يستمع إليها كفرًا وعنادًا وكبرًا كأن لم يسمعها. ﴿فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾: أي ثقل يمنع من السماع كالصمم.

﴿١٠﴾ ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي بدون عمد مرئيّة لكم ترفعها حتى لا تقع على الأرض. ﴿رَوَٰسِىَ﴾: أي جبال راسية في الأرض بها ترسو الأرض أي تثبت حتى لا تميل. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾: أي وخلق ونشر فيها من صنوف الدواب وهي كل ما يدب في

---

(١) شاهد هذا حديث جبريل في مسلم: إذ سأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان فدل ذلك على أن مبنى الدين الإسلامي هذه الثلاثة: «**الإيمان والإسلام والإحسان**».

﴿٦﴾ ﴿مهين﴾ هذا عطف على جملة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ كإنما قال: كانت تلك حال الكتاب الحكيم وهي حال تدعو إلى كل كمال وإن من الناس معرضين عنه يؤثرون لهو الحديث ففي الأخبار تعجب من حال هذا الإنسان الذي يعرض عن الهدى إلى الضلال وعن الخير إلى الشر.

الأرض. ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾: أي من كل صنف من النباتات جميل نافع لا ضرر فيه.

(١١) ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾: أي المذكور مخلوقه تعالى إذ هو الخالق لكل شيء. ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: أي من الآلهة المزعومة التي يعبدها الجاهلون. ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: أي المشركون.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى عباده المحسنين وأثنى عليهم بخير وبشّرهم بالفلاح والفوز المبين ذكر صنفًا آخر على النقيض من الصنف الأول الكريم فقال:

(٦) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ[1] مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ[2] لِيُضِلَّ[3] عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ومن بعض الناس إنسان هو النضر بن الحارث الكلدي حليف قريش ﴿يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي الغناء إذ كان يشتري الجواري المغنيات ويفتح ناديًا للهو والمجون ويدعو الناس إلى ذلك ليصرفهم عن الإسلام حتى لا يجلسوا إلى نبيّه ﷺ ولا يقرؤوا كتابه بغير علم منه بعاقبة صنيعه وما يكسبه من خزي وعار وعذاب النار. وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾[4] أي يتخذ سبيل الله التي هي الإسلام ﴿هُزُوًا﴾ أي شيئًا مهزوءًا به مسخورًا منه بما في ذلك الرسول والمؤمنون والآيات، الكلّ يهزأ به ويسخر منه لجهله وظلمة نفسه. قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي أولئك البعداء وهم كل من يشتري الغناء يغني به نساء ورجال أو آلات ممن اتخذوا الإسلام وشرائعه هزوًا وسخرية ليصدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله الموصلة إلى رضاه ومحبته وجنته. أولئك: مَنْ تِلك صفتهم لهم عذاب مهين بكسر أنوفهم وبذلهم يوم القيامة.

(٧) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ[5] مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.

أي وإذا قُرئت على هذا الصنف من الناس آيات الله لتذكيره وهدايته رجع مستكبرًا كأن لم يسمعها تتلى عليه وهي حالة من أقبح الحالات لدلالتها على خبث هذا الصنف من الناس وكبرهم. وقوله: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ[6] وَقْرًا﴾ كأن به صمم لا يسمع القول، وهنا عَجَّلَ الله له بما يحزنه ويخزيه فقال لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والتبشير بما يضر ولا يسر يحمل معه التهكم، وهذا النوع من الناس مستحق لذلك.

(٨) - (٩) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ هذا صنف آخر مقابل لما قبله وهم أهل الإيمان والعمل الصالح بشرهم ربهم بجنات النعيم والخلود فيها وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾[7] أي وعدهم بذلك وعدًا صادقًا لا يخلف وأحقه لهم حقًا لا يسقط ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يُحال بينه وبين مُراده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع كل شيء في موضعه.

---

(١) معنى الكلام: من الناس - يا للعجب - من يشغله لهو الحديث والولوع به عن الاهتداء بآيات الكتاب الحكيم، هذه الآية إحدى ثلاث آيات في القرآن الكريم تحرم الغناء والأولى؛ آية بني إسرائيل وهو قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ والثالثة: آية النجم: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ قال ابن عباس: هو الغناء بالحميرية يقال: اسمد لنا أي: غنّ لنا.

(٢) لهو الحديث: هو الغناء، صح أن ابن مسعود رضي الله عنه سُئل عن لهو الحديث فقال: بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء وقال ابن جرير الطبري: قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيدالله العنبري وقد قال الرسول ﷺ: **«عليكم بالسواد الأعظم، ومن فارق الجماعة مات ميتة جاهلية»**.

(٣) قرأ الجمهور: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء أي: ليضل غيره فهو إذاً ضال مضل وقرأ ابن كثير: ﴿ليَضل﴾ بفتح الياء أي: ليزداد ضلالاً على ضلال.

(٤) قرأ نافع بالرفع عطفاً على (يشتري) وقرأ حفص بالفتح عطفاً على (ليضل).

(٥) ﴿وَلَّىٰ﴾: هذا تمثل للإعراض عن آيات الله التي تتلى عليه ومستكبراً: حال مُبينة وأن إعراضه كان لا عن إهمال أو تفريط وإنما كان عن كبر كأن لم يسمعها تكرار التشبيه لفائدة الإخبار بأنه مرة لم يسمعها مع وجود حاسة السمع وأخرى مع عدم وجودها.

(٦) قرأ نافع: ﴿أذْنيه﴾ بإسكان الذال تخفيفاً وقرأ الجمهور: ﴿أُذُنَيْهِ﴾ بتحريك الذال مضمومة.

(٧) انتصاب وعد الله على المفعول المطلق وانتصاب حقاً على الحال.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

٤١٢

﴿١٠﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا[(١)]﴾ أي من مظاهر قدرته وعزته وحكمته خلقه السموات ورفعها بغير عمد مرئية لكم وفي هذا التعبير إشارة إلى أن هناك أعمدة غير مرئية وهي سنّة نظام الجاذبية التي خلقها بقدرته وجعل الأجرام السماوية متماسكة بها. وقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي من مظاهر قدرته وحكمته إلقاء الجبال الرواسي على الأرض لتحفظ توازنها حتى لا تميل بأهلها فيفسد ويسقط ما عليها وتنعدم الحياة عليها وهو معنى ﴿أَن تَمِيدَ[(٢)] بِكُمْ﴾ أي تميل، وإذا مالت تصدع كل ما عليها وخرب، وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ وهذا مظهر آخر من مظاهر القدرة والعلم والحكمة الموجبة للإيمان بالله ولقائه والمستلزمة لتوحيده تعالى في عبادته، فسائر أنواع الدواب على كثرتها واختلافها، الله الذي خلقها وفرّقها في الأرض تعمرها وتزيّنها. وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو ماء المطر ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي صنف من أصناف الزروع والنباتات مما هو نافع وصالح للإنسان، هذا المذكور أيضًا مظهر من مظاهر القدرة الإلهية والعلم والحكمة الربّانية الموجبة للإيمان بالله وآياته ولقائه وتوحيده في عباداته.

﴿١١﴾ ومن هنا قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ[(٣)] ٱللَّهِ﴾ أي كل ما ذكر من المخلوقات في هذه الآيات هو مخلوق لله والله وحده خالقه فأروني أيها المشركون المكذبون ماذا خلق الذين تعبدونهم من دونه من سائر المخلوقات يتحداهم بذلك. فعجزوا. وقوله تعالى: ﴿بَلِ[(٤)] ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنهم عبدوا غير الله وكذبوا بلقاء الله لا عن علم لديهم أو شبهة كانت لهم ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهم المشركون ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فهم تائهون في أودية الضلال حيارى بجهلهم في حياتهم فدواؤهم العلم والإيمان فمتى آمنوا وعلموا لم يبقَ مجال لكفرهم وشركهم وعنادهم فلهذا فصّل تعالى الآيات وعرض الأدلة والحجج عرضًا عجيبًا لعلهم يذكرون فيؤمنوا ويوحدوا فيكملوا ويسعدوا فضلاً منه ورحمة. وهو العزيز الرحيم.

هداية الآيات:

١ - حرمة غناء النساء للرجال الأجانب.

٢ - حرمة شراء الأغاني في الأشرطة والأسطوانات التي بها غناء العواهر والخليعين من الرجال.

٣ - حرمة حفلات الرقص والغناء الشائعة اليوم في العالم كافره ومسلمه.

٤ - دعوة الله تقوم على دعامتي الترهيب والترغيب والبشارة والنذارة.

٥ - بيان شتّى مظاهر القدرة والعلم والعز والحكمة الموجب للإيمان والتوحيد.

٦ - لا قصور في الأدلة والحجج الإلهية وإنما ضلال العقول بالشرك

---

(١) ترونها في محل جر نعت لعمدٍ ومعنى هذا أن هناك عمداً غير مرئية ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من السماوات.

(٢) أي: كراهية أن تميد بكم أي: تميل أو لئلا تميد والكل جائز.

(٣) خلق الله بمعنى مخلوقه.

(٤) بل: للإضراب الانتقالي من المجادلة إلى تسجيل ضلالهم وهو اعتقادهم إلهية الأصنام كما يقول المناظر: دع عنك هذا وانتقل إلى كذا.

والمعاصي هو المانع من الاهتداء. والعياذ بالله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ ـ ١٥]

(١٢) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾: أي أعطينا لقمان[١] القاضي الفقه في الدين والعقل والإصابة في الأمور.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ[٢] لِلَّهِ﴾: أي اشكر لله ما أنعم به عليك بطاعته وذكره.

(١٣) ﴿لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾: أي ابنه ثاران وهو يعظه أي يأمره وينهاه مرغبًا له مرهبًا.

(١٤) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾: أي عهدنا إليه ببرهما وهو كف الأذى عنهما والإحسان إليهما وطاعتهما في المعروف. ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾: أي ضعفًا على ضعف وشدة على شدة وهي الحمل والولادة والإرضاع. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾: أي مدة رضاعه تنتهي في عامين، وبذلك يفصل عن الرضاع.

(١٥) ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾: أي بذلا جهدهما في حملك على الشرك. ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾: أي واصحبهما في حياتهما بالمعروف وهو البر والإحسان وكف الأذى والطاعة في غير معصية الله. ﴿مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾: أي رجع إليّ بتوحيدي وطاعتي وطاعة رسولي محمد ﷺ.

معنى الآيات:

(١٢) ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد والتنديد بالشرك والمشركين، وهذه القصة اللقمانية اللطيفة مشوقة، لذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي أعطينا عبدنا لقمان الحكمة وهي الفقه في الدين والإصابة في الأمور ورأسها مخافة الله تعالى بذكره وشكره الذي هو طاعته في عبادته وتوحيده فيها. وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي وقلنا له اشكر الله خالقك ما أنعم به عليك بصرف تلك النعم فيما يرضيه عنك ولا يسخطه عليك. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي ومن شكر الله بطاعته فإن ثمرة الشكر وعائدته للشاكر نفسه بحفظ النعمة والزيادة فيها، أما الله فإنه غني بذاته محمود بفعاله فلا يفتقر إلى خلقه في شيء إذ هم الفقراء إليه سبحانه وتعالى.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ﴾ أي واذكر يا رسولنا لهؤلاء المشركين قول لقمان لابنه وأخص الناس به وهو ينهاه عن الشرك الذي نهيتكم أنا عنه فغضبتم وأصررتم عليه عنادًا ومكابرة فقال له بما أخبر به تعالى عنه في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ[٣] وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ أي يأمره وينهاه مرغبًا له في الخير مرهبًا له من الشر: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي في عبادته أحدًا. وعلل لنهيه ليكون أوقع في نفسه فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ[٤] عَظِيمٌ﴾ والظلم وضع الشيء في غير موضعه ويترتب عليه الفساد والخسران الكبير، وعبادة

---

(١٥) هذه الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ والتي قبلها ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لما أسلم وأن أمة حَمْنَة بنت أبي سفيان بن أمية حلفت ألا تأكل حتى يكفر سعدٌ أو تموت جوعاً وعطشاً حتى يعير بها مدى الحياة (يا قاتل أمه) إلا أنها لما أيأسها سعد أسلمت وأكلت وشربت.

(١) هو لقمان بن باعوراء بن ناصور بن تارح وهو آزر أبو إبراهيم كذا نسبه ابن إسحق وقال السهيلي: هو لقمان بن عتفاد بن سرون وكان نوبياً من أهل أيلة، قال وهب: كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته عاش ألف سنة وأدركه داود عليه السلام وكان رجلاً حكيماً ولم يكن نبياً ومن حكمه قوله: إن القلب واللسان إذا طابا فليس أطيب منهما وإذا خبثا فليس شيء أخبث منهما وقوله: وقد قيل له: أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي أن رآه الناس مسيئاً وقوله: الصمت حكمة وقليل فاعله.

(٢) وجائز أن تكون أن التفسيرية أي: مفسرة للفظ الحكمة بأنها الشكر لله تعالى وهي أقوال ألقيت إليه بإلهام ففي الحكمة معنى القول دون حروفه. كما فسرت (حاجة) في قول الشارع لأنها بمعنى القول:

إن تحملا حاجة لي خف محملها ... تستوجبا منة عندي بها ويدا
أن تقرآن على أسماء ويحكما ... مني السلام وأن لا تخبرا أحدا

(٣) قيل: كان اسم ابنه ثاران وقيل: مشكم وقيل: أنعم. والله أعلم.

(٤) روى مسلم أنه لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»**.

غير الله وضع لها في غير موضعها إذ العبادة حق الله على عباده مقابل خلقهم ورزقهم وكلاءتهم في حياتهم وحفظهم.

﴿١٤﴾ وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ[1] بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي عهدنا إلى الإنسان آمرين إياه ببرّ والديه أي أمه وأبيه، وبرُّهما بذل المعروف لهما وكف الأذى عنهما وطاعتهما[2] في المعروف، وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ﴾ أي الإنسان ﴿أُمُّهُۥ﴾ أي والدته ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ[3]﴾ أي ضعفًا على ضعف وشدة على أخرى وهي آلام وأتعاب الحمل والطلق والولادة والإرضاع فلهذا تأكد برُّها فوق برّ الوالد مرتين لحديث الصحيح: «**من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك**» وقوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي فطام الولد من الرضاع في عامين فأول الرضاع ساعة الولادة وآخره تمام الحولين، ويجوز فصله عن الرضاع خلال العامين، وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا الموصى به وهو أن يشكر لله تعالى وذلك بطاعته تعالى فيما يأمره به وينهاه عنه، وذكره بقلبه ولسانه، وقوله: ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ إذ هما قدما معروفًا وجميلًا فوجب شكرهما، وذلك ببرِّهما وصلتهما وطاعتهما في غير معصية الله ورسوله ﷺ، لأن طاعة الله كشكره قبل طاعة الوالدين وشكرهما، وقوله: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي الرجوع بعد الموت، وهذه الجملة مؤكدة لواجب شكر الله تعالى وبر الوالدين لما تحمله من الترغيب والترهيب، فالمطيع إذا رجع إلى الله أكرمه والعاصي أهانه. وما دام الرجوع إليه تعالى حتميًا فطاعته بشكره وشكر الوالدين متأكدة متعيّنة.

﴿١٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي وإن جاهداك أيها الإنسان والداك وبذلا جهدهما في حملك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم وهو عامة الشركاء إذ ما هناك من يصح إشراكه في عبادة الله قط. فلا تطعهما في ذلك أبدًا، ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[4] أي في الحياة بالمعروف وهو برهما وصلتهما وطاعتهما في غير معصية الله تعالى ورسوله، وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ أي اتبع طريق من أناب إليَّ بتوحيدي وعبادتي والدعوة إليّ وهو رسول[5] الله ﷺ والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص حيث أمرته أمه أن يكفر بمحمد ﷺ ودينه وذلك قبل إسلامها وبذلت جهدًا كبيرًا في مراودة ابنها سعد رضي الله عنهما، وقوله: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي جميعًا ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وأجزيكم بعملكم الخير بالخير والشر بالشر فاتقوني بطاعتي وتوحيدي والإنابة إليّ في كل أموركم.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد والتنديد بالشرك.

٢ - بيان الحكمة وهي شكر[6] الله تعالى بطاعته وذكره إذ لا يشكر إلا عاقل فقيه.

---

(١) الراجح أن هاتين الآيتين وقعتا اعتراضاً بين كلام لقمان الأول والثاني وأنهما نزلتا في شأن والدة سعد بن أبي وقاص وللاعتراض فائدة وهي التنويع في الأسلوب لإذهاب السآمة وتجديد نشاط الذهن للحفظ والفهم وجائز أن يكون لا اعتراض، والآيتان من كلام لقمان.

(٢) روي أن الحسن قال: لو منعتْ والدة ولدها من شهود صلاة العشاء شفقة عليه فلا يطعها.

(٣) الوهن بإسكان الهاء: مصدر وهن يهن من باب ضرب ووهن بفتح الواو والهاء من باب وجل يوجل وجلاً. والمعنى أي: وهناً واقعاً على وهن كقولهم: (عوداً على بدء) أي: رجع عوداً على بدء.

(٤) معروفاً: نعت لمصدر محذوف تقديره: مصاحباً معروفاً. وفي الآية دليل على جواز بر الأم الكافرة أو الأب لحديث أسماء إذ قالت: يا رسول الله: إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم»، ووالدة أسماء هي قتيلة بنت عبدالعزى ووالدة عائشة هي أم رومان قديمة الإسلام.

(٥) الآية عامة في سائر المؤمنين فعلى كل مؤمن اتباع الصالحين في كل زمان ومكان والاقتداء بهم وعليه مجانبة أهل الضلال والفسق والعصيان وعدم اتباعهم في باطلهم وضلالهم وفسقهم وعصيانهم.

(٦) روي أن سفيان بن عيينة قال: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

٣ - مشروعية الوعظ والإرشاد للكبير والصغير والقريب والبعيد.

٤ - التهويل في شأن الشرك وإنه لظلم عظيم.

٥ - بيان مدة الرضاع وهي في خلال العامين لا تزيد.

٦ - وجوب بر الوالدين وصلتهما.

٧ - تقرير مبدأ لا طاعة لمخلوق[(١)] في معصية الخالق بعدم طاعة الوالدين في غير المعروف.

٨ - وجوب اتباع سبيل المؤمنين من أهل السنة والجماعة وحرمة اتباع سبيل أهل البدع والضلالة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ - ١٩]

(١٦) ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾: أي توجد زنة حبة من خردل. ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾: أي في داخل صخرة من الصخور لا يعلمها أحد. ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: أي لطيف باستخراج الحبة خبير بموضعها حيث كانت.

(١٧) ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: أي مُر الناس بطاعة الله تعالى، وانههم عن معصيته. ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: أي مما أمر الله به عزمًا لا رخصة فيه. ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: أي ولا تُعرض بوجهك عمن تكلمه تكبرًا. ﴿مَرَحًا﴾: أي مختالاً تمشي خيلاء. ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾: أي متبختر فخور كثير الفخر مما أعطاه الله ولا يشكر.

(١٩) ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾: أي اتئد ولا تعجل في مشيتك ولا تستكبر. ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾: أي اخفض من صوتك وهو الاقتصاد في الصوت. ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾: أي أقبح الأصوات وأشدها نكارة عند الناس لأن أوله زفير وآخره شهيق.

معنى الآيات:

(١٦) ما زال السياق الكريم في قصص لقمان عليه السلام، فقال تعالى مخبرًا عن لقمان بقوله لابنه ثاران: ﴿يَٰبُنَىَّ[(٢)] إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ[(٣)]﴾ أي إن تك زنة حبة من خردل من خير أو شر من حسنة أو سيئة ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ[(٤)] أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ ويحاسب عليها ويجزي بها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي باستخراجها ﴿خَبِيرٌ﴾ بموضعها وعليه فاعمل الصالحات واجتنب السيئات وثق في جزاء الله العادل الرحيم هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١٦) أما الآية الثانية (١٧) فقد تضمّنت أمر ولدِه بإقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في ذلك، فقال له ما أخبر تعالى به عنه في قوله:

(١٧) ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدها بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بطاعة الله تعالى فيما أوجب على عباده ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي عما حرم الله تعالى على عباده من اعتقاد أو قول أو عمل. ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من أذى ممن تأمرهم وتنهاهم، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي إن إقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في ذات الله من الأمور الواجبة التي هي عزائم وليست برخص.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ[(٥)] خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ هذا مما قاله لقمان لابنه نهاه فيه عن خصال ذميمة محرمة وهي التكبر على الناس بأن يخاطبهم وهو معرض عنهم بوجهه لاوٍ

---

(١) صح الحديث بلفظ: «إنما الطاعة في المعروف» وبلفظ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

(٢) تكرير النداء حكمته تجديد نشاط السماع وقرأ نافع: ﴿مثقال﴾ بالرفع على أنه فاعل (تك) وكان التي مضارعها (تك) تامة وقرأ حفص: ﴿مِثْقَالَ﴾ بالفتح على أن (كان) ناقصة و (مثقال) خبرها وقوله: أنها أي: القصة أو الحالة المسؤول عنها.

(٣) روي أن ناران بن لقمان قال لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يقابلها الله؟ فقال لقمان: يا بني إنها إن تك مثال حبة إلخ.. فما زال ابنه يضطرب حتى مات قاله مقاتل رحمه الله.

(٤) قيل: إن الصخرة تكون تحت الأرض السابعة لأنها ليست في السماء ولا في الأرض.

(٥) الصعر: الميل ومنه قول الشاعر:

وكنا إذا الجبار صعر خده ... أقمنا له من ميله فتقوم

والصعر: كالصَّيدِ داء يصيب الإبل فتلوى منه أعناقها.

عنقه[١]، وهي مشية المرح والاختيال والتبختر، والفخر بالنعم مع عدم شكرها وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ[٢] فَخُورٍ﴾ هذا مما قاله لقمان لابنه لما نهاه عن التكبر والاختيال والفخر أخبره أن الله تعالى لا يحب من هذه حاله حتى يتجنبها ولده الذي يعظه بها وبغيرها.

(١٩) وقوله في الآية (١٩): ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ[٣]﴾: أي امش متئدًا في غير عجلة ولا إسراع، إذ الاقتصاد ضد الإسراف. وقوله: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أمره أن يقتصد في صوته أيضًا فلا يرفع صوته إلا بقدر الحاجة. كالمقتصد لا يُخرج درهمه إلا عند الحاجة وبقدرها، وقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ ذكر هذه الجملة لينفره من رفع صوته بغير حاجة فذكر له أنّ أقبح الأصوات صوت الحمير[٤] لأنه عال مرتفع وأوله زفير وآخره شهيق. هذا آخر ما قصّ تعالى من نبأ لقمان العبد الصالح عليه السلام.

هداية الآيات:

١ - وجوب مراقبة الله تعالى وعدم الاستخفاف بالحسنة والسيئة مهما قلت وصغرت.

٢ - وجوب إقام الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ما يلحق الآمر والناهي من أذى.

٣ - حرمة التكبر والاختيال في المشي ووجوب القصد في المشي والصوت فلا يسرع ولا يرفع صوته إلا على قدر الحاجة.

أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

٤١٣

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠، ٢١]

(٢٠) ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾: أي ألم تعلموا أيها الناس.

﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي من شمس وقمر وكواكب ورياح وأمطار لمنافعكم. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي من أشجار وأنهار وجبال وبحار وغيرها.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾: أي أوسع وأتمّ عليكم نعمه ظاهرة وهي الصحة وكمال الخلق وتسوية الأعضاء.

﴿وَبَاطِنَةً﴾: أي المعرفة والعقل. ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾: أي يخاصم في توحيد الله مُنكرًا له مكذبًا به. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: أي بدون علم عنده من وحي ولا هو مستفاد من دليل عقلي. ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾: أي سنة من سنن الرسل، ولا كتاب إلهي منير واضح بيّن.

(٢١) ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: أي أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعو آباءهم إلى موجب عذاب السعير من الشرك والمعاصي.

معنى الآيتين:

(٢٠) عاد السياق بعد نهاية قصة لقمان إلى خطاب المشركين لهدايتهم فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾ أيها الناس

---

(١) شاهده في الحديث الصحيح: **«لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً. ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال»**، فقوله: **«ولا تدابروا»** يشمل تصعير الوجه أي: ميله.

(٢) المختال ذو الخيلاء قال ﷺ: **«من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة والفخور هو الذي يعدد ما أعطى ولا يشكر الله تعالى»** قاله مجاهد.

(٣) ما روي أن النبي ﷺ كان إذا مشى أسرع فإنما أريد به السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت المظهر للمسكنة والذلة.

(٤) بالحمار يضرب المثل في البلادة وينهى عن رفع الصوت لغير حاجة حتى لا يكون صوت المتكلم كصوت الحمار الممقوت والحمار إذا نهق فإنه رأى شيطاناً كما في الحديث، وركبه النبي ﷺ تواضعاً، وقيل: نهيق الحمار دعاء عند الظلمة.

الكافرون بالله وقدرته ورحمته أي ألم تعلموا بمشاهدتكم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾[1] أي من أجلكم ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر وكواكب ومطر، وسخر لكم ما في الأرض من أشجار وأنهار وجبال ووهاد وبحار وشتّى الحيوانات ومختلف المعادن، كل ذلك لمنافعكم في مطاعمكم ومشاربكم وكل شؤون حياتكم، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ[2]﴾ أي أوسعها وأتمها نعم الإيجاد ونعم الإمداد حال كونها ظاهرة[3] كحسن الصورة وتناسب الأعضاء وكمال الخلق، وباطنة كالعقل والإدراك والعلم والمعرفة وغير ذلك مما لا يحصى ولا يعد، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، ومع هذا البيان والإنعام والاستدلال على الخالق بالخلق وعلى المنعم بالنعم فإن ناسًا يجادلون[4] في توحيد الله وأسمائه وصفاته ووجوب طاعته وطاعة رسوله ﷺ بغير علم من وحي ولا استدلال من عقل، ولا كتاب منير واضح بيّن يحتجون به ويجادلون بأدلته.

(٢١) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾[5] أي لأولئك المجادلين في الله بالجهل والباطل ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي على رسوله محمد ﷺ من هدىً، قالوا لا، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عقائد وثنيّة وتقاليد جاهلية، قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي أيتّبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعو آباءهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي النار المستعرة الملتهبة والجواب لا، ولكن اتبعوهم فسوف يردون معهم النار وبئس الورد المورود.

هداية الآيتين:

١ - تعيين الاستدلال بالخلق على الخالق وبالنعمة على المنعم.

٢ - وجوب ذكر النعم وشكرها لله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

٣ - حرمة الجدال بالجهل ودون علم.

٤ - حرمة التقليد في الباطل والشر والفساد كتقليد بعض المسلمين اليوم للكفار في عاداتهم وأخلاقهم ومظاهر حياتهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٢ - ٢٦]

(٢٢) ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي أقبل على طاعته مخلصًا له العبادة لا يلتفت إلى غيره من سائر خلقه. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: أي والحال أنه محسن في طاعته إخلاصًا واتباعًا. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: أي تعلّق بأوثق ما يتعلق به فلا يخاف انقطاعه بحال. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾: أي مرجع كل الأمور إلى الله سبحانه وتعالى.

(٢٤) ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾: أي متاعًا في هذه الدنيا قليلًا، أي إلى نهاية آجالهم. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: أي ثم نُلجئهم في الآخرة إلى عذاب النار، والغليظ: الثقيل.

(٢٥) ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي احمد الله على ظهور الحجة بأن تقول الحمد لله. ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي من يستحق الحمد والشكر ومن لا يستحق لجهلهم.

معنى الآيات:

(٢٢) بعد إقامة الحجة على المشركين في عبادتهم غير الله وتقليدهم لآبائهم في الشرك والشر والفساد. قال تعالى مرغبًا في النجاة داعيًا إلى الإصلاح: ﴿وَمَن يُسْلِمْ[6] وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي يقبل بوجهه وقلبه على ربه

---

(١) ذكر نعم الله الموجبة لشكره بعبادته وحده وترك عبادة من سواه.

(٢) قرأ نافع وحفص: ﴿نِعَمَهُۥ﴾ بالجمع وقرأ آخرون بالإفراد: ﴿نعمته﴾ وهي دالة على الجمع لأنها اسم جنس دال على متعدد بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

(٣) عن ابن عباس: أن النعم الظاهرة: الإسلام وما حسن من الخلق، والباطنة: ما ستر على العبد من سيء العمل وقيل: النعم الظاهرة: الصحة وكمال الخلق والباطنة: المعرفة والعقل.

(٤) قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير حجة نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته قاله مجاهد.

(٥) هذا عام في اليهودي السائل وفي المشركين الذين طالما سألوا وجادلوا النبي ﷺ بجهلهم وتقليد آبائهم وهم من أجهل الناس.

(٦) أسلم وسلّم بمعنى، إلا أن التضعيف للتكثير وعدي باللام نحو قول: أسلمت وجهي لله، وعدي مرة بإلى قال القرطبي: معناه

يعبده مُتذللًا له خاضعًا لأمره ونهيه. ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ أي والحال أنه محسن في عبادته إخلاصًا فيها لله، واتباعًا في أدائها لرسول الله ﷺ ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ أي قد أخذ بالطرف الأوثق فلا يخاف انقطاعًا أبدًا، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ يخبر تعالى أن مردَّ الأمور كلها لله تعالى يقضي فيها بما يشاء فليفوِّض العبد أموره كلها لله إذ هي عائدة إليه فيتخذ بذلك له يدًا عند ربه.

(٢٣) وقوله لرسوله ﷺ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ[١] كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ أي أسلم وجهك لربك وفوّض أمرك إليه متوكلًا عليه، ومن كفر من الناس فلا يحزنك كفره، أي فلا تكترث به ولا تحزن عليه ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ أي فإن مردهم إلينا بعد موتهم ونشورهم ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ في هذه الدار من سوء وشر ونجزيهم به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ[٢]﴾ أي بما تكنه وتخفيه من اعتقادات ونيّات وبذلك يكون الحساب دقيقًا والجزاء عادلاً.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ[٣] قَلِيلٗا﴾ أي نمهل هؤلاء المشركين فلا نعاجلهم بالعقوبة فيتمتعون مدة آجالهم وهو متاع قليل ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ﴾ بعد موتهم ونشرهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ أي نلجئهم إلجاءً إلى عذاب غليظ ثقيل لا يُحتمل ولا يُطاق وهو عذاب النار. نعوذ بالله منها ومن كل عمل يؤدي إليها.

(٢٥) وقوله تعالى في الآية (٢٥): ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ أي ولئن سألت يا رسولنا هؤلاء المشركين قائلًا لهم: من خلق السموات والأرض لبادروك بالجواب قائلين: الله، إذًا قل الحمد لله على إقامة الحجة عليكم باعترافكم، وما دام الله هو الخالق الرازق كيف يعبد غيره أو يعبد معه سواه، أين عقول القوم؟ وقوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون موجب الحمد ولا مقتضاه، ولا من يستحق الحمد ومن لا يستحقه لأنهم جهلة لا يعلمون شيئًا.

(٢٦) وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي خلقًا وملكًا وعبيدًا، ولذا فهو غني عن المشركين وعبادتهم فلا تحزن عليهم ولا تبال بهم عبدوا أو لم يعبدوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن كل ما سواه ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي المحمود بعظيم فعله وجميل صنعه.

هداية الآيات:

١ ـ بيان نجاة أهل لا إله إلا الله وهم الذين عبدوا الله وحده بما شرع لهم على لسان رسوله محمد ﷺ.

٢ ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٣ ـ بيان أن المشركين من العرب موحدون في الربوبيّة مشركون في العبادة كما هي حال كثير من الناس اليوم يعتقدون أن الله ربّ كل شيء ولا ربَّ سواه ويذبحون وينذرون ويحلفون بغيره، ويخافون غيره ويرهبون سواه. والعياذ بالله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧، ٢٨]

(٢٧) ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي من شجرة. ﴿أَقۡلَٰمٞ﴾: أي يكتب بها. ﴿وَٱلۡبَحۡرُ﴾: أي المحيط. ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾: أي تمده. ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾: أي ما انتهت ولا نقصت. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾: أي عزيز في انتقامه غالب على ما أراده حكيم في تدبير خلقه.

(٢٨) ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ﴾: أي ما خلقكم ابتداء ولا بعثكم من قبوركم إعادة لكم إلا كخلق وبعث نفس واحدة.

= مع اللام: أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله أي: خالصاً له ومعناه مع إلى: راجع إلى أنه سلم نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه والمراد التوكل عليه والتفويض إليه.

(١) قرأ نافع: ﴿يُحزنك﴾ بضم الياء وكسر الزاي ﴿يُحزنك﴾ وقرأ حفص: ﴿يَحۡزُنكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي يحزنك: فالأولى مضارع أحزنه يحزنه كأعلمه يعلمه والثانية مضارع حزنه كنصره ينصره.

(٢) الجملة تعليلية لما سبقها من أحكام.

(٣) جملة ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾: مستأنفة استئنافاً بيانياً كأن سائلاً يقول: ما الذي يترتب على علمه تعالى بذات الصدور؟ فالجواب: أنه يمتعهم قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

ترتيبها ٣٢ — سُورَةُ السَّجْدَة — آياتها ٣٠

معنى الآيتين:

﴿٢٧﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا[1] فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ[2] أَقْلَامٌ﴾ أي لو أن شجر الأرض كله قطعت أغصانه شجرة شجرة حتى لم تبق شجرة وبُرِيَت أقلامًا، والبحر المحيط صار مدادًا ومن ورائه سبعة أبحر أخرى تحولت إلى مداد وتمُد البحر الأول وكُتب بتلك الأقلام وذلك المداد كلمات الله لنفد البحر والأقلام ولم تنفد كلمات الله، وذلك لأن الأقلام والبحر متناهية، وكلمات الله غير متناهية فعلم الله وكلامه كذاته وصفاته لا تتناهى بحال، نزلت هذه الآية ردًا على اليهود لما قيل لهم: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا وكيف هذا وقد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شيء. كما نزل ردًا على أُبي بن خلف.

﴿٢٨﴾ قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ[3] وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ[4] وَاحِدَةٍ﴾ إذ قال للنبي ﷺ: كيف يخلقنا الله خلقًا جديدًا في يوم واحد ليحاسبنا ويجزينا، ونحن خلقنا أطوارًا وفي قرون عديدة فأنزل تعالى قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ إلا كخلق وبعث نفس واحدة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ[5] بَصِيرٌ﴾ فكما يسمع المخلوقات ولا يشغله صوت عن صوت، ويُبصرهم ولا تحجبه ذات عن ذات كذلك هو يبعثهم في وقت واحد ولو أراد خلقهم جملة واحدة لخلقهم لأنه يقول للشيء كن فيكون.

هداية الآيتين:

١ - بيان سعة علم الله تعالى وأنه تعالى متكلم وكلماته لا تنفد بحال من الأحوال.

٢ - بيان أن ما أوتيه الإنسان من علوم ومعارف ما هو بشيء إلى علم الله تعالى.

٣ - بيان قدرة الله تعالى وأنها لا تحد ولا يعجزها شيء.

٤ - إثبات صفات الله كالعزة والحكمة والسمع والبصر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٩ - ٣٢]

﴿٢٩﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أي ألم تعلم أيها المخاطب. ﴿أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾: أي يدخل جزءًا منه في النهار، ويدخل جزءًا من النهار في الليل بحسب الفصول. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: يسبحان في فلكيهما الدهر كله لا تكلان إلى يوم القيامة وهو الأجل المسمى لهما.

﴿٣٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾: أي ذلك المذكور من الإيلاج والتسخير بسبب أن الله هو الإله الحق. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾: أي وأن ما يدعون من دونه من آلهة هي الباطل. ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾: أي بإفضاله

(١) قيل في سبب هذه الآية المدنية على رأي ابن عباس رضي الله عنه: أن اليهود قالوا: يا محمد كيف عنينا بهذا القول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه وعندك أنها تبيان كل شيء؟ فقال الرسول ﷺ: «**التوراة قليل من كثير**» ونزلت هذه الآية.

(٢) ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ من: بيانية وفي التعبير بـ لو: دلالة على أن مضمون الكلام افتراضي، ولكن لو كان المفترض لما يخرج عما أخبر تعالى به وهو نفاد الأقلام والمداد وبقاء كلام الله تعالى لأن المراد من الكلمات كلام الله تعالى.

(٣) في الآية إيجاز بالحذف إذ التقدير: ما خلقكم إلا كخلق نفس واحدة ولا بعثكم إلا كبعث نفس واحدة.

(٤) ما خلقكم فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب.

(٥) جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾: صالحة لأن تكون تعليلية أو استئنافية بيانية.

على العباد وإحسانه إليهم حيث هيأ أسباب جريها.

(٣١) ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: أي صبار عن المعاصي شكور للنّعم.

(٣٢) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾: أي علاهم وغطاهم من فوقهم. ﴿كَالظُّلَلِ﴾: أي كالجبال التي تظلل من تحتها. ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: أي بين الكفر والإيمان بمعنى معتدل في ذلك ما آمن ولا كفر. ﴿كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾: أي غدار كفور لنعم الله تعالى.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير التوحيد وإبطال الشرك والكفر.

(٢٩) قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾[١] أي ألم تعلم أيها النبي أن الله ذا الألوهية على غيره ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ بإدخال جزء منه في النهار ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بإدخال جزء منه في الليل وذلك بحسب الفصول السّنوية ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾[٢] يسبحان في فلكيهما لمنافع الناس ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقت محدد معين عنده سبحانه وتعالى وهو يوم القيامة، وأن الله تعالى بما تعملون خبير، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم صالحها وفاسدها وسيجزيكم بها.

(٣٠) وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك الإيلاج لليل في النهار والنهار في الليل وتسخير الشمس والقمر، وعلم الله تعالى بأعمال العباد ومجازاتهم عليها قاطع لكل شك بأن الله هو إله الحق، وأن ما يدعون من دونه من أوثان هو الباطل[٣]، وقاطع بأن الله تعالى ذا الألوهية الحقة ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي ذو العلو المطلق الكبير الذي ليس شيء أكبر منه إذ هو ربّ كل شيء ومالكه والقاهر له والمتحكم فيه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

(٣١) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ يا محمد ﴿أَنَّ الْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ تعالى على خلقه حيث يسّر لها أسباب سيرها وجريها في البحر وهي تحمل السلع والبضائع والأقوات من إقليم إلى إقليم وهي نعم كثيرة. سخر ذلك لكم ليريكم[٤] من آياته الدالة على ربوبيته وألوهيته وهي كثيرة تتجلى في كل جزء من هذا الكون. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي علامات ودلائل على قدرة الله ورحمته وحكمته وهي موجبات عبادته وتوحيده فيها، وقوله: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ[٥] شَكُورٍ﴾ أي فيها عِبَرٌ لكل عبد صبور على الطاعات صبور عن المعاصي صبور عما تجري به الأقدار شكور لنعم الله تعالى جليلها وصغيرها، أما غير الصبور الشكور فإنه لا يجد فيها عبرة ولا عظة.

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ[٦]﴾ أي إذا غشي المشركين موج وهم على ظهر السفينة فخافوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي دعوا الله وحده ولم يذكروا آلهتهم. فلما نجاهم بفضله ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ فلم يغرقوا ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ[٧]﴾ أي في إيمانه وكفره لا يُغالي في كفره ولا

---

(١) ألم تر: الاستفهام تقريري بالنسبة إلى الرسول ﷺ وهو إنكاري بالنسبة إلى غيره ينكر على أهل الغفلة غفلتهم وأهل الإعراض عن النظر إعراضهم إذ لو نظروا وفكروا لاهتدوا إلى توحيد الله وبعثه عباده للحساب والجزاء يوم القيامة.

(٢) قال القرطبي: ذللهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع. والآية في تقرير التوحيد بذكر مظاهر علم الله وقدرته وحكمته.

(٣) جائز أن يكون المراد بالباطل الشيطان إذ هو الذي زين عبادة الأصنام والأوثان وأمرهم بهذا فلذا أطلق لفظ الباطل عليه.

(٤) ﴿مِّنْ آيَاتِهِ﴾: من: للتبعيض، من بعض آياته ما يشاهدون به مظاهر قدرة الله ولطفه ورحمته. قال الحسن: مفتاح البحار السفن ومفتاح الأرض الطرق ومفتاح السماء الدعاء.

(٥) ﴿صَبَّارٍ﴾ صيغة مبالغة كثر الصبر و ﴿شَكُورٍ﴾: كذلك كثير الشكر قال بعضهم: صبار لقضائه، شكور على نعمائه وما في التفسير أعم وأشمل. روى أن الإيمان نصفان: نصفه صبر ونصفه شكر.

(٦) ﴿كَالظُّلَلِ﴾ جمع ظلة وهو ما أظل من سحاب وجبال وغيرها.

(٧) فُسر هذا اللفظ بعدة تفسيرات منها: مُوفٍ بما عاهد الله عليه في البحر قال الحسن: مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة، وقال مجاهد: مقتصد في القول مضمر للكفر وقيل: في الكلام حذف والمعنى: فمنهم مقتصد ومنهم كافر ودل على المحذوف قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾. وما في التفسير أشمل وأسلم.

يعلن عن إيمانه. وقوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ[(١)] بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ القرآنية والكونية وهي مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته الموجبة لألوهيته ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ[(٢)]﴾ أي غدّار بالعهود ﴿كَفُورٖ﴾ للنعم لا خير فيه البتَّة والعياذ بالله تعالى من أهل الغدر والكفر.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد وإبطال الشرك بذكر الأدلة المستفادة من مظاهر قدرة الله وعلمه ورحمته وحكمته.

٢ - فضيلة الصبر والشكر والجمع بينهما خير من افتراقهما.

٣ - بيان أن المشركين أيام نزول القرآن كانوا يوحدون في الشدة ويشركون في الرخاء.

٤ - شر الناس الختّار أي الغدّار الكفور.

٥ - ذم الختر وهو أسوأ الغدر وذم الكفر بالنعم الإلهية.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣، ٣٤]

(٣٣) ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾: أي خافوا فآمنوا به واعبدوه وحده تنجوا من عذابه.

﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾: أي خافوا يوم الحساب وما يجري فيه. ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾: أي لا يغني والد فيه عن ولده شيئًا. ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾: أي وعد الله بالحساب والجزاء حق ثابت لا محالة هو كائن. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾: أي فلا تغتروا بالحياة الدنيا فإنها زائلة فأسلموا تسلموا. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾: أي الشيطان يغتنم حلم الله عليكم وإمهاله لكم فيجسركم على المعاصي ويسوفكم في التوبة.

(٣٤) ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾: أي المطر. ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾: أي من ذكر أو أنثى ولا يعلم ذلك سواه. ﴿مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾: أي من خير أو شر والله يعلمه.

معنى الآيتين:

(٣٣) هذا نداء عام لكل البشر يدعوهم فيه ربهم تعالى ناصحًا لهم بأن يتقوه بالإيمان به وبعبادته وحده لا شريك له وأن يخشوا يومًا عظيمًا فيه من الأهوال والعظائم ما لا يقادر قدره بحيث ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ[(٣)] عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ[(٤)] هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾، إذ كل واحد لا يريد إلا نجاة نفسه فيقول نفسي نفسي وهذا لشدة الهول يوم لا يغني أحد عن أحد شيئًا ولو كان أقرب قريب، وهو يوم آت لا محالة حيث وعد الله به الناس ووعد الله حق والله لا يخلف الميعاد. ويقول لهم بناءً على ذلك: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بملاذها وزخارفها وطول العمر فيها، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ ذي الحلم والكرم ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾[(٥)] أي الشيطان من الإنس أو الجن

---

(١) قال القرطبي: جحد الآيات إنكار أعيانها والجحد بالآيات إنكار دلائلها.

(٢) الختر: الغدر وجحود الفضل، وفعله ختر يختر كضرب يضرب قال عمر بن مَعْدِ يكرب:

فإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر

وقال الأعشى:

بالأبلق الفردي من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير ختار

(٣) فإن قيل: لقد ثبت بالسنة ما ظاهره خلاف هذا فقد قال ﷺ: **«من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث لم تمسه النار إلا تحلة القسم»**، وقال: **«من ابتُلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له حجاباً من النار»** فالجواب: أن المراد بالآية أن الولد لا يحمل ذنب والده وأن الوالد لا يحمل ذنب ولده، وأما موت الأولاد فأجر المصيبة مع الصبر والاحتساب هو الذي منع الوالد من دخول النار كما أن تربية البنات والإحسان إليهن جعل الله تعالى جزاءه النجاة من النار فليس في الحديث أن الولد يجزي عن والده ولا الوالد يجزي عن ولده.

(٤) ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ﴾: مبتدأ وهو ضمير فصل والخبر: جازٍ مرفوع بضمة مقدرة على حرف العلة المحذوف للتخفيف، وذكر الولد والوالد لأنهما أشد شفقة على بعضهما ورحمة وحميّة من غيرهما.

(٥) الغرور: بالفتح (الفعول) من أمثلة المبالغة أي: كثير التغرير بالإنسان وهو الشيطان عليه لعائن الرحمٰن والغرور: الخداع بما ظاهره حسن وباطنه ضرر.

يحملكم على تأخير التوبة ومزاولة أنواع المعاصي بتزيينها لكم وترغيبكم فيها فانتبهوا فإن الموت لا بُد منه وقد يأتي فجأة فالتوبة التوبة يا عباد الله هذه نصيحة الرّب تبارك وتعالى لعباده فهل من مستجيب؟ هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣٣).

(٣٤) أما الآية الثانية (٣٤) فالله جلّ جلاله يخبر عباده بأنه استقل بعلم الساعة متى[1] تأتي والقيامة متى تقوم وليس لأحد أن يعلم ذلك كائنًا من كان وهذه حال تتطلب من العبد أن يعجل التوبة ولا يؤخرها، كما استقل تعالى بعلم وقت نزول المطر في يوم أو ليلة أو ساعة من ليل أو نهار، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ أرحام الإناث من ذكر أو أنثى أو أبيض أو أحمر أو أسود، ومن طول وقصر ومن إيمان أو كفر ولا يعلم ذلك سواه ويعلم ما يكسب كل إنسان في غده من خير أو شر أو غنى أو فقر، ويعلم أين تموت[2] كل نفس من بقاع الأرض وديارها ولا يعلم ذلك إلا الله، ولذا قال رسول الله ﷺ: «**مفاتح[3] الغيب خمسة**» وقرأ: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾» في الصحيح.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي بكل شيء وليس بهؤلاء الخمسة فقط ﴿خَبِيرٌۢ﴾ بكل شيء من دقيق أو جليل من ذوات وصفات وأحوال وببواطن الأمور كظواهرها وبهذا وجب أن يُعبد وحده بما شرع من أنواع العبادات التي هي سُلم النجاح ومرقى الكمال والإسعاد في الدارين.

هداية الآيتين:

١ ـ وجوب تقوى الله عز وجل بالإيمان به وتوحيده في عبادته.

٢ ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٣ ـ التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا، والتحذير من الشيطان أي من اتباعه والاغترار بما يُزينه ويحسنه من المعاصي.

٤ ـ بيان مفاتح[4] الغيب الخمسة واختصاص الربّ تعالى بمعرفتها.

٥ ـ كل مدع لمعرفة الغيب من الجن والإنس فهو طاغوت يجب لعنه ومعاداته.

٦ ـ ما ادّعي اليوم من أنه بواسطة الآلات الحديثة قد عرف ما في رحم المرأة فهذه المعرفة ليست داخلة في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ لأنها بمثابة من فتح البطن ونظر ما فيه فقال هو كذا وذلك لوجود أشعة عاكسة أمّا المنفيّ عن كل أحد إلا الله أن يقول المرء: إن في بطن امرأة فلان ذكرًا أو أنثى ولا يقربُ منها ولا يجرّبها في ولادتها السابقة، ولا يحاول أن يعرف ما في بطنها بأيّة محاولة.

❊ ❊ ❊

(١) قال مقاتل: هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة أتى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي حبلى فأخبرني ماذا تلد؟ وبلادنا جدبة فأخبرني متى ينزل الغيث؟ ولقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ وقد علمت ما عملت اليوم فأخبرني ماذا أعمل غداً؟ وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى الآية.

(٢) روي أن النبي ﷺ قال: «**إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها**» ثم قرأ الرسول ﷺ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلخ.. الآية.

(٣) في صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مفاتح الغيب خمس**» ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية. وفي رواية أبي هريرة: «**وخمس لا يعلمهن إلا الله**» وعلة تسميتها مفاتح الغيب أنها من أمور الناس المغيبة عنهم فإذا وقعت كان وقوعها كفتح مغلق بمفتاح فالإنسان قد يعرف متى يصلي، متى يسافر، متى يتزوج أما هذه الخمسة فلا علم له بها أبداً حتى يفتح الله بابها ويظهرها.

(٤) المفاتح: جمع مفتح آلة الفتح والمعنى أن هذه الأمور الخمسة وهي متعلقة بالإنسان لا يظهرها إلى الوجود ولا يفتح مغلقها الغيبي إلا الله جل جلاله إذ بيده مفاتحها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

٤١٥

سورة السجدة
مكية[1]
وآياتها ثلاثون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٤]

(١) ﴿الٓمٓ﴾: هذه إحدى الحروف المقطعة تكتب الم، وتقرأ ألف لام ميم.

(٢) ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي لا شك في أنه نزل من رب العالمين.

(٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي بل أيقولون أي المشركون اختلقه وكذبه. ﴿قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾: أي من زمن بعيد وهم قريش والعرب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: أي بعد ضلالهم إلى الحق الذي هو دين الإسلام.

(٤) ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: أي استوى على عرشه يدبِّر أمر خليقته. ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾: أي ليس لكم أيها المشركون من دون الله وليّ يتولاكم ولا شفيع يشفع لكم. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: أي أفلا تتعظون بما تسمعون فتؤمنوا وتوحدوا.

معنى الآيات:
(١) قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾: هذه الحروف المقطعة في فواتح عدة سور الأسلم أن لا تؤول ويكتفى فيها بقول الله أعلم بمراده بها. وقد اخترنا من أقاويل المفسرين أنها أفادت فائدتين: الأولى أنه لما كان المشركون من قريش في مكة يمنعون سماع القرآن مخافة أن يتأثر السامع به فيؤمن ويوحد فكانت هذه الحروف تستهويهم بنغمها الخاص فيستمعون فينجذبون ويؤمن من شاء الله إيمانه وهدايته والثانية بقرينة ذكر الكتاب بعدها غالبًا: أن هذا القرآن الكريم قد تألف من مثل هذه الحروف الم، طس، حم، ق فألفوا أيها المكذبون سورة من مثله وإلا فاعلموا أنه تنزيل من الله رب العالمين، فلما عجزوا قامت عليهم الحجة ولم يبق شك في أنه تنزيل الله وكتابه أنزله على نبيه محمد ﷺ.

(٢) وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ[2] ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي القرآن الكريم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ[3]﴾ أي لا شك في أنه نزل من رب العالمين على محمد ﷺ. وليس بشعر ولا بسجع كهان، ولا أساطير الأولين.

(٣) وقوله تعالى: ﴿أَمْ[4] يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي بل أيقولون افتراه

---

(١) وتسمى سورة: آلم السجدة، وتنزيل السجدة وفي الصحيح أن النبي ﷺ كان يصلي بها الصبح يوم الجمعة يقرأ في الركعة الأولى بالفاتحة والسجدة والثانية بالفاتحة وسورة الإنسان كما ورد أنه كان يقرأها مع سورة الملك عند النوم وفي كل منهما ثلاثون آية.

(٢) تنزيل: مرفوع بالابتداء والخبر لا ريب فيه، أو خبر على تقدير مبتدأ أي: هذا تنزيل أو المتلو عليك تنزيل الكتاب، ويكون: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ محل نصب على الحال.

(٣) ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لِما اشتمل من الإعجاز العلمي حيث عجز الإنسان والجن على أن يأتوا بمثله وعجز فصحاء العرب على الإتيان بسورة مثل سوره. ولما عرف به صاحبه الذي نزل عليه وجاء به وهو محمد ﷺ من الصدق الكامل حيث لم يكذب قط وقد أخبر أنه تنزيل الله رب العالمين.

(٤) ﴿أَمْ﴾ هذه: هي المنقطعة ولذا قدرت بـ: بل والاستفهام في التفسير، وصيغة المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ لاستحضار الحالة الماضية إثارة للتعجب في نفس السامع.

محمد ﷺ واختلقه وأتى به من تلقاء نفسه اللهم لا إنه لم يفتره ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي جاءك من ربك وحيًا أوحاه إليك، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ[1] مِّن قَبْلِكَ﴾ وهم مشركو العرب لتنذرهم بأس الله وعذابه إن بقوا على شركهم وكفرهم، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي رجاء أن يؤمنوا ويوحدوا فيهتدوا إلى الحق بعد ضلالهم فينجوا ويكملوا ويسعدوا.

(٤) وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي من مخلوقات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من مثل أيام الدنيا أولها الأحد وآخرها الجمعة، ولذا كانت الجمعة من أفضل الأيام ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عرشه[2] سبحانه وتعالى استوى استواء يليق به يدبر أمر مخلوقاته. الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما هو الذي أنزل الكتاب وأرسل الرسول وهو الإله الحق الذي لا إله غيره ولا ربّ سواه ما للعرب ولا للبشرية كلها من إله غيره، وليس لها من غيره من وليّ يتولاها بالنصر والإنجاء إن أراد الله خذلانها وإهلاكها، وليس لها شفيع[3] يشفع لها عنده إذا أراد الانتقام منها لشركها وشرها وفسادها، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلموا أيها العرب المشركون أنه لا إله لكم إلا الله فتعبدوه وتوحده فتنجوا من عذابه وتكملوا وتسعدوا في دنياكم وآخرتكم.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير النبوة المحمدية بتقرير أن القرآن تنزيل الله ووحيه أوحاه إلى رسوله ﷺ.

٢ ـ إبطال ما كان المشركون يقولون في القرآن بأنه شعر وسجع كهان وأساطير الأولين.

٣ ـ بيان الحكمة من إنزال القرآن على النبي ﷺ وهو الإنذار.

٤ ـ بيان الزمان الذي خلق الله فيه السموات والأرض وما بينهما.

٥ ـ إثبات صفة الاستواء على العرش لله تعالى.

٦ ـ تقرير أنه ما للبشرية من إله إلا الله وأنه ليس لها من دونه من وليّ ولا شفيع فما عليها إلا أن تؤمن بالله وتعبده فتكمل وتسعد على عبادته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥ ـ ٩]

(٥) ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: أي أمر المخلوقات طوال الحياة. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾: أي يوم القيامة حيث تنتهي هذه الحياة وسائر شؤونها. ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: أي من أيام الدنيا.

(٦) ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: أي ما غاب عن الناس ولم يروه وما شاهدوه ورأوه.

(٧) ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾: أي بدأ خلق آدم عليه السلام من طين.

(٨) ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾: أي خلق ذريّة آدم من علقة من ماء النطفة.

(٩) ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾: أي سوّى الجنين في بطن أمه ونفخ فيه الروح فكان حيًا كما سوّى آدم أيضًا ونفخ فيه من روحه فكان حيًا. ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: أي القلوب. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: أي ما تشكرون الله على نعمة الإيجاد والإمداد إلا شكرًا قليلاً لا يوازي قدر النعمة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير التوحيد والنبوّة والبعث والجزاء بذكر مظاهر القدرة والعلم والرحمة والحكمة الإلهية.

(٥) فقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي أمر المخلوقات ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ حيث العرش وكتاب المقادير ﴿إِلَى

---

(١) النذير: المعلم المخوف بعواقب الشرك والمعاصي والفساد والشر، القوم: الجماعة العظيمة الذين يجمعهم أمر يكون كالقوام لهم من نسب أو وطن أو غرض تجمعوا من أجله والمراد بهم عامة العرب في كل ديارهم شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً إذ فقدوا العلم الإلهي منذ قرون عدة.

(٢) سُئل مالك رحمه الله تعالى عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

(٣) في نفي الشفيع رد على قول بعضهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله على تقدير أنهم يبعثون يوم القيامة إذ قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله أو في قضاء حوائجهم في الدنيا.

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ حيث تتم الحياة والموت والصحة والمرض والعطاء والمنع، والغنى والفقر والحرب والسلم، والعز والذل، فالله تعالى من فوق عرشه يدبر أمر الخلائق كلها في عوالمها المختلفة، وقوله: ﴿يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾، أي الأمر إليه ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ[(١)] سَنَةٖ﴾ مما يعد الناس اليوم من أيام هذه الدنيا. ومعنى ﴿يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ في يوم القيامة، أي يرد إليه حيث عمّ الكون الفناء ولم يبقَ ما يدبّر في هذه الأرض لفنائها وفناء كل ما كان عليها.

(٦) وقوله: ﴿ذَٰلِكَ[(٢)] عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ما غاب عن الناس وما حضر فشاهدوه، أي العالم بكل شيء وقوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أي الغالب على مراده من خلقه الرحيم بالمؤمنين من عباده.

(٧) وقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ[(٣)]﴾ أي أحسن خلق كل مخلوق خلقه أي جوّد خلقه وأتقنه وحسنه. وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ أي وبدأ خلق آدم من طين وهو الإنسان الأول.

(٨) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ أي نسل الإنسان من ﴿سُلَٰلَةٖ﴾ وهي العلقة ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ[(٤)]﴾ وهو النطفة.

(٩) وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ أي سوّى آدم ونفخ فيه من روحه، كما سوّى الإنسان في رحم أمه أي سوّى خلقه ثم نفخ فيه من روحه فكان إنسانًا حيًا، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ أي القلوب أي لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا لحاجتكم إلى ذلك لأن حياتكم تتطلب منكم مثل ذلك، ومع هذه النعم الجليلة ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ[(٥)]﴾ أي لا تشكرون إلا شكرًا قليلاً.

هداية الآيات:

١ - بيان جلال الله وعظمته في تدبيره أمر الخلائق.

٢ - بيان صفات الله تعالى من العلم والعزة والرحمة.

٣ - بيان كيفية خلق الإنسان ومادة خلقه.

٤ - شكر العباد - إن شكروا - لا يوازي نعم الله تعالى عليهم.

٥ - وجوب شكر النعم بالاعتراف بها وذكرها وحمد الله تعالى عليها وصرفها في مرضاته.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠، ١١]

(١٠) ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي غبنا فيها حيث فنينا وصرنا ترابًا. ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾: أي أنعود خلقًا جديدًا بعد فنائنا واختلاطنا بالتراب. ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾: أي لم يقف الأمر عند استبعادهم للبعث بل تعداه إلى كفرهم بلقاء ربهم، وهو الذي جعلهم ينكرون البعث.

(١١) ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾: أي يقبض أرواحكم ملك الموت المكلف بقبض الأرواح. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾: أي بعد الموت، وما دمتم لا تمنعون أنفسكم من الموت سوف لا تمنعونها من الحياة فرجوعكم حتمي لا محالة.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في تقرير أصول

---

(١) ورد في سورة الحج قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي هذه الآية ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي سورة المعارج ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (٤)﴾، وقد كثرت أقوال أهل التفسير في تحديد هذه الأيام حتى قال ابن عباس: أيام سماها الله سبحانه وما أدري ما هي؟ فأكره أن أقول فيها ما لا أعلم وأحسن ما يقال فيها: أن اليوم الذي ذكر في سورة الحج هو عبارة عن الزمان وتقديره عند الله وأن يوم سورة المعارج هو يوم القيامة يوم الحساب وأن هذا اليوم هو آخر أيام الدنيا حيث ينتهي التدبير والتصرف لانقضاء الحياة الدنيا وهو كما ذكر تعالى.

(٢) ذلك: اسم الإشارة عائد إلى اسم الجلالة أي: ذلك الرب العظيم والإله الحكيم الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما المدبر للملكوت المتصرف في الموجودات هو عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم المستحق للعبادة والمحبة والخوف دون غيره من سائر المخلوقات.

(٣) قرأ نافع وحفص: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بصيغة الماضي وقرأ بعض: ﴿خلقه﴾ بإسكان اللام على أنه مصدر خلق يخلق خلقاً وهو بدل اشتمال من كل شيء ومعنى ﴿أَحۡسَنَ﴾: أتقن وأحكم قال عكرمة: ليست أُست القرد بحسنةٍ ولكنها متقنة محكمة.

(٤) المهين: الممتهن الذي لا يعبأ به.

(٥) وجائز أن يكون المراد عدم شكرهم مطلقاً فهو كناية عن العدم توبيخاً لهم وتأنيباً.

العقيدة فأخبر تعالى عن منكري البعث فقال:

(١٠) ﴿وَقَالُوٓاْ﴾[(١)] أي منكرو البعث الآخر ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾[(٢)] ﴿فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي غبنا فيها بحيث صرنا ترابًا فيها ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍۭ﴾ أي لعائدون في خلق جديد. وهذا منهم إنكار للبعث واستبعاد له، فقال تعالى مخبرًا عن علة إنكارهم للبعث وهي أنهم بلقاء[(٣)] ربهم كافرون، إذ لو كانوا يؤمنون بلقاء الله الذي وعدهم به لما أنكروا البعث والحياة لذلك.

(١١) وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ أي قل يا رسولنا لهؤلاء المنكرين للبعث ولقاء الرب تعالى: يتوفاكم عند نهاية آجالكم ﴿مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾[(٤)] الذي وكله ربُه بقبض أرواحكم، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ بعد ذلك وما دمتم لا تدفعون الموت عن أنفسكم فكيف تدفعون الحياة عندما يريدها الله منكم؟ وهل دفعتموها عندما كنتم عدمًا فأوجدكم الله وأحياكم.

هداية الآيتين:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - الذنب الذي هو سبب كل ذنب هو الكفر بلقاء الله تعالى.

٣ - بيان أن لقبض الأرواح ملكًا وله أعوان من الملائكة وأن الأرض جعلت لملك الموت كالطست بين يديه يتناول منها ما يشاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ - ١٤]

(١٢) ﴿إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: أي المشركون المكذبون بلقاء ربهم. ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾: أي مطأطئوها من الحياء والذل والخزي. ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾: أي ما كنا ننكر من البعث. ﴿وَسَمِعۡنَا﴾: أي تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا. ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾: أي إلى دار الدنيا.

(١٣) ﴿لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾: أي لو أردنا هداية الناس قسرًا بدون اختيار منهم لفعلنا. ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّى﴾: أي وجب وهو لأملأن جهنم من الجِنة والناس أجمعين.

الجزءُ الحادي والعشرون — سورةُ السَّجدَة

وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّى لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ (١٣) فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدًاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ (١٨) أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٠)

٤١٦

(١٤) ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾: أي تركناكم في العذاب. ﴿عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾: أي العذاب الخالد الدائم. ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾: من سيئات الكفر والتكذيب والشر والشرك.

معنى الآيات:

(١٣) ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحداثها وما يجري للمكذبين بها في الدار

---

(١) الجملة استئناف لحكاية عقيدتهم في إنكار البعث والجزاء ليعلل لها بالعلة المناسبة ثم يقرر عقيدة البعث التي أنكروها وتعجبوا من حقيقتها بما هو لازم لها.

(٢) الاستفهام للتعجب والاستبعاد، والضلال: الدخول في الأرض والغياب فيها إذ كل ما غاب في شيء ولم يظهر له وجود يقال: ضل فيه كما يضل الماء في اللبن والميت في القبر قال الحارث الغساني شعراً:

فآب مضلوه بعين جلية ... وغودر بالجولان حزم ونائل

(مضلوه أي: مغيبوه).

(٣) ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾، بل: للإضراب عن كلامهم أي: ليس إنكارهم البعث لاستبعاده واستحالته لوجود الأدلة الواضحة على إمكانه بل وجوبه وإنما الباعث لهم على التكذيب به هو كفرهم التقليدي.

(٤) لم يرد اسم ملك الموت في القرآن غير أن أهل السنة على أن اسمه عزرائيل بمعنى عبدالله.

الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾[1] يا رسولنا ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الذين أجرموا على أنفسهم فدنسوها بالشرك والمعاصي الحامل عليها التكذيب بلقاء الله، ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ أي مطأطئوها خافضوها عند ربهم من الحياء والخزي الذي أصابهم عند البعث. لرأيت أمرًا فظيعًا لا نظير له. وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا[2] وَسَمِعْنَا﴾ هذا قول المجرمين وهم عند ربهم أي يا ربنا لقد أبصرنا ما كنا نكذب به من البعث والجزاء، وسمعنا منك، أي تصديق ما كانت رسلك تأمرنا به في الدنيا. ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ أي إلى دار الدنيا ﴿نَعْمَلْ[3] صَٰلِحًا﴾ أي عملاً صالحًا ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي الآن ولم يبق في نفوسنا شك بأنك الإله الحق، وبأن لقاءك حق.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا[4] لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ وذلك لما طالب المجرمون بالعودة إلى الدنيا ليعملوا صالحًا، فأخبر تعالى أنه ما هناك حاجة إلى ردهم إلى الدنيا ليؤمنوا ويعملوا الصالحات، إذ لو شاء هدايتهم لهداهم قسرًا منهم بدون اختيارهم، ولكن سبق أن قضى بدخولهم جهنم فلا بد هم داخلوها وهو معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ أي وجب العذاب لهم وهو معنى قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ أي الجن ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي من كفار ومجرمي الجن والإنس معًا.

(١٤) وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ أي العذاب والخزي ﴿بِمَا نَسِيتُمْ[5]﴾ أي بسبب نسيانكم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ فلم تؤمنوا ولم تعملوا صالحًا ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي تركناكم في العذاب. ﴿وَذُوقُوا۟[6] عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك والمعاصي هذا يقال لهم وهم في جهنم تبكيتًا لهم وتقريعًا زيادة في عذابهم، والعياذ بالله من عذاب النار.

هداية الآيات:

١ - التنديد بالإجرام والمجرمين وبيان حالهم يوم القيامة.
٢ - بيان عدم نفع الإيمان عند معاينة العذاب.
٣ - بيان حكم الله في امتلاء جهنم من كل من مجرمي الإنس والجن.
٤ - تقرير حكم السببيّة فالأعمال سبب للجزاء خيرًا كان أو شرًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ - ١٧]

(١٥) ﴿إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾: أي وعظوا بما فيها من أمر ونهي ووعد ووعيد.
﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾: أي وقعوا على الأرض ساجدين بوضع جباههم وأنوفهم على الأرض. ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: أي نزهوه وقدسوه وهم ساجدون يقولون سبحان ربي الأعلى. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: أي عن عبادة ربهم في كل آحايينهم بل يأتونها خاشعين متذللين.
(١٦) ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾: أي تتباعد عن الفرش من أجل قيامهم للصلاة في جوف الليل. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: أي يسألونه النجاة من النار، ودخول الجنة.
(١٧) ﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: أي لا تعلم نفس ما أخفى الله تعالى لهم وادخر لهم عنده من النعيم الذي تقر به أعينهم أي تسر به وتفرح.

معنى الآيات:

(١٥) لما ذكر تعالى جزاء المجرمين

---

(١) الخطاب للرسول ﷺ لشرفه، وأمته تابعة له والمعنى: ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب العجاب من ذلتهم وخزيهم وندامتهم.
(٢) هذا مقول قول محذوف بعد ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ يقولون أو قائلين ربنا إلخ..
(٣) هذا كقولهم في آية: ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾.
(٤) هذه الجمل اعتراضية بين قوله: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا﴾ إلخ.. رد عليهم حيث طلبوا العودة إلى الدنيا ليؤمنوا ويوحدوا.
(٥) النسيان: يكون بمعناه الأصلي وهو عدم ورود الشيء بالخاطر النفسي ويكون بترك الشيء وعدم الالتفات إليه مع ذكره في النفس، والآخر أولى بالآية.
(٦) قد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم قال الشاعر:
فذق هجرها إن كنت تزعم أنها ... فساد ألا يا ربّما كذبَ الزعمُ

الجزء الحادي والعشرون — سُورَةُ السَّجْدَة

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ الأحزاب — ترتيبها ٣٣ — آياتها ٧٣

٤١٧

وهم المكذبون بآيات الله ولقائه ذكر جزاء المؤمنين وهم الذين آمنوا بآيات الله ولقائه ذكرهم بأجمل صفاتهم فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ[1] بِـَٔايَٰتِنَا﴾ حق الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ أي قرئت عليهم وكانت من الآيات التي فيها السجدات ﴿خَرُّوا۟[2] سُجَّدًا﴾ أي وقعوا على الأرض ساجدين بوضع جباههم وأُنوفهم على التراب، ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي نزهوه وقدّسوه أثناء سجودهم بقولهم سبحان ربي الأعلى، والحال أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله مطلقًا بل يأتونها متذللين خاشعين.

﴿١٦﴾ وقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ[3] جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ هذه بعض صفاتهم أيضًا وهي أنهم يباعدون جنوبهم عن فرشهم في الليل لصلاة التهجد. وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي في حال صلاتهم وفي غيرها وهو دعاء تميّز بخوفهم من عذاب ربهم وطمعهم في رحمته فهم يسألون ربهم النجاة من النار ودخول الجنة.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذا وصفٌ آخر لهم وهو أنهم يتصدقون بفضول أموالهم زيادة على أداء الزكاة كتهجدهم بالليل زيادة على الصلوات الخمس.

﴿١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ[4] نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ[5] لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ يخبر تعالى عن جزائهم عنده فيقول: فلا تعلم نفس ما خبّأ الله تعالى لهم من النعيم المقيم الذي تقر به أعينهم، أي تُسر وتفرح، وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي جزاهم بذلك النعيم بعملهم الخيري الإسلامي الذي كانوا في الدنيا يعملونه وقد ذكر بعضه في الآيات قبل كالصلاة والصدقات.

هداية الآيات:

١ - فضيلة التسبيح في الصلاة وهو سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود.

٢ - ذم الاستكبار وأهله ومدح التواضع لله وأهله.

٣ - فضيلة قيام الليل وهو المعروف بالتهجد[6] والدعاء خوفًا وطمعًا.

٤ - بشرى المؤمنين الصادقين من

= فأطلق الذوق على الهجر وهو غير مطعوم ولكنه محسوس بالنفس.

(١) في الآيات تسلية للرسول ﷺ عما يجده من إعراض المشركين المكذبين بالبعث والجزاء في الدار الآخرة والقائلين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فأعلمه إنما يؤمن من ذكرهم بصفاتهم، والقصر إضافي والمراد من الآيات آيات القرآن الكريم.

(٢) الخرور: الهوي من علو إلى أسفل والسجود: وضع الجبهة على الأرض إرادة التعظيم والخضوع.

(٣) الجملة حالة من الموصول والتجافي: التباعد والمتاركة، والمضاجع جمع مضجع: الفراش والجنب: جمع جَنب، والمراد تباعدهم عن فرشهم لقيام الليل، ومن صلى العشاء في جماعة والصبح في جماعة تناوله الوصف، وشاهد التجافي في قول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه بمدح النبي ﷺ فيقول:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

(٤) هذا كقول الرجل: هذا لا يعلمه إلا الله، وقرة الأعين: كناية عن السرور وعظيم الفرح.

(٥) قرأ الجمهور: ﴿مَّآ أُخْفِىَ﴾ بصيغة الماضي المجهول، وقرأ غيرهم: ﴿أخفي﴾ بالمضارع المعلوم.

(٦) روى الترمذي بسند صحيح عن معاذ بن جبل قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار،

ذوي الصفات المذكورة في الآيات وهو أنه تعالى [أعدّ لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما جاء في الحديث أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين[1] رأت] إلخ.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨ ـ ٢٢]

(١٨) ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾: أي مصدقًا بالله ورسوله ولقاء ربّه. ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾: أي كافرًا لا يستوون.

(١٩) ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا﴾: النزل ما يعد للضيف من قرىً.

(٢١) ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: أي عذاب الدنيا من مصاب القحط والجدب والقتل والأسر. ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: هو عذاب الآخرة في نار جهنم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي يصيبهم بالمصائب في الدنيا رجاء أن يؤمنوا ويوحدوا.

(٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾: لا أحد أظلم منه أبدًا.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾: أي من المشركين أي بتعذيبهم أشد أنواع العذاب.

معنى الآيات:

(١٨) قوله تعالى: ﴿أَفَمَن[2] كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ أي كافرًا ينفي تعالى استواء الكافر مع المؤمن فلذا بعد الاستفهام الإنكاري أجاب بقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ ثم بيّن تعالى جزاء الفريقين وبذلك تأكد بُعد ما بينهما فقال:

(١٩) ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ربًا وإلهًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً وبالإسلام شرعًا ودينًا ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأداء الفرائض والنوافل في الغالب بعد اجتنابهم الشرك والمحارم ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا[3]﴾ أي ضيافة لهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وأما الذين فسقوا عن أمر الله فلم يوحدوا ولم يطيعوا فعاشوا على الشرك والمعاصي حتى ماتوا.

(٢٠) ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ[4] ٱلنَّارُ﴾ أي مقرهم ومحل مثواهم وإقامتهم لا يخرجون ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا﴾ أي هموا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها من قبل الزبانية تدفعهم عن أبوابها، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ إذلالاً لهم وإهانة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إذ كانوا مكذبين بالبعث والجزاء، وقالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

(٢١) وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ وهو عذاب الدنيا بالقحط والغلاء والقتل والأسر ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب يوم القيامة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[5] يخبر تعالى أنه فاعل ذلك بكفار قريش لعلهم يتوبون إلى الإيمان والتوحيد فينجوا من العذاب وينعموا في الجنة وفعلاً قد تاب منهم كثيرون.

(٢٢) وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ[6] عَنْهَآ﴾ أي وُعظ بها وخُوِّف كما كان الرسول ﷺ يقرأ عليهم القرآن وكان بعضهم يعرض عنها فلا يسمعها ويرجع وهو مستكبر والعياذ بالله

= قال: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسر على من يسره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت»، ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير، الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطايا كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل»، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الآية.

(١) في الصحيح قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

(٢) الاستفهام إنكاري وفيه معنى التعجب والمراد بالفاسق هنا: الكافر لمقابلة المؤمن وفسقه بترك عبادة ربه وعبادة الأوثان والأصنام.

(٣) النزل بضمتين: مشتق من النزول وهو ما يعد للضيف النازل بك من قرى وهو الطعام والشراب والفراش.

(٤) المأوى: مكان الإيواء أي: الرجوع إليه والاستقرار فيه.

(٥) الجملة استئنافها بياني جواباً لمن قال: لم يذيقهم العذاب الأدنى وهو عذاب الدنيا! دون العذاب الأكبر؟ فكان الجواب: لعلهم يرجعون وهو تعليل للحكم السابق.

(٦) عطف الإعراض على التذكير بالآيات بثُم للدلالة على التراخي بين زمن التذكير والإعراض كقول الشاعر:

لا يكشف الغماد إلا ابن حره ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

فمثل هؤلاء لا أحد أشدّ منهم ظلمًا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[1] يخبر تعالى أنه لا محالة منتقم من أهل الإجرام وهم أهل الشرك والمعاصي، وورد عن النبي ﷺ ذكر ثلاثة أصناف من أهل الإجرام الخاص وهم:

١ - من اعتقد «عقد» لواء في غير حق أي حمل راية الحرب على المسلمين وهو مبطل غير محق.

٢ - من عق والديه أي آذاهما بالضرب ونحوه ومنعهما برهما ولم يطعهما في معروف.

٣ - من مشى مع ظالم ينصره. رواه ابن جرير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

هداية الآيات:

١ - بيان خطأ من يسوي بين المؤمن والكافر والبار والفاجر والمطيع والفاسق.

٢ - بيان جزاء كل من المؤمنين والفاسقين.

٣ - بيان أن الله تعالى كان يأخذ قريشًا بألوان من المصائب[2] لعلهم يتوبون.

٤ - بيان أنه لا أظلم ممن ذكر بآيات الله فيعرض عنها مستكبرًا جاحدًا معاندًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣ - ٢٦]

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي أنزلنا عليه التوراة. ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾: أي فلا تشك في لقائك بموسى عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج. ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي وجعلنا الكتاب «التوراة» هدىً أي هاديًا لبني إسرائيل.

(٢٤) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: أي وجعلنا من بني إسرائيل أئمة أي قادة هداة يهدون الناس بأمرنا لهم بذلك وإذننا به. ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾: أي وكان أولئك الهداة يوقنون بآيات ربهم وحججه على عباده وما تحمله الآيات من وعد ووعيد.

(٢٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي بين الأنبياء وأممهم وبين المؤمنين والكافرين والمشركين والموحدين. ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: من أمور الدين.

(٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: أي أغفلوا ولم يتبيّن. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾: أي إهلاكنا لكثير من أهل القرون من قبلهم بكفرهم وشركهم وتكذيبهم لرسلهم. ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾: أي يمرون ماشين بديارهم وهي في طريقهم إلى الشام كمدائن صالح وبحيرة لوط ونحوهما. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ﴾: أي دلائل وعلامات على قدرة الله تعالى وأليم عقابه. ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾: أي أصمُّوا فلا يسمعوا هذه المواعظ والحجج.

معنى الآيات:

(٢٣) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى[3] ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أعطينا موسى بن عمران أحد أنبياء بني إسرائيل الكتاب الكبير وهو التوراة. إذًا فلم ينكر عليك المشركون أن يؤتيك ربك القرآن كما آتى موسى التوراة، وفي هذا تقرير لأصل من أصول العقيدة وهي الوحي والنبوة المحمدية. وقوله: ﴿فَلَا تَكُن[4] فِى مِرْيَةٍ[5] مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي فلا تكن يا محمد في شك من لقائك موسى ليلة الإسراء والمعراج فقد لقيه وطلب

---

(١) الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً فهو جواب لمن تساءل عن جزاء صاحبه الإعراض بعد التذكير بالآيات وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

(٢) من ذلك سنوات الجدب التي أكلوا فيها العهن وأصبح أحدهم يرى السماء وكأنها دخان من شدة الجوع.

(٣) هذا الإخبار استطراد، المراد به تسلية النبي ﷺ والفاء في قوله: ﴿فَلَا تَكُن﴾: للتفريع.

(٤) وجائز أن يكون المعنى فلا تكن في شك من أنك لقيته ليلة الإسراء والمعراج وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول وقيل: فلا تكن في شك من أنه سيلقاك من الأذى والتكذيب ما لقيه موسى، وما في التفسير هو الحق.

(٥) المرية: الشك والتردد والمقصود من النهي التثبيت كقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وليس النهي لطلب ترك الشك إذ لم يكن شك قط.

إليه أن يراجع ربّه في شأن الصلاة فراجع حتى أصبحت خمسًا بعد أن كانت خمسين، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي الكتاب أو موسى كلاهما كان هاديًا لبني إسرائيل إلى سبيل السلام والصراط المستقيم.

(٢٤) وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي قادة هداة يهدون الناس إلى ربهم فيؤمنون به ويعبدونه وحده فيكملون على ذلك ويسعدون وذلك بأمره تعالى لهم بذلك. وقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾[1] أي عن أذى أقوامهم، ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الحاملة لأمرنا ونهينا، ووعدنا ووعيدنا ﴿يُوقِنُونَ﴾ أي تأهلوا لحمل رسالة الدعوة بشيئين: الصبر على الأذى واليقين التام بصحة ما يدعون إليه ونفعه ونجاعته.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ[2] يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يخبر تعالى رسوله محمدًا ﷺ بأنه سبحانه وتعالى الذي يفصل بين المختلفين من الأنبياء وأممهم، وبين الموحدين والمشركين والسنيين والبدعيين فيحكم بإسعاد أهل الحق وإشقاء أهل الباطل، وفي الآية تسلية للرسول ﷺ وتخفيف عليه مما يجد في نفسه من خلاف قومه له.

(٢٦) وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي أعموا فلم[3] يُبيّن لهم إهلاكنا لأمم كثيرة ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾[4] مارّين بهم في أسفارهم إلى الشام كمدائن صالح، وبلاد مدين، وبحيرة لوط أنا قادرون على إهلاكهم إن أصروا على الشرك والتكذيب كما أهلكنا القرون من قبلهم. وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي في إهلاكنا أهل القرون الأولى لما أشركوا وكذبوا دلالات وحججًا وبراهين على قدرة الله وشدة انتقامه ممن كفر به وكذب رسوله ﷺ وقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾[5] أي أصموا فلا يسمعون هذه المواعظ التي تتلى عليهم فيتوبوا من الشرك والتكذيب فينجوا ويسعدوا.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية وتأكيد قصة الإسراء والمعراج.

٢ - الكتاب والسنة كلاهما هادٍ للعباد إن طلبوا الهداية فيهما.

٣ - بيان ما تُنال به الإمامة في الدين. وهو الصبر وصحة اليقين.

٤ - كل خلاف كان في هذه الحياة سينتهي بحكم الله تعالى فيه يوم القيامة.

٥ - في إهلاك الله تعالى للقرون السابقة أكبر واعظ لمن له قلب وسمع وبصيرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ - ٣٠]

(٢٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾: أي أغفلوا ولم يروا سوقنا للماء للإنبات والإخصاب فيدلهم ذلك على قدرتنا. ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾: أي اليابسة التي لا نبات فيها. ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾: أي مواشيهم من إبل وبقر وغنم. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾: أي أعموا فلا يبصرون أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على البعث.

(٢٨) ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾: أي الفصل

---

(١) ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ لما بمعنى: حين صبروا عن أذى أقوامهم، وقرأ خلاف الجمهور: ﴿لما صبروا﴾ أي: لأجل صبرهم جعلناهم أئمة، فما مصدرية واللام قبلها لام التعليل.

(٢) هو ضمير فصل ومعنى يفصل: يقضي ويحكم.

(٣) هذا بناء على أن همزة الاستفهام داخلة على محذوف والاستفهام للإنكار عليهم عدم رؤيتهم مصارع الهالكين من قبلهم وهي واضحة بينة فضمن يهد معنى يبين فلذا عُدي باللام ومثله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ آية الأعراف.

(٤) جملة ﴿يَمْشُونَ﴾: في محل نصب على الحال.

(٥) الاستفهام تقريري مشوب بالتوبيخ واختير لفظ يسمعون لأن أخبار الأمم الهالكة كانت شائعة مستفيضة بينهم فلم لا يسمعونها سماع اتعاظ واعتبار؟

والحكم بيننا وبينكم يستعجلون العذاب.

(٢٩) ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: أي ولا هم يمهلون للتوبة أو الاعتذار.

(٣٠) ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾: أي وانتظر يا رسولنا ما سيحل بهم من عذاب إن لم يتوبوا فإنهم منتظرون بك موتًا أو قتلاً ليستريحوا منك.

معنى الآيات:

(٢٧) ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء التي عليها مدار الإصلاح الاجتماعي فيقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي أغفل أولئك المكذبون بالبعث والحياة الثانية ولم يروا ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾[1] ماء الأمطار أو الأنهار ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾[2] اليابسة التي ما بها من نبات فنخرج بذلك الماء الذي سقناه إليها بتدابيرنا الخاصة ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ وهي إبلهم وأبقارهم وأغنامهم ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ فالأنعام تأكل الشعير والذرة وهم يأكلون البر والفول ونحوه ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أي أعموا فلا يبصرون آثار قدرة الله على إحياء الموتى بعد الفناء والبلى كإحياء الأرض الجرز فيؤمنوا بالبعث الآخر وعليه يستقيموا في عقائدهم وكل سلوكهم.

(٢٨) وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾[3] إن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝﴾ حكى تعالى عنهم ما يقولونه للمؤمنين لما يُخوفونهم بعذاب الله يقولون لهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي الحكم والفصل يستعجلونه لخفة أحلامهم وعدم إيمانهم.

(٢٩) وهنا أمر تعالى رسوله أن يقول لهم. فقال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ[4] لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ أي إذا جاء يوم الفتح بيننا وبينكم لا ينفع نفسًا كافرة إيمانها عند رؤية العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يؤخرون ويمهلون ليتوبوا ويستغفروا فيتاب عليهم ويغفر لهم إذ سُنّة الله أنّ من عاين العذاب لا تقبل توبته.

(٣٠) وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض يا رسولنا عن هؤلاء المكذبين ﴿وَٱنتَظِرْ﴾[5] ما سينزل بهم من عذاب ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾[6] ما قد يصيبك من مرض أو موت أو قتل ليستريحوا منك في نظرهم. كما هم منتظرون أيضًا عذاب الله عاجلاً أو آجلاً.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة المقررة لها.

٢ - استعجال الكافرين العذاب دال على جهلهم وطيشهم.

٣ - بيان أن التوبة لا تُقبل عند معاينة العذاب أو مشاهدة ملك الموت ساعة الاحتضار.

❀ ❀ ❀

---

(١) الرؤية هنا بصرية واختير المضارع ﴿نَسُوقُ﴾ لاستحضار الصورة العجيبة الدالة على قدرة الله تعالى ولطفه بعباده ورحمته بهم، وسوق الماء هو بسوق السحاب، والسوق هو إزجاء الماشي من ورائه.

(٢) الجرز: وصف للأرض التي انقطع نبتها، وهو مشتق من الجرز وهو انقطاع النبت والحشيش إما بسبب يبس الأرض أو بالرعي، والجرز: القطع ولذا سمي السيف القاطع جُرازاً قال الشاعر يصف أسنان ناقته:

تنحى على الشوك جُرازاً مقضباً ... الهرم تدريه إذراء عجبا

(٣) الفتح: النصر والقضاء، كانوا إذا قال لهم المؤمنون: سيحكم الله بيننا وبينكم يوم القيامة فيثيب المؤمن ويعاقب الكافر يقولون لهم مستهزئين ساخرين: متى هذا الفتح أو الحكم.

(٤) هذا إجابة لهم ورد عليه والفتح جائز أن يكون فتح مكة أو يوم بدر أو يوم القيامة إذ هو اليوم الذي يحكم الله تعالى فيه بين عباده.

(٥) الانتظار: الترقب مشتق من النظر كأنه مضارع أنظره فانتظر وحذف مفعول «انتظر» للتهويل أي: انتظر أياماً يكون لك النصر فيها، ويكون الخسران لأعدائك فيها، وفي الأمر بالانتظار إيماء بالبشرى للمؤمنين والوعيد للكافرين.

(٦) جملة ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾: تعليل للأمر بالانتظار.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

٤١٨

سورة الأحزاب
مدنية
وآياتها ثلاث وسبعون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٣]

﴿١﴾ ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: أي دم على تقواه بامتثالك أوامره واجتنابك نواهيه.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي المشركين فيما يقترحون عليك. ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: أي الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر بما يخوفونك به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: أي عليمًا بخلقه ظاهرًا وباطنًا حكيمًا في تدبيره وصنعه.

﴿٢﴾ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: أي تقيد بما يشرع لك من ربك ولا تلتفت إلى ما يقوله خصومك لك من اقتراحات أو تهديدات.

﴿٣﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أي فوض أمرك إليه وامض في ما أمرك به غير مبالٍ بشيء.

معنى الآيات:
﴿١﴾ لقد واصل المشركون اقتراحاتهم التي بدؤوها بمكة حتى المدينة وهي عروض المصالحة بينه وبينهم بالتخلي عن بعض[1] دينه أو بطرد بعض أصحابه، والمنافقون قاموا بدورهم في المدينة بتهديده ﷺ بالقتل غيلة إن لم يكف عن ذكر آلهة المشركين في هذا الظرف بالذات نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾[2] ناداه ربه تعالى بعنوان النبوة تقريرًا لها وتشريفًا له ولم يناده باسمه العلم كما نادى موسى وعيسى وغيرهما بأسمائهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ[3] ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾[4] أي اتق الله فخفه فلا تقبل اقتراح المشركين، ولا ترهب تهديد المنافقين بقتلك إن الله كان وما يزال عليمًا بكل خلقه وما يحدثون من تصرفات ظاهرة أو باطنة حكيمًا في تدبيره وتصريفه أمور خلقه وعباده فهو تعالى لعلمه وحكمته لا يخذلك ولا يتركك، ولا يُمكن أعداءك وأعداءه منك بحال.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من تشريعات خاصة وعامة ولا تترك منها صغيرة ولا كبيرة إذ هي طريق فوزك وسُلم نجاحك أنت وأمتك تابعة لك في كل ذلك، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١) هذا من قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾.

(٢) نداؤه تعالى نبيه ﷺ بعنوان النبوة تشريف له وتقرير لنبوته وناداه بعنوان الرسالة في موضعين من كتابه وذلك في سورة المائدة. وأمره أن يخبر البشرية كلها بأنه رسول الله إليهم وحدث عنه فوصفه بالرسالة ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ ولم يناده باسمه العلم لشهرته وعدم الحاجة إليه وحتى لا يدعي أحد أنه هو المعني بهذا الاسم وله ﷺ خمسة أسماء كما جاء ذلك في حديث الموطأ: «**لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**».

(٣) الطاعة: العمل بما يأمر به الغير أو يشير به لأجل تحقيق غرض له صالحاً كان أو فاسداً.

(٤) سبب نزول هذه الآية أن وفداً جاء من مكة بعد غزوة أحد برئاسة أبي سفيان واجتمعوا بعد أن أمّن رسول الله ﷺ دخولهم المدينة بعدد من المنافقين على رأسهم ابن أبيّ ومعتب بن قشير وطعمة بن أبيرق فسألوا رسول الله ﷺ أن يترك ذكر آلهة قريش كخطوة في المصالحة فغضب المسلمون وهمّ عمر بقتلهم فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ هذه الجملة تعليلية تحمل الوعد والوعيد إذ علم الله بأعمال العباد صالحها وفاسدها يستلزم الجزاء عليها فمتى كانت صالحة كان الجزاء حسنًا وفي هذا وعده ومتى كانت فاسدة كان الجزاء سوءًا وفي هذا الوعيد.

(٣) وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أمر تعالى رسوله وأمته تابعة له أن يتوكل على الله في أمره ويمضي في طريقه منفذًا أحكام ربه غير مبال بالكافرين ولا بالمنافقين، وأعلمه ضمنًا أنه كافيه متى توكل عليه وكفى بالله كافيًا ووكيلًا حافظًا.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب تقوى الله تعالى بفعل المأمور به وترك المنهي عنه.

٢ ـ حرمة طاعة الكافرين والمنافقين فيما يقترحون أو يهددون من أجله.

٣ ـ وجوب اتباع الكتاب والسنة والتوكل على الله والمضي في ذلك بلا خوف ولا وجل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤، ٥]

(٤) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾: أي لم يخلق الله رجلًا بقلبين كما ادعى بعض المشركين.

﴿تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾: يقول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾: أي ولم يجعل الدعيَّ ابنًا لمن ادّعاه.

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾: أي مجرد قول باللسان لا حقيقة له في الخارج فلم تكن المرأة أمًا ولا الدعي ابنًا.

(٥) ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾: أي أعدل.

﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾: أي أخوة الإسلام وبنو عمكم فمن لم يعرف أبوه فقولوا له: يا أخي أو ابن عمي.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾: أي لا حرج ولا إثم في الخطأ، فمن قال للدعي خطأ يا ابن فلان فلا إثم عليه.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: أي الإثم والحرج في التعمد بأن ينسب الدعي لمن ادعاه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: ولذا لم يؤاخذكم بالخطأ ولكن بالتعمد.

معنى الآيتين:

لما كان القلب محط العقل والإدراك كان وجود قلبين في جوف رجل واحد يحدث تعارضًا يؤدي إلى الفساد في حياة الإنسان ذي القلبين لم يجعل الله تعالى لرجل قلبين في جوفه كما ادعى بعض أهل مكة أن أبا معمر جميل بن معمر الفهري كان له قلبان لما شاهدوا من ذكائه ولباقته وحذقه وغرّه ذلك فقال: إن لي قلبين أعقل بهما أفضل من عقل محمد ﷺ فكانت الآية ردًا عليه.

(٤) قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ[١] مِّن قَلْبَيْنِ[٢] فِي جَوْفِهِ﴾ وفيه إشارة إلى أنه لا يجمع بين حب الله تعالى وحب أعدائه وطاعة الله وطاعة أعدائه، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي لم يجعل الله تعالى المرأة المظاهر منها أُمًا لمن ظاهر منها كأن يقول لها أنت عليّ كظهر أُمي وكان أهل الجاهلية يعدون الظهار مُحرِّمًا للزوجة كالأم فأبطل الله تعالى ذلك وبيّن حكمه في سورة المجادلة، وأن من ظاهر من امرأته يجب عليه كفارة: عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾[٣] أي لم يجعل الله الدعيّ

---

(١) يروى أنه لما انهزمت قريش يوم بدر رأى أبو سفيان جميل بن معمر المدعي أن له قلبين، ورآه منهزماً وإحدى نعليه في رجله والأخرى في يده، فسأله أبو سفيان: ما حال الناس؟ قال: انهزموا فقال له: ما بال أحد نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال: ما شعرت. فانفضح في دعواه.

(٢) القلب: بضعة لحم صغيرة على هيئة (صنوبرة) خلقها الله تعالى في الآدمي وجعلها محلاً للعلم، وهو بين لمتين: لمة من الملك ولمة من الشيطان، وهو محل العلم ومحل الخطرات والوساوس ومحل الصدق واليقين ومحل الشك والكذب، ومحل الانزعاج والطمأنينة. فسبحان الله الخلاق العليم.

(٣) هذه الآية نزلت في شأن زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله ﷺ إذ تبناه رسول الله ﷺ قبل البعثة النبوية، إذ كان عبداً رقيقاً لخديجة فأهدته لرسول الله ﷺ وأصبح من يومئذ يعرف بـ: زيد بن محمد حتى نزلت هذه الآية فأبطلت التبني ففي هذا نسخ للسنة بالكتاب.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

ابنًا إذ كانوا في الجاهلية وفي صدر الإسلام يطلقون على المتبنَّى ابنًا فيترتب على ذلك كامل حقوق البنوة من حرمة التزوج بامرأته إن طلقها أو مات عنها، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي ما هو إلا نطق بالفم ولا حقيقة في الخارج له إذ قول الرجل للدعيّ أنت ولدي لم يُصيِّره ولده، وقول الزوج لزوجته أنت كأمي لم تكن أمًا له. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ فلا يطلق على المظاهر منها لفظ أم، ولا على الدعي لفظ ابن، ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي الأقوم والأرشد سبحانه لا إله إلا هو.

﴿٥﴾ وقوله تعالى في الآية (٥) من هذا السياق ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أي ادعوا الأدعياء لآبائهم أي انسبوهم لهم يا فلان بن فلان. فإن دعوتهم إلى آبائهم أقسط وأعدل في حكم الله وشرعه. ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فادعوهم باسم الأخوّة الإسلامية فقولوا هذا أخي في الإسلام. ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي بنو عمكم فادعوهم بذلك فقولوا يا ابن عمي وإن كان الدعي ممن حررتموه فقولوا له مولاي ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي إثم أو حرج ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾[1] من قول أحدكم للدعي يا ابن فلان لمن ادعاه خطأ لسان بدون قصد، أو ظنًا منكم أنه ابنه وهو في الواقع ليس ابنه ولكن الإثم في التعمد والقصد المتعمد، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي غفورًا لمن تاب رحيمًا لم يعاجل بالعقوبة من عصى لعله يتوب ويرجع.

هداية الآيتين:

١ - إبطال التحريم بالظهار الذي كان في الجاهلية.

٢ - إبطال عادة التبني، وما يترتب عليها من حرمة نكاح امرأة المتبنَّى.

٣ - وجوب دعاء الدعي المتبنَّى بأبيه إن عُرف ولو كان حمارًا.

٤ - إن لم يعرف للدعي أب دُعي بعنوان الأخوّة الإسلامية، أو العمومة أو المولوية.

٥ - رفع الحرج والإثم في الخطأ عمومًا وفيما نزلت فيه الآية الكريمة خصوصًا وهو دعاء الدعي باسم مُدعيه سبق لسان بدون قصد، أو بقصد لأنه يرى أنه ابنه وهو ليس ابنه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ ـ ٨]

﴿٦﴾ ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: أي فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ويطلب منهم هو أحق به من أنفسهم. ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾: في الحرمة وسواء من طلقت أو مات عنها منهن رضي الله عنهن. ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾: أي في التوارث من المهاجرين والمتعاقدين المتحالفين. ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾: بأن توصوا لهم وصيّة جائزة وهي الثلث فأقل. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾: أي عدم التوارث بالإيمان والهجرة والحلف مكتوب في اللوح المحفوظ.

﴿٧﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾: أي اذكر لقومك أخذنا من النبيين ميثاقهم على أن يعبدوا الله وحده

---

(١) أخذ عطاء وكثير من العلماء من السلف، أخذوا من هذه الآية أنه لا مؤاخذة مع الخطأ من ذلك: إذا حلف المرء ألا يسلّم على فلان فسلم عليه وهو لا يظن أنه هو فإنه لا يحنث، أو حلف أن لا يفارق غريمه حتى يقضيه دينه فأعطاه دراهم فوجدها زيوفاً لا يحنث، وروى البخاري: **«من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام»**، كما روى: **«ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلم إلا كفر»**.

ويدعوا إلى عبادته. ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾: أي وأخذنا بخاصة منك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وقدم محمد ﷺ في الذكر تشريفًا وتعظيمًا له. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾: أي شديدًا، والميثاق: العهد المؤكد باليمين.

﴿٨﴾ ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾: أي أخذ الميثاق من أجل أن يسأل الصادقين وهم الأنبياء عن صدقهم في تبليغ الرسالة تبكيتًا للكافرين بهم. ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: أي فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين عذابًا أليمًا أي موجعًا.

معنى الآيات:

لما أبطل الله تعالى عادة التبني وكان النبي ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة الكلبي فكان يعرف بزيد بن محمد ﷺ وأصبح بذلك يدعى بزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أعلم تعالى كافة المؤمنين أن نبيه محمدًا ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأن أزواجه أمهاتهم[1] في الحرمة فلا تحل امرأة النبي لأحد بعده ﷺ.

﴿٦﴾ ومعنى أن ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ[2] مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ويطلبه منهم هو أحق به من أنفسهم، وبذلك أعطى الله تعالى رسوله ﷺ من الرفعة وعلوّ الشأن ما لم يُعط أحدًا غيره جزاء له على صبره على ما أُخذ منه من بنوّة زيد رضي الله عنه الذي كان يُدعى بزيد بن محمد ﷺ فأصبح يعرف بزيد بن حارثة.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ[3]﴾ يريد في الإرث فأبطل تعالى بهذه الآية التوارث بالإيمان والهجرة والحلف الذي كان في صدر الإسلام وأصبح التوارث بالنسب والمصاهرة والولاء لا غير. وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ التوارث بالأرحام أي بالقرابات مكتوب في اللوح المحفوظ، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي إلا أن توصوا بوصيّة جائزة وهي الثلث لأحد من المؤمنين والمهاجرين ومن حالفتم فلا بأس فهي جائزة ولا حرمة[4] فيها، وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من التوارث بالقرابات لا غير وجواز الوصيّة بالثلث لمن أبطل إرثهم بالإيمان والهجرة والمؤاخاة، في اللوح المحفوظ وهو كتاب المقادير ﴿مَسْطُورًا﴾ أي مكتوبًا مسطرًا فلا يحل تبديله ولا تغييره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ[5]﴾ أي اذكر يا رسولنا لقومك أخذنا الميثاق وهو العهد المؤكد باليمين من النبيين عامة بأن يعبدوا الله وحده ويدعوا أممهم إلى ذلك، ومن أولي العزم من الرسل خاصة وهم أنت يا محمد ونوح[6] وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أُعيد اللفظ تكرارًا لتقريره.

﴿٨﴾ وليرتب عليه قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾

---

(١) هذه الأمومة إنما هي في حرمة النكاح والبر والتعظيم والإجلال أما في الإرث فلا، كما أنه لا تبيح النظر إليهن والخلوة بهن كالأمهات فلذا ضرب الله الحجاب عليهن وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

(٢) صح أنه ﷺ لا يصلي على ميت ترك دينًا ولم يترك سدادًا فلما فتح الله عليه، قال: **«أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفي وعليه دين فعليّ قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته»** وقال: **«أيكم ترك دينًا أو ضياعًا فأنا مولاه»**، فأكد ﷺ بالفعل والقول هذه الحقيقة.

(٣) ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾: متعلق بالمؤمنين أي: أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين وذلك في كتاب الله المتضمن لشرعه وهو القرآن، والمتضمن لقضائه وقدره وهو اللوح المحفوظ فبطل التوارث بالإسلام والهجرة والمعاقدة والتحالف وثبت بالولاء والنسب والمصاهرة لا غير.

(٤) اختلف في الوصية للكافر من يهودي أو نصراني والراجح أنها إن كانت مودة له ومحبة فإنها لا تجوز إذ مودتهم محرمة وإن كانت لمعنى آخر كإحسان قدمه الكتابي للمسلم فرأى أن يكافئه عليه فأوصى له بشيء إذا مات فلا حرج.

(٥) قال القرطبي: أي: عهدهم على الوفاء بما حملوا وأن يبشر بعضهم ببعض ويصدق بعضهم بعضًا وما في التفسير شامل لهذا ولغيره مما ذكر فيه.

(٦) خص هؤلاء بالذكر تعظيمًا لهم وتشريفًا ولأنهم أصحاب شرائع وكتب وأولو العزم من الرسل.

تعالى يوم القيامة ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] وهم الأنبياء ﴿عَن صِدۡقِهِمۡ﴾ في تبليغ رسالتهم تقريعًا لأممهم الذين كفروا وكذبوا. فأثاب المؤمنين ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي موجعًا وهو عذاب النار.

هداية الآيات:

١ - وجوب تقديم ما يريده الرسول ﷺ من المؤمن على ما يريده المؤمن لنفسه.

٢ - حرمة أزواج النبي ﷺ وأنهن أمهات المؤمنين وهو ﷺ كالأب لهم.

٣ - بطلان التوارث بالمؤاخاة والهجرة والتحالف الذي كان في صدر الإسلام.

٤ - جواز الوصيّة لغير الوارث بالثلث فأقل.

٥ - وجوب توحيد الله تعالى في عبادته ودعوة الناس إلى ذلك.

٦ - تقرير التوحيد بأخذ الميثاق به على كافة الأنبياء والمرسلين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ ـ ١٤]

(٩) ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾: أي اذكروا نعمة الله أي دفاعنا عنكم لتشكروا ذلك. ﴿جُنُودٞ﴾: أي جنود المشركين المتحزبين. ﴿رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾: هي جنود الملائكة والريح ريح الصبا وهي التي تهب من شرق. ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾: أي بصيرًا بأعمالكم من حفر الخندق والاستعدادات للمعركة.

(١٠) ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾: أي بنو أسد وغطفان أتوا من قبل نجد من شرق المدينة. ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾: أي من غرب وهم قريش وكنانة. ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾: أي مالت عن كل شيء إلا عن العدو تنظر إليه من شدة الفزع. ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾: أي منتهى الحلقوم من شدة الخوف. ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠[2]﴾: أي المختلفة من نصر وهزيمة، ونجاة وهلاك.

(١١) ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: أي ثم في الخندق وساحة المعركة اختبر المؤمنون. ﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾: أي حركوا حراكًا قويًا من شدة الفزع.

(١٢) ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾: أي شيء من النفاق لضعف عقيدتهم. ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾: أي ما وعدنا من النصر ما هو إلا غرورًا وباطلاً.

(١٣) ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾: أي يا أهل المدينة لا مقام لكم حول الخندق فارجعوا إلى دياركم. ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾: أي غير حصينة. ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾: أي من القتال إذ بيوتهم حصينة.

(١٤) ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم﴾: أي المدينة أي دخلها العدو الغازي. ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾: أي ثم طلب إليهم الردة إلى الشرك لآتوها أي أعطوها وفعلوها. ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾: أي ما تريثوا ولا تمهلوا بل أسرعوا الإجابة وارتدوا.

معنى الآيات:

(٩) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ[3] جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ الآيات، هذه قصة غزوة[4] الخندق أو الأحزاب قصها تبارك وتعالى على المؤمنين في معرض التذكير بنعمه تعالى عليهم ليشكروا بالانقياد والطاعة لله ورسوله ﷺ وقبول كل ما يشرع لهم لإكمالهم وإسعادهم في الحياتين فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يا من آمنتم

---

(١) جائز أن يراد بالصادقين: الأنبياء عن تبليغهم ووفائهم بما عهد إليهم وهذا هو الأرجح وجائز أن يسأل الأنبياء عما أجابهم به أقوامهم من طاعة وإيمان أو كفر وعصيان، والحقيقة أن كلاً من الرسل والمرسل إليهم يسألهم تعالى، فقد جاء في الأعراف قوله تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٦)﴾.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ جمع ظن بألف بعد النون زيدت هذه النون لرعاية الفواصل في الوقف لأن الفواصل مثل الأسجاع. ومن القراء من أثبتها وقفاً وحذفها وصلاً والكل جائز ومثلها في هذ السورة: ﴿وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

(٣) إذ: ظرف للزمان الماضي متعلق بـ: (نعمة) لما فيها من معنى الإنعام أي: اذكروا ما أنعم الله به عليكم وقت مجيء جنود العدو إليكم لقتالكم فهزمهم الله جل جلاله بما شاء من وسائط.

(٤) اختلف في السنة؟ التي كانت فيها غزوة الأحزاب فقال قوم: كانت سنة خمس وقال آخرون: كانت سنة أربع وكانت في شوال، وسميت بغزوة الأحزاب لتحزب المشركين على قتال الرسول ﷺ والمؤمنين فصاروا حزباً واحداً.

بالله ربًا وإلهًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً وبالإسلام دينًا وشرعًا ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ المتمثلة في دفع أكبر خطر قد حاق بكم وهو اجتماع جيوش عدّة على غزوكم في عقر داركم وهم جيوش قريش وأسد وغطفان وبنو قريظة من اليهود ألّبهم عليهم وحزّب أحزابهم حُيي بن أخطب النضري يريد الانتقام من الرسول ﷺ والمؤمنين إذ أجلوهم عن المدينة وأخرجوهم منها فالتحقوا بيهود خيبر وتيما، ولما بلغ النبي ﷺ خبرهم أمر[1] بحفر الخندق تحت سفح جبل سلع غربي المدينة، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه إذ كانت له خبرة حربيّة علمها من ديار قومه فارس.

وتم حفر الخندق في خلال شهر من الزمن وكان ﷺ يعطي لكل عشرة أنفار أربعين ذراعًا أي عشرين مترًا، وما إن فرغوا من حفره حتى نزلت جيوش المشركين وكانوا قرابة اثني عشر ألفًا ولما رأوا الرسول ﷺ والمسلمين وراء الخندق تحت جبل سلع قالوا هذه مكيدة لم تكن العرب تعرفها فتناوشوا بالنبال ورمى عمرو بن عبد ود القرشي بفرسه في الخندق فقتله علي رضي الله عنه ودام الحصار والمناوشة وكانت الأيام والليالي باردة والمجاعة ضاربة أطنابها قرابة الشهر. وتفصيل الأحداث للقصة فيما ذكره تعالى فيما يلي:

فقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ هي جنود المشركين من قريش ومن بني أسد وغطفان ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا[2] لَّمْ تَرَوْهَا﴾ لما جاءتكم جنود المشركين وحاصروكم في سفح سلع أرسلنا عليهم ريحًا وهي ريح الصبا المباركة التي قال فيها رسول الله ﷺ: «**نصرت بالصبا**[3] **وأهلكت عاد بالدبور**» وهي الريح الغربيّة. وفعلت بهم الصبا الأفاعيل حيث لم تبق لهم نارًا إلا أطفأتها ولا قدرًا على الأثافي إلا أراقته، ولا خيمة ولا فسطاطًا إلا أسقطته وأزالته حتى اضطروا إلى الرحيل، وقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة فأصابتهم بالفزع والرعب الأمر الذي أفقدهم كل رشدهم وصوابهم ورجعوا يجرون أذيال الخيبة والحمد لله، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي بكل أعمالكم من حفر الخندق والمشادات والمناورات وما قاله وعمله المنافقون لم يغب عليه تعالى شيء وسيجزيكم به المحسن بالإحسان والمُسيء بالإساءة.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ أي المشركون ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من الشرق وهم غطفان بقيادة عيينة بن حصن وأسد، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وهم قريش وكنانة، أي من الجنوب الغربي وهذا تحديد لساحة المعركة، وقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي مالت عن كل شيء فلم تبق تنظر إلا إلى القوات الغارية من شدة الخوف، ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي ارتفعت بارتفاع الرئتين فبلغت منتهى الحلقوم[4]. وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ المختلفة من نصر وهزيمة

---

(١) روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق -حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه وكان كثير الشعر فرأيته يرتجز بكلمات ابن رواحه ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزل سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

(٢) هي جنود الملائكة الذين كانوا يلقون الرعب في قلوب المشركين حتى تخاذلوا وقرروا العودة إلى بلادهم.

(٣) قال عكرمة: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقي لنصرة النبي ﷺ وقالت الشمال: إن مَحْوَة لا تسري بالليل فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا وهي الريح الشرقية، (محوة): من أسماء ريح الشمال لأنها تمحو السحاب.

(٤) وقيل: هذا من باب المبالغة على إضمار كادت أي: ارتفعت من أماكنها لشدة الخوف حتى كادت تبلغ الحناجر جمع حنجرة، قال الشاعر:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

أي: كادت تقطر، والحنجرة والحنجور: حرف الحلق أي: طرفه.

وسلامة وعطب، وهذا تصوير للحال أبدع تصوير وهو كما ذكر تعالى حرفيًا.

⑪ وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك المكان والزمان الذي حدّق العدو بكم ﴿ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي اختبرهم ربهم ليرى الثابت على إيمانه الذي لا تزعزعه الشدائد والفتن من السريع الانهزام والتحول لضعف عقيدته وقلة عزمه وصبره. وقوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي أزعجوا وحرّكوا حراكًا شديدًا لعوامل قوة العدو وكثرة جنوده، وضعف المؤمنين وقلة عددهم، وعامل المجاعة والحصار، والبرد الشديد وما أظهره المنافقون من تخاذل وما كشفت عنه الحال من نقض بني قريظة عهدهم وانضمامهم إلى الأحزاب.

⑫ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ[1] ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي النفاق لضعف إيمانهم ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي من النصر ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي باطلًا، وذلك أنهم لما كانوا يحفرون في الخندق استعصت عليهم صخرة فأبت أن تنكسر فدعي لها الرسول ﷺ فضربها بالمعول ضربة تصدعت لها وبرق منها بريقٌ أضاء الساحة كلها فكبّر رسول الله ﷺ وكبّر المسلمون، ثم ضربها ثانية فصدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة فكبّر رسول الله ﷺ تكبير الفتح وكبّر المسلمون وضرب ثالثة فكسرها وبرقت لها برقة كسابقتيها وكبّر رسول الله ﷺ وكبّر المسلمون ثم أخذ رسول الله ﷺ بيد سلمان فرقى من الخندق فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئًا ما رأيته قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال: هل رأيتم ما رأى سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله فأعلمهم أنه على ضوء ذلك البريق رأى قصور مدائن كسرى كأنياب الكلاب وإن جبريل أخبرني أن أمتي ظاهرة عليها كما رأيت في الضربة الثانية القصور الحمراء من أرض الروم وأخبرني جبريل أن أُمتي ظاهرة عليها، ورأيت في الثالثة قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا أبشروا أبشروا، فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعود صدق. فلما طال الحصار واشتدت الأزمة واستبدّ الخوف بالرجال قال المنافقون وضعفاء الإيمان: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ إذ قال معتب[2] بن قشير يعدنا محمد ﷺ بفتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرّز فرقًا وخوفًا ما هذا إلا وعد غرورًا!!

⑬ وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ[3] مِّنْهُمْ﴾ أي من المنافقين. وهو أُويس بن قيظي أحد رؤساء المنافقين ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ[4]﴾ أي المدينة قبل أن يبطل الرسول ﷺ هذا الاسم لها ويسميها بالمدينة ﴿لَا مُقَامَ[5] لَكُمْ﴾ أي في سفح سلع عند الخندق ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم داخل المدينة بحجة أنه لا فائدة في البقاء هُنا دون قتال، وما قال ذلك إلا فرارًا من القتال وهروبًا من المواجهة، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ أي يطلبون الإذن لهم بالعودة إلى منازلهم بالمدينة بدعوى أن بيوتهم ﴿عَوْرَةٌ﴾ أي مكشوفة أمام العدو وهم لا يأمنون عليها، وأكذبهم الله تعالى في قولهم فقال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي ما يريدون بهذا الاعتذار إلا الفرار من وجه العدو.

⑭ وقال تعالى فيهم ومن أصدق

---

(١) من بين القائلين طعمة بن أبيرق ومعتب بن قشير وجماعة قالوا يوم الخندق: كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحد منا أن يتبرز؟

(٢) تقدم أنه من رواية النسائي «النهر».

(٣) لفظ الطائفة يطلق على الواحد فأكثر والمعني أوس بن قيظي والد عرابة بن أوس الذي يقول فيه لشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

(٤) يثرب: هي المدينة وسماها النبي ﷺ طيبة وطابة قال السهيلي: سمى العرب في الجاهلية المدينة يثرب، لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل بن قهلائيل عوض بن عملاق بن لاوذ بن أرم.

(٥) قرأ نافع والجمهور: ﴿لا مقام﴾ بفتح الميم وهو اسم لمكان القيام، وقرأ حفص بضم الميم، المقام: وهو اسم لمحل الإقامة.

من الله قيلاً: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ المدينة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي من جميع نواحيها من شرق وغرب وشمال وجنوب ﴿ثُمَّ[1] سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي ثم طلب منهم العدو الغازي الذي دخل عليهم المدينة الردة أي العودة إلى الشرك ﴿لَآتَوْهَا﴾ أعطوها فورًا ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ حتى يرتدوا عن الإسلام ويصبحوا كما كانوا مشركين والعياذ بالله من النفاق والمنافقين.

هداية الآيات:

١ - مشروعية التذكير بالنعم ليشكرها المذكَّرون بها فتزداد طاعتهم لله ورسوله ﷺ.

٢ - عرض غزوة الأحزاب أو الخندق عرضًا صادقًا لا أمثل منه في عرض الأحداث للعبرة.

٣ - بيان أن غزوة الخندق كانت من أشد الغزوات وأكثرها ألمًا وتعبًا على المسلمين.

٤ - بيان أن حُسْنَ الظن بالله ممدوح، وأن سوء الظن به تعالى كفر ونفاق.

٥ - بيان مواقف المنافقين الداعية إلى الهزيمة ليكون ذلك درسًا للمؤمنين.

٦ - تقرير النبوة المحمدية بإخبار الغيب التي أخبر بها رسول الله ﷺ فكانت كما أخبر من فتح فارس والروم واليمن.

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

٤٢٠

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ - ١٩]

(١٥) ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾: أي من قبل غزوة الخندق وذلك يوم أحد، قالوا: والله لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن ولا نولي الأدبار. ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾: أي صاحب العهد عن الوفاء به.

(١٦) ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي وإذا فررتم من القتال فإنكم لا تمتعون بالحياة إلا قليلاً وتموتون.

(١٧) ﴿مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾: أي من يجيركم ويحفظكم من الله. ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾: أي عذابًا تستاؤون له وتكربون.

(١٨) ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾: أي المثبطين عن القتال المفشلين إخوانهم عنه حتى لا يقاتلوا مع رسول الله ﷺ والمؤمنين. ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾: أي تعالوا إلينا ولا تخرجوا مع رسول الله ﷺ. ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي ولا يشهدون القتال إلا قليلاً دفعًا عن أنفسهم تهمة النفاق.

(١٩) ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: أي بخلاء لا ينفقون على مشاريعكم الخيرية كنفقة الجهاد وعلى الفقراء. ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: أي تدور أعينهم من شدة الخوف لجبنهم كالمحتضر الذي يغشى عليه أي يغمى عليه من آلام سكرات الموت. ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾: أي آذوكم بألسنة ذربة حادة كأنها الحديد وذلك بكثرة كلامهم وتبجحهم بالأقوال دون الأفعال. ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾: أي بخلاء بالخير لا يعطونه ولا يفعلونه بل ولا يقولونه حتى القول. ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾: أي إنهم لم يؤمنوا الإيمان الصحيح فلذا هم جبناء عند اللقاء بخلاء عند العطاء.

معنى الآيات:

(١٥) ما زال السياق الكريم في

---

(١) ثُمَّ: العطف بها هنا للترتيب الرتبي، إذ كان مقتضى الدهر أن يكون العطف بالواو، لأن المذكور بعد حرف العطف داخل في فعل الشرط ووارد عليه جوابها فعدل عن الواو إلى ثم لأجل التنبيه على أن ما بعد ثم أهم من الذي قبلها أي: أنهم مع ذلك يأتون الفتنة.

عرض أحداث غزوة الأحزاب، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا[1] اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ أي ولقد عاهد أولئك المنافقون الله من قبل غزوة الأحزاب وذلك يوم فروا من غزوة أُحد إذ كانت قبل غزوة الأحزاب بقرابة السَّنتين فقالوا: والله لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن ولا نولّي[2] الأدبار، فذكرهم الله بعهدهم الذي قطعوه على أنفسهم ثم نكثوه، ﴿وَكَانَ عَهْدُ[3] اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي يُسأل عنه صاحبه ويؤاخذ به.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ أي قل لهم يا رسولنا إنه لن ينفعكم الفرار أي الهروب من الموت أو القتل لأن الآجال محددة ومن لم يمت بالسيف مات بغيره فلا معنى للفرار من القتال إذا وجب، وقوله: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإذا فررتم من القتال فإنكم لا تمتعون بالحياة إلا قليلاً من الزمن ثم تموتون عند نهاية أعماركم وهي فترة قليلة، فالفرار لا يطيل أعماركم والقتال لا ينقصها.

(١٧) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ[4] رَحْمَةً﴾ أي قل لهم يا رسولنا تبكيتًا لهم وتأنيبًا وتعليمًا أيضًا: من[5] ذا الذي يعصمكم أي يجيركم ويحفظكم من الله ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أي ما يسوؤكم من بلاء وقتل ونحوه ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي سلامة وخيرًا فليس هناك من يحول دون وصول ذلك إليكم لأن الله تعالى يجير ولا يُجار عليه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا[6] وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ولا يجد المخالفون لأمر الله العصاة له ولرسوله ﷺ من دون الله وليًّا يتولاهم فيدفع عنهم ما أراد الله بهم من سوء، ولا نصيرًا ينصرهم إذا أراد الله إذلالهم وخذلانهم لسوء أفعالهم.

(١٨) وقوله تعالى في الآية (١٨) في هذا السياق ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ[7] الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أخبرهم تعالى بأنه قد علم المعوقين أي المثبطين عن القتال والمخذلين بما يقولونه سرًا في صفوف المؤمنين كالطابور الخامس في الحروب وهم أناس يذكرون في الخفاء عظمة العدو وقوته يرهبون منه ويخذلون عن قتاله. وقوله: ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي تعالوا إلينا إلى المدينة واتركوا محمدًا ﷺ وأصحابه يموتون وحدهم فإنهم لا يزيدون عن أكلة جزور. وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولا يشهد القتال ويحضره أولئك المنافقون المثبطون والذين قالوا إن بيوتنا عورة إلا قليلاً إذ يتخلفون في أكثر الغزوات وإن حضروا مرة قتالاً فإنما هم يدفعون به معرة التخلف ودفعًا لتهمة النفاق التي لصقت بهم.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً[8] عَلَيْكُمْ﴾ وصفهم بالبخل بعد وصفهم بالجبن وهما شر صفات المرء أي الجبن والبخل أشحة عليكم أي

---

(١) ذكر بعضهم أن هؤلاء هم بنو حارثة وبنو سلمة إذ هموا بالرجوع يوم أحد، وقيل: هم من فاتتهم وقعة بدر فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن. وما في التفسير أرجح لدلالة السياق عليه.

(٢) المراد بعهد الله: كل عهد يعاهد عليه العبد ربه فإنه يجب عليه الوفاء به وإن تركه سُئل عنه وحوسب به يوم القيامة.

(٣) الأدبار جمع دبر والمراد به الظهر فالأدبار الظهور وتولية الأدبار كناية عن الفرار.

(٤) في الكلام محذوف تقديره: أو يجرمنكم إن اراد بكم رحمة وهذا يعرف بدلالة الاقتضاء إيجازاً للكلام كقول الراعي:

إذا ما الغانيات برزن يوماً ... وزججن الحواجب والعيونا

أي: وكحلن العيون.

(٥) الاستفهام للنفي أي: لا أحد يعصمهم مما أراد الله تعالى بهم.

(٦) المراد بالولي: من يتولى نفعهم والنصير من يتولى نصرهم في الحرب.

(٧) قد تفيد التحقيق فهي مؤكدة لمضمون الجملة لتطلب المقام ذلك لوجود شك لدى المخاطبين، والمعوقين: جمع معوق وهو من يكثر منه العوق وهو المنع من العمل والحيلولة دونه والصيغة صيغة مبالغة نحو طوّف وغلّف وسمّع.

(٨) أشحة: جمع شحيح والقياس أشحاء لكنهم عدلوا عنه فقالوا: أشحة والضمير في عليكم يعود إلى الرسول الله ﷺ والمؤمنين، والشح: البخل بما في الوسع إعطاؤه.

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

٤٢١

بخلاء لا ينفقون معكم لا على الجهاد ولا على الفقراء والمحتاجين، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ[1]﴾ أي بسبب هجوم العدو ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها الرسول ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ لائذين بك ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ من الخوف ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ وهو المحتضر يُغمى عليه لما يعاني من سكرات الموت وهذا تصوير هائل لمدى ما عليه المنافقون من الجبن والخوف وعلة هذا هو الكفر وعدم الإيمان بالقدر والبعث والجزاء.

وقوله: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ أي راحت أسبابه بانتهاء الحرب ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ﴾ أي سلقكم أولئك الجبناء عند اللقاء أي ضربوكم بألسنة ذربة حادة كالحديد بالمطالبة بالغنيمة أو بالتبجح الكاذب بأنهم فعلوا وفعلوا. وهذا حالهم إلى اليوم، وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي بخلاء على مشاريع الخير وما ينفق في سبيل الله فلا ينفقون لأنهم لا يؤمنون بالخلف ولا بالثواب والأجر وذلك لكفرهم بالله ولقائه. ولذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟[2]﴾ فسجل عليهم وصف الكفر ورتب عليه نتائجه فقال: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها فلا يثابون عليها لأنها أعمال مشرك وأعمال المشرك باطلة، وقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي إبطال أعمالهم وتخييبهم فيها وحرمانهم من جزائها يسير على الله ليس بالعسير. ولذا هو واقع كما أخبر تعالى.

هداية الآيات:

١ - وجوب الوفاء بالعهد إذ نقض العهد من علامات النفاق.

٢ - ترك الجهاد خوفًا من القتل عمل غير صالح إذ القتال لا ينقص العمر وتركه لا يزيد فيه.

٣ - الشح والجبن من صفات المنافقين وهما شر الصفات في الإنسان.

٤ - الثرثرة وكثرة الكلام والتبجح بالأقوال من صفات أهل الجبن والنفاق.

٥ - الكفر محبط للأعمال.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ - ٢٥]

﴿٢٠﴾ ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾: أي يحسب أولئك المنافقون الجبناء الأحزاب وهم قريش وغطفان. ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾: أي لم يعودوا إلى بلادهم خائبين. ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾: أي مرة أخرى فرضا. ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾: أي من جبنهم وخوفهم يتمنّون أن لو كانوا في البداية مع سكانها. ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾: أي إذا كانوا في البداية لو عاد الأحزاب يسألون عن أنبائكم أي أخباركم هل انهزمتم أو انتصرتم. ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي ولو كانوا بينكم في الحاضرة ما قاتلوا معكم إلا قليلا.

﴿٢١﴾ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أي قدوة صالحة تقتدون به ﷺ في القتال والثبات في مواطنه.

﴿٢٢﴾ ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾: من الابتلاء والنصر. ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾: في الوعد الذي وعد به. ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾: أي تصديقًا بوعد الله وتسليمًا لأمر الله.

﴿٢٣﴾ ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾: أي وفوا بوعدهم. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ

---

(١) الخوف هنا: توقع القتال من الجيشين.

(٢) أولئك أصحاب تلك الصفات الذميمة الصادرة عن قلوب لم تخالطها بشاشة الإيمان فلذا أحبط الله أعمالهم لأنه لم تكن ثمرة إيمان صحيح فلذا هي فاسدة لا تزكي النفس ولا يستحق صاحبها أجراً.

﴿نَحْبَهُۥ﴾: أي وفى بنذره فقاتل حتى استشهد. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾: أي ما زال يخوض المعارك مع رسول الله ﷺ وهو ينتظر القتل في سبيل الله. ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾: أي في عهدهم بخلاف المنافقين فقد نكثوا عهدهم.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾: أي وردّ الله الأحزاب خائبين لم يظفروا بالمؤمنين. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾: أي بالريح والملائكة.

معنى الآيات:

(٢٠) ما زال السياق في سرد أحداث غزوة الأحزاب، فقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي يحسب أولئك المنافقون الجبناء الذين قالوا إن بيوتنا عورة وقالوا لإخوانهم هلم إلينا أي اتركوا محمدًا ﷺ في الواجهة وحده إنهم لجبنهم ظنوا أن الأحزاب لم يعودوا إلى بلادهم مع أنهم قد رحلوا وهذا منتهى الجبن والخوف، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي مرة أخرى على فرض وتقدير ﴿يَوَدُّوا۟﴾ يومئذ ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ[1] فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي خارج المدينة مع الأعراب في البادية لشدة خوفهم من الأحزاب الغزاة، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾[2] أي أخباركم هل ظَفِرَ بكم الأحزاب أو لا، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ أي بينكم ولم يكونوا في البادية ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وذلك لجبنهم وعدم إيمانهم بفائدة القتال لكفرهم بلقاء الله تعالى وما عنده من ثواب وعقاب. هذا ما تضمنته الآية الأولى (٢٠).

(٢١) وقوله تعالى في الآية الثانية (٢١): ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ[3] فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟[4] ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: لقد كان لكم أيها المسلمون أي: من مؤمنين صادقين ومنافقين كاذبين في رسول الله محمد ﷺ أسوة حسنة أي قدوة صالحة فاقتدوا به في جهاده وصبره وثباته، فقد جاع حتى شدّ بطنه بعصابة وقاتل حتى شُجّ وجهه وكسرت رباعيته ومات عمه وحفر الخندق بيديه وثبت في سفح سلع أمام العدو قرابة شهر فأتسوا به في الصبر والجهاد والثبات إن كنتم ترجون الله أي تنظرون ما عنده من خير في مستقبل أيامكم في الدنيا والآخرة وترجون اليوم الآخر أي ترتقبونه وما فيه من سعادة وشقاء، ونعيم مقيم أو جحيم وعذاب أليم. وتذكرون الله تعالى كثيرًا في كل حالاتكم وأوقاتكم، فاقتدوا بنبيكم ﷺ فإن الاقتداء به واجب لا يسقط إلا عن عجز والله المستعان.

(٢٢) وقوله تعالى في الآية الثالثة في هذا السياق (٢٢): ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ أي لما رأى المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب وقد أحاطت بهم ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا[5] ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بخلاف ما قاله المنافقون حيث قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي رؤيتهم للأحزاب على كثرتهم ﴿إِلَّآ إِيمَـٰنًا﴾ بصادق وعد الله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضائه وحكمه، وهذا ثناء عطر على المؤمنين الصادقين من ربهم عز وجل.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ هذا ثناء آخر على بعض المؤمنين الذين لما تخلفوا عن بدر فتأسفوا، ولما حصل

---

(١) قرىء: ﴿لو أنهم بُدّىً﴾ جمع بادٍ كغازٍ وغزّى، يقال: بدا فلان يبدو إذا خرج إلى البادية وهي البداوة، والبداوة بالكسر والفتح.

(٢) أي: هل هلك محمد وأصحابه، أم غلب أبو سفيان وأحزابه؟ أي: يودون لو أنهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدة قتال لفرط جبنهم.

(٣) هذه الآية تحمل عتاباً شديداً للمتخلفين عن القتال، والأسوة: بضم الهمزة قراءة عاصم وبالكسر قراءة الجمهور وهي اسم لما يؤتسى به أي: يقتدى به: ويعمل مثل عمله وجمع الأسوة أُسىً وإِسىً.

(٤) اختلف في الأتساء برسول الله ﷺ هل هو على الإيجاب أو الندب أو هو على الإيجاب حتى يقوم دليل الاستحباب أو هو على العكس؟ والصواب أنه فيما هو واجب واجب وفيما هو مستحب مستحب.

(٥) المراد من الوعد الذي ذكروه هو ما تضمنته آية البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية. أي: قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ كما أن الرسول ﷺ قد أخبرهم بقدوم الأحزاب عليهم وأن الله ناصرهم عليهم.

انهزام لهم في أُحد عاهدوا الله لئن أشهدهم الله قتالاً مع رسول الله ﷺ ليقاتلن حتى الاستشهاد فأخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي وفى بنذره فقاتل حتى استشهد ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ القتل في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا[1]﴾ أدنى تبديل في موقفهم فثبتوا على عهدهم بخلاف المعوقين من المنافقين فإنهم بدلوا وغيروا ما عاهدوا الله عليه.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ[2] ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي أجرى تعالى تلك الأحداث فكانت كما قدرها في كتاب المقادير، ليجزي الصادقين بصدقهم فيكرمهم وينعمهم في جواره ويعذب المنافقين بناره إن شاء ذلك فيميتهم قبل توبتهم، أو يتوب عليهم فيؤمنوا ويوحدوا ويدخلوا الجنة مع المؤمنين الصادقين وهو معنى قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ ذلك لهم قضاء وقدرًا أو يتوب عليهم فيتوبوا فلا يعذبوا، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إخبار منه تعالى عن نفسه بأنه كان ذا ستر على ذنوب التائبين من عباده رحيمًا بهم فلا يعاقبهم بعد توبتهم.

(٢٥) وقوله تعالى في آخر هذا السياق (٢٥): ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟[3]﴾ وهم قريش وكنانة وأسد وغطفان ردهم ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي بكربهم وغمهم حيث لم يظفروا بالرسول ﷺ والمؤمنين ولم يحققوا شيئًا مما أمّلوا تحقيقه، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ حيث سلط على الأحزاب الريح والملائكة فانهزموا وفروا عائدين إلى ديارهم لم ينالوا خيرًا. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إيجاد ما يريد إيجاده ﴿عَزِيزًا﴾ أي غالبًا على أمره لا يمتنع منه شيء أراده.

هداية الآيات:

١ - تقرير أن الكفر والنفاق صاحبهما لا يفارقه الجبن والخور والشح والبخل.

٢ - وجوب الائتساء برسول الله ﷺ في كل ما يطيقه العبد المسلم ويقدر عليه.

٣ - ثناء الله تعالى على المؤمنين الصادقين لمواقفهم المشرفة ووفائهم بعهودهم.

٤ - ذم الانهزاميين الناكثين لعهودهم الجبناء من المنافقين وضعاف الإيمان.

٥ - بيان الحكمة في غزوة الأحزاب، ليجزي الصادقين... إلخ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦، ٢٧]

(٢٦) ﴿ظَٰهَرُوهُم﴾: أي ناصروهم ووقفوا وراءهم يشدون أزرهم. ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾: أي من حصونهم والصياصي جمع صيصيَة وهي كل ما يمتنع به. ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾: أي ألقى الخوف في نفوسهم فخافوا.

(٢٧) ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾: أي لم تطؤوها بعد وهي خيبر إذ فتحت بعد غزوة الخندق.

معنى الآيتين:

(٢٦) قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم[4] مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا شروع في ذكر غزوة بني قريظة إذ كانت بُعيد غزوة الخندق في السنة الخامسة من الهجرة في آخر شهر القعدة، وخلاصة الحديث عن هذه الغزوة أنه لما ذهب الأحزاب وعاد الرسول ﷺ والمؤمنون إلى المدينة وكان بنو قريظة قد نقضوا عهدهم وانضموا إلى الأحزاب من المشركين عونًا لهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين فلما ذهب الأحزاب وانصرف الرسول ﷺ والمؤمنون من الخندق إلى المدينة فما راع الناس إلا ومنادي رسول الله ﷺ ينادي إلى بني

---

(١) في هذه الجملة تعريض بالمنافقين الذين عاهدوا الله لا يولون الأدبار ثم ولوا راجعين وعادوا إلى بيوتهم تاركين الرسول ﷺ والمؤمنين في المواجهة.

(٢) الجملة تعليلية أي: ثم الذي تم من الوفاء والغدر والصبر والجزع والهزيمة والنصر لعله أن يجزي الله الصادقين بما يناسب صدقهم وهو المغفرة ويجزي المنافقين بما يناسب نفاقهم.

(٣) روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ قالت: أبو سفيان بن حرب وعيينة بن بدر.

(٤) المظاهرون: بفتح الهاء هم قريش وكنانة وغطفان والمظاهرون لهم هم بنو قريظة من أهل الكتاب.

قريظة فلا يصلينّ أحدكم العصر إلا ببني قريظة وهي على أميال من المدينة وذلك أن جبريل أتى النبي ﷺ ظهر ذلك اليوم فقال: يا رسول الله وضعت السلاح إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة فقام رسول الله ﷺ وأمر مناديًا ينادي بالذهاب إلى بني قريظة وذهب رسول الله ﷺ والمسلمون فحاصروهم قرابة خمس وعشرين ليلة وجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب فقال لهم رسول الله ﷺ أتنزلون على حكمي فأبوا فقال: أتنزلون على حكم سعد بن معاذ[(١)] ؟ فقالوا: نعم فحكمه فيهم فحكم بأن يُقتل الرجال وتسبى الذراري والنساء وتقسم الأموال، فقال الرسول ﷺ مقررًا للحكم لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات. فحبسهم رسول الله ﷺ في دار بنت الحارث من نساء بني النجار وخرج إلى سوق المدينة فحفر فيها خندقًا ثم جيء بهم وفيهم حيي بن أخطب الذي حزّب الأحزاب وكعب بن أسد رئيس بني قريظة، وأمر عليًا والزبير بضرب أعناقهم وطرحهم في ذلك الخندق.

وبذلك انتهى الوجود اليهودي المعادي بالمدينة النبويّة. والحمد لله.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ﴾ أي الله تعالى بقدرته ﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ظاهروا الأحزاب وكانوا عونًا لهم على الرسول ﷺ والمؤمنين وهم يهود بني قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ[(٢)]﴾ أي أنزلهم من حصونهم الممتنعين بها، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ ولذا قبلوا التحكيم فحكّم فيهم رسول الله ﷺ سيد الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه فحكم فيهم بقتل المقاتلة من الرجال وسبي النساء والذراري وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والأطفال.

(٢٧) وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ الزراعية ﴿وَدِيَٰرَهُمْ﴾ السكنيّة ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ الصامتة والناطقة وقوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ أي أورثكم أرضًا لم تطؤوها بعد وهي أرض خيبر[(٣)] حيث غزاهم رسول الله ﷺ في السنة السادسة بعد صلح الحديبية وفتحها الله عليهم، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ تذييل المراد به تقرير ما أخبر تعالى به[(٤)] من نصر أوليائه وهزيمة أعدائه.

هداية الآيتين:

١ - بيان عاقبة الغدر فإن قريظة لما غدرت برسول الله ﷺ انتقم منها فسلّط عليها رسوله ﷺ والمؤمنين فأبادوهم عن آخرهم ولم يبقَ إلا الذين لا ذنب لهم وهم النساء والأطفال.

٢ - بيان صادق وعد الله إذ أورث المسلمين أرضًا لم يكونوا قد وطؤوها وهي خيبر والشام والعراق وفارس وبلاد أخرى كبيرة وكثيرة.

٣ - تقرير أن قدرة الله لا تحد أبدًا فهو تعالى على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨ - ٣٠]

(٢٨) ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾: أي اللائي هن

---

(١) كان سعد رضي الله عنه قد أصابه سهم في غزوة الخندق فوضعه رسول الله ﷺ في خيمة بالمسجد ليتمكن من زيارته وكان رضي الله عنه لما أصابه السهم دعا الله تعالى: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها وإن كنت أنهيت الحرب بيننا وبينهم فافجرها، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة فاستجاب الله تعالى له وحكّمه رسول الله ﷺ فيهم فحكم عليهم بأن تقتل مقاتليهم وتسبى نساؤهم وذراريهم.

(٢) الصياصي: واحدها صيصة، والمراد حصونهم التي يتمنعون بها. قال الشاعر:

فجئت إليه والرماح تنوشه ... كوقع الصياصي في النسيج الممدد

والصيصة: شوكة الحائك وصياصي البقر: قرونها لأنها تتمنع بها.

(٣) وقال مقاتل: هي خيبر إذ لم يكونوا قد نالوها بعد فوعدهم الله وقال الحسن: فارس والروم، وقال عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة والكل صالح مقبول، وما في التفسير أقرب لأنها أرض اليهود فالسياق ساعد على أنها أرض خيبر، وقال صاحب التحرير: أنها أرض بني النضير لأنهم ما فتحوها عنوة فلم تطأها حوافر الخيل ولا أقدام الأبطال.

(٤) وفيه الإيحاء ببشرى فتوحات تعقب هذا الفتح.

تحته يومئذ وهن تسع طلبن منه التوسعة في النفقة عليهن ولم يكن عند رسول الله ﷺ ما يوسع به عليهن.
﴿فَتَعَالَيْنَ﴾: أي إلى رسول الله ﷺ وكان يومئذ قد اعتزلهن شهرًا.
﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾: أي متعة الطلاق المشروعة على قدر حال المطلق سعة وضيقًا. ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: أي أطلقكن طلاقًا من غير إضرار بكن.
(٢٩) ﴿تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾: أي تردن رضا الله ورسوله والجنة. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ﴾: أي عشرة النبي ﷺ زيادة على الإحسان العام.
(٣٠) ﴿بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾: أي بنشوز وسوء خلق يتأذى به رسول الله ﷺ. ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾: أي مرّتين على عذاب غيرهن ممن آذين أزواجهن. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: أي مضاعفة العذاب يسيرة هيّنة على الله تعالى.

معنى الآيات:

شاء الله تعالى أن يجتمع نساء الرسول ﷺ لما رأين نساء الأنصار والمهاجرين قد وُسّع عليهن في النفقة لوجود يسر وسعة رزق بين أهل المدينة، أن يطالبن بالتوسعة في النفقة عليهن أسوة بغيرهن، وكن يومئذ تسعًا وهن عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أميّة، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، وصفيّة بنت حيي بن أخطب النضريّة فأبلغت عائشة ذلك رسول الله ﷺ فتأثر لذلك، لعدم القدرة على ما طُلب منه وقعد في مشربة له واعتزلهن شهرًا كاملاً حتى أنزل الله تعالى آية التخيير وهي هذه:
(٢٨) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ[١] الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ من لذيذ الطعام والشراب وجميل الثياب وحلي الزينة ووافر ذلك كله فتعالين إلى مقام الرسول ﷺ الرفيع ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ المتعة المشروعة في الطلاق ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي أُطلقكن[٢] ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي لا إضرار معه.
(٢٩) ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي رضاهما ﴿وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي الجنة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ﴾ أي هيأ وأحضر ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ﴾ طاعة الله ورسوله ﷺ ﴿مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو المقامات العالية في حضرة النبي ﷺ في دار السلام.

وخيّرهن ﷺ امتثالاً لأمر الله في قوله: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ وبدأ بعائشة[٣] فقال لها: إني أريد أن أذكر لك أمرًا فلا تقضي فيه شيئًا حتى تستأمري أبويك أي تطلبين أمرهما في ذلك، وقرأ عليها الآية فاختارت الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة، وتتابعن على ذلك فما اختارت منهنّ امرأة غير الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة فأكرمهن الله لذلك وأنزل على رسوله ﷺ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾.
(٣٠) وقوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ[٤] النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي بخصلة قبيحة ظاهرة كسوء عشرة النبي ﷺ فإن الله تعالى يضاعف لها العذاب يوم القيامة لأنّ أذية رسول الله ﷺ من أبواب الكفر والعياذ بالله تعالى ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي وكان تضعيف العذاب على من أتت بفاحشة[٥] مبيّنة شيئًا يسيرًا على الله لا يعجزه حتى لا يفعله وهذا لأمرين: الأول: لأن أذيّة

---

(١) عامة أهل السنة والجماعة على أن الرجل إذا خير زوجته فاختارت الطلاق كان طلاقاً أما إذا خيرها فاختارت عدم الطلاق فليس عليها شيء ولا يقع طلاق ما دامت لم تختره واختارت عدمه وهو البقاء.
(٢) معنى إرادة الحياة الدنيا: إيثارك ما في الحياة الدنيا من متع وترف على الاشتغال بالطاعات والزهد في زينة الحياة الدنيا ومظاهرها الساحرة الخلابة.
(٣) نص الحديث: «**يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحبُ ألا تتعجلي فيه حتى تستشيري أبويك**»، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلى عليها الآية. قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبويّ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة.
(٤) ناداهن الله تعالى بعنوان نساء النبي إعلان عن شرفهن وكمالهن بعد أن اخترن الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة.
(٥) إذا أطلق لفظ الفاحشة معرفاً بـ: أل فهو الزنى، وإذا ورد نكره فهو المعصية كما في هذه الآية.

۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

٤٢٢

الرسول ﷺ من أبواب الكفر، والثاني: لعلو مقامهن وشرفهن، فإن ذا الشرف والمنزلة العالية يُستقبحُ منه القبيح أكثر مما يستقبح من غيره.

هداية الآيات:

١ - مشروعية تخيير الزوجات فإن اخترن الطلاق تطلّقن وإن لم يخترنه فلا يقع الطلاق.

٢ - كمال أزواج النبي ﷺ حيث اخترن الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة عن الدنيا وزينتها.

٣ - مشروعية المتعة بعد الطلاق وهي أن تعطى المرأة شيئًا من المال بحسب غنى المطلّق وفقره لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾.

٤ - وجوب الإحسان العام والخاص، الخاص بالزوج والزوجة والعام في طاعة الله ورسوله.

٥ - بيان أن سيئة العالم الشريف أسوأ من سيئة الجاهل الوضيع. ولذا قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين كمثل من الأمثال السائرة للعظة والاعتبار.

الجزء الثاني والعشرون

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ - ٣٤]

﴿٣١﴾ ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: أي ومن يطع منكن الله ورسوله.

﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾: أي نضاعف لها أجر عملها الصالح حتى يكون ضعف عمل امرأة أخرى من غير نساء النبي ﷺ.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾: أي في الجنة.

﴿٣٢﴾ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: أي لستن في الفضل كجماعات النساء.

﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾: بل أنتن أشرف وأفضل بشرط تقواكن لله.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾: أي نظرًا لشرفكن فلا ترققن العبارة.

﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾: أي مرض النفاق أو مرض الشهوة.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: أي جرت العادة أن يقال بصوت خشن لا رقة فيه.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾: أي اقررن في بيوتكن ولا تخرجن منها إلا لحاجة.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾: أي ولا تتزين وتخرجن متبخترات متغنجات كفعل نساء الجاهلية الأولى قبل الإسلام.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾: أي إنما أمركُنَّ بما أمركن به من العفة والحجاب ولزوم البيوت ليطهركن من الأدناس والرذائل.

﴿٣٤﴾ ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾: أي الكتاب والسنة لتشكرن الله على ذلك بطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم مع أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين فبعد أن اخترن الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة عن الحياة الدنيا وزينتها أصبحن ذوات رفعة وشأن عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ والمؤمنين. ﴿٣١﴾ فأخبرهن الرب تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي تطع الله بفعل الأوامر وترك النواهي وتطع رسوله محمدًا ﷺ فلا تعص له أمرًا ولا تسيء إليه في عشرة، وتعمل صالحًا من النوافل والخيرات ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي نضاعف لها أجر عملها فيكون ضعف أجر عاملة أخرى من النساء غير أزواج الرسول ﷺ. وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا[1] لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي في الجنة فهذه بشارة بالجنة لنساء النبي ﷺ أمهات المؤمنين التسع اللاتي نزلت هذه

(١) التاء في ﴿أَعْتَدْنَا﴾: بدل عن أحد الدالين من أعد لقرب مخرجيهما وقصد التخفيف.

الآيات في شأنهن.

(٣٢) هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣١) وقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ[١] لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ[٢]﴾ أي يا زوجات النبي أمهات المؤمنين إنكن لستن كجماعات النساء إن شرفكن أعظم ومقامكن أسمى وكيف وأنتن أمهات المؤمنين وزوجات خاتم النبيين فاعرفن قدركن بزيادة الطاعة لله ولرسوله ﷺ، وقوله: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ أي إن هذا الشرف حصل لكن بتقواكن للّه فلازِمْنَ التقوى إنكن بدون تقوى لا شيء يذكر شأنكن شأن سائر النساء. وبناء عليه ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ[٣] بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي لا تلينّ الكلمات وترققن الصوت إذا تكلمتن مع الأجانب من الرجال. وقوله تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ نفاق أو ضعف إيمان مع شهوة عارمة تجعله يتلذذ بالخطاب، وقوله: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ وهو ما يؤدي المعنى المطلوب بدون زيادة ألفاظ وكلمات لا حاجة إليها.

(٣٣) وقوله: ﴿وَقَرۡنَ[٤] فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي اقررن فيها بمعنى اثبتن فيها ولا تخرجن إلا لحاجة لا بد منها، وقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ﴾ أي إذا خرجتن لحاجة ﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي قبل الإسلام إذ كانت المرأة تتجمل وتخرج متبخترة متكسرة متغنجة في مشيتها وصوتها تفتن الرجال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأدائها مستوفاة الشروط والأركان والواجبات في أوقاتها مع الخشوع فيها ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بفعل الأمر واجتناب النهي. أمرهن بقواعد الإسلام وأهم دعائمه. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ أي إنما أمرناكن[٥] ونهيناكن إرادة إذهاب الدنس والإثم إبقاءً على طهركن يا أهل البيت النبوي.

وقوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ أي كاملاً تامًا من كل ما يؤثم ويدسي النفس ويدنسها.

(٣٤) وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ من الكتاب والسنة وهذا أمر لهنَّ على جهة الموعظة وتعدد النعمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ أي بكم يا أهل البيت ﴿خَبِيرًا﴾ بأحوالكم فثقوا فيه وفوضوا الأمر إليه. والمراد من أهل البيت هنا أزواج النبي ﷺ وفاطمة وابناها الحسن والحسين وعليٌّ الصهر الكريم رضي الله عن آل بيت رسول الله ﷺ أجمعين وعن صحابته أكتعين[٦] أبتعين أبصعين..

هداية الآيات:

١ ـ لا شرف إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

٢ ـ بيان فضل نساء النبي ﷺ وشرفهن.

٣ ـ حرمة ترقيق المرأة صوتها وتليين عباراتها إذا تكلمت مع أجنبي.

---

(١) أعيد خطابهن من قبل الله تعالى كما أعيد نداؤهن تشريفاً لهن وإظهاراً للاهتمام بالخبر. وأحد: بمعنى واحد قلبت همزته واواً.

(٢) هذا الشرط معتبر في التقوى، إذ بين لهنّ أن هذا الشرف وهذه البشرى بالجنة إنما كانت بشرط التقوى والتقوى، اجتناب وامتثال.

(٣) قال ابن عباس: المرأة تندب إذا خاطبت الأجانب إلى الغلظة في القول من غير رفع صوت فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام.

(٤) قرأ نافع وحفص: ﴿وَقَرۡنَ﴾ بفتح القاف من قرر يقرر وكعلم يعلم والأمر: اقررن فحذفت الراء الأولى تخفيفاً وألغيت حركتها على القاف، فسقطت همزة الوصل لعدم الحاجة إليها عندما تحركت القاف الساكنة فصارت وقرن، وقرأ الجمهور بكسر القاف.

(٥) المعنى العام للآية: ما يريد الله لكن مما أمركن به ونهاكن عنه إلا عصمتكن من النقائص وتحليتكن بالكمالات ودوام ذلك لكن فلم يرد بكن مقتاً ولا نكاية.

(٦) من جهل الرافضة وما وضع لهم من قواعد في دينهم لإخراجهم من الإسلام وإبعادهم عن جماعة المسلمين قصرهم هذه الآية على علي وفاطمة والحسنين دون أزواج النبي ﷺ مع أن الخطاب في الآية لأزواج النبي ﷺ وحديث الكساء لا ينافي إدخال سائر نساء النبي ﷺ في أهل بيته إذ ليس فيه صيغة من صيغ القصر المعروفة في لغة القرآن ونصه في صحيح مسلم عن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ غداة وعليه مرط مرحل فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾».

٤ - وجوب بقاء النساء في منازلهن ولا يخرجن إلا من حاجة لا بد منها.

٥ - حرمة التبرج وهي أن تتزين المرأة وتخرج بادية المحاسن متبخترة في مشيتها.

٦ - على المسلم أن يذكر ما شرّفه الله به من الإيمان والإسلام ليترفع عن الدنايا والرذائل.

٧ - بيان أن الحكمة هي السنة النبوية الصحيحة.

٨- الإشارة إلى وجود جاهلية ثانية وقد ظهرت منذ نصف قرن وهي تبرج النساء بالكشف عن الرأس والصدور والسيقان وحتى الأفخاذ.

شرح الكلمات: [الآية: ٣٥]

(٣٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾: إن الذين أسلموا للّه وجوههم فانقادوا للّه ظاهرًا وباطنًا والمسلمات أيضًا. ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: أي المصدقين بالله ربًا وإلهًا والنبي محمد ﷺ نبيًا ورسولاً والإسلام دينًا وشرعًا والمصدقات. ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾: أي المطيعين لله ورسوله ﷺ من الرجال والمطيعات من النساء. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾: أي الصادقين في أقوالهم وأفعالهم والصادقات. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾: أي الحابسين نفوسهم على الطاعات فلا يتركوها وعن المعاصي فلا يقربوها وعلى البلاء فلا يسخطوه ولا يشتكوا الله إلى عباده والحابسات. ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾: أي المتذللين لله المخبتين له والخاشعات من النساء كذلك. ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾: أي المؤدين الزكاة والفضل من أموالهم عند الحاجة إليه والمؤديات كذلك. ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾: أي عن الحرام والحافظات كذلك إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم بالنسبة للرجال أما النساء فالحافظات فروجهن إلا على أزواجهن فقط. ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾: أي بالألسن والقلوب فعلى أقل تقدير يذكرن الله ثلثمائة مرة في اليوم والليلة زيادة على ذكر الله في الصلوات الخمس. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾: أي لذنوبهم وذنوبهن. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: أي الجنة دار الأبرار.

معنى الآية الكريمة:

هذه الآية وإن نزلت جوابًا عن تساؤل بعض أزواج النبي ﷺ إذ قلن للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ فأنزل[1] الله تعالى هذه الآية المباركة: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ فإن مناسبتها لما قبلها ظاهرة وهي أنه لما أثنى على آل البيت بخير فإن نفوس المسلمين والمسلمات تتشوق الخير لهم كالذي حصل لآل البيت الطاهرين فذكر تعالى أن المسلمين[2] والمسلمات الذين انقادوا لأمر الله ورسوله ﷺ وأسلموا وجوههم لله فلا يلتفتون إلى غيره، كالمؤمنين والمؤمنات بالله ربًا وإلهًا ومحمدًا ﷺ نبيًا ورسولاً والإسلام دينًا وشرعًا، كالقانتين أي المطيعين لله ورسوله والمطيعات في السراء والضراء والمنشط والمكره في حدود الطاقة البشرية، كالصادقين في أقوالهم وأفعالهم والصادقات كالصابرين أي الحابسين نفوسهم على الطاعات فعلاً، وعن المحرمات تركًا، وعلى البلاء رضًا وتسليمًا والصابرات كالخاشعين في صلاتهم وسائر طاعاتهم والخاشعات لله تعالى كالمتصدقين بأداء زكاة أموالهم وبفضولها عند الحاجة إليها والمتصدقات كالصائمين رمضان والنوافل كعاشوراء والصائمات، كالحافظين فروجهم عما حرم الله تعالى عليهم من المناكح وعن كشفها لغير الأزواج والحافظات[3]،

---

(١) روى الترمذي عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء؟ فنزلت الآية، وروى أحمد والنسائي وابن جرير عن أم سلمة أنها قالت: قلت: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ فنزلت.

(٢) بدىء بذكر الإسلام لأنه علم على الملة المحمدية وهو يعم الإيمان وعمل الجوارح ثم ذكر الإيمان لأنه كالطاقة المحركة والدافعة إلى القول الحق والطاعة لله ورسوله ﷺ.

(٣) حذف من الآخر لدلالة الأول والمحذوف فروجهن، ولأن ذكر فروج النساء غير لائق ذكره وسماعه لما عرف به أهل هذه الملة من عدم الرضا بذكر النساء لصيانتهن عن الابتذال والمهانة.

الجزء الثاني والعشرون   سورة الأحزاب

وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾

٤٢٣

كالذاكرين الله كثيرًا بالليل[1] والنهار ذكر القلب واللسان والذاكرات[2]. الكل الجميع أعد الله تعالى لهم مغفرة لذنوبهم إذ كانت لهم ذنوب، ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ أي جزاءً عظيمًا على طاعاتهم بعد إيمانهم وهو الجنة دار السلام جعلنا الله منهم ومن أهل الجنة.

هداية الآية الكريمة:

١ - بشرى المسلمين والمسلمات بمغفرة ذنوبهم ودخول الجنة إن اتصفوا بتلك الصفات المذكورة في هذه الآية وهي عشر صفات أولها الإسلام وآخرها ذكر الله تعالى.

٢ - فضل الصفات المذكورة إذ كانت سببًا في دخول الجنة بعد مغفرة الذنوب.

٣ - تقرير مبدأ التساوي بين الرجال والنساء في العمل والجزاء في العمل الذي كلف الله تعالى به النساء والرجال معًا، وأما ما خص به الرجال أو النساء فهو على خصوصيته للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن والله يقول الحق ويهدي السبيل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ - ٤٠]

(٣٦) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾: أي لا ينبغي ولا يصلح لمؤمن ولا مؤمنة. ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾: أي حق الاختيار فيما حكم الله ورسوله ﷺ فيه بالجواز أو المنع. ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾: أي أخطأ طريق النجاة والفلاح خطأً واضحًا.

(٣٧) ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾: أي أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعمت عليه بالعتق وهو زيد بن حارثة. ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: أي في أمر زوجتك فلا تحاول طلاقها. ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ﴾: أي وتخفي في نفسك وهو علمك بأنك إذا طلق زيد زينب زوجكها الله إبطالاً لما عليه الناس من حرمة الزواج من امرأة المتبنَّى. ﴿مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾: أي مظهره حتمًا وهو زواج الرسول ﷺ من زينب بعد طلاقها. ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾: أي يقولوا تزوج محمد ﷺ مطلقة مولاه زيد. ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾: وهو الذي أراد لك ذلك الزواج. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾: أي حاجته منها ولم يبق له رغبة فيها لتعاليها عليه بشرف نسبها ومحتد آبائها. ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾: إذ تولى الله عقد نكاحها فدخل النبي ﷺ عليها بدون إذن من أحدٍ وذلك سنة خمس وأُشبع الناس لحمًا وخبزًا في وليمة عرسها. ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ﴾: أي إثم في تزوجهم من مطلقات أدعيائهم. ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾: أي وما قدره الله في اللوح المحفوظ لا بد كائن.

(٣٩) ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾: أي يفعلون ما أذن لهم فيه ربهم ولا يبالون بقول الناس. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

---

(١) وحذف المقابل في الذاكرات طلباً للإيجاز غير المخل لأن الذكر الآخر مع ذكر الأول مع العلم به إطناب لا داعي له قال الشاعر:

وكمتاً مدمَّاة كأن متونها   جرى فوقها واستشعرت لون مُذْهب

(٢) قال مجاهد: لا يكون العبد ذاكراً لله تعالى كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً، وقال أبو سعيد الخدري: «من أيقظ أهله بالليل وصليا أربع ركعات كانا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات».

﴿حَسِيبًا﴾: أي حافظًا لأعمال عباده ومحاسبًا لهم عليها يوم الحساب.

(٤٠) ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾: أي لم يكن أبًا لزيد ولا لغيره من الرجال إذ مات أطفاله الذكور وهم صغار. ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: أي لم يجيء نبي بعده إذ لو جاء نبي بعده لكان ولده أهلاً للنبوة كما كان أولاد إبراهيم ويعقوب، وداود مثلاً.

معنى الآيات:

(٣٦) قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾[1] الآيات، هذا شروع في قصة زواج زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش بنت عمة النبي ﷺ أميمة بنت عبدالمطلب إنه لما أبطل الله التبني وحرمه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ﴾ تبع ذلك أن لا يرث الدعي ممن ادعاه، وأن لا تحرم مطلقته على من تبنّاه وادعاه، وهكذا بطلت الأحكام التي كانت لازمة للتَّبنِّي، وكون هذا نزل به القرآن ليس من السهل على النفوس التي اعتادت هذه الأحكام في الجاهلية وصدر الإسلام أن تتقبلها وتذعن لها بسهولة فأراد الله تعالى أن يخرج ذلك لحيز الوجود فألهم رسوله ﷺ أن يخطب زينب لمولاه زيد، واستجابت زينب للخطبة فهمًا منها أنها مخطوبة لرسول الله ﷺ لتكون أُمًا للمؤمنين ولكن تبين لها بعد ليال أنها مخطوبة لزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وليست كما فهمت، وهنا أخذتها الحمية وقالت: لن يكون هذا، لن تتزوّج شريفة مولى من موالي الناس ونصرها أخوها على ذلك وهو عبدالله بن جحش، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ[2] وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ[3] مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الآية، فما كان منها إلا أن قبلت عن رضى الزواج من زيد وتزوجها زيد، وبحكم الطباع البشرية فإن زينب لم تخفِ شرفها على زيد وأصبحت تترفع عليه، الأمر الذي شعر معه زيد بعدم الفائدة من هذا الزواج فأخذ يستشير رسول الله ﷺ مولاه ويستأذنه في طلاقها والرسول ﷺ يأبى عليه ذلك علمًا منه أنه إذا طلقها سيزوجه الله بها إنهاء لقضية جعل أحكام الدَّعي كأحكام الولد من الصُلب فكان يقول له: اتق الله يا زيد لا تطلق بغير ضرورة ولا حاجة إلى الطلاق واصبر على ما تجده من امرأتك.

(٣٧) وهنا عاتب رسولَ الله ﷺ ربُه عز وجل إذ قال له: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾[4] أي اذكر إذ تقول ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي بنعمة الإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بأن عتقته ﴿أَمْسِكْ[5] عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى[6] فِى نَفْسِكَ﴾ وهو أمر زواجك منها، ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي مظهره لا محالة

(١) روى قتادة وابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد في سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ خطب زينب بنت جحش وكانت بنت عمته، خطبها لمولاه زيد بن حارثة فظنت أن الخطبة له ﷺ فلما تبين أنها لمولاه زيد كرهت وأبت وامتنعت فنزلت الآية فأذعنت وقبلت.

(٢) هذه الصيغة هي لنفي الحال والشأن فهي أبلغ من صيغ النهي أي: أن مثل هذا القول والعمل مما لا يكون ولا ينبغي أن يكون نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ وفي الآية دليل على أن الكفاءة تعتبر في الأديان لا في الأنساب بل هي نص في هذا.

(٣) الخيرة: اسم مصدر من تخيّر ومثلها الطيرة من تطير ولم يسمع على هذا الوزن غيرهما، ووقع لفظ مؤمن ومؤمنة نكرة في سياق النفي فأفادتا العموم.

(٤) روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كان رسول الله كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ الآية. وكذا قالت في آية ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١)﴾ وهو كما قالت رضي الله عنها وأرضاها.

(٥) جاء زيد إلى رسول الله ﷺ فقال: إن زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل! وإني أريد أن أطلقها فقال له: «﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾» الآية.

(٦) إن قيل: كيف يأمر زيداً بعدم طلاق زينب وهو يعلم أنه سيطلقها ويزوجه الله تعالى بها؟ الجواب: لا حرج في هذا ألا ترى أن الله يأمر العبد بالإيمان والإسلام وهو يعلم أنه لا يؤمن، لأن الأمر لإقامة للحجة ومعرفة العاقبة؟

مــن ذلــك ﴿وَتَخْشَى[1] ٱلنَّاسَ﴾ أن يقولوا محمد ﷺ تزوج امرأة ابنه زيد، ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وقد أراد منك الزواج من زينب بعد طلاقها وانقضاء عدتها هدمًا وقضاءً على الأحكام التي جعلت الدّعي كابن الصُّلب.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي حاجته منها بالزواج بها وطلقها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[2] إذ تولينا عقد نكاحها منك دون حاجة إلى وليّ ولا إلى شهود ولا إلى مهر أو صداق وذلك من أجل أن ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إثم في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي وما قضى به الله واقعٌ لا محالة.

﴿٣٨﴾ وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي من إثم أو تضييق في قول أو فعل شيء افترضه الله تعالى عليه وألزمه به سنة الله في الذين خلوا من قبل من الأنبياء، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي مقضيه ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي واقعًا نافذًا لا محالة.

﴿٣٩﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي هؤلاء الأنبياء السابقون طريقتهم التي سنّها الله لهم هي أنهم ينفذون أمر الله ولا يتلفتون إلى الناس يقولون ما يقولون، ويخشون ربهم فيما فرض عليهم ولا يخشون غيره، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي حافظًا لأعمال عباده ومحاسبًا عليها ومُجازٍ بها.

﴿٤٠﴾ وقوله تعالى في ختام السياق: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لا زيد ولا غيره إذ لم يكن له ولد ذكر قد بلغ الحلم إذ مات الجميع صغارًا وهم أربعة، ثلاثة من خديجة وهم: القاسم والطيب والطاهر، وإبراهيم وهو من مارية القبطية، فلذا لا يحرم عليه أن يتزوج مطلقة زيد لأنه ليس بابنه وإن كان يدعى زيد بن محمد ﷺ قبل إنهاء التبني وأحكامه ولكن رسول الله ﷺ وخاتم النبيين فلا نبي بعده فلو كان له ولد ذكر رجلًا لكان يكون نبيًا ورسولاً كما كان أولاد إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود، ولما أراد الله أن يختم الرسالات برسالته لم يأذن ببقاء أحد من أولاد نبيّه ﷺ بل توفاهم صغارًا، أما البنات فكبرن وتزوجن وأنجبن ومتن حال حياته إلا فاطمة فقد ماتت بعده بستة أشهر، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فما أخبر به هو الحق وما حكم به هو العدل وما شرعه هو الخير فسلموا للّه في قضائه وحكمه فإن ذلك خير وأنفع.

هداية الآيات:

١ - بيان أن المؤمن الحق لا خِيرة عنده في أمر قضى فيه الله ورسوله ﷺ بالجواز أو المنع.

٢ - بيان أن من يعصِ الله ورسوله ﷺ يخرج عن طريق الهداية إلى طريق الضلالة.

٣ - جواز عتاب الله تعالى لرسوله ﷺ.

٤ - بيان شدة حياء الرسول ﷺ.

٥ - بيان إكرام الله لزيد بأن جعل اسمه يقرأ على ألسِنَة المؤمنين إلى يوم الدين.

٦ - بيان إفضال الله على زينب لما سلمت أمرها للّه وتركت ما اختارته لما اختاره الله ورسوله ﷺ فجعلها زوجة لرسول الله ﷺ وتولى عقد نكاحها في السماء فكانت تفاخر نساءه بذلك.

٧ - تقرير حديث ما ترك عبد شيئًا للّه إلا عوضه الله خيرًا منه.

٨ - إبطال أحكام التّبني التي كانت في الجاهلية.

٩ - تقرير نبوة الرسول ﷺ وكونه خاتم الأنبياء فلا نبيّ بعده.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ - ٤٤]

﴿٤١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[3]: أي يا من آمنتم بالله ربًا وبالإسلام دينًا

---

(١) ما كان يخشاه هو إرجاف المنافقين واليهود قولهم: أينهى عن نكاح زوجة الابن ويتزوج زوجة ابنه زيد؟

(٢) روي أن زينب كانت تقول لرسول الله ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث! ما من نسائك امرأة تدل بهن: أن جدي وجدك واحد، وأن الله أنكحك إياي من السماء، وأن السفير في ذلك جبريل.

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعذر واحد في ترك ذكر الله إلا من غلب عليه عقله وورد في فضل الذكر قوله ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: وما هو يا رسول الله قال: «**ذكر الله عز وجل**» وقوله: وقد جاءه أعرابيان

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

وبمحمد ﷺ رسولاً. ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾: أي بقلوبكم وألسنتكم.

﴿٤٢﴾ ﴿وَسَبِّحُوهُ[١] بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: أي نزهوه بقول سبحان الله وبحمده صباحًا ومساءً.

﴿٤٣﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى[٢] عَلَيْكُمْ﴾: أي يرحمكم. ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾: أي يستغفرون لكم. ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: أي يرحمكم ليديم إخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

﴿٤٤﴾ ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾: أي سلام عليكم فالملائكة تسلم عليهم. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾: أي وهيأ لهم أجرًا كريمًا وهو الجنة.

معنى الآيات:

﴿٤١﴾ هذا النداء الكريم من رب رحيم يوجه إلى المؤمنين الصادقين ليعلمهم ما يزيد به إيمانهم ونورهم، ويحفظون به من عدوهم وهو ذكر الله فقال تعالى لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ لا حد له ولا حصر إذ هو الطاقة التي تساعد على الحياة الروحية.

﴿٤٢﴾ ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ بصلاة الصبح وصلاة العصر. وبقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر دبر كل صلاة من الصلوات الخمس.

﴿٤٣﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ وصلاته تعالى عليهم رحمته لهم، وصلاة ملائكته الاستغفار لهم، وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور الإيمان والطاعات. فصلاته تعالى وصلاة ملائكته هي سبب الإخراج من الظلمات إلى النور. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وهذه علاوة أخرى زيادة على الإكرام الأول وهو الصلاة عليهم وإنه بالمؤمنين عامة رحيم فلا يعذبهم ولا يشقيهم.

﴿٤٤﴾ وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾[٣] أي وتحيتهم يوم القيامة في دار السلام السلام إذ الملائكة يدخلون عليهم من كل باب قائلين ﴿سَلَٰمٌ﴾ عليكم أي أمانة وأمنةٌ لكم فلا خوف ولا حزن. وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي هيأ لهم وأحضر أجرًا كريمًا وهي الجنة. فسبحان الله ما أكرمه وسبحان الله ما أسعد المؤمنين. فيا لفضيلة الإيمان وطاعة الرحمٰن طلب منهم أن يذكروه كثيرًا وأن يسبحوه بكرة وأصيلاً، وأعطاهم ما لا يقادر قدره فسبحان الله ما أكرم الله. والحمد لله.

= فقال أحدهما: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: **«من طال عمره وحسن عمله»** وقال الآخر: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فمرني بأمر أتشبث به. فقال ﷺ: **«لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى»**.

(١) يجوز أن يراد بالتسبيح صلوات النوافل، وجائز أن يكون التسبيح نحو سبحان الله وبحمده إذ ورد عنه ﷺ وصح **«من قال: سبحان الله وبحمده مائة مرة غفر له ما تقدم من ذنبه»**.

(٢) الصلاة: الدعاء والذكر بخير وهي من الله تعالى ثناؤه على العبد بين الملائكة قاله البخاري وقيل: صلاة الله تعالى على العبد الرحمة ويكون على النبي ﷺ الثناء عليه وعلى غير النبي ﷺ الرحمة وهذا أولى، ولا منافاة بين القولين لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾. وهي من الملائكة دعاء واستغفار لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية من سورة المؤمن.

(٣) ورد أن ملك الموت لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه وروي عن البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ قال: فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه، ولا يقبض روحه حتى يسلم عليه.

هداية الآيات:

١ - وجوب ذكر الله تعالى كثيرًا ليل نهار ووجوب تسبيحه صباح مساء.

٢ - بيان فضل الله على المؤمنين بصلاته عليهم وصلاة ملائكته ورحمته لهم.

٣ - تقرير عقيدة البعث بذكر بعض ما يتم فيها من سلام الملائكة على أهل الجنة.

٤ - بشرى المؤمنين الصادقين بالجنة.

شرح الكلمات:
[الآية: ٤٥ - ٤٨]

(٤٥) ﴿شَـٰهِدًا﴾: أي على من أرسلناك إليهم. ﴿وَمُبَشِّرًا﴾: أي من آمن وعمل صالحًا بالجنة. ﴿وَنَـذِيرًا﴾: أي لمن كفر وأشرك بالنار.

(٤٦) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾: أي وداعيًا إلى الإيمان بالله وتوحيده وطاعته بأمره تعالى. ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾: أي وجعلك كالسراج المنير يهتدي به من أراد الهداية إلى سبيل الفلاح.

(٤٨) ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾: أي فيما يخالف أمر ربك وما شرعه لك ولأمتك. ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾: أي اترك أذاهم فلا تُقابلهُ بأذىً آخر حتى تؤمر فيهم بأمر. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أي فوض أمرك إليه فإنه يكفيك.

معنى الآيات:

هذا نداء خاص بعد ذلك النداء العام، فالأول كان للمؤمنين والرسول ﷺ إمامهم على رأسهم. وهذا نداء خاص لمزيد تكريم الرسول ﷺ وتشريفه وتكليفه أيضًا.

(٤٥) فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ محمد ﷺ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾[(١)] حال كونك ﴿شَـٰهِدًا﴾ على[(٢)] من أرسلناك إليهم يوم القيامة تشهد على من أجاب دعوتك ومن لم يجبها، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن استجاب لك فآمن وعمل صالحًا بالجنة، ﴿وَنَـذِيرًا﴾ لمن أعرض فلم يؤمن ولم يعمل خيرًا بعذاب النار.

(٤٦) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى عباده إليه ليؤمنوا به ويوحدوه ويطيعوه بأمره تعالى لك بذلك، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[(٣)] يهتدي بك من أراد الاستهداء إلى سبيل السعادة والكمال.

(٤٧) وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٤)] أي انظر بعد دعوتك إياهم، وبشر المؤمنين منهم أي الذين استجابوا لك وآمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم من الله فضلاً كبيرًا ألا وهو مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنة دار النعيم المقيم والسلام التام.

(٤٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ فيما يقترحون عليك من أمور تتنافى مع دعوتك ورسالتك، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي اترك أذيتهم واصبر عليهم حتى يأمرك ربك بما تقوم به نحوهم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في أمرك كله، فإنه يكفيك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي حافظًا وعاصمًا يعصمك من الناس.

هداية الآيات:

١ - بيان الكمال المحمدي الذي وهبه إياه ربّه تبارك وتعالى.

٢ - مشروعية الدعوة إلى الله إذا كان الداعي متأهلاً بالعلم والحلم وهما الإذن.

٣ - حرمة طاعة الكافرين والمنافقين والفجرة والظالمين فيما يتنافى مع مرضاة الله تعالى.

شرح الكلمات: [الآية: ٤٩]

(٤٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: أي يا من صدقوا بالله ورسوله ﷺ وكتابه وشرعه. ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾[(٥)]: أي إذا عقدتم عليهن

---

(١) قال القرطبي: هذه الآية فيها تأنيس للنبي ﷺ وللمؤمنين وتكريم لجميعهم.

(٢) قال قتادة: شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم.

(٣) ورد في الصحيح والموطأ ومسلم أن للرسول ﷺ خمس أسماء وهي محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب. وهل شاهد ومبشر ونذير ورؤوف ورحيم أسماء؟ الظاهر أنها صفات ومن عدها أسماء فقد ذكر ابن العربي في أحكامه أن له ﷺ سبعة وستين اسماً.

(٤) عن عكرمة وابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا (٤٥)﴾ وقد كان أمر علياً ومعاذاً رضي الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن فقال: «**انطلقا فبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا إنه قد أنزل علي** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾» الآية.

(٥) بمناسبة طلاق زيد لزينب أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وقد خطبها رسول ﷺ وزوجه ربه بها وله الحمد ناسب ذكر حكم

ولم تبنوا بهن. ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾: أي من قبل الخلوة بهن ووطئهن. ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾: أي ليس لكم مطالبتهن بالعدة إذ العدة على المدخول بها. ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾: أي أعطوهن شيئًا من المال يتمتعن به جبرًا لخاطرهن. ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: أي اتركوهن يذهبن إلى أهليهن من غير إضرارٍ بهن.

معنى الآية الكريمة:

(٤٩) ينادي الله تعالى عباده المؤمنين المسلمين فيقول لهم معلمًا مشرعًا لهم: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ[1] الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي عقدتم عليهن، ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ[2] مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي من قبل الدخول عليهن الذي يتم بالخلوة في الفراش، ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ تعتدونها عليهن لا بالإقراء ولا بالشهور إذْ العدة لمعرفة ما في الرحم وغير المدخول بها معلومة أن رحمها خالية، فإن سميتم لهنّ مهرًا فلهن نصف المُسمَّى والمتعة على سبيل الاستحباب، وإن لم تسموا لهن مهرًا فليس لهن غير المتعة وهي هنا واجبة لهن بحسب يسار المُطلِّق وإعساره، وقوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي خلوا سبيلهن يذهبن إلى ذويهن من غير إضرار بهن ولا أذى تلحقونه بهن.

هداية الآية الكريمة:

١ - جواز الطلاق قبل البناء.

٢ - ليس على المطلقة قبل الدخول بها عدة بل لها أن تتزوج ساعة ما تطلق.

٣ - المطلقة قبل البناء إن سمّي[3] لها صداق فلها نصفه، وإن لم يسم لها صداق فلها المتعة واجبة يقدرها القاضي بحسب سعة المطلق وضيقه.

٤ - حرمة أذية المطلقة بأي أذى، ووجوب تخلية سبيلها تذهب حيث شاءت.

٥ - مشروعية المتعة لكل مطلقة.

شرح الكلمات: [الآية: ٥٠]

(٥٠) ﴿ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾: أي أعطيت مهورهن. ﴿مِمَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾: أي مما يسبى كصفية وجويرية. ﴿الَّتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: أي بخلاف من لم تهاجر وبقيت في دار الكفر. ﴿وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾: أي وأراد النبي ﷺ أن يتزوجها. بغير صداق. ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي بدون صداق. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾: أي على المؤمنين. ﴿فِىٓ أَزْوَاجِهِمْ﴾: أي من الأحكام كأن لا يزيدوا على أربع، وأن لا يتزوجوا إلا بولي ومهر وشهود. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: أي بشراء ونحوه وأن تكون المملوكة كتابية، وأن تستبرأ قبل الوطء. ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾: أي ضيق في النكاح.

معنى الآية الكريمة:

هذا النداء الكريم لرسول رب العالمين ﷺ يحمل لرسول الله ﷺ إجازة ربانية تخفف عنه أتعابه التي يعانيها ﷺ، لقد علم الله ما يعاني رسوله ﷺ وما يعالج من أمور الدين والدنيا فمنَّ عليه بالتخفيف ورفع الحرج فقال ممتنًا عليه:

(٥٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ[4] إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي

= المطلقة قبل البناء وأنها لا عدة عليها، وأنه لا مهر لها ولكن لها المتعة إن لم يكن قد سمى لها مهراً.

(١) النكاح حقيقة: هو الوطء ويطلق ويراد به العقد كما في هذه الآية الكريمة ولم يرد في القرآن الكريم النكاح إلا والمراد منه العقد، لأنه في معنى الوطء، وهذا من أدب القرآن حيث يكنى عن الوطء بمثل المباشرة والملامسة والقربان والتغشي والإتيان.

(٢) استدل بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ لما في ثم من المهلة على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح أي: العقد، وأن من طلق امرأة قبل العقد عليها طلاقه لاغ لا عبرة به، وأن عينها فإنه لا يلزمه هذا مذهب نحو من ثلاثين صحابياً وتابعياً وإماماً سمى البخاري منهم اثنين وسبعين وفي الحديث: «**لا طلاق قبل النكاح**» وقال الجمهور: إن عينها تطلق وإن لم يعينها فلا طلاق عليه.

(٣) استدل الظاهرية بهذه الآية على أن من طلق طلاقاً رجعياً ثم راجع قبل أن تنقضي العدة ثم طلقها قبل أن يمسها أنه ليس عليها أن تتم عدتها وليس عليها عدة أخرى قياساً على المطلقة قبل البناء والجمهور على أنها تستقبل عدة أخرى وعليه مالك وجمهور فقهاء مكة والكوفة والمدينة.

(٤) هذه الآية من المتقدم في التلاوة المتأخر في النزول ونظيرها آيتي الوفاة في البقرة على رأي الجمهور. إذ مضمون هذه الآية

مهورهن وأحللنا لك ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من سبايا الجهاد كصفية بنت حيبب وجويرية بنت الحارث، ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ[(١)] وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ[(٢)]﴾ من مكة إلى المدينة.

أما التي لم تهاجر فلا تحِلّ لك، ﴿مُّؤْمِنَةً﴾ أي وأحللنا لك امرأة مؤمنة لا كافرة إن وهبت نفسها للنبي ﷺ بدون مهر وأراد النبي ﷺ أن يستنكحها حال كون هذه الواهبة خالصة لك دون المؤمنين فالمؤمن لو وهبت له امرأة نفسها بدون مهر لم تحل له بل لا بد من المهر والولي والشهود.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي على المؤمنين في أزواجهم من أحكام كأن لا يزيد الرجل على أربع، وأن لا يتزوج إلا بولي ومهر وشهود، والمملوكة لا بد أن تكون كتابية أو مسلمة، وأن لا يطأها قبل الاستبراء بحيضة قد علمنا كل هذا وأحللنا لك ما أحللنا خصوصية لك دون المؤمنين وذلك تخفيفًا عليك ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق ومشقة وكان الله غفورًا لك ولمن تاب من المؤمنين رحيمًا بك وبالمؤمنين.

هداية الآية الكريمة:

١ - بيان إكرام الله تعالى لنبيه[(٣)] ﷺ في التخفيف عليه رحمة به فأباح له أكثر من أربع، وقصر المؤمنين على أربع أباح له الواهبة نفسها أن يتزوجها بغير مهر ولا ولي ولم يبح ذلك للمؤمنين فلا بد من مهر وولي وشهود.

٢ -تقرير أحكام النكاح للمؤمنين وأنه لم يطرأ عليها نسخ بتخفيف ولا بتشديد.

٣ - بيان سعة رحمة الله ومغفرته لعباده المؤمنين.

الجزء الثاني والعشرون سورة الأحزاب

﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

٤٢٥

شرح الكلمات:

[الآية: ٥١، ٥٢]

﴿٥١﴾ ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾: أي تؤخر من نسائك. ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾: أي وتضم إليك من نسائك من تشاء فتأتيها. ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾: أي طلبت. ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾: أي من القسمة. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾: أي لا حرج عليك في طلبها وضمها إليك خيره ربه في ذلك بعد أن كان القسم واجبًا عليه. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾: أي ذلك التخيير لك في إيواء من تشاء وترك من تشاء أقرب إلى أن تقر أعينهن ولا يحزن. ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾: أي مما أنت مخير فيه من القسم وتركه، والعزل والإيواء. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى

= التوسعة على الرسول ﷺ إكراماً له لما تحمله من نكاح زينب ثم قصره في الآيات بعد على من تحته من النساء إكراماً لهن أيضاً وذلك في قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ ثم لم يقبض حتى رفع الله تعالى عنه الحظر إكراماً وإعلاءً من شأنه إذ قالت عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء.

(١) وحد العم والخال وجمع العمات والخالات لأن العم والخال استعمل استعمال أسماء الأجناس الدالة على متعدد، واللفظ موحد كالإنسان واللفظ واحد وهو دال على كل إنسان من بني آدم.

(٢) المعية هنا «معك» هي: الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة إذ أحل له من هاجرت سواء كانت في رفقته أو في رفقة أخرى، ولم يهاجر في رفقته امرأة قط.

(٣) من جملة خصائصه ﷺ أن فرض عليه أموراً لم تفرض على الأمة كقيام الليل مثلاً وأباح له أموراً لم تُبَحْ للأمة كنكاح الواهبة بدون مهر، وحرم عليه أموراً لم تحرم على الأمة كحرمة الصدقة. ذكر هذه الخصائص القرطبي في تفسيره عند تفسير هذه الآية.

قُلُوبِكُمْ﴾: أي من حب النساء ـ أيها الفحول ـ والميل إلى بعض دون بعض وإنما خير الله تعالى رسوله ﷺ تيسيرًا عليه لعظم مهامه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾: أي عليمًا بضعف خلقه حليمًا عليهم لا يعاجل بالعقوبة ويقبل التوبة.

(٥٢) ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾: أي لا يجوز لك أن تتزوج بعد هؤلاء التسعة اللاتي اخترنك إكرامًا لهن وتخفيفًا عنك. ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾: أي بأن تطلق منهن وتتزوج أخرى بدل المطلقة لا. لا. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾: ما ينبغي أن تطلق من هؤلاء التسع وتتزوج من أعجبك حسنها. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾: أي فالأمر في ذلك واسع فلا حرج عليك في التسري بالمملوكة، وقد تسرى ﷺ بمارية المهداة إليه من قبل ملك مصر وولدت له إبراهيم ومات في سن رضاعه عليه السلام.

معنى الآيتين:

(٥١) ما زال السياق الكريم في شأن التيسير على رسول الله ﷺ والتخفيف، فقد تقدم أنه أُحل له النساء يتزوج من شاء مما ذكر له وخصه بالواهبة نفسها يتزوجها بدون مهر ولا ولي، وفي هذه الآية الكريمة (٥١): ﴿تُرْجِى[(١)] مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ الآية، وسع الله تعالى عليه بأن أذن له في أن يعتزل وطء من يشاء، وأن يرجىء من يشاء، وأن يؤوي إليه ويضم من يشاء، وأن يطلب من اعتزلها إن شاء فلا حرج عليه في كل ذلك، ومع هذا فكان يقسم بَيْنَ نسائه، ويقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك اللهم إلا ما كان من سودة رضي الله عنها فإنها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها. هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ[(٢)] عَلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أي ذلك التخيير لك في شأن نسائك أقرب ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي يفرحن بك، ولا يحزن عليك، ويرضين بما تتفضل به عليهن من إيواء ومباشرة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي أيها الناس من الرغبة في المخالطة، وميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، وإنما خيَّر الله رسوله ﷺ هذا التخيير تيسيرًا عليه وتخفيفًا لما له من مهام لا يطمع فيها عظماء الرجال ولو كان في القوة والتحمل كالجبال أو الجمال.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي بخلقه وحاجاتهم. ﴿حَلِيمًا﴾ عليهم لا يعاجل بالعقوبة ويقبل ممن تاب التوبة.

(٥٢) وقوله تعالى في الآية (٥٢): ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ[(٣)] مِنۢ بَعْدُ﴾ أي لا يحل لك يا رسولنا النساء بعد هؤلاء التسع اللائي خيرتهن فاخترن الله واخترنك وأنت رسوله واخترن الدار الآخرة، فاعترافًا بمقامهن قصرك الله عليهن بعد الآن فلا تطلب امرأة أخرى ببدل أو بغير بدل، ومعنى ببدل: أن يطلق منهن واحدة أو أكثر ويتزوج بدلها. وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي فلا بأس بأن تتسرى بالجارية تملكها وقد تسرى بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس ملك مصر مع بغلة بيضاء تسمى الدُّلْدُلْ وهي أول بغلة تدخل الحجاز، وقد أنجبت مارية إبراهيم ولد رسول الله ﷺ وتوفي في أيام رضاعه عليه وعلى

---

(١) ﴿تُرْجِى﴾ بدون همزة وترجىء مهموز لغتان فصيحتان من أرجى وأرجأ الأمر: إذا أخره والآية تحمل التوسعة والتخفيف عنه ﷺ فأسقط عنه واجب القسم بين أزواجه ومع هذا فكان يقسم. لأن الآية تفيد التخيير والإذن لا غير.

(٢) الجناح: الميل يقال: جنحت السفينة إذا مالت إلى الأرض أي: لا ميل عليك بلوم أو توبيخ أو عتاب. في الآية وجوب القسمة بين الزوجات والعدل بينهن فيعطي لكل زوجة يوماً وليلةً فيقيم عندها في يومها ولو كانت مريضة أو نفساء أو حائضاً وإن مرض هو فكذلك إلا أن يأذن له بالتمريض عند إحداهن كما استأذن رسول الله ﷺ بأن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها فأذن له في ذلك.

(٣) اختلف في أحكام هذه الآية ونسخها وهل نسخها بالكتاب أو السنة والراجح أنها منسوخة بآية: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ ورجح بعضهم نسخها بالسنة إذ قالت عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

٤٢٦

والده ألف ألف سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ رَّقِيبًا﴾ أي حفيظًا عليمًا فخافوه وراقبوه ولا تطلبوا رضا غيره برضاه فإنه إلهكم الذي لا إله لكم سواه به حياتكم وإليه مرجعكم بعد مماتكم.

هداية الآيتين:

١ - بيان إكرام الله تعالى لرسوله ﷺ بالتيسير والتسهيل عليه لكثرة مهامه.

٢ - ما خير الله فيه رسوله ﷺ لا يصح لأحد من المسلمين اللهم إلا أن يقول الرجل للمرأة كبيرة السن أو المريضة أي فلانة إني أريد أن أتزوج أحصن نفسي وأنت كما تعلمين عاجزة فإن شئت طلقتك، وإن شئت تنازلت عن ليلتك فإن اختارت البقاء مع التنازل عن حقها في الفراش فلا بأس بذلك.

٣ - في تدبير الله لرسوله ﷺ وزوجاته من الفوائد والمصالح ما لا يقادر قدره.

٤ - تقرير مبدأ (ما ترك أحد شيئًا لله إلا عوّضه الله خيرًا منه) تجلّى هذا في اختيار نساء رسول الله ﷺ الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة.

٥ - وجوب مراقبة الله تعالى وعدم التفكير في الخروج عن طاعته بحال من الأحوال.

[تنبيه هام]

إذنُ الله تعالى لرسوله ﷺ بالزواج أكثر من أربع كان لحكم عالية، وكيف والمشرع هو الله العليم الحكيم، من تلك الحكم العالية ما يلي:

١ - اقتضاء التشريع الخاص بالنساء ومنه ما لا يطلع عليه إلا الزوجان تَعَدُّدَ الزوجات ليروين الأحكام الخاصة بالنساء، ولصحة الرواية وقبولها في الأمة تعدد الطرق وكثرة الرواة والروايات.

٢ - تطلُّب الدعوة الإسلامية في أيامها الأولى مناصرين لها أقوياء ولا أفضل من أصهار الرجل الداعي فإنهم بحكم العرف يقفون إلى جنب صهرهم محقًا أو مبطلًا كان.

٣ - أن المؤمنين لا أحب إليهم من مصاهرة نبي الله ﷺ ليظفروا بالدخول عليه في بيته والخلوة به وما أعزها. فأي المؤمنين من لا يرغب أن تكون أمه أو أخته أو بنته أما لكل المؤمنين إني والله لا أحب إليّ من أن أكون أنا وزوجتي وسائر أولادي خدمًا في بيت رسول الله ﷺ. فلذا وسّع الله على رسوله ﷺ ليَتَّسع على الأقل للأرامل وربات الشرف حتى لا يدنس شرفهن.

٤ - قد يحتاج رسول الله ﷺ إلى مكافأة بعض من أحسن إليه ولم يجد ما يكافئه به ويراه راغبًا في مصاهرته فيجيبه لذلك، ومن هذا زواجه بكل من عائشة بنت الصديق وحفصة بنت الفاروق رضي الله عنهم أجمعين.

٥ - قد زوّجه ربّه بزينب وهو كاره لذلك يتهرب منه خشية قالة الناس وما كانوا يعدونه منكرًا وهو التزوج بامرأة الدعي المتبنى بعد طلاقها أو موت زوجها. هذه بعض الحكم التي اقتضت الإذن لرسول الله ﷺ في التزوج أكثر من أربع مع عامل آخر مهم وهو قدرة رسول الله ﷺ على العدل والكفاية الأمر الذي لن يكون لغيره أبدًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٣ ـ ٥٥]

﴿٥٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي يا من صدقوا بالله ووعده ووعيده وبالرسول ﷺ وما جاء به. ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾: أي في الدخول بأن يدعوكم إلى طعام. ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾: أي غير منتظرين وقت نضجه أي فلا تدخلوا قبل وقت إحضار الطعام وتقدم المدعوين إليه بأن

يستغل أحدكم الإذن بالدعوة للطعام فيأتي قبل الوقت ويجلس في البيت فيضايق رسول الله ﷺ وأهله. ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾: أي إذا أكلتم الطعام وفرغتم فانتشروا عائدين إلى بيوتكم أو أعمالكم ولا يبق منكم أحد. ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾: أي ولا تمكثوا مستأنسين لحديث بعضكم بعضًا. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾: أي ذلكم المكث في بيوت النبي ﷺ كان يؤذي النبي ﷺ. ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾: أي أن يخرجكم. ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾: أن يقوله ويأمر به ولذا أمركم أن تخرجوا. ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾: أي ستر كباب ورداء ونحوه. ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾: أي من الخواطر الفاسدة. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾: أي إن أذاكم لرسول الله ﷺ كان عند الله ذنبًا عظيمًا.

(٥٤) ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾: أي إن تظهروا رغبة في نكاح أزواج الرسول ﷺ بعد وفاته أو تخفوه في نفوسكم فسيجزيكم الله به شر الجزاء.

(٥٥) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ﴾: إلخ، أي لا حرج على نساء الرسول ﷺ في أن يظهرن لمحارمهن المذكورين في الآية. ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾: أي المؤمنات أما الكافرات فلا. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: أي من الإماء والعبيد في أن يرونهن ويكلّمونهن من دون حجاب. ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾: أي يا نساء النبي ﷺ فيما أمرتن به من الحجاب وغيره.

معنى الآيات:

(٥٣) لما بيّن تعالى لرسوله ﷺ ما ينبغي له مراعاته من شأن أزواجه أمهات المؤمنين بيّن تعالى بهذه الآية (٥٤) ما يجب على المؤمنين مراعاته أيضًا نحو أزواج النبي ﷺ أمهاتهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حقًا وصدقًا ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ بالدخول إلى طعام تطعمونه ﴿غَيْرَ[1] نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أي وقته، وذلك أن هذه الآية والمعروفة بآية الحجاب نزلت في شأن نفر من أصحاب رسول الله ﷺ لما أكلوا طعام الوليمة التي أقامها رسول الله ﷺ لما زوجّه الله بزينب بنت جحش رضي الله عنها، وكان الحجاب ما فرض بعد على النساء مكثوا بعد انصراف الناس يتحدثون فقام رسول الله ﷺ وخرج أمامهم لعلهم يخرجون فما خرجوا وتردد رسول الله ﷺ على البيت فيدخل ويخرج رجاء أن يخرجوا معه فلم يخرجوا واستحى ﷺ أن يقول لهم هيا فاخرجوا. فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ[2]﴾ يعني ذلك النفر ومن يريد أن يفعل فعلهم فإذا وجه إليه أخوه استدعاءً لحضور وليمة بعد الظهر مثلاً أتى إلى المنزل من قبل الظهر يضايق أهل المنزل فهذا معنى ﴿نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ﴾ أي وقته لأن الإنى هو الوقت.

وقوله ﴿نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ أي فلا تدخلوا بدون دعوة أو إذن ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ أي فرغتم من الأكل فانصرفوا منتشرين في الأرض فهذا إلى بيته وهذا إلى بيت ربه وهذا إلى عمله. وقوله: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي ولا تمكثوا بعد الطعام يحدث بعضكم بعضًا مستأنسين بالحديث. حرم تعالى هذا عليكم أيها المؤمنون لأنه يؤذي رسوله ﷺ. وإن كان الرسول ﷺ لكمال أخلاقه لا يأمركم بالخروج حياءً منكم فالله لا يستحي من الحق فلذا أمركم بالخروج بعد الطعام مراعاة لمقام رسوله محمد ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾[3] أي طلبتم شيئًا من

---

(١) ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ غير: منصوب على الحال والآية تضمنت الأدب في حال الجلوس والطعام كما تضمنت مشروعية الحجاب.

(٢) أي: غير منتظرين وقت نضجه، وإناه: مقصور، وفيه لغات: إني بكسر الهمزة وأني بفتح الهمزة والنون وأنا بفتح الهمزة والمد قال الحطيئة:

وأخرت العشاء إلى سهيل ... أو الشعرى فطال بي الإناء

والفعل أنى يأنى: إذا حان وأدرك وفرغ.

(٣) روى أبو داود عن أنس بن مالك: قال عمر: وافقت ربي في ربع الحديث وفيه قلت: يا رسول الله لو ضربت الحجاب على نسائك يدخل عليهن البر والفاجر فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الآية.

الأمتعة التي توجد في البيت كإناء ونحوه ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾ أي باب وستر ونحوهما لا مواجهة لحرمة النظر إليهن. وقوله ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ أنتم أيها الرجال ﴿وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ أيتها الأمهات ﴿أَطْهَرُ﴾ أي من خواطر السوء الفاسدة التي لا يخلو منها قلب الإنسان إذا خاطب فحل أنثى أو خاطبت امرأة فحلاً من الرجال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي ما ينبغي ولا يصح ﴿أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي أذىً ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي ولا أن تتزوجوا بعد وفاته نساءه فإنهن محرمات على الرجال تحريم الأمهات تحريمًا مؤبدًا لا يحل بحال، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ[1] ذَٰلِكُمْ﴾ أي المذكور من أذى رسول الله ﷺ والزواج من بعده بنسائه ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه وشرعه ذنبًا عظيمًا لا يقادر قدره ولا يعرف مدى جزائه وعقوبته إلا الله، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٣).

(٥٤) وقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ أي تظهروه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي تستروه يريد من الرغبة في الزواج من نساء الرسول بعد موته ﷺ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ وسيجزيكم بتلك الرغبة التي أظهرتموها أو أخفيتموها في نفوسكم شرَّ الجزاء وأسوأه. فاتقوا الله وعظموا ما عظم من حرمات رسوله ﷺ. هذا ما دلت عليه الآية (٥٤).

(٥٥) وقوله تعالى في الآية (٥٥) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾[2] أي لا تضييق ولا حرج ولا إثم على النساء المؤمنات من أزواج النبي ﷺ وغيرهن من نساء المؤمنين في أن يظهرن وجوههن ويكلمن بدون حجاب أي وجهًا لوجه ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾ الأب والجد وإن علا، ﴿أَبْنَآئِهِنَّ﴾ الابن وابن الابن وإن نزل وابن البنت كذلك وإن نزل، ﴿إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ وإن نزلوا، ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ وإن نزلوا، ومماليكهن من إماء وعبيد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ[3] ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أمر من الله لنساء النبي ﷺ ونساء المؤمنين بتقوى الله فيما نهاهن عنه وحرمه عليهن من إبداء الوجه للأجانب غير المحارم المذكورين في الآية وتذكيرهنَّ بشهود الله تعالى لكل شيء واطلاعه على كل شيء ليكون ذلك مساعدًا على التقوى.

هداية الآيات:

١ - بيان ما ينبغي للمؤمنين أن يلتزموه من الآداب في الاستئذان والدخول على البيوت لحاجة الطعام ونحوه.

٢ - بيان كمال الرسول ﷺ في خلقه في أنه ليستحي أن يقول لضيفه اخرج من البيت فقد انتهى الطعام.

٣ - وصف الله تعالى نفسه بأنه لا يستحي من الحق أن يقوله ويأمر به عباده.

٤ - مشروعية مخاطبة الأجنبية من وراء حجاب ستر ونحوه.

٥ - حرمة أذية رسول الله ﷺ وأنها جريمة كبرى لا تعادل بأخرى.

٦ - بيان أن الإنسان لا يخلو من خواطر السوء إذا كلم المرأة ونظر إليها.

٧ - حرمة نكاح أزواج الرسول ﷺ بعد موته وحرمة الخاطر يخطر بذلك.

٨ - بيان المحارم الذين للمسلمة أن تكشف وجهها أمامهم وتخاطبهم بدون حجاب.

٩ - الأمر بالتقوى ووعيد الله لمن لا يتقه في محارمه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٦ - ٥٩]

(٥٦) ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾: صلاة الله على النبي ﷺ هي ثناؤه ورضوانه عليه، وصلاة الملائكة دعاء

(١) روي أن رجلاً من المنافقين لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة قال: فما بال محمد يتزوج نساءنا والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فأنزل الله تعالى هذه الآية، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده وجعل لهن حكم الأمهات وقال ﷺ: **«زوجاتي في الدنيا هن زوجاتي في الآخرة»** وهذه علة من علل التحريم أيضاً.

(٢) روي أنه لما نزلت آية الحجاب تساءل الآباء والأقارب: هل نحن أيضاً لا نكلمهن إلا من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ إلخ..

(٣) لما ذكر تعالى الرخصة للمحارم أمر النساء بتقواه تعالى فأمرهن بذلك حتى لا يتجاوز من أذن لهن بالنظر إليهم في المحارم إلى غيرهم وذلك لقلة تحفظ النساء وكثرة استرسالهن.

واستغفار له، وصلاة العباد عليه تشريف وتعظيم لشأنه. ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾: أي قولوا: اللهم صل على محمد وسلم تسليمًا.

(٥٧) ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: أي بسب أو شتم أو طعن أو نقد.

(٥٨) ﴿يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾: أي يرمونهم بأمور يوجهونها إليهم تهمًا باطلة لم يكتسبوا منها شيئًا. ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: أي تحملوا كذبًا وذنبًا بينًا ظاهرًا.

(٥٩) ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾: أي يرخين على وجوههنّ الجلباب حتى لا يبدو من المرأة إلا عين واحدة تنظر بها الطريق إذا خرجت لحاجة. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾: أي ذلك الإدناء من طرف الجلباب على الوجه أقرب. ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾: أي يعرفن أنهن حرائر فلا يتعرض لهن المنافقون بالأذى. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: أي غفورًا لمن تاب من ذنبه رحيمًا به بقبول توبته وعدم تعذيبه بذنب تاب منه.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى في الآيات السابقة ما يجب على المؤمنين من تعظيم نبيّهم ﷺ واحترامه حيًا وميتًا أعلن في هذه الآية (٥٦) عن شرف نبيّه ﷺ الذي لا يدانيه شرف وعن رفعته التي لا تدانيها رفعة فأخبر أنه هو سبحانه وتعالى يصلي عليه وأن ملائكته كذلك يصلون[1] عليه، وأمر المؤمنين كافة أن يصلوا عليه فقال: (٥٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ فكان واجبًا على كل مؤمن ومؤمنة أن يصلي على النبي ﷺ ولو مرة في العمر، يقول: اللهم صل على محمد وسلم تسليمًا. وقد بينت السنة أنواعًا من صيغ الصلاة والسلام على الرسول ﷺ أعظمها أجرًا الصلاة الإبراهيمية[2] وهي واجبة في التشهد الأخير من كل صلاة فريضة[3] أو نافلة، وتستحب استحبابًا مؤكدًا عند ذكره[4] ﷺ، وفي مواطن أخرى. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٥٦).

(٥٧) أما الآية الثانية (٥٧) فقد أخبر تعالى عباده أن الذين يؤذون الله بالكذب[5] عليه أو انتقاصه بوصفه بالعجز أو نسبة الولد إليه أو الشريك وما إلى ذلك من تصوير الحيوان إذ الخلق اختص به الله فلا خالق إلا هو فلا تجوز محاكاته في الخلق، ويؤذون[6] رسول الله ﷺ بسب أو

---

(١) اختلف في الضمير في: يصلون على من يعود والصحيح أنه عائد على الله تعالى والملائكة معاً ولا حرج لأنه قول الله تعالى ولله أن يرفع من يشاء من عباده لجمع ضمير الملائكة مع ضميره، وليس هذا من باب ومن يعصهما الذي أنكره رسول الله ﷺ إذ ذاك من قول خطيب وهذا قول الله تعالى وليس من حقنا أن نعترض على الله تعالى وروي أن ابن عباس قرأ: ﴿وملائكته﴾ بالرفع أي: يصلون وعليه فانفصل الضمير وأصبح خاصاً بالله تعالى وهو وجه. وما تقدم أولى لقراءة الكافة بالنصب.

(٢) صيغة الصلاة الإبراهيمية هي: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى إبراهيم إنك حميد مجيد.

(٣) غير ضار أن يقول المالكية: الصلاة سنة مؤكدة في التشهد الأخير إذ السنة المؤكدة عند المالكية هي الواجب عند الشافعي وأحمد وإذاً لا فرق.

(٤) من هذه المواطن بدء الدعاء وختمه، وافتتاح الخطبة بعد حمد الله والثناء عليه ويوم الجمعة وليلتها. ورد في فضل الصلاة على النبي ﷺ أحاديث منها: حديث مسلم: «**من صلى عليّ مرة صلى الله عليه بها عشراً**» وروى النسائي أن النبي ﷺ خرج عليهم يوماً والبشر يُرى في وجهه فقالوا: إنا لنرى البشر في وجهك فقال: «**أتاني الملك فقال: يا محمد إن ربك يقول أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً**».

(٥) روى البخاري في صحيحه قال: قال الله تعالى: «**كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك**». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة «**يقول الله تبارك وتعالى: يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإن شئت قبضتهما**».

(٦) من أفظع أنواع الأذى الذي تعرض له رسول الله ﷺ أنه كان يوماً يصلي حول الكعبة فجاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور ووضعه على ظهره بين كتفيه الشريفتين فجاءت فاطمة وهي جويرية صغيرة فألقته بعيداً عن ظهر أبيها ونالت من المشركين وانصرفت فرضي الله عنها وأرضاها.

شتم أو انتقاص أو تعرض له أو لآل بيته أو أُمته أو سنته أو دينه هؤلاء ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي طردهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ أي هيأ وأحضر لهم عذابًا مهينًا لهم يذوقونه بعد موتهم ويوم بعثهم يوم القيامة. هذا ما دلت عليه الآية الثانية (٥٧).

(٥٨) أما الآية الثالثة (٥٨) فإنه لما كان المؤمنات يخرجن بالليل لقضاء الحاجة البشرية إذ لم يكن لهنَّ مراحيض في البيوت وكان بعض سفهاء المنافقين يتعرضون لهن بالغمز والكلمة السفيهة وهم يقصدون على عادتهم الإماء لا الحرائر فتأذى بذلك المؤمنات وشكون إلى أزواجهن ما يلقين من تعرض بعض المنافقين لهن فأنزل الله تعالى هذه الآية: (٥٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ[1] وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ والجلباب هو الملاءة أو العباءة تكون فوق الدرع السابغ الطويل، أي مُرْهُنَّ بأن يدنين من طرف الملاءة على الوجه حتى لا يبقى إلا عين واحدة ترى بها الطريق، وبذلك يعرفن أنهن حرائر عفيفات فلا يؤذيهنّ بالتعرض لهن أولئك المنافقون السفهاء عليهم لعائن الله. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أخبر عباده أنه تعالى كان وما زال غفورًا لمن تاب من عباده رحيمًا به فلا يعذبه بعد توبته.

هداية الآيات:

١ - بيان شرف الرسول محمد ﷺ ووجوب الصلاة والسلام عليه في التشهد الأخير في الصلاة.

٢ - بيان ما يتعرض له من يؤذي الله ورسوله ﷺ من غضب وعذاب.

٣ - بيان مقدار ما يتحمله من يؤذي المؤمنين والمؤمنات بالقول فينسب إليهم ما لم يقولوا أو لم يفعلوا أو يؤذيهم بالفعل بضرب جسم أو أخذ مال أو انتهاك عرض.

٤ - وجوب تغطية المؤمنة وجهها إذا خرجت لحاجتها إلا ما كان من عين ترى بها الطريق، واليوم بوجود الأقمشة الرقيقة لا حاجة إلى إبداء العين إذ تسبل قماشًا على وجهها فيستر وجهها وترى معه الطريق واضحًا والحمد لله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٠ ـ ٦٢]

(٦٠) ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾: أي عن نفاقهم وهو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر. ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي مرض حب الفجور وشهوة الزنا. ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي الذين يأتون بالأخبار الكاذبة لتحريك النفوس وزعزعتها كقولهم العدو على مقربة من المدينة أو السرية الفلانية قتل أفرادها وما إلى ذلك. ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: أي لنسلطنك عليهم ولنحرشنك بهم. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي في المدينة إلا قليلاً من الأيام ثم يخرجوا منها أو يهلكوا.

(٦١) ﴿مَّلْعُونِينَ﴾: أي مبعدين عن الرحمة. ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟﴾: أينما وجدوا أخذوا أسرى وقتلوا تقتيلاً.

(٦٢) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾: أي سنّ الله هذا سنة في الأمم الماضية أينما ثقف المنافقون والمرجفون أخذوا وقتلوا تقتيلاً. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾: أي منه تعالى إذ هي ليست أحكامًا يطرأ عليها التبديل والتغيير بل هي سر التشريع وحكمته.

معنى الآيات:

(٦٠) لقد تقدم أن بعض النسوة اشتكين ما يلقينه من تعرض المنافقين لهن عند خروجهن ليلاً لقضاء الحاجة، وأن الله تعالى أمر نساء المؤمنين أن يدنين من جلابيبهن وعلة ذلك أن يعرفن أنهن حرائر فلا يتعرض لهن المنافقون وكان ذلك إجراءً وقائيًا لا بد منه، ثم أقسم الجبار بقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ[2]

---

(١) تقدم ذكر أزواجه ﷺ وأما بناته ففاطمة الزهراء وزينب ورقية وأم كلثوم.

(٢) يرى الكثيرون أن الصفات الثلاث، لجنس واحد وهم المنافقون فقد اجتمعت فيهم هذه الصفات الثلاث والواو مقحمة وليست للعطف وشاهده قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

فهو رجل واحد بثلاث صفات.

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

٤٢٧

﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ أي وعزتي وجلالي لئن لم ينته هؤلاء المنافقون من نفاقهم وأعمالهم الاستفزازية والذين في قلوبهم مرض الشهوة وحب الفجور والمرجفون الذين يكذبون الأكاذيب المرجفة أي المحركة للنفوس كقولهم: العدو زاحف على المدينة والسرية الفلانية انهزمت أو قتل أكثر أفرادها لئن لم ينته هؤلاء ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ[1] بِهِمْ﴾ أي لنحرشنّك بهم ثم لنسلطنّك عليهم. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ أي في المدينة ﴿فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم يُخرجوا منها أو يُهلكوا.

(٦١) ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ أي يخرجون ملعونين أي مطرودين من الرحمة الإلهية التي تصيب سكان المدينة النبوية، وحينئذٍ ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ أي وجدوا وتُمكن منهم ﴿أُخِذُوا﴾ أي أسرى ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ حتى لا يبقى منهم أحد.

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦٠) ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ . . .﴾.

والثانية (٦١): ﴿مَّلْعُونِينَ . . .﴾ إلخ.

(٦٢) أما الآية الثالثة (٦٢) ﴿سُنَّةَ[2] اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أي لقد سنّ الله تعالى هذا سنة في المنافقين من أنهم إذا لم ينتهوا يلعنون ثم يُسلط عليهم من يأخذهم ويقتلهم تقتيلاً، وقوله: ﴿وَلَن[3] تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ يُخبر تعالى أن ما كان من قبل السنن كالطعام يشبع والماء يروي والنار تحرق والحديد يقطع لا يبدله تعالى بل يبقى كذلك لأنه مبْني على أساس الحكم التشريعية.

هداية الآيات:

١ - التنديد بالمنافقين وتهديدهم بإمضاء سنة الله تعالى فيهم إذا لم يتوبوا.

٢ - مشروعية إبعاد أهل الفساد من المدن الإسلامية أو يتوبوا بترك الفساد والإفساد، وخاصة المدينة النبوية الشريفة.

٣ - بيان أن ما كان من الأشياء من قبل السنن لا يتبدل بتبدل الأحوال والظروف بل يبقى كما هو لا يبدله الله تعالى ولا يغيره.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٣ - ٦٨]

(٦٣) ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾: أي يهود المدينة كما سأله أهل مكة فاليهود سألوه امتحانًا والمشركون تكذيبًا بها واستعجالاً لها. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾: أي أجب السائلين قائلاً إنما علمها عند ربي خاصة فلم يعلمها غيره. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾: أي لا أحد يدريك أيها الرسول أي يخبرك بها إذ علمها لله وحده. ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾: أي وما يشعرك أن الساعة قد تكون قريبة القيام.

(٦٤) ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾: أي نارًا مستعرة.

(٦٥) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: أي مقدرًا خلودهم فيها إذ الخلود يكون بعد دخولهم فيها.

(٦٦) ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾: أي تصرف من جهة إلى جهة كاللحم عند شيّه يقلب في النار. ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ﴾: أي يتمنون بأقوالهم لو أنهم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ﷺ.

(٦٧) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾:

---

(١) ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ اللام للقسم أي: وعزتنا وجلالنا لنغرينك.

(٢) ﴿سُنَّةَ﴾ منصوب على المصدر أي: سنّ الله تعالى ذلك سنة ثم أضيف المصدر إلى فاعله.

(٣) الجملة تذييلية: المراد بها تأكيد العذاب الحائق بالمنافقين وأتباعهم إن لم ينتهوا أو يتوبوا والمعنى: لن تجد لسنن الله مع الذين خلوا من قبل ولا مع الحاضرين ولا مع الآتين تبديلاً.

هذا قول الأتباع يشكون إلى الله سادتهم ورؤساءهم. ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾: أي طريق الهدى الموصل إلى رضا الله عز وجل بطاعته.

(٦٨) ﴿ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: أي اجعل عذابهم ضعفي عذابنا لأنهم أضلونا. ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾: أي اخزهم خزيًا متعدد المرات في عذاب جهنم.

معنى الآيات:

(٦٣) قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ[1]﴾ أي ميقات مجيئها والسائلون مشركون وأهل الكتاب فالمشركون يسألون عنها استبعادًا لها فسؤالهم سؤال استهزاء واليهود يسألون امتحانًا للرسول ﷺ، فأمره تعالى أن يجيب السائلين بجواب واحد وهو ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي انحصر علمها في الله تعالى إذ أخفى الله تعالى أمرها عن الملائكة والمقربين منهم والأنبياء والمرسلين منهم كذلك فضلًا عن غيرهم فلا يعلم وقت مجيئها إلا هو سبحانه وتعالى. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي لا أحد يعلمك بها أيها الرسول، وقوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي وما يشعرك يا رسولنا لعل الساعة تكون قريبة القيام وهي كذلك. قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ فأعلم بالقرب ولم يعلم بالوقت لحكم عالية منها استمرار الحياة كما هي[2] حتى آخر ساعة.

(٦٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝﴾ المكذبين بالساعة المنكرين لرسالتك الجاحدين بنبوتك لعنهم فطردهم من رحمته وأعد لهم نارًا مستعرة في جهنم خالدين فيها إذا دخلوها لم يخرجوا منها أبدًا.

(٦٥) ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ أي يتولاهم فيدفع العذاب عنهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ينصرهم ويخلصهم من محنتهم في جهنم.

(٦٦) وقوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ[3] وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ تصرف من جهة إلى جهة كما يقلّب اللحم عند شيّه يقولون عند ذلك: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ يتحسرون متمنين لو أنهم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ﷺ في الدنيا ولم يكونوا عصوا الله والرسول ﷺ.

(٦٧) وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا[4] وَكُبَرَآءَنَا﴾ هذه شكوى منهم واعتذارًا وأنى لهم أن تقبل شكواهم وينفعهم اعتذارهم. أطعناهم فيما كانوا يأمروننا به من الكفر والشرك وفعل الشر ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي طريق الهدى فعشنا ضالين ومتنا كافرين وحشرنا مع المجرمين.

(٦٨) ﴿رَبَّنَآ﴾ أي يا ربنا ﴿ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي ضاعف يا ربنا لسادتنا وكبرائنا الذين أضلونا ضاعف لهم العذاب فعذبهم ضِعْفي عذابنا، ﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾ أي واخزهم في العذاب خزيًا ﴿كَبِيرًا﴾[5] يتوالى عليهم دائمًا وأبدًا.

هداية الآيات:

١ - بيان أن علم الساعة استأثر الله به فلا يعلم وقت مجيئها غيره.

٢ - بيان أن الساعة قريبة القيام، ولا منافاة بين قربها وعدم علم قيامها.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحوال الكافرين فيها.

٤ - بيان أن طاعة السادة والكبراء في معاصي الله ورسوله ﷺ يعود بالوبال على فاعليه.

---

(١) شاهد قرب الساعة في السنة قوله ﷺ في الصحيح: «**بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار إلى السبابة والوسطى**». وحذفت التاء من قريباً ذهاباً بالساعة إلى اليوم كما حذفت من قريب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ذهاباً بالرحمة إلى العفو.

(٢) من الحكم العالية لإخفاء الساعة أن يكون العبد مستعداً لها بالإيمان وصالح أعمال في كل وقت وكذلك ساعة الفرد وهي الموت.

(٣) وجائز أن تقلب الوجوه أيضاً من لفح النار من الاسوداد إلى الاخضرار.

(٤) قرىء: ﴿**ساداتنا**﴾ بكسر التاء جمع سيد.

(٥) الضعف بكسر الضاد: العدد المماثل للمعدود فالأربعة ضعف الاثنين وقرىء: ﴿**كثيرا**﴾ و ﴿**كبيراً**﴾ وكثيراً يناسب قولهم: ضعفين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٩ - ٧٣]

(٦٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي يا من صدقوا بالله ورسوله ﷺ ولقاء الله وما جاء به رسول الله ﷺ. ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾: أي لا تكونوا مع نبيكم ﷺ كما كان بنو إسرائيل مع موسى إذ آذوه بقولهم إنه ما يمنعه من الاغتسال معنا إلا أنه آدر. ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾: أي أراهم أنه لم يكن به أدرة وهي انتفاخ إحدى الخصيتين. ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾: أي ذا جاهٍ عظيم عند الله فلا يُخيِّبُ له مسعىً ولا يرد له مطلبًا.

(٧٠) ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾: أي صدقًا صائبًا.

(٧١) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾: أي الدينيَّة والدنيوية إذ على الصدق والموافقة للشرع نجاح الأعمال والفوز بثمارها. ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾: أي نال غاية مطلوبة وهي النجاة من النار ودخول الجنة.

(٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾: أي ما ائتمن عليه الإنسان من سائر التكاليف الشرعية وما ائتمنه عليه أخوه من حفظ مال أو قول أو عرض أو عمل. ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾: أي رفضن الالتزام بها وخفن عاقبة تضييعها. ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾: أي آدم وذريته. ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾: أي لأنه كان ظلومًا أي كثير الظلم لنفسه جهولاً بالعواقب.

(٧٣) ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ﴾: أي وتحملها الإنسان قضاءً وقدرًا ليرتب الله تعالى على ذلك عذاب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب على المؤمنين والمؤمنات فيغفر لهم ويرحمهم وكان الله غفورًا رحيمًا.

معنى الآيات:

(٦٩) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾ ينادي الله تعالى مؤمني هذه الأمة ناهيًا لهم عن أذى نبيّهم ﷺ بأدنى أذى، وأن لا يكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا موسى في غير موطن ومن ذلك ما ذكره ﷺ عنه في قوله من رواية مسلم[1] أن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحده فقالوا: ما منعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، فذهب يومًا يغتسل فوضع ثوبه[2] على حجر وأخذ يغتسل وإذا بالحجر يهرب بالثوب فيجري موسى وراءه حتى وقف به على جمع من بني إسرائيل فرأوا أنه ليس به أُدرة ولا برص كما قالوا فهذا معنى ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي ذا جاه عظيم.

ومما حصل لرسول الله ﷺ من أذى أذاه في اتهام زوجه بالفاحشة من قبل أصحاب الإفك وقول بعضهم له وقد قسم مالاً هذه قسمة ما أُريد به وجه الله.

وقول بعضهم اعدل فينا يا رسول الله فقال له ويحك إذا لم أعدل أنا فمن يعدل؟

(٧٠) وكان يقول يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر!! هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦٩) أما الآية الثانية (٧٠) فقد نادى تعالى عباده المؤمنين الذين نهاهم عن أذيَّة نبيهم ﷺ وأن لا يكونوا في ذلك كقوم موسى بن عمران ناداهم ليأمرهم بأمرين الأول بتقواه عز وجل إذ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله ﷺ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا عقابه. فأدوا فرائضه واجتنبوا محارمه. والثاني بالتزام القول الحق الصائب[3] السديد، ورتَّب على الأمرين صلاح أعمالهم ومغفرة ذنوبهم إذ قول الحق والتزام الصدق مما يجعل الأقوال

(١) ورواه البخاري بمعناه أيضاً.

(٢) قال أهل العلم في وضع موسى ثوبه على حجر ودخوله عرياناً: دليل على جواز مثل هذا الصنيع وهو كذلك، وهذا الجواز لا يتنافى الاستحباب إذ التستر مستحب بلا خلاف.

(٣) القول السديد هو: لا إله إلا الله وهو القصد الحق وهو الذي يوافق ظاهره باطنه، وهو ما أريد به وجه الله دون سواه فالقول السديد يشمل كل هذا الذي ذكر.

والأعمال مثمرة نافعة، فتثمر زكاة النفس وطهارة الروح. ثم أخبرهم مبشرًا إياهم بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر والنهي ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وهي سعادة الدارين: النجاة من كل مخوف والظفر بكل محبوب مرغوب ومن ذلك النجاة من النار ودخول الجنة.

(٧٠) ـ (٧١) هذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝﴾.

(٧٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ[1]﴾ يخبر تعالى منبهًا محذرًا فيقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ وهي شاملة للتكاليف الشرعية كلها ولكل ما ائتمن عليه الإنسان من شيء يحفظه لمن ائتمنه عليه حتى يرده إليه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال بعد أن خلق لها عقلًا ونطقًا ففهمت الخطاب وردت الجواب فأبت تحملها بثوابها وأشفقت وخافت من تبعتها، وعرضت على الإنسان آدم فحملها بتبعتها من ثواب وعقاب لأنه ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه يوردها موارد السوء ﴿جَهُولًا﴾ بعواقب الأمور. هذا ما دلت عليه الآية الرابعة (٧٢) وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا[2] جَهُولًا ۝﴾.

(٧٣) وقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ[3] ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ[4] وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي بتبعة النفاق والشرك، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ أي تَمَّ عرضُ الأمانة وقبولُ آدم لها ليؤول الأمر إلى أن يكفر بعض أفراد الإنسان فيعذبوا بكفرهم الذي نجم عن تضييع الأمانة، ويؤمن بعض آخر فيفرط بعض التفريط ويتوب فيتوب الله عليه فيغفر له ويدخله الجنة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ ومن آثار ذلك أن تاب الله على المؤمنين والمؤمنات وغفر لهم ورحمهم بإدخالهم الجنة فسبحان الله المدبر الحكيم.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب تقوى الله عز وجل بفعل الأوامر واجتناب المناهي.

٢ ـ صلاح الأعمال لتثمر للعاملين الزكاة للنفس، وطيب الحياة متوقف على التزام الصدق في القول والعمل وهو القول السديد المنافي للكذب والانحراف في القول والعمل.

٣ ـ طاعة الله ورسوله ﷺ سبيل الفوز والفلاح في الدارين.

٤ ـ وجوب رعاية الأمانة وأدائها، ولم يخل أحد من أمانة.

٥ ـ وصف الإنسان بالظلم والجهل، وبالكفر والمهانة والضعف في آيات أخرى يستلزم طلب علاج لهذه الصفات. وعلاجها جاء مبينًا في سورة المعارج في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾.

❋ ❋ ❋

---

(١) روى معمر عن الحسن: أن الأمانة عرضت على السماوات والأرض والجبال قالت: وما فيها؟ قيل لها: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت فقالت: لا. قال مجاهد: فلما خلق الله آدم عرضها عليه قال: وما هي؟ قال: إن أحسنت أجرتك وإن أسأت عذبتك قال: فقد تحملتها يا رب. قال مجاهد: فما كان بين أن تحملها إلى أن أخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر.

(٢) فكان الإنسان فريقين: فريق ظلوم وفريق راشد عالم.

(٣) ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ اللام متعلقة بحمل أي: حملها ليعذب العاصي ويثاب المطيع فهي لام التعليل وتعذيبهم نتيجة إضاعتهم الأمانة، ورحمة المؤمنين والمؤمنات نتيجة محافظتهم على الأمانة برعايتهم لها وسر ذلك أن التكاليف عملها يزكي النفس ويطهرها فتتأهل للجنة، وعدم عملها بتركها يسبب خبث النفس وهو يؤهل للنار وعذابها.

(٤) ذكر المنافقات والمشركات لأن المقام كمقام الإشهاد يتطلب ذكر الشاهد إقامة الحجة وإظهاراً للعدالة ولأن الجزاء العادي يتطلب التنصيص على من يقضي له أو عليه.

ترتيبها ٣٤ — سورة سبأ — آياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ① يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ② وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ③ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ⑤ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ⑥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑦﴾

٤٢٨

سورة سبأ[1]
مكية
وآياتها أربع وخمسون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١، ٢]

① ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي الوصف بالجميل واجب لله مستحق له.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي خلقًا وملكًا وتصريفًا وتدبيرًا. ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي يحمده فيها أولياؤه وهم في رياض الجنان، كما له الحمد في الدنيا. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾: أي الحكيم في أفعاله الخبير بأحوال عباده.

② ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي ما يدخل فيها من مطر وأموات وكنوز. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: أي من نبات وعيون ومعادن. ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي من ملائكة وأمطار وأرزاق ونحوها. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾: أي وما يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد وأرواحهم بعد الموت. ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾: أي الرحيم بالمؤمنين الغفور للتائبين.

معنى الآيتين:

يخبر تعالى عباده بأن له الحمد[2] والشكر الكاملين التامين، دون سائر خلقه، فلا يحمد على الحقيقة إلا هو أما مخلوقاته فكل ما يُحمد له هو من عطاء الله تعالى لها وإفاضته عليها فلا يستحق الحمد على الحقيقة إلا الله، كما أخبر تعالى بموجب حمده وشكره وهو أن له ما في السموات وما في الأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا وتصريفًا وليس لأحد سواه من ذلك شيء، هذا في الدنيا.

① ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[3] إذ يكرم أولياءه فينزلهم دار السلام فيحمدونه على ذلك ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ في تصريف أمور عباده وسائر مخلوقاته وتدبيرها الخبير بأحوالها العليم بصفاتها الظاهرة والباطنة.

② وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ أي ما يدخل[4] في الأرض من مطر وكنوز وأموات، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي من الأرض من نبات ومعادن ومياه، ﴿يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من أمطار وملائكة وأرزاق[5]، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي يصعد من ملائكة وأعمال العباد. وهو مع هذه القدرة والجلال والكمال هو وحده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للتائبين. بهذه الصفات الثابتة للذات الإلهية وهي صفات جلال وجمال وكمال استحق الرب تعالى العبادة دون سواه فكل تأليه لغيره هو باطل ومنكر وزور يجب تركه والتخلي عنه، والتنديد بفاعله حتى يتركه ويتخلى عنه.

---

(١) هذه السورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هي إحدى خمس سور مفتتحة بالحمد لله وهن كلهن مكيات: أولهن الفاتحة وآخرهن فاطر.

(٢) الحمد الكامل والثناء الشامل كله لله، إذ النعم كلها منه وله الحمد في الأولى لأنه المالك وله الحمد في الآخرة كذلك.

(٣) الجملة عطف على الصلة أي: والذي له الحمد في الآخرة، وفيها إشارة إلى أنه مالك الأمر في الآخرة.

(٤) الذي يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها يعلم من باب أولى ما يدب على سطحها وما يزحف فوقها والذي يعلم ما ينزل من السماء وما يعرج فيها يعلم من باب أولى ما يجول في أرجائها ويعلم سير كواكبها.

(٥) وكذا من الثلوج والبرد والصواعق.

هداية الآيتين:

١ - وجوب حمد الله تعالى[1] وشكره بالقلب واللسان والجوارح والأركان.

٢ - بيان أن الحمد لا يصح إلا مع مقتضيه من الجلال والجمال.

٣ - لا يحمد في الآخرة إلا الله سبحانه وتعالى.

٤ - بيان علم الله تعالى بالظواهر والبواطن في كل خلقه.

٥ - تقرير توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣ - ٦]

(٣) ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾: أي القيامة. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: أي لا يغيب عنه. ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: أي وزن ذرة: أصغر نملة. ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾: أصغر من الذرة ولا أكبر منها. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: أي موجود في اللوح المحفوظ مكتوب فيه.

(٤) ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: أي أثبته في اللوح المحفوظ ليحاسب به ويجزي صاحبه.

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: أي عملوا على إبطالها وسعوا في ذلك جهدهم. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: أي مغالبين لنا ظانين عجزنا عنهم، وأنهم يفوتوننا فلا نبعثهم ولا نحاسبهم ولا نجزيهم. ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾: أي عذاب من أقبح العذاب وأسوأه.

(٦) ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: أي ويعلم الذين أوتوا العلم وهم علماء أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأصحابه. ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾: أي القرآن هو الحق الموحى به من الله تعالى. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: أي القرآن يهدي إلى صراط الله الموصل إلى رضاه وجواره الكريم وهو الإسلام. والعزيز ذو العزة والحميد المحمود.

معنى الآيات:

(٣) بعدما قررت الآيات السابقة توحيد الله في ربوبيته وألوهيته ذكر تعالى في هذه الآيات تقرير عقيدة البعث والجزاء فقال تعالى مخبرًا بما قاله منكرو البعث والجزاء: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ[2] كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ[3]﴾ وهو إنكار منهم للبعث إذ الساعة هي ساعة الفناء والبعث بعدها، وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي أقسم لهم بالله تعالى ربه ورب كل شيء لتأتينهم أحبوا أم كرهوا، ثم أثنى الرب تبارك وتعالى على نفسه بصفة العلم إذ البعث يتوقف على العلم كما يتوقف على القدرة والقدرة حاصلة، إذ خلقهم ورزقهم ويميتهم. فذكر تعالى أنه ﴿عَٰلِمِ[4] ٱلْغَيْبِ﴾ وهو كل ما غاب في السموات وفي الأرض. وأخبر أنه ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ أي لا يغيب عن علمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ[5]﴾ أي وزن ذرة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ﴾ من الذرة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ أيضًا ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي بيِّن وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل أحداث العالم فلا حركة ولا سكون وقع أو يقع في الكون إلا وله صورته ووقته في اللوح المحفوظ.

(٤) هذا ما تضمنته الآية الثالثة، وقوله تعالى في الآية (٤): ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إذ الحكمة من كتابة الأحداث صغيرها وكبيرها ومن البعث الآخر هي ليجزي تعالى الذين آمنوا، أي صدقوا الله ورسوله وعملوا الصالحات وهي أداء الفرائض والسنن بما ذكر من جزائهم في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة.

(٥) وقوله في الآية (٥): ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) حمده تعالى نفسه دليل على أنه محب الحمد. ولذا كان الحمد رأس الشكر وشاهده قول الرسول ﷺ: **«ما من أحد أحب إليه الحمد من الله تعالى حتى أنه حمد نفسه»**.

(٢) روي أن أبا سفيان هو الذي قال هذه المقالة حيث قال لإخوانه من أهل الكفر بمكة: واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نبعث فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليه دعواه بقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ الآية.

(٣) ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: علم بالغلبة في القرآن على يوم القيامة وساعة النشر والحشر.

(٤) قرأ نافع وعنه ورش: ﴿عالم﴾ بالرفع على الابتداء وقرأ حفص بالخفض نعت لاسم الجلالة.

(٥) قال القرطبي: مثقال ذرة أي: قدر نملة صغيرة.

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

﴿سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بيّن فيه جزاء الكافرين بعد أن بين جزاء المؤمنين ذلك الجزاء الذي هو حكمة وعلّة البعث وكتابة الأعمال في اللوح المحفوظ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ[1]﴾ أي والذين عملوا جهدهم في إبطال آيات الله إذ قالوا فيها أنها من كلام الكهان وأنها شعر وأساطير الأولين حتى لا يؤمنوا ولا يوحدوا أولئك البعداء في الخسّة والانحطاط لهم جزاء، ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ[2] أَلِيمٌ﴾ والرجز سيء العذاب وأشده، ومعنى أليم أي ذي ألم وإيجاع شديد.

﴿٦﴾ وقوله تعالى في الآية (٦): ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي ويعلم علماء أهل الكتاب كعبدالله بن سلام[3] وأصحابه من مؤمني أهل الكتاب. ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وعلم أهل الكتاب بأن القرآن حقٌّ ناتج عن موافقته لما في كتاب الله التوراة من عقيدة القدر وكتابة الأعمال دقيقها وجليلها في اللوح المحفوظ ليجزي بها الله تعالى المؤمنين والكافرين يوم القيامة.

هذا ما دلت عليه الآية (٦) والأخيرة وهي قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ أي وليعلم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو الإسلام.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بعد تقرير توحيد الألوهية.

٢ - تقرير عقيدة القضاء والقدر وكتابة الأعمال والأحداث في اللوح المحفوظ.

٣ - طلب شهادة أهل الكتاب على صحة الإسلام والحصول عليها لموافقة التوراة للقرآن.

٤ - تقرير النبوة إذ القرآن فرع نبوة الرسول ﷺ ودليلها المقرر لها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ - ٩]

﴿٧﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي قال بعضهم لبعض على جهة التعجيب.

﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾: أي محمد ﷺ. ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: أي قطعتم كل التقطيع. ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: أي تبعثون خلقًا جديدًا لم ينقص منكم شيء.

﴿٨﴾ ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾: أي جنون تخيّل له بذلك. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾: أي ليس الأمر كما يقول المشركون من افتراء الرسول ﷺ أو جنونه. بل الأمر الثابت والواقع أن الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب في الآخرة، وفي الضلال البعيد في الدنيا.

﴿٩﴾ ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟﴾: أي ينظروا. ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾: أي من أمامهم وورائهم وفوقهم وتحتهم إذ هم محاطون من كل جهة من السماء والأرض. ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾: أي قطعًا جمع كِسفة أي قطعة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾: أي علامة واضحة ودليلًا قاطعًا على قدرة الله عليهم.

---

(١) قال القرطبي: أي: في إبطال أدلتنا والتكذيب بآياتنا وما في التفسير أشمل وأوضح.

(٢) قرأ نافع بجر: ﴿أليم﴾ نعت لرجز وقرأ حفص برفع: ﴿أَلِيمٌ﴾ نعت لعذاب المرفوع.

(٣) على هذا التفسير أن الآية مدنية كما قال بعضهم حيث استثناها من آيات السورة. وجائز أن يراد بالذين أوتوا العلم: أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب والأصحاب رضوان الله عليهم إذ هم من أولي العلم.

﴿لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾: أي لكل مؤمن منيب إلى ربّه رجّاع إليه في أمره كله.

معنى الآيات:

(٧) ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء إنه لما قررها تعالى في الآيات قبل أورد هنا ما يتقاوله المشركون بينهم في تهكم واستهزاء واستبعاد للحياة الآخرة. فقال تعالى حاكيًا قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم مشركو مكة، أي بعضهم لبعض متعجبين: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ[1] عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ يعنون محمدًا ﷺ ﴿يُنَبِّئُكُمۡ﴾ أي يخبركم بأنكم إذا متم وتمزقت لحومكم وتكسرت عظامكم وذهبتم في الأرض ترابًا تبعثون في خلق جديد بعد أن ﴿مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ[2]﴾ أي كل التمزيق فلم يبق شيء متصل ببعضه بعضًا.

(٨) ﴿أَفۡتَرَىٰ[3] عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي محمد ﷺ فكذب على الله هذا القول وزوره عنه وادعى أنه أخبره بوجود بعث جديد للناس بعد موتهم لحسابهم وجزائهم؟! ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ أي به مس من جنون فهي تخيل له صور البعث وما يجري فيه وهو يخبر به ويدعو إلى الإيمان به؟ وهنا ردّ الله تعالى عليهم كذبهم وباطلهم فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ[4] بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ أي ليس الأمر كما يقولون من أن النبي ﷺ افترى على الله كذبًا، أو به جنون فتخيل له البعث وإنما الأمر الثابت والواقع المقطوع به أن الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب يوم القيامة. وفي الضلال البعيد اليوم في الدنيا وشؤمهم أتاهم من تكذيبهم بالآخرة.

(٩) ثم قال تعالى مهددًا لهم لعلهم يرتدعون عن التهجم والتهكم بالنبي ﷺ: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي أعموا فلم يروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ[5] وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أفلم ينظروا كيف هم محاطون من فوقهم ومن تحتهم ومن أمامهم ومن ورائهم، أي الأرض تحتهم والسماء فوقهم ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ فيعودون فيها ﴿أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا[6]﴾ أي قطعًا من السماء فتهلكهم عن آخرهم فلا يجدون مهربًا والجواب لا، لأنهم مهما جروْا هاربين لا تزال السماء فوقهم والأرض تحتهم والله قاهر لهم متى شاء خسف بهم أو أسقط السماء عليهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ أي إن في ذلك المذكور من إحاطة السماء والأرض وقدرة الله على خسف من شاء خسف الأرض بهم وإسقاطِ كِسَفٍ من السماء على من شاء ذلك لهم آية. وعلامة بارزة على قدرة الله على إهلاك من شاء ممن كفروا بالله وبرسوله ﷺ وكذبوا بلقائه. وكون المذكور آية ﴿لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ دون غيره لأن المنيب هو الرجّاع إلى ربه كلما أذنب آب لخشيته من ربه فالخائف الخاشي هو الذي يجد الآية واضحة أمامه في إحاطة الأرض والسماء بالإنسان وقدرة الله على خسف الأرض به أو إسقاط السماء كسفًا عليه.

هداية الآيات:

١ - بيان ما كان المشركون عليه من استهزاء وتكذيب وسخرية بالنبي ﷺ.

٢ - تقرير البعث وأن المكذبين به محكوم عليه بالعذاب فيه.

٣ - لفت الأنظار إلى قدرة الله

---

(١) الاستفهام مستعمل في العرض مثل: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨)﴾ أي: يعرض عليه ما هو صالح له. والاستفهام في الآية وإن كان للعرض فهو مكنى به عن التعجب أي: هل ندلكم على أعجوبة وهي رجل ينبئكم بهذا النبأ؟

(٢) التمزق والتفرق والتشتت.

(٣) هذه الجملة ﴿أَفۡتَرَىٰ﴾. صفة ثانية لرجل والصفة الأولى هي قوله: ﴿يُنَبِّئُكُمۡ﴾.

(٤) في الجملة إدماج يصف به حالهم في الآخرة مع وصف حالهم في الدنيا إذ أخبر أنهم في الآخرة في العذاب وفي الدنيا في الضلال البعيد.

(٥) المراد بما ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾: هو ما يستقبله الإنسان من الكائنات السماوية والأرضية، وبـ: ﴿وَمَا خَلۡفَهُم﴾ وهو ما وراء الإنسان من الكائنات الأرضية والسماوية.

(٦) قرأ نافع: ﴿كِسۡفاً﴾ بسكون السين وقرأ حفص بفتحها.

تعالى المحيطة بالإنسان ليخشى الله تعالى ويرهبه فيؤمن به ويعبده ويوحده.

٤ - فضل الإنابة إلى الله وشرف المنيب. والإنابة الرجوع إلى التوبة بعد الذنب والمعصية، والمنيب الذي رجع في كل شيء إلى ربه تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ - ١٤]

(١٠) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾: أي نبوة وملكًا. ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾: أي وقلنا يا جبال أوّبي معه أي ارجعي معه بالتسبيح. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾: أي والطير تسبح أيضًا معه. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾: أي جعلناه له في اللين كالعجينة يعجنها كما يشاء.

(١١) ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾: أي دروعًا طويلة تستر المقاتل وتقيه ضرب السيف. ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: أي اجعل المسمار مناسبًا للحلقة، فلا يكن غليظًا ولا دقيقًا، أي اجعل المسامير مقدرة على قدر الحلق لما يترتب على عدم المناسبة من فساد الدرع وعدم الانتفاع بها.

(١٢) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: أي وسخرنا لسليمان الريح غدوها أي سيرها من الغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ورواحها من منتصف النهار إلى الليل شهر كذلك أي مسافة شهر. ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾: أي وأسلنا له عين النحاس. ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾: أي ومن يعدل عن طاعة سليمان فلم يطعه نذقه من عذاب السعير.

(١٣) ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾: جمع محراب المقصورة تكون إلى جوار المسجد للتعبد فيها. ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾: أي وقصاع في الكبر كالحياض التي حول الآبار يجبى إليها الماء. ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾: أي وقدور كبار ثابتات على الأثافي لكبرها لا تحول.

(١٤) ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾: أي الأرضة. ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾: أي عصاه بلغة الحبشة. ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾: أي سقط على الأرض ميتًا. ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾: أي انكشف لها فعرفت. ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾: وهو خدمة سليمان في الأعمال الشاقة.

معنى الآيات:

(١٠) يذكر تعالى في هذا السياق الكريم مظاهر قدرته وإنعامه على عباده المؤمنين ترغيبًا في طاعته وترهيبًا من معصيته فيقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ[(١)] مِنَّا فَضْلًا﴾ وهو النبوة والزبور «كتاب» والملك. وقلنا للجبال ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ[(٢)]﴾ أي ارجعي صوت تسبيحه، والطير أمرناها كذلك فكان إذا سبّح ردّد تسبيحه الجبال والطير. وهذا تسخيرٌ لا يقدر عليه إلا الله. وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ[(٣)]﴾ وهذا امتنان آخر وهو تسخير الحديد له وتليينه حتى لكأنه عجينة يتصرف فيها كما شاء، وقلنا له اعمل دروعًا طويلة سابغاتٍ تستتر بها في الحرب.

(١١) ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ[(٤)]﴾ وقوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا[(٥)]﴾ أي اعملوا بطاعتي وترك معصيتي فأدوا الفرائض والواجبات واتركوا الإثم والمحرمات. وقوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه وعدٌ ووعيد إذ العلم بالأعمال يستلزم الثواب عليها إن كانت صالحة والعقاب عليها إن كانت فاسدة.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي سخرنا لسليمان بن داود الريح ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي تقطع مسافة شهر في الصباح، وأخرى في المساء أي من منتصف النهار إلى الليل فتقطع مسيرة شهرين في يوم واحد، وذلك أنه كان لسليمان مركب من خشب يحمل فيه

---

(١) بيّن تعالى بهذه الآية أن إرسال نبيه محمد ﷺ لم يكن أمراً خارقاً للعادة ولا منافياً لمقتضيات العقول إذ أرسل من قبله رُسلاً وآتى داود من الإنعام ما قرر به رسالته وأثبت به نبوته وكذا ولده سليمان عليهما السلام.

(٢) ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾: منصوب بالعطف على المنادى «يا جبال». لأن المعطوف المعرف على المنادى يجوز نصبه ورفعه والنصب أولى.

(٣) ﴿ٱلْحَدِيدَ﴾: تراب معدني إذا صهر بالنار امتزج بعضه ببعض ولان وأمكن تطريقه وتشكيله فإذا برد تصلب.

(٤) قدر الشيء: جعله على قدر معيّن و ﴿ٱلسَّرْدِ﴾ هو: تركيب حلقها ومساميرها بصورة متناسبة بحيث لا يعظم المسمار فيغلق الحلقة، ولا يرق فلا تمسكه.

(٥) لمّا عدد عليه نعمه أمره بالشكر وهو العمل الصالح الشامل للحمد والشكر والطاعة والصبر.

الرجال والعتاد وترفعه الجان من الأرض فإذا ارتفع جاءت عاصفة فتحملها ثم تتحول إلى رخاء فيوجه سليمان السفينة حيث شاء بكل ما تحمله وينزل بها كسفينة فضاء تمامًا. وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ وهو النحاس فكما ألان لداود الحديد للصناعة أجرى لسليمان عين النحاس لصناعته فيصنع ما شاء من آلات وأدوات النحاس.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي وسخرنا من الجن ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي أمامه وتحت رقابته يعمل له ما يريد عمله من أمور الدنيا. وذلك بإذن ربّه تعالى القادر على تسخير ما يشاء لمن يشاء. وقوله: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ أي ومن يعدل من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي عما أمرناهم بعمله وكلفناهم به ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وذلك يوم القيامة[١].

(١٣) وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ بيان لما في قوله: ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قصور أو بيوت تكون ملاصقة للمسجد للتعبد فيها، ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي صور من نحاس أو خشب إذ لم تكن محرمة في شريعتهم، ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة تتسع لعشرة من الأكلة، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ أي في الكبر، والجابية[٢] حوض يفرغ فيه ماء البئر ثم يسقى به الزرع أو ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي ويعملون له قدورًا ضخمة لا تتحول بل تبقى دائمًا موضوعة على الأثافي ويطبخ فيها وهي في مكانها وذلك لكبرها ومعنى راسيات ثابتات على الأثافي.

وقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟﴾ أي قلنا لهم اعملوا ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي اعملوا الصالحات شكرًا لله تعالى على هذا الإفضال والإنعام أي أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا ربكم في أمره ونهيه يكن ذلك منكم شكرًا لله على نعمه. روي أنه لما أمروا بهذا الأمر قال داود عليه السلام لآلِهِ: أيكم يكفيني النهار فإني أكفيكم الليل فصلوا لله شكرًا فما شئت أن ترى في مسجدهم راكعًا أو ساجدًا في أي ساعة من ليل أو نهار إلا رأيت. ويكفي شاهدًا أن سليمان مات وهو قائم يصلي في المحراب. وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ هذا إخبار بواقع وصدق الله العظيم الشاكرون لله على نعمه قليل وفي كل زمان ومكان وذلك لاستيلاء الغفلة على القلوب من جهة ولجهل الناس بربهم وإنعامه من جهة أخرى.

(١٤) وقوله تعالى في الآية (١٤): ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي توفيناه: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي الأرضة المعروفة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ فلما أكلتها خر على الأرض، وذلك أنه سأل ربّه أن يعمي خبر موته عن الجن، حتى يعلم الناس أن الجن لا يعلمون الغيب كما هم يدّعون، فمات وهو متكىء على عصاه يصلي في محرابه، والجن يعملون لا يدرون بموته فلما مضت مدة من الزمن وأكلت الأرضة المنسأة وخرّ سليمان على الأرض علمت الجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان ولما أقاموا مدة طويلة في الخدمة والعمل الشاق وهم لا يدرون. هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ[٣] ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ - كما كان يدعي بعضهم - ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي الذي كان سليمان يصبه عليهم لعصيانهم وتمردهم على الطاعة.

هداية الآيات:

١ - بيان إكرام الله تعالى لآل داود وما وهب داود وسليمان من الآيات.

---

(١) وجائز أن يكون هناك ملك بيده سوط من نار أو شهاب يضرب به الشيطان إن عصى سليمان كما روي عن السلف.

(٢) قال الشاعر:

تروح على آل المحلق جفنة ... كجابية الشيخ العراقي تفهق

أي: لامتلائها.

(٣) الآية صريحة في أن من الجن من كان يدعي علم الغيب يضلل إخوانه من الجن والإنس به، وإذ تبين للجن إن دعوى علم الغيب ممن ادعاها باطلة، علم كذلك الإنس أن الجن ما كانوا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لعلموا بموت سليمان حين مات وتركوا العمل وفروا بعيدين.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

٢ - فضيلة صنع السلاح وآلات الحرب لغرض الجهاد في سبيل الله.

٣ - مركبة سليمان سبقت صنع الطائرات الحالية بآلاف السنين.

٤ - شرع من قبلنا شرعٌ لنا إلا ما خصّه الدليل كتحريم الصور[(١)] والتماثيل علينا ولم تحرم عندهم.

٥ - وجوب الشكر على النعم، وأهم ما يكون به الشكر الصلاة والإكثار منها.

٦ - تقرير أن علم الغيب لله وحده.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ - ١٩]

﴿١٥﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾: أي لقد كان لقبيلة سبأ اليمانية في مسكنهم. ﴿ءَايَةٌ﴾: أي علامة على قدرة الله وهي جنتان عن يمين وشمال. ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾: أي طيبة المناخ بعيدة عن الأوباء وأسبابها، والله رب غفور.

﴿١٦﴾ ﴿فَأَعْرَضُوا﴾: أي عن شكر الله وعبادته. ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾: أي سد السيل العرم. ﴿ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾: أي صاحبتي أكل مُرّ بشع وشجر الأثل.

﴿١٧﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي التبديل جزيناهم بكفرهم.

﴿١٨﴾ ﴿الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾: هي قرى الشام مبارك فيها. ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾: أي متواصلة من اليمن إلى الشام. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾: أي المسافات بينها مقدرة بحيث يقيلون في قرية ويبيتون في أخرى.

﴿١٩﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾: أي لمن جاء بعدهم أي أهلكناهم ولم يبق منهم إلا ذكرهم متداولاً بين الناس. ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: أي فرقناهم في البلاد كل التفرق. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾: أي إن في ذلك المذكور من النعم وسلبها لعبرًا. ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: أي صبار على الطاعات وعن المعاصي شكور على النعم.

معنى الآيات:

﴿١٥﴾ لما ذكر تعالى إنعامه على آل داود وشكرهم له وأخبر أنه قليل من عباده من يشكر إنعامه عليه ذكر أولاد سبأ وأنه أنعم عليهم بنعم عظيمة وأنهم ما شكروها فأنزل بهم نقمته وسلبهم نعمته وذلك جزاء لكل كفور. فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ[(٢)] ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي لقد كان لأولاد سبأ وهم الأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار، ومن أنمار جنعم وبجيلة ومن أولاد سبأ أربعة سكنوا في الشام وهم: لخم وجدام وغسان وعاملة، وأبوهم سبأ هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقوله تعالى: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ أي في مساكنهم ﴿ءَايَةٌ﴾ أي علامة على قدرة الله وإفضاله على عباده[(٣)] وهي ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ الوادي أي

---

(١) لعن رسول الله ﷺ المصورين ولم يستثن فقال: «**إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم**». وفي البخاري: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون**». وحديث الموطأ. «**إلا ما كان رقماً في ثوب**» فهو وإن خص جميع الصور فإن حديث عائشة رضي الله عنها دل على كراهيته إذ قال لها: أخرجيه عني فهتكته. والرخصة في لعب البنات لما في الصحيح على شرط أن لا تكون كأشباه التماثيل.

(٢) قرأ نافع: ﴿**مساكنهم**﴾ بالجمع وقرأ حفص بالإفراد: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ وجمعه مساكن.

(٣) إذ لو اجتمعت البشرية كلها على إخراج شجرة من خشبة يابسة لما استطاعت فكيف بأنواع النوار وألوانه واختلاف طعومه وروائحه وأزهاره؟

جنتان عن يمين الوادي وأخرى عن شماله كلها فواكه وخضر، تسقى بماء سد مأرب. ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي قلنا لهم كلوا من رزق ربكم ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ أي هذا الإنعام بالإيمان به وبرسله وطاعته وطاعة رسله. وقوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي هذه بلدة طيبة وهي صنعاء اليمن مناخها طيب وتربتها طيبة لا يوجد بها وباء ولا هوام ولا حشرات كالعقارب ونحوها، ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[1] يغفر ذنوبكم متى أذنبتم وتبتم واستغفرتم. ولكن أبْطَرَتهُم هذه النعم فكفروها ولم يشكروا.

(١٦) كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ بأن كذبوا رسل الله إليهم وعصوا الله ورسله فانتقم الله منهم لإعراضهم وعدم شكرهم كما هي سنته في عباده. قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ وذلك بأن خرب السد، وذهبت المياه وماتت الأشجار وأمْحَلَتْ الأرض، وتبدلت. قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي مُر بشع وهو شجر الأراك ﴿وَأَثْلٍ﴾ وهو الطرفاء، ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾. هذا جزاء من أعرض عن ذكر الله وفسق عن أمره وخرج عن طاعته.

(١٧) قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الجزاء ﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ بسبب كفرهم، وقوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ[2] إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي وهل نجازي بمثل هذا الجزاء وهو تحويل النعمة إلى نقمة غير الكفور.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ[3] وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي مدن الشام ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي مدناً ظاهرة على المرتفعات من الأرض، وذلك من صنعاء عاصمتهم إلى الشام قرابة أربعة آلاف وسبعمائة قرية أي مدينة، وقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي بجعل المسافات بين كل مدينة ومدينة متقاربة بحيث يخرج المسافر بلا زاد من ماء أو طعام فلا يقيل إلا في مدينة ويخرج بعد القيلولة فلا ينام إلا في مدينة أخرى حتى يصل إلى الشام أو إلى المدينة التي يريد. وهذا كان لهم قبل هدم السد وتفرقهم. وقوله تعالى: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي وقلنا لهم سيروا بين تلك المدن الليالي والأيام ذوات العدد آمنين من كل ما يخاف.

(١٩) وما كان منهم إلا أنهم بطروا النعمة ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي حملهم بطر النعمة على أن سألوا ربهم بلسان حالهم أو قالهم أن يباعد[4] بين مسافات أسفارهم بإزالة تلك المدن حتى يحملوا الزاد ويركبوا الخيول ويذوقوا طعم التعب وهذا في الواقع هو حسد من الأغنياء للفقراء الذين لا طاقة لهم على السفر في المسافات البعيدة بدون زاد ولا رواحل[5]. قال تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إذ بإعراضهم وحسدهم وبطرهم النعمة كانوا قد ظلموا أنفسهم فعُرِّضوا لعذاب الحرمان في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي لمن بعدهم يروون أخبارهم ويقصون قصصهم بعد أن هلكوا

---

(١) في الآية إشارة إلى أن الذنب ملازم للإنسان لا يعصم منه إلا من أراد الله عصمته كأنبيائه، ولذا أعلمهم أن المنعم بهذه النعم رب غفور يغفر ذنب عباده إذا تابوا إليه فدعاهم بهذا إلى التوبة وأن الذنب مع التوبة لا يسبب الهلاك العام أو سلب النعم ما دام هناك توبة تعقب الذنب.

(٢) قرأ حفص: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ بنون العظمة والبناء للفاعل و ﴿ٱلْكَفُورَ﴾: مفعول به منصوب وقرأ نافع والجمهور: **﴿وهل يجازى﴾** بياء الغيبة مضمومة والفعل مبني للمفعول. و **﴿الكفور﴾**: نائب فاعل والمعنى ما يجازى ذلك الجزاء إلا الكفور أي: الشديد الكفر عظيمه.

(٣) هذه الآية والتي بعدها ذكرتا تتميماً للقصة.

(٤) قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قرأ الجمهور: ﴿بَٰعِدْ﴾ فعل أمر من باعد يباعد وقرأ بعض: **﴿بعّد﴾** فعل أمرٍ من بعد يبعد على وزن جدّد، وقرأ بعض آخر: **﴿باعد﴾** فعلاً ماضياً.

(٥) قيل: إن المسافة التي يقطعونها بين تلك المدن آمنين من الجوع والخوف مسيرة أربعة أشهر ذهاباً وإياباً وحالهم كحال بني إسرائيل كما قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ حيث ملوا أكل اللحم والعسل.

وبادوا. وقوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي فرقناهم في البلاد كل تفريق بحيث لا يرجى لهم عودُ اتصال أبدًا فذهب الأوس والخزرج إلى يثرب «المدينة النبوية» وهم الأنصار، وذهب غسان إلى[1] الشام، والأزد إلى عُمان، وخزاعة إلى تهامة وأصبحوا مضرب المثل، يقال: ذهبوا شذر مذر. وتفرقوا أيادي سبأ، أي مذاهب سبأ وطرقها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي إن في إنعام الله على أبناء سبأ ثم في نقمته عليهم لما بطروا النعمة وكفروا الطاعة لعبرًا يعتبر بها كل صبور على الطاعات فِعلاً وعن المعاصي تركًا، ﴿شَكُورٍ﴾ أي كثير الشكر على النعم. اللهم اجعلنا لك من الشاكرين.

هداية الآيات:

١ - التحذير من الإعراض عن دين الله فإنه متى حصل لأُمة نزلت بها النقم وسلبها الله النعم. وكم هذه الحال مشاهدة هنا وهناك لا بين الأمم والشعوب فحسب بل حتى بين الأفراد.

٢ - التحذير من كفر النعم بالإسراف فيها وصرفها في غير مرضاة الله واهبها عز وجل.

٣ - خطر الحسد وأنه داء لا دواء له، والعياذ بالله يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

٤ - فضيلة الصبر والشكر وعلو شأن الصبور الشكور.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ - ٢٣]

(٢٠) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾: أي صَدَق ظن إبليس فيهم أنه يستطيع إغواءهم. ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾: في الكفر والضلال والإضلال. ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي من بني آدم وهم المؤمنون المسلمون فإنهم لم يتبعوه وخاب ظنه فيهم زاده الله خيبة إلى يوم القيامة.

(٢١) ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾: أي ولم يكن لإبليس من تسليط منا عليهم لا بعصا ولا سيف وإنما هو التزيين والإغراء بالشهوات. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾: أي لكن أذنًا له في إغوائهم - إن استطاع - بالتزيين والإغراء لنعلم علم ظهور من يؤمن ويعمل صالحًا ممن يكفر ويعمل سوءًا. ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾: أي وربك يا محمد على كل شيء حفيظ وسيجزي الناس بما كسبوا.

(٢٢) ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي أنهم شركاء لله في ألوهيته. ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي ملكًا استقلاليًا لا يشاركهم الله فيه. ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾: أي وليس لهم من شركة في السموات ولا في الأرض. ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾: أي وليس لله تعالى من شركائكم الذين تدعونهم من معين على شيء.

(٢٣) ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾: أي ولا تنفع الشفاعة أحدًا عنده حتى يأذن هو له بها. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: أي ذهب الفزع والخوف عنهم بسماع كلام الرب تعالى. ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾: أي قال بعضهم لبعض استبشارًا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق، أي في الشفاعة. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾: العلي فوق كل شيء علوُّ ذات وقهر وهو الكبير المتعالي الذي كل شيء دونه.

معنى الآيات:

(٢٠) لما ذكر تعالى ما حدث لسبأ من تقلبات وكان عامل ذلك هو تزيين الشيطان وإغواؤه، أخبر تعالى عن حال الناس كل الناس فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ[2] إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾

---

(١) قال الشعبي: فلحقت الأوس والخزرج (الأنصار) بيثرب (المدينة)، وغسان وجذام ولخم بالشام، والأزد بعمان، وخزاعة بتهامة. فكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ أي: مذاهب سبأ وطرقها.

(٢) قرأ نافع والجمهور: ﴿صدق﴾ بتخفيف الدال وقرأ حفص: ﴿صَدَّقَ﴾ بالتضعيف والجملة يبدو أنها معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ وهو قول كفار مكة وما بين هذه الآيات وتلك اعتراض للعظة والاعتبار والمقصود من هذه الآية تنبيه المؤمنين إلى مكايد الشيطان وسوء عاقبة من يتبعه حتى يلعنوه ولا يتبعوه. قال الحسن: لما أُهبط آدم وحواء عليهما السلام من الجنة إلى الأرض وهبط إبليس قال إبليس: أما إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف. فكان ذلك ظناً من إبليس فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾.

أي فيهم لما علم ضعفهم أمام الشهوات فاستعمل تزيينها كسلاح لحربهم ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه من الشرك والإسراف والمعاصي ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم المؤمنون الصادقون في إيمانهم الذين أسلموا لله وجوههم وهم عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم سبيل لإغوائهم فإنهم لم يتبعوه.

(٢١) هذا ما دلت عليه الآية (٢٠) وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ﴾ أي للشيطان ﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي قوة مادية ولا معنوية من حجج وبراهين، وإنما أذن له في التحريش والوسواس والتزيين وهذا الإذن لعلة وهي ظهور حال الناس ليعلم[1] من يؤمن بالآخرة وما فيها من جنات ونيران، وقد حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات فالمؤمنون بالآخرة يتحملون مشاق التكاليف فينهضون بها ويتجنبون الشهوات فينجون من النار ويدخلون الجنة، والذين لا يؤمنون بالآخرة لا ينهضون بواجب ولا يتجنبون حرامًا فيخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وذلك هو الخسران المبين. وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ فهو يحصي أعمال عباده من خير وشر ويحاسبهم عليها ويجزيهم بها.

(٢٢) وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا[2] الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا رسولنا بعد هذا العرض والبيان الشافي الذي تقدم في هذا السياق للمشركين من قومك ما دمتم مصرين على الشرك بحجة أن شركاءكم ينفعون ويضرون وأنهم يشفعون لكم يوم تبعثون ادعوهم غير أن الحقيقة التي يجب أن تسمعوها وتعلموها - وأنتم بعد ذلك وما ترون وتهوون - هي أن الذين تدعونهم من دون الله وجعلتموهم لله شركاء ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي وزن ذرة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يملكونها استقلالاً ولا يملكونها شركة مع الله المالك الحق، وهو معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي في السموات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ بمعنى شركة ولو بأدنى نسبة. وشيء آخر وهو أن شركاءكم الذين تدعونهم ليس لله تعالى ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي معين، حتى لا يقال بحكم حاجة الرب إليه ندعوه فيشفع لنا عنده، وشيء آخر وهو أن الشفاعة عند الله لا تتم لأحد ولا تحصل له إلا إذا رضي الله تعالى بالشفاعة لمن أريد الشفاعة له، وبعد أن يأذن أيضًا لمن أراد أن يشفع. فلم يبق إذًا أي طمع في شفاعة آلهتكم لكم لا في الدنيا ولا في الآخرة إذًا فكيف تصح عبادتهم وهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا يشفعون لأحد في الدنيا ولا الآخرة.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ إلى آخره، بيان لكيفية الشفاعة يوم القيامة وهي أن الشافع المأذون له في الشفاعة عندما

وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١)

---

(١) أي: علم الشهادة والظهور الذي يتم به الثواب والعقاب فأما علم الغيب فقد علمه تبارك وتعالى فقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ إلخ.. جواب لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾.

(٢) هذا الأمر للتحدي والتوبيخ وهو خطاب المشركين المؤلهين الأصنام بعد ما ساق من دلائل التوحيد فيما عرفوا من حياة داود وسليمان وأهل سبأ أمر رسوله ﷺ أن يتحداهم ويوبخهم على شركهم وباطلهم.

يسأل الله تعالى فيجيبه الرب تعالى فيصاب بخوف وفزع شديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي زال ذلك الفزع والخوف قالوا لبعضهم[1] البعض ماذا قال ربكم؟ فيقولون مستبشرين ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي أذن لنا في الشفاعة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي العلي فوق خلقه بذاته وقهره وسلطانه الكبير الذي ليس كمثله شيءٌ سبحانه لا إله إلا هو ولا ربّ سواه.

هداية الآيات:

١ - بيان أن إبليس صدق ظنه في بني آدم وأنهم سيتبعونه ويغويهم.

٢ - تقرير التوحيد وأنه لا إله إلا الله ولا يستحق العبادة سواه.

٣ - بيان بطلان دعاء غير الله إذ المدعو كائنًا من كان لا يملك مثقال ذرة في الكون لا بالاستقلال ولا بالشركة، وليس لله تعالى من ظهير أي ولا معينين يمكن التوسل بهم، وأخيرًا والشفاعة لا تتم إلا بإذنه ولمن رضي له بها. ولذلك بطل دعاء غير الله ومن دعا غير الله من ملك أو نبي أو وليّ أو غيرهم فقد ضلّ الطريق وأشرك بالله في أعظم عبادة وهي الدعاء، والعياذ بالله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤ - ٣٠]

(٢٤) ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: من السموات بإنزال المطر ومن الأرض بإنبات الزروع.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾: أي إن لم يجيبوا فأجب أنت فقل الله، إذ لا جواب عندهم سواه. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: وأخبرهم بأنكم أنتم أيها المشركون أو إيانا لعلى هدى أو في ضلال مبين، وقطعًا فالموحدون هم الذين على هدى والمشركون هم في الضلال المبين، وإنما شككهم تلطفًا بهم لعلهم يفكرون فيهتدون.

(٢٥) ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾: أي أنكم لا تسألون عن ذنوبنا. ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أي ولا نسأل نحن عما تعملون. وهذا تلطفًا بهم أيضًا ليراجعوا أمرهم، ولا يحملهم الكلام على العناد.

(٢٦) ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾: أي قل لهم سيجمع بيننا ربُّنا يوم القيامة ويفصل بيننا بالحق وهذا أيضًا تلطف بهم وهو الحق.

(٢٧) ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾: أي قل لهؤلاء المشركين أروني شركاءكم الذين عبدتموهم مع الله فإن أروه إياهم أصنامًا لا تسمع ولا تبصر قامت الحجة عليهم. وقال لهم أتعبدون ما تنحتون وتتركون الله الذي خلقكم وما تعملون؟!. ﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: كلا: لن تكون الأصنام أهلًا للعبادة بل المعبود الحق الواجب العبادة هو الله العزيز الحكيم.

(٢٨) ﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾: أي لجميع الناس أي عربهم وعجمهم. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: بشيرًا للمؤمنين بالجنة، ونذيرًا للكافرين بعذاب النار.

(٣٠) ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾: هو يوم القيامة.

معنى الآيات:

(٢٤) ما زال السياق في تبكيت المشركين وإقامة الحجج عليهم بتقرير التوحيد وإبطال التنديد فقال تعالى للرسول ﷺ سل قومك مبكتًا لهم: ﴿قُلْ مَن[2] يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بإنزال الأمطار وإرسال الرياح لواقح وإنبات النباتات والزروع والثمار وتوفير الحيوان للحم واللبن ومشتقاته؟ وإن تلعثموا في الجواب أو ترددوا خوف الهزيمة العقلية فأجب أنت قائلًا ﴿ٱللَّهُ﴾ إذ ليس من جواب عندهم سواه.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ[3] لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا

---

(١) الظاهر أنهم طلبوا الشفاعة لما أذن الله تعالى لهم وأصابهم الفزع والخوف فلما ذهب ذلك من قلوبهم سألوا الملائكة عما قال الله تعالى فتجيبهم الملائكة: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي: قبل شفاعتكم.

(٢) لما أبطل بتلك الحجج آلهة المشركين حيث دعاؤها لا يجدي نفعاً للداعين ـ لأنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا شفاعتها تنفع عابديها ـ قرّر بهذه الآيات استحقاق الله تعالى للعبادة دون غيره، واستعمل أسلوب الجدل لإقامة الحجة على الخصم فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾.

(٣) و ﴿إياكم﴾ معطوف على محل اسم إن المنصوب والجملة معطوفة على الاستفهام ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ إلخ.. وهذا يقال له: أسلوب المنصف وهو أن لا يذكر المجادل لمن يجادله ما يغيظه أو يثير حفيظته رجاء هدايته إلى الحق.

أسلوب التشكيك وحكمته التلطف بالخصم المعاند حتى لا يلج في العناد ولا يفكر في الأمر الذي يجادل فيه، وإلا فالرسول ﷺ والمؤمنون هم الذين على هدىً، والمشركون هم الذين في ضلال مبين وهو أمر مسلم لدى طرفي النزاع.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ[1] عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾ وهذا أيضًا من باب التلطف مع الخصم المعاند لتهدأ عاصفة عناده ويراجع نفسه عله يثوب إلى رشده ويعود إلى صوابه. فقوله: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ هو حق فإنهم لا يسألون عن ذنوب الرسول ﷺ والمؤمنين، ولكن الرسول ﷺ والمؤمنين لا ذنب لهم وإنما هو من باب التلطف في الخطاب، وأما المشركون فإن لهم أعمالاً من الشرك والباطل سيجزون بها والرسول ﷺ والمؤمنون قطعًا لا يُسألون عنها ولا يؤاخذون بها ما داموا قد بلغوا ونصحوا.

(٢٦) وقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أي يحكم ويفصل بيننا ﴿بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ أي الحاكم العليم بأحوال خلقه، فأحكامه ستكون عادلة لعلمه بما يحكم فيه ظاهرًا وباطنًا. وفي هذا جذب لهم بلطف ودون عنف ليقروا بالبعث الآخر الذي ينكرونه بشدة.

(٢٧) وقوله: ﴿قُلْ أَرُونِيَ[2] ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أي قل يا رسولنا لهؤلاء المشركين أروني آلهتكم التي أشركتموها بالله وألحقتموها به وقلتم في تلبيتكم: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك. إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك. وهكذا يتحداهم رسول الله ﷺ بإذن الله أن يروه شركاء لله حقيقة يسمعون ويبصرون ينفعون ويضرون ولما كان من غير الممكن الإتيان بهم غير أصنام وتماثيل زجرهم بعنف لعلهم يستفيقون من غفلتهم فقال: ﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي ليست تلك الأصنام بآلهة تعبد مع الله بل المعبود الحق الواجب العبادة هو الله رب العالمين وإله الأولين والآخرين ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب على أمره ومراده ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه وشؤون عباده.

(٢٨) وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ[3] إِلَّا كَآفَّةً[4] لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي لم نرسلك يا رسولنا لمهمة غير البشارة والنذارة فلذا لا يحزنك إعراضهم وعدم استجابتهم فبشر من آمن بك واتبعك فيما جئت به، وأنذر من كفر بك ولم يتابعك على الهدى الذي تدعو إليه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5] فيه تعزية للرسول ﷺ أيضًا إذ الواقع أن أكثر الناس لا يعلمون إذ لو علموا لما ترددوا في عبادة الله وتوحيده والتقرب إليه طمعًا فيما عنده وخوفًا مما لديه.

(٢٩) وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي أهل مكة من منكري البعث والجزاء ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾[6] أي العذاب الذي تهددنا به وتخوفنا بنزوله بنا إن كنتم أيها المؤمنون صادقين فيما تقولون لنا وتعدونا به. وهنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد على استهزائهم وتكذيبهم بقوله:

(٣٠) ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ[7] يَوْمٍ﴾ يوم معين عندنا محدد ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾ لو طلبتم ذلك لتتوبوا وتستغفروا ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أخرى لو

---

(١) وهذا أيضاً من الباب الأول وهو حمل الخصم على عدم اللجاج في الخصومة ليبقى قادراً على الفهم وقبول الحق متى ظهر له ولاح.

(٢) الأمر هنا للتعجيز لإقامة الحجة عند ثبوت عجز المخاصم، ولما ثبت عجزهم زجرهم بكلمة كلا وردعهم بها، وحملهم على الاعتراف ببطلان آلهتهم.

(٣) ولما تقرر مبدأ التوحيد عطف عليه تقرير النبوة المحمدية فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾. وبذلك ثبتت رسالته.

(٤) في الكلام تقديم وتأخير إذ الأصل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: عامة.

(٥) إذ كانوا يوم نزول هذه الآية أكثرية والمؤمنون أقلية وحتى اليوم أكثر الناس لا يعلمون جلال الله وجماله وأسماءه وصفاته وما عنده وما لديه، ولا محابه ولا مكارهه.

(٦) الاستفهام للاستبعاد مشوباً بالتعجب من كثرة سؤالهم عن هذا الوعد.

(٧) الميعاد: مصدر ميمي وهو الوقت المعين لحدوث الشيء وهو هنا إما يوم القيامة أو حضور الميت وجائز أن يكون يوم هلاكهم وهو يوم بدر وإضافته بيانية.

الجزءُ الثّاني وَالعِشرُونَ سُورَةُ سَبَإٍ

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

٤٣٢

طلبتم تعجيله إذ الأمر مبرم مُحكمٌ لا يقبل النقص ولا الزيادة ولا التبديل ولا التغيير.

هداية الآيات:

١ - مشروعية التلطف مع الخصم فسحًا له في مجال التفكير لعله يثوب إلى رشده.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء وتنويع الأسلوب الدعوي في ذلك.

٣ - تقرير عقيدة النبوة المحمدية، وعموم رسالة النبي ﷺ إلى الناس كافة.

٤ - يوم القيامة مقرر الساعة واليوم فلا يصح تقديمه ولا تأخيره بحال.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ - ٣٣]

﴿٣١﴾ ﴿وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۖ﴾: أي من الكتب السابقة وهي التوراة والإنجيل. ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾: أي يقول الأتباع كذا ويرد عليهم المتبوعون بكذا وهو المبيّن في الآيات.

﴿٣٢﴾ ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ﴾: أي ينكر المستكبرون وهم المتبوعون أن يكونوا صدوا التابعين لهم عن الهدى بعد إذْ جاءهم بواسطة رسوله ﷺ. ﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾: أي ظلمة فاسدين مفسدين.

﴿٣٣﴾ ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: أي ليس الأمر كما ادعيتم بل مكركم بنا بالليل والنهار هو الذي جعلنا نكفر بالله. ﴿وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾: أي شركاء نعبدهم معه فنناذّه بهم. ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾: أي أخفوها إذ لا فائدة منها أو أظهروها أي أظهروا الندم إذ أسر الندامة له معنيان أخفى وأظهر. ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ﴾: أي وجعلنا الأغلال جمع غل حديدة تجعل في عنق المجرم. ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: أي ما يجزون إلا ما كانوا يعملون.

معنى الآيات:

﴿٣١﴾ ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد والبعث والجزاء فيخبر تعالى فيقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي من مشركي مكة قالوا للرسول ﷺ والمؤمنين لن نؤمن[1] بهذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، ولا بالذي أنزل على من تقدمه من الأنبياء كالتوراة والإنجيل، وذلك لما احتُجَّ عليهم بتقرير التوراة والإنجيل للتوحيد والنبوّات والبعث والجزاء قالوا لن نُؤمن بالجميع عنادًا ومكابرة. وجحودًا وظلمًا. ولازم هذا أنهم ظلمة معاندون، ومن باب دعوتهم إلى الهدى ستعرض الآيات لهم حالهم يوم القيامة فيقول تعالى لرسوله ﷺ وهم يسمعون: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾[2] يا رسولنا ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾ أي يتحاورون متلاومين. ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ وهم الفقراء المرؤوسون الذين كانوا أتباعًا لكبرائهم وأغنيائهم، يقولون ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عليهم في الدنيا: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ﴾ أي صرفتمونا عن الإيمان واتباع الرسول ﷺ ﴿لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ فيرد عليهم الكبراء بما أخبر تعالى عنهم في قوله:

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ[3] صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ

---

(١) القائل هذا هو أبو جهل بن هشام وذلك أن المشركين سألوا أهل الكتاب من اليهود فلما أعلموهم بما يوافق ما يقول الرسول ﷺ ويدعو إليه من التوحيد والبعث والجزاء والرسالة قالوا: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه أي: من التوراة والإنجيل.

(٢) جواب لو محذوف أي: لرأيت أمراً فظيعاً هائلاً مدهشاً ومحيراً.

(٣) الاستفهام إنكاري. أنكروا عليهم قولهم: أنهم صدوا عن الإيمان.

﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ أي ما صددناكم أبدًا ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي أصحاب إجرام وفساد.

(٣٢) ويرد عليهم المستضعفون قائلين بما أخبر تعالى به عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ[1] اللَّيْلِ[2] وَالنَّهَارِ﴾ أي بل مكركم[3] بنا في الليل والنهار ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ[4]﴾ أي أخفوها لما رأوا العذاب. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي شُدت أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال وهي جمع غل حديدة يشد بها المجرم، ثم أدخلوا الجحيم إذ كانوا في موقف خارج جهنم، وقوله تعالى: ﴿هَلْ[5] يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما يُجزون إلا ما كانوا يعملون، فالجزاء بحسب العمل إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًا فشر، وكانت أعمالهم كلها شرًا وظلمًا وباطلًا.

هذا وجواب لولا في أول السياق محذوف يُقدر بمثل: لرأيت أمرًا فظيعًا واكتُفي بالعرض لموقفهم عن ذكره فإنه أتم وأشمل.

هداية الآيات:

١ ـ تشابه حال الظلمة والمجرمين فالعرب المشركون كانوا يركنون إلى أهل الكتاب يحتجون بما عندهم على الرسول ﷺ والمؤمنين. ولما وجدوا التوراة والإنجيل يقرران عقيدة البعث والجزاء والنبوة تبرأوا منهما وقالوا لن نؤمن بالقرآن ولا بالتوراة والإنجيل.

واليهود كانوا يحتجون بالتوراة على المسلمين ولما وجدوا التوراة تقرر ما يقرره القرآن تركوا الاحتجاج بالتوراة وأخذوا يحتجون بالسحر كما تقدم في البقرة في قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

٢ ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض كامل لموقف من مواقف يوم القيامة، ومشهد من مشاهده.

٣ ـ بطلان احتجاج الناس بعمل العلماء أو الحكماء وأشراف الناس إذا كان غير موافق لشرع الله تعالى وما جاء به رسله من الحق والدين الصحيح.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤ ـ ٣٩]

(٣٤) ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾: أي رؤساؤها المنعمون فيها من أهل المال والجاه.

(٣٥) ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾: أي من المؤمنين.

(٣٦) ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾: امتحانًا أيشكر العبد أم يكفر. ﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي يضيق ابتلاء أيصبر المرء أم يسخط. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي الحكمة في التوسعة على البعض والتضييق على البعض.

(٣٧) ﴿تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾: أي قربى بمعنى تقريبًا. ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: أي لكن من آمن وعمل صالحًا هو الذي تقربه تقريبًا. ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾: أي من المرض والموت وكل مكروه. ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾: أي يعملون على إبطال القرآن والإيمان به وتحكيمه. ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: أي مقدرين عجزنا وأنهم يفوقوننا فلم نعاقبهم. ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾: أي من مال في الخير. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: أي المعطين الرزق. أما خلق الرزق فهو لله تعالى وحده.

---

(١) المكر في اللغة: الاحتيال والخديعة يقال: مكر به يمكر فهو ماكر ومكار.

(٢) ﴿مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: الإضافة بمعنى في.

(٣) مكرٌ: مبتدأ والخبر محذوف تقديره: صدّنا وهو جملة فعلية.

(٤) الضمير في أسروا عائد على الجميع: المستضعفين والمستكبرين والمعنى أنهم لما انكشف لهم العذاب المعد والمهيأ لهم وذلك عقب المحاورة التي دارت بينهم، فعلموا أن حوارهم لبعضهم غير نافع لهم ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ أي: أخفوها لعدم جدواها.

(٥) الاستفهام إنكاري بقرينة الاستثناء بعده أي: ما يجزون إلا ما كانوا يعملون أي: من الشرك والظلم والشر والفساد إذ الجزاء من جنس العمل هو العدل المطلوب.

معنى الآيات:

(٣٤) قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ هذا شروع في تسلية الرسول ﷺ ببيان حال من سبق من الأمم وما واجهت به رسلها فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٍ﴾ أي مدينة من المدن ﴿مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾[١] أي أهل المال والثروة المتنعمون بألوان المطاعم والمشارب والملابس والمراكب. قالوا لرسل الله: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فردوا بذلك دعوتهم.

(٣٥) ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ فاعتزوا بقوتهم، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كذبوا بالبعث والجزاء كما أن كلامهم مُشعر بأنهم مغترون بأن ما أعطاهم الله من مال وولد كان لرضاه عنهم وعدم سخطه عليهم.

(٣٦) وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ[٢] ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ أي قل يا نبينا لأولئك المغترين بأن ما لديهم من مال وولد ناجم عن رضا الله عنهم قل لهم إن ربي جل جلاله يبسط الرزق لمن يشاء امتحانًا له لا لرضى عنه ولا لبغض له، كما أنه يضيق الرزق على من يشاء ابتلاء له لا لبغضه ولا لمحبته، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٣] ومن بينهم مشركو قريش لا يعلمون أن بسط الرزق كتضييقه عائد إلى تربية الناس بالسراء والضراء امتحانًا وابتلاءً.

(٣٧) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ يخبر تعالى المشركين المغترين بالمال والولد يقول لهم وما أموالكم ولا أولادكم بالحال التي تقربكم منا وتجعلنا نرضى عنكم وندنيكم منا زلفى أي قربى. ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي لكن من فعلوا الواجبات والمندوبات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المذكورون ﴿لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾[٤] أي جزاء تضاعف لهم حسناتهم فيه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة، وذلك بسبب عملهم الصالحات ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾ أي غرفات الجنة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من الموت ومن كل مكروه ومنغص لسعادتهم.

(٣٨) وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ يخبر تعالى أن الذين يعملون بجد وحرص في إبطال آياتنا وإطفاء نور هدايتنا في كتابنا وقلوب عبادنا المؤمنين ويظنون أنهم معجزون لنا أي فائتوننا لا ندركهم ولا نعاقبهم هؤلاء المغرورون ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ أي كأنك بهم وهم محضرون في جهنم يعذبون فيها أبدًا.

(٣٩) فقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي﴾ أي قل يا رسولنا مرة أخرى تقريرًا لهذه الحقيقة العلمية التي خفيت على الناس وجهلها قومك وهي أن الله يبسط الرزق لمن يشاء امتحانًا لا حبًا فيه ولا بغضًا له. وإنما امتحانًا له هل يشكر أو يكفر فإن شكر زدناه وأكرمناه وإن كفر سلبناه ما أعطيناه وعذبناه، ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ أي لمن شاء من عباده ابتلاء له لا بغضًا له ولا حبًا فيه. وإنما لننظر هل يصبر على الابتلاء أو يسخط ويضجر فنزيد في بلائه وشقائه.. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم[٥] مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ في هذا دعوة إلى الإنفاق في سبيل الله وتشجيع عليه بإعلام الناس أن الإنفاق لا ينقص المال والبخل به لا يزيده فإن التوسعة كالتضييق لحكمة فلا البخل يزيد في المال ولا الإنفاق في سبيل الله ينقص

---

(١) المترفون: الذين أعطاهم الله الترف وهو النعيم وسعة العيش في الدنيا. وفي بناء المترفون للمجهول تعريض وتذكير لهم بالمنعم تعالى علهم يذكرون فيشكرون.

(٢) بسط الرزق تيسيره وتكثيره مأخوذ من بسط الثوب وهو نشره ليتسع لصاحبه وتقدير الرزق معناه: إعطاؤه مقدّراً، ويقابله ما يعطى بغير حساب.

(٣) مفعول لا يعلمون محذوف وقد ذكر في التفسير وهو أنهم لا يعلمون الحكمة في بسط الرزق وتضييقه.

(٤) ﴿ٱلضِّعۡفِ﴾: بمعنى المضاعف المكرر مرة وأكثر حتى يبلغ أضعافاً مضاعفة إلى سبعمائة ضعف. وهي سنة الإنفاق في الجهاد.

(٥) ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ بيانية وجملة: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ جواب الشرط وجملة: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تذييل للكلام يحمل معنى الترغيب في الإنفاق في سبيل الله. وفي الحديث الصحيح: **«يا ابن آدم أنفق أُنفق عليك، وما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»** «في الصحيح».

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

منه. وختم هذا بوعده الصادق وهو أن من أنفق في سبيل الله شيئًا أخلفه الله عليه وهو تعالى خير من قيل إنه يرزق ووصف به.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله في الأمم والشعوب وأنهم ما أتاهم من رسول إلا كفر به الأغنياء والكبراء.

٢ - بيان اغترار المترفين بما آتاهم الله من مال وولد ظانين أن ذلك من رضا الله تعالى عليهم.

٣ - بيان الحكمة في التوسعة على بعض والتضييق على بعض، وأنها الامتحان والابتلاء فلا تدل على حبِّ الله ولا على بغضه للعبد.

٤ - بيان ما يقرب إلى الله ويدني منه وهو الإيمان والعمل الصالح ومن ذلك الإنفاق في سبيل الله لا كثرة المال والولد كما يظن المغرورون المفتونون بالمال والولد.

٥ - بيان حكم الله فيمن يحارب الإسلام ويريد إبطاله وأنه محضر في جهنم لا محالة.

٦ - بيان وعد الله تعالى بالخلف لكل من أنفق في سبيله مالاً.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٠ ـ ٤٢]

﴿٤٠﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: أي واذكر يوم نحشرهم جميعًا أي جميع المشركين. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾: أي يقول تعالى هذا للملائكة تقريعًا للمشركين وتوبيخًا لهم.

﴿٤١﴾ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾: أي قالت الملائكة سبحانك أي تقديسًا لك عن الشرك وتنزيهًا. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾: أي لا موالاة بيننا وبينهم أي يتبرَّؤوا منهم. ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾: أي الشياطين التي كانت تتمثل لهم فيحسبونها ملائكة فيطيعونها فتلك عبادتهم لها.

﴿٤٢﴾ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾: أي لا يملك المعبودون للعابدين. ﴿نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾: أي لا يملكون نفعهم فينفعونهم ولا ضرهم فيضرونهم. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: أي أشركوا غير الله في عبادته من الملائكة والأنبياء أو الأولياء والصالحين. ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾: أي كنتم في الدنيا تكذبون بالبعث والجزاء وهو الجنة أو النار.

معنى الآيات:

﴿٤٠﴾ ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء والتوحيد. قال تعالى لرسوله ﷺ: واذكر ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾[1] أي المشركين ﴿جَمِيعًا﴾ فلم نبق منهم أحدًا، ثم نقول للملائكة وهم أمامهم تقريرًا للمشركين وتأنيبًا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[2] فتتبرأ الملائكة من ذلك وينزهون الله تعالى عنه الشرك فيقولون:

﴿٤١﴾ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي تنزيهًا لك عن الشرك وتقديسًا ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أما هم فلا ولاية بيننا وبينهم ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾[3] أي

---

(١) هذا الكلام متصل بما قبله وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ إذ السياق كله في تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض أحوال أهل النار وما يجري لهم من أمور.

(٢) هذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ وهو سؤال تقريع وتوبيخ لا للمسؤول ولكن لعابديه من الإنس والجن.

(٣) رُوي أن بني مُليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ويزعمون أن الجن تتراءى لهم وأنهم الملائكة وأنهم بنات الله، وهو قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾.

الشياطين ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ أي مصدقون فأطاعوهم في عبادة الأصنام وعصوك وعصوا رسلك فلم يعبدوك ولم يطيعوا رسلك.

(٤٢) وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي يقال لهم هذا القول تيئيسًا وإبلاسًا أي قطعًا لرجائهم في أن يشفعوا لهم. وقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي كنتم تكذبون بها في الدنيا فذوقوا اليوم عذابها. والعياذ بالله من عذاب النار.

هداية الآيات:

١ - تقرير لعقيدة البعث والجزاء بذكر بعض أحوالها.

٢ - أن من كانوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين إنما كانوا يعبدون الشياطين إذ هي التي زينت لهم الشرك. أما الملائكة والأنبياء والأولياء فلم يرضوا بذلك منهم فضلاً عن أن يأمروهم به.

٣ - بيان توبيخ أهل النار بتكذيبهم في الدنيا بالآخرة وكفرهم بوجود نار يعذبون بها يوم القيامة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٣ - ٤٦]

(٤٣) ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾: أي آيات القرآن الكريم واضحات ظاهرة المعنى بيّنة الدلالة. ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ﴾: أي ما محمد ﷺ إلا رجل من الرجال. ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ﴾: أي يريد أن يصرفكم عن عبادتكم لآلهتكم التي كان يعبدها آباؤكم من قبل. ﴿إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾: أي إلا كذب مختلق مزور. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾: أي قالوا للقرآن لما جاءهم به محمد ﷺ. ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: أي ما هذا أي القرآن إلا سحر مبين أي محمد ﷺ ساحر والقرآن سحر.

(٤٤) ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾: أي يقرؤونها فأباحت لهم الشرك وأذنت لهم فيه. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾: أي ولم نرسل إليهم قبلك من رسول فدعاهم إلى الشرك.

(٤٥) ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾: أي ولم يبلغ أولئك الأمم الذين أهلكناهم معشار ما آتينا هؤلاء من الحجج والبينات. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك والجواب كان واقعًا موقعه لم يخطئه بحال.

معنى الآيات:

(٤٣) ما زال السياق في عرض مواقف المشركين المخزية والتنديد بهم والوعيد الشديد لهم. قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي مشركي قريش وكفارها ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي يتلوها رسولنا ﷺ واضحات الدلالة بينات المعاني فيما تدعو إليه من الحق وتندد به من الباطل. كان جوابهم أن قالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ﴾ أي ما محمد إلا رجل أي ليس بملكٍ يريد أن يصدكم أي يصرفكم عما كان يعبد آباؤكم من الأوثان والأحجار. فسبحان الله أين يذهب بعقول المشركين أما يخجلون لما يقولون عما كان يعبد آباؤكم من الأصنام والأوثان، إنه يصدهم حقًا عن عبادة الأوثان ولكن إلى عبادة الرحمن. وقالوا أيضًا ما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾[1] أي كذب ﴿افْتَرَاهُ﴾ أي اختلقه وتخرصه من نفسه أي قالوا في القرآن وما يحمل من تشريع وهدى ونور قالوا فيه إنه كذبه محمد ﷺ سبحان الله ما أشد سخف هؤلاء المشركين. وقالوا أيضًا ما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قالوا في الرسول ﷺ وما جاءهم به من الدعوة إلى التوحيد والإصلاح: ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي ما هذا إلا سحر مبين، وذلك لما رأوا من تأثير الرسول ﷺ والقرآن في نفوسهم إذ كان يحرك نفوسهم ويهزها هزًا.

(٤٤) بعد هذا العرض لمواقف المشركين قال تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَيْنَاهُم﴾[2] أي مشركي قريش ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي أصروا على الشرك وما أعطيناهم من كتب

---

(١) ﴿مَا هَٰذَا﴾: يعنون القرآن الكريم وكذا قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ﴾ فإنهم يعنون القرآن الكريم أيضاً وإن بمعنى ما النافية والإسناد بعدها دال عليها.

(٢) الجملة حاليّة من ضمير قالوا: ما هذا.

يقرؤونها فوجدوا فيها الإذن بالشرك أو مشروعيته فتمسكوا به ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي رسول فأجاز لهم الشرك أو سنّه لهم فهم على سنته، اللهم لا ذا ولا ذاك. فكيف إذًا هذا الإصرار على الشرك وهو باطل لم ينزل به كتاب ولم يبعث به رسول[1].

(٤٥) وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2] أي من الأمم البائدة ﴿وَمَا بَلَغُوا۟﴾ أي ولم يبلغ هؤلاء من القوة ﴿مِعْشَارَ﴾[3] ما كان لأولئك الأقوام الهالكين، ومع ذلك أهلكناهم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيف كان إنكاري عليهم الشرك وتكذيب رسلي كان بإبادتهم واستئصالهم. أما يخاف هؤلاء الضعفاء أن تحل بهم عقوبتنا فنهلكهم عن آخرهم كما أهلكنا من قبلهم ولما لم يرد الله إبادتهم بعد استوجبوها بالتكذيب لرسوله ﷺ والإصرار على الشرك والكفر قال لرسوله ﷺ قل لهم:

(٤٦) ﴿إِنَّمَآ[4] أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي بخصلة واحدة وهي ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي متجردين من الهوى والتعصب ﴿مَثْنَىٰ﴾، أي اثنين، ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي واحدًا واحدًا، ثم تتفكروا في حياة محمد ﷺ ومواقفه الخيِّرة معكم وبعده عن كل أذى وشر وفساد فإنكم تعلمون يقينًا أنه ما بصاحبكم محمد ﷺ من جنة ولا جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي ما هو ﷺ إلا نذير لكم أمام عذاب شديد قد ينزل بكم وهو مشفق عليكم في ذلك خائف لا يريده لكم.

هداية الآيات:

١ - بيان عناد المشركين وسخف عقولهم وهبوطهم الفكري.

٢ - ضعف كفار قريش وتشددهم وعتوهم إذا قيسوا بالأمم السابقة فإنهم لا يملكون من القوة نسبة واحد إلى ألف إذ المعشار هو عشر عشر العشر[5].

٣ - تقرير النبوة المحمدية وإثباتها وذلك ينفي الجنة عنه ﷺ وإثبات أنه نذير.

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ (٥٤)

ترتيبها ٣٥ — سُورَةُ فَاطِر — آياتها ٤٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣)

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧ ـ ٥٤]

(٤٨) ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾: أي يلقي بالوحي الحق إلى أنبيائه. ويقذف الباطل بالحق أيضًا فيدمغه.

(٤٩) ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾:

---

(١) أي: أنه ليس لهم ما يتثبتون به من أقل دليل وأدنى شبهة كما هي الحال عند أهل الكتاب إذ قالوا: عندنا كتابنا وجاءتنا رسلنا أما المشركون فليس لهم من ذلك شيء.

(٢) في الآية تسلية للرسول ﷺ في تكذيبهم له ﷺ وتهديد لهم. التسلية في قوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ والتهديد في: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ والفاء للتفريع أي: في قوله: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾.

(٣) المعشار: العشر إذ هو الجزء العاشر كالمرباع الذي يُعطى لقائد الكتيبة من الغنائم وهو ربعها.

(٤) هذا انتقال من حكاية أقوال المشركين والرد عليهم إلى دعوتهم للإنصاف في النظر والتأمل في الحقائق ليتضح لهم خطأهم وهذا من باب الإعذار لهم في المجادلة ليهلك من يهلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

(٥) قال القرطبي: وقيل: المعشار هو عشر العشير، والعشير هو عشر العشر فيكون جزءاً من ألف جزء قال الماوردي: وهو أظهر لأن المراد به المبالغة في التقليل وما فسرت به الآية في التفسير أرجح وأوضح، وإن أريد به ما أتى الله هذه الأمة من العلم والبيان فهذا المعنى صحيح غير أنه لا يتلاءم مع سياق الآيات.

أي وما يبدي الباطل الذي هو الكفر، وما يعيد أي إنه لا أثر له.

(٥٠) ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىٓ﴾: أي إثم ضلالي على نفسي لا يحاسب ولا يعاقب به غيري. ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾: أي سميع لما أقول لكم قريب غير بعيد فلا يتعذر عليه مجازاة أحد من خلقه.

(٥١) ﴿إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾: أي إذ فزعوا للبعث أي خافوا ونفروا فلا فوت لهم منا بل هم في قبضتنا.

(٥٢) ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾: أي لما شاهدوا العذاب قالوا آمنا بالقرآن وكيف لهم ذلك وهم بعيدون إنهم في الآخرة والإيمان في الدنيا. (التناوش) التناول من مكان بعيد.

(٥٤) ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾: أي فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم من أمم الكفر والباطل. ﴿فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾: أي في شك بالغ من نفوسهم فأصبحوا به مضطربين لا يطمئنون إلى شيء أبدًا.

معنى الآيات:

لما لجّ المشركون في الخصومة والعناد ودعاهم الله تعالى إلى أمثل حل وهو أن يقوموا متجردين لله تعالى من الهوى والتعصب يقوموا اثنين اثنين أو واحدًا واحدًا لأن الجماعة من شأنها أن تختلف مع الآراء ثم يتفكروا في حياة الرسول ﷺ وما دعاهم إليه من الهدى والحق فإنكم تعلمون أنه ليس كما اتهمتموه بالجنون وإنما هو نذير لكم بين يدي عذاب شديد يخاف وقوعه بكم ونزوله عليكم هنا أمره تعالى أن يقول لهم وكوني نذيرًا لكم مما أخاف عليكم لا أسألكم على إنذاري لكم أجرًا[١].

(٤٧) ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي مطلع عليّ عالم بصدقي ويجزيني على إنذاري لكم إذ كلفني به فقمت به طاعة له.

(٤٨) وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ[٢] بِٱلْحَقِّ﴾ أي قل لهم يا رسولنا إن ربي يقذف بالحق أي يلقي بالوحي على من يشاء من عباده ﴿عَلَّٰمُ[٣] ٱلْغُيُوبِ﴾ أي وهو علام الغيوب يعلم من هو أهل للوحي إليه والإرسال فيوحي إليه ويرسله كما أوحى إليّ وأرسلني إليكم نذيرًا وبشيرًا.

(٤٩) وقوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي قل لهم يا رسولنا جاء الحق وهو الإسلام الدين الحق، فلم يبقَ للباطل الذي هو الشرك والكفر مكان ولا مجال، وما يبدىء الباطل وما يعيد؟ أي أنه كما لا يبدىء لا يعيد فهو ذاهب لا أثر له أبدًا.

(٥٠) وقوله: ﴿قُلْ[٤] إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي أعلمهم بأنك إن ضللت فيما أنت قائم عليه تدعو إليه فإنما عائد ضلالك عليك لا عليهم، وإن اهتديت فهدايتك بفضل ما يوحي إليك ربك من الهدى والنور ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ سميع لأقوالك وأقوال غيرك غير بعيد فيتعذر عليه مجازاة عباده صاحب الإحسان بالإحسان وصاحب السوء بالسوء.

(٥١) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي لرأيت أمرًا قطعيًا يقول تعالى لرسوله ﷺ ولو ترى[٥] إذ فزع المشركون في ساحات فصل القضاء يوم القيامة فزعوا من شدة الهول والخوف وقد أُخذوا من مكان قريب وألقوا في جهنم لرأيت أمرًا فظيعًا في

---

(١) أي: جُعلاً على تبليغ الرسالة فإن سألتكموه فهو لكم.

(٢) جائز أن يكون المعنى: يقذف الباطل بالحق فيدمغه فإذا هو زهق كذا روي عن ابن عباس وقال قتادة: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالوحي وعنه أن الحق: القرآن والكل صحيح وما في التفسير أقرب وأوضح.

(٣) ﴿عَلَّٰمُ﴾: مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي: هو علام الغيوب والغيوب: جمع غيب وقرأ الجمهور بضم الغين، وكسرها بعضهم كبيوت إذ يجوز لها الضم والكسر والآية فيها معنى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ وفيها رد على المعترضين على الوحي إلى محمد ﷺ.

(٤) لما أفحمهم في الآيات السابقة وقطع طريق الاستدلال عليهم وتركهم في غيّهم حيارى أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم تاركاً جدالهم لعدم الفائدة منه بعد وضوح الحق: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ الآية. فعل هذا إنهاء لجدل عقيم.

(٥) الخطاب للرسول ﷺ ولكل ذي أهلية، وجواب لو: محذوف كأن اللفظ لا يقدر على تصويره على حقيقته لفظاعته وهو كذلك.

غاية الفظاعة. وقوله: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لا يفوتون الله تعالى ولا يهربون من قبضته.

(٥٢) وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[١] أي قالوا بعدما بُعثوا وفزعوا من هول القيامة قالوا آمنا به أي بالله وكتابه ولقائه ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ[٢] لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي التناول للإيمان من مكان بعيد إذ هم في الآخرة والإيمان كان في الدنيا فكيف يتناولونه بهذه السهولة ويقبل منهم وينجون من العذاب هذا بعيد جدًا ولن يكون أبدًا وقد كفروا به من قبل، أي لا سيما وأنهم قد عُرض عليهم الإيمان وهم قادرون عليه فرفضوه فكيف يمكنون منه الآن.

(٥٣) وقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ[٣] بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي وها هم اليوم في الدنيا يقذفون بالغيب محمدًا ﷺ بقواصم الظهر مرة يقولون كاذب ومرة ساحر ومرة شاعر وأخرى مجنون وكل هذا رجمًا بالغيب لا شبهة لهم فيه ولا أدنى ريبة تدعوهم إليه.

(٥٤) وأخيرًا قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهو الإيمان الموجب للنجاة ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم[٤]﴾ أي أشباههم وأنصارهم من أهل الكفر والتكذيب لما جاءهم العذاب قالوا آمنا ولم ينفعهم إيمانهم وأهلكوا فألقوا في الجحيم، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾[٥] أي مشركو قريش وكفارها أخبر تعالى أنهم كانوا في الدنيا في شك من توحيدنا ونبينا ﷺ ولقائنا مريب أي موقع لهم في الريب والاضطراب فلم يؤمنوا فماتوا على الكفر والشرك وهذا جزاء من يموت على الشرك والكفر.

هداية الآيات:

١ ـ دعوة الله تعالى ينبغي أن لا يأخذ الداعي عليها أجرًا، ويحتسب أجره على الله عز وجل.

٢ ـ بيان صدق الله تعالى في قوله: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ إذ ما هو إلاَّ سُنيَّات والإسلام ضارب بجرانه في الجزيرة فلا دين فيها إلا الإسلام.

٣ ـ الإيمان الاضطراري لا ينفع صاحبه كإيمان من رأى العذاب.

٤ ـ الشك كفر ولا إيمان مع رؤية العذاب.

❁ ❁ ❁

سورة فاطر
مكية
وآياتها خمس وأربعون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٣]

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي قولوا الحمد لله فإنه واجب الحمد ومقتضى الحمد ما ذكر بعد.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي خالقهما على غير مثال سابق.

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾: أي جعل منهم رسلاً إلى الأنبياء كجبريل عليه السلام. ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾: أي ذوي أجنحة جمع جناح كجناح الطائر. ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾: أي يزيد على الثلاثة ما يشاء فإن لجبريل ستمائة جناح.

(٢) ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾: أي الله من الرحمة فلا أحد يرسلها غيره سبحانه

---

(١) صالح أن يكون الضمير للوعيد أو ليوم البعث أو النبي ﷺ أو القرآن إذ الكل واجب الإيمان، وقد كفروا بالكل وكذبوا.

(٢) ﴿وَأَنَّىٰ﴾: استفهام عن المكان وهو مستعمل هنا للإنكار، و ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾: السهل وأكثر وروده في شرب الإبل شرباً خفيفاً من الحوض ونحوه قال الشاعر:

باتت تنوش الحوض نوشاً من علا ... نوشاً به تقطع أجواز الفلا

أي تتناول الماء من أعلاه ولا تغوص مشافرها فيه.

(٣) القذف: الرمي باليد من بعد ويستعار للقول بدون تروّ ولا دليل وهو كقولهم في الأصنام: هم شفعاؤنا عند الله وكتكذيبهم بالبعث والتوحيد والنبوة.

(٤) الأشياع: المتشابهون في النحلة وإن كانوا سالفين وأصل المشايعة المتابعة في العمل.

(٥) هذه الجملة تعليلية لكل ما سبق في تكذيبهم وعنادهم وجهلهم وضلالهم إذ الشك وعدم اليقين هو الذي يوقع صاحبه في أودية الضلال والباطل.

وتعالى. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: أي الغالب على أمره الحكيم في تدبيره وصنعه.

(٣) ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾: أي اذكروا نعمه تعالى عليكم في خلقكم ورزقكم وتأمينكم في حرمكم. ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾: أي لا خالق لكم غير الله ولا رازق لكم يرزقكم. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: أي بإنزال المطر من السماء وإنبات الزروع في الأرض. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾: أي لا معبود بحق إلا هو إذًا فاعبدوه ووحدوه. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾: أي كيف تصرفون عن توحيده مع اعترافكم بأنه وحده الخالق الرازق.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ[١] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: أي الشكر الكامل والحمد التام لله استحقاقًا، والكلام خَرَج مَخرج الخبر ومعناه الإنشاء أي قولوا الحمد لله. واشكروه كما هو أيضًا إخبار منه تعالى بأن الحمد له ولا مستحقه غيره ومقتضى حمده. فطره السموات والأرض أي خلقه لهما على غير مثال سابق ولا نموذج حاكاه في خلقهما. وجعله الملائكة[٢] رسلاً إلى الأنبياء وإلى من يشاء من عباده بالإلهام والرؤيا الصالحة. وقوله: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ صفة للملائكة أي أصحاب أجنحة ﴿مَّثۡنَىٰ﴾ أي اثنين اثنين، ﴿وَثُلَٰثَ﴾ أي ثلاثة ثلاثة ﴿وَرُبَٰعَۚ﴾ أي أربعة أربعة. وقوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ أي خلق الأجنحة ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾ فقد خلق لجبريل عليه السلام ستمائة جناح كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في الصحاح ويزيد في خلق[٣] ما يشاء من مخلوقاته وهو على كل شيء قدير.

(٢) وقوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ[٤] فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ يخبر تعالى أن مفاتيح كل شيء بيده فما يفتحُ للناس من أرزاق وخيرات وبركات لا يمكن لأحد من خلقه أن يمسكها دونه وما يمسك من ذلك فلا يستطيع أحد من خلقه أن يرسله، وهو وحده العزيز الغالب على أمره ومراده فلا مانع لما أعطى ولا راد لما قضى الحكيم في صنعه وتدبير خلقه.

(٣) وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ هذا نداؤه تعالى لأهل مكة من قريش يأمرهم بعده بأن يذكروا نعمه تعالى عليهم حيث خلقهم ووسع أرزاقهم وجعل لهم حرمًا آمنًا والناس يتخطفون من حولهم خائفون يأمرهم[٥] بذكر نعمه لأنهم إذا ذكروها شكروها بالإيمان به وتوحيده. وقوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ والجواب لا أحد إذ لا خالق إلا هو ولا رازق سواه فهو الذي خلقهم ومن السماء والأرض رزقهم. السماء تُمطر والأرض تنبت بأمره. إذًا فلا إله إلا هو أي لا معبود بحق إلا هو فكيف إذًا تصرفون عن الحق بعد معرفته إن حالكم لعجب.

هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ[٦] ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

---

(١) يصح في ﴿فَاطِرِ﴾ الجر على النعت والرفع على القطع أي: هو فاطر والنصب على المدح أي: أمدح فاطر، والفطر: الشق يقال: فطرته فانفطر وتفطر، وفطر ناب البعير: إذا شق اللحم وطلع، والفاطر: الخالق، قال ابن عباس: كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أي: أنا ابتدأتها والمراد بالسماوات والأرض العالم كله.

(٢) المراد بالملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل «ملك الموت» وما شاء الله.

(٣) جائز أن يكون في ملاحة العين والحسن في الأنف والحلاوة في الفم، وفي الصوت الحسن والشعر الحسن والحظ الحسن، كل هذا مذكور وداخل في العبارة فإنها عامة.

(٤) لفظ الرحمة نكرة دال على الكثرة والشيوع فهو يتناول كل ما هو رحمة من النبوة والعلم إلى المطر والرزق إلى النصر والفوز.

(٥) أي: بعد أن ناداهم أمرهم بأن يذكروا نعمه عليهم إذ نداء المأمور يلفت نظره ويحضر حواسه لاستقبال ما يلقى إليه ويؤمر به أو يحذر منه.

(٦) قريء: ﴿غير الله﴾ بالجر وقرأ الجمهور: ﴿غَيۡرُ﴾ بالرفع على محل خالق المرفوع محلاً في الآية دليل أن الخير والشر كلاهما من خلق الله تعالى.

هداية الآيات:

١ - وجوب حمد الله تعالى وشكره على إنعامه.

٢ - تقرير الرسالة والنبوة لمحمد ﷺ بإخباره أنه جاعل الملائكة رسلاً.

٣ - وجوب اللجوء إلى الله تعالى في طلب الخير ودفع الضر فإنه بيده خزائن كل شيء.

٤ - وجوب ذكر النعم ليكون ذلك حافزًا على شكرها بطاعة الله ورسوله ﷺ.

٥ - تقرير التوحيد بالأدلة العقلية التي لا ترد.

٦ - العجب من حال المشركين يقرون بانفراد الله تعالى بخلقهم ورزقهم ويعبدون معه غيره.

الجُزْءُ الثَّانِي وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ فَاطِر

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

٤٣٥

شرح الكلمات:

[الآية: ٤ - ٧]

(٤) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾: أي يا رسولنا فيما جئت به من التوحيد وعقيدة البعث والجزاء ولم يؤمنوا بك. ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾: أي فلست وحدك كذبت إذًا فلا تأسَ ولا تحزن واصبر كما صبر من قبلك. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾: وسوف يجزي المكذبين بتكذيبهم والصابرين بصبرهم.

(٥) ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾: أي ولا يغرنكم بالله أي في حلمه وإمهاله الغرور أي الشيطان.

(٦) ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾: أي فلا تطيعوه ولا تقبلوا ما يغركم به وأطيعوا ربكم عز وجل. ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾: أي أتباعه في الباطل والكفر والشر والفساد. ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾: أي ليؤول أمرهم إلى أن يكونوا من أصحاب النار المستعرة.

(٧) ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: أي لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير في الجنة وذلك لإيمانهم وعملهم الصالحات.

معنى الآيات:

(٤) لما أقام تعالى الحجة على المشركين في الآيات السابقة قال لرسوله ﷺ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾[1] بعدما أقمت عليهم الحجة فلست وحدك المكذَّب فقد كذبت قبلك رسل كثيرون جاؤوا أقوامهم بالبينات والزبر وصبروا إذًا فاصبر كما صبروا ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ[2] الْأُمُورُ﴾ وسوف يقضي بينك وبينهم بالحق فينصرك في الدنيا ويخذلهم، ويرحمك في الآخرة ويعذبهم.

(٥) وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي يا أهل مكة وكل مغرور من الناس بالحياة الدنيا اعلموا أن وعد الله بالبعث والجزاء حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا بطول أعماركم وصحة أبدانكم وسعة أرزاقكم، فإن ذلك زائل عنكم لا محالة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾ أي حلمه وإمهاله ﴿الْغَرُورُ﴾[3] وهو الشيطان حيث يتخذ من حلم الله تعالى عليكم وإمهاله لكم طريقًا إلى إغوائكم وإفسادكم بما يحملكم عليه من تأخير التوبة والإصرار على المعاصي، والاستمرار عليها.

---

(١) في هذه الآية تعزية الله تعالى رسوله ﷺ وتسليته له بالتأسي بمن قبله من الرسل وتكذيب أممهم لهم.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿تُرْجَعُ﴾ بضم التاء وقرأ بعض بفتحها والكل صحيح ومآل المعنى واحد.

(٣) الغرور بالضم: مصدر غره يغره غروراً، وبالفتح: الشيطان وهو المراد هنا وصيغته من صيغ المبالغة «فعول» إذ هو كثير الغرور يأتيهم من حيث حلم الله وإمهاله فيصرفهم عن الحق مغرراً إياهم بأنهم لو كانوا على باطل لأهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم، ويُسوفّ آخرين بحلم الله فيصرفهم عن التوبة.

(٦) ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ[1]﴾ بالغ العداوة ظاهرها فاتخذوه أنتم عدوًا كذلك فلا تطيعوه ولا تستجيبوا لندائه، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ أي أتباعه ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي النار المستعرة، إنه يريد أن تكونوا معه في الجحيم. إذ هو محكوم عليه بها أزلاً.

(٧) وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا[2] لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي في الآخرة، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هو الجنة وما فيها من النعيم المقيم. هذا حكم الله في عباده وقراره فيهم: وهم فريقان مؤمن صالح وكافر فاسد ولكل جزاء عادل.

هداية الآيات:

١ - تسلية الرسول ﷺ ويدخل فيها كل دعاة الحق إذا كُذِّبوا وأُوذوا فعليهم أن يصبروا.

٢ - تقرير البعث والجزاء المتضمن له وعد الله الحق.

٣ - التحذير من الاغترار بالدنيا أي من طول العمر وسعة الرزق وسلامة البدن.

٤ - التحذير من الشيطان ووجوب الاعتراف بعداوته ومعاملته معاملة العدو فلا يقبل كلامه ولا يستجاب لندائه ولا يخدع بتزيينه للقبيح والشر.

٥ - بيان جزاء أولياء الرحمن أعداء الشيطان، وجزاء أعداء الرحمن أولياء الشيطان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ - ١١]

(٨) ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾: أي قبيح عمله من الشرك والمعاصي. ﴿فَرَآهُ حَسَنًا﴾: أي رآه حسنًا زينًا لا قبح فيه. ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾: أي على أولئك الذين زين لهم الشيطان قبيح أعمالهم. ﴿حَسَرَاتٍ﴾: أي لا تُهلِك نفسك بالتحسر عليهم لكفرهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾: وسيجزيهم بصنيعهم الباطل.

(٩) ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: أي تزعجه وتحركه بشدة فيجتمع ويسير. ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾: أي لا نبات به. ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾: أي بالنبات العشب والكلإ والزرع. ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾: أي البعث والحياة الثانية.

(١٠) ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾: أي فليطلب العزة بطاعة الله فإنها لا تنال إلا بذلك. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾: أي إلى الله تعالى يصعد الكلم الطيب وهو سبحان الله والحمد لله والله أكبر. ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾: أي أداء الفرائض وفعل النوافل يرفع إلى الله الكلم الطيب. ﴿يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: أي يعملونها ويكسبونها. ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: أي عملهم هو الذي يفسد ويبطل.

(١١) ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾: أي أصلكم وهو آدم. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾: أي من ماء الرجل وماء المرأة وذلك كل ذُرِّيَّة آدم. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾: أي ذكرًا وأنثى. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾: أي ما تحمل من جنين ولا تضعه إلا بإذنه. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾: أي وما يطول من عُمر ذي عُمر طويل إلا في كتاب. ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾: أي بأن يجعل أقل وأقصر من العمر الطويل إلا في كتاب.

معنى الآيات:

(٨) ما زال السياق الكريم في تقوية روح الرسول ﷺ والشد من عزمه أمام تقلبات المشركين وعنادهم ومكرهم فقال تعالى: ﴿أَفَمَن[3] زُيِّنَ

---

(١) يكفي في إثبات عداوته أنه أخرج أبوينا من الجنة، وأنه تعهد بإضلالهم وإغوائهم كقوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾.

(٢) الذين كفروا: الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنه بعد التحذير من طاعة الشيطان يلوح في الأذهان سؤال: ما جزاء من أطاع الشيطان وما جزاء من عصاه؟ فالجواب: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)﴾ ويرى بعضهم أنها ابتدائية ذكرت فذلكة لما تقدم من الكلام.

(٣) الهمزة: للاستفهام الإنكاري والفاء: للتفريع فالجملة متفرعة عما سبقها من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ والمزين: الشيطان والمُزين له: سوء عمله. (من) الموصولية وهي من ألفاظ العموم تتناول من قيل إن الآية نزلت فيه وهو أبو جهل ثم هي صادقة على كل من زين له الشيطان الشرك والشر والفساد فرآها حسنة، (ومن) مبتدأ والخبر محذوف قد يقدر ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ وقد يقدر كمن هداه الله كما في التفسير وقد يقدر بغير ما ذكر.

لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا[1]﴾ أي أفمن زين له الشيطان ونفسه وهواه قبيح عمله وهو الشرك والمعاصي فرآه حسنًا كمن هداه الله فهو على نور من ربّه يرى الحسنة حسنة والسيئة سيئة والجواب: لا، لا. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ يضل بعدله وحسب سننه في الإضلال من يشاء من عباده، ويهدي بفضله من يشاء هدايته إذًا فلا تذهب[2] نفسك أيها الرسول على عدم هدايتهم حسرات فتهلك نفسك تحسُّرًا على عدم هدايتهم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ فلذا لا داعي إلى الحزن والغمّ ما دام الله تعالى وهو ربهم قد أحصى أعمالهم وسيجزيهم بها.

(٩) وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ أي تزعجه وتحركه. ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ[3]﴾ أي لا نبات ولا زرع به ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي كما أن الله تعالى ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها كذلك يحيي الموتى إذ بعد فناء العالم ينزل الله تعالى من تحت العرش ماء فينبت الإنسان من عظم يقال له عَجْبُ الذَّنَبِ فيتم خلقه، ثم يرسل الله تعالى الأرواح فتدخل كل روح في جسدها فلا تخطىء روحٌ جسدها. وهكذا كما تم عملية إحياء الأرض بالنبات تتم عملية إحياء الأموات ويساقون إلى المحشر ويجزي كل نفس بما كسبت والله سريع الحساب.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ فليطلبها من الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ فإن العزة لله جميعًا فالعزيز من أعزّه الله والذليل من أذله، إنهم كانوا يطلبون العزة بالأصنام فاعلموا أن من يريد العزة فليطلبها من مالكها أما الذي لا يملك العزة فكيف يعطيها لغيره إن فاقد الشيء لا يعطيه. وقوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي إلى الله يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه إلى الله تعالى فإذا كان قول بدون عمل فإنه لا يرفع إلى الله تعالى ولا يثيب عليه، وقد ندد الله تعالى بالذين يقولون ولا يعملون فقال: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي يعملونها وهي الشرك والمعاصي ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ هذا جزاؤهم، ﴿وَمَكۡرُ[4] أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي ومكر الذين يعملون السيئات ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ أي يفسد ويبطل.

(١١) وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ أي خلق أصلنا من تراب وهو آدم، ثم خلقنا نحن ذريته من نطفة وهي ماء الرجل وماء المرأة، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ أي ذكرًا وأنثى. هذه مظاهر القدرة الإلهية الموجبة لعبادته وتوحيده والمقتضية للبعث والجزاء، وقوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ[5] مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ﴾ أي يزاد في عمره، ولا ينقص من عمره فلا يزاد فيه إلا في كتاب وهو كتاب المقادير. هذا مظهر من مظاهر العلم، وبالعلم والقدرة هو قادر على إحياء الموتى وبعث الناس للحساب والجزاء. ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الخلق والتدبير ووجوده في كتاب المقادير ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي سهل لا صعوبة فيه.

---

(١) ذكر القرطبي لأهل العلم أقوالاً فيمن زين له سوء عمله وفي عمله الذي زين له قيل: إنهم اليهود والنصارى والمجوس وسوء عمله: معاداة الرسول ﷺ، وقيل: إنهم الخوارج وسوء عمله: تحريف التأويل وقيل: الشيطان وعمله الإغراء وقيل: كفار قريش وهو الظاهر.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾ بفتح التاء ورفع السين من نفسك وقرىء بضم التاء ونصب نفسك على أنها مفعول به.

(٣) الراجح من الأقوال لغة أن ميت مشددة وميت مخففة لا فرق بينهما وشاهده قول الشاعر:

ليس من مات واستراح بميْت ... إنما الميْت ميّت الأحياء

(٤) المكر: تدبير إلحاق الضرر بالغير في خفية. والمراد هنا أن الذين يمكرون بالرسول ﷺ والمؤمنين مكرهم يذهب سدى ولا يفلحون فيه كما أن الآية تشير إلى أن كل من يمكر مكر السوء فإن عاقبة مكره تعود عليه وبالاً وخسراناً كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾.

(٥) فما يكون حمل ولا وضع أي: ولادة إلا بعلمه، فلا يخرج شيء عن تدبيره وحكمته وما يعمّر سماه معمراً باعتبار ما هو صائر إليه وفي الحديث الصحيح: «**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثرِهِ** ـ أي: أجله ـ **فليصل رحمه**».

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

٤٣٦

هداية الآيات:

١ - التحذير من اتباع الهوى والاستجابة للشيطان فإن ذلك يؤدي بالعبد إلى أن يصبح يرى الأعمال القبيحة حسنة ويومها يحرم هداية الله فلا يهتدي أبدًا وهذا ينتج عن الإدمان على المعاصي والذنوب.

٢ - عملية إحياء الأرض بعد موتها دليل واضح على بعث الناس أحياءً بعد موتهم.

٣ - مطلب العزة مطلب غال، وهو طاعة الله ورسوله ﷺ ولا يعز أحد عزًا حقيقيًا بدون طاعة الله ورسوله ﷺ.

٤ - علم الله المتجلي في الخلق والتدبير يُضافُ إليه قدرته تعالى التي لا يعجزها شيء بهما يتم الخلق والبعث والجزاء.

٥ - تقرير البعث والجزاء وتقرير كتاب المقادير وهو اللوح المحفوظ.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ - ١٤]

﴿١٢﴾ ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾: أي شديد العذوبة. ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾: أي شديد الملوحة. ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾: أي ومن كل منهما. ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾: أي السمك. ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: أي اللؤلؤ والمرجان. ﴿مَوَاخِرَ﴾: أي تمخر الماء وتشقه عند جريانها في البحر. ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾: أي لتطلبوا الرزق بالتجارة من فضل الله تعالى. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي رجاء أن تشكروا الله تعالى على ما رزقكم.

﴿١٣﴾ ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾: أي يدخل الليل في النهار فيزيد. ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾: أي يدخل النهار في الليل فيزيد. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: أي ذللهما. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي في فلكه إلى يوم القيامة. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾: أي تعبدون بالدعاء وغيره من العبادات وهم الأصنام. ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾: أي من لفافة النواة التي تكون عليه وهي بيضاء رقيقة.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾: أي فرضًا ما استجابوا لكم. ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: أي يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياهم. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: أي لا ينبئك أي بأحوال الدارين مثلي فإني خبير بذلك عليم.

معنى الآيات:

﴿١٢﴾ ما زال السياق الكريم في ذكر مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمة تدبيره لخلقه وهي مظاهر موجبة لله العبادة وحده دون غيره، ومقتضية للبعث الذي أنكره المشركون. قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ أي لا يتعادلان ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ[1] شَرَابُهُ﴾ أي ماؤه عذب شديد العذوبة ﴿وَهَذَا مِلْحٌ[2] أُجَاجٌ﴾ أي ماؤه شديد الملوحة لمرارته مع ملوحته، فهل يستوي الحق والباطل هل تستوي عبادة الأصنام مع عبادة الرحمن؟ والجواب لا. وقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾ أي ومن كل من البحرين العذب والملح تأكلون لحمًا طريًا

(١) معنى سائغ شرابه: أن شربه لا يكلف النفس كراهة وهو مشتق من الإساغة وهو استطاعة ابتلاع المشروب دون غصة قال الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلاً ... أكاد أغص بالماء الفرات

(٢) المالح من الطعام والشراب: هو الذي يجعل فيه الملح بكسر الميم وسكون اللام الشيء الموصوف بالملوحة بذاته لا بإلقاء الملح فيه والأجاج: الشديد الملوحة.

وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي اللؤلؤ والمرجان. وهي حلية يتحلى بها النساء للرجال، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي وترى أيها السامع لهذا الخطاب ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفن مواخر في البحر تمخر عباب البحر وتشق ماءه غادية رائحة تحمل الرجال والأموال، سخرها وسخر البحر ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي الرزق بالتجارة، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي سخر لكم البحر لتبتغوا من فضله ورجاء أن تشكروا. لم يقل لتشكروا كما قال لتبتغوا لأن الابتغاء حاصل من كل راكب، وأما الشكر فليس كذلك بل من الناس من يشكر ومنهم من لا يشكر، ولذا جاء بأداة الرجاء وهي لعل.

﴿١٣﴾ وقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ[١] فِى ٱلنَّهَارِ﴾ أي يدخل جزءًا من الليل في النهار فيطول، ويقصر الليل ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي يدخل جزءًا منه في الليل فيطول كما أنه يدخل النهار في الليل، والليل في النهار بالكلية فإنه إذا جاء أحدهما ذهب الآخر ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ ولازمه والنهار نسلخ منه الليل، فإذا الليل ليل والنهار نهار.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي ذللهما فما يسيران الدهر كله بلا كلل ولا ملل لصالح العباد إذ بهما كان الليل والنهار، وبهما تعرف السنون والحساب وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ أي كل منهما يجري ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقت محدد وهو يوم القيامة. ولما عرف تعالى نفسه بمظاهر القدرة قدرته وعلمه وحكمته ولطفه ورحمته قال للناس: ﴿ذَٰلِكُمُ[٢] ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي بعد أن أقام الحجة وأظهر الدليل لم يبقَ إلا الإعلان عن الحقيقة التي يتنكر لها الكافرون فأعلنها بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ ذو الصفات العظام والجلال والإكرام هو الله ربكم الذي لا رب لكم سواه له الملك، وليس لغيره فلا يصح طلب شيء من غيره، إذ الملك كله لله وحده، وأما الذين تدعون من دونه أي تعبدونهم من دونه وهي الأصنام والأوثان وغيرها من الملائكة والأنبياء والأولياء فإنهم لا يملكون من قطمير فضلاً عن غيره تمرة فما فوقها لأن الذي لا يملك قطميرًا ـ وهو القشرة الرقيقة على النواة[٣] ـ لا يملك بعيرًا.

﴿١٤﴾ وقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ نعم لا يسمعون لأنهم جمادات وأصنام من حجارة فكيف يسمعون وعلى فرض لو أنهم سمعوا ما استجابوا لداعيهم لعدم قدرتهم على الاستجابة. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فهم إذًا محنة لكم في الدنيا تنحتونهم وتحمونهم وتعبدونهم ويوم القيامة يكونون أعداء لكم وخصومًا فيتبرؤون من شرككم إياهم في عبادة الله، فتقوم عليكم الحجة بسببهم فما الحاجة إذًا إلى الإصرار على عبادتهم وحمايتهم والدفاع عنهم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أيها السامع ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ[٤]﴾ وهو الله تعالى فالخبير أصدق من ينبىء وأصح من يقول فالله هو العليم الخبير وما أخبر به عن الآلهة في الدنيا والآخرة في الدنيا عن عجزها وعدم غناها وفي الآخرة عن براءتها وكفرها بعبادة عابديها. فهو الحق الذي لا مرية فيه.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير ربوبية الله المستلزمة لألوهيته.

٢ ـ بيان مظاهر القدرة والعلم والحكمة وبها تقرر ربوبيته تعالى وألوهيته لعباده.

٣ ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر يوم القيامة وبراءة الآلهة من عابديها.

---

(١) هذا استدلال بمظاهر القدرة والعلم والرحمة والحكمة بما في العالم العلوي بعد الاستدلال بما في العالم السفلي من ذلك.

(٢) هذا استئناف موقعه موقع النتيجة من الأدلة السابقة وهي أدلة مفصلة في غاية القوة والوضوح.

(٣) جاء في القرآن ذكر النقير والقطمير والفتيل واضطربت أقوال أهل اللغة في تحديدها والصحيح: إن النقير النقرة في وسط النواة، وأن الفتيل الخيط الأبيض في وسط النواة، وأن القطمير اللفافة البيضاء على النواة.

(٤) ﴿خَبِيرٍ﴾: صفة مشبهة مشتقة من خبر ـ بضم الباء ـ فلان الأمر إذا علمه علماً لا شك فيه وأجريت هذه الجملة مجرى المثل يقال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

٤ ـ بيان عجز الآلهة عن نفع عابديها في الدنيا وفي الآخرة.

٥ ـ تقرير صفات الكمال لله تعالى من الملك والقدرة والعلم، والخبرة التامة الكاملة وبكل شيء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ ـ ١٨]

(١٥) ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي المحتاجون إليه في كل حال. ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: أي الغني عنكم أيها الناس وعن سائر خلقه، المحمود بأفعاله وأقواله وحسن تدبيره فكل الخلائق تحمده لحاجتها إليه وغناه عنها.

(١٦) ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: أي بدلاً عنكم.

(١٧) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝﴾: أي بشديد ممتنع بل هو سهل جائز الوقوع.

(١٨) ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي في حكم الله وقضائه بين عباده أن النفس المذنبة الحاملة لذنبها لا تحمل وزر أي ذنب نفس أخرى بل كل وازرة تحمل وزرها وحدها. ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾: أي بأوزارها حتى لم تقدر على المشي أو الحركة. ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾: أي لا تجد من يستجيب لها ويحمل عنها بعض ذنبها حتى لو دعت ابنها أو أباها أو أمها فضلاً عن غيرهم، بهذا حكم الله سبحانه وتعالى. ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾: أي لأنهم ما رأوه بأعينهم. ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾: أي طهَّر نفسه من الشرك والمعاصي. ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾: أي صلاحه واستقامته على دين الله ثمرتهما عائدة عليه.

معنى الآيات:

(١٥) بعد تلك الأدلة والحجج التي سيقت في الآيات السابقة وكلها مقررة ربوبية الله تعالى وألوهيته وموجبة توحيده وعبادته نادى تعالى الناس بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ليعلمهم بأنه وإن خلقهم لعبادته وأمرهم بها وتوعد بأليم العذاب لمن تركها ولم يكن ذلك لفقر منه إليها ولا لحاجة به إليهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ[1] إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝﴾ إن عبادة الناس لربهم تعود عليهم فيكملون عليها في أخلاقهم وأرواحهم ويسعدون عليها في دنياهم وآخرتهم أما الله جل جلاله فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية. وهو الغني عن كل ما سواه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي المحمود بنعمه فكل نعمة بالعباد موجبة له الحمد والشكر.

(١٦) وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ[2] بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝﴾ وهذا دليل غناه؛ وافتقارهم كما هو دليل قدرته وعلمه.

(١٧) وقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝﴾ أي إذهابهم والإتيان بخلق جديد غيرهم ليس بالأمر العزيز الممتنع ولا بالصعب المتعذر بل هو اليسير السهل عليه تعالى.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ[3] وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هذا مظهر عدالته تعالى فهو مع قدرته وقهره لعباده ذو عدل فيهم فلا يؤاخذ بغير جرم، ولا يحمل وزر نفس نفسًا أخرى لم تذنب ولم تزر بل كل نفس تؤخذ بذنبها إن كانت مذنبة هذه عدالته تتجلى لعباده يوم يعرضون عليه في يوم كله هول وفزع يدل عليه قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾[4] أي بذنوبها ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ

---

(١) في قوله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ قصر صفة على موصوف أي: قصر صفة الفقر على الناس وهو قصر إضافي بالنسبة إلى الله تعالى أي: أنتم المفتقرون إلى الله وليس هو بمفتقر إليكم ووصفه تعالى نفسه بالحميد إشعار بأن غناه مقترن بجوده فهو يحمد لما يسديه من المعروف إلى عباده.

(٢) الجملة بيانية فهي مبينة لغناه وموجب حمده والثناء عليه ببيان قدرته على إعلام الموجود من عباده والإتيان بخلق جديد غيرهم ومن كان هكذا هو الغني الحق والمحمود الحق فلله الحمد وله المنة.

(٣) ﴿وَازِرَةٌ﴾ صفة لمحذوف أي: نفس وازرة وكذا ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة وتزر أصلها توزر فحذفت الواو تخفيفاً إذ الفعل وزر يوزر فحذفت الواو كما حذفت في وعد يعد ووزن يزن.

(٤) ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: أحداً إلى حملها.

(٥) أي: المدعو ذا قربى.

كَانَ﴾ من تدعوه[١] ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ كالولد[٢] والبنت. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ[٣] يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي إنما تنذر يا رسولنا ويقبل إنذارك وينتفع به من يخشون ربهم ويخافون عذابه بالغيب وأقاموا الصلاة، أما غيرهم من أهل الكفر والعناد والجحود فإنهم لا يقبلون إنذارك ولا ينتفعون به لظلمة جهلهم وكفرهم وقساوة قلوبهم، ومع هذا فأنذر ولا عليك في ذلك شيء فإن من تزكّى بالإيمان والعمل الصالح مع ترك الشرك والمعاصي فإنما يتزكّى لنفسه لا لك ولا لنا، ومن أبى فعليه إباؤه، وإلينا مصير الكل وسنجزي كلاًّ بما كسب من خير وشر. هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[٤].

هداية الآيات:

١ - بيان فقر العباد إلى ربهم وحاجتهم إليه وإزالة فقرهم وسد حاجتهم يكون باللجوء إليه والاطراح بين يديه يعبدونه ويسألونه.

٢ - بيان عدالة الله تعالى يوم القيامة.

٣ - بيان صعوبة الموقف في عرصات القيامة لا سيما عند وضع الميزان ووزن الأعمال.

٤ - بيان أن الإنذار والتخويف من عذاب الله لا ينتفع به غير المؤمنين الصالحين.

٥ - تقرير عقيدة البعث والجزاء يوم القيامة.

٦ - تقرير حقيقة وهي أن من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها.

الجزءُ الثاني والعشرونَ — سُورَةُ فَاطِـر

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

٤٣٧

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ - ٢٦]

﴿١٩﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: أي لا يستويان فكذلك الكافر والمؤمن لا يستويان.

﴿٢٠﴾ ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾: أي لا يستويان فكذلك الكفر والإيمان لا يستويان.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾: أي لا يستويان فكذلك الجنة والنار لا يستويان.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾: فكذلك لا يستوي المؤمنون والكافرون. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾: أي فكذلك لا تسمع الكفار فإنهم كالأموات.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾: ما أنت إلا منذر فلا تملك أكثر من الإنذار.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي بالدين الحق والهدى والكتاب. ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: أي سلف فيها نبيٌّ ينذرها.

﴿٢٥﴾ ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي بالحجج والأدلة الواضحة. ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾: أي وبالصحف كصحف إبراهيم وبالكتاب المنير كالتوراة والإنجيل.

﴿٢٦﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: أي

---

(١) قال الفضيل بن عياض: هي المرأة تلقى ولدها فتقول: يا ولدي ألم يكن بطني لك وعاء؟ ألم يكن ثدي لك سقاء؟ ألم يكن حجري لك وطاء؟ فيقول: بلى يا أماه فتقول: يا بني قد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنباً واحداً، فيقول: إليك عني يا أماه فإني بذنبي عنك مشغول.

(٢) الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن الحال تستدعي سؤالاً وهو لِمَ لَمْ يتأثر المشركون بالإنذار؟ فالجواب: إنما يقبل النذارة ويستجيب للمنذر أهل الإيمان والخشية لله تعالى لأنهم أحياء وأما الكافرون فهم أموات وهل يستجيب غير الحي؟ وفي الآية دليل على قوة تأثير الصلاة في تزكية النفوس وتطهير الأرواح.

(٣) هذه الجملة تذييل للجملة المذيل بها قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ وهي تفيد تقرير البعث والجزاء وهما مما ينكر المشركون كما تفيد التسلية للرسول ﷺ والتهديد للكافرين أيضاً فإن من صار إلى الله أخذه بذنبه.

فكيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك والجواب هو واقع موقعه والحمد لله.

معنى الآيات:

(١٩) لمّا تقدم في السياق الكريم أن إنذار الرسول ﷺ لا ينتفع به إلا المؤمن المقيم للصلاة وإن الكافر المكذب الجاحد لا ينتفع به ذكر تعالى هنا مثلاً للكافر والمؤمن وأنهما لا يستويان فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾[1] فالأعمى الكافر والبصير المؤمن وهما لا يستويان في عقل ولا شرع.

(٢٠) ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ[2] وَلَا النُّورُ﴾ أي ولا تستوي الظلمات ولا النور كما لا يستوي الكفر والإيمان.

(٢١) ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ[3]﴾ فبرودة الجو، لا تستوي مع حرارته فكذلك الجنة لا تستوي مع النار.

(٢٢) وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ أي ولا المؤمنون مع الكافرين كذلك وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ[4] مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ هذا شروع في تسلية الرسول ﷺ من أجل ما يجد في نفسه من إعراض قومه وعدم استجابتهم لدعوته، فأخبره ربه بأنه تعالى قادر على أن يسمع من يشاء إسماعه وذلك لقدرته على خلقه أما أنت أيها الرسول فإنك لا تسمع الأموات وإنما تسمع الأحياء، والكفار شأنهم شأن الأموات في القبور فلا تقدر على إسماعهم.

(٢٣) ولا يحزنك ذلك فإنك ما أنت إلا نذير، والنذير ينذر ولا يُسأل عمن أجابه ومن لم يجبه.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ بهذا الخبر يقرر تعالى رسالة رسوله محمد ﷺ وأنه أرسله بالهدى ودين الحق بشيرًا لمن آمن به واتبع هداه بالجنة، ونذيرًا لمن كفر به وعصاه بالنار. وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ[5]﴾، يخبر تعالى أن رسوله محمدًا ﷺ ليس الرسول الوحيد الذي أرسل في أمة بل إنه ما من أمة من الأمم إلا مضى فيها نذير، فلا يكون إرساله عجبًا لكفار قريش إذ هذه سنة الله تعالى في عباده يرسل إليهم من يهديهم إلى نجاتهم وسعادتهم.

(٢٥) ثم قال لرسوله ﷺ معزيًا له مسليًا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾[6] فلم يكونوا أول من كذب فقد كذب الذين من قبلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي جاءتهم رسلهم بالحجج القواطع والبراهين السواطع، والمعجزات الخوارق، وبالصحف والكتب المنيرة لسبيل الهداية وطريق النجاة والفلاح. ومنهم من آمن ومنهم من كذب وكفر وبعد إمهال وإنظار دلّ عليه العطف بثم أخذ الذين كفروا بعذاب ملائم لكفر الكافرين.

(٢٦) ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[7] أي

---

(١) قال القرطبي: الكافر والمؤمن والعالم والجاهل.

(٢) قيل: لا زائدة في كل من قوله تعالى: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ و ﴿وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ واختلف في أيهما يكون بالليل وأيهما يكون بالنهار الحرور أو السموم؟ وفي حديث الرسول ﷺ بيان ذلك وأن كلاهما يقع في النهار كما يقع في الليل إذ قال ﷺ: **«فما تجدون من الحر فمن سمومها وشدة ما تجدون من البرد فمن زمهريرها»**.

(٣) قال قطرب أحد أعلام اللغة: الحرور: الحر والظل: البرد.

(٤) قرأ الجمهور بتنوين: ﴿بِمُسْمِعٍ﴾ وقرىء: ﴿بمسمع﴾ بكسرة واحدة والمراد بمن في القبور: الكفار حيث أمات الكفر قلوبهم أي: كما لا تسمع من مات فإنك لا تسمع من مات قلبه بالجهل وظلمة الكفر.

(٥) أي: سلف فيها نبي قال ابن جريج: إلا العرب. إذ أراد أنه لم يخل فيهم نذير مطلقاً فهذا غير صحيح إذ بعث فيهم إسماعيل وتبع وغيرهما وإن أراد في الزمن القريب فهذا صحيح.

(٦) في الآيات تسلية للنبي ﷺ ظاهرة تطلبها المقام حيث أصر المشركون على تكذيبه وعدم الإيمان بما جاءهم به من الهدى والدين الحق.

(٧) استفهام مستعمل في التعجب من حالهم مفرع بالفاء على قوله: ﴿أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والنكير: اسم لشدة الإنكار وهو هنا كناية عن شدة العقاب لأن الإنكار يستلزم الجزاء على الفعل المنكر بالعقاب وحذفت ياء المتكلم في نكيري تخفيفاً ولرعاية الفواصل في الوقف.

فكيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة الشديدة والإهلاك التام إنه كان واقعًا موقعه، موافيًا لطالبه بكفره وعناده.

هداية الآيات:

١ - استحسان ضرب الأمثال للكشف عن الحال وزيادة البيان.

٢ - الكفار عمي لا بصيرة لهم، وأموات لا حياة فيهم، والدليل عدم انتفاعهم بحياتهم ولا بأسماعهم ولا أبصارهم.

٣ - تقرير نُبوّة الرسول محمد ﷺ وتأكيد رسالته.

٤ - تسلية الدعاة ليتدرّعوا بالصبر ويلتزموا الثبات.

٥ - بيان سنة الله في المكذبين الكافرين وهي أخذهم عند حلول أجلهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ - ٣٠]

(٢٧) ﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾: أي كأحمر وأخضر وأصفر وأزرق وغيره. ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ﴾: أي طرق في الجبال إذ الجدة الطريق ومنه جادة الطريق. ﴿بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾: أي طرق وخطط في الجبال ذات ألوان كالجبال أيضًا. ﴿وَغَرَابِيبُ[1] سُودٞ﴾: منها الأبيض والأصفر والأسود الغربيب.

(٢٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: فمنها أبيض وهذا أحمر وهذا أسود. ﴿مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ﴾: أي كاختلاف الثمار والجبال والطرق فيها. ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾: أي العالمين بجلاله وكماله، إذ الخشية متوقفة على معرفة المخشيّ.

(٢٩) ﴿يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: أي يقرؤونه تعبدًا به. ﴿تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾: أي لن تهلك ولن تضيع بدون ثواب عليها.

(٣٠) ﴿غَفُورٞ شَكُورٞ﴾: أي غفور لذنوب عباده التائبين شكور لأعمالهم الصالحة.

معنى الآيات:

(٢٧) هذا السياق الكريم ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾[2] في بيان تفاوت المخلوقات واختلافاتها فمن مؤمن إلى كافر، ومن صالح إلى فاسد ومن أبيض إلى أحمر أو أسود وابتدأه تعالى بخطاب رسوله ﷺ مقررًا له بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أي ألم تبصر بعينك أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها ما بين تمر أصفر وآخر أحمر، وآخر أسود وهذا واضح في التمر والعنب والفواكه والخضر، ومن الجبال كذلك. فإن فيها جدد[3] أي خطط حمراء وصفراء وبيضاء وسوداء والجبال نفسها كذلك، ومن الناس والدواب والأنعام ففي جميعها الأبيض والأسود والأحمر والأصفر كما في جدد الجبال نفسها وكما في الثمار. ولما كان هذا لا يدركه إلا المفكرون ولا يجني منه العبرة إلا العالمون.

(٢٨) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى[4] ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ وأهل مكة جهال لا يفكرون ولا يهتدون فلا غرابة إذا لم يخشوا الله تعالى ولم يوحدوه وذلك لجهلهم وعدم تفكيرهم.

وقوله تعالى في ختام السياق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[5] كشف عن حقيقة ينبغي أن يعرفها أهل مكة

---

(١) الغربيب: الشديد السواد ففي الكلام تقديم وتأخير إذ المعنى: ومن الجبال سود غرابيب إذ العرب تقول للأسود: شديد السواد كلون الغراب أسود غربيب.

(٢) من هداية هذه الآية الإشارة الواضحة إلى وجود اختلاف بشري جبلّي فطري كما هو في سائر الكائنات الأرضية، وفي النباتات والحيوانات وحتى الجبال والمعادن ومن عرف هذا هان عليه اختلاف الناس ولم يحزن له ولم يهتم ويكرب.

(٣) الجدد: جمع جدّة وهي الطريقة والخطة في الشيء تكون واضحة فيه.

(٤) في الجملة قصر صفة على موصوف أي: قصر صفة الخشية على العلماء دون الجهلة وبهذا عَلاَ شأن العلماء وعظم قدرهم قال رسول الله ﷺ: **«إن فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»** ثم تلا: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾. والمراد بالعلماء: العالمون بالله أي: بأسمائه وصفاته ومحابه ومكارهه وما عنده من نعيم لأوليائه وما لديه من عذاب لأعدائه، وآية العالم: الخشية لله والمحبة له تعالى فمن لم يَخشَ الله تعالى فليس بعالم.

(٥) الجملة تذييلية مشعرة بغنى الله تعالى عن عباده قدير على أخذهم متى أراد بهم ذلك، ذو مغفرة لهم متى تابوا وطلبوا مرضاته ولو عرف المشركون هذا ما أصروا على الشرك ولكنهم لا يعلمون.

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

٤٣٨

المصرون على الكفر والتكذيب وهي أن الله قادر على أخذهم والبطش بهم فإنه عزيز لا يمانع فيما يريده وغفور لذنوب التائبين من عباده ومهما كانت ذنوبهم إلا فليتب أهل مكة فإن توبتهم خير لهم من إصرارهم على الشرك والكفر والتكذيب إذ في التوبة نجاة، وفي الإصرار هلاك.

﴿٢٩﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾[1] وهم المؤمنون ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أدوها أداءً وافيًا لا نقص فيه ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الزكاة والصدقات بحسب الأحوال والظروف سرًا أحيانًا وعلانية أحيانًا أخرى. يُخبر تعالى عنهم بعدما وصفهم بما شرفهم به من صفات أنهم ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي لن تهلك ولن تخسر وذلك يوم القيامة.

﴿٣٠﴾ وقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ[2] أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي هداهم لذلك ووفقهم إليه تعالى ليوفيهم أُجورهم ويزيدهم من فضله. وعلة ذلك أنه غفور لعباده المؤمنين التائبين فيغفر ذنوبهم ويدخلهم جنته شكور لطاعاتهم وصالح أعمالهم فلذا يضاعف لهم أجورهم ويزيدهم من فضله وله الحمد والمنة.

هداية الآيات:

١ - بيان مظاهر القدرة والعلم الإلهي في اختلاف الألوان والطباع والذوات.

٢ - العلم سبيل الخشية فمن لا علم له بالله فلا خشية له إنما يخشى الله من عباده العلماء.

٣ - فضل تلاوة القرآن الكريم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصدقات.

٤ - في وصف الله تعالى بالغفور والشكور ترغيب للمذنبين أن يتوبوا، وللعاملين أن يزيدوا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ ـ ٣٥]

﴿٣١﴾ ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي القرآن الكريم. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل.

﴿٣٢﴾ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي الكتب التي سبقت القرآن إذ محصلها في القرآن الكريم. ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾: أي اخترنا المؤمنين من أمة محمد ﷺ. ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: بارتكاب الذنوب. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: مؤدٍ للفرائض مجتنب للكبائر. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾: مؤدٍ للفرائض والنوافل مجتنب للكبائر والصغائر. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أي بتوفيقه وهدايته. ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي إيراثهم الكتاب ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾: أي أساور من لؤلؤ مرصع بالذهب.

﴿٣٥﴾ ﴿أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾: أي الإقامة وهي جنات عدن. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾: أي تعب. ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾: أي إعياء من التعب، وذلك لعدم التكليف فيها.

معنى الآيات:

﴿٣١﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

---

(١) لما أثنى على العلماء بما وصفهم به من الخشية وكان في الكلام إيجاز أوضحه بهذه الجملة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، وما تلا كتاب الله غير مؤمن عالم ولا أقام الصلاة وأنفق سراً وعلانية إلا ذو خشية ومحبة. بعدما وصفهم وحددهم بشَّرهم بقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

(٢) التوفية: جعل الشيء وافياً أي: تاماً لا نقيصة فيه ولا غبن.

﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ(١)﴾ أي القرآن الكريم هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي الواجب عليك وعلى أمتك العمل به لا ما سبقه من الكتب كالتوراة والإنجيل، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي أمامه من الكتب السابقة، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ(٢) بَصِيرٌ﴾ فهو تعالى يعلم أن الكتب السابقة لم تصبح تحمل هداية الله لعباده لما داخلها من التحريف والتغيير فلذا مع علمه بحاجة البشرية إلى وحي سليم يقدم إليها فتكمل وتسعد عليه متى آمنت به وأخذته نورًا تمشي به في حياتها المادية هذه أرسلك وأوحى إليك هذا الكتاب الكريم وأوجب عليك وعلى أمتك العمل به.

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ(٣) ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يخبر تعالى أنه أورث أمة الإسلام الكتاب السابق إذ كل ما في التوراة والإنجيل من حق وهدى قد حواه القرآن الكريم، فأمة القرآن قد ورثها الله تعالى كل الكتاب الأول.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ(٤) ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالتقصير في العمل وارتكاب بعض الكبائر، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للفرائض المجتنب للكبائر، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو المؤدي للفرائض والنوافل المجتنب للكبائر والصغائر. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإيراث للكتاب هو الفضل الإلهي الكبير.

(٣٣) وهو ﴿جَنَّٰتُ(٥) عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يوم القيامة ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع سوار ما يجعل في اليد ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي أساور من لؤلؤ، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

(٣٤) وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ(٦) ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ أي كل الحزن فلا حزن يصيبهم إذ لا موت في الجنة ولا فراق ولا خوف ولا هَمّ ولا كرب فمِنْ أين يأتي الحزن. وقولهم: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ قالوا هذا لأنه تعالى غفر للظالم وشكر للمقتصد عمله فأدخل الجميع الجنة فهو الغفور الشكور حقًا حقًا.

(٣٥) وقولهم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي الإقامة من فضله هذا ثناء منهم على الله تعالى بإفضاله عليهم، وقولهم: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي إعياء من التعب وصف لدار السلام وهي الجنة الخالية من النصب واللغوب جعلنا الله من أهلها.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب العمل بالقرآن الكريم عقائد وعبادات وآدابًا وأخلاقًا وقضاءً وحكمًا.

٢ ـ بيان شرف هذه الأمة، وأنها الأمة المرحومة فكل من دخل الإسلام بصدق وأدى الفرائض واجتنب المحارم فهو ناج فائز ومن قصر وظلم نفسه بارتكاب الكبائر ومات ولم يشرك بالله شيئًا فهو آيل إلى دخول الجنة راجع إليها بإذن الله.

---

(١) في الآية الإشادة بالكتاب الذي يتلوه المؤمنون فيثابون ويزادون لأنه الكتاب الحق الخالي من الزيادة والنقص المصدق لما تقدمه من الكتب الإلهية السابقة وضمن هذا يقرر النبوة المحمدية وإثباتها والإشادة بصاحبها ﷺ.

(٢) الخبير: العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة والظاهرة والخفية وصاحب هذه الصفة هو الذي يجب أن يعبد ويتقى.

(٣) حاول كثير من المفسرين البعد عن الحقيقة التي تضمنتها هذه الآية وهي: أن الآية في أمة محمد ﷺ هي التي قال الله تعالى فيها: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ والاجتباء: كالاصطفاء. والظالم لنفسه لا يكون الكافر ولا المنافق وإنما هو المؤمن يغشى بعض الكبائر وما في التفسير هو الحق فتأمله.

(٤) ﴿فَمِنْهُمْ﴾: هذه الفاء التفريعيّة التفصيلية حيث فصل بها مجمل الذين أوتوا الكتاب والبداية بالظالمين لأنفسهم إيماء إلى أنهم غير محرومين من جنات عدن دفعاً لمن يتوهم أنهم لما كانوا ظالمين لا يدخلون الجنة.

(٥) جنات عدن: بدل اشتمال من قوله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

(٦) لما دخلوا جنات عدن حمدوا الله تعالى وأثنوا عليه وإن قيل: كيف دخل الظالم لنفسه الجنة وهو ظالم؟ قلنا: هذا الظلم هو ليس ظلماً لربه بأن عبد غير الله ولا هو ظلم لغيره وإنما هو ظلم لنفسه بارتكاب بعض الذنوب وهذا غير مانع من دخول الجنة إذ هو وارث بوصفه مؤمناً والجنة تورث والورثة يستوي فيهم البار مع العاق فلا يمنع من الإرث العاق بل يرث كالبار سواء بسواء.

٣ - بيان نعيم أهل الجنة وحلية أهلها وهي الأساور[١] من الذهب واللؤلؤ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ - ٣٩]

(٣٦) ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: أي بالموت فيموتوا ويستريحوا. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾: أي كذلك الجزاء نجزي كل كفور بنا وبآياتنا ولقائنا.

(٣٧) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾: أي يصيحون بأعلى أصواتهم يطلبون الخروج منها. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: أي في عويلهم وصراخهم ربنا أخرجنا أي منها نعمل صالحًا. ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾: أي وقتًا يتذكر فيه من تذكر. ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾: أي الرسول ﷺ فلم تجيبوا وأصررتم على الشرك والمعاصي.

(٣٨) ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: أي بما في القلوب من إصرار على الكفر ولو عاش الكافر طوال الحياة.

(٣٩) ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾: يخلف بعضكم بعضًا. والخلائف جمع خليفة وهو من يخلف غيره. ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾: أي وبال كفره. ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾: أي إلا غضبًا شديدًا عليهم من الله عز وجل. ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾: أي في الآخرة إذ يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

معنى الآيات:

(٣٦) بعدما ذكر تعالى جزاء أهل الإيمان والعمل الصالح ذكر جزاء أهل الكفر والمعاصي فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٢] أي بالله وآياته ولقائه ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي جزاء لهم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٣] أي بالموت فيموتوا حتى يستريحوا ولا يخفف عنهم من عذابها ولا طرفة عين. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الجزاء ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي مبالغ في الكفر مكثر منه.

(٣٧) وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ[٤] فِيهَا﴾ أي في جهنم أي يصرخون بأعلى أصواتهم في بكاء وعويل يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ أي من النار وردنا إلى الحياة الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي من الشرك والمعاصي. فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾[٥] أي أتطلبون الخروج من النار لتعملوا صالحًا ولم نعمركم أي نطل أعماركم بحيث يتذكر فيها من يريد أن يتذكر وجاءكم النذير[٦] فلم تجيبوه وأصررتم على الشرك والمعاصي، إذًا فذوقوا عذاب النار ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي من نصير ينصرهم فيخرجهم من النار.

(٣٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كل ما غاب في السموات والأرض ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ومن ذلك أنه عليم بما في قلوبكم وما كنتم مصرين عليه من الشرك والشر والفساد ولو عشتم الدهر كله.

(٣٩) وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾[٧] أي يخلف بعضكم بعضًا وفي ذلك ما يمكّن من العظة والاعتبار إذ العاقل من اعتبر بغيره فقد هلكت قبلكم أمم بذنوبهم فلمَ لا تتعظون بهم وقد خلفتموهم وجئتم بعدهم إذًا فلا عذر لكم أبدًا.

وبعد هذا البيان فمن كفر فعليه كفره هو الذي يتحمل جزاءه، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ أي بعدًا عن الرحمة وبغضًا شديدًا، ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ﴾ أي المصرين على الكفر كفرهم ﴿إِلَّا

---

(١) ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**».

(٢) قال القرطبي: لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم.

(٣) هذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣)﴾ من سورة الأعلى.

(٤) ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾: مبالغة في يصرخون افتعال من الصراخ وهو الصياح بشدة وجهد أي: يصيحون من شدة ما أصابهم.

(٥) الاستفهام للتقريع والتوبيخ والواو عاطفة قولاً محذوفاً تقديره: يقولون: ربنا أخرجنا ونقول: ألم نعمركم والتعمير تطويل العمر.

(٦) هل النذير القرآن أو الرسول ﷺ أو الشيب؟ قال الشاعر:

رأيت الشيب من نذر المنايا ... لصاحبه وحسبك من نذير

وما في التفسير أصح.

(٧) أي: خلفاً بعد خلف وقرناً بعد قرن، والخلف هو التالي للتقدم.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

٤٣٩

﴿خَسَارًا﴾ أي هلاكًا في الآخرة.

هداية الآيات:

١ - بيان مُرّ العذاب وأليمه الذي هو جزاء الكافرين.

٢ - الإعذار لمن بلّغه الله من العمر أربعين سنة.

٣ - الكافر يعذب أبدًا لعلم الله تعالى به وأنه لو عاش آلاف السنين ما أقلع عن كفره ولا حاول أن يتوب منه فلذا يعذب أبدًا.

٤ - في كون البشرية أجيالاً جيلاً يذهب وآخر يأتي مجال للعظة والعبرة والعاقل من اعتبر بغيره.

٥ - الاستمرار على الكفر لا يزيد صاحبه إلا بعدًا عن الرحمة ومقتًا عند الله تعالى والمقت أشد الغضب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٠ - ٤٣]

﴿٤٠﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾: أي أخبروني. ﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي تعبدون من غير الله وهي الأصنام. ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟﴾: أي أخبروني ماذا خلقوا من الأرض أي أيّ جزء منها خلقوه. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾: أي أم لهم شركة في خلق السموات. ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾: أي باطلاً إذ قالوا إنها آلهتنا تشفع لنا عند الله يوم القيامة وتقربنا إلى الله زلفى.

﴿٤١﴾ ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾: أي يمنعها من الزوال. ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: أي ولو زالتا ما أمسكهما أحد من بعده لعجزه عن ذلك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾: أي حليمًا لا يعجل بالعقوبة غفورًا لمن ندم واستغفر.

﴿٤٢﴾ ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾: أي رسول. ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾: أي اليهود والنصارى. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾: أي محمد ﷺ. ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾: أي مجيئه إلا تباعدًا عن الهدى ونفرة منه.

﴿٤٣﴾ ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾: أي الشرك والمعاصي. ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾: أي ولا يحيط إلا بأهله العاملين له. ﴿سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي سنة الله فيهم وهي تعذيبهم بكفرهم وإصرارهم عليه. ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾: أي فلا يبدل العذاب بغيره. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾: أي تحويل العذاب عن مستحقه إلى غير مستحقه.

معنى الآيات:

﴿٤٠﴾ ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد وإبطال التنديد فقال تعالى لرسوله محمد ﷺ قل للمشركين من قومك: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ[1] ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي تعبدون من دون الله أخبروني: ماذا خلقوا من الأرض حتى استحقوا العبادة مع الله فعبدتموهم معه؟ أم لهم شرك[2] في السموات بأن خلقوا جزءًا وملكوه بالشركة. والجواب قطعًا لم يخلقوا شيئًا من الأرض وليس لهم في خلق السموات شركة أيضًا إذًا فكيف عبدتموهم مع الله؟ وقوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي أم آتينا هؤلاء المشركين كتابًا يبيح لهم الشرك ويأذن لهم فيه فهم لذلك على بينة

---

(١) هذا شروع في بطلان الشرك وتحقيق التوحيد بالأسلوب الجدلي العقلي والاستفهام تقريري في قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾. ﴿أَرُونِى﴾ أي: أروني شيئاً خلقوه من الأرض.

(٢) الشرك: اسم للنصيب المشترك به في ملك الشيء، والمعنى ألهم شرك مع الله في ملك السماوات وتصريف أحوالها كسير الكواكب وتعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح وإنزال المطر؟

بصحة الشرك. والجواب ومن أين لهم هذا الكتاب الذي يبيح الشرك؟ بل ﴿إِن[1] يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي باطلًا إذ الحقيقة أن المشركين لم يكن لهم كتاب يحتجون به على صحة الشرك، وإنما هو أن الظالمين وهم المشركون ما يعد بعضهم بعضًا وهو أن الآلهة ستشفع لنا وتقربنا إلى الله زلفى إلا غرورًا وباطلًا فالرؤساء غرّروا بالمرؤوسين وكذبوا عليهم بأن الآلهة تشفع لهم عند الله وتقربهم منه زلفى فلهذا عبدوها من دون الله.

(٤١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ[2] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ يخبر تعالى عن عظيم قدرته ولطفه بعباده، ورحمته بهم وهي أنه تعالى يمسك السموات السبع والأرض أن تزولا أي تتحول عن أماكنهما، إذ لو زالتا لخرب العالم في لحظات، وقوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أي ولو زالتا ﴿إِنۡ[3] أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ أي لا يقدر على ذلك إلا هو سبحانه وتعالى، وقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ إذ حلمه هو الذي غرَّ الناس فعصوه، ولم يطيعوه، وأشركوا به ولم يوحدوه ومغفرته هي التي دعت الناس إلى التوبة إليه، والإنابة إلى توحيده وعبادته.

(٤٢) وقوله تعالى في الآية الثالثة من هذا السياق (٤٢): ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ يخبر تعالى عن المشركين العرب بأنهم في يوم من الأيام كانوا يحلفون بالله جهد أيمانهم أي غاية اجتهادهم فيها لئن جاءهم رسول يرشدهم ويعلمهم لكانوا أهدى أي أعظم هداية من إحدى الطائفتين اليهود والنصارى. هكذا كانوا يحلفون ولما جاءهم نذير[4] أي الرسول وهو محمد ﷺ ما زادهم مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي بعدًا عن الدين ونفرة منه، واستكبارًا في الأرض، ومكر السيء الذي هو عمل الشرك والظلم والمعاصي.

(٤٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ[5] ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ إخبار منه تعالى بحقيقة يجهلها الناس وهي أن عاقبة المكر السيء تعود على الماكرين بأسوء العقاب وأشد العذاب. وقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي ينتظرون وهم مصرون على المكر السيء وهو الشرك ومحاربة الرسول ﷺ وأذية المؤمنين. إلا سنة الأولين وهي إهلاك الماكرين الظالمين ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ[6] ٱللَّهِ﴾ أيها الرسول ﷺ ﴿تَبۡدِيلٗاۖ﴾ بأن يتبدل العذاب بغيره بالرحمة مثلًا ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ بأن يتحول العذاب عن مستحقه إلى غير مستحقه إذًا فليعاجل قومك الوقت بالتوبة وإلا فهُم عرضة لأن تمضي فيهم سنة الله بعذابهم.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد.

٢ - بيان أن المشركين لا دليل لهم على صحة الشرك لا من عقل ولا من كتاب.

٣ - بيان قدرة الله ولطفه بعباده

---

(١) إن: نافية بمعنى «ما» بقرينة الاستثناء والغرور: الأباطيل تغرو وهي قول السادة للسفلة: إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم وتشفع لكم كما أن الشياطين توحي لهم بذلك من طريق الوسوسة.

(٢) لما بين لهم عجز آلهتهم وعدم قدرتها على خلق شيء في السماوات والأرض بين لهم أن خالقها وممسكها هو الله فلا يوجد شيء إلا بإيجاده ولا يبقى شيء إلا بإبقائه.

(٣) إن: نافية بمعنى ما أي: ما أمسكهما أحد سواه.

(٤) هذا كان منهم قبل البعثة النبوية فقد بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فلعنوا من كذب نبيه منهم ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ جل اسمه ﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ أي: نبي ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ يعني ممن كذب الرُسل من أهل الكتاب وكانوا يتمنون أن يكون منهم رسول فلما جاءهم ما تمنوه نفروا عنه ولم يؤمنوا به.

(٥) حاق به: أحاط والحوق: الإحاطة روي أن كعباً قال لابن عباس: إن أجد في التوراة: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها. فقال ابن عباس: فإني وجدت في القرآن ذلك قال: وأين؟ قال: اقرأ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ ومن أمثال العرب: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً وجملة: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ تذييل لما سبق وتحمل موعظة.

(٦) السنة: الطريقة والجمع سنن.

ورحمته بهم في إمساك السموات والأرض عن الزوال.

٤ - بيان كذب المشركين، ورجوعهم عما كانوا يتقاولونه بينهم من أنه لو أُرسل إليهم رسولاً لكانوا أهدى من اليهود أو النصارى.

٥ - تقرير حقيقة وهي أن المكر[(١)] السيء عائد على أهله لا على غيرهم وفي هذا يُرى أن ثلاثة على أهلها رواجع، وهي المكر السيء، والبغي، والنكث لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾. وقوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٤، ٤٥]

(٤٤) ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: أي وأهلكهم الله تعالى بتكذيبهم رسلهم. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾: أي ليسبقه ويفوته فلم يتمكن منه. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾: أي عليمًا بالأشياء كلها قديرًا عليها كلها.

(٤٥) ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾: أي من الذنوب والمعاصي. ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾: أي ظهر الأرض من دابة أي نسمة تدب على الأرض وهي كل ذي روح. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي يوم القيامة. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾: فيحاسبهم ويجزيهم بحسب كسبهم خيرًا كان أو شرًا.

معنى الآيتين:

(٤٤) لما هدد الله تعالى المشركين بإمضاء سنته فيهم وهي تعذيب وإهلاك المكذبين إذا أصروا على التكذيب ولم يتوبوا. قال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ أي المشركون المكذبون لرسولنا ﷺ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ شمالاً أو جنوبًا ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم صالح وقوم هود، إنها كانت دمارًا وخسارًا ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[(٢)] أي من هؤلاء المشركين اليوم قوة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ[(٣)] مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لم يكن ليعجز الله شيء فيفوت الله ويهرب منه ولا يقدر عليه بل إنه غالب لكل شيء وقاهر له وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ تقرير لقدرته وعجز كل شيء أمامه، فإن العليم القدير لا يعجزه شيء بالاختفاء والتستر، ولا بالمقاومة والهرب.

(٤٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[(٤)] وهي الآية الأخيرة من هذا السياق (٤٥) أي ولو كان الله يؤاخذ الناس بذنوبهم فكلُّ من أذنب ذنبًا انتقم منه فأهلكه ما ترك على ظهر الأرض من نسمة ذات روح تدب على وجه الأرض، ولكنه تعالى يؤخر الظالمين ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[(٥)] أي معين الوقت محدده إن كان في الدنيا ففي الدنيا، وإن كان يوم القيامة ففي القيامة. وقوله ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ[(٦)] فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ يخبر بأنه إذا جاء أجل الظالمين فإنه تعالى بصير بهم لا يخفى عليه منهم أحد فيهلكهم ولا يبقي منهم أحدًا لكامل علمه وعظيم قدرته، ألا فليتق الله الظالمون.

---

(١) المكر: إخفاء الأذىٰ وهو سيء لأنه غدر وخديعة.

(٢) الجملة في محل نصب حالية أي: كان عاقبتهم الاضمحلال وكانوا أشد قوة من هؤلاء فيكون استئصال هؤلاء أقرب.

(٣) أي: هبكم أنكم أقوى ممن كان قبلكم وأشد حيلة وتصرفاً في الحياة فإن الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وذلك لعلمه وقدرته، إذاً فلا مهرب لكم منه إذا أراد إهلاككم.

(٤) قال ابن مسعود: يريد جميع الحيوان مما دبّ ودرج قال قتادة: وقد فعل ذلك زمن نوح عليه السلام: قال ابن جرير: هنا الناس وحدهم وهو كذلك.

(٥) قال مقاتل: الأجل المسمى هو ما وعدهم في اللوح المحفوظ وقيل: هو يوم القيامة ولا منافاة بين القولين إذ يوم القيامة مكتوب في اللوح المحفوظ.

(٦) قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ هو كالجواب لمن قال: وكيف يهلك كل من في الأرض وفيهم الصالحون والمؤمنون؟ فقال: إنه كان بعباده بصيراً فقد ينجي من لا يستحق الهلاك ويهلك من يستحقه.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥)﴾

ترتيبها ٣٦ — سورة يس — آياتها ٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢)﴾

٤٤٠

هداية الآيتين:

١ - مشروعية السير في الأرض للعبرة لا للتنزه واللهو واللعب.

٢ - بيان أن الله لا يعجزه شيء وذلك لعلمه وقدرته وهي حال توجب الترهيب منه تعالى والإنابة إليه.

٣ - حرمة استعجال العذاب فإن لكل شيء أجلًا ووقتًا معينًا لا يتم قبله فلا معنى للاستعجال بحال.

❁ ❁ ❁

سورة يس[1]
مكية وآياتها
ثلاث وثمانون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ١٢]

(١) ﴿يس﴾: هذا أحد الحروف المقطعة يكتب هكذا يس، ويقرأ هكذا ياسِينْ والله أعلم بمراده به.

(٢) ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾: أي ذي الحكمة إذ وضع القرآن كل شيء في موضعه فهو لذلك حكيم ومحكم أيضا بعجيب النظم وبديع المعاني.

(٣) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: أي يا محمد من جملة الرسل الذين أرسلناهم إلى أقوامهم.

(٤) ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي طريق مستقيم الذي هو الإسلام.

(٥) ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾: أي القرآن[2] تنزيل العزيز في انتقامه ممن كفر به الرحيم بمن تاب إليه.

(٦) ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾: أي لم ينذر آباؤهم إذ لم يأتهم رسول من فترة طويلة. ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾: أي لا يدرون عاقبة ما هم فيه من الكفر والضلال، ولا يعرفون ما ينجيهم من ذلك وهو الإيمان وصالح الأعمال.

(٧) ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾: أي وجب عليهم العذاب فلذا هم لا يؤمنون.

(٨) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾: أي جعلنا أيديهم مشدودة إلى أعناقهم بالأغلال. ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾: أي أيديهم مجموعة إلى أذقانهم، والأذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين. ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾: أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون خفضها، فلذا هم لا يكسبون بأيديهم خيرًا، ولا يذعنون برؤوسهم إلى حق.

(٩) ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: أي جعلنا على أبصارهم غشاوة فهم لذلك لا يبصرون.

(١٠) ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي استوى إنذارك لهم وعدمه في عدم إيمانهم.

(١١) ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾: أي القرآن. ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾: أي بالجنة دار النعيم والسلام.

(١٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾: أي نحن ربّ العزة نحيي الموتى للبعث والجزاء. ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[3]: أي ما عملوه من خير

---

(١) ورد في فضل هذه السورة حديث أبي داود عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ أنه قال: **«اقرؤوا يسّ على موتاكم»** وورد عن أبي الدرداء أو أم الدرداء عنه ﷺ قال: **«ما من ميت يقرأ عليه سورة يسّ إلا هون الله عليه»**، وأخرج الدارمي عن أبي هريرة عنه ﷺ: **«من قرأ سورة يسّ في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له في تلك الليلة»** وخرجه الحافظ أبو نعيم أيضاً.

(٢) هذا على قراءة أهل المدينة وهي رفع تنزيل. أما على قراءة النصب فالتقدير: اقرأ تنزيل العزيز الرحيم أو امدح تنزيل.

(٣) وهم بعض فقال: هذه الآية نزلت بالمدينة في بني سلمة والصحيح أن السورة كلها مكية وليس فيها مدني وإنما قرأ ﷺ هذه الآية محتجاً بها على بني سلمة لما أرادوا النزول قرب المسجد فقال لهم: **«بني سلمة: دياركم تكتب آثاركم»**. وقرأ هذه الآية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

وشر لنحاسبهم، وآثارهم أي خطاهم إلى المساجد وما استنَّ به أحد من بعدهم. ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾: أي في اللوح المحفوظ.

معنى الآيات:

(١) ﴿يسٓ﴾ الله أعلم[(١)] بمراده به.

(٢) ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ[(٢)] ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي المحكم نظمًا ومعنىً وذي الحكمة الذي يضع كل شيء في موضعه أقسم تعالى بالقرآن الحكيم على أن محمد ﷺ نبيًا رسولاً فقال:

(٢) - (٤) ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ الذي هو الإسلام.

(٥) وقوله: ﴿تَنزِيلَ[(٣)] ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي هذا القرآن هو تنزيل الله ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ في الانتقام ممن كفر به وكذب رسوله ﷺ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بأوليائه وصالحي عباده.

(٦) وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ أي أرسلناك وأنزلنا إليك الكتاب لأجل أن تنذر قومًا ما أنذر آباؤهم من فترة طويلة وهم مشركو العرب إذ لم يأتهم رسول من بعد إسماعيل عليه السلام ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أي لا يدرون عاقبة ما هم عليه من الشرك والشر والفساد، ومعنى تنذرهم تخوفهم عذاب الله تعالى المترتب على الشرك والمعاصي.

(٧) وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ أي أكثر خصوم النبي ﷺ من كفار قريش كأبي جهل حق عليهم القول الذي هو قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ فوجب لهم العذاب فلذا هم لا يؤمنون إذ لو آمنوا لما عذبوا، وعدم إيمانهم لم يكن مفروضًا عليهم وإنما هو باختيارهم وحرية إرادتم إذ لو كان جبرًا لما استحقوا العذاب عليه.

(٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ﴾ أي أيديهم ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ مشدودة بالأغلال ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون خفضها، وهذا تمثيل لحالهم في عدم مدّ أيديهم للإنفاق في الخير، وعدم إذعان رؤوسهم لقبول الحق[(٤)].

(٩) وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا﴾ وهذا تمثيل آخر لحالهم وهي أنهم زيّنت لهم الحياة الدنيا فأصبحوا لا يرون غيرها فهو سد أمامهم ومانع لهم من الإيمان وترك الشرك والمعاصي، وصورت لهم الآخرة بصورة باطلة مستحيلة الوقوع فكان ذلك سدًا من خلفهم فهم لذلك لا يتوبون ولا يذكرون لعدم خوفهم من عذاب الآخرة. وقوله تعالى: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾ هذا مبالغة في إضلالهم فجعل على أعينهم غشاوة من كره الرسول ﷺ وبغض ما جاء به فهم لذلك عمي لا يبصرون.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ[(٥)] أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ هذا إخبار منه تعالى بأن هذه المجموعة من خصوم الرسول ﷺ من أكابر مجرمي مكة استوى فيهم الإنذار النبويّ وعدمه فهم لا يؤمنون فكأن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ إن هؤلاء العتاة من خصومك إنذارك لهم لا ينفعهم فأنذر الذين ينفعهم إنذارك ودع من سواهم وهو قوله تعالى:

(١١) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي القرآن ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي خافه فلم يعصه وهو لا يراه، كما لم يعصه عندما يخلو بنفسه ولا يراه غيره فمثل هذا بشره بمغفرة منا لذنوبه وأجر كريم على صالح عمله وهو الجنة دار المتقين.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ

---

(١) كره مالك رحمه الله تعالى التسمية بـ: يسّ وهو كذلك لعدم علمنا بالمراد منه وليس هو باسمٍ للنبي ﷺ إذ ذكر أسماءه الخمسة ولم يذكر بينها يسّ ولا حجة في قول الرافضي:

يا نفس لا تمحضي بالود جاهدة — على المودة إلا آل ياسين

(٢) والقرآن: الواو للقسم والقرآن مقسم به وجواب القسم: إنك لمن المرسلين، وعلى صراط مستقيم: خبر ثان لإن.

(٣) قرأ نافع والجمهور: ﴿تنزيل﴾ بالرفع على أنه خبر محذوف المبتدأ أي: هو تنزيل والضمير عائد على القرآن المقسم به وقرأ حفص: ﴿تَنزِيلَ﴾ بالنصب على المصدرية أو على تقدير: أعنى أو أخص فيكون مدحاً وإشادة بشأنه وهو أليق.

(٤) وجائز أن يكون هذا بيان لحالهم في النار يوم القيامة ولكن ما في التفسير أولى وأحق والسياق يؤكده.

(٥) أنذرتهم أصل الهمزة الاستفهام ولكنها هنا للتسوية ممتحضة لها.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي للبعث والجزاء ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ أي أولئك الأموات أيام حياتهم من خير وشر، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي ونكتب آثارهم وهو ما استُنَّ[1] به من سننهم الحسنة أو السيئة. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ أي من أعمال العبادة وغيرها ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وسنجزي كلاً بما عمل. وفي هذا الخطاب تسلية لرسول الله ﷺ.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية وتأكيد رسالته ﷺ.

٢ - بيان الحكمة من إرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتاب الكريم.

٣ - بيان أن الرسول محمدًا ﷺ بعث على فترة من الرسل.

٤ - بيان أن حب الدنيا والإقبال عليها والإعراض عن الآخرة وعدم الالتفات إليها يضعان الإنسان بين حاجزين لا يستطيع تجاوزهما والتخلص منهما.

٥ - بيان أن الذنوب تقيد صاحبها وتحول بينه وبين فعل الخير أو قبول الحق.

٦ - بيان أن من سنّ سنّة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده يجزى بها كما يجزى على عمله الذي باشره بيده.

٧ - تقرير عقيدة القضاء والقدر وأن كل شيء في كتاب المقادير المعبر عنه بالإمام. ومعنى المبين أي أن ما كتب فيه بيّن واضح لا يجهل منه شيء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣ ـ ١٩]

﴿١٣﴾ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾: أي واجعل لهم مثلاً. ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾: أي أنطاكية عاصمة بلاد يقال لها العواصم بأرض الروم. ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: أي رسل عيسى عليه السلام.

﴿١٤﴾ ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾: أي قوينا أمر الرسولين ودعوتهما برسول ثالث وهو شمعون الصفي والله أعلم. ثم جاء حبيب وهو الرجل الذي يسمى حبيب بن النجار.

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝﴾: أي التبليغ الظاهر البين بالأدلة الواضحة وهي إبراء الأكمه والأبرص والمريض وإحياء الموتى.

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾: أي تشاءمنا بكم وذلك لانقطاع المطر عنا بسببكم.

﴿١٩﴾ ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾: أي شؤمكم معكم وهو كفركم بربكم. ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾: أي وعظتم وخوفتم تطيرتم وهذا توبيخ لهم. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: أي متجاوزون للحد في الشرك والكفر.

معنى الآيات:

﴿١٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ[2] لَهُم مَّثَلًا﴾ أي واضرب أيها الرسول لقومك المصرين على الشرك والتكذيب لك ولما جئتهم به من الهدى ودين الحق ﴿مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ فإن حالهم في التكذيب والغُلوّ في الكفر والعناد كحال هؤلاء. إذ جاءها المرسلون وهم رسل عيسى[3] عليه السلام إذ بعث برسولين ثم لما آذوهما بالضرب والسجن بعث بشمعون الصَّفي رأس الحواريين تعزيزًا لموقفهما كما قال تعالى:

﴿١٤﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[4]، فقالوا لأهل أنطاكية[5]: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ من قبل عيسى عليه السلام ندعوكم إلى عبادة الرحمٰن وترك عبادة الأوثان.

﴿١٥﴾ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝﴾ أي ما أنتم إلا تكذبون

---

(١) شاهده حديث مسلم عن النبي ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**» وكذا حديثه الآخر: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده**».

(٢) اضرب أي: اجعل والمثل للتشبيه والمعنى: اجعل أصحاب القرية والمرسلين إليهم شبهاً لأهل مكة وإرسالك إليهم.

(٣) كان هذا بعد رفع عيسى إلا أنه كان بإذن الله تعالى فلذا قال تعالى: ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾.

(٤) قرىء: ﴿عززنا﴾ بالتخفيف والمعنى واحد.

(٥) كان أهل أنطاكيا من اليهود ومن اليونان.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

٤٤١

علينا في دعواكم أنكم رسل إلينا فقال الرسل: ﴿١٦﴾ ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فواجهوا شك القوم فيهم بما يدفع الشك من القسم وتأكيد الخبر بالجملة الاسمية ولام التوكيد فقالوا: ﴿١٦﴾ ـ ﴿١٧﴾ ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝﴾ أي البيّن الواضح فإن قبلتم ما دعوناكم إليه فذلك حظكم من الخير والنجاة وإن أبيتم فذلك حظكم من الهلاك والخسار.

﴿١٨﴾ ورد أهل أنطاكية على الرسل قائلين: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشاءمنا[1] بكم حيث انقطع عنا المطر بسببكم[2] فردّ عليهم المرسلون بقولهم:

﴿١٩﴾ ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي شؤمكم في كفركم وتكذيبكم، ولذا حبس الله المطر عليكم. ثم قالوا لهم موبخين لهم: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾[3] أي وعظتم وخُوِّفتم بالله لعلكم تتقون تطيّرتم. بل أنتم أيها القوم ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ أي متجاوزون الحد في الكفر والشرك والعدوان.

هداية الآيات:

١ - استحسان ضرب المثل وهو تصوير حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما هنا في قصة حبيب بن النجار.

٢ - تشابه حال الكفار في التكذيب والإصرار في كل زمان ومكان.

٣ - لجوء أهل الكفر بعد إقامة الحجة عليهم إلى التهديد والوعيد.

٤ - حرمة التطير والتشاؤم في الإسلام.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ ـ ٢٧]

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾: أي جاء حبيب بن النجار صاحب يس[4].

﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي من أقصا دور المدينة وهي أنطاكيا العاصمة.

﴿يَسْعَىٰ﴾: أي يشتد مسرعًا لما بلغه أن أهل البلد عزموا على قتل رسل عيسى الثلاثة. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: أي رسل عيسى عليه السلام.

﴿٢١﴾ ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾: اتبعوا من لا يطلبكم أجرًا على إبلاغ دعوة الحق. ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾: أي الرسل إنهم على هداية من ربهم ما هم بكذابين.

﴿٢٢﴾ ﴿فَطَرَنِى﴾: أي خلقني.

﴿٢٣﴾ ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾: أي بمرض ونحوه. ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾: أي مما أراد الله لي من ضر في جسمي

---

(١) وجائز أن يكون قد حدث بينهم تشاجر وتشاحن نتيجة قبول الدعوة من أفراد منهم فحصل بينهم شجار وخلاف لم يألفوه فقالوا ما قالوا متشائمين، وفي الحديث: **«لا عدوى ولا طيرة وإنما الطيرة على من تطير»**.

(٢) لئن لم تنتهوا من دعواكم بأنكم رسلٌ إلينا بترك آلهتنا لنرجمنكم بالحجارة وليمسنكم منا عذاب أليم.

(٣) الاستفهام إنكاري وبل للإضراب الانتقالي. أضرب عن دعواهم لبطلانها وانتقل بهم إلى الحقيقة وهي إسرافهم في الشرك والشر والفساد.

(٤) ما جاء في التفسير من كون الرسل هم رسل عيسى عليه السلام، وأن القرية هي أنطاكية هو ما عليه أكثر المفسرين مثل قتادة وابن جرير وغيرهما، إلاّ أن ابن كثير رحمه الله تعالى رجّح أن الرسل رسل من الله تعالى، وأن القرية ليست أنطاكية، وحجته فيما رآه أن الله تعالى لم يهلك أمّة بعد نزول التوراة، وهذه القرية أهلك أهلها. هذه غفلة منه رحمه الله تعالى إذ أهلك الله أهل قرية كانت حاضرة البحر، ومسخ أهلها قردةً وخنازير على عهد داود بعد نزول التوراة بقرن وإنما رفع هلاك العامّة بعد بعثة النبي ﷺ محمد نبي الرحمة ﷺ.

وغيره. ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾: أي إني إذا اتخذت من دون الله آلهة أعبدها لفي ضلال مبين.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾: أي صارح قومه بهذا القول وقتلوه.

﴿٢٦﴾ ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾: قالت له الملائكة عند الموت ادخل الجنة.

﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾: قال هذا لما شاهد مقعده في الجنة.

﴿٢٧﴾ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾: وهو الإيمان والتوحيد والصبر على ذلك.

معنى الآيات:

ما زال السياق في مَثَلِ أصحاب القرية إنه بعد أن تعزز موقف الرسل الثلاثة وأعطاهم الله من الكرامات ما أبرؤوا به المرضى بل وأحيوا الموتى بإذن الله وأصبح لهم أتباع مؤمنون غضب رؤساء البلاد وأرادوا أن يبطشوا بالرسل، وبلغ ذلك حبيب بن النجار وكان شيخًا مؤمنًا موحدًا يسكن في طرف المدينة الأقصى فجاء يشتد سعيًا على قدميه فأمر ونهى وصارح القوم بإيمانه وتوحيده فقتلوه رفسًا بأرجلهم.

﴿٢٠﴾ قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ ـ أنطاكية ـ ﴿رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾[1] أي يمشي بسرعة لما بلغه أن أهل البلاد قد عزموا على قتل الرسل الثلاثة وما إن وصل إلى الجماهير الهائجة حتى قال بأعلى صوته: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[2] وسأل الرسل هل طلبتم على إبلاغكم دعوة عيسى أجرًا قالوا لا.

﴿٢١﴾ فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ فاتبعوهم تهتدوا بهدايتهم. وقال له القوم: وأنت تعبد الله مثلهم ولا تعبد آلهتنا؟ فقال:

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي وأي شيء يجعلني لا أعبده وهو خلقني ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي بعد موتكم فيحاسبكم ويجزيكم بعملكم.

﴿٢٣﴾ ثم اغتنم الفرصة ليدعو إلى ربّه فقال مستفهمًا: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي أصنامًا وأوثانًا لا تسمع ولا تبصر ﴿إِن يُرِدۡنِ[3] ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ وإن قل ولا ينقذون مما أراده بي من ضر ونحوه.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾[4] أي إني إذا أنا عبدت هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر لفي ضلال مبين واضح لا يحتاج إلى دليل عليه.

﴿٢٥﴾ ورفع صوته مبلغًا ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ أي بخالقكم ورازقكم ومالك أمركم دون هذه الأصنام والأوثان ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ وهنا وثبوا عليه فقتلوه.

﴿٢٦﴾ ـ ﴿٢٧﴾ ولما قيل له ادخل الجنة ورأى نعيمها ذكر قومه ناصحًا لهم فقال: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ[5] لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ[6]﴾ أي يعلمون بما غفر له وجعله من المكرمين وهو الإيمان والتوحيد حتى يؤمنوا ويوحدوا فنصح قومه حيًا وميتًا وهذا شأن المسلم الحسن الإسلام والمؤمن الصادق الإيمان ينصح ولا يغش ويرشد ولا يضل ومهما قالوا له وفيه ومهما عاملوه به من شدة وقسوة حتى الموت قتلاً.

---

(١) هذا الرجل هو حبيب بن النجار صاحب ياسين كما في الحديث والرجل كان مصاباً بالجذام سنين وشفاه الله تعالى على يد رسل عيسى وبذلك آمن وأسلم وبقي في أرض أنطاكيا يعبد الله تعالى حتى بلغه هم أهل المدينة أنطاكيا بالبطش بالرسل جاء مسرعاً لينقذ دعوتهم ويدعو إلى الله تعالى بما أخبر به تعالى في هذه الآيات.

(٢) المراد بالمرسلين رسل عيسى الذين أرسلهم بالوصية إليهم إلى أنطاكيا من بينهم شمعون الذي عزز به الرسولين قبله.

(٣) ﴿إِن يُرِدۡنِ﴾ و ﴿لَّا تُغۡنِ﴾، و ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾: حذفت منها كلها ياء المتكلم مراعاة للتخفيف ولظهورها وعدم اللبس مع حذفها، وجملة: ﴿إِن يُرِدۡنِ﴾ في محل نصب نعت.

(٤) ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ الجملة جواب للاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي: إن اتخذت من دون الله آلهة إني في ضلال مبين.

(٥) ﴿بِمَا غَفَرَ﴾: ما مصدرية تسبك بمصدر نحو بمغفرة ربي لي.

(٦) ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾: الملائكة والأنبياء والشهداء والصالحين.

۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

٤٤٢

هداية الآيات:

١ - بيان كرامة حبيب بن النجار الذي نصح قومه حيًا وميتًا.

٢ - بيان ما يلاقي دعاة التوحيد والدين الحق في كل زمان ومكان من شدائد وأهوال.

٣ - وجوب إبلاغ دعوة الحق والتنديد بالشرك ومهما كان العذاب قاسيًا.

٤ - بشرى المؤمن عند الموت لا سيما الشهيد فإنه يرى الجنة رأي العين.

الجزء الثالث والعشرون

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨ - ٣٢]

﴿٢٨﴾ ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: أي على قوم حبيب بن النجار وهم أهل أنطاكية. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: أي من بعد موته. ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي من الملائكة لإهلاكهم. ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾: أي الملائكة لإهلاك الأمم التي استوجبت الهلاك.

﴿٢٩﴾ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾: أي ما هي إلا صيحة واحدة هي صيحة جبريل عليه السلام. ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾: أي ساكتون لا حراك لهم ميتون.

﴿٣٠﴾ ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾: أي يا حسرة العباد هذا أوان حضورك فاحضري وهذا غاية التألم. والعباد هم المكذبون للرسل الكافرون بتوحيد الله. ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: هذا سبب التحسُّر عليهم.

﴿٣١﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾: أي ألم ير أهل مكة المكذبون للرسول ﷺ.

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۞﴾: أي وإن كل الخلائق إلا لدينا محضرون يوم القيامة لحسابهم ومجازاتهم.

معنى الآيات:

﴿٢٨﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي قوم[1] حبيب بن النجار ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد موته ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للانتقام من قومه الذين قتلوه لأنه أنكر عليهم الشرك ودعاهم إلى التوحيد وما كُنا منزلين إذ لا حاجة تدعو إلى ذلك.

﴿٢٩﴾ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ من[2] جبريل عليه السلام ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۞﴾ أي هلكى ساكنون ميتون لا حراك لهم ولا حياة فيهم.

﴿٣٠﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أي يا حسرة العباد[3] على أنفسهم احضري أيتها الحسرة[4] هذا أوان حضورك ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ[5] يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا موجب الحسرة ومقتضيها وهو استهزاؤهم بالرسل.

﴿٣١﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي أهل مكة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي ألم يعلموا القرون

(١) هذا تابع لقصة حبيب بن النجار صاحب ياسين والجملة معطوفة على جملة ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾.

(٢) كون جبريل هو الذي صاح فيهم وارد عند أهل التفسير فإن ثبت عن النبي ﷺ وجب الإيمان به وإلا فلا يجب ولا يلزم الإيمان به إذ جائز أن يكون ملكاً آخر غير جبريل.

(٣) العباد جمع عبد: من عباد الله تعالى والعبيد جمع عبد: مملوك للناس.

(٤) الحسرة: شدة النَّدم مشوباً بتلهف على نفع فائت.

(٥) الاستثناء مفرغ من أحوال عامة من الضمير في ﴿يَأْتِيهِم﴾ أي: لا يأتيهم رسول في حال من أحوالهم إلا استهزؤوا به.

الكثيرة التي أهلكناها قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب مدين، ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فيكون هذا هاديًا لهم واعظًا فيؤمنوا ويوحدوا فينجوا من العذاب ويسعدوا.
(٣٢) وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ[1]﴾ أي من الأمم الهالكة وغيرها من سائر العباد ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي إلا لدينا محضرون لفصل القضاء يوم القيامة فينجو المؤمنون ويهلك الكافرون.

هداية الآيات:

١ - مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك أهل أنطاكية بصيحة واحدة.
٢ - إبداء التحسر على العباد من أنفسهم إذ هم الظالمون المكذبون فالحسرة منهم وعليهم.
٣- حرمة الاستهزاء بما هو من حرمات الله تعالى التي يجب تعظيمها.
٤ - طلب العبرة من أخبار الماضين وأحوالهم، والعاقل من اعتبر بغيره.
٥ - تقرير المعاد والحساب والجزاء.

شرح الكلمات:
[الآية: ٣٣ - ٣٦]

(٣٣) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾: أي على صحة البعث ووجوده لا محالة. ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾: بإنزال المطر عليها فأصبحت حيّة بالنبات والزروع.
(٣٤) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾: أي بساتين.
(٣٥) ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾: أي لم تصنعه أيديهم وإنما هو صنع الله وخلقه. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾: أي أفيرون هذه النعم ولا يشكرونها إنه موقف مخز منهم.
(٣٦) ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾: أي تنزيهًا وتقديسًا لله الذي خلق الأصناف كلها. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: أي الذكور والإناث. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾: من المخلوقات كالتي في السموات وتحت الأرضين.

معنى الآيات:

(٣٣) لما تقدم في الآيات قبل هذه تقرير عقيدة البعث والجزاء في قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ذكر هنا الدليل العقلي على صحة إمكان البعث فقال: (٣٣) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ[2]﴾ أي على صحة البعث الأرض الميتة التي أصابها المحل فلا نبات فيها ولا زرع أحييناها بالمطر فأنبتت من كل زوج بهيج فهذه آية أي علامة كبرى وحجة واضحة على إمكان البعث إذ الخليقة تموت ولم يبق إلا الله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝﴾ ثم ينزل الله تعالى ماء من تحت العرش فتحيا البشرية على طريقة الأرض الميتة ينزل عليها المطر فتحيا بالنبات. وهذه المرة تحيا بالبشر إذ يُركب خلقهم من عظم يقال له عجب الذنب هو في بطن الأرض لا يتحلل ومنه يركب الخلق كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في الصحيح. هذا معنى قوله تعالى في الاستدلال على البعث: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أي حب البُر فمنه أي من ذلك يأكلون الخبز.
(٣٤) وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض الميتة جنات أي بساتين من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها من العيون أي عيون الماء، هذه مظاهر القدرة والعلم الإلهي وكلها تشهد بصحة البعث وإمكانه وأن الله تعالى قادر عليه وعلى مثله.
(٣٥) وقوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ أي من ثمر المذكور[3] من النخل والعنب وغيره. وقوله: ﴿وَمَا[4] عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لم تخلقه ولم تكونه أيديهم بل يد الله هي التي

---

(١) قرأ نافع: ﴿وإن كل لما﴾ بتخفيف الميم وشددها حفص فعلى تخفيفها تكون إن مخففة من الثقيلة واللام هي اللام الفارقة وما: مزيدة للتوكيد. وإن قدرت ما نافية وجب تشديد لما إذ تكون بمثابة الاستثناء أي: وما كلهم إلا محضرون لدينا.

(٢) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ مبتدأ والخبر: ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾. قرأ نافع: ﴿الميتة﴾ بتشديد الياء وسكنها حفص.

(٣) الثمر: بمنزلة الحب للسنبل وهو ما يغله النخل والعنب، وقرأه الجمهور بفتحتين. وقرأه خلافهم بضمتين.

(٤) جائز أن يكون ما نافية أي: ولم تعمله أيديهم وإنما الله جل جلاله هو الذي أنبته وسخره لهم وجائز أن تكون ما موصولة أي: والذي عملته أيديهم من أصناف الحلاوات والأطعمة وما يتخذونه كالخبز والجبن وما إلى ذلك وما في التفسير أرجح وأدل على نعم الله وقدرته وقرأ الجمهور: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ بهاء الضمير وقرأ بعض: ﴿عملت﴾ بدونه.

خلقته أفلا يشكرون، يوبخهم على عدم شكره تعالى على ما أنعم به عليهم من نعمة الغذاء.

(٣٦) وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ[1] كُلَّهَا﴾ أي تنزيهًا وتقديسًا لله الذي خلق الأزواج كلها ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقدس تعالى نفسه وينزهها عن العجز عن إعادة الخلق ويُذكر بآيات القدرة والعلم وهي نظام الزوجية إذ كل المخلوقات أزواج أي أصناف من ذكر وأنثى فالنباتات على سائر اختلافها ذكر وأنثى والناس كذلك وما هو غائب عنا في السموات وفي بطن الأرض أزواج كذلك ولا وِتْرَ أي لا فرد إلا الله تعالى فقد تنزه عن صفات الخلائق، ومنها كان للحياة الدنيا نوع آخر هو لها كالزوج وهي الحياة الآخرة فهذا دليل عقلي من أقوى الأدلة على الحياة الثانية.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء التي هي القوة الدافعة للإنسان على فعل الخيرات وترك الشرور والمنكرات.

٢ - دليل نظام الزوجيّة وهو آية على أن القرآن وحي الله وكلامه إذ قرر القرآن نظام الزوجية قبل معرفة الناس لهذا النظام في الذرة وغيرها في القرن العشرين.

٣ - وجوب شكر الله تعالى بالإيمان وبطاعته وطاعة رسوله ﷺ على نعمه ومنها نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد أي بالغذاء والماء والهواء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٧ ـ ٤٠]

(٣٧) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾: وآية لهم على إمكان البعث الليل نسلخ منه النهار أي نزيل النهار عن الليل فإذا هم مظلمون بالليل.

(٣٨) ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾: أي مكان لها لا تتجاوزه. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾: أي جريها في فلكها تقدير أي تقنين العزيز في ملكه العليم بكل خلقه.

(٣٩) ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾: وآية أخرى هي تقدير منازل القمر التي هي ثمان وعشرون منزلة. ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾: أي حتى رجع كعود العذق الذي أصله في النخلة وآخره في الشماريخ وهو أصفر دقيق مقوس كالقمر لما يكون في آخر الشهر.

(٤٠) ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾: أي لا يصح للشمس ولا يسهل عليها أن تدرك القمر فيجتمعان في الليل. ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾: أي بأن يأتي قبل انقضائه. ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: أي كل من الشمس والقمر والنجوم السيارة في فلك يسبحون أي يسيرون والفلك دائرة مستديرة كفلكة المغزل وهو مجرى النيرين والكواكب السيارة.

معنى الآيات:

(٣٧) ما زال السياق في البرهنة على إمكان البعث ووقوعه لا محالة فقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ﴾ أي علامة لهم أخرى على قدرة الله على البعث ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ[2] مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي نفصل عنه النهار بمعنى نزيله عنه فإذا هم في الليل مظلمون أي داخلون في الظلام فهذه آية على قدرة الله على البعث.

(٣٨) وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ[3] لَّهَا﴾ أي تجري في فلكها منه تبتدىء سيرها وإليه ينتهي سيرها وذلك مستقرها، ولها مستقر آخر وهو نهاية الحياة الدنيا، وإنها لتسجد كل يوم تحت[4] العرش وتستأذن باستئناف دورانها فيؤذن لها

---

(١) الأزواج: جمع زوج ويطلق على كل من الذكر والأنثى، وعلى الأصناف المختلفة فإن أريد بالأزواج الذكر والأنثى فمن: ابتدائية في المواقع الثلاثة وإن أريد بها الأصناف فمن: بيانية في المواطن الثلاثة: ولقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مقابل محذوف تقديره: وما يعلمون وهذا من دلالة الإشارة.

(٢) السلخ: الكشط والنزع كسلخ الشاة من جلدها فيبقى اللحم أبيض كذلك يسلخ تعالى النهار من الليل فيبقى الناس في ظلام حالك.

(٣) جائز أن يكون في الكلام حذف أي: وآية لهم الشمس تجري وجائز أن يكون الشمس مبتدأ وتجري الجملة خبر أي: آية أخرى.

(٤) ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾: جائز أن يكون اللام بمعنى إلى وجائز أن يكون لام الصيرورة والمآل أي: يصير أمرها فتؤول إلى مستقرها، والمستقر مكان الاستقرار روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ سأل أبا ذر حين غربت الشمس: **«أتدري أين تذهب؟»** قال:

كما صح بذلك الخبر عن سيد البشر محمد ﷺ وكونها تحت العرش فلا غرابة فيه فالكون كله تحت العرش وكونها تستأذن فيؤذن لها لا غرابة فيه إذا كانت النملة تدبر أمر حياتها بإذن ربها وتقول وتفكر وتعمل فالشمس أحرى بذلك وأنها تنطق بنطقها الخاص وتستأذن ويؤذن لها. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي الغالب على مراده العليم بكل خلقه، وتقدير سير الشمس في فلكها بالثانية وتقطع فيه ملايين الأميال أمر عجب ونظام سيرها طوال الحياة فلا يختل بدقيقة ولا يرتفع مستواها شبرًا ولا ينخفض شبرًا إذ يترتب على ذلك خراب العالم الأرضي، كل ذلك لا يقدر عليه إلا الله، أليس المبدع هذا الإبداع في الخلق والتدبير قادر على إحياء من خلق وأمات؟ بلى، بلى إن الله على كل شيء قدير.

(٣٩) وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ[1] مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝﴾ هذه آية أخرى على إمكان البعث وحتميته والقمر كوكب منير يدور حول الأرض يتنقل في منازله الثمانية والعشرين منزلة بدقة فائقة وحساب دقيق ليعرف بذلك سكان الأرض عدد السنين والحساب إذ لولاه لما عرف يوم ولا أسبوع ولا شهر ولا سنة ولا قرن. فالقمر يبدأ هلالاً صغيرًا ويأخذ في الظهور فيكبر بظهوره شيئًا فشيئًا حتى يصبح في نصف الشهر بدرًا كاملاً، ثم يأخذ في الأفول والاضمحلال بنظام عجب حتى يصبح في آخر الشهر كالعرجون القديم أي كعود العرجون أصفر دقيق مقوس كل ذلك لفائدة الإنسان الذي يعيش على سطح هذه الأرض، أليس هذا آية كبرى على قدرة الله العزيز العليم على إعادة الحياة لحكمة الحساب والجزاء؟ بلى إنها لآية كبرى، فقوله:

(٤٠) ﴿لَا ٱلشَّمْسُ[2] يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أي لا يسهل على الشمس ولا يصح منها أن تدرك القمر فيذهب نوره بل لكل سيره فلا يلتقيان إلا نادرًا في جزء معين من الأفق فيحصل خسوف القمر وكسوف الشمس. وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ بل كل من الليل والنهار يسير في خط مرسوم لا يتعداه فلذا لا يسبق الليل النهار ولا النهار الليل فلا يختلطان إلا بدخول جزء من هذا في هذا وجزء من ذاك في ذا وهو معنى ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3] أي كل واحد من الشمس والقمر والكواكب السيارة في فلك يسبحون فلذا لا يقع فيها خلط ولا ارتطام[4] بعضها ببعض إلى نهاية الحياة فيقع ذلك ويخرب الكون.

هداية الآيات:

١ - إقامة الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على إمكان البعث ووقوعه حتمًا.

٢ - ذكر القرآن لأمور الفلك التي لم يعرف عنها الناس اليوم إلا جزء يسير آية عظمى على أنه وحي الله وأن من أوحي إليه هو رسول الله قطعًا ﷺ.

٣ - ما ذكره القرآن عن الكون العلوي من الوضوح بحيث يعرفه الفلاح والراعي كالعالم المتبحر والأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب

= قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تستأذن فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع في مغربها فذلك قوله تعالى:** ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝﴾».

(١) جائز أن يكون: قدرنا له منازل أو قدرناه ذا منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة بها بمنزل وهي: السرطان، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهة، الخراتان، الصرفة، العواء، السماك، الغفر، الزبانيان، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، الفرع المقدم، الفرع المؤخر، بطين الحوت. فإذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها.

(٢) هذا لأن سير القمر سريع وسير الشمس دونه فلا تدركه.

(٣) لم يقل: تسبح لأنه وصفها بوصف العقلاء يسبحون، أي: يجرون وجيء بضمير الجمع وهما اثنان: الشمس والقمر لا غير لإفادة تعميم هذا الحكم فيشمل الكواكب أيضاً.

(٤) هذا لما بَينها من أبعاد لا يقادر قدرها ولا يعرف مداها إلا الله خالقها فلذا لا يدرك بعضها بعضاً لشدة الأبعاد بين مداريها.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

٤٤٣

وذلك لتقوم الحجة على الناس إن هم لم يؤمنوا بالله ولم يوحدوه في عبادته ويخلصوا له في طاعته وطاعة رسوله ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ ـ ٤٦]

﴿٤١﴾ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾: أي وعلامة لهم على قدرتنا على البعث. ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أي ذريّات قوم نوح الذين أهلكناهم بالطوفان. نجينا ذريّتهم لأنهم مؤمنون موحدون وأغرقنا آباءهم لأنهم مشركون. ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: أي في سفينة نوح المملوءة بالأزواج من كل صنف.

﴿٤٢﴾ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: أي من مثل فلك نوح ما يركبون.

﴿٤٣﴾ ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾: أي مغيث ينجيهم فيكف صراخهم.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي وتمتيعًا لهم بالطعام والشراب إلى نهاية آجالهم.

﴿٤٥﴾ ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾: أي من عذاب الدنيا أي بالإيمان والاستقامة. ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾: أي من عذاب الآخرة إذا أصررتم على الكفر والتكذيب.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾: أي وما تأتيهم من آية أو من حجة من حجج القرآن وبيّنة من بيناته الدالة على توحيد الله وصدق الرسول ﷺ إلا كانوا عنها معرضين غير ملتفتين إليها ولا مبالين بها.

معنى الآيات:

﴿٤١﴾ ما زال السياق في عرض الآيات الكونيّة للدلالة على البعث والتوحيد والنبوّة فقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ أي أخرى غير ما سبق ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ[1] فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي حملنا ذريّة قوم نوح المؤمنين فأنجيناهم بإيمانهم وتوحيدهم وأغرقنا المشركين فهي آية واضحة عن رضا الله تعالى عن المؤمنين الموحدين وسخطه على الكافرين المشركين المكذبين إن في هذا الإنجاء للموحدين والإغراق للمشركين آية وعبرة لو كان مشركو قريش في مكة يفقهون.

﴿٤٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝﴾ وهذه آية أخرى أيضًا وهي أن الله أنجى الموحدين في فلك لم يسبق له مثيل ثم خلق لهم مثله ما يركبون إلى يوم القيامة ولو شاء عدم ذلك لما كان لهم فلك إلى يوم القيامة وآية أخرى:

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ وهي قدرته تعالى على إغراق ركاب السفن الكافرين وإن فعلنا لم يجدوا صارخًا[2] ولا مغيثًا يغيثهم وينجيهم من الغرق.

﴿٤٤﴾ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾[3] اللهم إلا رحمتنا فإنها تنالهم فتنجيهم ليتمتعوا في حياتهم بما كانوا يتمتعون به إلى حين حضور آجالهم المحدودة لهم.

﴿٤٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ

(١) قرأ نافع: ﴿ذرياتهم﴾ جمع ذرية وقرأ حفص بالإفراد: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ اسم جمع فهو بمعنى ذرياتهم. لفظ الذرية وإن كان أساساً يطلق على الأولاد فإنه أطلق هنا على الآباء والأجداد إذ الكل هم ذرية لآدم عليه السلام و ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ الموقر بما حمل فيه من سائر المخلوقات.

(٢) الصريخ: هو الصارخ وهو المستغيث المستنجد تقول العرب: جاءهم الصريخ أي: المنكوب المستنجد لينقذوه وهو فعيل بمعنى فاعل.

(٣) الاستثناء منقطع فهو بمعنى لكن لأن الرحمة ليست من جنس المستثنى منه وهو الصريخ.

تُرْحَمُونَ﴾[1] أي وإذا قيل لهؤلاء المكذبين بآيات الله المعرضين عن دينه المشركين به اتقوا ما بين أيديكم من العذاب حيث موجبه قائم وهو كفركم وعنادكم، وما خلفكم من عذاب الآخرة إذ مقتضيه موجود وهو الشرك والتكذيب رجاء أن ترحموا فلا تعذبوا أعرضوا كأنهم لم يسمعوا.

(٤٦) وقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ﴾[2] كلام ربهم القرآن الكريم تحمل الحجج والبراهين على صحة ما يدعون إليه من الإيمان والتوحيد إلا كانوا عنها معرضين تمام الإعراض كأن قلوبهم قُدت من حجر والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - بيان فضل الله على البشرية في إنجاء ذريّة قوم نوح الكافرين ومنهم كان البشر وإلا لو أغرق الله الجميع المؤمنين الذريّة والكافرين الآباء لم يبق في الأرض أحد.

٢ - حماية الله تعالى للعباد ورعايته لهم وإلاّ لهلكوا أجمعين ولكن أين شكرهم؟.

٣ - بيان إصرار كفار قريش وعنادهم الأمر الذي لم يسبق له مثيل.

٤ - الإشارة بالمثلية في قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ إلى تنوع السفن من البوارج والغواصات والطربيدات الحربية.

شرح الكلمات:
[الآية: ٤٧ - ٥٤]

(٤٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾: أي وإذا قال فقراء المؤمنين في مكة للأغنياء الكافرين أنفقوا علينا. ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي من المال. ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾: أي قالوا للمؤمنين استهزاء بهم أنطعم من لو يشاء الله أطعمه. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي ما أنتم أيها الفقراء إلا في ضلال مبين في اعتقادكم الذي أنتم عليه.

(٤٨) ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: أي البعث الآخر إن كنتم صادقين فيه.

(٤٩) ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾: أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة وهي نفخة إسرافيل. ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾: أي تأخذهم الصيحة وهم يتخاصمون في البيع والشراء والأكل والشراب إذ تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.

(٥٠) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾: أي فلا يقدر أحدهم أن يوصي وصيّة. ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾: بل يهلكون في أماكنهم من الأسواق والمزارع والمصانع أو المقاهي والملاهي.

(٥١) ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي القبور إلى ربهم ينسلون أي يخرجون بسرعة.

(٥٢) ﴿قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾: أي قال الكفار: من بعثنا من قبورنا؟ ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: أي هذا ما وعد به الرحمن وصدق المرسلون أي فيما أخبروا به.

معنى الآيات:

(٤٧) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾[3] أي وإذا قيل لأولئك المشركين المكذبين الملاحدة والقائل هم المؤمنون فقد روي أن أبا بكر الصديق كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال: يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم. قال: فما باله لا يطعمهم؟ قال ابتلى قومًا بالفقر وقومًا بالغنى وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالإعطاء، فقال أبو جهل: والله يا أبا بكر إن أنت إلا في ضلال مبين. أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء، وهو لا يطعمهم ثم تطعمهم أنت فنزلت هذه الآية وبهذه الرواية اتضح معنى الآية الكريمة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي للكفار ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ على المساكين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ الآمرين لهم بالإنفاق ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾ قالوا هذا استهزاءً وكفرًا ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم أيها المسلمون ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إلا في ذهاب عن الحق وجور عن الرشد مبين لمن تأمله وتدبّر فيه.

---

(١) جواب إذا محذوف تقديره: أعرضوا وقد ذكر في التفسير.

(٢) الجملة واقعة موقع التذييل وتحمل معنى التأكيد لما سبق من معنى وهو أنهم إذا دعوا إلى التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء أعرضوا ولم يستجيبوا.

(٣) اختلف في من هذه قولته؟ وما في التفسير وأنها قولة أبي جهل لأبي بكر أرجحها وأقربها إلى واقع الحال وألصق بالسياق ولا مانع أن يقولها الزنادقة والملاحدة والمستهزئين في كل زمان ومكان.

﴿٤٨﴾ وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى[1] هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي ويقول أولئك الملاحدة المكذبون بالبعث استهزاءً واستعجالاً: متى هذا الوعد الذي تعدوننا به أيها المسلمون إن كنتم صادقين في دعواكم.

﴿٤٩﴾ قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي نفخة إسرافيل في الصور وهي نفخة الفناء ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ[2]﴾ أي يختصمون في أسواقهم يبيعون ويشترون، وفي مجالسهم العامة و الخاصة إذ تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.

﴿٥٠﴾ قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ يوصي بها أحدهم لابنه أو أخيه، ولا إلى أهلهم أي منازلهم وأزواجهم وأولادهم يرجعون بل يصعقون في أماكنهم.

﴿٥١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي صور إسرافيل وهو قرن ويقال له البوق أيضًا نفخة البعث من القبور أحياء فإذا هم من الأجداث جمع جدث وهو القبر ينسلون[3] أي ماشين مسرعين إلى ربهم لفصل القضاء والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه في هذه الدنيا من إيمان وكفر وإحسان وإساءة وعدل وظلم.

﴿٥٢﴾ قالوا يا ويلنا أي نادوا ويلهم وهلاكهم لما شاهدوا من أهوال الموقف ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا[4]﴾ وأجابهم المؤمنون بقولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ إذ واعدنا الله بلقائه وأخبرتنا الرسل به وبتفاصيله.

﴿٥٣﴾ وقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي ما هي إلا صيحة واحدة لإسرافيل فإذا الكل واقف بين يدي الله تعالى ليحاسب ويجزي.

﴿٥٤﴾ قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي في هذا اليوم الذي وقفت الخليقة فيه بين يدي ربها لا تظلم نفس شيئًا لا بنقص حسنة من حسناتها ولا بزيادة سيئة على سيئاتها. ولا تجزون أيها العباد إلا ما كنتم تعملون من خير وشر.

هداية الآيات:

١ - بيان علو الكافرين وطغيانهم وسخريتهم واستهزائهم، وذلك لظلمة الكفر على قلوبهم.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مبادئها ونهاياتها.

٣ - الساعة لا تأتي إلا بغتة.

٤ - الانقلاب الكوني الذي يحدث لعظمه اختلفت آراء أهل العلم في تحديد النفخات فيه والظاهر أنها أربع الأولى نفخة الفناء والثانية نفخة البعث والثالثة نفخة الفزع[5] والصعق والرابعة نفخة القيام بين يدي رب العالمين.

٥ - تقرير العدل الإلهي يوم الحساب والجزاء ليطمئن كل عامل على أنه يجزى بعمله لا غير.

---

(١) الاستفهام للاستبعاد وهو مشوب بالسخرية والاستخفاف لأنه ناجم عن قلوب مظلمة من جراء الكفر والإلحاد قال الشاعر:

متى يأتِ هذا الموت لا يُلْفِ حاجةً ... لنفس إلا قد قضيت قضاءها

والشاهد في الاستخفاف.

(٢) ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بمعنى: يختصمون في أمور دنياهم فيموتون في أماكنهم وقد أدغمت التاء في الصاد فنتج عن ذلك قراءات أشهرها قراءة نافع: ﴿يخصّمون﴾ بفتح الخاء وكسر الصاد مشددة وقرأ حفص: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بكسر الخاء والصاد المشددة وقرأ قالون: ﴿يخصمون﴾ بسكون الخاء مع الاختلاس.

(٣) قال ابن عباس وقتادة: ﴿يَنسِلُونَ﴾ يخرجون ومنه قول امرىء القيس:

فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي

ومنه قيل للولد؛ نسل لأنه يخرج من بطن أمه وقيل: يسرعون، والنسلان والقسلان الإسراع في السير ومنه مشية الذئب قال:

عسلان الذئب أمسى قارباً ... برد الليل عليه فنسل

(٤) جائز أن يكون ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إلخ.. من كلامهم لما يجدون أنفسهم واقفين أحياء قد خرجوا من قبورهم صرّحوا بالحقيقة التي كانوا يكذبون بها فاعترفوا قائلين: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وجائز أن يقال لهم كما في التفسير، فإن قلنا بالقول الأول لا يصح الوقف على مرقدنا، وإن قلنا بالقول المثبت في التفسير صح الوقف ويصبح ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كلاماً مستأنفاً.

(٥) هذه النفخة مختلف فيها ودليلها حديث البخاري إذ فيه يقول الرسول ﷺ: **«فأكون أول من يفيق فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ولا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله تعالى»**.

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٥ ـ ٥٨]

(٥٥) ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾: أي أهل الجنة في شغل عما فيه أهل النار من عذاب وشقاء. وشغلهم الشاغل لهم هو النعيم المقيم في دار السلام.

﴿فَاكِهُونَ﴾: أي ناعمون بالتلذذ بالنعم وذلك لطيب العيش.

(٥٦) ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: أي الأسرة ذات الحجلة.

(٥٧) ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾: أي ما يتمنون ويطلبون.

(٥٨) ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾: أي سلام بالقول من ربّ رحيم أي يسلم عليهم ربهم سبحانه وتعالى.

معنى الآيات:

(٥٨) ما إن حضروا بين يدي الله سبحانه وتعالى للحساب والجزاء حتى أعلن عما يلي: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ[١] فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾[٢] أي إنهم في شغل عما فيه أصحاب النار إنهم في شغل بالنعيم المقيم فاكهون أي ناعمون بالتلذذ بألوان المطاعم والمشارب والحور العين إنهم وأزواجهم في ظلال الجنة على الأرائك[٣] أي الأسرة ذات الحجلة متكئون. لهم فيها أي في دار السلام فاكهة من كل زوج ولون ونوع ولهم ما يدعون أي ما يتمنون ويطلبون، وأعظم من ذلك سلام الربّ تعالى عليهم سلام[٤] قولاً من ربّ رحيم أي سلام من الله بالقول لا بغيره من أنواع السلامة والسلام. فقد روى البغوي أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ يسطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ عز وجل قد أشرف عليهم من فوقهم السلام عليكم يا أهل الجنة»** فذلك قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير المعاد.

٢ ـ بيان نعيم الجنة.

٣ ـ سلام الله تعالى على أهل الجنة ونظرهم إلى وجهه الكريم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٩ ـ ٦٨]

(٥٩) ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾: أي انفردوا عن المؤمنين وانحازوا على

---

(١) قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد: شغلهم افتضاض العذارى وقيل: شغلهم زيارة بعضهم بعضاً، والشغل بضم الشين وسكون الغين ويجوز ضم الغين مع الشين.

(٢) ﴿فَاكِهُونَ﴾: بالألف وفكهون بدونه كفرحين لغتان وفسر بفرحين ومعجبين وبمسرورين والكل صحيح إذ هو من جملة النعيم الذي هم فيه.

(٣) ﴿الْأَرَائِكِ﴾: جمع أريكة كسفينة وسفائن قال الشاعر:

كأن احمرار الورد فوق غصونه ... بوقت الضحى في روضه المتضاحك

خدود عذارى قد خجلن من الحياء ... تهادين بالريحان فوق الأرائك

(٤) استئناف قطع من أن يعطف على ما قبله للاهتمام بمضمونه وسلام: مرفوع بالابتداء وهو نكرة وتنكيره للتعظيم ولذا صح الابتداء به وحذف الخبر لدلالة المصدر وهو قولاً عليه، والتقدير: سلام يقال لهم قولاً من الله تعالى، ومن: ابتدائية، وتنوين ربّ للتعظيم.

جهة وسيروا أيها الصالحون إلى الجنة.

(٦٠) ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾: أي ألم أوصكم بترك عبادة الشيطان وهي طاعته.

(٦١) ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾: أي وبأن تعبدوني وحدي وذلك في كتبي وعلى ألسنة رسلي. ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾: أي بترك عبادة الشيطان والقيام بطاعة الرحمٰن. هو الإسلام الموصل إلى دار السلام.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾: أي ولقد أضل الشيطان منكم يا بني آدم خلقًا كثيرًا. ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾: أي أطعتموه فلم تكونوا تعقلون عداوته لكم.

(٦٣) ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: أي تقول لهم الملائكة هذه جهنم... إلخ.

(٦٥) ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾[1]: أي عندما يقولون: والله ربنا ما كنا مشركين.

(٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾: أي ولو أردنا طمس أعين هؤلاء المشركين المجرمين لفعلنا، ولكنا لم نشأ ذلك رحمة منا.

﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾: أي فابتدروا الطريق كعادتهم فكيف يبصرون.

(٦٧) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾: أي بدلنا خلقهم حجارة أو قردة أو خنازير في أمكنتهم التي هم فيها فلا يستطيعون مضيًا ولا يرجعون.

(٦٨) ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾: أي ومن نطل عمره ننكسه في الخلق فيكون بعد قوته ضعيفًا عاجزًا. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾: أي أن القادر على ما ذكرنا لكم قادر على بعثكم بعد موتكم. فتؤمنون وتوحدون فتنجون من العذاب وتسعدون.

معنى الآيات:

(٥٩) قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا[2] الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ۝﴾ أي يأمر تعالى المجرمين وهم الذين أجرموا على أنفسهم بالشرك وارتكاب المعاصي فأفسدوها يأمرهم بأن يتميّزوا عن المؤمنين فينفردوا وحدهم ويسار بأهل الجنة إلى الجنة.

(٦٠) - (٦١) ثم يوبخ تعالى المجرمين أهل النار بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾[3] موصيًا إياكم على ألسنة رسلي وفي كتبي بأن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وبأن تعبدوني وحدي، ولا تعبدوا الشيطان معي فتشركوه في عبادتي هذا صراط مستقيم أي ترك عبادة الشيطان والقيام بعبادة الرحمن هذا هو الإسلام الصراط المستقيم الذي لا ينتهي بالسالكين إلا إلى باب دار السلام.

(٦٢) وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ أي خلقًا كثيرًا هذا من كلام الله الموبخ به للمجرمين. وقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾[4] وهذا تقريع وتوبيخ أيضًا أي أطعتموه وهو عدوكم وعصيتموني وأنا ربكم فلم تكونوا تعقلون عداوة الشيطان لكم.

(٦٣) - (٦٤) وواجب عبادتي عليكم لأني خلقتكم ورزقتكم وكلأتكم الليل والنهار إذًا فهذه جهنم[5] التي كنتم بها تكذبون اصلوها أي احترقوا بها بما كنتم تكفرون بالله وآياته ولقائه وتكذبون رسله.

(٦٥) وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝﴾ هذا يحدث لما يعرضون على ربهم فيعرض

---

(١) روى مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: «**أتدرون مما أضحك؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم قال ﷺ: «**من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول**: رب **ألم تجرني من الظلم؟ فيقول**: بلى فيقول: **لا أجير عليَّ إلا شاهداً من نفسي فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي بعمله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لَكُنّ وسحقاً فعنكنّ كنت أناضل**».

(٢) يقال: مازه فانماز وامتاز، وميزه فتميز وامتازوا أمر من امتاز ويمتاز إذا انفرد عما كان مختلطاً به، والمراد بذلك سوقهم إلى النار بعد أن دخل المؤمنون الجنة.

(٣) الاستفهام للتقرير والتوبيخ على إهمالهم وصيته تعالى إليهم بأن لا يعبدوا الشيطان.

(٤) قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للتقريع والتأنيب.

(٥) قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝﴾ أي: على ألسنة رسلي فكذبتم بها وواصلتم شرككم وكفركم. ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ أي: احترقوا بها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم الذي دسّى نفوسكم وخبثها فحرمتم بذلك دار السلام.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

ترتيبها ٣٧ — سُورَةُ الصَّافَّاتِ — آياتها ١٨٢

عليهم أعمالهم فينكرون فعندئذ يختم الله على أفواههم فلا يستطيعون الكلام وتنطق باقي جوارحهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون.

﴿٦٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ فأعميناهم ﴿فَٱسْتَبَقُوا ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي ابتدروا الطريق كعادتهم فأنى يبصرون الطريق وقد طمس على أعينهم فلا مقلة فيها ولا حاجب، ولكن الله لم يشأ ذلك لرحمته وحلمه على عباده.

﴿٦٧﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ[1]﴾ أي ولو نشاء مسخ هؤلاء المجرمين من المشركين لمسخناهم في أماكنهم من منازلهم فلا يستطيعون مضيًا في الطريق ولا رجوع إلى خلف أي لا ذهابًا ولا إيابًا.

﴿٦٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ[2] فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فنرده رأسًا على عقب فكما كان طفلاً ينمو شيئًا فشيئًا في قواه العقلية والبدنية حتى شب واكتهل فكذلك ننكسه في خلقه فيأخذ يضعف[3] في قواه العقلية والبدنيّة يومًا فيومًا حتى يصبح أضعف عقلاً وبدنًا منه وهو طفل. وقوله: أفلا تعقلون أيها المكذبون المجرمون أن القادر على هذا وغيره وعلى كل شيء يريده قادر على أن يحييكم بعد موتكم ويبعثكم من قبوركم ويحاسبكم ويجزيكم بأعمالكم.

هداية الآيات:

١ - تقرير المعاد وبيان مواقف منه.

٢ - تأكيد عداوة الشيطان للإنسان.

٣ - عجز الإنسان يوم القيامة عن كتمان شيء من سيء أعماله وفاسدها.

٤ - التحذير من عقوبة الله في الدنيا بالمسخ ونحوه.

٥ - مظاهر قدرة الله تعالى في رد الإنسان بعد القوة إلى حالة الضعف الأولى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٩ - ٧٦]

﴿٦٩﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾: أي وما علمنا رسولنا محمد ﷺ الشعر فما هو بشاعر. ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾: أي وما يصلح له ولا يصح منه. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾: أي ليس كما يقول المشركون من أن القرآن شعر ما هو أي القرآن الذي يقرأ محمد ﷺ إلا ذكر أي عظة وقرآن مبين لا يشك من يسمعه أنه ليس بشعر لما يظهر من الحقائق العلميّة.

﴿٧٠﴾ ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾: أي يعقل ما يخاطب به وهم المؤمنون. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي ويحق القول بالعذاب على الكافرين لأنهم ميتون لا يقبلون النذارة.

﴿٧١﴾ ﴿أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾: الأنعام هي الإبل والبقر والغنم.

﴿٧٢﴾ ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾: أي سخرناها لهم وجعلناهم قاهرين لها يتصرفون فيها. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾: أي من بعضها يركبون وهي الإبل

---

(١) المكانة: تأنيث المكان على تأويله بالبقعة.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿ننكسه﴾ بفتح النون الأولى وسكون الثانية مضارع نكس رأسه وقرأها عاصم: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مشددة.

(٣) قال سفيان: إذا بلغ المرء ثمانين سنة تغير جسمه وضعفت قوته قال الشاعر:

من عاش أخلقت الأيام جدته ... وخانه ثقتاه السمع والبصر

ومنها يأكلون أي ومن جميعها يأكلون.
(٧٣) ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾: المنافع كالصوف والوبر والشعر، والمشارب الألبان. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾: أي يوبخهم على عدم شكرهم الله تعالى على هذه النعم بالإيمان والطاعة.
(٧٤) ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾: أي أصنامًا يعبدونها زعمًا منهم أنها تنصرهم بشفاعتها لهم عند الله.
(٧٥) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾: أي لا تقدر تلك الأصنام على نصرهم بدفع العذاب عنهم. ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾: أي لا يقدرون على نصرتهم والحال أنهم أي المشركين جند محضرون لتلك الآلهة ينصرونها من أن يمسها أحد بسوء فبدل أن تنصرهم هم ينصرونها كجند مبعوثون لنصرتها.
(٧٦) ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾: أي إنك لست مرسلاً وإنك شاعر وكاهن ومفتر. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: أي إنهم ما يقولون ذلك إلا حسدًا وهم يعلمون أنك رسول الله وما جئت به هو الحق وسوف نجزيهم بتكذيبهم لك وكفرهم بنا وبلقائنا وديننا الحق.

معنى الآيات:

(٦٩) قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾[1] ردّ على المشركين الذين قالوا في القرآن شعر وفي الرسول ﷺ شاعر فقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي نبيّنا محمد ﷺ ﴿الشِّعْرَ﴾[2] ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أي لا يصح منه ولا يصلح له ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي ما هو الذي يتلوه إلا ذكر يذكر به الله وعظة يتعظ به المؤمنون ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ مبين للحق مظهر لمعالم الهدى أنزلناه على عبدنا ورسولنا ﷺ.
(٧٠) لينذر به من كان حيًا أي القلب والضمير لإيمانه وتقواه لله ويحق أي به القول وهو العذاب على الكافرين لأنهم لا يهتدون به فيعيشون على الضلال ويموتون عليه فيجب لهم العذاب في الدار الآخرة.
(٧١) وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أعمي أولئك المشركون ولم يروا مظاهر قدرتنا وإحساننا الموجبة لعبادتنا وهي ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ[3] أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه، والمراد بالأنعام الماشية من إبل وبقر وغنم.
(٧٢) وقوله: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي سخرناها لهم بحيث يركبون ويحلبون ويحملون وينحرون ويذبحون ويأكلون، ولولا هذا التسخير لما قدروا عليها أبدًا.
(٧٣) وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ المنافع كالصوف والوبر والشعر ﴿وَمَشَارِبُ﴾ جمع مشرب وهي الألبان في ضروعها يحلبون منها ويشربون. وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يوبخهم على أكل النعم وعدم الشكر عليها، وشكر الله عليها هو الإيمان به وتوحيده في عبادته.
(٧٤) وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أي اتخذ أولئك المشركون آلهة هي أصنامهم التي يعبدونها لعلهم ينصرون أي رجاء نصرتها لهم وذلك بشفاعتها لهم عند الله تعالى كما يزعمون. قال تعالى في إبطال هذا الرجاء وقطعه عليهم.
(٧٥) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ لأنهم أصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي والحال أن المشركين هم جند تلك الأصنام محضرون، وعندها يدافعون عنها ويحمونها ويغضبون لها فكيف ينصرك من هو مفتقر إلى نصرتك.
(٧٦) وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾[4] أي لا تحزن لما يقول

---

(١) إنه ﷺ مع أصالته في الأدب الرفيع وكيف وهو قرشي مضري لا يحسن إنشاد بيت من الشعر حتى إنه أنشد يوماً بيت طرفة فقال:
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك من لم تزوده بالأخبار
فقال أبو بكر: والله إنك لرسول الله إذ عجز البيت هكذا: ويأتيك بالأنباء من لم تزود.

(٢) ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أي: وما أوحينا إليه شعراً وما علمناه إياه.

(٣) ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ﴾ (ما) موصولة بمعنى الذي، وحذف العائد وهو الضمير لطول الاسم أي: عملته. وإن قلناه: (ما) مصدرية فلا حاجة إلى مراعاة العائد ولا تقديره.

(٤) قرىء: ﴿يحزنك﴾ بضم الياء من أحزنه يحزنه وقرىء: ﴿يَحْزُنكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي، والنهي عن الحزن نهي عن أسبابه

قومك من أنك لست مرسلاً، وأنك شاعر وساحر وكاهن إلى غير ذلك من أقاويلهم، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[1] وسنجزيهم عن قولهم الباطل ونأخذهم بكذبهم وافترائهم عليك. كما نحن نعلم أنهم ما قالوا الذي قالوا إلا حسدًا لك، وإلا فهم يعلمون أنك رسول الله وما أنت بالساحر ولا الشاعر ولا المجنون، ولكن حملهم على ما يقولون الحسد والعناد والكبر.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية وأن القرآن ذكر وليس شعر كما يقول المبطلون.

٢ - الحكمة من نزول القرآن هي أن ينذر به الرسول ﷺ الأحياء من أهل الإيمان.

٣ - بيان خطأ الذين يقرؤون القرآن على الأموات ويتركون الأحياء لا يقرؤونه عليهم وعظًا لهم وإرشادًا وتعليمًا وتذكيرًا.

٤ - وجوب ذكر النعم وشكرها بالاعتراف بها، وصرفها في مرضاة واهبها وحمده عليها.

٥ - بيان سخف المشركين في عبادتهم أصنامًا يرجون نصرها وهم جند معبأ لنصرتها من أن يمسها أحد بسوء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٧ - ٨٣]

(٧٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾: أي المنكر للبعث كالعاصي بن وائل السهمي، وأبيّ بن خلف. ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾: أي من منيّ إلى أن صيرناه رجلاً قويًا. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: أي شديد الخصومة بيّنها في نفي البعث.

(٧٨) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾: أي في ذلك، إذ أخذ عظمًا وفتّه أمام رسول الله ﷺ وقال: أيحيي ربك هذا؟. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾: أي وأنه مخلوق من ماء مهين وأصبح رجلاً يخاصم فالقادر على الخلق الأول قادر على الثاني. ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾: أي وقد رمّت وبليت.

(٨٠) ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾: أي من شجر المرخ والعفار يحك أحدهما على الآخر فتشتعل النار.

(٨١) ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾: أي مثل الأناسي. ﴿بَلَىٰ﴾: أي قادر على ذلك إذ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.

(٨٢) ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾: أي خلق شيء وإيجاده.

(٨٣) ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ﴾: أي ملك كل شيء، زيدت التاء للمبالغة في كبر الملك واتساعه. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي تردون بعد الموت وذلك في الآخرة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء تلك العقيدة التي يتوقف عليها غالبًا هداية الإنسان وإصلاحه فقال تعالى ردًا على العاصي بن وائل السهميّ وأبيّ بن خلف حيث جاء إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم ففته وذراه وقال: أتزعم يا محمد أن الله يبعث هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم يميتك ثم يحييك ثم يحشرك إلى جهنم**».

(٧٧) ونزلت هذه الآيات ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾[2] أي أينكر البعث وهو يعلم أنا خلقناه من نطفة أي من ماء مهين وسويناه رجلاً فإذا هو خصيم لنا أي مخاصم يرد علينا ويشرك بنا وينكر إحياءنا للأموات وبعثهم يوم القيامة فكيف يعمى هذا العمى ويجهل هذا الجهل القبيح، إذ القادر على البدء قادر عقلاً على الإعادة وهي أهون عليه.

(٧٨) وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا﴾ أي هذا المنكر للبعث مثلاً أي جعل لنا مثلاً وهو إنكاره علينا قدرتنا على البعث حيث جعل إعادتنا للخلق أمرًا عجبًا وغريبًا إذ قال: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ

= الموجبة له، إذ الحزن لا يملك الإنسان دفعه ولكن يستطيع تجنب مثيراته والمراد من هذا النهي تسلية الرسول ﷺ عما يواجهه به المشركون من أنه ساحر أو شاعر وما إلى ذلك.

(١) جملة ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: جملة تذييلية المراد منها أمران: تطمين الرسول ﷺ على كفاية الله تعالى له وإن كيدهم لا يضره. وتهديد للمشركين بإعلامهم أن الله مطلع على ما يمكرون وسيجزيهم به.

(٢) روي أيضاً أن العاص بن وائل أتى النبي ﷺ بعظم حائل فقال: يا محمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رمّ؟ فقال النبي ﷺ: «**نعم ويبعثك الله ويدخلك النار**» فنزلت هذه الآية.

رَمِيمٌ[1]﴾ أي قد رمّت وبليت. ونسي خلقه من ماء حقير وكيف جعله الله بشرًا سويًا يجادل ويخاصم فلو ذكر أصل نشأته لخجل أن ينكر إحياء العظام وهي بالية رميم؟ ولما قال من يحيي العظام وهي رميم؟

(٧٩) وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا هو القياس العقلي الجلي الواضح إذ بالبداهة أن من أوجد شيئًا من العدم قادر على إيجاد مثله. وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أي مخلوق عليم فالعلم والقدرة إذا اجتمعا كان من السهل إيجاد ما أُعدم بعد أن كان موجودًا فأُعدم لا سيما أن الموجد من العدم هو المخبر بالإعادة وبقدرته عليها.

(٨٠) هذا برهان قطعي وثاني برهان في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم[2] مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)﴾ أي النار وتشعلونها، ووجه الاستدلال أن البعث لو كان مستحيلاً عقلاً وما هو بمستحيل بل هو واجب الوقوع لكان على الله غير مستحيل لأن الله تعالى قد أوجد من المستحيل ممكنًا وهو النار من الماء، إذ الشجر الأخضر[3] ماء سار في أغصان الشجرة. ومع هذا يوجد منها النار، فكان هذا برهانًا عقليًا يسلم به العقلاء ولا ينازعون فيه أبدًا، وبرهان ثالث وهو في قوله:

(٨١) ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾؟ ووجه البرهنة فيه أننا ننظر إلى السموات السبع وما فيها من خلق عجيب وإلى الأرض وما فيها كذلك وننظر إلى الإنسان فنجده لا شيء إذا قوبل بالسموات والأرض فنحكم بأن من خلق السموات والأرض على عظمها قادر من باب أولى على خلق الإنسان مرة أخرى بعد موته وبلاه وفنائه. ولذا أجاب تعالى عن سؤاله بنفسه فقال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ[4]﴾ أي الخلاق لكل ما أراد خلقه العليم بكل مخلوقاته لا يخفى عليه شيء منها، وبرهان رابع في قوله:

(٨٢) ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ ووجه الاستدلال أن من كان شأنه في إيجاد ما أراد إيجاده أن يقول له كن فهو يكون. لا يستنكر عليه عقلاً أن يحيي الأموات بكلمة كونوا أحياء فيكونون كما طلب منهم.

(٨٣) وأخيرًا ختم هذا الرد المقنع بتنزيه نفسه عن العجز فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ[5] ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ[6] كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي ملك كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أحببتم أم كرهتم أيها الآدميون منكرين كنتم للبعث أم مقرين به مؤمنين.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بإيراد أربعة براهين قاطعة.

٢ - مشروعية استعمال العقليات في الحجج والمجادلة.

٣ - تنزيه الله تعالى عن العجز والنقص وعن الشريك والولد وسائر النقائص.

٤ - تقرير أن الله تعالى بيده وفي تصرفه وتحت قهره كل الملكوت

---

(١) يقال: رمّ العظم يرم فهو رميم ورمام وقال: رميم ولم يقل: رميمة لأنها معدولة عن فاعله نحو بغياً لم يقل: بغية لأنه معدول عن باغية.

(٢) هذا الكلام مستأنف استئنافاً ابتدائياً الغرض منه إقامة الحجة العقلية على صحة البعث وإمكانه وهو ما أنكره المشركون واستبعدوه فذكر لهم أن الذي يخرج من الماء الرطب البارد النار وهما لا يجتمعان، قادر على إخراج الضد من الضد وهو على كل شيء قدير.

(٣) قال القرطبي: يعني بالآية مع في المرخ والعفار وهي زنادة العرب التي يشعلون بها النار، ومن ذلك قولهم: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار.

(٤) ﴿بَلَىٰ﴾: لنقض النفي أي: بل هو قادر على أن يخلق مثلهم كقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨)﴾؟ فالجواب: بلى أي: هو أحكم الحاكمين، إبطال لما نفته ليس، إذ هي حرف نفي.

(٥) ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾: نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الشرك والعجز. والملكوت، والملكوتى: بمعنى نحو جبروتى ورحموتى من الجبروت والرحموت والعرب تقول: جبروتى خير من رحموتى.

(٦) الملكوت: مبالغة في الملك بكسر الميم من ذلك قولهم: رهبوت خير من رحموت أي: ليرهبك الناس خير من أن يرحموك لأن مع الرهبة العزة ومع الرحمة الضعف والعجز.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)

فلذا لا يصح طلب شيء من غيره إذ هو المالك الحق وغيره لا ملك له.

❁ ❁ ❁

سورة الصافات

مكية

وآياتها مائة واثنتان وثمانون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٠]

(١) ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾: أي الملائكة تصف أنفسها في الصلاة وأجنحتها في الهواء.

(٢) ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾: أي الملائكة تزجر السحاب أي تسوقه حيث يأذن الله.

(٣) ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾: أي فالجماعات التاليات[1] للقرآن ذكرًا.

(٤) ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾: أي إن إلهكم المعبود الحق لكم أيها الناس لواحد.

(٥) ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: أي هو ربُّ السموات والأرض وما بينهما أي خالقهما ومالكهما ومدبر الأمر فيهما. ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾: أي والمغارب وهي مشارق الشمس ومغاربها إذ للشمس كل يوم مشرق ومغرب.

(٧) ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾: أي وحفظناها حفظًا من كل شيطان مارد خارج عن الطاعة.

(٨) ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾: أي لا يستمعون إلى الملائكة في السموات العلا. ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا﴾: يُرمون بالشهب من كل جوانب السماء دحورًا أي إبعادًا لهم.

(٩) ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾: أي دائم لا يفارقهم.

(١٠) ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾: أي اختطف الكلمة من الملائكة بسرعة وهرب. ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: أي كوكب مضيء ثاقب يثقبه أو يحرقه أو يخلبه أي يفسده.

معنى الآيات:

(١) ـ (٣) قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ[2] صَفًّا﴾ هذا قسم إلهي يؤكد به تعالى إلهيته على عباده فقد أقسم بالصافات والزاجرات والتاليات ذكرًا أي قرآنًا، وسواء قلنا أقسم بهذه المخلوقات إذ لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه وإنما الممنوع أن يقسم العبد بغير ربّه تعالى. أو قلنا أقسم تعالى بنفسه أي وربّ الصافات إلخ فالقسم حاصل من أجل تقرير التوحيد، وهذا الإقسام جار على عرف البشر في أنهم إذا أخبروا بشيء يشكون في صحته فيؤكد لهم المُخبر الخبر باليمين ليزيل الشك من نفوسهم.

(٤) وقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾[3] هو المقسم عليه وهو أن إله البشرية كلها واحد وهو الله خالقها ورازقها وليس لها من إله غيره، وما عندها من آلهة فهي آلهة باطلة ويكفي في بطلانها أنها أصنام وصور وتماثيل وصلبان لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر.

---

(١) جائز أن تكون الجماعات التالية لكلام الله تعالى من الملائكة ومن البشر. روى مسلم أنه ﷺ قال: «**فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء**».

(٢) روى مسلم وغيره عنه ﷺ قال: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟**» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «**يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف**».

(٣) هذا جواب القسم وهو المقسم عليه والصافات: الملائكة تصف أجنحتها في السماء أو تصف للصلاة كما يصف المؤمنون للصلاة في الدنيا، وجائز أن يراد بالصافات صفوف المؤمنين في الصلاة وفي الجهاد.

(٥) وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[1] وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝﴾ تدليل على وحدانية الله تعالى إذ هو خالق السموات والأرض وما بينهما ومالكهما ومدبر الأمر فيهما، وربّ المشارق أيضًا والمغارب أي مشارق الشمس ومغاربها إذ كل يوم تشرق وتغرب في درجة معينة فالإله الحق هو الخالق للعوالم والمدبر لها لا الذي ينحته الرجل بيده ويقول هو إلهي زورًا وباطلًا. ألا فليتحرر المشركون من أسر الشيطان ويعبدوا الرحمٰن.

(٦) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ[2] ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ[3] ۝﴾ هذه مظاهر القدرة والعلم والحكمة إنه وحده تعالى زين السماء الدنيا أي القريبة من الأرض بزينة هي الكواكب المشرقة المنيرة.

(٧) وقوله: ﴿وَحِفْظًا[4] مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝﴾ أي وحفظنا السماء حفظًا تامًا من كل شيطان عادٍ متمرد عن الطاعة.

(٨) وقوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ[5] إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي لا يتسمعون إلى الملائكة في السماء حتى لا ينقلوا أخبار الغيب إلى أوليائهم من الكهان في الأرض. وقوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي ويرمى أولئك المردة من الشياطين من قبل الملائكة من كل جهة من جهات السماء دحورًا أي لدحرهم وإبعادهم.

(٩) وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ[6]﴾ لأولئك المردة من الشياطين عذاب واصب موجع دائم.

(١٠) وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ أي اختطف الكلمة بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ[7] ثَاقِبٌ﴾ أي كوكب مضيء فثقبه فقتله أو أحرقه أو خبله أي أفسده، وبهذا حُمِيت السماء بالملائكة من دخول الشياطين إليها واستراق السمع. والحمد لله.

هداية الآيات:

١ - بيان أن الله تعالى يقسم ببعض مخلوقاته إما تنويهًا بعظمتها المقرر ضمنًا لعظمة خالقها وإما بيانًا لفضلها وإما لفتًا لنظر العباد إلى ما فيها من الفوائد.

٢ - تقرير التوحيد وأنه لا إله إلا الله.

٣ - بيان الحكمة من وجود النجوم في السماء الدنيا.

٤ - بيان أن الشياطين حرموا من استراق السمع، ولم يبق مجال لكذب الشياطين على الناس بعد أن منعوا من استراق السمع[8].

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ - ٢١]

(١١) ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾: أي استخبر كفار مكة تقريرًا وتوبيخًا. ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾: أي خلقهم في ذواتهم وإعادتهم بعد موتهم، أم من خلق تعالى من الملائكة والسموات والأرض وما فيها من سائر المخلوقات. ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾: أي يلصق باليد.

(١٢) ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝﴾: أي

---

(١) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو رب السماوات إلخ..

(٢) هذه الجملة بمثابة الدليل على ربوبية الله تعالى الموجبة للإلهية له سبحانه وتعالى دون سواه.

(٣) قرأ الجمهور: ﴿بزينة الكواكب﴾ بإضافة زينة إلى الكواكب وقرأ حفص بتنوين زينة وجر الكواكب على البدلية ومنهم من نصب الكواكب على الاختصاص والكواكب: جمع كوكب وهي تلك الأجرام الكريّة السماوية ومنها الثوابت ومنها السيارة وهي كل ما يرى في السماء ما عدا الشمس والقمر وتسمى النجوم وهي تختلف في أحجامها.

(٤) قال أهل العلم: النجوم لثلاثة: للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر وكزينة السماء بما فيها من أنوار وللحفظ من الشياطين أن يسترقوا السمع من الملائكة فمن طلبها لغيرها فقد أساء واعتدى.

(٥) قرأ الجمهور: ﴿لا يسمعون﴾ بسكون السين وتخفيف الميم وقرأ حفص عن عاصم: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ بتشديد السين والميم مفتوحتين. الأصل لا يتسمعون من التسمع فقلبت التاء سيناً وأدغمت في السين.

(٦) الواصب: الدائم يقال: وصب يصب وصوباً إذا دام وهو عذاب الآخرة.

(٧) يقال له في علم الهيئة: النيزك وعن ابن عباس: الشهاب: لا يقتل ولكن يخترق ويخبل.

(٨) صح في الحديث أن من الجائز أن ينجو مسترق السمع من شهب الملائكة، ويلقي بالكلمة التي استرقها إلى الكاهن أو الساحر بعدما يضيف إليها تسعاً وتسعين كلمة.

عجبت يا نبي الله من إنكارهم للبعث، وهم يسخرون من دعوتك إلى الإيمان به.
﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾: أي وإذا وعظوا لا يتعظون.
﴿١٤﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾: أي إذا رأوا حجة من الحجج التي تحمل الآيات القرآنية تقرر البعث والتوحيد والنبوة يسخرون أي يستهزئون.
﴿١٨﴾ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾: أي قل لهم يا رسولنا نعم تبعثون وأنتم صاغرون أذلاء.
﴿١٩﴾ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: أي صيحة تزجرهم وهي نفخة إسرافيل في الصور النفخة الثانية.
﴿٢٠﴾ ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾: أي يوم الحساب والجزاء.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير التوحيد والبعث والجزاء وقوله تعالى فاستفتهم[١] أي استخبرهم واطلب جوابهم أي بقولك أأنتم أشد خلقًا أي في ذواتكم وفي إحيائكم بعد مماتكم أم من خلقه الله من الملائكة والسموات والأرض وما فيهما وما بينهما؟ والجواب معلوم وهو أن خلق غيرهم من العوالم أشد خلقًا إذا فكيف ينكرون البعث بدعوى استحالة وجوده لصعوبته.
﴿١١﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي خلقنا أباهم آدم من طين لازب أي لاصق يلصق باليد ثم خلقناهم بطريق التناسل أفيعجزنا إعادة خلقهم مرة أخرى والجواب لا. لا.
﴿١٢﴾ وقوله تعالى: ﴿بَلْ[٢] عَجِبْتَ﴾ أي من تكذيبهم بالبعث لوضوح الأدلة على إمكانه ووجوب وجوده ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي وهم يسخرون من ذلك أي يستهزئون من قولك بالبعث وإمكانه.
﴿١٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي بالآيات لعلهم يذكرون فيؤمنون ويوحدون لا يذكرون لقساوة قلوبهم وظلمة ذنوبهم بالشرك والمعاصي.
﴿١٤﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ[٣]﴾. أي يسخرون ويستهزئون.
﴿١٥﴾ ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي جاء به محمد ﷺ من القول والعمل إلا سحر مبين أي بَيِّنٌ ظاهر وهم في ذلك كاذبون قطعًا للفرق بين السحر الذي هو تخيل باطل وبين الحق الثابت عقلًا ووحيًا من دقائق الشرع وأصول الدين من الإيمان بالله واليوم الآخر.
﴿١٦﴾ وقوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا[٤] وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ هذا قول المكذبين من المشركين يقولونه متعجبين مستبعدين للبعث.
﴿١٨﴾ قال تعالى ردًا عليهم قل يا رسولنا لهم ﴿نَعَمْ﴾ تبعثون أحياء ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغرون ذليلون وأمر إعادتكم لا يتطلب أكثر من أن ينفخ إسرافيل في الصور فإذا أنتم أحياء تخرجون من قبوركم.
﴿١٩﴾ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ﴾ أي صيحة ﴿وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ﴾ قيام ﴿يَنظُرُونَ﴾ ويقولوا أي عند قيامهم من قبورهم.
﴿٢٠﴾ ﴿يَاوَيْلَنَا﴾ أي يا هلاكنا احضر هذا أوان حضورك أي يدعون على أنفسهم بالهلاك لشدة ما شاهدوا من هول القيامة كقول أحدهم يا ليتها كانت القاضية. وقولهم هذا يوم الدين اعتراف منهم بالبعث والجزاء ولكن في وقت ما هو بنافع لهم الاعتراف فيه أي هذا يوم الحساب والجزاء فيقال لهم:
﴿٢١﴾ ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾[٥] الذي يفصل الله تعالى فيه بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فيحكم بينهم

---

(١) مأخوذ من استفتاء المفتي والفتيا: هي إخبار عن أمر يخفى عن غير الخواص في غرض ما والاستفهام هنا تقريري.
(٢) ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى حالهم العجب قرأ الجمهور: ﴿عَجِبْتَ﴾ بفتح التاء والخطاب للنبي ﷺ وقرأ ابن مسعود بضم التاء ونسبة العجب إلى الله تعالى كنسبته إلى خلقه كسائر صفاته تعالى.
(٣) سخريتهم هذه من محاجة النبي ﷺ إذ أتاهم بالآيات القرآنية الحاملة للأدلة العقلية وهم لجهلهم وعجزهم يدفعونها باالاستسخار والإنكار وهذا غاية الجهل والضلال.
(٤) الاستفهام إنكاري وجملة ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾: في محل نصب على الحال.
(٥) جائز أن يكون ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ من قول الله تعالى والملائكة لهم وجائز أن يكون من قول بعضهم لبعض.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾

٤٤٧

بالعدل، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فيه توبيخ لهم أي هذا يوم البعث الذي كنتم تكذبون به وتقولون مستبعدين له ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي وآباؤنا الأولون أيضًا.

هداية الآيات:

١ - بيان أصل خلق الإنسان وهو الطين اللازب أي اللاصق باليد.

٢ - بيان موقفين متضادين الرسول ﷺ يعجب من كفر المشركين وتكذيبهم والمشركون يسخرون من دعوته إياهم إلى الإيمان وعدم التكذيب بالله ولقائه.

٣ - تقرير البعث وبيان طريقة وقوعه.

٤ - عدم الانتفاع بالإيمان عند معاينة العذاب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٢ - ٣٠]

﴿٢٢﴾ ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: أي أنفسهم بالشرك والمعاصي. ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾: أي قُرناءهم من الشياطين.

﴿٢٣﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي من غير الله من الأوثان والأصنام. ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾: أي دلوهم وسوقوهم. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي إلى طريق النار.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي احبسوهم عند الصراط إنهم مسؤولون عن جميع أقوالهم وأفعالهم. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا كما كنتم في الدنيا توبيخًا لهم.

﴿٢٨﴾ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾: أي عن يمين أحدنا تزينون له الباطل وتحسِّنون له الشر فتأمرونه بالشرك وتنهونه عن التوحيد.

﴿٢٩﴾ ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أي قال قرناؤهم من الجن ردًا عليهم بل لم تكونوا أساسًا مؤمنين.

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾: أي من حجة ولا قوة على حملكم على الشرك والشر والباطل. ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾: أي بل كنتم طغاة ظلمة تعبدون غير الله تعالى وتجبرون الناس على ذلك.

معنى الآيات:

﴿٢١﴾ ما زال السياق في موقف عرصات القيامة إنهم بعد اعترافهم بأن هذا يوم الدين وردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٢﴾ يقول الجبار عز وجل: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ[1] وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي احشروا الذين ظلموا بالشرك والمعاصي، وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ[2]﴾ أي قرناءهم من الجن ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان.

﴿٢٣﴾ وقوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ[3] إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يقول الله عز وجل فاهدوهم أي دلوهم إلى طريق النار.

﴿٢٤﴾ ويقول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ثم يسألون.

﴿٢٥﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[4] أي لا ينصر بعضكم بعضًا كما كنتم في الدنيا. كيف ينصر بعضهم بعضًا في مثل هذا الموقف الرهيب.

---

(١) ﴿ظَلَمُواْ﴾ بمعنى: أشركوا لأن الشرك أقبح أنواع الظلم شاهده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ والآمر في قوله: ﴿ٱحْشُرُواْ﴾ الله عز وجل والمأمور: الملائكة والمأمور بحشرهم: المشركون.

(٢) وفسر ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أيضاً بأشياعهم وقرنائهم هم من الجن وما في التفسير أولى.

(٣) أي: سوقوهم إلى النار والمأمور: الملائكة كما تقدم.

(٤) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا والاستفهام للتقريع والتوبيخ.

(٢٦) ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي منقادون ذليلون.

(٢٧) وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝﴾ أي أقبل الأتباع على المتبوعين يتساءلون أي يتلاومون كلّ يلقي بالمسؤولية على الآخر.

(٢٨) فقال الأتباع من الإنس لقرنائهم من الجن ما أخبر تعالى به عنهم ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾[1] أي والشمال أي توسوسون لنا فَتُحَسِّنُون لنا الشرك والشر بل تأمروننا به وتحضوننا عليه.

(٢٩) فرد عليهم قرناؤهم بم أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ أي ما كنتم مؤمنين فكفرناكم ولا صالحين فأفسدناكم، ولا موحدين فحملناكم على الشرك. هذا أولاً، وثانيًا ما كان لنا عليكم من سلطان أي من حجج قوية أقنعناكم بها، ولا قدرة لنا أرهقناكم بها فاتبعتمونا، بل كنتم أنتم قومًا طاغين أي ظلمة متجاوزين الحد في الإسراف والظلم والشر.

هداية الآيات:

١ - بيان صورة لموقف من مواقف عرصات القيامة.

٢ - بيان أن الأشباه في الكفر أو في الفجور أو في الفسق تحشر مع بعضها بعضًا.

٣ - عدم جدوى براءة العابدين من المعبودين واحتجاج التابعين على المتبوعين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ - ٣٧]

(٣١) ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾: أي وجب علينا العذاب. ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾: أي العذاب نحن وأنتم.

(٣٢) ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝﴾: أي أضللناكم إنا كنّا ضالين.

(٣٣) ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾: أي يوم القيامة. ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾: لأنهم كانوا في الغواية مشتركين.

(٣٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝﴾: كما عذبنا هؤلاء التابعين والمتبوعين نعذب التابعين والمتبوعين في كل ضلال وكفر وفساد.

(٣٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: أي إن أولئك المشركين من عبدة الأوثان إذا قال لهم الرسول ﷺ. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾: أي قولوا لا إله إلا الله ولا تعبدوا إلا الله يستكبرون ولا يقولون ولا يوحدون.

(٣٦) ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾: يعنون محمدًا ﷺ.

(٣٧) ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾: أي بل جاء بلا إله إلا الله وهو الحق الذي جاءت به الرسل وقد صدّقهم فيما جاؤوا به من قبله وهو التوحيد.

معنى الآيات:

(٣١) ما زال السياق الكريم فيما ذكر تعالى من تساؤلات الظالمين وما قاله الأتباع للمتبوعين وما قاله المتبوعون للأتباع فقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا[2] قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝﴾ هذا قول المتبوعين لأتباعهم قالوا لهم فبسبب غوايتنا وضلالنا وجب علينا العذاب إنا وأنتم لذائقوه لا محالة.

(٣٢) وقالوا لهم أيضًا معترفين بإغوائهم لهم ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝﴾ هذا قول الجن للإنس.

(٣٣) قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝﴾ وذلك لاشتراكهم في الشرك والشر والفساد.

(٣٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝﴾ من سائر الأصناف كالزناة وأكلة الربا وسافكي الدماء فنعذب الصنف مع صنفه وهذا عائد إلى قوله احشروا الذين ظلموا وأزواجهم أي أشياعهم وأضرابهم.

(٣٥) - (٣٦) وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ[3] كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝﴾ يخبر تعالى عن مشركي قريش أنهم كانوا في الدنيا إذا قال لهم رسول الله ﷺ أو أحد

---

(١) اضطرب أهل التفسير في تفسير ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ وأقوالهم متضاربة فمنهم من قال تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها قاله قتادة، ومنهم من قال اليمين: بمعنى القوة أي: تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر وهذا ينسجم مع السياق وما في التفسير شامل لهذه الأقوال إذ معناه إنكم تأتوننا من كل جهة تحاولون إغواءنا وإضلالنا.

(٢) أي: وجب علينا قول ربنا فكلنا ذائقو العذاب شاهده قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وقول الرسول ﷺ: **«إن الله عز وجل كتب للنار أهلاً وللجنة أهلاً لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم»**.

(٣) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟﴾: هذه الجملة تعليلية للحكم السابق وهو بيان العلة منه وفي الكلام حذف تقديره: أنهم كانوا إذا قيل لهم قولوا لا إله إلا الله فحذف القول للعلم به.

المؤمنين قولوا لا إله إلا الله يستكبرون[(١)] ويشمئزون ولا يقولونها بل ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ[(٢)] مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ يعنون النبي محمدًا ﷺ يصفون القرآن بالشعر ومحمدًا ﷺ تاليه وقارئه بالشاعر ولما يدعوهم إليه من الإيمان بالبعث والجزاء بالجنون والرسول ﷺ في نظرهم مجنون. فردّ تعالى عليهم بقوله:

﴿٣٧﴾ ﴿بَلْ[(٣)] جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي لم يكن رسولنا ﷺ بشاعر ولا مجنون بل جاء بالحق فأنكرتموه وكذبتم به تقليدًا وعنادًا فقلتم ما قلتم. وإنما هو قد جاء بالحق الذي هو لا إله إلا الله ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين جاؤوا قبله بكلمة لا إله إلا الله والدعوة إليها والحياة والموت عليها.

هداية الآيات:

١ - بيان هلاك الضال ومن أضله والغاوي ومن أغواه.

٢ - بيان ما كان يوجهه المشركون لرسول الله ﷺ من التُّهم الباطلة وردّ الله تعالى عليها.

٣ - التعظيم من شأن لا إله إلا الله وأنها دعوة كل الرسل التي سبقت النبي محمدًا ﷺ.

٤ - تقرير التوحيد والبعث والجزاء والنبوة المحمدية.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ - ٤٩]

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أي إلا جزاء ما كنتم تعملونه من الشرك والمعاصي.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي لكن عباد الله المخلصين أي العبادة لله وحده فإنهم يجزون بأكثر أعمالهم إذ الحسنة بعشر أمثالها وأكثر.

﴿٤١﴾ ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾: أي في الجنة بكرة وعشيًا.

﴿٤٢﴾ ﴿فَوَٰكِهُ﴾: أي طعامهم وشرابهم فيها للتلذذ به كما يتلذذ بالفواكه فليس هو لحفظ أجسامهم حية كما في الدنيا.

﴿٤٣﴾ ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾: أي لا تلحقهم فيها إهانة بل يقال لهم هنيئًا بخلاف أهل النار يقال لهم ذوقوا عذاب النار بما كنتم تعملون.

﴿٤٥﴾ ﴿مِّن مَّعِينٍۭ﴾: أي يجري على وجه الأرض كعيون الماء الجارية على الأرض.

﴿٤٦﴾ ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: أي الخمرة موصوفة بأنها لذة للشاربين.

﴿٤٧﴾ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾: أي ما يغتال عقولهم وأجسامهم فيهلكهم. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾: أي لا يسكرون عنها أي بسببها كما هي خمر الدنيا.

﴿٤٨﴾ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أي لا ينظرن إلى غير أزواجهن لحسنهم وجمالهم عندهن. ﴿عِينٌ﴾: أي واسعات الأعين الواحدة عيناء.

﴿٤٩﴾ ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾: أي كأنهن بيض مكنون أي مستور لا يصله غُبار ولا غيره.

معنى الآيات:

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ[(٤)] ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ هذا يقال لأهل النار وهم موقوفون يتساءلون ومن جملة ما يقال لهم عندئذ هذا القول فيخبرون بأنهم ذائقو العذاب الأليم الموجع، وأنهم ما يجزون إلا بما كانوا يعملون فلا يظلمون بالجزاء بل هو جزاء عادل السيئة بمثلها. وهنا استثنى تعالى جزاء عباده المؤمنين الذي استخلصهم لعبادته فعبدوه ووحدوه فإنهم يجزون بأكثر من أعمالهم فضلاً منه عليهم وإحسانًا إليهم فالحسنة بعشر أمثالها وبأكثر إلى سبعمائة وأكثر، فقال: ﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾[(٥)]﴾ وبيّن تعالى بعض جزائهم فقال:

---

(١) شاهده حديث ابن أبي حاتم قوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه إلى الله»** وهو في الصحيح بأوسع منه.

(٢) أي: لقول شاعر فحذف القول لظهوره.

(٣) ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي أي: أضرب عن قولهم: (شاعر مجنون) الباطل وقد سبق الحق المبين وهو شهادة ألا إله إلا الله محمد رسول الله.

(٤) الأصل: لذائقون العذاب فحذفت النون تخفيفاً وأضيف لذائقوا إلى العذاب فخفض ولو نصب لجاز كقول الشاعر:

فألفيته غير مستعتب ... ولا ذاكر الله إلا قليلا

(٥) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾: الاستثناء منقطع في معنى الاستدراك وهو تعقيب الكلام بما يضاده أو يرفع ما يتوهم ثبوته أو نفيه

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

٤٤٨

(٤١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي يأكلونه بكرة وعشيًا، وقوله فواكه[١] فيه إشارة إلى أنهم لا يأكلون ولا يشربون لحفظ أجسادهم من الموت والفناء، وإنما يأكلون ما يأكلون ويشربون ما يشربون تلذذًا بذلك لا لدفع غائلة الجوع كما في الدنيا.

(٤٢) ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي في الجنة حيث لا تلحقهم إهانة أبدًا.

(٤٣) وقوله: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أضاف الجنة إلى النعيم مبالغة في وصفها بالنعيم حتى جعل الجنة جنة النعيم فجعل للنعيم وهو النعيم جنة.

(٤٤) وأخبر أنهم متكئون فيها ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ينظر بعضهم إلى بعض وهم في جلسات تنعم، وأخبر عنهم أنهم في حال جلوسهم متقابلين يسقون بواسطة خدم من الملائكة خاص فقال:

(٤٥) - (٤٦) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي من خمر تجري بها الأنهار كأنها عيون الماء، ووصف الخمر بأنها بيضاء وأنها لذة عظيمة للشاربين لها، وأنها لا فيها غول وهو ما يغتال أبدانهم كالصداع ووجع البطن فقال:

(٤٧) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[٢]﴾ أي لا يسكرون بها فتذهب بعقولهم.

(٤٨) وقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ يعني أن لهم نساء هنّ أزواج لهم ومعنى قاصرات الطرف أي على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم وذلك لحسنهم وجمالهم فلا تنظر الواحدة منهن إلا إلى زوجها. وقوله: ﴿عِينٌ﴾ أي واسعات الأعين.

(٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ[٣] مَّكْنُونٌ﴾ هذا وصف لنساء الجنة وأنهن بيض الأجسام بياضًا كبياض بيض النعام إذ هو أبيض مشرب بصفرة وهو من أحسن أنواع الجمال في النساء، ومعنى ﴿مَّكْنُونٌ﴾ مستور لا يناله غبار ولا أي أذى.

هداية الآيات:

١ - بيان عدالة الحق تبارك وتعالى في أنه يجزي السيئة بمثلها ولا يؤاخذ أحدًا بغير كسبه في الحياة الدنيا.

٢ - بيان فضل الله تعالى إذ يجزي المؤمنين الحسنة بعشر أمثالها إلى أكثر من سبعمائة.

= وهو الغالب في الاستدراك قرأ الجمهور: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ باسم المفعول وقرأها غيرهم باسم الفاعل بكسر اللام والمراد بهم أمة محمد ﷺ كما روي عن الشافعي قوله:

ومما زادني شرفاً وفخراً … وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي … وأن أرسلت أحمد لي نبيا

(١) عطف بيان من رزق معلوم والمعنى أن طعامهم كله من الأطعمة التي يتفكه بها لا مما يؤكل للشبع.

(٢) ﴿وَلَا﴾ بالبناء للمجهول قراءة الجمهور من نزف الشارب فهو منزوف ونزيف شبهوا عقل الشارب بالدم يقال: نزف دم الجريح أي: أفرغ وأصله من نزف الرجل ماء البئر إذا نزحه ولم يبعد منه شيئاً. وقرأ البعض: ﴿ينزفون﴾ من أنزف الرباعي الشارب إذا ذهب عقله بالسكر أي: صار ذا نزف فالهمزة للصيرورة لا للتعدية.

(٣) العرب تشبه النساء بالبيض لصفائهن وبياضهن قال امرؤ القيس الشاعر الجاهلي:

وبيضة خدر لا يُرام خباؤها … تمتعت من لهو بها غير معجل

أطلق لفظ البيضة على المرأة.

٣ - تقرير البعث وبيان بعض ما يجري فيه من قول وعمل.

٤ - وصف نعيم أهل الجنة طعامًا وشرابًا وجلوسًا واستمتاعًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٠ - ٦١]

(٥٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي أقبل أهل الجنة. ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾: أي عما مرّ بهم في الدنيا وما جرى لهم فيها.

(٥١) ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾: أي كان لي صاحب ينكر البعث الآخر.

(٥٢) ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾: أي يقول تبكيتًا لي وتوبيخًا أي بالبعث والجزاء.

(٥٣) ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾: أي محاسبون ومجزيون بأعمالنا في الدنيا إنكارًا وتكذيبًا.

(٥٤) ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾: أي معي إلى النار لننظر حاله وما هو فيه من العذاب.

(٥٥) ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾: أي في وسط النار.

(٥٦) ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾: أي قال هذا تشميتًا به، ومعنى تردين تهلكني.

(٥٧) ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾: أي المسوقين إلى جهنم المحضرين فيها.

(٥٨) ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾: أمخلدون فما نحن بميتين، والاستفهام للتقرير أي نعم.

(٥٩) ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾: التي ماتوها في الدنيا.

(٦١) ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾: أي لمثل هذا النعيم من الخلود في الجنة والنعم فيها فليعمل العاملون وذلك بكثرة الصالحات واجتناب السيئات.

معنى الآيات:

(٥٢) ما زال السياق في بيان نعيم أهل الجنة فقد قال بعضهم لبعض بعد أن جلسوا على السرر متقابلين يتجاذبون أطراف الحديث متذكرين ما مرّ بهم من أحداث في الحياة الدنيا فقال أحدهم إنّي كان لي في الدنيا قرين أي صاحب يقول لي استهزاءً وإنكارًا للبعث الآخر ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي بالبعث والجزاء على الأعمال في الدنيا.

(٥٣) ويقول أيضًا مستبعدًا منكرًا ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي محاسبون ومجزيون.

(٥٤) - (٥٥) ثم قال ذلك القائل لبعض أهل مجلسه: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾[(١)] أي معي على أهل النار لنرى صاحبي فيها ونسأله عن حاله فكأنهم أبوا عليه ذلك وأبوا أن يطلعوا أما هو فقد اطلع ﴿فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي في وسطها[(٢)]، وقال له ما أخبر تعالى به عنه في قوله:

(٥٦) ﴿قَالَ تَاللَّهِ﴾ أي والله ﴿إِن كِدتَّ﴾[(٣)] ﴿لَتُرْدِينِ﴾ أي تهلكني لما كنت تنكر علي الإيمان بالبعث وتسخر مني وتشمت بي لإيماني وعملي الصالح الذي كنت أرجو ثوابه وهو حاصل الآن.

(٥٧) وقال أيضًا: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ علي بالعصمة والحفظ لكنت من المحضرين الآن في جهنم معك.

(٥٨) - (٥٩) ثم قال له: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۞ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ والاستفهام تقريري فهو يقرره ليقول نعم[(٤)] مخلدون نحن في الجنة وأنتم في النار. ثم قال إن هذا أي الخلود في دار النعيم.

(٦٠) ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إذ كان نجاة

---

(١) أورد البخاري إيرادات لا حاجة إليها منها: قيل: القرين هو من الشياطين وقرىء: ﴿من المصدقين﴾ بتشديد الصاد والدال من التصدق بالمال، وجعل ﴿أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أنه من قول الله تعالى أو قول ملك. وما في التفسير هو الصواب ولا داعي لإيراد ما بخلافه إذ لا فائدة منه إلا تذبذب الرأي واضطراب الفكر.

(٢) قال ابن مسعود رضي الله عنه: يقال: تعبت حتى انقطع سوائي أي: وسطي وقال بعض العلماء: لولا أن الله عرفه إياه لما عرفه إذ تغير حبره وسبره أي: اللون والهيئة.

(٣) ﴿إِن كِدتَّ﴾ إن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير ثان محذوف واللام في ﴿لَتُرْدِينِ﴾هي الدالة على أن (إن) ليست نافية ولذا تُسمّى باللام الفارقة.

(٤) وجائز أن يكون هذا القول موجهاً إلى أصحاب الأرائك أهل النعيم بعد أن فرغ المؤمن من الحديث مع قرينه في سواء الجحيم قال لرفاقه في النعيم مقرراً: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) ..﴾ الآية.
والسياق يساعد على جواز هذا.

من النار وهي أعظم مرهوب مخوف، ودخولاً للجنة دار السلام والنعيم المقيم.

(٦١) قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ أي هذا الفوز العظيم بالنجاة من النار والخلود في دار الأبرار ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أي فليواصلوا عملهم وليخلصوا فيه لله ربّ العالمين.

هداية الآيات:

١ - بيان عظمة الله تعالى في إقدار المؤمن على أن يتكلم مع من هو في وسط الجحيم ويرى صورته ويتخاطب معه ويفهم بعضهم بعضًا، والعرض التلفازي اليوم قد سهل إدراك هذه الحقيقة.

٢ - التحذير من قرناء السوء كالشباب الملحد وغيره.

٣ - بيان كيف كان المكذبون يسخرون من المؤمنين ويعدونهم متخلفين عقليًا.

٤ - لا موت في الآخرة[(١)] وإنما حياة أبدية في النعيم أو في الجحيم.

٥ - الحث على كثرة الأعمال الصالحة، والبعد عن الأعمال الفاسدة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٢ - ٧٤]

(٦٢) ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾: أي ذلك المذكور لأهل الجنة خير نُزلاً وهو ما يعد للنازل من ضيف وغيره. ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾: المعدة لأهل النار وهي من أخبث الشجر طعمًا ومرارة.

(٦٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾: أي امتحانًا واختبارًا لهم في الدنيا وعذابًا لهم في الآخرة.

(٦٤) ﴿تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾: أي في قعر الجحيم وأغصانها في دركاتها.

(٦٥) ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾: أي ما يطلع من ثمرها أولاً كالحيات القبيحة المنظر.

(٦٧) ﴿إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: أي بعد أكلها يسقون ماء حميمًا فذلك الشوب أي الخلط.

(٦٩) ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ﴾: أي وجدوا آباءهم.

(٧٠) ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾: أي يسرعون مندفعين إلى أتباعهم بدون فكر ولا رويّة.

(٧٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾: أي رسلاً منذرين لهم من العذاب.

(٧٣) ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾: إنها كانت عذابًا أليمًا لإصرارهم على الكفر.

(٧٤) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾: فإنهم نجوا من العذاب ولم يهلكوا.

معنى الآيات:

(٦٢) - (٦٣) لما ذكر تعالى ما أعده لأهل الإيمان به وطاعته وطاعة رسوله ﷺ من النعيم المقيم في الجنة دار الأبرار قال ﴿أَذَٰلِكَ﴾[(٢)] المذكور من النعيم في الجنة ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ والنزل ما يُعد[(٣)] من قرى للضيف النازل وغيره ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾، أي ثمرها وهو ثمر سمج مرّ قبيح المنظر. ثم أخبر تعالى أنه جعلها فتنة للظالمين من كفار قريش إذ قالوا لما سمعوا بها كيف تنبت الشجرة في النار والنار تحرق الشجر، فكذبوا بها فكان ذلك فتنة لهم.

(٦٤) ثم وصفها تعالى بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي في قعرها وتمتد فروعها في دركات النار.

(٦٥) وقوله طلعها أي ما يطلع من ثمرها في قبح منظره ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[(٤)] لأنّ العرب تضرب المثل

---

(١) قيل لأحد الحكماء: ما شر من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت وقال الشاعر:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وكون لا موت في الآخرة صح فيه الحديث: «**إذ يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ويذبح بين الجنة والنار وينادي منادٍ يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت**».

(٢) ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، ونزلاً: تمييز، والمعنى: أنعيم الجنة خير نزلاً أم شجرة الزقوم خير نزلاً؟

(٣) قري الضيف: هو ما يُعدّ له من طعام وشراب وفراش ويسمى النزل بضم النون والزاي ويجوز تسكين الزاي.

(٤) مما تعارف عليه العرب أنهم يصورون كل قبيح (بصورة الشياطين) قال امرؤ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ... ومسنونة زرق كأنياب أغوالي

انظر كيف صور سهامه المحددة بصورة أنياب الأغوال ولا يوجد أغوال في الواقع وإنما مجرد تصور وتقدير لا غير.

بالشيطان في القبح كما أن هناك حيات يسمونها بالشيطان قبيحة المنظر.

(٦٦) وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي الظلمة المشركين ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ أي من شجرة[1] الزقوم لشدة جوعهم ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝﴾ أي بطونهم.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ۝﴾ وذلك أنهم لما يأكلون يعطشون فيسقون من حميم فذلك الشوب من الحميم إذ الشوب الخلط والمزج يُقال شاب اللبن بالماء أي خلطه به.

(٦٨) وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۝﴾ أي مردهم إلى الجحيم بعدما يأكلون ويشربون في مجالس خاصة بالأكل والشرب يردون إلى نار الجحيم.

(٦٩) وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝﴾ أي وجدوا آباءهم ضالين عن طريق الهدى والرشاد.

(٧٠) ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ[2] ۝﴾ أي يهرولون مسرعين وراءهم يتبعونهم في الشرك والكفر والضلال.

(٧١) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾ أي فليس هؤلاء أول من ضل.

(٧٢)-(٧٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي في أولئك الضالين من الأقوام السالفين منذرين أي رسلاً ينذرونهم فلم يؤمنوا فأهلكناهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ۝﴾ إنها كانت هلاكًا ودمارًا للكافرين.

(٧٤) وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[3] ۝﴾ استثناء منه تعالى لعباده المؤمنين الصالحين وهم الذين استخلصهم لعبادته بذكره وشكره فآمنوا وأطاعوا فإنه تعالى نجاهم وأهلك أعداءهم الكافرين المكذبين وفي الآية تهديد ووعيد لكفار قريش بما لا مزيد عليه.

هداية الآيات:

١ - بيان أحسن الأساليب في الدعوة وهو الترهيب والترغيب.

٢ - تقرير البعث والجزاء بأسلوب العرض للأحداث التي تتم في القيامة.

٤ - التنديد بالاتباع في الضلال للآباء والأجداد وأهل البلاد.

٥ - إهلاك الله تعالى للظالمين وإنجاؤه للمؤمنين عند الأخذ بالذنوب في الدنيا والآخرة.

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

٤٤٩

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٥ - ٨٢]

(٧٥) ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾: أي قال إني مغلوب فانتصر «من سورة القمر». ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾: أي له إذ نجيناه وأهلكنا الكافرين من قومه.

(٧٦) ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾: أي عذاب الغرق بالطوفان.

(٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۝﴾: إذ عامة الناس كانوا من ذريّته سام، وحام ويافث.

(٧٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝﴾: أي أبقينا عليه ثناءً حسنًا عند سائر الأمم والشعوب.

(٧٩) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۝﴾: أي سلام منا على نوح في العالمين أي في الناس أجمعين.

(٨٠) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝﴾: أي كما جزينا نوحًا بالذكر الحسن

---

(١) هذا الطعام والشراب مقابل ما لأهل الجنة من ﴿رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ ﴿فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣)﴾.

(٢) الإهراع: الإسراع من شخص يستحثه بشيء على الإسراع والهرولة.

(٣) الاستثناء متصل لأن المخلصين كانوا من جملة المنذرين فصدقوا المنذرين واتبعوهم وذلك باستخلاص الله تعالى لهم لعبادته والدعوة إليه.

والسلام في العالمين نجزي المحسنين.

(٨٢) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾: أي كفار قومه المشركين بعد إنجاء المؤمنين في السفينة.

معنى الآيات:

على إثر ذكره تعالى إهلاك المنذرين وإنجائه المؤمنين من عباده المخلصين ذكر قصة تاريخية لذلك وهي نوح وقومه حيث أنذر نوح قومه ولما جاء العذاب أنجى الله عباده المخلصين وأهلك المكذبين المنذرين.

(٧٥) فقال تعالى في ذكر هذه القصة الموجزة ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أي دعانا لنصرته من قومه ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ نحن له.

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ باستثناء امرأته وولده كنعان ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو عذاب الغرق.

(٧٧) وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ إلى يوم القيامة وهذا جزاء له على صبره في دعوته وإخلاصه وصدقه فيها إذ كل الناس اليوم من أولاده الثلاثة وهم[١] سام وهو أبو العرب والروم وفارس، وحام وهو أبو السودان ويافث وهو أبو الترك والخزر وهم التتار ضيقوا العيون ولهذا سموا الخزر من خزر العين وهو ضيقها وصغرها، ويأجوج ومأجوج.

(٧٨) وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾[٢] أي في أجيال البشرية التي أتت بعده وهو الذكر الحسن والثناء العطر المعبر عنه بقوله تعالى: (٧٩) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٨٠) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزينا نوحا لإيمانه وصبره وتقواه وصدقه ونصحه وإخلاصه نجزي المحسنين في إيمانهم وتقواهم وهذه بشرى للمؤمنين.

(٨١) وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثناء عليه وبيان لعلة الإكرام والإنعام عليه. ودعوة إلى الإيمان بالترغيب فيه.

(٨٢) وقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي أغرقناهم بالطوفان بكفرهم وشركهم وتكذيبهم بعد أن أنجينا المؤمنين.

هداية الآيات:

١ - بيان إكرام الله لأوليائه، وإهانته لأعدائه.

٢ - إجابة دعاء الصالحين لا سيما عندما يظلمون.

٣ - فضل الإحسان وحسن عاقبة أهله.

٤ - فضل الإيمان و كرامة أهله عند الله في الدنيا والآخرة.

٥ - قول سلام على نوح في العالمين إذا قاله المؤمن حين يمسي[٣] أو يصبح يحفظه الله تعالى من لسعة العقرب. وأصح منه قول: أعوذ بكلمات الله التامة[٤] من شر ما خلق لصحة الحديث في ذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٣ - ٩٨]

(٨٣) ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾: وإن من أشياع نوح على ملته ومنهاجه إبراهيم الخليل عليهما السلام.

(٨٤) ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: أي أتى ربّه بقلب سليم من الشرك والشك والالتفات إلى غير الرب سبحانه وتعالى.

(٨٥) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾: أي حين قال لأبيه وقومه المشركين أي شيء تعبدون؟.

(٨٦) ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾: أي كذبا هو أسوأ الكذب تريدون آلهة غير الله؟.

(٨٧) ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي شيء هو؟ أترون أنه لا يسخط عليكم ولا يعاقبكم فتعبدون غيره

---

(١) عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح عليه السلام ثلاثة: سام ويافث وحام وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة فولد سام العرب وفارس والروم: وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج وولد حام القبط والسودان والبربر.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: يُذكر بخير، قال مجاهد: لسان صدق في الأنبياء.

(٣) وقال سعيد بن المسيب: وبلغني أنه من قال حين يمسي: «سلام على نوح في العالمين لم تلدغه عقرب» ذكره أبو عمرو وابن عبدالبر في التمهيد ونقله عنه القرطبي.

(٤) روى مالك في الموطأ عن خولة بنت حكيم أن رسول الله ﷺ قال: **«من نزل منزلاً فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق فإنه لن يضره شيء حتى يرتحل»**.

وهو ربكم ورب العالمين.

(٨٨) ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾: أي إيهامًا لهم إذ كانوا يؤلهون النجوم.

(٨٩) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾: أي عليل أي ذو سقم وهو المرض والعلة.

(٩٠) ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾: أي رجعوا إلى ما هم فيه وتركوه قابلين عذره.

(٩١) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾: أي مال إليها خفية.

(٩٣) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾: أي بقوة يمينه فكسرها بفأس وحطمها.

(٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾: أي يمشون بقوة وسرعة.

(٩٥) ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾: من الحجارة والأخشاب والمعادن كالذهب والفضة.

(٩٦) ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾: أي وخلق ما تعبدون من أصنام وكواكب.

(٩٧) ﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾: واملؤوه حطبًا وأضرموا فيه النار فإذا التهب ألقوه فيه.

(٩٨) ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾: أي المقهورين الخائبين في كيدهم إذ نجّى الله إبراهيم.

معنى الآيات:

(٨٣) لما ذكر تعالى قصة نوح مقررًا بها نصرة أوليائه وخذلان أعدائه ذكر قصة أخرى هي قصة إبراهيم وهي أكبر موعظة لكفار قريش لأنهم ينتمون إلى إبراهيم ويدّعون أنهم على ملته وملة ولده إسماعيل فلذا أطال الحديث فيها فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ[1] لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي وإن من أشياع نوح الذين هم على ملته ومنهجه إبراهيم خليل الرحمن.

(٨٤) ـ (٨٥) ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي إذ أتى[2] ربّه بقلب سليم من الشرك والشك والالتفات إلى غير الربّ تعالى في الوقت الذي ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾، منكرًا عليهم عبادة الأصنام فلو كان في قلبه أدنى التفاتة إلى غيره طمعًا أو خوفًا ما أمكنه أن يقول الذي قال بل كان في تلك الساعة سليم القلب ليس فيه نظر لغير الله تعالى وقوله:

(٨٦) ﴿أَئِفْكًا[3] ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي أكذبًا هو أسوأ الكذب تريدون آلهة غير الله حيث جعلتموها بكذبكم بألسنتكم آلهة وهي أحجار وأصنام.

(٨٧) وقوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد عبدتم الكذب دونه إذ آلهتكم ما هي إلا كذب بحت. أترون أن الله لا يسخط عليكم ولا يعاقبكم؟

(٨٨) ـ (٨٩) وقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ هنا كلام محذوف دل عليه المقام وهو أن أهل البلد قد عزموا على الخروج إلى عيد لهم يقضونه خارج البلد، فعرضوا عليه الخروج معهم فاعتذر بقوله إني سقيم أي ذو سقم بعد أن نظر في النجوم موهمًا لهم أنه رأى ما دله على أنه سيصاب بسقم وهو مرض الطاعون وكان القوم منجمين ينظرون إلى النجوم فيدعون أنهم يعرفون بذلك الخير والشر الذي ينزل إلى الأرض بواسطة الكواكب فأوهمهم بذلك فتركوه خوفًا من عدوى الطاعون، أو تركوه قبولاً لعذره[4] هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

(٩٠) ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي لذلك ورجعوا إلى أمورهم وما هم عازمون عليه من الخروج إلى العيد خارج البلد وهو معنى فتولوا عنه مدبرين وهنا وقد

---

(١) وقيل: هاء الضمير عائدة إلى محمد ﷺ ليكون المعنى وإن من شيعة محمد إبراهيم وهو حقاً من شيعته ولكن السياق يأباه بل المراد نوح عليه السلام.

(٢) قيل: في مجيئه ربه بقلب سليم إما أن يكون عند دعائه إلى توحيده، أو عند إلقائه في النار.

(٣) الاستفهام إنكاري إذ هو أنكر على قومه عبادة وتأليه غير الله تعالى، وقوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧)﴾ استفهام متفرع عما قبله وهما للإنكار الأول والثاني. فالأول أنكر عليهم اتخاذهم آلهة دونه تعالى والثاني أنكر عليهم سوء ظنهم بالله حتى عبدوا آلهة غيره.

(٤) شاهد هذا حديث الصحيح: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثاً اثنتين منهن في ذات الله عز وجل قوله: إني سقيم وقوله: بل فعله كبيرهم هذا. وبينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فسأله عن سارة فقال هي أختي**» الحديث.

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

٤٥٠

خلا له المكان الذي فيه الآلهة من الحراس والعبّاد والزوّار للآلهة في بهوها الخاص فنفّذ ما حلف على تنفيذه في مناظرة كانت بينه وبين بعضهم إذ قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ وبدأ المهمة فقال للآلهة وأنواع الأطعمة أمامها تلك الأطعمة من الحلويات وغيرها التي يتركها المشركون لتباركها الآلهة ثم يأكلونها رجاء بركتها.

﴿٩١﴾ ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ عارضًا عليها الأكل سخرية بها فلم تجبه ولم تأكل فقال لها:

﴿٩٢﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ ثم انهال عليها ضربًا بفأس بيده اليمنى فكسرها وجعلها جذاذًا أي قطعًا متناثرة. فلما رجعوا من عيدهم مساءً وجاؤوا بهو الآلهة ليأخذوا الأطعمة وجدوا الآلهة مكسرة.

﴿٩٤﴾ ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي مسرعين بأن طلبوا من رجالهم إحضاره على الفور فأحضروه وأخذوا يحاكمونه فقال في دفاعه:

﴿٩٥﴾ ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي بأيديكم من أصنام بعضها من حجر وبعضها من خشب ومن فضة ومن ذهب أيضًا.

﴿٩٦﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ من كل عمل من أعمالكم فلم لا تعبدونه، وتعبدون أصنامًا لا تنفع ولا تضر، ولما غلبهم في الحجة وانهزموا أمامه أصدروا أمرهم بإحراقه بالنار فقالوا:

﴿٩٧﴾ ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ أي فرنًا عظيمًا واملؤوه حطبًا وأضرموا فيه النار حتى إذا التهب فألقوه في جحيمه وهو معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿٩٨﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا۟﴾ أي بإبراهيم ﴿كَيْدًا﴾ أي شرًا وذلك بعزمهم على إحراقه وتنفيذهم ما عزموا عليه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي المتهورين المغلوبين إذ قال تعالى للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكانت فخرج منها إبراهيم ولم يُحرق سوى كتافيه الذي في يديه ورجليه وخيب الله سعي المشركين وأذلهم أمام إبراهيم وأخزاهم وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[1] وقد جمع الله تعالى لهم بين الخسران في كل ما أملوه من عملهم والذل الذي ما فارقهم.

هداية الآيات:

١ - أصل الدين واحد فالإسلام هو دين الله الذي تعبد به آدم فمن بعده إلى محمد ﷺ.

٢ - كمال إبراهيم في سلامة قلبه من الالتفات إلى غير الله تعالى حتى إن جبريل قد عرض له وهو في طريقه إلى الجحيم الذي أعده له قومه فقال [هل لك حاجة يا إبراهيم؟ فقال: أما إليك فلا].

٣ - من أقبح الكذب ادعاء أن غير الله يعبد مع الله تبركًا به أو طلبًا لشفاعته.

٤ - وجوب تغيير المنكر عند القدرة عليه.

٥ - بيان ابتلاء إبراهيم وأنه أُلقي في النار فصبر، ولذا أكرمه ربه بما سيأتي في السياق بيانه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩٩ - ١١٣]

﴿٩٩﴾ ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾: أي إني مهاجر إلى ربي سيهدين إلى مكان أعبده فيه فلا أمنع فيه من عبادته.

﴿١٠٠﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أي ولدًا من الصالحين.

﴿١٠١﴾ ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾: أي ذي حلم

(١) هذه الجملة من سورة الأنبياء ذكرت هنا شاهداً مبيناً لغاية كيدهم وهو خسرانهم فيما دبروا وفعلوا.

وصبر كثير يولد له.

(١٠٢) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾: أي بلغ من العمر ما أصبح يقدر فيه على العمل كسبع سنين فأكثر. ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾: أي من الرأي الرشد. ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: أي على الذبح الذي أمرت به.

(١٠٣) ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾: أي خضعا لأمر الله الولد والوالد وانقادا له. ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾: أي صرعه على جبينه بأن وضع جبينه على الأرض ولكل إنسان جبينان أيمن وأيسر والجبهة بينهما.

(١٠٥) ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾: أي بما عزمت عليه وفعلته من الخروج بالولد إلى منى وصرعه على الأرض وإمرار السكين على حلقه.

(١٠٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝﴾: أي الأمر بالذبح اختبار عظيم.

(١٠٧) ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝﴾: أي كبش كبير.

(١٠٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝﴾: أي أبقينا عليه ثناءً وذكرًا حسنًا فيمن جاء بعده من الناس.

(١١٣) ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾: أي وباركنا عليه بتكثير ذريته وذرية إسحق حتى إن عامة الأنبياء من ذريتهما.

معنى الآيات:

(٩٩) ما زال السياق الكريم في قصة إبراهيم الخليل إنه بعد أن أُلقي به في النار وخرج بحمد الله سالمًا قرر الهجرة وترك البلاد، وقال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أي إني ذاهب إلى حيث أذن لي ربي بالهجرة إليه حيث أتمكن من عبادته فذهب إلى بلاد الشام ونزل أولاً بحران من الشام، وقوله سيهدين أي يثبتني بدوام هدايته لي.

(١٠٠) ودعا ربّه قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝﴾ أي ارزقني أولادًا صالحين. فاستجاب الله تعالى له وذلك أنه سافر في أرض القدس مع زوجته سارة وانتهى إلى مصر، وحدث أن وهب طاغية مصر جارية لسارة تسمى هاجر فوهبتها سارة لزوجها إبراهيم فتسراها فولدت له غلامًا هو إسماعيل وهو استجابة الله تعالى لإبراهيم في دعائه عند هجرته ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝﴾ وهو قوله تعالى:

(١٠١) ـ (١٠٢) ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝﴾ وقد أخذ سارة ما يأخذ النساء من الغيرة لما رأت جارية إبراهيم أنجبت له إسماعيل فأمر الله إبراهيم بأن يأخذها وطفلها إلى مكة إبعادًا لها عن سارة ليقل تألمها. وهناك بمكة رأى إبراهيم رؤيته ورؤيا الأنبياء وحي وقال لإسماعيل ما أخبر تعالى به في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ كابن سبع سنين[١] فأكثر بمعنى أصبح قادرًا على العمل معه ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ أي استشاره ليرى رأيه في القبول أو الرفض فأجاب إسماعيل قائلاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما يأمرك به ربك ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وفعلاً خرج به إبراهيم من حول البيت إلى منى[٢] وانتهى إلى مكان تجاوز به مكان الجمرات الثلاث.

(١٠٣) ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝﴾ أي صرعه على جبينه بأن وضع جبينه على الأرض وأخذ المدية ووضعها على رقبته والتفت لأمر ما وإذا بكبش أملح والهاتف يقول اترك ذاك وخذ هذا فترك الولد وذبح الكبش وكانت آية.

(١٠٧) وهو قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝﴾.

(١٠٤) ـ (١٠٦) وقوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الاختبار البيّن وبذلك تأهل للخلة وأصبح خليل الرحمٰن، وقوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ أي إسماعيل ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[٣] أي بكبش عظيم.

---

(١) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه بلغ الثالثة عشر من عمره وفي هذا أقوال ولهذا في التفسير قلنا: سبع سنين فأكثر إذ بداية السعي من السابعة والبلوغ ينتهي إلى الخامسة عشر.

(٢) قيل: إن إبراهيم لما رأى الرؤيا كانت ليلة يوم التروية وهو ثامن الحجة فسمي اليوم يوم التروية إذ تروّى فيه ويوم التاسع عرف أن الرؤيا حق لذا سمّي يوم عرفة ويوم العاشر خرج بإسماعيل ليذبحه فسمي يوم النحر لذلك والله أعلم.

(٣) اختلف في أيهما الذبيح أهو إسماعيل أم إسحق والراجح أنه إسماعيل لأن الذبح كان في مكة ولم يكن في الشام لأن إسماعيل عاش بمكة ولم يعش بالشام ولأن هاجر كانت في مكة وسارة كانت بالشام ويبلغ الخلاف حتى قال بعضهم: نفوض فكان

وهو الذي ذبحه إبراهيم وترك إسماعيل[1].

(١٠٨) وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝﴾ أي أبقينا عليه ثناءً عاطرًا وذكرًا حسنًا فيمن جاء بعده من الأمم والشعوب.

(١٠٩) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝﴾ أي سلام من الله على إبراهيم كذلك أي:

(١١٠) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء الذي جزى به الله تعالى إبراهيم على إيمانه وهجرته وصبره وطاعته ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝﴾.

(١١١) وقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ وفي هذا ثناء عاطر على المؤمنين.

(١١٢) وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝﴾ وهذا يوم جاءه الضيف من الملائكة وهم في طريقهم إلى المؤتفكات قرى قوم لوط، وذلك بعد أن بلغ من العمر عتيًا وامرأته سارة كذلك إذ قالت ساعة البشرى: ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ وعجبًا لمن يقول إن الذبيح إسحق وليس إسماعيل.

(١١٣) وقوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أي وباركنا عليه بتكثير ذريته وذريّة إسحاق حتى إن عامة الأنبياء من بعدهما من ذريّتهما. وقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي إبراهيم وإسحق ﴿مُحْسِنٌ﴾ أي مؤمن صالح ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

١ - فضل الهجرة في سبيل الله وأن أول هجرة كانت في الأرض هي هجرة إبراهيم من العراق إلى الشام.

٢ - بيان أن الذبيح هو إسماعيل وليس هو إسحق كما يقول البعض وكما يدّعي اليهود.

٣ - وجوب بر الوالدين وطاعتهما في المعروف.

٤ - فضل إبراهيم وعلو مقامه وكرامته عند ربّه.

٥ - فضل الإحسان وجزاء المحسنين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١٤ ـ ١٢٢]

(١١٤) ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝﴾: أي بالنبوة والرسالة.

(١١٥) ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾: أي بني إسرائيل. ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾: أي استعباد فرعون إياهم واضطهاده لهم.

(١١٦) ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾: على فرعون وجنوده.

(١١٧) ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾: أي التوراة الموضحة الأحكام والشرائع.

(١١٨) ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾: أي الإسلام لله ربّ العالمين.

(١١٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ۝﴾: أي أبقينا عليهما في الآخرين ثناءً حسنًا.

(١٢٠) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝﴾: أي سلام منا على موسى وهارون.

(١٢١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾: أي كما جزيناهما نجزي المحسنين من عبادنا المؤمنين.

(١٢٢) ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾: أي جزيناهما بما جزيناهما به لإيمانهما.

معنى الآيات:

(١١٤) ما زال السياق في ذكر إفضال الله وإنعامه على من يشاء من عباده فبعد ذكر إنعامه على إبراهيم وولده إسحاق ذكر من ذريّتهما المحسنين موسى وهارون فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝﴾ أي بالنبوة والرسالة[2].

(١١٥) ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ أي بني

= التفويض مذهباً ثالثاً والذي أثار هذا الخلاف هم أهل الكتاب يريدون سلب هذا الفضل عن النبي محمد ﷺ وفي الأبيات الآتية إشارة إلى ذلك:

إن الذبيح هُديت إسماعيل ... نطق الكتابُ بذاك والتنزيل
شرف به خص الإله نبينا ... وأتى به التفسير والتأويل
إن كنت أمّته فلا تنكر له ... شرفاً به قد خصه التفضيل

(١) ضعّف القرطبي رواية الرجل الذي نادى رسول الله ﷺ قائلاً: يا ابن الذبيحيْن فضحك ﷺ. فلا أرى وجهاً صحيحاً لتضعيفها إذ صح أن الذبيح الأول هو إسماعيل والثاني عبدالله الوالد إذ كل منهما أريد ذبحه والله فداه ولله الحمد والمنة.

(٢) كانت النبوة والرسالة منة لأن موسى لم يكتسبها بعمل وهارون أعطيها بدعوة أخيه موسى فلم يكتسبها بأي جهد فهي إذاً منة محضة.

إسرائيل ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو استعباد فرعون والأقباط لهم واضطهادهم زمنًا طويلًا.

﴿١١٦﴾ ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ أي على فرعون وملإه[1] ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

﴿١١٧﴾ ﴿وَآتَيْنَاهُمَا﴾[2] أي أعطيناهما ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ وهو التوراة الواضحة الأحكام البيّن الشرائع لا خفاء فيها ولا غموض.

﴿١١٨﴾ ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو الدين الصحيح الذي هو الإسلام دين الله الذي بعث به كافة رسله.

﴿١١٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أي وأبقينا عليهما الذكر الحسن والثناء العطر فيمن بعدهما.

﴿١٢٠﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

﴿١٢١﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[3] أي كما جزيناهما لإحسانهما نجزي المحسنين.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه بيان لعلة ما وهبهما من الإنعام والإفضال وهو الإيمان المقتضي للإسلام والإحسان.

هداية الآيات:

١ - بيان إكرام الله تعالى لرسوليه موسى وهارون عليهما السلام.

٢ - بيان إنعام الله تعالى على بني إسرائيل بإنجائهم من آل فرعون ونصرته لهم عليهم.

٣ - بيان أن الإسلام دين سائر الأنبياء وليس خاصًا بأمة الإسلام.

٤ - بيان فضل الإحسان والإيمان.

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

٤٥١

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢٣ ـ ١٣٢]

﴿١٢٣﴾ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: إلياس هو أحد أنبياء بني إسرائيل من سبط هارون أرسله الله تعالى إلى أهل مدينة بعلبك بالشام.

﴿١٢٥﴾ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾: أي صنمًا يسمى بعلًا. ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾: أي وتتركون عبادة الله أحسن الخالقين.

﴿١٢٧﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: أي في النار.

﴿١٢٨﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾: أي فإنهم نجوا من النار.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾: أي أبقينا عليه في الآخرين ذكرًا حسنًا.

﴿١٣٠﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾: أي سلام منا على إلياس.

معنى الآيات:

﴿١٢٣﴾ ما زال السياق في ذكر إنعام الله تعالى على بعض أنبيائه ورسله فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[4] وهو من سبط هارون عليه السلام أحد أنبياء بني إسرائيل أخبر تعالى أنه من

---

(١) إذ خرج فرعون في جيش عرمرم قوامه مائة ألف من الفرسان فقط ثم نجى الله تعالى بني إسرائيل وأغرق فرعون وجنده أجمعين فكان نصراً عظيماً لموسى على فرعون وملائه أجمعين.

(٢) موسى أوتي الكتاب أصالة وهارون بالتبعية لأخيه موسى.

(٣) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ جملة تذييلية وإن كانت تحمل معنى التعليل والتوكيد، والمحسنون مَنْ أحسنوا طاعة الله تعالى فأطاعوه بما يحب من أفعال وتروك على نحو ما شرعه لهم وجملة ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ تعليلية للإنعام السابق.

(٤) قدم تعالى ذكر نوح وإبراهيم وموسى وكلهم رسل أصحاب شرائع وعقب عليهم بذكر ثلاثة آخرين ليست لهم شرائع مستقلة وهم إلياس ولوط ويونس واسم إلياس في كتب بني إسرائيل «إيليا».

المرسلين[1] أي اذكر إذ قال لقومه وهم أهل مدينة بعلبك وما حولها: ﴿١٢٤﴾ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾[2] أي الله تعالى بعبادته وترك عبادة غيره، وهذا دليل على أنه رسول.

﴿١٢٥﴾ - ﴿١٢٦﴾ وقوله عليه السلام: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ هذا إنكار منه لهم على عبادة صنم كبير لهم يسمونه بعلاً، أي كيف تعبدون صنمًا بدعائه والعكوف عليه والذبح والنذر له، وتتركون عبادة الله ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ[3] رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾.

﴿١٢٧﴾ قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي في أنه لا إله إلا الله ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ فأحضروا في جهنم فهم من المحضرين فيها.

﴿١٢٨﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝﴾ أي الموحدين فإنهم ليسوا في النار بل هم في الجنة.

﴿١٢٩﴾ وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝﴾ أي وأبقينا له ذكرًا حسنًا في الذين جاؤوا من بعده من الناس.

﴿١٣٠﴾ وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ﴾ أي منا ﴿عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾[4].

﴿١٣١﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي كما جزينا إلياس لإحسانه في طاعتنا ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿١٣٢﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ أي استحق تكريمنا والجزاء الحسن لأنه من عبادنا المؤمنين.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد، والتنديد بالشرك.

٢ - هلاك المشركين[5] ونجاة الموحدين يوم القيامة.

٣ - فضل الإحسان ومجازاة أهله بحسن الجزاء.

٤ - فضل الإيمان وأنه سبب كل خير وكمال.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٣ - ١٣٨]

﴿١٣٣﴾ ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾: أي وإن لوطًا وهو ابن هاران أخي إبراهيم الخليل لمن جملة الرسل أيضًا.

﴿١٣٤﴾ ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۝﴾: أي اذكر يا رسولنا ممن أنعمنا عليهم بالنبوة والرسالة لوطًا إذ نجيناه وأهله أجمعين من عذاب مطر السوء.

﴿١٣٥﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۝﴾: أي إلا امرأته الكافرة هلكت في الغابرين أي الباقين في العذاب.

﴿١٣٦﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۝﴾: أي أهلكنا الآخرين ممن عدا لوطًا والمؤمنين معه.

﴿١٣٧﴾ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾: أي في أسفاركم إلى فلسطين وغزة ومصر بالليل والنهار.

﴿١٣٨﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أي يا أهل مكة ما حل بهم فتعتبرون وتتعظون فتؤمنوا وتوحدوا.

معنى الآيات:

﴿١٣٣﴾ ما زال السياق في ذكر إنعام الله على من اصطفى من عباده فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا﴾ وهو ابن هاران أخي إبراهيم[6] عليهما السلام ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي لمن جُملة رسلنا.

﴿١٣٤﴾ ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ﴾ أي اذكر إنعامنا عليه إذ نجيناه من العذاب وأهله أجمعين.

﴿١٣٥﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۝﴾ وهي

---

(١) عد في جملة المرسلين لأن الله تعالى أمره بتبليغ ملوك بني إسرائيل أن الله غضب عليهم من أجل عبادة الأصنام. فإطلاق اسم الرسول عليه كإطلاقه على اسم رُسُل عيسى عليه السلام في سورة يسٓ.

(٢) ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، ينكر عليهم عدم تقواهم الله، ولا: نافية وحذف مفعول يتقون للعلم به. أي: ألا تتقون الله تعالى أو عذابه ونقمه.

(٣) قرأ نافع: والأكثرون ﴿الله﴾ بالرفع على الابتداء، وقرأ حفص: ﴿الله﴾ بالنصب على عطف البيان على أحسن الخالقين.

(٤) قرأ نافع: ﴿آل ياسين﴾ كآل محمد، وقرأ حفص: ﴿إل﴾ بكسر الهمزة وسكون اللام. واختلف هل إل ياسين معناه إلياس، أو معناه ذوو ياسين كآل بني فلان، والراجح أن المراد بآل ياسين أنصاره. نحو قول النبي ﷺ **«آل محمد كل تقي»**.

(٥) سياق قصة إلياس فيها تذكير للرسول ﷺ ولقريش أيضاً إذ على الرسول ﷺ أن يبلغ وليس عليه أن يأتي قومه بالعذاب ولو طالب به المدعون فإن إلياس لم يعذب الله قومه في الدنيا وترك عذابهم إلى الآخرة.

(٦) خرج لوط مع عمه إبراهيم عليه السلام بعد حادثة إلقاء إبراهيم في النار ونجاته منها فآمن له لوط وخرج معه مهاجراً فأرسله الله تعالى إلى أصحاب المؤتفكات وهي قرى سدوم وعمورة.

امرأته إذ كانت مع الكافرين فبقيت معهم فهلكت بهلاكهم.

﴿١٣٦﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝﴾ أي ممن عدا لوطًا ومن آمن به من قومه.

﴿١٣٧﴾ - ﴿١٣٨﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ[1] عَلَيْهِم[2] مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ﴾ هذا خطاب لأهل مكة المشركين إذ كانوا يسافرون للتجارة إلى الشام وفلسطين ويمرون بالبحر الميت وهو مكان الهالكين من قوم لوط أصبح بعد الخسف بحرًا ميتًا لا حياة فيه البتة. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3] توبيخ لهم وتقريع على عدم التفكر والتدبر إذ لو فكروا لعلموا أن الله تعالى أهلكهم لتكذيبهم برسولهم وكفرهم بما جاءهم به من الهدى والدين الحق، وقد كذب هؤلاء فأي مانع يمنع من وقوع عذاب بهم كما وقع بقوم لوط من قبلهم.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة لوط ورسالته.

٢ - بيان العبرة في إنجاء لوط والمؤمنين معه وإهلاك الكافرين المكذبين به.

٣ - بيان أن لا شفاعة تنفع[4] ولو كان الشافع أقرب قريب إلا بعد أن يأذن الله للشافع وبعد رضائه[5] عن المشفوع له.

٤ - وجوب التفكر والتعقل في الأحداث الكونية للاهتداء بذلك إلى معرفة سنن الله تعالى في الكون والحياة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣٩ - ١٤٨]

﴿١٣٩﴾ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾: أي وإن يونس بن متى الملقب بذي النون لمن جُملة المرسلين.

﴿١٤٠﴾ ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝﴾: أي إذ هرب إلى السفينة المملوءة بالركاب.

﴿١٤١﴾ ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝﴾: أي اقترع مع ركاب السفينة فكان من المغلوبين.

﴿١٤٢﴾ ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝﴾: أي ابتلعه الحوت وهو آتٍ بما يلام عليه.

﴿١٤٤﴾ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝﴾: أي لكان بطن الحوت قبرًا له إلى يوم القيامة.

﴿١٤٥﴾ ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾: أي فألقيناه من بطن الحوت بالعراء أي بوجه الأرض بالساحل. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾: أي عليل كالفرخ المنتوف الريش.

﴿١٤٦﴾ ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾: أي الدباء: القرع.

﴿١٤٧﴾ ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾: أي أرسلناه إلى مائة ألف نسمة بل يزيدون بكذا ألف.

﴿١٤٨﴾ ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝﴾: أي فآمن قومه عند معاينة أمارات العذاب فأبقاهم الله إلى آجالهم.

معنى الآيات:

﴿١٣٩﴾ ما زال السياق في ذكر من أنعم الله تعالى عليهم بما شاء من وجوه الإنعام. فقال عز وجل عطفًا عما سبق ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾ أي وإن عبدنا يونس بن متى ذا النون لمن جُملة من مننّا عليهم بالنبوّة والرسالة.

﴿١٤٠﴾ ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي في الوقت الذي هرب من قومه لما لم يؤمنوا به وواعدهم العذاب وتأخر عنهم فاستعجل فهرب من المدينة وهي نينوى[6] من أرض الموصل بالعراق، فوصل الميناء فوجد سفينة مبحرة فركب وكانت حمولتها أكبر من طاقتها فوقفت في عرض البحر لا تتقدم ولا تتأخر فرأى رُبّان السفينة أنه لا بد من تقليل الشحنة وإلاّ غرق الجميع، وشحّ كل راكب بنفسه

---

(١) جيء بالمضارع في ﴿لَتَمُرُّونَ﴾ للإيقاظ والاعتبار لا في حقيقة الإخبار.

(٢) يقال: مرّ به ومر عليه بمعنى، إلا أن التمكن والمباشرة بالمرور به بـ: على أكثر منه بالباء و ﴿مُّصْبِحِينَ﴾: حال منصوب على الحالية بالياء والنون لأنه جمع سلامة للمذكر.

(٣) الاستفهام للإنكار والتقريع الذي على جهالتهم وغفلتهم وعدم استعمال عقولهم للاهتداء.

(٤) أخذ هذا الحكم من كون لوط عليه السلام لم يشفع لزوجه في النجاة من الهلاك الذي أصاب المفسدين وذلك لكفرها وفسادها.

(٥) الرضاء: الاسم من رضي، يرضى، رضىً فهو راضٍ.

(٦) نينوى كانت مدينة عظيمة من مدن الآشوريين وكان بها مائة ألف أسير من بني إسرائيل أسرهم الآشوريون فأرسل الله تعالى إليهم يونس من فلسطين.

فاقترعوا[١] فكان يونس من المدحضين أي المغلوبين في القرعة فرموه في البحر فالتقمه حوته، وهو مليم أي فاعل ما يلام عليه من فراره من دعوة قومه إلى الله لما ضاق صدره ولم يطق البقاء معهم.

(١٤٠) - (١٤١) - (١٤٢) وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ[٢] إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ[٣] ۝ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ[٤] ۝﴾.

(١٤٣) - (١٤٤) وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾ أي بطن الحوت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي يوم القيامة بأن يصير بطن الحوت قبرًا له أي فلولا أن يونس كان من المسبحين أي المكثرين من الصلاة والذكر والدعاء والتسبيح قبل البلاء لما كان يُلهم قوله لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ولما كان يستجاب له ولذا قال رسول الله ﷺ: «**تعرّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»، فإن صوت يونس سمع تحت العرش فعرفه بعض الملائكة فذكروا ذلك لربهم تعالى فأخبرهم أنه عبده يونس، وأنه كان من المكثرين الصلاة والذكر والدعاء قبل البلاء فلذا استجاب الله تعالى ونجاه من الغم، وهو معنى قوله تعالى:

(١٤٥) ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي بوجه الأرض العارية من الشجر وكل ظل وهو كالفرخ المنتوف الريش نضج لحمه من حرارة جوف الحوت.

(١٤٦) وأنبت تعالى ﴿عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝﴾ أي قرع تظلله بأوراقها الحريرية الناعمة والتي لا ينزل بساحتها الذباب، وسخر له أُروية «غزالة» فكانت تأتيه صباح مساء فتفشح عليه أي تفتح رجليها وتدني ضرعها منه فيرضع حتى يشبع إلى أن تماثل للشفاء وعاد إلى قومه فوجدهم مؤمنين لتوبة أحدثوها عند ظهور أمارات العذاب فتاب الله عليهم.

(١٤٧) وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝﴾[٥] أي أرسلناه إلى قومه وهم أهل نينوى وكان تعدادهم مائة ألف وزيادة كذا ألفًا.

(١٤٨) ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ أي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبيونس نبيًا ورسولاً وتابوا بترك الشرك والكفر فجزيناهم على إيمانهم وتوبتهم بأن كشفنا عنهم العذاب الذي أظلهم، ومتعناهم أي أبقينا عليهم يتمتعون بالحياة إلى نهاية آجالهم المحدودة لهم في كتاب المقادير.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة يونس ورسالته وضمن ذلك تقرير رسالة محمد ﷺ.

٢ - مشروعية الركوب في السفن البحرية.

٣ - مشروعية الاقتراع لفض النزاع في قسمة الأشياء ونحوها.

٤ - فضل الصلاة والذكر والدعاء والتسبيح[٦] وعظيم نفعها عند الوقوع في البلاء.

٥ - تقرير مبدأ «**تعرّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[٧].

---

(١) اقترعوا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ والمساهمة: مشتقة من السهام التي واحدها سهم لأنهم كانوا يقترعون بالسهام وهي أعواد النبال وتسمى الأزلام أيضاً والفاء في ﴿فَسَاهَمَ﴾: للتفريع.

(٢) ابق يأبق إباقاً العبد إذا فرّ من مالكه.

(٣) الاقتراع مشروع فقد فعله رسول الله ﷺ في ثلاثة مواطن منها القرعة بين نسائه إذا أراد السفر بواحدة منهن وشرع الاقتراع فيما إذا تساورت الحقوق والمصالح لأجل دفع الضغائن كالاستهام على من يلي أمر كذا من خلافة أو أذان أو الصف الأول وما إلى ذلك من قسمة دار أو أرض.

(٤) المليم: اسم فاعل من ألام يليم إذا فعل ما يلومه عليه الناس فهو جعلهم لائمين له بفعله فهو ألاَمَهم على نفسه.

(٥) أو: بمعنى بل على قول الكوفيين واستشهدوا بقول جرير:

ماذا ترى في عيال قد برمت بهم ... لم أحص عدتهم إلا بعداد

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية ... لولا رجاؤك قد قتلت أولادي

(٦) روى أبو داود عنه ﷺ أنه قال: «**دعاء ذي النون في بطن الحوت** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له**».

(٧) بعض حديث صحيح رواه مسلم وغيره.

٦ - بركة أكل اليقطين أي الدباء القرع إذ كان النبي ﷺ يأكلها ويلتقطها من حافة القصعة.

٧ - فضل قوم يونس إذ آمنوا كلهم ولم تؤمن أمة بكاملها إلا هم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤٩ - ١٦٠]

(١٤٩) ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾: أي استخبر كفار مكة توبيخًا لهم وتقريعًا. ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾: أي فيختصون بالأفضل الأشرف.

(١٥١) - (١٥٢) ﴿لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾: أي لقولهم الملائكة بنات الله.

(١٥٣) ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾: أي اختار البنات على البنين.

(١٥٥) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞﴾: أي إن الله تعالى منزه عن الصاحبة والولد.

(١٥٦) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۞﴾: أي ألكم حجة واضحة على صحة ما تدعون.

(١٥٧) ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾: أي الذي تحتجون بما فيه، ومن أين لكم ذلك.

(١٥٨) ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾: إذ قالوا الملائكة بنات الله. ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: أي في العذاب.

(١٥٩) ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞﴾: أي تنزيهًا لله تعالى عما يصفونه به من كون الملائكة بنات له.

(١٦٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۞﴾: أي فإنهم ينزهون ربهم ولا يصفونه بالنقائص كهؤلاء المشركين.

معنى الآيات:

بعد تقرير البعث والتوحيد والنبوة في السياق السابق بالأدلة والحجج والبراهين القاطعة أراد تعالى إبطال فرية من أسوأ الفرى التي عرفتها ديار الجزيرة وهي قول[1] بعضهم إن الله تعالى قد أصهر إلى الجن فأنجب الملائكة وهم بنات الله، وهذا لا شك أنه من إيحاء الشيطان لإغواء الإنسان وإضلاله فقال تعالى لرسوله ﷺ استفتهم أي استخبرهم موبخًا لهم مقرّعًا قائلًا لهم:

(١٤٩) ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾، أي أما تخجلون عندما تنسبون لكم الأسنى والأشرف وهو البنون، وتجعلون لله الأخس والأدنى وهو البنات.

(١٥٠) وقوله تعالى: ﴿أَمْ[2] خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۞﴾ أي حضروا يوم خلقنا الملائكة فعرفوا بذلك أنهم إناث، والجواب لا إنهم لم يشهدوا خلقهم إذًا فلم يكذبون.

الجزء الثالث والعشرون — سورة الصافات

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢)

ترتيبها ٣٨ — سورة ص — آياتها ٨٨

٤٥٢

(١٥١) - (١٥٢) وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۞﴾ أي ألا إن هؤلاء المشركين الضالين من كذبهم الذي عاشوا عليه واعتادوه يقولون ولد الله وذلك بقولهم الملائكة بنات الله، وإنهم وربّ العزة لكاذبون في قيلهم هذا الذي هو صورة لإفكهم الذي يعيشون عليه.

(١٥٣) وقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى[3] ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۞﴾ هذا توبيخ لهم وتقريع أصطفى أي هل الله اختار البنات على البنين فلذا جعلهم إناثًا كما تزعمون.

(١) قال القرطبي في بيان من قال هذه القولة القذرة الفاسدة الباطلة قال: ذلك جهينة وخزاعة وبني مليح وبني سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله.

(٢) الاستفهام للتوبيخ والتقريع والتأنيب.

(٣) ﴿أَصْطَفَى﴾. الهمزة للاستفهام وهمزة الوصل محذوفة والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع واصطفى: بمعنى اختار البنات على البنين وقرأ الجمهور بهمزة القطع للاستفهام وقرأ بعض بهمزة الوصل دون همزة القطع إلا أنها منوية.

(١٥٣) ـ (١٥٤) ﴿مَا لَكُمْ(١) كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الباطل الفاسد.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(٢)﴾ فتذكروا أن الله تعالى منزه عن الصاحبة والولد ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي ألكم حجة قوية تثبت دعواكم والحجة القوية تكون بوحي من الله في كتاب أنزله يخبر فيه بما تقولون إذًا.

(١٥٧) ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الذي فيه ما تدعون ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم.

(١٥٨) ومن أين لكم الكتاب، وقد كفرتم بكتابكم الذي نزل لهدايتكم وهو القرآن الكريم. وهكذا أبطل الله هذه الفرية بأقوى الحجج. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ﴾ أي بين الله تعالى ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا(٣)﴾ بقولهم أصهر الله تعالى إلى الجن فتزوج سروات الجن إذ سألهم أبو بكر: من أمهات الملائكة فقالوا سروات الجن. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ(٤)﴾ أي في العذاب، فكيف يكون لهم نسب ويعذبهم الله بالنار. فالنسيب يكرم نسيبه لا يعذبه بالنار، وبذلك بطلت هذه الفرية الممقوتة، فنزه الله تعالى نفسه عن مثل هذه الترهات والأباطيل فقال:

(١٥٩) ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

(١٦٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ(٥) اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي فإنهم لا يصفون ربهم بمثل هذه النقائص التي هي من صفات العباد العجزة المفتقرين إلى الزوجة والولد أما ربّ كل شيء ومالكه وخالقه فلا يقبل العقل أن ينسب إليه الصاحبة والولد. فلذا عباد الله الذين استخلصهم لمعرفته والإيمان به وعبادته لا يصفون ربهم جل جلاله بصفات المحدثين من خلق الله. ولا يكونون من المحضرين في النار.

هداية الآيات:

١ - إبطال فرية بني ملحان من العرب الذين زيّن لهم الشيطان فكرة الملائكة بنات الله، ووجود نسب بين الله تعالى وبين الجن.

٢ - مشروعية دحض الباطل بأقوى الحجج وأصح البراهين.

٣ - الحجة الأقوى ما كانت من وحي الله في كتاب من كتبه التي أوحى بها إلى رسله.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦١ ـ ١٧٠]

(١٦١) ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾: أي من الأصنام.

(١٦٣) ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾: أي مقدر له عذاب النار.

(١٦٤) ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾: أي مكان في السماء يعبد الله تعالى فيه لا يتعداه.

(١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾: أي أقدامنا في الصلاة.

(١٦٦) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾: أي المنزهون الله تعالى عما لا يليق به.

(١٦٧) ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾: أي كفار مكة.

(١٦٨) ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾: أي كتابًا من كتب الأمم السابقة.

(١٧٠) ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾: أي بالكتاب الذي جاءهم وهو القرآن. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: أي عاقبة كفرهم إن لم يتوبوا فيؤمنوا ويوحدوا.

معنى الآيات:

(١٦١) ما زال السياق في إبطال باطل المشركين فقد قال لهم تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا(٦) تَعْبُدُونَ﴾ من أصنام أيها المشركون. ما أنتم بمضلين

---

(١) ﴿مَا لَكُمْ﴾: ما: اسم استفهام عن ذات وهي مبتدأ ولكم: خبر، والمعنى: أي شيء حصل لكم؟

(٢) أفلا تذكرون قرأ نافع: ﴿تذكرون﴾ بتشديد الذال والكاف معاً إذ الأصل تتذكرون فأدغمت إحدى التائين في الذال. وقرأ حفص: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال لحذف التاء الثانية والاستفهام إنكاري.

(٣) النسب: القرابة العمودية بالآباء والأمهات والأفقية كالإخوان والأعمام والمعنى ذوي النسب لله تعالى وهو نسب البنوة لزعمهم أن الملائكة بنات الله. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٤) المحضرون المجلوبون للحضور، والمراد المحضرون للعقاب والعذاب.

(٥) الاستثناء منقطع وجائز أن يكون من الحضور للعقاب فإن عباد الله لا يحضرون للعقاب ولا يعاقبون وجائز أن يكون منقطع من ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)﴾ فإن عباد الله لا يصفون الله بالنقائص كما في التفسير وهو أولى من الأول.

(٦) جائز أن تكون ما: موصولة بمعنى الذي وجائز أن تكون مصدرية أي: فإنكم وعبادتكم لهذه الأصنام ما تفتنون على الله عبداً من

أحـــدًا إلا أحـــدًا ﴿هُوَ صَالِ[(١)] ٱلْجَحِيمِ﴾ حيث كتبنا عليه ذلك في كتاب المقادير فهو لا بد عامل بما يوجب له النار فهذا قد يفتتن بكم وبعبادتكم فيضل بضلالكم.

(١٦٤) - (١٦٦) وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝ وَإِنَّا[(٢)] لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ[(٣)] ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝﴾ هذا قول جبريل للنبي ﷺ أخبره بأن الملائكة تصف في السماء للصلاة كما يصف المؤمنون من الناس في الصلاة، وإنهم من المسبحين لله الليل والنهار وقد أخبر النبي ﷺ بأنه ما من موضع شبر في السماء إلا عليه ملك ساجدًا أو قائم.

(١٦٧) وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۝﴾[(٤)] أي مشركو العرب.

(١٦٨) - (١٧٠) ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾ أي كتابًا من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل، ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝﴾ أي لكنا عبادًا لله تعالى نعبده ونوحده ولا نشرك به أحدًا. فرد تعالى على قولهم هذا إذ هو مجرد تمنٍ كاذب بقوله ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۝﴾ أي فكفروا بالكتاب الذي جاءهم وهو القرآن الكريم. إذًا فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم إن لم يتوبوا وهو هلاكهم وخسرانهم.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة القضاء والقدر إذ من كتب الله عليه النار فسوف يصلاها.

٢ - تقرير عبودية الملائكة وطاعتهم لله وأنهم لا يتجاوزون ما حدّ الله تعالى لم.

٣ - فضل الصفوف في الصلاة وفضل تسويتها.

٤ - بيان كذب المشركين إذ كانوا يدّعون أنهم لو أنزل عليهم كتابٌ كما أنزل على من قبلهم لكانوا عباد الله المخلصين أي الذين يعبدونه ويخلصون له العبادة.

٥ - تهديد الله تعالى للمشركين على كذبهم بقوله فسوف يعلمون.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧١ - ١٨٢]

(١٧١) ﴿سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾: هي قوله تعالى لأغلبن أنا ورسلي.

(١٧٣) ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ۝﴾: أي للكافرين بالحجة والنصرة.

(١٧٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝﴾: أي أعرض عنهم حتى تؤمر فيهم بالقتال.

(١٧٥) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾: أي أنظرهم.

(١٧٧) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾: أي العذاب.

(١٧٨) ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: أي أعـــرض عنهم.

(١٨٠) ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ﴾: أي تنزيهًا لربّك يا محمد. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: أي تنزيهًا له عما يصفه به هؤلاء المشركون من الصاحبة والولد والشريك.

(١٨١) ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾: أي أَمَنَةٌ من الله لهم في الدنيا والآخرة.

(١٨٢) ﴿وَٱلْحَمْدُ﴾: أي الثناء بالجميل خالص لله رب الثقلين الإنس والجن على نصر أوليائه وإهلاك أعدائه.

معنى الآيات:

(١٧٠) لما ختم السياق الأول بتهديد الكافرين بقوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾ أخبر تعالى رسوله ﷺ بما يطمئنه على

= عباده بإضلاله وإفساده إلا عبداً قضى الله بعذابه فهو صال الجحيم، وفي الآية رد على نفاة القدر، ومن أحسن ما قيل شعراً قول لبيد بن ربيعة:

إن تقوى ربّنا خير نفل ... وبإذن الله ريثي والعجل

أحمد الله فلا ندّ له ... بيديه الخير ما شاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى ... ناعم البال ومن شاء أضل

(١) الأصل: صالي الجحيم وحذفت الياء لعدم النطق بها لوجود همزة الوصل.

(٢) هذا من قول الملائكة. قال مقاتل: هذه الآيات الثلاث نزلت ورسول الله ﷺ عند سدرة المنتهى فتأخر جبريل فقال النبي ﷺ: **«أهنا تفارقني؟»** فقال: ما أستطيع أن أتقدم عن مكاني، وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤)﴾.

(٣) روى مسلم أن النبي ﷺ خرج على أصحابه وهم في المسجد فقال: **«ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟»** فقالوا: يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: **«يتمون الصف الأول ويتراصون في الصف»**.

(٤) ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ (١٦٧)﴾: إن مخففة من الثقيلة واللام للابتداء وهي الفارقة بين المخففة والنافية.

نصر الله تعالى له فقال:

(١٧١) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا[1] الْمُرْسَلِينَ﴾ وهي قوله:

(١٧٢) ـ (١٧٣) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝﴾.

(١٧٤) أي بالحجة والبرهان، وبالرمح[2] والسنان. وقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝﴾ يأمر رسوله ﷺ أن يعرض عن المشركين من قومه حتى حين يأمره فيهم بأمر[3]، أو ينزل بهم بلاءً أو بأسًا.

(١٧٥) وقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أي أنظرهم فسوف يبصرون لا محالة ما ينزل بهم من عذاب الله في الدنيا وفي الآخرة.

(١٧٦) وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝﴾، ينكر تعالى عليهم استعجالهم العذاب الدال على سفههم وخفة أحلامهم إذ ما يستعجل العذاب إلا أحمق جاهل وعذاب من استعجلوا إنه عذاب الله!!

(١٧٧) قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي بفناء دارهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي بئس صباحهم من صباح إنه صباح هلاكهم ودمارهم ثم أمر تعالى مرة أخرى رسوله ﷺ أن يتول عنهم وينتظر ما يحل بهم فقال:

(١٧٨) ـ (١٧٩) ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ وَأَبْصِرْ[4] فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝﴾ وفي الآية من التهديد والوعيد لهؤلاء المشركين ما لا يقادر قدره. وأخيرًا نزه تعالى نفسه عما يصفه به المشركون من الولد والشريك وسلّم على المرسلين، وحمد نفسه مشيرًا إلى مقتضى الحمد وموجبه وهو كونه رب العالمين فقال:

(١٨٠) ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾[5] يا محمد ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ ومالكها يعز بها من يشاء ويذل من يشاء ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾[6] من الصاحبة والولد والشريك.

(١٨١) ﴿وَسَلَامٌ﴾ منا ﴿عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ وأنت منهم.

(١٨٢) ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ على نصره أولياءه وإهلاكه أعداءه.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير النبوة المحمدية.

٢ ـ وعد الله تعالى لرسوله ﷺ بالنصر وقد أنجزه ما وعده والحمد لله.

٣ ـ استحباب ختم الدعاء أو الكلام بقراءة جملة ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ[7] عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ لورود ذلك في السنة.

❁ ❁ ❁

سورة ص
مكية
وآياتها ثمان وثمانون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١١]

(١) ﴿صٓ﴾: هذا أحد الحروف المقطعة يكتب ص ويقرأ صاد الله أعلم بمراده به. ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾: أي أقسم بالقرآن ذي الذكر إذ به يذكر الله تعالى ما الأمر كما يقول هؤلاء الكافرون من أن النبي ﷺ ساحر وشاعر وكاذب. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝﴾: أي أهل مكة في عزة نفس وشقاق مع النبي والمؤمنين وعداوة فلذا قالوا في الرسول ﷺ ما قالوا، وإلا فهم يعلمون براءته مما قالوا فيه.

(٣) ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾: أي كثيرًا من الأمم الماضية أهلكناهم. ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾: أي صرخوا واستغاثوا وليس الوقت وقت مهرب ولا نجاة.

---

(١) جائز أن يكون المراد قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ الآية.

(٢) قال الحسن: لم يقتل من أصحاب الشرائع أحد قط.

(٣) كإذن له ﷺ بجهادهم، وجائز أن يكون حتى يجيء أجلهم أو يأتي يوم بدر أو الفتح.

(٤) كرر للتأكيد، وكذا ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ مكرر للتأكيد.

(٥) سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ فقال: هو تنزيه الله عن كل سوء.

(٦) يصفون الله عز وجل بأن له صاحبة وله ولداً وشريكاً.

(٧) ذكر القرطبي أن النبي ﷺ كان يختم صلاته غير مرة بقول: «**سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين**».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

﴿٤﴾ ﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾: أي وما اعتبر بهم أهل مكة وعجبوا أن جاءهم منذر منهم محمد ﷺ. ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾: أي لما يظهره من الخوارق ولما يسنده إلى الله تعالى من الإرسال والإنزال.

﴿٥﴾ ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾: أي لما قال لهم قولوا لا إله إلا الله، فقالوا كيف يسع الخلائق إله واحد؟. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾: أي جعل الآلهة إلهًا واحدًا أمر عجيب.

﴿٦﴾ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾: أي خرجوا من بيت أبي طالب حيث كانوا مجتمعين بالنبي ﷺ وسمعوا منه قوله لهم قولوا لا إله إلا الله. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾: أي إن هذا المذكور من التوحيد لأمر يراد منّا تنفيذه.

﴿٧﴾ ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: أي ملة عيسى عليه السلام. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾: أي ما هذا إلا كذب مختلق.

﴿٨﴾ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾: أي كيف يكون ذلك وليس هو بأكبر منا ولا أشرف. ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾: أي بل هم في شك من القرآن والوحي ولذا قالوا في الرسول ﷺ ما قالوا. ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾: أي بل لم يذوقوا عذابي إذ لو ذاقوه لما كذبوا بل آمنوا ولا ينفعهم إيمان.

﴿٩﴾ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾: أي من النبوة وغيرها فيعطوا منها من شاؤوا ويحرموا من شاؤوا.

﴿١٠﴾ ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي ليس لهم ذلك. ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾: أي الموصلة إلى السماء فيأتوا بالوحي فيخصوا به من شاؤوا أو يمنعوا الوحي النازل على نبينا محمد ﷺ وأنى لهم ذلك.

﴿١١﴾ ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾: أي هم جند حقير في تكذيبهم لك مهزوم أمامك وفي بدر. ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾: أي من الأمم الماضية التي تحزبت على رسلها وأهلكها الله تعالى.

معنى الآيات:

﴿١﴾ قوله تعالى: ﴿صٓ[1] وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ أمّا ص فإنه أحد حروف الهجاء ومذهب السلف فيه أن يقال الله أعلم بمراده به إذ هو من المتشابه الذي يجب الإيمان به ويوكل أمر معناه إلى من أنزله، وقد ذكرنا غيرما مرة أن هذه الحروف قد أفادت فائدتين فليطلبهما من شاء من القراء الكرام من السور المفتتحة بمثل هذه الحروف نحو طس، ألم. وأما قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ هو كتاب الله هذا المنزل على محمد ﷺ ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[2] معناه التذكير إذ به يذكر الله تعالى والجملة قسم أقسم الله به فقال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ وجواب القسم محذوف تقديره[3] ما الأمر كما يقول هؤلاء المشركون من أن النبي محمدًا ﷺ ساحر وشاعر وكاذب.

(١) قرأ الجمهور: ﴿صٓ﴾ بالسكون وقرأ الحسن وأبي ابن كعب: ﴿صادِ﴾ بكسر الدال وبدون تنوين، وتوجيهها أنها من صادَى يصادي إذا عارض نحو ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ أي: تتعرض والمصادات: المعارضة، والمعنى: عارض القرآن بعملك وقابله به، فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه أو اتله وتعرض لقراءته.

(٢) في شرح هذه الكلمة عدة أوجه منها ذي الشرف أي: من آمن به وعمل بما فيه كان شرفاً له في الدارين كما أنه شريف في نفسه لإعجازه، وقيل: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: فيه ذكر ما يحتاج إليه وقيل: الموعظة وقيل: فيه أسماء الله وتمجيده.

(٣) وذُكر لجواب القسم أمور منها: ما في التفسير وهو أمثلها وقيل الجواب: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقيل الجواب: إنه لمن عند الله تعالى أي: القرآن المؤلف من حروف صٓ وغيره.

(٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝﴾ أي بل هم في عزة نفس وكبرياء وخلاف وعداوة مع النبي ﷺ والمؤمنين فحملهم ذلك على أن يقولوا في الرسول ﷺ ما قالوا، وإلاّ فهم يعلمون يقينًا أن النبي محمدًا ﷺ أبعد الناس عن السحر والشعر والكذب والجنون.

(٣) وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي كثيرًا من الأمم الماضية أهلكناها بتكذيبها لرسلها فلما جاءهم العذاب نادوا[1] صارخين مستغيثين ﴿وَّلَاتَ[2] حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي وليست الساعة ساعة نجاة ولا هرب، فلم لا يعتبر مشركو مكة بمثل هؤلاء.

(٤) لم يعتبروا ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ ينذرهم عذاب الله في الدنيا والآخرة وهو محمد ﷺ. ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي لم يعتبروا وعجبوا وقالوا فيه ﷺ: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

(٥) ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ[3] ۝﴾ أي عجيب أي كيف يسع العباد إله واحد إن هذا لأمر يتعجب منه غاية العجب، لأنهم قاسوا الغائب وهو الله تعالى على الشاهد وهو الإنسان الضعيف فوقعوا في أفحش خطأ وأقبحه.

(٦) وقوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم يقولون لبعضهم بعضًا امشوا واصبروا على آلهتكم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي منا إمضاؤه وتنفيذه. قالوا هذا وما بعده من القول لما اجتمعوا بالرسول ﷺ في منزل عمه أبي طالب لمفاوضة الرسول ﷺ في شأن دعوته فلما قال لهم الرسول ﷺ قولوا لا إله إلا الله قاموا من المجلس وانطلقوا يمشون ويقولون ما أخبر تعالى به عنهم ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي على عبادتها فلا تتخلوا عنها ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الدعوة إلى لا إله إلا الله لشيء كبير يراد منا إمضاؤه وتنفيذه لصالح غيرنا. ما سمعنا بهذا أي بالتوحيد في الملة الآخرة أي الدين الأخير وهو ما جاء به عيسى ابن مريم عليه السلام.

(٧) ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي ما هذا الذي يدعو إليه محمد ﷺ إلا كذب اختلقه لم ينزل عليه ولم يُوح به إليه. وواصلوا كلامهم قائلين:

(٨) ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي القرآن ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وليس هو بأكبرنا سنًا ولا بأشرفنا نسبًا. فكيف يكون هذا؟ وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ أي لم يكن بالقوم جهل بصدق محمد ﷺ في قوله وسلامة عقله، وإنما حملهم على ذلك هو شكهم في القرآن وما ينزل به من الحق ويدعو إليه من الهدى، وهذا أولاً وثانيًا إنهم لما يذوقوا عذابي إذ لو ذاقوا عذاب الله على تكذيبهم ما كذبوا، وسوف يذوقونه ولكن لا ينفعهم يومئذ تصديق ولا إيمان.

(٩) وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝﴾ أي بل أعندهم خزائن رحمة ربك يا رسولنا العزيز أي الغالب الوهاب أي الكثير العطاء من النبوة وغيرها وعندئذ لهم أن يعطوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا ولكن فهل لهم من خزائن رحمة ربك شيء والجواب لا إذًا فلم ينكرون هبة الله لمحمد ﷺ بالنبوة والوحي والرسالة..

(١٠) وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بل ألهم ملك السموات والأرض وما بينهما؟ إذا كان هذا لهم ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ سببًا بعد سبب حتى ينتهوا إلى السماء السابعة ويمنعوا الوحي النازل على محمد ﷺ من ربّه سبحانه وتعالى. ومن أين لهم ذلك وهم الضعفاء الحقيرون إنهم كما قال تعالى فيهم:

(١١) ﴿جُندٌ مَّا[4] هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ

---

(١) النداء رفع الصوت ومنه الحديث: **«ألقه على بلال فإنه أندى منك صوتاً»** القرن: الأمة.

(٢) ﴿وَّلَاتَ﴾: هي لا النافية زيدت فيها التاء كما زيدت في رُبت وثمت وهي مشبهة بليس وهي مختصة بنفي أسماء الزمان والمناص: النجاء والغوث وهو مصدر ميمي من نَاصَهُ إذ فاته والمعنى: فنادوا مبتهلين في حال ليس فيها وقت نجاة وغوث.

(٣) العجاب: وصف الشيء الذي يتعجب منه كثيراً لأن وزن فعال بضم أوله يدل على تمكن الوصف مثل طوال أو كرام.

(٤) ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ (ما) مزيدة للتأكيد أي: تأكيد حقارة جند إن قيل: التنكير للتحقير وإن كان للتعظيم فهي لتوكيده وهنالك إشارة إلى مكان بعيد، و ﴿مَهْزُومٌ﴾: مقموع ذليل قد انقطعت حجتهم وذهبت قوتهم وفي الخطاب تسلية للنبي ﷺ بمعنى: لا تحفل بهم ولا تغتم لشأنهم.

ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

٤٥٤

﴿ٱلْأَحْزَابِ ۩﴾ أي جند حقير من جملة أحزاب الباطل والشر مهزوم هنالك ببدر ويوم الفتح بإذن الله.

هداية الآيات:

١ - لله تعالى أن يقسم بما يشاء بخلاف العبد لا يقسم إلا بربّه تعالى.

٢ - بيان ما كان عليه المشركون من كبرياء وعداء للنبي ﷺ.

٣ - بيان جهل المشركين في استنكارهم للا إله إلا الله محمد رسول الله.

٤ - تحدّي الرب تعالى للمشركين إظهارًا لعجزهم ودعوته لهم إلى النزول إلى الحقّ وقبوله.

٥ - إخبار القرآن بالغيب وصدقه في ذلك.

٦ - ذم كلمة الأحزاب ومدلولها إذ لا تأتي الأحزاب بخير.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ ـ ٢٠]

﴿١٢﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾: أي قبل هؤلاء المشركين من قريش. ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي صاحب أوتاد أربعة يشد إليها من أراد تعذيبه.

﴿١٣﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: أي الغيضة وهم قوم شعيب.

﴿١٤﴾ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾: أي ما كل واحد منهم إلا كذب الرسل ولم يصدقهم فيما دعوا إليه. ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾: أي وجبت عقوبتي عليهم.

﴿١٥﴾ ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾: هي نفخة إسرافيل في الصور نفخة. ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾: أي ليس لها من فتور ولا انقطاع حتى تهلك كل شيء.

﴿١٦﴾ ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾: أي صك أعمالنا لنرى ما أعددت لنا إذ القط الكتاب.

﴿١٧﴾ ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾: أي القوة والشدة في طاعة الله تعالى. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: أي رجاع إلى الله في كل أموره.

﴿١٨﴾ ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾: أي بالمساء بعد العصر إلى الغروب والإشراق من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى.

﴿١٩﴾ ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥ﴾: أي والطيور مجموعة.

﴿٢٠﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾: أي وأعطينا داود الحكمة. وهي الإصابة في الأمور والسداد فيها وفصل الخطاب. الفقه[1] في القضاء ومن ذلك البيّنة على المُدَّعي واليمين على من أنكر.

معنى الآيات:

﴿١٢﴾ السياق الكريم في تسلية النبي ﷺ وتهديد المشركين علهم يتوبون إلى الله ويرجعون قال تعالى:

---

(١) صورة من فصل الخطاب الذي هو الفقه والبصيرة في القضاء روي أن ابن أبي ليلى جلد امرأة مجنونة قذفت رجلاً فقالت له: يا ابن الزانين، جلدها وهي قائمة في المسجد فبلغ ذلك أبا حنيفة فقال: أخطأ ابن أبي ليلى من ستة وجوه وهي:

١ ـ المجنون لا حد عليه لأنه غير مكلّف.

٢ ـ إن كان القذف حقاً لله تعالى فلا يقام على القاذف إلا حداً واحداً كما هو مذهب أبي حنيفة.

٣ ـ أقام الحد بدون مطالبة المقذوف به.

٤ ـ إنه والى بين الحدين والواجب أن يفرق بينهما.

٥ ـ أنه حدها قائمة والمرأة تحد جالسة مستورة.

٦ ـ أنه أقام الحد في المسجد والإجماع أن الحدود لا تقام في المساجد.

﴿كَذَّبَتْ[1] قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أي[2] صاحب الأوتاد التي كان يشد إليها من أراد تعذيبه ويعذبه عليها كأعواد المشانق.

(١٣) ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾ أي الغيضة وهي الشجر الملتف وهم قوم شعيب، ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي الطوائف الكافرة الهالكة.

(١٤) ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي ما كل واحدة منها إلا كذبت الرسل ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي وجب عقابي لهم فعاقبتهم، وما ينظر هؤلاء من قومك.

(١٥) ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ[3]﴾ أي من فتور ولا انقطاع حتى يهلك كل شيء ولا يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا[4] قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قالوا هذا لما نزل ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ الآيات من سورة الحاقة. قال غلاة الكافرين كأبي جهل وغيره استهزاء، ربنا عجل لنا قطنا أي كتابنا لنرى ما فيه من حسنات وسيئات قبل يوم القيامة والحساب والجزاء وهم لا يؤمنون ببعث ولا جزاء، وإنما قالوا هذا استهزاءً وعنادًا أو مكابرة فلذا قال تعالى لرسوله:

(١٧) ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ[5]﴾ أي القوة في دين[6] الله ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى اذكره لتتأسى به في صبره وقوته في الحق.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾ الآيات بيان لإنعام الله تعالى على داود لتعظم الرغبة في الاقتداء به، والرغبة إلى الله تعالى فيما لديه من إفضالات ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ[7]﴾ أي إذا سبح داود في المساء من بعد العصر إلى الغروب وفي الإشراق وهو وقت الضحى سبحت الجبال معه أي رددت تسبيحه كرامة له والطير محشورة أي وسخرنا الطير محشورة أي مجموعة تردد التسبيح معه.

(١٩) وقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي كل من الجبال والطير أواب أي رجاع يسبح الله تعالى.

(٢٠) وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي قوينا ملك داود بمنحنا إياه كل أسباب القوة المادية والروحية. ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ وهي النبوة والإصابة في الأمور والسداد فيها قولاً كانت أو فعلاً. ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ أي حسن القضاء والبصيرة فيه، والبيان الشافي في كلامه. فبه اقتده يا رسولنا.

هداية الآيات:

١ - تسلية الرسول ﷺ وحمله على

---

(١) مفعول ﴿كَذَّبَتْ﴾ محذوف سيدل عليه ما يأتي من قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ فالمفعول المحذوف هو الرسل والجملة بيان لسابقتها تحمل التسلية والعزاء للرسول ﷺ.

(٢) جائز أن يكون المراد بالأوتاد: القوة والبطش أو الأهرام لأنها بناء راسخ في الأرض كالأوتاد جمع وتد بكسر التاء وهو عود غليظ له رأس مفلطح يدق في الأرض ليشد به طنب الخيمة أو حبالها قال الشاعر:

والبيت لا يبنى إلا على عمد ... ولا عماد إذا لم تُرسَ أوتاد

(٣) الفواق: اسم للزمن الذي بين الحلبتين والرضعتين إذ الحالب يحلب الناقة ثم يترك ولدها يرضعها حتى تدر اللبن ثم يبعده ويحلبها مرة ثانية فالفواق هو ما بين الحلبتين والرضعتين.

(٤) القط: هو القسط من الشيء ويطلق كما هنا على قطعة الورق أو ما يكتب عليه العطاء لأحد ويسمى بالصك.

(٥) الأيد: ليست جمع يد وإنما المراد بها القوة والشدة وهو مصدر آدَ يئيد أيداً. إذا قوي واشتد ومنه التأييد الذي هو التقوية. قال تعالى: ﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾.

(٦) شاهده قوله ﷺ: **«أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى وإنه كان أواباً»** «في الصحيحين».

(٧) قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنت أمر بهذه الآية بالعشي والإشراق ولا أدري ما هي حتى حدثتني أم هانيء أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة (الضحى) وقال: **«يا أم هانيء هذه صلاة الإشراق»**. وروى البخاري عن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي بثلاث خصال لا أدعهن حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر.

الصبر على أذى قريش وتكذيبها وعنادها.

٢ - تهديد قريش إذا أصرت على التكذيب بأشد أنواع العقوبات.

٣ - بيان استهزاء المشركين واستخفافهم بأخبار الله تعالى وشرائعه.

٤ - مشروعية الأسوة والاقتداء بالصالحين.

٥ - بيان آية تسخير الله تعالى الجبال والطير لداود تسبح الله تعالى معه.

٦ - حسن[1] صوت داود في قراءته وتسبيحه.

٧ - مشروعية صلاة الإشراق والضحى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ ـ ٢٥]

(٢١) ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾: الاستفهام هنا للتعجب أي حمل المخاطب على التعجب. ﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾: أي خبر الخصم الغريب في بابه العجيب في واقعه. ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾: أي محراب مسجده إذ منعوا من الدخول من الباب فقصدوا سوره ونزلوا من أعلى السور.

(٢٢) ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي تعدّى بعضنا على بعض. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾: أي احكم بالعدل ولا تجر في حكمك. ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: أي أرشدنا إلى العدل في قضيتنا هذه ولا تمل بنا إلى غير الحق.

(٢٣) ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾: أي عَلى ديني في الإسلام. ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾: أي اجعلني كافلها بمعنى تنازل لي عنها وملكنيها. ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾: أي غلبني في الكلام الجدلي فأخذها مني.

(٢٤) ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾: أي بطلبه نعجتك وضمها إلى نعاجه. ﴿مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ﴾: أي الشركاء يظلم بعضهم بعضًا. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾: أي أيقن داود أنما فتنه ربه أي اختبره. ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾: أي طلب المغفرة من ربه بقوله أستغفر الله وسقط ساجدًا على الأرض وأناب أي رجع تائبًا إلى ربه.

(٢٥) ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: أي وحسن مرجع عندنا وهي الجنة والدرجات العلا فيها.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تسلية الرسول ﷺ وحمله على الصبر على ما يعاني من كفار قريش من تطاول وأذى فقال له ربّه تعالى:

(٢١) ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ إلى آخر الآيات. وذلك أن داود[2] عليه السلام ذكر مرة في نفسه ما أكرم الله تعالى به إبراهيم وإسحق ويعقوب من حسن الثناء الباقي لهم في الناس، فتمنى مثله فقيل له إنهم امتحنوا فصبروا فسأل أن يبتلى كالذي ابتلوا به ويعطى كالذي أُعطوا إن هو صبر فاختبره الله تعالى بناء على رغبته فأرسل إليه ملكين[3] في صورة رجلين فتسوروا عليه المحراب كما يأتي تفصيله في الآيات وهو قوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ يا رسولنا نبأ الخصم[4] وهما ملكان في صورة رجلين، ولفظ الخصم يطلق على الواحد والأكثر كالعدو فيقال هذا خصمي وهؤلاء خصمي، وهذا عدوي، وهؤلاء عدوٌ لي. وقوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟[5] ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي طلعوا على سور المنزل الذي هو المحراب في عرف بني إسرائيل ولم يدخلوا من الباب لأن الحرس منعهم من ذلك،

---

(١) شاهده قوله ﷺ لأبي موسى الأشعري وقد سمعه يقرأ القرآن ويرتل بحسن صوت: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير داود**». والمزمار والمزمور الصوت الحسن وبه سميت آلة الزمر مزماراً.

(٢) ذكر المفسرون هنا نقلاً عن كتب بني إسرائيل عجائب وغرائب في قصة داود هذه من أبشعها: أنه نظر من كوة المحراب فرأى امرأة تغتسل فأحبها وطلبها بأن أرسل زوجها إلى الجهاد ليموت قتيلاً حتى يتزوج داود امرأته بعد موته. أعرضنا عن هذه الأباطيل منزهين نبي الله عن هذه الأكاذيب الممجوجة التي لا يرتكبها أقل الناس إيماناً وشأناً كما نسبوا إلى يوسف ما نسبوا، رواية عن اليهود وهم أكذب خلق الله تعالى بعد أن لعنوا بظلمهم.

(٣) لا خلاف بين المفسرين أن الخصمين كانا ملكين. انتهى.

(٤) شاهده قول الشاعر:

وخصم غضاب ينفضون لحاهم ... كنفض البراذين العراب المخاليا

(٥) إذ: ظرف للزمان الماضي متعلق بمحذوف تقديره: تحاكم الخصم إذ تسوروا إلخ..

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

لأن لداود وقتًا ينقطع فيه للعبادة فلا يسمح بمقابلة أحد.

(٢٢) وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ وهو في محرابه ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ﴾ أي ارتاع واضطرب نفسًا ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ﴾ أي نحن خصمان ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي اعتدى بعضنا على بعض جئنا نتحاكم إليك ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي لا تجر في الحكم ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾[1] أي إلى وسط الطريق فلا تمل بنا عن الحق.

(٢٣) ثم عرضا عليه القضية فقال أحدهما وهو المظلوم عارضًا مظلمته ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ أي في الإسلام ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ﴾ لي ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي ملكنيها أضمها إلى نعاجي، ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ أي وغلبني في الكلام والجدال وأخذها مني. فقال داود على الفور وبدون أن يسمع من الخصم الثاني:

(٢٤) ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ وعلل لذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي الشركاء في زرع أو ماشية أو تجارة ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم أهل الإيمان والتقوى فإنهم يسلمون من مثل هذه الاعتداءات، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ أي وهم قليل جدًا، وهنا طار الملكان من بين يدي داود وعرجا إلى السماء فعلم عندئذ أنما فتنه ربّه كما رغب إليه وأنه لم يصبر حيث قضى بدون أن يسمع من الخصم الثاني فكانت زلة صغيرة أرته أن ما ناله إبراهيم وإسحق ويعقوب من الكمال كان نتيجة ابتلاء عظيم، وهنا استغفر داود ربه ﴿وَخَرَّ[2] رَاكِعًا﴾ يبكي ويطلب العفو وأناب إلى ربه في أمره كله، وذكر تعالى أنه قبل توبته وعفا عنه فقال تعالى:

(٢٥) ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي لقربة عندنا ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي مرجع وهو الدرجات العلا في دار الأبرار، جعلنا الله تعالى من أهلها بفضله ورحمته.

هداية الآيات:

١ - فائدة عرض مثل هذا القصص تقوية قلب الرسول ﷺ وتثبيت فؤاده وحمله على الصبر.

٢ - تقرير نبوة النبي ﷺ إذ مثل هذا القصص لا يتأتّى له قصه إلا بوحي إلهي.

٣ - تقرير جواز تشكل الملائكة في صورة بني[3] آدم.

٤ - حرمة إصدار القاضي أو الحاكم الحكم قبل أن يسمع الدعوى من الخصمين معًا إذ هذا محل الفتنة التي كانت لداود عليه السلام.

٥ - وجوب التوبة عند الوقوع في الذنب.

٦ - مشروعية السجود[4] عند قراءة هذه الآية ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

---

(١) ﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: وسط الطريق وهذا كناية عن الحكم بالعدل وعدم الجور عن الحق أي: الميل كمن يميل إلى جانب الطريق.

(٢) أطلق الركوع وأريد به السجود وهو شائع كما في قول الشاعر:

فخر على وجهه راكعاً ... وتاب إلى الله من كل ذنب

(٣) وكثيراً ما كان جبريل يأتي رسول الله ﷺ في صورة دحية بن خليفة الكلبي.

(٤) في البخاري قال ابن عباس: قال ﷺ: **«ليست من عزائم القرآن»** وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها قال ابن العربي: والذي عندي

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ ـ ٢٩]

(٢٦) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾: أي خلفت من سبقك تدبر أمر الناس بإذننا. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾: أي هوى النفس وهو ما تميل إليه مما تشتهيه. ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي عن الطريق الموصل إلى رضوانه. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي يخطئون الطريق الموصل إلى رضوانه وهو الإيمان والتقوى. ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾: أي بنسيانهم يوم القيامة فلم يتقوا الله تعالى.

(٢٧) ﴿بَٰطِلًا﴾: أي عبثًا لغير حكمة مقصودة من ذلك الخلق. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي ظنُّ أن السموات والأرض وما بينهما خلقت عبثًا لا لحكمة مقصودة منها ظن الذين كفروا. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾: أي من واد في النار بعيد غوره كريه ريحه لا يطاق.

(٢٩) ﴿مُبَٰرَكٌ﴾: أي لا تفارقه البركة يجدها قارؤه والعامل به والحاكم بما فيه. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي ليتعظ به أصحاب العقول الراجحة.

معنى الآيات:

(٢٦) ما زال السياق في ذكر قصة داود للعظة والاعتبار وتثبيت فؤاد النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾[١] أي وقلنا له أي بعد توبته وقبولها يا داود ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً[٢] فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلفت من قبلك من الأنبياء تدبر أمر الناس ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالعدل الموافق لشرع الله ورضاه، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ وهو ما تهواه نفسك دون ما هو شرع الله، ﴿فَيُضِلَّكَ﴾[٣] أي اتباع الهوى يضلك عن سبيل الله المفضي بالعباد إلى الإسعاد والكمال وذلك أنّ الأحكام إذا كانت مطابقة للشريعة الإلهية انتظمت بها مصالح العباد ونفعت العامة والخاصة أما إذا كانت على وفق الهوى وتحصيل مقاصد النفس للحاكم لا غير أفضلت إلى تخريب العالم بوقوع الهرج والمرج بين الناس وفي ذلك هلاك الحاكم و المحكومين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ القائم على الإيمان والتقوى وإقامة الشرع والعدل هؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[٤] أي بسبب نسيانهم ليوم القيامة فتركوا العمل له وهو الإيمان والتقوى التقوى التي هي فعل الأوامر الإلهية واجتناب النواهي في العقيدة والقول والعمل.

(٢٧) وقوله تعالى في الآية (٢٧): ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ ينفي تعالى ما يظنه المشركون وهو أن خلق الكون لم يكن لحكمة اقتضت خلقه وإيجاده وهي أن يعبد الله تعالى بذكره وشكره المتمثل في الإيمان والتقوى. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ظن أن الله خلق السماء والأرض وما بينهما لا لحكمة مقصودة وهي عبادة الله تعالى بما يشرع لعباده من العبادات القلبية والقولية والفعلية ظن الذين كفروا من كفار مكة وغيرهم. ثم توعدهم تعالى على كفرهم وظنهم الخاطىء الذي نتج عنه كفرهم وعصيانه فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي ويل للذين كفروا من واد في جهنم بعيد الغور كريه الريح.

(٢٨) وقوله تعالى في الآية (٢٨):

= أنها ليست موضع سجود ولكن النبي ﷺ سجد فيها فسجدنا بالاقتداء به وقد صح عن النبي ﷺ سجود الشكر. ولما بشر بقتل أبي جهل قام فصلى ركعتين شكراً لله تعالى.

(١) افتتاح الخطاب بالنداء لاسترعاء وعي المخاطب ليهتم بما سيقال له.

(٢) لا يقال: يا خليفة الله إلا لرسوله ﷺ أما من عدا الرسل فإن الخليفة منهم هو خليفة لمن قبله وليس خليفة لله تعالى والصحابة قالوا لأبي بكر: خليفة رسول الله ﷺ.

(٣) الفاء: هي السببية والمضارع بعدها منصوب وفي الآية تحريم اتباع هوى النفس المسبب الخروج عن دائرة العدل والحق. وفي الآية دليل على أنه لا يجوز الحكم بعلم الحاكم بل بالبينة والشهود وقد روي أن النبي ﷺ اشترى فرساً فجحده البائع فلم يحكم عليه بعلمه وقال: «**من يشهد لي؟**» فقام خزيمة فشهد فحكم عليه.

(٤) سمي يوم القيامة يوم الحساب لما يجري فيه من حساب الناس بما كسبوا من خير وشر وسمي يوم الدين للمجازاة التي تتم بعد الحساب، وسمي يوم الفصل للفصل بين الناس والحكم لهم فيما بينهم.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ هذا أولاً ردٌّ لما زعمه المشركون من أنهم يعطون في الآخرة من النعيم مثل ما يعطى المؤمنون، وثانيًا ينفي تعالى أن يسوي بين من آمن به واتبع هداه فأطاعه في الأمر والنهي، وبين من أفسد في الأرض بالشرك والمعاصي كما نفى أن يجعل المتقين الذين آمنوا واتقوا فتركوا الشرك والمعاصي كالفجار الذين فجروا أي خرجوا عن طاعة الله ورسوله ﷺ فلم يؤمنوا ولم يوحدوا فعاشوا كفارًا فجارًا وماتوا على ذلك. أي فحاشا لله ربّ العالمين وأعدل العادلين وأحكم الحاكمين أن يسوي بين أهل الإيمان والتقوى وبين أهل الشرك والمعاصي بل ينعم الأولين في دار النعيم، ويعذب الآخرين في سواء الجحيم.

(٢٩) وقوله تعالى في الآية (٢٩): ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي هذا كتاب مبارك أنزلناه على رسولنا ﷺ ليدبروا آياته[1] بمعنى يتأملوها ويترووها بعقولهم فيحصلوا على هداية القلوب والعقول فيؤمنوا بالله ويعملوا بطاعته فينجوا ويسعدوا. وليذّكر أولوا الألباب[2] أي وليتعظ بمواعظه وينزجر بزواجره أولو الألباب أي العقول السليمة ووصف الكتاب وهو القرآن بالبركة هو كما أخبر الله لا تفارق القرآن البركة وهي الخير الدائم فكل من قرأه متدبرًا عرف الهدى ومن قرأه تقربًا حصل على القرب وفاز به ومن قرأه حاكمًا عدل في حكمه.

هداية الآيات:

١ - وجوب الحكم بالعدل على كل من حكم ولا عدل في غير الشرع الإلهي.

٢ - حرمة اتباع الهوى لما يفضي بالعبد إلى الهلاك والخسار.

٣ - تقرير البعث والجزاء.

٤ - إبطال ظن من يظن أن الحياة الدنيا خلقت عبثًا وباطلاً.

٥ - تنزيه الرب تعالى عن العبث والظلم.

٦ - فضيلة العقول لمن استعملها في التدبر والتذكر.

٧ - بركة[3] القرآن لا تفارقه أبدًا وما طلبها أحد إلا وجدها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠ ـ ٣٣]

(٣٠) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾: أي ومن جملة هباتنا لداود الأواب أن وهبنا له سليمان ابنه. ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾: أي سليمان أي رجاع إلى ربّه بالتوبة والإنابة.

(٣١) ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾: أي الخيل الصافنات أي القائمة على ثلاث الجياد أي السوابق.

(٣٢) ﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾: أي حب الخيل عن ذكر ربي وهي صلاة العصر لانشغاله باستعراض الخيل للجهاد. ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾: أي استترت الشمس في الأفق وتغطت عن أعين الناظرين.

(٣٣) ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾: أي ردوا الخيل التي استعرضتها آنفًا فشغلتني عن ذكر ربّي. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ﴾: أي فأخذ يمسح بسوق تلك الخيل وأعناقها.

معنى الآيات:

(٣٠) ما زال السياق في ذكر إفضال الله على داود حيث قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ[4]﴾ فذكر تعالى أنه وهبه سليمان وأثنى على سليمان بأنه نعم العبد لله، وعلل لتلك الأفضلية بقوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[5] أي كثير الأوبة إلى الله تعالى، وهي الرجوع إلى الله بذكره

---

(١) ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾: أصلها ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال لقرب مخرجيهما.

(٢) ﴿الْأَلْبَابِ﴾: العقول والواحد لب ويجمع على ألبّ كما جُمع بؤس على أبؤس قال أبو طالب: قلبي إليه مشرف الألب، والتذكر هو استحضار الذهن ما كان يعلمه كاستحضار ما هو منسي أيضاً.

(٣) بركة القرآن تتجلى في صرفها النفس عن السوء ودفعها إلى الخير وذلك لمن يقرأ القرآن موقناً به متدبراً له فإن له في كل حرف عشر حسنات مع ما يفيضه على روحه من نور المعرفة وحب الآخرة.

(٤) جملة ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ في محل نصب على الحال والمخصوص بالمدح محذوف أي: سليمان.

(٥) الجملة تعليلية لما سبقها.

واستغفاره عند الغفلة والنسيان العارض للعبد.

(٣١) وأشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿إِذْ عُرِضَ[1] عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ[2] الْجِيَادُ﴾ أي الخيل القوية على السير التي إذا وقفت تأبى أن تقف على أربع كالحمير بل تقف على ثلاثٍ وترفع الرابعة، والجياد هي السريعة العدو، وهذا العرض كان استعراضًا منه لها إعدادًا لغزو أراده فاستعرض خيله فانشغل بذلك عن صلاة العصر فلم يشعر إلا وقد غربت الشمس وهو معنى قوله تعالى:

(٣٢)-(٣٣) ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ أي استترت الشمس ﴿بِالْحِجَابِ﴾ أي بالأفق الذي حجبها عن أعين الناظرين. فندم لذلك وقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي الخيل ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ وصلى العصر، ثم عاد إلى إكمال الاستعراض فردها رجاله عليه فجعل يمسح بيده[3] سوقها وأعناقها حتى أكمل استعراضها هذا وجه الأوبة التي وصف بها سليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

هداية الآيات:

١ - الولد الصالح هبة إلهيّة لوالده فليشكر الله تعالى من وهب ذلك.

٢ - الثناء على العبد بالتوبة الفوريّة التي تعقب الذنب مباشرة.

٣ - جواز استعراض الحاكم القائد قواته تفقدًا لها لما قد يحدثه فيها.

٤ - إطلاق لفظ الخير على الخيل فيه تقرير أن الخيل إذا ربطت في سبيل الله كان طعامها وشرابها حسنات لمن ربطها في سبيل الله كما في الحديث الصحيح «**الخيل لثلاث...**».

٥ - ربط الطائرات النفّاثة في الحظائر اليوم والمدرعات وإعدادها للقتال في سبيل الله حلّ محل ربط الجياد من الخيل في سبيل الله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤ - ٤٠]

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾: أي ابتليناه. ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾: أي شق ولد ميت لا روح فيه. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾: أي رجع إلى ربه وتاب إليه من عدم استثنائه في يمينه.

(٣٥) ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾: أي أعطني ملكًا لا يكون لسواي من الناس.

(٣٦) ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾: أي استجبنا له فسخرنا له الريح تجري بأمره. ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾: أي لينة حيث أراد.

(٣٧) ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾: أي وسخرنا له الشياطين من الجن منهم البناء ومنهم الغواص في البحر.

(٣٨) ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾: أي مشدودين في الأصفاد أيديهم إلى أعناقهم في السجون المظلمة وذلك إذا تمردوا وعصوا أمرًا من أوامره.

(٣٩) ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾: أي وقلنا له هذا عطاؤنا. ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾: أي أعط من شئت وما شئت وامنع كذلك. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي منًّا لك.

(٤٠) ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى﴾: أي وإن لسليمان عندنا لقربة يوم القيامة. ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾: أي مرجع في الجنة في الدرجات العلا.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر إنعام الله على آل داود فقد أخبر تعالى هنا عما منّ به على سليمان فأخبر تعالى أنه ابتلاه كما ابتلى أباه داود وتاب سليمان كما تاب داود ولم يسقط ذلك من علو منزلتهما وشرف مقامهما.

(٣٤) قال تعالى في الآية (٣٤): ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾[4] أي ابتليناه، وذلك أنه كما أخبر رسول الله ﷺ في الصحيح أنه قال: لأطأن الليلة

---

(١) العارض: هم سُوَّاس خيله. والعرض: هو الإمرار والإحضار أمام الرائي والجياد: جمع جواد وهو الفرس الشديد الحُضْر، كما يقال للإنسان: جواد إذا كان كثير العطية غزيرها. والجواد يجمع على أجواد وأجاود.

(٢) ﴿الصَّافِنَاتُ﴾: صفة لموصوف محذوف وهو الخيل أو الأفراس وهو الذي يقف على ثلاث قوائم والواحدة صافنة.

(٣) ذكر كثير من المفسرين أن قوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أنه ذبحها وأطعمها الفقراء لأنها ألهته عن الصلاة وما في التفسير هو اختيار ابن جرير وهو الحق والصواب.

(٤) ذكر المفسرون لهذه الفتنة عدة أمور وهي قصص أشبه بالخرافات الإسرائيلية أمثلها ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: اختصم إلى سليمان فريقان أحدهما من أهل «جرادة» امرأة سليمان وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم ثم قضى بينهما بالحق

مائة جارية[1] تلد كل جارية ولدًا يصبح فارسًا يقاتل في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله أي لم يستثن. ووطىء نساءه في تلك الليلة فعوقب لعدم استثنائه فلم يلدن إلا واحدة جاءت بولد مشلول بالشلل النصفي فلما وضعته أمه أتوا به إلى سليمان ووضعوه على كرسيه. وهو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ سليمان إلى ربه فاستغفر وتاب فتاب الله عليه وقال:

(٣٥) ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى[2] لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي لا يكون مثله لسواي من الناس وتوسل إلى الله في قبول دعائه بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ فاستجاب الله تعالى له فسخّر له الريح تجري بأمره حيث يريد لأنها تحمل بساطه أو سفينته الهوائية التي غدوها شهر ورواحها رخاء أي ليّنة حيث أصاب أي أراد، كما سخّر له شياطين الجن منهم البنّاء الذي يقوم بالبناء للدور والمصانع ومنهم الغوّاص في أعماق البحر لاستخرج اللآلىء، ومنهم من إذا عصاه وتمرّد عليه جمع يديه إلى عنقه بصفدٍ ووضعه تحت الأرض.

(٣٦) - (٣٧) - (٣٨) هذا ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ[3] ۝﴾.

(٣٩) وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾ أي أعطيناه ما طلب منا وقلنا له هذا إعطاؤنا لك فامنن أي أعط ما شئت لمن شئت وامنع ما شئت عمن شئت بغير حساب منا عليك.

(٤٠) وفوق هذا وإن لك عندنا يوم القيامة للقربة وحسن المرجع وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝﴾.

هداية الآيات:

١ - تقرير قول بعضهم حسنات الأبرار سيئات المقربين إذ عدم الاستثناء في قوله لأطأن الليلة مائة جارية الحديث عوقب به فلم تلد امرأة من المائة إلا واحدة وولدت طفلاً مشلولاً، وعوقب به نبيُّنا ﷺ فانقطع عنه الوحي نصف شهر وأكربه ذلك لأنه لم يستثن عندما سئل عن ثلاث مسائل وقال غدًا أجيبكم.

٢ - مشروعية التوبة من كل ذنب صغيرًا كان أو كبيرًا.

٣ - مشروعية التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى.

٤ - بيان إنعام الله تعالى على عبده سليمان.

٥ - بيان تسخير الله تعالى لسليمان الريح والجن وهذا لم يكن لأحد غيره من الناس.

شرح الكلمات:
[الآية: ٤١ ـ ٤٤]

(٤١) ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾: أي اذكر يا نبينا محمد ﷺ عبدنا أيوب بن عيصو بن إسحق بن إبراهيم.

﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: أي بضرّ وألم شديد نسب هذا للشيطان لكونه سببًا وتأدُّبًا مع الله تعالى.

(٤٢) ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾: أي اضرب برجلك الأرض تنبع عين ماء. ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾: أي وقلنا له هذا ماء بارد تغتسل منه، وتشرب فتشفى.

(٤٤) ﴿ضِغْثًا﴾: أي حزمة من حشيش يابس. ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾: بترك ضربها. ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾: أي أيوب عليه السلام. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: أي رجّاع إلى الله تعالى.

معنى الآيات:

(٤١) ما زال السياق في ذكر قصص الأنبياء ليثبت به فؤاد نبيّه محمد ﷺ

= فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الهوى وما في التفسير أصح وأقرب إلى تفسير الآيات.

(١) نص الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون**».

(٢) روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «**إن عفريتاً من الجن تفلت عليَّ البارحة ليقطع عليَّ صلاتي فحمانى الله تبارك وتعالى منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ فرددته خاسئاً**».

(٣) الأصفاد جمع صفد بفتح الصاد والفاء القيد من حديد.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

٤٥٦

فقال تعالى له: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ[1] أَيُّوبَ﴾ وهو أيوب بن عيصو بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي دعاه قائلاً ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ[2] وَعَذَابٍ﴾[3] أي ألم شديد، وذلك بعد مرض شديد دام مدة تزيد على كذا سنة، وقال في ضراعة أخرى ذكرت في سورة الأنبياء: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾.

﴿٤٢﴾ وقوله: ﴿ٱرْكُضْ[4] بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۞﴾ أي لما أراد الله كشف الضر عنه قال له اركض برجلك أي اضرب برجلك الأرض ينبع منها ماءٌ فاشرب[5] منه واغتسل تشف ففعل فشفي كأن لم يكن به ضرٌ البتة.

﴿٤٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا[6] لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي عوّضه الله تعالى عما فقد من أهل وولد، وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي كان ذلك التعويض لأيوب رحمة منا وذكرى لأولي الألباب، أي عبرة لأولي القلوب الحيّة الواعية يعلمون بها أن الله قد يبتلي أحب عباده إليه ليرفعه بذلك درجات عالية ما كان ليصل إليها دون الابتلاء في ذات الله والصبر عليه.

﴿٤٤﴾ وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[7] أي قلنا له خذ بيدك ضغثًا أي حزمة من حشيش يابس واضرب به امرأتك ضربة واحدة إذ في الحزمة مائة عود وكان قد حلف أن يضرب امرأته مائة جلدة لما حصل منها من تقصير في يوم منْ أيام حياتهما، فأفتاه ربُّه تعالى بما ذكر في هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾[8] أي قد اختبرناه

---

(١) قال القرطبي: أمر النبي ﷺ بالاقتداء بهم في الصبر على المكاره.

(٢) قرأ الجمهور: ﴿بنصب﴾ بضم النون وتسكين الصاد وقرىء: ﴿بنصب﴾ بفتحها كحزن وحزن فالنصب: الشر والبلاء الشديد، والنصب بالتحريك: التعب والإعياء.

(٣) الباء في ﴿بِنُصْبٍ﴾ سببية أي: مسّني نصب وعذاب بسبب وسوسة الشيطان لي، فنسب النصب والعذاب إلى الشيطان لأنهما كانا بسبب وساوسه.

(٤) الركض: التحريك يقال: ركض الدابة إذا حركها برجليه فركضت أي: تحركت بسرعة وجملة ﴿ٱرْكُضْ﴾ مقولة لقول محذوف أي: قلنا له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾.

(٥) أي: ماء فيه شفاء و ﴿مُغْتَسَلٌۢ﴾ اسم مفعول أي: مغتسل به هو من باب الحذف والإيصال مثل تمرون الديار ولا تعرجوا، فكلامكم إذاً عليّ حرام. أي: تمرون بالديار فحذف الباء.

(٦) لم تشر الآيات إلى أن أيوب رزىء بموت أهله ولا بفقد ماله وسياق الآيات لا يدل على أن أيوب مات أهله من بنين وأحفاد وما يذكر هنا من كونه فقد أهله بموتهم ثم أحياهم الله تعالى له هو من أحاديث بني إسرائيل، والظاهر أن الله تعالى حفظ لأيوب أهله ووهبه مثلهم أي: أعطاه أهله وزاده ضعفهم ولو أراد ما تقوله الناس لقال: وأحيينا له أهله ووهبنا له مثلهم والله أعلم.

(٧) هذه الفتيا مما خص الله تعالى بها عبده أيوب فلا تتعداه إلى غيره والنبي ﷺ قال: «**إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرّت عن يمني وفعلت الذي هو خير**» وما روى أبو داود من أن رجلاً مريضاً وجب عليه حد فأفتاهم الرسول ﷺ بضربه بعثكول نخل به مائة عود فضربوه به ضربة واحدة فإن الخبر إن صح فالعلة هي مرضه الشديد وعلته القائمة به.

(٨) الجملة تعليلية لما تقدم من إنعام الله تعالى على أيوب أي: وهبه الله ذلك الإنعام لصبره على ما ابتلاه به وكذا جملة إنه أواب.

بالمرض وفقد الأهل والمال والولد فوجدناه صابرًا، وبذلك أثنى عليه بقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى ربه في كل أمره لا يعرف إلا الله.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة محمد ﷺ من طريق هذا القصص الذي لا يتأتى إلا بالوحي الإلهي.

٢ - قد يبتلي الله تعالى من يحبه من عباده ليزيد في علوّ مقامه ورفعة شأنه.

٣ - فضل الصبر وعاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة.

٤ - مشروعية الفتيا وهي خاصة بأهل الفقه والعلم.

٥ - وجوب الكفارة على من حنث في يمينه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٥ - ٥٤]

(٤٥) ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا﴾: أي اذكر صبرهم على ما أصابهم فإن لك فيهم أسوة. ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾: أي أصحاب القوى في العبادة. ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾: أي البصائر في الدين بمعرفة لأسرار الحكم.

(٤٦) ﴿بِخَالِصَةٍ﴾: أي هي ذكر الدار الآخرة والعمل لها.

(٤٧) ﴿لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾: أي من المختارين الأخيار جمع خيّر.

(٤٩) ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾: أي لهم بالثناء الحسن الجميل هنا في الدنيا. ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾: أي هم وغيرهم من سائر المؤمنين والمؤمنات. ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾: أي مرجع أي عندما يرجعون إلى ربهم بالوفاة.

(٥١) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾: أي على الأرائك. ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ﴾: أي يطالبون فيها بفاكهة وذكر الفاكهة دون الطعام والشراب إيذانًا بأن طعامهم وشرابهم لمجرد التلذذ لا للتغذية كما في الدنيا.

(٥٢) ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾: أي حابسات العيون على الأزواج فلا ينظرن إلى غيرهم. ﴿أَتْرَابٌ﴾: أي أسنانهن متساوية وهي ثلاث وثلاثون سنة.

(٥٤) ﴿مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾: أي ليس له انقطاع أبدًا.

معنى الآيات:

(٤٥) ما زال السياق في ذكر الأنبياء وما أُكرموا به على صبرهم ليكون ذلك مثبتًا للنبي ﷺ على دعوته والصبر عليها والتحمل في سبيل الوصول بها إلى غاياتها فقال تعالى له: ﴿وَاذْكُرْ﴾ أي يا نبيّنا ﴿عِبَادَنَا﴾ لتتأسى بهم وهم ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾[١] وولده ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ حفيده ﴿أُولِي﴾ أي أصحاب ﴿الْأَيْدِي﴾[٢] أي القوى في العبادة والطاعة ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ أي أبصار القلوب وذلك بالفقه في الدين ومعرفة أسرار التشريع.

(٤٦) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم﴾ أي خصصناهم ﴿بِخَالِصَةٍ﴾[٣] أي بخاصة امتازوا بها هي ذكر الدار أي ذكر الدار الآخرة بالعمل لها والدعوة إليها بالإيمان والتقوى.

(٤٧) وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ أي المختارين ﴿الْأَخْيَارِ﴾ جمع خيّر[٤] وهو المطبوع على الخير.

(٤٨) وقوله: ﴿وَاذْكُرْ﴾ أي يا نبيّنا للائتساء ﴿إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ وقوله: ﴿وَكُلٌّ﴾ أي من داود ومن ذكر بعده من الأنبياء كانوا من الأخيار.

(٤٩) وقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي لهم بالثناء الحسن لهم في الدنيا، ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥] هم وغيرهم من المؤمنين والمؤمنات ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي مرجع وهو الجنة حيث يرجعون إلى الله تعالى بعد الموت، وفسر ذلك المرجع بقوله تعالى:

(٥٠) ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي إقامة ﴿مُّفَتَّحَةً[٦] لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾.

---

(١) أما إبراهيم فقد ذكر الله تعالى ما ابتلاه به من إلقائه في النار وكذا يعقوب من فقده ليوسف عليهم السلام وأما إسحاق فلم يذكر له في القرآن ابتلاء ولعله ذكر بين مبتلين وهما أصله وفرعه فكان ذلك ابتلاء له أيضاً.

(٢) جمع يد والمراد بها القوة لا الجارحة نحو ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾.

(٣) قرأ نافع: ﴿**بخالصة ذكر الدار**﴾ بإضافة خالصة إلى الدار وقرأ حفص بتنوين خالصة فتكون ذكر الدار عطف بيان على خالصة.

(٤) جائز أن يكون ﴿الْأَخْيَارِ﴾ جمع خير بإسكان الياء وجمع خير بتشديدها مكسورة نحو: أموات جمع ميت وميّت.

(٥) اللام: للاختصاص ليست للملك ولا للتعليل بل للاختصاص إذ هي مختصة بالمتقين دون غيرهم.

(٦) ﴿مُّفَتَّحَةً﴾: منصوب على الحال و ﴿الْأَبْوَابُ﴾: مرفوع بمفتحة لأنه نائب فاعل.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

٤٥٧

(٥١) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ أي على الأرائك الأسرة بالحجلة، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي يُطالبون فيها ﴿بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ ولم يذكر الطعام إشارة إلى أن مآكلهم ومشاربهم لمجرد التلذذ لا للتغذي بها كما في الدنيا.

(٥٢) وقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ يخبر تعالى أن لأولئك المتقين في الجنة قاصرات الطرف أي نساء قاصرات الطرف أي حابسات له على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم من الأزواج، وقوله: ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي في سن واحدة وهي ثلاث وثلاثون سنة.

(٥٣) وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي يقال لهم هذا ما توعدون ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي هذا المذكور من النعيم هو ما يعدكم به ربكم يوم القيامة.

(٥٤) وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ أي ليس له انقطاع ولا فناء.

هداية الآيات:

١ - فضيلة القوة في العبادة والبصيرة في الدين وفي الحديث[1] «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**».

٢ - فضل ذكر الدار الآخرة وتذكرها دائمًا لأنها تساعد[2] على الطاعة.

٣ - فضل التقوى وأهلها وبيان ما أعد لهم يوم الحساب.

٤ - نعيم الآخرة لا ينفد كأهلها لا يموتون ولا يهرمون.

٥ - فضيلة الائتساء بالصالحين والاقتداء في الخير بهم وهم أولو القوة في العبادة والبصيرة في الدين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٥ - ٦٤]

(٥٥) ﴿هَٰذَا﴾: أي المذكور للمتقين.

﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾: أي الذين طغوا في الكفر والشر والفساد. ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾: أي جهنم يصلونها.

(٥٦) ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: أي الفراش الذي مهدوه لأنفسهم في الدنيا بالشرك والمعاصي.

(٥٧) ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾: أي العذاب المفهوم مما بعده فليذوقوه.

﴿حَمِيمٌ﴾: أي ماء حار محرق.

﴿وَغَسَّاقٌ﴾: أي قيح وصديد يسيل من لحوم وفروج الزناة في النار.

(٥٨) ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾: أي وعذاب آخر كالحميم والغساق أصناف.

(٥٩) ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾: أي يقال لهم عند دخولهم النار هذا فوج مقتحم معكم. ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾: أي لا سعة عليهم ولا راحة لهم إنهم صالو النار.

(٦٠) ﴿قَالُوا﴾ أي الأتباع للطاغين: بل أنتم لا مرحبًا بكم أنتم قدمتموه لنا.

(٦١) ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾: أي الأتباع أي من كان سببًا في عذابنا هذا في جهنم فزده عذابًا.

(٦٢) ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾: أي قال الطاغون وهم في النار ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار في الدنيا يعنون فقراء المسلمين كبلال وعمار وصهيب.

(٦٣) ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾: أي كنا نسخر منهم في الدنيا. ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾: أي أمفقودون هم أم زاغت عنهم الأبصار؟ فلم نرهم.

(٦٤) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) شاهده حديث: «**كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة**» «حديث صحيح».

﴿ٱلنَّارِ﴾: أي إن ذلك المذكور لأهل النار لحق ثابت وهو تخاصم أهل النار.

معنى الآيات:

بعد ذكر نعيم أهل الإيمان والتقوى ناسب ذكر شقاء أهل الكفر والفجور وهو أسلوب الترهيب والترغيب الذي امتاز به القرآن الكريم في هداية العباد.

(٥٥) فقال تعالى: ﴿هَـٰذَا﴾[١] أي ما تقدم ذكره من نعيم أهل السعادة ﴿وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ﴾ وهم المشركون الظلمة كأبي جهل وعقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي لأسوأ مرجع وأقبحه وهو (٥٦) ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ[٢] ٱلْمِهَادُ﴾ هي يمهدها الظالمون لأنفسهم.

(٥٧) وقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي هذا حميم وغساق[٣] فليذوقوه والحميم الماء الحار المحرق والغساق ما سال من جلود ولحوم وفروج الزناة من أهل النار كالقيح والصديد.

(٥٨) وقوله: ﴿وَءَاخَرُ[٤] مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ أي وعذاب آخر من شكل الأول ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي أصناف عديدة.

(٥٩) وقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي يقال[٥] عند دخولهم النار هذا فوج أي فريق مقتحم معكم النار، فيقول الطاغون: ﴿لَا مَرْحَبًۢا[٦] بِهِمْ﴾ أي لا سعة ولا راحة لهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ أي داخلوها محترقون بحرها ولهبها، فيرد الأتباع عليهم قائلين:

(٦٠) ﴿بَلْ[٧] أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ أي لا سعة ولا راحة ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ إذ كنتم تأمروننا بالشرك والكفر والفجور. قال تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي الذي انتهى إليه الطاغون وأتباعهم في النار.

(٦١) وقالوا أيضًا ما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا﴾ أي العذاب ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ أي يا ربنا ضاعف لهم العذاب مرتين لأنهم هم الذين قدموه لنا يوم كانوا يدعوننا إلى الشرك والباطل ويحضوننا عليه.

(٦٢) وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي الطغاة ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ[٨]﴾ بيننا.

(٦٣) ﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ﴾[٩] في الدنيا ﴿سِخْرِيًّا﴾[١٠] نسخر منهم يعنون فقراء المسلمين كبلال وعمّار وصهيب وخبيب، أمفقودون هم ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ﴾ أبصارنا فلم نرهم.

(٦٤) قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ أي إن ذلك الكلام الذي دار بين أهل النار حق وصدق هو تخاصم أهل النار فاسمعوه أيها المشركون اليوم آيات تتلى وغدًا يوم

---

(١) هذا مستعمل في الانتقال من غرض إلى غرض تثنية للغرض الذي قبله شبيهة بكلمة: وبعد.

(٢) الفاء في ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ للترتيب والسبب.

(٣) الغساق: سائل في جهنم يقال: غسق الجرح إذا سال منه ماء أصفر. قرأ الجمهور: ﴿غساق﴾ بالتخفيف وقرأه حفص وبعض بالتشديد فهما لغتان فيه والتشديد للمبالغة في غاسق وهو أقرب.

(٤) ﴿وَءَاخَرُ﴾ صفة لموصوف محذوف أي: وعذاب آخر من شكله أي: من مثله أزواج أي: أصناف متعددة.

(٥) يبدو أن القائل هم الزبانية يخاطبون الطغاة وهم يعذبونهم ﴿هَـٰذَا فَوْجٌ﴾.

(٦) ﴿لَا مَرْحَبًۢا﴾: نفي للكلمة التي يقولها المزور لمن زاره وهي إنشاد دعاء للوافد. وهي مصدر بوزن مفعل، والعامل فيه محذوف تقديره: أتيت رحباً أي: مكاناً ذا رحب، فإذا أرادوا نفيه قالوا: لا مرحباً بكم. قال الشاعر:

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً به ... إذا كان تفريق الأحبة في غد

(٧) ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي لرد الشتم عليهم، وأنهم هم أولى به منه، والباء في ﴿بِهِمْ﴾ للبيان فهي بمعنى اللام أي: لا مرحباً لهم يستحقونه عندنا.

(٨) جمع شر بمعنى أشر كالأخيار جمع خير بمعنى أخير.

(٩) قرأ نافع وحفص والجمهور: ﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ﴾ بهمزة الاستفهام وحذفت همزة الوصل والجملة بدل من جملة ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ (٦٣)﴾، و ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل أي: بل زاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم ﴿زَاغَتْ﴾ بمعنى مالت.

(١٠) قرأ نافع: ﴿سخرياً﴾ بضم السين وقرأ حفص بكسرها كما في سورة المؤمنون والسخرية: الاستهزاء.

الحساب حقائق تشاهدوه وغصص تتجرع وحسرات تمزق الأكباد والقلوب.

هداية الآيات:

١ - ذم الطغيان وهو مجاوزة الحد في الظلم والكفر وبيان جزاء أهله يوم القيامة.

٢ - بيان ما يجري من خصام بين أهل النار للعظة والاعتبار.

٣ - شكوى الأتباع ممن اتبعوهم في الضلال ومطالبتهم بمضاعفة العذاب لهم.

٤ - تذكر أهل النار فقراء المسلمين الذين كانوا يعدونهم متخلفين ورجعيين لأنهم كانوا لا يأتون الفجور والشرور مثلهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٥ - ٧٤]

(٦٥) ﴿قُلْ﴾: أي يا رسولنا لمشركي قومك أي مخوفًا من عذاب الله.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾: أي وليس هناك من إله قط إلا الله الواحد القهار.

(٦٦) ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾: أي الغالب الذي لا يمانع في مراده الغفار للتائبين من عباده.

(٦٧) ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝﴾: أي قل يا رسولنا لكفار مكة القرآن نبأ عظيم وخبر جسيم.

(٦٨) ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝﴾: لا ترغبون في سماعه ولا في تدبر معانيه.

(٦٩) ﴿بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾: أي بالملائكة عندما شوورُوا في خلق آدم.

(٧١) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾: أي اذكر لهم تدليلاً على أنه يوحى إليك القرآن إذ قال ربك للملائكة. ﴿خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾: أي خالق آدم من مادة الطين وقيل فيه بشر لبدُوِّ بشرته.

(٧٢) ﴿مِن رُّوحِي﴾: الروح جسم لطيف يسري في الجسم سريان النار في الفحم أو الماء في الشجر أو الكهرباء في الأسلاك.

(٧٤) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾: أي لم يسجد. ﴿اسْتَكْبَرَ﴾: عن السجود لآدم كبرًا وحسدًا له.

معنى الآيات:

(٦٥) بعد كل ذلك العرض للقصص ولما في الجنة والنار وما تقرر به من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول لمشركي قريش: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾[1] أي مخوف من عذاب الله الواجب لكل من كفر به وكذب بآياته ولقاه وترك عبادته وعد الشيطان عدوه، كما أخبركم مقررًا أنه ليس هناك من إله قط إلا الله الواحد في ذاته وصفاته وربوبيته وعبادته القهار لكل قاهر والجبار لكل جبار.

(٦٦) ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝﴾، أي مالك لها متصرف فيها دون شريك له في ذلك. العزيز الانتقام ممن كفر به وعصاه الغفار لمن أناب إليه واتبع هداه.

(٦٧) - (٦٨) وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝﴾ أي يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمشركين من أهل مكة هو أي[2] القرآن وما حواه من تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء وعرض القصص والأحداث ووصف الجنة والنار نبأ عظيم أي خبر ذو شأن عظيم أنتم عنه معرضون تأبون سماعه والإيمان به والاهتداء بهديه. بدعوى أني اختلقته وافتريته وهي حجة داحضة وأدلتكم في ذلك واهية. كيف يكون ما أتلوه عليكم من القرآن افتراء مِنّي عليكم وعلى الله ربي وربكم. وإنه:

(٦٩) ﴿مَا كَانَ لِيَ[3] مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ

---

(١) في هذه الآيات الثلاث: الترهيب والترغيب ببيان قدرة الله وجبروته وبيان ربوبيته الموجبة للألوهية المستلزمة لمغفرته ورحمته لمن تاب إليه بتوحيده وطاعته بعد الإيمان به وبرسوله ﷺ ولقائه.

(٢) كون النبأ هو القرآن هذا ما ذهب إليه ابن جرير رحمه الله تعالى، ومن فسره بما سبق ذكره من الإنذار ما عرض من أحوال أهل الجنة وأهل النار فإن ما في التفسير شامل لكل ذلك وهادٍ إليه ودال عليه والحمد لله.

(٣) قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ﴾ إلخ.. استئناف لأجل الاستدلال على صدق القرآن بأنه وحي من الله تعالى ولولا أنه وحي لما كان للرسول ﷺ علم به لا إجمالاً ولا تفصيلاً ولهذا الاستدلال نظائر نحو ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾.

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

ترتيبها ٣٩ — سورة الزمر — آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

٤٥٨

إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[1] عندما قال الله للملائكة: ﴿٧١﴾ ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقال الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ كيف عرفت أنا هذا وحدثت به لو لم يكن وحيًا من الله أوحاه إليَّ. يا قوم إنه ما يوحى إليَّ إلا أنما أنا نذير مبين أي بيِّن النذارة. فلم يوح إليَّ الأمر بالتسلط عليكم وأخذكم بالشدة لأستعبدكم وتكونوا حولاً لي وخدمًا لا، لا. إنما يوحى إليَّ لتقرير حقيقة واحدة وهي أني نذير لكم ولغيركم من عذاب الله المعدّ لمن كفر به وأشرك في عبادته، وفسق عن طاعته. وقوله تعالى في الآية (٧١): ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ هو آدم عليه السلام. ﴿٧٢﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي أتممت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فحيي وصار بشرًا سويًا ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي خروا على الأرض ساجدين له طاعة لأمرنا وتحيّة لعبدنا. ﴿٧٣﴾ ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ سواء من كان منهم في السموات أو في الأرض. ﴿٧٤﴾ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استكبر عن السجود لآدم لزعمه الكاذب أنه خير منه لكونه من النار وآدم من طين، ولحسده أيضًا حيث فضله وفُضِّل عليه، وكان بذلك الكبر والحسد من الكافرين إذ جحد معلومًا من طاعة الله بالضرورة وكيف وهو يتلقى الخطاب من الله تعالى بلا واسطة.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد بأدلته.

٢ - تقرير النبوة والوحي بشواهده من نبأ الملأ الأعلى.

٣ - عداوة إبليس لآدم وأن الحامل عليها الحسد والكبر وهما من شر صفات العبد.

٤ - تقرير أن من القياس ما هو شر وباطل كقياس إبليس إذ قاس النار على التراب فرأى أن النار أفضل فهلك بذلك، إذ التراب أفضل النار تحرق والتراب يحيي، وشتان ما بين الموت والحياة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٥ ـ ٨٨]

﴿٧٥﴾ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: أي للذي خلقته بيديَّ وهو آدم فدل ذلك على شرفه. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾: استكبرت الآن أم كنت من قبل من العالين المتكبرين والاستفهام للتوبيخ والتقريع لإبليس.

(١) قال بعض المفسرين: تخاصم الملأ الأعلى هو شراف قريش فيما بينهم سراً وقال آخرون: هو تخاصم أهل النار وقيل: والصواب ما في التفسير وهو أن الملأ الأعلى: الملائكة وما جرى بينهم في شأن السجود لآدم وامتناع إبليس عن ذلك وفي الآية بعد تفسير هذا الاختصام وأما حديث السنن فلم يرد به ما في هذه الآيات ونصه: «**إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة فقال: يا محمد أتدري فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب** ـ أعادها ثلاثاً ـ **فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري فتجلى لي كل شيء وعرفت فقال: يا محمد فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات.. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات وإسباغ الوضوء عند الكريهات قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام ولين الكلام والصلاة والناس نيام. قال: سل قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك هذا**» «حديث المنام».

(٧٧) ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾: أي من الجنة.
﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾: أي مرجوم مطرود.
(٧٨) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾: أي طرده من الجنة وألحقه لعنة وهي الطرد من الرحمة إلى يوم الدين أي الجزاء وهو يوم القيامة.
(٧٩) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾: أي أخر موتي وأبق عليَّ حيًا إلى يوم يبعثون أي الناس.
(٨١) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾: أي إلى النفخة الأولى وهي نفخة الموت والفناء.
(٨٣) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾: أي الذين استخلصتهم للإيمان بك وعبادتك ومجاورتك في الجنة.
(٨٦) ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: لا أسألكم على البلاغ أجرًا تعطونه لي.
﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾: أي المتقولين القرآن وما أنذركم به من تلقاء نفسي.
(٨٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾: أي ما أتلوه من القرآن وما أقوله من الهدى إلا ذكر للعالمين.
(٨٨) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾: أي ولتعلمن أيها المكذبون نبأ القرآن الذي أنبأ به من الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين بعد حين.

معنى الآيات:

(٧٥) ما زال السياق الكريم في ذكر ما دار بين الربّ تعالى وعدوه إبليس من حديث في الملإ الأعلى إذ قال تعالى بعد أن امتنع إبليس من السجود لآدم ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ[(١)] أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ[(٢)]﴾ أي أيُّ شيء جعلك تمتنع من السجود لآدم وقد أمرتك بذلك ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي الآن ﴿أَمْ كُنتَ﴾ من قبل ﴿مِنَ الْعَالِينَ[(٣)]﴾ أي المستكبرين. وهذا الاستفهام من الله تعالى توبيخ لإبليس وتقريع له.

(٧٦) وأجابه إبليس بما أخبر تعالى به عنه في قوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فاستعمل اللعين القياس الفاسد المردود عند أرباب العقول، إذ النار لم تكن أبدًا خيرًا من الطين، النار تحرق ونهايتها رماد، والطين لا يحرق ومنه سائر أنواع المغذيات التي بها الحياة الحبوب والثمار والفواكه والخضر واللحوم وحسبه أنه أصل الإنسان ومادة خلقته. فأيُّ شرف للنّار أعظم لو كان اللعين يعقل.

(٧٧) وهنا قال تعالى له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي مطرود مبعد لا ينبغي أن تبقى في رحمة الله.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ لا تفارقك على مدى الحياة وهي بُعد من رحمتي طوال الحياة.

(٧٩) وهنا قال اللعين لما آيس من الرحمة: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ أي ابق عليَّ حيًا لا تمتني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حتى يتمكن من إغواء بني آدم، ولا يموت إذا ماتوا في النفخة الأولى فلا يذوق هو الموت وعلم الله ما أضمره في نفسه فرد عليه بقوله:

(٨٠) ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أي الممهلين المبقى على حياتهم.

(٨١) ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الأولى حتى يموت مع سائر الخلائق ولما علم اللعين أنه أنظر قال في صفاقة وجه ووقاحة قولاً مقسمًا بعزة الله.

(٨٢) ـ (٨٣) ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فاستثنى اللعين عباد الله المؤمنين المتقين الذين استخلصهم الله لطاعته وجواره في دار كرامته.

(٨٤) وهنا قال تعالى ردًا على اللعين ﴿قَالَ فَالْحَقُّ[(٤)]﴾ أي أنا الحق ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾.

---

(١) ذكر صاحب تفسير التحرير أن خطاب الله تعالى لإبليس بعد إبلاسه كان بواسطة ملك من الملائكة معللاً ذلك بعدم أهلية إبليس بعد إبلاسه لذلك لما فيه من الشرف والكمال ولم أقف على من رأى هذا الرأي غيره والله أعلم بصحته أو خطئه.

(٢) في قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ إثبات صفة اليدين لله تعالى وقد وردت أحاديث صحيحة تقرر ذلك وتثبته فوجب الإيمان بهذه الصفة الذاتية لله تعالى مع تنزيهه تعالى أن تكون يداه تشبه يدي من له يدان من خلقه لأن الله تعالى ليس كمثله شيء.

(٣) العلو الشرف فمعنى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي: من أهل علو المراتب وشرف المنازل فلذا امتنعت من السجود لآدم عليه السلام.

(٤) قرأ الجمهور: **﴿قال فالحق﴾** بنصب الحق على أنه مفعول مطلق تقديره: أحق الحق، وقرأ حفص بالرفع على تقدير فالحق قولي، أو أنا الحق أي: على الابتداء، وأما الحق الثاني فهو منصوب إجماعاً لفعل أقول.

﴿٨٥﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من الإنس والجن أجمعين. وإلى هنا انتهى ما دار من خصومة في الملإ الأعلى، وكيف عرف محمد ﷺ هذا وأخبر به لولا أنه وحي يوحى إليه. وهنا قال تعالى لرسوله ﷺ قل لقومك المكذبين برسالتك.

﴿٨٦﴾ ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على البلاغ ﴿مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ[1]﴾ الذين يتقولون على الله ويقولون ما لم يقل.

﴿٨٧﴾ ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ من الإنس والجن يذكرون به فيؤمنون ويهتدون.

﴿٨٨﴾ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أي ولتعرفن صدق ما أخبر به من وعد ووعيد وصلاحية ما تضمنه من تشريع بعد حين، وقد عرف بعضهم ذلك يوم بدر، ويوم الفتح، ويوم موته.

هداية الآيات:

١ - ذم الكبر والحسد وحرمتهما وبيان جزائهما.

٢ - مشروعية القياس إن كان قياسًا صحيحًا، وبيان أخطار القياس الفاسد.

٣ - مشروعية القسم بالله وبصفاته وأسمائه.

٤ - بيان أن من كتب الله سعادتهم لا يقوى الشيطان على إغوائهم وإضلالهم.

٥ - لا يجوز أخذ الأجرة على بيان الحق والدين.

٦ - ذم التكلُّف المفضي إلى الكذب والتقول على الله وعلى الرسول ﷺ والمؤمنين.

٧ - ظهر مصداق ما أخبر به القرآن بعد حين قصير وطويل.

❁ ❁ ❁

سورة الزمر[2]
مكية
وآياتها خمس وسبعون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٤]

﴿١﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي القرآن من الله. ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: أي العزيز في مُلكه وانتقامه الحكيم في صنعه وتدبير خلقه.

﴿٢﴾ ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾: أي مفردًا إياه بالعبادة فلا تشرك بعبادته أحدًا.

﴿٣﴾ ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾: أي له وحده خالص العبادة لا يشاركه في ذلك أحد سواه. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: أي شركاء وهي الأصنام. ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾: أي تقريبًا وتشفع لنا عنده. ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾: أي كاذب أي على الله كفار بعبادته غير الله تعالى.

﴿٤﴾ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: أي تنزيهًا له عن الولد والشريك. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾: أي المعبود الحق الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه القهار لخلقه.

معنى الآيات:

﴿١﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ[3] مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يخبر تعالى أن تنزيل القرآن كان منه سبحانه وتعالى وهو العزيز في انتقامه من أعدائه الحكيم في تدبير خلقه. ولم يكن عن غيره بحال من الأحوال وقوله تعالى:

(١) التكلف: معالجة الكلفة وهو ما يشق على المرء عمله أو علمه أو قوله لعدم قدرته على ذلك. روي عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال: من سئل عما لا يعلم فليقل: لا أعلم، ولا يتكلف، فإن قوله: لا أعلم علم وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴿٨٦﴾﴾. روي أن للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم. وروى الدارقطني أن النبي ﷺ مر في بعض أسفاره على رجل جالس على مقراة له. وقال له عمر: يا صاحب المقراة أولَغَتْ السباع الليلة في مقراتك؟ فقال له النبي ﷺ: **«يا صاحب المقراة لا تخبره، هذا متكلف، لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور»**، كما روى مالك في الموطأ أن عمر خرج في ركب معهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضاً فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض هل ترد السباع حوضك؟ فقال عمر: يا صاحب الحوض لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا.

(٢) سميت بالزمر: لذكر لفظ الزمر فيها ولم يذكر في غيرها قط والزمر جمع زمرة وهي الفوج المتبوع بفوج آخر.

(٣) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: القرآن: جائز أن يكون تنزيل الكتاب مبتدأ والخبر: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ وجائز أن يكون التنزيل خبر والمبتدأ محذوف أي: هذا تنزيل.

(٢) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[(١)] يخبر تعالى رسوله ﷺ بقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾[(٢)] أي القرآن العظيم ﴿بِالْحَقِّ﴾ في كل ما جاء فيه ودعا إليه من العقائد والعبادات والأحكام وعليه ﴿فَاعْبُدِ[(٣)] اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أي العبادة فلا تعبد معه غيره فإن العبادة لا تصلح لغيره أبدًا.

(٣) ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾[(٤)] أي شركاء يعبدونهم ويقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي تقريبًا ويشفعوا لنا عند الله في قضاء حوائجنا هؤلاء يحكم الله بينهم في ما هم فيه مختلفون مع المؤمنين الموحدين وذلك يوم القيامة وسيجزي بعدله كلًا بما يستحقه من إنعام وتكريم أو شقاء وتعذيب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ يخبر تعالى بحرمان أناس من هدايته وهم الذين توغلوا في الفساد فكذبوا على الله تعالى وعلى عباده وأصبح الكذب وصفًا لازمًا لهم، وكفروا وبالغوا في الكفر بالله وآياته ورسوله ﷺ ولقائه فأصبح الكفر وصفًا ثابتًا لهم، إذ هذه سنته في حرمان العبد من الهداية ليمضي فيه حكم الله بإشقائه وتعذيبه يوم القيامة.

(٤) وقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما يزعم المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله، وكما قال النصارى المسيح ابن الله، وكما قال اليهود عزير ابن الله، ولو أراد الله أن يكون له ولدٌ لاصطفى واختار مما يخلق ما يشاء، ولا يتركهم ينسبون إليه الولد افتراء عليه وكذبًا، ولكنه تعالى منزه عن صفات المحدثين وافتقار المخلوقين إذ هو الله ذو الألوهية على سائر خلقه الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه وحكمه القهار لسائر خلقه فسبحانه لا إله غيره ولا رب سواه.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية.

٢ - تقرير التوحيد.

٣ - بطلان الشرك والتنديد بالمشركين.

٤ - تقرير البعث والجزاء يوم القيامة.

سُورَةُ الزُّمَرِ — الجُزْءُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)

٤٥٩

شرح الكلمات:
[الآية: ٥ - ٧]

(٥) ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾: أي من أجل أن يذكر ويشكر لا من أجل اللهو والعبث.

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾: أي يدخل أحدهما في الآخر فإذا جاء الليل ذهب النهار والعكس كذلك.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: أي ذللهما فلا يزالان يدوران في فكليهما إلى نهاية الحياة وبدورتهما تتم

---

(١) ﴿بِالْحَقِّ﴾: الباء للملابسة أي: ملابساً للحق فلا باطل معه.

(٢) فيه تقرير نبوته ﷺ والإعلان عن شرفه بإنزال الكتاب عليه.

(٣) الفاء: للتفريع، أي: فبناء على إنزالنا عليك الكتاب فاعبد الله، و ﴿مُخْلِصًا﴾: حال، و ﴿الدِّينَ﴾: العبادة، وإخلاص العبادة: تجريدها من الالتفات إلى غير الله تعالى لطلب مدح أو نفع أو دفع مكروه أو اتقاء ذم.

(٤) ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ افتتاح الجملة بـ: ألا للتنبيه على شرف ما دخلت عليه والتنويه به. اللام في لله: للملك والاستحقاق. وفي الآية دليل على وجوب الإخلاص في العبادة ووجوب النية فيها ولا عبادة بدون نية صحيحة ولا يضر النية الخاطر يخطر بالقلب لا يملك المرء دفعه.

مصالح سكان الأرض.

(٦) ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: هي آدم عليه السلام. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: هي حواء خلقها الله تعالى من ضلع آدم الأيسر. ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾: أي أنزل المطر فأنبت العشب فخلق الأنعام فهذا وجه لإنزالها. ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾: أي من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: أي أطوارًا طورًا بعد طور نطفة فعلقة فمضغة. ﴿فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾: أي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي لا تحمل نفس ذات وزر وزر نفس أخرى.

(٧) ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي ما يخفيه المرء في صدره وما يسره في ضميره.

معنى الآيات:

(٥) هذه الآيات الكريمة في تقرير التوحيد بذكر الأدلة والبراهين التي لا تدع للشك مجالاً في نفوس العقلاء فقال تعالى في الآية (٥): ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1] أي أوجدهما خلقًا على غير مثال سابق وخلقهما بالحق لغايات سامية شريفة وليس للباطل والعبث ومن تلك الغايات أن يعبد فيها فيذكر ويشكر. وقوله: ﴿يُكَوِّرُ[2] ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي يغشى هذا هذا فيغطيه به ويستره كأنما لفَّه عليه وغشاه به وهذا برهان ثان فالأول برهان الخلق للسموات والأرض وبرهان ثالث في قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ[3] يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يدوران في فلكيهما إلى قيام الساعة وفي ذلك من الفوائد والمصالح للعباد ما لا يقادر قدره من ذلك معرفة عدد السنين والحساب. وقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ﴾[4] إعلان وتنبيه بأنه تعالى عزيز في بطشه وانتقامه من أعدائه غفّار لعباده التائبين إليه.

(٦) وقوله تعالى في الآية (٦): ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي آدم عليه السلام فقد صح أنه لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ذريّته وأشهدهم على أنفسهم، ولهذا جاء العطف بثم إذ قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي بعد أن مسح على ظهر آدم وأخرج ذريّته من ظهره وأشهدهم على أنفسهم خلق حواء من ضلعه الأيسر، وهذا برهان وآخر في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ضأن وماعز وهي ذكر وأنثى فالذكر زوج والأنثى زوج فهي ثمانية أزواج وجائز[5] أن يكون أصل هذه الأنعام قد أنزله من السماء كما أنزل آدم وحواء من السماء، وجائز أن يكون أنزل الماء فنبت العشب وتكونت هذه الأنعام من ذلك فالأصل الإنزال من السماء وتدرج الخلق كان في الأرض. وبرهان رابع في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ[6] خَلْقٍ﴾ أي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا ثم نكسو العظام لحمًا فإذا هو إنسان كامل وقوله: ﴿فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾ هي ظلمة بطن الأم، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، وهي غشاء يكون للولد وفي الحيوان يقال له السَّلي وقوله بعد ذكر هذه البراهين قال: ﴿ذَٰلِكُمُ

---

(١) هذه الجملة بيان لجملة ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

(٢) وهذه الجملة بيان ثانٍ أيضاً وحقيقة التكوير أنه اللف والليّ يقال: كور العمامة على رأسه إذا لفها ولوّاها وهذا تمثيل بديع لتعاقب الليل والنهار.

(٣) ﴿كُلٌّ﴾: التنوين للعوض أي: كل واحد منهما يجري لأجل مسمى هو أجل فنائهما.

(٤) استئناف ابتدائي وجملة ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ إلخ.. استدلال على صفة العزة والمغفرة في ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ﴾.

(٥) ووجه ثالث وهو جائز أن يكون الإنزال بمعنى التسخير نحو ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: ذللناه لكم تصنعون منه السيوف والرماح وهذا كقولك: نزل فلان على رأي فلان قال الشاعر:

أنزلني الدهر على حكمه — من شاهق عالٍ إلى خفض

(٦) أي: طوراً بعد طور لقوله ﷺ: **«إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويأمر بكتب أربع كلمات رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد»** الحديث «مسلم».

ٱللَّهُ[1] رَبُّكُمْ﴾ أي خالقكم ومعبودكم الحق ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود إلا هو إذ لا تصلح العبادة إلا له ﴿فَأَنَّىٰ[2] تُصْرَفُونَ﴾ أي كيف تصرفون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال إن أمركم عجبٌ.

(٧) وقوله في الآية (٧): ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ أي بعد أن بيّن بالأدلة القاطعة وجوب الإيمان به ووجوب عبادته، وأنه الرب الحق وإله الحق أعلم عباده أن كفرهم به لا يضره أبدًا لأنه غنيٌّ عنهم وعن سائر خلقه إلا أنه لرحمته بعباده لا يرضى لهم الكفر لما يسببه لهم من شقاء وخسران، كما أنهم إن آمنوا وشكروا يرضه لهم فيثيبهم أحسن ثواب ويجزيهم أحسن جزاء. وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هذا مظهر من مظاهر عدله بين عباده وهو أن نفسًا ذات وزر أي ذنب لا تحمل وزر أي ذنب نفس أخرى بل كل نفس تحمل وزرها وتتحمل تبعته ونتائجه وحدها. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي بعد الموت ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيخبركم بأعمالكم خفيها وجليها صغيرها وكبيرها ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فضلاً عما كان عملاً ظاهرًا غير باطن ويجزيكم بذلك الخير بمثله والشر بمثله. فهذا ربكم الحق وإلهكم الصدق فآمنوا به ووحدوه ولا تشركوا به وأطيعوه ولا تعصوه تنجوا وتسعدوا في الدنيا والآخرة. ولا يهلك على الله إلا هالك.

هداية الآيات:

١ - بيان آيات الله في الكون وإيرادها أدلة على التوحيد.

٢ - بيان إفضال الله تعالى على العباد في خلقهم ورزقهم.

٣ - بيان أن الكفر أعجب من الإيمان إذ أدلة الإيمان لا تعد كثرة وأما الكفر فلا دليل عليه البتة ومع هذا أكثر الناس كافرون.

٤ - بيان غنى الله تعالى عن خلقه وافتقار الخلق إليه.

٥ - بيان عدالة الله تعالى يوم القيامة وتقريرها.

٦ - بيان إحاطة علم الله بالخلق وعلمه بأفعالهم وأحوالهم ظاهرًا وباطنًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨، ٩]

(٨) ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: الإنسان أي المشرك. ﴿ضُرٌّ﴾: أي مرض أو خوف غرق ونحوه من كل مكروه لا يقدر على دفعه. ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾: أي سأل ربّه كشف ما أصابه من ضر راجعًا إليه معرضًا عمن سواه. ﴿إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾: أي أعطاه نعمة منه بأن كشف ما به من ضر. ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾: أي ترك ما كان يتضرع إليه من قبل وهو الله سبحانه وتعالى. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: أي شركاء. ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾: أي ليضل نفسه وغيره عن الإسلام. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾: أي قل يا نبيّنا لهذا الكافر الضال المضل تهديدًا تمتع بكفرك بقية أجلك. ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: أي أهلها المتأهلين لها بخبث نفوسهم وظلمة أرواحهم.

(٩) ﴿قَٰنِتٌ ءَانَآءَ[3] ٱلَّيْلِ﴾: أي مطيع لله آناء الليل أي ساعات الليل ساجدًا وقائمًا في الصلاة. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي يتعظ بما يسمع من الآيات أصحاب العقول النيِّرة.

معنى الآيتين:

(٨) ما زال السياق في تقرير التوحيد وإبطال التنديد، فقال تعالى مخبرًا عن حال المشرك بربه المتخذ له أندادًا يعبدها معه ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ[4] ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي سأل ربه راجعًا إليه رافعًا إليه يديه يا رباه يا رباه سائلاً تفريج ما به وكشف

---

(١) هذه الجملة كالفذلكة والنتيجة لما سبق من ذكر آيات العلم والقدرة والرحمة الموجبة للألوهية الحقة للرب الحق سبحانه وتعالى.

(٢) ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ الاستفهام للإنكار مشوباً بالتعجب من حال انصرافهم عن الحق بعد ظهور أدلته وسطوع براهينه، عجباً لكم كيف صرفتم؟ وبناء الفعل للمجهول إشارة واضحة إلى أنهم يصرفون بقوى غير قواهم وهي قوى الشياطين التي تزين لهم الباطل وتبغض لهم الحق.

(٣) الآناء: جمع أَنيَ مثل أمعاء ومَعىَ وأقفاء وقفىَ والأنىُ: الساعة.

(٤) الإنسان هنا اسم جنس دال على غير معين بل هو عام في كل مشرك بالله تعالى كافر به.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾

ما نزل به ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ[١] نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ حتى إذا فرّج الله كربه ونجاه، ترك دعاء الله، وأقبل على عبادة غير الله، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي شركاء ﴿لِيُضِلَّ﴾[٢] نفسه وغيره. وهنا أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول له نيابة عن الله تعالى قل يا رسولنا لهذا المشرك الكافر تمتع بكفرك قليلاً أي مدة بقية عمرك إنك من أصحاب النار، هكذا هدده ربّه وخوّفه بعاقبة أمر الشرك والتنديد لعله ينتهي فيتوب توبة صادقة ويرجع إلى الله رجوعًا حسنًا جميلاً. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٨).

﴿٩﴾ أما الآية الثانية (٩) فيقول تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾[٣] أي مطيع لله ورسوله ﷺ في أمرهما ونهيهما ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي ساعات الليل تراه ساجدًا في صلاته أو قائمًا يتلو آيات الله في صلاته، وفي نفس الوقت هو يحذر عذاب الآخرة ويسأل الله تعالى أن يقيه منه، ويرجو رحمة ربّه وهي الجنة أن يجعله الله من أهلها أهذا خير أم ذلك الكافر الذي قيل له تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار، والجواب معلوم للعقلاء[٤] وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ محاب الله ومكارهه وهم يعملون على الإتيان بمحاب الله تقربًا إليه، وعلى ترك مكارهه تحببًا إليه، هل يستوي هؤلاء العاملون مع الذين لا يعلمون ما يحب وما يكره فهم يتخبطون في الضلال تخبط الجاهلين؟ والجواب لا يستوون وإنما يتذكر بمثل هذا التوجيه الإلهي والإرشاد الرباني أصحاب الألباب أي العقول السليمة الراجحة.

هداية الآيتين:

١ - تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد.

٢ - الكشف عن داخلية الإنسان قبل أن يؤمن ويُسلم وهو أنه إنسان متناقض لا خير فيه ولا رشد له، فلا يرشد ولا يكمل إلا بالإيمان والتوحيد.

٣ - بشرى الضالين عن سبيل الله المضلين عنه بالنار.

٤ - مقارنة بين القانت المطيع، والعاصي المضل المبين، وبين العالم والجاهل، وتقرير أفضلية المؤمن المطيع على الكافر العاصي. وأفضلية العالم بالله وبمحابه ومكارهه والجاهل بذلك.

٥ - فضل العالم على الجاهل لعمله بعلمه ولولا العمل بالعلم لاستويا في الخسّة والانحطاط.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ ـ ١٦]

﴿١٠﴾ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾: أي اجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية بالإيمان والتقوى. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾: أي

---

(١) قوله ﴿خَوَّلَهُ﴾: أعطاه إذ التخويل: الإعطاء والتمليك دون قصد عوض مأخوذ من الخول وهو اسم للعبد والخدم وفي الحديث: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم» «الحديث».

(٢) اللام لام العاقبة، أي: هو لم يقصد إضلال نفسه.

(٣) قرأ نافع: ﴿أمن هو قانت﴾ بتخفيف الميم وقرأ حفص: ﴿أَمَّنْ﴾ بتشديدها وجائز أن تكون الهمزة: همزة استفهام ومن: مبتدأ والخبر مقدر نحو: أمن هو قانت أفضل أم من هو كافر وعلى قراءة التشديد فالهمزة للاستفهام وآمن كلمتان: أم المعادلة أدغمت في من المبتدأ وجائز أن تكون أم منقطعة لمجرد الإضراب الانتقالي.

(٤) وهو أنهما لا يستويان بحال من الأحوال.

أحسنوا العبادة. ﴿حَسَنَةٌ﴾: أي الجنة. ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: أي فهاجروا فيها لتتمكنوا من عبادة الله إن منعتم منها في دياركم.

⑪ ﴿أُمِرْتُ﴾: أي أمرني ربي عز وجل. ﴿مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾: أي مفردًا إياه بالعبادة.

⑫ ﴿أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾: أي أول من يسلم في هذه الأمة فينقاد لله بعبادته والإخلاص له فيها.

⑬ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أي عذاب يوم القيامة.

⑭ ﴿قُلْ﴾: أي يا رسولنا للمشركين. ﴿اللَّهَ أَعْبُدُ﴾: أي لا أعبد معه سواه. ﴿مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾: أي مفردًا إياه بطاعتي وانقيادي.

⑮ ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم﴾: أي إن أبيتم أيها المشركون عبادة الله وحده فاعبدوا ما شئتم من الأوثان فإنكم خاسرون. ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾: أي فحرموها الجنة وخلدوها في النار. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾: أي الحور العين اللائي كن لهم في الجنة لو آمنوا واتقوا بفعل الطاعات وترك المنهيات.

⑯ ﴿ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ﴾: أي دخان ولهب وحر من فوقهم ومن تحتهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي المذكور من عذاب النار. ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾: أي يا من أنا خالقهم ورازقهم ومالكهم وما يملكون فلذلك اتقون بالإيمان والتقوى.

معنى الآيات:

⑩لقد تضمنت هذه الآيات الخمس توجيهات وإرشادات ربَّانيَّة للمؤمنين والرسول ﷺففي الآية الأولى (١٠) يأمر تعالى رسوله ﷺأن يقول للمؤمنين اتقوا ربكم أي اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية وذلك بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ويُعلمهم معللاً أمره إياهم بالتقوى بأن للذين أحسنوا الطاعة المطلوبة منهم الجنة، كما يعلمهم أنهم إذا لم يقدروا على الطاعة بين المشركين فليهاجروا إلى أرض يتمكنون فيها من طاعة الله ورسوله ﷺ فيقول: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أي فهاجروا فيها ويشجعهم على الهجرة لأجل الطاعة فيقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ[1]﴾ أي على الاغتراب والهجرة لأجل طاعة الله والرسول ﷺ ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بلا كيل ولا وزن ولا عد وذلك لأنه فوق ذلك. وفي الآية الثانية (١١) والثالثة (١٢) يأمر تعالى رسوله ﷺ موجهًا له بأن يقول للناس:

⑪ ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ أي أمرني ربي أن أعبد الله باعتقاد وقول وفعل ما يأمرني به وترك ما ينهاني عنه من ذلك مخلصًا له الدين، فلا أشرك في دين الله أحدًا أي في عبادته أحدًا،

⑫ كما أمرني أن أكون أول المسلمين في هذه الأمة أي أوّل من يسلم قلبه وجوارحه الظاهرة والباطنة لله تعالى.

⑬ ـ ⑭ وفي الآيات الرابعة (١٣) والخامسة (١٤) يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمشركين إني أخاف إن عصيت ربي، فرضيت بعبادة غيره وأقررتها عذاب[2] يوم عظيم كما يأمره أن يقول اللّهَ أعبدُ أي الله وحده لا شريك له أعبد حال كوني مخلصًا له ديني.

⑮ وأما أنتم أيها المشركون إن أبيتم التوحيد ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم﴾[3] من آلهة دونه تعالى ويأمره أن يقول لهم إن الخاسرين بحق ليسوا أولئك الذين يخسرون دنياهم فيفقدون الدار والبعير أو المال والأهل والولد بل هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم[4] القيامة، وذلك بتخليدهم في

---

(١) وفسر بعضهم الصبر بالصوم وحقاً الصوم من الصبر وحسب الصوم أجراً أن يقول الله تعالى: «**الصوم لي وأنا أجزي به**». إلا أن الآية عامة في الصبر في مواطنه الثلاث وهي: صبر على الطاعات وصبر دون المعاصي وصبر على البلاء. ومن ذلك الهجرة إلى دار الإسلام.

(٢) ذهب بعضهم إلى أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ولا معنى لهذا النسخ إذ النسخ لا يكون في الأخبار. وإنما الآية من باب الفرض والتقدير إذ الرسول ﷺ معصوم ولا يعصي وإذاً لا خوف عليه وإنما من باب طلب الهداية للآخرين قال له: قل هذا.

(٣) الأمر هنا للتهديد والوعيد والتوبيخ وليس للإذن بعبادة غير الله إذ القرآن كله نزل ليعبد الله تعالى وحده ولا يعبد معه سواه فكيف يأذن بعبادة ما شاؤوا من آلهة؟

(٤) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما من أحد إلا وخلق الله له زوجة في الجنة فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله.

النار، وبعدم وصولهم إلى الحور العين المعدة لهم في الجنة لو أنهم آمنوا واتقوا. ألا ذلك أي هذا هو الخسران المبين ثم يوضح ذلك الخسران بالحال التالية وهي أن لهم وهم في النار من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل أي طبقات من فوقهم طبقة ومن تحتهم أخرى وكلها دخان ولهب وحر.

(١٦) وأخيرًا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الخسران وعذاب الظلل يخوف الله تعالى به عباده المؤمنين ليواصلوا طاعتهم وصبرهم عليها فينجوا من النار ويظفروا بالجنان، وقوله: يا عباد فاتقون أي يا عبادي المؤمنين فاتقون ولا تعصون يحذرهم تعالى نفسه، والله رؤوف بالعباد.

هداية الآيات:

١ - بيان عناية الله تعالى برسوله ﷺ والمؤمنين إذ أرشدهم إلى ما يكملهم ويسعدهم.

٢ - وجوب التقوى والصبر على الأذى في ذلك.

٣ - تقرير التوحيد بأن يعبد الله وحده.

٤ - فضل الإسلام وشرف المسلمين.

٥ - تقرير البعث والجزاء بيان شيء من أهوال الآخرة وعذاب النار فيها.

٦ - كل خسران في الدنيا إذا قيس بخسران الآخرة لا يعد خسرانًا أبدًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ - ٢٠]

(١٧) ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ[1] أَن يَعْبُدُوهَا﴾: أي تركوا عبادة الأصنام وغيرها مما يعبد من دون الله.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾: أي بالإيمان به وعبادته وتوحيده فيها.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾: أي بالجنة عند الموت وفي القبر وعند القيام من القبور.

(١٨) ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾: أي أوفاه وأكمله وأقربه إلى مرضاة الله تعالى.

﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: أي العقول السليمة.

(١٩) ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾: أي وجب عليه العذاب بقول الله تعالى لأملأن جهنم.

﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾: أي تخلصه منها وتخرجه من عذابها.

(٢٠) ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾: أي خافوه فآمنوا به وأطاعوه موحدين له في ذلك.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أي من خلال قصورها وأشجارها.

﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾: أي وعدهم الله تعالى وعدًا فهو منجزه لهم.

معنى الآيات:

(١٧) لما ذكر تعالى حال أهل النار من عبدة الأوثان وأن لهم من فوقهم ظللًا من النار ومن تحتهم ظللًا ذكر تعالى حال الذين اجتنبوا تلك الطواغيت فلم يعبدوها، وما أعد لهم من النعيم المقيم فجمع بذلك بين الترهيب والترغيب المطلوب لهداية البشر وإصلاحهم فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي أن يعبدوها وهي الأوثان وكل ما زين الشيطان عبادته ودعا الناس إلى عبادته وأضافوا إلى اجتناب الطاغوت الإنابة إلى الله تعالى بعبادته وتوحيده فيها هؤلاء لهم البشرى وهي في كتاب الله[2] وعلى لسان رسول الله ﷺ ويرونها عند نزول الموت وفي القبر وفي الحشر وكل هذا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

(١٧) - (١٨) وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يبشر صنفًا من عباده بما بشر به الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله وهم الذين يستمعون القول من قائله فيتبعون أحسن ما يسمعون،

= وهو كذلك لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠)﴾ أي: يرث المسلم الكافر، يرثه في أهله ومكانه في الجنة وسبب الإرث الإيمان والتقوى بإذن الله تعالى.

(١) الطاغوت: مصدر أو اسم مصدر فعله طغا وهل هو واويّ أو يائي خلاف والأشهر أنه واوي نحو طغا يطغو طغواً كعلا يعلو علواً وقولهم: الطغيان دال على أنه يائيٌ وتاؤه زائدة كما زيدت في رحموت وملكوت وقيل: هو اسم أعجمي كجالوت وطالوت.

(٢) شاهده قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (البقرة) ومن السنة قوله ﷺ: **«الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»** في بيان قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ من سورة يونس. ومن القرآن ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ فهذه عند الموت.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

٤٦١

ويتركون حسنه[1] وسيئه معًا فهؤلاء لهم همم عالية ونفوس تواقة للخير والكمال شريفة فاستوجبوا بذلك البشرى على لسان رسول الله ﷺ والثناء الجميل من ربّ العالمين إذ قال تعالى فيهم: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ فحسبهم كمالاً أن أثنى تعالى عليهم. اللهم اجعلني منهم ومن سأل لي وله ذلك.

﴿١٩﴾ وقوله: ﴿أَفَمَنْ[2] حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي وجب له العذاب قضاءً وقدرًا فأسرف في الكفر والظلم والإجرام والعدوان كأبي جهل والعاص بن وائل فأحاطت به خطيئاته فكان من أصحاب النار فهل تستطيع أيها الرسول إنقاذه من النار وتخليصه منها؟ والجواب لا. إذًا فهون على نفسك واتركهم لشأنهم وما خلقوا له وحكم به عليهم.

﴿٢٠﴾ وقوله تعالى: ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ فآمنوا وعملوا الصالحات لهم غرف في الجنة من فوقها غرف وهي العلية تكون فوق الغرفة تجري من تحتها الأنهار من تحت القصور والأشجار أنهار الماء واللبن والعسل والخمر. وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي وعدهم الله تعالى بها وعدًا حقًا فهو منجزه لهم إذ هو تعالى لا يخلف الميعاد.

هداية الآيات:

١ - كرامة زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي إذ هذه الآية تعنيهم فقد رفضوا عبادة الطاغوت في الجاهلية قبل الإسلام ثم أنابوا إلى ربهم فصدقت الآية عليهم.

٢ - فضيلة أهل التمييز والوعي والإدراك الذين يميزون بين ما يسمعون فيتبعون الأحسن ويتركون ما دونه من الحسن والسيء.

٣ - إعلام من الله تعالى أن من وجبت له النار أزلاً لا تمكن هدايته مهما بذل الداعي في هدايته وإصلاحه ما بذل.

٤ - بيان ما أعد الله تعالى لأهل الإيمان والتقوى من نعيم الجنة وكرامة الله لأهلها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ ـ ٢٣]

﴿٢١﴾ ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي أدخله في الأرض فصار جاريًا تحتها ينبع منها فكان بذلك ينابيع.

﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾: أي ما بين أخضر وأبيض وأحمر وأصفر وأنواعه من بر وشعير وذرة. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾: أي ييبس فتراه أيها الرائي بعد الخضرة مصفرًا. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا﴾: أي فتاتًا متكسرًا. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾: أي إن في ذلك المذكور من إنزال الماء إلى أن يكون حطامًا تذكيرًا.

﴿٢٢﴾ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾: أي فاهتدى به كمن لم يشرح الله صدره فلم يهتد؟. ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أي فهو يعيش في حياته على نور من ربّه وهو معرفة الله

---

(١) جائز أن يراد بكلمة أحسن: حسنه فهم يستمعون القول من قائله ويفهمونه فإن كان حقاً وهدى أخذوا به وإن كان باطلاً وضلالاً تركوه وابتعدوا عنه. فقد رُوي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عثمان وعبدالرحمٰن بن عوف وطلحة والزبير وسعيد بن زيد وسعد بن أبي وقاص جاؤوا إلى أبي بكر حين أسلم فأخبرهم بإيمانه فآمنوا.

(٢) الاستفهام الأول والثاني كلاهما إنكاري ينكر الله تعالى. على رسوله ﷺ حزنه وألمه على عدم إيمان عمه أبي لهب وولده ومن لم يؤمن من قرابته ممن وجبت لهم النار في سابق علم الله فهم لا يؤمنون، ولذا فرع عنه قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾؟ إنك لا تقدر على ذلك فهون على نفسك.

وشرائعه. ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: ويل كلمة عذاب للقاسية قلوبهم عن قبول القرآن فلم تؤمن به ولم تعمل بما فيه.

(٢٣) ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾: هو القرآن الكريم. ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: أي يشبه بعضه بعضًا في النظم والحسن وصحة المعاني. ﴿مَّثَانِيَ﴾: أي ثنى فيه الوعد والوعيد كالقصص والأحكام. ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: أي ترتعد منه جلود الذين يخشون ربهم وذلك عند ذكر وعيده. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾: أي تطمئن وتلين. ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: أي عند ذكر وعده لأهل الإيمان والتقوى بالجنة وما فيها من نعيم مقيم.

معنى الآيات:

(٢١) قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذه الآية الكريمة تقرر التوحيد والبعث والجزاء بذكر مظاهر القدرة والعلم الإلهيين، وهما مقتضيان لوجود الله أولاً ثم وجوب الإيمان به وبلقائه فقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[1] وهو المطر ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أدخله فيها وأخرجه منها ينابيع بواسطة حفر وبدونه، ثم يخرج به زرعًا من قمح وشعير وذرة وغيرها مختلفًا ألوانه من أحمر وأبيض وأصفر ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ حسب سنة الله تعالى في ذلك فيجف ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي فتاتًا متكسرًا كالتبن كل هذا يتم بقدرة الله وعلمه وتدبيره ففيه موعظة وذكرى لأولي القلوب الحيّة تهديهم إلى الإيمان بالله وبآياته ولقائه، وما يستتبع ذلك من الطاعة والتوحيد.

(٢٢) وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[2] أي وسع صدره وفسحه فقبل الإسلام دينًا فاعتقد عقائده وعمل بشرائعه فامتثل أوامره واجتنب نواهيه فهو يعيش على نور من ربه ومقابل هذا محذوف اكتفى بالأول عنه وتقديره كمن طبع الله على قلبه وجعل صدره حرجًا ضيقًا فلم يقبل الإسلام ولم يدخل فيه، وعاش على الكفر والشرك والمعاصي فهو يعيش على ظلمة الكفر ودخن الذنوب وعفن الفساد والشر. وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن[3] ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يتوعد الله تعالى بالعذاب أصحاب القلوب القاسية من سماع القرآن وهذه أسوأ حال العبد إذا كان يهلك بالدواء ويضل بالهدى فسماع القرآن الأصل فيه أن يلين القلوب الصالحة للحياة فإذا كانت القلوب ميتة غير قابلة للحياة سماع القرآن زادها موتًا وقسوة، ويدل على هذا قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4] فهدايتهم متعذرة إذا كان الدواء يزيد في علتهم وآيات الهداية تزيد في ضلالتهم.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[5] هذه الآية نزلت لما قال أصحاب الرسول ﷺ يومًا لرسول الله ﷺ حدثنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ

---

(١) تضمنت هذه الآية الكريمة مثالين زيادة على ما دلت عليه بظاهر كلماتها، المثال الأول: هو أن القرآن الكريم ينزل من عند الله فيحيي الله تعالى به القلوب الميتة فتحيى وتشرق وتبلغ الكمال في الطهر والإشراق. والثاني: هو أن حياة الإنسان تبتدىء بنطفة المني فتستقر في الرحم ثم تخرج طفلاً ثم يكبر فيصبح شاباً فكهلاً ثم يهرم ويهلك. والخطاب صالح لكل من له أهلية النظر.

(٢) شرح (الصدر) عبارة عن قبول الهدى والاستنارة به، والاستفهام إنكاري ومن: مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: كمن ضاق صدره بالكفر وغشيته ظلمته فهو لا يعي ولا يفهم ما يقال له وما يدعي إليه من الهدى والخير أي: هل حالهما واحدة؟ والجواب: لا.

(٣) من: بمعنى عن لتضمين القساوة في الإعراض والنفور إذ يقال: أعرض عن كذا ونفر عنه و (ذِكْرُ الله) هنا: القرآن كما في التفسير.

(٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً إذ هو جواب لمن سأل عن قساوة قلوب المتوعدين بالويل فقيل له: إنه ضلالهم الواضح المبين.

(٥) روي أن سعد بن أبي وقاص قال: قال أصحاب رسول الله ﷺ يوماً: لو حدثتنا فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وهذا كما قالوا يوماً: لو قصصت علينا فنزل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، وقولهم: لو ذكرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، وفي هذا دليل على أنه لا يليق بأمة القرآن أن تلهو بالتمثيليات والروايات وأندية اللهو واللعب.

﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وهو القرآن ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ أي يشبه بعضه بعضًا في حسن اللفظ وصحة المعاني ﴿مَثَانِيَ﴾ أي يثني فيه الوعد والوعيد والأمر والنهي والقصص، ﴿تَقْشَعِرُّ[1] مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي عند سماع آيات الوعيد فيه ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾ إذ سمعوا آيات الوعد ﴿وَقُلُوبُهُمْ﴾ إذا سمعوا حججه وأدلته وقوله ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي القرآن وذكر الله بوعده ووعيده وأسمائه وصفاته ويشهد له قوله تعالى من سورة الرعد: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ذلك المذكور وهو القرآن الكريم هدى الله إذ هو الذي أنزله وجعله هاديًا يهدي به من يشاء هدايته بمعنى يوفقه للإيمان والعمل به وترك الشرك والمعاصي. وقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لما سبق في علم الله ولوجود مانع منع من هدايته كالإصرار والعناد والتقليد. فهذا ليس له من هاد يهديه بعد الله أبدًا.

هداية الآيات:

١ - مظاهر العلم والقدرة الإلهية الموجبة للإيمان به وبرسوله ﷺ ولقائه.

٢ - بيان أن القلوب قلبان قلب قابل للهداية وآخر غير قابل لها.

٣ - بيان أن القرآن أحسن ما يحدث به المؤمن إذ أخباره كلها صدق وأحكامها كلها عدل.

٤ - فضيلة أهل الخشية من الله إذ هم الذين ينفعلون لسماع القرآن فترتعد فرائصهم عند سماع وعيده، وتلين قلوبهم وجلودهم عند سماع وعده.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤ - ٢٦]

(٢٤) ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: أي يتلقى العذاب بوجهه لا شيء يقيه منه كمن أمن. ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾: أقساه وأشده. ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾: أي المشركين في جهنم. ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: أي جزاء كسبكم الشر والفساد.

(٢٥) ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: أي من قبل أهل مكة. ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي من حيث لا يدرون أنه آتيهم منه. أو من حيث لا يخطر ببالهم.

(٢٦) ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾: أي المسخ والذل والإهانة. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: أي لو كانوا يعلمون ذلك ما كذبوا ولا كفروا.

معنى الآيات:

(٢٤) ما زال السياق الكريم في تقرير البعث والجزاء فقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ[2] يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يوم القيامة إذ ليس له ما يتقي[3] به العذاب، لأن يديه مغلولتان إلى عنقه فهو يتلقى العذاب بوجهه وهو أشرف أعضائه أفهذا الذي يتلقى العذاب بل سوء العذاب كمن أمن العذاب ودخل الجنة؟ والجواب لا يستويان. وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ[4]﴾ أي المشركين وهم في النار يقول لهم زبانية جهنم توبيخًا لهم وتقريعًا ذوقوا ما كنتم تكسبون من أعمال الشرك والمعاصي هذا جزاؤه فذوقوه عذابًا أليمًا.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي كذب قبل أهل مكة أمم وشعوب كذبوا رسلهم فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا وذلك كالذل والمسخ والقتل والأسر والسبي

---

(١) ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ أي: تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد وتلين قلوبهم عند سماع آيات الرحمة وتطمئن إلى ذكر الله تعالى يروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أنا أعلم متى يستجاب لي، وذلك إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي وفاضت عيناي. وهو مروي عن ثابت البناني وأم الدرداء: أن الوجل في القلب كاحتراق السعفة.

(٢) قال عطاء وابن زيد: يُرمى مكتوفاً في النار فأول شيء تمس منه النار وجهه وقال مجاهد: يجر في النار على وجهه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ والاستفهام إنكاري وفي الكلام حذف تقديره: كمن هو آمن في جنات النعيم.

(٣) الاتقاء: مصدر ومعناه تكلّف الوقاية وهي الصون والدفع. وفعل اتقى يتعدى إلى مفعولين ويتعدى بالياء كما في قول الشاعر:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

(٤) ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾: إظهار في محل إضمار إذ المفروض أن يقال: وقيل لهم. والنكتة: التنديد بالشرك إذ هو الظلم وبيان العلة الموجبة لإلقائهم في جهنم على وجوههم وهي الظلم الذي هو الشرك.

ولعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا وهم صائرون إليه لا محالة.

(٢٦) وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون عنه علمًا يقينيًا ما كذبوا رسلهم ولا كفروا بربهم فهلكوا بجهلهم.

هداية الآيات:

١ - تقرير البعث والجزاء بذكر شيء من أحوال يوم القيامة.

٢ - تهديد قريش على إصرارها على التكذيب للرسول ﷺ وما جاءها به من الإسلام.

٣ - العذاب على التكذيب والمعاصي منه الدنيوي، ومنه الأخروي.

٤ - لو علم الناس عذاب الآخرة علمًا يقينيًا ما كذبوا ولا كفروا ولا ظلموا فالجهل هو سبب الهلاك والشقاء دائمًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ - ٣١]

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: أي جعلنا للعرب في هذا القرآن من كل مثل من الأمم السابقة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي يتعظون فينزجرون عما هم فيه من الشرك والتكذيب إلى الإيمان والتوحيد.

(٢٨) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾: أي حال كون المثل المجعول قرآنًا عربيًا لا لبس فيه ولا اختلاف فلا عذر لهم في عدم فهمه وإدراك معناه وفهم مغزاه.

(٢٩) ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾: أي متنازعون لسوء أخلاقهم. ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾: أي خالصًا سالمًا لرجل لا شركة فيه لأحد. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: الجواب لا الأول في تعب وحيرة والثاني في راحة وهدوء بال. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي على ظهور الحق وبطلان الباطل.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾: أي مقضي عليك بالموت في وقته. ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: أي كذلك محكوم عليهم به عند انقضاء آجالهم.

(٣١) ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾: أي تحتكمون إلى الله في ساحة فصل القضاء فيحكم الله بينكم. ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: أي من الشرك والتوحيد والإيمان والتكذيب.

معنى الآيات:

(٢٧) - (٢٨) وله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا[1] لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يخبر تعالى بما منّ به على العرب لهدايتهم حيث جعل لهم في القرآن الكريم من أمثال الأمم السابقة في إيمانها وتكذيبها، وصلاحها وفسادها ونجاتها وخسرانها وكل ذلك بقرآن عربي لا عوج[2] فيه أي لا لبس ولا خفاء ولا اختلاف، فعل ذلك لهم لعلهم يتذكرون أي يتعظون فيؤمنون ويوحدون فينجون من العذاب ويسعدون.

(٢٩) وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ[3] وَرَجُلًا سَلَمًا[4] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ[5]﴾ إلى آخر الآية، هذا مثل من جملة الأمثال التي ضرب الله للناس لعلهم يتذكرون وهو مثل للمشرك الذي يعبد عدة آلهة. والموحد الذي لا يعبد إلا الله فالمشرك مثله رجل يملكه عدد من الرجال من ذوي الأخلاق الشرسة والطباع الجافة فهم يتنازعونه هذا يقول له تعال والآخر يقول له اجلس والثالث يقول له قم فهو في حيرة من أمره لا راحة بدن ولا راحة ضمير ونفس. والموحد مثله رجل سلم أي خالص وسالم لرجل واحد آمره وناهيه واحد هل يستويان أي الرجلان والجواب لا

---

(١) ضرب المثل: ذكره والمثل: الصفة الحسنة و ﴿لِلنَّاسِ﴾ جنس الناس ويدخل فيه العرب أولاً لأنه بلغتهم والناس تابعون لهم في ذلك.

(٢) ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي: لا اختلاف فيه ولا تضاد ولا لحن فيه ولا شك قال الشاعر:

وقد أتاك يقين غير ذي عوج ... من الإله وقول غير مكذوب

(٣) ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: مختلفون أو متعاسرون يقال: رجل شكس وشرس وضرس ويقال: شاكسني فلان أي: ماكسني وشاحني في حقي.

(٤) قرأ الجمهور: ﴿سَلَمًا﴾ وقرأ غيرهم: ﴿سالماً﴾ بمعنى: خالصاً فمعنى القراءتين واحد وهو الخلوص لمالك واحد.

(٥) الاستفهام إنكاري أي: لا يستويان، مثلاً: منصوب على التمييز لنسبة يستويان أي: في أي شيء ميز لي.

إذ بينهما كما بين الحرية والعبودية وأعظم وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[1] أي الثناء بالجميل لله والشكر العظيم له سبحانه وتعالى على أنه رب واحد وإله واحد لا إله غيره ولا رب سواه. وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي بل أكثر المشركين لا يعلمون عدم تساوي الرجلين، وذلك لجهلهم وفساد عقولهم.

(٣٠) وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝﴾[2] نزلت لما استبطأ المشركون موت الرسول ﷺ أي لا شماتة في الموت إنك ستموت يا رسولنا ويموتون.

(٣١) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝﴾ أي مؤمنكم وكافركم قويكم وضعيفكم تقفون بين يدي الله ويحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من أمور الدين والدنيا معًا.

هداية الآيات:

١ - مشروعية ضرب الأمثال للمبالغة في الإفهام والهداية لمن يراد هدايته.

٢ - بيان مثل المشرك والموحد، فالمشرك في حيرة وتعب، والموحد في راحة وهدوء بال.

٣ - تقرير أن كل نفس ذائقة الموت.

٤ - بيان أن خصومة ستكون يوم القيامة ويقضي الله تعالى فيها بالحق لأنه هو الحق.

الجزء الرابع والعشرون

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

٤٦٢

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٢ - ٣٥]

(٣٢) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أي بأن نسب إليه ما هو بريء منه كالزوج والولد والشريك. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾: أي بالقرآن والنبي ﷺ والتوحيد والبعث والجزاء. ﴿مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾: أي مأوى، ومكان إقامة ونزول.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾: محمد ﷺ، والذي صدق به أبو بكر وكل أصحاب رسول الله ﷺ. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: أي لعذاب الله بإيمانهم وتقواهم بترك الشرك والمعاصي.

(٣٤) ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: أي المذكور من نعيم الجنة جزاء المحسنين في أعمالهم.

(٣٥) ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾: أي ييسر الله لهم ذلك ويوفقهم إليه ليكفر عنهم ذنوبهم.

معنى الآيات:

يخبر تعالى عباده منذرًا محذرًا بأنه لا أظلم من أحد كذب على الله. فقال عنه ما لم يقل أو حرّم ولم يحرم أو أذن ولم يأذن، أو شرع ولم يشرع، أو كذب بالصدق وهو القرآن والنبي وما جاء به من الهدى ودين الحق أي فلا أحد أظلم ممن كان هذا حاله كذب على الله وكذب بالصدق.

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ﴾[3] في

---

(١) لما سلم الخصم بأنه لا يستوي الموحد والمشرك تعين حمد الله تعالى إذ لا يعقل أن يقول المرء باستواء الرجل الذي يشترك فيه عدة رجال والآخر الذي هو خالص لرجل واحد، فكذلك الذي يعبد إلهاً واحداً لا يستوي مع من يعبد آلهة متعددة.

(٢) قرأ بعضهم: ﴿إنك مائت وإنهم مائتون﴾ والميت بالتشديد: من هو صائر إلى الموت والميت بسكون الياء من فارقته الحياة، في هذه الآية نعي لكل إنسان بالموت إذ أن رجلاً نعى لرجل أخاه ووجده يأكل فقال له: كل فقد نُعي إلي أخي من قبلك فقال: وكيف وأنا أول من نعاه؟ فقال له: قد نعاه الله إليّ في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

(٣) الاستفهام تقريري والمثوى: مكان الإقامة وهو مصدر ثوى بالمكان يثوي ثواء وثوياً مثل مضى يمضي مضاءً ومُضياً.

﴿جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟ هذا بيان لجزاء الكاذبين والمكذبين وهم الكافرون بسبب كذبهم على الله وتكذيبهم له فيخبر تعالى مقررًا أن جزاءهم الإقامة الدائمة في جهنم.

(٣٣) وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ(١) بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ هذا إخبار بفريق الفائزين من عباد الله وهم الصادقون في كل ما يخبرون، والمصدقون بما أوجب الله تعالى التصديق به ويدخل في هذا الفريق دخولاً أوليًا رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق ثم سائر الصحابة والمؤمنين إلى يوم الدين.

(٣٤) وقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٢) يشير إليهم بأنهم اتقوا كل ما يغضب الله من الشرك والمعاصي، وبذلك استوجبوا النجاة من النار ودخول الجنة المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من نعيم بعضه لم يخطر على بال أحد، ولم تره عين أحد ولا تسمع به أذنه.

(٣٥) وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣) أي ذلك المذكور في قوله لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو جزاؤهم وجزاء المحسنين كلهم والمحسنون هم الذين أحسنوا الاعتقاد والقول والعمل وقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ(٤) أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي من الذنوب والآثام والخطايا والسيئات أي وفقهم للإحسان ويسره لهم، ليكفر عنهم أسوأ الذي عملوا وسيئه ويجزيهم أجرهم على إيمانهم وتقواهم وإحسانهم في ذلك بأحسن ما كانوا يعملون وحسنه أيضًا وإنما يضاعف لهم الأجر فتكون الحسنات الصغيرة كالكبيرة فأصبح الجزاء كله على الأحسن والذي كانوا يعملون هو كل ما شرعه الله تعالى لعباده وتعبدهم به من الإيمان وسائر الطاعات والقربات.

هداية الآيات:

١ - التنديد بالكذب على الله تعالى والتكذيب به، وبما جاء به رسوله ﷺ من الدين.

٢ - بيان جزاء الكاذبين على الله ورسوله ﷺ والمكذبين بما جاء به رسول الله ﷺ عن الله من الشرع والدين.

٣ - الترغيب في الصدق في الاعتقادات والأقوال والأعمال.

٤ - فضل التقوى والإحسان وبيان جزائهما عند الله تعالى يوم القيامة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ ـ ٤٠]

(٣٦) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾: بلى هو كاف عبده ورسوله محمدًا ﷺ كل ما يهمه. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: أي بالأصنام والأوثان أن تصيبك بما يسوءك ويضرك.

(٣٧) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾: بلى بل هو عزيز غالب على أمره صاحب انتقام شديد على من عاداه.

(٣٨) ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾: أي لوضوح البرهان وقوة الدليل وانقطاع الحجة. ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾: أي أخبروني. ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾: والجواب لا لا إذًا فقل حسبي الله، ولا حاجة لي بغيره.

(٣٩) ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: أي على حالتكم التي أنتم من الكفر والعناد. ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾: أي على حالتي التي أنا عليها من الإيمان والانقياد.

(٤٠) ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾: أي في الدنيا بالقتل والأسر والجوع والقحط. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: أي وينزل عليه عذاب مقيم لا يبرح وهو عذاب النار بعد الموت.

---

(١) ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾: مبتدأ والخبر: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. وعليه فالذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ ومن صدق به هم أبو بكر وسائر المؤمنين وفي الآية حذف الموصول وهو «من» لدلالة السياق عليه.

(٢) ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ و ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل و ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ خبر، والجملة خبر عن المبتدأ الذي هو ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ ﴿بِالصِّدْقِ﴾ والمعطوف عليه والموصول محذوف وهو: أو، إذ لا يكون من جاء بالصدق هو المصدق به.

(٣) الثناء في الدنيا والثواب في الآخرة.

(٤) في الآية الإشادة بأصحاب رسول الله ﷺ إذ أثبت لهم التصديق بما جاء به رسوله ﷺ كما أثبت لهم التقوى والإحسان وواعدهم بالنعيم المقيم الذي ادخره لهم. وفي الحديث الصحيح: **«الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبّي أحبهم ومن أبغضهم فبيغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ربي ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»**.

معنى الآيات:

(٣٦) ما زال السياق في الدفاع عن الرسول ﷺ والرد على مناوئيه وخصومه الذين استبطؤوا موته فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ فلا شماتة إذًا في الموت، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ[1] عَبْدَهُۥ﴾ دال على أن القوم حاولوا قتله ﷺ لما لم يمت بأجله وفعلاً قد قرروا قتله وأعطوا الجوائز لمن يقتله، ففي هذه الآية طمأن الله رسوله ﷺ على أنهم لا يصلون إليه وأنه كافيه مؤامراتهم وتهديداتهم فقال عز وجل أليس الله بكاف عبده؟ والجواب بلى إذ الاستفهام تقريري كافيه كُلَّ ما يهمه ويسوءه وقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي ويخوفك يا رسولنا المشركون بما يعبدون من دوننا من أصنام وأوثان بأن تصيبك[2] بقتل أو خبل فلا يهمك ذلك فإن أوثانهم لا تضر ولا تنفع ولا تجلب ولا تدفع.

(٣٧) وقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾، وقد هداك ربك فليس لك من يضلك أبدًا، كما أن من أضله الله كقومك فليس له من هادٍ يهديه أبدًا. وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾[3] بلى فهو إذًا سينتقم من أعدائه لأوليائه إن استمروا في أذاهم وكفرهم وعنادهم، وقد فعل سبحانه وتعالى.

(٣٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أوجدهما من غير مثال سابق ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فما دام اعترافهم لازمًا بأن الله تعالى هو الخالق فلمَ عبادة غيره والإصرار عليها مما أفضى بهم إلى أذية المؤمنين وشن الحرب عليهم وقوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من الأصنام والأوثان أخبروني ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ما ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ صحة وعافية وغنى ونصر ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾[4] والجواب لا فإنها جماد لا تقدر على إعطاء ولا على إمساك إذًا فقل حسبي الله أعبده وأتوكل عليه إذ هو الذي يضر وينفع ويجلب الخير ويدفع السوء والشر. وقوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي على الله وحده يتوكل المتوكلون فيثقون في كفايته لهم فيفوضون أمورهم إليه ويتعلقون به. وينفضون أيديهم من غيره.

(٣٩) وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي لما أبيتم إلا العناد مصرين على الشرك بعدما قامت الحجج والأدلة القاطعة على بطلانه فاعملوا على مكانتكم أي حالتكم التي عليها من الشرك والعناد ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أنا على حالتي من الإيمان والتوحيد والانقياد. والنتيجة ستظهر فيما بعد لا محالة ويعلم المحق من المبطل، والمُهتدي من الضال وهي قوله تعالى:

(٣٩) - (٤٠) ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن[5] يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يذله ويكسر أنفه بالقتل والأسر والجوع والقحط وقد أصاب المشركين هذا في مكة وبدر. وقوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وهو عذاب النار في الآخرة نعوذ بالله من العذابين عذاب الخزي في الحياة الدنيا وعذاب النار في الدار الآخرة.

هداية الآيات:

١ - تقرير كفاية الله وولايته لعباده المؤمنين وخاصة ساداتهم من الأنبياء والأولياء.

٢ - تقرير مقتضى الولاية وهو النقمة من أعدائه تعالى لأوليائه وإن طال الزمن.

٣ - تقرير التوحيد وإبطال التنديد.

---

(١) الاستفهام للتقرير، وحذفت ياء كاف لأنه اسم منقوص وترد في الوقف جوازاً وقرأ الجمهور: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ وقرأ غيرهم: ﴿عباده﴾ ليدخل المؤمنون معه ﷺ.

(٢) هذا شاهده قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ فإنهم خوفوه بآلهتهم فأنكر عليهم ذلك وعابهم بعدم الخوف من الله تعالى.

(٣) الاستفهام تقريري والجملة تحمل الوعيد الشديد للمشركين الكائدين الماكرين بالرسول ﷺ والمؤمنين، والانتقام: المكافأة بالشر على الشر وهو مشتق من النقم الذي هو الغضب.

(٤) قال مقاتل: فسألهم رسول الله ﷺ فسكتوا وقال بعضهم: لا تدفع شيئاً ولكنها تشفع!!

(٥) (من) استفهامية علقت فعل تعلمون عن العمل في مفعوليه.

إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

٤ - مظاهر ربوبية الله الموجبة لألوهيته.

٥ - وجوب التوكل على الله واعتقاد كفايته لأوليائه.

٦ - تقرير إنجاز الله وعده لرسوله ﷺ والمؤمنين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ ـ ٤٥]

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾: أي أنزلنا عليك يا رسولنا القرآن بالحق أي ملتبسًا به. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾: أي ليس عليك أمر هدايتهم فتجبرهم على الإيمان.

﴿٤٢﴾ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾: أي ينهي حياة العباد بقبض أرواحهم عند نهاية آجالهم. ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾: أي يتوفاها وقت النوم يحبسها عن التصرف كأنها شيء مقبوض. ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾: أي يقبضها لحكمة بالموت عليها حال النوم. ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾: أي التي لم يحكم بموتها يرسلها فيعيش صاحبها إلى نهاية أجله المعدود له. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي في قبض الأرواح وإرسالها، والقدرة على ذلك دلائل وبراهين على قدرة الله على البعث الذي أنكره المشركون.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾: أي أن كفار مكة لا يتفكرون ولو كانوا يتفكرون لما أنكروا البعث، ولا ما اتخذوا من دون الله شفعاء لوضوح بطلان ذلك. ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾: أي قل لهم أيشفع لكم شركاؤكم ولو كانوا لا يملكون شيئًا ينكر عليهم دعواهم الشفاعة لهم وهي أصنام لا تملك ولا تعقل.

﴿٤٤﴾ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾: أي أخبرهم أن جميع الشفاعات لله وحده فشفاعة الأنبياء والشهداء والعلماء والأطفال مملوكة لله فلا يشفع أحد إلا بإذنه.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾: أي وإذا ذكر الله وحده كقول الرسول ﷺ لا إله إلا الله نفرت نفوس المشركين وانقبضت وظهر الغضب والسخط في وجوههم. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾: أي الأصنام والأوثان التي يعبدونها من دون الله تعالى. ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: أي فرحون جذلون وذلك لافتتانهم بها ونسيانهم لحق الله تعالى وهو عبادته وحده مقابل خلقه ورزقه لهم.

معنى الآيات:

إن السياق الكريم كان في عرض الصراع الدائر بين الرسول ﷺ وقومه المشركين فدافع الله تعالى عن رسوله ﷺ ودفع عنه كل أذى ومكروه وتوعّد خصومه بالعذاب في الدنيا والآخرة وهنا يسليه ويصبره فيقول له:

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[1] أي القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي لهداية الناس وإصلاحهم ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي ملتبسًا بالحق، فمن اهتدى بالقرآن فآمن وعمل صالحًا فعائد ذلك له حيث ينجو من النار ويدخل الجنة، ومن ضل لعدم قبوله هداية القرآن فأصر على الشرك والمعاصي فإنما يضل على نفسه أي عائد ضلاله على نفسه إذ هو الذي يحرم الجنة ورضا الله تعالى ويُلقى في النار خالدًا فيها

---

(١) في الآية مزيد بيان شرفه ﷺ بإنزال الكتاب عليه وتقرير رسالته، واللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾: للتعليل والباء في: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ للملابسة. وفي الكلام محذوف تقديره: لنفع الناس وهدايتهم بقرينة قوله بعد: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾.

وعليه غضب من الله لا يفارقه أبدًا.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي لم يوكل إليك أمر هدايتهم فتجد نفسك في هم من ذلك إن عليك إلا البلاغ المبين إنك لم تكلف حفظ أعمالهم ومحاسبتهم عليها، ولا أمر هدايتهم فتجبرهم على ذلك.

﴿٤٢﴾ وقوله تعالى في الآية الثانية من هذا السياق (٤٢): ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ[1]﴾ أي يقبض أرواحها ﴿حِينَ مَوۡتِهَا﴾ أي عند نهاية أجلها فيأمر تعالى ملك الموت فيخرج الروح بإذن الله ويقبضها، ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ أي يقبضها بمعنى يحبسها عن التصرف، حال النوم، فإن أراد موتها قبضها ولم يردها إلى جسدها، وإن لم يرد وفاتها أرسلها فتعود إلى الجسد ويعيش صاحبها إلى الأجل المسمى له وهي[2] نهاية عمره إن في ذلك القبض للروح والإرسال، والوفاة والإحياء لآيات أي دلائل وحجج كلها قاضية بأن القادر على هذا قادر على البعث والنشور الذي كذب به المشركون كما أن صاحب هذه القدرة العظيمة هو صاحب الحق المطلق في الطاعة والعبادة ولا تنبغي العبادة إلا له.

وقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وهم الأحياء بالإيمان أما الأموات وهم الكافرون فلا يجدون في ذلك آية ولا دليلاً وذلك لموتهم بالشرك والكفر.

﴿٤٣﴾ وقوله تعالى في الآية الثالثة (٤٣): ﴿أَمِ[3] ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ أي بل اتخذ المشركون الذين كان المفروض فيهم أن يهتدوا على الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة لو كانوا يتفكرون بدل أن يهتدوا إلى توحيد الله اتخذوا من دونه أوثانًا سموها شفعاء يرجون شفاعتها لدى الله في قضاء حوائجهم. وذلك لجهلهم وسخف عقولهم. قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي قل لهم أيشفعون لكم ولو كانوا لا يملكون شيئًا من أسباب الشفاعة ومقتضياتها ولو كانوا لا يعقلون معنى الشفاعة ولا يفهمونه لأنهم أصنام وأحجار والاستفهام للتبكيت والتقريع. لو كان القوم يشعرون. ثم أمر تعالى رسوله ﷺ أن يعلن عن الحقيقة وإن كانت عند المشركين مُرة.

﴿٤٤﴾ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ أي جميع أنواع الشفاعة هي ملك لله مختصة به فلا يشفع أحد إلا بإذنه، إذًا فاطلبوا الشفاعة من مالكها الذي له ملك السموات والأرض، لا ممن هو مملوك له، ولا يعقل حتى معنى الشفاعة ولا يفهمها، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي بعد الموت أحببتم أم كرهتم فاتخذوا لكم يدًا عنده بالإيمان به وتوحيده في عبادته.

﴿٤٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ هذا كشف عن حال المشركين، وما هم عليه من الجهل والسفه إنهم إذا سمعوا لا إله إلا الله ينفرون وينقبضون ويظهر ذلك غضبًا في وجوههم، يكادون يسطون على من قال لا إله إلا الله، وإذا ذكر الذين من دونه أي وإذا ذكر الأصنام التي يعبدونها من دون الله إذا هم يستبشرون فرحون مسرورون، وهذا عائد إلى افتتانهم بأصنامهم، ونسيانهم لحقوق ربهم عليهم وهي الإيمان به وعبادته وحده مقابل ما خلقهم ورزقهم ودبر حياتهم، ولكن أنى لأهل ظلمة النفس وانتكاس القلب أن يعوا ويفهموا؟.

---

(١) المراد بـ: ﴿ٱلۡأَنفُسَ﴾ الناس الذين يموتون إذ لفظ النفس يطلق على الذات ويطلق على الروح قال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها، قال علي رضي الله عنه: فما رأته نفس النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها فلقيها الشياطين وتخيل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة.

(٢) شاهد هذا من السنة حديث الصحيحين وفيه قوله ﷺ: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض بداخلة إزاره فإنه لا يدري من خلفه عليه ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**». والشاهد في إمساك الروح في المنام وإرسالها.

(٣) ﴿أَمِ﴾ هذه هي المنقطعة وهي للإضراب الانتقالي وهو انتقال من تشنيع شركهم إلى إبطال معاذيرهم في شركهم.

هداية الآيات:

١ - تسلية الرسول ﷺ وحمله على الصبر والثبات في أصعب الظروف.

٢ - مظاهر قدرة الله في الموت والحياة مما يقتضي الإيمان به وبلقائه وتوحيده.

٣ - إبطال حجة المشركين في عبادة الأوثان من أجل الشفاعة لهم إذ الشفاعة كلها لله.

٤ - بيان خطأ من يطلب الشفاعة من غير الله، إذ لا يملك الشفاعة إلا هو[1].

٥ - بيان سفه المشركين وضلالهم في غضبهم عند سماع التوحيد، وفرحهم عند سماع الشرك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٦ - ٤٨]

﴿٤٦﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: قل يا نبينا: يا الله يا خالق السماوات والأرض. ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: أي يا عالم الغيب وهو كل ما غاب عن الأبصار والحواس والشهادة خلاف الغيب.

﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: أي من أمور الدين عقائد وعبادات.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: أي ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾: أي وظهر لهم من عذاب الله ما لم يكونوا يظنونه.

﴿٤٨﴾ ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: وأحاط بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون به.

معنى الآيات:

﴿٤٦﴾ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾[2] هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ أن يفزع إليه بالدعاء والضراعة إذ استحكم الخلاف بينه وبين خصومه وضاق الصدر أي قل يا رسولنا يا الله ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي خالقها، ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ما غاب عن الأبصار والحواس فلم يُدركْ، والشهادة وهو ما رؤي بالأبصار وأُدرك بالحواس ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ مؤمنهم وكافرهم ﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ من الإيمان بك وبلقائك وصفاتك وعبادتك ووعدك ووعيدك اهدني لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

﴿٤٧﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي أنفسهم بالشرك وهو الظلم العظيم وبغشيان المعاصي والذنوب لو أن لهم عند معاينة العذاب يوم القيامة ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ من أموال ونفائسها ومثله معه وقبل منهم الفداء ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾ ولما ترددوا أبدًا وهذا دالٌّ على شدَّة العذاب وأنه لا يطاق ولا يُحْتَمَل مع حرمانهم من الجنة ونعيمها.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾[3] أي وظهر لهم أي لأولئك الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم وإذا ذكرت الأصنام فرحوا بذلك واستبشروا وبدا لهم من ألوان العذاب ما لم يكونوا يظنون ولا يحتسبون.

﴿٤٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ[4] مَا كَسَبُواْ﴾ أي من الشرك والكفر والفسق والعصيان أي ظهر لهم وتجلى أمامهم فاشتد كربهم وعظم الأمر عندهم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون أي أحاط بهم وحدق عليهم العذاب الذي كانوا إذا ذكر لهم وعيدًا وتخويفًا استهزؤوا به وسخروا منه وممن يذكرهم به ويخوفهم منه كالرسول ﷺ والمؤمنين.

هداية الآيات:

١ - مشروعية اللجوء إلى الله تعالى عند اشتداد الكرب وعظم الخلاف والدعاء بهذا الدعاء وهو «**اللهم** رب **جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر**

---

(١) الشفاعة أمر معنوي فملكها معناه تحصيل إجابتها إذ الأمور المعنوية لا تملك.

(٢) رواه مسلم عن عائشة أن النبي ﷺ كان يستفتح به صلاته من الليل وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: إني لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ..﴾ إلخ..

(٣) روي أن محمد بن المنذر جزع عند موته جزعاً شديداً وقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾.

(٤) السيئات جمع سيئة وهو وصف أضيف إلى موصوفه وهو الموصول ﴿مَا كَسَبُوٓاْ﴾ أي: مكسوباتهم السيئات وتأنيثها باعتبار شهرة إطلاق السيئة على الفعلة القبيحة.

السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» إذ ثبتت السنة به.

والآية ذكرت أصله.

٢ - بيان عظم العذاب وشدته يوم القيامة وأن المرء لو يقبل منه فداء لافتدى منه بما في الأرض من أموال ومثله معه.

٣ - التحذير من الاستهزاء بأخبار الله تعالى ووعده ووعيده.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٩ - ٥٢]

﴿٤٩﴾ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾: أي أصاب الإنسان الكافر ضُر أي مرض وغيره مما يضره دعانا أي سأل كشف ضره. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾: ثم إذا خولناه أي أعطيناه نعمة منا من صحة أو مال وغيرهما. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾: قال أي ذلك الكافر إنما أوتيت ذلك العطاء على علم من الله بأني أستحقه. ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾: أي تلك النعمة لم يعطها لأهليته لها، وإنما أعطيها فتنةً واختبارًا له. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي أن ما أعطوه من مال وصحة وعافية هو فتنة لهم وليس لرضا الله تعالى عنهم.

﴿٥٠﴾ ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي قال قولتهم من كان قبلهم كقارون فلم يلبثوا أن أخذوا فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون. ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ﴾: أي والذين ظلموا بالشرك من هؤلاء أي من كفار قريش.

﴿٥١﴾ ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾[1]: أي كما أصاب من قبلهم وقد أصابهم قحط سبع سنين وقتلوا في بدر. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾: أي فائتين الله تعالى ولا غالبين له.

﴿٥٢﴾ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: أي أقالوا تلك المقالة ولم يعلموا أن الله يبسط الرزق. ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾: أي يوسعه لمن يشاء امتحانًا، ويضيقه ابتلاء. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي إن في ذلك المذكور من التوسعة امتحانًا والتضييق ابتلاءً لآيات أي علامات على قدرة الله وكمال تدبيره لأمور خلقه.

معنى الآيات:

﴿٤٩﴾ ما زال السياق في بيان حيرة المشركين وفساد قلوبهم نتيجة كفرهم وجهلهم فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ[2] ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ يعني ذاك الكافر الذي إذا ذكر الله وحده اشمأزّت نفسه وإذا ذكرت الأوثان سُر وفرح واستبشر هذا الإنسان إذا مسّه ضرٌ من مرض أو غيره مما يضر ولا يسر دعا ربَّه منيبًا إليه ولم يشرك معه في هذه الحال أحدًا لعلمه أن الأوثان لا تكشف ضرّا ولا تعطي خيرًا، وإذا خوله الله تعالى نعمة من فضله ابتلاء له قال إنّما أوتيت الذي أوتيت على علم من الله بأني أهل لذلك[3]، فأكذبه الله تعالى فقال بل

---

(١) أي: أصابهم سوء كسبهم وقبحه وهو ما عملوه من سيئات الشرك والمعاصي.

(٢) في هذه الآية بيان حقيقة وهي أن كفار قريش كانوا يؤمنون بالله ربًا فهم أفضل من كفار البلاشفة الشيوعيين الذين لا يؤمنون بالله تعالى كما أن كفار قريش أحسن حالاً من بعض جهال المسلمين اليوم إذ يخلصون الدعاء لله في الشدة وجهال المسلمين يشركون في الرخاء والشدة معاً وذلك بدعائهم الأولياء والأموات والاستغاثة بهم في كل حال.

(٣) قال بعضهم: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ أي: بوجوه الكسب وطرق تنمية المال وتكثيره حتى لا يحمد الله ولا يشكره ولا منافاة بين هذا وما في التفسير إذ بعضهم يقول هذا وبعض يقول ذاك.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

٤٦٥

هي فتنة، ولكن أكثرهم أي أكثر المشركين لا يعلمون أن الله تعالى إذا أعطاهم إنما أعطاهم ليفتنهم لا لحبه لهم ولا لرضًا عنهم.

﴿٥٠﴾ والدليل على أن ذلك العطاء للمشركين فتنة لا غير أن قولتهم هذه ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقارون وغيره فلم يلبثوا حتى أخذهم الله بذنوبهم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من أموال طائلة، قال تعالى: فأصابهم سيئات ما كسبوا فلم يؤخذوا بدون ذنب بل أُخذوا بذنوبهم وهو قوله تعالى:

﴿٥١﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ[1] مَا كَسَبُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي من كفار قريش سيصيبهم أيضًا سيئات ما كسبوا من الشرك والعناد والظلم، وما هم بمعجزين لله فائتينه أبدًا وكيف وقد أصابهم قحط سبع سنين وقتلوا وأسروا في بدر والفتح.

﴿٥٢﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ[2] يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي أقالوا مقالتهم تلك ولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء امتحانًا له أيشكر أم يكفر ويقدر أي يضيق على من يشاء ابتلاءً له أيصبر أم يضجر ويسخط فلم يكن بسطه الرزق حبًا في المبسوط له، ولا التضييق كرهًا للمضيق عليه، وإنما البسط كالتضييق لحكمة التربية والتدبير، ولكن الكافرين لا يعلمون هذا فجهلهم بالحكم جعلهم يقولون الباطل ويعتقدونه أما المؤمنون فلا يقولون مقالتهم لعلمهم ونور قلوبهم فلذا هم يجدون الآيات في مثل هذا التدبير واضحة دالة على علم الله وحكمته وقدرته فيزدادون إيمانًا ونورًا وبصيرة.

هداية الآيات:

١ - بيان تناقض أهل الكفر والجهل والضلال في كل حياتهم لأنهم يعيشون على ظلمة الجهل والكفر.

٢ - تقرير[3] ما من مصيبة إلا بذنب جلي أو خفي كبير أو صغير.

٣ - بيان أن بسط الرزق وتضييقه على الأفراد أو الجماعات لا يعود إلى حُب الله للعبد أو كرهه له، وإنما يعود لسنن التربية الإلهية وحكم التدبير لشؤون الخلق.

٤ - أهل الإيمان هم الذين ينتفعون بالآيات والدلائل لأنهم أحياء يبصرون ويعقلون أما أهل الكفر فهم أموات لا يرون الآيات ولا يعقلونها.

٥ - تهديد الله تعالى للظالمين ووعيده الشديد بأنه سيصيبهم كما أصاب غيرهم جزاء ظلمهم وكسبهم الفاسد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٣ - ٥٩]

﴿٥٣﴾ ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾: أي أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي. ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾: أي لا تيأسوا من المغفرة لكم ودخول الجنة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾: أي ذنوب من أشرك وفسق إن هو تاب توبة نصوحًا.

﴿٥٤﴾ ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: أي

---

(١) أي: جزاء سيئات كسبهم من الشرك والشر والفساد.

(٢) الاستفهام إنكاري ينكر تعالى عليهم انتفاء علمهم بذلك لأنهم تسببوا في انتفاء العلم فلذا تضمن الاستفهام توبيخاً لهم.

(٣) شاهده قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ الآية من الشورى وقوله ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو عنه أكثر»** رواه ابن أبي حاتم. قال: لما نزلت هذه الآية قاله رسول الله ﷺ.

ارجعوا إليه بالإيمان والطاعة. ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾: أي أخلصوا له أعمالكم.

(٥٥) ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾: أي القرآن الكريم فأحلوا حلاله وحرموا حرامه.

(٥٦) ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ﴾: أي نفس الكافر والمجرم يا حسرتى أي يا ندامتي. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾: أي في جانب حق الله فلم أطعه كما أطاعه غيري. ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾: أي المستهزئين بدين الله تعالى وعباده المؤمنين.

(٥٨) ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: أي لو أن لي رجعة إلى الدنيا فأكون إذًا من المؤمنين الذين أحسنوا القصد والعمل.

(٥٩) ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾: أي ليس الأمر كما تزعم أنك تتمنّى الهداية بل قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت.

معنى الآيات:

(٥٣) لقد صح أن أناسًا[١] كانوا قد أشركوا وقتلوا وزنوا فكبر عليهم ذلك وقالوا نبعث إلى رسول الله ﷺ من يسأله لنا هل لنا من توبة فإن قال: نعم، وإلا بقينا على ما نحن عليه وقبل أن يصل رسولهم نزلت هذه الآية ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أفرطوا في ارتكاب الجرائم فكانوا بذلك مسرفين على أنفسهم ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ أي لا تيأسوا ﴿مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ في أن يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم الجنة، إن أنتم تبتم إليه وأنبتم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[٢] لمن تاب منها فإنه تعالى لا يستعصي عليه ذنب فلا يقدر على مغفرته وعدم المؤاخذة عليه إنه هو الغفور الرحيم.

(٥٤) وقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا[٣] إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ[٤]﴾ أي أيها المذنبون المسرفون أنيبوا إلى ربكم أي ارجعوا إلى طاعته بفعل المأمور وترك المنهي وأسلموا له أي أخلصوا أعمالكم ظاهرًا وباطنًا له مبادرين بذلك حلول العذاب قبل أن يحل بكم ثم لا تنصرون أي لا تقدرون على منعه منكم ولا دفعه عنكم.

(٥٥) ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ في هذا القرآن العظيم فامتثلوا الأمر واجتنبوا النهي وخذوا بالعزائم واتركوا الرخص مبادرين بذلك أيضًا حلول العذاب قبل أن يحل بكم بغتة أي فجأة وأنتم لا تشعرون به، بادروا بالتوبة والإنابة والإسلام الصادق ظرفًا تقول فيه النفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله أي يا حسرتي[٥] يا ندامتي الحاملة لي الغم والحزن احضري هذا وقت حضورك على تفريطي في جانب[٦] حق الله تعالى حيث ما عبدته حق عبادته فلا ذكرته ولا شكرت له.

(٥٦) ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي المستهزئين بدينه وعباده المؤمنين يا له من اعتراف يودي بصاحبه في سواء الجحيم، بادروا يا عباد الله هذا وذاك.

(٥٧) ـ (٥٨) ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي[٧] لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً[٨]﴾ أي رجعة إلى الحياة الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي

---

(١) لقد ذكر لسبب نزول هذه الآية عدة مناسبات وما دامت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فلا حاجة إلى ذكرها وما في التفسير كافٍ وهو ما تضمنته رواية البخاري.

(٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ تعليل للنهي عن اليأس والقنوط من رحمة الله.

(٣) الإنابة: التوبة ولما في التوبة من معنى الرجوع عدي بالفعل بإلى.

(٤) النصر: الإعانة على الغلبة بحيث يتخلص المغلوب من يد غالبه ولا نصير لأحد على الله تعالى.

(٥) الحسرة: الندامة الشديدة والألف في ﴿يَا حَسْرَتَىٰ﴾ عوض عن ياء المتكلم.

(٦) قال الحسن: في طاعة الله وقال الضحاك: في ذكر الله يعني: القرآن والعمل به، وقال أبو عبيدة: أي: في ثواب الله وما في التفسير جامع شامل والجنب والجانب بمعنى واحد.

(٧) هذه كلمة حق أريد بها باطل كما قال علي للخوارج لما قالوا: لا حكم إلا لله.

(٨) الكرة: الرجعة ولو: للتمني فهي وليت سواء.

المؤمنين الذين أحسنوا النية والقصد والعمل. قال تعالى رادًا على تمنياتهم الكاذبة:

(٥٩) ﴿بَلَىٰ﴾ أي ليس الأمر كما زعمت أيها المتمني بقولك: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والمعاصي التي وقعت بها في جهنم بل جاءتك آياتي هادية لك مرشدة فكذبت بها واستكبرت عن العمل بما جاء فيها وكنت من الكافرين بذلك.

هداية الآيات:

١ - بيان فضل الله ورحمته على عباده بقبول توبة العبد إن تاب مهما كانت ذنوبه.

٢ - دعوة الله الرحيم إلى عباده المذنبين - بالإنابة إليه والإسلام الخالص له.

٣ - تقرير البعث والجزاء بذكر ما يحدث فيه وما يجري في ساحته من أهوال.

٤ - وجوب تعجيل التوبة والمبادرة بها قبل حلول العذاب في الدنيا أو الموت والموت أدهى وأمر حيث لا تقبل توبة بعد الموت أبدًا.

٥ - الترغيب في الأخذ بالعزائم وترك الرخص لغير ضرورة.

٦ - إبطال مذهب الجبرية الذين يرون أنهم مجبورون على فعل المعاصي وغشيان الذنوب، كقول أحدهم لو أن الله هداني لفعلت كذا أو تركت كذا.

٧ - فضل التقوى والإحسان وفضل المتقين والمحسنين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٠ - ٦٦]

(٦٠) ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي بأن يبعث الناس من قبورهم. ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أي باتخاذ أولياء من دونه وبالقول الكاذب عليه سبحانه وتعالى. ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾: أي سوداء من الكرب والحزن وعلامة على أنهم من أهل النار وأنهم ممن كذبوا على ربهم. ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: أي أليس في جهنم مأوى ومستقر للمتكبرين؟ بلى إن لهم فيها لمثوى بئس هو من مثوى للمتكبرين عن عبادة الله تعالى.

(٦١) ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾: أي ينجيهم من النار بسبب تقواهم للشرك والمعاصي. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: أي بفوزهم بالجنة ونزولهم فيها لا يمسهم السوء أي العذاب ولا هم يحزنون لما نالهم من النعيم.

(٦٣) ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي مفاتيح خزائن السموات والأرض. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: أي الخاسرون لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

(٦٤) ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾: قل يا رسولنا للذين طلبوا منك أن تعبد معهم آلهتهم أتأمروني بعبادة غير الله، فهل تصلح العبادة لغيره وهو رب كل شيء وإلهه فما أسوأ فهمكم أيها الجاهلون.

(٦٥) ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾: أي من باب الفرض لو أشركت بالله غيره في عبادته لحبط عملك ولكنت من الخاسرين.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: أي بل اعبد الله وحده، إذ لا يستحق العبادة إلاّ هو وكن من الشاكرين له على إنعامه عليك بالنبوة والرسالة والعصمة والهداية.

معنى الآيات:

لقد تقدم في السياق الأمر بتعجيل التوبة قبل الموت فيحصل الفوت، وذلك لأن يوم القيامة يوم أهوال وتغير أحوال وفي الآيتين الآتيتين بيان ذلك.

(٦٠) قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1] بأن نسبوا إليه الولد والشريك والتحليل والتحريم وهو من ذلك براء. هؤلاء ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[2] علامة أنهم كفروا وكذبوا وأنهم من أهل النار.

---

(١) هم الذين نسبوا إليه ما هو منزه عنه كالشريك والصاحبة والولد، ويدخل في هذا كل من نسب إلى الله تعالى صفة لا دليل له فيها، وكذا من شرع شيئاً ونسبه إلى الله تعالى ليقبل منه ويروج، ولا يدخل أهل الاجتهاد إذا أخطؤوا في الأدلة والحكم المقيس الذي لا نص فيه ولا يجوز أن يقال فيه: قال الله أو أمر أو شرع تحاشياً من النسبة إلى الله تعالى بغير نص من كتاب أو سنة.

(٢) جملة ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾: مبتدأ وخبر في محل نصب على الحال، لأن الرؤيا بصرية وليست قلبية.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ[(١)] فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ[(٢)]﴾ أي بلى في جهنم مأوى ومستقر للمتكبرين الذين تكبروا عن الإيمان والعبادة.

(٦١) وقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ أي تلك حال وهذه أخرى وهي أن الله تعالى ينجي يوم القيامة الذين اتقوا الشرك والمعاصي بالإيمان والطاعة هؤلاء بفوزهم بالجنة لا يمسهم السوء في عرصات القيامة، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم في الدنيا لأن ما نالهم من نعيم الجنة أنساهم ما تركوا وراءهم.

(٦٢) وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ما من كائن سوى الله تعالى إلا وهو مخلوق والله خالقه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي قيم حافظ، فسبحانه ما أعظم قدرته وما أوسع علمه فلذا وجبت له العبادة ولم تجز فضلاً عن أن تجب لسواه.

(٦٣) وقوله تعالى: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ[(٣)] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له ملكًا حقًا مفاتيح خزائن الرحمات والخيرات والبركات فهو يفتح ما يشاء ويمسك ما يشاء فلا يصح الطلب إلا منه ولا تجوز الرغبة إلا فيه وما عبد الناس الأوثان والأصنام إلا رغبة ورهبة فلو علموا أن رهبتهم لا تكون إلا من الذي يقدر على كل شيء وأن رغبتهم لا تكون إلا في الذي بيده كل شيء لو علموا هذا ما عبدوا غير الله تعالى بحال.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الحاوية لإيمانه وصفاته وبيان محابه ومكارهه وحدوده وشرائعه ولذا من كفر بآيات الله فلم يؤمن بها ولم يعمل بما فيها خسر خسرانًا مبينًا بحيث يخسر يوم القيامة نفسه وأهله، وذلك هو الخسران المبين.

(٦٤) وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ الآية هذا ردٌّ على المشركين الذين طلبوا من الرسول ﷺ أن يعترف بآلهتهم ويرضى بها مقابل أن يعترفوا له بما جاء به ويدعو إليه فأمر تعالى أن يفاصلهم بقوله: ﴿أَفَغَيْرَ[(٤)] اللَّهِ تَأْمُرُونِّي[(٥)] أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ لن يكون هذا مني أبدًا كيف أعبد غير الله وهو ربي ومالك أمري وهو الذي كرمني بالعلم به وأوحى إليَّ شرائعه. فلتيأسوا فإن مثل هذا لن يكون أبدًا، ووصفهم بالجهل لأن جهلهم[(٦)] بالله وعظمته هو الذي سوّل لهم عبادة غيره والتعصب لها.

(٦٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أي أوحى الله إليك كما أوحى إلى الأنبياء من قبلك بالتالي وهو وعزة الله وجلاله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ بنا غيرنا في عبادتنا ليحبطن[(٧)] عملك أي يبطل كله ولا تثاب على شيء منه وإن قل، ولتكونن بعد ذلك من جملة الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وذلك هو الخسران المبين. ثم أمر تعالى رسوله ﷺ مقررًا التوحيد مبطلاً الشرك بقوله:

---

(١) الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً والاستفهام للتقرير.

(٢) التكبر: شدة الكبر وهو إظهار المرء التعاظم على غيره لأنه يعد نفسه عظيماً. وفي التنديد به من حديث مسلم: **«إن الله لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»**.

(٣) المقاليد جمع إقليد وجمع على غير قياس والمراد مفاتيح خزائن السماء والأرض حيث أرزاق العباد وما به تقوم حياتهم، من أمطار وزروع وضروع ومعادن وغيرها.

(٤) غير منصوب بأعبد، و ﴿أَعْبُدُ﴾ مرفوع لحذف أن مع حرف الجر إذ الأصل: بأن أعبد فلما حذف الناصب ارتفع الفعل. هذا على رأي كثير من النحاة والجمهور يقولون: لا حذف وأعبد هو المستفهم عنه، و ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ اعتراض أو حال وتقدير الكلام: أأعبد غير الله لكونكم تأمروني بذلك؟

(٥) قرأ نافع: ﴿تأمرونِ﴾ بنون واحدة مخففة بحذف إحدى النونين، وقرأ حفص والجمهور: ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ بتشديد النون إدغاماً لإحدى النونين في الأخرى وفي جملة ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾: تقريع لهم ووصف لهم بالجهل وهو وصف مذموم.

(٦) العرب مع أنهم أميون يعترفون بفضل العالم على الجاهل قال شاعرهم:

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول

(٧) حبوط العمل بطلانه حيث لا يثاب عليه والخسران مقيد بأن يموت على الردة أما إن راجع الإسلام فلا يخسر لآية ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ فالآية مقيدة لإطلاق آية الزمر.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

٤٦٦

﴿٦٦﴾ ﴿بَلِ[1] ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي الله وحده فاعبده وكن من الشاكرين له على إنعامه وأفضاله عليك.

هداية الآيات:

١ - اسوداد الوجه يوم القيامة علامة الكفر والخلود في جهنم.

٢ - ابيضاض الوجوه يوم القيامة علامة الإيمان[2] والخلود في الجنة.

٣ - تقرير البعث والجزاء بوصف أحواله وما يدور فيه.

٤ - بيد الله كل شيء فلا يصح أن يطلب شيء من غيره أبدًا، ومن طلب شيئًا من غير الله فهو من أجهل الخلق.

٥ - التنديد بالشرك وبيان خطورته إذ هو محبط للأعمال بالكلية.

٦ - وجوب عبادة الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ووجوب حمده وشكره إذ كل إنعام منه وكل إفضال له. فلله الحمد والمنة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٧ - ٧٠]

﴿٦٧﴾ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: أي ما عظموا الله حق عظمته ولا عرفوه حق معرفته حين أشركوا في عبادته غيره من أوثانهم. ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾: أي والأرض بجميع أجزائها قبضته. ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾: أي والسموات السبع مطويات بيمينه. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي تقدس وتنزه عما يشرك به المشركون من أوثان.

﴿٦٨﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: أي نفخ إسرافيل نفخة الصعق. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾: أي مرة أخرى وهي نفخة القيام لرب العالمين.

﴿٦٩﴾ ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾: أي أضاءت الأرض بنور الله تعالى حين يتجلى لفصل القضاء. ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: أي كتاب الأعمال للحساب. ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: أي بالنبيين ليشهدوا على أممهم، والشهداء محمد ﷺ وأمته. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: أي بالعدل وهم لا يظلمون لا بنقص حسناتهم ولا بزيادة سيئاتهم.

﴿٧٠﴾ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: أي أعلم حتى من العاملين أنفسهم.

معنى الآيات:

﴿٦٧﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ[3]﴾ إنه بعد أن قرر تعالى التوحيد وندد بالشرك والمشركين أخبر تعالى ناعيًا على المشركين شركهم ودعوتهم نبيه ﷺ للشرك بأنهم بفعلهم ذلك ما قدروا الله حق قدره أي ما عظموه حق عظمته وذلك لجهلهم به تعالى حين عبدوا معه غيره ودعوا نبيه ﷺ إلى ذلك، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا[4] قَبْضَتُهُۥ﴾

---

(١) ﴿بَلِ﴾: للإبطال أي: إبطال عبادة ما دعاه إليه المشركون وقصره على عبادة الله وحده وأمره أن يكون في جملة الشاكرين لله إنعامه عليهم بنعمة الإسلام.

(٢) شاهده آية آل عمران: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية.

(٣) ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: فيه إضافة الصفة إلى الموصوف فحق: صفة، والقدر: موصوف إذ الأصل: (ما قدروا الله قدره الحق) فالحق منصوب على النيابة عن المفعول المطلق.

(٤) جرد جميع من التاء إذ لم يقل: والأرض جميعة جرياً على الغالب وقد أثبتت في قول الشاعر:

فلو أنها نفس تموت جميعة ... ولكنها نفس تساقط أنفسا

ونصب ﴿جَمِيعًا﴾ على الحال.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦٓ[1]﴾ فالذي يجعل الأرض بكل طبقاتها وأجزائها في قبضته والسموات يطويها بيمينه فالسموات والأرض جميعًا في يده، ويقول أنا الملك أين الملوك. فصاحب هذه القدرة العظمى كيف يعبد معه آلهة أخرى هي أصنام وتماثيل أوثان. ولذا نزه تعالى نفسه بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ أي تنزه وتقدس عن الشريك والنظير والصاحبة والولد وعن صفات المحدثين، وتعالى عما يشركون أي ترفع عن أن يكون له شريك وهو رب كل شيء ومليكه.

(٦٨) وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ[2]﴾ الآية، هذا عرض لمظاهر القدرة التي يتنافى معها عقلاً وجود من يستحق العبادة معه سبحانه وتعالى، والنافخ في الصور أي البوق إسرافيل قطعًا إذ هو الموكل بالنفخ في الصور فإذا نفخ هذه النفخة صعق من[3] في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فهذا استثناء دال على أن بعضًا من المخلوقات لم يصعق في هذه النفخة، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ أي في الصور نفخة ﴿أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ هذه النفخة تسمى نفخة القيام لله رب العالمين لأجل الحساب.

(٦٩) وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ[4]﴾ أي كتاب الأعمال للحساب ﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليشهدوا على أممهم وجيء بالشهداء وهم أمة محمد ﷺ يشهدون على الأمم السابقة بأن رسلها قد بلغتهم دعوة الله، وشهادة أمة محمد ﷺ قائمة على ما أخبرهم تعالى في كتابه القرآن الكريم أن الرسل قد بلغت رسالات ربها لأممها، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خيارًا عدولاً ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي وحكم الله تعالى بين العباد بالعدل.

(٧٠) ووفى كل نفس ما عملت من خير أو شر، وهو تعالى أعلم بما يفعلون حتى من العاملين أنفسهم ولذا سيكون الحساب عادلاً لا حيف فيه لخلوه من الخطأ والغلط والجهل والنسيان لتنزه البارىء عز وجل عن ذلك.

هداية الآيات:

١ - بيان مظاهر عظمة الرب تعالى التي يتنافى معها الشرك به عز وجل في عباداته.

٢ - تقرير البعث والجزاء بيان أحواله وما يجري فيه.

٣ - بيان عدالة الله في قضائه بين عباده في عرصات القيامة.

٤ - فضيلة هذه الأمة بقبولها شاهدة على الأمم التي سبقتها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧١ - ٧٥]

(٧١) ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: أي وساق الملائكة بعنف الذين كفروا. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾: أي جماعات، جماعة المشركين، وجماعة المجرمين، وجماعة الظالمين. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾: أي الموكلون بالنار من الملائكة الواحد خازن. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾: هذا الاستفهام للتقرير والتوبيخ. ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾: أي وجب العذاب للكافرين.

---

(١) شاهده في البخاري قوله ﷺ: «**يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟**» وفي الترمذي وصححه عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قالت: قلت: فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**على جسر جهنم**»، وفي رواية: «**على الصراط يا عائشة**».

(٢) ﴿ٱلصُّورِ﴾: البوق يُنادى به البعيد المتفرق مثل الجيش، والمراد هنا نداء الخلق لحضور الحشر أحياء للحساب والجزاء.

(٣) بالتتبع للآيات القرآنية المتضمنة لأحوال الدار الآخرة نجد أن النفخات للصور أربع نفخات: وهي نفخة الفناء، ونفخة البعث، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين. وفي هذه الآيات ذكر نفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين سميت هذه نفخة صعق لأن الخلائق يصعقون ولا يموتون بدليل حديث البخاري: «**فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله تعالى**» لفظ مسلم. قال القرطبي: والإفاقة إنما تكون من غشية وزوال عقل لا عن موت بردّ الحياة والله أعلم.

(٤) ﴿ٱلْكِتَـٰبُ﴾: اسم جنس والمراد صحائف أعمال العباد الحاوي للحسنات والسيئات.

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

ترتيبها ٤٠ — سورة غافر — آياتها ٨٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾

٤٦٧

﴿٧٣﴾ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: أي وساقت الملائكة بلطف على النجائب الذين اتقوا ربهم أي أطاعوه ولم يشركوا به. ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾: أي والحال أن أبواب الجنة قد فتحت لاستقبالهم.

﴿٧٤﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾: أي أنجز لنا وعده بالجنة. ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾: أي أرض الجنة وصورة الإرث نظرًا إلى قوله تعالى في وعده لهم تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا[1]. ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾: أي ننزل من حيث نشاء. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾: أي الجنة.

﴿٧٥﴾ ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾: أي محدقين بالعرش من كل جانب. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: أي يقولون سبحان الله وبحمده. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾: أي وقضى الله بمعنى حكم بين جميع الخلائق بالعدل. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي وقالت الملائكة والمؤمنون الحمد لله رب العالمين على استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

معنى الآيات:

﴿٧١﴾ بعد الفراغ من الحكم على أهل الموقف وذلك بأن حكم تعالى فيهم بحسب عملهم فوفَّى كل عامل بعمله من كفر ومعاصٍ، أو إيمان وطاعة قال تعالى مخبرًا عن مصير الفريقين ﴿وَسِيقَ[2] الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ساقتهم الملائكة بشدة وعنف لأنهم لا يريدون الذهاب ﴿إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي جماعات ولفظ الزمرة مشتق من الزمر الذي هو الصوت إذ الغالب في الجماعة أن يكون لها صوت. وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ إذ كانت مغلقة كأبواب السجون لا تفتح إلا عند المجيء بالسجناء، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا[3]﴾ قبل الوصول إليها موبخين لهم ﴿أَلَمْ[4] يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي المبينة لكم الهدى من الضلال والحق من الباطل، وما يحب ربكم من العقائد والأقوال والأعمال والصفات والذوات وما يكره من ذلك، ويدعوكم إلى فعل المحاب لتنجوا وترك المكاره لتنجوا وتسعدوا. فأجابوا قائلين بلى أي جاءتنا بالذي قلتم ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ونحن منهم فوجب لنا العذاب.

﴿٧٢﴾ وعندئذ تقول لهم الملائكة ادخلوا[5] أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس أي جهنم مثوى المتكبرين أي قبح مأوى المتكبرين في جهنم من مأوى.

---

(١) وجه الورث أن الله تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في النار وآخر في الجنة ثم هم يتوارثون فأهل الجنة يرثون منازل أهل النار في الجنة وأهل النار يرثون منازل أهل الجنة في النار.

(٢) هذا بيان توفية كل نفس عملها فيساق الذين كفروا إلى النار والذين آمنوا إلى الجنان والزمر: جمع زمرة كظلمة وظلم وغرفة وغرف، وهي جماعة بعد جماعة قال الشاعر:

وترى الناس إلى منزله ... زمراً تنتابه بعد زمرة

(٣) الخزنة: جمع خازن كسدنة وسادن.

(٤) الاستفهام للتقرير مع التوبيخ والتقريع.

(٥) قال وهب: تستقبلهم الزبانية بمقامع من حديد فيدفعونهم بمقامعهم فإنه ليقع في الدفعة الأولى بعدد ربيعة ومضر. قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾.

(٧٣) وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ[(١)] ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ وسوقهم هو سوق النجائب التي يركبونها فهو سوق لطف وتكريم إلى الجنة دار السلام زمرًا زمرة الجهاد وزمرة الصدقات وزمرة العلماء وزمرة الصلوات... ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ وقد فتحت[(٢)] أبوابها من قبل لاستقبالهم مُعَززين مكرمين، فقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم أي طابت أرواحكم بأعمالكم الطيبة فطاب مقامكم في دار السلام فنعم التحية حيوا بها مقابل تأنيب وتوبيخ الزبانية لأهل النار. وقوله لهم فادخلوها أي الجنة حال كون خلودكم مقدرًا لكم فيها. فقالوا بعد دخولهم الجنة ونزولهم في قصورها الحمد لله الذي صدقنا وعده يعنون قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾.

(٧٤) وقولهم: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي أرض الجنة نتبوأ منها حيث نشاء أي ننزل منها حيث نريد النزول، وفي قولهم أورثنا الأرض إشارة إلى أنهم ورثوها من أبويهم آدم وحواء إذ كانت لهم قبل نزولهما منها. وقولهم فنعم أجر العاملين أي الجنة والمراد من العمل الإيمان والتقوى في الدنيا، بأداء الفرائض واجتناب النواهي.

(٧٥) وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أيها الرائي ﴿حَآفِّينَ مِنۡ[(٣)] حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي محدقين بعرش الرحمن أي سريره ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي قائلين: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. قال تعالى مخبرًا عن نهاية الموقف: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي وقضى الله بين الخلائق بالعدل، ولما استقر أهل النار وأهل الجنة حُمدَ الله على الاستقرار التام والحكم العادل الرحيم وقيل الحمد لله رب[(٤)] العالمين أي حمدت الملائكة ربها وحمده معهم المؤمنون وهم في دار النعيم المقيم.

هداية الآيات:

١ - بيان إهانة أهل النار بسوقهم على أرجلهم بعنف وتأنيبهم وتوبيخهم.

٢ - التنديد بالاستكبار عن عبادة الله تعالى، وعباده المؤمنين به، المتقين له.

٣ - بيان إكرام الله تعالى لأوليائه إذ يُحملون على نجائب رحالها من ذهب إلى الجنة، ويلقون فيها تحية وسلامًا. تحية احترام وإكرام، وسلام أمان من كل مكروه.

٤ - بيان نهاية الموقف باستقرار أهل النار من الكفار والفجار في النار، واستقرار أهل الجنة من المؤمنين الأتقياء الأبرار في الجنة دار الأبرار.

٥ - ختم كل عمل بالحمد فقد ابتدأ الله الخالق بالحمد فقال الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وختم بالحمد، وقيل الحمد لله رب العالمين.

❃ ❃ ❃

سورة غافر[(٥)]
مكية
وآياتها خمس وثمانون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٦]

(١) ﴿حمٓ﴾: هذا أحد الحروف المقطعة يكتب هكذا: حم ويقرأ هكذا: حا ميم.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾: أي تنزيل القرآن كائن من الله. ﴿ٱلۡعَزِيزِ

(١) سوق أهل النار طردهم إلى النار بالخزي والهوان كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان وسوق أهل الجنة سوق مراكبهم إلى دار السلام، إنهم لا يذهب بهم إلا راكبين وشتان ما بين السوقين.

(٢) قرأ نافع والجمهور: ﴿فتحت﴾ بتشديد التاء في الأولى والثانية وقرأ حفص بالتخفيف، والواو في قوله: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ واو الحال والجملة حالية في محل نصب.

(٣) من: زائدة لتقوية الكلام نحو ما جاءني من أحد.

(٤) قال قتادة: في هذه الآية افتتح الله أول الخلق بالحمد فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وختم بالحمد فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فحسن الاقتداء به فيبدأ بالعبد قوله بالحمد ويختمه بالحمد.

(٥) وتسمى أيضاً سورة المؤمن وسورة الطول وهي أول آل حمٓ التي يقال لها: ديباج القرآن وعرائش القرآن ويقال: ذوات حمٓ وذكر القرطبي أن رجلاً من أهل الشام كان ذا بأس شديد فقيل لعمر وقد سأل عنه: أنه تتابع في هذا الشراب فقال عمر لكاتبه: اكتب

﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾: أي الغالب على مراده، العليم بعباده ظاهرًا وباطنًا حالاً ومآلاً.

(٣) ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾: أي ذنب من تاب إلى الله فرجع إلى طاعته بعد معصيته. ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾: أي مشدد العقوبة على من كفر به، ذي الطول أي الإنعام الواسع على من آمن به وأطاعه. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾: أي لا معبود بحق إلا هو إليه مرجع الخلائق كلهم.

(٤) ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي في القرآن لإبطالها إلا الكافرون. ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾: أي فلا تغتر بمعاشهم سالمين فإن عاقبتهم النار.

(٥) ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾: أي وكذبت الأحزاب من بعد قوم نوح، وهم عاد وثمود وقوم لوط. ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾: أي ليتمكنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيب وقتل. ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾: أي ليزيلوا به الحق ويبطلوه. ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾: أي كان واقعًا موقعه حيث أهلكهم ولم يبق منهم أحدًا.

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: أي وجبت كلمة العذاب على الذين كفروا.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝﴾: الله أعلم بمراده به.

وقد ذكرنا غير ما مرة أن هذه الحروف أفادت فائدتين الأولى أن العرب المشركين في مكة كانوا قد منعوا المواطنين من سماع القرآن حتى لايتأثروا به فيكفروا بآلهتهم فقد أخبر تعالى عنهم في قوله من سورة فصلت فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝﴾ فكانت هذه الحروف المقطعة بنغمها الخاص تستهويهم فيسمعوا فكانت فائدة عظيمة. والثانية أن المشركين لما أصروا على أن القرآن لم يكن وحيًا وإنما هو من جنس ما يقوله الشعراء والكهان. وأصحاب الأساطير تحداهم الله تعالى بالإتيان بمثله وهو مركب ومؤلف من هذه الحروف الم طسَ حَم والذي قوى هذه النظرية أنه غالبًا ما يذكر القرآن بعد ذكر هذه الحروف مثل الم تلك آيات الكتاب، حم تنزيل الكتاب، حم والكتاب المبين فهاتان الفائدتان من أحسن ما استنبطه ذوو الشأن في تفسير القرآن، وما عدا ذلك فلا يحسن روايته لخلوه من فائدة معقولة، ولا رواية عن الرسول ﷺ وأصحابه منقولة.

(٢) وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝﴾ يخبر تعالى أنه عز وجل هو مصدر هذا القرآن إذ هو الذي نزله تنزيلاً على عبده ورسوله ﷺ، ووصف نفسه بالعزة والعلم فقال العزيز أي في انتقامه من أعدائه الغالب على أمره ومراده فلا يحال بينه وبين ما يريده العليم بخلقه وحاجاتهم ومتطلباتهم، فأنزل الكتاب لهدايتهم وإصلاحهم.

(٣) وقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ[١]﴾ أعلم أنه تعالى يغفر ذنب المستغفرين ويقبل توبة التائبين وأنه شدد العقوبة على من كفر به وعصاه. وقوله ذي الطول أي الإنعام الواسع والفضل العظيم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾[٢] أي لا معبود بحق إلا هو العزيز الحكيم العزيز الغالب على أمره الحكيم في تدبير خلقه.

لما أثنى تبارك وتعالى على نفسه بما هو أهله أخبر رسوله ﷺ بأنه:

(٤) ﴿مَا يُجَٰدِلُ[٣] فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾

= من عمر إلى فلان سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝﴾ ثم ختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله يغفر لي وحذّرني عقابه، فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم زل زلة فسددوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا عوناً للشيطان عليه.

(١) يطلق الطول على سعة الفضل وسعة المال كما يطلق مطلق القدرة وهو مأخوذ من الطول ضد القصر.

(٢) ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾: في موضع الصفة لله عز وجل فتكون الصفة السابقة في هذه الآية الكريمة.

(٣) مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن سؤال من قال: ما دام هذا القرآن تنزيلاً من العزيز الحكيم وهو أمر لا ريب فيه فلم يجادل فيه هؤلاء المشركون؟ فأجابهم بقوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية.

القرآنية الحاوية للحجج القواطع والبراهين السواطع على توحيد الله ولقائه وعلى نبوة رسول الله ﷺ ما يجادل فيها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وذلك لظلمة نفوسهم وفساد قلوبهم، وعليه فاصبر ولا تغتر بظاهر ما هم عليه من سعة الرزق وسلامة البدن، وهو معنى قوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ[1] تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي آمنين معافين في أبدانهم وأرزاقهم فإنهم ممهلون لا مهملون.

(٥) والدليل فقد كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب[2] من بعد قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون، وقد همّت كل أمة من تلك الأمم برسولها لتأخذه فتقتله أو تنكل به. وقد جادلوا بالباطل كما جادل قومك من قريش ليدحضوا به الحق أي ليزيلوه ويبعدوه بباطلهم. فأخذتهم فكيف كان عقاب أي كان واقعًا موقعه والحمد لله إذ قطع الله دابرهم وأنهى وجودهم وخصومتهم.

(٦) وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ[3] كَلِمَتُ[4] رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ[5] ۞﴾ أي كما وجب حكمه بإهلاك تلك الأمم المكذبة لرسلها الهامة بقتلها وقد أهلكهم الله فعلاً حقت كلمة ربك على الذين كفروا لأنهم أصحاب النار والمراد من كلمة ربك قوله لأملأن جهنم الآية.

هداية الآيات:

١ - تقرير أن القرآن الكريم مصدر تنزيله هو الله تعالى إذ هو الذي أوحاه ونزله على رسوله محمد ﷺ وبذلك تقررت نبوة الرسول محمد ﷺ.

٢ - بيان عظمة الرب تعالى المتجلية في أسمائه العزيز العليم الحكيم ذي الطول غافر الذنب قابل التوب لا إله إلا هو.

٣ - تقرير التوحيد والبعث والجزاء.

٤ - تقرير مبدأ أن الله تعالى يمهل ولا يهمل، وأن بطشه شديد.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ ـ ٩]

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾: أي الملائكة حملة العرش. ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾: أي والملائكة الذين يحفون بالعرش من جميع جوانبه. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: أي يقولون سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم هذه صلاتهم وتسبيحهم. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: كيف لا وهم عنده، ولكن هذا من باب الوصف بالكمال لهم. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي يطلبون المغفرة للمؤمنين لرابطة الإيمان بالله التي تربطهم بهم. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾: أي يقولون يا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما. ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾: أي فبما أن رحمتك وعلمك وسعا كل مخلوقاتك فاغفر للذين تابوا إليك فعبدوك ووحدوك

---

(١) الغرور: ظن المرء شيئاً حسناً وهو بضده يقال: غرك إذا جعلك تظن الشيء حسناً ويكون التغرير بالقول أو بتحسين صورة القبيح.

(٢) ﴿وَٱلْأَحْزَابُ﴾: هم الأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب والعناد كعاد وثمود ومن بعدهم.

(٣) ﴿حَقَّتْ﴾ أي: وجبت ولزمت مأخوذ من الحق لأنه لازم.

(٤) قرأ نافع: ﴿كلمات﴾ بالجمع وقرأ حفص بالإفراد وهي اسم جنس بمعنى الجمع.

(٥) الإجماع على وجوب الوقف على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ثم يستأنف القراءة قائلاً: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ..﴾ إلخ.. إذ يقبح أن يتبادر إلى ذهن السامع أن أصحاب النار هم الذين يحملون العرش.

واتبعوا سبيلك الذي هو الإسلام. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي احفظهم من النار فلا تُعذّبهم بها.
⑧ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: أي بساتين فيها قصور وأنهار للإقامة الدائمة. ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾: أي بقوله تعالى: إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتهم الأنهار. ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾: أي ومن صلح بالإيمان ولم يفسد بالشرك والكفر.
⑨ ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: أي احفظهم من جزاء السيئات التي عملوها فلا تؤاخذهم بها. ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾: أي ومن تقه جزاء سيئاته يوم القيامة فلم تؤاخذه. ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾: أي حيث سترته ولم تفضحه وعفوت عنه ولم تعذبه. ﴿وَذَٰلِكَ﴾: أي الوقاية من العذاب وإدخال الجنة هو الفوز العظيم.

معنى الآيات:

⑦ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ[(١)] يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾[(٢)] يخبر تعالى عن عظمته وموجبات الإيمان به وبآياته وتوحيده ولقائه فيقول الذين يحملون العرش أي عرشه من الملائكة كالملائكة الذين يحفون بعرشه الجميع ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ تسبيحًا مقرونًا بالحمد بأن يقولوا سبحان الله وبحمده ويؤمنون به أي يؤمنون بوحدانيته وعدم الإشراك في عبادته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ[(٣)] لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لرابطة الإيمان التي ربطتهم بهم ولعل هذا السرّ في ذكر إيمانهم لأن المؤمنين إخوة واستغفارهم هو طلب المغفرة من الله للمؤمنين من عباده. وهو معنى قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً[(٤)] وَعِلْمًا﴾ أي يقولون متوسلين إليه سبحانه وتعالى بصفاته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي يا ربنا وسعت رحمتك وعلمك سائر المخلوقات فاغفر للذين تابوا أي إليك فتركوا الشرك واتبعوا سبيلك الذي هو الإسلام فانقادوا لأمرك ونهيك، وقهم عذاب الجحيم أي احفظهم يا ربنا من عذاب النار.
⑧ ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ﴾ عَدْنٍ أي إقامة من دخلها لا يخرج منها ولا يبغي عنها حولاً لكمال نعيمها ووفرة السعادة فيها. ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي وأدخل كذلك من صلح بالإيمان والتوحيد من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم فألحقهم بدرجاتهم ليكونوا معهم وإن قصرت بهم أعمالهم. وقولهم إنك أنت العزيز الحكيم توسل أيضًا إليه تعالى بصفتي العزة والغلبة والقهر لكل المخلوقات والحكمة المتجلية في سائر الكائنات.
⑨ وقولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ[(٥)]﴾ أي واحفظهم من جزاء سيئاتهم بأن تغفرها لهم وتسترها عليهم حتى يتأهلوا للحاق بأبنائهم الذين نسألك أن تلحقهم بهم، ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾[(٦)]، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي النجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم لقوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾. ومعنى ومن تق السيئات أي تقيه عذابها وذلك بأن يغفرها لهم ويعفو عنهم فلا يؤاخذهم بها، فينجوا من النار ويدخلوا الجنة وذلك أي النجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم.

---

(١) حملة العرش أفضل الملائكة وهم أربعة ويوم القيامة يضاف إليهم أربعة فيصبحون ثمانية لقوله تعالى من سورة الحاقة: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾.

(٢) قال مجاهد: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظلمة وحجاب نور وحجاب ظلمة...

(٣) قيل: هذا معطوف على محذوف تقديره وينزهونه عما يقول الكافرون ويستغفرون إلخ..

(٤) ﴿رَّحْمَةً﴾: منصوب على التمييز و ﴿وَعِلْمًا﴾ معطوف عليه، والتمييز محول عن فاعل إذ التقدير: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء.

(٥) قد لا يحتاج الأمر إلى تقدير محذوف فيقال: وقهم جزاء السيئات إذ السيئات جمع سيئة «فَيْعَلَة» من السوء وهو ما يضر ولا يسر فالسيئة كل ما يسوء من عذاب وخوف وهلع، فدعاء الملائكة دعاء بالنجاة مما يسوء المؤمنين يوم القيامة ولذا قالوا: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: ما يسوؤه من العذاب ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ بدخول الجنة وما في التفسير هو رأي الجمهور من المفسرين.

(٦) قال مطرف بن عبدالله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغشّ عباد الله لعباد الله الشياطين وتلا هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

هداية الآيات:

١ - بيان عظم الرب تعالى.

٢ - بيان فضل الإيمان وأهله[١].

٣ - فضل التسبيح بقول: سبحان الله وبحمده فقد صحّ أن من قالها مائة مرة[٢] حين يصبح أو حين يمسي غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر أي في الكثرة.

٤ - بشرى المؤمنين بأن الله تعالى يجمعهم بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم في الجنة، وقد استجاب الله للملائكة وقد أخبر تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ - ١٧]

(١٠) ﴿يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ﴾: أي تناديهم الملائكة لتقول لهم لمقت الله إياكم أكبر من مقتكم أنتم لأنفسكم، والمقت أشد البغض.

﴿إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾: أي مقت الله تعالى لكم عندما كنتم في الدنيا تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم لما رأيتم العذاب.

(١١) ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾: أي أمتنا مرتين الأولى عندما كنا عدمًا فخلقتنا، والثانية عندما أمتنا في الدنيا بقبض أرواحنا، وأحييتنا مرتين الأولى لما أخرجتنا من بطون أمهاتنا أحياء فهذه مرة والثانية بعد أن بعثتنا من قبورنا أحياء. ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾: أي بذنوبنا التي هي التكذيب بآياتك ولقائك والشرك بك. ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾: أي فهل من طريق إلى العودة إلى الحياة الدنيا مرة ثانية لنؤمن بك ونوحدك ونطيعك ولا نعصيك.

(١٢) ﴿ذَٰلِكُم﴾: أي العذاب الذي أنتم فيه. ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾: أي بسبب أنه إذا دعي الله وحده كفرتم بالتوحيد.

(١٣) ﴿يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أي دلائل توحيده وقدرته على بعثكم ومجازاتكم. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾: أي وما يتعظ إلا من ينيب إلى الله ويرجع إليه بتوحيده.

(١٥) ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾: أي يلقي بالوحي من أمره على من يشاء من عباده. ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾: أي لينذر من يوحي إليه من البشر وهو الرسول ﷺ يوم تلاقي أهل السماء وأهل الأرض وذلك يوم القيامة.

(١٦) ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾: أي لا يسترهم شيء لا جبل ولا شجر ولا حجر. ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾: أي لمن السلطان اليوم.

معنى الآيات:

(١٠) بعد أن بيّن تعالى حال المؤمنين وأنهم هم وأزواجهم وذرياتهم في دار النعيم يبين في هذه الآيات الثلاث حال الكافرين في النار جريًا على أسلوب القرآن في الترغيب والترهيب فقال تعالى مخبرًا عن أهل النار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي بربهم ولقائه وتوحيده ينادون أي تناديهم الملائكة فتقول لهم - بعد أن يأخذوا في مقت أنفسهم ولعن بعضهم بعضًا - ﴿لَمَقۡتُ[٣] ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ وذلك لأنكم كنتم تدعون إلى الإيمان بالله وتوحيده وطاعته فتكفرون وتجحدون متكبرين.

(١١) وهنا في الآية الثانية (١١) يقولون وهم في جهنم ﴿رَبَّنَآ﴾ أي يا ربنا ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ يعنون بالموتتين الأولى وهم نطف[٤] ميتة والثانية بقبض أرواحهم عند نهاية آجالهم، ويعنون بالحياتين الأولى التي كانت لهم في الدنيا قبل موتهم والثانية التي بعد البعث، وقولهم: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا[٥] بِذُنُوبِنَا﴾ أي

---

(١) في الصحيحين.

(٢) يكفي كرامة للمؤمن أنه نائم على فراشه والملائكة تستغفر الله له، وتدعو له بالنجاة من النار وبدخول الجنة كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ الآية.

(٣) اللام في جواب قسم أي: والله لمقت الله إلخ.. والخاطب هم الملائكة وجائز إن لم يكن راجحاً أن يكون المعنى لَمَقْتُ الله إياكم لمّا كنتم تدعون إلى الإيمان في الدنيا على أيدي رسلكم فتكفرون، مقت الله ذلك أشد من مقتكم أنفسكم اليوم.

(٤) جائز أن تكون الموتة الأولى لما كانوا في الرحم قبل نفخ الروح، وجائز أن يكون العدم السابق للوجود في الرحم شاهده آية البقرة ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾.

(٥) سر اعتراضهم هذا أنهم يرجون من ورائه الخروج من النار ظناً منهم أنه نافع لهم شاهده قولهم مستعطفين: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

التي قارفناها في الحياة الدنيا وهي الكفر والشرك والمعاصي. وقولهم بعد هذا الاعتذار: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي فهل من طريق إلى الخروج من النار والعودة إلى الحياة الدنيا لنصلح ما أفسدنا، ونطيع من عصينا؟ والجواب قطعًا لا سبيل إلى ذلك أبدًا، وبقاؤكم في العذاب ليس ظلمًا لكم وإنما هو جزاء وفاق لكم ثم ذكر تعالى علة عذابهم بقوله:

(١٢) ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ بالله وتوحيده ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي وإن يشرك بالله تؤمنوا كقولهم لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملك وما ملك وقوله فالحكم لله العلي الكبير، وقد حكم بعذابكم فلا سبيل إلى نجاتكم. فامقتوا أنفسكم ونوحوا على أرواحكم فما ذلكم بمجديكم ولا بمخفف العذاب عنكم. وقوله تعالى:

(١٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِى[(١)] يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذا خطاب للناس في هذه الحياة الدنيا خطاب لمشركي قريش بعد أن عرض عليهم صورة صادقة حية لحالهم في جهنم يوم القيامة عاد يخاطبهم داعيًا لهم إلى الإيمان فقال هو أي المعبود بحق الله الذي يريكم آياته أي حججه ودلائل وحدانيته وقدرته على بعثكم ومجازاتكم ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ من المطر وغيره. ومع ذاك البيان وهذا الإفضال، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي فلا يتعظ إلا من شأنه الإنابة إلى ربه تعالى في كل شأنه.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا خطاب للموحدين يأمرهم تعالى بالاستمرار على توحيد الله في عباداته والإخلاص لله تعالى في كل أعمالهم، ولو كره الكافرون ذلك منهم فإنه غير ضائرهم.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ[(٢)] ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي هو الله ذو الدرجات الرفيعة والعرش العظيم ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ[(٣)] مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي يلقي بالوحي من أمره الذي يريد إنفاذه إلى خلقه على من يشاء من عباده ممن يصطفيهم وينبئهم من أجل أن ينذروا عباده يوم التلاقي وهو يوم القيامة إذ يلتقي أهل الأرض بأهل السماء والمخلوقون بخالقهم وهو قوله:

(١٥) - (١٦) ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾[(٤)] من قبورهم لا شيء يسترهم، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾، وفي هذا الموقف العظيم يقول الجبار سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ فلا يجيبه أحد رهبة منه وخوفًا فيُجيب نفسه بنفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر لتمام العدالة الإلهية، ويؤكد ذلك قوله:

(١٧) ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ويأخذ في محاسبتهم فلا ينتصف النهار إلا وأهل الجنة في الجنة قائلون في أحسن مقيل اللهم اجعلني منهم ومن قال آمين.

هداية الآيات:

١ - عدم جدوى الاعتذار يوم القيامة هذا فيما لو أذن للعبد أن يعتذر فلا ينفعه اعتذار.

٢ - تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد.

٣ - بيان أفضال الله على العباد إذ

---

(١) جائز أن يكون الخطاب هنا موجهاً إلى الرسول ﷺ والمؤمنين وكونه عاماً يشمل الموحدين والمشركين أولى أو ليزداد المؤمنون إيماناً وليتوب المشركون أما قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فظاهر في أنه خطاب للمؤمنين.

(٢) ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾: خبر والمبتدأ محذوف تقديره: هو عائد على الله ورفيع الدرجات خبر وهو يحتمل أمرين كلاهما حق: الأول: أن الله تعالى هو ذو الشأن العظيم والصفات العلا والأسماء الحسنى والقدر الأعلى والثاني: أنه تعالى رافع درجات أوليائه في دار كرامته إذ: رفيع إما أن يكون صفة مشبهة عائدة إلى الذات الإلهية العلية، أو فعيل بمعنى فاعل أي: رافع درجات أوليائه.

(٣) فيه تقرير النبوة المحمدية بإثبات الوحي الإلهي لمن يشاء من عباده فبعد تقرير البعث والتوحيد قرر النبوة المحمدية وهذه أصول الدين التي عليها مدار الحياة الإيمانية.

(٤) هذا عرض أيضاً لأحوال يوم القيامة المقصود منه التذكير به والدعوة إلى تقوية الإيمان به إذ هو عامل إصلاح النفوس مع بيان عظمة الله وعدله وهي موجبات توحيده وطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

يريهم آياته لهدايتهم ويرزقهم وهم يكفرون به.

٤ - وجوب إخلاص الدعاء وسائر العبادات لله وحده ولو كره ذلك المشركون.

٥ - تقرير النبوة، وبيان الحكمة فيها وهي إنذار الناس من عذاب يوم القيامة حيث الناس بارزون لله لا يخفى على الله منهم شيء فيحاسبهم بعلمه وعدله فلا ينقضي نهار إلا وقد استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار اللهم أعذنا من نار جهنم.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨ - ٢٠]

﴿١٨﴾ ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾: أي يوم القيامة.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾: أي من شدة الخوف تكون القلوب قد ارتفعت حتى وصلت عند الحناجر.

﴿كَـٰظِمِينَ﴾: أي لقلوبهم يريدون ردها فلم يقدروا. ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾: أي ليس للمشركين من محب قريبًا كان أو بعيدًا.

﴿١٩﴾ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾: أي الله تعالى يعلم العين إذا سرقت النظر إلى محرم.

﴿٢٠﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾: أي لكمال قدرته وعلمه يحكم بالحق. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: أي والذين يدعوهم مشركو قريش من أصنام لا يقضون بشيء عدلاً كان أو جورًا لأنهم أصنام لا تسمع ولا تبصر.

معنى الآيات:

﴿١٨﴾ بعد بيان الموقف الصعب في عرصات القيامة في الآيات السابقة قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا رسولنا أي خوف قومك ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ[1]﴾ وهي القيامة القريبة والتي قد قربت فعلاً وكل ما هو آتٍ قريب أنذرهم قربها حتى لا يوافوها بالشرك والمعاصي فيخسروا خسرانًا مبينًا، ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ[2]﴾ من شدة الخوف ترتفع إلى ﴿ٱلْحَنَاجِرِ[3]﴾ وهم يكظمونها فلا هي تخرج فيموتوا ولا هي تعود إلى أماكنها فيستريحوا.

﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ وهم أهل الشرك والمعاصي ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب أو حبيب يدفع عنهم العذاب ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يشفع لهم وتقبل شفاعته ويطاع فيها لا ذا ولا ذاك يا لفظاعة الحال.

﴿١٩﴾ وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ[4]﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه وواسع اطلاعه أنه يعلم خائنة الأعين وهي العين تسترق النظر إلى المحارم، ويعلم ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ[5]﴾ أي وما تكتمه صدور العباد وما تضمره من خير وشر، ولذا فسوف يكون الحساب دقيقًا ومن نوقش الحساب عُذب.

---

(١) يقال: أزف فلان يأزف أزفاً قال النابغة:

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

(٢) ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾: جمع قلب وهو البضعة الصنوبرية الشكل التي تتحرك دائماً ما دام الجسم حياً تدفع الدم إلى الشرايين التي بها حياة الجسم.

(٣) ﴿ٱلْحَنَاجِرِ﴾: جمع حنجرة بفتح الحاء والجيم وهي الحلقوم.

(٤) أي: الله جل جلاله يعلم الأعين الخائنة قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.

(٥) قال ابن عباس: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي: هل يزني بها من سرق النظر إليها لو خلا بها أو لا؟

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي يحكم بالعدل، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ[1] مِن دُونِهِۦ﴾ أي والذين يعبدهم المشركون من أصنام وأوثان ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾[2] لأنهم لا يسمعون ولا يُبصرون.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ السميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم فلذا إذا حكم يحكم بالحق ويقدر على إنفاذ الحكم فيجزي السيئة بالسيئة والحسنة بعشر أمثالها.

هداية الآيات:

١ - بيان هول يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه.

٢ - انعدام الحميم والشفيع للظالمين يوم القيامة.

٣ - بيان سعة علم الله تعالى حتى إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

٤ - قضاء الله عدل وحكمه نافذ وذلك لكمال علمه وقدرته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١، ٢٢]

(٢١) ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي أغفل كفار قريش ولم يسيروا في الأرض. ﴿فَيَنظُرُواْ﴾: أي بأعينهم. ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾: إنها كانت دمارًا وخسارًا ووبالاً عليهم. ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: ولم يغن ذلك عنهم من الله شيئًا. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾: أي عاقبهم بذنوبهم فدمرهم وأهلكهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾: أي ولم يوجد لهم من عقاب الله من واق يقيهم منه.

(٢٢) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: أي بالحجج والبراهين والأدلة والمعجزات. ﴿فَكَفَرُواْ﴾: أي بتلك الحجج والآيات. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾: أي لما كفروا أخذهم بكفرهم. ﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: هذا تعليل لأخذه إيّاهم.

معنى الآيتين:

تقدم في السياق تخويف الله تعالى لمشركي قريش بعذاب الآخرة، ومبالغة في نصحهم وطلب هدايتهم خوّفهم بعد عذاب الآخرة بعذاب الدنيا لعلهم يتوبون فقال:

(٢١) ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أغفل هؤلاء المجاحدون المعاندون ولم يسيروا في البلاد شمالاً وجنوبًا حيث ديار عاد في الجنوب وديار ثمود في الشمال فينظروا بأعينهم كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كعاد وثمود كان أولئك أشد من هؤلاء قوة وأثارًا في الأرض من حيث البناء والعمران والقدرة على الحرب والقتال، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾[3] أي بذنوب الشرك والتكذيب والمعاصي، ولما أخذهم لم يوجد لهم من عقاب الله وعذابه من واق يقيهم ما أنزل الله بهم وما أحله بساحتهم. فما لهؤلاء المشركين لا يتعظون ولا يعتبرون والعاقل من اعتبر بغيره.

(٢٢) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ هذا تعليل لأخذ الله لأولئك الأقوام من عاد وثمود وغيرهم إذ ما أخذهم إلا بعد أن أنذرهم وأعذر إليهم فلما أصروا على الكفر والتكذيب أخذهم بذنوبهم. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[4] تعليل أيضًا للأخذ الكامل الذي أخذهم به لعظم قوته وشدّة عقابه.

هداية الآيتين:

١ - تقرير الحكمة القائلة: العاقل من اعتبر بغيره.

---

(١) قرأ نافع: ﴿تدعون﴾ بالتاء وقرأ حفص بالياء: ﴿يَدۡعُونَ﴾.

(٢) من جملة ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ وجملة ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ قبلها تألف قصر القضاء على الله تعالى قصر قلب أي: دون الأصنام. كما أفيد القصر من ضم الجملتين في قول الشاعر:

تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيل

(٣) الاستفهام إنكاري، ينكر عليهم عدم سيرهم في ديار الهالكين ليروا بأعينهم آثار الهالكين ويفكروا في سبب هلاكهم ليحصل لهم بذلك العبرة المطلوبة لهم.

(٤) الباء في ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾: سببية إذ هلاكهم متسبب عن ذنوبهم وهي الشرك والمعاصي.

(٥) الجملة تعليلية لما قبلها من أخذ الله تعالى المشركين بذنوبهم في التكذيب والشرك والمعاصي.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

٤٧٠

٢- الأخذ بالذنوب سنة من سنن الله في الأرض لا تتبدل[1] ولا تتحول.

٣- من أراد الله عقابه لا يوجد له واق يقيه، ولا حامٍ يحميه، ومن تاب تاب الله عليه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣ - ٢٧]

﴿٢٣﴾ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي بحججنا، وبرهان بيّن ظاهر.

﴿٢٤﴾ ﴿وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾: هامان وزير فرعون، وقارون رجل الملايين. ﴿فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾: أي لما رأوا آية العصا واليد البيضاء قالوا: ساحر كذاب دفعًا لقومهم حتى لا يؤمنوا به.

﴿٢٥﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾: أي جاءهم موسى بالصدق فيما أخبرهم به من أنه رسول الله وطالبهم بإرسال بني إسرائيل معه. ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾: أي اقتلوا الأولاد الذكران. ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾: أي بناتهم بمعنى اتركوهن حيات. ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾: أي وما مكرهم إلا في خسران وضياع.

﴿٢٦﴾ ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾: أي دعوني واتركوني وليدع ربّه ليمنعه مني. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾: أي يغير عبادتكم لآلهتكم لعبادة إلهه. ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾: بالقتل والتخريب ونحوه.

﴿٢٧﴾ ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾: أي استجرت بخالقي وخالقكم. ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾: أي من كل إنسان متكبر لا يؤمن بيوم الحساب والجزاء على الأعمال.

معنى الآيات:

﴿٢٣﴾ بعد تلك الدعوة الربانيّة لقريش إلى الإيمان والتوحيد والتصديق بالبعث والجزاء، وما فيها من مظاهر لقدرة الله وعلمه وحكمته وعدله، وبعد ذلك العرض لأحوال القيامة، وبيان الجزاء لكل من الكافرين والمؤمنين فيها كأنه يُرى رأي العين، وبعد ذلك الترغيب والترهيب مما في الدنيا والآخرة والمشركون لا يزدادون إلا عُتوًا و طغيانًا بعد كل ذلك قصّ الله تعالى على رسوله قصة موسى مع فرعون ليُسلّيه بها ويصبره وليعلمه أن البلاء مهما اشتد يعقبه الفرج، وأن الله ناصره على قومه كما نصر موسى على فرعون وقومه فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي قبلك يا رسولنا ﴿مُوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾[2] أي بأدلتنا وحججنا على صدق دعوته وصحة رسالته، ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۞﴾ أي وبرهان ظاهر بيّن.

﴿٢٤﴾ أرسلناه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ فهامان وزير فرعون وقارون[3] من أرباب الملايين وهو وإن لم يكن من آل فرعون لأنه من بني إسرائيل إلا أنه مالأ فرعون ووقف في صفه، فلما بلغهم موسى دعوة ربه وأراهم الحجج والبراهين قالوا ﴿سَـٰحِرٌ[4] كَذَّابٌ﴾ فرموه بقاصمتين السحر والكذب حماية لمصالحهم وخوفًا من تغيير الوضع عليهم.

﴿٢٥﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ

---

(١) إلا أن يشاء الله إيقافها أو تبديلها فهو على ما يشاء قدير.

(٢) هي الآيات التسع.

(٣) خص بالذكر هامان وقارون لقوة تأثيرهما في البلاد وإدارة الدولة وعز السلطان.

(٤) لما بهرتهم الآيات وعجزوا عن مقاومتها رموا موسى بالسحر واتهموه بالكذب كرد فعل وهروبٍ من المواجهة.

مِنْ عِندِنَا﴾ أي فلما جاءهم موسى بالصدق من عند الله كان رَدُّ الفعل منهم أن أمروا بقتل الذكور من أولاد الذين آمنوا معه، واستحياء بناتهم للخدمة والامتهان وهو ما أخبر تعالى به في قوله: ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ عام في كل كيد كافر يبطله الله تعالى ولا يضر به أولياءه.

(٢٦) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ لا شك أن هذا القول الدال على طغيان فرعون كان بعد أن انهزم في ميادين عدة أراد أن يسترد بعض ما فقد فقال ذروني أقتل موسى أي اتركوني أقتل موسى ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾[1] أي ليمنعه مني، وعلل لقوله هذا! بقوله إني أخاف أن يبدِّل دينكم، أي بعد أن يغلب عليكم فتدينون بدينه أو أن يظهر في الأرض الفساد بالقتل والفتن.

(٢٧) ورد موسى عليه السلام بما أخبر تعالى به عنه في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قال موسى هذا لما سمع مقالة فرعون التي يهدده فيها بالقتل فأعلمهم أنه قد استجار بالله وتحصّن به فلا يقدر أحد على قتله، وقوله ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ[2] لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾، لأن من يؤمن بيوم الحساب لا يقدم على جريمة القتل وإنما يقدم عليها من لا يؤمن بحساب ولا جزاء في الدار الآخرة.

هداية الآيات:

١ - تسلية الرسول ﷺ وحمله على الصبر والتحمل وهو في أشد الظروف صعوبة.

٢ - عدم تورع الظلمة في كل زمان عن الكذب وتلفيق التهم للأبرياء.

٣ - التهديد بالقتل شنشنة الجبارين والطغاة في العالم.

٤ - أحسن ملاذ للمؤمن من كل خوف هو الله تعالى رب المستضعفين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨، ٢٩]

(٢٨) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: هو شمعان ابن عم فرعون. ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾: أي لأن يقول ربي الله؟ والرجل هو موسى عليه السلام. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾: أي بالمعجزات الظاهرات. ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾: أي ضرر كذبه عليه لا عليكم. ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾: أي بعض العذاب الذي يعدكم به في الدنيا عاجلاً غير آجل. ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾: أي مسرف في الكفر والظلم كذاب لا يقول الصدق ولا يفوه به.

(٢٩) ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي غالبين في بلاد مصر وأراضيها. ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾: أي من عذاب الله إن جاءنا وقد قتلنا أولياءه. ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾: أي ما أشير به عليكم إلا ما أشير به على نفسي وهو قتل موسى. ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾: أي إلا طريق الرشد والصواب.

معنى الآيتين:

ما زال السياق في الحديث عما دار في قصر فرعون فقد أبدى فرعون رغبته في إعدام موسى معللاً ذلك بأمرين أن يبدل دين الدولة والشعب، والثاني أن يظهر الشغب في البلاد والتعب للدولة والمواطنين معًا. وها هو ذا رجل مؤمن من رجالات القصر يكتم إيمانه بموسى وبما جاء به من التوحيد خوفًا من فرعون وملإه. ولنستمع إلى ما أخبر تعالى به عنه:

(٢٨) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾[3] أي بموسى ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ إذ هو ابن عم فرعون واسمه شمعان كسلمان قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ﴾[4] ينكر عليهم قرار القتل ﴿رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي لأن قال ربي الله ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي الحجج والبراهين كالعصا واليد ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الحق الذي لا رب لكم سواه. ﴿وَإِن

---

(١) من الجائز أن يكون قد قال له بعض رجاله: أما تخاف أن يدعو عليك ربه فتهلك؟ فأجابه قائلاً: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾.

(٢) متكبر: متعظم عن الإيمان بالله، وصفته أنه لا يؤمن بيوم الحساب.

(٣) في نص هذا الخبر تسلية للنبي ﷺ.

(٤) الاستفهام للإنكار ينكر على فرعون وملإه عزمهم على قتل موسى عليه السلام.

يَكُ[1] ﴿كَٰذِبًا﴾ أي وإن فرضنا أنه كاذب فإن ضرر كذبه عائد عليه لا عليكم ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ وهو صادق ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ[2]﴾ من العذاب العاجل. إن الله تعالى لا يهدي أي لا يوفق إلى النصر والفوز في أموره ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ[3]﴾ متجاوز الحد في الاعتداء والظلم ﴿كَذَّابٌ﴾ مفتر يعيش على الكذب فلا يعرف الصدق. وبعد أن بيّن لهم هذه الحقيقة العلمية الثابتة أقبل عليهم يعظهم فقال:

(٢٩) ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ أي غالبين في الأرض أي أرض مصر بكامل ترابها وحدودها. لكن إن نحن أسرفنا في الظلم والافتراء فقتلنا أولياء الله فجاءنا بأس الله عقوبة لنا فمن ينصرنا؟ إنه لا ناصر لنا أبدًا من الله فتفهموا ما قلت لكم جيدًا، ولا يهلك على الله إلا هالك، وهنا قام فرعون يرد على كلمة الرجل المؤمن فقال ما أخبر تعالى به عنه في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أشير عليكم بشيء إلا وقد رأيته صائبًا وسديدًا، يعني قتل موسى عليه السلام، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد أي إلاّ إلى طريق الحق والصواب، وكذب والله.

هداية الآيتين:

١ ـ فضل الإيمان وفضل صاحبه فقد ورد الثناء على هذا الرجل في ثلاثة رجال هم مؤمن آل فرعون هذا، وحبيبٌ النجار مؤمنُ آل ياسين وأبو بكر[4] الصديق رضي الله عنه.

٢ ـ فصاحة مؤمن آل فرعون هي ثمرة إيمانه وبركته العاجلة فإن لكلماته وقع كبير في النفوس.

٣ـ التنديد بالإسراف في كل شيء والكذب والافتراء في كل شيء وعلى أي شيء.

٤ ـ من عجيب أمر فرعون ادعاؤه أنه يهدي إلى الرشد والسداد والصواب في القول والعمل، حتى ضرب به المثل فقيل: فرعون يهدي إلى الرشد.

سُورَةُ غَافِر — الجزءُ الرابعُ والعِشرُونَ

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ (٣٦) أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)

٤٧١

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠ ـ ٣٥]

(٣٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾: أي مؤمن آل فرعون. ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾: أي عذابًا مثل عذاب الأحزاب وهم قوم نوح وعاد وثمود.

(٣١) ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾: أي مثل جزاء عادة من كفر قبلكم وهي استمرارهم على الكفر حتى الهلاك فهذا الذي أخافه عليكم.

(٣٢) ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾: أي يوم القيامة وقيل فيه يوم التنادي لكثرة النداءات فيه إذ ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة.

---

(١) لم يكن قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ شكاً في صدق موسى وإنما هو من باب التلطف والتنزل مع الخصم حتى لا يلج في الجدال والخصومة، وحذفت النون من ﴿وَإِن يَكُ﴾ لكثرة الاستعمال.

(٢) أي: إن لم يصبكم إلا بعض الذي يعدكم به هلكتم، وجائز أن يطلق البعض وهو يريد الكل وهو سائغ وشائع قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

(٣) إن كان هذا الموصوف الرجل المؤمن فهو إشارة إلى موسى وإن كان من قول الله تعالى فهو إشارة إلى فرعون.

(٤) روى البخاري وغيره أن المشركين تعرضوا للرسول ﷺ حول الكعبة بسوء فجاء أبو بكر يصرخ فيهم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ فضربوه ضرباً شديداً حتى أغمي عليه فلما أفاق قال: كيف رسول الله ﷺ؟ قال عليّ: أبو بكر أفضل من مؤمن آل فرعون لأن أبا بكر ما أخفى إيمانه بل أظهره وأوذي ومؤمن آل فرعون كتم إيمانه ولم يؤذ.

(٣٣) ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾: أي هاربين من النار إلى الموقف.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ﴾: أي يوسف بن يعقوب الصديق بن الصديق عليهما السلام من قبل مجيء موسى إليكم اليوم.

﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾: أي قلتم هذا من دون دليل فبقيتم كافرين إلى اليوم. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾: أي مثل إضلالكم هذا يضل الله من هو مسرف في الشرك والظلم.

﴿مُّرْتَابٌ﴾: أي شاك فيما قامت الحجج والبينات على صحته.

(٣٥) ﴿يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾: أي يخاصمون في آيات الله لإبطالها بدون سلطان أي حجة وبرهان. ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي كبر جدالهم بالباطل مقتًا عند الله وعند الذين آمنوا. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي مثل إضلالهم يطبع الله أي يختم بالضلال على كل قلب متكبر.

معنى الآيات:

(٣٠) - (٣١) ما زال السياق الكريم فيما دار من كلام في مجلس الحكومة، وها هو ذا مؤمن آل فرعون يتناول الكلمة بعد فرعون الذي أعاد تقرير ما عزم عليه من قتل موسى عليه السلام فقال ما أخبر تعالى به عنه في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ وهنا أعلن عن إيمانه الذي كان يكتمه ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ أي إن أنتم أصررتم على قتل موسى وقتلتموه ﴿أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ وهو اليوم الذي أخذ الله فيه قوم نوح، وعاد وثمود أي أخاف عليكم جزاء عادتهم وهي استمرارهم على الكفر والشك والتكذيب حتى حلت بهم نقمة الله ونزل بهم عذابه وواصل وعظه قائلاً:

(٣٢) - (٣٣) ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ[(١)] ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي فارين من النار هاربين إلى الموقف وهو يوم القيامة الذي تكثر فيه النداءات والصرخات ﴿مَا لَكُم[(٢)] مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم من العذاب وينجيكم منه. وبعد هذا الوعظ البليغ قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ إشارة إلى أن القوم لم يتأثروا بكلامه فقال متعزيًا بعلمه بتدبير الله في خلقه فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ فإن من كتب الله عليه الضلالة ليصل إلى الشقاوة بكسبه فلا هادي له أبدًا، إذ الله لا يهدي من يُضل.

(٣٤) ثم قال لهم مواصلاً كلامه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ﴾[(٣)] أي من قبل موسى وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام بالبينات والحجج الدالة على توحيد الله ووجوب طاعته، غير أنكم مع الأسف ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ فلم تؤمنوا ولم توقنوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا[(٤)] هَلَكَ﴾ أي مات عليه السلام فرحتم بموته ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ متخرصين متقولين على الله بدون علم فأضلكم الله بكذبكم عليه ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ[(٥)]﴾ في الكذب مثلكم ﴿مُّرْتَابٌ﴾ في كل شيء لا يعرف اليقين في شيء، والعياذ بالله، ثم أعلمهم أن الذين يجادلون في آيات الله يريدون إبطال الحق وإطفاء نوره بكلامهم بغير حجة لديهم ولا برهان أتاهم جدالهم ذلك أكبر مقتًا أي أشد شيء يمقته الله ويبغضه من صاحبه، وكذلك عند الذين آمنوا.

---

(١) قراءة العامة: ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ بتخفيف الدال من النداء وهو الدعاء والطلب للحضور أو الإغاثة وقرىء: ﴿التنادّ﴾ بتشديد الدال من نَدَّ البعير إذا هرب إذ هم فعلاً يهربون وشاهده في الآية: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾. والجمهور على حذف الياء وقفاً ووصلاً. وبعضهم أثبتها وصلاً ووقفاً وكلا القراءتين صحيحة.

(٢) هذه الجملة في موقع الحال والعاصم: المانع والحافظ.

(٣) لما تَفرّسَ فيهم عدم نفع النصح لهم آثر عتابهم ولومهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ إلخ.. واللام في ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ لام القسم لأنهم كالمنكرين فلذا أكد الخبر بالقسم.

(٤) إذا: اسم للزمان الماضي مجرورة بحتى قبلها وليست بظرف أي: حتى زمن هلاك يوسف قلتم.. والقائل: أسلافهم الغابرون يوم مات يوسف عليه السلام.

(٥) المسرف: المفرط في فعل أو قول ما لا خير فيه، والمرتاب: الشديد الريب أي: الشك.

(٣٥) وختم كلامه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ[١] يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ أي كإضلال من هو مسرف مرتاب يطبع الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ[٢]﴾ أي قلب كل إنسان متكبر على الإيمان والطاعة متجبر متعاظم يريد إجبار الناس على مراده وما يهواه. وإلى هنا انتهى كلام الرجل المؤمن والكلمة الآن إلى فرعون الطاغية وسنقرؤها في الآيات التالية بعد رؤية ما في الآيات من هداية.

هداية الآيات:

١ - قوة الإيمان تفجر قلب المؤمن بأنواع من المعرفة والحكمة في قوله إذا قال.

٢ - التذكير بالأمم الهالكة إذْ العاقل من اعتبر بغيره.

٣ - التخويف من عذاب الآخرة وأهوال القيامة.

٤ - التنديد بالإسراف والارتياب وعدم اليقين.

٥ - حرمة الجدال بغير علم، وأن صاحبه عرضة لمقت المؤمنين بعد مقت الله تعالى.

٦ - عرضة المتكبر الجبار للطبع على قلبه ويومها يحرم الهداية فلا يُهدى أبدًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ - ٤٠]

(٣٦) ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾: هامان وزير فرعون والصرح البناء العالي.

(٣٧) ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي طرقها الموصلة إليها. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾: أي وإني لأظن موسى كاذبًا في زعمه أن له إلهًا غيري.

﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: أي قبيح عمله.

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي عن طريق الهدى. ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾: أي خسار وضياع بلا فائدة تذكر.

(٣٩) ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾: أي ما هذه الدنيا إلا متاع يتمتع به وقتًا ثم يزول. ﴿دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾: أي الاستقرار والبقاء الأبدي.

(٤٠) ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي رزقًا واسعًا بلا تبعة ولا تعقيب.

معنى الآيات:

(٣٦) ما زال السياق الكريم فيما يدور من كلام بين مؤمن آل فرعون وفرعون نفسه إذ تقدم قول المؤمن وما حواه من نصح وإرشاد وها هو ذا فرعون يرد بطريق غير مباشر[٣] على ما قاله المؤمن فقال لوزيره هامان: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ أي بناء عاليا ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[٤] فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أي في دعواه أن له إلهًا غيري وهذا من فرعون مجرد مناورة كاذبة يريد أن يموه بها على غيره إبقاء على مركزه.

(٣٧) وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي ومثل هذا التزيين في قول فرعون زين له سوء عمله وهو أقبح ما يكون، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ[٥]﴾ أي وصُرف عن طريق الحق والهدى، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ أي مكره وتدبيره لقتل موسى عليه السلام وقتل أبناء المؤمنين ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي خسار وضياع لم يتحقق منه شيء، لأن الله تعالى ولي موسى والمؤمنين فلم يمكن فرعون منهم بحال. وبعد أن أخبر تعالى عن فرعون في محاولته الفاشلة أخبر

---

(١) جائز أن يكون هذا من كلام مؤمن آل فرعون ختم به كلامه معهم. وجائز أن يكون من كلام الله تعالى معترض بين كلام المؤمن وكلام فرعون.

(٢) المتكبر: هو ذو الكبر والجبار: الذي يكره الناس على ما لا يحبون عمله لظلمه وعتوه وقرأ الجمهور: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ بإضافة قلب إلى متكبر وقرأ بعضهم بتنوين قلب بدون إضافة فيكون متكبر نعتاً للقلب.

(٣) خاف فرعون أن يؤثر كلام مؤمن آل فرعون في الذين سمعوه فأوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد فإن بان له صوابه لم يخفه عنهم، وإن لم يظهر صوابه ثبتهم على دينهم فقال لوزيره: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ إلخ.

(٤) ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: بدل من أسباب الأول. والأسباب: جمع سبب وهو ما يوصل إلى مكان بعيد فيطلق على الجبل ويطلق على الطريق والمراد هنا طُرُق السموات كما في قول زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم

(٥) قرأ نافع: ﴿وصد﴾ بفتح الصاد من صد اللازم يصُدُّ أو المتعدي أي: صد نفسه وصد غيره وقرأ حفص: ﴿وصُد﴾ بالبناء للمجهول أي: بصَدِّ الصادِّ أي: صده الله وصرفه عقوبة له لشدة كفره وظلمه.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾

تعالى عن الرجل المؤمن[١] وما قاله للقوم من نصح وإرشاد فقال:

(٣٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي طريق الرشد والصواب في حياتكم لتنجوا من العذاب وتفوزوا بالنعيم المقيم في الجنة.

(٣٩) فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي لا تعدو كونها متاعًا قليلاً يُتمتع به ثم يذهب سريعًا، ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي الحياة الآخرة بعد انتهاء هذه الحياة ﴿هِيَ دَارُ[٢] ٱلْقَرَارِ﴾ أي الاستقرار والإقامة الأبدية، فاعملوا لدار البقاء وتجافوا عن دار الفناء واعلموا أن الحساب سريع وأن.

(٤٠) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وذلك لعدالة الرب تبارك وتعالى، ومن عمل صالحًا من الأعمال الصالحة التي شرعها الله لعباده وتعبدهم بها والحال[٣] أنه مؤمن أي مصدق بالله وبوعده ووعيده يوم لقائه فأولئك أي المؤمنون العاملون للصالحات من الذكور والإناث ﴿يَدْخُلُونَ[٤] ٱلْجَنَّةَ﴾ دار السلام ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي رزقًا واسعًا لا يلحق صاحبه تبعة ولا تعب ولا نصب.

هداية الآيات:

١ - التحذير من تزيين الأعمال القبيحة نتيجة الإدمان عليها والاستمرار على فعلها فإن من زُينت له أعماله السيئة فأصبح يراها حسنة هلك والعياذ بالله.

٢ - التحذير من الاغترار بالدنيا والغفلة من الآخرة إذ الأولى زائلة والآخرة باقية واختيار الباقي على الفاني من شأن العقلاء.

٣ - مشروعية التذكير بالحساب والجزاء وما يتم في الدار الآخرة من سعادة وشقاء.

شرح الكلمات:
[الآية: ٤١ - ٤٦]

(٤١) ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾: أي من الخسران في الدنيا والآخرة، وذلك بالإيمان والعمل الصالح. ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: أي إلى عذاب النار وذلك بالكفر والشرك بالله تعالى.

(٤٢) ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أي لا علم لي بصحة إشراكه في عبادة الله تعالى. ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾: أي وأنا أدعوكم إلى الإيمان وعبادة الله العزيز أي الغالب على أمره الغفار لذنوب التائبين من عبادة المؤمنين به.

(٤٣) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾: أي حقًا أن ما تدعونني إلى الإيمان به وبعبادته. ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي ليس له دعوة حق إلى عبادته، ولا دعوة استجابة بأن يستجيب لمن دعاه لا في الدنيا ولا في الآخرة. ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: أي وأن المسرفين في الكفر والشرك

---

(١) هو مؤمن آل فرعون الذي أظهر إيمانه بعد كتمانه.

(٢) يريد بالدار: دار السلام: الجنة ودار البوار: النار.

(٣) لأن جملة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حالية وإن كانت شرطاً في صحة الأعمال الصالحة وفي قبولها ولذا لمّا لم يذكر الإيمان قبل العمل الصالح ذكره في الجملة الحالية ليدل على تقدمه وشرطيته.

(٤) قرأ الجمهور: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بالبناء للفاعل وقرأ بعض: ﴿يُدخَلون﴾ بضم الياء وفتح الخاء بالبناء للمجهول والمعنى واحد إذْ من دخل دخل بإذن الله ومن أدخل أدخل بإذن الله وفضله.

والمعاصي هم أهل النار الواجبة لهم.

(٤٥) ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾: أي فحفظه الله من مكرهم به ليقتلوه. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾: أي عذاب الغرق إذ غرق فرعون وجنده أجمعون.

(٤٦) ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: أي أن سوء العذاب هو النار يعرضون عليها صباحًا ومساءً وذلك أن أرواحهم في أجواف طير سود تعرض على النار كل يوم مرتين. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾: أي ويوم القيامة يقال أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.

معنى الآيات:

(٤١) ما زال السياق الكريم في ذكر نصائح وإرشاد مؤمن آل فرعون فقد قال ما أخبر به تعالى عنه في قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ[1] مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ أي من النار وذلك بالإيمان والعمل الصالح مع ترك الشرك والمعاصي ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وذلك بدعوتكم لي إلى الشرك والكفر.

(٤٢) ﴿تَدْعُونَنِي[2] لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي ما لا علم لي بصحة إشراكه في عبادة الله تعالى. ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ[3] ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أي لتؤمنوا به وتعبدوه وحده ولا تشركوا معه غيره أدعوكم إلى العزيز أي الغالب الذي لا يُغلب الغفار لذنوب التائبين من عباده مهما كانت، وأنتم تدعونني إلى أذل شيء وأحقره لا ينفع ولا يضر لأنه لا يسمع ولا يبصر.

(٤٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقـًا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ لأومن به وأعبده ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ[4]﴾ حق يدعى بها إليه، ولا دعوة استجابة فإنه لا يستجيب لي دعاء أبدًا لا ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ[5]﴾. وشيء آخر يا قوم وهو أن مردنا إلى الله أي لا محالة نرجع إليه فالواجب أن نؤمن به ونعبده ونوحده ما دام رجوعنا إليه، وآخر وهو: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ[6] هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ المسرفين الذين أسرفوا في الكفر والشرك والمعاصي فتجاوزوا الحد في ذلك هم أصحاب النار أي أهلها الذين لا يفارقونها ولا تفارقهم.

(٤٤) وقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ[7] مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ يبدو أنه قال هذا القول لما رفضوا دعوته وهمُّوا بقتله ويدل عليه قوله: وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد.

(٤٥) وقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ[8]﴾ أي حفظه الله تعالى من مكرهم به ليقتلوه فنجاه الله تعالى إذ هرب منهم فبعث فرعون رجالاً في طلبه فلم يقدروا عليه ونجا مع موسى وبني إسرائيل، وقوله: ﴿وَحَاقَ[9] بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وذلك بأن أغرقهم الله في البحر أجمعين.

(٤٦) وقوله: ﴿ٱلنَّارُ[10] يُعْرَضُونَ

---

(١) الاستفهام هنا تعجبي باعتبار تقييده بجملة الحال وهي ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إذ هي في موضع الحال تقدير مبتدأ أي: وأنتم تدعونني إلى النار.

(٢) هذه جملة بيان لجملة ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

(٣) العدول عن اسم الجلالة إذ لم يقل: أدعوكم إلى الله إلى الصفتين العزيز والغفار لإيضاح الاستدلال على استحقاقه الإقرار بالألوهية والعبادة.

(٤) ليس له دعوة توجب له الألوهية وليس له استجابة دعوة تنفع لا هذه ولا تلك فبأي حق إذاً يدعى ويعبد؟

(٥) أي: ليس له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة.

(٦) الإسراف هنا: الإفراط في الكفر والظلم بسفك دماء بني إسرائيل بذبح أبنائهم وليصرف فرعون عن عزمه عن قتل موسى عليه السلام وفي الكلام تعريض بالذين يخاطبهم إذ هم مسرفون إلى أبعد حد في الظلم والكفر.

(٧) هذا الكلام مشاركة لهم وإنهاء لخطابهم كأنه استشعر منهم ما جعله ينهي الكلام معهم إما لاحظ في ذلك من ملامحهم أو من كلام سمعه منهم.

(٨) ﴿مَا مَكَرُواْ﴾: ما: مصدرية أي: سيئات مكرهم.

(٩) ﴿وَحَاقَ﴾: أحاط و ﴿ٱلْعَذَابِ﴾: الغرق.

(١٠) في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»**.

قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

٤٧٣

عَلَيْهَا﴾ إخبار بأن أرواح آل فرعون تعرض في البرزخ على النار غدوًا وعشيًا وذلك بأن تكون في أجواف طير سود على خلاف أرواح المؤمنين فإنها تكون في أجواف طير خضر ترعى في الجنة إلى يوم القيامة.

ويوم تقوم الساعة يقال أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وهو عذاب جهنم والعياذ بالله.

هداية الآيات:

١ - بيان الفرق الكبير بين من يدعو إلى النجاة وبين من يدعو إلى النار، بين من يدعو إلى العزيز الغفار ليؤمن به ويُعبد وبين من يدعو إلى أوثان لا تسمع ولا تبصر وهي أحقر شيء وأذله في الحياة، وبين من يدعو من لا يستجيب له في الدنيا والآخرة وبين من يدعو من يستجيب له في الدنيا والآخرة.

٢ - التنديد بالإسراف وفي كل شيء.

٣ - نعم ما ختم به مؤمن آل فرعون وعظه ونصحه لقومه وهي فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد.

٤ - إثبات عذاب القبر ونعيمه إذ آل فرعون تعرض أرواحهم على النار صباح مساء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧ ـ ٥٢]

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾: أي وأنذرهم يوم الآزفة وإذ يتحاجون في النار أي يتخاصمون. ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾: أي الأتباع الضعفاء الذين اتبعوا الأغنياء والأقوياء في الشرك. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: أي تابعين لكم فيما كنتم تعتقدونه وتفعلونه. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؟: أي فهل تدفعون عنا شيئًا من النار.

﴿٤٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾: فلا مراجعة أبدًا فقد حكم لأهل الإيمان والتقوى بالجنة فهم في الجنة ولأهل الشرك والمعاصي بالنار فهم في النار.

﴿٤٩﴾ ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾: أي جمع خازن وهو الموكل بالنار وأهلها. ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾: أي قدر يوم من أيام الدنيا إذ الآخرة يوم واحد لا ليل له.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي بأن نظهر دينهم، أو نهلك قومهم وننجيهم من الهلاك. ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾: أي وتنصرهم يوم يقوم الأشهاد وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ.

﴿٥٢﴾ ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾: أي ولهم اللعنة أي البعد من الرحمة ولهم سوء الدار أي الآخرة أي شدة عذابها.

معنى الآيات:

هذا عرض آخر للنار وما يجري فيها بعد العرض الذي كان لآل فرعون في النار يعرض على كفار قريش ليشاهدوا مصيرهم من خلاله إذا لم يتوبوا إلى الله من الكفر والتكذيب والشرك تضمّنته ست آيات.

﴿٤٧﴾ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ[1] فِى ٱلنَّارِ﴾ أي وأنذرهم واذكر لهم إذْ يتحاجون في النار أي يتخاصمون فيها فيقول الضعفاء الأتباع الذين كانوا يتبعون أغنياء وأقوياء البلاد طمعًا فيهم وخوفًا منهم. قالوا للذين استكبروا بقوتهم عن الإيمان ومتابعة الرسل: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾[2] أي

---

(١) التحاج: الاحتجاج من جانبين فأكثر أي: إقامة كل فريق حجته للفريق المضاد المخاصم.

(٢) ﴿تَبَعًا﴾: اسم لمن يتبع غيره يستوي فيه الواحد وأكثر نحو: خدم وحشم.

تابعين، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ[1] عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؟ أي فهل في إمكانكم أن تخففوا عنا حظًا من عذاب النار؟ فأجابوهم قائلين بما أخبر تعالى به عنهم في قوله:

(٤٨) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي نحن وأنتم إن الله قد حكم بين العباد فقضى بالجنة لأهل الإيمان والتقوى، وبالنار لأهل الشرك والمعاصي هذه كانت خصومة الأتباع مع المتبوعين ولم تنته إلى طائل إلا زيادة الحسرة والغم والهم.

(٤٩) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ[2] لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وهم الملائكة المكلفون بالنار وعذابها قالوا لهم: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي مقدار يوم من أيام الدنيا إذ الآخرة لا ليل فيها وإنما هي يوم واحد.

(٥٠) فردت عليهم الملائكة قائلة بما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي أتقولون ادعوا لنا ربكم ليخفف عنكم العذاب أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات أي بالحجج الظاهرة الدالة على وجوب الإيمان والتقوى بترك الشرك والمعاصي. ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي اعترفوا فقالت لهم الملائكة إذًا ﴿فَٱدْعُوا۟[3]﴾ أنتم ربكم ولكن لا يستجاب لكم إذ ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ فلا يستجاب له أبدًا.

(٥١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ[4] رُسُلَنَا﴾ تقرير لحقيقة عظمى، وهي أن من سنة الله في رسله أنه ينصرهم بانتصار دينهم وما يهدون ويدعون إليه، وإن طال الزمن واشتدت الفتن والمحن، أو بإهلاك أممهم المكذبة لهم وإنجائهم والمؤمنين معهم. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ[5]﴾ أي وينصرهم في الآخرة يوم يقوم الأشهاد وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكافرين بالتكذيب.

(٥٢) وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ[6] مَعْذِرَتُهُمْ﴾ إذا أذن لهم في الاعتذار لا تقبل معذرتهم ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾[7] أي البعد من الرحمة والجنة ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ الآخرة وهو أشد عذابها.

هداية الآيات:

١ - بيان تخاصم أهل النار وهو ما يتم من خصومة بين الأتباع والمتبوعين.

٢ - التنديد بالكبر والاستكبار إذ الكبر عائق عن الطاعة والاستقامة.

٣ - عدم استجابة دعاء الكافر في الدنيا والآخرة إلا ما شاء الله.

٤ - عدم قبول المعذرة يوم القيامة.

٥ - عدم استجابة الدعاء في النار.

٦ - بيان وعد الله لرسله والمؤمنين وهو أنه ينصرهم بأحد أمرين الأول: أن ينصر دينهم ويظهره ويقرره وإن طال الزمن، والثاني: أن يهلك عدوهم وينجيهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٣ - ٥٧]

(٥٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾: أي أعطينا موسى بني إسرائيل المعجزات والتوراة. ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي أبقينا فيهم التوراة كتاب الهداية الإلهية يهتدون به في ظلمات الحياة ويذكرون به الله في تراكم النسيان.

(٥٥) ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: أي واصبر يا محمد على ما تلاقي من

---

(١) ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾؟ الاستفهام هنا معناه الحث على طلب خلاصهم من النار واللوم على تركهم وعدم الاهتمام بما هم فيه من العذاب.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ هذا شامل للضعفاء والمستكبرين والخزنة: جمع خازن وهم الملائكة الموكلون بالنار وعذاب أهلها.

(٣) أي: تولوا أنتم أمر أنفسكم وادعوا، والأمر هنا للتسوية أي: سواء دعوتم أو تركتم لا يستجاب لكم.

(٤) هذه الآية والتي بعدها جاءتا كالنتيجة لكل ما سبق في السورة من قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فكل ذلك لتلك المواقف والمشاهد في الدنيا والآخرة عبرتها المستخلصة منها هي هذه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية. وهي تسلية للرسول ﷺ وبشرى له ولأتباعه المؤمنين.

(٥) ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾: الملائكة والرسل ومؤمنو هذه الأمة.

(٦) هذه الجملة بدل من جملة ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ والظالمون: هم المشركون.

(٧) تقديم الجار والمجرور «لهم» في الجملتين: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ للاهتمام بالانتقام منهم.

قومك إن وعد الله بنصرك حق. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾: ليقتدي بك في ذلك ولزيادة طهارة لروحك وتزكية لنفسك. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: أي نزه ربك وقدسهُ بالصلاة والذكر والتسبيح فيها وخارجها. ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: بالمساء وأول النهار أي في أوقات الصلوات الخمس كلها.

(٥٦) ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾: أي ما في صدورهم إلا كبر حملهم على الجدال في الحق، لا أن لهم علمًا يجادلون به، وإنما حبهم العلو والغلبة حملهم على ذلك. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾: أي استعذ من شرهم بالله السميع لأقوالهم العليم بأعمالهم ونياتهم وأحوالهم.

(٥٧) ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي لخلق السموات والأرض ابتداء ولأول مرة. ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾: أي أعظم من خلق الناس مرة أخرى بعد الأولى.

معنى الآيات:

(٥٣) - (٥٤) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ[1]﴾ الآية، شروع في تسلية الرسول ﷺ عما يلاقي من قومه فأعلمه تعالى أنه قد سبق أن أرسل موسى وآتاه الكتاب الذي هو التوراة وأورثه في بني إسرائيل ﴿هُدًى﴾ أي هاديًا لهم في ظلمات الحياة إلى الحق والدين الصحيح الذي هو الإسلام ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي يذكر به أولو العقول، ولاقى موسى من قومه أشد مما لاقيت إذًا فاصبر على ما تعانيه من قريش وأن العاقبة لك فإن وعد الله حق وقد قال إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، أي يوم القيامة.

(٥٥) وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ[2] وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ[3]﴾ أرشده إلى مقومات الصبر والموفرات له وهي ذكر الله تعالى بالاستغفار والدعاء والصلاة والتسبيح فيها وخارجها. فأعظم عون على الصبر الصلاة فلذا كان ﷺ إذا حزبه أمر فَزِعَ إلى الصلاة.

(٥٦) وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي حجة من علم إلهي أتاهم بطريق الوحي إن في صدورهم أي ما في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه أي لا يصلون إليه بحال وهو الرئاسة عليك والتحكم فيك وفي أصحابك. وعليه فاستعذ[4] بالله من شرهم ومن مكرهم إنه تعالى هو السميع لأقوالهم البصير بأحوالهم وأعمالهم، وسوف لا يمكن لهم منك أبدًا لقدرته وعلمه وعجزهم وجهلهم.

(٥٧) وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ[5] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا رد على منكري البعث والجزاء الآخر فلما قالوا أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أئنا لمبعوثون.. قال تعالى: وعزتنا وجلالنا لخلق السموات والأرض ابتداء من غير مثال سابق ولا مادة قائمة موجودة ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ مرة أخرى بعد خلقهم المرة الأولى، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[6]﴾ هذه الحقائق العلمية لجهلهم وبعدهم عن العقليات لما عليهم من طابع البداوة وإلا فإعادة الشيء أهون من بدئه عقلاً فليس الاختراع كالإصلاح للمخترع إذا فسد.

(١) ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: الذي أوتيه موسى هو ما أوحي إليه من الأمر بالدعوة إلى الدين الحق، وما أنزل عليه من الشريعة و ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: الذي هو التوراة.

(٢) ذكر القرطبي عدة أقوال للسلف في الذنب المطلوب من الرسول ﷺ الاستغفار منه قيل: ذنبه ﷺ الذي كان قبل البعثة والعصمة، وقيل: ذنب أمته، وقيل: الصغائر ومخالفة الأول وقيل: المراد هو تعبد الله رسوله ﷺ بالدعاء إذ الاستغفار دعاء بطلب المغفرة وهو وجه، وأوجه منه إرشاد الآية إلى الاستغفار.

(٣) هما صلاة الصبح وصلاة العصر ومعنى ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: بالشكر له والثناء عليه.

(٤) جملة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تعليلية، ومفعول المستعاذ منه في قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ محذوف لعرض التعميم في كل ما يخاف منه.

(٥) اللام في جواب قسم محذوف كما في التفسير، وخلق السماوات والأرض شامل لكل ما فيهما من مخلوقات، وعقيدة البعث الآخر من جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾.

(٦) لا يعلمون لانشغالهم بالباطل عن الحق فتركوا التفكر والتأمل لذا هم لا يعلمون أن الذي خلق السماوات والأرض قادر عقلاً على خلق الناس بعد إماتته إياهم وبعثهم أحياء كما خلقهم أول مرة.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

٤٧٤

هداية الآيات:

١ - بيان منة الله تعالى على موسى وبني إسرائيل تتكرر لمحمد ﷺ وأمته بإنزال الكتاب وتوريثه فيهم هدى وذكرى لأولي الألباب.

٢ - وجوب الصبر والتحمل في ذات الله، والاستعانة على ذلك بالاستغفار والذكر والصلاة.

٣ - أكثر من يجادل بالباطل ليزيل به الحق إنما يجادل من كبر يريد الوصول إليه وهو التعالي والغلبة والقهر للآخرين.

٤ - تقرير عقيدة البعث بالبرهان العقلي، وهو أن البدء أصعب من الإعادة ومن أبدأ أعاد، ولا نصب ولا تعب!!

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٨ - ٦٣]

﴿٥٨﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: لا يستويان فكذلك الكافر والمؤمن لا يستويان. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾: لا يستويان أيضًا فكذلك لا يستوي الموقن والشاك. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾: أي ما يتذكرون إلا تذكرًا قليلاً والتذكر الاتعاظ.

﴿٥٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾: أي إن ساعة نهاية هذه الحياة وإقبال الأخرى جائية لا شك فيها.

﴿٦٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾: أي عن دعائي. ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾: أي صاغرين ذليلين.

﴿٦١﴾ ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾: أي لتنقطعوا عن الحركة فتستريحوا. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: أي مضيئا لتتمكنوا فيه من الحركة والعمل. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾: أي الله تعالى بحمده والثناء عليه وطاعته.

﴿٦٢﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾: أي ذلكم الذي أمركم بدعائه ووعدكم بالاستجابة الذي جعل لكم الليل والنهار وأنعم عليكم بجلائل النعم الله ربكم الذي لا إله لكم غيره ولا رب لكم سواه. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: أي كيف تصرفون عنه وهو ربكم وإلهكم الحق إلى أوثان وأصنام لا تسمع ولا تبصر.

﴿٦٣﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾: أي كما صرف أولئك عن الإيمان والتوحيد يصرف الذين يجحدون بآيات الله يصرفون عن الحق.

معنى الآيات:

ما زال السياق في دعوة قريش إلى الإيمان والتوحيد، فقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى﴾[1] أي في حكم العقلاء ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الذي لا يبصر شيئًا والبصير الذي يبصر كل شيء يقع عليه بصره فكذلك لا يستوي المؤمن السميع المبصر، والكافر الأعمى عن الدلائل والبراهين فلا يرى منها شيئًا الأصم الذي لا يسمع نداء الحق والخير، ولا كلمات الهدى والرشاد. كما لا يستوي في حكم العقلاء المحسن المؤمن العامل للصالحات، والمسيء الكافر العامل للسيئات، وإذا كان الأمر كما قررنا فلمَ لا يتعظ القوم به ولا يتوبون إنهم لظلمة نفوسهم ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾[2] أي لا يتعظون إلا نادرًا.

(١) ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الكافر والمؤمن والضال والمهتدي.

(٢) قرأ نافع: ﴿قليلاً ما يتذكرون﴾ بالياء وقرأ حفص: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء ولكل وجه بلاغي وكأن تذكرهم قليلاً لعدم علمهم فهم كالأموات لجهلهم فهم لا يتذكرون وإن تذكروا قليلاً ينقطعون فلا يحصل المراد من التذكر.

(٥٩) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ[١] لَآتِيَةٌ﴾ يخبر تعالى أن الساعة التي كذب بها المكذبون ليستمروا على الباطل والشر فعلًا واعتقادًا لآتية حتمًا، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها لوجود صارف قوي وهو عدم تذكرهم، وانكبابهم على قضاء شهواتهم.

(٦٠) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ[٢] أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إنه لما قرر ربوبيته تعالى وأصبح لا محالة من الاعتراف بها قال لهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي سلوني أعطكم وأطيعوني أثبكم فأنتم عبادي وأنا ربكم. ثم قال لهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ ودعائي فلا يعبدونني ولا يدعونني سوف أذلهم وأهينهم وأعذبهم جزاء استكبارهم وكفرهم وهو معنى قوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أو صاغرين ذليلين يعذبون بها أبدًا.

(٦١) وفي الآية (٦١) عرَّفهم تعالى بنفسه ليعرفوه فيؤمنوا به ويعبدوه ويوحدوه، ويكفروا بما سواه من مخلوقاته فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ[٣] لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي جعله مظلمًا لتنقطعوا فيه عن الحركة والعمل فتستريحوا ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي وجعل لكم النهار مبصرًا أي مضيئًا يمكنكم التحرك فيه والعمل والتصرف في قضاء حاجاتكم، وليس هذا من إفضال الله عليكم بل إفضاله وإنعامه أكثر من أن يذكر وقرر ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على إفضاله وإنعامه عليهم فلا يعترفون بإنعامه ولا يحمدونه بألسنتهم ولا يطيعونه بجوارحهم، وذلك لاستيلاء الشيطان والغفلة عليهم ثم واصل تعريف نفسه لهم ليؤمنوا به بعد معرفته ويكفروا بالآلهة العمياء الصماء التي هم عاكفون عليها صباح مساء فقال جل من قائل:

(٦٢) ﴿ذَٰلِكُمُ[٤] ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي عرّفكم بنفسه ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو. وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ[٥] تُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف تصرفون عنه وهو ربكم والمنعم عليكم، إلى أوثان وأصنام لا تنفعكم ولا تضركم. فسبحان الله كيف تؤفكون كذلك يؤفك أي كانصرافكم أنتم عن الإيمان والتوحيد مع وفرة الأدلة وقوة الحجج يصرف أيضًا الذين كانوا بآيات الله يجحدون في كل زمان و مكان لأن الآيات الإلهية حجج وبراهين فالمكذب بها سيكذب بكل شيء حتى بنفسه والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - بيان حقيقة وهي أن الضِّدين لا يجتمعان فالكفر والإيمان، والإحسان والإساءة والعمى والبصر والصمم والسمع هذه كلها لا تستوي بعضها ببعض فمحاولة الجمع بينها محاولة باطلة ولا تنبغي.

٢ - قرب الساعة مع تحتم مجيئها والأدلة على ذلك العقلية والنقلية كثيرة جدًا.

٣ - فضل الدعاء وقد ورد أن النبي ﷺ قال: «**ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع[٦] نعله**». وللدعاء المستجاب شروط منها: أن يكون القلب متعلقًا بالله معرضًا عما

---

(١) المراد بالساعة: ساعة البعث والقيام من القبور. إنه بعد ذكر الأدلة المقررة للبعث كان هذا إعلاناً عن تحقق مجيئها وتأكيد الخبر بـ: إن ولام الابتداء لزيادة التحقيق والمراد تحقق وقوعها لا الإخبار عن وقوعها.

(٢) روى الترمذي عن النعمان بن بشير وصححه أن النبي ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**». ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ وروي أن النبي ﷺ قال: «**يسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله**».

(٣) ﴿جَعَلَ﴾ إن كانت بمعنى خلق: تعدت إلى مفعول واحد كما هي هنا وإن كانت بمعنى صيَّر تنصب مفعولين نحو جعلت الثوب سروالاً.

(٤) الإشارة إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ إلخ..

(٥) أنى: اسم استفهام عن الكيفية وأصله استفهام عن المكان ثم نقل إلى الحالة.

(٦) تقدم تخريجه وأنه من سنن الترمذي وأنه صحيح الإسناد وشسع النعل: زمام النعل بين الأُصبع الوسطى والتي تليها يضرب به المثل في الفاقة يقال: لا يملك شسع نعل.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

٤٧٥

سواه أن لا يسأل ما فيه إثم، ولا يعتدي في الدعاء فيسأل ما لم تجر سنة الله به كأن يسأل أن يرى الجنة يقظة أو أن يعود شابًا وهو شيخ كبير أو أن يرزق الولد وهو لا يتزوج.

٤ ـ الدعاء[1] هو العبادة ولذا من دعا غير الله فقد أشرك بالله.

٥ ـ بيان إنعام الله وإفضاله والمطالبة بشكر الله تعالى بحمده والثناء عليه وبطاعته بفعل محابه وترك مكارهه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٤ ـ ٦٨]

﴿٦٤﴾ ﴿قَرَارًا﴾: أي قارة بكم لا تتحرك فيفسد ما عليها من إنشاء وتعمير. ﴿بِنَاءً﴾: أي محكمة إحكام البناء فلا تسقط عليكم ولا يسقط منها شيء يؤذيكم. ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾: أي في أرحام أمهاتكم فأحسن صوركم. ﴿مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: أي الحلال المستلذ غير المستقذر وهي كثيرة. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾: أي تعاظم وكثرت بركاته.

﴿٦٥﴾ ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: أي اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا في عباداته دعاء كان أو غيره.

﴿٦٦﴾ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾: أي نهاني ربي أن أعبد الأوثان التي تعبدون. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي وأمرني ربي أن أسلم له وجهي وأخلص له عملي.

﴿٦٧﴾ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾: أي خلق أبانا آدم من تراب وخلقنا نحن ذريته مما ذكر من نطفة ثم من علقة. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾: أي كمال أجسامكم وعقولكم في سن ما فوق الثلاثين. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾: أي ومنكم من يتوفاه ربه قبل سن الشيخوخة والهرم. ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾: أي فعل ذلك بكم لتعيشوا ولتبلغوا أجلًا مسمى وهو نهاية العمر المحددة لكل إنسان. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي طوركم هذه الأطوار من نطفة إلى علقة إلى طفل إلى شاب إلى كهل إلى شيخ رجاء أن تعقلوا دلائل قدرة الله وعلمه وحكمته فتؤمنوا به وتعبدوه موحدين له فتكملوا وتسعدوا.

﴿٦٨﴾ ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[2]: أي يخلق الإنسان وقد كان عدمًا، ويميته عند نهاية أجله. ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾: أي حكم بوجوده. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾: أي فهو لا يحتاج إلى وسائط وإنما هي الإرادة فقط فإذا أراد شيئًا قال له كن فهو يكون.

معنى الآيات:

﴿٦٤﴾ ـ ﴿٦٥﴾ ما زال السياق الكريم في تعريف العباد بربهم سبحانه وتعالى حتى يؤمنوا به ويعبدوه ويوحدوه إذ كمالهم وسعادتهم في الدارين متوقفان على ذلك. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا[3]﴾ أي قارة في مكانها ثابتة في مركز دائرتها لا

---

(١) روي بإسناد لا بأس به: **«من لم يسأل الله يغضب عليه ومن لم يدع الله غضب عليه أيضاً»**. حسنهما ابن كثير في تفسيره.

(٢) في قوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ المحسن البديعي المسمى بالطباق.

(٣) القرار: مصدر قر إذا سكن، وهو هنا من صفات الأرض لأنه خبر عن الأرض والمعنى أنه جعلها قارة «ساكنة» غير مائدة ولا مضطربة إذ لو لم تكن قارة لكان الناس في عناء شديد من اضطرابها وتزلزلها، وقد يفضي ذلك بأكثر الناس إلى الهلاك وهذا في معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ ومن مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته أن تدور الأرض في فلكها دورة منتظمة بدقة فائقة فلا تخرج عن مدارها مقدار شبر بل إصبع فسكنت وقرت وهي متحركة فسبحان الله العلي العظيم.

تتحرك بكم ولا تتحول عليكم فتضطرب حياتكم فتهلكوا، وجعل السماء بناءً مُحْكمًا وسقفًا محفوظًا من التصدع والانفطار والسقوط كلاً أو بعضًا، وصوركم في أرحام أمهاتكم ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ[1] وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي خلقها لكم وهي كل ما لذ وطاب من حلال الطعام والشراب واللباس والمراكب ذلكم الفاعل لكل ذلك الله ربكم الذي لا رب لكم سواه ولا معبود بحق لكم غيره. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي خالق الإنس و الجن ومالكهما والمدبر لأمرهما، ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الذي لا يموت والإنس والجن يموتون ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ أي لا معبود للعالمين إلا هو ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي اعبدوه وحده ولا تشركوا بعبادته أحدًا قائلين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] أي حامدين له بذلك، هذا ما تضمنته الآيتان (٦٤، ٦٥).

(٦٦) وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا نبينا لقومك إني نهاني ربي أن أعبد الذين تدعون من دون الله من أصنام وأوثان لا تنفع ولا تضر وذلك ﴿لَمَّا[3] جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ وهي الحجج والبراهين على بطلان عبادة غير الله ووجوب عبادته سبحانه وتعالى، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وأمرني ربي أن أسلم له فأنقاد وأخضع لأمره ونهيه وأطرح بين يديه وأفوض أمري إليه.

(٦٧) وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ نظرًا إلى أصلهم وهو آدم، ثم من نطفة مني ثم من علقة دم متجمد، ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً، ثم لتبلغوا أشدكم أي اكتمال أبدانكم وعقولكم بتخطيكم الثلاثين من أعماركم، ثم لتكونوا شيوخًا بتجاوزكم[4] الستين. ومنكم من يتوفى أي يتوفاه الله قبل بلوغه سن الشيخوخة والهرم وما أكثرهم، وفعل بكم ذلك لتعيشوا ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون إذا تفكرتم في خلق الله لكم على هذه الأطوار فتعرفوا أن ربكم واحد وأنه إلهكم الحق الذي لا إله لكم سواه.

(٦٨) وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، يحيي النطف الميتة فإذا هي بعد أطوارها بشرًا أحياء ويميت الأحياء عند نهاية آجالهم وهو حي لا يموت والإنس والجن يموتون. ومن أعظم مظاهر قدرته أنه يقول للشيء إذا أراده كن فيكون ولا يتخلف أبدًا، هذا هو الله رب العالمين وإله الأولين والآخرين وَجَبَتْ محبته وطاعته ولزمت معرفته إذ بها يُحَبُّ ويُعبد ويُطاع.

هداية الآيات:

١ - بيان مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق والإيجاد والإرزاق والإحياء والإماتة وكلها معرفة به تعالى وموجبة له العبادة والمحبة والإنابة والرغبة والرهبة ونافية لها عما سواه من سائر خلقه.

٢ - تقرير التوحيد ووجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

٣ - بيان خلق الإنسان أطوار حياته وهي من الآيات الكونية الموجبة للإيمان بالله وتوحيده في عبادته إذ هو الخالق الرازق المحيي المميت لا إله غيره ولا رب سواه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٩ - ٧٦]

(٦٩) ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾: أي في القرآن وما حواه من حجج وبراهين دالة على الحق هادية إليه. ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾: أي كيف يصرفون عن الحق مع وضوح الأدلة وقوة البراهين.

(٧٠) ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾: أي بالقرآن. ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من وجوب الإسلام لله

---

(١) ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ الفاء للعطف، والتعقيب ﴿وَرَزَقَكُم﴾ فهاتان نعمتان عظيمتان: نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد.

(٢) إنشاء الثناء على الله تعالى بعد ذكر موجبات ذلك من نعمة الإيجاد والإمداد والهداية إلى الدين الحق بعبادة الله وحده كما هي السنة في تعقيب الحمد والثناء على الله تعالى بعد كل نعمة ينعم بها على عباده.

(٣) ﴿لَمَّا﴾ هذه يقال فيها: التوقيتية أي: حصل نهيٌ عن عبادة غير ربي في الوقت الذي جاءتني البينات وفي الآية تعريض بالمشركين إذ لم ينتهوا عن عبادة غير الله وقد جاءتهم البينات من ربهم.

(٤) سن الشيخوخة هو ما بين الخمسين إلى الثمانين.

بعبادته وحده وطاعته في أمره ونهيه والإيمان بلقائه. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: أي عقوبة تكذيبهم.

(٧١) ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾: أي وقت وجود الأغلال في أعناقهم يعلمون عاقبة كفرهم وتكذيبهم.

(٧٢) ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾: أي يوقدون.

(٧٣) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾: أي يسألون هذا السؤال تبكيتًا لهم وخزيًا.

(٧٣) - (٧٤) ﴿تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي تعبدونهم مع الله. ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾: أي غابوا عنا فلم نرهم. ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾: أي أنكروا عبادة الأصنام، أو لم يعتبروا عبادتها شيئًا وهو كذلك. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضل الله الكافرين.

(٧٥) ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي بالشرك والمعاصي. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾: أي بالتوسع في الفرح، لأن المرح شدة الفرح.

(٧٦) ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: أي دخول جهنم والخلود فيها بئس ذلك مأوى للمتكبرين.

معنى الآيات:

(٦٩) ما زال السياق الكريم في الدعوة إلى التوحيد وإلى الإيمان بالبعث والجزاء، وتقرير نبوة محمد ﷺ، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ[1] فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآنية لإبطالها وصرف الناس عن قبولها أو حملهم على إنكارها وتكذيبها والتكذيب بها وهذا تعجيب من حالهم. وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق بعد ظهور أدلته.

(٧٠) - (٧٢) وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي هو القرآن ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من التوحيد والإيمان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تكذيبهم وقت ما تكون ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ[2] فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ في أرجلهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ أي تسحبهم الزبانية ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ هو ماء حار تناهى في الحرارة ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[3] أي توقد بهم النار كما توقد بالحطب، هذا عذاب جسماني ووراءه عذاب روحاني إذ تقول لهم الملائكة توبيخًا وتبكيتًا وتأنيبًا وتقريعًا:

(٧٣) - (٧٤) ﴿أَيْنَ[4] مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي أين أوثانكم التي كنتم تعبدونها مع الله؟ فيقولون: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي غابوا فلم نرهم، بل ما كنا ندعو من قبل شيئًا هذا إنكار منهم حملهم عليه الخوف أو هو بحسب الواقع أنهم ما كانوا يعبدون شيئًا إذ عبادة الأصنام ليست شيئًا لبطلانها.

(٧٥) وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا[5] كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝﴾ أي حل بكم هذا العذاب بسبب فرحكم بالباطل من شرك وتكذيب وفسق وفجور، في الدنيا، وبسبب مرحكم أيضًا وهو أشد الفرح وأخيرًا يقال لهم:

(٧٦) ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ بابًا بعد باب وهي أبواب الدركات ﴿خَٰلِدِينَ[6] فِيهَا﴾ لا تموتون ولا

---

(١) وقيل: هذه الآية نزلت في القدرية نفاة القدر وقيل: في المشركين، والعبرة بعموم اللفظ فهي عامة في المشركين والمكذبين المجادلين في آيات الله وأحاديث رسوله ﷺ لصرفها عن مراد الله إحقاقاً لباطلهم وإثباتاً لمذهبهم الفاسد.

(٢) ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾: جمع غل بضم الغين: حلقة من قد «جلد» أو حديد محيط بالعنق. سئل ابن عرفة هل يجوز أن يقاد اليوم الأسير والجاني بالغل في عنقه؟ قال: لا يجوز وإنما يقاد الجاني من يده لنهي رسول الله ﷺ عن الإحراق بالنار وقال: «**إنما يعذب بالنار رب النار**».

(٣) قال مجاهد: يطرحون في النار فيكونون وقوداً لها يقال: سجرت التنور أي: أوقدته وسجرته ملأته أيضاً ومنه ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝﴾ أي المملوء. وشاهد آخر في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

(٤) الاستفهام بـ: أين يكون عن المكان وأريد به هنا التنبيه على الغلط والفضيحة في الموقف.

(٥) ﴿ما﴾ مصدرية في الموضعين والتقدير أي: ذلكم العذاب الذي وقعتم فيه مسبب على فرحكم ومرحكم اللذين كانا لكم في الدنيا إذ الأرض المراد بها الدنيا.

(٦) ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال مقدرة أي: مقدر خلودكم فيها و ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ متفرع على الخلود والمخصوص بالذم محذوف تقديره: جهنم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

تخرجون ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي ساء وقبح مثواكم في جهنم من مثوى أي مأوى.

هداية الآيات:

١ - التعجيب من حال المكذبين بآيات الله المجادلين فيها كيف يصرفون عن الحق بعد وضوح أدلته وقوة براهينه.

٢ - إبراز صورة واضحة للمكذبين بالآيات المجادلين لإبطال الحق وهم في جهنم يقاسون العذاب بعد أن وضعت الأغلال في أعناقهم والسلاسل في أرجلهم يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون.

٣ - ذم الفرح بغير فضل الله ورحمته، وذم المرح وهو أشد الفرح.

٤ - ذم التكبر وسوء عاقبة المتكبرين الذين يمنعهم الكبر من الاعتراف بالحق ويحملهم على احتقار الناس وازدراء الضعفاء منهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٧ - ٨١]

﴿٧٧﴾ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: أي فاصبر يا رسولنا على دعوتهم متحملاً أذاهم فإن وعد ربك بنصرك حق.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾: أي من العذاب في حياتك.

﴿٧٨﴾ ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾: أي ذكرنا لك قصصهم وأخبارهم وهم خمسة وعشرون. ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أي لأنهم عبيد مربوبون لا يفعلون إلا ما يأذن لهم به سيدهم. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾: أي هلك أهل الباطل بعذاب الله فخسروا كل شيء.

﴿٧٩﴾ ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾: أي الإبل وإن كان لفظ الأنعام يشمل البقر والغنم أيضا.

﴿٨٠﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾: أي من اللبن والنسل والوبر. ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾: أي حمل الأثقال وحمل أنفسكم من بلد إلى بلد، لأنها كسفن البحر.

﴿٨١﴾ ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾: أي فأي آية من تلك الآيات تنكرون فإنها لظهورها لا تقبل الإنكار.

معنى الآيات:

﴿٧٧﴾ بعد تلك الدعوة الإلهية للمشركين إلى الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء والتي تلوَّن فيها الأسلوب وتنوعت فيها العبارات والمعاني، والمشركون يزدادون عتوًا. قال تعالى لرسوله ﷺ آمرًا إياه بالصبر[1] على الاستمرار على دعوته متحملاً الأذى في سبيلها ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فيخبره بأن ما وعده به ربُه حق وهو نصره عليهم وإظهار دعوة الحق ولو كره المشركون. وقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ[2] بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي من العذاب الدنيوي ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنعذبهم بأشد أنواع العذاب في جهنم، وننعم عليك بجوارنا في دار الإنعام والتكريم أنت والمؤمنون معك. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٧٧).

﴿٧٨﴾ وقوله تعالى في الآية الثانية (٧٨): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ يخبر تعالى رسوله ﷺ مؤكدًا له الخبر مسليًا له حاملاً له على الصبر بأنه أرسل من قبله رسلاً كثيرين منهم

---

(١) أمره تعالى رسوله ﷺ بالصبر في الآية هو تسلية له ﷺ إذ أخبره أنه ينتقم له من أعدائه في حياته أو في الآخرة هذا كان لاستبطاء النبي ﷺ والمؤمنين النصر.

(٢) ﴿فَإِمَّا﴾ أصلها فإن حرف شرط قرنت بما الزائدة للتأكيد ولذا ألحقت نون التوكيد بفعل الشرط وعطف عليه ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وهو فعل شرط ثانٍ.

من قص خبرهم عليه ومنهم من لم يقصص [(١)] وهم كثير وذلك بحسب الفائدة من القصص وعدمها وأنه لم يكن لأحدهم أن يأتي بآية كما طالب بذلك قومه، والمراد من الآية المعجزة الخارقة للعادة، إلا بإذن الله، إذ هو الوهاب لما يشاء لمن يشاء، فإذا جاء أمر الله بإهلاك المطالبين بالآيات تحديًا وعنادًا ومكابرة قضى بالحق أي حكم الله تعالى بين الرسول وقومه المكذبين له المطالبين بالعذاب تحديًا، فنجّى رسوله والمؤمنين وخسر هنالك المبطلون من أهل الشرك والتكذيب.

(٧٩) وقوله تعالى في الآية الثالثة **(٧٩)**: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ﴾ يعرفهم تعالى بنفسه مقررًا ربوبيته الموجبة لألوهيته فيقول الله أي المعبود بحق هو الذي جعل لكم الأنعام على وضعها الحالي الذي ترون ﴿لِتَرْكَبُوا [(٢)] مِنْهَا﴾ وهي الإبل، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ومن بعضها تأكلون كالبقر والغنم ولا تركبون.

(٨٠) ولكن فيها منافع وهي الدَّرُّ والوبر والصوف والشعر والجلود ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ وهي حمل أثقالكم والوصول بها إلى أماكن بعيدة لا يتأتى لكم الوصول إليها بدون الإبل سفائن البر، وقوله ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي على الإبل ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ «السفن» ﴿تُحْمَلُونَ﴾ أي يحملكم الله تعالى حسب تسخيرها لكم.

(٨١) وأخيرًا يقول تعالى بعد عرض هذه الآيات القرآنية والكونية يقول لكم: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ في أنفسكم وفي الآفاق حولكم ﴿فَأَىَّ [(٣)] ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ وكلها واضحة في غاية الظهور والبيان والاستفهام للإنكار عليهم علَّهم يرعوون.

هداية الآيات:

١ - وجوب الصبر على دعوة الحق والعمل في ذلك إلى أن يحكم الله تعالى.

٢ - الآيات لا تعطى لأحد إلا بإذن الله تعالى إذ هو المعطي لها فهي تابعة لمشيئته.

٣ - من الرسل من لم يقصص الله تعالى أخبارهم، ومنهم من قصّ وهم خمسة وعشرون [(٤)] نبيًا ورسولاً. وعدم القص لأخبارهم لا ينافي بيان عددهم إجمالاً لحديث أبي ذر في مسند أحمد أن أبا ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله كم عِدّة الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشرة جمّا غفيرًا**».

٤ - ذكر مِنّة الله على الناس في جعل الأنعام صالحة للانتفاع بها أكلاً وركوبًا لبعضها لعلهم يشكرون بالإيمان والطاعة والتوحيد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٢ - ٨٥]

(٨٢) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي أعجزوا فلم يسيروا في الأرض شمالاً وجنوبًا وغربًا. ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي عاقبة المكذبين من قبلهم قوم عاد وثمود وأصحاب مدين. ﴿وَءَاثَارًا فِى

---

(١) قال ابن كثير: وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف وهو كذلك إذ لم يذكر في القرآن إلا خمسة وعشرون نبياً ورسولاً.

(٢) اللام: متعلقة بـ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ﴾ و ﴿وَمِنْ﴾ في الموضعين للتبعيض أي: تركبون من بعضها وتأكلون من بعضها.

(٣) اسم استفهام يطلب به تمييز شيء عن مشاركة في ما يضاف إليه أي: وهو مستعمل هنا في إنكار أن يكون شيء من آيات الله يمكن أن ينكر دون غيره من الأبيات فأفاد أنّ جميع الآيات صالحة للدلالة على وجود الله ووحدانيته في ألوهيته.

(٤) جمع بعضهم من ذكروا في القرآن من الآيات الآتية فقال:

حتم على كل ذي التكليف معرفة ... بأنبياء على التفصيل قد علموا

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

الرسل المجمع على أنهم رسل، خمسة عشر وهم: نوح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، هود، صالح، شعيب، موسى، هارون، عيسى، يونس، ومحمد ﷺ. والمختلف في رسالتهم بعد الإجماع على نبوتهم باقي الخمسة والعشرين واختلف في نبوة لقمان وذي القرنين والخضر ومريم عليهم السلام.

﴿ٱلْأَرْضِ﴾: أي وأكثر تأثيرًا في الأرض من حيث الإنشاء والتعمير.
﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: أي لم يمنع العذاب عنهم كسبهم الطائل وقوتهم المادية.
(٨٣) ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾: أي فرح الكافرون بما عندهم من العلم الذي هو الجهل بعينه.
(٨٥) ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾: أي عذابنا الشديد النازل بهم.

معنى الآيات:

(٨٣) ما زال السياق في طلب هداية قريش بما يذكرهم به وما يعرض عليهم من صور حية لمن كذب ولمن آمن لعلهم يهتدون. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ[1] يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أعجزوا فلم يسيروا في الأرض أرض الجزيرة شمالاً ليروا آثار ثمود في مدائنها وجنوبًا ليروا آثار عاد، وغربًا ليروا آثار أصحاب الأيكة قوم شعيب والمؤتفكات قرى قوم لوط: فينظروا نظر تفكر واعتبار كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. كانوا أشد منهم قوة وآثارًا في الأرض من مصانع وقصور وحدائق وجنات فما أغنى عنهم لما جاءهم العذاب ما كانوا يكسبونه من مال ورجال وقوة مادية.

(٨٣) هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٨٢) أما الآية الثانية (٨٣) فهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يخبر تعالى عن المكذبين الهالكين أنهم لما جاءتهم رسلهم بالحجج والأدلة الظاهرة على توحيد الله والبعث والجزاء وصدقهم في النبوة والرسالة ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم[2] مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ المادي وسخروا من العلم الروحي واستهزؤوا بأهله فرحًا ومرحًا، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي أحاط بهم العذاب الذي كان نتيجة كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم، فلما رأوا عذاب الله الشديد وقد حاق بهم أعلنوا عن توبتهم:
(٨٤) ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ أي قالوا لا إله إلا الله.

(٨٥) قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي شديد عذابنا ﴿سُنَّتَ[3] ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ وأخبر تعالى أن هذه سنة من سننه في خلقه وهي أن الإيمان لا ينفع عند معاينة العذاب إذ لو كان يقبل الإيمان عند رؤية العذاب وحلوله لما كفر كافر ولما دخل النار أحد. وقوله: ﴿وَخَسِرَ[4] هُنَالِكَ﴾ أي عند رؤية العذاب وحلوله ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي المكذبون المستهزئون.

هداية الآيات:

١ - مشروعية السير في البلاد للعظة والاعتبار تقوية للإيمان.
٢ - القوى المادية لا تغني عن أصحابها شيئًا إذا أرادهم الله بسوء.
٣ - بيان سنة بشرية وهي أن الماديين يغترون بمعارفهم المادية ليستغنوا بها عن العلوم الروحية في نظرهم إلا أنها لا تغني عنهم شيئًا عند حلول العذاب بهم في الدنيا وفي الآخرة.

❁ ❁ ❁

---

(١) الفاء: للتفريع، وهمزة الاستفهام داخلة على محذوف أي: أعجزوا فلم يسيروا؟ والاستفهام إنكاري ينكر عليهم عدم النظر في آثار الهالكين ليحصلوا على العبرة المطلوبة لهم ليؤمنوا ويوحدوا فينجوا من العذاب.
(٢) قال القرطبي: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في معناه ثلاثة أقوال: قال مجاهد: إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا: نحن أعلم منهم ولن نعذب ولن نبعث، وقيل: فرحوا بما عندهم من علم الدنيا نحو ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقيل: الذين فرحوا: الرسل بما عندهم من العلم بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.
(٣) ﴿سُنَّتَ﴾: مصدر سنّ يسن وسنّه أي: سن الله عز وجل في الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب وجائز أن يكون ﴿سُنَّتَ﴾ منصوب والإغراء والتحذير أي: احذروا أيها المشركون سنّة الله.
(٤) ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾: هذه الجملة كالفذلكة لقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ و ﴿هُنَالِكَ﴾: اسم إشارة إلى مكان استعير للإشارة إلى الزمان أي: خسروا وقت رؤيتهم بأسنا.

سورة فصلت[1]
مكية
وآياتها أربع وخمسون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿حمٓ﴾: هذا أحد الحروف المقطعة يكتب هكذا حم، ويقرأ هكذا حا ميم.

(٢) ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: أي من الله إذ هو الرحمٰن الرحيم.

(٣) ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾: أي بينت آياته غاية البيان بلسان عربي لقوم يعلمون إذ هم الذين ينتفعون.

(٤) ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: أي مبشرًا أهل الإيمان والعمل الصالح بالفوز، ومنذرًا المكذبين الكافرين بالخسران. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾: أي أعرض عن سماع القرآن أكثر مشركي مكة وكفار قريش. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: أي سماع تعقل وتدبر لينتفعوا بما يسمعون.

(٥) ﴿فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾: أي أغطية جمع كنان: ما فيه يكن الشيء ويستر. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾: أي ثقل فلم نطق السمع. ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾: أي مانع وفاصل بيننا فلا نسمع ما تقول ولا نرى ما تفعل.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ هذا أحد الحروف المقطعة وتفسيره أن يقال فيه وفي أمثاله من الحروف المقطعة الله أعلم بمراده به. وقد ذكرنا ما أثرنا عن أهل العلم فائدتين هامتين لمثل هذه الحروف المقطعة في أول سورة غافر، وفي العديد من السور المفتتحة بهذه الحروف فليرجع إليها ولتعرف وتحفظ.

(٢) وقوله: ﴿تَنزِيلٌ[2] مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أي هو منزله على عبده ورسوله محمد ﷺ وليس كما يقول المبطلون.

(٣) وقوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي هو كتاب فخم جليل القدر فصلت آيته أي بينت حال كون ذلك التفصيل ﴿قُرْءَانًا[3] عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لسان العرب ويفهمون معاني الكلام وأسراره.

(٤) وقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وحال كونه أيضًا بشيرًا لأهل الإيمان وصالح الأعمال بالفوز بالجنة والنجاة من النار ونذيرًا للمشركين المكذبين من عذاب النار، وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ[4] أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يخبر تعالى أنه مع بيان الكتاب ووضوح ما جاء به ودعا إليه من التوحيد والخير أعرض أكثر كفار قريش عنه ولم يلتفتوا إليه فهم لا يسمعونه ولا يريدون سماعه بحال، وقالوا معتذرين بأقبح الأعذار: قلوبنا في أكنة أي أغطية تسترها من أجل أن لا نفهم ما تدعونا إليه من التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء المقتضي لمتابعتك والسير وراءك، وفي آذاننا

الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

ترتيبها ٤١	سورة فصلت	آياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

٤٧٧

---

(١) وتسمى سورة حَمٓ السجدة، وتسمى: سورة المصابيح وسورة الأموات لذكر المصابيح والأموات والسجدة وفصلت فيها.

(٢) ﴿تَنزِيلٌ﴾ مبتدأ وسوغ الابتداء به ما في التنكير من معنى التعظيم كأن قيل: تنزيل عظيم ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الخبر و ﴿كِتَٰبٌ﴾ بدل من تنزيل و ﴿فُصِّلَتْ﴾ صفة الكتاب.

(٣) في إعراب ﴿قُرْءَانًا﴾ عدة وجوه أظهرها: أن النصب على الحال وجائز أن يكون على الاختصاص بالمدح.

(٤) ﴿فَأَعْرَضَ﴾ أكثر هؤلاء عما في القرآن من الهدى فلم يهتدوا ومن البشارة فلم يعنوا بها ومن النذارة فلم يحذروها فكانوا في أشد الحماقة إذ لم يُعنوا بالخير ولم يحذروا الشر فلم يأخذوا بالحيطة لأنفسهم.

وقر أي ثقل فلا نقوى على سماع ما تقول ومن بيننا وبينك حجاب[١] ساتر وحائل لنا عنك فلا نسمع ما تقول ولا نرى ما تعمل فاتركنا كما تركناك، واعمل[٢] على نصرة دينك فإننا عاملون كذلك على نصرة ديننا والحفاظ على معتقداتنا وهذه نهاية المفاصلة التي أبدتها قريش للرسول ﷺ.

هداية الآيات:

١ - تعيّن تعلم اللغة العربية على كل مسلم يريد أن يفهم[٣] كلام الله القرآن العظيم.

٢ - اشتمال القرآن على أسلوب الترغيب والترهيب وهي البشارة والنّذارة.

٣ - بيان شدة عداوة المشركين للتوحيد والداعين إليه في كل زمان ومكان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ ـ ٨]

(٦) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: أي لست ملكًا وإنما أنا بشر مثلكم من بني آدم. ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أي يوحي الله إلي بأن إلهكم أي معبودكم أيها الناس إله واحد لا ثاني له ولا أكثر. ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾: بإخلاص العبادة له دون سواه. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾: أي اطلبوا منه أن يغفر لكم ذنوبكم[٤] التي كانت قبل الاستقامة وهي الشرك والمعاصي. ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾: أي عذاب شديد سيحل بهم لإغضابهم الرب بمضادته بآلهة باطلة.

(٧) ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي زكاة أموالهم وزكاة أنفسهم بما يُطهرها من أوضار الشرك والمعاصي.

(٨) ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: أي ثواب الآخرة وهو الجنة ونعيمها لا ينقطع بحال هو أجر غير ممنون.

معنى الآيات:

إنه بعد تلك المفاصلة التي قام بها المشركون حفاظًا على الوثنية وجهل الجاهلية أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم إنما أنا بشر مثلكم في آدميتي لم أدّع يومًا غيرها فلم أقل إني ملك، إلا أني أفضلكم بشيء وهو أنه يوحى إليَّ من قبل ربي، والموحي به إلي هو أنما إلهكم الحق إله واحد لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته، وعليه فاخلعوا تلك الأوثان واستقيموا[٥] إليه تعالى بإخلاص العبادة والوجوه إليه، واستغفروه من آثار الذنب السابق قبل الاستقامة على الإيمان والتوحيد.

(٦) ـ (٧) وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ يخبر تعالى أن الويل وهو مُرُّ العذاب إذ من معاني الويل أنه صديد وقيح أهل النار وما يسيل من أبدانهم وفروجهم للمشركين بربهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ﴾[٦] زكاة أموالهم، ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي لا يؤمنون بالبعث والجزاء فلذا هم لا يتركون شرّا ولا يفعلون خيرًا إلا ما قلّ وندر والنادر لا حكم له.

(٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ[٧] ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي آمنوا بالله وعده ووعيده وشرعه وعملوا الصالحات بأداء الفرائض والكثير من النوافل بعد تجنبهم الشرك والكبائر من الذنوب والمعاصي هؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ

---

(١) روي أن أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً فقال: يا محمد بيننا وبينك حجاب، استهزاء منه.

(٢) وقيل: اعمل على هلاكنا فإنا عاملون على هلاكك وقيل: غير هذا وما في التفسير أولى.

(٣) شاهده قول الأصوليين: ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب. وما دام لا يفهم الشرع إلا بلغة القرآن وجب تعلم هذه اللغة.

(٤) ذنوبكم التي اقترفتموها من الشرك والمعاصي قبل التوبة التي هي الاستقامة على طاعة الله ورسوله ﷺ.

(٥) استقيموا إليه أي: وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسألة إليه كما يقال للرجل: استقم إلى منزلك أي: لا تعرج إلى شيء غير القصد إليه.

(٦) قال ابن عباس: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: لا يشهدون أن لا إله إلا الله وهي زكاة الأنفس لأن السورة مكية والزكاة فرضت بالمدينة وقال بعضهم: إن قريشاً كانوا ينفقون النفقات ويسقون الحجيج ويطعمونهم فحرموا ذلك من آمن بمحمد ﷺ فنزلت هذه الآية.

(٧) الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً نشأ عن الوعيد المتقدم فكأن سائلاً يقول: فإن اتعظ هؤلاء المشركون وتابوا من الشرك وتركوا المعاصي فما جزاؤهم؟ فالجواب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)﴾.

مَمْنُونٍ﴾[1] مقابل إيمانهم وصالح أعمالهم، والأجر هو الثواب والمراد به الجنة إذ نعيمها لا ينقطع على من ناله وفاز به بحال من الأحوال.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة والتوحيد.

٢ - وجوب الاستقامة على شرع الله.

٣ - وجوب الاستغفار من كل ذنب صغيرًا كان أو كبيرًا.

٤ - وجوب الزكاة في الأموال، ووجوب تزكية النفوس بالإيمان وصالح الأعمال.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ - ١٢]

(٩) ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾: أي الأحد والاثنين. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾: أي شركاء وهذا داخل في حيز الإنكار الشديد عليهم. ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي الله مالك العالمين وهم كل ما سواه عز وجل من سائر الخلائق.

(١٠) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾: أي جبالاً ثوابت. ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾: أي في الأرض بكثرة المياه والزروع والضروع. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾: أي أقوات الناس والبهائم. ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾: أي في تمام أربعة أيام وهي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء. ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾: أي في أربعة أيام هي سواء لمن يسأل فإنها لا زيادة فيها ولا نقصان.

(١١) ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: أي قصد بإرادته الربانية إلى السماء وهي دخان قبل أن تكون سماء.

(١٢) ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾: أي الخميس والجمعة، ولذا سميت الجمعة جمعة لاجتماع الخلق فيها. ﴿وَأَوْحَىٰ[2] فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾: أي ما أراد أن يكون فيها من الخلق والأعمال. ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾: أي بنجوم. ﴿وَحِفْظًا﴾: أي وحفظناها من استراق الشياطين السمع بالشهب الموجودة فيها. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾: أي خلق العزيز في ملكه العليم بخلقه.

معنى الآيات:

(٩) إنه بعد الإصرار على التكذيب والإنكار من المشركين أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ[3] لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إن كفركم عجب منكم هل تعلمون بمن تكفرون إنكم لتكفرون بالذي خلق الأكوان كلها علويها وسفليها في ستة أيام، أين يذهب بعقولكم يا قوم أتستطيعون جحود الله تعالى وجحود آياته وهذه الأكوان كلها آيات شاهدات على وجوده وقدرته وعلمه وحكمته وموجبة له الربوبية عليها والألوهية له فيها دون غيره من سائر خلقه

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

٤٧٨

---

(١) المن: القطع ومن منّ صدقته فقد قطعها. قال الشاعر:

لعمرك ما بابي بذي غلق ... على الصديق ولا خيري بممنون

(٢) الوحي: الكلام الخفي، ويطلق الوحي على حصول المعرفة في نفس من يراد حصولها عنده دون قول، ومنه ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أومأ إليهم بما يدل على معنى سبحوا بكرة وعشياً. قال الشاعر:

يرمون بالخطب الطوال وتارة ... وحي الملاحظ خيفة الرقباء

(٣) الاستفهام للتوبيخ والتعجب من حالهم أي: لم تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً؟ ومعنى الكفر به تعالى الكفر بانفراده بالألوهية. فلما أنكروا ألوهيته كان كإنكارهم صفات ذاته فصح أنهم كفروا به.

وأعجب من ذلك أنكم تجعلون له أندادًا أي شركاء تسوونهم به وهم أصنام لا تسمع ولا تبصر فكيف تُسوّى بالذي خلق الأرض في يومين أي الأحد والاثنين، وهو رب العالمين أجمعين أي رب كل شيء ومليكه ومالكه.

(١٠) وقوله تعالى في الآية الثانية (١٠): ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي في الأرض رواسي أي جبالاً ثوابت ترسو في الأرض حتى لا تميد بأهلها ولا تميل فيخرب كل شيء عليها، ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بكثرة المياه والرزق والضروع والخيرات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾[1] تقديرًا يعجز البيان عن وصفه، والقلم عن رقمه والآلات الحاسبة عن عدّه. وذلك كله من الخلق والتقدير ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً﴾[2] لمن يسأل عنها إنها الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء أي مقدرة بأيامنا هذه التي تكونت نتيجة الشمس والقمر والليل والنهار فلا تزيد يومًا ولا تنقص آخر.

(١١) وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ في الآية الثالثة (١١) يُخبر تعالى أنه بعد خلق الأرض استوى إلى السماء أي قصد بإرادته التي تعلو فوق كل إرادة ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي بخار وسديم ارتفع من الماء الذي كان عرشه تعالى عليه فقال لها كما قال: ﴿وَلِلْأَرْضِ[3] ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي طائعتين أو مكرهتين لا بد من مجيئكما حسب ما أردت وقصدت، فأجابتا بما أخبر تعالى عنهما في قوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي لم يكن لنا أن نخالف أمر ربنا.

(١٢) ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وهما الخميس والجمعة، ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي ما أراد أن يخلقه فيها ويعمرها به من المخلوقات والطاعات. وقوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم وحفظًا أي وجعلناها أي النجوم حفظًا من الشياطين أن تسترق السمع فإن الملائكة يرجمونهم بالشهب من النجوم فيحترقون أو يخبلون. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[4] أي ذلك المذكور من الخلق والتقدير تقدير العزيز في ملكه أي الغالب على أمره العليم بتدبير ملكه وأعمال وأحوال خلقه.

هداية الآيات:

١ - الكفر بالله لا ذنب فوقه فما بعد الكفر ذنب، وهو عجيب وأعجب منه اتخاذ أصنام وأحجار أوثانًا تعبد مع الله الحي القيوم مالك الملك ذي الجلال والإكرام.

٢ - بيان الأيام التي خلق الله فيها العوالم العلوية والسفلية وهي ستة أيام أي على قدر ستة أيام من أيام الدنيا هذه مبدوءة بالأحد منتهية بالجمعة، وقدرة الله صالحة لخلق السموات والأرض وبكل ما فيهما بكلمة التكوين «كن» ولكن لحكم عالية أرادها الله تعالى منها تعليم عباده الأناة والتدرج في إيجاد الأشياء شيئًا فشيئًا.

٣ - لا تعارض بين قوله تعالى في هذه الآية ثم استوى إلى السماء المشعِر بأن خلق السموات كان بعد خلق الأرض، وبين قوله، والأرض بعد ذلك دحاها من سورة والنازعات المفهم أن دَحْوَ الأرض كان بعد خلق السماء، إذ فسر تعالى دَحْوَ الأرض بإخراج مائها ومرعاها وهو ما ترعاه الحيوانات التي سيخلقها عليها، ثم قوله خلق الأرض في يومين على صورة يعلمها هو ولا نعلمها نحن، وتقدير الأقوات في قوله وقدر فيها أقواتها لا يستلزم أن يكون فعلاً أظهر ما قدره إلى حيز الوجود، وحينئذ لا تعارض بين ما يدل من الآيات على خلق الأرض أولاً ثم خلق السموات وهو الذي صرحت به الأحاديث إذ خلق الأرض في يومين وقدر الأقوات في يومين وبعد أن خلق

---

(١) قال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يومي الثلاثاء والأربعاء.

(٢) أي: في تتمة أربعة أيام.

(٣) قال ابن عباس: قال الله تعالى للسماء: «**أطلعي شمسك وقمرك وكواكبك وأجري سحابك ورياحك**» وقال للأرض: «**شقي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين** ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾».

(٤) في الأحاديث الصحيحة أن الله خلق آدم يوم الجمعة وأنه آخر أيام الأسبوع وأنه خيرها وأفضلها وأن اليهود والنصارى قد اختلفوا فيه فهدى الله الذين آمنوا إليه.

وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

٤٧٩

السموات دحا الأرض فأخرج منها ما قدره فيها من أقوات وأرزاق الحيوانات حسب سنته في ذلك.

٤ ـ بيان فائدتين عظيمتين[١] للنجوم الأولى أنها زينة السماء بها تضاء وتشرق وتذهب الوحشة منها والثانية أن ترمي الشياطين بالشهب من النجوم ذات التأجج الناري.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣ ـ ١٨]

﴿١٣﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾: أي كفار قريش عن الإيمان والتوحيد بعد ذلك البيان المفصل. ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾: أي خوّفتكم صاعقة تنزل بكم فتهلككم إن أصررتم على هذا الكفر.

﴿١٤﴾ ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي أتتهم رسلهم تعرض عليهم دعوة الحق من أمامهم ومن ورائهم. ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾: أي بدلاً عنكم أيها الرسل من البشر.

﴿١٥﴾ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي بغير أن يأذن الله لهم بذلك العلو والاستكبار والتّجبُّر.

﴿١٦﴾ ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾: أي ذات صوت يسمع له صرصرة مع البرودة الشديدة. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾: أي مشؤومات عليهم لم يفلحوا بعدها. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾: أي أشد خزيًا من عذاب الدنيا.

﴿١٧﴾ ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: أي استحبوا الكفر على الإيمان إذ الكفر ظلام والإيمان نور.

﴿١٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: أي الشرك والمعاصي.

معنى الآيات:

﴿١٣﴾ ما زال السياق في طلب هداية قريش فقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾[٢] بعد ذلك البيان الذي تقدم لهم في الآيات السابقة المبين لقدرة الله وعلمه وحكمته والموجب للإيمان بالله ولقائه وتوحيده فقل لهم أنذرتكم أي خوفتكم صاعقة[٣] تنزل بكم إن أصررتم على إعراضكم مثل صاعقة عادٍ وثمود أي عذابًا مهلكًا كالذي أهلك الله به عادًا وثمودًا.

﴿١٤﴾ وقوله: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ وهم هود وصالح من بين أيديهم ومن خلفهم كناية أن الرسول بلغهم دعوة الله لهم إلى الإيمان والتوحيد بعناية فائقة فكان يأتيهم من أمامهم ومن خلفهم يدعوهم، قائلاً لهم: لا تعبدوا[٤] إلا الله فإنه الإله الحق وما عداه فباطل فكان جوابهم لهم لا نؤمن لكم ولا نقبل منكم لو شاء[٥] الله ما تقولون لنا لأنزل به ملائكة يدعوننا إليه لا أن يرسل مثلكم من البشر وأخيرًا قالوا لهم فإننا بما أرسلتم به كافرون فأياسوا الرسل من إجابتهم. هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (١٣) والثانية (١٤).

﴿١٥﴾ وفي الآية الثالثة (١٥) بيّن تعالى حال القوم كلاً على حدة فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾، أي قوم[٦] هود ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾

---

(١) والثالثة: الاهتداء بها في معرفة البلاد والقبلة قال تعالى: ﴿ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

(٢) أي: استمروا على إعراضهم بعد دعوتك إياهم وإلحاحك فيها.

(٣) الصاعقة: حقيقتها أنها نار تخرج مع البرق تحرق ما تصيبه، وتطلق على الحادثة المبيدة السريعة الإهلاك.

(٤) جملة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: تفسير لجملة ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾.

(٥) هذا قول عاد وثمود لرسوليهم هود وصالح فحكي بهذا اللفظ.

(٦) لما حكى الله تعالى قولتي عاد وثمود لرسوليهم وهو قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ فصّل في هذه الآيات حال كل من القبيلتين إتماماً للتذكير بحالهما والموعظة بالعذاب الذي أصابهما فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ..﴾ إلخ..

فحملهم الكبر الناجم عن القوة المادية على رفض دعوة هود عليه السلام وقالوا فيه وفي دعوته الكثير وقد مر في سورة هود ويأتي في سورة الأحقاف مفصلاً ما أجمل هنا، وقوله بغير الحق أي أن استكبارهم لا حق لهم فيه أولاً لضعفهم أمام قوة الله عز وجل، وثانيًا لم يأذن الله تعالى لهم بالاستكبار فهو بغير حق إذًا. وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ[1] مِنَّا قُوَّةً﴾ وهذا منهم تحد صريح وعلو وعتو واضحان، ولذا تحداهم الله تعالى بالقوة فقال عز وجل: أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، أي أعموا ولم يروا أن الله الذي خلقهم قطعًا هو أشد منهم قوة. إذ كل قوة لهم مصدرها الله هو خالقهم وواهب القوة لهم، فقوتهم ليست ذاتية ولكنها موهوبة إذ يُخلق أحدهم وهو لا يقدر على دفع أدنى شيء عن نفسه. وقوله: وكانوا بآياتنا يجحدون هذا تسجيل عليهم أكبر ذنب وهو جحودهم بآيات الله التي جاء بها رسول الله هود عليه السلام كما جحدت قريش آيات الله.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾، أي بمجرد أن تأكد كفرهم بجحودهم بآيات الله أرسل الله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾[2] أي باردة ذات صوت مزعج دامت سبع ليال وثمانية أيام فلم تبق منهم أحدًا وهي أيام نحسات[3] عليهم مشؤومات قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾، أي أرسلناها عليهم لنذيقهم ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أي أشد خزيًا وإهانة لهم وذلة، وهم لا ينصرون أي لا ناصر لهم من الله عز وجل. هذا بيان حال عاد.

(١٧) وأما ثمود[4] فقد قال تعالى: وأما ثمود قوم صالح فاستحبوا الضلال على الهدى والكفر على الإيمان وقتلوا الناقة وهَمُّوا بقتل صالح ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ وذلك صباح السبت فأخذتهم صيحة انخلعت لها قلوبهم فرجفت الأرض من تحتهم فهلكوا عن آخرهم، وذلك ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[5] من الشرك والظلم والكفر والعناد. ونجّى الله تعالى صالحًا ومن معه من المؤمنين الذين آمنوا وكانوا يتقون الشرك والمعاصي وكانوا أربعة آلاف مؤمن ومؤمنة وهو معنى قوله تعالى في ختام الحديث: (١٨) ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝﴾.

هداية الآيات:

١ - التحذير من الإعراض عن إجابة دعوة الحق، والاستمرار في التمرد والعصيان.

٢ - تقرير التوحيد وهو أن لا إله إلا الله.

٣ - دعوة الرسل واحدة وهي الأمر بالكفر بالطاغوت، والإيمان بالله وعبادته وحده بما شرع للناس من عبادات.

٤ - التنديد بالاستكبار وأنه سبب الكفر والعصيان.

٥ - لا مصيبة إلا بذنب ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي من الذنوب.

٦ - الإيمان والتقوى هما سبيل النجاة من العذاب في الدنيا والآخرة وهما ركنا الولاية ولاية الله تعالى لقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝﴾[6].

---

(١) وهذا اغترار بقوة أجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب.

(٢) أصلها من: صرر من الصر وهو البرد فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل نحو كبكبوا أصلها كببوا وتجفجف الثوب أصلها تجفف والصرصر هي: الشديدة البرودة قال الحطيئة:

المطعمون إذا هبت بصرصرة — الحاملون إذا استودوا على الناس

ومعنى استودوا: إذا سئلوا الدية.

(٣) قرأ نافع بسكون الحاء ويجوز كسرها وبه قرأ حفص على أنه صفة مشبهة من نحس: إذا أصابه النحس إصابة سوء أو ضر والنحسات بسكون الحاء: جمع نحس.

(٤) شروع في تفصيل حال ثمود بعد عاد والهداية التي كانت لهم هداية إرشاد وتكليف بواسطة رسولهم صالح وما آتاهم الله من معجزة الناقة العظيمة.

(٥) أي: لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: بسبب كسبهم السيئات.

(٦) الآية من سورة يوسف عليه السلام.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ ـ ٢٤]

(١٩) ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي يحبس أولهم ليلحق آخرهم ليساقوا إلى النار مجتمعين.

(٢٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾: أي حتى إذا جاؤوها أي النار. ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: أي من الذنوب والمعاصي.

(٢١) ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أي بدأ خلقكم في الدنيا فخلقكم ثم أماتكم ثم أحياكم.

(٢٢) ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾: أي عند ارتكابكم الفواحش والذنوب أي تستخفون من أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم فتتركوا الفواحش والذنوب. ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ﴾: أي ولكن عند ارتكابكم الفواحش ظننتم أن الله لا يعلم ذلك منكم.

(٢٣) ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾: أي أهلككم.

(٢٤) ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾: أي فإن صبروا على العذاب فالنار مثوى أي مأوى لهم. ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾: أي يطلبوا العتبى وهي الرضا فلا يعتبون أي لا يرضى عنهم هذه حالهم أبدًا.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة قريش إلى أصول الدين التوحيد والنبوة والبعث والجزاء وفي هذا السياق عرض لمشهد من مشاهد القيامة وهو مشهد حَيٌ رائع يعرض أمامهم.

(١٩) إذ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي اذكر لهم يوم يحشر أعداء الله أي الذين كفروا به فلم يؤمنوا ولم يتقوا؛ إلى النار ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيساقون مع بعضهم بعضًا.

(٢٠) ﴿حَتَّىٰٓ[1] إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ أي انتهوا إليها، وادعوا أنهم مظلومون وأخذوا يتنصَّلون من ذنوبهم، وقالوا إنهم لا يقبلون شاهدًا من غير أنفسهم فيأمر الله تعالى أسماعهم وأبصارهم وجلودهم فتشهد عليهم بما كانوا يعملون، وهو قوله تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وهنا رجعوا إلى جلودهم يلومون عليهم ويعتبون وهو ما أخبر تعالى به في قوله:

(٢١) ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ[2] عَلَيْنَا﴾ فأجابتهم جلودهم بما أخبر تعالى عنهم في هذا السياق ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي النشأة الأولى في الدنيا ثم أماتكم ثم أحياكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وها أنتم قد رجعتم فالقادر على هذا كله قادر على أن ينطقنا وعلى كل شيء أراد إنطاقه.

(٢٢) وقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ[3] أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي وما كنتم تستخفون فتتركوا محارم الله بل كنتم تجاهرون بذلك لعدم إيمانكم بالبعث والجزاء.

(٢٣) ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ وهو ظن سيء ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وهذا هو الخسران المبين. وقوله تعالى في الآية الأخيرة من هذا السياق (٢٤):

(٢٤) ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ﴾ أي أعداء الله الذين شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، فالنار مثوى، أي مأوى لهم لا يخرجون منها أبدًا، وإن يستعتبوا، أي يطلبوا العتبى أي الرضا فيرضى عنهم فيدخلوا الجنة ﴿فَمَا هُم

---

(١) يحشرون إلى النار أي: يجمعون ويساقون إليها.

(٢) حرف ابتداء في اللفظ أي: أن ما بعدها جملة مستأنفة إلا أنها تفيد معنى الغاية «وما» في ﴿مَا جَآءُوهَا﴾ مزيدة للتوكيد.

(٣) شهادة جلودهم وجوارحهم عليهم هي شهاة تكذيب وافتضاح وإلا إدانتهم متحققة بصحائف أعمالهم وإجراء ضمائر السمع والبصر والجلود بصيغة جمع: العقلاء لأن التحاور معهم أنزلهم منزلة العقلاء.

(٤) في الصحيحين حادثة ذكرت أنها سبب نزول هذه الآية وهي أن عبدالله بن مسعود قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشيان وآخر، قليل فقه قلوبهم كثير شحم بطونهم، فتكلموا بكلام لم أفهمه فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا. قال عبدالله: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ إلخ..

(٥) ﴿وَقَيَّضْنَا﴾: أتحنا وهيأنا لهم قرناء أي: شياطين يلازمونهم، قد يكونون من الجن ومن الإنس إذ الشياطين من الجنسين.

﴿مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي فما هو بحاصل لهم أبدًا فهم إذًا بشرِّ التقديرين والعياذ بالله تعالى من حال أهل النار.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض مفصّل بحال أهل النار فيها.

٢ ـ التحذير من فعل الفواحش وكبائر الذنوب فإن جوارح المرء تشهد عليه.

٣ ـ التحذير من سوء الظن بالله تعالى ومن ذلك أن يظن المرء أن الله لا يطلع عليه أو لا يعلم ما يرتكبه، أو أنه لا يحاسبه أو لا يجزيه.

٤ ـ وجوب حسن الظن بالله تعالى وهو أن يرجو أن يغفر الله له إذا تاب من زلة زلها، وأن يرجو رحمته وعفوه إذا كان في حال العجز عن الطاعات ولا سيما عند العجز عن العمل للمرض والضعف كالكبر ونحوه فيغلب جانب الرجاء على جانب الخوف.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥ ـ ٢٩]

(٢٥) ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾: أي وبعثنا لكفار مكة المعرضين قرناء من الشياطين. ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أي حسنوا لهم الكفر والشرك، وإنكار البعث والجزاء.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ﴾: أي وجب لهم العذاب في أمم مضت قبلهم من الجن والإنس.

(٢٦) ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾: أي الغطوا فيه بالباطل إذا سمعتم من يقرؤه.

(٢٧) ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أي بأقبح جزاء أعمالهم التي كانوا يعملون.

(٢٨) ﴿أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾: أي من كفروا به ولم يتقوه.

(٢٩) ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾: أي إبليس من الجن، وقابيل بن آدم. ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾: أي في أسفل النار ليكونا من الأسفلين.

معنى الآيات:

(٢٥) ما زال السياق الكريم في دعوة المعرضين من كفار قريش، فقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا[1] لَهُمْ﴾ أي بعثنا لهم قرناء من الشياطين، وذلك بعد أن أصروا على الباطل والشر فخبثوا خبثًا سَهَّلَ لأخباث الجن الاقتران بهم فزينوا لهم الكفر والمعاصي القبيحة في الدنيا فها هم منغمسون فيها، كما زينوا لهم الكفر بالبعث والجزاء وإنكار الجنة والنار حتى لا يقصروا في الشر ولا يفعلوا الخير أبدًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي بالعذاب ﴿فِىٓ أُمَمٍ[2] قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ في حكم الله وقضائه بمقتضى سنة الله في الخسران. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٢٥) وهي قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝﴾.

(٢٦) وقوله تعالى في الآية الثانية (٢٦): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟[3] لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝﴾ يخبر تعالى عن أولئك المعرضين من كفار قريش وأنهم قالوا لبعضهم بعضًا لا تسمعوا لهذا القرآن الذي يقرأه محمد ﷺ حتى لا تتأثروا به، والغوا فيه أي الغطوا وصيحوا بكلام لهو وصفقوا وصفروا حتى لا يتأثر به من يسمعه من الناس لعلكم تغلبون أي رجاء أن تغلبوا محمدًا ﷺ على دينه فتبطلوه ويبقى دينكم. وهذا منتهى

---

(١) ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾: حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمُ﴾ أي: حق عليهم حالة كونهم في أمم أمثالهم قد سبقوهم، والظرفية هنا مجازية بمعنى التبعيض أي: هم من جملة أمم فدخلت من قبلهم قال الشاعر:

إن تـك عـن أحـسـن الـصـنـيـعـة مـأفـو ... كـا فـفـي آخـريـن قـد أفـكـوا

(٢) قال ابن عباس: كان النبي ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان أبو جهل وغيره يطردون الناس عنه ويقولون: لا تسمعوا له والغوا فيه. فكانوا يأتون بالمكاء والصفير والصياح وفي الصحيح أنهم أخرجوا أبا بكر من مكة خوفاً أن يفتن أبناءهم ونساءهم بقراءته القرآن لرقة صوته وبكائه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾

٤٨٠

الكيد والمكر من أولئك المعرضين عن دعوة الإسلام.

﴿٢٧﴾ وكان رد الله تعالى على هذا المكر في الآية التالية (٢٧): ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ يخبر تعالى مؤكدًا الخبر بأنه سيذيق الذين كفروا عذابًا شديدًا وذلك يوم القيامة وليجزينَّهم أسوأ أي أقبح الذي كانوا يعملون أي يجزيهم بحسب أقبح سيئاتهم التي كانوا يعملون.

﴿٢٨﴾ ثم قال تعالى: ذلك الجزاء المتوعَّد به الذين كفروا هو جزاء أعداء الله الذين حاربوا رسوله ﷺ ودعوته وحتى كتابه أيضًا. وذلك الجزاء هو النار لهم[1] فيها دار الخلد أي الإقامة الدائمة جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون فلم يؤمنوا بها ولم يعملوا بما فيها.

﴿٢٩﴾ وقوله تعالى في الآية (٢٩): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، يخبر تعالى عن الكافرين وهم في النار إذ يقولون ربَّنا أي يا ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ[2] أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ أي اللذين كانا سببًا في إضلالنا بتزيينهم لنا الباطل وتقبيحهم لنا الحق أرناهما ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾ في النار ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾[3] أي في الدرك الأسفل من النار إذ النار دركات واحدة تحت الأخرى.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله تعالى في العبد إذا أعرض عن الحق الذي هو الإسلام فخبث من جراء كسبه الشر والباطل وتوغله في الظلم والفساد يبعث الله تعالى عليه شيطانًا يكون قرينًا له فيزين له كل قبيح، ويقبح له كل حسن.

٢ - بيان ما كان المشركون يكيدون به الإسلام ويحاربونه به حتى باللغو عند قراءة القرآن حتى لا يسمع ولا يهتدى به.

٣ - تقرير البعث والجزاء.

٤ -بيان نقمة أهل النار على من كان سببًا في إضلالهم وإغوائهم، ومن سنّ لهم سنّة شر يعملون بها كإبليس، وقابيل بن آدم عليه السلام. إذ الأول سنّ كل شر والثاني سنّ سنة القتل ظلمًا وعدوانًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٠ - ٣٢]

﴿٣٠﴾ ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾: قالوا ذلك معلنين عن إيمانهم بأن الله هو ربهم الذي لا رب لهم غيره وإلههم الذي لا إله لهم سواه. ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: أي ثبتوا على ذلك فلم يبدلوا ولم يغيروا ولم يتركوا عبادة الله بفعل الأوامر وترك النواهي. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أي عند الموت وعند الخروج من القبر بحيث تتلقاهم هناك. ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾: أي بأن لا تخافوا مما أنتم مقبلون عليه فإنه رضوان الله ورحمته ولا تحزنوا عما خلفتم وراءكم.

﴿٣١﴾ ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: أي فبحكم ولايتنا لكم في الدنيا والآخرة فلا تخافوا

---

(١) ﴿دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ هي النار نزلت النار منزل الظرف فكانت بذلك دار الخلد والخلد: البقاء المؤبد في عالم الشقاء.

(٢) ﴿أَرِنَا﴾ أي: عين لنا اللذين أضلانا من الجن والإنس كناية عن إرادة الانتقام منهم بأن يطؤوهم بأقدامهم انتقاماً منهم وتعذيباً لهم لأنهم كانوا السبب في شقوتهم. قرأ الجمهور: ﴿أَرِنَا﴾ بكسر الراء وقرأ غيرهم بسكون الراء: ﴿أرنا﴾ كما خففوا فخذ إلى فخذ بسكون الخاء.

(٣) هذا التعليل أرادوا به التوطئة لاستجابة الله تعالى لما علموا من غضب الله تعالى فأرادوا أن يتوسلوا إليه تعالى بذلك.

ولا تحزنوا. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾: أي ولكم فيها ما تطلبون من سائر المشتهيات لكم.

(٣٢) ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾: أي رزقًا مهيأ لكم من فضل رب غفور رحيم.

معنى الآيات:

لما بيّن تعالى حال الكافرين في الدار الآخرة وهي أسوأ حال بين حال المؤمنين في الآخرة وهي أحسن حال وأطيب مآل فقال:

(٣٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[1] أي لا ربَّ لنا غيره ولا إله لنا سواه، ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[2] فلم يشركوا به في عبادته أحدًا فأدوا الفرائض واجتنبوا النواهي وماتوا على ذلك هؤلاء ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي تهبط عليهم وذلك عند الموت بأن تقول لهم لا تخافوا على ما أنتم مقدمون عليه من البرزخ والدار الآخرة ولا تحزنوا على ما خلفتم وراءكم ﴿وَأَبْشِرُوا[3] بِالْجَنَّةِ﴾ دار السلام التي كنتم توعدونها في الكتاب وعلى لسان الرسول ﷺ.

(٣١) ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إذا كنا نسددكم ونحفظكم من الوقوع في المعاصي، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ نستقبلكم عند الخروج من قبوركم حتى تدخلوا جنة ربكم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ من الملاذ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي تطلبون مما ترغبون فيه وتشتهون.

(٣٢) ﴿نُزُلًا﴾ أي قرىً وضيافة من لدن رب غفور لكم رحيم بكم لا إله إلا هو ولا رب سواه.

هداية الآيات:

١ - فضل الإيمان والاستقامة عليه بأداء الفرائض واجتناب النواهي.

٢ - بشرى أهل الإيمان والاستقامة عند الموت بالجنة وهؤلاء هم أولياء الله المؤمنون المتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وهي هذه وفي الآخرة عند خروجهم من قبورهم.

٣ - في الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين، ولأحدهم كل ما يطلبه ويدعيه وفوق ذلك النظر إلى وجه الله الكريم وتلقي التحية منه والتسليم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ - ٣٦]

(٣٣) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾: أي لا أحد أحسن قولاً منه أي ممن دعا إلى توحيد الله وطاعته.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: وعمل صالحًا وهي شرط أيضًا وقال إنني من المسلمين شرط ثالث.

(٣٤) ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾: أي لا تكون الحسنة كالسيئة ولا السيئة كالحسنة. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: أي ادفع أيها المؤمن السيئة بالخصلة التي هي أحسن كالغضب بالرضى، والقطيعة بالصلة. ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾: أي كأنه صديق قريب في محبته لك إذا فعلت ذلك.

(٣٥) ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: أي وما يعطى هذه الخصلة التي هي أحسن. ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: أي ثواب عظيم وأجر جزيل هذا في الآخرة وأما في الدنيا فالخلق الحسن والكمال.

(٣٦) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾: أي وإن يوسوس لك الشيطان بترك خير أو فعل شر. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾: أي فاستجر بالله قائلاً أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

---

(١) في صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك وفي رواية: غيرك. قال: «**قل: آمنت بالله ثم استقم**» وزاد الترمذي: قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟ قال: فأخذ بلسان نفسه وقال: «**هذا**».

(٢) ذكر القرطبي في تفسير الاستقامة أكثر من عشرة أقوال للصحابة والسلف، ثم قال: وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها «اعتدلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً وداوموا على ذلك».

(٣) قال وكيع وابن أبي زيد البشري في ثلاثة مواطن: عند الموت وفي القبر وعند البعث وشاهد هذا قوله ﷺ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**» قلنا: يا رسول الله كلنا نكره الموت: قال ﷺ: «**ليس ذلك كراهة الموت ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه**» قال: «**وإن الفاجر والكافر إذا حُضِر بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر فكره لقاء الله فكره الله لقاءه**» قال ابن كثير: وهذا حديث صحيح وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي هو تعالى السميع لأقوال عباده العليم بما يصيبهم وينزل بهم.

معنى الآيات:

(٣٣) لما ذكر تعالى بشرى أهل الإيمان وصالح الأعمال ذكر هنا بشرى ثانية لهم أيضًا فقال: ﴿وَمَنْ[1] أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هذه ثلاثة شروط الأول: دعوته إلى الله تعالى بأن يعبد فيطاع ولا يعص ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، والثاني: وعمل صالحًا فأدى الفرائض واجتنب المحارم، والثالث: وفاخر بالإسلام معتزًا به وقال إنني من المسلمين، فلا أحد أحسن قولاً من هذا الذي ذكرت شروط كماله، ويدخل في هذا أولاً الرسل، وثانيًا العلماء، وثالثًا المجاهدون، ورابعًا المؤذنون، وخامسًا الدعاة الهداة المهديون. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣٣).

(٣٤) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ[2]﴾ هذا تقرير إلهي يجب أن يعلم وهو أن الحسنة لا تستوي مع السيئة وأن السيئة لا تستوي مع الحسنة فالإيمان لا يساوى بالكفر، والتقوى لا تساوى بالفجور، والعدل لا يساوى بالظلم.

كما أن جنس الحسنات لا يتساوى، وجنس السيئات لا يتساوى بل يتفاضل فصيام رمضان لا يساوى بصيام رجب أو محرم تطوعًا، وسيئة قتل المؤمن لا تستوي مع شتمه أو ضربه، وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3] أي بعد أن عرفت يا رسولنا عدم تساوي الحسنة مع السيئة إذًا فادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن من غيرها فإذا الذي بينك[4] وبينه عداوة قد انقلب في بره بك واحترامه لك واحتفائه بك كأنه ابن عم لك يحبك ويحترمك ولما كانت هذه الخصلة وهي الدفع بالتي هي أحسن لا تتأتى إلا لذوي الأخلاق الفاضلة والنفوس الكاملة الشريفة.

(٣٥) قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي وما يعطى هذه الخصلة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ فكان الصبر خلقًا من أخلاقهم ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ في الأخلاق والكمال النفسي، في الدنيا، والأجر العظيم وهو الجنة في الآخرة.

(٣٦) وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ[5] بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يرشد الرب تعالى عبده ورسوله ﷺ وكل فرد من أفراد أمته إن نزغه من الشيطان نزغ بأن وسوس له بفعل شر أو ترك خير، أو خطر له خاطر سوء أن يفزع إلى الله تعالى يستجير به فإن الله تعالى هو السميع العليم فالاستجارة به من الشيطان تَحْمِي العبد وتقيه من وسواس الشيطان وما يلقيه في النفس من خواطر سيئة، ولله الحمد والمنة على هذا الإرشاد الرباني الذي لا يستغني عنه أحد من عباده.

هداية الآيات:

١ - بيان فضل الدعوة إلى الله تعالى وشرف الدعاة العاملين.

٢ - فضل الإسلام والاعتزاز به والتفاخر الصادق به.

٣ - تقرير أن الحسنة لا تتساوى مع السيئة. كما أن الحسنات تتفاوت والسيئات تتفاوت.

٤ - وجوب دفع السيئة من الأخ

---

(١) يدخل في هذه الآية دخولاً أولياً رسول الله ﷺ إذ هو أحق وأجدر، وهي نازلة فيه رداً على الذين يلغون في القرآن عند سماعه وهي تتناول كل مؤمن متصف بهذه الصفات المعبر عنها في التفسير بالشروط.

(٢) (لا) في قوله: ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ صلة زيدت للتأكيد إذ الأصل: ولا تستوي الحسنة والسيئة، وشاهدها قول الشاعر:

ما كان يرضى رسول الله فعلهم ... والطيبان أبو بكر ولا عمر

(٣) قال ابن عباس: ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك. وقيل أيضاً: هو الرجل يسب الرجل فيقول المسبوب: إن كنت صادقاً فغفر الله لي وإن كنت كاذباً فغفر الله لك وقال مجاهد: هي أن يسلّم المرء على من يعاديه إذا لقيه فهو معنى ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

(٤) قال ابن عباس: في هذه الآية ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أمره الله تعالى بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة. وهو كما قال رضي الله عنه.

(٥) فائدة الاستعاذة بالنسبة إلى الرسول ﷺ تجديد داعية العصمة المركوزة في نفس النبي ﷺ لأن الاستعاذة بالله من الشيطان استمداد للنعمة وصقل للنفس مما يغان على القلب كما قال الرسول ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**».

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

المسلم بالحسنة من القول والفعل.

٥ - فضل العبد الذي يكمل في نفسه وخلقه فيصبح يدفع السيئة بالحسنة.

٦ - وجوب الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم إذا وسوس أو ألقى بخاطر سوء إذ لا يقي منه ولا يحفظ إلا الله السميع العليم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٧ - ٣٩]

﴿٣٧﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾: أي ومن جملة آياته الدالة على ألوهية الرب تعالى وحده.

﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾: أي وجود الليل والنهار والشمس والقمر.

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾: أي لا تعبدوا الشمس ولا القمر فإنهما من جملة مخلوقاته الدالة عليه.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: أي إن كنتم حقًا تريدون عبادته فاعبدوه وحده فإن العبادة لا تصلح لغيره.

﴿٣٨﴾ ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾: أي الملائكة.

﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾: أي لا يملون من عبادته ولا يكلون.

﴿٣٩﴾ ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾: أي يابسة جامدة لا نبات فيها ولا حياة.

﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾: أي تحركت، وانتفخت وظهر النبات فيها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾: أي إن الذي أحيا الأرض قادر على إحياء الموتى يوم القيامة.

معنى الآيات:

﴿٣٧﴾ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ أي ومن جملة آياته العديدة الدالة على وجوده وقدرته وعلمه وحكمته والموجبة للإيمان به وعبادته وتوحيده، الليل والنهار وتعاقبهما وانتظام ذلك بينهما فليس الليل سابق النهار، وكذا الشمس والقمر خلقهما وسيرهما في فلكيهما بانتظام ودقة فائقة وحساب دقيق وعليه فلا ﴿تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ أيها الناس فإنهما ملخوقان من جملة المخلوقات، ولكن اسجدوا لخالقهما ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ[1]﴾ كما تزعمون.

﴿٣٨﴾ ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: فإن أبوا أن يستجيبوا لك ويسمعوا ما قلت لهم مستكبرين فاعلم أن الذين عند ربك وهم الملائكة يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون من ذلك ولا يملون.

﴿٣٩﴾ وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾، أي علامات قدرته على إحياء الموتى[2] للبعث والجزاء إنك أيها الإنسان ترى الأرض أيام المحل والجدب هامدة جامدة لا حركة لها فإذا أنزل الله تعالى عليها ماء المطر اهتزت وربت أي تحركت تربتها وانتفخت وعلاها النبات وظهرت فيها الحياة كذلك إذا أراد الله إحياء الموتى أنزل عليهم ماء

---

(١) لا شك أن هناك من كان يسجد للشمس في بلاد العرب ففي اليمن كانوا يعبدون الشمس على عهد ملكة سبأ لقوله تعالى على لسان الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ووجد في أصنام قريش صنم يقال له: شمس، ولذا سموا عبد شمس.

(٢) لا شك أن هنا سجدة من عزائم السجدات إلا أنهم اختلفوا في موضع السجود فمالك يرى أنه يسجد عند قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم يرى السجود عند: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ والأمر واسع ففي أي الموضعين سجد أجزأ والحمد لله.

(٣) في الآية تقرير عقيدة البعث والجزاء بعد تقرير عقيدة الألوهية وسيأتي في الآيات بعد تقرير النبوة المحمدية وهذه أعظم أركان العقيدة الإسلامية؟ التوحيد: البعث والجزاء والنبوة، وباقي أركان العقيدة تابعة لهذه الأركان العظيمة.

من السماء وذلك بين النفختين نفخة الفناء ونفخة البعث فينبتون كما ينبت البقل. وقوله: إن الذي أحياها بعد موتها لمحيي الموتى إنه تعالى على فعل كل شيء أراده قدير لا يمتنع عنه ولا يعجزه، وكيف لا، وهو إذا أراد شيئًا إنما يقول له كن فيكون.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد بالأدلة القطعية الموجبة لله العبادة دون غيره من خلقه.

٢ - بيان أن هناك من الناس من يعبدون الشمس ويسجدون لها من العرب والعجم وأن ذلك شرك باطل فالعبادة لا تكون للمخلوقات الخاضعة في حياتها للخالق وإنما تكون لخالقها ومسخرها لمنافع خلقه.

٤ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر دليل من أظهر الأدلة وهو موت الأرض بالجدب ثم حياتها بالغيث، إذ لا فرق بين حياة النبات والأشجار في الأرض بالماء وبين حياة الإنسان بالماء كذلك في الأرض بعد تهيئة الفرصة لذلك بعد نفخة الفناء ومضي أربعين عامًا عليها ينزل من السماء ماء فيحيا الناس وينبتون من عجب الذنب كما ينبت النبات، بالبذرة الكامنة في التربة.

٥ - تقرير قدرة الله على كل شيء أراده، وهذه الصفة خاصة به تعالى موجبة لعبادته وطاعته. بعد الإيمان به وتأليهه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٠ ـ ٤٢]

(٤٠) ﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾: أي يجادلون فيها ويميلون بها فيؤلونها على غير تأويلها لإبطال حق أو إحقاق باطل. ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾: أي إنهم مكشوفون أمامنا وسوف نبطش بهم جزاء إلحادهم. ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي نعم الذي يأتي آمنًا يوم القيامة خير ممن يلقى في النار. ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾: هذا تهديد لهم على إلحادهم وليس إذنًا لهم في العمل كما شاؤوا.

(٤١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾: أي جحدوا بالقرآن أو ألحدوا فيه فكفروا بذلك. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾: أي القرآن لكتاب عزيز أي منيع لا يقْدَر على الزيادة فيه ولا النقص منه.

(٤٢) ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: أي لا يقدر شيطان من الجن والإنس أن يزيد فيه شيئًا وهذا معنى من بين يديه. ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾: أي ولا يقدر شيطان من الجن ولا من الإنس أن ينقص منه شيئًا وهذا معنى من خلفه، كما أنه ليس قبله كتاب ينتقصه، ولا بعده كتاب ينسخه، فهو كله حق وصدق ليس فيه ما لا يطابق الواقع.

معنى الآيات:

(٤٠) يتوعد الجبار عز وجل ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ في آيات كتابه بالتحريف والتبديل والتغيير بأنهم لا يخفون عليه، وأنه سينزل بهم نقمته إن لم يكفوا عن إلحادهم.

وقوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إذا كان لا يوجد عاقل يقول الذي يلقى في النار خير ممن يأتي آمنًا يوم القيامة فالإلقاء في النار سببه الكفر والإلحاد والباطل فليترك هذه من أراد النجاة من النار، والأمن يوم القيامة من كل خوف من النار وغيرها سببه الإيمان والتوحيد فليؤمن ويوحد الله تعالى في عبادته ولا يلحد في آياته من أراد الأمن يوم القيامة بعلمه إنه خير من الإلقاء في النار. هذا أسلوب في الدعوة عجيب انفرد به القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ[1] إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[2]﴾ هذا الكلام يقال للمستهترين بالأحكام الشرعية المستخفين بها فهو تهديد لهم وليس إذنًا وإباحة لهم أن يفعلوا ما شاؤوا من الباطل والشرك والشر، ويدل على التهديد قوله بعد إنه بما تعملون بصير.

(٤١) ومثله قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ[3] كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ أي القرآن، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ

(١) الأمر هنا ليس للإباحة وإنما هو للتهديد كما في التفسير.

(٢) قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الجملة تعليلية متضمنة الوعيد والتهديد فهي مؤكدة لما تضمنه قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ من التهديد.

(٣) الخبر مقدر تقديره: هالكون أو معذبون وما ذكر في التفسير في تقدير الخبر حسن.

عَزِيزٌ[١]﴾ أي منيع بعيد المنال.

﴿٤٢﴾ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ بالزيادة والنقصان أو التبديل والتغيير. ولما كان المراد من هذا الكلام التهديد سكت عن الخبر إذ هو أظهر من أن يذكر والعبارة قد تقصر عن أدائه بالصورة الواقعة له. وقد يقدر لنفعلن بهم كذا وكذا...

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي القرآن المنيع كماله وشرفه ومناعته أتته أنه تنزيل من حكيم في أفعاله وسائر تصرفاته حميد بذلك وبغيره من فواضله وآلائه ونعمه.

هداية الآيات:

١ - حرمة الإلحاد في آيات الله بالميل بها عن القصد والخروج بها إلى الباطل.

٢ - التهديد الشديد لكل من يحرف آيات الله أو يؤولها على غير مراد الله منها.

٣ - تقرير مناعة القرآن وحفظ الله تعالى له، وأنه لا يدخله النقص[٢] ولا الزيادة إلى أن يرفعه الله إليه إذ منه بدأ وإليه يعود.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٣ ـ ٤٦]

﴿٤٣﴾ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾: أي من التكذيب أيها الرسول محمد. ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾: أي من التكذيب لهم والكذب عليهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾: أي ذو مغفرة واسعة تشمل كل تائب إليه صادق في توبته. ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي معاقبة شديدة ذات ألم موجع للمصرين على الكفر والباطل.

﴿٤٤﴾ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾: أي القرآن كما اقترحوا إذ قالوا: هلا أنزل القرآن بلغة العجم. ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾: أي بينت حتى نفهمها. ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾: أي أقرآن أعجمي والمنزل عليه وهو النبي ﷺ عربي يستنكرون ذلك تعنتًا منهم وعنادًا ومجاحدة. ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾: أي هدى من الضلالة، وشفاء من داء الجهل وما يسببه من أمراض. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾: أي ثقل فهم لا يسمعونه وهو عليهم عمى فلا يفهمونه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾: والمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى له.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي التوراة. ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾: أي بالتصديق والتكذيب وفي العمل ببعض ما فيه وترك البعض الآخر كما هي الحال في القرآن الكريم. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: أي ولولا الوعد بجمع الناس ليوم القيامة وحسابهم ومجازاتهم هناك. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: أي لحكم بين المختلفين اليوم وأكرم الصادقون وأهين الكاذبون.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: أي وليس ربك يا رسولنا بذي ظلم للعبيد.

معنى الآيات:

بعد توالي الآيات الهادية من الضلالة الموجبة للإيمان كفار قريش لا يزيدهم ذلك إلا عنادًا وإصرارًا على تكذيب الرسول ﷺ والكفر به وبما جاء به من عند ربه، ولما كان الرسول ﷺ بشرًا يحتاج إلى عون حتى يصبر أنزل تعالى هذه الآيات في تسليته ﷺ وحمله على الثبات والصبر.

﴿٤٣﴾ فقال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾[٣] يا رسولنا من الكذب عليك والتكذيب لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي لمن تاب، فلذا لا يتعجل بإهلاك المكذبين رجاء أن يتوبوا ويؤمنوا ويوحدوا، وذو عقاب أليم أي موجع شديد لمن مات على كفره.

﴿٤٤﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي كما اقترح بعض المشركين، لقالوا: لولا فصلت

---

(١) معنى ﴿عَزِيزٌ﴾: ممتنع عن الناس أو يقولوا مثله.

(٢) تضمنت الآية ست صفات للقرآن العظيم هي كالتالي: أنه ذكر يذكر الناس بما يغفلون عنه، أنه ذكر للعرب أي: شرف لهم كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، أنه كتاب عزيز والعزيز: النفيس والمنيع أيضاً إذ أعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أنه لا يتطرق إليه الباطل ولا يخالطه بحال، أنه مشتمل على الحكمة وهو حكيم وذو حكمة وحاكم أيضاً، وأنه تنزيل من حميد والحميد: المحمود حمداً كثيراً.

(٣) الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً فهي جواب لسؤال يثيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ إلخ..

آياته، أي هلاً بُينت لنا حتى نفهمها، ثم قالوا: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ[١] وَعَرَبِيٌّ﴾ أي أقرآنٌ عجمي[٢] ونبي عربي مُسْتَنكِرينَ ذلك متعجبين منه وكل هذا من أجل الإصرار على عدم الإيمان بالقرآن الكريم والنبي الكريم ﷺ وتوحيد الرب الكريم.

ولما علم تعالى ذلك منهم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم قل هو أي القرآن الكريم هدى وشفاء[٣] هدى يهتدي به إلى سبل السعادة والكمال والنجاح، وشفاء من أمراض الشك والشرك والنفاق والعجب والرياء والحسد والكبر، والذين لا يؤمنون بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً هو أي القرآن في آذانهم وقر أي حمل ثقيل أولئك ينادون من مكان بعيد ولذا فهم لا يسمعون ولا يفهمون.

(٤٥) هذه تسلية وأخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة فاختلفوا فيه فمنهم المصدق ومنهم المكذب، ومنهم العامل بما فيه المطبق ومنهم المعرض عنه المتبع لهواه وشيطانه الذي أغواه، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ[٤] مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلفوا فيه، لحكم لأهل الصدق بالنجاة وأهل الكذب بالهلاك والخسران. وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، أي من القرآن مريب أي موقع في الريبة وذلك من جراء محادته والمعاندة والمجاحدة.

(٤٦) وقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ وهذه تسلية أعظم فإن من عمل صالحًا في حياته بعد الإيمان فإن جزاءه قاصر عليه ينتفع به دون سواه، ومن أساء أي عمل السوء وهو ما يسوء النفس من الذنوب والآثام فعلى نفسه عائد سوؤه الذي عمله ولا يعود على غيره، وأخرى في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ[٥] لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ليس هو تعالى بذي ظلم لعباده. فقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ عائد ذلك ومن أساء فعليها أي عائد الإساءة إن فيه لتسلية لكل من أراد أن يتسلى ويصبر.

هداية الآيات:

١ - تسلية الرسول ﷺ أي حمله على الصبر والسلوان ليواصل دعوته إلى نهايتها.

٢ - بيان مدى ما كان عليه المشركون من التكذيب للرسول ﷺ والمعاندة والمجاحدة.

٣ - القرآن دواء وشفاء لأهل الإيمان، وأهل الكفر هم على العكس من أهل الإيمان.

۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ (٥٤)

---

(١) في الآية إشارة واضحة إلى عموم رسالته ﷺ.

(٢) معنى ﴿قُرْءَانًا﴾: كتاباً مقروءاً إذ ورد في الحديث الصحيح تسمية الزبور قرآناً بمعنى يقرأ ويكتب إذ قال ﷺ: **«إن داود يسر له القرآن فكان يقرأ القرآن كله ـ الزبور ـ في حين يسرج له فرسه»**.

(٣) حقيقة الشفاء زوال المرض وهو هنا مستعار للبصارة بالحقائق وانكشاف الالتباس من النفس كما يزول المرض عند حصول الشفاء.

(٤) فيه تسلية للرسول ﷺ على تكذيب المشركين وكفرهم بالقرآن بأنه ليس بأوحد في ذلك فقد أوتي موسى الكتاب فاختلف فيه بالتصديق والتكذيب والعمل والترك.

(٥) المراد بنفي الظلم من الله للعبيد أنه لا يعاقب من ليس منهم بمجرم، لأنه تعالى لما وضع الشرائع وأرسل الرسل صار ذلك قانوناً، فمن تعداه مهملاً له معرضاً عنه. فقد استوجب العذاب، وتعذيبه عدل وليس بظلم.

٤ - بيان سنة الله في الأمم السابقة في اختلافها على أنبيائها وما جاءتها به من الهدى والنور.

٥ - قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ أجرى مجرى المثل عند العالمين.

٦ - نفي الظلم عن الله مطلقًا(١).

الجزء الخامس والعشرون

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧، ٤٨]

(٤٧) ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ﴾(٢): أي إلى الله يرد علم الساعة أي متى تقوم إذ لا يعلمها إلا هو. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾: أي من أوعيتها واحد الأكمام كِمّ وكم الثوب مخرج اليد. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾: أي من أي جنس كان إنسانًا أو حيوانًا. ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾: أي ولا تضع حملها إلا ملابسًا بعلم الله تعالى المحيط بكل شيء. ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾: أي أعلمناك الآن. ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾: أي ليس منا من يشهد بأن لك شريكًا أبدًا.

(٤٨) ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: أي أيقنوا أنه ما لهم من مهرب من العذاب.

معنى الآيتين:

(٤٧) يخبر تعالى أن علم الغيب قد انحصر فيه فليس لأحد من خلقه علم الغيب وخاصة ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي علم قيامها متى تقوم؟ كما أخبر عن واسع علمه وأنه محيط بكل الكائنات فما تخرج من ثمرة من كمها(٣) وعائها وتظهر منه إلا يعلمها على كثرة الثمار والأشجار ذات الأكمام، ﴿وَمَا تَحْمِلُ(٤) مِنْ أُنثَىٰ﴾ بجنين ولا تضعه يوم ولادته أو إسقاطه إلا يعلمه أي يتم ذلك بحسب علمه تعالى وإذنه، وهذه مظاهر الربوبية المستلزمة للألوهية فلا إله غيره ولا رب سواه، ومع هذا فالجاهلون يتخذون له شركاء أندادًا من أحجار وأوثان يعبدونها معه ظلمًا وسفهًا. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ(٥)﴾ وذلك في يوم القيامة ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾؟ أي الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لي، فيتبرؤون منهم ويقولون: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك الآن أنه ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ يشهد بأن لك شريكًا إنه لا شريك لك.

(٤٨) ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي غاب عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ﴾ في الدنيا، ﴿وَظَنُّوا۟﴾ أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي مهرب من عذاب الله.

هداية الآيتين:

١ - استئثار الله تعالى بعِلْم الغيب وخاصة علم متى تقوم الساعة.

٢ - إحاطة علم الله تعالى بكل شيء فما تخرج من ثمرة من أوعيتها ولا تحمل من أنثى ولا تضع حملها إلا بعلم الله تعالى وإذنه.

٣ - براءة المشركين يوم القيامة من شركهم، وغياب شركائهم عنهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٩ ـ ٥١]

(٤٩) ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾: أي لا يمل ولا يكل من سؤال طلب المال والصحة والعافية. ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾: أي المرض والفقر وغيرهما فيؤوس من رحمة الله قنوط ظاهر عليه اليأس.

(٥٠) ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾: أي من بعد شدة أصابته وبلاء نزل به. ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾: أي استحققته بعملي ومما لي من مكانة. ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾: أي ينكر البعث ويقول: ما أظن الساعة قائمة. ﴿إِنَّ

---

(١) فقد روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**». وأيضاً فالله هو الملك وهل ما يفعله الملك العليم الرحيم العادل في ملكه وعبيده يقال له ظلم؟ والجواب: لا.

(٢) روي أن المشركين قالوا: يا محمد إن كنت نبياً فخبرنا متى قيام الساعة، فنزلت: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ والرد الإرجاع.

(٣) الأكمام: جمع كم بكسر الكاف وتشديد الميم والكُمة بضم الكاف والتأنيث مثله وهو الجف وكفرى الطلع يقال له: كفه.

(٤) فهذه ثلاثة أمور وجب رد علمها إلى الله تعالى: الأول: علم ما تخرجه أكمام النخل من الثمر بقدره وجودته وثباته وسقوطه والثاني: حمل الأنثى من الناس والحيوان والتي تلقح والتي لا تلقح، والثالث: وقت وضع الأجنة فهذه وجب رد عِلمها إلى الله تعالى إذ لا يعلمها إلا هو كسائر الغيوب.

(٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾: متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يوم يناديهم، لما سألوا عن الساعة أعلمهم أن أمر علم وقتها مرده إلى الله وحده فناسب ذكر بعض أحداثها فذكر لهم ذلك.

لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾: أي وعلى فرض صحة ما قالت الرسل من البعث إن لي عند الله الجنة.

(٥١) ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: أي أعرض عن الشكر ونأى بجانبه متبخترًا مختالاً في مشيته. ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾: أي فهو ذو دعاء لربه طويل عريض يا رباه يا رباه.

معنى الآيات:

(٤٩) يخبر تعالى عن الإنسان(١) الكافر الذي لم تزك نفسه ولم تطهر روحه بالإيمان وصالح الأعمال أنه لا يسأم ولا يمل من دعاء الخير(٢) أي المال والولد والصحة والعافية فلا يشبع من ذلك بحال. ولئن مسه الشر من ضر وفقر ونحوهما فهو يؤوس(٣) قنوط يؤوس من الفرج وتبدل الحال من عسر إلى يسر قنوط ظاهر عليه آثار اليأس في منطقه وفي حاله كله هذا ما تضمنته الآية الأولى (٤٩): ﴿لَّا يَسْـَٔمُ(٤) ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝﴾.

(٥٠) وأما الآية (٥٠) فإن الله تعالى يخبر أيضًا عن الإنسان الكافر إذا أذاقه الله رحمة منه من مال وصحة واجتماع شمل مثلاً، وذلك من بعد ضراء مسته من مرض وفقر ونحوهم ليقولن لجهله وسفهه: ﴿هَٰذَا لِى﴾ أي استحققته بما لي من جهد ومكانة وعلم وإذا ذكر بالساعة من أجل أن يرفق أو يتصدق يقول ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كما تقولون وإن قامت على فرض صحة قولكم ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ﴾ أي عند الله ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي للحالة الحسنى من غنى وغيره(٥) وجنة إن كانت كما تقولون. وقوله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي يوم القيامة عند عرضهم علينا، ولنذيقهم من عذاب غليظ يخلدون فيه لا يخرجون منه أبدًا.

(٥١) وقوله تعالى في الآية الأخيرة (٥١): ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بنعمة المال والولد والصحة أعرض عن ذكرنا وشكرنا وتخلى عن طاعتنا ونأى(٦) بجانبه متباعدًا متبخترًا مختالاً يكاد يضاهي الطاووس في مشيته. وإذا سلبناه ذلك ومسه الشر من مرض وفقر وجهد وبلاء فهو ذو دعاء عريض لنا يا رب يا رب يا رب. هذا ليس الرجل الأول الذي ييأس ويقنط، ذاك كافر، وهذا مؤمن ضعيف الإيمان جاهل لا أدب عنده ولا خلق. وما أكثر هذا النوع من الرجال في المسلمين اليوم والعياذ بالله تعالى فالأول عائد إلى ظلمة نفسه بالكفر، وهذا عائد إلى سوء تربيته وسوء خلقه وظلمة جهله.

هداية الآيات:

١ - بيان حال الإنسان قبل الإيمان والاستقامة فإنه يكون أحط المخلوقات قدرًا وأضعفها شأنًا.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر بعض الأحداث فيها.

٣ - ذم اليأس والقنوط والكبر والاختيال، والكفر للنعم ونسيان المنعم وعدم شكره.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٢ - ٥٤]

(٥٢) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: أي أخبروني إن كان القرآن من عند الله كما قال النبي ﷺ.

﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾: أي ثم كفرتم به بعد العلم أنه من عند الله. ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾: أي

---

(١) قيل: المراد بالإنسان الكافر هنا: الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف. والآية تحمل وصفاً للإنسان الكافر أياً كان والمراد من الدعاء: الطلب والرغبة الملحة.

(٢) شاهده من السنة قوله ﷺ في الصحيح: «**لو أن لابن آدم واديين من ذهب لتمنى الثالث ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب**».

(٣) اليأس: كالقنوط من رحمة الله كفر بالمؤمن لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

(٤) اشتملت الآية على خلقين عجيبين: الأول: خلق البطر بالنعمة والغفلة عن الشكر لله تعالى والثاني: اليأس والقنوط من رجوع النعمة بعد فقدها.

(٥) يروى عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: للكافر أمنيتان أما في الدنيا فيقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وأما في الآخرة فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٦) النأي: البعد وهو كناية عن عدم التفكر في المنعم عليه ليشكره فعبر عن هذا بالبعد.

من يكون أضل منكم وأنتم في شقاق بعيد؟ لا أحد.

(٥٣) ﴿فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾: أي في أقطار السموات والأرض من المخلوقات وأسرار خلقها وفي أنفسهم من لطائف الصنعة وعجائب وبدائع الحكمة. ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾: أي أن القرآن كلام الله ووحيه إلى رسوله ﷺ حقًا، وأن الإسلام حق.

(٥٤) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾: أي في شك من البعث الآخر حيث يعرضون على الله تعالى. ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾: أي علمًا وقدرة وعزة وسلطانًا.

معنى الآيات:

(٥٢) أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمكذبين بالوحي الإلهي الذي يمثله القرآن الكريم حيث قالوا فيه شعر وسحر وأساطير الأولين يأمره أن يقول لهم مستفهمًا لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ أي القرآن الذي كذبتم به ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وكفرتم به أي كذبتم؟ من يكون أضل منكم وأنتم تعيشون في شقاق[١] بعيد اللهم لا أحد يكون أضل منكم عن طريق الهدى إذًا فلمَ لا تثوبون إلى رشدكم وتؤمنون بآيات ربكم فتكملوا عليها وتسعدوا.

(٥٣) ثم قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾[٢] الدالة على صدقنا وصدق رسولنا ﷺ فيما أخبرناهم به ودعوناهم إليه من الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء وذلك في الآفاق[٣] أي من أقطار السموات والأرض مما ستكشف عنه الأيام من عجائب تدبير الله ولطائف صنعه، وفي أنفسهم[٤] أيضًا أي في ذواتهم حتى يتبين لهم أنه الحق، من ذلك فتح القرى والأمصار وانتصار الإسلام كما أخبر به القرآن، ووقعة بدر وفتح مكة من ذلك وما ظهر لِحَدّ الآن من كشوفات في الآفاق وفي الأنفس مما أشار إليه القرآن ما هو أعجب من ذلك وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٥] فنظام الزوجية الساري في كل جزئيات الكون شاهد قوي على صدق القرآن وأنه الحق من عند الله، وأن الله حق وأن الساعة حق.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ[٦] يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ هذا توبيخ لهؤلاء المكذبين بإعلامهم أن شهادة الله كافية في صدق محمد ﷺ وما جاء به إن الله هو المخبر بذلك والآمر بالإيمان به فكيف يطالبون بالآيات على صدق القرآن ومن نزل عليه والله المرسل للرسول ﷺ والمنزل للكتاب.

(٥٤) وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ إعلام منه تعالى بما عليه القوم من الشك في البعث والجزاء وهو الذي سبب لهم كثيرًا من أنواع الشر والفساد. وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُ[٧] بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ علمًا وقدرة وعزة وسلطانًا فما أخبر به عنهم من علمه وما سيجزيهم به من عذاب إن أصروا على كفرهم من قدرته وعزته. ألا فليتق الله امرؤ مصاب بالشك في البعث وكل الظواهر دالة على حتميته ووقوعه في وقته المحدد له.

هداية الآيات:

١ - التنديد بالكفر بالقرآن والتكذيب بما جاء فيه من الهدى والنور.

٢ - لا أضل ممن يكذب بالقرآن لأنه يعيش في خلاف وشقاق لا أبعد منه.

٣ - صدق وعد الله تعالى حيث

---

(١) الشقاق: العداء والمراد به العداء لله والرسول ﷺ والمؤمنين الناجم عن ردهم القرآن وتكذيبهم بالوحي المثبت للنبوة المحمدية.

(٢) الآيات: تشمل آيات القرآن والآيات الخارجة عن القرآن.

(٣) ﴿الْآفَاقِ﴾ جمع أفق: الناحية من الأرض المتميزة عن غيرها والناحية من قبة السماء.

(٤) قال القرطبي: ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما، وفي أذنيه وكيف يفرق بين الأصوات المختلفة إلى غير ذلك.

(٥) سورة الذاريات، الآية ٤٩.

(٦) المعنى: تكفيك شهادة ربك بصدقك فلا تلتفت إلى تكذيبهم.

(٧) وصف الله بالمحيط هو كذلك محيط بعلمه وقدرته وقهره لكل خلقه.

أرى المشركين وغيرهم آياته الدالة على وحدانيته وصحة دينه وصدق أخباره ما آمن عليه البشر الذين لا يعدون كثرة.

٤ - ما من اكتشاف ظهر ويظهر إلا والقرآن أدخله في هذه الآية سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم.

٥ - الإشارة إلى أن الإسلام سيعلم صحته وسيدين به البشر أجمعون في يوم ما من الأيام.

٦ - تقرير البعث والجزاء. ومظاهر قدرة الله تعالى المقررة له.

❁ ❁ ❁

سورة الشورى
مكية
وآياتها ثلاث وخمسون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ - ٦]

(١) - (٢) ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾[1]: هذه أحد الحروف المقطعة تكتب هكذا: حم عسق وتقرأ هكذا: حَامِيمْ عَيْنْ سِينْ قَافْ.

(٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ[2] إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾: أي مثل ذلك الإيحاء يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الذي يوحى إليك.

(٤) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي خلقًا وملكًا وتصرفًا. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: أي العزيز في انتقامه من أعدائه الحكيم في تدبيره لأوليائه.

(٥) ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾: أي يتشققن من عظمة الرحمن وجلاله.

(٦) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: أي آلهة يعبدونها. ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾: أي يحصي لهم أعمالهم ويجزيهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾: أي ولست موكلًا بحفظ أعمالهم وإنما عليك البلاغ.

معنى الآيات:

(١) - (٢) قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾ الله أعلم بمراده به وقد تقدم التنبيه إلى أن هذا من المتشابه الذي يجب الإيمان به وتفويض أمر فهم معناه إلى منزله وهو الله سبحانه وتعالى وقد ذكرنا أن له فائدتين جليلتين تقدمتا في كثير من فواتح السور المبدوءة بمثل هذه الحروف المقطعة فليرجع إليها.

الجزء الخامس والعشرون — سورة الشورى

ترتيبها ٤٢ — سورة الشورى — آياتها ٥٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

٤٨٣

(٣) وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ[3] إِلَيْكَ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء بأصول الدين الثلاثة وهي التوحيد والنبوة والبعث يوحي إليك بمعنى أوحى إليك وإلى الذين من قبلك من الرسل الله العزيز[4] في انتقامه من أعدائه الحكيم في تدبيره لأوليائه.

(٤) وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[5] وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلقًا وملكًا وهو العلي أي ذو العلو المطلق على خلقه العظيم في ذاته وشأنه وحكمه وتدبيره سبحانه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

---

(١) إن قيل: لم ما وصلت حمٓ عٓسٓقٓ ببعضهما كما وصلت في الٓمٓصٓ، الٓمٓرٓ؟ فالجواب: أن عٓسٓقٓ ثلاثة أحرف فلم توصل بـ حمٓ بخلاف الٓمٓصٓ والمٓرٓ فإن الموصول حرف واحد وهو الصاد والراء.

(٢) العدول عن صيغة الماضي إلى المضارع إيذان بأن إيحاء الرسول ﷺ متجدد لا ينقطع مدة حياة النبي ﷺ.

(٣) المعنى الإجمالي لهذه الجملة هو كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فهو تشبيه إيحاء بإيحاء.

(٤) ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: وصفان لاسم الجلالة هما مقتضى الوحي الإلهي إذ الوحي يكون من عزيز لا يحال بين إرادته، وحكيم يضع الأمور في مواضعها فلا يعاب عليه اختياره للوحي إليك.

(٥) هذه الجملة مقررة لما تقدم من جلال الله وكماله وعلمه وحكمته الموجبة لتوحيده ولقائه وبعثه رسوله ﷺ.

(٥) وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ[١] ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي يتصدعن ويتشققن من فوقهن من عظمة الرب تبارك وتعالى والملائكة يسبحون[٢] بحمد ربهم أي يصلون له ويستغفرون لمن في الأرض أي يطلبون المغفرة للمؤمنين فهذا من العام الخاص بما في صورة المؤمن إذ فيها ويستغفرون للذين آمنوا. وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إخبار بعظيم صفاته عز وجل وهما المغفرة والرحمة يغفر لمن تاب من عباده ويرحم بالرحمة العامة سائر مخلوقاته في هذه الحياة ويرحم بالرحمة الخاصة عباده الرحماء وسائر عباده المؤمنين في دار السلام.

(٦) وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ[٣] مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي شركاء آلهة يعبدونهم هؤلاء الله حفيظ عليهم فيحصي عليهم أعمالهم ويجزيهم بها يوم القيامة، وليس على الرسول ﷺ من ذلك شيء إن عليه إلا البلاغ وقد بلغ وهو معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتجزيهم بها وفي الآية تسلية للرسول ﷺ وتخفيف عليه لأنه كان يشق عليه إعراض المشركين وإصرارهم على الشرك بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ ـ وحدة الوحي بين سائر الأنبياء إذ هي تدور على التوحيد والنبوة والبعث والجزاء والترغيب في العمل الصالح، والترهيب من العمل الفاسد.

٢ ـ بيان عظمة الله تعالى وجلاله وكماله حتى إن السموات تكاد يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمده تعالى ويستغفرون للمؤمنين[٤].

٣ ـ تسلية الرسول ﷺ والتخفيف عنه بأنه غير موكل بحفظ أعمال المشركين ومجازاتهم عليها إنما هو الله تعالى، وما على الرسول ﷺ إلا البلاغ المبين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ ـ ٩]

(٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي ومثل ذلك الإيحاء إليك وإلى من قبلك أوحينا إليك. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: أي بلسان عربي. ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أي علة الإيحاء هي إنذارك أهل أم القرى مكة ومن حولها من القرى أي تخوفهم عذاب الله إن بقوا على الشرك. ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾: أي وتنذر الناس من يوم القيامة إذ هو يوم يجمع الله فيه الخلائق. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي لا شك في مجيئه وجمع الناس فيه. ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾: أي المؤمنون المتقون. ﴿وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾: أي الكافرون.

(٨) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: أي على دين الإسلام وبذلك يكون الجميع في الجنة. ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: أي في الإسلام أولاً ثم في الجنة ثانياً. ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: أي المشركون ليس لهم من ولي يتولاهم ولا نصير ينصرهم فهم في النار.

(٩) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: أي بل اتخذوا من دونه تعالى شركاء ألهوهم من دون الله. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾: أي الولي الحق ومن عداه فلا تنفع ولايته ولا تضر.

معنى الآيات:

(٧) قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا[٥] عَرَبِيًّا﴾ أي ومثل ذلك الإيحاء

---

(١) قرأ نافع وحده: ﴿يكاد﴾ بالياء وقرأ باقي القراء حفص وغيره بالتاء وسبب تفطرهن هو الخوف من عظمة الرب قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: «فرقاً» أي: خوفاً.

(٢) أي: ينزهونه عما لا يجوز وصفه به وعمّا لا يليق بجلاله، وقيل: يتعجبون من جرأة المشركين فيسبّحون.

(٣) لما أقام تعالى الحجج والبراهين على توحيده ونبوة رسوله ﷺ فسبحت له الملائكة واستغفرت للمؤمنين الموحدين وبقي المشركين على اتخاذهم أولياء كأنما قال لرسوله ﷺ: لا يهمك أمرهم فإن الله يحصي أعمالهم ويحفظها لهم ويجزيهم بها.

(٤) جائز أن يكون المستغفرين للمؤمنين حملة العرش وقد ورد هذا في السنة، وأن يكون غيرهم يستغفرون لمن في الأرض عندما يرون كفرهم وباطلهم وجرأتهم على ربهم يطلبون لهم عدم المؤاخذة إذ لو آخذهم بذنوبهم لأهلكهم.

(٥) القرآن: مصدر نحو: غفران، وأطلق على المقروء مبالغة في الاتصاف بالمقروئية لكثرة ما يقرأه القارئون لحسنه وفوائده وعظيم مثوبته.

الذي أوحينا إليك وإلى الذين من قبلك أوحينا إليك قرآنا عربيًا أي بلسان عربي يفهمه قومك لأنه بلسانهم ﴿لِتُنذِرَ﴾ به أي تخوف ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾[1] ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من الناس عاقبة الشرك والكفر والظلم والفساد وتنذر أيضًا الناس يوم الجمع وهو يوم القيامة فإنه يوم هول عظيم وشر مستطير ليتوقوه بالإيمان والتقوى. إنه يوم يكون فيه الناس والجن فريقين لا ثالث لهما: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[2] بإيمانه وتقواه لله بفعل أوامره وترك نواهيه، ﴿وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ بشركه وكفره بالله وعدم تقواه فلا امتثل أمرًا ولا اجتنب نهيًا.

(٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ﴾[3] ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي في الدنيا على دين الإسلام الذي هو دين آدم فنوح فإبراهيم فسائر الأنبياء موسى وعيسى ومحمد ﷺ. إذ هو عبارة عن الإيمان بالله وبما أمر الله بالإيمان به، والانقياد لله ظاهرًا وباطنًا بفعل محابه تعالى وترك مكارهه ولو كانوا في الدنيا على ملة الإسلام لكانوا في الآخرة فريقًا واحدًا وهو فريق الجنة ولكن لم يشأ ذلك لحكم عالية فهو تعالى يدخل من يشاء في رحمته في الدنيا وهي الإسلام وفي الآخرة هي الجنة، والظالمون أي المشركون الذين رفضوا التوحيد والإسلام لله ما لهم من ولي ولا نصير فهم إذًا في عذاب السعير.

(٩) وقوله تعالى: ﴿أَمِ﴾[4] ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي الظالمون أولياء من دون الله ليشفعوا لهم جهلًا منهم بأنه لا يشفع أحد إلا بإذن الله ورضاه فعلوا ذلك وما كان لهم ذلك لأن الولي الحق هو الله فلمَ لا يتخذونه وليًا، وهو الولي الحميد وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير فمن أحق بأن يُتولّى من يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير أم من لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، والجواب معلوم، ولا يهلك على الله إلا هالك.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية بإثبات الوحي الإلهي.

٢ - شرف مكة بتسميتها أم القرى أي أم المدن والحواضر.

٣ - مشروعية التعليل للأفعال والأحكام.

٤ - انقسام الناس يوم القيامة إلى سعيد وشقي لا غير.

٥ - لم يشأ الله أن يجعل الناس أمة واحدة لحكم عالية علمها إليه سبحانه وتعالى.

٦ - من طلب ولاية غير الله هلك ومن والى الله دون من سواه كفاه الله ما أهمه في دنياه وأخراه.

الجزء الخامس والعشرون — سورة الشورى

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

٤٨٤

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ ـ ١٢]

(١٠) ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾: أي

(١) كنيت مكة بـ: أم القرى لأنها أقدم المدن العربية وقيل: لأن الأرض دحيت من تحتها.

(٢) جملة ﴿فَرِيقٌ﴾ إلخ. ابتدائية لأنها جواب لمن سأل عن حال الناس وهم مجتمعون في عرصات القيامة فأجيب بأنهم فريقان ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

(٣) سبق هذا الكلام مستأنفاً استئنافاً ابتدائياً لغرض تسلية الرسول ﷺ والمؤمنين لما ينالهم من هم وكرب من عدم إيمان من يدعونهم إلى الإيمان ولم يؤمنوا.

(٤) ﴿أَمِ﴾ للإضراب الانتقالي والاستفهام الإنكاري، ينكر على المشركين اتخاذهم أولياء من دون الله لا تنفعهم أي نفع، ويتركون الله الولي الحميد فهو أحق بأن يتخذ ولياً في الدنيا والآخرة.

من أمور الدين والدنيا مع الكفار أو مع المؤمنين. ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: هو الذي يقضي فيه في الدنيا بما ينزل من وحي على رسوله ﷺ وفي الآخرة إذ الحكم له دون غيره. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾: أي قل لهم يا رسولنا ذلكم الحاكم العدل العظيم الله ربي عليه توكلت أي فوضت أمري إليه، وإليه لا إلى غيره أرجع في أموري كلها.

(١١) ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق. ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: أي بأن جعلكم ذكرًا وأنثى، ومن الأنعام كذلك. ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾: أي يخلقكم في هذا التدبير وهو من الذكر والأنثى يخرجكم. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: أي ليس مثل الله شيء إذ هو الخالق لكل شيء فلا يكون مخلوق مثله بحال من الأحوال. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: أي السميع لأقوال عباده العليم بأعمالهم وأحوالهم.

معنى الآيات:

(١٠) يقول تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ[١] فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ من أمور الدين والدنيا أيها الناس فحكمه إلى الله تعالى هو الذي يحكم فيه بالعدل فردوه إليه سبحانه وتعالى فإنه يقضي بينكم بالحق. وهنا أمر رسوله ﷺ أن يقول للمشركين ذلكم المذكور بصفات الجلال والكمال الحكم العدل الذي يقضي ولا يقضى عليه الله ربي الذي ليس لي رب سواه عليه توكلت ففوضت أمري إليه واثقًا في كفايته وإليه وحده أنيب أي أرجع في أموري كلها، ثم واصل ذكر صفاته الفعلية فقال فاطر السموات والأرض أي خالق السموات السبع والأرض مبدعهما من غير مثال سابق.

(١١) ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ[٢] أَزْوَٰجًا﴾ إذ خلق حواء من ضلع آدم ثم جعلكم تتناسلون من ذكر وأنثى ومن الأنعام أزواجًا أيضًا وهما الذكر والأنثى، وقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي[٣] يخلقكم فيه أي في هذا النظام نظام الذكر والأنثى كأن الذكورة والأنوثة معمل من المعامل يتم فيه خلق الإنسان والحيوان فسبحان الخلاق العليم.

وقوله: ﴿لَيْسَ[٤] كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ[٥]﴾ هذا تعريف عرف تعالى به نفسه ليعرف بين عباده وهو أنه عز وجل ليس مثله شيء أي فلا شيء مثله فعرف بالتفرد بالوحدانية فالذي ليس له مثل ولا مثله شيء هو الله ذو الأسماء الحسنى والصفات العليا وهو السميع لكل الأصوات العليم بكل الكائنات.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ[٦] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له مفاتيح خزائن السموات والأرض، وله مغاليقها فهو تعالى يبسط الرزق لمن يشاء امتحانًا ويضيق ابتلاء، لأنه بكل شيء عليم فلا يطلب الرزق إلاّ منه، ولا يلجأ فيه إلا إليه.

هداية الآيات:

١ - وجوب ردّ ما اختلف فيه إلى الله تعالى ليحكم[٧] فيه وهو الرد إلى الكتاب والسنة.

---

(١) قول القرطبي: هذه حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين: «ما هُوَ بظاهر»، بل هو إرشاد الله لرسوله ﷺ والمؤمنين أن يقولوا لمن خالفهم من المشركين وأهل الكتاب: إنَّ الله قد حكم بصحة الإسلام فهو الدين الذي يجب أن يدين به الإنسان لربه عز وجل لا غيره من الأديان الباطلة.

(٢) الجملة في موضع نصب على الحال من ضمير فاطر.

(٣) الذرء: بث الخلق وتكثيره والمضارع: يذرؤكم لإفادة الحدوث والتجدد المستمرين.

(٤) ومعنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: ليس مثله شيء، فالكاف مقحمة لا غير، ولما كانت للتشبيه ومثله كذلك فهي إذاً لتأكيد نفي الشبيه لله تعالى.

(٥) لما كانت جملة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ صفة سلبية أعقب عليها بصفات إيجابية وهو كونه تعالى سميعاً بصيراً، وهكذا الحكم في صفات الله تعالى فيثبت له ما أثبته هو لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من الصفات العلى وينفى عنه من صفات النقص كالمثلية والتشبيه ما نفاه تعالى هو عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ.

(٦) المقاليد: جمع إقليد أو مقلاد على غير قياس وهو المفتاح، والمقاليد للخزائن وهي ما أودع الله تعالى من أرزاق السماوات والأرض لعباده، فلذا هو يبسط الرزق ويقدر حسب علمه وحكمته.

(٧) شاهده قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ «الآية من سورة النساء».

٢ - وجوب التوكل عليه والإنابة إليه في كل الأمور.

٣ - تنزيه الله تعالى عن مشابهته لخلقه مع وجوب الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

٤ -وجوب الإيمان بأن الله هو الرزاق بيده مفاتح خزائن الأرزاق فمن شاء وسع عليه، ومن شاء ضيق، وأنه يوسع لحكمة ويضيق لأخرى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣، ١٤]

﴿١٣﴾ ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي شرع لكم من الدين الذي وصى به نوحًا والذي أوحينا به إليك. ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾: أي والذي وصينا باقي أولي العزم وهم إبراهيم وموسى وعيسى وهو أن يعبدوا الله وحده بما شرع من العبادات. ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾: أي بأن أقيموا الدين الذي شرع لكم ولا تضيعوه ولا تختلفوا فيه. ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾: أي عظم على كفار قريش ما تدعوهم إليه وهو لا إله إلا الله محمد رسول الله. ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾: أي يختار إلى الإيمان به والعمل بطاعته من يريده لذلك. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾: أي ويوفق لطاعته من ينيب إليه في أموره ويرجع إليه في جميع شأنه، بخلاف المعرضين المستكبرين.

﴿١٤﴾ ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: أي حملهم البغي على التفرق في دين الله. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: أي ولولا ما قضى الله به من تأخير العذاب على هذه الأمة إلى يوم القيامة. ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: أي لحكم الله بينهم فأهلك الكافرين وأنجى المؤمنين. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: أي وإن الذين أورثوا الكتاب من بعد الأولين وهم اليهود والنصارى ومشركو العرب. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾: أي لفي شك مما جئتهم به من الدين الحق وهو الإسلام.

معنى الآيتين:

﴿١٣﴾ يخاطب تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين فيقول وقوله الحق: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾[1] إذ هو أول حامل شريعة من الرسل والذي أوحينا إليك يا محمد وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى من أولي العزم من الرسل ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾[2] وهو دين واحد قائم على الإيمان والتوحيد والطاعة لله في أمره ونهيه وإقامة ذلك بعدم التفريط فيه أو في شيء منه، وعدم التفرق فيه، لأن التفرق فيه بسبب تضييعه كلًا أو بعضًا.

وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ[3] عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي عظم عليهم ولم يطيقوا حمله ما تدعوهم إليه من عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الأصنام، إذًا فادعهم واصبر على أذاهم والله يجتبي إليه أي يختار للإيمان به وعبادته من يشاء ممن لا يصرون على الباطل، ولا يستكبرون عن الحق إذا عرفوه، ويهدي إليه أي ويوفق لطاعته مَنْ مِنْ شأنه الإنابة والرجوع إلى ربّه في أموره كلها.

﴿١٤﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾[4] أي وما تفرق العرب واليهود والنصارى في دين الله فآمن بعض وكفر بعض إلا من بعدما جاءهم العلم الصحيح يحمله القرآن الكريم ونبيّه محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. والحامل لهم على

---

(١) المراد مما شرع لنا هو الإيمان به تعالى رباً وإلهاً وعبادته وحده وترك عبادة ما سواه، أما الأحكام فتختلف بحسب الأمم والأزمان فهذه الآية هي كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

(٢) ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟﴾ في محل رفع خبر. أي: هو إقامة الدين وعدم التفرق فيه أي: الموصى به هو إقامة الدين، وإقامته: جعله قائماً تعتقد عقائده وتؤدى عبادته وتقام أحكامه لا يسقط منه شيء.

(٣) قال قتادة: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فاشتد عليهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وضاق بها إبليس وجنوده فأبى الله عز وجل إلا أن ينصرها ويعليها ويظهرها على من ناوأها.

(٤) قال ابن عباس: يعني قريشاً وهو صحيح إذ كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾. ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ إلا أن دخول أهل الكتاب في هذا الخطاب وارد وله شواهد. إذ الآية مبنية لسنة من سنن الله تعالى وهي كونُ الأمة متحدة على الباطل فإذا جاءها الحق قبله أناس ورفضه آخرون فيكون التفرق.

ذلك هو البغي والحسد. وقوله ولولا كلمة سبقت من ربك وهو عدم معالجة هذه الأمة المحمدية بعذاب الإبادة والاستئصال، وترك عذابهم إلى يوم القيامة لولا هذا لعجل لهم العذاب من أجل اختلافهم فأهلك الكافرين وأنجى المؤمنين. وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ[1] مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي فرغ منهم بالفصل بينهم بإهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾[2] أي من بعد اليهود والنصارى وهم العرب إذ أنزل الله فيهم كتابه القرآن الكريم لفي شك منه أي من القرآن والنبي ﷺ والدين الإسلامي مريب أي بالغ الغاية في الريبة والاضطراب النفسي، كما أن اللفظ يشمل اليهود والنصارى إذ هم أيضًا ورثوا الكتابين عمن سبقهم وأنهم فعلاً في شك من القرآن ونبيّه ﷺ والإسلام وشرائعه.

هداية الآيات:

١ - دين الله واحد وهو الإيمان والاستقامة على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

٢ - حرمة الاختلاف في دين الله المسبب تضييع الدين كلاً أو بعضًا.

٣ - مرد التفرق في الدين إلى الحسد والبغي بين الناس، فلو لم يحسد بعضهم بعضًا ولم يبغ بعضهم على بعض لما تفرقوا في دين الله ولأقاموه متجمعين فيه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥، ١٦]

(١٥) ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾: أي فإلى ذلك الدين الذي شرع الله لكم ووصى به نوحًا وأوحاه إليك يا محمد فادع عباد الله. ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾: أي استقم على العمل به ولا تزغ عنه واثبت عليه كما أمرك الله. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾: أي ولا تتبع أهواء المشركين وأهل الكتاب فتترك الحنيفية التي بعثت بها فإنها الحق. ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾: أي ولست كالذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾: أي أمرني ربي أن أحكم بينكم بالعدل الذي هو خلاف الجور. ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: أي خالقنا وخالقكم ورازقنا ورازقكم وإلهنا وإلهكم. ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾: وسيجزي كل منا بعمله خيرًا كان أو شرًا. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾: أي ما هناك حاجة إلى المحاجة الآن بعد ظهور الحق. ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾: أي يوم القيامة.

(١٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾: أي يجادلون في دين الله نبيه محمدًا ﷺ. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾: أي بالإيمان لظهور معجزته وهم اليهود. ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾: أي باطلة عند ربهم. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾: أي من الله ولهم عذاب شديد يوم القيامة.

معنى الآيتين:

(١٥) قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾[3] أي فإلى ذلك الدين الحق الذي هو الإسلام الذي شرعه الله لكم ووصى به نوحًا وأوحاه إليك فادع جميع الناس عربهم وعجمهم فإنه دين الله الذي لا يقبل دينًا سواه، ولا يكمل الإنسان في أخلاقه ومعارفه وآدابه ولا يسعد في الدارين إلا عليه واستقم[4] عليه[5] كما أمرك ربك، فلا تزغ عنه ولا تعدل به غيره فإنه الصراط المستقيم الذي لا يزيغ عنه

---

(١) أي: في تأخير العذاب على مستحقيه إلى الموعد الذي حدده لهم في الدنيا أو في الآخرة لكان عز وجل حكم بينهم فأهلك الكافرين وأنجى المؤمنين.

(٢) أل في الكتاب: للجنس ليشمل التوراة والإنجيل معاً.

(٣) قال القرطبي: اللام هنا بمعنى: إلى وله نظائر مثل ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ أي: إليها وأولى أن تكون اللام للتعليل أي: لأجل ما ذكر من الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه فادع.

(٤) الاستقامة: الاعتدال والسين والتاء فيها للمبالغة مثل أجاب استجاب والمراد هنا الاستقامة المعنوية وهي ملازمة الآداب الرفيعة والأخلاق الفاضلة والتمسك بأهداب الشريعة.

(٥) ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾: هذه الكاف كالتي في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ أعطيت معنى التقليل مثل: كما صليت على إبراهيم وما في التفسير أولى من هذا فإن المراد: على نحو ما أمرك لا تخالفه.

الجزْءُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ الشُّورَىٰ

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

٤٨٥

إلا هالك ولا تتبع أهواء المشركين ولا أهواء أهل الكتاب. وقل في صراحة ووضوح آمنت بما أنزل الله من كتاب فلا أومن ببعض وأكفر ببعض كما أنتم عليه معشر اليهود والنصارى، وقل لهم أمرني ربي أن أعدل[1] بينكم في الحكم إذا تحاكمتم إليَّ، كما أني لا أفرق بينكم إذ أعتبركم على الكفر سواء فكل من لم يكن على الإسلام الذي كان عليه نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والذي عليه أنا وأصحابي اليوم فهو كافر من أهل النار.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي أمرني أن أقول لكم هذا الله ربنا وربكم إذ لا رب سواه فهو رب كل شيء ومليكه، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم[2] وسيُجزى كل منا بعمله السيئة بمثلها والحسنة بعشر أمثالها، إلا أن الكافر لا تكون له حسنة ما دام قد كفر بأصل الدين فلم يؤمن بالله ولقائه، ولا بوحيه ولا برسوله ﷺ وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي اليوم إذ ظهر الحق ولاح الصبح لذي عينين فلا داعي إلى الجدال والخصومة معكم يا أهل الكتابين من يهود ونصارى الله يجمع بيننا يوم القيامة إذ المصير في النهاية إليه لا إلى غيره وسوف يحكم بيننا فيما اختلفنا فيه فيقضي لأهل الحق بالنجاة من النار ودخول الجنة ويقضي لأهل الباطل بالنار والخلود فيها.

﴿١٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ[3] فِى ٱللَّهِ﴾ أي في دين الله النبي ﷺ والمؤمنين يريدون أن يردوهم إلى باطلهم من بعد ما استجيب للرسول ﷺ ودخل الناس في دين الله أفواجًا، هؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم أي باطلة، وعليهم غضب أي من ربهم ولهم عذاب شديد في الدنيا الآخرة. هذه الآية نزلت في يهود بالمدينة نصبوا أنفسهم خصومًا لأصحاب رسول الله ﷺ يجادلونهم يريدون تشكيكهم في الإسلام والعودة بهم إلى وثنية الجاهلية وكان هذا قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة فردّ تعالى عليهم وأسكتهم بهذه الآية متوعدًا إياهم بالغضب والعذاب الشديد.

هداية الآيتين:

١ - وجوب الدعوة إلى الإسلام بين أمم العالم إذ لا نجاة للبشرية إلا بالإسلام.

٢ - حرمة اتباع أهواء أهل الأهواء[4] والسير معهم وموافقتهم في باطلهم.

٣ - وجوب الاستقامة على الإسلام عقائد وعبادات وأحكام قضائية وآداب وأخلاق.

٤ - تعين ترك الحجاج والمخاصمة

---

(١) هذا من الغيب الذي أخبر به القرآن قبل وقوعه فكان كما أخبر فقد نصر الله رسوله ﷺ وحكم اليهود وعدل بينهم وذلك في المدينة وخيبر تيماء والآية نزلت بمكة.

(٢) هذه صورة من صور الإنصاف والعدل.

(٣) قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ الآية قال: هؤلاء رجال طمعوا أن تعود الجاهلية بعد ما دخل الناس في الإسلام. وقيل: إنهم اليهود والنصارى، والكل جائز ويقع وواقع وما في التفسير أوضح وأصح.

(٤) الأهواء: جمع هوى وهو الحب وغلب على حب ما لا نفع فيه إذ هو نابع عن ميل نفساني مناف للخير والعدل ويغلب إطلاق لفظ العشق عليه.

مع أهل الكتاب وكذا أهل الأهواء والبدع لأنا على الحق وهم على الباطل، فكيف نحاججهم إذ الواجب أن يسلموا وكفى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ ـ ٢١]

(١٧) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي أنزل القرآن متلبسًا بالحق والصدق لا يفارقه أبدًا. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: أي وأنزل الميزان وهو العدل ليحق الحق. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: أي أيُّ شيء يجعلك تدري قرب الساعة إلا أن يكون الوحي الإلهي.

(١٨) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي يطالب المكذبون بها لأنهم لا يخافون ما فيها لعدم إيمانهم به. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾: أي خائفون وذلك لإيمانهم فهم لا يدرون ما يكون لهم فيها من سعادة أو شقاء ولذا هم مشفقون. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾: أي أن الساعة حق واجبة الإتيان لا محالة. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾: أي إن الذين يجادلون في الساعة شاكين في وقوعها.

(١٩) ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: أي برهم وفاجرهم بدليل أنهم يعصونه وهو يرزقهم ولا يعاقبهم.

(٢٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: أي من كان يريد بعمله ثواب الآخرة. ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾: أي نضاعف له ثوابه الحسنة بعشر أمثالها وأكثر. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾: أي من كان يريد بعمله متاع الحياة الدنيا من طيباتها. ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾: أي نعطه منها ما قدر له وليس له في الآخرة من حظ ولا نصيب.

(٢١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾: أي بل لهم شركاء من الشياطين شرعوا لهم من الدين. ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾: أي ما لم يشرعه الله تعالى وهو الشرك. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾: أي ولولا كلمة الفصل التي حكم الله بها بتأخير العذاب إلى يوم القيامة لأهلكهم اليوم على شركهم وأنجى المؤمنين.

معنى الآيات:

(١٧) قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ[١] بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ يخبر تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بأنه هو الذي أنزل الكتاب أي القرآن بالحق والصدق وأنزل الميزان[٢] وذلك من أجل إحقاق الحق في الأرض وإبطال الباطل فيها، فلا يعبد إلا الله ولا يحكم إلا شرع الله وفي ذلك كمال الإنسانية وسعادتها، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ[٣] لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي أي شيء جعلك تدري قرب الساعة إنه الوحي الإلهي لا غير.

(١٨) وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي الذين لا يؤمنون بالبعث الآخر والجزاء فيه هم الذين يطالبون بإتيانها في غير وقتها ويستعجلون الرسول ﷺ بها بقولهم متى الساعة؟ أما المؤمنون بالبعث والجزاء فإنهم مشفقون أي خائفون من وقوعها لأنهم لا يدرون مصيرهم فيها ولا يعلمون ما هم صائرون إليه من سعادة أو شقاء، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي والمؤمنون يعلمون أن الساعة حق واجبة الوقوع ليحكم الله فيها بين عباده ويجزى كل واحد بعمله، ويقتصُّ فيها من المظلوم للظالم فلذا هي واقعة حتمًا لا تتخلف أبدًا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ يخبر تعالى مؤكدًا الخبر بأن الذين يشككون في الساعة ويجادلون في صحة وقوعها في ضلال عن الهدى والصواب والرشد، بعيد لا يرجى

---

(١) جائز أن يكون ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ اسم جنس يشمل الكتب الإلهية إذ الله تعالى هو منزلها وجائز أن يكون المراد به القرآن. وأل فيه للتفخيم من شأنه كأنه الكتاب الفذ في بابه.

(٢) هل المراد من الميزان العدل أو هو الآلة التي يوزن بها؟ والظاهر أنه الآلة التي يوزن بها إذ بها يتم العدل ولقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ وإنزاله إلهام وضعه والعمل به.

(٣) ﴿وَمَا﴾ استفهامية أي: من جعلك تدري قرب الساعة. قال ابن عباس: ما قال تعالى فيه وما أدراك فقد أدراه، وما قال فيه وما يدريك فإنه لم يدره به.

لهم معه العودة إلى الصواب والهدى في هذه المسألة من مسائل العقيدة.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ يخبر تعالى بأنه ذو لطف بعباده مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم يكفر به الكافرون ويعصيه العاصون وهو يطعمهم ويسقيهم ويعفو عنهم ولا يهلكهم بذنوبهم فهذا من دلائل لطفه بهم. يرزق من يشاء أي يوسع الرزق على من يشاء ويقدر على من يشاء حسب ما تقضيه تربيتهم فلا يدل الغنى على الرضاء ولا الفقر على السخط. وهو تعالى القوي القادر الذي لا يعجزه شيء العزيز في انتقامه ممن أراد الانتقام منه.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ[1] ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾، وهذا من مظاهر لطفه بعباده وهو أن من أراد منهم بعمله ثواب الآخرة وما أعد الله فيها للمؤمنين المتقين نزد له في حرثه أي يضاعف له أجر عمله الحسنة بعشر إلى سبعمائة ويضاعف لمن يشاء ومن كان يريد بعمله حرث الدنيا أي متاع الحياة الدنيا يؤته على قدر عمله للدنيا وهو ما قدره له أزلاً وجعله مقدورًا له لا بد نائله، وما له في الآخرة من نصيب لأنه لم يعمل لها فلا حظ ولا نصيب له فيها إلا النار وبئس القرار.

(٢١) وقوله تعالى في الآية (٢١): ﴿أَمۡ[2] لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ يقول أللمشركين من كفار قريش شركاء من الشياطين شرعوا لهم دينًا وهو الشرك لم يأذن به الله، وهذا إنكار عليهم، إعلان غضب شديد من أجل شركهم الذي زينته لهم الشياطين فصرفتهم عن الدين الحق إلى الدين الباطل، ولذا قال: ولولا كلمة الفصل لقضي بينم أي ولولا أنه تعالى قضى بأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة لعذبهم في الدنيا وأهلكهم فيها قبل الآخرة، وذلك لاتخاذهم دينًا لم يشرعه لهم. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، أي المشركين ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي موجع وذلك يوم القيامة وهذا وعيد للمشركين الذين اتخذوا الجاهلية والشرك وعبادة الأوثان دينًا وأعرضوا عن دين الله الذي أوصى به نوحًا وأوحاه إلى محمد خاتم رسله، كما أوصى به إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

هداية الآيات:

١ - بيان بعض الحكمة في إنزال الكتاب أي القرآن والميزان وهو أن يحكم الناس بالقسط.

٢ - بيان قرب الساعة وأن معرفة قربها كان بالوحي الإلهي مثل اقترب للناس حسابهم.

٣ - المستعجلون بالساعة هم الكافرون الجاحدون لها.

٤ - بيان لطف الله بعباده فله الحمد وله المنة والشكر.

٥ - بيان وجوب إصلاح النيات فإن مدار العمل قبولاً ورفضًا بحسبها.

٦ - حظر التشريع بجميع أنواعه عن غير الله ورسوله ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٢ - ٢٦]

(٢٢) ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾: أي ترى أيها المرء الظالمين يوم القيامة خائفين من جزاء ما عملوا. ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾: أي وهو أي جزاء ما كسبوا من الباطل والشرك نازل بهم معذبون به لا محالة. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ﴾: آمنوا بالله ولقائه وآياته ورسوله ﷺ وأدوا الفرائض واجتنبوا المحارم. ﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾: أي هم في روضات الجنات، والروضة في الجنة أنزه مكان فيها. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾: أي لهم فيها ما تشتهيه أنفسهم وتلذه

---

(١) المراد بالحرث: العمل والكسب، قال الشاعر:

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ... ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

بهذه الآية رد على من زعم أن المرء لو دخل ماء للتبرد فيه أن له أن يصلي به لأن الآية نص في إرادة العمل والثواب بحسب الإرادة التي هي النية.

(٢) ﴿أَمۡ﴾ للإضراب الانتقالي، والاستفهام للتقريع والتوبيخ.

ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾

أعينهم في جوار ربهم.

(٢٣) ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ : أي قل يا رسولنا لقومك لا أسألكم على التبليغ أجرًا أي ثوابًا. ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ : أي لكن أسألكم أن تودوا قرابتي فتمنعوني حتى أبلغ رسالتي. ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً﴾ : أي ومن يكتسب حسنة بقول أو عمل صالح. ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ : أي نضاعفها له أضعافًا.

(٢٤) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ : أي أيقول هؤلاء المشركون إن محمدًا ﷺ افترى على الله كذبًا فنسب إليه القرآن وهو ليس بكلامه ولا بوحيه. ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ : أي إن يشإ الله تعالى يطبع على قلبك وينسيك القرآن أي إن الله قادر على أن يمنعك من الافتراء عليه كما زعم المشركون. ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ﴾ : أي إن من شأن الله تعالى أنه يمحو الباطل. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ : أي بالآيات القرآنية وقد محا الباطل وأحق الحق بالقرآن.

(٢٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ : أي هو تعالى الذي يقبل توبة التائبين من عباده. ﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ : أي لا يؤاخذ بها من تاب منها فهذا هو الإله الحق لا الأصنام التي ليس لها شيء مما هو لله ألبتة.

(٢٦) ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ : أي ويجيب تعالى عباده الذين آمنوا به وعملوا الصالحات إلى ما دعوه فيه فيعطيهم سؤلهم. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾ : أي يعطيهم ما سألوا ويعطهم ما لم يسألوه من الخير. ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ : أي والكافرون بالله ورسوله ﷺ ولقاء الله وآياتهم لهم عذاب شديد.

معنى الآيات:

(٣٢) يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1] يوم القيامة ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أي من جزاء ما كسبوا من الشرك والمعاصي، وهو أي العذاب واقع بهم نازل عليهم لا محالة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي في الوقت الذي يكون فيه الظالمون مشفقين مما كسبوا يكون الذين آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً وعملوا الصالحات من الفرائض والنوافل بعد اجتناب الشرك والكبائر في روضات الجنات وهي أنزهها وأحسنها، لهم ما يشاؤون من النعيم مما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين كل ذلك في جوار رب كريم، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ[2]﴾ أي ذاك الذي أخبر تعالى به أنهم فيه من روضات الجنات وغيره هو الفضل الكبير الذي تفضّل الله تعالى عليهم به.

(٢٣) وقوله في الآية الثانية (٢٣): ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ أي ذلك المذكور من روضات الجنات وغيره هو الذي يبشر الله تعالى به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ[3] عَلَيۡهِ

---

(١) هذا عرض لما يجري من أحوال في عرصات القيامة وما ينتهي إليه الموقف من إسعاد أهل الإيمان والعمل الصالح وإشقاء أهل الشرك والمعاصي.

(٢) لا يوصف ولا تهتدي العقول إلى معرفة كنه صفته لأن الله تعالى إذا قال: كبير كان مما لا يقادر قدره.

(٣) هذا الخطاب خاص بقريش، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة، والاستثناء منقطع فهو بمعنى: لكن ومعنى الآية:

﴿أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول لقومه من المشركين لا أسألكم على إبلاغي إياكم دعوة ربي إلى الإيمان به وتوحيده لتكملوا وتسعدوا أجرًا أي مالاً لكن أسألكم أن تودوا قرابتي منكم فلا تؤذوني وتمنعوني من الناس حتى أبلغ دعوة ربي.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي من يعمل حسنة نزد له فيها حسنًا بأن نضاعفها له إذ الله غفور للتائبين من عباده شكور للعاملين منهم فلا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿٢٤﴾ وقوله: ﴿أَمْ[1] يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي بل يقولون افترى على الله كذبًا أي يقول المشركون إن محمدًا ﷺ افترى على الله كذبًا فادعى أن القرآن من كلام الله ووحيه وما هو إلا افتراء افتراه على الله. فأبطل الله تعالى هذه الدعوة وقال: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي يطبع على قلبك فتنسى القرآن ولا تقدر على قوله والنطق به، فكيف إذًا يقال إنه يفتري على الله كذبًا والله قادر على منعه والإحالة بينه وبين ما يقوله. وقوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هذا شأنه تعالى يمحو الباطل ويحق الحق بالقرآن وقد فعل فمحا الباطل وأحق الحق فما مات رسول الله ﷺ وفي الجزيرة من يعبد غير الله تعالى. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلواسع علمه وعظيم قدرته محا الباطل وأحق الحق بالقرآن ولو كان القرآن مفترى ما محا باطلاً ولا أحق حقًا.

﴿٢٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي إن تابوا إليه وأنابوا، ويعفو عن سيئاتهم فلا يؤاخذهم بها، ويعلم ما يفعلون في السر والعلن ويجزي كلاً بما عمل وهو على كل شيء قدير.

﴿٢٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ[2] ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يجيب دعاءهم فيما طلبوه ويزيدهم من فضله فيعطيهم ما لم يطلبوه فما أعظم كرمه وما أوسع رحمته!! هذا للذين آمنوا وعملوا الصالحات. وأما الكافرون فلهم عذاب شديد.

هداية الآيات:

١ - تقرير حق القرابة ووجوب المودة فيها. واحترام قرابة الرسول ﷺ وتقديرها.

٢ - تبرئة رسول الله ﷺ من الافتراء على الله عز وجل.

٣ - مضاعفة الحسنات، وشكر الله للصالحات من أعمال عباده المؤمنين.

٤ - وجوب التوبة وقبول الله تعالى لها، وقد كان رسول الله ﷺ يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة.

وللتوبة ثلاثة شروط: الإقلاع الفوري عن المعصية، والاستغفار، والندم على ما فعل من المعصية بترك الواجب أو بفعل المحرم. وإن كان الذنب يتعلق بحق آدمي زاد شرط رابع وهو التحلل من الآدمي بأداء الحق أو بطلب العفو منه.

٥ - وعد الله تعالى باستجابة دعاء المؤمنين العاملين للصالحات وهم أولياء الله تعالى الذين إن سألوه أعطاهم وإن استعاذوه أعاذهم وإن استنصروه نصرهم. اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمرتهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ - ٣١]

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾: أي لو وسع الرزق لجميع عباده.

﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي لطغوا في الأرض جميعا.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾: أي ينزل من الأرزاق بقدر ما

= ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على البلاغ أجراً أي: ثواباً وجزاء إلا أن تَوَدُّوني من قرابتي منكم أي: تراعوا ما بيني وبينكم فتصدقوني وتنصروني حتى أبلغ رسالتي وذلك أنه ما من بطن من بطون قريش إلا وفيه للرسول ﷺ قرابة رحم وأما توجيه الآية على آل رسول الله ﷺ فهو تمحل واضح إلا أن حب آل البيت وتعظيمهم واجب أكيد ووردت فيه أحاديث كثيرة صالحة للاحتجاج بها.

(١) ﴿أَمْ﴾ للإضراب الانتقالي، والاستفهام إنكاري ينكر تعالى على المشركين الذين قالوا: إن محمداً يفتري على الله الكذب فيقول: أرسلني الله وما أرسله ويقول: القرآن من وحي الله، والله ما أوحى إليه. فأنكر تعالى هذا على قائليه ووضح لهم أن دعواهم لا تمت إلى الواقع بصلة.

(٢) فاعل ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ هو الله عز وجل و ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به في محل نصب والسين والتاء للتأكيد إذ استجاب هو بمعنى أجاب.

يشاء فيبسط ويضيق. ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾: أي إنه بأحوال عباده خبير إذ منهم من يفسده الغنى ومنهم من يصلحه ومنهم من يصلحه الفقر ومنهم من يفسده.

(٢٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾: أي المطر من بعد يأسهم من نزوله. ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾: أي بركات المطر ومنافعه في كل سهل وجبل ونبات وحيوان. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: أي المتولي لعباده المؤمنين المحسن إليهم المحمود عندهم.

(٢٩) ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾: أي فرق ونشر من كل ما يدب على الأرض من الناس وغيرهم. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾: أي للحشر والحساب والجزاء يوم القيامة قدير.

(٣٠) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾: أي بلية وشدة من الشدائد كالمرض والفقر. ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: أي من الذنوب والآثام. ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾: أي منها فلا يؤاخذ به، وما عفا عنه في الدنيا لا يؤاخذ به في الآخرة.

(٣١) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي وَلَسْتم بفائتي الله ولا سابقيه هربًا منه إذا أراد مؤاخذتكم بذنبكم.

معنى الآيات:

(٢٧) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ[1] ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هذا شروع في عرض مظاهر القدرة والعلم والحكمة الموجبة لربوبية الله تعالى المستلزمة لألوهيته على عبادته فقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ﴾ أي رب العباد الرزق فوسعه عليهم لبغوا في الأرض فطغا بعضهم على بعض وظلم بعضهم بعضًا ولزم ذلك فساد كبير[2] في الأرض قد تتعطل معه الحياة بكاملها.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، أي ينزل من الأرزاق بمقادير محددة حسب تدبيره لحياة عباده ويدل على هذا قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ[3] بَصِيرٌ﴾ بصير أي إنه بما تتطلبه حياة عباده ذات الآجال المحدودة، والأعمال المقدرة الموزونة، والنتائج المعلومة أزلاً. هذا مظهر من مظاهر العلم والقدرة والحكمة ومظهر آخر في قوله:

(٢٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ[4] مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، فإنزَالُ المطر بكميات ومقاديرمحدودة وفي أماكن محددة، وفي ظروف محددة هذا التصرف ما قام إلا على مبدأ القدرة القاهرة والخبرة التامة، إنه يمنع عن عباده المطر فيمحلوا ويجدبوا حتى ييأسوا ويظهر عجزهم وعجز آلهتهم التي يعبدونها ظلمًا فاضحًا إذ لا تستحق العبادة بحال من الأحوال ثم ينزل الغيث وينشر الرحمة فتعم الأرزاق والخيرات والبركات، وهو الولي الذي لا تصلح الولاية لغيره الحميد أي المحمود بصنائع بره وعوائد خيره ومظاهر رحمته. هو الولي بحق والمحمود بحق، ومظهر آخر في قوله تعالى، ومن آياته الدالة على وجوده وقدرته وعلمه وحكمته الموجبة لربوبيته لسائر خلقه والمستلزمة لألوهيته على سائر عباده:

(٢٩) ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إيجادهما بما هما عليه من عجائب الصفة، وما بث أي فرق ونشر فيهما من دابة تدب على الأرض، أو ملك يسبح في السماء. فهذا الخلق والإبداع ناطق بربوبيته تعالى صارخ بألوهيته لعباده فلم إذًا يعبد غيره من مخلوقاته وتترك عبادته وفوق هذا المظهر للخلق والرزق والتدبير مظهر

---

(١) روي أن خباب بن الأرت قال: هذه الآية نزلت فينا، نظرنا إلى أموال بني النضير وقريظة وقينقاع فتمنيناها فنزلت: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ﴾ الآية، والآية تضمنت رداً على من يقول: ما دام الله يستجيب للذين آمنوا إلخ لم لا يسألونه سعة الرزق فيغنهم ويثريهم بالأموال؟ فكان الجواب: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

(٢) وشاهده في السنة هو قوله ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**».

(٣) القدر بفتحتين: المقدار والتعيين والجمع بين صفتي ﴿خَبِيرٌۢ﴾ و ﴿بَصِيرٌ﴾ لأن وصف خبير، دال على العلم بمصالح العباد وأحوالهم قبل تقديرها وتقدير أسبابها أي: العلم بما سيكون ووصف ﴿بَصِيرٌ﴾ دال على العلم المتعلق بأحوالهم التي حصلت.

(٤) ﴿ٱلْغَيْثَ﴾: المطر وسمي غيثاً لأنه به غيث الناس المضطرين.

آخر وهو قدرته تعالى على جمع سائر خلقه في صعيد واحد ومتى؟ وإنه بعد إفنائهم وتصييرهم عظامًا ورفاتًا، وهو معنى قوله: وهو على جمعهم إذا يشاء قدير[١].

(٣٠) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ[٢] أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝﴾[٣]، وهذا مظهر آخر للقدرة والعلم يتجلى فيما يصيب الإنسان من مصيبة في نفسه وولده وماله إن كل مصاب ينزل بالإنسان في هذه الحياة ناتج عن مخالفة لله تعالى فيما وضع من القوانين والشرائع والسنن. وأعظم دلالة أن يُعطل القانون الماضي ويوقف مفعوله فيكسب العبد الذنبَ ولا يؤاخذ به عفوًا من الله تعالى عليه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾. فله الحمد وله المنة. ومظهر آخر من مظاهره قدرة الله وعلمه وحكمته هو أن الناس مهما أوتوا من قوة وتدبير وعلم ومعرفة لم ولن يعجزوا الله تعالى.

(٣١) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فالسماء فوقهم والأرض تحتهم إن يشأ يخسف الأرض من تحتهم أو يسقط السماء كسفًا من فوقهم. فإلى أين المهرب والجواب إلى الله فقط بالاستسلام له والانقياد بالطاعة وفي ذلك نجاتهم وعزهم وكرامتهم زيادة على سعادتهم وكمالهم في الحياتين، وقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي وليس لكم أيها الناس مع عجزكم من ولي يتولاكم ولا ناصر ينصركم. إذًا ففروا إلى الله بالإيمان به والإسلام له تنجوا وتسعدوا.

هداية الآيات:

١ - بيان الحكمة في تقدير الأرزاق وإعطائها بمقادير محددة.

٢ - من مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته على عباده إنزال الغيث بعد اليأس والقنوط وخلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة.

٣ - بيان حقيقة علمية ثابتة وهي أن المخالفة للقوانين يترتب عليه ضرر يصيب المخالف.

٤ - بيان أنه ما من مصيبة تصيب المرء في نفسه أو ولده أو ماله إلا بذنب ارتكبه.

٥ - بيان أن من الذنوب ما يعفو[٤] الله تعالى عنه ولا يؤاخذ به تكرمًا وإحسانًا.

الجزء الخامس والعشرون — سورة الشورى

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

٤٨٧

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٢ - ٣٥]

(٣٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝﴾: أي ومن علامات ربوبيته للخلق إيجاد السفن كالجبال في البحار وتسخير البحار للسير فيها لمنافع العباد.

(٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾: أي يوقف هبوب الريح فلا نسيم ولا عواصف. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾: أي تقف السفن وتظل راكدة حابسة على ظهر البحر. ﴿إِنَّ

---

(١) تقرير لعقيدة البعث والجزاء أثناء تقرير عقيدة التوحيد والنبوة المحمدية.

(٢) قرأ نافع: ﴿**بما كسبت**﴾ وقرأ حفص: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾ بزيادة الفاء.

(٣) قال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «**ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب، ولما يعفو الله عنه أكثر**». وشاهد آخر من كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

(٤) ولذا قال عليّ رضي الله عنه: أرجى آية في كتاب الله تعالى هي هذه الآية وإذا كان يكفّر عني بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه؟

﴿فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾: أي في هذه المظاهر من خلق السفن والبحار وتسخير البحار وسير السفن وركودها عند سكون الرياح لدلالات واضحة على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: أي إن هذه الآيات لا يراها ولا ينتفع بها إلا من كان صبارًا عند الشدائد والمحن شكورًا عند الآلاء والنعم.

(٣٤) ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾: أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيهلك تلك السفن ويغرقها بمن فيها بسبب ذنوب أصحابها، وهو على ذلك قدير. ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾: أي وإنه تعالى ليعفو عن كثير من الذنوب والخطايا فلا يؤاخذ بها إذ لو آخذ بكل ذنب ما بقي أحد على وجه الأرض لقلة من لا يذنب فيها.

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾: أي ويعلم المكذبون بآيات الله من المشركين عندما تعصف العواصف وتضطرب السفن ويخاف الغرق. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: أي ليس لهم من مهرب إلا إلى الله فيجأرون بدعائه وحده ناسين آلهتهم الباطلة.

معنى الآيات:

(٣٢) ما زال السياق في ذكر مظاهر الربوبية المستلزمة لألوهية الله تعالى ووجوب عبادته وحده دون سواه فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ[(١)] فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أي ومن حججه عليكم يا عباد الله الدالة على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته أيضًا هذه السفن الجوار في البحر كأنها جبال عالية تسير من إقليم إلى إقليم بتسخير الله تعالى البحار وإرسال الرياح وهي تجري بمنافعكم حيث تنقل الركاب والبضائع من إقليم إلى آخر. فهذا مظهر قدرة الله ورحمته، وإن يشأ تعالى إسكان الريح فإنها تسكن فلا تهب ولا تنسم بنسيم ألبتّة فتقف السفن وتركد[(٢)] على سطح الماء فلا تتحرك، وإن يشأ أيضًا يرسل عليها عواصف من الريح فتضطرب وتغرق بما فيها ومن فيها وذلك بذنوب أصحابها إن القاعدة الثابتة المقررة أنه ما من مصيبة إلا بذنب.

(٣٣) وهذا معنى قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في هذه المظاهر من خلق السفن والبحار وتسخير البحار وسير السفن عليها وركودها عند سكون الريح لحجج واضحة قوية على وجود الله وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته ولكن لا يراها ولا ينتفع بها أمثال البهائم، ولكن هي من نصيب كل عبد صبار على طاعة الله وبلائه شكور لآلائه ونعمه عليه.

(٣٤) وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ[(٣)] بِمَا كَسَبُوا﴾ وقوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾[(٤)] أي ولا يؤاخذ بكل ذنب فقد يعفو عن كثير من الذنوب. إذ لو عاقب على كل ذنب وآخذ بكل خطيئة لما بقي على الأرض أحد إذ ما من أحد إلا ويذنب اللهم إلا ما كان من المعصومين من الأنبياء والمرسلين فإنهم لا يذنبون، ولكن قد يذنب أصولهم وفروعهم فيهلكون ومن أين يوجدون!!

(٣٥) وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ[(٥)] الَّذِينَ

---

(١) ﴿الْجَوَارِ﴾: جمع جارية والأعلام؛ جمع علم والعلم: الجبل والآيات: جمع آية وهي العلامة الدالة على الشيء الهادية إليه المعرفة به. وسميت السفينة جارية لأنها تجري في البحر وسميت الشابة من النساء جارية لأنها يجري فيها ماء الشباب. قال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم، واستشهد بقول الخنساء وهي ترثي أخاها صخراً:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

(٢) يقال: ركد الماء ركوداً: سكن وكذلك الريح والسفن والشمس إذا قام قائم الظهيرة. وكل ثابت في مكان فهو راكد والرواكد: جمع راكدة مؤنث راكد.

(٣) أي: وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيوبق السفن أي: يغرقهن بذنوب أهلها إذ الباء سببية.

(٤) ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من أهلها فلا يغرقهم معها، كما يتجاوز عن كثير من الذنوب فلا يؤاخذ بها. ﴿وَيَعْفُ﴾ مجزوم بحذف آخره لأنه معطوف على ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أي: وإن يشأ يعف.

(٥) قرأ نافع: ﴿ويعلمُ﴾ بالرفع على أنه كلام مستأنف وقرأ حفص: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنصب عطفاً على فعل مدخول للام التعليل وتضمن (أن) بعده، والتقدير: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون إلخ..

يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ[1] ﴿٣٥﴾ أي وعندما تكون الريح عاصفة وتضطرب السفن وتشرف على الغرق هنا يعلم المشركون الذين يخاصمون رسول الله ﷺ ويجادلونه في الوحي الإلهي ويكذبون به يعلمون أنهم في هذه الحال ما لهم من محيص أي من ملجأ ولا مهرب من الله إلا إليه فيجأرون بدعاء الله وحده كما قال تعالى فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين.

هداية الآيات:

١ - مظاهر ربوبية الله وألوهيته على خلقه.

٢ - فضل الصبر والشكر وفضيلة الصابرين الشاكرين.

٣ - تقرير قاعدة ما من مصيبة إلا بذنب مع عفو الله عن كثير.

٤ - عند معاينة العذاب يعرف الإنسان ربه ولا يعرف غيره.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ ـ ٤١]

﴿٣٦﴾ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾: أي فما أعطيتم من شيء من متاع الدنيا كالمال والولد والمطعم والمشرب والملبس والمسكن والمنكح والمركب. ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: أي يتمتع به زمنًا ثم يزول ولا يبقى. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾: أي وما عند الله من ثواب الآخرة فهو خير في نوعه وأبقى في مدته. ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾: أي ما عند الله خير وأبقى لأصحاب الصفات التالية: الإيمان، والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والتجاوز عمن أساء إليهم، والاستجابة لربهم في كل ما دعاهم إليه فعلاً أو تركًا، وإقام الصلاة والمشورة[2] بينهم والإنفاق مما رزقهم الله، والانتصار عند البغي عليهم هذه عشر صفات أصحابها ما أعده الله تعالى لهم يوم يلقونه خير من متاع الدنيا بكامله.

﴿٤٠﴾ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾: أي جزاء سيئة المسيء عقوبته بما أوجبه الله عليه. ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾: أي فمن عفا عمن أساء إليه وأصلح ما بينه وبينه فأجره على الله ثابت له. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي لا يحب البادئين بالظلم، ومن لم يحبه الله أذن في عقوبته.

﴿٤١﴾ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾: أي ومن ظلمه ظالم فأخذ منه بحقه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾: أي لمؤاخذتهم، لأنهم ما بدؤوا بالظلم.

معنى الآيات:

﴿٣٦﴾ قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[3] هذا شروع في بيان صفات الكمال في المسلم التي يستوجب بها نعيم الآخرة ضمن التعريض بزينة الحياة الدنيا الفانية فقال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾ أيها الناس من مؤمن وكافر من شيء في هذه الحياة الدنيا من لذيذ الطعام والشراب وجميل اللباس، وفاخر المساكن وأجمل المناكح وأفره المراكب كل ذلك متاع الحياة الدنيا يزول ويفنى. أما ما عند الله أي ما أعده الله لأوليائه في الدار الآخرة فهو خير وأبقى ولكن لمن أعده؟ والجواب للذين آمنوا أي بالله وآياته ولقائه ورسوله ﷺ وبكل ما جاء به والذين على ربهم لا على سواه يتوكلون ثقة في كفايته واعتمادًا عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ أي يتركون ﴿كَبَٰٓئِرَ[4] ٱلۡإِثۡمِ﴾ الإثم كالشرك والقتل والظلم وشرب الخمر وأكل

---

(١) المحيص: مصدر ميمي من حاص يحيص حيصاً إذا أخذ في الفرار والهرب مائلاً في سيره. وفي حديث أبي سفيان: **«فحاصوا حيصة حمر الوحش»**. والمعنى ما لهم من فرار ومهرب من لقاء الله تعالى.

(٢) ومما قيل في المشورة نظماً قول بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي لبيب أو مشورة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم

الخوافي: ريشات إذا ضم الطير جناحيه خفيت، والقوادم: عشر ريشات في مقدم الجناح وهي كبار الريش.

(٣) قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ يريد من الغنى والسعة في الدنيا.

(٤) رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الفواحش: الزنا وأن كبير الإثم: الشرك وهو كذلك.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ (٤٨) لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾

الحرام والفواحش كالزنى واللواط. والذين إذا غضبوا يتجاوزون[١] عمن أغضبهم ويغفرون له زلته أو إساءته إليهم.

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ[٢] لِرَبِّهِمْ﴾ عندما ناداهم ودعاهم لكل ما طلبه منهم، والذين أقاموا الصلاة فأدوها على وجهها المطلوب لها من خشوع مراعين شرائطها وأركانها وواجباتها وسننها وآدابها، والذين أمرهم شورى بينهم أي أمرهم الذي يهمهم في حياتهم أفرادًا وجماعات وأممًا وشعوبًا يجتمعون عليه ويتشاورون[٣] فيه ويأخذون بما يلهمهم ربهم بوجه الصواب فيه. والذين مما رزقهم الله من مال وعلم وجاه وصحة بدن ينفقون شكرًا لله على ما رزقهم واستزاده للثواب يوم الحساب.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ﴾ أي إذا بغى عليهم البغاة الظلمة من الكافرين ينتصرون لأنفسهم إعذارًا لها وإكرامًا لأنها أنفس؛ الله وليها فالعزة واجبة لها. هذه عشر صفات متى اتصف بها العبد لا يضره شيء لو عاش الدهر كله فقيرًا نقيًّا محرومًا من لذيذ الطعام والشراب ومن جميل اللباس، والسكن والمركب إذ ما عند الله تعالى له خير وأبقى مع العلم أن أهل تلك الصفات سوف لا يحرمون من طيبات الحياة الدنيا بل هم أولى بها من غيرهم إلا أنها ليست شيئًا يذكر إلى جانب ما عند الله يوم يلقونه ويعيشون في جواره.

(٤٠) وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ هذا هو الحكم الشرعي جزاء المسيء العقوبة بما أوجب الله تعالى له في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ. وقوله تعالى فمن عفا عمن أساء إليه، وأصلح ما بينه وبينه فعادت المودة وعاد الإخاء فأجره على الله وهو خير له وأبقى من شفاء صدره بعقوبة أخيه الذي أساء إليه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليل لعظم الأجر لمن عفا أي كونه تعالى لا يحب الظالمين ضاعف الأجر وأجزل المثوبة للمظلوم إذا عفا وأصلح.

(٤١) وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ[٤] بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي وللذي ظلم فانتصر لنفسه وردَّ الظلم عنها فهؤلاء لا سبيل لكم إلى أذيتهم وعقوبتهم. هذا حكم الله وشرعه.

هداية الآيات:

١ - متاع الحياة الدنيا إذا قوبل بما أعد الله للمؤمنين المتقين لا يعد شيئًا يذكر أبدًا.

٢ - بيان أكمل الشخصيات الإسلامية وهي الشخصية التي تتصف بالصفات العشر التي تضمنتها الآيات الأربع ذات الرقم (**٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩**).

٣ - مشروعية القصاص وعقوبة الظالم.

---

(١) ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم، قيل: نزلت في عمر حين شتم بمكة وقيل: في أبي بكر حين لامه الناس على إنفاقه ماله كله وحين شتم فحلم.

(٢) قال ابن زيد: هم الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول ﷺ حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة.

(٣) قال ابن العربي: الشورى ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب وما تشاور قوم قط إلا هدوا وفي الحديث: **«ما خاب من استخار ولا ندم من استشار وما عال من اقتصد»**. والشورى والمشورة بمعنى واحد.

(٤) لقد مدح الله تعالى المنتصر من الظلم ومدح العفو عن الجرم، فالانتصار يكون من الظالم المعلن الفجور الوقح في الجمهور المؤذي للصغير والكبير فهذا الانتقام منه أفضل، والعفو يكون في الفلتة، وفيمن يعترف بالزلة ويطلب العفو.

٤ - عدم مؤاخذة من ظلم فأخذ بحقه بلا زيادة عنه ما لم يكن حدًا فإن الحدود يقيمها الإمام.

٥ - فضيلة العفو على الإخوة المسلمين والإصلاح بينهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٢ - ٤٦]

(٤٢) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾: أي بالعقوبة والأذية. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾: أي يعتدون عليهم في أعراضهم أو أبدانهم وأموالهم. ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي ويطلبون في الأرض الفساد فيها بالشرك والظلم والإجرام.

(٤٣) ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾: أي ولمن صبر فلم ينتصر لنفسه وغفر وتجاوز عمن أساء إليه. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: أي إن ذلك الصبر والتجاوز عن المسيء. ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: أي لمن معزومات الأمور المطلوبة شرعًا.

(٤٤) ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: أي حسب سُنته في الإضلال. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾: أي فليس له من أحد يتولى هدايته ويقدر عليها. ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾: أي هل إلى مرد إلى الحياة الدنيا من سبيل نسلكها لنعود إلى الدنيا.

(٤٥) ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾: أي على النار خاشعين خائفين متواضعين. ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾: أي من عين ضعيفة النظر كما ينظر المقتول إلى السيف لا يملأ عينه منه. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي لخلودهم في النار، وعدم وصولهم إلى الحور العين في دار السلام. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي المشركين. ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾: أي دائم لا يخرجون منه وهو عذاب الجحيم.

(٤٦) ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾: أي طريق إلى الهداية في الدنيا، وإلى الجنة يوم القيامة.

معنى الآيات:

لقد تقدم قوله تعالى في الآية قبل هذه: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝﴾ فلما نفى عن المنتصرين السبيل إلى عقوبتهم أثبت هنا أن السبيل إلى العقوبة والمؤاخذة هو على الذين[1] يظلمون الناس بالاعتداء عليهم في أبدانهم أو أعراضهم أو أموالهم ويبغون في الأرض بغير الحق أي ويطلبون الفساد فيها بالشرك والظلم والمعاصي، وليس في الشرك والظلم والمعاصي من حق يبيحها.

(٤٢) وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي للذين يبغون في الأرض بغير الحق لهم عذاب أليم أي موجع وهو عذاب الدنيا بعقوبتهم الصارمة ويوم القيامة إن لم يتوبوا من الظلم والفساد في الأرض.

(٤٣) وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ[2] وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝﴾ يخبر تعالى مؤكدًا الخبر بلام الابتداء أن من صبر فلم ينتصر لنفسه من أخيه المسلم وغفر لأخيه زلته فتجاوز له عنها فإن ذلك المذكور من الصبر والتجاوز من معزومات الأمور المطلوبة شرعًا.

(٤٤) وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن[3] وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي ومن يضلله الله تعالى حسب سنته في الإضلال فليس له من أحد من بعد الله يهديه. وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين لما رأوا العذاب أي عذاب النار يقولون متمنيين الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا ويُوَحّدُوا حتى ينجوا من عذاب النار ويدخلوا الجنة مع الأبرار: هل إلى مرد من سبيل؟ أي هل إلى مرد إلى الدنيا من طريق؟

(٤٥) قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار خاشعين خاضعين متواضعين من الذلّ ينظرون من طرف خفي[4] يسترقون النظر لا

---

(١) هذه الآية تقابل آية التوبة: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ حيث نفت السبيل على المحسنين وهو لومهم وعتابهم، وهذه أثبتته على المسيئين الظالمين.

(٢) قال العلماء: هذا فيمن ظلمه مسلم فإنه مندوب إلى الصبر وعدم المؤاخذة وهو العفو. رُوي أن رجلاً سب آخر في مجلس الحسن البصري فكان المسبوب يكظم ويعرق ويمسح العرق ثم قام فتلا هذه الآية فقال الحسن: عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون، والعزم عقد النية على العمل والثبات عليه.

(٣) ﴿مِن وَلِيٍّ﴾: (من) زائدة للتوكيد إذ الكلام فما له ولي من بعده وكذلك في قوله الآتي: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فـ: (مِن) زائدة للتوكيد.

(٤) الطرف: مصدر طرف يطرف طرفاً إذا حرك جفنه ولذا هو لا يثنى ولا يجمع قال تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ ويطلق الطرف على العين كما في هذه الآية قال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

يملؤون أعينهم من النظر إلى النار لشدة خوفهم منها. وهنا يقول الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وذلك لخلودهم في النار وحرمانهم من الوصول إلى الحور العين في الجنة دار الأبرار، ويعلن معلن فيقول: ألا إن الظالمين لأنفسهم بالشرك والمعاصي في عذاب مقيم لا يبرح ولا يزول.

(٤٦) وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يخبر تعالى بأنه لم يكن لأولئك الظالمين من أهل النار من أولياء من دون الله ينصرونهم بتخليصهم من العذاب. وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي فما له طريق إلى هدايته في الدنيا وإلى الجنة يوم القيامة.

هداية الآيات:

١ - لا سبيل إلى معاقبة من انتصر لنفسه بعد ظلمه.

٢ - وجوب معاقبة الظالم والضرب على يديه.

٣ - فضيلة الصبر والتجاوز عن المسلم إذا أساء بقول أو عمل.

٤ - لا أعظم خسرانًا ممن يخلد في النار ويحرم الجنة وما فيها من نعيم مقيم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧ - ٥٠]

(٤٧) ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾: أي أجيبوه لما دعاكم إليه من التوحيد والعبادة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾: أي يوم القيامة. ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: أي إذا أتى لا يرد بحال. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾: أي تلجؤون إليه وتتحصنون فيه. ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾: أي وليس لكم ما تنكرون به ذنوبكم لأنها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

(٤٨) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾: أي لم يجيبوا ربهم لما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾: وقد بلغت فلا مسؤولية تخشاها بعد البلاغ. ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾: أي نعمة كالغنى والصحة والعافية. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾: أي بلاء كالمرض والفقر وغير ذلك. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: أي من الذنوب والخطايا. ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾: أي للنعمة والمنعم والإنسان هو غير المؤمن التقي.

(٤٩) ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي خلقًا وملكًا وتصرفًا. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾: أي يرزق من يشاء من الناس بنات. ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾: أي ويعطي من يشاء الأولاد الذكور.

(٥٠) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾: أي يجعلهم ذكورًا وإناثًا. ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾: أي لا يلد ولا يولد له.

معنى الآيات:

(٤٧) بعد ذلك العرض الهائل لأهوال وأحوال الظالمين في عرصات القيامة طلب الرب تعالى من عباده أن يجيبوه لما طلبه منهم إنقاذًا لأنفسهم من النار فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟[1] لِرَبِّكُم﴾ بمعنى أجيبوه لما دعاكم إليه من التوحيد والطاعات قبل فوات الفرصة وذلك قبل الموت وقبل يوم القيامة اليوم الذي إذا جاء لا مردّ له من الله، إذ لا يقدر على رده إلا الله والله أخبر أنه لا يرده فمن يرده إذًا؟ فبادروا بالتوبة إلى ربكم قبل مجيئه حيث لا يكون لكم يومئذ ملجأ تلجؤون إليه هاربين من العذاب ولا يكون لكم نكير يمكنكم أن تنكروا به ذنوبكم إذ قد جمعت لكم في كتاب واحد لم يترك صغيرة من الذنوب ولا كبيرة إلا أحصاها عدًا. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٤٧) وهي قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ[2]﴾.

(٤٨) وقوله تعالى في الآية الثانية (٤٨): ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي لم يجيبوا ربهم لما دعاهم إليه من التوحيد والطاعة فما أرسلناك عليهم حفيظًا رقيبًا تحصي أعمالهم وتحفظها لهم وتجازيهم بها. إن عليك إلا البلاغ أي ما عليك إلا البلاغ وقد بلغت

(١) السين والتاء للتوكيد، واللام ﴿لِرَبِّكُم﴾ لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول نحو شكرت له وحمدت له وتسمى هذه اللام: لام التبليغ ولام التبيين إذ الأصل أجابه واستجابه.

(٢) النكير: اسم مصدر أنكر ينكر إنكاراً والنكير: اسم المصدر إذ نقصت حروفه والمعنى: ما لكم إنكار لما جوزيتم به إذ لا يسعكم إلا الاعتراف.

وبرئت ذمتك فلا يهمك أمرهم ولا تحزن على إعراضهم.. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا[1] ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي نعمة كسعة رزق وصحة بدن وكثرة مال وولد فرح بها فرح البطر والأشر، وهذا الإنسان هو الكافر أو الجاهل الضعيف الإيمان. وإن تصبهم سيئة أي ضيق عيش ومرض وفقر بما قدمت أيديهم من الذنوب فإن الإنسان كفور سرعان ما ينسى النعمة والمنعم ويقع في اليأس والقنوط، هذا الإنسان قبل أن يؤمن ويسلم ويحسن فإذا آمن وأسلم وأحسن تغير طبعه وطهر نبعه وأصبح يشكر عند النعمة ويصبر عند النقمة. (٤٩) وقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[2] وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إنه بحكم سلطانه على الأرض والسماء فإنه يتصرف كيف يشاء يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم له ذكورًا وإناثًا، ويجعل من يشاء من الناس عقيمًا لا يلد ولا يولد له، وهذا ناتج عن علم أحاط بكل شيء، وقدرة أخضعت لها كل شيء وهذا معنى قوله: (٥٠) ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[3]. فالواجب أن يُسلم العبد لربه فيما وهبه وأعطاه إذ الله يعطي لحكمة ويمنع لحكمة، ومن السفه الاعتراض على حكم الله.

هداية الآيات:

١ - وجوب الاستجابة لله تعالى في كل ما دعا العبد إليه، وذلك قبل أن يطلب الاستجابة ولا يمكن منها.

٢ - على الدعاة إلى الله تعالى إبلاغ مطلوب الله تعالى من عباده، ولا يضرهم بعد ذلك شيء.

٣ - بيان طبع الإنسان وحاله قبل أن يهذب بالإيمان واليقين والطاعات.

٤ - لله مطلق التصرف في الملكوت كله فلا يصح الاعتراض عليه في شيء فهو يهب ويمنع لحكم عالية لا تدركها عقول العباد.

٥ - وجود عقم في الرجال وعقم في النساء، ولا بأس بالعلاج الجائز المشروع عند الشعور بالعقم أو العقر. أما ما ظهر الآن من بنوك المني، والإنجاب بطريق صبّ ماء فحل في فرج امرأة عاقر وما إلى ذلك فهذه من أعمال الملاحدة الذين لا يدينون لله بالطاعة له والتسليم لقضائه، وإن صاموا وصلّوا وادّعوا أنهم مؤمنون إذ لا حياء لهم ولا إيمان لمن لا حياء له، وحسبهم قبحًا في سلوكهم هذا الكشف عن السوءات بدون إنقاذ حياة ولا طلب رضا الله رب الأرض والسموات.

الجزء الخامس والعشرون — سورة الزخرف

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣)

ترتيبها ٤٣ — سورة الزخرف — آياتها ٨٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٩) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)

٤٨٩

شرح الكلمات:

[الآية: ٥١ ـ ٥٣]

(٥١) ﴿إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾: أي إعلامًا خفيًا سريعًا في يقظة أو منام، أو يكلمه من وراء حجاب فيسمع الكلام ولا يرى الذات. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾: أي أو يرسل ملكًا في صورة إنسان فيكلمه مبلغًا عن الله تعالى. ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾: أي الله تعالى ذو علو على سائر خلقه حكيم في تدبير خلقه.

(٥٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي كما كنا نوحي إلى سائر رسلنا أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن. ﴿رُوحًا مِّنْ

(١) الإذاقة: كناية عن الإصابة والمراد بالرحمة أثرها وهي النعمة والتقدير: وإنا إذا رحمنا الإنسان فأصبناه بنعمة.

(٢) الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً إذ لسائل أن يقول: لم لا يفطر الله الإنسان على خلق الشكر؟ فكان الجواب: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

(٣) الجملة تعليلية فصفتا العلم والقدرة بهما يكون الولد ولا يكون فليسلم الأمر لله في العقم والولادة.

أَمۡرِنَاۚ﴾: أي وحيًا ورحمة من أمرنا الذي نوحيه إليك. ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾: أي لم تكن قبل تدري أي شيء هو الكتاب، ولا الإيمان الذي هو قول وعمل واعتقاد. ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ﴾: أي جعلنا القرآن نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا إلى صراطنا. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: أي الإسلام.

(٥٣) ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾: أي ترجع أمور جميع العباد في يوم القيامة إلى الله تعالى.

معنى الآيات:

(٥١) قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾[1] يخبر تعالى أنه ليس من شأن البشر كائنًا من كان أن يكلمه الله تعالى إلا وحيًا بأن يعلمه بطريق سريع خفي إلهامًا أو منامًا فيفهم عن الله تعالى ما ألقاه في روعه[2] جازمًا أنه كلام الله ألقاه إليه، هذه طريقة وثانية أن يكلمه الله تعالى فيسمعه كلامه بدون أن يرى ذاته كما كلم موسى عليه السلام غير مرة. وثالثة أن يرسل إليه رسولاً كجبريل عليه السلام فيبلغه كلام ربه تعالى، هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ[3] رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ أي ذو علو على خلقه ﴿حَكِيمٞ﴾ في تدبيره لخلقه.

وقوله: وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا أي كما كنا نوحي إلى سائر رسلنا أوحينا إليك يا محمد روحًا وهو القرآن وسمي روحًا لأن القلوب تحيا به كما تحيا الأجسام بالأرواح.

(٥٢) وقوله: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾[4] أي الذي نوحيه إليك الشامل للأمر والنهي والوعد والوعيد، وقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي القرآن ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾[5] الذي هو عقيدة وقول وعمل. وقوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ أي جعلنا القرآن نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا إلى الإيمان بنا وتوحيدنا وطلب مرضاتنا بفعل محابّنا وترك مساخطنا.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي وإنك يا رسولنا لتهدي إلى صراط مستقيم الذي هو الدين الإسلامي.

(٥٣) وقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي خلقًا وملكًا وعبيدًا ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي وإليه تعالى مصير كل شيء، ومرد كل شيء إذ هو المالك الحق والمدبر لأمر المخلوقات كلها، ولذا وجب تفويض الأمر إليه والرضا بحكمه وقضائه ثقة فيه وفي كفايته.

هداية الآيات:

١ ـ بيان طرق الوحي وهي ثلاثة: الأولى: الإلقاء في الروع يقظة أو منامًا، والثانية: أن يكلم الله النبي بدون أن يرى ذاته عز وجل كما كلّم موسى في الطور وكلّم محمدًا ﷺ في الملكوت الأعلى، والثالث: أن يرسل إليه الملك إما في صورته الملائكية أو في صورة رجل من بني آدم فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه من أمره.

٢ ـ القرآن الكريم روح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأجسام بالأرواح.

٣ ـ القرآن نور يستضاء به في الحياة فتعرف به طرق السعادة وسبل النجاة.

❊ ❊ ❊

---

(١) روى غير واحد أن الآية نزلت رداً على قول من قال للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك. وجائز أن يكون اليهود الذين أشاروا بهذا على كفار قريش وجائز أن يكون اليهود هم القائلون له.

(٢) الروع بضم الراء القلب أو العقل، وبالفتح الفزع. وفي الحديث: «**إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**» والحديث صحيح. وأدرج بعضهم «**خذوا ما أحلّ ودعوا ما حرم**».

(٣) اختلف الفقهاء فيمن حلف ألا يكلم فلاناً فكتب إليه أو أرسل إليه رسولاً فهل يحنث؟ أوجه الأقوال: أنه إذا اشترط المشافهة في حلفه أنه لا يحنث وإن لم يشترطها يحنث. ولا يحنث إن سلم عليه في الصلاة أما في خارجها فإنه يحنث.

(٤) أي: من شأننا العظيم المقتضي الإيحاء إليك بالقرآن الحاوي للشرائع والأحكام وأنواع الهدايات المكملة للإنسان الآخذ بها المسعدة له في الحياتين.

(٥) المنفي من الإيمان هو التفصيلي أما الإجمالي فقد وُلد ﷺ مؤمناً موحداً، ولذا لم يقل: وما كنت مؤمناً فالمنفي شرائع الإيمان وتفاصيله.

سورة الزخرف
مكية
وآياتها تسع وثمانون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٨]

(١) ﴿حمٓ ۝﴾: هذا أحد الحروف المقطعة يكتب حم ويقرأ: حَاميمْ.

(٢) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝﴾: أي والقرآن الموضح لطريق الهدى وسبيل السلام.

(٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾: أي جعلناه قرآنًا بلسان العرب يقرأ بلسانهم ويفهم به. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي رجاء أن تعقلوا أيها العرب، ما تؤمرون به وما تنهون عنه.

(٤) ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾: أي في اللوح المحفوظ كتاب المقادير كلها عندنا. ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾: أي لذو علو وشأن على الكتب قبله لا يوصل إلى مستواه في علوه ورفعته حكيم أي ذو حكمة بالغة عالية لا يرام مثلها.

(٥) ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾: أنمهلكم فنضرب عنكم الذكر صفحًا أي لا ننزل القرآن بأمركم ونهيكم ووعدكم ووعيدكم. ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾: لأن كنتم قومًا مسرفين متجاوزين الحد في الشرك والكفر كلا لا نفعل.

(٦) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾: أي وكثيرًا من الأنبياء أرسلناهم في القرون الأولى من الأمم الماضية.

(٨) ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾: أي فأنزلنا عذابنا بأشدهم قوة وبطشًا من قومك فأهلكناهم. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي ومضى في الآيات القرآنية صفة هلاك الأولين.

معنى الآيات:

(١) ﴿حمٓ ۝﴾: الله أعلم بمراده به.

(٢) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ[١] ۝﴾، أي والقرآن الموضح لكل ما ينجي من عذاب الله ويكسب جنته ورضاه وهذا قسم أقسم الله به، والمقسم عليه قوله:

(٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي جعلنا الكتاب المبين الذي هو القرآن عربيًا أي بلسان العرب ولغتهم.

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بيان للحكمة في جعل القرآن عربيًا أي كي تعقلوا معانيه وتفهموا مراد الله منزله منه فيما يدعوكم إليه فيسهل عليكم العمل به فتكملوا وتسعدوا.

(٤) وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي اللوح المحفوظ لدينا عندنا ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي ذو علو وشأن على سائر الكتب قبله حكيم ذو حكمة بالغة عالية لا يرام مثلها.

(٥) وقوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ[٢] عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ[٣] قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝﴾ أي أنمهلكم فنضرب عنكم الذكر صفحًا فلا ننزل القرآن حتى لا تؤمروا ولا تنهوا من أجل أنكم قوم مسرفون في الشرك والكفر والتكذيب كلا لا نفعل إذ الاستفهام للإنكار عليهم.

(٦) وقوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا[٤] مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾ أي وكثيرًا من الأنبياء أرسلنا في الأمم السابقة.

(٧) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ما أتى أمة من تلك الأمم رسول منا إلا سخروا منه واستهزؤوا به، وبما جاءهم به من

---

(١) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾: هو القرآن أقسم به تعالى للإعلان عن مكانته وعلو شأنه وجعلهُ قرآناً يقرأ بلسان العرب مكتوباً في سطورهم، ومحفوظاً في صدورهم للعلة الحكيمة التي تضمنها قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

(٢) الفاء: للتفريع والاستفهام إنكاري أي: أتحسبون أن إعراضكم عما نزل من هذا الكتاب يبعثنا على أن نقطع عنكم تجدد التذكير بإنزال شيء آخر من القرآن؟ كما لا يجوز أن نضرب عنكم صفحاً فلا ننزل القرآن من أجل إسرافكم في الشرك والتكذيب، والصفح: الإعراض بصفح الوجه أي: جانبه وهو أشد الإعراض.

(٣) قرأ نافع: ﴿إن كنتم﴾ بكسر الهمزة وقرأ حفص: ﴿أَن كُنتُمْ﴾ بأن المصدرية. وإقحام ﴿قَوْمًا﴾ إشارة إلى أن الإسراف صار طبعاً لهم لا يفارقهم.

(٤) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى قوله: ﴿فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تضمن الكلام الإلهي أمرين: الأول: تسلية الرسول ﷺ والمؤمنين والثاني: تهديد المشركين المسرفين بأنهم يتعرضون للهلاك الذي تعرضت له أمم قبلهم أشد منهم بطشاً وأكثر منهم قوة فأهلكوا وبقوا أثراً بعد عين.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

الإيمان والتوحيد ودعاهم إليه من فعل الصالحات وترك المحرمات إذًا فاصبر على قومك فإنهم سالكون سبيل من سبقهم في الكفر والتكذيب والسخرية والاستهزاء.

﴿٨﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي أهلكنا من هم أشد بطشًا في تلك الأمم الماضية لما كذبوا رسلنا واستهزؤوا بهم فكيف بهؤلاء الذين هم أضعف منهم وأقل قوة وقدرة فأحرى بهم أن لا يمتنعوا من عذابنا متى أردنا إنزاله بهم. وقوله: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي مضى في الآيات القرآنية صفة هلاك الأولين كقوم عاد وثمود وأصحاب مدين والمؤتفكات ألم يكن لقومك في ذلك عبرة لو كانوا يعتبرون؟.

هداية الآيات:

١ - مشروعية الإقسام بالله تعالى.

٢ - بيان شرف القرآن الكريم وعلو مكانته على سائر الكتب السابقة.

٣ - كون الناس مسرفين في الشرك والفساد لا يمنع وعظهم ونصحهم وإرشادهم.

٤ - بيان سنة بشرية وهي أنهم ما يأتيهم من رسول إلا استهزؤوا به.

٥ - في إهلاك الأقوى دليل على أن إهلاك من هو دونه أحرى وأولى لا سيما مع شدة كفره.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ ـ ١٤]

﴿٩﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾: أي ولئن سألت هؤلاء المشركين من قومك يا رسولنا. ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: أي من بدأ خلقهن وأوجدهن ليقولن خلقهن الله ذو العزة والعلم.

﴿١٠﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا[1]﴾: أي الله الذي جعل لكم الأرض فراشًا كالمهد للصبي. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾: أي طرقًا. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: أي إلى مقاصدكم في أسفاركم.

﴿١١﴾ ﴿مَاءً بِقَدَرٍ﴾: أي على قدر الحاجة ولم يجعله طوفانًا مغرقًا ومهلكًا. ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: أي فأحيينا به بلدة ميتًا أي لا نبات فيها ولا زرع. ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾: أي مثل هذا الإحياء للأرض الميتة بالماء تحيون أنتم وتخرجون من قبوركم.

﴿١٢﴾ ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾: أي خلق كل شيء إذ الأشياء كلها زوج ولم يعرف فرد إلا الله. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ﴾: أي السفن، والإبل.

﴿١٣﴾ ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾: أي تستقروا على ظهور ما تركبون. ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾: أي مطيقين ولا ضابطين.

﴿١٤﴾ ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۞﴾: أي لصائرون إليه راجعون.

معنى الآيات:

﴿٩﴾ ما زال السياق الكريم في دعوة المشركين إلى التوحيد بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي ولئن سألت يا رسولنا هؤلاء المشركين من قومك قائلًا من خلق السموات والأرض أي من أنشأهن وأوجدهن بعد عدم لبادروك بالجواب قائلين الله ثم هم مع اعترافهم بربوبيته تعالى لكل شيء يشركون في عبادته أصنامًا وأوثانًا. في آيات أخرى صرحوا باسم

(١) قرأ نافع: ﴿مهاداً﴾ وقرأ عاصم: ﴿مَهْدًا﴾ والمهاد اسم للشيء يمهد أي: يوطأ ويسهل لما يحل فيه. والمهد مراد به هنا:

الجلالة الله وفي هذه الآية قالوا: العزيز العليم[1] أي الله ذو العزة التي لا ترام والعلم الذي لا يحاط به.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي فراشًا وبساطًا[2] كمهد الطفل وهذا من كلام الله تعالى لا من كلام المشركين إذْ انتهى كلامهم عند العزيز العليم فلما وصفوه تعالى بصفتي العزة والعلم ناسب ذلك ذكر صفات جليلة أخرى تعريفًا لهم بالله سبحانه وتعالى فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي بساطًا وفراشًا، وجعل لكم فيها سبلاً أي طرقًا لعلكم تهتدون إلى مقاصدكم لنيل حاجاتكم في البلاد هنا وهناك، والذي نزل من السماء ماء بقدر وهو المطر بقدر أي بكميات موزونة على قدر الحاجة منها فلم تكن ضحلة قليلة لا تنفع ولا طوفانًا مغرقًا مهلكًا.

(١١) وقوله: ﴿فَأَنشَرْنَا﴾[3] أي أحيينا بذلك المطر بلدة ميتًا أي أرضًا يابسة لا نبات فيها ولا زرع. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[4] أي مثل ذلك الأحياء للأرض الميتة يحييكم تعالى ويخرجكم من قبوركم أحياء.

(١٢) وقوله: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ هذا وصف آخر له تعالى بأنه خلق الأزواج كلها من الذكر والأنثى، والخير والشر والصحة والمرض، والعدل والجور، إذْ لا فرد إلا هو سبحانه وتعالى وفي الحديث الصحيح: «**الله وتر يحب الوتر قل هو الله أحد**» وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ هذا وصف آخر بصفاته الفعلية الدالة على وجوده وقدرته وعلمه والموجبة لألوهيته إذ جعل للناس من الفلك أي السفن ما يركبون ومن الأنعام كالإبل ومن البهائم كالخيل والبغال والحمير كذلك.

(١٣) وقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي تستقروا على ظهوره أي ظهور ما تركبون، ثم تذكروا نعمة ربكم بقلوبكم إذا استويتم عليه وتقولوا بألسنتكم سبحان الذي سخر لنا هذا أي الله لنا وأقدرنا على التحكم فيه، وما كنا له أي لذلك الحيوان المركوب بمقرنين أي بمطيقين ولا ضابطين لعجزنا وقوته.

(١٤) ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝﴾ أي لصائرون إليه بعد موتنا راجعون.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد بذكر صفات الربوبية المقتضية للألوهية.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٣ - معجزة القرآن في الأخبار بالزوجية وقد قرر العلم الحديث نظام الزوجية وحتى في الذرة فهي زوج موجب وسالب.

٤ - مشروعية التسمية والذكر عند ركوب ما يركب فإن كان سفينة أو سيارة قال العبد بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم، وإن كان حيوانًا قال عند الشروع باسم الله وإذا استوى قاعدًا: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون[5].

المهاد.

(١) من الجائز أن يكون ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ من قول المشركين إذ هم لا ينكرون عزة الله وعلمه وقدرته كما درجنا عليه في التفسير إذ هو الظاهر من اللفظ والسياق. وجائز أن يكون من قول الله تعالى وهما صفتان لاسم الجلالة (الله) الذي أجابوا به في غير آية من القرآن ثم ذكر من صفاته الموجبة لعبادته وحده دون من سواه فذكر ست صفات من صفات الجلال والكمال وهي متضمنة إنعامه وإفضاله على عباده بخلقهم ورزقهم.

(٢) كون الأرض مهداً لا ينافي كون جسمها كروياً.

(٣) أصل النشر: البسط لما كان مطوياً وأريدَ به هنا إحياء الأرض بالنبات بعد محلها ويبسها. وحسن إطلاق لفظ النشر لانتشار الحياة فيها بالنباتات.

(٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: إن إحياءكم بعد موتكم وخروجكم من الأرض منتشرين فيها كإحياء الأرض بالمطر وانتشار النباتات والزروع فيها فبأي حق تنكرون البعث وتكذبون به؟

(٥) روى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي أن علياً رضي الله عنه أتى بدابة فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، ثم حمد الله ثلاثاً وكبر الله ثلاثاً ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، ثم ضحك فقيل له: مما ضحكت؟ فقال: رأيت رسول الله فعل مثل ما فعلت ثم ضحك

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ ـ ٢٣]

﴿١٥﴾ ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾: أي وجعل أولئك المشركون المقرون بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض من عباده جزءًا إذ قالوا الملائكة بنات الله. ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾: أي إن الإنسان المعترف بأن الله خلق السموات وجعل من عباده جزءًا هذا الإنسان لكفور مبين أي لكثير الكفر بينه.

﴿١٦﴾ ﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾: أي خصكم بالبنين وأخلصهم لكم.

﴿١٧﴾ ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا[١]﴾: أي بما جعل للرحمن شبهًا وهو الولد. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي أقام طوال نهاره مسود الوجه من الحزن وهو ممتلىء غيظًا.

﴿١٨﴾ ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾: أي أيجترئون على الله ويجعلون له جزءًا هو البنت التي تربى في الزينة. ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾: أي غير مظهر للحجة لضعفه بالأنوثة.

﴿١٩﴾ ﴿عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾: أي لأنهم قالوا بنات الله. ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾: أي أحضروا خلقهم عندما كان الرحمن يخلقهم. ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾: أي سيكتب قولهم إن الملائكة إناثا. ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾: أي يوم القيامة عن شهادتهم الباطلة ويعاقبون عليها.

﴿٢٠﴾ ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾: أي دعواهم أن الله راض عنهم بعبادة الملائكة لا دليل لهم عليه ولا علم. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: أي ما هم إلا يكذبون يتوارثون الجهل عن بعضهم بعضًا.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾: أي أم أنزلنا عليهم كتابًا قبل القرآن. ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾: أي متمسكون بما جاء فيه، والجواب لم يقع ذلك أبدًا.

﴿٢٢﴾ ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾: أي إنهم لا حجة لهم إلا التقليد الأعمى لآبائهم. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾: أي على طريقتهم وملتهم ماشون وهي عابدة غير الله من الملائكة وغيرهم من الأصنام والأوثان.

﴿٢٣﴾ ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾: أي متنعموها. ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾: أي ملة ودين. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾: أي على طريقهم متبعون لهم فيها.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة المشركين إلى التوحيد، والمكذبين إلى التصديق فقال تعالى مُنكرًا عليهم باطلهم موبخًا لهم على اعتقاده والقول به، فقال:

﴿١٥﴾ ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي وجعل أولئك المشركون الجاهلون لله جزءًا أي نصيبًا من خلقه حيث قالوا الملائكة بنات الله، وهذا من أكذب الكذب وأكفر الكفر إذ كيف عرفوا أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله، وأنهم يستحقون العبادة مع الله فعبدوهم؟ حقًا إن الإنسان لكفور[٢] مبين أي كثير الكفر وكبيره وبينه لا يحتاج فيه إلى دليل.

﴿١٦﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ[٣] مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم[٤] بِالْبَنِينَ﴾ أي أتقولون أيها المشركون المفترون اتخذ الله مما يخلق من المخلوقات بناتٍ، وخصكم بالبنين[٥]، بمعنى أنه فضلكم على نفسه بالذكور الذين تحبون ورضي لنفسه بالإناث اللاتي تبغضون. عجبًا منكم هذا الفهم السقيم.

﴿١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ

= فقلت: مما ضحكت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**يعجب الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال: ربي اغفر لي ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري**».

(١) المراد من المثل: الأنثى بدليل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾. وتفسيره بالولد أعمّ وأولى لأن النصارى كاليهود قبلهم قالوا: عزير ابن الله، وعيسى ابن الله؛ وكذبوا، وقال بعض العرب: الملائكة بنات الله. تعالى الله عن الولد ـ ذكراً أو أنثى ـ علواً كبيراً.

(٢) قال الحسن: يعد المصائب وينسى النعم و ﴿مُّبِينٌ﴾ معناه: مظهر للكفر.

(٣) ﴿أَمِ اتَّخَذَ﴾ الميم صلة أي: زائدة لتقوية الكلام، والاستفهام للتوبيخ والتأنيب.

(٤) ﴿وَأَصْفَاكُم﴾ قال القرطبي: اختصكم وأخلصكم بالبنين يقال: أصفيته بكذا أي: آثرته به وأصفيته الود، أخلصته له.

(٥) أي: في المجادلة والإدلاء بالحجة قال قتادة: ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها.

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

٤٩١

أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي بما جعل لله شبهًا وهو الولد ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي إن هؤلاء الذين يجعلون لله البنات كذبًا وافتراءً، إذا ولد لأحدهم بنت فبشّر بها أي أخبر بأن امرأته جاءت ببنت ظل وجهه طوال النهار مسودًا من الكآبة والغم وهو كظيم أي ممتلىء غمًا وحزنًا.

﴿١٨﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝﴾ ينكر تعالى عليهم ويوبخهم على كذبهم وسوء فهمهم فيقول: أيجترئون ويبلغون الغاية في سوء الأدب ويجعلون لله من يربى في الزينة لنقصانه وهو البنات، وهو في الخصام غير مبين لخفة عقله حتى قيل ما أدلت امرأة بحجة إلا كانت عليها لا لها. فقوله: ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي غير مظهر للحجة لضعفه بالخلقة وهي الأنثى والضمير عائد على من في قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ(١) فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي الزينة.

﴿١٩﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ(٢) ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ أي حيث قالوا الملائكة بنات الله وعبدوهم لذلك طلبًا لشفاعتهم والانتفاع بعبادتهم. قال تعالى موبخًا لهم مقيمًا الحجة على كذبهم أشهدوا خلقهم أي أحضروا خلقهم عندما كان الله يخلقهم، والجواب لا، ومن أين لهم ذلك وهم ما زالوا لم يخلقوا بعد ولا آباؤهم بل ولا آدم أصلهم عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ أي هذه وهي قولهم إن الملائكة بنات الله ويسألون عنها ويحاسبون ويعاقبون عليها بأشد أنواع العقاب، لأنها الكذب والافتراء، وعلى من؟ إنه على الله، والعياذ بالله.

﴿٢٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ(٣) مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أي قال أولئك المشركون المفترون لمن أنكر عليهم عبادة الملائكة وغيرها من الأصنام قالوا: لو شاء الرحمن منا عدم عبادتهم ما عبدناهم. قال تعالى في الرد عليهم: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ليس لهم أي علم برضا الله تعالى بعبادتهم لهم، ما هم في قولهم ذلك إلا يخرصون أي يقولون بالخرص والكذب إذ العلم يأتي من طريق الكتاب أو النبي ولا كتاب عندهم ولا نبي فيهم قال بقولتهم.

﴿٢١﴾ ولذا قال تعالى منكرًا عليهم قولتهم الفاجرة ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝﴾؟ لا لا، ما آتاهم الله من كتاب ولا جاءهم

---

(١) في الآية دليل على جواز لبس الذهب والحرير للنساء وهو إجماع إلا أن بعض السلف كان ينزه بناته عنه لقول أبي هريرة: إياكِ يا بنية والتحلي بالذهب فإني أخاف عليك اللهب، وقرأ نافع: ﴿ينشأ﴾ وقرأ حفص: ﴿يُنَشَّؤُاْ﴾ فالأول: بتخفيف الشين والثاني: بتشديدها. الأول من: أنشأ والثاني من: نشأ.

(٢) قرأ نافع: ﴿عند الرحمن﴾ وقرأ حفص: ﴿عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ولا منافاة، والملائكة عند الرحمٰن في الملكوت الأعلى في حضرة القدس يتلقون خطاب الله مباشرة بلا واسطة وهم في واقع الأمر عباد الرحمٰن وجملة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ صفة للملائكة فهي في محل نصب.

(٣) قولهم منظور فيه إلى أن مشيئة الله وهي إرادته قسمان: إرادة كونيّة وإرادة تكليفية شرعية، فالإرادة الكونية القدرية هذه لا تتخلف أبداً فما شاء الله كان، والإرادة الشرعية التكليفية هي التي قد تتخلّف لأن الله تعالى وهب عبده إرادة واختياراً وبحسب ما يختاره يكون جزاؤه. والمشركون لا علم لهم بهذا فلذا نفى عنهم العلم راداً باطلهم بجهلهم.

قبل محمد ﷺ من نذير إذًا فلا حجة لهم إلا التقليد الأعمى للآباء والأجداد الجهال الضلال وهو ما حكاه تعالى عنهم في قوله: (٢٢) ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ[1]﴾ أي ملة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي ماشون مقتفون آثارهم. (٢٣) وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي رسول إلا قال مترفوها أي متنعموها بنضارة العيش وغضارته ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي ملة ودين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ أي متبعون لهم فيها. فهذه سنة الأمم قبل أمتك يا رسولنا فلا تحزن عليهم ولا تك في ضيق بما يقولون ويعتقدون ويفعلون أيضًا. وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ إلى آخر الآية.

هداية الآيات:

١ - تقرير صفة من صفات الإنسان قبل شفائه بالإيمان والعبادة وهي الكفر الواضح المبين.

٢ - وجوب إنكار المنكر ومحاولة تغييره في حدود ما يسمح به الشرع وتتسع له طاقة الإنسان.

٣ - بيان حال المشركين العرب في الجاهلية من كراهيتهم البنات خوف العار وذلك لشدة غيرتهم.

٤ - بيان ضعف المرأة ونقصانها ولذا تكمل بالزينة، وإن النقص فيها فطري في البدن والعقل معًا.

٥ - بيان أن من قال قولاً وشهد شهادة باطلة سوف يسأل عنها يوم القيامة ويعاقب عليها.

٦ - حرمة القول على الله بدون علم فلا يحل أن يُنسب إلى الله تعالى شيء لم ينسبه هو تعالى لنفسه.

٧ - حرمة التقليد للآباء وأهل البلاد والمشايخ فلا يقبل قول إلا بدليل من الشرع.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤ ـ ٣٢]

(٢٤) ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾: قال لهم رسولهم: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بأهدى أي بخير مما وجدتم عليه آباءكم هداية إلى الحق والسعادة والكمال. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾: أي قال المشركون لرسلهم ردًا عليهم إنا بما أرسلتم به كافرون أي جاحدون منكرون غير معترفين به.

(٢٥) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: أي كانت دمارًا وهلاكًا إذًا فلا تكترث بتكذيب قومك يا رسولنا.

(٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾: أي واذكر إذ قال إبراهيم أبو الأنبياء خليل الرحمٰن. ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾: أي بريء مما تعبدون من أصنام لا أعبدها ولا أعترف بها.

(٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾: أي لكن الذي خلقني فإني أعبده وأعترف به فإنه سيهدني أي يرشدني إلى ما يكملني ويسعدني في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

(٢٨) ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ[2]﴾: أي وجعل إبراهيم كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» باقية دائمة في ذريته إذ وصاهم بها كما قال تعالى ووصى بها إبراهيم بنيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي رجاء أن يتوبوا إلى الله ويرجعوا إلى توحيده كلما ذكروها وهي لا إله إلا الله.

(٢٩) ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾: أي هؤلاء المشركين وآباءهم بالحياة فلم أعاجلهم بالعقوبة. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: أي إلى أن جاء القرآن يحمل الدين الحق، ورسول مبين لا شك في رسالته وهو محمد ﷺ يبين لهم طريق الهدى والأحكام الشرعية.

(٣١) ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾: أي وقال هؤلاء المشركون الذين متعناهم

---

(١) لفظ الأمة هنا يراد به الدين والملة والطريقة أيضاً ومن شواهد ذلك:

كنا على أمة آبائنا ويقتدي الآخر بالأول

وهل يستوي ذو أمة وكفور؟

(٢) لفظ العقب الوارد في الآية وفي الحديث الصحيح: «**من أعمر عُمرى فهي له ولعقبه**» فإنها للذي أُعطيها لا ترجع إلى الذي أعطاها لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث قال ابن العربي: ترد هذه اللفظة على أحد عشر لفظاً وهي الولد والبنون والذرية والعقب والنسل والآل والقرابة والعشيرة والقوم والموالي.

بالحياة فلم نُعاقبهم، هَلاَّ نزل هذا القرآن على أحد رجلين من قريتي مكة أو الطائف أي الوليد بن المغيرة بمكة أو عروة بن مسعود الثقفي في الطائف.

(٣٢) ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾: أي ينكر تعالى عليهم هذا التحكم والاقتراح الفاسد فقال أهم يقسمون رحمة ربك إذ النبوة رحمة من أعظم الرحمات. وليس لهم حق في تنبئة أي أحد إذ هذا من حق الله وحده. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أي إذا كنا نحن نقسم بينهم معيشتهم فنغني هذا ونفقر هذا ونملك هذا ونعزل هذا، فكيف بالنبوة وهي أجل وأغلى من الطعام والشراب فنحن أحق بها منهم فننبيء من نشاء. ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾: أي جعلنا هذا غنيًا وذاك فقيرًا ليتخذ الغني الفقير خادمًا يسخره في خدمته بأجرة مقابل عمله. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: أي والجنة التي أعدها الله لك ولأتباعك خير من المال الذي يجمع هؤلاء المشركون الكافرون.

معنى الآيات:

(٢٣) لما ذكر تعالى قول المشركين لرسلهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ ملة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، قال مخبرًا عن قول الرسول لأمته المكذبة المقلدة للآباء الظالمين.

(٢٤) ﴿قَالَ أَوَلَوْ[1] جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي أتتبعون آباءكم ولا تتبعوني ولو جئتكم بأهدى إلى الخير والسعادة مما وجدتم عليه آباءكم، وهذا إنكار من الرسول عليهم في صورة استفهام وهو[2] توبيخ أيضًا إذ العاقل يتبع الهدى جاء به من جاء قريبًا كان أو بعيدًا. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم[3] بِهِ كَافِرُونَ﴾ هذا قول الأمم المكذبة المشركة لرسلهم أي كل أمة قالت هذا لرسولها: إنما بما أرسلتم به من التوحيد وعقيدة البعث والجزاء والشرع وأحكامه كافرون أي منكرون مكذبون غير مصدقين.

(٢٥) قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا[4] مِنْهُمْ﴾ أي لتكذيبهم فأهلكناهم فانظر يا رسولنا كيف كان عاقبتهم وهم المكذبون إنها دمار شامل وهلاك تام. وليذكر هذا قومك لعلهم يذكرون.

(٢٦) وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ[5] وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي واذكر يا رسولنا لقومك قول إبراهيم الذي ينتسبون إليه باطلاً لأبيه وقومه: إنني براء مما تعبدون أي إني بريء من آلهتكم التي تعبدونها فلا أعبدها ولا أعترف بعبادتها.

(٢٧) وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي لكن أعبد الله الذي خلقني فهو أحق بعبادتي مما لم يخلقني ولم يخلق شيئًا وهو مخلوق أيضًا. وقوله فإنه سيهدين أي يرشدني دائمًا إلى ما فيه سعادتي وكمالي.

(٢٨) وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وجعل براءته من الشرك والمشركين، وعبادته خاصة بالله رب العالمين جعلها كلمة باقية في ذريته حيث وصاهم بها كما جاء ذلك في سورة البقرة إذ قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ أي بأن لا يعبدوا إلا الله وهي إذًا كلمة لا إله إلا الله ورثها إبراهيم في بنيه لعلهم يرجعون إليها كلما غفلوا ونسوا وتركوا عبادة الله تعالى والإنابة إليه بعوامل الشر والفساد من شياطين الإنس والجن فيذكرون ويتوبون إلى الله تعالى فيوحدونه ويعبدونه فجزى الله إبراهيم عن المؤمنين خيرًا.

---

(١) قرأ نافع والجمهور: ﴿قل﴾ بصيغة الأمر وقرأ حفص: ﴿قَالَ﴾ بصيغة الماضي فيعود الضمير إلى نذير الذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا..﴾ إلخ.. وأما على قراءة نافع فهو أمر للرسول ﷺ ليقول المشركين ما أمره أن يقوله لهم.

(٢) هذا الاستفهام تقريري إلا أنه مشوب بالإنكار والتوبيخ.

(٣) في قولهم هذا معنى التهكم برسلهم إذ أثبتوا لهم الرسالة وهم مكذبون بها كقول قريش: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾.

(٤) الفاء للتفريع وفي الآية تهديد ووعيد لكفار قريش بأن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم.

(٥) لما ادعى المشركون أنهم مقلدون آبائهم في الدين ذكر لهم أنَّ ما ينبغي أن يقلدوه من آبائهم هو إبراهيم وإسماعيل وإلا فليس الأمر كما يدعون وإنما هم متبعون أهوائهم.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ (٤٤) وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)

(٢٩) - (٣٠) وقوله تعالى: ﴿بَلْ[١] مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي بل لم يتحقق ما ترجاه إبراهيم كاملاً إذ أشرك من بنيه من أشرك ومتهم هؤلاء المشركون المعاصرون لك أيها الرسول وآباءهم، ومتعهم بالحياة حتى جاءهم الحق الذي هو هذا القرآن يتلوه هذا الرسول المبين ﷺ أي الموضح لكل الأحكام والمبين لكل الشرائع. ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون هكذا قالت قريش لما جاءها الحق الذي هو القرآن الحامل للشرائع والأحكام والرسول المبين ﷺ لذلك والموضح له قالوا هذا سحر يسحرنا به، وإنا به أي بالقرآن والرسول ﷺ كافرون أي جاحدون منكرون مكذبون وقالوا أبعد من ذلك في الشطط والغلط وهو ما حكاه تعالى عنهم في قوله:

(٣١) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي هلاّ نزل هذا القرآن على رجل شريف ذي مكانة مثل الوليد بن المغيرة[٢] في مكة أو عروة بن مسعود في الطائف وهذه نظرة مادية بحتة إذ رأوا أن الشرف بالمال، ولما كان محمد ﷺ لا مال له ولا ثراء رأوا أنه ليس أهلاً للرسالة ولا للمتابعة عليها، فردّ تعالى عليهم نظريتهم المادية الهابطة هذه بقوله:

(٣٢) ﴿أَهُمْ[٣] يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أما يخجلون عندما قالوا أهم يقسمون رحمة ربك فيعطون منها من شاؤوا ويمنعون من شاؤوا أم نحن القاسمون؟ إنا قسمنا بينهم معيشتهم: طعامهم وشرابهم وكساهم وسكنهم ومركوبهم في الحياة الدنيا فالعاجز حتى عن إطعام نفسه وسقيها وكسوتها كيف لا يستحي أن يعترض على الله في اختياره من هو أهل لنبوته ورسالته؟ وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي في الرزق فهذا غني وذاك فقير من أجل أن يخدم الفقير الغني وهو معنى قوله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ[٤] بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، إذ لو كانوا كلهم أغنياء لما خدم أحد أحدًا وتعطلت الحياة. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي الجنة دار السلام خير مما يجمعون من المال الذي فضلوا أهله وإن كانوا من أحط الناس قدرًا وأدناهم شرفًا. ورأوا أنهم أولى بالنبوة منك لمرض نفوسهم بحب المال والشهوات.

هداية الآيات:

١ - من الكمال العقلي أن يتبع المرء الهدى ولو خالفه قومه وأهل بلاده.

---

(١) ﴿بَلْ﴾: للإضراب الإبطالي أي: لم يحصل ما رجاه إبراهيم كاملاً بل هناك من لم يرجع إلى التوحيد من ذرية إبراهيم إذ جاء عمرو بن لحيّ بالأصنام وعبدها آباء هؤلاء وهم لها عابدون حتى مجيء الحق ورسوله محمد ﷺ.

(٢) هذا المشهور من الأقوال في الرجلين ومنهم من قال: هما عمير بن عبدياليل الثقفي من الطائف وعتبة بن ربيعة من مكة وهو قول مجاهد. وقيل: عظيم الطائف هو حبيب بن عمرو أما القريتان فلا خلاف في أنهما مكة والطائف لكونهما أكبر مدن تهامة.

(٣) الاستفهام إنكاري متضمن التوبيخ لهؤلاء الزاعمين اختيار من شاؤوا للاصطفاء والرسالة فعلموا أنه لا حق لهم في هذا الاختيار إذ هم لا خيار لهم حتى في طعامهم وشرابهم فضلاً عن اختيار من يرسل ومن لا يرسل.

(٤) الجملة تعليلية للتفاضل في الرزق أي: فاضل بينهم في الغنى والفقر ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً أي: يستخدم الغني الفقير في قضاء حاجته وليأخذ الفقير منه ما يسد به حاجته والسخرى هنا: بمعنى التسخير للعمل وليس بمعنى السخرية والاستهزاء إذ أجمع السبعة على قراءة ضم السين وعدم كسرها.

٢ - وجوب البراءة من الشرك والمشركين وهذا معنى لا إله إلا الله.

٣ - فضيلة من يورث أولاده هدى وصلاحًا.

٤ - لا يعترض على الله أحد في شرعه وتدبيره إلا كفر والعياذ بالله تعالى.

٥ - بيان الحكمة في الغنى والفقر، والصحة والمرض والذكاء والغباء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ ـ ٣٥]

(٣٣) ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: أي على الكفر.

﴿وَمَعَارِجَ﴾: أي كالسلم والمصعد الحديث والمعارج جمع معرج وهو المصعد. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾: أي يعلون عليها إلى السطوح.

(٣٥) ﴿وَزُخْرُفًا﴾: أي ذهبًا أي لجعلنا لبيوتهم سقفًا من فضة وذهب وكذلك الأبواب والمصاعد والسرر بعضها من فضة وبعضها من ذهب.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾: أي وما كل ذلك المذكور. ﴿لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أي وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا يتمتع به فيها ثم يزول.

﴿وَالْآخِرَةُ﴾: أي الجنة ونعيمها خير لأهل الإيمان والتقوى من متاع الدنيا.

معنى الآيات:

(٣٣) لما فضل تعالى الجنة على المال والمتاع الدنيوي في الآيات السابقة قال هنا: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي على الكفر لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن - يعني نفسه عز وجل - لبيوتهم سقفًا من فضة، ومعارج[1] عليها يظهرون[2] أي مراقي ومصاعد عليها يعلون إلى الغرف والسطوح من فضة.

(٣٤) ـ (٣٥) ولجعلنا كذلك ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ من فضة أيضًا، ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي وذهبًا أي بعض المذكور من فضة وبعضهم من ذهب ليكون أجمل وأبهى من الفضة وحدها، ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا يتمتع به الناس ثم يزول ويذهب بزوالهم وذهابهم. والآخرة عند ربك أي الجنة وما فيها من نعيم مقيم للمتقين الذين آمنوا واتقوا الشرك والمعاصي وما عند الله خير مما عند الناس، وما يبقى خير مما يفنى، ولذا قال الحكماء لو كانت الدنيا من ذهب والآخرة من خزف «طين» لاختار العاقل الآخرة على الدنيا، وهو اختيار ما يبقى على ما يفنى.

هداية الآيات:

١ - الميل إلى الدنيا وطلب متاعها فطري في الإنسان فلذا لو أعطيها الكافر بكفره لمال إليها كل الناس وطلبوها بالكفر.

٢ - هوان الدنيا على الله وعدم الاكتراث بها إذ قال رسول الله ﷺ: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»** رواه الترمذي وصححه. وفي صحيح مسلم: **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»**[3].

٣ - بيان أن الآخرة خير للمتقين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ ـ ٤٠]

(٣٦) ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾: أي يعرض متعاميًا متغافلًا عن ذكر الرحمن الذي هو القرآن متجاهلًا له.

﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾: أي نجعل له شيطانًا يلازمه لإضلاله وإغوائه.

﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾: أي فهو أي من عشا عن ذكر الرحمٰن قرين للشيطان.

(٣٧) ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾:

---

(١) المعارج: السلم وجمع السلم: سلاليم وواحد المعارج معرج ومعرج بكسر الميم وفتحها وهي المرقاة والجمع: مراقي.

(٢) روي أن نابغة بن جعدة أنشد رسول الله ﷺ قائلاً:

علونا السماء عزة ومهابة ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

فغضب الرسول ﷺ وقال: **«إلى أين؟»** قال: إلى الجنة قال: **«أجل إن شاء الله»** وهنا قال الحسن: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك فكيف لو فعل؟!

(٣) أنشد بعضهم في ذم الدنيا فقال:

فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن ... إذاً لم يكن فيها معاش لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامة ... وقد شبعت فيها بطون البهائم

أي وإن الشياطين المقارنين لهم ليصدونهم عن طريق الهدى. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾: أي ويحسب العاشون عن القرآن وحججه وعن ذكر الرحمٰن وطاعته أنهم مهتدون أي أنهم على الحق والصواب وذلك بتزيين القرين لهم.

(٣٨) ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾: أي كما بين المشرق والمغرب من البعد قال هذا تبرؤًا منه.

(٣٩) ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾: أي ولن ينفعكم اليوم أيها العاشون إذ ظلمتم أنفسكم بالشرك والمعاصي. ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾: اشتراككم في العذاب غير نافع لكم.

(٤٠) ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾: أي إنك يا رسولنا لا تسمع الصم، ولا تهدي العمي والقوم قد أصمهم الله وأعمى أبصارهم لأنهم عشوا عن ذكره. ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي كما إنك لا تقدر على هداية من كان في ضلال مبين عن الحق والهدى.

معنى الآيات:

(٣٦) ما زال السياق الكريم في عرض الهداية على الضالّين بالكشف عن أحوالهم وإضاءة الطريق لهم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ[١] عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي يعرض متعاميًا متغافلاً عن ذكر الرحمٰن الذي هو القرآن وعبادة الرحمٰن متجاهلاً ذلك نقيض[٢] له شيطانًا أي نسبب له نتيجة إعراضه شيطانًا ونجعله له قرينًا لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة. فهو له قرين دائمًا.

(٣٧) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي وإن القرناء الذين جعلهم تعالى حسب سنته في الأسباب والمسببات للعاشين عن ذكره يصدونهم بالتزيين والتحسين لكل المعاصي حتى انغمسوا في كل إثم وولغوا في كل باطل وشر، وضلوا عن سبيل الهدى والرشد ومع هذا يحسبون أنهم مهتدون وغيرهم هم الظالمون.

(٣٨) وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾[٣] أي يوم القيامة قال العاشي عن ذكر الرحمٰن يا ليت متمنيًا بيني وبينك بعد المشرقين أي يتمنى لو أن بينه وبين قرينه من الشياطين من البعد كما بين المشرق والمغرب. قال تعالى لأولئك العاشين ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أنفسكم بالشرك والمعاصي في الدنيا ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي إن اشتراككم في العذاب غير نافع لكم ولا مجد أبدًا.

(٤٠) وقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ[٤] تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ينكر تعالى على رسوله ﷺ ظنه أنه يقدر على هدايتهم وحده بدون إرادة الله تعالى ذلك لهم إذ كان ﷺ يجتهد في دعائهم، وهم لا يزدادون إلا تعاميًا وتجاهلاً وكفرًا فقال تعالى يخاطب رسوله ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ﴾ والاستفهام للإنكار تسمع الصم الذين ذهب الله بأسماعهم، أو تهدي العمي الذين ذهب الله بأبصارهم، ومن كان في ضلال مبين عن الحق وسبيل الرشد والهدى إنك لا تقدر على ذلك فهون على نفسك وترفّق في دعوتك فإنك لا تكلف غير البلاغ وقد بلغت.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله تعالى فيمن يعرض عن ذكر الله فإنه يسبب له شيطانًا يضله ويحرمه الهداية أبدًا فيقيم على الذنوب والآثام ضالاً الطريق المنجي المسعد وهو يحسب أنه مهتدٍ، وهذا يتعرض له المعرضون عن الكتاب والسنة كالمبتدعة وأصحاب الأهواء

---

(١) هذا مضارع عشا يعشو عشواً كغزا يغزو غزواً إذا نظر إلى الشيء نظراً غير ثابت يشبه نظر الأعشى. والعشا بفتح العين والشين: اسم ضعف العين عن رؤية الأشياء. وعشي كرضي إذا كان في بصره آفة العشا.

(٢) قيض يقيض تقييضاً، فالتقييض: الإتاحة وتهيئة شيء لملازمة شيء لعمل حتى يتمه وهو مشتق من اسم جامد هو قيض البيضة أي: القشر المحيط بالمح، وهو لا يفارقه حتى يخرج منها الفرخ فيتم ما أتيح له القيض.

(٣) قرأ نافع: ﴿جاءانا﴾ أي: من يعش عن ذكر الرحمٰن والشيطان المقيض له وقرأ حفص بالإفراد: ﴿جَآءَنَا﴾ أي: العاشي عن ذكر الرحمٰن.

(٤) الاستفهام إنكاري وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ وتسجيل أن الكافر أصم أعمى ومقابله المؤمن يسمع ويبصر.

والشهوات والعياذ بالله تعالى.

٢ - الاشتراك في العذاب يوم القيامة لا يخففه.

٣ - بيان أن من أعماه الله وأصمه حسب سنته في ذلك لا هادي له ولا مسمع له ولا مبصر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ ـ ٤٥]

(٤١) ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾: أي فإن نذهبن بك أي نميتك[1] قبل تعذيبهم، وما زائدة أدغمت فيها إن الشرطية فصارت إمّا. ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾: أي معذبوهم في الدنيا وفي الآخرة.

(٤٢) ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾: أي وإن نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب. ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾: أي لا يعوقنا عائق لأنا عليهم قادرون.

(٤٣) ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾: أي دم على استمساكك بالقرآن سواء عجلنا لك بالموعود به أو أخرناه. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي إنك على طريق الحق والهدى فواصل سيرك.

(٤٤) ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾: أي وإن القرآن لشرف لك وشرف لقومك. ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾: أي عن القرآن أي عن العمل به بتطبيق شرائعه وإبلاغه لغيركم.

(٤٥) ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾: أي اسأل مؤمني أهل الكتابين التوراة والإنجيل. ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾: أي هل جعلنا من دون الرحمٰن آلهة يعبدون والجواب لم نجعل أبدًا فليفهم هذا مشركو مكة.

معنى الآيات:

(٤١) ما زال السياق الكريم في دعوة كفار قريش إلى الإيمان والتوحيد فقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا[2] نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي إن نذهب بك أي نخرجك من بين أظهرهم فإنا منهم منتقمون أي فنعذبهم كما عذبنا الأمم من قبلهم عندما يخرجون رسولهم.

(٤٢) ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ من نصرك عليهم وغلبتك لهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي قادرون على أن نفعل بهم ذلك.

(٤٣) وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ[3] بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي فتمسك يا رسولنا بما يأمرك به هذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك إنك على صراط مستقيم وهو الإسلام الذي لا يشقى من تمسك به فعاش عليه ومات عليه.

(٤٤) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي وإن القرآن الذي أوحي إليك وأمرت بالتمسك به هو ذكر لك أي شرف وأي شرف[4] ولقومك من قريش كذلك إذا آمنوا به وعملوا بما جاء فيه وسوف تسألون[5] عن العمل به وتطبيق أحكامه والالتزام بشرائعه.

(٤٥) وقوله: ﴿وَسْـَٔلْ[6] مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؟ أي واسأل يا رسولنا مؤمني أهل الكتابين التوراة والإنجيل إذ سؤالهما سؤال رسلهم الذين ماتوا من قبلك هل جعل الله تعالى من دونه آلهة يعبدون؟ وسوف يجيبونك بقولهم حاشا لله أن يأذن بعبادة غيره من خلقه وهو الله لا إله

---

(١) أو بالخروج من مكة مكرهاً عليه من قبل أعدائك، وهجرة الرسول ﷺ ما كانت إلا بإرادته الحرة ولم يكن فيها مكرهاً ولا مُلجأ ولذا لم ينتقم الله من أهل مكة كما هو في التفسير.

(٢) الفاء: تفريعية فالجملة متفرعة عما تقدم من قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ إلخ.. والذهاب هنا قابل للموت والإخراج كرهاً بقرينة الوعيد المترتب عليه.

(٣) ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾ الفاء: تفريعية عما قبلها والآية تحض على التمسك بالإسلام تشريعاً وعملاً.

(٤) هذه الآية كآية الأنبياء وهي: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ ومنشأ هذا الشرف هو أن قريشاً نزل القرآن بلغتها فكل الناس محتاجون إلى معرفة لغتهم ليعرفوا ما طلب منهم من عقائد وعبادات وآداب، فبهذا شرفت قريش.

(٥) من فسر السؤال بالعمل هو حق وكذا من فسره بالشكر فهو حق لأن شكر العلم العمل به وتعليمه.

(٦) جائز أن يكون الكلام على ظاهره وأن النبي ﷺ قد جمع الله تعالى له العديد من الرسل والأنبياء في بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج وسألهم فأجابوا بالحق، وهو أن الله تعالى لم يأذن أبداً في عبادة غيره. وجائز أن يكون في الكلام حذف دل عليه واقع الحياة إذ لا يسأل الأموات وإنما يسأل الأحياء وتقدير المحذوف: واسأل أتباع من أرسلنا من قبلك، وهم مؤمنو أهل الكتابين من أتباع موسى وعيسى كما هو في التفسير.

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

٤٩٣

إلا هو، وهذا من أجل تنبيه أذهان قريش إلى خطئها الفاحش في إصرارها على عبادة الأصنام إن القرآن نزل لهدايتهم وهداية غيرهم من بني آدم على الإطلاق إلا أنهم هم أولاً وغيرهم ثانيًا.

هداية الآيات:

١ ـ من سنة الله في الأمم إذا أخرج الرسول قومه مكرهًا انتقم الله تعالى له منهم فأهلكهم.

٢ ـ صدق وعد الله تعالى لرسوله ﷺ فإنه ما توفاه حتى أقر عينه بنصره على أعدائه.

٣ ـ وجوب التمسك بالكتاب والسنة اعتقادًا وعملاً.

٤ ـ شرف هذه الأمة بالقرآن فإنْ أضاعته أضاعها الله وأذلّها وقد فعلَ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٦ ـ ٥٠]

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾: أي أرسلناه بالمعجزات الدالة على صدق رسالته. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾: أي وقومه من القبط.

﴿٤٧﴾ ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾: أي سخرية واستهزاء.

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾: أي من آيات العذاب كالطوفان. ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾: أي من قرينتها التي قبلها من الآيات.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾: أي أيها العالم بالسحر المتبحر فيه. ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: أي من كشف العذاب عنا إن آمنا. ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾: أي إن كشفت عنا العذاب إنا مؤمنون.

﴿٥٠﴾ ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾: أي ينقضون عهدهم فلم يؤمنوا.

معنى الآيات:

﴿٤٦﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إيراد هذا القصص هنا كان لمشابهة حال قريش بحال فرعون من جهة إذْ قال رجال قريش لِمَ لا يكون الرسول ﷺ من ذوي المال والجاه كالوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود. وقال فرعون: أم أنا خير من هذا الذي هو مهين أي حقير يعني موسى عليه السلام. ومن جهة أخرى كان لتسلية الرسول ﷺ وحمله على الصبر كما صبر موسى وهو أحد أولي العزم الخمسة فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي بحججنا الدالة على صدق موسى في رسالته إلى فرعون وقومه بأن يعبدوا الله ويتركوا عبادة غيره، وأن يرسلوا مع موسى بني إسرائيل ليذهب بهم إلى أرض المعاد «فلسطين» فلما جاءهم قال إني رسول رب العالمين جئتكم لآمركم بعبادة الله وحده وترك عبادة من سواه، إذ لا يستحق العبادة إلا الله. فطالبوه بالآيات على صدق دعواه فلما جاءهم بالآيات العظام فاجؤوه بالضحك منها والسخرية والاستهزاء بها وهو معنى قوله تعالى:

﴿٤٧﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ۞﴾[1].

﴿٤٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا[2]﴾ أي وما نري فرعون وملأه من آية إلا هي أكبر دلالة على صدق موسى من الآية التي سبقتها. قال تعالى وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون إلى الحق فيؤمنون ويوحدون.

---

(١) أي: استهزاء وسخرية يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحر وتخييل وأنهم قادرون على الإتيان بمثلها.

(٢) الأخت هنا: بمعنى المشاكلة والمجانسة النوعية كما يقال: هذه صاحبة تلك أي: قريبة منها في المعنى. والكبر المراد به الكبر في الدلالة على صدق موسى وصحة دعوته إذ المعجزات تتفاوت في العظمة كما قال الشاعر:

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

(٤٩) ﴿وَقَالُواْ﴾ لموسى ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾[١] أي العليم بالسحر المتبحر فيه ظنًا منهم أن المعجزات كانت عمل ساحر. ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[٢] بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي سل ربك يرفع عنا هذا العذاب كالطوفان والجراد والقمل والضفادع إنا مؤمنون وكانوا كلما نزل بهم العذاب سألوا موسى ووعدوه بالإيمان به إن رفع الله عنهم العذاب وفي كل مرة ينكثون عهدهم وهو قوله تعالى: (٥٠) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝﴾ أي ينقضون العهد ولا يؤمنون كما واعدوا.

هداية الآيات:

١ - الآيات دليل على صدق من جاء بها، ولكن لا تستلزم الإيمان ممن شاهدها.

٢ - قد يؤاخذ الله الأفراد أو الجماعات بالذنب المرة بعد المرة لعلهم يتوبون إليه.

٣ - حرمة خلف الوعد ونكث العهد، وأنهما من آيات النفاق وعلاماته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥١ - ٥٦]

(٥١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾: أي نادى فيهم افتخارًا وتبجحًا بما عنده. ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾: أي من النيل تجري من تحت قصوري. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أي عظمتي وما أنا عليه من الجلال والكمال.

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾: أي من موسى الذي هو مهين ولا يكاد يبين أي يفصح لِلُثغة التي في لسانه.

(٥٣) ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾: أي هلاّ أُلقي عليه أسورة من ذهب من قِبَلِ الذي أرسله. ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾: أي أو جاءت الملائكة يتبع بعضها بعضًا تشهد له بالرسالة.

(٥٤) ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾: أي استفز فرعون قومه أي قال لهم ما حركهم به فخفوا لطاعته. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾: أي أطاعوه لكونهم قومًا فاسقين ففسقهم هو علة طاعتهم.

(٥٥) ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: أي فلما أغضبونا انتقمنا منهم.

(٥٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾: أي فرعون وقومه سلفًا أي سابقين ليكونوا عبرة لمن بعدهم. ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾: أي يتمثلون بحالهم فلا يقدمون على مثل فعلهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصة موسى مع فرعون.

(٥١) - (٥٣) قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ[٣] فِى قَوْمِهِۦ﴾ لأجل الافتخار والتطاول إرهابًا للناس ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار النيل[٤] ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾[٥] أي من تحت قصوره، أفلا تبصرون فإذا أبصرتم فقولوا ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ[٦] مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي حقير يتولى الخدمة بنفسه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝﴾ أي يفصح بلسانه لعلة به وهي اللثغة أم هو؟. ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ[٧] مِّن ذَهَبٍ﴾ أي هلاّ ألقى عليه من أرسله ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ أو بعث معه الملائكة مقترنين يشهدون له بالرسالة.

---

(١) هذا النداء في هذا الموقف كان نداء تكريم وتعظيم كعادتهم في توقير وتعظيم علمائهم السحرة لأنهم لما أصابهم من البلاء اعترفوا بمكانة موسى وسيادته و (أيُّه): تكتب بدون ألف اتباعاً للمصحف وحذفت الألف نظراً إلى سقوطها في النطق للوصل، والهاء: حرف تنبيه أتي بها للفصل بين أي وبين نعتها في النداء.

(٢) هذا جرياً على اعتقاد الأقباط وهو أن لكل أمة أو قبيلة رباً خاصاً بهذا لذا قالوا لموسى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.

(٣) قيل: لما كشف الله عنهم العذاب بدعوة موسى أضمر فرعون وملؤه نكث العهد الذي أعطاه لموسى وهو أنهم يهتدون فخاف فرعون أن يتبع قومه موسى فقام بهذه المناورة الرخيصة فنادى في قومه فجمعهم وقال فيهم ما ذكر تعالى.

(٤) هذه الأنهار هي فروع النيل وهي أربعة هي: نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنّيس.

(٥) جائز أن تكون الأنهار له تسلط على مصابها فلذا هدد قومه بذلك.

(٦) ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ﴾ (أم) المنقطعة بمعنى: بل للإضراب الانتقالي والتقدير: بل أنا خير، والاستفهام تقريري أراد تفضيل نفسه على موسى عليه السلام، والمهين: الذليل الذي لم يكن من بيوت الشرف والجاه.

(٧) قرأ نافع والجمهور: ﴿أساورة﴾ جمع أسوار لغة في سوار، وقرأ حفص: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ جمع سوار والمراد من قوله: ﴿أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾ يريد إن كان ملكاً أو رسولاً كما يزعم لم لا يلقى إليه من السماء أساورة كالتي يلبسها ملوك فارس ومصر؟ أو تأتي معه الملائكة يشهدون له بالرسالة بما يدعي وكل هذا من باب دفع معرة الهزيمة التي لحقته.

وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾

(٥٤) قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ﴾ أي استفزهم بقوله هذا وحركهم فأطاعوه إنهم كانوا قومًا فاسقين، والفاسق جبان خوّاف يستجيب بسرعة للباطل إن كان ممن يخاف عادة كالحاكم الظالم.

(٥٥) وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا بنكثهم وكفرهم وكبريائهم وظلمهم أغرقناهم أجمعين أي فلم نبق منهم أحدًا والمراد فرعون وجنوده.

(٥٦) وقوله تعالى ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا[1] وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ﴾ أي جعلنا فرعون، ومن أغرقنا معه من ملإه وجيوشه سلفًا أي سابقين ليكونوا عبرة لمن بعدهم، ومثلاً يتمثل به من بعدهم فلا يقدمون على ما أقدموا عليه من الكفر والظلم والعلو والفساد، وأولى من يعتبر بهذا قريش التي نزل لينبّهها ويحرك كامن نفسها لتنتبه من غفلتها فتؤمن وتوحد فتنجو وتكمل وتسعد.

هداية الآيات:

١ - ذم الفخر والمباهاة إذ هما من صفات المتكبرين والظالمين.

٢ - الاحتقار للفقراء والازدراء بهم من صفات الجبارين الظلمة المتكبرين.

٣ - الفسق يجعل صاحبه مطية لكل ظالم أداة يسخره كما يشاء.

٤ - التحذير من غضب الرب تبارك وتعالى فإنه متى غضب انتقم فبطش.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٧ ـ ٦٢]

(٥٧) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾: أي ولما جعل عيسى ابن مريم مثلاً، والضارب ابن الزبعري. ﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾: أي إذ المشركون من قومك يصدون أي يضحكون فرحًا بما سمعوا.

(٥٨) ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾: أي آلهتنا التي نعبدها خير أم هو أي عيسى ابن مريم فنرضى أن تكون آلهتنا معه. ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾: أي ما جعلوه أي المثل لك إلا خصومة بالباطل لِعلمهم أن ما لغير العاقل فلا يتناول اللفظ عيسى عليه السلام. ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾: أي شديدو الخصومة.

(٥٩) ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾: أي ما هو أي عيسى إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة. ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أي لوجوده من غير أب كان مثلاً لبني إسرائيل لغرابته يستدل به على قدرة الله على ما يشاء.

(٦٠) ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ﴾: أي ولو شاء لأهلكناكم وجعلنا بدلكم ملائكة. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾: أي يعمرون الأرض ويعبدون الله فيها يخلفونكم فيها بعد إهلاككم.

(٦١) ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾: أي وإن عيسى عليه السلام لعلم للساعة تُعلم بنزوله إذا نزل. ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾: أي لا تشكن فيها أي في إثباتها ولا في قربها. ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾: أي وقل لهم اتبعون على التوحيد هذا صراط مستقيم وهو الإسلام.

(٦٢) ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ﴾: أي ولا يصرفنكم الشيطان عن الإسلام. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾: أي إن الشيطان لكم عدو بيّن العداوة فلا تتبعوه.

معنى الآيات:

(٥٧) قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ۝﴾ روي أن ابن الزبعري قال لرسول الله ﷺ لما نزلت آية الأنبياء: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون قال: أهذا لنا

(١) السلف: جمع سالف كخدم جمع خادم وحرس جمع لحارس والسالف: من يسبق غيره في الوجود.

ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم**» فقال ابن الزبعري: خصمتك ورب الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح واليهود يعبدون العزير وبنو مليح يعبدون الملائكة فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرح بها المشركون وضحكوا وضجوا بالضحك مرتفعة أصواتهم بذلك. ونزلت في هذه الحادثة الآية: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا[1]﴾ أي ولما جعل ابن الزبعري عيسى ابن مريم مثلاً إذ جعله مشابهًا للأصنام من حيث أن النصارى اتخذوه إلـهًا وعبدوه من دون الله، وقال فإذا كان عيسى والعزير والملائكة في النار فقد رضينا أن نكون وآلهتنا معهم ففرح بها المشركون وصدوا[2] وضجوا بالضحك.

(٥٨) ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي المسيح؟ قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما ضرب لك ابن الزبعري هذا المثل طلبًا للحق وبحثًا عنه وإنما ضربه لك لأجل الجدل والخصومة بل هم قوم خصمون مجبولون على الجدل والخصام.

(٥٩) وقوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾، أي عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة والرسالة، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يستدلون به على قدرة الله وأنه عز وجل على كل ما يشاء قدير إذ خلقه من غير أب كما خلق آدم من تراب ثم قال له كن فكان.

(٦٠) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي ولو نشاء لأهلكناكم يا بني آدم ولم نبقِ منكم أحدًا. وجعلنا بَدَلَكُمْ في الأرض ملائكة يخلفونكم فيها فيعمرونها ويعبدون الله تعالى فيها ويوحدونه ولا يشركون به سواه.

(٦١) وقوله: ﴿وَإِنَّهُ[3] لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي وإن عيسى عليه السلام لعلامة للساعة أي إن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان علامة على قرب الساعة. فلا تمترن بها أي فلا تشكن في إتيانها فإنها آتية وقريبة. وقوله: واتبعون، أي وقل لهم يا رسولنا واتبعون على التوحيد وما جئتكم به من الهدى هذا صراط مستقيم أي الإسلام القائم على التوحيد الذي نزل به القرآن وجاء به رسول الله ﷺ. ولا يصدنكم الشيطان عن الإسلام بوساوسه وإغوائه فيصرفكم عن التوحيد والإسلام إنه لكم عدو مبين وليس أدل على عداوته من أنه أخرج آدم بإغوائه من الجنة حسدًا له وبغيًا عليه. فمثل هذا العدو لا يصح أبدًا الاستماع إليه والمشي وراءه واتباع خطواته. ومن يتبع خطواته يهلك.

هداية الآيات:

١ ـ بيان أن قريشًا أوتيت الجدل والقوة في الخصومة.

٢ ـ ذم الجدل لغير إحقاق حق أو إبطال باطل وفي الحديث «**ما ضل قوم بعد هُدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**».

٣ ـ شرف عيسى وعلو مكانته وأن نزوله إلى الأرض علامة كبرى من علامات قرب الساعة.

٤ ـ تقرير البعث والجزاء.

٥ ـ حرمة اتباع الشيطان لأنه يضل ولا يهدي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٣ ـ ٦٦]

(٦٣) ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي ولما جاء عيسى ابن مريم إلى بني إسرائيل بالمعجزات والشرائع. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾: أي قال لبني إسرائيل قد جئتكم بالنبوة وشرائع الإنجيل. ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾: أي وجئتكم لأبين

---

(١) المراد بالمثل هنا: الممثل به والمشبه به لأن ابن الزبعري شبه آلهتهم بعيسى في أنها عبدت من دون الله مثله، فإذا كانوا في النار فعيسى كذلك.

(٢) قرأ نافع: ﴿يصدون﴾ من صد يصد عن كذا إذا أعرض فيصدون بمعنى يعرضون عن القرآن ويقولون: إن فيه تناقضاً من أجل فرية ابن الزبعري، وقرأ حفص: ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد من الصد بمعنى الصخب والضجيج.

(٣) وجائز أن يكون الضمير في ﴿وَإِنَّهُ﴾ عائد إلى القرآن أو إلى المنزّل عليه محمد ﷺ إذ قال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» وقرن بين السبابة والوسطى مشيراً إليهما. وما في التفسير مروي عن كبار التابعين: مجاهد وقتادة وابن عباس الصاحبي الجليل رضي الله عنهما ولذا قدمته في التفسير.

لكم ما اختلفتم فيه من أحكام التوراة من أمر الدين وغيره. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: أي خافوا الله وأطيعون فيما أبلغكموه عن الله من الأمر والنهي.

(٦٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾: أي إن الله إلهي وإلهكم فاعبدوه بحبه وتعظيمه والذلة له. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: أي تقوى الله وطاعة الرسول ﷺ وعبادة الله بما شرعه هو الإسلام المعبر عنه بالصراط المستقيم.

(٦٥) ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾: أي في شأن عيسى أهو الله: أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾: أي فويل للذين كفروا بما قالوا في عيسى من الكذب والباطل.

(٦٦) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي ما ينتظر هؤلاء الأحزاب مع إصرارهم على ما قالوه في عيسى إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فجأة وهم لا يشعرون.

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى جدل المشركين في مكة وفرحهم بالباطل الذي قاله ابن الزبعري في شأن الملائكة والعزير وعيسى عليهم السلام من أنهم في النار مع من عبدوهم، وبرأ تعالى الملائكة والعزير وعيسى لأنهم ما أمروا الناس بعبادتهم حتى يؤاخذوا بها، وإنما أمر بعبادتهم الشيطان فالشيطان ومن عبدوهم هم الذين في النار. وذكر تعالى شرف عيسى ومكانته وإنه عبد أنعم عليه بالنبوة وجعله مثلاً لبني إسرائيل يستدلون به على قدرة الله تعالى إذ خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم وإنما خلقه من تراب ذكر رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ليكون ذلك موعظة لكفار مكة.

(٦٣) فقال تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[١] أي جاء بني إسرائيل مصحوبًا بالبينات هي الإنجيل والمعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وما إلى ذلك، قال لهم ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي النبوة من عند الله، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أحكام التوراة وأمور الدين إذًا ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[٢] يا بني إسرائيل أي خافوا عقابه المترتب على معاصيه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغكموه من أمر ونهي عن الله تعالى.

(٦٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ أي إلهي وإلهكم لا إله إلا هو فاعبدوه بفعل محابه وترك مساخطه حبًا فيه وتعظيمًا له ورهبة ورغبة. وقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي دعوتكم إليه من اتقاء الله، وطاعة رسوله ﷺ وعبادته وحده هو الطريق المستقيم الذي يفضي بسالكه إلى سعادة الدارين.

(٦٥) قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ[٣] ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي من بين بني إسرائيل من يهود ونصارى فقالت طائفة من اليهود افتراء أن عيسى ابن مريم ابن زنا وأمه بغي وقالوا ساحر. وقال النصارى: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة. قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي مؤلم فتوعدهم الرب تعالى بالويل الذي هو وادٍ يسيل في جهنم بما يتجمع من صديد فروج أهل النار وأبدانهم من دماء وقروح وأوساخ وهو عذاب يوم القيامة الأليم توعد هؤلاء الظالمين بما قالوا في عيسى عبدالله ورسوله عليه السلام.

(٦٦) وقال تعالى: ﴿هَلْ[٤] يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي ما ينظرون إلا الساعة لأنهم ما تابوا إلى الله ولا راجعوا الحق فيما قالوه في عيسى بل أصروا: اليهود يصفونه بأخس

---

(١) قال ابن عباس: يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخلق الطير والمائدة وغيرها والإخبار بكثير من الغيوب.

(٢) أي: اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده ومن قال هذا فكيف يكون إلهاً يعبد وهو عبد يعبد ويوحد؟

(٣) ومن اختلافاتهم التي نعيت عليهم اختلاف فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعقوبية، اختلفوا في عيسى فقالت النسطورية: هو ابن الله وقالت اليعقوبية: هو الله وقالت الملكية: ثالث ثلاثة أحدهم الله. قاله الكلبي وغيره.

(٤) الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لما تقدم مما يثير في النفس تساؤلاً فكان الجواب: أن العذاب آت وأهله ما ينظرون إلا الساعة وأهل العذاب هم المختلفون من أهل الكتاب والمشركين إذ الجميع ظلموا بالشرك والكفر والتكذيب. والآية تدعوهم إلى التوبة لينجوا من العذاب الأليم.

الصفات والنصارى يصفونه بالألوهية التي هي حق الله رب عيسى ورب العالمين أن تأتيهم بغتة أي فجأة وهم لا يشعرون لأنهم مشغولون بالذرة والهدرجين والاستعمار والتجارة والانغماس في الشهوات كما هو واقع ومشاهد اليوم. وصدق الله العظيم.

هداية الآيات:

١ - بيان رسالة عيسى إلى بني إسرائيل.

٢ - وجوب التقوى لله وطاعة الرسول ﷺ، وتوحيد الله في عبادته.

٣ - بيان شؤم الخلاف، وما يجره من التوغل في الكفر والفساد.

٤ - وعيد الله لليهود والنصارى الذين لم يدخلوا في الإسلام بالويل وهو عذاب يوم أليم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٧ - ٧٣]

(٦٧) ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: أي الأحباء يوم إذ تأتيهم الساعة بغتة. ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾: فإن محبتهم تدوم لهم لأنها كانت في الله وطاعته.

(٦٨) ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾: أي ينادون فيقال لهم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون بل تحبرون أي تسرون وتكرمون.

(٧١) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾: أي يطوف عليهم الملائكة بقصاع من ذهب وفيها الطعام وأكواب من ذهب فيها الشراب اللذيذ. ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾: أي في الجنة ما تشتهيه الأنفس تلذذًا به وتلذه الأعين نظرًا إليه.

(٧٢) ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي يقال لهم وهذه هي الجنة التي أورثكموها الله بأعمالكم الصالحة التي هي ثمرة إيمانكم الصادق وإخلاصكم الكامل.

معنى الآيات:

(٦٧) ما زال السياق في ذكر أحداث الساعة. قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ[(١)] بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي إذا جاءت الساعة الأخلاء أي الأحباء في الدنيا يوم إذ تأتي الساعة بعضهم لبعض عدو فتنقطع تلك الخلة والمودة وتصبح عداء لأنها كانت على معصية الله تعالى وقوله إلا المتقين أي الله عز وجل بفعل أوامره وترك نواهيه فإن مودتهم وخلتهم لا تنقطع لأنها كانت محبة في الله وما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل يناديهم ربهم بقوله:

(٦٨) ﴿يَٰعِبَادِ[(٢)] لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ[(٣)] وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، ويصفهم بقوله:

(٦٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بالقرآن وكانوا مسلمين أي منقادين لله ظاهرًا وباطنًا، ويقول لهم:

(٧٠) ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي أنتم وزوجاتكم المؤمنات تفرحون وتسرون.

(٧١) وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ بيان لنعيم الجنة الذي ينعمون به وهو أنه يطاف عليهم بصحاف من ذهب[(٤)] وهي قصاع، فيها ألذ الطعام

---

(١) ذكر القرطبي رواية عن النقاش أن هذه الآية نزلت في أمية بن خلف الجمحي وعقبة بن أبي معيط كانا خليلين وكان عقبة يجالس النبي ﷺ فقالت قريش: قد صبأ عقبة، فقال أمية له: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تتفل في وجهه ففعل عقبة عليهما لعائن الله ذلك فنذر النبي ﷺ قتله فقتله يوم بدر صبراً وقتل أمية في المعركة ففيهم نزلت هذه الآية، والآية عامة في كل كافر وظالم.

(٢) قرأ نافع والجمهور: ﴿يا عبادي﴾ بالياء بعد الدال وهي ياء المتكلم وقرأ حفص بحذفها تخفيفاً لدلالة اللفظ والسياق عليها.

(٣) رُوي أن المنادي لما يقول: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨)﴾ يرفع أهل العرصة رؤوسهم فيقول المنادي: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ (٦٩)﴾ فينكس أهل الأديان رؤوسهم إلا المسلمين.

(٤) في الصحيحين عن حذيفة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**». وفي صحيح مسلم: «**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون**». قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جشأ ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد والتكبير**».

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

وأشهاه، وأكواب من ذهب أيضًا فيها ألذ الشراب والأكواب جمع كوب وهو إناء لا عروة له ولا خرطوم - حتى يمكن الشرب منه من أي جهة من جهاته - وفيها أي في الجنّة ما تشتهيه الأنفس من سائر المستلذات، وتلذ الأعين من سائر المرئيات ويقال لهم لكم ما تشتهون وأنتم فيها خالدون لا تخرجون منها ولا تموتون فيها.

﴿٧٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾[1] أي وهذه هي الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون من الصالحات والخيرات، ووجه الوراثة أن الله تعالى خلق لكل إنسان منزلين أحدهما في الجنة والثاني في النار فكل من دخل الجنة ورث منزل أحد دخل النار فهذا أوجه التوارث والباء في بما كنتم تعملون سببية أي بسبب أعمالكم الصالحة التي زكت نفوسكم وطهرت أرواحكم فاستوجبتم دخول الجنة وإرث منازلها.

﴿٧٣﴾ وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ[2] كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي يقال لهم هذا إكرامًا لهم وإسعادًا.

هداية الآيات:

١ - كل خلة يوم القيامة تنقطع إلا خلة كانت في الله ولله سبحانه وتعالى، ولذا ينبغي أن تكون المودة في الدنيا لله لا لغيره تعالى.

٢ - بيان فضل التقوى وشرف المتقين الذين يتقون الشرك والمعاصي.

٣ - بيان أن الرجل يجمع الله بينه وبين زوجته المسلمة في الجنة.

٤ - بيان نعيم أهل الجنة من طعام وشراب وسائر المستلذات.

٥ - الإيمان والعمل الصالح سبب في دخول الجنة كما أن الشرك والمعاصي سبب في دخول النار.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٤ - ٨٠]

﴿٧٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾: أي إن الذين أجرموا على أنفسهم بالشرك والمعاصي في جهنم خالدون لا يخرجون ولا يموتون.

﴿٧٥﴾ ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: أي لا يخفف عنهم العذاب وهم فيه ساكتون سكوت يأس.

﴿٧٧﴾ ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾: أي ونادوا مالكًا خازن النار قائلين له ليمتنا ربك. ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾: أي أجابهم بعد ألف سنة مضت على دعوتهم بقوله إنكم ماكثون أي مقيمون في عذاب جهنم دائمًا.

﴿٧٨﴾ ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾: أي علة بقائكم أنا جئناكم بالحق على لسان رسولنا ﷺ والحق التوحيد وعبادة الله بما شرع فكره أكثركم الحق.

﴿٧٩﴾ ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾: أي أحكموا في الكيد للنبي محمد ﷺ فإنا محكمون كيدنا في إهلاكهم.

﴿٨٠﴾ ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾: أي وملائكتنا من الحفظة يكتبون ما يسرون وما يعلنون.

معنى الآيات:

﴿٧٤﴾ - ﴿٧٥﴾ لما ذكر تعالى الجنة ونعيمها ذكر في هذه الآيات النار وعذابها وهذا هو الترغيب والترهيب الذي امتاز به أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله تعالى وهداية الخلق إلى الإصلاح. قال

(١) أشار إليها بلام البعد لعلوها وعظيم منازلها وسمو درجاتها.

(٢) الفاكهة: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الثمار كلها رطبها ويابسها، وبائعها يقال له: الفاكهاني.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[١] أي الذين أجرموا على أنفسهم فأفسدوها بالشرك والمعاصي هؤلاء ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ العذاب أي لا يخفف وهم فيه أي في العذاب مبلسون أي ساكتون آيسون قانطون.

(٧٦) وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ في تعذيبنا لهم بهذا العذاب ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، حيث دسوا أنفسهم بالشرك والمعاصي.

(٧٧) وقوله تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ[٢] عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ يخبر تعالى أن أصحاب ذلك العذاب الدائم الذي لا يفتر فيخفف نادوا مالكاً خازن النار وقالوا له ليمتنا ربك فنستريح من العذاب. فأجابهم مالك بعد ألف[٣] سنة قائلاً قال أي ربي إنكم ماكثون أي في عذاب جهنم، وعلل لهذا الحكم بالمكث أبداً فقال:

(٧٨) ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي أرسلنا إليكم رسولنا ﷺ بالحق يدعوكم إليه وهو الإيمان والعمل الصالح المزكي للنفوس فكره أكثركم[٤] ذلك فلم تؤمنوا ولم تعملوا صالحاً مؤثرين شهوات الدنيا على الآخرة فمتم على الشرك والكفر فهذا جزاء الكافرين.

(٧٩) وقوله تعالى: ﴿أَمۡ[٥] أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ۝﴾ أي بل أبرم هؤلاء المشركون أمراً يكيدون فيه للرسول ﷺ ودعوته فإن فعلوا ذلك فإنا مبرمون أي محكمون أمراً مضاف لهم بتعذيبهم وإبطال ما أحكموه من الكيد للرسول ﷺ ودعوته.

(٨٠) وقوله: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ﴾ نسمع ذلك ورسلنا وهم الحفظة لديهم يكتبون ما يقولون سراً وجهراً. روي أن ثلاثة نفر قالوا وهم تحت أستار الكعبة فقال أحدهم أترون أن الله يسمع كلامنا؟ فقال أحدهم إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع. وقال الثاني إن كان يسمع إذا أعلنتم فإنه يسمع إذا أسررتم فنزلت ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ[٦] وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ﴾ أي نسمع سرهم ونجواهم.

هداية الآيات:

١ - بيان عقوبة الإجرام على النفس بالشرك والمعاصي.

٢ - عذاب الآخرة لا يطاق ولا يقادر قدره يدل عليه طلبهم الموت ليستريحوا منه وما هم بميتين.

٣ - أكبر عامل من عوامل كراهية الحق حب الدنيا والشهوات البهيمية في الأكل والشراب والنكاح هذه التي تُكرّه إلى صاحبها الدين وشرائعه التي قد تقيد من الإسراف في ذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨١ - ٨٥]

(٨١) ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ﴾: أي قل يا رسولنا لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الملائكة بنات الله إن كان للرحمٰن ولد فرضاً. ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾: أي فأنا أول من يعبده تعظيماً لله وإجلالاً ولكن لا ولد له فلا عبادة إذاً لغيره.

(٨٢) ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي تنزّه وتقدس. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: أي عما يصفون به الله تعالى من أن له ولداً وشركاء.

---

(١) الجملة مستأنفة استئنافياً بيانياً لأن سائلاً بعد أن علم بحال أهل الإيمان والتقوى يسأل عن حال أهل الإجرام فأجيب بـ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إلخ..

(٢) قال ابن مسعود وأبو الدرداء: قرأ النبي ﷺ: ﴿ونادوا يا مال﴾ أي: رخم الاسم المنادى بحذف الحرف الأخير منه وهو شائع في كلام العرب فيقال في مالك: يا مال وفي حارث يا حار وفي فاطمة يا فاطم قال الشاعر:

يا حار لا أُرْمَيَنّ منكم بداهية ... لم يلقها سوقة قبلي ولا ملك

وقال آخر:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صَرمي فأجملي

(٣) روى هذا الترمذي وهناك رواية أخرى في ذكر المدة التي يجابون بعدها.

(٤) الذين كرهوا الحق هم الرؤساء حفاظاً على مراكزهم وأما الأتباع فلم يكرهوا الحق ولكن اتبعوا الرؤساء فماتوا على الشرك والكفر فدخلوا النار معهم.

(٥) ﴿أَمۡ﴾ المنقطعة تفسر ببل للإضراب الانتقالي، والاستفهام محذوف الأداة تخفيفاً أي: أأبرموا أمراً والاستفهام تقريري والمراد بالأمر ما يبيتونه من مكر بالرسول ﷺ وأجمعوا عليه وهو قتله ﷺ وذلك في دار الندوة فأبرم الله أمراً فأهلكهم في بدر.

(٦) السر: ما يسرونه في أنفسهم من وسائل المكر بالنبي ﷺ والنجوى ما يتناجون به بينهم في ذلك بحديث خفي.

(٨٣) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾: أي اتركهم يا رسولنا يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم.
(٨٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾: أي معبود في السماء. ﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾: أي ومعبود في الأرض.
(٨٥) ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾: أي تعاظم وجل جلال الذي له ملك السموات. ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾: أي عنده علم وقت مجيئها.

معنى الآيات:

(٨١) سبق أن بكّت تعالى المشركين في دعواهم أن الملائكة بنات الله وتوعدهم بالعذاب على قولهم الباطل وهنا قال لرسوله محمد ﷺ قل لهم إن كان للرحمن[1] ولد كما تفترون فرضًا وتقديرًا فأنا أول العابدين له[2]، ولكن لم يكن للرحمن ولد. فلم أكن لأعبد غير الله تعالى، هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾.
(٨٢) وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزّه تعالى نفسه وقدّسها وهو رب السموات والأرض ورب العرش أي مالك ذلك كله وسلطانه عليه جميعه عما يصفه المشركون به من أن له ولدًا وشركاء.
(٨٣) وهنا قال تعالى لرسوله ﷺ إذا أصروا على باطلهم من الشرك والعذاب على الله والافتراء عليه فذرهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون وهو يوم عذابهم المعد لهم وذلك يوم القيامة.
(٨٤) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أي معبود في السماء ومعبود في الأرض أي معظم غاية التعظيم، ومحبوب غاية الحب ومتذلل له غاية الذل في الأرض والسماء وهو الحكيم في صنعه وتدبيره العليم بأحوال خلقه فهل مثله تعالى يفتقر إلى زوجة وولد تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.
(٨٥) وقوله: ﴿وَتَبَارَكَ[3] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي تعاظم وجلّ جلاله وعظم سلطانه الذي له ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ والدنيا والآخرة، وعنده علم الساعة وإليه ترجعون أن يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وهو على كل شيء قدير.

هداية الآيات:

١ - مشروعية التلطف في الخطاب والتنزل مع المخاطب لإقامة الحجة عليه كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وكما هنا قل إنْ كان للرحمٰن ولد من باب الفرض والتقدير فأنا أول العابدين له ولكن لا ولد له فلا أعبد غيره سبحانه وتعالى.

٢ - تهديد المشركين بعذاب يوم القيامة.

٣ - إقامة البراهين على بطلان نسبة الولد إلى الله تعالى.

شرح الكلمات:
[الآية: ٨٦ - ٨٩]

(٨٦) ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: أي يعبدونهم. ﴿مِنْ دُونِهِ﴾: أي من دون الله. ﴿الشَّفَاعَةَ﴾: أي لأحد. ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾: أي لكن الذي شهد بالحق فوحد الله تعالى على علم هذا الذي تناله شفاعة الملائكة والأنبياء.
(٨٧) ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: أي كيف يصرفون عن الحق بعد معرفته.
(٨٨) ﴿وَقِيلِهِ﴾: أي قول النبي ﷺ يا رب إن هؤلاء.
(٨٩) ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾: أي أعرض عنهم. ﴿وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ﴾: أي أمري سلام منكم، فسوف تعلمون عاقبة كفركم.

---

(١) يُروى عن ابن عباس والحسن والسدي: أن ﴿إِنْ﴾ ليست شرطية وهي نافية بمعنى ما وتقدير الكلام: ما كان للرحمٰن ولد. وهنا تم الكلام ثم قال: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ وهذا الرأي ضعيف ويتنافى مع السياق وما في التفسير هو الصواب.
(٢) له أي: لذلك الولد لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد إلا أنه لا ولد له ولا ينبغي له لِغِنَاهُ المطلق.
(٣) تعاظم وتسامى عما يصفه به المشركون من الشريك والصاحبة والولد. و ﴿وَتَبَارَكَ﴾: هو خبر لفظًا وإنشاء معنىً، إذ هو لفظ أريد به المدح العظيم لذي الخير العظيم.

معنى الآيات:

(٨٦) لما أعلم تعالى في الآية السابقة أن رجوع الناس إليه يوم القيامة، وكان المشركون يزعمون أن آلهتهم من الملائكة وغيرها تشفع لهم يوم القيامة واتخذوا هذا ذريعة لعبادتهم فأعلمهم تعالى في هذه الآية (٨٦) أن من يدعونهم بمعنى يعبدونهم من الأصنام والملائكة وغيرهم[1] من دون الله لا يملكون الشفاعة لأحد، فالله وحده هو الذي يملك الشفاعة ويُعطيها لمن يشاء هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[2]﴾ أي استثنى الله تعالى أن من شهد بالحق أي بأنه لا إله إلا الله، وهو يعلم ذلك علمًا يقينًا فهذا قد يشفع له الملائكة أو الأنبياء فقال عز وجل: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم فالموحدون تنالهم الشفاعة بإذن الله تعالى.

(٨٧) وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلقهم لأجابوك قائلين الله. فسبحان الله كيف يقرون بتوحيد الربوبية وينكرون توحيد العبادة فلذا قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ[3] يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق بعد معرفته يعرفون أن الله هو الخالق لهم ويعبدون غيره ويتركون عبادته.

(٨٨) - (٨٩) وقوله: ﴿وَقِيلِهِۦ[4] يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ويعلم تعالى قيل رسوله ﷺ وشكواه وهي يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون لما شاهد من عنادهم وتصلبهم شكاهم إلى ربه تعالى فأمره ربه عز وجل أن يصفح[5] عنهم أي يتجاوز عما يلقاه منهم من شدة وعنت وأن يقول لهم سلام وهو سلام متاركة لا سلام تحية وتعظيم أي قل لهم أمري سلام. فسوف تعلمون[6] عاقبة هذا الإصرار على الكفر والتكذيب فكان هذا منه تهديدًا لهم بِذِكر ما ينتظرهم من أليم العذاب إن ماتوا على كفرهم.

هداية الآيات:

١ - لا يملك الشفاعة يوم القيامة أحدٌ إلا الله تعالى فمن أذن له شفع ومن لم يأذن له لا يشفع، ولا يُشَفَّعُ إلا لأهل التوحيد خاصة أما أهل الشرك والكفر فلا شفاعة لهم.

٢ - مشركو العرب على عهد النبوة موحدون في الربوبية مشركون في العبادة.

٣ - مشروعية الصفح والتجاوز عند العجز عن إقامة الحدود وإعلاء كلمة الله تعالى.

❁ ❁ ❁

---

(١) مثل عيسى والعزير.

(٢) وهم يعلمون الجملة حالية وفي هذا دليل على أن من لم يفهم معنى لا إله إلا الله ويقولها لا تنفعه ولا ينال بها الشفاعة يوم القيامة إذ لا بد من فهمه ماذا نفى وماذا أثبت ولذا إيمان المقلد اختلف في صحته أهل العلم.

(٣) أنى: اسم استفهام عن المكان فمحله نصب على الظرفية أي: إلى أي مكان يصرفون؟ وماضِي يؤفكون أفك يأفك أفكًا على وزن ضرب يضرب ضربًا، وأفكه كضربه.

(٤) هذا على قراءة نافع وهي نصب (قيله) أما على قراءة حفص: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ مجرور عطفًا على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وعلم قيل: رسوله كذا. وهو (قيل) مصدر قال كالقول، وأصله قول فعل بمعنى مفعول كذبح بمعنى مذبوح والضمير في قيله يعود إلى النبي ﷺ إذ هو القائل: «**يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون**» لطول ما دعاهم وهم معرضون عن الحق مصرون على الكفر.

(٥) مثل هذا (فاصفح وقل سلام) منسوخ بآيات القتال التي نزلت بالمدينة النبوية بعد الهجرة.

(٦) قرأ نافع: ﴿**تعلمون**﴾ بالتاء وقرأ حفص والجمهور: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بالياء فالأول: مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقوله للمشركين، والثاني: على أنه وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه ينتقم من المكذبين.

ترتيبها ٤٤ — سُورَةُ الدُّخَانِ — آياتها ٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨)

سورة الدخان
مكية
وآياتها تسع وخمسون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٩]

(١) ﴿حمٓ﴾: هذا أحد الحروف المقطعة تكتب هكذا حم وتقرأ هكذا حَامِيمْ.

(٢) ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: أي القرآن المظهر للحلال والحرام في الأقوال والأعمال والاعتقادات.

(٣) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾: أي في ليلة القدر من رمضان.

(٤) ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: أي يفصل كل أمر محكم من الآجال والأرزاق وسائر الأحداث.

(٥) ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾: أي فيها في ليلة القدر يفرق كل أمر حكيم أمرًا من عندنا أي أمرنا بذلك أمرًا من عندنا.

(٥) ـ (٦) ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۞ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: أي إنّا كنا مرسلين الرسل محمدًا ومن قبله رحمة من ربك بالمرسل إليهم من الأمم والشعوب. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: أي السميع لأصوات مخلوقاته العليم بحاجاتهم.

(٧) ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: أي بأنه رب السموات والأرض فآمنوا برسوله واعبدوه وحده.

(٩) ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۞﴾: أي فليسوا بموقنين بل هم في شك من ربوبية الله تعالى لخلقه وإلا لعبدوه وأطاعوه بل هم في شك يلعبون بالأقوال والأفعال لا يقين لهم في ربوبية الله تعالى وإنما هم مقلدون لآبائهم في ذلك.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿حمٓ ۞﴾[1] هذا أحد الحروف المقطعة وهو من المتشابه الذي يفوض فهم معناه إلى منزله فيقول: المؤمن: الله أعلم بمراده به، وقد ذكرنا له فائدتين جليلتين تقدمتا غيرما مرة الأولى: أنه لما كان المشركون يمنعون سماع القرآن خشية التأثر به جاءت هذه الفواتح بصيغة لم تعهدها العرب في لغتها فكان إذا قرأ القارىء رافعًا صوته مادًا به هذه الحروف يستوقف السامع ويضطره إلى أن يسمع فإذا سمع تأثر واهتدى غالبًا، وأعظم بهذه الفائدة من فائدة، والثانية: أنه لما ادعى العرب أن القرآن ليس وحيًا إلهيًا وإنما هو شعر أو سحر أو قول الكهان أو أساطير تحداهم الله تعالى بالإتيان بمثله فعجزوا فتحداهم بعشر سور فعجزوا فتحداهم بسورة فعجزوا فأعلمهم أن هذا المعجز إنما هو مؤلف من مثل هذه الحروف حَمَ طَسَم آلم فألفوا نظيره فعجزوا فقامت عليهم الحجة لعجزهم وتقرر أن القرآن الكريم كلام الله ووحيه أوحاه إلى رسوله، ويؤكد هذه الفائدة أنه غالبًا إذا ذكرت هذه الحروف في فواتح السور يذكر القرآن بعدها نحو طس تلك آيات القرآن، حم والكتاب المبين، آلم تلك آيات الكتاب الحكيم.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞﴾ هذا قسم أقسم الله تعالى بالقرآن تنويهًا بشأنه ولله أن يقسم بما يشاء فلا حجر عليه وإنما الحجر على الإنسان أن يحلف بغير ربه عز وجل، والمراد من الكتاب المبين المقسم به القرآن العظيم.

(٣) وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن

---

(١) ورد في فضل هذه السورة عدة أحاديث ضعيفة ولكثرتها قد ترتفع إلى درجة الحسن منها: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بيتًا في الجنة**».

﴿فِى لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ أي كثيرة البركة والخير وهي ليلة القدر[١] والتي هي خير من ألف شهر. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، ولذلك أرسلنا الرسول وأنزلنا القرآن لننذر الناس عذاب يوم القيامة حيث لا ينجي منه إلا الإيمان والعمل الصالح، ولا يعرفان إلا بالوحي فكان لا بد من الرسول الذي يوحى إليه ولا بد من الوحي الحامل لبيان الإيمان وأنواع العمل الصالح.

(٤) وقوله ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ أي في تلك الليلة المباركة يفصل كل أمر محكم مما قضى الله أن يتم في تلك السنة من أحداث في الكون يؤخذ ذلك من كتاب المقادير فيفصل عنه وينفذ خلال السنة من الموت والحياة والغنى والفقر والصحة والمرض والتولية والعزل فكل أحداث تلك السنة تفصل من اللوح المحفوظ ليتم إحداثها في تلك السنة حتى إن الرجل ليتزوج و يولد له وهو في عداد من يموت فلا تنتهي السنة إلا وقد مات.

(٥) وقوله: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ[٢] عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ أي كان ذلك أمرًا من عندنا أمرنا به.

وقوله: إنا كنا مرسلين، أي الرسل محمدًا فمن قبله من الرسل رحمة من ربك بالناس المرسل إليهم إنه هو السميع لأقوالهم وأصواتهم العليم بحاجاتهم، فكان إرسال الرسل رحمة من ربك أيها الرسول فاحمده واشكره فإنه أهل الحمد والثناء.

(٧) وقوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ أي خالق ومالك السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، أي بأنه رب السموات والأرض وما بينهما فاعبدوه وحده فإنه لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين.

(٨) وقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِى شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝﴾ دال على أن إقرارهم بأن الله رب السموات ورب الخلق عندما يسألون لم يكن عن يقين إذ لو كان على يقين لما أنكروا توحيد الله وكفروا به إذًا فهم في شك يلعبون بالأقوال فقط كما يلعبون بالأفعال، لا يقين لهم في ربوبيته تعالى وإنما هم مقلدون لآبائهم في ذلك.

هداية الآيات:

١ - بيان فضل ليلة القدر[٣] وأنها في رمضان.

٢ - تقرير عقيدة القضاء والقدر وإثبات اللوح المحفوظ.

٣ - إرسال الرسل رحمة من الله بعباده، فلم يكن زمن الفترة وأهلها أفضل من زمن الوحي.

٤ - لم يكن إفراد المشركين بربوبية الله تعالى لخلقه عن علم يقيني بل هم مقلدون فيه فلذا لم يحملهم على توحيد الله في عبادته، وهذا شأن كل علم أو معتقد ضعيف.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ - ١٦]

(١٠) ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾: أي انتظر.

﴿بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾: أي هو ما كان يراه الرجل من قريش لشدة الجوع بين السماء والأرض من دخان.

(١١) ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾: أي يغشى أبصارهم من شدة الجهد الناتج عن الجوع الشديد.

(١٢) ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾: أي يا ربنا إن كشفت عنا العذاب آمنا بك وبرسولك.

(١٣) ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: أي من أي وجه يكون لهم التذكر والحال أنه قد جاءهم رسول مبين فتولوا عنه وقالوا معلم مجنون.

(١٤) ﴿مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾: أي أنه يعلمه القرآن بشر مجنون أي مختلط عليه أمره غير مدرك لما يقول.

---

(١) شاهده قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِى لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ وقوله: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ حيث ابتدأ نزوله في غار حراء في شهر رمضان وجائز أن يكون نزل كله في ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزة في سماء الدنيا ثم نزل منجمًا فتمّ نزوله خلال ثلاث وعشرين سنة.

(٢) نصب أمرًا من عندنا على الحال، والأمر الحكيم: المشتمل على الحكمة ورحمة: مفعول لأجله من إنا كنا مرسلين.

(٣) رويت آثار وأحاديث يزعم أصحابها أن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان وردَّها أهل العلم قال ابن العربي: ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان هو باطل لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ فنصّ على أن ميقات نزوله في رمضان ثم عيّن زمان من الليل هاهنا بقوله: ﴿فِى لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفرية على الله. وليس في ليلة النصف من شعبان حديث واحد يعول عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها.

(١٥) ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾: أي إلى الكفر والجحود.

(١٦) ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾: أي الأخذة القوية التي أخذناهم بها يوم بدر حيث قتلوا وأسروا.

معنى الآيات:

(١٠) قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ﴾[1] الآية نزلت بعد أن دعا رسول الله ﷺ على قريش يوم كثر استهزاؤهم به وسخريتهم منه وبما جاء به من الدين الحق فقال اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف أي سبع سنين من القحط والجدب فأمره ربه أن ينتظر ذلك فقال له فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم، واستجاب تعالى لرسوله وأصاب قريشًا بقحط وجدب ماتت فيه مواشيهم وأصابهم جوع أكلوا فيه العهن[2] وشربوا فيه الدم، وكان الرجل يرفع رأسه إلى السماء فلا يرى إلا دخانًا[3] يغشى بصره من شدة الجوع، حتى ضرعوا إلى الله وبعثوا إلى الرسول يطلبون منه أن يدعو الله تعالى أن يرفع عنهم هذا العذاب وهو معنى قوله تعالى: (١٠) - (١٢) ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝﴾ أي برسولك وبما جاء به من الهدى والدين الحق.

(١٣) - (١٤) وقوله تعالى: ﴿أَنَّى لَهُمُ[4] الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ۝﴾ أي ومن أين يأتيهم التذكر فينيبوا إلى ربهم ويسلموا له، والحال أنه قد جاء رسول مبين للحق مظهر له فعرفوه أنه رسول حق وصدق ثم تولوا عنه أي أعرضوا عنه وعما جاء به وقالوا معلم أي[5] هو رجل يعلمه غيره الذي يقوله ولم يكن رسولاً وقالوا مجنون فلذا تذكرهم وتوبتهم مستبعدة جدًا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝﴾ وفعلاً كشف الله عنهم عذاب المخمصة ونزل الغيث بديارهم وسعدت بلادهم بعد شقاء دام سبع سنوات، وعادوا إلى الشرك وحرب الإسلام والمسلمين.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ۝﴾[6] أي وارتقب يا رسولنا يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون، وكان ذلك ببدر حيث انتقم الله منهم فقتل رجالهم بل صناديدهم وأسر من أسر منهم، وكانت بطشة لم تعرفها قريش قط.

هداية الآيات:

١ - صدق وعد الله لرسوله واستجابة دعائه ﷺ.

٢ - الإيمان عند معاينة العذاب لا يجدي ولا ينفع.

٣ - بيان ما قابلت به قريش دعوة الإسلام من جحود وكفران.

٤ - إخبار القرآن بالغيب وصدقه في ذلك آية أنه وحي الله وكلامه تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ - ٢٤]

(١٧) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: أي ولقد اختبرنا قبلهم أي قبل كفار قريش قوم فرعون من

---

(١) ارتقب معناه: انتظر يا رسولنا ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ إلخ.. وقيل: ارتقب معناه: احفظ لأن الرقيب يطلق على الحافظ.

(٢) العهن: الصوف يصبغ بالدم ويشوى ويؤكل لشدة الجوع الذي أصابهم.

(٣) لا منافاة بين هذا الدخان الثابت بالقرآن والسنة، وبين الدخان الذي هو من أشراط الساعة والثابت بالسنة الصحيحة في حديث مسلم وهو أنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر: الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم.

(٤) ﴿أَنَّى﴾ اسم استفهام، الأصل أنه يستفهم به عن المكان ويتوسع فيه فيستفهم به عن الحال كما هي هنا والاستفهام هنا إنكاري أي كيف يتذكرون وهم في شك يلعبون؟! وجملة وقد جاءهم رسول حالية فهي في محل نصب.

(٥) أي لم يكتفوا بالإعراض بل زادوا عليه الافتراء والسب إذ قالوا معلم مجنون.

(٦) يقال: انتقم منه أي عاقبه والنقمة بالكسر والفتح والجمع نقم كعنب ونقمات ككلمات والظرف ﴿يَوْمَ﴾ متعلق بجملة ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ أي منتقمون يوم البطش.

الأقباط. ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾: أي موسى بن عمران صلوات الله عليه وسلامه.

(١٨) ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾: أي ادفعوا إلي عباد الله بني إسرائيل وأرسلوهم معي. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: أي إني رسول الله إليكم أمين على وحيه ورسالته.

(١٩) ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أي وبأن لا تطغوا على الله فتكفروا به وتعصوه. ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي بحجة واضحة تدل على صدقي في رسالتي وما أطالبكم به.

(٢٠) ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾: أي وإني قد اعتصمت بربي وربكم واستجرت به أن ترجموني.

(٢١) ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ﴾: أي إن لم تصدقوني فيما جئتكم به فخلوا سبيلي واتركوني.

(٢٢) ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾: أي فلما كذبه فرعون وقومه وهموا بقتله نادى ربه يا رب. ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾: أي إن هؤلاء قوم مجرمون بالكفر والظلم.

(٢٣) ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: أي فأجابه ربه بأن قال له فأسر بعبادي أي بني إسرائيل ليلاً إن فرعون وجنده متبعوكم ليردوكم.

(٢٤) ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾: أي وإذا اجتزت أنت وقومك البحر فاتركه رهوًا ساكنًا كما هو حين دخلته مع بني إسرائيل. ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾: أي إن فرعون وقومَه جندٌ واللّهُ مغرقُهم في البحر.

الجزء الخامس والعشرون — سورة الدخان

وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٢) وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ (٣٣) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)

٤٩٧

معنى الآيات:

(١٧) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾[1] هذا شروع في قصة موسى مع فرعون لوجود تشابه بين أكابر مجرمي قريش وبين فرعون في ظلمه وعلوّه، والقصد تسلية الرسول ﷺ، وتخفيف ألمه النفسي من جرّاء ما يلاقي من أكابر مجرمي قريش في مكة فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل كفار قريش قوم فرعون من القبط وجاءهم رسول كريم أي على ربه وعلى قومه من بني إسرائيل هو موسى بن عمران عليه السلام.

(١٨) - (١٩) ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ﴾ أي بأن أدوا أي ادفعوا ﴿إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ بني إسرائيل وأرسلوهم معي ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ على رسالتي صادق في قولي، وبأن ﴿لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي بأن لا تطغوا على الله فتكفروا به وتعصوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه. ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة بينة واضحة على صحة ما أطالبكم به.

(٢٠) ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾[2] ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي استجرت وتحصنت ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ بأقوالكم أو أعمالكم[3].

(٢١) ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ أي لم تصدقوا بما جئتكم به فاعتزلون.

(٢٢) ولما أبوا إلا أذاه وأرادوا قتله دعا ربه قائلاً رب ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ كفرة ظلمة يعني فرعون وملأه.

(٢٣) فأوحى إليه ربه تعالى ﴿فَأَسْرِ﴾[4] ﴿بِعِبَادِي﴾ أي بني إسرائيل إذ

---

(١) ﴿فَتَنَّا﴾ بمعنى ابتلينا وهو الأمر بالإيمان والطاعة أي عاملتهم معاملة المختبر لهم وذلك ببعث موسى وأخيه هارون عليهما السلام.

(٢) كأنهم هددوه بالقتل فلذا استجار بالله تعالى.

(٣) الرجم بالقول: الكذب على الشخص والافتراء عليه كذبًا، والرجم بالأعمال: معناه القتل بالحجارة.

(٤) قرأ نافع وغيره بهمزة وصل وقرأ حفص وغيره بهمزة قطع لأن الفعل ثلاثيًا نحو سرى يسري سريًا وأسرى يسري إسراء.

هم المؤمنون وغيرهم من القبط كافرون ليلاً في آخر الليل وأعلمه أن فرعون وجنوده متبعون لهم ليردوهم وينكلوا بهم.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ[1] رَهْوًا إِنَّهُمْ[2] جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾. إنه لما ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق فلقتين ودخل بنو إسرائيل البحر فاجتازوه أراد موسى أن يضرب البحر ليلتئم كما كان حتى لا يدخله فرعون وجنده فيدركوهم فقال له ربه تعالى أترك البحر رهوًا أي ساكنًا كما كان حين دخلتموه حتى إذا دخل فرعون وجنوده أطبقناه عليهم إنهم جند مغرقون وهذا الذي حصل فنجى[3] الله موسى وبني إسرائيل وأغرق فرعون وجنوده أجمعين.

هداية الآيات:

١ - وجود تشابه كبير بين فرعون وكفار قريش في العلو والصلف والكفر والظلم.

٢ - مشروعية الاعتبار بما سلف من أحداث في الكون والائتساء بالصالحين.

٣ - وجوب الاستعاذة بالله تعالى والاستجارة به إذ لا مجير على الحقيقة إلا هو ولا واقي سواه.

٤ - مشروعية دعاء الله تعالى على الظالمين وسؤاله النصر عليهم والنجاة منهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥ ـ ٣٣]

(٢٥) ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾: أي بساتين وحدائق غناء.

(٢٦) ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: أي مجلس حسن ومحافل مزينة ومنازل حسنة.

(٢٧) ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾: أي نضرة عيش ولذاذته كانوا فيها ناعمين.

(٢٨) ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾: أي بني إسرائيل.

(٢٩) ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾: أي لهوانهم على الله بسبب كفرهم وظلمهم. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾: أي ممهلين حتى يتوبوا.

(٣٠) ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾: أي قتل أبنائهم واستخدام نسائهم.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي اخترناهم على علم منا على عالمي زمانهم من الإنس والجن. وذلك لكثرة الأنبياء منهم وفيهم. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟﴾: أعطيناهم من النعم ما فيه بلاء مبين أي واضح كانفلاق البحر والمنِّ والسلوى.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في قصة موسى عليه السلام مع عدو الله فرعون عليه لعائن الرحمن.

(٢٥) ـ (٢٧) قال تعالى: ﴿كَمْ[4] تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ أي كم ترك فرعون وجنوده الذين هلكوا معه في البحر أي تركوا كثيرًا من الجنات أي البساتين والعيون الجارية فيها سقي المزروع، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي منازل حسنة ومحافل مزينة بأنواع الزينة والمحفل مكان الاحتفال، ﴿وَنَعْمَةٍ﴾[5] أي متعة عظيمة ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ أي ناعمين مترفين.

(٢٨) وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾[6] هكذا كانت نعمتهم فسلبناهما منهم لكفرهم بنا وتعاليهم على شرائعنا وأوليائنا، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[7] هم بنو إسرائيل إذ رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون.

---

(١) المراد بالبحر هنا بحر القلزم المعروف اليوم بالبحر الأحمر ورهوًا منصوب على الحال والرهوة الفجوة الواسعة مأخوذ من (رها) إذا فتح بين رجليه ومعناه: اترك البحر مفتوحًا ساكنًا حتى يدخل فرعون وجنده فيهلكون.

(٢) جملة ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ تعليلية، ومغرقون: مقضيًا ومحكوم بإغراقهم.

(٣) وكانت هذه النجاة يوم عاشوراء وهو عاشر شهر المحرم لحديث صيام اليهود فيه لأن الله أنجا فيه موسى وبني إسرائيل فصامه الرسول ﷺ وأمر بصيامه وقال: نحن أولى بموسى منهم.

(٤) ﴿كَمْ﴾ للتكثير: كرب للتقليل غالبًا.

(٥) النعمة: بفتح النون التنعيم يقال: نعمه فتنعم. والنعمة بالكسر: اليد والصنيعة والمنّة وما أنعم به على المرء ومثلها النعماء والنعمى.

(٦) كذلك قيل الأمر كذلك فيوقف على كذلك وقيل كذلك أفعل بمن عصاني أو كذلك كان أمرهم.

(٧) يرى بعضهم أن المراد بقوم آخرين أنهم غير بني إسرائيل وإنما هم من الأقباط أهل مصر أنفسهم لأن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر بعد أن خرجوا منها مستدلاً بأن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يقل (ولقد نجيناهم) فيعود الضمير على بني

(٢٩) وقوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾، لأنهم كانوا كافرين لم يعملوا على الأرض خيرًا ولم يعرج إلى السماء من عملهم خيرٌ فلم يُبكون إنما يبكى المسلم تبكيه الأرض التي كان يسجد عليها ويعبد الله تعالى فوقها وتبكيه السماء التي كان كل يوم وليلة يصعد إليها عمله الصالح. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ أي ممهلين بل عاجلهم الرب بالعقوبة، ولم يمهلهم علهم يتوبون لعلم الله تعالى بطبع قلوبهم وكم واعدوا موسى إن رُفع عنهم العذاب يؤمنون، وما آمنوا.

(٣٠) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ هذه بعض أياديه على بني إسرائيل وهي أنه نجاهم من العذاب المهين الذي كان فرعون وقومه يصبونه عليهم إذ كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم للخدمة والامتهان وأي عذاب مهين أكبر من هذا؟

(٣١) ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ أي من عذاب فرعون الذي كان ينزله بهم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي كان فرعون جبارًا طاغيًا من المسرفين في الكفر والظلم.

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ﴾ أي بني إسرائيل على علم أي منا على العالمين أي عالمي زمانهم من الثقلين الإنس والجن.

(٣٣) وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم﴾ أي أعطيناهم من الآيات ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾[1] أي اختبار عظيم. ومن تلك الآيات انفلاق البحر، وتظليل الغمام لهم والمن والسلوى في التيه إلى غير ذلك مما هو اختبار عظيم لهم أيشكرون أم يكفرون.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله في سلب النعم وإنزال النقم بمن كفر نعم الله ولم يشكرها فعصى ربه وأطاع هواه ونفسه فترك الصلاة واتبع الشهوات وترك القرآن واشتغل بالأغاني، وأعرض عن ذكر الله وأقبل على ذكر الدنيا ومفاتنها.

٢ - بيان هَوَان أهل الكفر والفسق على الله وعلى الكون كله، وكرامة أهل الإيمان والتقوى على الله وعلى الكون كله حتى إن السماء والأرض تبكيهم إذا ماتوا.

٣ - ذم العلو في الأرض وهو التكبّر والإسراف في كل شيء.

٤ - بيان أن الله يبتلي أي يختبر عباده بالخير والشر.

الجُزْءُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ الدُّخَانِ

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩)

سُورَةُ الجَاثِيَةِ — تَرتيبها ٤٥ — آياتها ٣٧

٤٩٨

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤ - ٤٢]

(٣٤) ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾: أي المشركين من قريش.

(٣٥) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾: أي لا حياة بعدها ولا موت وهذا تكذيب بالبعث الآخر. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾: أي بمبعوثين أحياء من قبورنا بعد موتنا.

(٣٦) ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: أي فأت يا محمد بآبائنا الذين ماتوا إن كنت صادقًا في أننا بعد موتنا وبلانا نبعث أحياء من قبورنا.

= إسرائيل. لكن في آية الشعراء قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فهذا نص صريح وطريق الجمع أن يقال أن بني إسرائيل بعد موت موسى وانتصارهم على الكنعانيين والعمالقة وإقامة دولة في فلسطين دخلوا مصر وحكموها، أما على عهد سليمان فإنهم حكموا غالب المعمورة وهذا وجه الجمع والله أعلم.

(١) في هذا البلاء المبين أربعة أوجه ذكرها القرطبي وهي: نعمة ظاهرة - عذابه شديد - اختبار يتميز به الكافر من المؤمن - ابتلاء بالشدة والرخاء.

(٣٧) ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي هؤلاء المشركون خير في القوة والمناعة أم قوم تبع والذين من قبلهم كعاد. ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾: أي أنزلنا بهم عقوبتنا فأهلكناهم إنهم كانوا قومًا مجرمين.

(٣٨) ﴿لَٰعِبِينَ﴾: أي عابثين بخلقهما لا لغرض صالح.

(٣٩) ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: أي إلا لأمر اقتضى خلقهما وهو أن أذكر فيهما وأشكر.

(٤٠) ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي إن يوم القيامة الذي يفصل فيه بين الخلائق ويحكم ميعادهم أجمعين حيث يجمعهم الله فيه.

(٤١) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾: أي يوم لا يكفي قريب قريبه بدفع شيء من العذاب عنه. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: أي لا ينصر بعضهم بعضًا.

(٤٢) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾: أي لكن من رَحِمَهُ الله فإنه يدفع عنه العذاب وينصر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أي الغالب المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في طلب هداية قوم النبي محمد ﷺ فما ذكر قصص موسى وفرعون إلا تنبيهًا وتذكيرًا لعلهم يتذكرون.

(٣٤) - (٣٥) فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأذنون الهابطين بعقولهم إلى أسوأ المستويات ما يستحون ولا يخجلون فيقولون ﴿إِنْ هِىَ[1] إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ منكرين للبعث والجزاء ليواصلوا كفرهم وفسقهم، فلذا قالوا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي بمبعوثين أحياء من قبورنا كما تعدنا يا محمد، وإن أصررتم على قولكم بالحياة الثانية فأتوا بآبائنا الذين ماتوا.

(٣٦) ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2] في ذلك وقولهم فأتوا وإن كنتم ليس من باب تعظيم الرسول ﷺ وإنما شعور منهم أنه ليس وحده في هذه الدعوة بل وراءه من هو دافع له على ذلك[3].

(٣٧) وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ[4] خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ[5] وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾؟ إنهم ليسوا بخير منهم بأي حال لا في المال ولا في الرجال فكما أهلكناهم نهلك هؤلاء، وأهلكنا الأولين لأنهم كانوا مجرمين أي على أنفسهم بالشرك والمعاصي، وهؤلاء مجرمون أيضًا فهم مستوجبون للهلاك وسوف يهلكون إن لم يتوبوا فيؤمنوا ويوحدوا ويطيعوا الله ورسوله.

(٣٨) وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ ما خلقناهما إلا بالحق

(٣٩) ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا دليل على البعث والجزاء إذ ليس من الحكمة أن يخلق الله الكون لا لشيء ثم يعدمه ولا شيء وراء ذلك هذا من اللعب والعبث الذي يتنزه عنه العقلاء فكيف بواهب العقول جل وعز إنه ما خلق الكون إلا ليذكر فيه ويشكر فمن ذكره فيه وشكره أكرمه وجزاه بأحسن الجزاء، ومن تركه وكفره أهانه وجزاه بأسوأ الجزاء وذلك يتم بعد نهاية هذه الحياة ووجود الحياة الثانية وهو يوم القيامة.

(٤٠) ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي إنَّ

---

(١) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ مبتدأ وخبر نحو: إن هي إلا حياتنا الدنيا، فإن نافية بمعنى ما والضمير مبتدأ وما بعد إلا الخبر.

(٢) قيل في هذا القائل أنه أبو جهل قال للرسول ﷺ: يا محمد إن كنت صادقًا في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما قصي بن كلاب فإنه كان رجلًا صادقًا لنسأله عما كان بعد الموت.

(٣) جائز أن يكون الخطاب للنبي ﷺ وجائز أن يكون مع المؤمنين وهذا هو الظاهر لأن النبي ﷺ كان معه أصحابه يدعون بدعوته وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ومن آمن معه من أعيان مكة وأشرافها كعثمان وعلي وعمر رضي الله عنهم أجمعين.

(٤) الاستفهام إنكاري أي ليسوا خيرًا من قوم تبع والذين من قبلهم كعاد وثمود وقد أهلكهم الله، والمراد من قوم تبع أقوام ملوك التبابعة إذ تبَّع لقب لمن يملك بلاد اليمن كلها ككسرى للفرس وقيصر للروم.

(٥) في مسند أحمد رحمه الله أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا تبعًا فإنه كان قد أسلم» ولذا ذكر تعالى هلاك قومه ولم يذكره معهم ويقال له أسعد ويكنى أبا كرب وكان قبل البعثة المحمدية بألف سنة أو ما يقارب ذلك وقصة حياته مشهورة في كتب السيرة وفي كتابنا هذا الحبيب بيان ذلك.

يوم القيامة لفصل القضاء والحكم بين الناس فيما اختلفوا من التوحيد والشرك، والبرور والفجور هو ميعادهم الذي يحضرون فيه أجمعين.

(٤١) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝﴾ أي يوم لا يكفي أحد قريب كابن العم عن أحد بدَفْع شيء من العذاب عنه، ولا يَنْصُرِ بعضهم بعضًا كما كانوا في الدنيا.

(٤٢) وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ أي لكن من رحم الله في الدنيا بالإيمان والتوحيد فإنه يرحمه في الآخرة فيشفع فيه وليًا من أوليائه إنه تعالى هو العزيز أي الانتقام من أعدائه الرحيم بأوليائه. والناس بين ولي لله وعدو فأولياؤه هم المؤمنون المتقون وأعداؤه هم الكافرون الفاجرون.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - الإجرام هو سبب الهلاك والدمار كيفما كان فاعله.

٣ - تبع الحميري كان عبدًا[١] صالحًا ملكًا حاكمًا وكان قومه كافرين فأهلكهم الله وأنجاه ومن معه من المؤمنين الصالحين ففي هذا الملك الصالح عبرة لمن يعتبر.

٤ - تنزه الرب تعالى عن اللعب والعبث فيما يخلق ويهب، ويأخذ ويعطي ويمنع.

٥ - يوم القيامة وهو يوم الفصل ميعاد الخليقة كلها حيث تجمع لفصل القضاء.

٦ - لا تنفع قرابة ولا خلة ولا صداقة يوم القيامة، ولكن الإيمان والعمل الصالح.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٣ ـ ٥٠]

(٤٣) ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝﴾: أي الشجرة التي تثمر الزقوم وهي من أخبث الشجر ثمرًا مرارة وقبحًا.

(٤٤) ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝﴾: أي ثمرها طعام الأثيم أبي جهل وأصحابه من ذوي الآثام الكبيرة.

(٤٥) ـ (٤٦) ﴿كَالْمُهْلِ﴾: أي كدردي الزيت الأسود. ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝﴾: أي الماء الشديد الحرارة.

(٤٧) ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾: أي يقال للزبانية خذوه فاعتلوه أي جروه بغلظة وشدة. ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾: أي إلى وسطها.

(٤٩) ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝﴾: أي ذق العذاب إنك كنت تقول ما بين جبلي مكة أعز وأكرم مني.

(٥٠) ﴿مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾: أي إنَّ هذا العذاب الذي كنتم تمترون به أي تشكون فيه.

معنى الآيات:

(٤٣) ـ (٤٤) ما زال السياق الكريم في ذكر النار وما فيها من ضروب العذاب فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝﴾ كأبي جهل وأضرابه من ذوي الآثام، وشجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين في القبح وثمرها الذي هو الزقوم مر أشد المرارة جعلها الله تعالى طعام الأثيم أبي جهل وذوي الآثام الكبيرة.

(٤٥) ـ (٤٦) وقوله تعالى في الإخبار عنها: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي[٢] الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝﴾ أي كدردي الزيت يغلي في بطون الآثمين كغلي الحميم أي الماء الحار الشديد الحرارة.

(٤٧) ـ (٤٨) وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ[٣] إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝﴾ أي يقال للزبانية وهم الملائكة الموكلون بالنار وعذابها خذوه فاعتلوه أي ادفعوه واجذبوه بعنف إلى وسط الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم أي صبوا فوق رأسه الماء الحار الشديد الحرارة.

---

(١) إنه غزا المدينة بعد عودته من غزو العراق وأراد خرابها ثم ترك لما علم من قبل اليهود أنها مهاجر نبي اسمه أحمد فقال شعرًا تركه عند أهلها فتوارثوه كابرًا عن كابر إلى أن هاجر النبي ﷺ فأدوه إليه ومر بالكعبة فكساها وهذا شعره:

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باري النسم

فلو مدّ عمري إلى عمره ... لكنت وزيرًا له وابن عم

(٢) قرأ نافع ﴿تغلي﴾ بالتاء وقرأ حفص بالياء على رجوع الضمير إلى الطعام لا إلى المهل.

(٣) العتل: القود بعنف وشدة. وقرأ نافع ﴿فاعتلوه﴾ بضم التاء وقرأ حفص ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ بجر التاء.

(٤٩) ويقال له تهكمًا به: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ[1] الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي كما كنت تقول في الدنيا إذ كان أبو جهل يقول: ما بين جبلي مكة أعز وأكرم مني، وكان يجمع أولاده ويضع بين أيديهم الزبدة وتمر العجوة ويقول لهم تزقموا هذا هو الزقوم الذي يهددنا به محمد اللهم صلي وسلم على نبينا محمد.

(٥٠) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي يقال لهم إن هذا أي العذاب الذي كنتم تشكون في أنه كائن يوم القيامة، وذلك لتكذيبهم بالبعث والجزاء يوم القيامة.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - عظم عذاب النار وفظاعة ما يلاقيه ذوو الآثام الكبيرة فيها.

٣ - يوجد شجرة بأريحا من الغور لها ثمر كالتمر حلو عفيص، لنواه دهن عظيم المنافع عجيب الفعل في تحليل الرياح الباردة وأمراض البلغم وأوجاع المفاصل والنقرس وعرق النسا والريح اللاحجة في حق الورك، يشرب منه زنة سبعة دراهم ثلاثة أيام، وربما أقام الزمنى، والمقعدين. ذكر هذا صاحب حاشية الجمل على الجلالين عند تفسير هذه الآية. ولو أمكن أخذ هذا الثمر واستخراج زيته والتداوي به لكان خيرًا.

٤ - من أشد أنواع العذاب في النار العذاب النفسي بالتهكم والسخرية من المعذبين وهو العذاب المهين الذي يُهين المعذبين ويدوس كرامتهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥١ - ٥٩]

(٥١) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾: أي إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا فآمنوا وعملوا الصالحات بعد اجتناب الشرك والمعاصي في مجلس آمين لا يلحقهم فيه خوف بحال.

(٥٢) ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: هذا هو المقام الأمين. ﴿سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: أي مارق من الديباج، وما غلظ منه. ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾: أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لأن الأسرة تدور بهم.

(٥٤) ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم﴾: أي الأمر كذلك وزوجناهم. ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾: أي بنساء بيض واسعات الأعين.

(٥٥) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾: أي يطلبون الخدم فيها أن يأتوهم بكل فاكهة. ﴿آمِنِينَ﴾: أي من انقطاعها ومن مضراتها ومن كل مخوف.

(٥٦) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾: أي لكن الموتة الأولى فقد ذاقوها.

(٥٨) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾: أي سهلنا القرآن بلغتك. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي يتعظون فيؤمنون و يوحدون لكنهم لا يؤمنون.

(٥٩) ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾: أي فانتظر هلاكهم فإنهم منتظرون هلاكك.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى حال أهل النار عقب عليه بذكر حال أهل الجنة وهذا هو أسلوب الترغيب والترهيب الذي تميز به القرآن الكريم لأنه كتاب دعوة وهداية زيادة على أنه كتاب تشريع وأحكام

(٥١) - (٥٢) فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي[2] مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ فأخبر تعالى أن الذين اتقوه في الدنيا فآمنوا به وأطاعوه في أمره ونهيه ولم يشركوا به هؤلاء في مقام آمين أي في مجلس آمن لا يلحقهم فيه خوف، وبين ذلك المقام الآمن بقوله: ﴿جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي بساتين وعيون.

(٥٣) ﴿يَلْبَسُونَ﴾ أي ثيابهم ﴿مِن سُندُسٍ[3] وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، والسندس مارق من الحرير والاستبرق ما غلظ منه، وقوله ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لأن الأسرة التي هم عليها تدور.

(٥٤) وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر

---

(١) هذا مقول قول محذوف تقديره: قولوا له ذق. . والذوق مستعار للإحساس وصيغة الأمر هنا مستعملة في الإهانة، وجملة ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ جملة تعليلية للأمر قبله ذق إنك. والمراد بها التهكم والازدراء إذ المراد أنك أنت الذليل المهان.

(٢) المقام بضم الميم مكان الإقامة، والمقام بالفتح مكان القيام ويتناول السكن وما يتبعه. وقرأه نافع بضم الميم وقرأه حفص بفتح الميم.

(٣) ﴿مِن سُندُسٍ﴾ لبيان الجنس والمبين محذوف دلّ عليه ﴿يَلْبَسُونَ﴾ أي ثيابًا.

كذلك أي كما وصفنا ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ[1] عِينٍ﴾ الحوراء من النساء البيضاء ومن في عينيها حورٌ وهو كِبَر بياض العين على سوادها والعِينُ جمع عيناء وهي واسعة العينين.

(٥٥) وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝﴾ أي يطلبون الخدمة أن يوافوهم بكل فاكهة حال كونهم آمنين من انقطاعها من ضررها ومن كل مخوف يلحق بسببها أو بسبب غيرها.

(٥٦) وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[2] أي لا يذوقون في الجنة الموت بعد الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا فإن أهلها لا يمرضون ولا يهرمون ولا يموتون، وقوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، وهذا دال على أن غير المتقين من الموحدين قد يذوقون عذاب الجحيم قبل دخولهم الجنة بخلاف المتقين فإنهم لا يدخلون النار البتة.

(٥٧) وقوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي كان ذلك الإنعام والتكريم فضلًا من ربك إذ لم يستوجبوه لمجرد تقواهم وقد قال الرسول ﷺ في حديث مسلم: «**سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**». وقوله ذلك هو الفوز العظيم. أي النجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز العظيم وهو كما في قوله من سورة آل عمران: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝﴾[3] أي فإنما سهلنا القرآن بلغتك العربية لعلهم يتذكرون فيتعظون فيؤمنون ويتقون. لكن أكثرهم لم يتعظ فارتقب ما يحل بهم فإنهم منتظرون ما يكون لك من نجاح أو إخفاق.

هداية الآيات:

١ - فضل التقوى وكرامة أهلها والتقوى من خشية الله تحمل على طاعة الله بفعل محابه وترك مكارهه.

٢ - بيان شيء من نعيم أهل الجنة ترغيبًا في العمل لها.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٤ - بيان الحكمة من تسهيل فهم القرآن الكريم وهو الاتعاظ المقتضي للتقوى.

سورة الجاثية
مكية
وآياتها سبع وثلاثون آية

الجزء الخامس والعشرون — سورة الجاثية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)

٤٩٩

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿حمٓ ۝﴾: هذا أحد الحروف الهجائية يكتب هكذا: حم ويقرأ هكذا: حَامِيمْ.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي القرآن. ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾:

---

(١) عن ابن مسعود أن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم. وقال مجاهد: إنما سميت الحور حورًا لأنهن يحار الطرف في حسنهن وبياضهن وصفاء لونهن ولا منافاة بين هذه الصفات. وروي أن إخراج القمامة من المسجد مهور الحور العين في أثرين أحدهما عن أنس ونصه: كنس المساجد مهور الحور العين.

(٢) الاستثناء منقطع أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا.

(٣) الباء سببية أي يسرناه للحفظ والفهم بسبب لغتك العربية إذ المراد باللسان اللغة لا الجارحة المعروفة.

أي من عند الله العزيز الانتقام من أعدائه الحكيم في تدبيره.

(٣) ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي إن في خلق السموات والأرض. ﴿لَأَيَٰتٍ﴾: أي لدلالات واضحات على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته وهي موجبات الربوبية والألوهية له وحده دون سواه. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي لأنهم بالإيمان أحياء يبصرون ويسمعون فيرون الآيات.

(٤) ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾: أي وفي خلقكم أيها الناس وتركيب أعضائكم وسلامة بنيانكم. ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾: أي وما خلق ونشر من أنواع الدواب من بهائم وغيرها. ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: أي علامات على قدرة الله تعالى على البعث الآخر إذ الخالق لهذه العوالم قادر على إعادتها بعد موتها، ولكن هذه الآيات لا يراها إلا القوم الموقنون في إيمانهم بربوبية الله وألوهيته وصفات الجلال والكمال له.

(٥) ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: أي بمجيء هذا وذهاب ذاك وطول هذا وقصر ذاك على مدى الحياة. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾: أي من مطر، وسمي المطر رزقًا لأنه يسببه. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: أحيا بالمطر الأرض بعد موت نباتها بالجدب. ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾: أي من صبا إلى دبور، ومن شمال إلى جنوب، ومن سموم إلى باردة ومن نسيم إلى عاصفة. ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: أي في اختلاف الليل والنهار وإنزال المطر وإحياء الأرض وتصريف الرياح دلالات واضحة على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته واقتضاء ذلك ربوبية الله وألوهيته، لقوم يعقلون أي يستعملون عقولهم في إدراك الأشياء واستنتاج النتائج من مقدماتها.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾: الله أعلم بمراده إذ هو من المتشابه الذي أُمرنا أن نؤمن به ونفوض أمر معناه إلى من أنزله سبحانه وتعالى. وقد ذكرنا مرات فائدتين لهذه الحروف المقطعة فلتراجع في أكثر السور المفتتحة بالحروف المقطعة كحمٓ الدخان السورة التي قبل هذه السورة.

(٢) وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ[١] ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي تنزيل القرآن كان من عند الله العزيز أي الانتقام من أعدائه الحكيم في تدبير أمور خلقه.

(٣) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي في خلقهما وإيجادهما وما فيها من عجائب الصنعة لآيات للمؤمنين[٢] تدلهم على استحقاق ربهم للعبادة دون سواه من سائر خلقه، وخُصَّ المؤمنون بهذه الآيات لأنهم أحياء يسمعون ويبصرون ويعقلون فهم إذا نظروا في السموات والأرض تجلت لهم حقائق أن الخالق لهذه العوالم لن يكون إلا قادرًا عليمًا حكيمًا عزيزًا ومن ثم وجب أن لا يعبد إلا هو، وكل عبادة لغيره باطلة.

(٤) وقوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أيها الناس أي في أطوار خلقكم من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى بشر سوى الخلقة معتدل المزاج والتركيب له سمع وبصر ونطق وفكر. ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ أي وما يخلق وما يفرق وينشر في الأرض من أنواع الدواب والبهائم والحيوانات على اختلافها من برية وبحرية ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ[٣] يُوقِنُونَ﴾ أي يوقنون في إيمانهم بالله تعالى وآياته، كما يوقنون بحقائق الأشياء، الثابتة لها فالواحد مع الواحد اثنان والموجود ضد المعدوم، والأبيض خلاف الأسود، والابن لا بد له من أب، والعذب

---

(١) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مبتدأ خبره من الله وإيثار وصفي العزيز الحكيم من بين أسماء الله وصفاته الإيماء إلى أن هذا الكتاب ذو نبأ عظيم فهو عزيز بعزة منزله لا يقدر على مثله وذو حكم لا يخلو منها.

(٢) كون الآيات للمؤمنين دون الكافرين باعتبار أنهم هم المنتفعون بها لأنهم يسمعون ويبصرون ويعقلون والكافرون فاقدون لذلك فلم تكن الآيات لهم لعدم انتفاعهم بها.

(٣) اليقين لا يكون إلا بعد الإيمان فالإيمان يثمر اليقين فالمؤمن يرى في خلق السموات والأرض أي في إيجادهما على ما هما عليه آيات على قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته فيرتفع إيمانهم إلى مرتبة اليقين فيرون في أدق الأشياء كالأجنة في الأرحام وما هو أخفى يرون فيه آيات تزيد في يقينهم وتحملهم على حبهم لله وطاعتهم له والتقرب إليه.

خلاف المر فأصحاب هذا اليقين يرون في خلق الإنسان والحيوان آيات دالة على وجود الله وعلمه وعزته وحكمته وقدرته على البعث والجزاء الذي أنكره عادمو العقول من المشركين والكافرين.

(٥) وقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي بتعاقبهما بمجيء الليل وذهاب النهار، والعكس كذلك، وبطول أحدهما وقصر الآخر تارة والعكس كذلك وما أنزل الله من السماء من رزق أي من مطر هو سبب الرزق فأحيا به الأرض بعد موتها بِيُبْسِ النبات وموته عليها، وتصريف الرياح من صبا إلى دبور، ومن شمال إلى جنوب ومن رخاء لينة إلى عاصفة ذات برد أو سموم إن في المذكورات آيات حججًا ودلائل دالة على وجود عبادة الله وتوحيده في ذلك، ولكن لقوم[1] يعقلون أي لذوي العقول النيرة السليمة. أما الذين لا عقول لهم فلا يرون ولا في غيرها آية فضلاً عن آياتٍ.

هداية الآيات:

١ -عظم شأن القرآن الكريم لأنه تنزيل الله العزيز الحكيم.

٢ -الإيمان أعم من اليقين ومقدم عليه في الترتيب واليقين أعلى في الرتبة.

٣ -فضل العقل[2] السليم إن استخدم في الخير وما ينفع.

٤ -تقرير ألوهية الله تعالى بتقرير ربوبيته في الخلق والتدبير والعلم والحكمة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ - ١١]

(٦) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: أي تلك الآيات المذكورة آيات الله أي حججه الدالة على وحدانيته. ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي نخبرك عنها بالحق لا بالباطل كما يخبر المشركون عن آلهتهم أنها تقربهم إلى الله زلفى كذبًا وباطلاً. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾: أي فبأي حديث أيها المشركون بعد حديث الله هذا الذي يتلوه عليكم وبعد حججه هذه. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: أي تصدقون والجواب أنكم لا تؤمنون.

(٧) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: أي عذاب الويل لكل كذاب ذي آثام كبيرة وكثيرة.

(٨) ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾: أي يسمع آيات القرآن كتاب الله تقرأ عليه. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: أي ثم يصر على الكفر حال كونه مستكبرًا عن الإيمان والتوحيد كأن لم يسمعها.

(٩) ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾: أي إذا بلغه شيء من القرآن وعلم أنه من القرآن. ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾: أي اتخذ تلك الآية أو الآيات مهزوًا بها متهكمًا ساخرًا منها. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: أي ذو إهانة لهم يهانون به وتكسر أنوفهم.

(١٠) ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾: أي أمامهم جهنم وذلك يوم القيامة، والوراء يطلق على الأمام كذلك. ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾: أي لا يكفي عنهم ما كسبوه من المال والأفعال التي كانوا يعتزون بها شيئًا من الإغناء. ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾: أي ولا يغني عنهم كذلك ما اتخذوه من أصنام آلهة عبدوها دون الله تعالى.

(١١) ﴿هَٰذَا هُدًى﴾: أي هذا القرآن الذي أنزله الله تعالى على عبده ورسوله محمد ﷺ هُدىً أي كله حجج وبراهين ودلالات هادية. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: أي والذين كفروا بالقرآن فلم يهتدوا به وبقوا على ضلالهم من الشرك والمعاصي. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾: أي لهم عذاب موجع من نوع الرجز وهو أشد أنواع العذاب.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في طلب هداية قريش فبعد أن بيّن تعالى آياته في الآفاق وفي الأنفس.

(٦) قال لرسوله ﷺ[3] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ

---

(١) والعقل مرتبة ثالثة بعد الإيمان واليقين في باب الاهتداء فالذي يرى اختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وما ينجم عنها من نباتات وزروع ولم يهتدِ إلى الإيمان فيؤمن فهو غير عاقل ولا يصح نسبته إلى العقلاء.

(٢) من شروط التكليف العقل بلا خلاف بين أئمة الإسلام والكافر غير مكلف بفروع الشريعة أيضًا لأنه لو عقل لآمن ولو آمن لكلف فالكافر لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل فكيف يكلف؟

(٣) أشار إليها بلام البعد للدلالة على علو شأنها وعزة مرامها ولولا هذا لقال هذه آيات الله لقرب ذكرها.

ٱللَّهِ﴾ أي تلك الآيات المذكورة أي آيات الله أي حججه الدالة على وجوده وعلمه وقدرته وموجبة لربوبيته على خلقه وألوهيته فهو الإله الحق الذي لا إله إلا هو حق سواه. وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن لم يؤمن هؤلاء المشركون بالله ربًا وإلهًا لا رب غيره ولا إله سواه، وبآياته القرآنية الحاملة للهدى والخير والنور فبأي شيء يؤمنون أي يصدقون لا شيء يؤمنون لأن الاستفهام إنكاري والإنكار كالنفي في معناه.

(٧) وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[1] يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها هذا وعيد من الله تعالى شديد لكل كذاب يقلب الكذب فيصف الطاهر بالخبيث والخبيث بالطيب والكاذب بالصادق، والصادق بالكاذب أثيم منغمس في كبائر الإثم والفواحش.

(٨) ﴿يَسْمَعُ﴾ هذا الأفاك الأثيم ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ وهي القرآن الكريم، ثم يصر على الكفر مستكبرًا عن الإيمان به وبما يدعو إليه من التوحيد، كأن لم يسمع تلك الآيات. قال تعالى لرسوله فبشره[2] بعذاب أليم.

(٩) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ أي ذلك الأفاك الأثيم من آياتنا شيئًا كأن تبلغه الآية أن الآيات من القرآن اتخذها هزوًا أي أخذ يهزأ بها ويسخر منها، ويواصل ذلك فيجعلها هزوًا بها، قال تعالى: أولئك، أي الأفاكون الآثمون وما أكثرهم لهم عذاب مهين أي فيه إهانة زائدة تنكسر منها أنوفهم التي كانت تأنف الحق وتستكبر عنه.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ هذا وعيد لهم تابع للأول إذ أخبر تعالى أن من ورائهم جهنم وذلك يوم القيامة، ولفظ الوراء يطلق ويراد به الأمام فهو من الألفاظ المشتركة في معنيين فأكثر، وقوله: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟[3] شَيْـًٔا﴾ أي ولا يكفي عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جاههم ولا كل ما كسبوا في هذه الدنيا أي لا يدفع ذلك عنهم شيئًا من العذاب، وكذلك لا تغني عنهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله شيئًا من دفع العذاب. ولهم عذاب عظيم لا يقادر قدره، وكيف والعظيم جل جلاله وصفه بأنه عظيم.

(١١) وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾[4] أي هذا القرآن هدى أي يخرج من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان ومن الشرك إلى التوحيد لما فيه من الهدى والنور، ولما يدعو إليه من الحق والعدل والخير والذين كفروا به وأعرضوا عنه وهو آيات الله وحججه على خلقه هؤلاء لهم عذاب من رجز أليم أي عذاب هو من أشد أنواع العذاب لأنهم بالكفر بالآيات لم يزكوا أنفسهم ولم يطهروها فماتوا على أخبث النفوس وشرها فلا جزاء لهم إلا رجز العذاب.

هداية الآيات:

١ - القرآن نور وأعظم نور فمن لم يهتد عليه لا يرجى له الهداية أبدًا.

٢ - الوعيد الشديد لأهل الإفك والآثام، والإفك الكذب المقلوب.

٣ - شر الناس من إذا سمع آيات الله استهزأ وسخر منها أو ممن يتلوها.

٤ - لم يغن عمن مات على الكفر شيء من كسب في هذه الحياة الدنيا من مال وولد وجاه وسلطان.

٥ - لم يغن عن المشرك ما كان يعبد من دون الله أو مع الله من

---

(١) صاحب هاتين الصفتين كثرة الإفك وكثرة الإثم هو في خبث نفسه كالشياطين سواء بسواء إذ مثله هو الذي تنزل عليه الشياطين ويتحد معها على الخبث والكفر والشر والإفساد.

(٢) البشارة تكون بالخبر السار الذي تَتَهلَّل به البشرةُ بالبشر والطلاق والتبشير بالعذاب يورث اسوداد الوجه وكلوحه فالبشارة هنا من باب التهكم به أو لكون البشرة تتغير للخبر فصحّ إطلاق البشارة عليه.

(٣) في الآية إشارة إلى أن أصحاب هذه الصفات يكونون من أرباب الأموال لأنهم يكتسبونها بكل وسيلة ولو ببيع عقولهم وضمائرهم وأموالهم والمحافظة عليها من عوامل ردهم لدعوة الإسلام ومحاربتها كما هو مشاهد.

(٤) ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ أي هذا القرآن هدى في ذاته وما يدعو إليه ومن كفر به فحرم الهداية فلم يهتدِ فلا جزاء له إلا جزاء العذاب الأليم.

أصنام وأوثان وملائكة أو أنبياء أو أولياء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ ـ ١٥]

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾: أي الله المعبود بحق لا الآلهة الباطلة سخر لكم أي لأجلكم البحر بأن جعله أملس تطفو فوقه الأخشاب ونحوها. ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾: أي جعله كذلك لتجري السفن فيه بإذن الله تعالى. ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي لتسافروا إلى طلب الرزق من إقليم إلى إقليم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي رجاء أن تشكروا نعم الله عليكم.

(١٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي من شمس وقمر ونجوم ورياح وماء أمطار. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: أي وما في الأرض من جبال وأنهار وأشجار ومعادن منه تعالى. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾: أي علامات ودلائل وحجج على وجود الله وألوهيته. ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي لقوم يستخدمون عقولهم فيتفكرون في وجود هذه المخلوقات ومن أوجدها ولماذا أوجدها فتتجلى لهم حقائق وجود الله وعلمه وقدرته ورحمته فيؤمنوا ويوحدوا.

(١٤) ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾: أي قل يا رسولنا للمؤمنين من عبادنا يغفروا أي يتجاوزوا ولا يؤاخذوا. ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: أي لا يتوقعون أيام الله أي بالإدالة منهم للمؤمنين فيذلهم الله وينصر المؤمنين عليهم وهم الرسول وأصحابه وهذا قبل الأمر بجهادهم. ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: أي ليجزي تعالى يوم القيامة قومًا منهم وهم الذين علم تعالى أنهم لا يؤمنون بما كسبوه من أذى الرسول والمؤمنين.

(١٥) ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾: أي فهو الذي يرحم ويسعد به. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾: أي ومن عمل سوءًا فالعقوبة تحل به لا بغيره. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾: أي بعد الموت ويحكم بينكم فيما كان بينكم من خلاف وأذى.

معنى الآيات:

(١٢) ـ (١٣) ما زال السياق الكريم في هداية قوم النبي ﷺ فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ﴾[١] تذكير لأولئك المعرضين بالحجج والآيات الدالة على وجوب الإيمان بالله وتوحيده وطاعته فهو تعالى يعرفهم أن ما بهم من نعم هي من الله لا من غيره من تلك الآلهة الباطلة الله لا غيره هو الذي ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ أي ذلل ويسر وسهل ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم وسحب وأمطار ورياح لمنافعكم، وسخر لكم ما في الأرض من جبال وأشجار وأنهار وبحار ومعادن وحيوانات على اختلافها كل ذلك منه[٢] وهو وهبه لكم، إن في ذلك المذكور من إنعام الله عليكم بكل ما سخر لكم لآيات لقوم[٣] يتفكرون فيهديهم تفكيرهم إلى وجوب

الجزء الخامس والعشرون — سورة الجاثية

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢)

٥٠٠

(١) ذكر تعالى في هذه الآيات كمال قدرته وتمام نعمته على عباده وبيّن أنه خلق ما خلق لمنافعهم.

(٢) منه: من ابتدائية أي جميع ذلك المذكور المسخر من عند الله تعالى ليس لغيره فيه أدنى شركة وموقع (منه) موقع الحال أي سخر لكم ما سخر حال كونه منه.

(٣) التفكر هو منبع الإيمان واليقين والعقل إذ من فكر عقل ومن عقل آمن ومن آمن أيقن ومن أيقن طلب النجاة من النار والفوز بالجنان بالإيمان وصالح الأعمال بعد ترك الشرك والمعاصي.

حمد الله تعالى وشكره بعد أن آمنوا به ووحدوه في ربوبيته وألوهيته.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟[1] لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ[2] لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾. يأمر تعالى رسوله أن يقول لصحابته أيام الخوف في مكة قبل الهجرة اصفحوا وتجاوزوا عمن يؤذيكم من كفار قريش، ولا تردوا الأذى بأذى مثله بل اغفروا لهم ذلك وتجاوزوا عنه، وقد نسخ هذا بالأمر بالجهاد.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ تعليل للأمر بالصفح والتجاوز، أي ليؤخر لهم ذلك إلى يوم القيامة ويجزيهم به أسوأ الجزاء لأنه كسب من شر المكاسب إنه أذية النبي والمؤمنين أولياء الله، وفي تنكير قومًا يدل على أن بعضهم سيؤمن ولا يعذب يوم القيامة فلا يعذب إلا من مات على الكفر والشرك منهم.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾[3] أي من عمل صالحًا في هذه الحياة الدنيا من إيمان وطاعة لله ورسوله في أوامرهما ونواهيهما فزكت بذلك نفسه وتأهل لدخول الجنة فإن الله يدخله الجنة ويكون عمله الصالح قد عاد عليه ولم يعد على غيره إن الله غني عن عمل عباده، وغير العامل لا تطهر نفسه ولا تزكو بعمل لم يباشره بنفسه، وقوله: ومن أساء أي في حياته فلم يؤمن ولم يعمل صالحًا يزكي به نفسه، فجزاء كسبه السيء من الشرك والمعاصي عائد على نفسه عذابًا في النار وخلودًا فيها[4].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي إنكم أيها الناس بعد هذه الحياة وما عملتم فيها من صالح وسيء ترجعون إلى الله يوم القيامة ويجزيكم كلًا بحسب عمله الخير بالخير والشر بمثله.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد والبعث[5] والجزاء والنبوة.

٢ - بيان علة الإنعام الإلهي على العبد وهي أن يشكر الله تعالى بحمده والثناء عليه وصرف تلك النعم في مرضاته تعالى لا في معاصيه الموجبة لسخطه.

٣ - مشروعية التسامح مع الكفار والتجاوز عن أذاهم في حال ضعف المسلمين.

٤ - تقرير قاعدة أن المرء لا يؤخذ بجريرة غيره.

٥ - تقرير أن الكسب يؤثر في النفس ويكون صفة لها وبه يتم الجزاء في الدار الآخرة من خير وغيره. قال تعالى: سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم (الأنعام).

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ - ٢٠]

(١٦) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي التوراة لأنها الحاوية للأحكام الشرعية بخلاف الزبور والإنجيل. ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾: أي الفصل في القضايا بين المتنازعين على الوجه الذي يحقق العدل. ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: أي جعلنا فيهم النبوة كنبوة موسى وهارون وداود وسليمان، ورزقهم من الطيبات كالمنّ والسلوى وغيرهما. ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي على عالمي زمانهم من الأمم المعاصرة لهم.

(١٧) ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: أي لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ببعثة النبي محمد ﷺ بغيًا بينهم أي حسدًا للعرب أولاد إسماعيل أن تكون النبوة فيهم.

(١٨) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ[6] مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾: أي ثم جعلناك يا رسولنا على شريعة من أمر الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده. ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾: أي الزم الأخذ بها والسير على طريقها

---

(١) ﴿يَغْفِرُوا۟﴾ مجزوم لأنه في جواب الأمر «قل» وجائز أن يكون مجزومًا بتقدير لام الأمر محذوفة أي ليغفروا.

(٢) جائز أن يراد بأيام الله ثوابه وعقابه أو نصره لأوليائه وإيقاعه بأعدائه أو البعث الآخر ولقائه.

(٣) العمل الصالح شرطه الإيمان ولذا ما ذكر العمل الصالح في القرآن إلا والإيمان مقرونًا به إلا ما ندر كهذه الآية.

(٤) الخلود في النار خاص بالمشركين والكافرين أما أهل الإيمان والتوحيد فلا يخلدون في النار لحسنة الإيمان والتوحيد.

(٥) هذه الأصول الثلاثة عليها مدار استقامة العبد، وجل السور المكية تعالجها فلا تكاد توجد سورة تخلو من تحقيقها والدعوة إليها.

(٦) الشريعة لغة: المذهب والملة ويقال لمشرعة الماء أي مورد الشاربة شريعة ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد فالشريعة ما شرع الله لعباده من الدين والجمع شرائع.

فإنها تفضي بك إلى سعادة الدارين. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: من مشركي العرب ومن ضلاّل أهل الكتاب.

(١٩) ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾: أي إنْ أنت تركت ما شرع لك واتبعت ما يقترحون عليك أن تفعله مما يوافق أهواءهم إنك إن اتبعتهم لن يدفعوا عنك من العذاب الدنيوي والأخروي شيئًا. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾: أي ينصر بعضهم بعضًا في الدنيا أما في الآخرة فإنهم لا ينصرون. ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أي متوليهم في أمورهم كلها وناصرهم على أعدائهم.

(٢٠) ﴿هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: أي هذا القرآن أي أنوار هداية يهتدون به إلى ما يكملهم ويسعدهم، وهدى ورحمة، ولكن لأهل اليقين في إيمانهم فهم الذين يهتدون به ويرحمون عليه أما غير الموقنين فلا يرون هداه ولا يجدون رحمته لأن شكهم وعدم إيقانهم يتعذر معهما أن يعملوا به في جد وصدق وإخلاص.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في طلب هداية قوم النبي ﷺ فعرض عليهم حالاً شبيهة بحالهم لعلهم يجدون فيها ما يذكرهم ويعظهم ويوحدوا.

(١٦) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ[1] إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أعطينا بني إسرائيل وهم أولاد يعقوب الملقب بإسرائيل وهو ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمٰن آتيناهم ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراة ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ وهو الفقه بأحكام الشرع والإصابة في العمل والحق فيها ثمرة إيمانهم وتقواهم ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ فجعلنا منهم أنبياء ورسلاً كموسى وهارون ويوسف وداود وسليمان وعيسى، وفضلناهم[2] على العالمين أي على فرعون وقومه من الأقباط، وعلى من جاور بلادهم من الناس، وذلك أيام إيمانهم واستقامتهم، ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ[3] مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أمر الدين تحملها التوراة والإنجيل ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ الإلهي يحمله القرآن ونبيه فاختلفوا فيما كان عندهم من الأنباء عن نبيّ آخر الزمان ونعوته وما سيورثه الله وأمته من الكمال الدنيوي والأخروي فحملهم بغي حدث بينهم وهو الحسد على الكفر فكفروا به وكذبوه فهذه الآية نظيرها آية البقرة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾. وكقوله في سورة البينة: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝﴾ وهو محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ من جهة، ومن جهة أخرى إعلام منه تعالى بأنه سيحكم بينهم ويفصل ويؤدي كل واحد ثمرة كسبه من خير وشر في هذه الحياة وذلك يوم القيامة.

(١٧)- (١٨) وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ[4] مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي من أمر ديننا الإسلام الذي هو دين الأنبياء من قبلك فلم تختلف شريعتك في أصولها على شرائعهم، وعليه فاتبعها ولا تَحِدْ عنها متبعًا أهواء الذين لا يعلمون من زعماء قريش الذين يقدمون لك اقتراحاتهم من الوقت إلى الوقت ولا أهواء ضلال أهل الكتابين من اليهود والنصارى إنهم جهّال لا يعلمون هدى الله، ولا ما هو سبيل النجاة من النار والفوز بالجنة في الآخرة، ولا هو سبيل العزة والكرامة والدولة والقوة في الدنيا.

---

(١) ذكر تعالى لنبيه ﷺ ما أعطى بني إسرائيل من إفضالات، ثم ذكر ما أعطاه هو ﷺ ليكون ذلك جاريًا على سنته في إكرام من يشاء من عباده فلا يكون ذلك داعيًا إلى إنكار المشركين ولا أهل الكتاب نبوة نبيه محمد ﷺ لو كانوا يعقلون.

(٢) بأن جمع الله لهم بين استقامة الدين والخلق وبين حكم أنفسهم بأنفسهم وبين أصول العدل فيهم مع حسن العيش وشمول الأمن والرخاء لهم.

(٣) أي علمناهم حججًا وعلومًا في أمر دينهم ونظام حياتهم بحيث يكونون على بصيرة في تدبير مجتمعهم وعلى سلامته من الشرور والمفاسد.

(٤) ﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاء أي التمكّن والثبات، والشريعة: الدين والملة المتبعة، والأمر: الشأن العظيم والأمر هو أمر الله تعالى الذي أراده لك ولأمتك من الدين المنجي المسعد في الدارين.

أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)

(١٩) وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي إنك إن اتبعت أهواءهم واستوجبت العذاب لن يدفعوا عنك ولن يكفوك شيئًا منه، وقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي في الدنيا فيتعاونون على الباطل والشر أما في الآخرة فلا ينصر بعضهم بعضًا ولا هم ينصرون من قبل أحد والله ولي المتقين، أما المتقون فالله وليهم في الدنيا والآخرة، فعليك بولاية الله، ودع ولاية أعدائه، فإنها لن تغني عنك شيئًا.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ[1] لِلنَّاسِ﴾ يريد القرآن الكريم إنه عيون القلوب بها تبصر النافع من الضار والحق من الباطل فمن آمن به وعمل بما فيه اهتدى إلى سعادته وكماله ومن لم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ضل وشقي. وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ[2] لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي أن القرآن الكريم كتاب هداية ورحمة عليه يهتدي المهتدون، ويرحم المرحومون وهم الذين أيقنوا بهدايته ورحمته فعملوا به عقائد وعبادات وأحكامًا وآدابًا وأخلاقًا فحصل لهم ذلك كما حصل للسلف الصالح من هذه الأمة، وما زال القرآن كتاب هداية ورحمة لكل من آمن به وأيقن فعمل وطبق بجد وصدق أحكامه وشرائعه وآدابه وأخلاقه التي جاء بها وقد كان خلق النبي ﷺ القرآن لقول عائشة رضي الله عنها في الصحيح: كان خلقه القرآن.

هداية الآيات:

١ - بيان أن كفر أهل الكتاب كان حسدًا للنبي ﷺ وقومه من العرب.

٢ - بيان إفضال الله تعالى على بني إسرائيل حيث أعطاهم الكتاب والحكم والنبوة. ومع هذا اختلفوا في الحق حسدًا وطمعًا في الرئاسة وإقامة مملكة بني إسرائيل من النيل إلى الفرات.

٣ - تقرير البعث والجزاء والنبوة والتوحيد.

٤ - وجوب لزوم تطبيق الشريعة الإسلامية وعدم التنازل عن شيء منها.

٥ - تقرير ولاية الله تعالى لأهل الإيمان به وتقواه بفعل محابه وترك مساخطه.

٦ - بيان أن القرآن كتاب هداية وإصلاح، ولا يتم شيء من هداية الناس وإصلاحهم إلا عليه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ ـ ٢٣]

(٢١) ﴿اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾: أي اكتسبوا بجوارحهم الشرك والمعاصي. ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾: أي محياهم ومماتهم سواء، لا! المؤمنون في الجنة والمشركون في النار. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: أي ساء حكمًا حكمهم بالتساوي مع المؤمنين.

(٢٢) ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي وليجزي الله كل نفس ما كسبت من خير وشر.

(٢٣) ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾: أي أخبرني عمن اتخذ أي جعل إلهه أي معبوده هواه. ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: أي على علم من الله تعالى بأنه أهل للإضلال وعدم الهداية.

---

(١) البصائر: جمع بصيرة وهي إدراك العقل الأمور على حقيقتها شبهت ببصر العين.

(٢) القرآن هدى ورحمة لكل من يهتدي بهداه ويتعرض لرحمته العمل به وخص به لذلك أهل اليقين لأنهم القادرون على الأخذ بهدايته والتعرض لرحمته والعمل به.

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾: أي ظلمة على عينيه فلا يبصر الآيات والدلائل. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أي أفلا تتذكرون أيها الناس فتتعظون.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى في الآيات قبل هذه الظالمين والمتقين وجزاء كل منهم وأنه كان مختلفًا باختلاف نفوس الظالمين والمتقين خبثًا وطهرًا ذكر هنا ما يقرر ذلك الحكم وهو اختلاف جزاء الظالمين والمتقين فقال:

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ[١] ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي اكتسبوها بجوارحهم، والمراد بها الشرك والمعاصي أن نجعلهم كالذين آمنوا بالله ربًا وإلهًا وبكل ما أمر تعالى بالإيمان به، وعملوا الصالحات من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما إلى ذلك من الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون[٢] أي ساء حكمًا حكمهم هذا، ومعنى هذا أن الله تعالى أنكر على من يحسب هذا الحسبان ويظن هذا الظن الفاسد وهو أن يعيش الكافر والمؤمن في هذه الحياة الكافر يعيش على المعاصي والذنوب والمؤمن على الطاعة والحسنات ثم يموتون ولا يجزى الكافر على كفره والمؤمن على إيمانه، وأسوأ من هذا الظن ظن آخر كان لبعضهم وهو أنهم إذا ماتوا يكرمون وينعم عليهم بخير ما يكرم به المؤمنون وينعم به عليهم. وهذا غرور عجيب، فأنكر تعالى عليهم هذا الظن الباطل وحكم أنه لا يسوي بين بر وفاجر، ولا بين مؤمن وكافر لأن ذلك مناف للعدل والحق والله خلق السموات والأرض بالحق، وأنزل الشرائع وأرسل الرسل ليعمل الناس في هذه الحياة الدنيا فمن آمن وعمل صالحًا كانت الحسنى له جزاء. ومن كفر وعمل سوءًا كانت جهنم جزاءه.

(٢٢) وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٣] أي من خير وشر، وهم لا يظلمون لأن العدالة الإلهية هي التي تسود يوم القيامة وتحكم.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ[٤] مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي جعل معبوده ما تهواه نفسه فما هويت قولاً إلا قاله، ولا عملاً إلا عمله ولا اعتقادًا إلا اعتقده ضاربًا بالعقل والشرع عرض الحائط فلا يلتفت إليهما ولا يستمع إلى ندائهما. وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[٥] أي منه تعالى حيث سبق في علمه أن هذا الإنسان لا يهتدي ولو جاءته كل آية فكتب ذلك عليه فو كائن لا محالة، وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي وختم تعالى على سمعه حسب سنته في ذلك فأصبح لا يسمع الهدى ولا الحق كأنه أصم لا يسمع، وأصبح لا يعقل معاني ما يسمع وما يقال له كأنه لا قلب له، وأصبح لما على بصره من ظلمة لا يرى الأدلة ولا العلامات الهادية إلى الحق وإلى الطريق المستقيم المفضي بسالكه إلى النجاة من النار ودخول الجنة. وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ وقد أضله الله والجواب لا أحد. كقوله تعالى من سورة النحل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا

---

(١) أم: للإضراب الانتقالي، والاستفهام المقدر بعد أم استفهام إنكاري أي لا يحسب الذين اجترحوا السيئات أنهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات. والآية نزلت كما قال البغوي في نفر من المشركين في مكة قالوا للمؤمنين إن كان ما تقولون حقًا لنفضلنّ عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا.

(٢) ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ هذه الجملة تذييل لما قبلها من إنكار حسبانهم وما اتصل به من المعاني، والحياة والممات مصدران ميميان من الحياة والموت.

(٣) الباء للتعويض لأن ما كسبته النفس لا تجزى به وإنما تجزى بمثله وما يناسبه من خير أو شر.

(٤) الاستفهام للتعجب من حال هذا الذي اتخذ إلٰهه هواه والمخاطب الرسول ﷺ وكل ذي أهلية لأن يفهم عن الله تعالى من المؤمنين.

(٥) ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي أضله الله مع ما عنده من العلم الذي لو خلع عن نفسه الكبر والعناد والميل إلى الهوى لاهتدى ونجا وسعد ولكن أو على علم من الله تعالى بأنه ليس أهلاً للهداية كما في التفسير.

يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ أي من أضله الله تعالى حسب سنته في الإضلال وهي أن يدعى العبد إلى الحق والمعروف والخير فيتكبر ويسخر ويحارب فترة يصبح بعدها غير قابل لهداية فهذا لا يهديه أحد بعد أن أضله الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾[١] أي أفلا تذكرون فتتعظون أيها الناس فتؤمنوا وتوحدوا وتعملوا الصالحات فتكملوا وتسعدوا في الدنيا وتنجو من النار وتدخلوا الجنة في الآخرة.

هداية الآيات:

١ - بطلان اعتقاد الكافرين في أن الناس يحيون ويموتون بلا جزاء على الكسب صالحه وفاسده.

٢ - تقرير البعث والجزاء.

٣ - موعظة كبيرة في هذه الآية أم حسب الذين اجترحوا السيئات إلى آخرها حتى إن أحد رجال السلف الصالح قام يتهجد من الليل فقرأ حتى انتهى إلى هذه الآية فأخذ يرددها ويبكي حتى طلع الفجر.

٤ - التنديد بالهوى والتحذير[٢] من اتباعه فقد يفضي بالعبد إلى ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فيصبح معبوده هواه لا الرب تعالى مولاه.

٥ - التحذير من ارتكاب سنن الضلال المفضي بالعبد إلى الضلال الذي لا هداية معه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤ - ٢٦]

(٢٤) ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾: أي قال منكرو البعث ما الحياة إلا هذه الحياة، وليس وراءها حياة أخرى. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: أي يموت بعضنا ويحيا بعضنا بأن يولدوا فيحيوا ويموتوا. ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾: أي وما يميتنا إلا مرور الزمان علينا. ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾: أي وليس لهم أدنى علم على قولهم لا من وحي وكتاب إلهي ولا من عقل صحيح. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: أي ما هم إلا يظنون فقط والظن لا قيمة له ولا يبنى عليه حكم.

(٢٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾: أي وإذا قرئت عليهم الآيات الدالة على البعث والجزاء الأخرى بوضوح. ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾: أي لم تكن لهم من حجة إلا قولهم. ﴿إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾: إلا قولهم أحيوا لنا آباءنا الذين ماتوا وأتوا بهم إلينا. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من البعث والجزاء.

(٢٦) ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾: أي قل لهم يا رسولنا الله الذي يحييكم حين كنتم نطفًا ميتة، ثم يميتكم. ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: أي ثم بعد الموت يجمعكم إلى يوم القيامة للحساب والجزاء. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي يوم القيامة الذي لا ريب ولا شك في مجيئه في وقته المحدد له. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي لا يعلمون لعدم تلقيهم العلم عن الوحي الإلهي لكفرهم بالرسل والكتب.

معنى الآيات:

تقدم في الآيات بيان اعتقاد بعض المشركين في استواء حال المؤمنين والكافرين يوم القيامة وأن الله تعالى أبطل ذلك الاعتقاد منكرًا له عليهم، وهنا حكى قول منكري البعث بالكلية ليرد عليهم وفي ذلك دعوة لعامة الناس إلى الإيمان والعمل الصالح للإسعاد والكمال في الحياتين ولله الحمد والمنة.

(٢٤) فقال عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ[٣] إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[٤] أي وقال منكرو البعث والجزاء يوم القيامة ما هناك إلا حياتنا هذه التي نحياها وليس وراءها حياة أخرى، إننا نموت ونحيا

---

(١) قرأ نافع ﴿تذّكرون﴾ بتشديد الذال، وقرأه حفص بتخفيفها، الأولى على إدغام إحدى التاءين في الذال فشددت والثانية على حذف إحدى التاءين فخففت.

(٢) من الكلمات المأثورة في هذا قولُهم: ثلاث من المهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه.

(٣) هي ضمير القصة والشأن، وجملة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ مبينة لجملة ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي ليس بعد هذا العالم عالم آخر فالحياة هي هذه لا غير.

(٤) روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«كان أهل الجاهلية يقولون: ما يهلكنا إلا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا فيسبون الدهر، قال الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»**.

أي نموت نحن الأحياء ويحيا أبناؤنا من بعدنا وهكذا تستمر الحياة أبدًا يموت الكبار ويحيا الصغار، وما يهلكنا إلا الدهر أي وما يميتنا ويفنينا إلا مرور الزمان وطول الأعمار وهو إلحاد كامل وإنكار للخالق عز وجل وهو تناقض منهم لأنهم إذا سئلوا من خلقهم يقولون الله فينسبون إليه الخلق وهو أصعب ولا ينسبوا إليه الإماتة وهي أهون من الخلق فردّ تعالى عليهم مذهبهم «الدهري» بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ليس[1] لهم على معتقدهم هذا أدنى علم نقليًا كان ولا عقليًا أي لم يتلقوه عن وحي أوحاه الله إلى من شاء من عباده ولا عن عقل سليم راجح لا ينقض حكمه كالواحد مع الواحد اثنان والأبيض خلاف الأسود وما إلى ذلك من القضايا العقلية التي لا ترد فهؤلاء الدهريون ليس لهم شيء من ذلك ما لهم إلا الظن والخرص وقضايا العقيدة لا تكون بالظن. والظن أكذب الحديث.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قرأ عليهم رسول الله ﷺ آيات القرآن الدالة على البعث والجزاء تدعوهم إلى الإيمان به واعتقاده ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾[2] أي لم تكن لهم من حجة يردُّون بها ما دعوا إليه إلا قولهم[3]: ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين أي أحيوا لنا آباءنا الذين ماتوا وأحضروهم عندنا إن كنتم صادقين فيما تخبروننا من البعث والجزاء.

(٢٦) فقال تعالى في رد هذه الشبهة وبيان للحق في المسألة ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ[4] فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي قل يا رسولنا لهؤلاء الدهريين المنكرين للبعث الله يحييكم إذ كنتم نطفًا ميتة فأحياكم، ثم يميتكم بدون اختياركم فالقادر على الإحياء والإماتة وفعلاً هو يحيي ويميت لا يحيل العقل أن يحيي من أحياهم ثم أماتهم وإنما لم يحيهم اليوم كما طلبتم لأنه لا فائدة من إحيائهم بعد أن أحياهم ثم أماتهم هذا أولاً وثانيًا إحياؤهم لكم اليوم يتنافى مع الحكمة العالية في خلق هذه الحياة الدنيا والآخرة إذ خلقوا ليعملوا، ثم يجازوا بأعمالهم خيرها وشرها. ولهذا قال ثم يجمعكم أي أحياء في يوم القيامة للحساب والجزاء وقوله لا ريب فيه أي لا شك في وقوعه ومجيئه إذ مجيئه حتمي لقيام الحياة الدنيا كلها عليه.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذا لأمرين: الأول: أنهم لا يفكرون ولا يتعقلون، والثاني: أنهم لتكذيبهم بالوحي الإلهي سدوا في وجوههم طريق العلم الصحيح فهم لا يعلمون، ولا يعلمون حتى يؤمنوا بالوحي ويسمعوه ويتفهموه.

هداية الآيات:

١ - تقرير البعث والجزاء.

٢ - الرد على الدهريين وهم الذين ينسبون الحياة والموت للدهر وينفون وجود الخالق عز وجل.

٣ - بيان أن الكفار لا دليل لهم عقلي ولا نقليّ على صحة الكفر عقيدة كان أو عملاً.

٤ - عدم إحياء الله تعالى للمطالبين بحياة من مات حتى يؤمنوا لم يكن عن عجز بل لأنه يتنافى مع الحكمة التي دار عليها الكون كله.

٥ - بيان أن أكثر الناس لا يعلمون وذلك لأنهم كذبوا بالوحي الإلهي في الكتاب والسنة.

٦ - بيان أنه لا علم صحيح إلاَّ مِنْ طريق الوحي الإلهي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ - ٣٢]

(٢٧) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي خلقًا وملكًا وتصرفًا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

---

(١) قال القرطبي: كان المشركون أصنافًا منهم هؤلاء ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث ومنهم من يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره.

(٢) فإن قيل لمَ سمي قولهم حجة وليس هو بحجة؟ قيل: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم.

(٣) أي أحيوا لنا الموتى نسألهم عن صدق ما تقولون.

(٤) جملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ حال من يوم القيامة أي لا ريب في وجوده وكونه لا ريب فيه لأنه علة الحياة كلها فلولاه ما كانت هذه الحياة فمن هنا لا معنى للشك فيه بالكلية.

﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: أي ويوم تقوم الساعة التي أنكرها الكافرون يخسر أصحاب الباطل بصيرورتهم إلى النار.

(٢٨) ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾: أي كل أمة ذات دين جاثية على ركبها تنتظر حكم الله فيها. ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾: أي إلى كتاب أعمالها فهو الحكم فيها إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًا فشر. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي يقال لهم اليوم تجزون ما كنتم تعملون في الدنيا من خير وشر.

(٢٩) ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾: أي ديوان الحفظة الذي دوّنوه من أعمال العقلاء من الناس شاهد عليكم بالحق. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي نأمر بنسخ ما كنتم تعملون.

(٣٠) ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: أي فيدخلهم في جنته. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾: أي الفوز البيّن الظاهر وهو النجاة من النار ودخول الجنة.

(٣١) ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: أي يقال لهم ألم تأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم. ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي عن آيات الله فلم تؤمنوا بها وكنتم بذلك قومًا كافرين.

(٣٢) ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: أي بالبعث والجزاء العادل يوم القيامة حق ثابت. ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾: أي ما كنا مستيقنين بالبعث وإنما كنا نظنه لا غير ولا نجزم به.

معنى الآيات:

(٢٧) ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وإيجادًا وملكًا وتصرفًا ومن كان هذا وصفه من القدرة والعلم والحكمة لا ينكر عليه بعث العباد بعد موتهم وجمعهم للحساب والجزاء. وقوله: ﴿وَيَوْمَ[١] تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي ينكرها المنكرون يومئذ يخسر المبطلون يخسرون كل شيء حتى أنفسهم يخسرون منازلهم في الجنة يرثها عنهم المؤمنون ويرثون هم المؤمنين منازلهم في النار ذلك هو الخسران المبين.

(٢٨) وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾[٢] أي وترى أيها الرسول يوم القيامة كل أهل دين وملة وقد جثوا على ركبهم خوفًا وذلاً مستوفزين للعمل بما يؤمرون به. وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي الذي أنزل على نبيها لتعمل بما جاء فيه من عقائد وشرائع ويقال لهم اليوم تجزون ما كنتم تعملون، أي في الدنيا من خير وشر. فإذا حاولوا الإنكار قيل لهم: هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، وهو كتاب الأعمال الذي دونته الحفظة.

(٢٩) وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نأمر ملائكتنا بنسخ أعمالهم أي بإثباتها وحفظها وها هي ذي بين أيديكم ناطقة صارخة بما كنتم تعملون.

(٣٠) قال تعالى مفصلاً للحكم الناتج عن شهادة الكتاب: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ[٣] ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وتركوا الشرك والمعاصي فيدخلهم ربهم جزاء لهم في رحمته وهي الجنة دار المتقين ذلك هو الفوز المبين، أي إدخالها الجنة بعد إنجائهم من النار هو الفوز المبين إذ الفوز معناه النجاة من المرهوب والظفر بالمرغوب المحبوب. هذا جزاء أهل الإيمان والتقوى وأما الذين كفروا وهم أهل الشرك والمعاصي فيقال لهم:

(٣١) ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي ألم تأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم؟ بل كانت تتلى عليكم فاستكبرتم عنها فلم تتعرفوا إلى ما فيها وإلى ما تدعوا إليه، وكنتم باستكباركم عنها قومًا مجرمين[٤] على أنفسكم إذا أفسدتموها بالشرك والمعاصي.

---

(١) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ هو ظرف متعلق بيخسر قدم عليه للاهتمام به، ويومئذ توكيد ليوم تقوم الساعة.

(٢) الأمة: الجماعة العظيمة أمرها واحد يجمعهم دين، والجثو البروك على الركب في استنفار وهي هيئة الخضوع.

(٣) ﴿فَأَمَّا. . .﴾ إلخ.. هذه الفاء عاطفة لمُفصَّل من الكلام على مُجمل منه وهو قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ والبدء بتفصيل حال المؤمنين تعجيلاً للمسرة لهم وتنويهًا بشأن الإيمان والعمل الصالح.

(٤) إقحام لفظ (قومًا) للدلالة على أن الإجرام صار خلقًا لهم مخالطًا لنفوسهم حتى صار مما يمقتون به ولولا هذا لقال بل كنتم مجرمين، دون ذكر (قوم) والاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾ للتقرير والتوبيخ.

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعده تعالى بالبعث والجزاء حق لا بد واقع والساعة آتية لا ريب فيها أي جائية لا محالة ولا ريب في وقوعها بحال من الأحوال قلتم ما ندري ما الساعة متجاهلين لها متعجبين من وقوعها. وقلتم إن نظن إلا مجرد ظن فقط وما نحن بمستيقنين[1] بمجيئها، وهذا بالنسبة إلى بعض الناس، وإلا فقد تقدم أن بعضهم كان ينكر البعث بالكلية وهذا ظاهر في كثير من الناس الذين يؤمنون بالله وبلقائه وهم لا يفترون من المعاصي ولا يقصرون عن فعل الشر والفساد.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر بعض ما يقع يوم القيامة.

٢ - تقرير عقيدة كتابة أعمال العباد وتقديمها لهم يوم القيامة في كتاب خاص.

٣ - تقرير أن الإيمان والعمل الصالح سبب الفوز، وأن الشرك والمعاصي سبب الخسران المبين.

٤ - الظن في العقائد كالكفر بها، والعياذ بالله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ - ٣٧]

(٣٣) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾: أي ظهر لهم في يوم القيامة جزاء سيئات ما عملوه في الدنيا من الشرك والمعاصي.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي نزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به إذا ذكروا به وخوفوا منه في الدنيا.

(٣٤) ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾: أي وقال الله تعالى لهم اليوم ننساكم أي نترككم في النار. ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾: أي مثل ما نسيتم يومكم هذا فلم تعملوا له بما ينجى فيه وهو الإيمان والعمل الصالح، وترك الشرك والمعاصي. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي ومحل إقامتكم النار. ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾: أي من ناصرين ينصرونكم بإخراجكم من النار.

(٣٥) ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾: أي ذلكم العذاب كان لكم بسبب كفركم واتخاذكم آيات الله هزوًا أي شيئًا مهزوًا به. ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: أي طول العمر والتمتع بالشهوات والمستلذات. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي لا يؤذن لهم في الاستعتاب ليعتبوا فيتوبوا.

(٣٦) ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾: أي فلله وحده الوصف بالجميل لإنجاز وعيده لأعدائه.

(٣٧) ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي العظمة والحكم النافذ الناجز على من شاء. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: أي وهو العزيز في انتقامه من أعدائه الحكيم في تدبير خلقه.

معنى الآيات:

ما زال السياق في عرض مشاهد القيامة وبعض ما يتم فيها من عظائم الأمور لعل السامعين لها يتعظون بها فقال تعالى:

(٣٣) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝﴾[2] أي وظهر للمشركين المكذبين بالبعث والجزاء ظهر لهم وشاهدوا العذاب

الجزء السادس والعشرون — سورة الأحقاف

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

ترتيبها ٤٦ — سورة الأحقاف — آياتها ٣٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾

٥٠٢

---

(١) هذه الجملة تأكيد لجملة ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ والسين والتاء في: بمستيقنين للمبالغة في عدم حصول الفعل.

(٢) من أنواع الاستهزاء ما روي أن العاص بن وائل قال لخباب بن الأرت وقد طالبه بدين له عليه لئن بعثت كما تقول لأوتين مالاً وولدًا في الآخرة فاقض منه دينك.

الذي كانوا إذا ذكروا به أو خوفوا منه استهزأوا به وسخروا منه. وقد حلّ بهم ونزل بساحتهم وأحاط بهم وقال لهم الرب تعالى اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا أي نترككم في عذاب النار كما تركتم العمل المنجي من هذا العذاب وهو الإيمان والعمل الصالح بعد التخلي عن الشرك والمعاصي. ومأواكم[1] النار أي هي مأواكم ودار إقامتكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ أي وليس لكم من ينصركم فيخلصكم من النار، وعلة هذا الحكم عليهم بيّنها تعالى بقوله: ﴿٣٥﴾ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا[2] وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي حكم عليكم بالعذاب والخذلان بسبب اتخاذكم آيات الله الحاملة للحجج والبراهين الدالة على وجود الله ووجوب توحيده وطاعته هزوًا أي شيئًا مهزوًا به، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخرفها وزينتها، وطول أعماركم فيها فلم تؤمنوا ولم تعملوا صالحًا ينجيكم من هذا العذاب الذي حاق بكم اليوم. قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ وترك مخاطبتهم إشعارًا لهم بأنهم لا كرامة لله لهم اليوم فلم يقل فاليوم لا تخرجون منها، بل عدل عنها إلى قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لم يطلب منهم أن يعتبوا ربهم بالتوبة إليه، إذ لا توبة بعد الموت والرجوع إلى الدنيا غير ممكن في حكم الله وقضائه. وهنا تعظم حسرتهم ويشتد العذاب عليهم ويعظم كربهم.

﴿٣٦﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ[3] ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي رب كل شيء ومليكه حمد نفسه، وقصر الحمد عليه بعد أن أنجز ما أوعد به الكافرين، وذكر موجب الحمد وهو سلطانه القاهر في السموات وفي الأرض.

﴿٣٧﴾ وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾[4] أي العظمة والسلطان ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمانع ولا يغالب، الشديد الانتقام، الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه الحكيم في تدبير خلقه ويتجلى ذلك في إكرام أوليائه برحمتهم، وإهانة أعدائهم بتعذيبهم في دار العذاب النار وبئس المصير.

هداية الآيات:

١ - بيان أن الاستهزاء بآيات الله وشرائعه كفر موجب للعذاب.

٢ - تقرير قاعدة الجزاء من جنس العمل، وكما يدين الفتى يدان.

٣ - مشروعية الحمد عند الفراغ من أي عمل صالح أو مباح.

❁ ❁ ❁

الجزء السادس والعشرون

سورة الأحقاف[5]
مكية
وآياتها خمس وثلاثون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٦]

﴿١﴾ ﴿حمٓ﴾: هذا أحد الحروف المقطعة يكتب هكذا: حمٓ، ويقرأ هكذا: حَامِيم.

﴿٢﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: أي تنزيل القرآن. ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: أي من لدن الله العزيز في ملكه الحكيم في صنعه.

﴿٣﴾ ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي ما خلقنا السموات والأرض إلا خلقًا متلبسًا بالحق وبأجل مسمى لفنائهما. ﴿عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾: أي عن ما خوفوا به من العذاب معرضون عنه غير ملتفتين إليه.

---

(١) التعبير بالمأوى إشارة إلى تأبيد الخلود فيها إذ المأوى مكان الإيواء والاستقرار ولا مكان غيره.

(٢) الهزء مصدر كالخلق إذا أطلق أريد به اسم المفعول أي مهزوءًا به.

(٣) الفاء للتفريع فهذه الجملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والثناء عليه متفرع عما ورد في هذه السورة من مظاهر ربوبيته تعالى وألطافه وإحسانه بإحقاق الحق وإبطال الباطل وعدله في قضائه بين عباده.

(٤) تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ مؤذن بالحصر والاختصاص والكبرياء هي الكبر الحق العظيم وهما الكمال في الذات والكمال في الصفات والوجود.

(٥) وجه تسميتها بالأحقاف لذكر لفظ الأحقاف فيها ولم يكن لها اسم غيره والأحقاف جمع حقف بكسر الحاء وسكون القاف: الرمل المستطيل الكبير.

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

(٤) ﴿مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: أي من الأصنام والأوثان. ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾: أي أشيروا إلى شيء خلقوه من الأرض. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾: أي أم لهم شركة. ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا﴾: أي منزل من قبل القرآن. ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أي بقيةٍ من علم يؤثر عن الأولين بصحة دعواكم في عبادة الأصنام. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: أي في دعواكم أن عبادة الأصنام والأوثان تقربكم من الله تعالى.

(٥) ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: أي لا أحد أضل ممن يدعو من لا يستجيب له في شيء يطلبه منه أبدًا. ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾: أي وهم الأصنام أي عن دعاء المشركين إياهم غافلون لا يعرفون عنهم شيئًا.

(٦) ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾: أي في يوم القيامة كانت الأصنام أعداء لعابديها. ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾: أي وكانت الأصنام بعبادة المشركين لها جاحدة غير معترفة.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿حم﴾ الله أعلم بمراده به إذ هذه من المتشابه الذي يجب الإيمان به وتفويض أمر معناه إلى الله منزله.

(٢) وقوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي تنزيل القرآن الكريم من لدن الله العزيز الحكيم العزيز في ملكه الحكيم في صنعه وتدبيره.

(٣) وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من العوالم والمخلوقات ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا لحِكَم عالية وليس من باب العبث واللعب، وإلاّ بأجل مسمى عنده وهو وقت إفنائهما وإنهاء وجودهما لاستكمال الحكمة من وجودهما. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ[١] كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾[٢] يخبر تعالى بأن الذين كفروا بتوحيد الله ولقائه وآياته ورسوله عما خوفوا به من عذاب الله المترتب على كفرهم وشركهم معرضون غير مبالين به، وذلك لظلمة نفوسهم، وقساوة قلوبهم.

(٤) وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم[٣] مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي من الأصنام والأوثان ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي من شيء ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ولو أدنى شرك وأقله، وقوله: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ[٤]﴾ أي بقية من علم تشهد بصحة عبادة ودعاء آلهة لم تخلق شيئًا من الأرض وليس لها أدنى شرك في السموات ﴿إِن كُنتُمْ

(١) هذه الجملة حالية فهي في موضع نصب حال من الضمير المقدر في متعلق الجار والمجرور في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ والمقصود من الإخبار هو التعجيب من إعراض الكافرين عن دعوة الحق التي يُدعون إليها وهي: الإيمان والعمل الصالح بعد ترك الشرك والمعاصي لنجاتهم وسعادتهم.

(٢) ﴿عَمَّا أُنذِرُوا﴾ جائز أن تكون (ما) موصولة، والعائد محذوف أي: أنذروه، وجائز أن تكون مصدرية أي: عن إنذارهم معرضون.

(٣) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم﴾ الاستفهام تقريري هو بمعنى: أخبروني، وفعل أروني للتعجيز لإبطال دعوى الشرك بالله تعالى، والعاجز عن خلق شيء كيف يستحق العبادة والتأليه، و﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ هو بمعنى ماذا الذي خلقوا أي: أي شيء خلقوه.

(٤) ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: من أهل العلم السابقين غير مكتوبة في الكتب، وهذا التوسيع عليهم في أنواع الحجج ليكون عجزهم بعد ذلك أقطع لحجتهم وإبطال دعواهم في الشرك. ذكر القرطبي عند تفسير: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أن بعضهم فسر الأثارة: بالخط، وإن نبيًا كان يخط، والمراد التعرف إلى علم الغيب، وختم القول بكلمة لابن العربي أنهى بها الموضوع، إذ قال: إن الله تعالى=

صَدِقِينَ﴾ في دعواكم أنها آلهة تستحق أن تُعبد.

٥ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ[1] أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ينفي تعالى على علم تام أنه لا أضل من أحد يدعو من غير الله تعالى معبودًا لا يستجيب له في قضاء حاجة أو قضاء وطر مهما كان صغيرًا أبدًا وحقًا لا أحد أضل ممن يقف أمام جماد لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق يدعوه ويسأله حاجته. وقوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ[2] غَٰفِلُونَ﴾ أي وأولئك الأصنام المدعوون غافلون تمامًا عن داعيهم لا يعلمون عنه شيئًا لعدم الحياة فيهم، ولو كانوا يوم القيامة يُنطقهم الله ويتبرءون ممن عبدوهم ويخبرون أنهم ما عبدوهم ولكن عبدوا الشيطان الذي زين لهم عبادتهم، وهو ما دل عليه قوله تعالى:

٦ ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ أي ليوم القيامة كانوا لهم[3] أعداء وخصومًا وكانوا بعبادتهم من دعاء وذبح ونذر وغيره كافرين أي جاحدين غير معترفين.

هداية الآيات:

١ - إثبات النبوة المحمدية بتقرير أن القرآن تنزيل الله على رسوله المنزل عليه وهو محمد ﷺ.

٢ - انتفاء العبث عن الله تعالى في خلقه السموات والأرض وما بينهما وفي كل أفعاله وأقواله.

٣ - تقرير حقيقة علمية وهي من لا يخلق لا يُعبد.

٤ - بيان أنه لا أضل في الحياة من أحد يدعو من لا يستجيب له أبدًا كمن يدعون الأصنام والقبور والأشجار بعنوان التوسل والاستشفاع والتبرك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ - ٩]

٧ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾: أي أهل مكة من كفار قريش، والآيات آيات القرآن والبينات الواضحات. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾: أي من كفار قريش للحق أي القرآن لما قرأه عليهم رسول الله ﷺ. ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: أي قالوا في القرآن سحر مبين أي ظاهر لما رأوا من تأثيره على النفوس.

٨ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي بل أيقولون افتراه أي اختلقه من نفسه. ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾: أي قل لهم يا نبينا إن اختلقته من نفسي. ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾: أي فأنتم لا تملكون لي من الله شيئًا إن أراد أن يعذبني. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: أي هو تعالى أعلم بما تخوضون فيه من القدح والطعن فيَّ وفي القرآن. ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾: أي كفى به تعالى شهيدًا بيني وبينكم.

٩ ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾: أي لم أكن أول رسول فأكون بدعًا من الرسل بل سبقني رسل كثيرون. ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: أي في هذه الحياة هل أخرج من بلدي، أو أُقتل، وهل تُرجمون بالحجارة أو يُخسف بكم. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾: أي ما أتبع إلا ما يوحيه إليّ ربي فأقول وأفعل ما يأمرني به. ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: أي وما أنا إلا نذير لكم بين الإنذار.

معنى الآيات:

٧ ما زال السياق الكريم في دعوة العرب عامة وقريش خاصة إلى الإيمان والتوحيد فإذا قرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن دعوة لهم إلى الإيمان والتوحيد قالوا ردًا عليه ما أخبر به تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي على كفار قريش ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي ظاهرات الدلالة واضحات المعاني ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وبرسوله ولقائه وتوحيده قالوا: ﴿لِلْحَقِّ﴾[4] وهو القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ

= لم يبق في الأسباب الدالة على الغيب إلا الرؤيا إذ هي جزء من النبوة، والفأل الحسن لا غير وأنشد لبعضهم:

الفأل والزجر والكهان كلهم ... مضللون ودون الغيب أقفال

(١) الاستفهام للإنكار والتعجب معًا، والمعنى: لا أحد أشد ضلالاً وأعجب حالاً ممن يدعون.. إلخ..

(٢) الجملة حالية، وجملة: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ معطوفة عليها.

(٣) فالعابدون كالمعبودين سواء في التبرؤ من بعضهم بعضًا يوم القيامة وإعلان العداء لبعضهم بعضًا.

(٤) (للحق) اللام تعليلية وليست للتعدية، أي: قال الكافرون بعضهم لبعض لأجل رد الحق وإبطاله: هذا سحر مبين، والحق: القرآن، يصفونه بالسحر حتى لا يؤمنوا به.

﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ بل قالوا ما هو أشنع في الكذب وأبشع في النظر إذ قالوا ما أخبر به تعالى عنهم في قوله:

(٨) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ[١] ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ أي بل أيقولون افتراه أي اختلقه وتخرصه من نفسه وليس هو بكلام الله ووحيه إليه. وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾ أي على فرض أنني افتريته على الله وقلت أوحي إليَّ ولم يُوحَ إليَّ وأراد الانتقام مني بتعذيبي، فهل أنتم أو غيركم يستطيع دفع العذاب عني، وعليه فكيف أعرّض نفسي للعذاب بالافتراء على الله تعالى، فهذا لن يكون مني أبدًا. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾[٢] أي الله جلّ جلاله هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه مندفعين في الكلام تطعنون فيَّ وفي القرآن فتقولون فيَّ ساحر وفي القرآن سحر مبين وتقولون فيَّ مفترٍ وفي القرآن افتراء إلى غير ذلك من المطاعن والنقائص. ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾[٣] أي كفى بالله شهيدًا عليَّ وعليكم فيما أقول وفيما تقولون وسيجزي كلًّا بما عمل ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٤] لمن تاب فتوبوا إليه يغفر كفركم وخوضكم في الباطل ويرحمكم فإنه تعالى غفور لمن تاب رحيمًا بمن آمن وأناب.

(٩) وقوله تعالى في الآية (٩): ﴿قُلۡ مَا كُنتُ[٥] بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ يأمر تعالى رسوله أن يقول لأولئك المشركين المفيضين في الطعن في القرآن والرسول في أغلب أوقاتهم وأكثر مجالسهم ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي ما أنا بأول عبد نُبيء وأرسل فأكون بدعًا في هذا الشأن فينكر عليَّ أو يستغرب مني بل سبقتني رسل كثيرة. وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي[٦] وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أي وقل لهم أيضًا أني لا أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي مستقبلاً فهل أخرج من هذه البلاد أو أُقتل أو تقبل دعوتي وأنصر ولا ما يُفعل بكم من تعذيبكم بحجر أو مسخ أو هدايتكم ونجاتكم. وقوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أي ما أتبع إلا الذي أوحى إليَّ ربّي باعتقاده أو قوله أو عمله، فلا أحدث ولا أبتدع شيئًا لم يوح الله به أبدًا ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أي ما أنا بالذي يملك شيئًا لنفسه أو لغيره من خير أو ضير وإنما أنا نذير من عواقب الكفر والتكذيب والشرك والمعاصي فمن قبل إنذاري فكف عما يسبب العذاب نجا، ومن رفض إنذاري فأمره إلى ربّي إن شاء عذبه وإن شاء تاب عليه وهداه ورحمه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ ـ ١٤]

(١٠) ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾: أي أخبروني ماذا تكون حالكم. ﴿إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾: أي إن كان القرآن من عند الله. ﴿وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾: أي وكذبتم به أي بالقرآن. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أي وشهد عبدُالله بن سلام. ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ﴾: أي عليه إنه من عند الله فآمن. ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ﴾: أي واستكبرتم أنتم فلم تؤمنوا ألستم ظالمين.

---

(١) (أم) هي المنقطعة المقدرة ببل، والاستفهام أي: أيقولون افتراه، والاستفهام وبل للإضراب الانتقالي من نوع إلى آخر من أنواع ضلالهم، والاستفهام للنفي والإنكار معًا.

(٢) ﴿تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ أي: من قول الباطل والخوض في تكذيب الحق، إذ الإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع، ومنه: أفاضوا في الحديث: إذا اندفعوا، يقولون: وأفاض الناس من عرفات إلى مزدلفة، أي: اندفعوا.

(٣) إذ هو يعلم صدقي ويعلم أنكم مبطلون.

(٤) الغفور لمن تاب من عباده الرحيم بالمؤمنين.

(٥) البدع: الأول، والبديع كالبدع بكسر الباء مثل: نصف ونصيف، وأبدع في كذا أتى بالبدع فيه أي بما لم يأتِ به غيره، والبديع: صفة مشبّهة، وهو من أسماء الله تعالى، ومعناه: خالق الأشياء ومخترعها.

(٦) هذا ردّ على المتعنتين من المشركين الذين يطالبون الرسول ﷺ بما لم يكن في وسعه من أمور الغيب، وليس معناه كما قيل: إنه لا يدري هل يكون بعد موته في الجنة أو في النار، ولا يدري هل يكون المشركون في النار أو الجنة، إذ هذا قول باطل. وأما حديث عثمان بن مظعون في البخاري: (فإنه لما قالت المرأة: رحمة الله عليك يا أبا السائب إن الله أكرمك فقال لها: «**وما يدريك أن الله أكرمه فإني وأنا رسول الله لا أدري ما يفعل بي**» فإن المراد منه عدم الجزم بمصير من مات من المسلمين ووجوب تفويض الأمر إلى الله تعالى.

(١١) ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾: أي لو كان ما جاء به محمد من القرآن والدين خيرًا ما سبقنا إليه المؤمنون. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ﴾: أي بالقرآن العظيم. ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾: أي هذا القرآن إفك قديم أي هو من كذب الأولين.

(١٢) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾: أي القرآن مصدق للكتب التي سبقته. ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أي حال كونه بلسان عربي لينذر به الظالمين المشركين. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾: وهو أي القرآن بشرى لأهل الإحسان في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم.

(١٣) ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا﴾: أي فلم يرتدوا واستمروا على فعل الواجبات وترك المحرمات. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: أي في الدنيا وفي البرزخ وفي عرصات القيامة.

(١٤) ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي جزاهم الله بما جزاهم به بنفي الخوف والحزن عليهم بأعمالهم الصالحة وتركهم الأعمال الفاسدة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في طلب هداية قوم النبي ﷺ من قريش الذين ردوا الدعوة وقالوا في كتابها سحر مبين وفي صاحبها مفترٍ فقال تعالى لرسوله: (١٠) قل يا محمد لأولئك المشركين الذين قالوا في القرآن سحر مبين ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾[١] أي أخبروني ماذا تكون حالكم إن كان القرآن من عند الله. وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل وهو عبدالله بن سلام على[٢] مثله أي على التوراة أنها نزلت من عند الله وهي مثل القرآن فلا يستنكر أن يكون القرآن نزل من عند الله لا سِيَّمَا والكتابان التوراة والقرآن يصدق بعضهما بعضًا، بدلالتهما معًا على أصول الدين كالتوحيد والبعث والجزاء بالثواب والعقاب ومكارم الأخلاق والعدل والوفاء بالعهد. ﴿فَـَٔامَنَ﴾ هذا الشاهد[٣] ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي وكفرتم أنتم مستكبرين عن الإيمان بالحق ألم تكونوا شر الناس وأظلمهم وتحرمون الهداية إن الله لا يهدي القوم[٤] الظالمين أي الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فحرموها الهداية الإلهية.

(١١) وقوله تعالى في الآية (١١): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ هذا القول جائز أن يقوله يهود المدينة للمؤمنين بها، وجائز أن يقوله المشركون في مكة وفي غيرها من العرب إذ المقصود هو الاعتذار عن عدم قبول الإسلام بحجة أنه لا فائدة منه تعود عليهم في دنياهم ولا خير يرجونه منه إن دخلوا فيه إذ لو كان فيه ما يرجون من الفوائد المادية لاعتنقوه ودخلوا فيه ولم يسبقهم إليه الفقراء والمساكين. وهو معنى ما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ[٥] ءَامَنُوا﴾ أي في شأن الذين قالوا لو كان الإسلام خيرًا ما سبقونا[٦] إليه فآمنوا وكفرنا. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي وإن ظهر عنادهم وعظم عتوهم واستكبارهم فعموا فلم يهتدوا بالقرآن فسيقولون[٧] ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وقد قالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي

(١) الاستفهام تقريري للتوبيخ، ومفعولا ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ محذوفان تقديرهما: أنفسكم ظالمين.
(٢) المثل: المماثل أي: المشابه في فعل أو صفة، وضمير مثله: عائد على القرآن، وجائز أن يكون المراد بالمثل: التوراة، والشاهد هو موسى عليه السلام أو عبدالله بن سلام كما في التفسير، وجائز أن يكون لفظ (مثل) مقحمًا زائدًا نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: ليس مثله شيء، ويكون المعنى: وشهد شاهد ـ وهو عبدالله بن سلام ـ على صدق القرآن وكونه وحي الله أوحاه إلى رسوله ﷺ.
(٣) لا حاجة إلى أن نقول: الشاهد هو موسى عليه السلام بحجة أن السورة مكية، وعبدالله بن سلام أسلم بعد الهجرة، إذ من الجائز أن تكون السورة مكية والآيات مدنية، وهو الحق في هذه والله أعلم.
(٤) الجملة تعليلية لما هو محذوف في الكلام وهو: ضللتم ضلالاً لا يُرجى لكم هداية بعده، لأن الله لا يهدي القوم الظالمين.
(٥) اللام تعليلية أي: قالوا ما قالوه لأجل الذين آمنوا حتى يردوا دعوتهم ولا يقبلوا الإسلام.
(٦) ضمير ﴿سَبَقُونَآ﴾ عائد إلى غير مذكور وأرادوا به المستضعفين مثل بلال وعمار ووالده وسميّة وزنّيرة على وزن شرّيرة وسكيرة: أمَةٌ رومية كانت من السابقات إلى الإسلام.
(٧) المضارع هنا مراد به سيديمون قولهم هذا كلما أرادوا رد القرآن قالوا: هذا إفك قديم.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

٥٠٤

تملى عليه بكرة وأصيلًا ومعنى إفك قديم كذب أفكه غير محمد وعثر عليه فهو يقول به ما أفسد هذا القول وما أقبحه وأقبح قائله.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي ومن قبل القرآن الذي أنكر المشركون نزوله كتاب موسى التوراة وقد أنزلناه عليه إماما يؤتم به فيقود المؤتمين به العاملين بهدايته إلى السعادة والكمال وأنزلنا اليوم القرآن هدى ورحمة وبشرى للمحسنين. وهو ما دل عليه قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لما قبله من الكتب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه لسانًا عربيًا[(١)] لينذر به رسولنا المنزل عليه وهو محمد ﷺ ﴿لِّيُنذِرَ[(٢)]﴾ به ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك والمعاصي عذاب الله المترتب على تدسية النفوس بأوضار الشرك والمعاصي وهو بُشرى للمحسنين من المؤمنين الذين أحسنوا النية والعمل بالفوز العظيم يوم القيامة وهو النجاة من النار ودخول الجنة.

(١٣) ـ (١٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾[(٣)] بعد أن ذكر تعالى المبطلين وباطلهم عقب على ذلك بذكر المحسنين وأعمالهم على نهج الترهيب والترغيب فأخبر تعالى أن الذين قالوا ربنا الله أي آمنوا وصرحوا بإيمانهم وجاهروا به ثم استقاموا على منهج لا إله إلا الله فعبدوا الله بما شرع وتركوا عبادة غيره حتى ماتوا على ذلك هؤلاء يخبر تعالى عنهم أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة فهم آمنون في الحيوات الثلاث، وبشرهم بالجنة فأخبر أنهم أصحابها الخالدون فيها، وأشار إلى أن ذلك الفوز والبشرى كانا نتيجة أعمالهم في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح الذي دل عليها قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾.

هداية الآيات:

١ - اعتبار الشهادة وأنها أداة يتوصل بها إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل فلذا يشترط عدالة صاحبها والعدالة هي اجتناب الكبائر واتقاء الصغائر غالبًا.

٢ - تقرير قاعدة من جهل شيئًا عاداه، إذ المشركون لما لم يهتدوا بالقرآن قالوا هذا إفك قديم.

٣ - بيان تآخي وتلاقي الكتابين التوراة والقرآن فشهادة أحدهما للآخر أثبتت صحته.

٤ - وجوب تعلم العربية لمن أراد أن يحمل رسالة الدعوة المحمدية فينذر ويبشر.

٥ - فضل الاستقامة[(٤)] حتى قيل أنها خير من ألف كرامة، والاستقامة هي التمسك بالإيمان والعبادة كما جاء بذلك القرآن وبينت السنة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥، ١٦]

(١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾: أي

---

(١) كلمة ﴿لِّسَانًا﴾ فيها إيماء إلى أنه عربي اللغة لا الأخلاق والعادات العربية والأحكام القبلية لأنها فسدت بالشرك وانقطاع الوحي وموت العلماء قرونًا عديدة.

(٢) قرأ نافع ﴿لتنذر﴾ بالتاء الفوقية خطاب للرسول ﷺ، وقرأ حفص ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بالياء أي: القرآن.

(٣) ثم للتراخي الرتبي، إذ الإيمان يحصل بالنظر والتأمل دفعة واحدة وأما الاستقامة فتحتاج إلى مراقبة النفس وذكر الوعد والوعيد في كل طاعة من فعل أو ترك.

(٤) روى مسلم والترمذي وغيرهما عن عبدالله الثقفي قال: قلت يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك قال ﷺ: **«قل آمنت بالله ثم استقم»**.

أمرناه أمرًا مؤكدًا بالإيصاء. ﴿إِحْسَٰنًا﴾[1]: أي أن يُحسن بهما إحسانًا وهو المعاملة بالحسنى. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾: أي حملته أثناء حمله في بطنها على مشقة وولدته كذلك على مشقة. ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾: أي مدة حمله في بطنها وفطامه من الرضاع ثلاثون شهرًا. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي اكتمال قوته البدنيّة والعقلية وهي من الثلاث والثلاثين فما فوق. ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾: أي ألهمني ووفقني أن أشكر نعمتك بصرفها فيما تحب. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾: أي وبأن أعمل صالحًا ترضاه مني أي تتقبله عني.

(١٦) ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: أي فلا نؤاخذهم بها بل نغفرها. ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي في جملة أصحاب الجنة وعدادهم. ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾: أي في مثل قوله تعالى: وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار. الآية.

معنى الآيات:

إن الفرد كالجماعة فقد أوصى تعالى الإنسان بالإحسان بوالديه وببرهما في جميع كتبه وعلى ألسنة كافة رسله، والإنسان بعد ذلك قد يحسن ويبرُّ وقد يسيء ويعُقُّ، فكذلك الجماعة والأمة من الناس يرسل إليهم الرسول فمنهم من يؤمن ومنهم من يكذب، ومنهم من يتابع ومنهم من يخالف، فلما ذكر تعالى اختلاف قوم النبي ﷺ في الإيمان بما جاء به، والكفر به ذكر أن هذه حال الإنسان فقال تعالى:

(١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾[2] أي جنس الإنسان أي أمرناه بما هو آكد من الأمر وهو الوصيّة بوالديه أي أمه وأبيه إحسانًا بهما وذلك بكف الأذى عنهما وإيصال الخير بهما وطاعتهما في المعروف وببرهما أيضًا بعد موتهما. فمن الناس من ينفذ هذه الوصية ومنهم من يهملها ولا ينفذها، وقوله: حملته أمه كرهًا ووضعته كرهًا بيان لوجوب الإحسان بهما وبرهما إذ معاناة الأم وتحملها مشقة الحمل تسعة أشهر ومشقة الوضع وهي مشقة لا يعرفها إلا من قاسى آلامها كالأمهات. وقوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ[3] وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ بيان لمدة تحمل المشقة إنها ثلاثون شهرًا بعضها للحمل وبعضها للإرضاع والتربية، وقوله تعالى: حتى إذا بلغ، أي عاش حتى إذا بلغ أشده، أي اكتمال قواه البدنية والعقلية وذلك من ثلاث وثلاثين سنة إلى الأربعين وبلغ أربعين[4] سنة. قال: أي الإنسان البار بوالديه المنفذ للوصية الإلهية كأبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ بلغ الأربعين من عمره بعد البعثة المحمدية بسنتين. ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾[5] وهي نعمة الإيمان والتوحيد والإسلام عليّ وعلى والديَّ إذ آمن وآمن أبواه أبو قحافة عثمان بن عامر التيمي وآمنت أمه أم الخير سلمى، وأولاده عامة من بنين وبنات ولم يحصل لأحد من الصحابة أن سأل ربه أن يدفعه دفعًا إلهاميًا وتوفيقًا ربانيًا لأن يشكر نعمة الله عليه وعلى والديه بالإسلام، وأن يدفعه كذلك إلى العمل الصالح الذي يرضاه الله ويتقبله عن صاحبه، وقد استجاب له ربه فأعتق تسعة أعبد مؤمنين من استرقاق الكافرين لهم منهم بلال رضي الله عنه، وقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي اجعل الصلاح ساريًا

(١) قرأ نافع ﴿حسنًا﴾ و﴿كرهًا﴾ بفتح الكاف، وقرأ حفص ﴿إِحْسَٰنًا﴾ و﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف.

(٢) روي من عدة طرق أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ هذه الآية الكريمة مع قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ دلتا على أن أقل مدة الحمل: ستة أشهر، فلا يثبت الحمل بأقل من ستة أشهر ويثبت بالستة والسبعة والثمانية والتسعة، فمن بنى بامرأة وولدت قبل ستة أشهر من البناء بها فالولد لا يلحق الزوج.

(٤) لِمَ خص الدعاء للوالدين في هذا الوقت بالذات؟ لأنه وقت يصبح فيه الولد مشغولاً بزوجة وأولاد وتكاليف فهو في هذه الحال أحوج ما يكون إلى عون الله تعالى على بر والديه.

(٥) من بركة صلاح الذرية أن يدعو الولد لوالده بعد موته ففي صحيح الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له**».

في ذريتي حتى يشملهم جميعًا وقد استجاب الله تعالى له فآمن أولاده أجمعون ذكورًا وإناثًا، وقوله: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هـذا توسل منه رضي الله عنه لقبول دعائه فقد توسل إلى ربه بالتوبة من الشرك والكفر إلى الإيمان والتوحيد، وبالإسلام إلى الله وهو الخضوع لله والانقياد لأمره ونهيه.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ[(١)] مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فلا يؤاخذهم بها بعد توبتهم منها في جملة أصحاب الجنة إذ لا يدخل الجنة أحد إلا بعد مغفرة ذنبه، وقوله: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾[(٢)] أي أنجز لهم هذا لأنه وعد صدق وعدهم فأنجزه لهم، وقوله: ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي في الكتاب مثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الآية.

هداية الآيات:

١ - وجوب البر بالوالدين بطاعتهما في المعروف والإحسان بهما بعد كف الأذى عنهما.

٢ - الإشارة إلى أن مدة الحمل قد تكون ستة أشهر فأكثر، وأن الرضاع قد يكون حولين فأقل.

٣ - جواز التوسل بالتوبة إلى الله والانقياد له بالطاعة.

٤ - فضيلة آل أبي بكر الصديق على غيرهم من سائر الصحابة ما عدا آل بيت رسول الله ﷺ.

٥ - بشارة الصديق وأسرته بالجنة، إذ آمنوا كلهم وأسلموا أجمعين وماتوا على ذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ ـ ٢٠]

(١٧) ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾: الذي اسم موصول استعمل استعمال الجنس فدل على متعدد بدليل الخبر عنه وهو أولئك الذين حق عليهم القول. ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾: أي نتنًا وقبحًا لكما. ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾: أي من القبر حيًا بعد موتي. ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ﴾: أي مضت الأمم قبلي ولم يخرج منها أحد من قبره. ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾: أي يطلبان الغوث برجوع ولدهما إلى الإيمان بعد الإلحاد والكفر. ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾: أي يقولان له إن لم ترجع ويلك أي هلاكك أي هلكت آمن بالبعث. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: وقد وعد العباد بالرجوع إليه ومحاسبتهم على أعمالهم ومجازاتهم بها. ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي ما القول بوجود بعث للناس أحياء بعد الموت إلا أكاذيب الأولين.

(١٨) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾: أي وجب عليهم القول بالعذاب يوم القيامة. ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾: أي في جملة أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس.

(١٩) ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾: أي ولكل من المؤمنين البارين، والكافرين الفاجرين درجات مما عملوا درجات المؤمنين في الجنة ودرجات الكفار في النار.

(٢٠) ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾: أي يقال لهم أذهبتم طيباتكم باشتغالكم بملذاتكم في الدنيا. ﴿وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾: أي تمتعتم بها في الحياة الدنيا. ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾: أي جزاؤكم عذاب الهوان. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي تتكبرون في الأرض. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: أي إذ لا حق لكم في الكبر والكبرياء لله، ولم يأذن لكم فيه. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾: أي تخرجون عن طاعة الله ورسوله.

معنى الآيات:

(١٧) لما ذكر تعالى الرجل المؤمن وأعماله الصالحة ومواقفه المشرفة ذكر هنا الرجل الكافر وأعماله الباطلة ومواقفه السيئة وذلك من باب الدعوة إليه تعالى بالترغيب والترهيب فقال تعالى: ﴿وَالَّذِي[(٣)] قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ

---

(١) قرأ نافع: ﴿يتقبل﴾ و﴿يتجاوز﴾ بالبناء للمفعول، و﴿أحسن﴾ مرفوع نائب فاعل، وقرأ حفص بنون المتكلم فيهما ونصب ﴿أَحْسَنَ﴾ على أنه مفعول به.

(٢) الوعد: مصدر بمعنى المفعول كالرد بمعنى المردود.

(٣) قيل: إن هذه الآية نزلت في أحد ابني أبي بكر الصديق عبدالرحمٰن أو عبدالله وأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك، ومن قال به رد اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ..﴾ إلى من طالب الولدُ بإحيائهم ممن ماتوا على الشرك لأن كلًّا من عبدالله وعبدالرحمٰن قد أسلم وحسن إسلامه استجابة الله دعوة أبي بكر.

﴿لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ[1] أَنْ أُخْرَجَ[2] وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ يخبر تعالى عن أخبث إنسان هو ذاك الملحد العاق لوالديه المنكر للبعث والجزاء إذ قال لوالديه أمه وأبيه أُف لكما أي نتنًا وقبحًا لكما أتعدانني بأن أخرج من قبري حيًا بعدما مت، وقد مضت أُمم وشعوب قبلي، وما خرج منها أحد من قبره فكيف تعدانني أنتما ذلك إن هذا لتخلف عقلي وتأخر حضاري، وقوله تعالى: ﴿وَهُمَا[3] يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي ووالداه يستغيثان الله ويستصرخانه طلبا إغاثتهما بهداية ولدهما الملحد الشيوعي، ويقولان للولد: ويلك، أي هلاكك حضر يا ولد هلكت آمن بالبعث والجزاء وصلّ وصُم واترك الزنا والخمر، ويلك إن وعد الله حق أي إن ما وعد الله به عباده من إحيائهم للحشر والحساب والجزاء حق فلا يتخلف أبدًا فيرد عليهما الولد الملحد الدّهريُّ بما أخبر تعالى به عنه في قوله فيقول: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[4] أي أكاذيبهم التي كانوا يعيشون عليها ويقصونها في مجالسهم، وبما أن الذي قال لوالديه لفظه مفرد ولكنه دال على جنس كان الخبر جمعًا

(١٨) فقال تعالى في الإخبار عنهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ[5] حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي القول بالعذاب الدال عليه قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وفي قوله: ﴿فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي في جملة أمم سبقتهم في الإلحاد والكفر من العالمين عالم الجن وعالم الإنس، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾[6] وأي خسران أعظم من عبد يخسر نفسه وأهله ويعش في جهنم خالدًا فيها أبدًا.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ[7] مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي ولكل من المؤمنين البارين والكافرين العاقين درجات مما عملوا من خير أو شر إلا أن درجات المؤمنين في الجنة تذهب في عُلو متزايد ودرجات الكافرين في النار تذهب في سفل متزايد إلى أسفل سافلين. وقوله تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ[8] أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كاملة غير منقوصة الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها وهم لا يظلمون بنقص حسنة ولا بزيادة سيئة.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي اذكر يا رسولنا لهؤلاء المشركين يوم يعرضون على النار ويقال لهم في توبيخ وتقريع: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي بإقبالم على الشهوات والملاذ ناسين الدار الآخرة فاستمتعتم بكل الطيبات ولم تبقوا للآخرة شيئًا ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي الهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إذ لا حق لكم في الكبر لضعفكم وعجزكم إنما الكبرياء لله الملك الحق أما أنتم فقد ظلمتم باستكباركم عن الإيمان بربكم ولقائه وعن طاعته ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي وبفسقكم عن طاعة ربكم وطاعة رسوله. إذًا فادخلوا جهنم داخرين.

هداية الآيات:

١ - حرمة عقوق الوالدين وأنها من الكبائر.

٢ - بيان حنان الوالدين وحبهما لولدهما وبذل كل ما يقدران عليه من أجل إسعاده وهدايته.

---

(١) ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب.

(٢) ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي: من قبري حيًا بعد موتي وفنائي، إنكارًا منه للبعث الآخر.

(٣) وقد أجاب الله دعاء أبي بكر وزوجه أم رومان حيث أسلم ابنهما رضي الله عنهم أجمعين.

(٤) ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له.

(٥) الإشارة هنا إلى أولئك الذين ذكرهم ابن أبي بكر كعبدالله بن جدعان وعثمان بن عمرو ومشايخ قريش فقال: أين فلان وأين فلان إنكارًا منه للحياة بعد الموت.

(٦) خسروا أعمالهم: حيث ضاع سعيهم في الحياة الدنيا وخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

(٧) ﴿وَلِكُلٍّ﴾ التنوين عوض أي: لكل من الفريقين المؤمنين والكافرين الأبرار والفجار درجات مما عملوا، وهي مراتبهم التي لهم في الجنة أو في النار.

(٨) قرأ الجمهور ﴿ولنوفيهم﴾ بالنون وقرأ حفص بالياء.

٣ - التحذير من الانغماس في الملاذ والشهوات والاستمتاع.

٤ - التحذير من الكبر والفسق وأن الكبر من أعمال القلوب والفسق من أعمال الجوارح.

٥ - مدى فهم السلف الصالح لهذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

١) قرأ يزيد حتى بلغ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ ثم قال تعلمون والله إن أقوامًا يشترطون حسناتهم، استبقى رجل طيباته إن استطاع ولا قوة إلا بالله.

٢) روي أن عمر بن الخطاب كان يقول لو شئت لكنت أطيبكم طعامًا وألينكم لباسًا، ولكن استبقي طيباتي.

وذُكر أنه لمّا قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله، قال هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال له خالد بن الوليد لهم الجنة، فاغرورقت عينا عمر رضي الله عنه وقال: لئن كان حظنا الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونًا بعيدًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ - ٢٥]

(٢١) ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾: أي نبي الله هودًا عليه السلام. ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾: أي خوف قومه عذاب الله بوادي الأحقاف. ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾: أي مضت الرسل. ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: أي من قبله ومن بعده إلى أممهم. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾: أي أنذروهم بأن لا يعبدوا إلا الله. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾: أي إن عبدتم غير الله. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أي هائل بسبب شرككم بالله وكفركم برسالتي.

(٢٢) ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾: أي لتصرفنا عن عبادتها. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾: أي من العذاب على عبادتها. ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: أي في أنه يأتينا قطعًا كما تقول.

(٢٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾: أي علم مجيء العذاب ليس لي وإنما هو لله وحده. ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾: أي وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلني به ربي إليكم. ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾: أي حظوظ أنفسكم وما ينبغي لها من الإسعاد والكمال وإلاّ كيف تستعجلون العذاب مطالبين به.

(٢٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾: أي رأوا العذاب سحابا يعرض في الأفق. ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾: أي متجهًا نحو أوديتهم التي فيها مزارعهم. ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾: أي قالوا مشيرين إلى السَّحاب هذا عارض ممطرنا. ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾: أي ليس هو بالعارض الممطر بل العذاب الذي استعجلتموه.

(٢٥) ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾: أي ريح عاتية تهلك كل شيء تمر به. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾: أي بإذن ربها تعالى. ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾: أي أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق إلا مساكنهم. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كذلك الجزاء الذي جازينا به عادًا قوم هود وهو الهلاك الشامل نجزي المجرمين من سائر الأمم.

معنى الآيات:

(٢١) ما زال السياق الكريم في مطلب هداية قوم النبي محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ﴾ أي لقومك للعبرة والاتعاظ ﴿أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عليه السلام والأخوة هنا أخوة نسب لا دين. اذكره ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ إذ خوفهم عذاب الله إن لم يتوبوا إلى الله ويوحدوه، والأحقاف[1] وادي القوم الذي به

سورة الأحقاف — الجزء السادس والعشرون

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾

٥٠٥

---

(١) الأحقاف: جمع حقف بكسر وسكون: الرمل العظيم المستطيل.

مزارعهم ومنازلهم وهو ما بين حضرموت ومهرة وعُمان جنوب الجزيرة العربية. وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ[١] مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده في أممهم. أي لم يكن هود أول نذير، ولا أمته أول أمة أنذرت العذاب. وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي كل رسول أنذر أمته عاقبة الشرك فأمرهم أن لا يعبدوا إلا الله، وهو معنى لا إله إلا الله التي دعا إليها محمد ﷺ أمته فهي أمر بعبادة الله وترك الشرك فيها، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم هائل عظيم وهو يوم القيامة، فكان رد القوم ما أخبر تعالى به في قوله:

(٢٢) ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾[٢] أي تصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٣] فيما توعدنا به وتهددنا، فأجابهم هود عليه السلام بما أخبر تعالى به عنه بقوله:

(٢٣) ﴿قَالَ﴾ أي هود ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾[٤] ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي علم مجيء العذاب وتحديد وقته هذا ليس لي وإنما هو لله منزله، فمهمتي أن أنذركم العذاب قبل حلوله بكم وأبلغكم ما أرسلت به إليكم من الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك والمعاصي، ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[٥] أي بما يضركم وما ينفعكم في الدنيا والآخرة وإلا كيف تستعجلون العذاب وتطالبون به إذ المفروض أن تطلبوا الرحمة والسعادة لا العذاب والشقاء.

(٢٤) قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾[٦] ﴿رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي فلما رأى قوم هود العذاب متجهًا نحو أوديتهم التي بها مزارعهم ومنازلهم ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ[٧] مُّمْطِرُنَا﴾ أي هذا سحاب يعرض في السماء ذاهبًا صوب وادينا ليسقينا، وهو معنى قوله: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي ممطر أراضينا المصابة بالجفاف الشديد. قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ أي ليس بالسحاب الممطر بل هو العذاب الذي طالبتم به لجهلكم وخفة أحلامكم، وبيّنه بقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي تحمل في ثناياها العذاب الموجع.

(٢٥) ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ تمر به فتهلكه ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي بإذنه وقد أتت عليهم عن آخرهم ولم ينج إلا هود والذين آمنوا معه برحمة من الله خاصة، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ[٨] إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي لا يرى الرائي إذا نظر إليهم إلاّ مساكنهم خالية ما بها أحد. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٩] أي كهذا الجزاء بالدمار والهلاك نجزي المجرمين أي المفسدين أنفسهم بالشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله في الأمم في إرسال الرسل إليهم.

٢ - وبيان مهمة الرسل وهي النذارة والبلاغ.

٣ - بيان سفه وجهل الأمم التي تطالب بالعذاب وتستعجل به.

٤ - بيان أن عادًا أهلكت بالريح الدّبور، وأن نبينا محمد ﷺ نُصر بريح الصبا كما في الحديث الصحيح.

---

(١) وجائز أن تكون (النذر) جمع نذارة، وكونها الرسل هو الذي عليه المفسرون.

(٢) الاستفهام إنكاري والإفك: بفتح الهمزة: الصرف، وبالكسر الكذب أو أسوأه.

(٣) جواب الشرط محذوف دلّ عليه ما تقدمه وهو: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ ولفظ (الصادقين) أبلغ في الوصف مما لو قالوا: إن كنت صادقًا.

(٤) (أل) في (العلم) للاستغراق العرفي أي: علم كل شيء، ومنه علم وقت مجيء العذاب.

(٥) أي: تجهلون صفات الله تعالى وحكمة إرسال الرسل، وتجهلون حتى ما ينفعكم وما يضركم وإلا فكيف تطالبون بالعذاب؟ كما في التفسير.

(٦) الفاء هنا: للتفريع فما ذُكر بعدها متفرع عما تقدمها من قصة هود مع قومه.

(٧) العارض: السحاب الذي يعترض جو السماء، والاستقبال التوجه نحو الشيء ليكون قبالته.

(٨) قرأ الجمهور ومنهم نافع: **﴿لا ترى﴾** بالتاء المفتوحة، وقرأ حفص وغيره ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ بالياء والبناء للمجهول، والمراد بالمساكن: آثارها وبعض الجدران الشاخصة منها.

(٩) في الآية دليل على إفساد الإجرام وأنه سبب كل هلاك، وحقيقته: أنه إفساد الروح بالشرك والمعاصي فعلًا وتركًا.

٥ - بيان سنة الله تعالى في إهلاك المجرمين وهم الذين يصرون على الشرك والمعاصي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ - ٢٨]

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾: أي ولقد مكنا قوم عاد من القوة التي لم نمكنكم أنتم من مثلها. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا﴾: وجعلنا لهم أسماعًا وأبصارًا. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾: أي من الإغناء. ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي لعلة هي أنهم كانوا يجحدون بآيات الله وهي حججه البيّنة. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به.

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾: أي من أهل القرى كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي كررنا الحجج وضربنا الأمثال ونوّعنا الأساليب لعلهم يرجعون إلى الحق فيؤمنون ويوحدون.

(٢٨) ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾: أي فهلا نصرهم بدفع العذاب عنهم الذين اتخذوهم من دون الله آلهة يتقربون بهم إلى الله في زعمهم. ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾: أي غابوا عنهم عند نزول العذاب. ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: أي خذلان آلهتهم لهم وعدم نصرتهم لهم بل غيابهم عنهم هو إفكهم وافتراؤهم الذي كانوا يفترونه.

معنى الآيات:

(٢٦) ما زال السياق في مطلب هداية قريش أنه لما قصّ تعالى عليهم قصة عاد وتجلّت فيها عظات كثيرة وعبرة كبيرة قال لهم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾[١] أي قوم عاد مكناهم في الأرض فأعطيناهم من مظاهر القوة المادية ﴿فِيمَآ إِن[٢] مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾[٣] أنتم يا معشر كفار قريش وجعلنا لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة، أي قلوبًا، فما أغنى عنهم سمعهم، أي أسماعهم، ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء من الإغناء إذ كانوا يجحدون بآيات الله أي بحججه وبيّناته الدالة على وجوب توحيده وحاق، أي نزل بهم العذاب الذي كانوا إذا خُوفوا به وأُنذروا استهزأوا وسخروا.

(٢٧) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي وكررنا الحجج وضربنا الأمثال ونوعنا العظات والعبر لعلهم يرجعون إلى الحق الذي انصرفوا عنه وهو التوحيد والاستقامة فأبوا إلاّ الإصرار على الشرك والباطل فأهلكناهم.

(٢٧) ﴿فَلَوْلَا﴾[٤] أي فهلا نصرهم الذين[٥] اتخذوهم من دون الله قربانًا آلهة يتقربون بها إلى الله في زعمهم والجواب ما نصروهم بل ضلوا عنهم أي غابوا فلم يعثروا عليهم بالكلية. قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ[٦] وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي ذلك الذي تم لهم من الخذلان والعذاب هو إفكهم

---

(١) الجملة في محل نصب على الحال من واو الجماعة في قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾ والكلام مستعمل في التعجيب من عدم انتفاعهم بمواهب عقولهم.

(٢) ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ (ما) موصوله و(إن) نافية عدولاً عن النفي بما حتى لا تجتمع ميمان، الموصولة والنافية ارتقاء في الأسلوب.

(٣) التمكين: إعطاء المكنة: بفتح الميم وكسر الكاف وهي: القدرة والقوة، يقال: مكن من كذا وتمكن إذا قدر عليه، ومكنه أقدره عليه.

(٤) أصل لولا إذا دخلت على الجملة الفعلية كانت للتحضيض على تحصيل ذلك الفعل فإذا كان الفاعل غير المخاطب بالكلام كانت للتوبيخ، إذ لا طائل في تحضيض المخاطب على فعل غيره، والإتيان بالموصول لما في الصلة من التنبيه على الخطأ والغلط في عبادة الأصنام التي لم تغنِ عنهم شيئًا كقول الشاعر:

إن الذين ترونهم إخوانكم ... يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

(٥) الكلام تضمن التوبيخ للأمم الهالكة على شركهم وعنادهم لرسلهم تعريضًا بقريش المصرة على الخطأ نفسه الذي هلكت به الأمم المجاورة لها لعلهم يتذكرون فيتوبون.

(٦) ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ هذه فذلكة قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ إلخ.. والإشارة إلى ما تضمنه قوله: ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ والافتراء نوع من الكذب كابتكار الأخبار الكاذبة، ويرادف الاختلاق.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

ترتيبها ٤٧ — سُورَةُ مُحَمَّدٍ — آياتها ٣٨

أي كذبهم وافتراؤهم الذي كانوا يعيشون عليه قبل هلاكهم.

هداية الآيات:

١ - بيان أن الإعراض عن دين الله والإصرار على الفسق عن أمر الله، والاستمرار على الخروج على طاعته إذا استوجب صاحبه العذاب ونزل به لم يغن عنه ذكاؤه ولا دهاؤه ولا علمه وحضارته ولا علوه وتطاوله.

٢ - بيان أن الآيات والحجج وضرب الأمثال وسوق العبر والعظات لا تنفع في هداية العبد، إذا لم يرد الله هدايته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ ويحيق به العذاب ويهلكه جزاء تكذيبه وكفره وإعراضه وفسقه.

٣ - بيان غياب الشركاء من الأنداد التي كانت تعبد عن عابديها فضلاً عن نصرتها لهم وذلك الخذلان هو جزاء كذبهم وافترائهم في الحياة الدنيا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٩ ـ ٣٢]

﴿٢٩﴾ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: أي واذكر إذ أملنا إليك نفرًا من الجن جن نصيبين أو نينوى. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾: أي حضروا سماع القرآن قالوا أي بعضهم لبعض أصغوا لاستماع القرآن. ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾: أي فرغ من قراءته رجعوا إلى قومهم مخوفين لهم من العذاب.

﴿٣٠﴾ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي من العقائد في الشرائع والإسلام.

﴿٣١﴾ ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي ويحفظكم هو عذاب يوم القيامة.

﴿٣١﴾ ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي فليس بمعجز الله هربًا منه فيفوته. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي الذين لم يجيبوا داعي الله وهو محمد ﷺ إلى الإيمان. أي في ضلال عن طريق الإسعاد والكمال ظاهر بيّن.

معنى الآيات:

ما زال السياق في طلب هداية قوم النبي ﷺ إنه بعد أن ذكّرهم بعاد وما أصابها من دمار وهلاك نتيجة شركها وكفرها وإصرارها على ذلك فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ إلى آخر الآيات ذكرهم هنا بما هو تقريع لهم وتوبيخ إذ أراهم أن الجن خير منهم لسرعة استجابتهم للدعوة والقيام بتبليغها فقال تعالى:

﴿٢٩﴾ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ[1] إِلَيْكَ نَفَرًا[2] مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي اذكر لقومك من كفار مكة وغيرها إذ صرفنا إليك نفرًا من الجن وهم عدد ما بين السبعة إلى التسعة من جن نصيبين وكانوا من أشراف الجن وسادتهم صرفناهم إليك أي أملناهم إليك وأنت تقرأ في صلاة الصبح ببطن نخلة بين مكة والطائف صرفناهم إليك يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا[3]، أي أصغوا واستمعوا ولا تشوشوا، قاله بعضهم لبعض، فلما قضي، أي القرآن فرغ منه، ولّوا إلى قومهم، أي رجعوا إلى قومهم من الجن بنصيبين ونينوى

(١) الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وإن طلبت المناسبة بين هذه الآيات وما تقدمها في السورة فهي قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

(٢) النفر: العدد دون العشرين.

(٣) (أنصتوا) أمر بتوجيه الأسماع إلى الكلام اهتمامًا به لئلا يفوت منه شيء وفي الحديث: أن النبي ﷺ أمر جابرًا في حجة الوداع فقال له: «**استنصت الناس**» قبل أن يبدأ خطبته ﷺ.

منذرين إياهم أي مخوفينهم من عذاب الله إذا استمروا على الشرك والمعاصي فماذا قالوا لهم، قالوا ما أخبر تعالى به عنهم.

(٣٠) قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ[1] إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾[2] وهو القرآن مصدقًا لما بين يديه، أي من الكتب الإلهية التي سبق نزولها كصحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل، ووصفوا القرآن بما يلي يهدي إلى الحق والصواب في كل شيء اختلف فيه الناس من العقائد والديانات و والأحكام، ويهدي إلى صراط مستقيم، أي طريق قاصد غير جور ألا وهو الإسلام دين الأنبياء عامة.

(٣١) وقالوا مبلغين منذرين: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾[3] وهو محمد رسول الله ﷺ ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أجيبوه إلى ما يدعو إليه من توحيد الله وطاعته وآمنوا بعموم رسالته وبكل ما جاء به من الهدى ودين الحق ويكون جزاؤكم على ذلك أن ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يغفر لكم الذنوب التي بينكم وبين الله تعالى بسترها عليكم ولا يؤاخذكم بها، وأما الذنوب التي بينكم وبين بعضكم بعضًا فإنها لا تغفر إلا من قبل المظلوم نفسه باستسماحه أو ردّ الحق إليه، وقوله: ويجركم[4] من عذاب أليم، أي ويحفظكم منقذًا لكم من عذاب أليم، أي ذي ألم موجع وهو عذاب النار.

(٣٢) ثم قالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ أي لم يستجب لنداء محمد فيؤمن به ويوحد الله تعالى فليس بمعجز في الأرض أي لله بل الله غالب على أمره ومهما حاول الهرب فإن الله مدركه لا محالة ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ يتولون أمره ولا أنصار ينصرونه. قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي المذكورون في هذا السياق ممن لم يجيبوا داعي الله محمد ﷺ ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في عمى وغواية بين أمرهم واضح لا يستره شيء.

هداية الآيات:

١ - إثبات عالم الجن وتقريره في هذا السياق ولذا كان إنكار الجن كإنكار الملائكة كفرًا.

٢ - وجوب التأدب عند تلاوة القرآن بالإصغاء التام.

٣ - وجوب البلاغ عن رسول الله ﷺ وفي الحديث: «**بلغوا عني ولو آية**».

٤ - الإعراض عن دين الله يوجب الخذلان والحرمان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ - ٣٥]

(٣٣) ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾: أي لم يتعب ولم ينصب لخلق السموات والأرض.

﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ﴾: أي أنه قادر على إحياء الموتى وإخراجهم أحياء من قبورهم للحشر.

(٣٤) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أي ليعذبوا فيها. ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾: أي يقال لهم تقريعًا: أليس هذا أي العذاب بحق؟. ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾: أي إنه لحق وربنا حلفوا بالله تأكيدًا لخبرهم.

(٣٥) ﴿فَٱصْبِرْ﴾: أي يا رسولنا محمد على أذى قومك. ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾: أي أصحاب الحزم والصبر والعزم وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم وهم أصحاب الشرائع. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾: أي ولا تستعجل نزول العذاب لأجلهم. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾: أي

---

(١) جملة: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ﴾ إلخ.. مبينة لقوله تعالى: ﴿مُّنذِرِينَ﴾.

(٢) ظاهر الآية أنهم كانوا يهودًا مؤمنين بموسى ولم يكونوا على دين عيسى عليه السلام.

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: استجاب لهم سبعون رجلاً من قومهم فأتوا النبي ﷺ فوافقوه بالبطحاء «مكة» فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم.

(٤) اختلف في: هل مؤمنو الجن يدخلون الجنة أو لا؟ فذهب أبو حنيفة والحسن البصري قبله إلى أن ثوابهم أن ينجوا من النار فقط ثم يكونون ترابًا كسائر الحيوان، وذهب مالك والشافعي وغيرهما إلى أنهم يدخلون الجنة، وحجة المانعين من دخولهم الجنة هذه الآية ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ودليل من قال بدخولهم الجنة قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾.

فـي الآخـرة. ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً﴾: أي لم يقيموا في الدنيا إلا ساعة من نهار وذلك لطول العذاب. ﴿بَلَٰغٌ﴾: أي هذا القرآن بلاغ للناس أي تبليغ لـهـم. ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: أي ما يهلك إلا القوم التاركون لأمر الله المعرضون عنه الخارجون عن طاعته.

معنى الآيات:

(٣٣) ما زال السياق في مطلب هداية قريش الكافرة بالتوحيد المكذبة بالبعث والنبوة فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي أعموا ﴿أَوَلَمْ[1] يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إنشاءًا وإبداعًا من غير مثال سابق ﴿وَلَمْ يَعْىَ﴾[2] أي ينصب ويتعب ﴿بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي السموات والأرض بقادر على أن يحيي الموتى لحشرهم إليه ومحاسبتهم ومجازاتهم بحسب أعمالهم في الدنيا الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٣٤) وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ[3] ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ لما أثبت البعث وقرره ذكر بعض ما يكون فيه فقال: ويوم يعرض الذين كفروا على النار، أي تعرضهم الزبانية على النار فيقولون لهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾[4]؟ أي أليس هذا التعذيب بحق؟ فيقولون مقسمين على ثبوته بما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فلما اعترفوا قيل لهم: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفركم أي جحودكم لتوحيد الله ولقائه. ثم أمر تعالى رسوله أن يتذرَّع بالصبر وأن يتمثل صبر أولي[5] العزم ليكون أقوى منهم صبرًا كما هو أعلى منهم درجة فقال له:

(٣٥) ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا رسولنا على ما تلاقي من أذى قومك من تكذيب وأذى فاثبت لذلك كما ثبت أولوا العزم من قبلك، والظاهر أنهم المذكورون في قوله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، ومن الجائز أن يكون عدد أولي العزم أكثر مما ذُكر، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ لما أمره بالصبر نهاه عن استعجال العذاب لقومه فقال: فاصبر ولا تستعجل العذاب لهم. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[6] تعليل لعدم استعجال العذاب لأنه قريب جدًا حتى إنهم يوم ينزل بهم ويرونه كأنهم لم يلبثوا في الدنيا على طول الحياة فيها إلا ساعة من نهار. وقوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي هذا القرآن وما حواه من تعليم وبيان للهدى تبليغ للناس، وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[7] ينفي تعالى هلاك غير الفاسقين عن أوامره الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله ﷺ.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - الكفر هو الموجب للنار والكفر هو تكذيب بوجود الله تعالى وهو الإلحاد أو تكذيب بلقائه تعالى أو بآياته أو رسله، أو شرائعه بعضًا أو كُلاً.

٣ - وجوب الصبر على الطاعات

---

(١) الاستفهام إنكاري، وجوابه قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٢) عيي كرضي ويعي كيرضى وهو: العجز في الحيلة والرأي وأما الإعياء بمعنى التعب ففعله: أعيا يعيى إعياء إذا تعب، وجائز أن يكون عيي بمعنى نصب وتعب.

(٣) أظهر في موضع الإضمار للإشارة إلى علة الحكم وهي: الكفر تحذيرًا منه.

(٤) الاستفهام تقريري وتنديم على ما كانوا يزعمونه من الباطل، وإقسامهم بقولهم: ﴿وَرَبِّنَا﴾ من باب التحنن والتخضع تلمسًا العفو وعدم المؤاخذة.

(٥) العزم: نية محققة على عمل أو قول دون تردد، والمحمود منه ما كان في امتثال أوامر الله ورسوله ﷺ واجتناب نواهيهما، ودونه ما كان فيما يجلب خيرًا ويدفع شرًا.

(٦) ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ وصف لساعة، وكونها من نهار إشارة إلى قلتها وعدم طولها بخلاف ساعة الليل فإنها تُرى طويلة. و﴿بَلَٰغٌ﴾ خبر، والمبتدأ محذوف تقديره: هذا بلاغ.

(٧) ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ الاستفهام للنفي ولذا صحّ الاستثناء منه، و(أل) في ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ للجنس ليشمل كل من فسق، والفسق: الخروج عن طاعة الله والرسول ﷺ بالإصرار على الشرك والكفر.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

٥٠٧

فعلاً، وعن المعاصي تركًا، وعلى البلاء بعدم التضجُّر والسّخط.

٤ - إطلاق الفسق على الكفر باعتباره خروجًا عن طاعة الله فيما يأمر به من العقائد والعبادات وينهى عنه من الشرك والمعاصي.

❁ ❁ ❁

سورة محمد ﷺ[1]
أو القتال
مدنية
وآياتها ثمان وثلاثون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٣]

﴿١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي كفروا بتوحيد الله ولقائه وبآياته ورسوله وصدوا غيرهم عن الدخول في الإسلام. ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أي أحبط أعمالهم الخيرية كإطعام الطعام وصلة الأرحام فلا يرى لها أثَرٌ يوم القيامة.

﴿٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي آمنوا بالله وآياته ورسوله ولقائه وأدوا الفرائض واجتنبوا النواهي. ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾: أي بالقرآن الكريم. ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: أي محا عنهم ذنوبهم وغفرها لهم. ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾: أي شأنهم وحالهم فهم لا يعصون الله تعالى.

﴿٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي إضلال أعمال الكافرين وتكفير سيئات المؤمنين. ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾: أي الشيطان في كل ما يمليه عليهم ويزينه لهم من الكفر. والشرك والمعاصي. ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾: أي التوحيد والعمل الصالح. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾: أي كما بيّن تعالى حال الكافرين، وحال المؤمنين في هذه الآية يبين للناس أمثالهم ليعتبروا.

معنى الآيات:

﴿١﴾ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ[2] كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[3] هذه جملة خبريّة أخبر تعالى فيها عن حال من كفر بالله ورسوله وصدّ عن سبيل الله أي الإسلام غيره من الناس أضل الله عمله[4] فأحبطه فلم يحصل له ثواب في الآخرة، ولازمه أنه هالك في النار، وتكون هذه الجملة كأنها جواب لسؤال نشأ عن قوله تعالى في خاتمة سورة الأحقاف قبل هذه السورة وهي: فهل يُهلك إلاّ القوم الفاسقون، أي ما يهلك إلاّ القوم الفاسقون فقال قائل: من هم الفاسقون؟ فكان الجواب: الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وهو وجه ارتباط بين السورتين حسن.

﴿٢﴾ هذا وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) تسميتها بسورة محمد ﷺ أكثر وأشهر في كتب التفسير والحديث معًا.

(٢) الكفر: الإشراك بالله والصد عن سبيل الله، هو صرف الناس عن اتباع النبي ﷺ، والدخول في الإسلام، ويدخل فيه الصد عن المسجد الحرام للاعتمار والحج.

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في المطعمين ببدر وهم اثني عشر رجلاً: أبو جهل والحارث بن هشام وذكرهم، وهم الذين أطعموا الناس يوم بدر ليثبتوا على القتال ولا يفروا، أبطل أعمالهم لعلة شركهم وكفرهم والآية عامة في كل كافر وما بعدها في كل مؤمن.

(٤) أصل الإضلال: الخطأ عن الطريق، ولما كان المطعمون عملوا عملاً ظنوا أنه خير لهم ونافع، فلما أبطله الله تعالى عليهم فلم ينتفعوا به كانوا كمن ضلّ طريقه فشقى وهلك.

﴿ءَامَنُوا﴾ أي[1] بالله ورسوله وآياته ولقائه وعملوا الصالحات أي أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاموا رمضان وحجوا البيت الحرام ووصلوا الأرحام وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولو بالاستعداد للقيام بذلك إذ بعض هذه الصالحات لم يشرع بعد وآمنوا بما نزل على محمد ﷺ وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة لأنها وحي إلهي يتلقاه رسول الله ﷺ وفي صحيح الحديث **«ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه»** وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي القرآن لأنه ناسخ للكتب قبله ولا ينسخ بكتاب بعده. فهو الحق الثابت الباقي إلى نهاية الحياة. وقوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي محا عنهم ذنوبهم وأصلح بالهم[2] أي شأنهم وحالهم فلم يفسدوا بعد بشرك ولا كفر هذا جزاؤهم على إيمانهم وصالح أعمالهم.

(٣) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا[3] اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ وهو الشيطان وما يزينه من أعمال الشرك والشر والفساد، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهو القرآن وما جاء به ودعا إليه من العقائد الصحيحة والعبادات المزكية للنفس المهذبة للأرواح. أي ذلك الجزاء للذين كفروا والذين آمنوا بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ[4] اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي مثل هذا التبيين لحال الكافرين وحال المؤمنين في هذه الآيات يبيّن الله للناس أمثالهم أي أحوالهم بالخسران والنجاح ليعتبروا فيسلكوا سبيل النجاح، ويتجنبوا سبيل الخسران؛ فضلاً منه تعالى.

هداية الآيات:

١ - بيان طريقي الفلاح والخسران فطريق الفلاح الإيمان والعمل الصالح، وطريق الخسران الشرك والمعاصي.

٢ - بيان أن أعمال البر مع الكفر والشرك لا تنفع صاحبها يوم القيامة ولا تشفع له وقد يثاب عليها في الدنيا فيبارك له في ماله وولده.

٣ - بيان الحكمة في ضرب الأمثال وهي هداية الناس إلى ما يُفلحون به، فينجون من النار ويدخلون الجنة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤ - ٩]

(٤) ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي إذا كان الأمر كما ذُكر فإذا لقيتم الذين كفروا في ساحة المعركة فاضربوا رقابهم ضربًا شديدًا تفصلون فيه الرقاب عن الأبدان. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾: أي أكثرتم فيهم القتل ولم يصبح لهم أمل في الانتصار عليكم. ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾: أي فأسروهم بدل قتلهم وشدوا الوثاق أي ما يوثق به الأسير من إسار قِدًّا كان أو حبلاً حتى لا يتفلتوا ويهربوا. ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[5]: أي بعد أسركم لهم وشد وثاقهم فإما أن تمنوا منًا أي تفكوهم من الأسر مجانًا، وإما تفادونهم بمال أو أسير مسلم، وهذا بعد نهاية المعركة. ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: أي واصلوا القتال والأخذ والأسر إلى أن تضع الحرب أوزارها وهي آلاتها وذلك عند إسلام الكفار أو دخولهم في عهدكم فهذه غاية انتهاء الحرب حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي الأمر ذلك الذي علمتم من استمرار القتال إلى غاية إسلام الكفار أو دخولهم في عهدكم

---

(١) هذه فئة المؤمنين المقابلة لفئة الكافرين ذكر لها ثلاث صفات كما لتلك ثلاث صفات وهي: الإيمان المقابل للكفر، والإيمان بما نزل على محمد ﷺ المقابلة للصد عن سبيل الله، وعمل الصالحات المقابلة لما فعله المطعمون من الطعام.

(٢) البال: يطلق على القلب وعلى العقل، وعلى ما يخطر للمرء من التفكير وهو أكثر إطلاقه ولعله حقيقة فيه، ومجاز في غيره، ويطلق أيضًا على الحال والشأن، والقدر لحديث: **«كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أبتر»**.

(٣) هذا تبيين للسبب الأصلي في إضلال أعمال الكافرين وإصلاح بال المؤمنين، والباء بأن: سببية، واسم الإشارة مبتدأ والخبر: قوله: ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ..﴾ إلخ.. والإشارة إلى ما تقدم من الخبرين ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ و﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

(٤) هذه الجملة تذييل لما سبق من بيان حال كل من الكافرين والمؤمنين و﴿يَضْرِبُ﴾ بمعنى يلقي مبينًا، والأمثال: جمع مثل وهو: الحال التي تمثل صاحبها أي: تشهره للناس وتعرفهم به فلا يلتبس بنظائره.

(٥) ﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَاءً﴾ منصوبان عل المفعولية المطلقة أي: تمنون منًا وإما تفدون فداء.

وذمتكم. ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾: أي بغير قتال منكم كأن يخسف بهم الأرض أو يصيبهم بوباء ونحوه. ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾: ولكن أمركم بالقتال وشرعه لكم لحكمة هي أن يبلو بعضكم ببعض أي يختبركم من يقاتل منكم ومن لا يقاتل، والمؤمن يُقتل فيدخل الجنة والكافر يُقتل فيدخل النار. ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]: أي قتلهم العدو، وقرىء قاتلوا في سبيل الله. ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي لا يحبطها ولا يبطلها.

(٥) ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾: أي سيوفقهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ويصلح شأنهم.

(٦) ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾: أي ويدخلهم يوم القيامة الجنة بيّنها لهم فعرفوها بما وصفها لهم في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

(٧) ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾: أي في دينه ورسوله وعباده المؤمنين. ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾: أي على عدوكم ويثبت أقدامكم في المعارك.

(٨) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾: أي تعسوا تعسًا أي هلاكًا وخيبة لهم. ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي أحبطها وأبطلها فلم يحصلوا بها على طائل.

(٩) ﴿ذَلِكَ﴾: أي الضلال والتعس. ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾: أي من القرآن المشتمل على أنواع الهدايات والإصلاحات. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي أبطلها وأضلها فلا ينتفعون بها لا في الدنيا ولا في الآخرة.

معنى الآيات:

(٤) لقد تقدم أن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد أضل أعمالهم وذلك لكفرهم وصدهم عن سبيل الله إذا كان الأمر كذلك فليقاتلوا لإنهاء كل من المفسدتين كفرهم وصدهم غيرهم عن الإسلام وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ[2] الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ[3]﴾ أي فاضربوا رقابهم ضربًا يفصل الرأس عن الجسد وواصلوا قتالهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي أكثرتم فيهم القتل، ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾[4] أي احكموا ربط الأسرى بوضع الوثاق وهو الحبل في أيديهم وأرجلهم حتى لا يتمكنوا من قتلكم ولا الهرب منكم وبعد ذلك أنتم وما يراه إمامكم من المصلحة العليا فإن رأى المن فمنوا عليهم مجانًا بلا مقابل، وإما تفادونهم فداء بمال، أو برجال، وستظل تلك حالكم قتل وأخذ وأسر ثم من وعفو مجاني، أو فداء بعوض ومقابل إلى أن تضع الحرب أوزارها أي أثقالها من عُدد وعتاد حربي، وذلك لوصولكم إلى الغاية من الحرب وهي أن يسلم الكافر، أو يدخل في ذمة المسلمين، وهو معنى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر الذي علمتم من استمرار القتل والأسر إلى أن تضع الحرب أوزارها[5] بالدخول في[6] الإسلام أو في ذمة المسلمين، وقوله: ولو شاء الله لانتصر منهم، أي بدون قتالٍ منكم ولكن بخسف أو وباء أو صواعق من السماء ولكن لم يفعل ذلك من أجل أن يَبْلُوَ بعضكم ببعض أي ليختبركم بهم. فيعلم المجاهدين

---

(١) قرأ نافع ﴿قاتلوا﴾ بالبناء للفاعل، وقرأ حفص ﴿قُتِلُوا﴾ بالبناء للمفعول.

(٢) الفاء للتفريع أي: تفريع هذا الكلام على ما قبله، والمقصود تهوين شأن الكافرين في قلوب المسلمين، وإغراء المسلمين بقطع دابر الكافرين و(إذا) ظرفية شرطية وجوابها ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ واللقاء معناه المقابلة في ساحة الحرب.

(٣) ﴿فَضَرْبَ﴾ نصب ضرب على المفعولية المطلقة أي: فاضربوا الرقاب ضربًا، والجملة كناية عن قتل المشركين في ساحة المعركة سواء كان الضرب بالسيف أو الرمح أو السهام، فصارت هذه الجملة لما تحمله من معاني الأخذ بالشدة كأنها مثل سائر.

(٤) ﴿الْوَثَاقَ﴾ بفتح الواو، ويجوز كسرها: الشيء الذي يوثق به وهو كناية عن الأسر إذ الأسر يستلزم وضع الإسار في يد الأسير ليقاد به.

(٥) الأوزار: جمع وزر كحمل وأحمال، والمراد بها الأثقال من العتاد الحربي وهي كناية عن انتهاء الحرب بنصر الإسلام والمسلمين.

(٦) اختلف في: هل هذه الآية منسوخة أو محكمة والصحيح أنها محكمة وأن الإمام مخير بين القتل والأسر والفداء والمن ولكن لا بد من النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين فنظر الحاكم يكون محققًا للمصلحة العامة.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

٥٠٨

منكم والصابرين، ويبلوهم بكم فيعاقب من شاء منهم بأيديكم، ويتوب على من يشاء منهم كذلك، إذ انتصاركم عليهم ووقوعهم تحت سلطانكم يساعدهم على التوبة إلى الله والرجوع إلى الحق فيسلموا فيفلحوا بالنجاة من النار ودخول الجنة، وقوله تعالى: (والذين قاتلوا في سبيل الله) وفي قراءة[1]: والذين قُتلوا في سبيل الله، وهذه عامة في شهداء أحد وغيرهم وإن نزلت الآية فيهم فإن الله تعالى يخبر عن إنعامه عليهم بقوله: فلن يضل أعمالهم.

﴿٥﴾ - ﴿٦﴾ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الدنيا ويوفقهم إلى كل خير ﴿وَيُصْلِحُ﴾ شأنهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ﴾ في الآخرة ﴿ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[2]، أي بيّنها لهم في كتابه ولسان رسوله وطيّبها لهم أيضًا، وفي الآخرة يهديهم إلى منازلهم في الجنة كما قال الرسول ﷺ: «**فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة من منزله الذي كان في الدنيا**» «البخاري».

﴿٧﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ أي: يا من آمنتم بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً إن تنصروا الله بنصر دينه ونبيّه وأوليائه بقتال أعدائه ينصركم الله ويجعل الغلبة لكم، ويثبت أقدامكم في كل معترك لقيتم فيه المشركين والكافرين. وهذا وعد من الله تعالى كم أنجزه لعباده المؤمنين في تاريخ الجهاد في سبيل الله.

﴿٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا[3] لَّهُمْ﴾ أي تعسوا تعسًا[4] وهلكوا هلاكًا وخابوا وخسروا، وأضل أعمالهم فلم يعثروا عليها ولم يروا لها أدنى فائدة ذلك الجزاء وتلك العقوبة بأنهم.

﴿٩﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي من القرآن من آيات التوحيد والشرائع والأحكام فأحبط، أي لذلك أعمالهم فخسروا في الحياتين.

هداية الآيات:

١ - وجوب الجهاد على أمة الإسلام ومواصلته كما بيّن تعالى في هذه الآيات إلى أن لا يبقى كافر يحارب بأن يدخلوا في الإسلام أو يعاهدوا ويدخلوا في ذمة المسلمين ويقبلوا على إصلاح أنفسهم وإعدادها للخير والفلاح.

٢ - إمام المسلمين مخير في الأسرى بين المنّ والفداء، والقتل أيضًا لأدلة من السنة.

٣ - بشرى المجاهدين في سبيل الله بإكرام الله لهم وإنعامه عليهم في الدنيا والآخرة.

٤ - يظفر بالنصر الحقيقي من نصر الله تعالى في دينه وأوليائه.

٥ - إنذار الكافرين بالتعاسة والشقاء في الدنيا والآخرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ - ١٤]

﴿١٠﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

---

(١) ﴿قاتلوا﴾ قراءة نافع و﴿قُتِلُوا۟﴾ قراءة حفص كما تقدم في النهر قريبًا.

(٢) قال ابن عباس ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي طيّبها لهم بأنواع الملاذ مأخوذ من العرف بفتح العين: الرائحة الطيبة.

(٣) التعس: الشقاء، ويطلق على الهلاك والخيبة والسقوط والانحطاط.

(٤) ﴿فَتَعْسًا﴾ منصوب على المفعولية المطلقة كما في التفسير ويجوز أن يكون مستعملاً في الدعاء عليهم لقصد التحقير والتفظيع لشأنهم وهو مثل سقيًا ورعيًا له وتبًا له وويحًا له، وإن كان هذا فإنه يتعين تقدير قول محذوف أي: فقال الله: تعسًا لهم. كقول أم مسطح: تعس مسطح دعاء عليه.

أي أغفل هؤلاء المشركون فلم يسيروا في البلاد. ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي كيف كانت نهاية الذين من قبلهم كعاد وثمود. ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾: أي دمر عليهم مساكنهم فأهلكهم وأولادهم وأموالهم وللكافرين أمثال تلك العاقبة السيئة.

(١١) ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾: أي لا ناصر لهم.

(١٢) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾: أي بمُتع الدنيا من مطاعم ومشارب وملابس ويأكلون. ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾: أي كأكل الأنعام بنهم وازدراد والنار مأواهم.

(١٣) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾: أي وكثير من أهل قرية هي أشد قوة. ﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾: أي مكة إذ أخرج أهلها النبي ﷺ.

(١٤) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾: أي على حجة وبرهان من أمر دينه فهو يعبد الله على علم. ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾: أي كمن زين الشيطان له سوء عمله. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾: أي واتبعوا أهواءهم في عبادة الأصنام والجواب ليسوا سواء ولا مماثلة بينهما أبدًا.

معنى الآيات:

(١٠) قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[1] يوبخ تعالى المشركين المصرين على الشرك والكفر على إصرارهم على الشرك والعناد فيقول أغفلوا ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ كعاد وثمود وقوم لوط إذ دمر تعالى عليهم بلادهم فأهلكهم وأولادهم وأموالهم فيعتبروا بذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ أمثال تلك العاقبة المدمّرة، وعيد لكفار مكة بأن ينزل عليهم عقوبة كعقوبة الأولين إن لم يتوبوا من شركهم وإصرارهم عليه، وعنادهم فيه.

(١١) وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾[2] أي نصر المؤمنين وقهر الكافرين بسبب أن الله مولى الذين آمنوا، أي وليهم ومتولي أمرهم وناصرهم. وأن الكافرين لا مولى لهم لأن الله تعالى خاذلهم ومن يخذله الله فلا ناصر له.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ[3] الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذا وعد من الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح بأن يدخلهم يوم القيامة جنات أي بساتين تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا بملاذها وشهواتها، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ إذ ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم، ولذا هم لا يلتفتون إلى الآخرة. ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى[4] لَّهُمْ﴾ أي مقام ومنزل ومصير، وهذا وعيد شديد للكافرين. وهذا هو الترغيب والترهيب الذي هو سمة بارزة في أسلوب القرآن في الهداية البشرية.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن[5] مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ[6] أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ هذه الآية نزلت ساعة خروج الرسول ﷺ من بيته إلى غار ثور مهاجرًا فقد التفت إلى مكة وقال:

---

(١) الفاء للتفريع، تفريع هذه الجملة الكلامية على الجملة السابقة وهي: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ والاستفهام للتقرير التوبيخي.

(٢) جائز أن يكون اسم الإشارة منصرفًا إلى مضمون قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ فيفيد أن ما أصاب المشركين من الدمار والخزي والعار بسبب أن الله ناصر الذين آمنوا وما في التفسير في غاية الوضوح.

(٣) كلام مستأنف استئنافًا بيانيًا، إذ هو بمثابة جواب لمن سأل عن حال المؤمنين في الآخرة وحال الكافرين في الدنيا، أما في الآخرة فالأمر معلوم وهو أنهم أصحاب النار هم فيها خالدون إذ بيّن تعالى حال المؤمنين في الآخرة، وحال الكافرين في الدنيا.

(٤) المثوى: مكان الثواء، الذي هو الاستقرار، وشاهده قول الشاعر:

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاوٍ يُملّ منه الثواء

(٥) ﴿وَكَأَيِّن﴾ تدل بوضعها على كثرة العدد مثل كم والمراد بالقرية أهلها بدليل أهلكناهم إذ لم يقل: أهلكناها، والمراد بالقرية هنا: مكة أمّ القرى وأضيفت إلى النبي ﷺ تشريفًا لها زيادة على شرفها إذ هي بلد الله الأمين.

(٦) أطلق الإخراج على ما عامل به المشركون الرسول ﷺ من الجفاء والأذى ومحاربة نشر الدعوة فكان ذلك سبب خروجه منها، فأطلق الإخراج على مسبباته، وإلا فالرسول ﷺ خرج باختياره ولم يكرهه المشركون على الخروج بل كانوا يحاولون منعه من الخروج.

أنت أحب البلاد إلى الله وأحب بلاد الله إليَّ ولو أن المشركين لم يُخرجوني لم أخرج منك. ومعنى الآية الكريمة: وكثير من القرى أهلها أشد قوة من أهل قريتك «مكة» التي أخرجك أهلها حيث حكموا بإعدامه ﷺ أهلكناهم أي أهل تلك القرى فلا ناصر وجد لهم عند إهلاكنا لهم. فكانت هذه الآية تحمل تسلية لرسول الله ﷺ وأي تسلية!!

(١٤) وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي على علم وبرهان من صحة معتقده وعبادته لله تعالى راجيًا ثوابه خائفًا من عقابه وهؤلاء هم المؤمنون، كمن زين له سوء أي قبيح عمله من الشرك والكفر فهو يعبد الأصنام، واتبعوا أهواءهم في ذلك فلم يتبعوا وحيًا إلهيًا ولا عقلاً إنسانيًا فهل حالهم كحال من ذُكروا قبلهم والجواب لا يتماثلان إذ بينهما من الفوارق كما بين الحياة والموت، والجنة والنار.

هداية الآيات:

١ - تقرير قاعدة: العاقل من اعتبر بغيره.

٢ - تقرير ولاية الله لأهل الإيمان والتقوى.

٣ - بيان الفرق بين الماديين وأهل الإيمان والاستقامة على نهج الإسلام.

٤ - تسلية الرسول ﷺ تخفيفًا من آلامه التي يعانيها من إعراض المشركين وصدوفهم عن الإسلام.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥]

(١٥) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: أي صفة الجنة دار السلام التي وعد الله بها عباده المتقين له.

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: أي غير متغيّر الريح والطعم لطول مكثه.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾: أي من الشمع وفضلات النحل.

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾: أي حارًا شديد الحرارة.

﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾: أي مصارينهم فخرجت من أدبارهم.

معنى الآية:

(١٥) قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى[1] وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ هذه الآية الكريمة تضمنت شرحًا وافيًا لأنهار الجنة، وشراب أهل النار، كما اشتملت على مقارنة بين حال أهل الإيمان والتقوى وما وعدوا به من مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنة، وبين حال أهل النار وهم خالدون فيها وما وعدوا فيها من ألوان العذاب الشديد، فقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي صفتها الممثلة لها الشارحة لحالها التي وَعد المتقون أي التي وَعد الله تعالى بها عباده المتقين له وهم أولياؤه الذين عبدوه ووحّدوه فأطاعوه في الأمر والنهي فاتقوا بذلك الشرك والمعاصي. فيها أنهار من ماء غير آسن[2]، أي غير متغير الطعم ولا الريح بطول المكث وأنهار من لبن لم يتغير طعمه أي بحموضة ولم يصر قارصًا ولذلك لم يتغير ريحه أيضًا، وأنهار من خمرة لذة للشاربين[3]، أي وفيها أنهار من خمر هي لذة لمن يشربها وسبب لذاذتها أنها غير كدرة ولا مسكرة ولا ريح غير طيبة لها، وأنها من عسل مصفى، أي وفيها أنهار من عسل مصفى، أي من الشمع وفضلات النحل، وقوله: ولهم فيها من كل الثمرات، أي من سائر أنواع الثمار من فواكه وغيرها. ومع ذلك مغفرة من ربهم لسائر ذنوبهم فهل يستوي من هذه حالهم بحال من هو خالد في النار لا يخرج منها وسقوا ماءً حميمًا حارًا شديد الحرارة فلما سقوه وشربوه قطّع أمعاءهم[4]، أي مصارينهم، فخرجت من أدبارهم والعياذ بالله من النار وحال أهل النار، اللهم أجرنا من النار اللهم أجرنا من النار اللهم أجرنا من النار.

---

(١) هذه الآية مستأنفة استئنافًا بيانيًا إذ فيها بيان لما قد يسأل عنه السائل، ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ والخبر محذوف يقدّر بمثل، مما سيوصف لكم أو ما سيتلى عليكم أو مما يتلى عليكم مثل الجنة وجملة: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ بدل مفصل من مجمل.

(٢) أسن الماء: كضرب يأسن، وكنصر وفرح أيضًا فهو آسن: إذا تغير لونه.

(٣) اللذة: وصف وليست اسمًا وهي تأنيث اللذ أي اللذيذ قال الشاعر:

ذكرت شبابي اللذ غير قريب ... ومجلس لهو طاب بين شروب

واللذاذة انفعال نفساني.

(٤) الأمعاء: جمع مِعى بكسر الميم وقد تفتح وهو ما ينتقل إليه الطعام بعد نزوله من المعدة، ويسمى عفج بوزن كتف.

هداية الآية:

١ ـ التقوى هي السبب المورث للجنة هكذا جعلها الله عز وجل، والتقوى هي بعد الإيمان فعل المأمورات وترك المنهيات من سائر أنواع الشرك والمعاصي.

٢ ـ بيان بعض نعيم الجنة من الشراب والفواكه.

٣ ـ بيان بعض عذاب النار وهو الخلود فيها وشرب الحميم.

٤ ـ تقرير البعث والجزاء، وأن لا مماثلة بين أهل السعادة وأهل الشقاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ ـ ١٩]

(١٦) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: أي ومن الكفار المنافقين من يستمع إليك في خطبة الجمعة. ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾: أي الساعة أي استهزاء منهم وسخرية يعنون أنه شيء لا يُرجع إليه ولا يعتد به لعدم فائدته. ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي بالكفر فلذا هم لا يعون. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ﴾: أي في الكفر والنفاق.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا﴾: أي المؤمنون. ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾: أي زادهم الله هدى. ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾: أي ألهمهم ما يتقون به عذاب الله تعالى.

(١٨) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾: أي ما ينتظر أهل مكة إلاّ الساعة. ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾: أي فجأة. ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾: أي علاماتها كبعثة النبي ﷺ وانشقاق القمر والدخان. ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾: أي أنى لهم إذا جاءتهم التذكر الذي ينفعهم إذ قد أُغلق باب التوبة.

(١٩) ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: أي فبناء على ما تقدم لك يا نبيّنا فاعلم أنه لا يستحق العبودية إلا الله فاعبده وتوكل عليه. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾: أي قل أستغفر الله أو اللهم اغفر لي. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: أي واستغفر للمؤمنين والمؤمنات. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: أي متصرفكم في النهار وأنتم تتصرفون في أمور دنياكم. ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾: أي مكان ثواكم وإقامتكم ونومكم بالليل.

معنى الآيات:

(١٦) قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ﴾ إلى هذه الآية (١٦) والآية التي بعدها مدنيّتان لا شك لأنهما نزلتا في شأن المنافقين. قال تعالى مخبرًا رسوله عن بعض المنافقين: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي ومن بعض المنافقين ﴿مَّن يَسْتَمِعُ[1] إِلَيْكَ﴾ أي إلى حديثك يوم الجمعة وأنت تخطب الناس على المنبر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ أي من المسجد ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾[2] من أصحابك كعبدالله بن مسعود ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾[3]، وقولهم هذا ظاهر عليه الخبث إذ لو كانوا مؤمنين محبين لقالوا ماذا قال رسول الله آنفًا، ولكن قالوا ماذا قال آنفًا، وهم يعنون أن ما قاله الرسول ﷺ ليس بشيء مفيد يرجع إليه. قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ أي البعداء في الشر والنفاق الذين طبع الله على قلوبهم أي بالكفر والنفاق وذلك لكثرة تلوثهم بأوضار الكفر والنفاق حتى ران على قلوبهم ذلك فكان ختمًا وطابعًا على قلوبهم، واتبعوا أهواءهم فهما علتان الأولى الطبع المانع من طلب الهداية، والثانية اتباع الهوى وهو يعمي ويصم، فلذا هم لا يهتدون.

(١٧) وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا﴾ إلى الإيمان الصحيح والعمل الصالح زادهم الله هدى حسب سنته في نماء الأشياء وزكاتها وزيادتها، وآتاهم

---

(١) روي عن مقاتل أن هذه الآية نزلت في عبدالله بن أبيّ ابن سلول ورفاعة بن التابوت والحارث بن عمرو وزيد بن الصلت، ومالك بن الدخشم من المنافقين بالمدينة إلا أن مالك بن الدخشم قد أسلم وحسن إسلامه، والاستماع: السماع ولكن بعناية واهتمام يتظاهرون بذلك نفاقًا لا غير.

(٢) هم نفر من أصحاب الرسول ﷺ منهم: عبدالله بن مسعود، وأبو الدرداء وابن عباس وإن كان يومها صغيرًا فإنه لا مانع أن يسأل ويجيب لما هو مؤهل له من طلب العلم والكمال فيه.

(٣) ﴿ءَانِفًا﴾ أي الآن وهو أقرب الأوقات، وسؤالهم هذا سؤال استهزاء، وآنفًا لم يُسمع إلا ظرفًا هكذا، وقيل: هو مشتق من الأنف لأنه أول ما يظهر من البعير فأطلق على أقرب الوقت. ومنه أمر أنف، ورقة أنف لم تُرع بعد، قال الشاعر:

ويحرم سر جارتهم عليهم ... ويأكل جارهم أنف القصاع

تقواهم[1] أي ألهمهم ما يتقون وأعانهم على ذلك فهم يتقون مساخط الله تعالى ومن أعظمها الشرك والمعاصي.

(١٨) وقوله تعالى في الآية الثالثة من هذا السياق (١٨) فهل ينظرون، أي كفار قريش[2] من زعماء الكفر في مكة إلا الساعة، أي ما ينتظرون إلا الساعة، أي القيامة أن تأتيهم بغتة، أي فجأة إن كانوا ما ينظرون بإيمانهم إلا الساعة فالساعة قد جاء أشراطها وأول أشراطها بعثة محمد ﷺ وثانيها الدخان، وثالثها انشقاق القمر. وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾[3] أي أنى لهم التذكر الذي ينفعهم إذا جاءت الساعة بل شروطها، أي بظهور علاماتها الكبرى[4] لا تقبل التوبة من أحد لم يكن مؤمنًا لقوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾. على كل حال فالآية تستبطىء إيمان كفار مكة وتنكر عليهم تأخر إيمانهم الذي لا داعي له مع ظهور أدلة العقل والنقل ووضوح الحجج والبراهين الدالة على توحيد الله ووجوب عبادته وحده دون من سواه، ولذا قال تعالى:

(١٩) ﴿فَٱعْلَمْ[5] أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ[6] وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي له العبادة وتصلح له إلا الله الذي هو خالق كل شيء ومالكه، واستغفر، أي اطلب من ربك المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات، وهذا الكلام وإن وُجه للرسول ﷺ فالمراد منه على الحقيقة أو بالأصالة غيره ﷺ فكأنما قال تعالى: يا عباد الله أيها الناس والرسول على رأسكم اعلموا أنه لا إله إلا الله واستغفروا لذنوبكم مؤمنين ومؤمنات والله يعلم متقلبكم، أي تصرفكم في النهار في مصالح معاشكم ومعادكم ويعلم مثواكم[7] في فرشكم نائمين فهو يعلمكم على ما أنتم عليه في كل ساعة من ليل أو نهار فاخشوه واتقوه حتى تفوزوا برضاه في جنات النعيم.

هداية الآيات:

١ - من الجائز أن تكون السورة مكية وبها آية أو أكثر مدنيّة.

٢ - التحذير من اتباع الهوى فإنه يعمي ويصم والعياذ بالله.

٣ - بيان أن لقيام الساعة أشراطًا أي[8] علامات تظهر قبلها فتدل على قربها.

٤ - وجوب العلم بأنه لا إله إلا الله، وذلك يتم على الطريقة التالية:

الاعتراف بأن الإنسان مخلوق كسائر المخلوقات حوله، وكل مخلوق لا بد له من خالق فمن خالق الإنسان والكون إذًا؟ والجواب قطعًا: الله. فما دام الله هو الخالق فمن عداه مخلوق مفتقر إلى الله خالقه في حفظ حياته، ومن يُؤله ويُعبد إذًا الخالق أم المخلوق؟ والجواب: الخالق. إذًا تعيّن أنه لا معبود إلا الله وهو معنى لا إله إلا الله ولما كانت العبادة لا تعرف إلا بالوحي وجب الإيمان برسول الله فكان لا بُد من زيادة محمد

---

(١) مما ذكر في هذه الزيادة أنه آتاهم ثواب قواهم في الآخرة وأنه بيّن لهم ما يتقون وأنه وفقهم للأخذ بالعزائم وترك الرخص وما في التفسير أشمل وأوضح.

(٢) يبدو أنه ما هناك حاجة إلى تخصيص كفار قريش بهذا الخطاب وإن كانوا داخلين فيه لأنّ السورة مدنية.

(٣) أي: من أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة.

(٤) في صحيح مسلم عن حذيفة والبراء قالا: كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: «بمَ تتذاكرون؟» قلنا: نتذاكر الساعة. قال: «**إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان ودابة الأرض وخسفًا بالمشرق وخسفًا بالمغرب وخسفًا بجزيرة العرب، والدجال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ونارًا تخرج من عدن**».

(٥) هذه الآية من أدلة وجوب العلم قبل القول والعمل، وهو ما بوّب به البخاري رحمه الله تعالى.

(٦) لا ذنب للرسول ﷺ لعصمته، وإنما هو من باب قوله ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي وإني أستغفر الله في اليوم مائة مرة**» ومعنى يغان: يغام ويغشى، وقيل إنه غين أنوار لا غين أغيار.

(٧) المثوى: المآل والمرجع.

(٨) روى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**بُعثت أنا والساعة كهاتين**» وضم السبابة والوسطى.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾

٥٠٩

رسول الله فنقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ ـ ٢٣]

﴿٢٠﴾ ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾: أي هلاّ نزلت سورة يقول هذا المؤمنون طلبًا للجهاد. ﴿سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾: أي لم ينسخ منها شيء من أوامرها ونواهيها. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾: أي طلب القتال بالدعوة إليه والترغيب فيه. ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي شك وهم المنافقون. ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾: أي خوفًا من القتال وكراهية له فتراهم ينظرون إلى الرسول مثل نظر المغشي عليه من سكرات الموت.

﴿٢٠﴾ ـ ﴿٢١﴾ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: أي فأجدر بهم طاعة لرسول الله وقول معروف حسن له. ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾: أي فرض القتال وجد أمر الخروج إليه. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي وفوا له ما تعهدوا به من أنهم يقاتلون. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: أي الوفاء بما تعهدوا به خيرًا في دنياهم وآخرتهم.

﴿٢٢﴾ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾: أي أعرضتم عن الإيمان الصوري الذي أنتم عليه وأعلنتم عن كفركم. ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾: أي تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي ولا تصلوا أرحامكم.

﴿٢٣﴾ ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾: أي فعل تعالى ذلك بهم فلذا هم لا يسمعون الحق ولا يبصرون الخير والمعروف.

معنى الآيات:

﴿٢٠﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى آخر السورة، ظاهرهُ أنه مدني وليس بمكي وهو كذلك فأغلب آي السورة مدني إذًا، ولا حرج: لأن القتال لم يفرض إلا بعد الهجرة النبوية والنفاق لم يظهر إلا بعد الهجرة كذلك والسياق الآن في علاج النفاق وأمور الجهاد. قال تعالى: ويقول الذين آمنوا من أصحاب رسول الله ﷺ متمنين الجهاد ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ[1] سُورَةٌ﴾ أي هلا أنزل الله سورة قرآنية تأمر بالجهاد. قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ ليس فيها نسخ وذكر فيها القتال، أي الأمر به والترغيب فيه. رأيت يا محمد الذين في قلوبهم مرض، أي مرض الشك والنفاق ينظرون إليك يا رسولنا[2] نظر، أي مثل نظر المغشي، أي المغمى عليه من الموت، أي من سياقات الموت وسكراته. قال تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ هذا اللفظ صالح لأن يكون دعاء عليهم بالهلاك[3]، أي هلاك لهم لجبنهم ونفاقهم وصالح أن يكون بمعنى الأجدر بمثلهم طاعة لله ورسوله ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي حسن لرسول الله ﷺ.

﴿٢١﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ﴾ أي جد الأمر للجهاد فلو صدقوا الله ما عاهدوا عليه من أنهم يقاتلون مع رسوله لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة. ثم قال لهم مخاطبًا إياهم توبيخًا وتقريعًا.

﴿٢٢﴾ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ بكسر السين[4] وفتحها قراءتان ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾

(١) شوقًا إلى الجهاد وما أعد الله من ثواب لأهله، كما هو اشتياق للوحي ونزوله.
(٢) نظر مغمومين مغتاظين بتحديد وتحديق كمن يشخص بصره عند الموت.
(٣) أولى: قال الأصمعي معناه قاربه ما يهلكه.
(٤) قرأ نافع وحده بكسر السين، وفتحها ما عداه حفص وغيره.

أي عن الإيمان الصوري إلى الكفر الظاهر فأعلنتم عن ردتكم ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بفعل الشرك وارتكاب المعاصي ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ بإعلان الحرب على أقربائكم المؤمنين الصادقين. هذا إذ كان التولي بمعنى الرجوع إلى الكفر العلني وإن كان بمعنى الحكم فالأمر كذلك إذا حكموا ليفعلون ما هو أعظم من الشرك والفساد في الأرض وتقطيع الأرحام، وأخيرًا سجلت الآية (٢٢) لعنة الله فقال تعالى:

(٢٣) ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي البعداء في الخسة والحطة ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ فأبعدهم من رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن سماع الحق ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ عن رؤية الهدى والطريق المستقيم.

هداية الآيات:

١ -جواز تمني الخير والأولى أن يسأل الله تعالى ولا يتمنى بلفظ ليت كذا.

٢ -في القرآن محكم ومنسوخ من الآيات وكله كلام الله يُتلى ويتقرب به إلى الله تعالى ويعمل بالمحكم دون المنسوخ وهو قليل جدًا.

٣ -ذم الجبن والخور والهزيمة الروحية.

٤ -شر الخلق من إذا تولى أفسد في الأرض بالشرك والمعاصي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤ ـ ٢٨]

(٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾: أي يتفكرون فيه فيعرفون الحق من الباطل. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾: أي بل على قلوب لهم أقفالها فهم لا يفهمون إن تدبروا.

(٢٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾: أي رجعوا كافرين بنفاقهم. ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾: أو من بعد ما تبين لهم صدق الرسول وصحة دينه بالحجج والبراهين. ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾: أي زين لهم الشيطان نفاقهم وأملى لهم أي واعدهم بطول العمر ومنّاهم.

(٢٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾: أي ذلك الإضلال بسبب قولهم للذين كرهوا ما أنزل الله وهم المشركون. ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾: أي بأن نتعاون معكم على عداوة الرسول وبتثبيط المؤمنين عن الجهاد وكان ذلك سرًا منهم لا جهرة فأظهره الله لرسوله.

(٢٧) ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾: أي بمقامع من حديد يضربون وجوههم وظهورهم. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾: أي التوفي على الحالة المذكورة من الضرب على الوجوه والظهور بسبب اتباعهم ما أسخط الله من الشرك والمعاصي.

﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾: أي ما يرضيه تعالى من التوحيد والعمل الصالح.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي أبطلها فلم يحصلوا منها على ثواب حسن.

معنى الآيات:

(٢٤) ما زال السياق في تأديب المنافقين بعيبهم والإنكار عليهم وتهديدهم لعلهم يرجعون إذ حالهم كحال المشركين في مكة فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ[١] الْقُرْآنَ﴾ أي ما لهم؟ أغفلوا فلم يتدبروا القرآن أي يتفركوا فيه فيعرفوا الحق من الباطل والهدى[٢] من الضلال لأن القرآن نزل لبيان ذلك. أم على قلوب أقفالها[٣]، أي بل على قلوب لهم أقفالها أي أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر والحجج والأدلة والبراهين حتى يكون الله هو الذي يفتح تلك الأقفال، والله تعالى يقفل ويفتح حسب سنن له في ذلك وقد ذكرنا هذا المعنى مرات في بيان الهداية والإضلال، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ[٤] ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ أي رجعوا إلى الكفر بقلوبهم دون

---

(١) الاستفهام للتعجيب من سوء عملهم بالقرآن وإعراضهم عن سماعه و﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي أي: بل على قلوبهم أقفال، والتدبر: التفهم مشتق من دبر الشيء أي: خلفه.

(٢) ويعرفوا كذلك ما أعدّ الله للذين لم يتولوا عن الإسلام من عزة ونصر في الدنيا، ومن نعيم مقيم في الآخرة.

(٣) لم يقل على قلوبهم فنكر القلوب وقال: ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ لتدخل قلوب غيرهم فلا يكون خاصًا بهم، والقفل: حديدة يغلق بها الباب.

(٤) اختلف في هؤلاء المرتدين فقال قتادة: هم كفار أهل الكتاب، وقال ابن عباس وغيره: هم المنافقون، وكونهم المنافقين أعم إذ من اليهود منافقون.

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾

٥١٠

ألسنتهم وهم المنافقون من بعد ما تبين لهم الهدى أي صدق الرسول ﷺ وصحة دينه الإسلام هؤلاء المرتدون الشيطان سوَّل لهم أي زين لهم ذلك الارتداد وأملى لهم أي واعدهم ممنيًا لهم بطول العمر والبقاء الطويل في الحياة والعيش الطيب الواسع فيها.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإضلال الذي حصل لهم بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله من القرآن والشرائع وإبطال الشرك والشر والفساد وهم المشركون قالوا لهم سرًا وخفية ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وذلك كعدم قتالكم وتثبيط الناس عن القتال إلى غير ذلك مما أسروه لإخوانهم المشركين. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[1] يخبر تعالى أنهم لما كانوا يسرون كلمات الكفر للمشركين كان تعالى مطلعًا عليهم فهو يعلم إسرارهم وأسرارهم وها هو ذا قد أطلع عليهم رسوله والمؤمنين.

(٢٦) وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ أي حالهم إذا توفتهم الملائكة ملك الموت وأعوانه من ملائكة العذاب وهم يضربون بمقامع من حديد وجوههم وأدبارهم أي ظهورهم.

(٢٧) ـ (٢٨) وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي العذاب النازل بهم بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله من الكفر به وبرسوله. وكرهوا رضوانه أي ما يرضيه عنهم وهو الجهاد في سبيل فأحبط الله أعمالهم أي أبطلها فلم يثبهم عليها لأنهم مشركون كافرون وعمل المشرك والكافر باطل وهو خاسر.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب تدبر القرآن الكريم عند تلاوته أو سماعه وهو تفهم معانيه في حدود قدرة المسلم على الفهم.

٢ ـ الارتداد عن الإسلام كالرجوع عن الطاعة إلى المعصية سببهما تزيين الشيطان للعبد ذلك وإملاؤه له بالتمني والوعد الكاذب.

٣ ـ من الردة التعاون مع الكافرين على المؤمنين بأي شكل من أشكال التعاون ضد الإسلام والمسلمين.

٤ ـ تقرير عقيدة عذاب القبر وأنه حق ثابت أعاذنا الله منه آمين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٩ ـ ٣٢]

(٢٩) ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي مرض النفاق. ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾: أي أن لن يظهر أحقادهم على النبي ﷺ والمؤمنين.

(٣٠) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾: أي لعرَّفناك بهم فلعرفتهم. ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾: أي بعلاماتهم. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: أي إذا تكلموا عندك في لحن القول أي معناه وذلك بأن يُعرِّضوا فيه بتهجين أمر المسلمين أي تقبيح أمرهم. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾: أي أيها المؤمنون إن الله يعلم أعمالكم وسيجزيكم بها خيرًا.

(٣١) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾: ولنختبرنكم بالجهاد وغيره من التكاليف. ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾: أي نعلم علم ظهور لكم ولغيركم إذ الله يعلم ذلك قبل ظهوره لما حواه كتاب المقادير. ﴿الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾: أي الذين جاهدوا وصبروا من غيرهم. ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾: أي ونُظهر أخباركم للناس من طاعة وعصيان في الجهاد وفي غيره.

(٣٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي

---

(١) قرأ نافع والجمهور: ﴿أسرارهم﴾ بفتح الهمزة، وقرأ حفص ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ بكسرها فالإسرار بالكسر: مصدر أسرّ إسرارًا وبالفتح جمع سرّ.

بالله ولقائه ورسوله وما جاء به من الدين الحق. ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي عن الإسلام. ﴿وَشَآقُّوا ٱلرَّسُولَ﴾: أي خالفوه وعادوه وحاربوه. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾: أي عرفوا أن الرسول حق والإسلام حق كاليهود وغيرهم. ﴿لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيۡـًٔا﴾: أي من الضرر لأنه متعال أن ينال خلقه بضرر. ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: أي يبطلها فلا تثمر لهم ما يرجونه منها في الدنيا والآخرة.

معنى الآيات:

(٢٩) ما زال السياق الكريم في مطلب هداية المنافقين بكشف عُوارهم وإزاحة الستار عما في قلوبهم من الشك والنفاق فقال تعالى: ﴿أَمۡ﴾[١] أي أحسب الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون والمرض هو مرض النفاق الناجم عن الشك في الإسلام وشرائعه أن لن يخرج الله أضغانهم[٢] أي أحقادهم فيظهرها لرسوله والمؤمنين فحسبانهم هذا باطل.

(٣٠) وقوله تعالى لرسوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ أي بعلامات النفاق فيهم، وقوله: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾[٣] أي وعزتي وجلالي لتعرفنهم في لحن القول أي في معاني كلامهم إذا تكلموا عندك وبين يديك فإن كلامهم لا يخلو من التعريض بالمؤمنين بانتقاصهم والقدح في أعمالهم، كما قيل: «من أضمر سريرة ألبسه الله رداءها» وقوله تعالى في خطابه المؤمنين: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ ولازمه أنه سيجزيكم بها فاصبروا على الإيمان والتقوى.

(٣١) ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾[٤] أي ولنختبرنكم بالجهاد والإنفاق والتكاليف ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي حتى نظهر ذلك لكم فتعرفوا المجاهد من القاعد والصابر من الضاجر منكم وبينكم، ﴿وَنَبۡلُوَا أَخۡبَارَكُمۡ﴾ أي ما تخبرون به عن أنفسكم وتتحدثون به فنظهر الصدق من خلافه فيه، ولذا كان الفُضيل بن عياض رحمه الله تعالى إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلنا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا.

(٣٢) وقوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٥] أي كذبوا الله ورسوله ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الإسلام فصرفوا الناس عنه بأي سبب من الأسباب، ﴿وَشَآقُّوا ٱلرَّسُولَ﴾ أي خالفوه وعادوه وحاربوه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي ظهر لهم الحق وأن الرسول حق والإسلام حق بالحجج والبراهين هؤلاء الكفرة لن يضروا الله شيئًا من الضرر لتنزهه عن صفات المحدثين من خلقه ولامتناعه تعالى وعزته، ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي يبطلها عليهم فلا ينالون بها ما يؤملون في الدنيا بذهاب كيدهم وخيبة أملهم إذ ينصر الله رسوله ويعلي كلمته، وفي الآخرة لأن أعمال المشرك والكافر باطلة حابطة لا ثواب عليها سوى ثواب الجزاء المهين.

هداية الآيات:

١ - بيان حقيقة وهي من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها فكشفه للناس.

٢ - ومن أحب شيئًا ظهر على وجهه وفلتات لسانه.

٣ - تقرير قاعدة وهي أنه لا بد من الابتلاء لمن دخل في الإسلام ليكون الإيمان على حقيقته لا إيمانًا صوريًا أدنى فتنة تصيب صاحبه يرتد بها عن الإسلام.

٤ - أعمال المشرك والكافر باطلة لا ثواب خير عليها لأن الشرك محبط للأعمال الصالحة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ ـ ٣٨]

(٣٣) ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓا أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾: أي بالرياء والشرك والمعاصي.

(٣٤) ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي

---

(١) ﴿أَمۡ﴾ هي المنقطعة المقدمة ببل وهمزة الاستفهام، فبل: للإضراب الانتقالي، والاستفهام إنكاري.

(٢) الأضغان: جمع ضغن كحمل وأحمال، وهو الحقد والعداوة ومحلها القلب، قال الشاعر:

الضاربين بكل أبيض مِخذم ... والطاعنين مجامع الأضغان

(٣) ﴿لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ هو ما يفهم من الكلام بالتعريض والإشارة لا بتصريح القول.

(٤) بَلا يبلو بلوًا المرء: اختبره، فالبلو: الاختبار والتعرف على حال الشيء، ويكون في الشرع بالأمر والنهي.

(٥) يدخل في هذا اللفظ كفّار قريش وكفار اليهود والمنافقون.

عن الإسلام. ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾: أي لأنهم ماتوا على الكفر والكفر محبط للعمل.

(٣٥) ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾: أي فلا تضعفوا وتدعوا إلى الصلح مع الكفار. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾: أي الغالبون القاهرون. ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: أي ولن ينقصكم أجر أعمالكم وثوابها.

(٣٦) ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: أي الاشتغال بالدنيا والتفرغ لها ما هو إلا لهو ولعب لعدم الفائدة منه. ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾: أي ولا يكلفكم بإنفاق أموالكم كلها بل بالزكاة فقط.

(٣٧) ﴿فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾: أي بالمبالغة في طلبكم المال تبخلوا. ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾: أي أحقادكم وبغضكم لدين الإسلام.

(٣٨) ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾: أي عائد ذلك على نفسه لا على غيره فهو الذي يحرم الثواب. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: أي عن طاعة الله وطاعة رسوله يأت بآخرين غيركم. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾: أي في الطاعة أي يكونوا أطوع منكم لله ورسوله.

معنى الآيات:

(٣٣) لما ذكر تعالى الكفار ومشاقتهم لرسوله ﷺ نادى المؤمنين[1] وأمرهم بطاعته وطاعة رسوله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولاً أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، أي فيما يأمرانكم به وينهيانكم عنه من المعتقدات والأقوال والأعمال، ولا تبطلوا[2] أعمالكم، أي وينهاهم أن يبطلوا أعمالهم بالشرك والرياء والمعاصي والمراد من إبطال الأعمال أي حرمانهم من ثوابها. ثم أعلمهم مذكرًا واعظًا لهم فقال:

(٣٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي بالله ورسوله ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن الإسلام بأي سبب من الأسباب ﴿ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قبل أن يتوبوا. فهؤلاء ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ ويعذبهم العذاب المعد لأمثالهم.

(٣٥) وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟[3] وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ[4] وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ ينهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يضعفوا عن قتال أعدائهم من الكافرين ويدعوا الكافرين إلى الصلح والمهادنة وهم أقوياء قادرون وهو معنى قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي الغالبون القاهرون. ﴿وَلَن[5] يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي لا ينقصكم أجر أعمالكم بل يجزيكم بها ويزيدكم من فضله.

(٣٦) وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ هذه حقيقة وهي أن الحياة الدنيا إن أقبل عليها العبد ناسيًا الدار الآخرة مقبلاً على الدنيا لن تكون في حقه إلا لهوًا ولعبًا باعتبار أنه لم يظفر منها على طائل ولم تعد عليه بعائد خير وإسعاد كاللاعب اللاهي بشيء يعلب ويلهو فترة ثم لا يعود عليه ذلك اللعب بشيء كلعب الصبيان ولهوهم فإنهم يلهون ويلعبون بجد ثم يعودون إلى والديهم يطلبون الطعام والشراب. وقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ أي الإيمان الصحيح ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ ما يغضب ربكم ويسخطه عليكم من الشرك والمعاصي يؤتكم أجوركم المترتبة على الإيمان والتقوى. وقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي ولا يطلب منكم أموالكم كلها أي كراهة إحفائكم بذلك.

(٣٧) ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾[6]، أي بكثرة الإلحاح عليكم تبخلوا إذ هذا معروف من طباع البشر أن

---

(١) بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وجملة النداء معترضة بين جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟...﴾ إلخ.. وبين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

(٢) إبطال العمل: جعله باطلاً أي: لا فائدة منه ولا ثواب، فالإبطال تتصف به الأشياء الموجودة، وكان الحسن البصري يقول: لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي، وما يبطل العمل على الحقيقة هو أمور ثلاثة: الشرك والرياء، وأداء العمل على غير الوجه المشروع عليه.

(٣) الفاء للتفريع.

(٤) و﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ معناه الغالبون المنتصرون.

(٥) أي: لا ينقصكم، ومنه الموتور: الذي قُتل له قتيل، وفي الحديث الصحيح: **«من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»**.

(٦) يقال: أحفى في المسألة وألح بمعنى واحد.

ترتيبها ٤٨ — سورة الفتح — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

٥١١

الإنسان إذا ألح وألحف عليه في الطلب يبخل بالمال ولم يعطه وقد يترك الإسلام لذلك، وقوله: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أي أحقادكم وبغضكم للدين وكراهيتكم له ولذا لم يسألكم أموالكم.

﴿٣٨﴾ وقوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ[1] هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ[2] لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جزءًا من أموالكم في الزكاة أو الجهاد لا كُل أموالكم لما يعلم تعالى من شح النفس بالمال. وقوله: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي يمنع ومن يبخل فإنما يبخل[3] عن نفسه إذ هي التي حرمها أجر النفقة في سبيل الله ذات الأجر العظيم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾، إلى الله تعالى فهو غني عنكم لا يحضكم على النفقة لحاجته إليها ولكن لحاجتكم أنتم إليها إذ بها تزكوا نفوسكم وتقوم أموركم وتنتصروا على عدوكم، وقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أي ترجعوا عن الإسلام إلى الكفر والعياذ بالله يستبدل الله بكم قومًا غيركم أي يذهبكم ويأت بآخرين ثم لا يكونوا أمثالكم بل يكونون أطوع لله تعالى منكم وأسرع امتثالاً لما يطلب منهم. وحاشاهم أن يتولوا وما تولوا ولا استبدل الله تعالى بهم غيرهم. وإنما هذا من باب حثهم على معالي الأمور والأخذ بعزائمها نظرًا لمكانتهم من هذه الأمة فهم أشرفها وأكملها وأطوعها لله وأحبها له ولرسوله ﷺ.

هداية الآيات:

١ - وجوب طاعة الله وطاعة رسوله.
٢ - وجوب إتمام العمل الصالح من صلاة وغيرها بالشروع فيه.
٣ - بطلان العمل الصالح بالرياء أو بإفساده عند أدائه أو بالردة عن الإسلام.
٤ - حرمة الركون إلى مصالحة الأعداء مع القدرة على قتالهم والتمكن من دفع شرهم.
٥ - التنفير من الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة.
٦ - حرمة البخل مع الجدة والسعة.

سورة الفتح[4]
مدنية
وآياتها تسع وعشرون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٧]

﴿١﴾ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾: أي قضينا لك بفتح مكة وغيرها عُنوة بجهادك فتحًا ظاهرًا بيِّنًا.

---

(١) (ها): حرف تنبيه، وفي إعراب الجملة وجهان الأول: وهو أن يكون ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ، و﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ منادي معترض، و﴿تُدْعَوْنَ﴾ الخبر، والثاني: أن يكون ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ و﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ خبره، وجملة: ﴿تُدْعَوْنَ﴾ مستأنفة مؤكدة ومقررة لما سبق.

(٢) أي: في الحال وجائز أن يدعو في المستقبل، إذ الجهاد مستمر والحاجة إلى الإنفاق لا تنقطع، ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المراد بها الجهاد وهي كل ما يوصل إلى مرضاة الله تعالى.

(٣) يجوز في ﴿يَبْخَلُ﴾ أن يعدى بعن وبعلى يقال: بخل عليه بكذا أو بخل عنه بكذا أو يُضمّن معنى أمسك، وحينئذ فتعديته بعلى نحو: أمسك عليك لسانك.

(٤) نزلت ليلاً بعد صلح الحديبية بين مكة والمدينة قال فيها رسول الله ﷺ: **«لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»** البخاري.

(٢) ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾: أي بسبب شكرك له وجهادك في سبيله. ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: أي ما تقدم الفتح وما تأخر عنه. ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾: أي بنصرك على أعدائك وإظهار دينك ورفع ذكرك. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: ويرشدك طريقًا من الدين لا اعوجاج فيه يُفضي بك إلى رضوان ربك.

(٣) ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾: أي وينصرك الله على أعدائك ومن ناوأك نصرًا عزيزًا لا يغلبه غالب، ولا يدفعه دافع.

(٤) ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي الطمأنينة بعدما أصابهم من الاضطراب والقلق من جراء الصلح. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: أي عليمًا بخلقه حكيمًا في تدبيره لأوليائه.

(٥) ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: أي قَضَى بالفتح ليشكروه ويجاهدوا في سبيله ليدخلهم جنات. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾: أي وكان ذاك الإدخال والتكفير للسيئات فوزًا عظيمًا.

(٦) ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾: والمشركين والمشركات أي يعذبهم بالهم والحزن لما يرون من نصرة الإسلام وعزة أهله. ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾: أي أن الله لا ينصر محمدًا وأصحابه. ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: أي بالذل والعذاب والهوان.

(٧) ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: أي كان وما زال تعالى غالبًا لا يُغلب حكيمًا في الانتقام من أعدائه.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ الآيات هذه فاتحة سورة الفتح التي قال فيها رسول الله ﷺ: **«لقد أنزلت عليَّ سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»** ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا[1] مُّبِينًا﴾ وذلك بعد صلح الحديبية سنة ست من الهجرة وفي منصرفه منه وهو في طريقه عائد مع أصحابه إلى المدينة النبويّة. وقد خالط أصحابه حزن وكآبة حيث صدوا عن المسجد الحرام فعادوا ولم يؤدوا مناسك العمرة التي خرجوا لها، وتمت أحداث جسام تحمّل فيها رسول الله ﷺ ما لا يقدر عليه من أولي العزم غيره فجزاه الله وأصحابه وكافأهم على صبرهم وجهادهم بما تضمنته هذه الآيات إلى قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ يا رسولنا ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي قضينا لك بفتح مكة وخيبر وغيرهما ثمرة من ثمرات جهادك وصبرك وهو أمر واقع لا محالة وهذا الصلح بداية الفتح

(٢) فاحمد ربك واشكره ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ﴾[2] بذلك وبجهادك وصبرك ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بنصرك على أعدائك وعلى كل من ناوأك، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويرشدك إلى طريق لا اعوجاج فيه يفضي بك وبكل من يسلكه إلى الفوز في الدنيا والآخرة وهو الإسلام دين الله الذي لا يقبل دينًا سواه.

(٣) ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾ أي وينصرك ربك على أعدائك وخصوم دعوتك نصرًا عزيزًا أي ذا عزّ لا ذُل معه، هذه أربع عطايا كانت لرسول الله ﷺ ففرح بها وهي مغفرة الذنب السابق واللاحق، الفتح للبلاد، الهداية إلى أقوم طريق يفضي إلى سعادة الدارين، والنصر المؤزر العزيز، فلذا قال: أُنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ من الدنيا جميعًا.

---

(١) الماضي هنا بمعنى المستقبل إذ فتح مكة المومى إليه كان سنة ثمانٍ وأطلق الماضي مع إرادة المضارع لتحقق الوقوع وتأكده نحو: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ واللام في (لك): لام الأجل أي: فتحنا لأجلك.

(٢) اضطرب المفسرون في تعليق لام ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ﴾ فالسيوطي علقه بكلمة (بجهادك) زادها بعد جملة ليغفر لك أي: بجهادك يوم فتحك مكة، وفي التفسير قدرنا جملتي: فاحمده على الفتح واشكره عليه ليغفر لك. وأما الذنب مع إجماعهم أنه لا ذنب كبير لعصمته ﷺ فإن أحسن ما قيل فيه هو ما يلي: أما الذنب المتقدم فهو قوله ﷺ في بدر: **«اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض أبدًا»** فأوحى إليه: من أين تعلم هذا؟ فكان هذا الذنب المتقدم، والثاني: أنه لما انهزم المسلمون يوم حنين قال لعمّه: ناولني كفًا من حصباء فناوله فرمى به المشركين فانهزموا فقال لأصحابه: **«لولا أني رميتهم ما انهزموا»** فهذا الذنب المتأخر. والحقيقة أن هذا لو عُدّ ذنبًا لكان من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

﴿٤﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ[(١)] فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي هو الله المنعم عليك بما ذكر لك الذي أنزل السكينة أي الطمأنينة على قلوب المؤمنين من أصحابك وكان عددهم ألفًا وأربعمائة صاحب أنزل السكينة عليهم بعد اضطراب شديد أصاب نفوسهم دل عليه قول عمر رضي الله عنه للرسول ﷺ ألست نبيَّ الله حقًا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فَلِمَ نُعطى الدنيّة في ديننا إذًا؟ قال: إني رسول الله ولستُ أعصيه وهو ناصري. قلت: أوَلست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبيّ الله حقًا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فَلِمَ نُعطى الدنيّة على ديننا؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بِغَرْزِه أي سر على نهجه ولا تخالفه. فوالله إنه لعلى الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به؟ قال: بلى. قال: فهل أخبرك أنه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به. وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي بشرائع الإسلام كلما نزل حكم آمنوا به وعملوا به ومن ذلك الجهاد وبذلك يكون إيمانهم في ازدياد. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ[(٢)] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي ملائكة السماء وملائكة الأرض وكل ذي شوكة وقوة من الكائنات هو لله كغيره ويسخره كما شاء ومتى شاء فقد يسلط جيشًا كافرًا على جيش كافر نصرة لجيش مؤمن والمراد من هذا أنه تعالى قادر على نصرة نبيّه ودينه بغيركم أيها المؤمنون وكان الله وما زال أزلاً وأبدًا عليمًا بخلقه حكيمًا في تدبير أمور خلقه.

﴿٥﴾ وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ[(٣)] الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي الإدخال للجنة وتكفير السيئات ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾، أي فتح على رسوله والمؤمنين ليشكروا بالطاعة والجهاد والصبر أي تم كل ذلك ليُدخل المؤمنين والمؤمنات الآية...

﴿٦﴾ وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ[(٤)] الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي فَتَحَ على رسوله والمؤمنين ونصرهم ووهبهم ما وهبهم من الكمال ليكون ذلك غمّا وهمّا وحزنًا يعذب الله به المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾[(٥)] هذا وصف للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات حيث إنهم كانوا ظانّين أن الله[(٦)] لا ينصر رسوله والمؤمنين ولا يعلي كلمته ولا يظهر دينه. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ إخبارًا منه عز وجل بأن دائرة السوء تكون على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات كما أخبر عنهم بأنه غضب عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيرًا. ومعنى أعدَّ

---

(١) ﴿السَّكِينَةَ﴾ السكون والطمأنينة، قال ابن عباس: كل سكينة في القرآن فهي بمعنى الطمأنينة إلا في البقرة. يريد قوله تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

(٢) هذه الجملة تذييلية مذيل بها الكلام السابق، والجنود: جمع جند، والجند: اسم للجماعة المقاتلين لا واحد له من لفظه وجمع باعتبار الجماعات التي يتكون منها وهي المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والساقة.

(٣) اللاّم: لام التعليل متعلقة بفعل ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ وذكر المؤمنات مع المؤمنين هنا لدفع ما يتوهم أن هذا الوعد خاص بالمؤمنين دون المؤمنات في حين أن موقف أم المؤمنين أم سلمة كان عظيمًا إذ استشارها رسول الله ﷺ حين أبى أصحابه أن يتحللوا فأشارت عليه بما جعلهم يتحللون.

(٤) هذا معطوف على قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ وهذا التعذيب المذكور في الآية تعذيب خاص زائدًا على عذاب الكفر والنفاق وفي قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ إشارة إلى ذلك.

(٥) ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾ بفتح السين: قراءة العشرة في قوله: ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وفي ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الجمهور على الفتح، وقرأ بعضٌ بضم السين. وهما لغتان كالكرَه والكُره، والضَّعف والضُّعف بالفتح والضم.

(٦) ومعنى ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أن الله ما وعد الرسول ﷺ بالفتح ولا أمره بالخروج إلى العمرة ولم ينصر رسوله ﷺ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)

هيأ وأحضر لهم، وساءت جهنم مصيرًا يصير إليه الإنسان والجان. بعد نهاية الحياة الدنيا.

(٧) وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينصر بها من يشاء ويهزم بها من يشاء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي غالبًا لا يمانع في مراده ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره وصنعه.

هداية الآيات:

١ - الذنب الذي غفر لرسول الله ﷺ من المعلوم بالضرورة أنه ليس من الكبائر في شيء وهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

٢ - إنعام الله على العبد يوجب الشكر والشكر يوجب المغفرة وزيادة الإنعام.

٣ - بيان مكافأة الله لرسوله والمؤمنين على صبرهم وجهادهم.

٤ - بيان أن الكافرين يحزنون ويُغمُّون لنصر المؤمنين وعزهم فيكون ذلك عذابًا لهم في الدنيا.

شرح الكلمات:
[الآية: ٨ - ١٠]

(٨) ﴿شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾: أي شاهدًا على أمتك أُمة الدعوة يوم القيامة ومبشرًا من آمن منهم وعمل صالحًا بالجنة ونذيرًا من كفر أو عصى وفسق بالنار.

(٩) ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: أي هذا علة للإرسال.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾: أي ينصروه ويعظموه وهذا لله وللرسول. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: أي الله تعالى بالصلاة والذكر والتسبيح.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾: أي بيعة الرضوان بالحديبية.

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾: لأن طاعة الرسول طاعة لله تعالى. ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: أي لأنهم كانوا يبايعون الله إذ هو الذي يجاهدون من أجله ويتلقون الجزاء من عنده. ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾: أي نقض عهده فلم يقاتل مع الرسول والمؤمنين. ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: أي وبال نقضه عهده عائد عليه إذ هو الذي يجزي به.

﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: أي الجنة إذ هي الأجر العظيم الذي لا أعظم منه إلا رضوان الله عز وجل.

معنى الآيات:

(٨) ما زال السياق الكريم في بيان ما أنعم الله تعالى به على رسوله فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾(١) لله تعالى بالوحدانية والكمال المطلق له عز وجل وشاهدًا على هذه الأمة التي أرسلت فيها وإليها عربها وعجمها ومبشرًا لأهل الإيمان والتقوى بالجنة ونذيرًا لأهل الكفر والمعاصي أي مخوفًا لهم من عذاب الله يوم القيامة.

(٩) وقوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي أرسلناه كذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ بمعنى تنصروه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ بمعنى تجلوه و تعظموه وهذه واجبة لله ولرسوله الإيمان والتعزير والتوقير، وأما التسبيح والتقديس فهو لله تعالى وحده ويكون بكلمة سبحان الله وبالصلاة وبالذكر لا إله إلا الله، وبدعاء الله وحده وقوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٢) أي تسبحون الله ﴿بُكْرَةً﴾

(١) بيان لحكمة الإرسال وما يترتب عليه و﴿شَـٰهِدًا﴾ إنه بالنظر إلى شهادته يوم القيامة فهي حال مقدرة، وبالنظر إلى شهادته في الدنيا مع تبشيره ونذارته فهي حال مقارنة. و﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ إلخ.. كلام مستأنف ابتدائي.

(٢) البُكرة: أوّل النهار، والأصيل: آخره أي: غدوة وعشيًا. قال الشاعر:

أي صباحًا ﴿وَأَصِيلًا﴾ أي عشية.

⑩ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يخبر تعالى رسوله بأن الذين يبايعونه على قتال أهل مكة وأن لا يفروا عند اللقاء ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[1] إذ هو تعالى الذي أمرهم بالجهاد وواعدهم الأجر فالعقد وإن كانت صورته مع رسول الله فإنه في الحقيقة مع الله عز وجل، ولذا قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي نقض عهده فلم يقاتل ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ﴾ بمعنى وفى ﴿بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ[2] ٱللَّهَ﴾ من نصرة الرسول والقتال تحت رايته حتى النصر ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ الله ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الذي هو الجنة دار السلام.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوة محمد ﷺ والإعلان عن شرفه وعلو مقامه.

٢ - وجوب الإيمان بالله ورسوله ووجوب نصرة الرسول وتعظيمه ﷺ.

٣ - وجوب تسبيح الله وهو تنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله مع الصلاة ليلًا ونهارًا.

٤ - وجوب الوفاء بالعهد، وحرمة نقض العهد ونكثه.

شرح الكلمات:
[الآية: ١١ - ١٤]

⑪ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: أي الذين حول المدينة وقد خلّفهم الله عن صحبتك لما طلبتهم ليخرجوا معك إلى مكة خوفًا من تعرض قريش لك عام الحديبية وهم غفار ومزينة وجهينة وأشجع. ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾: أي عن الخروج معك. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾: أي الله من ترك الخروج معك. ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾: أي كل ما قالوه هو من ألسنتهم وليس في قلوبهم منه شيء. ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾: أي لا أحد لأن الاستفهام هنا للنفي. ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾: وبخهم على تركهم صحبة رسول الله ﷺ خوفًا من قريش.

⑫ ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: أي حسبتم أن قريشًا تقتل الرسول والمؤمنين فلم يرجع منهم أحد إلى المدينة. ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾: هو هذا الظن الذي زينه الشيطان في قلوبهم. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾: أي هالكين عند الله بهذا الظن السيء، وواحد بور بائر: هالك.

⑬ ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾: أي نارًا شديدة الاستعار والالتهاب.

⑭ ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: يغفر لمن يشاء وهو عبد تاب وطلب المغفرة بنفسه، ويعذب من يشاء وهو عبد ظن السوء وقال غير ما يعتقد وأصر على ذلك الكفر والنفاق. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: كان وما زال متصفًا بالمغفرة والرحمة فمن تاب غفر الله له ورحمه.

معنى الآيات:

⑪ ما زال السياق الكريم في مطلب هداية المنافقين في الحضر والبادية وذلك بتأنيبهم وتوبيخهم وذكر معايبهم إرادة إصلاحهم فقال تعالى لرسوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ وهم غفار ومزينة وجهينة وأشجع[3] وكانوا أهل بادية وأعرابًا حول المدينة استنفرهم رسول الله ﷺ ليخرجوا معه إلى مكة للعمرة تحسبًا لما قد تقدم عليه

= لعمري لأنت البيت أكرم أهله وأجلس في أفيائه بالأصائل

جمع أصيل: العشي.

(١) هذه هي البيعة التي بايعها المسلمون النبي ﷺ يوم الحديبية تحت الشجرة (السَّمرة) وكانوا ألفًا وأربعمائة، وأول من بايع النبي ﷺ تحت الشجرة: أبو سنان الأسدي، وتُسمى بيعة الرضوان لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

(٢) قرأ نافع وورش ﴿عليه﴾ بكسر هاء الضمير، وقرأ حفص بضمّها ﴿عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ فمن كسر رقّق اسم الجلالة، ومن ضمّ فخّمه.

(٣) والديل كذلك، وخرج من أسلم مائة رجل من بينهم مرداس بن مالك الأسلمي، والدعباس الشاعر، وعبدالله بن أبي أوفى، وزاهر بن الأسود، وأهبان بن أوس، وسلمة بن الأكوع الأسلمي. ومن غفار: خُفاف بن أيماء. ومن مزينة: عائذ بن عمرو، وتخلف عن الخروج أكثرهم.

قريش من قتاله ﷺ إلاّ أن هؤلاء المخلفين من الأعراب أصابهم خوف وجبن من ملاقاة قريش وزين لهم الشيطان فكرة أن الرسول والمؤمنين لن يعودوا إلى المدينة فإن قريشًا ستقضي عليهم وتنهي وجودهم فَلِذَلِك خلفهم الله وحرمهم صحبة نبيّه والمؤمنين فحرموا من مكرمة بيعة الرضوان وأخبر رسوله عنهم وهو عائد من الحديبية بما يلي: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ معتذرين لك عن تخلفهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾ فتخلفنا لأجل إصلاحها، ﴿وَأَهْلُونَا﴾ كذلك ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي اطلب لنا من الله المغفرة. ولم يكن هذا منهم حقًا وصدقًا بل كان باطلاً وكذبًا فقال تعالى فاضحًا لهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فهم إذًا كاذبون. وهنا أمر رسوله أن يقول لهم أخبروني إن أنتم عصيتم الله ورسوله وتركتم الخروج مع المؤمنين جبنًا وخوفًا من القتل فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم ضرًا، أي شرًا لكم أو أراد بكم نفعًا، أي خيرًا لكم؟ والجواب قطعًا لا أحد إذًا فإنكم كنتم مخطئين في تخلفكم وظنكم معًا، وقوله: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أضرب تعالى عن كذبهم واعتذارهم ليهددهم على ذلك بقوله: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ وسيجزيكم به وما كان عملهم إلا الباطل والسوء، ثم أضرب عن هذا أيضًا إلى آخر فقال:

(١٢) ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ[1] أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ إذ تقتلهم قريش فتستأصلهم بالكلية. وزين ذلك الشيطان في قلوبكم فرأيتموه واقعًا، وظننتم ظن السوء وهو أن الرسول والمؤمنين لن ينجوا من قتال قريش لهم، وكنتم أي بذلك الظن قومًا بورًا لا خير فيكم هلكى لا وجود لكم.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ وهو إخبار أريد به تخويفهم لعلهم يرجعون من باطلهم في اعتقادهم وأعمالهم إلى الحق قولاً وعملاً، ومعنى أعتدن أي هيأنا وأحضرنا وسعيرًا بمعنى نار مستعرة شديدة الالتهاب، وقوله في الآية الأخيرة من هذا السياق (١٤):

(١٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ[2] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بيده كل شيء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده ويعذب من يشاء فاللائق بهم التوبة والإنابة إليه لا الإصرار على الكفر والنفاق فإنه غير مجد لهم ولا نافع بحال وقد تاب بهذا أكثرهم وصاروا من خيرة الناس، وكان الله غفورًا رحيمًا فغفر لكل من تاب منهم ورحمه. ولله الحمد والمنة.

هداية الآيات:

١ - إخبار القرآن بالغيب وصدقه في ذلك دال على أنه كلام الله أوحاه إلى رسوله ﷺ.

٢ - لا يملك النفع ولا الضر على الحقيقة إلا الله ولذا وجب أن لا يطمع إلا فيه، ولا يرهب إلا منه.

٣ - حرمة ظن السوء في الله عز وجل، ووجوب حسن الظن به تعالى.

٤ - الكفر موجب لعذاب النار، ومن تاب تاب الله عليه، ومن طلب المغفرة في صدق غفر له.

٥ - ذم التخلف عن المسابقة في الخيرات والمنافسة في الصالحات.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥]

(١٥) ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: أي المذكورون في الآيات قبل هذه وهم غفار وجهينة ومزينة وأشجع. ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾: أي مغانم خيبر إذ وعدهم الله بها عند رجوعهم من الحديبية. ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾: أي دعونا نخرج معكم لنصيب من الغنائم. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: أي أنهم بطلبهم الخروج إلى خيبر لأخذ الغنائم يريدون أن يغيروا وعد الله لأهل الحديبية خاصة بغنائم خيبر. ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾: أي قاله تعالى لنا قبل عودتنا إلى المدينة فلن تتبعونا ولن تخرجوا معنا. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾: أي

---

(١) هذه الجملة بدل اشتمال من جملة: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ و(إن) مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن و(لن) لإفادة استمرار النفي، وأكد أيضا بـ﴿أَبَدًا﴾ لأن ظنهم كان قويًا.

(٢) هذا الكلام معطوف على قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وهو انتقال من التخويف الشديد إلى الإطماع في المغفرة والرحمة ليكون سببًا في هدايتهم، وتقديم الرحمة على العذاب مشعر بذلك.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

فسيقولون بل تحسدوننا وفعلاً فقد قالوا ذلك وزعموا أنه ليس أمرًا من الله هذا المنع، وإنما هو من الرسول والمؤمنين حسدًا لهم، وهذا دال على نفاقهم وكفرهم والعياذ بالله. ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي لا يفهمون فهم الحاذق الماهر إلا قليلاً وفي أمور الدنيا لا غير.

معنى الآية:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية المنافقين من الحضر والبادية وذلك بالحديث عنهم وكشف عوارهم ودعوتهم إلى التوبة والرجوع إلى الحق عند ظهور انحرافهم وسوء أحوالهم فقال تعالى لرسوله: سيقول المخلفون، الذين تقدم الحديث عنهم وأنهم تخلفوا عن الحديبية من الأعراب الذين هم مزينة وجهينة وغفار وأشجع. أي سيقولون لكم: ﴿١٥﴾ ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ[1] لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، وذلك أن الله تعالى بعد صلح الحديبية وما نال أهلها من آلام نفسيّة أكرمهم بنعم كثيرة منها أنه واعدهم بغنائم خيبر بأن يتم لهم فتحها ويغنمهم أموالها وكانت أموالاً عظيمة، فلما عادوا إلى المدينة وأعلن الرسول ﷺ عن الخروج إلى خيبر جاء هؤلاء المخلفون يطالبون بالسير[2] معهم لأجل الغنيمة لا غير.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[3] وهو وعده لأهل الحديبية بأن يُغنمهم غنائم خيبر، ولذا أمر رسوله أن يقول لهم لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل أي فقد أخبرنا تعالى بحالكم ومقالكم هذا قبل أن تقولوه وتكونوا عليه. وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ هذا من جملة ما أخبر تعالى به رسوله والمؤمنين قبل قولهم له وقد قالوه أي ما منعتمونا من الخروج إلى خيبر إلا حسدًا لنا أن ننال من الغنائم أي لم يكن الله أمركم بمنعنا ولكن الحسد هو الذي أمركم وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وصمهم بوصمة الجهل وجعلها هي علة تخبطهم وحيرتهم وضلالهم، إنهم قليلو الفهم والإدراك فليسوا على مستوى الرجل الحاذق الماهر البصير الذي يحسن القول والعمل.

هداية الآية:

١ - وعد الله رسوله والمؤمنين بغنائم خيبر وهم في طريقهم من الحديبية إلى المدينة وإنجازه لهم دال على وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته وكلها موجبة للإيمان والتوحيد وحب الله والرغبة إليه والرهبة منه.

٢ - بيان حيرة الكافر واضطراب نفسه وتخبط قوله وعمله.

٣ - ذم الجهل وتقبيحه إنه بئس الوصف يوصف به المرء، ولذا لا يرضاه حتى الجاهل لنفسه فلو قلت لجاهل يا جاهل لا تفعل كذا أو لا تقل كذا لغضب عليك.

---

(١) هي مغانم خيبر لأنّ الله تعالى وعد أهل الحديبية فتح خيبر وأنها لهم خاصة من غاب منهم ومن حضر سواء، ولم يغب منهم عنها إلا جابر بن عبدالله فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضر.

(٢) روي أن النبي ﷺ قال لهم: «**إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم**» وقالوا: هذا حسد.

(٣) ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: يريدون أن يغيّروه يعني يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد به أهل الحديبية، وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عوضًا عن فتح مكة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦، ١٧]

(١٦) ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾: أي الذين تخلفوا عن الحديبية وطالبوا بالخروج إلى خيبر لأجل الغنائم اختبارًا لهم. ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: أي ستدعون في يوم ما من الأيام إلى قتال قوم أولي بأس وشدة في الحرب. ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾: أي تقاتلونهم. أو هُم يسلمون فلا حاجة إلى قتالهم. ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾: أي أمر الداعي لكم إلى قتال القوم أصحاب البأس الشديد. ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾: أي عودة اعتباركم مؤمنين صالحين في الدنيا والجنة في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾: أي تعرضوا عن الجهاد كما توليتم من قبل حيث لم تخرجوا للحديبية. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: في الدنيا بالقتل والإذلال وفي الآخرة بعذاب النار.

(١٧) ﴿حَرَجٌ﴾: أي إثـــم. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾: أي يعرض عن طاعة الله ورسوله.

معنى الآيتين:

(١٦) ما زال السياق الكريم في مطلب هداية المنافقين من الأعراب إذ قال تعالى للرسول ﷺ: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين أصبح وصف التخلف شعارًا لهم يعرفون به وفي ذلك من الذم واللوم والعتاب ما فيه قل لهم مختبرًا إياهم ستدعون في يوم من الأيام إلى قتال قوم أولي بأس شديد في الحروب تقاتلونهم، أو يسلمون[١] فلا تقاتلوهم وذلك بأن يرضوا بدفع الجزية وهؤلاء لا يكونون إلاّ نصارى أو مجوسًا فهم إما فارس وإما الروم وقد اختلف في تحديدهم[٢] فإن تطيعوا الأمر لكم بالخروج الداعي للجهاد فتخرجوا وتجاهدوا يؤتكم الله أجرًا حسنًا غنائم في الدنيا وحسن الصيت والأحدوثة والجنة فوق ذلك، وإن تتولوا أي تعرضوا عن طاعة من يدعوكم ولا تخرجوا معه كما توليتم من قبل حيث لم تخرجوا مع رسول الله إلى مكة للعمرة خوفًا من قريش ورجاء أن يُهلك الرسول والمؤمنون ويخلو لكم الجوّ يعذبكم عذابًا أليمًا أي في الدنيا بأن يسلط عليكم من يعذبكم وفي الآخرة بعذاب النار.

(١٧) وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ[٣] عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية إنه لما نزلت آية المنافقين ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ وكان ختامها وإن تولوا عن الجهاد يعذبكم عذابًا أليمًا، خاف أصحاب الأعذار من مرض وغيره وبكوا فأنزل الله تعالى قوله ليس على الأعمى حرج، أي إثم إذا لم يخرج للجهاد ولا على الأعرج[٤] حرج وهو الذي به عرج في رجليه لا يقدر على المشي والجري والكر والفر ولا على المريض حرج وهو المريض بالطحال أو الكبد أو السعال من الأمراض المزمنة التي لا يقدر صاحبها على القتال وكان يعتمد على الفر والكر ولا بدّ كذلك من سلامة البدن وقدرته على القتال.

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في أوامرهما ونواهيهما ﴿يُدْخِلْهُ[٥] جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهذا وعد صادق من رب كريم رحيم، ومن يتول عن طاعة الله ورسوله يُعذبه عذابًا أليمًا وهذا وعيد شديد قوي عزيز ألا فليتق الله امرؤ فإن الله شديد العقاب.

---

(١) في هذه الآية دليل على خلافة أبي بكر إذ هو الذي دعا إلى قتال أصحاب مسيلمة الكذاب، إذ هم الذين لا تقبل منهم الجزية وإنما الإسلام أو القتل، لقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أما فارس أو الروم فهم مجوس ونصارى قد تؤخذ منهم الجزية.

(٢) وقيل: إنهم أصحاب مسيلمة الكذاب، وقال رافع بن خديج: والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فلا نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فقلنا: إنهم هم.

(٣) قال ابن عباس لما نزلت: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال أهل الزمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ أي: لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد.

(٤) العرج: آفة تعرض لرجل واحدة، قال مقاتل: هم أهل الزمانة الذين تخلفوا عن الحديبية، وقد عذرهم. وفي هذه الآية بيان من يجوز لهم التخلف عن الجهاد، ولا إثم عليهم وهم العميان والمرضى والعرج.

(٥) قرأ نافع ﴿ندخله﴾ و﴿نعذبه﴾ بالنون، وقرأ حفص: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ بالياء.

هداية الآيتين:

١ - مشروعية الاختبار والامتحان لمعرفة القدرات والمؤهلات.

٢ - بيان أن غزو الإسلام ينتهي إلى أحد أمرين إسلام الأمة المغزوّة أو دخولها في الذمة بإعطائها الجزية بالحكم الإسلامي وسياسته.

٣ - دفع الإثم والحرج في التخلف عن الجهاد لعذر العمى أو العرج أو المرض.

٤ - بيان وعد الله ووعيده لمن أطاعه ولمن عصاه، الوعد بالجنة. والوعيد بالنار.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨، ١٩]

(١٨) ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي الراسخين في الإيمان الأقوياء فيه وهم أهل بيعة الرضوان من أصحاب رسول الله ﷺ. ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾: أي بالحديبية أيها الرسول محمد ﷺ. ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾: أي سمرة وهم ألف وأربعمائة بايعوا على أن يقاتلوا قريشًا ولا يفروا. ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾: أي علم الله ما في قلوبهم من الصدق والوفاء فأنزل الطمأنينة والثبات على ما هم عليه. ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: أي هو فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية في ذي الحجة. وفي آخر المحرم من سنة سبع غزوا خيبر ففتحها الله تعالى عليهم.

(١٩) ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾: أي من خيبر. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: أي كان وما زال تعالى عزيزًا غالبًا حكيمًا في تصريفه شؤون عباده.

معنى الآيتين:

(١٨) قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ[1] ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ[2]﴾ هذا إخبار منه تعالى برضاه عن المؤمنين الكاملين في إيمانهم وهم ألف وأربعمائة الذين بايعوا الرسول ﷺ تحت شجرة سمرة إلاّ الجد بن قيس الأنصاري فإنه لم يبايع حيث كان لاصقًا بإبط ناقته مختبئًا عن أعين الأصحاب وكان منافقًا ومات على ذلك لا قرت له عين. وسبب هذه البيعة كما ذكره غير واحد أن النبي ﷺ دعا خراش بن أُمية الخزاعي فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له «وهو الاعتمار» وذلك حين نزل الحديبية، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش «فرقٌ من شتى القبائل يُقال لهم الأحابيش واحدهم أحبوش يقال لهم اليوم: اللفيف الأجنبي عبارة عن جيش أفراده من شتى البلاد والدول. فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ. وهنا دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليهم، ولكني أدلك على رجل هو أعز بها مني عثمان بن عفان فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرًا لهذا البيت معظّمًا لحرمته فراح عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها فنزل عن دابته فحمله بين يديه ثم ردفه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان قتل. فقال الرسول ﷺ عندئذ: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**» ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، هذا معنى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ

---

(١) هذا رجوع إلى تفصيل ما جزى به الله تعالى أهل بيعة الرضوان الذي تقدم إجماله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ الآية.

(٢) في قوله تعالى عن المؤمنين: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ إعلام بأن من لم يبايع ممن خرج مع الرسول ﷺ كالجعد بن قيس لم يفز برضى الله تعالى وأنه غير مؤمن.

يُبَايِعُونَكَ[١] تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ[٢] فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي من الصدق والوفاء فأنزل السكينة أي الطمأنينة والثبات عليهم وأثابهم أي جزاهم على صدقهم ووفائهم فتحًا قريبًا هو صلح الحديبية وفتح خيبر.

﴿١٩﴾ ﴿وَمَغَانِمَ[٣] كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ وهي غنائم خيبر، وكان الله عزيزًا[٤] أي غالبًا على أمره، حكيمًا في تدبيره لأوليائه.

هداية الآيتين:

١ - بيان فضل أهل بيعة الرضوان وكرامة الله لهم برضاه عنهم.

٢ - ذكاء عمر وقوة فراسته إذ أمر بقطع الشجرة خشية أن تعبد، وكم عبدت من أشجار في أمة الإسلام في غيبة العلماء وأهل القرآن.

٣ - مكافأة الله تعالى للصادقين الصابرين المجاهدين من عباده المؤمنين بخير الدنيا والآخرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ - ٢٤]

﴿٢٠﴾ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا﴾: أي من الفتوحات الإسلامية التي وصلت الأندلس غربًا. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾: أي غنيمة خيبر.

﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾: أي أيدي اليهود حيث هموا بالغارة على بيوت الصحابة وفيها أزواجهم وأولادهم وأموالهم فصرفهم الله عنهم. ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أي تلك الصرفة التي صرف اليهود المتآمرين عن الاعتداء على عيال الصحابة وهم غُيّب في الحديبية أو خيبر آية يستدلون بها على كلاءة الله وحمايته لهم في حضورهم ومغيبهم. ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾: أي طريقًا في التوكل على الله والتفويض إليه في الحضور والغيبة لا اعوجاج فيه.

﴿٢١﴾ ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾: أي ومغانم أخرى لم تقدروا عليها وهي غنائم فارس والروم. ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: أي فهي محروسة لكم إلى حين تغزون فارس والروم فتأخذونها.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي المشركون في الحديبية. ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾: أي لانهزموا أمامكم وأعطوكم أدبارهم تضربونها. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ﴾: أي هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين الصابرين سنة ماضية في كل زمان ومكان.

﴿٢٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾: حيث جاء ثمانون من المشركين يريدون رسول الله والمؤمنين ليصيبوهم بسوء. ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾: فأخذهم أصحاب رسول الله

الجزء السادس والعشرون — سورة الفتح

وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾

٥١٤

---

(١) ﴿إِذۡ يُبَايِعُونَكَ﴾ ظرف متعلق بـ﴿رَضِيَ﴾ والمضارع بمعنى الماضي وإنما جيء بالمضارع لاستحضار حالة المبايعة الجليلة وصورتها العظيمة. وكون الرضى حصل قبل انتهاء البيعة إيذان بفضلها وفضل أهلها.

(٢) ﴿تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ التعريف للشجرة للعهد الذي عرفه أهلها حين كان النبي ﷺ جالسًا في ظلها فبايع أصحابه كلهم إلا الجعد بن قيس وكان منافقًا غير مؤمن فلم يبايع كما في التفسير، حيث كان لاصقًا بإبط ناقته.

(٣) المغانم الكثيرة: هي مغانم بلاد خيبر من أرض وأنعام ومتاع وحوايط وبساتين، ووصف الغنائم بجملة ﴿يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ دال على تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة وبشارة لهم بأنه لم يهلك منهم أحدًا قبل حصولهم على هذه الغنائم وكذلك كان والحمد لله.

(٤) هذه الجملة معترضة ذيل بها قوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ لأن ما حصل لهم من نصر وخير كان من مظاهر عزة الله وعظيم حكمته.

أسرى وأتوا بهم إلى رسول الله فعفا عنهم. ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: وذلك بالحديبية التي هي بطن مكة.

معنى الآيات:

(٢٠) ما زال السياق في ذكر إفضال الله تعالى وإنعامه على المؤمنين المبايعين الله ورسوله على مناجزة المشركين وقتالهم وأن لا يفروا فقد ذكر أنه أنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا ومغانم خيبر الكثيرة فعطف على السابق خبرًا عظيمًا آخر فقال: ﴿وَعَدَكُمُ[1] ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾ أي غنيمة خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ[2] عَنكُمۡ﴾ وذلك أن يهود المدينة تمالأوا مع يهود خيبر وبعض العرب على أن يغيروا على دور الأنصار والمهاجرين بالمدينة ليقتلوا من بها وينهبوا ما فيها فكف تعالى أيديهم وصرفهم عما هموا به كرامة للمؤمنين، وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3] أي تلك الصرفة التي صرف فيها قلوب من هموا بالغارة على عائلات وأسر الصحابة بالمدينة وهم غُيّب بالحديبيّة آية تهديهم إلى زيادة التوكل على الله والتفويض إليه والاعتماد عليه. وقوله: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ أي ويسددكم طريقًا واضحًا لا اعوجاج فيه وهو أن تثقوا في أموركم كلها بربكم فتتوكلوا عليه في جميعها فيكفيكم كل ما يهمكم، ويدفع عنكم ما يضركم في مغيبكم وحضوركم.

(٢١) وقوله تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ أي وغنائم أخرى لم تقدروا وهي غنائم الروم وفارس. وقد أحاط الله بها فلم يفلت منها شيء حتى تغزوا تلك البلاد وتأخذوها كاملة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ ومن مظاهر قدرته أن يغنمكم وأنتم أقل عُددًا وعددًا غنائم أكبر دولتين في عالم ذلك الوقت فارس والروم.

(٢٢) وقوله: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝﴾ أي ومن جملة إنعامه عليكم أنه لو قاتلكم أهل مكة وأنتم ببطنها لنصركم الله عليهم ولانهزموا أمامكم مولينكم ظهورهم ولا يجدون وليًا يتولاهم بالدفاع عنهم ولا ناصرًا ينصرهم لأنا سلطناكم عليهم.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي في الأمم السابقة وهي لأنّ الله ينصر أولياءه على أعدائه لا بد فكان هذا كالسنن الكونية التي لا تتبدل، وهو معنى قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

(٢٤) وقوله تعالى في الآية الأخيرة من هذا السياق (٢٤): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ[4] عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ هذه منّة أخرى وكرامة عظيمة وهي أن قريشًا بعثت بثمانين شابًا إلى معسكر رسول الله في الحديبية لعلهم يصيبون غرة من الرسول وأصحابه فينالونهم بسوء فأوقعهم تعالى أسرى في أيدي المسلمين فمنّ الرسول ﷺ عليهم بالعفو فكان ذلك سبب صلح الحديبية. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي مطلعًا عالمًا بكل ما يجري بينكم فهو معكم لولايته لكم.

هداية الآيات:

١ - صدق وعد الله لأصحاب رسوله في الغنائم التي وُعِدوا بها فتحققت كلماته بعد وفاة رسول الله ﷺ وهي غنائم فارس والروم.

---

(١) هذه الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا إذ قوله تعالى: ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ يثير في نفس أحدهم سؤالاً وهو: هل بعد هذا الفتح والغنائم من غنائم أخرى؟ فكان الجواب: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ..﴾ إلخ.. فقولي في التفسير: فعطف ليس هو من باب العطف النحوي وإنما هو من باب الإرداف والإلحاق.

(٢) هذه منة أخرى عظيمة حيث صرف عنهم قتال قريش لهم وإلا لكانوا يتعرضون لأتعاب قد تحول بينهم وبين ما أوتوه من فتح خيبر والفوز بغنائمها.

(٣) ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الجملة علة لأخرى مقدرة وهي ولتشكروه، ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ﴾ إلخ.. أي: كف أيدي الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية.

(٤) روي عن أنس أنه قال: إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غِرة النبي ﷺ وأصحابه فأخذناهم سِلمًا فاستحييناهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ الآية.

٢ - كرامة الله للمؤمنين إذ حمى ظهورهم من خلفهم مرتين الأولى ما همَّ به اليهود من غارة على عائلات وأسر الصحابة بالمدينة النبويّة، والثانية ما همَّ به رجال من المشركين للفتك بالمؤمنين ليلاً بالحديبية إذ مكّن الله منهم رسوله والمؤمنين، ثم عفا عنهم رسول الله وأطلق سراحهم فكان ذلك مساعدًا قويًا على تحقيق صلح الحديبية.

٣ - بيان سنة الله في أنه ما تقاتل أولياء الله مع أعدائه في معركة إلا نصر الله أولياءه على أعدائه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥، ٢٦]

(٢٥) ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: أي بالله ورسوله ومنعوكم من الوصول إلى المسجد الحرام. ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ[1] مَحِلَّهُۥ﴾[2]: أي ومنعوا الهدي محبوسًا حال بلوغ محله من الحرم. ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾: أي موجودون في مكة. ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾: أي لم تعرفوهم مؤمنين ومؤمنات. ﴿تَطَـُٔوهُمْ﴾: أي قتلاً لهم عند قتالكم المشركين بمكة. ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: أي إثم وديات قتل الخطأ وعتق أو صيام لأذن لكم الله تعالى في دخول مكة. ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: أي لم يؤذن لكم في دخول مكة فاتحين ليدخل الله في الإسلام من يشاء. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: أي لو تميزوا فكان المؤمنون على حدة والكافرون على حدة لأذنا لكم في الفتح وعذبنا الذين كفروا بأيديكم عذابًا أليمًا وذلك بضربهم وقتلهم.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾: أي لعذبناهم إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية وهي الأنفة المانعة من قبول الحق ولذا منعوا الرسول وأصحابه من دخول مكة وقالوا كيف يقتلون أبناءنا ويدخلون بلادنا واللات والعزى ما دخلوها. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي فهمَّ الصحابة أن يخالفوا أمر رسول الله بالصلح فأنزل الله سكينته عليهم فرضوا ووافقوا فتم الصلح. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: أي ألزمهم كلمة لا إله إلا الله إذ هي الواقية من الشرك. ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: أي أجدر بكلمة التوحيد وأهلاً للتقوى. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾: أي من أمور عباده وغيرها ومن ذلك علمه بأهلية المؤمنين وأحقيتهم بكلمة التقوى «لا إله إلا الله».

معنى الآيتين:

(٢٥) ما زال السياق الكريم في الحديث عن صلح الحديبية فقال تعالى في المشركين ذامًا لهم عائبًا عليهم صنيعهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي بالله ورسوله وصدوكم عن المسجد الحرام أن تدخلوه وأنتم محرمون والهدي معكوفًا أي وصدوا الهدي[3] والحال أنه محبوس يُنْتَظَرُ به دخول مكة لينحر وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ[4] مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ بمكة لم تعلموهم لأنهم كانوا يخفون إسلامهم غالبًا، كراهة أن تطأوهم أثناء قتالكم المشركين فتصيبكم منهم معرّة بغير علم[5] منكم بهم والمعرة العيب والمراد به هنا التبعة وما يلزم من قتل المسلم خطأ من الكفارة والدية لولا هذا لأذن لكم في دخول مكة غازين فاتحين لها. وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن

---

(١) جائز أن يكون: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ بدل اشتمال من الهدي، وجائز أن يكون معمولاً لحرف جر محذوف وهو (عن) أي عن أن يبلغ محله.

(٢) المحِل بكسر الحاء: مَحَلَّ الحِلّ مشتق من فعل حَلَّ ضد حرُم أي المكان الذي يحل فيه نحر الهدي، وذلك بمكة عند المروة بالنسبة للعمرة، ومنى بالنسبة للحج.

(٣) الهدي، والهدي بكسر الدال وتشديد الياء: لغتان، والواحدة هدية.

(٤) كسلمة بن هشام وعباس بن أبي ربيعة وأبي جندل بن سهيل وأشباههم، وجواب لولا محذوف تقديره: لإذن الله لكم في دخول مكة ولسلطانكم عليهم.

(٥) ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيه تفضيل للصحابة وإخبار عن كمالهم في الخلق والدين، وهذا كقول النملة في سليمان وجنوده: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿يَشَآءُ﴾ أي لم يأذن لكم في القتال ورضي لكم بالصلح ليدخل في رحمته من يشاء فالمؤمنون نالتهم رحمة الله إذ لم يؤذوا بدخولكم مكة فاتحين والمشركون قد يكون تأخر الفتح سببًا في إسلام من شاء الله تعالى له الإسلام لا سيما عندما رأوا رحمة الإسلام تتجلى في ترك القتال رحمة بالمؤمنين والمؤمنات حتى لا يتعرضوا للأذى فدين يراعي هذه الأخوة دين لا يحرم منه عاقل. وقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا[1]﴾ أي لو تميّز المؤمنون والمؤمنات عن المشركين بوجودهم في مكان خاص بهم لأذنَّا لكم في دخول مكة وقتال المشركين وعذّبناهم بأيديكم عذابًا أليمًا.

(٢٦) وقوله: ﴿إِذْ[2] جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ[3] حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ هذا تعليل للإذن بقتال المشركين في مكة وتعذيبهم العذاب الأليم لولا وجود مؤمنين ومؤمنات بها يؤذيهم ذلك، والمراد من الحمية الأنفة والتعاظم وما يمنع من قبول الحق والتسليم به وهذه من صفات أهل الجاهلية فقد قالوا، كيف نسمح لهم بدخول بلادنا وقد قتلوا أبناءنا واللات والعزى ما دخلوا علينا أبدًا، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك لما همَّ المؤمنون بعدم قبول الصلح لما فيه من التنازل الكبير للمشركين وهم على الباطل والمؤمنون على الحق فلما حصل هذا في نفوس المؤمنين أنزل الله سكينته عليهم وهي الطمأنينة والوقار والحلم فرضوا بالمصالحة وتمت وكان فيها خير كثير حتى قيل فيها إنها فتح أوّلي أو فاتحة فتوحات لا حدَّ لها. وقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ[4] وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي وشرف الله وأكرم المؤمنين بإلزامهم التشريعي بكلمة لا إله إلا الله. إذ هي كلمة التقوى أي الواقية من الشرك والعذاب في الدارين وجعلهم أحق بها وأهلها. أي أجدر من غيرهم بكلمة التوحيد وأكثر أهلية للتقوى وكان الله بكل شيء عليمًا ومن ذلك علمه بأهلية أصحاب رسول الله بما جعلهم أهلاً له من الإيمان والتقوى.

هداية الآيتين:

١ - بيان حكم المحصر وهو من منع من دخول المسجد الحرام وهو محرم بحج أو بعمرة فإنه يتحلل بذبح هدي ويعود إلى بلاده، ويذبح الهدي حيث أُحصِر، وليس واجبًا إدخاله إلى الحرم.

٢ - الأخذ بالحيطة في معاملة المسلمين حتى لا يؤذى مؤمن أو مؤمنة بغير علم.

٣ - بيان أن كلمة التقوى هي لا إله إلا الله.

٤ - الإشارة إلى ما أصاب المسلمين من ألم نفسي من جراء الشروط القاسية التي اشترطها ممثل قريش ووثيقة الصلح. وهذا نص الوثيقة وما تحمله من شروط لم يقدر عليها إلاّ رسول الله بما آتاه الله من العلم والحكمة والحلم والصبر والوقار، ولمَّا أنزل الله ذلك على المؤمنين من السكينة فحملوها وارتاحت نفوسهم لها نص الوثيقة: «ورد أن قريشًا لما نزل النبي ﷺ الحديبية بعثت إليه ثلاثة رجال هم سهيل بن عمرو القرشي، وحويطب بن عبدالعزى ومكرز بن حفص على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن يخلي له قريش مكة من العام المقبل ثلاثة أيام فقبل ذلك وكتبوا بينهم كتابًا فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب: اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم فقالوا: ما نعرف هذا

---

(١) ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: تميزوا وتفرقوا. و﴿لَوْ﴾ حرف امتناع لامتناع، امتنع الشرط وهو التفرق، فامتنع التسلط، والقتل بالإذن للمسلمين بقتالهم وقتلهم. وفي هذا دليل على أنه لا يجوز إغراق باخرة للكافرين فيها مسلمون، ولا ضرب حصن بالقذائف داخله مسلمون وهو ما رآه مالك.

(٢) يجوز أن يكون الظرف ﴿إِذْ﴾ متعلقًا بقوله تعالى: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ وجائز أن يعلق بمحذوف تقديره: واذكروا إذ جعل إلخ..

(٣) قال الزهري: حميتهم أنفتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة والاستفتاح بسم الله الرحمٰن الرحيم ومنعهم من دخول مكة.

(٤) ورد في ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ آثار منها: أنها لا إله إلا الله، ومنها أنها لا إله إلا الله محمد رسول الله، ومنها أنها: لا إله إلا الله والله أكبر، ومنها أنها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، والكل حق لا باطل فيه.

اكتب باسمك اللهم، فكتب ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله أهل مكة فقال النبي ﷺ: **«اكتب ما يريدون»** فهمَّ المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقّروا وحلموا وتم الصلح على ثلاثة أشياء هي:

١ - أنَّ من أتاهم من المشركين مسلمًا ردوه إليهم.

٢ - أنَّ من أتاهم من المسلمين لم يردوه إليهم.

٣ - أن يدخل الرسول والمؤمنون مكة من عام قابل ويقيمون بها ثلاثة أيام لا غير ولا يدخلها بسلاح.

فلما فرغ من الكتاب قال ﷺ لأصحابه: **«قوموا فانحروا ثم احلقوا»**.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧، ٢٨]

(٢٧) ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾: أي جعل الله رؤيا رسوله التي رآها في النوم عام الحديبية حقًا. ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾: هذا مضمون الرؤيا أي لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾: أي حالقين جميع شعوركم أو مقصرينها. ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: أي أبدًا حال الإحرام وبعده. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾: أي في الصلح الذي تَمَّ، أي لم تعلموا من ذلك المعرة التي كانت تلحق المسلمين بقتالهم إخوانهم المؤمنين وهم لا يشعرون. ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: هو فتح خيبر وتحققت الرؤيا في العام القابل.

(٢٨) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: فلذا لا يخلفه رؤياه بل يصدقه فيها. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ﴾: أي ليُعليه على سائر الأديان بنسخ الحق فيها، وإبطال الباطل فيها، أو بتسليط المسلمين على أهلها فيحكمونهم. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾: أي إنك مرسل بما ذكر أي بالهدى ودين الحق.

معنى الآيتين:

(٢٧) ما زال السياق في صلح الحديبية وما تم فيه من أحداث فقال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾ أي محمدًا ﷺ ﴿ٱلرُّءْيَا﴾[(١)] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾[(٢)] أي الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ وأخبر بها أصحابه عند خروجهم من المدينة إلى مكة فقد أخبر بها أصحابه فسروا بذلك وفرحوا ولما تم الصلح بعد جهاد سياسي وعسكري مرير، وأمرهم الرسول أن ينحروا ويحلقوا اندهشوا لذلك وقال بعضهم: أين الرؤيا التي رأيت؟ (٢٨) ونزلت سورة الفتح عند منصرفهم من الحديبية وفيها قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٣)] ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ﴾[(٤)] ﴿رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾، وقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق فلما جاء العام القابل وفي نفس الأيام من شهر القعدة خرج رسول الله والمسلمون محرمين يُلبون وأخلت لهم قريش المسجد الحرام فطافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة وتحللوا من عمرتهم فمنهم المحلق ومنهم المقصر.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ فأثبت الصلح وقرره لأنه لو كان قتال ولم يكن صلح لهلك المؤمنون بمكة والمؤمنات بالحرب وتحصل بذلك معرة كبرى للمسلمين الذين قتلوا إخوانهم في الإسلام هذا من بعض

---

(١) روي أن أبا بكر رضي الله عنه قال: إن المنام لم يكن موقتًا بوقت أي: فقد تتأخر الرؤيا سنوات أو شهورًا أو أيامًا فكان ما بين رؤيا رسول الله ﷺ وظهور مصداقها في الواقع سنة كاملة.

(٢) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، وهو ظرف مستقر وقع صفة لمصدر محذوف تقديره أي: صدقًا ملابسًا للحق.

(٣) ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هل هذا الاستثناء من جملة ما رآه النبي ﷺ في منامه فأعاده كما سمعه في الرؤيا ويكون هذا تعليمًا من الله عز وجل للمؤمنين أن يقولوا مثله في كل ما هو مستقبل من الأقوال والأعمال أو قاله رسول الله ﷺ عملًا بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

(٤) ﴿ءَامِنِينَ﴾ و﴿مُحَلِّقِينَ﴾ و﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾: منصوبة على الحال، وجملة ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ في موضع الحال أيضًا مؤكدة لـ﴿ءَامِنِينَ﴾ الحال.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾

ترتيبها ٤٩ — سورة الحجرات — آياتها ١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)﴾

٥١٥

الأمور التي اقتضت الصلح وترك القتال وقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الصلح[1] فتح، وفتح خيبر فتح، وفتح مكة فتح، وكلها من الفتح القريب. وقوله: هو الذي أرسل رسوله، أي محمد بالهدى ودين الحق أي الإسلام فكيف إذًا لا يصدقه رؤياه كما ظن البعض وكفى بالله شهيدًا على أنك يا محمد مرسل بما ذكر تعالى من الهدى والدين الحق وإظهاره على الدين كله بنسخ الحق الذي فيه وإبطال الباطل الذي ألصق به. أو بتسليط المسلمين على قهر وحكم أهل تلك الأديان الباطلة وقد حصل من هذا شيء كبير.

هداية الآيتين:

١ - تقرير أن رؤيا الأنبياء حق.

٢ - تعبير الرؤيا قد يتأخر سنة أو أكثر.

٣ - مشروعية الحلق والتقصير للتحلل من الحج أو العمرة وإن الحلق أفضل لتقدمه.

٤ - مشروعية قول إن شاء الله في كل قول أو عمل يراد به المستقبل.

٥ - الإسلام هو الدين الحق وما عداه فباطل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٩]

(٢٩) ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾: أي أصحابه رضوان الله عليهم. ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾: أي غلاظ لا يرحمونهم. ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾: أي متعاطفون متوادون كالوالد مع الولد. ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: أي تبصرهم ركعًا سجدًا أي راكعين ساجدين. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾: أي يطلبون بالركوع والسجود ثوابًا من ربهم هو الجنة ورضوانًا هو رضاه عز وجل. ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾: أي نور وبياض يعرفون به يوم القيامة أنهم سجدوا في الدنيا. ﴿ذَلِكَ﴾: أي الوصف المذكور. ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾: أي صفتهم في التوراة كتاب موسى عليه السلام. ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾: أي فراخه. ﴿فَآزَرَهُ﴾: أي قواه وأعانه. ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى﴾: أي غلظ واستوى أي قوي. ﴿عَلَى سُوقِهِ﴾: جمع ساق أي على أصوله. ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾: أي زارعيه لحسنه. ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾: هذا تعليل أي قواهم وكثرهم ليغيظ بهم الكفار.

معنى الآية:

(٢٩) لما أخبر تعالى أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله شهادة منه بذلك أخبر أيضًا عنه بما يؤكد تلك الشهادة فقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ[2] رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من أصحابه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ أي غلاظ قساة عليهم، وذلك لأمرين: الأول أنهم كفروا بالله وعادوه ولم يؤمنوا به ولم يجيبوه، والله يبغضهم لذلك فهم إذًا غلاظ عليهم لذلك. والثاني: أن الغلظة والشدة قد تكون سببًا في هدايتهم لأنهم يتألمون بها، ويرون خلافها مع المسلمين فيسلمون فيرحمون ويفوزون. وقوله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي فيما بينهم يتعاطفون يتراحمون فترى أحدهم

---

(١) ومن أنواع الفتح القريب ما تم بالهدنة من دخول الناس في الإسلام إذ أصبح الناس آمنين فيتصلون بالمؤمنين ويتعرفون إلى الإسلام ويدخلون فيه، فدخل في الإسلام أعداد هائلة في هذه الهدنة.

(٢) جائز الوقف على ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، ويبدأ الكلام: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ..﴾ إلخ.. وهو الأشبه، وجائز أن يكون: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ عطف على ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ والخبر: ﴿أَشِدَّاءُ..﴾ إلخ..

يكره أن يمس جسمه أو ثوبه جسم الكافر أو ثوبه، وتراه مع المسلم إذا رآه صافحه وعانقه ولاطفه وأعانه وأظهر له الحب والود. وقوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ أي تبصرهم أيها المخاطب ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾[١] أي راكعين ساجدين في صلواتهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي يطلبون بصلاتهم بعد إيمانهم وتعاونهم وتحاببهم وتعاطفهم مع بعضهم، يطلبون بذلك ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي الجنة ورضا الله. وهذا أسمى ما يطلب المؤمن أن يدخله الله الجنة بعد أن ينقذه من النار ويرضى عنه. وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ[٢] فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي علامات إيمانهم وصفائهم في وجوههم من أثر السجود إذ يبعثون يوم القيامة غرًا محجلين من آثار الوضوء ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ وفي الدنيا عليهم سيما التقوى والصلاح والتواضع واللين والرحمة. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور ﴿مَثَلُهُمْ فِى[٣] ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ[٤] شَطْـَٔهُۥ﴾ أي فراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي قواه وأعانه ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي غلظ ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي قوي ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق ما يحمل السنبلة من أصل لها ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي الزارعين له وذلك لحسنه وسلامة ثمرته وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ[٥] ٱلْكُفَّارَ﴾ أي قواهم وكثرهم من أجل أن يغيظ بهم الكفار ولذا ورد عن مالك بن أنس رحمه الله تعالى أن من يغيظه أصحاب رسول الله فهو كافر وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ أي لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ هو الجنة. هذا وعد خاص بأصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم وهناك وعد عام لسائر المؤمنين والمؤمنات وذلك في آيات أخرى مثل آية المائدة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝﴾.

هداية الآية الكريمة:

١ - تقرير نبوة رسول الله وتأكيد رسالته.

٢ - بيان ما كان عليه رسول الله وأصحابه من الشدة والغلظة على الكفار والعطف والرحمة على أهل الإيمان وهذا مما يجب الاتساء بهم فيه والاقتداء.

٣ - بيان فضل الصلاة ذات الركوع والسجود والطمأنينة والخشوع.

٤ - صفة أصحاب رسول الله في كل من التوراة والإنجيل ترفع من درجتهم وتعلي من شأنهم.

٥ - بيان أن أصحاب رسول الله ﷺ بدأوا قليلين ثم أخذوا يكثرون حتى كثروا كثرة أغاظت الكفار.

٦ - بُغض أصحاب رسول الله ﷺ يتنافى مع الإيمان منافاة كاملة لا سيما خيارهم وكبارهم كالخلفاء الراشدين الأربعة والمبشرين بالجنة العشرة وأصحاب بيعة الرضوان، وأهل بدر قبلهم. ولذا روي عن مالك رحمه الله تعالى: أن من[٦] يغيظه أصحاب رسول الله ﷺ فهو كافر.

❁ ❁ ❁

---

(١) إخبار بكثرة ركوعهم وسجودهم وهو كذلك، إذ لم ترَ الدنيا أكثر من المسلمين ركوعًا وسجودًا من سائر الأمم التي دانت لله بالإسلام.

(٢) السيما: العلامة ولها ثلاثة مظاهر، الأول: هو يبوسة في الجبهة ولا يتعمدونها ولكنها تحدث من كثرة السجود على الأرض، والثاني: الأثر النفسي من التواضع والخشوع ونور الصلاح. والثالث: نور يوم القيامة يعلو وجوههم ويشهد له قوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ الآية.

(٣) موجود في التوراة قبل تحريفها إذ فيها نعوت هذه الأمة ونعوت نبيها محمد ﷺ وهي إلى الآن واليهود يتأولونها هروبًا من الحق حتى لا يُلزموا به.

(٤) فراخ الزرع فروع الحبة منه.

(٥) الجملة تعليلية لما سبقها من صفات أصحاب النبي ﷺ أي: وهبهم ذلك الكمال ليغيظ بهم الكفار.

(٦) الرواية كما رواها القرطبي هي: روى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير قال: كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ..﴾ حتى بلغ: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ فقال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. يريد ألزمته بالكفر.

سورة الحجرات
وآياتها ثماني عشرة آية
وهي بداية المفصل[١]

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٣]

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا﴾: أي لا تتقدموا بقول ولا فعل إذ هو من قدم بمعنى تقدم. ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: كمن ذبح يوم العيد قبل أن يذبح رسول الله ﷺ، وكإرادة أحد الشيخين تأمير رجل على قوم قبل استشارة الرسول ﷺ. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي خافوا الله إنه سميع لأقوالكم عليم بأعمالكم.

(٢) ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾: أي إذا نطقتم فوق صوت النبيّ إذا نطق. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾: أي إذا ناجيتموه فلا تجهروا في محادثتكم معه كما تجهرون فيما بينكم إجلالاً له ﷺ وتوقيرًا وتقديرًا. ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾: أي كراهة أن تبطل أعمالكم فلا تُثابون عليها. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: بحبوطها وبطلانها. إذ قد يصحب ذلك استخفاف بالنبيّ ﷺ لا سيما إذا صاحب ذلك إهانة وعدم مبالاة فهو الكفر والعياذ بالله.

(٣) ﴿يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾: أي يخفضونها حتى لكأنهم يسارونه ومنهم أبو بكر رضي الله عنه. ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾: أي شرحها ووسعها لتتحمل تقوى الله. مأخوذ من محن الأديم إذا وسعه. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: أي مغفرة لذنوبهم وأجر عظيم وهو الجنة.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢] لو بحثنا عن المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها لتجلت لنا واضحة إذا رجعنا بالذاكرة إلى موقف عمر رضي الله عنه وهو يريد أن لا يتم صلح بين المؤمنين والمشركين، وإلى موقف الصحابة كافة من عدم التحلل من إحرامهم ونحر هداياهم والرسول يأمر وهُم لا يستجيبون حتى تقدمهم ﷺ فنحر هديه ثم نحروا بعده وتحللوا، إذ تلك المواقف التي أشرنا إليها فيها معنى تقديم الرأي والقول بين يدي الله ورسوله وفي ذلك مضرة لا يعلم مداها إلا الله، ولما انتهت تلك الحال وذلك الظرف الصعب أنزل الله تعالى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بالله ربًا وإلهًا وبالإسلام شرعة ودينًا وبمحمد نبيًا ورسولاً، ناداهم بعنوان الإيمان ليقول لهم ناهيًا: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ[٣] يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي قولاً ولا عملاً ولا رأيًا ولا فكرًا أي لا تقولوا ولا تعملوا إلا تبعًا لما قال الله ورسوله، وشرع الله ورسوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ذلك فإن التقدم بالشيء قبل أن يشرع الله ورسوله فيه معنى أنكم أعلم وأحكم من الله ورسوله وهذه زلة كبرى وعاقبتها سوأى. ولذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم وأحوالكم. ومن هنا فواجب المسلم أن لا يقول ولا يعمل[٤] ولا يقضي ولا يُفتَى برأيه إلا إذا علم قول الله ورسوله وحكمهما وبعد أن يكون قد علم أكثر أقوال الله والرسول وأحكامهما، فإذا لم يجد من ذلك شيئًا اجتهد[٥] فقال أو عمل بما يراه

---

(١) أشهر الأقوال أن أوّل المفصل (الحجرات) وأول وسط المفصل (عبس) وأو قصار المفصل (والضحى) هذا أشهر أقوال المالكية، وطلب هذا لأجل الصلاة المفروضة ففي الصبح يستحب القراءة بطوال المفصل وفي الظهر والعشاء بمتوسطه وفي المغرب بقصاره.

(٢) ذكر لسبب نزول هذه السورة عدة روايات منها ما ذكره الواحدي ورواه البخاري وهو أن ركبًا من بني تميم قدم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: أمّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . .﴾ إلخ . .

(٣) هذه السورة نزلت في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب زيادة على ما تضمنت من الأحكام الشرعية والهدايات القرآنية.

(٤) ومن هنا قال العلماء: لا يحل لامرىء مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه.

(٥) شاهده حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بمَ تحكم؟» قال: بكتاب الله تعالى، قال ﷺ «فإن لم تجد؟» قال: بسنّة رسول الله، قال ﷺ «فإن لم تجد؟» قال رضي الله عنه: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب في صدره وقال: «**الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله**».

أقرب إلى رضا الله تعالى فإذا لاح له بعد ذلك نص من كتاب أو سنة عدل عن رأيه وقال بالكتاب والسنة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١).

(٢) أما الآية الثانية (٢) وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فإنها تطالب المسلم بالتأدب مع رسول الله ﷺ فأولاً نهاهم رضي الله عنهم عن رفع أصواتهم فوق صوت رسول الله ﷺ إذا هم تحدثوا معه وأوجب عليهم إجلال النبي وتعظيمه وتوقيره بحيث يكون صوت أحدهم إذا تكلم مع رسول الله أخفض من صوت الرسول ﷺ ولقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه[1] إذا كلّم رسول الله يساره الكلام مسارة وثانيًا نهاهم إذا هم ناجوا رسول الله ﷺ أن لا يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض بل يجب عليهم توقيره وتعظيمه. وأعلمهم أنه يخشى عليهم إذا هم لم يوقروا رسول الله ولم يجلوه أن تحبط أعمالهم كما تحبط بالشرك والكفر وهم لا يشعرون. إذْ رَفْعُ الصوت للرسول ونداؤه بأعلى الصوت يا محمد يا محمد أو يا نبيّ الله ويا رسول الله وبأعلى الأصوات إذا صاحبه استخفاف أو إهانة وعدم مبالاة صار كفرًا محبطًا للعمل قطعًا.

(٣) وفي الآية الثالثة (٣) يثني الله تعالى على أقوام يغضون أصواتهم أي يخفضونها عند رسول الله أي في حضرته وبين يديه كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما هؤلاء يخبر تعالى أنه امتحن قلوبهم للتقوى أي وسعها وشرحها لتحمل تقوى الله والرسول ﷺ يقول: «**التقوى[2] ها هنا**» ويشير إلى صدره ثلاثًا، ويذكر لهم بشرى نعم البشرى وهي أن لهم منه تعالى مغفرة لذنوبهم، وأجرًا عظيمًا يوم يلقونه وهو الجنة دار المتقين جعلنا الله منهم بفضله ورحمته.

هداية الآيات:

١ - لا يجوز للمسلم أن يقدم رأيه أو اجتهاده على الكتاب والسنة فلا رأي ولا اجتهاد إلاّ عند عدم وجود نص من كتاب أو سنة وعليه إذا اجتهد أن يكون ما اجتهد فيه أقرب إلى مراد الله ورسوله، أي ألصق بالشرع، وإن ظهر له بعد الاجتهاد نص من كتاب أو سنة عاد إلى الكتاب والسنة وترك رأيه أو اجتهاده فورًا وبلا تردد.

٢ - بما أن الله تعالى قد قبض إليه نبيّه ولم يبق بيننا رسول الله نتكلم معه أو نناجيه فنخفض أصواتنا عند ذلك فإن علينا إذا ذكر رسول الله بيننا أو ذكر حديثه أن نتأدب عند ذلك فلا نضحك ولا نرفع الصوت، ولا نظهر أي استخفاف أو عدم مبالاة وإلا يخشى علينا أن تحبط أعمالنا ونحن لا نشعر.

٣ - على الذين يغشون مسجد رسول الله ﷺ أن لا يرفعوا أصواتهم فيه إلا لضرورة درس أو خطبة أو أذان أو إقامة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤ ـ ٨]

(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾: أي حجرات نسائه والذين نادوه وفد من أعراب بني تميم منهم الزّبرقان بن بدر والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن. ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾: أي فيما فعلوه بمحلك الرفيع ومقامك السامي الشريف.

(٥) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾: أي ولو أنهم انتظروك حتى تخرج بعد قيامك من قيلولتك. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: أي من ذلك النداء بأعلى أصواتهم من كل أبواب الحجرات. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي غفور لمن تاب منهم رحيم بهم إذ أساءوا مرتين الأولى برفع أصواتهم، والثانية كانوا ينادونه ويقولون أن اخرج إلينا فإن مدحنا زين وذمنا شين.

(٦) ﴿فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾: أي ذو فسق وهو المرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب والنبأ الخير ذو الشأن.

---

(١) روى البخاري أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه فأتاه فوجده في بيته منكسًا رأسه فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، مَن كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال: «**اذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة**».

(٢) هذا بعض حديث صحيح أخرجه غير واحد من أصحاب السنن.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: أي تثبتوا قبل أن تقولوا أو تفعلوا أو تحكموا: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾: أي خشية إصابة قوم بجهالة منكم. ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾: أي فتصيروا على فعلكم الخاطىء نادمين.

﴿٧﴾ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾: أي فاحذروا أن تكذبوا أو تقولوا الباطل فإن الوحي ينزل وتفضحون بكذبكم وباطلكم. ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾: أي لوقعتم في المشقة الشديدة والإثم أحيانًا. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾: أي بغّض إلى قلوبكم الكفر والفسوق كالكذب والعصيان بترك واجب أو فعل محرم. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾: أي الذين فعل بهم ما فعل من تحبيب الإيمان وتكريه الكفر وما ذكر معه هم الراشدون أي السالكون سبيل الرشاد.

﴿٨﴾ ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾: أي أفضل بذلك عليهم فضلاً وأنعم إنعامًا ونعمة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: أي عليم بخلقه وما يعملون حكيم في تدبيره لعباده هذا بعامة وبخاصة عليم بأولئك الراشدين حكيم في إنعامه عليهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تأديب المؤمنين إزاء نبيهم ﷺ فقد عاب تعالى أقوامًا معهم جفاء وغلظة قيل أنهم وفد من أعراب بني تميم منهم الزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن جاءوا والرسول قائل وقت القيلولة ووقفوا على أبواب الحجرات[1] ينادون بأعلى أصواتهم يا محمد يا محمد ﷺ أن اخرج إلينا فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية الكريمة تأديبًا لهم:

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ حجرات نساء الرسول ﷺ وكانت أبواب الحجرات إلى المسجد. ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا[2] يَعْقِلُونَ﴾ أي فيما فعلوه بمقام الرسول الشريف ومكانته الرفيعة.

﴿٥﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ بعد هبوبك من قيلولتك ﴿لَكَانَ[3] خَيْرًا﴾ أي من ذلك النداء بتعالي الأصوات من وراء الحجرات. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لمن تاب منهم رحيم بهم إذ لم يعجل لهم العقوبة وفتح لهم باب التوبة وأدّبهم ولم يعنف ولم يغلظ، وقوله تعالى في الآية الثالثة من هذا السياق (٦):

﴿٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ[4] بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ[5]﴾ هذه الآية وإن كان لها سبب في نزولها وهو أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأتي بزكاة

---

(١) ﴿الْحُجُرَاتِ﴾ جمع حجرة وهي تسع تدخل ضمن البيت النبوي.

(٢) هذا الاحتراس دال على أن من الوفد من كان متأدبًا مع رسول الله ﷺ فلم يناد نداءهم بصوت عال وألفاظ نابية لا تليق بمقام الرسول ﷺ.

(٣) أي: لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم، وكان النبي ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب.

(٤) فسر الفاسق بالكاذب وبالمعلن بالذنب، وبالذي لا يستحي من الله وهو قابل لكل ما ذكر.

(٥) ﴿أَن تُصِيبُوا﴾ أي: لئلا تصيبوا.

أموالهم، وكان بينهم وبين أسرة الوليد عداء في الجاهلية فذكره الوليد وهاب أن يدخل عليهم دارهم وهذا من وسواس الشيطان فرجع وستر على نفسه الخوف الذي أصابه فذكر أنهم منعوه الزكاة وهموا بقتله فهرب منهم فغضب رسول الله ﷺ وهَمَّ بغزوهم. وما زال كذلك حتى أتى وفد منهم يسترضي رسول الله ويستعتب عنده خوفًا من أن يكون قد بلغه عنهم سوء فأخبروه بأنهم على العهد وأن الوليد رجع من الطريق ولم يصل إليهم وبعث الرسول خالد بن الوليد من جهة فوصل إليهم قبل المغرب فإذا بهم يؤذنون ويصلون المغرب والعشاء فعلم أنهم لم يرتدوا وأنهم على خير والحمد لله. وجاء بالزكوات، وأنزل الله تعالى هذه الآية قلت إن هذه الآية وإن نزلت في سبب معين فإنها عامة، وقاعدة أساسية هامة فعلى الفرد والجماعة والدولة أن لا يقبلوا من الأخبار التي تنقل إليهم ولا يعملوا بمقتضاها إلا بعد التثبت والتبين الصحيح كراهية أن يصيبوا فردًا أو جماعة بسوء بدون موجب لذلك، ولا مقتضٍ إلا قالة سوء وفرية قد يريد بها صاحبها منفعة لنفسه بجلب مصلحة أو دفع مضرة عنه. فالأخذ بمبدأ التثبت والتبين عند سماع خبر من شخص لم يعرف بالتقوى والاستقامة الكاملة والعدالة التامة واجب صونًا لكرامة الأفراد وحماية لأرواحهم وأموالهم. والحمد لله على شرع عادل رحيم كهذا. فقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ﴾ المراد بالفاسق من يرتكب كبيرة من كبائر الذنوب كالكذب مثلاً، والنبأ الخبر ذو الشأن والتبيّن التثبت وقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أن تصيبوهم في أبدانهم وأموالهم بعدم علم منكم وهي الجهالة وقوله: ﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ أي من جرَّاء ما اتخذتم من إجراء خاطىء.

⑦ وقوله تعالى في الآية (٧): ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ يلفت الربّ تعالى نظر المسلمين إلى حقيقة هم غافلون عنها وهو وجود الرسول ﷺ حيًا بينهم ينزل عليه الوحي فإن هذه حال تتطلب منهم التزام الصدق في القول والعمل وإلاّ يفضحهم الوحي فورًا إن هم كذبوا في قول أو عمل كما فضح الوليد لما أخبر بغير الحق. هذا أولاً وثانيًا لو كان الرسول ﷺ يطيعهم في كل ما يرونه ويقترحونه لوقعوا في مشاكل تُعرّضهم لمشاق لا تطاق، بل وفي آثام عظام. هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ[١] فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ[٢] إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ فوقاكم كثيرًا من أن تكذبوا على رسولكم أو تقترحوا عليه أو تفرضوا آراءكم. وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[٣] أي أولئك أصحاب رسول الله هم السالكون سبيل الرشاد فلا يتهوكون ولا يضلون.

⑧ وقوله: ﴿فَضْلًا[٤] مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾، أي هدايتهم كانت فضلا من الله ونعمة، والله عليم بهم وبنياتهم وبواعث نفوسهم حكيم[٥] في تدبيره فأهّل أصحاب رسول الله للخير وأضفاه عليهم فهم أفضل هذه الأمة على الإطلاق ولا مطمع لأحد أتى بعدهم أن يفوقهم في الفضل والكمال في الدنيا ولا في الآخرة فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين وعنا معهم آمين.

هداية الآيات:

١ ـ بيان سمو المقام المحمدي وشرف منزلته ﷺ.

٢ ـ وجوب التثبت في الأخبار ذات الشأن التي قد يترتب عليها أذى أو ضرر بمن قيلت فيه، وحرمة التسرع

(١) لو: حرف امتناع لامتناع، امتنعت طاعته ﷺ لهم فامتنع عنتهم الذي هو: الوقوع في المشقة والشدة.

(٢) ﴿لَٰكِنَّ﴾ هذه الاستدراكية العاطفة، وهذا الاستدراك ناشىء عن كون بعضهم يحب أن يطيعه رسول الله ﷺ فأعلموا أن الله حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان وجعلهم من الراشدين، فكفاهم خواطر السوء، ورغبات الباطل، فلم يبق مجال للاقتراحات التي تسيء إليهم وإلى جناب نبيهم ﷺ.

(٣) الرشاد، والرشد: ما كان خِلاف الغيّ، والباطل والسيء.

(٤) نصب ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ على المفعولية المطلقة.

(٥) جملة: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلية لما تقدم من قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَنِعْمَةً﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾

المفضي بالأخذ بالظنة فيندم الفاعل بعد ذلك في الدنيا والآخرة.

٣ - من أكبر النعم على المؤمن تحبيب الله تعالى الإيمان إليه وتزيينه في قلبه، وتكريه الكفر إليه والفسوق والعصيان وبذلك أصبح المؤمن أرشد الخلق بعد أصحاب رسول الله ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ - ١٣]

(٩) ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي جماعتان قلَّ أفرادهما أو كثروا من المسلمين. ﴿اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾: أي هموا بالاقتتال أو باشروه فعلاً فأصلحوا ما فسد بينهما. ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾: أي تعدت بعد المصالحة بأن رفضت ذلك ولم ترض بحكم الله. ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾: أي قاتلوا أيها المؤمنون مجتمعين الطائفة التي بغت حتى ترجع إلى الحق. ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾: أي رجعت إلى الحق بعد مقاتلتها فأصلحوا بينهما بالعدل أي بالحق. ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾: أي واعدلوا في حكمكم إن الله يحب أهل العدل.

(١٠) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: أي في الدين الإسلامي. ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾: أي إذا تنازعا شيئًا وتخاصما فيه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي خافوا عقابه رجاء أن ترحموا إن أنتم اتقيتموه.

(١١) ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾: أي لا يزدر قوم منكم قومًا آخرين ويحتقرونهم. ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾: أي عند الله تعالى والعبرة بما عند الله لا ما عند الناس. ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾: أي لا تعيبوا بعضكم بعضًا فإنكم كفرد واحد. ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾: أي لا يدعو بعضكم بعضا بلقب يكرهه نحو يا فاسق يا جاهل. ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾: أي قبح اسم الفسوق يكون للمرء بعد إيمانه وإسلامه. ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: أي من لمز ونبز المؤمنين فأولئك البُعداء هم الظالمون.

(١٢) ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾: أي التهم التي ليس لها ما يوجبها من الأسباب والقرائن. ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾: أي كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين. ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾: أي لا تتبعوا عورات المسلمين وما بهم بالبحث عنها. ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: أي لا يحسن به حب أكل لحم أخيه ميتًا ولا حيًا معًا. ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: أي وقد عرض عليكم الأول فكرهتموه فاكرهوا أي كما كرهتم أكل لحمه ميتًا فاكرهوه حيًا وهو الغيبة.

(١٣) ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾: أي جمع شعب والقبيلة دون الشعب. ﴿لِتَعَارَفُوا﴾: أي ليعرف بعضكم بعضًا فتعارفوا لا للتفاخر بعلو الأنساب. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾: أي أشدكم تقوى لله بفعل أوامره وترك نواهيه هو أكرم عند الله. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: أي عليم بكم وبأحوالكم خبير بما تكونون عليه من كمال ونقص لا يخفى عليه شيء من أشياء العباد.

معنى الآيات:

(٩) قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾[1] الآيات ما زال السياق الكريم في طلب تأديب المسلمين وتربيتهم وإعدادهم للكمال

---

(١) قال مجاهد: نزلت هذه الآية في الأوس والخزرج حيث تقاتل حيّان من الأنصار بالعصي والنعال.

الدنيوي والأخروي ففي الآيتين (٩) و(١٠) من هذا السياق يرشد الله تعالى المسلمين إلى كيفية علاج مشكلة النزاع المسلَّح بين المسلمين الذي قد يحدث في المجتمع الإسلامي بحكم الضعف الإنساني من الوقت إلى الوقت وهو مما يكاد يكون من ضروريات الحياة البشرية وعوامله كثيرة لا حاجة إلى ذكرها فقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ أي جماعتان ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ ولو كان ذلك بين اثنين فقط ﴿فَأَصْلِحُوا۟﴾ أيها المسلمون ﴿بَيْنَهُمَا﴾[١] بالقضاء على أسباب الخلاف وترضية الطرفين بما هو حق وخير وليس هذا بصعب مع وجود قلوب مؤمنة وهداية ربانية وقوله: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي اعتدت إحدى الطائفتين بعد الصلح ﴿عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ بأن رفضت حكم الله الذي قامت المصالحة بموجبه ﴿فَقَٰتِلُوا۟﴾[٢] مجتمعين ﴿ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ أي تعتدي ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي إلى الحق ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ أي أذعنت للحق ورضيت به ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ في حكمكم دائمًا وأبدًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٣].

(١٠) وقوله تعالى في الآية (١٠): ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ[٤] وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يقرر تعالى الأخوة الإسلامية ويقصر المؤمنين عليها قصرًا فليس المؤمنون إلا إخوة لبعضهم بعضًا ولذا وجب رَأْبُ كلّ صدع وإصلاح كل فساد يظهر بين أفرادهم وعدم التساهل في ذلك ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في ذلك فلا تتوانوا أو تتساهلوا حتى تسفك الدماء المؤمنة ويتصدع بنيان الإيمان والإسلام في دياره. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فلا يتصدع بنيانكم ولا تتشتت أمتكم وتصبح جماعات وطوائف متعادية يقتل بعضها بعضًا. ولما لم يتق المؤمنون الله في الإصلاح الفوري بين الطوائف الإسلامية المتنازعة حصل من الفساد والشر ما الله به عليم في الغرب الإسلامي والشرق.

(١١) وقوله في الآية (١١): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ إذ من عوامل النزاع والتقاتل وأسبابهما سخرية المؤمن بأخيه واحتقاره لضعف حاله ورثاثة ثيابه وقلة ذات يده فحرم تعالى بهذه الآية على المسلم أن يحتقر أخاه المسلم ويزدريه منبهًا إلى أن من احتقر وازدري به وسخر منه قد يكون غالبًا خيرًا عند الله من المحتقر له والعبرة بما عند الله لا بما عند الناس والرجال في هذا والنساء سواء فلا يحل لمؤمنة أن تزدري وتحتقر أختها المؤمنة عسى أن تكون عند الله خيرًا منها منزلة والعبرة بالمنزلة عند الله لا عند الناس وكما حرم السخرية بالمؤمنين والمؤمنات لإفضائها إلى العداوة والشحناء ثم التقاتل حرم كذلك اللمز والتنابز بالألقاب فقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ ومعنى لا تلمزوا أنفسكم أي لا يعب[٥] بعضكم بعضًا بأي عيب من العيوب فإنكم كشخص واحد فمن عاب أخاه المسلم كأنما عاب نفسه كما أن المعاب قد يرد العيب بعيب من عابه وهذا معنى ولا

---

(١) قال القرطبي: بالدعاء إلى كتاب الله لهما أو عليهما وقضاء رسول الله ﷺ كذلك كما قال معاذ: أحكم بكتاب الله فإن لم أجد فبسنة رسول الله.

(٢) هذه الآية نص صريح في وجوب قتال أهل البغي، وهم الذين يخرجون عن إمام المسلمين ظلمًا وعدوانًا بعد دعوتهم إلى الطاعة لله ورسوله ﷺ وإمام المسلمين، ولا التفات إلى مَن يرى غير هذا، ومن أحكام قتال أهل البغي أنه لا يقتل أسيرهم ولا يذفف على جريحهم أي لا يجهز عليه قتلاً ولا تسبى ذراريهم ولا نساؤهم ولا أموالهم.

(٣) روى مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «**المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور عن يمين العرش: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلوا**».

(٤) الآية دليل على أن اسم الإيمان لا يزول بالبغي فإن الله تعالى قال: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فأثبت أخوة الإيمان ولم يسقطها بالبغي. روي أن عليًا سئل عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفين، أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فرّوا فقيل: أمنافقون؟ قال: لا لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، فقيل له: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

(٥) قال عبدالله بن مسعود: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبًا.

تلمزوا أنفسكم وقوله: ولا تنابزوا بالألقاب أي لا يلقب المسلم أخاه بلقب يكرهه فإن ذلك يفضي إلى العداوة والمقاتلة وقوله: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي قبح أشد القبح أن يلقب المسلم بلقب الفسق بعد أن أصبح مؤمنًا عدلاً كاملاً في أخلاقه وآدابه فلا يحل لمؤمن أن يقول لأخيه يا فاسق أو يا كافر أو يا عاهر أو يا فاسد، إذ بئس الاسم اسم الفسوق كما أن الملقب للمسلم بألقاب السوء يعد فاسقًا وبئس الاسم له أن يكون فاسقًا بعد إيمانه بالله ولقائه والرسول وما جاء به، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أي من احتقار المسلمين وازدرائهم وتلقيبهم بألقاب يكرهونها ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتعرضون لغضب الله وعقابه.

(١٢) وقوله في الآية (١٢): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ ينادي الله تعالى المسلمين بعنوان الإيمان إذ به أصبحوا أحياء يسمعون ويبصرون ويقدرون على الفعل والترك إذ الإيمان بمثابة الروح إذا أحلت الجسم تحرك فأبصرت العين وسمعت الأذن ونطق اللسان وفهم القلب.

فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾[1] وهو كل ظن ليس له ما يوجبه من القرائن والأحوال والملابسات المقتضية له، ويعلل هذا النهي المقتضي للتحريم فيقول: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وذلك كظن السوء بأهل الخير والصلاح في الأمة فإن ظن السوء فيهم قد يترتب عليه قول باطل أو فعل سوء أو تعطيل معروف، فيكون إثمًا كبيرًا، وقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ أي لا تتبعوا عورات المسلمين ومعايبهم بالبحث عنها والاطلاع عليها لما في ذلك من الضرر الكبير، وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم[2] بَعْضًا﴾ أي لا يذكر أحدكم أخاه في غيبته بما يكره وهنا يروى في الصحيح من الأحاديث ما معناه أن رجلاً سأل الرسول ﷺ عن الغيبة فقال له: «**ذكرك أخاك بما يكره**» فقال الرجل: فإن كان فيه ما يكره، قال: «**فإن كان فيه ما يكره فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما يكره فقد بهته**» والبهتان أسوأ الغيبة. وقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ والجواب لا قطعًا إذًا فكما عرض عليكم لَحْمَ أخيكم ميتًا فكرهتموه فاكرهوا إذًا أكل لحمه حيًا وهو[3] عرضه والعرض أعز وأغلى من الجسم، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في غيبة بعضكم بعضًا فإن الغيبة من عوامل الدمار والفساد بين المسلمين، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾، جملة تعليلية للأمر بالتوبة فأخبر تعالى أنه يقبل توبة التائبين وأنه رحيم بالمؤمنين ومن مظاهر ذلك أنه حرم الغيبة للمؤمن لما يحصل له بها من ضرر وأذى.

(١٣) وقوله تعالى في الآية (١٣): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ هذا نداء هو آخر نداءات الله تعالى عباده في هذه السورة وهو أعم من النداء بعنوان الإيمان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ من آدم وحواء باعتبار الأصل كما أن كل آدمي مخلوق من أبوين أحدهما ذكر والآخر أنثى ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ وبطونًا وأفخاذًا وفصائل كل هذا لحكمة التعارف فلم يجعلكم كجنس الحيوان لا يعرف الحيوان الآخر ولكن جعلكم شعوبًا وقبائل

---

(١) قالت العلماء: الظن هنا هو التهمة بدون قرينة حال تدل عليها أو تدعو إليها وقد صحّ الحديث بتحريم الظن السيء بقوله ﷺ في رواية الصحيح: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا**».

(٢) الغيبة عامة في الدين والخلق والحسب والنسب ولا وجه لتخصيصها بواحد مما ذكر، وكيف وقد فسرها النبي ﷺ بقوله: «**ذكرك أخاك بما يكره**»؟

(٣) قال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيًا، واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب جارية بذلك قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وعائلات وأسر لحكمة التعارف المقتضي للتعاون إذ التعاون بين الأفراد ضروري لقيام مجتمع صالح سعيد فتعارفوا وتعاونوا ولا تتفرقوا لأجل التفاخر بالأنساب فإنه لا قيمة للحسب ولا للنسب إذا كان المرء هابطًا في نفسه وخلقه وفاسدًا في سلوكه إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1]. إن الشرف والكمال فيما عليه الإنسان من زكاة روحه وسلامة خلقه وإصابة رأيه وكثرة معارفه وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ جملة تعليلية يبين فيها تعالى أنه عليم بالناس عليم بظواهرهم وبواطنهم وبما يكملهم ويسعدهم خبير بكل شيء في حياتهم فليسلم له التشريع بالتحليل والتحريم والأمر والنهي فإنه على علم بالحال والمآل وبما يسعد الإنسان وبما يشقيه فآمنوا به وأطيعوه تكملوا وتسعدوا.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب مبادرة المسلمين إلى إصلاح ذات البين بينهم كلما حصل فساد أو خلل فيها.

٢ ـ وجوب تعاون المسلمين على تأديب أية جماعة تبغي وتعتدي حتى تفيء إلى الحق.

٣ ـ وجوب الحكم بالعدل في أية قضية من قضايا المسلمين وغيرهم.

٤ ـ تقرير الأخوة الإسلامية ووجوب تحقيقها بالقول والعمل.

٥ ـ حرمة السخرية واللمز والتنابز بين المسلمين.

٦ ـ وجوب اجتناب كل ظن لا قرينة ولا حال قوية تدعو إلى ذلك.

٧ ـ حرمة التجسس أي تتبع عورات المسلمين وكشفها وإطلاع الناس عليها.

٨ ـ حرمة الغيبة والنميمة. والنميمة هي نقل الحديث على وجه الإفساد ولذا يجوز ذكر الشخص وهو غائب في مواطن هي التظلم بأن يذكر المسلم من ظلمه لإزالة ظلمه، الاستعانة على تغيير المنكر بذكر صاحب المنكر. الاستفتاء نحو قول المستفتي ظلمني فلان بكذا فهل يجوز له ذلك، تحذير المسلمين من الشر بذكر فاعله قصد أن يحذروه، المجاهر بالفسق لا غيبة له، التعريف بلقب لا يعرف الرجل إلا به.

٩ ـ حرمة التفاخر بالأنساب ووجوب التعارف للتعاون.

١٠ ـ لا شرف ولا كرم إلا بشرف التقوى وكرامتها ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وفي الحديث «**لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى**» رواه الطبراني.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤ ـ ١٨]

(١٤) ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾: هم نفر من بني أسد قدموا على الرسول وقالوا له آمنا وهم غير مؤمنين. ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾: أي قل لهم إنكم ما آمنتم بعد ولكن قولوا أسلمنا أي استسلمنا وانقدنا. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾: أي ولما يدخل الإيمان بعد في قلوبكم ولكنه يتوقع له الدخول. ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: أي في الإيمان والقيام بالفرائض واجتناب المحارم. ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾: أي لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئًا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي غفور للمؤمنين رحيم بهم إن هم صدقوا في إيمانهم.

(١٥) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: أي حقًا وصدقًا لا ادعاء ونطقًا هم. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: أي بالله ربًا وإلهًا وبالرسول محمد نبيًا ورسولاً. ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾: أي لم يشكوا فيما آمنوا به. ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي جاهدوا مع رسول الله أعداء الله وهم الكافرون بأموالهم وأنفسهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾: أي في إيمانهم لا الذين قالوا آمنا بألسنتهم واستسلموا ظاهرًا ولم يسلموا باطنًا.

(١٦) ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾: أي قل لهم يا رسولنا أي لهؤلاء الأعراب أتشعرون الله بدينكم. ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾: أي كونهم أسلموا بدون قتال وغيرهم أسلم بعد قتال.

(١٧) ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾: أي لا حق لكم في ذلك بل الحق لله الذي هداكم للإيمان إن كنتم صادقين

(١) روى الترمذي أن النبي ﷺ خطب بمكة فقال: «**يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عَبِيَّةَ الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان: برّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله**».

في دعواكم أنكم مؤمنون.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: أي إن الله يعلم ما غاب في السموات وما غاب في الأرض فلا يخفى عليه أمرُ مَن صدقَ في إيمانه وأمرُ مَن كذب، ومن أسلم رغبة ومن أسلم رهبة.

معنى الآيات:

(١٤) قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾[1] هؤلاء جماعة من أعراب بني أسد وفدوا على رسول الله ﷺ بالمدينة بأولادهم ونسائهم في سنة مجدبة فأظهروا له الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في نفوسهم، فكانوا يغدون على الرسول ﷺ ويروحون ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، ونحن قد جئناك بالأطفال والعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، يمنون على رسول الله وهم يريدون الصدقة ويقولون أعطنا فأنزل الله تعالى هذه الآية تربية لهم وتعليمًا إتمامًا لما اشتملت عليه سورة الحجرات من أنواع الهداية والتربية الإسلامية فقال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ أعراب بني أسد آمنا أي صدَّقنا بتوحيد الله وبنبوتك. قل لهم ردًا عليهم لم تؤمنوا بعد، ولكن الصواب أن تقولوا أسلمنا أي أذعنا للإسلام وانقدنا لقبوله وهو الإسلام الظاهري، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم بعد وسيدخل إن شاء الله. وإن تطيعوا الله ورسوله أيها الأعراب في الإيمان الحق وفي غيره من سائر التكاليف لا يلتكم[2] أي لا ينقصكم الله تعالى من أجور أعمالكم الصالحة التي تعملونها طاعة لله ورسوله شيئًا وإن قل. وقوله: إن الله غفور رحيم في هذه الجملة ترغيب لهم في الإيمان الصادق والإسلام الصحيح فأعلمهم أن الله تعالى غفور للتائبين رحيم بهم وبالمؤمنين فتوبوا إليه واصدقوه يغفر لكم ويرحمكم.

(١٥) وقوله تعالى في الآية (١٥): ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، الآية، يعرفهم تعالى بالإيمان الصحيح دعوة منه لهم لعلهم يؤمنون فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[3] أي حقًا وصدقًا الذين آمنوا بالله ربًا وإلهًا ورسوله نبيًا مطاعًا، ثم لم يرتابوا، أي لم يشكوا أبدًا في صحة ما آمنوا به، وجاهدوا أي أنفسهم فألزموها الاستعداد للنهوض بالتكاليف الشرعية في المنشط والمكره، كما جاهدوا بأموالهم وأنفسهم أعداء الإسلام من المشركين والكافرين وذلك الجهاد بالنفس والمال لا هدف له إلا طلب رضا الله سبحانه وتعالى أي لم يكن لأي غرض مادي دنيوي وإنما لرضا الله ولإعلاء كلمة الله هؤلاء هم الصادقون في دعوى الإيمان.

(١٦) وقوله تعالى في الآية (١٦): ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ أي قل يا رسولنا لأولئك الأعراب الذين قالوا آمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم أتعلِّمون الله بدينكم أي بإيمانكم وطاعتكم وتشعرونه بهما والحال أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، والله بكل شيء عليم إنه لا معنى لتعليمكم الله بدينكم وهو يعلم ما في السموات وما في الأرض وهو بكل شيء عليم إنه مظهر من مظاهر جهلكم بالله تعالى، إذ لو علمتم أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض من دقيق وجليل لما فهتم بما فهتم به من إشعاركم الله بإيمانكم وطاعتكم له.

(١٧) وقوله تعالى في الآية (١٧): ﴿يَمُنُّونَ[4] عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾[5] أي

---

(١) هذه الآية نزلت في أعراب بني أسد، وليست عامة في كل الأعراب لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كبعض أعراب أسلم وغفار وجهينة ومزينة.

(٢) ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ أي لا ينقصكم، يقال: لاته يليته، ويلوته إذا نقصه. وقرأ أبو عمرو ﴿لا يألتكم﴾ مهموزًا من ألت يألت ألتًا نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ وشاهد الأول:

وليلة ذات ندى سريتُ ولم يلتني عن سراها ليتُ

(٣) لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر والعلانية فأكذبهم الله تعالى في دعواهم الكاذبة فأنزل عز وجل: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ أي: الذي أنتم عليه؟

(٤) ﴿يَمُنُّونَ﴾ إشارة إلى قولهم: جئناك بالأثقال والعيال كما تقدّم في التفسير.

(٥) ﴿أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ حرف الجر محذوف الأصل، بأن أسلموا أي: إسلامهم.

يمنّ أولئك الأعراب عليك يا رسولنا إيمانهم إذ قالوا آمنا بك ولم نقاتلك كما فعل غيرنا قل لهم لا تمنوا عليّ إسلامكم واضرب عن هذا وقل لهم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان، فالمنة لله عليكم لا أن تمنوا أنتم على رسوله.

(۱۸) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ[1] غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي كل ما غاب في السموات وما غاب في الأرض من سانح في السماء وسابح في الماء وسارح في الغبراء فليس في حاجة أن تعلموه بدينكم وتمنونه على رسوله ﷺ والله بصير بما تعملون من عمل قلّ أو كثر خفيّ أو ظهر فاعلموا هذا وتأدبوا مع الله وأحسنوا الظن فيه تنجو من هلاك لازم لمن أساء الظن بالله وأساء الأدب مع رسول الله.

هداية الآيات:

١ - بيان طبيعة أهل البادية وهي الغلظة والجفاء والبعد عن الكياسة والأدب.

٢ - بيان الفرق بين الإيمان والإسلام إذا اجتمعا فالإيمان من أعمال القلوب والإسلام من أعمال الجوارح. وإذا افترقا فالإيمان هو الإسلام، الإسلام هو الإيمان والحقيقة هي أنه لا يوجد إيمان صحيح بدون إسلام صحيح، ولا إسلام صحيح بدون إيمان صحيح، ولكن يوجد إسلام صوري بدون إيمان، وتوجد دعوى إيمان كاذبة غير صادقة.

٣ - بيان المؤمنين حقًا وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

٤ - بيان حكم المنّ وأنه مذموم من الإنسان ومحمود من الرحمٰن عز وجل وحقيقة المن هي عد النعمة وذكرها للمنعم عليه وتعدادها المرة بعد المرة.

٥ - بيان إحاطة علم الله بسائر المخلوقات، وأنه لا يخفى عليه من أعمال العباد شيء.

سورة ق[2]
مكية
وآياتها خمس وأربعون آية

الجزء السادس والعشرون — سورة ق

ترتيبها ٥٠ — سورة ق — آياتها ٤٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ (١) بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ (٣) قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ (٤) بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ (٦) وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ (٧) تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ (٨) وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ (٩) وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ (١٠) رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ (١٣) وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ (١٥)

٥١٨

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿قٓ﴾: هذا أحد الحروف المقطعة التي تكتب هكذا قٓ وتقرأ هكذا قاف. ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾: أي والقرآن المجيد أي الكريم قَسَمِي لقد أرسلنا محمدًا مبلغًا عنا.

(٢) ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾: أي بل عجب أهل مكة من مجيء منذر أي رسول منهم ينذرهم عذاب الله يوم القيامة. ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾: أي فقال المكذبون بالبعث هذا أي البعث بعد الموت والبلى شيء عجيب.

(٣) ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾: أئذا متنا وصرنا ترابًا أي رفاة وعظامًا نخرة نرجع أحياء. ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾: أي بعيد الإمكان في غاية البعد.

(٤) ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾: أي قد أحاط علمنا بكل شيء فعلمنا ما تنقص الأرض من

(١) ذيل الكلام بهذه الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ إلخ.. ليعلموا أن الله لا يكتم وأنه لا يكذب عليه لعلمه بالغيوب كلها، وفي هذا تقويم لأخلاقهم وتربية وتأديب لهم.

(٢) صحّ في الموطأ وفي مسلم أن النبي ﷺ قرأ بهذه السورة في صلاة الصبح وفي عيدي الأضحى والفطر أيضًا مع سورة القمر.

أجساد الموتى وما تأكل من لحومهم وعظامهم فكيف يستبعد منا إحياؤهم بعد موتهم. ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾: أي كتاب المقادير الذي قد كتب فيه كل شيء ومن بين ذلك أعداد الموتى وأسماؤهم وصورهم وأجسامهم ويوم إعادتهم.

(٥) ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾: بل كذب المشركون بما هو أقبح من تكذيبهم بالبعث وهو تكذيبهم بالنبوة المحمدية وبالقرآن ومن نزل عليه. ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾: أي مختلط عليهم فهم فيه مضطربون لا يثبتون على شيء إذ قالوا مرة سحر ومرة قالوا شعر ومرة كهانة وأخرى أساطير.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿قٓ﴾ الله أعلم بمراده به إذ هو من الحروف المقطعة الآحادية نحو صٓ. ونٓ.

(٢) وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾[1] أي الكريم فالقرآن مجيد كريم لما فيه من الخير والبركة إذ قراءة الحرف الواحد منه بعشر حسنات. وقوله: ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمُ﴾ قسم والجواب محذوف تقديره إن محمدًا لرسول أمين.

(٢) وقوله تعالى: ﴿بَلْ[2] عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي إنهم لم يستنكروا أصل الإرسال إليهم وإنما أنكروا كون المرسل بشرًا مثلهم ينذرهم عذاب يوم القيامة وهم لا يؤمنون بالبعث الآخر فلذا قالوا ما أخبر تعالى به عنهم، وقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي بالبعث ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي أمر يدعو إلى التعجب إذ من مات وصار ترابًا لا يعقل أن يُبعث مرة أخرى فيُسأل ويُحاسَب ويجزى وقد أفصحوا عن معتقدهم بقولهم:

(٣) ﴿أَءِذَا[3] مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ ذلك الرجوع إلى الحياة رجوع بعيد التحقيق.

(٤) قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ[4] ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ[5] حَفِيظٌ﴾ هذه برهنة واضحة على إبطال دعواهم وتحقيق عقيدة البعث أي قد علمنا ما تنقص الأرض منهم بعد الموت من لحم وعظم، وعندنا كتاب حفيظ قد حوى كل شيء وحفظه مادة وكميَّة وكيفية بمقتضاه يعود الخلق كما بدأ لا ينقص منه شيء.

(٥) وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي إن هناك ما هو أشنع من إنكارهم وأقبح عقلاً وهو تكذيبهم بالقرآن ومن أنزل عليه وهو الحق من الله فلذا هم فيه في أمر مريج أي مختلط فمرة قالوا في الرسول إنه ساحر وقالوا شاعر وقالوا مفتر كذاب وقالوا في القرآن أساطير الأولين فهم حقًا في أمر مريج مختلط عليهم لا يدرون ما يقولون ويثبتون عليه.

هداية الآيات:

١ - بيان شرف القرآن ومجده وكرمه.

٢ - تقرير البعث والوحي الإلهي.

٣ - البرهنة الصحيحة الواضحة على صحة البعث والجزاء وإمكانهما.

٤ - تقرير عقيدة القضاء والقدر بتقرير كتاب المقادير.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ - ١١]

(٦) ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾: أي أعموا فلم ينظروا بعيونهم معتبرين بعقولهم إلى السماء كائنة فوقهم فيعلموا أن استبعادهم للبعث غير صحيح. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا

---

(١) المجيد: المتصف بقوة المجد، والمجد والمجادة: الشرف الكامل وكرم النوع، ولذا فالقرآن يفوق في مجده كُلَّ كلام على الإطلاق حتى الكلام الموحى به إلى رسل الله عليهم السلام.

(٢) ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي، وهو انتقال من تقرير النبوة المحمدية التي أثبتها بالقسم إلى تقرير عقيدة البعث والجزاء إذ أورد قول الكافرين المنكرين لها ثم أثبتها بالأدلة القاطعة من عدة آيات كأنما قال: دع ذا واسمع ما أقول. و﴿أَن جَآءَهُمْ﴾ مجرور بمن محذوفة أي: من أن جاء وبعد السبك من مجيئهم.

(٣) الاستفهام للإبطال والتعجيب والمتعجب منه محذوف تقديره: أنرجع إلى الحياة بعد انعدامنا بالموت وصيرورتنا ترابًا؟

(٤) قوله: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾ إشارة إلى أن هناك أجسادًا لا تبيد كلها بل يبقى أبعاضها، وإلى أن عجب الذنب لا يفنى ولا يبيد بل يبقى كما هو ليعاد الخلق به يوم القيامة.

(٥) التنكير في ﴿كِتَٰبٌ﴾ للتعظيم ويدل عليه قوله ﴿حَفِيظٌ﴾.

وَزَيَّنَّٰهَا﴾: أي كيف بنيناها بلا عمد. وزيناها بالكواكب. ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾: أي وليس لها من شقوق تعيبها.

٧ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾[1]: أي بسطناها. ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾: أي جبالاً رواسي ثوابت لا تسير ولا تتحرك مثبتة للأرض كي لا تميد بأهلها. ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[2]: أي وأنبتنا في الأرض من كل صنف من أنواع النباتات حسن.

٨ ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾: أي جعلنا ذلك تبصرة وذكرى منا لكل عبد منيب إلى طاعتنا رجاع إلينا.

٩ ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾: أي ماء المطر كثير البركة. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾: أي أنبتنا بماء السماء بساتين وحب الحصيد أي المحصود من البر والشعير.

١٠ ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾[3]: أي وأنبتنا بالماء النخيل الطوال العاليات. ﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾: أي لها طلع منضد متراكب بعضه فوق بعض.

١١ ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾: أي أنبتنا ما أنبتنا من الجنات والحب الحصيد والنخل الباسقات قوتًا للعباد ورزقًا لهم مؤمنهم وكافرهم. ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾: وأحيينا بذلك الماء الذي أنزلناه بلدة ميتًا لا نبات فيها من الجدب الذي أصابها والقحط. ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾: أي كما أخرجنا النبات من الأرض الميتة بالماء نخرجكم أحياء من قبوركم يوم القيامة بماء ننزله من السماء على الأرض فتنبتون كما ينبت البقل.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث وهي العقيدة التي بُنيَ عليها كل إصلاح يراد للإنسان بعد عقيدة الإيمان بالله تعالى ربًا وإلهًا.

٦ قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ[4] إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ[5] بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ أي أعمي أولئك المنكرون للبعث المكذبون بلقاء ربهم يوم القيامة فلم ينظروا بعيونهم معتبرين بعقولهم إلى حجم السماء الواسع العالي الرفيع الكائن فوقهم وقد رفع بلا عمد ولا سند. وقد زيَّنه خالقه بكواكب نيِّرة وأقمار منيرة وشموس مضيئة ولم يُرَ في السماء من تصدع ولا شقوق[6] ولا تفطر الحياة كلها أليس القادر على خلق السماء قادر على إحياء موتى خلقهم وأماتهم بقدرته أليس القادر على الخلق ابتداء وعلى الإماتة ثانية بقادر على إحياء من خلق وأمات[7]؟

٧ وقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي ما لهم لا ينظرون إلى الأرض أي بسطها وألقى فيها الجبال لتثبيتها حتى لا تميد بهم، وقوله: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾ أي صنف من النباتات والزروع بهيج المنظر حسنه.

٨ وقوله: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

٩ - ١٠ وقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[8] أي أليس الذي أنزل من السماء ماءً مباركًا لما يكثر به من الخيرات والبركات من النبات والحيوان فأنبت به جنّات أي بساتين من أشجار ونخيل وأعناب، وأنبت به حب الحصيد وهو كل حب يحصد عند طيبه من قمح وشعير وذرة وغيرها وأنبت به النخل الباسقات العاليات المرتفعات في السماء لها طلعها

---

(١) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ منصوب على الاشتغال أي: مددنا الأرض مددناها.

(٢) ﴿مِن﴾ ليست للتبعيض بل هي للتأكيد إلا أن زيادتها مع الإثبات نادرة كما هي هنا.

(٣) لا يقال للطويل: باسق إلا إذا كان طوله في علو وارتفاع أما ما يكون طوله في امتداد وانبساط فلا يقال له باسق.

(٤) الاستفهام للإنكار عليهم عدم النظر لتقرر به عقيدة البعث والجزاء، والفاء تفريعية على إنكارهم السابق للبعث الآخر.

(٥) ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ ظرف في محل الحال، وأطلق البناء على خلق العلويات بجامع الارتفاع والاستمساك وعدم السقوط والانهيار.

(٦) من آيات القدرة والعلم الإلهيين: كون السماء على شكل قبة مرفوعة في قالب لا تشقق فيها ولا تصدع مزينة بأنواع النجوم والكواكب.

(٧) بلى إنه لقادر بلا مرية ولا شك.

(٨) ﴿رِّزۡقٗا﴾ منصوب على أنه مفعول لأجله.

النضيد المتراكب بعضه فوق بعض ليتحول إلى رطبٍ شهيٍ يأكله الإنسان.

(١١) وقوله: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾، أي قوتًا لهم يقاتون به مؤمنين وكافري إلا أن المؤمن إذا أكل شكر والكافر إذا أكل كفر، وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء الذي أنزلناه من السماء مباركًا ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ لا نبات بها ولا عشب ولا كلأ فأصبحت تهتز رابية ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي هكذا يكون خروجكم من قبوركم أيها المنكرون للبعث ينزل الله من السماء ماء فتنبتون وتخرجون من قبوركم كما يخرج الشجر والزرع من الأرض بواسطة الماء المبارك فبأي عقل تنكرون البعث أيها المنكرون. إنها كما قال تعالى: ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث بمظاهر القدرة الإلهية في الكون.

٢ - مشروعية النظر والاعتبار فيما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون والحياة للعبرة طلبًا لزيادة الإيمان والوصول به إلى مستوى اليقين.

٣ - فضل العبد المنيب وفضيلة الإنابة إلى الله تعالى والمنيب هو الذي يرجع إلى ربه في كل ما يهمه والإنابة التوبة إلى الله والرجوع إلى طاعته بعد معصيته.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ ـ ١٥]

(١٢) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾: أي قبل قومك يا رسولنا بالبعث والتوحيد والنبوة قوم نوح. ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾: أي وكذب أصحاب الرس وهي بئر كانوا مقيمين حولها يعبدون الأصنام وثمود وهم أصحاب الحجر قوم صالح.

(١٣) ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾: وكذبت عاد قوم هود، وكذب فرعون موسى عليه السلام. ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾: أي وكذب قوم لوط أخاهم لوطًا، وكذب أصحاب الأيكة شعيبًا.

(١٤) ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾: أي وكذب قوم تبع الحميري اليمني. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾: أي كل من ذكر قد كذب الرسل فلست وحدك المكذَّب يا محمد ﷺ. ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾: أي فوجب وعيدي لهم بنزول العذاب عليهم فنزل فهلكوا.

(١٥) ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾[1]: أي أفعيينا بخلق الناس أولاً والجواب لا إذًا فكيف نعيى بخلقهم ثانية وإعادتهم كما كانوا؟. ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: أي هم غير منكرين لقدرة الله عن الخلق الأول بل هم في خلط وشك من خلق جديد لما فيه من مخالفة العادة وهي أن كل من مات منهم يرونه يفنى ولا يعود حيًا.

معنى الآيات:

(١٢) ـ (١٤) ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء وإثبات النبوة للرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ[2] قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قريش المكذبين بالبعث والجزاء وبالنبوة المحمدية كذبت قبلهم قوم نوح وهي أول أمة كذبت وعاش نوح نبيها ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوها إلى الله فلم يؤمن منهم أكثر من نيف وثمانين نسمة، وأصحاب الرس أيضًا قد أخذوا نبيهم ورسوه في بئر فقتلوه فأهلكهم الله تعالى في بئر كانوا يقيمون على أصنام حولها يعبدونها فأهلكم في تلك البئر وأهلك ثمودًا وهم قوم صالح، وعادًا وهم قود هود وفرعون موسى وقوم لوط[3]، وأصحاب الأيكة أي الشجر الملتف إذ كانوا يعبدون أشجار تلك الأيكة، وقوم تبع وهو تبع الحميري اليمني. وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي كل تلك الأمم التي ذكرنا كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم ولا بما جاءوهم به من التوحيد والشرع ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[4] أي فوجب

---

(١) أي: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ به فنعني بالبعث وهو توبيخ لمنكري البعث وجواب على قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ يقال: عييت بالأمر: إذا لم تعرف وجهه هذا في المعاني أما في الذوات فعيي بمعنى عجز ولم يقدر عليه.

(٢) هذا استئناف ابتدائي الغرض منه تسلية الرسول ﷺ بإعلامه أن أممًا كثيرة قد كذبت رسلها قبل تكذيب قومه له ﷺ.

(٣) قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ عبّر بالإخوان دون القوم تنويع للأسلوب والمراد بهم قوم لوط، والأخوة هنا أخوة تلازم ومواطنة وما هي بأخوة دين ولا نسب ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام.

(٤) أي: صدق وعده فيهم وجوب وقوعه عليهم.

لذلك عذابهم الذي واعدتهم به على ألسنة رسلي إن لم يؤمنوا فأهلكناهم أجمعين وقومك يا محمد هم موعودون أيضًا بالعذاب إن لم يبادروا بالإيمان والطاعة.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾[(١)] والجواب لا إذ الاستفهام للنفي أي لم يَعْيَ الله تعالى بخلق كل ما خلق من الملائكة والإنس والجن فكيف إذًا يعيىٔ بالإعادة وهي أهون من البدء والبداية، وقوله تعالى: ﴿بَلْ[(٢)] هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي أنهم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول بل هم في لبس أي خلط وشك من خلق جديد لما فيه من مخالفة العادة حيث هم يرون الناس يموتون ولا يحيون.

هداية الآيات:

١ - تعزية الرسول ﷺ وتسليته بإعلامه بأن قومه ليسوا أول من كذب الرسل.

٢ - تهديد المصرين على التكذيب من كفار قريش بالعذاب إذ ليسوا بأفضل من غيرهم وقد أهلكوا لما كذبوا.

٣ - تقرير البعث والجزاء وإثبات عقيدتهما بالأدلة العقلية كبدء الخلق.

٤ - ضعف إدراك المنكرين للبعث لظلمة نفوسهم بالشرك والمعاصي.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (٢٠) وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)

٥١٩

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ - ٢٢]

(١٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: أي خلقناه بقدرتنا وعلمنا لحكمة[(٣)] اقتضت خلقه فلم نخلقه عبثًا. ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾: أي ونعلم ما تحدث به نفسه أي نعلم ما في نفسه من خواطر وإرادات. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: أي نحن بقدرتنا على الأخذ منه والعطاء والعلم بما يُسر ويُظهر أقرب إليه من حبل الوريد الذي هو في حلقه.

(١٧) ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾: أي نحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عمله فيكتبانه. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[(٤)]: أي أحدهما عن يمينه قعيد والثاني عن شماله قعيد أيضًا.

(١٨) ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾: أي ما يقول من قول. ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: أي إلا عنده ملك رقيب حافظ عتيد حاضر معد للكتابة.

(١٩) ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾: أي غمرة الموت وشدته بالحق من أمر الآخرة حتى يراه المنكر لها عيانًا. ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾: أي ذلك الموت الذي كنت تهرب منه وتفزع.

(٢٠) ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾: أي ونفخ إسرافيل في الصور الذي هو القرن ذلك يوم الوعيد للكفار بالعذاب.

(٢١) ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾: أي معها سائق يسوقها إلى المحشر وشهيد يشهد عليها.

(٢٢) ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾: أي من هذا العذاب النازل بك الآن. ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾: أي أزلنا

---

(١) الاستفهام للإنكار والتغليظ إذ لا يسعهم إلا الاعتراف بأن الله تعالى الذي خلق كل شيء في الأرض والسماء ومن جملة ذلك خلقهم هم المنكرون للبعث فكيف يعجز عن إعادة خلقهم مرة أخرى للجزاء والحساب؟

(٢) ﴿بَلْ﴾ للإضراب الإبطالي أي: ما عيينا بالخلق الأول.

(٣) هذه الحكمة هي ذكره تعالى وشكره بأنواع العبادات لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وسائر المخلوقات هي لأجل الناس فعاد الأمر إلى أن المخلوقات كلها مخلوقة لعلة العبادة.

(٤) القعيد بمعنى المقاعد كالجليس بمعنى المجالس.

عنك غفلتك بما تشاهده اليوم. ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾: أي حاد تدرك به ما كنت تنكره في الدنيا من البعث والجزاء.

معنى الآيات:

(١٦) - (١٧) ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ حسب سنتنا في الخلق خلقناه بقدرتنا وعلمنا لحكمة[(١)] اقتضت خلقه منا ولم نخلقه عبثًا ونحن نعلم ما توسوس به نفسه أي ما تتحدث به نفسه من إرادات أو خواطر، ونحن أي ربّ العزة والجلال أقرب إليه من حبل الوريد[(٢)] فلو أردنا أن نأخذ منه أو نعطيه أو نسمع منه أو نعلم به لكنا على ذلك قادرين وقربنا في ذلك منه أقرب من حبل عنقه إلى نفسه وذلك في الوقت الذي يتلقى فيه الملكان المتلقيان سائر أقواله وأعماله يثبتانها ويحفظانها وقوله: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ أي أحد الملكين وهما المتلقيان عن يمينه قاعد والثاني عن شماله قاعد هذا يكتب الحسنات وذاك يكتب السيئات.

ولفظ قعيد معناه قاعد كجليس بمعنى مجالس أو جالس.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ أي ما يقول الإنسان إلا لديه رقيب عتيد أي إلا عنده ملك رقيب حافظ، وعتيد حاضر لا يفارقانه مدى الحياة إلا أنهما يتناوبان ملكان بالنهار وملكان بالليل ويجتمعون في صلاتي الصبح والعصر.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ[(٣)] بِٱلۡحَقِّ﴾ أي وإن طال العمر فلا بد من الموت وها هي ذي قد جاءت سكرة الموت أي غمرته وشدته بالحق من أمر الآخرة حتى يراه المنكر للبعث والدار الآخرة المكذب به يراه عيانًا. ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ أي يقال له هذا الموت الذي كنت منه تحيد أي تهرب وتفزع.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي نفخ إسرافيل في الصور أي القرن الذي قد التقمه وجعله في فيه من يوم بعث النبي الخاتم نبيّ آخر الزمان محمد ﷺ وهو ينتظر متى يؤمر فينفخ نفخة الفناء ذلك أي يوم ينفخ في الصور هو يوم الوعيد[(٤)] بالعذاب للكافرين، وفعلاً نفخ في الصور نفخة البعث بعد نفخة الفناء.

(٢١) ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ أي ملك يسوقها إلى المحشر وملك شاهد يشهد عليها.

(٢٢) ويقال لذلك الذي جاء به سائق يسوقه وشاهد يشهد عليه ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ أي كنت في الدنيا في غفلة عن الآخرة وما فيها وغفلتك من شهواتك ولذاتك وغرورك بالحياة الدنيا من هذا العذاب النازل بك الآن ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي أزلنا عنك غفلتك بما تشاهده اليوم عيانًا بيانًا من ألوان العذاب فبصرك اليوم حديد أي حاد تدرك به وتبصر ما كنت تكفر به في الدنيا وتُنكرهُ.

هداية الآيات:

١ - بيان قدرة الله وعلمه وأنه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ألا فليتق الله امرؤ.

٢ - تقرير عقيدة أن لكل إنسان مكلف ملكين يكتبان حسناته وسيئاته.

٣ - بيان أن للموت سكرات قطعًا اللهم هون علينا سكرات الموت.

٤ - ساعة الاحتضار يؤمن كل إنسان بالدار الآخرة إذ يرى ما كان ينكره يراه بعينه.

٥ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض بعض أحوال وأهوال الآخرة.

---

(١) تقدم بيان الحكمة للخلق تحت رقم واحد من هذا السياق في شرح الكلمات.

(٢) الوريد: واحد الشرايين، وهو ثاني شريانين يخرجان من التجويف الأيسر من القلب وهما عرقان يكتنفان صفحتي العنق في مقدميهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، والحبل: العرق والجمع عروق ويختلف اسمه باختلاف موضعه من الجسم.

(٣) السكرة: اسم لما يعتري الإنسان من ألم واختلال في المزاج يحد من إدراك العقل فيختل الإدراك ويعتري العقل غيبوبة وهو مشتق من السكر وهو الغلق لأنه يغلق العقل، ومنه جاء وصف السكران.

(٤) يوم وعيد للكافرين ويوم وعد صادق للمؤمنين، ولما كان السياق في دعوة الكافرين إلى الإيمان ذكر الوعيد دون الوعد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣ ـ ٣٠]

(٢٣) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾: أي الملك الموكل به. ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾: أي هذا عمله حاضر لدي.

(٢٤) ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾: أي كثير الكفر والجحود لتوحيد الله وللقائه ولرسوله معاند كثير العناد.

(٢٥) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾: أي مناع للحقوق والواجبات من المال وغيره.

(٢٦) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: أي أشرك بالله فجعل معه آلهة أخرى يعبدها.

(٢٧) ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾: أي يقول قرينه من الشياطين يا ربنا ما أطغيته أي ما حملته على الطغيان. ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾: أي ولكن الرجل كان في ضلال بعيد عن كل هدى متوغلاً في الشرك والشر.

(٢٨) ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾: أي قدمت إليكم وعيدي بالعذاب في كتبي وعلى لسان رسلي.

(٢٩) ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾: أي ما يغير القول عندي وهو قوله لأملأن جهنم منكم أجمعين.

(٣٠) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: أي وما الله بظلام للعبيد يوم يقول لجهنم هل امتلأت. ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: أي لم أمتلىء هل من زيادة فيضع الجبار عليها قدمه فتقول قط قط.

معنى الآيات:

(٢٣) ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مشاهد القيامة وأحوال الناس فيها فقال تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾[(١)] أي قال قرين[(٢)] ذلك الكافر الذي جيء به إلى ساحة فصل القضاء ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه. قال قرينه وهو الملك الموكل به هذا ما لديّ أي من أعمال هذا الرجل الذي وكلت بحفظ أعماله وكتابتها عتيد أي حاضر. وهنا يقال لمن استحق النار:

(٢٤) ـ (٢٥) ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ وهو خطاب لمن[(٣)] جاءا به وهما السائق والشهيد ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ فهذه خمس صفات قد اجتمعت في شخص واحد فأوبقته الأولى ﴿كَفَّارٍ﴾ أي كثير الكفر الذي هو الجحود لما يجب الإيمان به والتصديق من سائر أركان الإيمان الستة، والثانية عنيد والعنيد التارك لكل ما وجب عليه المعاند في الحق المعاكس في المعروف وهي شر صفة، الثالثة مناع للخير أي كثير المنع للخير مالاً كان أو غيره لا يبذل معروفًا قط، الرابعة معتدٍ أي على حدود الشرع معتد على الناس ظالم لهم بأكل حقوقهم وأذيتهم في أعراضهم وأموالهم وأبدانهم الخامسة مريب أي شاك لا يعرف التصديق بشيء من أمور الدين فهو جامع لكل أنواع الكفر.

(٢٦) وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾ وهذا وصف سادس وهو أسوأ تلك الصفات وهو اتخاذه إلهًا آخر يعبدوه دون الله تعالى وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ هذا أمر آخر أكد به الأمر الأول وهو ألقيا في جهنم كل كفار عنيد.

(٢٧) وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال هذا القول القرين لما قال المشرك معتذرًا ربّ إن قريني من الشياطين أطغاني فرد عليه القرين بما أخبر تعالى به عنه في قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

(٢٨) فقال الرب تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟[(٤)] لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم

---

(٣٠) قرأ نافع: ﴿يوم يقول﴾ بالياء، وقرأ حفص ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ بالنون.

(١) الواو واو الحال، والجملة حالية، وصاحب الحال تاء الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ والقرين: بمعنى مقرون وهو مأخوذ من القرن بفتح القاف والراء وهو الحبل إذ كانوا يقرنون البعير بمثله بحبل سموه القرن.

(٢) اختلف في تحديد القرين على ثلاثة أقوال وما ذكر في التفسير هو أرجحها.

(٣) وجائز أن يكون خطابًا لواحد بصيغة التثنية على حد قول الشاعر:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

(٤) النهي عن المخاصمة دال على أن النفوس الكافرة ادعت أن قرناءها أطغوها، وأن القرناء تنصلوا من ذلك، وأن النفوس أعادت القول فكانت بذلك خصومة فأسكتهم الحق عز وجل بقوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾.

﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾ فرد الله حجة كل من الكافر والقرين من الشياطين وأعلمهما أنه قد قدم إليهما بالوعيد في كتبه وعلى ألسن رسله من كفر بالله وأشرك به وعصى رسله فإن له نار جهنم خالدًا فيها أبدًا.

(٢٩) وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ[1] لِّلْعَبِيدِ﴾ أخبر تعالى أن حكمه نافذ فيمن كفر به وعصى رسله إذ سبق قوله لإبليس عندما أخرج آدم من الجنة بوسواسه وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. فهذا القول الإلهي لا يبدل ولا يقدر أحد على تبديله وتغييره وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نفى تعالى الظلم عن نفسه والظلم هو أن يعذب مطيعًا، أو يدخل الجنة كافرًا عاصيًا.

(٣٠) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي اذكر يا نبينا لقومك المنهمكين في الشرك والمعاصي ما ينتظر أمثالهم من عذاب جهنم اذكر لهم يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد بعدما يدخل فيها كل كافر وكافرة من الإنس والجن وتقول طالبة الزيادة هل من مزيد؟ ولما لم يبق أحد يستحق عذاب النار يضع الجبار فيها قدمه فينزوي بعضها في بعض وتقول قط قط والحديث معناه في الصحيحين وغيرهما.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - التحذير من الصفات الست التي جاءت في الآية وهي الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء والشك والشرك.

٣ - بيان خصومة أهل النار من إنسان وشيطان.

٤ - نفي الظلم عن الله تعالى وهو كذلك فلا يظلم الله أحدًا من خلقه.

٥ - إثبات[2] صفة القدم للرب تعالى كما يليق هذا الوصف بذاته التي لا تشبه الذوات سبحانه وتعالى عن صفات المحدثين من خلقه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ ـ ٣٥]

(٣١) ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: أي قربت الجنة للمتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصي. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[3]: أي مكانًا غير بعيد منهم بحيث يرونها.

(٣٢) ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾: أي رجاع إلى طاعة الله كلما ترك طاعة عاد إليها حافظ لحدود الله.

(٣٣) ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾: أي خاف الله تعالى فلم يعصه وإن عصاه تاب إليه وهو لم يره. ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: أي مقبل على طاعته تعالى.

(٣٤) ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾: أي ويقال لهم وهم المتقون ادخلوها أي الجنة بسلام أي مع سلام وحال كونكم سالمين من كل مخوف.

(٣٥) ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: أي مزيد من الإنعام والتكريم في الجنة وهو النظر إلى وجه الله الكريم.

معنى الآيات:

(٣١) ما زال السياق في تقرير البعث والجزاء بذكر بعض مظاهره قال تعالى بعدما ذكر ما لأهل النار من عذاب: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾[4] أي أدنيت

---

(١) المبالغة في وصف (ظلام) راجعة إلى تأكيد النفي المطلق إذ المراد لا أظلم شيئًا من الظلم، وليس المعنى ما أنا بكثير الظلم أو شديده إذ الأمر في أمثلة المبالغة أن يقصد بها المبالغة في النفي. قال طرفة:

ولست بحلال التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد

إذ لم يرد نفي كثرة حلوله التلاع وإنما أراد كثرة النفي إذ هو لم يحل في تلعة بالمرة جبنًا وخوفًا.

(٢) أخرج مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: **«لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول قط قط بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة»** نزع هنا بعض أهل العلم كالقرطبي إلى تأويل القدم ففسرها بما يقدم للنار من أقوام وأولوا كذلك لفظ الرجل في حديث **«حتى يضع الله عليها رجله»** وقالوا: الرجل بمعنى العدد الكثير من الناس كالرجل من الجراد، ولا داعي لهذا التأويل الذي لم يؤوّله رسول الله ﷺ وهو يحدّث به أصحابه فالأسلم للمؤمن أن يؤمن بصفات الله ويمرها كما جاءت، فالقدم والرِجل كاليد والعين صفات ذات لله يؤمن العبد بها وهو يعتقد أنها لا تشبه صفات العباد وهي كذلك والحمد لله.

(٣) ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ نعت لمحذوف تقديره مكانًا غير بعيد من المتقين، والإزلاف: التقريب.

(٤) عطف على ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

ترتيبها ٥١ — سُورَةُ الذَّارِيَاتِ — آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

٥٢٠

وقربت ﴿لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وهم الذين اتقوا الله تعالى بترك الشرك والمعاصي فلا تركوا فريضة ولا غشوا كبيرة[(١)].

﴿٣٢﴾ وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي يقال لهم هذا ما توعدون أي من النعيم المقيم، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي رجاع إلى طاعة الله تعالى حفيظ أي حافظ لحدود الله. حفيظ أيضًا لذنوبه لا ينساها كلما ذكرها استغفر الله تعالى منها.

﴿٣٣﴾ وقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ هذا بيان للأواب الحفيظ وهو من خاف الرحمٰن تعالى بالغيب أي وهو غائب عنه لا يراه ولم يعصه بترك واجب ولا بفعل حرام، وقوله ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[(٢)] أي إلى ربه أي مقبل على طاعته بذكر الله فلا ينساه ويطيعه فلا يعصيه.

﴿٣٤﴾ وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي يقال لهم أي للمتقين ادخلوها أي الجنة[(٣)] بسلام أي مسلمًا عليكم وسالمين من كل مخوف كالموت والمرض والألم والحزن وذلك يوم الخلود أي في الجنة وفي النار فأهل الجنة خالدون فيها وأهل النار خالدون[(٤)] فيها وقوله:

﴿٣٥﴾ ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي لأهل الجنة ما يشاءون أي ما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم، وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي وعندنا لكم مزيد من النعيم وهو النظر إلى وجهه الكريم.

هداية الآيات:

١ - فضل التقوى وكرامة المتقين على رب العالمين.

٢ - فضل الأواب الحفيظ وهو الذي كلما ذكر ذنبه استغفر ربه.

٣ - بيان أكبر نعيم في الجنة وهو رضا الله والنظر إلى وجهه الكريم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ - ٤٥]

﴿٣٦﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾: أي كثيرًا من أهل القرون قبل كفار قريش أهلكناهم. ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾: أي أهل القرون الذين أهلكناهم قبل كفار قريش هم أشد قوة وأعظم أخذًا من كفار قريش ومع هذا أهلكناهم. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾: أي بحثوا وفتشوا في البلاد علّهم يجدون مهربًا من الهلاك فلم يجدوا.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾: أي إن في المذكور من إهلاك الأمم القوية موعظة. ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾: أي الموعظة تحصل للذي له قلب حيٌّ وألقى سمعه يستمع. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: وهو شهيد أي حاضر أثناء استماعه حاضر القلب والحواس.

---

(١) أو تركوا وغشوا ولكن تابوا وصحت توبتهم فقبلت منهم فهم كمن لم يترك فريضة ولم يغش كبيرة إذ التوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

(٢) أي: حضر يوم القيامة مصاحبًا قلبه المنيب إلى الله، وفي الحديث: **«من مات على شيء بعث عليه»** فهذا العبد عاش ومات على قلب منيب فبعثه به شاهد عليه بالإنابة إلى ربه.

(٣) هذا كقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾.

(٤) هذا المطلق من الأخبار مقيد قطعًا بمن مات على الشرك والكفر أما من مات على الإيمان والتوحيد فإنه لا يخلد في النار بل يخرج منها إلى الجنة ومن ينكر هذا كالخوارج فقد كذب الله ورسوله ﷺ ومن كذب الله ورسوله ﷺ عامدًا فقد كفر.

﴿٣٨﴾ ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾: أي من نصب وتعب. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: أي فاصبر يا رسولنا على ما يقوله اليهود وغيرهم من التشبيه لله والتكذيب بصفاته.

﴿٣٩﴾ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾: أي صل حامدًا لربك قبل طلوع الشمس وهي صلاة الصبح. ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾: أي صل صلاة الظهر والعصر.

﴿٤٠﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾: أي صل صلاتي المغرب والعشاء. ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾: أي بعد أداء الفرائض فسبح بألفاظ الذكر والتسبيح.

﴿٤١﴾ ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾: أي أيها المخاطب إلى ما أقول لك. ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: أي يوم ينادي إسرافيل من مكان قريب من السماء وهو صخرة بيت المقدس فيقول أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

﴿٤٢﴾ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي نفخة إسرافيل الثانية وهي نفخة البعث يعلمون عاقبة تكذيبهم. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾: أي من القبور.

﴿٤٤﴾ ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: أي يخرجون من قبورهم مسرعين بعد تشقق القبور عنهم. ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾: أي ذلك حشر للناس وجمع لهم في موقف الحساب يسير سهل علينا.

﴿٤٥﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾: أي من الكفر والباطل فلا تيأس لذلك سننتقم منهم. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾: أي بحيث تجبرهم على الإيمان والتقوى. ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾: أي عظ مرغبًا مرهبًا بالقرآن فاقرأه على المؤمنين فهم الذين يخافون وعيد الله تعالى ويطمعون في وعده.

معنى الآيات:

﴿٣٦﴾ بعد ذلك العرض العظيم لأحوال القيامة وأهوالها على كفار قريش المكذبين بالتوحيد والنبوة والبعث ولم يؤمنوا فكانوا بذلك متعرضين للعذاب فأخبر تعالى رسوله أن هلاكهم يسير فكم[1] أهلك تعالى ﴿قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي قوة وأخذًا ولما جاءهم العذاب فروا يبحثون عن مكان يحيصون إليه أي يلجأون فلم يجدوا وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا۟[2] فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾[3]؟

﴿٣٧﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾[4] أي الذي ذكرنا من قوله وكم أهلكنا قبلهم من قرن لذكرى أي موعظة يتعظ بها عبد كان له قلب حيٌّ وألقى سمعه يستمع وهو شهيد أي حاضر بكل مشاعره وأحاسيسه.

﴿٣٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي نصب أو تعب، هذا الخبر ردَّ الله تعالى به على اليهود الذين قالوا: أتم الله خلق السموات والأرض في يوم الجمعة واستراح يوم السبت فلذا هم يسبتون أي يستريحون يوم السبت فردّ تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي تعب، إذ التعب يلحق العامل من الممارسة والمباشرة لما يقوم بعمله والله تعالى يخلق بكلمة التكوين فلذا لا معنى لأن يصيبه تعب أو نصب أو لغوب.

﴿٣٩﴾ - ﴿٤٠﴾ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ﴾ أي فاصبر يا رسولنا على ما يقوله يهود وغيرهم من الكفر والباطل واستعن على ذلك أي على الصبر وهو صعب بالصلاة والتسبيح قبل طلوع الشمس[5] وقبل

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ هذا تعريض بالتهديد للمشركين وتسلية للنبي ﷺ. و﴿كَمْ﴾ خبرية.

(٢) (النقب) الثقب فالتنقيب مأخوذ منه، ومعنى الآية أي: ذللوا وأخضعوا وتصرفوا في الأرض بالحفر والغرس والبناء ونحت الجبال وإقامة السدود والحصون وما إلى ذلك من مظاهر القوة في الأرض ولم يُغن ذلك عنهم من الله شيئًا وجاءهم الموت من حيث لا مهرب منه ولا محيص.

(٣) المحيص: مصدر ميمي من: حاص: إذا عدل عن الطريق وهرب فالمحيص: المهرب، والاستفهام إنكاري وهو بمعنى النفي.

(٤) الإشارة إلى كل ما ذكر من الاستدلال والتهديد في الآيات السابقة، والذكرى: التذكرة العقلية لمن توفر له ثلاثة شروط: القلب الحيّ وإلقاء السمع للإصغاء وحضور البال.

(٥) في الصحيح عن جرير بن عبدالله البجلي قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: **«أما إنكم سترون**

الـغـروب، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝﴾ فـشـمـل هـذا الإرشـاد والـتـعـلـيـم الإلـهـي الـصـلـوات الخمس[1]، إذ قبل طلوع الشمس فيه صلاة الصبح وقبل الغروب فيه صلاة الظهر والعصر ومن الليل فيه صلاة المغرب والعشاء، ولنعم العون على الصبر الصلاة، ولذا كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. وقـولـه: ﴿وَأَدْبَٰرَ﴾[2]، أي بـعـد الصلوات الخمس سبح ربك متلبسًا بحمده. نحو سبحان الله والحمد لله والله أكبر.

(٤١) وقوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ[3] يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي واسـتـمـع أيـهـا المخاطب يوم ينادي إسرافيل من مكان قريب وهو صخرة بيت المقدس وهو مكان قريب من السماء فيقول المنادي وهو إسرافيل أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

(٤٢) وقـولـه: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهي نفخة إسرافيل الثانية نفخة البعث ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور ويوم يرى المكذبون عاقبة تكذيبهم.

(٤٤) وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ[4] ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي يخرجون مسرعين ذلك المذكور من تشقق الأرض وخروجهم مسرعين حشر علينا لهم يسير أي سهل لا صعوبة فيه.

(٤٥) وقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيه تسلية للرسول ﷺ وفيه تهديد لكفار قريش. وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي بذي قوة وقدرة فائقة تجبرهم بها على الإيمان والاستقامة وعليه فمهمتك ليست الإجبار وأنت عاجز عنه وإنما هي التذكير ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ إذًا ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وهم المؤمنون الصادقون والمسلمون الصالحون.

هداية الآيات:

١ - مشروعية تخويف العصاة والمكذبين بالعذاب الإلهي وقربه وعدم بعده.

٢ - للانتفاع بالمواعظ شروط أن يكون السامع ذا قلب حي واعٍ وأن يلقي بسمعه كاملاً وأن يكون حاضر الحواس شهيدها.

٣ - وجوب الصبر والاستعانة على تحقيقه بالصلاة.

٤ - مشروعية الذكر والدعاء بعد الصلاة فرادى لا جماعات.

٥ - تقرير البعث وتفصيل مبادئه.

٦ - المواعظ ينتفع بها أهل القلوب الحية.

❃ ❃ ❃

سورة الذاريات
مكية
وآياتها ستون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٤]

(١) ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝﴾ أي الرياح تذروا التراب وغيره ذروًا.

(٢) ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝﴾: أي السحب تحمل الماء.

(٣) ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝﴾: أي السفن تجري على سطح الماء بسهولة.

(٤) ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝﴾: أي الملائكة تقسم بأمر ربها الأرزاق والأمطار وغيرها بين العباد.

(٥) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝﴾: أي إن ما وعدكم به ربكم لصادق سواء

= ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ جرير ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ..﴾.

(١) وجائز أن يراد بها نوافل الصلاة فيكون الذي قبل طلوع الشمس ركعتا الفجر ولكن ما في التفسير أولى وأصح وأنها الصلوات الخمس إذ السورة مكية ونزلت بعد فرض الصلوات الخمس.

(٢) قرأ نافع: ﴿وإدبار﴾ بكسر الهمزة، وقرأ حفص ﴿وَأَدْبَٰرَ﴾ بفتحها.

(٣) التعبير بالاستماع فيه معنى التشويق لما يسمع، والمعنى: أقم الصلاة وهي زادك إلى الدار الآخرة وانتظر موعد الجزاء فإنه كائن يوم ينادي المنادي للقيام للجزاء على الصبر والصلاة كما هو على الشرك والعصيان، والآية تحمل التسلية وتدعو إلى الصبر والصلاة.

(٤) قرأ نافع ﴿تشّقق﴾ بفتح التاء وتشديد الشين وأصلها تتشقق بتاءين فأدغمت التاء الثانية في الشين بعد قلبها شينًا، وقرأ حفص بتخفيف الشين على حذف إحدى التاءين.

الجزء السادس والعشرون — سورة الذاريات

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)

٥٢١

كان خيرًا أو شرًا.

(٦) ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾: أي وأن الجزاء بعد الحساب لواقع لا محالة.

(٧) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: أي ذات الطرق كالطرق التي تكون على الرمل والحبك جمعُ حبيكة.

(٨) ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾: أي يا أهل مكة لفي قول مختلف أي في شأن القرآن والنبي ﷺ فمنهم من يقول: القرآن سحر وشعر وكهانة ومنهم من يقول: النبي كاذب أو ساحر أو شاعر.

(٩) ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾: أي يصرف عن النبي والقرآن من صُرف.

(١٠) ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾: أي لعن الكذابون الذين يقولون بالخرص والكذب.

(١١) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾: أي في غمرة جهل تغمرهم ساهون أي غافلون عن أمر الآخرة.

(١٢) ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾: أي يسألون النبي ﷺ سؤال استهزاء متى يوم القيامة؟ وجوابهم يوم هم على النار يفتنون أي يعذبون فيها.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾[1] هذا شروع في قسم ضخم أقسم الله تعالى به وهو الذاريات ذروًا أي الرياح تذروا التراب وغيره من الأشياء الخفيفة.

(٢) ﴿فَالْحَامِلَاتِ[2] وِقْرًا﴾ أي السحب تحمل الماء.

(٣) ﴿فَالْجَارِيَاتِ[3] يُسْرًا﴾ أي السفن تجري على سطح الماء.

(٤) ـ (٦) ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة تقسم الأرزاق والأمطار وغيرها بأمر ربها كل هذا قسم أقسم الله به وجوابه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أيها الناس من البعث والجزاء بالنعيم المقيم أو بعذاب الجحيم لصادق ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ أي الجزاء العادل ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أي كائن لا محالة.

(٧) وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾[4] هذا قسم آخر أي ذات الطرق كالتي على الرمل جمع حبيكة بمعنى طريقة.

(٨) ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ هذا جواب القسم فمنكم من يقول محمد ساحر ومنكم من يقول كاذب أو كاهن. ومنكم من يقول في القرآن سحر وشعر كهانة.

(٩) وقوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ

---

(١) هنا ذكر القرطبي موعظة عجبًا وهي أن رجلًا يقال له: صبيغ بلغ عمر عنه أنه يسأل عن تفسير مشكل القرآن فقال: اللهم أمكني منه فدخل الرجل على عمر يومًا وهو لابس ثيابًا وعمامة وعمر يقرأ القرآن فلما فرغ قام إليه الرجل وقال: يا أمير المؤمنين ما ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده ثم قال: ألبسوه ثيابه واجعلوه على قتب وأبلغوا به أهله ثم ليقم خطيبًا فليقل: إن صبيغًا طلب العلم فأخطأ فلم يزل وضيعًا في قومه بعد أن كان سيدًا فيهم. وأخرى وهو أن ابن الكواء سأل عليًا رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين ما ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ قال: ويلك سل تفقهًا ولا تسأل تعنتًا.

(٢) ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ السحب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع. الوقر: أي الحمل الثقيل.

(٣) جائز أن يراد بـ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ السفن، وأن يراد بها الرياح تجري بالسحب بعد تراكمها، واليسر: اللين والهون، أي الجاريات جريانًا لينًا هينًا شأن السير بالشيء الثقيل كما قال الأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مشي السحابة لا ريث ولا عجل

(٤) ﴿الْحُبُكِ﴾ بفتح فسكون: إجادة النسج وإتقان الصنع، وجائز أن يكون المراد بالحبك حبك السماء أي: نجومها لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب. وعن الحسن أنها طرائق المجرة أو طرائق السحاب، والكل جائز.

﴿أُفِكَ ۝﴾ أي يصرف عن القرآن ومن نزل عليه من إفك أي صرف بقضاء الله وقدره.

(١٠) ـ (١١) وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝﴾ أي لعن الكذابون الذين يقولون بالخرص والكذب والظن ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ جهل تغمرهم ﴿سَاهُونَ ۝﴾ أي غافلون عن أمر الآخرة وما لهم فيه من عذاب لو شاهدوه ما ذاقوا طعامًا ولا شرابًا لذيذًا.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝﴾ أي متى قيام الساعة ومجيئها وهم في هذا مستهزئون ساخرون وجوابهم في قوله تعالى:

(١٣) ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝﴾ أي يعذبون.

(١٤) ويقال لهم ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي عذابكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي تطالبون به رسولنا بتعجيله لكم استخفافًا وتكذيبًا منكم.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء حيث أقسم تعالى على ذلك.

٢ - تقرير عقيدة القضاء والقدر في قوله يؤفك عنه من أفك.

٣ - لعن الله الخراصين الذين يقولون بالخرص والكذب ويسألون استهزاء وسخرية لا طلبًا للعلم والمعرفة للعمل.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ ـ ٢٣]

(١٥) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝﴾: أي إن الذين[1] اتقوا ربهم في بساتين وعيون تجري خلال تلك البساتين والقصور التي فيها كقوله تجري من تحتها الأنهار.

(١٦) ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: أي آخذين ما أعطاهم ربهم من الثواب.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾: أي كانوا قبل دخولهم الجنة محسنين في الدنيا أي في عبادة ربهم وإلى عباده.

(١٧) ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝﴾: أي كانوا في الدنيا يحيون الليل ولا ينامون فيه إلا قليلًا.

(١٨) ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝﴾: أي وفي وقت السحور وهو السدس الأخير من الليل يستغفرون يقولون ربنا اغفر لنا.

(١٩) ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝﴾: أي للذي يسأل والمحروم الذي لا يسأل لتعففه وهذا الحق أوجبوه على أنفسهم زيادة على الزكاة الواجبة.

(٢٠) ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝﴾: أي من الجبال والأنهار والأشجار والبحار والإنسان والحيوان دلالات على قدرة الله مقتضية للبعث والموجبة للتوحيد للموقنين أما غير المؤمنين فلا يرون شيئًا.

(٢١) ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝﴾: أي آيات من الخلق والتركيب والأسماع والأبصار والتعقل والتحرك أفلا تبصرون ذلك فتستدلون به على وجود الله وعلمه وقدرته.

(٢٢) ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝﴾: أي من الأمطار التي بها الزرع والنبات وسائر الأقوات وما توعدون من ثواب وعقاب إن كل ذلك عند الله في السماء مكتوب في اللوح المحفوظ.

(٢٣) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾: إنه لحق أي ما توعدون لحق ثابت. ﴿مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾: أي إن البعث لحق مثل نطقكم فهل يشك أحد في نطقه إذا نطق والجواب لا يشك فكذلك ما توعدون من ثواب وعقاب.

معنى الآيات:

(١٥) ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء التي كذب بها المشركون في مكة فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم فلم يشركوا به ولم يعصوه بترك الواجبات ولا بفعل المحرمات هؤلاء يوم القيامة في بساتين وعيون تجري في تلك البساتين.

(١٦) وقوله: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي ما أعطاهم ربهم من ثواب هو نعيم مقيم في دار السلام. ثم ذكر تعالى مقتضيات هذا العطاء العظيم

---

(١) لما ذكر تعالى مآل الكافرين وهو أنهم على النار يفتنون أي: يعذبون كما قال الشاعر:

كل امرىء من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهور ومفتون

ذكر مآل المؤمنين المتقين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ فذكر ما هم فيه من النعيم المقيم.

والثواب الجزيل فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ﴾ دخولهم الجنة ﴿مُحْسِنِينَ﴾ في الدنيا فأحسنوا نياتهم وأعمالهم أخلصوها لله ربهم وأتوا بها وفق ما ارتضاه وشرعه لعباده بلا زيادة ولا نقصان كما أحسنوا إلى عباده ولم يسيئوا إليهم بقول ولا عمل هذا موجب.

(١٧) وآخر أنهم ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝﴾[1] أي لا ينامون من الليل إلا قليلاً إذ أكثر الليل يقضونه في الصلاة وهو التهجد وقيام الليل

(١٨) ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ أي وفي السدس الأخير من الليل ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي يقولون ربنا اغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار.

(١٩) وثالث ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝﴾ والمحروم، أي وزيادة على الزكاة المفروضة في كل مال بلغ النصاب فإنهم أوجبوا على أنفسهم في أموالهم حقًا يبذلونه للسائل الذي يسأل والمحروم الذي لا يسأل لحيائه وعفته. هذه موجبات العطاء الكريم الذي أعطاهم ربهم من النعيم المقيم في جنات وعيون.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ[2] ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي وفي ما خلق في الأرض من مخلوقات من جبال وأنهار وزروع وضروع وأنواع الثمار، وإنسان وحيوان آيات، أي دلائل وعلامات على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته وكلها موجبة له التوحيد ومقررة لقدرته على البعث الآخر والجزاء، وكون هذه الآيات للموقنين مبني على أن الموقنين ذووا بصائر وإدراك لما يشاهدون في الكون فكلما نظروا إلى آية في الكون ازداد إيمانهم وقوي فبلغوا اليقين فيه، فأصبحوا أكثر من غيرهم في الاهتداء والانتفاع بكل ما يسمعون ويشاهدون.

(٢١) وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝﴾ أي وفي أنفسكم[3] أيها الناس من الدلائل والبراهين المتمثلة في خلق الإنسان وأطواره التي يمر بها من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى طفل إلى شاب فكهل وفي إدراكه وسمعه وبصره ونطقه إنها آيات أخرى دالة على وجود الله وتوحيده وقدرته على البعث والجزاء.

وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ توبيخ لأهل الغفلة والإعراض عن التفكر والنظر إذ لو نظروا بأبصارهم متفكرين ببصائرهم لاهتدوا إلى الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء.

(٢٢) وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝﴾ أي[4] يخبر تعالى عباده أن رزقهم في السماء يريد تدبير الأمر في السماء والأمطار التي هي سبب كل الثمار والحبوب وسائر الخضر والفواكه التي هي غذاء الإنسان في السماء، وقوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من خير وشر من رحمة وعذاب الكل في السماء إذ الأمر لله وهو يحكم بالرحمة والعذاب على من يشاء، وكتاب المقادير الذي كتب فيه كل شيء هو في السماء.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ[5] مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[6] هذا قسم منه تعالى أقسم فيه بنفسه على أن البعث والجزاء يوم القيامة حق ثابت واجب الوقوع كائن

---

(١) الهجوع: النوم ليلاً، والتهجاع: النومة الخفيفة، قال الشاعر:

قد حصت البيضة رأسي فما ... أطعم نومًا غير تهجاع

والفعل هجع يهجع هجوعًا، و(ما) زائدة لتقوية الكلام أي: كانوا ينامون قليلاً من الليل، والجملة: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا﴾ إلخ.. بدل من جملة: ﴿كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ بدل بعض من كل.

(٢) هذا متصل بالقسم في قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ إنه بعد أن حقق عقيدة البعث بالإقسام عليها عطف شواهد من الأدلة على ذلك.

(٣) مما هو آية في النفس أن المرء يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين ولو شرب لبنًا محضًا لخرج منه الماء ومنه الغائط فتلك الآية في النفس.

(٤) يروى أن الحسن رحمه الله تعالى كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم.

(٥) ﴿مَآ﴾ في ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ مزيدة للتوكيد، والمضارع ﴿تَنطِقُونَ﴾ جيء به بدلاً عن المصدر نطقكم لإفادته التشبيه بنطقهم المتجدد المحسوس لهم وتقدير الكلام أن ما توعدونه من البعث والجزاء لحق مثل نطقكم الذي لا تنكرونه إذ لا يوجد من ينكر نطقه أبدًا.

(٦) قيل: خص النطق من بين سائر الحواس: لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه، والنطق سليم من ذلك.

لا محالة إذا كنا لا نشك في نطقنا إذا نطقنا أن ما نقوله ونسمعه لا يمكن أن يكون غير ما نطقنا به وسمعناه فكذلك البعث الآخر واقع لا محالة.

هداية الآيات:

١ - بيان ما للمتقين من نعيم مقيم في الدار الآخرة.

٢ - بيان صفات المتقين من التهجد بالليل والاستغفار في آخره والإنفاق في سبيل الله.

٣ - بيان أن في الأرض كما في الأنفس آيات أي دلائل وعلامات على قدرة الله على البعث والجزاء.

٤ - بيان أن في السماء رزق العباد[١] فلا يطلب إلا من الله تعالى وأن ما تُوعَدُه من خير وشر أمره في السماء ومنها ينزل بأمره تعالى فليكن طلبنا الخير من الله دائمًا وتعوذنا من الشر بالله وحده.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٤ - ٣٠]

(٢٤) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ﴾: أي قد أتاك يا نبينا حديث أي كلام. ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾: أي جبريل وميكائيل وإسرافيل أكرمهم إبراهيم الخليل.

(٢٥) ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾: أي نسلم عليك سلامًا. ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: أي عليكم سلام أنتم قوم منكرون أي غير معروفين.

(٢٦) ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾: أي عدل ومال إلى أهله فجاء بعجل سمين حنيذ.

(٢٧) ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾: أي فأمسكوا عن الأكل فقال لهم ألا تأكلون.

(٢٨) ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي فأضمر في نفسه خوفًا منهم. ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾: أي بولد يكون ذا علم كبير غزير.

(٢٩) ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾: أي في رنّة وصيحة. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: أي لطمت وجهها أي ضربت بأصابعها جبينها متعجبة. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: أي كبيرة السن وعقيم لم يولد لها قط.

(٣٠) ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾: أي قالت الملائكة لها كالذي قلنا لك قال ربك. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾: أي إنه هو الحكيم في تدبيره وتصريف شؤون عباده. العليم بما يصلح للعبد وما لا يصلح فليفوض الأمر إليه.

معنى الآيات:

(٢٤) قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ[٢] ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾[٣] هذا الحديث يشتمل على موجز قصة قد ذكرت في سورة هود والحجر والمقصود منه تقرير نبوة محمد ﷺ إن مثل هذا القصص لا يتم لأُمي لا يقرأ ولا يكتب إلا من طريق الوحي كما أنه يحمل في نهايته التهديد بالوعيد لمشركي قريش المصرين على الكفر والتكذيب والإجرام الكبير إذ في نهاية القصة يسأل إبراهيم الملائكة قائلًا فما خطبكم أيها المرسلون فيجيبون قائلين إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين أي لتدميرهم وإهلاكهم من أجل إجرامهم، وقريش في هذا الوقت مجرمة مستحقة للعذاب كما استحقه إخوان لوط. فقوله تعالى في خطاب رسوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل وهم ملائكة في صورة رجال من بينهم[٤] جبريل وميكائيل وإسرافيل.

(٢٥) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي على إبراهيم وهو في منزله فسلموا عليه[٥] فرد السلام ثم قال: أنتم ﴿قَوْمٌ

---

(١) ذكر القرطبي عند تفسير هذه الآية قصة مأثورة عن الأصمعي خلاصتها: أن أعرابيًا قال له: اقرأ عليّ من كلام الرحمٰن شيئًا فقرأ عليه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ففهمها الأعرابي على حقيقتها فكسر قوسه ونحر بعيره فتصدّق به وتاب إلى ربه ولقيه بعد سنة فطلب منه أن يسمعه من كلام الرحمٰن فقرأ عليه ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ..﴾ الآية، فأخذ الأعرابي رداءه وهو يقول: من يغضب الرحمٰن؟ وما زال يرددها حتى مات.

(٢) هذا الكلام مستأنف ابتدائي سيق لتسلية الرسول ﷺ وتقرير نبوته وإنذار قومه المكذبين المصرين على الشرك والظلم، ولفظ الضيف يطلق على الواحد وأكثر وافتتاح الكلام بهل للتفخيم للحدث الذي يخبر عنه والتهويل من شأنه.

(٣) قال فيهم ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾: لخدمة إبراهيم إياهم وإكرامه لهم بتقديم العجل الحنيذ، وقيل: هم مكرمون من قبل الله تعالى.

(٤) قيل إنهم كانوا تسعة وسمى منهم غير الثلاثة رفائيل عليه السلام.

(٥) في الآية مشروعية السلام إلقاء وردًا إلا أن الإلقاء سنة والرد واجب لآية النساء: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

مُنكَرُونَ﴾ أي لا نعرفكم بمعنى أنكم غرباء لستم من أهل هذا البلد فلذا سارع في إكرامهم.

(٢٧) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي عدل ومال إلى أهله فعمد إلى عجل سمين من أبقاره وكان ماله يومئذ البقر فشواه بعد ذبحه وسلخه وتنظيفه.

(٢٧) ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ وكأنهم أمسكوا عن تناوله فعرض عليهم الأكل عرضًا بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فقالوا: إنا لا نأكل طعامًا إلا بحقه. فقال: إذًا كلوه بحقه، فقالوا: وما حقه؟ قال: أن تذكروا اسم الله في أوله وتحمدوا الله في آخره، أي تقولون بسم الله في البدء والحمد لله في الختم، فالتفت جبريل إلى ميكائيل وقال له: حقّ للرجل أن يتخذه ربه خليلاً، ولما لم يأكلوا.

(٢٨) ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي خوفًا أي شعر بالخوف في نفسه منهم لعدم أكلهم لأن العادة البشرية وهي مستمرة إلى اليوم إذا أراد المرء بأخيه سوءًا لا يسلم عليه ولا يرد عليه السلام، ولا يأكل طعامه هذا حكم غالبي وليس عامًا. ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وأعلموه أنهم مرسلون من ربه إلى قوم لوط لإهلاكهم من أجل إجرامهم وبشروه بغلام يولد له ويكبر ويولد له فالأول إسحق والثاني يعقوب كما جاء في سورة هود فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

(٢٩) وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾[1] أخذت في رنّة لما سمعت البشرى فصكت أي لطمت وجهها بأصابع يدها متعجبة وهي تقول: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ[2] وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ إذ كان عمرها تجاوز التسعين وعمر إبراهيم تجاوز المئة وكانت عقيمًا لا تلد قط فلذا قالت ﴿عَجُوزٌ[3] عَقِيمٌ﴾ كيف ألد يا للعجب؟ فأجابها الملائكة قائلين:

(٣٠) ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أي هكذا ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ فاقبلي البشرى واحمديه واشكريه. إنه تعالى هو الحكيم في تصرفاته في شؤون عباده العليم بما يصلح لهم وما لا يصلح فليفوض الأمر إليه ولا يعترض عليه.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية.

٢ - فضيلة إبراهيم أبي الأنبياء وإمام الموحدين.

٣ - وجوب إكرام الضيف.

٤ - الخوف الفطري عند وجود أسبابه لا يقدح في العقيدة ولا يعد شركًا.

الجزء السابع والعشرون

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ - ٣٧]

(٣١) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: أي ما شأنكم أيها المرسلون.

(٣٢) ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾: أي إلى قوم كافرين فاعلين لأكبر الجرائم وهي إتيان الفاحشة.

(٣٣) ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾: أي مطبوخ بالنار.

(٣٤) ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: أي معلمة على كل حجر اسم من يرمى به. ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾: أي المبالغين في الكفر والعصيان كإتيان الذكران.

(٣٦) ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: وهو بيت لوط وَابْنَتَيْهِ ومن معهم من المؤمنين.

(٣٧) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾: أي بعد إهلاكهم تركنا فيها علامة على إهلاكهم وهي ماء أسود مُنتنٌ. ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾: أي عذاب الآخرة فلا يفعلون فعلهم الشنيع.

معنى الآيات:

(٣١) - (٣٤) ما زال السياق في قصة

---

(١) الصرة: الصيحة والضجة. والصرة: الجماعة. والصرة: الشدة من كرب وغيره، قال الشاعر:

فألحقه بالهاديات ودونه ... جواحرها في صرة لم تزيل

الهاديات: أوائل بقر الوحش، وجواحرها: متخلفاتها ولم تزيل: لم تنفرق والشاهد في الصرة هنا فإنها بمعنى الضجة والجماعة والشدة. وهو يمدح فرسه الذي ألحقه بأوائل بقر الوحش الذي يصيد.

(٢) نص آية هود: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

(٣) أي: كيف ألد وأنا عجوز عقيم فـ﴿عَجُوزٌ﴾ خبر، و﴿عَقِيمٌ﴾ بدل منه والمبتدأ محذوف أي: أنا والعجوز يشترك فيه المذكر والمؤنث يقال: رجل عجوز وامرأة عجوز فهو فعول بمعنى فاعل مشتق من العجز. والعقيم كذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث وهو فعيل بمعنى مفعول مأخوذ من عقمها الله: إذا خلقها لم تحمل بجنين، وكانت سارة لم تحمل قط.

إبراهيم مع ضيفه من الملائكة إنه لاحظ بعد أن عرف أنهم سادات الملائكة أن مهمتهم لم تكن مقصورة على بشارته فقط بل هي أعظم فلذا سألهم قائلاً: ﴿فَمَا[1] خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فأجابوه قائلين: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ أي أرسلنا ربُّنا عز وجل ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾[2]، أي على أنفسهم بالكفر، وفعل الفاحشة، والعِلَّة من إرسالنا إليهم هي ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[3] مطبوخ بالنار، وتلك الحجارة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي معلمة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، أي قد كتب على كل حجر اسم من يرمى به، وذلك في السماء قبل أن تنزل إلى الأرض.

(٣٥) وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ أي من تلك القرية وهي سدوم، من كان فيها من[4] المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وهو بيت لوط عليه السلام وما به سوى لوط وابنتيه ومن الجائز أن يكون معهم بعض المؤمنين إذ قيل كانوا ثلاثة عشر نسمة.

(٣٦) وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾[5] أي علامة على إهلاكهم وهي ماء أسود منتن كالبحيرة وتُعرف الآن بالبحر الميت.

(٣٧) وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهم المؤمنون الذين يخافون عذاب الآخرة حتى لا يفعلوا فعل قوم لوط من الكفر وإتيان الفاحشة.

هداية الآيات:

١ - جواز تشكل الملائكة بصورة رجال من البشر.

٢ - التنديد بالإجرام وفاعليه.

٣ - جواز الإهلاك بالعذاب الخاص الذي لم يُعرف له نظير.

٤ - تقرير حقيقة علمية وهي أن كل مؤمن صادق الإيمان مُسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا حتى يحسن إسلامه بانبنائه على أركان الإيمان الستة[6].

الجُزء السَّابعُ وَالعِشرُونَ — سُورَةُ الذَّارِيَات

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٣٧) وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ (٤٢) وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٤٦) وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)

٥٢٢

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ ـ ٤٦]

(٣٨) ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: أي فكذبه وكفر، فأغرقناه ومن معه آية كآية سدوم. ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي بحجة ظاهرة قوية وهي اليد والعصا.

(٣٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾: أي أعرض عن الإيمان مع رجال قومه. ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾: أي وقال فرعون في شأن موسى ساحر أو مجنون.

(٤٠) ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾: أي طرحناهم في البحر فغرقوا أجمعين.

---

(١) الفاء: هي الفاء الفصيحة إذ أفصحت أي: دلت على كلام محذوف تقديره: لما كنتم مرسلين من قِبل الله تعالى ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي ما شأنكم وما مهمتكم العظيمة التي جئتم لها؟

(٢) هم أهل سدوم وعمورية.

(٣) ﴿مِّن طِينٍ﴾ فيه احتراسٌ من أن تكون من البَرَد الذي ينزل مع المطر من السماء، وجائز أن تكون من بركان قذفته الأرض فارتفع بقوة الضغط فسقط عليهم فدمَّرهم بأمر الله تعالى وتدبيره فيهم.

(٤) قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنّ سبب نجاتهم هو إيمانهم، وفي قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ كذلك أي: سبب النجاة الإسلام كما هو التنويه بشأن كل من الإيمان والإسلام إذ الدعوة النبوية تدور عليهما.

(٥) الضمير: ﴿فِيهَآ﴾ عائد إلى القرية التي أصبحت خربة تدل على قدرة الله تعالى ونقمته من أعدائه.

(٦) هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. كما في آية البقرة ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ وفي حديث جبريل عند مسلم.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾: أي آتٍ بما يُلام عليه إذ هو الذي عرض جيشًا كاملاً للهلاك زيادة على ادعائه الربوبية وتكذيبه لموسى وهارون وهما رسولان.

(٤١) ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أي وفي إهلاك عاد آية أي علامة على قدرتنا وتدبيرنا.

﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾: أي التي لا خير فيها لأنها لا تحمل المطر ولا تلقح الشجر وهي الدبور، لقول الرسول ﷺ: «نصرت بالصبا» وهي الريح الشرقية، «وأهلكت عاد بالدبور» وهي الريح الغربية في الحجاز.

(٤٢) ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾: من نفس أو مال. ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾: أي البالي المتفتت.

(٤٣) ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾: أي وفي إهلاك ثمود آية دالة على قدرة الله وكرهه تعالى للكفر والإجرام. ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾: أي بعد عقر الناقة تمتعوا إلى انقضاء آجالكم بعد ثلاثة أيام.

(٤٤) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾: أي بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة.

(٤٥) ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾: أي ما قدروا على النهوض عند نزول العذاب بهم.

(٤٦) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾: أي وفي إهلاك قوم نوح بالطوفان آية وأعظم آية.

معنى الآيات:

(٣٨) قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾[١] الآية، إنه تعالى لما ذكر إهلاك قوم لوط وجعل في ذلك آيةً دالةً على قدرته وعلامةً تدل العاقل على نقمه تعالى ممن كفر به وعصاه، ذكر هنا في هذه الآيات التسع من هذا السياق أربع آيات أخرى، يهتدي بها أهل الإيمان الذين يخافون يوم الحساب فقال عز من قائل: ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ بن عمران نبي بني إسرائيل ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ﴾ إلى فرعون ملك القبط بمصر ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة قوية ظاهرة قوة السلطان وظهوره وهي العصا[٢] فلم يستجب لدعوة الحق.

(٣٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ أي بجنده[٣] الذي يركن إليه ويعتمد عليه، وقال في موسى رسول الله إليه: هو ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ[٤]﴾ فانتقمنا منه بعد الإصرار على الكفر والظلم.

(٤٠) ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أي طرحناهم ﴿فِي الْيَمِّ﴾ البحر فهلكوا بالغرق. في هذا الصنيع الذي صنعناه بفرعون لما كذب آيةٌ من أظهر الآيات.

(٤١) - (٤٢) وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾[٥] حيث أرسلنا إليهم أخاهم هودًا فدعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه فكذبوه ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ التي لا تحمل مطرًا ولا تلقح شجرًا[٦] ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي مرت به من أنفس أو أموال ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ[٧]﴾ البالي المتفتت في هذا الإهلاك آية من أعظم الآيات الدالة على قدرة الله الموجبة لربوبيته وعبادته والمستلزمة لقدرته تعالى

---

(١) ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ أي: وتركنا أيضًا في قصة موسى آية، والعطف على قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

(٢) وجائز أن يكون غير العصا من الآيات التسع.

(٣) وجائز أن يكون بقوته كما قال عنترة:

فما أوهى مراس الحرب ركني ... ولكن ما تقادم من زماني

أراد بركنه: قوته، وركن الشيء: جانبه الأقوى.

(٤) ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو أي: قال مرّة في موسى ساحر وقال مرة أخرى مجنون وشاهده قول الشاعر:

أثعلبة الفوارس أو رياحًا ... عدلت بهم طهيّةَ والخشابا

أي: ورياحًا فأو بمعنى الواو العاطفة لا غير وطهية كسميّة: حي من تميم والخشاب: بطون من تميم أيضًا.

(٥) ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أي: وتركنا في عاد آية كالتي في موسى.

(٦) ولا خير فيها ولا بركة ولا منفعة البتة مأخوذة من: امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد، وهي الدبور لقول الرسول ﷺ في الصحيح: «**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**».

(٧) ﴿الرميم﴾ الشيء الهالك البالي. قاله مجاهد، ومنه قول الشاعر:

تركتني حين كف الدهر من بصري ... وإذ بقيت كعظم الرّمة البالي

مأخوذ من رمّ العظم: إذا بلي يقال: رم العظم يرم بالكسر رمة فهو رميم.

على البعث والجزاء يوم القيامة.

﴿٤٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾[1] إذ أرسلنا إليهم أخاهم صالحًا فدعاهم إلى عبادة الله وحده وترك الشرك فكذبوه وطالبوه بآية تدل على صدقه فأعطاهم الله الناقة آية فعقروها استخفافًا منهم وتكذيبًا ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى انقضاء الأجل الذي حدد لهلاكهم.

﴿٤٤﴾ فبدل أن يؤمنوا ويسلموا فيعبدوا الله ويوحدوه عتوا عن أمر ربهم وترفعوا متكبرين. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ صاعقة العذاب وهم ينظرون بأعينهم الموت يتخطفهم.

﴿٤٥﴾ ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ من مجالسهم وهم جاثمون على الركب. ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ في إهلاك ثمود أصحاب الحجر آية للذين يخافون العذاب الأليم فلا يفعلوا فعلهم حتى لا يهلكوا هلاكهم.

﴿٤٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ[2] مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي وفي إرسالنا نوحًا إلى قومه وتكذيبهم إياه وإصرارهم على الشرك والكفر والتكذيب ثم إهلاكنا لهم بالطوفان وإنجائنا المؤمنين آية من أعظم الآيات الدالة على وجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته للعالمين، والمستلزمة لقدرته على البعث والجزاء الذي يصر الملاحدة على إنكاره ليواصلوا فسقهم وفجورهم بلا تأنيب ضمير ولا حياء ولا خوف أو وجل.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير كل من التوحيد والنبوة والبعث لما في الآيات من دلائل على ذلك.

٢ ـ قوة الله تعالى فوق كل قوة إذ كل قوة في الأرض هو الذي خلقها ووهبها.

٣ ـ اتهام المبطلين لأهل الحق دفعًا للحق وعدم قبول له يكاد يكون سنة بشرية في كل زمان ومكان.

٤ ـ من عوامل الهلاك العتو عن أمر الله أي عدم الإذعان لقبوله، والفسق عن طاعته وطاعة رسله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٧ ـ ٥١]

﴿٤٧﴾ ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾: أي وبنينا السماء بقوة ظاهرة في رفع السماء وإحكام البناء. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: أي لقادرون على البناء والتوسعة.

﴿٤٨﴾ ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾: أي مهّدناها فجعلناها كالمهاد أي الفراش الذي يوضع على المهد. ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾: أي نحن أثنى الله تعالى على نفسه بفعله الخيريّ الحسن الكبير.

﴿٤٩﴾ ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾: أي وخلقنا من كل شيء صنفين أي ذكرًا وأنثى، خيرًا وشرًا، علوًّا وسفلًا. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: أي تذكرون أن خالق الأزواج كلها هو إله فرد فلا يعبد معه غيره.

﴿٥٠﴾ ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾: أي إلى التوبة بطاعته وعدم معصيته. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: أي إني وأنا رسول الله إليكم منه تعالى نذير مبين بين النذارة أي أخوفكم عذابه.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾: أي لا تعبدوا مع الله إلهًا أي معبودًا آخر إذ لا معبود بحق إلا هو. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: إني لكم منه تعالى نذير بين النذارة أخوفكم عذابه إن عبدتم معه غيره.

معنى الآيات:

﴿٤٧﴾ ما زال السياق الكريم في عرض مظاهر القدرة الإلهية الموجبة له تعالى الربوبية لكل شيء والألوهية على كل عباده. فقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ[3] بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فهذا أكبر مظهر من مظاهر القدرة الإلهية إنه بناء السماء وإحكام ذلك البناء وارتفاعه وما تعلق به من كواكب ونجوم وشمس وقمر تمّ هذا الخلق بقوة الله التي لا توازيها قوة. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون

---

(١) ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ أي: وتركنا في ثمود آية للموقنين دالة على قدرة الله وعلمه وحكمته وهي موجبات ألوهيته.

(٢) قرأ حمزة والكسائي ﴿وقومِ﴾ بالكسر أي: وفي قوم نوح آية، وقرأ الجمهور بالنصب أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود ومدين.

(٣) هذا عرض آخر لمظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته الدالة على قدرته على البعث الآخر ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ منصوب على الاشتغال، والأيد: جمع يدٍ وكثر إطلاقه على القوة نحو ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: القوة، والموسع: القادر على توسعة ما يريد توسعته من رزق وغيره.

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

ترتيبها ٥٢ — سورة الطور — آياتها ٤٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

٥٢٣

على توسعته أكثر مما هو عليه، وذلك لسعة قدرتنا.

﴿٤٨﴾ ومظهر ثانٍ هو في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ[1] فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ والأرض فرشها بساطًا ومهدها مهادًا فنعم الماهدون نحن، نعم الماهد الله تعالى لها إذ غيره لا يقدر على ذلك ولا يتأتى له.

﴿٤٩﴾ وثالث مظاهر القدرة في قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ[2] خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فهذا لفظ عام يعم سائر المخلوقات وأنها كلها أزواج وليس فيها فرد قط. والذوات كالصفات فالسماء يقابلها الأرض، والحر يقابله البرد، والذكر يقابله الأنثى، والبر يقابله البحر، والخير يقابله الشر، والمعروف يقابله المنكر، فهي أزواج بمعنى أصناف كما أن سائر الحيوانات هي أزواج من ذكر وأنثى. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي خلقنا من كل شيء زوجين رجاء أن تذكروا فتعلموا أن خالق هذه الأزواج هو الله الفرد الصمد الواحد الأحد لا إله غيره ولا رب سواه فتعبدوه وحده ولا تشركوا به سواه من سائر خلقه.

﴿٥٠﴾ وقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟[3] إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي بعد أن تبين لكم أيها الناس أنه لا إله غير الله ففروا إليه تعالى أي بالإيمان به وبطاعته وبفعل فرائضه وترك نواهيه اهربوا إلى الله يا عباد الله بالإسلام إليه والانقياد لطاعته إني لكم منه تعالى نذير من عقاب شديد، ونذارتي بينة لا شك فيها وأنصح لكم أن لا تجعلوا مع الله إلهًا آخر أي معبودًا غيره تعالى تعبدونه إن الشرك به يحبط أعمالكم ويحرم عليكم الجنة فلا تدخلوها أبدًا واعلموا أني لكم منه عز وجل نذير مبين.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد والبعث بمظاهر القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء ومظاهر العلم والحكمة المتجلية في كل شيء.

٢ - ظاهرة الزوجية في الكون في الذرة انبهر لها العقل الإنساني وهي مما سبق إليه القرآن الكريم وقرره في غير موضع منه: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ فدلّ هذا قطعًا أن القرآن وحي الله وأن من أوحي به إليه وهو محمد بن عبدالله لن يكون إلا رسول الله ﷺ.

٣ - التحذير من الشرك فإنه ذنب عظيم لا يغفر إلا بالتوبة الصحيحة النصوح.

---

(١) نصب الأرض على الاشتغال، والفرش: البسط يقال: فرش البساط: إذا نشره، وقوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ أثنى تعالى على نفسه بهذه المنة على خلقه وهي: بسط الأرض وتمهيدها للحياة عليها وفي هذا تعليم للعباد أن يحمدوا الله ويشكروه: فله الحمد تعالى وله المنة.

(٢) في خلق الله تعالى للذكر والأنثى والتناسل منهما دليل ظاهر على البعث الذي ينكره الكافرون فمن فكر في إيجاد الحياة من جماد كالنطفة سهل عليه الإيمان بالحياة الثانية بعد انتهاء هذه، ولذا عقب على ذلك بجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وهي جملة تعليلية.

(٣) الفاء للتفريع، إنه بعد أن بيّن للمشركين ضلالهم وخطأهم في الشرك والكفر وإنكار البعث بما ساق من الأدلة وأبرز عن البراهين القطعية قال لرسوله ﷺ: قل لهم أيها الناس ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: اهربوا إليه لينجيكم من الخسران فإنه ليس لكم إلا هو فآمنوا به واعبدوه ووحّدوه، وعلّل ذلك بقوله لهم: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٢ ـ ٦٠]

﴿٥٢﴾ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾: أي الأمر كذلك ما أتى الذين من قبل قومك يا محمد من رسول. ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾: أي هو ساحر أو مجنون.

﴿٥٣﴾ ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾: أي أتواصت الأمم كل أمة توصي التي بعدها بقولهم للرسول هو ساحر أو مجنون، والجواب: لا، أي لم يتواصوا بل هم قوم طاغون يجمعهم على قولهم هذا الطغيان.

﴿٥٤﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾: أي أعرض عنهم يا رسولنا فما أنت بملوم لأنك بلغتهم فأبرأت ذمتك.

﴿٥٥﴾ ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أي عظ بالقرآن يا رسولنا فإن الذكرى بمعنى التذكير ينفع المؤمنين أي من علم الله أنه يؤمن.

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾: أي خلقتهم لأجل أن يعبدوني فمن عبدني أكرمته ومن ترك عبادتي أهنته.

﴿٥٧﴾ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾: أي لا لي ولا لأنفسهم ولا لغيرهم. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾: أي لا أريد منهم ما يريد أربابُ العبيد من عبيدهم هذا يجمع المال وهذا يعد الطعام، فالله هو الذي يرزقهم.

﴿٥٨﴾ ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾: أي صاحب القوة المتين الشديد الذي لا يعجزه شيء.

﴿٥٩﴾ ﴿ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾: أي نصيبًا من العذاب مثل نصيب أصحابهم الذين ماتوا على الكفر. ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾: أي فلا يطالبوني بالعذاب فإن له موعدًا لا يُخلَفونه.

﴿٦٠﴾ ﴿مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾: أي يوم القيامة.

معنى الآيات:

﴿٥٢﴾ بعد عرض تلك الأدلة المقررة للتوحيد والبعث والمستلزمة للرسالة المحمدية والمشركون ما زالوا في إصرارهم على الكفر والتكذيب قال تعالى مسليًا رسوله مخففًا عنه ما يجده من إعراض وتكذيب: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر والشأن كذلك وهو أنه ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ أي من قبل قومك ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ﴾ فيه هو ﴿سَاحِرٌ[1] أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ كما قال قومك لك اليوم.

﴿٥٣﴾ ثم قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ[2] بِهِۦ﴾ أي بهذا القول كل أمة توصي التي بعدها بأن تقول لرسولها: ﴿سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ بل هم قوم طاغون أي لم يتواصوا به وإنما جمعهم على هذا القول الطغيان الذي هو وصف عام لهم فإن الطاغي من شأنه أن ينكر ويكذب ويتهم بأبعد أنواع التهم والحامل له على ذلك طغيانه.

﴿٥٤﴾ ـ ﴿٥٥﴾ وما دام الأمر هكذا ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ يا رسولنا أي أعرض عنهم ولا تلتفت إلى أقوالهم وأعمالهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ في هذا القول لأنك قد بلّغت رسالتك وأديت أمانتك ولا يمنعك هذا التولي عنهم أن تذكر أي عِظ بالقرآن بل عظ ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الذين علم الله تعالى أنهم يؤمنون ممن هم غير مؤمنين الآن كما تنفع المؤمنين حاليًا بزيادة إيمانهم وصبرهم على طاعة الله ربهم.

﴿٥٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[3] أي لم يخلقهما للهو ولا للعب ولا لشيء وإنما خلقهما ليعبدوه بالإذعان له

---

(١) (أو) بمعنى الواو إذ هم مرّة يقولون ساحر ومرّة يقولون مجنون وليس معنى ساحر أو مجنون أن يكون إما ساحرًا أو مجنونًا فتكون أو لأحد الشيئين.

(٢) الاستفهام للتعجب، و(بل) للإضراب الإبطالي، أي لم يتواصوا بهذا القول الفاسد، وإنما جمعهم الطغيان فقالوا ما قالوا ولم يتخلف قوم منهم في ذلك.

(٣) قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ...﴾ إلخ. فيه تعريض بالمشركين والكافرين التاركين لعبادته تعالى ﴿وَٱلۡإِنسَ﴾ واحده إنسي، والاستثناء مفرّغ من علل لم تذكر، والإرادة هنا: هي الإرادة الشرعية التكليفية ليست الإرادة الكونية التي لا تتخلف، ولذا فلا معنى لمن قال: المراد بالناس هنا المؤمنون فقط، أو هو على تقدير لآمرهم وأنهاهم أو أنّ المراد من العبادة: ظهور قدرة الله تعالى فيهم من الخلق والإحياء والإماتة.

والتسليم لأمره ونهيه.

(٥٧) وقوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝﴾ أي إن شأني معهم ليس كشأن السادة مالكي العبيد الذين يتعبدونهم بالقيام بحاجاتهم. هذا يجمع المال وهذا يُعِد الطعام بل خلقتهم ليعبدوني أي يوحدوني في عبادتي، إذ عبادتهم لي مع عبادة غيري لا أقبلها منهم ولا أثيبهم عليها بل أعذبهم على الطاعة حيث عبدوا من لا يستحق أن يُعبد من سائر المخلوقات.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝﴾[1] قرر به غناه عن خلقه، وأعلم أنه ليس في حاجة إلى أحدٍ وذلك لغناه المطلق، وقدرته التي لا يعجزها في الأرض ولا في السماء شيء.

(٥٩) وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟[2] ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي إذا عرفت حال من تقدم من قوم عاد وثمود وغيرهم فإن لهؤلاء المشركين ذنوبًا مثل ذنوب أصحابهم أي نصيبًا من العذاب، وعبّر بالذنوب التي هي الدلو الملأى بالماء عن العذاب لأن العذاب يصب عليهم كما يصب الماء من الدلو ولأن الدلاء تأتي واحدًا بعد واحد فكذلك. الهلاك يتم لأمة بعد أمة حتى يسقوا كلهم مرّ العذاب، وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي ما هناك حاجة بهم إلى استعجال العذاب فإنه آت في إبّانه ووقته المحدد له لا محالة.

(٦٠) وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي بالله ولقائه والنبي وما جاء به ويل لهم من يومهم الذي يوعدون أي العذاب الشديد لهم من يومهم الذي أوعدهم الله تعالى به وهو يوم القيامة، والويل وادٍ في جهنم يسيل بصديد أهل النار والعياذ بالله.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة بشرية وهي التكذيب والاتهام بالباطل وقلب الحقائق لكل من جاءهم يدعوهم إلى خلاف مألوفيهم وما اعتادوه من باطلٍ وشرٍ فيدفعون بالقول فإذا أعياهم ذلك دفعوا بالفعل وهي الحرب والقتال.

٢ - بيان أن طغيان النفس يتولد عنه كل شر والعياذ بالله.

٣ - مشروعية التذكير، وأنه ينتفع به مَنْ أراد الله إيمانه ممن لم يؤمن، ويزداد به إيمان المؤمنين الحاليين.

٤ - بيان علة خلق الإنس والجن وهي عبادة الله وحده.

٥ - بيان غنى الله تعالى عن خلقه، وعدم احتياجه إليهم بحال من الأحوال.

٦ - توعد الرب تبارك وتعالى الكافرين وأن نصيبهم من العذاب نازل بهم لا محالة.

سورة الطور
مكية
وآياتها تسع وأربعون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ١٦]

(١) ﴿وَٱلطُّورِ ۝﴾: أي والجبل الذي كلم الله عز وجل عليه موسى عليه السلام.

(٢) ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝﴾: أي وقرآن مكتوب.

(٣) ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝﴾: أي في جلد رقيق أو ورق منشور.

(٤) ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝﴾: أي بالملائكة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون أبدًا.

(٥) ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝﴾: أي السماء التي هي كالسقف المرفوع للأرض.

(٦) ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝﴾: أي المملوء المجموع ماؤه بعضه في بعض.

(٩) ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝﴾: أي تتحرك وتدور.

(١٢) ﴿فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾: أي في باطل يلعبون أي يتشاغلون بكفرهم.

(١٣) ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝﴾: أي يدفعون بعنف دفعًا.

(١٥) ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾: أي العذاب الذي ترون كما كنتم تقولون في القرآن. ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾: أي

---

(١) الجملة تعليلية لما سبقها من قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ و﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ كثير الإرزاق و﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ صاحبها ومن خصائص (ذو) أنها لا تضاف إلا إلى أمر مهم، و﴿ٱلْمَتِينُ﴾ الكامل في قوته الذي لا يُعارض ولا يُدانى.

(٢) في قوله تعالى: ﴿ذَنُوبًا﴾ إشارة إلى ما حصل لصناديد قريش إذ بعد قتلهم ألقوا في قليب ببدر فكان ذلك مصداق قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ وهي الدلو الملأى فعجبًا لهذا القرآن العظيم.

الجزء السابع والعشرون — سورة الطور

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

٥٢٤

أم عدمتم الأبصار فأنتم لا تبصرون.

(١٦) ﴿ٱصْلَوْهَا﴾: أي اصطلوا بحرها. ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾: أي صبركم وعدمه عليكم سواء.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۞﴾[(١)] ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۞ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۞ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۞ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۞ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۞﴾ هذه خمسة أشياء عظام أقسم الله تعالى بها، وبالتتبع لما يقسم الله تعالى به يُرى أنه إذا أقسم بشيء إنما يقسم به إما لكونه مظهرًا من مظاهر القدرة الإلهية، كالسماء مثلاً، وإما لكونه معظمًا نحو لعمرك إذْ هو إقسام بحياة النبي ﷺ. وإما لكونه ذا فائدة للإنسان ونفع خاص به كالتين والزيتون. وقوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۞﴾ وهو جبل الطور الذي كلم تعالى عليه موسى وهو مكان مقدس.

(٢) - (٣) وقوله: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۞ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۞﴾[(٢)] أي منشور في ورق أو جلد رقيق وهو التوراة أو القرآن والإقسام به لما فيه من حرمة وقدسية عند الله تعالى.

(٤) والبيت المعمور[(٣)] وهو بيت في السماء تغشاه الملائكة كل يوم وتعمره بالعبادة وهو بحيال الكعبة بحيث لو وقع لوقع فوقها.

(٥) ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۞﴾ وهو السماء وهي كالسقف للأرض وهي مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه ومثلها.

(٦) ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۞﴾[(٤)] أي المملوء بكميات المياه الهائلة فإنه مظهر من مظاهر القدرة والعلم والحكمة الإلهية. هذا القسم الضخم جوابه أو المقسم عليه هو قوله:

(٧) - (٨) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا رسولنا ﴿لَوَٰقِعٌ ۞ مَّا لَهُۥ مِن[(٥)] دَافِعٍ﴾ ليس له من دافع يدفعه أبدًا، وإن له وقتًا محددًا يقع فيه، وعلامات تدل عليه وهي قوله تعالى:

(٩) - (١١) ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۞﴾[(٦)] أي تتحرك بشدة وتدور ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۞﴾ فتكون كالهباء المنبث هنا وهناك ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞﴾ والويل واد في جهنم مملوء بقيح وصديق أهل النار، والمكذبون هم الكافرون بالله وبما جاءت به رسله عنه من أركان الإيمان وقواعد الإسلام.

(١٢) وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ

---

(١) ﴿ٱلطُّورَ﴾ الجبل باللغة السريانية ونقل إلى العربية بهذا اللفظ بمعنى الجبل وأصبح علمًا بالغلبة على جبل طور سيناء الذي ناجى الله تعالى فيه نبيّه موسى عليه السلام.

(٢) الرَّق: بفتح الراء، ما رق من الجلد ليكتب فيه، والمنشور: المبسوط وجائز أن يكون المراد به التوراة أو القرآن، إذ القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف وتقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ والرِّق بكسر الراء المِلك.

(٣) جائز أن يكون المراد بالبيت المعمور الكعبة المشرفة بمكة المكرمة. وجائز أن يكون بيتًا في السماء كما في التفسير، ويقال له: الضُّراح بضم الضاد وفي الطبري: أن عليًا سُئل عن البيت المعمور فقال: بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدًا.

(٤) جائز أن يكون المراد بالبحر: البحر الأحمر، (القلزم) الذي أغرق الله تعالى فيه فرعون وملأه لمناسبة ذكر الطور، وجائز أن يكون المحيط ووصف بالمسجور وهو المملوء: حتى لا يدخل فيه الأنهار التي تملأ بالأمطار والأودية والسيول.

(٥) زيدت: (مِن) في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ لتأكيد النفي.

(٦) المور: التحرك باضطراب، ومور السماء: اضطراب أجسامها من الكواكب، واختلال نظامها عند نهاية الحياة.

﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي في باطلهم وكفرهم يتشاغلون به عن الإيمان الحق والعمل الصالح المزكي للنفس المطهر لها.

(١٣) - (١٤) وقوله: ﴿يَوْمَ[1] يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي يوم يدفعون بشدة وعنف إلى جهنم ويقال لهم توبيخًا وتقريعًا لهم ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾. أخبرونا: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ أي العذاب الذي أنتم فيه الآن تعذبون ﴿أَمْ[2] أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ فلا تعاينونه. ويُقال لهم أيضًا تبكيتًا وتقريعًا ﴿فَاصْبِرُوا﴾ على عذاب النار ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي صبركم وعدمه عليكم سواء. ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ[3] مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي في الدنيا من الشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

١ - تقرير البعث والجزاء.

٢ - لله تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه وليس للعبد أن يقسم بغير الله تعالى.

٣ - عرض سريع لأهوال القيامة وأحوال المكذبين فيها.

٤ - تقرير قاعدة الجزاء من جنس العمل.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ - ٢٠]

(١٧) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: أي الذين اتقوا ربهم فعبدوه وحده بما شرع لهم فأدوا الفرائض واجتنبوا النواهي.

(١٨) ﴿فَاكِهِينَ﴾: أي متلذذين بأكل الفواكه الكثيرة التي آتاهم ربهم.

﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾: أي وحفظهم من عذاب الجحيم عذاب النار.

(٢٠) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾: أي بعضها إلى جنب بعض. ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: أي قرناهم بنساء عظام الأعين حِسانها.

معنى الآيات:

(١٧) لما ذكر تعالى حال أهل النار ذَكر حال أهل الجنة وهذا أسلوب الترغيب والترهيب الذي امتاز به القرآن الكريم فقال تعالى مخبرًا عن حال أهل الجنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الذين اتقوا في الدنيا الشرك والمعاصي ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين ﴿وَنَعِيمٍ﴾ مقيم يحوي كل ما لذّ وطاب مما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين. ﴿فَاكِهِينَ[4] بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي متلذذين بأكل الفواكه الكثيرة الموصوفة بقول الله تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾. ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي حفظهم من عذاب النار.

(١٩) ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا[5] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب ما كُنتم تعملونه من أعمال البر والإصلاح بعد الفرائض واجتناب الشرك والمعاصي.

(٢٠) وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ أي حال كونهم وهي في نعيمهم متكئين على سرر[6] مصفوفة قد صُف بعضها إلى جنب بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قرناهم بزوجات من الحور العين والحور جمع حوراء وهي التي يغلب بياض عينها على سوادها والعِين جمع عَيْناء وهي الواسعة العينين. جعلنا الله ممن يُزوّجون بهن إنه كريم.

هداية الآيات:

١ - فضل التقوى وكرامة أهلها.

٢ - بيان منة الله وفضله على أهل الإيمان والتقوى وهم أولياء الله تعالى.

---

(١) ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ بدل اشتمال من ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾.

(٢) (أم) هي المنقطعة التي تقدر ببل والاستفهام، والاستفهام هنا للتهكم والتوبيخ والتقدير: ﴿أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي المرئيات.

(٣) ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ﴾ جملة تعليلية وإن حرف توكيد وما الموصولة بها هي الكافة وإنما المركبة من إن المشددة وما: الكافة لها عن العمل أفادت التعليل.

(٤) ﴿فَاكِهِينَ﴾ أي: ذوي فاكهة كثيرة، يقال: رجل فاكه: أي ذو فاكهة كما يقال: لابن وتامر أي: ذو لبن وتمر، قال الشاعر:

وغررتني وزعمت أنّك لابن بالصيف تامر

وفعله فكه كفرح فهو فاكه وفكه، وقرأ الجمهور بالأول وقرأ أبو جعفر بالثاني، والفاكه: من طابت نفسه وسُرت بما به من النعيم.

(٥) الهنيء: ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر يقال لهم: ليهنأكم ما صرتم إليه ﴿هَنِيئًا﴾.

(٦) ﴿سُرُرٍ﴾ جمع سرير، وفي الكلام حذف تقديره: متكئين على، ﴿نمارق﴾ سرر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت، والسرير كما بين مكة وأيلة.

٣ - مشروعية الدعاء بكلمة هنيئًا لمن أكل أو شرب ائتساء بأهل الجنة.

٤ - الإيمان والأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة وليست ثمنًا لها لأن الجنة أغلى من عمل الإنسان، وإنما العمل الصالح يزكي النفس فيؤهل صاحبها لدخول الجنة فالباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سببية وليست للعوض كما في قولك: بعتك الدار بألف، مثلاً.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ - ٢٨]

(٢١) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي حق الإيمان المستلزم للإسلام والإحسان. ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾: أي كامل مستوفٍ لشرائطه ومنها الإسلام. ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أي وإن لم يعملوا عملهم بل قصروا في ذلك. ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾: أي وما نقصناهم من أجور أعمالهم شيئًا. ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾: أي كل إنسان مرهون أي محبوس بكسبه الباطل.

(٢٣) ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾: أي يتعاطون بينهم فيها أي في الجنة كأسًا من خمر. ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾: أي لا يقع لهم بسبب شربها لغو وهو كل كلام لا خير فيه ولا إثم.

(٢٤) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ﴾: أي ويدور بهم خدم لهم. ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾: أي مَصُونٌ.

(٢٥) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي يسأل بعضهم بعضًا عما كانوا عليه في الدنيا وما وصلوا إليه في الآخرة.

(٢٦) ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾: أي قالوا مشيرين إلى علة سعادتهم إنا كنا قبل أي في الدنيا. ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾: أي بين أهلنا وأولادنا مشفقين أي خائفين من عذاب الله تعالى.

(٢٧) ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: أي بالمغفرة. ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾: أي وحفظنا من عذاب النار التي يدخل حرها في مسام الجسم.

(٢٨) ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾: أي في الدنيا نعبده موحدين له. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾: أي المحسن الصادق في وعده الرحيم العظيم الرحمة.

معنى الآيات:

(٢١) ما زال السياق الكريم في ذكر إفضال الله تعالى وإنعامه على أوليائه في الجنة إذ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي حق الإيمان الذي هو عقد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ[(١)] ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾ كامل صحيح إلا أنهم لم يبلغوا من الأعمال الصالحة ما بلغه آباؤهم ألحقنا بهم ذريتهم لتقر بذلك أعينهم وتعظم مسرتهم وتكمل سعادتهم باجتماعهم مع ذريتهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم[(٢)] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي وما نقصنا الآباء من عملهم الصالح من شيء بل وفيناهموه كاملاً غير منقوص ورفعنا إليهم أبناءهم بفضل منا ورحمة. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ[(٣)] رَهِينٌ﴾ إخبار منه تعالى أن كل نفس عنده يوم القيامة مرتهنة بعملها تجزى به إلا أنه تعالى تفضل على أولئك الآباء فرفع إلى درجاتهم أبناءهم تفضلاً وإحسانًا.

(٢٢) - (٢٣) وقوله عز وجل: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ أي الآباء والأبناء من سكان الجنة ﴿بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ من اللحمان. هذا طعامهم أما الشراب فإنهم[(٤)] ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ أي يتعاطون في الجنة كأسًا من خمر لا لغو فيها. أي لا تسبب هذيانًا من الكلام إذ اللغو الكلام الذي لا فائدة

---

(١) قرأ الجمهور ﴿واتَّبَعَتْهُمْ﴾ وقرأ أبو عمرو وحده ﴿وأتبعناهم﴾ وقرأ الجمهور ﴿ذريتهم﴾ بالإفراد، وقرأ ابن عامر بالجمع: ﴿ذرياتهم﴾ مفعول لأتبعناهم، وقرأ نافع ﴿ذرياتهم﴾ الأخيرة بالجمع وقرأها حفص بالإفراد ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ كالأولى.

(٢) ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام، وقرأه ابن كثير بكسر اللام، والواو للحال، فالجملة حالية، والمعنى: أنَّ الله تعالى ألحق بهم ذرياتهم في الدرجة من دون أن ينقص من حسناتهم شيئًا.

(٣) الجملة معترضة بين جملة ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم﴾ وجملة ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ والجملة تقرير لعدالة الرّب تعالى في الحكم بين عباده فيجزي كل نفس بما كسبت، وله أن يتفضّل ويرفع من يشاء درجات.

(٤) أطلق التنازع على التداول والتعاطي والمعنى: أن بعضهم يصب للبعض ويناوله إيثارًا له وكرامة.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

ترتيبها ٥٣ — سورة النجم — آياتها ٦٢

٥٢٥

منه. وقوله: ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[1] أي وليس في شربها إثم.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ﴾ أي خدم لهم كأنهم في جمالهم وحسن منظرهم لؤلؤ مكنون في أصدافه.

(٢٥) ـ (٢٨) وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي عما كان لهم في الدنيا، وما انتهوا إليه في الآخرة من هذا النعيم المقيم. و﴿قَالُوٓا۟﴾ مشيرين إلى سبب نعيمهم في الآخرة: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾، أي في الدنيا، ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾، أي خائفين من عذاب ربنا فترتب على ذلك أن منَّ الله علينا بدخول الجنة ووقانا عذاب السموم الذي هو عذاب النار الذي ينفذ إلى المسام والعياذ بالله تعالى. ﴿إِنَّا[2] كُنَّا مِن قَبْلُ﴾، أي في الدنيا قبل الآخرة ﴿نَدْعُوهُ﴾ ونتضرع إليه أن يجيرنا من النار ويدخلنا الجنة إنه هو تعالى البر بأوليائه الرحيم بعباده المؤمنين.

هداية الآيات:

١ ـ وصف كامل لأهل الجنة وهو تقرير في نفس الوقت للبعث والجزاء بذكر ما يكون فيه.

٢ ـ فضل الإيمان وكرامة أهله عند الله بإلحاق الأبناء قليلي العمل الصالح بآبائهم الكثيري العمل الصالح.

٣ ـ تقرير قاعدة أن المرء يوم القيامة يكون رهين كسبه لا يكفه إلا الله عز وجل فمن استطاع أن يفك رقبته فليفعل وذلك بالإيمان والإسلام والإحسان.

٤ ـ فضيلة الإشفاق في الدنيا من عذاب الآخرة.

٥ ـ فضل الدعاء والتضرع إلى الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٩ ـ ٣٤]

(٢٩) ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾: أي فذكر بالقرآن وعظ من أرسلت إليهم من قومك وغيرهم فلست بنعمة ربك عليك بالعقل وكمال الخلق والوحي إليك.

﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾: أي بمتعاطٍ للكهانة فتخبر عن الغيب بواسطة رئي من الجن ولا أنت بمجنون.

(٣٠) ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾: أي تنظر به حوادث الدهر من موت وغيره.

(٣٢) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾: أي أتأمرهم أحلامهم، أي عقولهم، بهذا وهو قولهم إنك كاهن ومجنون لم تأمرهم عقولهم به. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾: أي بل هم قوم طاغون متجاوزون لكل حد تقف عنده العقول.

(٣٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾: أي اختلق القرآن وكذبه من تلقاء نفسه.

(٣٤) ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾: أي فليأتوا بقرآن مثله يختلقونه بأنفسهم. ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾: أي في أن محمدًا ﷺ اختلق القرآن.

معنى الآيات:

(٢٩) بعد ذلك العرض لأحوال أهل النار وأهل الجنة فلم يبقَ إلا التذكير يا رسولنا فذكر، أي قومك ومن تصل إليهم كلمتك من سائر الناس بالقرآن وما يحمل من وعد ووعيد؛ وما يدعو إليه من هدىً وطريق مستقيم، فما أنت بنعمة ربك، أي بما أولاك ربك من رجاحة العقل وكمال الخلق وكرم الفعال وشرف النبوة بكاهن تقول

(١) اللغو: سقط الكلام وهذيانه الصادر عن خلل في العقل. والتأثيم: ما يؤثم به فاعله من ضرب أو شتم أو تمزيق ثوب.

(٢) قرأ نافع بفتح همزة أنه على تقدير حرف جرّ لأنه للتعليل، وقرأ حفص بالكسر. والجملة تعليلية.

الغيب بواسطة رئيّ من الجن، ولا مجنون تخلط القول وتقول بما لا يفهم عنك ولا يعقل.

(٣٠) وقوله تعالى: ﴿أَمْ[1] يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[2] أي بل يقولون هو شاعر كالنابغة وزهير نتربص به حوادث الدهر حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء ولا ندخل معه في خصومة وجدل قد يغلبنا.

(٣١) وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟﴾[3]، أي ما دمتم قد رأيتم التربص بي فتربصوا فإني معكم من المتربصين.

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ والاستفهام للنفي والتوبيخ والجواب لم تأمرهم عقولهم بهذا بل هم قوم طاغون أي إن طغيانهم هو الذي يأمرهم بما يقولون ويفعلون من الباطل والشر والفساد.

(٣٣) وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ والجواب وإن قالوا تقوله فإن قولهم لم ينبع من عقولهم ولم يصدر من أحلامهم بل عن كفرهم وتكذيبهم ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، والدليل على صحة ذلك تحدي الله تعالى لهم بالإتيان بحديث مثله وعجزهم عن ذلك فلذا هم لا يعتقدون ولا يرون أن الرسول تقوّل القرآن من عنده، وإنما لما لم يؤمنوا به لا بد أن يقولوا كلمة يدفعون بها عن أنفسهم فقالوا تقوله.

(٣٤) فقال تعالى: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ[4] فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أي مثل القرآن ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في قولهم إن الرسول تقوله.

هداية الآيات:

١ - وجوب التذكير والوعظ والإرشاد على أهل العلم بالكتاب والسنة لأنهم خلفاء الرسول ﷺ في أمته.

٢ - ذم الكهانة بل حرمتها لأنها من أعمال الشياطين، والكاهن من يقول بالغيب.

٣ - ذم الطغيان فإنه منبع كل شر ومصدر كل فتنة وضلال.

٤ - حرمة الكذب مطلقًا وعلى الله ورسوله بخاصة لما ينشأ عنه من فساد الدين والدنيا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٥ - ٤٣]

(٣٥) ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾: أي من غير خالق خلقهم وهذا باطل. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾: أي لأنفسهم وهذا محال إذ الشيء لا يسبق وجوده.

(٣٦) ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أي لم يخلقوهما لأن العجز عن خلق أنفسهم دال على عجزهم عن خلق غيرهم. ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾: أي أن الله خلقهم وخلق السموات والأرض كما يقولون إذ لو كانوا موقنين لما عبدوا غير الله ولآمنوا برسوله ﷺ.

(٣٧) ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾: أي من الرزق والنبوة وغيرهما فيخصوا من شاءوا بذلك من الناس. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ﴾: أي المتسلطون الغالبون فيتصرفون كيف شاءوا.

(٣٨) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾: أي ألهم مرقىً إلى السماء يرقون فيه فيسمعون كلام الملائكة فيأتون به ويعارضون الرسول في كلامه. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي بحجة بينة تدل على صدقه وليس لهم في ذلك كله شيء.

(٣٩) ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾: أي ألهُ تعالى البنات ولكم البنون إن أقوالكم كلها من هذا النوع لا واقع لها أبدًا إنها افتراءات.

(٤٠) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾: أي على إبلاغ دعوتك. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾: أي فهم من فداحة الغرم

---

(١) (أم) هي المنقطعة المفسرة ببل والاستفهام قيل للإضراب الانتقالي من قول إلى آخر والاستفهام إنكاري.

(٢) روى الطبراني عن قتادة أنهم كانوا يقولون: تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه كما كفاكم شاعر بني فلان وشاعر بني فلان، و﴿ٱلْمَنُونِ﴾ من أسماء الموت، والريب: أحداث الدهر. والمعنى: ينتظرون به أحداث الدهر المفضية به إلى الموت.

(٣) أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم ﴿تَرَبَّصُوا۟﴾ بي ريب المنون فإني متربص بكم ما سيحدث لكم من أحداث تهلكون فيها وفي هذا: معنى المفاصلة وإنهاء الجدال والمخاصمة.

(٤) ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: علة لقولهم: ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾ إذ هم يعرفون تمام المعرفة أنه ليس من قول الرسول ﷺ وإنما مما يوحى إليه من الله تعالى وإنما قالوا: تقوّله لعدم إيمانهم، ثم تحداهم الحق تعالى بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم أنه تقوّله أي: فليتقوّلوا مثله!!

مغتمون ومتعبون فكرهوا ما تقول لذلك.

(٤١) ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾: أي علم الغيب فهم يكتبون منه لينازعوك ويجادلوك به.

(٤٢) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾: أي مكرًا وخديعة بك وبالدين. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾: أي فالكافرون هم المكيدون المغلوبون.

(٤٣) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾: أي ألهم معبود غير الله والجواب: لا. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي تنزه الله عما يشركون به من أصنام وأوثان.

معنى الآيات:

بعد أن أمر تعالى رسوله بالتذكير وأنه أهل لذلك لما أفاض عليه من الكمالات وما وهبه من المؤهلات. أخذ تعالى يلقن رسوله الحجج فيذكر له باطلهم موبخًا إياهم به ثم يدمغه بالحق في أسلوب قرآني عجيب لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

(٣٥) ومنه قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا[1] مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي أخلقوا من غير خالق ﴿أَمْ هُمُ[2] الْخَالِقُونَ﴾ والجواب لم يُخلقوا من غير خالق، ولا هم خلقوا أنفسهم إذ الأول باطل فما هناك شيء موجود وجد بغير مُوجد؟! والثاني محال؛ إن المخلوق لا يوجد قبل أن يخلق فكيف يخلقون أنفسهم وهم لم يخلقوا بعد؟! ويدل على جهلهم وعمى قلوبهم ما رواه البخاري عن جبير بن مطعم «أنه ذكر أنه لما قدم على رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر في شأن فداء الأسرى سمع النبي ﷺ يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور قال: فلما بلغ في القراءة عند هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ كاد قلبي يطير». سمعها وهو مشرك فكانت سببًا في إسلامه فلو فتح القوم قلوبهم للقرآن لأنارها وأسلموا في أقصر مدة.

(٣٦) وقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا[3] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والجواب: لا، إذ العاجز عن خلق ذبابة فما دون عن خلق السموات والأرض وما فيهما أعجز. وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أن الله هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض، فقولهم عند سؤال من خلقهم: الله، وعن خلق السموات والأرض: الله لم يكن عن يقين إذ لو كان عن يقين منهم لما عبدوا الأصنام ولما أنكروا البعث ولما كذبوا بنبوة محمد ﷺ.

(٣٧) وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أي من الأرزاق والخيرات والفواضل والفضائل فيخصوا من شاءوا منها ويحرموا من شاءوا والجواب ليس لهم ذلك فلمَ إذًا ينكرون على الله ما أتى رسوله من الكمال والإفضال؟ أم هم المسيطرون أي الغالبون القاهرون المتسلطون فيتصرفون كيف شاءوا في الملك؟ والجواب: لا، إذًا فلمَ هذا التحكم الفاسد.

(٣٨) وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ[4] يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي ألهم مرقى يرقون فيه إلى السماء فيستمعون إلى الملائكة فيسمعون منهم ما يمكنهم أن ينازعوا فيه رسولنا محمدًا ﷺ فليأت مستمعهم بحجة واضحة ظاهرة على دعواه ومن أين له ذلك وقد حجبت الشياطين والجن عن ذلك فكيف

---

(١) هذا إضراب انتقالي إلى إبطال نوع آخر من شبهتهم في إنكار البعث إذ السورة مكية، والغالب على هذه السورة معالجة عقيدة البعث الآخر والاستفهام المقدر بعد (أم) تقريري.

(٢) الاستفهام المقدر هنا إنكاري.

(٣) الاستفهام تقريري، وبل المقدرة قبل الاستفهام للانتقال وهكذا يورد قولهم مقررًا لهم ثم يكر عليه فيبطله في جميع هذه الجمل المبدوءة بـ أم المنقطعة.

(٤) السلم: المصعد، وجمعه سلالم. قال الشاعر:

ومن هاب أسباب المنية يلقها ... ولو رام أسباب السماء بسلّم

وقال آخر:

لا تحرز المرء أحجاء البلاد ولا ... يبنى له في السموات السلاليم

أحجاء البلاد: أرجاؤها ونواحيها.

بغير الجن والشياطين.

(٣٩) وقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ أي لله تعالى البنات ولكم البنون، إن جميع ما تقولونه من هذا النوع هو كذب ساقط بارد، وافتراء ممقوت ممجوج، إن نسبتهم البنات لله كافية في رد كل ما يقولون ومبطلة لكل ما يدّعون فإنهم كَذَبة مفترون لا يتورعون عن قول ما تحيله العقول، وتتنزه عنه الفُهُوم.

(٤٠) وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي أتسألهم يا رسولنا عما تبلغهم عنا أجرًا فهم لذلك مغتمون ومتعبون فلا يستطيعون الإيمان بك ولا يقدرون على الأخذ عنك.

(٤١) وقوله: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ[1] يَكْتُبُونَ﴾ أي أعندهم علم الغيب فهم منهمكون في كتابته لينازعوك فيما عندك ويحاجوك بما عندهم، والجواب من أين لهم ذلك.

(٤٢) وقوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي أيريدون بك وبدينك كيدًا؛ ليقتلوك ويبطلوا دينك فالذين كفروا[2] هم المكيدون ولست أنت ولا دينك. ولم يمض عن نزول هذه الآيات طويلُ زمن حتى هلك أولئك الكائدون ونصر الله رسوله وأعزّ دينه والحمد لله رب العالمين.

(٤٣) وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي ألهم[3] إلهٌ أي معبود غير الله يعبدونه والحال أنه لا إله إلا الله ﴿أَمْ[4] لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدّس عما يشركونه به من أصنام وأوثان لا تسمع ولا تبصر فضلاً عن أن تضر أو تنفع.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد بذكر دلائله.

٢ - تقرير النبوة المحمديّة.

٣ - تسفيه أحلام المشركين.

٤ - عدم مشروعية أخذ أجرٍ على إبلاغ الدعوة.

٥ - لا يعلم الغيب إلا الله.

٦ - صدق القرآن في أخباره آية أنه وحي الله وكلامه صدقًا وحقًّا إنه لم يمض إلا قليل من الوقت أي خمسة عشر عامًا حتى ظهر مصداق قول الله تعالى فالذين كفروا هم المكيدون.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٤ - ٤٩]

(٤٤) ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾: أي وإن يرَ هؤلاء المشركون قطعة من السماء تسقط عليهم.

﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾: أي يقولوا في القطعة سحاب متراكم يمطرنا ولا يؤمنوا.

(٤٥) ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾: أي فاتركهم إذًا يجاحدون ويعاندون حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون وهو يوم موتهم.

(٤٦) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: أي اتركهم إلى ما ينتظرهم من العذاب ما داموا مصرين على الكفر وذلك يوم لا يغني عنهم مكرهم بك شيئًا من الإغناء.

(٤٧) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: أي وإن لهؤلاء المشركين الظَلَمة عذابًا في الدنيا دون عذاب يوم القيامة وهو عذاب القحط سبع سنين وعذاب القتل في بدر. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي أن العذاب نازل بهم في الدنيا قبل يوم القيامة.

(٤٨) ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: أي بإمهالهم ولا يضق صدرك بكفرهم وعنادهم وعدم تعجيل العذاب لهم.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: أي بمرأىً منا نراك ونحفظك من كيدهم لك ومكرهم بك. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾: أي واستعن على الصبر بالتسبيح الذي هو الصلوات الخمس والذكر بعدها

---

(١) حاصل معنى هذا: أنهم لا قبل لهم بإنكار ما جحدوه من البعث والوعيد والنبوة ولا بإثبات ما أثبتوه من الشرك وما وصفوا به الرسول ﷺ من صفات مستحيلة الوقوع.

(٢) لم يمضِ يسير زمن حتى هلك رؤساء الشرك في بدر مصداق قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ كقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

(٣) الاستفهام إنكاري.

(٤) نزّه تعالى نفسه أن يكون له شريك كما زعم المشركون وادّعوا باطلاً فأبطل بذلك كل دعاويهم في تأليه غيره تعالى من الأصنام والشياطين.

والضراعة والدعاء صباح مساء.

معنى الآيات:

(٤٤) يذكر تعالى من عناد المشركين أنهم لو رأوا العذاب نازلاً من السماء في صورة قطعة كبيرة من السماء ككوكب مثلاً لما أذعنوا ولا آمنوا بل قالوا في ذلك العذاب ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ الآن يسقي ديارنا فنرتوي وترتوي أراضينا وبهائمنا.

(٤٥) إذًا فلما كان الأمر هكذا ﴿فَذَرْهُمْ﴾[1] يا رسولنا في عنادهم وكفرهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ وجهًا لوجه ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي يموتون.

(٤٦) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ[2]﴾ شيئًا ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، فيذهب كيدهم ولا يجدون له أي أثر بحيث لا يغني عنهم أدنى إغناء من العذاب النازل بهم ولا يجدون من ينصرهم، وذلك يوم القيامة.

(٤٧) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي أنفسهم أي بالكفر والتكذيب والشرك والمعاصي عذابًا دون[3] ذلك المذكور من عذاب يوم القيامة وهو ما أصابهم به من سِنِي القحط والمجاعة وما أنزله بهم من هزيمة في بدر حيث قتل صناديدهم وذلوا وأهينوا ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك، ولو علموا لما أصروا على العناد والكفر.

وقوله تعالى: واصبر لحكم ربك وقضائه بتأخير العذاب عن هؤلاء المشركين، ولا تخف ولا تحزن فإنك بأعيننا أي بمرأ منا نراك ونحفظك، وجمع لفظ العين على أعين مراعاة لنون العظمة وهو المضاف إليه «بأعيننا».

(٤٨) وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي قل سبحان الله وبحمده حين تقوم[4] من نومك ومن مجلسك ومن الليل أيضًا فسبحه بصلاة المغرب والعشاء والتهجد وكذا إدبار النجوم أي بعد طلوع الفجر فسبح بصلاة الصبح وغيرها.

هداية الآيات:

١ - بيان عناد كفار قريش ومكابرتهم في الحق ومجاحدتهم فيه.

٢ - تسلية الرسول ﷺ وهي للدعاة بعده أيضًا.

٣ - تقرير وخامة عاقبة الظلم في الدنيا قبل الآخرة.

٤ - وجوب الصبر على قضاء الرب وعدم الجزع.

٥ - مشروعية التسبيح عند القيام[5] من النوم بنحو: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يُحيي ويُميت وهو على كل شيء قدير والحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني وإليه النشور.

❁ ❁ ❁

سورة النجم
مكية
وآياتها ثنتان وستون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٨]

(١) ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝﴾: أي والثريا إذا غابت بعد طلوعها.

(٢) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾: أي ما ضل محمد ﷺ عن طريق الهدى.

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾: أي وما لابس الغي وهو جهل من اعتقاد فاسد.

(٣) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝﴾: أي عن هوى نفسه أي ما يقوله عن الله تعالى لم يصدر فيه عن هوى نفسه.

(٤) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾: أي ما هو إلا وحي إلهي يوحى إليه.

(٥) ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝﴾: أي علمه ملك شديد القوى وهو جبريل عليه السلام.

(٦) ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾: أي لسلامة في جسمه وعقله فكان بذلك ذا قوة شديدة.

(٧) ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝﴾: أي استقر وهو بأفق الشمس عند مطلعها على صورته التي خلقه الله عليها فرآه

---

(١) يقال في مثل هذا: هو منسوخ بآية السيف.

(٢) هو ما كانوا يكيدون للرسول ﷺ وما يمكرون به.

(٣) جائز أن يكون عذاب القبر.

(٤) شاهده ما رواه الترمذي بإسناد حسن قوله ﷺ: **«من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذاك».**

(٥) يرى ابن مسعود رضي الله عنه أن قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ شامل لكل قيام يقومه من أي مكان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾

٥٢٦

النبي ﷺ وكان بجياد قد سد الأفق إلى المغرب وكان النبي ﷺ هو الذي طلب من جبريل أن يريه نفسه في صورته التي خلقه الله عليها.

(٨) ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾: أي وقرب منه فتدلى أي زاد في القرب.

(٩) ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾: أي فكان في القرب قاب قوسين أي مقدار قوسين.

(١٠) ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾: أي فأوحى الله تعالى إلى عبده جبريل ما أوحاه جبريل إلى النبي ﷺ.

(١١) ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾: أي ما كذب فؤاد النبي ما رأى ببصره من صورة جبريل عليه السلام.

(١٢) ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾: أي أفتجادلونه أيها المشركون على ما يرى من صورة جبريل.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾: أي على صورته مرة أخرى وذلك في السماء ليلة أسري به.

(١٤) ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾: وهي شجرة نبق عن يمين العرش لا يتجاوزها أحد من الملائكة.

(١٥) ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾: أي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين أولياء الله.

(١٦) ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾: أي من نور الله تعالى ما يغشى.

(١٧) ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾: أي ما مال بصر محمد يمينًا ولا شمالاً، ولا ارتفع عن الحد الذي حدد له.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾: أي رأى جبريل في صورته ورأى رفرفًا أخضر سد أفق السماء.

معنى الآيات:

(١) - (٥) قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ﴾[1]: إلى قوله: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾: يقرر به تعالى نبوة محمد عبده ورسوله ﷺ وقد أقسم بالنجم إذا هوى وهو نجم الثريا إذا غاب في الأفق على أنه ما ضل محمد صاحب قريش الذي صاحبته منذ ولادته ولم يغب عنها ولم تغب عنه مدة تزيد على الأربعين سنة فهي صحبة كاملة ما ضل عن طريق الهدى وهم يعرفون هذا، وما غوى[2] أيضًا أية غواية وما لابسه جهل في قول ولا عمل فغوى به. وما ينطق بالقرآن وغيره مما يقوله ويدعو إليه عن هوى[3] نفسه كما قد يقع من غيره من البشر إن هو إلا وحي يوحى، أي ما هو أي الذي ينطق به ويدعو إليه ويعمله إلا وحي يُوحى إليه. علمه إياه ملك شديد القوى[4]، ذو مرة، أي سلامة عقل وبدن فكان بذلك قويًا روحيًا وعقليًا وذاتيًا وهو جبريل عليه السلام.

---

(١) أصل النجم: الطلوع والظهور يقال: نجم السّن: إذا طلع، ونجم السر إذا ظهر وأطلق النجم بالغلبة على الثريا. الهوي: السقوط يقال: هوى يهوي هويًا كمضى يمضي مضيًا. وهوى يهوي هويًا: إذا خرّ للسجود، ومن الحب يقال: هوي يهوى هوًى كرضي يرضى رضًا: إذا أحبّ.

(٢) الغيّ: ضد الرشد، والغواية مثله: وهو فساد الرأي وتعاطي الإنسان الباطل من الأقوال والأفعال مما لا خير فيه البتة.

(٣) ﴿الْهَوَىٰ﴾ ميل النفس إلى ما تحبّه أو تحبّ أن تفعله دون اقتضاء العقل السليم الحكيم له وفعله: هوي يهوى كرضي يرضى هوىً.

(٤) ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ صفة لموصوف محذوف أي: علّمه ملك شديد القوى هو جبريل إجماعًا، والمرة: تطلق على قوة الذات وعلى متانة العقل معًا، وعليهما كان جبريل عليه السلام.

(٦) ـ (٩) وقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي جبريل ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ومعنى استوى استقر ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أي تدلى فدنا أي قرب شيئًا فشيئًا حتى كان من الرسول ﷺ قاب قوسين، أي قدر قوسين، والقوس معروف آلة للرمي ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي من قاب قوسين[(١)].

(١٠) وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[(٢)] أي فأوحى الله تعالى إلى جبريل ما أوحى إلى نبيه محمد ﷺ.

(١١) وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي ما كذب فؤادُ محمد ﷺ ما رآه محمد ببصره وهو جبريل في صورته التي خلقه الله تعالى عليها ذات الستمائة جناح طول الجناح ما بين المشرق والمغرب.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ هذا خطاب للمشركين المنكرين لرؤية النبي ﷺ ينكر تعالى ذلك عليهم بقوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أي تجادلونه وتغالبونه أيها المشركون على ما يرى ببصره.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[(٣)] أي مرة أخرى.

(١٤) ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[(٤)] وذلك ليلة أسري به ﷺ، ووصفت هذه السدرة[(٥)] وهي شجرة النبق بأن أوراقها كآذان الفيلة وأن ثمرها كقلال هجر قال: فلما غشيها من أمر الله تعالى ما غشيها تغيَّرت فما أحد من خلق الله تعالى يقدر أن ينعتها من حسنها، وسميت سدرة المنتهى لانتهاء علم كل عالم من الخلق إليها أو لكونها عن يمين العرش لا يتجاوزها أحد من الملائكة.

(١٥) وقوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي الجنة التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء، والمتقين أولياء الله تعالى.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾[(٦)] أي من نور الله تعالى، والملائكة من حب الله مثل الغربان حين تقفز على الشجر كذا روى ابن جرير الطبري.

(١٧) وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أي ما مال بصر محمد يمينًا ولا شمالاً ولا ارتفع فوق الحد الذي حدد له.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ[(٧)] رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي رأى جبريل في خلقه الذي يكون فيه في السماء ورأى رفرفًا أخضر قد سد الأفق ورأى من عجائب خلق الله ومظاهر قدرته وعلمه ما لا سبيل إلى إدراكه والحديث عنه.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير النبوة لمحمد وإثباتها بما لا مجال للشك والجدال فيه.

٢ ـ تنزيه الرسول ﷺ عن القول بالهوى أو صدور شيء من أفعاله أو أقواله من اتباع الهوى.

٣ ـ وصف جبريل عليه السلام.

٤ ـ إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل وعلى صورته التي يكون في السماء عليها مرتين.

٥ ـ تقرير حادثة الإسراء والمعراج وإثباتها للنبي ﷺ.

٦ ـ بيان حقيقة سدرة المنتهى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ ـ ٢٦]

(١٩) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾: أي أخبروني عن أصنامكم التي اشتققتم لها أسماء من أسماء الله وأنثتموها.

(٢٠) ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[(٨)]:

---

(١) أي: مقدار قوسين.

(٢) ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ إبهام من أجل التفخيم أي: أوحى إليه شيئًا عظيمًا.

(٣) ﴿نَزْلَةً﴾ على وزن فعلة من النزول دال على المرة أي: رآه إذ نزل إليه مرة أخرى.

(٤) السدر: شجر معروف صحراوي فيه ثلاث ميزات: ظل ظليل وثمر لذيذ ورائحة ذكية.

(٥) هذا الوصف رواه مسلم في صحيحه.

(٦) في قوله: ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ من التفخيم ما فيه.

(٧) جملة: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ تذييل أي: رأى آيات أخرى غير سدرة المنتهى وجنة المأوى وما غشي السدرة من البهجة والجلال، والآيات: دلائل عظمة الله تعالى.

(٨) هدمها خالد بن الوليد بأمر رسول الله ﷺ ولما شرع في هدمها قال لها:

يا عُزّ كفرانك لا سبحانك ... إني رأيت الله قد أهانك

وجعلتموها بناتٍ لله، افتراء على الله وكذبًا عليه.

(٢١) ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾: أي أتزعمون أن لكم الذكر الذي ترضونه لأنفسكم ولله الأنثى التي لا ترضونها لأنفسكم.

(٢٢) ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾: أي قسمتكم هذه إذًا قسمة ضيزى أي جائرة غير عادلة ناقصة غير تامة.

(٢٣) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: أي ما اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى إلا أسماء لا حقيقة لها. ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾: أي سميتموها بها أنتم وآباؤكم. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾: أي لم ينزل الله تعالى وحيًا يأذن في عبادتها. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: أي ما يتبع المشركون في عبادة أصنامهم إلا الظن والخرص والكذب. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾: أي وما يتبعون إلا ما تهواه نفوسهم وما تميل إليه شهواتهم.

(٢٤) ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾: أي بل ألِلإنسان ما تمنى والجواب لا ليس له كل ما يتمنى.

(٢٥) ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾: أي إن الآخرة والأولى كلاهما لله يهب منهما ما يشاء لمن يشاء.

(٢٦) ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي وكثير من الملائكة في السموات. ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾: أي لو أرادوا أن يشفعوا لأحد حتى يكون الله قد أذن لهم ورضي للمسموح له بالشفاعة.

معنى الآيات:

(١٩) - (٢٠) بعد أن ذكر تعالى مظاهر قدرته وعظمته وعلمه وحكمته في الملكوت الأعلى جبريل وسدرة المنتهى وما غشاها من نور الله وما أرى رسوله من الآيات الكبرى، خاطب المشركين بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ[(١)] وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي أعميتم فرأيتم هذه الأصنام أهلاً لأن تسوّى بمن له ملكوت السموات والأرض وعبدتموها معه على حقارتها ودناءتها، وازددتم عميّ فاشتققتم لها من أسماء الله تعالى أسماء، فمن العزيز استققتم العُزى، ومن الله اشتققتم اللات، وجعلتموها بنات لله افتراء على الله بزعمكم أنها تشفع لكم عند الله.

(٢١) أخبروني ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ[(٢)]﴾ لأنكم تحبون الذكران وترضون بهم لأنفسكم، ﴿وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ لأنكم تكرهونها ولا ترضون بها لأنفسكم.

(٢٢) إذا كان الأمر على ما رأيتم فإنها ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ[(٣)]﴾ أي جائرة غير عادلة وناقصة غير تامة فكيف ترضونها لمن عبدتم الأصنام من أجل التوسل بها إليه ليقضي حوائجكم؟

(٢٣) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾. إن أصنامكم أيها المشركون لا تعدو كونها أسماء لآلهة لا وجود لها ولا حقيقة في عالم الواقع إذ لا إله إلا الله، أما اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فلم تكن آلهة تحيي وتميت وتعطي وتمنع وتضر وتنفع. ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي لم ينزل بها وحيًا يأذن بعبادتها. وهنا التفت الجبار جلّ جلاله في الخطاب عنهم وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي إن هؤلاء المشركين ما يتبعون في عبادة هذه الأصنام إلاّ الظن، فلا يقين لهم في صحة عبادتها. كما يتبعون في عبادتها. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أي هوى أنفسهم ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فبيّن لهم الصراط السوي

(١) انتقل الكلام من تقرير النبوة المحمدية إلى تقرير الإلٰهية الربانية، واللات أصله: لات فأدخلوا عليه أل فصار اللات، وهي صنم لثقيف كانت قريش والعرب يعبدونه، وقيل: هو وصف لرجل كان يلت السويق للحجاج ثم صُنع له صنم تمثالاً وألهته ثقيف وقريش وجمهور العرب والعزى اسم مشتق من العز وهي فعلى ككبرى: صنم عليه بناء كان بوادي نخلة فوق (ذات عِرق) ميقات أهل العراق قريبًا من الطائف، ومناة: صنم كان لخزاعة كان بالمشلل حذو قديد بين مكة والمدينة وكان الأوس والخزرج يهلون منه ويطوفون به كالسعي بين الصفا والمروة.

(٢) تقديم الجار والمجرور في ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾ للاهتمام بالاختصاص.

(٣) ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ اسم كدفلى وشعرى، وهو مشتق من ضاز يضيز ضيزًا: إذا ظلم وتعدى وبخس وانتقص. قال الشاعر:

ضازت بنو أسد بحكمهم ... إذ يجعلون الرأس كالذنب

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

٥٢٧

فأعرضوا عنه وهو الحق من ربهم.

(٢٤) - (٢٥) وتعلقوا بالأماني الكاذبة وأن أصنامهم تشفع لهم، ﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ[1]﴾ والجواب ليس له ما تمنى، إذ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝﴾ يعطي منها ما يشاء ويمنع ما يشاء.

(٢٦) ﴿وَكَم مِّن[2] مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ لا يعدون كثرة لا تغني شفاعتهم شيئًا من الإغناء ولو قلّ إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء أن يشفع من الملائكة وغيرهم، ويرضى عن المشفوع له، وإلاّ فلا شافع ولا شفاعة تنفع عند الله الملك الحق المبين.

هداية الآيات:

١ - التنديد بالشرك والمشركين وتسفيه أحلامهم لعبادتهم أسماء لا مسميات لها في الخارج إذ تسمية حجرًا إلهًا لن تجعله إلهًا.

٢ - بيان أن المشركين في كل زمان ومكان ما يتبعون في عبادة غير الله إلا أهواءهم.

٣ - بيان أن الإنسان لا يعطي بأمانيه، ولكن بعمله وصدقه وجده فيه.

٤ - بيان أن الدنيا كالآخرة لله فلا ينبغي أن يُطلب شيء منها إلا من الله مالكها.

٥ - كل شفاعة تُرجى فهي لا تحقق شيئًا إلا بتوفر شرطين: الأول أن يأذن الله للشافع في الشفاعة، والثاني: أن يكون الله قد رضي للمشفوع له بالشفاعة. والخلاصة هي: الإذن للشافع والرضا عن المشفوع.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ - ٣٠]

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: أي إن الذين لا يؤمنون بالبعث والحياة الآخرة. ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾: أي ليطلقون على الملائكة أسماء الإناث إذ قالوا بنات الله.

(٢٨) ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾: أي وليس لهم بذلك علم من كتاب ولا هدي من نبي ولا عقل سوي. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[3]: أي في تسميتهم الملائكة إناثًا إلا مجرد الظن، والظن لا تقوم به حجة ولا يعطى به حق.

(٢٩) ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾: أي القرآن وعبادتنا. ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: ولم يرد من قوله ولا عمله إلا ما يحقق رغائبه من الدنيا.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾: أي ذلك الطلب للدنيا نهاية علمهم إذ آثروا الدنيا على الآخرة.

معنى الآيات:

(٢٧) لما ندد تعالى بالمشركين الذين جعلوا من الأصنام والأوهام والأماني آلهة وجادلوا دونها وجالدوا ذكر ما هو علة ذلك التخبط والضلال فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ دار السعادة الحقة أو الشقاء ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ فلو آمنوا بالآخرة لما سموا الملائكة بنات الله لأن المؤمن بالآخرة يحاسب نفسه على كل قول وعمل له تبعة يخشى أن يؤخذ بها بخلاف الذي لا يؤمن بالآخرة فإنه يقول ويفعل ما يشاء لعدم شعوره بالمسؤولية والتبعة التي قد يؤخذ بها فيهلك ويخشى كل

(١) الاستفهام المقدر بعد أم إنكاري المقصود منه إبطال حصول الإنسان على ما يتمناه.

(٢) هذه الجملة تأكيد لإبطال حصول الإنسان على ما يتمناه وإبطال لاعتقاد المشركين في أن آلهتهم تشفع لهم عند الله عز وجل.

(٣) حذّر النبي ﷺ من القول بالظن وكذا العمل به ففي الصحيح قال: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»!!**

شيء وهو تعليل سليم حكيم.

(٢٨) وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ[(١)] عِلْمٍ﴾ أي ليس لهم في ادعائهم أن الملائكة بنات الله أي علم يعتد به إن يتبعون فيه إلا الظن والظن أكذب الحديث، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا وبناء على هذا أمر الله تعالى رسوله أن يعرض عمن تولى منهم عن الحق بعد معرفته وعن الهدى بعد مشاهدته.

(٢٩) فقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا[(٢)]﴾ أي القرآن والإيمان والتوحيد والطاعة، ولم يرد بقوله وعمله واعتقاده إلا الحياة الدنيا إذ هو لا يؤمن بالآخرة فلذا هو قد كيّف حياته بحسب الدنيا فكل تفكيره في الدنيا، وكل عمله لها فيصبح بذلك أشبه بالآلة منه بالحيوان. وتصبح الحياة معه عقيمة الفائدة فلذا يجب الإعراض عنه وتركه إلى أن يأذن الله فيه بشيء.

(٣٠) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم[(٣)] مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي هذا الطلب للدنيا هو ما انتهى إليه علمهم فلذا هم آثروها عن الآخرة التي لم يعلم عنها شيئًا.

وقوله تعالى في خطاب رسوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ[(٤)] عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أي إن ربك أيها الرسول هو أعلم منك ومن غيرك بمن ضل عن سبيله قدرًا وأزلاً فضل في الحياة الدنيا أيضًا، وهو أعلم بمن اهتدى، قضاءً وقدرًا وواقعًا في الحياة الدنيا وسيجزي كلاً بما عمل من خير أو شر فلا تأسَ يا رسولنا ولا تحزن وفوّض الأمر إلينا فإنا عالمون ومجازون كل عامل بما عمل في دار الجزاء.

هداية الآيات:

١ - أكثر الأمراض مردها إلى قلب لا يؤمن بالآخرة.

٢ - أكثر الفساد في الأرض هو نتيجة الجهل وعدم العلم اليقيني.

٣ - التحذير من الماديين فإنهم شر وخطر وواجب الإعراض عنهم لأنهم شر الخليقة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١، ٣٢]

(٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي خلقًا وملكًا وتصرفًا. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا﴾: ليعاقب الذين أساءوا بما عملوا من الشرك والمعاصي. ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾: ويثيب الذين أحسنوا في إيمانهم وعملهم الصالح بالجنة.

(٣٢) ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ﴾: أي يتجنبون كبائر الذنوب وهو كل ذنب وُضع له حد أو لعن فاعله أو تُوعد عليه بالعذاب في الآخرة. ﴿وَالْفَوَٰحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾: أي الذنوب القبحية كالزنا واللواط وقذف المحصنات والبخل واللمم صغائر الذنوب التي تكفر باجتناب كبائرها. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾: أي خلق أباكم آدم من تراب الأرض. ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: أي وأنتم في أرحام أمهاتكم لم تولدوا بعد. ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾: أي فلا تمدحوها على سبيل الفخر والإعجاب. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾: أي منكم بمن اتقى منكم وبمن فجر فلا حاجة إلى ذكر ذلك منكم.

معنى الآيتين:

(٣١) ما زال السياق الكريم في تقرير ربوبيته تعالى المطلقة لكل شيء إذ تقدم في السياق قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ وهنا قال عز من قائل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقًا وملكًا وتصرفًا وتدبيرًا فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء هداية تابعة لحكمة وإضلال كذلك يدل عليه قوله تعالى:

---

(١) نفي العلم عنهم حجة قاطعة على ادعائهم لأنّ ما لا يثبت بالعلم النقلي أو العقلي لا تقوم به حجة ولا يثبت به شيء وقد وبّخهم تعالى في قوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

(٢) قيل نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، والآية نزلت قبل الأمر بالجهاد.

(٣) قال الفراء: صغّرهم وازدرى بهم أي: ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة.

(٤) هذه الجملة تعليل لجملة: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن﴾ والجملة متضمنة زيادة على التسلية للرسول ﷺ الوعد والوعيد فالوعد للمهتدين من الرسول ﷺ والمؤمنين والوعيد للمشركين الضالين عن سبيل الهدى فإن جزاءهم الشقاء في دار الشقاء.

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

ترتيبها ٥٤ — سُورَةُ القَمَرِ — آياتها ٥٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

﴿لِيَجْزِيَ[١] ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾ أي إلى أنفسهم بما عملوا من الشرك والمعاصي يجزيهم بالسوء وهي جهنم ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ إلى أنفسهم فزكوها وطهروها بالإيمان والعمل الصالح يجزيهم بالحسنى[٢] التي هي الجنة.

﴿٣٢﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ[٣] وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾[٤] بيّن فيه وجه إحسان المحسنين إلى أنفسهم حين طهروها بالإيمان وصالح الأعمال ولم يلوثوها بأوضار كبائر الإثم من كل ما تُوعد فاعله بالنار أو طَعْنٍ أو إقامة حدٍ، أو غضب الرب. والفواحش من زنا ولواط وبخل، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي لكن اللمم يتجاوز عنه وهو ما ألم به المرء وتاب منه أو فعله في الجاهلية ثم أسلم، وما كان من صغائر الذنوب كالنظرة والكلمة والتمرة. وقد فسر بقول الرسول ﷺ إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدركه ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه. فمغفرة الله واسعة تشمل كل ذنب تاب منه فاعله كما تشمل كل ذنب من الصغائر.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ أعلم بضعفنا وغرائزنا وحاجاتنا وعجزنا مِنّا نحن بأنفسنا ولذا تجاوز لنا عن اللمم الذي نُلِمُّ به بحكم العجز والضعف، فله الحمد والمنة. وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[٥] ينهى الرب تعالى عباده المؤمنين عن تزكية المرء نفسه بادعاء الكمال والطهر الأمر الذي يكون فخرًا وإعجابًا والإعجاب بالنفس محبط للعمل كالرياء والشرك فقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا تشهدوا عليها بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي، وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي أن الله أعلم بمن اتقى منكم ربه فخاف عقابه فأدى الفرائض واجتنب المحرمات منا ومن المتقي نفسه فلذا لا تمدحوا أنفسكم له فإنه أعلم بكم من أنفسكم.

---

(١) هذه اللام هي لام التعليل إذ أوجد الله تعالى العوالم العلوية والسفلية من أجل الإنسان، وأوجد الإنسان للذكر والشكر فمن ذكر وشكر وهو المحسن فله الجنة ومن نسي وكفر فله السوأى وهي النار.

(٢) أي: بالمثوبة الحسنى وهي الجنة، والحسنى صفة لموصوف محذوف وهي المثوبة.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ إلخ.. صفة للذين أحسنوا أي: أحسنوا بفعل الواجبات واجتنبوا كبائر الذنوب والسيئات حتى لا تتلوث أرواحهم بعد تطهرها بالأعمال الصالحة.

(٤) عن ابن عباس: هو الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه، واستشهد قائلاً:

إن تغفر اللهم تغفر جمّا ... وأي عبد لك ما ألمّا

(٥) في الآية دليل على كراهة تزكية العبد نفسه أو تزكية غيره ففي الحديث الصحيح: أنه لم يرض لهم تسمية برّة وقرأ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، وقال: «سمّوها زينب» وفي الصحيح أنه سمع رجلاً يمدح آخر فقال له: **«ويلك قطعت عنق صاحبك ـ مرارًا ـ إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانًا والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدًا ـ أحسبه كذا وكذا ـ إن كان يعلم ذلك»** روى مسلم (أن رجلاً أتى عثمان فأثنى عليه في وجهه، فجعل المقداد بن الأسود يحثو التراب في وجهه ويقول: أمرنا رسول الله أن نحثو التراب في وجوه المدّاحين).

هداية الآيتين:

١ - تقرير ربوبية الله تعالى لكل شيء وهي مستلزمة لألوهيته.

٢ - تقرير حرية إرادة الله يهدي من يشاء ويضل ويعذب من شاء ويرحم إلا أن ذلك تابع لحكم عالية.

٣ - تقرير قاعدة الجزاء من جنس العمل.

٤ - تقرير قاعدة أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر.

٥ - حرمة تزكية النفس وهي مدحها والشهادة عليها بالخير والفضل والكمال والتفوق.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ ـ ٥٤]

(٣٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾: أي عن الإسلام بعدما قارب أن يدخل فيه.

(٣٤) ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾: أي أعطى من زعم أنه يتحمل عنه عذاب الآخرة أعطاه ما وعده من المال ثم منع.

(٣٥) ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾: أي يعلم أن غيره يتحمل عنه العذاب والجواب لا.

(٣٦) ـ (٣٧) ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾: أي أم بل لم يخبر بما ورد في الصحف المذكورة وهي التوراة وعشر صحف كانت لإبراهيم عليه السلام.

(٣٨) ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي أنه لا تحمل نفس مذنبة ذنب غيرها.

(٣٩) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: أي من خير وشر، وليس له ولا عليه من سعي غيره شيء.

(٤٠) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾: أي يُبصَر يوم القيامة ويراه بنفسِهِ.

(٤١) ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾: أي الأكمل التام الذي لا نقص فيه.

(٤٢) ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: أي المرجع والمصير إليه ينتهي أمر عباده بعد الموت ويجازيهم.

(٤٣) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾: أي أفرح من شاء فأضحكه، وأحزن من شاء فأبكاه.

(٤٤) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾: أمات في الدنيا وأحيا في الآخرة.

(٤٥) ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾: أي الصنفين الذكر والأنثى.

(٤٦) ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾: أي من مني إذا تمنى تُصبُّ في الرحم.

(٤٧) ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾: أي الخلقة الثانية للبعث والجزاء.

(٤٨) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾: أي وأنه هو وحده أغنى بعض الناس بالكفاية، وأقنى بعض الناس بالمال المقتنى المدخر للقنية.

(٤٩) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾: أي خالقها ومالكها وهي كوكب خلف الجوزاء عبده المشركون.

(٥٠) ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾: أي قوم هود عليه السلام.

(٥١) ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾: أي أهلكها أيضًا فلم يبق منهم أحدًا وهم قوم صالح.

(٥٢) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾: أي وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود وقوم لوط.

(٥٣) ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾: أي وقرى قوم لوط أسقطها بعد رفعها إلى السماء مقلوبة إلى الأرض إذ الائتفاك الانقلاب.

(٥٤) ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾: أي بالعذاب ما غشى حيث جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل.

معنى الآيات:

إن هذه الآيات ترسم صورة لقرشي جاهل هو الوليد بن المغيرة إذ قدر له أن استمع إلى قراءة رسول الله ﷺ فهش لها ودعاه الرسول ﷺ فأسلم أو أوشك أن يسلم فعلم به أحد المشركين من شياطينهم فجاءه فعيّره بإسلامه وترك دين آبائه فاعتذر له الوليد بأنه يخاف عذاب الله فقال له الشيطان القرشي وكان فقيرًا والوليد غنيًا أعطني كذا من المال شهريًا أو أسبوعيًا أو سنويًا وأنا أتحمل عنك العذاب الذي تخافه وعد إلى دينك وأثبت عليه فوافق الوليد على العرض وأخذ يعطيه المال. ثم ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾[1] أي قطع عنه ما كان يعطيه ومنعه. فأنزل الله تعالى

---

(١) يقال: أكدى الحافر وأجبل إذا بلغ في حفره كدية أو جبلاً فلا يمكنه أن يحفر، ثم استعمل فيمن أعطى ولم يتمم، ولمن طلب شيئًا ولم يبلغ آخره. قال الحطيئة:

أعطى قليلاً ثم أكدى عطاءه ... ومن يبذل المعروف في الناس يحمد

فيه هذه الآيات تسلية لرسول الله ﷺ وتعليمًا وتحذيرًا لكل من تبلغه ويقرأها أو تقرأ عليه.

(٣٣) فقال تعالى في أسلوب حمل فيه السامع على التعجب: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي عن الإسلام بعد أن قارب الوصول إليه والدخول فيه.

(٣٤) ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ أي من المال للشيطان المشرك الذي اتفق معه على أن يتحمل عليه العذاب مقابل مال يعطيه إياه أقساطًا، ﴿وَأَكْدَىٰ﴾ أي قطع ومنع لأن الذي يحفر بئرًا في أرض أحيانًا تصادفه كدية من الأرض الصلبة يعجز عن الحفر فينقطع عن الحفر ويمتنع كذلك الوليد أعطى ثم امتنع وهو معنى أكدى أي انتهى إلى كدية من الأرض الصلبة.

(٣٥) وقوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾[1] أي أن المرء في إمكانه أن يتحمل عذاب غيره يوم القيامة والجواب لا علم غيب عنده لا من كتاب ولا من سنة، أم لم ينبأ بما في صحف موسى وهي التوراة وإبراهيم الذي وفى لربه في كل ما عهد به إليه من ذبح ولده حيث تله للجبين ليذبحه، ومن بناء البيت والهجرة والختان بالقدوم إلى غير ذلك من التكاليف الشاقة. أي ألم ينبأ أي يخبر هذا الرجل الجاهل بما في صحف موسى بن عمران نبي بني إسرائيل وإبراهيم أبو الأنبياء ثم بيّن تعالى ما تضمنته تلك الصحف من علم فقال:

﴿أَلَّا تَزِرُ[2] وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أن لا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى.

﴿وَأَن لَّيْسَ[3] لِلْإِنسَٰنِ﴾ من ثواب يوم القيامة ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ في تحصيله بنفسه وهذا لا يتعارض مع قول الرسول ﷺ في الصحيح إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية أو علم ينتفع به إذ هذه الثلاثة أمور من عمل الإنسان وسعيه الولد أنجبه ورباه والصدقة الجارية أوقفها بنفسه والعلم تعلمه وبثّه في الناس وعلمه فالجميع من سعيه وكسبه.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ﴾ أي عمله في الدنيا من خير وشر، ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾ علانية ويجزى به خيرًا كان أو شرًا، والجزاء الأوفى، أي الأكمل الأتم.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي إليه تصير أمور عباده بعد الموت ويحكم فيها ويجزيهم بها.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ[4] وَأَبْكَىٰ﴾ أي أفرح من شاء وأحزن فضحك الفرح وبكى الحزن. أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار. زيادة على من أفرح في الدنيا ومن أحزن.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أمات عند نهاية أجل العبد وأحياه في قبره ويوم نشره وحشره وأحيا بالإيمان وأمات بالكفر وأمات بالقحط وأحيا بالمطر.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي الصنفين الذكر والأنثى من سائر الحيوانات من نطفة أي قطرة المنى إذا تمنى[5] أي تصب في الأرحام.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ﴾ تعالى ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي هو الذي يقوم بها فيحيي الخلائق بعد موتهم يوم القيامة.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي أغنى بعض الناس فسدّ حاجتهم وكفاهم مؤونتهم، وأقنى آخرين أعطاهم مالاً كثيرًا فاقتنوه قنيةً.

---

(١) الاستفهام إنكاري أي: ينكر عليه ما ادعاه من تحمل العذاب عن غيره، وفيه معنى التعجب فيما ادعاه كأنه يعلم الغيب ويشاهده، وليس له ذلك.

(٢) (أن لا تزر وازرة) أن: هي المخففة من الثقيلة، وموضعها جائز أن يكون حرفًا بدلاً من ﴿ما﴾ في قوله: ﴿بِمَا فِى صُحُفِ﴾ وجائز أن يكون في موضع رفع على إضمار: هو، وهو ما يفهم من التفسير.

(٣) يظهر أن هذا العام خصصته السنة فقد أجاز النبي ﷺ الحج والعمرة عن الغير كما أجاز الصدقة كذلك وقد يقال إن الذي يحج أو يتصدّق عن غيره هو بمثابة متوسل إلى الله تعالى طالب منه المغفرة والرحمة فإذا استجاب الله تعالى له غفر للميت ورحمه وهذا جزاء كل عمل صالح.

(٤) قيل: لا يوجد في المخلوقات من يضحك ويبكي إلا الإنسان وقيل: إن القرد يضحك ولا يبكي، وإن البعير يبكي ولا يضحك. والله أعلم.

(٥) قيل: سميت منى: منى لأنها تمنى فيها الدماء أيام التشريق وهو كذلك.

وأنه هو رب الشعرى[1]، ذلك الكوكب الذي يطلع خلف الجوزاء فالله خالقه ومالكه ومسخره وقد عبده الجاهلون واتخذوه ربًا وإلهًا وهو مربوب مألوه.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ[2] عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ قوم هود أرسل عليهم ريحًا صرصرًا ما أتت على شيء إلا جعلته كالرميم، عاد تلك الأمة القائلة من أشد منا قوة دمر الله عليهم فأهلكهم أجمعين.

وثمودا فما[3] أبقى، أي وأهلك ثمود أهلكهم إنهم كانوا هم أظلم من غيرهم وأطغى.

والمؤتفكة[4]، أي قرى قوم لوط سدوم وعمورة أهلكهم فرفع تلك القرى إلى عنان السماء ثم أهوى بها إلى الأرض وأرسل عليهم حجارة من طين من سجيل فغشي تلك المدن من العذاب الأليم ما غشى[5] عذاب يعجز الوصف عنه هذا هو الله رب العالمين الذي اتخذ الجهال له أندادًا فعبدوها معه.

هذا هو الله الإله الحق الذي اتخذ الناس من دونه آلهة لا تعلم ولا تحكم ولا تقدر.

هذا هو الله العزيز المنتقم لأوليائه من أعدائه يشقي عبدًا عاداه ويسعد آخر والاه.

هداية الآيات:

١ - تقرير ربوبية الله تعالى وإثبات ألوهيته بالبراهين والحجج التي لا ترد بحال.

٢ - تقرير عدالة الله تعالى في حكمه وقضائه.

٣ - مظاهر قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته.

٤ - تقرير حقيقة علمية وهي أن العمل الذي يزكي النفس أو يُدنسها هو ذاك الذي يباشره المرء بنفسه وباختياره وقصده ونيته.

٥ - تحذير الظلمة والطغاة من أهل الكفر والشرك من أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من الدَّمار والخسران.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٥ ـ ٦٢]

(٥٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾: أي فبأيِّ أنعُم ربك عليك وعلى غيرك أيها الإنسان. ﴿تَتَمَارَىٰ﴾: أي تتشكك أو تكذب.

(٥٦) ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾: أي هذا النبي محمد ﷺ من النذر الأولى أي رسول مثل الرسل الأولى الذين أرسلوا إلى أقوامهم.

(٥٧) ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾: أي قربت القيامة ووصفت بالقرب لقربها فعلاً.

(٥٨) ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾: أي ليس لها أي للقيامة من دون الله نفس كاشفة لها مظهرة لوقتها، إذ لا يجليها لوقتها إلا الله سبحانه وتعالى.

(٥٩) ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: أي القرآن.

(٥٩) ـ (٦٠) ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾: أي تعجبون تكذيبًا به، وتضحكون سخرية منه كذلك.

(٦١) ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾: أي لاهون مشتغلون بالباطل من القول كالغناء والعمل كعبادة الأصنام والأوثان.

(٦٢) ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾: أي الذي خلقكم ورزقكم وكلأكم ولا تسجدوا للأصنام. ﴿وَٱعْبُدُوا۟﴾: أي وذلوا للّه وأخضعوا له تعظيمًا ومحبة ورهبة فإنه إلهكم الحق الذي لا إله لكم غيره.

معنى الآيات:

(٥٥) بعد ذلك العرض العظيم لمظاهر القدرة والعلم والحكمة

---

(١) قال القرطبي: اختلف فيمن كان يعبد كوكب الشعرى فقيل: كانت تعبده حمير وخزاعة وقيل: إن أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ من قبل أمهاته، ولذا كان المشركون يسمون النبي ﷺ ابن أبي كبشة لما خالفهم ودعا إلى التوحيد.

(٢) قرأ الجمهور ﴿عادا﴾ بإظهار تنوين عاد، وقرأ ورش ﴿عادًا الاولى﴾ بحذف همزة الأولى بعد نقل حركتها إلى اللام المعرفة وإدغام نون التنوين من عادٍ في لام (لولى).

(٣) قرأ الجمهور: ﴿وثمودًا﴾ بالتنوين وقرأ حفص ﴿وَثَمُودَ﴾ وقرأ حفص وحمزة بدون تنوين على إرادة اسم القبيلة.

(٤) نصب المؤتفكة، على الاشتغال وأهوى: أي جعلها هاوية والإهواء: الإسقاط وجيء بصلتها من مادة وصيغة الفعل الذي أسند إليها لأجل التهويل، والذي غشاها: هو مطر من الحجارة المحماة.

(٥) (ما) موصول فاعل (غشَّاها).

وكلها مقتضية للربوبية والألوهية لله سبحانه وتعالى خاطب الله تعالى الإنسان فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ[1] رَبِّكَ﴾ أي بعد الذي عرضنا عليك في هذه السورة من مظاهر النعم والنقم وكلها في الباطن نعم فبأي آلاء ربك تتمارى[2] أي تتشكك أو تكذب، وكلها ثابتة أمامك لا تقدر على إنكارها وإخفائها بحال من الأحوال.

(٥٦) ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ[3] مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ يشير إلى أحد أمرين إمّا إلى ما في هذه السورة والقرآن كله من نذر أو إلى النبي محمد ﷺ وكلا الأمرين حق القرآن نذير ومحمد نذير من النذر الأولى التي سبقته وهم الرسل، أو ما خوّفت به الرسل أقوامها من عذاب الله تعالى العاجل في الدنيا والآجل في الآخرة. ألا فاحذروا أيها الناس عاقبة إعراضكم.

(٥٧) - (٥٨) وقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ يخبر تعالى أن القيامة قد آن أوانها وحضرت ساعتها إنها لقريبة جدًا. ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ نفس ﴿كَاشِفَةٌ﴾ تكشف الستار عنها وتظهرها بل تبقى مستورة لحكمة إلهية حتى تفاجأ بها البشرية وويل يومئذ للمكذبين.

(٥٩) - (٦١) وقوله تعالى توبيخًا للمشركين والمكذبين: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي غفلتم كل هذه الغفلة فتعجبون من هذا الحديث الإلهي والكلام الرباني وهو القرآن. ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ كأن قلوبكم أصابها الموات، ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ على أنفسكم وقد بعتموها للشيطان ليقدمها إلى نار جهنم حطبًا، ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾[4] ساهون لاهون تُغنون وتلعبون. ويلكم أنقذوا أنفسكم ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾[5]، فإنه لا نجاة لكم من العذاب الأليم إلا بالاطراح بين يديه إسلامًا له وخضوعًا. تعبدونه بتوحيده في عبادته، وتسلمون قلوبكم ووجوهكم فلا يكون لكم غير الله مألوهًا ومعبودًا تعظمونه وتحبونه وتتقربون إليه بفعل محابه وترك مكارهه.

هداية الآيات:

١ - بيان قرب الساعة وخفاء ساعتها عن كل خلق الله حتى تأتي بغتة.

٢ - ذمّ الضحك مع الانغماس في الشهوات.

٣ - الترغيب في البكاء من خشية الله.

٤ - كراهية الغناء واللهو واللعب.

٥ - مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية لمن يتلوها ولمن يستمع لها، وهي من عزائم السجدات في القرآن الكريم، ومن خصائص هذه السجدة أن المشركين سجدوها مع رسول الله ﷺ حول الكعبة كما في الصحيح.

❀ ❀ ❀

سورة القمر
مكية
وآياتها خمس وخمسون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٨]

(١) ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾: أي قربت القيامة، وانفلق القمر فلقتين على جبل أبي قبيس.

(٢) ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾: أي وإن ير كفار قريش آية أي معجزة

---

(١) فبأي نعم ربك تشك أيها الإنسان المكذّب، والآلاء: النعم، واحدها إليَ وألىَ وإلي وألو كدلو.

(٢) التماري: التشكك، وهو تفاعل من المرية، ولا يصح أن يكون المراد بالمخاطب النبي ﷺ لأن الرسول ﷺ لا يشك أبدًا، وإن قاله بعضهم، ورده إمام المفسرين ابن جرير الطبري.

(٣) حقيقة النذير: أنه المخبر عن حدثٍ مضر بالمخبَر، وجمعه: نُذُر ويطلق النذير على الإنذار فهو إذًا اسم مصدر، ومنه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إنذاري لكم.

(٤) السمود: الغناء بلغة حمير والمعنى: فرحون بأنفسكم تتغنون بالأغاني لقلة اكتراثكم بما تسمعون من القرآن، وفعله: سمد يسمد والأمر: اسْمُدْ لنا أي غن لنا.

(٥) جائز أن يراد بالسجود: الصلاة والعبادة والتوحيد إذ كانت الصلاة يومئذ قد فرضت، وجائز أن يكون المراد بالسجود: الخضوع لله والإذعان له بالإيمان والتوحيد بعد ترك الشرك والكفر، وصحّ أن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة سجد فسجد المشركون بسجوده متأثرين بما أسمعهم الشيطان من مدح آلهتهم بقوله: تلك الغرانيق العلا . . وإن شفاعتهن لترتجى.

يعرضوا عنها ولا يلتفتوا إليها. ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾: أي هذا سحر مستمر أي قوي من المرّة أو دائم غير منقطع.

(٣) ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾: أي وكل من الخير أو الشر مستقر بأهله في الجنة أو في النار.

(٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾: أي من أنباء الأمم السالفة مما قصه القرآن. ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾: أي جاءهم من الأخبار ما فيه ما يزجرهم عن التكذيب والكفر.

(٥) ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾: أي الذي جاءهم من الأنباء هو حكمة بالغة أي تامة. ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾: أي عن قوم كذبوا واتبعوا أهواءهم لا تغن شيئًا.

(٦) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: أي لذلك فأعرض عنهم. ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾: أي يدع الداع إلى موقف القيامة.

(٧) ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾: أي من القبور.

(٨) ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾: أي مسرعين إلى نداء الداع. ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾: أي صعب شديد.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ[١] السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ يخبر تعالى أن ساعة نهاية الدنيا وفنائها وقيام القيامة قد اقتربت، وأن القمر قد انشق معجزة للنبي ﷺ وبعثة النبي ﷺ علامة من علامات الساعة، وانشقاق القمر كان بمكة حيث طالبت قريش النبي ﷺ بمعجزة تدل على نبوته فسأل الله تعالى انشقاق القمر فانشق فلقتين على جبل أبي قبيس فلقة فوق الجبل وفلقة وراءه فشاهدته قريش ولم تؤمن وهو معنى قوله تعالى:

(٢) ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[٢] أي هذا سحر قوي شديد.

(٣) قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا﴾ أي رسولنا وما جاءهم به من التوحيد والوحي واتبعوا في هذا التكذيب أهواءهم لا عقولهم ولا ما جاء به رسولهم. وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾[٣] أي وكل أمر من خير أو شر مستقر بصاحبه إما في الجنة أو النار.

(٤) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ أي من أخبار الأمم السابقة وكيف أهلكها الله بتكذيبها رسلها وإصرارها على الشرك والكفر، وذلك في القرآن الكريم ما فيه مزدجر[٤] أي جاء من الأخبار الواعظة المذكرة من قصص الأنبياء مع أممهم ما فيه زاجر عن التكذيب والمعاصي هو حكمة[٥] بالغة تامة، والحكمة القول الذي يمنع صاحبه من التردي والهلاك بصرفه عن أسباب ذلك.

(٥) وقوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ[٦] النُّذُرُ﴾ أي عن قوم كذبوا بالحق لما جاءهم واتبعوا أهواءهم ولم يتبعوا هدى ربهم ولا عقولهم. إذًا فتول عنهم يا رسولنا واتركهم إلى حكم الله فيهم.

(٦) وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾[٧] أي اذكر يا رسولنا

---

(١) إنها بالنسبة لما مضى من أيام الدنيا لقريبة جدًا إذ أكثر عمر الدنيا قد انقضى، خطب يومًا رسول الله ﷺ فقال: «**ما بقي من دنياكم فيما مضى إلا مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى**» وما نرى من الشمس إلا يسيرًا.

(٢) ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ يكون بمعنى ذاهب من قولهم مرّ الشيء واستمر: إذا ذهب ويكون بمعنى محكم قوي شديد مأخوذ من المرة وهي القوة، وكونه مستمرًا نافذًا أولى بالمعنى.

(٣) وجائز أن يكون ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ في أم الكتاب: كائن لا محالة أو أن أمر النبي ﷺ إلى استقرار بانتصاره على الباطل وأهله فيكون في الخبر بشرى للنبي ﷺ.

(٤) أصل ﴿مُزْدَجَرٌ﴾: مزتجر من زجرته فانزجر فقلبت التاء دالاً لتقارب مخرجي التاء والدال، أي: جاءهم من الأخبار الواعظة ما يزجرهم عن الكفر، لو قبلوه واتعظوا به.

(٥) أي: جاءهم من مواعظ القرآن وزواجره ما هو حكمة بالغة إلى المقصود مفيدة لصاحبها.

(٦) جائز أن تكون (ما) نافية أي: لا تغني النذر شيئًا عمن تلك حاله، وجائز أن تكون استفهامية أي: أي شيء تغني النذر مع الإصرار على الكفر والتوغل في الباطل؟ والاستفهام للنفي أيضًا.

(٧) ﴿نُّكُرٍ﴾ ما تنكره النفوس وتكرهه، ونُكر: وزنه نادر نحو أنُف: بمعنى جديد.

خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

٥٢٩

يوم يدعو الداع إلى شيء نكر وهو موقف القيامة خشعًا أبصارهم وكل أجسامهم وإنما ذكرت الأبصار لأنها أدل على الخشوع من سائر الأعضاء. ﴿٧﴾ ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور جمع جدث وهو القبر كأنهم جراد منتشر في كثرتهم وتفرقهم وانتشارهم. ﴿٨﴾ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي مسرعين إلى داع الله إلى ساحة الموقف وفصل القضاء. يومئذ يقول الكافرون هذا يوم عَسِر وهو كذلك عسير شديد العسر ولكن على المؤمنين يسير غير عسير. كما قال تعالى فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير، مفهومه أنه على المؤمنين يسير.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - ذكر بعض علامات الساعة كبعثة النبي ﷺ وانشقاق القمر معجزة له ﷺ.

٣ - التنديد باتباع الهوى، والتحذير منه فإنه مهلك.

٤ - عدم جدوى النذر لمن يتنكر لعقله ويتبع هواه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ - ١٧]

﴿٩﴾ ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾: أي كذبوا نوحًا عبد الله ورسوله وقالوا هو مجنون. ﴿وَازْدُجِرَ﴾: أي انتهروه وزجروه بالسب والشتم.

﴿١٠﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۞﴾: أي فسأل ربه قائلاً رب إني مغلوب فانتصر أي لي.

﴿١١﴾ ﴿بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾: أي منصب انصبابًا شديدًا.

﴿١٢﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾: أي تنبع نبعًا. ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾: أي ماء السماء وماء الأرض. ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾: أي في الأزل ليغرقوا به فيهلكوا.

﴿١٣﴾ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۞﴾: أي حملنا نوحًا على سفينة ذات ألواح ودسر وهو ما يدسر به الألواح من مسامير وغيرها. واحد الدسر دسار ككتاب.

﴿١٤﴾ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾: أي بمرأىً منا أي محفوظة بحفظنا لها. ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾: أي أغرقناهم انتصارًا لمن كان كفر وهو نوح كفروا نبوته وكماله.

﴿١٥﴾ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا﴾: أي إغراقنا لهم على الصورة التي تمت عليها. ﴿آيَةً﴾: أي لمن يعتبر بها حيث شاع خبرها واستمر إلى اليوم. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: أي معتبر ومتعظ بها.

﴿١٦﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞﴾: أي ألم يكن واقعًا موقعه.

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾: أي سهلناه للحفظ، وهيأناه للتذكير. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: أي فهل من متعظ به حافظ له متذكر.

معنى الآيات:

﴿٩﴾ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ يخبر تعالى مسليًا رسوله مخوفًا قومه فيقول: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قريش قوم نوح وهو أول رسول أرسل إلى قوم مشركين فكذبوا عبدنا[1] رسولنا نوحًا كذبوه في دعوة التوحيد كذبوه في دعوة الرسالة، ولم يكتفوا بتكذيبه فقالوا مجنون[2] أي هو مجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾

---

(١) أخبر تعالى أن قوم نوح كذبوا الرسل. وكان في الكلام إجمال ففصّله بقوله: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي: نوحًا، وقالوا مجنون، وفيه إشارة إلى أن المكذب برسول يعتبر مكذبًا بكل الرسل.

(٢) ﴿مَجْنُونٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي: هو مجنون. والجملة مقولة القول.

أي انتهروه وزجروه ببذيء القول وسيّىء الفعل فدعا أي نوح ربه قائلاً:

(١٠) - (١٢) ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ لي يا ربي، فاستجاب الله تعالى له ففتح ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾[1] أي منصب انصبابًا شديدًا، ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ نابعة من الأرض ﴿فَالْتَقَى[2] الْمَاءُ﴾ النازل من السماء والنابع من الأرض. ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي قدره الله في الأزل وقضى بأن يهلكهم بماء الطوفان.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ والدسر جمع واحده دسار ككتاب وكتب وهو ما تُدْسَرُ به الألواح من مسامير وغيرها.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي﴾ وهي حاملة لعوالم شتى ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأىً منّا محفوظة بحفظنا لها. وقوله: ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي أغرقناهم انتصارًا لعبدنا نوح وجزاء له على صبره مع طول الزمن. لقد أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

(١٥) وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً﴾ أي تلك الفعلة التي فعلنا بهم وهي إغراقنا لهم تركناها آية للاعتبار لمن يعتبر بها حيث شاع خبرها واستمر إلى اليوم.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[3] أي معتبر ومتعظ بها.

(١٦) وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[4] ألم يكن واقعًا موقعه؟ بلى.

(١٧) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلناه للحفظ وهيأناه للتذكر. فهل من مدّكر؛ أي فهل من متعظ به حافظ له والاستفهام للأمر أي فاتعظوا به واحفظوه.

هداية الآيات:

١ - تسلية الرسول ﷺ.

٢ - تحذير قريش من الاستمرار في الكفر والمعاندة.

٣ - تقرير حادثة الطوفان والتي لا ينكرها إلا سفيه لم يحترم عقله.

٤ - فضل الله على هذه الأمة بتسهيل القرآن للحفظ والتذكر.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨ - ٢٢]

(١٨) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾: أي نبيها هودًا عليه السلام فلم تؤمن به ولا بما جاء به. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[5]: أي فكيف كان عذابي الذي أنزلته بهم وإنذاري لهم كان أشد ما يكون.

(١٩) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾: أي ريحًا عاتية ذات صوت شديد. ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾: أي في يوم نحسٍ أي شؤم مستمر دائم الشؤم قويّة حتى هلكوا.

(٢٠) ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾[6]: أي تقتلعهم من الحفر التي اندسوا فيها وتصرعهم فتدق رقابهم. ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾: منفصلة أجسامهم كأنهم والحال كذلك أعجاز أي أصول نخل منقلع.

(٢٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾: أي سهلنا القرآن للحفظ والتذكير والتذكر به. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: أي تذكروا يا عباد الله بالقرآن فإن منزله سهّله للتذكير.

معنى الآيات:

(١٨) - (٢٠) قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ هذا القصص الثاني في هذه السورة يذكر بإيجاز تسلية لرسول الله ﷺ وتهديدًا لقومه المكذبين وذكرى للمؤمنين فقال تعالى: كذبت عاد، أي قوم هود كذبوا رسول الله هودًا عليه السلام وكفروا بما جاءهم به من التوحيد والشرع وقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾،

---

(١) ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ أي: كثير، والهمر: الصب، وكان انهمار الماء بدون سحاب وقيل استمر أربعين يومًا.

(٢) التقى الماءان النازل من السماء والنابع من الأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: على مقدار معيّن لم يزد أحدهما على الآخر.

(٣) أصل مدّكر مُتذكر أبدلت التاء ذالاً كما أبدلت الذال دالاً وأدغمت الدالان الأولى في الثانية فصارت مدكر أي معتبر متعظ.

(٤) ﴿وَنُذُرِ﴾: تقدم أنه اسم مصدر كالإنذار.

(٥) قال القرطبي: وقعت نذر في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين أي: في الوصل والوقف، وقرأها ورش في الوصل لا غير. وحذفها الباقون ولا خلاف في حذف النون في قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ والواو في قوله: ﴿يَدْعُ﴾ وأما الياء من ﴿الدَّاعِ﴾ أثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل وحذفها الباقون.

(٦) جملة: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ في موضع نصب على الحال من الناس.

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

٥٣٠

إن كنت من الصادقين، فأرسل تعالى عليهم ريحًا صرصرًا ذات صوت شديد في يوم نحس[1] وكان مساء الأربعاء لثمان خلون من شهر شوال مستمر بشدة وقوة وشؤم عليهم مدة سبع ليال وثمانية أيام تنزع تلك الريح الناس وقد دخلوا حفرًا تحصنوا بها فتنزعهم منها نزعًا وتخرجهم فتصرعهم فتدق رقابهم فتنفصل عن أجسادهم فيصيرون والحال هذه لطول أجسامهم كأنهم أعجاز نخل منقعر[2] أي منقلع ساقط على الأرض.

﴿٢١﴾ وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ هذا الاستفهام للتهويل أي إنه كان كأشد ما يكون العذاب والإنذار.

﴿٢٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلناه وهيأناه بفضل منا ورحمة للحفظ ولولا هذا التسهيل ما حفظه أحد، وهيئناه للتذكر به. فهل من مدّكر، أي من متذكر والاستفهام للأمر كأنما قال: فاحفظوه وتذكروا به.

هداية الآيات:

١ - بيان عقوبة المكذبين لرسل الله وما نزل بهم من العذاب في الدنيا قبل الآخرة.

٢ - بيان أن قوة الإنسان مهما كانت أمام قوة الله تعالى هي لا شيء ولا ترد عذاب الله بحال.

٣ - بيان تسهيل الله تعالى كتابه للناس ليحفظوه ويذكروا به، ويعملوا بما جاء فيه ليكملوا ويسعدوا في الحياتين.

شرح الكلمات:
[الآية: ٢٣ - ٣٢]

﴿٢٣﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾: أي كذبت قبيلة ثمود وهم قوم صالح بالحجر من الحجاز بالرسل لأن النذر جمع نذير وهو الرسول كما هو هنا.

﴿٢٤﴾ ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾: أي كيف نتبع بشرًا واحدًا منا إنكارًا منهم للإيمان بصالح عليه السلام.

﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾: أي إنا إذا اتبعناه فيما جاء به لفي ذهاب عن الصواب وجنون.

﴿٢٥﴾ ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا﴾: أي لم يوح إليه من بيننا أبدًا وإنما هو كذاب أشر. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾: أي فيما ادّعى أنه ألقي إليه من الوحي أشِرٌ بمعنى متكبر.

﴿٢٦﴾ ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾: أي في الآخرة. ﴿مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾: وهو هم المعذبون يوم القيامة بكفرهم وتكذيبهم.

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾: أي إنا مخرجو الناقة من الصخر ومرسلوها لهم محنة. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾: أي انتظر وراقب ماذا يصنعون وما يصنع بهم، واصبر على أذاهم.

﴿٢٨﴾ ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾: أي ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة فيوم لها ويوم لهم. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾: أي كل نصيب من الماء يحضره قومه المختصون به الناقة أو ثمود.

---

(١) النحس: سوء الحال، وقد انجرّ إلى المسلمين بواسطة عقائد المجوس التشاؤم بيوم الأربعاء من آخر الشهر، ولا تشاؤم في الإسلام والنحس كان على الكافرين الذين أهلكهم الله تعالى فلا ينسحب النحس على الناس طوال الحياة.

(٢) ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ قال القرطبي: سئل المبرّد عن ألف مسألة من جملتها قيل له: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ و﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وقوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾؟ فقال: كل ما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرًا أو إلى المعنى تأنيثًا. اهـ.

﴿٢٩﴾ ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾: أي فملوا ذلك الشرب وسئموا منه فنادوا صاحبهم وهو قدار بن سالف ليقتلها فتعاطى السيف وتناوله فعقر الناقة أي قتلها.
﴿٣١﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾: هي صيحة جبريل صباح السبت فهلكوا. ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: أي صاروا بعد هلاكهم وتمزق أجسادهم كهشيم المحتظر وهو الرجل يجعل في حظيرة غنمه العشب اليابس والعيدان الرقيقة يحظر بها لغنمه يحفظها من البرد والذئاب.

معنى الآيات:

﴿٢٣﴾ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ هذا القصص الموجز الثالث وهو قصص ثمود قوم صالح فقال تعالى في بيانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي التي أنذرها نبيها صالح وهي ألوان العذاب كما كذبته فيما جاء به من الرسالة فقالوا في تكذيبهم له عليه السلام:
﴿٢٤﴾ - ﴿٢٥﴾ ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾[١] أي كيف يتم ذلك منا ويقع؟ عجبٌ هذا إنا إذًا لفي ضلال وسعر إنا إذا اتبعناه وهو واحد لا غير ومنا أيضًا فهو كغيره من أفراد القبيلة لفي بعد عن الصواب وذهاب عن كل رشد، وسعر[٢] أي وجنون أيضًا، وقالوا مستنكرين متعجبين: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي متكبر.
﴿٢٦﴾ قال تعالى ردًا عليهم ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ يوم ينزل بهم العذاب ويوم القيامة أيضًا ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أصالح أم هم، لن يكونوا إلا هم فهم الذين أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.
﴿٢٧﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي كما طلبوا إذ قالوا لصالح إن كنت رسول الله حقًا فسله يخرج لنا من هذه الصخرة في هذا الجبل ناقة فقام يصلي ويدعو وما زال يصلي ويدعو حتى تمخض[٣] الجبل وخرجت منه ناقة عشراء آية في القوة والجمال، وقال لهم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم أليم. ومعنى فتنة لهم أي امتحانًا واختبارًا لهم هل يؤمنون أو يكفرون، ولذا قال تعالى لصالح ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾[٤] أي انظر إليهم وراقبهم من بُعد واصطبر على أذاهم.
﴿٢٨﴾ - ﴿٢٩﴾ ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أي أخبرهم بأمرنا ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ﴾ ماء بئرهم الذي يشربون منه ﴿قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾[٥] أي مقسوم بينهم للناقة يوم وللقبيلة يوم، وقوله ﴿كُلُّ شِرْبٍ[٦] مُّحْتَضَرٌ﴾ أي كل نصيب خاص بصاحبه يحضره دون غيره. وما تشربه الناقة من الماء نحيله إلى لبن خالص وتقف عند كل باب من أبواب المدينة ليحلبوا من لبنها وطالت المدة وملوا اللبن والسعادة ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ غدار بن سالف عاقر الناقة ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾[٧] السيف وتناوله وعقرها بضرب رجليها بالسيف ثم ذبحها.
﴿٣٠﴾ وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ الذي أنزلته بهم بعد عقر الناقة

---

(١) أي: أنتبع فردًا ونترك جماعة؟ قرأ الجمهور: ﴿بشرا﴾ منصوبًا على الاشتغال، ورفعه بعضهم على الابتداء، وواحد: نعت يتبع المنعوت في النصب والرفع.

(٢) السعر: الجنون، والمسعور: المجنون قال الشاعر:
تخال بها سُعرًا إذا السَّفر هزها ... ذَمِيلٌ وإيقاع من السير متعب
يصف ناقته بالسعر لشدة نشاطها.

(٣) قال القرطبي: روي أن صالحًا صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عيّنوها عن سنامها، فخرجت ناقة عشراء وبراء.

(٤) ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أصل الكلمة واصتبر قلبت التاء طاءً موافقة للصاد في الإطباق.

(٥) روي عن جابر قال: لما نزلنا الحجر في مغزى رسول الله ﷺ تبوك قال: **«أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل إليهم الناقة فكانت ترد من ذلك الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غِبها»**.

(٦) الشرب بكسر الشين: الحظ من الماء، ومعنى محتضر: أي يحضره من هو له دون غيره إذ هو من الحضور خلاف الغياب.

(٧) ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ مضارع عاطاه معاطاة وهو مشتق من عطا يعطو: إذا تناول ما يطلبه من شيء كأنهم كانوا مترددين في عقرها كل واحد يريد إعطاء غيره آلة العقر حتى أخذها غدار وعقرها.

كيف كان إنذاري لهم أما العذاب فقد كان أليمًا وأما الإنذار فقد كان صادقًا، والويل للمكذبين. وهذا بيانه.

(٣١) قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ هي صيحة جبريل عليه السلام فانخلعت لها قلوبهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾[١] أي ممزقين محطمين مبعثرين هنا وهنا كحطب وخشب وعشب الحظائر التي تجعل للأغنام.

(٣٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ يدعو الله تعالى هذه الأمة إلى كتابه قراءة وحفظًا وتذكرًا فإنه مصدر كمالهم وسعادتهم لا سيما وقد سهله وهيأه لذلك. ولا يهلك على الله إلا هالك.

هداية الآيات:

١ - بيان سنة الله في إهلاك المكذبين.

٢ - بيان أن الآيات لا تستلزم الإيمان وإلا فآية صالح من أعظم الآيات ولم تؤمن بها قوم ثمود.

٣ - أشقى أمة الإسلام عقبة بن أبي مُعيط الذي وضع سلى الجزور على ظهر الرسول ﷺ وهو يصلي حول الكعبة، وعاقر ناقة صالح غدار بن سالف كما جاء في الحديث.

٤ - دعوة الله إلى حفظ القرآن والتذكير به فإنه مصدر الإلهام والكمال والإسعاد.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ - ٤٢]

(٣٣) ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ﴾: كذبت قوم لوط بالنذر التي أنذرهم بها وخوفهم منها لوط عليه السلام.

(٣٤) ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾: أي ريحًا ترميهم بالحصباء وهي الحجارة الصغيرة فهلكوا. ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾: أي بنتاه وهو معهم نجاهم الله تعالى من العذاب حيث غادروا البلاد قبل نزول العذاب بها.

(٣٥) ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾: أي إنعامًا منا عليه ورحمة منا بهم. ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾: أي مثل هذا الجزاء بالنجاة من الهلاك نجزي من شكرنا بالإيمان والطاعة.

(٣٦) ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا﴾: أنذرهم لوط أي خوفهم أخذتنا إياهم بالعذاب. ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾: أي فتجادلوا وكذبوا بالنذر التي أنذرهم بها وخوفهم منها.

(٣٧) ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾[٢]: أي أن يخلي بينهم وبين ضيفه وهم ملائكة ليخبثوا بهم. ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾: أي ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم فكانت كباقي وجوههم.

(٣٨) ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾: أي نزل بهم بكرة صباحًا عذاب مستقر لا يفارقهم أبدًا هلكوا به في الدنيا ويصحبهم في البرزخ ويلازمهم في الآخرة.

(٤٠) ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾: أي سهلناه للحفظ والتذكر به والعمل بما فيه. ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾: أي من متذكر فيعمل بما فيه فينجو من النار ويسعد في الجنة.

(٤١) ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾: أي قوم فرعون الإنذارات على لسان موسى وهارون عليهما السلام.

(٤٢) ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾: أي فلم يؤمنوا بل كذبوا بآياتنا التسع التي آتيناها موسى. ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾: أي فأخذناهم بالعذاب وهو الغرق أخذ قوي مقتدر على كل شيء لا يعجزه شيء.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر موجز لقصص عدد من الأمم السابقة تسلية لرسول الله ﷺ وتهديدًا للمشركين لامصرين على الشرك بالله والتكذيب لرسول الله ﷺ، إنذارًا لأهل الشرك والمعاصي في كل زمان ومكان.

(٣٣) فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ[٣] قَوۡمُ لُوطِۭ﴾ وهم أهل قرى سدوم[٤] وعمورة كذبوا رسولهم لوطًا بن أخي إبراهيم عليه السلام هاران.

---

(١) المحتظر: اسم فاعل: الرجل الذي يتخذ الحظائر لغنمه من الحطب والعيدان وأغصان الشجر.

(٢) ليخبثوا بهم، أي: بإتيانهم الفاحشة، في القاموس: الخبث: الزنا، وخبث ككرم: إذا زنى وخبثت المرأة: إذا زنت فهي خبيثة، والزاني: خبيث.

(٣) عرّف قوم لوط بالإضافة إليه عليه السلام لأنه لم يكن لتلك الأمة اسم عند العرب يعرفون به.

(٤) بعضهم يرويها بالذال المعجمة وبعضهم بالدال المهملة، وعمورة بعضهم يرويها بلفظ عمورية.

كذبوا بالنذر وهي الآيات التي أنذرهم لوط بها وخوّفهم من عواقبها.

﴿٣٤﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾[1] أي لما كذبوا بالنذر وأصروا على الكفر وإتيان الفاحشة أرسلنا عليهم حاصبًا ريحًا تحمل الحصباء الحجارة الصغيرة فأهلكناهم بعد قلب البلاد بجعل عاليها سافلها. وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾[2] والمراد من آل لوط لوط ومن آمن معه من ابنتيه وغيرهما نجاهم الله تعالى بسحر وهو آخر الليل.

﴿٣٥﴾ وقوله: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي كان إنجاؤهم إنعامًا منا عليهم ورحمة منا بهم. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ أي كهذا الإنجاء أي من العذاب الدنيوي نجزي من شكرنا فآمن بنا وعمل صالحًا طاعة لنا وتقربًا إلينا.

﴿٣٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾[3] أي إننا لم نأخذهم بظلم منا ولا بدون سابق إنذار منا، لا بل أخذناهم بظلمهم، وبعد تكرر إنذارهم، فكانوا إذا أنذروا تماروا بما أنذروا فجادلوا فيه مستهزئين مكذبين.

﴿٣٧﴾ ومن أعظم ظلمهم أنهم راودوا لوطًا عن ضيفه من الملائكة وهم في صورة بشر، فلما راودوه عنهم ليفعلوا الفاحشة ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم فأصبحت كسائر وجوههم لا حاجب ولا مقلة ولا مكان للعين بالكلية وقولنا لهم ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي لأولئك الذين راودوا لوطًا عن ضيفه، أما باقي الأمة فهلاكهم كان كما أخبر تعالى عنه بقوله:

﴿٣٨﴾ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أي صباحًا ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي دائم لهم ملازم لا يفارقهم ذاقوه في الدنيا موتًا وصاحبهم برزخًا ويلازمهم في جهنم لا يفارقهم.

﴿٣٩﴾ وقلنا لهم ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ حيث كنتم تمارون وتستهزئون.

﴿٤٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا[4] ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي القرآن للحفظ وسهلناه للفهم والاتعاظ به والتذكر ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من متذكر متعظ معتبر فيقبل على طاعة الله متجنبًا معاصيه فينجو ويسعد.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾[5] أي قوم فرعون من القبط وجنده منهم كذلك جاءتهم النذر على لسان موسى وأخيه هارون فكذبوا وأصروا على الكفر والظلم، وكذبوا بآيات الله كلها[6] وهي تسع آيات آتاها الله تعالى موسى أولها العصا وآخرها انفلاق البحر فبسبب ذلك أخذناهم أخذ عزيز غالب لا يمانع في مراده مقتدر لا يعجزه شيء فأغرقناهم أجمعين.

هداية الآيات:

١ - تقرير ربوبية الله تعالى وألوهيته باللاتزام وتقرير التوحيد وإثبات النبوة لمحمد ﷺ إذ أفعال الله العظيمة من إرسال الرسل والأخذ للظلمة الكافرين بأشد أنواع العقوبات من أجل أن الناس لم يعبدوا ولم يطيعوا دال على ربوبيته وألوهيته، وقص هذا القصص من أميّ لم يقرأ ولم يكتب دال على نبوة محمد ﷺ.

٢ - بيان جزاء الشاكرين للّه تعالى

---

(١) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا لأن من سمع بتكذيبهم تساءل عما فعل الله بهم.

(٢) لوط داخل في آله بفحوى الخطاب فلا يقال: لمَ لم يذكر لوط وذكر آله دونه.

(٣) البطشة: المرة، أي: الآخذة بشدة وعنف وقوة.

(٤) هذه المرة الثالثة ينوه فيها القرآن الكريم ولم يذكر هنا ما ذكر في المرتين قبل من قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ اكتفاء بما سبق ذكره بُعدًا عن التكرار غير المجدي.

(٥) هذا آخر قصة تضمنتها سورة القمر تذكيرًا وإنذارًا لكفار قريش لعلهم يؤمنون ويوحدون، والمراد من آل فرعون: أتباعه من رجال دولته وجنوده وقومه الأقباط، والشاهد من القصة أنهم كذبوا فأُخذوا، فليعلم هذا المصرون على التكذيب من كفار قريش.

(٦) خمس منها في آية الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ والأربع الأخرى هي انقلاب العصا حية، وخروج يده من جيبه بيضاء كفلقة القمر وسنو القحط والطمس على الأموال وانفلاق البحر، فهذه التسع آيات التي كذبوا بها كلها.

بالإيمان به وطاعته وطاعة رسله.

٣ - مشروعية الضيافة وإكرام الضيف، وفي الحديث: «**من كان يؤمن**[(١)] **بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**».

٤ - تيسير القرآن وتسهيله للحفظ والاتعاظ والاعتبار.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٣ - ٤٦]

(٤٣) ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾: أي أكفاركم يا قريش خير من أولئكم الكفار المذكورين من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وملائه؟ فلذا هم لا يعذبون. ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾: أم لكم يا كفار قريش براءة من العذاب في الزبر أي الكتب الإلهية.

(٤٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾: أم يقولون أي كفار قريش نحن جميع[(٢)] أي جمع منتصر على محمد وأصحابه.

(٤٥) ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾: أي سيهزم جمعهم ويولون الدبر هاربين منهزمين وكذلك كان في بدر.

(٤٦) ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾: أي الساعة موعدهم بالعذاب والمراد من الساعة يوم القيامة. ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾: أي وعذاب الساعة وأهوالها أي هي أي أعظم بلية وأمر أي أشد مرارة من عذاب الدنيا قطعًا.

معنى الآيات:

يقول تعالى مبكتًا مشركي قريش مؤنبًا إياهم وهم الذين إن يروا آية يرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم.

(٤٣) يقول الله تعالى لهم: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾[(٣)] يا قريش خير من كفار الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون فلذا هم آمنون من العذاب الذي نزل بكفار الآخرين، أم لكم[(٤)] براءة من العذاب جاءت في الكتب مسطورة اللّهم لا ذا ولا ذاك ما كفاركم بخير من أولئكم، وليس لكم براءة في الزبر، وإنما أنتم ممهلون فإما أن تتوبوا وإما أن تؤخذوا.

(٤٤) - (٤٥) وقوله تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾[(٥)] أي جمع منتصر على كل من يحاربنا ويريد أن يفرق جمعنا نعم قالوا هذا، ولكن ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، وقد تم هذا في[(٦)] بدر بعد سنيات ثلاث أو أربع وهزم جمعهم في بدر وولوا الأدبار هاربين إلى مكة.

(٤٦) وقوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ[(٧)] مَوْعِدُهُمْ﴾ أي الساعة التي ينكرونها ويكذبون بها هي موعد عذابهم الحق أما عذاب الدنيا فهو ليس شيء إذا قيس بعذاب الآخرة. ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ أي أعظم بلية وأكبر داهية تصيب الإنسان وعذاب، ﴿وَأَمَرُّ﴾ أي وعذابها أمر من عذاب الدنيا كله.

هداية الآيات:

١ - بيان حقيقة يغفل عنها الناس وهي أن الكفر كله واحد ومورد للهلاك.

٢ - لا قيمة أبدًا لقوة الإنسان إزاء قوة الله تعالى.

٣ - صدق القرآن في إخباره بغيب لما يقع ووقع كما أخبر وهو آية أنه وحي الله وكلامه.

٤ - القيامة موعد لقاء البشرية كافة بحيث لا يتخلف عنه أحد.

---

(١) في الصحيح.

(٢) جميع: اسم للجماعة كأنهم قالوا: نحن جماعة منتصرة على من يريد حربنا وذكرت الصفة ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ مراعاة للفظ الجميع لا لدلالته على متعدد.

(٣) جائز أن يكون الاستفهام على بابه حيث يطلب منهم أن يفصحوا عن الحقيقة فإن قالوا كفارنا خير قيل لهم ما وجه الخيرية؟ وإن قالوا: الكل سواء قيل إذًا فسوف تؤخذون بالعذاب كما أخذ الأولون.

(٤) (أم) للإضراب الانتقالي وما يقدر بعدها من استفهام هو للإنكار أي: بل ما لكم براءة في الزبر من العذاب حتى تكونوا آمنين مع تكذيبكم وكفركم.

(٥) (أم) هي المنقطعة المفسرة ببل للإضراب الانتقالي والاستفهام المقدر بعدها للتوبيخ.

(٦) فكانت هذه آية على أن القرآن كلام الله وأن محمدًا ﷺ رسول الله لتحقق الغيب الذي أخبر به.

(٧) الساعة في القرآن: علم بالغلبة على يوم القيامة والحساب والجزاء.

شرح الكلمات:
[الآية: ٤٧ ـ ٥٥]

(٤٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾: أي الذين أجرموا على أنفسهم بالشرك والمعاصي في ضلال في الدنيا ونار مستعرة في الآخرة.

(٤٨) ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾: أي يوم يسحبون في النار على وجوههم يقال لهم ذوقوا مس سقر جهنم.

(٤٩) ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾: أي إنا خلقنا كل شيء بتقدير سابق لخلقنا له وذلك بكتابته في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض فهو يقع كما كتب كمية وصورة وزمانًا ومكانًا لا يتخلف في شيء من ذلك.

(٥٠) ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾: أي وما أمرنا إذا أردنا خلق شيء إلا أمرة واحدة فيتم وجوده. ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾: الشيء بسرعة كلمح البصر وهو النظر بعجلة.

(٥١) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾: أي ولقد أهلكنا أمثالكم أيها المشركون من الأمم السابقة. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: أي فاذكروا واتعظوا بهذا خيرًا لكم من هذا الإعراض.

(٥٢) ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾: أي وكل ما فعله العباد هو مسجل في كتب الحفظة من الملائكة.

(٥٣) ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾: أي وكل صغير وكبير من سائر الأعمال والأحداث في اللوح المحفوظ مستطر مكتوب.

(٥٤) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾: إن الذين اتقوا ربهم فلم يشركوا به ولم يفسقوا عن أمره في جنات يشربون من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل المصفى.

(٥٥) ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: أي في مجلس حق لا لغو به ولا تأثيم. ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾: عند مليك أي ذي ملك وسلطان مقتدر على ما يشاء وهو الله جل جلاله.

معنى الآيات:

(٤٧) ـ (٤٨) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ يخبر تعالى عن حال المجرمين وهم الذين أجرموا على أنفسهم فأفسدوها بالشرك وغشيان الذنوب يخبر تحذيرًا وإنذارًا بأن المجرمين في ضلال في حياتهم الدنيا، وسعر ونار مستعرة متأججة يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى

الجزء السابع والعشرون — سورة الرحمن

وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ (٥٥)

ترتيبها ٥٥ — سورة الرحمن — آياتها ٧٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (٤) ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ (٩) وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ (١١) وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦)

٥٣١

ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يقال لهم ﴿ذُوقُوا۟﴾ تهكمًا بهم ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾[1] تذوقوا العذاب، وسقر طبق من أطباق جهنم وباب من أبوابها.

(٤٩) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[2] إعلام منه تعالى عن نظام الكون الذي خلقه تعالى وهو أن كل حادث يحدث في هذا العالم قد سبق به علم الله وتقديره له فحَدَّد ذاته وصفاته وأعماله ومآله إلى جنة أو إلى نار، إن كان إنسانًا أو جانًا وليس هناك شيء يحدث بدون تقدير سابق له وعلم تام به قبل حدوثه.

---

(١) ﴿سَقَرَ﴾ قال عطاء: سقر: الطبق السادس من جهنم، ومسها: هو ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها، وسقر: اسم من أسماء جهنم لا ينصرف لأنه اسم مؤنث معرفة وكذلك جهنم ولظى.

(٢) روى الترمذي وحسنه وصححه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ وروى مسلم عن طاووس قال: أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبدالله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: **«كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»**.

(٥٠) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةࣱ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[(١)] يخبر تعالى عن قدرته كما أخبر عن علمه بأنه تعالى إذا أراد إيجاد شيء في الوجود لم يزد على أمرٍ واحد وهو كن فإذا بالمطلوب يكون كما أراد تعالى أزلاً أن يكون، وبسرعة كسرعة لمح البصر الذي هو نظرة سريعة.

(٥١) وقوله تعالى وهو يخاطب مشركي قريش: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ أي أمثالكم في الكفر والعصيان أي من الأمم السابقة ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرࣲ﴾ أي متذكر متعظ معتبر قبل فوات الوقت وحصول المكروه من العذاب في الدنيا وفي الآخرة.

(٥٢) - (٥٣) وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءࣲ فَعَلُوهُ﴾ أي أولئك المشركون ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي في كتب الحفظة من الملائكة الكرام الكاتبين، ﴿وَكُلُّ صَغِيرࣲ وَكَبِيرࣲ﴾ من أعمالهم وأعمال غيرهم بل كل حادثةٍ في الأكوان هي مسطرة في اللوح المحفوظ كتاب المقادير.

(٥٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتࣲ وَنَهَرࣲ﴾[(٢)] هذا الإخبار يقابل الإخبار الأول أن المجرمين في ضلال وسعر فالأول إعلام وتحذير وترهيب وهذا إخبار وبشرى وترغيب حيث أخبر أن المتقين الذين اتقوا ربهم فلم يشركوا به ولم يفسقوا عن أمره إنهم في جنات بساتين ذات قصور وحور، أنهار وأشجار هم جالسون ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾[(٣)] في مجلس حق لا لغو يسمع فيه ولا تأثيم يلحق جالسه ﴿عِندَ﴾[(٤)] ﴿مَلِيكࣲ﴾ أي ذي ملك وسلطان ﴿مُّقۡتَدِرِۭ﴾ على فعل كل ما يريده سبحانه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

هداية الآيات:

١ - بيان مصير المجرمين وضمنه تخويف وتحذير من الإجرام الموبق للإنسان.

٢ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.

٣ - تقرير أن أعمال العباد مدونة في كتب الكرام الكاتبين لا يترك منها شيء.

٤ - تقرير أن كل صغيرة وكبيرة من أحداث الكون هي في كتاب المقادير اللوح المحفوظ.

٥ - بيان مصير المتقين مع الترغيب في التقوى إذ هي ملاك الأمر وجماع الخير.

٦ - ذكر الجوار الكريم وهو مجاورة الله رب العالمين في الملكوت الأعلى في دار السلام.

❁ ❁ ❁

سورة الرحمن[(٥)]
مكية
وآياتها ثمان وسبعون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ١٣]

(١) ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: اسم من أسماء الله تعالى.

(٢) ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: أي علم من شاء من عباده القرآن.

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: آدم كما خلق ذريته أيضا.

(٤) ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾: أي علم آدم البيان الذي هو النطق والإعراب عما في النفس بلغة من اللغات كل هذا تعليم الله عز وجل ولولا الله ما نطق إنسان.

---

(١) ﴿إِلَّا وَٰحِدَةࣱ﴾ أي: مرة واحدة ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ أي: قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر، واللمح: النظر بعجلة، يقال لمحه وألمحه: إذا أبصره بنظر خفيف.

(٢) قرىء في غير السبع ﴿ونُهر﴾ بضم النون والهاء جمع نهار أي لا ليل لهم كسحاب وسُحب قال الفراء: أنشدني بعض العرب:

إن تك ليليًا فإني نَهِرٌ ... متى أرى الصبح فلا أنتظر

وقال آخر:

لولا الشريدان هلكنا بالضحى ... ثريد ليل وثريد بالنهر

(٣) ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ قال القرطبي: أي: مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة، والعندية هنا عندية القربى والزلفى والمكانة والرتبة العالية والمنزلة الشريفة في جوار أرحم الراحمين ورب العالمين.

(٤) ﴿مَلِيكࣲ﴾ أبلغ من ملك وهو بمعنى: مالك، و﴿مُّقۡتَدِرِۭ﴾ أبلغ من قادر، والتنكير في مليك ومقتدر: للتعظيم.

(٥) روى البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمٰن»** وذكره صاحب الإتقان كذلك.

(٥) ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾: أي يجريان بحساب معلوم مقدر في بروجهما ومنازلهما.

(٦) ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾: النجم ما لا ساق له من النبات، والشجر ما له ساق يسجدان يخضعان لله تعالى بما يريد منهما في طواعية كالسجود من المكلفين.

(٧) ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾: أي فوق الأرض وأعلاها. ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾: أي أثبت العدل بين العباد أمر به وألهم صنع آلته.

(٨) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ﴾: أي لأجل أن لا تجوروا في الميزان وهو ما يوزن به من آلات.

(٩) ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾: أي بالعدل. ﴿وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾: أي لا تنقصوا الموزون الذي تزنونه بل وفوه.

(١٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾: أي أثبتها وخفضها كما رفع السماء وأعلاها للأنام لحياة الأنام عليها وهم الإنس والجن والحيوان وكل ذي روح.

(١١) ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾: أي في الأرض فاكهة وهي كل ما يتفكه به الإنسان من أنواع الفواكه الكثيرة، والنخل ذات الأكمام وهي أوعية طلعها.

(١٢) ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾: أي وفي الأرض الحب من بُرّ وشعير وعصفه تبنه. ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾: نبت معروف، والمراد به أنواع الرياحين المشمومة ذات الريح الطيّب.

(١٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: أي فبأي نعم ربكما يا معشر الجن والإنس تكذبان وهي كثيرة لا تعد ولا تحصى. والجواب لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد.

معنى الآيات:

(١) - (٤) قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[(١)] ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[(٢)] يُخبر تعالى أنه هو الرحمٰن الذي علّم نبيه محمد ﷺ القرآن لا كما يقول المبطلون إنما يعلمه بشر. الرحمٰن الذي وسعت رحمته كل شيء وهي متجلية ظاهرة فيما يعدد من آلاء ونعم. منها خلقه الإنسان آدم وذريته، وتعليمهم البيان وهو النطق والإبانة عما في نفوسهم.

(٥) ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[(٣)] يجريان لإفادة الناس في معرفة أوقات عباداتهم، وآجال ديونهم وهي مظاهر الرحمة.

(٦) ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾. والنجم غذاء بهائمكم والشجر فيه فاكهتكم وبعض غذائكم ﴿يَسْجُدَانِ﴾ خضوعًا لله بما أراد منهما لا يعصيان كما يعصي الثقلان. والسماء رفعها عن الأرض ولم يلصقها بالأرض إنعامًا منه على الثقلين في رفعها وتزيينها بكواكبها وشمسها وقمرها.

(٧) - (٨) ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾[(٤)] أي العدل حيث أمر به وألهم وضع آلته وغرز في النفوس حبه والرغبة فيه، من أجل ألا تجوروا في الميزان.

(٩) ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوه إذا وزنتم بل وفوه كل هذا إنعام وألوان من رحمات الرحمٰن. والأرض وضعها للأنام أي أثبتها وخفضها ودحاها لحياة الأنام. وهم الإنس والجان والحيوان.

(١١) - (١٢) ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي أوعية الطلع، ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ البر والشعير ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾[(٥)] أي التبن ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ هذه أنواع الطعام للإنسان والحيوان

---

(١) اختير اسم الرحمٰن دون سائر الأسماء الإلٰهية لأمور منها: أنه الاسم الذي كان المشركون ينكرونه، ومنها الرد على الزاعمين أن الرسول ﷺ يعلمه بشر فأخبر تعالى أن الرحمٰن هو الذي علّم القرآن، ومنها: أن يكون في هذا الخبر براعة استهلال إذ السورة تعدد عشرات النعم، ومصدرها الرحمٰن عز وجل.

(٢) ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ هذا الخبر عن الرحمٰن، و﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ خبر ثان و﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ خبر ثالث، و﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ خبر رابع، والرابط تقديره بحسبانه، فالضمير عائد على الرحمٰن سبحانه وتعالى.

(٣) الحسبان: مصدر حسب بمعنى: عد كالغفران: مصدر غفر والباء للملابسة.

(٤) أصل الميزان: اسم آلة الوزن، والوزن: تقدير تعادل الأشياء، وضبط مقادير ثقلها، و﴿وَوَضَعَ﴾ بمعنى: جعل ومنه الحديث: «فضعها حيث أراك الله» أي: اجعلها.

(٥) سمي التبن عصفًا: لأن الريح تعصف به لخفته.

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

طعام وفاكهة وريحان، كل هذه مظاهر الرحمة التي أفاضها الرحمٰن.

(١٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ[1] رَبِّكُمَا﴾ يا معشر الجن والإنس ﴿تُكَذِّبَانِ﴾. لا بشيء من نِعمك ربّنا نكذب فلك الحمد.

هداية الآيات:

١ - الرحمٰن مثل اسم الله لا يصح أن يطلق على غير الرب تبارك وتعالى، فيقال فلان عزيز أو رحيم أو عليم أو حكيم، ولكن لا يقال رحمان، كما لا يقال إله أو الإله أو الله.

٢ - ورد في الصحيح في فضل تعلم القرآن قوله ﷺ خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

٣ - وجوب إقامة العدل والتواصي به، ومراقبة الموازين لدى التجار وإصلاح فاسدها.

٤ - وجوب شكر الله على آلائه.

٥ - استحباب قول لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد عند سماع قراءة فبأي آلاء ربكما تكذبان.

٦ - مشروعية تعلم علم الفلك لمعرفة القبلة ومواقيت الصلاة والصيام والحج.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤ - ٢٥]

(١٤) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾: أي خلق آدم من طين يابس يسمع له صلصلة كالفخار وهو ما طبخ من الطين.

(١٥) ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾: أي أبا الجن من لهب النار الخالص من الدخان وهو مختلط أحمر وأزرق وأصفر.

(١٧) ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾: أي مشرق الشتاء، مشرق الصيف أي مطلع طلوع الشمس فيهما. وكذا المغربين في الصيف والشتاء.

(١٩) ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾: أي أرسل البحرين العذب والملح يلتقيان في رأي العين.

(٢٠) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾: أي بينهما حاجز لا يبغي أحدهما على الآخر فيختلط به.

(٢٢) ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾: أي يخرج من مجموعها الصادق بأحدهما وهو الملح اللؤلؤ والمرجان[2] وهو خرز أحمر، وهو صغار اللؤلؤ.

(٢٤) ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾: أي السفن المحدثات في البحر كالأعلام أي كالجبال عظمًا وارتفاعًا.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر ما أفاض الرحمٰن جلّ جلاله من رحمته التي وسعت كل شيء من آلاء ونعم لا تحصى ولا تعد ولا تحصر.

(١٤) فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي الرحمٰن الذي تجاهله المبطلون وقالوا: وما الرحمٰن؟ الرحمٰن الذي خلق الإنسان آدم أول إنسان خلقه ومن أي شيء خلقه ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ أي من طين ذي صلصلة[3] وصوت ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ خلق الإنسان.

(١٥) ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ وهو عالم كعالم الإنسان خلق أصله ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ وهو ما مرج واختلط من

---

(١) الفاء للتفريع على ما تقدم من ضروب النعم العظيمة.

(٢) اختلف في تحديد كل من اللؤلؤ والمرجان، فمن قائل: اللؤلؤ كباره والمرجان صغاره، وقيل: المرجان: الخرز الأحمر، وقيل: المرجان: عظام اللؤلؤ وكباره.

(٣) الصلصال: الطين اليابس، والفخار: الطين المطبوخ، ويسمى الخزف وجائز أن يكون كالفخار في محل نصب حال من الإنسان، أي: خلقه من صلصال فصار الإنسان كالفخار في لونه وصلابته.

لهب النار.

(١٦) ﴿فَبِأَيِّ﴾ يا معشر الجن والإنس ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنها نعم تفوق عد الإنسان مَنْ.

(١٧) ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ من خلقهما من ملكهما من سخرهما لفائدة الإنسان؟ إنه الرحمٰن.

(١٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]؟ لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد. الرحمٰن.

(١٩) ـ (٢٠) ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾[2] الملح والعذب أرسلهما على بعضهما فمرجا كأنهما اختلطا إذ جعل بينهما برزخًا حاجزًا فهما لا يبغيان فلا يختلط أحدهما بالثاني.

(٢١) ـ (٢٢) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَخْرُجُ مِنْهُمَا[3] ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝﴾، من خلق في مجموع البحرين اللؤلؤ والمرجان وهما خرز أبيض وأحمر وأخضر ولفائدة من خلقهما الرحمٰن؟ إنها لفائدة الإنسان إذًا هما نعمة ورحمة من رحمات الرحمٰن.

(٢٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾

(٢٤) ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾[4] أي للرحمٰن الجوار ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ المصنوعات ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ في أحواض السفن ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ علوًا وارتفاعًا تظهر في البحر كما تظهر الجبال في البر لمصلحة من خلقها الرحمٰن لمصلحة الإنسان فهي إذًا رحمة الرحمٰن ونعمته على الإنسان.

(٢٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ يا معشر الإنس والجن ﴿تُكَذِّبَانِ﴾؟ أقروا واعترفوا واشكروا الرحمٰن.

هداية الآيات:

١ - بيان أصل خلق الإنسان والجان فالأول من طين لازب ذي صلصال كالفخار والثاني من مارج من نار، وأخبر الرسول ﷺ أن خلق الملائكة كان من نور[5].

٢ - معرفة مطالع الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف وهما مطلعان ومغربان.

٣ - معرفة صناعة اللؤلؤ والمرجان، والسفن التي هي في البحر كالجبال علوًا وظهورًا.

٤ - وجوب شكر الرحمٰن على إنعامه على الإنس والجان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ ـ ٣٦]

(٢٦) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝﴾: أي كل من على الأرض من إنسان وحيوان وجان فانٍ أي هالك.

(٢٧) ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾: أي ذاته ووجه سبحانه وتعالى. ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾: أي العظمة والإنعام على عباده عامة والمؤمنين بخاصة.

(٢٩) ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي يسألونه حاجاتهم التي تتوقف عليها حياتهم من الرزق والقوة على العبادة. والمغفرة للذنب، والعزة من الرب. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾: أي كل وقت هو في شأن: شؤون يبديها وفق تقديره لها يرفع أقوامًا ويضع آخرين.

(٣١) ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝﴾[6]: أي لحسابكم ومجازاتكم بعد انتهاء هذه الحياة الدنيا ونجزي كلًا بما عمل.

(٣٣) ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟﴾: أي إن قدرتم على أن تخرجوا. ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي من نواحي السموات والأرض. ﴿فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾: أي فاخرجوا. لا تنفذون إلا بقوة ولا قوة لكم وهذا تعجيز لهم.

(٣٥) ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾: أي من لهب النار الخالص الذي لا دخان فيه. ﴿وَنُحَاسٌ﴾: أي دخان لا لهب فيه، ولا يبعد أن يكون نحاسًا مذابًا. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾: أي لا تمتنعان من السوق إلى المحشر.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر أيادي الرحمٰن الرحيم.

(٢٦) قال عز من قائل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا[7] فَانٍ﴾ كل من على الأرض من

---

(١) الاستفهام هنا: للتوبيخ على ترك الشكر.

(٢) المرج: الإرسال كقولهم: مرج الدابة: أرسلها ترعى في المرج. والمعنى: أرسل البحرين بحيث لا يحبس ماؤهما عن الجري ولا عن الالتقاء ببعضهما البعض، ومع هذا فقد جعل بينهما برزخًا، وهو الفاصل الذي يفصل الماء الملح الأجاج عن العذب الفرات. هذه مظاهر القدرة والعلم الموجبة للتوحيد والشكر بالطاعة.

(٣) جائز أن تكون من في منهما: للسببية نحو: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ وجائز أن تكون للابتداء وهو الأظهر.

(٤) الجوار: صفة لموصوف محذوف وهو السفن أي: وله السفن الجوار في البحر، وجمع الجوار جارية.

(٥) الحديث في صحيح مسلم.

(٦) قيل في الإنس والجن: الثقلان لأنهما أُثقلا وأُتعبا بالتكاليف.

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

إنسان وجانٍ وذي روح وحيوان فانٍ: هالك، لا تبقى له روح ولا ذات.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ ﴿وَيَبْقَىٰ[٢] وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ حيٌّ لا يموت والإنس والجن يموتون ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا[٢] تُكَذِّبَانِ﴾ أبنعمة إيجادكما وإمدادكما بالأرزاق والخيرات طوال الحياة أم بنعمة إنهاء أتعابكما وتكاليفكما أم بإهلاك أعدائكما، وإدنائكما من النعيم المقيم في جنات النعيم، قولوا خيرًا لكم لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد.

﴿٢٩﴾ وقوله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] أي يطلبونه بلسان القال أو الحال ما هم في حاجة إليه مما يحفظ وجودهم ويغفر ذنوبهم. وقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أي لا يفرغ الدهر كله يدبر أمر السماء والأرض يرفع أقوامًا ويضع آخرين.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ وقول الرحمٰن: ﴿سَنَفْرُغُ[٤] لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ من الإنس والجن فنحاسبكما ونجزيكما محسنكما بالإحسان وسيئكما بالسوء والخسران، وهذا يوم تقومان للرحمٰن، حفاة عراة وتقفان بين يديه للحكم فيكما والقضاء بينكما ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبالعدل في الحكم بينكما أم بإسعاد صالحيكما وإشقاء مجرميكما.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ وقول الرحمٰن: ﴿يَٰمَعْشَرَ[٥] ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟﴾ أي تخرجوا ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي من جوانبهما وأطرافهما ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ أي اخرجوا هاربين من قضائي وحكمي لكما وعليكما لا تنفذون إلا بقوة قاهرة غالبة ولا قوة لكم ولا سلطان هكذا يتحداهما الرحمٰن وهم يساقون إلى ساحة فصل القضاء ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ أبنعمة إحيائكما بعد موتكما أم بنعمة إكرام صلحائكما وإهانة فاسديكما وهي العدالة التي لا رحمة ولا نعمة في الحياة الدنيا تساويهما.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٦﴾ وقوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ أي لهب النار الخالص من الدخان، ونحاس وهو دخان خالص فلا تنتصران هذا إن أردتما الفرار من عدالتي وعدم الإذعان لقضائي وحكمي فيكما. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ أبعظمة ربكم وقوة

---

(١) الضمير عائد إلى الأرض وإن لم يجرِ لها ذكر نحو ﴿تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ لأن المقام دال عليها.

(٢) أطلق لفظ الوجه وأريد به ذات الرب تعالى جريًا على عرف العرب في كلامهم إذ يطلقون الوجه على الذات والوجه معًا، ومعنى ﴿فَانٍ﴾ أي: صائر إلى الفناء.

(٣) جائز أن يكون في الفناء نعمة لا تدرك فلذا صحّ إيراد جملة: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وأي نعمة أعظم من انتهاء هذه الحياة بكل ما فيها للانتقال إلى الحياة الدائمة حيث الخلد والبقاء فهي لأهل السعادة نعمة توجب أعظم الشكر.

(٤) السؤال: الدعاء فالملائكة يسألونه تعالى أن يغفر للذين آمنوا وهو قولهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾.

(٥) التفرغ للأمر: كناية عن الاشتغال به والعناية به دون غيره و﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ تثنية ثقل، وهل سمي الإنسان ثقلًا لأنه محمول على الأرض؟ والصحيح أن الإنسان والجن سميا بالثقلين لإثقالهما بالتكاليف من باب تسمية الشيء بعمله كتسمية العصفور طائر لأنه يطير.

(٦) المعشر: اسم للجمع الكثير الذي يُعدُّ عشرة عشرة دون آحاد.

سلطانه أم برحمة مولاكم ولطفه بكم اللهم لا شيء من آلائك نكذب ربنا ولك الحمد.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - بيان جلال الله وعظمته وقوة سلطانه.

٣ - بيان عجز الخلائق أمام خالقها عز وجل.

٤ - وجوب حمد الله تعالى وشكره على السراء والضراء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٧ - ٤٥]

(٣٧) ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾: أي انفتحت أبوابًا لنزول الملائكة إلى الأرض لتسوق الخلائق إلى المحشر. ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾: أي السماء محمرة احمرار الأديم أو الفرس الأحمر وذابت فكانت كالدهان في صفائها وذوبانها.

(٣٩) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾: أي يوم يخرجون من قبورهم لا يسألون عن ذنوبهم لما لهم من علامات كاسوداد الوجوه وبياضها، ويسألون عند الحساب.

(٤٠) ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾: أي سواد الوجوه وزرقة العيون. ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾: أي تضم ناصية المجرم إلى قدميه ويؤخذ فيلقى في جهنم.

(٤٣) ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا﴾: أي يقال لهم توبيخًا وتبكيتًا هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون في الدنيا. ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أي الذين أجرموا على أنفسهم بالشرك والمعاصي.

(٤٤) ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾: أي يسعون مترددين بينها وبين ماء حار قد انتهت حرارته إلى حد لا مزيد عليه وهو الحميم الآن يُسقونه إذا عطشوا واستغاثوا يطلبون الماء لإرواء غلتهم العطشة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في عرض أحوال القيامة وأهوال الموقف.

(٣٧) - (٤٠) فقال جل جلاله وعظم سلطانه: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي تفتحت لنزول الملائكة فكانت أبوابًا بعد أن احمرت وتغيرت زرقتها لحمرة كحمرة الأديم الأحمر أو الفرس الأحمر أو الوردة الحمراء كل ذلك صالح لتشبيه لونها به وذابت فكانت كالدهان كما جاء وصفها في سورة المعارج يوم تكون السماء كالمهل. وهو دِرْديّ الزيت وعكره. ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي[1] يوم إذ يقع هذا يعظم الكرب ويشتد البلاء ويخرج الناس من قبورهم ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي إنسيّ ولا جني ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

(٤١) (٤٢) وقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ[2] ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي باسوداد وجوههم وزرقة أعينهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام أي فيجمع الملك المكلف الإنس أو الجن المجرم بين ناصيته وقدميه ويأخذه فيرمي به في نار جهنم ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبنعمة العدالة أم بنعمة إكرام المتقين الصالحين. قولوا لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد.

(٤٣) وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي يقال لهم توبيخًا وتبكيتًا هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون على أنفسهم بالشرك والمعاصي في الحياة الدنيا.

(٤٤) - (٤٥) قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ﴾ أي[3] يسعون مترددين ﴿بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ[4] ءَانٍ﴾ أي ماء حار اشتدت حرارته فبلغت حدًا لا مزيد عليه يسقونه إذا استغاثوا من العطش. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ إن خزي المجرمين وتعذيبهم نعمة تُقر بها الفطرة البشرية ولا يقدرها إلا من ذاق طعم الخوف والعذاب الذي ينزله المجرمون بالمتقين فلذا كان تعذيبهم يوم القيامة نعمة، كما أن هذا العرض لأحوال يوم القيامة وأهوالها نعمة إذ عليه آمن المؤمنون واتقى المتقون، فلذا قال تعالى بعد

---

(١) جملة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ جواب الشرط ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ..﴾ إلخ.. وجملة: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ معترضة بين الشرط والجواب.

(٢) الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا ناشئًا عن قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ والسيما: العلامة.

(٣) المعنى: أنهم يتنقلون بين مكان النار وبين الماء الحار فإذا أصابهم حر النار طلبوا التبرد فلاح لهم الماء فأتوه فأصابهم حره فانصرفوا إلى النار وهكذا حالهم تطواف بين النار والحميم.

(٤) (آن) اسم فاعل من أنى يأني فهو آنٍ: إذا اشتدت حرارته وبلغت منتهاها في الحر.

وصف حال أهل النار: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]؟

هداية الآيات:

١ - بيان الانقلاب الكوني وخراب العالم للقيامة.

٢ - يبعث الناس من قبورهم ولهم علامات تميزهم فيعرف السعيد والشقي.

٣ - التنديد بالإجرام وهو الشرك والظلم والمعاصي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٦ - ٦١]

﴿٤٦﴾ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾: أي ولمن خاف الوقوف بين يدي الله في عرصات القيامة فآمن واتقى جنتان.

﴿٤٨﴾ ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾: أي أغصان من شأنها أن تُورق وتُثمر وتمد الظل.

﴿٥٢﴾ ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾: أي من كل ما يتفكه به من أنواع الفواكه صنفان.

﴿٥٤﴾ ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾: أي بطائن الفرش من إستبرق وهو ما غلظ من الديباج والظهائر من السندس وهو ما رقَّ من الديباج الذي هو الحرير. ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: أي وما يُجنى من ثمار الجنة دان قريب التناول يناله القائم والقاعد.

﴿٥٦﴾ ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أي قاصرات النظر بأعينهن على أزواجهن فقط. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾: أي لم يفتضهن قبل أزواجهن إنس ولا جان.

﴿٥٨﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾: أي كأنهن في جمالهن الياقوت في صفائه والمرجان اللؤلؤ الأبيض.

﴿٦٠﴾ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾: أي ما جزاء الإحسان بالطاعة إلا الإحسان بالنعيم.

معنى الآيات:

﴿٤٦﴾ - ﴿٤٧﴾ ما زال السياق الكريم في تعداد النعم وذكر أنواعها فقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ[2] خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي الوقوف بين يديه في ساحة فصل القضاء يوم القيامة فأطاعه بأداء الفرائض واجتناب المحرمات ﴿جَنَّتَانِ﴾[3] أي بستانان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبإثابة أحدكم الذي إذا همّ بالمعصية ذكر قيامه بين يدي ربه فتركها فأثابه الله بجنتين.

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ وقوله: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، هذا وصف للجنتين وصفهما بأنهما ذواتا أفنان جمع فنن لون أفنان ألوان[4] ولأشجارها أغصان من شأنها تورق وتثمر وتمد الظلال ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبهذا النعيم والإثابة للمتقين تكذبان.

﴿٥٠﴾ - ﴿٥١﴾ وقوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي في الجنتين ذواتي الأفنان عينان تجريان بالماء العذب الزلال الصافي خلال تلك القصور والأشجار ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا[5] تُكَذِّبَانِ﴾ يا معشر الجن والإنسان أبمثل هذا العطاء والإفضال تكذبان؟

﴿٥٢﴾ - ﴿٥٣﴾ وقول الرحمٰن: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، أي في تينك الجنتين من كل فاكهة من الفواكه صنفان فلا يكتفى بصنف واحد إتمامًا للنعيم والتنعُّم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أبمثل هذا الإنعام والإكرام لأهل التقوى تكذبان؟

﴿٥٤﴾ - ﴿٥٥﴾ وقوله ما أوسع رحمته وهو الرحمٰن: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾[6] أي حال تنعمهم ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ على الأرائك بطائن[7] تلك الفرش من إستبرق

---

(١) وجائز أن يكون تكريرًا للتقرير والتوبيخ كنظائره.

(٢) (مَن) مِن ألفاظ العموم كالجنس.

(٣) جنتان تحفان بقصره أو واحدة عن يمين القصر وأخرى عن شماله ولا يعرف مدى سعتهما إلا الله تعالى، وذلك لما ثبت أن أحدهم يعطى مثل الدنيا عشر مرات واللام في ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ لام الملك.

(٤) يطلق الفنن على اللون وعلى الغصن فأفنان الفاكهة: ألوانها المختلفة، وأفنان الشجر: أغصانه، قال النابغة:

بُكاءَ حَمَامةٍ تدعو هديلا ... مفجعةٍ على فننٍ تغني

(٥) الاستفهام في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تكرر بتكرار النعم، وهو للتقرير والتوبيخ والحث على الشكر بالعبادة والتوحيد فيها.

(٦) ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾.

وهو الغليظ من الديباج أما الظواهر فهي السندس وهو ما رق من الديباج. وقوله: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي وثمارها التي تجنى من أشجارها دانية أي قريبة التناول يتناولها المتقي وهو مضطجع أو قاعد أو قائم، لا شوك فيها ولا بعد لها، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أبمثل هذا الإنعام والإكرام تكذبان.

﴿٥٦﴾ - ﴿٥٧﴾ قول الرحمٰن: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾[1] أي وفي تينك الجنتين نساء من الحور العين ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أي العين على أزواجهن فلا ترى إلا زوجها أي فلا تنظر إلا إلى زوجها وتقول له: وعزة ربي وجلاله وجماله ما أرى في الجنة شيئًا أحسن منك فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجك.

وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي لم يجامعهن فيفتضهن قبل أزواجهن ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يجامع الإنسية قبل زوجها الإنسي إنسي ولم يجامع الجنية قبل زوجها الجني جان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أبمثل هذا الإنعام تكذبان؟

﴿٥٨﴾ - ﴿٥٩﴾ وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾ أي في صفائهن ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ في بياضهن إذ الحوراء منهن يُرى مخ ساقها تحت ثيابها كما يُرى الخيط أو السلك في داخل الياقوتة لصفائها فبأي آلاء ربكما تكذبان، أبمثل هذا العطاء والإنعام تكذبان؟ وقوله عظم فضله وجلّ عطاؤه.

﴿٦٠﴾ وهو الرحمٰن: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ أي في الإيمان والطاعات من العبادات ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[2] إليه بمثل هذا النعيم العظيم الذي ذكر في هذه الآيات. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يا معشر الإنس والجان فقولا: لا بشيء من آلاء ربنا نكذب فلك الحمد.

هداية الآيات:

١ - فضل الخوف من الله تعالى وذلك كأنْ تعرض للعبد المعصية فيتركها خوفًا من الله تعالى.

٢ - فضل نساء أهل الجنة في حبهن لأزواجهن بحيث لا ينظرن إلا إليهم.

٣ - بيان أن أفضل النساء في الدنيا تلك التي تقصر نظرها على زوجها فتحبه ولا تحب غيره من الرجال.

٤ - بيان أن الجن المتقين يدخلون الجنة ولهم أزواج كما للإنس سواء بسواء.

٥ - الإشادة بالإحسان وبيان جزائه والإحسان هو إخلاص العبادة لله والإتيان بها على الوجه الذي شرع أداؤها عليه، مع الإحسان إلى الخلق بكف الأذى عنهم وبذل الفضل لمن احتاجه منهم.

الجزء السابع والعشرون — سورة الواقعة

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

ترتيبها ٥٦ — سُورَةُ الوَاقِعَةِ — آياتها ٩٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾

٥٣٤

شرح الكلمات:

[الآية: ٦٢ - ٧٨]

﴿٦٢﴾ ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: أي ومن دون تينيك الجنتين جنتان أخريان لمن خاف مقام ربه.

﴿٦٤﴾ ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾: أي مسودتان من شدة خُضْرتهما.

﴿٦٦﴾ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾: أي فوارتان دائمًا وأبدًا تفوران بالماء العذب الزلال.

﴿٧٠﴾ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾: أي في الجنات الأربع نساءٌ خيرات

(١) البطائن: جمع بطانة بكسر الباء مشتقة من البطن خلاف الظهر وضد البطانة الظهارة، فالبطانة: أسفل الثوب والظهارة: ظهره.

(٢) هؤلاء نسوة الجنة لا أزواج المؤمنين اللائي كن لهم في الدنيا إذ مَسّهن أزواجهن والزوجة المؤمنة تكون لآخر من تزوجها في الدنيا.

(٣) جملة: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ تذييل لما قبلها من الجمل المتضمنة إيمان المؤمنين وعملهم الصالح وإحسانهم فيه، والاستفهام للنفي.

الأخلاق حسان الوجوه.

(٧٢) ﴿حُورٌ﴾: أي أولئك الخيرات حور أي بيض والواحدة حوراء أي بيضاء. ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾: أي مستورات محبوسات على أزواجهن في الخيام والخيمة من در مجوف مضافة إلى القصور، وطول الخيمة الواحدة ستون ميلاً.

(٧٤) ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾: أي لم يجامعهن فيفتض بكارتهن قبل أزواجهن في الجنة أحد.

(٧٦) ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾: أي على وسائد أو بسط الواحدة رفرفة خضر جمع أخضر. ﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾: أي طنافس جمع طنفسة بساط له خمل رقيق أي بسط حسان.

(٧٨) ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾: أي تقدس وكثرت بركة اسم ربك الرحمٰن. ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾: أي ذي العظمة والإكرام لأوليائه والإحسان إلى عباده.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر إنعام الله تعالى وإفضاله على عباده.

(٦٢) فقال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝﴾ أي ومن دون تينيك الجنتين جنتان أخريان لمن خاف مقام ربه من السابقين وهاتان لمن خاف مقام ربه من أصحاب اليمين وقد يكون العكس كذلك والله أعلم بأي الجنتين أفضل، اللهم ارزقنا ما شئت منهما فإنا بعطائك راضون ولك حامدون شاكرون.

(٦٣) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي بأي إنعام وإفضال تكذبان؟

(٦٤) وقوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝﴾[1] مخضرتان إلى حد الاسوداد فإن الأخضر من الأشياء إذا اشتدت خضرته ضربت إلى السواد ويقال فيها مدهامة.

(٦٥) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2] أي بأي إنعام تكذبان يا معشر الجن والإنس.

(٦٦) ﴿فِيهِمَا﴾ في الجنتين ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوّارتان بالماء دائمًا وأبدًا.

(٦٧) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بأي إفضال وإحسان تكذبان.

(٦٨) وقول الرحمٰن: ﴿فِيهِمَا﴾ أي في الجنتين ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[3] لفظ الفاكهة قد يعم النخل والرمان ويصبح ذكر النخل والرمان لمزيد فضيلة كذكر الصلاة الوسطى بعد ذكر الصلوات الخمس في قوله: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٦٩) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ لا بشيء من آلاء ربنا نكذب ربنا فلك الحمد.

(٧٠) وقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ[4] حِسَانٌ﴾ أي في الجنتين نساءهن خيرات جمع خيرة خيرات الأخلاق حسان الوجوه.

(٧١) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ أبمثل هذا الإنعام والإكرام على أولياء الرحمٰن تكذبان؟

(٧٢) ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى[5] ٱلْخِيَامِ﴾ إن أولئك الخيرات حور جمع حوراء وهي البيضاء، والحوراء كذلك من يغلب بياض عينيها سوادهما وهو من جمال النساء محبوسات في الخيام لا ينظرن إلى غير أزواجهن، والخيمة من درة مجوفة طولها ستون ميلاً مضافة إلى قصورهم.

(٧٤) وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يجامعهن فيفتض بكارتهن إنس ولا جان من قبل أزواجهن في الجنة.

(٧٥) ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ والجواب: لا بشيء من آلاء ربنا

---

(١) ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ وصف مشتق من الدهمة، بضم الدال وهو لون السواد الناتج عن شدة الخضرة.

(٢) الاستفهام كسابقه للتقرير والتوبيخ.

(٣) عطف النخل والرمان على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ من باب عطف الجزء على الكل أو الخاص على العام كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾.

(٤) ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ بسكون الياء جمع خيرة وهو وصف لموصوف محذوف أي: نساء خيرات، والأصل: خيّرات بتشديد الياء المكسورة جمع خيّرة مؤنث خيّر وهو المختص بوصف الخير ضد الشر وخفف في الآية طلبًا للخفة مع السلامة من اللبس.

(٥) المقصورات: صفة لموصوف أي: نساء مقصورات والقصور على الخيمة بعدم الخروج منها: وصف للترف والنعيم بحيث لا تخرج من الخيمة والقصر لغناها بخلاف من تخرج للعمل لحاجتها إلى العمل في البستان أو غيره.

نكذب ربنا فلك الحمد.

(٧٦) وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ[1] خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ أي متكئين على رفرف خضر والرفرف جمع رفرفة أي على وسائد أو بُسُطٍ خُضْرٍ، وعبقريّ[2] حِسان أي على طنافس[3] ذات خمل دقيق.

(٧٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بنعم الدنيا أم بنعم البرزخ أم بنعم الآخرة لا بشيء من آلاء ربنا نكذب.

(٧٨) وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي تبارك اسم ربك أي تقدس وكثرت بركات اسم ربك الرحمٰن ذي الجلال أي العظمة والإكرام لأوليائه وصالحي عباده.

هداية الآيات:

١ - بيان أن نعيم الآخرة أعظم وأجل من نِعم الدنيا.

٢ - فضيلة التمر والرمان فلنبحث منافعهما فإن الحقيقة بنت البحث.

٣ - فضل المرأة المقصورة في بيتها وذم الولاجة الخراجة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

٤ - بيان أن الجن يدخلون الجنة ويسعدون فيها.

٥ - البركة تنال ببسم الله الرحمٰن الرحيم.

❁ ❁ ❁

سورة الواقعة
مكية
وآياتها ست وتسعون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٢]

(١) ﴿إِذَا وَقَعَتِ[4] ٱلْوَاقِعَةُ﴾: أي قامت القيامة وقيل فيها الواقعة لأنها واقعة لا محالة.

(٢) ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾: أي نفس كذب بها بأن تنفيها كما نفتها في الدنيا.

(٣) ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾: أي مظهرة لخفض أقوام بدخولهم النار، ولرفع آخرين بدخولهم الجنة.

(٤) ﴿إِذَا رُجَّتِ[5] ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾: أي حُركت حركة شديدة.

(٥) ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ[6] بَسًّا﴾: أي فتتت تفتيتًا.

(٦) ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً[7] مُّنۢبَثًّا﴾: أي غبارًا منتشرًا.

(٧) ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾: أي في القيامة أصنافًا ثلاثة.

(٨) ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: أي الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم. ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: أي تعظيم لشأنهم بدخولهم الجنة.

(٩) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: أي الشمال الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم. ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: أي تحقير لشأنهم بدخولهم النار.

(١٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾: أي إلى الخير وهم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة في أول الدعوة. ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾: تعظيم لشأنهم.

(١١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: أي هم المقربون الذين يقربهم الله منه يوم القيامة إذا أدخلهم الجنة.

(١٢) ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: في بساتين النعيم الدائم.

---

(١) الرفرف: اسم جمع رفرفة، وهي ما يبسط على الفراش للنوم عليه، ويغلب عليها اللون الأخضر، ولذلك شبه ذو الرمة الرياض بالبسط العبقرية في قوله:

حتى كأن رياض القف ألبسها ... من وشي عبقر تجليل وتنجيد

وكانت الثياب الخضر عزيزة إذ هي لباس الملوك والكبراء. قال النابغة:

يصون أجسادًا قديمًا نعيمها ... بخالصة الأردان خضر المناكب

(٢) العبقري: وصف لكل ما كان فائقًا في صفته عزيز الوجود وهو نسبة إلى عبقر اسم بلاد الجن في معتقد العرب فنسبوا إليه كل ما تجاوز العادة في الإتقان والحسن، ومنه قول الرسول ﷺ في رؤياه لعمر: «**فلم أرَ عبقريًا يفري فريه**».

(٣) جمع طنفسة وهي البساط ذو الخمل، و﴿حِسَانٍ﴾ جمع حسناء، وهو وصف لعبقري لأنه اسم جمع.

(٤) ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ علم بالغلبة على القيامة، وأصل الواقعة: الحادثة، ومن ذلك قولهم واقعة أحد أو بدر مثلًا، وإذا ظرف ضمن معنى الشرط متعلق بالكون المقدر في قوله: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ و﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ مستأنفة بيانية.

(٥) ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بدل من ﴿إِذَا﴾ الأولى، وجواب الشرط ﴿إِذَا﴾ الأولى والمبدلة منها هو قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ . .﴾ إلخ. .

(٦) البسّ: بمعنى التفتت للأجزاء المجموعة، ومنه: البسيسة: للسويق ويطلق البسّ على السوق للماشية، وفي الحديث: «**فيأتي قوم فيبسون بأموالهم وأهليهم** ـ أي: يسوقونهم ـ **والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**».

(٧) الهباء: ما يلوح في خيوط شعاع الشمس من دقيق الغبار.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى في تقرير البعث والجزاء الذي كذب به المشركون وأنكروه في إصرار وعناد: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝﴾ أي إذا قامت القيامة.

(٢) ـ (٣) ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي نفس تكذب بها إذ يؤمن بها الجميع، ﴿خَافِضَةٌ﴾ لأقوام أي مظهرة لحالهم بأنهم أهل النار، ﴿رَّافِعَةٌ﴾ لآخرين مظهرة لحالهم بأنهم من أهل الجنة.

(٤) وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجًّا ۝﴾ أي حركت حركة شديدة.

(٥) ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسًّا ۝﴾ أي إذا بست الجبال أي فتت تفتيتًا.

(٦) ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝﴾ أي غبارًا منتشرًا.

(٧) وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ﴾ أي أيها الناس ﴿أَزۡوَٰجًا﴾ أي أنواعًا ﴿ثَلَٰثَةً﴾: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والمقربون.

(٨) ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أو الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أي أن شأنهم عظيم وذلك بدخولهم الجنة دار النعيم.

(٩) ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ وهم أصحاب الشمال أي اليساريون الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم أي بمياسرهم ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أي شأنهم حقير وذلك بدخولهم النار.

(١٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ إلى الإيمان والطاعة في أول ظهور الدعوة ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾[1] هذا تعظيم لشأنهم وإعلان عن فوزهم وكرامتهم.

(١١) في جنات النعيم وهي بساتين ذات نعيم دائم جعلنا الله منهم.

هداية الآيات:

١ - تقرير البعث والجزاء في الآخرة.

٢ - الإيمان والتقوى يرفعان والشرك والمعاصي يضعان ويخفضان.

٣ - السابقون إلى الطاعات لهم فضل الأسبقية في كل زمان ومكان.

٤ - اليساريون هم أشقياء الدنيا والآخرة. لأنهم عندما أخذ غيرهم ذات اليمين طالبين الإيمان والاستقامة أخذوا هم ذات الشمال طالبين الكفر والفسوق.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣ ـ ٢٦]

(١٣) ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝﴾: أي جماعة من الأمم الماضية.

(١٤) ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝﴾: أي من أمة محمد ﷺ. هؤلاء هم السابقون.

(١٥) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوۡضُونَةٍ ۝﴾: أي منسوجة مشبكة بالذهب والجواهر.

(١٧) ﴿وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾: أي على شكل الأولاد لا يهرمون فيخدمونهم أبدًا.

(١٨) ﴿بِأَكۡوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾: يطوف عليهم الولدان الخدم بأكواب وهي أقداح لا عرا لها، وأباريق لها عرا وخراطيم. ﴿وَكَأۡسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾: أي وإناء لشرب الخمر ومعين بمعنى جارية من نهر لا ينقطع أبدًا.

(١٩) ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾: أي لا يحصل لهم من شربها صداع. ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾: أي ولا تذهب عقولهم يقال نزف الشارب وأنزف إذا ذهب عقله بالسكر.

(٢٠) ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝﴾: أي يختارون منها ما يروق لهم ويعجبهم وإن كانت كلها معجبة.

(٢٢) ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝﴾: أي ولهم نساء بيض عين أي واسعة الأعين وشديدات سواد العيون وبياضها.

(٢٣) ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ۝﴾: أي أولئك الحور العين هن في جمالهن وصفائهن كأمثال اللؤلؤ المصون.

(٢٥) ﴿لَغۡوًا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾: أي لا يسمعون في الجنة لغوًا أي فاحش الكلام وما لا خير فيه ولا ما يوقع في الإثم.

(٢٦) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝﴾: إلا قولاً سلامًا سلامًا أي لا يسمعون إلا السلام من الملائكة ومن بعضهم بعضًا.

معنى الآيات:

ما زال السياق في بيان أحوال الناس إذا قامت القيامة فذكر أنهم يصيرون أصنافًا ثلاثة أصحاب يمين وأصحاب شمال وسابقين.

(١٣) وهنا يقول في السابقين إنهم ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي جماعة ﴿مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

---

(١) ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾: (ما) مبتدأ والخبر: أصحاب الميمنة، والجملة خبر فأصحاب الميمنة وكذا ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾.

(٢) يجوز أن يكون ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ خبر عن الأول، وجملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ مستأنفة، ويجوز أن يكون ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الثاني: ويجوز أن تكون تأكيدًا للأول، والخبر: جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

٥٣٥

أي[1] من الأمم الماضية الذين أسلموا وسبقوا إلى الإسلام مع أنبيائهم.

﴿١٤﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾[2] أي من هذه الأمة أمة محمد ﷺ وهم الذين سبقوا إلى الإيمان والهجرة والجهاد يذكر نعيمهم فيقول:

﴿١٥﴾ وقوله الحق: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝﴾ أي إنهم على سرر موضونة أي منسوجة ومشبكة بالذهب والجواهر، حال كونهم.

﴿١٦﴾ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ لا ينظر أحدهم إلى قفا الآخر بل إلى وجهه.

﴿١٧﴾ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي للخدمة ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ غلمان ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾[3] لا يكبرون فيهرمون ولا يتغيرون بل يبقون كذلك أبدًا يطوفون عليهم بأكواب جمع كوب وهو قدح لا عروة له، وأباريق جمع إبريق وهو إناء له عروة وخرطوم.

﴿١٨﴾ ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ والكأس هنا إناء شرب الخمر والمعين ما كان جاريًا لا ينضب والمراد بكأس من نهر الخمر.

﴿١٩﴾ وقوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ[4] عَنْهَا﴾ أي لا يصيبهم صداع من شربها، ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾[5] أي لا تذهب عقولهم بشربها بخلاف خمر الدنيا فإنها تصيب شاربها بالصداع وذهاب العقل غالبًا.

﴿٢٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ ويطوف عليهم الغلمان بفاكهة وهو ما يتفكه به وليس بغذاء رئيسي ومن سائر الفواكه، مما يتخيرون أي يختارون.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي مما تشتهيه أنفسهم.

﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝﴾ أي ولهم في الجنة حور عين يستمتعون بهن، واحدة الحور حوراء. وهي البيضاء وواحدة العين العيناء وهو واسعة العينين والحَوَر في العين أن يكون بياضها أكثر من سوادها وهو ضرب من الجمال.

﴿٢٣﴾ وقوله: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝﴾ أي المصون في كِنّه أو صدفه. يريد أنهن جميلات مصونات غير مبتذلات وقد تقدم في الرحمٰن أنهن مقصورات في الخيام.

﴿٢٤﴾ وقوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي جزاهم ربهم جزاء بما كانوا يعملونه من الصالحات بعد الإيمان والتوحيد وترك المعاصي.

﴿٢٥﴾ وقوله تعالى وهو من إتمام النعيم أنهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ في جنات النعيم ما يكدر صفو نعيمهم أو ينغص لذة حياتهم من قول بذيء سيّيء فلا يسمعون فيها أي في الجنة ﴿لَغْوًا﴾ أي[6] كلامًا فاحشًا ﴿وَلَا

---

(١) قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ اعتراض بين جملة ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وجملة ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ وثلة: خبر لمبتدأ محذوف أي هم: ثلة إلخ..

(٢) من الأولى والثانية تبعيضية.

(٣) قيل: إنهم على سن واحدة، وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: الولدان هم أولاد المسلمين الذين يموتون صغارًا. وقال سلمان: هم أولاد المشركين الذين يموتون صغارًا. والله أعلم.

(٤) التصديع: الإصابة بالصداع، وهو وجع الرأس من الخُمار الناشيء عن السكر أي لا تصيبهم الخمر بصداع، وعنها بمعنى: لا يصيبهم صداع ناشيء عنها.

(٥) قرأ نافع ﴿يُنزَفون﴾ بفتح الزاي من: أنزفه وقرأها حفص ﴿يُنزِفُونَ﴾ بكسر الزاي من أنزف القاصر، إذا سكر وذهل عقله.

تَأۡثِيمًا ۝﴾ وهو ما يؤثم قائله وسامعه.

(٢٦) ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي قولاً ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝﴾ أي إلا ما كان من سلام الرب تعالى عليهم وهو أكبر نعيمهم وسلام الملائكة عليهم وسلام بعضهم على بعض اللهم اجعلنا منهم قل آمين أيها القارىء واطمع فإن ربنا غفور رحيم سميع الدعاء قريب مجيب.

هداية الآيات:

١ - تقرير البعث والجزاء بذكر أحوال الدار الآخرة.

٢ - بيان شيء من نعيم أهل الجنة وخاصة السابقين منهم.

٣ - بيان أن السابقين يكونون من سائر الأمم المسلمة.

٤ - بيان فضل خمر الجنة على خمر الدنيا المحرمة.

٥ - تقرير قاعدة أن الجزاء من جنس العمل.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ - ٤٠]

(٢٧) ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝﴾: هذا شروع في ذكر الزوج الثاني من الأزواج الثلاثة فذكر السابقين وما أعد لهم وهذا ذِكرٌ لأصحاب اليمين وما أعد لهم من نعيم مقيم.

(٢٨) ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝﴾: في شجر السدر وثمرةُ النبق ومخضود لا شوك فيه.

(٢٩) ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝﴾: أي شجر موز منضود الحمل من أعلاه إلى أسفله فليس له ساق بارزة.

(٣٠) ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝﴾: أي دائم إذ لا شمس تنسخه وإن ظل شجرة في الجنة يسير الراكب فيه مائة سنة لا يقطعه.

(٣١) ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ۝﴾: أي مصبوب لا يحتاج المتنعم بأن يصبه بيده بل هو سائل في غير أخدود أو أنبوب.

(٣٣) ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝﴾: أي غير مقطوعة في زمن، ولا ممنوعة بثمن.

(٣٤) ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ۝﴾: أي على السرر العالية الرفيعة.

(٣٥) ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝﴾: أي الحور العين اللائي تقدم ذكرهن في قوله وحور عين. إذْ كانت الواحدة منهن في الدنيا عجوزًا شمطاء عمشاء رمصاء فأنشأها ربها إنشاءً جديدًا بِكرًا تتغنج وتتعشق عرباء تتودد لزوجها وتتحبب.

(٣٦) ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝﴾: الواحدة بكر وهي التي لم تفتض بكارتها بعد وتسمى العذراء.

(٣٧) ﴿عُرُبًا﴾: الواحدة عروب وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل.

﴿أَتۡرَابٗا﴾: أي مستويات في السن الواحدة يقال لها تِربٌ والجمع أتراب.

(٣٨) ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝﴾: وهم الذين يؤخذ بهم في عرصات القيامة ذات اليمين وهم أهل الإيمان في الدنيا والعمل الصالح فيها.

(٣٩) ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝﴾: أي من الأمم السابقة.

(٤٠) ﴿وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝﴾: أي من أمة محمد ﷺ.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في عرض أحوال الآخرة وذكر ما لكل صنف من أصناف الناس الثلاثة من سابقين وأصحاب يمين وأصحاب شمال.

(٢٧) - (٣٤) فقال تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾[1] وهم الذين إذا وقفوا في عرصات القيامة أُخذ بهم ذات اليمين وهم أهل الإيمان والتقوى في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾[2] تفخيم لشأنهم وإعلان عن كرامتهم ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿فِي سِدۡرٖ[3] مَّخۡضُودٖ ۝ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ۝ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝ لَّا مَقۡطُوعَةٖ[4] وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ۝﴾ إنهم في هذا النعيم الدائم المقيم إنهم يتفكهون بالنبق الذي هو أحلى من العسل وأنعم من

---

(١) اللغو من الكلام في الدنيا هو: ما لا يحصل حسنة للمعاد ولا درهمًا للمعاش وفي الآخرة هو ما لا يسر من كل قول إذ الحياة: حياة سعادة وسرور وحبور.

(٢) هذا شروع في تفصيل ما أجمل عند التقسيم من شؤونهم الفاضلة على إثر تفصيل شؤون السابقين.

(٣) الإخبار بـ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ فيه من التفخيم ما فيه!!

(٤) خبر محذوف المبتدأ تقديره: هم في سدر.

(٥) ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ هذا وصف للفاكهة، والنفي هنا أثبت من الإثبات لأنه بمنزلة وصف وتوكيد.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

٥٣٦

الزبد شجره مخضود الشوك لا شوك به، ويتفكهون بالطلح أي ثمره وهو الموز، والماء المصبوب الجاري، والفاكهة الكثيرة التي لا تقطع بالفصول الزمانية كما هي الحال في فاكهة الدنيا يوجد منها في الصيف ما لا يوجد في الشتاء مثلاً ولا ممنوعة بثمن غال ولا رخيص وفي فرش مرفوعة عالية علو الدرجات التي هي فيها.

﴿٣٥﴾ وقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۞﴾[1] يعني الحور العين اللائي سبق في الآيات ذكرهن منهن من أنشأهن الله إنشاء لم يسبق لهن خلق ووجود، ومنهن نساء الدنيا فقد كانت فيهن السوداء والعمشاء والرمصاء والعجوز فيعيد تعالى إنشاءهن فيجعلهن من بين الحور العين كأنهن اللؤلؤ المكنون.

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۞﴾ عذارى لم يمسهن قبل أزواجهن إنس ولا جان.

﴿٣٧﴾ ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ۞﴾ العروب[2] هي المتحببة إلى زوجها العاشقة له المتغنجة والأتراب المتساويات في السن، وترب[3] الإنسان من وُلد معه في وقت واحد فمس جلده التراب مع مس التراب جلدك.

﴿٣٨﴾ وقوله ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي أنشأ هؤلاء الحور العين لأجل أصحاب اليمين ليستمتعوا بهن.

﴿٣٩﴾ وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۞﴾ أي من الأمم الماضية ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۞﴾ أي من هذه الأمة المسلمة اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمرتهم وأدخلنا الجنة معهم.

هداية الآيات:

١ - بيان إكرام الله وإنعامه على المؤمنين المتقين.

٢ - بيان أن العجوز في الدنيا إذا دخلت الجنة تصير شابة حسناء حوراء عروبًا.

٣ - تقرير أن ثمن الجنة الإيمان والتقوى فلا دخل للحسب ولا للنسب والأول كالآخر على حد سواء فيها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ ـ ٥٦]

﴿٤١﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾: أي هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال في الموقف يوم القيامة وهم أهل الشرك والمعاصي في الدنيا.

﴿٤٢﴾ ﴿فِى سَمُومٍ﴾: أي ريح حارة تنفذ في مسام الجسد. ﴿وَحَمِيمٍ﴾: أي ماء حار شديد الحرارة.

﴿٤٣﴾ ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۞﴾: أي دخان شديد السواد.

﴿٤٤﴾ ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۞﴾: أي لا بارد كغيره من الظلال ولا كريم حسن المنظر.

﴿٤٥﴾ ﴿كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾: أي في الدنيا. ﴿مُتْرَفِينَ﴾: أي منعمين لا ينهضون بالتكاليف الشرعية ولا يتعبون في طاعة الله ورسوله.

﴿٤٦﴾ ﴿يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾: أي الذنب العظيم وهو الشرك.

﴿٤٧﴾ ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا﴾: أي وكانوا ينكرون البعث الآخر.

﴿٥٠﴾ ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ

---

(١) لما ذكر الفرش قد يخطر بالبال هل هناك نساء يكن بصحبة أهلها؟ فأجيب بقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ أي: الحور العين ﴿إِنشَآءً﴾ فكانت الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا، وضمير المؤنث ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ عائد إلى غير مذكور في الكلام لكنه ملحوظ في الأفهام.

(٢) العرب: جمع عروب، ويقال: عَرِبَة ويجمع على عربات، وهذا اسم خاص بالمرأة المتحببة إلى زوجها كما في التفسير.

(٣) الأتراب: جمع ترب وهي المرأة التي تساوي سنها سن من تضاف إليه من النساء، وقيل: إن الترب خاص بالمرأة، وأما المساواة في السن من الرجال فيقال له: قِرن، ولِدّة.

مَّعْلُومٍ﴾: أي لوقت يوم معلوم وهو يوم القيامة.
(٥١) ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾: أي الضالون عن طريق الهدى المكذبون بالبعث والجزاء.
(٥٢) ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾: أي من أخبث الشجر المرّ في غاية الكراهة والبشاعة طعمًا ولونًا.
(٥٥) ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾: أي شاربون شرب الإبل العطاش، إذ الهيمان العطشان والهيمى العطشى.
(٥٦) ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾: أي هذا ما أعد لهم من قرىً يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بيان أحوال الأصناف الثلاثة التي انقسمت البشرية إليها عند خروجها من قبورها فذكر حال السابقين وحال أصحاب اليمين وذكر هنا حال أصحاب المشأمة وهم أصحاب الشمال.
(٤١) ـ (٤٢) فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ[(١)] ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ تنديد بحالهم وإعلان عن سوء عاقبتهم وما هم فيه من عذاب إنهم ﴿فِى سَمُومٍ﴾[(٢)] أي ريح حارة تنفذ في مسام الجسم ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وهو ماء حار شديد الحرارة هذا شرابهم.
(٤٣) ـ (٤٤) ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾[(٣)] لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ إنه دخان أسود شديد السواد ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كغيره من الظلال ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي وليس بذي حسن في منظره.
(٤٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ[(٤)] كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[(٥)] هذه علة جزائهم بالعذاب الأليم إنهم كانوا في الدنيا منعمين لا يصلُّون ولا يصومون ولا يجاهدون ولا يرابطون.
(٤٦) ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ[(٦)] عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي على الإثم العظيم أي الشرك وكبائر الإثم والفواحش.
(٤٧) ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ﴾ منكرين للبعث والجزاء جاحدين باليوم الآخر: ﴿أَئِذَا[(٧)] مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي أحياء كما كنا في الدنيا.
(٤٨) ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ أيضًا مبعوثون كذلك والاستفهام في الموضعين للاستبعاد والإنكار. وهنا أمر تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يرد عليهم بقوله:
(٤٩) ﴿قُلْ﴾ أي قل لهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي أنتم وآباؤكم من عهد آدم والآخرين منكم ومن ذريتكم إلى نهاية حياة الإنسان.
(٥٠) ﴿لَمَجْمُوعُونَ[(٨)] إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي لوقت يوم معلوم عند الله محدد باليوم والساعة والدقيقة.
(٥١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾[(٩)] عن سبيل الهدى المعرضون عن الحق المكذبون بالبعث لداخلون جهنم ماكثون فيها أبدًا وإنكم:
(٥٢) ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ وهو شر ثمر وأخبث ما يؤكل مرارة.
(٥٣) ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ بطونكم لما يصيبكم من الجوع الشديد.
(٥٤) ـ (٥٥) ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾[(١٠)] أي الماء الحار الشديد الحرارة

---

(١) هذا شروع في تفصيل أحوالهم التي أشير عند التوزيع إلى هولها وفظاعتها بعد تفصيل حسن حال أصحاب اليمين.
(٢) السموم: الريح الشديدة الحرارة التي لا بلل معها كأنها مأخوذة من السم.
(٣) اليحموم: الدخان الأسود مشتق من الحمم على وزن صُرد اسم للفحم والحممة: الفحمة. وفي قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ تهكم ظاهر.
(٤) الجملة تعليلية إذ هي علة لما أصاب أصحاب الشمال من الهون والدون والعذاب الأليم.
(٥) ظاهر اللفظ أنّ الترف هو سبب كفرهم وإصرارهم على ذلك وجائز أن يكون الترف بعض السبب لا كله، والعبرة بالواقع والإشارة في قوله: ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ عائدة إلى السموم واليحموم والظل من اليحموم.
(٦) صيغة المضارع ﴿يُصِرُّونَ﴾ دالة على تجدد الإصرار منهم.
(٧) قرأ الجمهور ومنهم حفص بإثبات الاستفهام الأول والثاني، وقرأ نافع بالاستفهام في ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ والإخبار في ﴿إنا لمبعوثون﴾.
(٨) ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ أي: مبعوثون دفعة واحدة جميعًا دفعًا لما قد يتوهم أنهم يبعثون عل فترات كما كان وجودهم وموتهم في الدنيا على فترات مختلفة.
(٩) هذا من جملة ما أمر الرسول ﷺ أن يقوله لهم.

مكثرين منه كما تكثر الإبل الهيم[1] التي أصابها العطش واشتد بها داء الهيام الذي أصابها.

(٥٦) قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ[2] يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي هذا الذي ذكرنا من طعام الضالين المكذبين وشرابهم هو نزلهم الذي ننزلهم يوم الدين وأصل النزل ما يعد للضيف النازل من قرى: طعام وشراب وفراش.

هداية الآيات:

١ - أصحاب الشمال يدخل فيهم كل كافر وجد على وجه الأرض فإنهم في التقسيم ثلث الناس وفي الواقع هم أضعاف أضعاف السابقين وأصحاب اليمين لأن أكثر الناس لا يؤمنون.

٢ - التنديد بالترف والتنعم في هذه الحياة الدنيا فإنه يقود إلى ترك التكاليف الشرعية فيهلك صاحبه لذلك لا لكون طعامه وافرًا وشرابه لذيذًا.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بما لا مزيد عليه من العرض والوصف لحال الناس.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥٧ ـ ٧٤]

(٥٧) ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾: أي أوجدناكم من العدم. ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾: أي فهلا تصدقون بالبعث إذ القادر على الإنشاء قادر على الإعادة بعد الفناء والبلى.

(٥٨) ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾: أي الذي تصبونه من المني بالجماع في أرحام نسائكم.

(٥٩) ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾: أي بشرًا أم نحن الخالقون له بشرًا.

(٦٠) ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾: أي قضينا به عليكم وكتبناه عليكم وجعلنا لكل واحد أجلاً معينًا لا يتعداه ولا يتأخر منه بحال من الأحوال. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾: أي بعاجزين.

(٦١) ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾: أي ما أنتم عليه من الخلق والصور. ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أي ونوجدكم في صور لا تعلمونها وهذا تهديد لهم بمسخهم وتحويلهم إلى أبشع حيوان وأقبحه.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾: أي ولقد علمتم خلقنا لكم كيف تم وكيف كان. ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾: فتعلمون أن الذي خلقكم أول مرة قادر على إعادة خلقكم مرة أخرى بعد موتكم وفنائكم.

(٦٣) ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾: أي من إثارة الأرض بالمحراث وإلقاء البذر فيها.

(٦٤) ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾: أي تنبتونه. ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾: أي نحن المنبتون له يقال زَرَعَه الله أي أنبته.

(٦٥) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾: أي لو نشاء لجعلنا الزرع حطامًا يابسًا بعد أن أصبح سنبلاً وقارب أن يفرك فتحرمون منه. ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾: أي تتعجبون في مجالسكم من الجائحة التي أصابت زرعكم.

(٦٦) ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾: أي قائلين إنا لمغرمون أي ما أنفقناه على حرثه ورعايته معذبون به.

(٦٧) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾: أي لسنا بمعذبين به وإنما نحن محرومون من زرعنا وما بذلناه فيه ليس لنا من حظ ولا جد أي غير محظوظين ولا مجدودين.

(٦٨) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾: أي أخبرونا عن الماء الذي تشربونه وحياتكم متوقفة عليه.

(٦٩) ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾: أي من السحاب في السماء إلى الأرض.

(٧٠) ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾: أي له إلى الأرض. ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾: أي ملحًا مرًا لا يمكن شربه. ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾: أي فهلا تشكرون أي الله بالإيمان والطاعة.

(٧١) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾: أي أخبرونا عن النار التي تخرجون من الشجر.

(٧٢) ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾: أي خلقتم شجرتها كالمرخ والعفار

---

(١) ﴿الْهِيمِ﴾ جمع أهيم وهو البعير الذي أصابه الهُيام بضم الهاء وهو داء يصيب الإبل يورثها حمى في الأمعاء فلا تزال تشرب ولا تروى والمؤنث هيمى إذ المذكر أهيم.

(٢) قرأ نافع وحفص: ﴿شُرب﴾ بضم الشين، وقرأ بعض شرب بفتح الشين مصدر شرب يشرب شربًا.

(٣) النزل: بضم النون والزاي: ما يُعد للضيف ويقدم له من طعام وشراب وهو هنا تشبيه تهكمي كالاستعارة كما في قول الشاعر:

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا ... جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

والكلخ. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾: أي نحن المنشئون لتلك الأشجار.

(٧٣) ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً﴾: أي جعلنا تلك النار تذكرة أي تذكر بنار جهنم. ﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[1]: أي بُلغة للمسافرين يتبلغون بها في سفرهم.

(٧٤) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾: أي نزه اسم ربك عما لا يليق به كذكره بغير احترام ولا تعظيم أو الاسم صلة والتقدير نزه ربك عن الشريك ومن ذلك قولك سبحان ربي العظيم.

معنى الآيات:

السياق هنا في تقرير عقيدة البعث والجزاء التي أنكرها المشركون وذلك بذكر الأدلة العقلية الموجبة للعلم واليقين في المعلوم المطلوب تحصيله.

(٥٧) قال تعالى: ﴿نَحْنُ[2] خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ وأنتم معترفون بذلك إذ لمّا نسألكم من خلقكم تقولون الله. إذًا ﴿فَلَوْلَا[3] تُصَدِّقُونَ﴾ أي فهلا تصدقون بالبعث والحياة الثانية إذ القادر على الخلق الأول قادر على الإعادة. وهذه أدلة قدرتنا تأملوها أولاً

(٥٨) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝﴾ أي أخبرونا عما تمنون أي تصبونه في أرحام نسائكم بالجماع

(٥٩) ﴿ءَأَنتُمْ[4] تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ ولـدًا ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ والجواب نحن الخالقون إذًا القادر على خلقكم بواسطة هذا الإمناء والتكوين في الأرحام قادر على خلقكم بطريق آخر وثانيًا

(٦٠) - (٦١) ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ وقضينا به عليكم فلا يستطيع أحد منكم أن يمنعنا من إماتته وفي الوقت المحدد له. بحيث لو طلب التقديم أو التأخير لما قدر على ذلك أليس القادر على خلقكم وإماتتكم قادر على بعثكم بلى وثالثًا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ[5] فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بحيث نخلقكم في صور وأشكال غير ما أنتم عليه فنخلقكم خلقًا ذميمًا وقبيحًا كالقردة والخنازير، وما نحن بعاجزين عن ذلك فهل نعجز إذًا عن بعثكم بعد موتكم أحياء لنحاسبكم ونجزيكم.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ كيف تمت لكم بما لا تنكرونه. إذًا ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ فتعلمون أن الذي خلقكم أول مرة قادر على خلقكم ثانية مع العلم أن الإعادة ليست بأصعب من الإنشاء من عدم لا من وجود. ورابعًا:

(٦٣) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾[6] من إثارة الأرض وإلقاء البذر فيها أخبرونا أأنتم تنبتون الزرع ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ له أي المنبتون والجواب معروف وهو أننا نحن الزارعون لا أنتم. إذًا فالقادر على إنبات الزرع قادر على إنباتكم في قبوركم على نحو إنبات الزرع وعجب الذنب هو النواة التي تنبتون منها.

---

(١) المقوى: من نزل القوى والقواء والقي أيضًا: أي الأرض القفر التي لا شيء فيها ولا أنيس بها يقال: أقوت الدار وقويت أيضا أي: خلت من سكانها، قال النابغة:

يا دار ميّة بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقال عنترة:

حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

(٢) موقع هذه الجملة: الاستدلال والتعليل لما تضمنته جملة ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ من عقيدة البعث والجزاء وتقريرها.

(٣) الفاء للتفريع فالجملة متفرعة عن قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ وهي متضمنة للتحضيض على التصديق بالبعث الآخر إذ لولا هنا للتحضيض على ذلك.

(٤) الاستفهام للتقرير بتعيين خَالِق الجنين من النطفة إذ لا يسعهم إلا الإقرار بأن خالق الجنين من النطفة هو الله.

(٥) السبق: كناية عن الغلبة والتعجيز، لأن السبق يستلزم أن السابق غالب للمسبوق فمعنى: وما نحن ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: غير مغلوبين. قال الشاعر:

كأنك لم تسبق من الدهر مرة ... إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

(٦) الشبه قوي بين تحويل النطفة إلى جنين، والحبة إلى نبات فهي مناسبة عجيبة بين الدليلين.

(٦٥) وخامسًا هو أن ذلك الزرع الذي أنبتناه ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ﴾ بعد نضرته وقرب حصاده ﴿حُطَٰمًا﴾ يابسًا لا تنتفعون منه بشيء ﴿فَظَلْتُمْ[1] تَفَكَّهُونَ﴾ متعجبين من حرمانكم من زرعكم تقولون:

(٦٦) ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي ما أنفقناه على حرثه ورعايته معذبون[2] به ثم تضربون عن قولكم ذلك إلى قول آخر وهو قولكم:

(٦٧) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ما لنا من حظ ولا جد فيه أي لسنا محظوظين ولا مجدودين. إن إنبات الزرع ثم حرمانكم منه بعد طمعكم في الانتفاع به مظهر من مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته وتدبيره وكلها دالة على قدرته على بعثكم لمحاسبتكم ومجازاتكم على عملكم في هذه الحياة الدنيا.

(٦٨) وسادسًا: ﴿الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ وحياتكم متوقفة عليه أخبروني:

(٦٩) ـ (٧٠) ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ﴾ من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ والجواب نحن المنزلون لا أنتم هذا أولاً وثانيًا ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ لجعلنا الماء ملحًا مرًّا لا تنتفعون منه بشيء وإنا لقادرون فهلا تشكرون هذا الإحسان منا إليكم بالإيمان بنا والطاعة لنا.

(٧١) وسابعًا: ﴿النَّارَ الَّتِى تُورُونَ﴾ وتشعلونها أخبروني:

(٧٢) ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ﴾ والجواب نحن لا أنتم فالذي يوجد النار في الشجر قادر على أن يبعثكم أحياء من قبوركم ليحاسبكم على سلوككم ويجزيكم به.

(٧٣) وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ أي النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ لكم تذكركم بنار الآخرة فالذي أوجد هذه النار قادر على إيجاد نار أخرى لو كنتم تذكرون وجعلناها أيضًا متاعًا أي بلغة للمقوين[3] المسافرين يتبلغون بها في سفرهم حتى يعودوا إلى ديارهم. فالقادر على الخلق والإيجاد والتدبير لمصالح عباده قادر على إيجاد حياة أخرى يجزي فيها المحسنين اليوم والمسيئين إذ الحكمة تقتضي هذا وتأمر به.

(٧٤) وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ[4] رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ بعد إقامة الحجة على منكري البعث بالأدلة العقلية أمر تعالى رسوله أن يسبح ربه أي ينزهه عن اللعب والعبث اللازم لخلق الحياة الدنيا على هذا النظام الدقيق ثم إفنائها ولا شيء وراء ذلك. إذ البعث والحياة الآخرة هي الغاية من هذه الحياة الدنيا فالناس يعملون ليحاسبوا ويجزوا فلا بد من حياة أكمل وأتم من هذه الحياة يتم فيها الجزاء وقد بيّنها تعالى وفصّلها في كتبه وعلى ألسنة رسله، وضرب لها الأمثال فلا ينكرها إلا سفيه هالك.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - إقامة الأدلة والبراهين العديدة على صحة البعث وإمكانه عقلاً.

٣ - بيان منن الله تعالى على عباده في طعامهم وشرابهم.

٤ - وجوب شكر الله تعالى على إفضاله وإنعامه.

٥ - في النار التي توقدها عبرة، وعظة للمتقين.

٦ - وجوب تسبيح[5] الله وتنزيهه عما لا يليق بجلاله وكماله من العبث والشريك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧٥ ـ ٨٢]

---

(١) أصل ﴿فظلتم﴾ فظللتم فحذفت إحدى اللامين تخفيفًا كما حذفت إحدى التاءين من ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ إذ الأصل تتفكهون.

(٢) هذا بناء على أنّ الغرام: هو العذاب كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أو هو من الغرامة التي هي ذهاب مال المرء وأخذه منه بغير عوض.

(٣) المقوى: الداخل في القواء وهو القفر، فالمقوون: الداخلون في القواء الذي هو القفز والقفار وهذه حال المسافر، والمقوى أيضًا: الجائع القفر البطن الخاوي من الطعام، فالنار يتمتع بها المسافرون للاستضاءة والاستدفاء وطبخ الطعام.

(٤) الباء في باسم: زائدة لتوكيد اللصوق أي: اتصال الفعل بمفعوله وذلك لوقوع الأمر بالتسبيح عقب ذكر عدة أمور تقتضيه حسبما دلت عليه فاء الترتيب والتعقيب، واسم الرب هو الله الدال على ذاته سبحانه وتعالى، والتسبيح: التنزيه عما لا يليق ولفظه ﴿سُبْحَٰنَ اللَّهِ﴾ أي: ننزه الله عما أضافه إليه المشركون من الأنداد والعجز عن البعث.

(٥) في الصحيح: لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال الرسول ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**» فكان المصلي إذا ركع قال: سبحان ربي العظيم ثلاثًا أو أكثر امتثالاً لأمر الله ورسوله ﷺ.

إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

ترتيبها ٥٧ — سورة الحديد — آياتها ٩٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

٥٣٧

﴿٧٥﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾: أي فأقسم ولا صلة لتقوية الكلام وتأكيد القسم. ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: أي بمساقطها لغروبها وبمنازلها أيضًا ومطالعها كذلك.

﴿٧٦﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾: أي القسم بها. ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: أي لو كنتم من أهل العلم لعلمتم عظم هذا القسم.

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾: أي المتلو عليكم لقرآن كريم وهو الذي كذب به المشركون.

﴿٧٨﴾ ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾: أي مصون وهو المصحف.

﴿٧٩﴾ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾: أي من الملائكة والأنبياء وكل طاهر غير محدث حدثًا أكبر وأصغر.

﴿٨٠﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي منزل من رب العالمين وهو الله جلّ جلاله.

﴿٨١﴾ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: أي القرآن. ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾: أي تلينون القول للمكذبين به ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر.

﴿٨٢﴾ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾: أي شكر الله على رزقكم. ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: أي تكذيبكم بسقيا الله وتقولون مطرنا بنوء كذا وكذا.

معنى الآيات:

﴿٧٥﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[1] أي أقسم بمواقع النجوم وهي مطالعها ومغاربها وإنه أي قسمي هذا لقسم لو تعلمون أي لو كنتم من أهل العلم عظيم. لأن النجوم ومنازلها ومطالعها ومساقطها ومغاربها التي تغرب فيها أمور عظيمة في خلقها وتدبير الله فيها.

﴿٧٦﴾-﴿٧٧﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ بشيء عظيم والمقسم عليه هو قوله إنه أي المكذب به ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[2]، لا كما قال المبطلون شعر وسحر وكذب واختلاق.

﴿٧٨﴾ ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي مصون.

﴿٧٩﴾ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ سواء ما كان في اللوح المحفوظ أو في مصاحفنا فلا ينبغي أن يمسه إلاّ المطهرون من الأحداث الصغرى[3] والكبرى.

﴿٨٠﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّن[4] رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي منزل منه سبحانه وتعالى ولذا وجب تقديسه وتعظيمه فلا يمسه إلاّ طاهر من الشرك والكفر وسائر الأحداث.

﴿٨١﴾ وقوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ تُلينون القول للمكذبين به ممالأة منكم لهم

(١) (لا) صلة في قول أكثر المفسرين أي: فأقسم بمواقع النجوم وقيل: هي نفي أي ليس الأمر كما تقولون ثم استأنف فقال: فأقسم كقول الرجل: لا والله ما كان كذا وكذا، ولا يريد به نفي اليمين بل يريد به نفي كلام سابق وقيل: لا بمعنى ألا أداة تنبيه وشاهده قول الشاعر:

ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي ... وهل ينعمن من كان في العصر الخالي

(٢) ﴿كريم﴾ لما فيه من كريم الأخلاق، ومعالي الأمور ولأنه يكرم حافظه ويعظم قارئه ويسعد وينجو العامل به.

(٣) قال القرطبي: اختلف في مس المصحف على غير وضوء، فالجمهور على المنع لحديث عمرو بن حزم، وهو مذهب علي وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي وأحمد.

(٤) ﴿تنزيل﴾ بمعنى: منزّل من إطلاق المصدر وإرادة المفعول كالرد بمعنى المردود.

أي القرآن ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ تُلينون القول للمكذبين به ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر.

(٨٢) ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾[١] أي وتجعلون شكر الله تعالى على رزقه لكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي تكذيبكم بسقيا الله لكم بالأمطار وتقولون مطرنا بنوء كذا ونوء كذا.

هداية الآيات:

١ - بيان أن الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته، وأن العبد لا يقسم إلا بربه تعالى.

٢ - تقرير الوحي الإلهي وإثبات النبوة المحمدية، وأن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى.

٣ - وجوب صيانة القرآن الكريم، وحرمة مسه على غير طهارة.

٤ - حرمة المداهنة في دين الله تعالى وهي أن يتنازل عن شيء من الدين ليحفظ شيئًا من دنياه والمداراة جائزة وهي أن يتنازل عن شيء من دنياه ليحفظ شيئًا من دينه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨٣ ـ ٩٦]

(٨٣) ﴿فَلَوْلَا﴾: أي فهلاّ وهي للحض على العمل والحث عليه.

﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾: أي مجرى الطعام وذلك وقت النزع.

(٨٤) ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾: أي وأنتم أيها الممرضون والعواد تنظرون إليه.

(٨٥) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾: أي ورسلنا ملك الموت وأعوانه أقرب إلى المحتضر منكم. ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾: أي الملائكة.

(٨٦) ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾: أي فهلا إن كنتم غير مدينين أي محاسبين بعد الموت.

(٨٧) ﴿تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: أي ترجعون الروح إلى الجسم بعد وشوك مفارقتها له إن كنتم صادقين في أنكم لا تبعثون ولا تُحاسَبون.

(٨٨) ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ﴾: أي الميت. ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾: أي من السابقين وهو الصنف الأول من الأصناف الثلاثة التي تقدمت في أول السورة.

(٨٩) ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾: أي استراحة وريحان أي رزق حسن وجنة نعيم.

(٩٠) ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾: أي من الصنف الثاني فسلام لك يا صاحب اليمين من أصحاب اليمين. أي من إخوانك يسلمون عليك فإنهم في جنات النعيم.

(٩٣) ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾: أي فله نزل من ماء حار شديد الحرارة.

(٩٤) ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾: أي احتراق بها.

(٩٥) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾: أي إن هذا الذي قصصناه عليك في هذه السورة لهو حق اليقين.

(٩٦) ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾: أي نزه وقدس اسم ربك العظيم.

معنى الآيات:

بعد تقرير النبوة المحمدية وأن القرآن كلام الله وتنزيله عاد السياق الكريم إلى تقرير البعث والجزاء.

(٨٣) فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا﴾[٢] ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي الروح[٣] ﴿الْحُلْقُومَ﴾ وهو مجرى الطعام.

(٨٤) ﴿وَأَنتُمْ﴾[٤] في ذلك الوقت ﴿تَنظُرُونَ﴾ مريضكم وهو يعاني من سكرات الموت.

(٨٥) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي رسلنا أقرب إليه منكم ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ إذ لا قدرة لكم على رؤية الملائكة ما لم يتشكلوا في صورة إنسان.

(٨٦) وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي حاسبين بعد الموت ومجزيين بأعمالكم.

(٨٧) ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ الروح بعدما بلغت الحلقوم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنكم غير مدينين لله بأعمالكم، أي فلا يحاسبكم عليها ولا يجزيكم بها.

---

(١) صلح وضع لفظ الرزق موضع الشكر لأن شكر الرزق يسبب الزيادة في الرزق فأطلق السبب وأريد المسبب.

(٢) ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض مستعمل هنا في التعجيز، لأن المحضوض إذا لم يفعل ما حُض عليه كان عاجزًا. و﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ ظرف متعلق بـ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ مقدم عليه لتهويله والتشويق إلى الفعل المحضوض عليه.

(٣) لم يجرِ للروح ذكر إلا أن المقام دال عليها كما قال حاتم:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

(٤) ﴿وَأَنتُمْ﴾ الجملة حالية وكذا جملة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ حالية أيضًا.

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

(٨٨) وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ[1] إِن كَانَ﴾ أي المحتضر ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم السابقون.

(٨٩) ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾[2] أي فإن له الاستراحة التامة من عناء تعب الدنيا وتكاليفها وريحان وهو الرزق الحسن وجنة نعيم.

(٩٠) ـ (٩١) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ الذين يؤخذ بهم في عرصات القيامة ذات اليمين ﴿فَسَلَٰمٌ﴾ لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين الذين سبقوك إلى دار السلام.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المحتضر ﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لله ورسوله المنكرين للبعث الآخر الضالين عن الهدى ودين الحق.

(٩٣) ـ (٩٤) ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي ضيافة على الماء الحار هذه ضيافته ﴿وَتَصْلِيَةُ[3] جَحِيمٍ﴾ أي واحتراق بالجحيم.

(٩٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا[4] لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[5] أي هذا الذي حدثناك به عن المحتضرين الثلاثة وما لهم وما نالهم لحق اليقين.

(٩٦) وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ يأمر تعالى رسوله بالتسبيح باسم ربه العظيم صحّ أنه لما نزلت هذه الآية قال ﷺ لأصحابه: «**اجعلوها في ركوعكم**» والتسبيح التقديس والتنزيه لله تعالى عما لا يليق بجلاله وكماله.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ ـ بيان عجز كل الناس أمام قدرة الله تعالى.

٣ ـ إن في عجز الإنسان على رد روح المحتضر ليعيش بعد ذلك ولو ساعة دليلاً على أنه لا إله إلا الله.

٤ ـ بيان فضل السابقين عن أصحاب اليمين.

٥ ـ القرآن الكريم أحكامه كلها عدل وأخباره كلها صدق.

٦ ـ مشروعية قول العبد سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وهما من الكلم الطيب وكذا سبحان ربي العظيم حال الركوع.

❊ ❊ ❊

سورة الحديد
مدنية
وآياتها تسع وعشرون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٦]

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[6]: أي نزه الله تعالى جميع ما في السموات والأرض بلسان

---

(١) الفاء للتفريع إذ ما بعدها من بيان حال من مات من سعادة أو شقاء متفرع عن الموت وانتهاء الحياة.

(٢) الرَوح: الراحة أي: هو في راحة ونعيم، وعلى قراءة رُوح بضم الراء فالمعنى: أن روح المؤمن معها الريحان وهو الطيب والريحان: شجر لورقه وقضبانه رائحة ذكية طيبة.

(٣) التصلية: مصدر صلاّهُ المشدد: إذا أحرقه وشواه يقال: صلى اللحم تصلية: إذا شواه والجحيم: النار المؤججة، وهو علم على جهنم دار العذاب.

(٤) هذه الجملة تذييل لجميع ما تقدم في هذه السورة من وعد ووعيد واستدلال على تقرير النبوة والبعث والتوحيد ويدخل فيه دخولاً أوليًا الأقرب ذكرًا وهو ما ذكر في التفسير.

(٥) اشتملت جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ على أربع مؤكدات وهي: إن، ولام الابتداء، وضمير الفصل، وإضافة شبه المترادفين وهما: الحق واليقين، وخامس وهو الجملة الاسمية لإفادتها الدوام والثبوت.

(٦) (الله): الإله المنفرد بالإلهية ومعنى سبح: نزه وورد لفظ التسبيح بالمصدر في ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ وبالماضي في الحشر والحديد والصف، والمضارع في الجمعة والتغابن، والأمر في الأعلى فسبح تعالى بكل ألفاظ التسبيح.

الحال والقال[1]. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: أي في ملكه، الحكيم في صنعه وتدبيره.

(٢) ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: أي يملك جميع ما في السموات والأرض يتصرف كيف يشاء. ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾: يحيي بعد العدم ويميت بعد الإيجاد والإحياء. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾: وهو على فعل كل ما يشاء قدير لا يعجزه شيء.

(٣) ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾: أي ليس قبله شيء وهو الآخر الذي ليس بعده شيء[2]. ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾: أي الظاهر الذي ليس فوقه شيء والباطن الذي ليس دونه شيء. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾: أي لا يغيب عن علمه شيء ولو كان مثقال ذرة في السموات والأرض.

(٤) ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾: أي من أيام الدنيا مقدرة بها أولها الأحد وآخرها الجمعة. ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾[3]: أي ارتفع عليه وعلا. ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي ما يدخل في الأرض من كل ما يدخل فيها من مطر وأموات. ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾: أي من نبات ومعادن. ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي من رحمة وعذاب. ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾: أي يصعد فيها من الأعمال الصالحة والسيئة. ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾: أي بعلمه بكم وقدرته عليكم أينما كنتم. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾: أي لا يخفى عليه من أعمال عباده الظاهرة والباطنة شيء.

(٥) ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾[4]: أي مرد كل شيء إلى الله خالقه ومدبره يحكم فيه بما يشاء.

(٦) ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾: أي يدخل جزءًا من الليل في النهار وذلك في الصيف. ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾: ويدخل جزءًا من النهار في الليل وذلك في الشتاء كما يدخل كامل أحدهما في الآخر فلا يبقى إلا ليل أو نهار إذْ أحدهما دخل في ثانيهما. ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي ما في الصدور من المعتقدات والأسرار والنيات.

معنى الآيات:

يخبر تعالى في هذه الآيات الخمس عن وجوده وعظمته من قدرة وعلم وحكمة ورحمة وتدبيره وملكه ومرد الأمور إليه وكلها مظاهر الربوبية الموجبة للألوهية فأولاً تسبيح كل شيء في السموات والأرض أي تنزيهه عن كل نقص كالزوجة والولد والشريك والوزير المعين والعجز والجهل، ثانيًا: إنه تعالى العزيز ذو العزة التي لا ترام، العظيم الانتقام، الحكيم في تدبير ملكه فلا شيء في خلقه هو عبثٌ أو لهوٌ أو باطل. ثالثًا: له ملك السموات والأرض ملكًا حقيقيًا يتصرف كيف يشاء يهب من شاء ويمنع من شاء. رابعًا: يحيي من العدم ويميت الحيّ الموجود، خامسًا: هو على كل شيء قدير لا يعجزه شيء ولا يعجز عن شيء متى أراد الشيء وقال له كن فهو يكون ولا يتخلف. سادسًا: هو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء إذ له ميراث السموات والأرض. سابعًا: علمه محيط بكل شيء. ثامنًا: خلقه السموات والأرض في ستة أيام الدنيا ابتداء من الأحد وانتهاء بالجمعة وما

---

(١) ردّ أهل العلم القول بأن تسبيح غير العالمين هو تسبيح دلالة لا تسبيح قالة، إذ لو كان تسبيح دلالة وظهور لما قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ إذ تسبيح الدلالة مفهوم معلوم.

(٢) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر**».

(٣) قال القرطبي: قد جمع تعالى بين الاستواء على العرش وبين ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ والأخذ بالظاهر تناقض فدل على أنه لا بد من التأويل والإعراض عن التأويل اعتراف بالتناقض. وأقول: إن كان يعني بالتأويل قول السلف: معنا بعلمه وقدرته فهذا صحيح ومع هذا فإنه لا تناقض أبدًا إذ هو تعالى على عرشه بائن من خلقه، والخلق كله بين يديه كحبة خردل يتصرف فيه كما يشاء لا يغيب عن علمه ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا يعجزه شيء فيهما ولذا قال بعضهم: إن محمدًا ﷺ ليلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله عز وجل من يونس بن متى حين كان في بطن الحوت.

(٤) قرأ الجمهور ونافع وحفص وغيرهما: ﴿تُرجع﴾ بالبناء للمفعول وقرأ بعض ﴿ترجع﴾ بالبناء للفاعل، رجوع الأمر معناه: مرد كل شيء إلى الله تعالى إذ هو خالقه ومدبره والحاكم فيه إذ هو رب العالمين وإله الأولين والآخرين.

مسه من لغوب ولا تعب ولا نصب ثم استوى على العرش يدبر ملكوت خلقه بالحكمة ومظاهر العدل والرحمة. تاسعًا: مع علوه وبعده من خلقه فالخلق كله بين يديه يعلم ما يلج في الأرض أي يدخل فيها من أمطار وأموات وما ينزل من السماء من مطر ورحمة وعذاب وملك وغيره، وما يعرج أي يصعد فيها من ملك ومن عمل صالح ودعاء وخاصة دعوة المظلوم فإنها لا تحجب عن الله أبدًا. وعاشرًا: معية الله تعالى الخاصة والعامة فالخاصة مَعِيَّتُه بنصره لأوليائه، والعامة عِلْمُهُ بكل عباده وسائر خلقه، وقدرته عليهم وعلمه بهم. الحادي عشر: بصره تعالى بكل أعمال عباده فلا يخفى عليه شيء منها ليحاسبهم بها ويجزيهم عليها. الثاني عشر: له ملك السموات والأرض أي كل ما في السموات وما في الأرض من سائر الخلق هو ملك للّه تعالى وحده لا شريك له فيه ولا في غيره. الثالث عشر: رد كل الأمور إليه فلا يقضي فيها غيره ولا يحكم فيها سواه والظاهر منها كالباطن. الرابع عشر: إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل لمصلحة عباده وفائدتهم إذ لولا هذا التدبير الحكيم لما صلح أمر الحياة ولا استقام هذا الوجود.

وأخيرًا علمه[1] الذي أحاط بكل شيء وتغلغل في كل خفي حتى ذات الصدور من خاطر ووسواس وهمّ وعزم ونية وإرادة فسبحانه من إله لا إله غيره ولا ربّ سواه، بهذه المظاهر من الكمالات استحق العبادات فلا تصح العبادة لغيره، ولا تنبغي الطاعة لسواه.

هداية الآيات:

١ - فضل التسبيح وأفضله سبحان الله وبحمده[2] سبحان الله العظيم.

٢ - مظاهر القدرة والعلم والحكمة في هذه الآيات الخمس هي موجبات ربوبية الله تعالى وألوهيته وهي مقتضية للبعث الآخر والجزاء فيه.

٣ - في خلقه تعالى السموات والأرض في ستة أيام وهو القادر على خلقهما بكلمة التكوين تعليم لعباده التأني في الأمور وعدم العجلة فيها لتخرج متقنة صالحة نافعة.

٤ - بطلان دعاء غير الله تعالى ورجاء غيره إذ له ملك السموات والأرض وليس لغيره شيء من ذلك.

٥ - وجوب مراقبة الله تعالى والحياء منه وتقواه وذلك لعلمه بظواهرنا وبواطننا وقدرته على مجازاتنا عاجلاً وآجلاً.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ - ١١]

(٧) ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: أي صدقوا بالله ورسوله يا من لم تؤمنوا بعد واثبتوا على إيمانكم يا من آمنتم قبل. ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾: أي وتصدقوا في سبيل الله. ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾: أي من المال الذي استخلفكم الله فيه إذ هو مال من قبلكم وسيكون لمن بعدكم. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟﴾: أي صدقوا بالله ورسوله وتصدقوا بأموالهم المستخلفين فيها. ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: أي ثواب عظيم عند الله وهو الجنة.

(٨) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾: أي أي شيء يمنعكم من الإيمان. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾: أي والحال أن الرسول بنفسه يدعوكم لتؤمنوا بربكم. ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾: أي على الإيمان به وأنتم في عالم الذر حيث أشهدكم فشهدتم. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي مريدين الإيمان فلا ترددوا وآمنوا وأسلموا تنجوا وتسعدوا.

(٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: أي هو الله ربكم الذي يدعوكم رسوله لتؤمنوا به ينزل على عبده محمد ﷺ. ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾: هي آيات القرآن الكريم الواضحات المعاني البينات الدلالة. ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: أي ليخرجكم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: ويدلكم على ذلك إرسال رسوله إليكم وإنزال كتابه ليخرجكم من الظلمات إلى النور.

---

(١) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن اسم الله الأعظم هو في ست آيات: من أول سورة الحديد كأنه يعني مجموع هذه الأسماء والصفات الخمسة عشر.

(٢) في الصحيح: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

(١٠) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي أي شيء لكم في عدم الإنفاق في سبيل الله. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي ومن ذلك المال الذي بين أيديكم فهو عائد إلى الله فأنفقوه في سبيله يؤجركم عليه. وإلا فسيعود إليه بدون أجر لكم. ﴿مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾: أي لا يستوي مع من أنفق وقاتل بعد صلح الحديبية حيث عز الإسلام وكثر مال المسلمين. ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾: أي الجنة، والجنة درجات.

(١١) ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾: أي بإنفاقه ماله في سبيل الله الذي هو الجهاد. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: أي قرضًا لا يريد به غير وجه الله تعالى. ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾: أي الدرهم بسبعمائة درهم. ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾: أي يوم القيامة وهو الجنة دار النعيم المقيم.

معنى الآيات:

بعد ذكر الأدلة والبراهين على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته ووجوب عبادته وتوحيده فيها وتقرير البعث والجزاء يوم لقائه رحمة منه ورأفة بعباده أمرهم جميعًا مؤمنيهم وكافريهم بالإيمان به وبرسوله محمد ﷺ فالمؤمنون مأمورون بزيادة الإيمان والثبات عليه والكافرون مأمورون بالإيمان والمبادرة إليه. وبما أن الآيات نزلت بالمدينة بعد الهجرة وبعد صلح الحديبية فإن هذه الأوامر والتوجيهات الإلهية تشمل المؤمنين الصادقين والمافقين الكاذبين في إيمانهم تشمل الراغبين في الإيمان في مكة وغيرها وهم يترددون في ذلك فوجّه الخطاب إلى الجميع لهدايتهم ودخولهم في رحمة الله الإسلام بسرعة ودون تباطؤ

(٧) فقال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي صدقوا بوحدانية الله ورسالة رسول الله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين[1] فيه من الأموال، ووجه الاستخلاف أن العبد يرث المال عمن سبقه ويموت ويتركه لمن بعده فلا يدفن معه في قبره. وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي ثواب عظيم عند الله وهو الجنة والرضوان فيها. وهذا الإخبار يفيد تنشيط الهمم الفاترة والعزائم المترددة.

(٨) وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا[2] تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ[3] يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4] أي أي شيء يجعلكم لا تؤمنون وفرص الإيمان كلها متاحة لكم فإيمانكم الفطري صارخ في نفوسكم إذ كل من سألكم: من خلقكم؟ من خلق العالم حولكم؟ سماء وأرضًا تقولون الله. وأنتم في حَرَمِهِ وحِمى بيته والرسول الكريم بين أيديكم يدعوكم صباح مساء إلى الإيمان بربكم وقد أخذ الله ميثاقكم عليكم بأن تؤمنوا به وذلك يوم أخرجكم في صورة الذر من صلب آدم أبيكم وأشهدكم على أنفسكم فشهدتم. إذًا ما هذا التردد إن كنتم تريدون الإيمان فآمنوا قبل فوات الأوان.

(٩) وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي إنكم تدعون إلى الإيمان بالله الذي ينزل على عبده ورسوله محمد ﷺ آيات واضحات المعاني بينات الدلائل كل ذلك ليخرجكم من الظلمات إلى النور من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، فما لكم لا تؤمنون إذًا ما هذا التردد والتلكؤ يا عباد الله في الإيمان بالله وبرسول الله، وإن الله بكم لرؤوف رحيم فاعرفوا هذا وآمنوا به ويدلكم على ذلك إنزاله الكتاب وإرساله الرسول وتوضيح الأدلة وإقامة الحجج والبراهين.

(١) قوله: ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ دال على أن أصل الملك لله تعالى وما العبد إلا مستخلف فيه فتعين أن يتصرف فيه بإذن المالك الحق فلا ينفق إلا حيث يأذن ويرضى سبحانه وتعالى.

(٢) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ أي: أيّ عذر لكم في ألا تؤمنوا وكل دواعي الإيمان وأسبابه متوفرة لكم.

(٣) جملة: ﴿وَالرَّسُولُ﴾ حالية.

(٤) ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مريدي الإيمان فهذه دواعيه قد كملت وأسبابه قد حضرت أخذ عليكم الميثاق فيه والرسول ﷺ يدعوكم إليه، فبادروا ولا تباطؤوا.

الجزء السابع والعشرون — سورة الحديد

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

٥٣٩

﴿١٠﴾ وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا[1] فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ التي هي سبيل إسعادكم وإكمالكم بعد نجاتكم من العذاب في الحياتين مع العلم أن لله ميراث السموات والأرض إذ ما بأيديكم هو لله واهبه لكم ومسترده منكم فلمَ لا تنفقون منه.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ[2] وَقَاتَلَ﴾[3] أي صلح الحديبية لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ والمراد به صلح الحديبية. أي لا يستوون في[4] الأجر والمثوبة مع من قاتل وأنفق بعد الفتح. قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا﴾ من الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي الجنة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه إنفاقكم وقتالكم وعدمهما كما لا يخفى عليه نياتكم وما تخفون في نفوسكم فاحذروه وراقبوه خيرًا لكم.

﴿١١﴾ وقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي مخلصًا فيه لله طيبة به نفسه ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ ربه في الدرهم سبعمائة درهم، ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ألا وهو الجنة دار السلام.

هداية الآيات:

١ - وجوب الإيمان بالله ورسوله وتقويته.

٢ - وجوب الإنفاق في سبيل الله من زكاة ونفقة جهاد وصدقة على الفقراء والمساكين.

٣ - بيان لطف الله ورأفته ورحمته بعباده مما يستلزم محبته وطاعته وشكره.

٤ - الإنفاق في المجاعات والشدائد والحروب أفضل منه في اليسر والعافية.

٥ - الترغيب في الإنفاق في سبيل الله بمضاعفة الأجر حتى يكون الدينار بألف دينار عند الله تعالى وما عند الله خير وأبقى، وللآخرة خير من الأولى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ - ١٥]

﴿١٢﴾ ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾[5]: أي يتقدمهم نورهم الذي اكتسبوه بالإيمان والعمل الصالح بمسافات بعيدة يضيء لهم الصراط الذي يجتازونه إلى الجنة.

﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أي تقول لهم الملائكة الذين أعدوا لاستقبالهم بشراكم...

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: أي النجاة من النار ودخول الجنة هو الفوز

---

(١) الاستفهام للتوبيخ واللوم والعتاب وهذا مخاطب به المؤمنون.

(٢) جائز أن يكون المراد بالفتح: فتح مكة، وكونه صلح الحديبية أولى وأرجح.

(٣) في الكلام حذف دل عليه المذكور وهو: ﴿مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ وقد ذكرته في التفسير بدون الإشارة إلى الحذف.

(٤) روي أشهب عن مالك أنه قال: ينبغي أن يقدم أهل الفضل والعزم وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ ولهذا قدّم أبو بكر على سائر الصحابة لأنه أوّل من آمن وأوّل من أنفق وأوّل من قاتل، قدمه رسول الله ﷺ في الصلاة، وقدمه المؤمنون في الخلافة، وقال فيه علي رضي الله عنه: سبق النبي ﷺ وثنّى أبو بكر وثلث عمر فلا أوتى برجل فضلني على أبي بكر إلا جلدته حد المفتري ثمانين جلدة وطرح الشهادة. ومما يشهد لقول مالك قوله ﷺ: **«ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»** وفي بعض الروايات: **«ويعرف لعالمنا حقه»**.

(٥) ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ عندما يسعون هم إذ هو منهم يتقدمهم فلا ينفصل عنهم بحيث إذا وقفوا وقف وإذا مشوا تقدمهم بين أيديهم.

العظيم الذي لا أعظم منه.

(١٣) ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾: أي الذين كانوا يخفون الكفر في نفوسهم ويظهرون الإيمان والإسلام بألسنتهم. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾: أي انظروا إلينا بوجوهكم نأخذ من نوركم ما يضيء لنا الطريق. ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾: أي يقال لهم استهزاءً بهم ارجعوا وراءكم إلى الدنيا حيث يطلب النور هناك بالإيمان وصالح الأعمال بعد التخلي عن الشرك والمعاصي فيرجعون وراءهم فلم يجدوا شيئًا. ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾: أي فضرب بينهم وبين المؤمنين بسور عال له باب باطنه الذي هو من جهة المؤمنين الرحمة. ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾: أي الذي من جهة المنافقين في عرصات القيامة العذاب.

(١٤) ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾: أي ينادي المنافقون المؤمنين قائلين ألم نكن معكم في الدنيا على الطاعات أي فنصلي كما تصلون ونجاهد كما تجاهدون وننفق كما تنفقون. ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾: أي كنتم معنا على الطاعات.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي بالنفاق وهو كفر الباطن وبغض الإسلام والمسلمين. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾: أي الدوائر بالمسلمين أي كنتم تنتظرون متى يهزم المؤمنون فتعلنون عن كفركم وتعودون إلى شرككم. ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: أي وغركم بالإيمان بالله ورسوله حيث زين لكم الكفر وكره إليكم الإيمان الشيطان.

(١٥) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾: أي مال تفدون به أنفسكم إذ لا مال يومئذ ينفع ولا ولد. ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي ولا فدية تقبل من الذين كفروا. ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: أي مستقركم ومكان إيوائكم النار وهي أولى بكم لخبث نفوسكم. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي مصيركم الذي صرتم إليه وهو النار.

معنى الآيات:

(١٢) قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى[١] ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هذا الظرف متعلق بقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ في آخر الآية السابقة أي لهم أجر كريم يوم ترى المؤمنين والمؤمنات[٢] في عرصات القيامة نورهم الذي اكتسبوه بإيمانهم وصالح أعمالهم في دار الدنيا ذلك النور يمشي أمامهم يهديهم إلى طريق الجنة، وقد أعطوا كتبهم بأيمانهم. وتقول لهم الملائكة الذين أعدوا لتلقيهم واستقبالهم ﴿بُشْرَىٰكُمُ[٣] ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي تجري الأنهار أنهار الماء واللبن والخمر والعسل من خلال الأشجار والقصور ﴿خَٰلِدِينَ[٤] فِيهَا﴾ ماكثين أبدًا لا يموتون ولا يخرجون. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إذ هو نجاة من النار ودخول الجنان في جوار الرحمٰن.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ[٥] يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدل من قوله يوم ترى المؤمنين والمؤمنات، والمنافقون والمنافقات وهم الذين كانوا في الحياة الدنيا يخفون الكفر في أنفسهم ويظهرون الإيمان بألسنتهم والإسلام بجوارحهم يقولون للذين آمنوا انظرونا أي أقبلوا علينا بوجوهكم ذات الأنوار نقتبس[٦] من نوركم أي نأخذ من نوركم ما يضيء لنا الطريق مثلكم قيل فيقال لهم استهزاء بهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ إشارة إلى أن هذا النور يطلب

---

(١) الخطاب في قوله: ﴿تَرَى﴾ لغير معين إذ هو صالح لكل ذي أهلية للخطاب والرؤية.

(٢) وجه عطف المؤمنات على المؤمنين هنا وفي نظائره من القرآن إشارة بل التنبيه إلى أنّ حظوظ النساء في الإسلام مساوية لحظوظ الرجال إلا فيما خصصن فيه من أحكام قليلة مبينة في الكتاب والسنة.

(٣) التقدير: فقال لهم بُشراكم.

(٤) ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال مقدرة أي: حالة كونهم مقدرين الخلود فيها إذ لم يدخلوها بعد.

(٥) هذا بدل من اليوم الأول.

(٦) قال الكلبي: يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون نورًا خاصًا بهم فبينما هم يمشون إذ بعث الله فيهم ريحًا وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين فذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ يقوله المؤمنون خشية أن يسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ هذا أحسن توجيه للآية الكريمة.

في الدنيا بالإيمان وصالح الأعمال فيرجعون إلى الوراء وفورًا يضرب بينهم وبين المؤمنين بسور عال ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ﴾ وهو يلي المؤمنين فيه الرحمة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ وهو يلي المنافقين ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

(١٤) فيأخذون في ندائهم ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ على الطاعات أيها المؤمنون فقد كنا نصلي معكم ونجاهد معكم وننفق كما تنفقون فيقول لهم المؤمنون بلى أي كنتم معنا في الدنيا على الطاعات في الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالنفاق وتربصتم بنا الدوائر لتعلنوا عن كفركم وتعودوا إلى شركم، وارْتَبتُم أي شككتم في صحة الإسلام وفي عقائده ومن ذلك البعث الآخر وغرتكم الأماني الكاذبة والأطماع في أن محمدًا لن ينتصر وأن دينه لن يظهر، حتَّى جاء أمر الله بنصر رسوله وإظهار دينه وغركم بالله الغرور أي بالإيمان بالله أي بعد معاجلته لكم بالعذاب والستر عليكم وعدم كشف الستار عنكم وإظهاركم على ما أنتم عليه من الكفر الغرور أي الشيطان إذ هو الذي زيّن لكم الكفر وذكّركم بعفو الله وعدم مؤاخذته لكم.

(١٥) قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أي فداء مهما كان ولا من الذين كفروا كذلك مأواكم النار أي محل إيوائكم وإقامتكم الدائمة النار هي مولاكم[١] أي من يتولاكم ويضمكم في أحضانه وهي أولى بكم لخبث نفوسكم وعفن أرواحكم من جراء النفاق والكفر، وبئس المصير الذي صرتم إليه إنه النار.

هداية الآيات:

١ - تقرير البعث بذكر أحداثه وما يجري فيه.

٢ - تقرير أن الفوز ليس ربح الشاة والبعير ولا الدار ولا البستان في الدنيا وإنما هو الزحزحة عن النار ودخول الجنان يوم القيامة هذا هو الفوز العظيم.

٣ - من بشائر السعادة لأهل الإيمان قبل دخول الجنة تلقّي الملائكة لهم وإعطاؤهم كتبهم بأيمانهم ووجود نور عال يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يتقدمهم على الصراط إلى الجنة.

٤ - نور يوم القيامة في وجوه المؤمنين أخذوه من الدنيا وفي الحديث: «**بشّر المشّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة**»[٢].

٥ - بيان صفات المنافقين في الدنيا وهي إبطال الكفر في نفوسهم والتربص بالمؤمنين للانقضاض عليهم متى ضعفوا أو هزموا وأمانيهم في عدم نصرة الإسلام. وشكهم الملازم لهم حتى إنهم لم يخرجوا منه إلى أن ماتوا شاكين في صحة الإسلام وما جاء به وأخبر عنه من وعد ووعيد.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ ـ ١٩]

(١٦) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾: أي ألم يحن الوقت للذين أكثروا من المزاح. ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: أي تلين وتسكن وتخضع وتطمئن لذكر الله ووعده ووعيده.

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: أي القرآن وما يحويه من وعد ووعيد. ﴿وَلَا يَكُونُوا كَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾: أي ولا يكونوا كاليهود والنصارى في الإعراض والغفلة. ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾: أي الزمن بينهم وبين أنبيائهم. ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: أي لعدم وجود من يذكرهم ويرشدهم فقست لذلك قلوبهم فلم تلن لذكر الله.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾: أي نتيجة لقساوة القلوب المترتبة على ترك التذكير والإرشاد ففسق أكثرهم فخرج عن دين الله ورفض تعاليمه.

(١٧) ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: أي بالغيث ينزل بها وكذلك يحيي القلوب بالذكر والتذكير فتلين وتخشع لذكر الله ووعده ووعيده.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي بينا لكم الآيات الدالة على قدرتنا وعلمنا ولطفنا ورحمتنا رجاء أن تعقلوا فتحفظوا أنفسكم مما يرديها ويوبقها.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾: أي المتصدقين بفضول أموالهم والمتصدقات كذلك. ﴿وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ

---

(١) المولى: من يتولى غيره، وما دامت النار هي التي تولتهم لتذيقهم ألوان عذابها صح إطلاق المولى عليها مع أن النار تتكلم وتتغيظ فلذا كانت تتولى أهلها فتسقيهم مر العذاب.

(٢) الحديث رواه أبو داود والترمذي وغيرهما والظلَم: جمع ظلمة.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَۖ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ الۡجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعۡلَمُوٓا أَنَّمَا الۡحَيَوٰةُ الدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي الۡأَمۡوَٰلِ وَالۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ الۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي الۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ اللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا الۡحَيَوٰةُ الدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ السَّمَآءِ وَالۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ اللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَاللَّهُ ذُو الۡفَضۡلِ الۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي الۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ النَّاسَ بِالۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الۡغَنِيُّ الۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

قَرۡضًا حَسَنٗا﴾: أي وكانت صدقاتهم كالقرض الحسن الذي لا منة معه والنفس طيبة به وراجية من ربها جزاءه. ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾: أي القرض الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلى ألف ألف.

﴿١٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾: أي صدقوا بالله ربًا وإلهًا وبرسله هداة ودعاة صادقين. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَۖ﴾: أي الذين كتبوا عند الله صديقين وهي مرتبة شرف عالية. ﴿وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾: أي وشهداء المعارك في سبيل الله عند ربهم أي في الجنة لهم أجرهم العظيم ونورهم التام يوم القيامة. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: أي كفروا بالله وتوحيده وكذبوا بالقرآن وبما حواه من الشرائع والأحكام. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ الۡجَحِيمِ﴾: أي أولئك البعداء هم أهل النار الذين لا يفارقونها أبدًا.

معنى الآيات:

﴿١٦﴾ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾[1] أي بالله ربًا وإلهًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً وبوعد الله ووعيده صدقًا وحقًا ألم يحن[2] الوقت لهم أن تخشع قلوبهم فتلين وتطمئن إلى ذكر الله وتخشع كذلك ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الۡحَقِّ﴾ في الكتاب الكريم فيعرفون المعروف ويأمرون به ويعرفون المنكر وينهون عنه إنها لموعظة إلهية عظيمة وزادها عظمة أن تنزل في أصحاب رسول الله تستبطيء قلوبهم. فكيف بمن بعدهم.

وقوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل البعثة المحمدية وهم اليهود والنصارى فطال عليهم الأمد وهو الزمان الطويل بينهم وبين أنبيائهم فلم يذكروا ولم يرشدوا فقست قلوبهم من أجل ذلك وأصبح أكثرهم فاسقين عن[3] دين الله خارجين عن شرائعه لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا.

﴿١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿اعۡلَمُوٓا﴾ أي أيها المؤمنون المصابون ببعض الغفلة فكثر مزاحهم وضحكهم ﴿أَنَّ اللَّهَ يُحۡيِ الۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ يحييها بالغيث فتنبت وتزدهر فكذلك القلوب[4] تموت بترك التذكير والتوجيه والإرشاد وتحيا على التذكير والإرشاد.

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ الۡأٓيَٰتِ﴾ أي وضحناها لكم في هذا الكتاب الكريم لعلكم تعقلون أي

---

(١) روى مسلم عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى بهذه الآية: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ اللَّهِ..﴾ إلا أربع سنين قال الخليل: العتاب خطاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة.

(٢) هنا فعلان: أنى يأني مشتق من الإنى وهو اسم جامد بمعنى الوقت وآن يئين مشتق من الأين الذي هو الحين. قال الشاعر:

ألما يئن لي أن تجلي عمايتي ... وأقصر عن ليلى بلى قد أنى ليا

فجمع بين اللغتين أي: بين أنى يأني وبين آن يئين.

(٣) عن مالك قال: بلغني أن عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي يبعد من الله ولكنكم لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد فإنما الناس رجلان: معافىً ومبتلىً، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية.

(٤) وكذلك القلوب تقسو فتليينها بعد قساوتها يكون بذكر الله والدار الآخرة والتذكير بهما.

لنعذّكم بذلك لتعقلوا عنّا ما نُخاطبكم به وننصح لكم فيه فاذكروا هذا ولا تنسوه. وراجعوا قلوبكم وتعهدوها بذكر الله والدار الآخرة.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ أي المتصدقين بفضول أموالهم في سبيل الله ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أي والمتصدقات كذلك ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بما أنفقوه في الجهاد طيبة به نفوسهم لا منة فيه ولا رياء ولا سمعة هؤلاء ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ أي ثواب صدقاتهم وإقراضهم ربهم إلى عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف ولهم أجر كريم وهو الجنة.

(١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ فصدقوا بالله ربًا وإلهًا وبرسل الله المصطفين هداة إلى الله ودعاة إليه هؤلاء هم الصديقون[١] ففازوا بمرتبة الصديقية والشهداء الذين[٢] استشهدوا في معارك الجهاد هم الآن عند ربهم لهم أجرهم ونورهم أرواحهم في حواصل طير خضر ترعى في الجنة. هؤلاء الأصناف الثلاثة مثلهم مثل السابقين وأصحاب اليمين. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي بالله ورسله وكذبوا بآياتنا أي بآيات ربهم الحاوية لشرائعه وعبادته فلم يعبدوه بها هؤلاء الأدنون هم أصحاب الجحيم الذين يلازمونها وتلازمهم أبدًا نعوذ بالله من حالهم.

هداية الآيات:

١ - التحذير من الغفلة ونسيان ذكر الله وما عنده من نعيم وما لديه من نكال وعذاب.

٢ - وجوب التذكير للمؤمنين والوعظ والإرشاد والتعليم خشية أن تقسو قلوبهم فيفسقوا كما فسق أهل الكتاب ويكفروا كما كفروا.

٣ - تقرير حقيقة وهي أن الأرض تحيا بالغيث والقلوب تحيا بالعلم والمواعظ والتذكير بالله.

٤ - بيان أصناف المؤمنين ورتبهم وهم المتصدقون والمقرضون في سبيل الله أموالهم والمؤمنون بالله ورسله حق الإيمان والصديقون وشهداء الجهاد في سبيل الله جعلنا الله منهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠، ٢١]

(٢٠) ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: أي إن الحياة الدنيا أشبه بالأمور الخيالية قليلة النفع سريعة الزوال. ﴿وَزِينَةٌ﴾: أي ما يتزين به المرء من أنواع الزينة والزينة سريعة التغير والزوال. ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾: أي أنها لا تخرج عن كونها لهوًا ولعبًا وزينة وتفاخرًا وتكاثرًا في الأموال والأولاد. ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾: أي مثلها في سرعة زوالها وحرمان صاحبها من الدار الآخرة ونعيمها كمثل مطر أعجب الكفار أي الزراع أعجبهم نباته أي ما نبت به من الزرع. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾: أي ييبس فتراه مصفرًا آن أوان حصاده. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾: ثم يتحول بسرعة إلى حطم يابس يتفتت. ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾: أي وما الحياة الدنيا في التمتع بها إذ الحياة نفسها غرور لا حقيقة لها.

(٢١) ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي سارعوا بالتوبة مسابقين غيركم لتغفر لكم ذنوبكم وتدخلوا جنة ربكم. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾: أي الموعود به من المغفرة والجنة. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾: أي فلا يبعد تفضله بذلك الموعود به وإن كان عظيمًا.

معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في توجيه المؤمنين وإرشادهم إلى ما يزيد في كمالهم وسعادتهم في الحياتين فخاطبهم قائلًا: اعلموا أيها[٣] المؤمنون الذين استبطانا قلوبهم أي

---

(١) الصدّيق: هو من آمن بالله ورسله ولم يكذب طرفة عين، وممن ذكروا بالفوز بها، أبو بكر الصديق ومؤمن آل فرعون وصاحب يّس، وفي الحديث: **«ولا يزال المرء يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا»** فهذا مطلب سهل، اللهم حققه لنا.

(٢) اختلف في هل ﴿ٱلشُّهَدَآءُ﴾ موصول بما قبله أو مقطوع فإن كان موصولاً فالصدّيقون والشهداء: هم المؤمنون بالله ورسله، وللجميع أجرهم ونورهم ويكون المدح والثناء وعظم الجزاء للجميع وهي بشرى لأمة محمد ﷺ وإن كان مقطوعًا فقد فاز الشهداء بمزية لم تكن لغيرهم، وهذا ما ذهبت إليه في التفسير، وهو ما اختاره ابن جرير.

(٣) في هذه الآية الكريمة تنبيه عظيم إلى علة كل معوّق عن الكمال والإسعاد من أمراض الشح والحرص والغفلة وإيثار الملاذ والجري وراءها ألا وإنها حب الدنيا العاجلة، وفي الأثر: حب العاجلة رأس كل خطيئة.

خشوعها إذ الإقبال على الدنيا هو سبب الغفلة عن الآخرة ومتطلباتها من الذكر والعمل الصالح

(٢٠) ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ[1] وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ هذه حقيقتها وهي أمور خيالية قليلة النفع سريعة الزوال. فلا تغتروا بها ولا تقبلوا بكلكم عليها أنصح لكم بذلك. فاللهو كاللعب لا يُخلِفان منفعة تعود على اللاهي اللاعب، والزينة سرعان ما تتحول وتتغير وتزول والتفاخر بين المتفاخرين مجرد كلام ما وراءه طائل أبدًا والتكاثر لا ينتهي إلى حد ولا يجمع إلا بالشقاء والنصب والتعب ثم يذهب أو يُذهب عنه فلا بقاء له ولا دوام وله تبعات لا ينجو منها صاحبها إلا برحمة من الله وإليكم مثل الحياة الدنيا إنها ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾[2] أي مطر ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي الفلاحين الذين كفروا بذرة بالتربة ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ الذي نبت به أي المطر ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ﴾ بعد أيام ﴿مُصْفَرًّا﴾[3] ثم يهيج أي ييبس ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ يتفتت، هذه هي الدنيا من بدايتها إلى نهاياتها المؤلمة، أما الآخرة ففيها عذاب شديد لأهل الشرك والمعاصي لا بد لهم منه، لا يفارقونه، ومغفرة من الله ورضوان لأهل التوحيد وصالح الأعمال. وما الحياة الدنيا وقد عرضنا عليكم مثالها فما هي إلا متاع الغرور أي إنها لا حقيقة لها وكل ما فيها من المتع التي يتمتع بها إلا غرور باطل.

(٢١) وعليه فأنصح لكم[4] ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي سارعوا بالتوبة مسابقين بعضكم بعضًا لتغفر ذنوبكم وتدخلوا جنة ربكم التي ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي هيئت وأحضرت فهي مُعدة مهيأة. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أي المغفرة ودخول الجنة ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ومن سارع إلى التوبة فآمن وعمل صالحًا وتخلى عن الشرك والآثام فهو ممن شاء له فضله ولذلك وفقه للإيمان وصالح الأعمال. والله ذو الفضل العظيم فلا يستبعد منه ذلك المطلوب المرغوب من النجاة من النار ودخول الجنة دار الأبرار.

هداية الآيتين:

١ - التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا.

٢ - الدعوة إلى المسابقة في طلب مغفرة الذنب ودخول الجنة.

٣ - بيان الجنة وبيان ما يُكسبها وهو الإيمان بالله ورسله ومستلزماته من التوحيد والعمل الصالح.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٢ ـ ٢٥]

(٢٢) ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي بالجدب وذهاب المال. ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾: أي بالمرض وفقد الولد. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾: أي في اللوح المحفوظ قبل أن نخلقها. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾: أي سهل ليس بالصعب.

(٢٣) ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾: أي لكيلا تحزنوا على ما فاتكم أي مما تحبون من الخير. ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾: أي بما أعطاكم فرح البطر أما فرح الشكر فهو مشروع. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾: أي مختال بتكبره بما أعطى، فخور أي به على الناس.

(٢٤) ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾: أي بما وجب عليهم أن يبذلوه. ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾: أي بمنع ما وجب عليهم عطاؤه. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾: أي عن الإيمان والطاعة وقبول مواعظ ربهم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾:

---

(١) اللهو واللعب: كل ما شغل عن ذكر الله تعالى، والإكثار منهما دليل على خسة العقل وضعفه، وصورتهما تُرى من لعب الأطفال وتلهيهم بما يلعبون به من أنواع اللعب، والزينة: ما يُتزيّن به من لباس وأثاث ونحوهما والتفاخر والتكاثر تحمل عليهما النفس الضعيفة ويولدهما الغرور وهما من صفات المفتونين بحب الحياة الدنيا.

(٢) جائز أن يكون ﴿كَمَثَلِ﴾ في موضع خبر، والمبتدأ محذوف تقديره: هي، أي: الحياة الدنيا ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾.

(٣) الإصفرار بعد الهيجان واليبوسة بعد الاصفرار أما الهيجان فهو عبارة عن سرعة بلوغ النبات مستواه كبلوغ الإنسان أشده ثم يأخذ في الاصفرار فيصفر فلذا عبّر بـ ثم الدالة على التراخي، وبعد الاصفرار اليبوسة وهي الإفناء والتلاشي.

(٤) بعد أن كشف لهم عن حال الدنيا وأنها سريعة الزوال حثهم على المسابقة بتصحيح الإيمان وتقويته بالعمل الصالح للفوز بالجنة فللّه الحمد وله المنة.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

٥٤١

أي غني عن سائر خلقه لأن غناه ذاتي له لا يستمده من غيره. ﴿الْحَمِيدُ﴾: أي محمود بجلاله وجماله وآلائه ونعمه على عباده.

﴿٢٥﴾ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي بالحجج والبراهين القاطعة على صدق دعوتهم. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾: أي وأنزل عليهم الكتب الحاوية للشرائع والأحكام. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾: أي العدل الذي نزلت الكتب بالأمر به وتقريره. ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: أي لتقوم حياتهم فيما بينهم على أساس العدل. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾: أي في الحديد بأس شديد والمراد آلات القتال من سيف وغيره. ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾: أي ينتفع به الناس إذ ما من صنعة إلا والحديد آلتها. ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾: أي وأنزلنا الحديد وجعلنا فيه بأسًا شديدًا ليعلم الله من ينصره في دينه وأوليائه وينصر رسله المبلغين عنه. ﴿بِالْغَيْبِ﴾: أي وهم لا يشاهدونه بأبصارهم في الدنيا. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: أي لا حاجة إلى نصرة أحد وإنما طَلَبَهَا يَتَعَبَّدُ بها عباده.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في إرشاد المؤمنين وتوجيههم إلى ما يكملهم ويسعدهم

﴿٢٢﴾ فقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أي ما أصابكم أيها المؤمنون من مصيبة في الأرض بالجدب والقحط أو الطوفان أو الجوائح تصيب الزرع ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ بالمرض وفقد الولد إلا وهي في كتاب أي في كتاب المقادير، اللوح المحفوظ مكتوبة بكميتها وكيفيتها وزمانها ومكانها ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي وذلك قبل خلق الله تعالى لها وإيجادها. وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي علمه بها وكتابته لها قبل خلقها وإيجادها في وقتها سهل على الله يسير.

﴿٢٣﴾ وقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ أي أعلمناكم بذلك بعد قضائنا وحكمنا به أزلاً من أجل ألا تحزنوا على ما فاتكم مما تحبون في دنياكم من الخير، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(1) فرح الأشر والبطر فإنه مضر أما فرح الشكر فلا بأس به فقد ينعم الله على العبد ليشكره.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ(2) مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يحذر أولياءه من خصلتين ذميمتين لا تنبغيان للمؤمن وهما الاختيال أي التكبر والفخر على الناس بما أعطاه الله وحَرَمَهم.

﴿٢٤﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ هذا بيان لمن لا يحبهم الله وهم أهل الكبر والفخر بذكر صفتين قبيحتين لهم وهما البخل الذي هو منع الواجب والأمر بالبخل والدعوة إليه فهم لم يكتفوا ببخلهم فأمروا غيرهم بالبخل

---

(1) إنه لما بيّن تعالى لأوليائه المؤمنين علّة الإفساد والشر وهي حب العاجلة أعلمهم تشجيعًا لهم على الزهد فيها والإعراض عنها أنّ ما يصيب أحدهم من فقر، أو مرض أو خوف قد يفضي إلى الموت هو مما كتبه الله تعالى عليهم أزلاً وأنه واقع بهم لا محالة فلذا لا داعي إلى الحزن كما أنّ ما يحصل للعبد مما هو خلاف ذلك من المال والولد لا ينبغي أن يفرح به وبذلك يتغلب على الدنيا ويفوز بالآخرة.

(2) وفي إعلام الله تعالى أولياءه بعدم حبّ المختال الفخور دفع لهم إلى الأمام حيث التنزه عن حب العاجلة التي هي المعوق لهم عن الكمال والإسعاد الأخروي.

الذي هو منع الواجب وعدم بذله والعياذ بالله من هذه القبائح الأربع.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي[1] عن الإيمان والطاعة وعدم قبول وعظ الله وإرشاده ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن سائر خلقه لأن غناه ذاتي له لا يستمده من غيره ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي محمود بجلاله وجماله وإنعامه على سائر عباده.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا[2] رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالحجج القواطع وأنزلنا معهم الكتاب الحاوي للشرائع والأحكام التي يكمل عليها الناس ويسعدون وأنزلنا الميزان وذلك ليقوم الناس بالعدل أي لتقوم حياتهم على أساس العدالة والحق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي وكما أنزلنا الكتاب للدين والعدل للدنيا أنزلنا الحديد لهما معًا للدين والدنيا فيما فيه من البأس الشديد في الحروب فهو لإقامة الدين بالجهاد ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ سائر الصناعات متوقفة عليه فهو للدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ[3] ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي من الحكمة في إنزال الحديد أن يعلم الله من ينصره أي ينصر دينه ورسله بالجهاد معهم والوقوف إلى جانبهم وهم يبلغون دعوة ربهم بالغيب أي وهم لا يشاهدون الله تعالى بأعينهم وإن عرفوه بقلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إعلام بأنه لا حاجة به إلى نصرة أحد من خلقه وذلك لقوته الذاتية وعزته التي لا ترام، وإنما كلف عباده بنصرة دينه ورسله وأوليائه تشريفًا لهم وتكريمًا وليرفعهم بذلك إلى مقام الشهداء.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.

٢ - بيان الحكمة في معرفة القضاء والقدر والإيمان بهما.

٣ - حرمة الاختيال والفخر والبخل والأمر بالبخل.

٤ - بيان إفضال الله وإنعامه على الناس بإرسال الرسل وإنزال الكتب والميزان وإنزال الحديد بما فيه من منافع للناس وبأس شديد.

شرح الكلمات:
[الآية: ٢٦، ٢٧]

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾: أي وتالله لقد أرسلنا نوحًا هو الأب الثاني للبشر وإبراهيم هو أبو الأنبياء.

﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾: أي التوراة والزبور والإنجيل والفرقان. ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾: أي من أولئك الذرية أي سالك سبيل الحق والرشاد. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾: أي عن طاعة الله ورسله ضال في طريقه.

(٢٧) ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾: أي أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهينا إلى عيسى. ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾: أي أتبعناهم بعيسى ابن مريم لتأخره عنهم في الزمان. ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾: أي على دينه وهم الحواريون وأتباعهم. ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾: أي لينًا وشفقة. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾: أي وابتدعوا رهبانية لم يكتبها الله عليهم. وهي اعتزال النساء والانقطاع في الأديرة والصوامع للتعبد. ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾: أي إلا طلبًا لرضوان الله عز وجل. ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾: أي لم يلتزموا بما نذروه على أنفسهم من الطاعات. ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾: أي فأعطينا الذين ثبتوا على إيمانهم وتقواهم أجرهم. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾: لا أجر لهم ولا ثواب إلا العقاب.

---

(١) في الآية تحذير من الجزع وقلة الصبر في السير إلى الله تعالى بالتخلي عن حب العاجلة. فقد ذكرهم بأن التولي أي الرجوع بعد الضرب في طريق الآخرة حيث الجوار الكريم مما يسبب تخلي الرب عن العبد، فإنه تعالى غني حميد لا حاجة به إلى طاعة العباد ولا إلى حمدهم.

(٢) كلام مستأنف، المراد به أنّ ما كلف به عباده من طاعته بذكره وشكره إنما هو لمجرد الابتلاء وليس لحاجة إليه لأنه الغني الحميد فإنه أرسل الرسل وأنزل الكتب وأوجد أسباب القوة المادية لمجرد الابتلاء، ذلك الابتلاء المترتب عليه الإسعاد والإشقاء فإنه تعالى يسعد بطاعته ويشقى بمعصيته وهذا هو العدل الكريم البر بعباده المؤمنين الرحيم.

(٣) هذا العلم: علم ظهور وكشف عما هو معلوم لله تعالى مستور عن عباده لا أنه علم يستجد لله تعالى فإنه قد كتب ذلك في كتاب المقادير وعلمه قبل وجوده، وإنما يظهره في وقته كما كتبه فيعلمه بعد كشفه وإظهاره لتقوم الحجة به على عباده.

معنى الآيتين:

يخبر تعالى أنه كما أرسل رسله وأنزل معهم الكتاب والميزان أرسل كذلك نوحًا وإبراهيم فنوح هو أبو البشر الثاني[١] وإبراهيم هو أبو الأنبياء من بعده ذكرهما لمزيد شرفهما، ولما لهما من آثار طيبة (٢٦) فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي في أولادهما النبوة والكتاب فهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط من ذرية نوح وإسماعيل وإسحاق وباقي الأنبياء من ذرية إبراهيم، وقوله: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٢] أي فمن أولئك الذرية المهدي وأكثرهم فاسقون. (٢٧) وقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا[٣] عَلَىٰ ءَاثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي رسولاً بعد رسول إلى عيسى ابن مريم، وقفينا بعيسى ابن مريم أي أتبعناهم بعيسى ابن مريم كل ذلك لهداية العباد إلى ما يكملهم ويسعدهم، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي آتينا عيسى ابن مريم الإنجيل وجعلنا في[٤] قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة والرأفة اللين وأشد الرحمة. وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً[٥] ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي ابتدعها الذين اتبعوا عيسى ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾[٦] أي لم يكتبها الله تعالى عليهم لما فيها من التشديد ولكن ما ابتدعوها إلا طلبًا لرضوان الله ومرضاته فما رعوها حق رعايتها حيث لم يوفوا بما التزموا به من ترك الدنيا والإقبال على الآخرة حيث تركوا النساء ولبسوا الخشن من الثياب وأكلوا الخشن من الطعام ونزلوا الصوامع والأديرة.

ولهذه الرهبانية سبب مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما نذكره باختصار للفظه ومعناه، قال: كان بعد عيسى ملوك بدّلوا التوراة وحرّفوا الإنجيل وألزموا العامة بذلك، وكان بينهم جماعة رفضُوا ذلك التحريف للدين ولم يقبلوه ففروا بدينهم، والتحقوا بالجبال وانقطعوا عن الناس مخافة قتلهم أو تعذيبهم لمخالفتهم دين ملوكهم المحدث الجديد فهذا الانقطاع بداية الرهبانية، وعاش أولئك المؤمنون وماتوا وجاء جيل من أبناء الدين المحرف فذكروا سيرة الصالحين الأولين فأرادوا أن يفعلوا فعلهم فانقطعوا إلى الصوامع والأديرة، ولكنهم جهّال وعلى دين محرّف مبدّل فاسد فما انتفعوا بالرهبانية المبتدعة وفسق أكثرهم عن طاعة الله ورسوله. وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وهم الأولون المؤمنون الذين فروا من الكفر والتعذيب وعبدوا الله تعالى بما شرع، وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهم الذين أتوا من بعدهم إلى يومنا هذا إذ هم يعبدون الله بدين محرّف باطل ولم يلتزموا بالرهبنة الصادقة بالزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة.

هداية الآيتين:

١ - بيان منة الله على عباده بإرسال الرسل.

٢ - بيان سنة الله في الناس وهي أنه إذا أرسل الرسل لهداية الناس يهتدي بعض ويضل بعض فيفسق.

٣ - ثناء الله على عيسى ابن مريم وأتباعه بحق من الحواريين وغيرهم إلى أن غيرت الملوك دين المسيح

---

(١) هذا كلام معطوف على سابقه المراد منه تفصيل ما أجمل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ..﴾ إلخ.. وهو من باب عطف الخاص على العام.

(٢) كأكثر قوم هود وقوم صالح وقوم شعيب، وقوم تبع وغيرهم والمراد بالفسق هنا: الخروج عن جادة الإيمان والتوحيد، والوقوع في مضلات الشرك والكفر.

(٣) التقفية: اتباع الرسول على أثر الآخر، مشتق لفظها من القفا.

(٤) وذلك لأنّ عيسى عليه السلام بعث لتهذيب نفوس بني إسرائيل واقتلاع جذور القسوة من قلوبهم تلك القسوة التي أثمرها حب الدنيا والإقبال على الشهوات والملاذ الفانية.

(٥) الرهبانية: نسبة إلى الراهب وهو الخائف من الله تعالى، والأصل أن يقال الراهبية، فزيدت فيها النون كما زيدت في شعراني ولحياني ورباني وكذا نصراني على غير قياس.

(٦) جملة: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ مبينة لجملة ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾.

وضلّ الناس وأصبحوا فاسقين عن دين الله تعالى.

٤ ـ تحريم البدع والابتداع ولا رهبانية في الإسلام ولكن يعبد الله بما شرع.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨، ٢٩]

(٢٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي بعيسى ابن مريم وموسى من قبله.

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾: أي خافوا عقاب الله وآمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه. ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾: يعطكم الله نصيبين من الأجر مقابل إيمانكم بنبيكم وبمحمد ﷺ.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾: أي في الدنيا إذ تعيشون على هداية الله وفي الآخرة تمشون به على الصراط.

(٢٩) ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ[1] أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي لكي يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله. واللام في لئلا مزيدة لتقوية الكلام.

معنى الآيتين:

(٢٨) هذا نداء الله لأهل الكتاب بعد أن ذكر نبذة عن رسلهم وأتباعهم نادى الموجودين منهم بعنوان الإيمان[2] أي يا من آمنتم بالرسل السابقين حسب ادعائكم ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فلا تفرقوا بين رسل الله ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أي يعطكم ﴿كِفْلَيْنِ﴾ أي حظين ونصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ ومثوبته ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ في الدنيا وهو الهداية الإسلامية إذ الإسلام صراط مستقيم صاحبه لا يضل ولا يشقى وتمشون به في الآخرة على الصراط إلى دار السلام الجنة، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم الماضية والحاضرة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وذلك ليعلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين رفضوا الإيمان بمحمد ﷺ والدخول في الإسلام أنهم ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يقدرون على الحصول على شيء من[3] فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

هداية الآيتين:

١ ـ أعظم نصيحة تقدم لأهل الكتاب لو أخذوا بها تضمنها نداء الله لهم وما وعدهم به في هذه الآية الكريمة.

٢ ـ فضل الإيمان والتقوى إذ هما سبيل الولاية والكرامة في الدنيا والآخرة.

٣ ـ إبطال مزاعم أهل الكتاب في احتكار الجنة لهم، وإعلامهم بأنهم محرمون منها ما لم يؤمنوا برسول الله ويتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

❋ ❋ ❋

الجزء الثامن والعشرون

الجزء الثامن والعشرون — سورة المجادلة

ترتيبها ٥٨ — سورة المجادلة — آياتها ٢٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (١) ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٦)

٥٤٢

سورة المجادلة

مدنية

وآياتها ثنتان وعشرون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٤]

(١) ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾: أي تراجعك أيها النبي في

---

(١) هذا بناء على أن (لا) زائدة في قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إذ الأصل لأن يعلم فزيدت اللام لتوكيد الكلام فصارت ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أي: لأن يعلم.

(٢) استعمل الإيمان هنا استعمالاً لقبيًا إذ المراد بالذين آمنوا: اليهود والنصارى إذ هم يؤمنون بالله ولقائه وكتبه ورسله في الجملة.

(٣) أي: إلا بإذن الله إذ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. والظاهر أن المراد من الفضل هنا خصوص النبوة والرسالة وأن أهل الكتاب

شأن زوجها أوس بن الصامت. ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾: أي وحدتها وفاقتها وصبية صغارًا إن ضمتهم إليه ضاعوا وإن ضمهم إليها جاعوا. ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾: أي تراجعكما أنت أيها الرسول والمحاورة لك وهي خولة بنت ثعلبة. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾: أي لأقوالكما بصير بأحوالكما.

(٢) ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم﴾: أي يحرمون نساءهم بقول أنت عليَّ كظهر أمي. ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾: أي ليس هن بأمهاتهم. ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾: ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم، أو أرضعنهم. ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾: أي وإنهم بالظهار ليقولون منكرًا من القول وزورًا أي كذبًا. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾: أي على عباده أي ذو صفح عليهم غفورٌ لذنوبهم إن تابوا منها.

(٣) ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾[1]: أي بأن يقول لها أنت عليّ كظهر أمي أو أختي ونحوها من المحارم. ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾: أي يعزمون على العودة للتي ظاهروا منها، إذ كان الظهار في الجاهلية طلاقًا. ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾: أي فالواجب عليه تحرير رقبة مؤمنة قبل أن يجامعها. ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾: أي تؤمرون به فافعلوه على سبيل الوجوب. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾: أي فمن لم يجد الرقبة لانعدامها أو غلاء ثمنها فالواجب صيام شهرين متتابعين. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾: أي من قبل الوطء لها.

(٤) ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾: أي الصيام لمرضٍ أو كِبَرِ سِنٍ. ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾: أي فعليه قبل الوطء، أن يطعم ستين مسكينًا يعطى لكل مسكين مدًا من[2] بر أو مدين من غير البر كالتمر والشعير ونحوها من غالب قوت أهل البلد. ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي ما تقدم من بيان حكم الظهار الذي شرع لكم. ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: أي لأن الطاعة إيمان والمعصية من الكفران. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: أي أحكام شرعه. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي وللكافرين بها الجاحدين لها عذاب أليم أي ذو ألم.

معنى الآيات:

(١) - (٣) قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ هذه الآية الكريمة نزلت في خولة بنت ثعلبة الأنصارية وفي زوجها أوس بن الصامت أخي عبادة بن الصامت رضي الله عنهم أجمعين كان قد ظاهر منها زوجها أوس، فقال لها في غضب غير مغلق: أنت عليّ كظهر أمي، وكان الظهار يومئذٍ طلاقًا، وكانت المرأة ذات أطفال صغار وتقدم بها وبزوجها السن فجاءت لرسول الله ﷺ تشكو إليه ما قال زوجها فذكرت للرسول ﷺ ضعفها[3] وضعف زوجها وضعف أطفالها الصغار، وما زالت تراجع الرسول ﷺ وتحاوره في شأنها وشأن زوجها حتى نزلت هذه الآيات الأربع من فاتحة سورة

= من اليهود يريدون حصر النبوة والرسالة في شعب إسرائيل فلذا جحدوا نبوة ورسالة محمد ﷺ وكفروا بهما فناداهم تعالى بعنوان الإيمان الذي يدعونه وأمرهم بتقواه بترك الكذب والاحتيال وأمرهم بالإيمان برسوله ﷺ وواعدهم مضاعفة الأجر إن هم آمنوا، وكان هذا إعلامًا منه تعالى أن أهل الكتاب لا يقدرون على حصر الفضل فيهم ومنعه عن غيرهم فقد نبأ وأرسل من بني عمهم محمدًا ﷺ وهم كارهون منكرون مكذبون، وهم بين خيارين إما الإيمان بمحمد ﷺ والفوز بالجنة والنجاة من النار وإما الإصرار على إنكار رسالته والكفر به مع الخسران في الحياتين ولا يهلك على الله إلا هالك.

(١) قرأ نافع ﴿يظَّهرون﴾ أصلها (يتظهرون) فأدغمت التاء في الظاء فصارت يظّهرون بتشديد الظاء والهاء وقرأ حفص ﴿يُظَاهِرُونَ﴾.

(٢) وردت روايات متعددة في كمية الإطعام، الإجماع على أنها إطعام ستين مسكينًا، وإنما الخلاف في المقدار، فأظهرها وأصحها حديث البخاري وفيه: فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعًا. فتصدّق بها على ستين مسكينًا فهذا ظاهر في أنها ستون مدًا لكل مسكين مدّ لأن الخمسة عشر صاعًا بستين مدًّا إذ الصاع أربعة أمداد بعد النبي ﷺ.

(٣) من جملة ما روي أنها قالت: يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، فقال لها رسول الله ﷺ: «**ما أوحي إليّ في هذا شيء**» فقالت: يا رسول الله أوحي إليك في كل شيء وطوي عنك هذا؟ فقال: «**هو ما قلت لك**» فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ..﴾ إلخ..

المجادلة التي سميت بها السورة فقيل سورة المجادلة بكسر الدال، ويصح فتحها فقال تعالى مُخاطبًا رسوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أي قد سمع الله قول المرأة التي تجادلك أي تراجعك في شأن زوجها الذي ظاهر منها، وتشتكي إلى الله بعد أن قلت لها: والله ما أمرت في شأنك بشيء، تشكو إلى الله ضعف حالها. ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ[1] تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي مراجعتكما لبعضكما بعضًا الحديث وأجابكما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأحوالهم وهذا حكم الظهار فافهموه واعملوا به.

أولاً: أن الظهار الذي هو قول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أمي لا يجعل المظاهر منها أمًا له إذ أمه هي التي ولدته وخرج من بطنها، والزوجة لا تكون أمًّا بحال من الأحوال.

ثانيا: هذا القول كذب وزور ومنكر من القول وقائله آثم فليتب إلى الله ويستغفره.

ثالثًا: لولا عفو الله وصفحه على عباده المؤمنين ومغفرته للتائبين لعاقبهم على هذا القول الكذب الباطل.

رابعًا: على الذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا أي يعزمون على وطئها بعد الظهار منها فالواجب عليهم قبل الوطء لها تحرير رقبة ذكرًا كانت أو أنثى صغيرة أو كبيرة لكن مؤمنة لا كافرة، فمن لم يجد الرقبة لانعدامها، أو غلاء ثمنها فيجزئه صيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع لعلة قامت به فالواجب إطعام ستين مسكينًا يعطي كل مسكين مدًّا من برّ أو نصف صاع من غير البر كالشعير والتمر ونحوهما كل ذلك من قبل أن يتماسَّا من باب حمل المطلق على المقيد إذ قيد الأول بقبل المسيس[2] فيحمل هذا الأخير عليه.

﴿٤﴾ وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي ذلك الذي تقدم من بيان حكم الظهار[3] شرعه لكم لتؤمنوا بالله ورسوله إذ الإيمان اعتقاد وقول وعمل، فطاعة الله ورسوله إيمان ومعصيتهما من الكفران. وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي لا تعتدوها بل قفوا عندها وللكافرين بها المتعدين لها عذاب أليم أي ذو ألم موجع جزاء تعديهم حدود الله.

هداية الآيات:

١ ـ إجابة الله لأوليائه بتفريج كروبهم وقضاء حوائجهم فله الحمد وله الشكر.

٢ ـ حرمة الظهار باعتباره منكرًا وكذبًا وزورًا فيجب التوبة منه.

٣ ـ بيان حكم المظاهر وهو أن عليه عتق رقبة قبل أن يجامع امرأته المظاهر منها. فإن لم يجد الرقبة المؤمنة صام شهرين متتابعين من الهلال إلى الهلال وإذا انقطع التتابع لمرض بنى على ما صامه. فإن لم يستطع لمرض ونحوه أطعم ستين مسكينًا فأعطى لكل مسكين على حدة مدًّا من بر أو مدين من غير البر كالشعير والتمر.

٤ ـ لو جامع المظاهر قبل إخراج الكفارة أثم فليستغفر ربّه وليخرج كفارته. ولا شيء عليه لحديث الترمذي الصحيح.

٥ ـ طاعة الله ورسوله إيمان، ومعصية الله ورسوله من الكفران.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥ ـ ٧]

﴿٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: أي يخلفون الله ورسوله ويعادونهما. ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي ذُلوا وأهينوا كما ذُلَّ وأُهين من قبلهم لمخالفتهم رسولهم. ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾: أي والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات دالة على صدق الرسول. ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: أي يوقعهم في الذل والهوان.

﴿٦﴾ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾: أي يوم القيامة. ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾: أي جمعه وعدّه ونسوه هم. ﴿وَٱللَّهُ

(١) روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾.

(٢) من مس امرأته قبل الكفارة فليكف عنها مرة أخرى حتى يكفر لحديث النسائي: أن رجلاً ظاهر من امرأته ولم يكفّر حتى وطئها فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأمره ألا يقربها حتى يكفّر.

(٣) هل على المرأة إذا ظاهرت من زوجها شيء؟ الجمهور: أنه لا شيء عليها وإن كفّرت كفارة يمين فذلك اللائق بها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

٥٤٣

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: أي لا يغيب عنه شيء من الأشياء.

(٧) ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾: أي من متناجين. ﴿ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: إلا هو تعالى رابعهم بعلمه بهم، وقدرته عليهم. ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾: أي أقل من الثلاثة وهما الاثنان. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾: أي في أيّ مكان من الأرض أو السماء.

معنى الآيات:

(٥) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذه الآية تحمل بشرى لرسول الله ﷺ بإعلامه بهزيمة قريش وهي تحزب الأحزاب لحربه في غزوة الخندق فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾[1] ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يخالفون الله ورسوله ويعادونهما كبتوا[2] أي ذُلوا وأهينوا كما كبت الذين من قبلهم الذين كذبوا رسلهم فأكبتهم الله أي أذلهم وأهانهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ كلها دالة على صدق رسولنا فيما جاءهم به ودعاهم إليه، ومع هذا عادوه وحاربوه فلهذا يكبتهم الله ويذلهم في الدنيا وللكافرين[3] أمثالهم عذاب مهين يوم القيامة.

(٦) ﴿يَوْمَ﴾[4] ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ لا يتخلف منهم أحد ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ من الشر والفساد. ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ إذ كتبته ملائكته وكتب قبل فعلهم له في كتاب المقادير اللوح المحفوظ ﴿وَنَسُوهُ﴾ لِعَمَى قلوبهم وكفرهم بربهم ولقائه فلا يذكرون لهم ذنبًا حتى يتوبوا منه ويستغفروا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي زيادة على أن أعمالهم كتبها في اللوح المحفوظ وأن الملائكة من الكرام الكاتبين قد كتبوها فإن الله تعالى شهيد على كل شيء فلا يقع شيء إلا تحت بصره وعلمه.

(٧) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تقرير لما سبق من إحاطة علم الله بكل شيء وأن أعمال أولئك المخالفين المحادين محصية معلومة وسيجزيهم بها. أي ألم تعلم يا رسولنا أن الله تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض من دقيق الأشياء وجليلها ورد أن جماعة من المنافقين تخلفوا يتناجون بينهم إغاظة للمؤمنين فنزلت هذه الآية تعرض بهم وتكشف الستار عن نياتهم. ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾[5] أي من ذوي نجوى أو من متناجين ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، أي إلا والله تعالى رابعهم بعلمه بهم وقدرته عليهم وهذه فائدة المعية العلم والقدرة على الأخذ والعطاء، ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾

---

(١) المحادة والمشاقة والمعاداة متقاربة المعنى فالمحاد الواقف في حد وخصمه في آخر، وكذا المشاق: هو في شق والآخر في شق مقابل، وكذا المعادي هو في عدوة والآخر في أخرى مقابلة له، والعدوة: هي عدوة الوادي أحد جانبيه.

(٢) الكبت: الخزي والإذلال، وعبر في الآية بالماضي ﴿كُبِتُوا۟﴾ لتحقق وقوعه كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

(٣) الجملة معطوفة على جملة ﴿كُبِتُوا۟﴾ و(ال) في الكافرين: للجنس ليعم الوعيد كل كافر.

(٤) يجوز أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ متعلقًا بالكون المقدر الذي تعلق به ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي للكافرين عذاب مهين ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ وجائز أن يكون منصوبًا على تقدير فعل اذكر كما هو شائع في أمثاله.

(٥) النجوى اسم مصدر فعله: ناجاه يناجيه مناجاة واسم المصدر نجوى فهو بمعنى التناجي أي: ما يكون تناجي ثلاثة من الناس إلا الله مطلع عليهم كرابع لهم وكل سرار نجوى.

﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ كالاثنين، ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ بعلمه وقدرته وإحاطته أينما كانوا تحت الأرض أو فوقها في السماء أو دونها، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ أي يخبرهم ويعلمهم بما عملوا يوم القيامة ليجزيهم به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تقرير لما سبق من علمه بالمحادين له وبالمنافقين المناوئين للمؤمنين وسيجزي الكل بعدله وهو العزيز الحكيم.

هداية الآيات:

١ - وعيد الله الشديد بالإكبات والذل والهوان لكل من يحاد الله ورسوله.

٢ - إحاطة علم الله بكل شيء وشهوده لكل شيء وإحصاءه لكل أعمال العباد حال توجب مراقبة الله تعالى والخشية منه والحياء منه أشد الحياء.

٣ - الإرشاد إلى أن التناجي للمشاورة في الخير ينبغي أن يكون عدد المتناجين ثلاثة أو خمسة أو سبعة ليكون الواحد عدلاً مرجحًا للخلاف قاضيًا فيه إذ اختلف اثنان لا بد من واحد يرجح جانب الخلاف وإذا اختلف أربعة لا بد من خامس يرجح جانب الخلاف.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ - ١٠]

(٨) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾: أي المسارة الكلامية والمنهيون هم اليهود والمنافقون.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ﴾: أي من التناجي تعمدًا لأذية المؤمنين بالمدينة.

﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾: أي بما هو إثم في نفسه، وعداوة الرسول والمؤمنين. ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾: أي يتناجون فيوصي بعضهم بعضًا بمعصية الرسول وعدم طاعته. ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ﴾: أي جاءوك أيها النبي حيوك بقولهم السام عليك. ﴿بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾: أي حيوك بلفظ السام عليك، وهذا لم يحيي الله به رسوله بل حياه بلفظ السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: أي سرًا فيما بينهم. ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾: أي هلا يعذبنا الله بما نقول له، فلو كان نبيًا لعاجلنا الله بالعقوبة. ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَا﴾: أي يكفيهم عذاب جهنم يصلونها فبئس المصير لهم.

(٩) ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾: أي فلا يناج بعضكم بما هو إثم ولا بما هو عدوان وظلم ولا بما هو معصية للرسول. ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾: أي وتناجوا إن أردتم ذلك بالبر أي الخير والتقوى وهي طاعة الله والرسول.

(١٠) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: أي إنما النجوى بالإثم والعدوان من الشيطان أي بتغريره. ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي ليوهمهم أنها بسبب شيء وقع مما يؤذيهم. ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: ألا وليس التناجي بضار المؤمنين شيئًا إلا بإرادة الله تعالى. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: أي وعلى الله لا على غيره يجب أن يتوكل المؤمنون.

معنى الآيات:

قوله تعالى ألم تر الآية.. هذه نزلت في يهود المدينة والمنافقين فيها. إذ كانوا يتناجون أي يتحدثون سرًا على مرأىً من المؤمنين، والوقت وقت حرب فيوهمون المؤمنين أن عدوًا قد عزم على غزوهم، أو أن سرية هزمت أو أن مؤامرة تحاك ضدهم فنهاهم رسول الله ﷺ عن التناجي، وقال: **«لا يتناج اثنان دون[١] ثالث»** وأبوا إلا أن يتناجوا فأنزل الله تعالى هذه الآية يعجب رسوله منهم ويوعدهم بعد فضحهم وكشف الستار عن كيدهم للمؤمنين ومكرهم بهم

(٨) فقال تعالى لرسوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ[٢] نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، وهي التناجي المحادثة السرية أمام الناس، ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ عصيانًا وتمردًا عن الرسول ﷺ، ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ﴾ لا بالبر والتقوى، ولكن ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ[٣] ٱلرَّسُولِ﴾ أي بما

---

(١) الحديث ثابت في الصحيح وفي الموطأ قوله ﷺ: **«إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد»** وفي الحديث دليل على التحريم ونظيره: أن يتكلم اثنان بلغة غير لغة الثالث فإنه كنجوى اثنين دون ثالث.

(٢) الاستفهام للتعجيب والمراد به توبيخ اليهود الذي نزلت الآية فيهم مع إخوانهم المنافقين.

(٣) كتبت (معصيت) بالتاء المفتوحة دون المربوطة التي يوقف عليها بالهاء في موضعين من هذه السورة، ويوقف عليها بالهاء ويجوز بالتاء وأما في الوصل فلا بد من التاء.

هو إثم في نفسه كالغيبة والبذاء في القول، وبالعدوان وهو الاعتداء على المؤمنين وظلمهم، وبمعصية الرسول فيوصي بعضهم بعضًا بعصيان الرسول وعدم طاعته في أمره ونهيه. هذا وشرٌّ منه أنهم إذا جاءوا رسول الله ﷺ حيّوه بما لم يحيه به الله فلم يقولوا السلام عليكم ولكن يقولون السام عليكم[1] والسام الموت يلوون بها ألسنتهم، ويأتون الرسول واحدًا واحدًا ليحيوه بهذه التحية الخبيثة ليدعوا عليه بالموت لعنة الله عليهم ما أكثر أذاهم وما أشد مكرهم وما أنتن خبثهم ويقولون في أنفسهم أي فيما بينهم لو كان محمد نبيًا لآخذنا الله بما نقول له من الدعاء عليه بالموت وهذا معنى قوله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي هلا عذبنا الله بما نقول لمحمد ﷺ لو كان نبيًا[2]. قال تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ﴾ عذابًا ﴿جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ يحترقون بحرّها ولظاها يوم القيامة فبئس المصير الذي يصيرون إليه في الدار الآخرة جهنم وزقومها وحميمها وضريعها وغسلينها ويحمومها وفوق ذلك غضب الله ولعنته عليهم.

(٩) وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ﴾ هذه الآية والتي بعدها نزلت في تربية المؤمنين روحيًا وتهذيبهم أخلاقيًا فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أي صدقوا الله ورسوله إذا تناجيتم لأمر استدعى ذلك منكم فلا تتناجوا[3] بالإثم والعدوان ومعصية الرسول فتكون حالكم كحال اليهود والمنافقين ولكن ﴿وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي بما هو خير في نفسه لا إثم فيه وبطاعة الله ورسوله إذ هما التقوى، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة لمحاسبتكم ومجازاتكم فاتقوه بطاعته وطاعة رسوله.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي هو الدافع إليها والحامل عليها وذلك لعلة وهي أن يوقع المؤمنين في غم وحزن، وليس التناجي ولا الشيطان بضار المؤمنين شيئًا إلا بإرادة الله تعالى لحكم عالية يعلمها الله، ولذا فلا تحزنوا ولا تغتموا لما ترون من تناجي أعدائكم من اليهود والمنافقين، وتوكلوا على الله في أموركم كلها. وعلى الله تعالى لا على غيره فليتوكل المؤمنون في كل زمان ومكان. فإن الله تعالى كافٍ من يتوكل عليه كافيه كل ما يهمه والله على ذلك قدير.

هداية الآيات:

١ - بيان مكر اليهود والمنافقين وكيدهم للمؤمنين في كل زمان ومكان.

٢ - إذا حيا الكافرُ المؤمنَ ورد عليه المؤمنُ رد عليه بقوله وعليكم لما صح أن النبي ﷺ دخل عليه ناس من اليهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقال ﷺ: **«وعليكم»**. فقالت عائشة رضي الله عنها: «عليكم السام ولعنكم[4] الله وغضب عليكم». فقال لها عليه الصلاة والسلام: **«يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش»** فقالت ألا تسمعهم يقولون السام؟ فقال لها: **«أوما سمعت ما أقول: وعليكم»** فأنزل الله هذه الآية. رواه الشيخان.

٣ - إذا سلّم الذميّ وكان سلامه بلفظ السلام عليكم لا بأس أن يرد عليه بلفظه.

٤ - حرمة التناجي بغير البر والتقوى

---

(١) روى الترمذي وصححه عن أنس أن يهوديًا أتى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه فقال: السام عليكم. فردّ عليه النبي ﷺ وقال: **«أتدرون ما قال هذا؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال كذا ردوه عليّ فردوه فقال: **«قلت السام عليكم؟»** قال: نعم فقال النبي ﷺ عند ذلك: **«إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: عليك ما قلت»** فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ﴾ الآية.

(٢) قال ابن العربي: جهل هؤلاء اليهود أن الله تعالى حليم لا يعاجل بالعقوبة من سبّه فقد قال ﷺ: **«لا أحد أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم»**.

(٣) الجمهور أن حرمة تناجي الاثنين دون الثالث والثلاثة دون الرابع وهكذا هو باقٍ على تحريمه وليس مخصوصًا بحالة الحرب كما في عهد رسول الله ﷺ لأن ألفاظ الحديث عامة. منها حديث الصحيح عن ابن عمر: **«إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الواحد»** وقوله ﷺ: **«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه»**.

(٤) اختلف في جواز ومنع السلام على أهل الكتاب والذي عليه الجمهور جوازه للسنة الصحيحة في ذلك ويرى بعضهم وجوب الرد لعموم الآية: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

٥٤٤

لقوله تعالى: إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس الآية من سورة النساء[١].

٥ - لا يجوز أن يتناجى اثنان دون الثالث لما يوقع ذلك في نفس الثالث من حزن لا سيما إن كان ذلك في سفر أو في حرب وما إلى ذلك.

٦ -وجوب التوكل على الله وترك الأوهام والوساوس فإنها من الشيطان.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ - ١٣]

﴿١١﴾ ﴿تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾: أي توسعوا في المجالس التي هي مجالس علم وذكر. ﴿فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: أي في الجنة وفي الرزق والقبر. ﴿ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾: أي قوموا للصلاة أو لغيرها من أعمال البر. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾: أي بالنصر وحسن الذكر في الدنيا وفي غرفات الجنان في الآخرة. ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾: أي ويرفع الذين أوتوا العلم درجات عالية لجمعهم بين العلم والعمل.

﴿١٢﴾ ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾: أي أردتم مناجاته. ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾: أي قبل المناجاة تصدقوا بصدقة ثم ناجوه ﷺ. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾: أي تقديم الصدقة بين يدي المناجاة خير لما فيه من نفع الفقراء وأطهر لذنوبكم. ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ﴾: أي فإن لم تجدوا ما تتصدقون به. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي غفور لمناجاتكم رحيم بكم فليس عليكم في المناجاة بدون صدقة إثم.

﴿١٣﴾ ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾: أي أخفتُم الفقر أن قدمتم بين يدي نجواكم صدقات. ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: أي تقديم الصدقات، وتاب الله عليكم بأن رخص لكم في تركها. ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي على الوجه المطلوب من إقامتها وأخرجوا الزكاة. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: أي وداوموا على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: أي من أعمال البر والإحسان وسيثيبكم على ذلك بالجنة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تربية المؤمنين وتهذيبهم ليكملوا ويسعدوا ﴿١١﴾ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي صدقوا الله ورسوله ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ أي إذا قال لكم الرسول ﷺ أو غيره توسعوا[٢] في المجلس ليجد غيركم مكانًا بينكم فتوسعوا ولا تضنوا بالقرب من الرسول أو من العالم الذي يعلمكم أو المذكر الذي يذكركم وإن أنتم تفسحتم أي فإن الله تعالى يكافئكم فيوسع عليكم في

(١) هي قوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٢) قال قتادة: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض، وروي عن ابن عباس أن هذا في صفوف القتال إذ كانوا يتشاحون على الصف الأول فأمروا بالفسح لبعضهم حتى يتمكنوا من الوقوف في الصف الأول مع رسول الله ﷺ واللفظ عام يشمل هذا وذاك. قال القرطبي: والصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر سواء كان مجلس حرب أو علم أو ذكر أو مجلس صلاة كيوم الجمعة وفي الحديث الصحيح: نهى رسول الله ﷺ أن يُقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر ولكن تفسحوا وتوسعوا.

الدنيا بسعة الرزق وفي البرزخ في القبر وفي الآخرة في غرفات الجنان.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟﴾[1] أي قوموا من المجلس لعلة أو للصلاة أو للقتال أو لفعل بر وخير فانشزوا أي خفوا وقموا يثبكم الله فيرفع الله الذين آمنوا منكم درجات[2] بالنصر والذكر الحسن في الدنيا وفي غرف الجنة في الآخرة والذين أوتوا العلم درجات أي ويرفع الذين أوتوا العلم منكم أيها المؤمنون درجاتٍ عالية لجمعهم بين الإيمان والعلم والعمل.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يذكرهم تعالى بعلمه بهم في جميع أحوالهم ليراقبوه ويكثروا من طاعته ويحافظوا على تقواه.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ أمرهم تعالى إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ ويكلمه وحده أن يقدم صدقة أولاً ثم يطلب المناجاة وكان هذا لمصلحة الفقراء أولاً ثم للتخفيف[3] عن رسول الله ﷺ إذ كل مؤمن يود أن يخلو برسول الله ﷺ ويقرب منه ويكلمه والرسول بشرٌ لا يتسع لكل أحد فشرع الله هذه الصدقة فأعلمهم أنه يريد التخفيف عن رسوله. فلما علموا ذلك وتحرجوا من بذل صدقة وأكثرهم فقراء لا يجدها نسخ تعالى ذلك ولم تدم مدة الوجوب أكثر من ليالي ونسخها الله تعالى بقوله الآتي أأشفقتم. الآية.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾[4] أي تقديم الصدقة بين يدي المناجاة خير لكم حيث تعود الصدقة على الفقراء إخوانكم وأطهر أي لنفوسكم لأن النفس تطهر بالعمل الصالح، وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟﴾ أي ما تقدمونه صدقة قبل المناجاة فناجوه ﷺ ولا حرج عليكم لعدم وجدكم فإن الله غفور لكم رحيم بكم.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾[5] أي أخفتم الفاقة والفقر إن أنتم ألزمتم بالصدقة بين يدي كل مناجاة وعليه فإن لم تفعلوا وتاب الله عليكم برفع هذا الواجب ونسخه فرجع بكم إلى عهد ما قبل وجوب الصدقة فأقيموا الصلاة بأدائها في أوقاتها في جماعة المؤمنين مراعين شرائطها وأركانها وسننها وآدابها وآتوا الزكاة الواجبة في أموالكم. وأطيعوا الله ورسوله في أمرهما ونهيهما يكفكم ذلك عوضًا عن الصدقة التي نسخت تخفيفًا عليكم ورحمة بكم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[6] أي فراقبوه في طاعته وطاعة رسوله تفلحوا فتنجوا من النار وتدخلوا الجنة دار الأبرار.

هداية الآيات:

١ - الندب إلى فضيلة التوسع في مجالس العلم والتذكير.

٢ - الندب والترغيب في القيام بالمعروف وأداء الواجبات إذا دعي المؤمن إلى ذلك.

٣ - فضيلة الإيمان وفضل العلم والعمل به.

---

(١) قال قتادة: المعنى: أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف، والنشز: الارتفاع مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها، ومنه قيل للمرأة التي تترفع على زوجها ناشز.

(٢) في الآية مدح لأهل العلم: قاله ابن مسعود وفي الحديث: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**» وقيل لعمر رضي الله عنه في مولى استخلفه فقال: إنه قارىء لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع آخرين**» وعن ابن عباس: خيّر سليمان بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه.

(٣) قال ابن عباس: نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه فأراد الله أن يخفف عن رسوله ﷺ فأنزل هذه الآية فلما نزلت كفّ الناس.

(٤) قال ابن العربي: في الآية دليل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح فإن الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ثم نسخ ذلك مع كونه خيرًا وأطهر. ولكن قد يقال إنّ ما نسخ من أجله قد يكون أكثر منفعة للمسلمين في دينهم ودنياهم، وإن كان خافيًا عن المسلمين لا يعلمونه.

(٥) الاستفهام المراد به لوم الأصحاب على تأخرهم عن المناجاة لما فرضت عليها الصدقة. قيل: كان ما بين الآيتين الناسخة والمنسوخة عشرة أيّام.

(٦) الجملة تذييل لجملة: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي كناية عن التحذير من التفريط في طاعة الله ورسوله ﷺ.

٤ - مشروعية النسخ في الشريعة قبل العمل بالمنسوخ وبعده إذ هذه الصدقة نسخت قبل أن يعمل بها اللهم إلا ما كان من علي[1] رضي الله عنه فإنه أخبر أنه تصدق بدينار وناجى رسول الله ﷺ ثم نسخت هذه الصدقة فكان يقول في القرآن آية لم يعمل بها أحد غيري وهي فضيلة له رضي الله عنه.

٥ - في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله في الواجبات والمحرمات عوض عما يفوت المؤمن من النوافل.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤ - ١٩]

(١٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾: أي ألم تنظر إلى المنافقين الذين تولوا.
﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾: أي اليهود.
﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾: أي ما هم منكم أيها المؤمنون ولا منهم أي من اليهود بل هم مذبذبون. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أي يحلفون لكم أنهم مؤمنون وهم يعلمون أنهم غير مؤمنين.
(١٥) ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي قبح أشد القبح عملهم وهو النفاق والمعاصي.
(١٦) ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾: أي سترًا على أنفسهم وأموالهم فادعوا الإيمان كذبًا وحلفوا أنهم مؤمنون وما هم بمؤمنين. ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي فصدوا بتلك الأيمان المؤمنين عن سبيل الله التي هي جهادهم وقتالهم.
(١٨) ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾: أي يوم يبعثهم من قبورهم يوم القيامة يحلفون لله أنهم كانوا مؤمنين كما يحلفون اليوم لكم أنهم مؤمنون. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾: أي يظنون في أيمانهم الكاذبة أنهم على شيء من الحق.
(١٩) ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾: أي غلب عليهم الشيطان. ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾: فلم يذكروه بألسنتهم إلا تقية ولا يذكرون وعده ولا وعيده.
﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾: أي أولئك البعداء أتباع الشيطان وجنده. ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: أي إن أتباع الشيطان وجنده هم المغبونون الخاسرون في صفقة حياتهم.

معنى الآيات:

في هذه الأيام التي نزلت فيها هذه السورة كان النفاق بالمدينة بالغًا أشده، وكان اليهود كذلك كثيرين ومتحزبين ضد الإسلام والمسلمين وذلك قبل إجلائهم من المدينة ففي هذه الآية يحذر الله تعالى رسوله والمؤمنين من العدوين معًا ويكشف الستار عنهم ليظهرهم على حقيقتهم ليحذرهم المؤمنون.
(١٤) فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾[2] أي تنظر يا رسولنا ﴿إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ[3] اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ وهم اليهود تولاهم المنافقون ولاية نصرة وتحزب ضد الرسول والمؤمنين.
يقول تعالى: هؤلاء المنافقون ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ من اليهود بل هم مذبذبون حيارى يترددون بينكم وبين اليهود معكم في الظاهر ومع اليهود في الباطن.
وقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4] أي أنهم كاذبون إذ كانوا يأتون رسول الله ويحلفون له أنهم مؤمنون به وبما جاء به وهم يعلمون أنهم كاذبون إذ هم غير مؤمنين به ولا مصدقين. فتوعدهم الله عز وجل
(١٥) بقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا

---

(١) روي أن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: لقد كانت لعليّ رضي الله عنه ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحبّ إليّ من حمر النعم: تزويجه فاطمة وإعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى.

(٢) الاستفهام تعجيبي ووجه التعجب من حالهم أنهم تولوا قومًا من غير جنسهم وليسوا على دينهم وإنما حملهم الاشتراك في عداوة النبي ﷺ والمؤمنين.

(٣) عُرف اليهود في القرآن بأنهم المغضوب عليهم وتكرر ذلك في القرآن الكريم.

(٤) روي عن عكرمة وابن عباس في سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ كان جالسًا في ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه إذ قال: يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان فنحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق قد عاينه النبي ﷺ فقال: «**علام تشتمني أنت وأصحابك؟**» قال: دعني أجيئك بهم فمر فجاء بهم فحلفوا جميعًا أنه ما كان من ذلك شيء فأنزل الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾.

شَدِيدًا﴾ أي هيأ لهم وأحضره وذلك يوم القيامة، وندد بصنيعهم وقبح سلوكهم بقوله إنهم ساء ما كانوا يعملون ولذا أعد لهم العذاب الشديد لسوء سلوكهم وقبح أعمالهم.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ[(١)] جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي اتخذ هؤلاء المنافقون أيمانهم التي يحلفونها لكم بأنهم مؤمنون وما هم بمؤمنين اتخذوها ستارة ووقاية يقون بها أنفسهم من القتل وأموالهم من الأخذ فصدوا بتلك الأيمان الكاذبة المؤمنين عن سبيل الله التي هي قتالهم لأنهم كفار مشركون يجب قتالهم حتى يدخلوا في دين الله أو يهلكوا لأنهم ليسوا أهل كتاب فتقبل منهم الجزية. وقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي يوم القيامة يهانون ويذلون به.

(١٧) وقوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ﴾[(٢)] أي يوم القيامة أموالهم التي يجمعونها ويتمتعون بها اليوم كما لا تغني عنهم أولادهم الذين يعتزون بهم من الله شيئًا من الإغناء فلا تقبل منهم فدية فيفتدون بأموالهم ولا يطلبون من أولادهم نصرة فينصرونهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ولا يحيون.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي اذكر يا رسولنا يوم يبعثهم الله جميعًا في عرصات القيامة فيحلفون[(٣)] له أنهم كانوا مؤمنين كما يحلفون لكم اليوم أنهم مؤمنون. ويحسبون اليوم أي يظنون أنهم على شيء من الصواب والحق ألا إنهم هم الكاذبون.

(١٩) ﴿ٱسْتَحْوَذَ[(٤)] عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي غلب عليهم ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً كما أنساهم ذكر وعده ووعيده فلذا هم لا يرغبون فيما عنده ولا يرهبون مما لديه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي أتباعه وجنده. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ[(٥)] ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي أتباعه وجنده ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي المغبونون في صفقتهم في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة.

هداية الآيات:

١ - حرمة موالاة اليهود.

٢ - حرمة الحلف على الكذب وهي اليمين الغموس.

٣ - من علامات استحواذ الشيطان على الإنسان تركه لذكر الله بقلبه ولسانه ولوعده ووعيده بأعماله وأقواله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ - ٢٢]

(٢٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾: أي يخالفون الله ورسوله فيما يأمران به وينهيان عنه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾: أي المغلوبين المقهورين.

(٢١) ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾: أي كتب في اللوح المحفوظ أو قضى وحكم بأن يغلب بالحجة أو السيف.

(٢٢) ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: أي يصادقون من يخالف الله ورسوله بمحبتهم ونصرتهم. ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾: أي يقصدونهم بالسوء ويقاتلونهم على الإيمان كما وقع للصحابة. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى

---

(١) ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا لأن سائلاً قد يسأل: ما الذي حملهم على الحلف الكاذب؟ فالجواب اتخاذهم أيمانهم جُنة والجنة الوقاية من جن إذا استتر أي: وقاية من شعور المسلمين ليتمكنوا من الصد عن الإسلام تحت شعاره.

(٢) في الآية إشارة إلى أن كبار المنافقين كانوا ذوي ثروة ومال وهذا من الأسباب الحاملة لهم على البقاء على الكفر حفاظًا على أموالهم ومراكزهم في المجتمع في نظرهم، فأخبر تعالى أنّ مالهم الذي يحافظون عليه وأولادهم الذين يعتزون بهم إذا نزل بهم عذاب الله لن يغني ذلك عنهم من الله شيئًا.

(٣) صحّ الحديث بأن من مات على شيء يبعث عليه، ولما مات المنافقون على النفاق بُعثوا عليه، فلذا يحلفون لله تعالى أنهم كانوا مؤمنين كما هم يحلفون في الدنيا بأنهم مؤمنون وهم كاذبون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وهذا في عرصات القيامة.

(٤) مجرد استحوذ: حاذ الشيء: إذا أحاطه وصرفه كيف يريد، يقال: حاذ العير: إذا جمعها وساقها غالبًا لها فاشتقّوا منه استفعل: للاستيلاء، والتدبير والمعالجة ولا يقال استحوذ إلا لمن كان عاقلاً يحسن التدبير والتصريف.

(٥) جيء بحرف التنبيه والاستفتاح ﴿أَلَآ﴾ تنبيهًا على أهمية ما دخلت عليه وأنه مما يحق أن ينتبه له. وضمير الفصل (هو) لإفادة القصر، وهو قصر ادعائي للمبالغة في مقدار خسرانهم.

قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾: أي أثبت الإيمان في قلوبهم. ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾: أي برهان ونور وهدى. ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: أي رضي الله عنهم بطاعتهم إياه في الدنيا ورضوا عنه في الآخرة بإدخاله إياهم في الجنة. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: أي ألا إن جند الله وأولياءه هم الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة.

معنى الآيات:

يخبر تعالى موجهًا المؤمنين مرشدًا لهم إلى أقوم طريق وأكمل الأحوال (٢٠) فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي يخالفونهما في أمرهما ونهيهما وما يدعوان إليه من الدين الحق ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي المخالفون في زمرة الأذلين[١] في الدنيا والآخرة. (٢١) وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ[٢] ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ أي كتب في اللوح المحفوظ وقضى بأن يغلب رسوله أعداءه بالحجة والسيف[٣]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي ذو قوة لا تقهر وعزة لا ترام فلذا قضى بنصرة رسوله على أعدائه مهما كانت قوتهم.

(٢٢) وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ[٤] بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يقول تعالى لرسوله لا تجد أناسًا يؤمنون بالله إيمانًا صادقًا بالله ربًا وإلهًا وباليوم الآخر يوادون بالمحبة والنصرة من حاد الله ورسوله بمخالفتهما في أمرهما ونهيهما وما يدعوان إليه من توحيد الله وطاعته وطاعة رسوله ولو كانوا أقرب قريب إليهم من أب أو ابن أو أخ أو عشيرة. وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ﴾ أي الله تعالى في قلوبهم الإيمان أي أثبته وقرره فيها فهو لا يبرح ينير لهم طريق الهدى حتى ينتهوا إلى جوار ربهم. ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[٥] أي ببرهان ونور منه سبحانه وتعالى هذا في الدنيا أما في الآخرة فيدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار أي بساتين غناء تجري الأنهار المختلفة من خلال الأشجار والقصور خالدين

الجزء الثامن والعشرون — سورة الحشر

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

ترتيبها ٥٩ — سُورَةُ الحَشْرِ — آياتها ٢٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾

٥٤٥

فيها لا يخرجون منها أبدًا، وفوق ذلك رضي الله عنهم بطاعتهم إياهم ورضوا عنه في الآخرة بإدخاله إياهم الجنة دار المتقين.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ أي أولئك العالون في كمالاتهم الروحية حزب الله أي جنده وأولياؤه، ثم أعلن تعالى عن فوزهم ونجاحهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ

---

(١) ﴿ٱلْأَذَلِّينَ﴾ جمع الأذل وهو: الأكثر ذلاً من كل ذليل والذل المهانة والصغار والاحتقار.

(٢) روي أن مقاتلاً قال: قال المؤمنون لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم فقال عبدالله بن أبي ابن سلول أتظنون أن الروم وفارس مثل القرى التي غلبتم عليها؟ والله إنهم لأكثر عددًا وأشد بطشًا من أن تظنوا فيهم ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ أي: قضى الله ذلك.

(٣) من بعث منهم بالحجة فإنه غالب بالحجة ومن بعثه بالسيف فهو غالب بالسيف بإذنه تعالى.

(٤) ذكر لنزول هذه الآية عدة أسباب وهي وإن لم تنزل في كلها فإنها منطبقة عليها فقيل: إنها نزلت في عبدالله بن عبدالله بن أبي ابن سلول فقد جاء لوالده بفضلة ماء من شراب رسول الله ﷺ لعل الله يطهر قلبه من النفاق فسأله ما هذا فأخبره فقال عليه لعائن الله: فهلا جئتني ببول أمك فإنه أطهر منها، فغضب وجاء يستأذن رسول الله ﷺ في قتله فلم يأذن له، وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق لما ضرب والده بشدّة لما سبّ له رسول الله ﷺ وقيل: نزلت في الذين بارزوا أقرباءهم يوم بدر.

(٥) قيل: هو جبريل، وقيل: بنصر منه، وقال الربيع بن أنس: بالقرآن وحججه.

﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1] أي الفائزون يوم القيامة بالنجاة من النار ودخول الجنة.

هداية الآيات:

١ - كتب الله الذل والصغار على من حاده وحاد رسوله بمخالفتهما فيما يحبان ويكرهان.

٢ - قضى الله تعالى بنصرة رسوله فنصره إنه قوي عزيز.

٣ - حرمة[2] موالاة الكافر بالنصرة والمحبة ولو كان أقرب قريب، وقد قاتل أصحاب رسول الله آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم في بدر. وفيهم نزلت هذه الآية تبشرهم برضوان الله تعالى لهم، وإنعامه عليهم اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمرتهم.

❋ ❋ ❋

سورة الحشر[3]
مدنية
وآياتهااربع وعشرون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٥]

(١) ﴿سَبَّحَ[4] لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي نزه الله تعالى وقدسه بلسان الحال والقال ما في السموات وما في الأرض من سائر الكائنات. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: أي العزيز في انتقامه من أعدائه الحكيم في تدبيره لأوليائه.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾: أي أخرج يهود بني النضير من ديارهم بالمدينة. ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾: أي لأول حشر كان وثاني حشر كان من خيبر إلى الشام. ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾: أي ما ظننتم أيها المؤمنون أن بني النضير يخرجون من ديارهم. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي وظن يهود بني النضير أن حصونهم تمنعهم مما قضى الله به عليهم من إجلائهم من المدينة. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾: أي فجاءهم الله من حيث لم يظنوا أنهم يؤتون منه. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾: أي وقذف الله تعالى الخوف الشديد من محمد وأصحابه. ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ﴾: أي يخربون بيوتهم حتى لا ينتفع بها المؤمنون وليأخذوا بعض أبوابها وأخشابها المستحسنة معهم. ﴿وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: إذ كانوا يهدمون عليهم الحصون ليتمكنوا من قتالهم. ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: أي فاتعظوا بحالهم يا أصحاب العقول ولا تغتروا ولا تعتمدوا إلا على الله سبحانه وتعالى.

(٣) ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾: أي ولولا أن كتب الله عليهم الخروج من المدينة. ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: أي بالقتل والسبي كما عذب بني قريظة إخوانهم بذلك.

(٤) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾: جزاهم بما جزاهم به من عذاب الدنيا والآخرة بسبب مخالفتهم لله ورسوله ومعاداتهم لهما.

(٥) ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا﴾: أي ما قطعتم أيها المؤمنون من نخلة لينة أو تركتموها بلا قطع. ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: أي فقطع ما قطعتم وترك ما تركتم كان بإرادة الله وكان ليجزي الله الفاسقين يهود بني النضير.

معنى الآيات:

يخبر تعالى عن جلاله وعظمته بأنه

---

(١) استدل مالك بهذه الآية ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا..﴾ إلخ.. على معاداة القدرية وترك مجالستهم. إذا كان هذا في القدرية فكيف بالرافضة؟!

(٢) روي أن داود عليه السلام قال: إلهي، أمن حزبك وحول عرشك؟ فأوحى الله إليه: يا داود، الغاضة أبصارهم النقية قلوبهم السليمة أكفهم، أولئك حزبي وحول عرشي.

(٣) وسمّاها ابن عباس سورة بني النضير لذكر قصة بني النضير فيها وسمّاها الرسول ﷺ (سورة الحشر) في حديث الترمذي عن معقل بن يسار أن النبي ﷺ قال: «**من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾** إلخ.. **وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي وإن مات في يومه مات شهيدًا، ومن قرأها حين يمسي كذلك**» وقال فيه: حسن غريب.

(٤) في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ إلخ.. تذكير للمؤمنين بتسبيح الله تعالى وأنه من الذكر الذي هو علة الوجود، وتركه مهلكة كالتي حلّت ببني النضير لتركهم **ذلك**.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

٥٤٦

سبحه أي نزهه عن كل النقائص من الشريك والصاحبة والولد والعجز والنقص مطلقًا بلسان القال ولسان الحال جميع ما في السموات وما في الأرض من الملائكة والإنس والجن والحيوان والشجر والحجر والمدر، وأنه هو العزيز الانتقام الحكيم في تدبير حياة الأنام. هو الذي أخرج الذين كفروا من ديارهم يهود بني النضير[١] أجلاهم من ديارهم بالمدينة لأول الحشر[٢] إلى أذرعات بالشام ومنهم من نزل بخيبر وسيكون لهم حشر آخر حيث حشرهم عمر وأجلاهم من خيبر إلى الشام.

﴿٢﴾ وقوله تعالى في خطاب المؤمنين: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ۖ﴾ أي من ديارهم وظنوا هم أنهم مانعتهم حصونهم من الله. فخاب ظنهم إذ أتاهم أمر الله من حيث لم يظنوا وذلك بأن قذف في قلوبهم الرعب والخوف الشديد من الرسول وأصحابه حتى أصبحوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين. المؤمنون يخربونها من الظاهر لفتح البلاد وهم يخربونها من الباطن وذلك أن الصلح الذي تم بينهم وبين الرسول والمؤمنين أنهم يحملون أموالهم إلا الحلقة أي السلاح ويجلون عن البلاد إلى الشام وهو أول حشر لهم فكانوا إذا أعجبهم الباب أو الخشبة نزعوها من محلها فيخرب البيت لذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي البصائر والنهي أي اتعظوا بحال بني النضير الأقوياء كيف قذف الله الرعب في قلوبهم وأجلوا عن ديارهم فاعتبروا يا أولي البصائر فلا تغتروا بقواكم ولكن اعتمدوا على الله وتوكلوا عليه.

﴿٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ[٣] ٱلْجَلَآءَ﴾ أزلا في اللوح المحفوظ لعذبهم في الدنيا بالسبي والقتل كما عذب بني قريظة بعدهم. ولهم في الآخرة عذاب النار، ثم علل تعالى لهذا العذاب الذي أنزله وينزله بهم.

﴿٤﴾ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ أي خالفوهما وعادوهما، ومن يشاق الله يعاقبه بأشد العقوبات فإن الله شديد العقاب.

﴿٥﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن[٤] لِّينَةٍ﴾ أي من نخلة أو تركتموها بلا قطع قائمة على أصولها فقد كان ذلك بإذن الله فلا إثم عليكم فيه فقد أسرّ به المؤمنين وأخزى به الفاسقين اليهود.

هداية الآيات:

١ ـ بيان جلال الله وعظمته مع عزه وحكمته في تسبيحه من كل

(١) بنو النضير: رهط من اليهود من ذرية هارون عليه السلام نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظارًا لمحمد ﷺ وكان من أمرهم ما قصّ تعالى في هذه السورة.

(٢) الحشر: الجمع أي: جمع الناس في مكان واحد، والمراد هنا: حشر يهود جزيرة العرب إلى أرض غيرها أي: جمعهم للخروج، ولذا هو يرادف الجلاء إذ كان الجلاء لجماعة عظيمة تجمع من الديار المتفرقة، واللام في قوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ﴾ هي لام التوقيت التي تدخل على أوّل الوقت نحو ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: لأول عدتهن وهو الطهر الذي لم تمس فيه.

(٣) الفرق بين الجلاء والإخراج أن الجلاء يكون بالأهل والأولاد وأمّا الإخراج قد يكون بدون ذلك وكلاهما مفارقة المرء وطنه ويقال: جلا المرء بنفسه وأجلاه غيره.

(٤) كان هذا من باب إلجاء العدو إلى ترك المقاومة والاستسلام. واللينة بمعنى: النخلة، واختير لفظ اللينة دون النخلة: لخفته وهو اللون دون العجوة والبرني.

المخلوقات العلوية والسفلية وفي إجلاء بني النضير من ديارهم وهو أول حشر وإجلاء تم لهم وسيعقبه حشرٌ ثانٍ وثالث[1].

٢ ـ بيان أكبر عبرة في خروج بني النضير، وذلك لما كان لهم من قوة ولما عليه المؤمنون من ضعف ومع هذا فقد انهزموا شر هزيمة وتركوا البلاد والأموال ورحلوا إلى غير رجعة. فعلى مثل هذا يتعظ المتعظون فإنه لا قوة تنفع مع قوة الله، فلا يغتر العقلاء بقواهم المادية بل عليهم أن يعتمدوا على الله أولاً وآخرًا.

٣ ـ علة هزيمة بني النضير ليست إلا محادتهم لله والرسول ومخالفتهم لهما وهذه سنته تعالى في كل من يحاده ويحاد رسوله فإنه ينزل به أشد أنواع العقوبات.

٤ ـ عفو الله تعالى على المجتهد إذا أخطأ وعدم مؤاخذته، فقد اجتهد المؤمنون في قطع نخل بني النضير من أجل إغاظتهم حتى ينزلوا من حصونهم. وأخطأوا في ذلك إذ قطع النخل المثمر فساد، ولكن الله تعالى لم يؤاخذهم لأنهم مجتهدون.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦، ٧]

(٦) ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾: أي وما رد الله لسيد رسول الله ﷺ من مال بني النضير.

﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ[2] عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾: أي أسرعتم في طلبه والحصول عليه خيلاً ولا إبلاً أي لم تعانوا فيه مشقة.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾: أي وقد سلط رسول الله محمدًا ﷺ على بني النضير ففتح بلادهم صلحًا.

(٧) ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾: أي وما رد الله على رسوله من أموال أهل القرى التي لم يوجف عليها بخيلٍ ولا رِكابٍ.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي لله جزء وللرسول جزء ولقرابة الرسول جزء ولليتامى جزء وللمساكين جزء ولابن السبيل جزء تقسم على المذكورين بالسوية.

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾: أي كيلا يكون المال متداولاً بين الأغنياء الأقوياء ولا يناله الضعفاء والفقراء.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾: أي وما أعطاكم الرسول وأذن لكم فيه أو أمركم به فخذوه وما نهاكم عنه وحظره عليكم ولم يأذن لكم فيه فانتهوا عنه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: أي واتقوا الله فلا تعصوه ولا تعصوا رسوله واحذروا عقوبة الله على معصيته ومعصية رسوله فإن الله شديد العقاب.

معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في غزوة بني النضير إنه بعد الصلح الذي تم بينهم وبين رسول الله ﷺ وقد تركوا حوائطهم أي بساتينهم فيئًا لرسول الله ﷺ ورغب المسلمون في تلك البساتين ورأى بعضهم أنها ستقسم عليهم كما تقسم الغنائم فأبى الله تعالى ذلك عليهم (٦) وقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي وما رد الله تعالى على رسوله من مال بني النضير. وكلمة ردّ تفسير لكلمة أفاء لأن الفيء الظل يتقلص ثم يرجع أي يُردّ وأموال بني النضير الأصل فيها لرسول الله ﷺ لأن بني النضير عاهدوا رسول الله وبمقتضى المعاهدة أبقى عليهم أموالهم فإذا نقضوا العهد وخانوا لم يستحقوا من المال شيئًا لا سيما وأنهم تآمروا على قتله وكادوا ينفذون جريمتهم التي تحملوا تبعتها ولو لم ينفذوها. وبداية القضية كالتالي:

أن المعاهدة التي تمت بين الرسول ﷺ وبين بني النضير من جملة بنودها أن يؤدوا مع الرسول ما يتحمل من ديات. وبعد وقعة أحد بنصف سنة حدث أن عمرو بن أمية

---

(١) الحشر: أي الجمع الأول: هو إجلاؤهم من المدينة، والثاني: هو إجلاؤهم عن الديار الحجازية على يد عمر رضي الله عنه لوصية الرسول ﷺ بذلك في قوله: «**لا يجتمع دينان في الجزيرة**» الثالث: هو إجلاؤهم من فلسطين بعد تجمعهم فيها وإقام دولتهم. جاء بهذا حديث مسلم: «**لتقاتلن اليهود...**» الحديث فسوف يتم إجلاؤهم حتى لا يجتمعوا مرة أخرى إلى قيام الساعة.

(٢) ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ﴾ هذه الفاء واقعة في جواب الذي، إذ الموصول فيه معنى الشرط فقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ﴾ أي: والذي أفاءه الله على رسوله ﷺ منهم فما أوجفتم... إلخ..

الضمري قتل خطأ رجلين من بني كلب أو بني كلاب فجاء ذووهم يطالبون بديتهم من رسول الله ﷺ إذ هو المسؤول عن المسلمين فخرج ﷺ إلى بني النضير في قريتهم[١] التي تبعد عن المدينة بميلين يطالب بالإسهام في دية الرجلين الكلابيين بحكم المعاهدة فلما انتهى إليهم أنزلوه هو وأصحابه بأحسن مجلس وقالوا ما تطلبه هو لك يا أبا القاسم ثم خلوا بأنفسهم وقالوا إن الفرصة سانحة للتخلص من الرجل فجاءوا برحًى «مطحنة» من صخرة وطلعوا بها إلى سطح المنزل وهموا أن يسقطوها على رأس رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الجدار مع أصحابه، وقبل أن يسقطوا الرحى أوحى الله إلى رسوله أن قم من مكانك فإن اليهود أرادوا إسقاط حجر عليك ليقتلوك فقام ﷺ على الفور وتبعه أصحابه وسقط في أيدي اليهود. وما إن رجع الرسول ﷺ حتى أعلن الخروج إلى بني النضير فإنهم نقضوا عهدهم ووجب قتال فنزل بساحتهم وحاصرهم وجرت سفارة وانتهت بصلح يقضي بأن يجلو بني النضير عن المدينة يحملون أموالهم على إبلهم دون السلاح ويلتحقوا بأذرعات بالشام فكان هذا أول حشر لهم إلى أرض المعاد والمحشر إلا أسرتين نزلتا بخيبر أسرة بني الحقيق الذين منهم حيي ابن أخطب والد صفية زوج رسول الله ﷺ. ولهذه الغزوة بقية ستأتي عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيات.

من هنا علمنا أن مال بني النضير هو لرسول الله ﷺ أفاءه الله عليه فقال وما أفاء الله على رسوله منهم أي من بني النضير. ولما طمع المؤمنون فيه قال تعالى ردًا عليهم فما أوجفتم[٢] عليه أي على أموال بني النضير أي ما ركبتم إليه خيلاً ولا إبلاً ولا أسرعتم عدوًا إليهم لأنهم في طرف المدينة فلم تتحملوا سفرًا ولا تبعًا ولا قتالاً موتًا وجراحات فلذا لا حق لكم فيها فإنها فيء وليست بغنائم. ولكن الله[٣] يسلط رسله على من يشاء بدون حروب ولا قتال فيفيء عليهم بمال الكفرة الذي هو مال الله فيرده على رسله، وقد سلط الله حسب سنته في رسله محمدًا ﷺ على أعدائه بني النضير فحاز المال بدون قتال ولا سفر فهو له دون غيره ينفقه كما يشاء ومع هذا فقد أنفقه ﷺ ولم يبق منه إلا قوت سنة لأزواجه رضي الله عنهن وأرضاهن. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يمتنع منه قوي، ولا يتعزز عليه شريف سري.

(٧) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ[٤] عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي من أموال أهل القرى التي ما فتحت عنوة ولكن صلحًا فتلك الأموال تقسم فيئًا على ما بيّن تعالى فللّه وللرسول ولذي القربى أي قرابة رسول الله ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب. واليتامى الذين لا عائل لهم، والمساكين الذين مسكنتهم الحاجة وابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن بلاده وداره وماله. وعلة ذلك بينها تعالى بقوله: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ﴾ أي المال ﴿دُولَةًۢ﴾[٥] أي متداولاً بين الأغنياء منكم، ولا يناله الضعفاء والفقراء فمن الرحمة والعدل أن يقسم الفيء على هؤلاء الأصناف المذكورين وما للّه فهو ينفق في المصالح العامة وكذلك ما للرسول بعد وفاته ﷺ والباقي للمذكورين، وكذا خمس الغنائم فإنه يوزع على المذكورين في هذه الآية أما الأربعة أخماس فعلى المجاهدين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾

---

(١) وكانت تسمى الزهرة وكان لها خمسة حصون.

(٢) الإيجاف: ضرب من سير الخيل وهو سير سريع والمراد: الركض للإغارة و(الركاب) اسم جمع للإبل التي تركب.

(٣) في الكلام حذف اقتضاه الإيجاز إذ التقدير: ولكن الله سلط عليهم رسوله ﷺ، والله يسلط رسله على من يشاء.

(٤) هذه الآية بداية كلام مستأنف استئنافًا ابتدائيًا فالأولى كانت بخاصة قسمة أموال بني النضير، وأما هذه فهي في بيان حكم الفيء في الإسلام.

(٥) ﴿دُولَةًۢ﴾ ما يتداوله المتداولون، والتداول: التعاقب في التصرف في شيء وأصبحت خاصة بتداول الأموال.

من مال وغيره ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي من مال وغيره فانتهوا عنه واتقوا الله فلا تعصوه ولا تعصوا رسوله واحذروا عقابه فإن الله شديد العقاب أي معاقبته قاسية شديدة لا تطاق فيا ويل من تعرض لها بالكفر والفجور والظلم.

هداية الآيتين:

١ ـ بيان أن مال بني النضير كان فيئًا خاصًا برسول الله ﷺ.

٢ ـ أن الفيء وهو ما حصل عليه المسلمون بدون قتال[1] وإنما بفرار العدو وتركه أو بصلح يتم بينه وبين المسلمين هذا الفيء يقسم على ما ذكر تعالى في هذه الآية إذ قال وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله، وللرسول، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وأما الغنائم وهي ما أخذت عنوة بالقوة وسافر إليها المسلمون فإنها تُخمَّس خمس لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل يوزع بينهم بالسوية، والأربعة الأخماس الباقية تقسم على المجاهدين الذين شاركوا في المعارك وخاضوها للراجل قسم وللفارس قسمان.

٣ ـ وجوب طاعة رسول الله ﷺ وتطبيق أحكامه والاستنان بسننه المؤكدة وحرمة مخالفته فيما نهى عنه أمته روى الشيخان أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لعن الله الواشمات[2] والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب كانت تقرأ القرآن فقالت بلغني أنك لعنت كيت وكيت. فقال: ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل؟ فقالت: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته، قال: إن كنت قرأته فقد وجدته. أما قرأت قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ[3] ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قالت: بلى. قال: فإنه ﷺ قد نهى عنه. أي الوشم إلخ..

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ ـ ١٠]

(٨) ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾: أي هاجروا حال كونهم طالبين من الله رزقًا يكفيهم ورضا منه تعالى. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾: أي في إيمانهم حيث تركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا ينصرون الله ورسوله.

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾: أي والأنصار الذين نزلوا المدينة وألِفوا الإيمان بعدما اختاروه على الكفر. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي من قبل المهاجرين. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾: أي حسدًا ولا غيظًا. ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾: أي مما أوتي إخوانهم المهاجرون من فيء بني النضير. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أي في كل شيء حتى إن الرجل منهم تكون تحته المرأتان فيطلق إحداهما ليزوجها مهاجرًا. ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾: أي حاجة شديدة وخلّة كبيرة لا يجدون ما يسدونها به. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾: أي ومن يقه الله تعالى حرص نفسه على المال والبخل به.

(١٠) ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: أي من بعد المهاجرين والأنصار من التابعين إلى يومنا هذا فما بعد. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي حقدًا أي انطواء على العداوة والبغضاء.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحديث عن فيء بني النضير وتوزيع الرسول ﷺ له

(٨) فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ أي أعجبوا[4] أن يعطى فيء بني النضير

---

(١) هذه المسألة خلافية بين الفقهاء وما في التفسير هو الذي عليه الأكثرون منهم وهو الراجح والله أعلم.

(٢) الوشم معروف، ملعونة فاعلته والمفعول لها، والتنمص نتف الشعر من الوجه والتفلج توسعة ما بين الأسنان بمنشار وغيره للتجمل بذلك.

(٣) الإيتاء: مستعار لتبليغ الأمر إليهم إذ جعل تشريعه وتبليغه كإيتاء شيء بأيديهم كقوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ إذ يريد التشريع الذي شرعه لهم في التوراة.

(٤) وقيل: إنّ ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ بيان لقوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ويكون ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ قيدًا لذي القربى بحيث لا يعطى منهم إلا الفقراء، وهذا مردود ردّه الشافعي على أبي حنيفة ردًا عنيفًا.

للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون أي حال كونهم في خروجهم يطلبون فضلاً من الله أي رزقًا يكف وجوههم عن المسألة ورضوانًا من ربهم أي رضًا عنهم لا يعقبه سخط. إذ كان الرسول ﷺ أعطى فيء بني النضير للمهاجرين ولم يعط للأنصار إلا ما كان من أبي دجانة وسهل بن حنيف فقد ذكرا لرسول الله ﷺ حاجة فأعطاهما. فتكلم المنافقون للفتنة وعابوا صنيع رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية يعجب منهم الرسول والمؤمنين في إنكارهم على عطاء رسول الله ﷺ المهاجرين دون الأنصار، وهو قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا[1] مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي في إيمانهم إذ صدقوا القول بالعمل، وما كان معتقدًا باطنًا أصبح عملاً ظاهرًا بهذه الأوصاف التي ذكر تعالى للمهاجرين أعطاهم الرسول من فيء بني النضير. وأما الأنصار الذين لم يعطهم المال الزائل وهم في غير حاجة إليه فقد أعطاهم ما هو خير من المال. وأسمع ثناءه تعالى عليهم: (٩) ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾[2] أي المدينة النبوية والإيمان أي بوأوه قلوبهم وأحبوه وألفوه. من قبلهم أي من قبل نزول المهاجرين[3] إلى المدينة يحبون من هاجر إليهم من سائر المؤمنين الذين يأتون فرارًا بدينهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة أي حسدًا ولا غيظًا مما أوتوا أي مما أعطى الرسول ﷺ المهاجرين.[4] ويؤثرون على أنفسهم غيرهم من المهاجرين ولو كان بهم خصاصة أي حاجة شديدة وخلة كبيرة لا يجدون ما يسدونها به، وفي السيرة من عجيب إيثارهم العجب العجاب في أن الرجل يكون تحته امرأتان فيطلق إحداهما فإذا انتهت عدتها زوجها أخاه المهاجر فهل بعد هذا الإيثار من إيثار؟.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾[5] أي من يقيه الله تعالى مرض الشح وهو البخل بالمال والحرص على جمعه ومنعه فهو في عداد المفلحين وقد وقى الأنصار هذا الخطر فهم مفلحون فهذا أيضًا ثناء عليهم وبشرى لهم.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد المهاجرين الأولين والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان يقولون في دعائهم الدائم

الجزء الثامن والعشرون — سورة الحشر

وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)

٥٤٧

---

(١) ﴿أُخْرِجُوا﴾ أي: أحوجهم المشركون إلى الخروج وكانوا مائة رجل كذا قال القرطبي.

(٢) ﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ لما كان التبوء يكون في الأماكن كان لا بد من تقدير لكلمة الإيمان نحو: تبوؤا الدار والتزموا الإيمان أو ألفوا الإيمان على حد قولهم: علفتها تبنًا وماءً باردًا. أي: وسقيتها ماءً.

(٣) في العبارة تجوز أي: من قبل نزول أكثر المهاجرين أو من قبل نزول الرسول ﷺ بالمدينة وهو سيد المهاجرين وسيد جميع العالمين.

(٤) أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة (أن رجلاً بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه فقال لامرأته: نوّمي الصبيان وأطفئي السراج وقربي للضيف ما عندك) فنزلت هذه الآية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

(٥) ومما ورد في ذم الشح قوله ﷺ: **«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»**.

لهم ﴿رَبَّنَا﴾ أي يا ربنا ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ أي ذنوبنا واغفر ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وهم المهاجرون والأنصار، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بك وبرسولك ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ أي ذو رأفة بعبادك ورحمة بالمؤمنين بك فاستجب دعاءنا فاغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً لهم.

هداية الآيات:

١ - بيان فضل المهاجرين والأنصار، وأن حبهم إيمان وبغضهم كفران.

٢ - فضيلة الإيثار على النفس.

٣ - فضيلة إيواء المهاجرين ومساعدتهم على العيش في دار الهجرة المهاجرين الذين هاجروا في سبيل الله تعالى فرارًا بدينهم ونصرة لإخوانهم المجاهدين والمرابطين.

٤ - خطر الشح وهو البخل بما وجب إخراجه من المال والحرص على جمعه من الحلال والحرام.

٥ - بيان طبقات المسلمين ودرجاتهم وهي ثلاثة بالإجمال:

١ - المهاجرون الأولون.

٢ - الأنصار الذين تبوءوا الدار «المدينة» وألفوا الإيمان.

٣ - من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين إلى قيام الساعة من أهل الإيمان والتقوى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ - ١٤]

(١١) ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: أي ألم تنظر. ﴿نَافَقُواْ﴾: أي أظهروا الإيمان وأخفوا في نفوسهم الكفر. ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي يهود بني النضير.

(١٢) ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ﴾: أي من دياركم بالمدينة. ﴿لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾: أي نخرج معكم ولا نبقى بعدكم في المدينة. ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ﴾: أي قاتلكم محمد ﷺ وأصحابه. ﴿لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾: أي بالرجال والسلاح. ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾: أي فيما وعدوا به إخوانهم من بني النضير. ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾: أي وعلى فرض أنهم نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون المنافقون كاليهود سواء.

(١٣) ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم﴾: أي تالله لأنتم أشد خوفًا في صدورهم. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: لأن الله تعالى يؤخر عذابهم وأنتم تعجلونه لهم. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾: أي المنافقين. ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾: لظلمة كفرهم وعدم استعدادهم للفهم عن الله ورسوله.

(١٤) ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا﴾: أي لا يقاتلكم يهود بني النضير مجتمعين. ﴿إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ﴾: أي بالأسوار العالية. ﴿أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۢ﴾: أي من وراء المباني والجدران أما المواجهة فلا يقدرون عليها. ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞ﴾: أي العداوة بينهم شديدة والبغضاء أشد. ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا﴾: أي مجتمعين. ﴿وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾: أي متفرقة خلاف ما تحسبهم عليه. ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾: إذ لو كانوا يعقلون لاجتمعوا على الحق ولا ما كفروا به وتفرقوا فيه فهذا دليل عدم عقلهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن غزوة بني النضير

(١١) فيقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أي تنظر[1] يا رسولنا إلى الذين نافقوا وهم عبدالله بن أبي ابن سلول ووديعة ومالك ابنا نوفل وسويد وداعس إذ بعثوا إلى بني النضير حين نزل بساحتهم رسول الله ﷺ لحربهم بعثوا إليهم أن اثبتوا وتمنعوا وإن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم غير أنهم لم يفوا لهم ولم يأتهم منهم أحد وقذف الله الرعب في قلوبهم فسألوا رسول الله ﷺ أن يُجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة «السلاح» هذا معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[2] من أهل الكتاب «يهود بني النضير» لئن

---

(١) بعد ذكر ما حل ببني النضير من خزي وعذاب حيث أجلوا عن ديارهم تاركينها وراءهم وذكر ما أفاء الله على رسوله ﷺ من أموالهم شرع تعالى في تعجيب رسوله ﷺ والمؤمنين من حال المنافقين وما لحقهم من عار وشنار فقال لرسوله ﷺ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ..﴾ إلخ..

(٢) الاستفهام للتعجب والأخوة هي أخوة التلاقي في الكفر وفي بغض الإسلام ورسوله ﷺ وأهله. فما هي بأخوة نسب ولا دين.

فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

ترتيبها ٦٠ — سورة الممتحنة — آياتها ١٣

٥٤٨

أخرجتم من المدينة لنخرجن معكم، ولا نطيع فيكم أي في نصرتكم والوقوف إلى جنبكم أحدًا كائنًا من كان وإن قوتلتم أي قاتلكم محمد ﷺ ورجاله لننصرنكم. والله يشهد إنهم لكاذبون فيما قالوا لهم وفعلاً لم يقاتلوا معهم ولم يخرجوا معهم كما خرجوا من ديارهم.

(١٢) وهو قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا[1] لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وعلى فرض أنهم نصروهم ليولن الأدبار هاربين من المعركة، ثم لا ينصرون اليهود كالمنافقين سواء.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ يخبر تعالى رسوله والمؤمنين بأنهم أشد رهبة أي خوفًا في صدور المنافقين من الله تعالى لأنهم يرون أن الله تعالى يؤجل عذابهم، وأما المؤمنون فإنهم يأخذونهم بسرعة للقاعدة (من بدّل دينه فاقتلوه) فإذا أعلنوا عن كفرهم وجب قتلهم وقتالهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[2] هذا بيان لجبنهم وخوفهم الشديد من الرسول ﷺ والمؤمنين. إذ لو كانوا يفقهون لما خافوا العبد ولم يخافوا المعبود.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾[3] أي اليهود والمنافقون ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بأسوار وحصون أو من وراء جدر أي في المباني وراء الجدران. وقوله تعالى بأسهم بينهم شديد أي العداوة بينهم قوية والبغضاء شديدة تحسبهم جميعًا في الظاهر وأنهم مجتمعون ولكن ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[4] أي متفرقة لا تجتمع على غير عداوة الإسلام وأهله، وذلك لكثرة أطماعهم وأغراضهم وأنانيتهم وأمراضهم النفسية والقلبية.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[5] إذ لو كانوا يعقلون لما حاربوا الحق وكفروا به وهم يعملون فعرضوا أنفسهم لغضب الله ولعنته وعذابه.

هداية الآيات:

١ - تقرير حقيقة وهي أن الكفر ملة واحدة وأن الكافرين إخوان.

٢ - خلف الوعد آية النفاق وعلاماته البارزة.

٣ - الجبن والخوف صفة من صفات اليهود اللازمة لهم ولا تنفك عنهم.

٤ - عامة الكفار يبدون متحدين ضد الإسلام وهم كذلك ولكنهم فيما بينهم تمزقهم العداوات وتقطعهم الأطماع وسوء الأغراض والنيات.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ - ٢٠]

(١٥) ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾: أي مثل يهود بني النضير في

---

(١) جملة ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا...﴾ إلخ. بيان لجملة: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

(٢) الفقه: إدراك المعاني الدقيقة والأسرار الخفية في كلام أهل الحكمة وذوي البصيرة.

(٣) الجملة بدل اشتمال من جملة: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يقاتلكم اليهود مع المنافقين مجتمعين في جيش واحد وفي الآية تهديد ليهود بني قريظة أمّا بنو النضير فقد انتهى أمرهم.

(٤) ﴿شَتَّىٰ﴾ جمع شتيت: بمعنى مفارق كقتيل وقتلى.

(٥) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما ذكر من عدم اتفاقهم وتفرّق قلوبهم، والباء سببية ونفي العقل عنهم نفي للازمِهِ وهو ما يقود إليه من النجاة والسعادة.

ترك الإيمان ومحاربة الرسول ﷺ كمثل إخوانهم بني قينقاع والمشركين في بدر. ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي ذاقوا عاقبة كفرهم وحربهم لرسول الله ولهم عذابٌ أليم في الآخرة.

(١٦) ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ﴾: أي ومثلهم أيضًا في سماعهم من المنافقين وخذلانهم لهم كمثل الشيطان إذ قال للإنسان. ﴿ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾: أي قال له الشيطان بعد أن كفره إني بريء منك.

(١٧) ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي خلودهما في النار أي الغاوي والمغوى ذلك جزاءهما وجزاء الظالمين.

(١٨) ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾: أي لينظر كل أحد ما قدم ليوم القيامة من خير وشر.

(١٩) ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾: أي ولا تكونوا أيها المؤمنون كالذين نسوا الله فتركوا طاعته. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾: أي فعاقبهم بأن أنساهم أنفسهم فلم يعملوا خيرًا قط.

(٢٠) ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي لأن أصحاب الجنة فائزون بالسلامة من المرهوب والظفر بالمرغوب المحبوب. وأصحاب النار خاسرون. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾: في جهنم خالدون، فكيف يستويان؟

معنى الآيات:

(١٥) قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[١] هذه الآية (١٥) واللتان بعدها (١٦) و(١٧) في بقية الحديث عن بني النضير إذ قال تعالى مثل بني النضير في هزيمتهم بعد نقضهم العهد كمثل الذين من قبلهم في الزمان والمكان وهم بنو قينقاع إذ نقضوا عهدهم فأخرجهم رسول الله ﷺ وذاقوا وبال أمرهم أي عاقبة نقضهم وكفرهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم أي موجع شديد.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾[٢] بوسائله الخاصة فلما كفر الإنسان تبرأ منه الشيطان وقال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين كذلك حال بني النضير مع المنافقين حيث حرضوهم على الحرب والقتال وواعدوهم أن يكونوا معهم ثم خذلوهم وتركوهم وحدهم.

(١٧) وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي عاقبة أمرهما أنهما أي الإنسان والشيطان أنهما في النار خالدين فيها، وذلك أي خلودهما في النار جزاء الظالمين أي المشركين والفاسقين عن طاعة الله عز وجل.

وبعد نهاية قصة بني النضير نادى تعالى المؤمنين ليوجههم وينصح لهم (١٨) فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي صدقوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً اتقوا الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، ولتنظر نفس ما قدمت[٣] لغد أي ولينظر أحدكم في خاصة نفسه ماذا قدم لغدٍ أي يوم القيامة. واتقوا الله، أعاد الأمر بالتقوى لأن التقوى هي ملاك الأمر ومفتاح دار السلام والسعادة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يشجعهم على مراقبة الله تعالى والصبر عليها.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي لا تكونوا كأناسٍ تركوا العمل بطاعة الله

---

(١) هذا ضرب مثل للمنافقين واليهود في تخاذلهم وعدم الوفاء في نصرتهم، وحذف حرف العطف لأن الكلام معطوف على سابقه وهو ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلخ.. لأن حذف حرف العطف شائع تقول: أنت عاقل أنت كريم أنت كذا بلا حرف عطف.

(٢) هنا روى غير واحد من السلف حديثًا يتضمن قصة تشرح هذه الآية الكريمة ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ...﴾ إلخ.. وهي أن راهبًا تركت عنده امرأة أصابها لمم ليدعو لها فزيّن له الشيطان فوطئها فحملت ثم قتلها خوفًا أن يفتضح فدل الشيطان قومها على موضعها فجاؤوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه فجاءه الشيطان فوعده أنه إن سجد له أنجاه منهم فسجد له فتبرأ منه فأسلمه لقاتليه وتركه، واسم هذا الراهب، برصيصا.

(٣) أطلق لفظ الغد وأريد به يوم القيامة جريًا على عادة العرب فإنهم يطلقون لفظ الغد كناية عن المستقبل، وقيل إطلاق لفظ الغد هنا إشارة إلى قرب الساعة كما قال الشاعر:

فإن يكُ صدر هذا اليوم ولى ... فإن غدًا لناظره قريب

وطاعة رسوله فعاقبهم ربهم بأن أنساهم أنفسهم فلم يعملوا لها خيرًا وأصبحوا بذلك فاسقين عن أمر الله تعالى خارجين عن طاعته.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي[1] أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، أصحاب النار في الدركات السفلى، وأصحاب الجنة في الفراديس العلا فكيف يستويان، إذ أصحاب الجنة فائزون، وأصحاب النار خاسرون.

هداية الآيات:

١ - ضرب مثل لحال الكافرين في عدم الاتعاظ بحال غيرهم.

٢ - التحذير من سبل الشيطان وهي الإغراء بالمعاصي وتزيينها فإذا وقع العبد في الهلكة تبرأ الشيطان منه وتركه في محنته وعذابه.

٣ - وجوب التقوى بفعل الأوامر وترك النواهي.

٤ - وجوب مراقبة الله تعالى والنظر يوميًا فيما قدم الإنسان للآخرة وما أخر.

٥ - التحذير من نسيان الله تعالى المقتضي لعصيانه فإن عقوبته خطيرة وهي أن يُنسي الله العبد نفسه فلا يقدم لها خيرًا قط فيهلك ويخسر خسرانًا مبينًا.

٦ - عدم التساوي بين أهل النار وأهل الجنة، إذ أصحاب النار لم ينجو من المرهوب وهو النار، ولم يظفروا بمرغوب وهو الجنة، وأصحاب الجنة على العكس سلموا من المرهوب، وظفروا بالمرغوب نجوا من النار ودخلوا الجنان.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ ـ ٢٤]

(٢١) ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾: أي وجعلنا فيه تميزًا وعقلًا وإدراكًا. ﴿لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾: أي لرأيت ذلك الجبل متشققًا متطامنًا ذليلًا. ﴿مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾: أي من خوف الله خشية أن يكون ما أدى حقه من التعظيم. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾[2]: أي مثل هذا المثل نضرب الأمثال للناس. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي يتذكرون فيؤمنون ويوحدون ويطيعون.

(٢٢) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي الله المعبود بحق الذي لا معبود بحق إلا هو عز وجل. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: أي عالم السر والعلانية. ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾: أي رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

(٢٣) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي لا معبود بحق إلا هو لأنه الخالق الرازق المدبر وليس لغيره ذلك. ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾: أي الذي يملك كل شيء ويحكم كل شيء القدوس الطاهر المنزه عما لا يليق به. ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾: أي ذو السلامة من كل نقص الذي لا يطرأ عليه النقص المصدق رسله بالمعجزات. المهيمن: الرقيب الشهيد على عباده بأعمالهم. ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾: العزيز في انتقامه الجبار لغيره على مراده، المتكبر على خلقه. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي تنزيهًا لله تعالى عما يشركون من الآلهة الباطلة.

(٢٤) ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ﴾: أي هو الإله الحق لا غيره الخالق لكل المخلوقات المنشيء لها من العدم. ﴿الْمُصَوِّرُ﴾: أي مصور المخلوقات ومركبها على هيئات مختلفة. ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: أي تسعة وتسعون اسمًا كلها حسنى في غاية الحسن. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي ينزهه ويسبحه بلسان القال والحال جميع ما في السموات والأرض. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: أي العزيز الغالب على أمره الحكيم في جميع تدبيره.

معنى الآيات:

(٢١) قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ . .﴾[3] لما أمر تعالى في الآيات السابقة ونهى ووعظ وذكر بما

---

(١) هذه الجملة: ﴿لَا يَسْتَوِي . . .﴾ إلخ. . تذييل لما سبقها وهي كالفذلكة لما تقدّم من الأمر بتقوى الله عز وجل وبيان حال المتقين الذاكرين والناسين الفاسقين.

(٢) هذه الجملة في الآيات تذييل لأن ما قبلها سيق مساق المثل فذيل بأن الأمثال التي يضربها الله تعالى في كلامه المراد منها أن يتفكر فيها الناس ليهتدوا إلى ما ينجيهم ويسعدهم.

(٣) (لو) هذه حرف امتناع لامتناع أي: امتنع إنزال القرآن على جبل فامتنعت رؤيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله، ولو حصل الأول لحصل الثاني.

لا مزيد عليه أخبر أنه لو أُنزل هذا القرآن العظيم على جبل بعد أن خلق فيه إدراكًا وتمييزًا كما خلق ذلك في الإنسان لَرُؤِيَ ذلك الجبل خاشعًا ذليلاً متصدعًا متشققًا من خشية الله أي من الخوف من الله لعله قصّر في حق الله وحق كتابه ما أداهما على الوجه المطلوب، وفي هذا موعظة للمؤمنين ليتدبروا القرآن ويخشعوا عند تلاوته وسماعه. ثم أخبر تعالى أنّ ما ضرب من أمثال في القرآن ومنها هذا المثل المضروب بالجبل. يقول نجعلها للناس رجاء أن يتكفروا فيؤمنوا ويهتدوا إلى طريق كمالهم وسعادتهم ثم أخبر تعالى عن جلاله وكماله بذكر أسمائه وصفاته

(۲۲) فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو، عالم الغيب والشهادة أي السر والعلن والموجود والمعدوم والظاهر والباطن. هو الرحمٰن الذي وسعت رحمته كل شيء الرحيم بعباده المؤمنين، الملك الذي له ملك السموات والأرض والمدبر للأمر في الأرض والسماء، القدوس[1] الطاهر المنزه عن كل نقص وعيب عن الشريك والصاحبة والولد. السلام ذو السلامة[2] من كل نقص مفيض السلام على من شاء من عباده. المؤمن المصدق رسله بما آتاهم من المعجزات المصدق عباده المؤمنين فيما يشكون إليه مما أصابهم، ويطلبونه ما هم في حاجة إليه من رغائبهم وحاجاتهم، المهيمن على خلقه الرقيب عليهم المتحكم فيهم لا يخرج شيء من أعمالهم وتصرفاتهم عن إرادته وإذنه، العزيز الغالب على أمره الذي لا يمانع فيما يريده. الجبار[3] للكل على مُرادِه وما يريده، المتكبر على كل خلقه وله الكبرياء في السموات والأرض والجلال والكمال والعظمة.

(۲۳) وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزّه تعالى نفسه عما يشرك به المشركون من عبدة الأصنام والأوثان وغيرها من كل ما عُبد من دونه سبحانه وتعالى:

(۲٤) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾: المقدر للخلق البارىء له المصور له في الصورة التي أراد أن يوجده عليها. ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي مائة اسم إلا اسمًا واحدًا كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في صحيح البخاري وأسماؤه متضمنة صفاته وكُل أسمائه حسنى وكل صفاته عليا منزه عن صفات المحدثين يسبح له ما في السموات والأرض من مخلوقات وكائنات أي ينزهه ويقدسه عما لا يليق به ويدعوه ويرغب إليه في بقائه وكمال حياته. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الغالب على أمره الحكيم في تدبير ملكه.

هداية الآيات:

١ - بيان ما حواه القرآن من العظات والعبر، والأمر والنهي والوعد والوعيد الأمر الذي لو أن جبلاً ركب فيه الإدراك والتمييز كالإنسان ونزل عليه القرآن لخشع وتصدع من خشية الله.

٢ - استحسان ضرب الأمثال للتنبيه والتعليم والإرشاد.

٣ - تقرير التوحيد، وأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

٤ - إثبات أسماء الله تعالى، وأنها كلها حسنى، وأنها متضمنة صفات عليا.

٥ - ذكر أسمائه تعالى تعليم لعباده بها ليدعوه بها ويتوسلوا بها إليه.

❊ ❊ ❊

---

(١) لفظ القدوس: مشتق من القدس بلغة الحجاز وهو: السطل لأنه يتطهر به، ومنه القادوس لواحد الأواني التي يستخرج بها الماء للتطهر وغيره قال ثعلب اللغوي: كل اسم على وزن فعول فهو مفتوح الأول نحو سعود، وكلوب، وتنور إلا السبوح والقدوس فإن الضم فيها أكثر من الفتح.

(٢) لاسم السلام ثلاث معانٍ صادقة: منها ذو السلامة كما في التفسير ومنها ذو السلام: أي المسلم على عباده في الجنة: ومنها الذي سلم من كل عيب وبرىء من كل نقص.

(٣) الجبار: قال ابن عباس: هو العظيم وجبروت الله: عظمته وهو على هذا القول صفة ذات من قولهم: نخلة جبارة. قال الشاعر:

سوامق جبّار أثيث فروعه ... وعالين قنوانًا من البسر أحمرا

السوامق: مرتفعات، وأثيث: الملتف، والقنوان: العذق.

سورة الممتحنة(١)
مدنية
وآياتها ثلاث عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)

٥٤٩

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٣]

(١) ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾: أي الكفار والمشركين. ﴿أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾: أي لا تتخذوهم أنصارًا توادونهم. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾: أي الإسلام عقيدة وشريعة. ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾: أي بالتضييق عليكم حتى خرجتم فارين بدينكم. ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾: أي لأجل أن آمنتم بربكم. ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾: فلا تتخذوهم أولياء ولا تبادلوهم المودة. ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾: أي توصلون إليهم خبر خروج الرسول لغزوهم بطريقة سرية. ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾: أي ومن يوادهم فينقل إليهم أسرار النبي في حروبه وغيرها. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: أي أخطأ طريق الحق الجادة الموصلة إلى الإسعاد.

(٢) ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾: أي إن يظفروا بكم متمكنين منكم في مكانٍ ما. ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾: أي لا يعترفون لكم بمودة. ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾: أي بالضرب والقتل. ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾: أي بالسب والشتم. ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾: أي وأحبوا لو تكفرون بدينكم ونبيكم وتعودون إلى الشرك معهم.

(٣) ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾: أي إن توادوهم وتسروا إليهم بالأخبار الحربية تقربًا إليهم من أجل أن يراعوا لكم أقرباءكم وأولادكم المشركين بينهم فاعلموا أنكم لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾: أي فتكونون في الجنة ويكون المشركون من أولاد وأقرباء وغيرهم في النار.

معنى الآيات:

(١) فاتحة هذه السورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي(٢) وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآيات. نزلت في شأن حاطب بن أبي(٣) بلتعة وكان من المهاجرين الذين شهدوا بدرًا روى مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «**ائتوا روضة خاخ ـ موضع بينه وبين المدينة اثنا عشر ميلًا ـ فإن بها ظعينة ـ امرأة مسافرة(٤) ـ معها كتاب فخذوه منها**» فانطلقنا نهادي خيلنا أي نسرعها فإذا نحن بامرأة فقلنا: اخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب. فقلنا لتخرجن الكتاب، أو لَتُلقِنَّ الثياب(٥) ـ أي من عليك ـ

---

(١) قال القرطبي: المشهور في اسم هذه السورة أنه الممتحنة بكسر الحاء اسم فاعل، وهو الذي جزم به السُهَيلي، والمراد من الممتحنة الآية التي في هذه السورة إذ بها تمتحن المرأة التي تجيء مهاجرة من بلادها وتترك زوجها. والآية هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ إلخ. ورجح الحافظ ابن حجر فتح الحاء باسم المفعول أي: المرأة الممتحنة.

(٢) العدو: ذو العداوة وهو فعول بمعنى فاعل من عدا يعدو وأصله مصدر على وزن فعول مثل قبول، ولما كان على وزن المصادر عومل معاملة المصدر فاستوى في الوصف به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث.

(٣) تسمى سارة مولاة لأبي عمرو بن صيفر بن هاشم بن عبدمناف وهي يومئذ مشركة.

(٤) في رواية: أو لتلقين الثياب أي: لنجردنك من ثيابك.

فأخرجته من عقاصها أي من ظفائر شعر رأسها فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا به من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**يا حاطب ما هذا؟**» فقال: لا تعجل عليّ يا رسول الله إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش ـ أي كان حليفًا لقريش ولم يكن قرشيًا ـ وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، ولم أفعله كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه وإن كتابي لا يغني عنهم من الله شيئًا، وأن الله ناصرك عليهم. فقال النبي ﷺ: «**صدق**» فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ من الكفار والمشركين ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي أنصارًا ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم[1] بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي أسرار النبي ﷺ الحربية ذات الخطر والشأن. والحال أنهم قد كفروا بما جاءكم من الحق الذي هو دين الإسلام بعقائده وشرائعه وكتابه ورسوله. يخرجون الرسول وإياكم من[2] دياركم بالمضايقة لكم حتى هاجرتم فارين بدينكم، أن تؤمنوا[3] بربكم أي من أجل أن آمنتم بربكم، أمثل هؤلاء الكفرة الظلمة تتخذونهم أولياء تدلون إليهم بالمودة.. إنه لخطأ جسيم ممن فعل هذا.

وقوله تعالى: ﴿إِن[4] كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ أي إن كنتم خرجتم من دياركم مجاهدين في سبيلي أي لنصرة ديني ورسولي وأوليائي المؤمنين وطلبًا لرضاي فلا تتخذوا الكافرين أولياء من دوني تلقون إليهم بالمودة.

وقوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ[5] إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، أي تخفون المودة إليهم بنقل أخبار الرسول السرية والحال أني ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ومن غيركم ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾. وها قد أطلعت رسولي على رسالتكم المرفوعة إلى مشركي مكة والتي تتضمن فضح سر رسولي في عزمه على غزوهم مفاجأة لهم حتى يتمكن من فتح مكة بدون كثير إراقة دم وإزهاق أنفس.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي الولاء والمودة للمشركين فقد ضلّ سواء السبيل أي أخطأ وسط الطريق المأمون من الانحراف يريد جانب الإسلام الصحيح.

(٢) وقوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝﴾ أي أنهم أعداؤكم حقا إن يثقفوكم أي يظفروا بكم متمكنين منكم يكونوا لكم أعداء ولا يبالون بمودتكم إياهم، ويبسطوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل وألسنتهم بالسب والشتم وتمنوا كفركم لتعودوا إلى الشرك مثلهم.

(٣) وقوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾[6] الذين واددتم الكفار من أجلهم من عذاب الله في الآخرة إذ حاطب كتب الكتاب من أجل قرابته وأولاده فبيّن تعالى خطأ حاطب في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ بأن تكونوا في الجنة أيها المؤمنون ويكون أقرباؤكم وأولادكم

---

(١) جائز أن تكون جملة: ﴿تُلْقُونَ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ والإلقاء حقيقته: رمي ما في اليد على الأرض، واستعير لإلقاء الشيء بدون تدبر في موقعه أي: تصرفون إليهم مودتكم بدون تأمل في آثارها الضارة.

(٢) الجملة: حال من الضمير في كفروا وحكيت بالمضارع لاستحضار الصورة البشعة في الذهن.

(٣) أي: لأن تؤمنوا بالله ربكم علة وسبب إخراجهم إياكم من دياركم أي: هو اعتداء حملهم عليه أنكم آمنتم بالله ربكم.

(٤) هذه الجملة شرطية ذيّل بها النهي: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى﴾ والغرض هو تأكيد الكلام السابق.

(٥) الجملة بيانية لسابقتها، وجملة: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾ حالية فيها بمعنى التعجب بضميمة التي قبلها.

(٦) ﴿لَن تَنفَعَكُمْ..﴾ الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا إذ الذي يسمع جملة: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ يتطلع إلى ما يترتب على الكفر فيجاب بجملة: لن تنفعهم أرحامهم ولا أولادهم ولو في قوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ مصدرية أي: ودوا كفركم.

المشركون في النار. فما الفائدة إذًا من المعصية من أجلهم؟! والله بما تعملون بصير فراقبوه واحذروه فلا تخرجوا عن طاعته وطاعة رسوله.

هداية الآيات:

١ - حرمة موالاة الكافرين بالنصرة والتأييد والمودة دون المسلمين.

٢ - الذي ينقل أسرار المسلمين الحربية إلى الكافرين على خطر عظيم وإن صام وصلى.

٣ - بيان أن الكافرين لا يرحمون المؤمنين متى تمكنوا منهم لأن قلوبهم عمياء لا يعرفون معروفًا ولا منكرًا بظلمة الكفر في نفوسهم وعدم مراقبة الله عز وجل لأنهم لا يعرفونه ولا يؤمنون بما عنده من نعيم وجحيم يوم القيامة.

٤ - فضل أهل بدر وكرامتهم على الله عز وجل.

٥ - قبول عذر الصادقين الصالحين ذوي السبق في الإسلام إذا عثر أحدهم اجتهادًا منه.

٦ - عدم انتفاع المرء بقرابته يوم القيامة إذا كان مسلمًا وهم كافرون.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤ - ٦]

﴿٤﴾ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾: أي أيها المؤمنون. ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أي قدوة صالحة. ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾: من المؤمنين فأتسوا بهم. ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾: أي المشركين. ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي نحن متبرئون منكم، ومن أوثانكم التي تعبدونها. ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾: أي جحدنا بكم فلم نعترف لكم بقرابة ولا ولاء. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾: أي ظهر ذلك واضحًا جليًا لا لبس فيه ولا خفاء. ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾: أي ستستمر عداوتنا لكم وبغضنا إلى غاية إيمانكم بالله وحده. ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾: أي رجعنا في أمورنا كلها.

﴿٥﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي بأن تظهرهم علينا فيفتنوننا في ديننا ويفتتنون بنا يرون أنهم على حق لما يغلبوننا.

﴿٦﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: أي لقد كان لكم أيها المؤمنون في إبراهيم والذين معه أسوة حسنة. ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾: أي هي أسوة حسنة لمن كان يؤمن بالله ويرجو ما عنده يوم القيامة. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾: أي لم يقبل ما أرشدناه إليه من الإيمان والصبر فيعود إلى الكفر. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾: أي فإن الله ليس في حاجة إلى إيمانه وصبره فإنه غنيّ بذاته لا يفتقر إلى غيره، حميد أي محمود بآلائه وإنعامه على عباده.

الجزء الثامن والعشرون — سورة الممتحنة

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

٥٥٠

معنى الآيات:

لما حرم تعالى على المؤمنين موالاة الكافرين مع وجود حاجة قد تدعو إلى موالاتهم كما جاء ذلك في اعتذار حاطب بن أبي بلتعة أراد تعالى أن يشجعهم على معاداة الكافرين وعدم موالاتهم بحال من الأحوال لما في ذلك من الضرر والخطر على العقيدة والصلة بالله وهي أعز ما يملك المؤمنون أعلمهم بأنه يوجد لهم[1] أسوة أي قدوة حسنة في إبراهيم خليله والمؤمنين معه[2] فإنهم على قلتهم وكثرة عدوهم وعلى ضعفهم وقوة خصومهم تبرأوا من أعداء الله وتنكروا لأية صلة تربطهم بهم فقالوا

(١) قرأ نافع ﴿إسوة﴾ بكسر الهمزة، وقرأها حفص بالرفع وهي القدوة الصالحة.

(٢) هم: سارة زوجه ولوط ابن أخيه فهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾.

ما قصّ الله تعالى عنهم

④ في قوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من أصنام وأوثان ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ فلم نعترف لكم بوجود يقتضي مودتنا ونصرتنا لكم، ﴿وَبَدَا﴾ أي ظهر ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ(١) وَٱلۡبَغۡضَآءُ﴾ بصورة مكشوفة لا ستار عليها لأننا موحدون وأنتم مشركون، لأننا مؤمنون وأنتم كافرون، وسوف تستمر هذه المعاداة وهذه البغضاء بيننا وبينكم حتى تؤمنوا بالله وحده ربًا وإلهًا لا رَبَّ غيره ولا إله سواه إذًا فأتسوا أيها المسلمون بإمام الموحدين إبراهيم اللهم إلا ما كان من استغفار إبراهيم(٢) لأبيه فلا تأتسوا به ولا تستغفروا لموتاكم المشركين فإن إبراهيم قد ترك ذلك لما علم أن أباه لا يؤمن وأنه يموت كافرًا وأنه في النار فقال تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ «آزر» لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء أي غير الاستغفار. وكان هذا عن وعد قطعه له ساعة المفارقة له إذ قال في سورة مريم: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ وجاء في سورة التوبة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ أي رجعنا من الكفر إلى الإيمان بك وتوحيدك في عبادتك، ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾. أي مصير كل شيء يعود إليك وينتهي عندك فتقضي وتحكم بما تشاء.

⑤ ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي لا تظهرهم علينا فيفتنونا في ديننا ويردونا إلى الكفر، ويفتنون بنا فيرون أنهم لما غلبونا أنهم على حق ونحن على باطل فيزدادون كفرًا ولا يؤمنون.

واغفر لنا ربنا أي ذنوبنا السالفة واللاحقة فلا تؤاخذنا بها إنك أنت العزيز الغالب المنتقم ممن عصاك الحكيم في تدبيرك لأوليائك فدبر لنا ما ينفعنا ويرضيك عنا. هذا الابتهال والضراعة من قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا﴾ إلى ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ من الجائز أن يكون هذا مما قاله إبراهيم والمؤمنون معه وأن يكون إرشادًا من الله للمؤمنين أن يقولوه تقوية لإيمانهم وتثبيتًا لهم عليه كما فعل ذلك إبراهيم ومن معه.

⑥ وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ(٣) أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾، تأكيد لما سبق وتقرير له وتحريك للهمم لتأخذ به. وقوله: ﴿لِّمَن(٤) كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾ إذ هم الذين ينتفعون بالعبر ويأخذون بالنصائح لحياة قلوبهم بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، أي عن الأخذ بهذه الأسوة فيوالي الكافرين فإن الله غني عن إيمانه وولايته له التي استبدلها بولاية أعدائه حميد أي محمود بآلائه وإنعامه على خلقه.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب الاقتداء بالصالحين في الايتساء بهم في الصالحات.

٢ ـ حرمة موالاة الكافرين ووجوب معاداتهم ولو كانوا أقرب قريب.

٣ ـ كل عداوة وبغضاء تنتهي برجوع العبد إلى الإيمان والتوحيد بعد الكفر والشرك.

٤ ـ لا يجوز الاقتداء في غير الحق والمعروف فإذا أخطأ العبد الصالح فلا يتابع على الخطأ.

٥ ـ وجوب تقوية المؤمنين بكل أسباب القوة لأمرين: الأول: خشية أن يغلبهم الكافرون فيفتنوهم في دينهم ويردوهم إلى الكفر، والثاني: حتى لا يظن الكافرون الغالبون أنهم

---

(١) العداوة: هي المعاملة بالسوء والاعتداء، والبغضاء: نفرة النفس والكراهية للمبغض.

(٢) الاستثناء منقطع إذ هذا القول ليس من جنس قولهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ﴾ إذ قول إبراهيم لأبيه: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ هو رفق بأبيه وهو مغاير للتبرؤ.

(٣) الفتنة: اضطراب الحال وفساده، ومعنى الآية: سؤال الله تعالى أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا أي: أن لا يسلط عليهم الذين كفروا حتى لا يفتنوهم في دينهم ويجوز أن يكون فتنة: اسم فاعل أي: لا تجعلنا بضعفنا فاتنين لهم صارفين لهم عن الإسلام كما هو في التفسير وهو واضح غاية الوضوح.

(٤) ﴿فِيهِمۡ﴾ أي في إبراهيم والمؤمنين معه، والأسوة الحسنة: القدوة الصالحة أي: اقتدوا بهم في البراءة من الشرك والمشركين.

(٥) هذه الجملة بدل من جملة: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ..﴾.

على حق بسبب ظهورهم على المسلمين فيزدادوا كفرًا فيكون المسلمون سببًا في ذلك فيأثمون للسببية في ذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ ـ ٩]

(٧) ﴿عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾: أي من كفار قريش بمكة طاعة لله واستجابة لأمره. ﴿مَّوَدَّةً﴾: أي محبة وولاء وذلك بأن يوفقهم للإيمان والإسلام فيؤمنوا ويسلموا ويصبحوا أولياءكم. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾: أي على ذلك وقد فعل فأسلم بعد الفتح أهل مكة إلا قليلاً منهم.

(٨) ﴿لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾: أي من أجل الدين. ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾: أي تحسنوا إليهم. ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾: أي تعدلوا فيهم فتنصفوهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾: أي المنصفين العادلين في أحكامهم ومن ولوا.

(٩) ﴿وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾: أي عاونوا وناصروا العدو على إخراجكم من دياركم. ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾: أي تتولهم بالنصرة والمحبة. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: لأنهم وضعوا الولاية في غير موضعها، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بيان حكم الموالاة للكافرين فإنه لما حرم تعالى ذلك، وكان للمؤمنين قرابات كافرة وبحكم إيمانهم واستجابتهم لنداء ربهم قاطعوهم فَبَشَّرَهُم تعالى في هذه الآية الكريمة بأنه عز وجل قادر على أن يجعل بينهم وبين أقربائهم مودة.

(٧) فقال عز من قائل: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي من المشركين ﴿مَّوَدَّةً﴾[1]. وذلك بأن يوفقهم للإسلام، وهو على ذلك قدير وقد فعل وله الحمد والمنة فقد فتح على رسوله مكة وبذلك آمن أهلها إلا قليلاً فكانت المودة وكان الولاء والإيخاء مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقد تاب عليهم بعد أن هداهم وغفر لهم ما كان منهم من ذنوب ورحمهم.

(٨) وقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ[2] الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ بمضايقتكم أن تبروهم أي بالإحسان إليهم بطعام[3] أو كسوة أو إركاب وتقسطوا أي تعدلوا فيهم بأن تنصفوهم وهذا عام في كل الظروف الزمانية والمكانية وفي كل الكفار. ولكن بالشروط التي ذكر تعالى. وهي:

أولاً: أنهم لم يقاتلونا من أجل ديننا.

وثانيًا: لم يخرجونا من ديارنا بمضايقتنا وإلجائنا إلى الهجرة.

وثالثًا: أن لا يعاونوا عدوًا من أعدائنا بأي معونة ولو بالمشورة والرأي فضلاً عن الكراع والسلاح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ترغيب لهم في العدل والإنصاف حتى مع الكافر.

(٩) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ عن موالاة الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا أي أعانوا ﴿عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي ينهاكم عن موالاتهم. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ معرضًا عن هذا الإرشاد الإلهي والأمر الرباني ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لأنفسهم المتعرضون لعذاب الله ونقمته لوضعهم الموالاة في غير موضعها

---

(١) هذا بعد أن يسلم الكافرون ويوحد المشركون وفعلاً فقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة ووالاهم المسلمون كأبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام. ومن مظاهر هذه المودة تزوج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان وبذلك لانت عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة حتى إنه لما بلغه تزوج النبي ﷺ بها قال: ذلك الفحل لا يقدح أنفه أي: لا يضرب أنفه، وهي كلمة مدح.

(٢) اختلف في هل هذه الآية محكمة أو منسوخة بقتال المشركين؟ والذي عليه أكثر أهل العلم سلفًا وخلفًا أنها محكمة بما ذكر فيها من شروط وأن العمل بها باق ببقاء الإسلام كما هو في التفسير.

(٣) روى البخاري ومسلم وأبو داود أن قتيلة أم أسماء بنت أبي بكر الصديق قدمت عليها في فترة الهدنة بين الرسول ﷺ والمشركين وأهدتها قرطًا وأشياء فكرهت أن تقبل ذلك فأتت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فأذن لها في قبول هدية أمها واستأذنته في صلتها؟ فقال لها: «**صلي أمك**».

بعدما عرفوا ذلك وفهموه.

هداية الآيات:

١ - بيان حكم الموالاة الممنوعة والمباحة في الإسلام.

٢ - الترغيب في العدل والإنصاف بعد وجوبهما للمساعدة على القيام بهما.

٣ - تقرير ما قال أهل العلم: أن عسى من الله تفيد وقوع ما يرجى بها ووجوده لا محالة. بخلافها من غير الله فهي للترجي والتوقع وقد يقع ما يُترجى بها وقد لا يقع.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠، ١١]

(١٠) ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾: أي المؤمنات بألسنتهن مهاجرات من الكفار. ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾: أي اختبروهن بالحلف أنهن ما خرجن إلا رغبة في الإسلام لا بغضًا لأزواجهن، ولا عشقًا لرجال من المسلمين. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾: أي صادقات في إيمانهن بحسب حلفهن. ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾: أي لا تردوهن إلى الكفار بمكة. ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾: لا المؤمنات يحللن لأزواجهن الكافرين، ولا الكافرون يحلون لأزواجهم المؤمنات. ﴿وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾: أي وأعطوا الكفار أزواج المؤمنات المهاجرات المهور التي أعطوها لأزواجهم. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾: أي مهورهن، وإن لم يتم طلاق من أزواجهن لانفساخ العقد. ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: بالإسلام. وبعد انقضاء العدة في المدخول بها وباقي شروط النكاح.

﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾: أي زوجاتكم، لقطع إسلامكم للعصمة الزوجية. وكذا من ارتدت ولحقت بدار الكفر. إلا أن ترجع إلى الإسلام قبل انقضاء عدتها فلا يفسخ نكاحها وتبقى العصمة إن كان مدخولاً بها. ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾: أي اطلبوا ما أنفقتم عليهن من مهور في حال الارتداد. ﴿وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾: أي على المهاجرات من مهور في حال إسلامهن.

(١١) ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾: أي بأن فرت امرأة أحدكم إلى الكفار ولحقت بهم ولم يعطوكم مهرها فعاقبتم أي الكفار فغنمتم منهم غنائم. ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾: أي فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفار مثل ما أنفقوا عليهن من مهور. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾: أي وخافوا الله الذي أنتم به مؤمنون فأدوا فرائضه واجتنبوا نواهيه.

معنى الآيتين:

(١٠) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ الآيتين (١٠) و(١١) نزلتا بعد صلح الحديبية إذ تضمنت وثيقة الصلح أن من جاء الرسول ﷺ من مكة من الرجال رده إلى مكة ولو كان مسلمًا، ومن جاء المشركين من المدينة لم يردوه إليه ولم ينص عن النساء، وأثناء ذلك جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن[1] أبي معيط مهاجرة من مكة إلى المدينة فلحق بها أخواها عمار[2] والوليد ليردّاهما إلى قريش فنزلت هذه الآية الكريمة فلم يردها عليهما ﷺ. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[3] أي يا من آمنتم بالله ربًا وإلهًا وبمحمد نبيًا ورسولاً والإسلام دينًا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام فامتحنوهن[4] - الله أعلم بإيمانهن - فإن علمتموهن أي غلب

---

(١) وكذلك جاءت سبيعة الأسلمية مهاجرة هاربة من زوجها صيفي، وجاءت أميمة بنت بشر هاربة من زوجها ثابت بن الشمراخ، فجاء أزواجهن مطالبين بهن فقال زوج سبيعة للنبي ﷺ: إن طينة الكتاب الذي بيننا وبينك لم تجف بعد فنزلت هذه الآية.

(٢) ذكر القرطبي أن أخوي أم كلثوم أتيا النبي ﷺ مع أختهما مهاجرين وأن النبي ﷺ ردهما على المشركين ولم يرد أختهما أم كلثوم وكانت تحت عمرو بن العاص وهو مشرك يومئذ، وذكر ابن كثير: أن أخوي أم كلثوم وفدا يطالبان بأختهما لا مهاجرين وهذا الظاهر.

(٣) لما كانت المعاهدة لم تنص على النساء بلفظ صريح وهو لفظ أحد وهو صالح للرجال والنساء نزلت هذه الآية مخرجة للنساء من عموم لفظ ﴿أَحَدٍ﴾ فالآية مبينة أو ناسخة والكل صالح.

(٤) اختلف في صيغة الامتحان فقال ابن عباس: كانت المحنة أن تستحلف بالله أنها ما خرجت من بغض زوجها ولا رغبة عن أرض إلى أرض ولا التماس دنيا ولا عشقًا لرجل منا بل حبًا لله ورسوله ﷺ فإن حلفت على ذلك، أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها.

على ظنكم أنهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار وصورة الامتحان أن يقال لها احلفي بالله أي قولي بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت إلا رغبة في الإسلام لا بغضًا لزوجي، ولا عشقًا لرجل مسلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لأن الإسلام فصم تلك العصمة التي كانت بين الزوج وزوجته، إذ حرم الله نكاح المشركات، وإنكاح المشركين، ولذا لم يأذن الله تعالى في ردهن إلى أزواجهن الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ إذا جاء زوجها المشرك يطالب بها أعطوه ما أنفق عليها من مهر والذي يعطيه هو جماعة المسلمين وإمامهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي تتزوجهن إذا آتيتموهن أجورهن أي مهورهن مع باقي شروط النكاح من ولي وشاهدين وانقضاء العدة في المدخول بها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أي إذا أسلم الرجل وبقيت امرأته مشركة انقطعت عصمة الزوجية وأصبحت لا تحل لزوجها الذي أسلم، وكذا إذا ارتدت امرأة مسلمة ولحقت بدار الكفر فإن العصمة قد انقطعت، ولا يحل الإمساك بها وفائدة ذلك لو كان تحت الرجل نسوة له أن يزيد رابعة لأن التي ارتدت أو التي كانت مشركة وأسلم وهي في عصمته لا تمنعه من أن يتزوج رابعة لأن الإسلام قطع العصمة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، والعصم جمع عصمة.

وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ اطلبوا من المرتدة ما أنفقتم عليها من مهر يؤدى لكم وليسألوا هم ما أنفقوا وأعطوهم أيضًا مهور نسائهم اللائي أسلمن وهاجرن إليكم، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه وحاجاتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في قضائه وتدبيره فليسلم له الحكم وليرضَ به فإنه قائم على أساس المصلحة للجميع.

(١١) وقوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ[١]﴾ أي وإن ذهب بعض نسائكم إلى الكفار مرتدات، وطالبتم بالمهور فلم يعطوكم، ثم غزوتم وغنمتم فأعطوا من الغنيمة قَبل قسمتها الذي ذهبت زوجته إلى دار الكفر ولم يحصل على تعويض أعطوه مثل ما أنفق.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟[٢] ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي خافوا عقابه فأطيعوه في أمره ونهيه ولا تعصوه.

هداية الآيتين:

١ - وجوب امتحان المهاجرة فإن علم إسلامها لا يحل إرجاعها إلى زوجها الكافر لأنها لا تحل له، وإعطاؤه ما أنفق عليها من مهر. ويجوز بعد ذلك نكاحها بمهر وولي وشاهدين إن كانت مدخولاً بها فبعد انقضاء عدتها وإلا فلا حرج في الزواج بها فورًا.

٢ - حرمة نكاح المشركة.

٣ - لا يجوز الإبقاء على عصمة الزوجة[٣] المشركة، وللزوج المسلم الذي بقيت زوجته على الكفر، أو ارتدت بعد إسلامها أن يطالب بما أنفق عليها من مهر وللزوج الكافر الذي أسلمت زوجته وهاجرت أن يسأل كذلك ما أنفق عليها.

٤ - ومن ذهبت زوجته ولم يُردّ عليه شيء مما أنفق عليها، ثم غزا المسلمون تلك البلاد وغنموا فإن من ذهبت زوجته ولم يعوض عنها يعطى ما أنفقه من الغنيمة قبل قسمتها. وإن لم تكن غنيمة فجماعة المسلمين

---

(١) ﴿عَاقَبْتُمْ﴾ أي: غزوتم فغنمتم فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم من المسلمين. حكى الثعلبي: عن ابن عباس أن ستًا من النسوة رجعن عن الإسلام ولحقن بالمشركين وسماهن واحدة واحدة وأكرمهن: أم الحكم بنت أبي سفيان وفي هذه نزلت الآية.

(٢) الجملة تذييلية المراد منها تحريض المؤمنين على الوفاء بما أمروا به ونهوا عنه وأُتبع اسم الجلالة بجملة ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ إشارة إلى أن الإيمان يبعث على التقوى التي هي: امتثال واجتناب.

(٣) اختلف في الرجل يسلم وتحته كافرة أو كافرة تسلم وهي تحت زوج كافر. والذي عليه الشافعي وأحمد أن العصمة تبقى مدة العدة فإذا انقضت العدة ولم يسلم الكافر منهما يفرق بينهما ولا يحلان لبعضهما. وقال مالك: يفرق بينهما من يوم إسلام أحدهما.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

ترتيبها ٦١ — سورة الصف — آياتها ١٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

وإمامهم يساعدونه ببعض ما أنفق من باب التكافل والتعاون.

٥ - وجوب تقوى الله تعالى بتطبيق شرعه وإنفاذ أحكامه والرضا بها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢، ١٣]

﴿١٢﴾ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾: أي يوم الفتح والرسول ﷺ على الصفا وعمر أسفل منه. ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾: أي على أن لا يشركن بالله شيئًا - إلى - ولا يعصينك في معروف. ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ﴾: أي أي شيء من الشرك أو الشركاء. ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾: أي كما كان أهل الجاهلية يقتلون البنات وأدًا لهن. ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ﴾: أي بكذب يكذبنه فيأتين بولد ملقوط وينسبنه إلى الزوج وهو ليس بولده. ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾: أي ما عرفه الشرع صالحًا حسنًا فأمر به وانتدب إليه. أو ما عرفه الشرع منكرًا محرمًا. ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾: أي اقبل بيعتهن. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾: أي اطلب الله تعالى لهن المغفرة لما سلف من ذنوبهن وما قد يأتي.

﴿١٣﴾ ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: أي اليهود. ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أي من ثوابها مع إيقانهم بها، وذلك لعنادهم النبي مع علمهم بصدقه. ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾: أي كيأس من سبقهم من اليهود الذين كفروا بعيسى وماتوا على ذلك فهم أيضًا قد يئسوا من ثواب الآخرة.

معنى الآيتين:

﴿١٢﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه آية بيعة النساء، فقد بايع عليها رسول الله ﷺ[1] نساء قريش يوم الفتح وهو جالس على الصفاء وعمر دونه أسفل منه، وهو يبايع، وطلب إليه أن يمد يده فقال: «**إنّي لا أصافح النساء**» فبايعهن على أن لا يشركن[2] بالله شيئًا أي من الشرك أو الشركاء ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن كما كان نساء الجاهلية يئدن بناتهن ولا يأتين ببهتان أي كذب يفترينه أي يكذبنه بين أيديهن وأرجلهن أي لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن، ولا يعصينك في معروف[3] بصورة عامة وفي النياحة بصورة خاصة إذ كان النساء في الجاهلية ينحن على الأموات ويشققن الثياب ويخدشن الوجوه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ فبايعهن ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا

---

(١) في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يمتحن بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ..﴾ إلخ.. الآية وكان ﷺ إذا أقررن بذلك بقولهن قال لهن ﷺ: «**انطلقن فقد بايعتكن**» ولا والله ما مسّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط غير أنه يبايعهن بالكلام.

(٢) روي أنّ النبي ﷺ لما قال: «**على أن لا يشركن بالله شيئًا**» قالت هند بنت عتبة وهي متنقبة: والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما رأيتك أخذته على الرجال، وكان بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط ولما قال: «**ولا يسرقن**» قالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصيب من ماله قوتًا فقال أبو سفيان: هو لك حلال، فضحك النبي ﷺ وعرفها لأنها كانت متنكرة لما نالت من حمزة رضي الله عنه وقال: «**أنتِ هند؟**» فقالت: عفا الله عما سلف. ثم قال: «**ولا يزنين**» فقالت هند: أوَ تزني الحرة؟

(٣) قال قتادة: لا ينحن ولا تخلو امرأة منهن إلا بذي محرم وفي صحيح مسلم عن أم عطية: لما نزلت هذه الآية قالت: يا رسول الله إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية فلا بد أن أسعدهم فقال ﷺ: «**إلا آل فلان**» فأذن لها أن تفي بوعدها.

يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبهن وما قد يأتي ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله لا تتولَّوا قومًا غضب الله عليهم وهم اليهود لا تتولوهم بالنصرة والمحبة وقد يئسوا من الآخرة أي من ثواب الله فيها بدخول الجنة وذلك لعنادهم رسول الله ﷺ وكفرهم به مع علمهم أنه رسول الله ومن كفر به وكذبه أو عانده وحاربه لا يدخل الجنة فلذا هم آيسون من دخول الجنة. وقوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ[1] أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي كما يئس إخوانهم الذين ماتوا قبلهم من دخول الجنة إذ كفروا بعيسى عليه السلام وحاربوه ووالدته واتهموا عيسى بالسحر ووالدته بالعهر، والعياذ بالله فيئس هؤلاء من دخول الجنة كما يئس من مات منهم ممن هم أصحاب قبور.

هداية الآيتين:

١ - مشروعية أخذ البيعة لإمام المسلمين ووجوب الوفاء بها.

٢ - حرمة الشرك وما ذكر معه من السرقة والزنا وقتل الأولاد والكذب والبهتان وإلحاق الولد بغير أبيه.

٣ - حرمة النياحة وما ذكر معها من شق الثياب وخمش الوجوه والتحدث مع الرجال الأجانب.

٤ - بعد الحرة كل البعد من الزنا إذ قالت هند وهي تبايع أو تزني الحرة؟ قال: لا تزني الحرة.

٥ - حرمة مصافحة النساء لقوله ﷺ في البيعة: «**إني لا أصافح النساء**».

٦ - حرمة موالاة اليهود بالنصرة والمحبة.

❁ ❁ ❁

سورة الصف
مدنية
وآياتها أربع عشرة آية

الجزء الثامن والعشرون — سورة الصف

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

٥٥٢

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٦]

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي نزه وقدس بلسان القال والحال جميع ما في السموات وما في الأرض من كائنات. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: أي العزيز الغالب على أمره الحكيم في تدبيره وصنعه.

(٢) ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾: أي لأي شيء تقولون قد فعلنا كذا وكذا وأنتم لم تفعلوا؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتأنيب.

(٣) ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي عظم مقتًا، والمقت: أشد البغض والمقيت والممقوت المبغوض. ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾: أي قولكم ما لا تفعلون يبغضه الله أشد البغض.

(٤) ﴿صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾: أي صافين: ومرصوص ملزق بعضه ببعض لا فرجة فيه.

(٥) ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾: أي إذ قالوا أنه آدر كذبًا فوبخهم على كذبهم وأذيتهم له. ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾: أي أتؤذونني والحال أنكم تعلمون أني

---

(١) ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ﴾ صالح لأن يكون معنى الكلام كما يئس الكفار من عودة أصحاب القبور إليهم. وكما يئس أصحاب القبور من العودة إلى الحياة الأولى، وما في التفسير اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى.

رسول الله إليكم. ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: أي فلما عدلوا عن الحق بإيذائهم موسى أزاغ الله قلوبهم أي أمالها عن الهدى. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾: أي الذين فسقوا وتوغلوا في الفسق فما أصبحوا أهلاً للهداية.

(٦) ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي أولاد يعقوب الملقب بإسرائيل، ولم يقل يا قوم كما قال موسى لأنه لم يكن منهم لأنه ولد بلا أب، وأمه صدِّيقة. ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾: أي قبلي من التوراة. ﴿يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾: هو محمد رسول الله ﷺ وأحمد أحد أسمائه الخمسة المذكوران والماحي، والعاقب والحاشر. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾: أي على صدق رسالته بالمعجزات الباهرات. ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: أي قالوا في المعجزات إنها سحر.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ[(١)] مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُخبر تعالى أنه قد سبحه جميع ما في السموات وما في الأرض بلسان القال والحال، وأنه العزيز الحكيم العزيز الغالب على أمره لا يمانع في مراده الحكيم في صنعه وتدبيره لملكه. بعدما أثنى تعالى على نفسه بهذا خاطب المؤمنين

(٢) بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ[(٢)] تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[(٣)] لفظ النداء عام والمراد به جماعة من المؤمنين قالوا لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لفعلناه فلما علموه ضعفوا عنه ولم يعملوا فعاتبهم الله تعالى في هذه الآية ولتبقى تشريعًا عامًا إلى يوم القيامة فكل من يقول فعلت ولم يفعل فقد كذب وبئس الوصف الكذب ومن قال سأفعل ولم يفعل فهو مخلف للوعد وبئس الوصف خلف الوعد وهكذا يربي الله عباده على الصدق والوفاء.

(٣) وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا[(٤)] عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي قولكم نفعل ولم تفعلوا مما يمقت عليه صاحبه أشد المقت أي يُبغض أشد البغض.

(٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ[(٥)] ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي صافين متلاصقين لا فرجة بينهم كأنهم بنيان مرصوص بعضه فوق بعض لا خلل فيه ولا فرجة كأنه ملحَّم بالرصاص.

(٥) وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾[(٦)] أي اذكر إذ قال موسى لقومه من بني إسرائيل يا قوم لَم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم، والحال أنكم تعلمون أني رسول الله إليكم حقًا وصدقًا، وقد آذوه بشتى أنواع الأذى بألسنتهم السليطة وآرائهم الشاذة من ذلك قولهم إن موسى آدر ولذا هو لا يغتسل معنا، ومعنى آدر به أدرة وهي انتفاخ الخصية.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ أي مالوا عن الحق بعد علمه غاية العلم فآثروا الباطل على الحق والشر على الخير والكفر على الإيمان عاقبهم الله فصرف قلوبهم عن الهدى نقمة منه تعالى عليهم، وذلك لأنه سنته تعالى فيمن عرض عليه الخير فأباه بعد علمه به، ثم دعا إليه فلم يستجب ثم رغب

---

(١) في جامع الترمذي عن عبدالله بن سلام قال: قعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحبّ إلى الله لعملناه فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ إلخ. السورة. ورواه الحاكم وأحمد وغيره.

(٢) اللام حرف جر والميم حرف استفهام وهو هنا إنكاري توبيخي.

(٣) النداء بوصف الإيمان فيه التعريض بأن الإيمان من شأن صاحبه أن لا يخلف إذا وعد وأن يفي إذا نذر لأنه روح وصاحبه حيٌّ قادر على الفعل والترك بخلاف الكفر وأهله.

(٤) ﴿مَقْتًا﴾ منصوب على التمييز وهو تمييز نسبة والتقدير: كبر ممقوتًا قولكم ما لا تفعلون.

(٥) هذا جواب لقولهم: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه فبيّن لهم أحب الأعمال إليه وهو أحب العاملين عنده فله الحمد وله المنة.

(٦) لعلّ وجه المناسبة بين قصة موسى هنا وعتاب المؤمنين على فرار من فرّ يوم أحد هو: أن قوم موسى أيضًا جبنوا عن قتال عدوهم وقالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾.

فيه فلم يرغب وواصل الشر مختارًا له عندئذ يصبح ما اختار من الفسق أو الكفر أو الظلم أو الإجرام طبعًا له وخلقًا ثابتًا لا يتبدل ولا يتغير. وعلى هذا يؤول مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَـٰسِقِينَ﴾، والله لا يهدي القوم الظالمين، والله لا يهدي القوم المجرمين، والله لا يهدي القوم الكافرين لأنه تعالى أضلهم حسب سنته في الإضلال فلا يستطيع أحد غيره تعالى أن يهدي عبدًا أضله الله على علم وهذا معنى قوله تعالى من سورة النحل [٣٧]: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَن يُضِلُّ﴾.

(٦) وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾[1] أي اذكر يا رسولنا للاتعاظ والعبرة قول عيسى ابن مريم لليهود: يا بني إسرائيل نسبهم إلى جدهم يعقوب الملقب بإسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. إني رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة وهذا برهان على صدقي في دعوتي إذ لم أخالف فيما أدعو إليه من عبادة الله وحده ما في التوراة كتاب الله عز وجل وهو بين أيديكم فوفاقنا دال على أن مصدر تشريعنا واحد هو الله عز وجل فكما آمنتم بموسى وهارون وداود وسليمان آمنوا بي فإني رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة، ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه[2] أحمد، فلهذا قال رسول الله ﷺ: **«أنا دعوة[3] أبي إبراهيم وبشارة عيسى»** إذ إبراهيم لما كان يبني البيت مع إسماعيل كانا يتقاولان ما أخبر تعالى به في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِكَ . . .﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي محمد[4] ﷺ بالبينات أي بالحجج الدالة على صدق رسالته ووجوب اتباعه في العقيدة والشريعة كفروا به وقالوا في القرآن هذا سحر مبين كما قالها فرعون مع موسى. وكما قالتها اليهود مع عيسى عليه السلام.

هداية الآيات:

١ ـ بيان غنى الله تعالى عن خلقه وأنه سبح لله ما في السموات و ما في الأرض وأن ما شرعه لعباده من العبادات والشرائع إنما هو لفائدتهم وصالح أنفسهم يكملوا عليه أرواحًا وأخلاقًا ويسعدوا به في الحياتين.

٢ ـ حرمة الكذب وخلف الوعد إذ قول القائل أفعل كذا ولم يفعل كذب وخلف وعدٍ. ولذا كان قوله من المقت الذي هو أشد البغض، ومن مقته الله فقد أبغضه أشدَّ البغض وكيف يفلح من مقته الله.

٣ ـ فضيلة الجهاد والوحدة والاتفاق وحرمة الخلاف والقتال والصفوف ممزقة حسيًا أو معنويًا.

٤ ـ التحذير من مواصلة الذنب بعد الذنب فإنه يؤدي إلى الطبع وحرمان الهداية.

٥ ـ بيان كفر اليهود بعيسى عليه السلام وازدادوا كفرًا بكفرهم بمحمد ﷺ.

٦ ـ بيان كفر النصارى إذ رفضوا بشارة عيسى وردوها عليه ولم يؤمنوا بالمبشر به محمد ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ ـ ٩]

(٧) ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾: أي لا أحد أعظم ظلمًا ممن يكذب على الله فينسب إليه الولد والشريك، والقول والحكم وهو تعالى بريء من ذلك. ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَـٰمِ﴾: أي والحال أن هذا الذي يفتري الكذب على الله يدعي إلى الإسلام الذي هو الاستسلام والانقياد لحكم الله وشرعه. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: أي من ظَلم ثم ظلم وواصل الظلم يصبح الظلم طبعًا له فلا يصبح قابلاً للهداية فيحرمها حسب سنة الله تعالى في ذلك.

---

(١) وجه مناسبة قصة عيسى لما قبلها أن بني إسرائيل كما فسقوا عن أمر الله وعصوا رسوله موسى فسقوا كذلك عن أمر الله وعصوا عيسى وكفروا فكان هذا تعزية لرسول الله ﷺ لما لقيه ويلقاه من اليهود.

(٢) هل الاسم هو عين المسمى؟ خلاف كبير والصحيح: أن الاسم هو اللفظ الدال على ذات به تتميز عن سائر الذوات.

(٣) رواه ابن إسحق بسند جيد ورواه أحمد بألفاظ مختلفة.

(٤) جائز أن يكون الضمير في جاءهم عائد إلى عيسى عليه السلام وعلى محمد ﷺ إذ كلاهما قيل فيه سحر أو ساحر قرأ الجمهور ﴿سحر﴾ في الآيات وقرأ بعضهم: ساحر أي: محمد أو عيسى عليهما السلام.

Ⓥ﴿ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾: أي يريد المشركون بكذبهم على الله وتشويه الدعوة الإسلامية، ومحاربتهم لأهلها يريدون إطفاء نور الله القرآن وما يحويه من نور وهداية بأفواههم وهذا محال فإنّ إطفاء نور الشمس أو القمر أيسر من إطفاء نور لا يريد الله إطفاءه.

Ⓥ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ ﴾: أي أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى أي بالهداية البشرية. ﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾: أي الإسلام إذ هو الدين الحق الثابت بالوحي الصادق. ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾: أي لينصره على سائر الأديان حتى لا يبقى إلا الإسلام دينًا. ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾: أي ولو كره نصره وظهوره على الأديان المشركون الكافرون.

معنى الآيات:

Ⓥ يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ[١] مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ والحال أنه يدعى إلى الإسلام الدين الحق إنه أظلم من هذا الإنسان أبدًا، إن ظلمه لا يقارَن بظلم، هذا معنى قوله تعالى في الآية الأولى (٧): ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾. أي اختلق الكذب على الله عز وجل وقال له كذا وكذا أو قال أو شرع كذا وهو لم يقل ولم يشرع. كما هي حال مشركي قريش نسبوا إليه الولد والشريك وحرموا السوائب والبحائر والحامات وقالوا في عبادة أصنامهم لو شاء الله ما عبدناهم إلى غير ذلك من الكذب والاختلاق على الله عز وجل. وقوله: ﴿ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾ إذ لو كان أيام الجاهلية حيث لا رسول ولا قرآن لهان الأمر أما أن يكذب على الله والنور غامر والوحي ينزل والرسول يدعو ويبين فالأمر أعظم والظلم أظلم.

Ⓥ وقوله تعالى في الآية (٨): ﴿ يُرِيدُونَ[٢] لِيُطْفِـُٔواْ[٣] نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي يريد أولئك الكاذبون على الله القائلون في الرسول: ساحر وفي القرآن إنه سحر مبين إطفاء نور الله الذي هو القرآن وما حواه من عقائد الحق وشرائع الهدى وبأي شيء يريدون إطفاءه إنه بأفواههم وهل نور الله يطفأ بالأفواه كنور شمعة أو مصباح. إن نور الله متى أراد الله إتمامه إطفاء نور القمر أو الشمس أيسر من إطفائه فليعرفوا هذا وليكفوا عن محاولاتهم الفاشلة فإن الله يريد أن يتم[٤] نوره ولو كره المشركون.

Ⓥ إنه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ دين الله الحق الذي هو الإسلام ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ وذلك حين نزول عيسى إذ يبطل يومها كل دين ولم يبق إلا الإسلام ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ﴾ ذلك ﴿ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ فإن الله مظهره لا محالة.

هداية الآيات:

١ - عظم جرم الكذب على الله وأنه من أفظع أنواع الظلم.

٢ - حرمان الظلمة المتوغلين في الظلم من الهداية.

٣ - إيئاس المحاولين إبطال الإسلام وإنهاء وجوده بأنهم لا يقدرون إذ الله تعالى أراد إظهاره فهو ظاهر منصور لا محالة.

٤ - تقرير نبوّة محمد ﷺ.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ - ١٤]

Ⓥ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ﴾: أي أرشدكم إلى تجارة رابحة. ﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾: أي الربح فيها هو نجاتكم من عذاب مؤلم يتوقع لكم.

Ⓥ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾: أي تصدقون بالله ربًا وإلهًا وبمحمد نبيًا ورسولاً للّه تعالى. ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾: أي وتبذلون أموالكم وأرواحكم جهادًا في سبيل الله تعالى. ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

---

(١) الاستفهام وإن كان للنفي فهو متضمن الإنكار الشديد على كل من المشركين وأهل الكتابين إذ الجميع افتروا على الله الكذب، فالمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: عيسى ابن الله.

(٢) استئناف بياني ناشيء عن الإخبار عنهم بأنهم افتروا على الله الكذب في الوقت الذي هم يدعون إلى الإسلام فلما فضحهم القرآن راموا إطفاء نور الله الذي هو كتابه ورسوله ﷺ ودينه بأفواههم بالكذب والدعاوى الباطلة بل والحروب الشرسة القاسية.

(٣) اللام في ﴿ لِيُطْفِـُٔواْ ﴾ زائدة لتأكيد الكلام وتقويته إذ الأصل يريدون إطفاء نور الله.

(٤) ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ قرأ نافع بتنوين الميم من متمم ونصب نوره على المفعولية، وقرأ حفص بدون تنوين على أن متم مضاف إلى نور ونور مضاف إلى الضمير.

تَعۡلَمُونَ﴾: أي الدخول في هذه الصفقة التجارية الرابحة خير لكم من تركها حرصًا على بقائكم وبقاء أموالكم مع أنه لا بقاء لشيء في هذه الدار.

(١٢) ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾: أي هذا هو الربح الصافي مقابل ذلك الثمن الذاهب الزائل الذي هو المال والنفس مع أن الكل لله تعالى واهبكم أنفسكم وأموالكم. ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾: أي النجاة من عذاب النار الأليم ثم دخول الجنة والظفر بما فيها من النعيم المقيم هو حقًا الفوز العظيم.

(١٣) ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾: أي وعلاوة أخرى تحبونها قطعًا إنها نصر من الله لكم ولدينكم وفتح قريب للأمصار والمدن، وما يتبع ذلك من رفعة وسعادة وهناء. ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أي وبشر يا رسولنا المؤمنين الصادقين بذاك الفوز وهذه العلاوة.

(١٤) ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾: أي لتنصروا دينه ونبيه وأولياءه. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾: أي فكونوا أنتم أيها المؤمنون مثل الحواريين، والحواريون أصحاب عيسى وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلًا. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أي بعيسى عليه السلام، وقالوا إنه عبد الله رُفع إلى السماء. ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾: أي من بني إسرائيل فقالوا إنه ابن الله رفعه إليه. ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾: فاقتتلت الطائفتان: فنصرنا وقوينا الذين آمنوا. ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾: أي غالبين عالين.

معنى الآيات:

(١٠) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ[١] ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله هل لنا أن ندلكم على تجارة عظيمة الربح ثمرتها النجاة من عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

(١١) وقوله: ﴿تُؤۡمِنُونَ[٢] بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ هذا هو رأس المال الذي تقدمونه. إيمان بالله ورسوله حق الإيمان، جهاد في سبيل الله بالنفس والمال وأُنبه إلى أن هذه الصفقة التجارية خير لكم من عدمها إن كنتم تعلمون ربحها وفائدتها.

(١٢) ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ[٣] ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ إنها النجاة من العذاب الدنيوي والأخروي أولاً، ثم مغفرة ذنوبكم وإدخالكم جنات تجري من تحتها الأنهار، أي من تحت قصورها وأشجارها، ومساكن طيبة في جنات عدن أي إقامة دائمة. ثانيًا ثم زاد الحق في ترغيبهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ إنه النجاة من النار، ودخول الجنة، فلا فوز أعظم منه قط هذا ولكم علاوة على ذلك الربح العظيم وهي ما أخبر تعالى عنها

(١٣) بقوله: ﴿وَأُخۡرَىٰ[٤] تُحِبُّونَهَاۖ﴾ أي وفائدة أخرى تحبونها: نصر من الله أي لكم على أعدائكم ولدينكم على سائر الأديان وفتح قريب لمكة ولباقي المدن والقرى في الجزيرة وما وراءها. وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي وبشر[٥] يا رسولنا الذين آمنوا بنا وبرسولنا

---

(١) هذا جواب ما سألوا عنه وطلبوا معرفته وهو: أحب الأعمال إلى الله تعالى، والاستفهام مستعمل في العرض كما يقال: هل لك في كذا؟ أو هل لك إلى كذا؟ على سبيل العرض والترغيب والتشويق إلى ما يذكر له.

(٢) جملة: ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ بيانية لأهل العرض السابق يثير سؤالاً وهو: ما الذي أريد أن يدلنا عليه؟ فالجواب: الإيمان والجهاد: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ..﴾ إلخ..

(٣) ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ بالجزم لأن الفعل واقع موقع جواب الطلب إذ: تؤمنون وتجاهدون لفظهما لفظ الخبر ومعناهما الإنشاء أي: آمنوا وجاهدوا يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم، وجزم ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ﴾ أيضًا على العطف على يغفر.

(٤) ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ الجملة معطوفة على ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ وما بعدها وجيء بالجملة اسمية للدلالة على الثبوت والتحقق، فأخرى: مبتدأ خبره محذوف أي: وأخرى لكم أي ثابتة لكم وتحبون: صفة لأخرى.

(٥) لقد شوّق الله أصحاب رسوله ﷺ إلى تحقيق الإيمان بالجهاد فأيقنوا وعزموا على الجهاد فأصبح أسمى أمانيهم فأنجز الله لهم ما وعدهم فأمر رسوله ﷺ أن يبشرهم بما وعدهم تعجيلاً للمسرة.

تَرتيبها ٦٢ — سُورَةُ الجُمُعَةِ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

٥٥٣

وبوعدنا ووعيدنا بحصول ما ذكرناه كاملاً، وقد تمّ لهم كاملاً ولله الحمد والمنة.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا نداء ثانٍ في هذا السياق الكريم ناداهم بعنوان الإيمان أيضًا إذ الإيمان هو الطاقة المحركة الدافعة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ[١] اللَّهِ﴾ أي التزموا بنصرة ربكم وإلهكم الحق في دينه ونبيه وأوليائه المؤمنين. قولوا كما قال الحواريون[٢] لما دعاهم عيسى نبيهم لنصرته قائلاً من أنصاري إلى الله أي من ينصرني في حال كوني متوجهًا إلى الله أنصر دينه وأولياءه، فأجابوه قائلين نحن أنصار الله. فكونوا أنتم أيها المسلمون مثلهم، وقد كانوا رضي الله عنهم كما طلب منهم.

وقوله تعالى: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي فاقتتلوا فأيدنا أي قوينا ونصرنا الذين آمنوا وهم الذين قالوا عيسى عبدالله ورسوله رفعه ربه تعالى إلى السماء، على عدوهم وهم الطائفة الكافرة التي قالت عيسى ابن الله رفعه إليه تعالى الله أن يكون له ولد.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[٣] أي غالبين عالين إلى أن احتال اليهود على إفساد الدين الذي جاء به عيسى وهو الإسلام أي عبادة الله وحده بما شرع أن يعبد به فحينئذ لم يبقَ من المؤيدين إلا أنصار قليلون هنا وهناك وعلا الكفر والتثليث واستمر الوضع كذلك إلى أن بعث الله رسوله محمدًا ﷺ فانضم إلى الإسلام من انضم من النصارى فأصبحوا بالإسلام ظاهرين على عدوهم من المشركين المؤلهين لعيسى والحيارى في تقويمه مرة يقولون هو الله، ومرة يقولون: هو ابن الله، ومرة يقولون: ثالث ثلاثة هو الله. وضللهم وتركهم في هذه المتاهات الانتفاعيون من الرؤساء والجاهلون المقلدون من المرؤوسين كما فعل نظراؤهم في الإسلام فحوّلوه إلى طوائف وشِيَع إلا أن الإسلام تعهّد الله بحفظه إلى يوم القيامة فمن أراده وجده صافيًا كما نزل في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ومن لم يرده وأراد الضلالة وجدها في كل عصر ومصر.

هداية الآيات:

١ - فضل الجهاد بالمال والنفس وأنه أعظم تجارة رابحة.

٢ - تحقيق بشرى المؤمنين التي أمر الله رسوله أن يبشرهم بها فكان هذا برهانًا على صحة الإسلام وسلامة دعوته.

٣ - بيان استجابة المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ لما طلب منهم من نصرة رسول الله ﷺ ودينه

---

(١) الأنصار: جمع نصير وهو الناصر: القوي النصرة، وقرأ نافع ﴿**كونوا أنصارًا لله**﴾ بتنوين ﴿**أنصارًا**﴾ وقرأ حفص بدون تنوين مضاف إلى اسم الجلالة.

(٢) الحواريون: جمع حواري بفتح الحاء وتخفيف الواو وهي معربة عن الحبشية ﴿**حواريًا**﴾ وهو الصاحب الصفي وأطلق هذا الاسم على أصحاب عيسى الاثني عشر رجلاً، وقد سمى النبي ﷺ الزبير بن العوام حواريه على التشبيه بأحد الحواريين فقال: «**لكل نبي حواري وحواريَّ الزبير**».

(٣) ﴿ظَاهِرِينَ﴾ أي: غالبين يقال: ظهر عليه أي غلبه وهو مشتق من الظهر الذي هو العمود الوسط من جسد الإنسان والدواب، ومثل الظهور: التأييد مشتق من اليد وكذا عضده: إذا نصره وقواه مأخوذ من العضد.

والمؤمنين معه. وهي نصرة الله تعالى المطلوبة.

❁ ❁ ❁

سورة الجمعة[1]
مدنية
وآياتها إحدى عشرة آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٤]

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي يتنزه الله تعالى عما لا يليق به ما في السموات وما في الأرض من سائر الكائنات بلسان القال و الحال، ولم يقل (من) بدل (ما) تغليبًا لغير العاقل لكثرته على العاقل.

(٢) ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾: أي العرب لندرة من كان يقرأ منهم ويكتب. ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾: أي محمدًا ﷺ إذ هو عربي قرشي هاشمي. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي يطهرهم أرواحًا وأخلاقًا. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: أي هدي الكتاب وأسرار هدايته. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: أي وإن كانوا من قبل بعثة الرسول في ضلال الشرك والجاهلية.

(٣) ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: أي وآخرين مؤمنين صالحين لما يلحقوا أي لم يحضروا حياة رسول الله ﷺ وهو يُعلِّم الكتاب والحكمة، وسيلحقون بهم وهم كل من لم يحضر حياة رسول الله ﷺ من العرب والعجم.

(٤) ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: أي كون الصحابة حازوا فضل السبق هذا فضل يؤتيه من يشاء فلا اعتراض ولكن الرضا وسؤال الله من فضله فإنه ذو فضل عظيم.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يخبر تعالى عن نفسه أنه يسبحه بمعنى ينزهه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله من سائر مظاهر العجز والنقص ويقدسه كذلك وذلك بلسان الحال والقال وهذا كقوله من سورة الإسراء وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم. ومع هذا شرع لنا ذكره وتسبيحه وتعبدنا به، وجعله عونًا لنا على تحمل المشاق واجتياز الصعاب فكم أرشد رسوله له في مثل قوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾، ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾. وواعد على لسانه رسوله بالجزاء العظيم على التسبيح في مثل قوله ﷺ: **«من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»** ورغب فيه في مثل قوله: **«كلمتان ثقيلتان في الميزان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمٰن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»**.

وقوله: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾ أي المالك الحاكم المتصرف في سائر خلقه لا حكم إلا له. ومرد الأمور كلها إليه المنزه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله من سائر النقائص والحوادث.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي كل خلقه ينزهه ويقدسه وهو العزيز الغالب على أمره الذي لا يُحال بينه وبين مراده الحكيم في صنعه وتدبيره لأوليائه وفي ملكه وملكوته.

(٢) وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي[2] بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾[3] أي بعث في الأمة العربية الأمية رسولاً منهم هو محمد ﷺ إذ هو عربي قرشي هاشمي معروف النسب إلى جده الأعلى عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

وقوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي آيات الله التي تضمنها كتابه القرآن

---

(١) سورة الجمعة أي: السورة التي يذكر فيها لفظ الجمعة وهل المراد بالجمعة يوم الجمعة أو صلاة الجمعة؟ الظاهر أن المراد بلفظ الجمعة: صلاة الجمعة، وجائز أن يكون المراد يوم الجمعة وقد نزلت الجمعة جملة واحدة سنة ست من الهجرة.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: الأميون العرب كلهم من كتب منهم ومن لم يكتب لأنهم لم يكونوا أهل كتاب وكونه ﷺ أميًا ومن أمة أمية هو دليل معجزته وصدق نبوته.

(٣) ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ قال ابن إسحق: ما من حي من أحياء العرب إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة وقد ولدوه إلا حي تغلب فإن الله تعالى طهّر نبيه ﷺ منهم لنصرانيتهم، فلم يجعل لهم عليه ولادة.

الكريم وذلك لهدايتهم وإصلاحهم، وقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي ويطهرهم أرواحًا وأخلاقًا وأجسامًا من كل ما يدنس الجسم ويدنس النفس ويفسد الخلق. وقوله: ويعلمهم الكتاب والحكمة، أي يعلمهم الكتاب الكريم يعلمهم معانيه وما حواه من شرائع وأحكام، ويعلمهم[1] الحكمة في كل أمورهم والإصابة والسداد في كل شؤونهم، يفقههم في أسرار الشرع وحكمه في أحكامه. وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي والحال والشأن أنهم كانوا من قبل بعثته فيهم لفي ضلال مبين ضلال في العقائد ضلال في الآداب والأخلاق ضلال في الحكم والقضاء وفي السياسة، وإدارة الأمور العامة والخاصة.

(٣) - (٤) وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ[2] لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾، أي وآخرين من العرب والعجم جاءوا من بعدهم وهم التابعون وتابعوا التابعين[3] إلى يوم القيامة آمنوا وتعلّموا الكتاب والحكمة التي ورثها رسول الله فيهم لما يلحقوا بهم في الفضل لأنهم فازوا بالسبق إلى الإيمان وبصحبة رسول الله ﷺ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

هداية الآيات:

١ - تقرير التوحيد.

٢ - تقرير النبوة المحمدية.

٣ - بيان فضل الصحابة على غيرهم.

٤ - شرف الإيمان والمتابعة للرسول وأصحابه رضي الله عنهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥ - ٨]

(٥) ﴿حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: أي كلفوا بالعمل بها عقائد وعبادات وقضاء وآدابًا وأخلاقًا. ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾: أي لم يعملوا بما فيها، ومن ذلك نعته ﷺ والأمر بالإيمان فجحدوا نعته وحرّفوه ولم يؤمنوا به وحاربوه. ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي المصدقة للنبي محمد ﷺ هذا المثل الذي ضرب الله لليهود هو كمثل الحمار يحمل أسفارًا أي كتبًا من العلم وهو لا يدري ما فيها.

(٦) ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾: أي اليهود المتدينون باليهودية. ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾: أي وأنكم أبناء الله وأحباؤه وأن الجنة خاصة بكم. ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾: أي إن كنتم صادقين في أنكم أولياء الله فتمنوا الموت مؤثرين الآخرة على الدنيا ومبدأ الآخرة الموت فتمنوه إذًا.

(٧) ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: أي بسبب ما قدموه من الكفر والتكذيب بالنبي ﷺ لا يتمنون. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: أي المشركين ولازم علمه بهم أنه يجزيهم بظلمهم العذاب الأليم.

(٨) ﴿تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾: أي لأنكم لا تتمنونه أبدًا وذلك عين الفرار منه. ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾: أي حيثما اتجهتم فإنه ملاقيكم وجهًا لوجه. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾: أي إلى الله تعالى يوم القيامة.

معنى الآيات:

(٥) قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي كُلفوا بالعمل بها من اليهود والنصارى ثم لم يحملوها أي ثم لم يعملوا بما فيها من أحكام وشرائع ومن ذلك جحدهم لنعوت النبي محمد ﷺ والأمر بالإيمان به واتباعه عند ظهوره. وقوله تعالى:

---

(١) قال مالك بن أنس: الحكمة الفقه في الدين.

(٢) روى مسلم عن أبي هريرة قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة فلما قرأ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قال رجل: مَن هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثًا قال: وفينا سلمان الفارسي قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان ثم قال: **«لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء»** نعم فقد دخلت فارس في الإسلام بعد الفتح العمري وآمن رجال فوفوا وكانوا من أفاضل الرجال وصدق رسول الله ﷺ إلا أن الحزب الوطني الذي تكوّن في الظلام للانتقام من الإسلام فعل العجب في إفساد أمة الإسلام ومن ذلك ضرب الأمة بالمذهب الرافضي الذي فرق المسلمين ودمرهم أيّما تدمير.

(٣) من العرب وغيرهم من سائر العجم كبعض الفرس والروم والبربر والسودان والترك والمغول والأكراد والصين والهنود وغيرهم وفي هذا معجزة قرآنية إذ صدق قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ وقد لحقوا فآمنوا وتعلموا وزكوا.

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾(١) أي كمثل حمار يحمل على ظهره أسفارًا من كتب العلم النافع وهو لا يعقل ما يحمل ولا يدري ماذا على ظهره من الخير، وذلك لأنه لا يقرأ ولا يفهم(٢). وقوله تعالى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي المصدقة للنبي محمد ﷺ هذا المثل الذي ضربه تعالى لأهل الكتاب من يهود ونصارى. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولهذا ما هداهم إلى الإسلام. لتوغلهم في الظلم والكفر والشر والفساد لم يكونوا أهلاً لهداية الله تعالى.

(٦) وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي قل يا رسولنا يا أيها الذين هادوا أي يا من هم يدّعون أنهم على الملة اليهودية، إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس حيث ادعيتم أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة لكم دون غيركم إلى غير ذلك من دعاويكم فتمنوا الموت إن(٣) كنتم صادقين في دعاويكم إذ الموت طريق الدار الآخرة فتمنوه لتموتوا فتستريحوا من كروب الدنيا وأتعابها.

(٧) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ أخبر تعالى وهو العليم أنهم لا يتمنونه في يوم من الأيام أبدًا، وبيّن تعالى علة ذلك بقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ﴾ من الذنوب والآثام الموجبة للعذاب. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي من أمثال هؤلاء اليهود وسيجزيهم بظلمهم عذاب الجحيم.

(٨) وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾(٤) أي قل لهم يا رسولنا إن الموت الذي تفرون منه ولا تتمنونه فرارًا وخوفًا منه فإنه(٥) ملاقيكم لا محالة حيثما كنتم سوف يواجهكم وجهًا لوجه ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة وهو الله تعالى الذي يعلم ما غاب في السماء والأرض، ويعلم ما يسر عباده، وما يعلنون وما يظهرون وما يخفون فينبئكم بما كنتم تعملون ويجزيكم الجزاء العادل إنه عليم حكيم.

هداية الآيات:

١ - ذم من يحفظ كتاب الله ولم يعمل بما فيه.

---

(١) قال بعض أهل العلم: أبطل الله ادعاء اليهود في ثلاث آيات من هذه السورة افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم بقوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ وبأنهم أهل كتاب فشبّههم بالحمار يحمل أسفارًا، وبالسبت فشرع الله للمسلمين الجمعة فلم يبق لهم ما يفخرون به على المسلمين.

(٢) أنشد بعضهم عائبًا بعض من يحمل رواية الحديث وهو لا يفهم المراد منها:

إن الرواة على جهل بما حملوا ... مثل الجمال عليها يحمل الودع
لا الودع ينفعه حمل الجمال له ... ولا الجمال بحمل الودع تنتفع

الودع والواحدة ودعة: مناقيف صغار تخرج من قاع البحر.

(٣) الأمر في قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ للتعجيز فلذا لم يفعلوا ولو فعلوا لما بقيت فيهم عين تطرف، لأنهم كاذبون.

(٤) جملة ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ صفة للموت، وفيه إشارة إلى خطإهم في الهلع والخوف من الموت ولا تعارض بين هذه الآية وهي تدعو إلى تمني الموت، وبين النهي عنه في الحديث الصحيح: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به**» لأن طلب التمني من اليهود كان لتحديهم، النهي عن تمني الموت كان بسبب الجزع من الضر حيث يجب الصبر لما في المرض من تكفير الذنوب، وفي الحديث: «**من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**» وهذا الحديث يفسّر ما تقدّم فإن العبد الصالح إذا كان في سياقات الموت يحب الموت للقاء الله تعالى، والعبد غير الصالح يكره لقاء الله كراهية اليهود لما يعلم من ذنوبه وعظيم آثامه فهو يخاف الموت لذلك.

(٥) من أحسن ما قيل في الوعظ بالموت قول طرفة:

وكفى بالموت فاعلم واعظًا ... لمن الموت عليه قد قدر
فاذكر الموت وحاذر تركه ... إن في الموت لذي اللب عبر
كل شيء سوف يلقى حتفه ... في مقام أو على ظهر سفر
والمنايا حوله ترصده ... ليس ينجيه من الموت حذر

وقال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلّم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾

ترتيبها ٦٣ — سورة المنافقون — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)﴾

٥٥٤

٢ - التنديد بالظلم والظالمين.

٣ - بيان كذب اليهود وتدجيلهم في أنهم أولياء الله وأن الجنة خالصة لهم.

٤ - بيان أن ذوي الجرائم أكثر الناس خوفًا من الموت وفرارًا منه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ - ١١]

(٩) ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾: أي إذا أذن المؤذن لها عند جلوس الإمام على المنبر. ﴿مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾: أي في يوم الجمعة وذلك بعد الزوال. ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾: أي امضوا إلى الصلاة. ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾: أي اتركوه، وإذا لم يكن بيع لم يكن شراء.

(١٠) ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾: أي اطلبوا الرزق من الله تعالى بالسعي والعمل. ﴿تُفْلِحُونَ﴾: أي تنجون من النار وتدخلون الجنة.

(١١) ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾: أي إلى التجارة. ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾: أي على المنبر تخطب يوم الجمعة. ﴿مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾: أي ما عند الله من الثواب في الدار الآخرة خير من اللهو ومن التجارة. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: أي فاطلبوا الرزق منه بطاعة واتباع هداه.

معنى الآيات:

(٩) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ[1]﴾[2] أي إذا أذن المؤذن بعد زوال يوم الجمعة وجلس الإمام على المنبر ﴿فَاسْعَوْا[3] إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[4] أي امضوا إلى ذكر الله الذي هو الصلاة والخطبة إذ بهما يُذكر الله تعالى. وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾[5] إذ هو الغالب من أعمال الناس، وإلا فسائر الأعمال يجب إيقافها والمضيُّ إلى الصلاة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ترك الأعمال من بيع وشراء وغيرها والمضيُّ إلى أداء صلاة الجمعة وسماع الخطبة خير ثوابًا وعاقبة.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ

---

(١) المراد من النداء: الأذان الذي يكون فيه الإمام على المنبر إذ كان الأذان واحدًا حتى زاد عثمان رضي الله عنه ثانيًا حين كثر الناس بالمدينة.

(٢) لفظ الجمعة: بضم كل من الجيم والميم، وبتسكين الميم، والجمع: جمع كغرفة وغرف، وجمعات كغرفات وكان يومها يسمى العروبة بفتح العين وقيل أول من سماها الجمعة كعب بن لؤي وقيل: الأنصار، وأول جمعة صليت في الإسلام هي الجمعة التي جمع فيها أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير أهل المدينة وصلوها وكانوا اثني عشر رجلًا: وأول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بالمدينة هي جمعته في بني سالم بن عوف وهو في طريقه من قباء إلى المدينة، وأول جمعة بعدها كانت بجواثي: قرية من قرى البحرين.

(٣) ليس المراد بالسعي الجري واشتداد العدو وإنما هو المشي والمضي لحديث الصحيح: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ولكن ائتوها وعليكم السكينة**» ومن إطلاق السعي والمراد المضي والعمل لا غير قول الشاعر:

أسعى على جل بني مالك — كل امرىء في شأنه ساعي

وفي القرآن: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩].

(٤) ذكر الله: الصلاة والخطبة قبلها.

(٥) لا خلاف في حرمة البيع والشراء عند الأذان الثاني.

﴿ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي أديت وفرغ منها فانتشروا في الأرض أي لكم بعد انقضاء الصلاة أن تتفرقوا حيث شئتم في أعمال الدين والدنيا. تبتغون من فضل الله، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي أثناء تفرقكم وانتشاركم في أعمالكم اذكروا الله ولا تنسوه واذكروه ذكرًا كثيرًا لعلكم تفلحون أي رجاء فلاحكم وفوزكم في دنياكم وآخرتكم.

(١١) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ هذه الآية نزلت في شأن قافلة زيت كان صاحبها دحية بن خليفة الكلبي الأنصاري رضي الله عنه قدمت من الشام، وكان عادة أهل المدينة إذا جاءت قافلة تجارية تحمل الميرة يستقبلونها بشيء من اللهو كضرب الطبول والمزامير. وصادف قدوم القافلة يوم الجمعة والناس في المسجد، فلما انقضت الصلاة وطلع رسول الله ﷺ على المنبر يخطب، وكانت الخطبة بعد الصلاة لا قبلها كما هي بعد ذلك فخرج الناس يتسللون حتى لم يبق مع الرسول ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً وامرأة فنزلت هذه الآية تعيب عليهم خروجهم وتركهم نبيهم يخطب. فقال تعالى في صورة عتاب شديد: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي خرجوا إليها ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ يا رسولنا قائمًا على المنبر تخطب. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ أي أعلمهم يا نبينا أن ما عند الله من ثواب الآخرة خير من اللهو والتجارة التي خرجتم إليها، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه بطاعته وطاعة رسوله ولا يتكرر منكم مثل هذا الصنيع الشين. وإلا فقد تتعرضون لعذاب عاجل غير آجل.

هداية الآيات:

١ - وجوب صلاة الجمعة ووجوب[1] المضي إليها عند النداء الثاني الذي يكون والإمام على المنبر.

٢ - حرمة البيع والشراء وسائر العقود إذا شرع المؤذن يؤذن الأذان الثاني.

٣ - الترغيب في ذكر الله والإكثار منه والمرء يبيع ويشتري ويعمل ويصنع ولسانه ذاكر.

٤ - ينبغي أن لا يقل المصلون الذين تصح صلاة الجمعة بهم عن اثني عشر رجلاً أخذًا من حادثة انفضاض الناس عن الرسول ﷺ وهو يخطب إلى القافلة حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً.

❁ ❁ ❁

سورة المنافقون

مدنية

وآياتها إحدى عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٤]

(١) ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: أي حضر مجلسك المنافقون كعبدالله بن أبي وأصحابه. ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾: أي قالوا بألسنتهم ذلك وقلوبهم على خلافه. ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾: أي والله يعلم أن المنافقين لكاذبون أي بما أضمروه من أنك غير رسول الله.

(٢) ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾: أي سترة ستروا بها أموالهم وحقنوا بها دماءهم.

﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي فصدوا بها عن سبيل الله أي الجهاد فيهم. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أي قبح ما كانوا يعملونه من النفاق.

(٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي سوء عملهم.

﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾: أي آمنوا بألسنتهم، ثم كفروا بقلوبهم أي استمروا على ذلك. ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي ختم عليها بالكفر.

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾: أي الإيمان أي لا يعرفون معناه ولا صحته.

(٤) ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾: أي لجمالها إذ كان ابن أبي جسيمًا صحيحًا وصبيحًا ذلق اللسان. ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾: أي لفصاحتهم وذلاقة ألسنهم. ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾: أي كأنهم من عظم أجسامهم وترك التفهم وعدم الفهم خشب مسندة أي أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام. ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾: أي يظنون كل صوت عال يسمعونه كنداء في عسكر أو إنشاد ضالة عليهم وذلك لما في

---

(١) ورد في فضل الجمعة والغسل لها قوله ﷺ: «**فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه**» وقوله: «**الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما ما لم تغش الكبائر**» (مسلم) وقوله: «**غسل الجمعة واجب على كل محتلم**» (في الصحيح).

قلوبهم من الرعب أن ينزل فيهم ما يبيح دماءهم. ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾: أي العدو التام العداوة فاحذرهم أن يفشوا سرك أو يريدوك بسوء. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: أي لعنهم الله كيف يصرفون عن الإيمان وهم يشاهدون أنواره وبراهينه.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ لنزول هذه السورة سبب هو أن زيد[١] بن أرقم رضي الله عنه قال: كنت مع عمي فسمعت عبدالله بن أبيٍّ ابن سلول يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأرسل رسولاً إلى ابن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني فأثابني هم لم يصبني مثله فجلست في بيتي فأنزل الله عز وجل: إذا جاءك المنافقون، إلى قوله: الأعز منها الأذل، فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ ثم قال: «**إن الله قد صدقك**».

قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، أي إذا حضر مجلسك المنافقون عبدالله بن أبي ورفاقه قالوا نشهد إنك لرسول الله وذلك بألسنتهم دون قلوبهم. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ[٢] إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ سواء شهد بذلك المنافقون أو لم يشهدوا. ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في شهادتهم لعدم مطابقة قولهم لاعتقادهم.

(٢) ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي جعلوا من أيمانهم الكاذبة جنة كجنة المقاتل يسترون بها كما يستتر المحارب بجنته فوق رأسه، فهم بأيمانهم الكاذبة أنهم مؤمنون وقوا بها أنفسهم وأزواجهم وذرياتهم من القتل والسبي، وبذلك صدوا عن[٣] سبيل الله أنفسهم وصدوا غيرهم ممن يقتدون بهم وصدوا المؤمنين عن جهادهم بما أظهروه من إيمان صوري كاذب. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ[٤] سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يذم تعالى حالهم ويقبح سلوكهم ذلك وهو اتخاذ أيمانهم جنة وصدهم عن سبيل الله.

(٣) وقوله تعالى الآية رقم (٣): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ[٥] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي سوء عملهم وقبح سلوكهم ناتج عن كونهم آمنوا ثم شكوا أو ارتابوا فنافقوا وترتب على ذلك أيضًا الطبع على قلوبهم فهم لذلك لا يفقهون معنى الإيمان ولا صحته من بطلانه وهذا شأن من توغل في الكفر أن يختم على قلبه فلا يجد الإيمان طريقًا إلى قلب قد أقفل عليه بطابع الكفر وخاتم النفاق والشك والشرك.

(٤) وقوله تعالى في الآية (٤): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ[٦] أَجْسَامُهُمْ﴾ أي وإذا رأيت يا رسولنا هؤلاء المنافقين ونظرت إليهم تعجبك أجسامهم لجمالها إذ كان ابن أبي جسيمًا صبيحًا وإن يقولوا تسمع لقولهم وذلك لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ وهو تشبيه رائع: أنهم لطول أجسامهم وجمالها وعدم فهمهم وقلة الخير فيهم كأنهم خشب مسندة على جدار لا تشفع ولا تنفع كما يقال.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لخوفهم والرعب المتمكن من نفوسهم نتيجة ما يضمرون من كفر وعداء وبغض

---

(١) رواه البخاري في صحيحه والترمذي وغيرهما. كانت هذه الحادثة في غزوة بني المصطلق سنة خمس من الهجرة.

(٢) جملة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين وفائدة هذا الاعتراض دفع ما قد يتوهمه من يسمع جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنه تكذيب لجملة: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

(٣) الفاء للتفريع فجملة ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متفرعة عن جملة ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾.

(٤) الجملة تذييلية من أجل تفظيع حالهم، والتنديد بسوء سلوكهم.

(٥) الإشارة إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

(٦) هذه الجملة معطوفة على سابقتها وهي ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وهي واقعة موقع الاحتراس والتتميم لدفع إيهام من يغره ظاهر صورهم وأشكالهم كما في قول حسان رضي الله عنه:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ ... جسم البغال وأحلام العصافير

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

ترتيبها ٦٤ — سورة التغابن — آياتها ١٨

للإسلام وأهله فهم إذا سمعوا صيحة في معسكر أو صوت منشد ضاله يتوقعون أنهم معنيون بذلك شأن الخائن وأكثر ما يخافون أن ينزل القرآن بفضيحتهم وهتك أستارهم. قال تعالى: هم[1] العدو فاحذرهم يا رسولنا إن قلوبهم مع أعدائك فهم يتربصون بك الدوائر.

قال تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فسجل عليهم لعنة لا تفارقهم إلى يوم القيامة كيف يصرفون عن الحق وأنواره تغمرهم القرآن ينزل والرسول يعلم ويزكي وآثار ذلك في المؤمنين ظاهرة في آرائهم وأخلاقهم. ولم يشاهدوا شيئًا من ذلك والعياذ بالله من عمى القلوب وانطماس البصائر.

هداية الآيات:

١ - بيان أن الكذب ما خالف الاعتقاد وإن طابق الواقع.

٢ - التحذير من الاستمرار على المعصية فإنه يوجب الطبع على القلب ويُحرم صاحبه الهداية.

٣ - التحذير من الاغترار بالمظاهر كحسن الهندام وفصاحة اللسان.

٤ - الكشف عن نفسية الخائن والظالم والمجرم وهو الخوف والتخوف من كل صوت أو كلمة خشية أن يكون ذلك بيانًا لحالهم وكشفًا لجرائمهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥ ـ ٨]

﴿٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾: أي معتذرين.

﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾: أي رفضوا الاعتذار إلى رسول الله ﷺ.

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾: أي يعرضون عما دعوا إليه وهم مستكبرون.

﴿٦﴾ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: أي يا رسولنا. ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾: أي إيأس من مغفرة الله لهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: أي لأن من سنة الله أنه لا يهدي القوم الفاسقين المتوغلين في الفسق عن طاعة الرب تعالى وهم كذلك.

﴿٧﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾: أي لأهل المدينة. ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: أي من المهاجرين. ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾: أي يتفرقوا عنه.

﴿٨﴾ ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي من غزوة كانوا فيها هي غزوة بني[2] المصطلق. ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾: يعنون بالأعز أنفسهم، وبالأذل المؤمنين. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي الغلبة والعلو والظهور.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في الحديث عن المنافقين

﴿٥﴾ فقوله تعالى في الآية (٥): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وذلك عندما قال ابن أبي ما قال من كلمات خبيثة منها قوله في المهاجرين: سمن كلبك يأكلك. وقوله لصاحبه: لا تنفقوا على المهاجرين حتى يتفرقوا عن

---

(١) الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا إذ قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يثير تساؤلات فأجيب السائل المتطلع بقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ ونفسيتهم المريضة هي التي جعلتهم يحسبون كل صيحة عليهم كما قال المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه — وصدّق ما يعتاده من توهم

(٢) سبب نزول هذه السورة والآيات منها أن النبي ﷺ غزا بني المصطلق على ماء يقال له (المريسيع) من ناحية قديد إلى الساحل فازدحم أجير لعمر يقال له: جهجاه مع حليف لابن أبيّ يقال له: سنان على ماء بالمشلل فصرخ جهجاه بالمهاجرين وصرخ سنان بالأنصار فجاء ابن أبيّ وقال كلماته الخبيثة التي هي في التفسير. ونزلت السورة.

محمد ﷺ، وقوله مهددًا: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز، يعني نفسه ورفاقه المنافقين، الأذل، يعني الأنصار والمهاجرين. فلما قال هذا كله وأكثره في غزوة بني المصطلق وأخبر به رسول الله ﷺ فجاء فحلف بالله ما قال شيئًا من ذلك أبدًا وذهب فنزلت هذه السورة الكريمة تكذبه. ولما نزلت هذه السورة بفضيحته جاءه من قال له: يا أبا الحباب «كنية ابن أبي» إنه قد نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوى رأسه أي عطفه إلى جهة غير جهة من يخاطبه وقال: أمرتموني أن أؤمن فآمنت وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فأعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد ﷺ، فنزلت هذه الآيات الثلاث ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾، أي معتذرين، ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾، أي رفضوا العرض ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، والمراد بهم ابن أبي عليه لعائن الله.

(٦) قال تعالى لرسوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لن يغفر الله لهم، فأيأس رسوله من المغفرة لهم، وعلّل تعالى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[١]، وابن أبي من أكثر الفاسقين فسقًا! إذ جمع بين الكذب والحلف الكاذب والنفاق والشقاق والعداء والكبر والكفر الباطني.

(٧) وذكر تعالى قولات هذا المنافق واحدة بعد واحدة فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي قال لإخوانه لا تنفقوا على المهاجرين حتى يتفرقوا عن رسول الله ﷺ فقرعه رب العزة وأدّبه ببيان فساد ذوقه ورأيه فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ[٢] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فجميع الأرزاق بيده وهو الذي يرزق من يشاء والمنافق نفسه رزقه على الله فكيف يدعي أنه إذا لم ينفق على من عند رسول الله يجوعون فيتفرقون يطلبون الرزق بعيدًا عن محمد ﷺ. ولكن المنافقين لعماهم وظلمة نفوسهم ومرض قلوبهم لا يفقهون هذا ولا يفهمونه، ولذا قال رئيسهم كلمته الخبيثة. تلك كانت القولة الأولى.

(٨) والثانية هي قوله: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾. قالها في غزوة بني المصطلق وهي غزوة سببها أن رسول الله ﷺ أُعلم أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار وهو أبو جويرية زوج رسول الله ﷺ إحدى أمهات المؤمنين. فلما سمع بذلك خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فوقع القتال فهزم الله بني المصطلق وأمكن رسوله من أبنائهم ونسائهم وأموالهم وأفاءها على المؤمنين، واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه جويرية بوصفها بنت سيد القوم إكرامًا لها ثم عتقها وتزوجها فرأى المؤمنون أن ما بأيديهم من السبي لا ينبغي لهم وقد أصبحوا أصهار نبيهم فعتقوا كل ما بأيديهم فقالت عائشة رضي الله عنه ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية بنت الحارث فقد أعتق بتزويج رسول الله لها مائة أهل بيت من بني المصطلق.

في هذه الغزاة قال ابن أبي قولته الخبيثة وذلك أن رجلين[٣] أنصاريًا ومهاجرًا تلاحيا على الماء[٤] فكسع[٥] المهاجر الأنصاري برجله فصاح ابن أبي قائلاً عليكم صاحبكم، ثم قال: والله ما مثلنا

---

(١) وهم كل من سبق في علم الله أنه لا يتوب لما أحاط به من الذنوب.

(٢) (الخزائن) جمع خزانة وهي البيت الذي يخزن فيه الطعام. روى الترمذي أن عمر رضي الله عنه قال للرسول ﷺ إشفاقًا عليه ورحمة به: ما كلّفك الله يا رسول الله ما لا تقدر عليه، عندما قال لرجل سأله عطاء ابتع علي فإذا جاء شيء قضيته فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً فتبسّم رسول الله ﷺ وعرف في وجهه البشر وقال: «بهذا أُمرت».

(٣) تقدم ذكر اسميهما وهما: جهجاه، وسنان.

(٤) تقدم أن هذا الماء كان بالمشلّل.

(٥) كسعه: ضربه في دبره.

ومحمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وغاب عن ذهن هذا المنافق أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين أي الغلبة والظهور والعلو لا للمنافقين والمشركين الكافرين ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك ولا غيره لعمى بصائرهم ولما بلغ الغزاة المدينة وقف عبدالله بن عبدالله بن أبي في عرض الطريق واستل سيفه فلما جاء أبوه يمر قال له والله لا تمر حتى تقول: محمد الأعز وأنا الأذل، فلم يبرح حتى قالها، وكان ولده مؤمنًا صادقًا من خيرة الأنصار.

هداية الآيات:

١ ـ لا ينفع الاستغفار للكافر ولا الصلاة عليه بحال.

٢ ـ ذمّ الإعراض والاستكبار عن التوبة والاستغفار. فمن قيل له استغفر الله فليستغفر ولا يتكبر بل عليه أن يقول: أستغفر الله أو اللهم اغفر لي.

٣ ـ مصادر الرزق كلها بيد الله تعالى فليطلب الرزق بطاعة الله ورسوله لا بمعصيتهما.

٤ ـ العزة الحقة لله ولرسوله وللمؤمنين، فلذا يجب على المؤمن أن لا يذل ولا يهون لكافر.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ ـ ١١]

(٩) ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾: أي لا تشغلكم. ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: كالصلاة والحج وقراءة القرآن وذكر الله بالقلب واللسان. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: أي ومن ألهته أمواله وأولاده عن أداء الفرائض فترك الصلاة أو الحج وغيرهما من الفرائض فقد خسر ثواب الآخرة.

(١٠) ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾: أي النفقة الواجبة كالزكاة وفي الجهاد والمستحبة. ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾: أي هلا أخرتني يطلب التأخير ولا يقبل منه. ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أي حتى أزكي وأحج وأكثر من النوافل والأعمال الصالحة.

معنى الآيات:

(٩) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[١] نادى تعالى المؤمنين لينصح لهم أن لا تكون حالهم كحال المنافقين الذين تقدم في السياق تأديبهم فقال لهم: يا من آمنتم بالله ورسوله: لا تلهكم أموالكم[٢] ولا أولادكم، أي لا تشغلكم عن ذكر الله[٣] بأداء فرائضه واجتناب نواهيه والإكثار من طاعته والتقرب إليه بأنواع القرب. ثم خوّفهم نصحًا لهم بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي بأن ألهته أمواله وأولاده عن عبادة الله فأولئك البعداء هم الخاسرون يوم القيامة بحرمانهم من الجنة ونعيمها ووجودهم في دار العذاب لا أهل لهم فيها ولا ولد. وبالغ عز وجل في إرشادهم

(١٠) فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ مبادرين الأجل فإنكم لا تدرون متى تموتون. من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول[٤] متمنيًا طالبًا حاثًا في طلبه: ربّ، أي يا رب، لولا أخرتني إلى أجل قريب، أي إلى وقت قريب من هذا فأصّدّق[٥] بمالي، وأكن من الصالحين فأحج وأتقرب إليك يا رب بما تحب من أنواع القربات والطاعات ولكن لا ينفعه التمني ولا الطلب والدعاء، لأن حكم الله الأزلي أنه تعالى لن

---

(١) قد تكون المناسبة بين هذه الآية وما سبقها هي قول المنافقين: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فحذّر تعالى المؤمنين من التأثر بالنظرية المادية التي يحملها ابن أبيّ وصرخ بها، ودعاهم إلى الإنفاق في سبيل الله قبل فوات الأوان بالموت أو الفقر وقلة ما ينفقون.

(٢) (لا) هي النافية أشربت معنى النهي فجزمت المضارع وفي الآية دليل على أن ما لا يشغل عن ذكر الله من مال وولد لا إثم فيه.

(٣) ذكر الله هنا مستعمل في الحقيقة والكناية فيشمل الذكر باللسان وهو فعل سائر الطاعات، والذكر بالقلب: وهو التذكر الموجب للطاعة.

(٤) قال القرطبي: في الآية دليل على وجوب تعجيل أداء الزكاة ولا يجوز تأخيرها أصلاً وكذلك سائر العبادات إذا تعيّن وقتها. وهو كما قال رحمه الله تعالى.

(٥) المضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية الواقعة في جواب الطلب، وجزم ﴿أَكُن﴾ لأنه في جواب الطلب مباشرة فلم تسبقه الفاء حتى يتعين نصبه بأن المضمرة.

يؤخر نفسًا[1] أي نفس إذا جاء أجلها أي إذا حضر وقت وفاتها.

(١١) وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يحض المؤمنين على إصلاح أعمالهم والتزود لآخرتهم بإعلامهم بأنه مطّلع على أعمالهم خبير بها.

هداية الآيات:

١ - حرمة التشاغل بالمال والولد مع تضييع بعض الفرائض والواجبات.

٢ - حرمة تأخير الحج مع القدرة على أدائه تسويفًا وتماطلًا مع الإيمان بفرضيته.

٣ - وجوب الزكاة والترغيب في الصدقات الخاصة كصدقة الجهاد والعامة على الفقراء والمساكين.

٤ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

❀ ❀ ❀

سورة التغابن
مكية إلا آخرها فمدني وآياتها ثماني عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٤]

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾: أي ينزه الله ويقدسه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله. ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: أي من سائر المخلوقات بلسان الحال والقال. ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾: أي له دون غيره الملك الدائم الحق وله الحمد العام. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾: أي هو ذو قدرة كاملة على فعل ما أراد ويريد.

(٢) ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾: أي فبعضكم مؤمن موقن بربه ولقائه وبعضكم كافر جاحد دُهري، والواقع شاهد.

(٣) ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ﴾: أي صوركم في الأرحام فأحسن صوركم. ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾: أي المرجع يوم القيامة.

(٤) ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي بما في الصدور من الضمائر والسرائر.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يخبر تعالى معلمًا عباده بربوبيته الموجبة لعبادته وطاعته وطاعة رسوله بأنه يسبحه جميع خلائقه في الملكوت الأعلى والأسفل، وقوله: ﴿لَهُ[2] ٱلۡمُلۡكُ[3] وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾ أي أنه له الملك وهو الملك الحق وأنه له الحمد وهو الثناء الجميل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي وأنه على فعل كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ أي وأنه خالق الكل فمن عباده المؤمن به ومنهم الكافر كما هو الواقع. وأنه بما يعمل عباده من خير أو شر من حسنات أو سيئات خبير أي مطّلع وسيجزي الكل بأعمالهم حسنها وسيئها.

(٣) وأنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ[4]﴾ لا للهو ولا اللعب ولا للعبث بل بالحق وهو أن يذكر ويشكر من عباده وأنه صوّر العباد في الأرحام فأحسن صورهم وجمّلها، فهي أجمل المخلوقات الأرضية على الإطلاق، وأنه إليه لا إلى غيره المرجع يوم القيامة فيحاسب ويجزي وهو الحكم العدل العزيز الحكيم.

(٤) وأنه تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من سائر المخلوقات والحوادث والأحداث، وأنه يعلم ما يُسر عباده من أعمال وأقوال ونيات، وما يعلنون من ذلك. وأنه عليم بذات الصدور أي ما فيها من أسرار وخواطر ونيات وإرادات.

أخبر عباده بهذا[5] ليؤمنوا به ويعبدوه دون غيره فيكملون

---

(١) ﴿نَفۡسًا﴾ نكرة في سياق النفي وهو ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ﴾ تعم كل نفس، والمراد من النفس الروح وقيل فيها: نفس أخذًا من النفس وهو الهواء الذي يخرج من الأنف والفم من كل حيوان ذي رئة وسميت روحًا أخذًا من الروح بفتح الراء لأن الروح به، والروح: الراحة.

(٢) اللام في قوله: ﴿لَهُ﴾ مزيدة لتقوية الكلام إذ فعل سبّح يتعدى بنفسه يقال: سبحه: إذا نزهه وقال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولم يقل: من، تغليبًا لغير العاقل لكثرته.

(٣) ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ تقديم الخبر على المبتدأ هنا للدلالة على الاختصاص فهو تعالى مختص بكل من الملك والحمد.

(٤) الباء في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسة أي خلقًا ملتبسًا بالحق بعيدًا عن اللهو، واللعب والباطل.

(٥) في الآيات تقرير البعث وإمكانه بحجج عقلية لا تردها العقول الراجحة والفطر السليمة.

الجزء الثامن والعشرون — سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

٥٥٦

ويسعدون بعبادته فله الحمد وله المنة وهو الرحمٰن الرحيم.

هداية الآيات:

١ - تعليم الله تعالى عباده وتعريفهم بجلاله وكماله ليؤمنوا به ويعبدوه ليكملوا ويسعدوا في الحياتين بالإيمان به وبطاعته وطاعة رسوله.

٢ - تقرير عقيدة القضاء والقدر إذ المؤمن مؤمن، والكافر كافر مكتوب ذلك في كتاب المقادير، ثم يظهره تعالى في عالم الشهادة قائمًا على سننه في خلقه.

٣ - وجوب مراقبة الله تعالى والحياء منه لأنه عليم بذات الصدور.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥، ٦]

﴿٥﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾: أي ألم يأتكم يا كفار قريش خبر الذين كفروا من قبلكم. ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: أي عقوبة كفرهم في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي في الآخرة.

﴿٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي العذاب في الدنيا والآخرة. ﴿بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾: أي بسبب أنها كانت تأتيهم رسلهم. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي بالحجج القواطع الدالة على صحة رسالاتهم. ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾: أي ردوا عليهم ساخرين مكذبين: أبشر يهدوننا؟. ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾: أي عن إيمانهم. ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾: أي غني عن خلقه محمود بأفعاله وآلائه على خلقه.

معنى الآيتين:

بعد أن بيَّن تعالى للناس مظاهر ربوبيته المقتضية لعلمه وقدرته وحكمته وعدله ورحمته في الآيات السابقة والموجبة لألوهيته قرر في هاتين الآيتين نبوة ورسالة نبيه محمد ﷺ فقال لكفار مكة:

﴿٥﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ[١] نَبَأُ﴾ أي خبر ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾[٢] كقوم عادٍ وثمود وأصحاب مدين، ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾[٣] أي عقوبة كفرهم التي كانت عقوبة ثقيلة شديدة فأهلكوا في الدنيا بعذاب إبادي استئصالي، وفي الآخرة لهم عذاب أليم[٤]، وبيّن لهم سبب ذلك الهلاك والعذاب.

﴿٦﴾ فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت[٥] تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والبراهين على أنهم رسل إليهم، وأنه لا إله إلا الله فلا تصح العبادة لغير الله، فيقابلونهم بالسخرية والإعراض والاستنكار وهو ما أخبر تعالى به عنهم في قوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ[٦] يَهْدُونَنَا﴾ أي كيف يكون بشر مثلكم يهدوننا، وبذلك كفروا وتولوا عن الإيمان والإسلام. واستغنى الله عن إيمانهم فأهلكهم لما كفروا به وبرسله. ولم يأسفْ أو يَأسَ عليهم لعدم حاجته إليهم والله غني عنهم وعن سائر خلقه حميد، أي محمود بأفعاله الشاهدة بكماله وجلاله وجماله.

(١) الاستفهام تقريري.

(٢) حذف المضاف إليه مع ﴿قَبْلُ﴾ ونوي معناه دون لفظه فلذا بنيت (قبل) على الضم والتقدير: نبأ الذين كفروا من قبلكم.

(٣) الوبال: السوء، وما يكره، والأمر: الشأن والحال.

(٤) أي: في الآخرة لأنّ العطف يقتضي المغايرة.

(٥) الإشارة عائدة إلى المذكور قبلها وهو الوبال والعذاب الأليم.

(٦) الاستفهام في ﴿أَبَشَرٌ﴾ استفهام إنكاري إبطالي.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

ترتيبها ٦٥ — سورة الطلاق — آياتها ١٢

هداية الآيتين:

١ - توبيخ من يستحق التوبيخ وتأنيب من يستحق التأنيب.

٢ - التكذيب للرسل والكفر بتوحيد الله موجب للعقوبة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

٣ - تقرير نبوة رسول الله ﷺ وإثباتها لأن شأنه شأن الرسل من قبله.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ ـ ١٠]

﴿٧﴾ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾: أي قالوا كاذبين إنهم لن يبعثوا أحياء من قبورهم.

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾: قل لهم يا رسولنا بلى لتبعثن ثم تنبئون بما عملتم.

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾: أي وبعثكم وحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم شيء يسير على الله.

﴿٨﴾ ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾: أي وآمنوا بالقرآن الذي أنزلناه.

﴿٩﴾ ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾: أي يوم القيامة إذ هو يوم الجمع. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾: أي يغبن المؤمنون الكافرين بأخذ منازل الكفار في الجنة وأخذ الكفار منازل المؤمنين في النار. ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: أي تكفيره تعالى عنهم سيئاتهم وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار هو الفوز العظيم.

﴿١٠﴾ ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: أي قبح المصير الذي صاروا إليه وهو كونه أهلاً للجحيم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية قريش إنه بعد أن ذكرهم بمصير الكافرين من قبلهم وفي ذلك دعوة واضحة لهم إلى الإيمان بتوحيد الله وتصديق رسوله. دعاهم هنا إلى الإيمان بأعظم أصل من أصول الهداية البشرية وهو الإيمان بالبعث والجزاء وهم ينكرون ويجاحدون ويعاندون فيه فقال في أسلوب غير المواجهة بالخطاب زعم[1] الذين كفروا والزعم ادعاء باطل وقول إلى الكذب أقرب منه إلى الصدق. أن لن يبعثوا أي أنهم إذا ماتوا لن يبعثوا أحياء يوم القيامة. قل لهم يا رسولنا:

﴿٧﴾ ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ ولازم ذلك الجزاء العادل على كل أعمالكم وهي أعمال فاسدة غير صالحة مقتضية للعذاب والخزي في جهنم ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2] أي وأعلمهم أن بعثهم وتنبئتهم بأعمالهم وإثابتهم عليها أمر سهل هين لا صعوبة فيه وبعد هذه اللفتة اللطيفة دعاهم دعوة كريمة إلى طريق سعادتهم ونجاتهم

﴿٨﴾ فقال عز وجل: ﴿فَآمِنُوا[3] بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي صدقوا بتوحيد الله وبنبوة رسوله وبالنور الذي أنزلنا وهو القرآن الكريم، واعملوا الصالحات وتباعدوا عن السيئات.

﴿٩﴾ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي وسيجزيكم بأعمالكم. وذلك ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة

(١) هنا كلام مستأنف استئنافًا ابتدائيًا المخاطب فيه رسول الله ﷺ يذكر فيه كفر المشركين بالبعث ويرد عليهم بتقرير ما نفوه وزعموا أنه غير واقع، والزعم: القول الموسوم بمخالفة الواقع، ويطلق على الخبر المشكوك في وقوعه.

(٢) ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ تذييل، واسم الإشارة عائد إلى البعث المفهوم من قوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾.

(٣) ﴿فَآمِنُوا﴾ الفاء هي الفصيحة إذ أفصحت عن شرط مقدّر، والتقدير: فإذا علمتم هذه الحجج وتذكرتم ما حلّ بأسلافكم من العقاب فآمنوا بالله ورسوله ﷺ لتنجوا مما حل بالكافرين من أمثالكم.

ويجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها ذلك يوم التغابن[1] الحقيقي حيث يرث أهل الجنة منازل أهل النار في الجنة ويرث أهل النار منازل أهل الجنة في النار، وهذا قائم على أساس أن الله تعالى أوجد لكل إنسان منزلاً في الجنة وآخر في النار، فمن آمن وعمل صالحًا دخل الجنة وحاز منزله ومنزل إنسان آخر هو في النار فحصل بذلك الغبن بينه وبين من هو في النار قد ورث منزله فيها وبعد هذا الدعاء الخاص الموجه إلى كفار قريش قال تعالى واعدًا عامة الناس عربهم وعجمهم من وجد منهم ومن لم يوجد بعد: ومن يؤمن بالله[2] ويعمل صالحًا يكفر[3] عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم لأنه نجاة من النار ودخول الجنة هذا وعده الصادق لمن آمن وعمل صالحًا.

(١٠) وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ[4] كَفَرُوا﴾ أي بالله ورسوله ولقائه وكذبوا بآياتنا أي القرآن وما فيه من شرائع وأحكام والتكذيب مانع من العمل الصالح قطعًا إذًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ النار والخلود فيها هذا وعيده تعالى المقابل لوعده السابق اللهم اجعلنا من أهل وعدك ولا تجعلنا من أهل وعيدك يا واسع الفضل يا رحمن.

هداية الآيات:

١ - تقرير البعث والجزاء.

٢ - تقرير التوحيد والنبوة.

٣ - بيان كون القرآن نورًا فلا هداية في هذه الحياة إلا به فمن طلبها في غيره ما اهتدى.

٤ - الترغيب في الإيمان والعمل الصالح وبيان أنهما مفتاح دار السلام.

٥ - التحذير من الكفر والتكذيب بالقرآن وشرائعه وأحكامه فإن ذلك يقود إلى النار.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ - ١٣]

(١١) ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾: أي ما أصابت أحدًا من الناس مصيبةٌ إلا بقضاء الله تعالى وتقديره ذلك عليه. ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾: أي ومن يصدق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذنه تعالى يهد قلبه للتسليم والرضاء بقضائه فيسترجع ويصبر.

(١٢) ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾: أي عن طاعة الله ورسوله فلا ضرر ولا بأس على رسولنا في توليكم إذ عليه إبلاغكم لا هدايتكم.

معنى الآيات:

(١١) قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ[5] مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾[6] في هذه الآية رد على الكافرين الذين يقولون لو كان المسلمون على حق، وما هم عليه حقًا لصانهم الله من المصائب في الدنيا، ولما سلط عليهم كذا وكذا... فأخبر تعالى أنه ما من أحد من الناس تصيبه مصيبة في نفس أو ولدٍ أو مالٍ إلا وهي بقضاء الله وتقديره ذلك عليه، ومن يؤمن بالله ربًا وإلهًا عليمًا حكيمًا وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن

---

(١) الإتيان باسم الإشارة بدل الضمير كان لقصد الاهتمام بهذا اليوم بتمييزه مع ما يفيده اسم الإشارة من البعد والعلو نحو: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ والتغابن: تفاعل صادر بين اثنين هذا مغبون وذاك غابن، والغبن: أن يُعطى البائع ثمنًا دون ثمن بضاعته.

(٢) هذه الآية متضمنة تفصيلاً لما أجمل في الجمل قبلها وتحمل عفوًا عامًا لمن آمن من الكافرين ووحّد من المشركين بأن الله تعالى سيعفو عنهم ويغفر لهم ويدخلهم الجنة.

(٣) قرأ نافع: ﴿نكفر﴾ و﴿ندخل﴾ بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى المتكلم. وقرأ حفص ﴿يُكَفِّرۡ﴾ و﴿وَيُدۡخِلۡهُ﴾ بياء الغيبة على مقتضى الظاهر.

(٤) أي: والذين استمروا على الكفر والتكذيب ولم يتوبوا بالإيمان وترك الشرك والمعاصي فجزاؤهم الملائم لخبث نفوسهم من جرّاء الشرك والمعاصي هو ما ذكر تعالى من الخلود في النار.

(٥) قال القرطبي: قيل سبب نزول هذه الآية أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حق لصانهم الله من المصائب في الدنيا ورد تعالى عليهم بأن المصائب التي تصيب العبد هي بإذن الله ولها أسبابها مرتبطة معها وهي سنن لله تعالى لا تتخلّف.

(٦) أنثت المصيبة لأنها بمعنى الحادثة والإذن: أصله إجازة الفعل لمن يفعله والمراد هنا أن ما يصيب العبد من خير وشر هو بتدبير الله تعالى في ربطه الأسباب بالمسببات فعاد الأمر إلى إذنه تعالى بوقوع ما أراده من خير أو غيره.

ليصيبه[1] يهد قلبه فيصبر ويسترجع فيؤجر وتخف عنده المصيبة بخلاف الكافر بالله وقضائه وقدره.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء فلا يحدث حدث في الكون إلا بعلمه وإذنه وهذه حال تقتضي الرضا بالقضاء والقدر والتسليم لله تعالى فيما يقضى به على عبده وفي ذلك خير كثير لا يعرفه إلا أصحاب الرضا بالقضاء والتسليم للعليم الحكيم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يأمر تعالى عباده عامة بطاعة الله وطاعة رسوله لأن كمال الإنسان وسعادته مرتبطة بهذه الطاعة التي هي عبارة عن تطبيق نظام دقيق ينتج صفاء روح وزكاة نفس يتأهل بها العبد إلى النزول بالملكوت الأعلى «الجنة دار الأبرار».

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن هذه الدعوة فرفضتم طاعة الله ورسوله فلا ضر على رسولنا ولا ضير إذ عليه البلاغ المبين وقد بلغ مبينًا غاية التبيين، وأما هدايتكم فلم يكلف بها إذ لا يقدر عليها ولا يكلف الله نفسًا إلا طاقتها.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي أن الذي أمركم بطاعته وطاعة رسوله هو الله الذي لا إله إلا هو أي المعبود الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له لأنه الخالق لكم الرازق المدبر لحياتكم، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ[2] ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه يكفي المؤمن الذي يتوكل عليه يكفيه كل ما يهمه من أمر دنياه وآخرته. ولا كافي إلا هو سبحانه وتعالى.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.

٢ - وجوب الصبر عند نزول المصيبة والرضا والتسليم لله تعالى في قضائه وحكمه، ومن تكن هذه حالُه يهد الله قلبه[3] ويرزقه الصبر وعظيم الأجر ويلطف به في مصيبته وإن هو استرجع قائلاً إنا لله وإنا إليه راجعون أخلفه الله عما فقده وآجره.

٣ - وجوب طاعة الله وطاعة رسوله في الأمر والنهي.

٤ - تقرير التوحيد.

٥ - وجوب التوكل على الله تعالى وهو فعل المأمور وترك المنهي وتفويض الأمر لله بعد ذلك. ولن يكون إلا خيرًا بإذن الله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤ ـ ١٨]

(١٤) ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾: أي من بعض أزواجكم وبعض أولادكم عدوًّا أي يشغلونكم عن طاعة الله أو ينازعونكم في أمر الدين أو الدنيا.

﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾: أي أن تطيعوهم في التخلف عن فعل الخير كترك الهجرة أو الجهاد أو صلاة الجماعة أو التصدق على ذوي الحاجة. ﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾: أي عمن ثبطكم عن الخير من زوجة وولد. ﴿وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ﴾: أي وتعرضوا عنهم وتغفروا لهم ما عملوه معكم من تأخيركم عن الهجرة أو الجهاد أو الإنفاق في سبيل الله. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: أي يغفر لمن يغفر ويرحم من يرحم.

(١٥) ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾: أي بلاء واختبار لكم فاحذروا أن يصرفوكم عن طاعة الله أو يوقعوكم في معصيته. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: أي فآثروا ما عنده تعالى على ما عندكم من مال وولد.

(١٦) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾: أي افعلوا ما تقدرون عليه من أوامره، واجتنبوا نواهيه كلها. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾: أي ومن يقه الله شح نفسه فيعاقبه من البخل والحرص على المال.

(١٧) ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾: أي الدرهم بسبعمائة. ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾: أي يُجاز على الطاعة ولا يعاجل بالعقوبة.

---

(١) ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ عندما تصيبه المصيبة فيسترجع أي: يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويصبر، فالإيمان هو السبب في حصول هداية القلب فإذا هدي القلب حصل الاسترجاع وحصل الصبر وخفّ وقع المصيبة.

(٢) الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فهي في معنى: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وتوكلوا على الله وحده لأنّ الطاعة تتطلب عملاً وجهدًا وهما يتطلبان اعتمادًا على الله إذ هو المعين للعبد على الطاعة دون غيره فليكن التوكل عليه وحده.

(٣) ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ فيسترجع ويصبر، والإيمان الصحيح هو الذي ينتج هداية القلب فإذا اهتدى القلب إلى معرفة حكم الله وقضائه صبر وظفر.

معنى الآيات:

(١٤) هذه الآيات الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلى قوله ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ نزلت في[1] أناس كان لهم أزواج وأولاد عاقوهم عن الهجرة والجهاد فترة من الوقت فلما تغلبوا عليهم وهاجروا ووجدوا الذين سبقوهم إلى الهجرة قد تعلّموا وتفقّهوا في الدين فتأسّفوا عن تخلفهم فهمُّوا بأزواجهم وأولادهم الذين عاقوهم عن الهجرة فترة طويلة أن يعاقبوهم بنوع من العقاب من تجويع أو ضرب أو تثريب وعتاب فأنزل الله تعالى هذه الآيات: يا أيها الذين آمنوا، أي يا أيها المؤمنون، إن من[2] أزواجكم[3] وأولادكم، أي من بعضهم لا كلهم إذ منهم من يساعد على طاعة الله ويكون عونًا عليها، عدوًا لكم، يصرفكم عن طاعة الله والتزود للدار الآخرة، وقد ينازعونكم في دينكم ودنياكم إذًا فاحذروهم أي كونوا منهم على حذر أن تُطيعوهم في التخلف عن فعل الخير من هجرة وجهاد وغيرهما وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا أي عمن شغلوكم عن طاعة الله فعاقوكم عن الهجرة والجهاد فلم تضربوهم ولم تجوعوهم ولم تثربوا عليهم ولم تعاتبوهم بل تطلبون العذر لما قاموا به نحوكم يكافئكم الله تعالى بمثله فيعفو عنكم ويصفح ويغفر لكم كما عفوتم وصفحتم وغفرتم لأزواجكم وأولادكم الذين أخروا هجرتكم وعطلوكم عن الجهاد في سبيل الله.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[4] ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي إنما أموالكم وأولادكم أي كل أموالكم وأولادكم فتنة واختبار من الله لكم هل تحسنون التصرف فيهم فلا تعصوا الله لأجلهم لا بترك واجب ولا بفعل ممنوع، أو تسيئون التصرف فيحملكم حبهم على التفريط في طاعة الله أو التقصير في بعضها بترك واجب أو فعل حرام والله عنده أجر عظيم فآثروا ما عند الله على ما عندكم من مال وولد، إن ما عند الله باق، وما عندكم فانٍ، فآثروا الباقي على الفاني.

(١٦) وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[5] هذا من إحسان الله تعالى إلى عباده المؤمنين إنه لما علمهم أن أموالهم وأولادهم فتنة وحذّرهم أن يؤثروهم على طاعة الله ورسوله علم أن بعض المؤمنين سوف يزهدون في المال والولد، وأن بعضًا سوف يعانون أتعابًا ومشقة شديدة في التوفيق بين خدمة المصلحتين فأمرهم أن يتقوه في حدود ما يطيقون فقط وخير الأمور الوسط فلا يفرط في ولده وماله، ولا يفرط في علة وجوده وسبب نجاته وسعادته وهي عبادة الله تعالى التي خلق لأجلها وعليها مدار نجاته من النار ودخوله الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾[6] ما يدعوكم الله ورسوله إليه ﴿وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ﴾ في طاعة الله من

---

(١) قال القرطبي: قال ابن عباس: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي بالمدينة النبوية، شكا إلى النبي ﷺ جفاء أهله وولده، وعن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلها جملة إلا هؤلاء الآيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ..﴾ إلخ..

(٢) (مِن) للتبعيض إذ ما كل من له زوجة وولد كانوا له عدوًا.

(٣) الآية عامة في الرجال والنساء فكما يكون للرجل من امرأته وولده عدوٌ يكون كذلك للمرأة من زوجها وولدها عدو، ووجب الحذر على المؤمنين، ويكون الحذر بوجهين: إمّا لضرر في البدن وإما لضرر في الدين، وضرر البدن يتعلق بالدنيا وضرر الدين يتعلق بالآخرة فحذّر الله تعالى العبد من ذلك وأنذره به.

(٤) ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاء واختبار يحملكم على كسب المحرم ومنع حق الله تعالى فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى، روي عن ابن مسعود أنه كان يقول: لا تقولوا: اللهم اعصمني من الفتنة فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة ولكن ليقل: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن.

(٥) هل هذه الآية مخصصة لآية آل عمران: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هذا هو الظاهر إذ من غير الممكن أن يتقى الله حق تقاته أي: تقواه الحقة فلو أن العبد ذاب ذوبانًا من خشية الله تعالى ما اتقى الله حق تقاته.

(٦) قال القرطبي: اسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تؤمرون به وتنهون عنه، والآية أصل في السمع والطاعة في بيعة الرسول ﷺ على السمع والطاعة ولأولي الأمر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

٥٥٨

أموالكم[1] خيرًا لأنفسكم من عدم الإنفاق فإنه شر لكم وليس بخير.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أعلمهم أن عدم الإنفاق ناتج عن شح النفس، وشح النفس لا يقي منه إلا الله، فعليكم باللجوء إلى الله تعالى ليحفظكم من شح نفوسكم فادعوه وتوسلوا إليه بالإنفاق قليلاً قليلاً حتى يحصل الشفاء من مرض الشح الذي هو البخل مع الحرص الشديد على جمع المال والحفاظ عليه ومن شفي من مرض الشح أفلح وأصبح في عداد المفلحين الفائزين بالجنة بعد النجاة من النار.

﴿١٧﴾ وقوله: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ[2] وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ هـذا الترغيب عظيم من الله تعالى للمؤمنين في النفقة في سبيله إذ سماها قرضًا والقرض مردود وواعد بمضاعفتها وزيادة أخرى أن يغفر لهم بذلك ذنوبهم، واشتراط الحسن للقرض اشتراط معقول وهو أن يكون المال الذي أقرض الله حلالاً لا حرامًا، وأن تكون النفس طيبة به لا كارهة له، وهذا من باب النصح للمؤمنين ليحصلوا على الأجر مضاعفًا. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ترغيب أيضًا لهم في الإنفاق لأن الشكور معناه يُعطي القليل فيكافىء بالكثير، والحليم الذي لا يعاجل بالعقوبة. ومثله يقرض القرض الحسن.

﴿١٨﴾ وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ترغيب أيضًا في الإنفاق إذا أعلمهم أنه لا يغيب عنه من أمورهم شيء يعلم الخفي منها والعلني، وما غاب عنهم فلم يروه وما ظهر لهم فشهدوه فذو العلم بهذه المثابة معاملته مضمونة لا يخاف ضياعها ولا نسيانها. وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي العزيز الانتقام من أعدائه الحكيم في إجراء أحكامه وتدبير شؤون عباده.

هداية الآيات:

١ - بيان أن من بعض الزوجات والأولاد عدوًا فعلى المؤمن أن يحذر ذلك ليسلم من شرهم.

٢ - الترغيب في العفو والصفح والمغفرة على من أساء أو ظلم.

٣ - التحذير من فتنة المال والولد ووجوب التيقظ حتى لا يهلك المرء بولده وماله.

٤ - وجوب تقوى الله بفعل الواجبات وترك المنهيات في حدود الطاقة البشرية.

٥ - الترغيب في الإنفاق في سبيل الله تعالى والتحذير من الشح فإنه داء خطير.

❁ ❁ ❁

سورة الطلاق
مدنية
وآياتها ثلاث عشرة آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١]

﴿١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾: أراد الله بالنداء النبي ﷺ وأمته بدليل ما بعده. ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾: أي إذا أردتم طلاقهن. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: أي لِقُبُلِ عدتهن أي في طهر لم يجامعها فيه. ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾: أي احفظوا مدتها حتى يمكنكم المراجعة فيها.

---

(١) يصح في نصبه ثلاثة أوجه الأول: أن يكون الخير بمعنى المال ويكون خيرًا مفعولاً به، والثاني: أن يكون ﴿خَيْرًا﴾ نعتًا لمصدر محذوف أي أنفقوا إنفاقًا خيرًا، والثالث: أن يكون منصوبًا بفعل مضمر دلّ عليه أنفقوا أي ايتوا في الإنفاق خيرًا لأنفسكم.

(٢) المضاعفة: هي إعطاء الضعف، والشكور: فعول بمعنى فاعل أي: مبالغة في الشكر.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أي أطيعوه في أمره ونهيه. ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾: أي لا تخرجوا المطلقة من بيت زوجها الذي طلقها حتى تنقضي عدتها. ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾: أي إلا أن يؤذين بالبذاء في القول وسوء الخلق، أو يرتكبن فاحشة من زنًا بينة ظاهر لا شك فيها. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: أي المذكورات من الطلاق في أول الطهر وإحصاء العدة وعدم إخراج المطلقة من بيتها حتى تنقضي عدتها. ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرٗا﴾: أي يجعل في قلب الزوج الرغبة في مراجعتها فيراجعها إذا لم تكن الثالثة من الطلقات.

معنى الآية:

(١) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[1] يخاطب الله تبارك وتعالى رجال أمة الإسلام في شخصية نبيها محمد ﷺ فيقول: إذا طلقتم[2]، أي إذا أردتم طلاقهم لأمر اقتضى ذلك فطلقوهن لعدتهن، أي لأول عدتهن وذلك في طهر لم تجامع فيه لتعدَّ ذلك الطهر أول عدتها. وقوله تعالى: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي احفظوها فاعرفوا بدايتها ونهايتها لما يترتب على ذلك من أحكام من صحة المراجعة وعدمها، ومن النفقة، والإسكان وعدمهما. وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ فامتثلوا أوامره وقفوا عند حدوده فلا تتعدوها، لا تخرجوهن، أي المطلقات، من بيوتهن اللاتي طلقن فيهن، ولا يخرجن، أي ويجب أن لا يخرجن من بيوتهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة كزنًا ظاهر أو تكون سيئة بذيئة اللسان فتؤذي أهل البيت أذى لا يتحملونه فعندئذ يباح إخراجها.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي المذكورات من الطلاق لأول الطهر، وإحصاء العدة، وعدم إخراجهن من بيوتهن، وقوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ فيتجاوزها ولم يقف عندها فقد ظلم نفسه وتعرض لعقوبة الله تعالى عاجلاً أو آجلاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرٗا﴾ أي بأن يجعل الله تعالى في قلب الرجل رغبة في مراجعة مطلقته فيراجعها، وفي ذلك خير كثير.

هداية الآية:

١ - بيان السنة في الطلاق وهي أن يطلقها في طهرٍ لم يمسها[3] فيه بجماع.

٢ - أن يكون الطلاق واحدة لا اثنتين ولا ثلاثًا.

٣ - وجوب إحصاء العدة ليعرف الزوج متى تنقضي عدة مطلقته لما يترتب على ذلك من أحكام الرجعة والنفقة والإسكان.

٤ - حرمة إخراج المطلقة من بيتها الذي طُلقت فيه إلى أن تنقضي عدتها إلاَّ أن ترتكب فاحشة ظاهرة كزنًا أو بذاءة أو سوء خلق وقبيح معاملة فعندئذ يجوز إخراجها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢، ٣]

(٢) ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: أي قاربن انقضاء عدتهن. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ

---

(١) في سنن ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طلّق حفصة رضي الله عنها ثم راجعها بأمر الله تعالى وقيل له: راجعها فإنها قوّامة صوّامة، رضي الله عنها وأرضاها، وضعّف الحديث، وعلى كل حال فالآية تشريع عام لأمة الإسلام بغض الطرف عن سبب النزول.

(٢) وردت أحاديث كثيرة ضعيفة السند ومجموعها يدل على كراهية الطلاق وأنه عمل غير صالح إن كان بدون ضرورة وهي رفع الضرر عن أحد الزوجين. الجمهور أن من طلق واستثنى فله ما استثناه فلو قال: أنت طالق إن شاء الله فله استثناؤه ولا طلاق عليه.

(٣) وأن يكون واحدة لا اثنتين أو ثلاثًا، وطلاق البدعة خلافه وهو: أن يطلقها وهي حائض أو في طهر جامعها فيه أو بلفظ اثنين أو ثلاث ومن أهل العلم من لا يعد الطلاق البدعي طلاقًا، ومنهم من يمضيه واحتج المانعون والمجيزون بحديث ابن عمر في الصحيح، إذ طلق ابن عمر زوجته وهي حائض فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ فقال له: **«ليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل»** فمن قال: إن الرسول ﷺ قد حسبها له طلقة قال: **«الطلاق في الحيض يمضي وهو بدعة»** ومن قال: إن الرسول ﷺ لم يعدها بل قال له: **«إذا طهرت ليطلق أو ليمسك»** قال: الطلاق في الحيض بدعة ولا يمضي.

﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: أي بأن تراجعوهن بمعروف من غير ضرر. ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن ولا تضاروهن بالمراجعة. ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾: أي اشهدوا على الطلاق وعلى الرجعة رجلين عدلين منكم أي من المسلمين فلا يشهد كافر. ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾: أي لا للمشهود عليه أوله بل لله تعالى وحده. ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: أي ذلكم المذكور من أول السورة من أحكام يؤمر به وينفذه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾: أي في أمره ونهيه فلا يعصه فيهما. ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾: أي من كرب الدنيا والآخرة.

٣ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾: أي من حيث لا يرجو ولا يؤمل. ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾: أي كافيه ما يهمه من أمر دينه ودنياه. ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾: أي من الطلاق والعدة وغير ذلك حدًا وأجلاً وقدرًا ينتهي إليه.

معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في بيان العدد وأحكام الطلاق والرجعة.

٢ قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ﴾[١] أي المطلقات أجلهن أي قاربن انقضاء العدة فأمسكوهن بمعروف، أي راجعوهن على أساس حسن العشرة والمصاحبة الكريمة لا للإضرار بهن كأن يراجعها ثم يطلقها يطول عليها العدة فهذا لا يجوز لحرمة الإضرر بالناس. وفي الحديث: «**لا ضرر ولا ضرار**»[٢] وقوله: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وذلك بأن يعطيها ما بقي لها من مهرها ويُمتّعها[٣] بحسب حاله غنىً وفقرًا. وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي أشهدوا على النكاح والطلاق والرجعة أما الإشهاد على النكاح فركن ولا يصح النكاح بدونه، وأما في الطلاق والرجعة فهو مندوب، وقد يصح الطلاق والرجعة بدونه، ويشترط في الشهود أن يكونوا عدولاً، وأن يكونوا مسلمين لا كافرين[٤]. وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي أدوها على وجهها ولا تراعوا فيها إلا وجه الله عز وجل. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ذلكم المأمور به من أول السورة كالطلاق في طهر لم يجامعها فيه وكإحصاء العدة وعدم إخراج المطلقة من بيتها والإمساك بالمعروف والفراق بالمعروف والإشهاد في النكاح والطلاق والرجعة والإقساط في الشهادة كل ذلك يوعظ به أي يؤمر به وينفذه المؤمن بالله واليوم الآخر إذ هو الذي يخاف عقوبة الله وعذابه فلا يقدم على معصيته.

٣ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۝﴾ هذه الآية نزلت في عوف بن مالك الأشجعي أتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إن ابني أسره العدو وجزعت أمُّهُ فبمَ تأمرني؟ قال: «**آمرك وإياها أن تكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله**» فقالت المرأة: نعم ما أمرك به، فجعلا يكثيران منها فغفل العدو عن ابنهما فاستاق غنمهم وجاء بها إلى أبويه فنزلت هذه الآية، وهي عامة في كل من يتق الله تعالى فإنه يجعل له من كل ضيق مخرجًا ومن كل كرب فرجًا، ويرزقه من حيث لا يرجو ولا يؤمل، ولا يخطر له على بال، ومن يتوكل على الله تعالى في أمره فلا يفرط في أمر الله، ولا يضيع حقوقه فإن الله تعالى يكفيه ما يهمه من أمر دينه ودنياه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾[٥] أي منفذ أمره في عباده لا يعجزونه أبدًا، وقد[٦] جعل لكل

---

(١) هذا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: قاربن من انقضاء الأجل.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

(٣) المتعة واجبة للمطلقة التي لم يفرض لها صداق ولغيرها من المطلقات سنة مستحبة.

(٤) وأن يكونا ذكرين فالنساء شهادتهن خاصة في الأموال لا غير.

(٥) قرأ نافع ﴿**إن الله بالغٌ أمرَه**﴾ بتنوين بالغ ونصب أمره على أنه معمول لاسم الفاعل المنون، وقرأ حفص بإضافة بالغ إلى أمره فبالغ مرفوع بدون تنوين وأمر: مجرور بالإضافة إليه.

(٦) أي: لكل شيء من الشدة والرخاء أجل ينتهي إليه. قاله القرطبي: وما في التفسير أوضح وأشمل.

شيء قدرًا أي مقدارًا وزمانًا ومكانًا فلا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، ولا يقع في ملك الله إلا ما يريد الله.

هداية الآيتين:

١ - لا تصح الرجعة إلا في العدة فإن انقضت العدة فلا رجعة وللمطلقة أن تتزوج من شاءت هو أو غيره من ساعة انقضاء عدتها.

٢ - لا تحل المراجعة للإضرار، ولكن للفضل والإحسان وطيب العشرة.

٣ - مشروعية الإشهاد على الطلاق والرجعة معًا.

٤ - يشترط في الشهود العدالة، فإذا خفت العدالة في الناس استُكْثِرَ من الشهود.

٥ - وعد الله الصادق بالفرج القريب لكل من يتقه سبحانه وتعالى، والرزق من حيث لا يرجو.

٦ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.

٧ - كفاية الله لمن توكل عليه[١].

شرح الكلمات:

[الآية: ٤، ٥]

(٤) ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾: والنسوة اللائي يئسن من المحيض.

﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾: أي شككتم في عدتهن. ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾: أي لكبر سن أو صغر سن. ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾: أي ذوات الأحمال: النساء الحوامل. ﴿أَجَلُهُنَّ﴾: أي في انقضاء عدتهن أن يضعن حملهن.

(٥) ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: أي ذلك المذكور في العدة وتفاصيلها. ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾: أي لتأتمروا به وتعملوا بمقتضاه.

معنى الآيتين:

ما زال السياق الكريم في بيان أحكام الطلاق والرجعة والعدة

(٤) فقال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي[٢] يَئِسْنَ[٣] مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ أي لكبر سنهن كمن تجاوزت الخمسين من عمرها إذا طلقت بعد الدخول بها. إن ارتبتم[٤] أيها المؤمنون في مدّة عدتهن، فعدتهن ثلاثة أشهر. واللائي لم يحضن أي لصغرهن كذلك، عدتهن ثلاثة أشهر، وقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ أي الحوامل إن طُلقن أو مات عنهن أزواجهن أجلهن في انقضاء عدتهن أن يضعن حملهن أي وضع حملهن فمتى ولدت ما في بطنها من جنين فقد انقضت عدتها ولو وضعته قبل استكمال التسعة أشهر، إن لم تتعمد إسقاطه بالإجهاض المعروف اليوم عند الكوافر والكافرين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي منكم أيها المؤمنون في هذه الأحكام المتعلقة بالطلاق والرجعة والعدة فلا يخالف أمره في ذلك يكافئه الله تعالى من فضله فيجعل له من أمره يُسرًا فيسهل عليه أمره ويرزقه ما تقر به عينه ويصلح به شأنه.

(٥) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي ذلك المذكور من الأحكام في هذه السورة من الطلاق والرجعة والعدة وتفاصيلها حكم الله أنزله إليكم لتأمروا وتعملوا به فاعملوا به ولا تهملوه طاعة لله وخوفًا من عذابه ومن يتق الله في أوامره ونواهيه فيؤدي الواجبات ويتجنب المحرمات يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا أي يغفر له ذنوبه ويدخله الجنة.

---

(١) روى القرطبي عن الربيع بن خيثم قوله: إن الله تعالى قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه ومن آمن به هداه، ومن أقرضه جازاه ومن وثق به نجاه ومن دعاه أجاب له، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

(٢) روي أن عددًا من الصحابة وهم: أبي بن كعب وخلاد بن النعمان ومعاذ بن جبل كل واحد سأل رسول الله ﷺ عن عدة الصغيرة والكبيرة ممن لا يحضن وعدة الحامل كذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ﴾ والآية مخصصة لعموم آية البقرة ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ فقد نزلت سورة الطلاق بعد سورة البقرة.

(٣) اليأس: عدم الأمل والميؤوس منه في الآية هو: الحيض وسواء كان قد وجد وانعدم أم لم يوجد بعد.

(٤) أطلق الفقهاء على التي تحيض وانقطع حيضها وهي لم تبلغ سن اليأس أطلقوا عليها: (المرتابة) وألزموها بأن تتربّص تسعة أشهر وهي مدة الحمل فإن لم تحض ولم يظهر لها حمل اعتدت بثلاثة أشهر فتتم لها سنة ثم لها أن تتزوج لانقضاء عدتها.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

هداية الآيتين:

١ - بيان العدة وهي كالتالي:

١ ـ متوفى عنها زوجها وهي غير حامل عدتها: أربعة أشهر وعشر ليال.

٢ ـ متوفى عنها زوجها وهي حامل: عدتها وضع حملها[١].

٣ ـ مطلقة لا تحيض لكبر سنها أو لصغر سنها وقد دخل بها: عدتها ثلاثة أشهر.

٤ ـ مطلقة تحيض عدتها ثلاثة قروء أي حيض تبتدىء بالحيضة التي بعد الطهر الذي طلقت فيه. أو ثلاثة أطهار[٢] كذلك الكل واسع ولفظ القرء مشترك دال على الحيض وعلى الطهر.

٥ ـ بيان أن أحكام الطلاق والرجعة والعدد مما أوحى الله به وأنزله في كتابه فوجب العمل به ولا يحل تبديله أو تغييره باجتهاد أبدًا.

٦ ـ فضل التقوى وأنها باب كل يسر وخير في الحياة الدنيا والآخرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦، ٧]

﴿٦﴾ ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾: أي من وسعكم بحيث يسكن الرجل مطلقته في بعض سكنه. ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾: أي لا تطلبوا ضررهن بأي حال من الأحوال سواء في السكن أو النفقة. ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾: أي لأجل أن تضيقوا عليهن السكن فيتركنه لكم ويخرجن منه. ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ﴾: أي حوامل يحملن الأجنة في بطونهن. ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾: أي أولادكم. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: فأعطوهن أجورهن على الإرضاع هذا في المطلقات. ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾: أي وتشاوروا أو ليأمر كل منكم صاحبه بأمر ينتهي باتفاق على أجرة معقولة لا إفراط فيها ولا تفريط. ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾: فإن امتنعت الأم من الإرضاع أو امتنع الأب من الأجرة.

﴿٧﴾ ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾: أي لينفق على المطلقات المرضعات ذو الغنى من غناه. ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾: ومن ضيق عليه عيشه فلينفق بحسب حاله.

معنى الآيتين:

﴿٦﴾ بعد بيان الطلاق بقسميه الرجعي والبائن وبيان العدد على اختلافها بيّن تعالى في هاتين الآيتين أحكام النفقات والإرضاع فقال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم[٣] مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي من وسعكم ولا تضاروهن[٤] بأي مضارة لا في السكن ولا في الإنفاق ولا في غيره

---

(١) اختلف في الحامل تسقط هل تنقضي عدتها بالإسقاط أو لا فالإجماع إن كان ما سقط منها ولد تام الخلقة فإن عدتها انتهت بذلك، واختلف فيما إذا كان السقط مجرد علقة أو مضغة والراجح أنها تحل لأن العبرة بخلو الرحم يقينًا وقد خلا بالإسقاط.

(٢) الاعتداد بالأطهار أولى لما فيه من التخفيف على المعتدة ولظاهر الآية ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: لأول عدتهن وهو الطهر الذي طلقها فيه ولم يمسها.

(٣) قال أشهب عن مالك: يخرج عنها إذا طلقها ويتركها في المنزل للآية ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ والصحيح أنّ المنزل إذا كان يتسع لهما معًا هي في حجرة وهو في أخرى فلا داعي لإخلائه لها وإن كان لا يتسع إلا لواحد فنعم يجب أن يتركه لها، وقوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ يقرر أن السكنى تكون في بيت الزوج المطلق.

(٤) المضارة: الإضرار، والمراد بالتضييق المحرم: إحراجهن أو أذاهن بأي أذى. فقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ شامل للمضايقة في السكنى والنفقة وفي العدة بأن يطلقها حتى إذا كادت تنقضي عدتها راجعها ثم يُطلقها.

من أجل أن تضيقوا عليهن فيتركن لكم السكن ويخرجن. وهؤلاء المطلقات طلاقًا رجعيًا وهن حوامل أو غير حوامل. وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي وإن كانت المطلقة طلاق البتة أي طلقها ثلاث مرات فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن أي أسكنوهن وأنفقوا عليهن إلى أن يلدن فإن وضعت حملها فهما بالخيار إن شاءت أرضعت له ولده بأجرة يتفقان عليها وإن شاء هو أرضع ولده مرضعًا غير أمه وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ[1] لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ وذلك يتم بتبادل الرأي إلى الاتفاق على أجرة معينة، وإن تعاسرا بأن طلب كل واحد عسر الثاني أي تشاحّا في الأجرة فلم يتفقا فلترضع له أي للزوج امرأة أخرى من نساء القرية.

⑦ وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو[2] سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أمر تعالى المؤمن إذا طلق أن ينفق على مطلقته التي ترضع له ولده أو التي هي في عدتها في بيته بحسب يساره وإعساره أو غناه وافتقاره، إذ لا يكلف الله نفسًا إلا ما أعطاها من قدرة أو غنًى وطَوْل والقاضي هو الذي يقدر النفقة عند المشاحة وتكون بحسب دخل الرجل وما يملك من مال.

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ هذا وعد صدق أتمه لأصحاب رسوله حيث كانوا في عسر ففتح عليهم ملك كسرى والروم فأبدل عسرهم يسرًا. وأما غيرهم فمشروط بالتقوى كما تقدم ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا.

هداية الآيتين:

١ ـ وجوب السكن والنفقة للمطلقة طلاقًا رجعيًا.

٢ ـ وجوب السكنى والنفقة للمطلقة الحامل حتى تضع حملها.

٣ ـ وجوب السكنى والنفقة للمتوفى عنها زوجها وهي حامل.

٤ ـ المطلقة البائن والمبتوتة لم يقض لهما رسول الله ﷺ بنفقة ولا سكنى لحديث فاطمة[3] بنت قيس أخت الضحاك، ومن الفضل الذي ينبغي أن لا ينسى إن كانت محتاجة إلى سكن أو نفقة أن يسكنها مطلقها وينفق عليها مدة عدتها. وأجره عظيم لأنه أحسن والله يحب المحسنين.

٥ ـ النفقة الواجبة تكون بحسب حال المطلق غنًى وفقرًا والقاضي يقدرها إن تشاحا.

٦ ـ المطلقة طلاقًا بائنًا إن أرضعت ولدها لها أجرة إرضاعها حسب اتفاق الطرفين الأم والأب.

٧ ـ بيان القاعدة العامة وهي أن لا تكلف نفس إلا وسعها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ ـ ١٢]

⑧ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾: أي وكثير من قرية أي مدينة. ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾: أي عصت يعني أهلها عصوا ربهم ورسله. ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾: أي فظيعًا.

⑩ ﴿ذِكْرًا﴾: أي القرآن.

⑪ ﴿رَّسُولًا﴾ وأرسل إليكم رسولاً هو محمد ﷺ. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: أي من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد. ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾: أي رزق الجنة التي لا ينقطع نعيمها أبدًا.

⑫ ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: أي سبع أرضين أرضًا فوق أرض كالسموات سماء فوق سماء. ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾: أي الوحي بين السموات والأرض. ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: أي أعلمكم بذلك

---

(١) هل على المرأة أن ترضع ولدها؟ إن كانت عصمة الزوجية قائمة فالصحيح أنها ترضع ولدها وجوبًا وإن انفصلت عروة الزوجية فلا يجب على الوالدة إرضاع إلا إذا لم يقبل غيرها وخيف عليه الموت فيتعين عليها إرضاعه بأجرة إن شاءت. وأبو حنيفة لا يرى وجوب الإرضاع على الأم مطلقًا ويرى بعضٌ العكس. والوسط ما قدمناه وهو الحق.

(٢) في الآية دليل على وجوب نفقة الولد على والده وأما الأم فلا إلا لضرورة كأن يموت الوالد أو يعجز، وكانت الأم قادرة فلتنفق وجوبًا على طفلها.

(٣) وصف المالكية حديث فاطمة بالغرابة، وأن عمر رضي الله عنه لم يقل به، وقال: لا نترك كتاب الله لقول امرأة يعني أن الآية عامة في كل مطلقة لا فرق بين البائن وغيرها، فالسكنى والنفقة للجميع وهو أرحم وأعظم أجرًا والله أعلم.

الخلق العظيم والتنزيل العجيب لتعلموا.

معنى الآيات:

لما قرر تعالى أحكام الطلاق والرجعة والعدة والنفقات وقال ذلك أمر الله أنزله إليكم، وأوجب العمل به حذر في هذه الآية من إهمال تلك الأحكام وتجاهلها وعدم القيام بها (٨) فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن[1] قَرْيَةٍ﴾ أي كثير من المدن عتا أهلها أي ترفعوا متكبرين عن أوامر الله ورسله فلم يمتثلوها وعن الحقوق فلم يؤدوها حاسبها[2] الله تعالى في الدنيا حسابًا شديدًا وعذبها عذابًا نكرًا أي[3] فظيعًا.

(٩) ﴿فَذَاقَتْ﴾ بذلك ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي عقوبته ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي خسارًا وهلاكًا.

(١٠) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هو عذاب يوم القيامة وفي تكرار الوعيد تحذير من الوقوع فيه بالشرك والظلم. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا عقابه فلا تهملوا أحكامه ولا تعطلوها فيحل بكم ما حل بغيركم ممن عتوا عن أمر ربهم ورسله يا أولي الألباب، أي العقول الذين آمنوا قد أنزل إليكم ذكرًا، هو القرآن.

(١١) ﴿رَّسُولًا﴾[4] هو محمد ﷺ ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾[5] واضحات في نفسها لا خفاء فيها ولا غموض، ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات، أي ظلمات الكفر والشرك إلى النور نور الإيمان التوحيد والعمل الصالح.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ[6] جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ[7] اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ هذا وعد كريم من رب رحيم يعد كل من آمن به وعمل صالحًا أن يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا قد أحسن له فيها رزقًا وهو نعيم الجنة الذي لا ينفد ولا ينقطع أبدًا.

(١٢) وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[8] أي سبع أرضين واحدة فوق الأخرى كالسموات سماء فوق سماء هذا هو الله المعبود بحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي[9] أعلمكم بخلقه العظيم من السموات والأرضين وبتنزل الأمر بينهن في كل وقت وحين لتعلموا أنه تعالى على كل شيء قدير لترغبوا فيما عنده وأنه أحاط بكل علمًا لترهبوه وتراقبوه، وبذلك تتهيؤون لإنعامه ورضاه.

هداية الآيات:

١ - التحذير من ترك الأحكام الشرعية وإهمالها والعبث بها.

٢ - بيان منة الله على هذه الأمة بإنزال القرآن عليها وإرسال الرسول إليها.

---

(١) ﴿وَكَأَيِّن﴾ اسم لعدد كثير مبهم يفسره ما يميزه بعده من اسم مجرور بمن وهو بمعنى: كم الخبرية، والمراد بالقرية: أهلها والقرية: المدينة الكبيرة.

(٢) (حاسبناها) بمعنى: جازيناها مجازاة دقيقة دقة الحساب.

(٣) قرأ نافع ﴿نُكُرًا﴾ بضم النون والكاف، وقرأ حفص ﴿نُّكْرًا﴾ بضم النون وإسكان الكاف. والعذاب النكر: ما ينكره المرء من فظاعة كيفيته إنكارًا شديدًا.

(٤) جائز أن يكون ﴿رَّسُولًا﴾ بدل اشتمال من ﴿ذِكْرًا﴾ لتوقف الذكر على الرسول، وجائز أن يكون ﴿رَّسُولًا﴾ معمولاً لفعل محذوف تقديره وأرسل إليكم رسولاً، وهذا واضح.

(٥) قرأ نافع ﴿مُبَيَّنَات﴾ بفتح الياء، وقرأ حفص ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ بكسرها والمعنى واحد.

(٦) قرأ نافع ﴿ندخله﴾ بالنون، وقرأ حفص ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بالياء.

(٧) أحسن الله له رزقًا، قوله: أحسن أبلغ من أعد لأن الإحسان لا يكون إلاّ بعد الإعداد.

(٨) كون الأرضين سبعًا يشهد له قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي مثل السموات السبع، ويشهد له السنة الصحيحة فقد روى عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين**» ومثله أبي هريرة وفيه قال رسول الله ﷺ: «**لا يأخذ أحد شبرًا من الأرض بغير حق إلا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة**».

(٩) المراد بالأمر هنا أمر الله تعالى وهو ما يدبر به شؤون مخلوقاته في الأرض والسماء. من موت وحياة وغيرهما وأمر ونهي وعطاء ومنع وغيرهما، والله أعلم بمراده من كلامه وهو العليم الحكيم.

٣ - بيان أن الكفر ظلمة وأن الإيمان نور.

٤ - بيان عظمة الله تعالى وسعة علمه.

❁ ❁ ❁

سورة التحريم[1]
مدنية
وآياتها اثنتا عشرة آية

ترتيبها ٦٦ سورة التحريم آياتها ١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

٥٦٠

شرح الكلمات:
[الآية: ١ - ٥]

﴿١﴾ ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾: أي لِمَ تحرم جاريتك مارية التي أحلّها الله لك. ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾: أي بتحريمها.

﴿٢﴾ ﴿قد فرض لكم تحلة أيمانكم﴾: أي شرع لكم تحليلها بالكفارة المذكورة في سورة المائدة.

﴿٣﴾ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾: هي حفصة بنت عمر رضي الله عنهما. ﴿حَدِيثًا﴾: هو تحريم مارية وقوله لها لا تفشيه. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾: أي نبأت حفصة عائشة أي اختبرها به ظنًا منها أنه لا حرج في ذلك باجتهادٍ. ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾: أي أطلعه عليه أي على المنبأ به. ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾: أي لحفصة. ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾: أي تكرمًا منه ﷺ.

﴿٤﴾ ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾: أي حفصة وعائشة رضي الله عنهما تقبل توبتكما. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾: أي مالت إلى تحريم مارية أي سرّكما ذلك. ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾: أي تتعاونا أي على النبي ﷺ فيما يكرهه. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾: أي ناصره. ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾: أي ظهراء وأعوان له.

﴿٥﴾ ﴿قَانِتَاتٍ﴾: أي عابدات. ﴿سَائِحَاتٍ﴾: أي صائمات أو مهاجرات.

معنى الآيات:

﴿١﴾ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ[2] اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في هذا عتاب من الله تعالى لرسوله ﷺ إذ حرم جاريته مارية ترضية[3] وذلك أنه ﷺ خلا بها في بيت إحدى نسائه فاطلعت عليه فقالت: يا رسول الله في بيتي وعلى فراشي فجعلها، أي مارية، عليه حرامًا ترضية لصاحبة الحجرة والفراش. فأنزل الله تعالى هذه الآيات مشتملة على هذه القصة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ يعني جاريته مارية القبطية أم إبراهيم. ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ أي تطلب رضاهن ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بك فلا لوم عليك بعد هذا ولا عتاب فجاريتك لا تحرم عليك وكفر عن يمينك. إذ قال لها

---

(١) وتسمى سورة النبي أيضًا.

(٢) روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً، قالت: فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها رسول الله ﷺ فلتقل إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير: فدخل على إحداهما فقالت له ذلك فقال: «**بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له**» فنزل ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى أن تتوبا، المغافير جمع مغفور: بقلة من البقول.

(٣) ترضية، أي: لبعض أزواجه أي: طلبًا لرضاها وهي حفصة بنت عمر رضي الله عنهما.

هي عليّ[1] حرام ووالله لا أطؤها.

(٢) وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ[2] تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ أي ما تتحللون به من أيمانكم إذا حلفتم وهي ما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي متولي أمركم وناصركم. وهو العليم بأحوال عباده الحكيم في قضائه وتدبيره لخلقه.

(٣) وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ أي أذكر إذ أسرّ النبي لبعض أزواجه حديثًا وهي حفصة بنت عمر رضي الله عنهما إذ قال لها: «**لقد حرمت فلانة ووالله لا أطأها**» وطلب منها أن لا تفشي هذا السر. فحدثت به عائشة وكانت متصافية معها توادها.

فأطلع الله تعالى رسوله على ذلك. فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه لحفصة وأعرض عن بعض تكرمًا منه ﷺ قالت، أي حفصة، من أنبأك هذا؟ قال: «**نبأني العليم الخبير**» وقوله: إن تتوبا إلى الله، أي حفصة وعائشة، فقد صغت قلوبكما، أي مالت إلى تحريم مارية، أي سركما ذلك. وجواب الشرط تقديره تقبل توبتكما.

(٤) وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي تتعاونا عليه ﷺ فيما يكرهه، فإن تعاونكما يا حفصة وعائشة رضي الله عنهما لن يضره شيئًا فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين أبو بكر وعمر، والملائكة بعد ذلك ظهير له، أي ظهراء وأعوان له عن كل من يؤذيه أو يريده بسوء.

(٥) وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، وفي هذا تخويف شديد لأمهات المؤمنين وتأديب رباني كبير لهن إذ وعد رسوله أنه لو طلقهن لأبدله خيرًا منهن ﴿مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ﴾[3] أي صائمات أو مهاجرات، ﴿ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أي بعضهن ثيبات وبعضهن أبكارًا إلا أن الرسول ﷺ لم يطلقهن والله تعالى لم يبدله فهن زوجاته في الدنيا زوجاته في الآخرة، هذا وأنبه إلى أن خلافًا كبيرًا بين أهل التفسير في الذي حرّمه رسول الله ﷺ على نفسه وعاتبه ربه عليه. وأحله الله له هل هو شراب كان يحبه، أو هو جاريته مارية، ومن[4] الجائز أن يكون غير ما ذكر؛ لأن الله تعالى لم يذكر نوع ما حرم رسوله على نفسه، وإنما قال: لمَ تحرم ما أحل الله لك. والجمهور على أن المحرم مارية، وفي البخاري أنه العسل والله أعلم فلذا أستغفر الله تعالى أن أكون قد قلت عليه أو على رسوله ما لا يرضيهما أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله إن ربي غفور رحيم.

هداية الآيات:

١ - تقرير نبوته ﷺ وبشريته الكاملة.

٢ - أخذ الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى من هذه الآية أن من قال لزوجته: أنت حرام، أو حرمتك، وهو لم ينوِ طلاقها، أن عليه كفارة يمين لا غير، وذكر القرطبي في هذه المسألة ثمانية عشر قولاً للفقهاء أشدها البتة وأرفقها أن فيها كفارة يمين كما هو مذهب الإمامين الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى.

٣ - كرامة الرسول ﷺ على ربه.

٤ - فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

---

(١) اختلف أهل العلم فيمن حرم شيئًا فإن كان غير الزوجة فالجمهور على أنه لا يحرم ولا كفارة عليه، وبعض يقول عليه كفارة يمين: أما الزوجة فقد بلغت الأقوال فيها ثمانية عشر قولاً أعدلها أن من حرم زوجته بلفظ أنت حرام أو بالحرام إن نوى طلاقها فعليه طلقة، وإن لم ينو طلاقها فإن عليه كفارة يمين كما في صحيح مسلم عن ابن عباس قال: إذا حرم الرجل عليه امرأته فهي يمين يكفرها، وقال: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة.

(٢) تحلة اليمين كفارتها، أي: من حلف على شيء وأراد أن يعود إليه فليكفر عن يمينه وليأت ما حلف عليه.

(٣) قيل: سمي الصائم سائحًا لأن السائح لا زاد معه فكذلك الصائم لا زاد معه.

(٤) نعم من الجائز أن يكون غير ما ذكر ولكن بتتبع لروايات وأقوال العلماء سلفًا وخلفًا ثبت أن الأمر يدور بين أن ما حرمه ﷺ على نفسه ترضية هو: جاريته مارية، أو العسل لا غيرهما.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

٥٦١

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ ـ ٨]

(٦) ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾: أي اجعلوا لها وقاية بطاعة الله والرسول ﷺ. ﴿نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾: أي توقد بالكفار والأصنام التي تعبد من دون الله، لا بالحطب ونحوه.

(٧) ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾: أي لأنه لا ينفعكم اعتذار، يقال لهم هذا عند دخولهم النار.

(٨) ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾: أي توبة صادقة بأن لا يعاد إلى الذنب ولا يراد العود إليه. ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي بإدخالهم النار. ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾: أي أمامهم ومن كل جهاتهم على قدر أعمالهم. ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾: أي إلى الجنة، لأن المنافقين ينطفىء نورهم.

معنى الآيات:

(٦) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ[١] وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ هذا نداء الله إلى عباده المؤمنين يعظهم وينصح لهم فيه أن يقوا أنفسهم وأهليهم[٢] من زوجة وولد، نارًا عظيمة، وقودها، أي ما توقد به الناس من المشركين والحجارة التي هي أصنامهم التي كانوا يعبدونها يقون أنفسهم بطاعة الله ورسوله تلك الطاعة التي تزكي أنفسهم وتؤهلهم لدخول الجنة بعد النجاة من النار.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ أي على النار قائمون عليها وهم الخزنة التسعة عشرة غلاظ القلوب[٣] والطباع شداد البطش إذا بطشوا ولا يعصون الله، أي لا يخالفون أمره، وينتهون إلى ما يأمرهم به وهو معنى: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

(٧) وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾[٤] هذا يقال لأهل النار ينادون ليقال لهم: لا تعتذروا اليوم حيث لا ينفع الاعتذار.

وإنما تجزون ما كنتم تعملون الحسنة بالحسنة والسيئة بالسيئة.

(٨) وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ هذا هو النداء الثاني الذي ينادي فيه الله تعالى عباده المؤمنين يأمرهم فيه بالتوبة العاجلة النصوح التي لا يعود صاحبها إلى الذنب كما لا يعود اللبن إلى[٥] الضرع، ويعدهم ويبشرهم

---

(١) قال علي رضي الله عنه ومجاهد وقتادة: قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم. قال ابن العربي: هذا هو الصحيح لما يعطيه العطف الذي يقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في معنى الفعل كقول الشاعر:

علفتها تبنا وماء باردًا

أي وسقيتها ماءً باردًا.

(٢) إن الوقاية لا تتم إلا بالإيمان وصالح الأعمال بعد اجتناب الشرك والمعاصي، وهذا يتطلب العلم بذلك وتوطين النفس على العمل بما يعلم من ذلك فعلاً لما يفعل وتركًا لما يترك فليأخذ العبد نفسه وأهله بهذا نصحًا له ولهم حتى يقي نفسه ويقي أهله.

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وروى مرفوعًا ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب.

(٤) لأن عذرهم لا ينفعهم. والقصد من هذا النهي هو تحقيق اليأس لهم.

(٥) قال القرطبي: اختلف في تحديد التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولاً وقدّم ما في التفسير على تلك الأقوال.

يعدهم بتكفير سيئاتهم، يبشرهم بالجنة دار النعيم المقيم فيقول: ﴿عَسَىٰ[1] رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ﴾ أي بعد ذلك ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه، أي بإدخالهم الجنة. وقوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي وهم مجتازون الصراط يسألون ربهم أن يبقي[2] لهم نورهم لا يقطعه عنهم حتى يجتازوا الصراط وينجوا من السقوط في جهنم كما يسألونه أن يغفر لهم ذنوبهم التي قد يُردُّون بها إلى النار بعد اجتياز الصراط.

وقولهم: إنك على كل شيء قدير، هذا توسل منهم لقبول دعائهم حيث توسلوا بصفة القوة والقدرة لله تعالى فقالوا: إنك على كل شيء قدير فأتمم لنا نورنا واغفر لنا.

هداية الآيات:

١ - وجوب العناية بالزوجة والأولاد وتربيتهم وأمرهم بطاعة الله ورسوله ونهيهم عن ترك ذلك.

٢ - وجوب التوبة الفورية على كل من أذنب من المؤمنين والمؤمنات وهي الإقلاع من الذنب فورًا أي تركه والتخلي عنه، ثم العزم على أن لا يعود إليه في صدق، ثم ملازمة الندم والاستغفار كلما ذكر ذنبه استغفر ربه وندم على فعله وإن كان الذنب متعلقًا بحق آدمي كأخذ ماله أو ضرب جسمه أو انتهاك عرضه وجب التحلل منه حتى يعفو ويسامح.

شرح الكلمات:

[الآية: ٩ - ١٢]

(٩) ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾: أي بالسيف. ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾: أي باللسان. ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: أي أشدد عليهم في الخطاب ولا تعاملهم باللين.

(١٠) ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: أي في الدين إذ كانتا كافرتين. ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا﴾: أي نوح ولوط عن امرأتيهما. ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾: أي من عذاب الله شيئًا وإن قلَّ.

(١١) ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾: أي آسيا بنت مزاحم آمنت بموسى.

(١٢) ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: أي حفظته فلم يصل إليه الرجال لا بنكاح ولا زنا. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾: أي نفخنا في كُمّ درعها بواسطة جبريل الملقب بروح القدس. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾: أي بولدها عيسى أنه كلمة الله وعبده ورسوله.

معنى الآيات:

(٩) في الآية الأولى (٩) يأمر تعالى رسوله محمدًا ﷺ بعدما ناداه بعنوان النبوة تشريفًا وتكريمًا يأمره بجهاد الكفار والمنافقين فالكفار بالسيف، وشن الغارات[3] عليهم حتى يسلموا، والمنافقون بالقول الغليظ والعبارة البليغة المخيفة الحاملة للوعيد والتهديد. وقوله تعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي اشدد وطأتك على الفريقين على المنافقين باللسان، وعلى الكافرين بالسنان. ﴿وَمَأْوَاهُمْ[4] جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إذا ماتوا على نفاقهم وكفرهم، أو من علم الله موتهم على ذلك.

(١٠) وقوله تعالى في الآية الثانية (١٠) ضرب الله مثلاً في عدم انتفاع الكافر بقرابة المؤمن مهما كانت درجة القرابة عنده. وهو امرأة نوح[5] وامرأة لوط إذ كانت كل واحدة منهما تحت نبي رسول فخانتاهما[6] في دينهما فكانتا كافرتين فامرأة نوح تفشي سر من يؤمن بزوجها وتُخبر به الجبابرة من

---

(١) ﴿عَسَىٰ﴾ من الله تعالى واجبة، ويشهد لهذا قوله ﷺ: **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**.

(٢) قال ابن عباس ومجاهد: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين.

(٣) من المعلوم أن الكفار يُدعون إلى الإسلام أولاً مبيّنًا لهم ما فيه من الهدي والخير وما يجلبه لأهله من الكمال والإسعاد، فإن أبوا فليقاتلوا.

(٤) ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ هذا عائد على الفريقين الكافرين والمنافقين معًا.

(٥) قال مقاتل: اسم امرأة نوح وَالِهَةٌ، واسم امرأة لوط والعة، وروي مرفوعًا بضعف أن اسم امرأة نوح واغلة وامرأة لوط والهة والله أعلم.

(٦) الإجماع أن خيانة المرأتين كانت في الدين ولم تكن في العرض وإنما هي في الكفر والنفاق.

قوم نوح حتى يبطشوا به وكانت تقول لهم إن زوجها مجنون، وامرأة لوط كانت كافرة وتدل المجرمين على ضيوف لوط إذا نزلوا عليه في بيته وذلك في الليل بواسطة النار، وفي النهار بواسطة الدخان. فلما كانتا كافرتين لم تُغن عنهما قرابتهما بالزوجية شيئًا. ويوم القيامة يقال لهما: ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ من قوم نوح وقوم لوط.

(١١) هذا مثل وآخر في عدم تضرر المؤمن بقرابة الكافر ولو كانت القرابة الزوجية وما أقواها، وهو - المثل - امرأة فرعون الكافر الظالم آسيا بنت مزاحم كانت قد آمنت بموسى مع من آمن، فلما عرف فرعون إيمانها أمر بقتلها فلما علمت بعزم الطاغية على قتلها قالت في مناجاتها لربها: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ الذي هو الكفر والظلم حتى لا أكون كافرة بك ولا ظالمة لأحد من خلقك، ونجني من القوم الظالمين، أي من عذابهم، فشُدت أيديها وأرجلها لتلقى عليها صخرة عظيمة إن هي أصرت على الإيمان فرفعت بصرها إلى السماء فرأت بيتها في الجنة ففاضت روحها شوقًا إلى الله وإلى بيتها في الجنة وقد رأته فوصلت الصخرة إليها بعد أن فاضت روحها فنجاها الله من عذاب القتل الذي أراده لها[١] فرعون وعصابته الظلمة الكافرون.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾. عطف تعالى مريم على آسيا ليكون المثل مُكونًا من امرأتين مؤمنتين، كالمثل الأول كان مُكونًا من امرأتين كافرتين فقال عز وجل ومريم بنت عمران التي أحصنت فرجها عن الرجال في الوقت الذي عمّ البغاء والزنا ديار بني إسرائيل كما هي الحال اليوم في ديار اليهود وأمثالهم قد لا تسلم امرأة من الزنا بها فلم يضر ذلك مريم لما كانت عفيفة طاهرة بل أكرمها الله لما أحصنت فرجها بأن أرسل إليها روحه جبريل عليه السلام وأمره أن ينفخ في كم درعها فسرت النفخة بقدرة الله تعالى في جسمها فحملت بعيسى الذي كان بكلمة الله كن فكان في ساعة وصول هواء النفخة وولدته للفور كرامة الله للتي أحصنت فرجها خوفًا من الله وتقربًا إليه، وما ضرها أن العهر والزنا قد انتشر حولها ما دامت هي طاهرة كما لم يضر كفر فرعون آسيا الطاهرة. وكما لم ينفع إيمان وصلاح نوح ولوط امرأتيهما الكافرتين الخائنتين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ما بغت امرأة نبي قط، وهو كما قال: فوالله ما زنت امرأة نبي قط لولاية الله تعالى لأنبيائه فكيف يخزيهم ويذلهم حاشاه تعالى أن يخزي أولياءه أو يذلهم فالمراد من الخيانة المذكورة في قوله تعالى: فخانتاهما، الخيانة في الدين وإفشاء الأسرار.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾، أي بشرائعه وبكتبه[٢] التي أنزلها على رسله، وكانت من القانتين[٣] أي المطيعين لله تعالى الضارعين له المخبتين.

هداية الآيات:

١ - وجوب الجهاد في الكفار بالسيف وفي المنافقين باللسان، وعلى حكام المسلمين القيام بذلك لأنهم خلفاء النبي ﷺ في أمته.

٢ - تقرير مبدأ: لا تزر وازرةٌ وزر أخرى. فالكافر لا ينتفع بالمؤمن يوم القيامة.

٣ - والمؤمن لا يتضرر بالكافر ولو كانت القرابة روحية نبوة أو إنسانية أو أبوة أو بنوة فإبراهيم لم يضره كفر

---

(١) قال يحيى بن سلام: ما ضربه الله مثلاً للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة رضي الله عنهما من مخالفتهما حين تظاهرتا على رسول الله ﷺ وما ضربه تعالى مثلاً لامرأة فرعون ومريم بنت عمران ضربه ترغيبًا لعائشة وحفصة في التمسك بالطاعة والثبات عليها والصحيح أنه حث لكل المؤمنين على الصبر في الشدة مهما كانت.

(٢) قرأ نافع ﴿وكتابه﴾ وجائز أن يكون الإنجيل وهو كتاب ابنها عيسى عليه السلام وجائز أن يكون المراد به ما كتبه الله وقدّره. وقرأ حفص ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بالجمع أي آمنت بسائر كتب الله تعالى المنزلة وعليه فالكتاب في قراءة نافع اسم جنس صادق على جميع كتب الله تعالى المنزلة.

(٣) لمَ قال من القانتات؟ لأنه أراد من القوم القانتين وهم المكثرون من العبادة وفي هذا ثناء عليها وعلى قومها الصالحين وأنها نبتت طيبة في نبات طيب كقول القائل: وهل ينبت الخطي إلا وشيجه.

آزر، ونوح لم يضره كفر كنعان ابنه، كما أن آزر وكنعان لم ينفعهما إيمان وصلاح الأب والابن.

هذا وقرابة المؤمن الصالح تنفع المؤمن دون الصالح لقوله تعالى: والذين[1] آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريّاتهم.

❁ ❁ ❁

الجزء التاسع والعشرون

سورة المُلك[2]
مكية
وآياتها ثلاثون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾: أي تعاظم وكثُر خير الذي بيده الملك أجمع ملكًا وتصرفًا وتدبيرًا. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: أي وهو على إيجاد كل ممكن وإعدامه قدير.

(٢) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾: أي أوجد الموت والحياة فكل حيّ هو بالحياة التي خلقَ الله وكل ميّت هو بالموت الذي خلق الله. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أي أحياكم ليختبركم أيكم يكون أحسن عملاً ثم يميتكم ويحييكم ليجزيكم. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾: أي وهو العزيز الغالب على ما يريده الغفور العظيم المغفرة للتائبين.

(٣) ﴿طِبَاقًا﴾: أي طبقة فوق طبقة وهي السبع الطباق ولا تماسَّ بينها. ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾: أي من تباين وعدم تناسب. ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾: أي من شقوق أو تصدع.

(٤) ﴿كَرَّتَيْنِ﴾: أي مرتين مرة بعد مرة. ﴿خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾: أي ذليلاً مبعدًا كالاً تعبًا منقطعًا عن الرؤية إذ لا يرى خللاً.

(٥) ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: أي بنجوم مضيئة كالمصابيح. ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾: أي مراجم جمع مرجم وهو ما يرجم به أي يرمى. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾: أي وهيأنا لهم عذاب النار المسعَّرة الشديدة الاتّقاد.

معنى الآيات:

(١) قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ مجّد الربّ تعالى نفسه وعظّمها وأثنى عليها بما هو أهله من الملك والسلطان والقدرة والعلم والحكمة فقال عز وجل[3]: تبارك، أي تعاظم وكثر خير الذي بيده الملك الحقيقي يحكم ويتصرف ويدبر بعلمه وحكمته لا شريك له في هذا الملك والتدبير والسلطان. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فما أراد[4] ممكنًا إلا كان، ولا أراد انعدام ممكن إلا انعدم. الذي خلق الموت[5] والحياة لحكمة عالية لا باطلاً ولا عبثًا كما يتصور الكافرون والملاحدة الدهريون بل ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ[6] أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي خلق الحياة بكل ما فيها، ليذكر ويشكر من عباده فمن ذكر وشكر وأحسن ذلك، أعدّ له جناتٍ ينقله إليها بعد نهاية الحياة والعمل فيها، ومن لم يذكر ولم يشكر أو ذكر وشكر ولم يحسن ذلك بأن لم يخلص فيه لله، ولم يؤده كما شرع الله أعدّ له نارًا ينقله إليها بعد نهاية الحياة الدنيا حياة العمل، إذ هذه الحياة للعمل، وحياة الآخرة للجزاء على العمل.

(٢) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) الآية في سورة الطور.

(٢) وتسمى الواقية والمنجية وورد في فضلها أحاديث أصحها حديث السنن وهو قوله ﷺ: «**إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له: تبارك الذي بيده الملك**».

(٣) قال القرطبي: تبارك قال الحسن: تقدس، وقيل: دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه.

(٤) التعبير بالممكن وغير الممكن فيه جواب لمن قال من المبطلين إن كان الله على كل شيء قدير فهل يقدر أن يخلق إلهًا مثله؟ والجواب أن خلق إله مثل الله غير ممكن فلذا لا يخلقه سبحانه وتعالى.

(٥) قدّم ذكر الموت على الحياة لأن الموت أكبر واعظ للإنسان. قال العلماء: الموت ليس عدمًا محضًا ولا فناءً صرفًا، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما وتبديل حال وانتقال من دار إلى دار. والحياة عكس ذلك.

(٦) ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة المختبر لكم فيرى أحسنكم عملاً من أسوئه وقد رتب الجزاء على ذلك، وأحسن العمل أخلصه وأصوبه أي أخلصه لله تعالى وأصوبه أي أداؤه كما شرعه بلا زيادة ولا نقصان.

﴿ٱلْغَفُورُ﴾ ثناء آخر أثنى به تعالى على نفسه فأعلم أنه العزيز الغالب الذي لا يُحال بينه وبين ما يريد الغفور العظيم المغفرة إذ يغفر الذنوب للتائب ولو كانت مثل الجبال وزبد البحر.

(٣) وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ هذا ثناء آخر بعظيم القدرة وسعة العلم والحكمة خلق سبع سموات طباقًا سماء فوق سماء مطابقة لها ولكن من غير مماسة إذ ما بين كل سماء وأخرى هواء وفراغ مسيرة خمسمائة عام فالمطابقة المعادلة والمساواة في الجرم لا بوضع سماء على الأخرى كغطاء القدر مثلاً.

وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي من اختلاف أو تضاد وتباين والسماء فوقك فإنك لا تجد إلاّ الاتّساق والانتظام لا تصدع ولا انفطار وإن شئت فارجع البصر وانظر هل ترى من فطور، أي إنك لا ترى ذلك.

(٤) ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾[١] فإنك لا تجد تفاوتًا ولا تباينًا أبدًا ولو نظرت الدهر كله كل ما في الأمر أن بصرك أيها الناظر إلى السماء يرجع إليك خاسئًا، أي ذليلاً مبعدًا[٢] مما أراد، وهو حسير، أي كليل تعب.

(٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي هذه الدانية من الأرض القريبة منها بمصابيح[٣] هي النجوم والكواكب. وجعلناها، أي النجوم، رجومًا[٤] للشياطين ترجم بها الملائكة شياطين الجن الذين يريدون استراق السمع من كلام الملائكة حتى لا يفتنوا الناس في الأرض عن دين الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾[٥] أي وهيأنا للشياطين عذاب السعير يعذبون به يوم القيامة كسائر الكافرين من الإنس والجن.

هداية الآيات:

١ - تقرير ربوبية الله تعالى بعرض دلائل القدرة والعلم والحكمة والخير والبركة وهي موجبة لألوهيته أي عبادته دون من سواه عز وجل.

٢ - بيان الحكمة من خلق الموت والحياة.

الجزء التاسع والعشرون — سورة الملك

ترتيبها ٦٧ — سورة الملك — آياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

٥٦٢

٣ - بيان الحكمة من خلق النجوم وهي في قول قتادة رحمه الله: أن الله جل ثناؤه إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال: زينة لسماء الدنيا، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها[٦].

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ - ١١]

(٦) ﴿كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾: أي لم

---

(١) ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ منصوب على المصدر لأن الكرة: الرجعة فكرتين بمعنى رجعتين أي مرة بعد أخرى والعامل فارجع.

(٢) يقال: خسئت الكلب أي أبعدته وطردته.

(٣) سميت الكواكب مصابيح لإضاءتها.

(٤) الرجوم جمع رجم وهو اسم لما يرجم به أي ما يرمي به الرامي من حجر وغيره من باب تسمية المفعول بالمصدر مثل الخلق للمخلوق والرد للمردود، والمراد من النجوم التي يرمى بها هي الشهب التي تنفصل عن النجوم والكواكب، وجائز أن تكون كواكب صغيرة تُرمى بها الشياطين شأنها شأن الشهب لحديث: **«الكوكب الذي انقض البارحة»**.

(٥) لا يقولن قائل: الشياطين خلقوا من نار فكيف يعذبون بها؟ والجواب: السعير أقوى من مادة النار التي خلقوا منها كما أن الشياطين تحولوا عن أصل المادة التي خلقوا منها. تحول الإنسان من طين إلى لحم وعظم وعصب ودم.

(٦) تمام قوله: فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به، وتعدى وظلم.

يؤمنوا به فلم يعبدوه.

⑦ ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾: أي في جهنم ألقتهم الملائكة فيها وذلك يوم القيامة. ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾: أي سمعوا لجهنم صوتًا منكرًا مزعجًا كصوت الحمار. ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾: أي تغلي.

⑧ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ تكاد تتقطع من الغيظ غضبًا على الكفار. ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾: سؤال توبيخ وتقريع وتأنيب. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾: أي رسول ينذركم عذاب الله يوم القيامة؟

⑨ ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾: أي كذبنا الرسل وقلنا لهم ما نزل الله مما تقولون لنا من شيء. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾: أي ما أنتم أيها الرسُل إلاّ في ضلال كبير أي خطأ عقلي وتصور نفسي باطل.

⑩ ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾: أي وبخوا أنفسهم بأنفسهم وقالوا: لو كنا في الدنيا نسمع أو نعقل لآمنا وعبدنا الله وما كنا اليوم في أصحاب السعير.

معنى الآيات:

⑥ لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أنه أعد للشياطين مسترقي السمع من الملائكة في السماء عذاب السعير عطف عليه قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾[1] أي جحدوا ألوهيته ولقاءه فما عبدوه ولا آمنوا به من الإنس والجن عذاب جهنم وبئس المصير هي، أي جهنم، يصيرون إليها وينتهون إلى عذابها شرابها الحميم وطعامها الضريع والزقوم، وقوله تعالى في وصف ما يجري في النار:

⑦ ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾[2] إذا ألقي الكافرون في النار سمعوا لها شهيقًا أي صوتًا منكرًا مزعجًا كصوت الحمار إذا شهق أو نهق. ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ تغلي[3].

⑧ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾[4] أي تقرب أن تتقطع من الغيظ الذي هو شدة الغضب وغضبها من غضب الرب مالكها لما غضب الجبار غضبت لغضبه، وكل مؤمن بالله عارف به يغضب لما يغضب له ربّه ويرضى لما يرضى به ربّه. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي جماعة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ أي الملائكة الموكلون بالنار وعذابها وهم الزبانية وعددهم تسعة عشر ملكًا سألوهم سؤال توبيخ وتريع لأنهم يعلمون ما يسألونهم عنه ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ[5] نَذِيرٌ﴾ أي رسول في الدنيا يدعوكم إلى الإيمان والطاعة؟

⑨ فيجيبون قائلين: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءنا نذير ولكن كذبنا الرسل وقلنا لهم ردًا على دعوتهم: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي مما تقولون وتدعوننا إليه ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾[6] أي وقلنا لهم ما أنتم أيها الرسل إلاّ في ضلال عقلي وخطأ تصوري كبير. ثم رجعوا إلى أنفسهم يوبخونها بما أخبر تعالى به عنهم.

⑩ في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

⑪ قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا﴾ أي بعدًا بعدًا من رحمة الله ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي سعير جهنم.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء ببيان ما يجري فيها من عذاب وعقاب.

٢ - بيان أن تكذيب الرسل كفر موجب للعذاب، وتكذيب العلماء كتكذيب الرسل بعدهم أي في وجوب العذاب المترتب على ترك طاعة الله ورسوله.

٣ - بيان أن ما يقوله أهل النار في اعترافهم هو ما يقوله الملاحدة اليوم

---

(١) هذا تتميم للكلام السابق أي كما كان للشياطين عذاب السعير فللذين كفروا عذاب جهنم وبئس المصير.

(٢) قال عطاء: الشهيق في الصدور والزفير في الحلق.

(٣) قال حسان:

تركتم قدركم لا شيء فيها ... وقدر القوم حامية تفور

أي تغلي.

(٤) أصل تميز تتميز أي تتقطع وينفصل بعضها عن بعض قيل هذا التغيظ هو من شدّة الغيظ على أعداء الله، وقيل هو من الغليان.

(٥) الاستفهام للتقريع والتوبيخ.

(٦) ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ إن نافية بدليل الاستثناء بعدها.

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

في ردهم على العلماء بأن التدين تأخر عقلي ونظر رجعي.

٤ - تقرير أن الكافر اليوم لا يسمع ولا يعقل، أي سماعًا ينفعه وعقلًا يحجزه عن المهالك باعتراف أهل النار إذ قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ السَّعِيرِ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ - ١٥]

﴿١٢﴾ ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾: أي يخافونه وهم غائبون عن أعين الناس فلا يعصونه. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: أي لذنوبهم وأجر كبير هو الجنة.

﴿١٤﴾ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾: أي كيف لا يعلم سركم كما يعلم جهركم وهو الخالق لكم فالخالق يعرف مخلوقه. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾: أي بعباده الخبير بهم وبأعمالهم.

﴿١٥﴾ ﴿ذَلُولًا﴾: أي سهلة للمشي والسير عليها. ﴿فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا﴾: أي في جوانبها ونواحيها. ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾: أي إليه وحده مهمة نشركم أي إحياءكم من قبوركم للحساب والجزاء.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى جزاء الكافرين وأنه عذاب السعير رغب في الإيمان والطاعة للنجاة من السعير.

﴿١٢﴾ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ[1] رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يخافونه وهم لا يرونه، وكذا وهم في غيبة عن الناس فيطيعونه ولا يعصونه هؤلاء لهم مغفرة لما فرط من ذنوبهم وأجر كبير عند ربهم أي الجنة. ولما قال بعض المشركين في مكة: لا تجهروا بالقول فيسمعكم إله محمد فيطلعه على قولكم، قال تعالى ردًا عليهم وتعليمًا:

﴿١٣﴾ ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ فإنه يعلم السر وما هو أخفى منه كحديث النفس وخواطرها ﴿إِنَّهُۥ[2] عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما هو مكنون مستور في صدور الناس

﴿١٤﴾ ﴿أَلَا يَعْلَمُ[3] مَنْ خَلَقَ﴾ أي كيف لا يعلم من خلقهم وهو اللطيف بهم الخبير بأحوالهم وأعمالهم.

﴿١٥﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾[4] أي سهلة فامشوا في مناكبها، جوانبها ونواحيها شرقًا وغربًا، وكلوا من رزقه الذي خلق لكم، وإليه وحده نشوركم أي إحيائكم وإخراجكم من قبوركم ليحاسبكم ويجزيكم على إيمانكم وطاعتكم بخير الجزاء وهو الجنة ونعيمها، وعلى كفر من كفر منكم وعصى بشر الجزاء وهو النار وعذابها.

هداية الآيات:

١ - فضيلة الإيمان بالغيب ومراقبة الله تعالى في السّرّ والعلن.

٢ - مشروعية السير في الأرض

---

(١) بعد ذكر جزاء أهل الكفر والشرك والشر والفساد ذكر تعالى جزاء أهل الإيمان والتوحيد والخير والصلاح فكان الأسلوب أسلوب الترهيب والترغيب الذي عرف به القرآن الكريم كتاب الهداية الإلهية.

(٢) ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الجملة تعليل للتسوية بين السر والجهر من أقوال المشركين نحو قوله: ﴿اصبروا أو لا تصبروا﴾ أي استوى عنده السر والجهر كما استوى عند أهل النار الصبر والجزع.

(٣) ألا يعلم السر من خلق: السر؟ أي أنا خلقت السر في القلب أفلا أكون عالمًا بما في قلوب العباد؟ إذ لا بد وأن يكون الخالق عالمًا بما خلق والاستفهام إنكاري وجملة ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ في محل نصب حال.

(٤) ﴿ذَلُولًا﴾ فعول بمعنى مفعول أي مذللة مسخرة منقادة لما تريدون منها من مشي عليها وزرع وغرس وبناء وإنشاء وتعمير.

لطلب الرزق من التجارة والفلاحة وغيرهما.
٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ - ١٩]

(١٦) ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾: أي يجعلها بحيث تغورون فيها وتصبحون في جوفها. ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾: أي تتحرك وتضطرب حتى يتم الخسف بكم.

(١٧) ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: أي ريحًا عاصفًا ترميكم بالحصباء فتهلكون. ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾: أي كان عاقبة إنذاري لكم بالعذاب على ألسنة رسلي.

(١٨) ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: أي إنكاري عليهم الكفر والتكذيب والجواب كان إنكارًا حقًا واقعًا موقعه.

(١٩) ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: أي باسطات أجنحتها. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: أي ويمسكن أجنحتهن. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: أي حتى لا يسقطن على الأرض حال البسط للأجنحة والقبض لها.

معنى الآيات:

يقول تعالى واعظًا عباده ليؤمنوا به ويعبدوه وحده فيكملوا ويسعدوا: ﴿ءَأَمِنتُم[1] مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ من في السماء الذي هو العلو المطلق وهو الله عز وجل في عليائه فوق عرشه بائن من خلقه أن يخسف بكم الأرض لتهلكوا كلكم في جوفها فإذا هي حال الخسف تمور أي تتحرك وتضطرب حتى تغور في بطنها والجواب لم يأمنوا ذلك فكيف إذًا يصرون على الشرك والتكذيب للرسول.

(١٧) وقوله: ﴿أَمْ[2] أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله عز وجل أن يرسل عليكم حاصبًا أي ريحًا تحمل الحصباء والحجارة فتهلكهم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي إنذاري لكم الكفر والتكذيب أي أنه حق وواقع مقتضاه.

(١٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود وغيرهما أي كذبوا رسلي بعدما أنكروا عليهم الشرك والكفر فأهلكناهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري لهم كان حقًا وواقع المقتضى.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟[3] إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي باسطات أجنحتهن ويقبضنها ما يمسكهن في حالة البسط أو القبض إلا الرحمٰن الذي أنكره المشركون وقالوا وما الرحمٰن وهم يعيشون في رحمته التي وسعت كل شيء وهي متجلية حتى في الطير تحفظه من السقوط والتحطيم أي أينكرون ألوهية الله ورحمته ولم يروا إلى الطير وهي صافات وقابضات أجنحتها ولا يمسكها أحد من الناس فمن يمسكها إذًا؟ إنه الرحمٰن جلّ جلاله وعظم سلطانه بما شاء من السنن والنواميس التي يحكم بها خلقه ويدبر بها ملكوته إن أمر المشركين في كفرهم بالله لعجب، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ سواء عنده السابح في الماء والسارح في الغبراء والطائر في السماء والمستكن في الأحشاء.

هداية الآيات:

١ - تحذير المعرضين عن الله وإنذارهم بسوء العواقب إن استمروا على إعراضهم فإن الله قادر على أن يخسف بهم الأرض أو يرسل عليهم حاصبًا من السماء وليس هناك من يؤمّنهم ويجيرهم بحال من الأحوال. إلا إيمانهم وإسلامهم لله عز وجل.

٢ - في الهالكين الأولين عبر

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: أأمنتم عذاب من في السماء إن عصيتموه: يريد أن يصيبكم به إن أصررتم على تكذيبه وتكذيب رسوله ﷺ. هكذا عقيدة السلف في إثبات صفة العلو لله تعالى، وأما الخلف فيقولون: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قدرته وسلطانه وعرشه وملائكته هروبًا إلى التأويل حتى لا يصفوا الله تعالى بما وصف به نفسه من العلو الذاتي فما أضلّ القوم. والاستفهام إنكاري أي ينكر عليهم أمنهم من الخسوف بهم وهم قائمون على معاصي توجب لهم ذلك.

(٢) (أم) هي المنقطعة التي تؤول ببل والاستفهام وهو إنكاري تعجبي ينكر عليهم أمنهم من عذاب الله بإرسال حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط فتهلكهم كما أهلكتهم إذ هم متعرضون لذلك بتكذيبهم وشركهم وكفرهم وحذفت الياء من نذيري ونكيري وهي ضمير المتكلم حذفت تخفيفًا.

(٣) الهمزة داخلة على محذوف أي أغفلوا ولم يروا إلى الطير فوقهم حال كونها صافات أجنحتها وتقبضها أحيانًا ولم تسقط فتتجلى لهم قدرة الله ورحمته ليؤمنوا ويطيعوا فينجوا ويسعدوا.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

ترتيبها ٦٨ — سُورَةُ القَلَمِ — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾

وعظات لمن له قلب حيٌّ وعقل يعقل به.

٣ ـ من آيات الله في الآفاق الدالة على قدرة الله وعلمه ورحمته الموجبة لعبادته وحده طيران الطير في السماء وهو يبسط جناحيه ويقبضهما ولا يسقط إذ المفروض أن يبقى دائمًا يخفق بجناحيه يدفع نفسه فيطير بمساعدة الهواء أما إذا قبض أو بسط المفروض أنه يسقط ولكن الرحمٰن عز وجل يمسكه فلا يسقط.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠ ـ ٢٧]

﴿٢٠﴾ ﴿جُندٌ لَّكُمْ﴾: أي أعوان لكم.

﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: أي غيره تعالى يدفع عنكم عذابه. ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: أي ما الكافرون. ﴿إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾: غرهم الشيطان بأن لا عذاب ينزل بهم.

﴿٢١﴾ ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾: أي إن أمسك الرحمٰن رزقه؟ لا أحد غير الله يرسله. ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾: أي إنهم لم يتأثروا بذلك التبكيت بل تمادوا في التكبر والتباعد عن الحق.

﴿٢٢﴾ ﴿أَمَّن يَمْشِى مُكِبًّا﴾: أي واقعًا على وجهه. ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾: أي مستقيمًا.

﴿٢٣﴾ ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: أي القلوب. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: أي شكركم قليل.

﴿٢٤﴾ ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي خلقكم في الأرض وإليه تحشرون لا إلى سواه.

﴿٢٥﴾ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: أي الذي تعدوننا به وهو يوم القيامة.

﴿٢٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي علم مجيئه عند الله لا غير.

﴿٢٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾: أي لما رأوا العذاب قريبًا منهم في عرصات القيامة. ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي تغيّرت مسودة. ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: أي هذا العذاب الذي كنتم بإنذاره تكذبون وتطالبون به تحديًا منكم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية كفار قريش فقال تعالى مخاطبًا لهم:

﴿٢٠﴾ ﴿أَمَّنْ[1] هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؟ أي من هذا الذي هو جند لكم أيها المشركون بالله تعالى ينصركم من دون الرحمٰن إن أراد الرحمٰن بكم سوءًا فيدفعه عنكم. وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ[2] إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي ما الكافرون إلا في غرور أوقعهم الشيطان فيه زيّن لهم الشرك ووعدهم ومنّاهم أنه لا حساب ولا عقاب، وأن آلهتهم تشفع لهم.

﴿٢١﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ[3] هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي أي من هذا الذي يطعمكم ويسقيكم ويأتي بأقواتكم إن أمسك الله ربكم رزقه عنكم فلو قطع عليكم المطر ما أتاكم به أحد غير الله. وقوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى

(١) ﴿أَمَّنْ﴾ هي (أم) المنقطعة المقدرة ببل و(من) الاستفهامية أدغمت في ميم أم فصارت أمَّن والاستفهام للتبكيت والتأنيب والإضراب الانتقالي إذ تنقل من توبيخهم على عدم التأمل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن آثار قدرة الله ورحمته إلى التبكيت بضعفهم وقلة الناصر لهم سوى الرحمٰن الذي يكفرون به.

(٢) الجملة معترضة مقررة لما قبلها والالتفات فيها من الخطاب إلى الغيبة لاقتضاء حالهم. الإعراض عنهم والإظهار في موضع الإضمار إذ قال ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولم يقل (إن هم إلا في غرورا) لذمهم بالكفر وتعليل غرورهم به.

(٣) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى﴾ القول فيها كالقول في سابقها سواء.

﴿عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي أنهم لم يتأثروا بهذا التبكيت والتأنيب بل تمادوا في الكبر والتباعد عن الحق.

(٢٢) وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا[1] عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ[2] أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ هذا مثل ضربه الله تعالى للمشرك والموحد تبيانًا لحالهما وتحقيقًا لواقع مذهبهما فقال: أفمن يمشي مكبًا، أي واقعًا على وجهه، هذا هو المشرك الذي سيكبّ على وجهه في جهنم أهدى أمّن يمشي سويًا أي مستقيمًا على صراط مستقيم أي طريق مستقيم هذا هو الموحدّ فأيهما أهدى؟ والجواب قطعًا الذي يمشي سويًا على صراط مستقيم إذًا النتيجة أن الموحد[3] مهتد والمشرك ضال.

(٢٣) وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي خلقكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي القلوب أي وأنتم لا تنكرون ذلك فما لكم إذًا لا تشكرون المنعم عليكم بهذه النعم وذلك بالإيمان به وبرسوله وطاعته و طاعة رسوله إنكم ما تشكرون إلا قليلاً وهو اعترافكم بأن الله هو المنعم لا غير.

(٢٤) وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي قل لهم يا رسولنا الله هو الذي ذرأكم في الأرض أي خلقكم لا أصنامكم التي لا تخلق ذبابًا وإليه تعالى وحده تحشرون يوم القيامة إذًا فكيف لا تؤمنون به وبرسوله ولا تشكرونه ولا تخافونه وإليه تحشرون فيحاسبكم ويجزيكم بأعمالكم.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي ويقول الكافرون لرسول الله والمؤمنين: متى هذا الوعد الذي تعدوننا به وهو يوم القيامة أي متى يجيء؟ وهنا قال تعالى لرسوله إجابة لهم على سؤالهم:

(٢٦) قل ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ[4] عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي علم مجيء يوم القيامة عند الله، وليس هو من شأني وإنما أنا نذير منه مبين لا غير.

(٢٧) وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي عذاب يوم القيامة ﴿زُلْفَةً﴾[5] أي قريبًا منهم ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي أساءها الله فتغيرت بالاسوداد والكآبة والحزن. وقيل لهم أو قالت لهم الملائكة هذا العذاب الذي كنتم به تطالبون متحدّين رسولنا والمؤمنين وتقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

هداية الآيات:

١ - تقرير حقيقة ثابتة وهي أن الكافر يعيش في غرور كامل ولذا يرفض دعوة الحق.

٢ - تقرير حقيقة ثابتة وهي انحراف الكافر وضلاله واستقامة المؤمن وهدايته.

٣ - وجوب الشكر لله تعالى على نعمة السمع والبصر والقلب وذلك بالإيمان والطاعة.

٤ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٨ ـ ٣٠]

(٢٨) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾: أي أخبروني.

﴿وَمَن مَّعِىَ﴾: أي من المؤمنين.

﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾: أي لم يهلكنا. ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي فمن يحفظ ويقي الكافرين العذاب.

(٢٩) ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: أي قل هو الرحمن الذي أدعوكم إلى عبادته.

(٣٠) ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾: أي

---

(١) ﴿مُكِبًّا﴾ اسم فاعل من أكب اللازم أما المتعدي فهو كبه يكبه وجواب الاستفهام الأول هو جملة أهدى وحذف جواب الاستفهام الثاني لدلالة الأول عليه.

(٢) ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ أي أكثر هداية واستقامة، والسوي هو الشديد الاستواء وهو الاعتدال والاستقامة.

(٣) جائز أن يراد بالمكب على وجهه أبو جهل، والسوي على صراط مستقيم أبو بكر رضي الله عنه والمثل عام في كل مشرك وموحد أو كافر ومؤمن.

(٤) كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ الآية من سورة الأعراف.

(٥) ﴿زُلْفَةً﴾ اسم مصدر من أزلف إزلافًا إذا أقرب، والزلفى القربة والمنزلة. والفاء في ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ هي الفصيحة إذ أعربت من جملتين وترتيب الشرطية عليها كأنه قيل وقد أتاهم الموعود به فرأوه، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ﴾ أي اسودت وجوه الذين كفروا لِمَا فيها من الخوف والحزن.

غائرًا لا تناله الدلاء ولا تراه العيون. ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾: أي تراه العيون لجريانه على الأرض.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية كفار قريش فقال تعالى لرسوله: قل لهؤلاء المشركين الذين تمنوا موتك وقالوا نتربص به ريب المنون[١] قل لهم:

(٢٨) ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾[٢] من المؤمنين، ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فلم يهلكنا بعذاب ﴿فَمَن يُجِيرُ[٣] ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟ والجواب: لا أحد إذًا فماذا تنتفعون بهلاكنا.

(٢٩) وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي قل يا رسولنا لهؤلاء المشركين قل هو الرحمٰن الذي يدعوكم إلى عبادته وحده وترك عبادة غيره آمنا به وعليه توكلنا، أي اعتمدنا عليه وفوضنا أمرنا إليه فستعلمون في يوم ما من هو في ضلال ممن هو على صراط مستقيم.

(٣٠) وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائرًا ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾[٤] أي قل لهؤلاء المشركين يا رسولنا تذكيرًا لهم أخبروني إن أصبح ماؤكم الذي تشربون منه «بئر زمزم» وغيرها[٥] غائرًا لا تناله الدلاء ولا تراه العيون. فمن يأتيكم بماء معين غير الله تعالى؟ والجواب لا أحد[٦] إذًا فلمَ لا تؤمنون به وتوحدونه في عبادته وتتقربون إليه بالعبادات التي شرع لعباده أن يعبدوه بها؟.

هداية الآيات:

١ - بيان ما كان عليه المشركون من عداوة لرسول الله ﷺ حتى تمنوا موته.

٢ - وجوب التوكل على الله عز وجل بعد الإيمان.

٣ - مشروعية الحجاج لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

❋ ❋ ❋

سورة القلم
مكية
وآياتها اثنتان وخمسون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٧]

(١) ﴿نٓ﴾: هو أحد الحروف المقطعة يكتب هكذا نٓ ويُقرأ هكذا نُـــون. ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: أي والقلم الذي كتب به الذكر «القدر» والذي يخطون ويكتبون.

(٢) ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾: أي لست بما أنعم الله عليك من النبوة وما وهبك من الكمال. ﴿بِمَجْنُونٍ﴾: أي بذي جنون كما يزعم المشركون.

(٣) ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: أي غير مقطوع بل هو دائم أبدًا.

(٦) ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾: أي بأيكم الجنون.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿نٓ﴾ هذا أحد الحروف[٧] المقطعة نحو قٓ، وصٓ، وحمٓ الله أعلم بمراده به، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[٨] أي

---

(١) جاء هذا في سورة الطور إذ قال تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾.

(٢) فتح كُلاً من ياءي أهلكني ومن معي نافع وحفص سواء.

(٣) الاستفهام للنفي.

(٤) ﴿معين﴾ أصلها معيون كمبيع أصلها مبيوع فنقلت ضمة الياء إلى العين قبلها فالتقى ساكنان الياء والواو فحذفت الواو ثم كسرت العين لتصبح الياء.

(٥) وهي بئر ميمون كانوا يشربون منها كبئر زمزم.

(٦) روي استحباب قول القارىء: ﴿ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذا قرأ ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ وروي أن جاهلاً ملحدًا لما سمعها قال: تأتي بها الفؤوس والمعاول فذهب ماء عينيه وعمي. والعياذ بالله تعالى من الجهل والكفر والجرأة على الله.

(٧) روي عن بعض السلف أن: نون هي الدواة، وكونه أحد الحروف المقطعة أولى لنظائره من صٓ، وقٓ ويٓس، وطٓس. وفي إدغام النون في واو والقلم قراءتان سبعيتان الفك والإدغام.

(٨) جائز أن يكون ما موصولة، أي والذي يسطرونه وجائز أن تكون مصدرية أي ومسطورهم.

والقلم الذي كتب أول ما خلق وقال له اكتب فقال ما أكتب قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى بذلك وما يسطرون أي وما تسطره وتكتبه الملائكة نقلاً من اللوح المحفوظ، وما يكتبه الكرام الكاتبون من أعمال العباد قسمي أي أقسم تعالى بشيئين الأول القلم، والثاني ما سطر به وكتب مما خلق من كل شيء. والمقسم[1] عليه

(٢) قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ[2] رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ تكذيب للمشركين الذين قالوا إن محمدًا مجنون بسبب ما رأوا من الوحي والتأثير به على من هداه الله للإيمان.

(٣) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝﴾ هذا داخل تحت القسم أي مقسم عليه وهو أن للنبي ﷺ أجرًا غير مقطوع أبدًا بسبب ما قدمه من أعمال صالحة أعظمها ما بيّنه من الهدي وما سنّه من طرق الخير إذ من سنّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم الدين كما أن الجنة أجر كل عمل صالح وللرسول فيها أجر غير مقطوع بل له أعلاها وأفضلها.

(٤) وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝﴾[3] هذا أيضًا داخل في حيز المقسم عليه وهو أن النبي محمدًا ﷺ لعلى خلق، أي أدب عظيم حيث أدّبه ربّه فكيف لا يكون أكمل الخلق أدبًا وسيرته وما خوطب به في القرآن من مثل خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين. ومثل وشاورهم في الأمر ومثل ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك إلى غير ذلك من الآداب الرفيعة التي أدب الله بها رسوله مما جعله أكمل الناس أدبًا وخلقًا وقد سُئلت عائشة عن خلق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن، وقال هو عن نفسه: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»، وقال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

(٥) - (٦) وقوله تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ[4] وَيُبۡصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ أي دم على ما أنت عليه من الكمال يا رسولنا واصبر على دعوتنا فستبصر بعد قليل من الزمن ويبصر قومك المتهمون لك بالجنون بأيكم[5] المفتون أي المجنون أنت - وحاشاك - أو هم.

(٧) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ[6] هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝﴾ في هذا الخبر تعزية لرسول الله ﷺ وتسلية له ليصبر على دعوة الله وفيه تهديد ووعيد للمشركين المكذبين فكون الله أعلم من كُل أحد بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين معناه أنه سيعذب حسب سنته الضال وسيرحم المهتدي.

هداية الآيات:

١ - تقرير مسألة أن لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه.

٢ - بيان فضل القلم الذي يكتب به الهدى والخير.

٣ - تقرير عقيدة القضاء والقدر إذ كان ذلك بالقلم الذي أول ما خلق الله.

---

(١) جواب القسم وهو ثلاثة أشياء، الأول: نفي الجنون عنه ﷺ، والثاني: ثبوت الأجر له ﷺ، والثالث: كونه على أعظم خلق حيث تحلّى بكل أدب في القرآن حتى قالت عائشة رضي الله عنها: كان خُلُقه القرآن.

(٢) الباء ﴿بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ سببية أي ما أنت بسبب ما أنعم الله عليك من الوحي مجنونًا والباء في مجنون زائدة لتقوية النفي وتأكيده.

(٣) ورد في فضل الخلق أحاديث «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحُها وخالق الناس بخلق حسن**» وحديث «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن**» و«**إن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء**» (صحيح).

(٤) قال ابن عباس: ستعلم ويعلمون: يوم القيامة حين يتميز الحق من الباطل وما في التفسير وارد وحق ولعله المراد. وما قاله ابن عباس حق ووارد.

(٥) ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ أي: اسم مبهم يتعرف بما يضاف هو إليه، وله مواقع كثيرة في الكلام فقد يشرب معنى الموصول ومعنى الشرط ومعنى الاستفهام، ومعنى التنويه بكامل. فقوله: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ معناه أي رجل أو أي فريق منكم المفتون فأي هنا في محل نصب معمول (فستبصر وتبصرون أيكم المفتون) إذ الباء زائدة كالباء في ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾.

(٦) الجملة تعليلية لما ينبىء عنه ما قبله من اهتدائه ﷺ وضلالهم أو على جميع ما فصل من أول السورة ومع أنها تعليلية فإنها متضمنة التسلية للرسول ﷺ كما في التفسير.

٤ - بيان كمال الرسول ﷺ في أدبه وأخلاقه وجعله قدوة في ذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ ـ ١٦]

(٩) ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾: أي تمنوا وأحبوا لو تلين لهم بأن لا تذكر آلهتهم بسوء. ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾: فيلينون لك ولا يغلظون لك في القول.

(١٠) ﴿كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾: أي كثير الحلف بالباطل حقير.

(١١) ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾: أي عيّاب مغتاب.

(١٢) ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾: أي على الناس بأذيتهم في أنفسهم وأموالهم أثيم يرتكب الجرائم والآثام.

(١٣) ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾: أي غليظ جاف. زنيم دعي في قريش وليس منهم وهو الوليد بن المغيرة.

(١٥) ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي ما روته الأولون من قصص وحكايات وليس بوحي قرآني.

(١٦) ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾: أي سنجعل على أنفه علامة يعير بها ما عاش فخطم أنفه بالسيف يوم بدر.

الجزء التاسع والعشرون — سورة القلم

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)

٥٦٥

معنى الآيات:

(٨) قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾[١] أي بناء على أنك أيها الرسول مهتد وقومك ضالون فلا تطع هؤلاء الضالين المكذبين بالله ولقائه وبك وبما جئت به من الدين الحق.

(٩) وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ[٢] فَيُدْهِنُونَ﴾ أي ومما يؤكد لك عدم مشروعية طاعتهم فيما يطالبون ويقترحونه عليك أنهم ودوا أي تمنوا وأحبوا لو تلين لهم فتمالئهم بسكوتك عن آلهتهم فيدهنون بالكف عن أذيتك بترك السبّ والشتم.

(١٠) ـ (١٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ بعدما نهاه عن إطاعة الكافرين عامة نهاه عن طاعة أفراد شرّيرين لا خير فيهم البتة كالوليد بن المغيرة فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف بالباطل ﴿مَّهِينٍ﴾[٣] أي حقير. ﴿هَمَّازٍ﴾ عيّاب ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أي مغتاب نمام ينقل الحديث على وجه الإفساد ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي يبخل بالمال أشد البخل ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي ظالم للناس معتدٍ على أموالهم وأنفسهم ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم لغشيانه المحرمات.

(١٣) وقوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ[٤] ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي غليظ الطبع جاف لا أدب معه. ﴿زَنِيمٍ﴾ أي دعيّ في قريش وليس منهم.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ

---

(١) الفاء للتفريع فالجملة متفرعة عما سبقها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ وعليه ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ إلخ.. نهي ﷺ عن طاعة المشركين في أي شيء يريدونه منه مما هو رضاء بالشرك وسكوت عنه ممالأة لهم وسكوتًا عن باطلهم مقابل ترك أذاهم له.

(٢) ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ هذا بيان لما نهي عنه من طاعتهم، وفعل تدهن مشتق من الإدهان وهو الملاينة والمصانعة وهو مأخوذ من دهن الشيء بالدهان ليلينه ويرق، والمداهنة محرمة والمداراة جائزة والفرق بينهما أن المداهن يتنازل من شيء من دينه ليحفظ شيئًا من دنياه، والمداري عكسه يتنازل عن شيء من دنياه ليحفظ شيئًا من دينه.

(٣) المهين: الوضيع لإكثاره من القبيح، وتفسيره بالحقير صالح وكذا الفاجر العاجز.

(٤) العتلّ: الجافي الشديد، ومنه أخذ العتّال الذي يجر الناس ويدفعهم بعنف ليدخلهم في السجن ونحوه. ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾.

ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي لأجل أن كان ذا مال وبنين حمله الشعور بالغنى على التكذيب بآيات الله فإذا تُليت عليه وسمعها قال أساطير الأولين ردًّا لها ووصفها بأنها أسطورة أي أكذوبة مسطرة ومكتوبة من أساطير الأولين من الأمم الماضية.

(١٦) قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝﴾ أي نجعل له سمة شر وقبح يُعرف بها مدى حياته تكون بمثابة من جدع أنفه أو وسم على أنفه فكل من رآه استقبح منظره.

هداية الآيات:

١ - التنديد بأصحاب الصفات التالية كثرة الحلف بالكذب، المهانة، الهمزة النميمة، الغيبة، البخل، الاعتداء، غشيان الذنوب، الغلظة والجفاء، الشهرة بالشر.

٢ - التحذير من كثرة المال والولد فإنها سبب الطغيان ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝﴾.

٣ - التنديد بالمكذبين بآيات الله تعالى جملة أو تفصيلاً. والعياذ بالله تعالى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ - ٣٣]

(١٧) ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾: أي امتحنا كفار مكة بالمال والولد والجاه والسيادة فلم يشكروا نعم الله عليهم بل كفروا بها بتكذيبهم رسولنا وإنكارهم توحيدنا فأصبناهم بالقحط والقتل لعلهم يتوبون كما امتحنا أصحاب الجنة المذكورين في هذا السياق.

﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾[١]: أي ليجدُنَّها أي يقطعون ثمارها صباحًا.

(١٩) ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝﴾: أي نار فأحرقتها.

(٢٠) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝﴾: أي كالليل الأسود الشديد الظلمة والسواد.

(٢٢) ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾: أي غلة جنتكم وقيل فيها حرث لأنهم عملوا فيها.

(٢٣) ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾: أي يتشاورون بأصوات مخفوضة غير رفيعة حتى لا يسمع بهم.

(٢٥) ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۝﴾: أي وغدوا صباحًا على قصد قادرين على صرمها قبل أن يطلع عليهم المساكين.

(٢٦) ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾: أي مخطئو الطريق أي ما هذا طريق جنتنا ولا هي هذه.

(٢٧) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝﴾: أي لما علموا أنها هي وقد احترقت قالوا بل نحن محرومون منها لعزمنا على حرمان المساكين منها.

(٢٨) ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾: خيرهم تقوى وأرجحهم عقلاً. ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾: أي تسبحون الله وتستثنون عندما قلتم لنصرمنها مصبحين.

(٣٠) ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾: أي يلوم بعضهم بعضًا تندمًا وتحسرًا.

(٣٢) ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾: أي طامعون.

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾: أي مثل هذا العذاب بالحرمان العذاب لمن خالف أمرنا وعصانا.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية قريش قوم محمد ﷺ.

(١٧) فقال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يعني كفار قريش أي امتحناهم واختبرناهم بالآلاء والنعم لعلهم يشكرون فلم يشكروا ثم بالبلاء والنقم أي بالقحط والجدب والقتل لعلهم يتوبون كما بلونا أصحاب الجنة فتابوا ثم ذكر تعالى قصة أصحاب الجنة الذين ابتلاهم فتابوا إليه ورجعوا إلى طاعته فقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ[٢] إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾ - حلفوا - ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾[٣] أي ليقطعن ثمارها ويجدونه في الصباح الباكر قبل أن يعلم المساكين حتى لا يعطوهم شيئًا.

---

(١) الصرم: الجد والقطع، والجز أيضًا بالزاي كلها بمعنى القطع والكسر.

(٢) قيل إن هذه الجنة «البستان» كانت على فراسخ من صنعاء اليمن وكانت بعد رفع عيسى عليه السلام، كانت لرجل مؤمن يؤدي حق الله تعالى فلما مات صارت لأولاده فعزموا على منع الناس ما كان والدهم يعطيه لمن يحضر الجداد من فقراء ومساكين فعاقبهم الله فاحترقت وفي الآيات بيان ذلك.

(٣) في الآية أدب سام وهو أن من كان له من الزرع أو التمر ما يُجد ينبغي أن لا يجده ليلاً حتى لا يحرم الفقراء من الأكل منه وأن عليه أن يمنح من يحضر الجداد والقطع شيئًا يسيرًا من زرعه أو ثمره، وآية سورة النساء ظاهرة في هذا وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ الآية.

(١٨) ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي لم يستثنوا في حلفهم لم يقولوا إلا أن يشاء الله.

(١٩) ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يا رسولنا وهو نار أحرقتها.

(٢٠) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝﴾ أي الليل المظلم الأسود الشديد السواد.

(٢١) ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝﴾ أي نادى بعضهم بعضًا وهم إخوة كثر في أول الصباح قائلين:

(٢٢) ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ إن كنتم فعلًا جادين في الصرام هذا الصباح.

(٢٣) ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ يتشاورون في صوت خافت حتى لا يفطن لهم فقراء البلد ومساكينها وأجمعوا[١] على

(٢٤) ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝﴾ كما كانوا يدخلونها ويأخذون منها أيام حياة والدهم رحمة الله عليه.

(٢٥) قال تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ۝﴾ أي وانطلقوا صباحًا على حرد[٢] أي قصد تام قادرين على أن لا يدخلنها اليوم عليهم مسكين بل يجدونها ويحملونها إلى مخازنهم ولا يشعر بهم أحد من الفقراء والمساكين.

(٢٦) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ محترقة سوداء مظلمة ﴿قَالُوا﴾ ما هذه جنتنا ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾[٣] عنها بأن أخطأنا الطريق إليها، ولما علموا أنها هي ولكن احترقت ليلًا أضربوا عن قولهم الأول

(٢٧) وقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝﴾ أي منها لعزمنا على منع المساكين منها وقد كان والدنا يمنحهم منها ويعطيهم شكرًا لله وأداء لحقه. وهنا تكلم أوسطهم أي خيرهم تقوى وأرجحهم عقلًا بما أخبر تعالى عنه في قوله:

(٢٨) ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ[٤] أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي ألم يسبق لي أن قلت لكم لما قلتم لنصرمنها مصبحين ولم تستثنوا فقلت لكم هلا تستثنون وأطلق لفظ التسبيح على الاستثناء لأن التسبيح تنزيه لله عن الشرك وسائر النقائص ومنها العجز والاستثناء تنزيه لله عن ذلك لأن الذي يقول أفعل ولم يستثن أعطى لنفسه قدرة كقدرة الله الذي إذا قال أفعل فعل ولا يعجز فهو هنا أشرك نفسه في صفة من صفات الله تعالى فلذا كان الاستثناء تسبيحًا لله وتنزيهًا له عن المشارك في صفاته وأفعاله. فلما ذكرهم أخوهم العاقل الرشيد

(٢٩) قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فنابوا بهذا الاعتراف.

(٣٠) قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ۝﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا على خطئهم في عزمهم على حرمان المساكين وعلى عدم الاستثناء في اليمين قالوا من جملة ما قالوا:

(٣١) ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي يا هلاكنا احضر ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي متجاوزين حدود الله التي حدّ لنا غفلة منا وجهلًا بأنفسنا وبما يعاقب به أمثالنا. وهنا بعد أن رجعوا على أنفسهم باللوم وإلى الله بالتوبة رجوا ربهم ولم ييأسوا من رحمته.

(٣٢) فقالوا: ﴿عَسَىٰ[٥] رَبُّنَا[٦] أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۝﴾ هكذا ابتلوا بالنعمة ثم بسلبها فتابوا فهل كفار قريش وقد ابتلوا بالنعمة ثم سلبوها فهل يتوبون كما تاب أصحاب الجنة؟ إنما سيقت هذه القصة تذكيرًا وتعليمًا فهلا يتذكرون فيتوبوا؟

(٣٣) قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ[٧] الْعَذَابُ﴾

---

(١) في الآية دليل على أن العزم الأكيد يؤاخذ عليه العبد لأن أصحاب الجنة عزموا على أن يحرموا الفقراء فعاقبهم الله على عزمهم.

(٢) الحرد: يطلق على المنع وعلى القصد القوي وعلى السرعة والغضب أيضًا، وجملة ﴿وَغَدَوْا...﴾ إلخ.. حالية.

(٣) لا داعي إلى تفسير ﴿لضالون﴾ بالضلال الذي هو الخروج عن طاعة الله بل المراد من الضلال هو عدم اهتدائهم إلى جنتهم بأن ضلوا طريقها.

(٤) الاستفهام تقريري، ولولا للتحضيض.

(٥) قيل إنهم تعاقدوا وقالوا: إن أبدلنا الله خيرًا منها لنصنعن كما يصنع أبونا فدعوا الله وتضرّعوا فأبدلهم الله ما هو خير منها. سئل قتادة عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال للسائل: لقد كلفتني تعبًا!

(٦) قرأ نافع ﴿أن يبدّلنا﴾ بتشديد الدال، وقرأ حفص بالتخفيف من أبدَلَ يبدل الرباعي.

(٧) قيل إن هذا وعظ لأهل مكة بالرجوع إلى الله تعالى لما ابتلاهم بالجدب لدعاء النبي ﷺ عليهم أي كفعلنا نفعل بمن تعدى حدودنا في الدنيا.

خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

ترتيبها ٦٩ — سُورَةُ الحَاقَّةِ — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

٥٦٦

أي مثل هذا العذاب بالحرمان العذاب لمن خالف أمر الله وعصاه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فإن عذاب الدنيا وقته محدود وأجله معدود أما عذاب الآخرة فإنه أبديّ لا يحول ولا يزول.

هداية الآيات:

١ ـ الابتلاء يكون بالسراء والضراء أي بالخير والشر وأسعد الناس الشاكرون عند السراء الصابرون على طاعة الله ورسوله عند الضراء.

٢ ـ مشروعية التذكير بأحوال المبتلين والمعافين ليتخذ من ذلك طريق إلى الشكر والصبر.

٣ ـ صلاح الآباء ينفع أبناء المؤمنين فقد انتفع أصحاب الجنة بصلاح أبيهم الذي كان يتصدق على المساكين من غلة بستانه وعلامة انتفاعهم توبتهم.

٤ ـ مشروعية الاستثناء في اليمين وأنه تسبيح لله تعالى، وأن تركه يوقع في الإثم ولذا إذا حنث الحالف الذي لم يستثن تلوثت نفسه بإثم كبير لا يُمحى إلا بالكفارة الشرعية التي حددها الشارع وهي إطعام أو كسوة عشرة مساكين أو عتق رقبة فإن لم يقدر على واحدة من هذه الأنواع صام ثلاثة أيام ليمحي ذلك الذنب من نفسه.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤ ـ ٤٣]

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١): أي الذين اتقوا ربهم فآمنوا به ووحدوه فاتقوا بذلك الشرك والمعاصي. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: أي لهم جنات النعيم يوم القيامة عند ربهم عز وجل.

﴿٣٥﴾ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أي أنحيف في الحكم ونجور فنجعل المسلمين والمجرمين متساوين في العطاء والفضل والجواب، لا، لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة.

﴿٣٧﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾: أي تقرأون فعلمتم بواسطته ما تدعون.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾: أي فوجدتم في الكتاب الذي تقرأون أن لكم فيه ما تختارونه.

﴿٣٩﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾: أي ألكم عهود منا موثقة بالأيمان لا نخرج منها ولا نتحلل إلى يوم القيامة. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾: أي أعطيناكم عهودنا الواثقة أن لكم ما تحكمون به لأنفسكم كما تشاءون.

﴿٤٠﴾ ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾: أي سلهم يا رسولنا عن زعيمهم الذي يكفل لهم مضمون الحكم الذي يحكمون به لأنفسهم من أنهم يعطون في الآخرة أفضل مما يُعطى المؤمنون.

﴿٤١﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾: أي أعندهم شركاء موافقون لهم في هذا الذي قالوا يكفلون لهم به ما ادعوه وحكموا به لأنفسهم وهو أنهم يعطون أفضل مما يعطى المؤمنون يوم القيامة.

﴿٤٢﴾ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: أي يوم يعظم الهول ويشتد الكرب ويكشف الرب عن ساقه الكريم التي لا يشبهها شيء عندما يأتي لفصل القضاء.

﴿٤٣﴾ ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي تغشاهم ذلة يا لها من ذلة. ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾: أي وقد كانوا يدعون في الدنيا إلى الصلاة وهم سالمون من أية علة ولا يصلحون حتى لا يسجدوا تكبرًا وتعظمًا.

(١) ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ هم الذين اتقوا ربهم فآمنوا به وعبدوه وحده فأطاعوه وأطاعوا رسوله ﷺ فلم يشركوا ولم يفسقوا.

معنى الآيات:

(٣٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ[1]﴾ الآيات نزلت ردًا على المشركين الذين ادعوا متبجحين أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يعطون أفضل مما يعطى المؤمنون قياسًا منهم على حالهم في الدنيا حيث كانوا أغنياء والمؤمنون فقراء فقال تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي جنات كلها نعيم لا شيء فيها غيره. ثم قال في الرد منكرًا على المشركين دعواهم مقرعًا مؤنبًا إياهم في سبعة استفهامات إنكارية تقريعية أولها

(٣٥) قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ[2] ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أسلموا لله وجوههم وأطاعوه بكل جوارحهم كالمجرمين الذين أجرموا على أنفسهم بارتكاب أكبر الكبائر كالشرك وسائر الموبقات أي نحيف ونجور في حكمنا فنجعل المسلمين كالمجرمين في الفضل والعطاء يوم القيامة، فنسوي بينهما.

(٣٦) وثانيها قوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾؟ أي أي شيء حصل لكم حتى ادّعيتم هذه الدعوى وثالثها ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، أي كيف أصدرتم هذا الحكم ما حجتكم فيه ودليلكم عليه؟ ورابعها:

(٣٧) ـ (٣٨) قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝﴾ أي أعندكم كتاب جاءكم به رسول من عند الله تقرأون فيه هذا الحكم الذي حكمتم به لأنفسكم بأنكم تعطون يوم القيامة أفضل مما يعطى المؤمنون، ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، أي ألكم في هذا الكتاب ما تختارون و الجواب لا لا، وخامسها

(٣٩) قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ[3] أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي الكم عهودنا موثقة بأيمان لا نتحلل منها إلى يوم القيامة بأن لكم ما حكمتم به لأنفسكم من أنكم تعطون أفضل مما يعطى المؤمنون، وسادسها

(٤٠) ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم[4] بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي سلهم يا رسولنا عن زعيمهم الذي يكفل لهم مضمون الحكم الذي يحكمون به لأنفسهم من أنهم يعطون في الآخرة أفضل مما يعطى المؤمنون، سابعها.

(٤١) قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝﴾ أي ألهم شركاء موافقون لهم في هذا الذي قالوه يكفلونه لهم فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في ذلك. بهذه الاستفهامات الإنكارية التقريعية السبعة نفى تعالى عنهم كل ما يمكنهم أن يتشبثوا به في تصحيح دعواهم الباطلة عقلاً وشرعًا.

(٤٢) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ[5] يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[6] أي اذكر لهم يا رسولنا مبينًا واقع الأمر يوم القيامة، ليخجلوا من تشدقهم بدعواهم الساقطة الباردة اذكر لهم يوم يعظم الهول ويشتد الكرب، ويأتي الرب لفصل القضاء ويكشف عن ساق فيخر كل مؤمن ومؤمنة ساجدًا ويحاول المنافقون والمنافقات السجود فلا يستطيعون إذ يكون ظهر أحدهم طبقًا واحدًا أي

---

(١) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ استئناف بياني ناشىء عن سؤال إذا كان جزاء المجرمين ما ذكر فما جزاء المتقين؟ فأجيب: إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم: واللام لام الاستحقاق، وإضافة الجنات إلى النعيم إشارة إلى أنها خالصة النعيم ما فيها ليس في جنات الدنيا من البعوض والحشرات أو ما يؤذي من شوك ونحوه.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت كفار مكة: إنا نعطى في الآخرة خيرًا مما تعطون فنزلت: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟

(٣) الهمزة للاستفهام الإنكاري أي إنكار التسوية بين المسلمين والمجرمين في الجزاء مع التقريع والتوبيخ.. وكذا سائر الاستفهامات في هذه الآيات.

(٤) ﴿أَمْ لَكُمْ﴾ للإضراب الانتقالي من دليل إلى آخر والاستفهام إنكاري كغيره مع ما يفيد من التأنيب والتقريع.

(٥) الاستفهام هنا مستعمل للتهكم.

(٦) جائز أن يكون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ ويكون من باب حسن التخلص من الرد على المشركين إلى ذكر أهوال يوم القيامة.

(٧) لولا ما صحّ عن النبي ﷺ في الصحيح ـ إذ يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا**» ـ لقلنا في الآية أنها كناية عن أهوال يوم القيامة ولكن مع صحة الحديث فالآية دالة على أهوال يوم القيامة ومثبتة صفة ذات الرب تبارك وتعالى عن صفات المحدثين.

عظمًا واحدًا فلا يقدر على السجود وذلك علامة شقائه المترتب على نفاقه في الدنيا. ويدعون إلى السجود أي امتحانًا لهم ليعرف من كان يسجد إيمانًا واحتسابًا ممن كان يسجد نفاقًا ورياء فلا يستطيعون لأن ظهر أحدهم يصبح عظمًا واحدًا.

(٤٣) ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ لا تطرف من شدة الخوف ترهقهم ذلة أي تغشاهم ذلة عظيمة. وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾، أي في الدنيا وهم سالمون معافون في أبدانهم ولا يسجدون تكبرًا وكفرًا بالله ربهم وبشرعه.

هداية الآيات:

١ - تقرير أن الجرمين لا يساوون المؤمنين يوم القيامة إذ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة فمن زعم أنه يعطى ما يُعطاه المؤمنون من جنات النعيم فهو مخطىء في تصوره كاذب في قوله.

٢ - بيان عظم هول يوم القيامة وأن الرب تبارك وتعالى يأتي لفصل القضاء ويكشف عن ساق فلا يبقى أحد إلا سجد وأن الكافر والمنافق لا يستطيع السجود عقوبة له وفضيحة إذ كان في الدنيا يدعى إلى السجود لله فلا يسجد أي إلى الصلاة فلا يصلي تكبرًا وكفرًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤٤ - ٥٢]

(٤٤) ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ﴾: أي دعني ومن يكذب أي لا يصدق. ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: أي بالقرآن الكريم. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: أي نستنزلهم درجة درجة حتى نصل بهم إلى العذاب.

(٤٥) ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾: أي وأمهلهم. ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾: أي شديد قويّ لا يطاق.

(٤٦) ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾: أي فهم مما يعطونكه مكلفون حملاً ثقيلاً.

(٤٧) ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾: أي اللوح المحفوظ. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾: أي ينقلون منه ما يدعونه ويقولونه.

(٤٨) ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾: أي يونس في الضجر والعجلة. ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: أي مملوء غمًا.

(٤٩) ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾: أي الأرض الفضاء. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾: لكن لما تاب نُبذ وهو غير مذموم.

(٥٠) ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾: أي اصطفاه.

(٥١) ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾: أي ينظرون إليك نظرًا شديدًا يكاد أن يصرعك.

(٥٢) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾: أي محمد ﷺ. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: أي الإنس والجن فليس بمجنون كما يقول المبطلون.

معنى الآيات:

بعد ذلك التقريع الشديد للمشركين المكذبين الذي لم يؤثر في نفوسهم أدنى تأثير.

(٤٤) قال تعالى لرسوله ﴿فَذَرْنِى﴾[1] أي بناء على ذلك فذرني ومن يكذب بهذا الحديث أي دعني وإياهم، والمراد من الحديث القرآن الكريم[2] ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي نستنزلهم درجة درجة ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حتى ننتهي بهم إلى عذابهم المترتب على تكذيبهم وشركهم.

(٤٥) وقوله تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى[3] مَتِينٌ﴾ أي وأمهلهم فلا أعاجلهم بالعذاب فأوسع لهم في الرزق وأصحح لهم الجسم حتى يروا أن هذا لكرامتهم عندنا وأنهم خيرٌ من المؤمنين ثم نأخذهم. وهذا من كيدي الشديد الذي لا يطاق.

(٤٦) وقوله تعالى: ﴿أَمْ[4] تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي بل أتسألهم على تبليغ الدعوة أجرًا مقابل التبليغ فهم من مغرم مثقلون، أي فهم يشعرون بحمل ثقيل من أجل ما يعطونك من الأجر فلذا هم لا يؤمنون بك ولا يتابعونك على دعوتك.

---

(١) الفاء للتفريع والترتيب فما بعدها متفرع عما قبلها مترتب عليه.

(٢) وجائز أن يكون المراد من الحديث الإخبار عن البعث والجزاء مما تضمنه قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ إلخ.. وجائز أن يكون القرآن كما في التفسير وقيل فيه حديث لما فيه من الأخبار عن الله وعن الأمم والجنة والنار.

(٣) وأملي مضارع أملى إذا أمهل وأنظر وأخر مشتق من الملى مقصورًا وهو الحين والوقت ومنه الملوان الليل والنهار فأملى بمعنى طول في الزمان.

(٤) (أم) بمعنى بل للإضراب الانتقالي من حجة إلى أخرى ومن دليل إلى آخر.

(٤٧) ﴿أَمْ عِندَهُمُ[(١)] ٱلْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾[(٢)] منه ما هم يقولون به ويقرؤونه والجواب لا. إذًا (٤٨) ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا رسولنا ﴿لِحُكْمِ[(٣)] رَبِّكَ﴾ فيك وفيهم وامض في دعوتك ولا يثني عزمك تكذيبهم ولا عنادهم ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يونس بن متّى أي في الضجر وعدم الصبر. ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ[(٤)] مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غمًّا فقال لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

(٤٩) وقوله: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، أي لولا أن أدركته رحمة الله تعالى حيث ألهمه الله التوبة ووفقه لها لنبذ، أي لطرح بالفضاء وهو مذموم لكن لما تاب الله عليه طُرح على ساحل البحر وهو غير مذموم بل محمود.

(٥٠) ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اصطفاه مرة ثانية بعد الأولى ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي الكاملي الصلاح من الأنبياء والمرسلين، ومعنى اجتباه مرة ثانية لأن الاجتباء الأول إذ كان رسولاً في أهل نينوى وغاضبوه فتركهم ضجرًا منهم فعوقب وبعد العقاب والعتاب اجتباه مرة أخرى وأرسله إلى أهل بلاده بعد ذلك الانقطاع قال تعالى من سورة اليقطين: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝﴾ [الصافات: ١٤٥ ـ ١٤٨].

(٥١) ـ (٥٢) وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي وإن يكاد الذين كفروا ليصرعونك من شدة النظر إليك وكلهم غيظ وحنق عليك بأبصارهم ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآن نقرأه عليهم. ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ حسدًا لك، وصرفًا للناس عنك، ﴿وَمَا هُوَ﴾[(٥)]، أي محمد ﷺ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، أي يذكر به الله تعالى الإنس والجن فليس هو بمجنون كما يقول المكذبون المفتونون.

هداية الآيات:

١ ـ ردّ الأمور إلى الله إذا استعصى حلّها فالله كفيل بذلك.

٢ ـ لا يصح أخذ أجرة على تبليغ الدعوة.

٣ ـ وجوب الصبر على الدعوة مهما كانت الصعاب فلا تترك لأذىً يصيب الداعي.

٤ ـ بيان حال المشركين مع الرسول ﷺ وما كانوا يضمرونه له من البغض والحسد وما يرمونه به من الاتهامات الباطلة كالجنون والسحر والكذب.

❁ ❁ ❁

سورة الحاقة
مكية
وآياتها ثنتان وخمسون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٢]

(١) ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝﴾[(٦)]: أي الساعة الواجبة الوقوع وهي القيامة.

(٤) ﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾: أم بالقيامة لأنها تقرع القلوب بالخوف والهول.

(٥) ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾: أي بطغيانهم وعتوهم من أمر ربهم فأخذتهم صيحة طاغية أيضًا.

(٦) ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾: أي ذات صوت لشدة عصوفها عاتية على خزانها في الهبوب.

---

(١) إضراب آخر كالأول وفي الكلام حذف تقديره أم عندهم علم الغيب كقوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ من سورة النجم.

(٢) الفاء للتفريع.

(٣) المراد بحكم الرب تعالى عنا أمره وهو ما حمله رسوله ﷺ من حمل الرسالة وتبليغها والاضطلاع بأعباء الرسالة.

(٤) المكظوم المحبوس المسدود عليه يقال: كظم الباب إذا أغلقه وكظم النهر إذا سده ومنه كظم الغيظ وهو حبسه في النفس وعدم إظهاره بقول أو فعل.

(٥) جائز أن يكون الضمير وما هو عائد إلى القرآن وما القرآن إلا ذكر للعالمين، الإنس والجن أي ليس هو بكلام مجنون، وجائز أن يكون الضمير عائد إلى الرسول ﷺ الذي قالوا فيه إنه مجنون ويكون الذكر بمعنى التذكير بالله والجزاء إذ هذا من فعله ﷺ.

(٦) هو اسم للسورة. روى أحمد أن عمر رضي الله عنه قال: خرجت يومًا بمكة أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام فوقفت خَلْفَهُ فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن فقلت: هذا والله شاعر (أي في خاطري) فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ قلت في خاطري: كاهن. فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى آخر السورة فوقع في قلبي كل موقع. وسماها بعضهم (السلسلة) وبعضهم (الداعية).

وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

(٧) ﴿حُسُومًا﴾: أي متتابعات الهبوب بلا فاصل كتتابع الكيّ القاطع للداء.

(٨) ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: أي أصول نخل ساقطة فارغة ليس في جوفها شيء.

(٩) ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾: أي أهلها وهي قرى لوط بالفعلات ذات الخطأ.

(١٠) ﴿أَخْذَةً رَابِيَةً﴾: أي زائدة في الشدة على غيرها.

(١١) ﴿لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾: أي علا فوق كل شيء من الجبال وغيرها. ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾: أي السفينة التي صنعها نوح ونجا بها هو ومن معه من المؤمنين.

(١٢) ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾: أي وتحفظها أذن واعية أي حافظة لما تسمع.

معنى الآيات:

(١) ـ (٢) قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ[1] ۞ مَا[2] الْحَاقَّةُ ۞﴾ أي أي شيء هي؟ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ[3] مَا الْحَاقَّةُ ۞﴾، أي أي شيء أعلمك بها، والمراد بها القيامة لأنها حاقة المجيء واجبته لا محالة.

(٤) وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ[4] بِالْقَارِعَةِ﴾ أي كذبت ثمود قوم صالح وعاد قوم هود بالقارعة أي بالقيامة. فهم ككفار قريش مكذبون بالبعث والجزاء.

(٥) ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ أي بطغيانهم وعتوهم عن أمر ربهم فأخذتهم صيحة طاغية[5].

(٦) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾، أي ذات صوت، شديد ﴿عَاتِيَةٍ﴾، أي عتت على خزانها في الهبوب.

(٧) ﴿سَخَّرَهَا﴾ الله ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ[6] حُسُومًا﴾ أي متتابعات بلا انقطاع حسمًا لوجودهم كما يحسم الدواء بالكي الحاسم للداء المتتابع. وقوله تعالى فترى أيها الرسول القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، أي فترى القوم في تلك الليالي والأيام صرعى ساقطين على الأرض كأنهم أصول نخل ساقطة فارغة ليس في أجوافها شيء.

(٨) ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾، أي من نسلهم لا شيء إذ هلكوا كلهم أجمعون.

(٩) وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود

---

(١) ﴿الْحَاقَّةُ﴾ اسم فاعل من حق الشيء فهو حاق إذا ثبت وقوعه، والظاهر أنها وصف لموصوف محذوف أي الساعة الحاقة أو الواقعة الحاقة، وما في التفسير واضح وأولى.

(٢) (ما) اسم استفهام مستعمل في التهويل والتعظيم والمعنى الحاقة أمر عظيم لا يدرك كنهه والحاقة مبتدأ وما مبتدأ ثان والحاقة خبر المبتدأ الثاني والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول وجملة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ معترضة بين جملة الحاقة وكذبت ثمود.

(٣) روي عن ابن عباس وسفيان بن عيينة: كل ما ورد في القرآن بلفظ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ بصيغة الماضي فقد أدراه أي أعلمه به، وكل ما ورد بصيغة المضارع وما يدريك فقد طوى عنه ولم يعلمه به فالأول ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ والثاني ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

(٤) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ كلام مستأنف بيّن فيه من كذبوا بالحاقة وهي الفارقة وسميت بالقارعة من قولهم (قوارع الدهر) أي أهواله وشدائده فهي تقرع القلوب.

(٥) هي أشبه بصيحة النفخ في الصور ﴿ثَمُودُ﴾ هم قوم صالح ومنازلهم بالحجر بين الشام والحجاز وتعرف اليوم بمدائن صالح على أميال من مدينة العلا اليوم. وأما عاد فمنازلهم كانت بالأحقاف وهي رمال بين عمان وحضرموت باليمن وأهلكوا بريح صرصر.

(٦) قيل: بدأ من صباح يوم الأربعاء لثمان بقين من شوال وكانت في آخر الشتاء.

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾[1] ﴿بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾، أي بالأفعال الخاطئة وهي الشرك والمعاصي، وبيّنها تعالى

(١٠) بقوله: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ۝﴾ أي زائدة في الشدة على غيرها.

(١١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ أي ماء الطوفان الذي أهلك الله به قوم نوح ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾، أي حملنا آباءكم في الجارية التي هي سفينة نوح عليه السلام.

(١٢) وقوله: ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ﴾[2] ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾، أي لنجعل السفينة تذكرة لكم عظة وعبرة ﴿وَتَعِيَهَآ﴾، أي وتحفظ هذه العظة أذن حافظة لا تنسى ما هو حق وخير من المعاني.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - بيان أن كلاً من عاد وثمود كانوا يكذبون بالبعث وبيان ما أهلكهم الله به.

٣ - بيان أن معصية الرسول موجبة للعذاب الدنيوي والأخروي.

٤ - التذكير بحادثة الطوفان وما فيها من عظة وعبرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣ - ١٨]

(١٣) ﴿نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾: أي النفخة الأولى.

(١٤) ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾: أي رُفعت من أماكنها. ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: أي ضرب بعضها ببعض فاندكت وصارت كثيبًا مهيلاً.

(١٥) ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾: أي قامت القيامة.

(١٦) ﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾: أي مسترخية ضعيفة القوة.

(١٧) ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآ﴾: أي على أطرافها وحافاتها. ﴿ثَمَٰنِيَةٞ﴾: أي من الملائكة وهم حملة العرش الأربعة وزيد عليها أربعة.

(١٨) ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾: أي لا تخفى منكم سريرة من السرائر التي تخفونها.

معنى الآيات:

ما زال السياق في الحديث عن القيامة تقريرًا لعقيدة البعث والجزاء التي هي الدافع إلى فعل الخير وترك الشر في الدنيا.

(١٣) فقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾[3] أي نفخ إسرافيل في الصور الذي هو البوق أو القرن النفخة الأولى وهو المراد بقوله: ﴿نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝﴾ أي ضرب بعضها ببعض فاندكت فصارت هباءً منبثًا.

(١٥) ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝﴾ أي قامت القيامة.

(١٦) ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي انفطرت وتمزقت ﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ ضعيفة مسترخية.

(١٧) ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾[4] ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ أي على أطرافها وحافاتها، ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ أي ثمانية[5] من الملائك أربعة هم حملة العرش دائمًا وزيد عليهم أربعة فصاروا ثمانية.

(١٨) قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ﴾[6] ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ أي سريرة مما كنتم تسرون.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - بيان كيفية الانقلاب الكوني لنهاية الحياة الأولى وبداية الحياة الثانية.

٣ - تقرير العرض على الله عز وجل للحساب ثم الجزاء.

---

(١) أي المتقلبات من ائتفك الشيء إذ قلب قراهم الخمسة منع وصعر وعمورية ودوما وسدوم وهي القرية العظمى قلبها الملك فجعل عاليها سافلها.

(٢) وجائز أن يكون الضمير في: ليجعلها عائد إلى العملية عملية إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين تذكرة وموعظة.

(٣) الفاء تفريعية لتفريع ما بعدها من تفصيل أحوال الدار الآخرة على ما تقدم من ذكر الحاقة أي القيامة والمكذبين بها وما نالهم من عذاب في الدنيا.

(٤) الملك اسم جنس المراد به أعداد هائلة من الملائكة.

(٥) قيل: هم ثمانية صفوف، وقيل: ثمانية أعشار أي نحو ثمانين من عدد الملائكة. وما في التفسير هو الراجح الصحيح.

(٦) أصل العرض إمرار الشيء على من يريد التأمل فيه كعرض السلعة على المشتري وكاستعراض الجيوش اليوم والمراد بالعرض الحساب والجزاء.

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

ترتيبها ٧٠ — سُورَةُ المَعَارِج — آياتها ٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

٥٦٨

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ ـ ٢٤]

(١٩) ﴿هَاؤُمُ﴾: أي خذوا.

(٢٠) ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾: أي علمت.

(٢١) ﴿رَّاضِيَةٍ﴾: أي يرضى بها صاحبها.

(٢٣) ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝﴾: أي ما يقتطف ويجني من الثمار.

(٢٤) ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾: أي بما قدمتم. ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾: أي الماضية.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء ببيان ما يجري في يوم القيامة.

(١٩) فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا[(١)] مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ[(٢)] اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[(٣)] أي إنه بعد مجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء تعطى الكتب فمن آخذ كتابه بيمينه، ومن آخذ كتابه بشماله فأما من أوتي كتابه الذي ضم حسناته بيمينه فيقول في فرح عظيم هاؤم أي خذوا كتابي[(٤)] فاقرأوه إنه مشرق كله ما فيه سواد السيئات، ويُعلل لسلامة كتابه من السيئات فيقول:

(٢٠) ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾، أي علمت ﴿أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝﴾ لا محالة فلذا لم أقارف السيئات وإن قدر عليّ شيء فقارفته جهلاً فإني تبت منه فورًا فانمحى أثره من نفسي فلم يكتب عليّ.

(٢١) ـ (٢٤) قال تعالى مخبرًا عن آثار نجاحه في سلامة كتابه من السيئات ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، أي يرضاها لهناءتها وسعة خيراتها ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، ﴿قُطُوفُهَا﴾[(٥)]، أي جناها وما يقتطف منها ﴿دَانِيَةٌ﴾، أي قريبة التناول ينالها بيده وهو متكىء على أريكته ويقال لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من طعام الجنة وشرابها ﴿هَنِيئًا﴾ ويذكر لهم سبب فوزهم فيقول: ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ أي قدمتم لأنفسكم ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي أيام الدنيا الماضية إذ كانوا مؤمنين صوّامين قوّامين بالمعروف آمرون وعن المنكر ناهين.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء أي الإيمان باليوم الآخر.

٢ - آثار الإيمان بالبعث والجزاء ظاهرة في سلامة كتاب المؤمن من السيئات. وقد علل لذلك بقوله: إني ظننت أني ملاق حسابي فلذا لم أعصِ ربي.

---

(١) الفاء لتفصيل ما أجمل فيما تقدمها من الكلام، وفي الكلام إيجاز بالحذف تقديره: فيؤتى كل آخذ كتاب أعماله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ...﴾ إلخ.. والباء للمصاحبة في يمينه وفي إعطاء الكتاب باليمين كرامة وتبشير لصاحبه كقول الشاعر:

إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

(٢) ﴿هَاؤُمُ﴾ هذا اللفظ مركب من ها ممدود أو مقصور مبني على الفتح ومعناه تعالوا أو خذوا كما في الرباء ها وهاء أي خذ. يقال: ها يا رجل اقرأ وللاثنين هاؤما يا رجلان وهاؤم يا رجال، وللمرأة هاء بكسر الهمزة وهاؤما للاثنتين وهاؤمن لجمع الإناث والأصل هاكم فأبدلت الهمزة من الكاف.

(٣) قيل: نزلت هذه الآية ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ إلخ.. في أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي والآية التالية لها ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ نزلت في أخيه الأسود بن عبد الأسد المخزومي، والمعنى عام في كل سعيد وشقي.

(٤) كتابيه: الهاء فيه وفي الآتي بعده هي هاء السكت عند الوقف إلا أنها أبقيت في الوصل والوقف مراعاة للسجع ولعلها تحكي صوت صاحبها يوم القيامة زيادة في التقرير والتوكيد حتى لهجة أحدهم محفوظة لم تتغير.

(٥) القطوف: جمع قطف بكسر القاف وسكون الطاء.

٣ -إثبات حقيقة هي قول العامة: الدنيا مزرعة الآخرة، أي من عمل في الدنيا نال ثمار عمله في الآخرة خيرًا أو شرًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥ ـ ٣٧]

(٢٥) ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾: أي يتمنى أنه لم يعطَ كتابه لم رأى فيه من السيئات.

(٢٧) ﴿كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾: أي الموتة في الدنيا كانت القاطعة لحياتي حتى لا أبعث.

(٢٩) ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾: أي قوتي وحجتي.

(٣٠) ﴿خُذُوهُ﴾: أي أيها الزبانية خذوا هذا الكافر. ﴿فَغُلُّوهُ﴾: أي اجعلوا يديه إلى عنقه في الغل.

(٣١) ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾: أي ثم في النار المحرقة أدخلوه وبالغوا في تصليته كالشاة المصلية.

(٣٥) ﴿حَمِيمٌ﴾: أي من قريب ينفعه أو صديق.

(٣٦) ﴿إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٍ﴾: أي صديد أهل النار الخارج من بطونهم لأكلهم شجر الغسلين.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر ما يجري من أحداث وقد تقدم ذكر الذي أوتي كتابه[١] بيمينه وما له من كرامة عند ربّه وفي هذه الآيات ذكر الذي أُوتي كتابه بشماله وماله من مهانة وعذاب جزاء كفره.

(٢٥) ـ (٢٦) فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾[٢] أي في عرصات القيامة فيقول بعد النظر فيه وما يلوح له فيه من السيئات: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾[٣] يتمنى لو أنه لم يعطَ كتابه ولم يدرِ ما حسابه وأن الموتة التي ماتها في الدنيا يتمنى لو كانت القاطعة لحياته حتى لا يُبعث، ثم يواصل تحسره وتحزُنه.

(٢٨) قائلاً: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ﴾ أي مالي والهاء في ماليه وفي كتابيه وحسابيه وفي سلطانيه يقال لها هاء السكت يوقف عليها بالسكون قراءة كافة القراء.

(٢٩) وقوله: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ أي ذهبت عني حججي[٤] فلم أجد ما أحتج به لنفسي.

(٣٠) قال تعالى للزبانية: ﴿خُذُوهُ[٥] فَغُلُّوهُ﴾ أي شدوا يديه في عنقه بالغل

(٣١) ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[٦] أي أدخلوه فيها وصلوه بحرها المرة بعد المرة كما يصلى الكبش المشوي المصلي.

(٣٢) ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٍ﴾ طويلة ﴿ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ ولم يعرف مدى طول هذه الذراع إلا أنه إذا كان الكافر ما بين كتفيه كما بين مكة وقديد قرابة مائة وخمسين ميلاً فإن السلسلة في ذرعها السبعين ذراعًا لا بد وأن تكون مناسبة لهذا الجسم ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ أي أدخلوه فيها فتدخل من فمه وتخرج من دبره كسلك الخرزة في الخيط وذكر تعالى علّة هذا الحكم عليه.

(٣٣) فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أي في الدنيا.

(٣٣) ـ (٣٤) ﴿لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾[٧] فانحصرت جريمته في شيئين الكفر

---

(١) تقدم أنه أبو سلمة بن عبدالأسد المخزومي وزوجته هي أم المؤمنين تزوّجها رسول الله ﷺ بعد موت زوجها أبي سلمة وإن الشقي هو الأسود بن عبدالأسد أخو أبي سلمة.

(٢) أي بشماله ووراء ظهره وهو كتاب سيئاته من الشرك والمعاصي كبيرها وصغيرها.

(٣) هذا من عظم ما يشاهد من شدة الحساب وشناعته، هذا داخل في حيّز متمنياته، كما هو إشارة إلى أنه كان في الدنيا لا يؤمن بالحساب ولم يدرِ ما يجري فيه ولذا أصابته الحيرة هنا وألمّ به الكرب.

(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) خذوه مقول قول ذكر في التفسير وغلوه: أمر من غله يغله إذا وضع الغل وهو القيد الذي يجعل في عنق الجاني.

(٦) صلى النار يصلاها إذا أصابه حرها أو استدفأ بها، ويعدى بالتضعيف فيقال: صلاّه النار وبالهمز أيضًا أصلاه يصليه نارًا.

(٧) الطعام بمعنى الإطعام وضع موضعه كوضع العطاء موضع الإعطاء كما في قول الشاعر:

أكفرًا بعد ردّ الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا

الرتاع: الإبل ترتع.

بالله ومنع الحقوق الواجب في المال، ثم أخبر تعالى عن حال هذا الكافر الشقي في جهنم.

(٣٥) فقال: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا﴾ أي في جهنم ﴿حَمِيمٌ﴾[1] أي صديق أو قريب ينتفع به فيدفع عنه العذاب أو يخففه.

(٣٦) ـ (٣٧) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾[2] أي وليس له طعام يأكله إلا من طعام الغسلين الذي هو صديد أهل النار فإنهم عندما يأكلون شجر الغسلين يكون كالمسهل في بطونهم فيخرج كل ما في بطونهم وذلك هو الغسلين الذي يأكلونه ذلك الغسلين الذي ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾. أي الذين ارتكبوا خطيئة الكفر والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحداثها.

٢ - المال الذي باع المفلسون فيه الأمة والملة لا يغني يوم القيامة عن صاحبه شيئًا.

٣ - التنديد بالكفر بالله وأهله.

٤ - عظم جريمة منع الحقوق المالية من الزكاة وغيرها.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ ـ ٥٢]

(٣٨) ـ (٣٩) ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾: أي بكل مخلوق في الأرض وفي السماء.

(٤٠) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: أي القرآن قاله تبليغًا رسولٌ كريم هو محمد ﷺ.

(٤٢) ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾: أي ليس القرآن بقول كاهن إذ ليس فيه من سجع الكهّان شيء.

(٤٥) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾: أي بالقوة أو لأخذنا بيمينه لنقتله.

(٤٦) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾: أي نياط القلب الذي إذا انقطع مات الإنسان.

(٤٧) ﴿حَٰجِزِينَ﴾: أي مانعين وهو خبر ما النافية العاملة عمل ليس وجمع لأن أحد يدل على الجمع نحو لا نفرق بين أحد من رسله، وبين لا تقع إلا بين اثنين فأكثر.

(٥٠) ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي التكذيب بالقرآن حسرة يوم القيامة على المكذبين به.

(٥١) ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾: أي الثابت يقينًا أو اليقين الحق.

(٥٢) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[3]: أي نزه ربك العظيم الذي كل شيء أمام عظمته صغير حقير أي قل سبحان ربي العظيم.

معنى الآيات:

(٣٨) ـ (٣٩) قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ[4] بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، أي فلا[5] الأمر كما ترون وتقولون أيها المكذبون أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون من المخلوقات في الأرض وفي السموات:

(٤٠) ﴿إِنَّهُ﴾، أي القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ على ربّه تعالى وهو محمد ﷺ أي إنه تبليغه.

(٤١) وقوله إليكم: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾. كما تقولون كذبًا ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾[6]، أي إن إيمانكم قليل

---

(١) الحميم هنا: الغريب الذي يرق له ويدفع عنه المكروه، وهو مأخوذ من الماء الجار كأنه الصديق الذي يرق ويحترق قلبه له.

(٢) الغِسلين: فعلين مأخوذ من الغسل كأنه ينغسل في أبدانهم وهو صديد أهل النار السائل من جروحهم وخروجهم. قال الضحاك: الغسلين شجر وهو شر الطعام وأبشعه وهو من أطعمة أهل النار مثل الضريع والزقوم، وبناء على ما ذكر أن الغسلين مجموع شجر اسمه الغسلين وما تجمع من صديد أهل النار من دم وعرق ونحوه فصدق عليه لفظ الغسلين وهذا من إعجاز القرآن البلاغي.

(٣) الباء للمصاحبة والزيادة لتقوية الكلام والتقدير: سبح اسم ربك والتقدير: نزه اسم ربك في أن يسمى به غيره إذ سمى المشركون العزى بدل العزيز واللات بدل الله، وجائز أن يكون (اسم) مقحمًا والتقدير فسبح ربك أي نزهه عن الشريك والشبيه وعن كل نقص وهو العظيم الذي ليس شيء أعظم منه.

(٤) الفاء للتفريع لإثبات أن القرآن منزل من عند الله تعالى ونفي ما ادعاه المشركون.

(٥) هذا بناء على أن لا رد لكلام سابق وليست زائدة وكونها زائدة لتأكيد الكلام أولى من كونها نافية، إذ وجدت في فاتحة سورتي القيامة والبلد وليس قبلهما ما ينفى كأنه يقول لا أقسم لأن الأمر لا يحتاج إلى قسم كالمتحرج من الإقسام.

(٦) جائز أن يكون لفظ قليلاً في الموضعين مرادًا به انتفاء ذلك كلية لأنه وقع بقلة، وقليلاً صفة لموصوف محذوف أي إيمانًا قليلاً، وتذكرًا قليلاً، وما مزيدة لتوكيد الكلام كما في قول الشاعر:

قليلاً به ما يحمدنك وارث ... إذا نال مما كنت تجمع مغنما

ضيق الدائرة فلو كان واسعًا لاتسع للإيمان بالقرآن إنه كلام الله ووحيه وليس هو من جنس الشعر لمخالفته له نظمًا ومعنىً.

﴿٤٢﴾ وما هو ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، أي وليس القرآن بقول كاهن قليلاً ما تذكرون، أي تذكركم قليل جدًا فلو تذكرتم كثيرًا لعلمتم أن القرآن ليس بكلام الكهان لملازمته للصدق والحق والهدى ولبعد قائله عن الإثم والكذب بخلاف قول الكهان فإن سداه ولحمته الكذب وقائله هو الإثم كله فأين القرآن من قول الكهان؟ وأين محمد الرسول من الكهان إخوان الشيطان.

﴿٤٣﴾ إنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أيها المكذبون الضالون.

﴿٤٤﴾ وأمر آخر وهو أن الرسول محمد ﷺ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ[1] عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ ونسبها إلينا ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾، أي لبطشنا به وأخذنا بيمينه ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ فيهلك إذ الوتين هو عرق القلب إذا قُطع مات الإنسان وإذا فعلنا به هذا فمن منكم يحجزنا عنه؟

﴿٤٧﴾ وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم[2] مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾.

﴿٤٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾[3] أي موعظة عظيمة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾[4] الذين يخافون عقاب الله ويخشون نقمه وعذابه.

﴿٤٩﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ[5] مِنكُم﴾ أيها الناس ﴿مُّكَذِّبِينَ﴾ ليس بخاف عنا أمرهم وسنجزيهم وصفهم.

﴿٥٠﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ[6] عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يوم القيامة عندما يرون المؤمنين به يؤخذ بهم ذات اليمين إلى دار السلام والمكذبين به يؤخذ بهم ذات الشمال إلى دار البوار.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[7] أي اليقين الحق. بعد هذا التقرير في إثبات الوحي والنبوة أمر تعالى رسوله الذي كذب برسالته المكذبون أمره أن يستعين على الصبر بذكر الله تعالى.

﴿٥٢﴾ فقال له: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي قل سبحان ربي العظيم منزهًا اسمه عن تحريفه وتسمية المحدثات به معظمًا ربك غاية التعظيم إذ هو العليّ العظيم.

هداية الآيات:

١ - لله تعالى أن يحلف بما شاء من مخلوقاته لحكم عالية وليس للعبد أن يحلف بغير الربّ تعالى.

٢ - تقرير الوحي وإثبات النبوة المحمدية.

٣ - وصف الرسول بالكرم وبكرامته على ربّه تعالى.

٤ - عجز الرسول ﷺ عن الكذب على الله تعالى وعدم قدرته على ذلك لو أراده ولكن الذي لا يكذب على الناس لا يكذب على الله كما قال هرقل ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ردًا على أبي سفيان لما قال له لم نجرب عليه كذبًا قط..

٥ - مشروعية التسبيح بقول سبحان ربي العظيم إن صح أنه لما نزلت قال النبي ﷺ لأصحابه: «**اجعلوها في ركوعكم**» فكانت سنة مؤكدة سبحان ربي العظيم ثلاثًا في الركوع أو أكثر.

❁ ❁ ❁

سورة المعارج
مكية
وآياتها أربع وأربعون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ١٨]

﴿١﴾ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾: أي دعا داع بعذاب واقع.

﴿٢﴾ ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾: أي فهو واقع لا محالة.

﴿٣﴾ ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾: أي ذي العلو والدرجات ومصاعد الملائكة وهي السموات.

---

(١) التقول نسبة قول إلى من لم يقله، والأقاويل جمع أقوال، الذي هو جمع قول.

(٢) من مزيدة لتأكيد النفي وللتنصيص على العموم، وفي الآية دليل أن من يدّعي أنه يوحى إليه لا يلبث طويلاً حتى يأخذه الله تعالى.

(٣) التذكرة اسم مصدر بمعنى التذكير وهو التنبيه إلى مغفول عنه.

(٤) خص المتقون لأنهم هم المنتفعون به لاستعدادهم بقوة إيمانهم وصحة علمهم وكمال رغبتهم في الطاعة.

(٥) في الكلام إيجاز والتقدير إنا بعثنا إليكم الرسول ﷺ بهذا القرآن ونحن نعلم أنه سيكون منكم مكذبون.

(٦) جائز أن يكون الضمير عائدًا على التكذيب إذ به كانت حسرة الكافرين يوم القيامة وجائز أن يكون عائدًا على القرآن لأنهم لم يؤمنوا به ويعملوا بما دعا إليه من الإيمان وصالح الأعمال.

(٧) في القرآن الكريم بلا خلاف.

(٤) ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: أي تصعد الملائكة وجبريل إلى الله تعالى. ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: أي تصعد الملائكة وجبريل من منتهى أمره من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمره من فوق السموات السبع في يوم مقداره خمسون ألف سنة بالنسبة لصعود غير الملائكة من الخلق.

(٦) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝﴾: أي العذاب الذي يطالبون به لتكذيبهم وكفرهم بالبعث.

(٨) ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝﴾: أي كذائب النحاس.

(٩) ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝﴾: أي كالصوف المصبوغ ألوانًا في الخفة والطيران بالريح.

(١٠) ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝﴾: أي قريب قريبه لانشغال كل بحاله.

(١١) ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: أي يبصر الأحماء بعضهم بعضًا ويتعارفون ولا يتكلمون.

(١٢) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾: أي زوجته.

(١٣) ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝﴾: أي عشيرته التي تضمه إليها نسبًا وتحميه من الأذى عند الشدة.

(١٥) - (١٦) ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝﴾[1]: أي إن جهنم هي لظى نزاعة للشوى جمع شواة جلدة الرأس.

(١٧) ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾: أي عن طاعة الله ورسوله وتولى عن الإيمان فأنكره وتجاهله.

(١٨) ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝﴾: أي جمع المال وجعله في وعاء ومنع حق الله تعالى فيه فلم ينفق منه في سبيل الله.

معنى الآيات:

(١) - (٣) قوله تعالى: ﴿سَأَلَ[2] سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ هذه الآيات نزلت ردًا على دعاء النضر بن الحارث ومن وافقه اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فأخبر تعالى عنه بقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ[3] وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي إنه واقع لا محالة إذ ليس له دافع من الله ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي صاحب العلو والدرجات ومصاعد الملائكة وهي السموات.

(٤) وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[4] أي تصعد الملائكة وجبريل إليه تعالى ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي يصعدون من منتهى أمره من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمره من فوق السموات السبع في يوم مقادره خمسون ألف سنة بالنسبة لصعود غير الملائكة من الخلق.

(٥) ﴿فَٱصْبِرْ[5] صَبْرًا جَمِيلًا﴾[6].

(٦) - (٧) وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝﴾ يعني أن المشركين المكذبين يرون العذاب بعيدًا لتكذيبهم بالبعث الآخر. ونحن نراه قريبًا، ويبين تعالى وقت مجيئه.

(٨) فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝﴾ أي تذوب فتصير كذائب النحاس.

(٩) ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝﴾ أي الصوف المصبوغ خفة وطيرانًا بالريح وهذا هو الانقلاب الكوني حيث فني كل شيء ثم يعيد الله الخلق فإذا الناس في عرصات القيامة واقفون حفاة عراة.

(١٠) ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝﴾ لانشغال كل بنفسه كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝﴾ عن السؤال عن غيره أو عن سؤال غيره.

---

(١) قرأ نافع والجمهور برفع نزاعة وقرأ حفص بنصبها.

(٢) قرأ نافع ﴿**سال**﴾ بدون همزة تخفيفًا وقرأ حفص ﴿سَأَلَ﴾ بالهمزة على الأصل.

(٣) وإن كانت الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى عن فيكون السائل سأل عن العذاب لمن يقع أو متى يقع كقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي عنه خبيرًا، وكقول الشاعر:

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصير بأدواء النساء طبيب

ومن بلاغة القرآن تعدية ﴿سَأَلَ﴾ بالباء ليكون صالحًا للاستفهام والدعاء والاستعجال.

(٤) هذا العروج كائن يوم القيامة وهو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة.

(٥) الفاء للتفريع إذ سبق أن السائل بالعذاب كان مستهزئًا مستخفًا فلذا أمر الله رسوله ﷺ بالصبر الجميل على ما يقوله المشركون.

(٦) الجملة تعليلية لكل من جملة ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ﴾ وللأمر بالصبر.

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

٥٦٩

﴿١١﴾ وقوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي عدم سؤال بعضهم بعضًا ليس ناتجًا عن عدم معرفتهم لبعضهم بعضًا[1] لا بل يبصرهم ربهم بهم فيعرف كل قريب قريبه ولكن اشتغاله بنفسه يحول دون سؤال غيره، ويشرح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾، أي ذو الإجرام على نفسه بالشرك والمعاصي ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ أي أولاده الذكور ففضلاً عن الإناث.

﴿١٢﴾ ـ ﴿١٣﴾ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾، أي زوجته ﴿وَأَخِيهِ ۞ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۞﴾ بأن تضمه إلى نسبها والفصيلة العشيرة انفصلت من القبيلة.

﴿١٤﴾ ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ لنتصور عذابًا يود المجرم من خوفه منه أن يفتدي بكل شيء في الأرض كيف يكون؟ ومن هنا يرى القريب قريبه ولا يسأله عن حاله لانشغال نفسه عن نفس غيره.

﴿١٥﴾ وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾[2] أي لا قرابة يومئذ تنفع ولا فداء يقبل ﴿إِنَّهَا﴾ أي جهنم ﴿لَظَىٰ﴾.

﴿١٦﴾ ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۞﴾ أي لجلدة الرأس ولكل عضو غير قاتل للإنسان إذا نزع منه.

﴿١٧﴾ ﴿تَدْعُوا۟﴾ أي جهنم المسماة لظى تدعو تنادي إليّ إليّ يا ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن طاعة الله ورسوله وتركها ظهره فلم يلتفت إليها ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان فلم يطلبه تكميلاً له ليصبح إيمانًا يحمله على الطاعات.

﴿١٨﴾ ﴿وَجَمَعَ﴾ الأموال فأوعاها في أوعية[3] ولم يؤد منها الحقوق الواجبة فيها من زكاة وغيرها إذ في المال حق غير الزكاة. ومن دعته جهنم دفع إليها دفعًا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞﴾ نعوذ بالله من جهنم وموجباتها من الشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

١ - حرمة سؤال العذاب فإن عذاب الله لا يطاق ولكن تسأل الرحمة والعافية.

٢ - وجوب الصبر على الطاعة وعلى البلاء فلا تسخّط ولا تجزع.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٤ - عظم هول الموقف يوم القيامة وصعوبة الحال.

٥ - التنديد بالمعرضين عن طاعة الله ورسوله الجامعين للأموال المشتغلين بها حتى سلبتهم الإيمان والعياذ بالله فأصبحوا يشكّون في الله وآياته ولقائه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٩ ـ ٣٥]

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞﴾: أي إذا مسه الشر جزوعًا وإذا مسه الخير منوعًا أي كثير الجزع سريعه وكثير المنع حريصًا عليه.

﴿٢٣﴾ ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾: أي لا يقطعونها أبدًا ما داموا أحياء يعقلون.

﴿٢٤﴾ ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾: أي نصيب معيّن عينه الشارع وهو الزكاة.

﴿٢٥﴾ ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾: أي الطالب الصدقة والذي لا يطلبها حياء وتعففًا.

﴿٢٦﴾ ﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: أي يؤمنون بيوم القيامة للبعث والجزاء.

﴿٢٧﴾ ﴿مُّشْفِقُونَ﴾: أي خائفون متوقعون العذاب عند المعصية.

﴿٢٩﴾ ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾: أي صائنون لها عن النظر إليها وعن الفاحشة.

(١) قرأ نافع ﴿يومئذ﴾ بفتح ﴿يومئذ﴾ وقرأ الجمهور بكسرها بإضافة عذاب إليها.

(٢) كلا: حرف ردع وإبطال لكلام سابق.

(٣) ومنه الحديث لا تُوعي فيوعى عليك أي لا تمسكي عن الإنفاق فيمسك عليك.

(٣٠) ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: أي من السُّريات من الجواري التي يملكونها.

(٣١) ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾: أي المعتدون الظالمون المتجاوزون الحلال إلى الحرام.

(٣٢) ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾: أي ما ائتمنوا عليه من أمور الدين والدنيا. ﴿رَٰعُونَ﴾: أي حافظون غير مفرطين.

(٣٣) ﴿قَآئِمُونَ﴾: أي يقيمون شهاداتهم لا يكتمونها ولا يحرفونها.

(٣٤) ﴿يُحَافِظُونَ﴾: أي يؤدونها في أوقاتها في جماعات مع كامل الشروط والأركان والواجبات والسنن.

معنى الآيات:

(١٩) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي هذا الآدمي المنتصب القامة الضاحك الذي سمي بالإنسان لأنسه بنفسه ورؤية محاسنها ولنسيانه واجب شكر ربّه هذا الإنسان خلق هلوعًا قابلاً لوصف الهلع فيه عند بلوغه سن التمييز والهلع مرض نفسي عرضه الذي يُعرَف به جزعه الشديد متى مسه الشر، ومنعه القوي للخير متى مسه وظفر به.

(٢٠) ـ (٢١) فقد فسر تعالى الهلع بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۞﴾ ثم ذكر تعالى ما يعالج به هذا المرض باستثنائه من جنس الإنسان من يتصفون بالصفات الآتية وهي عبارة عن عبادات شرعية بعضها فعل وبعضها ترك من شأنها القضاء على هذا المرض الخطير المسمى بالهلع والذي لا يعالج إلا بما وصف تعالى في قوله:

١ ـ إدامة الصلاة بالمواظبة عليها ليل نهار إذ قال تعالى:

(٢٢) ـ (٢٣) ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۞[١] ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۞﴾[٢] وبشرط أن تؤدى إيمانًا واحتسابًا وأداءً صحيحًا بمراعاة شروطها وأركانها وسننها.

٢ ـ الاعتراف بما أوجب الله في المال من حق وإعطاء ذلك الحق بطيب نفس لمن سأل ولمن لم يسأل ممن هم أهل للزكاة والصدقات لقوله:

(٢٤) ـ (٢٥) ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۞﴾.

٣ ـ التصديق الكامل بيوم القيامة وهو البعث والجزاء لقوله تعالى:

(٢٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۞﴾.

٤ ـ الإشفاق والخوف من عذاب الله عند عروض خاطر المعصية بترك واجب أو فعل محرم لقوله تعالى:

(٢٧) ـ (٢٨) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۞﴾ أي دائمًا وأبدًا لأن ﴿عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ الوقوع.

٥ ـ حفظ الفرج بستره عن أعين الناس ما عدا الزوج وصيانته من فاحشة الزنا واللواط وجلد عميرة أي الاستمناء باليد والمعروف اليوم بالعادة السرية لقوله تعالى:

(٢٩) ـ (٣٠) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من السراري ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في إتيانهم أزواجهم وجواريهم اللائي ملكوهنّ بالجهاد أو الشراء الشرعي.

(٣١) وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾ أي طلب ما وراء الزوجة والسريّة ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي الظالمون الذي تجاوزوا الحلال إلى الحرام فكانوا بذلك معتدين ظالمين.

٦ ـ حفظ الأمانات والعهود ومن أبرز الأمانات وأقوى العهود ما التزم به العبد من عبادة الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله والوفاء بذلك حتى الموت زيادة على أمانات الناس والعهود لهم الكل واجب الحفظ والرعاية لقوله:

(٣٢) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۞﴾ أي حافظون.

٧ ـ إقامة الشهادة بالاعتدال فيها بحيث يؤديها ولا يكتمها ويؤديها قائمة لا اعوجاج فيها لقوله تعالى:

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ[٣] قَآئِمُونَ﴾[٤].

٨ ـ المحافظة على الصلوات الخمس مستوفاة الشروط والأركان من الخشوع إلى الطمأنينة في الركوع والسجود والاعتدال في

---

(١) الاستثناء منقطع أي لكن المصلين الذين وصفهم كيت وكيت وهي ثمان صفات وهي صفات المؤمنين الصادقين.

(٢) الدوام على الشيء عدم تركه وذلك في كل عمل بحسب ما يعتبر دوامًا فيه.

(٣) قرأ نافع ﴿شهادتهم﴾ بالإفراد وقرأ حفص ﴿شَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ بالجمع وقراءة الإفراد بمعنى الجمع لأن شهادة اسم جنس تدل على متعدد.

(٤) القيام بالشهادة: الاهتمام بها وحفظها إلى أن تؤدى.

القيام لقوله تعالى:

(٣٤) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾ بعد أدائها وعدم قطعها بحال من الأحوال.

فهذه الوصفة الربانية متى استعملها الإنسان المؤمن تحت إشراف عالم ربّاني إن و جده وإلاّ فتطبيقها بدون إشراف ينفع بإذن الله متى اجتهد المؤمن في حسن تطبيقها بريء من ذلك المرض الخطير وأصبح أهلاً لإكرام الله تعالى في الدار الآخرة، قال تعالى في ختام هذه الوصفة:

(٣٥) ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ۝﴾[1] أي أولئك المطبقون لهذه الوصفة الناجحون فيها ﴿فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ في جوار ربهم اللهم اجعلنا منهم يا غفور يا رحيم.

هداية الآيات:

١ - بيان شر صفات الإنسان وأنها الهلع.

٢ - بيان الدواء لهذا الداء داء الهلع الذي لا فلاح معه ولا نجاح.

٣ - انحصار العلاج في ثماني صفات أو ثماني مركبات دوائية.

٤ - وجوب العمل بما اشتملت عليه الوصفة من واجبات.

٥ - حرمة ما اشتملت عليه الوصفة من محرمات.

الجزء التاسع والعشرون — سورة نوح

فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

ترتيبها ٧١ — سورة نوح — آياتها ٢٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

٥٧٠

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٦ ـ ٤٤]

(٣٦) ﴿قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾: أي نحوك مديمي النظر إليك.

(٣٧) ﴿عِزِينَ﴾: أي جماعات حلقًا حلقًا يقولون في استهزاء بالمؤمنين لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلها قبلهم.

(٣٩) ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾: أي من منيّ قذر وإنما يستوجب دخول الجنة بالطاعات المزكية للنفوس.

(٤١) ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾: أي إنا لقادرون على أن نهلكهم ونأتي بأناس خير منهم. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾: أي بعاجزين عن إيجاد ما ذكرنا من إهلاك القوم والإتيان بخير منهم.

(٤٣) ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾: أي من القبور مسرعين إلى المحشر. ﴿سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾: أي كأنهم في إسراعهم إلى المحشر إلى نصب أي شيء منصوب كراية أو علم يسرعون.

(٤٤) ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي تغشاهم ذلة. ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾: أي يوعدون بالعذاب فيه وهو يوم القيامة.

معنى الآيات:

(٣٦) قوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ[2] كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾، يخبر تعالى مقبحًا سلوك المشركين إزاء رسوله ﷺ فيقول: فاللذين كفروا من كفار مكة قبلك، أي جهتك حيث كنت في المسجد الحرام مهطعين أو مسرعين مديمي النظر إليك.

(٣٧) ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي عن يمينك وعن شمالك عزين جمع عزة أي جماعة فهم حلق حلق يستمعون إلى قراءتك بحثًا عن كلمة يمكنهم أن يشنعوا بها عليك ويجعلونها مطعنًا في دعوتك أي سخرية يسخرون بها وبك ويقولون استهزاء بالمؤمنين لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم فرد تعالى عليهم منكرًا طمعهم الفارغ.

---

(١) والإكرام: التعظيم وحسن اللقاء أي هم مع جزائهم بالجنات يكرمون بحسن اللقاء والثناء. ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ خبر ﴿أُولَٰئِكَ﴾ و﴿مُّكْرَمُونَ﴾ خبر ثانٍ.

(٢) الاستفهام إنكاري تعجبي من تجمع المشركين إلى النبي ﷺ مستهزئين بما يسمعون من وعد المؤمنين بالجنة ووعيد المشركين بالنار، ومعنى الآية أي شيء ثبت للذين كفروا في حال إهطاعهم إليك.

(٣٨) ـ (٣٩) بقوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ[1] مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ أي بستان إكرام وتنعم كلا لن يتم هذا لهم ولن يكون وهم أنجاس الأرواح بالشرك والمعاصي.

ولفت النظر إلى أصل الخلقة وهي المنيّ القذر والقذر لا يدخل دار السلام فمن أراد الجنة فليزك نفسه وليطهرها بالإيمان والعمل الصالح مبعدًا لها عما يُدَسّيها من الشرك والمعاصي وهو ما تضمنه. قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم[2] مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

(٤٠) ـ (٤١) وقوله عز وجل: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي فلا الأمر كما يتصورون من أنهم لا يبعثون بعد موتهم أقسم برب المشارق الثلاثمائة والستين مشرقًا ومغربًا حيث الشمس تطلع كل يوم في مطلع وتغرب في آخر لا تعود إليه إلاّ بعد سنة في مثل ذلك اليوم فأقسم تعالى بنفسه، والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ أي على أن نهلكهم ونأتي بخير منهم. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي عاجزين عن ذلك فكيف إذًا لا نعيدهم أحياء بعد موتهم يوم القيامة.

(٤٢) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝﴾ أي أمر تعالى رسوله أن يتركهم وما يخوضون فيه من اللهو واللعب والباطل في القول والعمل، وهو تهديد خفي لهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟﴾ على ما هم عليه من أدران الشرك وأوضار المعاصي ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ بالعذاب فيه وهو يوم القيامة.

(٤٣) ـ (٤٤) وشرح حال اليوم فقال ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور جمع جدث، ﴿سِرَاعًا﴾، أي مسرعين، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾[3]، أي شيء منصوب من راية أو علم أو تذكار، ﴿يُوفِضُونَ ۝﴾، أي يحشرون مسرعين حال كون أبصارهم خاشعة، أي ذليلة من الفزع والخوف، ترهقهم ذلة، أي تغشاهم ذلة عجيبة عظيمة. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي هذا هو اليوم الذي كانوا يوعدون بالعذاب فيه وهو يوم القيامة الذي أنكروه وكذبوا به ها هو ذا قد حصل فليتجرعوا غصص الندم وألوان العذاب.

هداية الآيات:

١ ـ بيان الحال التي كان عليها الرسول ﷺ في مكة بين ظهراني قريش وما كان يلاقي من أذاهم.

٢ ـ بيان أن الجنة تدخل بالطهارة الروحية من قذر الشرك والمعاصي وإلاّ فأصل الناس واحد المنيّ القذر باستثناء آدم وحواء وعيسى فآدم أصله الطين وحواء خُلقت من ضلع آدم، وعيسى كان ينفخ روح القدس في كم درع مريم فكان بكلمة الله تعالى ومن عدا الثلاثة فمن ماء مهين ونطفة قذرة.

٣ ـ الاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان الثانية.

٤ ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٥ ـ بيان أن حياة أهل الكفر مهما تراءى لهم ولغيرهم أنها حياة مدنية سعيدة لم تعد كونها باطلاً ولهوًا ولعبًا.

❁ ❁ ❁

سورة نوح
مكية
وآياتها ثمان وعشرون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٤]

(١) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾: أي أهل الأرض كافة والدليل إغراقهم أجمعين. ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾: أي بإنذار قومك.

(٢) ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: أي بين النذارة ظاهرها.

(٣) ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي وحده بفعل محابه وترك مكارهه ولا تشركوا به شيئًا. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: فلا تعصوه بترك عبادته ولا بالشرك به. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: فيما آمركم به وأنهاكم

---

(١) هذه الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

(٢) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ازدراء بهم وتهكم من حالهم إذ يجادلون ويعاندون وهم مخلوقون من نطفة مذرة.

(٣) النصب بفتح النون وسكون الصاد: الصنم قرأ نافع نصب بفتح وسكون وقرأ حفص نصب بضم كل من النون والصاد والمعنى واحد وهو الصنم قال الشاعر:

وذا النُّصبِ المنصوبَ لا تنسكنه ... لعافية والله ربك فاعبدا

عنه لأني مبلغ عن الله ربي وربكم.

(٤) ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: أي ذنوبكم التي هي الشرك والمعاصي فمن زائدة لتقوية الكلام أو هي تبعيضية لأن ما كان حقًا لآدمي كمال وعرض لا يغفر إلا بالتوبة. ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي إلى نهاية آجالكم المسماة لكم في كتاب المقادير فلا يعجل لكم بالعذاب. ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾: أي بعذابكم. ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾: إن لم تؤمنوا. ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي لآمنتم.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا[١] إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ يخبر تعالى لافتًا نظر منكري رسالة نبيّه محمد ﷺ من مشركي قريش وكفار مكة أن محمدًا رسول الله ليس بأول رسول حتى تنكر رسالته، كما أن السورة بجملتها فيها تسلية لرسول الله ﷺ مما يلاقي من مشركي قومه إذ نوح عليه السلام قد لاقى ما هو أشد وأطول مدة والآيات ناطقة بذلك، وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي أرسلناه بإنذار قومه من قبل أن يأتيهم عذاب أليم[٢] هو عذاب الدنيا بالاستئصال وعذاب الآخرة بالاستمرار والدوام.

(٢) وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي امتثل نوح أمر ربه وقال لقومه ياقوم إني لكم نذير مبين، أي مخوف من عواقب كفركم بالله وشرككم به.

(٣) ﴿أَنِ[٣] ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا واتقوه فلا تعصوه بترك عبادته ولا بالشرك به، وأطيعون فيما آمركم به وأنهاكم عنه لأني مبلغ عن الله ربي وربكم ولا آمركم إلا بما يكملكم ويسعدكم ولا أنهاكم إلا عما يضركم ولا يسركم.

(٤) فإن تجيبوا لما دعوتكم إليه ﴿يَغْفِرْ لَكُم[٤] مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى نهاية آجالكم فلا يعاجلكم بالعقوبة ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي بعذابكم إذا جاء لا يؤخر ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٥] أي لو علمتم ذلك لأنبتم إلى ربكم فتبتم إليه واستغفرتموه.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير النبوة المحمدية إذ الذي أرسل نوحًا يرسل محمدًا ﷺ ومن شاء إلى من شاء.

٢ ـ تقرير التوحيد إذ نوح أرسل إلى قوم مشركين لإبطال الشرك وتحقيق التوحيد.

٣ ـ تقرير معتقد القضاء والقدر لقوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي في كتاب المقادير.

شرح الكلمات:

[الآية: ٥ ـ ٢٠]

(٥) ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾: أي دائمًا باستمرار.

(٦) ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾: أي مني ومن الحق الذي أدعوهم إليه وهو عبادة الله وحده.

(٧) ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: أي حتى لا يسمعوا ما أقول لهم. ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾: أي تغطوا بها حتى لا ينظروا إليّ ولا يروني. ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾: على باطلهم وما هم عليه من الشرك.

(١١) ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾: أي ينزل عليكم المطر متتابعًا كلما دعت الحاجة إليه.

(١٢) ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾: أي بساتين.

(١٣) ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾: أي لا تخافون لله عظمته وكبرياءه وهو القاهر فوق عباده.

(١٤) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾: أي حالاً بعد حال فطورًا نطفة وطورًا علقمة وطورًا مضغة.

(١٦) ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾: أي مضيئة.

(١٧) ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾: أي

---

(١) نوح هو ابن لامك بن متوشلخ بن أختون وهو إدريس بن برد بن مَهْلاَيِل بن أنوش بن قينان بن شيت بن آدم عليه السلام.

(٢) جائز أن يكون العذاب في الدنيا وأن يكون عذاب النار يوم القيامة.

(٣) إن: مفسرة كالتي في قوله: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾.

(٤) جائز أن تكون من: زائدة لتقوية الكلام وأن تكون تبعيضية إذ بعض الذنوب لا تغفر إلا بالتحلل من أصحابها وهي حقوق الآدميين.

(٥) روي أنهم كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فيقول: ربُّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

أنشأكم من تراب الأرض.

(١٨) ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾: أي تقبرون فيها. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾: أي يوم القيامة.

(٢٠) ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾: أي طرقًا واسعة.

معنى الآيات:

هذه الآيات تضمنت لوحة مشرقة يهتدي بضوئها الهداة الدعاة إلى الله عز وجل إذ هي تمثل عرض حال قدمه نوح لربه عز وجل هو خلاصة دعوة دامت قرابة تسعمائة وخمسين سنة ولنصغ إلى نوح عليه السلام وهو يشكو إلى ربه ويعرض عليه ما قام به من دعوة إليه.

(٥) فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ وهم أهل الأرض كلهم يومئذ ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي بالليل وبالنهار إذ بعض الناس لا يمكنه الاتصال بهم إلا ليلاً.

(٦) ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي﴾[1] إياهم إلى الإيمان بك وعبادتك وحدك ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾[2] مني ومما أدعوهم إليه

(٧) ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بأن يستغفروك ويتوبوا إليك لتغفر لهم ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ حتى لا يسمعوا ما أقول لهم، ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي تغطوا بها حتى لا يروني ولا ينظروا إلى وجهي كراهة لي وبغضًا فيّ ﴿وَأَصَرُّوا﴾ على الشرك والكفر إصرارًا متزايدًا عنادًا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[3] عجيبًا.

(٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى توحيدك في عبادتك وإلى ترك الشرك فيها ﴿جِهَارًا﴾ أي مجاهرًا بذلك.

(٩) ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝﴾ بحسب الجماعات والظروف أطرق كل باب بحثًا عن استجابتهم للدعوة وقبولهم للهدى.

(١٠) ـ (١١) فقلت: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ[4] كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ[5] عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي ينزل عليكم المطر متتابعًا فلا يكون قحط ولا محل.

(١٢) ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ كما هي رغبتكم ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين ذات نخيل وأعناب ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾[6] تجري في تلك البساتين تسقيها. ثم التفت إليهم وقال لهم منكرًا عليهم استهتارهم وعدم خوفهم.

(١٣) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝﴾ أي ما دهاكم أي شيء جعلكم لا ترجون لله وقارًا لا تخافون عظمته وقدرته وكبرياءه.

(١٤) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝﴾ ولفت نظرهم إلى مظاهر قدرة الله تعالى.

(١٥) فقال لهم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝﴾ سماء فوق سماء مطابقة لها.

(١٦) ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ[7] نُورًا﴾ ينير ما فوقه من السموات وما تحته من الأرض ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ وهاجًا مضيئًا يضيء بوجهه السموات وبقفاه الأرض كالقمر.

(١٧) ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝﴾ إذ أصلكم من تراب والنطف أيضًا من الغذاء المكون من التراب ثم خلقتكم تشبه النبات وهي على نظامه في الحياة والنماء.

(١٨) ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي في الأرض بعد الموت فتدفنون فيها ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ أيضًا ﴿إِخْرَاجًا﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء.

(١٩) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

---

(١) قرأ نافع ﴿دعائي﴾ بفتح العين وأسكنها حفص.

(٢) أي إلا تباعدًا عن الإيمان وإعراضًا عنه.

(٣) إذ قالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ والحامل لهم على هذا القول الكبر الذي تجاوزوا الحد فيه.

(٤) ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ هذا منه عليه السلام ترغيب لهم في التوبة. قال الفضيل بن عياض قول العبد: أستغفر الله معناه أقلني.

(٥) ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ المراد: المطر لا السماء، هذا كقول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم ... دعيناه وإن كانوا غضابا

(٦) يروى عن الحسن البصري أن رجلاً شكا إليه الجدوبة فقال له: استغفر الله، وشكا آخر إليه الفقر فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر جفاف بستانه فقال له: استغفر الله، وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولدًا فقال له: استغفر الله، فقيل له في ذلك، فقال: ما قلت من عندي شيئًا إن الله يقول في سورة نوح ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

(٧) أي في السماء الدنيا، إذ يقال أتاني بنو تميم وأتيت بني تميم والمراد بعضهم.

﴿بِسَاطًا﴾ أي مفروشة مبسوطة صالحة للعيش فيها والحياة عليها.

(٢٠) ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي طرقًا واسعة وهكذا تجول بهم نوح عليه السلام في معارض آيات الله الكونية وكلها دالة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وهي موجبة للعبادة له عقلاً ونفيها عما سواه. كانت هذه مشكلة نوح وعرض حاله على ربّه وهو أعلم به وفي هذا درس عظيم للدعاة الهداة المهديين جعلنا الله منهم آمين.

هداية الآيات:

١ - رسم الطريق الصحيح للدعوة القائم على الصبر وتلوين الأسلوب.

٢ - بيان كره المشركين للتوحيد والموحدين أنهم لبغضهم لنوح ودعوة التوحيد سدوا آذانهم حتى لا يسمعوا وغطوا وجوههم حتى لا يروه واستكبروا حتى لا يروا له فضلاً.

٣ - استعمال الحكمة في الدعوة فإن نوحًا لما رأى أن قومه يحبون الدنيا أرشدهم إلى الاستغفار ليحصل لهم المال والولد.

٤ - استنبط بعض الصالحين[(١)] من هذه الآية أن من كانت له رغبة في مال أو ولد فليكثر من الاستغفار الليل والنهار ولا يمل يعطه الله تعالى مراده من المال والولد.

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا (٢٤) مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا (٢٨)

٥٧١

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ - ٢٤]

(٢١) ﴿عَصَوْنِى﴾: أي لم يطيعوني فيما دعوتهم إليه وأمرتهم به من عبادتك وحدك وترك الشرك بك. ﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾: أي السفلة منهم والفقراء. ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾: أي الرؤساء المنعم عليهم. ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾: أي طغيانًا وكفرًا.

(٢٢) ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾: أي عظيمًا جدًا بأن كذبوا نوحًا وآذوه أذىً شديدًا.

(٢٣) ﴿وَقَالُوا۟﴾: أي الرؤساء قالوا للسفلة منهم. ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾: أي لا تتركن آلهتكم. ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾: أي ولا تتركن كذلك ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ولا يعوق ونسرا.

(٢٤) ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟﴾: أي بالأصنام كثيرًا من الناس حيث أمروا بعبادتها.

معنى الآيات:

بعد ذلك العرض الكريم الذي تقدّم به رسول الله نوح عليه السلام إلى ربه ليعذره ويكرمه تقدم بشكوى مشفوعة بالدعاء بالهلاك على الظالمين.

(٢١) ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟[(٢)] مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي طغيانًا وكفرًا.

(٢٢) ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾[(٣)] أي عظيمًا جدًا حيث كانوا يعرضون بنوح وقد يضربونه وهو صابر محتسب وقالوا لبعضهم البعض متواصين بالباطل.

(٢٣) ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وسموا منها رؤساءها وهم خمسة: ود وسواع[(٤)] ويغوث ويعقو ونسرٌ، وقد أضلوا كثيرًا، أي من عباد الله حيث ورثوا

---

(١) تقدّم أنه الحسن البصري رحمه الله تعالى.

(٢) يعني كبراءهم وأغنياءهم وأهل الترف فيهم الذين لم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالاً.

(٣) ﴿كُبَّارًا﴾ نحو قرّاء وعجاب وطوال وعمال.

(٤) روى البخاري عن ابن عباس: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

هذه الأصنام فيهم فتبعهم الناس على ذلك فضلُّوا ثم دعا عليهم.

(٢٤) قائلاً: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ قال هذا بعد أن أيس من إيمانهم وعدم هدايتهم لطول ما مكث[١] بينهم يدعوهم وهم لا يزدادون إلا كفرًا وضلالاً[٢].

هداية الآيات:

١ - مشروعية الشكوى إلى الله تعالى ولكن بدون صخب ولا نصب.

٢ - بيان أن السفلة والفقراء يتبعون الرؤساء والأغنياء وأصحاب الحظ.

٣ - بيان أن المكر من شأن الكافرين والظالمين.

٤ - بيان أن المشركين لضلالهم يطلقون لفظ الآلهة على من يعبدونهم من الأصنام والأوثان.

٥ - مشروعية الدعاء على الظالمين عند اليأس من هدايتهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥ ـ ٢٨]

(٢٥) ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾: أي بسبب خطيئاتهم أغرقوا بالطوفان.

﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾: أي بعد موتهم أُدخلت أرواحهم النار.

(٢٦) ﴿دَيَّارًا﴾: أي من يدور يذهب ويجيء أي لم يبقَ أحد.

(٢٧) ﴿إِن تَذَرْهُمْ﴾: أي أحياء لم تهلكهم.

(٢٨) ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾: أي هلاكًا وخسارًا.

معنى الآيات:

(٢٥) قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾[٣] يخبر تعالى عن نهاية قوم نوح بعد أن دعا عليهم نوح لما علم بالوحي الإلهي أنهم لا يؤمنون فقال تعالى: مما خطيئاتهم، أي ومن خطيئاتهم أي بسبب خطيئاتهم التي هي الشرك والظلم والتكذيب والأذى لنوح عليه السلام أغرقوا بالطوفان فلم يبقَ منهم أحد ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي بمجرد ما يغرق الشخص وتخرج روحه يُدخل النار في البرزخ. وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ[٤] يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ وهو كذلك فمن ينصر من يريد هلاكه وخزيه وعذابه.

(٢٦) ثم ذكر تعالى دعوة نوح التي كان الطوفان بها والهلاك وهي قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي لا تترك ولا تبقِ على الأرض اليابسة كلها يومئذ من الكافرين بخلاف المؤمنين ﴿دَيَّارًا﴾[٥] أي إنسانًا يدور أي يذهب ويجيء أي لا تبقِ من الكافرين أحدًا.

(٢٧) ثم علل لطلبه الهلاك للكافرين فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ[٦] يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ عن صراطك الموصل إلى رضاك وذلك هو عبادتك وحدك وطاعتك وطاعة رسولك ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٧] أي إلا من يفجر عن دينك ويكفر بك وبرسولك قال نوح هذا لطول التجارب التي عاشها مع قومه إذ عاشرهم قرابة عشرة قرون ثم دعا الله تعالى له ولوالديه ولمن دخل مسجده ومصلاه من المؤمنين والمؤمنات، وأن لا يزيد الظالمين إلا خسارًا وهلاكًا.

(٢٨) فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ[٨] وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾[٩].

---

(١) قال ابن عباس: رجا نوح الأبناء بعد الآباء فيأتي بهم الولد بعد الولد حتى بلغوا سبع قرون ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى كثر الناس وفشوا.

(٢) من عجيب ما يدعو إليه الشيطان أن يعوق ونسرًا عبدا في القرن الرابع عشر في قرية ليوه حيث كانوا يستسقون بهما، وأن يغوث ويعوق وودًا وسواعًا ونسرًا كانت موزعة بين القبائل العربية وفي يعوق يقول الشاعر:

يريش الله في الدنيا ويبري ... ولا يبري يعوق ولا يريش

(٣) مما ﴿خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ (ما) زائدة والأصل من ﴿خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ ومن تعليلية وما الزائدة لتوكيد معنى التعليل.

(٤) الفاء تفريعيّة.

(٥) ديار: اسم مخصوص بالوقوع في النفي يعم كل إنسان وهو مشتق من اسم الدار.

(٦) ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ الجملة تعليلية.

(٧) يريد عند بلوغ الولد سن التكليف لا أنه يفجر ويكفر بمجرد ما يولد، وصيغة فعال للمبالغة في الموصوف بالكفر.

(٨) اسم أبيه لامك واسم أمه شمخى بنت رنوس.

(٩) التبار: الهلاك والخسران.

هداية الآيات:

١ - هلاك قوم نوح كان بخطاياهم فالخطايا إذًا موجبة للهلاك.

٢ - تقرير عذاب القبر فقوم نوح ما إن أغرقوا حتى أدخلوا نارًا.

٣ - مشروعية الدعاء على الظلمة والكافرين والمجرمين.

٤ - مشروعية الدعاء للمؤمنين والمؤمنات.

٥ - يستحب البدء في الدعاء بنفس الداعي ثم يعطف من يدعو لهم.

❁ ❁ ❁

سورة الجن(١)
مكية
وآياتها ثمان وعشرون آية

الجُزء التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ الجِنّ

ترتيبها ٧٢ — سُورَةُ الجِنّ — آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

٥٧٢

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٧]

﴿١﴾ ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾: أي إلى قراءتي. ﴿نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾: أي عدد من الجن ما بين الثلاثة والعشرة.

﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾: أي لبعضهم بعضًا قرآنًا عجبًا أي يتعجب منه لفصاحته وغزارة معانيه.

﴿٢﴾ ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾: أي الصواب في المعتقد والقول والعمل.

﴿٣﴾ ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾: أي تنزه جلال ربنا وعظمته عما نسب إليه. ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾: أي لم يتخذ صاحبة ولم يكن له ولد.

﴿٤﴾ ﴿سَفِيهُنَا﴾: أي جاهلنا. ﴿شَطَطًا﴾: أي غلوا في الكذب بوصفه الله تعالى بالصاحبة والولد.

﴿٥﴾ ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: حتى تبين لنا أنهم يكذبون على الله بنسبة الزوجة والولد إليه.

﴿٦﴾ ﴿يَعُوذُونَ﴾: أي يستعيذون. ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: أي إثمـًا وطغيانًا.

﴿٧﴾ ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾: أي لن يبعث رسولا إلى خلقه.

معنى الآيات:

﴿١﴾ قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ(٢) إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ(٣) مِّنَ الْجِنِّ﴾ يأمر تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يقول معلنًا للناس مؤمنهم وكافرهم أنه قد أوحى الله تعالى إليه نبأ مفاده أن نفرًا من الجن ما بين الثلاثة إلى العشرة قد استمعوا إلى قراءته القرآن وذلك ببطن نخلة والرسول يصلي بأصحابه صلاة الفجر وكان الرسول ﷺ عامدًا مع أصحابه إلى سوق عكاظ. وكان يومئذ قد حيل بين الشياطين وخبر السماء حيث أرسلت عليهم الشهب فراجع الشياطين بعضهم بعضًا فانتهوا إلى أن شيئًا حدث لا محالة فانطلقوا يضربون في مشارق الأرض ومغاربها يتعرفون إلى هذا الحدث الجلل الذي مُنِعت الشياطين بسببه من السماء فتوجه نفر منهم إلى تهامة فوجدوا الرسول ﷺ يصلي الصبح بأصحابه فاستمعوا إلى قراءته في(٤) صلاته فرجعوا إلى قومهم من الجن

---

(١) قرأ نافع بكسر إن في كل ما ورد في سورة الجن ما عدا أنه استمع نفر من الجن وأن المساجد لله ففتح أن وفتحها حفص إلا بعد القول: فإن له نار جهنم.

(٢) أصل أوحي ووحي فقلبت الواو همزة كما قلبت في ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ والأصل وقتت، وهو جائز في كل واو مضمومة نحو ورخ وأرخ.

(٣) يرى ابن إسحق أن هذا اللقاء بالجن كان عند عودة النبي ﷺ من الطائف، ولا مانع من حصول الخبرين مرة عند عودته من الطائف وتكون هذه الأولى، والثانية هي المذكورة في التفسير.

(٤) ما ذكر في التفسير من شأن استماع الجن قراءة الرسول ﷺ وما أوحى الله تعالى به إلى رسوله ﷺ في شأن هذه الحادثة هو في مسلم والترمذي.

فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا۝﴾ فأنزل الله تعالى هذه السورة «سورة الجن» مفتتحة بقوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ[1] نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي أعلن للناس يا رسولنا أن الله قد أوحى إليك خبرًا مفاده أن نفرًا من الجن قد استمعوا إلى قراءتك فرجعوا إلى قومهم وقالوا لهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي يتعجب من فصاحته وغزارة معانيه.

(٢) - (٣) يهدي إلى الرشد[2] والصواب في العقيدة والقول والعمل ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ وفي هذا تعريض بسخف البشر الذين عاش الرسول بينهم إحدى عشرة سنة يقرأ عليهم القرآن بمكة وهم مكذبون به كارهون له مصرون على الشرك والجن بمجرد أن سمعوه آمنوا به وحملوا رسالته إلى قومهم وها هم يدعون بدعاية الإسلام ويقولون: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا۝ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾[3] أي وآمنا بأنه تعالى أمر ربنا وسلطانه ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا وحاشاه وإنما نسب إليه ذلك المفترون.

(٤) ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا۝﴾ هذا من قول الجن واصلوا حديثهم قائلين وأنه كان يقول جاهلونا على الله شططا أي غلوًا في الكذب بوصفهم الله تعالى بالصاحبة والولد تقليدًا للمشركين واليهود والنصارى.

(٥) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا۝﴾ أي وقالوا لقومهم وإنا كنا نظن أن الإنس والجن لا يكذبون على الله ولا يقولون عليه إلا الصدق وقد علمنا الآن أنهم يكذبون على الله ويقولون عليه ما لم يقله وينسبون إليه ما هو منه براء.

(٦) وقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ[4] رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ[5] بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ يخبرون بخبر عجيب وهو أنه كان رجال من الناس من العرب وغيرهم إذا نزلوا منزلاً مخوفًا في واد أو شعب يستعيذون برجال من الجن كأن يقول الرجل: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه فزاد الإنس الجن بهذا اللجأ إليهم والاحتماء بهم رهقًا[6] أي إثمًا وطغيانًا، إذ ما كانوا يطمعون أن الإنس تعظمهم هذا التعظيم حتى تستجير بهم.

(٧) ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا۝﴾، أي وقالوا مخبرين قومهم وأنهم أي الإنس ظنوا كما ظننتم أنتم أيها الجن أن لن يبعث الله أحدًا رسولاً ينذر الناس عذاب الله ويعلمهم ما يكملهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة.

هداية الآيات:

١ - تقرير النبوة المحمدية وأن محمدًا رسول للثقلين الإنس والجن معًا.

٢ - بيان علو شأن القرآن وكماله حيث شهدت الجن له بأنه عجب فوق مستوى كلام الخلق.

٣ - تقرير التوحيد والتنديد بالشرك.

٤ - تقرير أن الإنس كالجن قد يكذبون على الله وما كان لهم ذلك.

٥ - حرمة الاستعانة بالجن والاستعاذة بهم لأن ذلك كالعبادة لهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ٨ - ١٥]

(٨) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾: أي طلبنا خبرها كما جرت بذلك عادتنا.

﴿حَرَسًا شَدِيدًا﴾: أي حراسًا وحفظة من الملائكة يحفظونها بشدة وقوة.

﴿وَشُهُبًا﴾: أي نجومًا يرمي بها الشياطين أو يؤخذ منها شهاب فيرمى به.

---

(١) جملة ﴿ٱسْتَمَعَ﴾ خبر إن والاسم هو ضمير الشأن والجملة في محل نائب فاعل لأوحي.

(٢) الرشد بضم الراء وإسكان الشين، والرشد بفتح الراء والشين معًا هما الخير والصواب والهدى.

(٣) الجد بفتح الجيم: العظمة والجلال ومنه قول أنس: كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جدّ في عيوننا: أي عظم وجلّ، ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ قرأ نافع بكسر الهمزة عطفًا على قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ حفص بفتح الهمزة على تقدير آمنا بأنه تعالى جد ربنا.

(٤) يجوز فتح أنه وكسرها فمن فتحها جعلها من كلام الجن رادًا لها إلى قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ ومن كسرها جعلها مبتدأ في قول الله تعالى.

(٥) قال مقاتل: أول من تعوّذ بالجن قوم من اليمن من بني حنيفة ثم فشا في العرب فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم.

(٦) الرهق: الخطيئة والإثم وغشيان المحارم، وباستعاذة الإنس بالجن يحصل الإثم والخطيئة.

الجزء التّابعُ والعِشرُونَ — سُورةُ الجِنّ

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

٥٧٣

﴿٩﴾ ﴿مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾: أي من أجل أن نسمع ما يحدث وما يكون في الكون. ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾: أي أرصد وأعد لرمي الشياطين وإبعادهم عن السمع.

﴿١٠﴾ ﴿رَشَدًا﴾: أي خيرًا وصلاحًا.

﴿١١﴾ ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾: أي مذاهب مختلفة إذ الطرائق جمع طريقة، والقدد جمع قدة وهي الضروب والأجناس المختلفة.

﴿١٢﴾ ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾: أي لا نفوته هاربين في الأرض أو في السماء.

﴿١٣﴾ ﴿لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾: أي القرآن الداعي إلى الهدى المخالف للضلال. ﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: أي نقصًا من حسناته ولا إثمًا يحال عليه ويحاسب به.

﴿١٤﴾ ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾: أي الجائرون عن قصد السبيل وهو الإسلام. ﴿تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾: أي تعمّدوا الرشد فطلبوه بعناية فحصلوا عليه.

﴿١٥﴾ ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾: أي وقودًا تتقد بهم يوم القيامة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ما قالته الجن بعد سماعها القرآن الكريم وهو ما أخبر تعالى به عنهم.

﴿٨﴾ في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي طلبناها كعادتنا ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾[1] أي ملائكة أقوياء يحرسونها وشهبًا نارية يرمى بها كل مسترق للسمع منا.

﴿٩﴾ وقالوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي من السماء ﴿مَقَاعِدَ﴾ أي أماكن معينة لهم ﴿لِلسَّمْعِ﴾[2] أي لأجل الاستماع من ملائكة السماء. ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي أرصد له خاصة فيرمى به فيحرقه أو يخبله.

﴿١٠﴾ وقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۩﴾ أقول عجبًا لهؤلاء المؤمنين من الجن كيف تأدبوا مع الله فلم ينسبوا إليه الشر ونسبوا إليه الخير فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ ولو أساءوا الأدب مثلنا لقالوا أشر أراده الله بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا أي خيرًا وصلاحًا قالوا هذا لما وجدوا السماء قد ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا وهو تفكير سديد ناتج عن وعي وإدراك سليم. وهذا التغير في السماء الذي وجدوه سببه أن الله تعالى لما نبأ رسوله محمدًا ﷺ وأخذ يوحي إليه حمى السماء حتى لا يسترق الشياطين السمع ويشوشوا على الناس فيصرفوهم عن الإيمان والدخول في الإسلام وهو الرشد الذي أراد الله لعباده.

﴿١١﴾ وقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ أي المؤمنون المستقيمون على الإيمان والطاعة ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ضعف، إيمان وقلة طاعة، ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي مذاهب[3] وأهواء مختلفة.

(١) الشهب جمع شهاب ككتاب وكتب وهو ما يؤخذ من الكواكب النارية فيرمى به الجن. والحرس جمع حارس ولم يقل شديدين نحو قولنا: السلف الصالح بدل الصالحين. وجمع الحرس أحراس كسلف وأسلاف.

(٢) الذين كانوا يسترقون السمع هم مردة الجن وشياطينهم. ومما ينبغي أن يعلم هنا أن الجن هم أولاد الجان المخلوق من مارج من نار وأن الشياطين هم أولاد إبليس وأن من فسق عن أمر الله تعالى وتمرد على شرعه فخبث واشتد خبثه يصبح شيطانًا ويلحق بالشياطين الذين لا خير فيهم البتة.

(٣) كان منهم اليهودي والنصراني والمجوسي، ولما جاء الإسلام أصبح منهم المسلم وأصبح من المسلمين قدرية ومرجئة وخوارج ورافضة وشيعة لأنهم تابعون للناس في معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم.

(١٢) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي إن أراد بنا سوءًا ومكروهًا ولن نعجزه هربًا إن طلبنا في الأرض أو في السماء.

(١٣) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بالقرآن الذي هو هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا﴾ أي نقصًا من حسناته يوم القيامة ﴿وَلَا رَهَقٗا﴾ أي إثمًا يضاف إلى سيئاته ويعاقب به وهو لم يرتكبه في الدنيا.

(١٤) وقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ﴾ أي الجائرون عن قصد السبيل وهو الإسلام. فمن أسلم أي انقاد لله تعالى بطاعته وخلص من الشرك به فؤلاء تحروا الرشد[1] وفازوا به.

(١٥) ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ توقد بهم وتستعر عليهم وعلى الكافرين الجائرين أمثالهم.

هداية الآيات:

١ - وجود تجانس بين الجن والملائكة لقرب ماذتي الخلق من بعضها إذ الملائكة خلقوا من مادة النور، والجن من مادة النار، ولذا يرونهم ويسمعون كلامهم ويفهمونه.

٢ - من الجن أدباء صالحون مؤمنون مسلمون أصحاب لرسول الله ﷺ.

٣ - ذم الطرق والأهواء والاختلافات.

٤ - الإشادة بالعدل وتحري الحق والخير.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ - ٢٤]

(١٦) ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾: أي الإسلام.

﴿مَّآءً غَدَقٗا﴾: أي مالاً كثيرًا وخيرات كبيرة.

(١٧) ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾: أي نختبرهم أيشكرون أم يكفرون. ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾: أي القرآن وشرائعه وأحكامه. ﴿عَذَابٗا صَعَدٗا﴾: أي شاقًا.

(١٨) ﴿فَلَا تَدۡعُواْ﴾: أي فيها مع الله أحدًا.

(١٩) ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾: أي محمد ﷺ يدعو الله ببطن نخلة. ﴿عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾: أي في ركوب بعضهم بعضًا تزاحمًا لأجل أن يسمعوا قراءته.

(٢١) ﴿ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾: أي غيًا ولا خيرًا.

(٢٢) ﴿مُلۡتَحَدًا﴾: أي ملتجأ ألجأ إليه فأحفظ نفسي.

(٢٣) ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾: أي لا أملك إلا البلاغ إليكم.

(٢٤) ﴿وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾: أي أعواننا المسلمون أم الكافرون.

معنى الآيات:

(١٦) قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي وأوحى إليّ أن لو استقام هؤلاء المشركون من كفار قريش استقاموا على الإيمان والتوحيد والطاعة لله ولرسوله - وهم يشكون القحط - ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾[2] فتكثر أموالهم وتتسع أرزاقهم.

(١٧) ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم في ذلك الخير الكثير أيشكرون أم يكفرون؟ ثم إن شكروا زادهم، وإن كفروا سلبهم وعذّبهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾ أي القرآن وما يدعو إليه من الإيمان وصالح الأعمال ولم يتخلّ عن الشرك وسوء الأفعال ﴿يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾[3] أي نُدخله في عذاب شاق في الدنيا بالذل والمهانة والفقر والرذالة والنذالة. وفي الآخرة في جهنم حيث السموم والحميم، والضريع والزقوم.

(١٨) وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ[4] لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ أي ومما أوحي

---

(١) ﴿تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴾ أي قصدوا طريق الحق وتوخوه، ومنه تحري القبلة للصلاة أي طلبها بعناية وقصد للحصول عليها.

(٢) ﴿غَدَقٗا﴾ أي واسعًا كبيرًا، يقال: غدقت العين تغدق فهي غدقة إذا كثر ماؤها. وهذا الوعد الإلهي المشروط هو عام في الناس أجمعين وفي كل زمان ومكان وهو كقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولما استقام السلف الصالح حصل لهم هذا الموعود كاملاً.

(٣) روي عن ابن عباس أن العذاب الصعد جبل في جهنم يكلفون صعوده وكلما وضعوا أيديهم عليه ذابت. وهو ضرب من أنواع العذاب في دار الشقاء.

(٤) جائز أن يكون المراد بالمساجد أعضاء السجود السبعة لحديث «**إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب**» أي: أعضاء ويقوي هذا الجواز قول عطاء: مساجدك أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها فلا تذللها لغير خالقها. وما في التفسير أولى بالآية.

إليّ أن المساجد لله فإذا دخلتموها للعبادة فلا تدعو فيها مع الله أحدًا إذ كيف البيت له وأنت فيه وتدعو معه غيره زيادة على أن الشرك محرم وصاحبه في النار فإنه من غير الأدب أن يكون المرء في بيت كريم ويدعو معه غيره من فقراء الخلق أو أغنيائهم.

(١٩) وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ أي وأوحي إليّ أنه لما قام عبدالله ورسوله محمد ﷺ يدعو ربّه في الصلاة ببطن نخلة كاد الجن أن يكونوا عليه لبدًا أي[1] كالشيء المتلبد بعضه فوق بعض.

(٢٠) وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ هذا إجابة لقريش عندما قالوا له ﷺ لقد جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فارجع عن هذا فنحن نجيرك أي نحفظك فأمر أن يقول:

(٢١) ﴿إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ أي أعبده إلهًا واحدًا ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾. وأن يقول أيضًا: إني لا أملك لكم يا معشر قريش الكافرين ضرًا ولا رشدًا أي ضلالاً ولا هداية إنما ذلك لله وحده يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

(٢٢) وأمر أن يقول لهم أيضًا ﴿إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ إن أنا عصيته وأطعتكم، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي من غيره ﴿مُلْتَحَدًا﴾[2] أي ملتجأ ألتجىء إليه.

(٢٣) وقوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾، أي لا أملك لكم ضرًا ولا رشدًا إلا بلاغًا من الله ورسالته فإني أبلغكم عنه ما أمرني به وأرشدكم إلى ما أرسلني به من الهدى والخير والفوز. وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي يخبر تعالى موعدًا أن من يعصي الله بالشرك به وبرسوله بتكذيبه وعدم اتباعه فيما جاء به فإن له جزاء شركه وعصيانه نار جهنم خالدين فيها أبدًا.

(٢٤) وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ أي فإن استمروا على شركهم وتكذيبهم حتى إذا رأوا ما يوعدون من عذاب يوم القيامة فسيعلمون عندئذ من أضعف ناصرًا أي من ناصره ضعيف أو قوي، ومن أقل عددًا من أعوانه المؤمنون محمد وأصحابه أم هم المشركون المكذبون.

هداية الآيات:

١ - الاستقامة على منهج الله تعالى القائم على الإيمان والطاعة لله ورسوله يفضي بسالكه إلى الخير الكثير والسعادة الكاملة في الدنيا والآخرة.

٢ - المال فتنة وقلّ من ينجح فيها. قال عمر رضي الله عنه: أينما يكون الماء يكون المال وأينما يكون المال تكون الفتنة.

٣ - حرمة دعاء غير الله في المساجد وفي غيرها إلا أنها في المساجد أشد قبحًا.

٤ - الخير والغير والهدى والضلال لا يملكها إلا الله فليطلب ذلك منه لا من غيره.

٥ - معصية الله والرسول موجبة لعذاب الدنيا والآخرة.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٥ ـ ٢٨]

(٢٥) ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ﴾: أي قل ما أدري. ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾: أي من العذاب. ﴿أَمَدًا﴾: أي غاية وأجلاً لا يعلمه إلا هو.

(٢٦) ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾: أي لا يطلع.

(٢٧) ﴿مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾: أي فإنه يطلعه. ﴿رَصَدًا﴾: أي ملائكة يحفظونه حتى يبلغه مع الوحي الذي يبلغه لكافة الناس.

(٢٨) ﴿لِّيَعْلَمَ﴾: أي الله عِلمَ ظهور أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم. ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾: أي أحصى عدد كل شيء.

معنى الآيات:

(٢٥) قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ﴾ أمر تعالى رسوله أن يقول للمشركين

---

(١) اللبد جمع لبدة بكسر اللام وسكون الباء كقربة وقرب وهي ما تلبد بعضه على بعض ومنه لبدة الأسد وهي الشعر المتراكم في رقبته.

(٢) شاهده قول الشاعر:

يا لهف نفسي ولهفي غير مجدية ... عني وما من قضاء الله ملتحد

ترتيبها ٧٣ — سورة المزمل — آياتها ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

٥٧٤

المطالبين بالعذاب استخفافًا وعنادًا وتكذيبًا أمره أن يقول لهم ما أدري أقريب ما وعدكم ربكم به من العذاب بحيث يحل بكم عاجلاً أم يجعل له ربي[1] أمدًا أي غاية وأجلاً بعيدًا يعلمه هو ولا يعلمه غيره.

﴿٢٦﴾ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾[2] إذ هو عالم الغيب[3] وحده فلا يظهر على غيبه، أي لا يطلع على غيبه أحدًا من عباده.

﴿٢٧﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي رضيه أن يبلغ عنه فإنه يطلعه مع الاحتياط الكافي حتى لا يتسرب الخبر الغيب إلى الناس. ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ[4] مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ الرسول المرتضى ومن خلفه رصدًا من الملائكة ثم يطلعه ضمن الوحي الذي يوحي إليه.

﴿٢٨﴾ وذلك ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الرسول[5] ﷺ أن الرسل قبله قد بلّغت رسالات ربها لما أحاطها تعالى به من العناية حتى إنه إذا جاءه الوحي كان معه أربعة ملائكة يحمونه من الشياطين حتى لا يسمعوا خبر السماء فيبلغوه أولياءهم من الإنس، فتكون فتنة في الناس. وقوله: ﴿وَأَحَاطَ﴾ أي الله جلّ جلاله ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي بما لدى الملائكة والرسل علمًا ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[6] أي وأحصى عدد كل شيء فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

هداية الآيات:

١ ـ استئثار الله تعالى بعلم الغيب فلا يعلم الغيب إلا الله.

٢ ـ قد يطلع الله تعالى من ارتضى أن يطلعه من الرسل على غيب خاص ويتم ذلك بعد حماية كاملة من الشياطين كيلا ينقلوه إلى أوليائهم فيفتنوا به الناس.

٣ ـ بيان إحاطة علم الله بكل شيء وإحصائه تعالى لكل شيء عدًّا.

❊ ❊ ❊

سورة المزمل

أولها مكي وآخرها مدني[7]

وآياتها عشرون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٩]

﴿١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾: أي

(١) قرأ نافع ﴿ربيَ﴾ بفتح الياء، وقرأ حفص ﴿رَبِّي﴾ بإسكان الياء ممدودة.

(٢) ﴿عَالِمُ﴾ نعت لربي. والغيب: ما غاب عن العبادة، ومعنى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ أي العليم بكل ما هو غائب عن أعين الناس كالملائكة والجن وما سيحدث من أحداث في الكون.

(٣) قالت العلماء: لما تمدح الله تعالى بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوءتهم وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول يطلعه على ما يشاء من غيبه بل هو كافر بالله مفتر عليه لحدسه وتخمينه وكذبه.

(٤) ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ﴾ إلخ.. يعني ملائكة يحفظونه من أن يقرب منه شيطان في صورة الملك فيحفظ الوحي من استراق الشيطان والإلقاء إلى الكهنة.

(٥) معنى الآية: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ أي محمد ﷺ أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما أبلغ هو الرسالة. وفي الكلام حذف تقديره أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ.

(٦) ﴿عَدَدًا﴾ منصوب على الحال أو على المصدر أي أحصى وعدّ كل شيء عددًا.

(٧) آخرها هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى آخر آية منه.

المتلفف بثيابه أي النبي ﷺ.

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾: أي صل. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي نصف الليل.

﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾: أي انقص من النصف إلى الثلث.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾: أي إلى الثلثين فأنت مخير في أيها تفعل تقبل. ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾: أي ترسّل في قراءته وبيّنه تبيينًا.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا﴾: أي قرآنا. ﴿ثَقِيلًا﴾: أي محمله ثقيلاً العمل به لما يحوي من التكاليف.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾: أي ساعة الليل من صلاة العشاء فما فوق كل ساعة تُسمى ناشئة. ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾: أي هي أقوى موافقة السمع للقلب على تفهم القرآن فيها. ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: أي أبين قولاً وأصوب قراءة من قراءة النهار لسكون الأصوات.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾: أي دم على ذكره ليلاً ونهارًا على أي وجه من تسبيح وتهليل وتحميد. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾: أي انقطع إليه في العبادة وفي طلب الحاجة وفي كل ما يهمك.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي لا معبود بحق سواه ولا تنبغي العبادة لغيره. ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾: أي فوض جميع أمورك إليه فإنه يكفيك.

معنى الآيات:

- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾[1] نادى الرب تبارك وتعالى نبيّه محمدًا ﷺ مذكرًا إياه بتلك الساعة السعيدة التي فاجأه فيها الوحي لأول مرة فرجع بها ترجف بوادره فانتهى إلى خديجة وهو يقول: «**زملوني**» دثروني فالمزمل[2] هو المتزمل أي المتلفف في ثيابه ليقول له قم الليل[3] إلا قليلاً أي صل في الليل.

﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ[4] مِنْهُ قَلِيلًا﴾ إلى الثلث ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي على النصف إلى الثلثين وامتثل الرسول أمر ربه فقام مع أصحابه حتى تورمت أقدامهم. ثم خفف الله تعالى عنهم ونزل آخر هذه السورة بالرخصة في ترك القيام الواجب وبقي الندب والاستحباب.

وقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[5] يرشده ربه إلى أحسن التلاوة وهي الترسل وعدم السرعة حتى يبيّن الكلمات تبيينًا ويترقى القلب في معانيها.

وقوله: ﴿إِنَّا[6] سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يخبره ربه تعالى بأنه سيلقي عليه قولاً ثقيلاً هو القرآن فإنه ثقيل مهيب ذو تكاليف العمل بها ثقيل إنها فرائض وواجبات أعلمه ليوطن نفسه على العمل ويهيئها لحمل الشريعة علمًا وعملاً ودعوة.

وقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ[7] ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ يخبر تعالى مُعلمًا أن ساعات الليل من بعد صلاة العشاء إلى آخر الليل القيام فيها يجعل السمع يواطىء القلب على فهم معاني القرآن الذي يقرأه المصلي، وقوله وأقوم قيلا، أي أبين قولاً وأصوب قراءة من قراءة الصلاة في النهار.

---

(١) في هذا النداء بهذه الصفة معنى التلطف والتحبب كقوله ﷺ لعلي: «**قم أبا تراب**» ولعبدالرحمٰن بن صخر: «**أبا هريرة**»، ولحذيفة بن اليمان يوم الخندق: «**قم يا نومان**».

(٢) ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ اسم فاعل والمدثر كذلك من تزمل وتدثر والأصل المتزمل والمتدثر.

(٣) كان هذا القيام قبل فرض الصلوات الخمس واستمر بعد فرضها واجبًا على النبي ﷺ دون أمته.

(٤) الجمهور يقرأ ﴿**أَوُ انقص**﴾ بضم الواو للتخلص من التقاء الساكنين، وبعضهم بكسرها ﴿**أوِ انقص**﴾.

(٥) جائز أن يكون الترتيل المأمور به في الصلاة وقيام الليل وفي غيره ذلك من تلاوة القرآن الكريم والترتيل مأخوذ من قولهم ثغر مرتل وهو المفلج الأسنان أي المفرق بينهما فالترتيل هو تفرقة الحروف وعدم جمعها بحيث يخرج كل حرف من مخرجه. يفسره قول عائشة رضي الله عنها في وصف الترتيل: لو أراد السامع أن يعد الحروف لعدها لا كسردكم هذا.

(٦) هذه الجملة مستأنفة معترضة بين قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ وبين قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ لمّا كلفه بقيام الليل وكان شاقًا أعلمه بأنه هيّأه لما هو أشق من قيام الليل وهو حمل الرسالة وإبلاغها.

(٧) الجملة تعليلية للأمر بقيام الليل وترتيل القرآن كأنه قال له قم الليل لأن ناشئته التي تنشئها بعد النوم هي أشد مواطأة أي موافقة بين السمع والقلب لتفهم القرآن وأبين للقرآن عند النطق به.

(٧) وقوله: ﴿إِنَّ لَكَ[١] فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ يخبر تعالى رسوله بأن له في النهار أعمالاً تشغله عن قراءة القرآن فلذا أرشده إلى قيام الليل وترتيل القرآن لتفرغه من عمل النهار.

(٨) وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي داوم على ذكره ليلاً ونهارًا على أي وجه كان الذكر من تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل. وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله ﴿تَبْتِيلًا﴾ أي انقطع إليه في العبادة إخلاصًا له وفي طلب حوائجك، وفي كل ما يهمك من أمر دينك ودنياك.

(٩) وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي هو تعالى ربّ المشرق والمغرب أي مالك المشرقين والمغربين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا تنبغي العبادة إلا له ولا تصح الألوهية إلا له أيضًا. وقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي من كل ما يهمك فإنه يكفيك وهو على كل شيء قدير.

هداية الآيات:

١ ـ الندب إلى قيام الليل وأنه دأب الصالحين وطريق المتقربين.

٢ ـ الندب إلى ترتيل القرآن وترك العجلة في تلاوته.

٣ ـ صلاة الليل أفضل من صلاة النهار لتواطؤ السمع والقلب فيها على فهم القرآن.

٤ ـ الندب إلى ذكر الله تعالى بأي وجه من صلاة وتسبيح وطلب علم ودعاء وغير ذلك.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٠ ـ ١٩]

(١٠) ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: أي على ما يقوله لك كفار مكة من أذى كقولهم شاعر وساحر وكاذب. ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾: أي اتركهم تركًا جميلًا أي لا عتاب معه.

(١١) ﴿وَذَرْنِي﴾: أي اتركني. ﴿وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: أي صناديد قريش فإني أكفكهم. ﴿أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ﴾: أي أهل التنعم والترف. ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾: أي انتظرهم قليلًا من الزمن حتى يهلكوا ببدر.

(١٢) ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾: أي قيودًا وهي جمع نِكل وهو القيد من حديد.

(١٣) ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾: أي يغص في الحلق هو الزقوم والضريع.

(١٤) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾: أي تتزلزل. ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: أي رملًا مجتمعًا مهيلاً أي سائلاً بعد اجتماعه.

(١٦) ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾: أي ثقيلًا شديدًا غليظًا.

(١٧) ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾: أي عذاب يوم يجعل الولدان لشدة هوله شيبًا.

(١٨) ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾: أي ذات انفطار وانشقاق أي بسبب هول ذلك اليوم. ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾: أي وعده تعالى بمجيء ذلك اليوم كان مفعولاً أي كائنًا لا محالة.

(١٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾: أي إن هذه الآيات المخوفة تذكرة أي عظة للناس. ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾: أي طريقًا بالإيمان والطاعة إلى النجاة من النار ودخول الجنة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تربية الرسول ﷺ وأمه بأنواع التربية الربانية الخاصة.

(١٠) فقال تعالى لرسوله: ﴿وَٱصْبِرْ[٢] عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي كفار قريش من كلام يؤذونك به كقولهم هو ساحر وشاعر وكاهن ومجنون وما إلى ذلك، وقوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ يرشد تعالى رسوله إلى هجران كفار قريش وعدم التعرض لهم والهجر الجميل[٣] هو الذي لا عتاب معه.

(١١) وقوله: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي

---

(١) ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الجملة تعليلية لاختيار الليل للقيام دون النهار لأن في النهار أعمالاً أخرى يقوم بها المرء وجائز أن يراد أن في النهار متسع للصلاة وتلاوة القرآن.

(٢) لما أمره بالانقطاع إليه بالعبادة أمره بالصبر على ما يقوله خصومه من كفار قريش من طعن فيه وفي أتباعه وفيما جاء به أيضًا من الهدى والنور.

(٣) الهجر الجميل هو الذي يكتفى فيه بحقيقة الهجران وهي المقاطعة لا غير فليس هناك أذى معها، والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه، والجهر الجميل الذي لا عتاب معه، والصفح الجميل هو الذي لا مؤاخذة معه.

﴿ٱلنَّعۡمَةِ﴾ أي اتركني والمكذبين من صناديد[1] قريش أولي النعمة أي النعم والترف ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل فإني كافيكهم، ولم يمضِ إلا زمن يسير حتى هلكوا في بدر على أيدي المؤمنين.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾ أي عندنا للمكذبين بك في الآخرة أنكالاً قيودًا من حديد، وجحيمًا، أي نارًا مستعرة محرقة، وعذابًا أليمًا، أي موجعًا.

(١٣) ﴿وَطَعَامٗا﴾ هو الزقوم والضريع، ﴿ذَا غُصَّةٖ﴾، أي يغصّ في حلق آكله، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾، أي موجعًا وذلك يحصل لأهله وينالهم.

(١٤) ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾، أي تتحرك وتضطرب وكانت الجبال كثيبًا، أي من الرمل، مهيلاً، سائلاً بعد اجتماعه.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي يا أهل مكة وكل من ورائها من سائر الناس والجن ﴿رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ بما تعملون في الدنيا لتجزوا بها في الآخرة. وقوله: ﴿كَمَآ[2] أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ أي موسى بن عمران عليه السلام.

(١٦) ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ أي غليظًا شديدًا.

(١٧) وقوله تعالى مخاطبًا الكفار المكذبين: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا﴾ أي عذاب يوم ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ وذلك لهوله وللكرب الذي يقع وحسبه أن.

(١٨) ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ[3] بِهِۦ﴾ أي منشقة بسبب أهواله. وذلك يوم يقول الرب تعالى لآدم: يا آدم ابعث بعث النار، أي خذ من كل ألف من أهل الموقف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار ولم ينج من كل ألف إلا واحد هنا يشتد البلاء ويعظم الكرب. وقوله: ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ أي وعده تعالى بمجيء هذا اليوم كان مفعولاً، أي كائنًا لا محالة.

(١٩) وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾ أي إن هذه الآيات المشتملة على ذكر القيامة وأهوالها تذكرة وعظة وعبرة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فليتخذها وهي الإيمان والعمل الصالح بعد التخلي عن الشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

١ - وجوب الصبر على الطاعة وعن المعصية.

٢ - الهجر الجميل هو الذي لا عتاب فيه.

٣ - تقرير النبوة المحمدية.

٤ - تقرير البعث والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٠]

(٢٠) ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾: أي للتهجد. ﴿أَدۡنَىٰ﴾: أي أقل. ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾: أي وطائفة معك من أصحابك تقوم كذلك. ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: أي يحصيها ويعلم ما يمضي من ساعات كل منهما وما يبقى. ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾: أي الليل فلا تطيقون قيامه كله لأنه يشق عليكم. ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾: أي رجع بكم إلى التخفيف

الجزء التاسع والعشرون — سورة المزمل

﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾

ترتيبها ٧٤ — سورة المدثر — آياتها ٥٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾

٥٧٥

---

(١) قال مقاتل: نزلت في المطعمين يوم بدر وهم عشرة. قالت عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية لم يكن (يسير) حتى وقعت وقعة بدر.

(٢) الكلام مستأنف ابتدائي والمناسبة هي التخلص من الأمر بالصبر إلى ذكر وعيد القوم وذكر فرعون بالذات لأنه أهلكه غروره وتكبره كما هي حالة أكابر مجرمي مكة، فسوف يحل بهم ما حلّ بفرعون من الهلاك.

(٣) لم يقل منفطرة بالهاء لأن السماء يذكر ويؤنث أو هو كقولهم امرأة مرضع أي ذات إرضاع، والسماء ذات انفطار.

في قيام الليل إذ هو الأصل. ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ﴾: أي صلوا من الليل ما سهل عليكم ولو ركعتين. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي المفروضة. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي المفروضة. ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾: أي تصدّقوا بفضول أموالكم طيبة بها نفوسكم فذلك القرض الحسن. ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾: أي من نوافل العبادة من صلاة وصدقة وصيام وحج وغيرها.

معنى الآية:

يخبر تعالى رسوله بأنه يعلم ما يقومه من الليل هو وطائفة من أصحابه وأنهم يقومون أحيانًا أدنى من ثلثي الليل أي أقل ويقومون أحيانًا النصف والثلث، كما في أول السورة.

(٢٠) هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ[1] رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي يحصي ساعاتهما فيعلم ما مضى من الليل وما بقي من ساعاته، وقوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن[2] تُحۡصُوهُ﴾ أي لن تطيقوا ضبط ساعاته فيشق عليكم قيام أكثره تحريًا منكم لما هو المطلوب. ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ لذلك وبهذا نسخ قيام الليل الواجب وبقي المستحب يُؤدى ولو بركعتين في أي جزء من الليل وكونهما بعد صلاة العشاء أفضل، وقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ[3] مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، أي صلوا من الليل ما تيسر، أطلق لفظ القرآن وهو يريد الصلاة لأن القرآن هو الجزء المقصود من صلاة الليل، وقوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ فذكر فيه تعالى ثلاثة أعذار لهم وهي المرض، والضرب في الأرض للتجارة[4] والجهاد في سبيل الله وكلها يشق معها قيام الليل فرحمة بالمؤمنين نسخ الله تعالى هذا الحكم الشاق بقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾[5]، كرّره تأكيدًا لنسخ قيام الليل الذي كان واجبًا وأصبح بهذه الآية مندوبًا. وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي المفروضتين. وقوله: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾، أي أنفقوا في سبيل الله الذي هو الجهاد فإن الحسنة فيه بسبعمائة وما تقدموا لأنفسكم من نوافل الصلاة والصدقات والحج وسائر العبادات تجدوه عند الله يوم القيامة هو خيرًا وأعظم أجرًا. وقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ﴾ من كل ما يفرط منكم من تقصير في جنب الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ يغفر لمن تاب ويرحمه فلا يؤاخذه بذنب قد تاب منه.

هداية الآيات:

١ - بيان ما كان الرسول ﷺ وأصحابه يقومونه من اليل تهجدًا.

٢ - نسخ واجب قيام الليل وبقاء استحبابه وندبه[6].

٣ - وجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

٤ - الترغيب في التطوع من سائر العبادات.

٥ - وجوب الاستغفار عند الذنب وندبه واستحبابه في سائر الأوقات لما يحصل من التقصير.

❋ ❋ ❋

---

(١) هذا هو النصف الأخير من سورة المزمل الذي نزل بالمدينة أما النصف الأول فقد نزل بمكة.. افتتاح الكلام بهذه الجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ..﴾ إلخ.. مشعر بالثناء عليه لوفائه بحق القيام الذي أمر به في أول السورة.

(٢) هذه الجملة هي المقصودة من الكلام السابق لها إذ كان تمهيدًا لها.

(٣) أطلق القرآن وأراد الصلاة كقوله: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين**» فأطلق الصلاة وأراد القراءة وهنا أطلق القراءة وأراد الصلاة تجوزًا.

(٤) قال طاووس: الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله.

(٥) من هذه الآية أخذ مالك وأحمد والشافعي أن أقل ما يجزىء في الصلاة قراءة الفاتحة كاملة، ولا تصح صلاة بدونها للأحاديث الواردة في ذلك وهذا بالنسبة للإمام والمنفرد. وهذا عند القدرة على قراءتها وحفظها فإن عجز سبّح وركع أي قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

(٦) ورد في فضل قيام الليل أحاديث صحاح كثيرة منها قول عبدالله بن عمرو: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبدالله لا تكن كفلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل**»، وحديث عبدالله بن عمر وفيه: قال رسول الله ﷺ: «**نعم الرجل عبدالله لو كان يصلي من الليل**».

سورة المدثر
مكية
وآياتها ست وخمسون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٠]

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[1]: أي يا أيها المدثر أي المُتلفف في ثيابه وهو النبي ﷺ.

(٢) ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: أي خَوف أهل مكة النار إن لم يؤمنوا ويوحدوا.

(٣) ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: أي عظم ربك من إشراك المشركين.

(٤) ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: أي طهر ثيابك من النجاسات.

(٥) ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾: أي أدم هجرانك للأوثان.

(٦) ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾: أي لا تمنن على ربك ما تقوم به من أعمال لأجله طاعة له.

(٨) ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾: أي نفخ في الصور النفخة الثانية.

معنى الآيات:

(١) ـ (٣) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[2] أي المتلفف في ثيابه والمراد به النبي ﷺ روى الزهري[3] قال: فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة فحزن حزنًا فجعل يعدو شواهق رؤوس الجبال ليتردّى منها فكلما أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل عليه السلام فيقول إنك نبيّ الله فيسكن جأشه وتسكن نفسه، فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك فقال: «**بينما أنا أمشي يومًا إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسيّ بين السماء والأرض فجئثت منه رعبًا فرجعت إلى خديجة فقلت زملوني**» فزملناه، أي فدثرناه، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، قال الزهري: فأول شيء أُنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وعليه فهذا النداء الإلهي كان بعد فترة الوحي الأولى ناداه ملقبًا له بهذا اللقب الجميل تكريمًا وتلطفًا معه ليقوم بأعباء الدعوة وما أشد ثقلها، ومن يقدر عليها إنها أعباء ثقيلة اللهم لقد أعنت عليها رسولك فأعني على قدر ما أقوم به منها، وإن كان ما أقوم به منها لا يساوي جمرة من لظى لا قطرة من ماء السماء. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ في ثيابه يا محمد رسولنا ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ لم يبقَ لك مجال للنوم والراحة فأنذر قومك في مكة وكل الثقلين من وراء مكة أنذرهم عذاب النار المترتب على الكفر والشرك بالواحد القهار، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي وربّك فعظمه تعظيمًا يليق بجلاله وكماله فإنه الأكبر الذي لا أكبر منه والعظيم الذي لا أعظم منه فأعلن عن ذلك بلسانك قائلاً الله أكبر وبحالك فلا تذل إلا له ولا ترغب إلا فيه وكبره بأعمالك فلا تأت منها إلاّ ما أذن لك فيه أو أمرك به.

(٤) ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي طهر ثيابك من النجاسات مخالفًا بذلك ما عليه قومك؛ إذ يجرون ثيابهم ولا يتنزهون من أبوالهم.

(٥) ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي والأصنام التي يعبدها قومك فاهجرها فلا تقربها ودُم على هجرانها على دعوتك أجرًا.

(٦) ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ عطاء أعطيته لغيرك ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ به ما عندك إن ذاك مناف لأجمل الأخلاق وكريم السجايا وسامي الآداب.

(٧) ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ وحده دون سواه ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على كل ما تلقاه في سبيل إبلاغ رسالتك ونشر دعوتك دعوة الخير والكمال هذا الذي أدّب به الله رسول الله في فاتحة دعوته. ثم نزل بعد:

(٨) ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾، والناقور البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل والنقر يُحدث صوتًا والصوت هو صوت

---

(١) في هذا النداء ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله، وعبّر عنه بصفته، ولم يقل: يا محمد أو يا فلان ليستشعر اللين والعطف من ربه.

(٢) هذا يسمى بهدية الثواب وهي جائزة للأمة محرّمة عليه ﷺ بهذه الآية ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾.

(٣) روى أحمد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ**» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «**قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا**».

إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

٥٧٦

البوق والمراد به النفخة الثانية نفخة البعث والجزاء فإذا نقر في الناقور: ﴿٩﴾ ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ صعب شديد لا يحتمل ولا يطاق. ﴿١٠﴾ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[1] فذكر به من تدعوهم فإن التذكير به نافع إن شاء الله، ولذا كان من أعظم أركان العقيدة التي إن تمكنت من النفس تهيأ صاحبها لحمل كل ثقيل ولإنفاق كل غال ورخيص ولفراق الأهل والدار الإيمان بالله واليوم الآخر إذ هما محور العقيدة وعليهما مدار الإصلاح والهداية.

هداية الآيات:

١ - الجد طابع المسلم، فلا كسل ولا خمول ولا لهو ولا لعب ومن فارق هذه فليتهم نفسه في إسلامه.

٢ - وجوب تعظيم أسمائه وصفاته وتعظيم كلامه وكتابه، وتعظيم شعائره تعظيم ما عظم.

٣ - وجوب الطهارة للمؤمن بدنًا وثوبًا ومسجدًا. أكلًا وشربًا وفراشًا ونفسًا وروحًا.

٤ - حرمة العجب فلا يعجب المؤمن بعمله ولا يزكي به نفسه ولو صام الدهر، وأنفق الصخرة وجاهد الدهر.

٥ - وجوب الصبر على الطاعات فعلًا وعلى المعاصي تركًا وعلى البلاء تسليمًا ورضا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ - ٣٠]

﴿١١﴾ ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۞﴾: أي اتركني ومن خلقته وحيدًا منفردًا بلا مال ولا ولد فأنا أكفيكه.

﴿١٣﴾ ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۞﴾: أي يشهدون المحافل وتُسمع شهاداتهم وأغلب الوقت حاضرون ولا يغيبون.

﴿١٤﴾ ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۞﴾: أي بسطت له في العيش والعمر والولد والجاه حتى كان يلقب بريحانة قريش.

﴿١٦﴾ ﴿عَنِيدًا﴾: أي معاندًا وهو الوليد بن المغيرة المخزومي.

﴿١٧﴾ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۞﴾: أي سأكلفه يوم القيامة صعود جبل من نار كلما صعد فيه هوى في النار أبدًا.

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞﴾: أي فيما يقول في القرآن الذي سمعه من النبي ﷺ وقدّر في نفسه ذلك.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ ﴿ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞﴾: أي تروّى في ذلك ثم عبس أي قبض ما بين عينيه ثم بسر أي كلح وجهه.

﴿٢٣﴾ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۞﴾: أي عن الإيمان واستكبر عن اتباع الرسول ﷺ.

﴿٢٤﴾ ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾: أي ينقل من السحرة كمسيلمة وغيره.

﴿٢٦﴾ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۞﴾: سأدخله جهنم وسقر اسم لها يدخله فيها لإحراقه بنارها.

﴿٢٨﴾ ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۞﴾: أي لا تترك شيئًا من اللحم ولا العصب إلا أهلكته ثم يعود كما كان لإدامة العذاب.

﴿٢٩﴾ ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۞﴾: أي محرقة مسودة لظاهر جلد الإنسان وهو بشرته والجمع بشر.

﴿٣٠﴾ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۞﴾: أي ملكًا وهم خزنتها.

معنى الآيات:

لقد تحمّل رسول الله ﷺ عبء الدعوة وأمر بالصبر وشرع ﷺ في إنذار قومه وبدأت المعركة كأحرّ وأشد ما تكون إذ أعلم قومه وهم من

---

(١) في الآية دليل على أن حال المؤمنين في عرصات القيامة غير حال الكافرين في الشدة والبلاء.

هم أنه لا إله إلا الله وأنه هو رسول الله فتصدى له طاغية من أعظم الطغاة ساد الوادي مالاً وولدًا وجاهًا عريضًا حتى لقب بريحانة قريش هذا هو الوليد بن المغيرة صاحب عشرة رجال من صلبه وآلاف الدنانير من الذهب فلما أرهب رسول الله وأخافه.

(١١) قال له ربّه تبارك وتعالى: ﴿ذَرْنِي﴾ أي دعني والذي خلقته ﴿وَحِيدًا﴾[١] فريدًا بلا مال ولا ولد.

(١٢) ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ واسعًا تمده به الزراعة والتجارة فصلاً بعد فصل ويومًا بعد يوم.

(١٣) ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ لا يغيبون كما يغيب الذين يطلبون العيش كما أنهم لمكانتهم يستشهدون فيشهدون فهم شهود على غيرهم. ويشهدون المحافل وغيرها.

(١٤) ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾[٢] أي بسطت له في العيش والعمر والولد والجاه العريض في ديار قومه.

(١٥) ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي أن أزيده من المذكور في الآيات.

(١٦) ﴿كَلَّا﴾ أي لن أزيده بعد اليوم، وعلّل تعالى لمنعه الزيادة بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا﴾ «القرآنية» ﴿عَنِيدًا﴾ أي[٣] معاندًا يحاول إبطالها بعد رفضه لها.

(١٧) ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ أي سأكلفه عذابًا شاقًا لا قبل له به وذلك جبل[٤] من نار في جهنم يكلف صعوده كلما صعد سقط وذلك أبدًا. وعلل أيضًا لهذا العذاب الذي أعده له وأوعده به.

(١٨) فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ أي فيما يقول في القرآن لما طلبت منه قريش أن يقول فيه ما يراه من صلاح أو فساد. ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه.

(١٩) ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي لعن كيف قدر ذلك التقدير الذي هو قوله: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾.

(٢٠) ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ فلعنه الله لعنتين تلازمانه واحدة في الدنيا والأخرى في الآخرة.

(٢١) وقوله تعالى عنه: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي تروّى.

(٢٢) ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي قطب فقبض ما بين عينيه.

(٢٣) ﴿وَبَسَرَ﴾ أي كلح وجهه فاسودّ.

(٢٤) فقال اللعين نتيجة تفكير وتقدير ونظر ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي ما هذا القرآن إلا سحر ينقل عن السحرة في اليمن ونجد والحجاز.

(٢٥) ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أي ما هذا الذي يتلوه محمد ﷺ إلا قول البشر.

(٢٦) قال[٥] تعالى موعدًا إياه على قولته الكافرة الفاجرة: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي سأدخله نار سقر يصطلي بنارها.

(٢٧) ثم عظّم تعالى من شأن سقر فقال: ﴿وَمَا[٦] أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ أي أي شيء يدريك ما هي وما شأنها فإنها عظيمة.

(٢٨) ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تبقي لحمًا ولا تذر عصبًا بل تأتي على الكل.

(٢٩) ﴿لَوَّاحَةٌ[٧] لِّلْبَشَرِ﴾ أي تحرق الجلود وتسوّدها. والبشر جمع بشرة الجلد ومن ذلك سمي الآدميون بشرًا لأن بشرتهم مكشوفة ليست مستورة بوبر ولا صوف ولا شعر ولا ريش.

(٣٠) وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي على سقر ملائكة يقال لهم الخزنة عدتهم تسعة عشر ملكًا، لقد كان لنزول هذه الآية سبب معروف وهو أن قريشًا اتهمت الوليد بأنه صبأ أي مال إلى دين محمد

---

(١) عن ابن عباس: كان الوليد يقول: أنا الوحيد ابن الوحيد ليس في العرب نظير ولا لأبي المغيرة نظير.

(٢) قال القرطبي: التمهيد عند العرب التوطئة والتهيئة: ومنه مهد الصبي.

(٣) يقال: عند يعند كضرب يضرب أي خالف ورد الحق وهو يعرفه فهو عنيد وعاند.

(٤) رواه الترمذي وقال فيه غريب.

(٥) قال السدي: يعنون أنه من قول سيار عبد لبني الحضرمي كان يجالس النبي ﷺ فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك.

(٦) (ما) استفهامية أي: أي شيء يدريك ﴿مَا سَقَرُ﴾: ما استفهامية مبتدأ وسقر خبره.

(٧) البشر جمع بشرة ومعنى ﴿لواحة﴾ مغيرة للون البشر بالسواد يقال: لاحه الحر أو البرد أو المرض إذا غيّره. قال الشاعر:

تقول ما لاحك يا مسافر ... يا بنة عمي لاحني الهواجر

فسمع ذلك منهم فأنكر وحلف لهم فطلبوا إليه إن كان صادقًا أن يقول في القرآن كلمة يصرف بها العرب عن محمد وما يقوله ويدعو إليه فذهب إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي ويقرأ في صلاته فاستمع إليه ففكر وقدر كما أخبر تعالى عنه في هذه الآيات وقال قولته الفاجرة الكافرة: إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر، بعد أن وصف القرآن وصفًا دقيقًا بقوله: ووالله إن لقوله لحلاوة وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يُعلى أي عليه فقالوا والله لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه فقال: دعوني حتى أفكر، ففكر وقال ما تقدم فنزلت هذه الآيات ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

هداية الآيات:

١ - المال والبنون والجاه من عوامل الطغيان إلاّ أن يُسلّم الله عبده من فتنتها.

٢ - من أكفر الناس من يعاند في آيات الله يريد صرف الناس عنها وإبطال هدايتها.

٣ - بيان ما ظفر به طاغية قريش الوليد بن المغيرة من لعنة وعذاب شديد.

٤ - تقرير الوحي وإثبات النبوة المحمدية.

٥ - تقرير البعث والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ - ٣٧]

(٣١) ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾: أي خزنتها مالك وثمانية عشر معه. ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾: أي لم نجعلهم بشرًا ولا جنًا حتى لا يرحموهم بحكم الجنس. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾: أي كونهم تسعة عشر. ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي ليستخفوا بهم كما قال أبو الأشُدين الجُمحي فيزدادوا ضلالاً. ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: أي ليحصل اليقين لأهل التوراة والإنجيل بموافقة القرآن لكتابيهما التوراة والإنجيل. ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾: أي ولا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في حقيقة ذلك. ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: أي مرض النفاق. ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾: أي أي شيء أراد الله بهذا العدد الغريب استنكارًا منهم. ﴿كَذَلِكَ﴾: أي مثل إضلال منكر هذا العدد وهدى مصدقه يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء. ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾: أي وما النار إلا ذكرى للبشر يتذكرون بها.

(٣٣) ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾: أي ولى ومضى.

(٣٤) ﴿إِذَا أَسْفَرَ﴾: أي أضاء وظهر.

(٣٥) ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾: أي جهنم لإحدى البلايا العظام.

(٣٦) ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾: أي عذاب جهنم نذير لبني آدم.

(٣٧) ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾: أي أيها الناس. ﴿أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾: أي بالطاعة. ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾: أي بالمعصية.

معنى الآيات:

(٣١) قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه الآية نزلت ردًا على أبي الأشُدين كلدة الجمحي الذي قال لما سمع قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال لقريش ساخرًا مستهزئًا أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين، ومرة قال أنا أمشي بين أيديكم على الصراط فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر في النار ونمضي فندخل الجنة. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي لم نجعلهم بشرًا ولا جنًا حتى لا يرحموا أهل النار بخلاف لو كانوا بشرًا قد يرحمون بني جنسهم ولو كانوا جنًا فكذلك، ولذا جعلهم من الملائكة فلا تناسب بينهم وبين الإنس والجن والمراد بأصحاب النار خزنتها وهم مالك وثمانية عشر هؤلاء رؤوساء في جهنم أما من عداهم فلا تتسع لهم العبارة ولا حتى الرقم الحسابي وكيف وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾[1] أي كونهم تسعة عشر ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2] ليزدادوا ضلالاً وكفرًا وقد تم هذا فإن أبا جهل كأبي الأشدين قد فتنا بهذا العدد وازدادا ضلالاً

---

(١) تقدير الكلام: ما جعلنا ذكر عدتهم لِعلّةٍ وغرض إلا لغرض فتنة الذين كفروا.

(٢) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ﴿فِتْنَةً﴾ بمعنى ضلالة للذين كفروا يريد أبا جهل وذويه، وقيل: ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾.

الجزء التاسع والعشرون — سورة القيامة

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأٓخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

ترتيبها ٧٥ — سورة القيامة — آياتها ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

٥٧٧

وكفرًا بما قالا، وقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أخبرنا عن عددهم وأنه تسعة عشر ليستيقن[١] الذين أوتوا الكتاب[٢] لموافقة القرآن لما عندهم في كتابهم. ويزداد الذي آمنوا إيمانًا فوق إيمانهم عندما يرون أن التوراة موافقة للقرآن الكريم كشاهد له، وقوله: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي حتى لا يقعوا في ريب وشك في يوم من الأيام لما اكتسبوا من المناعة بتضافر الكتابين على حقيقة واحدة. وقوله: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي وما جعلنا عدتهم تسعة عشر إلا ليقول الذين في قلوبهم مرض وهو النفاق والشك والكافرون الكفر الظاهر من قريش وغيرهم ماذا أراد الله بهذا مثلاً أي أي شيء أراده الله بهذا الخبر الغريب غرابة الأمثال قالوا هذا استنكارًا وتكذيبًا. فهذه جملة علل ذكرها تعالى لإخباره عن زبانية جهنم ثم قال وقوله الحق: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي مثل إضلال منكر هذا العدد وهدى مصدقه يضل الله من يشاء إضلاله ويهدي من يشاء هدايته. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ[٣] رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا جواب أبي جهل القائل أما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر استخفافًا وتكذيبًا فأخبر تعالى أن له جنودًا لا يعلم عددها ولا قوتها إلا هو وقد ورد أن لأحدهم مثل قوة الثقلين يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرمي بهم في النار ويرمي الجبل عليهم، ولا عجب وأربعة ملائكة يحملون العرش الذي هو أكبر من السموات والأرضين فسبحان الخلاّق العليم سبحان الله العزيز الرحيم سبحان الله ذي الجبروت والملكوت. وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ﴾[٤]، أي جهنم، ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾، أي تذكرة يذكرون بها عظمة الله ويخافون بها عقابه.

﴿٣٢﴾ ـ ﴿٣٤﴾ وقوله: ﴿كَلَّا[٥] وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝﴾ أي كلا أي ليس القول كما يقول من زعم من المشركين أنه يكفي أصحابه المشركين خزنة جهنم حتى يجهضهم عنها. والقمر والليل إذا أدبر ولى ذاهبًا والصبح إذا أسفر أي أضاء وأقبل.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝﴾ أي أقسم تعالى بالقمر والليل إذا أدبر

---

(١) قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ علة ثانية لفعل ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ والاستيقان قوة اليقين والمراد من الاستيقان قوة اليقين.

(٢) ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم اليهود. فقد روى الترمذي بسنده إلى جابر بن عبدالله قال: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب رسول الله ﷺ: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟ قالوا: لا ندري حتى نسأل.

(٣) هذه الجملة كلمة جامعة لإبطال التخرصات التي يتخرصها المبطلون الضالون، وإضافة الرب إلى ضمير النبي ﷺ إضافة تشريف وفيها الإيماء بنصره ﷺ بتلك الجنود التي هم جنود ربه عز وجل.

(٤) جائز أن يكون الضمير ﴿وَمَا هِىَ﴾ عائد إلى عدة الملائكة التسعة عشر، وجائز أن يكون عائدًا إلى الآيات القرآنية أو إلى سقر أو إلى جنود ربك وهذا من الإعجاز القرآني وأن الكلمة الواحدة تدل على ما لا يدل عليه عشرات الكلمات.

(٥) حرف ردع وإبطال والغالب أنها تقع بعد كلام من متكلم واحد ومتكلم وسامع فتفيد الردع عما تضمنه الكلام السابق. ذهب ابن جرير إلى أنها هنا للردع وإبطال ما زعمه المشركون من القدرة على الزبانية كما في التفسير. وعليه فالوقف عليه مستحسن ومنهم من جعلها افتتاح كلام نحو ألا، وعليه فالوقف لا يحسن عليها بل على القمر.

والصبح إذا أسفر على أن جهنم[1] لإحدى الكبر أي البلايا العظام.

(٣٦) ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ أي بني آدم، وقال نذيرًا ولم يقل نذيرة وهي جهنم لأنها بمعنى العذاب أي عذابها نذير للبشر.

(٣٧) وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ في طاعة الله ورسوله حتى يبلغ الدرجات العلا، ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ في معصية الله ورسوله حتى ينزل الدركات السفلى.

هداية الآيات:

١ - بيان الحكمة من جعل عدد الزبانية تسعة عشر والإخبار عنهم بذلك.

٢ - موافقة التوراة والإنجيل للقرآن من شأنها أن تزيد إيمان المؤمنين من الفريقين.

٣ - في النار من الزبانية ما لا يعلم عددهم إلا الله تعالى خالقهم.

٤ - جهنم نذير للبشر أي عذابها نذير للبشر لمن شاء أن يتقدم بالطاعة أو يتأخر بالمعصية.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٨ ـ ٥٦]

(٣٨) ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: أي مأمورة منهية. ﴿رَهِينَةٌ﴾: أي مرهونة مأخوذة بعملها في جهنم.

(٣٩) ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾: أي المؤمنين فهم ناجون من النار وهم في جنات النعيم يتساءلون عن المجرمين.

(٤٤) ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾: أي بخلاً بما آتاهم الله.

(٤٥) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾: أي في الباطل وفيما يكره الله تعالى مع الخائضين.

(٤٦) ﴿نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: بيوم المجازاة والثواب ولا نصدق بثواب ولا عقاب.

(٤٧) ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾: أي الموت.

(٤٩) ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾: أي الموعظة منصرفين لا يسمعونها ولا يقبلون عليها.

(٥٠) ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾: أي كأنهم حمر وحشية مستنفرة.

(٥١) ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾: أي هربت من أسدٍ أشدَّ الهرب.

(٥٢) ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾: أي ليس هناك قصور في الأدلة والحجج التي قدمت لهم بل يريد كل واحد منهم. ﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾: أي يصبح وعند رأسه كتاب من الله رب العالمين إلى فلان آمن بنبينا محمد واتبعه.

(٥٤) ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾: أي عظة وعبرة.

(٥٥) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾: أي قرأه واتعظ به.

(٥٦) ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: أي هو أهل لأن يتقي لعظمة سلطانه وأليم عقابه. ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾: أي وأهل لأن يغفر للتائبين من عباده والموحدين.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء.

(٣٨) فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿رَهِينَةٌ﴾ بمعنى مرهونة محبوسة أي كل نفس مأمورة منهية بمعنى مكلفة بخلاف نفوس غير المكلفين من أطفال ومجانين.

(٣٩) ـ (٤١) وقوله: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ فإنهم قد فك رهنهم وهم في جنات النعيم يتساءلون فيما بينهم عن أصحاب الجحيم وكيف حالهم ثم يتصلون بهم وهم في جنات النعيم والمجرمون في سواء الجحيم، ويتم الاتصال برؤية الشخص وسماع كلامه، وفي الصناعات الحديثة اليوم ما جعل هذا أمرًا معقولاً.

(٤٢) فيقولون لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ أي أدخلكم في سقر.

(٤٤) ـ (٤٧) فأجابوهم قائلين: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾. فذكروا لهم أعظم الجرائم وهي ترك الصلاة ومنع الزكاة والتخوض مع أهل الباطل في كل شر وفساد والتكذيب بيوم القيامة وأنه لا حساب ولا جزاء، أي لا ثواب ولا عقاب، وأنهم مع هذه الجرائم الموجبة للسلوك في سقر لم يتوبوا منها حتى أتاهم اليقين الذي هو الموت فإن من مات دخل الدار الآخرة من عتبتها وهي القبر فلذا قالوا حتى أتانا اليقين أي الموت. وقد يقال ألم يكن هناك شفعاء من الملائكة والأنبياء والعلماء والشهداء يشفعون؟

---

(١) القول بأنها سقر أقرب من جهنم لتقدم ذكر سقر بلفظها والأمر واسع.

(٤٨) والجواب هو في قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي لم تكن لهم شفاعة لأنهم ملاحدة مجرمون.

(٤٩) وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي فما لهؤلاء المشركين المكذبين بالبعث والجزاء عن التذكرة التي يذكرون بها في آيات هذه السورة وغيرها معرضين، إنه أمر عجيب، أي شيء يجعلهم يعرضون عنها هاربين منها فارين.

(٥٠) ـ (٥١) ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ وحشية ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي فرت هاربة أشد الهرب من أسد من أسود الصحراء الطاغية إن فرارهم من هذه الدعوة وإعراضهم عنها ليس عن قصور في أدلتها وضعف في حجتها.

(٥٢) بل يريد كل واحد منهم أن يؤتى كتابًا من الله يأمره فيه بالإيمان و اتباع محمد ﷺ وهذا هو العناد والمكابرة وصاحبهما غير مستعد للإيمان بحال من الأحوال. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ[1] تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُ﴾ هذا معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾.

(٥٣) وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي ليس الأمر كما يقولون ويدّعون بل إن علة إعراضهم الحقيقية هي عدم خوفهم من عذاب الله يوم القيامة.

(٥٤) ـ (٥٥) وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ أي ألا إن هذا القرآن تذكرة ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي قرأه فاتعظ به فآمن بالله واتقاه فإنه ينجو ويسعد في جوار مولاه ومن لم يشأ ذلك فحسبه سقر وما أدراك ما سقر.

(٥٦) وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ[2] إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي ما يذكر من يذكر إلا بمشيئة الله فلا بد من الافتقار إلى الله وطلب توفيقه في ذلك إذ لا استقلال لأحد عن الله ولا غنى بأحد عن الله بل الكل مفتقر إليه ومشيئته تابعة لمشيئته وقوله: ﴿هُوَ[3] أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ لقد[4] صح أن النبي ﷺ فسّر هذه الآية فقال: قال ربكم: أنا أهل أن أُتقى فلا يُجعل معي إله فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا فأنا أهلٌ أن أغفر له.

هداية الآيات:

١ ـ فكاك كل نفس مرهونة بكسبها هو الإيمان والتقوى.

٢ ـ بيان أكبر الجرائم وهي ترك الصلاة ومنع الزكاة والخوض في الباطل وعدم التصديق بالحساب والجزاء.

٣ ـ لا شفاعة يوم القيامة لمن مات وهو يشرك بالله شيئًا.

٤ ـ مرد الانحراف في الإنسان إلى ضعف إيمانه بالبعث والجزاء.

٥ ـ الله جلّ جلاله هو ذو الأهلية الحقة لأمرين عظيمين التقوى فلا يتقى على الحقيقة إلا هو والمغفرة فلا يغفر الذنوب إلا هو. اللهم اغفر ذنوبنا فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

❋ ❋ ❋

سورة القيامة
مكية
وآياتها أربعون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٥]

(١) ﴿لَآ﴾: أي ليس الأمر كما يدّعي المشركون من أنه لا بعث ولا جزاء. ﴿أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي الذي كذب به المكذبون.

(٢) ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾: أي لتُبعثن ولتحاسبن ولتعاقبن أيها المكذبون الضالون. ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾: أي التي إن أحسنت لامت عن عدم الزيادة وإن أساءت لامت عن التقصير.

(٣) ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أي الكافر الملحد. ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾: أي ألاّ نجمع عظامه لنحييه للبعث والجزاء.

---

(١) الآية من سورة الإسراء وهي ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُ﴾ إذ روي أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان ونؤمر فيه باتباعك.

(٢) قرأ نافع ﴿**وما تذكرون**﴾ بالتاء على الالتفات، وقرأ حفص ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بالياء على الغيبة.

(٣) تعريف جزيء الجملة مفيد للقصر أي الله وحده المتأهل للتقوى والمغفرة لا سواه.

(٤) الحديث رواه الترمذي وقال فيه حسن غريب ونصه: «**قال الله تعالى: أنا أهل أن أتقى فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهًا فأنا أهل أن أغفر له**».

(٤) ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ﴾: أي بلى نجمعها حال كوننا قادرين مع جمعها على تسوية بنانه. ﴿عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾: أي نجعل أصابعه كخف البعير أو حافر الفرس فلا يقدر على العمل الذي يقدر عليه الآن مع تفرقة أصابعه. كما نحن قادرون على جمع تلك العظام الدقيقة عظام البنان وردّها كما كانت كما نحن قادرون على تسوية تلك الخطوط الدقيقة في الأصابع والتي تختلف بين إنسان وإنسان اختلاف الوجوه والأصوات واللهجات.

(٥) ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ﴾: أي بإنكاره البعث والجزاء. ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾: أي ليواصل فجوره زمانه كله ولذلك أنكر البعث.

(٦) ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾: أي يسأل سؤال استنكار واستهزاء واستخفاف.

(٧) ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾: أي دهش وتحير لمّا رأى ما كان به يكذب.

(٨) ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾: أي أظلم بذهاب ضوئه.

(٩) ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾: أي ذهب ضوءهما وذلك في بداية الانقلاب الكوني الذي تنتهي فيه هذه الحياة.

(١٠) ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾: أي إلى أين الفرار.

(١١) ﴿كَلَّا﴾: ردع له عن طلب الفرار. ﴿لَا وَزَرَ﴾: أي لا ملجأ يتحصن به.

(١٤) ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾: أي هو شاهد على نفسه حيث تنطق جوارحه بعمله.

(١٥) ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾: أي فلا بد من جزائه ولو ألقى معاذيره.

معنى الآيات:

(١) ـ (٢) قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1] أي ما الأمر كما تقولون أيها المنكرون للبعث والجزاء أقسم بيوم القيامة الذي تنكرون وبالنفس اللوامة التي ستحاسب وتجري لا محالة لتبعثن[2] ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير.

(٣) وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أي بعد موته وفنائه وتفرق أجزائه في الأرض، والمراد من الإنسان هنا الكافر الملحد قطعًا.

(٤) ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ[3] أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أي بلى نجمعها حال كوننا قادرين على ذلك وعلى ما هو أعظم وهو تسوية بنانه أي أصابعه بأن نجعلها كخف البعير أو حوافر الحمير، فيصبح يتناول الطعام بفمه كالكلب والبغل والحمار.

(٥) وقوله: ﴿بَلْ[4] يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ[5] أَمَامَهُ﴾ أي ما يجهل الإنسان قدرة خالقه على إعادة خلقه ولكنه يريد أن يواصل فجوره مستقبله كله فلا يتوب من ذنوبه ولا يؤوب من معاصيه لأن شهواته مستحكمة فيه.

(٦) وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾؟ يخبر تعالى عن المنكر للبعث من أجل مواصلة الفجور من زنا وشرب خمور بأنه يقول أيّان يوم القيامة استبعادًا واستنكارًا وتسويفًا للتوبة فبيّن تعالى له وقت مجيئه.

---

(١) في (لا) هنا توجيهان، الأول: ما آثره ابن جرير وهو ما اخترناه في التفسير، وأنها نافية لدعوى سابقة إبطالاً لها والكلام بعدها مستأنف. والثاني: أنها ـ أي (لا) ـ حرف نفي أدخل على ﴿أُقْسِمُ﴾ لقصد المبالغة في تحقيق حرمة المقسم به بحيث يوهم السامع أن المتكلم يهم أن يقسم ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول: لا أقسم به ولا أقسم بأعز منه عندي، والمراد تأكيد القسم، ووجه ثالث: وهي أنها مزيدة لتقوية الكلام.

(٢) ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ هو جواب القسم.

(٣) ﴿بَلَىٰ﴾ حرف إبطال للنفي أي بل نجمعها أي العظام المتفرقة حال كوننا قادرين على ذلك وعلى ما هو أعظم وهو تسوية بنانه.

(٤) (بل) هنا للإضراب الانتقالي من تقريره حقيقة إلى أخرى أعجب وأغرب وهي الكشف عن سر إنكار الملاحدة للبعث وهو مواصلتهم الفجور عن كل خلق ودين ومروءة وأدب لانهزامهم لشهواتهم البهيمية.

(٥) اللام في ﴿ليفجر﴾ هي اللام التي يكثر وقوعها بعد مادتي الأمر والإرادة نحو: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ و﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وقول كثير:

أريد لأنسى حبها فكأنما — تمثل لي ليلى بكل مكان

وينصب الفعل بعدها بأن مضمرة وهل هي للتعليل أو زائدة؟ خلاف.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

سورة الإنسان — ترتيبها ٧٦ — آياتها ٣١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

٥٧٨

(٧) بقوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ [(١)] أي عند الموت بأن تحير واندهش.

(٨) ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي أظلم وذهب ضوءه.

(٩) ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوءهما وذلك في بداية الانقلاب الكوني الذي تنتهي فيه هذه الحياة.

(١٠) ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟ أي إلى أين الفرار يا ترى؟

(١١) ـ (١٢) قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي لا فرار اليوم من قبضة الجبار أيها الإنسان الكافر ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي لا حصن ولا ملتجأ وإنما ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ اليوم ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي الانتهاء والاستقرار إما إلى جنة وإما إلى نار.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي يوم تقوم الساعة يخبّر الإنسان من قبل ربّه تعالى بما قدم من أعماله في حياته الخير والشر سواء وبما أخر بعد موته من سنة حسنة سنّها أو سيئة كذلك.

(١٤) ـ (١٥) وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي عندما يتقدم الإنسان للاستنطاق فيخبر بما قدم وأخر هناك يحاول أن يتنصل من بعض ذنوبه فتنطق جوارحه ويختم على لسانه فيتخذ من جوارحه شهود عليه فتلك البصيرة[(٢)] ولو ألقى معاذيره[(٣)] واعتذر ولا يقبل منه ذلك لكونه شاهدًا على نفسه بجوارحه.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ ـ بيان إفضال الله على العبد في خلقه وتركيب أعضائه.

٣ ـ معجزة قرآنية أثبتها العلم الصناعي الحديث وهي عدم تسوية خطوط الأصابع.

٤ ـ فكما خالف تعالى بين الإنسان والإنسان وبين صوت وصوت فرّق بين خطوط الأصابع فلذا استُعملت في الإمضاءات وقُبلت في الشهادات.

٥ ـ تقرير مبدأ أن المؤمن يُثاب على ما أخّر من سنة حسنة يُعمل بها بعده كما يأثم بترك السنة السيئة يُعمل بها كذلك بعده.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ ـ ٢٥]

(١٦) ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾: أي لا تحرك بالقرآن لسانك قبل فراغ جبريل منه. ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾: أي مخافة أن يتفلت منك.

(١٧) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾: أي في صدرك. ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾: أي قراءتك له بحيث نُجريه على لسانك.

(١٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾: أي قرأه جبريل عليك. ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾: أي استمع قراءته.

(١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾: أي لك بتفهيمك ما يشكل عليك من معانيه.

(٢٠) ﴿كَلَّا﴾: أي ليس الأمر كما

---

(١) قرأ نافع ﴿برق البصر﴾ بفتح الراء ومعناه: لمع من شدة شخوصه فهو لا يطرف، وقرأ حفص ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء ومعناه: دهش وتحير. وهذا عند موت الإنسان.

(٢) البصيرة: جائز أن يراد بها الملكان بقرينة ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي لو أرخى ستوره إذ الستر بلغة اليمن المعذار وجائز أن يكون المراد بها الإنسان نفسه أي حجة على نفسه وما في التفسير أولى بمعناها.

(٣) المعاذير: اسم جمع معذرة وليس جمعًا، لأن معذرة حقه أن يجمع على معاذر كمقبرة ومقابر، والمراد من معاذر الإنسان: ما يعتذر به كقولهم: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وقولهم: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ وقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

تزعمون أنه لا بعث ولا جزاء. ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾: أي الدنيا فيعملون لها.

(٢١) ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾: أم ويتركون الآخرة فلا يعملون لها.

(٢٢) ﴿نَاضِرَةٌ﴾: أي حسنة مضيئة.

(٢٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: أي إلى الله تعالى ربها ناظرة بحيث لا تحجب عنه تعالى.

(٢٤) ﴿بَاسِرَةٌ﴾: أي كالحة مسودة عابسة.

(٢٥) ﴿تَظُنُّ﴾: أي توقن. ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾: أي داهية عظيمة تكسر فقار الظهر.

معنى الآيات:

لما ندد تعالى بالمعرضين عن القرآن المكذبين به وبالبعث والجزاء ذكر في هذه الآيات المقبلين على القرآن المسارعين إلى تلقيه فكانت المناسبة بين هذه الآيات وسابقاتها المقابلة بالتضاد.

(١٦) فقال تعالى مؤدبًا رسوله محمدًا ﷺ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ﴾[(١)] أي بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ قبل فراغ جبريل من قراءته عليك. إذ كان ﷺ حريصًا على القرآن يخاف أن يتفلّت منه شيء فأكرمه ربّه بالتخفيف عليه وطمأنه أن لا يفقد منه شيئًا فقال له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ مخافة أن يتفلت منك.

(١٧) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ أي في صدرك.

(١٨) ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ على لسانك حيث نسهل ذلك ونجريه على لسانك، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي قرأه جبريل عليك ﴿فَاتَّبِعْ﴾ له ثم اقرأه كما قرأه واعمل بشرائعه وأحكامه.

(١٩) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[(٢)] أي إنا نبيّن لك ما يشكل عليك من معانيه حتى تعمل بكل ما طلب منك أن تعمل به.

(٢٠) ـ (٢١) وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ عاد السياق الكريم إلى تقرير عقيدة البعث والجزاء والتي عليها وعلى الإيمان بالله مدار الإصلاح والتهذيب فقال: ﴿كَلَّا﴾[(٣)] أي ليس كما تدعون من عدم إمكان البعث والجزاء لأنكم تعلمون أن القادر على إيجادكم اليوم وإعدامكم غدًا قادر على إيجادكم مرة أخرى، ولكن الذي جعلكم تكذبون بالبعث والجزاء هو حبكم للحياة للعاجلة أي للدنيا وما فيها من لذات وشهوات، وترككم للآخرة أي للحياة الآخرة لأنها تكلفكم الصلاة والصيام والجهاد، والتخلي عن كثير من اللذات والشهوات. بعد أن كشف عن نفسيات المكذبين توبيخًا لهم وتقريعًا عرض على أنظارهم منظرًا حيًا وصورة ناطقة لما يتجاهلونه من شأن الآخرة.

(٢٢) فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تقوم القيامة ﴿نَاضِرَةٌ﴾ أي حسنة[(٤)] مضيئة مشرقة لأن أرواح أصحابها كانت في الدنيا مشرقة بنور الإيمان وصالح الأعمال.

(٢٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾[(٥)] ﴿نَاظِرَةٌ﴾ سعيدة بلقاء ربها مكرمة بالنظر إليه وهي في جواره.

(٢٤) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي كالحة مسودة عابسة وذلك لأن أرواح أصحابها كانت في الدنيا تعيش على ظلمة الكفر وعفن الذنوب ودخان المعاصي فانطبعت النفس على الوجه فهي باسرة حالكة عابسة.

---

(١) روى الترمذي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه يريد أن يحفظه فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ فكان يحرك شفتيه، وحرك سفيان شفتيه. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أي تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام وكيفيات العبادات وجائز أن يبين له الوعد والوعيد بتحقيقهما.

(٣) ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع إبطال وفي التفسير بيان ما أبطل بها.

(٤) وشاهد هذا الحديث: «**نضّر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها**».

(٥) نفى المعتزلة والخوارج وعامة الفرق الضالة نفوا رؤية الله تعالى في الدار الآخرة وردوا بذلك الكتاب والسنة فهذه الآية صريحة في جواز النظر إلى وجه الله تعالى وآية المطففين: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فغيرهم من أهل الإيمان وصالح الأعمال غير محجوبين، ومن السنة حديث البخاري وغيره «**إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**». (متفق عليه) وأحاديث أخرى ويكفي إجماع أهل السنة والجماعة.

(٢٥) ﴿تَظُنُّ﴾ أي توقن أي الوجوه والمراد أصحابها ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[1] أي داهية عظيمة تكسر فقار الظهر منها وهي إلقاؤه ﴿فِي سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝﴾، فاذكروا هذا يا بشر!!

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٦ ـ ٤٠]

(٢٦) ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾: أي النفس. ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: جمع ترقوة أي عظام الحلق.

(٢٧) ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝﴾: أي وقال من حوله من عواده أو ممرضيه هل هناك من يرقيه ليشفى؟.

(٢٨) ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝﴾: أي أيقن أنه الفراق للدنيا لبلوغ الروح الحلقوم.

(٢٩) ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝﴾: أي التفت إحدى ساقيه بالأخرى أو التفت شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة وما فيها من أهوال.

(٣٠) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝﴾: أي إذا بلغت الروح الحلقوم تساق إلى ربها وخالقها لتلقى جزاءها.

(٣١) ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝﴾: أي الإنسان الذي يحسب أن لن يجمع الله عظامه ما صدق ولا صلى.

(٣٢) ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾: أي بالقرآن. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أي عن الإيمان.

(٣٣) ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾: أي يتبختر في مشيته إعجابًا بنفسه.

(٣٤) ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾: أي وليك المكروه أيها المعجب بنفسه المكذب بلقاء ربه. ﴿فَأَوْلَىٰ﴾: أي فهو أولى بك.

(٣٥) ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝﴾: أي وليك المكروه مرة ثانية فأولى فهو أولى بك أيضًا.

(٣٦) ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾: أي مهملاً لا يكلف في الدنيا ولا يحاسب ويجزى في الآخرة.

(٣٧) ﴿يُمْنَىٰ﴾: أي تصب في الرحم.

(٣٨) ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾: أي خلق الله منها الإنسان فسوّاه بتعديل أعضائه.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء.

(٢٦) ـ (٣٣) فقوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أي ليس الأمر كما تحسب أيها الإنسان أن الله لا يجمع عظامك ولا يحييك ولا يجزيك انظر إليك وأنت على فراش الموت إلى أين يكون مساقك إذا بلغت روحك التراقي[2] من عظام حلقك وقال عوادك وممرضوك هل من راق يرقيك أو طبيب يداويك وأيقنت أنه الفراق لدنياك وأهلك وذويك، والتفت ساقك اليمنى باليسرى[3] وشدة فراقك الدنيا بشدة إقبالك على الآخرة هنا انظر إلى أين يذهب بك أما جسمك فإلى مقره في الأرض تواريك، وأما روحك فإلى ربك ليحكم فيك. وقد كذبت بآياته وكفرت بآلائه. فلا صدقت ولا صليت، ولكن كذبت وتوليت كان هذا نصيبك من دينك، وأما دنياك، فقد كنت تتمطى استكبارًا وتتبختر إعجابًا.

(٣٤) إذًا ﴿أَوْلَىٰ[4] لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي وليك الهلاك في الدنيا.

(٣٥) ـ (٤٠) ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝﴾ أي وليك العذاب في الأخرى وعودة إلى تقريعك وتوبيخك يا من كفرت ربك وتنكرت لأصلك اسمع ما يُقال لك أحسبت أنك تترك سدى، تعيش سبهللاً، لا تؤمر ولا تنهى، لا يؤخذ منك ولا تُعطي، كلا ألم تك قبل كفرك وجحودك نطفة قطرة ماء من منيّ تمنى قل بلى أو أولى لك فأولى، ثم كنت علقة فخلقك الله جلّ جلاله منها فسوّى خلقك بتعديل أعضائك فجعل من نوعك الذكر والأنثى. قل لي بربك هل

---

(١) الفقرة بكسر الفاء وتفتح والجمع فقر وفقار وفقر وفقرات وفقرات خرزات الظهر.

(٢) التراقي: جمع ترقوة وهي العظام المكتفة لنقرة النحر موضع الحشرجة قال دريد بن الصمة:

ورب عظيمة دافعت عنهم ... وقد بلغت نفوسهم التراقي

(٣) أي التفّت شدة فراقك الدنيا بشدة إقبالك على الآخرة هذا أحد وجهين في تفسير الآية وفي التفسير كلا الوجهين إلا أن في هذا خفاء فأوضحته هنا.

(٤) ما هناك حاجة إلى أن يقال هذا في أبي جهل إذ هو خطاب لكل إنسان كافر مشرك ضال وسواء كان قد مضى أم هو حاضر اليوم أو يأتي غدًا إذ لفظ الإنسان في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لفظ عام.

تنكر ذلك فإن قلت لا. قلنا أليس الله بقادر على أن يحيي الموتى؟ سبحانك اللهم بلى[1].

هداية الآيات:

١ - مشروعية الرقية إذا كانت بالقرآن أو الكلم الطيب.

٢ - التنويه بشأن الزكاة والصلاة فرائض ونوافل.

٣ - تحريم العجب والكبرياء والتبختر في المشي.

٤ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٥ - الإنسان لم يُخلق عبثًا والكون كله كذلك.

٦ - مشروعية قول سبحانك اللهم بلى لمن قرأ هذه الآية أو سمعها إمامًا كان أو مأمومًا وهي ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

❀ ❀ ❀

سورة الإنسان
مدنية
وآياتها إحدى وثلاثون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٢]

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾: أي قد أتى. ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾: أي آدم عليه السلام. ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾: أي أربعون سنة. ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾: أي لا نباهة ولا رفعة له لأنه طين لازب وحمأ مسنون وذلك قبل أن ينفخ الله تعالى فيه الروح.

(٢) ﴿أَمْشَاجٍ﴾: أي أخلاط من ماء المرأة وماء الرجل. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: أي نختبره بالتكاليف بالأمر والنهي عند تأهله لذلك بالبلوغ والعقل.

(٣) ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾: أي بينا له طريق الهدى ببعثة الرسل وإنزال الكتب.

(٤) ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾: أي هيأنا. ﴿سَلَٰسِلَا۟﴾: أي يُسحبون بها في نار جهنم. ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾: أي في أعناقهم. ﴿وَسَعِيرًا﴾: أي نارًا مسعرة مهيجة.

(٥) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾: أي المطيعين لله ورسوله الصادقين في إيمانهم وأقوالهم وأحوالهم. ﴿مِزَاجُهَا﴾: أي ما تمزج به وتخلط.

(٦) ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾: أي يجرونها ويُسيلونها حيث شاءوا.

(٧) ﴿شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾: أي ممتدًا طويلاً فاشيًا منتشرًا.

(١٠) ﴿عَبُوسًا﴾: أي تكلح الوجوه من طوله وشدته.

(١١) ﴿نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾: أي حسنا ووضاءة في وجوههم وفرحًا في قلوبهم.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ[2] عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ يخبر تعالى عن آدم أبي البشر عليه السلام أنه أتى عليه حين من الدهر قد يكون أربعين سنة وهو صورة من طين لا روح فيها، فلم يكن في ذلك الوقت شيئًا له نباهة أو رفعة فيُذكر. هذا الإنسان الأول آدم أخبر تعالى عن بدء أمره.

(٢) وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ يخبر تعالى عن الإنسان الذي هو ابن آدم أنه خلقه من نطفة[3] وهي ما ينطف ويقطر من ماء الرجل وماء المرأة، ومعنى أمشاج[4] أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة فهذا مبدأ خلق الإنسان ابن آدم. وقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾[5] أي نختبره بالتكاليف بالأمر والنهي وذلك عند تأهله لذلك بالبلوغ والعقل ولذلك جعله سميعًا بصيرًا إذ بوجود السمع والبصر معًا أو بأحدهما يتم التكليف فإن انعدما فلا تكليف لعدم القدرة عليه.

(٣) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ

---

(١) لقد استمالني الأسلوب الأدبي فأخذت أخاطب الإنسان الهالك مقرعًا موبخًا بما تضمنته الآيات. والمقصود فهم مدلولها للاتعاظ والاهتداء بهديها، فإن لم يك هذا مرضيًا عندك فاعف عني واغفر لي. آمين.

(٢) الاستفهام تقريري بمعنى قد أتى على الإنسان كذا. وجائز أن يكون المراد من الإنسان غير آدم وكونه آدم هو المراد من الآية الأولى.

(٣) ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي من ماء يقطر وهو المني وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة كقول عبدالله بن رواحة:

مـا لـي أراك تـكـرهـيـن الـجـنـة ، هـل أنـت إلا نـطـفـة فـي شـنـة

(٤) يقال: مشج الشيء يمشجه أي خلطه فهو ممشوج ومشيج مثل مخلوط وخليط وهل أمشاج جمع مَشَج على وزن سبب وأسباب أو هو مفرد؟ خلاف.

(٥) الجملة حالية من الإنسان.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

٥٧٩

﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بيّنا له طريق الهدى ببعثة الرسل وإنزال الكتب واستبان له بذلك أيضًا طريق الغيّ والردى إذ هما النجدان إن عرف أحدهما عرف الثاني وهو في ذلك إما[1] أن يسلك سبيل الهدى فيكون شكورًا، وإما أن يسلك سبيل الغي والردى فيكون كفورًا، والشكور المؤمن الصادق في إيمانه المطيع لربه، والكفور المكذب بآيات الله ولقائه.

﴿٤﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ[2] أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ الآيات شروع في بيان ما أعد لكل من سالكي سبيل الرشد وسالكي سبيل الغي فقال بادئًا بما أعد لسالكي سبيل الغي موجزًا في بيان ما أعد لهم من عذاب بخلاف ما أعد لسالكي سبيل الرشد فإنه نعيم تفصيله محبوب والإطناب في بيانه مرغوب. فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا﴾ يسحبون بها في النار، وأغلالاً تغل بها أيديهم في أعناقهم وسعيرًا متأججًا وجحيمًا مستعرًا. هذا موجز ما أعد لسالكي سبيل الغي أما سالكي سبيل الرشد فقد بينه.

﴿٥﴾ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾[3] أي المؤمنين المطيعين في صدق لله والرسول ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ ملأى شرابًا مزاجها كافورًا ومزجت بالكافور لبرودته وبياض لونه وطيب رائحته.

﴿٦﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا[4] عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ لعذوبة مائها وصفائه أصبحت كأنها أداة يشرب بها ولذا قال يشرب بها ولم يقل يشرب منها وقوله ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرونها ويسيلونها حيث شاءوا من غرفهم وقصورهم ومجالس سعاداتهم.

﴿٧﴾ وقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ قطع الحديث عن نعيمهم ليذكر بعض فضائلهم ترغيبًا في فعلهم ونعيمهم، ثم يعود إلى عرض النعيم فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾[5] أي كانوا في دار الدنيا يوفون بالنذر وهو ما يلتزمونه من طاعات لربهم كالصلاة والصيام والحج والصدقات تقربًا إلى ربهم وتزلفًا إليه ليحرزوا رضاه عنهم وتلك غاية مناهم. وقوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[6] أي وكانوا في حياتهم

---

(١) ﴿إِمَّا﴾ حرف تفصيل وهو بسيط عند الجمهور وقال سيبويه: هو مركب حرف إن الشرطية وما النافية، ولما تجردت إن من الشرطية وما من النفي أصبحت إما حرف تفصيل بسيط في الواقع وليس مركبًا.

(٢) الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا لأنها واقعة موقع جواب للسؤال عن حال كل من الشاكر والكفور فكان الكلام بيانًا لحال كل منهما.

(٣) ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع بر وبار، وهو المكثر من فعل البر الذي هو الخير ولذا كان البر من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ويجمع البر على بررة.

(٤) جائز أن تكون الباء في: (بها) بمعنى من التبعيضية وجائز أن يكون يشرب مضمنًا معنى يروى أي يروى بها عباد الله ومن شواهد هذه الباء قول الشاعر:

شربت بماء البحر ثم تدفقت ... متى لجج خضر لهن نئيج

متى بمعنى في والنئيج مَرٌّ سريع مع صوت والشاهد في بماء البحر.

(٥) النذر هو ما يوجبه المكلف على نفسه في الطاعة بحيث لو لم يوجبه لم يلزمه.

(٦) يقال: استطار الحريق إذا انتشر. قال حسان:

وهان على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

قال قتادة: استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض.

يخافون يوم الحساب يوم العقاب يومًا كان شره فاشيًا منتشرًا ومع ذلك ﴿٨﴾ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، أي مع حبهم وشهوتهم له ورغبتهم فيه، يطعمونه ﴿مِسْكِينًا﴾ فقيرًا مسكنه الفقر وأذلته الحاجة، ﴿وَيَتِيمًا﴾ لا عائل له ولا مال عنده، ﴿وَأَسِيرًا﴾ سجينًا بعيد الدار نائي المزار لا يعرف له أصل ولا فصل يطعمونهم ولسان حالهم أو قالهم يقول: ﴿٩﴾ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ تجازوننا به في يوم ما من الأيام ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ ينالنا منكم.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾ أي كالح الوجه مسودًا ثقيلاً طويلاً لا يطاق. واستجاب الله لهم وحقق بفضله مناهم.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ العبوس القمطرير، ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً﴾ في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبهم وجزاهم بما صبروا على فعل الصالحات وعن ترك المحرمات جنة وحريرًا، وما سيذكر بعد في الآيات التاليات.

هداية الآيات:

١ - بيان نشأة الإنسان الأب والإنسان الابن وما تدل عليه من إفضال الله وإكرامه لعباده.

٢ - حاستا السمع والبصر وجودهما معًا أو وجود إحداهما ضروري للتكليف مع ضميمة العقل.

٣ - بيان أن الإنسان أمامه طريقان فليسلك أيهما شاء وكل طريق ينتهي به إلى غاية فطريق الرشد يوصل إلى الجنة دار النعيم، وطريق الغي يوصل إلى دار الشقاء الجحيم.

٤ - وجوب الوفاء بالنذر فمن نذر شيئًا لله وجب أن يفي بنذره إلا أن ينذر معصية فلا يجوز له الوفاء[1] بنذره فيها فمن قال لله علي أن أصوم يوم أو شهر كذا وجب عليه أن يصوم ومن قال لله علي أن لا أصل رحمي، أو أن لا أصلي ركعة مثلاً فلا يجوز له الوفاء بنذره وليصل رحمه وليصل صلاته ولا كفارة عليه.

٥ - الترغيب في إطعام الطعام للمحتاجين إليه من فقير ويتيم وأسير.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣ - ٢٢]

﴿١٣﴾ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: أي على الأسرة بالحجلة واحد الأرائك أريكة. ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾: أي ولا بردًا شديدًا ولا قمرًا إذ هي تضاء من نفسها.

﴿١٤﴾ ﴿وَدَانِيَةً﴾: أي قريبة منهم ظلال أشجار الجنة. ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾: أي بحيث ينالها المؤمن قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا.

﴿١٥﴾ ﴿وَأَكْوَابٍ﴾: أي أقداح بلا عُرا.

﴿١٦﴾ ﴿مِن فِضَّةٍ﴾: أي يرى باطنها من ظاهرها. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾: أي على قدر الشاربين بلا زيادة ولا نقص.

﴿١٧﴾ ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾[2]: أي خمرًا. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾: أي ما تمزج وتخلط به زنجبيلا.

﴿١٩﴾ ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: أي بصفة الولدان لا يشيبون. ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾: أي من سلكه أو من صدفه لحسنهم وجمالهم وانتشارهم في الخدمة.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾: أي في الجنة رأيت نعيمًا لا يوصف وملكًا واسعًا لا يقدر.

﴿٢١﴾ ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾: أي حرير. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: أي ما غلظ من الديباج. ﴿وَحُلُّوٓا﴾: أي تحليهم الملائكة بها. ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾: أي فائقًا على النوعين السابقين ولذا أُسند سقيه إلى الله عز وجل.

﴿٢٢﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: أي النعيم. ﴿مَشْكُورًا﴾: أي مرضيًا مقبولاً.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في ذكر ما أعد الله تعالى للأبرار من عباده المؤمنين المتقين.

﴿١٣﴾ فقال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾[3] في الجنة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾[4] التي هي الأسرة بالحجال ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ إن كان

---

(١) ما يروى عن فاطمة وعلي رضي الله عنهما في مرض الحسنين وما نذرا لله في شأنهما حديث موضوع باطل رده أهل العلم جملة وتفصيلاً.

(٢) في عرف الأولين إطلاق الكأس على الخمر فلا يقال كأس ما لم يكن بها خمر فلذا يطلقون لفظ الكأس على الخمر والآية شاهد ذلك.

(٣) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ منصوب على الحال وصاحب الحال الضمير في ﴿وَجَزَىٰهُم﴾.

(٤) الأريكة: السرير بالحجلة والحجلة: كِلّة تنصب على السرير لتقي الحر والشمس ولا يقال في السرير أريكة ما لم يكن بالحجال

المراد بالشمس الكوكب المعروف فالزمهرير القمر، فلا شمس في الجنة ولا قمر وإن كان المراد بالشمس الحر فالزمهرير البرد وليس في الجنة حر ولا برد وكلا المعنيين مراد وواقع فلا شمس في الجنة ولا قمر لعدم الحاجة إليهما ولا حر ولا برد كذلك.

(١٤) ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أي قريبة منهم أشجارها فهي تظللهم ويجدون فيها لذة التظليل وراحته ومتعته وإن لم يكن هناك شمس تستلزم الظل. ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي ما يقطف من ثمار أشجارها مذلل لهم بحيث يناله القائم والقاعد والمضطجع فلا شوك به ولا بعد فيه سهل التناول لأن الدار دار نعيم وسعادة وراحة وروح وريحان.

(١٥) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي يطوف عليهم الخدم الوصفاء بآنية من فضة ومن ذهب. ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي أقداح لا عرى لها كانت بفضل الله وإكرامه.

(١٦) ﴿قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ يرى باطنها من ظاهرها لصفائها، مادتها فضة وصفاؤها صفاء الزجاج ولذا سميت قارورة وجمعت على قوارير. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدرها الخدم الطائفون عليهم بحيث لا تزيد فتفيض[1] ولا تنقص فلا يجمل منظرها.

(١٧) - (١٨) وقوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي خمرًا ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي ما تمزج به ﴿زَنجَبِيلًا﴾ من عين في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾[2].

(١٩) وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي ويطوف على أولئك الأبرار في الجنة ولدان غلمان مخلدون لا يهرمون ولا يموتون حالهم دائمًا حال الغلمان لا تتغير ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ ونظرت إليهم ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ في جمالهم وانتشارهم في الخدمة هنا وهناك ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

(٢٠) ويقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي هناك في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ لا يوصف ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ لا يقادر قدره.

(٢١) ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ يخبر تعالى أن عاليهم أي فوقهم ثياب سندس أي حرير خضر وإستبرق وهو ما غلظ من الديباج. وثياب من إستبرق بعضها بطائن وبعضها ظهائر البطائن ما يكون تحت الظهائر، وقوله تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي وحلاهم ربهم وهم في دار كرامته أساور من فضة ومن ذهب أيضًا إذ يحذف[3] المقابل لدلالة المذكور عليه نحو سرابيل تقيكم الحر أي وأخرى تقيكم البرد، وقوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[4] هذا غير ما ذكر فيما تقدم هذا إكرام خاص وهو أن الله تعالى هو الذي يسقيهم وأن هذا الشراب بالغ مبلغًا عظيمًا في الطهارة لوصفه بالطهور. ويقال لهم تكريمًا لهم وتشويقًا لغيرهم من أهل الدنيا الذين يسمعون هذا الخطاب التكريمي إن هذا النعيم من جنات وعيون وأرائك وغلمان وطعام وشراب ولباس وما إلى ذلك.

(٢٢) ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ على إيمانكم وتقواكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ أي عملكم في الدنيا ﴿مَّشْكُورًا﴾ أي مرضيًا مقبولاً.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء

= كما لا يقال للسجل سجلاً ما لم تكن الدلو ملأى ولا الذنوب ذنوبًا ما لم يكن مليئًا، ولا يقال للكأس كأس ما لم تكن ملأى بالخمر ولا يقال مهدي للطبق ما لم تكن عليه الهدية.

(١) التقدير لكل من أحجامها والمشروب الذي بها.

(٢) يقال: شراب سلس وسلسال وسلسل وسلسبيل ما كان في غاية السلاسة.

(٣) ومن سورة فاطر ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وفي سورة الحج ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ قيل: حلي الرجل الفضة، وحلي النساء الذهب، وقيل: تارة يلبسون الفضة وتارة يلبسون الذهب، ومن الجائز أن يجمع لهم بين الفضة والذهب ليكون لأحدهم سواران من فضة وسواران من ذهب.

(٤) قال علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قال: إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مروا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من إحداهما لتجري عليهم بنضرة النعيم فلا تتغير أبشارهم ولا تشعث أشعارهم أبدًا ثم يشربون من الأخرى فيخرج ما في بطونهم من الأذى ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾

ترتيبها ٧٧ — سورة المرسلات — آياتها ٥٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴿١﴾ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

٥٨٠

بذكر صور من الجزاء الأخروي.

٢ - حرمة استعمال أواني الذهب والفضة لقول الرسول ﷺ: «**هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة**».

٣ - حرمة الخمر لحديث «**من شرب الخمر في الدنيا لا يشربها في الآخرة إن مات مستحلاً لها**».

٤ - مشروعية اتخاذ خدم صالحين يخدمون المرء ويحسن إليهم.

٥ - حرمة لبس الحرير على الرجال وإباحته للنساء، وكالحرير الذهب أيضًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٣ - ٣١]

﴿٢٣﴾ ﴿نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾: أي شيئًا فشيئًا ولم ننزله جملة واحدة لحكمة بالغة.

﴿٢٤﴾ ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾: أي عليك بحمل رسالتك وإبلاغها إلى الناس. ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾: الآثم هنا عتبة بن ربيعة والكفور الوليد بن المغيرة.

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾: أي صل الصبح والظهر والعصر.

﴿٢٦﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾: أي صل صلاة المغرب والعشاء. ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾: أي تهجد بالليل نافلة لك.

﴿٢٧﴾ ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾: أي الدنيا. ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾: أي يوم القيامة.

﴿٢٨﴾ ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ﴾: أي قوينا أعضاءهم ومفاصلهم. ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾: أي جعلنا أمثالهم في الخلقة بدلاً منهم بعد أن نهلكهم.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾: أي عظة للناس. ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾: أي طريقًا إلى مرضاته وجواره بالإيمان والعمل الصالح وترك الشرك والمعاصي.

﴿٣١﴾ ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾: أي الجنة. ﴿أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾: أي في النار والأليم ذو الألم الموجع.

معنى الآيات:

لقد عرض المشركون على رسول الله ﷺ عرضًا مفاده أن يترك دعوة الله تعالى إلى عبادته وتوحيده ويعبد ربّه وحده ويترك المشركين فيما هم فيه وله مقابل ذلك مال أو أزواج أو رئاسة وما إلى ذلك فأبى الله تعالى له ذلك.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٤﴾ وأنزل قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ[1] نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ۝ فَٱصۡبِرۡ[2] لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ على تحمل رسالتك وتبليغها إلى الناس ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ﴾ أي من مشركي قريش ﴿ءَاثِمًا﴾ كأبي جهل وعتبة بن ربيعة. ﴿أَوۡ كَفُورٗا﴾ كالوليد بن المغيرة أي لا تطعهما فيما طلبا إليك وعرضا عليك.

﴿٢٥﴾ وواصل دعوتك واستعن بالصلاة والتسبيح والذكر والدعاء. وفي قوله تعالى: ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾[3] إشارة إلى صلاة الصبح والظهر والعصر.

---

(١) ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا﴾ أي ما افتريته ولا جئت به من عندك ولا من تلقاء نفسك كما يقول المشركون.

(٢) الفاء هي الفصيحة إذ هي واقعة في جواب شرط مقدر، أي: إذا كان الأمر ما علمت وهي ردهم دعوتك ومطالبتهم بتركها والتخلي عنها مقابل عارض من الدنيا ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

(٣) الأصيل: جمعه الأصائل والأصل كقولك سفائن وسفن. قال الشاعر:

ولا بأس منها إذا دنا الأصل

(٢٦) وفي قوله: ﴿وَمِنَ[1] ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ إشارة إلى صلاة المغرب والعشاء. وقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ صريح في أنه التهجد إذ الصلاة نعم العون للعبد ولذا كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

(٢٧) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ[2] ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي الدنيا يعني بهم كفار قريش يحبون الدنيا وسميت بالعاجلة لأنها ذاهبة مسرعة، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ[3] يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ هو يوم القيامة فلم يؤمنوا ولم يعملوا بما يسعدهم فيه ويذكرهم تعالى بأنه خالقهم وقادر على تبديلهم بغيرهم.

(٢٨) فيقول: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ أي أوجدناهم من العدم ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾[4] أي قوينا ظهورهم وأعضاءهم ومفاصلهم ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي جعلنا أمثالهم في الجنة بدلاً عنهم وأهلكناهم ولو شاء تعالى ذلك لكان ولكنه لم يشأ مع أنه في كل قرن يبدل جيلاً بجيل هذا يميته وهذا يحييه وهو على كل شيء قدير. وفي خاتمة هذه السورة المشتملة على أنواع من الهدايات الكثيرة.

(٢٩) يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي هذه السورة موعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ طريقًا إلى رضاه أولاً ثم مجاورته في الملكوت الأعلى ثانيًا، ولما أعطى تعالى المشيئة قيدها بأن يشاء الله ذلك المطلوب أولاً، ومن هنا وجب الافتقار إلى الله تعالى بدعائه والضراعة إليه.

(٣٠) وهو قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إن الله كان عليمًا بخلقه وبما يصلحهم أو يُفسدهم حكيمًا في تدبيره لأوليائه خاصة ولباقي البشرية عامة فله الحمد وله المنّة.

(٣١) وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ[5] أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ إنه بهذا يدعو كافة البشرية إلى الافتقار إليه ليغنيهم وإلى عبادته ليزكيهم وإلى جواره فيطهرهم ويرفعهم هؤلاء أولياؤه من أهل الإيمان والتقوى ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ أي أهانهم لكفرهم به وشركهم في عبادته فأعد لهم عذابًا مؤلمًا موجعًا نعوذ بالله من عذابه وشديد عقابه.

هداية الآيات:

١ - حرمة طاعة ذوي الإثم وأهل الكفر في حال الاختيار.

٢ - على المؤمن أن يستعين بالصلاة والذكر والدعاء فإنها نعم العون.

٣ - استحباب نافلة الليل.

٤ - مشيئة الله عز وجل قبل فوق كل مشيئة.

٥ - القرآن تذكرة للمؤمنين.

❁ ❁ ❁

سورة المرسلات
مكية
وآياتها خمسون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٥]

(١) ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾: المرسلات الرياح الطيبة والعرف المتابعة.

(٢) ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾: فالرياح الشديدة الهبوب المضرة لشدتها.

(٣) ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾: الرياح تنشر المطر وتفرقه في السماء نشرًا.

(٥) ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾: أي فالملائكة تلقي بالوحي على الأنبياء للتذكير به.

= وقال آخر في الأصائل وهو جمع الجمع:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله ... وأقعد في أفيائه بالأصائل

(١) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾: (مِن) للتبعيض أي من بعض الليل لا كله.

(٢) الجملة تحمل التوبيخ والتقريع لأهل مكة لحبهم العاجلة وتركهم الآخرة.

(٣) جائز أن يكون ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ بمعنى بين أيديهم ولما لم يعملوا له كانوا كالتاركين له وراءهم غير ملتفتين إليه.

(٤) الأسر: الخلق يقال شديد الأسر أي الخلق والمراد بالخلق الأوصال والمفاصل وفقار الظهر ومن ذلك الشرج فإنه إذا خرج البول أو الغائط تقبض الموضع ولولا هذا التماسك لبقي البول سائلاً والعذرة متناثرة.

(٥) ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره: ويعذب الظالمين، وجملة ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ تفسير للفعل المحذوف.

(٦) ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝﴾: أي للأعذار بالنسبة إلى أقوام أو إنذار بالنسبة إلى آخرين.

(٧) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝﴾: أي إنما توعدون أيها الناس لكائن لا محالة.

(٨) ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝﴾: أي محي نورها وذهبت.

(٩) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝﴾: أي انشقت وتصدعت.

(١٠) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾: أي نسفت فإذا هي هباء منبث مفرق هنا وهناك.

(١١) ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝﴾: أي جُمعت لوقت حُدد لها لتحضر فيه.

(١٣) ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝﴾: أي اليوم الذي يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق.

معنى الآيات:

(١) - (١٤) قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝﴾[١] هذا بداية قسم لله تعالى أقسم فيه بعدة أشياء من مخلوقاته ولله أن يقسم بما شاء، والحكمة من الإقسام أن تسكن النفوس للخبر وتطمئن إلى صدق المخبر فيه وبذلك يحصل الغرض من إلقاء الخبر على السامعين والمقسم به هنا المرسلات وهي الرياح المتتابعة الطيبة العذبة والعاصفات[٢] منها وهي الشديدة الهبوب التي قد تعصف بالأشجار وتقتلعها وبالمباني وتهدمها والناشرات نشرًا وهي الرياح المعتدلة التي تنشر السحاب وتفرقه أو تسوقه للإمطار وإنزال المطر والفارقات فرقًا وهي آيات القرآن الكريم تفرق بين الحق والباطل، والملقيات ذكرًا عذرًا[٣] أو نذرًا، وهي الملائكة تلقي بالوحي على من اصطفى الله تعالى من عباده للإعذار والإنذار أي تعذر أناسًا وتنذر آخرين هذا هو القسم والمقسم هو الله والمقسم عليه هو قوله جل ذكره إن ما توعدون، أيها الناس من خير أو شر، لواقع، أي كائن لا محالة وعليه فأصلحوا أعمالكم بعد تصحيح نياتكم فإن الجزاء واقع لا يتخلف أبدًا ولا يتغير ولا يتبدل ومتى يقع هذا الموعود الكائن لا محالة والجواب يقع في يوم الفصل إذًا فما هو يوم الفصل والجواب يوم يحضر الله الشهود من الملائكة والرسل ويفصل بين الناس ومتى يكون يوم الفصل والجواب إذا النجوم طمست، أي ذهب نورها ومحي، وإذا السماء فرجت، أي انشقت وتصدعت، وإذا الجبال نسفت[٤]، أي فتت، وإذا الرسل أقتت، أي حدد لها وقت معين تحضر فيه وهو يوم الفصل وما أدراك[٥] ما يوم الفصل تفخيم لشأنه وإعلام بهوله.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم يقع الفصل العذاب الهائل الكبير ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالله وبآياته ولقائه ورسوله.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه وليس للعبد أن يقسم بغير خالقه عز وجل.

٣ - علامات القيامة وظاهرة الانقلاب الكوني العام وهي انطماس ضوء النجوم وانفراج السماء ونسف الجبال.

٤ - الوعيد الشديد بالويل الذي هو

---

(١) روى البخاري عن ابن عباس قال: قرأت سورة والمرسلات عرفًا فسمعتني أم الفضل (امرأة العباس) فبكت وقالت: بُني أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب.

(٢) العصف: قوة هبوب الريح، والنشر: ضد الطي واستعمل في الإظهار والإيضاح. والعصف حالة المضرة والنشر حالة النفع. جائز أن يراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات: الملائكة وكونها الرياح أظهر في التفسير وهو اختيار ابن جرير.

(٣) قرأ نافع ﴿عذرًا﴾ بإسكان الذال وبضمها في ﴿نُذُرًا﴾ وسكن الذال فيهما معًا حفص والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار وكذا عذرًا وهما مفعولان لأجله أي لأجل الإعذار والإنذار أي الإعذار للمحقين والإنذار للمبطلين أو البشرى للمؤمنين والنذارة للكافرين.

(٤) نسف الجبال دكها وتصييرها ترابًا مفرقًا وتسييرها كالهباء في الهواء.

(٥) ﴿مَآ أَدْرَىٰكَ﴾ استفهام، وكذا ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ والمراد من الاستفهام الأول الاستبعاد والإنكار ومن الثاني التهويل من شأن يوم الفصل الذي هو يوم القيامة حيث تم الفصل فيه بين الخلائق ويتم بأن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير.

واد في[1] جهنم تستغيث جهنم من حره للمكذبين بما يجب التصديق به من أركان الإيمان الستة، والوعد والوعيد الإلهيين.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ ـ ٢٨]

(١٦) ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾: أي كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى البعثة النبوية وذلك بتكذيبهم.

(١٧) ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾: أي إن أصروا على التكذيب ككفار مكة.

(١٨) ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾: أي مثل ذلك الهلاك نهلك المجرمين.

(١٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾: أي إذا جاء وقت الهلاك ويل فيه للمكذبين.

(٢٠) ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾: أي المنيّ والمهين الضعيف.

(٢١) ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾: أي حريز وهو الرحم.

(٢٢) ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾: أي إلى وقت الولادة.

(٢٣) ﴿فَقَدَرْنَا﴾: أي خلقه. ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾: أي نحن على الخلق والتقدير.

(٢٥) ﴿كِفَاتًا﴾: أي تكفت الناس أي تضمهم أحياء فوق ظهرها وأمواتًا في بطنها.

(٢٧) ﴿رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾: أي جبال عاليات. ﴿فُرَاتًا﴾: أي عذبًا.

معنى الآيات:

(١٦) ـ (١٨) قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ۝ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ إنه لما أقسم تعالى على وقوع ما أوعد به المكذبين من عذاب يوم القيامة وذكر وقت مجيئه وعلامات ذلك وذكر أن الرسل أقتت ليوم الفصل وهو اليوم الذي يفصل فيه تعالى بين الخلائق فيقتص من الظالم للمظلوم، ويجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

(١٩) وتوعد المكذبين بذلك فقال: ﴿وَيْلٌ﴾، دلل هنا على قدرته على إهلاك المكذبين بما سبق له أن فعله بالمكذبين فقال في استفهام تقريري لا ينكر: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط إلى زمن البعثة النبوية. ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ فقد أهلك أكابر مجرمي قريش في بدر. وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ

الجزء التاسع والعشرون — سورة المرسلات

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

٥٨١

بِالْمُجْرِمِينَ﴾[2] وهو وعيد صريح وحقًا والله لقد أهلك المجرمين ولم ينج من الهلاك مجرم و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٢٠) ـ (٢٤) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ[3] ۝ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾. هذا استدلال آخر على قدرة الله وعلمه اللذين لا يتم البعث والجزاء إلا عليهما قدرة لا يعجزها شيء وعلم لا يخفى معه شيء.

(٢٠) فقال مستفهمًا استفهامًا تقريريًا: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾

---

(١) قيل أن هذا الوادي هو مستنقع صديد أهل الشرك والكفر ليعلم أهل العقول أنه لا شيء أقذر منه قذارة ولا أنتن منه نتنًا ولا أشد مرارة ولا أشد سوادًا منه، وصفه رسول الله ﷺ بأنه أعظم وادٍ في جهنم.

(٢) لفظ الإجرام أصبح كالعلم على أهل الشرك والكفر إذ هم الذين أجرموا على أنفسهم بأعظم الذنوب وأشدها إفسادًا للروح وهو الشرك والكفر وما بعد الكفر ذنب كما يقال.

(٣) هذا التكرار والتقرير والتأكيد، وسيتكرر في عدة آيات في هذه السورة ومعناه قد سبق مع أول ذكره.

(٤) الاستفهام للتقرير وهو لا يخلو من معنى التوبيخ والتقريع للمشركين المكذبين بالبعث والجزاء.

أي ضعيف هو المني ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾[(١)] أي الماء ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ أي حريز حصين وهو الرحم ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝﴾ وهو زمن الولادة ﴿فَقَدَرْنَا﴾[(٢)] أي خلق الجنين على أحسن صورة أدق تركيب المسافات بين الأعضاء كما بين العينين كما بين اليدين والرجلين كما بين الأذنين كلها مقدرة تقديرًا عجيبًا لا تزيد ولا تنقص ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ على الخلق والتقدير معًا والجواب بلى ولم إذًا تكفرون وتكذبون؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾.

(٢٥) ـ (٢٨) وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝﴾ هذا استدلال آخر على قدرة الله على البعث والجزاء والاستفهام فيه للتقرير أيضًا ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝﴾[(٣)] أي مكان كفاية مأخوذ من كفت الشيء إذا ضمه إلى بعضه بعضًا والأرض ضامة للناس كافية لهم كافتة الأحياء[(٤)] على ظهرها يسكنون ويأكلون ويشربون والأموات في بطنها لا تضيق بهم أبدًا كما لم تضق بالأحياء ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ أي جبال عاليات ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي عذبًا وهو ماء السماء ناقعًا في الأرض وجاريًا في الأودية والأنهار والجواب بلى، بلى إذًا ما لكم أيها المشركون كيف تكذبون؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾ أي ويل لهم إذا حان وقت هلاكهم أي ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝﴾.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - الاستدلال على البعث والجزاء بالقدرة والعلم إذ هما أساس البعث والجزاء.

٣ - بيان إنعام الله تعالى على عباده في خلقهم ورزقهم وتدبير حياتهم أحياء وأمواتًا.

٤ - بيان أن الناس أكثرهم لا يشكرون.

٥ - الوعيد الشديد للمكذبين الكافرين.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٩ ـ ٤٠]

(٢٩) ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝﴾: أي من العذاب.

(٣٠) ﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾: أي دخان جهنم إذا ارتفع انقسم إلى ثلاث شعب لعظمته.

(٣١) ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾: أي كنين ساتر يكن ويستر. ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾: أي ولا يرد شيئًا من الحر.

(٣٢) ﴿إِنَّهَا﴾: أي النار. ﴿بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾: أي الشررة الواحدة كالقصر في عظمته وارتفاعه.

(٣٣) ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ۝﴾: أي الشرر المتطاير من النار الشررة كالقصر في عظمها وارتفاعها وكالجمل في هيئتها ولونها والجمل الأصفر الأسود الذي يميل إلى صفرة.

(٣٥) ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝﴾: أي فيه بشيء.

(٣٦) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾: أي في العذر.

(٣٨) ﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي من المكذبين قبلكم.

(٣٩) ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝﴾: أي حيلة في دفع العذاب فاحتالوا لدفع العذاب عنكم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء التي عليها مدار الحياة كلها.

---

(١) ﴿فَجَعَلْنَا﴾ الفاء للتفريع والتفصيل لكيفية الخلق.

(٢) قرأ نافع ﴿فقدّرنا﴾ بتشديد الدال وقرأها حفص بالتخفيف فالتخفيف بمعنى قدرنا تقديرًا أي فعلناه على تقدير معين، ﴿فَقَدَّرْنَا﴾ بالتشديد أي جعلنا على مقدار مناسب ولذا معنى القراءتين واحد وشاهده من الحديث قوله ﷺ في الهلال: **«إذا غم عليكم فاقدروا له»** أي قدّروا له المسير والمنازل، ومن الشائع قولهم: قدر على فلان الموت وقدّر عليه الموت بالتشديد والتخفيف.

(٣) قال القرطبي: ﴿كِفَاتًا﴾ أي ضامة تضم الأحياء على ظهرها والأموات في بطنها وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه. وهو قوله ﷺ: **«قصوا أظافركم وادفنوا قلاماتكم»**.

(٤) الكفات: اسم للشيء الذي يكفت فيه أي يجمع ويضم فيه فهو اسم من كفت إذا جمع فالكفات اسم لما يكفت والوعاء اسم لما يعي والضمام اسم لما يضم.

(٢٩) قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾[(١)] هذا يقال للمكذبين يوم القيامة وهم في عرصاتها يقال لهم تقريعًا وتبكيتًا: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ[(٢)] إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وهو عذاب الآخرة.

(٣٠) ويتهكم بهم ويسخرون منهم فيقولون:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، وهو دخان النار إذا ارتفع يتشعب إلى ثلاث شعب وذلك لعظمته.

(٣١) ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾، أي ليس هو ظلًا حقيقيًا كظل الشجرة والجدار فيكن ويستر ﴿وَلَا يُغْنِى[(٣)] مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ فيدفع الحر.

(٣٢) - (٣٣) وقال تعالى في وصفها: ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ الشررة الواحدة كالقصر في كبره وارتفاعه ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ أي الشرر جمالة صفراء[(٤)] أي الشررة كالجمل الأصفر وهو الأسود المائل إلى الصفرة.

(٣٤) ثم قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يتوعد المكذبين به وبآياته ولقائه ورسوله ﷺ.

(٣٥) وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي هذا يوم القيامة يوم لا ينطقون أي فيه بشيء.

(٣٦) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ أي في الاعتذار فهم يعتذرون لا اعتذار ولا إذن به. ولطول يوم القيامة وتجدد الأحداث فيه يخبر القرآن مرة باعتذارهم وكلامهم في موطن، وينفيه في آخر، إذ هو ذاك الواقع في مواطن يتكلمون بل ويحلفون كاذبين وفي مواطن يغلب عليهم الخوف والحزن فلا يتكلمون بشيء وفي مواطن يطلب منهم أن يتكلموا فيتكلموا وفي أخرى لا.

(٣٧) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وعيد لكل المكذبين بهذا وبغيره.

(٣٨) وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ[(٥)] ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ[(٦)] وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي يقال لهم يوم القيامة وهم في عرصاتها هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون جمعناكم فيه أيها المكذبون من هذه الأمة والمكذبين الأولين من قبلها.

(٣٩) ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي حيلة على خلاصكم مما أنتم فيه ﴿فَكِيدُونِ﴾، أي احتالوا عليّ وخلصوا أنفسكم يقال لهم تبكيتًا لهم وخزيًا وهو عذاب روحي أشد ألمًا من العذاب الجسماني.

(٤٠) ﴿وَيْلٌ[(٧)] يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي ويل يوم إذ يجيء يوم الفصل للمكذبين.

هداية الآيات:

١ - التهكم والسخرية والتبكيت من ألم أنواع العذاب الروحي يوم القيامة.

٢ - عرصات القيامة واسعة والمقام فيها طويل والبلاء فيها شديد.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر بعض ما يتم فيه.

٤ - التكذيب هو رأس الكفر، وبموجبه يكون العذاب.

شرح الكلمات:

[الآية: ٤١ - ٥٠]

(٤١) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أي الذين اتقوا ربهم فآمنوا به وأطاعوه بفعل ما يحب وترك ما يكره. ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾: أي في ظلال الأشجار الوارفة. ﴿وَعُيُونٍ﴾: أي من ماء ولبن وخمر وعسل.

(٤٢) ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾: لا مما يجدون كما هي الحال في الدنيا.

(٤٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: أي كما جزينا المتقين نجزي المحسنين.

(٤٦) ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ﴾: أي في هذه الحياة الدنيا.

(٤٨) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ﴾: أي صلُّوا لا يصلون.

---

(١) هذا الخطاب للمكذبين في يوم الفصل وهو مقول قول محذوف دل عليه صيغة الخطاب ولذا قلت في التفسير: هذا يقال للمكذبين.

(٢) وأعيد لفظ انطلقوا على طريقة التكرير قصد التوبيخ والإهانة.

(٣) الإغناء: جعل الغير غنيًا أي غير محتاج في ذلك الغرض وعدي الفعل بمن هنا على معنى البدلية أو لتضمينه معنى يبعد.

(٤) قرأ نافع ﴿جمالات﴾ جمع جمالة بكسر الجيم وقرأ حفص ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ بالإفراد والجمالة اسم جمع لطائفة من الجمال أي الشررة الواحدة في عظمها كأنها جمالة صفر، والصفرة لون الشرر والصفر جمع أصفر كحمر جمع أحمر.

(٥) تكرير لتوبيخهم، والإشارة في هذا إلى المشهد الذي يشاهدونه في يوم فصل القضاء الذي كانوا ينكرونه ويكذبون به.

(٦) هذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ والمخاطبون في قوله: ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ المشركون: المكذبون بيوم الفصل.

(٧) تكرير للوعيد والتهديد وهو متصل بما قبله اتصال نظائره فيما سبق وفيما يلحق.

(٥٠) ﴿بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾: أي بعد القرآن إذ الكتب غيره ليست معجزة والقرآن هو المعجز بألفاظه ومعانيه فمن لم يؤمن بالقرآن ما آمن بغيره بحال من الأحوال.

معنى الآيات:

من باب الترغيب والترهيب وهو أسلوب امتاز به القرآن الكريم ذكر تعالى ما للمتقين من نعيم مقيم بعد ذكر ما للمكذبين الضالين من عذاب الجحيم.

(٤١) فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين اجتنبوا الشرك والمعاصي ﴿فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ في ظلال أشجار الجنة وعيونها من ماء ولبن وخمر وعسل.

(٤٢) ﴿وَفَوَٰكِهَ﴾ كثيرة منوعة ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ[١]﴾ على خلاف الدنيا إذ الناس يأكلون مما يجدون فلو اشتهوا شيئًا ولم يجدوه ما أكلوه وأما دار النعيم فإن المرء ما اشتهى شيئًا إلا وجده وأكله وهذا هو السر في التعبير في غير موضع بكلمة مما يشتهون.

(٤٣) ومن إتمام النعيم أن يقال لهم تطييبًا لخواطرهم ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟[٢] هَنِيٓـًٔا﴾، أي متهنئين ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الصالحات وتتركون من السيئات.

(٤٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ[٣] نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي كهذا الجزاء الذي جزينا به المتقين نجزي به المحسنين.

(٤٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي بهذا الوعد الكريم.

(٤٦) قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾. هذا قول الله تعالى لمشركي قريش وكفارها يهددهم الرب تبارك وتعالى ناعيًا عليهم إجرامهم حتى يحين وقتهم وقد حان حيث أعلمهم أنهم لا يتمتعون إلا قليلًا وقد أُهلكوا في بدر.

(٤٧) وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ هو توعد بالعذاب الأليم لمن يكذب بوعيد الله هذا ووعده ذاك.

(٤٨) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾[٤] أي صلوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي لا يصلون ولا يخشعون ولا يتواضعون فيقبلون الحق ويؤمنون به

(٤٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بشرائع الله وهداه التاركين للصلاة.

(٥٠) وقوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ[٥] حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي فبأي كتاب يؤمن هؤلاء المكذبون إذا لم يؤمنوا بالقرآن وذلك لما فيه من الخير والهدى ولما يدعو إليه من السعادة والكمال كما أنه معجز بألفاظه ومعانيه بخلاف الكتب غيره فمن لم يؤمن به لا يرجى له أن يؤمن بغيره بحال من الأحوال.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر ما أعد الله تعالى لأوليائه المؤمنين المتقين المحسنين.

٢ - بيان نعيم أهل التقوى والإحسان وفضلهما أي فضل التقوى والإحسان.

٣ - صدق القرآن في أخباره إذ وعيد الله لأكابر مجرمي مكة نفذ بعد أقل من خمس سنوات.

٤ - من دخل مسجدًا وأهله يصلون فليدخل معهم في صلاتهم وإن كان قد صلى حتى لا يكون غيره راكعًا لله وهو غير راكع وقد جاء في الصحيح هذا المعنى.

❊ ❊ ❊

---

(١) أي يتمنون إذ أكلهم للذة الأكل لا للحفاظ على الجسم كما هي الحال في الدنيا يأكل الآدمي للبقاء على حياته إذ لو ترك الغذاء هلك.

(٢) هذا مقول قول محذوف أي يقال لهم كلوا واشربوا.

(٣) إن المحسنين: هم المتقون، وإنما ذكر صفة الإحسان لأن التقوى التي هي فعل وترك متوقفة على الإحسان الذي هو مراقبة الله تعالى المنتجة إحسان النيات والأعمال الصالحات.

(٤) يذكر أن مالكًا رحمه الله تعالى دخل المسجد بعد صلاة العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع، فقال له صبي: يا شيخ قم فاركع، فقام فركع فقيل له في ذلك قال: خشيت أن أكون من الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾.

(٥) الفاء هي الفصيحة أي إن لم تؤمنوا بهذا القرآن فبأي حديث بعده تؤمنون والاستفهام إنكاري تعجبي.

الجزء الثلاثون

سورة النبأ
مكية
وآياتها أربعون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ١٦]

(١) ﴿عَمَّ﴾(١): أي عن أيّ شيء؟. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: أي يسأل بعض قريش بعضًا.

(٢) ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾: أي ما جاء به محمد ﷺ من التوحيد والنبوة والبعث الآخر.

(٣) ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾: أي ما بين مصدق ومكذب.

(٥) ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾: عاقبة تكذيبهم عند نزع أرواحهم وعند خروجهم من قبورهم.

(٧) ﴿أَوْتَادًا﴾: أي تثبت بها الأرض كما تثبت الخيمة بالأوتاد.

(٩) ﴿سُبَاتًا﴾: أي راحة لأبدانكم.

(١٠) ﴿لِبَاسًا﴾: أي ساترًا بظلامه وسواده.

(١١) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾: أي وقتًا للمعاش كسبًا وأكلًا.

(١٢) ﴿شِدَادًا﴾: أي قوية محكمة الواحدة شديدة والجمع شداد.

(١٣) ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾: أي ضوء الشمس وهاجًا وقادًا.

(١٤) ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: أي السحابات التي حان لها أن تمطر كالجارية المعصر التي دنا وقت حيضها. ﴿ثَجَّاجًا﴾: أي صبابًا.

(١٦) ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾: أي بساتين ملتفة.

ترتيبها ٧٨ — سورة النبإ — آياتها ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا (٦) وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا (١٩) وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا (٢٢) لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَآءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا (٢٩) فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)

٥٨٢

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي عن أي شيء يتساءل رجال قريش فيسأل بعضهم بعضًا إنهم يتساءلون:

(٢)ـ(٣) ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ إنه ما جاء به محمد ﷺ من التوحيد والنبوة والبعث الآخر.

(٤) قال تعالى ردعًا لهم وتخويفًا: ﴿كَلَّا﴾(٢)، عند نزع أرواحهم عاقبة تكذيبهم لرسولنا وإنكارهم لتوحيدنا ولقائنا.

(٥) ﴿ثُمَّ كَلَّا(٣) سَيَعْلَمُونَ﴾، يوم يُبعثون من قبورهم ويُحشرون إلى نار جهنم حين لا ينفعهم علم ولا يجديهم إيمان.

(٦) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ الآيات، فذكر تعالى من مظاهر القدرة والعلم والرحمة والحكمة ما يوجب الإيمان به وبتوحيده ورسوله ولقائه لو كان القوم يعقلون فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ(٤) مِهَٰدًا﴾ أي فراشًا ووطاءً للحياة عليها؟ وهل يتم هذا

---

(١) (عم): أصلها عن ما فأدغمت النون في الميم فصارت (عما) وحذفت الألف تخفيفًا فصارت (عم) فعن حرف جر وما حرف استفهام، وقدم الاستفهام لما له من حق الصدارة وأصل التركيب يتساءلون عن أي شيء؟

(٢) ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره ﴿يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الخبر الكبير وهو البعث بعد الموت إذ العرب فيه ما بين مصدق ومكذب، ويدل عليه السياق.

(٣) ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع ومعمول ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ محذوف تقديره: «سيعلمون» بما فيه تكذيبهم بالبعث والنبوة والتوحيد.

(٤) ﴿كَلَّا﴾ هنا بمعنى حقًا ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ صحة ما هم به مكذبون وله منكرون.

(٥) هذا الاستئناف المبدوء باستفهام تقريري جاء لعرض مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته وهي موجبات إيمان به وبلقائه ونبوة رسوله ﷺ وعبادته وحده دون سواه.

بدون علم وقدرة.

﴿٧﴾ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، تثبت الأرض بها فيأمنون على حياتهم من الميدان وسقوط كل بناء.

﴿٨﴾ ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾، الخلق مظهر من مظاهر القدرة والعلم وكونهم أزواجًا[1] مظهر من مظاهر الحكمة والرحمة.

﴿٩﴾ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، أي راحة لأبدانكم.

﴿١٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾، ساترًا بظلامه.

﴿١١﴾ ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾، للعيش كسبًا له وتمتعًا به.

﴿١٢﴾ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، وهي السموات السبع الشديدة القوية البناء لا تفنى ولا تزول إلى أن يأذن هو سبحانه وتعالى بزوالها.

﴿١٣﴾ ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، هو الشمس المشرقة المضيئة.

﴿١٤﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾، أي السحابات التي حان لها أن تمطر تشبيهًا لها بالجارية المعصر التي قاربت الحيض ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ صبابًا وابلاً.

﴿١٥﴾ - ﴿١٦﴾ وذلك ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝﴾، الحب كالبر والذرة لطعامكم، والنبات كالكلأ والعشب لحيواناتكم، وجنات، أي بساتين ملتفة الأشجار غناء بالثمار المختلف الألوان، والطعوم كل هذه المذكورات مفتقرة إلى قدرة لا يعجزها شيء وعلم أحاط بكل شيء وحكمة لا يخلو منها شيء ورحمة تعم كل شيء والله وحده ذو القدرة والعلم والحكمة والرحمة فكيف ينكر توحيده ويكذب رسوله، ويستبعد بعثه للناس يوم القيامة لحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم في هذه الدار وهي مختلفة منها الصالح ومنها الفاسد هل من الحكمة في شيء أن يظلم الظالمون ويفسد المفسدون، ويعدل العادلون ويصلح المصلحون ويموتون سواء ولا يكون هناك حياة أخرى يجزى فيها المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه اللهم لا لا إنه لا بد من حياة أخرى.

هداية الآيات:

١ - مظاهر القدرة والعلم والحكمة والرحمة الإلهية في كل الآيات من قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝﴾، إلى قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝﴾.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء والنبوة والتوحيد وهي التي اختلف الناس فيها ما بين مثبت وناف، ومصدق ومكذب.

٣ - سيحصل العلم الكامل بهذه المختلف فيها بين الناس عند نزع الروح ساعة الموت، ولكن لا فائدة من العلم ساعتها إذ قضي الأمر وانتهى الخلاف.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ - ٣٠]

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾: أي الفصل بين الخلائق ليجزي كل امرىء بما كسب. ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾: أي ذا وقت محدد معين لدى الله عز وجل فلا يتقدم ولا يتأخر.

﴿١٨﴾ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾: أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور.

﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾: أي تأتون أيها الناس جماعات جماعات إلى ساحة فصل القضاء.

﴿١٩﴾ ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾: أي لنزول الملائكة.

﴿٢٠﴾ ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾: أي ذهب بها من أماكنها. ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾: أي مثل السراب فيتراءى ماء وهو ليس بماء فكذلك الجبال.

﴿٢١﴾ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝﴾: أي راصدة لهم مرصدة للظالمين مرجعًا يرجعون إليها.

﴿٢٣﴾ ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝﴾: أي دهورًا لا نهاية لها.

﴿٢٤﴾ ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾: أي نومًا ولا شرابًا مما يشرب تلذذًا به إذ شرابهم الحميم.

﴿٢٥﴾ ﴿وَغَسَّاقًا﴾: أي ما يسيل من صديد أهل النار، جوزوا به عقوبة لهم.

﴿٢٦﴾ ﴿جَزَاءً وِفَاقًا ۝﴾: إذ لا ذنب أعظم من الكفر، ولا عذاب أعظم من النار.

﴿٢٨﴾ ﴿كِذَّابًا﴾: أي تكذيبًا.

﴿٣٠﴾ ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾: أي فوق عذابكم الذي أنتم فيه.

معنى الآيات:

بعد أن ذكر تعالى آيات قدرته على البعث والجزاء الذي أنكره المشركون واختلفوا فيه ذكر في هذه الآيات عرضًا وافيًا للبعث الآخر وما يجري فيه، وبدأ بذكر الأحداث للانقلاب الكوني.

﴿١٧﴾ ثم ذكر جزاء الطاغين تفصيلاً فقال عز وجل: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾

---

(١) الزوج: هو مكرر الواحد وشاع إطلاق الزوج على كل من الذكر والأنثى فالرجل زوج لأنثاه والمرأة زوج لزوجها.

أي بين الخلائق، ﴿كَانَ مِيقَـٰتًا﴾[1]، لما أعدّ الله للمكذبين بلقائه الكافرين بتوحيده المنكرين لرسالة نبيه فيه، يجزيهم الجزاء الأوفى.

(١٨) ثم ذكر تعالى أحداثًا تسبقه فقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل نفخة البعث وهي الثانية فتأتون أيها الناس أفواجًا أي جماعات.

(١٩) ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي انشقت ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ لنزول الملائكة منها.

(٢٠) ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝﴾ هباءً منبثًا كالسراب في نظر الرائي.

(٢١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝﴾[2] أي إنه بعد الحساب يأتي الجزاء وها هي ذي جهنم قد أرصدت وأعدت فهي مرصاد، مرصاد لمن؟

(٢٢) ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾ المتجاوزين الحد الذي حدد لهم وهو أن يؤمنوا بربهم ويعبدوه وحده ويتقربوا إليه بفعل محابه وترك مكارهه فتجاوزوا ذلك إلى الكفر بربهم والإشراك به وتكذيب رسوله وفعل مكارهه وترك محابه هؤلاء هم الطاغون الذي أرصدت لهم جهنم فكانت لهم مرصادًا ومرجعًا ومآبًا.

(٢٣) ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝﴾[3] أي دهورًا.

(٢٤) ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾[4] أي نومًا لأن النوم يسمى البرد في لغة بعض العرب، ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ ذا لذة.

(٢٥) ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ وهو الماء الحار ﴿وَغَسَّاقًا﴾ وهو ما يسيل من صديد أهل النار.

(٢٦) ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝﴾ أي موافقًا لذنوبهم لأنه لا أعظم من الكفر ذنبًا ولا من النار عذابًا.

(٢٧) ثم ذكر تعالى مقتضى هذا العذاب فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝﴾ أي ما كانوا يؤمنون بالحساب ولا بالجزاء ولا يخافون من ذلك.

(٢٨) ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ۝﴾ أي بآياته وحججه تكذيبًا زائدًا.

(٢٩) وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ۝﴾ إذ كانت الملائكة تكتب أعمالهم وتحصيها عليهم فهم يتلقون جزاءهم العادل ويقال لهم توبيخًا وتبكيتًا وهم في أشد العذاب وأمرّه.

الجزء الثلاثون — سورة النبأ

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا (٣٥) جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا (٣٦) رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا (٣٩) إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا (٤٠)

ترتيبها ٧٩ — سورة النازعات — آياتها ٤٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا (١) وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا (٢) وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا (٣) فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا (٤) فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥)

٥٨٣

---

(١) قال القرطبي: أي وقتًا مجمعًا للأولين والآخرين لما وعد الله من الجزاء وسمي بيوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلائق.

(٢) قال الحسن: إن على النار رصدًا لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه فمن جاء بجواز جاز ومن لم يجىء بجواز حُبس، والمرصاد: المكان للرصد أي الرقابة.

(٣) قال القرطبي: أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب وهي لا تنقطع كلما مضى حقب جاء حقب والحقب بضمتين والأحقاب الدهور والحقبة بالكسرة السنة والجمع حقب قال الشاعر:

كنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لنا يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالك ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

والحقب بالضم والسكون: ثمانون سنة.

(٤) من شواهد البرد بمعنى النوم قول العرب: منع البرد البرد أي منع البرد النوم، ومنه قول الشاعر:

ولو شئت حرمت النساء سواكم ... وإن شئت لم أطعم نقاخًا ولا بردا

(٣٠) ﴿فَذُوقُوا[١] فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فيعظم عندهم الكرب ويستحكم من نفوسهم اليأس. وهذا جزاء من تنكر لعقله فكفر بربه وآمن بالشيطان وعبد الهوى. والعياذ بالله تعالى.

هداية الآيات:

١ - التنديد بالطغيان وبيان جزاء الظالمين.

٢ - التنديد بالتكذيب بالبعث والمكذبين به.

٣ - أعمال العباد مؤمنهم وكافرهم كلها محصاة عليها ويجزون بها.

٤ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر آثارها.

٥ - أبديّة العذاب في الدار الآخرة وعدم إمكان نهايته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣١ ـ ٤٠]

(٣١) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾: أي الذين اتقوا الشرك والمعاصي خوفًا من ربهم وعذابه. ﴿مَفَازًا﴾: أي مكان فوز ونجاة وهو الجنة.

(٣٢) ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَابًا ۝﴾: أي بساتين وأعنابًا.

(٣٣) ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: أي شابات تكعبت ثديهن الواحدة كاعب والجمع كواعب. ﴿أَتْرَابًا﴾: أي في سن واحدة وأتراب جمع واحده تِرب.

(٣٤) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝﴾: أي خمرًا كأسها ملأى بها.

(٣٥) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾: أي في الجنة لغوًا أي باطلاً ولا كذبًا من القول.

(٣٦) ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾: أي عطاءً كثيرًا كافيًا يقال أعطاني فأحسبني.

(٣٨) ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾: ملك عظيم يقوم وحده صفًا والملائكة صفًا وحدهم.

(٣٩) ﴿مَآبًا﴾: أي مرجعًا سليمًا وذلك بالإيمان والتقوى إذ بهما تكون النجاة.

(٤٠) ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: أي ما أسلفه في الدنيا من خير وشر. ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾: أي حتى لا أعذب وذلك يوم يقول الله تعالى للبهائم كوني ترابًا وذلك بعد الاقتصاص لها من بعضها بعضًا.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء المستلزمة لعقيدة التوحيد والنبوة بعد أن ذكر تعالى حال الطغاة الفجار وبين مصيرهم غاية البيان ثنّى بذكر المتقين الأبرار وبين مصيرهم وأنه جنات تجري من تحتها الأنهار.

(٣١) ـ (٣٣) فقال وقوله الحق وخبره الصدق: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ[٢] مَفَازًا﴾ أي مكان فوز ونجاح وبيّنه بقوله: ﴿حَدَآئِقَ﴾[٣]، أي بساتين، ﴿وَأَعْنَابًا ۝ وَكَوَاعِبَ﴾، جمع كاعب الفتاة ينكعب ثديها أي يستدير ويرتفع كالكعب وذلك عند بلوغها، وقوله في وصفهن: ﴿أَتْرَابًا﴾ جمع ترب أي في سن واحدة دون الثلاثين سنة.

(٣٤) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا[٤]﴾ أي كأس خمر ملأى.

(٣٥) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾ أي في الجنة. ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ لا قولاً باطلاً ولا كذبًا.

(٣٦) وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝﴾ أي جزاهم ربهم بذلك فجعله عطاءً كافيًا[٥] ووصف الجبار نفسه تعليمًا وتذكيرًا فأبدل من قوله من ربك:

(٣٧) قوله: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي مالكهما و المتصرف فيهما ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها. ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝﴾.

(٣٨) ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ ملك عظيم لا يقادر قدره وحده صفًا ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ هنا لا يملك أحد من الخلق من الرحمٰن خطابًا وقوله: ﴿لَّا

---

(١) قال أبو برزة: سألت النبي ﷺ عن أشد آية في القرآن، فقال: «قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾».

(٢) المتقون هم الذين اتقوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه فحافظوا بذلك على زكاة نفوسهم فاستوجبوا لذلك الجنات واستحقوها فاللام للمتقين هي لام الاستحقاق.

(٣) ﴿حَدَآئِقَ﴾ بدل بعض من كل والحدائق جمع حديقة: البستان المحاط بجدار.

(٤) ﴿دِهَاقًا﴾ بمعنى ملأى وهذا من باب إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول فالدهاق كالدهق مصدر وأريد به المدهوق أي المملوء.

(٥) كافيًا: تفسير كلمة حسابًا إذ من أُعطِي ما يكفيه يقول حسبي.

﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾ بين يديه ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ[1] لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ﴾ قولاً ﴿صَوَابًا﴾ وفي الصحيح أن النبي محمدًا ﷺ هو أول من يكلم الله عز وجل في الموقف حيث يأتي تحت العرش فيخر ساجدًا فلا يزال ساجدًا يحمد الله تعالى بمحامد يلهمها ساعتئذ فيقول له الرب تعالى ارفع رأسك وسل تعطَ واشفع تُشفع.

(٣٩) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ[2] الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه ولا شك وهو يوم الفصل وبناء عليه فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبًا أي مرجعًا إليه بالإيمان والطاعة.

(٤٠) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أي خوفناكم عذابًا قريبًا جدًا يبتدىء بالموت ولا ينتهي أبدًا، وذلك ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من خير أو شر أي يرى جزاء عمله عيانًا إن كان عمله خيرًا جزي بمثله وإن كان شرًا جزي بمثله. ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ إنه لما يرى البهائم بعد القصاص لما صارت ترابًا يتمنى الكافر وهو في عذابه أن لو كان ترابًا مثل البهائم ولولا العذاب وشدته ودوامه لما تمنى أن يكون ترابًا أبدًا.

هداية الآيات:

١ ـ بيان كرامة المتقين وفضل التقوى.

٢ ـ وصف جميل لنعيم الجنة.

٣ ـ ذم الكذب واللغو وأهلهما.

٤ ـ بيان شدة الموقف وصعوبة المقام فيه.

٥ ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٦ ـ الترغيب في العمل الصالح واجتناب العمل السيء الفاسد.

❁ ❁ ❁

سورة النازعات
مكية
وآياتها ست وأربعون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٤]

(١) ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾: أي الملائكة تنزع أرواح الفجار والكفار عند الموت بشدة.

(٢) ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾: أي الملائكة تنشط أرواح المؤمنين الصالحين نشطًا أي تسلها برفق.

(٣) ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾: أي الملائكة تسبح من السماء بأمر الله أي تنزل به إلى الأرض.

(٤) ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾: أي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

(٥) ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾: أي الملائكة تدبر أمر الدنيا أي تنزل بتدبيره من لدن الله المدبر الحكيم.

(٦) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾: أي النفخة الأولى نفخة الفناء التي يتزلزل كل شيء معها.

(٧) ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾: أي النفخة الثانية.

(٨) ﴿وَاجِفَةٌ﴾: أي خائفة قلقة.

(١٠) ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾: أي أنُرد بعد الموت إلى الحياة إذ الحافرة[3] اسم لأول الأمر.

(١٢) ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾: أي رجعة إلى الحياة خاسرة.

(١٣) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: أي نفخة واحدة.

(١٤) ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾: أي بوجه الأرض أحياء سميت ساهرة لأن من عليها بها يسهر ولا ينام.

معنى الآيات:

(١) ـ (٥) قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ[4]

---

(١) الإذن: اسم للكلام الذي يفيد إباحة فعل أو قول للمأذون، وهو مشتق من أذن له إذا استمع إليه. نحو: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

(٢) هذه الجملة كالفذلكة لما تقدم من وعد ووعيد وإنذار وتبشير سيق مساق التنويه بيوم الفصل الذي هو اليوم الحق الثابت قطعًا.

(٣) يقال: رجع فلان إلى حافرته أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها برجليه وهو يمشي، قال الشاعر:

أحافرة على صلع وشيب   معاذ الله من سفه وعار

أي أرجع إلى حالة الشباب بعد الصلع والشيب، والشاهد في إنكاره الرجوع إلى حياته الأولى.

(٤) النازعات: جمع نازعة وهي الجماعة من الملائكة والنزع هو إخراج الروح من الجسد مشبه بنزع الدلو من البئر. ولذا يقول فلان في حالة النزع للمحتضر، وغرقًا: اسم مصدر عدل عن المصدر الذي هو إغراقًا لمناسبة سبحًا ونشطًا وسبقًا في الآيات ومعناه الإغراق في نزع الروح من أقصى الجسد.

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى (٢٦) أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)

ترتيبها ٨٠ — سورة عبس — آياتها ٤٢

غرقًا﴾، الآيات، هذا قسم عظيم أقسم تعالى به على أنه لا بد من البعث والجزاء حيث كان المشركون ينكرون ذلك حتى لا يقفوا عند حد في سلوكهم فيواصلوا كفرهم وفسادهم جريًا وراء شهواتهم كل أيامهم وطيلة حياتهم كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾، فأقسم تعالى بخمسة أشياء وهي النازعات والناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات، ورجح أنهم أصناف من الملائكة وجائز أن يكون غير[1] ذلك ولا حرج إذ العبرة بكونه تعالى قد أقسم ببعض مخلوقاته على أن البعث حق ثابت وواقع لا محالة، وتقدير جواب القسم بلتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم إذ هو معهود في كثير من الإقسام في القرآن كقوله تعالى من سورة التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

(٦) وسيتم ذلك البعث والجزاء ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾[2] التي هي النفخة الأولى التي ترجف فيها العوالم كلها ويفنى فيها كل شيء، ثم ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ وهي النفخة الثانية وهي نفخة البعث من القبور أحياء وأن بين النفختين أربعين سنة كما ذكر ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح.

(٨) ـ (٩) وقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، أي خائفة قلقة، ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾، أي أبصار أصحاب تلك القلوب خاشعة أي ذليلة خائفة.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾، أي منكرو البعث، ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾، أي أنرد بعد الموت إلى الحياة من جديد كما كنا أول مرة.

(١١) ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾، أي بالية مفتتة، وقولهم هذا استبعاد منهم للبعث وإنكار له.

(١٢) وقالوا: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، يعنون أنهم إذا عادوا إلى الحياة مرة أخرى فإن هذه العودة تكون خاسرة وهي بالنسبة إليهم كذلك إذ سيخسرون فيها كل شيء حتى أنفسهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، أي صيحة واحدة وهي نفخة إسرافيل الثانية نفخة البعث.

(١٤) ﴿فَإِذَا هُم﴾ أولئك المكذبون وغيرهم من سائر الخلق، ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾، أي وجه الأرض، وقيل فيها الساهرة لأن من عليها يومئذ لا ينامون بل يسهرون أبدًا فردّ تعالى بهذا على منكري البعث الآخر وقرره عز وجل بما لا مزيد عليه إعذارًا وإنذارًا ولا يهلك على الله إلا هالك.

هداية الآيات:

١ ـ بيان أن الله تعالى يقسم بما

---

(١) إذ يرى بعضهم أنها النجوم ويرى بعضهم أنها جماعات الخيل الغازية والرماة أو الفرسان إلا أن الراجح أنها الملائكة، فـ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ الملائكة تنزع أرواح الكافرين، ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾: تنشط أرواح المؤمنين ﴿نَشْطًا﴾ تأخذها بسرعة كما ينشط العقال من يد البعير ﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾: تسبح بأرواح المؤمنين ترفعها إلى الملكوت الأعلى، ﴿فَالسَّابِقَاتِ﴾: الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء، ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ﴾: الملائكة تقوم بتدبير ما أسند الله إليها كقبض الأرواح، وإنزال الأمطار وإرسال الرياح، ونفخ الأرواح إلى غير ذلك.

(٢) إطلاق الراجفة والرادفة على الصيحة إطلاق سائغ وهو إطلاق على مسبّبة الراجفة وهي الصيحة والرادفة التي جاءت بعدها وهي الصيحة الثانية.

يشاء من مخلوقاته بخلاف العبد لا يجوز له أن يقسم بغير ربه تعالى.

٢ - بيان أن روح المؤمن تنزع عند الموت نزعًا سريعًا لا يجد من الألم ما يجده الكافر.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بالإقسام عليها وذكر كيفية وقوعها.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ - ٢٦]

(١٥) ﴿مُوسَىٰٓ﴾: أي موسى بن عمران عليه السلام.

(١٦) ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: أي بالواد الطاهر المبارك المسمى بطوى.

(١٧) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: أي بأن اذهب إلى فرعون. ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾: أي تجاوز حده كعبد إلى ادعاء الربوبية والألوهية.

(١٨) ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾: أي تسلم فتطهر من رجس الشرك والكفر بالإسلام لله تعالى.

(١٩) ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي أرشدك إلى معرفة ربك الحق فتخشاه وتطيعه فتنجو من عذابه.

(٢٠) ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝﴾: أي العصا واليد إذ هي من أكبر الآيات الدالة على صدق موسى.

(٢٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝﴾: أي بعدما كذب وعصى رجع يجمع جموعه ويحشر جنوده لحرب موسى وقال كلمة الكفر أنا ربكم الأعلى فلا طاعة إلاّ لي.

(٢٥) ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝﴾: أي عذّبه تعالى عذاب الآخرة وهو قوله أنا ربكم الأعلى وعذاب الأولى وهي قوله ما علمت لكم من إله غيري.

معنى الآيات:

(١٥) قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝﴾، الآيات.. المقصود من هذه الآيات تسلية الرسول ﷺ وهو يعاني من تكذيب قومه له ولما جاء به من التوحيد والشرع فقصّ تعالى عليه طرفًا من قصة موسى مع فرعون تخفيفًا عليه، وتهديدًا لقومه بعقوبة تنزل بهم كعقوبة فرعون الذي كان أشد منهم بطشًا وقد أهلكه الله فأغرقه وجنده.. فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾[1] يا رسولنا ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ بن عمران.

(١٦) ﴿إِذْ[2] نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي بالواد المطهر المبارك المسمى طوى ناداه فأعلمه أولاً أنه لا إله إلا هو وأمره بعبادته، ثم أمره بأن يذهب إلى فرعون الوليد بن الريان ملك القبط بمصر فقال له:

(١٧) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، أي عتا وتكبّر وظلم فأفحش في الظلم والفساد.

(١٨) وعلّمه ما يقول له إذا انتهى إليه فقل: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[3] أي إلى أن تسلم فتزكو روحك وتطهر بالإسلام.

(١٩) ﴿وَأَهْدِيَكَ[4] إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي وأرشدك إلى ربك وأعرفك به فتخشى أي عقابه فتترك الظلم والطغيان.

(٢٠) قال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝﴾، والتي هي اليد والعصا.

(٢١) ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى في دعوته ﴿وَعَصَىٰ﴾ ربّه فلم يستجب له ولم يطعه فيما أمره به ودعاه إليه من الإيمان برسالة موسى وإرسال بني إسرائيل معه بعد الإسلام لله ظاهرًا وباطنًا.

(٢٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ فرعون أي عن دعوة الحق رافضًا لها ﴿يَسْعَىٰ﴾ في الباطل والشر.

(٢٣) ﴿فَحَشَرَ﴾ رجاله وجنده ﴿فَنَادَىٰ﴾ أي ناداهم ليعدهم إلى حرب موسى.

(٢٤) ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝﴾ يعني أنه لا ربّ فوقه.

(٢٥) ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ أي عذّبه ﴿نَكَالَ﴾[5] أي عذاب ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي الكلمة وهي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾

---

(١) ﴿هَلْ﴾ الاستفهام هنا صُوري، المراد به تشويق السامع إلى الخبر ولذا استعمل فيه ﴿هَلْ﴾ التي هي بمعنى قد للتحقيق أي: قد أتاح حديث موسى العجيب فاستمع.

(٢) (إذ): اسم زمان بدل اشتمال من حديث موسى.

(٣) قرأ نافع ﴿تزكى﴾ بتشديد الزاي وقرأ حفص بتخفيفها فمن شددها أدغم فيها إحدى تاءي تتزكى ومن خفف حذف إحدى التاءين لأن أصل الفعل تتزكى بتاءين.

(٤) الهداية: الدلالة على الطريق الموصل إلى المطلوب إذا سلكه المرء وصل إلى مرغوبه.

(٥) النكل: القيد. قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ جمع نكل ويطلق النكال على العذاب والهروب منه وأخذ منه فعل نكل تنكيلاً أي عذبه تعذيبًا فنكال الأولى أي عذاب الأولى ونكال الآخرة عذاب الآخرة كما هو مبين في التفسير.

ونكال الأولى وهي قوله «ما علمت لكم من إله غيري» وبين الكلمتين الخبيثتين أربعون سنة فالأولى قالها في بداية الدعوة حيث ادّعى أنه بحث واستقصى في البحث واجتهد وأنه بعد كل ذلك الاجتهاد لم يعلم أن للناس من قومه من إله سواه.

(٢٦) وقوله تعالى إن في ذلك ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن(١) يَخْشَىٰ﴾ أي فيما قصّ تعالى من خبر موسى وفرعون ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي عظة لمن يخشى الله وعذاب الدار الآخرة فيؤمن ويتقي أي فيزداد إيمانًا وتقوى.

هداية الآيات:

١ - تسلية الداعي إلى الله تعالى وحمله على الصبر في دعوته حتى ينتهي بها إلى غاياتها.

٢ - إثبات مناجاة موسى لربّه تعالى وأنه كلّمه ربّه كفاحًا بلا واسطة.

٣ - تقرير أن لا تزكية للنفس البشرية إلا بالإسلام أي بالعمل بشرائعه.

٤ - لا تحصل الخشية من الله للعبد إلا بعد معرفة الله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء.

٥ - وجود المعجزات لا يستلزم الإيمان فقد رأى فرعون أعظم الآيات كالعصا واليد وما آمن.

٦ - التنديد والوعيد الشديد لمن يدّعي الربوبية والألوهية فيأمر الناس بعبادته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٧ ـ ٣٣]

(٢٧) ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾؟: أي أشد خلقًا.

(٢٨) ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾: أي غلظها وارتفاعها. ﴿فَسَوَّاهَا﴾: أي جعلها مستوية سطحًا واحدًا ما فيها نتوء ولا انخفاض.

(٢٩) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: أي أظلمه جعله مظلمًا. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾: أي ضوءها ونهارها.

(٣٠) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾: أي بعد أن خلق الأرض خلق السماء ثم دحا الأرض أي بسطها وأخرج منها ماءها ومرعاها.

(٣٢) ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾: أي أثبتها على سطح الأرض لتثبت ولا تميد بأهلها.

(٣٣) ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾: أي أخرج من الأرض ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعًا لكم ولأنعامكم وهي المواشي من الحيوان.

معنى الآيات:

(٢٧) ـ (٢٩) قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ(٢) خَلْقًا﴾ الآيات.. سيقت هذه الآيات الكريمة لتقرير عقيدة البعث والجزاء بإيراد أكبر دليل عقلي لا يرده العاقل أبدًا وهو أن السماء في خلقها وما خلق الله فيها، وأن الأرض في خلقها وما خلق الله فيها أشد خلقًا وأقوى وأعظم من خلق الإنسان بعد موته فالبشرية كلها لا يساوي حجمها حجم كوكب واحد من كواكب السماء ولا سلسلة واحدة من سلاسل الجبال في الأرض فضلًا عن السماء والأرض. إذًا فالذي قدر على خلق السماء وما فيها والأرض وما فيها قادر قطعًا ومن باب أولى على خلق الإنسان مرة أخرى وقد خلقه أولاً فإعادة خلقه بإحيائه بعد موته أيسر وأسهل وأمكن من خلقه أولاً على غير مثال سبق، ولا صورة تقدمت، ولكن أكثر الناس لا يعلمون لأنهم لا يفكرون وهذا عرض الآيات قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أيها المنكرون للبعث المكذبون به ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾(٣) والجواب الذي لا شك فيه هو أن السماء أشد خلقًا منهم وبيان ذلك فيما يلي:

١ - بناها فهي سقف للأرض مرفوعة فوقها مسوّاة فلا انفطار فيها ولا ارتفاع لبعض وانخفاضًا لبعض آخر بل هي كالزجاجة في سمتها واعتدالها في خلقها.

٢ ـ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾(٤) فإن غلظها مقدر بمسيرة خمسمائة عام.

---

(١) ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي يخشى الله تعالى وهو المؤمن التقي إذ مثله النفسي هو الذي يجد العظة والعبرة فيما يعرض عليه من أحداث فاصلة أما الكافر فأنى له أن يسمع حتى يبصر؟

(٢) الاستفهام تقريري أي إلجاؤهم إلى الإقرار والاعتراف بأن خلق السماء أعظم من خلقهم إذًا كيف ينكرون البعث والحياة الثانية؟

(٣) المراد بالسماء السماء الدنيا المشاهدة للناس، وإن كان لفظ السماء يطلق إطلاق أسماء الأجناس الدالة على أكثر من واحد والبناء للسماء وهو خلقها في صورة بناء رفيع.

(٤) السمك بفتح السين وتسكين الميم الرفع في الفضاء، وهو مصدر سمك إذا رفع والسمك محرك السين والميم الحوت المعروف واحده سمكة كبقرة.

٣ - ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ فجعله مظلمًا.
٤ - ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ فجعل نهارها مضيئًا. هذه هي السماء.
(٣٠) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعد[1] أن خلقها أولاً وقبل السماء عاد إليها فدحاها بأن بسطها للأنام ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ ففجر فيها عيونها وأخرج منها مرعى وهو ما يرعى من سائر الحبوب والثمار والنبات والأشجار منفعة للإنسان ولحيوانه المفتقر إليه في ركوبه[2] وطعامه وشرابه وما ذكر تعالى من مظاهر القدرة والعلم والحكمة والرحمة في الأرض لا يقل عما ذكر في السماء إن لم يكن أعظم فكيف إذًا ينكر الإنسان على ربّه أن يعيده حيًا بعد إماتته له ليحاسبه وليجزيه إنه بدل أن ينكر يجب عليه أن يشكر، ولكن الإنسان ظلوم كفار.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.
٢ - بيان إفضال الله تعالى على الإنسان وإنعامه عليه.
٣ - مشروعية الاستدلال بالكبير على الصغير وبالكثير على القليل وهو مما يعلم بداهة وبالضرورة إلا أن الغفلة أكبر صارف وأقوى حايل فلا بد من إزالتها أولاً.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٤ - ٤٦]

(٣٤) ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾: أي النفخة الثانية وأصل الطامة الداهية التي تعلو على كل داهية.
(٣٥) ﴿مَا سَعَى﴾: أي ما عمل في الدنيا من خير وشر.
(٣٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾: أي كفر وظلم.
(٣٨) ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: أي باتباع الشهوات.
(٣٩) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾: أي النار مأواه.
(٤٠) ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾: أي قيامه بين يديه ليسأله عما قدّم وأخر. ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾: أي المردي المهلك باتباع الشهوات.
(٤١) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾: أي مأواه الذي يأوي إليه بعد الحساب.
(٤٢) ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾: أي القيامة للحساب والجزاء. ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾: أي متى وقوعها وقيامها.
(٤٣) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾: أي في أي شيء من ذكراها أي ليس عندك علمها حتى تذكرها.
(٤٤) ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾: أي منتهى علمها إلى الله وحده فلا يعلمها سواه.
(٤٦) ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾: أي في قبورهم. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾: أي عشية يوم أو ضحى تلك العشية.

معنى الآيات:

بعد أن بيّن تعالى مظاهر قدرته في حياة الناس وما خلق لهم فيها تدليلاً على البعث والجزاء وذكر في هذه الآيات مظاهر قدرته في معادهم تدليلاً على قدرته على بعثهم بعد موتهم ومحاسبتهم ومجازاتهم.
(٣٤) فقال عز من قائل: ﴿فَإِذَا[3] جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ أي القيامة وسميت بالطامة الكبرى لأنها تطم على[4] كل شيء ولا يعظمها شيء لا ريح عاد ولا صيحة ثمود ولا رجفة يوم الظلة.
(٣٥) ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾

---

(١) اختلف في أيها خلق الله تعالى أولاً الأرض أم السماء والراجح أنها الأرض أولاً لقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ الآية من سورة فصلت. وطريق الجمع كما في التفسير خلق الأرض أولاً ثم السموات ثم عاد إلى الأرض فدحاها بمعنى ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ أي أعدها إعدادًا خاصًا لحياة الإنسان والحيوان وهو المراد من قوله: ﴿دحاها﴾ إذ الدحو البسط والتسوية والترتيب.

(٢) إذ هن المراد من قوله تعالى في الآية: ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ التي هي الإبل والبقر والغنم فالإبل يُركب ظهرها ويشرب لبنها ويؤكل لحمها.

(٣) فالفاء للتفريع عما تقدم، إن تقدم مظاهر قدرته في الكون والحياة تدليلاً على قدرته على البعث والجزاء ففرع عنه بيان أحوال البعث وما يجري فيه تقريرًا له ووقوفًا بالمنكرين له على مصيرهم فيه مبالغة في طلب هدايتهم وإقامة الحجة عليهم.

(٤) أصل الطامة: الحادثة التي تطم أي تلو وتغلب أمثالها من الأحداث الجسام والمراد بها هنا القيامة، قال سفيان: ﴿الطَّامَّةُ﴾ هي الساعة التي يسلم فيها أهل النار للزبانية. قال الشاعر:

إن بعض الحب يعمي ويصم   وكذاك البغض أدهى وأطم

من خير أو شر لأنه أيقن أنه محاسب ومجزيّ بعمله.

(٣٦) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي أبرزها فظهرت لمن يراها لا يخفيها شيء. والناس بعد ذلك مؤمن وكافر والطريق طريقان طريق جنة وطريق نار.

(٣٧) ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي عتا عن أمر ربّه فعصاه ولم يطعه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه.

(٣٨) ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على الآخرة فعمل للدنيا وصرف كل جهده وطاقته لها، ولم يعمل للآخرة فما صام ولا صلى ولا تصدّق ولا زكّى.

(٣٩) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي مأواه ومستقره ومثواه شرابه الحميم وطعامه الزقوم.

(٤٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ وهو الوقوف بين يديه لمساءلته ومجازاته فأدى الفرائض واجتنب النواهي، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي نفسه عن هواها فلم يجبها في هوى يبغضه الله ولم يطعها في شيء حرمه الله.

(٤١) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ﴾ دار السلام والأبرار والمتقين الأخيار ﴿هِىَ﴾ مأواه ولنعم ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ هي حيث العيون الجارية والسرر المرفوعة والأكواب الموضوعة والنمارق المصفوفة والزرابي المبثوثة والكواعب العرب الأتراب ولقاء الأحباب[1].

(٤٢) وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي يسألك يا رسولنا المنكرون للبعث عن الساعة أي قيامها ومتى رسوها وثبوتها وهي كالسفينة سائرة ليل نهار متى ترسو؟

(٤٣) ﴿فِيمَ﴾[2] أي في أي شيء ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي ليس عندك علمها فتذكرها لهم.

(٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده علم وقت مجيئها وساعة رسوها لتنقل الناس من دنياهم إلى آخرتهم، وبذلك تنتهي رحلتهم ويستقر قرارهم. وينتهي ليلهم ونهارهم.

(٤٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي ليس إليك يا رسولنا علمها ولا منتهى أمرها إنما أنت مهمتك غير ما يطلب منك إنها إنذار من يخشى الساعة ويخاف حلولها لإيمانه بها وبما يكون فيها من نعيم وجحيم.

(٤٦) أما من لا يؤمن بها فهو لا يخافها وسؤاله عنها سؤال استهزاء، فلا تحفل بهم ولا تهتم لهم فإنهم ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ كأن ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في دنياهم هذه وقبورهم. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي عشية يوم أو ضحى تلك العشية لما يستقبلون من أهوال الموقف وفظائع العذاب.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحوالها وصفاتها.

٢ - الناس يوم القيامة مؤمن تقيّ في الجنة، وكافر وفاجر في النار.

٣ - بيان استئثار الله تعالى بعلم الغيب والساعة.

٤ - بيان أي الشدائد ينسى بعضها بعضًا فإن عذاب القبر يهون أمام عذاب النار.

❁ ❁ ❁

سورة عبس
مكية
وآياتها ثنتان وأربعون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٦]

(١) ﴿عَبَسَ﴾: أي النبي ﷺ بمعنى كلح وجهه وتغيّر. ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أي أعرض.

(٢) ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾: أي لأجل أن جاء عبدالله بن أم مكتوم فقطعه عما هو مشغول به من دعوة بعض أشراف قريش للإسلام.

(٣) ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾: أي يتطهر من الذنوب.

(٤) ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾: أي يتعظ. ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾: أي الموعظة.

(٥) ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾: عن الإيمان والعلم والدين بالمال والجاه.

(٦) ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾: أي تقبل عليه وتتصدى له.

---

(١) كل ما ذكر من قولنا العيون إلى لقاء الأحباب هو من القرآن. يروى أن بلالاً وهو في سياقة الموت يغمى عليه فإذا أفاق ووجد امرأته تبكي يقول لها: لا تبكي غدًا ألقى الأحبة محمدًا وصحبه.

(٢) اسم استفهام أريد به الإنكار مشوبًا بالتعجب من إلحاح المشركين على الرسول ﷺ أن يعين لهم وقتها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢

٥٨٥

٧ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾: أي ليس عليك بأس في عدم تزكيته نفسه بالإسلام.

٨ ﴿يَسْعَىٰ﴾: أي في طلب الخير من العلم والهدى.

١٠ ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾: أي تشاغل.

١١ ﴿كَلَّا﴾: أي لا تعد لمثل ذلك. ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾: أي الآيات عظة للخلق.

١٣ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾: أي عند الله.

١٤ ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾: أي في السماء. ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾: أي منزهة عن مس الشياطين.

١٥ ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾: كتبة ينسخونها من اللوح المحفوظ.

١٦ ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾: مطيعين لله وهم الملائكة.

معنى الآيات:

١ـ ٢ قوله تعالى: ﴿عَبَسَ[1] وَتَوَلَّىٰ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ هذا عتاب لطيف يعاتب به الله سبحانه وتعالى رسوله محمدًا ﷺ فالذي عبس بمعنى قطب وجهه وأعرض هو رسول الله ﷺ والأعمى الذي لأجله عبس رسول الله وأعرض عنه هو عبدالله بن أم مكتوم الأعمى أحد المهاجرين ابن خال خديجة بنت خويلد أم المؤمنين. وسبب هذا العتاب الكريم أن رسول الله ﷺ كان في مكة يومًا ومعه صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبدالمطلب وأميّة بن خلف يدعوهم إلى الإسلام مجتهدًا معهم يرغبهم ويرهبهم طمعًا في إسلامهم فجاء عبدالله بن أم مكتوم ينادي يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله وكرر ذلك مرارًا فانزعج لذلك رسول الله ﷺ فكره رسول الله ﷺ قطعه لحديثه مع القوم فعبس وتولى عنه لا يجيبه، وما إن عاد النبي ﷺ إلى منزله حتى نزلت هذه الآيات ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾[2] أي قطب وأعرض.

٢ـ ٣ ﴿أَن[3] جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي وما يعلمك أنه ﴿يَزَّكَّىٰ﴾[4] بما يطلب من القرآن والسنة أي يريد زكاة نفسه وتطهير روحه بما يتعلمه منك.

٤ ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾. أي وما يعلمك لعله بندائه لك وطلبه منك أن يتذكر بما يسمع منك فيتعظ به وتنفعه الذكرى منك.

٥ وقوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ أي عن الإيمان والإسلام وما عندك من العلم بالله والمعرفة استغنى بماله وشرفه في قومه.

٦ ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾[5] أي تتعرض له مقبلًا عليه.

٧ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي وأي شيء يلحقك من الأذى إن لم يتزكَّ ذاك المستغني عنك بشرفه وماله. وكرر تعالى العتاب بالكلمات العذاب[6].

---

(١) ﴿عَبَسَ﴾ أي النبي ﷺ ومعنى ﴿عَبَسَ﴾ قطب ما بين عينيه كراهية لما نابه وحصل له مما أزعجه.

(٢) انظر مضمون هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ..﴾ الآية، وأخرى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية الأولى من سورة الأنعام والثانية من الكهف.

(٣) ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ مجرور بحرف جر محذوف وهو اللام أي لأن جاءه وهذا الحذف مطرد وأصل التركيب لأجل مجيء الأعمى له.

(٤) ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ أصلها يتزكى أي يطلب التزكية لنفسه فأدغمت التاء في الزاي فصارت ﴿يَزَّكَّىٰ﴾.

(٥) قرأ نافع ﴿تصَّدى﴾ بتشديد الصاد والدال معًا، وقرأ حفص بتخفيف الصاد، فمن شدّد أدغم إحدى التاءين في الصاد ومن خفف حذفها.

(٦) العذاب: جمع عذبة بمعنى الحلوة الطيبة إذ كل حلو طيب هو عذب.

(٨) فقال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝﴾ جاءك مسرعًا يجري وراءك يناديك بأحبِ الأسماء إليك يا رسول الله والحال أنه يخشى الله تعالى ويخاف عقابه فلذا هو يطلب ما يزكي به نفسه ليقيها العقاب والعذاب.

(١٠) ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝﴾[1] أي تتشاغل بغيره.

(١١) ﴿كَلَّآ﴾ أي لا تفعل مثل هذا مرة أخرى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي هذه الآيات وما تحمل من عتاب حبيب إلى حبيب موعظة

(١٢) ﴿فَمَن شَآءَ﴾ من عباد الله ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ أي ذكر هذا الوحي والتنزيل.

(١٣) ـ (١٤) ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝﴾ مكرمة عند الله تعالى مرفوعة في السماء مطهرة منزهة عن مس الشياطين لها.

(١٥) ـ (١٦) ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝﴾ أي مطيعين لله صادقين هم الملائكة كتبة ينسخونها من اللوح المحفوظ وما أقرب هذا الوصف من مؤمن كريم النفس طاهر الروح يحفظ كتاب الله ويعمل به بيده مصحف يقرأه ويرتّل كلام الله فيه وقد جاء في الصحيح[2] أن هذا العبد الذي وصفت مع السفرة الكرام البررة. اللهم اجعلني منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

هداية الآيات:

١ ـ بيان مقام النبي ﷺ وأنه أشرف مقام وأسماه دل على ذلك أسلوب عتاب الله تعالى له حيث خاطبه في أسلوب شخص غائب حتى لا يواجهه بالخطاب فيؤلمه فتلطف معه، ثم أقبل عليه بعد أن أزال الوحشة يخاطبه وما يدريك.

٢ ـ إثبات ما جاء في الخبر أدبني ربي فأحسن تأديبي فقد دلت الآيات عليه.

٣ ـ بلغ رسول الله ﷺ بتأديب ربّه له مستوى لم يبلغه سواه، فقد كان إذا جاءه ابن أم مكتوم يوسع له في المجلس ويجلسه إلى جنبه ويقول له مرحبًا بالذي عاتبني ربي[3] من أجله وولاه على المدينة مرات، وكان مؤذنًا له في رمضان.

٤ ـ استحالة كتمان الرسول ﷺ لشيء من الوحي فقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لو كان للرسول أن يكتم شيئًا من وحي الله لكتم عتاب الله تعالى له في عبس وتولى.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ ـ ٣٢]

(١٧) ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: لعن الإنسان الكافر. ﴿مَآ[4] أَكْفَرَهُۥ﴾: أي ما حمله على الكفر؟.

(١٨) ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝﴾: من نطفة خلقه.

(١٩) ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: أي من نطفه إلى علقة إلى مضغة فبشر سويّ.

(٢٠) ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝﴾: أي سبيل الخروج من بطن أمه.

(٢٢) ﴿إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾: أي إذا شاء إحياءه أحياه.

(٢٣) ﴿كَلَّا﴾: حقًا أو ليس الأمر كما يدّعي الإنسان أنه أدى ما عليه من الحقوق. ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾: أي ما كلفه به من الطاعات والواجبات في نفسه وماله.

(٢٤) ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾: أي كيف قدّر ودبّر له.

(٢٧) ـ (٢٨) ﴿حَبًّا ۝ وَعِنَبًا﴾: أي الحب الحنطة والشعير والعنب هو المعروف. ﴿وَقَضْبًا﴾: أي القت الرطب وسمي قضبًا لأنه يقضب أي يقطع مرة بعد مرة.

(٣٠) ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝﴾: أي كثيرة الأشجار والواحدة غلباء كحمراء كثيفة الشجر.

(٣١) ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝﴾: أي ما يتفكه به من سائر الفواكه والأب التبن وما ترعاه البهائم.

---

(١) ﴿تلهى﴾ أصلها تتلهى حذفت إحدى التاءين تخفيفًا، وتلهى تطلب التلهي أو حصل له وهو الانشغال بشيء وترك الآخر.

(٢) في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: **«مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأه وهو يتعاهده وهو عليه شاق شديد فله أجران»**.

(٣) قال الثوري: فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول: مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي ويقول: هل من حاجة؟ واستخلفه بالمدينة مرتين في غزوتين غزاهما قال أنس: فرأيته يوم القادسية راكبًا وعليه درع وراية سوداء.

(٤) جائز أن تكون ما تعجبية إذ من عادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا فيه: قاتله الله ما أحسنه أو ما أقبحه أو ما أجرأه مثلًا. أي: أعجبوا لخلقه من نطفة مع كفره بربه؟

(٣٢) ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾: أي ما تقدم ذكره منفعة لكم ولأنعامكم التي هي الإبل والبقر والغنم.

معنى الآيات:

بعدما عاتب الربّ تبارك وتعالى رسوله على انشغاله بأولئك الكفرة المشركين وإعراضه عن ابن أم مكتوم الأعمى فكان أولئك المشركون هم السبب في إعراض الرسول ﷺ عن ابن أم مكتوم وفي عتاب الله تعالى لرسوله ﷺ فاستوجبوا لذلك لعنة الله تعالى عليهم لكفرهم وكبريائهم جَرَّدَ الله تعالى شخصًا منهم غير معلوم والمراد كل كافر متكبر مثلهم.

(١٧) فقال: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي الكافر ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ أي ما حمله على الكفر والكبر.

(١٨) فلينظر ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ربه الذي يكفر به؟ إنه خلقه من نطفة قذرة.

(١٩) ﴿خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي أطوارًا نطفة فعلقة فمضغة. أمن كان هذا حاله يليق به أن يكفر ويتكبر ويستغني عن الله؟ فلينظر إلى مبدئه ومنتهاه وما بينهما مبدأه نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة. وهو بينهما حامل عذرة. كيف يكفر وكيف يتكبر؟

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ فلولا أن الله تعالى يسر له طريق الخروج من بطن أمه والله ما خرج.

(٢١) ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ بدون استشارته ولا أخذ رأيه. ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾[(١)] هيأ له من يقبره وإلا لأنتن وتعفن وأكلته الكلاب.

(٢٢) ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾[(٢)].

(٢٣) ﴿كَلَّا﴾[(٣)]. أما يصحو هذا المغرور أما يفيق هذا المخدوع. ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ فما له لا يقضي ما أمره ربّه من الإيمان به وطاعته.

(٢٤) ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[(٤)] الذي حياته متوقفة عليه كيف يتم له بتقدير الله تعالى وتدبيره لعله يذكر فيشكر.

(٢٥) ـ (٢٩) ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾ كالبر والشعير والذرة وسائر الحبوب المقتاتة وعنبًا يأكله رطبًا ويابسًا ﴿وَقَضۡبٗا﴾ وهو القت الرطب يقضي أي يقطع مرة بعد مرة وهو علف البهائم، ﴿وَزَيۡتُونٗا﴾ يأكله حبًا ويدهن به زيتًا ﴿وَنَخۡلٗا﴾ يأكله ثمرة بسرًا ورطبًا وتمرًا.

(٣٠) ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾ أي بساتين ملتفة الأشجار كثيرتها الواحدة غلباء[(٥)].

(٣١) ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ الفاكهة لكم والأب علف لدوابكم.

(٣٢) ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ أي هذه المذكورات بعضها متاعًا لكم أي منافع تتمتعون بها وبعضها لأنعامكم وهو القضب والأب منفعة لها تعيش عليها فبأي وجه تكفر ربك يا أيها الإنسان الكافر؟.

هداية الآيات:

١ - بيان مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته وهي مقتضية للإيمان به وبآياته ورسوله ولقائه.

٢ - الاستدلال بالصنعة على الصانع. وأن أثر الشيء يدل عليه، ولذا يتعجب من كفر الكافر بربه وهو خلقه ورزقه وكلأ حياته وحفظ وجوده إلى أجله.

٣ - بيان أن الإنسان لا يزال مقصرًا في شكر ربّه ولو صام الدهر كله وصلى في كل لحظة من لحظاته.

شرح الكلمات:

[الآية: ٣٣ ـ ٤٢]

(٣٣) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾: أي النفخة الثانية.

---

(١) يقال: قبره إذا دفنه وأقبره إذا هيأ له من يقبره.

(٢) أنشره ونشره بمعنى واحد أي أحياه بعد موته وسيشاء ذلك فينشره يوم القيامة للحساب والجزاء.

(٣) لأهل العلم في حقيقة ﴿كَلَّا﴾ هذه كلام طويل واختلاف كبير والراجح أنها كما هي الغالب فيها أنها للردع أي ردع له على كفره واستمرار غفلته وإعراضه وجهله وعدم علمه، وجملة ﴿لَمَّا يَقۡضِ﴾ بيانية أي بيان علة كفره وعناده وهي أنه لم يقضِ ما أمر به من النظر والتأمل ولو فعل ذلك لعرف واهتدى، ومن هنا أمره أن ينظر إلى طعامه.

(٤) هناك لطيفة تستشف من هذه الآية وهي أن طعام الإنسان كالمثل للدنيا في مبدئها ومنتهاها فإن طعامه وإن ملحه وفلفله فإنه يصير إلى عذرة منتنة.

(٥) يقال للأسد الأغلب لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جمعًا.

ترتيبها ٨١ — سُورَةُ التَّكوِيرِ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

ترتيبها ٨٢ — سُورَةُ الانفِطَارِ — آياتها ١٩

٥٨٦

(٣٦) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾: أي زوجته.

(٣٧) ﴿شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾: أي حال تشغله عن شأن غيره.

(٣٨) ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾: أي مضيئة.

(٤٠) ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾: أي غبار.

(٤١) ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾: أي ظلمة من سواد ومعنى ترهقها تغشاها.

(٤٢) ﴿ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾: أي الجامعون بين الكفر والفجور.

معنى الآيات:

بعدما بيّن تعالى بداية أمر الإنسان في حياته ومعاشه فيها ذكر تعالى معاده ومآله فيها.

(٣٣) فقال عز من قائل: ﴿فَإِذَا[1] جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ وهي القيامة ولعل تسميتها بهذا الاسم الصاخة نظرًا إلى نفخة الصور التي تصخ الآذان أي تصمها بمعنى تصيبها بالصمم لشدتها.

(٣٤) ـ (٣٦) وهي النفخة الثانية وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ[2] ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ وهؤلاء أقرب الناس إليه ومع هذا يفر عنهم أي يهرب خشية أن يطالبوه بحق لهم عليه فيؤخذ به.

(٣٧) وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾[3] أي حال وأمر ﴿يُغْنِيهِ﴾ عن السؤال عن غيره ولو كان أقرب ولو كان أقرب قريب إليه. هنا ورد أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ قائلة يا نبيّ الله كيف يحشر الرجال؟ قال: «**حفاة عراة**»، ثم انتظرت ساعة فقالت: يا نبيّ الله كيف يحشر النساء؟ قال: «**كذلك حفاة عراة**» قالت: واسوأتاه من يوم القيامة، قال: «**وعن ذلك تسألين إنه قد نزلت عليّ آية لا يضرك كان عليك ثياب أم لا**» قالت: أي آية هي يا نبيّ الله؟ قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝﴾.

(٣٨) وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝﴾[4] أي مضيئة مشرقة.

(٣٩) ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝﴾ وهي وجوه المؤمنين والمؤمنات أهل التقوى وجوههم حسنة مشرقة بالأنوار مستبشرون بالقدوم على ربهم والنزول بجواره الكريم.

(٤٠) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي تقوم القيامة ويحشر الناس لفصل القضاء ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي غبار.

(٤١) ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي ظلمة وسواد.

(٤٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي الذين عليهم الغبرة وتغشاهم القترة ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ في الدنيا ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ فيها الذين عاشوا على الكفر والفجور وماتوا على ذلك، والفجور هو الخروج عن طاعة الله تعالى بترك الواجبات وغشيان المحرمات كالربا والزنا وسفك الدماء.

---

(١) الفاء للتفريع، هذا الكلام متفرع على ما قبله كما في التفسير أنه بعد أن ذكر الإنسان بمبدأ خلقه ومنتهى حياته في الدنيا فرع على ذلك بيان حياته الآخرة ومصيره فيها.

(٢) قال بعضهم: أول من يفر يفر قابيل من أخيه هابيل، وقال الحسن: أول من يفر يوم القيامة إبراهيم يفر من أبيه ونوح من ابنه ولوط من امرأته.

(٣) روى الترمذي وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ قال: «**يحشرون حفاة عراة غرلاً**» فقالت امرأة: أينظر بعضنا بعضًا؟ قال: «**يا فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**». غرلاً: جمع أغرل وهو من لم تؤخذ غلفة ذكره بالختان.

(٤) ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ من طول قيام الليل والضرب في سبيل الله يقال: أسفر الصبح إذا أضاء وأسفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها.

هداية الآيات:

١ - بيان شدة الهول يوم القيامة يدل عليه فرار المرء من أقربائه.

٢ - خطر التبعات على العبد يوم القيامة وهي الحقوق التي يطالب بها العبد يوم القيامة.

٣ - شدة الهول والفزع تنسي المرء يوم القيامة أن ينظر إلى عورة أحد من أهل الموقف.

٤ - ثمرة الإيمان والتقوى تظهر في الموقف نورًا على الوجه وإشراقًا له وإضاءة وثمرة الكفر والفجور تظهر ظلمة وسوادًا على الوجه وغبارًا.

٥ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض صورة من صورها.

❁ ❁ ❁

سورة التكوير
مكية
وآياتها تسع وعشرون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٤]

(١) ﴿إِذَا﴾: أي ظرف لما ذكر بعد من المواضع الاثني عشر، وجوابها علمت نفس ما أحضرت.

﴿كُوِّرَتْ﴾: أي لفت وذهب بنورها.

(٢) ﴿انكَدَرَتْ﴾: أي انقضت وتساقطت على الأرض.

(٣) ﴿سُيِّرَتْ﴾: ذهب بها عن وجه الأرض فصارت هباءً منبثًا.

(٤) ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾: أي النوق الحوامل. ﴿عُطِّلَتْ﴾: أي تركت بلا راع أو بلا حلب لما دهاهم من الأمر.

(٥) ﴿الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾: أي جُمعت وماتت.

(٦) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝﴾: أي أوقدت فصارت نارًا.

(٧) ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝﴾: أي قُرنت بأجسادها ثم بقرنائها وأمثالها في الخير والشر.

(٨) ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ﴾: أي البنت تدفن حية خوف العار أو الحاجة.

﴿سُئِلَتْ﴾: أي تبكيتًا لقاتلها.

(٩) ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝﴾: أي بلا ذنب.

(١٠) ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝﴾: أي صحف الأعمال فُتحت وبُسطت.

(١١) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝﴾: أي نُزعت من أماكنها كما يُنزع الجلد عن الشاة.

(١٢) ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝﴾: أي النار أُججت.

(١٣) ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝﴾: أي قرّبت لأهلها ليدخلوها.

(١٤) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝﴾: أي كل نفس وقت هذه المذكورات ما أحضرت من خير وشر.

معنى الآيات:

(١) ـ (١٣) قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝﴾، إلى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝﴾، اشتمل على اثني عشر حدثًا جللًا، ستة أحداث منها في الدنيا وستة في الآخرة وكلها معتبرة شرطًا لجواب واحد.

(١٤) وهو قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝﴾ أي من خير وشر لتجزى به والسياق كله في تقرير عقيدة البعث والجزاء التي أنكرها العرب المشركون وبالغوا في إنكارها مبالغة شديدة وكونها عليها مدار إصلاح الفرد والجماعة وأنه بدونها لا يتم إصلاح ولا تهذيب ولا تطهير عُنِيَ القرآن بها عناية فائقة ويدل لذلك أن فواتح سور والصافات والذاريات والطور والمرسلات والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والبروج والفجر كل هذه بما فيها من إقسامات عظيمة هي لتقرير عقيدة البعث والجزاء.

وهذه الأحداث الستة التي تقع في الدنيا وهي مبادىء الآخرة:

١ - تكوير[(١)] الشمس بلفها وذهاب ضوئها.

٢ - انكدار[(٢)] النجوم بانقضائها وسقوطها على الأرض.

٣ - تسيير الجبال بذهابها عن وجه الأرض واستحالتها إلى هباء يتطاير.

٤ - تعطيل العشار[(٣)] وهي النوق الحوامل فلا تحلب ولا تركب ولا ترعى لما أصاب أهلها من الهول

---

(١) قال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة فتلف، وقال الربيع: كورت ورمي بها.

(٢) ﴿انكَدَرَتْ﴾ تهافتت وتناثرت، وقال أبو عبيدة: انصبت كما ينصب العقاب إذا انكسر. قال العجاج يصف صقرًا:

أبصر خربان فضاء فانكدر ... تقضي البازي إذا البازي كسر

(٣) ﴿العشار﴾ واحدها عشراء وهي التي مضى على حملها عشرة أشهر ثم لا يزال اسمها كذلك حتى تضع.

والفزع وكانت أفضل أموالهم وأحبها إلى نفوسهم.

٥ - حشر الوحوش وموتها وهي دواب البر قاطبة.

٦ - تسجير[1] البحار باشتعالها نارًا.

وهذه الأحداث الستة التي تقع في الآخرة:

١ - تزويج النفوس وهو قرنها بأجسادها بعد خلق الأجساد لها، وبعد ذلك بأمثالها في الخير والشر.

٢ - سؤال الموءودة[2] عن ذنبها الذي قُتلت به؟.

٣ - نَشْرُ صحف الأعمال وفتحها وبسطها.

٤ - كشط السماء[3] أي نزعها من أماكنها نزع الجلد عن الشاة عند سلخها.

٥ - تسعير النار أي تأجيجها وتقويتها.

٦ - إزلاف الجنة وتقريبها لأهلها أهل الإيمان والتقوى.

وجواب هذه الأحداث التي وقعت شرطًا لحرف «إذا» هو قوله تعالى: علمت نفس[4] ما أحضرت، من حسنات فتصير بها إلى الجنة، أو سيئات فتصير بها إلى النار. اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - بيان مفصل عن مبادىء القيامة، وخواتيمها وفي حديث الترمذي الحسن الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت**».

٣ - الترغيب في الإيمان والعمل الصالح إذ بهما المصير إلى الجنة.

٤ - الترهيب من الشرك والمعاصي إذ بهما المصير إلى النار.

شرح الكلمات:
[الآية: ١٥ - ٢٩]

(١٥) ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾: أي التي تخنس بالنهار أي تختفي وتظهر بالليل.

(١٦) ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾: أي التي تجري أحيانًا وتكنس في مكانسها أحيانًا أخرى والمكانس محل إيوائها كمكانس بقر الوحش وهي الدراري الخمسة عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل.

(١٧) ﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾: أي أقبل أو أدبر لأن عسعس من أسماء الأضداد.

(١٨) ﴿تَنَفَّسَ﴾: أي امتد حتى يصير نهارًا بيّنًا.

(١٩) ﴿إِنَّهُۥ﴾: أي القرآن. ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: أي جبريل كريم على الله تعالى وأضيف إليه القرآن لنزوله به.

(٢٠) ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾: أي شديد القوى. ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾: أي عند الله تعالى ذي مكانة.

(٢١) ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾: أي مطاع في السماء تطيعه الملائكة أمين على الوحي.

(٢٢) ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾: أي محمد ﷺ أي ليس به جنون.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾: أي ولقد رأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خلق عليها بالأفق الأعلى البيّن من ناحية المشرق.

(٢٤) ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾: أي وما محمد ﷺ على الغيب وهو ما غاب من الوحي وخبر السماء. ﴿بِضَنِينٍ﴾: أي ببخيل وفي قراءة بالظاء أي بمتهم فيُنْقِصُ منه ولا يعطيه كلَّه.

(٢٥) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾: أي وليس القرآن بقول شيطان مسترق للسمع مرجوم.

(٢٦) ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾: أي فأيّ طريق تسلكون في إنكاركم القرآن وإعراضكم عنه.

---

(١) أو جائز أن يكون تسجير البحار فيضانها بتجاوز مياهها معدل سطوحها، وجائز أن تشتعل فيها النار فتحترق، وظاهرة وجود البترول تحت سطحها تدل على أنها تحترق وتُسَجَّرُ كما يُسَجَّرُ التنور.

(٢) الوأد: دفن الطفلة وهي حية، وكان العرب في الجاهلية يئدون البنات خشية العار، ويقتلون أولادهم خشية الفقر أو لنذرهم إياهم للآلهة.

(٣) الكشط: إزالة الإهاب «الجلد» عن الحيوان الميت.

(٤) روي أن عمر رضي الله عنه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ قال: لهذا أجريت القصة.

(٢٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾: أي ما القرآن إلا موعظة للإنس والجن.

(٢٨) ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾: أي يتحرى الحق ويعتقده ويعمل بمقتضاه.

(٢٩) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾: أي ومن شاء الاستقامة منكم فإنه لم يشأها إلا بعد أن شاءها الله قبله إذ لو لم يشأها الله ما أشاءها عبده.

معنى الآيات:

لما قرر تعالى عقيدة البعث والجزاء بوصف كامل لأحداثها وكان الوصف من طريق الوحي فافتقر الموضوع إلى صحة الوحي والإيمان به فإذا صح الوحي وآمن به العبد آمن بصحة البعث والجزاء. ومن هنا أقسم تعالى بأعظم قسم على أن القرآن نزل به جبريل على محمد ﷺ وما يقوله محمد ﷺ هو كلام الله ووحيه وليس هو بمجنون يقول ما لا يدري ويهذر بما لا يعني ولا هو بقول شيطان رجيم ممن يسترقون السمع ويلقونه إلى إخوانهم من الكهّان بل هو كلام الله صدقًا وحقًا وما يخبر به كما يخبر صدق وحق.

(١٥) - (١٦) فقال تعالى: ﴿فَلَا﴾ أي ليس[1] الأمر كما تدّعون بأن ما يقوله رسولنا هو من جنس ما تقوله الكهنة. ولا مما يقوله الشعراء، ولا هو بكلام مجانين. ولا هو سحر الساحرين ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝﴾ أي بكل ما يخنس ويجري ويكنس من الظباء وبقر الوحش والكواكب والدراري الخمسة عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل. والمراد من الخنوش[2] الاختفاء والكنوس إيواءها إلى مكانسها مواضع إيوائها.

(١٧) وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي أقسم بالليل إذا أقبل أو أدبر إذ لفظ عسعس بمعنى أقبل وأدبر فهو لفظ مشترك بين الإقبال والإدبار.

(١٨) - (١٩) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي امتد ضوءه فصار نهارًا بينًا أقسم بكل هذه المذكرات على أن القرآن الذي يصف لكم البعث والجزاء حق الوصف هو قول رسول كريم أي جبريل الكريم على ربّه.

(٢٠) - (٢١) ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ لا يقادر قدرها فلا يقدر إنس ولا جن على انتزاع ما عنده من الوحي ولا على زيادة فيه أو نقص منه. ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَكِينٍ﴾ أي ذي مكانة محترمة مطاع في السموات أمين على الوحي هذا أولاً.

(٢٢) وثانيًا والله ما صاحبكم محمد ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تقولون.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ أي رأى محمد ﷺ جبريل ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ رآه على صورته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح رآه بالأفق ناحية الشرق وقد سدّ الأفق كله، والأفق بيّن والنهار طالع.

(٢٤) ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي محمد ﷺ. ﴿عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[3] أي بمظنون فيه التهمة بأن يزيد فيه أو ينقص منه أو يبدل فيه أو يغير كما هو ليس ببخيل فيظن فيه أنه يكتم منه شيئًا أو يخفيه بخلابه أو ينقص منه شحًا به وبخلاً.

(٢٥) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ ممن يسترقون السمع ويلقونه إلى أوليائهم من الإنس فيخلطون فيه ويكذبون.

(٢٦) وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[4] ينكر عليهم مسلكهم الشائن في تكذيب رسوله محمد ﷺ واتهامه بالسحر، والقرآن بالشعر والكهانة والأساطير.

(٢٧) وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾، أي ما القرآن الكريم إلا ذكر للعالمين من الإنس والجن

---

(١) ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ الفاء للتفريع أي لتفريع الكلام اللاحق على السابق وجائز أن تكون لا مزيدة لتقوية القسم، وكونها نافية ردًا على باطل المشركين أولاً كما في التفسير.

(٢) ﴿الخنس﴾ جمع خانسة وهي التي تخنس أي تختفي، والكنس جمع كانسة: كنس الظبي إذا دخل كناسه بكسر الكاف وهو البيت الذي يتخذه للمبيت، وقيل الكنوس أن تأوي إلى مكانسها وهي المواضع التي تأوي إليها الوحوش والظباء. قال الأعشى:

فلما أتينا الحي أتلع أنسٌ كما أتلعت تحت المكانس ربرب

(٣) قريء في السبع ﴿بظنين﴾ بالظاء ومعناه بمتهم من ظننت كذا وقريء ﴿بضنين﴾ بالضاد بمعنى بخيل ولذا شرحت الآية مراعيًا فيها القراءتين وكلا المعنيين صحيح فلا هو ﷺ بمتهم على الوحي ولا ببخيل به ولا بغيره.

(٤) فأين الفاء لتفريع التوبيخ وأين اسم استفهام عن المكان والاستفهام إنكاري.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

ترتيبها ٨٣ — سورة المطففين — آياتها ٣٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

٥٨٧

يذكرون به خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم وما له عليهم من حق العبادة وواجب الشكر ويتعظون به فيخافون ربهم فلا يعصونه بترك فرائضه عليهم ولا بارتكاب ما حرمه عليهم.

(٢٨) وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ على منهاج الحق فيتحرى الحق أولاً ويؤمن به ويعمل بمقتضاه ثانيًا. ولما سمع أبو جهل هذه الآية ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ قال: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم.

(٢٩) أنزل تعالى قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فأكبت اللعين فاعلم أن من شاء الاستقامة من العالمين لم يشأها إلا بعد أن شاءها الله تعالى له ولو لم يشأها الله تعالى والله ما شاءها العبد أبدًا إذ مشيئة الله سابقة لمشيئة العبد، وفي كل ما يشاؤه الإنسان فإن مشيئة الله سابقة لمشيئته لأن الإنسان عبد والله رب والرب لا مشيئة تسبق مشيئته.

هداية الآيات:

١ - مشروعية الإقسام بالله تعالى وأسمائه وصفاته.

٢ - تقرير الوحي وإثبات النبوة المحمدية.

٣ - بيان صفات جبريل الكمالية الأمانة، القوة، علو المكانة، الطاعة، الكرم.

٤ - براءة الرسول مما اتهمه به المشركون.

٥ - بيان أن مشيئة الله سابقة لمشيئة العبد. فلا يقع في ملك الله تعالى إلا ما يريد.

❁ ❁ ❁

سورة الانفطار
مكية
وآياتها تسع عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٢]

(١) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾: أي انشقت.

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾: أي تساقطت.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾: أي اختلطت ببعضها وأصبحت بحرًا واحدًا الملح والعذب سواء.

(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾: قلب ترابها وبعث موتاها.

(٥) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾: أي من الأعمال وما أخرت منها فلم تعمله وذلك عند قراءتها كتاب أعمالها.

(٦) ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾: أي أي شيء خدعك وجرّأك على عصيانه.

(٧) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾: أي بعد أن لم تكن. ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾: أي جعلك مستوي الخلقة سالم الأعضاء. ﴿فَعَدَلَكَ﴾: أي جعلك معتدل الخلق متناسب الأعضاء ليست يد أطول أو رجل أطول من الأخرى.

(٩) ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾: ليس الكرم هو الذي غره وإنما جرّأه على المعاصي تكذيبه بالدين الذي هو الجزاء بعد البعث حيًا من قبره.

(١٠) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا﴾: أي وإن عليكم لملائكة كرامًا على الله تعالى حافظين لأعمالكم.

(١١) ﴿كَٰتِبِينَ﴾: أي لها أي لأعمالكم خيرها وشرها حسنها وقبيحها.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿إِذَا[1] ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾[2] أي انشقت.

---

(١) ﴿إِذَا﴾ ظرف للمستقبل متضمن معنى الشرط وجوابه ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

(٢) صيغة الماضي في انفطرت وانتثرت، وفجرت وبعثرت للدلالة على تحقق الوقع نحو ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي انفضّت وتساقطت.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي اختلط ماؤها بعضه ببعض ملحها بعذبها لانكسار ذلك الحاجز الذي كان يفصلهما عن بعضهما لزلزلة الأرض إيذانًا بخراب العالم.

(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾[1] قُلبت وأُخرج ما فيها من الأموات، إذا حصلت هذه الأحداث الأربعة ثلاثة منها في الدنيا وهي انفطار السماء وانتثار الكواكب وتفجر البحار وهذه تتم بالنفخة الأولى والرابع وهو بعثرة القبور يتم في الآخرة بعد النفخة الثانية، وعندها تعلم نفس ما قدمت وما أخرت وهذا جواب إذا في أول الآيات.

(٥) ومعنى ﴿عَلِمَتْ[2] نَفْسٌ﴾ أي كل نفس مكلفة ما قدمت من أعمال حسنة أو سيئة، وما أخرت من أعمال لحقتها بعدها وذلك ما سنته من سنن الهدى أو سنن الضلال، لحديث: **«من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عملها لا ينقص من أوزارهم شيء»** وهذا العلم يحصل للنفس أولاً مجملاً وذلك عند ابيضاض الوجوه واسودادها، ويحصل لها مفصلاً عندما تقرأ كتاب أعمالها.

(٦) - (٧) وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ يخاطب تعالى الإنسان الكافر والفاجر ليسأله موبخًا إياه مقرعًا مؤنبًا بقوله ما غرك[3] أي أي شيء خدعك وجرأك على الكفر بربك الكريم وعصيانه بالفسق عن أمره والخروج عن طاعته. وهو القادر على مؤاخذتك والضرب على يديك ساعة ما كفرت به أو عصيته أليس هو الذي ﴿خَلَقَكَ﴾ فسوّى خلقك وعدل[4] أعضاءك وناسب بين أجزائك.

(٨) ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ إن شاء بيّضك أو سوّدك طوّلك أو قصّرك جعلك ذكرًا أو أنثى إنسانًا أو حيوانًا قردًا أو خنزيرًا هل هناك من يصرفه عما أراد لك والجواب لا أحد إذًا كيف يسوغ لك الكفر به وعصيانه والخروج عن طاعته وبعد هذا التوبيخ والتأنيب.

(٩) - (١١) قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي ما غرك كرم[5] الله ولا حلمه ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أي بالبعث والجزاء في الدار الآخرة هو الذي جرأكم على الكفر والظلم والإجرام وما علمتم والله أن ﴿عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ يحفظون عليكم أعمالكم ويحصونها لكم ويكتبونها في صحائفكم.

(١٢) ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ في السر والعلن وسوف تفاجأون يوم تعلم نفس ما قدمت وأخرت بصحائف أعمالكم وقد حوت كل أعمالكم لم تغادر صغيرة منها ولا كبيرة ويتم الجزاء بموجبها.

هداية الآيات:

١ - بيان أحداث تسبق يوم البعث وذلك في نفخة الفناء وأما النفخة الثانية وهي نفخة البعث حيث تُجمع الخلائق ويجري الحساب فتعطى الصحف وتوزن الأعمال وينصب الصراط، ثم إلى جنة أو إلى نار.

٢ - التحذير من السنة السيئة يتركها المرء بعده فإن أوزارها تكتب عليه وهو في قبره.

---

(١) ﴿بُعْثِرَتْ﴾ انقلب باطنها ظاهرها إذ البعثرة الانقلاب يقال: بعثر المتاع إذا قلب بعضه على بعض.

(٢) ليس بلازم أنها بمجرد ما يحصل الذي جعلت إذا شرطًا له يتم العلم للنفس، وإنما إذا قامت القيامة بحصول الانقلاب الكوني وحشر الناس لفصل القضاء ثم يحصل للنفس فتعلم ما قدّمت وما أخرت.

(٣) ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هنا للجنس وقيل: المراد به أبو الأسد بن كلدة الجمحي والاستفهام للإنكار عليه كفره والتعجب من حاله ونداؤه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مشعر بالاهتمام.

(٤) ﴿فَعَدَلَكَ﴾ قرأ نافع **﴿فعدّلك﴾** بتشديد الدال. وقرأ حفص بتخفيفها.

(٥) روي أن النبي ﷺ قرأ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ قال: **«غره جهله»** قيل للفضيل بن عياض لو أقامك الله يوم القيامة بين يديه فقال: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ ماذا كنت تقول؟ قال: كنت أقول: غرني ستورك المرخاة لأن الكريم هو الستار. نظمه ابن السماك فقال:

يا كاتم الذنب أما تستحي ... والله في الخلوة ثانيكا
غرك من ربك إمهاله ... وستره طول مساويكا

٣ - التحذير من الغرور والانخداع بعامل الشيطان من الإنس أو الجن.
٤ - التحذير من التكذيب بالبعث والجزاء فإنه أكبر عامل من عوامل الشر والفساد في الدنيا وأكبر موجب للعذاب يوم القيامة.
٥ - تقرير عقيدة كتابة الأعمال حسنها وسيئها والحساب بمقتضاها يوم القيامة بواسطة ملكين كريمين على كل إنسان مكلف لحديث الصحيح **«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»** الحديث.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٣ - ١٩]

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾: أي المؤمنين المتقين الصادقين.
(١٤) ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾: أي الكافرين والخارجين عن طاعة الله ورسوله.
(١٥) ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾: أي يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء وهو يوم القيامة.
(١٦) ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾: أي بمخرجين.
(١٧) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾: أي أي شيء، جعلك تدري لولا أنا علمناك.
(١٩) ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾: أي من المنفعة وإن قلّت. ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾: أي لا لغيره، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه.

معنى الآيات:

تقدم أن العرض على الله حق وأن المجازاة تكون بحسب الأعمال التي عملها المرء، وأنها محفوظة محصاة عليه بواسطة ملائكة كرام. وأن الناس يومئذ كما هم اليوم مؤمن بار وكافر فاجر.
(١٣) بيّن تعالى جزاء الكل مقرونًا بعلة الحكم فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى[1] نَعِيمٍ﴾ أي في الجنة دار السلام وذلك لبرورهم وهو طاعتهم لله في صدق كامل.
(١٤) ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي نار ذات جحيم وذلك لفجورهم وهو كفرهم وخروجهم عن طاعة ربهم.
(١٥) وقوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾[2] أي يدخلونها ويقاسون حرها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء الذي كفروا به فأدى بهم إلى الفجور وارتكاب عظائم الذنوب.
(١٦) وقوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾[3] أي إذا دخلوها لا يخرجون منها.
(١٧) وقوله: ﴿مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي وما يعلمك يا رسولنا ما يوم الدين إنه يوم عظيم يوم يقوم الناس لربّ العالمين هكذا يخبر تعالى عن عظم شأن هذا اليوم.
(١٨) ويؤكد ذلك فيقول: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ ويكشف عن بعض جوانب الخطورة.
(١٩) بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ من المنفعة حيث يكون الأمر كله فيه لله وحده ولا تنفع فيه الشفاعة إلا بإذنه وما للظالمين فيه من شفيع ولا حميم.

هداية الآيات:

١ - بيان حكم الله في أهل الموقف إذ هم ما بين بار صادق فهو في نعيم وفاجر كافر فهو في جحيم.
٢ - بيان عظم شأن يوم الدين وأنه يوم عظيم.
٣ - بيان أن الناس في يوم الدين لا تنفعهم شفاعة ولا خلة إذ لا يشفع أحد إلا بإذن الله والكافرون هم الظالمون، وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع.

❁ ❁ ❁

سورة المطففين

مدنية الأوائل، مكية الأواخر
وآياتها ست وثلاثون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٦]

(١) ﴿وَيْلٌ﴾: كلمة عذاب، وواد في جهنم. ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾: المنقصين في كيل أو وزن الباخسين فيهما.
(٢) ﴿إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي من الناس. ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾: الكيل.
(٣) ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾: أي كالوا لهم. ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾: أي وزنوا لهم.

---

(١) الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا، إذ تقدم من الكلام ما يجعل المرء يتشوّق إلى معرفة مصير الناس يوم القيامة والأبرار: جمع بر وهو التقي المطيع الصادق والنعيم اسم لما ينعم به.
(٢) ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ قال القرطبي: يُصيبهم حرها ولهيبها وهذا قطعًا بعد دخولها.
(٣) كونهم لا يغيبون عنها دال على أن الفجار هم المشركون والكافرون، إذ المؤمنون لا يخلدون في النار.

﴿يُخْسِرُونَ﴾: أي ينقصون الكيل أو الوزن.

(٤) ﴿أَلَا﴾: استفهام توبيخي إنكاري. ﴿يَظُنُّ﴾: أي يتيقن.

(٥) ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أي يوم القيامة لما فيه من أهوال وعظائم الأمور.

(٦) ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾: أي من قبورهم. ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي يقومون خاشعين ذليلين ينتظرون حكم الله فيهم.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[1]، هذه الآيات الأولى من سورة المطففين قال أحد الأنصار رضي الله عنه: كنا أسوأ الناس كيلاً[2]، حتى إنه ليكون لأحدنا مكيالان مكيال يشتري به وآخر يبيع به، وما إن نزلت فينا: ويل للمطففين، حتى أصبحنا أحسن كيلاً ووزنًا. وصدق هذا الصاحب الجليل فوالله لقد نزلت المدينة مهاجرًا عام ثلاثة وسبعين وثلثمائة وألف فوجدتهم على ما كانوا عليه ولقد كنت أشفق عليهم إذا كالوا لي أو وزنوا لي. فقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[3] يتوعد سبحانه وتعالى بواد في جهنم بسيل صديد أهل النار الذين يبخسون الناس الكيل والميزان أي ينقصونهم ويبينهم تعالى بقوله:

(٢) - (٣) ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي اشتروا منهم يأخذون كيلهم وافيًا وكذا إذا وزنوا ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾، أي كالوا لهم[4] أو وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي ينقصون.

(٤) قال تعالى موبخًا لهم منكرًا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ المطففون[5] ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ من قبورهم.

(٥) ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم الدين والجزاء والحساب.

(٦) ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الجزء الثلاثون — سورة المطففين

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤)

٥٨٨

خاشعين ذليلين ينتظرون حكمه فيهم، ويطول بهم الموقف المائة سنة وأكثر وإن أحدهم ليلجمه العرق إلجامًا ومنهم من يصل العرق إلى نصف أذنيه والروايات في هذا كثيرة وصحيحة.

هداية الآيات:

١ - حرمة[6] التطفيف في الكيل

---

(١) روى النسائي عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك، قال الفرَّاء: فهم من أوفى الناس كيلاً إلى يومهم هذا.

(٢) أيام نزول هذه السورة كان أهل المدينة يكيلون وأهل مكة يزنون ثم شاع الكيل والوزن في كلا البلدين معًا.

(٣) يروي بعضهم أن التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة، وأسوأ الناس سرقة من يسرق في صلاته، وروي عن سالم بن أبي الجعد قال: الصلاة بمكيال فمن أوفى أوفي له، ومن طفف فقد علمتم ما قال الله عز وجل.

(٤) شاهده قول الشاعر:

ولقد جنيتك أكمؤًا وعساقلا ... ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

والشاهد في قوله جنيتك أي جنيت لك.

(٥) المطفف مأخوذ من الطفيف وهو القليل، والمطفف هو المقل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن والتطفيف هو النقص من حق المقدار في الموزون والمكيال، وهو مصدر طفف إذا بلغ الطفاف، والطفاف ما قصر عن ملء الإناء من شراب أو طعام، ويطلق الطف على ما تجاوز عرض المكيال فهي زيادة طفيفة أو نقصان طفيف وهما محل النهي وفاء أو نقصان.

(٦) روى مالك والبزار عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم،**=

والوزن وهو أن يأخذ زائدًا ولو قل أو ينقص عامدًا شيئًا ولو قل. وما كان بغير عمد ولا قصد فإنه مما يُعفا عنه.

٢ - التذكير بالبعث والجزاء وتقريرهما.

٣ - عظم يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ليحكم بينهم ويجزي كلاً بعمله خيرًا أو شرًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٧ ـ ١٣]

(٧) ﴿كَلَّآ﴾: أي حقًا وأن الأمر ليس كما يظن المطففون. ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾: سجين علم على كتاب ديوان الشر دوّن فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة وهو أيضًا موضع في أسفل الأرض السابعة فيه سجين الذي هو ديوان الكتب وبه أرواح الأشقياء عامة.

(٩) ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ﴾: أي مسطور بيّن الكتابة فيه أعمالهم.

(١١) ﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: أي يوم القيامة الذي هو يوم الحساب والجزاء.

(١٢) ﴿كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾: أي ظالم مضيع حقوق ربه تعالى وحقوق غيره. ﴿أَثِيمٍ﴾: منغمس في الآثام مكثر منها.

(١٣) ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي ما سطره الأولين من القصص والأخبار التي لا تصح.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في التحذير من الظلم والفسق عن أوامر الرب تبارك وتعالى.

(٧) وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾[1] أي ليس الأمر كما يظن المطففون والباخسون للحقوق أنه لا دقة في الحساب والجزاء أو أن مثل هذا لا يكتب ولا يحاسب عليه ولا يجزى به حقًا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ أي الظلمة الفاجرين عن الشرع وحدوده ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ موضع في أسفل الخلق به أرواح الكافرين والظالمين وكتب أعمالهم.

(٨) وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾[2] أي وما أعلمك يا رسولنا ما سجين تفخيم لشأنه.

(٩) وقوله: ﴿كِتَٰبٌ[3] مَّرۡقُومٌ﴾ بيان لكتاب الفجار أي أنه مكتوب مسطور بيّن الكتابة.

(١٠) ﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي العذاب الأليم بوادي الويل يوم القيامة للمكذبين بالله وآياته ولقائه المكذبين بيوم الجزاء والحساب.

(١٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾[4] يريد وما يكذب بيوم الجزاء والحساب إلا كل معتد ظالم متجاوز للحد أثيم مرتكب للذنوب والآثام بفسقه عن أوامر ربّه وخروجه عن طاعة الله بغشيانه المحارم.

(١٣) وقوله: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هذا بيان لذلك المعتدي الأثيم وهو أنه إذا قرئت عليه آيات الله تذكيرًا له وتعليمًا ردها بقوله أساطير الأولين أي هذه حكايات وأخبار الأولين مسطرة مكتوبة وأنكر كتاب الله وكذب به.

هداية الآيات:

١ - بيان كتاب الفجار وأنه في سجين، وسجين ديوان تدون فيه سائر كتب الفجار من أهل النار وموضع أسفل الأرض السابعة مستودع لكتب أعمال الفجار من كفار وفسّاق ولأرواحهم إلى يوم القيامة ولفظ سجين مشتق من السجن الذي هو الحبس.

٢ - الوعيد الشديد للمكذبين بالله وبآياته ولقائه.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤ ـ ١٧]

(١٤) ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾: أي غطّى قلوبهم وحجبها عن قبول الحق.

(١٥) ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: أي من الذنوب والآثام. ﴿لَّمَحۡجُوبُونَ﴾: أي يحال بينهم وبين رؤية الربّ إلى يوم القيامة.

= ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون، وما طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس الله عنهم المطر».

(١) ﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردع وزجر لأولئك الذين يطففون ألا فلينزجروا ويتركوا التطفيف والبخس في الكيل والوزن.

(٢) الاستفهام للتهويل من شأن سجّين.

(٣) ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر محذوف المبتدأ والتقدير هو أي: كتاب الفجار كتاب مرقوم.

(٤) الأثيم: مبالغة في الإثم أي كثير الإثم، والإثم كل اعتقاد أو قول أو عمل ضار قبيح أو فاسد.

(١٦) ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾: أي لداخلوها ومحرقون معذبون بها.

(١٧) ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾: أي يقال لهم توبيخًا وخزيًا لهم وهم في العذاب هذا الذي كنتم به تكذبون.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في التنديد بالاعتداء والمعتدين والإثم والآثمين.

(١٤) فقال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ[١] عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ما الأمر كما يدّعون من أن القرآن أساطير الأولين وإنما ران على قلوبهم أي غشاها وغطاها أثر الذنوب والجرائم فحجبها عن معرفة الحق[٢] وقبوله.

(١٥) وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي ردعًا لهم وزجرًا عن أقوالهم الباطلة وأعمالهم الفاسدة إنهم عن ربهم لمحجوبون فلا يرونه ولا يرون كرامته.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي لداخلوها ومصطلون بحرها معذبون بأنواع العذب فيها ثم يقال لهم توبيخًا وخزيًا وتأنيبًا.

(١٧) ﴿هَذَا﴾ أي العذاب الذي كنتم به في الدنيا تكذبون حتى واصلتم كفركم وإجرامكم فحلّ بكم هذا الذي أنتم فيه الآن فذوقوا فلن تزدادوا إلا عذابًا.

هداية الآيات:

١ - التحذير من مواصلة الذنوب وعدم التوبة منها حيث يؤدي ذلك بالعبد إلى أن يُحرم التوبة ففي حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب صقل منها فإن عاد عادت حتى تعظم في قلبه فذلك الران الذي قال الله: كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**».

٢ - تقرير رؤية الله تعالى في الآخرة بدليل قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي الأشقياء إذًا فالسعداء غير محجوبين فهم يرون ربهم ويشهد له قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

٣ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٨ ـ ٢٨]

(١٨) ﴿كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾: أي كتاب أعمالهم، والأبرار هم المطيعون لله ولرسوله الصادقون. ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾: أي في موضع يسمى عليين في أعلى الجنة.

(٢٠) ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾: أي كتاب مرقوم بأمان من الله إياه من النار يوم القيامة والفوز بالجنة.

(٢١) ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾: أي يحضره المقربون من أهل كل سماء ويحفظونه لأنه يحمل أمانًا لصاحبه من النار وفوزه بالجنة.

(٢٢) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾: أي إن الذين بروا ربهم بطاعته بأداء الفرائض واجتناب النواهي لفي نعيم الجنة.

(٢٣) ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: أي على الأسرّة ذات الحجال. ﴿يَنظُرُونَ﴾: أي ما آتاهم ربهم من صنوف النعيم.

(٢٤) ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾: أي حُسنه وبريقه وتلألؤه.

(٢٥) ﴿مِن رَّحِيقٍ﴾: أي من خمر صرف خالصة لا غش فيها ولا دنس. ﴿مَّخْتُومٍ﴾: أي مختوم على إنائها لا يفك ختمه إلا هم.

(٢٦) ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾: أي آخر شربها يفوح برائحة المسك. ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾: أي لا في غيره. ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾: أي فليطلب بالطاعة والاستقامة الطالبون للنعيم المقيم.

(٢٧) ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾: أي ومزاج شرابهم من عين تجري من عال تسمى التسنيم.

(٢٨) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾: عينًا هي التسنيم يشرب منها المقربون صرفًا وتزج لأصحاب اليمين.

معنى الآيات:

(١٨) بعد أن ذكر تعالى كتاب الفجار وما ختم له به ذكر كتاب الأبرار وما ختم له به فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي حقًا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾ وهو

---

(١) الران والرين مصدران لران يرين رينًا ورانًا كالعيب والعاب والذيم والذام.

(٢) روى الترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر الله وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه**» وهو الران الذي ذكر الله تعالى في كتابه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

ترتيبها ٨٤ — سُورَةُ الانشِقَاقِ — آياتها ٢٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

٥٨٩

جمع بر أو بار وهو المؤمن الذي برّ ربه بطاعته في أداء فرائضه واجتناب نواهيه وكان صادقًا في ذلك كتاب أعمال هؤلاء الأبرار في عليين.

(١٩) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ يا رسولنا[(١)] ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾[(٢)] أنه موضع في أعلى الجنان.

(٢٠) وقوله: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ يريد كتاب الأبرار الموضوع في عليين كتاب مرقوم بأمان من الله لصاحبه من النار والفوز بالجنة.

(٢١) ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي مقربو كل سماء يحضرونه ويحفظون له ويشهدون بما فيه من الأمان لصاحبه من النار والفوز بالجنة.

(٢٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾[(٣)] وأصحاب الكتب المودعة في عليين ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ يريد يوم القيامة والنعيم هو نعيم الجنة وهذا لون منه.

(٢٣) ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، أي الأسرة ذات الحجال. ﴿يَنظُرُونَ﴾ إنهم جالسون على الأرائك ينظرون[(٤)] باستحسان وإعجاب ملكهم الكبير الذي ملكهم الله تعالى وقد يمتد مسافة ألفي سنة وينتهي إليه بصرهم.

(٢٤) ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي حسنه وبريقه وتلألؤه.

(٢٥) وقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أي من خمر هي الرحيق صافية لا دنس فيها ولا غش مختوم على أوانيها لا يفكها إلا هم. ختامه مسك: آخر هذا الشراب[(٥)] يفوح برائحة المسك الأذفر فهي طيبة الرائحة للغاية.

(٢٦) وقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ[(٦)] ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي وفي مثل هذا النعيم لا في غيره من حطام الدنيا وشرابها وملكها الزائل يجب أن يتنافس المتنافسون أي في طلبه بالإيمان وصالح الأعمال بعد البعد كل البعد عن الشرك وسيئي الأقوال وقبيح الأفعال.

(٢٧) - (٢٨) وقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي إن ذلك الرحيق يمزج لأصحاب اليمين بماء عين تسمى التسنيم ويشربه المقربون صرفًا أي خالصًا بدون مزج من عين التسنيم، وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الباء بمعنى من أو ضمن يشرب معنى يلتذ أي يلتذ بها وقد سبق في سورة الإنسان وقلت إنها لطيب شرابها تكاد تكون آلة للشرب فتكون الباء للآلة على بابها نحو شربت بالكأس.

هداية الآيات:

١ - الثناء على الأبرار وبيان ما أعد الله تعالى لهم وهم المؤمنون المتقون الصادقون في ذلك.

---

(١) الاستفهام للتفخيم والتعظيم بشأن علّيين إذ هو في أعلى مرتبة وأسمى منزلة.

(٢) قال البراء بن عازب رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«عليئون في السماء السابعة تحت العرش»**.

(٣) ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع بر: هم أهل الطاعة والصدق فيها.

(٤) وقيل: ينظرون إلى أعدائهم في النار وهم على أرائكهم ولا عجب لما ظهر اليوم من آلة التلفاز.

(٥) الحريق: هي الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش، النيرة، قال حسان:

يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل

والبريص نهر بدمشق وبردى نهر آخر بها ويصفه يخرج والرحيق الخمر البيضاء.

(٦) يقال: نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة أي ضننت به ولم أحب أن يصير إليه وذلك لحسنه وجودته وتعلق النفس به.

٢ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر ما يجري فيها.

٣ - الترغيب في العمل الصالح للحصول على نعيم الجنة لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢٩ ـ ٣٦]

(٢٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾: أي على أنفسهم بالشرك والمعاصي كأبي جهل وأميّة بن خلف وعتبة بن أبي معيط. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي كبلال وياسر وعمار وصهيب وخبيب.

(٣٠) ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾: أي يشيرون إلى المؤمنين بالجفن والحاجب استهزاء بهم.

(٣١) ﴿فَكِهِينَ﴾: أي إذا رجعوا إلى ديارهم وأهليهم يرجعون نشاوى فرحين معجبين بحالهم.

(٣٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾: أي وإذا رأى أولئك الفكهون رأوا المؤمنين. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾: إن هؤلاء يعنون المؤمنين من أصحاب محمد ﷺ لضالون بتركهم دينهم واتخاذهم لدين محمد ﷺ الجديد.

(٣٣) ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝﴾: أي ولم يكلفهم الله تعالى بحفظ أعمالهم ورعاية أحوالهم. وإنما هم متطفلون.

(٣٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾: أي يوم القيامة. ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾: أي من أجل ما هم فيه من العذاب حيث يرونهم وهم على أرائكهم.

(٣٦) ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝﴾: أي هل جوزي الكفار بما كانوا يفعلون من الكفر والشر والفساد؟ والجواب نعم نعم نعم.

معنى الآيات:

(٢٩) بعدما بيّن تعالى حال الأبرار في دار الأبرار وذكر ما شاء الله أن يذكر من نعيمهم ترغيبًا وتعليمًا بعد أن ذكر في الآيات قبلها حال المجرمين وما أعد لهم من عذاب في دار العذاب. ذكر تعالى هنا في خاتمة السورة ما أوجب للمجرمين وهو النار، وما أوجب للمؤمنين وهو الجنة فذكر طرفًا من سلوك المجرمين وآخر من سلوك المؤمنين فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾[1] أي على أنفسهم أي أفسدوها بالشرك والشر والفساد كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي وغيرهم كانوا من الذين آمنوا كبلال وعمار وصهيب وخبيب وأضرابهم من فقراء المؤمنين ﴿يَضْحَكُونَ﴾[2] استهزاء بهم وسخرية.

(٣٠) ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ﴾ في شوارع مكة وحول المسجد الحرام ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يشيرون إليهم بالجفن والحاجب على عادة المتكبرين.

(٣١) ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ أي رجعوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ في ديارهم ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾[3] ناعمين معجبين بحالهم فرحين بما عندهم.

(٣٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي وإذا رأى أولئك المجرمون المؤمنين أشاروا إليهم وقالوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ بتركهم دينهم واعتناق دين محمد الجديد في نظرهم.

(٣٣) قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ[4] حَٰفِظِينَ﴾ أي على أعمالهم وأحوالهم حتى يقولوا ما قالوا وإنما هم متطفلون يدعون ما ليس لهم لقبح سلوكهم وسوء فهومهم.

(٣٤) قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾[5] يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي من الكفار ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي الأسرّة ذات الحجال.

---

(١) الإجرام مصدر أجرم إذا ارتكب الجرم وهو الإثم العظيم وأعظمه الشرك والكفر.

(٢) معنى يضحكون منهم: أنهم يضحكون من حالهم وهي حال خاصة كالفقر والضعف أو ترك دينهم إلى دين آخر. قال الحارث بن عبد يغوث:

وتضحك مني شيخة عبشمية ... كأن لم ترَ قبلي أسيرًا يمانيًا

(٣) قرأ نافع والجمهور ﴿فاكهين﴾ بصيغة اسم الفاعل، وقرأ حفص بدون ألف على أنه جمع فكه صفة مشبهة، والمعنى واحد كفارح وفرح.

(٤) الجملة متضمنة معنى التهكم بأولئك الضاحكين الساخرين من فقراء المؤمنين.

(٥) تقديم الظرف (فاليوم) للاهتمام به لأنه يوم الجزاء وفيه تشفى صدور المؤمنين من الأعداء.

﴿٣٥﴾ ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى الكفار وهم في النار ويضحكون منهم وهم يعذبون ولا عجب في كيفية رؤيتهم لهم وهم في النار أسفل سافلين والمؤمنون في أعلى عليين إذ البث التلفزيوني اليوم قطع العجب وأبطله.

﴿٣٦﴾ وقوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ[1] ٱلْكُفَّارُ﴾ أي هل جوزي الكفار على أفعالهم الإجرامية؟ والجواب معلوم مما تقدم إذ وصفت حالهم وبيّن عذابهم والعياذ بالله من عذابه وأليم عقابه.

هداية الآيات:

١ ـ التنديد بالإجرام والمجرمين.

٢ ـ بيان ما كان عليه المشركون في مكة إبّان الدعوة وما لقيه المؤمنون منهم.

٣ ـ بيان أن المؤمنين سيرون المشركين في الجحيم ويضحكون منهم وهم في نعيمهم والمشركون في جحيمهم.

٤ ـ بيان إكرام الله لأوليائه، وإهانته تعالى لأعدائه.

❁ ❁ ❁

سورة الانشقاق
مكية
وآياتها خمس وعشرون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ١٥]

﴿١﴾ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝﴾: أي بالغمام وهو سحاب أبيض رقيق وذلك لنزول الملائكة.

﴿٢﴾ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾: أي سمعت وأطاعت. ﴿وَحُقَّتْ﴾: أي وحق لها أن تسمع أمر ربها وتطيعه.

﴿٣﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝﴾: أي زيد في سعتها كما يمد الأديم أي الجلد إذ لم يبق عليها بناء ولا جبل.

﴿٤﴾ ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝﴾: أي ألقت ما فيها من الموتى ألقتهم أحياء إلى ظهرها وتخلت عنه أي عما كان في بطنها.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾: أي عامل كاسب للخير أو الشر. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾: أي إلى أن تلقى ربك وأنت تعمل وتكسب فليكن عملك مما يرضي عنك ربك. ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾: أي ملاق ربك بعد موتك وبعملك خيره وشره.

﴿٧﴾ ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾: أي كتاب عمله وذلك بعد البعث.

﴿٩﴾ ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝﴾: أي بعد الحساب اليسير يرجع إلى أهله في الجنة من الحور العين فرحًا.

﴿١٠﴾ ﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾: أي يأخذه بشماله من وراء ظهره إهانة له.

﴿١١﴾ ﴿يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾: أي ينادي هلاكه قائلاً واثبوراه واثبوراه أي يا هلاكه.

﴿١٢﴾ ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝﴾: أي ويحرق بالنار تحريقًا و ينضج إنضاجة بعد أخرى على قراءة يُصلّى بالتضعيف.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝﴾: أي إنه كان في الدنيا يظن أنه لا يرجع إلى الحياة بعد الموت فلذا لم يعمل خيرًا قط ولم يتورع عن ترك الشر قط لعدم إيمانه بالبعث.

معنى الآيات:

﴿١﴾ قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝﴾ يخبر تعالى أنه إذا انشقت السماء أي تصدعت وتفطرت وذابت فصارت كالدهان.

﴿٢﴾ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾ أي وسمعت[2] لأمر ربها واستجابت فكانت كما أمرها الله أن تكون منشقة منفطرة حتى تكون كالمهل.

﴿٣﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ[3]﴾ من

---

(١) الجملة فذلكة ما تقدم من اعتداء المشركين على المؤمنين وما ترتب عليه من الجزاء يوم القيامة والاستفهام بهل تقريري وتعجب من عدم إفلاتهم منه بعد دهور، و﴿ثُوِّبَ﴾ بمعنى أعطي الثواب يقال: أثابه وثوبه إذا أعطاه ثوابه وهو جزاء عمله وفي التفسير الثواب تهكم واضح بالمشركين نحو ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنشقاق: ٢٤].

(٢) شاهده قوله ﷺ: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن أي ما استمع لشيء» إلخ.. وقال الشاعر:

صم إذا سمعوا خيرًا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

﴿أذنوا﴾ بمعنى سمعوا.

(٣) ﴿إِذَا﴾ ظرف خافض لشرطه منصوب بجوابه.

الأديم واتسعت رقعتها حيث زال منها الجبال والآكام والمباني والعمارات وأصبحت قاعًا صفصفًا.

﴿٤﴾ ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ أي ما في بطنها من أموات ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ عنه أي عما كان في بطنها.

﴿٥﴾ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في ذلك كله أي سمعت وأجابت ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي وحق لها أن تسمع وتجيب وتطيع، وجواب إذا الأولى والثانية واحد وهو ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[1] أو ما أحضرت كما تقدم نظيره في التكوير والانفطار.

﴿٦﴾ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ أي يا بن آدم ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ[2] كَدْحًا﴾ أي إنك عامل تعمل يوميًا وليل نهار إلى أن تموت وتلقى ربك إنك لا تبرح تعمل لا محالة وتكسب بجوارحك الخير والشر إلى الموت حيث تنتقل إلى الدار الآخرة وتلقى ربك وتلاقيه هذا يشهد له قول الرسول ﷺ في الصحيح[3]: «**كلكم يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»، إذًا فمن الخير لك يا أيها الإنسان المكلف أن تعمل خيرًا تلاقي به ربك فيرضى عنك به ويكرمك إنك حقًا ملاق ربك بعملك فأنصح لك أن يكون عملك صالحًا وانظر إلى الصورة التالية:

﴿٧﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ لأنه حوى الخير ولا شر فيه.

﴿٨﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[4] ينظر في كتابه ويقرر هل فعلت كذا فيعترف ويتجاوز عنه.

﴿٩﴾ ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ في الجنة وهم الحور العين والنساء المؤمنات والذرية الصالحة يجمعهم الله ببعضهم كرامة لهم وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ[5] آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾

﴿١٠﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ أي كتاب أعماله ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ حيث تغل اليمنى مع عنقه وتخرج الشمال وراء ظهره ويعطى كتابه وراء ظهره.

﴿١١﴾ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ أي ينادي هلاكه قائلاً واثبوراه واثبوراه أي يا هلاكه احضر فهذا أوان حضورك.

﴿١٢﴾ ﴿وَيَصْلَىٰ[6] سَعِيرًا﴾ أي ويدخل نارًا مستعرة شديدة الالتهاب ويصلى أيضًا فيها تصلية أي ينضح فيها لحمه المرة بعد المرة وأبدًا. والعياذ بالله وعلة ذلك وسببه هو

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ﴾ في الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ لا يخاف الله ولا يرجو الدار الآخرة يعمل ما يشاء ويترك ما يشاء.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾[7]، أي أنه لا يرجع حيًا بعد موته ولا يحاسب ولا يجزى، هذه علة هلاكه وشقائه فاحذروها أيها الناس اليوم فآمنوا بربكم ولقائه واعملوا عملاً ينجيكم من عذابه.

---

(١) اضطرب المفسرون والنحاة في جواب ﴿إِذَا﴾ فمنهم من قال إنه ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾، ومنهم من قال: ﴿أذنت لربها﴾ على أن الواو زائدة، ومنهم من قال إنه ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ وغاب عنهم أن جواز حذف الشرط كجواز حذف القسم، لا سيما وقد تقدّم جواب الشرط كهذا في التكوير والانفطار إذًا فما كان هناك جوابًا يكون هنا جوابًا.

(٢) الكدح: الكسب والعمل. قال ابن مقبل:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما ... أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

والإنسان هنا الجنس فهو عام في كل إنسان من بني آدم.

(٣) في صحيح مسلم حديث طويل أوله: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله...**» إلخ..

(٤) ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي مناقشة فيه كما في حديث عائشة إذ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من حوسب يوم القيامة عُذب**» قلت: يا رسول الله أليس قد قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: «**ليس ذلك الحساب إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عُذّب**» رواه البخاري وغيره.

(٥) الآية من سورة الطور.

(٦) قرأ نافع ﴿ويصلّى﴾ بتشديد اللام و﴿سَعِيرًا﴾ منصوب على نزع الخافض أي بسعير، وقرأ حفص بتخفيف اللام والبناء للفاعل مضارع صلى كرضى يصلى كيرضى إذا مسته النار.

(٧) ﴿يحور﴾ بمعنى يرجع شاهده قول الشاعر:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادًا بعد إذ هو ساطع

⑮ وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝﴾ أي ليحورن وليبعثن وليحاسبن وليس كما يظن أنه لا يبعث ولا يحاسب ولا يجزى بل لا بد من ذلك كله إن ربه تعالى كان به وبعمله بصيرًا لا يخفى عليه من أمره شيء، ونتيجة لذلك تَمَّ له هذا الحساب والعقاب بِأَمَرِّ العذاب وأشدِّه دخول النار وتصلية جحيم.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء ببيان مقدماته في انقلاب الكون.

٢ - بيان حتمية لقاء الإنسان ربّه.

٣ - كل إنسان مكلف بالعقل والبلوغ فهو عامل وكاسب لا محالة إلى أن يموت ويلقى ربه.

٤ - أهل الإيمان والتقوى يحاسبون حسابًا يسيرًا وهو مجرد عرض لا غير ويفوزون أما من نوقش الحساب فقد هلك وعُذب لأنه لا يملك حجة ولا عذرًا.

٥ - التنعم في الدنيا والانكباب على شهواتها وملاذها مع ترك الطاعات والصالحات ثمرة عدم الإيمان أو اليقين بالبعث والجزاء.

⑯ ﴿فَلَآ﴾ جائز أن يكون (لا) صلة أي فأقسم بالشفق، وكونها نافية لكلام سابق كما في التفسير هو اختيار ابن جرير.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٦ - ٢٥]

⑯ ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾: أي بالحمرة في الأفق بعد غروب الشمس.

⑰ ﴿وَمَا وَسَقَ﴾: أي دخل عليه من الدواب وغيرها.

⑱ ﴿إِذَا ٱتَّسَقَ﴾: اجتمع وتم نوره وذلك في الليالي البيض.

⑲ ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: أي حالاً بعد حال الموت، ثم الحياة، ثم ما بعدها من أحوال القيامة.

⑳ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾: أي أيّ مانع لهم من الإيمان بالله ورسوله ولقاء ربهم والحجج كثيرة تتلى عليهم.

㉑ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ﴾: أي تُلي عليهم وسمعوه. ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾: أي لا يخضعون فيؤمنوا ويسلموا.

㉓ ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾: أي يجمعون في صحفهم من الكفر والتكذيب.

㉕ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: أي غير مقطوع.

معنى الآيات:

⑯ قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي فليس الأمر كما تدّعون من أنه لا بعث ولا جزاء أقسم ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾[1] وهي حمرة الأفق بعد غروب الشمس.

⑰ ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝﴾ أي وما جمع من كل ذي روح من سابح في الماء وطائر في السماء وسارح في الغبراء.

⑱ ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝﴾ أي اجتمع وتم نوره وذلك في الليالي البيض.

⑲ وجواب القسم قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝﴾ أي حالاً بعد[2] حال الموت ثم الحياة، ثم العرض، ثم الحساب، ثم الجزاء فهي أحوال وأهوال فليس الأمر كما تتصورون من أنه موت ولا غير.

⑳ - ㉑ وقوله تعالى: ﴿فَمَا[3] لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝﴾ أي ما للناس لا يؤمنون أي شيء منعهم من الإيمان بالله ورسوله والدار الآخرة مع كثرة الآيات وقوة الحجج وسطوع البراهين. وما لهم أيضًا إذا تلي عليهم القرآن وسمعوه لا يخضعون ولا يخشعون ولا يخرون ساجدين مع ما يحمل من أنواع الحجج والبراهين.

㉒ وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي بدل أن يؤمنوا ويسلموا ﴿يُكَذِّبُونَ﴾[4].

---

(١) أكثر أهل العلم على أن الشفق الحمرة بعد غروب الشمس. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول لثوب عليه مصبوغ كأنه الشفق، وكان أحمر. وقال الشاعر:

وأحمر اللون كمحمر الشفق

(٢) من شواهد هذه الحقيقة قول الشاعر:

كذلك المرء إن ينسأ له أجل ... يركب على طبق من بعده طبق

(٣) الاستفهام للإنكار عليهم والتعجب من حالهم في ترك الإيمان.

(٤) ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ صيغة المضارع تدل على استمرار تكذيبهم والصلة هي الكفر. فلو آمنوا ما كذبوا ولكفرهم يكذبون رسول الله ﷺ فيما جاء به وأخبر عنه.

(٢٣) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝﴾ في قلوبهم من الكفر والتكذيب وفي نفوسهم من الحسد والكبر والغل والبغض وبناء على ذلك:

(٢٤) ﴿فَبَشِّرْهُم﴾[1] يا رسولنا أي أخبرهم بما يسوءهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ عاجلًا وآجلًا.

(٢٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[2] أي منهم آمنوا بالله ورسوله وآيات الله ولقائه وعملوا الصالحات فأدوا الفرائض واجتنبوا المحارم فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي ثواب عند الله إلى يوم يلقونه ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير منقوص ولا مقطوع في الجنة دار السلام. اللهم اجعلنا من أهلها برحمتك يا أرحم الراحمين.

هداية الآيات:

١ - بيان أن الإنسان مقبل على أحوال وأهوال حالاً بعد حال وهولاً بعد هول إلى أن ينتهي إلى جنة أو نار.

٢ - بيان أن عدم إيمان الإنسان بربه أمر يستدعي العجب إذ لا مانع للعبد من الإيمان بخالقه وهو يعلم أنه مخلوق وقد تعرف إليه فأنزل كتبه وبعث رسله وأقام الأدلة على ذلك.

٣ - مشروعية السجود عند تلاوة هذه الآية وهي: وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون.

٤ - علم الله تعالى بما يعي الإنسان في قلبه وما يحمل في نفسه فذكره للعبد بأن يراقب ربه فلا يعي في قلبه إلا الإيمان ولا يحمل في نفسه إلا الخير فلا غل ولا حسد ولا شك ولا عداء ولا بغضاء.

❀ ❀ ❀

سورة البروج
مكية وآياتها ثنتان وعشرون آية

الجزء الثلاثون — سُورَةُ البُرُوج

ترتيبها ٨٥ — سُورَةُ البُرُوج — آياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

ترتيبها ٨٦ — سُورَةُ الطَّارِق — آياتها ١٧

٥٩٠

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ١١]

(١) ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾: أي منازل الشمس والقمر الاثني عشر برجًا.

(٢) ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝﴾: أي يوم القيامة إذ وعدت لله تعالى عباده أن يجمعهم فيه لفصل القضاء.

(٣) ﴿وَشَاهِدٍ﴾: أي يوم الجمعة. ﴿وَمَشْهُودٍ﴾: أي يوم عرفة.

(٤) ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝﴾: أي لُعن أصحاب الأخدود. ﴿الْأُخْدُودِ﴾: أي الحفر تحفر في الأرض وهو مفرد وجمعه أخاديد.

(٦) ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝﴾: أي على حافتها وشفيرها.

(٨) ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾: أي ما عابوا أي شيء سوى إيمانهم بالله تعالى.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝﴾[3] هذا قسم من أعظم الأقسام إذ أقسم تعالى فيه بالسماء ذات البروج وهي منازل الشمس والقمر الاثنا عشر برجًا[4].

(٢) - (٣) ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝﴾ وهو يوم القيامة إذ وعد الربّ تعالى عباده أن يجمعهم فيه ليحكم بينهم فيما

---

(١) ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ الفاء للتفريع والترتيب والبشارة هنا للتهكم بهم.

(٢) الاستثناء منقطع بمعنى (لكن الذين آمنوا) إلخ..

(٣) روى أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروح، وروي أيضًا عنه أن النبي ﷺ أمر أن يقرأ في العشاء بالسماوات أي ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ و﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

(٤) ﴿الْبُرُوجِ﴾ هي منازل الكواكب والشمس والقمر، يسير القمر في كل برج منها يومين وثلث يوم فذلك ثمانية وعشرون يومًا ثم يستتر ليلتين. وتسير الشمس في كل برج منها شهرًا وهي الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، والبروج في لغة العرب القصور.

كانوا فيه يختلفون وبالشاهد[١] وهو يوم الجمعة وبالمشهود وهو يوم عرفة وجواب القسم أو المقسم عليه محذوف قد يكون تقديره لتبعثن ثم لتنبؤن لأن السورة مكية والسور المكية تعالج العقيدة بأنواعها الثلاثة: التوحيد والنبوّة والبعث والجزاء.

٤ ـ ٥ وجائز أن يكون الجواب ﴿قُتِلَ﴾ بتقدير اللام وقد نحو لقد قتل أي لعن ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝﴾ وهي حفر حفرها الكفار وأججوا فيها نارًا وأتوا بالمؤمنين المخالفين لدينهم وعرضوا عليهم الكفر أو الإلقاء في النار فاختاروا الإلقاء في النار مع بقاء إيمانهم حتى إن امرأة كانت ترضع صبيًا فأحجمت عن إلقاء نفسها مع طفلها في النار فأنطق الله الصبي فقال لها: أماه امضي فإنك على الحق فاقتحمت النار.

٦ وقوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝﴾ بيان للحال التي كانوا يفتنون فيها المؤمنين والمؤمنات إذ كانوا على شفير النار وحافتها قاعدين.

٧ وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإلقاء في النار والارتداد عن الإسلام ﴿شُهُودٌ﴾ أي حضور، ولم يغيروا منكرًا ولم يأمروا بمعروف.

٨ وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي وما عابوا عنهم شيئًا سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض، فحسب العبد من الله هذه الصفات فإنها توجب الإيمان بالله وطاعته ومحبته وخشيته وهي كونه سبحانه وتعالى عزيزًا في انتقامه لأوليائه حميدًا يحمده لآلائه ونعمه سائر خلقه مالكًا لكل ما في السموات والأرض ليس لغيره ملك في شيء معه وعلمه الذي أحاط بكل شيء دلّ عليه قوله.

٩ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فكيف ينكر على المؤمن إيمانه بربّه ذي الصفات العلا. والجلال والجمال والكمال. سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك.

١٠ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ[٢] وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي فتنوهم عن دينهم فأحرقوهم بالنار ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ بعد فتنتهم للمؤمنين والمؤمنات ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ جزاء لهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ عذاب جهنم في الدار الآخرة وعذاب الحريق في الدنيا. فقد روي أنهم لما فرغوا من إلقاء المؤمنين في النار والمؤمنون كانت تفيض أرواحهم قبل وصولهم إلى النار فلم يحسوا بعذاب النار والكافرون خرجت لهم النار من الأخاديد وأحرقتهم فذاقوا عذاب الحريق في الدنيا، وسيذوقون عذاب جهنم في الآخرة هذا بالنسبة إلى أبدانهم أما أرواحهم فإنها بمجرد مفارقة الجسد تلقى في سجين مع أرواح الشياطين والكافرين.

١١ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٣] بالله وعملوا الصالحات أي آمنوا بالله ربًا وإلهًا وعبدوه بأداء فرائضه وترك محارمه ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ أي بساتين ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت أشجارها وقصورها. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ

(١) روى الترمذي عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**اليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم المشهود: يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة**» وقال فيه حديث حسن غريب، وجائز أن يكون الشهود الكرام الكاتبين والمشهود عليهم بنو آدم، وجائز أن يكون الشاهد هذه الأمة والشهود عليهم سائر الأمم وجائز غير ما ذكر.

(٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾ إلخ.. الآية عامة ليست خاصة بأصحاب الأخدود ولا بكفار قريش، وإنما هي عامة في كل من يفتن المؤمنين والمؤمنات في دينهم. فيصرفهم عنه بأنواع من التعذيب وجزاؤهم ما ذكر في الآية وهو عذاب جهنم وعذاب الحريق إلا من تاب قبل موته. وقد عد ممن فتنوا المؤمنين والمؤمنات في مكة أبو جهل رأس الفتنة وأمية بن خلف والأسود بن عبد يغوث والوليد بن المغيرة، وعد من المعذبين المفتونين بلال بن رباح، وأبو فكيهة وخباب بن الأرت وياسر والد عمار وعامر بن فهيرة وعدد من النساء المعذبات حمامة أم بلال، وزنيرة، وسمية والدة عمار.

(٣) هذا الكلام مستأنف يبين فيه تعالى جزاء من آمن وعمل صالحًا وهو دعوة إلى الإيمان والعمل الصالح والتخلي عن الشرك والشر والفساد. إنه لما ذكر جزاء الكفر وهو عذاب جهنم وعذاب الحريق ناسب ذكر جزاء أهل الإيمان وصالح الأعمال.

﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[(١)] حقًا هو فوز كبير، لأنه نجاة من النار أولاً ودخول الجنة ثانيًا. كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.
٢ - فضل يومي الجمعة وعرفة.
٣ - بيان ما يُبتلى به المؤمنون في هذه الحياة ويصبرون فيكون جزاؤهم الجنة.
٤ - الترهيب والترغيب في ذكر جزاء الكافرين والمؤمنين الصالحين.

شرح الكلمات:
[الآية: ١٢ - ٢٢]

(١٢) ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ﴾: أي أخذه إذا أخذ الكافر شديد.

(١٣) ﴿هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾: أي يبدىء الخلق ويعيده بعد فنائه ويبدىء العذاب ويعيده.

(١٤) ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾: أي لذنوب عباده المؤمنين المتودد لأوليائه.

(١٥) ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾: أي صاحب العرش إذ هو خالقه ومالكه والمجيد المستحق لكمال صفات العلو.

(١٩) ﴿فِي تَكۡذِيبٍ﴾: أي بما ذكر في سياق الآيات السابقة.

(٢٠) ﴿مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾: أي هم في قبضته وتحت سلطانه وقهره.

(٢١) ﴿قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾: أي كريم عظيم.

(٢٢) ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾: أي من الشياطين والمراد به اللوح المحفوظ.

معنى الآيات:

(١٢) لما ذكر تعالى ما توعّد به الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات من أجل إيمانهم أخبر رسوله معرضًا بمشركي قومه وطغاتهم الذين آذوا المؤمنين في مكة من أجل إيمانهم أخبره بقوله:

(١٣) ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ[(٢)] لَشَدِيدٌ﴾ أي إن أخذه إذا بطش أخذه أليم شديد ودلل على ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ فالقادر على البدء والإعادة بطشه شديد. وقوله: ﴿يُبۡدِئُ﴾ أي الخلق ثم يعيده.

(١٤) ويبدىء العذاب[(٣)] أيضًا ثم يعيده ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ فهو قادر على البطش بأعدائه، وهو الغفور لذنوب أوليائه.

(١٥) ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ أي صاحب العرش خلقًا وملكًا المجيد العظيم الكريم.

(١٦) ﴿فَعَّالٞ لِّمَا[(٤)] يُرِيدُ﴾ إذ لا يُكره تعالى على شيء ولا يقدر أحد على إكراهه.

(١٧) - (١٩) وقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ كيف أهلكهم الله لما طغوا وبغوا وكفروا وعصوا نعم قد أتاك وقرأته على قومك الكافرين ولم ينتفعوا به لأنهم يعيشون في تكذيب لك يحيط بهم لا يخرجون منه لأنه تكذيب ناشىء من الكبر والحسد والجهل فلذا هم لم يؤمنوا بعد.

(٢٠) وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾[(٥)] أي هم في قبضته وتحت قهره وسلطانه لا

---

(١) اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائد إلى ما اختصهم الله تعالى به من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، أنهار الماء واللبن والخمر والعسل في دار السلام.

(٢) يرى بعضهم أن قوله: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ﴾ هو جواب القسم ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ وأنه وإن كان جائزًا فإن تقديره في أول الكلام أولى من تأخيره. وهذه الآية مستأنفة تحمل الوعيد والتعريض بمجرمي قريش كأبي جهل وأضرابه.

(٣) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ الجملة تعليلية إذ الذي يبدىء ويعيد لا يكون بطشه إلا قويًا شديدًا، ومن مظاهر الكمال الإلهي جمعه بين صفتي البطش، والمغفرة والود، فهنيئًا لأوليائه، ويا ويل أعدائه.

(٤) روي أن أناسًا دخلوا على أبي بكر في مرضه الذي مات فيه يعودونه فقالوا له: ألا نأتيك بطبيب؟ قال: قد رآني، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد، وفي بعض الروايات قال: الطبيب أمرضني.

(٥) فهو قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون، وعاد وثمود قبله.

يخفى عليه منهم شيء ولا يحول بينه وبينهم متى أراد أخذهم شيء.

(٢١) - (٢٢) وقوله تعالى: ﴿بَلْ[١] هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ۝ فِي لَوْحٍ[٢] مَّحْفُوظٍ﴾ يرد بهذا على المشركين الذين قالوا في القرآن إنه سحر وشعر وأساطير الأولين فقال ليس هو كما قالوا وادّعوا وإنما هو قرآن مجيد في لوح محفوظ من الشياطين فلا تمسه ولا تقربه ولا من غير الشياطين من سائر الخلق أجمعين.

هداية الآيات:

١ - تهديد الظلمة بالعذاب عقوبة في الدنيا وفي الآخرة.

٢ - إن الله تعالى لكرمه يتودد لأوليائه من عباده.

٣ - فائدة القصص هي الموعظة تحصل للعبد فلا يترك واجبًا ولا يغشى محرمًا.

٤ - بيان إحاطة الله تعالى بعباده وأنهم في قبضته وتحت سلطانه.

٥ - شرف القرآن الكريم، وإثبات اللوح المحفوظ وتقريره.

❋ ❋ ❋

سورة الطارق
مكية
وآياتها سبع عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ١٧]

(١) ﴿وَالطَّارِقِ﴾: أي كل ما يطرق ويأتي ليلاً وسمي النجم طارقًا لطلوعه ليلاً.

(٣) ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ۝﴾: أي الثريّا والثاقب المضيء الذي يثقب الظلام بنوره.

(٤) ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾: أي إلاّ عليها حافظ من الملائكة يحفظ عملها.

(٦) ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ۝﴾: أي ماء ذي اندفاق وهو بمعنى مدفوق أي مصبوب في الرحم.

(٧) ﴿مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾: الصلب: عظم الظهر من الرجل، والترائب عظام الصدر والواحدة تريبة.

(٩) ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ۝﴾: أي تختبر ضمائر القلوب في العقائد والنيات. والسرائر جمع سريرة كالسّرّ.

(١١) ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾: أي ذات المطر لرجوعه كل حين والرجع من أسماء المطر.

(١٢) ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾: أي التصدع والتشقق بالنبات.

(١٣) ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾: أي يفصل بين الباطل وفي الخصومات يقطعها بالحكم الجازم.

(١٤) ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ۝﴾: أي باللعب والباطل بل هو الجد كل الجد.

(١٥) ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾: أي يعملون المكائد للنبي ﷺ.

(١٦) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا۝﴾: أي أستدرجهم من حيث لا يعلمون لأوقعهم في المكروه.

(١٧) ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾: أي زمنًا قليلاً وقد أخذهم في بدر.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ۝﴾[٣] هذا قسم إلهي حيث أقسم تعالى بالسماء والطارق ولما كان لفظ الطارق يشمل كل طارق آت بليل، وأراد طارقًا معينًا فخم من شأنه بالاستفهام عنه الدال على تهويله فقال:

(٢) ﴿وَمَا[٤] أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾.

(٣) ثم بيّنه بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ۝﴾ وكل نجم هو ثاقب للظلام بضوئه. والمراد به هنا الثريّا لتعارف العرب على إطلاق النجم على الثريا.

---

(١) (بل): للإضراب الإبطالي أي ليس القرآن كما يصفونه بأنه أساطير الأولين، وإفك مفترى وما إلى ذلك مما قالوه في القرآن من رده وعدم الإيمان به بل هو قرآن مجيد بالغ الغاية في المجد والشرف والسمو والعلو في ألفاظه ومعانيه، وما يحمل من هدى وتشريع وأنه في مناعته لا تصل إليه أيدي الخلق بالتحريف والتبديل إذ هو في لوح محفوظ.

(٢) قرأ نافع وحده برفع ﴿محفوظ﴾ صفة القرآن وجره الباقون حفص وغيره على أنه نعت للفظ لوح وحفظ اللوح حفظ للقرآن المكتوب عليه.

(٣) قال العلماء: افتتاح السورة بالقسم تحقيق لما يقسم عليه وتشويق إليه.

(٤) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ استفهام المراد منه تهويل الأمر وتعظيمه.

(٤) هذا هو القسم والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ[1] لَّمَّا[2] عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾. وهنا قراءتان سبعيتان الأولى بتخفيف ميم لما وحينئذ تصبح زائدة لتقوية الكلام لا غير واللام للفرق بين إن النافية والمؤكدة الداخلة على الاسم وهو هنا ضمير شأن محذوف والتقدير أنه أي الحال والشأن كل نفس عليها حافظ. والثانية بتشديد لمّا وحينئذ تكون إن نافية بمعنى ما ولما بمعنى إلاّ ويصير الكلام هكذا. ما كل نفس إلا عليها حافظ من ربها يحفظ عملها ويُحصي عليها ما تكسب من خير وشر.

(٥) وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ[3] الْإِنسَانُ﴾ أي الكافر المكذب بالبعث والجزاء. ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ أي من أي شيء خلق. وبيّن تعالى مما خلقه بقوله: (٦) ﴿خُلِقَ مِن[4] مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أي ذي اندفاق وهو المنيّ يصب في الرحم ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ أي يخرج الماء من صلب الرجل وهو عظام ظهره وترائب المرأة وهي محل القلادة من صدرها، وقد اختلف في تقدير فهم هذا الخبر عن الله تعالى وجاء العلم الحديث فشرح الموضوع وأثبت أن ماء الرجل يخرج حقًا مما ذكر الله تعالى في هذه الآية وأن ماء المرأة كذلك يخرج مما وصف الله عز وجل وصدق الله العظيم.

(٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ[5] لَقَادِرٌ﴾ أي الذي خلقه مما ذكر من ماء دافق فجعله بشرًا سويًا ثم أماته بعد أن كان حيًا قادر على إرجاعه حيًا كما كان وأعظم مما كان.

(٩) وذلك ﴿يَوْمَ تُبْلَى[6] السَّرَائِرُ[7]﴾ أي تختبر الضمائر وتكشف الأسرار وتعرف العقائد والنيات الصالحة من الفاسدة والسليمة من المعيبة ويومها: (١٠) ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ ليس لهذا الكافر والمكذب بالبعث والحياة الثانية ما له قوة يدفع بها عن نفسه عذاب ربّه ولا ناصر ينصره فيخلصه من العذاب.

(١١) - (١٣) وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۞ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۞﴾ أقسم تعالى بالسماء ذات السحب والغيوم والأمطار، والأرض ذات التشقق عن النباتات والزروع

الجزء الثلاثون — سورة الطارق - الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧

ترتيبها ٨٧ — سورة الأعلى — آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥

٥٩١

---

(١) الإخبار بأن كل نفس عليها حافظ يحفظ أعمالها لتحاسب عليها وتجزى بها إثبات للبعث الآخر بطريق الكناية.

(٢) قرأ نافع بتخفيف الميم من ﴿لَمَا﴾ وشددها حفص.

(٣) الفاء للتفريع إذ الجملة متفرعة عن قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ إن شك الإنسان في حقيقة البعث فلينظر في أصل نشأته، وجائز أن تكون الفاء الفصيحة.

(٤) هذا جواب الاستفهام ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ إذ من ابتدائية وما استفهامية وحذف ألفها تخفيفًا لتقدم حرف الجر عليها نحو عمّ؟ ولم؟ والجار والمجرور متعلق بخلق بعده والإنسان منكر البعث.

(٥) جائز أن يكون على رجعه ماء في الصلب كما كان قادرًا إلا أن ما في التفسير أولى بقرينة يوم تبلى السرائر وذلك يوم القيامة الذي هو يوم البعث.

(٦) ﴿تبلى﴾ تختبر وتمتحن لإظهار ما كان مستورًا مخبوءًا فيها من كفر وإيمان وخير وشر. ورد عن السلف أن الوضوء والغسل والصلاة والصيام والزكاة من السرائر، وأن حيض المرأة وحملها من السرائر إذ في إمكانها إخفاءه وإظهاره.

(٧) ﴿السَّرَائِرُ﴾ جمع سريرة وهي ما يسر العبد ويخفيه في نفسه، وما يستره من أعماله. قال الأحوص:

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا ... سريرة ودٍ يوم تبلى السرائر

المختلفة على أن القرآن الكريم قول فصل وحكم عدل في كل مختلف فيه من الحق والباطل فما أخبر به وحكم فيه من أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها هو الحق الذي لا مرية فيه والصدق الذي لا كذب معه.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾، أي وليس القرآن باللعب الباطل بل هو الحق من الله الذي لا باطل معه.

(١٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا۝﴾ أي إن كفار قريش يمكرون بالنبي محمد ﷺ وبدعوته مكرًا ويكيدون لهما كيدًا.

(١٦) وقوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا۝﴾ أي وأنا أمكر بهم أكيد لهم كيدًا فمن يغلب مكره وكيده الخالق المالك أم المخلوق المملوك؟ ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يا رسولنا، أمهلهم قليلًا، فقد كتبنا في كتاب عندنا ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ وقد أنجز الله وعده لرسوله والمؤمنين فلم يمضِ إلا سنيات قلائل، ولم يبقَ في مكة من سلطان إلا الله، ولا من معبود يُعبد إلا الله.

هداية الآيات:

١ - تقرير المعاد والبعث والجزاء.

٢ - تقرير أن أعمال العباد محصية محفوظة وأن الحساب يجري بحسبها.

٣ - بيان مادة تكوين الإنسان ومصدر تكوين تلك المادة.

٤ - التحذير من إسرار الشر وإخفاء الباطل، وإظهار خلاف ما في الضمائر، فإن الله تعالى عليم بذلك، وسيختبر عباده في كل ما يسرون ويخفون.

٥ - إثبات أن القرآن قول فصل ليس فيه من الباطل شيء وقد تأكد هذا بمرور الزمان فقد صدقت أنباؤه ونجحت في تحقيق الأمن والاستقرار وأحكامه.

❁ ❁ ❁

سورة الأعلى
مكية
وآياتها تسع عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ١٣]

(١) ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾: أي نزه اسم ربك أن يُسمى به غيره وأن يذكر بسخرية أو لعب أي لا يذكر إلا بإجلال وإكبار ونزه ربك عما لا يليق به من الشرك والصاحبة والولد والشبيه والنظير. ﴿ٱلْأَعْلَى﴾: أي فوق كل شيء والقاهر لكل شيء.

(٢) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ۝﴾: أي الإنسان فسوى أعضاءه بأن جعلها متناسبة غير متفاوتة.

(٣) ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ۝﴾: أي قدر ما شاء لمن شاء وهداه إلى إتيان ما قدره له وعليه.

(٤) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ۝﴾: أي أنبت العشب والكلأ.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ۝﴾: أي بعد الخضرة والنضرة هشيمًا يابسًا أسود.

(٦) ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ۝﴾: أي القرآن فلا تنساه بإذننا.

(٧) ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أي إلا ما شئنا أن ننسيكه فإنك تنساه وذلك إذا أراد الله تعالى نسخ شيء من القرآن بلفظه فإنه يُنسى فيه رسوله ﷺ.

(٨) ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ۝﴾: أي للشريعة السهلة وهي الإسلام.

(٩) ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ۝﴾: أي من تذكر أو لم تنفع ومعنى ذكر عظ بالقرآن.

(١١) ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾: أي الذكرى أي يتركها جانبًا فلا يلتفت إليها. ﴿ٱلْأَشْقَى﴾: أي الكافر الذي كتبت شقاوته أزلًا.

(١٢) ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾: أي نار الدار الآخرة.

(١٣) ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾: أي لا يموت فيستريح، ولا يحيا فيهنأ.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى۝﴾(١) هذا أمر من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأمته تابعة له بأن(٢) ينزه اسم ربه عن أن يسمى به غيره، أو أن يذكر في مكان قذر، أو

---

(١) روي في السنن لما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال رسول الله ﷺ: **«اجعلوها في سجودكم»** فكانوا يقولون في سجودهم: سبحان ربي الأعلى ثلاثًا فأكثر.

(٢) (إن) تنزيه الاسم مستلزم لتنزيه المسمى، فلذا لا حاجة إلى القول بأن اسم صلة قصد بها تعظيم المسمى استشهادًا بقول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... فتنزيه اسم الله وتقديسه مطلوب

أن يذكر بعدم إجلال واحترام، والأعلى صفة للربّ تبارك وتعالى دالة على علوه على خلقه فالخلق كله تحته وهو قاهر له وحاكم فيه.

(٢) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي أوجد من العدم المخلوقات وسوّى خلقها كل مخلوق بحسب ذاته فعدل أجزاءه وسوّى بينها فلا تفاوت فيها.

(٣) ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي قدر الأشياء في كتاب المقادير من خير وغيره وهدى كل مخلوق إلى ما قدره له أو عليه فهو طالب له حتى يدركه في زمانه ومكانه وعلى الصورة التي قدر عليها.

(٤) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي ما ترعاه البهائم من الحشيش والعشب والكلأ.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾[1] أي فجعله بعد الخضرة والنضرة هشيمًا متفرقًا يابسًا بين سواد وبياض وهي الحوّة هذه خمس آيات الآية الأولى تضمنت الأمر بتنزيه اسم الله والأربع بعدها في التعريف به سبحانه وتعالى حتى يعظم اسمه وتعظم ذاته وتنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

(٦) وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ هذه عِدَةٌ من الله تعالى لرسوله. لعل سببها أنه كان ﷺ إذا جاءه جبريل بالآيات يخاف نسيانها فيستعجل قراءتها قبل فراغ جبريل عليه السلام من إملائها عليه فيحصل له بذلك شدة فطمأنه ربّه أنه لا ينسى ما يقرئه جبريل ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[2] أن ينسيه إياه لحكمة اقتضت ذلك فإنه ينساه فقد كان ﷺ ينسى وذلك لما أراد الله أن ينسخه من كلامه.

(٧) وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ هذه الجملة تعليلية لقدرة الله تعالى على أن يحفظ على رسوله القرآن فلا ينساه ومعنى يعلم الجهر وما يخفى أي أن الله تعالى يعلم ما يجهر به المرء من قراءة أو حديث وما يخفيه الكل يعلمه الله بخلاف عباده فإنهم لا يعلمون ما يخفى عليهم ويُسرُّ به.

(٨) وقوله تعالى و﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي للطريقة السهلة الخالية من الحرج وهي الشريعة الإسلامية التي بنيت على أساس أن لا حرج في الدين ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

(٩) وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ[3] ٱلذِّكْرَىٰ﴾ من آيسناك من إيمانهم أو لم تنفع. لأنه ﷺ مأمور بالبلاغ فيبلغ الكافر والمؤمن ويذكر الكافر والمؤمن. والأمر بعد لله.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي سيذكر ويتعظ من يخشى عقاب الله لإيمانه به ومعرفته له.

(١١) ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي الذكرى ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي أشقى الفريقين فريق من يتذكر وفريق من لا يتذكر.

(١٢) ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي يدخل النار الكبرى نار يوم القيامة.

(١٣) ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ من جراء عذابها فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾[4] فيهنأ ويسعد إذ الشقاء لازمه. وهذه حال أهل النار ونعوذ بالله من حال أهل النار.

هداية الآيات:

١ - وجوب تسبيح اسم الله وتنزيهه عما لا يليق به كوجوب تنزيه ذات الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

٢ - مشروعية قول سبحان ربّي الأعلى عند قراءة هذه الآية سبح اسم ربك الأعلى.

٣ - وجوب التسبيح بها في السجود في كل سجدة من الصلاة سبحان

= بل من أسمى المطالب، وتنزيه الله تعالى يكون بنفي الشريك عنه والولد ونفي كل نقص عنه قولاً واعتقادًا وما يقرر أن تنزيه الاسم مستلزم لتنزيه المسمى قول الرسول ﷺ: **«اجعلوها في سجودكم»** لأنها دالة على تنزيه الرب تعالى وتعظيمه.

(١) الأحوى: الموصوف بالحوة وهي لون من الألوان سمرة تقرب من السواد، وأحوى صفة لغثاء الذي هو اليابس من النبات.

(٢) الاستثناء مفرغ أي إلا الذي شاء الله أن تنساه فإنك تنساه.

(٣) في الجملة تعريض بأن بين كفار قريش من لم تنفعهم الذكرى، ومع هذا فالتذكير متعين للجميع إقامة للحجة.

(٤) قوله: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ في الجملة احتراس مما قد يظن أنه ما دام الجهنمي أنه لا يموت فسوف يحيى حياة عادية لا عذاب فيها فرفع هذا التوهم بهذه الجملة ﴿ولا يحيى﴾ أي حياة راحة من العذاب كما قال القائل:

ألا ما لنفسٍ لا تموت فينقضي ... عناها ولا تحيا حياة لها طعم

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

ترتيبها ٨٨ — سُورَةُ الغَاشِيَةِ — آياتها ٢٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

٥٩٢

ربي الأعلى ثلاثًا فأكثر.

٤ ـ مشروعية قراءة هذه السورة في الوتر فيقرأ في الركعة الأولى بالفاتحة والأعلى وفي الثانية بالفاتحة والكافرون، وفي ركعة الوتر بالفاتحة والصمد أو الصمد والمعوذتين.

٥ ـ أحب الرسول ﷺ سورة الأعلى لأنها سورة ربّه وأن ربّه بشّره فيها ببشارتين عظيمتين الأولى أنه يُيسره لليسرى، ومن ثم ما خُير رسول الله ﷺ بين شيئين إلا اختار أيسرهما، والثانية أنه حفظه من النسيان بأن جعله لا ينسى. ولذا كان يُصلي بهذه السورة الجمع والأعياد والوتر في كل ليلة فصلى الله عليه وسلم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٤ ـ ١٩]

﴿١٤﴾ ﴿أَفْلَحَ﴾: أي فاز بأن نجا من النار، ودخل الجنة. ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾: أي تطهّر بالإيمان وصالح الأعمال بعد التخلي عن الشرك والمعاصي.

﴿١٥﴾ ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾: أي في كل أحايينه عند الأكل وعند الشرب وعند النوم وعند الهبوب منه وفي الصلاة وخارج الصلاة من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير. ﴿فَصَلَّىٰ﴾: أي الصلوات الخمس والنوافل من رواتب وغيرها.

﴿١٦﴾ ﴿تُؤْثِرُونَ﴾: أي تقدمون وتفضلون الدنيا على الآخرة.

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝﴾: أي إن هذا وهو قوله قد أفلح إلى قوله وأبقى.

﴿١٩﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾: إذ كانت عشر صحف. ﴿وَمُوسَىٰ﴾: أي توراته.

معنى الآيات:

﴿١٤﴾ ـ ﴿١٥﴾ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝﴾ يخبر تعالى بفلاح عبد مؤمن زكى[1] نفسه أي طهّرها بالإيمان وصالح الأعمال، وذكر اسم ربّه على كل أحايينه عند القيام من النوم عند الوضوء بعد الوضوء في الصلاة وبعد الصلاة وعند الأكل والشرب وعند اللباس فلا يخلو من ذكر الله ساعة فصلّى الصلوات الخمس وصلى النوافل. ومعنى الفلاح الفوز والفوز هو النجاة من المرهوب والظفر بالمرغوب المحبوب. والمراد منه في الآية النجاة من النار ودخول الجنة لآية آل عمران ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

﴿١٦﴾ ـ ﴿١٧﴾ وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝﴾ أيها الناس أي تفضلونها على الآخرة فتعملون لها وتنسون الآخرة فلا تقدمون لها شيئًا. هذا هو طبعكم أيها الناس إلا من ذكر الله فصلى بعد أن آمن واهتدى في حين أن الآخرة خير من الدنيا وأبقى خير نوعًا وأبقى مدة حتى قال الحكماء[2]: لو كانت الدنيا من ذهب والآخرة من خزف.. طين لاختار العاقل ما يبقى على ما يفنى، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية.

﴿١٨﴾ ـ ﴿١٩﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝﴾ أي إن قوله تعالى: قد أفلح من تزكى إلى قوله: خير وأبقى، مذكور في كل من صحف

---

(١) قوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ فيه معنى المعالجة وهي أنه عمل على تزكية نفسه بإبعادها عما يخبثها من الشرك والآثام، ثم بتحليتها بالعبادات المزكية لها وهي الإيمان وصالح الأعمال.

(٢) قال مالك بن دينار ـ ونص كلمته كالتالي: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى. قال: فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى؟

إبراهيم وكانت له عشر صحف ولموسى[(١)]، التوراة.

هداية الآيات:

١ - الترغيب في الزكاة والذكر والصلاة، ويحصل هذا للمسلم كل عيد فطر إذ يخرج زكاة الفطر أولاً ثم يأتي المسجد يكبر، ثم يصلي حتى أن بعضهم يرى أن هذه الآية نزلت في ذلك.

٢ - التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة لفناء الدنيا وبقاء الآخرة.

٣ - توافق الكتب السماوية دليل أنها وحي الله وكتبه أنزلها على رسله عليهم السلام.

❁ ❁ ❁

سورة الغاشية
مكية
وآياتها ست وعشرون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ١٦]

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾: أي قد جاءك.

﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾: أي القيامة وسميت الغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها.

(٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾: أي يوم إذ تقوم الساعة. ﴿خَـٰشِعَةٌ﴾: أي ذليلة أطلق الوجوه وأراد أصحابها.

(٣) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝﴾: أي ذات نصب وتعب بالسلال والأغلال وتكليف شاق الأعمال.

(٤) ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾: ترد هذه الوجوه نارًا حامية قد اشتدت حرارتها.

(٥) ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝﴾: أي بلغت أناها من الحرارة يقال أني الحميم إذا بلغ منتهاه.

(٦) ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾: أي أخبث طعام وأنتنه، وضريع الدنيا نبت يقال له الشبرق لا ترعاه الدواب لخبثه.

(٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝﴾: أي حسنة نضرة.

(٩) ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝﴾: أي لعملها الصالحات في الدنيا راضية في الآخرة لما رأت من ثوابها.

(١١) ﴿لَـٰغِيَةً﴾: أي كلمة لاغية من اللغو والباطل.

(١٤) ﴿وَأَكْوَابٌ﴾: أقداح لا عرا لها موضوعة على حافة العين للشرب.

(١٥) ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝﴾: أي ومساند جمع نمرقة مصفوفة الواحدة إلى جنب الأخرى للاستناد إليها.

(١٦) ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝﴾: أي بسط وطنافس لها خمل وما لا خمل لها يسمى سجادة ومعنى مبثوثة مفروشة هنا وهناك مبسوطة.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ[(٢)] حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾[(٣)] هذا خطاب من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ يقول له فيه: هل أتاك نبأ الغاشية وخبرها العظيم وحديثها المهيل المهيف إن لم يكن أتاك فقد أتاك الآن إنه حديث القيامة التي تغشى الناس بأهوالها وصعوبة مواقفها واشتداد أحوالها وإليك عرضًا سريعًا لبعض ما يجري فيها:

(٢) ﴿وُجُوهٌ[(٤)] يَوْمَئِذٍ﴾ تغشاهم الغاشية ﴿خَـٰشِعَةٌ﴾ ذليلة ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ أي ذات نصب وتعب من جرّ السلاسل والأغلال، وتكليف أشق الأعمال.

(٣) ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾ أي ترد نارًا.

(٥) ـ (٦) ﴿تُسْقَىٰ﴾ أي فيها ﴿مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ قد بلغت أناها وانتهت إلى غايتها في حرارتها هذا هو الشراب أما الطعام فإنه ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾[(٥)] قبيح اللون خبيث الطعم منتن الريح.

(٧) ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ آكله ولا يغنيه من جوع. هذه حال من كفر وفجر كفر

---

(١) لقد كان لموسى صحف كثيرة إذ هي مجموع صحف أسفار التوراة والصحف جمع صحيفة على غير قياس إذ القياس صحائف وصار صحف أشهر وأفصح من صحائف كما قالوا في جمع سفينة سفن فكان أفصح من سفائن.

(٢) افتتح تعالى هذه السورة بالاستفهام بهل المفيد لمعنى قد، التي هي للتحقيق من أجل التشويق إلى ما يخبر به لما فيه من العلم والمعرفة وما يحوي من موعظة كبرى.

(٣) ﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ القيامة علم لها بالغلبة واشتق لها هذا الاسم من الغشيان الذي هو التغطية إذ هي تغطي الناس بأهوالها وتذهل عقولهم وتغطيها.

(٤) هذه الجملة بيان لجملة حديث الغاشية بيّنها بذكر أحوالها وأهوالها إذ المقصود العبرة وتقرير البعث الذي أنكره المشركون وذكر الوجوه كناية عن أصحابها إذ يطلق الوجه ويراد به الذات.

(٥) الضريع: هو يابس ثمر الشبرق بكسر الشين وإسكان الباء وكسر الراء وهو نبت ذو شوك فإذا يبس يقال له ضريع ويصير مسمومًا=

بالله وبآياته ولقائه ورسوله، أو فجر عن طاعة الله ورسوله فترك الفرائض وغشي المحارم هذه وجوه.

(٨) و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾[1] أي نضرة حسنة فإنها:

(٩) ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي لسعيها في الدنيا وهو إيمانها وصبرها إيمانها وجهادها إيمانها وتقواها إيمانها وعملها الصالح أصحاب هذه الوجوه راضون بأعمالهم لما رأوا من ثوابها والجزاء عليها.

(١٠) إنهم أدخلوا ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ لا يقادر علاها:

(١١) ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾[2] أي كلمة باطلة تنغص سعادتهم ولا كلمة نابية تقلق راحتهم.

(١٢) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ من غير أخدود حفر لها.

(١٣) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ قدرًا وحالاً ومكانًا.

(١٤) ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ أقداح لا عرا لها من ذهب وفضة ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ لشربهم إن شاءوا شربوا بأيديهم أو ناولتهم غلمانهم، ذاك لون من الشراب أما الفراش فإنها سرر مرفوعة.

(١٥) ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾.

(١٦) ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، وسائد قد صفت للراحة والاتكاء الواحدة إلى جنب الأخرى طنافس ذات خمائل مبثوثة مفروشة هنا وهناك مبسوطة. هذه لمحة خاطفة عن الدار الآخرة تعتبر ذكرى للذاكرين وعظة للمتقين.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر عرض سريع لها.

٢ ـ من أسماء القيامة الغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها.

٣ ـ بيان أن في النار نصبًا وتعبًا. على عكس الجنة فإنها لا نصب فيها ولا تعب.

٤ ـ من مؤلمات النفس البشرية لغو الكلام وكذبه باطله وهو ما ينزه عنه المؤمنون أنفسهم.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٧ ـ ٢٦]

(١٧) ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾: أي أينكرون البعث فلا ينظرون نظر اعتبار. ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾: أي خلقًا بديعًا معدولاً به عن سنن سائر المخلوقات.

(١٨) ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾: أي فوق الأرض بلا عمد ولا مستند.

(١٩) ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾: أي على وجه الأرض نصبًا ثابتًا لا يتزلزل.

(٢٠) ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾: أي بسطت.

(٢١) ﴿فَذَكِّرْ﴾: أي ذكرهم بنعم الله ودلائل توحيده.

(٢٢) ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾: أي بمسلط.

معنى الآيات:

(١٧) ـ (٢٠) قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾[3] أي أينكرون البعث والجزاء وما أعد الله لأوليائه من النعيم المقيم وما أعد لأعدائه من عذاب الجحيم. أفلا ينظرون نظرة اعتبار ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝﴾[4] فهل خلق الإبل على تلك الصورة العجيبة وذاك التسخير لها وما فيها من منافع إذ يشرب لبنها ويركب ظهرها ويؤكل لحمها لا يدل على قدرة الخالق على إحياء الموتى وهل خلق السماء بكواكبها وشمسها وقمرها ثم رفعها بغير عمد يدعمها ولا سند يسندها لا يدل على قدرة الله على بعث الموتى أحياء ليحاسبهم ويجزيهم، وهل نصب الجبال بعد خلق ترابها وإيجاد صخورها لا يدل على قدرة الله خالقها على بعث الرمم وإحياء الأجساد البالية كيف شاء ومتى شاء

= أي فيه مادة السم القاتلة، هذا طعام أهل النار وجائز أن يكون الضريع شجر في النار ينتج عنه عصير الغسلين.

(١) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ هذه الجملة غير معطوفة على الوجوه الأولى، لأن المقصود من الكلام هو بيان القيامة وما يكون فيها من عذاب وشقاء للمكذبين بها. فلما تم الحديث عنها قد يتشوق السامع إلى معرفة حال المؤمنين بها فأجيب بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ إلخ.. فهو استئناف بياني.

(٢) قرأ نافع ﴿لا تُسمع﴾ بالبناء للمجهول و﴿لاغية﴾ نائب فاعل، وقرأ حفص ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ بالبناء للفاعل و﴿لَاغِيَةً﴾ مفعول به.

(٣) هذا الكلام متفرع عما سبقه إذ إنكار المشركين للبعث والجزاء وللتوحيد الناتج عن جهلهم وغفلتهم وعدم تفكرهم فلذا استحثهم على النظر والتفكر موبخًا لهم على ترك ذلك.

(٤) ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ بدل اشتمال من الإبل، و﴿كَيْفَ﴾ في محل نصب على الحال والعامل فيه ما ذكر بعدها وأما ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ﴾ وما بعدها فإنها معطوفات على جملة ﴿إِلَى الْإِبِلِ﴾ وإعراب كيف: واحد والإبل: اسم جمع للبعران لا مفرد لها من لفظه.

وهل خلق الأرض بكل ما فيها ثم بسطها وتسطيحها للحياة عليها والسير فوقها وتعميرها بأنواع العمران لا يدل على قدرة الله على البعث والجزاء. فما للقوم لا ينظرون[1] ولا يفكرون.

(٢١) ـ (٢٢) وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝﴾ بعد لفت أنظار المشركين إلى ما لو نظروا إليه وتفكروا فيه لاهتدوا إلى الحق وعرفوا أن الخالق لكل شيء لا يعجزه بعث عباده ولا جزاؤهم. أمر رسوله أن يقوم بالمهمة التي أنيطت به وهي التذكير دون الهداية التي هي لله وحده دون سواه فقال له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝﴾ أي ذكر بمظاهر قدرتنا وآياتنا في الآفاق وآلائنا على العباد إنما أنت مذكر ليس غير. وقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝﴾ أي بمتسلط تجبرهم على الإيمان والاستقامة.

(٢٣) ـ (٢٤) وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ[2] ۝ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝﴾ أي لكن من تولى عن الإيمان فكفر بآياتنا ورسولنا ولقائنا فيعذبه الله العذاب الأكبر وهو عذاب الآخرة.

(٢٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝﴾ أي رجوعهم إلينا لا إلى غيرنا.

(٢٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ لا على غيرنا ﴿حِسَابَهُم﴾ ومن ثم سوف نجزيهم الجزاء اللائق بهم، ولذا فلا يضرك يا رسولنا إعراضهم ولا توليهم. وحسبك تذكيرهم فمن اهتدى نجا ونجاته لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها إذ عاقبة ضلاله وهي الخسران التام عائدة عليه.

هداية الآيات:

١ - تقرير البعث والجزاء بالدعوة إلى النظر إلى الأدلة الموجبة للإيمان به.

٢ - بيان أن الداعي إلى الله تعالى مهمته الدعوة دون هداية القلوب فإنها إلى الله تعالى وحده.

٣ - بيان أن مصير البشرية إلى الله تعالى وهي حال تقتضي الإيمان به تعالى وطاعته طلبًا للنجاة من عذابه والفوز برحمته. وهو مطلب كل عاقل لو أن الناس يفكرون.

❁ ❁ ❁

سورة الفجر
مكية
وآياتها ثلاثون آية

الجزء الثلاثون — سورة الفجر

ترتيبها ٨٩ — سورة الفجر — آياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣

٥٩٣

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٤]

(١) ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝﴾: أي فجر كل يوم.

(٢) ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝﴾: أي عشر ذي الحجة.

(٣) ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝﴾: أي الزوج والفرد.

(٤) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝﴾: أي مقبلاً أو مدبرًا.

(٥) ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾: أي حجى وعقل.

(٦) ﴿بِعَادٍ إِرَمَ﴾: هي عاد الأولى.

(٧) ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾: إذ كان طول الرجل منهم اثني عشر ذراعًا.

(٩) ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾: أي قطعوا الصخر جعلوا من الصخور بيوتًا بوادي القرى.

---

(١) من مظاهر رحمة الله ولطفه بعباده أن يوجه عباده إلى سبيل هدايتهم توجيهًا خاليًا من العناء والمشقة فالعربي يركب بعيره في طريقه إلى حاجته فينظر إليه وهو راكبه وينظر إلى السماء فوقه وإلى الجبال حواليه وإلى الأرض تحت قدميه فيسأل: أليس القادر على خلق هذا قادرًا على البعث؟ فيجيب نفسه بلى إنه قادر.

(٢) روي أن عليًا أتى بمرتد عن الإسلام فاستتابه ثلاثة أيام فلم يتب وأصر على الردة فضرب عنقه وقرأ ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾.

(١٠) ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي صاحب الأوتاد وهي أربعة أوتاد يشدُّ إليها يدي ورجلي من يعذبه.

(١١) ﴿طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾: أي تجبروا فيها وظلموا العباد وأكثر فيها الفساد.

(١٢) ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾: أي الشرك والقتل.

(١٣) ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾: أي نوع عذاب.

(١٤) ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: أي يرصد أعمال العباد ليجزيهم عليها.

معنى الآيات:

(١) - (٤) قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝﴾[١] ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝﴾ هذه أربعة أشياء قد أقسم الله تعالى بها وهي الفجر وفي كل يوم فجر وجائز أن يكون قد أراد تعالى فجر يوم معين وجائز أن يريد فجر كل يوم ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝﴾ وهي العشر الأول من شهر الحجة وفيها عرفة والأضحى وقد أشاد بها رسول الله ﷺ وقال: «**ما من**[٢] **أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من عشر ذي الحجة**» ﴿وَٱلشَّفْعِ﴾ وهو كل زوج ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾[٣] وهو كل فرد فهو إقسام بالخلق كله ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝﴾ مقبلاً أو مدبرًا فهو بمعنى والليل إذا سار والسير يكون صاحبه ذاهبًا أو آيبًا.

(٥) وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝﴾ أي لذي حجر ولب وعقل أي نعم فيه قسم عظيم وجواب القسم أو المقسم عليه جائز أن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝﴾ الآتي، وجائز أن يكون مقدرًا مثل لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير، وهذا لأن السورة مكية وهي تعالج العقيدة ومن أكبر ما أنكره المشركون البعث والجزاء فلذا هذا الجواب مراد ومقصود. ويدل عليه ما ذكر تعالى من مظاهر قدرته في الآيات بعد والقدرة هي التي يتأتى بها البعث والجزاء فقال عز وجل:

(٦) - (٨) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ[٤] فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي ألم تنظر بعيني قلبك كيف فعل ربك ﴿بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝﴾[٥] وهي عاد الأولى قوم هود الذين قالوا من أشد منا قوة، وقال لهم نبيهم هود: وزادكم في الخلق بسطة، فقد كان طول الرجل منهم اثني عشر ذراعًا، ولفظ إرم عطف بيان لعاد فإرم هي عاد قوم هود ووصفها بأنها ذات عماد وأنها لم يخلق مثلها في البلاد هو وصف لها بالقوة والشدة وفعلاً كانوا أقوى الأمم وأشدها ولازم طول الأجسام أن تكون أعمدة المنازل كأعمدة الخيام من الطول ما يناسب سكانها في طولهم. ومع هذه القوة والشدة فقد أهلكهم الله الذي هو أشد منهم قوة.

(٩) وقوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ[٦] جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي وانظر كيف فعل ربك بثمود وهم أصحاب الحجر (مدائن صالح) شمال المدينة النبوية قوم صالح الذين كانوا أقوياء أشداء حتى إنهم قطعوا الصخور نحتًا لها فجعلوا منها البيوت والمنازل كما قال تعالى عنهم ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ والمراد بالواد واديهم الذي كان بين جبلين من جبالهم التي ينحتون منها البيوت. فمعنى جابوا الصخر بالواد أي قطعوا الصخور بواديهم وجعلوا منها مساكن لهم تقيهم برد الشتاء القارص وحر الصيف اللافح، ومع هذا فقد أهلكهم الله ذو القوة المتين.

---

(١) لصلوحية الشفع والوتر لأشياء كثيرة ذكر القرطبي منها عددًا كثيرًا فروى عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «**الشفع والوتر الصلاة منها شفع ومنها وتر**»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الشفع صلاة الصبح، والوتر صلاة المغرب، وأولى ما يقال أن الله تعالى أقسم بكافة خلقه إذ كل ما عداه تعالى ما بين شفع ووتر، إذ الشفع ما يكون ثانيًا لغيره، والوتر الشيء المفرد.

(٢) رواه مسلم وغيره.

(٣) قرأ نافع والجمهور ﴿والوَتر﴾ بفتح الواو وكسرها حفص.

(٤) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام تقريري والمخاطب به النبي ﷺ وهو متضمن التعريض بالمشركين المعاندين، كما هو متضمن الوعد بنصر رسوله ﷺ والرؤية قلبية أو هي بمعنى ألم ينتهي إلى علمك فعل ربك بعاد؟ إلخ...

(٥) عاد: اسم أبي قبيلة وهو عاد بن عُوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

(٦) وكون عاد إرم هم قوم هود عليه السلام يرجحه ذكر ثمود بعدهم في السياق كما هو في سائر قصص القرآن.

(١٠) ـ (١٣) وقوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِى[1] ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝﴾ وانظر يا رسولنا كيف فعل ربك بفرعون صاحب المشانق والقتل والتعذيب إذ كان له أربعة أوتاد إذا أراد قتل من كفر به وخرج عن طاعته قيد كل يد بوتد وكل رجل بوتد ويقتله كما هي المشانق التي وضعها الطغاة الظلمة فيما بعد. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝﴾ وهو الشرك والمعاصي فأهكلهم الله أجمعين عاد إرم وثمود وفرعون وملأه إذ صب ﴿عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[2] أي نوع عذاب من أنواع عذابه فأهلك عاد إرم بالريح الصرصر، وثمود بالصيحة العاتية، وفرعون بالغرق في البحر.

(١٤) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝﴾ أي لكل جبار عات وطاغية ظالم أي هو تعالى يرصد أعمال العباد ليجزيهم بها في الدنيا وفي الآخرة. ولفظ المرصاد يطلق على مكان يرصد فيه تحركات الصيد الذي يصاد، أو تحركات العدو وهو كبرج المراقبة. والرب تبارك وتعالى فوق عرشه والخليقة كلها تحته يعلم ظواهرها وبواطنها ويراقب أعمالها ويجزيها بحسبها. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝﴾.

هداية الآيات:

١ ـ فضل الليالي العشر من أول ذي الحجة إلى العاشر منه.

٢ ـ بيان مظاهر قدرة الله في إهلاك الأمم العاتية والشعوب الظالمة مستلزم لقدرته تعالى على البعث والجزاء والتوحيد والنبوة وهو ما أنكره أهل مكة.

٣ ـ التحذير من عذاب الله ونقمه فإنه تعالى بالمرصاد فليحذر المنحرفون عن سبيل الله والحاكمون بغير شرعه والعاملون بغير هداه أن يصب عليهم سوط عذاب.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٥ ـ ٢٠]

(١٥) ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أي الكافر المشرك. ﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾: أي اختبره. ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾: أي بالمال والجاه ونعّمه بالخيرات. ﴿أَكْرَمَنِ﴾: أي فضلني لما لي من مزايا على غيري.

(١٦) ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾: أي ضيقه ولم يوسعه عليه. ﴿أَهَٰنَنِ﴾: أي أذلني بالفقر ولم يشكر الله على ما وهبه من سلامة جوارحه والعافية في جسمه.

(١٧) ﴿كَلَّا﴾: أي ليس الأمر كما يرى هذا الكافر ويعتقد ويقول.

﴿ٱلتُّرَاثَ﴾: أي الميراث.

(١٩) ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾: أي أكلا كثيرًا ولمًّا شديدًا إذ يلمون نصيب النساء والأطفال لما لهم فلا يورثونهم من التركة.

(٢٠) ﴿حُبًّا جَمًّا﴾: أي حبًا شديدًا كثيرًا.

معنى الآيات:

(١٥) قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ[3] إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ[4] أَكْرَمَنِ﴾ لقد تقدم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝﴾ وهو دال على أن الله تعالى يحب من عبده أن يعبده ويشكره ليكرمه في دار كرامته يوم لقائه، وإعلام الله تعالى عباده بأنه بالمرصاد يراقب أعمالهم دلالته على أنه يخوفهم من معاصيه ويرغبهم في طاعته واضحة فتلخص من ذلك أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر وأنه يحب لهم الشكر فأما الإنسان فماذا يحب وماذا يكره. قال تعالى عنه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وهو المشرك وأكثر الناس مشركون،

---

(١) جائز أن يكون الموصول مرادًا به عاد إرم وثمود وفرعون، وكونه عائدًا إلى فرعون أولى وإن كان الجميع طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد بالشرك والظلم والفساد.

(٢) السوط: آلة ضرب يتخذ من جلد يضفر ضفرًا فيصبح كالعصا فتضرب به الخيل لتسرع في جريها، ويطلق العرب لفظ سوط على كل عذاب يكون فيه السوط، و﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ هو من إضافة الصفة إلى الموصوف إذ كلمة سوط صفة للعذاب والعرب يطلقون لفظ سوط العذاب على كل نهاية العذاب حتى قال الشاعر:

ألم تر أن الله أظهر دينه ... وصب على الكفار سوط عذاب

(٣) الفاء للتفريع وما بعدها متفرع عما قبلها، وفي التفسير بيان ذلك وتوضيحه فليتأمل.

(٤) قرأ نافع ﴿ربيَ﴾ في الموضعين بفتح الياء، وقرأ حفص بسكون الياء ممدودة.

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي اختبره ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بالمال والولد والجاه ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالأرزاق والخيرات لينظر الله هل يشكر أو يكفر فيقول مفاخرًا ربي أكرمن، أي فضلني على غيري لما لي من فضائل ومزايا لم تكن لهؤلاء الفقراء.

(١٦) ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[١]، أي وأما إذا ما اختبره وضيّق عليه رزقه لينظر تعالى هل يصبر العبد المختبر أو يجزع فيقول ربي أهانن أي أذلني فأفقرني.

(١٧) - (٢٠) وقوله تعالى: ﴿كَلَّا[٢] بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا[٣] ۞ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۞[٤]﴾ أي ألا فارتدعوا أيها الماديون الذين تقيسون الأمور كلها بمقاييس المادة فالله جلّ جلاله يوسع الرزق اختبارًا للعبد هل يشكر نعم الله عليه فيذكرها ويشكرها بالإيمان والطاعة ويضيّق الرزق امتحانًا هل يصبر العبد لقضاء ربه أو يجزع. وإنما أنتم أيها الماديون ترون أن في التوسعة إكرامًا وفي التضييق إهانة كلا ليس الأمر كذلك، ونظريتكم المادية هذه أتتكم من حبكم الدنيا واغتراركم بها ويشهد بذلك إهانتكم لليتامى وعدم إكرامكم لهم لضعفهم وعجزهم أمامكم، وعدم الاستفادة المادية منهم. وشاهد آخر أنكم لا تحضرون أنفسكم ولا غيركم على إطعام المساكين وهم جياع أمامكم، وآخر أنكم تأكلون التراث أي الميراث أكلاً لمًا شديدًا تجمعون مال الورثة من الأطفال والنساء إلى أموالكم. وتحرمون الضعيفين الأطفال والنساء. وآخر وتحبون المال حبًا جمًا أي قويًا شديدًا. كلا ألا ارتدعوا واخرجوا من دائرة هذه النظرية المادية قبل حلول العذاب، ونزول ما تكرهون. فآمنوا بالله ورسوله.

هداية الآيات:

١ - النظرية المادية لم تكن حديثة عهد إذ عرفها الماديون في مكة من مشركي قريش قبل أربعة عشر قرنًا.

٢ - وجوب إكرام اليتامى والحض على إطعام الجياع من فقراء ومساكين.

٣ - وجوب إعطاء المواريث لمستحقيها ذكورًا أو إناثًا صغارًا أو كبارًا.

٤ - التنديد بحب المال الذي يحمل على منع الحقوق، ويزن الأمور بميزانه قوة وضعفًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ٢١ - ٣٠]

(٢١) ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا﴾: أي حركت حركة شديدة وزلزلت زلزالاً قويًا فلم يبق عليها شاخص البتة.

(٢٢) ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾: أي والملائكة أي صفًا بعد صف.

(٢٣) ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾: أي تجر بسبعين ألف زمام كل زمام بأيدي سبعين ألف ملك. ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أي الكافر ما قالت له الرسل من وعد الله ووعيده، يوم لقائه. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: أي لا تنفعه في هذا اليوم الذكرى.

(٢٤) ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾: أي هذه الإيمان وصالح الأعمال.

(٢٥) ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾: أي لا يعذب مثل عذاب الله أحد أي في قوته وشدته.

(٢٦) ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ (٢٦)﴾: أي ولا يوثق أحد مثل وثاق الله عز وجل.

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞﴾: أي المؤمنة الآمنة اليوم من العذاب

---

(١) قرأ نافع ﴿أكرمني وأهانني﴾ بياء ساكنة في الوصل وبحذفها في الوقف، وقرأ حفص بدون ياء في الوصل والوقف معًا. وكتابة الياء مفصولة عن النون إشارة إلى أنها تحذف في الوقف.

(٢) ﴿كَلَّآ﴾ حرف زجر وردع للإنسان القائل: أكرمن وأهانن، إذ قوله باطل ولم يقم على علم بالإكرام ولا بالإهانة فالإكرام علته الاختبار هل يشكر العبد أو يكفر، وتقدير الرزق تضييقه علته الامتحان هل يصبر العبد أو يسخط هذه هي الحقيقة والعبد الكافر الجاهل يرى أن الإكرام لشخص المكرم والإهانة كذلك.

(٣) ﴿لَّمًّا﴾ أي جمعًا شديدًا يقال: لممت الطعام ألمه إذا جمعته وأكلته، ومنه قول بعضهم: لمّ الله شملك أو شعثك أي جمع ما تفرق من أمرك.

(٤) ﴿جما﴾ أي كثيرًا حلاله وحرامه إذ الجم الكثير يقال: جم الشيء يجم جمومًا فهو جم وجام، ومنه جم الماء في الحوض أو البئر إذا اجتمع والجموم البئر الكثيرة الماء.

لما لاح لها من بشائر النجاة.

(٢٨) ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: أي إلى جواره في دار كرامته أي الجنة.

(٢٩) ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾: أي في جملة عبادي المؤمنين المتقين.

(٣٠) ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾: أي دار كرامتي لأوليائي.

معنى الآيات:

(٢١) قوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾[1] هو كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.

(٢٢) ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي لفصل القضاء ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾[2] صَفًّا صَفًّا﴾ بعد صف.

(٢٣) ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ تجر بسبعين ألف زمام كل زمام بأيدي سبعين ألف ملك. هنا وفي هذا اليوم وفي هذه الساعة ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾[3] المهمل المفرط المعرض عن دعوة الرسل، الكافر بلقاء الله والجزاء على الأعمال. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ هنا يتذكر وماذا يتذكر؟ وكفره كان عريضًا وشره كان مستطيرًا، ماذا يتذكر وهل تنفعه الذكرى، اللهم لا، لا وماذا عساه أن يقول في هذا الموقف الرهيب يقول نادمًا متحسرًا:

(٢٤) ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي هذه الحياة الماثلة بين يديه، وهل ينفعه التمني اللهم لا، لا.

(٢٥) قال تعالى مخبرًا عن شدة العذاب وقوة الوثائق: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ إذ تقوم القيامة ويجيء الرب لفصل القضاء ويجاء بجهنم ويتذكر الإنسان ويأسف ويتحسر في هذا اليوم يقضي الله تعالى بعذاب أهل الكفر والشرك والفجور والفسوق فيعذبون ويوثقون بأمر الله وقضائه في السلاسل ويغلون في الأغلال ويذوقون العذاب والنكال الأمر الذي ما عرفه الناس في الدنيا أيام كانوا يعذبوا المؤمنين ويوثقونهم في الحبال وهو ما أشار إليه بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ[4] عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي لا يعذب عذاب أحد في الدنيا مهما بالغ في التعذيب عذاب الله في الآخرة.

(٢٦) ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾[5] أي لا يوثق أحد في الدنيا وثاق الله في الآخرة. هذه صورة من عذاب الله لأعدائه من أهل الشرك به والكفر بآياته ورسوله ولقائه وأما أهل الإيمان به وطاعته وهم أولياؤه الذين آمنوا في الدنيا وكانوا يتقون فها هم ينادون فاستمع

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى صادق وعد الله ووعيده في كتابه وعلى لسان رسوله فآمنت واتقت وتخلت عن الشرك والشر فكانت مطمئنة بالإيمان وذكر الله قريرة العين بحب الله ورسوله، وما وعدها الرحمٰن.

(٢٨) ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي إلى جواره في دار كرامته حال كونك

الجزء الثلاثون — سورة البلد

يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

ترتيبها ٩٠ — سورة البلد — آياتها ٢٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

ترتيبها ٩١ — سورة الشمس — آياتها ١٥

٥٩٤

---

(١) الدك: الحطم والكسر، ودك الأرض تحطيمها وتفريق أجزائها.

(٢) ﴿ٱلْمَلَكُ﴾ اسم جنس المراد به الملائكة و﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي صفًا بعد صف أي خلفه ووراءه.

(٣) ﴿أَنَّىٰ﴾ اسم استفهام بمعنى أين له الذكرى والاستفهام مستعمل في الإنكار والنفي معًا والتقدير وأين له نفع الذكرى.

(٤) جائز أن يعود الكلام على الإنسان الكافر ويكون معناه أنه يعذب عذابًا لا يعذبه أحد غيره ويوثق وثاقًا لا يوثقه غيره من الموثقين، وما في التفسير أولى.

(٥) الوثاق: بمعنى الإيثاق، يقال: أوثقته إيثاقًا.

﴿رَاضِيَةً﴾ ثواب الله لك مرضيًا عنك من قبل مولاك.

(٢٩) ـ (٣٠) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي في جملة عبادي الصالحين ﴿وَادْخُلِي[1] جَنَّتِي﴾ فيقال لها هذا عندما يرسل الله الأرواح إلى الأجساد يوم المعاد، فإذا دخلت تلقتها الملائكة بالسلام وتساق إلى ساحة العرض وتعطى كتابها بيمينها وثم يقال لها ادخلي في عبادي أي في جملتها وادخلي جنتي بعد مرورها على الصراط اللهم اجعل نفسي مثل تلك النفس[2] المطمئنة بالإيمان وذكر الله ووعد الرحمٰن وعد الصدق الذي كانوا يوعدون.

هداية الآيات:

١ ـ تقرير المعاد بعرض شبه تفصيلي ليوم القيامة.

٢ ـ بيان اشتداد حسرة المفرطين اليوم في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله يوم القيامة.

٣ ـ بشرى النفس المطمئنة بالإيمان وذكر الله ووعده ووعيده، عند الموت وعند القيام من القبر و عند تطاير الصحف.

سورة البلد
مكية
وآياتها عشرون آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٠]

(١) ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾: أي مكة.

(٢) ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾: أي وأنت يا نبيّ الله محمد حلال بمكة.

(٣) ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾: أي وآدم وذريته.

(٤) ﴿فِى كَبَدٍ﴾: أي في نصب وشدة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة.

(٥) ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ﴾: أي أيظن وهو أبو الأشدين بن كلدة وكان قويًا شديدًا.

(٦) ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾: يقول هذا مفاخرًا بعداوة الرسول وأنه أنفق فيها مالاً كثيرًا.

(٧) ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾: أي أيظن أنه لم يره أحد؟ بل الله رآه وعلم ما أنفقه.

(١٠) ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾: أي بيّنا له طريق الخير وطريق الشر بما فطرناه عليه من ذلك وبما أرسلنا به رسلنا وأنزلنا به كتبنا.

معنى الآيات:

(١) ـ (٣) قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ[3] بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ[4] بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ هذا قسم لله تعالى أقسم فيه بمكة بلده الأمين والرسول بها وهو حلّ يقاتل ويقتل فيها وذلك يوم الفتح الموعود. وقد قتل ﷺ يومها ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة وأقسم بوالد وما ولد فالوالد آدم وما ولد ذريته منهم الأنبياء والأولياء وجواب القسم أو المقسم عليه قوله:

(٤) ﴿لَقَدْ[5] خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[6] أي في نصب وتعب لا يفارقانه منذ تخلقه في بطن أمه إلى وفاته بانقضاء عمره ثم يكابد شدائد الآخرة ثم إما إلى نعيم لا نصب معه ولا تعب، وإما إلى جحيم لا يفارقه ما هو أشد من النصب والتعب عذاب الجحيم هكذا شاء الله وهو العليم الحكيم. وفي هذا الخبر الإلهي المؤكد بأجل قسم على أن

---

(١) إن كان هذا القول وهو بشرى عظيمة للمؤمن يقال عند الموت فمعنى ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ هو على ظاهره أي ارجعي إلى جوار ربك وكرامته وحسن ثوابه كما في التفسير. وإن كان هذا يقال يوم القيامة فمعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى صاحبك أي إلى الجسد الذي كانت فيه، وذلك بعد خلق الله تعالى الأجساد، وجائز أن يراد المعنيان فيقال هذا عند الموت. ويقال لها ذلك يوم القيامة وهذا من بلاغة القرآن وإعجازه فاللفظ واحد وهو صالح لموقفين مختلفين وسبحان الله العظيم.

(٢) أورد ابن كثير عند تفسير هذه الآية الدعاء الآتي: اللهم إني أسألك نفسًا بك مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك.

(٣) الابتداء بالقسم للتشويق إلى ما يذكر بعد القسم، ولا: مزيدة لتقوية الكلام.

(٤) جملة ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ معترضة بين المتعاطفين وفائدتها تسلية للرسول ﷺ ووعده بنصره على أعدائه.

(٥) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ هذا جواب القسم والإنسان للجنس ولا يراد به واحد بعينه وبعضهم يرى أن المراد به أبو الأشدّين أسيد بن كلدة الجمحي.

(٦) من مظاهر أن الإنسان مربوب وأن له ربًا يسيره ويدبر حياته كونه لا يفارق النصب والتعب مدة حياته وهو لا يريد ذلك.

الإنسان محاط منذ نشأته إلى نهاية أمره بالنصب والتعب ترويح على نفوس المؤمنين بمكة وهم يعانون من الحاجة والاضطهاد والتعذيب أحيانًا من طغاة قريش لا سيما المستضعفين كياسر وولده عمار وبلال وصهيب وخبيب، وحتى الرسول الكريم ﷺ فهو لم يسلم من أذى المشركين فإذا عرفوا طبيعة الحياة وأن السعادة فيها أن يعلم المرء أن لا سعادة بها هان عليهم الأمر وقل قلقهم وخفّت آلامهم. كما هو تنبيه للطغاة وإعلام لهم بما هم عنه غافلون لعلهم يصحون من سكرتهم بحب الدنيا وما فيها.

(٥) وقوله عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ﴾[(١)] الإنسان ﴿أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ هذا الإنسان الذي قيل أنه أبو الأشدّين الذي أنفق ماله في عداوة الرسول ﷺ والإسلام ويتبجّح بذلك ويقول:

(٦) ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ كثيرًا بعضه فوق بعض بلى إن الله تعالى قد رآه وعلم به وعَلِم القدر الذي أنفقه وسوف يحاسب عليه ويجزيه به، ولن ينجيه اعتقاده الفاسد أنه لا بعث ولا جزاء.

(٧) ـ (١٠) قال تعالى مقررًا له بقدرته ونعيمه عليه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾[(٢)] ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[(٣)] ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[(٤)] أي أعطيناه عينين يبصر بهما ولسانًا ينطق به ويفصح عن مراده وزيناه بشفتين يستر بهما فمه وأسنانه ثم هديناه النجدين أي بيّنا له طريق الخير والشر والسعادة والشقاء بما أودعنا في فطرته وبما أرسلنا به رسلنا وأنزلنا به كتبنا أنسي هذا كله وتعامى عنه ثم هو ينفق ما أعطيناه في حرب رسولنا وديننا.

هداية الآيات:

١ - شرف مكة وحرمتها وعلو شأن الرسول ﷺ وسمو مقامه وهو فيها وقد أحلها الله تعالى له ولم يحلها لأحد سواه.

٢ - شرف آدم وذريته الصالحين منهم.

٣ - إعلان حقيقة وهي أن الإنسان لا يبرح يعاني من أتعاب الحياة حتى الممات ثم يستقبل شدائد الآخرة إلى أن يقر قراره وينتهي تطوافه باستقراره في الجنة حيث يستريح نهائيًا، أو في النار فيعذب ويتعب أبدًا.

شرح الكلمات:

[الآية: ١١ ـ ٢٠]

(١١) ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾: أي فهلا تجاوز. ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾: أي الطريق الصعب في الجبل، والمراد به النجاة من النار.

(١٣) ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: أي أعتق رقبة في سبيل الله تعالى.

(١٤) ﴿فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾: أي في يوم ذي مجاعة وشدة مؤونة.

(١٥) ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾: أي أطعم يتيمًا من ذوي قرابته.

(١٦) ﴿مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: أي أطعم فقيرًا لاصقًا بالتراب ليس له شيء.

(١٧) ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾: أي أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على طاعة الله. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾: أي أوصى بعضهم بعضًا برحمة الفقراء والمساكين.

(١٨) ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: أي أصحاب اليمين وهم المؤمنون المتقون.

(١٩) ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: أي أصحاب الشمال وهمّ الكفار الفجار.

(٢٠) ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾: أي مطبقة لا نافذة لها ولا كوة فلا يدخلها هواء.

معنى الآيات:

(١١) قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾[(٥)] فهلا أنفق أبو الأشدين ما أنفقه في عداوة محمد ﷺ هلا أنفقه في سبيل الله فاقتحم بها العقبة فتجاوزها.

---

(١) الاستفهام إنكاري مشبع بالتوبيخ والتقريع.

(٢) ﴿أَلَمْ نَجْعَل﴾ الاستفهام تقريري وفيه معنى التوبيخ.

(٣) الشفتين واحدتها شفة وأصلها شفو فقلبت الواو هاء فصارت شفة وتجمع على شفاه.

(٤) النجد: الأرض المرتفعة ارتفاعًا دون الجبل، والمراد بالنجدين طريقا الخير والشر كما في التفسير.

(٥) ذهب القرطبي إلى أن ﴿فَلَا﴾ هي بمعنى هلا التي هي للتحضيض، وهو ما قررناه في التفسير، وجائز أن يكون استفهامًا إنكاريًا ينكر عليه إنفاق أمواله فيما يضره وعدم إنفاقها فيما ينفعه.

⑫ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾[1] هذا تفخيم لشأنها وتعظيم له.

⑬ - ⑰ وقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[2] ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۞ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ[3] ۞ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۞ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ بهذه الأمور الأربعة تقتحم العقبة وتجتاز فينجو صاحبها من النار والأمور الأربعة هي:

فك رقبة وقد ورد من أعتق رقبة مؤمنة فهي فداؤه من النار.

إطعام في يوم ذي مسغبة، أي مجاعة[4]، يتيمًا ذا مقربة، أي قرابة، أو مسكينًا ذا متربة، أي ذا لصوق بالأرض لحاجته وشدة فقره.

إيمان صادق بالله ورسوله وآيات الله ولقائه يحيا به قلبه.

تواصي بالصبر، أي مع المؤمنين المستضعفين بالثبات على الحق ولزوم طريقه وتواصي بالمرحمة مع أهل المال أن يرحموا الفقراء والمساكين فيسدوا خلتهم ويقضوا حاجتهم.

بهذه الأربعة تجتاز العقبة وينجو المرء من عذاب الله، وفي مثل هذا تنفق الأموال لا أن تنفق في الدسائس والمكر بالصالحين وخداع المؤمنين.

⑲ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لما ذكر الإيمان والعمل الصالح وهما المنجيان من عذاب الله تعالى ذكر ضدهما وهما الكفر والمعاصي وهما المهلكان الشرك والمعاصي لأن الكفر بآيات الله لازمه البقاء على الشرك المنافي للتوحيد، والعصيان المنافي للطاعة. وقوله تعالى: ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أي الشمال.

⑳ ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ۞﴾ مغلقة الأبواب مطبقة هي جزاؤهم لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله.

هداية الآيات:

١ ـ التنديد بمن ينفق ماله في معصية الله ورسوله، والنصح له بالإنفاق في الخير فإنه أجدى له، وأنجى من عذاب الله.

٢ ـ بيان أن عقبة عذاب الله يوم القيامة تقتحم وتجتاز بالإنفاق في سبيل الله وبالإيمان والعمل الصالح والتواصي به.

٣ ـ التنديد بالكفر والوعيد الشديد لأهله.

❁ ❁ ❁

سورة الشمس
مكية
وآياتها خمس عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١٠]

① ﴿وَضُحَىٰهَا﴾: أي ونهارها.

② ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾: أي تلا الشمس فطلع بعد غروبها مباشرة وذلك ليلة النصف من الشهر.

③ ﴿إِذَا جَلَّىٰهَا﴾: أي إذا أضاءها.

④ ﴿إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾: أي غشى الشمس حتى تظلم الآفاق.

⑤ ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾: أي ومن بناها وهو الله عز وجل حيث جعل السماء كالسقف للأرض.

⑥ ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾: أي ومن بسطها وهو الله عز وجل.

⑦ ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾: أي ومن سوى خلقها وعدله وهو الله عز وجل.

⑧ ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا﴾: أي فبيّن لها ما ينبغي لها أن تأتيه أو تتركه من الخير والشر.

⑨ ﴿أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾: أي فاز بالنجاة من النار ودخول الجنة من طهر نفسه من الذنوب والآثام.

⑩ ﴿وَقَدۡ خَابَ﴾: أي خسر في الآخرة نفسه وأهله يوم القيامة. ﴿مَن دَسَّىٰهَا﴾: أي دسّى نفسه إذا أخفاها وأخملها بالكفر والمعاصي وأصل

---

(١) الاستفهام للتشويق إلى معرفة حقيقة العقبة.

(٢) ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وما بعدها بيان للعقبة، إذ التقدير هي فك رقبة. والمراد من فك الرقبة عتقها. وفي الحديث «**من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار**».

(٣) هذه الجملة عطف على الجمل المسوقة للذم والتوبيخ.

(٤) اليتيم: الولد الذي ليس له أب لموته وهو دون البلوغ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

ترتيبها ٩٢ — سُورَةُ اللَّيلِ — آياتها ٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾

٥٩٥

دسها دسسها فأُبدلت إحدى السينَيْن ياءً.

معنى الآيات:

﴿٦﴾ - ﴿٧﴾ قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ[1] وَضُحَاهَا﴾[2] إلى قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ تضمنت هذه الآيات العشر قسمًا إلهيًا من أعظم الأقسام ومقسمًا عليه وهو جواب القسم ومقسمًا لهم وهم سائر الناس فالقسم كان بما يلي بالشمس وضحاها وبالقمر إذا تلاها أي تلا الشمس إذا طلع بعد غروبها وذلك ليلة النصف من الشهر وبالنهار إذا جلاها إذا أضاء فكشف الظلمة أو الدنيا، وبالليل إذا يغشاها أي يغشى الشمس حتى تظلم الآفاق وبالسماء وما بناها[3] على أن ما تكون غالبًا لغير العالم وقد تكون للعالم كما هي هنا فالذي بناها هو الله سبحانه وتعالى بالأرض وما طحاها أي بسطها وهو الله تعالى وبالنفس وما سواها أي خلقها وعدل خلقها وهو الله تعالى.

﴿٨﴾ وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي خلقها وسوّى خلقها، وألهمها، أي بيّن لها الخير والشر أي ما تعمله من الصالحات وما تجتنبه من المفسدات فأقسم تعالى بأربع من مخلوقاته العظام وبنفسه وهو العلي العظيم على ما دل عليه قوله:

﴿٩﴾ - ﴿١٠﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[4] ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ وهو المقسم عليه وهو أن من وفقه الله وأعانه فزكى نفسه أي طهرها بالإيمان والعمل الصالح مبعدًا لها عما يدنسها من الشرك و المعاصي فقد أفلح بمعنى فاز يوم القيامة وذلك بالنجاة من النار ودخول الجنة لأن معنى الفوز لغة هو السلامة من المرهوب والظفر بالمرغوب وأن من خذله الله تعالى لما له من سوابق في الشر والفساد فلم يزك نفسه بالإيمان والعمل الصالح ودساها أي دسسها[5] أخفاها وأخملها بما أفرغ عليها من الذنوب وما غطاها من آثار الخطايا والآثام فقد خاب بمعنى خسر في آخرته فلم يفلح فخسر نفسه وأهله وهو الخسران المبين.

هداية الآيات:

١ - بيان مظاهر القدرة الإلهية في الآيات التي أقسم بها الرب تعالى.

٢ - بيان بما يكون به الفلاح، وما يكون به الخسران.

٣ - الترغيب في الإيمان والعمل الصالح والترهيب من الشرك والمعاصي.

---

(١) افتتحت بالقسم للتشويق إلى أخبارها ولم يقسم الله تعالى على شيء كما أقسم على جواب هذا القسم وهو حكم تقرير مصير الإنسان في الحياة الآخرة.

(٢) الضحى: هو وقت ارتفاع الشمس مقدار رمح عن سطح الأرض فيما يرى الرائي إلى قبيل الزوال بربع ساعة تقريبًا. وفيه تقع صلاة الضحى.

(٣) جائز أن تكون ﴿وَمَا﴾ في الجمل الثلاثة ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ ﴿وَمَا طَحَاهَا﴾ ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ مصدرية فيكون الإقسام بالسماء وبنائها والأرض وطحوها، والنفس وتسويتها إلا أن ما في التفسير وهو اختيار ابن جرير أولى إذ هو إقسام بالرب تعالى.

(٤) ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أصلها: لقد أفلح لأنها جواب القسم وحذفت اللام لطول جمل القسم إذ بلغت ثمان جمل.

(٥) فعل دسّ كان دسس فأبدلوا السين الآخرة ياء لوجود ثلاثة أحرف من نوع واحد طلبًا للتخفيف، وأصل دَسَّى دس من دس الشيء إذا أخفاه بين شيئين حتى لا يظهر ومعنى ﴿دَسَّاهَا﴾ هو كما في التفسير أخفاها بما صبّ عليها من أوضار الذنوب فتدست وتدنست.

شرح الكلمات:
[الآية: ١١ ـ ١٥]

(١١) ﴿ثَمُودُ﴾: أي أصحاب الحجر كذبوا رسولهم صالحًا عليه السلام. ﴿بِطَغْوَاهَا﴾: أي بسبب طغيانها في الشرك والمعاصي.

(١٢) ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾: أي انطلق مسرعًا. ﴿أَشْقَاهَا﴾: أي أشقى القبيلة وهو قُدار بن سالف الذي يضرب به المثل فيقال أشأم من قدار.

(١٣) ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾: أي صالح عليه السلام. ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾: أي ذروها وشربها في يومها.

(١٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: أي فيما أخبرهم به من شأن الناقة. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي قتلوها ليخلص لهم ماء شربها في يومها. ﴿فَدَمْدَمَ﴾: أي أطبق عليهم العذاب فأهلكهم. ﴿بِذَنْبِهِمْ﴾: أي بسبب ذنوبهم التي هي الشرك والتكذيب وقتل الناقة. ﴿فَسَوَّاهَا﴾: أي سوّى الدمدم عليهم فلم يفلت منهم أحد.

(١٥) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾: أي ولا يخاف الربّ تعالى تبعة إهلاكهم كما يخاف الإنسان عاقبة فعله إذا هو قتل أحدًا أو عذّبه.

معنى الآيات:

(١١) قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾[١] إلى قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ هذه الآيات سيقت للتدليل على أمور هي أن الذنوب موجبة لعذاب الله في الدنيا والآخرة، وأن تكذيب الرسول الذي عليه كفار مكة منذر بخطر عظيم إذا استمروا عليه فقد يهلكهم الله به كما أهلك أصحاب الحجر قوم صالح، وأن محمدًا رسول الله حقًا وصدقًا وإن إنكار قريش له لا قيمة له، وأنه لا إله إلا الله. وأن البعث والجزاء ثابتان بأدلة قدرة الله وعلمه فقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ إخبار منه تعالى المراد به إنذار قريش من خطر استمرارها على التكذيب وتسلية الرسول والمؤمنين وقوله: ﴿بِطَغْوَاهَا﴾[٢] أي بسبب ذنوبها التي بلغت فيها حد الطغيان الذي هو الإسراف ومجاوزة الحد في الأمر.

(١٢) وبيّن تعالى ظرف ذلك بقوله: ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾[٣] أشقى تلك القبيلة الذي هو قُدار بن سالف الذي يضرب به المثل في الشقاوة فيقال أشأم من قدار وقال فيه رسول الله أشقى الأولين والآخرين قدار بن سالف.

(١٣) وقوله: فقال لهم رسول الله أي صالح: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾[٤] أي احذروها فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم، ذروها وسقياها، أي وماء شربها إذ كان الماء قسمة بينهم لها يوم ولهم يوم. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في ذلك وفي غيره من رسالته ودعوته إلى عبادة الله وحده ﴿فَعَقَرُوهَا﴾[٥] أي فذبحوها.

(١٤) ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي أطبق عليهم العذاب وعمهم به فلم ينج منهم أحد وذلك بذنبهم لا بظلم منه تعالى، ﴿فَسَوَّاهَا﴾ في النقمة والعذاب.

(١٥) ﴿وَلَا يَخَافُ[٦] عُقْبَاهَا﴾ أي تبعة تلحقه من هلاكها إذ هو رب الكل ومالك الكل وهو القاهر فوق عباده وهو العزيز الحكيم.

---

(١) ﴿ثَمُودُ﴾: هي القبيلة المعروفة قوم صالح عليه السلام ومنازلهم بالحجر وهم أصحاب الحجر والجملة بيانية، لأن من سمع جواب القسم وهو فلاح من زكى نفسه وخيبة من دساها وخسرانه تشوق إلى مثال لذلك فكان تكذيب ثمود وهلاكها.

(٢) الطغو: اسم مصدر وهي كالطغيان الذي هو فرط الكبر والباء سببية أي كذبت ثمود رسولها صالحًا عليه السلام بسبب طغواها، لأن الكبر إذا عظم في الإنسان يحمله على الجحود والمعاندة والتكذيب.

(٣) ﴿انبعث﴾ مضارع بعث أي بعثته فانبعث، إذ القوم بعثوا قُدارًا أي أرسلوه فالبعث إجابة لهم إذ كان عقره الناقة بموافقتهم ورضاهم. بل بتحريضهم له ودفعهم إليها.

(٤) ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ منصوب على التحذير كما في التفسير والإضافة للتشريف والسقيا اسم مصدر من سقى يسقي سقيًا.

(٥) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ العقر هو جرح البعير في يديه ليبرك على الأرض من الألم فإذا برك ذبح، هذا الأصل ثم أصبح يطلق عقر البعير على ذبحه. والفاء في ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ للترتيب.

(٦) العقبى: اسم لما يحصل عقب فعل من الأفعال من تَبَعَة لصاحبه أو مثوبة فهي كالعاقبة وهي الحال التي تعقب من خير وشر.

هداية الآيات:

١ - بيان أن نجاة العبد من النار ودخوله الجنة متوقف على زكاة نفسه وتطهيرها من أوضار الذنوب والمعاصي، وأن شقاء العبد وخسرانه سببه تدنيسه نفسه بالشرك والمعاصي وكل هذا من سنن الله تعالى في الأسباب والمسببات.

٢ - التحذير من الطغيان وهو الإسراف في الشر والفساد فإنه مهلك ومدمر وموجب للهلاك والدمار في الدنيا والعذاب في الآخرة.

٣ - تسلية الرسول ﷺ والتخفيف عنه إذ كذبت قبل قريش ثمود وغيرها من الأمم كأصحاب مدين وقوم لوط وفرعون.

٤ - إنذار كفار قريش عاقبة الشرك والتكذيب والمعاصي من الظلم والاعتداء.

❁ ❁ ❁

سورة الليل(١)
مكية
وآياتها إحدى وعشرون آية

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ١١]

(١) ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾: أي بظلمته كل ما بين السماء والأرض في الإقليم الذي يكون به.

(٢) ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾: أي تكشف وظهر في الإقليم الذي هو به وإذا هنا وفي التي قبلها ظرفية وليست شرطية.

(٣) ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝﴾: أي ومن خلق الذكر والأنثى آدم وحواء وكل ذريتهما وهو الله تعالى.

(٤) ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝﴾: أي إن عملكم أيها الناس لمختلف منه الحسنة المورثة للجنة ومنه السيئة الموجبة للنار.

(٥) ﴿مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾: أي حق الله وأنفق في سبيل الله واتقى ما يسخط الله تعالى من الشرك والمعاصي.

(٦) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝﴾: أي بالخلف لحديث «**اللهم أعط منفقًا خلفًا**».

(٧) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾: أي فسنيسره للخلة أي الخصلة اليسرى وهي العمل بما يرضاه الله منه في الدنيا ليوجب له به الجنة في الآخرة.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝﴾: أي منع حق الله والإنفاق في سبيل الله واستغنى بماله عن الله فلم يسأله من فضله ولم يعمل عملاً صالحًا يتقرب به إليه.

(٩) ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝﴾: أي بالخلف وما تثمره الصدقة والإيمان وهو الجنة.

(١٠) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾: فسنهيئه للخلة العسرى وهي العمل بما يكرهه الله ولا يرضاه ليكون قائده إلى النار.

(١١) ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾: أي في جهنم فسقط فيها.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ﴾ أقسم تعالى بالليل(٢) ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾ بظلامه الكون.

(٢) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾(٣) أي تكشف وظهر وهما آيتان من آيات الله الدالتان على ربوبيته تعالى الموجبة لألوهيته، وأقسم بنفسه جلّ وعز فقال:

(٣) ﴿وَمَا خَلَقَ(٤) الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ أي والذي خلق الذكر والأنثى آدم وحواء ثم سائر الذكور وعامة الإناث من كل الحيوانات وهو مظهر لا يقل عظمة على آيتي الليل والنهار والمقسم عليه أو جواب القسم هو قوله:

(٤) ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝﴾ أي إن

---

(١) قال: صلى بنا عمر بن عبدالعزيز المغرب فقرأ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ فلما بلغ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ وقع عليه البكاء فلم يقدر يتعداها من البكاء فتركها وقرأ سورة أخرى.

(٢) من لطائف هذا الإقسام بالليل والنهار وهما ضدان: الإشارة إلى تضاد الذكر والأنثى والحسن والسوء والعسر واليسر والتصديق والتكذيب وهذا محتوى هذه السورة.

(٣) تجلي النهار: وضوح ضوئه، أقسم الله تعالى بكل من الليل وظلمته والنهار وضوئه لما في ذلك من مظاهر قدرة الله وعظمته على خلق الظلمات والنور.

(٤) يرى بعضهم أن المقسم به المصدر بناء على أن (ما) مصدرية والصحيح أنها موصولة وأن الإقسام كان بالرب تبارك وتعالى فإنه أعظم إقسام.

لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

ترتيبها ٩٣	سُورَةُ الضُّحَىٰ	آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

ترتيبها ٩٤	سُورَةُ الشَّرْحِ	آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

عملكم أيها الناس لمختلف منه الحسنات الموجبة للسعادة والكمال في الدارين ومنه السيئات الموجبة للشقاء في الدارين أي دار الدنيا ودار الآخرة.

(٥) وبناءً على هذا ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ حق الله في المال فأنفق وتصدّق في سبيل الله ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ الله تعالى فآمن به وعبده ولم يشرك به.

(٦) - (٧) ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾[١] التي هي الخلف أي العوض المضاعف الذي واعد به تعالى من ينفق في سبيله في قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ وفي قول الرسول ﷺ في الصحيح[٢]: «**ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقًا خلفًا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»، فَسَنُيَسِّرُهُ للخلة اليسرى وهي العمل بما يرضاه الله منه في الدنيا ويثيبه عليه في الآخرة بالجنة.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بالمال فلم يعط حق الله فيه ولم يتصدق متطوعًا[٣] في سبيل الله ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بماله وولده وجاهه فلم يتقرب إلى الله تعالى بطاعته في ترك معاصيه ولا في أداء فرائضه وكذب بالخلف من الله تعالى على من ينفق في سبيله.

(١٠) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ[٤] لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي فسنهيئه للخلة العسرى وهي العمل بما يكره الله تعالى ولا يرضاه من الذنوب والآثام ليكون ذلك قائده إلى النار.

(١١) وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[٥] يخبر تعالى بأن من بخل واستغنى وكذب بالحسنى حفاظًا على ماله وشحًا به وبخلاً أن ينفقه في سبيل ربه هذا المال لا يغني عنه شيئًا يوم القيامة إذا ألقي به في نار جهنم فتردى ساقطًا فيها على أم رأسه كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي لعدم الحسنات الكافية فيها ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾.

هداية الآيات:

١ - بيان عظمة الله وقدرته وعلمه الموجبة لربوبيته المقتضية لعبادته وحده دون سواه.

٢ -تقرير القضاء والقدر وهو أن كل إنسان ميسر لما خلق له من سعادة أو شقاء لحديث «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[٦] مع تقرير أن من وفق للعمل بما يرضي الله تعالى كان ذلك دليلاً على أنه مكتوب سعيدًا إذا مات على ما وفق له من العمل الصالح. وأن من وفق للعمل المسخط لله تعالى كان دليلاً على أنه مكتوب شقاوته إن هو مات على ذلك.

---

(١) كلمة الحسنى صالحة لعدة معان وهي مؤنث الأحسن ولذا هي صفة لموصوف محذوف وتنوسي فيها ذلك فصارت اسمًا لما هو أحسن كالجنة والمثوبة الحسنة والنصر والعاقبة والخلف على المنفق في سبيل الله وهو الراجح هنا لاختيار ابن جرير له.

(٢) رواه البخاري وغيره.

(٣) في الآية دليل على أن الجود من مكارم الأخلاق والبخل من أرذلها، وليس الجواد الذي يعطي في غير موضع العطاء كما ليس البخيل الذي يمنع في موضع المنع لكن الجواد الذي يعطي في موضع العطاء والبخيل الذي يمنع في موضع العطاء.

(٤) في قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ تهكم به نحو ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

(٥) التردي: السقوط من أعلى إلى أسفل المفضي بصاحبه إلى الهلاك.

(٦) حديث صحيح.

٣ ـ تقرير أن التوفيق للعمل بالطاعة يتوقف حسب سنة الله تعالى على رغبة العبد وطلبه ذلك والحرص عليه واختياره على غيره وتسخير النفس والجوارح له. كما أن التوفيق للعمل الفاسد قائم على ما ذكرنا في العمل الصالح وهو اختيار العبد وطلبه وحرصه وتسخير نفسه وجوارحه لذلك هذه سنة من سنن الله تعالى في خلقه.

شرح الكلمات:

[الآية: ١٢ ـ ٢١]

(١٢) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾: أي إن علينا لبيان الحق من الباطل والطاعة من المعصية.

(١٣) ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾: أي ملك ما في الدنيا والآخرة نعطي ونحرم من نشاء لا مالك غيرنا.

(١٤) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾: أي خوفتكم. ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾: أي تتوقد.

(١٥) ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾: أي لا يدخلها ويحترق بلهبها. ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾: أي إلا الشقي.

(١٦) ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾: كذب النبي ﷺ فيما جاء به وتولى أعرض عن الإيمان به وبما جاء به من التوحيد والطاعة لله ورسوله.

(١٧) ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾: أي يبعد عنها التقي.

(١٨) ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾: أي يتطهر به فلذا يخليه من النظر إلى غير الله فهو لذلك خال من الرياء والسمعة.

(١٩) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾: أي ليس لأحد من الناس عليه منّة فهو يكافئه بذلك.

(٢٠) ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾: لكن يؤتي ماله في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

(٢١) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾: أي يعطيه الله تعالى من الكرامة ما يرضى به في دار السلام.

معنى الآيات:

(١٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ الآيات.. بعد أن أعلم تعالى عباده أنه ييسر لليسرى من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، وأنه ييسر للعسرى من بخل واستغنى وكذب بالحسنى أعلم بحقيقة أخرى وهي أن بيان الطريق الموصل بالعبد لليسرى هو على الله تعالى متكفل به وقد بينه بكتابه ورسوله فمن طلب اليسرى فأولاً يؤمن بالله ورسوله ويوطن نفسه على طاعتهما ويأخذ في تلك الطاعة يعمل بها وثانيًا ينفق في سبيل الله ما يطهر به نفسه من البخل وشح النفس ويظهر فقره وحاجته إلى الله تعالى بالتقرب إليه بالنوافل وصالح الأعمال وبذلك يكون قد يُسر فعلاً لليسرى.

(١٣) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾[1] أي الدنيا وعليه فمن طلبها من غيرنا فقد أخطأ ولا يحصل عليها بحال فطلب الآخرة يكون بالإيمان والتقوى، وطلب الدنيا يكون بالعمل حسب سنتنا في الكسب وحصول المال.

(١٤) ـ (١٦) وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا[2] تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝[3] الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي فبناء على ما بيّنا لكم فقد أنذرتكم أي خوفتكم نارًا تلظى أي تتوقد التهابًا لا يصلاها، لا يدخلها ويصطلي بحرها خالدًا فيها أبدًا، إلا الأشقى، أي الأكثر شقاوة وهو المشرك وقد يدخلها الشقي من أهل التوحيد ويخرج منها بتوحيده، حيث لم يكذب ولم يتول، ولكن فجر وعصى، وما أشرك وما تولى.

(١٧) ـ (١٨) وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي يعطي ماله في سبيل الله يتزكى به من مرض الشح والبخل وآثار الذنوب والإثم.

(١٩) ـ (٢٠) وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ[4] وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي فهو ينفق ما ينفقه في سبيل الله خاصة وليس ما ينفقه من أجل أن عليه لأحد من الناس فضلاً أو يدًا فهو يكافئه بها لا لا، وإنما

---

(١) المراد بالآخرة الجنة، وإن كان اللفظ يشمل الآخرة بكل ما فيها من نعيم وجحيم وسعادة وشقاء وفوز وخسران.

(٢) تنكير (نارًا) للتهويل، وجملة تلظى نعت ومعنى تلظى: تتلهب من شدة الاشتعال.

(٣) يذكر بعض المفسرين أن المراد بالأشقى أمية بن خلف ونظراؤه من أكابر مجرمي قريش، واللفظ عام يشمل كل من ينطبق عليه الوصف المذكور.

(٤) الابتغاء الطلب بجد فهو أبلغ من البغي.

هو ينفق ابتغاء وجه ربه الأعلى أي يريد رضا ربه تعالى لا غير.

(٢١) قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ[1] يَرْضَىٰ﴾ أي ما دام ينفق ابتغاء وجهنا فقط فسوف نكافئه ونعطيه عطاء يرضى به وذلك في الجنة دار السلام. هذه الآية الكريمة نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقد كان في مكة يشتري العبيد من مواليهم الذين يعذبونهم من أجل إسلامهم فكان يشتريهم ويعتقهم لوجه الله تعالى ومنهم بلال رضي الله عنه فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليد عنده أي نعمة فهو يكافيه بها فأكذبهم الله في ذلك وأنزل قوله: وسيجنبها الأتقى، الآيات.

هداية الآيات:

١ - بيان أن الله تعالى متكفل بطريق الهدى فأرسل الرسل وأنزل الكتاب فأبان الطريق وأوضح السبيل.

٢ - بيان أن لله تعالى وحده الدنيا والآخرة فمن أرادهما أو إحداهما فليطلب ذلك من الله تعالى فالآخرة تُطلب بالإيمان والتقوى والدنيا تُطلب باتباع سنن الله تعالى في الحصول عليها.

٣ - بيان فضل أبي بكر الصديق وأنه مبشَّر بالجنة في هذه الآية الكريمة.

❁ ❁ ❁

سورة الضحى
مكية
وآياتها إحدى عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ١١]

(١) ﴿وَالضُّحَىٰ﴾: أي أول النهار ما بين طلوع الشمس وارتفاعها قيد رمح إلى الزوال.

(٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾: غطى بظلامه المعمورة وسكن فسكن الناس وخلدوا إلى الراحة.

(٣) ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾: أي ما تركك ولا تخلى عنك. ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾: أي ما أبغضك.

(٦) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾: أي فاقد الأب إذ مات والده قبل ولادته. ﴿فَآوَىٰ﴾: أي فآواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب.

(٧) ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾: أي لا تعرف دينًا ولا هدى.

(٨) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾: أي فقيرًا. ﴿فَأَغْنَىٰ﴾: أي بالقناعة، وبما يسَّر لك من مال خديجة وأبي بكر الصديق.

(٩) ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾: أي لا تذله ولا تأخذ ماله.

(١٠) ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾: أي لا تنهره بزجر ونحوه.

(١١) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾: أي اذكر ما أنعم الله تعالى به عليك شكرًا له على ذلك.

معنى الآيات:

(١) - (٣) قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ[2] وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ[3] رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ هذا قسم من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ أقسم له به على أنه ما تركه ولا أبغضه. وذلك أنه أبطأ عنه الوحي أيامًا فلما رأى ذلك المشركون فرحوا به وعيَّروه فجاءت امرأة وقالت[4] له: ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فحزن لذلك النبي ﷺ فأنزل الله سورة الضحى يقسم له فيها بالضحى وهو أول النهار من طلوع الشمس وارتفاعها قيد رمح إلى ما قبل الزوال بقليل، وبالليل إذا سجى، أي غطى بظلامه المعمورة وسكن فسكن

---

(١) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ لتحقيق الوعد في المستقبل، إذ اللام لام الابتداء لتأكيد الخبر، هذه السورة تحمل معنى جوامع الكلم إذ تضمنت كل ما يرغب فيه الراغبون من الكمال والفوز والفلاح وهي آخر متوسط المفصل.

(٢) هذا القسم لتأكيد الخبر الذي حملته الآيات بعده، وكتبت ﴿الضحى﴾ بالألف المقصورة وأصلها الواو فكان المفروض أن تكتب بالألف الثابتة ولم تُكتب بها مراعاة للمناسبة مع أكثر الكلمات: سجى وقلى والأولى.

(٣) ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ جواب القسم ولم يقرن باللام، لأن الجملة المنفية لا تتطلب اللام. ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ معطوفة على ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ ومعنى ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ ما تركك ومعنى ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ ما أبغضك شديد بغض ولا ضعيفه.

(٤) في البخاري عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا فجاءت امرأة هي أم جميل العوراء امرأة أبي لهب فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ولم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثة فأنزل الله والضحى. وقيل: لما سئل عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين، فقال: سأخبركم غدًا ولم يستثنِ فعوتب بانتظار الوحي خمسة عشر يومًا وقال المشركون قلاه. فأنزل الله سورة الضحى.

الناس وخلدوا إلى الراحة فيه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ يا محمد أي تركك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما أبغضك.

(٤) ـ (٥) ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي الدنيا وذلك لما أعد الله لك فيها من الملك الكبير والنعيم العظيم المقيم. وسوف ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ من فواضل نعمه حتى ترضى في الدنيا من كمال الدين وظهور الأمر في الآخرة الشفاعة وأن لا يبقى أحد من أمته أهل التوحيد في النار والوسيلة والدرجة الرفيعة التي لا تكون لأحد سواه.

(٦) ـ (٨) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ[١] يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ هذه ثلاث منن لله تعالى على رسوله منَّها عليه وذكّره بها ليوقن أن الله معه و له وأنه ما تركه ولن يتركه وحتى تنتهي فرحة المشركين ببطء الوحي وتأخره بضعة أيام. فالمنّة الأولى أن والد النبي ﷺ قد مات عقب ولادته وأمه ماتت بعيد فطامه فآواه ربّه بأن ضمّه إلى عمه أبي طالب فكان أبًا رحيمًا وعمّا كريمًا له وحصنًا منيعًا له، ولم يتخلَّ عن نصرته والدفاع عنه حتى وفاته والثانية منّة العلم والهداية فقد كان ﷺ يعيش في مكة كأحد رجالاتها لا يعرف علمًا ولا شرعًا وإن كان معصومًا من مقارفة أي ذنب أو ارتكاب أية خطيئة إلا أنه ما كان يعرف إيمانًا ولا إسلامًا ولا شرعًا كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ﴾ والثالثة منّته عليه بالغنى بعد الحاجة فقد مات والده ولم يخلّف أكثر من جارية هي بركة أم أيمن وبضعة جمال، فأغناه الله بغنى القناعة فلم يمد يده لأحد قط وكان يقول: «**ليس الغني عن كثرة العرض ولكن[٢] الغني غنى النفس**» هذه ثلاث منن إلهيّة وما أعظمها والمنة تتطلب شكرًا والله يزيد على الشكر.

(٩) ومن هنا أرشد الله تعالى رسوله إلى شكر تلك النعم ليزيده عليها فقال فأما ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[٣] لا تقهره بأخذ ماله أو إذلاله أو أذاه ذاكرًا رعاية الله تعالى لك أيام يتمك.

(١٠) ﴿وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ﴾ وهو الفقير المسكين وذو الحاجة يسألك ما يسدّ خلّته فاعطه ما وجدت عطاءً أو رده بكلمة طيبة تشرح صدره وتخفف ألم نفسه ولا تنهره بزجر عنيف ولا بقول غير لطيف ذاكرًا ما كنت عليه من حاجة وما كنت تشعر به من احتياج.

(١١) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ[٤] فَحَدِّثْ﴾ أي اشكر نعمة الإيمان والإحسان والوحي والعلم والفرقان وذلك بالتحدث بها إبلاغًا وتعليمًا وتربية وهداية فذاك شكرها والله يحب الشاكرين هكذا أدب الله جل جلاله رسوله وخليله فأكمل تأديبه وأحسنه.

هداية الآيات:

١ ـ الدنيا لا تخلو من كدر وصدق الله العظيم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

٢ ـ بيان علو المقام المحمدي وشرف مكانته.

٣ ـ مشروعية التذكير بالنعم والنقم حملاً للعبد على الصبر والشكر.

٤ ـ وجوب شكر النعم بصرفها في مرضاة المنعم عز وجل[٥].

٥ ـ تقرير معنى الحديث «**إذا أنعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن يرى أثرها عليه**».

❀ ❀ ❀

سورة الشرح
مكية
وآياتها ثماني آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٨]

(١) ﴿أَلَمْ﴾: الاستفهام للتقرير أي إن الله تعالى يقرر رسوله بنعمه عليه.

---

(١) الاستفهام للتقرير وكذا الاستفهامات بعده.

(٢) مخرج في الصحيحين.

(٣) في الصحيح: «**أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين**».

(٤) روى أبو داود والترمذي وصححه قوله ﷺ: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**».

(٥) في الصحيحين: عن أنس أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله قال: «**لا ما دعوتم لهم وأثنيتم عليهم**» هذه الأحاديث دالة على وجوب شكر المنعم عز وجل بحمده والثناء عليه، وأن شكر ذي النعمة من الناس كذلك ولو بالدعاء له والثناء عليه.

﴿نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾: أي بالنبوة، وبشقه وتطهيره وملئه إيمانًا وحكمة.

(٢) ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾: أي حططنا عنك ما سلف من تبعات أيام الجاهلية قبل نبوتك.

(٣) ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: أي الذي أثقل ظهرك حيث كان يشعر ﷺ بثقل السنين التي عاشها قبل النبوة لم يعبد فيها الله تعالى بفعل محابه وترك مكارهه لعدم علمه بذلك.

(٤) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: أي أعليناه فأصبحت تذكر معي في الآذان والإقامة والتشهد.

(٥) ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾: أي مع الشدة سهولة.

(٧) ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾: أي من الصلاة.

﴿فَانصَبْ﴾: أي اتعب في الدعاء.

(٨) ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾: أي فاضرع إليه راغبًا فيما عنده من الخيرات والبركات.

معنى الآيات:

(١) ـ (٤) قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[1] هذه ثلاث منن أخرى بعد المنن الثلاث التي جاءت في السورة قبلها منّها الله تعالى على رسوله بتقريره بها فالأولى بشرح صدره ليتسع[2] للوحي ولما سيلقاه من قومه من سيء القول وباطل الكلام الذي يضيق به الإنسان والثانية وضع الوزر عنه فإنه ﷺ وإن لم يكن له وزر حقيقة فإنه كان يشعر بحمل ثقيل من جراء ترك العبادة والتقرب إلى الله تعالى في وقت ما قبل النبوة ونزول الوحي عليه إذ عاش عمرًا أربعين سنة لم يعرف فيها عبادة ولا طاعة لله، أما مقارفة الخطايا فقد كان محفوظًا بحفظ الله تعالى له فلم يسجد لصنم ولم يشرب خمرًا ولم يقل أو يفعل إثمًا قط. فقد شقّ صدره وهو طفل في الرابعة من عمره وأخرجت منه العلقة التي هي محطة الشيطان التي ينزل بها من صدر الإنسان ويوسوس بالشر للإنسان والثالثة رفع الذكر أي ذكره ﷺ إذ قرن اسمه باسمه تعالى في التشهد وفي الأذان والإقامة وذلك الدهر كله وما بقيت الحياة.

(٥) ـ (٦) وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فهذه بشرى بقرب الفرج له ولأصحابه بعد ذلك العناء الذي يعانون والشدة التي يقاسون ومن ثم بشر[3] ﷺ أصحابه وهو يقول: «**لن يغلب عسر يسرين لن يغلب عسر يسرين**».

(٧) ـ (٨) وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ هذه خطة لحياة المسلم وُضعت لنبي الإسلام محمد ﷺ ليطبقها أمام المسلمين ويطبقونها معهم حتى الفوز بالجنة والنجاة من النار وهي فإذا فرغت من عمل ديني فانصب لعمل دنيوي وإذا فرغت من عمل دنيوي فانصب لعمل ديني أخروي فمثلاً فرغت من الصلاة فانصب نفسك للذكر والدعاء بعدها، فرغت من الصلاة والدعاء فانصب نفسك لدنياك، فرغت من الجهاد فانصب نفسك للحج. ومعنى هذا أن المسلم يحيا حياة الجد والتعب فلا يعرف وقتًا للهو واللعب أو للكسل والبطالة قط وقوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ ارغب بعد كل عمل تقوم به في مثوبة ربك وعطائه وما عنده من الفضل والخير إذ هو الذي تعمل له وتنصب من أجله فلا ترغب في غيره ولا تطلب سواه.

---

(١) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال مجاهد: يعني التأذين، وفيه يقول حسان بن ثابت:

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال المؤذن في الخمس أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

(٢) في الصحيح عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن رجل من قومه أن النبي ﷺ قال: «**فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول أحد الثلاثة**» إذ كان معه حمزة وابن عمه جعفر «**فأتيت بطست من ذهب فيها ماء زمزم فشرح صدري إلى..**» كذا وكذا. قال: «**فاستخرج قلبي فغسل قلبي بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حشي إيمانًا وحكمة**».

(٣) رواه ابن جرير والحديث مرسل وقال ابن مسعود: والذي نفسي بيده لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ولن يغلب عسرٌ يسرين.

هداية الآيات:

١ - بيان ما أكرم الله تعالى به رسوله محمدًا ﷺ من شرح صدره ومغفرة ذنوبه ورفع ذكره.

٢ - بيان أن انشراح صدر[1] المؤمن للدين واتساعه لتحمل الأذى في سبيل الله نعمة عظيمة.

٣ - بيان أن مع العسر يسرًا دائمًا وأبدًا، ولن يغلب عسر يسرين فرجاء المؤمن في الفرح دائم.

٤ - بيان أن حياة المؤمن ليس فيها لهو ولا باطل ولا فراغ لا عمل فيه أبدًا ولا ساعة من الدهر قط وبرهان هذه الحقيقة أن المسلمين من يوم تركوا الجهاد والفتح وهم يتراجعون إلى الوراء في حياتهم حتى حكمهم الغرب وسامهم العذاب والخسف حتى المسخ والنسخ وقد نسخ إقليم الأندلس ومسخت أقاليم في بلاد الروس والصين حتى الأسماء غيّرت.

❀ ❀ ❀

سورة التين
مكية
وآياتها ثمان

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٨]

﴿١﴾ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝﴾: هما المعروفان التين فاكهة والزيتون ما يستخرج منه الزيت.

﴿٢﴾ ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝﴾: جبل الطور الذي ناجى الربّ تعالى فيه موسى عليه السلام.

﴿٣﴾ ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝﴾: مكة المكرمة لأنها بلد حرام لا يقاتل فيها فمن دخلها أمن.

﴿٤﴾ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾: جنس الإنسان آدم عليه السلام وذريته.

﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: أي في أجمل صورة في اعتدال الخلق وحسن التركيب.

﴿٥﴾ ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾: أي إلى أرذل العمر حتى يخرف ويصبح لا يعلم بعد أن كان يعلم.

﴿٦﴾ ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: أي غير منقطع فالشيخ الهرم الخرف المسلم يكتب له ما كان يفعله أيام قدرته على العمل فأجره لا ينقطع إلا بموته.

معنى الآيات:

﴿١﴾ ـ ﴿٣﴾ قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ[2] وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝﴾ هذا قسم جليل من أقسام الرب تعالى حيث أقسم فيه بأربعة أشياء وهي التين وهو التين المعروف وهو أشبه شيء بفاكهة الجنة لخلوه من العَجَم[3]. وما يوجد بداخل الفاكهة كالنواة ونحوها، والزيتون وهو ذو منافع يؤكل ويُدهن به ويستصبح به ويتداوى به كذلك، وبطور سينين وهو جبل سينا في فلسطين إذ تم عليه أكبر حدث في تاريخ الحياة وهو أن الله تعالى كلّم موسى بن عمران نبي بني إسرائيل عليه عدة مرات وأسمعه كلامه وتجلى للجبل فصار دكًا.

﴿٤﴾ ـ ﴿٥﴾ وبمكة أم القرى التي دُحيت الأرض من تحتها وفيها

الجزء الثلاثون — سورة التين - العلق

ترتيبها ٩٥ — سورة التين — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

ترتيبها ٩٦ — سورة العلق — آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۩ ﴿١٩﴾

٥٩٧

---

(١) روى الضحاك عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله أيشرح الصدر؟ قال: **«نعم وينفسح»** قالوا: يا رسول الله وهل لذلك علامة؟ قال: **«نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزول الموت»**.

(٢) عامة أهل السلف ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم أن المراد من التين والزيتون هما المعروفان قال غير واحد: هو تينكم الذي تأكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت.

(٣) العجم: النوى.

بيت الله وحولها حرمه هذا قسم عظيم وجوابه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾ ولقد تضمن هذا الجواب لذلك القسم أكبر مظاهر القدرة والعلم والرحمة وهي موجبة للإيمان بالله وتوحيده ولقائه وهو ما كذب به أهل مكة وأنكروه وبيان ذلك أن الإنسان كائن حي مخلوق. فخالقه ذو قدرة قطعًا وتعديل خلقه بنصب قامته وتسوية أعضائه وحسن سمته وجمال منظره دال على علم وقدرة وهي موجبة للإيمان بالله ولقائه إذ القادر على خلق الإنسان اليوم وقبل اليوم قادر على خلقه غدًا كما شاء متى شاء ولا يرد هذا إلا أحمق جاهل، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝﴾ وذلك بهرم بعض أفراده والنزول بهم إلى ما أسفل من سن الطفولة حيث يصبح الرجل فاقدًا لعقله وقواه فيفقد قواه العقلية والبدنية.

(٦) وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾ وهو أن ما كانوا يقومون به من الفرائض والنوافل وسائر الطاعات والقربات لا ينقطع أجرهم[1] منها بكبرهم وعدم قيامهم بها في سن الشيخوخة والهرم والخرف بخلاف الكافر والفاجر والفاسق فليس لهم أعمال لا تنقطع إلا من سن منهم سنة سيئة فإن ذنبه لا ينقطع ما بقي من يعمل بتلك السنة السيئة.

(٧) وقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝﴾[2] أي فمن يقدر على تكذيبك يا رسولنا بعد هذه الآيات والحجج والبراهين الدالة على قدرة الله وعلمه ورحمته وحكمته فمن يكذب بالبعث والجزاء على الكسب الإرادي الاختياري في هذه الحياة من خير وشر فإنه وإن كذب بالدين وهو الجزاء الأخروي على عمل المكلفين في هذه الحياة الدنيا فإن هذا التكذيب قائم على أساس العناد والمكابرة إذ الحجج الدالة على يوم الدين والجزاء فيه تجعل المكذب به مكابرًا أو جاحدًا لا غير.

(٨) وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝﴾[3]؟ بلى فليس هناك أعدل من الله وأحسن حكمًا فكيف يظن إذًا أن الناس يعملون متفاوتين في أعمالهم في هذه الدنيا ثم يموتون سواء ولا جزاء بعد بالثواب ولا بالعقاب هذا ظلم وباطل ومنكر ينزه الرب عنه سبحانه وتعالى فقضية البعث الآخر لا تقبل الجدل والمماحكة بحال من الأحوال.

هداية الآيات:

١ ـ بيان منافع التين والزيتون واستحباب غرس هاتين الشجرتين والعناية بهما.

٢ ـ بيان شرف مكة وحرمها.

٣ ـ بيان فضل الله على الإنسان في خلقه في أحسن صورة وأقوم تعديل.

٤ ـ تقرير فضل الله على الإنسان المسلم وهو أنه يطيل عمره فإذا هرم وخرف كتب له كل ما كان يعمله من الخير ويجانبه من الشر.

٥ ـ مشروعية قول بلى وأنا على ذلك من الشاهدين بعد قراءة والتين إذ كان النبي ﷺ يقول ذلك.

❁ ❁ ❁

سورة العلق
مكية
وآياتها تسع عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿اقْرَأْ﴾: أي أوجد القراءة وهي جمع الكلمات ذات الحروف

---

(١) صحّ الحديث أن النبي ﷺ قال: «**إذا سافر العبد أو مرض كتب الله له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا**» وعن ابن عمر: «**طوبى لمن طال عمره وحسن عمله**».

(٢) وجائز أن يكون الخطاب للإنسان الكافر توبيخًا له وإلزامًا للحجة أي: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم وأنه يردك إلى أرذل العمر فما يحملك على أن تكذب وعليه فالاستفهام توبيخي.

(٣) روي أن ابن عباس وعليًا رضي الله عنهم كانا إذا قرءا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ قالا: بلى ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وروى الترمذي عن أبي هريرة: من قرأ سورة والتين والزيتون فقرأ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

باللسان. ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾: أي بذكر اسم ربك. ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾: أي خلق آدم من سلالة من طين.

(٢) ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾: أي الإنسان الذي هو ذرية آدم. ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾: أي جمع علقة وهي النطفة في الطور الثاني حيث تصير علقة أي قطعة من الدم الغليظ.

(٣) ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾: أي الذي لا يوازيه كريم ولا يعادله ولا يساويه.

(٤) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾: أي علّم العباد الكتابة والخط بالقلم.

(٥) ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ﴾: أي جنس الإنسان. ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: أي ما لم يكن يعلمه من سائر العلوم والمعارف.

معنى الآيات:

(١) ـ (٢) قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ هذه الآيات الخمس من أول ما نزل من القرآن الكريم لأحاديث الصحاح[١] فيها فإن مما اشتهر في ذلك أن النبي ﷺ كان يأتي حراء يتحنث فيه أي يزيل الحنث فرارًا مما عليه قومه من الشرك والباطل حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء فقال: يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله ثم قال: اقرأ، «**قلت: ما أنا بقارىء**» قال: «**فأخذني فغطني ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، فقرأت**» الحديث.

وقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يأمر الله تعالى رسوله أن يقرأ بادئًا قراءته بذكر اسم ربّه أي باسم الله الرحمٰن الرحيم وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أي خلق الخلق كله وخلق آدم من طين وخلق الإنسان من أولاد آدم من علق والعلق اسم جمع واحده علقة[٢] وهي قطعة من الدم غليظة كانت في الأربعين يومًا الأولى في الرحم نطفة ثم تطورت إلى علقة تعلق بجدار الرحم ثم تتطور في أربعين يومًا إلى مضغة لحم، ثم إما أن يؤذن بتخلقها فتخلق وإما لا فيطرحها الرحم قطعة لحم.

(٣) ـ (٤) وقوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ﴾ تأكيد للأمر الأول لصعوبة الأمر واندهاش الرسول ﷺ للمفاجأة ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝﴾[٣] أي وربك الأكرم هو الذي علّم بالقلم عباده الكتابة والخط.

(٥) وقوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ أي من كرمه الذي أفاض منه على عباده نعمه التي لا تحصى أنه علم الإنسان بواسطة القلم ما لم يكن يعلم من العلوم والمعارف وهذه إشادة بالقلم وأنه واسطة العلوم والمعارف والواسطة تشرف بشرف الغاية المتوسط لها فلذا كان لا أشرف في الدنيا من عباد الله الصالحين والعلوم الإلهية في الكتاب والسنة وما دعوا إليه وحضا عليه من العلوم النافعة للإنسان.

هداية الآيات:

١ - تقرير الوحي الإلهي وإثبات النبوة المحمدية.

٢ - مشروعية ابتداء القراءة بذكر اسم الله ولذا افتتحت سور القرآن ما عدا التوبة ببسم الله الرحمٰن الرحيم.

٣ - بيان تطور النطفة في الرحم إلى علقة ومنها يتخلق الإنسان.

٤ - إعظام شأن الله تعالى وعظم كرمه فلا أحد يعادله في الكرم.

٥ - التنويه بشأن الكتابة والخط بالقلم إذ المعارف والعلوم لم تدوّن إلا بالكتابة والقلم.

٦ - بيان فضل الله تعالى على الإنسان في تعليمه ما لم يكن يعلم بواسطة الكتابة والخط.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ ـ ١٩]

(٦) ﴿كَلَّا﴾[٤]: أي لا أداة

---

(١) منها حديث عائشة: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة فجاءه الملك فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ رواه البخاري.

(٢) العلقة: الدم الجامد والجمع علق، والعلقة قطعة من دم رطب سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه.

(٣) قيل: سمي القلم قلمًا لأنه يقلم أي يقطع، ومنه تقليم الظفر صح أن النبي ﷺ قال: «**أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فكتب ما يكون إلى يوم القيامة فهو عنده في الذكر فوق عرشه**».

(٤) ﴿كَلَّا﴾ الأصل فيها أنها أداة ردع وزجر وذلك إذا تقدمها ما يقتضي ذلك وتكون بمعنى حقًا، وتكون بمعنى ألا: التي هي أداة=

استفتاح وتنبيه لكسر إن بعدها.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: أي ابن آدم قبل أن تتهذب مشاعره وأخلاقه بالإيمان والآداب الشرعية. ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾: أي يتجاوز الحد المفروض له في سلوكه ومعاملاته.

(٧) ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾: أي عندما يرى نفسه قد استغنى بماله أو ولده أو سلطانه.

(٨) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾: أي إن إلى ربك أيها الرسول الرجعى أي الرجوع والمصير.

(٩) ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾.

(١٠) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾: أي أبو جهل عمرو بن هشام المخزومي لعنه الله.

(١١) ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

(١٢) ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾: أي هو رسول الله محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم القرشي العدناني.

(١٣) ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أي هو أبو جهل.

(١٥) ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾: أي من أذية رسولنا محمد ﷺ ومنعه من الصلاة خلف المقام. ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾: أي لنأخذن بناصيته ونسحبه إلى نار جهنم.

(١٧) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾: أي رجال مجلسه ومنتداه.

(١٨) ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾: أي خزان جهنم.

(١٩) ﴿كَلَّا﴾: أي ارتدع أيها الكاذب الكافر. ﴿وَٱقْتَرِب﴾: أي منه تعالى وذلك بطاعته.

معنى الآيات:

(٦) - (٨) قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان قبل أن يهذبه الإيمان والمعارف الإلهية المشتملة على معرفة محابّ الله تعالى، ومساخطه أنه إذا رأى نفسه قد استغنى بماله أو ولده أو سلطانه أو بالكُلِّ وما أصبح في حاجة إلى غيره يطغى فيتجاوز حدّ الآداب والعدل والحق والعرف فيتكبر ويظلم ويمنع الحقوق ويحتقر الضعفاء ويسخر بغيره. وأبو جهل كان مضرب المثل في هذا الوصف وصف الطغيان حتى قيل إنه فرعون هذه الأمة، وها هو ذا رسول الله ﷺ يصلي في المسجد الحرام خلف المقام فيأتيه هذا الطاغية ويهدده ويقول له: لقد نهيتك عن الصلاة هنا فلا تعد، ويقول له: إن وجدتك مرة أخرى آخذ بناصيتك وأسحبك على الأرض، فينزل الله تعالى هذه الآيات ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ (٦) أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ فيقف برسوله على حقيقة ما كان يعلمها وهي أن ما يجده من أبي جهل وأضرابه من طغاة قريش علته كذا وكذا ويسليه فيقول له وإن طغوا وتجبروا إن مرجعهم إلينا وسوف ننتقم لك منهم ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا رسولنا ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ إذًا فاصبر على أذاهم و انتظر ما سيحل بهم إن مصيرهم إلينا لا إلى غيرنا وسوف ننتقم منهم ثم يقول له قولاً يحمل العقلاء على التعجب من سلوك أبي جهل الشائن مع رسول الله ﷺ.

(٩) - (١٠) ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾؟ وهل الذي يصلي ينهى عن الصلاة وهل الصلاة جريمة وهل في الصلاة ضرر على أحد؟ فكيف ينهى عنها؟ ويقول له: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي المصلي الذي نهي عن الصلاة وهو الرسول نفسه ﷺ.

(١١) ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة وكرامتهما؟

(١٢) ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أي أمر غيره بما يتقي به عذاب الدنيا والآخرة، هل الآمر بالهدى والتقوى أي بأسباب النجاة والسعادة يعادي ويحارب؟ ويضرب ويهدد؟ إن هذا لعجب العجاب.

(١٣) ويقول: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا رسولنا ﴿إِن كَذَّبَ﴾ هذا الذي ينهى عبدًا إذا صلى أي كذب بالحق والدين ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن الإيمان والشرع، كيف يكون حاله يوم يلقى ربه؟

(١٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي يرى أفعاله الاستفزازية المقيتة وتطاوله على رسول الله وتهديده له بالضرب إن وجده يصلي خلف المقام. بعد هذه الدعوة للطاغية لعله يرجع إلى الحق إذا سمعه، وإذا به يزداد طغيانًا ويقول في مجلس قريش يقول

= استفتاح وتنبيه. وهي هنا تتردد من أمرين بين أن تكون بمعنى حقًا أو بمعنى ألا، وذلك لعدم تقدم كلام يقتضي الردع والزجر، لأن الآيات الخمس الأولى نزلت في أول ما نزل وما بعد (كلا) نزل بعد ذلك بفترة طويلة، وجائز أن تكون ردعًا لمن قال قولاً أو عَمِلَ عملاً استحق به ذلك.

واللات والعزى لئن رأيت محمدًا ﷺ يُصلي لأطأن على رقبته ولأعفرنّ وجهه على التراب، وفعلاً أتى إلى النبي ﷺ وهو يصلي ليطأ على ركبته فإذا به ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له ما لك فقال: إن بيني وبينه خندقًا من نار وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: **«لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»**.

(١٥) ـ (١٦) وأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ۝ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦)﴾ أي صاحبها وهو أبو جهل أي لئن لم ينته عن أذية رسولنا وتعرضه له في صلاته ليمنعه منها لنأخذن بناصيته ونجره إلى جهنم عيانًا.

(١٧) ﴿فَلْيَدْعُ﴾ حينئذ رجال ﴿نَادِيَهُ۝﴾ ومجلس قومه فإنا ندعو الزبانية أي خزنة النار من الملائكة كلا فليرتدع هذا الطاغية وليعلم أنه لن يقدر على أن يصل إلى رسولنا بعد اليوم بأذى.

(١٩) وقال تعالى لرسوله بعد تهديده للطاغية، وردعه له، وارتدع فعلاً ولم يجرؤ بعد ذلك اليوم أن يمدّ لسانه، ولا يده بسوء لرسول الله ﷺ قال لرسوله ﷺ: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ فيما يطلب منك من ترك الصلاة في المسجد الحرام فقد كفيناك شره ﴿وَاقْتَرِب﴾[1] إلينا بالطاعات ومن أهمها الصلاة.

هداية الآيات:

١ ـ بيان سبب نزول الآيات كلا إن الإنسان ليطغى إلى آخر السورة.

٢ ـ بيان طبع الإنسان إذا لم يهذب بالإيمان والتقوى.

٣ ـ نصرة الله لرسوله ﷺ بالملائكة عيانًا في المسجد الحرام.

٤ ـ تسجيل لعنة الله على فرعون الأمة أبي جهل وأنه كان أظلم قريش لرسول الله ﷺ وأصحابه.

٥ ـ مشروعية السجود عند تلاوة هذه السورة إذا قرأ فاسجد واقترب شرع له السجود[2] إلا أن يكون يصلي بجماعة في الصلاة السرية فلا يسجد لئلا يفتنهم.

❀ ❀ ❀

الجزء الثلاثون — سُورَةُ القَدْرِ – البَيِّنَة

ترتيبها ٩٧ — سُورَةُ القَدْرِ — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

ترتيبها ٩٨ — سُورَةُ البَيِّنَة — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

٥٩٨

سورة القدر
مكية
وآياتها خمس آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾: أي القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا. ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: أي ليلة الحكم والتقدير التي يقضي فيها قضاء السنة كلها.

(٢) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ۝﴾: أي إن شأنها عظيم.

(٣) ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ۝﴾: أي العمل الصالح فيها من صلاة وتلاوة قرآن ودعاء خير من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر.

(٤) ﴿وَالرُّوحُ فِيهَا﴾: أي جبريل في ليلة القدر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾: أي ينزلون بأمره تعالى لهم بالتنزل فيها. ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: أي من كل أمر قضاه الله تعالى في تلك السنة من رزق وأجل وغير ذلك.

(٥) ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ۝﴾:

---

(١) روى أصحاب الصحيح قوله ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»**.

(٢) ورد في الذكر حال السجود أن الساجد يقول: (سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق بحوله وقوته سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين. اللهم اكتب لي بها أجرًا وامح عني بها وزرًا وارفع لي بها ذكرًا وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود).

أي هي سلام من الشر كله من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

معنى الآيات:

(١) - (٥) قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾[1] أي القرآن الكريم الذي كذب به المكذبون وأنكره الكافرون يخبر تعالى أن ما يتلوه عبده ورسوله محمد ﷺ هو حق وحي الله وكتابه أنزله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وذلك في ليلة الحكم والقضاء التي يقضي الله فيها ما يشاء من أحداث العالم من رزق وأجل وغيرهما إلى بداية السنة الآتية وذلك كل سنة وهذا كقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ[2] فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾ إذ ما قضاه الله تعالى وحكم بوجوده قد كتب في اللوح المحفوظ ومنه القرآن الكريم ثم في ليلة القدر تؤخذ نسخة من أحداث السنة فتعطى الملائكة وتنفذ حرفيًا في تلك السنة، ولذلك كان لليلة القدر بمعنى التقدير شأن عظيم ففضلها الله على ألف شهر وأخبر عن سبب فضلها أن الملائكة تتنزل فيها وجبريل معهم بإذن ربهم أي ينزلون بإذن الله تعالى لهم وأمره إياهم بالنزول ينزلون مصحوبين بكل أمر قضاه الله وحكم به في تلك السنة من خير وشر من رزق وأجل ولفضل هذه الليلة كانت العبادة فيها تفضل غيرها من نوعها بأضعاف مضاعفة إذ عمل تلك الليلة يحسب لصاحبه عمل ألف ليلة أي ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر. هذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ[3] مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝[4] تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝﴾ وقوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝﴾ أي هي سلام من كل شر إذ هي كلها خير من غروب الشمس إلى طلوع فجرها إنها كلها سلام سلام الملائكة على العابدين من المؤمنين والمؤمنات وسلامة من كل شر. والحمد لله الذي جعلنا من أهلها.

هداية الآيات:

١ - تقرير الوحي وإثبات النبوة المحمدية.

٢ - تقرير عقيدة القضاء والقدر.

٣ - فضل ليلة القدر وفضل العبادة فيها[5].

٤ - بيان أن القرآن نزل في رمضان جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وأنه ابتدىء نزوله على رسول الله ﷺ في رمضان أيضًا.

٥ - الندب[6] إلى طلب ليلة القدر للفوز بفضلها وذلك في العشر الأواخر من شهر رمضان وأرجى ليلة في العشر الأواخر هي الوتر كالواحدة والعشرين إلى التاسعة والعشرين لحديث الصحيح **«التمسوها في العشر الأواخر»**.

٦ - استحباب الإكثار من قراءة القرآن وسماعه فيها لمعارضة جبريل الرسول[7] ﷺ القرآن في رمضان مرتين.

---

(١) وجائز أن يطلق لفظ ﴿أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ على الخمس آيات التي أنزلت بغار حراء في رمضان وهي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ..﴾ إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي باعتبار بداية نزوله، وما في التفسير عليه أئمته.

(٢) فاتحة سورة الدخان.

(٣) الاستفهام للتفخيم من شأن ليلة القدر أي أي شيء يعرفك ما هي ليلة القدر ذات الشأن العظيم؟ وإظهار لفظ ليلة القدر بعد ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ دال على الاهتمام بها كقول عدي:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ... نغص الموت ذا الغني والفقير

(٤) لحديث مالك في الموطأ: سمعت من أثق فيه يقول: إن رسول الله ﷺ أري أعمار الأمم قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيرًا من ألف شهر.

(٥) حديث الصحيحين: **«من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»**.

(٦) أرجح الأقوال في ليلة القدر أنها في الوتر من العشر الأواخر من كل عام لحديث الصحيح: **«التمسوها في الوتر من العشر الأواخر»** وأن من صلى العشاء ليلتها في الجماعة ينال فضلها لما قاله مالك في الموطأ وهو قول سعيد بن المسيب: من شهد العشاء من ليلة القدر فقد أخذ بحظه منها ومثله لا يدرك بالرأي.

(٧) معارضة القرآن ثابتة في الصحيح وفضل الدعاء فيها ثابت في الصحيح. قالت عائشة: يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أقول؟ قال: **«قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»**.

جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

آياتها ٨	سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ	ترتيبها ٩٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٦﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

آياتها ١١	سُورَةُ العَادِيَاتِ	ترتيبها ١٠٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴿١﴾ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴿٣﴾ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴿٤﴾ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٩﴾

٥٩٩

سورة البينة[1]
مدنية
وآياتها ثمان آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٥]

(١) ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي اليهود والنصارى. ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: أي عبدة الأصنام. ﴿مُنفَكِّينَ﴾: أي زائلين عما هم عليه منتهين عنه. ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾: أي الحجة الواضحة وهي محمد ﷺ وكتابه القرآن الكريم.

(٢) ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي محمد رسول الله ﷺ. ﴿صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾: أي من الباطل.

(٣) ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾: أي في تلك الصحف المطهرة كتب من الله مستقيمة.

(٤) ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾: أي الرسول محمد ﷺ وكتابه القرآن الكريم.

(٥) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾: أي في كتبهم التوراة والإنجيل. ﴿حُنَفَآءَ﴾: أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام. ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾: أي دين الملة القيمة أي المستقيمة.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وهم اليهود والنصارى[2] والمشركون هم عباد الأصنام لم يكونوا منفصلين عما هم عليه من الديانة تاركين لها إلى غاية مجيء البيّنة لهم فلما جاءتهم البينة وهي محمد ﷺ وكتابه انفكوا[3]، أي انقسموا فمنهم من آمن بمحمد ﷺ وكتابه والدين الإسلامي ومنهم من كفر فلم يؤمن.

(٢) وقوله تعالى: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو محمد ﷺ.

(٣) وقوله: ﴿يَتۡلُواْ صُحُفٗا﴾ أي يقرأ على ظهر قلب ما تضمنته تلك الصحف المطهرة من الباطل والمشتملة على كتب[4] من عند الله قيمة أي مستقيمة لا انحراف فيها عن الحق ولا بعد عن الهدى والمراد من الصحف المطهرة القرآن الكريم.

(٤) وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ وهي محمد ﷺ وكتابه إذ كانوا قبل البعثة المحمدية متفقين على انتظار نبيّ آخر الزمان وأنه النبي الخاتم للنبوات فلما جاءهم تفرقوا فآمن بعض وكفر بعض.

(٥) في حين أنهم ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم. وكذا في القرآن وعلى لسان نبيه محمد ﷺ ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾

---

(١) وتسمى سورة القيّمة ولم يكن ورد في فضلها حديث الصحيح أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك** ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾» قال: وسماني لك؟ قال: «**نعم**» فبكى. وفي هذا الحديث أنه لا يأنف الفاضل أن يقرأ القرآن أو يتعلّم العلم عن المفضول.

(٢) قال ابن عباس: أهل الكتاب اليهود الذين كانوا بالمدينة وهم: قريظة والنضير وبنو قينقاع، ولفظ الآية أعم وأشمل إذ تناول اليهود مطلقًا والنصارى كذلك.

(٣) انفك ينفك انفكاكًا مضارع فكّه فانفك ومعناه الإزالة والإقلاع أي: لم يكونوا مقلعين عمّا هُم عليه أو زائلين عنه تاركين له منتهين عنه.

(٤) إن قيل: الكتب هي التي تشتمل على صحف فكيف يتلو صحفًا مطهرة فيها كتب قيمة؟ والجواب: نعم الصحف تكون كتابًا وإذا كثرت كونت كتبًا والقرآن العظيم كثرة صحفه كونت كتابًا باعتبار ما حواه من الشرائع والأحكام والقصص والأخبار.

أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ويقيموا الصلاة بأن يؤدوها في أوقاتها بشروطها وأركانها وآدابها ويؤتوا الزكاة التي أوجب الله في الأموال لصالح الفقراء والمساكين. وذلك دين القيمة أي وهذا هو دين الملة القيمة المستقيمة الموصلة للعبد إلى رضا الرب وجنات الخلد بعد إنجائه من العذاب والغضب.

هداية الآيات:

١ - بيان أن الديانات السابقة للإسلام والتي عاصرته كانت منحرفة اختلط فيها الحق بالباطل ولم تصبح صالحة للإسلام والهداية البشرية ولا فرق بين اليهودية والنصرانية والمجوسية.

٢ - إن أهل الكتاب بصورة خاصة كانوا منتظرين البعثة المحمدية بفارغ الصبر لعلمهم بما أصاب دينهم من فساد، ولما بعث رسول الله ﷺ وجاءتهم البينة على صدقه وصحة ما جاء به تفرقوا فآمن البعض[1] وكفر البعض.

٣ - مما يؤخذ على اليهود والنصارى أنهم في كتبهم مأمورون بعبادة الله تعالى وحده والكفر بالشرك مائلين عن كل دين إلى دين الإسلام ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فما بالهم لما جاءهم الإسلام بمثل ما أمروا به كفروا به وعادوه. والجواب أنهم لما انحرفوا عز عليهم أن يستقيموا لما ألفوا من الشرك والضلالة والباطل.

٤ - بيان أن الملّة القيمة والدين المنجي من العذاب المحقق للإسعاد والكمال ما قام على أساس عبادة الله وحده وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والميل عن كل دين إلى هذا الدين الإسلامي.

شرح الكلمات:

[الآية: ٦ - ٨]

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي بالإسلام ونبيه وكتابه هم اليهود والنصارى. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾: أي شر الخليقة.

(٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي آمنوا بالإسلام ونبيه وكتابه وعملوا الصالحات. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾: أي هم خير الخليقة.

(٨) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: أي بساتين إقامة دائمة. ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾: أي بطاعته. ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾: أي بثوابه.

معنى الآيات:

(٦) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ[2] أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إنه بعد أن بيّن الدين الحق المنجي من العذاب والموجب للنعيم وهو الدين الإسلامي أخبر تعالى أن من كفر به من أهل الكتاب ومن المشركين هم في نار جهنم خالدين فيها هذا حكم الله فيهم لكفرهم بالحق وإعراضهم عنه بعدما جاءتهم البيّنة وعرفوا الطريق وتنكبوه رضا بالباطل واقتناعًا بالكفر والشرك بدل الإيمان والتوحيد هؤلاء الكفرة الفجرة هم شر الخليقة كلها. وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝﴾[3] كما أخبر تعالى بأن جزاء من آمن بالله ورسوله وعمل بالدين الإسلامي فأدى الفرائض واجتنب النواهي وسابق في الخيرات والصالحات هؤلاء هم[4] خير البرية إذ قال تعالى:

(٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝﴾ وقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي جزاء أولئك الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ وما جاء به من الهدى والدين الحق أولئك هم خير الخليقة.

(٨) وقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

---

(١) شاهده قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي كفر من كفر منهم. الآية من سورة البقرة.

(٢) ﴿كَفَرُواْ﴾ أي من بعد ما جاءتهم البينة من الطوائف الثلاثة حكم الله تعالى فيهم بأنهم شر الخليقة فَهُمْ شر من القردة والخنازير وأخبث أنواع الحيوان كالحيات والثعابين لأنهم كفروا بربهم وفسقوا عن أمره واستوجبوا لعنته وعذابه فكانوا بذلك شر البرية.

(٣) ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ الخليقة إذ هي من بَرَأَ إذا خلق والباري الخالق وأصل البرية: البريئة قلبت الهمزة ياء وأدغمت في الياء فصارت البريّة بياء مشددة. وقرأ نافع ﴿البريئة﴾ مهموزًا على الأصل وخففها حفص فقرأ ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ كالخلية وزنًا.

(٤) أي في حكم الله وقضائه وحصلت لهم الخيرية بإيمانهم بربهم واستقامتهم على منهج شرعه فكملوا في أرواحهم وأخلاقهم وتهيؤوا للملكوت الأعلى فكانوا بذلك خير البرية. اللهم اجعلنا منهم.

أي يوم يلقونه وذلك بعد الموت ﴿جَنَّـٰتُ عَدۡنٖ﴾ أي بساتين إقامة دائمة ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ أي لا يخرجون منها ولا يموتون أبـدًا. وقـولـه: ﴿رَّضِيَ[1] ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ أي رضي الله عنهم بسبب إيمانهم وطاعتهم ورضوا عنه بسبب ما وهبهم وأعطاهم من النعيم المقيم في دار السلام.

وقـولـه تـعـالـى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ[2] رَبَّهُۥ﴾ أي ذلك الجزاء المذكور وهو جزاء عظيم إذ جُمع لأهله فيه بين سعادة الروح وسعادة البدن معًا هو جزاء عبد خاف ربه فلم يعصه حتى لقيه بعد موته وإن عصاه يومًا تاب وإن أخطأ رجع حتى مات وهو على الطاعة لا على المعصية.

هداية الآيات:

١ - بيان جزاء من كفر بالإسلام من سائر الناس وأنه بئس الجزاء.

٢ - بيان جزاء من آمن بالإسلام ودخل فيه وطبّق قواعده واستقام على الأمر والنهي فيه وهو نعم الجزاء رضى الله والخلود في دار السلام.

٣ - فضل الخشية إن حملت صاحبها على طاعة الله ورسوله فأطاعهما بأداء الفرائض وترك المحرمات في الاعتقاد والقول والعمل.

❁ ❁ ❁

سورة الزلزلة[3]
مدنية
وآياتها ثماني آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٨]

(١) ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾: أي حُركت لقيام الساعة.

(٢) ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝﴾: أي كنوزها وموتاها فألقتها وتخلت.

(٣) ﴿مَا لَهَا﴾: أي وقال الكافر ما لها أي أي شيء جعلها تتحرك هذه الحركة.

(٤) ﴿تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾: أي تخبر بما وقع عليها من خير وشر وتشهد به لأهله.

(٥) ﴿أَوۡحَىٰ لَهَا﴾: أي بأن تحدث أخبارها فحدثت.

(٦) ﴿يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا﴾: أي من موقف الحساب. ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَـٰلَهُمۡ﴾: أي جزاء أعمالهم إما إلى الجنة وإما إلى النار.

(٧) ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾: زنة نملة صغيرة.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝﴾[4] أي تحركت حركتها الشديدة لقيام الساعة.

(٢) ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ من كنوز وذلك في النفخة الأولى، وأموات وذلك في النفخة الثانية ففي الإخبار إجمال إذ المقصود تقرير البعث والجزاء ليعمل الناس بما ينجيهم من النار ويدخلهم الجنة.

(٣) وقـولـه: ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝﴾[5]؟ لا شك أن هذا الإنسان السائل كان كافرًا بالساعة ولذا تساءل أما المؤمن فهو يعلم ذلك لأنه جزء من عقيدته.

(٤) وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝﴾[6] أي تخبر بما جرى

---

(١) قول البعض: رضي أعمالهم هروبًا من عقيدة السلف وإلا فالآية نَصٌّ في رضاه تعالى عنهم وإن كانت الأعمال سببًا في رضاه إذ الأعمال طهرت نفوسهم وزكت أرواحهم فاستحقوا رضى الله فرضي عنهم ورضى الله أكبر من نعيم الجنة كقوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾.

(٢) الخشية الموجبة لهذا النعيم المقيم هي ثمرة العلم إذ لا خشية بلا علم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ﴾ فلذا وَجَبَ طلبُ العلم وهو العلم بالله ومحابه ومكارهه ووعده ووعيده إذ هذا هو العلم الذي يثمر الخشية.

(٣) وتسمى سورة الزلزال لوجود لفظ الزلزال فيها وهو قوله: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ واشتهرت بسورة الزلزلة وهي تسمية بالمعنى إذ ليس فيها لفظ الزلزلة. ورد أنها تعدل ربع القرآن أو نصفه والحديث ضعيف.

(٤) إضافة الزلزال إلى ضمير الأرض لإفادة تمكنه منها وللإشارة إلى هوله وفظاعته لما عرف الناس من أهوال الزلزال إذا وقع، والزلزال بكسر الزاي مصدر وبفتحها اسم مصدر. وهو مأخوذ من الزلل وهو زلق الرجلين. فلما قصدوا شدة الزلل ضاعفوا الفعل فقالوا في زل زلزل كما قالوا في كبه كبكبه.

(٥) ﴿مَا لَهَا﴾ استفهام ناشىء عن دهشة وحيرة للمفاجأة، أي: ما للأرض زلزلت هذا الزلزال؟!

(٦) روى الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾ فقال: **«أتدرون ما أخبارها؟»** قالوا: الله ورسوله

عليها من خير وشر بلسان القال أو الحال.

﴿٥﴾ وهي في هذا الإخبار مأمورة لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي بذلك.

﴿٦﴾ وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾(١) أي يوم تزلزل الأرض وتهتز للنفخة الثانية نفخة يصدر الناس فيها أشتاتًا أي يصدرون من ساحة فصل القضاء فمن آخذ ذات اليمين ومن آخذ ذات الشمال ليروا أعمالهم أي جزاء أعمالهم في الدنيا من حسنة وسيئة فالحسنة تورث الجنة والسيئة تورث النار.

﴿٧﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(٢) أي وزن ذرة من خير في الدنيا يثب عليه في الآخرة ومن يعمل مثقال ذرة أي وزن ذرة من شر في الدنيا يجز به في الآخرة إلا أن يعفو الجبار عز وجل وبما أن الكفر مانع من دخول الجنة فإن الكافر إذا عمل حسنة في الدنيا يرى جزاءها في الدنيا، وليس له في الآخرة شيء منها وذلك لحديث عائشة رضي الله عنها إذ سألت الرسول ﷺ عن عبدالله بن جدعان هل ينفعه في الآخرة ما كان يفعله في الدنيا من إطعام الحجيج وكسوتهم فقال لها: «**لا إنه لم يقل يومًا من الدهر ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين**» كما أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يأكل مع الرسول ﷺ ونزلت هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ الآية، فرفع أبو بكر يده من الطعام وقال: إني لراء ما عملت من خير وشر؟ فقال النبي ﷺ: «**إن ما ترى مما تكره فهو من مثاقيل ذرّ شرٍّ كثير، ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة**» وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - الإعلام بالانقلاب الكوني الذي تتبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات غير السموات.

٣ - تكلم الجمادات من آيات الله تعالى الدالة على قدرته وعلمه وحكمته وهي موجبات ألوهيته بعبادته وحده دون سواه.

٤ - تقرير حديث الصحيح «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**»(٣).

٥ - الكافر عمله الخيري ينفعه في الدنيا دون الآخرة.

٦ - المؤمن يجزى(٤) بالسيئة في الدنيا ويدخر له صالح عمله للآخرة.

❁ ❁ ❁

سورة العاديات
مكية
وآياتها إحدى عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١١]

﴿١﴾ ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾: أي والخيل تعدو في الغزو. ﴿ضَبْحًا﴾: أي تضبح ضبحًا والضبح صوت الخيل إذا عدت أي جرت.

﴿٢﴾ ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾: أي الخيل توري النار بحوافرها إذا سارت بالليل.

﴿٣﴾ ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾: أي الخيل تغير على العدو صباحًا.

﴿٤﴾ ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾: هيجن به أي بمكان عدوها نقعًا أي غبارًا.

﴿٥﴾ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾: أي بالنقع جمع العدو أي حيث تجمعاته.

= أعلم، قال: «**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، وتقول: عمل يوم كذا وكذا فهذه أخبارها**» وجملة ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ جواب الشرط ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾.

(١) الأشتات: جمع شت بمعنى متفرقين جماعات جماعات أصحاب يمين وأصحاب شمال.

(٢) يحكى أن أعرابيًا أخّر ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾ فقيل له: قدمت وأخرت فقال:

خذا بطن هَرشَى أو قفاها فإنه ... كلا جانبي هرشى لهن طريق

وفات الأعرابي أن تقديم لفظ الخير تنويه به وبأهله ولذا قدم في الآية.

(٣) حديث «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» رواه البخاري، وفي الموطأ أن مسكينًا استطعم عائشة أم المؤمنين وبين يديها عنب فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويعجب، فقالت: أتعجب؟ كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة؟

(٤) شاهده حديث أبي بكر السالف الذكر.

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

ترتيبها ١٠١	سُورَةُ القَارِعَةِ	آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

ترتيبها ١٠٢	سُورَةُ التَّكَاثُرِ	آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

٦٠٠

(٦) ﴿لَكَنُودٌ﴾: لكفور بجحد نعمه تعالى عليه.

(٧) ﴿لَشَهِيدٌ﴾: أي يشهد على نفسه بعمله.

(٨) ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾: أي المال.

(٩) ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾: أي أثير وأُخرج ما في القبور.

(١٠) ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾: بُيّن وأُفرز ما في الصدور من الإيمان والكفر.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [(١)] الآيات، إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ تضمنت قسمًا إلهيًا عظيمًا على حقيقة كبرى يجهلها كثير من الناس وهي كفر الإنسان لربه ولنعمه عليه يعد المصائب وينسى النعم والفواضل وهذا بيان ما أقسم تعالى به وهو العاديات ضبحًا وهي الخيل [(٢)] تضبح أي تخرج صوتًا خاصًا غير الصهيل المعروف ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ أي الخيل توري النار بحوافرها إذا مشت فوق الحجارة ليلًا ويدخل ضمن هذا كل قادحة للنار ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ أي جماعات الخيل يركبها فرسانها للإغارة على العدو بها صباحًا.

(٤) - (٥) وقوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي فأثارت الخيل النقع وهو الغبار والتراب عند سيرها بفرسانها فتوسطت جمع العدو وكتائبه لقتال أعداء الله الكافرين بالله وآياته ولقائه المفسدين في الأرض بالشرك والمعاصي، هذا ما أقسم الله تعالى به وهو الخيل ذات الصفات الثلاث: العدو والإوراء والإغارة والمقسم عليه قوله:

(٦) ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ المراد من الإنسان الكافر والجاهل بربّه تعالى الذي لم تتهذب روحه بمعرفة الله ومحابه ومكارهه ولم يزك نفسه بفعل المحاب وترك المكاره هذا الإنسان أقسم تعالى على أنه كفور لربه تعالى ولنعمه عليه أي شديد الكفر كثيره بذكر المصائب ويشعر بها ويصرخ لها ويصر عليها وينسى النعم والفواضل عليه فلا يذكرها ولا يشكر الله تعالى عليها. فالكنود الكفور [(٣)].

(٧) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي وإن الله تعالى على هذا الوصف في الإنسان لشهيد فأخبر تعالى بما علمه من الإنسان وشهد به عليه كما أن الإنسان شهيد بأعماله وصنائع أقواله وأفعاله شهيد على نفسه بالكفر والجحود. وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ هذا مما أقسم تعالى عليه أيضًا وهو وصف للإنسان الكنود وهو أنه شديد حب المال وسمّي المال خيرًا تسمية [(٤)] عرفية إذ

---

(١) الأفراس تعدو (القرطبي) تضبح أي تحمحم إذا عدت وأصل الضبح والضباح للثعالب كالنبح والنباح للكلاب.

(٢) يروى عن النبي ﷺ أنه قال في العاديات: «**إنها الإبل تعدو في الحج من عرفة إلى مزدلفة وإلى منى**» إلا أن الخيل أولى بهذه الصفات.

(٣) فسر السلف الكنود بالهلوع والجحود والجهول والحقود والمنوع، وفعله كند يكند كنودًا من باب دخل يدخل دخولاً أي: كفر النعمة وجحدها.

(٤) شاهده قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾ الآية. وقال عدي:

ماذا ترجي النفوس من طلب ... الخير وحب الحياة كاربها

كاربها غامّها من الكرب الذي هو الغم.

تعارف الناس على ذلك كما أنه خير من حيث أنه يحصل به الخير الكثير إذا أنفق في مرضاة الله تعالى.

(٩) وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا[1] يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ[2] مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝﴾ أي أيكفر الإنسان بربه ويجحد نعمه عليه وإحسانه إليه ويحب المال أشد الحب فيمنع حقوق الله فيه ويكتسبه مما حرم الله عليه.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ[3] مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي بعثرت القبور وأُخرج ما فيها من البشر للحساب والجزاء ووقفوا بين يدي الله تعالى وأفرز وبيّن ما كان خفيًا في الصدور من الاعتقادات والنيات الصالحة والفاسدة ولا يخفى على الله تعالى منهم شيء حيث

(١١) ﴿إِنَّ رَبَّهُم[4] بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ كما هو اليوم خبير إلا أنها ساعة الحساب والمجازاة فذكر فيها علم الله تعالى وخبرته بالظواهر والبواطن والضمائر والسرائر فلا يخفى على الله من ذلك شيء وسيتم الجزاء العادل بحسب هذا العلم وتلك الخبرة الإلهية. فلو علم الكفور من الناس المحب للمال هذا وأيقنه لعدّل من سلوكه وأصلح من اعتقاده ومن أقواله وأعماله فالآيات دعوة إلى مراقبة الله تعالى بعد الإيمان والاستقامة على طاعته.

هداية الآيات:

١ - الترغيب في الجهاد والإعداد له كالخيل أمس، ونفاث الطائرات اليوم.

٢ - بيان حقيقة وهي أن الإنسان كفور لربه ونعمه عليه يذكر المصيبة إذا أصابته وينسى النعم التي غطته إلا إذا آمن وعمل صالحًا.

٣ - بيان أن الإنسان يحب المال حبًا شديدًا إلا إذا هذّب بالإيمان وصالح الأعمال.

٤ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

❁ ❁ ❁

سورة القارعة
مكية
وآياتها إحدى عشرة آية

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ١١]

(١) ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝﴾: القيامة وسميت القارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها.

(٢) ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝﴾: أي أي شيء هي؟ فالاستفهام للتهويل من شأنها.

(٣) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝﴾: زيادة في تهويل أمرها وتعظيمه.

(٤) ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾: أي كغوغاء الجراد المنتشر يموج بعضهم في بعض.

(٥) ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾: أي كالصوف المندوف هذه حالها أولاً ثم تكون كثيبًا مهيلًا ثم تكون هباءً منبثًا.

(٧) ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾: أي يرضاها صاحبها في الجنة فهي مرضية له.

(٩) ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝﴾: أي مأواه ومسكنه الهاوية التي يهوي فيها على رأسه وهي النار.

(١١) ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝﴾: أي هي نار حامية.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝﴾[5] إلى آخر السورة الكريمة تضمنت آياتها الإحدى عشرة آية وصفًا لعقيدة البعث والجزاء التي كذب بها المشركون وأنكروها وبالغوا في إنكارها فأخبر تعالى أن القيامة التي تقرع الناس بأهوالها وعظائم ما يجري فيها بحيث ﴿يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾

---

(١) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء للتفريع، والمفعول محذوف لتذهب النفس في طلبه مذاهب تقديره: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ العذاب الذي هو جزاء الكفر والجحود والبخل.

(٢) ﴿حصل﴾ معناه جمع وأحصى أو جمع وعد ليحاسب العبد عليه.

(٣) ﴿بُعْثِرَ﴾ أي قلب من أسفل إلى علو، والمراد إحياء ما في القبور من الأموات.

(٤) هذه الجملة مستأنفة علة لتحقيق الجزاء وإثباته، ذلك الجزاء الذي يحصل يوم خروج الناس من قبورهم وحسابهم على أعمالهم.

(٥) ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مبتدأ (ما) اسم استفهام مبتدأ ثان ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ خبره والجملة خبر عن المبتدأ الأول والاستفهام للتهويل من شأنها والتفخيم لأمرها. وجملة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تضمنت استفهامًا آخر للتهويل من شأنها أيضًا كالتأكيد للأول والظرف ﴿يَوْمَ يَكُونُ﴾ مفعول فيه، أي تكون أو تحصل يوم يكون الناس كالفراش.

وهم أشرف الكائنات الأرضية يكونون في خفة أحلامهم وحيرة عقولهم ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ وهو غوغاء الجراد وتجمعه وتراكمه وانتشاره وهو يموج بعضه فوق بعض. ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ﴾ على رسوها وعلوها وضخامة ذواتها ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ أي كالصوف المندوف بالمنداف وهو يتطاير هنا وهناك. هذا في أول الأمر وقد تكون كالرمل المتهيل. ثم كالهباء المنبث فإذا بعثوا ووقفوا بين يدي ربهم لحسابهم ومجازاتهم.

(٦) ﴿مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي موازين حسناته فقد نجا من النار.

(٧) وهو ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي مرضية له وهو بها راض وكيف لا وهي الجنة دار النعيم المقيم.

(٨) ﴿مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي قلت حسناته وكثرت سيئاته أوْ لَمْ يكن له حسنة بالمرة كأهل الكفر والشرك.

(٩) ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝﴾[١] أي فأمه التي تضمه إليها وتؤويه عندها هاوية بحيث يهوي فيها على أم رأسه.

(١٠) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝﴾؟

(١١) أي هي ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝﴾[٢] هذا الاستفهام للتهويل من شأنها وهي كذلك لا أشد هولاً منها إنها النار دار البوار والخسران أعاذنا الله تعالى منها وعتق رقابنا منها اللهم آمين.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر صورة صادقة لها.

٢ - التحذير من أهوال يوم القيامة وعذاب الله تعالى فيها.

٣ - تقرير عقيدة وزن الأعمال صالحها وفاسدها وترتيب الجزاء عليها.

٤ - تقرير أن الناس يوم القيامة فريقان فريق في الجنة وفريق في السعير.

❁ ❁ ❁

سورة التكاثر
مكية
وآياتها ثماني آيات[٣]

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٨]

(١) ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: أي شغلكم عن طاعة الله تعالى. ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: أي التباهي بكثرة المال.

(٢) ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝﴾: أي تشاغلتم بجمع المال والتباهي بكثرته حتى متم ونقلتم إلى المقابر.

(٣) ﴿كَلَّا﴾: أي ما هكذا ينبغي أن تفعلوا فارتدعوا عن هذا التكاثر. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: أي إذا دخلتم قبوركم علمتم خطأكم في التكاثر في الأموال والأولاد.

(٤) ﴿كَلَّا﴾: أي حقًا.

(٥) ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾: أي علمًا يقينيًا عاقبة التكاثر لما تفاخرتم بكثرة أموالكم.

(٦) ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝﴾: أي النار.

(٨) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: أي يوم ترون الجحيم عين اليقين. ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾: أي تنعمتم به وتلذذتم من الصحة والفراغ والأمن والمطاعم والمشارب.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝﴾[٤] هذا خطاب الله تعالى للمشتغلين بجمع المال وتكثيره للمباهاة به والتفاخر الأمر الذي ألهاهم عن طاعة الله ورسوله فماتوا ولم

---

(١) سميت النار (أمًا) لأهلها لأنهم يؤوون إليها كما يأوي الابن إلى أمه قاله ابن زيد ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فالأرض مَعْقِلنا وكانت أمَّنا ... فيها مقابرنا وفيها نولد

(٢) في مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ناركم هذه التي يوقد ابن آدم، جزء من سبعين جزءًا من حر جهنم»** قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: **«فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلها مثل حرها»**.

(٣) إلا البخاري فإنه يرى أنها مدنية والصحيح أنها مكية ولعل البخاري تأثر بما رواه من أن النبي ﷺ قال لأبي بكر في بستان ابن تيهان: **«إن هذا من النعيم الذي تسألون عنه»**.

(٤) ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ شغلكم. قال امرؤ القيس:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذي تمائم محول

أي: شغلتها.

يقدموا لأنفسهم خيرًا فقال تعالى لهم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾[1] أي شغلكم، ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾، أي في الأموال للتفاخر بها والمباهاة بكثرتها.

(٢) ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي بعد موتكم نقلتم إليها لتبقوا فيها إلى أن تخرجوا منها للحساب والجزاء، أي يوم القيامة.

(٣) وقوله لهم: ﴿كَلَّا﴾ أي ما هكذا ينبغي أن تفعلوا فارتدعوا عن هذا السلوك المفضي بكم إلى الهلاك والخسران. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تشاغلكم عن طاعة الله وطاعة رسوله والتزود للدار الآخرة.

(٤) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ[2] تَعْلَمُونَ﴾ كرر الوعيد والتهديد.

(٥) وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾[3] أي[4] حقًا لو تعلمون ما تجدونه في قبوركم ويوم بعثكم ونشوركم لما تشاغلتم بالأموال وتكاثرتم فيها.

(٦) - (٧) وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا جواب قسم نحو وعزتنا لترون الجحيم أي النار وذلك يوم القيامة المشرك يراها ويصلاها والمؤمن يراها وينجيه الله تعالى منها. ثم لترونها عين اليقين، أي الأمر الذي لا شك فيه إذ يؤتى بجهنم فيراها أهل الموقف أجمعون.

(٨) وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم ترون الجحيم عين اليقين ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[5] الذي كان لكم في الدنيا من صحة وفراغ وأمن وطعام وشراب. فمن أدى شكره نجا، ومن لم يؤد شكره أخذ به ولا يعفى إلا عن ثوب يستر العورة وكسرة خبز تسد الجوعة وجحر يكن من الحر والبرد وقد صحّ أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وعمرو بن التيهان: «**هذا من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة يشير إلى بسر ورطب وماء بارد**» وصحّ أيضًا «**إنه لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن علمه ماذا عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه؟**».

هداية الآيات:

١ - التحذير من جمع المال وتكثيره مع عدم شكره وترك طاعة الله ورسوله من أجله.

٢ - إثبات عذاب القبر وتأكيده بقوله: حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون، أي في القبر.

٣ - تقرير عقيدة البعث وحتمية الجزاء بعد الحساب والاستنطاق والاستجواب.

٤ - حتمية سؤال العبد عن النعم التي أنعم الله تعالى عليه بها في الدنيا فإن كان شاكرًا لها فاز وإن كان كافرًا لها أخذ والعياذ بالله.

❀ ❀ ❀

سورة العصر
مكية
وآياتها ثلاث آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٣]

(١) ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾: أي الدهر كله.

(٢) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: أي جنس الإنسان كله. ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾: أي في نقصان وخسران إذ حياته هي رأس ماله فإذا مات ولم يؤمن ولم يعمل

---

(١) في صحيح مسلم عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت؟ أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس؟**» وروى البخاري قوله ﷺ: «**لو أن لابن آدم واديًا من ذهب لأحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**».

(٢) هذه الجملة توكيد للأولى وهي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ومفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ محذوف تقديره تعلمون سوء مغبة لهوكم بالتكاثر مشغولين عن طاعة الله ورسوله ﷺ مشغولين بجمع الأموال والتكاثر بها.

(٣) جواب ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ محذوف كما حذف الأول تقديره: لتبين لكم حال مفظع عظيم والإضافة في علم اليقين إضافة بيانية لأن اليقين علم.

(٤) وجائز أن تكون كلاهما كالأولى للردع والزجر وكونها بمعنى حقًا أولى.

(٥) اختلف في تحديد النعيم المذكور الذي نسأل عنه يوم القيامة فقيل له: الأمن والصحة وقيل: الصحة والفراغ، وقيل: شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن. وفي البخاري عن النبي ﷺ قال: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**».

صالحًا خسر كل الخسران.

(٣) ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾: أي أوصى بعضهم بعضًا باعتقاد الحق وقوله والعمل به. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾: أي أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على اعتقاد الحق وقوله والعمل به.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾[1] الآيات الثلاث تضمنت هذه الآيات حكمًا ومحكومًا عليه ومحكومًا به فالحكم هو ما حكم به تعالى على الإنسان[2] كل الإنسان من النقصان والخسران والمحكوم عليه هو الإنسان ابن آدم والمحكوم به هو الخسران لمن لم يؤمن ويعمل صالحًا والربح والنجاة من الخسران لمن آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ هو قسم أقسم الله به والعصر هو الدهر كله ليله ونهاره وصبحه ومساؤه.

(٢) وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي نقصان وهلكة وخسران إذ يعيش في كَبَدٍ ويموت إلى جهنم فيخسر كل شيء حتى نفسه التي بين جنبيه.

(٣) وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهؤلاء استثناهم الله تعالى من الخسر فهم رابحون غير خاسرين وذلك بدخولهم الجنة دار السعادة والمراد من الإيمان الإيمان بالله ورسوله وما جاء به رسوله من الهدى ودين الحق والمراد من العمل الصالح الفرائض والسنن والنوافل، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي باعتقاده وقوله والعمل به وذلك باتباع الكتاب والسنة، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3] أي أوصى بعضهم بعضًا بالحق اعتقادًا وقولاً و عملاً وبالصبر على ذلك حتى يموت أحدهم وهو يعتقد الحق ويقول به ويعمل بما جاء فيه فالإسلام حق والكتاب حق والرسول حق فهم بذلك يؤمنون ويعملون ويتواصون بالثبات على ذلك حتى الموت.

هداية الآيات:

١ - فضيلة سورة العصر لاشتمالها على طريق النجاة في ثلاث آيات حتى قال الإمام الشافعي لو ما أنزل الله تعالى على خلقه حجة إلا هذه السورة لكفتهم.

٢ - بيان مصير الإنسان الكافر وأنه الخسران التام.

٣- بيان فوز أهل الإيمان والعمل

الجزء الثلاثون — سُورَةُ العَصْرِ - الهُمَزَة - الفِيل

ترتيبها ١٠٣ — سُورَةُ العَصْرِ — آياتها ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

ترتيبها ١٠٤ — سُورَةُ الهُمَزَةِ — آياتها ٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

ترتيبها ١٠٥ — سُورَةُ الفِيلِ — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

٦٠١

الصالح المجتنبين للشرك والمعاصي.

٤ - وجوب التواصي بالحق والتواصي بالصبر بين المسلمين.

❊ ❊ ❊

سورة الهمزة
مكية
وآياتها تسع آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٩]

(١) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: كلمة يطلب بها العذاب وواد في

---

(١) ذكر أهل التفسير في تحديد كلمة العصر أقوالاً منها أنها صلاة العصر لأنها الصلاة الوسطى، ومنها عصر النبي ﷺ وما في التفسير أعم وأولى.

(٢) الإنسان: (أل) فيه لاستغراق الجنس إلا أنه خاص بالموجودين في زمن النزول للآية ومن بلغته الدعوة الإسلامية، أما من كانوا قبل نزول الآية وظهور الإسلام فلا يدخلون في عموم لفظ الإنسان ولو قيل بالعموم لكان حقًا أيضًا.

(٣) حقيقة الصبر منع المرء نفسه مما هو مناف لطاعة الله ورسوله ﷺ فعلاً أو تركًا.

جهنم الهمزة كثير الهمز واللمزة كذلك وهم الطعّانون المظهرون العيوب للإفساد.

(٢) ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾: أي أحصاه وأعده لحوادث الدهر.

(٣) ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝﴾: أي يجعله خالدًا في الحياة لا يموت.

(٤) ﴿كَلَّا﴾: أي ليس الأمر كما يزعم ويظن. ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: أي ليطرحن في الحطمة. ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾: أي النار التي تحطم كل ما يلقى فيها.

(٧) ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾: أي تشرف على القلوب فتحرقها.

(٨) ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: أي مغلقة مطبقة.

(٩) ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝﴾: أي يعذبون في النار بأعمدة ممددة.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝﴾[١] يتوعد الرب تبارك وتعالى بواد في جهنم يسيل بصديد أهل النار وقيوحهم كل همزة لمزة[٢] أي كل مغتاب عيّاب ممن يمشون بالنميمة ويبغون للبرآء العيب.

(٢) ـ (٣) وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝﴾ هذا وصف آخر لتلك الهمزة اللمزة وهو أنه ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ كثيرًا من حرام وحلال ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي أحصاه وعرف مقداره وأعده لحوادث الدهر كما يزعم. ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝﴾ أي يظن أنه لا يموت لكثرة أمواله ومتى كان المال ينجي من الموت؟ إنه الغرور في الحياة، لو كان المال يُخلد أحدًا لأخلد قارون.

(٤) وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾[٣] لا يخلده ماله بل وعزتنا وجلالنا ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾[٤] أي يطرحن ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ النار المستعرة التي تحطم كل ما يلقى فيها.

(٥) وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝﴾[٥] هذا الاستفهام لتعظيم أمرها وتهويل شأنها.

(٦) وبيّنها تعالى بقوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝﴾ أي المستعرة المتأججة.

(٧) ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝﴾ أي تشرف على القلوب فتحرقها.

(٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝﴾[٦] أي إن النار على أولئك الهمازين اللمازين مطبقة مغلقة الأبواب.

(٩) وقوله تعالى: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝﴾ أي يعذبون في النار بعمد ممددة، والله أعلم كيف يكون تعذيبهم[٧] بها إذ لم يطلعنا الله تعالى على كيفيته.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.
٢ - التحذير من الغيبة والنميمة.
٣ - التنديد بالمغترين بالأموال المعجبين بها.
٤ - بيان شدة عذاب النار وفظاعته.

❀ ❀ ❀

سورة الفيل
مكية
وآياتها خمس آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾: أي ألم ينته إلى علمك فعل ربك بأصحاب الفيل. ﴿بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ﴾:

---

(١) قال ابن عباس: هم المشّاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب.

(٢) قال عطاء بن أبي رباح: الهُمَزة الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل، واللُمَزة الذي يغتابه من خلفه إذا غاب. قال حسان:

همزتك فاختضعت بذل نفس ... بقافية تأجج كالشواظ

(٣) ﴿كَلَّا﴾ رد لما توهمه الكافر وردع له وزجر على اعتقاده وقوله، إذ كلاهما فاسد باطل.

(٤) اللام موطئة للقسم.

(٥) ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ دركة من درك النار قيل إنها الثانية وقيل الرابعة أو هي اسم من أسماء جهنم.

(٦) يقال: آصدت الباب إذا أغلقته. قال مجاهد ومنه قول الشاعر (الرقيات):

إن في القصر لو دخلنا غزالاً ... مصفقًا موصدًا عليه الحجاب

فمصفقًا وموصدًا بمعنى واحد وهو: مغلق.

(٧) ﴿فِى عَمَدٍ﴾ أي موثقين في عمد كما يوثق المسجون المغلظ عليه من رجليه في فلقة ذات ثقب يدخل في رجليه والعمد: اسم جمع عمود، والعمود خشبة والممددة المجعولة طويلة جدًا.

أي محمود وهي أكبرها ومعه اثنا عشر فيلًا وصاحبها أبرهة.

② ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾: أي في هدم الكعبة. ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾: أي في خسار وهلاك.

③ ﴿أَبَابِيلَ﴾: أي جماعات جماعات.

④ ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾: أي طين مطبوخ.

⑤ ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾: أي كورق زرع أكلته الدواب وداسته بأرجلها.

معنى الآيات:

① قوله تعالى: ﴿أَلَمْ[1] تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[2] إلى قوله: ﴿مَّأْكُولٍ﴾ هي خمس آيات تضمنت الحديث عن حادث جلل وقع أمام[3] ولادة النبي ﷺ وخلاصته أن أبرهة الأشرم والي اليمن من قبل ملك الحبشة قد رأى أن يبني بيتًا في صنعاء اليمن يدعو العرب إلى حجه بدل حجهم البيت الحرام والقصد من ذلك تحويل التجارة والمكاسب من مكة إلى اليمن وعرض هذا على الملك الحبشي فوافق وسره ذلك ولما بني البيت «الكنيسة» وسماها القُلَّيس لم يبن مثلها في تاريخها جاء رجل قرشي فتغوّط فيها ولطّخ جدرانها بالعذرة غَضَبًا منه، وذهب فلما رآها أبرهة الأشرم بتلك الحال استشاط غيظًا وجهز جيشًا لغزو مكة وهدم الكعبة وكان معه ثلاثة عشر فيلًا ومن بينها فيل يدعى محمود وهو أكبرها وساروا ما وقف في وجههم حي من أحياء العرب إلا قاتلوه وهزموه حتى انتهوا إلى قرب مكة وجرت سفارة بينهم وبين شيخ مكة عبدالمطلب بن هاشم جد النبي ﷺ وانتهت المفاوضات بأن يرد أبرهة إبل عبدالمطلب ثم هو وشأنه بالكعبة، وأمر رجال مكة أن يخلوا البلد ويلتحقوا برؤوس الجبال بنسائهم وأطفالهم خشية المعرة تلحقهم من الجيش الغازي والظالم، وما هي إلا أن تحرك جيش أبرهة ووصل إلى وادي محسر وهو في وسط الوادي سائر وإذا بفرق من الطير فرقة بعد أخرى ترسل على ذلك الجيش حجارة الواحدة ما بين الحمصة والعدسة في الحجم وما تسقط الحجرة على رجل إلا ذاب وتناثر لحمه فهلكوا وفر أبرهة ولحمه يتناثر فهلك في الطريق وكانت هذه نصرة من الله لسكان حرمه وحماة بيته ومن ثم ما زالت العرب تحترم الكعبة والحرم وسكانه إلى اليوم. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ يخاطب تعالى رسوله مذكرًا إياه بفعله الجبار في إهلاك الجبابرة فأين قوة ظلمة قريش كالعاص بن وائل وعمرو بن هشام والوليد وعقبة من قوة أبرهة وأبادها الله تعالى في ساعة فاصبر يا محمد ولا تحمل لهؤلاء الأعداء همًا فإن لهم ساعة فكانت السورة عبارة عن ذكرى للعظة والاعتبار. وهذا شرح الآيات ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ۝﴾ أي ألم ينته إلى علمك فعل ربك بأصحاب الفيل.

② ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ۝﴾ أي ألم يجعل ما كادوه لبيتنا وحرمنا في خسارة وضلال فلم يجنوا إلا الخزي والدمار.

③ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ۝﴾ أي جماعات جماعات كانت تشاهد وهي تخرج من البحر يشاهدها رجال مكة المعتصمون بقمم الجبال إذ تمر فوقهم وهي تحمل حجارة من سجيل[4] كل طائر يحمل ثلاثة أحجار كالحمصة والعدسة واحدة بمنقاره واثنتين بمخلبيه كل واحدة في مخلب ترميهم بها فتتفتت لحومهم وتتناثر فجعلهم كعصف مأكول، أي كزرع دخلته ماشية فأكلت عصفه أي ورقه وكسرت قائمه وهشمته فكانت آية من آيات الله تعالى.

---

(١) الاستفهام تقريري والمخاطب هنا رسول الله ﷺ بلا خلاف، و﴿كَيْفَ﴾ جائز أن تكون مجردة عن الاستفهام وهي في محل نصب على المفعول به لترى.

(٢) الفيل أنثاه فيلة ويجمع على أفيال وفيول وفيلة، وصاحبه فيال.

(٣) إذ ولد ﷺ عام الفيل أي بعد حادثة الفيل بخمسين يومًا.

(٤) حجارة من طين طبخت من نار جهنم و﴿سِجِّيلٍ﴾ أصلها سجين بالنون فأبدلت لامًا كما أبدلت في أصيلان بأصيلال. قال الشاعر:

ورَجْلَة يضربون البيضَ عن عُرُض ضربًا تواصت به الأبطال سجينا

هداية الآيات:

١ ـ تسلية رسول الله ﷺ عما يلاقيه من ظلم كفار قريش.

٢ ـ تذكير قريش بفعل الله عز وجل تخويفًا لهم وترهيبًا.

٣ ـ مظاهر قدرة الله تعالى في تدبيره لخلقه وبطشه بأعدائه.

❁ ❁ ❁

سورة قريش
مكية
وآياتها أربع آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٤]

(١) ﴿لِإِيلَٰفِ﴾: الإيلاف مصدر آلف الشيء يؤالفه إيلافًا إذا اعتاده وزالت الكلفة عنه والنفرة منه.

﴿قُرَيْشٍ﴾[1]: هم ولد النضر بن كنانة وهم قبائل شتى.

(٢) ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ﴾: أي إلى اليمن. ﴿وَٱلصَّيْفِ﴾: أي إلى الشام.

(٣) ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾: أي إن لم يعبدوا الله لسائر نعمه فليعبدوه لتحبيب هاتين الرحلتين إليهم. ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾: أي مالك البيت الحرام وربّ كل شيء.

(٤) ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾: أي من أجل البيت الحرام. ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾: أي من أجل البيت الحرام.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝﴾[2] هذا الجار والمجرور متعلق بكلام قبله وهو فعلت ما فعلت بأصحاب الفيل لإيلاف قريش رحلتيهم، أو أعجبوا لإيلاف قريش رحلتهم والرحلتان هما رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام وذلك للاتجار وجلب الأرزاق إلى بلادهم التي ليست هي بذات زرع ولا صناعة فإيلافهم هاتين الرحلتين كان بتدبير الله تعالى ليعيش سكان حرمه وبلده في رغد من العيش فهي نعمة من نعم الله تعالى وعليه

(٣) ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾[3] بما هيأ لهم من أسباب.

(٤) ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ كذلك ولم يعدلون عن عبادته إلى عبادة الأصنام والأوثان فالله أحق أن يعبدوه إذ هو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف بما ألقى في قلوب العرب من احترام الحرم وسكانه وتعظيمه وتعظيمهم فتمكنوا من السفر إلى خارج بلادهم والعودة إليها في أمن وطمأنينة. قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي لقريش تقوم مصالحهم عليها لما ألقى في قلوب العرب[4] من تعظيم واحترام أهله.

---

(١) قريش: لقب الجد الذي يجمع بطون قريش كافة وهو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. وأما ما فوق فهر فهم من كنانة ولقب بقريش تصغير قرش بفتح القاف وسكون الراء والنسبة إليه قرشي وهل اشتقاق قرش من التقريش الذي هو الاكتساب أو التجمع أو نسبة إلى القرش وهو سمكة بحرية قوية والنسبة إلى قرش قرشي وقريش تصرف إن أريد الحي وتمنع إن أريد القبيلة، ورجح القرطبي أن يكون قريش بن النضر بن كنانة. فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي ورجحه للحديث: «**إنا ولد النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا**» وبالتأمل لا توجد منافاة إذ قبائل قريش تعود إلى النضر بن كنانة.

(٢) الإيلاف: مصدر آلف يؤلف إيلافًا. قال الشاعر:

المنعمين إذ النجوم تغيرت ... والظاعنين لرحلة الإيلاف

وأما ألفه يألفه إلفًا وإلافًا، فقد قرأ به أبو جعفر لإلف قريش، وقد جمع بين المصدرين الشاعر في قوله:

أزعمتم أن إخوتكم قريش ... لهم إلف وليس لكم إلاف

ولام الجر في متعلقها ثلاثة احتمالات ذكر في التفسير منها اثنان، والثالث أنها متعلقة بـ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ كأنه قال: آلف الله قريشًا إيلافًا ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ ويقدر شرط محذوف أي إذا كان الأمر كذلك فليعبدوا، ويرجح الأول لمصحف أبيّ بن كعب، إذ لم يفصل فيه بين السورتين. وكذا قراءة عمر إذ صلى المغرب يومًا فقرأ في الأولى بالتين وفي الثانية بالفيل وقريش ولم يفصل بينهما بالبسملة، ولا مانع منه وهو أوضح.

(٣) إنما هي استجابة الله دعوة إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

(٤) مصداق قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

هداية الآيات:

١ ـ مظاهر تدبير الله تعالى وحكمته ورحمته فسبحانه من إله حكيم رحيم.

٢ ـ بيان إفضال الله تعالى على قريش وإنعامه عليها الأمر الذي تطلّب شكرها ولم تشكر فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بتركها للشكر.

٣ ـ وجوب عبادة الله تعالى وترك عبادة من سواه.

٤ ـ وجوب الشكر على النعم وشكرها حمدًا لله تعالى عليها والثناء عليه بها وصرفها في مرضاته.

٥ ـ الإطعام من الجوع والتأمين من الخوف عليهما مدار كامل أجهزة الدولة فأرقى الدول اليوم وقبل اليوم لم تستطع أن تحقق لشعوبها هاتين النعمتين نعمة العيش الرغد والأمن التام.

❁ ❁ ❁

سورة الماعون
مكية الأوائل مدنية الأواخر وآياتها تسع آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٧]

(١) ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾: أي هل عرفته والدين ثواب الله وعقابه يوم القيامة.

(٢) ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾: أي فهو ذلك الذي يدفع اليتيم عن حقه بعنف. ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: أي لا يحض نفسه ولا غيره على إطعام المساكين.

(٤) ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾: أي العذاب الشديد للمصلين الساهين عن صلاتهم.

(٥) ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: أي يؤخرونها عن أوقاتها.

(٦) ﴿يُرَآءُونَ﴾: أي يراءون بصلاتهم وأعمالهم الناس فلم يخلصوا لله تعالى في ذلك.

(٧) ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾: أي لا يعطون من سألهم ماعونًا كالإبرة والقدر والمنجل ونحوه مما ينتفع به ويرد بعينه كسائر الأدوات المنزلية.

ترتيبها ١٠٦ — سُورَةُ قُرَيْشٍ — آياتها ٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

ترتيبها ١٠٧ — سُورَةُ المَاعُونِ — آياتها ٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

ترتيبها ١٠٨ — سُورَةُ الكَوْثَرِ — آياتها ٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

معنى الآيات:

(١) ـ (٣) قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ[1] ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ[2] ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ هذه الآيات الثلاث نزلت بمكة في العاص بن وائل والوليد بن المغيرة وأضرابهم من عتاة قريش وكفارها فهذه الآيات تُعرِّض بهم وتندد بسلوكهم وتوعدهم فقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا رسولنا الذي يكذب بالدين وهو الجزاء في الآخرة على الحسنات والسيئات فهو ذاك الذي يدع اليتيم أي يدفعه بعنف عن حقه ولا يعطيه إياه احتقارًا له وتكبرًا عليه ولا يحض على طعام المسكين أي ولا يحث ولا يحض نفسه ولا غيره على إطعام الفقراء والمساكين وذلك ناتج عن عدم إيمانه بالدين أي بالحساب والجزاء في الدار الآخرة وهذه صفة

---

(١) الاستفهام للتعجب هنا من حال المكذبين بالجزاء وما أورثهم التكذيب من سوء الصنيع. قرأ نافع ﴿أرايت﴾ بتسهيل الهمزة بعد الراء ألفًا وحققها حفص والجمهور.

(٢) في الكلام حذف تقديره ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ أمصيب هو أم مخطيء؟ والجواب قطعًا مخطيء وخطأه كفره وشركه وعداوته للإسلام ونبيه ﷺ وأهله وجزاؤه سيكون جحيمًا وعذابًا أليمًا، وإذا كان هذا العذاب بسبب كفره وأذاه للمؤمنين إذًا فويل للمنافقين المصلين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ الذين يراؤون ويمنعون الماعون لظلمة قلوبهم بالكفر والشرك الذي يخفونه.

كل ظالم مانع للحق لا يرحم ولا يشفق إذ لو آمن بالجزاء في الدار الآخرة لعمل لها بترك الشر وفعل الخير فمن أراد أن يرى مكذبًا بالدين فإنه يراه في الظلمة المعتدين القساة القلوب الذين لا يرحمون ولا يعطون ولا يحسنون.

(٤) - (٧) وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝﴾ هذه الآيات الأربع نزلت في بعض منافقي المدينة النبوية فلذا نصف السورة مكي ونصفها مدني.

(٤) - (٥) وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝[1] الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ هذا وعيد شديد لهم إذ الويل واد في جهنم يسيل من صديد أهل النار وقيوحهم وهو أشد العذاب إذ كانوا يغمسون فيه أو يطعمون ويشربون منه. ومعنى عن صلاتهم ساهون إنهم غافلون عنها لا يذكرونها فكثيرًا ما تفوتهم ويخرج وقتها وأغلب حالهم أنهم لا يصلونها إلا عند قرب خروج وقتها هذا وصف وآخر أنهم ﴿يُرَاءُونَ﴾ بصلاتهم وبكل أعمالهم أي يصلون وينفقون ليراهم المؤمنون فيقولون إنهم مؤمنون وبالمراءاة يدرءون عن أنفسهم القتل والسبي.

(٧) وثالث أنهم ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝﴾ فإذا استعارهم مؤمن ماعونًا للحاجة به لا يعيرون ويعتذرون بمعاذير باطلة فلا يعيرون فأسًا ولا منجلاً ولا قدرًا ولا أية آنية أو ماعون لأنهم يبغضون المؤمنين ولا يريدون أن ينفعوهم بشيء فيحرمونهم من إعارة شيء ينتفعون به ويردونه عليهم.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ - أيما قلب خلا من عقيدة البعث والجزاء إلا وصاحبه شر الخلق لا خير فيه البتة.

٣ - التنديد بالذين يأكلون أموال اليتامى ويدفعونهم عن حقوقهم استصغارًا لهم واحتقارًا.

٤ - التنديد والوعيد للذين يتهاونون بالصلاة ولا يبالون في أي وقت صلوها وهو من علامات النفاق والعياذ بالله.

٥ - منع الماعون من صفات المنافقين والمانع لما المسلمون في حاجة إليه ليس منهم لحديث «**من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم فكيف بالذي يمنعهم ما هو فضل عنده وهم في حاجة إليه؟**».

❁ ❁ ❁

سورة الكوثر[2]
مكية
وآياتها ثلاث آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ - ٣]

(١) ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾: أي إنا ربُّ العزة والجلال وهبناك يا نبينا الكوثر أي نهرًا في الجنة.

(٢) ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝﴾: أي فاشكر ذلك بصلاتك لربك المنعم عليك وحده وانحر له وحده.

(٣) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾: أي مبغضك. ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾: أي الأقل الأذل المنقطع عقبه.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝[3] فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ هذه الآيات الثلاث مختصة برسول الله ﷺ إذ هو المخاطب بها وأنها تحمل طابع التعزية لرسول الله ﷺ فقد روي أنه لما مات ابن النبي ﷺ القاسم قال العاص بن وائل السهمي: بتر محمد

---

(١) الفاء للتفريع والترتيب والتسبب. والسؤال: على أي شيء تفرع ما بعدها على ما قبلها، والآيات نزلت بالمدينة في المنافقين وما قبلها نزل في المشركين في مكة؟ والجواب تقدم.

(٢) وتسمى سورة النحر.

(٣) روى مسلم عن أنس بن مالك قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه وقال: «**أنزلت علي آنفًا سورة**» فقرأ: «بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾»، ثم قال: «**أتدرون مَن الكوثر؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة**» وظاهر هذه الرواية أن سورة الكوثر مدنية ولا مانع من نزولها مرتين مرة بمكة وأخرى بالمدينة.

أو هو أبتر أي لا عقب له بعده فأنزل الله تعالى هذه السورة تحمل الرد على العاص والتعزية للرسول ﷺ والبشرى له ولأمته بالكوثر الذي هو نهر في الجنة حافتاه من الذهب ومجراه على الدر والياقوت وتربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج، ومن الكوثر يملأ الحوض الذي في عرصات القيامة ولا يرده إلا الصالحون من أمته ﷺ. فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ أي خصصناك بالكوثر[1] الذي هو نهر في[2] الجنة من أعظم أنهارها مع الخير الكثير الذي وهبه الله تعالى لك من النبوة والدين الحق ورفع الذكر والمقام المحمود.

(٢) وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝﴾[3] أي فاشكر هذا الإنعام بأن تصلي لربك وحده ولا تشرك به غيره وكذا النحر فلا تذبح لغيره تعالى وفي هذا تعليم لأمته وهل المراد من الصلاة صلاة العيد والنحر الأضحية لا مانع من دخول هذا في سائر الصلوات والنسك.

(٣) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾[4]، أي إن مبغضك في كل زمان ومكان هو الأقل الأذل المنقطع النسل والعقب.

هداية الآيات:

١ - بيان إكرام الله تعالى لرسوله محمد ﷺ.

٢ - تأكيد أحاديث الكوثر وأنه نهر في الجنة.

٣ - وجوب الإخلاص في العبادات كلها لا سيما الصلاة والنحر.

٤ - مشروعية الدعاء على الظالم.

❁ ❁ ❁

سورة الكافرون
مكية
وآياتها ست آيات

الجزء الثلاثون — سُورَةُ الكَافِرُونَ-النَّصْرِ-المَسَدِ

ترتيبها ١٠٩ — سُورَةُ الكَافِرُونَ — آياتها ٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦

ترتيبها ١١٠ — سُورَةُ النَّصْرِ — آياتها ٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣

ترتيبها ١١١ — سُورَةُ المَسَدِ — آياتها ٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥

٦٠٣

شرح الكلمات:
[الآية: ١ ـ ٦]

(١) ﴿قُلْ﴾: أي يا رسول الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: أي المشركون وهم الوليد والعاص وابن خلف والأسود بن المطلب.

(٢) ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝﴾: أي من الآلهة الباطلة الآن.

(٣) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝﴾: أي الآن.

(٤) ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝﴾: أي في المستقبل أبدًا.

(٥) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝﴾: أي في المستقبل أبدًا

---

(١) لفظ ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ يطلق عربيّة على الخير الكثير كما هي صيغة فوعل نحو النوفل من النفل والجوهر من الجهر والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقدر كوثرًا والكوثر الذي أعطيه النبي ﷺ نهر في الجنة كما في البخاري، والنبوة والكتاب والعلم والحكمة.

(٢) في حديث البخاري «**دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أظفر قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك الله عز وجل**».

(٣) في الآية دليل على وجوب تقديم صلاة العيد على النحر وهو ما عليه جمهور الفقهاء، وجائز أن يكون المراد من ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝﴾ أي صل صلاة الصبح بمزدلفة وانحر هديك بمنى.

(٤) ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ حقيقته: المقطوع بعضه وغلب على المقطوع ذنبه من الدواب ويستعار لمن نقص منه ما هو من الخير في نظر الناس تشبيه بالدواب المقطوع أذنابها ومنه الخطبة البتراء التي لم يحمد فيها الله ولم يُصلَّ فيها على نبيه محمد ﷺ.

لعلم الله تعالى بذلك.
(٦) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾: أي ما أنتم عليه من الوثنية سوف لا تتركونها أبدًا حتى تهلكوا. ﴿وَلِيَ دِينِ﴾: أي الإسلام فلا أتركه أبدًا.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[(١)] الآيات الست الكريمات نزلت ردًا على اقتراح تقدم به بعض المشركين وهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب وأمية بن خلف مفاده أن يعبد النبي ﷺ معهم آلهتهم سنة ويعبدون معه إلهه سنة مصالحة بينهم وبينه وإنهاء للخصومات في نظرهم، ولم يجبهم الرسول ﷺ بشيء حتى نزلت هذه السورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ أي قل يا رسولنا لهؤلاء المقترحين الباطل يا أيها الكافرون بالوحي الإلهي وبالتوحيد المشركون في عبادة الله تعالى أصنامًا وأوثانًا.
(٢) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[(٢)] الآن كما اقترحتم.
(٣) ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ﴾ الآن ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ لما قضاه الله لكم بذلك.
(٤) ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ في المستقبل أبدًا.
(٥) ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ في المستقبل أبدًا لأن ربي حكم فيكم بالموت على الكفر والشرك حتى تدخلوا النار لما علمه من قلوبكم وأحوالكم وقبح سلوككم وفساد أعمالكم.
(٦) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ لا أتابعكم عليه ﴿وَلِيَ دِينِ﴾[(٣)] لا تتابعونني عليه. بهذا أيأس الله رسوله من إيمان هذه الجماعة التي كان النبي ﷺ يطمع في إيمانهم وأيأس المشركين من الطمع في موافقة الرسول ﷺ على مقترحهم الفاسد، وقد هلك هؤلاء المشركون على الكفر فلم يؤمن منهم أحد فمنهم من هلك في بدر ومنهم من هلك في مكة على الكفر والشرك وصدق الله العظيم فيما أخبر به عنهم أنهم لا يعبدون الله عبادة تنجيهم من عذابه وتدخلهم رحمته.

هداية الآيات:

١ - تقرير عقيدة القضاء والقدر وأن الكافر من كفر أزلاً والمؤمن من آمن أزلاً.
٢ - ولاية الله تعالى لرسوله عصمته من قبول اقتراح المشركين الباطل.
٣ - تقرير وجود المفاصلة بين أهل الإيمان وأهل الكفر والشرك.

❊ ❊ ❊

سورة النصر
مدنية
وآياتها ثلاث آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٣]

(١) ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾: أي نصر الله نبيه محمدًا ﷺ على أعدائه المشركين. ﴿وَالْفَتْحُ﴾: أي فتح مكة.
(٢) ﴿فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾: أي في الإسلام جماعات جماعات.
(٣) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: أي نزهه عن الشريك ملتبسًا بحمده. ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾: أي أطلب منه المغفرة توبة منك إليه.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ﴾[(٤)]

---

(١) ورد في فضل هذه السورة أنها تعدل ربع القرآن كسورة الزلزلة والنصر، وصحّ عن النبي ﷺ أنه كان يقرؤها في الشفع في الركعة الثانية ويقرأ في الأولى بالأعلى، وصحّ أنه كان يقرأ بها وبالصمد في ركعتي الطواف.

(٢) التكرار الموجود في الآية المراد منه التأكيد الذي يحمل المقترحين على اليأس من قبول الرسول ﷺ اقتراحهم بعبادة آلهتهم معهم سنة وهذا التكرار وارد في سورة الرحمٰن وسورة المرسلات، والتكرار شائع في لغة العرب، من ذلك قول الرسول ﷺ: **«فلا آذن ثم لا آذن إنما فاطمة بضعة مني»** (مسلم) وقال الشاعر:

يا لبكر انشروا لي كليبًا ... يا لبكر أين أين الفرار

وقال آخر:

يا عَلْقمة يا علقمة يا علقمة ... خيرَ تَميم كلها وأكرمه

(٣) حذفت ياء الضمير تخفيفًا من ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ وبه قرأ جمهور القراء.

(٤) الإجماع على أن آخر سورة نزلت جميعًا هي سورة النصر هذه، قاله ابن عباس كما في صحيح مسلم.

نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ (١) الآيات الثلاث المباركات نزلت في أخريات أيام الرسول ﷺ وهي تحمل علامة للنبي ﷺ على قرب أجله فقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي لك يا رسولنا فأصبحت تنتصر على أعدائك في كل معركة تخوضها معهم وجاءك الفتح فتح مكة ففتحها الله عليك وأصبحت دار إسلام بعد أن كانت دار كفر (٢).

② ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ﴾ من سكان اليمن وغيرهم ﴿يَدۡخُلُونَ فِي﴾ دينك الدين الإسلامي ﴿أَفۡوَاجٗا﴾ وجماعات جماعة بعد أخرى بعد أن كانوا يدخلون فرادى واحدًا واحدًا وهم خائفون إذا تم هذا ورأيته.

③ ﴿فَسَبِّحۡ (٣) بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ شكرًا له على نعمة النصر والفتح ودخول الناس في دينك وانتهاء دين المشركين الباطل. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ أي اطلب منه المغفرة لما فرط منك مما هو ذنب في حقك لقربك وكمال علمك وأما غيرك فليس هو بالذنب الذي يُسْتَغْفَرُ منه ويُتَابُ إلى الله تعالى منه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ أي إن الله تعالى الذي أمرك بالاستغفار توبة إليه كان توابًا على عباده يقبل توبتهم فيغفر ذنوبهم ويرحمهم.

هداية الآيات:

١ - مشروعية نعي الميت إلى أهله ولكن بدون إعلان وصوت عال.

٢ - وجوب الشكر عند تحقق النعمة ومن ذلك سجدة الشكر.

٣ - مشروعية قول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي في الركوع.

❁ ❁ ❁

سورة المسد
مكية
وآياتها خمس آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٥]

① ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾: أي خسرت يدا أبي لهب بن عبدالمطلب أي خسر عمله. ﴿وَتَبَّ﴾: أي خسر هو بذاته إذ هو من أهل النار.

② ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾: أي أي شيء أغنى عنه ماله لما سخط الله تعالى عليه وعذبه في الدنيا والآخرة. ﴿وَمَا كَسَبَ﴾: أي من المال والولد وغيرها.

③ ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا﴾: أي يدخل نارًا يصطلي بحرها ولفحها. ﴿ذَاتَ لَهَبٖ﴾: أي توقد واشتعال.

④ ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾: أي أم جميل العوراء. ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾: أي تحمل شوك السعدان وتلقيه في طريق النبي ﷺ أذية له وكرهًا.

⑤ ﴿فِي جِيدِهَا﴾: أي في عنقها. ﴿حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾: أي من ليف.

معنى الآيات:

① قوله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ الآيات الخمس المباركات نزلت ردًا على أبي لهب عم النبي ﷺ إذ صح أنه لما نزلت آية ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ من سورة الشعراء طلع ﷺ إلى جبل الصفا ونادى: **«واصباحاه واصباحاه»** فاجتمع الناس حوله فقال لهم: **«إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد: قولوا لا إله إلا الله كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»** فنطق أبو لهب فقال: ألهذا جمعتنا تبًا لك

---

(١) النصر: العون مأخوذ من قولهم نصر الغيث الأرض إذا أعان نباتها ومنع من قحطها. قال الشاعر:

إذا انسلخ الشهر الحرام فودعي … بلاد تميم وانصري أرض عامر

(٢) روي أن العرب قالت: أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان، فكانوا يسلمون أفواجًا أمة أمة، والأمة أربعون رجلًا.

(٣) روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. قالت: فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، قال: **«خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾** إلخ..
وصحّ أنه كان ﷺ يقول في ركوعه: **«سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي»**.

(٤) صح أنه لما سمعت امرأة أبي لهب ما نزل فيها وزوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله عنه وفي يدها فهر من حجارة فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر،

طول اليوم، فأنزل[1] الله تعالى ردًا عليه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[2] أي خسر أبو لهب وخسر كل شيء له وهذه جملة دعائية ولذا هلك بمرض[3] خطير لم يتمكنوا من غسله فأراقوا عليه الماء فقط، وقوله: ﴿وَتَبَّ﴾ إخبار من الله تعالى بهلاك عبدالعزى أبي لهب.

(٢) وقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[4] أي لما سخطه عليه وأدخله ناره لم يغن عنه أي لم يدفع عنه العذاب ماله ولا ولده.

(٣) وقوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي توقّدٍ وتأجّج.

(٤) ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ أم جميل العوراء ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[5] حيث كانت تأتي بشوك السعدان وتضعه في طريق النبي ﷺ عند ذهابه إلى صلاة الصبح بالمسجد الحرام.

(٥) وقوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي في عنقها[6] حبل من ليف النخل أو مسد شجر الدوم بهذا حكم الله تعالى على أعدائه وأعداء رسوله ﷺ.

هداية الآيات:

١ - بيان حكم الله بهلاك أبي لهب وإبطال كيده الذي كان يكيده لرسول الله ﷺ.

٢ - لا يغني المال ولا الولد عن العبد شيئًا من عذاب الله إذا عمل بمساخطه وترك مراضيه.

٣ - حرمة أذية المؤمنين مطلقًا.

٤ - عدم إغناء القرابة شيئًا مع الشرك والكفر إذ أبو لهب عم النبي ﷺ وهو في النار ذات اللهب.

❁ ❁ ❁

سورة الإخلاص
مكية
وآياتها أربع آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٤]

(١) ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: أي قل لمن سألك يا نبينا عن ربك هو الله أحد.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: أي الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، الصمد: السيد الذي يصمد إليه في الحوائج. فهو المقصود في قضاء الحوائج على الدوام.

(٣) ﴿لَمْ يَلِدْ﴾: أي لا يفنى إذ لا شيء يلد إلا وهو فانٍ بائدٌ لا محالة. ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾: أي ليس بمحدث بأن لم يكن فكان فهو كائن أولاً وأبدًا.

= فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك قد بلغني أنه يهجوني. والله لو وجدته لضربته بهذا الفهر، والله إني لشاعرة: مذممًا عصينا وأمره أبينا، ثم انصرفت فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ قال: ما رآتني لقد أخذ الله بصرها عني.

(١) سمي أبو لهب بأبي لهب وكان اسمه عبدالعزى فسمي باللهب لحسنه وإشراق وجهه. وقال العلماء: سمي بأبي لهب لمعانٍ أربع والذي أراه أنه سمي بقضاء وقدر أبا لهب ليكون من أهل النار نظيره اختيار الشيوعيين اليوم شعار الحمرة، وكلمة اليسار، لما سبق أنهم أهل النار وأصحاب الشمال وهم أهل النار.

(٢) يسمى المرض الذي أصابه الله به مرض العدسة فمات وأقام ثلاثة أيام لم يدفن حتى أنتن، ثم إن ولده غسلوه بالماء من بعيد مخافة عدوى العدسة! إذ كانت العرب تتقي هذا المرض كما يتقى الطاعون.

(٣) الكسب يكون حلالاً ويكون حرامًا وخيره ما كان حلالاً، وفي الصحيح حديث عائشة رضي الله عنها إذ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه»** رواه أبو داود.

(٤) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: كانت تمشي بالنميمة بين الناس، تقول العرب: فلان يحطب على فلان إذا ورش عليه أي حرش. قال الشاعر:

إن بني الأدرم حَمَّالو الحطب ... هم الوشاة في الرضا وفي الغضب

ولا منافاة مع ما روي أنها كانت تحمل حزمة الشوك إذ هي تفعل هذا أو ذاك.

(٥) الجيد: العنق شاهده قول الشاعر:

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش ... إذا هي نصته ولا بمعطل

الريم: الظبي الأبيض الخالص البياض. ونصته: رفعته، والمعطل: الذي لا حلي عليه.

(٤) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾: أي لم يكن أحد شبيه له أو مثيل إذ ليس كمثله شيء.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] الآيات الأربع المباركات نزلت جوابًا لمن قالوا للرسول ﷺ من المشركين انسب[2] لنا ربك أو صفه لنا فقال تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل، أي لمن سألوك ذلك، هو الله أحد[3] الله الصمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، أي ربي هو الله أي الإله الذي لا تنبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة إلا له أحد في ذاته وصفاته وأفعاله فليس له نظير ولا مثيل في ذلك إذ هو خالق الكل ومالك الجميع فلن تكون المحدثات المخلوقات كخالقها ومحدثها الله أي المعبود الذي لا معبود بحق إلا هو، الصمد أي السيد المقصود في قضاء الحوائج الذي استغنى عن كل خلقه وافتقر الكل إليه، لم يلد، أي لم يكن له ولد لانتفاء من يجانسه إذ الولد يجانس والده، والمجانسة منفية عنه تعالى إذ ليس كمثله شيء، ولم يولد لانتفاء الحدوث عنه تعالى.

(٤) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[4] أي ولم يكن أحد كفوًا له ولا مثيلاً ولا نظيرًا أو لا شبيهًا إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فلذا هو يعرف بالأحدية والصمدية فالأحدية هو أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله لم يكن له كفو ولا شبيه ولا نظير والصمدية هي أنه المستغني عن كل ما سواه والمفتقر إليه في وجوده وبقائه كل ما عداه كما يعرف بأسمائه وصفاته وآياته.

هداية الآيات:

١ ـ معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته.

٢ ـ تقرير التوحيد والنبوة.

٣ ـ بطلان نسبة الولد إلى الله تعالى.

٤ ـ وجوب عبادته تعالى وحده لا شريك له فيها، إذ هو الله ذو الألوهية على خلقه دون سواه.

الجزء الثلاثون — سُورَةُ الإِخْلَاصِ-الفَلَقِ-النَّاسِ

ترتيبها ١١٢	سُورَةُ الإِخْلَاصِ	آياتها ٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

ترتيبها ١١٣	سُورَةُ الفَلَقِ	آياتها ٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

ترتيبها ١١٤	سُورَةُ النَّاسِ	آياتها ٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

٦٠٤

سورة الفلق
مدنية
وآياتها خمس آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٥]

(١) ﴿أَعُوذُ﴾: أي أستجير وأتحصن. ﴿ٱلْفَلَقِ﴾: أي الصبح.

(٢) ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾: من حيوان وجماد.

---

(١) ورد في فضل السورة أنها تعدل ثلث القرآن. رواه البخاري، وروى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختتم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: **«سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟»** فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمٰن فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: **«أخبروه أن الله عز وجل يحبه»**.

(٢) روى الترمذي عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

(٣) أحد أصلها وحد قلبت الواو فيها همزة، قال النابغة:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا ... بذي الجليل على مستأنس وحد

وأحد مرفوع على أنه خبر لمبتدأ تقديره هو أحد و﴿هُوَ﴾ ضمير شأن أي المسؤول عنه هو الله أحد.

(٤) قرأ نافع ﴿كفؤًا﴾ مهموزًا وقرأ حفص ﴿كُفُوًا﴾ بإبدال الهمزة واوًا تخفيفًا.

③ ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: أي الليل إذا أظلم أو القمر إذا غاب.

④ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾: أي السواحر اللاتي ينفثن. ﴿فِى ٱلْعُقَدِ﴾: أي في العقد التي يعقدنها.

⑤ ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾: أي إذا أظهر حسده وأعمله.

معنى الآيات:

① قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝﴾[1] أنه لما سحر لبيد بن معصم[2] اليهودي بالمدينة النبي ﷺ أنزل تعالى المعوذتين فرقاه بهما جبريل فشفاه الله تعالى ولذا فالسورتان مدنيتان. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝﴾ أي قل يا رسولنا أعوذ أي أستجير وأتحصن برب الفلق وهو الله عز وجل إذ هو فالق الإصباح وفالق الحب والنوى ولا يقدر على ذلك إلا هو لعظيم قدرته وسعة علمه.

② ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾ أي من شر ما خلق تعالى من الكائنات من حيوان مكلف كالإنسان وغير مكلف كسائر الحيوانات ومن الجمادات أي من شر كل ذي شر منها ومن سائر المخلوقات.

③ وقوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝﴾ أي الليل إذا أظلم والقمر[3] إذا غاب إذ الظلام بدخول الليل أو بغياب القمر يكون مظنة خروج الحيات السامة والحيوانات المفترسة والجماعات المتلصصة للسطو والسرقة وابتغاء الشر والفساد.

④ وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝﴾ أي وتعوذ بالله برب الفلق من شر السواحر وهن النساء اللاتي ينفثن في كل عقدة يرقين عليها ويعقدنها والنفث هي إخراج هواء من الفم بدون ريق ولذا ورد من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر.

⑤ وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ[4] إِذَا حَسَدَ﴾[5] أي وتعوذ برب الفلق من شر حاسد أي من الناس إذا حسد أي أظهر حسده فابتغاك بضر أو أرادك بشر أو طلبك بسوء بحسده لك لأن الحسد طلب زوال النعمة عن المحسود وسواء أرادها له أو لم يردها وهو شر الحسد.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب التعوذ بالله والاستعاذة بجنابه تعالى من كل مخوف لا يقدر المرء على دفعه لخفائه أو عدم القدرة عليه.

٢ ـ تحريم النفث في العقد إذ هو من السحر. والسحر كفر وحد الساحر ضربة بالسيف.

٣ ـ تحريم الحسد قطعيًا وهو داء خطير حمل ابن آدم على قتل أخيه وحمل إخوة يوسف على الكيد له.

٤ ـ الغبطة ليست من الحسد لحديث الصحيح «**لا حسد إلا في اثنين**» إذ المراد به الغبطة.

❀ ❀ ❀

سورة الناس
مدنية
وآياتها ست آيات

شرح الكلمات:

[الآية: ١ ـ ٦]

① ﴿أَعُوذُ﴾: أي أتحصن

(١) هذه أولى المعوذتين والثانية الناس وقبلهما الصمد قال فيهن رسول الله ﷺ: «**لم يتعوذ الناس بمثلهن**» وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها.

(٢) حديث سحر لبيد بن الأعصم اليهودي للنبي ﷺ ثابت في الصحيح وغيرهما. ومما رقى به جبريل النبي ﷺ قوله: «**بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر حاسد وعين والله يشفيك**».

(٣) روى الترمذي وصححه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال: «**يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فإن هذا هو الغاسق إذا وقب**».

(٤) روى النسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئًا وكل إليه**» لهذا كره بعض السلف النفث في الرقية وقالوا: يرقي ولا ينفث، والجمهور على الجواز.

(٥) الحسد حرام وهو أول ذنب عُصيَ به الله تعالى إذ حسد إبليس آدم وحسد قابيل هابيل، وحقيقته تمني زوال النعمة على الغير لتحصل له، أو لا تحصل، وهو شر الحسد.

وأستجير. ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾: أي خالقهم ومالكهم.

(٢) ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝﴾: أي سيد الناس ومالكهم وحاكمهم.

(٣) ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝﴾: أي معبود الناس بحق إذ لا معبود سواه.

(٤) ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾: أي من شر الشيطان سمي بالمصدر لكثرة ملابسته له. ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: أي الذي يخنس ويتأخر عن القلب عند ذكر الله تعالى.

(٥) ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾: أي في قلوبهم إذا غفلوا عن ذكر الله تعالى.

(٦) ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾: أي من شيطان الجن ومن شيطان الإنس.

معنى الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾ هذه السورة هي إحدى المعوذتين الأولى الفلق وهذه الناس، والأولى اشتملت على أربع خصال يستعاذ منها وهي من شر كل ذي شيء من سائر الخلق والثانية من شر ما يحدث في الظلام ظلام الليل أو ظلام القمر إذا غاب والثالثة من شر السواحر النفاثات في العقد و الرابعة من شر حاسد إذا حسد، وقد اشتملت هذه الأربع على كل ما يخاف لأذاه وضرره أما سورة الناس فإنها قد اشتملت على شر واحد إلا أنه أخطر من تلك الأربع وذلك لتعلقه بالقلب، والقلب إذا فسد فسد كل شيء وإذا صلح صلح كل شيء ولذا كانت سورة الناس خاصة بالتعوذ من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.

(١) ـ (٣) فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝[1] مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝﴾ أمر منه تعالى لرسوله وأمته تابعة له، أعوذ، أي أتحصن، برب الناس، أي خالقهم ومالكهم وإلههم الذي لا إله لهم سواه، من شر الوسواس[2]، الذي هو الشيطان الموسوس في صدور الناس وذلك بصوت خفي لا يسمع فيلقى الشبه في القلب، والمخاوف والظنون السيئة ويزين القبيح ويقبح الحسن وذلك متى غفل المرء عن ذكر الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ هذا وصف للشيطان من الجن فإنه إذا ذكر العبد ربه خنس أي استتر وكأنه غاب ولم يغب فإذا غفل العبد عن ذكر الله عاد للوسوسة[3].

(٦) وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ يعني أن الموسوس للإنسان كما يكون من الجن يكون من الناس والإنسان يوسوس[4] بمعنى يعمل عمل الشيطان في تزيين الشر وتحسين القبيح. وإلقاء الشبه في النفس، وإثارة الهواجس والخواطر بالكلمات الفاسدة والعبارات المضللة حتى إن ضرر الإنسان على الإنسان أكبر من ضرر الشيطان على الإنسان، إذ الشيطان من الجن يطرد بالاستعاذة وشيطان الإنس لا يطرد بها وإنما يصانع ويُدَارَى للتخلص منه اللهم إنا نعوذ بك من شر كل ذي شر ومن شر الإنس والجن، فأعذنا ربّنا فإنه لا يعيذنا إلا أنت ربنا ولك الحمد والشكر.

هداية الآيات:

١ ـ وجوب الاستعاذة بالله تعالى من شياطين الإنس والجن.

٢ ـ تقرير ربوبية الله تعالى وألوهيته عز وجل.

٣ ـ بيان لفظ الاستعاذة وهو أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كما بيّنته السنة الصحيحة إذ تلاحى رجلان في الروضة النبوية فقال النبي ﷺ: «**إني أعلم كلمة لو قالها هذا لذهب عنه**» أي الغضب: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**».

❁ ❁ ❁

(١) لما كان في الناس ملوك، وفيهم من يعبد غير الله تعالى ذكر تعالى أنه ملك الناس وإلههم ومعبودهم الحق الذي لا يستحق العبادة سواه فبه يستعاذ وبجنابه يلاذ.

(٢) جائز أن يكون المستعاذ منه لا الوسواس وإنما صاحب الوسواس وهو الشيطان أي من شر ذي الوسواس والوسوسة حديث النفس.

(٣) صح عن النبي ﷺ أن الوسوسة التي هي حديث النفس الخالية من القول والعمل معفو عنها ولا يؤاخذ به العبد لقوله ﷺ: «**إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدثت أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به**».

(٤) قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق سلطه الله على ذلك. وفي الصحيح «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»

خاتمة الطبعة الأولى والثانية

الحمد لله ملء السموات وملء الأرض، والشكر لله مِلأَهُما وملء ما بينهما والصلاة والسلام التامان الأكملان على نبيّ الرحمة وقائد الأمة وعلى آله وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد ففي ليلة السبت الثالث والعشرين من محرم الحرام لعام ١٤٠٧ وبالروضة الشريفة من المسجد النبوي الشريف قد تم ختم هذا التفسير المبارك المسمى بأيسر التفاسير لكلام العليّ الكبير والحمد لله أولاً وآخرًا.

هذا وأقدم اعتذاري لأخي القارىء وهو أني لم أستطع الالتزام بما نوهت عليه في مقدمة الكتاب وهو أني لا أزيد على الخمس أو الست آيات في الدرس الواحد، حيث واجهتني في المفصل بالذات آيات كثيرة لا تزيد على جملة قصيرة نحو ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ۝﴾ فلذا كنت أنظر إلى عدد الأسطر لا إلى عدد الآيات. والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

هذا اعتذار، وآخر هو أني كتبت هذا التفسير في ظروف مختلفة مرة في الطائرة، ومرة في الحضر، وأخرى في السفر، ومرة والبالُ مشغول وثانية والجسم معلول، فلذا قد يجد القارىء أحيانًا جفافًا في الشرح أو قلقًا في العبارة، يضاف إلى ذلك الخطأ المطبعي الذي أصبح لا ينجو منه كتاب، ولا يسلم منه خطاب.

وكلمة أخيرة وهي أني ما آلوت جهدًا في تحري الحق والصواب وفي التيسير والتسهيل في هذا الكتاب، وما توفيقي إلاّ بالله. وعليه فإنه ما كان من كمال فهو من الله، وما كان من نقصان فإنه منّي، وأعتذر مستغفرًا الله تعالى لي ولوالديّ وللمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، ومصليًا ومسلّمًا على أشرف المخلوقات وصاحب المعجزات نبينا محمد وآله الطاهرين، وصحابته أجمعين.

ابو بكر جابر الجزائري

خاتمة الطبعة الثالثة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف المخلوقات محمدي ذي الكمالات، وآله وصحبه ما أشرقت بنور ربها قلوبُ المؤمنين والمؤمنات.

وبعد: ففي الروضة الشريفة من المسجد النبوي الشريف، وبين العشاءين من ليلة السبت الموافق لعيد الفطر المبارك من عام **١٤٠٩** من الهجرة النبوية كتبت هذه الكلمة «الخاتمة» (لنهر الخير) على أيسر التفاسير، فكانت إحدى النعم التي والاها الله ذو الفضل والإنعام على أضعف عباده وأقلهم شأنًا، وأدناهم فضلاً، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وهو ذو الفضل العظيم.

لقد ابتدأت كتابة هذه الحاشية المباركة إن شاء الله تعالى في أواخر محرم الحرام وأنا بين خوف ورجاء: خوف من موافاة الأجل قبل إتمام العمل، إذ كثيرون ما أتموا ما بدأوا ولا أدركوا ما أملوا أذكر منهم الشيخين الجليلين: محمد عبده، وتلميذه محمد رشيد رضا، فقد بدءا تفسيرهما فتركه الأول في سورة النساء وتركه الثاني في سورة يوسف عليه السلام وأجابا نداء ربهما وتركا تفسيرهما لم يتماه ولم يكملاه لأمر أراده الله، فأعظم الله أجرهما وأحسن عزاءنا فيهما ونفعنا بتفسيرهما وقد فعل فله الحمد وله المنّة فقد قرأت وطالعت (المنار) أكثر من أربع مرات، وكنت إذا وصلت إلى موضع انتهاء ما كان الشيخ رشيد يتلقاه عن شيخه ويقول إلى هنا انتهى ما كنت أتلقاه من الشيخ، يغلبني البكاء فأبكي وأرى أن رزية ما فوقها رزية في موت الشيخين قبل إتمام تفسيرهما.

واستجاب الله لي ووقاني كل ما يعوقني أو يعوّقني عن إتمام هذه الحاشية التي أراها ضرورية لأيسر التفاسير الذي ما كتبته وجمعته إلاّ لعلمي بحاجة المسلمين اليوم إلى مثله فأتم الله علي نعمة من أجلِّ النعم ومنةً من أعظم المنن فاللهم لك الحمد ولك الشكر حمدًا لا ينتهي وشكرًا لا ينقضي، وكما أنعمت وأفضلت فاغفر وارحم وأنت خير الراحمين واعف وتجاوز وأنت العفو الكريم، وصلِّ وسلِّم وبارك على خاتم أنبيائك، محمد عبدك ورسوله وآله الطاهرين وصحابته أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

أبو بكر جابر الجزائري

الفهرس

الفهرس